سلمان العودة

إشراقات قرآنية

حزب المُفَصَّل

الجزء الأول

من « سورة الحجرات » إلى « سورة الحديد »

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(١)

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمـان العـودة

ⓗ مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج١) من «سورة الحجرات» إلى «سورة الحديد»

٣٩٦ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٨ - ٣ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

ردمك: ٨ - ٣ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى- جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرزمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.youtube.com/user/DrSalmanTv

www.islamtoday.net/salman/

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعدُ:

فإن المتأمِّل في القرآن الكريم يجد سياق آياته في غالبها مما يسهل فهمه على الناس: الشاب والشيخ، والمتعلِّم والأُمِّي، والذَّكي وغير الذَّكي.

وفي الوقت ذاته يجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إلَّا الخواص؛ فالعامِّيُّ يفهم ما يحتاجه، والمتخصِّص يجد ما يغنيه ويشبع تطلُّعَه.

وكلما مر القارئ على آية أو سورة تجدَّد له بالتأمُّل والتدبُّر من الأسرار واللَّطائف ما لم يكن لديه من قبل.

وكلما مر جيل وحدثت للناس معارف جديدة لم يكونوا يعلمونها من قبل، وجدت أن القرآن يستوعبها؛ لجهة عدم وجود ما يخالفها، أو كون بعض الإشارات تدل عليها.

ومنهج القرآن في ذلك إرشادي، يقوم على دعوة الناس إلى المعرفة والاكتشاف والضرب في الكون وإعمال العقول والانتفاع بخبرات الأمم، ولا يصلح أن يتحوَّل ذلك إلى الإغراق في ربط منجزات العلم التفصيلية بنصوص الكتاب.

وإنني لأشعر بانشراحٍ وأُنسٍ عند الوقوف مع الآيات وتدبُّر معانيها، وتكرار النظر فيها؛ **ولذلك أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم تنبيهات ينبغي مراعاتها عند تدبُّر القرآن والتأمُّل في معانيه:**

الأول: إذا وقفت أمام آية من آيات الكتاب الكريم، وخفي عليك إعجازها وبلاغتها وأسرارها، فإياك أن يذهب بك الظن إلى أن هذه الآية ليس فيها أسرار، ولكن ربما يكون عجزُ العقل حالَ دون إدراك هذه الآية وأسرارها، وربما يكون تكرار القراءة أو سماعها من قارئ حسن الصوت سببًا في قدح زِناد التدبُّر.

الثاني: أن الله تعالى جعل في القرآن ألوانًا من الأسرار، منها ما يتعلق باللغة، ومنها ما يتعلق بالتشريع، ومنها ما يكون إعجازًا علميًّا، ومنها ما يكون إعجازًا تاريخيًّا، أو أخلاقيًّا..

والله تعالى قد وزَّع المواهب بين الخلق، فمِن الناس مَن يطرب لجوانب البلاغة والإعجاز اللفظي، ويستنبطها وتروق له؛ ولذلك يشعر بتجاوب مع هذا النوع من الإعجاز، ومنهم مَن تكون اهتماماته علمية بحتة، فهو يبحث عنها، ومنهم مَن تكون ميوله روحانية، فيأنس حين يجد الله في القرآن يخاطب عباده ويعرِّفهم بنفسه مباشرة، ويخاطب رسله وأنبياءه، ويكشف للخلق حياتهم وسرَّهم ومصيرهم.

والله قد جعل القرآن منهلًا يَرِدُه الخلقُ كلُّهم فيَسَعُهم، وكل إنسان يجد فيه بغيته وطلبته إذا كانت طِلْبَةَ حق؛ ولذلك فالواردات والخواطر الصحيحة على الذهن، لا بد أن تكون أصولها متضمنة في القرآن الكريم.

والقرآن ليس كتاب جيل فحسب، بل هو كتاب الأمة كلها والتاريخ كله، فلم يحتو على معلومات موغلة في الغرابة ولو كانت صحيحة؛ لئلا تكون فتنة لمَن لم يكتشفها، ولا تزال كشوف العلم ومستجداته تزيد القارئ فيه فهمًا وبصيرة وغوصًا على أسراره بما لم يقع لأجيال سبقت.

والإنسان يُؤتى من قِبَل ضعف قواه ومَلَكاته وقدراته؛ ولذا كان كمال العلم البشري دعوة إلى الإيمان بالله، وكان الأئمة يعتنون بالتدبر والفهم والغوص على أسرار القرآن.

وقلما تجد عالمًا مشهورًا إلَّا وصنَّف في التفسير، وبعض ذلك نقل وتكرار، أو جمع مرشَّح أو غير مرشَّح.

وبعضهم يعتني بجانب لا يعتني به غيره، كما تجد البلاغة والإعجاز اللُّغوي في «الكشاف» للزَّمخشري، وكُتب عبد القاهر الجُرْجاني، و«التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور.

ومنهم مَن يهتم بالأحكام الفقهية، ويطيل النفس في آياتها، كالقرطبي، وابن العربي، والشنقيطي.

ومنهم مَن يهتم بالإشارات الدقيقة الروحانية والصوفية، وهذه منها قدر طيب انتفع به علماء كثيرون، كابن تيمية وابن القيم، وقدر هو محل تردد، ومنها ما هو تحريف للكَلِم عن مواضعه.

واهتم المعاصرون بالإعجاز العلمي، وسبق إليه الأستاذ فريد وجدي، ثم طنطاوي جوهري، ثم د. مصطفى محمود، و د. زغلول النجار، والشيخ عبد المجيد الزنداني، و د. عبد الله المصلح، وغيرهم، ومنهم مَن تعاطاه بنَفَس معتدل، وحصل من آخرين تكلُّف في إقحام بعض المعاني، وربطها بالقرآن الكريم.

الثالث: أن من المعاني اللَّطيفة ما يدركه مَن يتكلم العربية وهي لغته، بخلاف مَن تعلَّمها وتكلَّمها، فإنه يفوته كثير من صور التدبر؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي

مبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤]، ومن شكر نعمة الله هذه أن يُقْبِل صاحب اللغة العربية على القرآن الكريم، ويستدرك هذه المعاني اللَّطيفة التي قد تفوت على غيره.

كلما فتحتُ المصحف، وشاهدتُ الحرف العربي، تجدَّد شعوري بالنعمة والاصطفاء بكون اللغة العربية لغتي الأصلية.

الرابع: من ألطاف القرآن الكريم ما يقع في النفوس وتُشرق به القلوب ويُعْجِز الألسنةَ الإفصاحُ عن معانيه، حتى يكون القارئ حين استقبال هذه الموجات العالية من الإيمان والمشاهدة غير راغب في تدوينها أو الحديث عنها؛ لأن ذلك يقطع حبل تسلسلها واتصالها، ولأن اللغة لا تستوعبها؛ ولذا قال النِّفَّري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»(١). وباليقين وقع للأنبياء ثم الصحابة ثم أكابر المحققين والمؤمنين الراسخين ومَن دونهم من ذلك ما لا يخطر على بال.

ولذا فالقرآن هو أعظم أدلة الوجود والوحدانية والإيمان، وعلى الداعية والمحاور والمدافع عن حقائق التوحيد أن يعمِّق صلته به؛ إذ ليس الإيمان معنًى عقليًّا صرفًا كالمسائل الرياضية، بل هو حجة عقلية وضرورة قلبية وحياتية ومعرفية قد يضعفها الجدل فيها، إلَّا ما دعت إليه الحاجة؛ لتثبيت إيمان أو إقامة حجة أو رد شبهة عارضة.

ولا يزال المتأمِّل في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يتلقَّى أنواعًا من المعاني العظيمة التي تُشرق لها النفس وتحيا وتطمئن.

ولذا رأيتُ أن أتلقَّى هذه الإشراقات، مستعينًا في ذلك بجهد السابقين من علماء الأمة في تفاسيرهم المشهورة المعتمدة.

ورأيتُ البداءة بـ«جزء عم»؛ فإن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خُوطبت به البشرية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقضاياه هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

---

(١) ينظر: «المواقف والمخاطبات» للنِّفَّري (ص٥١).

كما أني رأيتُ أغلب المفسرين إذا وصلوا إلى هذا الجزء، وهو آخر جزء في القرآن، لا يكون عطاؤهم كما كان عند ما شرعوا في التفسير من أول جزء.

وقد طُبع في جزءين منذ أربع سنوات، وقد أعدتُ النظر فيه مرة أخرى، بالاختصار والمراجعة.

ثم تابعت الأجزاء من بعده صُعُدًا: «**جزء تبارك**»، ثم «**جزء قد سمع**»، وهكذا حتى نهاية «**المُفَصَّل**»..

وقد كانت البداءة بهذه الإشراقات في دروس ألقيتُها، وكان للإلقاء والتفاعل مزيته، ثم أعدتُ كتابتها واجتمعت عليها، وكان للتأمُّل والاستغراق مزيته الأخرى.

ثم ها هو الجهد بين يديك، سائلًا الله أن يسلكني وإياك في سِلْك أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن هداهم الله بهذا القرآن للتي هي أقوم وأنالهم به كريم البُشرى بأن لهم أجرًا كبيرًا.

وإنني أَطْمَحُ من قرَّاء هذا الكتاب إلى التواصل معي عبر وسائل الاتصال؛ لتوصيل أي ملحوظة أو اقتراح أو نقد أو تعديل؛ فهذه التغذية الراجعة، هي دومًا من مصادر فرحي وسعادتي، وهي تُسْهِم في تطويري ذاتيًا، مثلما تُسْهِم في تطوير الكتاب وتحسينه، والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب وإرساله إليَّ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

سلمان العودة

١ ربيع الثاني ١٤٣٧هـ

ooo

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

* **سورة الفاتحة**[1] سورة عظيمة، يقرؤها المسلم في اليوم الواحد بعدد ركعات الصلوات؛ لقوله ﷺ- كما في «الصحيحين» من حديث عُبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنهُ-: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[2].

وقد ذكر الشرَّاح أن معنى الحديث: أن يقرأ بها في كل ركعة من صلاته[3]، فدل هذا على عظيم شأنها، وجليل قدرها، وأنه ينبغي تأمل معانيها، فلحكمة بالغة شرع الله تكرارها في الصلوات من بين جميع سور القرآن.

* **تسمية السورة:**

لها أسماء كثيرة، وكثرة أسمائها تدل على عظيم قدرها[4]:

«**سورة الفاتحة**»: فقد سمَّاها النبيُّ ﷺ: «**فاتحة الكتاب**»، كما في حديث عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ المتقدِّم؛ وذلك لأنها أول ما يُقرأ من القرآن، فهي أول سورة مكتوبة

---

(١) هذه السورة لكثرة قراءة المسلم لها في صلواته، وحاجته إلى معرفة معانيها؛ كانت البداءة بتفسيرها، كما فعل بعض العلماء، ومنهم: الشيخ عبد الله كنُّون رَحِمَهُٱللَّهُ في «تفسير سور المفصل»، والشيخ محمد الأشقر رَحِمَهُٱللَّهُ في «تفسير العشر الأخير»، والشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسيره لـ«جزء عم».

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٩٤).

(٣) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٢/ ٣٧٠)، و«إرشاد الساري» (٢/ ٨٥)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٦٩- ١٧٤).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (ص١٢٨- ١٢٩)، و«الإتقان» (١/ ١٨٧- ١٩١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣١).

في المصحف، وإن لم تكن أول سورة نزلت، ولهذا سمَّاها النبيُّ ﷺ: **«فاتحة الكتاب»**[(١)].

وسمَّاها النبيُّ ﷺ أيضًا: **«أم القرآن»**، فقال: **«أمُّ القرآن هي السَّبْعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ»**[(٢)]؛ لأن معاني القرآن ترجع إلى مضمونها؛ فهي شاملة للمعاني الكلية، والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

وتُسمَّى: **«السَّبْع المَثاني»**، كما في الحديث المتقدِّم؛ وذلك لأنها سبع آيات تُقرأ مرة بعد مرة[(٣)]، وسُمِّيت بـ**«المَثاني»**؛ لأنها شاملة لمجملات المعاني المفصَّلة فيما سواها.

و**«القرآن العظيم»**، فقد سمَّاها بذلك النبيُّ ﷺ، فقال: **«هي السَّبْعُ المَثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُهُ»**[(٤)]. وكما في الحديث المتقدِّم أيضًا.

وتُسمَّى: **«سورة الحمد»**[(٥)]؛ لأنها بدأت بحمد الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

و**«الصلاة»**، كما في الحديث القدسي: **«قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأَلَ؛ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. قال اللهُ تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾. قال اللهُ تعالى: أَثْنَى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. قال: مجَّدني عبدي** -وقال مرة: **فوَّض إليَّ عبدي- فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي،**

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص١٩٣)، و«تفسير مقاتل» (١/ ٣٣)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٥)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٢)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٢/ ٥٨٧)، و«روح المعاني» (٧/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٨٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٧)، و«سنن الدارقطني» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٢)، و«تفسير الخازن» (١/ ١٥).

ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

فسمَّاها: «الصلاة»، إما لأنها ذكر ودعاء؛ فإن السورة فيها دعاء وتبتُّل إلى الله بأعظم مطلوب، وهو الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، فسُمِّيت السورة ببعض أجزائها، وببعض معانيها، وهو الدعاء.

والدعاء في اللغة يسمى: صلاة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادْعُ لهم[2].

وقد قال الأَعْشَى[3]:

تقولُ بنتي وقد قَرَّبْتُ مُرتحِلًا: يارِبِّ جنِّبْ أبي الأوصابَ والوجعا

عليكِ مثل الذي صلَّيْتِ فاغتمضي نومًا فإن لجنب المرء مُضْجَعَا

يعني: لك من الدعاء مثل الذي دعوت به لي.

أو سُمِّيت بذلك؛ لأنه لا تصح الصلاة إلَّا بها[4].

ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلَّا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام وينطق بالشهادتين يحفظ «سورة الفاتحة» قبل غيرها؛ لكي تصح صلاته، ولو أنه اقتصر عليها في الصلاة لكفته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب، وليس بواجب[5].

* **عدد آياتها:** سبع آيات بلا خلاف[6]، ومَن لم يعد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٥٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٩٠- ٤٩١) «ص ل ا»، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٥/ ٤٩٩)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٤٣٧) «ص ل و».

(٣) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٠١).

(٤) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٥) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ١١١- ١٦٠)، و«المدونة» (١/ ١٦٣)، و«المجموع» (٣/ ٣٤٩)، و«المغني» (١/ ٢٩١- ٣٣٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٧٦).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٠٥)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص١٣٩)، والمصادر الآتية.

فقد عدَّ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ آية[1].

* **وهي مكية** على قول الأكثرين، وهو مروي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحسن، وأبي العالية، وقتادة.

وقيل: مدنية. وهو قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد، وعطاء بن يسار، والزُّهري.

ورُوي القولان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقيل: نزلت مرتين، مرةً بمكة ومرةً بالمدينة؛ ولذلك سُمِّيت: مثاني.

وقيل: نزل نصفها بمكة، ونصفها الآخر نزل بالمدينة. قال ابن كثير: «وهو غريبٌ جدًّا»[2].

والأظهر ما رجَّحه كثير من الأئمة أنها مكية؛ لأن الله تعالى مَنَّ على الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]. والمراد منها: فاتحة الكتاب، و«سورة الحجر» مكية بالإجماع[3].

ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفظ أنه كان في الإسلام صلاةٌ بغير ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[4]. وهذا خبرٌ عن الحكم، لا عن الابتداء.

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ١٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٢٧٨- ٢٧٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٥)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ١٥)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص١٣٩)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٠)، و«زاد المسير» (١/ ١٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١)، و«روح المعاني» (١/ ٣٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٦٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١/ ١٦٦)، (١١/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٣/ ١٤٥)، و«روح المعاني» (٧/ ٢٤٩)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم قريبًا.

* ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾:

اختلف أهل العلم هل «البسملة» آية من «سورة الفاتحة»، أم آية من القرآن، أم آية من كل سورة؟[1].

وكل سورة في القرآن تبدأ بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إلا «سورة التوبة».

* وفي هذه السورة خاصة قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، فأعاد هذين الوصفين العظيمين لله تعالى.

وفيها ذكر خمسةٍ من أسمائه الحسنى، وهي: «الله»، «الرَّب»، «الرَّحمن»، «الرَّحيم»، «المَلِك».

* **الله:** وهو الاسم الأعظم، على قول بعضهم، وهو أكثر الأسماء ترددًا في القرآن والسنة، وعلى ألسنة المخلوقين بمختلف لغاتهم وألسنتهم، وهو الذي تُنسب الأسماء الأخرى إليه، فيقال: الله المَلِك، الله الخالق، الله العليم... ولا يشاركه في هذا الاسم غيره؛ فلم يتسمَّ به أحد قط، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

الله الذي تألهه القلوب، أي: تحن إليه، وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتأنس بذكره، وكان ﷺ يقول في دعائه: «**وأسألُك لذَّةَ النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقائك..**»[2].

ومن معانيه: أنه الذي تحار فيه العقول، فلا تحيط به علمًا، ولا تدرك له من الكُنْه والحقيقة إلا ما بيَّن سبحانه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا تعلم كيفية ذاته سبحانه، ولا تحيط به؛ وإذا كانت العقول تحار في بعض مخلوقاته في

---

(١) ينظر: «التمهيد» (٢/ ٢٢٨)، (٢٠/ ٢١٥)، و«الاستذكار» (١/ ٤٥٧- ٤٦٢)، و«المغني» (١/ ٣٤٤- ٣٤٥)، و«المجموع» (٣/ ٣٣٤- ٣٤٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٥- ٤٤٣)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ١٦٥- ١٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩- ٣٠)، وابن حبان (١٩٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

السماوات والأرض، والبر والبحر، فكيف بذاته جل وعلا؟! فالعقل يرتد كَلِيلًا حَسِيرًا عن إدراك ذاته تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

وفي حديث الشفاعة يقول الرسول ﷺ: «**فأستأذنُ على ربي، فيُؤذنُ لي، ويُلهمني محامدَ أحمدُهُ بها، لا تحضرُني الآن، فأحمدُهُ بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا..**»(١).

فأخبر أن الله يعلِّمه من المحامد ما لا يعلمها الآن، ويفتح عليه من العلم به آنذاك ما لم يكن لديه من قبل.

ومن معانيه: أنه الإله المعبود المتفرِّد باستحقاق العبادة؛ ولهذا جاء هذا الاسم في الشهادة؛ فإن المؤمن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ويقول: الله أكبر.

أطلق هذا الاسم العَلَم الذي هو أصل لكل الأسماء الأخرى؛ إظهارًا للاعتقاد أنه لا معبود بحقٍّ إلا هو: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾(٢) [الحج: ٦٢].

* **الرَّب**: فهو ربُّ العالمين، ربُّ كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل مَن في السماوات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره، وهو متولِّي أمورهم وحياتهم وأرزاقهم، المتفضِّل عليهم(٣).

* **الرَّحمن**: واسمه سبحانه: «**الله**» و«**الرحمن**» من الأسماء الخاصة به، لا يشاركه فيهما غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

أما الأسماء الأخرى، فيُسمَّى أو يُوصف بها غير الله، كالرَّحيم، والسَّميع، والبَصير، كما قال سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٤٣- ٥٣).

(٣) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٣٢).

بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

والاسم يدل على صفة الرحمة لله سبحانه، وعظمتها وتقديمها، حتى ورد في «الصحيح» أن اللهَ خلقَ مائة رحمة، أنزل منها رحمةً في الدنيا، وادخر باقيها ليوم الحساب(١).

وجعل كتابه رحمة، وأرسل رسوله رحمة، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبدأ كتابه العزيز بهذا الاسم تأكيدًا على استشعار الرحمة في العبادة وفي التعليم وفي الدعوة وفي الدعاء، وأن مَن خرج منها إلى أن يكون مغضوبًا عليه، فبسبب إمعانه في الغي وإعراضه عن الله.

* **الرَّحيم:** وهو مثل «الرحمن» في أصل الاشتقاق، واختلفوا في الفرق بينهما:

فقيل: «الرحمن»: رحمة عامة بجميع الخلق، و«الرحيم»: رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيل: إن اسم «الرحمن» بالنظر إلى وجود الصفة، وأما «الرحيم» فبالنظر إلى متعلَّقها في الخلق، يعني: حصول أثرها في الخلق برحمته تعالى لهم، أشار إليه ابن القيم(٢)، فالله هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

والأقرب أن «الرحمن» على وزن فَعْلان، صيغة مبالغة، تدل على الامتلاء والتناهي في التحقق بالصفة وعظمتها، وأما «الرحيم» فهي بصيغة فَعِيل التي تدل على التكرار، وأن هذه صفة دائمة، وليس هذا الاختيار ببعيد عما قبله(٣).

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٢)، و«كتاب الأربعين في فضل الرحمة والراحمين» لابن طولون الصالحي.

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٢٤)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٢٨)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٣٨)، و«الكشاف» (١/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٠٥)، و«روح المعاني» (١/ ٦٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٧٣)، و«معارج القبول» (١/ ٦٧- ٦٨)، و«زهرة التفاسير» (١/ ٥٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٥٥- ٦٤).

وهاهنا ينبغي أن نتأمل سرًّا من أسرار تكرار هذين الاسمين، فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ أو يدخل أو يخرج أو يأكل أو يخطب أو يتكلم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وقد ورد: **«كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»** - وفي رواية: **بـ«الحمد لله»- فهو أَبْتَرُ، أو أَقْطَعُ، أو أَجْذَمُ»**(1). والمعنى: ناقص البركة(2).

لكن من المعلوم أن العبارة تقال هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فلم يقل أحد من الناس قط: بسم الله المنتقم الجبار، أو: بسم الله العزيز الحكيم، مع أن هذا حق، وفي هذا إشارة إلى قوله عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: **«إن رحمتي سبقت غضبي»**(3).

على الإنسان أَلَّا يقنط من رحمة الله مهما أسرف على نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]؛ ولهذا كان اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله من صفات الكافرين، فينبغي للمؤمن أن يتشبَّث أبدًا بطلب رحمته جل وعلا، وأن يعلِّم الناسَ الثقة برحمته سبحانه.

وكثيرًا ما كان النبيُّ ﷺ يعلِّم أصحابه الرجاء فيما عند الله، وأن تكون ثقتهم بالله وبرحمته أعظم من ثقتهم بعملهم؛ فإن العمل قد يداخله الرِّياء أو العُجْب، أو لا يكون على وفق ما شرع رسول الله ﷺ، فيُرَدُّ على صاحبه، وقال ﷺ: **«لن يُدخِلَ**

---

(1) ينظر: «مسند أحمد» (٨٧١٢)، و«سنن أبي داود» (٤٨٤٠)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٩٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٤٢٧- ٤٢٨)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٧- ٢٢)، و«إرواء الغليل» (١- ٢).

(2) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٧/ ٢٦٣)، و«شرح البخاري» للسفيري (١/ ٦٨)، و«فيض القدير» (٥/ ١٤).

(3) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أحدًا عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ منه بفضل ورحمة**»[1].

ينبغي أن يُدْعَى الناس- والعصاة بخاصة- إلى الله، بتذكيرهم برحمته، مع تذكيرهم بعقوبته، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]. فقدَّم المغفرة والرحمة على العذاب، وجعلها صفة له، بينما عبَّر في الآية الأخرى عن عذابه بأنه أليم، ولم يصف نفسه بالمعذِّب أو الباطش أو المعاقِب.

وبعض الدُّعاة يفيضون في الحديث عن الوعيد والتشديد والتخويف والترهيب، إلى درجة تُحدِث أثرًا عكسيًّا، وهو تقنيط العصاة من رَوْح الله ورحمته، فيتملَّكهم اليأس، ويفقدون الأمل، فيتشبثون بما هم عليه من المعاصي، ويستغرقون فيها!

أما فتح أبواب الرجاء في القلوب فأسلوب قرآني عظيم يواجهك في مطلع أول سور القرآن الكريم، حتى إن الذي يريد أن يتكلم عن النار سيقول في أول حديثه: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والذي يريد أن يتكلم عن الحدود الشرعية يبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم». فينبغي أن يُعطى هذا الحديث قَدْرَهُ عند الناس، ويُذكَّروا دائمًا بأن يتعلقوا بالله، الرحمن، الرحيم.

وأصول الأسماء الحسنى هي: «الله»، و«الرَّب»، و«الرَّحمن»، فاسم «الله» متضمِّن لصفات الألوهية، واسم «الرَّب» متضمِّن لصفات الربوبية، واسم «الرَّحمن» متضمِّن لصفات الجود والبر والإحسان.

فالربوبية من الله لعباده، والتأليه منهم إليه، والرحمة سبب واصل بين الرب وبين عباده، فبرحمته أرسل رسله، وأنزل كتبه، وبها رزق عباده وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: مقدمة «مدارج السالكين».

* **المالك:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾:

أي: يوم يُدان الناس بعملهم، ويجازون به خيرًا أو شرًّا[1]، فبعدما اعترف لله قائلًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ زاد الاعتراف قوة وثباتًا بأن أثنى على الله بصفاته وأسمائه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، وفي قراءة سَبْعية[2]: ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بالقصر بلا مد[3]؛ وكلاهما جائز أن يُقرأ به في الصلاة.

وقد استفتح السورة بالحمد، وهو: الثناء على المحمود بإفضاله وإنعامه، أما المدح، فهو: الثناء عليه بصفات الجلال والجمال والكمال[4].

فالحمد: ثناء على الله تعالى بما أنعم عليك، وما أعطاك، فإذا قيل: إن فلانًا حمد فلانًا. فمعناه أنه شكره على إحسان قدَّمه إليه، لكن إذا قيل: مدحه. فلا يلزم أن يكون مدحه بشيء قدَّمه، بل قد يكون مدحه ببلاغته وفصاحته، أو بجماله، أو بقوته، أو بإحسانه لقوم آخرين.

وعليه، فالمدح أعم من الحمد؛ لشموله الثناء بصفات الجمال والجلال والكمال مطلقًا؛ فالحمد فيه معنى الشكر، ومعنى الاعتراف بالجميل.

وعبَّر ابن القيم عن ذلك، فقال: «الإخبار عن محاسن الغير، إما أن يكون إخبارًا مجرَّدًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان مجرَّدًا عن الحب والإرادة، فهو المدح، وأما الحمد، فهو إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٥٩)، (٢١/ ٤٨٥)، و«تفسير الماتريدي» (١/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨٧).

(٢) أي: من القراءات السبع المتواترة، وهي قراءة نافع وغيره.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٤٩- ١٥٠)، و«السبعة في القراءات» (ص١٠٤)، و«حجة القراءات» (ص٧٧)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٢٧١)، و«معجم القراءات» (١/ ٨- ١٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٦)، و«تفسير الماتريدي» (١/ ٣٤٩)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٥٣)، و«الكشاف» (١/ ٨)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٣٣- ١٣٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٥٥).

(٥) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

والحمد يتضمن الاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة؛ وقد يعبد الإنسان ربه عبادة المُدل المُعْجَب؛ فلا يُقبل منه؛ لأن الإعجاب لا يتفق مع الاعتراف والذُّل؛ فلا يدخل العبد على ربه من باب أوسع وأفضل من باب الذُّل والانكسار؛ بل هذا هو معنى العبادة المذكورة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، تقول العرب: طريق معبَّد، أي: مذلَّل تطؤه الأقدام[1]؛ فمن أعظم معاني العبادة: الذُّل له سبحانه.

كان النبي ﷺ كثير الاعتراف لله تعالى على نفسه، فكان يقول: «اللهمَّ اغفرْ لي ذنبي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ، وعلانيَتَهُ وسِرَّهُ»[2].

حتى قول: «اللهمَّ اغفرْ لي». فيه معنى الاعتراف على النفس بالذنب والنقص، والاعتراف لله تعالى بأنه هو الغفور الرحيم.

ونقيض الاعتراف: الإنكار والجحود؛ فالذنب الذي كفر به إبليس هو الجحود؛ فإبليس يعرف ربه، ويدعوه ويحلف به، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، ويعرف البعث: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، ولكن ذنبه الجحود والاستكبار عن الطاعة والعبادة، وهكذا قال عَزَّوَجَلَّ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تبرَّأ من هذا كله، وكأن أول ما تدل عليه الكلمة: أن العبد وهو واقف يقول: أعترف بأنني عبد محتاج، فقير، ذليل، مقصِّر، وأنك الله ربي المنعم المتفضِّل، فهذا فيه معنى الحمد، إذ إن العبد يحمد ربه على فضله عليه في دينه، ودنياه.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٦٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٤٣)، و«تاج العروس» (٨/ ٣٤٠) «ع ب د».

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

* ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾:

في هذه الآية أعظم المعاني؛ وهو الإقرار بالعبودية، وهو أصل التوحيد، الذي بُعث به الرسل: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

والشرك في الألوهية أخطر ألوان الشرك الذي بُليت به الأمم؛ لأن الاعتراف بالله خالقًا ورازقًا أمر تقر به الفطر والنفوس، وإن كان يحتاج إلى ترسيخ وتذكير؛ لأنه يستلزم الإيمان بالألوهية وصرف العبادة لله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: تقديم الضمير إشارة إلى التخصيص؛ يعني: لا نعبد إلَّا إياك، ففيها حصر وقصر(١).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: إثبات الاستعانة بالله، ونفي الاستعانة بمَن سواه، فلا نطلب إلا عونك؛ ولا نستعين بغيرك، ولا نستغني عن فضلك، فمن الناس مَن يستعين بغير الله، ومنهم مَن يستعين بالله وبغيره(٢).

وهذه الآية التي بين الله وبين عبده، فمن العبد الدعاء والعبودية، ومن الله العون والقوة، حتى على العبادة، إذ ليس للعبد قدرة على تحول أو فعل إلا إذا استمد من ربه واعتصم به، ولهذا كان من قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

* ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾:

من معانيها:

١- ثبِّتنا حتى لا ننحرف أو نزيغ؛ لأن الإنسانَ يكون اليوم مهتديًا، وغدًا من الضالين، أي: ثبِّتنا على الصراط المستقيم.

٢- قوِّ هدايتنا؛ فالهداية درجات، والمهتدون طبقات؛ منهم مَن يبلغ درجة الصِّدِّيقيَّة، ومنهم مَن يكون في أدنى درجات الإسلام، وبحسب ذلك تكون

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (١/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (١/ ٣٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٩٤)، و«روح المعاني» (١/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٨٦).

منازلهم في الجنة، وبحسب هدايتهم يكون سيرهم على الصراط؛ فإن لله تعالى صراطين: صراطًا في الدنيا، وصراطًا في الآخرة، والأمن على الصراط الأخروي، هو بقدر الاستقامة على الصراط الدنيوي.

والصراط الدنيوي هو: طريق الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ٢]، وهو بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه.

وصراط الآخرة هو: الجسر المنصوب على جهنم، وهو دحض مزلَّة، يمشي الناسُ فيه بقدر أعمالهم: فمنهم مَن يمرُّ كطَرْف العين، ومنهم مَن يمرُّ كالبرق، ومنهم مَن يمرُّ كالرِّيح، ومنهم مَن يمرُّ كالطَّير، ومنهم مَن يمرُّ كأجاويد الخيل والرِّكاب، ومنهم مَن يمشي تارة ويعثر أخرى(١).

وعليه فالمعنى: زِدْ إيماننا وعلِّمنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]؛ فالعلم من الإيمان، وكلما ازداد العبد التزامًا بالصراط المستقيم، ازداد علمه، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ فزيادة الإيمان هي زيادة ثبات على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]؛ وكقوله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

وقد كتب الإمام الهروي «منازل السائرين إلى الحقِّ المبين»، ثم شرحه ابن القيم في «مدارج السالكين»، وهو تفصيل لمنازل الناس ومقاماتهم في سلوكهم إلى رب العالمين، فأعظم الهداية هي الهداية إلى الله، وحسن فهم أسمائه وصفاته والقرب منه، ودوام المناجاة، والسلامة من الجهل به، أو الغفلة عنه، أو نسبة ما لا يليق به إليه.

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١١٢٠٠)، و«صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣، ١٩٥)، و«رؤية الله» للدارقطني.

٣- جَدِّد هدايتنا؛ إذ إن معنى الصراط المستقيم: أن يفعل العبد في كل وقت ما أُمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه.

وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أُمر به في ذلك الوقت وما نُهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله سبحانه في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم(١).

وبصفة عامة، فالعبد يحتاج إلى هذه الهداية في جميع ما يأتي ويذر:

- من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها.
- وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها؛ ليزداد هدىً.
- وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي.
- وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها.
- وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية.
- وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها.. إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فلما كان العبد محتاجًا إلى هذا كله، فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعدِّدة في اليوم والليلة(٢).

ولتحقيق الهداية لا بد من:

١- معرفة الموقف الصحيح، وماذا يريد الله ورسوله منه في هذه المسألة، وما هو الصواب والأصح له في هذه القضية.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧).

(٢) ينظر: «الصلاة» لابن القيم (ص١٤٤- ١٤٥).

٢- العمل وفق هذه الرؤية، ولا عمل دون وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى ذلك.

فحين يتلو العبد هذا الدعاء، فهو ينادي ربه قائلًا: يا ربنا، دُلَّنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوِّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه، والذي دللتنا عليه وعلَّمتنا إياه.

وسر الانحراف يرجع إلى فقد أحد هذين الأمرين: العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، وهما:

١- **الجهل**: فإن الإنسان قد توجد عنده الرغبة في عمل الخير، ولكن يجهل الطريقة لتحصيله، فيسلك طرقًا غير موصِّلة، ويجهد نفسه فيها بغير طائل، وكم من إنسان يسير بسرعة هائلة نحو هدفه، فيكتشف في نهاية المطاف أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس، وأنه كان يسرع ويمعن في البعد عن ذلك الهدف!

وكم من المسلمين مَن يجتهد ويتعب في أعمال غير مشروعة، وهو يظن أنه ممن يُحسنون صنعًا، وذلك بسبب قلة العلم، فهو يسأل ربه ألَّا يبقى في ضلال الجهل متخبِّطًا على غير بصيرة.

٢- **الهوى**: فقد يرتفع الجهل ويكون الإنسان عالمًا، ولكن ليس لديه العزيمة التي تجعله ينبعث للعمل، فيترك الواجب أو يرتكب المحرَّم عامدًا مع علمه بالحكم؛ لضعف الإيمان، وغلبة الشهوة وتعجل المتعة الدنيوية.

* ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾:

هذا تأكيد للمعنى السابق وتفصيل له؛ لأن القرآن مثاني، يُعاد معناه مرة بعد أخرى(١).

ونسب الصراط للذين حازوا الهداية التامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٢)، و«الكشاف» (٢/ ٥٨٧)، (٤/ ١٢٣)، و«تفسير ابن عرفة» (٣/ ٣٨٨)، و«فتح القدير» (٣/ ١٧٠)، و«روح المعاني» (٧/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥)، (٢٣/ ٣٨٦).

والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، فهم الذين سلكوه ولزموه وماتوا عليه، ومَن سلكه من بعدهم فقد تأسَّى بهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: والمغضوب عليهم: هم الذين عرفوا الحقَّ وتركوه، قال الله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، ومنهم اليهود الذين عرفوا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، كما في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالونَ»(١).

ولكن الغضب ليس محصورًا في اليهود؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال ﷺ: «مَن حلف على يمينِ صبرٍ(٢)؛ يقتطعُ بها مالَ امرئ مسلم، هو فيها فاجرٌ، لقي اللهَ وهو عليه غضبانُ»(٣).

وفي قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، قال: «إن اللهَ قد رضي عنك، وسَخِطَ على صاحبيكَ»(٤).

فالمغضوب عليهم لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم، بسبب الهوى، فهم يعلمون ولا يعملون.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١١٣٥)، وأحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣م، ٢٩٥٤)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (١٥٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٨١)، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٩٨) (٢٣٦). وينظر: «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٦٦٨- ٦٦٩)، و«فتح الباري» (٨/ ١٥٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٢٦٣).

(٢) يمين الصبر: التي يحبس الحالف نفسه عليها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٥٦، ٧١٨٣، ٧٤٤٥)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقدَّم الله تعالى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن أمرهم أخطر، وذنبهم أكبر، فإن مَن كان ضلاله بسبب الجهل، فإنه يرتفع بالعلم، وأما إن كان بسبب الهوى، فإنه لا يكاد ينزع عن ضلال.

ولهذا جاء الوعيد الشديد في شأن مَن لا يعمل بعلمه، حتى قال ﷺ في حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة، فيُلقى في النار، فتَنْدَلِقُ أَقْتابُهُ في النار، فيدورُ كما يدورُ الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أيْ فلانُ، ما شأْنُكَ؟! أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[(١)].

فهو عالم يعرف المعروف والمنكر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولكنه لا يعمل؛ ولهذا كان بهذه المثابة من العذاب[(٢)].

أما الضالون: فهم الذين تركوا الحقَّ عن جهل وضلال، وربما طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار والتعصب، ومنهم كثير من النصارى الذين كذَّبوا عن جهل وضلال.

ومع أن المثل يُضرب بأهل الكتاب، إلا أنه كما قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَ الإخوةُ لكم بنو إسرائيل، إنْ كانت لكم كلُّ حُلْوَة، ولهم كلُّ مُرَّةٍ، والله لتَسْلُكُنَّ طريقَهم قدر الشِّراك»[(٣)].

فلا يحسن أن يكون سَوق المثل صارفًا عن النظر في هذه الأمة، علماءَ وحكامًا ودعاةً وعامةً، أين أصبنا وأين أخطأنا، وأين هُدينا وأين ضللنا، أما تزكية النفس باللسان والإمعان في الحال التي عليها الإنسان دون بصيرة ولا مراجعة

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) ينظر التعليق على «مختصر صحيح مسلم للمنذري» للمؤلِّف (١٢٣٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٠)، والمروزي في «السنة» (٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٤٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٣٧) (١٠١٢)، والحاكم (٢/ ٣١٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٥٠)، (٤/ ١٧٩).

ولا تقوى، فليست من خصال المهتدين.

إننا الآن أمام ثلاث طرق:

الأول: الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وطريقتهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به، يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الصف: ٩].

الثاني: طريق المغضوب عليهم، مَن يعرفون الحق ولا يعملون به.

الثالث: طريق الضالين الذين يعملون بغير علم، ولهذا قال سفيان بن عُيينة: «مَن فسد من علمائنا، ففيه شبهٌ من اليهود، ومَن فسد من عُبَّادنا، ففيه شبهٌ من النصارى»[١].

ونحن في كل قراءة للفاتحة نسأل الله أن يسلك بنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، وأن يجيرنا من طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، وفي كل مرة يحدث لنا تدبُّر جديد، يناسب الحال التي نحن عليها وما يطرأ من تحولات، ولكل حال هداية تختلف عن غيرها، وما يزال الحي متنقِّلًا بين الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والشباب والشيخوخة.. وفي كل مرة هو يسأل ربه الهداية الملائمة لحاله.

○○○

(١) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ١٩٧)، (١٣/ ١٠٠)، (١٦/ ٥٦٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٨)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٨٢١)، (١٩/ ٤٢).

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

* «سورة الحُجُرات»: هي أول «حزب المُفَصَّل»، وقيل: أوله: «سورة ﴿قٓ﴾» - في عشرة أقوال- إلى نهاية «سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾»[1].

* وسُمِّي: مُفَصَّلًا؛ لكثرة الفصل بين سُوره بالبسملة، وقيل: لقصر أعداد سُوره من الآي، وقيل: لقلة المنسوخ فيه[2].

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور، ولا تُعرف إلا به: «**سورة الحُجُرات**»[3]. وهي لحُجُرات أزواج النبي ﷺ.

* **عدد آياتها:** ثماني عشرة آية عند جميعهم[4].

* **وهي مدنية** عند جميع العلماء، سوى قولٍ شاذٍّ لا يُعتدُّ به[5].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٢- ٣٩٣)، و«فتح الباري»(٢/ ٢٤٩، ٢٥٩)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢٤٥)، و«الإتقان» (١/ ٢٢١)، و«تفسير سور المفصَّل» لعبد الله كنُّون، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «شرح صحيح البخارى» لابن بطال (٢/ ٣٩٣)، و«المفهم» (٢/ ٤٥٥)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/ ١٠٦- ١٠٧)، و«التوضيح» لابن الملقن (٢٤/ ١٤٢)، و«فتح الباري» (٢/ ٢٥٩)، و«تاج العروس» (٣٠/ ١٦٧- ١٦٨) «ف ص ل»، و«مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح (ص١٤٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢١٣).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٠)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٥٨١)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٥).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤١)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٥)، و«الإتقان» (١/ ٤٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٨٤)، والمصادر السابقة.

وهي سورة نبؤها عجيب، وموضوعها: تهذيب الأخلاق، وترسيخ الفضائل والقيم، بدءًا بالأخلاق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع الرسول ﷺ، ثم أخلاق المسلمين مع أنفسهم، ثم مع أعدائهم وخصومهم، ثم تكريس المبدأ العام في المساواة والتكافؤ، وأنه ليس بين الناس فرق إلا بالتقوى[1].

وهي تعكس طبيعة المجتمع النبوي في مرحلته الأخيرة؛ حيث التمايز الواضح بين الصحابة السابقين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، من الذين هذَّبهم الإيمان ورسخ في قلوبهم، وأرادوا اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وبين مجموعات أخرى من العرب هم حُدثاء عهد بإسلام، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ لأنهم دخلوا رغبة ورهبة حين رأَوْا أمر الإسلام قد استتبَّ واستوثق.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾:

تكرَّر الخطاب بوصف الإيمان خمس مرات في السورة، في حين أن النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ورد مرة واحدة، ومثل هذا الخطاب نادر في سورة مدنية، والغالب أن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في القرآن المكي؛ لأنه خطاب عام، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في القرآن المدني[2].

بدأ تعالى باستثارة إيمانهم الذي هو أعظم أعمالهم وأفضلها، وهو الذي تُبنى عليه الشرائع والأحكام والأوامر: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي: لا تقترحوا على الله ورسوله أمرًا تسبقون به ما يأتي من الله تعالى، أو من رسوله ﷺ، فالمقصود بالتقديم أو التقدُّم هنا: الاستعجال[3].

---

(١) كما في قوله ﷺ: «ألَا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتقوى». وسيأتي تخريجه آخر السورة.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٣/ ١٥٥١)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٥)، و«الكشاف» (١/ ٨٩)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٠)، و«تفسير مقاتل» (١/ ٤٥٩)، (٤/ ٨٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤١- ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢١٨)، والمصادر السابقة والآتية.

وقيل: إن الآية نزلت في الذين يذبحون الأُضحية قبل صلاة العيد(١).

وقيل: نزلت في الذين يصومون يوم الشَّكِّ قبل رمضان، أن لا يصوموا قبل أن يصوم نبيهم(٢).

فهذا نموذج للتقديم، والواجب على المؤمنين ألَّا يسابقوا هَدْي الرسول ﷺ، أو يأتوا بشيء لم يأت به، ولو على سبيل الاحتياط، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»(٣)؛ لأن الزيادة والنقص كلاهما خطأ.

وفي قراءة بفتح التاء والدال: ﴿لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٤)، وهي تحمل المعنى ذاته(٥).

وقيل: نزلت في أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وهو الأشهر من أسباب النزول- أنه قدم رَكْبُ بني تَمِيم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بنَ مَعْبد. وقال عمرُ: بل أَمِّر الأَقْرعَ بنَ حابس. فقال أبو بكر: ما أردتَ إلَّا خلافي! قال عمرُ: ما أردتُ خلافكَ. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ إلى قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾(٦).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٨٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٢)، و«الإتقان» (٢/ ٤٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٧)، و«معاني القرآن» للأزهري (٣/ ٢٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص٤١٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٥)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص٥٦٢)، و«معجم القراءات» (٩/ ٧٥).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٢)، والمصادر السابقة.

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٦٧، ٤٨٤٥، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢). وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٩١).

فقد نهاهم عن الاقتراح قبل أن يسألوا، وإلا فإن المشورة قائمة، والنبيُّ ﷺ كان يستشير أصحابه؛ حتى قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيتُ أحدًا قطُّ كان أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ»(١).

وقد استشارهم ﷺ يوم بدر وأُحد والخندق وغيرها(٢).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾: فهذا الأدب من كمال التقوى، والسورة اعتنت بالتقوى، ودارت عليها موضوعاتها؛ ومجمل الأوامر والنواهي في السورة إنما هي على سبيل الأخلاق، دون الجزم بحلال أو حرام، فإذا كان قلب الإنسان تقيًّا فالغالب أنه يُميِّز بين الخطأ والصواب، بخلاف ما إذا كان مغلَّفًا أو فاجرًا، فإنه قد يقدم على أشياء واضحة المنع، وقد يتأوَّل، ويلتمس العذر لنفسه!

ولأن معظم ما تقدَّموا به كان أقوالًا ومقترحات لفظية قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع أقوالكم، ﴿عَلِيمٞ﴾ يعلم مقاصدكم ونياتكم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾:

قد يكون هذا نهيًا عما حدث من أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كما في الحديث

---

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» (٧/ ١٠٠)، وفي «المسند» (ص٢٧٧)، وعبد الرزاق (٩٧٢٠)، وأحمد (١٨٩٢٨)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٩٣)، والطبري (٢١/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٠١)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والبيهقي (٧/ ٧٣)، (٩/ ٣٦٦)، (١٠/ ١٨٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٩١).

وفي إسناده انقطاع، وأصله في «صحيح البخاري» (٢٧١١، ٤١٨٠)، وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٣٣- ٢٣٥)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٣٤)، (١٣/ ٣٤٠).

وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٧٦٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٧٨٧)، و«صحيح البخاري» (٤٧٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣)، و«تفسير الطبري» (٦/ ١٨٨- ١٩٠)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٤٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٨٠١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥)، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٤٠- ٢٤٣)، و«البداية والنهاية» (٥/ ٨١)، و«الدر المنثور» (٤/ ٨٧- ٨٩)، و«مرويات غزوة الخندق» (ص٢٠٠- ٢٠٣)، و«مع المصطفى ﷺ» للمؤلِّف (ص٦٣- ٧٠).

السابق[١]- فالمقصود: رفع الصوت فوق ما يُحتاج إليه أو أكثر مما جرت به العادة، والنبيُّ ﷺ كان لا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة، ففي ذلك نهي عن المبالغة في رفع الصوت مما لا حاجة إليه، أما إذا كان ثَمَّ حاجة، مثل رفع المؤذِّن صوته بالأذان، أو الخطيب، أو المُبلِّغ، أو ما أشبه ذلك، فهذا غير داخل في النهي، وهو نهي عن حالة خاصة بحضرة النبي ﷺ.

ويدخل في النهي: كثرة الكلام بحضرة النبي ﷺ، دون مراعاة حاجاته وأوقات راحته ونومه، فهو بشر يحتاج إلى أن يخلو للعبادة، وإلى أن يخلو بأهله، وإلى أن يخلو للراحة، وكل أحد لا يرى إلا قضاء حاجته، ولذا أُمروا أن يتصدَّقوا قبل مناجاته، كما سيأتي في «سورة المجادلة»[٢].

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقتصرون على القدر الضروري من الصوت ومن الكلام، حتى إن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد نزول هذه الآية كان إذا حدَّثَ النبيَّ ﷺ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار[٣]، لم يُسْمِعْهُ حتى يستفهمه[٤]، ورُوي أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يفعل هذا أيضًا[٥].

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تخاطبوه بالأسلوب

(١) وفي بعض رواياته: «فأنزلَ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ...﴾».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة المجادلة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾.

(٣) أي: كصاحب السِّرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته، يعني: كالمناجي سرًّا.

(٤) كما في «صحيح البخاري»، وهو حديث تماري أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا المتقدِّم، وينظر: «فتح الباري» (٨/ ٥٩٠- ٥٩١).

(٥) أخرجه الحارث (٩٥٧- بغية)، والبزار (٥٦)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٦٨)، وابن عدي (٢/ ٨٠٣)، والحاكم (٣/ ٧٤) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٢)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص٣٧٩)، وفي «شعب الإيمان» (١٤٣١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ قال أبو بكر: «والذي بعثك بالحقِّ، لا أكلِّمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار». وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٢٦- ٣٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٥- ٣٦٦)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (٣/ ١١٩١- ١١٩٣).

الذي يخاطب به بعضُكم بعضًا، كما قال سبحانه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ويدخل في النهي: مناداته باسمه المجرد: يا محمد، ويدخل فيه الجفاء ورفع الصوت.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: حبوط العمل: ذهابه(١)؛ وذلك أن العرب تقول للناقة إذا أكلت النباتات السُّميَّة ثم انتفخ بطنها وماتت: «حَبِطَتْ الناقةَ»(٢).

ويشهد لهذا المعنى: قوله ﷺ: «إنَّ كلَّ ما يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقتلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ، أَكَلَتْ، حتى إذا امتلأَتْ خاصرَتَاها استقبلتِ الشمسَ، ثَلَطَتْ أو بَالَتْ، ثم اجترَّتْ، فعادت فأَكَلَتْ»(٣).

وفيه تخويف لمَن عمل صالحًا أن يقع في موبقات أو كبائر تحبط عمله، وهذا الأمر قد يقع شيئًا فشيئًا دون أن يشعر بذلك صاحبه، فهي حالة غفلة ترين على القلب ثم تتطوَّر وتكبر حتى تُحبط العمل(٤).

وقد ذكر البخاري قصة ثابت بن قيس بن شَمَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان خطيب الرسول ﷺ بالمدينة، وكان جهوري الصوت، فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...﴾ جلس ثابت في بيته، وقال: أنا من أهل

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٥٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٤).

(٢) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص٣٠٣)، و«لسان العرب» (١/ ٥٨)، و«تاج العروس» (١٩/ ١٩٢) «ح ب ط».

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٥، ٢٨٤٢)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) قال النووي: «معناه: أن نبات الرَّبيع وخَضِره يقتل حَبَطًا بالتُّخَمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة، فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الرَّبيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم مَن يستكثر منه ويستغرق فيه، غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم مَن يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرًا، وإن أخذ كثيرًا فرَّقه في وجوهه، كما تَثْلِطُهُ الدابة، فهذا لا يضره». ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٤٢)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٤٧- ٢٤٨).

النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبيُّ ﷺ سعدَ بنَ معاذ، فقال: «**يا أبا عَمرٍو، ما شأنُ ثابت؟ اشْتكَى؟**». قال سعدٌ: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوَى. قال: فأتاه سعدٌ، فذكرَ له قولَ رسول الله ﷺ، فقال ثابتٌ: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**»[1].

هذا حال القلوب المرهفة التي تتفقَّد إيمانها، وتخاف عليه الحبوط، بمجرد سماعها تحذيرًا ليس فيه تصريحٌ بحبوط إيمان أحدٍ بشخصه، ولو غيرهم سمعه لقال: إن المقصود بذلك غيري، وكيف أكون أنا المقصود وقد عملتُ كذا وكذا... ثم يسترسل في استذكار أعماله التي يراها صالحة!

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾:

ثناءٌ على أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإشادة بموقفهما واستجابتهما السريعة بغض أصواتهما بحضرة رسول الله ﷺ[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اختبر الله قلوبهم- وهو أعلم- فوجدها صالحة مستعدَّة مؤهَّلة، فغرس فيها التقوى واليقظة والحياة[3].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: فالمغفرة هي: الصفح عن الذنوب والأخطاء، وأما الأجر العظيم فهو: الثواب، فكفَّر الله تعالى عنهم سيئاتهم، وتقبَّل منهم حسناتهم وضاعفها لهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٣، ٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٦٩٨٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٣- ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٥)، والمصادر السابقة.

بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[١] [الزمر: ٣٥].

وقد صار ما أمرت به الآية الكريمة خُلُقًا عند المسلمين في غضِّ الصوت عند رسول الله ﷺ، وعدم الصَّخَب أو رفع الصوت بحضرته، حتى بعد وفاته ﷺ عند قبره، كما في «صحيح البخاري» أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجد رجلين يرفعان أصواتَهما في مسجد رسول الله ﷺ، فدعاهما، فقال: «مَن أين أنتما؟». قالا: من أهل الطائف. قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ!»[٢]. فعذرهما؛ لأنهما غريبين عن المدينة.

وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ، وكان الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إمام دار الهجرة لا يرضى لأحد أن يرفع صوته في مسجده ﷺ[٣].

ويُؤخذ من هذا أن على المسلم أن يستحضر هذا الأدب الرَّفيع إذا كان قريبًا من الحجرة النبوية، أما زجر الناس ودفعهم بالأيدي- ولو على سبيل الإنكار- وما أشبه ذلك، فهذا لا يليق بمثل هذا المقام، وينبغي أَلَّا يقف في مثل هذا المقام إلا المؤهَّل علمًا وخُلُقًا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

لعل نزول الآية كان بسبب وفد بني تَمِيم حين قدموا إلى المدينة النبوية، قيل: كانوا تسعين أو ثمانين رجلًا، ومعهم: عُيينة بن حِصن، والأَقْرع بن حابس، وقيس ابن عاصم، والقَعْقاع بن مَعْبد، ومعهم سادة وأئمة، وكانت فئة منهم محدودة ذات جفاء وغلظة بطبيعتها؛ لأنها عاشت في الصحراء، ولم تتعلَّم آداب الإسلام، فأحدثوا قدرًا من الفوضى في المدينة، ودخلوا المسجد، ثم قال قائلهم: اخرُجْ

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٥)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٥)، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢/ ٤١)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٨)، و«إمتاع الأسماع» (١٤/ ٦١٦)، و«الخصائص الكبرى» (٢/ ٤٤٥)، و«سبل الهدى والرشاد» (١١/ ٤٣٩).

إلينا يا محمدُ، فإن مدحَنا زَيْنٌ وذمَّنا شَيْنٌ. فخرج ﷺ، وقال: «إنما ذلكم اللهُ»[1]. يعني أنهم عظَّموا أنفسهم بهذه المقالة بما لا يليق بالبشر[2].

والحُجُرات المذكورة جمع: حجرة، وهي بيوت أزواج النبي ﷺ، وكانت تسع حُجُرات متلاصقة صغيرة متواضعة.

ودخل الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الحُجُرات، فكان يلمس سقفها بيده[3]، وكانت موجودة إلى العهد الأُموي، وأمر الوليد بهدمها، فلم يُرَ في المدينة أكثر باكيًا من يومئذٍ، وقال الناس: يا ليت الوليد ترك هذه الحُجُرات؛ حتى يعلم الناس كيف كان يعيش رسولُ الله ﷺ وأزواجه[4].

وهنا مأخذ لطيف، وهو أن الأماكن المقدَّسة كلما كانت أقرب إلى الطبيعة وأبعد عن التكلُّف في العمران والمواد والبُسط والأثاث وسواه؛ كان أدعى إلى إحياء القيم الروحانية، فهي ليست مدنًا اقتصادية تفتخر بالتشييد والمعمار والزخرفة والشموخ، بل مواضع للخشوع والسكون والقرب من الله؛ ولذا ورد

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٩١، ٢٧٢٠٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٧٨)، والطبري (٢١/ ٣٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٨٧٨)، والضياء (٤/ ٣٢١) (١٥٠٠- ١٥٠٣) من حديث الأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه نادى رسولَ الله ﷺ من رواء الحجرات، فقال: يا رسولَ الله. فلم يجبه رسولُ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، ألَا إن حمدي زَيْنٌ، وإن ذمِّي شَيْنٌ.

وأخرج الترمذي (٣٢٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٥١)، والرُّوياني (٣٠٧)، والطبري (٢١/ ٣٤٥) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قام رجلٌ... نحوه.

(٢) وقيل في سبب نزول الآية أقوال أخرى. ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٥- ٣٤٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٨٧- ٣٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢٥).

(٣) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٤٣١)، و«الأدب المفرد» (٤٥٠)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٧)، و«قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (٢٤٥)، و«شعب الإيمان» (١٠٢٤٩).

(٤) ينظر: «الروض الأنف» (٤/ ٢٧١)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٥٧)، و«خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» (٢/ ١٣٠).

النهي عن تشييد المساجد وزخرفتها[1].

لقد كانت حُجراته ﷺ ضيقة صغيرة؛ وكان ﷺ إذا صلَّى في حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي أمامه إلى قبلته، وأراد السجود غمزها، فقبضت رجليها، فسجد ﷺ في موضع رجليها، فإذا قام بسطت رجليها، ولم يكن عندهم مصابيح ولا سرج آنذاك لترى هي حال النبي ﷺ[2].

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثر ذلك الوفد الذي قدم للنبي ﷺ، ولم يقل: «كلهم»، مع أنه لو قال لم يكن هذا مجافيًا للحال، إذ إن الحكم للغالب، ولكنه بيَّن أنه حكم غالب لا مطلق؛ إذ فيهم العقلاء، ولا يتحمَّل أحدٌ وزر غيره، كما أن عادة الناس أنهم لا ينادون أجمعين، وإنما ينادي بعضُهم.

والمقصود هنا هو العقل التأديبي، عقل الأدب وعقل التهذيب والذوق، ولعله قريب مما يسميه العلماء اليوم بـ«الذكاء الاجتماعي»، أو «الذكاء العاطفي» الذي يعني نجاح الإنسان في علاقته بالآخرين.

وبعض الناس قد يكون عبقريًّا، ولكنه يفتقد هذا النوع من الذَّكاء، فيخسر الناس، وكلما مدَّ حبل الوصال بأحد انقطع عند أول توتر وسوء فهم!

* ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾:

لو أنهم صبروا دون أن ينادوك وانتظروا خروجك إلى الصلاة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا في تحصيل ما جاؤوا من أجله؛ فإن من المجرَّب أنك حين تُكره إنسانًا على شيء أو تخاطبه وهو مشغول الذهن أو مكدود الخاطر، فإنك لا تحصل على مرادك.

---

(١) كما عند أبي داود (٤٤٨)، وأبي يعلى (٢٤٥٤، ٢٦٨٨، ٢٦٨٩)، وابن حبان (١٦١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٠٠- ١٣٠٠٣)، وأبي نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣١٣)، والبيهقي (٢/ ٦١٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «ما أُمرتُ بتشييد المساجد».

وصححه جماعة، واختلف في وصله وإرساله. ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٣/ ٢٨٣- ٢٨٤)، ولابن حجر (١/ ٥٤٠)، و«كتاب الصلاة من شرح بلوغ المرام» (ح٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢، ٥١٣، ١٢٠٩)، ومسلم (٥١٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد ورد في بعض الروايات أن هؤلاء الذين نادوا الرسولَ ﷺ قد جاؤوا لإطلاق بعض أسراهم، فأطلقَ النبيُّ ﷺ بعضَهم ولم يُطلق الآخرين، فلو أنهم صبروا لربما أُطلق الجميع، ولكنهم استعجلوا[1].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خاتمة عظيمة؛ لأن المقام مقام أخلاق وتربية وتقوى، وليس مقام نكاية ولا وصم أو تعيير أو إلصاق عارٍ لا يزول، بل هو درس في التوقير ومعرفة أقدار الكبار، وتربية الأمة العربية حديثة الإيمان على معاني الأدب والاحترام والتقدير وفهم مراتب الناس.

وفي هذا تربية للمسلمين على سرعة الرجوع إلى الله، والاعتراف بالذنب، وحثٌّ على تقوية إيمانهم، والترقِّي في مدارج الكمال.

كما أن فيها تنبيهًا للمؤمنين السابقين أن يتعاملوا مع هؤلاء بالصبر؛ لأن بعضهم ربما تأخذه عليهم حَمِيَّة أو غضب، حيث رفعوا أصواتهم، فالرحمة هي أولى ما يُقدَّم في الدعوة، وقد قدَّمها الله تعالى على العلم في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾:

روى أحمد، وغيره عن الحارث بن ضرار الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه، وأقررتُ به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررتُ بها، وقلتُ: يا رسولَ الله، أَرْجِعُ إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمَن استجابَ لي جمعتُ زكاته، فيرسلُ إليَّ رسولُ الله ﷺ رسولًا لِإِبَّانِ كذا وكذا[2] ليأتيكَ ما جمعتُ من الزكاة.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٠).

(٢) إِبَّان الشيء: وقته.

فلما جمع الحارثُ الزكاةَ ممن استجابَ له، وبلغَ الإبَّانَ الذي أراد رسولُ الله ﷺ أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرسولُ، فلم يأته، فظنَّ الحارثُ أنه قد حدثَ فيه سَخْطَةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله، فدعا بسَرَواتِ قومه(١)، فقال لهم: إن رسولَ الله ﷺ كان وقَّتَ لي وقتًا يُرسل إليَّ رسولَه ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْفُ، ولا أَرَى حبسَ رسوله إلَّا من سَخْطَة كانت، فانْطِلِقُوا فنأتيَ رسولَ الله ﷺ.

وبعثَ رسولُ الله ﷺ الوليدَ بنَ عُقبةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى الحارث ليقبضَ ما كان عنده مما جمعَ من الزكاة، فلما أن سارَ الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطريق، فَرِقَ، فرجعَ، فأتى رسولَ الله ﷺ، وقال: يا رسولَ الله، إن الحارثَ منعني الزكاةَ، وأرادَ قتلي. فضربَ رسولُ الله ﷺ البعثَ إلى الحارث، فأقبلَ الحارثُ بأصحابه إذ استقبلَ البعثَ وفصلَ من المدينة، لقيهم الحارثُ، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسولَ الله ﷺ كان بعثَ إليك الوليدَ بن عُقبةَ، فزعم أنك منعته الزكاةَ، وأردتَ قتلَه. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحقِّ، ما رأيتُه بتَّةً، ولا أتاني. فلما دخل الحارثُ على رسول الله ﷺ، قال: «منعتَ الزكاةَ، وأردتَ قتلَ رسولي؟!». قال: لا، والذي بعثك بالحقِّ، ما رأيتُه، ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبسَ عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ، خشيتُ أن تكونَ كانت سَخْطَةً من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ إلى هذا المكان: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾(٢).

وهل الفاسق هو الوليد بن عُقبة؟ معظم الروايات ترجِّح لذلك، وحكاه

---

(١) أي: أشرافهم.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧١).

بعضهم إجماعًا، ولا يصح، والأسانيد ليست قوية على طريقة المحدِّثين، وكلمة ﴿فَاسِقُۢ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم، ويدخل فيها ما كان سببًا للنزول دخولًا أوليًّا، والله أعلم(١).

ويحتمل أن يكون التوجيه للوليد بن عُقبة بأن لا يقبل خبرًا من أحد غير متحقِّق، إذ ربما قال له قائل: إن هؤلاء القوم يعدُّون لك العُدَّة. وفي سبب نزول هذه الآية أقوال أخرى(٢).

والمقصود هنا: مَن ظاهره عدم العدالة، وهو ضد: الصادق(٣).

وعلى المسلم أن يتمهَّل قبل أن ينقل الأخبار، خاصة عندما يتعلَّق الخبر بشيء مهم، وفي الحديث: **«كفى بالمَرء كذبًا أن يحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ»**(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٩)، وابن أبي عاصم (٢٣٥٣)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٢/ ٦٨) (٤٥٧)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٧٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٩٥)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٧٨٣) (٢٠٨١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٣٩١).

وإسناده ضعيف، وله شواهد ضعيفة. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٣٢- ٣٣٤)، و«الإصابة» (٢/ ٣٦٣)، (١١/ ٣٤٠)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٥٤٥- ٥٤٩)، و«لباب النقول» (ص١٨٠)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (٢/ ٩١٧- ٩١٩)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣/ ٢٧٢- ٢٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٠٨٨).

(٢) ينظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب»، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٣)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٠٠)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وابن حبان (٣٠)، والحاكم (١/ ١١٢)، وفي «المدخل إلى الصحيح» (ص١٠٨)، والبيهقي في «الآداب» (٢٩٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٣١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورُوي مرسلًا. أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٤٩)، ومسلم في «مقدمة صحيحه»، وأبو داود، والبزار (٨٢٠١).

ورجَّح المرسل غير واحد. ينظر: «غرر الفوائد المجموعة» للرشيد العطار (ص٣٠٩- ٣١١)، و«الإلزامات والتتبع» للدارقطني (ص١٣٠)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٣١٧)، (١٠/ ٢٧٥- ٢٧٦)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين لابن حبان» (ص٤١)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ٢٧٢)، و«الأذكار» (ص٥٨٣)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٠٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٢٥)، و«أحاديث ومرويات في الميزان» لمحمد عمرو عبد اللطيف (ص٣٨- ٥٣- حديث الفينة).

والشائعات تكثر ويتكرر سماعها، حتى يميل المرء بطبعه إلى تصديقها أو اعتقاد أن لها أصلًا، ومع توافر وسائل الاتصال يسهل التناقل جدًّا، ويصبح باستطاعة أي شخص يملك حسابًا في وسائل التواصل الاجتماعي أن ينال خصمه بالإيذاء والافتراء عليه بأغاليط وأكاذيب، يصدِّقها السُّذَّج، ويروِّجها المُغْرِضون[1].

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: وفي قراءة: ﴿فَتَثَبَّتُوٓاْ﴾، وكلاهما قراءة سَبْعية[2]، والمعنى: التحقق من صدق الأخبار قبل نقلها واعتمادها[3].

وهذه هي الطريقة الصحيحة لنشر الوعي الإعلامي الممحَّص، وحصار الشائعات، وحفظ الأعراض، وإسكات الأشرار المُغْرِضين، وحين يشيع هذا الأدب الجميل يتوارى المُغْرِضون والمروِّجون والأفَّاكون؛ حرصًا على سمعتهم، وخوفًا من افتضاحهم.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي: لئلا تُصيبوا[4].

﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: تنسبوا خبرًا لقوم بغير علم ودون تحقيق وتوثيق[5].

﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ بعدما تنكشف الحقيقة، ويُعلم أن الخبر لم يكن صحيحًا، والمؤمن يقع منه الخطأ ثم يندم عليه، فـ«الندم توبة»[6]، وهو

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة التغابن»: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾.

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٣٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٥١، ٣٧٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ٧٩).

(٣) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص١٢٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٣/ ١٧٣ - ١٧٤)، و«حجة القراءات» (ص٢٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٦٩٩٦)، والمصادر السابقة.

(٦) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الطيالسي (٣٨٠)، وأحمد (٣٥٦٨، ٤٠١٢)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، وابن حبان (٦١٢، ٦١٤)، والحاكم (٤/ ٢٤٣).

علامة إيمان، ويقظة ضمير، ومراجعة ومحاسبة للنفس، والندم ينبغي ألَّا يفضي إلى اليأس.

* ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾:

تذكير لهم بهذه النعمة العظيمة، نعمة وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، يعلِّمهم، ويؤدِّبهم، ويدعو لهم، ويصلِّي بهم، ويستغفر لهم.

وهو تذكير ينطوي على الإشارة اللَّطيفة إلى اقتراب أجله؛ فقد نزلت الآية في السنة التاسعة من الهجرة، وبقي النبيُّ ﷺ بعدها نحو سنة.

وهي تشبه من هذا الوجه «سورة النصر»: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾، وما فهمه منها عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وفي الآية تذكير بأن الوحي موجود، وأن بعض ما تقترحونه قد يتحول إلى واجب أو إلزام[2]، ولذلك قال ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أعظمُ المسلمينَ في المسلمينَ جُرْمًا: مَن سألَ عن أمر لم يُحَرَّمْ، فحُرِّمَ على الناس من أجل مسألَتِهِ**»[3]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فلا تستعجلوا باقتراح الأقوال، وتذكَّروا ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾: **العَنَت**: المشقة والصعوبة[4]، وقد يُطلق على الإثم[5]، فلو أطاعكم ﷺ في كثير من الأمور لأعْنَتكم، ومن صفته أنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النصر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٦١)، و«تاج العروس» (٥/ ١٢) «ع ن ت»، والمصادر الآتية.

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٦٩٩٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٤).

مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

والناس تتفاوت طاقتهم، ويختلف احتمالهم، فرفع الله المشقة والعَنَت، وراعت الشريعة الضعفاء، فكان التيسير ورفع الحرج من مقاصد التشريع، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٧٧]، فلو أطاعكم في كثير من الأمور التي تتمنَّونها أو تقترحونها بسبب عجلتكم أو حماسكم أو عجزكم عن فهم طبائع الناس وأعذارهم؛ لوقع لكم بذلك العَنَت.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفضله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: دعاكم إلى حبِّه وأغراكم به ببيان آثاره العظيمة في الدنيا من الحياة الطيبة، وفي الآخرة من الجنة والرضوان[١]، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فأصبحتم تحبون الإيمان، كما قال ﷺ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهُما، ومَن أحبَّ عبدًا لا يحبُّهُ إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ، ومَن يكرهُ أن يعودَ في الكفر بعدَ إذ أنقذَهُ اللهُ منه، كما يكرهُ أن يُلْقَى في النار»[٢].

وأكثر الناس لا يقع لهم الإيمان دفعة واحدة، بل هو غرس ينمو ويثمر مع الوقت ومع السقي والتعاهد والحماية من عوامل الذُّبول والموت.

والتدرج مهم للترقِّي الصحيح الذي لا يخضع لردود الأفعال والعواطف المؤقتة، والشبهات مع مرور الأيام تنجلي، والطاعات تسهل على العبد؛ لأنه تعوَّد عليها، كالصلوات الخمس، والصوم، حتى لو أخل بها لشعر بنقص؛ لأنها أصبحت جزءًا من حياته، فحبَّب اللهُ سبحانه الإيمان للمؤمنين، وهذا عطاء عظيم أن تكون نفس المرء تحب الخير والطاعة وتكره الشر والمعصية، ولو توفَّر هذا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في المؤمن العاكف على معصية لسهل انتقاله عنها وإفلاته منها.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: وهذه ثلاثة أشياء متداخلة؛ الكفر والفُسوق والعصيان، وهي تجتمع في الفعل الواحد، فيكون كفرًا وفُسوقًا ومعصية، كما هو واضح، ولكن حين تجتمع الألفاظ الثلاثة في سياق واحد- كما هنا- فلا بد أن يكون لكل لفظ معنى خاص به:

فالمقصود بالكفر: الخروج من الإسلام، والفسوق: ارتكاب الكبائر، من الكذب والسرقة والزِّنا والفواحش التي يصبح المرء فاسقًا إذا أصرَّ عليها ولم يتب منها، وأما العصيان: فلعله ما دون ذلك من الصغائر[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وحبَّب إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، فصاروا هم الراشدين، وكأن الرُّشد صار صفة راسخة في أشخاصهم وسلوكهم وأدبهم، وهذا اللفظ لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع بلفظه، فكانت أهميته من ندرته[2].

* ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾:

فهذه الخصائص التي أورثتهم الرُّشد هي فضل الله تعالى تفضَّل عليهم بها، وهي نعمة تستوجب الشكر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: يعلم ما انطوت عليه قلوبهم من القابلية والتأهُّل للتقوى، فرزقهم ذلك[3]، وإن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ أطيبها وخيرها، فاختاره للنبوة، ونظر في قلوب الناس، فوجد قلوب أصحابه

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٣/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٧١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٠١)، والمصادر السابقة.

أقرب القلوب إلى الطاعة والحقِّ، فاختارهم لصحبته، وصاروا هم أتباعه ووزراءه وورثة شريعته ونقلة وحيه والخلفاء من بعده(١).

* ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾:

قصة هذا الآية- كما في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. فانطلقَ إليه، وركب حمارًا، وانطلقَ المسلمونَ، وهي أرضٌ سَبَخَةٌ، فلما أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليك عني، فوالله، لقد آذاني نَتْنُ حمارك. فقال رجلٌ من الأنصار: والله، لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. فغضبَ لعبد الله رجلٌ من قومه، فغضبَ لكل واحد منهما أصحابُه، فكان بينهم ضرب بالجَريد وبالأيدي وبالنِّعال.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا...﴾(٢).

وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا هو سبب النزول(٣).

والحق أن القصة متقدِّمة في أول الهجرة، والسورة متأخرة، إلا أن تكون هذه الآية نزلت قديمًا، وأمر النبي ﷺ بوضعها في موضعها في السورة.

والأقرب أن الآية نزلت في خلافات وقعت بين الأَوْس والخَزْرج، وكان بينهم

---

(١) كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الطيالسي (٢٤٣)، وأحمد (٣٦٠٠)، والبزار (١٧٠٢)، والآجري في «الشريعة» (١١٤٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٢٢).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «الفروسية» لابن القيم (ص٢٩٨- ٢٩٩)، و«العلل المتناهية» (١/ ٢٨٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٥٣٢، ٥٣٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٩١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ١٥٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٢- ٣٩٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٥)، والمصادر السابقة والآتية.

ثارات في الجاهلية، وكانت تثور حتى يتضاربوا بالعصي والحجارة وغيرها[1].

والطائفة هي: الجماعة القليلة[2]، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]، أي: مجموعة قليلة[3]، فهذه إشارة إلى تقليل العدد.

ووصفهم بالإيمان وإن اقتتلوا واختلفوا فيما بينهم، فهذا لا ينفي صفة الإيمان عنهم، فضلًا عن الإسلام؛ وأن المرء يظل مسلمًا حتى لو ارتكب بعض المعاصي والذنوب أو الكبائر، إلا أن يشرك بربه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾: وهذا يؤكِّد أن الاقتتال حدث في دائرة محدودة قليلة العدد، ولذا أمر جمهورَ المسلمين وعامتهم بالسَّعْي في الصلح بينهم، وليس في الانضمام إليهم وتكثير عددهم.

ومن معنى الصلح: أن يذهب أفراد القبيلة إلى المجموعة المنتسبة إليهم فيسكِّنوهم ويحذِّروهم ويمنعوهم من المضي إلى العناد والقتال، ويحذِّروهم من مغبته؛ لئلا يظنوا أنهم يمثِّلون القبيلة بفعلهم، ومن هنا يتعيَّن وجود رؤوس وأعيان ووجهاء مهمتهم الإصلاح.

وفي زماننا ينبغي أن تقوم مؤسَّسات مختصَّة لرأب الصَّدْع بين المختلفين، وبخاصة ذوي القُربي، فالمهمة الأولى هي الصلح، بوسائط الصلح وأدواته من الحوار والاحترام والصبر، ومع الصبر يتحقق الإصلاح بإذن الله، خاصة مع وجود الصدق في الصلح، قال الله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٠)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٤)، و«فتح الباري» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٨)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (٢/ ٩٢٠- ٩٢٤)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣/ ٢٧٨- ٢٨٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٤٩٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٣١- ٥٣٢)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٢٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٧٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩١٢)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٤١٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٢٤٩).

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ بأن رفضت الصلح أو نقضته بعد تمامه، أو اعتدت على الطائفة الأخرى(١).

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي: الفرقة الباغية التي باشرت البغي، ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ وهو الصلح، ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ ورجعت عن بغيها ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾: فذكر الصلح أولًا، ثم أعاده بعد بغي إحداهما على الأخرى وقرنه بالعدل؛ إشارة إلى أن الإصلاح بعد البغي يلزم منه ضمان كل طائفة ما أتلفت على الأخرى، وأن يحكم في ذلك بالعدل والقسط والميزان، وذكر العدل يعني أن بغي إحدى الطائفتين ثم رجوعها لا يعني أن تُظلم ويُجار عليها بحجة ما جرى منها، ما دامت فاءت إلى الحق وقبلت الصلح(٢).

وكل بلد بحاجة إلى الصلح العادل، خاصة البلدان المكونة من قبائل متنوعة وطوائف دينية أو مذهبية أو تيارات فكرية، فتحتاج إلى المصالحة فيما بينها؛ وأدًا لنوازع الطائفية والحروب الأهلية.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾: فليس الأمر بالعدل محصورًا في طائفتين من المؤمنين اقتتلوا، وإنما أمرنا بالإقساط مطلقًا، فعلى المسلم أن يكون مُقْسِطًا؛ قال النبي ﷺ: «**إن المُقْسِطينَ عند الله على منابرَ من نور، عن يمين الرحمن عَزَّوَجَلَّ- وكلتا يديه يمينٌ-: الذين يَعْدِلُونَ في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»(٣).

وفي الآية دعوة إلى العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض؛ حتى العدل بين الأولاد: «**فاتَّقُوا اللهَ، واعْدِلُوا بين أولادكم**»(٤). وبعض الناس لا يبالي أن

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٥٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٥٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥١٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٠١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨٦، ٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣) من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يُعطي أبناءه الذكور ما لا يُعطي عشر معشاره لبناته، ولا شك أن هذا من الجَوْر المحرَّم، وهو من كبائر الذنوب.

والعدل قيمة مطلقة، لا استثناء فيها، وليس في العدل صورة تُذَم، لذا يجب العدل حتى مع الأعداء والمخالفين، فبالعدل قامت السماوات والأرض.

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: توكيد وتكريس لمعنى الإخوة الإيمانية؛ ليعم كلَّ مَن تحقَّق له وصف الإيمان، سواءً كان عربيًّا أو أعجميًّا، أو تقيًّا أو مقصِّرًا، كما تشير إليه السورة لاحقًا.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وفي قراءة: ﴿إِخْوَتِكُمْ﴾[1]. أي: بين الفريقين[2]، والمعنى عام، حتى لو كانت الخصومة بين اثنين من الناس، أو بين إخوة أشقاء أو أصدقاء، فالمطلوب السعي في الإصلاح بينهم، وتضييق الفجوة والقطيعة[3].

ومن اللَّطيف أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾، فذكر واو الجماعة، ثم قال ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾، ولم يقل: «فأصلحوا بينهم».

والسر في ذلك: أن الجميع يباشرون القتال، أما الصلح فلا يتم بين آحاد الأفراد، وإنما يتم بين الطائفتين من خلال القادة والزعماء الذين يديرون عملية الصلح[4].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٠٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ٨٣).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٠٩)، و«حجة القراءات» (ص٦٧٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٢٠).

(٤) ينظر: «النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام» (٤/ ١٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٦)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٣٥)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٢٣)، والمصادر السابقة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: بسبب رغبتكم في الصلح، وتغليب أمر الإيمان الذي يجمع قلوبكم ويقوِّي شوكتكم على عصبية القبيلة والحزب والطائفة والمنطقة.

إن هذه الآيات الكريمات أصل في التعامل مع الخلافات السياسية التي ينجم عنها صراع عسكري بين دولتين أو جماعتين من المسلمين، وضرورة تدخل الأمة المسلمة، لا بنصرة فريق على آخر لمجرد المصالح والأجندات الخاصة، بل لحماية السِّلْم الاجتماعي والاستقرار والأمن، وقطع دابر الحروب والنزاعات بين الأقاليم والقبائل والأحزاب، وتوحيد وجهتها صوب المصالح العامة للوطن، **وهي تنطوي على ثلاث دعوات:**

الأولى: الإصلاح، وهو أساس التدخل بين المتقاتلين بالحجة والإقناع، ومعرفة رؤية كل فريق، وإزالة اللَّبْس، وضمان حسن النية بينهما.

الثانية: قتال الفئة الباغية، لا بقصد إبادتها وإفنائها وقطع دابرها، بل لكف بغيها فحسب.

الثالثة: الإصلاح بالعدل بعد فيئة الفئة الباغية والقِسْط وتضامن الحقوق بينهما.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾:

السُّخْرية هي: الازدراء والتنقص لأحد، إما بماله أو بشكله أو بعشيرته أو بقبيلته أو بلونه أو بجنسه(١).

والقوم هنا هم الرجال، كما قال الشاعر(٢):

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٦١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص١٧).

وما أدري وسَوفَ إِخالُ أَدري أَقَــومٌ آلُ حِـصْـنٍ أم نِـسـاءُ؟

واللَّطيف أن الله تعالى قال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، والعادة أن السُّخرية تكون من فرد واحد، في حين أن الاستعمال القرآني فيه الإشارة إلى أن السُّخرية ظاهرة اجتماعية مرتبطة بالأجناس والأقوام والشعوب والأمم، وليس مجرد الأفراد!

فجاء الإسلام بهذه القيم الجديدة المعبِّرة عن العدالة واحترام الإنسان بغض النظر عن جنسه ولونه.

ويدخل في النهي: ما تتوارثه الأجيال عن ازدراء أهل بلد ووصمهم بالتحقير، وهو شعور متبادل غالبًا، فعوضًا عن تبادل التقدير والتكريم والاحترام بين شعوب العرب والمسلمين والعالم يتناقل الأحفاد عن الأجداد مشاعر التنقص والسُّخرية والوصم بالعيب كالبخل أو الجبن أو رداءة العرض أو رداءة الأصل أو النفاق أو غيره!

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾: و﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله واجبة[1]، أي: سيكون المسخور منه خيرًا من الساخر، أما بالنسبة للتاريخ فهذا مؤكَّد، أي مَن نزلت فيهم هذه الآيات فإنهم حُدثاء عهد بإسلام سخروا من السابقين الأولين؛ لأنهم فقراء أو ضعفاء أو غير عرب، حتى إنهم كانوا يأنفون من التعامل معهم، وهذا يجعل المسلم يحذر من مغبة السُّخرية بالآخرين، خاصة الضعفاء من العمال والخدم وغيرهم.

مـا بيننا عــربٌ ولا عجمٌ مـهـلًا يـد التقوى هـي العُليا
خَلُّوا خيوطَ العنكبوت لمَن هـم كـالـذبـاب تـطـايـروا عميا

وكذلك في الموقف المنهي عنه، فالساخر آثم بسُخريته، والمسخور منه مأجور بصمته وتركه لهذه المعصية، ومأجور إن علم وصبر وآثر ما عند الله، وهو

(١) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١١٢)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٣٠)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٨٨)، و«الإتقان» (٢/ ٢٤١)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٦٢٥).

بهذا خير من الساخر.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾: والنساء يدخلن في مسمى القوم في الأصل، ولكن لما ذكرهن على سبيل التخصيص صار الظاهر عدم دخولهن، لإفرادهن بالذكر(١).

وقد ورد أن بعض أمهات المؤمنين سخرت من صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: إنها يهودية(٢).

وورد في رواية أخرى وصف إحدى أزواج النبي ﷺ لضرتها بأنها قصيرة(٣)!

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: فلمز أخيك المسلم هو لمز لنفسك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾(٤) [الهمزة: ١].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٨- ١٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٦).

(٢) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغَ صفيةَ أن حفصةَ قالت: بنتُ يهوديٍّ. فبكت، فدخلَ عليها النبيُّ ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يُبْكيكِ؟». فقالت: قالت لي حفصةُ: إني بنتُ يهوديٍّ. فقال النبيُّ ﷺ: «إنك لابنةُ نبيٍّ، وإن عمَّك لنبيٌّ، وإنك لتحتَ نبيٍّ، ففيمَ تفخرُ عليك؟». ثم قال: «اتقي الله يا حفصةُ».

أخرجه أحمد (١٢٣٩٢)، وعبد بن حميد (١٢٤٨)، والترمذي (٣٨٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٠)، وأبو يعلى (٣٤٣٧)، وابن حبان (٧٢١١)، والضياء (٥/ ١٧٢- ١٧٥) (١٧٩٣- ١٧٩٦).

وأخرج أحمد (٢٥٠٠٢)، وأبو داود (٤٦٠٢)، وابن ماجه (١٩٧٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نحوه، وفيه أن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي مَن قالت ذلك. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠٥).

(٣) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبيِّ ﷺ: حَسْبُكَ من صفيةَ كذا وكذا، تعني: قصيرة. فقال ﷺ: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لَمزَجَتْه». أي: لو خُلِطت بماء البحر لغيَّرته وأفسدته.

أخرجه أحمد (٢٥٥٦٠)، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣/ ١١٣)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٢٠٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٣٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٥٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٤٧).

وفي الهَمْز واللَّمْز كلام كثير للمفسرين والشراح وعلماء اللغة[1]، خلاصته أنه التعبير عن التنقص والازدراء لشخص، إما بكلمات صريحة، أو كلمات خفيَّة، أو بالإشارة بالعين أو باللِّسان واليد.

وهو منهي عنه، سواء كان في وجهه، أو في غيبته، أو لكونه لا يعرف اللغة؛ فليس من المروءة والأخلاق أن ترسل لسانك بالسُّخْرية ممن لا يفهم لغتك.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾: التنابز: هو التعيير، كما قال الأول[2]:

أُكَنِّيه حين أُناديه لأُكْرِمَهُ ... ولا أُلَقِّبُهُ، والسَّوْأَةُ اللَّقبا

واللَّقب هو ما أَشْعَر بمدح أو ذم، فإن أَشْعَر بمدح فلا إشكال فيه، كاللَّقب بوصف يدل على الشجاعة والكرم ونحو ذلك، وإن أَشْعَر بتنقص فلا يجوز، وكانوا في المدينة يفعلون ذلك أول الإسلام، ولما جاء النبيُّ ﷺ كان كل واحد له اسمان أو ثلاثة، فربما دعاه النبيُّ ﷺ باسم فقالوا: يا رسولَ الله، إنه يكره أن يُدْعَى به. فنزلت الآية[3].

واليوم صار التنابز بالألقاب شعارًا إعلاميًّا، وتهمًا جاهزة، وتصنيفًا عشوائيًّا، ولمزًا بالانتساب إلى مذهب أو جماعة أو تيار بعلم وبغير علم، واستدعى هذا ولوج العامة والدَّهْماء فيه دون بصيرة، وتحوَّل إلى وشاية وتحريض وحرمان من حقوق الانتساب للوطن أو للمجموعة.. ولا شيء يداوي هذا كتوجيه القرآن بتجنب السُّخرية والغمز والهمز وسوء الظن.

وورد عن جماعة من السلف كعطاء ابن أبي رباح أنه قال في الآية: هي أن يقول الإنسان: يا كافر، يا فاجر، يا فاسق[4].

(١) وللفرق بين الهَمْز واللَّمز ينظر ما سيأتي في «سورة الهمزة».

(٢) ينظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص٨٠٥)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٧)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٩/ ١٤٠) منسوبًا إلى بعض الفزاريين.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٩)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ٧٦)، والمصادر السابقة والآتية.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾: فأسوأ ما يكون الأمر حينما تكون الألقاب تنقصًا يُقصد به الحط من قدر أحد، أو إقصاء أحد، أو الحُكم عليه بفسوق أو كفر أو فجور أو كذب، ويجتمع الشر كله حينما يجتمع مع التنابز تكفير وسوء ظن وجهل، فهي ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور: ٤٠].

فيحذرنا من أن نقع في مثل التنابز بالألقاب والازدراء، فنصبح مستحقِّين للفسوق بسببه بعدما مَنَّ تعالى علينا بالإيمان؛ لذا استهل الآية بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وختمها بـ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ﴾ أي: فأنتم مؤمنون بالله ورسوله، فحاذروا أن يتحوَّل وصف الإيمان إلى وصف الفسوق بسبب السخرية والتنابز(١).

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: دعاهم إلى التوبة؛ مما يدل على أنه كانت تقع من بعضهم هذه الزلات، وتوعَّد مَن لم يتب بأنه من الظالمين؛ فهو ظالم لنفسه بالمعصية، وظالم لغيره بالتعيير(٢).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾:

هذا النداء الخامس في السورة العظيمة بوصف الإيمان، و﴿ٱلظَّنِّ﴾ هو: التوقع المبني على غير حجة ولا يقين ولا معرفة ولا أدلة(٣)، وقال النبيُّ ﷺ: «**إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسُوا، ولا تحسَّسُوا**»(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٤٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٣٩)، و«النهاية» (٣/ ١٦٣)، و«لسان العرب» (٣/ ٢٧٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٥٩٤)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٣٦٥) «ظ ن ن».

(٤) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأمر بالاجتناب هو نهي عن الظَّنِّ وعن اتباع الظَّنِّ أو الحديث عنه أو تحقيقه لغير موجب، وقد نهى عن كثير منه، ولم ينه عنه مطلقًا؛ مما يدل على أن بعض الظَّنِّ لا يُجتنب، بل قد يكون واجبًا، مثل حسن الظَّنِّ بالله سبحانه، والظَّنّ الحسن بالمؤمنين، فهذا ظَنٌّ، لكنه لا يُجتنب؛ لأنه ظَنٌّ حسن.

وفي الشريعة أبواب كثيرة يُؤخذ فيها بغلبة الظَّنِّ، ويُؤخذ فيها بالأدلة الظنيَّة، فهذا مما يُعمل به؛ فإن اليقين القاطع في كثير من مسائل الحياة مما لا يتيسر، ولا يزال الناس تعرض لهم الاحتمالات والترددات، ولو لم يبن شيء إلا على يقين لفسدت الحياة وتوتَّرت العلاقات؛ ولذا يُعمل بالظن الغالب في سائر التعاملات، ما لم يعارضه ما هو أقوى منه، وقد يُؤخذ بالظَّنِّ في حالات، تسهيلًا على العباد، وتحقيقًا للمصالح.

وثمة ظَنٌّ محرم، وهو ظَنُّ السوء المبني على غير دليل.

وثمة ظَنٌّ ينبغي التوقف فيه والتأنِّي، وهو ما كان مبنيًّا على أدلة ضعيفة.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾: أمر تعالى باجتناب كثير من الظَّنِّ؛ سدًّا لذريعة سوء الظَّنِّ المحذور هنا، وجاء التعليل بأن ﴿بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ولم يقل بأن كثيرًا من الظَّنِّ إثمٌ، وهذا يدل على أن بعض الظَّنِّ المنهي عنه يوافق الواقع، ومع هذا نهى عنه؛ سدًّا لذريعة الفساد والتسرع والاتهام بغير بينة(١).

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: والتجسُّس هو ثمرة الظَّنِّ السوء، فالغالب أن المرء إذا ظَنَّ بدأ يتجسَّس، ولذلك جاء في الحديث- إن صح-: «**إذا ظننْتَ فلا تُحَقِّق**»(٢). أي:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٢)، والمحاملي في «أماليه» (٣٤٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٢٧)، وأبو الشيخ في «التوبيخ والتنبيه» (١٥٥، ٢٤٢) من حديث حارثة بن النعمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وإسناده ضعيف، وله شواهد ضعيفة. ينظر: «أنيس الساري في تخريج فتح الباري» (١/ ٣٠٠- ٣٠٢).

لا تبحث لتأكيد ظنك.

إنها دعوة للأفراد، وللقيادات والحكومات أن تحفظ أعراض الناس وأسرارهم وعوراتهم وخاصة حياتهم، ولا تُنتهك تحت ذرائع الاتهام الناجم عن سوء ظن، أو تفسير فاسد لموقف أو سلوك، كما روى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ أنه قال له: «**إنك إن اتَّبعْتَ عوراتِ الناس أفسدْتَهُمْ، أو كِدْتَ أن تُفْسِدَهُم**»(١).

وحكومات العالم اليوم وشركاته صنعت أجهزة تحصي على الناس تحركاتهم وهمهماتهم وكلامهم، وهؤلاء المخبرون الباحثون عن الأسرار ينشأ في نفوسهم سوء الظَّنِّ بالناس، وتتحوَّل العلاقة إلى علاقة موتورة مبناها على الدسائس والنمائم والوساوس، وتصبح سببًا في التوتر وسوء العلاقة.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: والغيبة ثمرة من ظَنِّ السوء في الغالب، والنبيُّ ﷺ قال: «**أتدرونَ ما الغيبةُ؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**ذكرُكَ أخاكَ بما يكرهُ**». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «**إن كان فيه مَا تقولُ، فقد اغتبتهُ، وإن لم يكنْ فيه فقد بهتَّهُ**»(٢).

وهي من أسوأ آفات اللِّسان، واعتياد المرء عليها يجعل مجلسه لا يطيب إلا بها، ويجرِّئ جلسائه عليها، وقد يخرجها مخرَج الملاحظة والنقد البريء، أو يقدِّم لها ثناءً أجوفَ غير ذي معنى، أو يُبهم اسم المذموم، ولكنه يحدِّده بما يعلم السامعون جميعًا بمقصوده.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: فهذا تبشيع للفعل، فمَن الذي يحب أن يُؤتى له بلحم أخيه من أمه وأبيه ميتًا فيأكل لحمه؟

وفي المثال توظيف للخيال للتنفير من الذنب، فهذا لحم يقدَّم لك وأنت جائع تنظر وتهم وتتناول منه، فإذا قيل لك: إنه لحم غير مذكًّى كرهته. ولو قيل:

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨)، وأبو يعلى (٧٣٨٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٢٦)، وابن حبان (٥٧٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٧٩) (٨٩٠)، والبيهقي (٨/ ٥٧٨)، وفي «شعب الإيمان» (٩٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هو لحم آدمي. لكان أشد كرهًا، فكيف إن كان لحم أخيك الميت؟

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: بمجرد ما سمعتم هذا الوصف كرهتم الأكل، وكرهتم المثل والصورة التي تتخيَّلونها، فهذه هي حقيقة الغيبة(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لأن الغيبة والتنابز بالألقاب وسوء الظَّنِّ والتجسُّس نقيض التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لمَن تاب وأناب وكفَّ نفسه عن هذه المنهيات المذكورة في الآية، وحتى حين يكون المؤمن مبتلَى بخطيئة يتوب منها ثم يعود إليها فهو يتذكَّر أن الله ﴿تَوَّابٌ﴾أي: كثير التوبة على العاصين، وهي صيغة مبالغة من: «تائب»، فالمكلَّف خطَّاء، أي: كثير الخطأ، والله ﴿تَوَّابٌ﴾ أي: كثير التَّوْب، وواسع المغفرة، وهو ﴿رَحِيمٌ﴾، فالعفو أحب إليه من المؤاخذة(٢).

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾:

انتقل الخطاب من مناداة المؤمنين إلى مناداة الناس أجمعين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، وهو خطاب مدني متصل بما سلف، فالله يخاطب الناس كلهم- بما فيهم المؤمنين- بالتذكير بأجمل الخُلُق؛ تأكيدًا على قيمة الفضل بالعمل والتقوى، وليس بالنَّسَب أو الشكل أو المظهر أو غيره، كما قيل(٣):

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٠٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٥)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٥٠)، و«تذكرة الخواص» لسبط ابن الجوزي (ص٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٢)، و«نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» لجمال الدين الحبيشي الوصابي (ص٧١) منسوبًا إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُنسب أيضًا إلى الشافعي وغيره. ينظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ١٥٧)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» لأبي بكر البقاعي (٦/ ١٢٧).

النَّاسُ من جِهَةِ التَّمثيلِ أَكْفاءُ أبــوهــمُ آدمٌ والأمُّ حَــوَّاءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مُشاكِلَةٌ وأَعْظُمٌ خُلِقَتْ فيهمْ وأعضاءُ
فإنْ يَكُنْ لهم من أَصْلِهِمْ حَسَبٌ يُـفـاخِـرُونَ به فالطينُ والماءُ
ما الفضلُ إِلَّا لأهل العلم إنهمُ على الهُدَى لمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وقَدْرُ كُلِّ امرِئٍ ما كان يُحْسِنُهُ وللرجال على الأفعال أسماءُ
وضِدُّ كُلِّ امرِئٍ ما كان يَجْهَلُهُ والجاهلونَ لأهلِ العلم أعداءُ

ويمكن أن يكون المقصود بالذكر والأنثى: الأم والأب، فكل إنسان له أم وأب، خُلق من التقائهما من ماء الرجل وبُويضة المرأة.

ويمكن أن يكون المقصود: آدم وحواء؛ فهما الأصل الأول للناس، والمعنيان متداخلان[1].

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: المقصود بالشعوب: غير العرب، وبالقبائل: العرب، أو الشعوب بالمعنى الأوسع، فتستوعب القبائل وغيرها، والقبائل تتفرع إلى بطون وأفخاذ[2].

والجَعْل معناه: أن الله تعالى ألهم الناس ذلك، وليس موجودًا في أصل خلقتهم، فالناس سواسية، كما ألهمهم تنظيم الأسبوع ثم الشهر ثم السنة، من أجل انتظام أمر الحياة، فهذه الأشياء جعلها بحكمته من أجل التواصل والتعارف وصلة الأرحام والتعاون الذي يساعد على انتظام الحياة والعلاقات وانضباطها وسهولتها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٥)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣١٢)، والمصادر السابقة.

هي في الأصل معان إيجابية حوَّلها بعض الناس إلى عنصرية وسب وشتم ومفاخرة ومباهاة وتوارث أحقاد قديمة ومعان مرذولة، ونسوا الأصل الواحد، وفي الحديث: «الناسُ بنو آدمَ، وآدمُ من تراب»[1]. وقال ﷺ في حَجَّة الوداع: «**يا أيها الناسُ، أَلَا إن ربَّكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ، أَلَا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتقوى**»[2].

فالفضل هو بالتقوى، وليس بسلسلة النسب والآباء والأجداد.

والتعارف عند كثير من المفسرين معناه أن يعرف بعضُهم بعضًا في النَّسب[3]، وهو معنى صحيح أولوي.

ويدخل في التعارف: أن تتواصلوا فيما بينكم بالمعروف والبِرِّ والإقساط، فتصل القريب وغير القريب، مع كون القريب أولى؛ فتأخذ بالمعروف وتُعطي بالمعروف، **فالمعنى**: لتتبادلوا وتتعاطوا المعروف بينكم، ويكون هو أساس علاقة بعضكم ببعض.

ومن معاني التعارف: تبادل المعرفة والعلم، ولذلك كان العلماء خليطًا من العرب والموالي والفرس والعجم وغيرهم، وكان أصحاب النبي ﷺ فيهم: سلمان الفارسي، وبلال الحبشي.. وكان هؤلاء أفضل من كثير من العرب الذين تأخر إسلامهم، أو كان في إسلامهم نقص وفتور وضعف.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧٣٦، ١٠٧٨١)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥، ٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان (٣٨٢٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٩، ٢٨٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، والحارث (٥١- بغية) من حديث رجل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أيضًا (٢١٤٠٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦١).

إن الحرب على العنصرية المتغلغلة في أعماق النفس وأعماق الثقافة ليست سهلة، ولا تزال في الناس إلى يوم القيامة، وهي تحتاج إلى أن نتعاهد أنفسنا منها، ونتسامى عن نظر العصبية المبنية على غير عمل الإنسان وسلوكه.

وهذه الآية دليل على عدم اعتبار كفاءة النسب في الزواج، كما قال ابن كثير[1]، والقول بعدم اعتبار الكفاءة هو مذهب جماعة من العلماء، كأبي الحسن الكَرْخي، وسفيان الثَّوْري، والحسن البصري، وابن حزم الظاهري، وهو رواية عن الإمام أحمد، وهو قول عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم[2].

والمؤسف أن موضوع الكفاءة في النكاح صار سببًا للصراع وسفك الدماء وتفرقة الأسر بعد اجتماعها!

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: فالكرم بالتقوى، وليس بالنسب والحسب والجاه، والمقصود به الشرف والرِّفعة، فأتقى الناس هو أكرمهم[3].

والسورة كلها تدور حول التقوى، أن يكون في قلب الإنسان تقوى الله، بحيث لا يرتكب المحرمات، ولا يترك الواجبات، وإذا حدث منه خطأ أسرع بالتوبة، ولم يُصِرَّ على الذنب وهو يعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: يعلم مَن يستحق الكرامة، ويعلم أهل التقوى وأهل المغفرة.

* ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾:

نزلت هذه الآية في الأعراب الذين أتوا المدينة من بني أَسَد بن خُزيمة،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٣١٧)، و«المبسوط» (٥/ ٢١)، و«التمهيد» (١٩/ ١٦٢- ١٦٨)، و«مغني المحتاج» (٣/ ١٦٥)، و«المغني» (٩/ ٣٨٧)، و«المحلى» (١٠/ ٢٤)، و«الإنصاف» (٨/ ١٠٨)، و«فتح الباري» (٩/ ١٣٢)، و«سبل السلام» (٣/ ١٠٠٧)، و«السيل الجرار» (٢/ ٢٩١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٦٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٥).

بعد أن أصابهم القَحْط والجفاف، فقدموا المدينة برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأغلوا الأسعار، وملؤوا الأسماع بالكلام الذي لا ترشد إليه الآداب ولا تقبله الأذواق، وكانوا يمنُّون بإسلامهم على الرسول ﷺ؛ ويقولون: آمنا بك من دون قتال، والناس لم يؤمنوا لك حتى قاتلوك، ونحن أتيناك بأنفسنا وأهلينا. وهم حدثاء عهد بإسلام، ولم يأتوا المدينة إلا بعدما استقر أمر الرسالة ودانت العرب وعرف الكافة أن الدائرة على الكافرين والمعاندين[1].

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ فهو عليم بما في نفوسكم.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾: لم يقل: «ولكن أسلمتم»؛ لأن الله لا يريد أن يشهد لهم بالإسلام، وإنما يريد أن يلقِّنهم ما كان واجبًا عليهم أن يقولوه؛ لأن الإسلام الظاهري حدث حيث أنهم استسلموا والتزموا بالواجبات الشرعية الظاهرة كالصلاة ونحوها، ولكن لم يتحقَّق الإيمان في قلوبهم[2].

فالإيمان درجتان: الأولى: وجود أصل الإيمان، أي أن يؤمن بأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة، ويؤمن بأركان الإيمان الستة[3]، ولا إيمان إلا بهذا؛ لأنه لو صلَّى وصام وهو لا يؤمن بالله أو لا يؤمن بشيء من أركان الإيمان الستة، فلا ينفعه صومه ولا صلاته.

الثانية: مقام الإيمان الذي هو فوق الإسلام ودون الإحسان، أن يكون الإيمان قد خالط قلبه، وصار لديه تقوى ويقظة ونشاط للخير وانكفاف عن الشر، وهذا المقصود هنا- والله أعلم- فنفى عنهم هذه الدرجة، وأمرهم أن يتحدَّثوا عن

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٢)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦٣)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٨٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٢)، والمصادر السابقة.

(٣) وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه.

أنفسهم بما هو دونها، وهو الإسلام.

والمؤمن الصادق المحسن المتَّقي لا يدَّعي هذا الادِّعاء، فلا يقول: «أنا مؤمن تقي محسن»، لأنه يخاف على نفسه، ولكن قد يقول: «أنا مؤمن» على معنى الاعتراف بالأركان الستة.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: وهو هنا جاء بلفظ أرجى من الأول؛ فقد نفى عنهم الإيمان، ردًّا على دعواهم، ثم زاد الأمر بيانًا بأن المقصود أن الإيمان لم يصل بعدُ إلى قلوبهم فيحرِّكها لتصبح نقية تقية خاشعة، واستعمل أداة النفي «لمَّا» المعبِّرة عن قُرب احتمال الشيء، فهي أحسن من «لَمْ» وأرجى، وكأن اللفظ يقول: لمَّا يحدث هذا، ولكنه قارب، ففيه تحفيز لهم وتشجيع على الخير، والترقِّي في معارج الفضل[1].

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالأعمال الظاهرة، ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم شيئًا، فأعمالكم محفوظة، وهي تزكِّي إيمانكم[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وهذا مناسب للمقام؛ لأن عندهم ما عندهم من الخطأ والتقصير، ففيها إغراء بمغفرة الله ورحمته لمَن تاب وصحَّح المسار.

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾:

خطاب للأعراب الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ بالله؛ لتأكيد أنهم لم يؤمنوا بعدُ.

و﴿إِنَّمَا﴾ تدل على الحصر، فـ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقون في إيمانهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيمانًا صحيحًا ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يقع في إيمانهم ريب،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٩)، و«الإتقان» (٢/ ٢٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣١)، والمصادر السابقة.

ولا شكٌّ، ولا تردُّد، في حين أنكم أنتم وقع من بعضكم الإيمان الذي خالطه ضعف وشك[1].

ولعل في هذه إشارة إلى فضلاء السابقين من الأنصار والمهاجرين الذين يقع عادة من بعض حُدثاء الإسلام استصغار منهم، فهو يزكِّيهم ويُثني عليهم، ويدعو هؤلاء الداخلين الجُدد إلى التأسِّي بهم والاقتباس بالحب والمجالسة والتعلم منهم، دون استنكاف أو تعال أو تكبر.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾: في حين أنكم لم تجاهدوا بأموالكم، وإنما أتيتم لتطلبوا الأموال، وتقولوا: نحن جياع، فأطعمنا، وعُراة، فاكسنا، وقد كانوا جاؤوا إلى المدينة لهذا السبب وبهذه النية، بخلاف أولئك الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وجاهدوا، وهاجروا[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: فهذا ثناء على الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وفيه إغراء بالصدق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، وتذكير بأن الأمر متعلِّق بالقيم والمبادئ، وليس مجرد سباق بين القبائل، أو انتهاز للفرص، أو طلب للعاجل، فالمسألة مسألة تضحية وبذل، رجاء ثواب الله وفضله، وليست مكسبًا عاجلًا زهيدًا.

* ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾:

فهو يعلم خبايا نفوسكم، وحقائق تصرفاتكم ونواياكم.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٢٤).

وهذا من العتب الشديد عليهم، فكيف تظنون أنكم تعلِّمون الله بدينكم؟ وهو أعلم بما في النفوس، والدِّين ليس ادِّعاءً أجوف، ولا تفاخرًا، وإنما حقيقته إيمان وإخبات ونفع للعباد.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهم كانوا بحاجة إلى مثل هذا المعنى؛ لأنه قلَّما تخطر معاني مراقبة الله لهم وعلمه بما في قلوبهم ونفوسهم؛ لأنهم حُدثاء عهد بإسلام، فاحتاج الأمر إلى أن يُذكِّرهم بأن الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

ولعل الآية تشبه قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٨]. والمراد بها النفي، فإذا نفاه الله تعالى فهو غير موجود، وإن ادَّعَوْ وجوده، ولذا فهو يقول: هل أنتم تعلمون شيئًا لا يعلمه الله، حيث ينفيه وأنتم تثبتونه(١)؟!

* ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾:

نزلت هذه الآيات في قوم من الأعراب، قيل: من بني أَسَد، وليس مهمًّا تحديد مَن هم، إنما المهم المعنى؛ إذ يستنكر عليهم القرآن إظهارهم المنَّة على الرسول ﷺ بأنهم لم يحاربوه كما حاربه غيرهم، ودخلوا في دينه طوعًا، ويلقِّن رسولَه ﷺ أن يقول لهم: لا تمنُّوا بإسلامكم عليَّ، بل المنَّة عليكم لله ولرسوله.

وذَكَر المنَّة بالإيمان والهداية إليه؛ لأنه لا يشعر بالفضل والمنة إلا المؤمنون الصادقون الذين خالط الإيمان شغاف قلوبهم، أما مَن أظهر الإسلام فحسب فربما استثقل التكاليف وتبرَّم بها ولم يشعر بالمنَّة، ووضع القيد تشكيكًا في أصل الدعوى.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٠).

* وختم بتأكيد علمه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾:

فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية.

ختمت السورة الكريمة التي احتشد فيها الكثير من الآداب والأخلاق في الأقوال والأعمال مع الله سبحانه، ومع رسوله ﷺ، ومع المؤمنين في حال السِّلْم والحرب، وحال الأخوَّة والاختلاف، ثم الانتقال أيضًا إلى الطبيعة الإنسانية وبني آدم والعلاقة بينهم، وكيف يجب أن تكون، وختم السورة بالحديث عن هؤلاء الأعراب وعن الناس جميعًا، ومنَّة الله تعالى عليهم بالإيمان، وأنه لا أحد يَمُنَّ على الله تعالى بإيمانه[1].

○○○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٦- ٣٩٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٥٠)، وفتح القدير (٥/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦٩).

سُورَةُ قٓ

* «سورة ﴿قٓ﴾»: هي أول «حزب المُفَصَّل» - فيما صحَّحه ابن كثير، وغيره - وقيل: أوله: «سورة الحُجُرات»، وقيل غير ذلك، كما تقدم في «سورة الحُجُرات».

* **تسمية السورة:**

تسمَّى: «سورة ﴿قٓ﴾»، أو: «سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾»[1].

وبذلك سمَّاها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[2]، ولا يُعرف لها اسم غيره.

وذكر السيوطي في «الإتقان» أنها تسمَّى: «سورة الباسقات»[3].

وهو حزب في القرآن الكريم كان الصحابة يقرؤونه في ليلة، وقد سُئل بعض الصحابة - كما في حديث أَوْس بن أَوْس، وهو أَوْس بن حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: كيف كنتم تُحزِّبون القرآن؟ أي: تقسمونه وتقرؤونه، فقال: «نُحَزِّبُهُ: ثلاثَ سُوَرٍ، وخمسَ سُوَرٍ، وسبعَ سُوَرٍ، وتسعَ سُوَرٍ، وإحدى عشرةَ سورةً، وثلاثَ عشرةَ سورةً، وحزبَ المُفَصَّل من ﴿قٓ﴾ حتى يَخْتِمَ»[4].

«ثلاث سُور» يعني: البقرة، وآل عمران، والنِّساء.

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٣٨)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٤٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٠)، و«المستدرك» (٢/ ٤٦٤)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٤٥٧، ٤٥٨، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٩١)، وما سيأتي في «سورة القمر».

(٣) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٣- ٢٧٤).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٢٠٤)، وابن أبي شيبة (٨٥٨٣)، وأحمد (١٦١٦٦، ١٩٠٢١)، وأبو داود (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٥٧٨)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٣٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٨٨).

و«**خمس سُور**» يعني: المائدة، والأَنْعام، والأَعْراف، والأَنْفال، والتوبة.

و«**سبع سُور**» يعني: يُونس، وهُود، ويُوسف، والرَّعد، وإبراهيم، والحِجْر، والنَّحل.

و«**تسع سُور**» يعني: الإِسْراء، والكَهْف، ومريم، و﴿طه﴾، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنُّور، والفرقان.

و«**إحدى عشرة سُورةً**» يعني: الشُّعراء، والنَّمل، والقَصَص، والعَنْكبوت، والرُّوم، ولُقْمان، والسَّجْدة، والأَحْزاب، وسبأ، وفاطر، و﴿يسٓ﴾.

و«**ثلاث عشرة سُورةً**» يعني: الصَّافات، و﴿صٓ﴾، والزُّمُر، وغافر، وفُصِّلت، والشُّورى، والزُّخرف، والدُّخَان، والجاثية، والأَحْقاف، ومحمد، والفتح، والحُجُرات.

و«**المُفَصَّل**» من «سورة ﴿قٓ﴾» إلى «سورة الناس»، على الخلاف السابق ذكره.

فهذا التحزيب الذي كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعتمدونه لمَن أراد أن يختم القرآن في سبعة أيام(١).

* **عدد آياتها:** خمس وأربعون باتفاق علماء العَدِّ(٢).

* **وهي مكيَّة** بالإجماع، كما ذكره غير واحد(٣).

ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن آية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] نزلت بالمدينة، وكانت ردًّا على ادِّعاء اليهود الذين قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت. تعالى الله عن ذلك.

والصحيح أن الآية، وإن كانت واردة في المعنى ذاته، إلا أنها مكيَّة، وحكايات اليهود وأخبارهم ليست مقصورة على المدينة؛ إذ كانوا يتردَّدون على مكة،

(١) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢٤٧)، و«معجم علوم القرآن» (ص١٣ - ١٤).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩).

(٣) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٢٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٤).

ويختلطون بالعرب، ربما سمعوا منهم مثل هذه المقالات الفاسدة[١].

* ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾:

﴿قٓۚ﴾: حرف واحد ينطق بالمَدِّ، وهو اسم للحرف العربي المعروف.

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ يجوز أن تكون ﴿قٓ﴾ من القرآن، أو ﴿قٓ﴾ من قدير، أو ﴿قٓ﴾ اسم للسورة، أو ﴿قٓ﴾ اسم من أسماء الله، أو ﴿قٓ﴾ حرف من الحروف التي يتكون منها القرآن، على حسب الأقوال المختلفة[٢].

ومن الخطأ ما ذكره بعضهم أن ﴿قٓ﴾ جبل محيط بالأرض، والأرض متصلة به[٣]. فهذا مما لم يرد في كتاب ولا سُنَّة، ولا ثبت بأثر صحيح، كما أنه غلط مجافٍ للواقع.

ومن الخطأ الكبير أن تُقَدَّم معلومات مغلوطة عن الكون أو الفلك أو الإنسان، وتساق مساق تفسير القرآن الكريم؛ لأن هذا من شأنه أن يفتح للأجيال أبوابًا من الشك، والعُزُوف عن كتب التراث ومرويَّاته، وذلك حين يأتي متخصِّص في الجغرافيا أو الرياضيات أو الفيزياء فيُقَدِّم لهم معلومات علمية، وحقائق مجافية لما نُقِل لهم، وإنما ثار الناس على الكنيسة لمَّا اعتمدت أقوالًا منافية للعلم، وثبتت الحقائق العلمية بخلافها، أما القرآن فـ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، فمن الخطأ أن تُساق مثل هذه الأقوال في كتب التفسير على أنها تفسير لكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾: أقسم تعالى بالقرآن؛ لأنه كان موضع شكٍّ عند هؤلاء المكذِّبين.

وسماه: «القرآن» باعتباره مقروءًا، ويسمَّى: «الكتاب» باعتباره مكتوبًا، فالقراءة تسمعها الآذان، وتستعذب ألفاظه ومعانيه، والكتابة تراها العيون، ولكل

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢- ٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٥)، والمصادر السابقة.

منهما وقعه الخاص على النفس وتدبر القلب وخضوره[1].

و﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: صاحب المجد، فمجد القرآن: عظمته وكماله، وإحكامه، وكونه ناسخًا لما قبله من الكتب السماوية، وبقاؤه وتأثيره[2].

والقَسَم بالقرآن: إشادة بعظمته، وإشارة إلى مادته المكوَّنة من الحروف التي ينطقها العرب، وأن هذه السورة واحدة من سوره العظيمة المنطوية على الإعجاز.

والسورة تدور حول معنيين أساسيين: الألوهية والبعث.

* ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾:

﴿بَلۡ﴾: تُستعمل للإضراب والانتقال إلى بيان كفرهم وشبهاتهم، وما جرى منهم من التكذيب[3]، بعدما استهل بإلماح سريع أشاد فيه بمجد «**القرآن**» وعظمته[4].

وقد عجب الله من عجبهم واستغرابهم أن يأتي نذير؛ لأنه لم يأتهم نذير قبله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

وعجبهم واستغرابهم أيضًا أن يكون النذير منهم؛ أن يكون بشرًا، وفي زعمهم يجب أن يكون مَلَكًا ينزل عليهم من السماء: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وليس العَجَب من عجبهم فحسب، بل من تسرعهم في الكفر والتكذيب، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٦)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ١٣)، و«تفسير الثعالبي» (١/ ١٥٠- ١٥١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٧٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٣٧٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٢٢)، «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٧). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٦٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٤٨٥)، و«تاج العروس» (٩/ ١٥١) «م ج د».

(٣) ينظر: «علل النحو» (ص٣٧٧)، و«شرح المفصل» (٥/ ٢٥).

(٤) ينظر: «روح المعاني» (١٣/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٧)، وما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾.

* ثم شرع في بيان استغرابهم للأمر الآخر؛ وهو «**الْبَعْث**» بعد الموت: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾:

وهم يعرفون الموت، كما تعرفه الدوابُّ والبهائم، وأنهم يصيرون ترابًا؛ لأنهم يشاهدونه عيانًا.

وأتى أُبَيُّ بن خَلَف رسولَ الله ﷺ بعظم بالٍ، فقال: يا محمدُ، أنتَ تزعمُ أن يُبعثَ هذا بعد ما أَرِمَ. ثم فَتَّهُ بيده، ثم نفخه في الرِّيح نحوَ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**نعم، أنا أقولُ ذلكَ، يبعثُهُ الله وإيَّاك بعد ما تكونان هكذا، ثم يُدخلُك اللهُ النارَ**»[1].

﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾: مستبعد في عقولهم التي لم تتعوَّد على التفكر الصحيح، والنَّظَر في الكلام الجديد عليها[2]، وهم يقولون: ﴿بَعِيدٌ﴾؛ لأنه غير مألوف في تفكيرهم السَّطحي التقليدي.

وعادة أكثر الناس التَّسرع في رفض ما لا يعرفون، وإنكاره وتسفيهه، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]، فبمجرد ما يسمع أحدُهم خبرًا غير مألوف يبادر بتكذيبه، والقرآن يلهمنا إزاء المعارف والمعلومات الجديدة التي نسمعها لأول وهلة أن لا نتسرع في رفضها؛ لأن عقولنا لا تستوعبها أو لم تتهيَّأ لها، وأن لا تتسرع في قبولها دون برهان أو حجة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [النمل: ٦٤]؛ لأن المرء قد يُكَذِّبُ بالحقِّ لغرابته، وقد يُصَدِّقُ بالباطل لكثرة ما يسمعه، واعتياده عليه، حتى لا يسأل عن دليله.

واستبعادهم للبعث هو من الجهل؛ لأن الشرائع السماوية كلها جاءت بتقريره وتثبيته، وأنه ركن من أركان الإيمان، وهو يستقر في نظر الناس؛ لأنهم يرون ظالمًا ومظلومًا يموتون دون فصل بينهم، ويرون قصصًا في الحياة لم تكتمل ولها بقية

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٦١)، و«الروض الأنف» (٣/ ١٩٨).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٢)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٥)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٠).

تظهر في البعث الآخر، وهو معتقد شائع معروف في أمم الأرض كلها، ومستقر في ثقافتها وشعرها وأساطيرها، ولكن العرب الوثنيين لم يكونوا مؤمنين به غالبًا؛ لجهالتهم وبعدهم عن أنوار النبوة والوحي، وكان قائلهم يقول(١):

حــيــاةٌ ثــم مــوتٌ ثــم نَــشْــرٌ ... حديثُ خُــرافَــةٍ يا أمَّ عَمْرِو

والسِّياق يكشف تناقضهم؛ فهم يعرفون أنهم يعودون ترابًا، ثم يستبعدون الرَّجْعَة، وينسون أنهم كانوا قبلها ترابًا، ثم الله خلقهم وأنشأهم أول مرة، والرَّجْع أهون من الإنشاء؛ لأنه إعادة، وكله على الله هيِّن، ولكن في حكم العقل فإن الذي أسَّسَ وأنشأ يسهل عليه أن يعيد.

* ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾: ها هنا العلم الإلهي الشامل المحيط، وهو سبحانه يعبِّر بضمير الجمع للتفخيم والتعظيم، وهو يحاصر جهلهم وغفلتهم، ويذكِّرهم بذاته العَلِيَّة، ويضعهم في مكانهم اللائق بهم، وهم جثث بالية هامدة مَطْمُوْرَة في التراب، والأرض تأكلها شيئًا فشيئًا، وهنا يفعِّل الخيال لدى هذه الرِّمَّة الهالكة يعيث فيها الدُّود، ويبليها التراب، ويعبث بجمال وجهها، ويدخل في عينيها وفخذيها، وفمها وأذنيها، وتجاويف جسدها!

إنها دعوة للتواضع والذُّلِّ لله الحيِّ الباقي، والتوقف عن التكذيب.

صاحِ، هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ ... ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطءَ ما أظنُّ أَدِيمَ الـ ... أرضِ إلا من هذه الأجساد
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا ... ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ
ودَفِينٍ على بقايا دَفِينٍ ... في طويلِ الأزمانِ والآبادِ(٢)

(١) ينظر: «ثمار القلوب» (ص١٣٠)، و«رَبِيع الأبرار» (٤/ ٣٥٠) منسوبًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٤٣٦) منسوبًا إلى ديك الجن، و«تلبيس إبليس» (ص٧٢)، و«البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة» (ص٧٦) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(٢) ينظر: «نشوار المحاضرة» (٥/ ٢٢٣)، و«تاريخ بغداد» (٤/ ٤٦٤)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٨٨٠)، و«إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٨٢)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٤٦) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾: مكتوب عند الله، وفيه شيء من علمه عَزَّوَجَلَّ فيما يتعلَّق بالبشر والخلق[1].

و﴿حَفِيظٌ﴾ أي: محفوظ عند الله، فلا يصل إليه أحدٌ، وهو حافظ لكل شيء، لا يَنِدُّ عنه شيء مما هو مقدور ومكتوب، أو ما هو مفعول من قبل الناس[2].

* ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: تسرَّعوا بالتكذيب، دون تأنٍّ ولا تبيُّن، وهو حقٌّ، فهم إذًا في ضلال وصُدُود؛ لأنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، وليس بغيره، وهم لو كَذَّبوا بأمر متردِّد أو مشكوك دون تبيُّن وبحث لكانوا مَلُوْمِين، فكيف وقد ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ المبين الجليِّ الذي جاء به الوحي عن الله على ألسنة رسله؟

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾: والمَرِيج: المضطرب المختلط[3]، كما في قوله سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرحمن: ١٩].

ولها هنا معنيان:

١- أنهم لا يستقرون على شيء؛ فمرة يقولون: ﴿سَٰحِرٌ﴾ [ص: ٤، الذاريات: ٥٢]، ومرة يقولون: ﴿كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤٢]، ومرة يقولون: ﴿شَاعِرٍ﴾ [الطور: ٣٠، الحاقة: ٤١]، ومرة يقولون: ﴿كَذَّابٌ﴾ [القمر: ٢٥]، ومرة يقولون: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]. فلم يستقروا على

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٣)، وما سيأتي في «سورة الواقعة»: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٥).

شيء؛ لأنهم مُكَذِّبون، ولا استقرار إلا بالإيمان والتصديق(١).

٢- أنهم انتقلوا من التَّعَجُّب إلى الاستبعاد ثم إلى التكذيب(٢)، والعاقل إذا استغرب الشيء ينتقل من الاستغراب إلى البحث، ومن البحث إلى المعرفة واليقين والعلم، وليس إلى الكفر والتكذيب، فهذا من مروج الأمر عندهم.

وفي الآية: دليل على أن مَن ترك الكتاب والسُّنَّة فإنه لا يستقر على حال، ولا يهتدي إلى الخير، وأمره مَرِيج مضَّطرب.

وفيها: أن المذموم هو التكذيب بالحق الذي جاء من الله سبحانه على ألسنة رسله عليهم السلام، أما آراء الناس واختياراتهم ففيها الصواب والخطأ، وليس ردها أو التردد فيها سببًا للأمر المريج.

* ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾:

استفهام إنكار أو تقرير؛ لما كذَّبوا بهذه السرعة بدون تبصر(٣)، نبَّههم تعالى أن بإمكانهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء، فالأمر لا يتطلَّب أكثر من ذلك.

والسَّماء هي: كل ما علا وارتفع(٤)، فكل ما هو فوقك فهو سماء، فلماذا لا يستدلون بالسَّماء التي خلقها الله تعالى فوقهم، والنجوم والشمس والأقمار التي يشاهدونها، فيستدلون بها على خالقها، ويرون كيف بناها؟

وهنا بدأ السياق يجرهم إلى الدَّليل العقلي على مسألة البعث، فذكر لهم أربعة أدلة:

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٥).

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٣٠١) «س م و»، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾، و«سورة الشمس»: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أولًا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، فهذا الدليل، وهو خلق السماء بما فيها من قوة وجمال.

وفي الآية تذكير بالعلو؛ لأن البناء دائمًا يكون مرتفعًا فوق الأرض، فكذلك «السَّمَاء» سماها الله تعالى: ﴿بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]؛ لأنها عالية مرتفعة، فهذا مفهوم مباشر قريب مشهود.

وذكر مع البناء «الزِّيْنَة»، فالسماء زُيِّنت بالنُّجُوم: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، والزِّيْنَة مقصد في خلقه تعالى؛ فمن حكمة الله أنه جعل النُّجُوم زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

الزِّيْنَة في الأرض بجمال النبات، وتنوع الأرض من بحر ونهَر، وسهل وجبل، واستجلاء هذا الجَمَال، ومشاهدته، والإعجاب به تدبرًا وتفكرًا مما يقرِّب المسلم إلى ربِّه.

كذلك جمال خَلْق الإنسان فيه إبداع إلهي عظيم؛ في جمال الصورة، وجمال الرُّوح، وجمال المنطق، وجمال العقل والتفكير، وهو دعوة إلى استكمال «الزِّيْنَة»، واستكمال الجمال في كل شيء: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله ﷺ: «إن اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ»(١). بجمال اللِّباس، والرائحة، والشَّعَر، بجمال الفم ونظافته، وبجمال الأخلاق، وبجمال القول.

وهم حينما ينظرون إلى السماء، يرون قبة زرقاء، ليس فيها ثقوب ولا شقوق، فهذا من الآيات الإلهية الربانية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ... وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ [الغاشية: ١٧-١٨].

* ثانيًا: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾:

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، فهي قريبة منهم، وفي متناولهم، والمَدُّ هو: البَسْط(٢)،

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٨).

فهم يرون «الأرض» ممدودة مستوية حينما يمشون عليها، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك:١٥]، وهم في الغالب لا يعرفون حقيقة الأرض، إن كانت كُرَوِيَّة أو غير كُرِويَّة، أو ثابتة أو تدور؛ لأنهم كانوا أُمِّيِّين، كما أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتابًا في الفَلَك، إنما هو كتاب هداية، يلفت الأنظار إلى ما يهدي إلى الله ببديع خلقه في السماء والأرض والخلق، فالمقصود: بيان بَسْط الأرض، ومثله قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:٢٠].

فـ«السَّطْح» و«الْبَسْط» معناه: أن الناس يمشون على الأرض، ويبنون عليها، ويقع لهم الاستخدام الأَمْثل لها فيما يرون، وهذا لا ينافي أن تكون كُرَوِيَّة؛ لأن الكلام هنا عن الأرض التي يعيشون عليها في مدنهم وقراهم وأماكنهم، أما مجمل الكرة الأرضية فهو أمر آخر لم يتم الحديث عنه هنا، وربما يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] [يس:٤٠].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: وضعنا فيها، والرَّواسِي هي: الجبال[2]، مأخوذة من الرُّسُوِّ؛ لأنها تثبِّت الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، فالجبال تمنع الأرض من الاضطراب والزلزلة، وتحفظ توازن الكرة الأرضية من أن يقع لها اضطراب أو زلزال أثناء دورانها، فهذا من مقاصد حكمة الجبال، والامتنان على الناس بوجودها[3].

ومن الخطأ أن تقحم هذه الآية الكريمة بأنها دليل على أن الأرض ثابتة لا تدور،

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾، و«سورة نوح»: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾، و«سورة الغاشية»: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٢)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٨)، وما سيأتي في «سورة المرسلات»: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٧].

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾.

فهذا من أعظم الجناية على الدِّين؛ أن نجعل الحقائق الدِّينية في مواجهة الحقائق العلمية؛ وبخاصة بعدما تتحول الأقوال العلمية إلى قطعيات لا يختلف الناس عليها، فهي ليست محل شكٍّ، وإنما هي مُسَلَّمات يعرفها الناس ويشاهدونها.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾: ﴿مِن﴾ أي: كثيرًا من الأزواج البَهِيجة من النباتات، والوصف بـ«البَهِيج» دليل على الجمال الذي هو مقصد في خلق السماء والأرض، فينبغي الاحتفاء بهذا الجَمَال، واستجلاؤه، والتأثر به، وذكر الله تعالى عنده، وهو يصنع جزءًا من تربية الإنسان على الذَّوْق، ورؤية الجَمَال، والحفاوة به.

* ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾:

التَّبْصِرة تعني: تبصير الإنسان بحيث يكون عنده بصيرة في عقله؛ بالتأمل واليقظة والعِظَة.

ويحتمل أن تكون التَّبْصِرة تتعلق بالدلالة على التوحيد، والإيمان بوحدانية الله، وهم كانوا يجادلون في ذلك(١).

و«التَّبْصِرة» و«التَّذْكِير» يحصل لكل عبد من عباد الله تعالى منيب إليه.

و«الْإِنَابَة»: الرجوع إلى الله عند الخطأ والغفلة(٢)، فالذي يعتبر من آيات الله في السماوات والأرض، وآيات الله في القرآن؛ هو المقرُّ بعبوديته، المنيب كلما أخطأ رجع إلى الله، وتاب وأناب.

* ثالثًا: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩﴾:

لما ذكر السماء ثم الأرض، ذكر شيئًا مشتركًا بينهما؛ وهو: المطر: ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾.

ووصفه البركة؛ لأن الله تعالى جعل فيه مضاعفة النفع للزرع والضَّرْع والثمر،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩١).

وعليه تقوم حياة كثير من الناس، ولذا قال: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، فكان المطر من جنود الله تعالى، حتى في الحرب.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: **الجَنَّات** هي: الأشجار الكثيرة المُلْتفَّة، كالغابات(١).

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: ما يُحصد من الزُّروع(٢)، مثل: الشَّعير، والأُرْز، والحِنطة، وغيرها مما يستخرج حبه للأكل.

وفي الآية إشارة إلى معنيين:

١- أن هذا الزرع والحِصيد لكم أيها البشر؛ لكن السَّاق الذي يتم التخلص منه يصبح أعلافًا للأنعام، كما قال تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٣٣]، وفي ذلك ملمح جميل إلى أن متاع الدنيا بذاته يشترك فيه الإنسان مع الأنعام، فأنت تأكل الحَبَّ وتترك التِّبْن للبهائم، فينبغي أن يكون الإنسان متساميًا، ولا يقتصر من الحياة الدنيا على مجرد هذا المتاع.

٢- سرعة زوال الدنيا، فعلى العاقل أَلَّا يغتر بها؛ ولذا وصف الله تعالى الأمم التي أهلكها بالحَصِيْد، كما في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤].

* ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾:

نصَّ على النَّخْل؛ لأنها معروفة بكثرة في بلاد العرب، ولها واحات مشهورة في الجزيرة العربية، والعراق، وفي غيرها من بلاد العالم، **والنَّخْل** صديق للبيئة العربية، وورد في وصفها أنها «الرَّاسِخاتُ في الوَحْل»، أي: في الطين،

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٨٧)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠)، و«روح البيان» (١/ ٤٢٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٥٣)، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٢).

و«المُطْعِماتُ في المَحْلِ»(١)، أي: في المجاعة. وفيها ألوان من المكونات الغذائية التي يحتاجها جسد الإنسان.

والبُسُوق: الارتفاع الشديد(٢).

والنَّضِيْد: المَنْضُود: المتراكب المنتظم(٣)، والسياق هنا يثير الاهتمام بشكل الطَّلْع، وانتظامه العجيب، وفي موضع آخر وصفها بأن ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]، أي: سهل الهضم، ومنظِّم للهضم، وهو معنى معروف مُجَرَّب(٤).

* ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾:

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أعطاه الله وأنزله ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، كما أنه تعالى أنزل الوحي ﴿تَبْصِرَةً﴾ للعباد، وأنزل المطر رزقًا لهم، فجمع الله لهم خير الدنيا والآخرة؛ لأولئك الذين آمنوا به.

رابعًا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: بالمطر، وهذا هو الدليل الرابع العقلي على إثبات البعث بعد الموت، فشبَّه خروج الناس من قبورهم بحياة الأرض بالمطر، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ

---

(١) ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

(٢) ينظر: «العين» (٥/ ٨٥)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٦)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٥٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٢٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٢٠) «ب س ق».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٣).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٨)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٥) «ض د ن»، و«الصحاح» (٢/ ٥٤٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨١٠)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٢٤) «ن ض د».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٦١٩)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٦).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٩٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٦٦)، و«الصحاح» (٥/ ٢٠٥٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٢)، و«لسان العرب» (١٢/ ٦١٣) «هـ ض م».

بَهِيجٖ ﴿٥﴾ [الحج: ٥]، فالآية تقرِّب معنى البعث، وأنه ليس مستحيلًا، فالذي أحيا الأرض قادر على إحياء الناس.

وفيه معنى آخر لطيف، وهو أن القلوب الميتة يمكن أن تحيا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، ثم قال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾(١) [سورة الحديد:١٦- ١٧].

فلا ييأس الإنسان من روح الله أن يصلح قلبه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ يدل على أمرين:

١- إثبات البعث، فيكون هذا من باب القياس؛ قياس الأمر الخفي المستقبل الذي لم يحدث على الأمر الظاهر الواقع الحادث، فقاس أمر البعث الأخروي على الأمر المشاهد بحياة الأرض بعد موتها(٢).

٢- بيان صفة البعث يوم القيامة(٣)، وقد فصَّله النبيُّ ﷺ في أن الله تعالى ينزل من السماء ماءً، فينبت الناس منه، ثم ينفخ في الصور، فتطير الأرواح إلى أجسادها(٤).

وفيه اعتماد الأدلة العقلية مع الأدلة النقلية في النفي والإثبات؛ حيث ذكر تعالى هاهنا الأدلة النقلية ثم أتبعها بذكر الأدلة العقلية التي تدعو غير المؤمن إلى التأمُّل، وتزيد المؤمن إيمانًا إلى إيمانه.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧٠).

(٤) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٦٣٧)، و«صحيح البخاري» (٤٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧٨٤)، و«المستدرك» (٤/ ٤٩٦- ٤٩٧)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾﴾، و«سورة نوح»: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾﴾.

* وبعد أن ذكر الله تعالى منته في الكون، والسماء والأرض، والمطر والنبات، والجمال في السماء، والجمال في الأرض، والدعوة إلى التدبر، أعقب ذلك بجولة تاريخية على الأمم الغابرة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾:

ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرُّسل، وكان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا معلَّمًا مكلَّمًا، أما نوح فكان نبيًّا رسولًا، وذكر الله تعالى قصته في سورة خاصَّة، وأطال بذكرها في «سورة الأعراف»، و«سورة هود»، و«سورة الشُّعَراء»، و«سورة الصَّافَّات»، وسواها.

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ ذُكروا في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، و﴿الرَّسِّ﴾ هو: الحَفْر، ومنه: رَسَّ البئر، أي: حفره[١]، قيل: هم القتلة الذين ذكرهم تعالى في «سورة البُروج»[٢]. فأجمل ذكرهم هنا؛ وذلك أنهم ألقوا المؤمنين في الحفرة التي تشبه الشِّق أو البئر في الأرض، ورجَّحه الطَّبَري[٣].

وقيل بأن ﴿الرَّسِّ﴾ قرية من اليمامة، يُقال لها: الْفَلْج[٤]. وفي نَجْد مدينة اسمها: ﴿الرَّسِّ﴾ ربما يكون المقصود قريبًا منها.

والحاصل أنهم قومٌ بُعث إليهم رسولٌ فَكَذَّبوه، فذكر تعالى شأنهم.

﴿وَثَمُودُ﴾: قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا في الحِجرْ شمال الجزيرة العربية، وقد فصَّل القرآن قصتهم، ودعا العرب إلى الاعتبار بها؛ خاصة وأنها كانت على طريقهم، وهم يمرون بها، وآثارهم باقية مشهودة[٥].

---

(١) ينظر: «العين» (٧/ ١٩١)، و«تاج العروس» (١٦/ ١٢١) «ر س س».

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٢)، و«البحر المديد» (٥/ ٤٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٦)، وما سيأتي في «سورة البروج».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٥٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٨/ ٥٢٢٢)، و«الكشاف» (٣/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٦).

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾.

* ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾:

﴿ وَعَادٌ ﴾ هم: قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا بالأَحْقاف جنوب الجزيرة في أقصى اليمن[١].

﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾: وخصَّ فرعون؛ لأنه أكثر مَن طغى وبغى، ونازع الله في ألوهيته[٢].

﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾: هم قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو لم يكن منهم؛ فإن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عبرانيًّا، وهم كانوا كنعانيين، فلم يكن من قبيلتهم[٣]؛ ولكنه بُعث إليهم، فسموا: «إخوانه» من هذا الوجه[٤].

* ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾:

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾: الأَيْكة هي: الشجرة الملتفَّة[٥]، وهم قوم شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا بمَدْيَن من أرض الشام[٦].

﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾: وهم: حِمْيَر من العرب[٧]، ومنازلهم في اليمن، وذكر قومه؛ لأنه كان مؤمنًا وهم كافرون، والله أعلم، وقد ورد في هذا آثار؛ أنه كان ينتظر مبعث النبي ﷺ، وأنه كسا الكعبة، ودعا قومه إلى الإيمان، واسمه: أَسْعد أبو

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ ﴾.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٥).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾.

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٥٦٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٨١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٤٨٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٨٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٩٨)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٩٤)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٥٥) «أ ي ك».

(٦) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٣٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٦٣٢)، و«تفسير ابن فورك» (١/ ٢٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٥)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٧/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٩).

(٧) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٨)، و«تفسير القاسمي» (٨/ ٤٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٦).

كُرَيْب[1]، والسياق هنا يشهد لها.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: ومَن كذَّب برسول واحد فقد كذَّب بجميع الرُّسل[2]؛ لأن رسالتهم واحدة، وهي تحقيق توحيد الله تعالى، ونَبْذ الشِّرْك.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق وعيدي عليهم بالعذاب[3]، وقد وقع عليهم عذاب الاستئصال في الحياة الدنيا، وهو تحذير لقريش أن يُعَذِّبَهم الله كما عَذَّبهم، وقد حدث هذا لهم بعد ذلك بأيدي المؤمنين في معركة بدر؛ فضلًا عن الجوع الذي أصابهم، كما ورد أن النبيَّ ﷺ لما أبطأت عليه قريشٌ وتأخَّرت قال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسفَ**». أي: سبع سنين، فأصابتهم مجاعة، حتى كانوا يرون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من الجوع، وحتى أكلوا أوراق الشجر والعظام من الجوع، وقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[4] [الدخان: ١٢].

* ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: خلقناكم المرة الأولى بلا مشقة ولا لُغُوب[5]، ولم يقع في الخلق اختلال أو عجز، وحين يسألهم ربُّهم هذا السؤال، ويسوق فيه ضمير العظمة: (نا)؛ يكون ذلك تحدِّيًا، والتحدِّي ممن؟ إنه من الله الخالق العظيم، يخاطبهم ويحرِّك عقولهم، ويدعوهم للاعتبار.

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٠٩، ٤٨٢٢، ٤٨٢٣)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر ما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٧).

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ واللَّبْس هو: التحير أو عدم وضوح الأمر[1]، وذلك أنهم كَذَّبوا بالبعث، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾، فهذا هو الـ«اللَّبْس» الذي عندهم، وهم قد غفلوا عن أن الذي خلق أول مرة قادرٌ على الخلق مرة أخرى، وليس البعث شيئًا مستحيلًا؛ بل هو ممكن الحدوث، والفطرة والعدل مما يقتضيه، والرسالات عبر التاريخ جاءت لتقرِّره وتؤكِّده، وتدعو الخلق إلى الإيمان به، والعمل له.

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: تفريع على المعنى السابق، فهو حديث عن الخلق الأول، **والمقصود**: جنس الإنسان[2]؛ فإن الخلق، ومعرفة ما في نفس الإنسان، والقرب منه قرب علم وإحاطة؛ هو مما لا يختص بأحد دون أحد، فهو شامل للمؤمن والكافر، على أن السياق في مجادلة الكافرين والجاحدين، ويدخل في هذا خلق آدم دخولًا أوليًّا، وكذلك ذريته من الذكور والإناث.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾: وهذا اكتفاء بالأدنى عن الأعلى؛ فإن علم الباري سبحانه بوسوسة النفس يلزم منه العلم بما هو أظهر من ذلك من الأقوال والأعمال التي تُكتب عليه، ويُسأل عنها، **فالعلم** يدل على الحساب والسؤال، **والإخبار عن الوَسْوَسَة** إخبار عما فوقها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، فهو لطيف يعلم تفصيلات الأشياء، وما توسوس به النفس من الخواطر والهواجس، والأفكار والأسرار، وما دونها، فلا تخفى عليه خافية، وهذه العقيدة تمنح المؤمن

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٨).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٧)، و«مختار الصحاح» (ص٢٧٨)، و«لسان العرب» (٦/ ٢٠٤) «ل ب س».

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٢٨٢).

إحساسًا عظيمًا بالحضور، والرقابة، والمعيَّة، وتصنع الفرق في شخصيته وحياته.

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾: والعرب كانوا يضربون المثل في القُرْب بنحو قول الشاعر[1]:

فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ

وبِشِراكِ النَّعْل، كقول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كُلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ في أهله والموتُ أدْنَى من شِراكِ نَعْلِهِ[2]

وفي الحديث: «الجنةُ أقربُ إلى أحدكم من شِراك نَعْله، والنارُ مثلُ ذلك»[3].

فهذا النَّمَط من المقارنة من أسبقيات القرآن، ومعانيه اللطيفة.

والحَبْل مفرد: حِبَال؛ وهي: العروق[4]، وتسميتها: «حِبَالًا» واضح المناسبة من حيث الشَّبَه.

والوَرِيد: شريان من الشرايين، وفي الجسم وريدان: يمين، وشمال؛ وهو عرق متصل بالقلب ويمتد على طول الجسم ليمده بالدم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٣-٤٦]، ويسمى: نِياطُ القَلْب، وضربُ المثل بـ﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ تأكيد للاطلاع على الأسرار وحركات القلب كلها[5]، حتى تلك التي تخفى على صاحبها أو تَحْدُث في حال شرود أو سهو أو منام: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣].

(١) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمَى» (ص١٠٤)، و«شرح المعلقات التسع» (ص١٨٩)، و«الكامل في اللغة والأدب» (٣/ ٦٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٨٩). ويُنسب إلى غيره أيضًا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢١٧)، و«النهاية» (١/ ٣٣٣)، و«لسان العرب» (١١/ ١٣٥) «ح ب ل».

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٢٢)، و«تفسير التستري» (ص٧٥)، و«تفسير الطبري» (١١/ ١١٢)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٣٠٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠١).

وقرب الله سبحانه هو بعلمه المحيط، وسلطانه الشامل، الذي لا يَنِدُّ عنه شيء، وتدبيره اللَّطيف الذي لا يقع شيء إلا بإذنه[1].

ولعل من مقصود الآية: قرب الملائكة الموكَّلة به في حياته، المكلَّفة بقبض روحه، ولذلك قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: المَلَكان[2]، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: فعن يمين الإنسان مَلَك الحسنات، وعن شماله مَلَك السيئات، ومَلَك الحسنات كأنه أمين أو متقدِّم على مَلَك السيئات[3].

والقَعِيْد هو: القاعد[4]، كالصَّديق الذي لا يفارقك، ومنه تسمى الزوجة: قَعِيْدَة، كما قال الحُطَيئة:

أُطَــوِّفُ مـا أُطَــوِّفُ ثـم آوي ... إلـى بيتٍ قَعِيدتُهُ لَـكَـاعِ[5]

ومن طبع الإنسان أن يتحفَّظ من جلسائه، ولو كانوا من خاصَّته، الذين يتبسَّط معهم بالحديث، إلا أن ثمة أمورًا لا يفعلها ولا يقولها بحضرتهم، فالنَّصُّ يلقي في حِسِّ السامع أن ثمة قعيدين لا يفارقانه في يقظة ولا منام، وهما أجدر بالتحفظ والحياء.

* ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾:

لم يذكر هنا إلا «**القول**»، ولم يذكر «**الفعل**»، **ولذلك أسرار**:

منها: أن «**القول**» أساس «**الفعل**»، والغالب أن المرء يتحدَّث عما يريد أن

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٧/ ٢٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٧).

(٤) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٢).

(٥) ينظر: «ديوان الحُطَيئة» (ص١٢٨)، و«لباب الآداب» للثعالبي (ص١٣٦).

يفعل، ويكون حديثه ترسيخًا لإرادة «**الفعل**»، وتحفيزًا للغير على المضي في «**الفعل**».

ومنها: أن سياق السورة حديث عن أقوال المشركين والمكذِّبين[١]، ولذا يتكرَّر فيها لفظ: ﴿قَالَ﴾ بدءًا من قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

ومنها: أن المَلَك إذا كان يكتب «**الأقوال**»، فكتابة «**الأفعال**» من باب أولى[٢].

ومنها: أن السياق يتدرَّج ويترقَّى من التحذير من «**وسوسة النفس**» التي يكون بمقدور المكلَّف تجنبها، إلى «**الأقوال**» التي يلفظها، إلى «**الأفعال**» التي تقع مرة ثم تتحوَّل إلى طبع وعادة، كما في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

والرَّقِيب هو: الحاضر، **والعَتِيد** هو: المتهيِّئ المستعد للكتابة والتدوين والإحصاء.

وأكثر المفسرين على أن ﴿رَقِيبٌ﴾ بمعنى: مراقب و﴿عَتِيدٌ﴾ بمعنى: حاضر[٣].

وقيل: إنه يكتب كل شيء، ثم يمحو ما لا قيمة له من الأقوال العادية التي لا يتعلق بها ثواب ولا عقاب، ولا حلال ولا حرام[٤].

* ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾:

السَّكْرة هي: ذهاب العقل، ومنه: السُّكْر والسكران[٥]، فالموت سَكْرة

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: «روح البيان» (٩/ ١١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٣)، و«تفسير الحجرات، الحديد» لابن عثيمين (ص٢٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٥/ ٣٧٥٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٩).

(٥) ينظر: «لسان العرب» (٤/ ٣٧٣) «س ك ر»، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٦).

تجعل الإنسان في غيبوبة بغياب عقله عما حوله، وهو ﴿ٱلْيَقِينُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[1] [المدثر: ٤٦- ٤٧]، وقد أدركتُ الناس وهم يسمون الموت بـ«الحق»، ويقولون: فلان جاءه الحق، أي: مات.

ومن معاني **الحقِّ**: أن سَكْرة الموت تكشف للإنسان ما كان يجحد، فإذا احتُضر أدرك الحقائق التي كان يجادل فيها، وكثير من الناس إذا مرض ذهب عناده، وبدأ قلبه يميل إلى الإيمان، فكيف إذا احتُضر؟ والله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ[2]، أي: ما لم تبلغ الرُّوح الحُلقوم[3]، وحال فرعون وتشبثه بالإيمان وهو يغرق تشير إلى هذه الإفاقة التي فات أوانها.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تهرب[4]، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، والطبع البشري ميَّال إلى كراهية الموت، حتى المؤمنين، وأشار إلى ذلك ﷺ لما قال: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله، أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كَرِهَ لقاءَ اللهَ، كَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**». فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا نَبِيَّ الله، أكراهيةُ الموت، فكُلُّنا نكرهُ الموتَ؟ فقال: «**ليس كذلك؛ ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاءَ الله، فأحبَّ اللهُ لقاءَهُ، وإن الكافرَ إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كَرِهَ لقاءَ الله، وكَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**»[5].

وكان ﷺ يقول في مرض الموت: «**إن للموت سَكَرات**»[6]. ويمسح العرق

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة المدثر».

(٢) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إن اللهَ تعالى يقبلُ توبةَ عبده ما لم يُغَرْغِرْ**». أخرجه أحمد (٦٤٠٨)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وابن حبان (٦٢٨)، والحاكم (٤/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: «الميسر في شرح مصابيح السنة» (٢/ ٥٤٤)، و«مرقاة المفاتيح» (٤/ ١٦٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٠)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) أخرجه البخاري (٤٤٤٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عن جبينه، ويضع خَمِيصة على وجهه يتغطَّى بها، فإذا اغتمَّ بها كشفها[1]، حتى رأت فاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما يعانيه، فقالت: واكرب أباه! فقال لها: **«ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم»**[2].

والمؤمن يتلقَّى البشارة عند موته؛ أن لا يخاف، ولا يحزن، ويُبَشَّر بالجنة ولقاء الأَحِبَّة.

ولا يصح حديث في ذكر الآلام المبرحة التي يحكيها الوُعَّاظ عند الموت، ولكن في القرآن ما يدل على أنها للكافر الجاحد، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [محمد:٢٧]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال:٥٠]، وقال: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام:٩٣]، أي: بالضرب للكافرين والفاجرين[3].

وقد يعاني المؤمن من آلام المرض الذي يسبق الموت، ولا يبعد أن يكون لنزع الروح بعض الألم، وقد كتب الإمام ابن حزم رسالة سماها: «ألم الموت وإبطاله»، وكتب ابن مِسْكَوَيْه نحوها، فليتأمَّل ما ذكروه، ويقارن بما دلَّت عليه النصوص الصحيحة[4].

* ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾:

انتقل السياق من الدنيا إلى الآخرة، وذكر تفصيلات **البعث**، وما يحدث فيه بدءًا من حياة البرزخ في القبر، ثم البعث؛ ليؤكِّد جِدِّية الأمر، ووجوب الاستعداد له، والإيمان به.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٤٤٣)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٢)، و«تفسير السعدي» (ص٢٦٤)، و«أضواء البيان» (٧/ ٣٨٢).

(٤) نُشرت رسالة ابن حزم: «ألم الموت وإبطاله» ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» بتحقيق إحسان عباس (٤/ ٣٥٧- ٣٦٠).

والصُّور هو: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيلُ(١)، وهي النفخة الثانية، كما قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر:٦٨]، وحقيقته وماهيته غيبٌ لا يعلمه إلا الله، والإنسان بطبعه يتخيَّل الأشياء بحسب ما يعرف مما يشبهها في عالمه الدنيوي، ولا شك أن ثَمَّ شبهًا اقتضى أن تسمى بتلك الأسماء المعروفة لدى البشر، لكن ثَمَّ فرقٌ عظيم لا يحيط به الإنسان بين ما يعلم ويرى وبين حقائق الآخرة وأخبارها.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: وهو يوم الوعد، فالقيامة فيها الوعد والوَعِيد(٢)، وإنما قَدَّم ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾؛ لأن السياق في المشركين المكذِّبين، فكان من المناسب أن يقدِّم ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ الزاجر لهم(٣).

* ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾:

كل الناس يبعثون، و﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ ﴿سَآئِقٌ﴾ يقودها، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ عليها(٤)، وهذا يشمل المؤمنين وغير المؤمنين(٥)، كما قال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزمر:٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ [الزمر:٧٣].

ويمكن أن يكون المقصود: الكافر فقط؛ لما أسلفناه من أن السياق مخاطبة للكافرين(٦)، ولذلك قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، وهذا يصدق على

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٩٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤١٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٠)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٢٩).

(٢) ينظر: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٠).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٧).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠١).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٨٥).

(٦) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٧).

الكافر، بخلاف المؤمن الممدوح، فإنه خُصَّ ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص: ٤٦].

وعبَّر بقوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ ﴾، فالغفلة وعاء محيط به، ومُطْبِق عليه.

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾: وكأن «الغفلة» كانت غطاء على عقله، ثم على جوارحه، فلا يرى الحقائق ولا يدركها.

﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: حادٌّ[1]، فنظرك اليوم قادر على رؤية الأشياء واستحضارها وتصورها.

وقد عاب الله تعالى عليهم أنهم لم يكلِّفوا أنفسهم عناء النظر إلى السماء فوقهم، كيف بناها وزَيَّنَها، وما لها من فُروج، والنظر إلى الأرض كيف مدَّها، وألقى فيها رواسي، وأنبت فيها من كل زوج بَهِيج، فلم يكن بصرهم في الدنيا حَدِيدًا، بل كان كَلِيلًا مُعْرِضًا، أما اليوم فهو حَدِيد، حيث لا ينفعهم إلا الخوف والترقُّب والتوجُّس.

وقد يكون الحديد هو: الشاخص، كحالة تلقائية لسَكْرة الموت وخروج الروح، فإذا خرجت الرُّوح تبعها البصر[2].

* ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾:

القَرِيْن ذُكر في السورة مرتين، وهل هو القَرِين الرَّحماني أو القَرِين الشَّيطاني؟ هل هو قَرِين السُّوء أو المَلَك؟ والأقرب: أن مع الإنسان قَرِينين: مَلَكي، وشَيْطاني، كما في قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [فصلت:٢٥]، وفي

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦١).

وينظر أيضًا: «تأويل مشكل القرآن» (ص٢٣٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٤٣٨)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤١٢).

(٢) كما جاء في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البصرُ». أخرجه مسلم (٩٢٠).

الحديث: «ما منكم من أحد إِلَّا وقد وُكِّلَ به قَرِينُهُ من الجنِ». قالوا: وإِيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «وإِيَّايَ، إِلَّا أن اللهَ أعانني عليه فَأَسلمَ[1]، فلا يَأْمُرُني إِلَّا بخير»[2].

والمقصود هنا: المَلَك؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر مهيَّأ، وهو يشير إلى صحيفة أعمال صاحبه، وهو قول الحسن وقتادة والضَّحاك[3].

* ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: شديد العِنَاد، لا يلين ولا يستسلم للحجة، والمخاطَب مفرد على الظاهر[4]، وهذا جارٍ على قواعد اللغة، كما في قول امرئ القَيْس:

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَاناتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ[5]

وقوله:

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ[6]

وهو كثير في الشِّعْر، وقد يقول الشاعر بعدها: يا صاحِ.. أو يا صاحبي.. مما يدل على أن المخاطَب مفرد.

ويجوز أن يكون المخاطَب مثنى[7]، وهما ملكان؛ إما السائق والشهيد- وقد مر ذكرهما- أو غيرهما.

---

(١) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ١٥٧-١٥٨): «برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمَن رفع قال: معناه: أسلمُ أنا من شرِّه وفتنته، ومَن فتح قال: إن القرين أسلمَ، من الإسلام وصار مؤمنًا، لا يأمرني إلا بخير...».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٥٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٢). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٩٠)، و«مختار الصحاح» (ص٢١٩)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٠٧) «ع ن د».

(٥) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٧٤).

(٦) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٢١).

(٧) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٣).

* ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾: يمنع الخير عن الآخرين، وقد يمنع الإيمان ويحارب أهله، فهو ينهى عبدًا إذا صلَّى، ويحارب الضعفاء إذا أسلموا، ويحاول أن يُؤَثِّر على عقول الناس، ويحجز بينهم وبين الإيمان.

﴿مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾: يعتدي على الناس، والوصف يشير إلى عموم العدوان اللَّفظي والحِسِّي، والمُرِيْب: مَن عنده رَيْب، أي: شكٌّ في نفسه، ويصيب الآخرين بالارتياب(١).

* ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾:

فهو مشرك مع الله، وهذه أفعاله التي دل عليها كتابه، وهذه عنواناتها.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تأكيد للأمر الأول(٢)، وتحديد للدَّرْك الذي يستحقه، والعذاب الذي أُمروا أن يضعوه فيه.

* ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: القَرين الأول الذي قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ هو القَرين المَلَكي، والقَرِيْن هنا هو الشيطاني؛ حيث يتبرَّأ من صاحبه، كما في «سورة إبراهيم»: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾(٣).

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٣٨٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٩٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٢).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٢)، و«روح البيان» (٩/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٩١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٤).

فهذا القَرِيْن يدافع عن نفسه، ويقول: لست أنا الذي حملته على المعصية والطغيان، ولكن هو الذي اختار ذلك، و﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾.

والموقف صعب، والخَطْب جَسيم، والنَّكال مُخيف، ولا أحد يريد أن يتحمل وزر أحد، حيث ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٦]، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ [المعارج: ١٣]، و﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١]، فيتبرَّأ الزعماء والقادة والكُبراء من أتباعهم، والعُبَّاد من معبوداتهم، والمعبودات من عابديها، والجنُّ من الإنس، والإنس من الجنِّ، وينفصل كلُّ أحد عن كل أحد، و﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

* ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾: ليس هذا وقت الخصومة، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ في الدنيا، كما نقرأ الآن ونحن في الحياة الدنيا، وهو تعالى يخبرنا بهذا الأمر الآن، وكأننا نرى المشاهد عَيانًا؛ لنعتبر ونضع أنفسنا في ذلك الموقف، وندركِ ما يتوجَّب علينا فعله قبل حلول العذاب.

* ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: هذا إلى الجنة، وهذا إلى النار، وكل إنسان يُجزَى بعمله.

هذا هو المعنى، وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يرحم الله من عباده مَن سيغفر لهم من أصحاب الكبائر مما دون الشرك.

وكذلك لا ينفي هذا أن ينسخ حكمًا من الأحكام، كما في قوله سبحانه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وفي قصة الإسراء أُمِر النبيُّ ﷺ بخمسين صلاة، وخُفِّفت حتى أصبحت خمسًا، ثم قال الله تعالى: «أمضيتُ فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادي، وأَجْزِي الحسنةَ عشرًا»(١).

وفي رواية: «إنه لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، كما فرضْتُهُ عليك في أُمِّ الكتاب، قال:

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

فكلُّ حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسونَ في أُمِّ الكتاب، وهي خمسٌ عليكَ»[1].

فهذا هو القول الأخير الذي استقر الأمر عليه، ولا نسخ بعده.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾: فهو تعالى أدخلهم النار بذنوبهم، وبعدما قامت عليهم الحُجَّة، ولو أن الله عاقبهم قبل أن تصلهم الحُجَّة ودلالات الرسالة لكان ذلك ظلمًا، وهو تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، فهو نفي للظلم كله، كثيره وقليله، ولذلك قال سبحانه: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا، فلا تظالَمُوا»[2].

والبيان هنا ظاهر في السياق في قوله: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾، وآيات القرآن تنضح بهذا المعنى المهم الذي يقتضي مراعاة قيام الحُجَّة، وبلوغها على وجه يزيل المعذرة، وقد لا يحيط بهذا إلا الله، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص:٥٩]، وكما في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء:١٥]، وكما في قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام:١٣٠].

* ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾:

القول هنا على سبيل التوبيخ والإهانة لأصحابها المستحقِّين لها، وتقول هي بلسان الحال أو بلسان المقال، والله تعالى على كل شيء قدير: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾[3].

والله تعالى قال: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان:١٢- ١٣]، وقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٧).

بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٦- ٨].

فلا مانع أن يجعل تعالى لها يومئذ الإدراك والكلام، فكل الكائنات مسخَّرة بأمره، مذلَّلة لحكمه، ولا غرابة أن تسمع وتفهم، وترد وتقول، فهذا شأن مَن لا يعجزه شيءٌ، ومَن جعل الإدراك في البشر، وهو خلقهم أصلًا من تراب جامد لازب.

وسؤال النار سؤال يتضمَّن التقرير، **فيكون المعنى**: امتلأت ولا مزيد، **أو هو بمعنى**: طلب المزيد(١)، **وهو أقرب**، كما دلَّت على ذلك السنة المطهَّرة؛ أن يُلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد(٢)، والله أعلم.

* ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾:

في مقابل المشهد المُخيف من العذاب، وصورة الملائكة وهي تأخذ الكافر العَنِيد، وتُلقيه في سواء الجحيم، يصوِّر تعالى الجنة وقد أُزْلِفت.

والإِزْلاف: التقريب للطائعين والمؤمنين(٣)، فلا يحتاجون أن يسيروا إليها مسافات طويلة، والجنة مكانها معروف، ولكن الله تعالى يزلفها بحكمته دون أن يتجشَّموا عناء المشي، وهذا من أمور الآخرة التي على المؤمن أن يسلِّم بها ولو لم يتصوَّرها عقله، ونحن نرى في فعل البشر اليوم من التسهيلات التي لم يخطر ببال أحد من السابقين، فما ظنك برب العالمين الذي لا يعجزه شيء؟

* ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: هذا هو الوعد ترونه أمامكم(٤).

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٤٨، ٤٨٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠).

والله تعالى قد يؤخِّر «وعيده»، أو يعفو ويغفر لمَن يشاء، أما «**الوعد**» فهو ماضٍ نافذ.

قال عامر بن الطُّفيل(١):

لا يُرهِبُ ابنَ العَمِّ منِّيَ صَوْلَةٌ ... ولا أَخْتَتِي(٢) مِن صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ

وإنِّـيَ إن أَوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ ... لمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوعِدي

فالله لا يخلف الميعاد: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦]، أما الوعيد على بعض الموحِّدين، كأصحاب الكبائر فقد ينفذه تعالى، وقد يعفو ويصفح، وهذا لا يدخل في ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾، فإن هذا من «**القول**» من قوله سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقد يغفر للمؤمن المفرِّط وينجو من العذاب؛ إما برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بشفاعة الملائكة، أو بشفاعة إخوانهم، أو ببلايا ومصائب سلفت، أو بسكرات الموت، أو بأهوال يوم القيامة، أو بالكفارات، أو بما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ(٣).

والأَوَّاب هو: الرَّجَّاع إلى الله كلما أخطأ(٤)، أما **الحَفِيْظ** فهو: الذي يحفظ إيمانه من الذنوب، ويحفظ عهد الله وميثاقه(٥).

---

(١) ينظر: «ديوان عامر بن الطُّفيل» (ص٥٨)، و«لسان العرب» (١/ ٦٣)، و«تاج العروس» (١/ ٢٠٧) «خ ت أ».

وينظر أيضًا: «عيون الأخبار» (٢/ ١٥٨)، و«المجالسة» للدينوري (١٨٩٦م)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٥٢).

(٢) اختتأ منه: استتَر خَوْفًا.

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣٢)، (١٠/ ٦٥٥).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٤٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٧٨)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ١٠٢٩)، و«مجمل اللغة» (ص١٠٦)، و«لسان العرب» (١/ ٢١٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٣٥) «أ و ب».

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٥٣)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٩).

* ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢]، وهو يشمل خشية الله في الخلوة حين لا يكون بمَرْأى من الناس، وهو أدل على التقوى والإخلاص، ويشمل خشية الله مع أنه تعالى غيب لم يره، ولكنه آمن به من الخبر الصادق على ألسنة رسله عليهم السلام[١].

التفصيل في إثبات الغيب يزيد الإيمان، فإن الإيمان يزيد وينقص، ومن زيادة الإيمان: الإيمان بالتفصيل، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

الإيمان المفصَّل أقوى وأعظم تأثيرًا في النفس، وأبعد عن أن ينساه العبد، وأبعد عن الشبهات، يزيد يقينًا بوجوده؛ لأنه يدرك أنه صار عالمًا مشهودًا لغيره، وإن كان لا يزال عالمًا غيبيًّا، فالقياس هنا مع الفارق.

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: الإِنَابَة هي: التوبة والإقبال على الله[٢]، كما في قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر «الأَوْبَة»، و«الإِنَابَة»؛ مما يشير إلى أن من طبيعة الإنسان أن يتفلَّت قلبه، ويقع منه زلل في سمعه، أو بصره، أو لسانه، أو في فرجه، وكما قال النبيُّ ﷺ: «استقيمُوا ولن تُحْصُوا»[٣]. وفي الحديث الآخر: «سَدِّدُوا وقارِبُوا،

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢)، وما سيأتي في «سورة الملك».

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه الطيالسي (١٠٨٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٥٤)، وأبو عبيد في «الطهور» (١٩)، وأحمد (٢٢٣٧٨، ٢٢٤٣٦)، وابن ماجه (٢٧٧)، وابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (١/ ١٣٠)، والبيهقي (١/ ١٣٢، ٦٧٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٦٨): «يُروى بإسناد ثابت عن ثوبان عن النبي ﷺ». وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٣٢- ٢٣٣)، و«إرواء الغليل» (٤١٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١١٥).

واغْدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ من الدُّلْجَة، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغوا»[1].

وهي توجيهات نبوية بضرورة الاعتدال، وأن على المرء أن يعرف نفسه وتكوينه وطبيعته، فربكم أعلم بكم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

* ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾:

وفي السياق تناسق عجيب! ثمان فقرات في غاية التناسق:

بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾، فهذه هي الكرامة الأولى؛ حيث أُدنيت لهم الجنة.

ثم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، فهذا النعيم هو الوعد الحق الذي وعدكم تعالى به في الدنيا.

ثم بيَّن لهم ثالثًا أن هذا من فضل الله، وببركة أعمالهم، وفي ذلك إشادة بهم وتكريم ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾: ويا لفرحتهم بهذا الفوز والتكريم.

ثم قال لهم خامسًا: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، فدخولهم هو نهاية الآلام والمعاناة إلى السَّلام المُطلق، فالله يسلِّم عليهم، والملائكة تسلِّم عليهم، وأصحاب الجنة يسلِّم بعضهم على بعض.

ثم قال لهم سادسًا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾، فخلودهم أَبَدي سَرْمدي، ليس ثمة خوف من الموت، كما كان الأمر في الدنيا، والجنة وأهلها خالدون بإجماع المسلمين، بلا تحول ولا زوال[2].

ثم قال لهم سابعًا: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ من الرزق، وكل ما يخطر على البال،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

أو يمر في الخيال.

ولهم الكرامة الإلهية بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع حديثه، وما في الجنة من ألوان النَّعيم الذي لا تحيط به عقول أهل الدنيا، فهذه ثامنة الفقرات المتتابعة المتصاعدة في الفضل والنعيم، عبَّر عنها بقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾، والفضل الإلهي: «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر»[1].

والمَزِيد هنا يشبه ما في «سورة يونس»: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2] [يونس:٢٦].

* ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ ممن سلف وذُكر، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: أقوى من قومك العرب أهل مكة وما حولها بأجسامهم، ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: إما أن هذه الأمم التي أهلكها سبحانه كانوا إذا نزل بهم العذاب ذهبوا يبحثون عن مهرب أو ملجأ من عذاب الله، فلا يجدون[3]، فالله تعالى يقول لقريش الذي عُرف عنهم رحلة الشتاء والصيف وكثرة التنقل: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؟ هل من مهرب من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ؟ وهو كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾[4] [الأنبياء:١٢].

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٤٧٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالِحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر».

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٧)، وما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٥٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٨-٤٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٣٤)، (٢١/ ٤٦١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٦٦)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٣٩)، (٥/ ٣٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٥)، (٧/ ٤٠٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٥).

* ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾:

هذا الوصف البَلِيغ الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله ذكرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، وفيه تحريض على التَّذَكُّر، وإحياء القلوب، وتعريض بذلك النوع من البشر الذي لا يعتبر بما حوله من آيات ونُذُر، ولا بما حكاه الله في كتابه من عبر ومآلٍ للغابرين، فكأنه حين لم يعتبر، ولم يتأثَّر صار بلا قلب، والقلب ولو كان ضعيفًا أو مريضًا، فإنه قد يحيا ويعتبر بالآيات والنُّذُر، وقد تكون سببًا في هدايته ورجوعه إلى الله؛ لكن إذا كان بلا قلب فأي حيلة فيه، والعبرة ليست بوجود هذه المضغة، وإنما بتوظيفها في الاعتبار والإنابة.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: صوَّر «السَّمْع» بأنه شيء يُلقى؛ بحيث لا يصرفه شيء عن «الاستماع»، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر(١).

وهذا دليل على عظم تأثير «الصورة» مع «السمع»؛ حيث ذكر «القلب» المعبِّر عن الوعي واليقظة، ثم ثنَّى بذكر حاسَّة «السمع» مع «الشهادة»؛ وهي المشاهدة والرؤية، والناس اليوم يقولون: حدَّثني وسوف أنسى، أرني وقد أتذكر، أشركني وسوف أحفظ، فإذا كان ثمة شراكة بين الصوت والصورة، بين الأذن والعين، فإن الإنسان لا ينسى!

فمتى سمع بأذنه، ورأى بعينه، أو تخيَّل ما لا يمكن رؤيته؛ كان ذلك من الذِّكْرى الحسنة له، ولذا قال ﷺ: «الإحسانُ: أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراكَ»(٢).

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾:

عود على ما ذكره أول السورة من الدعوة للاعتبار بالسماوات والأرض؛

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٦)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٥)، و«إيجاز البيان» (٢/ ٧٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لتأكيد المعنى، ولنفي الشبهة التي قالها اليهود، وربما تسلَّلت إلى بعض الوثنيين من العرب؛ وهي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السبت(١)، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: ما أصابه تعالى عجز أو تعب بسبب الخلق(٢)؛ لأن فعله ليس معالجة، كما يحدث من البشر الذين يعملون بأيديهم ويتعبون ويَجْهَدُون، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس:٨٢].

واللُّغُوب هو: أقل درجات التَّعَب(٣)، ونفي القليل يتضمَّن نفي ما فوقه.

* ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ عن الله، أو عن البعث، أو عنك بوصفك: ﴿سَٰحِرٌ﴾، ﴿كَاهِنٍ﴾، ﴿شَاعِرٍ﴾، ﴿كَذَّابٌ﴾(٤)، وقد أعطاه الصبر والثَّبات والاستمرار على الطريق؛ وهي التسبيح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٧- ٩٩].

وقد علم تعالى أن الرسول ﷺ يضيق صدره بما يقولون؛ من وصفه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، أو أنه يكتتب أَساطير الأولين، أو يريد المجد أو المُلك أو المال أو العلو في الأرض، فهذا أمر مؤلم ومؤذٍ لنفس طاهرة زكيَّة

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢٩٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩).

(٢) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩)، و«تفسير الجلالين» (ص٦٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٥٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩). وينظر أيضًا: «مقاييس اللغة» (٥/ ٢٥٦)، و«لسان العرب» (١/ ٧٤٢) «ل غ ب».

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٦٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٢)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٧٥)، وما تقدم عند قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

كريمة، لا تَحْمِل للناس إلا الخير والجميل، وأشد ألمًا منه حرمانهم أنفسهم من الخير والإيمان والتصديق، وإصرارهم على التكذيب، وتأثيرهم على البُسطاء والدَّهْمَاء من الناس؛ بالدِّعايات المزيَّفة، والأقاويل المزخرفة التي يروِّجونها ويردِّدونها حتى يتناقلها العامة، ويتظاهرون بتصديقها، كما يحدث في الحملات الإعلامية الموجهة المُغْرضة التي تستهدف شخصًا أو جماعة.

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾: فربك يعلم ما يقولون ويطَّلع عليه، ويوصيك بأن تصبر عليه، وإذا تصبَّرت فإن الله سيزيدك صبرًا ويثبِّتك، فلا يقع لقلبك ضعف أو تأثر أو حزن يصرفك عن تبليغ رسالات الله تعالى.

والصَّبْر ضروري للنجاح في الحياة كلها، وبخاصة مَن يخالط الناس ويدعوهم، ويحاول تغيير سلوكهم وواقعهم، وكما قال ﷺ: «مَن يتصبَّر يُصَبِّره اللهُ، ومَن يستغن يغنه اللهُ»(١).

وقد أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بالصبر في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠]، وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٥- ٧]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢].

والداعية الذي لا صبر له لا يمكن أن يستمر على دعوته، ولا شيء يُقَوِّي صبر المؤمن مثل أن يستمد العون من ربِّه؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢]، فوظيفة الرسول تتلخَّص في النِّذارة والتذكير والتبليغ، أما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اهتداء الناس أو عدمه فهذا شأن ربِّ العالمين: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، والمؤمن لشدَّة غيرته وفرط حماسه وإشفاقه يصيبه همٌّ شديد، ويحزن لما يجد حين يدعوهم إلى النَّجَاة، ويدعونه إلى النَّار، ويواجهونه بالكيد والحرب والتكذيب، فالله تعالى يسلِّيه ويعزِّيه، ويأمره بأن لا يحزن عليهم، ولا يضيق صدره بهم، ولا ييئس بما يفعلون ويمكرون، وأن لا تذهب نفسه حسرات عليهم.

وهذا سرٌّ من أسرار المداومة على الطريق؛ فإن مَن غلبه اليأس والحزن والكآبة من فعل الناس، وتأثَّر بالصدمات التي تواجهه سَرْعان ما يستحسر ويضعف، ثم يتراجع ثم يتوقَّف وينكفئ، وينعزل وهو يرى أن لا فائدة في الإصلاح، ولا أمل في التغيير.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: والتسبيح يمنح المؤمن طاقة هائلة، وكثيرًا ما يُوْصِي ﷺ بالتسبيح(١).

والتسبيح هو: تنزيه الله تعالى عما لا يليق به(٢)، وهي عبادة تنعكس على العابد نفسه، فكلَما نزَّهت الله وسبَّحْته كان ذلك تنزيهًا لنفسك من أدران الذنوب والعيوب، والنقائص والمعاصي، فترتقي إلى القدسية أو تقترب منها؛ ولعل المقصود هنا: الصلاة(٣)، بما فيها من قراءة الفاتحة التي فيها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

فيكون المعنى: صلِّ لربك؛ لأن الصلاة يجتمع فيها القرآن والإحرام بالصلاة والذكر والتسبيح في الركوع والسجود والحمد في القيام، وما ﴿قَبْلَ طُلُوعِ

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اشتكت ما تَلْقَى من الرَّحَى في يدها، فسألت النبيَّ ﷺ خادمًا، فأوصاهما بالتكبير والتسبيح والتحميد، وقال: «هو خير لكما من خادم».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، و«سورة الحشر»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٣٩٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٥٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٦).

ٱلشَّمۡسِ﴾: صلاة الفجر، ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾: صلاة الظهر والعصر[١]؛ حيث يجمعهما وقت واحد؛ وهو ما بعد الزوال، ولذلك يجوز للمسافر والمريض والمحتاج جمع الصلاتين[٢].

* ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: فهذه صلاة المغرب والعشاء[٣]، فالآية جمعت أوقات الصلوات الخمس، مثل قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم:١٧- ١٨]، ويدخل في الليل: التهجد والقيام الذي كان فرضًا على النبي ﷺ، وهو مشروع لأمته[٤].

﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: الوتر، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٥].

والفرق بين «أدبار السُّجود» المذكورة هنا، وبين «إدبار النُّجوم» المذكورة في «سورة الطُّور»: أن «إدبار النُّجوم» يعني: مغيبها، فيكون المقصود: صلاة الفجر[٦]؛ لأنها في آخر الليل، أما «أدبار السُّجود» فهو: جمع دُبُر، ودُبُر الصلاة: آخرها قبل التسليم، ويشمل ما بعد التسليم[٧]، فالأدعية التي تُقال دُبُر الصلاة منها ما هو قبل السلام، ومنها ما هو بعده مباشرة.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٩)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٧).

(٢) ينظر: «فقه العبادة» (٢/ ٤٢١، ٤٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٧).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة المزمل»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ...﴾ [المزمل:٢٠].

(٥) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٨).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤١)، وما سيأتي في «سورة الطور».

(٧) ينظر: «الصلاة» لابن القيم (ص١٥٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٢٢٩).

وهي دعوةٌ إلى النَّوَافِل التي تصلَّى عقب الفريضة[1]، وكذلك صلاة الوتر التي أقلها واحدة، وأدنى الكمال فيها ثلاث[2]، والسنة أن يجعلها إحدى عشرة أو ثلاث عشرة ركعة، فإذا طال الوقت مَدَّ، وإذا قصر اقتصر وصلَّى العدد، فجَمَعَ الأمر: الصلوات الفريضة، والنوافل التي تكمِّلها وتجبر نقصها.

* ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ فالأمر لن يطول، وإذا كنت تسمع منهم ما يؤذيك سماعًا عابرًا من غير قصد، فعليك أن تصيخ بأذنيك، وتلقى بسمعك، وتتحرَّى تلك اللحظة الموعودة الآتية بلا ارتياب؛ لحظة النَّفْخ في الصُّوْر.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: قريب منكم، والمنادي هو المَلَك الموكَّل، وهي النفخة الثانية التي ترتدُّ بها الأرواح إلى أجسادها؛ لأن هذا هو المقصود الأكبر؛ أن يُبعثوا ويُحاسبوا ويُحاكموا ويفصل بينهم[3].

وقد يرد الوعيد عليهم بالصيحة الأولى؛ التي هي نفخة الموت والهلاك والدَّمار، ولكل منهما مناسبته.

فالمناسب للتعزية والتسلية ذكر النفخة الثانية؛ نفخة البعث والخروج، والمناسب للاغترار بالقوة والبأس وللتجبر والتكبر ذكر النفخة الأولى للهدم والدَّمار.

* ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

ويوم الخروج أصبح علمًا على يوم القيامة، أي: خروج الناس من قبورهم[4].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٨٠)، و«صحيح مسلم» (٧٢٨، ٧٢٩).

(٢) ينظر: «المغني» (٢/ ١١١)، و«المجموع» (٤/ ١١ - ١٢)، و«فقه العبادة» (٢/ ٣٠١، ٣٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦)، وما تقدم في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٦٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣١).

* ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾:

فذكر الخلق الأول، ثم الموت، ثم البعث، وأنه شأن الله تعالى وحده.

والإنسان كان عدمًا، ثم أحياه الله، ثم يميته، ثم يبعثه ليوم القيامة.

* ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤﴾:

﴿تَشَقَّقُ﴾: فعل مضارع، أصله: «تتشقق»، ومن الإعجاز هنا الجمع بين «التشقق» الذي هو فعل تدريجي بخلاف «الانشقاق» فهو دفعة واحدة، وبين «السُّرْعَة»: ﴿سِرَاعٗاۚ﴾، فهو تدرج سريع، يشبه ما يحدث من تشقق الأرض في الدنيا عن النبات، وتفتحها لخروج الزرع عقب المطر، فالناس ينبتون كما تنبت الحبة حين تتحوَّل إلى ورقة ثم شجرة.

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾: فمهما كثروا وعبروا القرون، وتآكلت أجسادهم، فالأمر هيِّن، وهو واقع لا محالة[1].

* ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ لك وما يضيق به صدرك، وما أمرناك بالصبر عليه، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾: لا تجبرهم على الإسلام؛ فلا إكراه في الدِّين[2]، وإنما الأمر دعوة: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وأنت عبدٌ متواضع لربِّك، لست بمتكبِّر أو متعاظم، وهما معنيان متقاربان، وكان ﷺ يدعو الناس بالحسنى، ويكره التَّجبُّر، ولا ينتقم، ولا يغضب لنفسه[3].

والتَّجبُّر مما يُعاب به، حتى ولو لحاكم أو وجيه، ولذلك قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله كره لنبيِّكم ﷺ الجَبْرِيَّة»[4]. أي: أن يكون جبَّارًا، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٢).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٧)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٦٦١).

بِجَبَّارٍۖ﴾، فكان ﷺ يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويكون في مهنة أهله، ويعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، فكونوا كما أمركم نبيكم ﷺ.

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ آخرها ياء المتكلم، أي: مَن يخاف وعيدي[1]، ولكن يوقف عليها بالسكت.

وهكذا تنتهي السورة العظيمة التي جاءت في مساق واحد، وكانت موعظة بليغة مُزَلْزِلة مُجَلْجِلة، ولذلك كان ﷺ يقرؤها في صلاة الفجر[2]، وفي صلاة العيد[3]، وعلى المنبر يوم الجمعة[4]؛ لما فيها من أصول الدِّين العِظَام، ومن العبر والْعِظَات[5].

○○○

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٦٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩١)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦).

(٢) كما جاء في «صحيح مسلم» (٤٥٨) من حديث جابر بن سَمُرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما جاء في «صحيح مسلم» (٨٩١) من حديث أبي واقد اللَّيْثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر ما سيأتي في أول «سورة القمر».

(٤) كما جاء في «صحيح مسلم» (٨٧٢) من حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن، عن أخت لعَمْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر: «سبل السلام» (١/ ٤٠٤)، و«مرعاة المفاتيح» (٤/ ٤٩٨).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

*** تسمية السورة:**

اسمها: «سورة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير(١).

ومن أسمائها: «سورة الذَّاريات»، بدون قَسَم، كما في «جامع الترمذي»، وكتب التفسير، وأكثر المصاحف؛ لأن هذا اللفظ لم يرد إلا فيها(٢).

*** عدد آياتها:** ستون آية بغير خلاف(٣).

*** وهي مكية** بإجماع المفسرين(٤).

* ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾:

بدأ سبحانه السورة بالقَسَم بأربعة أشياء، يمكن أن نفهمها على أنها تَدَرُّجٍ وترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى(٥):

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٣٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٢٥)، و«جامع الترمذي» (٤٢، ٢٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٢٣).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٢)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٥٩١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣).

(٥) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤).

* ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾: والمقصود بـ«الذاريات»: الرِّياح بأنواعها[1].

وقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى أن الرِّياح ذاريات، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، فأقسم بها وهي تذرو الأشياءَ ذَرْوًا[2].

* ثم ترقَّى إلى ما هو أعلى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾: وهي: السَّحاب تحمل المطر ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[3] [فاطر: ٩]، وكأنها حيَّة تحمل على ظهرها وِقْرًا- أي: ثقلًا- من الخير لطالبيه، كما قال سبحانه: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢﴾[4] [الرعد: ١٢].

وقيل: «الذاريات» و«الحاملات» هي النِّساء الوالدات؛ لأن الذُّريَّات تخرج من أرحامها، وهي تحمل أجنتها[5].

وهذا القول فيه ضعف، لكن وصف الرِّياح بـ«الذاريات»، ووصف السَّحاب بـ«الحاملات» يضفي عليها شيئًا من الحياة والمشاركة في عوالم الإنس والجان.

* ثم انتقل إلى ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾: وعلى هذا تكون «الجاريات» هي النجوم في كثرتها وتنوعها وضخامتها وتعدّدها وحركتها.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٧)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٧٢)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧١)، والمصادر السابقة.

(٤) وقيل: الحاملات هي: الرِّياح يحملن وِقْرًا بالسَّحاب. قال الماوردي: «فتكون الريح الأولى مقدمة السحاب؛ لأن أمام كل سحابة ريحًا، والريح الثانية حاملة السحاب؛ لأن السحاب لا تستقل ولا تسير إلا بريح، وتكون الريح الثانية تابعة للريح الأولى من غير توسط». ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٦)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٧٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٨٩).

والأكثر أنها: السفن، تجري بالرِّيح، ميسَّرة في الماء جريًا سهلًا إلى حيث سُيِّرت(١).

وقد ورد وصف النجوم بـ«الجاريات»، كما في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾(٢) [التكوير: ١٥- ١٦].

والغريب التعبير بقوله: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾ مثلما قال: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾؛ لأن جريان النجوم سهل يسير، فهي مسخَّرة تتحرك بإرادة الله وقدرته، وقد يراها الإنسان أو لا يراها، والعرب يعرفون شيئًا من هذا العلم مما توارثوه، والعلم الحديث صنع ثورة هائلة في عالم الفضاء وكشوفه واستخداماته ومجاهله.

* ثم ترقَّى إلى ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾: وعلى هذا فهي: الملائكة(٣).

وقد ورد وصف قريب من هذا للملائكة، كما في «سورة النازعات»: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾(٤).

و«الملائكة المُقَسِّمات» تختلف عن بقية الأشياء التي أقسم تعالى بها.

فالثلاث الأُوَل جمادات، والملائكة أحياء، وفيها اختلاف آخر، وهو أن الملائكة عالم غيبي لا يُرى، في حين أن «الذاريات» و«الحاملات» و«الجاريات» محسوسات.

وفي هذا سرٌّ لطيف، وهو الترقِّي من المعلوم إلى المجهول، فتدرُّج السياق بهم يذكر السحاب ثم الرِّياح ثم النجوم؛ ليقول لهم: إن هذه الحركة ليست اعتباطية، وإنما هي حركة منظَّمة يقوم عليها ملائكة مختصون؛ فمنهم الموكَّل بالنبات، ومنهم الموكَّل بالمطر، ومنهم الموكَّل بالوحي، ومنهم الموكَّل بالأرواح

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٣).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات».

ومنهم الموكَّل بالقتال، ومنهم الموكَّل بأمور الجنة أو النار... وهم عدد كبير لا يحصيه إلا الله، وفي هذا القَسَم تدرُّج، وتقديم الأَيمان بقالب سهل؛ يبدأ بما هو مشهود، ثم ينتقل للمجهول؛ ليعلم أن ثمة عالَمًا آخر لا يُرى بالعين، هو عالم الملائكة.

الاحتمال الثاني في تفسير القَسَم: أن يكون شيئًا واحدًا، ولكن على حالات عدة، فهو قَسَمٌ بالرِّياح، أقسم بها مرة باعتبارها «ذارياتٍ» تذرو الهَشِيم، ومرة باعتبارها «حاملاتٍ» للسَّحاب، ومرة باعتبارها «جارياتٍ» بأمر الله، ومرة باعتبارها «مُقسِّماتٍ» جعلها تعالى سببًا في قسمة الأرزاق على الناس والبقاع(١).

أو يكون المقصود السَّحاب، أقسم به مرة باعتباره ذاريًا متفرِّقًا في السماء ثم يتجمَّع، ومرة باعتباره حاملًا للمطر، ومرة باعتباره يجري جريانًا يسيرًا سهلًا، كما قال الأَعْشَى(٢):

كأنَّ مِشيَتَها من بَيتِ جارَتِها ... مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ

ومرة باعتبارها مُقسِّمات للمطر، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩- ١١].

وفي الآيات احتمال ثالث: أن يكون القَسَم صالحًا لكل ما يحتمله اللفظ؛ ولذلك ذكر تعالى الصفة ولم يذكر الموصوف، فلم يقل: «والرياح الذاريات»، ولا قال: «السحاب الذاريات»، وإنما قال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، وهذا أجمل وأوسع، فحينما يقسم تعالى بـ«الذاريات» فهو يشمل السحاب والرِّياح وغيرها، و«الحاملات» تصدق على السحاب وعلى الرياح وعلى السفن، وكذلك «الجاريات»، و«المُقَسِّمات» تصدق على الملائكة والرياح والسحاب وغيرها.

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٨)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨).

(٢) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص٥٥).

وبعضهم لم يراعِ التدرُّج والترتيب، فقالوا: «الذاريات» هي: الرياح، و«الحاملات» هي: السحاب، و«الجاريات» هي: السفن، والمُقَسِّمات هي: الملائكة[1].

وللرِّياح تأثير كبير في حياة الإنسان والنبات، وسُمِّيت: لواقح، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، واللَّواقح تحمل الخير والمطر[2]، وتُرسَل عذابًا يُهلَك به المكذِّبون، وكل النِّعَم التي أعطاها الله للإنسان يمكن أن تستحيل نقمةً أو عذابًا إذا لم تُشكر.

* ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾:

أصل ﴿إِنَّمَا﴾: «إن» و«ما»، أي: إن الذي توعدون لواقع، بخلاف ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي كلمة حصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

والمعنى: إن الشيء الذي توعدونه سوف يقع. وكأنه أقام الوعد مقام الإنسان الذي يَصْدُق، والمقصود: أن الوعد صِدْقٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝١٦﴾[3] [الأحقاف: ١٦].

ويحتمل أن يكون من الوعد، فهو الوعد الطيب؛ لأن الوعد غالبًا يُطلق على الخير[4].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن وهب» (٢/ ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٣)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٦٣٣- ٦٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٣)، و«تفسير الرازي» (١٩/ ١٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ١٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٤٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٢٤٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٧٦)، والمصادر السابقة.

لا يُرهِبُ ابنَ العَمِّ منِّيَ صَولَةٌ ... ولا أَخْتَتِي[1] مِن صَولَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـيَ إن أَوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ ... لَمخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوعِدي[2]

أو يكون المقصود: الوعيد، ويعبَّر به عن التهديد بالشيء المكروه؛ ولذا جاء الوعد بالجنة والوعيد بالنار، والوعد بالرضا والوعيد بالسخط، والوعد بالمغفرة والوعيد بالأخذ، فالآية تحتمل أنها للوعد الحسن إذا حملنا «توعد» على: تعطى وعدًا، ويحتمل أن تكون وعيدًا فيكون معنى ﴿تُوعَدُونَ﴾ أي: تتوعَّدون به.

والأقرب شمولها للمعنيين؛ لأن السورة كانت خطابًا لمشركي مكة، وخطابًا للنبي ﷺ والمؤمنين معه، ففيها الوعد وفيها الوعيد؛ ولذلك جاء في السورة الحديث عن الجنة والحديث عن النار.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾: ﴿ٱلدِّينَ﴾: الجزاء، وقولهم: يدينه، أي: يجازيه[3].

والمعنى: أن المجازاة والفصل بين الناس وإيصال الحقوق لأصحابها ومعاقبة المكذِّبين ومجازاة الطائعين، كل ذلك واقع لا مرية فيه[4].

وليس في الآيتين تكرار، والأقرب أن الآية الأولى تتعلَّق بوعد الدنيا ووعيدها، والثانية تتعلَّق بوعد الآخرة ووعيدها[5]، فكل ما وعد الله تعالى به المؤمنين فهو وعد صادق: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، ووعدهم تعالى بعز هذا الدين ونصره، وأن يبلغ ما

(١) اختتأ منه: استتر خَوْفًا.

(٢) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٢)، وما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٢).

(٥) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٩)، و«روح البيان» (٩/ ١٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣٩)، والمصادر السابقة.

بلغَ الليلُ والنهارُ[1]، والوعد بالحياة الطيبة لمَن آمن وعمل صالحًا، وهناك وعيد الكافرين بالأخذ والعقاب إن لم يؤمنوا، فذلك كله سوف يقع في الدنيا، وكذلك الدين الذي هو الجزاء الأخروي، فهو واقع أيضًا.

* ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾:

العادة أن يأتي ذكر السماوات بالجمع ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وهنا أقسم بـ«السماء»، وكأن المقصود جنس السماوات، أو السماء الأولى التي تلينا مما يراه الخلق، أو المقصود: كل ما علا وارتفع[2].

وفي تفسير ﴿الْحُبُكِ﴾ أكثر من خمسة أقوال:

١- منها قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن المقصود بـ﴿الْحُبُكِ﴾: الحُسن والجمال[3].

٢- الزينة في السماء، وهو قريب منه[4].

٣- الطرائق، كما هو شأن ماء البِركة إذا قُذف فيها بحجارة تصبح طرائق، وكذلك الرِّمال في الصحراء إذا ضربتها الرياح أصبحت طبقاتٍ بعضها إلى جوار بعض، فهذه يسمونها حُبُكًا[5].

---

(١) كما عند أحمد (١٦٩٥٧)، والحاكم (٤/ ٤٣٠)، وغيرهما، من حديث تميم الدَّاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخلَهُ الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢، ٣)، وما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧﴾، و«سورة الشمس»: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٩١)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٩).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٣٠)، والمصادر السابقة.

٤- الشدة والقوة[١]، ومنها يقال: الحَبْكة، وحَبَكَ الكتابَ، وحَبَكَ القولَ، إذا كان محكمًا مضبوطًا، وحتى المؤامرة يقول الناس: قد حَبَكَ فلانٌ مؤامرةً، إذا أتقنها ولم يدع فيها ثغرة[٢]، فيكون المقصود إذًا: الإتقان والضبط والقوة.

والقوة في الجمال، كما أن الجمال في القوة، فهو هنا قريب من قوله سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾[٣] [الملك: ٣].

* ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾:

خطاب لكفار قريش الذين قالوا عنه ﷺ: إنه ساحر وشاعر وكاهن، وعلى اختلاف ما قالوه فهو قول واحد في مآله يجتمع على الكفر، وهو مختلف، وهذا سر التعجيب منهم والقَسَم عليهم، فأقسم تعجيبًا من حالهم، فهم في غاية التناقض، وقولهم مضطربٌ فاسد؛ ولهذا امتن الله بكون القرآن كلامًا منضبطًا يُصدِّق بعضُه بعضًا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

والأَفْك هو: الصَّرْف، يقال: إنسان مأفوك، أي: مصروف، **والصحيح أن المقصود**: يُصرف عن الإيمان مَن لم يشأ الله تعالى له الهداية[٤].

ويحتمل أن يكون المعنى: يُصرف عن الحقِّ بسبب هذا القول الذي تقولونه[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ٤٠٧)، و«تاج العروس» (٢٧/ ١٠٤- ١٠٥) «ح ب ك».

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الملك».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٢).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٣/ ٥٦٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٢)، و«روح البيان» (٩/ ١٥٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٩٢)، والمصادر السابقة.

أي: بسبب قولك، أو من أجل قولك[1]، فهكذا هنا، يُؤفك بسبب هذا القول المختلف؛ لأن كفار مكة كانوا يتصدون لمَن يدخل مكة، وقد تقاسموا أطرافها فيقولون: خرج عندنا رجل صابئ غيَّر ديننا وسبَّ ألهتنا وشتم أجدادنا وفرَّق جماعتنا، وإنه مريض، ونحن نطلبُ له الطب.

ويأتي آخر فيقول: إنه ساحر، له زَمْزَمة[2] يفرِّق بين المرء وزوجه.

وآخر يقول: إنه شاعر، له رَجَزٌ وله قَصِيد.

ورابع يقول: إنه كاهن، عنده كلام الكُهَّان وأقاويلهم.

فلا يزال الناس يسمعون هذا الكلام حتى وصل الحال ببعضهم إلى أن يضع القطن في أذنه حتى لا يتسرَّب إليه شيء من كلام رسول الله ﷺ، فيُصرَفون عن الإيمان بهذا التشويه الذي مارسه كفار مكة[3].

* ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾:

والقتل لا يُقصد به معناه الذي هو الذَّبح، وإنما هو في جاري لغة العرب: اللَّعن[4].

وهذا إذا كان دعاء عليهم، فالدعاء من الله تعالى واجب واقع[5]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وإنما لعنهم؛ لأنهم خَرَّاصون، والخَرْص معروف المعنى، وهو: أن يخوض المرء في شيء لم يتثبت

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٤٥)، و«تفسير السمعاني» (٢/ ٤٣٥)، و«روح المعاني» (٦/ ٢٧٩).

(٢) أي: كلام خفي لا يُفهم.

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾، و«سورة المدثر»: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾، و«سورة التكوير»: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٥)، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾.
وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (٧/ ٦٠)، و«لسان العرب» (٧/ ٢١) «ق ت ل».

(٥) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٥٥) «ق ت ل».

منه[1].

والله تعالى يربِّينا في هذه الآية الكريمة على التحرِّي والتثبُّت؛ لأنه سبحانه لعن الذين يتخرَّصون زُورًا وكذبًا، ويتكلمون بغير علم، ولا حجة ولا هُدى ولا كتاب منير.

وهل كل خَرْص مذموم؟

الخَرْص جاء في الشريعة في أشياء مادية، مثل: خَرْص النخل، وهو: أن يُقدَّر ما تحمله النَّخيل من التمر، دون أن يُوزن أو يُكال، بناءً على الخبرة، فهذا مشروع للحاجة؛ لأنه في حال لا يمكن فيه إلا الخَرْص[2].

أما المذموم فهو كلام الإنسان في أمور لا يملك فيها خبرة، كالخَرْص في قضايا الاعتقاد، ومسائل الدار الآخرة والغيبيات التي هي موقوفة على الوحي، كالجنة والنار والإلوهية والبعث والحساب، هذه قضايا أصول لا ينبغي للإنسان أن يقول فيها بناءً على مجرد الخَرْص ولا التَّخْمين، بل ولا مجرد النظر العقلي إذا لم يكن عنده خبر من الوحي.

* ولذا وصف الخرَّاصين بالغفلة في الآية بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝١١﴾:

الغَمْرة: ما يغمر الإنسان، فيغطِّيه ويغلب عليه[3]، فهم غافلون عن الإيمان،

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٣)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (٧/ ٢١)، و«تاج العروس» (١٧/ ٥٤٥) «خ ر ص».

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٩٢).

وينظر أيضًا: «العين» (٤/ ١٨٣)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٥٨٥)، و«لسان العرب» (٧/ ٢١) «خ ر ص».

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٥٤٥)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٨/ ٣٥٠)، و«فتح القدير» (٢/ ١٦٠).

وينظر أيضًا: «المحكم والمحيط الأعظم» (٥/ ٥٢٠)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٩) «غ م ر».

وهذا ما يسمى بكفر الإعراض.

والله تعالى يذكر من المشركين مَن كفروا وجحدوا عن علم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ويذكر عن طائفة أخرى حالًا آخر، فيقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤].

فثَمَّة مَن يكون كفره بسبب الجهل، وكم من كافر كان يجهل الإسلام وحقائقه، فلما بلغته الحجة أسلم، كما ذكر تعالى عن الجنّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾(١) [الأحقاف: ٢٩].

* ولعل القَسَم في أول السورة هو لمعالجة هذا الإعراض؛ حيث فِئام من الناس مشغولون بالكَدْح في طلب المعيشة، ولا وقت لديهم لأن ينظروا ويبحثوا فهم غافلون، ويأتي القَسَم ليصدم عقولهم، فهم ساهون معرضون إذا حُدِّثوا عن الآخرة حوَّلوا الجِدَّ إلى هزل، وطفقوا ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾:

يتساءلون: متى هو؟ سؤال الساخر الهازل، لا سؤال المسترشد!

والسؤال عن الوقت يدل على قلة الاهتمام؛ فليست القضية: متى يوم الدِّين، بل: ماذا أعددتَ ليوم الدِّين الذي هو آتٍ لا محالة؛ ولأنه سؤال استهزاء ولا مبالاة لم يجبهم على السؤال.

وقد جاء الجواب في غير هذه السورة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٥]، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]. **هذا جواب.**

وثمة جواب ثانٍ، وهو أن يقال: إن الساعة بالنسبة لكم هي اللحظة التي

---

(١) وينظر ما سيأتي في «سورة الجن».

تغادرون فيها الدنيا: «مَن مات، فقد قامت قيامته»(١).

* ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾:

لما كان السؤال سؤال سُخرية، أُجيب بالوعيد والتهديد، ولم يقل تعالى هنا: «يوم هم في النار يُفتنونَ». فكأنهم كانوا مقبلين على النار ولمَّا يدخلوها بعد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فهذا نوع من العذاب، أنهم يُعرضون على النار و﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُحرقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره، وأصل الفتنة: الاختبار(٢).

ويمكن أن يكون مجرد رؤية العذاب وانتظاره هو فتنة بالنسبة لهم، وهذا يناسب الفتنة التي كانوا يفتنون بها المسلمين، كما وقع لبلال وعمار وصُهيب وسُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٣).

* ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾:

وقد كانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦]، ويطلبون

---

(١) رُوي من قول المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٣/ ٩٣٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦٨- ٤٦٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٨٢).

ومن قول زياد بن عبد الله النُّميري. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٦٨).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٤٣٦)، و«المقاصد الحسنة» (ص٦٧٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١١٦٦، ٥٤٦٢).

ومعناه في «صحيح البخاري» (٦١٦٧، ٦٥١١)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٢، ٢٩٥٣) من حديث أنس وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رجالٌ من الأعراب جُفاةً يأتونَ النبيَّ ﷺ فيسألونه: متى الساعةُ؟ فكان ينظرُ إلى أصغرهم، فيقولُ: «إن يعشْ هذا، لا يدركْهُ الهَرَمُ حتى تقومَ عليكم ساعَتُكم». يعني موتهم.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٥- ٤٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣١٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ١٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٦٥)، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾.

العذاب، ويقولون: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، فها أنتم ترون عيانًا ما كنتم تطلبونه عاجلا(١)!

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾:

أهل الإيمان متفاوتون في التقوى، فمَن اتَّقى الكفر فله نصيب منها، والذي يتجنب صغائر الذنوب واللَّمم والمتشابهات التي لا يعلمهن كثيرٌ من الناس رغبةً في أن يكتبه الله تعالى في المتقين، هو في الذِّروة العليا منها.

* ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾:

وعطاء الله متجدِّد لا ينتهي أبدًا، كلما نالوا منه تجدَّد لهم.

ومن معاني ﴿ءَاخِذِينَ﴾: راضين بما أعطاهم ربُّهم(٢)، واللهُ تعالى يقول لهم: «يا أهلَ الجنة. فيقولون: لبيكَ ربَّنا وسعديْكَ، والخيرُ في يديك. فيقولُ: هل رضيتم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا ربِّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أَلَا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»(٣). قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: أي: في الدنيا، على القول الراجح(٤)، فوصفهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٤)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٨٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٣٨)، و«روح البيان» (٩/ ١٥٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠).

بالإحسان، وهو نوعان: إحسان في عبادتهم لربهم، وإحسان إلى الخلق[١].

* وبدأ بالإحسان الأول، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

يحتمل أنهم لا ينامون من الليل إلا ﴿قَلِيلًا﴾، والنبيُّ ﷺ كان ينام إلى نصف الليل أو قريبًا من ذلك، ثم يقوم يصلِّي ويُوتر، ثم يضَّطجع حتى يأتيه المؤذِّن[٢]، وأخبر أن أحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه[٣]، وهذا أكمل الأوصاف، ولم يقم النبيُّ ﷺ ليلةً كاملة حتى الصباح[٤]، ولا كان أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفعلون ذلك، وإنما هذا وُجد فيمَن بعدهم.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾: «لم يكن يمضي عليهم ليلةٌ إلا يأخذونَ منها، ولو شيئًا»[٥].

وهذا من أحسن الأقوال: أنهم لا ينامون ليلةً كاملةً دون أن يكون لهم فيها حظ من القيام، فيقوم الواحد منهم ما شاء الله تعالى له أن يقوم، ثلث الليل، أو ربعه، أو خمسه، أو سدسه، أو عشره، أو يصلِّي وتره؛ ولذلك قيل: إنهم كانوا يصلُّون ما بين المغرب والعشاء[٦].

وحريٌّ بمَن صلَّى العشاء في جماعة، ومَن صلَّى الفجر في جماعة أن يكون له نصيب من هذه الآية، كما قال النبي ﷺ: «**مَن صلَّى العشاءَ في جماعة، فكأنما**

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٢٦/ ١٧٨- ١٧٩)، و«تفسير السعدي» (ص٨٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٨)، والمصادر السابقة.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (١٨٣، ٨٥٩، ٩٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ قامَ ليلةً حتى الصباح». أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٣).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٠١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٢)، والمصادر السابقة.

قامَ نصفَ الليل، ومَن صلَّى الصبحَ في جماعة، فكأنما صلَّى الليلَ كلَّه»[١].

وحريٌّ بمَن حافظ على صلاة الوتر- ولو ثلاث ركعات أو خمس أو سبع أو ما تيسر- أن تصدق عليه هذه الآية.

وقال بعض المفسرين: إن ﴿مَا﴾ هنا نافية، يعني: قليلًا من الليل لا يهجعون، أي: قليلًا من الليل يقضونه في الطاعة.

وهذا ضعيف، وقد ردَّه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من نحو عشرة أوجه[٢]، فهو منكر في السياق والتركيب اللُّغوي، كما أنه بعيد من حيث المعنى؛ لأنهم لا يُمدحون بمجرد أنهم يتركون قليلًا من الليل يسهرونه ولا ينامونه، وإنما أثنى عليهم بالمجاهدة والمكابدة والصبر الطويل.

والأقرب أنهم كانوا يقومون من الليل ما تيسَّر، ومن المعلوم أن الليل يبدأ وقته من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، والناس عادةً لا ينامون إلا بعد صلاة العشاء بيسير، وربما بعضهم يسامر أهله ثم ينام ثم يقوم لما تيسَّر له من قيام الليل ثم ينام، فيكون ما نامه من الليل أقل مما كان فيه مستيقظًا.

ونوم الليل مما امتن الله تعالى به على العباد فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ: ٩]، والعادات التي طرأت على كثير من الأُسر والشباب من السهر على القنوات الفضائية والإنترنت وغيرها هي عادات دخيلة؛ وإلا فإن النبيَّ ﷺ كان يكره النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها[٣]، وكان السهر يُكره إلا لمسافر أو مصلٍ أو ذاكر أو من يسامر امرأته أو ما أشبه ذلك من المعاني والمقاصد الصحيحة، وهذا هو الذي يوافق الفطرة وسنة الحياة، ويساعد على الاستيقاظ المبكِّر والمبادرة، وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «اللهمَّ بارك لأمتي في بُكورها»[٤].

وهذا الانسياق للفطرة والسنة الطبيعية في بلاد الغرب أظهر منه في بلاد

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٩١- ٢٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٧)، ومسلم (٦٤٧)، من حديث أبي بَرْزةَ الأَسْلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) سيأتي تخريجه في «سورة الضحى»: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

الإسلام والعروبة، فبمجرد ما تغيب الشمس يضعف دبيب الحياة في بلادهم، وتهدأ الطرق وتخلو من السابلة وتغلق الدَّكاكين، ويأوي الناس إلى بيوتهم ومهاجعهم، ثم يستيقظون في الصباح الباكر، في حين أن العواصم الإسلامية لا تهدأ ولا تنام! فهذه من العادات التي ينبغي أن تُعالج وتُصحَّح.

* ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾:

السَّحَر هو: آخر الليل(١)، وهو وقت التنزُّل الإلهي، حين يقول ربُّنا: هل من سائل؟ هل من داعٍ؟ هل من مستغفر؟(٢).

فالمتقون يصادفون السَّحَر وهم مستغرقون في الاستغفار بعدما قضوا جزءًا من الليل يصلون، ومع ذلك لا يُلفيهم السَّحَر إلا مستغفرين، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧]؛ ولهذا شرع تعالى الاستغفار في أدبار العبادات، وقد كان النبيُّ ﷺ يقول حين ينصرفُ من صلاته: «أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ»، كما في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣)؛ لأن صاحب القلب الحي أدرى بالمهمات والواجبات التي عليه، وأكثر إدراكًا للفضل عليه بالعبادة والعمل، فيستغفر من التقصير الذي يلحقه في أثنائها، أو في تحقيق الشكر عليها؛ ولذا أوصى ﷺ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول دُبُرَ كل صلاة: «اللهمَّ أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك»(٤).

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤١١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٢٩٩).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٠١)، و«تاج العروس» (١١/ ٥١٢) «س ح ر»، وما سيأتي في «سورة نوح»: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾.

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦)، وعبد بن حميد (١٢٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (١/ ٢٧٣) من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وربما كانوا يستغفرون عن ذلك القليل من الليل الذي هجعوه!

إن قيام الليل للصلاة والقرآن والمرواحة بين الأقدام يمنح القلب استحضارًا لعظمة الرب وقربه، ويهيِّئ الجو للمناجاة الصافية، ويجمع الروح على معنى الوحدانية، ويصفِّي النفس من الشواغل والازدحام والضَّجِيج.

وكأن المتهجِّد يقترب من العوالم الإيمانية ويكتشفها شيئًا فشيئًا، ويشعر أنه يقرأ القرآن لأول مرة، ولو كان حفظه في صباه.

وهذا زادٌ لقطع مشوار الحياة بصبر ورضا وإيمان، مهما اعتراه من البلاء والهم والعناء والصِّعاب، ويعطي لكل شيء جمال ما فيه من معنى ومبنى؛ فهي صادرة من الله الذي تخاطبه وتناجيه وتطلب قربه.

وهو زادٌ للآخرة وزُلْفى إلى الله ورِفعة في درجات الجنة، والمحجوب عن ربه في الدنيا محجوب عنه في الآخرة: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

* ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾﴾:

فهم ليسوا دراويش، كما يظن الجاهلون، وحينما وصفهم تعالى بالقيام والصلاة لم يكن معنى ذلك أنهم لا يطلبون الرزق، كلا، فهم أصحاب تجارات ومضاربات، وإذا دخل أحدُهم المسجدَ قال: «اللهمَّ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتك»(١)، وأقبل على ربه يتعبَّد ويستغفر، فإذا خرج من المسجد منصرفًا من صلاته قال: «اللهمَّ أغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ فضلك»(٢)؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وكانوا ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

وهذا الحق المذكور كان قبل أن تُفرض الزكاة؛ لأن السورة مكية، وفرض

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٤١٦، ٢٦٤١٧، ٢٦٤١٩)، والترمذي (٣١٤)، وابن ماجه (٧٧١) من حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وينظر: «نتائج الأفكار» (١/ ٢٧٠- ٢٨١).

وفي «صحيح مسلم» (٧١٣) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

الزكاة كان بالمدينة[1].

وهو إما أن يكون حقًّا فرضه الله من غير تحديد، أو يكون شيئًا هم فرضوه شكرًا لله تعالى[2]، فيُطعمون الناس؛ كما قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨]، وهو حبٌّ لا يُنسيهم حق السائل والمحروم، وهذا من الاعتدال في شخصية المسلم وتحقيق التوازن فيما بين رغبات الدنيا ونعيم الآخرة وما بين حق الله وحق العباد.

والسائل: الذي يتعرَّض بالسؤال[3]، وأصل السؤال مذموم: «**مَن سألَ وله ما يُغْنيه جاءتْ يومَ القيامة خُمُوشٌ، أو خُدُوشٌ، أو كُدُوحٌ في وجهه**»[4]. ومن المتعيَّن على الجهات المعنية في العالم الإسلامي أن تمنع التسوُّل في المساجد والتجمعات العامة؛ لأنه أصبح بابًا في الاحتيال والخداع وإشغال الناس عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن المتعيَّن إيصال الحقوق إلى المستحقِّين دون أن يحوجهم الحال إلى أن يتعرَّضوا لذُلِّ السؤال، وإراقة ماء الوجه.

وفي المَحروم ثمانية أقوال[5]، لعلها من قبيل تفسير الشيء بمثاله، وأكثرها صحيح، وهو يصدق على الفقير؛ لأنه محروم من المال، ويصدق على المتعفِّف

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٦٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠١)، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٧- ٢١)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾، وأول «سورة الأعلى».

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠١)، والمصادر الآتية.

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٥٢)، وأحمد (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٥/ ٩٧)، والحاكم (١/ ٤٠٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٩٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥١٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨).

الذي لا يسأل الناس؛ لأنه جاء هنا في مقابل السائل.

* ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾:

بعد ذكر الآخرة ومصير الكاذبين ومصير المؤمنين جاءت هذه الآية انتقالًا إلى جولة في كتاب الكون المفتوح، ودعوة إلى التأمل في البرِّ والبحر والنبات، وخصَّها لقربها من المخاطبين؛ فهم يمشون عليها، ويبنون، ويتصرَّفون، ولهم فيها مآكل ومشارب وسُبل وطرائق[1].

* ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾:

أي: في أبدانكم وما رُكِّب فيها من بديع الخلق[2]، والاستفهام استنكاري[3] وهو تعجيب من حال الذين يغفلون عن أقرب الآيات إليهم المكتنزة بها أبدانهم، في السماوات أو في الأرض، وفي أنفسهم.

* ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾:

قد يكون المقصود بـ«الرزق»: المطر[4]، وهو الذي أقسم الله تعالى به- على رأي بعض المفسرين- بـ«الذاريات والجاريات والحاملات»[5]، ومن معانيها السَّحاب، والسماء: كل ما علا وارتفع[6]، فالسَّحاب فيه الرزق للعباد، كما قال

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥١٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٤١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٤)، و«روح البيان» (٩/ ١٥٨)، و«تفسير المنار» (١١/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٥٣)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر ما تقدم في أول السورة.

(٦) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾، و«سورة الشمس»: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

سبحانه: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ١١].

أو يكون المقصود: رزق العباد المكتوب في اللَّوح المحفوظ الذي فيه كل شيء مما كُتب للإنسان من عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد[١].

والسماء هي: السماوات التي فيها الملائكة المكلَّفون بأرزاق العباد، ولهذا عطف عليه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وهو يشمل ما في الكتاب المحفوظ، ويشمل الآخرة: الجنة والنار، ووعد النصر للمؤمنين والبوار للكافرين[٢].

* ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

يُقسم تعالى برب هذه السماء التي فيها ﴿رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وهذه الأرض التي فيها ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ على أن الوحي حقٌّ[٣]، فبعدما أقسم بـ«الذاريات» وبـ«السماء ذات الحُبك»، انتقل إلى القَسَم بربها سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: هذا الذي أخبرناكم به من أمر القيامة والبعث والحساب والجزاء، حقٌّ لا شك فيه، مثلما أن الواحد منكم ينطق ويتكلَّم[٤]، والنطق بالنسبة لكم أمر متحقَّق:

فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ[٥]

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٦)، و«تفسير المراغي» (٢٦/ ١٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٤٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤١)، والمصادر السابقة.

(٥) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ منسوبًا إلى زُهير بن أبي سُلْمَى.

يعني أن الأمر أقرب من يدك إلى فمك.

* ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

هنا سياق جديد في شأن قصة من أشهر قصص إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسؤال تبجيل وتفخيم للأمر[(١)]؛ لأنها عبرة وعظة، وهو أسلوب مألوف في القرآن، كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ [البروج: ١٧]، وقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، ومقصده: حشد الاهتمام وتوجيه النظر إلى القصة.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ بمعنى: قد أتاك، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي[(٢)].

و﴿ضَيْفِ﴾: تشمل المفرد والجمع، تقول: عندي ضيف، ولو كان في ضيافتك قبيلة بأكملها[(٣)].

و﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ جمع من الملائكة، ووصفهم بـ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[(٤)]، كقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧].

ويحتمل أن يكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرمهم[(٥)]؛ لأنهم ضيوفه لا على أنهم

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٤)، و«روح البيان» (٩/ ١٦٠).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»، و«سورة البروج»، و«سورة الغاشية»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٩٢٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٤)، والمصادر السابقة.

ملائكة؛ ولذلك أضافهم أفضل ما تكون الضيافة، كما سوف يتضح من السياق.

* ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يفيد أن دخولهم كان مفاجئًا، وكأنه لم يذكر استئذانًا، وقد يكون بيت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مفتوحًا للأضياف لا يحتاج الناس فيه إلى استئذان؛ لكونه كريمًا مِضيافًا[١]، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلِّم عليك سلامًا[٢]، فهو مفعول مطلق، فردَّ عليهم سلامهم بأطيب منه، فقال: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: عليكم ﴿سَلَامٌ﴾، والجملة الاسمية التي قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أقوى وأثبت من جملتهم التي هي فعلية، والفعل ليس لها ثبات[٣]، وهذه بداية الكرامة من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وهذه الكلمة لم يقلها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم مباشرة، وإنما قالها خُفية عنهم[٤]، بمعنى أنه استنكر حالهم؛ فقد كانوا على هيئة شباب في نضارة وجمال.

قيل: هم ثلاثة ملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل[٥].

وقيل: كانوا عشرة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر[٦]، وفي التوراة ذكر هذا

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٥)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٥)، و«روح البيان» (٩/ ١٦١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٠٠).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٥).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٥/ ٣٤٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٤).

(٦) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٧/ ١٧٨).

المعنى.

وفي بعض الآثار أنهم كانوا ثلاثة في سن الشباب وفي غاية الجمال، ولم يكن يعرفهم، وهذا جزء من الإنكار أنه لم يرهم من قبل، ربما سحنات وجوههم غير مألوفة[1]، كذلك سلامهم كان شيئًا يستغرب، فالناس ما كانوا يحسنون السلام، فهم لما قالوا له: ﴿سَلَٰمًاۖ﴾ كان هذا مما استنكره واستغربه، فضلًا عن أنهم ربما دخلوا دون أن يستأذنوه.

والأظهر أن إمامًا مثل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ السيد العظيم الذي اتَّخذه الله تعالى خليلًا لديه من قوة الحَدَس والبصيرة والعرفان ما يغوص فيه على دقائق المعاني والأسرار، حتى ولو لم يوجد في ظاهر الحال ما يدل عليها؛ فلذلك أحسَّ أن الأمر ليس طبيعيًّا، وهذا فيه حكمة عملية: أن الإنسان إذا استغرب شيئًا عليه أن يتعامل معه بشكل طبيعي ويبحث بعد ذلك حتى تتضح له الأمور، ولا يستعجل باتخاذ موقفٍ ما، ولا يفجأ الناس بما يستغربون، وينتظر حتى تتكشَّف الأمور بعد ذلك، ومن كمال الضيافة التي عُرف بها أَلَّا يواجههم بوصفهم بالنكارة، وقد يكون قالها في نفسه، أو يكون قالها لأهل بيته لما ذهب إليهم ليصنعوا طعامًا.

* ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٢٦﴾:

﴿فَرَاغَ﴾ أي: ذهب، والرَّوْغ يتميز بكونه ذهاب مع شيء من الخُفية[2].

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: وهذا دليل على حفاوته وجميل كرمه، وفي آية أخرى جاء التعبير بقوله: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، أي: مشوي[3]، وهذا أسرع من

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٦/ ٥٦٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٦/ ٣٩١١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٦)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦١)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٨)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢١)، و«فتح القدير» (٢/ ٥٨١).

طبخه، والعرب إذا كانوا في سرعة فإنهم يقومون بشيِّ اللحم، ولذلك يقول امرؤ القَيْس:

وظَلَّ طُهاةُ اللَّحمِ ما بَينَ مُنضِجٍ   صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ[1]

* ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا من تمام الضيافة إذ أحضر الطعام وقرَّبه إليهم حتى لا يُحوجهم إلى القيام[2]، وإن كان هذا من العادات، والعادات بابها واسع، وظروف الناس تختلف، واليوم جرت عادة الناس على إدخال الضيوف إلى الطعام؛ لكون الولائم كبيرة، ولكن ما جرى من خليل الرحمن هنا هو من تحقيق كمال الضيافة في زمنه مع اليُسر والعفوية وعدم التكلُّف، كما في الحديث: «نُهينا عن التكلُّف للضيف»[3].

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: وهذا من حسن الضيافة، لم يقل: «كلوا» على سبيل الأمر، وإنما على سبيل العرض المؤدَّب[4]؛ لأن ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح وعرض[5]، وفيها الدعوة اللَّطيفة لهم.

---

(١) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٦٢).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٦)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٨٨)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٨/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٤)، وأحمد (٢٣٧٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الجوع» (٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٦٠٨٥)، وفي «الأوسط» (٥٩٣٥)، والحاكم (٤/ ١٢٣)، والبيهقي في «الآداب» (٧٣)، وفي «شعب الإيمان» (٩١٥٣) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «إرواء الغليل» (١٩٥٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٤٤٠)، و«أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» (٨/ ٥٥٨٤ - ٥٥٨٧).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٣)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٨٨)، و«روح البيان» (٩/ ١٦٢).

(٥) ينظر: «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» (١/ ٣٣)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (١٠/ ٤٤٥)، و«لسان العرب» (١٥/ ٤٣٤)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٣٧٧).

* ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: وذلك حين لم يأكلوا؛ وجاء في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وهذا يؤكِّد ما ذكرته آنفًا أنه لم يواجههم بقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وإنما قاله في نفسه، فهو لما ﴿رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وحُقَّ له أن يوجَّس منهم خِيفة، والضيف إذا لم يأكل فإنه يُخشى منه الغدر، وقد يكون يضمر سوءًا.

وإيجاس الخِيفة لا يعني أنه خاف من أشخاصهم، لكن خاف مما وراءهم وسبب مجيئهم.

وعادةً فإن الأشياء الغامضة تبعث على الخوف، ولذا قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ فقد ظهر لهم في قَسَمات وجهه ما يدل على توجّسه[1]، فقالوا له تطمينًا وتبشيرًا: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾.

وسَرعان ما انقلب الخوف بُشرى بغلام، وهو إسحاق[2]، وأمه سارة زوج إبراهيم عليهم السلام.

ويدل لذلك ما جاء في الآية الأخرى حيث نص الله تعالى على اسم هذا الغلام، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود: ٧١]، أي: من ولد إسحاق: يعقوب.

وقد حدث من سارة موقف إنساني عظيم فإنها لما كبرت ولم يُولد لها، وعرفت أنها عَقِيم، تحاملت على نفسها وأهدته هاجر من أجل أن تأتيه بغلام، فأذن الله أن يكون إسماعيل ولدًا لهاجر، وأن يكون إسحاق ولدًا لسارة.

ولم يقل: «بغلام جميل، ولا طويل»، وإنما: ﴿عَلِيمٍ﴾، وهذا دليل على أن الصفات المعنوية هي التي يجب أن يُحرص عليها ويُمدح بها، وفي الآية الأخرى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ [الصافات: ١٠١]، فالآية الأولى- آية الذاريات-

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٦)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٥).

في شأن إسحاق، وآية الصافات في شأن إسماعيل، فإسحاق ﴿عَلِيمٍ﴾، وإسماعيل ﴿حَلِيمٍ﴾[1].

* ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صياح وصوت[2]، وقد تكون هذه «الصَّرَّة» هي قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

وذكر هنا أنها صكَّت وجهها، أي: ضربته[3]، وهذه عادة عند النساء، وليست دليلًا على ضعف عقل المرأة، كما يظنه بعضهم، ولا ينبغي أن يقال هذا الكلام في هذا السياق فيكفي من نضج عقلها التضحية التي بذلتها لخليل الرحمن إبراهيم والصبر معه، وهي حركة عفوية تلقائية تعبِّر عن شدة التصديق وشدة الاستغراب!

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: فهما سببان لعدم الإنجاب: العُقم، فهي لم تنجب وهي فتاة شابة، فكيف وهي في مرحلة الإياس، وكذلك زوجها شيخ كبير، كما قالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: ٧٢]، حتى في بيت النبوة يتكلم أهله بعفوية ويعبِّرون عن مشاعرهم دون تكلُّف.

* ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

هذا قول الملائكة، أخبروها أنه ليس دعاءً ولا تمنِّيًا، وإنما هو خبرٌ من الله سبحانه[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ١٤٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٩/ ٦١٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ١١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٤٦٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٢٩٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٥/ ٤٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٠)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٦).

وفي قولهم: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ إشارة إلى لُطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعطفه على عباده ورحمته بهم.

وخَلِيق بمَن يكون عنده معاناة من العُقم أو الفقر أو المرض أو الهم والغم والحزن والنَّكَد أن يستشعر مثل هذا الموقف، وكيف خرق الله تعالى النواميس والسنن والعادات، ورزقهم الغلام العليم.

والتعبير بالرَّبِّ مع الضمير يُشعرك باللُّطف، فهو ﴿رَبُّكِ﴾ القريب المجيب الرَّحيم الذي يجيب دعوة الدَّاعي إذا دعاه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾: فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلق هذا الغلام، وفي تأخيره، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي منح هذا الغلام من علمه، فجاء غلامًا عَلِيمًا، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالأشياء والأسباب؛ ولذلك لا يعجزه شيء ولا تخفى عليه خافية[1].

ولأنه قول الله العزيز الحكيم فقد أصبح هذا الشيخ المسن وهذه العجوز العَقِيم آباء لأجناس ممتدة من البشرية، فإبراهيم هو أب البشر الثاني، والعرب من ذرية ابنه إسماعيل، واليهود من ذرية إسرائيل وهو: إسحاق.

فإذا بارك الله فلا حدَّ لبركته، ورحمته تجري حيث يرى الناس وحيث لا يرون!

* وهنا ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ولكنه بحَدَسه أحسَّ أن إتيانهم لم يكن من أجل هذه البُشرى فحسب، بل البُشرى أمرٌ عارض، ولذا ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾:

وعادةً «الخَطْبُ» لا يقال إلا في الشيء الجليل، وهو لما علم أنهم ملائكة أدرك أن الأمر الذي جاؤوا من أجله عظيم[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٣٧٥)، و«تفسير الثعالبي» (٣/ ٤٠٣)، و«فتح القدير» (٣/ ١٦٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٧/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٩٥).

* ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٖ مُّجْرِمِينَ ٣٢﴾:

وهم قوم لوط(١)، وصفوهم بأنهم ﴿مُّجْرِمِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، ويفعلون الفاحشة الشاذة؛ كانوا يأتون ﴿ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، لم يسبقهم بهذا أحدٌ من الناس، ويأتونه في ناديهم، ويتعاطونه جهارًا نهارًا، ويصرُّون عليه، ولم يطيعوا نبيَّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم مجرمون من ثلاثة أوجه:

١- أعظمها الشرك بالله وتكذيب الأنبياء.

٢- إتيان الفاحشة.

٣- العدوان والبغي؛ حيث دلَّ السياق على أنهم كانوا يتعرَّضون لمَن لا يوافقهم، ويعتدون عليه، ويكرهونه على فعل الفاحشة، وقد همُّوا بأضياف نبيِّهم دون حياء، ظانِّين أنهم من البشر.

* ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾:

وهذه الحجارة من أنواع الحجارة الطينية البُركانية التي رفعها الله تعالى إلى السماء ثم أنزلها عليهم.

* وقد وصفوها بأنها ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ٣٤﴾:

والمعنى: مُعلَّمة(٢)، ليست مثل الحجارة العادية، بل هي حجارة من نوع خاص، والسَّوم هو: العلامة، مثل الوَسْم(٣).

أو يكون المعنى: مكتوبًا عليها اسم صاحبها(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«تفسير السمعاني» (٣/ ١٤٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٧)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٨٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٣٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٨)، و«مفاتيح الغيب» (٢٨/ ١٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢).

ويحتمل أن معناها: مرسلَة من عند ربك[1]، فهو أمر مرتَّب ومقصود من عند الله تعالى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

والمقصود هنا بالإسراف: أن أمرهم تطوَّر إلى تعاطيها والإعلان بها، والإصرار عليها، والمفاخرة والمباهاة، كما يقع لمَن يُصاب بإدمان الجريمة حين يتحدَّث عن قوته وبطولته، ويسعى لإيقاع غيره، ويحتقر مَن لا يوافقه!

* ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: أخرجنا مَن كان في القرية، وهي: سَدُوم، وهي في الشام قريبة من البحر الميت[2].

والذين خرجوا فعلًا هم آل لُوط، إلا امرأته فلم تكن مؤمنة، ولكنها في الظاهر كانت معدودة من المسلمين، والله أعلم كانت تتظاهر بطاعة لوط، وصفها الله في «سورة التحريم» بالخيانة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فهي ظاهرًا كانت من المسلمين، لكن في باطنها كانت مع قومها؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، والمنافق معدود ظاهرًا من المسلمين، ولكنه ليس من المؤمنين، ولذا وُصف البيت بالإسلام، ولكنه حدَّد الذين أُخرجوا ونَجَوْا بأنهم المؤمنون فحسب[3].

* ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: جعلنا للعقوبة التي حلَّت بهم آثارًا تدل عليهم، وفي ذلك تحذير من فعلهم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٨٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٠)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٤٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨١).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة التحريم».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٧).

* ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾:

المعنى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آية، كما في قرية قوم لوط آية، والسلطان هو: الحجة البينة، ومنها: الآيات التسع التي بعثه الله تعالى بها(١).

* ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾:

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ أي: بقوته من أَتْباع وجيش(٢).

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾: وعادةً يكون «النبذ» للشيء الزَّهيد، كنبذ النواة أو نبذ الحَصَاة، و﴿ٱلۡيَمِّ﴾ هو: البحر(٣)، و﴿مُلِيمٞ﴾ صفة لفرعون، يعني: ملوم، آتٍ بما يُلامُ عليه(٤).

* ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١﴾:

﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ هي: الرِّيح التي لا تأتي بخير، فإن الله تعالى يرسل الرِّياح لواقح، كما في قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، لكن هذه الرِّيح عَقِيم، وهذا استعمال قرآني رائع مؤثِّر، والعرب يفهمون هذا جيدًا؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى الرِّياح، وهي علامة على المطر، وكانوا يفرحون بها، وينتظرون ما بعدها، ولذا وصفها بـ﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾! وعبَّر عنها بالمفرد؛ ليدل على أنها واحدة لا تختلف

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٧)، وما سيأتي في «سورة القمر»: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ٤١﴾.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٤).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ١٩٥)، والمصادر السابقة.

صفتها، بخلاف الرِّياح الملقِّحة(١).

* ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾:

والمقصود: الأشياء التي يتأتَّى فيها الدَّمار، وإلا فإنها لم تهلك الأرض ولا السماء ولا الجبال(٢).

والرَّميم هو: التراب، وقيل: الزرع اليابس البالي الذي وطئته الأقدام وداسته الحيوانات، فلم يبق منه ما يعتد به، وقيل: الرَّماد، والمعنى المشترك بينهما أن الرَّميم هو الشيء المنتهي الحَقِير الذي لا شأن له(٣).

* ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣﴾:

يحتمل أن يكون المقصود: التمتع بطيبات الحياة الدنيا إلى الأجل المسمى الذي هو الموت، وعليه فهو عام لهم ولغيرهم(٤).

ويحتمل أنه الأيام الثلاثة التي أُمهلوها بعد عقرهم للناقة، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾(٥) [هود: ٦٥].

* ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤﴾:

وهذا يُرجِّح أن المقصود بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ يعني: كلوا من طيبات ما رزقكم الله، واشكروا له وأطيعوه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فكانوا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٣/ ٢١٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٨).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٨)، والمصادر السابقة.

ينظرون العذاب وهو يحل بهم، ولا يستطيعون له صَرْفًا ولا دفعًا ولا نصرًا[١].

* ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: ما استطاعوا أن يقوموا على أقدامهم؛ لأن العذاب أرعبهم، فأسقطهم وأهلكهم[٢].

أو المعنى: فلم يستطيعوا مقاومة ما نزل بهم، وهو الصاعقة[٣]، ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما استطاعوا أن يطلبوا النصر، فلا هم انتصروا بأنفسهم، وما قدروا أن يطلبوا النصر من غيرهم[٤].

* ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

وقوم نوح كانوا قبل هؤلاء جميعًا، ولكن أَخَّرهم في السياق؛ لأن الأمم المذكورة أقرب إلى العرب، وأخبارها لديهم متداولة، وهم يمرون بآثارهم، كما في ديار عاد وثمود وقوم لُوط[٥].

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

وبعد الجولة التاريخية في أخبار المكذِّبين وآيات الأنبياء، ينتقل إلى آيات الله تعالى في الكون.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٧٦٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير ابن عرفة» (٤/ ٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩)، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

والأيد هنا: القوة[(١)]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ [ص: ١٧]، أي: ذا القوة[(٢)]، وليس المقصود: الأيدي جمع يد، كما يظن البعض.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: قيل: المعنى: أن السماء واسعة جدًّا، وتتسع بازدياد. وهذا ليس بعيدًا من الناحية العلمية[(٣)].

والاحتمال الثاني أن المعنى: وإنا لقادرون على ذلك، أي: في وُسعنا أن نفعل ذلك وأعظم منه[(٤)].

وهذا المعنى أجود؛ فنحن موسعون قادرون على بنائها وبناء ما هو أقوى منها.

وهنا نَلْحَظ أن الله تعالى يُعبِّر في القرآن عن السماء بالبناء ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧]؛ فالسماء بناءٌ يراها الناس محيطة بهم كالقُبَّة. كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [غافر: ٦٤].

* ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

عبَّر عن الأرض بالفِراش؛ لأن فيها سكن الإنسان، فهي مفروشة، ومع أن الأرض كُرَوِيَّة، إلا أن التعبير بالفَرْش يشير إلى طبيعة الأرض في كون الإنسان يستخدمها وينام عليها ويوظِّفها في مصالحه ويبني ويزرع ويمشي ويحفر[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٧٣)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٨٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ...﴾ [ق: ٧].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾: جعل الأرض مِهادًا[1]، وهذا دليل على كرامة الإنسان عند الله، فهذا الخلق الذي تراه هو فضل من الله على هذا الإنسان؛ ولذلك جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

* ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

يحتمل أن يكون في كل ما خلقَ الله زوجين، وهذا يقع في الأشياء الحِسِّيَّة، مثل: البشر والحيوانات والطيور، ويكون في الصفات والأشياء المعنوية، مثل النور والظلام، والفرح والحزن، والرضا والغضب، والعلم والجهل، والشدة واللِّين، وما أشبه ذلك.

وحتى الملائكة ففيها: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب[2].

والزوجية ليست مقابَلة بين الأضداد، بل هي تبعث على التعاون والتكامل في النباتات والحيوانات والبشر، وليست المرأة عدوًّا للرجل ولا الرجل عدوٌّ للمرأة، وهكذا يجب أن تُفهم أنها تكامل في الوظائف والمهمات، وانسجام ومسير في طريق واحد تقتضيه الفطرة وتُوصِي به الشريعة وتطيب به الحياة، أما حين يفتعل الناس صراعًا بين هذه الأزواج، فإن الحياة تفسد والشر يهيج، ودائرة المشكلات تتَّسع.

* ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾:

والفرار إلى الله تعالى هو فرارٌ من كل شيء، فِرْ إلى الله من أعدائك؛ لأنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله، وفِرْ من أصدقائك، كما قيل: «اللهمَّ اكفني شرَّ أصدقائي»، وفِرْ من شرِّ نفسك.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧، ٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤).

ولهذا كان ﷺ يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ نفسي**»(١). والاستعاذة هي نوع من الفرار.

ويقول: «**اللهمَّ أعوذُ برضاكَ من سخطكَ، وبمُعافاتكَ من عقوبتكَ، وأعوذُ بك منكَ**»(٢).

ويقول سبحانه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، فالفرار من الله يكون إليه، والفرار من كل شيء لا يكون إلا إلى الله، وكلُّ أحد إذا خفته تفرُّ منه، إلا الله إذا خفته تفرُّ إليه(٣)؛ فهو واسع المغفرة، وأبواب التوبة مفتوحة للناس كلهم دون استثناء، وفي الوقت الذي يرفضون دعوته ويقولون عن رسله وأنبيائه: سحرة أو كهنة، يفتح لهم أبواب رحماته، ويدعوهم إليه، ويصبر عليهم، ويمهلهم، ويمدُّ لهم، ويقيم عليهم الحجج، ويبعث لهم الآيات، ويرزقهم ويعافيهم سبحانه وبحمده.

والمقام هنا يستدعي الخوف بعدما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء السابقين وعاقبة أقوامهم المكذِّبين.

* ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾:

والتوحيد هو أصل رسالات الأنبياء، وهو الفيصل بين المؤمنين والمكذِّبين،

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٦٩، ١٧٩٠٥)، وابن حبان (٩٠١) من حديث عثمان بن أبي العاص وامرأة من قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه الطيالسي (٩، ٢٧٠٥)، وأحمد (٥١، ٥٢)، والدارمي (٢٧٣١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٢)، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٤٤، ١٠٥٦٣)، وابن حبان (٩٦٢)، والحاكم (١/ ٥١٣)، والضياء (١/ ١١٣- ١١٥) (٣٠- ٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ علَّم أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٤٦٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩).

وهو يقتضي العبودية لله، ونبذ الآلهة والأنداد من دونه، والفرار إلى الله هو من التوحيد يقتضي التوكل عليه والتفويض إليه؛ ولذا أعقبه بالنهي عن الشرك وكرَّر النذارة؛ لأن متعلقهما مختلف، فالأُولى إنذار بالفرار إلى الله والإيمان به، والثانية إنذار من الشرك وعبادة آلهة أخرى، ولأن السورة فيها وعيد وتهديد وذكر لمصائر المكذِّبين غلَّب جانب النذارة على جانب التبشير.

* ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾:

كما قال فرعون لموسى[١]. وكما قالت قريش عن النبي ﷺ: ﴿سَاحِرٌ﴾، وغير ذلك مما وصفوه به[٢].

* ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾:

هل أوصى بعضُهم بعضًا بذلك؟ كلا[٣]؛ لأنهم لم يشهدوا بعضًا؛ ولهذا أضرب الله تعالى عن هذا وقال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾، و﴿بَلۡ﴾ للإضراب؛ ونفي السؤال السابق[٤]، كأن المعنى: لم يتواصوا به، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾[٥]، فالطغيان هو الذي جعلهم يتوافقون على أن يقول كل ملأ عن رسولهم: إنه ساحر، أو مجنون، ففي القرآن الكريم تأكيد لهذا الطغيان، كما في «سورة البقرة»: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) كما في قوله تعالى المتقدِّم: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝٣٩﴾، وما سيأتي في «سورة القمر»: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٣)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥).

(٤) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ١٤٤)، و«روح البيان» (٩/ ١٧٤)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢١٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢)، وما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾، و«سورة الانشقاق»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾، و«سورة البروج»: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١﴾، و«سورة الأعلى»: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٢)، و«مفاتيح الغيب» (٢٨/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٤)،و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢).

﴿مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فسبب تواطئهم على هذا المعنى هو تشابه قلوبهم وما فيها من الكبر والطغيان.

وربما نستفيد من هذه الآية أَلَّا نبالغ فيما يسمَّى بنظرية المؤامرة؛ لأن من الناس مَن يتخيل أن كل ما يقع في الكون مؤامرة، وأن قوى الشرق والغرب تتآمر في خطة محكمة موحَّدة على المسلمين، ولا شك أن قدرًا من ذلك صحيح، ولكن كثير منه أيضًا مما تشابهت فيه القلوب ومما يقع على سبيل الاتفاق من هؤلاء الأقوام، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وتلك القوى المتآمرة لو وجدت في المسلمين قوة وبأسًا وتوحيدًا للموقف ما استطاعت النفاذ إليهم ولا بلغ مكرها مبلغه، فأساس الفشل ليس هو كيد العدو، بل الضعف الداخلي والتهارش والاختلاف، ووجود أطياف وأطراف تسمع لعدوها وتخدمه وتنفذ توجيهاته وتتمثَّل أهدافه.

* ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

هذا ثناء على الرسول ﷺ، وكأنه يقول له: قد أدَّيتَ الأمانة، وبلَّغتَ الرسالة، وأقمت الحجَّةَ؛ فلا تُلام وقد أدَّيتَ ما عليك.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تحتمل معنيين:

الأول: أن لا يدخل معهم في جدل لا يُفيد حول دعواهم: إنه ساحر أو شاعر أو مجنون؛ فإن الدخول أحيانًا مع الخصم في مجادلة ومماحكة ربما يُذهب الجهد ويسبِّب ضيق الصدر والهم والحزن، دون أن يأتي بطائل، كما قال: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾[١] [الشورى: ١٥].

الثاني: ترك الإلحاح والمبالغة في دعوتهم[٢]، كما قال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٤)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٣١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٧)، و«لطائف الإشارات» (٣/ ٤٦٩)، والمصادر السابقة.

بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧]، يعني: ادعهم وادع غيرهم، ولا تحزن عليهم(١).

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تنفع الذين آمنوا، فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم(٢).

وقد يكون من معاني الآية: أن الذِّكرى تنفع الذين لديهم استعداد للإيمان وللحقِّ(٣)، ولكن مشكلتهم الجهل، وتشرّبهم للشبهات، فتحتاج إلى أن تُكْشَف، فإذا سمعوا الموعظة تيقَّظوا وخافوا، فَفَرقٌ بين هؤلاء وبين المعاندين المستكبرين.

* ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾:

لماذا بدأ بالجن، مع أن الإنس منهم الأنبياء والرسل؟

قيل في الجواب عن ذلك: إن العرب كانوا يعبدون الجن ويعظِّمونهم، وإذا نزلوا بوادٍ استعاذوا بسيِّد الجن من سُفهاء قومه، وبعضهم كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن لله تعالى صاحبة من الجن ولدت له الملائكة(٤)، فدحض الله تعالى هذه الادِّعاءات، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليوحِّدون(٥).

ومما تحتمله الآية من المعاني:

أي: ما خلقتُ الجن والإنس إلَّا لآمرهم بعبادتي وأبلِّغهم على ألسنة رسلي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٠٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص٦٢٤)، و«تفسير السمعاني» (٣/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٦١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٤/ ٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٤)، و«لطائف الإشارات» (٣/ ٤٦٩- ٤٧٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٠).

(٣) ينظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٠)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٤٥٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٦)، والمصادر السابقة.

(٤) كما سيأتي تفصيله في «سورة الجن».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (١/ ٤٦١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٥).

ما يجب عليهم أن يفعلوه[1].

ويدخل في الآية معنى العبادة الاضطرارية؛ لأن الخلق كلهم مضطرون إلى الله، فالسماوات والأرض والشمس والقمر كلها تسبِّح الله تعالى وتعبده عبادة اضطرارية، وهكذا خلايا الإنسان وأعضاؤه تعبد الله تعالى عبادةً اضطرارية، ويبقى الاختيار في عبادة الله أو عدم عبادته في عقل الإنسان وقلبه وإرادته.

ويدخل في الآية العبادة الطارئة، فإن بعض الناس ربما يعبد الله تعالى في حال الشدة، كما حكى الله تعالى عن بعضهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

* ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾:

وهذا تفصيل وتوضيح للمعنى، وفيه نوع من المعاتبة للناس: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فالله تعالى هو الذي خلق السماوات وجعلها بناءً، وخلق الأرض وفرشها لكم، وجعلها مِهادًا، فأيُّ حاجة له إليكم أن ترزقوه أو أن تطعموه؟!

ولهذا كان من أسمائه سبحانه: «الغني»: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[2] [محمد: ٣٨].

وهذه المعاني ينبغي أن يستشعرها العبد؛ فإن عبادة القلب من أعظم العبادات،

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢١٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨١٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٨٧).

وهي تُورِث تعظيم الله وحبِّه وشكره، والشعور بالفقر الفطري الضروري المصاحب للإنسان في كل حال، مهما ظن أنه قد استغنى وغفل، وفي أول موقف من مفاجأة مرض أو نازلة أو خوف يظهر الافتقار وتنكشف الأستار.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾:

فهو الذي يرزقهم، ولا يريد منهم من رزق[1]، وهو ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، فلا يحتاج منهم إلى مساعدة ولا إلى خدمة، فهو القوي ﴿ٱلْمَتِينُ﴾[2].

و﴿ٱلْمَتِينُ﴾ من أسمائه الحسنى، ويعني: القوة والقدرة والثبات[3]، فليست قدرته وقوته عارضة، وإنما هي دائمة باقية، وغناه ذاتي، ليس عطاءً من أحد، أما الأغنياء من البشر فغناهم مؤقت طارئ مكتسَب، ولذلك هم فقراء بالفطرة محتاجون إليه، فسبحان ذي الجلال والجمال والكمال والكبرياء والعظمة والمجد، والدنيا والآخرة، والليل والنهار، والبر والبحر، والجن والإنس، ينبغي أن يستشعر قلبك معنى الحب لهذا الإله العظيم والامتنان للفضل والشعور بالقرب، حتى وأنت تخطئ، فهو يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، حتى للمشركين، فلا يحول بينك وبينه شيء، حتى إذا خفت منه فِرَّ إليه.

* ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝﴾:

أي: ظلموا أنفسهم بالشرك[4]، و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«لطائف الإشارات» (٣/ ٤٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١١١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٥)، و«روح البيان» (٩/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢١)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٧٦٧)، و«باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن» (٣/ ١٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٧)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠).

والذَّنوب: أصله الدَّلْو الذي يُستقى به الماء من البئر[1]، فهو يتوعَّدهم بقدر من العذاب، وكفى به عذابًا.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾: سمَّاهم: ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾؛ لأنهم أشركوا مثلهم، كقوم لوط وقوم موسى وثمود وعاد الذين مرَّ ذكرهم في السورة؛ ولذلك يهدِّدهم بأنهم في فترة الإمهال والإمكان[2].

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

ختم السورة بالوعيد المناسب لبدئها؛ حيث أقسم أنهم ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ في كفرهم وعنادهم، وختم بأن لهم ما داموا مصرِّين على كفرهم لونًا من العذاب مثل عذاب من قبلهم من المكذِّبين.

وقد عجَّل لهم وعيد الدنيا، وتوعَّدهم بيوم وراءه هو يوم القيامة.

ومن النكت في السورة أنها بُدئت بوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾، وخُتمت بوعيد في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾[3]، وقد نزلت قبل معركة بدر، فكان هناك وعيد يعلمه الله وهم لا يعلمونه، ففي معركة بدر انتصر المسلمون وقُتل عُتاة المشركين الذين نزلت هذه السورة وغيرها تعاتبهم وتوبِّخهم وتهدِّدهم وتصفهم بالطغيان، فجُرُّوا وسُحبوا إلى القَليب، وأُلقوا فيه، فوقف الرسول ﷺ على هذا القَليب.

ونلحظ هنا مناسبة قوله تعالى: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مع نهاية هؤلاء،

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٩)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢/ ٣٩٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٨)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٣١٥) «ذ ن ب»، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٩)، و«غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٩١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠).

(٣) ينظر: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل» (٢/ ٤٤٨).

حيث وقف عليهم وقال: «يا فلانَ بنَ فلانٍ يا فلانَ بنَ فلانٍ، هل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقًّا، فإنِّي وجدتُ ما وعدني اللهُ حقًّا». فقال عمرُ: تكلِّمُ أجسادًا لا أرواحَ فيها؟ فقال: «ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم»(١).

فالوعد صادق وتحقَّق لهم ذَنوب ودَلو وبئر كبئر بدر الذي كُفتوا فيه ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، الأمر قريب، وبكاهم شدَّاد بن الأسود، وقال(٢):

وماذا بالقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيزَى تُزَيَّنُ بِالسَّنامِ
وماذا بِلقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ
تُحَيِّينا السَّلامَةَ أُمُّ بَكْرٍ ... وهل لي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلامِ
يُحَدِّثُنا الرَّسُولُ بأن سَنَحْيا ... وكيفَ حَياةُ أَصْداءٍ وهامِ

فجاءهم الوعد الذي كانوا يستعجلون.

○○○

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٩)، و«صحيح البخاري» (٥/ ٦٥)، و«الروض الأنف» (٥/ ٢٤٩)، و«البداية والنهاية» (٥/ ٢٩٤).

وبكاهم عبد الله بن الزِّبَعْرَى بنحو ذلك. ينظر: «شعر عبدالله بن الزبعرى» (ص٤٦ - ٤٧)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٥ - ١٦)، و«أنساب الأشراف» للبَلَاذُري (١/ ٣٠٨).

سُورَةُ الطُّورِ

*** تسمية السورة:**

لها اسم واحد، وهو: «سورة الطُّور»، أو: «سورة ﴿وَالطُّورِ﴾»[(١)].

وقد ورد في حديث أُمِّ سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنها قالت: شكوتُ إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال: «طُوفي من وراء الناس وأنت راكبةٌ». قالت: فطفتُ ورسولُ الله ﷺ حينئذ يصلِّي إلى جنب البيت، وهو يقرأ: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾[(٢)].

وفي حديث جُبير بن مُطْعِم رَضِيَٱللَّهُعَنهُ لما جاء إلى المدينة وهو مشرك في فداء المشركين بعد معركة بدر، ودخل المسجدَ، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأُ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ۝٣٧﴾ كاد قلبي أن يطير. وأسلم رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٣)].

*** عدد آياتها:** تسع وأربعون آية، أو ثمان وأربعون، أو سبع وأربعون؛ ثلاث أقوال لعلماء الحجاز والكوفة والبصرة[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤، ١٦١٩)، ومسلم (١٢٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٥٠، ٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣).

(٤) وقد اختلفوا في قوله: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٦).

* **وهي مكية** باتفاق المفسِّرين[1].

* ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾:

يستفتح تعالى السورة بقَسَم، كما في «سورة الذاريات»، ولكنه في «سورة الذاريات» جاء بصيغة الجمع: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾. فأقسم بالذاريات، والجاريات، والحاملات، والمُقَسِّمات، أما هنا فجاء بصيغة المفرد.

ولعل من الأسرار أن المقسَم عليه في السورة شيء واحد، فإنه قال في نهاية القَسَم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، في حين أنه أقسم في «سورة الذاريات» على أمرين، وهما: مسألة البعث، ومسألة العذاب الدنيوي، وأقل الجمع اثنان[2].

ويحتمل أن يكون أفرد القَسَم؛ لأنه أقسَم بأعيان وليس بأشياء عامة، كالرِّياح مثلًا، فإذا أقسَم بالرِّياح، فالقَسَم يعم ريح الصَّبا والدَّبُور والجَنوب، وريح التلقيح وريح العذاب، لكن إذا أقْسَم بالطُّور، فلا يحتمل إلا شيئًا واحدًا، وهو جبل الطُّور الذي أقسم به في «سورة التين»: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾، فهو طُور سِينين، أو طُور سَيْناء، وهو الجبل الذي كلَّم ربُّنا عَزَّوَجَلَّ عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

* ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾:

قال بعضهم: هو التوراة، والألواح التي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[4]: ﴿أَخَذَ

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣).

(٢) ينظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٢/ ٢٢٢)، و«المزهر» للسيوطي (١/ ٣٩)، و«البُلْغة إلى أصول اللغة» لصديق حسن خان (ص٨٠)، و«النحو الوافي» (١/ ١٤٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٣٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٣٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٦٦)، والمصادر السابقة والآتية.

﴿ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤]؛ لأن التوراة مرتبطة بجبل الطُّور، فهي الكتاب الذي أنزله تعالى على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يمسها التحريف، فإذا ثبت أن القَسَم هنا بالتوراة، فهو دليل على أن التوراة في زمن النبي ﷺ لم يصل التحريف إلى لفظها، وإنما كانوا يحرِّفون معانيها، أما لفظها فكان ثَمَّ قدر من المحافظة عليه.

ولذلك لما حدثت نازلة زِنى المحصن عندهم، قال رسولُ الله ﷺ: «ما تجدونَ في التَّوراة على مَن زَنَى؟». قالوا: نسوِّدُ وجوهَهُما، ونُحمِّلُهُما، ونُخالفُ بين وجوهِهِما، ويُطافُ بهما. قال: «فَأْتُوا بالتَّوراة إن كنتم صادقينَ». فجاؤوا بها، فقرؤوها حتى إذا مرُّوا بآية الرَّجْم وَضَعَ الفتى الذي يقرأُ يدَه على آية الرَّجْم، وقرأَ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدُ الله بنُ سلَام- وهو مع رسول الله ﷺ-: مُرْهُ فليرفعْ يدَه. فرفَعَها، فإذا تحتها آيةُ الرَّجْم، فأَمَرَ بهما رسولُ الله ﷺ، فرُجِما(١).

ولا يمنع أن تكون بعض نسخ التوراة حرِّفت ونسخ أخرى بقيت محفوظة، فيكون القَسَم بالكتاب الذي أنزله سبحانه وليس بما عملته أيدي الناس.

ويحتمل أن يشمل جنس الكتاب، فيشمل الكتب السماوية(٢): صحف إبراهيم وموسى، والقرآن الكريم، والله تعالى أقسم بالكتاب المبين، والقرآن المجيد، والقرآن الحكيم.

وهي إشارة إلى أهمية الكتاب المسطور وما فيه من العلم والهُدى والرحمة والحكمة والبيان والقدر والحجة؛ ولذا كان نزول القرآن أعظم حجة على الخلق؛ وتكفَّل الله بحفظه، مع أنه نزل في أمة أُمِّيَّة لم يكن لديها ضبط للكتابة، وسَمَّى الله القرآن: كتابًا؛ لأنه سيظل مكتوبًا منذ نزل إلى يوم القيامة، وسماه قرآنًا لأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٤٣)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩)، والمصادر السابقة.

سيُحفظ في الصدور أيضًا.

ويتبع ذلك أهمية اقتناء الكتب النافعة، وأن يختار الإنسان الكتاب اختياره للصديق أو الزوج؛ لأن الكتاب رفيق تطول ملازمته ومصاحبته، وسواء كان كتابًا ورقيًّا أو مرقومًا على أقراص، فهو كتاب من حروف وكلمات وسطور يقرؤه الناس، وللكتاب الورقي أهمية باقية لا تغني عنها البرامج الأخرى، كما هو موضَّح في «سورة العلق»[1].

* ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾:

الرَّق- بفتح الراء- هو: الجلد الذي كان يُكتب فيه[2].

وعادة ما كانوا يكتبون في الجلود الناعمة؛ لأن الكتابة فيها أحفظ وأضبط، والجلود لا تتلف مع الوقت، وكثير من الكتابات القديمة المحفوظة كانت على جلود، وبعض نسخ القرآن العتيقة منذ القرن الأول مكتوبة على جلد غزال، وهي محفوظة في المتاحف.

والمَنْشُور: المفتوح[3]، وفيه معنى جميل، والكتب إنما يكون نشرها وفتحها بمثابة استنطاقها، فالكتب السماوية المنزَّلة من عند الله فيها الحق واليقين والعلم والإعجاز.

ومن هنا لا يوجد في كتابنا المعجز، ولا في سيرة نبينا ﷺ شيء نستحي منه أو نداريه أو نكتمه أو نخشى أن يطَّلع الناسُ عليه، فهو منشور مكشوف.

وفيه إلماح إلى أن الدين ليس أسرارًا ولا طلاسم غامضة، وإنما يقتبس الناس

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٧).
وينظر أيضًا: «العين» (٥/ ٢٤)، و«جمهرة اللغة» (١/ ١٢٥)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٢٣٠)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٨٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٦٦)، و«روح البيان» (٩/ ١٨٥)، و«البحر المديد» (٥/ ٤٨٥)، والمصادر السابقة.

منه بحسب أفهامهم وصفاء قلوبهم وسلامتهم من الهوى المسبق(١).

وإلماح ثانٍ إلى أن القول في المسائل الدينية لا يحسن أن يهجم عليه المرء دون بصيرة وعلم، فهي مسائل نقلية تُؤخذ من الكتب المنشورة من رب العالمين، والقول فيها بغير علم افتيات على الله سبحانه.

وإلماح ثالث إلى رفض الاتجاهات الباطنية التي تتواصى بحفظ وكتم أسرار المذهب عن العامة، وتلبس النص الإلهي معاني غريبة عنه ظاهرة التكلف، بيِّنة البطلان.

* ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾:

وهو في السماء السابعة، يسمَّى: الضُّراح، بضم الضاد(٢)، كما جاء عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٣).

والبيت المَعْمور جاء ذكره في «صحيح البخاري» عند الإسراء حينما قال: «**فرُفعَ لي البيتُ المَعْمورُ، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المَعْمورُ، يصلِّي فيه كلَّ يوم سبعونَ ألف مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم**»(٤).

وهو بمثابة الكعبة في الأرض.

ويُحتمل أن يُراد بالبيت المعمور: الكعبة(٥)، فهي بيت معمور، والمقصود بعمارته أَلَّا يخلو من طائف أو راكع أو ساجد: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩).

(٢) ويُروى: الضَّرِيح. من المضارحة، وهي: المقابلة والمضارعة. ينظر: «الصحاح» (١/ ٣٨٦)، و«النهاية» (٣/ ٨١)، و«لسان العرب» (٢/ ٥٢٧) «ض ر ح».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٤/ ٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صَعْصَعَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨)، والمصادر السابقة.

[التوبة: ١٨]، وعمارته تكون بالتردد عليه وزيارته، وتكون ببنائه، وتوسيعه ونظافته وتطهيره، ولعل الآية تشمل كل بيت معمور لله، كالضُّراح، والكعبة ونحوها.

* ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾:

الأقرب أن المقصود: السماء(١)، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فسماها سقفًا محفوظًا، وسقفًا مرفوعًا.

ورفعتها بحمايتها من الشياطين، وقداسة الوحي الذي ينزل منها، ورفعتها بأن فيها كل ما يتعلق بالعباد من الأرزاق والآجال وسائر المقادير: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

ويلحظ أن القَسَم في هذه السورة ليس قَسَمًا بأشياء فيها منافع للعباد في الحياة الدنيا، كما هو الشأن في «سورة الذاريات»، بل هو قَسَمٌ بأشياء تتعلَّق بمصالح العباد في الدار الآخرة، فيتحصَّل من هذا وذاك أن مصلحة العباد تكون بحفظ دنياهم وحفظ دينهم، حتى الكعبة نفسها قال فيها سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، يعني: قيامًا لمصالحهم الدينية ومصالحهم الدنيوية، ففيها من مصالح الدنيا الشيء العظيم(٢).

* ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾:

﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: الموقد بالنار، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]، وتقول: سجرت التنور، أي: أوقدته.

وهذا مروي عن جماعة من السلف، منهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣)،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير المراغي» (٢٧/ ١٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٧، ٥٦٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤).

ويحمل هذا على أن البحار تُوقد يوم القيامة فتكون نارًا.

ومن معاني ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾: الممتلئ الممتد المُرسَل(1)، بخلاف البُحيرات والأودية، فإنه ربما يزيد الماء فيها، وربما ينقص، وربما يجف، أما البحار فالماء فيها موجود أبدًا، فهذا من معاني ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

وفي ذلك امتنان على الناس بهذه البحار، والقَسَم نفسه دعوة إلى التأمل والتدبر والاعتبار.

وبالنظر إلى ما سبق من كون المقسَم به هنا متعلّقًا بأمور أخروية يترجح أن ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ هو: الموقد بالنار يوم القيامة، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]، ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ [الانفطار: ٣].

* وجواب القَسَم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾:

إنها كلمة مزلزلة مخيفة، وبداية الآيات وعيد بالعذاب، وقَسَم على أنه واقع، أي: سيقع لا محالة(2).

والكلمة لها وَقْع كبير على النفوس، أكثر مما لو قال: «لحادث»، وفيها تهديد شديد للمكذِّبين، وتضمَّنت رحمة الله ولطفه بالنبي ﷺ ومَن معه من المؤمنين، نستشعر ذلك في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، فلم يقل: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ﴾، فهو ربهم الرحيم: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: ٢٩- ٢٨].

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾: لا يستطيع أحدٌ أن يمنعه، ولا أن يرفعه بعد وقوعه أو يقاومه(3).

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٩)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٩)، و«تفسير الجلالين» (ص٦٩٧)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٢٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٤٦)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤)، و«فتح البيان» (١٣/ ٢٢٠).

(3) ينظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٣)، و«البحر المديد» (٥/ ٤٨٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨١٤).

* أما متى ذلك؟ فلم يمهلهم أن يسألوا هذا السؤال كما هي عادتهم، بل باغتهم بالجواب فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾:

والمَوْر: الحركة والاضطراب؛ إشارة إلى ما يقع في السماء من زوال النجوم وتكوُّر الشمس وانخساف القمر وتشقُّق السماء لنزول الملائكة(١).

* ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾:

فالجبال الرَّواسي الكبيرة التي أقسم الله بواحد منها في أول السورة وهو «الطُّور» أصبحت تسير بعد أن صارت كثيبًا مهيلًا، أصبحت مثل السَّراب، تمر مرَّ السحاب(٢).

* ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾:

والويل: وعيد وتهديد(٣) يحمل على أخذ خبر الآخرة ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ﴾، ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ بجدٍّ واهتمام، وألَّا تكون محلًّا للسخرية والاستبعاد والتشكيك.

وكثير من الجدل الذي يثار حولها ناتج عن عدم المبالاة، وعن الانخراط في المجريات اليومية والعادات المتبعة، وعدم الرغبة في الإيمان الذي قد يقمع النفس عن بعض ملذاتها، كما قال: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٥-٦].

* ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾:

فالحديث هنا عن المكذِّبين، وليس عن العصاة من المؤمنين أصحاب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٧٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١).
وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١١٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٣)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٣)، و«روح البيان» (٩/ ١٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥).

(٣) وأما ما قيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾: واد في جهنم، فهذا لا يصح فيه شيء، كما سيأتي في أول «سورة المطففين»، وأول «سورة الهمزة».

الكبائر؛ فليس المقام مقامهم، كما نصَّت الآية الكريمة(١).

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴾: فهؤلاء المكذِّبون يخوضون فيما لا يعلمون، ويلعبون ولا يتورَّعون عنْ تحويل القضايا الجديَّة إلى الهزل والسخرية؛ ولذا عبَّر أنهم في خوض، يقتحمون القضايا الكبرى دون تأمل ولا مسؤولية، وهم يلعبون في وقت الجد؛ ولذلك ذكر العلماء أن حكاية النكت والطرائف المتعلِّقة بالله تعالى أو بالقرآن أو بالرسول ﷺ أو بالقيم الدينية لا يجوز بحال أن يتعاطاه الناس مسموعًا أو مكتوبًا.

* ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾:

والدَّعُّ هو: الدفع بقوة(٢)؛ لأنهم إذا رأوا النار أحسُّوا بلهيبها، وخافوا منها وكرهوها، فهم يتقهقرون إلى الوراء ويتمنَّعون، شأن أيِّ مجرم يُساق إلى ما لا يريد، فتدفعهم الملائكة في أقفائهم وتدُعُّهم دعًّا إلى هذا المصير.

* ومع هذا الدَّعِّ والموقف الصعب يُقال لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾:

والخطاب دعوة للمشركين إلى أن يؤمنوا، حتى لو كان وعيدًا، إلا أنه دعوة إلى الإيمان؛ حيث جاءهم في الدنيا، وعُوجلوا به، وأُخبروا عنه قبل أن يقع.

فالنار التي كانت خبرًا مستقبلًا يتوعَّد به الكافرون ها أنتم ترونها الآن بعيونكم وتحسُّون حرَّها ولهيبها!

* ﴿ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾:

كانوا يقولون: إنه ﷺ ساحر. فيأتيهم الجواب في هذه الآية: هل هذا سحر وأنتم ترونه بأعينكم؟ ﴿ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴾، وهذا تعريض بما كانوا يقولونه في

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٠٣)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٧٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٣).

الدنيا عن النبي ﷺ، وبيان أن المشكلة في غفلتهم وإغلاق قلوبهم وصدودهم عن الحقِّ، حتى كأنهم لا يبصرون الآيات من حولهم في الدنيا.

* ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾:

وقوله: ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ [مريم: ٧٠]، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥- ١٦]، كأن «الصَّلْي» هنا من شأن الأَشْقى الذي كذَّب وتولَّى، أما المؤمن فربما تصيبه النار بقدرٍ دون أن يصلاها صَلْيًا كاملًا، ودون أن يُدَعَّ إليها دَعًّا؛ لأن المسألة مسألة تطهير له، أما هؤلاء فهي دارهم وقرارهم: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ أي: لا ينفع الصبر أو الجزع[1]، كما قالوا هم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: وتأمل كيف أنه لم يقل: «إنما تُجزون بما كنتم تعملون»؛ إشارة إلى كمال العدل الإلهي؛ فقد جعل الجزاء هو ذات الفعل الذي فعلوه[2]، والجزاء لم يزد عليهم شيئًا: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾:

مثلما قال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥]، والوعد يشمل أصحاب المقامات العالية في التقوى من السابقين والأبرار، كما يشمل عموم المؤمنين الذين اتقوا الكفر والشرك بالإيمان بالله، ولو قارفوا بعض الإثم.

* ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾:

أي: فرحين مستبشرين مسرورين، وهذه قراءة الجمهور، وقرأها بعض السَّبْعة:

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٤)، وما سيأتي في «سورة الإنفطار»: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ ﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾، و«سورة الليل».

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٣)، و«روح البيان» (٩/ ١٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٢٢).

﴿فَكِهِينَ﴾، بغير مدٍّ(١)، والمعنى واحد(٢)، فهم مسرورون بعطاء الله في الجنة من ألوان الملذَّات، التي منها الملذَّات المعنوية، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم، والسماع لكلامه سبحانه والسرور برضوانه: «أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبدًا»(٣). ومثل ما أُعطوا من ألوان ملذات المعرفة في الجنة والمتعة بها، وأيضًا الملذَّات الحسيَّة من المطاعم والمشارب والمآكل والملابس والسرر وغير ذلك مما ذكر تعالى في كتابه(٤).

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾: كرر لفظة: ﴿رَبُّهُمْ﴾ مرتين، وفيه إشارة إلى أن المقام ليس مقام جزاء فحسب، بل جزاء وفضل من الله، وهو المنعم المتفضِّل(٥)، فهو الذي وقاهم من النار، وهذا وحده فضل عظيم، ولو لم يكن لهم إلا السلامة من العذاب لكفى، ولكنه جاد عليهم بهذا العطاء الذي هو بغير حدٍّ ولا عدٍّ، يُصَبُّ عليهم صَبًّا، ولا يحتاج إلى جهد ولا معاناة.

* ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

فكل شيء متاح لكم مع الهناءة؛ لأنه لا شيء يخيفهم، لا الموت ولا المرض ولا الانقطاع ولا الزوال، فقد أمنوا ذلك كله، وكل الغوائل والمفاجآت التي اعتادوا أن يتوقعوها في الدنيا، بل ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٨]، يعني: غير منقطع(٦).

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٥٤- ٣٥٥، ٣٧٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٥١).

(٢) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٨- ٣٨٩)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٦).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٢٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٦).

(٦) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ١٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٥).

﴿هَنِيٓـَٔا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: قال هنا: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾، وفيه ثناء عليهم، فلم يكن هذا نعيمًا لا سبب له، بل هو بسبب أعمالهم التي استحقوا بها رحمة الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، بخلاف الكافرين، حيث قال: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾، فبين قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٩﴾ بالنسبة لأهل الجنة، وقوله مخاطبًا أهل النار: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾، بين الخطابين فرق عظيم؛ فالجزاء للكافرين من غير زيادة ولا نقص، أما المؤمنون فليس الجزاء مقابل عملهم، فإنما الحسنة بسبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، «**قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالِحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»[(١)]. أعمالهم كانت سببًا لتأهليهم للفوز بالرضوان والرحمة، ولكن لا مقابلة بين عملهم وبين مصيرهم العظيم الذي هو منة من الله وفضل.

وهذا القول تقوله الملائكة لهم ترحيبًا بمقدمهم وتهنئة لهم، وهو نوع من النعيم العظيم، وقد كان الناس في الدنيا يفرحون بحسن الاستقبال كما يفرحون بكرم الضيافة، حيث قال قائلهم[(٢)]:

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ... ويُخْصِبُ عندي والمَحَلُّ جَدِيبُ
وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرَى[(٣)] ... ولكنَّما وجهُ الكريمِ خَصيبُ

* ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٢٠﴾:

يمكن أن تكون السُّرر مصفوفة لكل واحد منهم، ويمكن أن يكونوا على سُرر مصفوفة متكئين عليها[(٤)]، كما قال في موضع آخر: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ [الواقعة: ١٦]، ففيه سرور الاجتماع والترائي والأنس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤، ٤٧٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٢٦٢) منسوبًا إلى يعقوب الخُريمي، وهو في «ديوانه» (ص١٢). ونُسب إلى حاتم الطائي، كما في «العقد الفريد» (١/ ١٩٧، ١٩٩)، و«الروض الأنف» (٢/ ٦٥).

(٣) الخِصب: كثرة الكرم، والقِرى: ما يقدَّم للضيف.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٢٤).

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: التزويج معناه: القَرْن، أي: قرنَّاهم بحُور عين[1] وجعلنا الحور العين معهم أزواجًا اثنين اثنين، هذا هو المعنى، وإلا فإنه لو كان المقصود الزواج الذي هو العقد لعبَّر عن ذلك بدون الباء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لم يقل: زوجناك بها.

وحُور جمع: حَوْراء، وهي شديدة البياض مع شدة الجمال والصفاء في الألوان، وعين جمع: عَيْناء، وهي واسعة حدقة العين مع صفاء العين وجمالها[2].

* هنا يأتي سؤال: أين الأولاد الذين هم من أعظم النعم؟

يأتي الجواب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:

قرأها الجمهور بإفراد الذرية: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والقراءة الأخرى- وهي سَبْعية- بالجمع: ﴿ذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[3].

ومعنى ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ أي: أن الذرية سارت مسيرتهم، فهي ذرية اتبعت الآباء بالإيمان بالتربية الصالحة وتلقين الإيمان والقيم ولو في أحلك الظروف[4].

والإيمان محله القلب، فلا يقسر الإنسان عليه وإنما يلقن الإيمان؛ بالدعاء وحسن التعامل والقدوة الصالحة وحسن الخلق، والنفقة الحلال، وصدق النية

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٠٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٩٤)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٥)، و«فتح القدير» (٤/ ٦٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٣١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٥، ٥٧٨)، (٢٢/ ٣٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤١٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٢١٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٣٣).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٢٦٢، ٦١٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٣٣)، و«حجة القراءات» (ص٦٨١)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص١٨١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٥٥).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٤١١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٧).

والدعاء الصالح، فهي اتِّبعتهم على الإيمان وليس مجرد الإسلام الظاهر، وهي أيضًا تابعتهم في سلوكهم الظاهر وهديهم بإيمان وصدق واقتناع.

ويحتمل أن يكون المقصود: الذرية الكبار الذين بلغوا وتعلَّموا واتَّبعوا وآمنوا.

ويحتمل أن يكون المقصود: الصغار؛ فإن الصغير يتبع خير والديه في الدين[1].

ويؤيِّد هذا التأويل: القراءة الأخرى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾[2]؛ فالآية تشمل الذرية الكبار، وتشمل الصغار الذين ماتوا دون البلوغ وهم في الجنة بفضل الله[3]؛ ولذلك لم يقل: بالإيمان، إنما قال: ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾؛ إشارة إلى أن المقصود هنا حتى لو كان ثَمَّ شيء من التقصير، أو كانوا أطفالًا لم يبلغوا ولم يفهموا الأشياء على حقائقها، وأن يستقلُّوا بمعرفتها، لكن عندهم الأصل الذي تربوا وتعلموا عليه من الإيمان، فالجزاء هو: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ومن كمال متعتهم وعيشهم أن يُلحق بهم أولادهم، كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إن اللهَ يرفعُ ذريةَ المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل»[4]، وجاء عن جمع من السلف ما يقتضي ثبوت صحة هذا المعنى[5]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُلحق الأدنى

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٧).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٢)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٤)، و«حجة القراءات» (ص٦٨١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٥٤ - ١٥٥).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

(٤) أخرجه البزار (٢٢٦٠- كشف)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٧٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٤٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٠٢) مرفوعًا.

وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٠٩)، والحاكم (٢/ ٤٦٨)، والبيهقي (١٠/ ٤٥٣) موقوفًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٩٠).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨١، ٥٨٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٣).

بالأعلى، من دون أن ينقص من أجورهم شيئًا، فإن كان الابن في منزلة أعلى أَلْحَق والديه به في الجنة، وإن كان الأب في منزلة أعلى أَلْحَق أولاده وذريته وزوجه به، فيجمع الله تعالى الأسرة كاملة، وهذه بركة الاقتران بالطيبين والتأسِّي بهم، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لم ننقصهم شيئًا من أعمالهم(١)، وفي القرآن الكريم موضع آخر ذكر الله فيه هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: لا ينقصكم من أعمالكم(٢)، فهنا المعنى: لم ينقص الله تعالى الآباء من عملهم شيئًا، وإنما رفع الأبناء إلى منزلتهم، فضلًا منه وكرمًا.

﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾: وهذه قاعدة عامة، فكل شخص رَهِين بكسبه، كقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨- ٣٩]؛ ولهذا قال بعضهم هنا: ﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: من غير المؤمنين.

وقال آخرون: ﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ من المؤمنين وغيرهم.

وهذا أولى؛ لأنه حملٌ للمعنى على عمومه، مرتهن بما كسب من خير أو شر(٣)، وفضل الله تعالى وراء ذلك وفوقه، ولا يمانعه ولا يعارضه.

* ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

هذا على سبيل المثال لا الحصر، ومن عادة الملوك والمرفَّهين في الدنيا إذا اجتمعوا بأولادهم وأسرهم أن يجتمعوا على موائد الطعام، فكذلك في الجنة، ولكن بنعيم أوفى وأكرم، فالأسرة مجتمعة على خير وعلى سُرُر متقابلين، والمدد يأتيهم بكرةً وعشيًّا: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٠، ١١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦٦)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحجرات».

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٩١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٠)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٩٧)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة المدثر».

* ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾:

أي: يأخذ بعضهم من بعض يتعاطون الكؤوس[(١)]، والكأس يُطلق عادة على الخمر[(٢)].

فهم يتعاطونها بعضهم من بعض على سبيل المرح والمتعة وكمال النعيم، كما يحدث ذلك في الدنيا لمَن كمل سروره، لكن الكأس في الجنة ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ليس فيها سُكْر[(٣)]؛ لأن المرء إذا سَكِر هَذَى وأصبح يلغو بالكلام الذي لا يليق، وليس فيها تأثيم، وهو: الإثم الذي يلحق الشارب[(٤)]؛ لأنها ليست محرمة عليهم، وليس فيها ما يدعو إلى الإثم، فنفى عن الخمر كل عيوب الدنيا، وهي السُّكْر أو الغَوْل، حيث قال: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ [الصافات: ٤٧].

والعيب الثاني: اللَّغو الناتج عن تراجع العقل وسَطْوة الخمر.

والثالث: هو التأثيم، والإثم الناتج عن ارتكاب الكبيرة الموبقة في الدنيا؛ ولذا ورد عن النبي ﷺ: «مَن شرب الخمرَ في الدنيا، ثم لم يَتُبْ منها، حُرِمها في الآخرة»[(٥)].

* ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾:

أي: بالخدمة، وهؤلاء الغلمان خلقهم الله تعالى لمهمة الخدمة في الجنة وليسوا عَبِيدًا لهم[(٦)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٤٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٧٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣٣).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٦) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٥٤).

وهم في هذا المقام وبهذه الصفة ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، وإذا كان هذا هو جمال الخدم، فما بالك بالمخدومين؟!

وقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩]، وتأمل عناية القرآن بتوصيف الخدم الذين يطوفون على أهل الجنة بالشراب والسقي والطعام والمتعة، فكيف بحال أهل الجنة أنفسهم؟!

* ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

طاب الحديث وطاب الكلام وطاب المقام، فبدؤوا يتساءلون هم وأولادهم وأهلوهم الذين اجتمعوا في الدنيا على خير ومصلحة دنيوية أو دينية، ليس فيها معصية لله تعالى، فجمعهم في الدار الآخرة على أحسن حال.

وهذا دليل على أنهم يتذكرون كل ما كان في الدنيا، كما يذكر الكافرون، لكن المؤمنين يتذكرون تَنَعُّمًا والكفار يتذكرون حسرةً وأسفًا.

ولأهل الجنة من كمال العقول والأفهام واتساع المعارف وقدرات التذكر والاستحضار والاستمتاع ما لا يخطر على بال، وهو ضمن قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**أعددتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»(١). وليس النعيم مقصورًا على المطاعم والمشارب ونحوها، بل نعيم الرؤية والسماع لقول الله والرضوان والمعرفة أعظم من ذلك وأوسع.

* ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: في الدنيا خائفين من عذاب الله(٢)، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج: ٢٧- ٢٨]، وهو الخوف الذي يحمل على ترك المعصية وفعل الطاعة، وليس الخوف المسرف الذي يتحول إلى

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٠)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٨).

وسوسة، ولا الخوف من الموت الذي يتحول إلى مرض يُقعد الإنسان حتى عن عمل الدنيا، كما قيل في وصفهم[1]:

وإن جَـنَّ المساءُ فلا تراهم مـن الإشـفـاق إلَّا ساجدينا

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم كانوا خائفين على أولادهم وعلى ذراريهم أَلَّا يصلوا إلى ما وصلوا إليه.

* ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾:

و﴿ٱلسَّمُومِ﴾ هي: الرِّيح الحارة التي تَسْفِي الترابَ[2] الحار، واستعاره هنا لمعنى النار[3].

* ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾:

وفي قراءة بفتح الهمزة: ﴿نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[4]، يعني: لأنه ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

وهذه إشادة بمنزلة الدعاء، وأنه من أعظم الأعمال، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، و«مَن لا يسألِ اللهَ يغضبْ عليه»[6]؛ لما في الدعاء من انكسار النفس، والتواضع لله سبحانه، والاعتراف بالضعف والعبودية والعجز للنفس، والاعتراف بالكمال والقدرة لله، فاجعل لسانك رطبًا بدعاء الله سبحانه،

---

(١) ينظر: «ديوان هاشم الرفاعي» (ص٣٨٤).

(٢) أي: حملته أو ذرته.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٢).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٣)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٣٤).

(٥) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٧)، و«حجة القراءات» (ص٦٨٣- ٦٨٤).

(٦) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٩٧٠١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والبزار (٩٤٢٥)، والترمذي (٣٣٧٣)، والحاكم (١/ ٤٩١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٥). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٥٤).

ولا تعتمد على نفسك في شيء قط، واحذر أن يكلك الله إلى نفسك فتهلك؛ ولذا قال ﷺ: «دعواتُ المكروب: اللهمَّ رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصْلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إِلَّا أنت»(١).

و﴿ٱلْبَرُّ﴾: صاحب البر والجود والكرم والعطاء.

ومن معاني ﴿ٱلْبَرُّ﴾: الصادق، تقول: «فلان بارٌّ، برَّ في يمينه»، أي: صدق ولم يكذب، وكلاهما داخل هذا الاسم الشريف الذي هو من أسماء الله الحسنى، فرحمهم ووقاهم ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، وأوصلهم إلى ما يريدون(٢).

* ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾:

كما يدَّعي هؤلاء الذين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا، وقال بعضهم: كاهن؛ لأنه يخبر بعلم الغيب وما سيكون.

وقال بعضهم: مجنون؛ لأنه يدَّعي أمورًا لم تقع، فأمره الله أن يُذَكِّر ولا ينزعج أو يقلق مما قالوا، فلست بسبب ما أنعم الله تعالى عليك من العقل واصطفاء الله لك بالوحي ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يزعمون(٣).

ثم جاءت محاجة الكفار بهذه الصيغة ﴿أَمْ﴾ خمسة عشر مرة في هذه السورة بطريقة لا مثيل لها في القرآن الكريم.

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾:

هذا مما ادَّعوه لما قالوا: كاهن، أو مجنون، فنفى تعالى ذلك ولم يتوقَّف عنده؛ لأنه واضح البطلان، فهم يعرفون أنه ليس بشاعر، والشعر صنعتهم وبضاعتهم.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٩١٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤١٢)، وابن حبان (٩٧٠) من حديث أبي بَكْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله شواهد. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٣)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (١٠/ ٢٤١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٠)، و«لسان العرب» (٤/ ٥٢) «ب ر ر».

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾، و﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾، و«سورة الحاقة»: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾.

وهم كانوا يُلَبِّسون على الجهلة والعوام بأنه رجل يتعاطى الشعر، ومثله مثل الشعراء السابقين الذين هلكوا ولم يحدثوا تأثيرًا في الحياة، وكأنهم بهذا يعزون أنفسهم أيضًا بأن مآل هذه الرسالة إلى زوال وخفوت وهلاك صاحبها، فيكفي معها ومعه مجرد التربُّص، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥٢].

و﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ يحتمل أن يكون المقصود به: الموت[١]، كما قال أبو ذُؤيب الهذلي[٢]، وقد مات بنوه السبعة بالطاعون في عام واحد:

أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ ... والدَّهرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَن يَجزَعُ

ويحتمل أن يكون: حوادث الدهر، وتحوله من حال إلى حال، بالموت أو غيره[٣].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كل ﴿رَيْبَ﴾ في القرآن: شكٌّ، إلا مكانًا واحدًا في الطُّور: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، يعني: حوادث الأمور»[٤].

وكما قال الشاعر[٥]:

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٤٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٢- ٥٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٢).

(٢) ينظر: «المفضليات» (ص٤٢١)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص٥٣٤)، و«كتاب الألفاظ» لابن السكيت (ص٣٣٠)، و«عيار الشعر» (ص٨٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٥٠٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٦)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه ابن الأنباري في «الوقف والابتداء» (١١٧). وينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٢٨)، و«الإتقان» (٢/ ١٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦١).

(٥) ينظر: «معجم الشعراء» (ص٣١٩)، و«الجليس الصالح» (ص١٢٣)، و«مصارع العشاق» (٢/ ١٥٩)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٢٣٠)، والمصادر السابقة.

تربَّص بها ريبَ المنون لعلَّها تُطلَّقُ يومًا أو يموتُ حليلُها

أي: يتربَّص تغيُّرًا يسمح بالوصول إليها، **فيكون المعنى**: تربَّصوا بمحمد، فربما يموت، أو يعجز، أو يضعف، أو ينتصر عليه غيره، أو يُكْفَى بغيرنا.

والأقرب الأول، وأنهم رأوا انتظار موته، وظنوا أنه بموته سيموت شأنه، وتنتهي رسالته ودينه.

ولعل المقصود بـ«رَيْب المنون» في البيت هو: موت حليلها، لا غير(١).

* ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾:

إما أن يكون المقصود أصل التربُّص، **فيكون المعنى**: أنا أتربص بكم مثلما أنتم تتربَّصون بي(٢).

وهذا يتطابق مع قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥٢].

أو أن المقصود هو أن الشأن إذا كان شأن الموت الذي تتربصونه بي، فأنا أتربص الموت مثلكم؛ لأن الموت حقٌّ عليَّ وعليكم، ولست بجزع من الموت ولا أبالي أن ألقى الله تعالى، وإنما الشأن بكم أنتم(٣)!

وهذا ينطبق على اليهود حين كانوا يأتون النبيَّ ﷺ ويقولون: «السَّامُ عليك يا أبا القاسم». يتظاهرون بأنهم يُلقون السلام، وهم يدعون عليه بالموت، والسَّام هو: الموت(٤)، ولما غضبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وسبَّتهم، نهاها ﷺ، وقال: «مَهْ يا

---

(١) وبهذا ذكره الطبري (٢١/ ٥٩٤) ضمن الأقوال التي يعنى بها الموت، وذكره غيره ضمن القول الآخر.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٤)، و«تفسير الماتريدي» (٤/ ٣٣١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٢).

(٤) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٥٧)، و«الاستذكار» (٨/ ٤٦٨).

عائشةُ، فإن اللهَ لا يحبُّ الفحشَ والتَّفَحُّشَ»(١). وقال النبيُّ ﷺ: «وعليكم». يعني نحن وإياكم نشترك في الموت، فهو أمر مشترك بيننا وبينكم.

وفي هذه الآية إعجاز لأنه قال لهم: ﴿تَرَبَّصُوا﴾، فكان أولهم موتًا أبو جهل والزعماء الذين قُتلوا ببدر وسُحبوا إلى القَلِيب، وعاش النبيُّ ﷺ بعدهم، وانتشرت دعوته، وعمَّت رسالته، واتَّسعت أمته، حتى جاوزوا اليوم مليارًا ونصف مليار، كلهم يشهدون أنه رسولُ الله!

* ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

سؤال استفهام على سبيل الإنكار والتعجب منهم، **والأحلام** جمع: حِلْم، وهو العقل(٢)، **والمعنى**: هل عقولهم تأمرهم بهذا الإنكار والصدود والإعراض عن الحق(٣)؟

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: وهم أدرى بطبيعة الحال أن هذا لا يصدر من حِلْم وعقل، وإنما يصدر من طغيان؛ أن يصفوا رجلًا مثل النبي ﷺ بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن(٤).

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

وقد قالوا: إن النبيَّ ﷺ تقوَّل هذا: والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦]، فإن أحدًا يدَّعي على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويعلن بأن هذا من عند الله، وأن الله أمره ونهاه، ثم يمكِّن اللهُ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٣٥، ٦٢٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥، ٢١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٠- ٤٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١١).

(٢) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٣/ ٣٦٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٥٣)، و«لسان العرب» (١٢/ ١٤٦)، و«تاج العروس» (٣١/ ٥٢٧) «ح ل م».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٥٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٣).

(٤) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٤).

تعالى له في الأرض وينصره ويعزّه ويظهر كلمته ويبقى على العصور والقرون والأجيال متبوعًا محبوبًا مؤيَّدًا منصورًا؛ هذا لا يتأتّى! فالله تعالى يقمع أولئك الذين يتقوَّلون عليه.

ثم إن في دعواهم هذه أنه ﷺ تقوَّل القرآن من تلقاء نفسه تناقضًا؛ فكيف تزعمون أنه تقوَّل هذا القول المحكَم البليغ العظيم، الذي يُعْجِزُ العقلاء ويُبْهِرُ العظماء ويقع به التحدِّي لهم ولغيرهم فينقطعون، وتزعمون في الوقت نفسه أنه مجنون؟!

* ولهذا قال بعدها: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾:

وتأمَّل أنه قال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾، ولم يقل: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، أو: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، فتحدَّاهم الله تعالى بأقل قدر، فلم يستطيعوا، وتخيَّل كيف هو حالهم وهم يقولون مثل هذا الكلام، ويسمعون هذا الرد القرآني! فلو لم يكن ﷺ مرسَلًا من عند الله ويتلو كتاب الله لما تحدَّاهم بهذا؛ لأن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يتجرَّأ على مثل هذا التحدِّي إلا وهو يعلم أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

* ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾:

انتقل بهم إلى المجادلة في شأن الإلوهية، فهل خُلقوا من غير خالق؟

ويحتمل أن يكون المعنى: من غير مقصد وغاية؟[1] ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ﴾: أهم الخالقون لأنفسهم؟ لأن هذا أقرب مذكور في الآية، هل ينكرون أن يكون الله تعالى خلقهم أم هم الخالقون أنفسهم؟

وهذا محال، ولا يمكن أن يخلق الإنسان نفسه؛ لأنه العدم لا يخلق نفسه ولا يخلق شيئًا، فهذا من المستحيلات.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢١).

* ولهذا عقَّب بتحدٍّ أكبر، فقال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

فهذه السماوات والأرض التي يرونها أمامهم بهذه القوة والضخامة تصدمهم وتجبههم في كل وقت، هل هم الذين خلقوها، أو يعرفون أحدًا ادَّعى أنه خلقها؟

كيف وهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلقها، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ لأنهم إذا سُئلوا في الجاهلية: مَن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله. ولكن الله فضحهم بأنهم وإن كانوا يردِّدون بألسنتهم أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، لكن هذا ليس يقينًا في نفوسهم، وإنما ثقافة توارثوها، وكلمات ردَّدوها، دون أن تستقر إيمانًا في قلوبهم.

* ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

حينما احتجوا على رسالة النبي ﷺ، ورأوا أنه ليس جديرًا بها، واقترحوا أن تكون الرسالة إلى ﴿رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، أي: إلى كبير من كُبراء الطائف أو آخر من كبراء مكة(١)، فهل خزائن الله عندهم حتى يقوموا بقسمتها؟ في حين يبلغ تواضع النبي ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

و﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾: تُقرأ بالصاد عند جماعة، وتُقرأ بالسين: ﴿الْمُسَيْطِرُونَ﴾، وكلاهما قراءة سبعية(٢)، أي: ألهم السيطرة والملك والغلبة(٣)، وكأنهم أرباب متصرِّفون في الأكوان، أو بيدهم الأمور(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٥٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ١٨٢)، و«تفسير المنار» (٨/ ٣٣).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٨)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٦٦ - ١٦٧).

(٣) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٨)، و«حجة القراءات» (ص٦٨٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٢)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٥).

* ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾: يمدونه إلى السماء ويقعدون عليه فيستمعون أو يسترقون السمع(١)، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وليس بادِّعاء مثلما يدَّعي الكهنة أو غيرهم، وإنما بحجة قوية تثبت أنهم فعلًا يستمعون، في حين أن الرسول ﷺ كان يأتيه جبريل بالوحي بكرةً أو عشيًّا، ويتلو على الناس هذا الوحي المعجِز، والحاوي ألوان المعرفة والحق في أخبار الماضي وأحكام الحاضر، ومواعيد المستقبل وأسرار الصنعة والكون، مما لا يستطيعون أن ينكروه، ولا أن يأتوا بمثله.

* ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

وذلك أنهم كانوا يدَّعون أن الملائكة بنات الله(٢).

* ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

وجِّه الخطاب إلى النبي ﷺ: هل طلبتَ منهم مالًا على دعوتك؟ فلذلك هم مثقلُونَ بهذا الدَّين الذي تطلبه منهم، ولا يستطيعون أن يسمعوا، ولا أن يستجيبوا؟!(٣).

* ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾:

هل اطَّلعوا على الغيب، ولو أصبح عندهم لم يعد غيبًا، فقد عرفوه، وهذا نوع من التعجيز، فليس عندهم ﴿سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، وليس ﴿عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٧٢).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، وقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات: ١٤٩]. ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٥- ٢٠٦)، و«تفسير الماتريدي» (٤/ ١٩٤، ٢٦٧)، (٩/ ٤١١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٢٧٦).

أي: ينسخون ما اطلعوا عليه[1].

* ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

وهذا هو المقصود أنهم يريدون كيدًا، وكل ما يقولونه ليس على سبيل المناقشة المعرفية، ولا الجدل العلمي، ولا الحجة، ولا على سبيل الشبهة التي تحتاج إلى كشف، كلا! بل على سبيل الكَيْد والتحذير من دعوته ومحاربتها[2].

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: وقد يكون هذا مرتبطًا بقولهم: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾، والمعنى: أنهم كانوا يضعون خطةً لقتله ﷺ، وإلا فهل كان عندهم الغيب فاطَّلعوا على أن عمر النبي ﷺ أقصر من أعمارهم، وأنه يموت قبلهم؟ كلا! بل الذي حدث أن الله مكر بهم مقابل مكرهم، وقال: ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ مصداقًا لقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، فقد ماتوا هم، وبقي هو حتى استقرت رسالته، وانتصرت دعوته، وآمن بها الناسُ.

* ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها، ما منزلتها، وما مكانتها وما تأثيرها؟ هل خَلَقتْ؟ هل رَزَقتْ؟ هل أَعطتْ؟ هل عَلِمَتْ غيبًا[3].

* ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

وهذا لم يحدث، لكنه شيء كانوا يقترحونه: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٧٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٧٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٨).

﴿ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ فلن يؤمنوا ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٧]، ولو رأوه لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، إنه سُحُب تراكمت، واجتمع بعضها على بعض(١).

هذا الحشد من الأسئلة الذي لا نظير له يؤكِّد على حرص القرآن الكريم على رفع الغشاوة عن الناس وكشف حالة الغفلة؛ ليحمل القارئ على مواجهة أسئلة الكون والحياة بجد، ويحاصر العقول والقلوب من كل ناحية؛ ليكشف غشاوتها ويحرِّكها ويحملها على النظر والتفكُّر، ولعل هذا هو أخطر ما يُبتلى به الناس، أن يمروا على الحقائق معرضين، ويردِّدوا كلامًا حفظوه واعتادوا أن يقولوه، دون أن يعني إيمانًا وقناعة.

حتى القرآن الكريم نفسه كم يقرؤه الناس وهم عن تدبره غافلون، دون أن يدركوا مقاصده ومراميه، فلا تلامس حقائقه شغاف قلوبهم، ولا تحرِّك ضمائرهم، ولا تغيِّر واقعهم.

أو يقرؤونه وهم منهمكون في جانب لغوي إعرابي، أو فقهي بحت، أو بلاغي، ربما بالغوا فيه حتى حجبهم عن حقيقة القرآن وعظمة آياته، وهداياته إلى الله العظيم وأسمائه وصفاته ووحدانيته وعبادته، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

* ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

ليس معناه ترك الدعوة، بل ترك الجدل العَقِيم معهم، حيث يصبح بلا قيمة، ولا تحزن عليهم، والكفار آنذاك كانوا خلقًا كثيرًا في مكة وغيرها، وكانوا ألوانًا وضُروبًا، فيهم الملأ المستكبرون الذين يحاربون الإسلام ويحاصرون دعوته، وفيهم العوام الذين ينتظرون أن تُحسم المعركة حتى يذهبوا إلى ما تمليه عليهم

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ٢٨٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٧٦)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٢٠٦)، و«الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية» (٢/ ٣٦٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٠٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٩٦).

قناعاتهم، وليس عندهم استعداد أن يضحوا في سبيل تلك القناعات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، وقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١، ٢]، هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجًا هل جاءت حجج جديدة لم يسمعوا بها من قبل؟ كلا؛ هي الحجج والآيات نفسها، ولكن الموانع التي كانت في نفوسهم وعقولهم تَحُول بينهم وبين الاستماع والتفكير واتخاذ القرار زالت بسبب تغيُّر الوضع السياسي والاجتماعي والقبلي، فدخلوا في دين الله أفواجًا؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يعني: اترك الملأ المستكبرين الذين كُتب أن يموتوا على الكفر، كأبي لهب وأبي جهل والملأ من قريش، ذَرْ هؤلاء، ولا تحزن عليهم، ولا تلتفت إليهم، وانشغل بدعوة مَن يستجيب للدعوة(١).

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: تصيبهم الصَّعْقة، والصَّعْقة قد تقتل، وقد تجعل الإنسان في غيبوبة ثم يسقط، فيحتمل أن يكون المعنى: الموت، ويحتمل أن يكون المقصود: أهوال يوم القيامة(٢)، على اختلاف القراءاتين بضم الياء: ﴿يُصْعَقُونَ﴾، وفتحها: ﴿يَصْعَقُونَ﴾، وكلاهما قراءة سبعية(٣).

* ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦﴾:

أي: لا ينفعهم شيئًا كيدُهم في الدنيا؛ لأنه قد زال، وفي ذلك الموقف لا كيد

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٢١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٥/ ١١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣).

وينظر أيضًا: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٧-٢٢٨)، و«حجة القراءات» (ص٦٨٤).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٦٩).

لهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من قِبَل طرف آخر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

* ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: يصيبهم في الدنيا قبل الآخرة[2]: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾.

وتحمل أولًا: على الدونية الزمنية، أي: أنه في وقت مبكِّر قبل يوم القيامة، فهو في الحياة الدنيا، كما قال سبحانه ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، وهذا يعني كل ما يصيبهم من عذاب الدنيا أن يكون فيه توجيه لهم إلى التقوى والإيمان والطاعة وإقامة الحجة.

ويحمل على عذاب القبر، كما قال بعض المفسِّرين، فإنه قبل يوم القيامة، وهو عذاب البرزخ[3]، وهو دون ذلك أيضًا من حيث الشدة والقوة؛ لأنه لا يقارَن بعذاب الدار الآخرة، فعذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، كما قال ﷺ[4].

* ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾:

وهذا تثبيت للنبي ﷺ، وتقوية لقلبه، يأمره ربُّه أن يصبر لحكم الله تعالى[5]: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، اصبر على الشريعة، اصبر على تأخر الفتح والفرج

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ١٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٢)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٣٤١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٥٤)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٥/ ١٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ٢٣٣).

(٤) كما في «صحيح مسلم» (١٤٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٣).

والنصر والتمكين.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فإن الله تعالى لا يغفل عن هؤلاء الظالمين، ولا يترك أولياءه ورسله وأنبياءه، فهو يراهم ويسمعهم ويجيبهم، ولكنه قد جعل لكل شيء أجلا(١)، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرآنا(٢)، كما قال سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وكما قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، وقال لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾، وفي «صحيح البخاري»: «كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم»(٣).

وللتسبيح سرٌّ في تقوية القلب، وتعزيز النفس، والصبر على صعوبات الحياة، وتحقيق النجاح، وتحصيل السعادة والرضا والقرب؛ ولذلك فإن إدمان التسبيح ترياق، وبخاصةً للذين يواجهون مواقف صعبة، أو أعمالًا شاقة، كما أرشد النبيُّ ﷺ عليًّا وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» عند النوم، وقال: «هو خيرٌ لكما من خادم»(٤).

والمعنى: حين تقوم من النوم، فالتسبيح مشروع أول ما يصحو الإنسان، فيسبِّح ربَّه ويحمده؛ ولذلك شُرع مثل: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النُّشُورُ»(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٥)، و«روح البيان» (٩/ ٢٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣١١٣، ٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «صحيح البخاري»: «مَن تَعارَّ من الليل[1]، فقال: لا إله إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له، له المُلكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ لله، وسبحانَ الله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بالله. ثم قال: اللهمَّ اغفرْ لي- أو: دعا- استُجيبَ، فإن توضَّأَ وصلَّى قُبلتْ صلاتُه»[2].

هذا وعد عظيم أن يستحق المغفرة إذا ما انقلب من جنب إلى جنب وقال هذا الدعاء: «اللهمَّ اغفرْ لي». وهذه من الغنيمة الباردة.

وحمل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ على القيام من القيلولة[3]؛ لأنهم كانوا يقيلون قبل صلاة الظهر، فإذا صحا سبَّح ربه.

وقيل: حين تقوم من مجلسك[4]، وهذا ما يسمى: كفارة المجلس، وفي الحديث: «مَن جلسَ في مجلس، فكثُرَ فيه لَغَطُهُ فقال قبلَ أن يقومَ من مجلسه ذلك: سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، أشهدُ أن لا إله إِلَّا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك. إِلَّا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك»[5].

وهذا الحديث ورد من طرق كثيرة، حتى جمع فيه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ جزءًا خاصًّا في جمع طرقه، وإن كان كثير من طرقه معلولة، لكن في مجموعها لها أصل،

---

(١) أي: استيقظ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٥)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٣٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٠٤١٥)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٥٧)، وابن حبان (٥٩٤)، والحاكم (١/ ٥٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «التاريخ الكبير» (٤/ ١٠٤)، و«الضعفاء» للعقيلي (٢/ ١٥٥)، و«علل ابن أبي حاتم» (٢٠٧٨)، و«علل الدارقطني» (٨/ ٢٠١)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (٢/ ٧١٦-٧٤٥).

فتختم بهذا التسبيح ﴿حِينَ تَقُومُ﴾.

فيتحصَّل مما سبق: التسبيح قبل النوم، حتى ينام على تسبيح، وعند الاستيقاظ؛ ليكون التسبيح أول ما يباشره عقله وقلبه ولسانه عند صحوه، وأثناء تقلبه في المنام من جنب إلى جنب، وأثناء تقلبه في الحياة وأعمالها.

* ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾:

والمقصود: صلاة المغرب وصلاة العشاء[1]، فهما من الليل، والصلاة تسبيح؛ ولهذا تسمى صلاة الضُّحى: سُبحة الضُّحى؛ لأن المصلِّي في الركوع يقول: «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى».

أما ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ فهو: وقت الفجر[2]، إذا النجوم أدبرت، وبدأت تغيب عند الإسفار.

وقال بعضهم: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: راتبة الفجر[3]، فقد قال النبيُّ ﷺ: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها»[4]. و «لم يكن النبيُّ ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ منه تعاهدًا على ركعتي الفجر»[5]. ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «لا تَدَعُوا ركعتي الفجر، وإن طردتكم الخيلُ»[6]. وكان ﷺ لا يتركها في حضر ولا في سفر، يقرأ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٦٨، ٦٠٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٥٧)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٤٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٨)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨١٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٥١٤)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه مسلم (٧٢٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه البخاري (١١٦٩)، ومسلم (٧٢٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) أخرجه أحمد (٩٢٥٣، ٩٢٥٨)، وأبو داود (١٢٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورجَّح الدارقطني وقفه. ينظر: «علل الدارقطني» (٩/ ٦٨)، و«بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٣٨٦- ٣٨٧)، و«نصب الراية» (٢/ ١٦٠)، و«ضعيف أبي داود» (٢٣٣)، و«إرواء الغليل» (٤٣٨).

فيهما بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1].

فخير ما يتزوَّد به الداعية: القرب من الله، واصطحاب ذكره وتسبيحه، وألَّا يشغله عنه شاغل من ازدحام الناس أو كثرة الأعمال؛ فللقلب حقٌّ لا ينبغي نسيانه، ولا ديمومة للمؤمن على نشاطه وجِدِّه وعمله، إلا بالله والقرب منه وكثرة ذكره وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار.

○○○

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٧٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وكان يقرأ فيهما بغيرهما أيضًا. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٤٦)، و«أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (٢/ ٤٤٨- ٤٥٦)، و«اليوم النبوي» (ص١٦).

سُورَةُ النَّجْمِ

* **تسمية السورة:**

تُسمَّى: «سورة النَّجْم»، أو: «سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾»، أو: «سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾»، وهي من السور ذات الاسم الواحد(1).

وقد ورد أن النبيَّ ﷺ قرأها في مكة، فسجدَ، وسجدَ معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ(2).

وورد أنه سجدَ بها وسجدَ مَن معه، غير أن شيخًا أخذ كَفًّا من تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه راوي الحديث: «فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافرًا، وهو أُمَيَّة ابن خلف»(3).

* **عدد آياتها:** اثنتان وستون آية، أو واحد وستون آية، على اختلاف بين علماء العدِّ(4).

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٧).

(2) أخرجه البخاري (١٠٧١، ٤٨٦٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) أخرجه البخاري (١٠٦٧، ٤٨٦٣)، ومسلم (٥٧٦).

(4) وقد اختلفوا في ثلاث آيات: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾، ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٢٩]، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾. وينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٤)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨١)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٤٣).

* **وهي مكيَّة** عند جماهير المفسرين، وهو الراجح[1].

وقد رُوي عن الحسن أنها مدنية[2]، وهو قول ضعيف جدًّا.

وقال بعضهم: إن فيها آية مدنية؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[3] [النجم: ٣٢].

وهذا أيضًا فيه نظر؛ فالسورة مكية كلها، ولعلها نزلت جملة واحدة، والله أعلم.

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾:

يُقسم ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بـ«النَّجْم»، ويحتمل أن يكون المقصود: أي نجم من النجوم، كما في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾[4] [التكوير: ١٥-١٦].

وقد يكون المقصود نجم خاص، قد يكون «الثُّرَيَّا»[5]؛ فهو نجم معروف عند العرب، وكثير من مواقيتهم في الرَّعْي والزرع وغيرها، مرتبطة بـ«نَوْء الثُّرَيَّا»؛ ولذلك كانوا يقولون: «طَلَعَ النَّجْمُ عِشاءً، فابْتَغَى الرَّاعِي كِساءً»[6]؛ كناية عن مجيء البرد، فالرَّاعي يريد الدِّفء. ويقولون: «طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّةً- أي: الفجر- فابْتَغَى الرَّاعِي شُكَيَّةً»[7]. والشُّكَيَّة: وعاء من جلد يوضع فيه اللَّبَن أو الماء[8]، معناه: أنه جاء وقت

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٧).

(٢) ينظر: «دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٤/ ١٥٧٣)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٥٢).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩)، وما سيأتي في «سورة الواقعة»، و«سورة التكوير».

(٥) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٢)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «نثر الدر» (٦/ ٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩).

(٧) ينظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» (ص١٣١)، والمصادر السابقة.

(٨) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦٥)، و«لسان العرب» (١٤/ ٤٤١) «ش ك ا».

الحرِّ، فيحتاج الراعي إلى الشراب.

أو القسم بـ«نَجْم الشِّعْرَى»(١)، وهو مذكور في السورة ذاتها، وهو نَجْم تقدِّسه بعض العرب، وورد أن خُزاعة كانوا يعبدونه(٢).

وهو لم يُقسم بـ«النَّجْمِ» مطلقًا، وإنما أقسم به في حالة خاصة؛ وهي ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط(٣).

ويحتمل المعنى: غاب(٤)، كقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

والقَسَم بهذا الحال هو أول تفنيد لعبادة النُّجُوم؛ لأن «النَّجْم» يغيب ويختفي، فكيف تعبدونه؟!

وإذا قلنا: إن معنى ﴿هَوَىٰ﴾: سقط، فالمقصود: الشِّهاب الذي يراه الناس وهو ينقضُّ ساقطًا(٥)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

* ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾:

الخطاب للمشركين(٦)، والواضح أن الخطاب جاء مباشرًا وقويًّا وسريعًا؛

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٥٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٥)، و«فتح البيان» (١٣/ ٢٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥١).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٣)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩).

(٦) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٦).

ولذلك جاء القَسَم مختصرًا في آية واحدة وبشيء واحد، هو «النَّجْم إذا هَوَى».

وسمَّى نبيَّه ﷺ: «صاحبًا لهم»، كما قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[1] [سبأ: ٤٦].

وفي هذا إشعار لهم وتذكير بأنه منهم، وُلد وعاش بينهم، ويعرفون نسبه وميلاده، وعقله وخُلقه، وليس غريبًا عليهم في ولادته، ولا نشأته، ولا تفصيل حياته وسلوكه، فكيف يتأتَّى لهم أن يتنكَّروا لرسالته، وينسبوا إليه ما هو منه بريء، وهم أخلق الناس بقبول دعوته؟! وهو عزهم ومجدهم، وهو صاحبهم[2]!

وكما قيل: «كل شخص لست تعرفه، ككتاب لست قارئه»، فالشخص الذي تجهله قد لا تحسن فهمه، وقد يتكلَّم بكلام وتظن أنه يقصد معنى آخر، فإذا عرفتَ الشخص فقد كشفتَ الكتاب، وعرفتَ السِّر، وفهمتَ المغزى، وهم عرفوا صدق النبي ﷺ وسلامة قصده، وعزوفه عن الرئاسة والجاه والدنيا والملذَّات، وبعده عن التطلُّع والاستشراف، وتفرده عنهم بالتعبد في غار حراء، ومجانبة الأصنام والخمر والفواحش واللَّهو، ولم يعيبوه قبل النبوة بشيءٍ ألبتة.

وفي هذه الآية نفي لشيئين: الضَّلال والغِواية؛ فالضَّلال هو: عدم الهداية؛ كوصفهم إياه بالجنون، فهذا نوع من الضَّلال[3]، وبعض الناس يتَّبعون ضلالات نفسية تتلبَّسهم، وتخرج بهم عن جادة العقل والرَّزانة، كادِّعاء أحدهم أنه المسيح ابن مريم أو أنه المهدي أو يدَّعي النبوة، وحينما تجالسه تجده بلا علم، ولا معرفة، ولا فقه، ولا بصيرة، ولا عقل، ولا اتزان نفسي، وإنما هو مبتلى بآفة نفسية سبَّبت

(١) ينظر: «روح البيان» (٩/ ٢١٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٨)، و«تفسير المراغي» (٢٠/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٥٧)، وما سيأتي في «سورة التكوير».

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٤٦)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٢).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٥٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٩)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٤٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٢).

له هذه الضلالة، والضَّال هنا يظن أنه صادق، ويصدِّق نفسه؛ بسبب تلبس حالة مرضية لعقله.

فيُقسم تعالى على نفي هذا الاضطراب أو الجنون الذي ادَّعوه، ونسبوه إلى النبي ﷺ[1].

أما الغِواية فمعناها: تعمُّد الكذب عن قصد، وسبق إصرار[2]، بدعوى يريد من ورائها دنيا أو جاهًا أو ما أشبه ذلك، وقد يدخل في الغواية: الشِّعْر، وقد كانوا يقولون: إنه شاعر، والله تعالى قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[3] [الشعراء: ٢٢٤].

* ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾:

وتأمَّل التناسب والتجانس بين قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾: ما تهواه النفس، وتميل إليه[4]، فهذا النبي المصطفى المختار ﷺ متجرِّد عن ﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾، ولا يتكلَّم من قِبل نفسه ورغبته، **وأول ما يدخل في هذا**: القرآن الكريم؛ لأنه الوحي الذي ﴿يُوحَىٰ﴾؛ ولا يمنع مع إرادة القرآن أن يكون ذلك تزكية لمنطقه ﷺ عامةً؛ ولذلك كان يمزحُ، ولا يقولُ إلَّا حقًّا[5]، وكان يقول المحكمات الجوامع من الأقوال، حتى إن من العلماء مَن جمعوا الأحاديث التي جرت مجرى المثل والحكمة في وجازتها واختصارها وحكمتها[6]، فقد أُوتي

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٣)، و«تفسير ابن رجب» (١/ ٢٢١)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٤٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٥)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٩)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٢- ٩٣).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص١٣٤)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٤٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٩) «هـ و ي»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٣).

(٥) كما في «مسند أحمد» (٨٤٨١، ٨٧٢٣)، و«الأدب المفرد» (٢٦٥)، و«جامع الترمذي» (١٩٩٠)، و«سنن البيهقي» (١٠/ ٤٢٠)، و«الآداب» للبيهقي (٣٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنهم قالوا: يا رسولَ الله، إنك تُداعبُنا! قال: «إني لا أقولُ إلَّا حقًّا». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٦).

(٦) وقد ذكر الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٦) العلماء الذين جمعوا جوامع كَلِمه ﷺ في مؤلَّفات خاصة.

ﷺ جوامع الكَلِم بخواتمه[1]، ودان له بذلك البعيد والقريب.

فإذا صان تعالى منطقه ﷺ ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، فقد صان سلوكه واعتقاداته وأحواله ومشاعره أيضًا ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[2]، وصنعه على عينه، واصطفاه في أفعاله وأقواله؛ ولذلك لما كان فتح مكة أَمَّن رسولُ الله ﷺ الناسَ، إلا أربعةَ نفر وامرأتين، منهم عبدُ الله بن سعد بن أبي السَّرْح، وقد اختبأ عند عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما دعا رسولُ الله ﷺ الناسَ إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، بايعْ عبدَ الله. فرفع رسولُ الله ﷺ رأسَه فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «**أما كان فيكم رجلٌ رَشِيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟**». فقالوا: وما يدرينا يا رسولَ الله ما في نفسك، هلَّا أومأتَ إلينا بعينك! فقال: «**إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأَعْيُن**»[3].

فلم يقبل ﷺ على عدو مهدر الدم- لأنه انتهك الحرمات- أن يغمز لأصحابه بطرف عينه، أن عاجلوه بالقتل، فتعامله في غاية الوضوح والتجرد والصفاء.

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾:

ومرد الضمير للقرآن اتفاقًا[4].

والوَحْي هو: الصوت الخفي[5]، والله تعالى بعث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الوحي

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٧٧، ٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣، ٢٠٠١).

والمعنى: إيجاز اللفظ، مع تناوله المعاني الكثيرة جدًّا، ويختم على المعاني الكثيرة التي تضمَّنا اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه؛ لعذوبة لفظه وجزالته. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٣/ ١٧٠)، و«هدي الساري» (ص٩٩).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٧/ ١٠٥)، وأبو يعلى (٧٥٧)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٨)، والحاكم (٣/ ٤٥)، والبيهقي (٧/ ٦٣)، (٨/ ٣٥٦)، والضياء (٣/ ٢٤٨-٢٥٠) (١٠٥٤، ١٠٥٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «البدر المنير» (٧/ ٤٤٩-٤٥٠)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٧٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٦).

(٥) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٩)، و«مختار الصحاح» (ص٣٣٤) «و ح ى».

إلى محمد ﷺ[1].

* ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾:

أي: علَّمه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ القرآنَ[2]، فالضمير يعود إلى النبي ﷺ، أو يعود إلى القرآن الكريم، أي: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علَّم النبيَّ ﷺ، أو جبريل علَّم القرآنَ للنبي ﷺ[3].

وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي كان ينزل بالوحي على الأنبياء السابقين، فهذه وظيفته وحده اختصَّه اللهُ بها مع الرسل جميعًا.

* ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾:

هذا وصف لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بأن بنيته شديدة قوية[4]، وقد ورد أن النبيَّ ﷺ رآه مرتين على صورته التي خُلق عليها، وقد سَدَّ الأفق، له ستمائة جناح، سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء والأرض[5].

و﴿مِرَّةٍ﴾ تعني: القوة[6]، لكنها تعني نوعًا من القوة المعنوية؛ قوة العقل والفهم والحكمة، وما أعطاه تعالى وميَّزه عن سائر الملائكة[7].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٢٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨- ٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٨٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٥).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٥، ٤٨٥٥، ٤٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٤، ١٧٧).

(٦) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ١٥٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤)، والمصادر السابقة.

(٧) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٢)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٥٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٥).

ومعنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾: اعتدل وتهيأ واستعد لهذه المهمة الجليلة العظيمة(١).

* ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾:

أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين رأى النبي ﷺ بالأُفق الأعلى، وقيل: النبي ﷺ رأى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

والأُفُق هو: ملتقى الأرض والسماء في نظر الرَّائي(٣)، فالنبي ﷺ رأى جبريل في الأُفُق، والأُفُق الأعلى هو: أعلى الأُفُق(٤).

* ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾:

أي: نزل قليلًا قليلًا، حتى كان من النبي ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾(٥)، وهذا تعبير معروف، تعني أنه قريب.

والقَوْس معروف، وهو الذي تُرمى به السهام(٦).

وقد يكون هو: الذِّراع، أي: كان قدر ذراع أو ذراعين من النبي ﷺ، ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾(٧).

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ليس للشك، فالله يعلم الأشياء بحقائقها ودقائقها، فالمعنى:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤).

(٣) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٦/ ٤٧٨)، و«المصباح المنير» (١/ ١٦) «أ ف ق».

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٧)، وينظر أيضًا: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٧٩)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢/ ٦٩٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٦).

(٦) ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٤٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٨٧) «ق و س».

(٧) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٧).

كان أقل من ذلك وأقرب.

ويحتمل أن له حالتين، كان في إحداهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، وفي الأخرى ﴿أَدْنَىٰ﴾ من ذلك[1].

وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أول مرة، فأوحى اللهُ إليه صدر «سورة ﴿ اقْرَأْ ﴾»، ثم فَتَرَ الوحي فَتْرَةً، حتى تبدَّى له جبريلُ ورسولُ الله ﷺ في أجياد في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، قد سدَّ عِظَمُ خلقه الأُفق[2]، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عَزَّوَجَلَّ ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعُلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه[3].

وهكذا بدأ النبيُّ ﷺ يعتاد على نزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى مجيئه، وكان يأتي أحيانًا بصورة رجل، مثل: دِحْيَة بن خَلِيفة الكَلْبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لجمال صورته[4].

وهنا تلحظ أنه تعالى يخاطب بهذا التفصيل المشركين، ويصف لهم كيف ينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي، وكيف يلتقي بالنبي ﷺ؛ من أجل أن يتدرَّبوا على مثل هذه المعاني التي قد تبدو غريبة على بيئة أُمِّيَّة مثل بيئتهم، ولا عهد لهم بها، كما حكى الله حالهم في قوله: ﴿مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّـذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ولم يكن لهم علم بالكتب والأنبياء والرسل، والملائكة والوحي، وطريقة نزوله، وأنواعه؛ فلذلك فصَّل تعالى لهم ذلك هنا.

* ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾:

سماه: ﴿عَبْدِهِۦ﴾، والعبودية تتكرَّر في سياقات الوحي، كقوله سبحانه: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]،

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٦)، والمصادر السابقة.

(٢) تقدم عند قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾.

(٣) باختصار من «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٥)، وينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (٣/ ٣٨٦)، و«فتح الباري» (١/ ٢٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥١).

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[1] [الفرقان: ١]، فهي اصطفاء وتكريم، وعلامة التواضع له سبحانه؛ ولذلك منع اللهُ رحمته وفضله الذين يستكبرون، والله يحب المتواضعين المتنزِّهين عن العُجب والغرور، «قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الكِبْرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قذفتُهُ في النار»[2].

والمقصود بقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾: التعظيم والتفخيم لهذا الوحي، أي: أوحى شيئًا عظيمًا كريمًا، يكشف الناس من أسراره ومعانيه بقدر عبوديتهم وتواضعهم لربهم جل وتعالى[3].

* ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾:

أي: فؤاد النبي ﷺ، لم يكن قد كذب فيما رأى، بل رأى صدقًا وحقًّا[4].

* ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ يا معشر قريش وتجادلونه[5]، ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، وهو يرى بعينه، ويرى بقلبه وفؤاده، أفأنتم أيها الجاهلون تجادلونه في محسوسه الذي رآه بعيني رأسه، ورآه بقلبه، على أنه تعالى حجبه عنكم بجهالتكم وكثافة حسكم!

* ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾:

أي: رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مرةً ثانيةً يومَ الإسراء والمعراج[6]، ﴿عِندَ

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الجن»: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، و«سورة العلق»: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

(٢) سيأتي تخريجه في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٢).

(٥) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٤٢)، والمصادر الآتية.

(٦) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٠).

﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وهي سِدرة خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك المكان المقدَّس[1].

وهذه معانٍ عظيمة، لا يستطيع الإنسان أن يدرك كُنْهَها، ولا أن يحيط بتفصيلاتها، ولو ذهب العقل يتأمَّل أو يفكِّر ما خرج من ذلك بطائل؛ فإنه لم يكشف له من هذا الغيب إلا أن ثمة شجرة تُسمَّى: ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، فوق السماء السابعة، ذهب إليها النبيُّ ﷺ في الإسراء والمعراج، حيث سمع عندها صوت صَرِيف الأقلام، والملائكة يكتبون أفعال العباد، وأقدار العباد[2].

وهذا النص وأمثاله يفتح عقل المؤمن ليتَّسع ويمتد، ويدرك أن الخلق والكون أعظم مما تراه العين أو يدركه الحس، فثَمَّ سماوات وعرش وكرسي وما شاء الله بعد مما لم تره عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾:

وهذا من الأدلة على أن الجنة في السماء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسماها: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ لأنه يصير إليها المؤمنون[3].

* ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾:

كأن الرؤية التي حصلت للنبي ﷺ هناك لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت في الوقت الذي غشي السِّدرة فيه شيء عظيم، وقد قال النبيُّ ﷺ في حديث الإسراء: «**وغشيها ألوانٌ، لا أدري ما هي**»[4].

وقيل: إنها الملائكة[5]، وهي في هذه السِّدْرَة كأنها الطيور على أغصان

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٥٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٥٦).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٨)، و«روح البيان» (٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ٢٣١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٤).

الأشجار تُسبِّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتفعل ما أُمرت به، فغشي السِّدرةَ تلك الأشياء التي قال عنها النبي ﷺ: «لا أدري ما هي».

* ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾:

مع ذلك كله، وما فيه من المفاجأة والهول والعجب لم يزغ بصر النبي ﷺ، ولم يقع عنده اضطراب في الرؤية؛ بل كان وافر البصيرة والحكمة، والاستعداد والتهيُّؤ لهذا الموقف بما آتاه الله من القوة والثبات[1].

﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ البَصَر بأن يتجاوز أو يتعدَّى، فما حكاه هو ما رآه ﷺ، من غير خطأ سببه الزيغ، ولا زيادة سببها الطغيان[2].

* ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾:

إما أن يكون رأى الآية الكبرى، أو رأى آيات كُبَر، وهذا أقرب[3]، فيكون قد رأى شيئًا من آيات ربه الكبرى في هذه السماء، مما أخبر عنه النبيُّ ﷺ في حديث الإسراء الطويل.

ومع ذلك فقد كان المشركون يستغلون ما حدَّثهم به النبيُّ ﷺ مما رآه في الإسراء والمعراج؛ للطعن في صدقه واتهام عقله، وهكذا هم يرون أن كل ما لا تطيقه عقولهم ولا تصدِّقه يعدُّونه أساطير وصاحبه مجنونًا أو به مسٌّ، أما المصدِّق برسالة النبي ﷺ فهو يفوِّض الأمر كله لله في خبره وأمره، فإن أخبره الوحي بما لا يحيط به عقله ولا حسُّه صدَّقه وآمن به، وجعل عقله حيث يليق به.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٧- ٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٤).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٩٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٤٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٨- ٩٩).

وهذا أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأتيه مشركو مكة يقولون له: هذا صاحبُك يزعمُ أنه قد أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَ قال ذلك؟». قالوا: نعم. فقال: «فإنِّي أشهدُ إن كان قال ذلك لقد صدقَ». فقالوا: أتصدِّقه بأنه جاء الشامَ في ليلة واحدة، ورجعَ قبل أن يُصبحَ؟ قال: «نعم؛ إني أصدِّقه بأبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرةً وعشيًّا». ومن يومئذٍ سُمي: الصِّدِّيق(١).

فهكذا المؤمن لا يجعل عقله محصورًا في عالم الماديات الضيِّق المحدود، والبشر يدركون أنهم مسلَّطون على المادة يكتشفونها ويتعرَّفون على قوانينها ويوظِّفونها شيئًا بعد شيء، وربما كانوا ينكرون بالأمس شيئًا أصبحوا يؤمنون به الآن، فالعقل المؤمن ليس عقلًا أسطوريًّا أو خُرافيًّا يَتَشَرَّبُ الخرافة دون آية أو حجة، وهو أيضًا ليس عقلًا ماديًّا صِرْفًا لا يؤمن بالغيب، ويحصر نفسه في حدود المادة.

* ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾:

وقد كانوا يعبدون هذه الأصنام، وكانوا يعدُّونها إناثًا، كما هو الظاهر من أسمائها(٢).

أما ﴿ٱللَّـٰتَ﴾: فصخرة مربعة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٩٧١٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٠٢)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٤٢١- ٤٢٢)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٤/ ٤٣٢) (١٠٥٩)، و«الشريعة» للآجري (١٠٣٠، ١٢٥٩)، و«المستدرك» (٣/ ٦٥، ٨١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٥٩- ٣٦١)، و«تاريخ دمشق» (٣٠/ ٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢٨١)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٠٦)، و«مع المصطفى ﷺ» (ص٤٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٨).

وسَدَنة، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف، وهم ثَقِيف ومَن تابعها، يفتخرون بها على مَن عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

وقيل: موضع صخرة كانت لرجل يَلِتُّ للحَجِيج في الجاهلية السَّويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: كانت شجرة، أو صنم فيه صورة شجرة، عليها بناء وأستار بنَخْلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظِّمونها.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾: صخرة كانت بالمُشَلَّل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خُزاعة والأَوْس والخَزْرج في جاهليتها يعظِّمونها، ويُهِلُّون منها للحج إلى الكعبة.

وكل هذه الأصنام معروفة عند العرب، وقد حكى تفصيلها ابن الكلبي في كتاب «الأصنام»(١).

فكانوا يعتقدون مثل هذه الصيغة الوثنية للعبودية، ويتعاطونها فيما بينهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينقلهم عن هذا المستوى المنحط من العبودية للأحجار والجمادات التي هي أقل من مستوى الإنسان، ويرفع آفاقهم وعقولهم إلى عبادة الإله الواحد الأحد الصمد، وإلى الإيمان بالغيب والملائكة والوحي.

وما عبد مشركو الجاهلية أصنامهم إلا لتقرِّبهم إلى الله، وبعضهم يزعمون أنها بناته، ولذا أنكر عليهم وقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؟ وكأنهم جعلوها تماثيل للملائكة يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله، وكأنِ هذا سر كونها تقرِّبهم إلى الله؛ لأنها في السماء قريبة إلى الله، ومع زعم بنوَّتها يصبح الأمر أشد قُربًا، وكأنهم لفرط سذاجتهم وجهلهم قاسوا على الكينونة العائلية عندهم، وظنوا عبادتها لا تضير المعبود الأكبر، وقاسوها على طاعة أولاد المَلِك أو شيخ القبيلة!

---

(١) ينظر: «الأصنام» لابن الكلبي، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٨- ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٠- ٢٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٩)، و«معجم البلدان» (٤/ ١١٦)، (٥/ ٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٥- ٤٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٤)، و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص٢٠٦، ٢٧١، ٣٠٢).

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾ أي: ظالمة[1]، فإذا تجرَّأتم وجعلتم لله ولدًا، وهذا باطل قادح في الربوبية، فلِمَ جعلتم له البنات في الوقت الذي يتوارى أحدُكم من القوم حين يُبَشَّر بأنثى؟

وهذا كالنص على أنهم كلهم أو بعضهم يعبدون تماثيل يزعمونها للملائكة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾، فالمعنى: أن هذه الأصنام ليس لها من الألوهية سوى ما صنعتموه وابتدعتموه[2].

ولئن كان هذا قد وقع في الجاهلية حيث الحياة البدوية البدائية البسيطة، فقد وقع في عصرنا هذا طغيان الماديات ونفوذ العلم المادي بشرك قريب من ذلك أو مثله.

وكأن الدِّين في منطقة معزولة داخل العقل لم يصل إليها النور، ولم تستفد من التفوق في العلوم التجريبية؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾، فهم يتَّبعون الظُّنون والتخرُّص في أصول الدِّين والاعتقاد التي لا يُقبل فيها الظنُّ ولا بد من اليقين، واللهُ تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول النبيُّ ﷺ: «إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث»[3]. فهؤلاء يتبعون الظَّنَّ في أعظم القضايا وأقدسها؛ وهي قضية الألوهية والعبودية، وهو ظن موروث، ليس قائمًا على شبهة أو احتمال.

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: ويتَّبعون ما تهواه نفوسُهم وتميل إليه، ومجرد ميل النفس لا يعني شيئًا[4]؛ فالنفس تميل إلى السهل، وإلى المألوف، وإلى ما

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٣)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٦).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٦١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٨).

يعزِّز جانبها وجانب القبيلة أو البلد أو الجنس أو العائلة.

والنفس إذ اعتادت شيئًا وتربَّت عليه أذعنت له وأحبَّته، ولذا أحبَّ بنو إسرائيل العجلَ، وكان الفراعنة يعبدونه، فلما مروا على لَخْم وجُذام(١)، وكانوا يتراقصون حول صنم بقرة منحوتة حنّوا إلى مألوفهم و﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ولما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ميقات ربه صنع لهم السامري العجل فعبدوه، ولما أمرهم ربُّهم بذبح البقرة تردَّدوا وأكثروا الأسئلة، قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: فإعراضهم عن الهُدَى بميل النفس والهوى والظنِّ هو غاية الخطأ، نعم الظَّنُّ يمكن أن يُعمل به في مجاله، إذا لم يكن ثَمَّةَ ما يعارضه؛ ويُؤخذ بغلبة الظَّنِّ في الأحكام الفقهية إذا لم يُوجد ما هو أقوى منه(٢)، ولكن أن يجعلوا الظَّنَّ المجرَّد العارض في قضية قطعية يعارضون به وحيًا قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فهذه غاية الضلال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾!

* ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾:

الاستفهام إنكاري، قُصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمنَّاه، وأن يجعل ما يتمنَّاه باعثًا عن أعماله ومعتقداته، بل عليه أن يتطلَّب الحقَّ من دلائله وعلاماته، وإن خالف ما يتمنَّاه، وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

وقد شمل قوله: ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ كلَّ هوًى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول ﷺ، فشمل تمنِّيهم شفاعة الأصنام، وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم، وذلك

(١) لَخْم: بطن عظيم، ينتسب إلى لَخْم بن عدي، وجُذام: بطن من كهلان، من القحطانية، وكانوا يعبدون المشتري ويحجون إلى صنم في مشارف الشام، يقال له: الأقيصر، ويحلقون رؤوسهم. ينظر: «الإنباه على قبائل الرواة» (ص٩٨)، و«نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص٢٠٥- ٢٠٦)، (ص٤١١)، و«معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (١/ ١٧٤)، (٣/ ١٠١١- ١٠١٢).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٩)، و«تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» (١/ ١٤٨)، و«القواعد والضوابط الفقهية المتضمنة للتيسير» (٢/ ٦٣٥).

ما يُؤذن به قوله بعد هذا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ...﴾. وتمنِّيهم أن يكون الرسول مَلَكًا، وغير ذلك، نحو قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وقولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمُّل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفًا للهوى، وليحمل نفسه عليه حتى تتخلَّق به.

وفُرِّع على الإنكار أن يكون للإنسان ما تمنَّاه، وأن الله مالك الآخرة والأولى، أي: فهو يتصرف في أحوال أهلهما بحسب إرادته، لا بحسب تمنِّي الإنسان، وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم(١).

* ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾:

بعدما ذكر الآلهة التي يعبدونها بزعمهم أنها تشفع لهم، ذكَّرهم بحدود قدرة الملائكة، وأن علو مكانهم لا تعني عبادتهم، فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨]، ولو بذلوا شفاعتهم لم تغن شيئًا، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، فهم لا يتقدَّمون بالشفاعة بين يدي الله سبحانه، إلا إذا أذن لهم، ولا يأذن إلا لمَن يرضى الله تعالى أن تدركه الشفاعة(٢).

فإذا كان هذا شأن الملائكة في السماء، فما بالكم تعبدون آلهة في الأرض من الحجارة مما لا يضُرُّ ولا ينفع، فضلًا عن أن يشفع؟! وما أنزل الله تعالى بهذه الآلهة المدَّعاة من سلطان، ولا أذن لكم بعبادتها؛ وحتى لو كانت هذه المعبودات

---

(١) باختصار من «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١١١)، وينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٩٣).

تماثيل للملائكة في أصل بنائها، أو كانت كذلك في اعتقاد عابديها، فهذا لا يغيِّر من الحقيقة شيئًا؛ فالملائكة ليسوا إناثًا، بل ﴿عِبَادٌ﴾، وهم بهذه المنزلة من الذل والطاعة فكيف عبدتموهم؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾: سجَّل عليهم أنهم لا يؤمنون بالبعث، وهذا حال غالبهم أو كلهم، وما يخطر ببال أحدهم من احتمال أو خيال لا يُسَمَّى إيمانًا؛ فالإيمان هو اليقين الصادق باعتقاد خروج الناس من قبورهم إلى ربهم يوم الدِّين(١).

* ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾:

فلم يبنوا هذا الزعم الكاذب بأنوثة الملائكة ولا ببنوتها لله على علم، بل هو أمر أخذوه من الفلاسفة، وتوارثوه فيما بينهم، أو من بعض الأمم السابقة قبلهم، وهم بذلك يتَّبعون الظَّنَّ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، ولم يذكر هنا ما تهوى الأنفس؛ لأن هوى النفوس في هذه المسألة غير ظاهر(٢).

* ثم وجَّه الخطاب إلى نبيِّه ﷺ فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾:

أي: أعرض عن هؤلاء المصرِّين على كفرهم، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ هو مثل قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٣) [المؤمنون: ٥٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٤- ١٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٩)، و ما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٥١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١١٧).

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنهم لما كانوا موصوفين بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ فقُصارى همهم وإرادتهم لا يتعدَّى هذه العاجلة، وهذا حرمان أي حرمان، أن يقطع المرء نفسه عن ذلك الامتداد العظيم الفسيح اللائق بالإنسان، ويقصر إيمانه وحلمه وطموحه على مدى العمر المحدود الذي يقضيه على الأرض، وهو قد لا يتجاوز عشرات السنين! كيف يحرم العاقل نفسه من حلم الخلود وجوار الرب العظيم في جنات النعيم؟! ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

* ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾:

فعلمهم ضعيف محدود، فالآخرة ليس لها اعتبار عندهم، وقد جعلوا جهدهم وعقلهم للعاجلة، أما الآخرة فهم لا يؤمنون بها، فإن هم بُعثوا فظنهم أن هذه الآلهة سوف تشفع لهم(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: وهذا تقرير لعلم الله الذي لا يخطئ ولا يجهل، فحين يقول: إنهم ضالون، فهم ضالون، وحين يبيِّن الهُدى لهم ويأمرهم به، فهو الحق بلا ريب.

وفي الآية تهديد ووعيد بأن يأخذ الله العليم أولئك الضالين، فهو بهم محيط وإليه المصير.

* ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾:

وهذا في شأن الفصل بين هؤلاء المكذِّبين وأولئك المؤمنين، وهو تفريع على الآية السابقة التي بيَّنت علم الله بالضالين والمهتدين.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٩- ٢٠).

وفيها بيان أنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وإنما يُؤخذون بأعمالهم، ويجزي الله المؤمنين بالحسنى؛ لأنهم أحسنوا تقبُّل وحي الله، وأحسنوا طاعة رسله، وأحسنوا إلى عباده بالبر والخير والعطاء والبذل، فـ«الجزاء من جنس العمل»، وحتى إذا أدركتهم الشفاعة، فقد أدركتهم بأعمالهم التي جعلتهم أهلًا بأن يرضى الله تعالى عنهم، ويأذن لمَن يشفع فيهم.

* ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾:

بعد ما وصفهم بالإحسان، الذي يعني: فعل الحسنات، في مقابل الذين أساؤوا بفعل السيئات، وصفهم ثانيًا بالتجنب والترك للكبائر والفواحش.

والترك بحدِّ ذاته لا يعتبر إحسانًا، إنما الإحسان الأصلي بالفعل، ولكن الاجتناب من آثار الإحسان، ثم فيه تعمد الترك ومجاهدة النفس مع الرغبة الفطرية في الميل لبعض ذلك.

وفيه أيضًا النية الحسنة ومراقبة الباري جل وتعالى والخوف منه، فبذلك يصبح الترك فعلًا، وتتمحَّض النفس للخير والطاعة وتتوحَّد وجهتها.

و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ تعني: الذنوب العظيمة[1]، كالسبع الموبقات الواردة في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**اجْتَنِبُوا السبعَ المُوبقات**». قيل: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: «**الشركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النفس التي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ مال اليتيم، وأكلُ الرِّبا، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحف، وقذفُ المُحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

وقد سُئل ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الكبائر: أسبع هي؟ فقال: «هي إلى السبعينَ

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

أقربُ»[١].

وهي: الذنوب العظيمة التي تُوبق صاحبها، وقال تعالى مصداقًا لهذه الآية: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ومن العلماء مَن ضبط حدَّ الكبائر بما له حدٌّ في الدنيا، كالسَّرقة، والزِّنا، وقتل النفس، والقذف[٢].

ويندرج فيها: ما تُوُعِّد عليه بلعن أو وعيد في الآخرة[٣]، كقوله تعالى في شأن الكذب على الله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وكذلك الرِّشْوة: «لعنَ اللهُ الرَّاشي والمُرْتَشي»[٤]. وأشياء ورد عليها اللَّعن في القرآن الكريم، أو في سنة النبي ﷺ، فإذا تعلَّق بهذا الذنب عقوبة منصوصة في الآخرة أو في الدنيا دلَّ على أنه من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٧٠٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٤٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٥١)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٦٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٠).

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ٢٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٨٥)، و«الكبائر» للذهبي (ص٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤١٠)، و«تفسير السعدي» (ص١٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ١٥٩)، و«فتح القدير» (١/ ٥٢٨)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ٢٦)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٣٩٠)، وأحمد (٦٥٣٢، ٦٩٨٤)، وأبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وابن الجارود (٥٨٦)، وابن حبان (٥٠٧٧)، والطبراني في «الدعاء» (٢٠٩٣)، والحاكم (٤/ ١٠٢- ١٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه أحمد (٩٠٢٣)، والترمذي (١٣٣٦)، وابن الجارود (٥٨٥)، وابن حبان (٥٠٧٦)، والطبراني في «الدعاء» (٢٠٩٥)، والحاكم (٤/ ١٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أوجه الخلاف على أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأحسنها حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وله شواهد. ينظر: «البدر المنير» (٩/ ٥٧٣)، و«إرواء الغليل» (٢٦٢٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١٢٣٥، ٦٨٦٩).

وقد يقع للمرء تردد في بعض الذنوب بين كونها كبيرة أو ليست بكبيرة، وحينئذ عليه أن يتذكر مقولة بعض السلف: «لا تنظرْ إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى مَن عَصَيْتَ»[1].

بل ليتذكَّر قوله ﷺ: **«إيَّاكُم ومُحَقَّرات الذنوب؛ فإنما مَثَلُ مُحَقَّرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهم، وإن مُحَقَّرات الذنوب متى يُؤْخَذْ بها صاحبُها تُهْلِكْهُ»**[2].

وكان بعض السلف يقول: «لا صغيرةَ مع الإصرار، ولا كبيرةَ مع الاستغفار»[3].

وهذا لا يصح حديثًا عن النبي ﷺ[4]، ولكن له معنى جيد.

والمعنى: أن الذنب الصغير إذا أدمن العبدُ عليه وأكثر منه، فإنه يُوجِد في القلب وحشة، وجُرأة على المعاصي، كالشاب الذي يتساهل بإطلاق النظر، ومحادثة النساء، ويقضي في ذلك الساعات الطوال، فلا يزال الأمر به حتى يُجرِّئه ويُغْرِيه ويغرس في قلبه حب الزنا، وكل شيء يمهِّد لما هو أشد منه، ما لم يكن المسلم يقظًا.

---

(١) كما قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٧١)، و«الزهد» لأحمد (ص٣١١- ٣١٢)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٠٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٨٥٤)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢٢٣)، و«شعب الإيمان» (٢٨٢، ٧٥٩، ٦٨٨٥).

وبنحوه عن أُويس القَرْني رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر: «تاريخ دمشق» (٩/ ٤٤٨)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٣١).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «العلل المتناهية» (٢/ ٢٨٧- ٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٨)، والرُّوياني (١٠٦٥)، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٨١)، والبغوي (٤٢٠٣) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٨٩).

(٣) ينظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للَّالَكائي (٦/ ١١١٠)، و«شعب الإيمان» (٦٨٨٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٣٠٤).

(٤) وقد روي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «التوبة» لابن أبي الدنيا (١٧٣)، و«الترغيب في فضائل الأعمال» لابن شاهين (١٨٧)، و«مسند الشهاب القضاعي» (٨٥٣)، و«معجم ابن عساكر» (١٤٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٢٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٨١٠).

وكذلك في قوله: «لا كبيرة مع الاستغفار» ليس على إطلاقه؛ فقد جاء في أحاديث صحيحة كثيرة عن بعض الفضائل التي تكفِّر الذنوب؛ كحديث: **«مَن حجَّ لله، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رجعَ كيوم ولدتْهُ أُمُّه»**[1]. وقوله ﷺ: **«الصلاةُ المكتوبةُ إلى الصلاة التي بعدها، كفارةٌ لما بينهما- قال- والجمعةُ إلى الجمعة، والشهرُ إلى الشهر- يعني: رمضانَ إلى رمضانَ- كفارةٌ لما بينهما»**[2]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وفي بعض الأحاديث ورد اشتراط «اجتناب الكبائر» لاستحقاق الوعد، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق[3].

ومال بعض أهل العلم إلى أن العمل الصالح يُكفِّر بعض الكبائر، إذا توفَّرت الأسباب؛ كأن يكون عند العبد انكسار تام لله، وأن يأتي بالعمل على أكمل وجه في أسبابه ومقدِّماته وأحواله، ولا يخالطه شيء من الإعجاب أو الغرور أو الغفلة، فربما يكون هذا سببًا في توبة العبد إلى ربه، وإقلاعه عن الذنب، وتخفيف الذنب أو التكفير، وفضل الله تبارك وتعالى واسع.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عبد البر وابن تيمية وابن رجب وغيرهم[4].

وأما ﴿ٱللَّمَمَ﴾ فيشمل شيئين:

الأول: الذنوب الصغار المنصوص على تحريمها، ولذلك مثَّل له بعض العلماء بالقبلة والغمزة والضَّمَّة والنظرة، فهي داخلة في دائرة المحرَّم، ولكنها

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٧١٢٩)، والحاكم (١/ ١١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٣٣)، ولفظه: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ، مكفِّراتٌ ما بينهنَّ، إذا اجْتَنَبَ الكبائرَ».

(٤) ينظر: «التمهيد» (٧/ ١٨)، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٨٩)، و«الفروع وتصحيح الفروع» (١٠/ ٢٣٣- ٢٣٤)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢٥)، و«الفتاوى الفقهية الكبرى» (٢/ ٩٩)، و«الفواكه الدواني» (٣٧٥).

ليست من قَبِيل «الفواحش»، بل من قَبِيل المقدِّمات والممهِّدات التي قد تفضي إلى ما هو أشد منها[1].

وقد ورد في «الصحيحين» قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ، وذكر أنه أصابَ من امرأة قبلةً، فأتى النبيَّ ﷺ، فذكرَ ذلك له، فنزلت: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، فقال رجلٌ من القوم: يا نبيَّ الله، هذا له خاصةً؟ قال: «بل للناس كافَّةً»[2].

فعلى مَن ابتلى بهذه الذنوب أَلَّا ييأس من رحمة الله؛ فاليأس خطره أعظم، وقد حذَّر سبحانه من اليأس من رحمة الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، و﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، وأن يجعل قلبه معلَّقًا بالله؛ يرجو رحمته، ولا يغتر بعمله، ولا ييأس من رحمته، وأن يكثر الدعاء، والعمل الصالح؛ كالمبادرة إلى الصلاة، وصحبة الأخيار، والاستغفار، وبر الوالدين، والصدقة، والإحسان إلى الزوجة والأولاد والجيران، فالميزان له كِفَّتان، وإن أنت ابتُليتَ بشيء من هذه القاذورات فاجتهد في التوبة، وأكثر من الطاعة؛ عسى أن ترجح كِفَّتها على كِفَّة الذنوب، وعسى أن تكون سببًا في توبة الله ومغفرته لك، ولهذا قال ﷺ لحَكِيم بن حِزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أسلمتَ على ما أَسْلَفتَ من خير»[3]. ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، فالله تعالى يصطفي للتوبة الذين يعلم رغبتهم في الخير، ونفرتهم من الشر، وحبهم للخلاص.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٢٦، ٤٦٨٧، ٦٨٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣) من حديث حَكِيم بن حِزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: المرور العابر[(١)]، ومنه تقول: أَلَمَّ بالمكان، أي: مرَّ عليه مرورًا سريعًا[(٢)]، وقال القائل[(٣)]:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهمَّ تَغْفِرْ جَمَّا ... وأيُّ عَبْدٍ لكَ لا أَلَمَّا

فالمقصود هنا بـ﴿اللَّمَمَ﴾: إلمام سريع لم يتحوَّل عنده إلى عادة أو إدمان، بل كانت زلَّة قاهرة وسقطة عابرة أفاق بعدها وندم وتاب وأناب، وهذا شأن ذنوب المقرَّبين والسابقين، حتى ربما حمل أحدهم الذنب على الاستزادة من الصالحات وقهر النفس على الطاعات والقربات، وربما وقع المؤمن في الذنب؛ لكنه لا يقيم عليه، وإنما يُسرع النهوض والخلاص، ويستنجد بالله، ويتحرَّر من أسبابه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾: وما أحسن التعرف إليه سبحانه بأسمائه الحُسنى التي معظمها يدور على الرَّحْمة، فمن أسمائه: الرَّحْمن، الرَّحِيم، الغفور، التَّوَّاب.. وليس من أسمائه: الباطش، ولا المُعَذِّب، ولا شديد العقاب، فهذا على القول الراجح ليس من الأسماء الحسنى[(٤)]، وإنما أسماء الله الحسنى هي التي فيها الرَّحْمَة، والبِرُّ، واللُّطف بالعباد؛ ترغيبًا وتحبيبًا لهم ألَّا تغلبهم نفوسهم الأمَّارة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٨).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٥٠)، و«لسان العرب» (١٢/ ٥٤٩) «ل م م»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٢).

(٣) ينظر: «ديوان أُميَّة بن أبي الصَّلْت» (ص٥٨).

ونُسب إلى أبي خِراش الهُذَلي. ينظر: «الحماسة البصرية» (٢/ ٤٣١)، و«خزانة الأدب» (٧/ ١٩٠)، و«شرح أشعار الهذليين» (٣/ ١٣٤٦)، و«لسان العرب» (١٢/ ١٠٤) «ج م م».

ورُوي مرفوعًا. أخرجه الترمذي (٣٢٨٤)، والبزار (٤٩٥٩، ٤٩٦٠)، وأبو يعلى (١٩٠)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (١٢٦)، والحاكم (١/ ٥٤)، (٢/ ٤٦٩)، والبيهقي (١٠/ ٣١٢)، وفي «شعب الإيمان» (٦٦٥٤)، والضياء (١١/ ١٩٥) (١٨٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص١٥- ١٨)، وما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

بالسوء، أو شياطينهم على الإصرار على الذنب، أو اليأس من التوب.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: فهو أعلم بكم قبل أن تكونوا(1)، وهو أعلم بكم يوم أن كنتم ﴿أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أو مواليد صغارًا، لا يوجد هوى في نفوسكم، ولا ميل ولا شهوة، ولكنها كانت كامنة لم تفعَّل بعد، لأنكم خلقتم من الأرض، ففيكم ثقلة الطين وداعي الهوى ومركب الشهوة والميل والغريزة، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾: فلا تقولوا عن أنفسكم ما يزكِّيها من الادِّعاء، وإنما عليكم التواضع لله سبحانه، وهذا خطاب للفرد ألَّا يندفع في ادِّعاء لا يتناسب مع حقيقته، أو يتظاهر بما ليس فيه؛ فيجمع بين المعصية الباطنة والكذب الظاهر؛ فإنه ربما أورث الذنب تواضعًا وازدراءً بالنفس، وحمى صاحبه من الكِبْر أو الاغترار أو التعاظم، ما دام يعرف أن الذنب ذنب، وأنه عاصٍ مستحق للعقاب، إلا أن يتجاوز الله عنه.

كما يدخل في هذا النهي أن تزكِّي قبيلة نفسها، أو عِرْق، أو شعب بمثل هذه الدعاوى العريضة، كما كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111]، فتتحوَّل بذلك الديانة عصبيات قومية وعِرْقية وقَبَلِيَّة، وهو سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(2).

* ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾:

نزلت هذه الآيات في شأن رجل معيَّن، قيل: الوليد بن المغيرة(3)، همَّ أن يُسلم، وقدَّم شيئًا من الخير، وكاد أن ينقاد للهُدى، ثم نكس على عقبه(4)، فالله

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 70)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 202)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 462)، و«تفسير السعدي» (ص821).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 364)، و«تفسير البغوي» (4/ 312)، و«تفسير القرطبي» (17/ 110)، و«فتح القدير» (5/ 136)، و«التحرير والتنوير» (27/ 125).

(3) وقيل: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمي، وقيل: في النَّضر بن الحارث، وقيل: في أبي جهل.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 71)، و«تفسير الماوردي» (5/ 402)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص399)، و«تفسير الرازي» (29/ 272)، و«تفسير القرطبي» (17/ 111)، و«فتح القدير» (5/ 137)، و«التحرير والتنوير» (27/ 127).

يُوَبِّخه وأمثاله، على أنه أعرض بعد ما اقترب، ولم يغتنم الفرصة التي سنحت له[1].

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ من الخير، أو من التوجه والاستعداد[2]. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: توقَّف[3]، والكُدْيَة هي: الصخرة، كأنه تحوَّل إلى صخرة، لا تَبِضُّ بقطرة من الماء، أو واجه صخرة من ظلمة نفسه ومجاملتها لمَن حولها وعزوفها عن الانتقال استمرارًا للحال![4].

* ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

وكأنه ممن قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠]، وعزف عن الإيمان اغترارًا بهذا الظن الموهوم المبني على غير أساس من علم أو تقوى[5].

* ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

وهذا التعقيب يرجِّح أنه كان ممن يزعم أن له في الآخرة مردًّا حسنًا وعقبى صالحة!

و﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كانت عشر ورقات، في كل صفحة نحو أربع آيات من جنس

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٣)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٨).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٤)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٩)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٤).

(٤) ينظر: «الصحاح» (٦/ ٢٤٧١) «ك د ى»، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٨).

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٧).

آيات القرآن الكريم، فهي نحو أربعين آية[1]، وإنما ذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن صُحُفه أشهر[2]، والتوراة معروفة، وفيها كثير من البيان والهُدى، وموسى من الرسل الذين لهم أمة قائمة، وصحفهم تشمل التوراة التي أثنى عليها الله تعالى بقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وتشمل الألواح التي فيها الوصايا العشر وغيرها.

وإنما بدأ بموسى ثم ثنَّى بإبراهيم لأجل هذا، والله أعلم، أو لأنه يريد أن يثني على إبراهيم بالمزيد، فذكر موسى إجمالًا ثم انتقل إلى الخليل ليبني على ذكره أخبارًا وثناءً بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾: أي: أنجز ووفَّى بوعده[3]، ومن ذلك: ذبحه لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أما ماذا في «صحف إبراهيم وموسى» في هذا السياق؛ فهو: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فلا يُؤخذ أحد بذنب غيره، وهذا الذي أعطى قليلًا وأكْدَى، وظنَّ أن ثمة أحدًا سوف يفديه أو ينفعه، قد رَكَنَ إلى وَهْم لا أصل له في الشرائع كلها، فالله تعالى يخبره بأن هذا لا ينفعه، وهذا معنى قرآني عظيم، فيه غاية العدل، فلا يُؤخذ أحد بجَريرة غيره، ولا يُعيَّر القوم أو القبيلة بخطأ أحدهم.

وهذه معاني لا تختص بالملأ من قريش، بل هي قواعد أخلاقية دنيوية وأخروية، ألَّا يُؤاخذ أحدٌ بجَرِيرة أحد، ولو كان أقرب قريب؛ حتى الزوجة لا تُؤخذ بذنب زوجها، ولا الزوج بذنب زوجته، ولا الابن بأبيه، ولا الأب بابنه، ولا الجار بجاره، ولا ينبغي أن نصدر الأحكام العامة على الناس؛ بناءً على سلوك فردي، فنقول: أئمة المساجد فاسدون، أو: المدرِّسون مهملون، أو: الدُّعاة منافقون، أو: الأطباء غشاشون، أو: التجار طمَّاعون.. فهذا التعميم لا ينبغي؛ لأنه لا ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣٠).

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣٠)، و«التفسير المنير» (٢٧/ ١٢٥).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٣).

وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

* ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾:

فمسؤولية الإنسان تقتصر على فعله، وهذا من «صحف إبراهيم وموسى»[(١)]، وهو مقرَّرٌ في شريعتنا من حيث الجملة، وإن كان الله تعالى جعل في معنى «سعي الإنسان» سعي ولده، كما قال ﷺ: «**إن أطيبَ ما أَكَلَ الرجلُ من كسبه، وإن ولدَهُ من كسبه**»[(٢)]. و«**إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُهُ إِلَّا من ثلاث: إِلَّا من صدقة جارية، أو علم يُنتفعُ به، أو ولد صالح يدعُو له**»[(٣)]. والحج عن المتوفَّى، والصوم عنه، والصدقة عنه.. كل ذلك ثابت في السنة[(٤)]، وبعض الأعمال الصالحة يصل ثوابها إن شاء الله، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، وهذا كله لا يتنافى مع الآية الكريمة، ولا حاجة إلى أن نقول: هذا شرع مَن قبلنا، وهو منسوخ؛ لأن الله تعالى ساقه لنا في سياق الاعتبار به[(٥)].

* ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾:

سوف يراه الله تعالى والمؤمنون والناس، ويُعرض يوم القيامة[(٦)].

* ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ۝٤١﴾:

إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، والجزاء الأوفى تقتضي استيعاب الجزاء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٧٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣٢).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٦٨٥)، وأحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢١٣٧)، والنسائي (٧/ ٢٤٠)، وابن حبان (٤٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «البدر المنير» (٨/ ٣٠٨)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٦)، و«إرواء الغليل» (٢١٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٨٨، ١٨٥٢، ١٩٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٠٤، ١١٤٨).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٧٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٥).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٥).

على الصالح وتمامه مع الفضل، والجزاء على الشيء مع العدل، وربما التسامح والعفو[1].

* ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾:

أصح معاني الآية: أن الناس صائرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي من الآيات الدالة على البعث[2].

وقيل: معناها: أن كل تفكير رشيد عاقل يوصل الإنسان إلى الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وعبوديته[3].

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾:

أي: خلق غريزة الضحك والبُكاء[4]، وهذه من خصائص الإنسان، ينفرد بها دون عامة الحيوان، إلا ما ندر[5].

وقولنا: الحمامة تنوح على كذا، فهو على سبيل المجاز، والله خلق لبكاء الإنسان أسبابه، ولضحكه أسبابه، وفي ذلك صناعة السعادة؛ ولهذا قدَّم «الضحك» على «البكاء»، وهذه مِنَّةٌ على الناس؛ أن الحياة فيها كثير من الجماليات، وأسباب السعادة والسرور، والرضا وقرة العين، وحتى البكاء فيه معنى التنفيس والإحساس بمشاعر الآخرين، وربما بكى المرء بسبب طغيان السرور، كما قيل[6]:

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٧٢)، و«روح البيان» (٩/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٦)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٧٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤١)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٤)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٧).

(٦) ينظر: «ديوان صفي الدين الحِلِّي» (ص٩٩).

طفحَ السـرورُ عليَّ حتى إنه   من عظم ما قد سرَّني أبكاني

ومن جمالية الحياة أن نتعامل مع تغيرات الحياة بقدر من الرضا والإيجابية، والسعادة والتفاؤل، والأمل والإشراق، هذا معنى يجب أن نتدرَّب عليه، ومما يدرِّبنا عليه ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتطهر والتوبة من الذنوب والمعاصي، دون أن يغلبنا معها يأس أو قنوط من رحمة الله، أو أمن من مكره سبحانه.

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾:

فالموت والحياة له سبحانه، وذلك وفق حكمة عليا يعلمها الله وقد يجهلها الناس، والموت عبور قنطرة إلى عالم آخر، فليس فناءً محضًا ولا عدمًا ولا انقراضًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[1] [المؤمنون: ٨٠].

* ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

فهذا من حكمته سبحانه، وهي عامة في الإنسان والحيوان والطير، والأقرب أن المقصود هنا: الإنسان؛ لأنه قال بعدها: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، وهذا ما لا يكون للطيور، وبعض الحيوانات، فهذه **النُّطْفَة** من الماء الذي يُراق ويُمنى هو يتصل ببويضة المرأة، فيكون من ذلك خلق الإنسان[2].

والمقصود: امتنانه سبحانه على الناس بخلق الزوجية، والاستمتاع بها، وعلاقة الحبِّ والمودة والشراكة التي هي شراكة في بناء البيت، والعمل، والاقتصاد، والمشورة والرأي، والفكر والثقافة، والحياة والوفاء.

وكثير من البيوت إنما تعاني ما تعاني بسبب الأنانية وتجاهل معاناة الطرف

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٧).

(٢) وقيل: المقصود: آدم وحواء، وقيل: الذكر والأنثى من أولاد آدم، وقيل: الذكر والأنثى من كل حيوان. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤٥).

الآخر في هذه الشراكة، مما يوجب علينا أن نعيد النظر في طبيعة العلاقة القائمة بين الزوجين.

* ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾:

فالله الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم للنشأة الأخرى يوم القيامة[1]، والذي قَدَرَ على أن يخلق الإنسان من عدم قادر أن يعيد خلقه يومَ القيامة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وهذه جملة مناسبة لما قبلها؛ حيث جاءت تعقيبًا على الخلق الأول لتذكِّر بالخلق الآخر يوم القيامة[2].

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى الناس الغِنَى والمال[3]، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أعطاهم القُنْيَة التي يقتنونها، فـ«أَقْنى» متمِّمة لـ«أَغْنَى»، وليست مقابلها، كما في قوله: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، فأعطاهم الغنى، وأعطاهم الأشياء التي يقتنونها[4]، أو أعطاهم الرضا بهذا الغنى، على التفسير الآخر[5].

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

هذا كلام مستأنف جديد، فالواو للاستئناف؛ لأن عبادة الشِّعْرَى لم تكن موجودة في عهد إبراهيم وموسى، وإنما وُجدت في العرب بعد ذلك، وهذا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٨٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٨ - ١١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «العين» (٥/ ٢١٨)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٦٧ - ٢٤٦٨)، و«مختار الصحاح» (ص٢٦١)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٠٢) «ق ن ا»، و«تاج العروس» (٣٩/ ٣٥٧) «ق ن ي».

(٥) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٠)، والمصادر السابقة.

عطف في نهاية السورة إلى بدايتها، حيث أقسم بـ«النَّجْمِ إذا هَوَى»؛ لينكر على عابديها، فعاد ليذكِّر بالمعنى الأول[1].

* ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾:

و«عاد» واحدة، ولكن سماها: ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنها قديمة، ولأنها القبيلة العربية المشهورة، ولأنها ذات عظمة وقوة[2]، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وهم متقدِّمون؛ كانوا بعد قوم نوح.

* ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾:

﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: أكثر ظلمًا، وأكثر طغيانًا[3].

* ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾:

تلحظ هنا تسارع السياق، وكأنك أمام مشاهد سريعة متلاحقة في آية واحدة، تختصر السورة قصة كاملة مفصَّلة في موضع آخر.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾: قوم لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقراهم تسمَّى: «المُؤْتَفِكات»، أي: المنقلبات[4]؛ لأنهم غيَّروا الفطرة، فعُوقبوا بقلب قراهم وتدميرها، ثم رماهم الله تعالى بـ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢١)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٩).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٣- ٢٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤١)، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: من تلك الحجارة(١)، وهي قُرى سَدُوم(٢)، ويمر الحديث عن بعض أخبارها وتفصيلها في مواضع مختلفة من التفسير.

* ثم يأتي السؤال العظيم المزلزِل: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾:

وقد يكون هذا خطابًا للنبي ﷺ، فيكون المعنى: أيُّ آلاء ربك أعظم عندك؟ فكلها آلاء حسنة عظيمة، وهم يريدون أن تتمارَى فيها، فبأيِّ هذه الآلاء تتمارَى أو تشك؟(٣)، هذا ما لا مجال فيه.

أو يكون خطابًا للناس كلهم، ولكل مَن يصلح له الخطاب: أن هذه الآلاء العظيمة التي تراها؛ بأيِّها تكذِّب أو تشك أو تجادل؟(٤).

* ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾:

أي: هذا القرآن من جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، والنبيُّ ﷺ ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(٥) [آل عمران: ١٤٤].

* ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾:

أي: حقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وأزف: اقترب(٦)، و﴿ٱلْآزِفَةُ﴾: الساعة،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٥).

(٢) سدوم: قرية من قرى قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث كانت أكبر القرى، وهي بين الحجاز والشام، كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا وأشجارًا وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين؛ بعد أن أهلكها الله عز وجل؛ حيث كان أهلها يعملون الخبائث، كما ذكر ذلك في كتابه. ينظر: «آثار البلاد وأخبار العباد» (ص٢٠٢)، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص٣٠٨).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢١)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٧).

(٦) ينظر: «مقاييس اللغة» (١/ ٩٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٥)، و«لسان العرب» (٩/ ٤) «أ ز ف».

فهي بمعنى السورة التالية لها: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1].

* ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾:

لا يكشفها أحد إلا الله عَزَّوَجَلَّ[2].

* ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾:

﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾ يا معشر قريش المكذِّبين؟[3]، ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾: غافلون لاهون مشغولون بالطَّرب واللَّعب والضحك، بينما الأمر جدٌّ، وفيه كرب وأهوال[4].

* وهنا بلغ التأثير نهايته، وجاء الختم الرَّبَّاني العظيم: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾:

وهذا موضع سجود عند طائفة من أهل العلم، خلافًا للإمام مالك[5].

وقد قرأ النبيُّ ﷺ هذه السورة مرةً، ولم يسجد[6]، وقرأها في مكة وسجد،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٩)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٢).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٦)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٥٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٨٤).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٢).

وينظر أيضًا: «الهداية في شرح البداية» (١/ ٧٨)، و«الاختيار لتعليل المختار» (١/ ٧٥)، و«التاج والإكليل» (٢/ ٣٦١)، و«المجموع» (٤/ ٥٩- ٦٠)، و«مغني المحتاج» (١/ ٤٤١- ٤٤٢)، و«المغني» (١/ ٤٤١).

(٦) كما في صحيح البخاري (١٠٧٢)، و«صحيح مسلم» (٥٧٧) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ[1].

والعجيب أن يسجد المشركون، وقد أخذتهم روعة السورة ووهلتها وقوَّتها وسرعتها وتأثيرها وحصارها لهم بالسؤالات المتتابعة التي تهزُّهم من أعماقهم، وتكشف الغفلة عنهم، فأفاقوا قليلًا على وقعها وصداها وسجدوا دون تأمُّل، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد.

○○○

(١) أخرجه البخاري (١٠٧١، ٤٨٦٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وتقدم أول السورة.

سُورَةُ القَمَرِ

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «سورة القمر»؛ لذكره في صدرها، وهو الاسم الغالب في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث(١).

ومن أسمائها: «سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾»، وتختصر إلى: «سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾»، و«سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾»(٢).

وقد جاء هذا في حديث أبي واقد اللَّيْثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ كان يقرأُ بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ في الفطر والأضحى(٣).

*** عدد آياتها:** خمس وخمسون آية باتفاق علماء العدِّ(٤).

*** وهي مكية** عند الجمهور(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٩٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩١)، وتقدم في «سورة ﴿قٓ﴾».

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٦)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٤/ ١٥٨١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٥).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٥).

وذكر بعضهم أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾[(1)]، وأنها كانت في مناسبة غزوة بدر.

والصحيح أن النبيَّ ﷺ استشهد بهذه الآية في غزوة بدر، وإلا فالسورة كلها مكية، نزلت قبل الهجرة بخمس سنوات، وقد صحَّ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لقد أُنْزِلَ على محمد ﷺ بمكةَ، وإني لجاريةٌ ألعبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾»[(2)].

وحادثة انشقاق القمر كانت عند المحقِّقين من أهل العلم قبل الهجرة بنحو خمس سنوات[(3)].

* ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾:

اقتراب الساعة: دُنوُّها، فهو اقتراب زمني[(4)]، وقد جاء هذا مسجَّلًا في القرآن في مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقول النبي ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتين». وقرن بين السبَّابة والوسطى[(5)]. وفي لفظ: «إن كادتْ لتسبِقُني»[(6)].

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٦)، و«الإتقان» (١/ ٦٥)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٦).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٦٣٢)، و«المواهب اللدنية» (٢/ ٢٥٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٠).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (٤٩٣٦، ٥٣٠١)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

وأخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٧) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

وثَمَّ قربٌ عام من حيث إن كل وقت يمضي يقرِّب الساعة، والنبيُّ ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين؛ وكانت بعثته من علامات الساعة الدالة على قربها، وقد ألَّف السُّيوطيُّ رسالة سماها: «الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف»، وساق فيها أحاديث وروايات تدل على أن هذه الأمة قد تتجاوز ألف سنة، وهذا صار تاريخًا ماثلًا، والسُّيوطي حين كتب كان قريبًا تاريخيًّا من الألف، حيث توفي سنة (٩١١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.

إن موضوع «نهاية العالم»، وتحديد ميقات ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ من الموضوعات التي تشغل بال كثيرين، وقد ينسجون حولها الأساطير والروايات، وكل شعوب العالم تتحدَّث عن موقعة «هرمجدون»، وهي المعركة بين الحقِّ والباطل، وهذا معتقد عند النصارى واليهود، والمسلمون يؤمنون أن للساعة أشراطًا وعلامات، ولكن هذا لا ينبغي أن يكون أداة لترويج القصص الخيالية ونسج الحكايات الوهمية، ولا أن يكون سببًا في عزوف الناس عن مصالحهم وتحقيق مقاصدهم؛ فإن النبيَّ ﷺ يقول: «**إن قامت الساعةُ، وبيد أحدكم فَسِيلةٌ**[1]**، فإن استطاعَ أن لا يقومَ حتى يغرسَها فليفعلْ**»[2]. فالشرع يؤكِّد أهمية العمل والانغماس فيه والدأب، حتى ولو قامت الساعة، وحفز الناس على العمل الصالح ومصالح الحياة الدنيا التي لا يقوم معاشهم إلا بها[3].

أما انشقاق القمر: فقد ورد عن الحسن البصري وعطاء أن المراد بالانشقاق في الآية: انشقاق القمر يوم القيامة، ونسبه بعض المفسرين إلى الجمهور[4].

---

(١) أي: نخلة صغيرة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢١٨١)، وأحمد (١٢٩٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٧٩)، والضياء (٧/ ٢٦٢- ٢٦٤) (٢٧١١- ٢٧١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٨).

والأقرب أن هذا قول لبعض الأئمة، وأما الجمهور فذهبوا إلى أن المقصود حادثة وقعت في مكة قبل الهجرة، حيث طلب المشركون- كعادتهم- من النبي ﷺ آيةً، فأراهم اللهُ تعالى انشقاق القمر، وأخبرهم النبيُّ ﷺ أن القمر سوف ينشق، ونظر الناسُ إليه فيما يشبه الخسوف، فرأوه فِلْقتين[1]، وقال النبيُّ ﷺ للصحابة: «اشهدوا». كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في الصحيح[2].

وجاء هذا المعنى عن جمع من الصحابة، كابن عباس، وابن مسعود، وحُذيفة ابن اليمان، وابن عمر، وأنس، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم[3].

وادَّعى بعضهم أن الخبر متواتر، والصحيح أنه مشهور وليس بمتواتر[4].

وقد تردَّد البعض في صحة الرواية؛ بأن الانشقاق لو كان وقع فعلًا لذكره الفلكيون والمؤرِّخون من غير المسلمين والعرب، ويبعد أن يقع هذا ثم لا يستفيض خبره في أرجاء الأرض.

فيقالِ جوابًا لذلك: إن القمر في تلك الساعة قد يكون لآخرين مختفيًا غائبًا، أو يكون حدوث ذلك لبلد آخرَ في آخرِ الليل والناس نيام، أو تكون لحظة الانشقاق قصيرة، كما يحتمل أن يقدِّر الله الانشقاق بطريقة لا يتأثر بها جِرْم القمر، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٧)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٤/ ١٥٨١- ١٥٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٥- ١٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٦٩)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) ينظر: «مسند الطيالسي» (٢٠٠٣)، و«مصنف عبد الرزاق» (٥٢٨٥)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٧٩٨)، و«مسند أحمد» (١٣٩١٨، ١٦٧٤٩)، و«صحيح البخاري» (٣٨٧٠، ٤٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٠٣،٢٨٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٢٨٩)، و«مشكل الآثار» للطحاوي (٦٩٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٤٩٧)، و«المستدرك» (٤/ ٦٠٩).

(٤) ينظر: «الشفا» (١/ ٢٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٢)، و«المواهب اللدنية» (٢/ ٢٥٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٥٢٢)، و«روح البيان» (٩/ ٢٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٤)، و«نظم المتناثر» (ص٢١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٧- ١٦٨).

لقد اختار الله سبحانه أن يكون محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يمهل الناس ولو كذَّبوا، حيث موعدهم يوم القيامة، كما قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، أما الأمم السابقة فكانت تُؤخذ عادة بما يُسمَّى: عذاب الاستئصال، فإذا لم يؤمنوا نزلت عليهم العقوبة، واستأصل الله تعالى شأفتهم وأبادهم وانتهوا، أما هذه الأمة فإن الله تعالى يمدُّ لهم بحيث لا يهلكهم بسَنَة بعامة[1] حتى يأتي أمر الله.

* ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾:

فإذا رأى هؤلاء المشركون آيةً من آيات الله تعالى، فإنهم يُعرضون عن تدبرها، ويكتفون بنسبتها إلى السِّحْر، كما قالوا عن القرآن ذاته- وهو أعظم الآيات-: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: دائم[2]، فكأنهم يقولون إن هذا الرجل يأتينا بألوان وأنماط من السِّحْر متغيِّرة، فالسِّحْر مستمر وإن تغيرت مظاهره.

* ﴿وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾:

فهم يكذِّبون بالرسل، ويكذِّبون بالآيات، ويتَّبعون أهواءهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وأما قوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: فهو يجري مجرى الحكمة، فلكل أَمْرٍ قرار ونهاية ينتهي إليها، فالحقُّ نهايته البقاء والتمكين، والباطل نهايته الزوال والبَوَار، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وكما قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، فكل نبأ من الأنباء أو خبر من الأخبار له مستقر ونهاية يتَّضح بعدها[3]، فالآية تقرِّر السُّنَّة الإلهية في

---

(١) وقد دعا النبيُّ ﷺ ربَّه عَزَّوَجَلَّ أن لا يهلك أمته بسَنَة عامة، فاستجاب الله له ذلك. ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣١١)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٦)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٣٣)، و«روح البيان» (٩/ ٢٦٨)، و«تفسير القاسمي» (٤/ ٣٩٢).

الصراع بين الحق والباطل، وهذا تنبيه للناس ألَّا يغترُّوا بالظواهر، ولا يستعجلوا: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]؛ فإن من طبيعة البشر الاستعجال، وهم بحكم جِبِلَّتهم يرون باطلًا ينتشر، فيدعون الله تعالى أن يزيله، ويرون حقًّا يُضَّطهد، فيدعون الله تعالى أن ينصره، وهم متعبِّدون بهذا الإحساس وبهذه الروح وبهذا الدعاء، ولكنه سبحانه يريد مع هذا الدعاء الذي تُعبِّدوا به، ومع فعل الأسباب المادية الممكنة، أن تتشبَّع نفوسهم بالحكمة الإلهية والاختيار الرباني والتوقيت الحكيم: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٤].

* ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾:

الأنباء جمع: نبأ، وغالب ما يُطلق في القرآن الكريم على الخبر العظيم(١)، كقوله: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢]، وكقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ [التوبة: ٩٤]، فهو خبر له أهمية وتتوافر الدَّواعي على نقله، وهؤلاء الناس جاءهم من الأنباء المذكورة في السورة وغيرها، ومنها إهلاك الأمم السابقة، ما هو كافٍ للزجر أن تزدجر قلوبهم عن الباطل وتتَّعظ وتتعامل بصدق مع الوعيد والوعد والأخبار والنبوة(٢).

* ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾:

والحكمة هي: البصيرة التي تضع الشيء في موضعه، وهي المعنى العظيم في عبارة موجزة مُحْكَمة(٣).

وهي هنا بالغة منتهاها في جودتها وإتقانها وضبطها، والمقصود: حكمته

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٣٣)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤١٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٢٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ٢٧٧)، و«تفسير الرازي» (٦/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣/ ٦٣).

سبحانه، فمن أسمائه: الحَكِيم؛ ولهذه الآية معنيين:

الأول: حكمته تعالى في تصريف الأمور، وخلق الإنسان بنفسية وعقلية وطبيعة قابلة للهُدى والضلال والخير والشر: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وحكمته في إرسال الرسل، وحكمته في منح الناس مشيئة بأن يصدِّقوا أو يكذِّبوا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وحكمته في إنزال العذاب بالأمم السابقة، وفي إمهال آخرين[١].

ومنها: الحكمة في صنعه، الحكمة في خَلْقه، وكل ما يحدث في الكون له حكمة وإن كان الناس يغفلون عنها لا سيما في المجريات التي يعيشونها أو يشاهدونها، فنحن نسمع من الأنباء ما فيه مزدجر؛ من حوادث وفواجع وزلازل، وبراكين، وفياضانات.. إلخ، ولكن كثير من الناس يكتفون بالامْتِعاض دون الاتِّعاظ.

والناس يغفلون عن الحكمة في حوادث الكون، ولكل شيء ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾.

إن الإيمان بالحكمة يمنح المسلم عصمةً من اليأس والقنوط والكفر؛ لأن من الناس مَن قد يرتد بسبب ما يراه من تسلط الأعداء على الأمة أو تسلط الظالمين وكثرة الفساد وانتشار التخلف في مجتمعات المسلمين، وقد يدفعه هذا إلى الشك في الدين أو كرهه لأهله.

وهذه الحكمة يمكن أن نسميها: الحكمة الكونية، أو: القدرية، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣- ٤].

الثاني: حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يرسله إلى عباده في القرآن؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٢]. ولذا سَمَّى القرآن: حكيمًا؛ لأنه مبني على الحكمة في الأوامر

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢١٨).

والنواهي والأحكام والأخبار والسياق والترتيب والوصل والفصل.. والشريعة كلها حكمة منزَّهة عن العبث، ويدرك المتأمِّل من أسرار التشريع والبيان بقدر سعة علمه وقوة نظره وطول وقوفه عند الأسرار الربانية المذهلة.

وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يحتمل أن تكون «ما» نافية، والتقدير: فلا تغني عنهم النذر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فهؤلاء طبعوا على الكفر والإعراض، فلا تنفعهم النذر[١].

ويجوز أن تكون «ما» هنا استفهامية، وفيها معنى الإنكار، ويكون المعنى: أيُّ شيء تغني النذر عن هؤلاء القوم؟ ماذا تغني النذر[٢]؟

والنُّذُر جمع: نذير، ويشمل: نذير القرآن، ونذير الآيات، ونذير العذاب[٣].

* ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هنا وقف، كما قال ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، وقد تقدَّم معنى التولِّي[٤].

ومن معانيها: عدم الإلحاح، وإلا فالدعوة واجبة.

ومن معانيها: عدم الدخول في مجادلات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وإنما الواجب دعوتهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

ومن معانيها: الإعراض عن فئة منهم من أشخاصهم وأعيانهم ممن علم الله

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٢)، و«الدر المصون» (١٠/ ١٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٣٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٩٨ «ن ذ ر».

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾.

أنهم لا يهتدون، وهؤلاء ماتوا على الكفر، من أمثال أبي جهل وأبي لهب.

ومن معانيها: تصبير النبي ﷺ، فلا يحزن ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، فقد بلَّغ البلاغ المبين، وأقام حجة الله على المعاندين، فدعهم وأَنْظِرهم إلى يوم الدين[1].

ثم استأنف حديثًا جديدًا بقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾، وإذا قُدِّر للإنسان أن يسمع هذه الآيات المزلزِلة بصوت مقرئ جيد، ويعيد استماعها، وينصت لها بجوارحه كلها، فإنها سوف تعيد ترتيب نفسيته من جديد، وتهزُّه هزًّا، حيث ذكر تعالى قرابة عشر مفردات متسلسِلة، لا يشعر بها السامع إلا إذا وقف عندها متأمِّلًا:

الأولى: ﴿يَوۡمَ﴾، وفيه أنه أجَّلهم وأمهلهم وأَنْظَرهم إلى ذلك اليوم، وفي كلمة: ﴿يَوۡمَ﴾ تهديد، والتنكير في اللغة من معانيه التخويف والتضخيم[2]، فهذا يوم واحد، ولكن له ما بعده!

الثانية: وَصَفَه بقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾، فها هنا داعٍ يدعو من قِبل الله تعالى، ولعله إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكأنه يدعو الخلق جميعًا إلى شيء واحد[3].

الثالثة: ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ﴾، و﴿شَيۡءٖ﴾ هنا منكَّر، فهو مهول عظيم[4]، فلو اقتصر على قوله ﴿شَيۡءٖ﴾ لكان كافيًا ولو قيل لك: «إنه في ذلك اليوم سوف يدعو الدَّاعي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٦).

(٢) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (٣/ ١٥٥)، و«الإتقان» (٢/ ٣٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٨)، و«مفاتيح الغيب» (٢٩/ ٢٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٦).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٨).

إلى شيء» كان هذا كافيًا ولم يحدِّد ماهيته، بل اقتصر على وصفه بأنه ﴿شَيۡءٖ﴾ يُدعى الناس إليه.

الرابعة: ثم وصفه بأنه ﴿نُّكُرٍ﴾ أي: منكر عظيم هائل يستنكره الناس؛ لأنهم لم يعرفوه ولم يتعوَّدوا عليه ولم ينتظروه؛ ولهذا إذا بُعثوا قالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، ثم يعودون إلى أنفسهم ويقولون أو يسمعون مَن يقول لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[1] [يس: ٥٢].

الخامسة: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، كقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ [القلم: ٤٣]، والخشوع هنا تعريض بهم أنهم كانوا معرضين عن الخشوع لله تعالى في الدنيا، ففي ذلك اليوم أصبحوا خاشعين بأبصارهم، خشوع مَذَلَّة وانكسار وهوان وشعور بأن الفرصة فاتت عليهم[2].

السادسة: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ جمع: جَدَث، وهو القبر[3]، كقول عبد الله ابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]:

حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي: أرشـدك اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا

أن ترى الناس يخرجون من قبورهم سِراعًا بعدما نُفخت فيهم الأرواح وأذن الله تعالى بعودتهم إلى البَسِيطة؛ كما قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٤٥٧- ٤٥٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٩/ ٦٠٥١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٧).

وينظر أيضًا: «كتاب فيه لغات القرآن» (ص٩٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٩٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٨)، و«تاج العروس» (٢٣/ ٧٤) «ج د ث».

(٤) ينظر: «ديوان عبد الله بن رواحة» (ص٩٨)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٧٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٣، ١٤/ ٣٧٧) (١٥٠١١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥٩).

﴿١٤﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]، أي: على ظهر الأرض أحياء بعدما كانوا في بطنها أمواتًا[١].

السابعة: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، والجراد: حشرة معروفة، تطير أفواجًا، فتأتي على الحرث الأخضر واليابس.

الثامنة: وصف الجراد بأنه ﴿مُّنتَشِرٌ﴾، وقد يكون معناه من النُّشُور، تشبيهًا بالجراد الصغير الذي تخلَّق صغيرًا، فكأن الإشارة إلى أنهم خرجوا من الأرض ونُشروا إلى الأرض إلى ظاهرها، والنُّشُور هو: الحياة أو البعث[٢].

أو معنى ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ أي: متفرِّق[٣]، والجراد هنا يهيم على وجهه، ويضرب بعضه بعضًا، ويطأ بعضه بعضًا، وهذا من طبيعة الجراد.

وفيه إشارة إلى أنهم هائمون على وجوههم، ليس لهم وجهة معيَّنة، ولا يلتفت أحد لأحد.

التاسعة: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾، والإِهْطاع فيه معنى الإسراع والرَّكْض على غير بصيرة، وفيه معنى الذُّل والخضوع، والمُهْطِع يتَّجه ببصره صوب وجهة واحدة، لا يكاد يلتفت إلى غيرها.

والإِهْطاع لا يكون إلا مع خوف ووَجَل[٤]، ومثله قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ويقال: بعير مُهْطِع،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٩)، وما سيأتي في «سورة الملك»: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٨)، وما سيأتي في «سورة القارعة»: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾.

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٣)، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٣٣٠)، و«تاج العروس» (٢٢/ ٣٩٨) «هـ ط ع».

إذا مشى وقد مدَّ عنقه وصوَّب رأسه[(١)]!

العاشرة: ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، فهم ذاهبون إلى جهة الصوت الذي يدعوهم أو يناديهم، غافلون عما حولهم، ومن عادة الذي يسمع صوت مستغيث أو مستنجد ويسرع إليه أنه يكون رافع الرأس، وقد يظهر مع ذلك ميل في رقبته وهو متجه إلى الصوت، كما تقول العرب: «لا يَلْوِي على شيء». أما هؤلاء فهم مقنعوا رؤوسهم مطأطئوها؛ لأنهم خائفون وجلون مكروبون[(٢)].

الحادية عشرة: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: عسير، كما قال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩،١٠]، وفي قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أن عُسْره، ليس على عامة الناس، بل هو خاصٌّ بالكافرين، أما المؤمنون فيصبهم منه ما يصيبهم، ولكن ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[(٣)] [إبراهيم: ٢٧].

* ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾:

ينتقل السياق إلى عدد من القصص، ويسوقها مساقًا عجيبًا سريع الوَتِيرة، عظيم التأثير، بما يتضح معه أن المقصود ليس حكاية تفصيل القصص؛ بل هز القلوب الغافلة، وتحريك النفوس المعرضة، وإحداث الاعتبار والحَفْز على التفكر؛ احتجاجًا على الملأ من قريش.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: إنما نسبهم إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ - كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز- لأن هذا أسرع في البيان والبلاغ، ولم يكن لهم اسم معين، وإنما هم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٤٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٧)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٩٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«تفسير المظهري» (٩/ ١٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

قومه[1].

﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾: وصفه بالعبودية، وجاء بضمير العظمة؛ تمهيدًا لذكر النجاة له وإجابة دعوته، فهو عبده الذي يستغيث به، وتمهيدًا لذكر هلاك المكذِّبين المعاندين، والغالب في القرآن الكريم أن نسبة العبيد إليه سبحانه نسبة تشريف وثناء[2].

﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾: وصفوه بالجنون، واختار الله تعالى هذا المقطع من كلامهم عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن المشركين في مكة كانوا يصفون النبيَّ ﷺ بمثل هذا، فكأنه يقول: إن قيل لك هذا فقد قيل هذا لمَن قبلك من الرسل والأنبياء، فلا تحزن، ولا تجزع، كأنهم تواصوا به، فهي كلمة قديمة يردِّدونها[3].

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي: أنهم زجروه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولم يرعوا منزلته[4]، وما بعث اللهُ بعده نبيًّا إلَّا وله مكانة في قومه[5]، ومع ذلك لم يرعوا منزلته، وإنما زجروه وهدَّدوه بالقتل وقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

ورُوي عن مجاهد أن قوله تعالى: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي هذا من تمام قولهم له فيكون تقدير الكلام: هذا مجنون ومع جنونه قد ألَمَّ به شيء يزيده اندفاعًا وعتوًّا،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٥/ ٥٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٥/ ٣٥٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٠/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩١)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾، وما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾، و«سورة الطور»: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾.

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٨٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨١).

(٥) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «فما بعثَ اللهُ بعده نبيًّا إلَّا في ثَرْوَةٍ من قومه». أي: في عزَّة ومَنَعة. ينظر: «مسند أحمد» (٨٩٨٧)، و«الأدب المفرد» (٦٠٥)، و«جامع الترمذي» (٣١١٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٥١٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٦٤) (١١٠٧٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٢٠٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٦١)، و«السلسلة الصحيحة» (١٦١٧).

وقول الجمهور أقوى[1].

* ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾:

ولِمَ لا يدعو ربه وهو عبده! وقد لبث هذا النبي الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت:١٤]، والسياق اختصر هذه المُدُد المتطاولة اختصارًا، فما بين تكذيبهم ووصفهم له بالجنون وما بين دعائه ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾، فهو قد صبر عليهم هذه المدة الطويلة قبل أن يدعو عليهم[2].

ولكن السياق هنا ليس لتفصيل القصة وسرد أحداثها، بل هو للتخويف والتحذير، فناسب فيه طي تفصيلات الأحداث، وإبراز الأهم منها.

وتأمَّل قوله: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾: غلبوه على الأجيال الناشئة، وحالوا بينه وبينها، ولم يمكِّنوه من الدعوة، وهدَّدوه بالرَّجْم، وإلا فهو لم يدخل معهم في حرب ولا منازلة، ولكن استأثروا بمنابر التوجيه، وسيطروا على أدوات التأثير، ولم يتركوا منقصة إلا وصموه وأتباعه بها، فها هو توصَّل إلى هذه النتيجة، أنه ﴿مَغۡلُوبٞ﴾، ودلَّت النصوص الأخرى على أنه لم يدع عليهم حتى أخبره ربه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]!

فأين هذا من داعية عجول متسرِّع، لم ينزل عليه وحي، ولا جاء بآية من السماء، ولعله قصير الباع في العلم والتجربة والتربية، وسرعان ما يهجم على المدعوين بالدعاء عليهم أو وصمهم بالكفر أو الضلال دون بصيرة، أو الإسراع إلى المواجهة بالقوة والعنف ضد أُناس لعلهم لم يعرفوا دعوته ولا أدركوا غايته!

وقوله: ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ أي: لدينك يا رب، وليس لشخصه عَلَيْهِ السَّلَامُ[3]، ولأن نوحًا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٣- ٢١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨١).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة نوح».

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢١٨).

عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مخلصًا في دعوته، وبذل الأسباب، فإنه لم يَدْعُ عليهم إلا بعدما استفرغ الوُسع ونوَّع الأساليب.

وفي هذا درس عظيم للدُّعاة أَلَّا يستبطؤوا هداية الناس وييأسوا منهم، وأَلَّا يسارعوا إلى الدعاء عليهم، مع أن الدعاء هو التماس من الله، فمن باب أولى أَلَّا يتسرَّعوا في محاربتهم وقتالهم ومناجزتهم من أول وهلة يرون منهم فيها بغيًا أو ظلمًا.

* ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾:

كأن السماء استحالت أبوابًا، تصب الماء صبًّا كأفواه القرب[1]، وتأمَّل الاستجابة الإلهية العاجلة!

وكأن الأرض استحالت عيونًا تفيض، بل تتفجَّر.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ يعني: التقى الماءان: ماء السماء وماء الأرض، ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قد كُتب[2]، وربما يقول بعض علماء الأفلاك أو غيرهم إن ذلك قد وافق نوءًا معينًا أو وافق ظرفًا خاصًّا، وأن ثمة أسبابًا أحدثت الفيضان من الأرض ونزول المطر من السماء، ومن ثَمَّ حصل الطوفان.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قد كُتب، ونرجع هنا إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أول السورة ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾، حتى الأشياء التي تكون مرتَّبة ولها أسبابها الكونية لا يعني أنها عريَّة عن الحكمة الإلهية، بل هي مقصودة؛ ولهذا قال: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، فأين المفر وقد حق عليهم أمر الله تعالى؟

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٠٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

إنك حين تقرأ هذه الآيات فتحس تمثل المشهد أمام ناظريك طوفان عظيم بأمر خالقه، الذي إن شاء جعله عذابًا، كما في هذه القصة العظيمة، وإن شاء جعله رحمة وحفظًا، كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي خاطب الله فيها الماء بحفظ الأمانة، كما يفعل أحن البشر وأحرصهم: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩].

* ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾:

أي: حملنا نوحًا ذلك العبد الصابر، ولم يذكر مَن معه؛ لأنه هو الدَّاعي الأعظم، وهو المقصود، حملهم تعالى وحمل معهم ما تبقَّى به الحياة على الأرض على «سفينة»، وتُسمَّى: «فُلْكًا» أيضًا، فهما مترادفان تقريبًا[1]، ولعله أول مَن صنع الفُلك، والله تعالى ألهمه كيف يصنعها ولم يذكر هنا السفينة وإنما وصفها بأنها ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

والألواح معروفة، وهي تُصنع من الخشب غالبًا، وجاء ذكرها في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]، فقيل: كانت ألواحه من خشب، وقيل: كانت من حجارة[3]، والله أعلم.

أما الدُّسُر فهي- عند جمهور المفسرين-: المسامير، أو الروابط، من حبال أو عوارض يُشد بها بعض الألواح إلى بعض[4].

* ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾:

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمَرْأى منا، فالله تعالى يراهم ويكلؤهم ويحفظهم.

---

(١) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٤٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٧٩) «ف ل ك».

(٢) كما في «سورة الأعراف»: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝١٤٥﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٢/ ٢١٤)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٢)، و«تفسير الرازي» (١٤/ ٣٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٨١).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٤).

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كفره قومه ولم يؤمنوا به[1].

* ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑮﴾:

أي: السفينة، بقيت ورأتها الأمم، حتى أوائل هذه الأمة، فقد ذكر قتادة وغيره أن السلف رأوا آثار هذه السفينة على جبل في العراق[2]، والله قال: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وهو: جبل في العراق، قريبٌ من المَوْصِل، وهناك مدينة لا زالت موجودة اسمها «بَاقِرْدَى» عندها جُبيل صغير يقال إنه الجُودِي، فهي في ذلك المكان، فتركها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آية[3].

ويمكن أن يكون المقصود: تركنا هذه القصة آية لمَن يعتبر، فهل من معتبرٍ متعظٍ؟ فهي دعوة للناس أن يعتبروا[4].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: ختام تكرر في السورة، وهو نوع من المناشدة، كما يقول مَن يعرض سلعته: هل من مشترٍ؟ وكما يقول الدَّاعي والسائل: هل من مجيب؟ وفيه دلالة على قلة المعتبرين، وأصلها «مذتكر» فأدغمت وقلبت الذال دالًا لتقاربهما[5].

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٣)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٤١٩)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧١)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٦). وينظر أيضًا: «معجم البلدان» (١/ ٣٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٧)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٣٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٢).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٠٧)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٩).

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾:

والسؤال يتكرر مع كل قصة: كيف ترى أيها القارئ أو المستمع العذاب الذي نزل بهؤلاء القوم والطوفان الذي اجتاحهم وأهلكهم(١)؟

وهنا وحَّد «العذاب»، وجمع «النُّذُر»، فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، ولعل هذا من الرحمة؛ لأن النُّذُر التي تسبق العذاب كثيرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعاجل عباده، بل يبعث إليهم نُذُرًا كثيرة وحُجُجًا عظيمة، أما «العذاب» فكان واحدًا، ولكنه الضربة القاضية؛ فلذلك وحَّد «العذاب» وجمع «النُّذُر» قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(٢).

والعذاب واضح، وهو الطوفان، لكن ما سرُّ مجيء «النُّذُر» هنا؟

والجواب: أن الذي حدث هو من آثار النُّذُر، فهم قد توعَّدوا بها مرارًا وتكرارًا إن لم يؤمنوا، فلم يؤمنوا، فجاءهم العذاب الذي أنذروه.

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾:

وهذه لازمة في السياق بعد كل قصة يُذكِّر تعالى بهذا المعنى؛ دعوة إلى الناس أن يعتبروا.

وتيسير القرآن هنا هو: تيسيره للتدبر والاتعاظ في المقام الأول، فتتلقَّاه القلوب والعقول والأسماع(٣).

وهي دعوة إلى الإيمان والبحث عنه، فهو يسير قريب ممن أراده وتخلَّى عن موروثه الفاسد ومصالحه العاجلة، وهي دعوة لأن تستجيب له النفوس، وترق القلوب.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠٢).

ومن التيسير: تسهيل تلاوته وحفظه، حتى يحفظه الطفل الصغير والأُمِّيُّ والأعجمي، وحتى يحفظ عامة المسلمين منه ما تصح به صلاتهم، وتطيب به حياتهم، وتعظم به أجورهم.

ومثله: تسهيل أحكامه، ومقاصده، وما يترتب على معانيه ودلالاته من الأوامر والنواهي وتفصيلات الحياة، فكان ذلك كله مما امتن الله تعالى به على هذه الأمة[1].

* ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾:

وهنا تلحظ أن الله تعالى لم يعطف عطفًا، وإنما ذكرها قصة جديدة مستأنفة، وكأنه لا علاقة لها بالتي قبلها، فكأنك في مشهد قصة جديدة منفصلة، مع ختم كل قصة بخاتمة واحدة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ إشارة إلى أن كل قصة بمفردها لو لم يُذكر غيرها لكانت كافية لمَن يعتبر، فكيف إذا اجتمعت كلها؟ ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ولأن السياق تهديد ووعيد كانت القصة تبدأ بذكر التكذيب؛ تحضيرًا لذكر الجزاء، وفي هذا تنبيه لقريش ومَن بعدهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يصيبهم ما أصابهم.

ولم يقل: «كذبت قوم هود»، بخلاف ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، والذي يظهر أن السبب هو أن اسم «عاد» معروف مشهور، أشهر من أن يُقال: «قوم هود»، وهم من العرب العاربة، وهم العرب الأولى المعروفون القريبون من ذاكرة المخاطبين؛ ولذلك كان ذكر اسمهم الأول أدعى إلى الذهن وأبلغ تأثيرًا.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾: وهذا تعجيب من العذاب، مع أنه لم يذكره، ولعل ذلك لأنهم قريبون من أهل مكة، وهم يعرفون قصتهم[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٦٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩١).

* ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾:

والرِّيح نفسها حين تكون مرسلة، فسوف تكون مُهلكة، فكيف إذا كانت ﴿صَرۡصَرٗا﴾ قوية شديدة، حتى إنه يُسمع لها صفيرٌ شديد، فهذا هو «الصَّرْصَر»، وكذلك هي شديدة البرودة، ومنه الرِّيح الصِّرُّ، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾(1) [آل عمران: ١١٧]، ومن هذا قول العربي(2) لغلامه:

أَوْقِـــدْ فـــإنَّ الـليـلَ لـيـلٌ قَرٌّ | والـرِّيـحُ يـا واقـــدُ ريـــحٌ صِـرُّ
عـــلَّ يـــرى نـــارَك مَـــن يمرُّ | إن جَـلَـبَـتْ ضيفًا فأنت حرُّ

﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ وليس المعنى أنها في يوم واحد فحسب، كلا؛ فإن الله تعالى ذكر أن عذابهم كان في أيام، فقال: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة: ٧]، والجمع بينهما- والله أعلم- أن ذكر اليوم إشارة لبداية العذاب، ولذلك ذكر ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ مما يدل على أن بداية الرِّيح كانت في النهار، وذكر اليوم يدل على أن الرِّيح استمرت فلم تتوقف، فكأن الأيام يوم واحد، وعلى وتيرة واحدة لم تتغيَّر، ولذا وصفه بأنه ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾(3).

والنحس إنما يكون من فعل الإنسان، وليس من شأن اليوم.

وهذا دليل على أن وصف ﴿يَوۡمِ﴾ بأنه ﴿نَحۡسٖ﴾ لا يعتبر من سبِّ الدَّهر، كما قد يظن بعضهم، بل هو وصف للحال التي تصيب الناس.

واعتقاد أن هذا اليوم كان «يوم أربعاء» اعتمادًا على حديث: «آخِرُ أربعاء من

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٢).

(2) ينظر: «العقد الفريد» (١/ ٢٤٢)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٢٠٨) منسوبًا إلى حاتم الطائي.

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة».

الشهر يومُ نحسٍ مستمر». اعتقاد باطل ولو كان هذا اليوم بعينه يوم نحس لكانت أيام الأسبوع كلها أيام نحس لأن الله تعالى سخرها عليهم ثمانية أيام فيكون كل الأسبوع كذلك! والحديث موضوع[1].

والذي نعتقده هو أن الحياة كلها نحس على المأسور بالجهل والتشاؤم والإحباط واليأس المنقطع عن الله سبحانه، وإلا فليس في الأيام شيء نحس في نفسه، والتَّطَيُّر من عمل الجاهلية.

ولله در القائل[2]:

أَلَا إنما الأيــامُ أبنــاءُ واحــدٍ　　　وهَــذِي الليالي كلُّها أخَــواتُ

الأيام كلها كأنها أبناء رجل واحد، والليالي كأنها أخوات، فلا فرق بين ليلة وليلة، **أيام السعد**: تلك الأيام التي أحسن الإنسان توظيفها واستمتع بها، **وأيام النحس**: تلك التي أخطأ الإنسان فيها أو عصى أو تشاءم أو انقطع وصله بحبل الله سبحانه أو نظر بسوء ظن إلى الحياة، والله تعالى يقول: «**أنا عند ظَنِّ عَبْدي بِي**»[3].

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: **والمستمر**: وصفٌ للنَّحْس، أي: دائم، أو: شديدٌ وقويٌّ[4].

* ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾:

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: فالرِّيح مرسلة إلى الناس، ليست إلى النَّخل أو المباني، فيصبح الرجل الطويل الشديد مطروحًا ساقطًا بلا حراك، كأنما هو عَجُز نخلة خاوٍ!

---

(١) ينظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ٧٣)، و«السلسلة الضعيفة» (١٥٨١).

(٢) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٥٠)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣٣٣) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٩)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٤٩٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٢).

وأنت حين تسمع كلمة ﴿تَنزِعُ﴾ تعرف أن هؤلاء ليسوا ناسًا عاديين، فإن الله تعالى أعطاهم قوة في أبدانهم وبَسْطة؛ فكأن هذه الرِّيح تنزع شيئًا متأصِّلًا متجذِّرًا في الأرض.

وقد ورد أنهم لما رأوا الرِّيح شرعوا يدفنون أنفسهم في الأرض، فتنزعهم منها نزعًا، ثم ترميهم على ظهرها ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفي «سورة الحاقة»: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾[1].

وكل ما كان الفارق فيه بين المفرد والجمع هو تاء التأنيث، فإنه يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل: «شجر، وشجرة»، فيُذكَّر باعتبار اللفظ، ويؤنَّث باعتبار المعنى[2]، فهنا قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفي الموضع الآخر قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وأعجازُ النخل هي: أواخر النخل ونهايتها، والأليق بوصف العجز هو طرف النخلة من جهة الأرض، وهو يناسب النزع، فكأنما أحدهم نخلة قلعت من أسفلها.

ويجوز أن يكون المعنى: قطع النخل من أعلاه، وانفصال أغصانه وعسبه عنه، وهذا يشعر بأن رؤوسهم فارقت أجسادهم بسبب الضربات الشديدة الموجعة، فتراهم على الأرض صرعى.

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١﴾:

يعيد السؤال مرة أخرى بعدما عرفت العذاب، ورأيته أصابهم، وشاهدت هؤلاء الأشدَّاء كيف صاروا كالنَّخل الطوال المُلقى على الأرض[3].

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢﴾:

وكان بإمكانهم أن يتجنَّبوا مثل هذا المصير إذا أَصْغَوْا وأصاخوا لداعي الله

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٤).

(٢) ينظر: «شرح المفصل» لابن يعيش (٣/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٩٨).

(٣) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٤).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾:
فصَّل الله في شأن ﴿ثَمُودُ﴾؛ لأنهم يُشبهون قريشًا فيما قالوه من استنكافهم، وقولهم: كيف نتبع شخصًا واحدًا هو منا ومثلنا لا يتميَّز علينا بشيء ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن اتَّبعناه وأطعناه ﴿لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[1]، **فالضلال** في عقولهم، **والسُّعُر** إما أن يكون الجنون، فإن من معاني المسعور: المجنون، ولذلك يقال: «ناقة مَسْعُورة»، إذا كانت تمشي بسرعة، ومن غير انتظام، أصابها سُعار[2].

ويمكن أن يكون المقصود بالسُّعُر: النار، سواء كان مقصودهم نار الدنيا أو نار الآخرة، فهو شبيه بقول قريش: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾[3] [القصص: ٥٧].

* ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾: استفهام استنكاري منهم، كيف يختص من بيننا بالرسالة[4]؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: وصفوه بالمبالغة في الكذب، فما قالوا: «كاذب»، بل ﴿كَذَّابٌ﴾ على صيغة المبالغة الدالة على كثرة الكذب، فهو يكرِّر الكذب ويُكثر منه[5]، و﴿أَشِرٌ﴾ فيه الأَشَر والبَطَر والكِبْر، **هذا أصح المعاني**[6]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ٥٣) «س ع ر»، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٧).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٨).

فادَّعَوا أنه مع الكذب بَطِر متكبِّر متعاظم معجبٌ بذاته؛ ولهذا ادَّعى النبوة، وهو فعل ذلك ليكون سيِّدًا أو زعيمًا علينا.

هكذا واجهوا نبيَّهم، مع أن الرسل الذين يختارهم الله عَزَّوَجَلَّ معروفون بالصدق والوضوح في سيرتهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم، مجبولون على التواضع والانكسار، ولم يكن أحد منهم يترقَّب الرسالة ولا يستشرف لها، كما قال عن محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وكما فوجئ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخطاب الإلهي دون انتظار: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) [الدخان: ٣٢]، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فالرسل أناس متميِّزون بمكانتهم في قومهم، وبسعة عقولهم وعلمهم وصدقهم وأخلاقهم، ويتميَّزون بصفاء نفوسهم وقلوبهم، حتى قبل الرسالة، فضلًا عما يكون بعدها.

ولذا قال تعالى تأديبًا وتأنيبًا وتهديدًا: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾(٢).

والسياق يتحدَّث عن الغد، ويستعمل حرف السين الدال على المستقبل، وفيه إلماح لما سوف يصيب قريشًا وكل المكذِّبين المجترئين على الرسل، إن لم يرعووا ويندموا ويتداركوا يومهم قبل غدهم، ولأن ردَّهم كان سفهًا لا طائل من ورائه ولا حجة فيه كان مناسبًا أن يقابلَ بالتهديد في الآية، ورد الأمر عليهم فيما نسبوه إلى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم أولى به، ولكنه ترك الأمر مرسلًا مفتوحًا محتملًا في الظاهر، فلم يقل: «هم الكاذبون»...!

* ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

قد طلبوا منه آية، فأخرج الله تعالى لهم من عرض الجبل ناقة، فكانت آية بينة، ولذا قال: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: ستكون سببًا في الاختلاف بينهم ما بين مؤمن

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة المزمل»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾، وأول «سورة العلق».

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩).

وكافر، وستكون سببًا في هلاكهم[1]، ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أي: ارقبهم وأَنْظِرهم، و«ارتَقِبْ» أبلغ من «ارقب»، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أي: اصبر، ولكنه أبلغ، بالغ في الصبر والانتظار ولا تعجل عليهم[2].

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بينهم وبين الناقة، فكانت تشرب من الماء يومًا، وهم يشربون منه يومًا، وربما كانت خلقًا عظيمًا، فإذا جاءت إلى الماء نفرت مواشيهم فلم تشرب منه، فأمرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون الشِّرْب يومًا للناقة ويومًا لهم، فاختلفوا في ذلك وأصبحت بعض قبائلهم يقولون لبعض لا تشربوا في يومنا لأن يومكم هو اليوم الذي تشرب فيه الناقة، اذهبوا واطردوها واشربوا الماء، فوقع بسبب ذلك اختلاف عندهم.

﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ يعني: يشرب هؤلاء الناس اليوم، وتشرب الناقة غدًا، ويحضر هؤلاء لشربهم، وتحضر الناقة لشربها، ولا يجوز لهم أن يشربوا في يوم الناقة[3].

* ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾:

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾: ضجروا من هذه القسمة، وأجمعوا أمرهم على عَقْر الناقة، ولكنهم تهيَّبوا أن يباشروا ذلك، فعمدوا إلى صاحب لهم مشهور بالجرأة والطيش والعجلة، ومن طبيعته مباشرة المهمات التي يتردَّد الناس فيها دون مبالاة، وليس شخصًا عاديًّا، بل هو زعيم في قومه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**انبعثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ، مَنِيعٌ في رَهْطه، مثلُ أبي زَمْعَةَ**»[4]. واسم هذا الرجل: قُدَار بن سالِف، وفي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥٢- ٤٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤١)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زَمْعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وصفه بـ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ إشارة إلى أن العمل لم يكن مبادرة فردية بل عمل جماعي تواطؤوا عليه وإن باشره واحد منهم[١].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: إما أن يكون المعنى: تعاطى السلاح، أو تعاطى الكلام معهم، ووصل إلى هذه النتيجة، أو تعاطى هذه المهمة، فعقَر الناقة، فرماها بسهم فقتلها[٢].

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: أعاد السؤال هنا قبل العذاب، ويلاحظ أنه في هذه القصة ذكره مرتين، قبل العذاب وبعده[٣].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: فأُهلكوا بالصيحة، وماتوا عن آخرهم؛ فأصبحوا مثل الهَشِيم الذي تذروه الرياح، كبقايا التبن والأشياء اليابسة، **والمحتظر** هو الذي يبني حِظارًا، أي: بناءً من القَشِّ، فيبقى من القَشِّ بقية مبثوثة في الأرض بعد استعماله في البناء[٤].

أو يكون المقصود: هَشِيم الحِظار الذي تسقطه الريح، ومع الوقت يسقط مثلما يسقط من الجدار بعض الرمل أو الطين، هؤلاء الناس بقوا في الزوايا مثل هَشِيم المحتظر الذي وطئته الأقدام؛ إشارة إلى تفاهتهم وأنه لا يعبأ بهم أحدٌ[٥].

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠٤)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٧٢).

(٣) ينظر: «ملاك التأويل» (٢/ ٤٥٩- ٤٦٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٣).

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٣).

* ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤﴾:
لم يذكر فعلتهم، فالمقام يستدعي طيَّها والاختصار والعناية بنوع العذاب الذي نزل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا ترميهم بالحصباء، أو: المقصود الحجارة التي أنزلت عليهم[١].

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: وآل لوط: هم أسرته الذين آمنوا معه، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الحجر: ٦٠]، فقد أصابها ما أصابهم[٢].

﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: قبل الفجر؛ لأن العذاب سوف يباغت قومه صباحًا[٣].

* ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِالنُّذُرِ ۝٣٦﴾:

أي: على لوط ومَن معه، فلوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنذر قومه بطشة الله سبحانه، وهذا مناسب لقوله تعالى تهديدًا لقريش: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، والبَطْش هو: الأخذ القوي الشديد بغضب وانتقام، ولم يقل: «بطشنا»، بل عبَّر بالمفرد: ﴿بَطْشَتَنَا﴾، فإنما كانت واحدة، لم يستدع الأمر أكثر منها، فهي بالغة المنتهى في قوتها وشدتها وأخذها[٤].

﴿فَتَمَارَوْا۟ بِالنُّذُرِ﴾ مع أن الرسول أنذرهم، وذكَّرهم أنها بشطة الله القوي القادر، إلا أنهم جادلوا وشكَّكوا وأنكروا[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٧- ٤١٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، و«روح البيان» (٩/ ٢٨٠).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٤)، و«تفسير الجلالين» (ص٧٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٥)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٢١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٧٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٠).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٣).

* ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ من الملائكة[1]، والمراودة تعني: أن يريد المرء الشيء مرة بعد أخرى على سبيل الإلحاح في الطلب، وغالبًا ما تكون في سياق الفاحشة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[2] [يوسف: ٢٣].

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: الطمس هنا يحتمل أن يكون الله تعالى أعماهم أو سوَّى أعينهم بوجوههم، وكأن عيونهم مُحيت وطُمست، أو يكون المعنى أن الله تعالى غطَّى عليهم بحيث لم يروا هؤلاء الرسل.

وقد نُقل الوجهان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والأقرب أن الله تعالى ذهب بأبصارهم، وذهبوا لا يعرفون الباب حتى أخرجهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ من بيته[3].

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فكانت هذه بداية العذاب، ولذا كرَّر الأمر بعد نزول العذاب العام.

* ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾:

أي: صبَّح القوم كلهم هذا العذاب، إلا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن خرج معه، والعذاب المستقر هو: العذاب اللازم اللازب الذي لا يغادرهم ولا يفارقهم، وكأن العذاب الأول بطمس الأعين مقدِّمة وليس هو العذاب الذي أنذرهم إياه رسولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ[4].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٢/ ٤٥٤)، و«تفسير النسفي» (٢/ ١٠٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٢٥٦)، و«تفسير النيسابوري» (٤/ ٧٧)، و«روح البيان» (٤/ ٢٣٤)، و«التفسير المظهري» (٥/ ١٥٢)، و«فتح القدير» (٣/ ٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٥).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٧)، والمصادر السابقة.

* ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩﴾:

وعبَّر بالذَّوْق، من باب السخرية والتنكيل بهم(١).

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾:

هذه القصص هي من تيسير القرآن، ففيها آيات وعبر يستدل الناس بها على الطريق، ومن تيسير الله للذكر أن يكون القرآن بهذه البلاغة والتجانس في المعاني والآيات، أو التقابل والتشاكل؛ ليسهل فهمه وحفظه وتدبره، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

* ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾:

بدأ قصة فرعون بذكر النُّذُر؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعث إلى فرعون وهامان وقارون بالإنذار والتحذير، ثم أتاهم بالآيات التسع العظيمة، ومنها: ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. ومنها: اليد والعصا، والسِّنين ونقص الثمرات، والطاعون، وهو الرِّجْز، والله أعلم(٢).

ومَن كذَّب بآية فكأنما كذَّب بجميع الآيات، فالمقصود أن كل آية ترد عليهم حقيقة وجديرة بالتصديق، ولكنهم يكذِّبون بها، ثم إنهم قد يتردَّدون أو يخافون أو يعدون موسى بالإيمان والتصديق، فإذا رُفع البأس عنهم نكلوا وعادوا لما كانوا عليه، كما بينت ذلك «سورة الأعراف»، و«سورة الزخرف»: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف:٤٩].

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فأخذهم الله أخذ قوي قادر، وأهلكهم هلاكًا عامًّا شديدًا يناسب قوتهم وطغيانهم واغترارهم بالجنود والأعوان.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٤٢).

* ثم عقَّب على ذلك كله بالمقصد من السياق فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾:

وهو خطاب لكفار قريش: هل كفاركم المعاصرون خير من أولئك الناس الذين أهلكهم سبحانه، فلا يستحقون العقوبة كما استحقها أولئك؟

كلا، ليسوا خيرًا منهم وقد كفروا بأفضل الرُّسل وخاتم الأنبياء، وجحدوا القرآن الذي هو أعظم الآيات وأتم الحجج[1].

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ هل عندكم من الله تعالى كتاب أو ميثاق يجعلكم بمأمن ألّا يصيبكم ما أصابهم[2]؟!

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أم يحتجون بأنهم جماعة وقبائل، وأن اجتماعهم سيكون سببًا لنصرتهم[3]؟

* ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾:

وهذا وعيد في المستقبل القريب، وهو إشارة إلى أنه إذا كان إهلاك الأمم السابقة بالاستئصال؛ فإهلاك الناس بعد بعثة النبي ﷺ يكون وفق النواميس والسنن، كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

والسورة مكية؛ لأن ذلك وعد أُنجز وعده في معركة بدر؛ ولذلك ورد أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقولُ: أيُّ جمع سيُهزم؟ فلم يكن يعرف تأويل هذه الآية حتى رآه بعينه في معركة بدر، ورأى النبيَّ

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٠).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٢)، والمصادر السابقة.

ﷺ وهو يتلو هذه الآية ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1].

* ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦)﴾:

الساعة: يوم القيامة في لغة القرآن والسنة، وورد هذا الاستعمال في مئات المواضع، سُمِّيت بذلك لتوقيتها، وسرعتها، والله أعلم[2].

والمعنى: أنه لم ينته الأمر عند عذاب الدنيا، بل لهم موعد لا يتخلفون عنه، ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد وأعظم[3]، وقوله: ﴿أَدْهَىٰ﴾ من الدَّاهية، إذا دهاه، أي: أصابه أمر عظيم، ﴿وَأَمَرُّ﴾ يعني: أشد مرارة، أو أشد قوة، فعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى وأهول وأطول[4].

* ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)﴾:

﴿فِي ضَلَالٍ﴾ في الدنيا، ﴿وَسُعُرٍ﴾ في الآخرة، جمع: سَعِير، وهو: النار[5].

* ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾:

أي تسحبهم الملائكة، وهذا بعض العذاب، وهو إهانة لهم أن يُسحبوا على وجوههم في النار، فليس ثَمَّ عذاب ولا هوان يحيط بهم أشد وأعظم منه، ومع

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٦١)، وابن سعد (٢/ ٢٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٥٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٢٩)، وأصله في «صحيح البخاري» (٤٨٧٥). وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٩١)، و«فتح الباري» (٨/ ٦١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٤)، و«اللباب» (١٨/ ٢٧٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٤)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٦٤٦).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٥).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٤).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦).

هذا يُبَكَّتون ويوبَّخون، ويُقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ على سبيل السخرية بهم، و﴿سَقَرَ﴾: اسم من أسماء النار، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾(١) [المدثر: ٢٦- ٣٠].

* ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

إنهم جاحدون معرضون، قد امتلأت قلوبهم كِبْرًا وعنادًا، وامتلأت حياتهم ظُلْمًا وبغيًا وعدوانًا، وتمحَّضوا للشر، فمهما جاءتهم الآيات، والحجج، والقصص.. فهي لا تزيدهم إلا طغيانًا، وحين يسمعون هذا الوعيد البليغ، فإنهم يصدون عنه، ويسألون سؤال الساخر المستهزئ: أليس الله بقادرٍ على منعنا من الشرك والكفر؟ ويقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾(٢) [الأنعام: ١٤٨]، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

وهذه من الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وهو من أركان الإيمان: أن تؤمن بالقدر خيره وشره، فهو الركن السادس منها(٣)، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ الإشارة إلى أن كل الأشياء خلقها الله تعالى، فـ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والخلق من القدر، فإن الله تعالى هو الخالق، وهذه مرتبة من مراتب القدر، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ من معانيه: خلقناه بتقدير لا يزيد ولا ينقص، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، والآجال معروفة، وكل شيء له نواميس وسنن وأسباب، وكل شيء مكتوب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]،

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٣٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦).

(٢) وفي «صحيح مسلم» (٢٦٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القدر، فنَزَلَتْ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾». وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٠١).

(٣) أركان الإيمان: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه. وينظر ما تقدم في «سورة الحجرات»: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا...﴾ [الحجرات: ١٤].

فالكتابة هي من مراتب القدر أيضًا(١).

والقدر سرُّ الله تعالى في الأرض، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ جانب الإلهية الذي لا يدركه البشر، ولا بد من التسليم والإيمان بالله الخالق الذي كل شيء بإرادته، ولا يقع شيء إلا بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، والقدر لا ينافي إرادة الإنسان ولا يصادرها، فليس أحد يشعر بأن ثمة قوة غيبية تجبره على شيء هو لا يريده، أنا أريد أن أتكلم فأتكلم، وأريد أن أحمل القلم فأحمله، وأريد أن أضعه فأضعه، وأريد أن أشرب أو آكل شيئًا يلذ لي، أو أقوم أو أقعد فافعل ذلك كله، وأنا مسؤول عنه، ولو أن أحدًا قهرني على ما لا أريد وأجبرني عليه لكانت التبعة مرفوعة عني، وكان هو المسؤول عن فعلي القسري الذي لا اختيار لي فيه ألبتة.

فالمكلَّف يشعر بداخله بأن ثمة مشيئة خاصة به تتيح له مساحة واسعة من الاختيارات مما يحب وما يكره، وبناءً على هذا الاختيار البشري يحاسب، فيكافأ أو يعاقب أو يجازى، فأهل الجنة يقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]، وأهل النار يقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]، فلم يعاقبوا على ما لم يذنبوه.

فالقدر ليس حجة تسوِّغ فعل المعصية وركوب الضلال وتنكب الصراط، ولا حجة للفاشلين والجاهلين والمتخلِّفين بالقدر، فهم لم يحاولوا الأمر ولم يعالجوه، ولا تعاطوا أسبابه فأخفقوا، لماذا يكون الجهل والفقر والمرض «قدرًا»، ولا يكون العلم والسعي والتخطيط «قدرًا» كذلك؟!

إن من أعظم الأخطاء توظيف القضاء والقدر للاحتجاج به على المعايب وعلى الذنوب وعلى الأخطاء، وإنما القضاء والقدر يُحتج به- كما يقول العلماء- في المصائب، لا في المعايب(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٢٣)، و«شفاء العليل» (ص١٨).

ومعنى ذلك: أن المرء إذا أُصيب بموت قريب، أو شيء خارج عن إرادته، فله أن يحتج بالقدر: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، أما أن نجعل القضاء والقدر تكأة نهرب إليه من مواجهة مسؤولياتنا التي كلَّفنا تعالى بها، فهذا تشبُّه بالمشركين، ولو كان العبد مجبورًا جبرية مطلقة على الفعل لم يكن للأمر الشرعي ولا للنهي معنى؛ فالتكليف دليل على أن الإنسان قادر على ذلك، مختار مستطيع أن يفعل أو لا يفعل، فهذه من الأشياء التي ينبغي على الإنسان أن يرعاها بصورة جيدة، وألَّا يجعل مسألة القضاء والقدر سببًا في قعوده عن العمل، أو تأخره، أو كثرة التفكير والجدل حولها، بما لا طائل تحته!

* ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾:

فالله تعالى على كل شيء قدير، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ أي: كلمة واحدة، وهي ﴿كُن﴾[١].

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ ومن ذلك: الساعة التي ذكرها هنا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، يعني: بل هو أقرب من لمح البصر، فلما يقول: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي: مثلما تغمض عينك وتفتحها، أو تلمح بسرعة، فهكذا يقع أمر الله سبحانه، فهو أقرب من ذلك، ولكن هذا لتقريب الأمر إلى عقولنا[٢].

* ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾:

أي: أهلكنا الذين من قبلكم، أفلا تعتبرون بهلاكهم؟! وسماهم: أشياعًا؛ لأنهم مثلهم في الجهل والضلال والإعراض[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٨٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ٤١٢)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٨٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٥٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٥).

* ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾:

أي: مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾، و﴿الزُّبُرِ﴾ جمع: زَبُور، والزَّبْر- بفتح الزاي وسكون الباء-: الكتابة، فكل ما فعلوه مكتوب عنده سبحانه محصى ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1].

* ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾:

أي: مسطور مكتوب، صغيرًا كان أو كبيرًا، من أحوال الأمم والأفراد، والحركة، والنظرة، إلا اللَّغو الذي ليس فيه حساب ولا تكذيب، ولا ثواب ولا عقاب[2].

والله تعالى يذكر هذه الأشياء ليس من أجل أن نتجادل، ما معنى مكتوب؟ وأين؟ وما هذا الكتاب؟ وما شكله؟ وما لونه؟ وهل هي كتابة حقيقية مثل الكتابة التي نعقلها نحن أم شيء مختلف؟

هذا غيب عند الله سبحانه، والمقصود أن يكون في قلوبنا يقظة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فكل شيء مكتوب، وحين تستحضر هذه الحقيقة الغيبية فإنك تكون على نفسك رقيبًا تحجزها عن التعدِّي باللِّسان أو الجوارح.

إنها قيمة عظيمة للإنسان أن تكون أعماله كلها مكتوبة مَحْصيَّة عليه، وإذا كان الناس يستميتون لأن يُكتب عنهم في التاريخ، ولو سطر أو سطور، فكيف يغفلون عن أنهم مكتوبون بالتفصيل في كتاب حافظ، لا تزوير فيه ولا تردد، و﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويُنشر بين الخلق ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، والصالح البار يعرضه ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٤).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٢)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٧٤)، و«تهذيب اللغة» (١٣/ ١٣٥)، و«مختار الصحاح» (ص١٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٤).

[الحاقة: ١٩]، والفاجر الشارد يتأوّه ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦].

* ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾:

ختم تعالى بهذا الختام العظيم الرائع، والآية وإن جاءت بـ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بصيغة الجمع، ﴿وَنَهَرٖ﴾ بصيغة المفرد، إلا أن المقصود الجنس، أي: وأنهار، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾(١) [البقرة: ٢٥].

فعندهم المآكل والمشارب من الجنات والأنهار، وعندهم الأُنس والفرح الذي لا ينقطع في مقعد الصدق، وهذا وعد الصدق، والله تعالى صادق لا يخلف الميعاد، والذين قعدوا هذا المقعد هم الصادقون، ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

فالصدق خُلق نبيل نَفِيس، يريد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ممن ينتظرون هذا المقعد أن يتحلَّوا به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢) [التوبة: ١١٩].

○○○

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١١)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٣)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٥١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٢).

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

*** تسمية السورة:**

تُسَمَّى: «سورة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾» في المصاحف، وكتب السنة، والتفسير، وجاء هذا مرفوعًا في غير ما حديث[1].

وسمَّاها السُّيوطي، وغيره: «عروس القرآن»[2]، وقد جاء في ذلك حديث عند البيهقي[3]، وعلى القول بصحته فهذا وصف للسورة وبيان لفضلها، وليس اسمًا؛ ولذا لم يذكره المعنيون بأسماء السور[4].

*** عدد آياتها:** ثمان وسبعون آية، أو سبع وسبعون؛ باعتبار أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ عند بعضهم لا تُعدُّ آية مستقلة، أو ست وسبعون آية؛ باعتبار أنهم مختلفون في عدد من الآيات فصلًا ووصلًا، كآية: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ هل هي آية أم آيتان، ثلاثة أقوال لعلماء العدِّ[5].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٤)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٥٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥١)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) ينظر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٤٤)، و«نظم الدرر في تناسب الآي والسور» (١٩/ ١٣٩)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥).

(٣) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٥) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعدَّه الفيروز آبادي من المنكرات التي وردت في فضل السورة. ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٤٩)، و«فيض القدير» (٥/ ٢٨٦)، و«السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٧)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٨٨).

* **وهي مكية** على الراجح(١).

وقد قيل في سبب نزولها: أن النبيَّ ﷺ لما أراد أن يعقد مع المشركين صلح الحُدَيْبِيَة قال لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهيل بن عمرو: أما «الرحمنُ» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهمَّ، كما كنتَ تكتبُ. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: باسمك اللهمَّ». ونزلت هذه السورة(٢).

فعلى هذا تكون مدنية، ولكن الراجح أن السورة مكية، ولا يلزم أن يكون لها سبب نزول خاص، لكن العرب كانوا لا يعرفون هذا الاسم في الجاهلية.

وأقرب من ذلك أن يكون نزول السورة جوابًا على استنكارهم لعبادة الله الرحمن، كما في «سورة الفرقان»: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠]، فجاء الجواب: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

وقد ورد أن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قرأ هذه السورة في مكة عند الكعبة، فضربوه وكادوا يقتلونه(٣).

وهذا من العجب، فالنفوس المليئة بالظلمة لا تطيق الحديث عن الرحمة ومتعلَّقاتها، وتكاد تسطو بالذين يتلون عليها آيات الله الرحمن الرحيم.

* ومن لطائف الكتاب العزيز أن تكون سورة كاملة تسمى بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وأن يختار الله تعالى هذا الاسم ليجعله افتتاحًا لها، وهو اسم يتضمَّن صفة الرحمة،

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٤٥)، و«مصاعد النظر» (٣/ ٤٤)، و«الإتقان» (١/ ٤٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٨).

وقصة صلح الحُدَيْبِيَة أخرجها البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٤)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٥٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٩٠)، و«مصاعد النظر» (٣/ ٤٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٦).

ولا يُسَمَّى به غير الله عَزَّوَجَلَّ، بخلاف بقية الأسماء، كالرَّحيم، أو العزيز، أو الحَكِيم، فإنه قد يُوصف بها بعض العباد، أما ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فلا يُسمَّى بهما إلا الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾(1) [الإسراء: ١١٠].

هذا التخصيص فيه كثير من الإيحاءات والمعاني: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، التعرُّف إلى الله تعالى برحمته، الطمع في رحمته، الشعور برحمته في كل ما حولنا، انتظار رحمته، وهو يقول: «أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، فليظُنَّ بي ما شاءَ»(2). فلنظن بربنا الرَّحمن الرَّحيم أن يسرع إلينا بالخير، وأن يفيض علينا من جُوده وبركته ورحمته، وأن يعفو عن ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، وأن يصلح أحوالنا، وأن يجمع شملنا، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا.

إن التعرف إليه سبحانه من بوابة الرحمة، فيه معنى جميل، وهو لا ينافي الخوف؛ ولهذا تضمَّنت السورة الكريمة تلك الآية العظيمة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

* ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾:

ها هنا كلمة وآية واسم ومبتدأ وخبر، يمتلأ بها الفم نطقًا، والعقل تألُّهًا، والرُّوح إشراقًا، والقلب إخباتًا.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: الرحمة صفته، وفعله، وشأنه، وخلقه، وشرعه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه، وبرحمته يتراحم العباد والدَّواب والبهائم والطير والوحش والجن والإنس.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: الذي خلق مائة رحمة، أنزل منها رحمةً في الدنيا، تشمل كل مظاهر اللُّطْف والفضل والعطف، وادَّخر منها تسعًا وتسعين ليوم الحساب، ولم

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(2) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وابن حبان (٦٣٣)، والحاكم (٤/ ٢٤٠) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، دون قوله: «فليَظُنَّ بي ما شاءَ».

يرد هذا الوصف والتعداد لشيء آخر من صفاته، فجدير بقارئ القرآن أن يقف طويلًا عند تخصيص هذه السورة وهذا الاسم؛ ليدرك طرفًا من أهميته ومركزيته في معرفة الله والتقرب إليه والدعوة إلى دينه وفتح الأبواب لخلقه.

استفتاح بديع يمكِّن القارئ من إفراد الآية الأولى بنَفَس خاص، ومد الميم، والوقوف على النون؛ لتكون الكلمة مستغنية بذاتها عن كل إضافة، وليأتي بعدها إسناد المجد والحمد والفضل لصاحب الاسم الشريف العظيم المحمود الممدوح.

* ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾:

وهذا أول ما نعت به نفسه، وهو يربط القرآن بالرحمة، فهو رحمة وشفاء للعقول والقلوب والأبدان، للأفراد والجماعات والأمم، رحمة عامة وخاصة، عاجلة وآجلة، ظاهرة وباطنة، فمَن أقبل عليه ظفر، ومَن أعرض عنه حُرم.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأن أعطى آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته القدرات والعقول والمواهب والمَلَكات اللُّغوية والعقلية على الفهم والتفكير والنطق.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأن أنزل الوحي على رسله وأنبيائه عليهم السلام، وختمهم بمحمد ﷺ، وأيَّدهم بالكتب، وختمها بكتابه العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، فهو تأسيس وتفريع، وتأكيد للنبوة عامة، ونبوة محمد ﷺ خاصة، وامتنان وفضل.

يدخل فيه معرفة الحروف والألفاظ والتجويد، ومعرفة المعاني والدلالات والأسرار بما يتفاوت الناس فيه تفاوت ما بين السماء والأرض.

ويدخل فيه تيسيره للذكر والتلاوة والفهم والعمل والدعوة، وهو خبر ووعد بأن يظل القرآن حيًّا في نفوس أهله ممن اختارهم الله، فلا يزال فيهم من يعلِّم القرآن ويتعلَّمه ويدعو إليه ويهتدي به، ويهدي إليه، وينشر رحمته في العالمين.

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾:

فهو الخالق سبحانه، وهذه من نعمه وآلائه، وهذا الخلق منطلق من الرحمة،

ولذا بدأ بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

خَلْق الإنسان رحمة، وهذا يُحسب للتصور الإسلامي؛ ففي كثير من عقائد الشعوب يتصورن الآلهة الأُسطورية الوثنية تطاردهم وتلاحقهم وتحاربهم وتمنعهم من العلم والمعرفة، في حين يقرِّر القرآن اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أولًا ليخبر عنه بأنه ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾، والبيان يشمل الفهم والعقل واللغة؛ لأنه لا قيمة للبيان إذا كان مجرد كلمات وحروف بلا معنى[1].

فمن تعليم البيان: أن يُعطي الإنسان العقل الذي يُفكِّر ويبدع المعاني والتعبير عنها، وأن يزوِّده بمَلَكات الإبداع والتخيل والقياس والنظر والتحليل والتساؤل والاكتشاف.

ومن تعليم البيان: وضع اللغات، وإلهام الإنسان اللغة؛ ليعبِّر بها عما يريد[2].

ولذلك يشعر الأصم بنقص كبير بالقياس إلى القادر على الكلام، فالكلام نعمة إبداعية عظيمة، وسبب للتواصل بين الناس، وأداة للتفاهم والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وبه ينعقد البيع والشراء والنكاح وسائر العقود والمواثيق، حتى الحرب أولها كلام.

وكما أن السورة أُسِّست بذكر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وثنَّت بتعليمه القرآن، فقد أُسِّست مرة أخرى بخَلْق الإنسان، وثنَّت بتعليمه البيان؛ ليكون دليلًا على أن البيان وما يتعلق به من العقل والإنسانية والفهم هو أعظم نعمة وجودية، ولا تتم هذه النعمة إلا بتعلم القرآن وتدبره واتِّباعه.

* ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾:

السورة سورة الآلاء والنِّعَم، ولذلك بدأت بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان؛ إشارة إلى أن الإنسان خُلق لعبادة الله، وانتقل إلى الحديث عن نِعَم في الكون،

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٣)، و«اللباب» (١٨/ ٢٩٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٢٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢٥).

وبدأ بهذه الأجرام الضخمة التي يراها الناس ويحسون أثرها.

وقوله: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ أي: بحساب[1]؛ فإن للشمس في طلوعها وغروبها حسابًا، وللقمر حسابًا يعرفه المختصون، ويعرفه الذين يحتاجون إلى ذلك، فهو بحساب لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

وفي الآية إشارة إلى الكون المضبوط بنواميس دقيقة يدركها الإنسان بعقله وتجربته، والقرآن هو الهادي والحادي والمحفِّز إلى النظر والتفكير والتأمل والكشف.

* ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾:

النجم هي: النجوم المعروفة[2]، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١]، **والشجر** معروف، أخبر عنهما بأنهما ﴿يَسْجُدَانِ﴾، وهذا فيه معنى السجود لله؛ لأنها تطيع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكلها تسجد لله، والكون يسبِّح له، فليكن الإنسان منسجمًا مع هذا الكون في عبوديته وسجوده، ولا يشذ فيعصي ويخالف.

ويجوز أن يكون المقصود بالنجم هنا: النبات الصغير الملتصق بالأرض، **والشجر هو**: الشجر الذي له ساق[3].

ولك أن تتخيَّل هذا الشجر وذلك النبت والزرع يؤدِّي واجب الشكر والسجود للخالق المُنعم جلَّ وعزَّ، أليس خَلِيقًا بالإنسان الذي أُوتي مشاعر وعقلًا أن يكون كذلك؟!

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢١٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٣)، والمصادر السابقة.

وفي الآية تناسب مع خلق الإنسان وتعليمه البيان؛ لأن البيان ومتعلِّقاته يدل على العقل والتفكير والاختيار الممنوح للإنسان، والذي بمقتضاه حصل التكليف وترتَّب الإيمان والكفر، فناسب أن يذكر المخلوقات الأخرى الشريكة له في الوجود والخلق، والمنفردة بالتسخير، حيث تطع الله وتمضي وفق ناموسه ساجدة لا تتردَّد.. أفيجدر بالإنسان المميِّز المكلَّف أن يكون أقل مرتبة منها؟!

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾:

وهنا تناسب بين رفع السماء والناس يرونها، وبين وضع الميزان.

والميزان يجوز أن يكون هو الآلة التي يزن الناس بها الأشياء(١).

ويجوز أن يكون المقصود بالميزان العدل نفسه(٢)، وهو الأولى؛ لأن الميزان ليس سوى آلة العدل.

ولك أن تفكِّر: ما سر المزاوجة بين السماء والميزان؟ لتدرك أن السماء رُفعت بالحقِّ والعدل أيضًا، فبالعدل قامت السماوات والأرض، فالسياق إذًا حديث عن عدالة الله الكونية القدرية، وعن عدالة الإنسان التي اتُّمن عليها وكُلِّف بها.

إن وضع «الميزان» في الأرض مقابل «رفع السماء»، وأن عدالة الأرض دنيوية عابرة يعتريها ظلم الإنسان وجَوْره وأنانيته، ويقابلها الآخرة والميزان القِسْط: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾:

فأمرهم أن يَعْدِلوا، فلا يزيدوا ولا ينقصوا، فقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ يعني: بالزيادة، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ بالنقص؛ ولهذا قال سبحانه ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٣٨)، والمصادر السابقة.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣]، **أمرهم بالعدل الذي يكون في كل شيء:**

العدل في المشاعر، فلا يبالغ المرء في الحب، فيعميه ذلك عن العيوب والأخطاء، ولا يبالغ في البغض مبالغة تعميه عن الحسنات والفضائل، وإنما «أَحْبِبْ حبيبَك هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون بَغِيْضَكَ يومًا ما، وأَبْغِض بَغِيْضَكَ هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون حَبِيْبَكَ يومًا ما»، كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويُروى مرفوعًا، والموقوف أصح[1].

والعدل في الحكم على العدو؛ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، والحكم على الصديق، فلا يحابيه ولا يجامله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

العدل مع النفس ومع الآخرين، العدل في القول والفعل، العدل في الأخذ والترك، العدل في العطاء والمنع، العدل في الأخلاق والموازين والمواقف، ولذا قيل: إن العدل مطلوب في كل حال، وفي كل وقت، ولكل أحد، فلا يوجد حالة يتخلَّف فيها العدل، حتى الحرب والعداوة والبغضاء..

ومن دلالة الميزان ومعناه: التوازن في إعطاء الأشياء قدرها، فقد ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وأكثر ما يواجه الناس عدم القدرة على معرفة «فقه المقادير»، دون مبالغة وإسراف، فثَمَّ مَن يتَّجه للعلم، فيهمل العبادة، أو يتَّجه للعبادة، فيهمل الدنيا، أو يهتم بأولاده وأسرته وزوجته، فيهمل عمله، أو يهتم بعمله على حساب صحته، أو يهتم بالصحة على حساب العمل والإنجاز، أو

(١) أخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٣٥٨٧٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٤٨٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٦٨).

وأخرجه مرفوعًا: الترمذي (١٩٩٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٣٩٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٣٩). وينظر: «علل الدارقطني» (٨/ ١١٠)، و«العلل المتناهية» (٢/ ٢٤٨).

يهمل جانبًا ما كالسياسة، أو ينغمس فيها دون حساب، أو يختلط بالناس فيكثر، أو يباعدهم فينعزل.

والقدرة على الانضباط والتوازن بين المتقابلات لا تتأَتى بين يوم وليلة، بل هي محاولة دائمة متراكمة يصل بها المرء إلى مقاربة العدل والوسط الخيار، كما في حديث: «سدِّدوا، وقاربوا، واغْدُوا ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلْجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»[1].

وهذا جزء من معاني قوله سبحانه: ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي نقوله في كل ركعة، وعلى مدى الحياة، فأنت على صراط مستقيم، لكن هناك ما هو أكثر دقة وأكثر استقامة مما أنت فيه، وقد يبدو للإنسان أنه منضبط متوازن، وقد أَعْطَى كلَّ شيء حقَّه، فأعطى العلم حقَّه، والعبادة حقَّها، والدنيا حقَّها، والآخرة حقَّها، والوالدين حقَّهما، والزوجة حقَّها، والعمل حقَّه، وقد يكون ذلك صحيحًا، ولكن بعد تجارب يكتشف أن ثمة مستوى من الميزان والانضباط والتوازن أفضل وأحسن مما هو فيه، وهذا يجعل المؤمن مستغرقًا في تطوير ذاته وتحسين أدائه حتى آخر لحظة: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

* ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾:

لا يوجد في القرآن الكريم لفظ: «الأنام» إلا في هذا الموضع، وكثير من علماء اللغة لم يذكروا كلمة «الأنام».

وقد اختلفوا في المقصود بها: فقيل: الأحياء، ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2].

وأجود منه- وهو مروي عن ابن عباس أيضًا وغيره-: أنهم البشر، وسياق الآية يرجِّحه؛ لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نحوه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤١).

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1] [البقرة: ٢٩].

وهذا يشبه دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فقال له ربه سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، فمتاع الحياة الدنيا لا يختص به المسلم دون غيره، والأرض لله تعالى ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ للبشر كلهم.

إنها دعوة إلى التعايش بين البشر، وألَّا يتزاحموا، بل يتراحموا، فالأرض تتَّسع لهم جميعًا، أحياءً وأمواتًا، ولهم فيها معايش ومنافع، وقد سلك الله لهم فيها سُبُلًا وطرائق في الضرب والانتفاع.

* ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ⑪﴾:

وضع تعالى الأرض وأودع فيها ما يكفل للناس غذاءهم ومصالحهم.

والفاكهة مفرد، يعني: الفواكه، وهي: الثمار النباتية التي تُؤكل عادة دون طبخ، كالتفاح والبرتقال، وإنما ذكرها تعالى هنا على سبيل أن ما فوقها مما تقوم به الحياة موجود؛ لأنها تُؤكل تفكُّهًا وتلذُّذًا، فوجود الضروري أولى، وفي الفواكه منافع صحية جمة مما امتن تعالى به علينا، ولذلك ذكر وجوده في الجنة.

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾: **النخل** من الفاكهة، بل هي سيدة الفواكه، ووصفها بـ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ إشارة إلى الجانب الجمالي فيها، وهي الأوعية التي يكون فيها الطلع، ومفردها: كِم، بكسر الكاف، والجمع: أكمام[2].

يُروى أن قيصرَ ملكَ الرُّوم كتبَ إلى عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رُسُلي أتتني من قِبَلك، فزعمتْ أن قِبَلَكم شجرةً ليست بخَلِيقة لشيء من الخير، يخرجُ مثلُ آذان الحمير،

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٣٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٢٦)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٢٠).

ثم تَشقَّقُ عن مثل اللُّؤلؤ، ثم يخضرُّ فيكونُ مثلَ الزُّمُرُّد الأخضر، ثم يحمرُّ فيكونُ كالياقوت الأحمر، ثم ينضجُ فيكونُ كأطيب فالُوذَج يُؤكَل، ثم تَشقَّقُ فتيبسُ فتكونُ عصمةً للمقيم، وزادًا للمسافر، فإن تكن رُسلي صدقتني، فلا أرى هذه الشجرةَ إلَّا من شجر الجنة.

فكتبَ إليه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من عَبد الله عُمَرَ أمير المؤمنين إلى قيصرَ ملك الرُّوم: إن رُسلكَ قد صَدَقَتْكَ؛ هذه الشجرةُ عندنا التي أنبتها اللهُ عَزَّوَجَلَّ على مريمَ عَلَيْهَاالسَّلَامُ حتى نَفَسَتْ بعيسى ابنها، فاتَّقِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا تتَّخذ عيسى إلَهًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فـ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]»(١).

وذكر ﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾ هو إشارة أيضًا إلى الجانب المنفعي الجوهري في النخل، حيث هي الثمرة التي تطلع كل سنة مرة، فتكون قوتًا للناس سنتهم كلها.

* ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾:

﴿وَٱلْحَبُّ﴾: كثير الأصناف، كالرُّز والشَّعير والحِنطة وغيرها مما يُدَّخر ويقوم عليه غذاءُ الناس، عبر العصور وعبر القارات.

و﴿ٱلْعَصْفِ﴾: الأعواد التي تُكوِّن أشجار الحبوب، وكذلك الورق الذي ييبس، ثم يكون طعامًا للحيوانات أو تبنًا(٢)، فهذا ملمح جميل أن يذكِّرنا تعالى بالحَبِّ الذي نأكله والعصف الذي يكون طعامًا لأنعامنا، كقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، عبس: ٣٢].

والمتاع المادي ليس خاصًّا بالإنسان، بل يشاركه فيه الحيوان، فخَلِيق بالعاقل

---

(١) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (١٨٢) عن الشعبي. وينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (١٠/ ٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠- ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢)، وما سيأتي في «سورة النازعات»، و«سورة عبس».

أن يبحث عما يميِّزه من العقل والعلم، والعبودية لله سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ معطوف على «الحَب» عند الجمهور، فيكون معناه مستقلًّا، وأنه من ضمن ما امتن الله به على البشر مما خلقه في الأرض.

وفي قراءة سبعية يُقرأ مجرورًا، معطوفًا على ﴿ٱلْعَصْفِ﴾: ﴿وَٱلرَّيْحَانِ﴾[1]، فيكون تقدير الكلام: والحبُّ ذو العَصْف وذو الرَّيْحانِ[2].

والرَّيحان معروف، وهو الورد ذو الرائحة الطيبة[3]، ولذلك سمي الرَّيْحان، وهو أنواع، منه: الأصفر والأبيض والأحمر، يمتن تعالى على الناس بهذا الشجر الذي لا يُؤكل، ولكن يبعث الرائحة الطيبة الزَّكية، فالجمال والمتعة بالمنظر أو المسمع أو الرائحة الطيبة مقصد إلهي في الكون، ولهذا أمرنا تعالى أن ننظر في الكون ونتملَّى ما بثه فيه من جمال في نجومه وكواكبه وشمسه وقمره وأشجاره وجباله...، فالحسن مقصد إلهي في الخلق وتربية الناس على ملاحظته وإدراكه والاستمتاع به سواء كان مُشْتَمًّا كما في الريحان أو كان مسموعًا أو مرئيًا فإن ذلك من كمال شكر الإنسان لنعمة الله، وهو استجابة لغريزة فطرية تتطلب الإشباع والجور عليها تأهيل لتدمير الإنسان والحياة.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾:

هذه الكلمة العظيمة تكرَّرت في «سورة الرحمن» إحدى وثلاثين مرة بعد كل نعمة لله تعالى.

وقد ورد أن رسولَ الله ﷺ خرج على أصحابه، فقرأَ عليهم «سورةَ الرحمنِ»

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٨- ١٨٩)، و«السبعة في القراءات» (ص٦١٩)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٤٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٤٥)، و«حجة القراءات» (ص٦٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢).

من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لقد قرأتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردُودًا منكم، كنتُ كُلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمكَ ربَّنا نكذِّبُ فلك الحمدُ»[1].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لمثنى، والجمهور على أنه للإنس والجن[2]، وقلَّما ما يخاطب تعالى الجن مع الإنس، والأكثر في الخطاب أن يأتي الجن تبعًا، وفي هذه السورة كان لهم خطاب خاص مباشر، ولعلَّ الله أراد التذكير بأنهم من سائر عباد الله المأمورين بعبادته وطاعته سبحانه، فكيف تظنون أنهم شركاء لله في ألوهيته، وهم عبيد مخاطبون مربوبون، وليس لهم من الأمر شيء، ولذلك كانوا مشمولين بالخطاب، بأي آلاء الله تعالى ونعمه تكذبون يا معشر الجن والإنس؟

وقال بعضهم: إن الخطاب للرجال والنساء، أو للمكذِّبين والمؤمنين[3]، والصحيح قول الجمهور: أن الخطاب للجن والإنس.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٤، ٤١٠٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتكلموا فيه من أجل: زُهير بن محمد المَرْوَزي، قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، قال ابن حنبل: كأن زُهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يُروى عنه بالعراق، كأنه رجل آخر قلبوا اسمه. يعني: لما يروون عنه من المناكير.

وسمعتُ محمدَ بنَ إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زُهير بن محمد مناكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة».

وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٣٥): «فيه نظر». وقال ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٧٩): «وهذه الأحاديث لزُهير بن محمد فيها بعض النُّكْرة». وذكره الذهبي في «الميزان» (٢/ ٨٥) من منكرات زُهير، وأورده في «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٠١) وقال: «زُهير ضعيف». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩١).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٣).

* ويؤكِّد هذا أنه ذكر خلق الإنسان والجان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾:

والمقصود بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أصل خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

فإذا قلت: إن الإنسان مخلوق من ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، فذلك باعتبار خلق آدم، وتستطيع أن تقول: إنه مخلوق من ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، أو مخلوق من طين، أو مخلوق من تراب، وكل هذه صياغات وردت في القرآن الكريم، ولا اختلاف بينها(٢)، وهي مراحل تكوينية مر فيها ذلك التمثال المسجَّى على الأرض، حتى استوى لحمًا ودمًا وعظمًا، ونُفخت فيه الروح(٣).

والصَّلْصال هو الطين اليابس الذي يكون له صوت وصلصلة(٤)، فيُسمَّى: طينًا، ويُسمَّى: صَلْصالًا، ويُسمَّى: ترابًا.

وقوله: ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾: الفخار هو الطين المطبوخ، والذي يُسمَّى: الخزف، فهذا الطين الذي خُلق منه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يابسًا، وكأنه مطبوخ يشبه الفخَّار، وكأن خلق الإنسان من الطين تأهيل لعمارة الأرض وبنائها، وتربية على التواضع ومباعدة العنصرية، فكلهم بنو الأرض يطؤونها بأقدامهم، فكيف يتعالَى بعضهم على بعض، وهو تدريب على الترقِّي في معارج الكمال كما ترقَّى الإنسان في الخلق الأول؛ من تراب، إلى طين، إلى صَلْصال، إلى حَمأ مسنون، إلى جسد وروح.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٠- ١٦١).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٤٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٥).

والمارج هو: اللَّهب الصافي الذي ينقطع من النار في نهايتها وأعلاها[1]، فهو مخلوق من النار، ومن مارجها على وجه التخصيص، ولذا فهو لا ينتسب إلى جنس هذه الأرض، كما أن من صفة النار الطيش والعجلة.

* ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾:

أي: مشرق الشتاء والصيف ومغرب الشتاء والصيف[2]، وهو رب ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، فإن للشمس كل يوم مشرقًا ومغربًا يختلف عما قبله باعتبار اختلاف المطالع، ويعرف هذا المتخصِّصون، وفي ذلك إشارة إلى الحسبان الذي للشمس، وإلى تعدد المطالع، وإلى الامتنان على الناس في خلق هذه الأجرام التي من الممكن أن تكون سببًا في العذاب عليهم، فالشمس كتلة من اللَّهب، ويوم القيامة تدنو من الناس حتى يلجمهم العرق إِلْجامًا[3]، ولكن الله تعالى سخرَّها لخلقه بحيث ينتفع الناس والحيوان والنبات بها دون ضير.

* ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أرسل البحرين[4]، والمقصود: البحار المتصل بعضها ببعض، وهذا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢١٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٢).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٧).

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق، حتى تكونَ منهم كمقدار مِيلٍ». قال سُليمُ بنُ عامر- راوي الحديث عن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: فوالله ما أدري ما يعني بالمِيل، أمسافة الأرض، أم المِيل الذي تُكْتَحل به العينُ؟- قال: «فيكونُ الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكونُ إلى كعبيه، ومنهم مَن يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُهُ العرقُ إِلْجامًا». وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فِيهِ، وينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم...﴾ [الحديد: ١٢].

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٨).

المعنى اختاره بعض المفسرين[1].

والأصوب أن المقصود: البحر المالح والبحر العذب[2]، أي: البحر والنهر، فالله تعالى يرسل الأنهار إلى البحار لتصب فيها، كنهر النيل ودِجْلة والفُرات، ومع ذلك فبينهما برزخ إلهي بسنة التمايز يحول دون امتزاجهما، فلا البحر المالح يتحوَّل إلى عذب، ولا العذب يتحوَّل إلى مالح، وكلٌّ له خصائصه التي لا تمتزج بخصائص الآخر.

ويحتمل أن يشمل المعنى البحار المالحة التي تلتقي مع اختلافها، مثل التقاء المحيطات بالبحار العظيمة، ففي أماكن الالتقاء يوجد حدٌّ يكون به نهاية البحر وبداية المحيط، فلا يبغى أحدهما على الآخر، فهذا من حكمته سبحانه، لا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فلك الحمد!

* ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾:

يخرج من البحرين معًا أو من أحدهما، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرُّسل إنما يأتون من الإنس، فعليه يكون المعنى أن اللُّؤْلُؤ والمَرْجان يخرجان من البحر المالح فحسب.

وقيل: إنهما يخرجان من البحر الحلو أيضًا، وقال بعضهم: إن الصَّدَف الذي يكون فيه اللُّؤْلُؤ يتكون من المطر وهو من الماء العذب.

والأولى حمل الآية على ظاهرها، ويؤيِّده: قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فهذا نص على أن الحلية تخرج من كلا البحرين، وفي بعض الأنهار تُوجد اللآلئ، وكذلك الألماس والياقوت يوجدان في الرواسب النهرية، وقد تحدَّث عدد من المختصين عن وجود اللُّؤْلُؤ وغيره من

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٨).

المعادن الكريمة في البحار والأنهار، وهذا هو الأقرب للصواب والأكثر تماشيًا مع وضوح النص القرآني المحكم، والله أعلم.

* ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿الْجَوَارِ﴾ جمع: جارية، وهي السفن ﴿الْمُنشَآتُ﴾[1]، وفي قراءة سبعية: ﴿الْمُنشِئَاتُ﴾[2]، أي: أنشأت السير في عرض البحر.

والأعلام هي: الجبال الشواهق، يشاهدها الناس من بعيد[3].

ويرتسم لخيال القارئ صورة السفن كالشاخصة أمام ناظريه تمخر عُباب البحر، ولكنها تشبه الجبل الرَّاسي الثابت بعظمتها وشموخها!

* ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾: وهذه من الآيات التي تجري على ألسنة الناس كثيرًا، والحق الذي ليس فيه امتراء أن مصير المخلوقات إلى فناء وموت، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، يبقى الله تعالى الحيُّ القيوم الذي لا يموت؛ لأن وجوده قائم بذاته، بخلاف البشر فوجودهم فضل من ربهم الذي خلق الإنسان.

وفي قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الإنسان بقدر قُربه من الله وعمله الذي يريد به وجه الله يتحقَّق له النعيم والخلود، فالذي يريد الخلود في الدنيا بحيث تصبح الدقيقة عمرًا طويلًا بالأُنس والسعادة والرِّضا والإنجاز، أو يريد

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٣)، و«التحرير التنوير» (٢٧/ ٣٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١٠)، و«السبعة في القراءات» (ص٦١٩- ٦٢٠)، و«حجة القراءات» (٦٩١- ٦٩٢)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٥٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٣)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٢).

الخلود في الآخرة برضوان الله تعالى والجنة، عليه أن يُكثر من الأعمال التي يريد بها وجه الله تعالى، ولا يحتقر شيئًا من العمل ولو كان صغيرًا؛ فإن النية تُزكِّي الأشياء، وكان معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لأحتسبُ في نومتي، كما أحتسبُ في قومتي»[1]. والنبيُّ ﷺ يقول: «في كُلِّ كبد رَطْبَةٍ أجرٌ»[2].

ومعنى الآية: أن ما سوى الله تعالى فهو عرضة للفناء؛ لأن وجوده ليس قائمًا بذاته، بل بإيجاد الله له، وهو زائل في الدنيا، ولا خلود إلَّا لَمن كتب الله لهم الخلود في الدار الآخرة، وليس المعنى إطلاق الفناء التام على كل شيء كما زعمه طائفة من الجاهلين، والذين بَنَوْا عليه القول الفاسد بفناء الجنة والنار[3].

و﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ أي: ذو العظمة[4]، ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾: الذي يُكرم مَن يشاء من عباده[5]، لذلك ناسب أن يُعقِّب بقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، الفاني يسأل الحي الباقي الذي لا يموت ﴿يَسْأَلُهُ﴾ يا لعظمة الدعاء! حينما يعجز الإنسان عن شيء يلجأ إلى الحي القيوم القدير الذي لا يعجزه شيء، فلا يعتمد على قوته وقدرته بل على قوة الله تعالى الذي لا يغلب ولا يعجز ولا يمل ولا يتبرَّم بكثرة السؤال.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٥١)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٥٠).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٣).

(٦) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٩٣)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ١٠٣)، و«الفوائد» لابن القيم (ص٩٧).

وحقيقة فناء الخلق وبقاء الرب الجليل الكريم يمكن أن تمر ببعضهم عابرة لا تهز الضمير ولا تغيِّر السلوك كما يقع للأغلب، ويمكن أن تتحوَّل إلى معرفة قلبية راسخة مؤثِّرة مسيطرة، بحيث تحدِّد مسارات الإنسان وأولوياته، وتحكم سلوكه وتصرفه في الدقيق والجليل، ولعلها أهم حقيقة كفيلة بتغيير وجهة الإنسان متى صدَّق بها وآمن ولامست شِغاف قلبه وأعماق وجدانه.

* ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾:

أما مَن في السماوات: فتشمل الملائكة شمولًا أوليًّا، وقد علَّمنا الله تعالى أن سؤالهم في الغالب يتعلَّق بمَن في الأرض: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فهم يسألونه تعالى لأهل الأرض، وتشمل غيرهم ممن يعلمهم الله ولا نعلمهم، ليبقى النص واسعًا، ويبقى الذهن متحفِّزًا مفتوحًا على كل ما يدخل في النص الإلهي بلا تكلف.

أما من في الأرض: فكل الناس يسألونه، حتى الكافر: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ ..﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فيعطيهم تعالى ما شاء مما يطلبون، ويمهلهم، ويُنْظِرهم.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾: وهذه آية عظيمة تفتح العقل والنظر على التحولات الفردية والجماعية والأممية، فلا يخلد المرء إلى حال هو يملها ولا ييأس من تغيرات الأحداث فيما يطمع أن يتغيَّر.

وليس المقصود «اليوم» الذي نعرفه، والذي هو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما المقصود مطلق الزمن، يعني: كل لحظة، وكل ومضة، وكل وقت[1] ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ سبحانه، وهو شأن يُبْدِيه وليس شيئًا يبتديه، بمعنى أنه معلوم عنده، ولكنه يبديه للبشر، فهذا الشأن الذي ذكره الله تعالى هو تحولات الأحوال

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٤٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٠٦).

من الغنى والفقر والقوة، والضعف والصحة والمرض، والوَحدة والكثرة، والحياة والموت، والرفعة والضعة، والعلم والجهل، والسفر والإقامة، والإيمان والكفر، وغير ذلك مما يحدث في هذا الكون من التنوع والتغيُّر والتجدُّد المستمر بإذن ربي سبحانه، وفيه تحفيز للإنسان أن يسأله سبحانه، وألَّا يكون أسيرًا لحالة يعاني منها من هم أو غم أو مرضٍ أو فقر أو سجن أو حرمان.. فهو يُذكِّرك بأن الله تعالى يُسأل وكل الناس يسألونه، فلا تيأس، ولا يكون سؤالك سؤال العاجز.

* تأتي بعد ذلك آية مُزَلْزِلة مُجَلْجِلة مُخيفة منطوية على وعيد لا نظير له ولا عهد لقارئ الكتاب العظيم بمثله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾:

هذا ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ الخالق المُعلِّم المُلهم الذي خلق السماء والأرض والمشرقين والمغربين، يتوعَّد الثقلين، وهما الجن والإنس، المخاطبان بسياق الآيات، وهو تعالى لا يلهيه شأن عن شأن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، ولكن هذا لفظ جارٍ على مقتضى لغة العرب، والعربي يفهم من هذا المعنى التهديد، وكأن المقصود أن الدنيا قد انقضت، وأسدل على حوادثها الستار، ونحن الآن في الآخرة حيث الجزاء والحساب(١).

والآية دليل على أن الجن محاسبون مجزيون كالإنس.

* ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾:

الخطاب للثقلين، وكأنهم الآن في عَرَصات القيامة قد جمعهم تعالى وبعثهم لحسابهم، يخاطبهم متحدِّيًا: إن استطعتم أن تجاوزوا نواحي السماوات والأرض

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٢٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٧).

فافعلوا[1]، وهذا على سبيل التعجيز.

والأقطار جمع: قُطْر، وهو الناحية العظيمة[2]، ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا يمكن أن تنفذوا إلا بقوة، وهذا متعذِّر، فالله تعالى قد فرغ لكم، والموقِف موقِف حساب.

* والسياق يدل على أنها تُقال يوم القيامة، ولهذا قال سبحانه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾:

فلو همَّ أحد منكم أن يهرب لأرسل الله تعالى عليه شُواظًا من نار ونحاسًا.

ويمكن أن يكون المعنى: أنه تعالى يعاجل الكافرين يوم القيامة قبل أن يدخلوا النار بذلك حتى من دون أن يحاولوا الهرب، فيُرسل عليهم شُواظًا من نار، **والشُّواظ** هو: اللَّهب الخالص، أما **النُّحاس** فهو: الدُّخان، وهو يُسمَّى: نُحاسًا في اللغة، كما قال النابغة[3]:

يُضِيءُ كضَوْءِ سراج السَّلِيطِ ... لم يجعلِ اللهُ فيه نُحاسًا

فيرسل الله تعالى عليكم شواظًا من نار ودخانًا، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠- ٣١]. فكأنه يرسل عليهم نارًا فيهربون منها إلى ظل الدُّخان، فيجدونه هو الآخر عذابًا لا ظل فيه ولا غَناء[4].

ويجوز أن يكون المقصود بالنُّحاس: المعدن المُذاب[5]، يُعذَّب به الكافرون

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٩).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٦) «ق ط ر»، و«لسان العرب» (٥/ ١٠٦) «ق ط ر»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٩).

(٣) ينظر: «ديوان النابغة الجعدي» (ص١٠٠).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات».

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٠).

في العَرَصات قبل أن يصيروا إلى نار جهنم.

* ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾:

هذه السماء التي رفعها، وامتن بها عليكم، وجعلها مصدر خير وبركة وجمال يتغيَّر حالها حتى تبدو ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، وأقرب ما يكون المعنى: أن السماء تصبح مثل الوردة التي نعلم شكلها وهيئتها وطبقاتها وألوانها[1].

وهو إشارة إلى بقاء قدر من الجمال فيها، ولكن مع وهن وضعف وتشقق، قال مجاهد: «كألوان الدِّهان». وقال عطاء: «كلون دُهْن الورد في الصُّفرة».

والوردة معناها: حمراء، كما قال زُهير يصف فرسه[2]:

وصاحبي وردة نَهْد مَراكلها[3] جرداء لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ[4]

فالوردة هي حمراء اللون.

* ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾:

الموقف الآن لا سؤال فيه، ويوم القيامة يوم عظيم طويل: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، يجري فيه أحداث متخالفة؛ فمرة هم يُسألون: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ومرة لا يُسألون: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يُسألون سؤال استبصار، سؤال الذي يريد أن يعرف[5]، فالملائكة قد دَوَّنت عليهم، وأوثقتهم، ولذلك ينكرون ويكذِّبون

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص٧٩).

(٣) المراكل جمع: مَرْكل، وهو موضع رِجل الفارس.

(٤) أي: متباعد ما بين اليدين والرجلين.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٢)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٧٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٦٦- ٣٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٢).

ويجحدون، فـ﴿تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، فالسؤال ليس سؤال تثبيت للمعلومة، وإنما هو سؤال إقرار، وإقامة الحجة عليهم من أنفسهم.

* ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾:

فلا يحتاج إلى سؤال، بل الملائكة تعرف المجرمين بسيماهم وعلامتهم، فتأخذهم بنواصيهم وأقدامهم.

والنواصي: مقدِّمات الرؤوس(١)، فالملائكة يأخذون الكافر بالناصية من أعلى رأسه ومن أسفل قدميه ويصبح مُحْدَوْدَب الظهر في قبضة الملائكة، فليس له مخلص أبدًا، فكيف لمثل هذا أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض؟ كيف سيتحدى الله سبحانه؟

* ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أشار إليها كأنها جسم مرئي مشهود يراه الناس ويسمعونه ويحسونه، ومثل هذا يتكرر كثيرًا في القرآن، سواء فيما يتعلق بوعد الآخرة أو بقصص الأنبياء أو غيرهما، وفيه تنشيط للخيال وتنمية لمَلَكة التصور والتصوير، وبهذه المَلَكة يتحوَّل العلم النظري إلى ما يشبه رأي العين، ويحدث التأثير في القلب، وتتحوَّل المعرفة إلى يقين وإيمان.

* ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾:

والطواف هو: التردد والدوران(٢)، فهم يتردَّدون بين جهنم ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾[التوبة: ٣٥]، وإذا ضاقوا منها طلبوا الماء كما يفعل

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ٣٢٧)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٠٩) «ن ص ى»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «مقاييس اللغة» (٣/ ٤٣٢) «ط و ف»، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٣).

العطشان، فيُذهب بهم إلى ماء حميم شديد الحرارة(١)، و﴿ءَانٍ﴾ أي: بالغٌ في الحرارة مبلغًا عظيمًا(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فهذا هو الماء الذي يُغاثون به، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، فما موقفك أنت أيها المؤمن بيوم القيامة من هذا الوعيد؟ هذا دعوة للناس إلى تجديد إيمانهم.

وجاء بجملة معترضة من حيث المعنى تشير إلى تكذيب المجرمين بها، فهم يكذِّبون بحقيقة مرئية مشهودة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ هي أمامكم ترونها وتقاسون حرَّها، أو تطوفون بينها وبين نوع آخر من العذاب، وهذا التكذيب هو الذي جعلهم مجرمين، حيث لم يقيموا وزنًا لموعد لقائه ولا لوعده ووعيده.

* و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ سبحانه لا يهلك عليه إلا هالك، ولا يدخل أحدٌ النارَ إلا وقد أعذر من نفسه، ولهذا قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾، كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ولأن السورة «سورة الرحمن»، فقد ساق الوعيد بآية واحدة، بينما فصَّل الوعد في بقية السورة في أزيد من ثلاثين آية.

والمقصود بالجنتين مفسَّر في قوله ﷺ: «جنَّتان من فضة، آنِيَتُهما وما فيهما، وجنَّتان من ذهبٍ، آنِيَتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلَّا رداءُ الكِبْرِ على وجهه في جنَّةِ عَدْنٍ»(٣). فالجنان أربع، هؤلاء جنتان، ومن دونهما جنتان؛ الجنتان الأوليان من ذهب أنياتهما وما فيهما، والجنتان الأخريان من فضة آنيتهما وما فيهما، هذه للسابقين وتلك لأصحاب اليمين.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٣٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٣- ٢٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٩)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٖ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ ﴾:

والأفنان هي: الغصون المخضرَّة[1]، فشجر الجنة كثير الأغصان، كثير الورق، كثير الثمر.

* ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ ﴾:

والعيون هنا تجري بقوة، فيكون للواحد منهم بيت وقصر وجنة عن يمينه، وجنة عن شماله، وعين في تلك الجنة، وعين في تلك الجنة، كما ثبت عن النبي ﷺ: «ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[2]. و«إن أهلَ الجنة لَيَتَراءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما تَتَراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ من الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضُل ما بينهم». قالوا: يا رسولَ الله، تلكَ منازلُ الأنبياء، لا يبلُغُها غيرُهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ»[3].

* ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ ﴾:

فكل الفواكه موجودة، والفاكهة الواحدة فيها زوجان، والمعنى: تنوع الفاكهة ذاتها، ويمكن أن تكون فاكهة يابسة وفاكهة رطبة، أو كبيرة وصغيرة، أو مختلفة في لونها، أو في طعمها، أو في جميع ذلك[4].

* ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٖۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ ﴾:

والاتِّكاء علامة التنعم والراحة والاسترخاء والمُلْك، والإستبرق- بالهمزة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٨٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٦).

المقطوعة- هو أفخر أنواع الحرير[1]، فإذا كان هذا هو حال البطائن، فكيف بظواهرها؟ والإستبرق عادةً ما يُغزل بخيوط الذهب[2].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: ثمرها قريب منهم يتناولونه حيث شاؤوا[3].

* ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: في الجنتين، أو في الفُرش[4]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وهذا يشمل الُحور، ويشمل نساء الدنيا المؤمنات الوفيات الصابرات على حفظ العهود[5].

والمعنى: أنها قصرت طرفها في الدنيا، فهي لا ترى جمالًا غير زوجها، وهو كل عالمها، وفيه دلالة ظاهرة على عفتها، وأنها قصرت طرفها بإرادتها مع قدرتها على ألَّا تفعل ذلك.

ومن المعنى: أن المرأة تُمدح بالكَسَل في عينيها وانكسار العين، وهذا ضرب من الجمال، وهو يشمل الحُور التي خلقهن الله تعالى لمتعة أهل الجنة، ويشمل نساء الدنيا اللاتي أنشأهن الله تعالى: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٨].

والعرب يمدحون المرأة بطرفها الناعس، وهو يوحي بالخضوع والسماح

---

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ٣٠٧)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٩٦)، و«لسان العرب» (١٠/ ١٥٦)، و«تاج العروس» (٢٥/ ٦٩).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٩).

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٣٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٠).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣١).

والمطاوعة.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾: **الطمث** هو: الدم[1]، ويُطلق على دم الحيض، ويُطلق على دم البكارة.

والمعنى: لم يعاشرهن قبلهم إنس، بالنسبة لنساء الإنس، ولا جن، بالنسبة لنساء الجنّ[2].

وليس في الآية دليل على أن الإنس ينكحون الجن أو العكس، فهذه أشياء غريبة على لغة القرآن، بعيدة عن دلالاته التي فيها تحريك للقلوب ومخاطبة الأرواح، فمثل هذه المباحث ينبغي ألَّا تُقحم في التفسير، وألَّا يتكلَّف لها الاستدلال، حتى لكأنما نزل القرآن من أجلها، ويصبح شغل القارئ للقرآن هو هذه المسائل المتكلَّفة التي لا جَدْوى من ورائها، ولا قيمة لها تُذكر.

* ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: في جمالهن وصونهن وتنوع ألوانهن[3].

* ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾:

لقد كانوا محسنين في طاعتهم، فأحسن الله تعالى جزاءهم، وكانوا محسنين إلى عباده، فأحسن إليهم، فهم ممن أَعْطَى فأُعْطِي، وأَنْفَق فأَنْفَقَ الله عليه، وجاد فجاد الله له، والله أكرم وأجود، وحتى إحسانهم هو فضل من الله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فمن فضله عليهم أن وفَّقهم للطاعة والعبادة، ثم كافأهم عليها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٩١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«التفسير القيم» (ص٥٠٥)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٤).

وقوله: ﴿ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ هذا يرجِّح أن هاتين الجنتين فوق الجنتين التاليتين، فهما جنتان من ذهب للمحسنين؛ لأن الإحسان أعلى الدرجات، كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بدأ بالإسلام، ثم ارتقى إلى الإيمان، ثم انتهى إلى الإحسان، وهو أن تعبد اللهَ كأنك تراه[1].

* ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾:

إما أن يكون من دونهما في المكان، أو من دونهما في المنزلة لَمن هو متأخِّر عن رتبة الإحسان من أهل الإيمان والخير، وهو قوي[2].

* ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾:

يعني لونهما يميل للسواد، من كثرة الخضرة وجودة الشجرة ورِوائه[3].

* ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾:

في الأولى عينان تجريان، والجريان أقوى من النضخ[4]، فهذه العيون تفيض، ولكن الأولى أقوى منها.

* ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾:

وهذا إشادة بما ذكر تعالى من الفاكهة، ولكن في الجنتين الأوليين وصفهما بأن ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾﴾، ففيهما كل الفواكه، ومن الفاكهة الواحدة أزواج، أما هنا فذكر الفاكهة إجمالًا، وخصَّ منها: النَّخْل والرُّمَّان[5].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠)، و«صحيح مسلم» (٨، ٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٩٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٢٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٩٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣١)، و«روح البيان» (٩/ ٣١١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٧).

* ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾:

في الأولى ذكر ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وفي هذه وصفهن بأنهن ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾، كما قيل(١):

قُصِرْنَ على حبِّ أزواجهنْـ ـنَ مُشتاقةٌ تَتَلَقَّى مَشُوقَا

ولكن متعلّق القصر في الأولى واضح، وهو الطَّرف والنَّظَر، وفي الثانية لم يذكر، فيحتمل أن يكون عامًّا، مقصورات الطرف والمشي وغير ذلك.

والخيام ليست كخيام الدنيا، ولكنها خيام من لُؤلُؤ، ومن ذهب(٢)، بما لا يمكن تصوره، ولكن في حكمة الله أن يُقرِّب لنا هذه المعاني حتى نتشوَّف ونتشوَّق، والشيء الذي في الجنة ليس بالذي يخطر في بالك مطلقًا؛ ولذلك يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماءُ»(٣). فكل ما ذكره الله تعالى من فواكه الجنة مما نعرفه في الدنيا، فهي ليست كمثلها في الطعم والحلاوة والجمال، إنما التوافق في الاسم فحسب، وكذلك ما يتعلّق بالمتعة بين الزوجين.. والذي في الجنة شيء آخر مختلف؛ لأنك لا تعرف جنسه، ولم تر مثله ولا شبهه؛ وهذا لا ينافي أن يتخيَّل المرء نفسه مقبلًا على إحدى هذه الخيام الجميلة الفارهة، ثم داخلًا من بوابتها، مذهولًا بجمالها، وجمال أثاثها النادر، وجمال مَن فيها، متعجِّبًا أنها له، وله هو دون سواه.

والخيام معروفة، وهي نمط من المسكن الخاص في البر، أو للمتعة، أو للضيوف، ولهم في الجنة مساكن أخرى وقصور وغرف ودور وما شاء الله مما

---

(١) ينظر: «التبصرة» (١/ ٤٤٢)، و«بساتين الواعظين ورياض السامعين» لابن الجوزي (ص٤٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢). وسيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

نعلم وما لا نعلم.

* ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾:

والرَّفْرَف هي: البُسُط أو الوسائد[1]، يعني متَّكئين على ألوان مما يُتَّكأ عليه مما يحتاجه الناس في الاتِّكاء، وعادةً ما يكون اللون الأخضر أجمل وأكثر من يستعمله الملوك والعظماء.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: والعَبْقَري هو: الشيء النَّفيس الذي يصعب تصوره، والعرب إذا رأوا شيئًا عظيمًا نسبوه إلى وادي عَبْقَر، وهو وادٍ يعتقدون أنه للجن[2]؛ وذكر النبيُّ ﷺ هذا اللَّفظ في قصة الرُّؤيا، قال: «فلم أَرَ عَبْقَرِيًّا في الناس يَفْرِي فَرِيَّهُ»[3]. يقصد: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أي: لم أَرَ إنسانًا عظيمًا منجزًا قويًّا[4]، مثل عمله، فأهل الجنة متَّكئون على متَّكآت وبُسط ووسائد حسنة جميلة، لا تخطر على بال.

* ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾:

والبركة هي: الخير الكثير العظيم[5]، تبارك ربك، وتباركت أسماؤه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن أسمائه ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فله الجلال

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٤).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٥).

وينظر أيضًا: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (١/ ٨٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٥٣٥)، و«تاج العروس» (١٢/ ٥١٤) «ع ب ق ر».

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «شرح المشكل من أحاديث الصحيحين» (٢/ ٥٠٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ١٦٢)، و«فتح الباري» (١٢/ ٤١٣).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٨٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٦)، وما سيأتي في أول «سورة الملك».

والعظمة والكبرياء، وهو الذي يفيض الخير والفضل على عباده، ويجازي الإحسان بالإحسان، ويجازي الذنب للنادم بالصفح والغفران؛ لأنه الرحيم الرحمن[1].

○○○

(١) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٢٨٥).

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

*** تسمية السورة:**

تُعرف بـ«سورة الواقعة»؛ نظرًا للكلمة ذاتها في الآية الأولى، باعتبار ورودها في الآية الأولى.

وهو في المصاحف، وكتب التفسير[(١)]، والحديث، وورد في غير ما حديث عن النبي ﷺ، منها الحديث المشهور: قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يا رسولَ الله، قد شِبْتَ؟ قال: «شَيَّبَتْني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[(٢)]. وهو حديث مضطرب، كما ذكر الحافظ ابن الصلاح، وغيره[(٣)].

وكذلك الحديث المروي أن عثمانَ زار عبدَ الله بنَ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مرض موته، وقال له: أَلَا ندعو لك الطَّبيبَ؟ قال: الطَّبيبُ أمرضني. قال: هل تُوصي لأهلك وبناتك بشيء؟ قال: إني أوصيتُهم بما سمعتُه من رسول الله ﷺ، أنه «مَن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٠)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٠٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٧٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٣)، والضياء (١٢/ ٢٠٢) (٢١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٨٢٦، ١٨٩٤)، و«علل الدارقطني» (١/ ١٩٣- ٢١١)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (١/ ١١٨)، و«فتح المغيث» (١/ ٢٩٤)، و«تدريب الراوي» (١/ ٣١٢)، و«الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» (ص٣٥١- ٣٥٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٥).

قرأ سورةَ الواقعة كلَّ ليلة لم تصبه فاقةٌ»[1].

والحديث على تعدد طرقه، إلا أنه لا يثبت، والصحيح أن الفاقة إنما تُدفع بالأسباب التي خلقها الله تعالى، وأرشد عباده إليها لطلب الرزق، ومن ذلك الضرب في الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وتُدفع بالإحسان والإنفاق؛ فإن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «يا ابنَ آدمَ، أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك»[2]. و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

وأما قراءة القرآن فللعلم والعمل، ورجاء الآخرة، وإصلاح النفس والمجتمع، وليس تواكلًا ليأتي الرزق به دون سعي، فالحديث لا يصح سندًا ولا متنًا.

ومن أمثل ما ورد في الباب ما رواه أحمد عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ كان يقرأُ في صلاة الفجر بالواقعة ونحوها من السور[3].

* **عدد آياتها:** تسع وتسعون آية، وهو الموجود في مصاحف المدينة النبوية[4].

وقيل: سبع وتسعون آية، أو ست وتسعون، على اختلاف علماء العدِّ[5].

* **وهي مكية** عند جمهور المفسرين، وهو الراجح، واستثنى بعضهم آيات

---

(١) أخرجه القاسم بن سلاَّم في «فضائل القرآن» (ص٢٥٧)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٤٧)، والحارث في «مسنده» (٧٢١- بغية)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٨٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٩٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢٥).
وينظر: «المنتخب من علل الخلال» (٤٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤١١)، و«نتائج الأفكار» (٣/ ٢٦٢- ٢٦٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٩٩٥)، وابن خزيمة (٥٣١)، وابن حبان (١٨٢٣)، والحاكم (١/ ٢٤٠)، والبيهقي (٣/ ١٦٩).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٩)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١١)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٨)، و«مصاعد النظر» (٣/ ٥٠).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٠)، والمصادر السابقة.

منها، والراجح أن السورة كلها مكيَّة[1].

* ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾:

و﴿إِذَا﴾: ظرفٌ لما يُستقْبَل من الزمان[2]، أنه شيء سوف يأتي، وفيه معنى الشرط فـ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ حدث عظيم فيه خفض ورفع، وجزاء وحساب.

و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، مثل: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾، و﴿ٱلصَّاخَّةُ﴾، و﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، و﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾، و﴿ٱلسَّاعَةُ﴾[3].

* والآية إشارة إلى عظم هذا الأمر، فهو شيء له دَوِيٌّ وهزة عنيفة؛ ولهذا قال بعدها مباشرة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي: أن وقوعها حقٌّ، لا ريب فيه ولا تكذيب.

وجاء التعبير بقوله: ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾، ولم يقل: «**لوقوعها**»؛ لأن كلمة «**وقعتها**» أسرع، كأنها وقعة واحدة سريعة مفاجأة.

ويحتمل أيضًا أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس فيها تراجع[4]، وأنها إذا وقعت فإنها لا تُرفع[5]؛ ولهذا قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢١٥)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٧٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٩)، و«الجدول في إعراب القرآن» (٢٧/ ١٠٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٧٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٧٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٦).

(٥) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٥٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٨).

ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٥- ١٧]، فهي إذا وقعت لا تُرفع ولا تُدفع، وإنما تمضي في أحداثها المرسومة دون تعديل.

والعرب تُسمِّي المعركة الحربية: الوقعة، أو الواقعة، وقد تعلن الحرب أو تبدؤها على سبيل التهديد والزجر والوعيد، بينما يؤكِّد النص هنا أن تلك ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ صادقة حاقة ماحقة ماضية، لا تُقال للتهديد فحسب، بل هي محقَّقة الوقوع، وحين وقوعها تراها العيون والقلوب فتصدِّق ولا تكذِّب.

* ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣﴾:

وهذا من أخص معانيها، قال بعضهم: إنها رفعت الصوت فأسمعت البعيد، وخفضت فأسمعت القريب(١).

ومن معانيها: أنها تخفض أقوامًا، وترفع آخرين.

وهذا جاء عن عمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، فإن الموازين يوم القيامة تتغيَّر؛ فيُؤتى بالرجل السَّمين العظيم، فلا يَزِنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضة(٣)، ويُؤتى بالفقير الضعيف المغمور ذي الثياب البالية، لا يُؤْبَه له، فيكون ثقيل الميزان عند الله، وفي أعظم المنازل في الجنة(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٧٥)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٧٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨١)، والمصادر السابقة.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامة، لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: ١٠٥]».

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٤٩١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب الخُزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «ألَا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف متضعِّف، لو أقسمَ على الله لأَبَرَّه».

ونلحظ أن الوصف جاء مطلقًا، فلم يقل: «إنها خافضة لشيء أو رافعة لشيء»؛ ليكون المعنى شاملًا لكل ما يحتمله الرفع والخفض؛ رفع الأشخاص وخفضهم، ورفع الأعمال وخفضها، ورفع الصوت وخفضه، ورفع الميزان وخفضه، ورفع الحق وخفض الباطل.

* أما متى حينها؟ فجوابه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾:

والرَّجُّ هو: الحركة الشديدة[1]، وهو تعبير عن الزلزال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

* ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾:

والبَسُّ يحتمل معنيين:

التفتيت[2]، فتصبح ﴿ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وتكون ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، فليست كما هي الآن بمتانتها وقوتها وتماسكها وصلابتها.

والمعنى الثاني: ﴿وَبُسَّتِ﴾ أي: ﴿سُيِّرَتْ﴾ وسيقت[3]: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، بأمر الله تعالى.

ومنه قول النبي ﷺ عن آخر الزمان: «**فيأتي قومٌ يُبِسُّونَ، فيتحمَّلُونَ بأهليهم ومَن أطاعهم**»[4]. أي: يخرجون بأموالهم وأهليهم وإبلهم من المدينة يسوقونها سَوْقًا[5].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٨)، و«لسان العرب» (٢/ ٢٨٢)، و«تاج العروس» (٥/ ٥٩٤) «ر ج ج».

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٠)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٤).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص١٢٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢٤٥) «ب س».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٥)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨) من حديث سفيان بن أبي زُهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «إرشاد الساري» (٣/ ٣٣٥)، و«فيض القدير» (٣/ ٢٦٠).

والبَسُّ عند العرب يحتمل هذا وهذا، فتقول: بسَّ الشيء، إذا فتَّته، وتقول: بسَّ عقاربه على فلان، إذا أرسلها، بمعنى الوقيعة والأذى.

* ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾:

والهباء هو: الشيء التافه الذي لا قيمة له، وهو الغبار(١).

وقال بعضهم: هو الغبار إذا تسلَّطت عليه أشعة الشمس، فأصبح يُرى في الجو متطايرًا(٢).

والمُنبَثُّ: المنتشر، وهذا التغير للظواهر الكونية مقصود من أجل الإنسان الذي هو محل التكليف، فذكره وتكراره خَلِيق أن يوقظ النائم، ويصحِّي السكران، وينبِّه الغافل.

* ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾:

والعادة أن الله تعالى يذكر زوجين ويسمِّيهم: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، وهو في معظم آيات القرآن الكريم، وفي هذه السورة قسَّم الناس إلى ثلاثة أزواج أو مجموعات أو طبقات، والخطاب للناس كلهم، للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

والسبب في ذلك أنه هنا قسَّم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ إلى فئتين: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، و﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وأما في «سورة فاطر» قسَّمهم ثلاثة أقسام: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، و﴿مُّقْتَصِدٌ﴾، و﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وفي «سورة المطففين» ذكر ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾، و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وفي «سورة الإنسان» ذكر قريبًا من ذلك، وهو من باب التنويع والتفصيل والتمييز.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤- ٥١٥)، و«روح البيان» (٩/ ٣١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٤)، و«مقاييس اللغة» (٦/ ٣١ «هـ ب و»)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٨٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٤).

* ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾:

سمَّاهم: «أصحاب الميمنة»، وسمَّاهم: «أصحاب اليمين»، وهم في معظم آيات القرآن الكريم.

سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يكونون عن يمين الرحمن عَزَّوَجَلَّ، أو لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو لأنهم يُذهب بهم ذات اليمين إلى منازلهم في الجنة(١)، وسمُّوا كذلك تفاؤلًا؛ لأن العرب تقول: هذا فلان له يمنٌ وذاك له شؤم، فالذي له يمن أو يمين يكون خيرًا على نفسه وعلى أهله وعلى الناس الذين يلقاهم أو يعاملهم، ولذلك أصبح اليمين محمودًا في الشريعة؛ في الأكل والشرب والقيام والقعود والدخول والخروج واللُّبس وغيرها، وكان النبيُّ ﷺ يعجبُه التيمُّنُ في تنعُّله وترجُّله وطُهوره وفي شأنه كلِّه(٢).

والمقصود من السؤال في قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ التفخيم والتعظيم(٣)، وكأنه مبتدأ وخبر، قال «**أصحاب الميمنة**»، وأخبر عنهم بمثل السؤال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، فالأمر أعظم وأكبر من أن يُوصف، ويكفي أن يقال عنهم؛ ليدل على تناهي ما هم فيه في الفضل والمكانة والمنزلة والرِّضا والسرور والحُبور وقرَّة العين.

* ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾:

أي: في العذاب والنَّكال والرُّعب والخوف، والمقصود: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، كما في السورة ذاتها، ومواضع أخرى من القرآن الكريم، وسمُّوا: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؛ لما سبق، ولأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم، ولأنهم كانوا عن شمال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رآه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٨).

(٢) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٥١٧)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص٣٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٩)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٨)

النبيُّ ﷺ، وكان عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وعن يسارِه أَسْوِدَةٌ، فإذا نظرَ قِبَلَ يمينه ضحكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ شماله بَكَى[1]؛ ولأنهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الذين كتب الله عليهم الهلاك.

* ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾:

بدأ بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨﴾، ثم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩﴾، ومر عليهم دون أن يقف السياق عندهم إلا لمجرد التفخيم والتعظيم، ثم ذكر ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في المرحلة الثالثة، وهذا- والله أعلم- من أجلِ أن يفرغ السياق للكلام عنهم، لأنه لما ذكرهم استوفى الكلام المراد بشأنهم، ثم رجع إلى ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، معناه: السابقون إلى الخيرات، السابقون إلى الجنات، هم السابقون إلى العمل، السابقون إلى الفضل، وكأنه أخبر بهم عنهم، وهذا معروف عند العرب، كما يقول قائلهم[2]:

أنا أبو النَّجْمِ، وشِعْرِي شِعْرِي

أي: فلان هو: فلان، ما يحتاج إلى المزيد من الكلام والتفصيل، فهنا إشارة إلى علو السابقين وفضلهم ومنزلتهم عند الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ جمع: مقرَّب، أي: مقرَّبون عنده سبحانه، والمقرَّب أفضل من القَرِيب، ففلان مقرَّب عندي، أي: أنني قرَّبته واصطفيته، أما القريب فقد يكون قريب نسب؛ أو هو الذي يحاول أن يتقرَّب مني[3]، فهؤلاء المقرَّبون هم ممن اختارهم واصطفاهم وفضَّلهم في الدنيا بلزوم الطاعة، وفي الآخرة بالفضل والمكانة.

وهذا لا ينافي ذكر أعمالهم الصالحة لأن الله تعالى لا يُقرِّب أحدًا لأنه يسكن في المدينة أو في مكة، أو لأنه من قريش أو من العرب، ولا لأنه أبيض

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٢) ينظر: «المنصف» لابن جني (ص١٠)، و«المفصل في صنعة الأعراب» (ص٤٦)، و«معاهد التنصيص» (١/ ٢٦) منسوبًا إلى أبي النَّجْم.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٨).

أو جميل الهيئة، وإنما ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فهو يختارهم على علم، ويقرِّبهم؛ لصفاء قلوبهم، وصدق نواياهم، وسلامة سرائرهم، وكمال إشراقهم وعملهم الصالح، ويُقرِّبهم لتواضعهم، ولهذا قيل في معاني: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: أنها تخفض المرفوع وترفع المخفوض، تخفض المتكبِّر المتعجرف المتعالي، وترفع المتواضع المخبت لربه(١)، فكلما كان الإنسان أكثر ضعفًا وانكسارًا وتواضعًا وأبعد عن رؤية الذات، كان أقرب إلى النجاة.

* ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾:

يحتمل أن يكون هذا ظرف لتقريبهم، فهم مقرَّبون في الجنة.

ويحتمل أن يكون خبرًا ثانيًا أو ثالثًا عنهم بأن مقرَّهم ومصيرهم ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

* ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

الثُّلَّة: الجماعة من الناس، قلَّت أو كثرت(٢).

و﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا يحتمل معنيين:

أنهم من أتباع الأنبياء السابقين، كنوح وموسى وعيسى وشعيب وصالح عليهم السلام، والرسل أنفسهم يدخلون دخولًا أوليًّا في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وعلى هذا يكون المقصود بـ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾: أمة محمد ﷺ، وعليه يصبح ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ من الأمم السابقة أكثر منهم في هذه الأمة؛ لأن الأمم السابقة كثيرة، والأنبياء كثيرون، وثمة الأنبياء والرسل والشهداء والصِّدِّيقون والصالحون والحواريون، فكل هؤلاء من السابقين، وكلهم من المقرَّبين.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٧٦)، وما تقدم في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾.

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٨)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٦)، و«مقاييس اللغة» (١/ ٣٦٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٧٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٠)، و«لسان العرب» (١١/ ٨٩)، و«تاج العروس» (٢٨/ ١٦٢) «ث ل ل»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٩).

وقد ذهب إلى هذا أكثر المفسرين، ونُقل عن جمع من السلف[1].

والقول الثاني: أن هؤلاء جميعًا هم من هذه الأمة، فـ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: من الذين صحبوا النبيَّ ﷺ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي: من التابعين ومَن بعدهم إلى قيام الساعة[2].

وعليه، فالله تعالى لم يذكر الأمم السابقة، ليس لأنه لا سابقون فيها، ولكن لأن الخطاب موجَّه لهذه الأمة، فذكر تعالى من هذه الأمة من السابقين ثُلَّة من المتقدِّمين من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم»**[3]. وقال ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أصحابي، لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدَكم أَنْفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ»**[4]. وذكر في فضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسابقتهم، بل ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم مما يعزِّز هذا المعنى؛ قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨]، فهذا يعزِّز المعنى، ولا ينفي أن يكون من السابقين، ومن المقرَّبين الرُّسل والأنبياء وأتباعهم، لكنه طُوي ولم يُذكر هاهنا؛ لأن السياق يخص أمة محمد ﷺ.

وهذا المعنى نُقل عن الحسن البصري وابن سِيرين وجماعة[5]، ورجَّحه ابن كثير في تفسيره[6]؛ لفضل هذه الأمة، ولاستبعاد أن يكون ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ من

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٩).

(٦) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٨).

الأمم السابقة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة، فهذا نوع من النقص في حق هذه الأمة، مع أن السياقات والنصوص لم يُعهد منها مثل هذا المعنى، وقد قال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونُوا رُبُعَ أهل الجنة». فكبَّرْنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة». فكبَّرْنا، فقال: «أرجو أن تكونُوا نصفَ أهل الجنة». فكبَّرنا[1]، والنصوص تدل على فضلهم وسابقتهم.

وقد يقال بأن الأمم السابقة كثيرة ممتدة من عصر التكليف ونزول الرسل إلى بعثة الرسول ﷺ، وحتى مع ذلك فهذه الأمة ممتدة أيضًا، فهي من بعثة الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، فالأمة كثيرة جدًّا، وجاءت نصوص كثيرة تدل على ذلك، مثل قوله ﷺ: «إذ رُفِعَ لي سَوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومُه، ولكن انظرْ إلى الأُفُق. فنظرتُ فإذا سَوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظرْ إلى الأُفُق الآخر. فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمَّتُكَ، ومعهم سبعونَ ألفًا يدخلونَ الجنةَ بغير حساب ولا عذاب». فسُئل عنهم النبيُّ ﷺ، فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلُونَ»[2].

وفي رواية صحيحة قال ﷺ: «وعدني ربي سبحانه أن يُدْخِلَ الجنةَ من أمتي سبعينَ ألفًا لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، مع كل ألف سبعونَ ألفًا..»[3]. وهذا عدد ضخم وكبير.

ومع أن الأمر محتمل، فالذي يظهر - والله تعالى أعلم - أن القول بأن ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ هم من هذه الأمة أليق بالسياق وبالنصوص الأخرى، مع غير بخسٍ لمَن جاؤوا قبل هذه الأمة.

وفي كل دعوة خير، فمن الناس مَن يبادر ويقول: أنا لها، ويندفع برغبة وبصيرة، ومنهم مَن يكون عنده تردد وإحجام، يراعى المصالح والمفاسد، فإذا رأى الناس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١٥٦)، والترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وابن حبان (٧٢٤٦) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٧٩).

أقبلوا واندفعوا تنشَّط وصحبهم، وهذا فائدة الصحبة الطيبة، وإذا ثقل الناس فإنه يثقل معهم.

وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى المبادرة، وأن على المؤمن أن يسارع في عمل الخير، وإذا كان هؤلاء هم السابقون، فالله يأمرنا أن نجتهد أن نكون منهم فيقول: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]، فـ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ لديهم مسارعة وفتح لأبواب الخير وطرائقه وذرائعه، وتشجيع لغيرهم على سلوك الطريق؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان الصادق بالله، وبين شدة الرغبة والحماس في الخير، وقلة المبالاة بالمعوِّقين والمثبِّطين وغيرهم تبعٌ لهم في ذلك.

وفيها دليل على فضل هذه الأمة وفضل السابقين منها؛ لأنه تعالى جعلهم بخير المنازل والمكانة، فهم الذين جاهدوا مع الرسول ﷺ، ولذلك يصح أن نسمِّيهم جميعًا سابقين، كما سماهم ربهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ وحين جبن الناس وكذَّبوا وتأخَّروا وتراجعوا وتردَّدوا وخافوا أقدم هؤلاء وسبقوا غيرهم وتحمَّلوا التَّبعة وآمنوا بالرسول ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فسماهم تعالى: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا يشمل جمهور الصحابة رضي الله عنهم، وقد يشمل قريبًا أو قليلًا ممن كانوا بعدهم من التابعين، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولا غرابة؛ فهم الذين ربَّاهم الرسولُ ﷺ؛ بل اختارهم الله تعالى على عينه، وشهدوا التنزيل، وسمعوا القرآن رَطْبًا يُتلى من فم رسول الله ﷺ، وصلَّوْا خلفه، وقال النبيُّ ﷺ «سمعَ اللهُ لمَن حمدَه». فقالوا هم من ورائه: «ربنا ولك الحمدُ». وقال: «ولا الضالينَ». فقالوا من ورائه: «آمين». وأمرهم، فقالوا: سمعنا وأطعنا. ونهاهم، فقالوا: انتهينا انتهينا. وجاهدوا معه، وقُتلوا بين يديه، وفضَّلوا الموت على الحياة؛ فداءً له ﷺ، كما قال عُبيدة بن الحارث وهو يُصرع بين يدي الرسول ﷺ: أما والله، لو أدرك أبو طالب هذا اليوم؛ لعلم أني أحق منه بما قال حين يقول:

كَذَبتُم وبَيتِ اللهَ نُبزى[1] مُحَمَّدًا ولَـمّـا نُطاعِن دونَـهُ وَنُناضِلِ
ونُسلِمهُ حَتّى نُـصَـرَّعَ حَولَهُ وَنذهلَ عَن أَبنائِنا والحَلائِلِ[2]

وإذا كان هؤلاء يرتقي إليهم شك أو ريب، فمَن هو المربِّي أو القدوة أو السياسي أو القائد الذي سوف يصنع أتباعًا، ويقيم مجتمعًا، ويبني دولة بعد رسول الله ﷺ؟!

إن التشكيك في الجيل الأول هو تشكيك في جنس الإنسان، وإذا أصابنا شك في جدارة الأولين الذين ربَّاهم محمد ﷺ، فهل يمكن أن نثق بغيرهم، أو نتوقع نجاحًا من سواهم؟

وقد يحتج بعض الناس بمثل قول النبي ﷺ: **«مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أم آخرُهُ»**[3].

وهذا الحديث رواه أحمد، وغيره من طرق، وهو حسن بمجموع الطرق، وهو دليل أيضًا على فضل آخر هذه الأمة، وأن فيها من السابقين فضلًا عن أصحاب اليمين، وفيها خير كثير، ولكن لا يدل الحديث على تساوي الأولين والآخرين، وإنما تشبيه الصالحين المتأخِّرين بالسابقين الأولين.

* ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾﴾:

هذا طرف من نعميهم ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

والمَوْضُون هو: المَرْمُول أو المنسوج[4]؛ لأن السُّرُر قد تُصنع من الخشب،

---

(١) أي: نُسلَب ونُغلَب عليه.

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٥).

(٣) أخرجه الطيالسي (٦٨٢)، وأحمد (١٨٨٨١)، وابن حبان (٧٢٢٦) من حديث عمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه الطيالسي (٢١٣٥)، وأحمد (١٢٣٢٧، ١٢٤٦١)، والترمذي (٢٨٦٩) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وينظر: «العلل» لأحمد (٣/ ٣١٤- ٣١٥)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ٣٠٩)، و«شرح علل الترمذي» (٢/ ٥٠١- ٥٠٢)، و«تحقيق منيف الرتبة لمَن ثبت له شريف الصحبة» للعلائي (ص٨٤- ٩٠)، و«المنتخب من علل الخلال» لابن قدامة (١٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٦).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٩).

وقد تُصنع من الحديد، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا بيَّن أن سُرُرهم أنعم من ذلك، فهي منسوجة من خيوط من الذهب، ولا يذهب وَهْلك إلى أنه الذهب عيار واحد وعشرين، أو أربع وعشرين الذي عند الصَّاغة! اسمه ذهب، لكنه في الجنة شيء آخر؛ لأنه «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»(١)، فهو منسوج من ذهب الجنة، وهكذا عادة الأَسِرَّة التي فيها كمال المتعة، تكون منسوجة من هذه الخيوط المتداخلة، ويقعد عليها أصحابها المنعَّمون.

ويُسَمَّى الحبل الذي في بطن النَّاقة: الوَضِين(٢)، كما قال الشاعر في الناقة التي حجَّ عليها(٣):

إليكَ تَعْدُو قَلِقًا وضِينُها مُعترِضًا في بطنها جَنِينُها
مخالفًا دينَ النصارَى دينُها

* ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: لا ينظر بعضهم إلى ظهر بعض، وإنما ينظرون إلى وجوه إخوانهم(٤).

وهذا من كمال الإكرام والاحترام والمتعة؛ أن بعضهم ينظر إلى بعض، وقد جعلهم تعالى في الجنان إخوانًا، كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا

---

(١) كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ١٩٨).

وينظر أيضًا: «العين» (٧/ ٦١) «و ض ن»، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٩١٢) «ض ن و»، و«تاج العروس» (٣٦/ ٢٥٨) «و ض ن».

(٣) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٩٠)، و«سبل الهدى والرشاد» (٦/ ٤٢٢) منسوبًا إلى أبي علقمة بشر بن معاوية.

ونسبه في «نهاية الأرب في فنون الأدب» (١٨/ ١٢٢)، و«الإصابة» (٥/ ٤٣٨) إلى كُرْز بن علقمة النجراني.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٢)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠).

عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، فمن كمال المتعة المتعة بالمؤانسة والمجالسة، وهذه متعة محسوسة؛ فإن سهرة مع صديق تحبه ويحبك تعد من متع الدنيا، ولهذا ذكر هذا المعنى في الجنة بكونهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ يتحدَّثون ويتضاحكون ويتذكرون ويستمتعون، فهذا جمع النعيم الحسِّي والنعيم المعنوي.

* ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾:

يدورون عليهم مرة بعد مرة(١)، **والوِلْدَان** جمع: ولد، وهم الصبيان قبل سن البلوغ أو مع سن البلوغ(٢)، ذكرهم تعالى في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما في «سورة الإنسان»، **فمَن هؤلاء الولدان**؟ قال بعضهم: هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا قبل الحُلُم قبل البلوغ(٣)، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا القول ليس بذاك.

وقيل: هم أولاد المشركين الذين ماتوا دون الحُلُم، وهذا قول جيد، ونُقل عن جمع من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، واختاره البخاري، وجماعة من أهل العلم(٤).

وجاء في حديث سمرة بن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حديث الرُّؤْيا، أن رسولَ الله ﷺ أخبر أن إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في روضة وحوله ولدان، وأنهم «**كلُّ مولود مات على الفطرة**». فقيل له: وأولادُ المشرِكين؟ قال: «**وأولادُ المشركين**»(٥). لأن هؤلاء غير

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: «المجموع المغيث» (٣/ ٤٥١)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٧١) «و ل د».

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«حادي الأرواح» (ص٢١٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٧٨)، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾.

(٥) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

مكلَّفين، فماتوا قبل سن التكليف.

وإذا تذكرت أن هؤلاء وأمثالهم ممن ماتوا قبل البلوغ أنهم إلى رحمة الله سبحانه، فإن هذا يسكب على قلبك سكينة وراحة، والمؤمن يفرح برحمة الله للعباد، ولذلك ذكر بعضهم هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨- ٩]، أن ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ ورد أنها في الجنة[١]، وإن كان الحديث في ذلك لا يصح؛ لكن يصدق على هذا القول الذي اخترناه، يعني ممن كانوا دون الحُلُم والبلوغ.

ويمكن أن يكون مع الوِلدان أيضًا ولدان ممن خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخدمة، كما خلق الحور العين في الجنة للتنعم، والحور العين فيهم نساء من نساء الدنيا، وفيهم ممن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكذلك الوِلدان يكون فيهم ممن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنشأهم لهذا العمل، وفيهم الوِلدان الذين ماتوا قبل البلوغ وقبل الحُلُم، وأمثالهم ممن وسعتهم رحمة الله ولم تقم عليهم حجة الرسالة.

ووصف هؤلاء الوِلدان بالخلود، أي: أنهم في عمر واحد، وأهل الجنة أعمارهم ثلاثة وثلاثون سنة[٢] في سنِّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رُفع، ذكورهم وإناثهم، وكأن هذا هو اكتمال النضج للإنسان- والله أعلم- وقبل بداية النقص فيه، أما هؤلاء الوِلدان فهم صغار، وهؤلاء وأولئك لا يجري عليهم الزمن ولا يصيبهم الضعف أو التغير في وجوههم أو أجسادهم، لا تجري عليهم نواميس الدنيا وقوانينها من الكبر والهَرَم والضعف والشيخوخة، وإنما هم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ في هذا السِّنِّ[٣].

وهؤلاء الوِلدان يطوفون على أهل الجنة ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾،

---

(١) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٦٥٧)، و«مسند أحمد» (٢٠٥٨٥)، و«سنن أبي دواد» (٢٥٢١).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٧٩٣٣)، و«جامع الترمذي» (٢٥٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢/ ٦٨- ٦٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٠٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩٤- ٢٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٣).

والأكواب هي: الأواني التي ليس لها يد تمسك بها، وليس لها خرطوم يصب منه الماء، وأما الأباريق فهي: الأواني التي يكون لها مقبض تمسك به، ولها خرطوم يصب منه الماء[1]، وكلمة «إبريق» فارسية معرَّبة[2].

والكلام هنا عن الخمر، وأفرد الكأس؛ لأنه هو المقصود، فالإنسان لا يشرب بأكواب ولا بأباريق، وكأن الأكواب والأباريق هي الوعاء الأصلي الذي تُوضع فيه الخمر، ثم يسكب منها بالكأس للشارب، وإنما يشرب بكأس واحد، ولذلك أفرده.

وأيضًا فكلمة «كؤوس» ثقيلة لأن فيها همزات متعدِّدة، ولذلك أفردها، فصارت ذات رشاقة وجمال.

والمَعِين ذكره الله تعالى في أكثر من موضع، والمقصود به هنا: الخمر؛ إشارة إلى أن هذه الخمر تجري، كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، فالكأس من هذا المَعِين، ومعناه أنها خمر صافية ليست كخمر الدنيا، ولذا عقَّب بقوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يصيبهم الصُّداع الذي تسبِّبه خمر الدنيا[3]، ولذلك قال: ﴿عَنْهَا﴾ أي: بسببها[4].

ومن المعاني الصحيحة أنهم لا يتفرَّقون[5] عنها أو بسببها؛ لأن الذين يشربون في الدنيا إذا سَكِروا هَذَوْا، وربما تفرَّقوا بسبب تعكر المزاج أو عدوان بعضهم على

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٣- ٢٩٤).

(٢) ينظر: «فقه اللغة» للثعالبي (ص٢٠٨)، و«الإتقان» (٢/ ١٢٩).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢١).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٦٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٢١)، و«الدر المصون» (١٠/ ٢٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٩١)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٤).

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٧)، و«الكشاف» (٤/ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٠).

بعض.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تذهب عقولهم(١)، بخلاف خمر الدنيا فإنه يكون من جرائها السُّكر، فهذا المقصود به نزِيف العقول، ونزِيف العقول هذا مصطلح حديث، ولكن الخمر تنزف العقل وتذهب به.

* ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١﴾:

بدأ بالفاكهة؛ لسرعة هضمها وسهولته، ولذا ينصح علماء التغذية وخبرائها بتقديم أكل الفاكهة قبل اللَّحم، ويقولون: إن أكل الفاكهة بعد اللحم يذهب بعض فوائده وخصائصه(٢).

وفي قوله: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ إشارة إلى كثرة أنواعها: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢].

وأما اللَّحم فقال: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾، وذلك لأن لحم الطير مفضَّل على غيره، وقال: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ لأن الفاكهة لا تمنع من اشتهاء اللَّحم، فسرعان ما تُهضم ويشعر الآكل بالفراغ والحاجة إلى الطعام.

* ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢﴾:

قراءة الجمهور بالرفع: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾؛ لأنها معطوفة على ما قبلها، وفي قراءة بكسر الراء والنون: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾(٣) على الإتْباع اللَّفْظي(٤)؛ لقوله: ﴿بِأَكۡوَابٖ

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠١- ٣٠٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٤٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٩٦).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٥٥)، و«حجة القراءات» (ص٦٩٥)، والمصادر السابقة.

وَأَبَارِيقَ ﴾، وإن اختلفت في المعنى، فالحور لا يطوف بها الوِلدان المخلَّدون، بل هي معهم على السُّرُر متقابلين.

والحُور جمع: حَوْراء، وهي شديدة البياض مع شدة الجمال والصفاء في الألوان(١)، وعِينٌ جمع: عَيْناء، وهي واسعة حدقة العين مع صفاء العين وجمالها(٢).

والجمال هنا في وجوه أهل الجنة، وفي أزواجهم، وفي مجالسهم، وفي متَّكآتهم، وفي طعامهم، فهي جمال تام، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، مما يعطي متعة النظر والسمع والقلب وسائر الجوارح.

* ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾:

أي: في جمالهن وصفائهن وصيانتهن(٣).

* ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾:

إشادة بهم، وأنهم مقرَّبون، فضلًا من الله، لكن بسبب أعمالهم الصالحة وأخلاقهم الجميلة واحتسابهم لما عند الله.

وفيه دعوة إلى العمل؛ فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وهذا الجزاء بسبب عملهم.

* ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾:

اللَّغو هو: الكلام الذي لا فائدة فيه(٤)، وكثير من الكلام لغو، وكذلك اللَّغو فيه السَّب والشتم والقيل والقال وغيره مما يُنزَّه عنه أهل الجنة.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٦٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٠٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٣٨)، و«روح البيان» (٩/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٦).

وأما التأثيم فهو: نسبتهم إلى الإثم(١)، أي: لا يسمعون من ينسبهم إلى الإثم أو ينتقصهم، أو يثيرهم ليقعوا في المآثم، فالجنة منزَّهةٌ عن ذلك، ولكنه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا كذلك، كانوا يتجنَّبون اللَّغو: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، ولا يردُّون اللَّغو بمثله، فهم قد أمسكوا ألسنتهم عن مثل هذا، يختارون أطيب الكلام، كما يختار آكلُ الطعام أطيبه، فلا يتكلَّمون إلا بخير، وإذا زلَّ واحد منهم بكلمة أسرع في الاعتذار.

وخص «السماع»؛ لأن تمكين أذنك من سماع اللَّغو تشجيع عليه، والذي لغا أو اغتاب أو سبَّ أو شتم، لو لم يجد مَن ينصت إليه لما تكلَّم، وهم لا يقولونه أيضًا، فما ثَمَّ في الجنة إلا صالحون لا يقولون اللَّغو، ولذا لا يسمعونه، بخلاف الدنيا، ففيها الصالحون عفيفو الألسن، وفيها الهجَّاؤون والشتَّامون والعيَّابون وأهل اللَّغو.

وفي ذلك تذكير بخطر اللِّسان، كما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أخذَ بلسانه: «**كُفَّ عليكَ هذا**». قال: يا نبيَّ الله، وإِنَّا لَمُؤاخذُونَ بما نتكلَّمُ به؟ فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ! وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم- أو: على مناخرهم- إِلَّا حصائِدُ ألسنتهم!**»(٢).

* ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾:

لا يسمعون في الجنة ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولًا ﴿سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾، وهنا جعل ﴿سَلَـٰمًا﴾ منصوبة مع أن السلام بالرفع أبلغ وأقوى، كما في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ [الذاريات:٢٥]، وإنما نُصبت ﴿سَلَـٰمًا﴾ هنا؛ لأنها بدل من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٩)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٦)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦)، وابن حبان (٢١٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٣١- ٣٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٢٢، ٣٢٨٤)، و«إرواء الغليل» (٤١٣).

«قيل»، وهي في مقام مفعول به منصوب[1].

وهذا التكرار ليس للتوكيد، وإنما هو للإعادة مرة بعد مرة، مثلما تقول: قرأتُ القرآن سورةً سورةً، وقرأت الكتاب بابًا بابًا، وهذا الشهر قضيته في المدينة يومًا يومًا. فالمعنى: سلام بعد سلام، مرة بعد مرة[2].

* ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٣٧﴾:

سماهم مرةً: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨﴾، ثم نوَّع وتفنَّن، فسماهم: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٣٧﴾، وسماهم مرةً: ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥﴾ [الإنسان:٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الانفطار:١٣]، ولكن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ أوسع؛ فهو يشمل «الظالم لنفسه»، ومَن له ذنوب وكبائر استوجب بها النار ثم أُخرج منها وطُهِّر، فهؤلاء معدودون من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ لأنه ليس ثمة إلا ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، وهم مؤمنون، فليسوا من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ١٤﴾.

كما يشمل «المقتصد»، ويشمل «السابق بالخيرات»؛ إذا لم يُذكر منفردًا، كما ذُكر في هذه السورة المباركة.

* ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾:

﴿سِدۡرٖ﴾ جمع: سِدْرة، وهو شجر معروف من شجر الحجاز، وليس بالكبير[3].

وقد ورد أن أصحابَ رسول الله ﷺ كانوا يقولون: إن اللهَ ينفعُنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابيٌّ يومًا فقال: يا رسولَ الله، لقد ذكرَ اللهُ في القرآن شجرةً مؤذيةً، وما كنتُ أَرَى أن في الجنة شجرةً تُؤذِي صاحبها! فقال رسولُ الله ﷺ: «وما هي؟». قال: السِّدْرُ؛ فإن لها شوكًا. فقال رسولُ الله ﷺ: «﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٦٠)، و«التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٣٦٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٨).

يَخْضِدُ اللهُ شوكَه، فيجعلُ مكانَ كلِّ شوكة ثمرةً، فإنها تُنْبِتُ ثمرًا تُفْتَقُ الثمرةُ معها عن اثنين وسبعينَ لونًا، ما منها لونٌ يُشبهُ الآخرَ»[1].

والمَخْضود هو: الذي نُزِع شوكه، فليس كسِدر الدنيا، وإنما الاسم للتقريب فحسب، إذ هو من جنس السِّدر، وبدل كل شوكة ثمرة؛ فهو سِدر قد خُضِدَ شوكه وكثر طلعه[2].

* ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾:

أي: بعضه بجنب بعض، وهو منضود بكثرة الثَّمَر[3].

والطَّلْح هو: شجر ضخم من شجر البوادي، عريض، كثير الورق، شديد الخُضرة[4]، فكأنه ذكر الشجر الصغير وإلى جواره الشجر الكبير، وهي ألوان من التفنُّن بالنعيم، ولا يعني حرمان هؤلاء مما عند الأولين، ولا أن ما عند هؤلاء ليس عند السابقين، وإنما المقصود الإشارة إلى أن منزلتهم أقل من منزلة الذين من قبلهم، كما في «سورة الرحمن»[5].

وقيل: الطَّلْح هو: شجر المَوْز، رُوي هذا عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[6]. وهو كذلك بلغة

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٧٦)، والمقدسي في «صفة الجنة» للمقدسي (٧٣) من حديث أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٨)، و«إيجاز البيان» (٢/ ٧٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٩).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٩).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٥)، و«اللباب» (١٨/ ٣٩٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٦).

اليمن، حيث يسمون المَوْز: الطَّلْح، أو: الطَّلْع[1].

والنص يشمل الطَّلْح المعروف، ويشمل شجر الموز، وهو غالبًا لا ينبت في بلاد العرب؛ لكون المناخ فيها لا يوائمه.

* ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾:

أي: طويل[2]، وفي الحديث يقول النبيُّ ﷺ: «**إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادَ المُضمَّرَ السريعَ مائةَ عامٍ ما يقطعها**». ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[3]، فلو أن إنسانًا يركب جَوَادًا مُضَمَّرًا وسريعًا فيسير به مائة عام لم يقطع ظل شجرة واحدة من هذا الطَّلْح.

وهذا الحديث حكم جماعة من أهل العلم بأنه متواتر؛ لوروده عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[4].

* ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾:

أي: يجري على ظهر الأرض أنهارًا لا تحتاج إلى حواف حتى تحفظ الماء[5]؛ لأن النظام في الجنة ليس كالناموس في الدنيا، فالماء مسكوب يجري للمؤمنين

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٦).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص١٩١)، و«لسان العرب» (٢/ ٥٣٣)، و«تاج العروس» (٦/ ٥٨٠) «ط ل ح».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٢، ٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٣٢٥١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٨).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٩)، و«روح البيان» (٩/ ٣٢٥).

ويجري من تحتهم دون حاجة إلى مجرى.

* ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾:

ليست مثل فاكهة الدنيا تأتي في موسم ثم تنقطع بقية العام، أو تكون خاصة ببلد دون آخر، وإنما هي كثيرة متنوِّعة، وليست في وقت دون وقت، ولا ممنوعة عنهم[1].

وقد يرى المرء الفاكهة في الدنيا ثم تُمنع عنه؛ لندرتها أو غلائها أو لأسباب صحية، كما يترك التمر خوف ارتفاع السكر مثلًا.

* ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤﴾:

فهم على فُرُش و﴿سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ [الغاشية: ١٣]، والرفع هنا بقدر ما بين السماء والأرض[2].

إنك في هذا المشهد الأخروي الغيبي أمام عالم آخر مختلف، والسياق فقط للتقريب، وإلا فالأمر مما لا يمكن تخيله! ورفعها بنقائها، بطهارتها، بطيبها.

* ولما ذكر الفُرُش ذكر النساء، بقرينة التلازم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾:

وهذا يشمل نساء الدنيا، كما قال جمهور المفسرين[3]، وورد في آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ، ولا تصح.

وقد أتت عجوزٌ من الأنصار إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يُدخلَني الجنةَ. فقال نبيُّ الله ﷺ: **«إن الجنةَ لا يدخلُها عجوزٌ»**. فأُخبرَ النبي ﷺ أنها لَقِيَتْ من كلامه مشقةً وشدةً! فقال نبيُّ الله ﷺ: **«إنَّ ذلك كذلك؛ إنَّ الله إذا أدخلَهنَّ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠١)، والمصادر السابقة.

الجنةَ حَوَّلَهن أبكارًا»[1].

* ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾:

هنا البكارة دائمة مستمرة، ومثلما قلنا في الوِلدان: ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ فكذلك نساء الجنة أبكار دائمًا وأبدًا في الجسد والسِّنِّ والروح والجمال، لا يؤثِّر فيها الزمن، ولا يغيِّر حالها إلا إلى الأطيب والأفضل.

* ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾:

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع: عَرُوبة[2]، والعَرُوبة قل فيها ما شئتَ من معاني الكمال والجمال والزينة، العَرُوبة هي: المتحبِّبة لزوجها، تتغزَّل به، وتعرب عن مشاعرها وعن حبِّها، هي العاشقة لزوجها[3].

و﴿ أَتْرَابًا ﴾: الأَتْراب: المتساويات في السِّنِّ- وغالبًا ما تُوصف به النساء- أما الرجال فيقال عنهم: أقران- كما قال تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ [النبأ:٣٣]، يعني في سِنٍّ واحد[4]، ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

* ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾:

وهذا يقال فيه ما قلنا سابقًا في الخلاف في المقصود بـ﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ و﴿ ٱلْآخِرِينَ ﴾، هل هم الأمم السابقة وهذه الأمة، أو أول هذه الأمة وآخرها؟

والأقرب أن ﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هم: الصحابة رضوان الله عليهم، و﴿ ٱلْآخِرِينَ ﴾ هم:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٤٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (١٨٥)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٩١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٧٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٤١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٨٢) عن الحسن مرسلًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٨٧).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٥٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٣٨- ٣٩)، و«لسان العرب» (١/ ٥٩١)، و«تاج العروس» (٣/ ٣٣٨) «ع ر ب».

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٧٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٣- ٥٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٢).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ».

آخر هذه الأمة(١).

* ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾:

والسَّموم: الرِّيح الحارة الشديدة(٢)، قيل: مأخوذة من السُّم؛ لأنها كالسُّم ينغرس في جسد الإنسان لشدة حرارتها وما تورثه من العطش، ولذلك جمع الله بينهما فقال: ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾.

والحَمِيم هو: الماء الحار الذي بلغ النهاية في الحرارة(٣)، فإذا جاءتهم السَّمُوم ولَّدت عندهم العطش، طلبوا الماء فسُقوا هذا الماء الحَمِيم.

* ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾:

والذي يسير في الصحراء فتهب عليه السَّموم يهرب إلى الظلِّ يأوي إليه، أما أهل النار فهو ظلٌّ يزيدهم عذابًا فوق عذابهم، هو ظلٌّ من دخان، مأخوذ من الحُمَم، وهو الفحم، فهو ظل من دخان جهنم شديد الحرارة(٤)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المرسلات:٣٠،٣١]، هو ليس ظلًّا ظليلًا كظل أهل الجنة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]، ولا يغنيهم من اللَّهب، بل هو من اللَّهب، وهو عذاب لهم أيضًا(٥).

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٢)، وما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٤).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٤).

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات».

* ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾:

ليس الظل باردًا يُطلب لاتقاء الشمس، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ يُطلب لتقدير الإنسان وكرامته[1].

* ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

هل كان ترفهم في الدنيا موجبًا للعقوبة؟ هل الترف كله حرام يستوجب ذلك؟

من أجود الأجوبة عندي في ذلك أن يقال: ليس قوله: ﴿مُتْرَفِينَ﴾ بيانًا لسبب عقوبتهم، وإنما مقارنة بين حالهم الآن في النار، وبين حالهم في الدنيا، فهم الآن ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، وقد كانوا كلهم أو بعضهم ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ في ترف ونعيم في الدنيا، لم يتعوَّدوا على تحمل الشدائد والصِّعاب، والتعرُّض للرِّياح السَّموم والشمس والرَّمْضاء، وهذا على سبيل الأغلب؛ لأن الغالب ممن يعادون الرُّسل والأنبياء يكونون متمسكين بمصالحهم الدنيوية ورياساتهم وأموالهم، وقد يكون فيهم مَن كانوا في الدنيا فقراء لم يستمتعوا بشيء من طيباتها، ثم كانوا في عذاب من جنسه في الآخرة بسبب كفرهم وجحودهم للحق واتِّباعهم لساداتهم وكبرائهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿مُتْرَفِينَ﴾ ترفًا متجاوزًا للحدود، مضيِّعين للحقوق، مغترِّين بما هم فيه، زاعمين أنهم إن رُدُّوا إلى ربهم وجدوا منقلبًا حسنًا ومردًّا فاضلًا، دون أن يعملوا صالحًا أو يتَّقوا النار بإحسان في عبادة الله أو إحسان إلى عباده[2]!

* ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

وليس المقصود- والله أعلم- مجرد الحِنْث باليمين؛ لأن مثل هذا يوجد فيمَن هم من ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ من الظالمين لأنفسهم، بل المقصود: أَيْمانهم الكاذبة

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤١٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٥)، و«مراح لبيد» (٢/ ٤٨٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٦)، والمصادر السابقة.

على مخالفة الدين[1]، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، فهذا من ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾، وكذلك حلفهم ألَّا يُصاب المؤمنون بخير، قال سبحانه: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩]، فكانوا في حالة من الترف والاستكبار والإصرار على اعتقاداتهم الباطلة، إلى حد أن يحلفوا عليها، ثم يصرُّون دون مراجعة أو توبة، فهذا معنى ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾.

وقيل: المقصود بـ﴿الْحِنثِ﴾: اليمين الغموس[2]، وهي اليمين التي يحلف صاحبها على أمر يقتطع به مال امرئ مسلم، وسُمِّيت: غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها، ولو أطعم ألف مسكين؛ لأن فيها اقتطاع مال امرئ مسلم، وفي الحديث **«مَن حلفَ على يمين صَبْرٍ، يقتطعُ بها مالَ امرئ مسلم، هو فيها فاجرٌ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ»**[3].

وفي الحديث دليل على تعظيم حقوق الناس، ليس فقط المال، بل العرض والمال والنفس وكل حق وإن دق.

والصواب أن ﴿الْحِنثِ﴾ هو: الإثم، يقال: بلغ الغلام الحِنْث، إذا صار مكلَّفًا محاسبًا على أعماله، وكان النبيُّ ﷺ يتحنَّث في غار حراء، أو يتحنَّف، أي: يتعبَّد، كأنه يتخلَّص من الحِنْث، أي: من الإثم، وإن كان غلب على اللفظ اتصاله بالحِنْث في اليمين، أي: الإثم بقطعها، والحِنْث بالعهد والوعد، أي: إخلافه، ولكن أصل الكلمة هو: الإثم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٦)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٧٦)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٦٨).

* ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾:

على سبيل الاستبعاد والنفي، ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ هل سيبعثون معنا أيضًا؟ وقد كانوا يقولون: إن الرسل يَعِدُوننا بالبعث، ونحن لم نر أحدًا بُعث، آباؤنا وأجدادنا ماتوا، وما رأينا أحدًا منهم عاد إلى الدنيا، هكذا بسذاجة واستعجال(١).

* ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾:

أنتم وآباؤكم الأولون ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾، فالبعث ليس تدريجًا أو تقسيطًا أو جيل يُبعث وجيل يموت، كلا! بل البعث للناس كلهم في لحظة واحدة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾، أخبر أنها واقعة ووقعة واحدة للناس كلهم جميعًا وللأجيال كلها جميعًا، وفي الوقت الذي يريده الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تنتظروا أن يُبعث أجدادكم أو آباؤكم قبل قيام الساعة، وإنما ستبعثون أنتم وآباؤكم وأجدادكم وغيركم عند ميقات محدَّد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ولم يقل: «لمجموعون لميقات»؛ لأن ﴿إِلَىٰ ﴾ تدل على الإمهال والتأجيل، كأنه قال: أنتم جميعًا مُنْظَرُون أو مؤجَّلون إلى ذلك الميقات الذي جعله تعالى لقيام الأرواح والأجساد(٢).

وفي وصفه باليوم المعلوم نسبة لهم إلى الجهل فهو ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾، معلوم عند الرسل والأنبياء، ومعلوم في الكتب السماوية، ويكاد أن يُجمع البشر عليه، والعقول والفطر السليمة تدل عليه؛ لأن الذي خلق هذه الحياة بكل ما فيها من الحكمة والرحمة من كمال حكمته سبحانه أن يكون لها بقية، فهي فصل قصير عابر، يكون فيه المظلومون والظالمون، ثم يموتون دون أن يقتص لبعضهم من بعض، ولا بد من فصل آخر يعود فيه الأمر إلى نصابه، وينتصر المظلوم من الظالم، ويأخذ كل ذي حق حقه، وتبين من ورائه الحكمة في خلق الناس وامتحانهم.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٨- ٣٠٩).

* ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قدَّم وصف ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ على وصف ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، عكس ما سيأتي في قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾؛ مراعاة لترتيب الحصول؛ لأنهم ضلُّوا عن الحق، فكذَّبوا بالبعث، ليحذروا من الضلال ويتدبَّروا في دلائل البعث، وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقَّع(١).

وشجر الزَّقُّوم هو: من شجر النار، يتزقَّمونه، وهو شديد المرارة، كثير الشوك، عظيم الضر(٢)، ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

* وكما كانوا منعَّمين مترفين في الدنيا يتَّخمون من الأكل، ثم يميلون إلى الشراب، فهم كذلك في النار يأكلون من شجر الزُّقُّوم، حتى يملئوا منه بطونهم، ثم يشربون عليه من الحَمِيم، قال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

وفي قوله: ﴿لَآكِلُونَ﴾، ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا حال دائم لهم أصبح جزءًا من حياتهم، وليس شيئًا عارضًا أو عابرًا.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، والهِيم عند الجمهور هي: الإبل العِطاش، والإبل يصيبها داء يُسَمَّى: داء الهُيام، فتشرب دائمًا ولا تُروى(٣).

وقيل: إن المقصود بها الرمال الممتدة التي تشرب كل ماء يُصب عليها(٤).

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢)، و«تفسير أبي السعود» (٧/ ١٩٣)، و«روح البيان» (٧/ ٤٦٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٤)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٢- ٣٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٤- ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣١٠).

(٤) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٥٢١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٧)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٢١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٦).

* ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾:

ليس هذا هو كل ما هنالك، بل هذا النُّزل فحسب، والنُّزل: الضيافة الأولية التي تُقدَّم للزائر[1] قبل أن يُقدَّم له الطعام، فهو كالمقبِّلات والمشهِّيات، وإلا فإن ما ينتظرهم من النَّكال والعقاب أشد من ذلك[2].

* ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾:

وكان أكثر ما يكذِّب به المشركون هو أمر البعث والنشور، ولذا بدأ في المجادلة معهم بتقرير الخلق، فنحن أنشأناكم من العدم[3]، فلم لا تصدِّقون بذلك، أَلَا يحملكم هذا على الإيمان بأن نشأة الآخرة هي أهون عليه؟! والأمر بالنسبة له عَزَّوَجَلَّ هيِّن، ولا يختلف، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وهو في قوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]، ولكن على سبيل الحساب والنظر العقلي أن الإعادة في العادة وعند الناس أهون من الابتداء.

* ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾:

وهم يعرفون أن الإنسان تخلَّق بسبب تلاقح ماء الرجل وماء المرأة، وهم كذلك خُلقوا من ذلك، خُلقوا من هذا الماء وعرفوه، فهو يسألهم: هل أنتم الذين تخلقون هذا الماء؟ ثم تخلقون منه إنسانًا سويًّا؟ ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾؟

هم يعرفون أنه لا يد لهم في ذلك، وإنما هي قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم أدوات بيد القدرة الباهرة التي تختار من مئات الملايين من الحيوانات المندفعة واحدًا يفوز بالسَّبْق ويلقِّح البُويضة، حتى حين يكون المرء غافلًا، أو جاهلًا أو مجنونًا، فالعمل يتم وفق آلية إلهية دقيقة محكمة.

---

(١) ينظر: «العين» (٧/ ٣٦٧)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١٧٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٢٩٨)، و«لسان العرب» (١١/ ٦٥٨) «ن ز ل»، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٤١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣١١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٩)، و«البحر المديد» (٧/ ٢٩٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٢٥).

* ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

كما قدَّرنا الحياة والخلق، ولم يقل: «قدَّرنا عليكم»؛ لأن الموت موزَّع بين الناس، كلٌّ له منه نصيبه، فنحن قدَّرناه بينكم في وقت معين، وكما أنه مقسوم مقدَّر بين الناس لكل واحد منهم أجله الذي لا يتخطَّاه إلى غيره، بل يتخطَّى غيره إليه، فهو الفاصل والحاجز الذي يحول بين بعضهم وبعض، ويمنع الأحفاد من رؤية الأجداد، ويفرِّق الأحبة، فهو هاذم اللَّذَّات.

والمقصود: نحن قادرون على أن نميتكم، ونأتي بأجيال بعدكم تخلفكم في هذه الأرض وتعيش كما عشتم(١)، ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أنتم أيها المخاطبون ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: في حياة أخرى بعد الموت في البَرْزَخ ثم القيامة ثم الحشر ثم الجنة أو النار، فهذه مراحل لا تعلمونها، ولهذا جمع سبحانه بين وصفه بـ﴿مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ووصفه بـ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهو معلوم إجمالًا من حيث ضرورة الوقوع، وغير معلوم من حيث الماهية؛ لأنكم لم تروه ولم تعيشوه، وهو معلوم إجمالًا لدى المؤمنين الذين أُوتوا العلم، وغير معلوم لدى أولئك المكذِّبين المجادلين.

* ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

لقد علمتم أن نشأتكم الأولى كانت من العدم، ثم من ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، فهلَّا تذكَّرتم، فحملكم ذلك على الاعتبار بأن الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم وبعثكم، على أن تتذكَّروا أن الشيء الذي خُلقتم منه لا يصلح أن يكون سببًا في التعاظم والكِبْر والعُجب، وإنما كمال الإنسان في إيمانه وأخلاقه وسلوكه؛ ولهذا مدح السابقين بقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولما ذكر أصحاب المشأمة قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، فالعبرة بفعل الإنسان لا بأصله.

وعلمكم بالنشأة الأولى يرشدكم إلى أن وراء الأمر خالقًا مدبِّرًا قديرًا عليمًا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣١٧).

حكيمًا رحيمًا، فليس للإنسان استقلال بذاته، ولا قوة ولا تحكُّم في نفسه أو فيما حوله، بل هو مربوب مدبَّر مخلوق ضعيف، فإذا اتَّصل بربه وعَبَده وأحبَّه استمد منه القوة والعزة والسعادة والأمل.

* ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

فهم يضعون الحَب في الأرض، لكن الله هو الذي خلق في الحَبِّ الحياة، وجعل الحبة مثل الحيوان المنوي للإنسان، تتخلَّق منها الزروع والشجر، سُنَّة وضعها تعالى في الزرع كما وضعها في الإنسان، والزارع الحقيقي في الحالين هو الله تعالى، وإن كان هذا لا يمنع أن يسمى الإنسان: فلَّاحًا أو زارعًا، كما قال سبحانه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمقصود الإشارة إلى أنه تعالى هو الزارع الحقيقي الذي قدَّر لهذه الأشياء مقاديرها.

* ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: أرسلنا عليه ريحًا أو مطرًا أو بَرَدًا فحطَّم هذا الزرع قبل أوان الانتفاع به وحصاده(١)، ولو حدث هذا وجُعل الزرع ﴿حُطَٰمًا﴾ فماذا تستطيعون وكيف تتصرَّفون ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: بقيتم تفكَّهون، وأصل التفكُّه هو: الشيء الذي يتمتع به الإنسان(٢)، ومنه الفكاهة المضحكة، ومنه الفاكهة، والمعنى: لو جعلناه هَشِيمًا يابسًا وحُطامًا فإنكم تتحوَّلون إلى محلِّلين ومتكلِّمين تبحثون عن أعذار لما جرى، وتتفنَّنون في تصريف الكلمات والعبارات والأسباب(٣)، والمقام مقام غمٍ وهم وحزن على فوات ما عولوا عليه وأمّلوا من الرزق والثمرة، ولكنه عبَّر بالتفكُّه، إما على معنى التفنُّن في القول ومذاهبه، أو على معنى الندم، كما ذكر بعض أهل اللغة.

وقيل: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تتناولون الفاكهة بدل الحَب(٤)، والله أعلم.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٤٦) «ف ك هـ»، و«شمس العلوم» (٨/ ٥٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٩)، و«لسان العرب» (١٣/ ٥٢٤) «ف ك هـ»، و«روح المعاني» (١٤/ ١٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٠).

(٤) ينظر: «التفسير المظهري» (٩/ ١٧٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٧٧٨)، و«التفسير الواضح» (٣/ ٦٠١)، و«الموسوعة القرآنية» (٨/ ٤٣٣).

* ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لمعذَّبون، والغَرام: العذاب[1]، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، يصرفون الرأي عن احتمال الغَرام، ويقولون: ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: غير محظوظين[2].

وهذا تقريع لهم على صدودهم عن معرفة الأسباب الصحيحة لما وقع لهم، كما جرى لأصحاب الجنة في «سورة القلم»، وكما جرى لصاحب الجنتين في «سورة الكهف»، فما الذي ذهب بعقولكم وصرفكم عن معرفة السبب الأكبر، وهو الجحود وحبس حقوق الفقراء وكفر النعمة؟

* ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

وهو دليل ثالث على البعث مثل الحياة والنبات، وكثيرًا ما يأتي الاستدلال على البعث بإحياء الأرض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، ولما ذكر تعالى نبات الأرض وخروج الثمر فيها قرن ذلك بمسألة البعث، كما في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٦- ٧]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: ٩]، وهنا انتقل إلى نزول الماء وحياة الناس والأرض به.

والماء أصل الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولهذا امتن به تعالى فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾، والمُزْن هو: السَّحاب[3]،

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٤٣٦)، و«تاج العروس» (٣٣/ ١٧٠) «غ ر م».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٩)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٧٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٢٤).

﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾، فالله تعالى هو الذي يجري السَّحاب، فتمطر الغيث الذي به حياة الأرض.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾: فلو شاء سبحانه لجعل الماء العذب الحلو الذي يشربونه أُجاجًا، ولهذا ذكَّرهم به ووجوب الشكر لله عليه.

وهنا سؤال: لماذا قال في الزرع: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ وقال في الماء: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ بدون اللام، واللام للتوكيد؟

وقد قرأتُ في كتب التفسير، ولم أهتد إلى شيء واضح في الفرق بينهما، وخطر في بالي معنى محتمل، وهو أنه بالنسبة للأول جاء باللام في شأن الزرع؛ لأنه أمر كثير الحدوث متكرِّر أن المزارع إذا اكتمل زرعه أنزل الله تعالى عليه بَرْدًا أو مطرًا أو ريحًا فحطَّمته، ومن ذلك ما ذكره تعالى في «سورة القلم»: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم:١٧ - ١٨]، في حين لما كان الأمر يتعلَّق بالماء المشروب لم يذكر لام التوكيد؛ لأن المقصود الإشارة إلى القدرة والإمكانية مع قلة حدوث ذلك أو ندرته، والله أعلم؛ لأن الماء من ضروريات الحياة الإنسانية خاصة ماء الشرب العذب.

ولذا يموت مَن يتيه في الصحراء عطشًا أكثر مما يموت جوعًا، فكان من فضل الله ورحمته مع قدرته على ذلك، ومع عدم شكركم، أن مَنَّ عليكم بالماء العذب الفرات السائغ الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ومع هذا فهو للعطشان ولغيره ألذ شراب وأطيبه وأسوغه.

والأُجاج هو: المر أو المالح، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، فالأُجاج هو: الملح شديد الملوحة[١].

* ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

وهذا دليل رابع على البعث من وجه لطيف؛ فهو لم يشر إلى النار كلها، بل

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٠).

أشار إلى ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: تستخرجونها بالقَدْح من الشجر[1]، فثمة أنواع من الشجر له خاصية الاشتعال إذا قُدح غصن منها بالآخر اشتعل، فهذه النار الكامنة داخل الغصن الأخضر من آيات الله العظيمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

وهنا يسألهم: هل أنتم خلقتم هذا الشجر؟ هل أنتم وضعتم النار في جوف الغصن الأخضر؟ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟ بل هو المنشئ سبحانه.

ولعل في ذلك إشارة إلى قضية الروح، ووجودها في جسد الإنسان، مثل وجود النار الكامنة في الغصن، فإذا قدحته ظهرت النار فيه، فكذلك جسد الإنسان الميت هو خاوٍ ثاوٍ، ليس فيه روح، ولكن يأتي يوم ويُؤمر المَلَك فيصيح تلك الصيحة وينادي المنادي فتذهب الأرواح إلى أجسادها، فيكون ذلك بمثابة قدح الزِّناد واستخراج الروح من داخل هذا الجسد.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: تُذكِّر بنار الآخرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإن الإنسان الذي يكون في قلبه بعض الحياة يلتقط الذِّكرى من أي شيء؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ يعظ بنار الدنيا للتخويف من نار الآخرة، فيقول: «نارُكم هذه التي يُوقِدُ ابنُ آدمَ جزءٌ من سبعينَ جزءًا من حَرِّ جهنمَ». قالوا: والله، إن كانت لكافيةً يا رسولَ الله. قال: «فإنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستِّينَ جزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها»[2].

والمُقْوِي هو: المسافر[3]؛ لأنه دخل في القَوَاء، وهو البَر، يُسمَّى: قوًّا؛ لأنه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢١- ٢٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٢).

فارغ، تقول: أَقْوَتِ الدار، إذا رحل عنها أهلها[(١)].

وقال كعب بن زُهير[(٢)]:

أمِنْ دِمْنةِ الدَّارِ أقْوَتْ سِنِينا   بَكَيْتَ فظَلْتَ كئيبًا حزينًا

بها جرَّت الريحُ أذيالَها   فلم تُبْقِ من رسمِها مُسْتَبِينًا

وذكر المسافر؛ لأنه يحتاج النار أكثر من المقيم، فهو يوقد النار ليستدفئ بها، حيث لا يجد ما يُكِنُّه ويُظِلُّه، ويهتدي بها في الطريق، أو يتعرف على ما حوله، أو ليراه أحد فيأتي إليه، أو ليطرد عنه الهوام، إلى غير ذلك من الفوائد.

وفي الآية الكريمة إلهام البحث عن فوائد النار في رُقِيِّ الحضارة وفي حياة الناس الآن، وهي ضلع المثلث المشهور: الماء والهواء والنار، كما تلهم آية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ...﴾ [طه: ١٨]، البحث عن فوائد العصا، وقد كتب في ذلك طائفة من العلماء[(٣)].

وقيل: المراد بالمُقْوِين: كل مَن احتاج إلى النار من مسافر ومقيم[(٤)].

* ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾:

الذي هذا خَلْقُه، وهذا كونه، وهذه مخلوقاته، وهذا وعده، وهذا وعيده، وهذا كلامه.

فسبِّح باسمه تعالى، أي: نزِّه اللهَ عن كل ما لا يليق به، من العبث أن يخلق الخلق من غير شيء: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، أو أن يخلق الخلق ولا يعيد بعثهم إليه، أو أن يعد عباده ويوعدهم ثم لا يكون هذا الذي وعدهم به.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص٤٥١)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢١١)، و«تاج العروس» (٣٩/ ٣٦٥) «ق و ي».

(٢) ينظر: «ديوان كعب بن زهير» (ص٩٣).

(٣) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٨٧ - ١٨٩)، و«العصا» لأسامة بن منقذ، كما في «نوادر المخطوطات» لعبد السلام هارون (١/ ١٧٥-٢١٥).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٨)، والمصادر السابقة.

ونزِّهه سبحانه عن الأوثان التي عبدوها من دونه، واشتقُّوا لها أسماءً من أسمائه؛ تشبيهًا وتلبيسًا على الجاهلين والمغفَّلين؛ اللَّات والعزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: و«اسم» هنا قد تكون للتوكيد والتفخيم، أي: سبِّح ربَّك العظيم، وسبِّح باسمه، يعني: انطق باسمه(١).

و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ من أسمائه تعالى؛ ولذلك جعل هذا التسبيح للركوع: «سبحان ربي العظيم»؛ تعظيمًا وإجلالًا لله عَزَّوَجَلَّ، وتمهيدًا للسجود الذي هو قمة العبادة ونهاية الخضوع وذِروة النُّسك(٢)، وقد روى أحمد، وأبو داود، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»(٣).

ويشهد للحديث فعل النبي ﷺ في صلاته، حيث كان يفعل ذلك، كما في حديث حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره(٤).

ليس ثمة عبادة أعظم من أن تسجد لله، وتقول: «سبحان ربي الأعلى»، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاءَ»(٥).

وتأمَّل كلمة «أقربُ» اقرنها بالآية الآمرة بالتسبيح، ثم ضم إليها قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، فالسجود قُرب من الله؛ ولذلك «إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجدَ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقولُ: يا وَيْلَهُ- وفي رواية:

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٢٤)، و«التفسير القيم» (ص٥٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٢٨).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾. و«سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾.

(٣) أخرجه الطيالسي (١٠٩٣)، وأحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وابن خزيمة (٦٠٠، ٦٧٠)، وابن حبان (١٨٩٨)، والطبراني في «الدعاء» (٥٨٤)، والحاكم (١/ ٢٢٥)، (٢/ ٤٧٧)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٢٧). وينظر: «إرواء الغليل» (٣٣٤)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٨٧).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يا وَيْلي- أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجود فسجدَ فلهُ الجنةُ، وأُمرتُ بالسجود فأَبيتُ فلي النارُ»(١).

والسجود الخاشع هو سر التواضع لله، وكمال التواضع هو كمال العبودية، والسابقون هم الفائزون في سباق الذُّلِّ لله والتواضع لعظمته والخضوع بين يديه.

إن المؤمن المصلِّي حين ينخرط في تسبيح واعٍ صادق يشاركه الكون كله في السجود: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن:٦]، فإذا سجد فثَمَّ نهاية الخضوع حينها يقول: «سبحان ربي الأعلى»؛ إشارة إلى كمال العلو لله عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾:

هذا قَسَم، وإن كان ظاهره النفي(٢)، كما في نظائره في مواضع عديدة في الكتاب الكريم(٣)، وبعضهم قال: لا أقسم أي: الأمر لا يحتاج إلى قسم(٤)؛ والأقرب أن هذا قَسَم، وأصله عند العرب أنه كان يقول الواحد منهم: لا أقسم على هذا الشيء، يعني كأنه يقول: إن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قَسَم، ثم جرت وأصبحت هذه كلمة دارجة على ألسنتهم على معنى القَسَم، فإذا قال: «لا أقسم» فهو حلف ويمين، ولذلك قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، فأثبت أنه قَسَم، وإن كان لفظه النفي؛ لأن «لا» هنا أشبه ما تكون بالتوكيد، أو بأنها جارية مجرى الإثبات(٥).

ومواقع النجوم هي: مساقط النجوم، أي: أماكن مغيبها(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٠).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٠).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٠).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٣).

وقد ذكر تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، وهو قَسَم أيضًا، فيكون قَسَمَه بمواقع النجوم مثل قسمه بالنجم إذا هَوَى، أي: أقسم بأماكن النجوم التي تختفي فيها، وكما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التكوير:١٥- ١٦]، و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾ هي: الظِّباء التي تختفي في الكِناس، وهو بيت الظَّبي، فكذلك النَّجم كأن له بيتًا مثل الظَّبي يختفي فيه، يُقسم تعالى بالنجم إذا هَوَى، أي: إذا غاب[١].

أو يكون المقصود: القَسَم بالشِّهاب الذي يسقط، أو القَسَم بمحل النجوم، سواء كان ظاهرًا أو غير ظاهر.

وقد اكتشف علماء الفضاء أن ثمة نجومًا خُلقت ولا نراها؛ لأن ضوءها لا يزال في طريقه إلينا، وأن ثمة نجومًا احترقت منذ آماد طويلة ونحن لا نزال نرى ضوءها الذي وصل إلينا بعد مسافة طويلة قطعها بين مصدر الضوء الذي قد احترق، وسوف يتوقف الضوء عنا بعد آماد طويلة الله تعالى أعلم بها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: إشارة إلى أن عالم الكواكب والفضاء والنجوم واسع لا يحيط به البشر، وكل الذي نراه أو نقرؤه ليس إلا شيئًا يسيرًا بالقياس إلى ما لم تره، والأفلاك والكواكب والمجرَّات التي لم يكتشفها علم الإنسان أكثر مما اكتشفه بكثير، فلا زال العلم قاصرًا جدًّا.

وثَمَّ معنى لطيف، وهو أن السابقين من هذه الأمة ربما كانت معلوماتهم عن الفضاء والكواكب والمجرَّات محدودة، ولكن كان إيمانهم قويًّا، والقدر المحدود من علمهم أورثهم يقينًا وصدقًا وإخلاصًا، بخلاف حال أكثر الناس اليوم!

ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن المقصود ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: مواقع نزول الآيات من القرآن الكريم[٢]؛ فإن القرآن نزل مُنَجَّمًا على ثلاث وعشرين سنة،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٧)، وما تقدم في «سورة النجم»، وما سيأتي في «سورة التكوير».

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢١٩).

بحسب الوقائع والأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، ولكن القول الأول أقوى.

* ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

هذا الذي تقرؤونه وتسمعونه وتخاطبون به هو قرآن مقروء يُتلو بالألسن، وهو مكتوب مسطور، ولذلك سماه كتابًا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، و﴿كَرِيمٌ﴾ عظيم من الله سبحانه.

﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: وهذه من الآيات التي أَشْكَلت على بعض المفسرين، هل المقصود بـ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: المصحف الذي كُتب فيه القرآن، ولم يكن موجودًا آنذاك؛ لأن النبي ﷺ مات والقرآن لم يُجمع في كتاب واحد، ولكن الإشارة إليه باعتبار علم الله سبحانه بأن ذلك سيحدث(١).

فعلى هذا يكون المعنى: في كتاب محفوظ من الزيادة والنقصان، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وعليه يكون قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ دليل على أنه لا يجوز أن يلمس المصحف إلا إنسان متطهِّر من الحدثين الأصغر والأكبر.

وقد ضعَّف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول في تفسير الآية من عشرة أوجه(٢)، وذكر أن الآية مكية، لم يكن ينزل كثير من تفصيل الأحكام بمكة، ولم يكن القرآن مجموعًا في كتاب آنذاك، ثم إن المصحف قد يلمسه غير المسلم.

أما القول الثاني في المقصود: بـ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: فهو إنه اللَّوح المحفوظ(٣): ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١- ٢٢]، المحفوظ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٣).

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٢٦- ٢٢٩). وينظر أيضًا: «فقه العبادة» (١/ ٤٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٤).

السماء السابعة(١).

والقول الثالث: أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة(٢)؛ ولذلك قال مالك: «أحسن ما سمعتُ في هذه الآية: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إنما هي بمنزلة هذه الآية التي في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾(٣) [عبس: ١١- ١٦].

فأصح ما تُفسَّر به الآية: قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾.

فهذا يدل على أن المقصود: كتاب في أيدي الملائكة، وعليه يكون المقصود بالمطهَّرين: الملائكة.

وهذا القول فيه وجاهة، فالله تعالى طهَّرهم مثلما وصفهم بأنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وأنهم ﴿سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾، والمؤمن طاهر، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إن المؤمنَ لا ينْجُسُ**»(٤).

* ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

فيه إثبات علو الله سبحانه، ولهذا نقول: «سبحان ربي الأعلى»، وأنه أنزل الكتاب على نبيِّه ﷺ.

* ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

سماه: حديثًا؛ لأنه كلام الله الذي ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

و﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أي: شاكُّون.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو: أنكم مجاملون لغيركم، أو مداهنون لهم(٥).

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة البروج».

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٣٨٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «موطأ مالك» (٢/ ٢٧٩) (٦٨٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٥)، ومسلم (٣٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٨- ٣٣٩).

وكأن السياق عتاب لبعض المشركين الذين كان في قلوبهم ميل إلى الإيمان، ولكنهم يجاملون كبراءهم وجلساءهم، فلا يظهرون إيمانهم، بل يكتمونه، ويتظاهرون بالكفر، وهم بذلك كفار قطعًا، فيوافقون جماعتهم على أن هذا سحر أو شعر أو كهانة، وربما في داخلهم اعتقاد آخر، فالله تعالى يعاتبهم ويقول: أنتم أمام حديث واضح البيان قوي الحجة، فلماذا تكتمون الحقَّ، وتجاملون غيركم بالباطل؟

وفيه دعوة إلى أن ينفكَّ المسلم عن التفكير على طريقة «العقل الجمعي»؛ لأن الإنسان حين يكون منتظمًا في مدرسة أو جماعة أو طائفة بينه وبينهم علاقة، فهو يوافقهم على ما يقولون وينتحلون ويختارون من الآراء والاجتهادات والأقوال الفقهية والسياسية؛ لأنه لو خالفهم ربما سبُّوه أو آذوه أو اتهموه أو عيَّروه أو انتقدوه أو نفوه من بينهم، فأصبح خليعًا منبوذًا من جماعته أو عشيرته، حتى أولاده وبناته ينظر إليهم بريبة ويحاذرهم الناس لئلا يُقال عنهم ما يُقال، والفرد عادة حريص على التواصل مع نظرائه، وألا يتعرَّض لتأثيم أو تعيير أو عيب.

وهذا مدعاة أن يهز رأسه بالموافقة على الخطأ المشهور، والإعراض عن الحق المهجور، وبهذا يتميز المصلحون والقادة والمجدِّدون بأنهم يشقون طريقًا مختلفًا، ويصبرون ويتحملون، ويكون لديهم من سعة المعرفة وقوة الحجة، وسلامة المنطق واللسان، وعظمة الأخلاق ما يحفرون به مجرى جديدًا وتصحيحًا وتصويبًا، يحاربه الناس أول الأمر، ثم يتقبَّلونه، ثم يتعصَّبون له على غير وعي، فيحتاجون إلى مجدِّد آخر يزيل عنهم الغشاوة، والله المستعان.

ولذلك قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، فإذا عزلتَ إنسانًا عن مجموعته المؤثِّرة وجعلته في جو انفرادي، بدأ يفكِّر باستقلاله بعيدًا عن المؤثرات الخارجية، فيستخدم عقله وخبراته ونفسيته وروحانيته ويتضرَّع إلى الله سبحانه، فيصل إلى نتائج مختلفة فيها كثير من التجرُّد، ولهذا قال هنا: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾، والمعنى: أنكم تكذِّبون بهذا الحديث، وتُداهنون من أجل الحفاظ على مصالحكم، وتظنون أن رزقكم لا يتم إلا بهذا، كمثل موظف يوافق مَن حوله على ما يقولون؛ لأنه لو خالفهم يخسر وظيفته، فيكذب من أجل الوظيفة أو المنزلة أو المكانة أو العطاء، فهذا عتاب لمَن يفعل هذا.

وهذا قول ليس بالمشهور، لكن له وجاهة وسلاسة وترابط مع السياق.

والقول المشهور عند جماهير المفسرين: أنكم تجعلون بدلًا من شكركم لربكم أن تكذِّبوا[١]، فتقابلون نعمه التي لا تُحصى بالتكذيب؛ ولذلك قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لا على سبيل القراءة ولكن على سبيل التفسير-: «وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون»[٢]. ورُوي ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا[٣].

الرزق يأتي في اللغة بمعنى: الشكر[٤]، وفي الحديث عن زيد بنِ خالد الجُهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: صَلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصبح بالحُدَيْبِيَة على إِثْرِ سماء كانت من الليلة، فلما انصرفَ النبيُّ ﷺ أقبلَ على الناس فقال: «**هل تدرونَ ماذا قال رَبُّكُمْ؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما مَن قال: بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**»[٥]. وذلك لأن العرب في الجاهلية

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٧١)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٢٢).

وينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٢٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «فضائل القرآن» للقاسم بن سلاَّم (ص٢١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٠).

وينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٦٥)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣١٠).

(٤) ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٧٠٧)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٣٨٨) «ر ز ق».

(٥) أخرجه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١).

كانوا يعتقدون أن النجوم تأتي بالمطر ويعتقدون أن الشِّعْرى أو الزُّهَرة لهما تأثير في الأنواء ونزول الأمطار، فنفى تعالى ذلك وبيَّن أن الأمر من عنده فكيف تشكُّون وتجعلون شكركم لنعمة الله تعالى بالمطر أو غيره ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؟ وتنسبونه إلى النجم أو الوثن، فهذا هو المعنى.

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة رَضِيَاللَّهُعَنْهُم، وقال الشافعي وغيره من العلماء: إن من قال: «مُطرنا بنَوْء كذا»، وهو يقصد أن النجم هو الذي يُحدث المطر، أن ذلك من الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن قالها وهو يقصد أن هذا هو موسمه وحينه المعتاد فلا بأس بذلك، وهو كقوله: مُطرنا في شهر كذا، أو يوم كذا، وإن كان تجنبه أفضل(١).

ولذلك لما استسقوا في عهد عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، وقال عمر للعباس: «يا عباسُ، يا عمَّ رسول الله، كم بقي من نَوْءِ الثُّرَيَّا؟». فقال العباسُ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: «العلماء بها يزعمون أنها تعترض بعد سقوطها في الأُفق سبعًا». قال: فما مضت سابعةٌ حتى مُطرنا(٢).

فعلى هذا فقد علم عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ أن نَوْء الثُّرَيَّا وقت يُرجى فيه المطر، ولذا سأل العباس، والثُّرَيَّا- كما ذكر ابن عبد البر والبيهقي وابن حجر وغيرهم من أهل العلم-: نجم يطلع صباحًا في أول فصل الصيف عند اشتداد الحر في بلاد الحجاز.

* ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾:

إذا كان الأمر عندكم على هذا التكذيب والإصرار، فهلا أعدتم الرُّوح إذا بلغت الحُلقوم عند النزع والاحتضار؟(٣).

ولم يذكر ما هي التي بلغت الحُلقوم؛ لأن أمرها معلوم، والمعلوم قد يُستغنى

---

(١) ينظر: «الاستذكار» (٢/ ٤٣٧- ٤٣٨)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٦٠- ٦١)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٣٩٤- ٣٩٥)، و«القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ٣١).

(٢) ينظر: «مسند الحميدي» (١٠٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٠- ٣٧١)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٥٠٠-٥٠١)، و«الاستذكار» (٢/ ٤٣٥).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٧- ٥٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٤).

عن ذكره عند العلم به، وخاصة أن الروح أمر خفي، فأخفاها تعالى في السياق ولم يذكرها، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وللإشارة إلى عظمة الأمر، وفيه تحدٍّ مناسب للمقام؛ لأنه سيقول: أعيدوا الرُّوح، فإذا كان الناس لا يعرفون ماهية الروح ولا أين تسكن، ولا شيئًا من نواميسها، فكيف لهم أن يعيدوها إلى الجسد؟!

* ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

تنظرون إلى المحتضَر الذي بلغت روحه الحُلقوم، ليس بيدكم شيء غير النظر بعيونكم، تجعلونها يمنة ويسرة، ولم يذكر متعلّق النظر؛ ليبقى متعدِّدًا، تنظرون إلى المحتضَر مشفقين حزينين، وينظر بعضُكم إلى بعض نظر المتحيِّر العاجز، وينظرون إلى الطبيب، وينظرون إلى الأطفال الصغار(١).

* ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَنَحْنُ﴾: فيه تضخيم وتفخيم وتعظيم، وأنتم أقرب الناس إليه في رأي العين، ولكن الله تعالى بسلطانه وبعلمه وقدرته وبملائكته الذين نزلوا لقبض الروح ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أيها الأقربون(٢).

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: تأمَّل كيف قال في الآية الأولى: ﴿تَنظُرُونَ﴾، وهنا قال: ﴿لَّا تُبْصِرُونَ﴾، وهذا عجيب؛ فهم ينظرون وعيونهم مفتوحة يشاهدون هذا المحتضَر؛ لكن لا يبصرون الرُّوح ولا الملائكة.

* ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: أعادها مرة أخرى بسبب طول الفاصل، فأعاد الاقتراح عليهم والتحدِّي، فإذا كنتم تقولون: لا موت، ولا بعث، ولا جزاء، ولا حساب، وتزعمون أنكم

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٢٣)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٢٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٤)، والمصادر السابقة.

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مجزيين[1]، فالدِّين هو: الجزاء[2]، وإذا كنتم مصرِّين على الكفر والتكذيب بالبعث، فارجعوا الروح إلى الجسد! وهو عالَم ليس لهم عليه سلطان.

وهذا التحدِّي أقوى وأوضح في عصر تقدمت فيه علوم الطب والعمليات المعقَّدة وزراعة القلب ومراكز الأبحاث المتقدِّمة التي لا سقف لها في نظر القائمين عليها، ومع هذا كله يظل الطب عاجزًا عن رد الموت إذا حان حينه، أو تأخير وقوعه ولو لحظة.

* ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

في نهاية السورة أعاد ما فصَّله في أولها بإجمال واختصار، كما هي العادة في سائر سور القرآن الكريم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا المحتضَر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾: والروح: الراحة[3]، ولذلك قال ﷺ: «مُسْتَرِيحٌ، ومُسْتَرَاحٌ منه». قالوا: يا رسولَ الله، ما المُسْتَرِيحُ والمُسْتَرَاحُ منه؟ قال: «العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدَّوابُّ»[4].

فهنا مستَرِيح، وقوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: راحة بعد الموت[5]، الإيمان بهذا يجعل

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣١)، و«اللباب» (١٨/ ٤٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٥).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٨)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥١٢)، ومسلم (٩٥٠) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٢٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٢٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢).

للحياة معنى مضاعفًا، وحتى الموت يستقبله المؤمن بطُمأنينة ورضا، وإن كان يكره الموت، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولكن إذا بُشِّر برضوان الله تعالى ورَوْح ورَيْحان أحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ اللهُ لقاءه[1].

والرَّيْحان هي: الرِّيح الطيبة، ومنه: الورد المعروف ذو الرائحة الزكية[2].

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ تنتظره عند الله تعالى.

* ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠﴾: وهم الفئة الثانية ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾ أي: تسلِّم عليه الملائكة وتبشِّره أنه ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي سلام لك فأنت ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾[3].

ويحتمل السياق معنى آخر، وهو أن ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ يسلِّمون على المحتضَر الذي هو من إخوانهم، ويقولون له: سلام لك. والملائكة تقول له: لك سلام نبلِّغه إليك من إخوانك ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ في الجنة الذين يستبشرون بمقدمك عليهم[4]، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

* ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وأما إن كان المحتضَر ﴿مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهُدى.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٦٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٥٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٩).

وقدَّم هنا وصف ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ على وصف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، عكس ما تقدَّم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١﴾؛ لمراعاة سبب ما نالهم من العذاب، وهو التكذيب؛ لأن الكلام هنا على عذاب قد حان حينه، وفات وقت الحذر منه، فبيَّن سبب عذابهم، وذُكِّروا بالذي أوقعهم فيه؛ ليحصل لهم ألم التندُّم.

﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾: النُّزُل هو: الضيافة التي تقدَّم للضيف من القِرَى.

وإطلاقه هنا تهكُّم، كما تقدَّم قريبًا في هذه السورة: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٥٦﴾.

والحَمِيم هو: الماء الذي أُغلي حتى انتهى حرُّه، فإذا سُقُوه غلت منه بطونهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ التَّصْلِية: الإحراق والشَّوْي، يُقال: صَلَى اللحم، إذا شواه.

والجحيم يُطلق على النار المؤجَّجة، ويُطلق على جهنم، دار العذاب في الآخرة.

* ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥﴾:

ليس هو ﴿ٱلۡيَقِينِ﴾ فحسب، بل هو ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ الذي لا مرية فيه ولا جدل[1]؛ لأنه علم ضروري قطعي لا ريب فيه.

* ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾:

فسبحان ربنا العظيم وبحمده، ونسأله أن يلهمنا ذكره وشكره وحسن عبادته.

○○○

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٥١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٤).

سُورَةُ الحَدِيدِ

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الحديد**»، ولا يُعرف لها اسم إلا هذا، وهكذا جاءت في عدد من الأحاديث النبوية، والآثار عن الصحابة، وهو اسمها في كتب التفسير، وفي المصحف، وفي كتب الحديث[1]، وذلك لقوله فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٦].

* **عدد آياتها:** تسع وعشرون آية، وقيل: ثمان وعشرون[2].

* وهي مدنية في قول الجمهور، وحُكي إجماعًا.

وفيها شيء من الطول، خلافًا للسور التي قبلها وبعدها، ولذلك قيل: إنها مدنيَّة[3].

والصواب أن غالبها مدني، وفيها بعض الآيات المكية، ومطلع السورة مكيٌّ في بضع آيات من أولها.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٠٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٤)، و«المستدرك» (٢/ ٤٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٥)، وو«روح المعاني» (١٤/ ١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) وقد اختلفوا في قوله: ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٢)، و«الإتقان» (١/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٣).

وموضوعها هو موضوع القرآن المكي من الحديث عن البعث والألوهية وما يتعلق بقضايا العقيدة الكبرى.

وفي أثناء السورة حديث عن الإنفاق وحديث عن الشهادة ومناظرة مع أهل الكتاب، وحديث عن المنافقين، وهذه كلها من موضوعات القرآن المدني.

ولكن نظام السورة واحد مما يبيِّن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يحجب صدرًا من السورة أو جزءًا منها ثم ينزله وقتما يشاء، فيلحقه النبيُّ ﷺ بموضعه من السورة.

* ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾:

التسبيح هو: التنزيه(١)، وإثبات صفات الكمال له سبحانه، ونفي صفات النقص.

وقد ورد الاستفتاح بالتسبيح في صدر العديد من السور التي تسمَّى: «المسبِّحات»، كـ«سورة الجمعة»، و«سورة التغابن»، و«سورة الأعلى»، كما ورد في طي كثير من السور، كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وفي بعض السور استفتح بالتسبيح بلفظ الماضي، ومنه هذه السورة، وهي أول المسبِّحات، حيث قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، فهو خبر عن الماضي.

وفي بعضها استفتحه بالمضارع، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]، وفي مواضع ذكر التسبيح بلفظ الأمر للمستقبل، كما في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، والمقصود التنويع، ثم الإشارة إلى أن التسبيح لله كان منذ الأزل، فكل هذه المخلوقات منذ أن خُلقت وهي تسبِّح، فهي قد سبَّحت في الماضي، والآن تسبِّح، فليس تسبيحًا مضى وانتهى، وإنما هو تسبيح دائم مستمر، والأمر يدل على

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٢)، و«تاج العروس» (٦/ ٤٤٧) «س ب ح»، وما سيأتي في أول «سورة الحشر»، وأول «سورة التغابن».

التسبيح في المستقبل، كما يدل على التسبيح الاختياري التعبدي الذي كُلِّف به الإنسان خاصة، حيث أُمر بذلك أمرًا شرعيًّا تعبديًّا، بخلاف المخلوقات الأخرى التي أُمرت به أمرًا تكوينيًّا قدريًّا[(١)].

وتأمَّل كيف قال هنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولم يقل: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٤١]؛ لأنه لو قال: ﴿مَن﴾ لكان المقصود به البشر العقلاء، فلما عبر بـ﴿مَا﴾ دلَّ على أن المقصود المخلوقات كلها، لا سيما من غير البشر، فيشمل ذلك الحيوانات والنباتات وغيرها، كما يشمل الجماد؛ لأنها مخلوقات كغيرها[(٢)].

أما كُنْه تسبيح هذه المخلوقات، فقد قال بعضهم: إن تسبيحها هو كونها مخلوقة له سبحانه، فهو الذي خلقها، فهي تدل عليه وترشد إليه[(٣)]، كما قال الشاعر[(٤)]:

فَيا عَجَبًا كَيفَ يُعصى الإلَـ ـهُ أم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ؟
ولله فـي كُـلِّ تَـحـريـكَـةٍ وتَـسـكـيـنَـةٍ أبـدًا شـاهِـدُ
وَفـي كُـلِّ شَـيءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلـى أَنَّـهُ واحِـدُ

فقالوا: تسبيحها هو إشارتها بالاعتراف والتعظيم لله الخالق الواحد سبحانه.

وقال آخرون: تسبيحها: انضباطها بمقتضى السُّنن والنواميس التي وضعها الله سبحانه[(٥)]، كما قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥]، فقالوا هذا الحسبان هو التسبيح، أنها منضبطة مأمورة في جميع حركاتها وسكناتها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤١- ٤٤٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٥)، و«روح البيان» (٩/ ٣٤٤- ٣٤٥)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «ديوان أبي العتاهية» (ص١٢٢)، و«طبقات الشعراء» لابن المعتز (ص٢٠٧)، و«أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص٨)، و«شعب الإيمان» (١٠٤، ١٠٥)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٥٣).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤٢- ٤٤٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٥)، والمصادر السابقة.

وقال آخرون: التسبيح يشمل هذا وغيره[1]؛ بدليل قوله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إذًا ثمة تسبيح نفقهه، وهو إشارتها إلى خالقها، أو انضباطها بأوامره وسننه ونواميسه، وثمة تسبيح لا نفقهه، وهو نوع من التسبيح والعبودية لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بهذه الكائنات، لا نستطيع أن نحيط به علمًا، فنقر أن الكون كله منخرط في حالة من التسبيح لله تعالى، والمؤمن منسجم مع هذا الكون، يشعر بأن الكون صديق له، ولهذا لما رقى النبيُّ ﷺ على جبل أُحُدٍ قال: «أُحُدٌ جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ»[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: فهذا اسمان من أسمائه سبحانه، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي عزَّ فغلب وقهر، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: الحاكم الذي يحكم ما يريد[3].

ومن معانيها: الذي له الحكمة، فهو يضع الأشياء مواضعها، ويأمر بحكمة، وينهى بحكمة، ويضع السُّنن والنواميس وَفْق حكمة لا تُخطئ[4] ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

* ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾:

استفتح بالتسبيح، ثم عقَّب ببيان ملكية المخلوقات له تعالى، فهو مالكها،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٥- ٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨١، ٤٤٢٢)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حُميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٢٨٨٩، ٢٨٩٣، ٤٠٨٣)، ومسلم (١٣٦٥، ١٣٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «مع الله» (ص٨٣، ٨٤، ١٩٧)، وما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣﴾، و«سورة التغابن»: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾، و«سورة الملك»: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

والمُلك- بضم الميم- معناه: أنه خالق السماوات والأرض، ورب السماوات والأرض، ومدبِّر السماوات والأرض(1)، فهي له ومنه وإليه، أما مِلك الناس إنما يسمى: «مِلكًا» بكسر الميم، وهو مِلك طارئ عابر ورثها من أبيه، وسوف يورِّثها لابنه، أو اشتراها وسوف يبيعها، وقد تُؤخذ منه بحق أو بباطل، أو يُنزع منها بالموت، فهو تسلُّط عابر محدود.

وكذلك الملوك ملكهم على أشياء دون أشياء، وهم لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم العجز ولا الضعف ولا الموت.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: فكما أنه خالق السماوات والأرض، كذلك له الإحياء والإماتة، فكل حيٍّ فالله الذي منحه الحياة، وهو الذي يسلبه الموت متى شاء، فهو حيٌّ لا يموت، ولا ينام، ولا يغفل ولا يخطئ ولا يضل ولا ينسى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست مقصورة على الحياة والموت فحسب، وإنما له القدرة التامة في كل شيء.

ويشبه هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29].

* ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾:

﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ في الأصل تُطلق على الشيء الذي يأتي أولًا، لكن في السياق الرَّبَّاني يعني: السابق، الذي ليس له ابتداء، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «اللهمَّ أنت الأولُ، فليس قبلكَ شيءٌ»(2). فهو الأول أولية أزليَّة بلا ابتداء، والعقل البشري غير قادر على أن يستوعب هذا المعنى بجماله، لكنه قادر على أن يؤمن به وألَّا يَزُجَّ بنفسه في مضايق يعلم أنه إن دخلها لن يخرج منها، فأجمل وأحسن ما يكون الإيمان أن يتلقَّاه الإنسان ببصيرة ويتلقَّاه من مصدره الأصلي الذي هو كتاب الله الكريم.

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 5)، و«تفسير السعدي» (ص837).

(2) أخرجه مسلم (2713) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ أي بعد كل شيء، فهو الآخر بلا انتهاء، ولهذا قال ﷺ: «وأنت الآخرُ، فليسَ بعدكَ شيءٌ»[1]. وهو الذي يمنح الخلود الأبدي لمَن شاء من عباده، تفضُّلًا ومنًّا، كما قدَّر سبحانه خلود الملائكة بعد القيامة، وأهل الجنة والجنة والأشياء التي أذن الله تعالى أن يكون لها بقاء سَرْمَدي، فهذه لها آخرية، ولكنها ليست من ذاتها، وإنما هي منٌّ منه سبحانه، فهو الذي منحها الخلود والبقاء والدَّوام.

و﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾: اسمان متقابلان من أسمائه تعالى، وهما متعلِّقان بالزمان، وبعضهم يعبِّر بـ«القديم» أو «الأزلي»، و﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ أولى[2].

والبعض قد يُطلقون على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ اسم: (القديم)، وهذا قد يُطلَق على سبيل الخبر، لكنه ليس من أسماء الله تعالى الحسنى، وإن كان جاء في دعاء النبي ﷺ، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أن النبيَّ ﷺ كان إذا دخل المسجدَ قال: «أعوذُ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم».

لكن هذا من باب الخبر عن الله تعالى، واستخدامُ اللفظ القرآنيِّ الربانيِّ الثابت في النصوص الكثيرة وهو «الأول» أولى وأفضل.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾: اسمان متقابلان متعلِّقان بالمكان.

فالظاهر هو: الذي ليس فوقه شيء، وهو يدل على العلو؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، فله علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر والغلبة.

ومن معاني الظاهر: القوي الغالب أيضًا: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، أي: منتصرين[3]، فهو الغالب الذي يعطي النصر والقوة

---

(١) هو جزء من الحديث السابق.

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٩- ٦٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٠٤)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٣).

والغلبة والعاقبة لمَن يشاء.

ومن معاني الظاهر: البيِّن الواضح الذي تقوم الحجج والبينات عليه؛ فإن الحجج شديدة الظهور على وجوده وألوهيته وربوبيته(١).

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: فسَّره ﷺ بقوله: «وأنت الباطنُ، فليس دُونكَ شيءٌ»(٢). فهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء، وليس دونه شيء، وكل شيء فهو في علمه وسمعه وبصره وسلطانه.

ومن معاني الباطن: الخفي من حيث أن البشر لا يحيطون به علمًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وأن العقول لا تستطيع أن تصل إلى كُنْه ذاته ولا صفاته(٣)، وفي هذا يقول الأول(٤):

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ ... والبحثُ عن سِرِّ ذاتِ السِّرِّ إشراكُ

فهو الإله الذي تتأله فيه العقول وتتحير، كما قيل(٥):

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ ... نِ غدا الفِكْرُ كليلا

أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ ... ـبِ وبلبلتَ العقولا

كلما أقْدَمَ فكري ... فيك شبرًا فرَّ ميلا

ناكصًا يخبط في عَمْـ ... ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا

وهو الخفي الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللَّطيف الخبير.

---

(١) ينظر: «مع الله» (ص٢٥٩).

(٢) جزء من الحديث المتقدم.

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٦٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٠٨)، و«مع الله» (ص٢٥٩- ٢٦٢).

(٤) نُسب إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «ديوانه» (ص١٤٢).

ونُسب أول هذا البيت إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في «روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار» (ص٣٨٦)، و«الأشباه والنظائر» (٢/ ٢٠٣)، وقد ضعَّف ابن تيمية نسبته إليه. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢١٦).

(٥) ينظر: «شرح نهج البلاغة» (١٣/ ٥١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٠- ١٣).

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: تأكيد لما سبق، وتمهيد لما يلحق؛ لأن المقصود من إظهار هذه الأسماء والصفات التأكيد على الربوبية التي هي الخلق والتدبير والمُلك، ثم الإلزام بالألوهية والطاعة والعبادة لله وحده لا شريك له.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾:

انتقل السياق هنا إلى شأن ألصق بالإنسان؛ لأن ذكر السماوات والأرض يمهِّد لذكر ساكنيها، والأيام الستة هي من أيام الله، وليست من أيام الدنيا؛ لأنه قبل خلق السماوات والأرض لم يكن ثمة شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار، وإنما هي أيام الله تعالى أعلم بطولها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: إشارة إلى علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستواء: صفة نؤمن بها كما أخبر سبحانه، ونمرها كما جاءت، ونقرها من غير تأويل، نؤمن بأنه تعالى له عرش، لا نُدْرِك كيفيته، ولا ينبغي أن نقول بغير علم، وإنما نَدَعُ اللفظ على جلالته وهيبته وعظمته، كما قال إمام دار الهجرة مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لما سأله سائلٌ عن ذلك، فقال: «الاستواءُ غير مجهول، والكيفُ غير معقول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعة»[1]؛ لأنه دخول في مضايق لا تزيد الإنسان إلا حيرة.

والأجدر بالمؤمن حين يقرأ هذا النص الإلهي أن ينشغل بتدبره تدبرًا يورث الحب والتعظيم والهيبة والوقار للواحد القهار، دون تقبل أي صورة في الذهن يمليها الخيال المحدود، ودون تشاغل بالتأويل وصرف النص عن سياقه.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل في باطنها، و﴿مَا﴾ عمومٌ يشمل كل شيء

---

(١) ينظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (١٠٤)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (٢/ ٢١٤)، و«معجم ابن المقرئ» (١٠٠٣)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للَّالَكائي (٦٦٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٦)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٦٧)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص١١٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٣٩)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠).

يدخل في الأرض من المياه أو البذور أو البشر، مما يعلم الناس ومما لا يعلمون.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يعلمه قبل أن يخرج يوم كان في باطن الأرض، ويعلمه بعد خروجه، مثل خروج النبات والمعادن والبشر حين ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]، والماء والهواء والبراكين وما كان وجهه الرحمة، أو ما كان وجهه العذاب(١).

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من الوحي، ومن الملائكة، ومن المطر، وغير ذلك مما يحيط علمه تعالى به.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: يصعد إلى السماء، كالملائكة والأرواح والأعمال(٢).

والمقصود التأكيد على عظمة علم الله وإحاطته بخلقه، وأنه لا مفرَّ منه إلا إليه، وهو علمٌ يملأ قلب المؤمن شعورًا برقابة الله له: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: وهذه أيضًا آية عظيمة، فهو معكم بعلمه(٣)، كما يقتضيه السياق، فلا تخفى عليه خافية: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بسلطانه(٤)، فإن الإنسان لا يخرج من سلطانه تعالى ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩)، و«روح البيان» (٩/ ٣٥١).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٩).

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بحفظه وكَلاءته[1]، كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، فإذا جاء القدر خَلَّوْا بينه وبين الأمر الذي ينزل به، فإذا كانت عين الله تراقبكم وترعاكم، وعلمه معكم وسلطانه عليكم وحفظه وكَلاءته لكم، أفيجرؤا أحد أن يكون غافلًا عن ذلك صادًّا معرضًا عنه؟ وهو مع المؤمنين برحمته وعطفه ولطفه ونصرته وحمايته، خاصة حين يواجهون الأَذَى والعدوان، والظلم والطغيان، ولا يقدرون على دفعه عن أنفسهم ولا عن غيرهم، فيقاسون الغربة والسجن والتشريد والفقر والاضطهاد وتنكُّر الصديق، ولا يكون لديهم ملجأ إلا كنف الله اللطيف الخبير الحفيظ الذي يسكب في قلوبهم الصبر والرضا واليقين، ويطمئنهم بمثل هذه الآيات الكريمات.

ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأثبت لله تعالى صفة البصر، وفيه إشعار بمراقبته سبحانه لما يبدر من المرء من قول أو عمل.

* ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾:

أعاد التذكير بأن له ملك السماوات والأرض؛ من أجل أن يبني عليها حقيقة أخرى، هي الرجوع إليه يوم الدِّين، فالخلق منه وإليه، و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ جمع: أمر، وأول ما يشمله ذلك البشر أن رجوعهم إليه تعالى، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨]، وكما قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. فأثبت البعث بعد الموت، وحقَّق أن الرجوع إلى الله لا إلى غيره، فهو الحقيق بأن يحب ويخاف ويُرجى.

* ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾:

أي: يُدخل الليلَ في النهار، ويُدخل النهارَ في الليل.

ويحتمل المعنى: أن الليل يأخذ من النهار، والنهار يأخذ من الليل، فهذا يطول وهذا يقصر بتعاقب الفصول الأربعة، وفي كل يوم يتغير الليل عن النهار بالزيادة والنقصان، يأخذ هذا من ذاك وذاك من هذا.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٦).

وأجود منه أن يكون المعنى: أن النهار يحل محل الليل، والليل يحل محل النهار[1]، وذاك حين نرى الإسفار يبدِّد ظلمة الليل شيئًا فشيئًا، ثم غسق الليل حين تغيب الشمس، فتغطِّي ظلمة الليل ضوء النهار شيئًا فشيئًا.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: تأكيد على العلم، وإشارة إلى أن علمه بالمكنون كعلمه بما ظهر وجهر به الخلق، لا يَعْزُب عن علمه شيء؛ فعلمه شامل حتى لذات الصدور، وهي: ما يسرُّه المرء في صدره مما لم يتحدَّث به لأحد[2]، بل ربما يوجد في قلبك سرٌّ كنتَ في غفلة منه، وهو ما يُسمى: العقل الباطن، أو اللَّاوعي، مما يؤثِّر على سلوكه وتصرفاته وانطباعاته وأحاسيسه، وهو في غفلة منها، فالله يعلم ذلك كله.

وسمَّاها: «ذات الصدور»؛ لأنها لا زالت ملازمة للصدر لم تخرج منه بعد، ولم يعلم بها أقرب الناس إلى صاحبها، وربما كان صاحبها عنها في غفلة.

وهذا القدر من السورة- والله أعلم- نزل بمكة، نحو ست آيات، وعدَّ فيه بعضهم ستة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنى: الله، العزيز، الحَكِيم، المَلِك، الخالق، القَدِير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، البَصِير، المُحْيي، المُميت، السُّبُّوح، العَلي، وفيها ما لا يثبت كونه من الأسماء الحسنى، ومنها ما يقع التردد في وجود دلالته في الآيات.

ولذلك قيل: إن اسم الله الأعظم في صدر «سورة الحديد». ورد ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد بن جُبير، وغيرهما[3].

وجعله آخرون صباحًا ومساءً من الورد الذي يقرؤه المسلم؛ لأنه جامع، بل إن بعض المعاني فيه، كـ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٧- ٣٨٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الملك»: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٦٧)، والمصادر السابقة والآتية.

* ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾:

هنا بداية ما نزل بالمدينة من السورة، وفيه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، لمَن لم يؤمن بعد، ودعوة لتجديد الإيمان وتفقده لمَن آمن واتَّبع الرسول ﷺ، كما يعني ترجمة الإيمان إلى أفعال تصدقه بالإنفاق في سبيل الله، فالإنفاق هو البرهان عليه، وفي الحديث: «الصدقةُ برهانٌ»(١).

دعاهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ المبلِّغ عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ، والذي أوحي إليه القرآن(٢).

وعبَّر عن المال بقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ ﴾، وفي بعض المواضع يذكر الله تعالى المال وينسبه إلى الإنسان، كما في قوله: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات:١٩]، ومرة ينسبه لنفسه سبحانه، كما في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣].

والذي يظهر أنه إذا كان المقام مقام مدحٍ وثناءٍ على بذلهم، نسب المال إليهم فقال: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي: هم يعتقدون أن في أموالهم حقًّا للسائل والمَحْروم؛ إشادة بكرمهم.

وفي نسبة المال لهم ثناءٌ عليهم؛ لسعيهم في كسبه بالحلال، ولتخلُّصهم من الشُّحِّ في تملكه مع كونه لهم من حيث الملكية الشرعية.

أما إذا كان المقام مقام دعوةٍ إلى الإنفاق وحَفْزٍ وحَثٍّ، فإنه ينسب المال إلى الله، كما هنا؛ تذكيرًا لمَن يبخل، أو تحدِّثه نفسه بالبخل بأنه يبخل عن نفسه، ويبخل بما ليس له، وإنما حقيقته لله، وهو صائر عنه إلى غيره(٣)، ولذلك قال ﷺ: «يقولُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٢)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٢)، و«لباب التأويل» (٤/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١).

وقيل: إن الخطاب هنا للمشركين. ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٦٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٦٩).

ابنُ آدمَ: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابنَ آدمَ من مالكَ إلَّا ما أكلتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أو تَصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟»[1]. وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ على إنفاقهم.

* ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾:

فهذا رسول الله ﷺ حاضر بين أظهركم ويدعوكم للإيمان وأنتم ترونه وتسمعونه[2]، وحجج الله تجري على يديه، فما الذي يحول بينكم وبين الإيمان؟ ولا شك أن مَن عاصر الرسالة ورأى شخص الرسول ﷺ أَحْرَى بالتصديق والإيمان.

﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، والذي أخذ ميثاقكم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[3]، وهذا إشارة إلى قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهي إحالة إلى ما يعلمه الإنسان في نفسه من أن الفطرة تدل على الله تعالى، وأن الإنسان لو استسلم لفطرته ولم يعاندها فإنها تدله على الله وتهديه إليه بإذنه تعالى وفضله؛ فإن الآيات المبثوثة في الكون وفي النفس، وكذلك العقل وهو من الفطرة التي فطر الإنسان عليها ترشد إلى الله وتدل عليه، وكذلك النفس فإن فيها فقرًا وعطشًا وجوعًا واضطرارًا لا يسدُّه إلا الإيمان بالخالق؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، فلا تتحقَّق إنسانية الإنسان إلا بالإيمان بالله الخالق عَزَّوَجَلَّ، ثم إن الرسل والأنبياء جاؤوا بالوحي

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١١)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ١٦٤)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٩٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٨)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٧٠).

والإعجاز والدلائل الباهرات القاهرات على وجود الله وكمال أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته واستحقاقه للعبادة.

والعرب يتداولون قصة حي بن يقظان، ومغزاها: أن الإنسان لو عاش منذ طفولته بين بهائم وحيوانات أو في غابة، فإنه يهتدي إلى الإيمان بالله الخالق المبدع بفطرته، ولكنه لا يستطيع أن يهتدي إلى تفاصيل صفات الله[1]، ولذلك تاه الفلاسفة الذين دخلوا في أبواب الصفات والأسماء، وخبطوا خبط عشواء، وذهب جهدهم في غير طائل، وقال قائلهم[2]:

نهايةُ إقــدام العُقول عِقالُ ... وأكـثـرُ سعي العالمينَ ضلالُ

وأرواحُنا في وَحْشة من جسومنا ... وحـاصـلُ دُنيانا أذًى ووَبـال

ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾:

فهذا من رحمته سبحانه أنه لم يكل الناس إلى أنفسهم، وإنما أنزل على رسله الآيات البينات التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وسماه: ﴿عَبْدِهِۦ﴾، والعبودية تتكرَّر في سياقات الوحي: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، فهي اصطفاء وتكريم، وعلامة التواضع له سبحانه؛ ولذلك منع اللهُ رحمته وفضله الذين يستكبرون، والله يحب المتواضعين المتنزِّهين عن العُجب والغرور، «قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الكِبْرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قذفتُهُ في النار»[3].

---

(١) ينظر: «الموسوعة العربية العالمية» (٩/ ٥٩١- ٥٩٢).

(٢) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٥٩٠)، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (ص٤٦٨)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢٥٠)، و«تاريخ الإسلام» (٤٣/ ٢١٧)، و«البداية والنهاية» (١٧/ ١٣) منسوبًا إلى الفخر الرازي.

(٣) سيأتي تخريجه في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

والعبد هنا هو: الرسول ﷺ، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيِّد العابدين، وفي ذلك تشريف لمقام النبي ﷺ وثناءٌ عليه بالعبودية؛ فإن نسبته ﷺ إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، ولما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولا[(١)]، فمقام العبودية أشرف المقامات التي وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا ﷺ[(٢)].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: وهذه من أسمائه الحسنى، والفرق بينهما أن «الرؤوف»: صفة في دفع المضرة عن العباد، و«الرَّحيم» صفة في تحصيل المصلحة لهم[(٣)]، ولهذا قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، فالرَّأفة هي في منع الضرر، فلا يترك تعذيبهم وجلدهم رأفة بهم.

والرحمة تقتضي إيصال البر والخير والجود إليهم؛ ولذا فـ«الرَّحيم» أعم وأوسع، والله تعالى أعلم.

* ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾:

دعاهم إلى الإيمان، ثم دعاهم إلى الإنفاق، ثم عاتبهم عل التباطؤ في الاستجابة للإيمان مع توفر أدلته وقيام براهينه، ثم عاتبهم على التباطؤ في الإنفاق

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٠٨)، والمصادر السابقة، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الجن»: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، و«سورة العلق»: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٦٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٨٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٨٣).

في سبيل الله وهو لهم في عاقبته، فهو قرض حسن مضاعف، ولذا وصفه بأنه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وعقَّب بأن ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو لله، وليس لكم، فأنتم راحلون وتاركوا ما وراءكم لغيركم، وإنما مالكم ما قدَّمتم ومال وارثكم ما أخَّرتم، ولو فقهتم هذا لبادرتم بالإنفاق؛ لأنكم تنفقون لأنفسكم لا لغيركم.

وفي الآية التذكير بغنى الله عنكم إذ له ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ [محمد: ٣٨].

وفيها الإشعار بأنه سبحانه يخلف على المنفقين، كما قال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾: فيه دليل صريح على أن الآية مدنية؛ لأن المقصود: فتح مكة[1]، فهي متأخِّرة النزول إذن.

وقوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾ دليل على أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم وفي أعمالهم الصالحة، وهذا تأصيل مهم؛ فالله خلق الناس متفاوتين وفضَّل بعضهم على بعض، حتى الرسل فضَّل بعضهم على بعض، وليست العبرة بالأشياء التي لا يد للإنسان فيها، وإنما بالعمل والإنجاز والفعل، فهي دعوة إلى التنافس والتسابق في الخير، والمبادرة واغتنام الفرص التي تسنح ثم تذهب، ويكون الفضل لمغتنميها، ويبقى لغيرهم الأسف والندم والحسرة على الفوات.

و﴿ٱلۡفَتۡحِ﴾ المذكور هو: فتح مكة، عند جمهور المفسرين، ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وقيل: هو صلح الحُدَيْبِيَة، وهو فتح بحق، وقد سماه تعالى فتحًا، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح:١]، ونُقل هذا عن أبي سعيد الخُدْري، ورجَّحه الطبري

(١) على خلاف في ذلك، كما سيأتي.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠١).

وجماعة[1]، والأمر واسع.

والآية تفضيل في المقام والأجر لأولئك الذين أنفقوا من قبل فتح مكة وأيام شَظَف العيش والفقر والمَسْغَبة، وكانوا ينفقون من قوتهم وقوت أولادهم، وأنهم لا يستوون مع الذين تحرَّكت هممهم للإنفاق بعدما رَأَوْا بوادر الفتح والنصر، لا يستوي هؤلاء وأولئك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدَّم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا؛ لأنهم السابقون المبادرون، الأصلح نية، والأكثر عطاء، والأقدم إسلامًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾: لدفع التوهم أن يكون هؤلاء الذين أنفقوا من بعد لم يُقبل منهم، فالله تعالى وعدهم جميعًا بالحسنى.

وهذا تشجيع للمسلمين على المبادرة والمسارعة والمسابقة في الخير: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١]، المبادرة في البذل، والإنجاز، والتغيير الإيجابي، حتى حينما يكون الناس مستوحشين منه، هذا له مزية، والله تعالى أشاد بأصحابها.

والمبادرة هي السنة الحسنة التي تفتح ذرائع الخير، وتسهِّل أسبابه، وتذلِّل صعابه، وأكثر الناس أَتْباع لا قادة؛ ولذا يحتاجون إلى مَن يشق لهم الطريق، ويبدأ التجربة، فيكتشفون من بعده قدراتهم الشخصية، ويعرفون مواطن الخير والبذل.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾: فكأن هؤلاء جميعًا من المحسنين السابقين واللَّاحقين، وفي ذلك إشادة بالجيل الأول، أصحاب النبي ﷺ، سواء الذين أسلموا وجاهدوا وأنفقوا قبل الفتح أو بعده، المهاجرين منهم والأنصار، والذين أسلموا قبل فتح مكة، والذين أسلموا بعده.

وفي بعض كتب التاريخ وبعض ما يُطرح اليوم في الإعلام انتقاص وازدراء للذين أسلموا بعد فتح مكة ممن يسمُّوهم: «الطلقاء»؛ لأن النبيَّ ﷺ قال لهم:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٩٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠٣)، والمصادر السابقة.

«اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»(١)، فحين يقولون: فلان كان من الطُّلَقاء، في معرض اللَّمْز والطعن، والله تعالى وعدهم الحسنى؛ مما يدل على أنهم محسنون في الجملة، نعم يوجد آحاد فيهم ضعف ونقص، ولكن في الجملة كانوا مسلمين صادقي الإسلام، لم يكن فيهم منافق ولا مُدَّعٍ، وكانوا أهل صلابة في شخصياتهم، ولو أرادوا النفاق لعرفوا سبيله، بل فيهم مَن قاتل في صفِّ الباطل والشرك الممثَّل في كيان سياسي واجتماعي له جذور تاريخية، وحين تهاوى البناء انكشف لهم الأمر، وحانت فرصة أن ينتصروا على أنفسهم ويلحقوا بالرَّكْب ولو متأخرين.

* ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١﴾:

دعوة مؤكّدة إلى الإنفاق، والإقراض هو: أن تعطي إنسانًا مالًا ليرد إليك بدله بعد حين من غير زيادة(٢)، ولهذا قال هنا: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، فهو من غير ربا ولا زيادة؛ لأن القرض هنا إرفاق بهذا المحتاج، فالله سبحانه عبَّر عما يبذله المؤمن في سبيله بأنه: «قرض حسن»، كأنَّ المؤمن يقرضه ربَّه.

ومعنى كونه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: أنه لوجه الله، لا رياء ولا سُمعة، وباذله لا يتبع قرضه وإنفاقه منًّا ولا أذًى، ولا يطلب منه مصلحة أو زيادة أو غرضًا من أغراض الدنيا، وهو يبذله من طيب ماله، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ولذلك لما نزلت هذه الآية- كما ذكر ابن كثير، وغيره(٣)- قال أبو الدَّحْداح الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله، وإن اللهَ ليريدُ منا القرضَ؟ قال: «نعم، يا أبا

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢- ١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠- ٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٩٩)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧- ٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧- ٥٦٨)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٥٩).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٥٨٢)، و«النكت في القرآن الكريم» (ص٤٨٥)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٢٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨٢).

وينظر أيضًا: «الصحاح» (٣/ ١١٠٢)، و«لسان العرب» (٧/ ٢١٧) «ق ر ض».

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤- ١٥).

الدَّحْداح». قال: أَرِني يدكَ يا رسولَ الله. فناوله يدَه، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي. وله حائطٌ فيه سِتمائة نخلة، وأم الدَّحْداح فيه وعيالُها، فجاء أبو الدَّحْداح فناداها: يا أم الدَّحْداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي؛ فقد أقرضتُه ربي عَزَّوَجَلَّ[1].

وفي رواية أنها قالت له: رَبح بيعُك يا أبا الدَّحْداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسولَ الله ﷺ قال: «كم من عِذْقٍ رَداحٍ لأبي الدَّحْداحِ في الجنة»[2].

إن الارتباط بالحقل ليس مجرد حب مادي، بل هو اتصال عاطفي، فتحت كل شجرة ذكرى، وفي كل بقعة تاريخ؛ هذه الشجرة زُرعت يوم ميلاد فلان، وتلك يوم أَثْغَر، وهذا الجدول حُفر يوم زواج فلانة.. علاقة حميمية إنسانية تمثِّل جمال الحياة وروحها، يرضى المؤمن طائعًا مختارًا أن ينفصل عنها، كما رضي المؤمنون المهاجرون أن يخرجوا من ديارهم وبيوتهم في سبيل الله إلى أرض لم يعرفوها وبلاد لم يألفوها.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾: هذا الوعد الإلهي يبيِّن أن لفظ القرض استعير لتشجيع النفوس على البذل، وإلا فالمال كله لله، والله هو الغني، لا يحتاج لأحد، ولذا ذكر معنى آخر يشجِّع على البذل والإنفاق، وهو خلاف ما يجب في أمر القرض الدنيوي وهو مضاعفة القرض الذي دفعه، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ومع هذا ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فالأجر عطاء من الله وقد يكون هو المغفرة؛ كما قال سبحانه: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، فثَمَّ ترابط بين المغفرة والصدقة والإنفاق، ولذلك فالمبتلَى بذنب أو عيب عليه أن يكثر من الصدقة؛ فـ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (٤١٧ - تفسير)، و«مسند البزار» (٢٠٣٣)، و«مسند أبي يعلى» (٤٩٨٦)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٦٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/ ٣٠١) (٧٦٤)، و«شعب الإيمان» (٣١٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٨٢)، وعبد بن حميد (١٣٣٤)، وابن حبان (٧١٥٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٠٠) (٧٦٣)، والحاكم (٢/ ٢٠)، والضياء (٥/ ٥٩) (١٦٧٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بدون ذكر سبب النزول.

وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (٩٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٦٤).

ولأن القرض كرم من المُقْرِض وصف الأجر الموعود بأنه ﴿كَرِيمٌ﴾، ولكن الله أكرم منه، حيث ضاعف له ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

* ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

لما ذكر القرض والسَّداد والمضاعفة تشوَّفت النفوس لمعرفة وقت الوفاء والرد، فجاءت هذه الآية الكريمة، و﴿تَرَى﴾ هنا هي للنبي ﷺ ولكل أحد يصلح له الخطاب يوم القيامة، وفي ذلك تأكيد على أن المرأة كالرجل في الأعمال الصالحة، هي كالرجل في الإيمان الذي هو أصل العبوديات كلها، وفي الإنفاق، كما في قصة أم الدَّحْداح؛ حيث المرأة تحفِّز الرجل على البذل أو تصدُّه تحججًا بالحاجة والخوف من العَوَز والتذكير بالصبية وخطر الجوع والفقر.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾: هو يوم ونهار، ولكن الجو ظلام، والشمس يوم القيامة تدنو من الخلائق، حتى يلجمهم العرق إلجامًا(١)، فهذا وقت وهذا وقت، فيأتي عليهم وقت يكون الناس فيه في ظلام دامس، لا شيء حولهم ولا يرون شيئًا، هذا جزء من مشاهد ذلك اليوم، وهذا منصوص عن جماعة من السلف في معنى الآية(٢).

والآية تتحدَّث عن حالة خاصة يسير فيها الناس صَوْب شيء أمامهم، ولذا عبَّر بالسَّعي، وهو المشي الشديد(٣)، ويقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا! فهي مرحلة

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق، حتى تكونَ منهم كمقدار مِيلٍ، فيكونُ الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكونُ إلى كعبيه، ومنهم مَن يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُهُ العرقُ إلْجامًا». وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فِيهِ. وينظر ما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٧٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٣٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤١١)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٨٥) «س ع ا»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٢٢٢).

اجتياز لمكان مظلم، وإن كانت ضمن أحداث ذلك ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، الذي هو يوم القيامة.

فالله تعالى يعطي كل أحد نورًا، المؤمن والمنافق في بداية الأمر:

أما المؤمنون فـ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وقد يكون النور الذي بأيمانهم هو نور الكتاب، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩].

ويمكن أن يكون هذا باعتبار أن المؤمنين والمؤمنات قسمان؛ منهم مَن يسعى نوره بين يديه، وهم السابقون، ومنهم مَن يكون نوره يسعى بيمينه، وهم أصحاب اليمين.

ويمكن أن يكون للمؤمن نوران: نور بين يديه، ونور عن يمينه، فهم يمشون والنور يمشي معهم يضيء لهم الطريق.

وهذا المعنى ورد في «سورة التحريم» في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾، ويقال لهم وهم كذلك: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيُبشَّرون بالجنة[(١)].

وعبَّر بالسَّعي؛ دلالة على سرعة المشي هناك، كما كانوا سراعًا إلى الخير في الدنيا، وفيه إشادة خفية بالذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وكونه بين أيديهم، يعني أنه أمامهم، ولكنه قريب منهم غير بعيد.

* ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾:

المنافقون والمنافقات كان معهم نور ثم انطفأ في وسط الطريق، فالتفتوا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقولون لهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: انتظرونا، اصبروا قليلًا، ولا تسرعوا حتى نصحبكم ونقتبس من نوركم، ونتعرف به على الطريق.

وإما أن تكون القراءة: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ بهمزة الوصل، وإما أن تكون: ﴿أَنظِرُونَا﴾

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة التحريم».

بهمزة القطع، من الإنظار، وهذه قراءة سبعية[1]، والمعنى واحد: انتظرونا[2].

ولا يصح أن يكون المعنى: انظرونا بعيونكم، وإن كان الفعل هو نفسه، لكن إذا كان النظر بالعين فإنه يُعدَّى بحرف الجر «إلى» ولذا لا يصح أن تقول: «انظرني»، وإنما تقول «انظر إلي»، ﴿انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وأما ﴿انظُرُونَا﴾ فمعناه: انتظرونا توقَّفوا قليلًا[3]؛ ﴿نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ أي: نأخذ من نوركم قبسًا يضيء لنا[4].

﴿قِيلَ ٱرۡجِعُوا۟ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُوا۟ نُورًا﴾: يحتمل أن يكون قائل هذا: المؤمنين، والأرجح أنه من قول الملائكة، أي: ابحثوا عن نور هناك خلفكم[5].

وقوله: ﴿ٱرۡجِعُوا۟ وَرَآءَكُمۡ﴾ تعريض بحالهم في الدنيا، وأن النور كان معهم، فربما حمل أحدهم المصحف، وربما صلَّى أو زكَّى أو صام تظاهرًا من دون إيمان، وربما قاربت قلوبهم أن تضيء، ولكنهم أعرضوا عنها، فهذا يشبه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِی ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِی ظُلُمَٰتٍ لَّا یُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾: يرجع المنافقون والمنافقات إلى المكان الذي كانوا فيه يلتمسون النور، فإذا رجعوا ضُرِبَ بينهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٠)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٤)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٣٤).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٦٩)، و«حجة القراءات» (ص٦٩٩- ٧٠١).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٤)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٢).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٣٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٥)، و«فتح البيان» (١٣/ ٤٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٢).

بسُور، أي: جدار مما يعلم الله من الغيب[1]، بعضهم يقول: إنه سُور بيت المقدس، وجاء في ذلك روايات وأساطير لا تثبت عن كعب الأحبار امتلأت بها كتب التفسير أنه سُور بيت المقدس[2]، والباب: باب الرحمة، وعندهم وادٍ اسمه: وادي جهنم، ويظنون هذا الفاصل ما بين الرحمة وما بين العذاب..

وهذا كله مما ينبغي تنزيه كتاب الله عنه، فالشأن شأن الدار الآخرة، ولا علاقة له بما في بيت المقدس من هذه المسميات التي سماها الناس؛ اعتمادًا على حكايات إسرائيلية لا تثبت[3].

والضَّرب بالسُّور، يعني: وضعه، فأُقيم بينهم وبين المؤمنين سُور حاجز، وهو يدل على أن المنافقين أرادوا أن يلحقوا بالمؤمنين مرة ثانية ثم وجدوا السُّور مضروبًا أمامهم، ولم يقدروا على تجاوزه.

وهذا السُّور: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾، يعني: سُور فيه المؤمنون، وفيه الجنة، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ يعني: الوجه الثاني الذي إلى جهة المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: فيه العذاب، فالمؤمنون في العناية والرِّعاية، والمنافقون في الطرد والإبعاد: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦].

* ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾:

في خطابهم الأول للمؤمنين عبَّر بـ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾؛ لأنهم كانوا معًا بلا حاجز، أما الآن فقد فُصل بينهم بفصل سرمديٍّ ﴿بِسُورٍ﴾، وابتعد بعضهم عن بعض، ولذا استخدم لفظ النداء: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وهو استفهام تقرير، أي: كنا معكم في الدنيا، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم، ويعيشون معهم،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧)، و«تفسير السعدي» (ص٨٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٢ - ٤٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣١٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨).

ويصلُّون، ويجاهدون، فيأتيهم الرد من المؤمنين والمؤمنات: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، فربما وجد أحدُكم في قلبه ميلًا للإيمان أو رغبة في التوبة فلا يستجيب له، بل يكتمه ويمضي قُدُمًا لا يَلْوي على شيء، طمعًا في مال أو دنيا أو سلطان أو شيء من هذا القَبيل، وهذه فتنة للنفس.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: فكانوا يتربَّصون بالمؤمنين الدوائر[1]، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، فهم يتربَّصون بالمؤمنين أن يأتيهم عذابٌ أو يرجعوا عن دينهم أو ينتصر عليهم عدوُّهم أو يحصل بينهم شقاق وافتراق.. وكانوا ينتظرون غفلة أو ضعفًا أو تكالبًا من عدو، لينضمُّوا إليه ويُجْهِزُوا على المؤمنين، ولذا لم يستجيبوا للحق.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾: وقع في قلوبكم رَيْب لم تحاولوا معالجته[2]، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: التمنيات[3]؛ أنهم كانوا يتمنون أشياء في الدنيا ويواعدون أنفسهم بها ويتحرَّونها ويوهمون أنفسهم بها من عاجل الحياة الدنيا ومن سوء مصير المؤمنين، فهذه الأماني غرَّتهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ والمقصود هنا: الموت[4].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٣٦)، و«اللباب» (١٨/ ٤٧٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٨٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٣)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٦)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥٤٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣١٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٦).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٤٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٧).

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: و﴿ٱلْغَرُورُ﴾: اسم من أسماء الشيطان الرَّجيم[1]،

* ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾:

لقد كانوا يُسألون في الدنيا القرض الحسن - ولو بالقليل من المال - فيبخلون، ويموتون والأموال مكدَّسة عندهم لم يبذلوها ولم يُقْرِضوها، فهل كانوا يدَّخرونها لتكون فِدْية تنجيهم من عذاب الله يوم القيامة؟

ففي ذلك الموقف مهما بذل الإنسان وأعطى، فإنه لن يُقبل، على أنه لا يوجد عنده شيء يمكن أن يفتدي به: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٦] ولكن ليس لهم شيء يوم القيامة حتى يفتدوا به، وإذن لا يُقبل منكم أيها ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، و﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مصيركم النار، فهي أولى بكم وأجدر[2]؛ بحكم ما كنتم عليه من النفاق والتلون والخداع والتضليل وسوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

هذه الآية قيل: إنها مكية؛ حيث ورد أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية، إلَّا أربعُ سنينَ»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٢٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٧).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص٢٢٥)، و«لسان العرب» (٥/ ١٢)، و«تاج العروس» (١٣/ ٢١٥) (غ ر ر).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٢٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

وجاء عن جمع من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- منهم ابن عباس- أنهم قالوا: إنهم خُوطبوا بالآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من إيمانهم(١).

وفي ذلك آثار عديدة؛ فالأقرب أن الآية مدنية، والله أعلم، والسياق مدني.

وأما قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية إلَّا أربعُ سنينَ». فلعل هذا محمول على ملأ من الصحابة ممن تأخَّر إسلامهم، وليس على خصوص ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي القصة معنى لطيف، وهو أن الإنسان يكون خشوع قلبه وحضوره في أول إيمانه أكثر؛ لأنه حديث عهد بالجاهلية والمعاصي، فإذا سمع القرآن أو صلَّى أو دعا أو سمع موعظة، أجهش وتأثَّر؛ لطراوة إيمانه وحماسه وحضور قلبه، فإذا مضى عليه وقت هدأت نفسه، وتحوَّلت بعض العبادات إلى شيء من المألوف، وعافس الأزواج والأولاد والضَّيْعات والأموال، ونسي ولابسته غفلة.

ولذلك رُوي أنه لمَّا قدم أهلُ اليمن في زمن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هكذا كنا، ثم قستِ القلوب»(٢).

يعني إنه في فترة مضت كان أكثر رقة، وهذا نوع من عتاب النفس(٣).

فلذلك خاطبهم سبحانه وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، وهو مأخوذ من «الإنى» بالألف المقصورة، وهو الوقت(٤)، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٠٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٣٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٥٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٨٠).

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٥٢٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٣-٣٤).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٥٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٨)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٠).

﴿نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي: غير منتظرين وقت نضجه[١]، أي: ألم يحن؟ وهذا استفهام المقصود منه التقرير والاستدعاء والطلب[٢]، أي: قد آن لكم أن تخشع قلوبكم بعد أن آمنتم وأن يتحوَّل الإيمان إلى حركة في الرُّوح ويقظة في الضمير[٣].

فالخشوع هو: الإخبات والانكسار له سبحانه، وأن يكون في القلب يقظة للآيات والذِّكر، وقد دعاهم إلى الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق، والذِّكر في الأصل شامل للقرآن وغيره، أما وقد عطف عليه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ - وهو القرآن- فيكون المقصود بالذِّكر: التسبيح، وعموم الذكر والدعاء ونحوه[٤].

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾: وهم اليهود والنصارى[٥]، فهم أُوتوا الكتابَ، وحصل لأولهم إيمان وخشوع، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: طال عليهم الزمن[٦]، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يحذِّر المؤمنين أن يكون مصيرهم كمصيرهم، فيطول عليهم الزمن، وتقسو قلوبهم، كما قال لليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ

---

(١) ينظر: «إيجاز البيان» (٢/ ٦٧٥)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٢٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٢٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ١٥٧)، و«التفسير المظهري» (٧/ ٣٧١).

(٢) ينظر: «العين» (٨/ ٤٠٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٩٠)، و«مقاييس اللغة» (١/ ١٤٣) «أ ن ى».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٢٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٢٠-٧٣٢١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٠).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩١)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥٤٧).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٠).

(٦) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٧).

لِلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢].

وهنا سؤال: هل طول الأَمَد يسبِّب قوة الإيمان ورسوخه، أم يسبِّب ضعفه وقسوة قلب العبد؟

على الصعيد الفردي يعتمد الأمر على المجاهدة والعمل، فالزمن عنصر محايد يمكن توظيفه في ترسيخ الإيمان وحشد دلائله، وفي العبادة والخير وطلب العلم وصحبة الصالحين، فيكون طول العمر سببًا للقرب من الله.

ويحدث غالبًا أن يقع المَلَل والتثاقل والميل للشهوات وترك الجِد والحزم، فيكون الزمن سببًا للغفلة وضعف الإيمان.

والآية تشير إلى سُنَّة إلهية غالبة، في أن الأمم والدول تبدأ قوية، وفيها اندفاع واهتمام، ثم يدخلها الضعف والترهُّل والرُّكون إلى الدنيا والفساد والأَثَرة، ثم تحق عليهم السنة ويعم الضعف: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [مريم: ٥٩].

وفي هذا الخطاب الربَّاني اللَّطيف دعوة إلى الوعي واليقظة؛ لأن الزمن ليس في صالحك دائمًا، فإذا لم توظِّف الزمن توظيفًا إيجابيًّا، فستكون سريع الانهيار، وهكذا الدول والقوى المختلفة.

ولذلك كان أفضل هذه الأمة: الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وهذا شاهد على السُّنَّة الإلهية على أن الأمة لا تخلو من خير حتى في آخرها، ولكن الكلام عن المجموع(١).

وبعض الناس يغلبهم التشاؤم فلا يرى الناس إلا في هلاك وفساد، وأن العصر عصر انحلال، وبعضهم- مع هذا- يتخيل أن دولة الخلافة الراشدة على الأبواب.

---

(١) وفي الحديث: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...». أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفي حديث آخر: «مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أم آخرُهُ»، وقد تقدم تخريجه، وينظر للتوفيق بينهما ما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، و«سورة الجمعة»: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾.

وهذا توقع مجافٍ للسياق التاريخي، وليس له ما يسنده من سُنَّة ولا من واقع، والمطلوب الاعتدال والتوازن، فلا يأس ولا قنوط ولا تشاؤم، ولا تواكل ولا غفلة ولا مبالغة.

* ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هذا مَثَل ضربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الخشوع والإيمان(١)، فيا مَن تشعرون بقسوة في قلوبكم لا تيأسوا، و﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فكما أن الأرض الميتة تحيا بالمطر فتصبح خاشعة: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]، كذلك أنتم أيها المؤمنون إن شعرتم بقسوة في قلوبكم فتذكَّروا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فيحيي قلوبكم بالإيمان كما أحيا الأرض بالمطر؛ ولهذا شبَّه النبيُّ ﷺ الوحي بالمطر، فقال: **«مَثَلُ ما بعثني اللهُ به من الهُدَى والعلم، كمَثَل الغَيْث الكثير أصابَ أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلت الماءَ، فأنبتت الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أَجَادِبُ، أمسكت الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصابتْ منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعَانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مثلُ مَن فَقُهَ في دين الله، ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثلُ مَن لم يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولم يَقْبَلْ هُدى الله الذي أُرْسِلْت به»**(٢).

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: فالقرآن الكريم يبعث على الخشوع، فهو ﴿مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو أهم سبب للإيمان ويقظة القلب؛ لأنه آيات الله البينات، وحججه الواضحة، وحديثه وكلامه إلى خلقه ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]!

واختار كلمة: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ قصدًا؛ فالخشوع ليس نقيضًا للعقل، وليس هو حالة خاصة البسطاء السُّذَّج الذين ليس لديهم عقل يفكِّرون به، أو ليس لديهم قدرات

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذهنية على التحصيل، فالإيمان دعوة إلى عقول نيِّرة تعقل وتتفكَّر، والعقل هو من أعظم الأدلة والشواهد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، على وجوده وعلى أسمائه وصفاته، ومن غير عقل لا يوجد تكليف أصلًا، والخشوع ليس نقيضًا لوجود العقل الرشيد الذي يهتدي به المؤمن في مصالح دنياه وأسرته ووظيفته ودراسته وأمته ومشاريعها في النهضة والتنمية والتقدُّم، فهما قرينان لا ينفصلان، وإذا انفصلا وقع في الأمة انحراف؛ إما إلى الغلو أو التفريط، فيكون السلوك التعبُّدي منفصلًا عن العقل، ومنفصلًا عن الفقه والشريعة، أو يتجَّه العقل المجرَّد المغرور للاتجاهات المادية.

إن الضعف حالة إنسانية أصيلة، وأعتى الناس وأطغاهم وأقساهم إذا مرض أو هَرِم أو يئِس أو تعرَّض لأزمة ما.. انكشفت بشريته المخبوءة تحت ستار الوهم والتعاظم والكبرياء الكاذب!

* ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

في قراءة سبعية: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَدِّقِينَ وَٱلْمُصَدِّقَـٰتِ﴾، بتخفيف الصاد(١)، من الصدق، فعلى هذه القراءة تكون الآية ثناءً على المؤمنين والمؤمنات.

وفي القراءة الأخرى بالتشديد، يعني المتصدِّقين، وأدغمت التاء في الصاد(٢).

فيكون الله تعالى أثنى على النساء والرجال بالإيمان والصدقة، كما قال سبحانه: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد:١٥- ١٨]، وقال هنا: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

وأثنى على النساء في الصدقة كما أثنى على الرجال، وفيه إشارة صريحة إلى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤١١- ٤١٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٤).

(٢) ينظر: «معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٥٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٧٤- ٢٧٥)، و«حجة القراءات» (ص٧٠١).

حق المرأة في التملك؛ لأنها إنما تتصدَّق من مالها، وفي العالم الغربي قبل مائة وخمسين سنة لم تكن المرأة قادرة على التملُّك، في حين جاءت آيات تحثها على الصدقة، وهي لن تتصدَّق إلا من مال لا يتسلط عليه أبوها، كما يفعل بعض الآباء الجشعين الذين لا يخافون الله، فيتسلَّطون على رواتب بناتهم، وربما يحرمها من الزواج من أجل مالها، أو يسخط عليها إذا لم تعطه، ويحرجها من باب الأُبوة، وقد يعيِّرها أو يسبها، ولا يتسلط عليها الأزواج الذين يبحثون عن امرأة ذات غنى ومال، مع أن النبيَّ ﷺ قال: «فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يداكَ»(١).

* ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾:

أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على المؤمنين بالله والرسل بأنهم ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، و﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هم: السابقون، أو من السابقين، وقد ذكر سبحانه في القرآن ألوانًا من الصِّدِّيقين، كما ذكر عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، وكما قال عن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥]، ومن هذه الأمة أفضلها بعد نبيها: أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو وُزن إيمانه بالأمة لوزنها ورجح بها(٢)، فالصِّدِّيقية ليست شيئًا مستحيلًا، وهي أعلى درجات الإحسان، وهي الرتبة الرفيعة النادرة التي يصطفي لها الخلاصة والخاصة من عباده السابقين، وحين جعل الله درجات الإيمان والإحسان والإسلام كان ذلك لتحفيز الناس إلى أن يترقوا في درجات الإيمان والإحسان، ويتنافسوا فيها، ويتسابقوا إليها، كما يتسابق أهل الدنيا إلى مقاماتها ومنازلها.

والصِّدِّيقية تعني سرعة التصديق، ولذلك سُمِّي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصِّدِّيق؛ لأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ورد ذلك من قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (٦٥٣)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (٨٢١)، و«السنة» للخلال (١١٣٤)، و«الإبانة الكبرى» (١١٦١)، و«شعب الإيمان» (٣٥)، و«تاريخ دمشق» (٣٠/ ١٢٦- ١٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٥)، و«الفوائد المجموعة» (ص٣٣٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٣٤٣).

أول مَن صدَّق وأسرع مَن صدَّق، ولم يُقل له عن الرسول ﷺ في شيء إلا قال: «صدق صدق»[1].

لكن حذار أن يفهم أحدٌ أن معنى التصديق أن يكون عقل الإنسان قابلًا لأن يصدِّق كل خبر دون نظر وتفكُّر، مستَقَرًّا للخرافات والأساطير، وإنما يُصدِّق بما هو مُتعبَّد بالتصديق به من قول الله سبحانه وقول رسوله ﷺ الثابت بالإسناد الصحيح، ويصدِّق الحقائق العلمية النافعة في الدنيا أو في الآخرة، أما ما وراء ذلك فينبغي أن يكون تصديقه عن تعقل وتثبت وحسن نظر.

ومن معاني الصِّدِّيقية: أن يكون صادقًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩]، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، والصدق هنا خُلق عظيم، يشمل الصدق بالكلام فلا يكذب مهما كلَّفه الأمر، إلا فيما جاءت الرخصة فيه مما رُوعيت فيه المصلحة الغالبة، دون توسع في التأويل، أو وقوع في التدليس[2].

كما يشمل الصدق في الأفعال والإيمان، فلا يكون متلوِّنًا يدور حيث تدور به مصلحته، ولا يدعو إلى شيء ويكون أول مَن يسارع إلى مخالفته.

ومن أعظم ألوان الصدق: الصدق في القلب، صفاء القلب، صفاء النية، حسن المقصد، إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أن يسلم الإنسان في داخله من الغل والحقد والحسد على الناس، بل يفرح لهم، وأن يجاهد نفسه في دفع الغل والحسد

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة النجم»: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

(٢) كما جاء في «صحيح البخاري» (٢٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس الكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بين الناس، ويقولُ خيرًا ويَنْمي خيرًا».

قال ابن شِهاب- الرواي عن حُميد بن عبد الرحمن، عن أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «ولم أسمعْ يُرَخَّصُ في شيءٍ مما يقولُ الناسُ كَذِبٌ إلَّا في ثلاثٍ: الحربُ، والإصلاحُ بين الناس، وحديثُ الرجل امرأتَهُ، وحديثُ المرأة زوجَها».

ورُويت الزيادة في آخره مدرجة في الحديث. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٠٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٤٥).

والغيرة، فإن «الحِلم بالتحلُّم، والعلم بالتعلُّم»[١]، والصبر بالتصبُّر، ومن أسباب تحقيق ذلك أن يدعو للناس بخير في سجوده ولا يستثني أحدًا، فيدعو لنفسه ووالديه وزوجه وذريته والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، والمؤمن في كل حالاته يتمثَّل قوله ﷺ: «**عليكم بالصِّدق؛ فإن الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يَهدي إلى الجنة، وما يزالُ الرجلُ يصدُقُ ويتَحَرَّى الصِّدقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صدِّيقًا**»[٢].

ثم وصفهم بأنهم: شهداء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذه الأمة هي بالجملة أمة الشُّهداء على الناس، وهم شهداء على أنفسهم قبل ذلك، بالعدل والإنصاف والتحرِّي والنزاهة، فمؤمنو هذه الأمة مثل شهداء الأمم السابقة، وهم بمنزلة الشُّهداء عند الله، ولو ماتوا على فرشهم، ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، فلهم أجر الصِّدِّيقية، ولهم النور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم[٣].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استئنافًا لكلام جديد، فتكون الواو للاستئناف، أي: أن الشهداء الذين بذلوا أرواحهم وقُتلوا في سبيل الله لهم أجر عظيم[٤].

وقد ورد: «**للشَّهيد ستُّ خصال: يُغفرُ له في أول دَفْعة، ويَرَى مقعدَه من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعينَ زوجةً من الحُور العين،**

---

(١) كما قال أبو الدَّرْداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١١٤)، وهناد في «الزهد» (١٢٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الحلم» (٤٧)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٢١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٥٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٦١٧، ٩٠٣).

ورُوي مرفوعًا، والموقوف أصح. ينظر: علل الدارقطني (٦/ ٢١٨ - ٢٢٠)، و«العلل المتناهية» (١/ ٧٦)، (٢/ ٢٢٢- ٢٢٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤١٢- ٤١٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٦- ١٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٧- ٣٩٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢)، والمصادر السابقة.

ويشفع في سبعينَ من أقاربه»(١).

وفي الحديث: «إن في الجنة مائةَ درجة، أعَدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾: عادة القرآن في المقابلة بين هؤلاء وهؤلاء؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء.

* ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾:

إذا وجدت الآية تُستفتح بهذا الأمر: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾، فثمة أمر جَلَلٌ مهمٌّ، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وهي دعوة إلى التيقظ والمعرفة القلبية التي تتجاوز الكلام اللساني، والنظر العقلي، والقناعة الجافة، إلى ملامسة القلب والوجدان وصبغ الشخصية الإنسانية بصبغة الربانية الصادقة.

والحديث عن الدنيا ليس على سبيل الذم المطلق للحياة الدنيا، ولكنه وصف يهيِّئ المسلم إلى أن يقف موقف الاعتدال والاتزان، فيأخذ منها نصيبًا لا يشغله عن طلب الآخرة، ووصفها بأنها ﴿لَعِبٞ﴾، واللَّعب ليس كله حرامًا ولا كله مذمومًا، والنبيُّ ﷺ كان يلاعب أهله، ويلاعب الصبيان ويمازحهم(٣)، وإنما المذموم ما تعدَّى إلى أن ينقلب أذى للآخرين أو عدوانًا على الممتلكات، أو انشغالًا عن الفرائض.

واللَّهو يكون عادة للمراهقين والشباب، وكذلك النساء فيهن ميل للهو.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨٢)، والترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩) من حديث المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (١٨٨٤) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بنحوه، وينظر ما سيأتي في «سورة الغاشية»: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ ﴾.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن كان النبيُّ ﷺ ليخالطُنا، حتى يقولَ لأخٍ لي صغير: «يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير».

وليس كل اللَّهو مذمومًا، و«الأنصارُ يعجبهم اللَّهو»[1]، ويُثْنَى عليه في الأفراح والأعياد والمناسبات المشروعة، والمذموم منه ما تعدَّى الحدود، أو خالف الأمر، أو كان سببًا في تفويت فريضة، أو أشغل عن ذكر الله.

والزِّينة مطلوبة، والله تعالى خلق النجوم زِينة، والمال زِينة، والخضرة زِينة، وما على الأرض زِينة، والحيوانات زِينة، فهذا من بديع حكمته وصنعه، والمذموم منها ما بلغ حد السَّرَف والتَّرَف، مثل أن يتزيَّن الإنسان بالذهب أو بالحرير، أو تتزيَّن المرأة بما لا يجوز، أو يكون المقصود به الفتنة والإثارة والإغراء، كما قال ﷺ: «صِنفانِ من أهل النار لم أرهما». وذكر منهما: «ونساءٌ كاسياتٌ عاريَاتٌ مُمِيلَاتٌ مائلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائلة، لا يدخلنَ الجنةَ، ولا يجدنَ ريحها، وإن ريحَها لَيُوجدُ من مسيرة كذا وكذا»[2]. فهذه زينة مبذولة لغير الزوج، بل للفتنة والإثارة والإغراء، ومعظم ما وردت فيه النصوص من النهي عن ألوان من الزِّينة، فإنما النهي عنها لأنها تفضي إلى ما لا يحل، أو كانت ذريعة موصلة للمنكر والمفسدة، أو كانت غشًّا وخداعًا وتلبيسًا.

ثم ذكر التفاخر، وهو غالبًا للكهول ومَن هم أكبر منهم[3]، فهم عادةً يتفاخرون بما هو لهم مجد زاهر، ومال وافر، وولد حاضر.

والتكاثُر في الأموال والأولاد في الغالب للكهول ومَن فوقهم في العمر، كما قال النبيُّ ﷺ: «لا يزالُ قلبُ الكبير شابًّا في اثنتين: في حُبِّ الدنيا، وطول الأمل»[4]. فهذا الشيخ الهَرِم يحب التكاثر في الأموال والأولاد، كما قال سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]، و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هنا يشمل معنيين:

الأول: منافسة الآخرين.

والثاني: الحرص على الكثرة[5].

(١) كما جاء في «صحيح البخاري» (٥١٦٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٣)، وما سيأتي في «سورة التكاثر».

والمذموم منه هو المبالغة، وأن يكون مصدره حرامًا، أو أن يتحول إلى مفاخرة ومباهاة، أو حجب الحق عن المستحقين.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾: مثَّل تعالى الدنيا بالمطر الذي يعجب نباته الزُّرَّاع، والزَّارع يسمى: كافرًا، والقرية تسمى: كَفْرًا، وتشتهر هذه التسمية في مصر، وفي اختيار لفظ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ تعريض بالكفار الذين كفروا بالله ورسله وغرَّتهم الحياة الدنيا، وغرَّهم بالله الغَرور(١).

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: فهذا هياج يمثِّل مرحلة الشباب والكُهولة؛ لأن الزرع هنا قد اكتمل ونضج، ثم سَرْعان ما يصفر ويبدأ في الذُّبول(٢)، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾: وهو تعبير عن النهاية والموت، فانظر إلى تناسب مراحل الحياة الدنيا مع مراحل الزرع في هذا المثل القرآني العظيم.

﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾: فالحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: أنها تغر صاحبها(٣).

* ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾:

ليس المقصود بالعَرْض هنا العَرْض المقابل للطول، وإنما المقصود بعرضها: سعتها(٤)؛ إذ لا معنى من تخصيص العرض دون الطول، فالمقصود سعتها وهذا

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤-٢٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢١١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٨).

معروف عند العرب، كما قال قائلهم(١):

ودونَ يدِ الحجَّاجِ من أن تَنالَني بَساطٌ لأَيْدي الناعجات عَريضُ

وفي قوله: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تشبيه يقصد به أنها شديدة السعة، ولذلك لا يقال كما يقول بعضهم إذا كانت الجنة عرضها السماء والأرض، فأين النار؟ ولا يقول هذا إلا جاهل يظن أن الكون ليس فيه إلا ما يعرفه من السماوات والأرض.

﴿أُعِدَّتْ﴾: فيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن، كما قال الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»(٢). فالجنة موجودة، والأدلة على ذلك عديدة، منها هذه الآية(٣).

* ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾:

ما مناسبة الكلام عن المصيبة في السياق؟

قال بعضهم: لما جرى الحديث عن الجهاد والشهادة ناسب أن يذكر المصيبة(٤).

والأقرب أنه لما ذكر الحياة الدنيا وما فيها والأموال والأولاد، عُرف أن الحياة الدنيا مبناها على الخطر، وحال الإنسان فيها الشقاء والمكابدة، وأنها لا تسلم من العوارض، فلا أحد بمنجاة من مرض أو نكسة في ماله أو نفسه أو أهله أو ولده،

---

(١) ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ٣٠٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٠١)، و«شرح ديوان الحماسة» (١/ ٣٠٣)، و«لسان العرب» (٧/ ٢٥٩) منسوبًا إلى العُديل بن الفَرْخ العجلي.

(٢) ينظر: «شرح الطحاوية» (ص ٤٢٠)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)﴾، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣)﴾.

(٣) ينظر: «الفقه الأكبر» (ص٦٣)، و«أصول السنة» لأحمد بن حنبل (ص٥٩)، و«الاقتصاد في الاعتقاد» للمقدسي (ص١٧٦)، و«معالم أصول الدين» (ص١٢٧)، و«شرح الطحاوية» (ص٤٢٠)، و«أعلام السنة المنشورة» (ص٧٠-٧١)، و«شرح العقيدة الواسطية» للهراس (ص٢٩٧-٢٩٨).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٤٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٩).

وما من أحد قط إلا وحاول شيئًا في الدنيا ثم لم يحصل عليه أو حُرم من أمر كان يتمنَّاه أيًّا كان ذلك الشيء، فالحياة لا تخلو من مصائب؛ ولهذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وقد تكون المصيبة في النفس مرضًا أو همًّا أو غمًّا أو كآبة، وبعض الناس قد يسلم من الإعاقة والعجز البدني؛ ولكن في داخله من الاكتئاب والأحزان والقلق ما يعيقه عن تحقيق سعادته وراحته واستقرار نفسه واطمئنان قلبه.

على أن تخفيف ذلك أو إزالته ممكن بالقرآن واتِّباع هَدْي الرسول ﷺ، وأن يخالط الناس السُّعداء الذين يعيشون التفاؤل، فإن هذا يُعدي.

وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: إشارة إلى نوع آخر من المصائب، وهي المصائب العامة، مثل الطوفان، والزلازل، والبراكين، وحالات الفقر والجوع، والأمراض المعدية التي تنتشر بين الناس.. ونحوها من المصائب العامة التي تقع للأمم، فهذه كلها مكتوبة عند الله، وقد علمها وقدَّرها، وهذا من معاني الكتاب، فعلمه كتاب سبحانه، والقدر مدوَّن في اللَّوح المحفوظ، وهو كتاب عند الله لا يضل ولا يتغيَّر.

ومن معاني الكتاب: إذن الله بوقوعها، ولهذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(1) [التغابن: ١١].

ونصَّ على المصيبة، مع أن الحوادث كلها- خيرها وشرها، كبيرها وصغيرها- لا تقع إلا بقَدَر، لكنه خصَّ المصيبة؛ ليؤكِّد أن الاحتجاج بالقدر في المصائب لا في المعايب(2)، والاحتجاج بالقدر هنا يعطيك قوة ويمنحك إيمانًا، فبدلًا من أن تذهب نفسك حسرات في أمر لا يد لك فيه تركن إلى تقدير الله: «قَدَرُ الله، وما شاءَ فعل»(3)، فيكون الأمر بَرْدًا وسلامًا على قلبك، ويذهب ما تجد من الإحساس

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٠٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٠).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾.

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِوَلِللَّهُعَنهُ: «وإن أصابَكَ شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله، وما شاء فعلَ». وتُروى: «قَدَّر اللهُ».

بالألم أو الفقد أو الخسارة أو ضياع الأحلام، وتتهيَّأ الروح للبدء من جديد.

وثَمَّ فرقٌ ما بين المصيبة الفردية، والمصيبة الجماعية: فالمصائب العامة هي بما كسبت أيدي الناس: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ولا يتعيَّن أن تكون مسؤولية فرد، وينزل البلاء عليهم جميعًا؛ لأنه لا يمكن إلا هذا، ثم يُبعثون على نياتهم.

ولا يحسن حينئذ أن نقول عن كارثة ما إنها مسؤولية قبيلة بعينها، أو أسرة بعينها، أو بلد بعينه؛ بحيث إذا نزل البلاء في بلد نتَّهم ذلك البلد تهمة عامة.

هذا ليس بسائغ شرعًا ولا عقلًا، فإذا وقع في بلد أمطار وأصيب الفقراء والمساكين والضعفاء، لم يحسن أن نقول: أنتم يا أهل البلد أهل معاصٍ وفجور.. فهذا توبيخ وتحكُّم، والمصيبة لا يلزم أن تكون عقوبة للأشخاص الذين نزلت بهم خاصة، وإنما هي عقاب عام، ودعوة إلى الاعتبار والتصحيح.

وكون المصيبة بسبب ذنب لا يمنع أن يكون ثمة آيات تُرسل للناس على سبيل الرحمة، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم تَعُدُّونَ الآيات عذابًا، وإنَّا كنا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ بَرَكَةً»(١).

ونظر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى معنى الاعتبار، فالله تعالى قد يعاقب أُناسًا ويترك مَن هم أشد منهم، حتى يذرهم في طغيانهم يعمهون: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢،١٨٣]، وقد تكون المصيبة تخويفًا وتنبيهًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، فتكون خيرًا من جهة أنها لو تأخرت لكانت أهول وأطول وأعظم، ومن علم أن التدبير بيد الحكيم الخبير رضي وآمن وسلَّم، وأدار البحث الرشيد في معرفة مصدر البلاء، وكيف يمكن للمكلَّف تداركه أو تلافيه.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: الضمير هنا يعود على المصيبة، أو يعود على النفس، أو

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٧٩)، و«جامع الترمذي» (٣٦٣٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٠٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢٨٥٤)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص٢٧٢).

يعود على الأرض، وكلها مما سبق في الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: ضبط ذلك وحفظه[1].

* ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾:

من مصالح حُرمتم منها، لا تحزنوا عليها؛ لأن فواتها قدر مكتوب، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، فرحًا طاغيًا يخرجكم عن التوازن والاعتدال إلى الأَشَر والبَطَر والطغيان الذي يكون سببًا في زوال النعمة وحلول النقمة.

وهل يلومنا الله تعالى إذا حَزِنَّا؟ كلا؛ فقد قال ﷺ: «تدمعُ العينُ، ويَحزَنُ القلبُ، ولا نقولُ إلَّا ما يَرْضَي ربُّنا»[2]. بل المقصود بالأَسَى هنا: الحزن المفرط الذي يُقعد الإنسان عن العمل، أو يحمله على التسخُّط على القضاء والقدر، والكلام بما لا يجوز من هجر القول وفحشه والكفر بالله، فالقرآن يدعونا ألَّا نستسلم للحزن واليأس.

وثمة آداب وأخلاق من شأنها أن تربِّي المسلم على مدافعة الحزن، وفي المجتمعات ثقافة عامة تقوم على تكريس الحزن وتعظيم مناسباته، كما يقيم الرافضة مناحات لذكرى وفيات مرَّت عليها مئات السنين، وبطريقة تُجَدِّد الحزن وتعذِّب النفس والجسد، وإنما يُثنَى على المرء إذا كان يقاوم الحزن ويسارع إلى تناسيه ومعالجته بالإقبال إلى تجديد حياته والتخطيط لمستقبله، اعتبارًا بما وقع له وتحرزًا من أسبابه؛ ولذا مدح عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرومَ، وأثنى عليهم بأنهم: «أسرعُ الناس إفاقةً بعد مصيبة»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٥)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٨٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

هذا أمر حسن أن يقاوم الإنسان الحزن ويتحرَّر من أغلاله، ولا يجعل نفسه مأسورة له، أن يحاول تجاوز الأزمة العارضة.

ولعل مقصود عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المصيبة العامة، كالهزيمة العسكرية أو النكبة أو الحرب الأهلية، وهذا مشاهد مقروء في التاريخ الأوربي الحديث والقديم، وكذلك الأزمة الخاصة من مرض أو فقد قريب على المؤمن أن يتذكَّر أن الأولاد عارية، كما قال لَبيد:

وما المالُ والأَهلونَ إلَّا وَديعَةٌ ... ولا بُدَّ يومًا أن تُـرَدَّ الوَدائعُ[1]

فما أعطاك الله تعالى في هذه الدنيا فهو عارية مسترجعة، وهي راحلة عنك أو أنت راحل عنها.

﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾: وهذا ليس نهيًا عن الفرح؛ فالفرح مباح في الأصل، وقد يكون مستحبًّا: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، والله تعالى قال: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، ومن الحياة الطيبة السرور والرضا وقرة العين، لكن المنهي عنه فرح البَطَر والأَشَر، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، فالمذموم الفرح الذي يؤدِّي إلى أذى الناس، والعدوان، والطغيان، والبَطَر، وتجاوز الحدود، والنسيان وكفر النعمة ونسيان الشكر، كما حدث لقارون، إذ قال له قومه: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، أما ما دون ذلك من الفرح فهو مأذون فيه، وهو من طبيعة الجِبِلَّة، والله قد أثنى على المؤمنين بالإنفاق وبالصدقة؛ مما يدل على أنهم ضربوا في هذه الأرض وكسبوا واتَّجروا وحصَّلوا مصالح، وبقدر مكانة الإنسان يكون تأثيره، فإذا كان له وظيفة كبيرة أو صوت مسموع أو مال أو جاه، كان أكثر تأثيرًا وأقدر على إيصال النفع والخير للخلق، وهذا مما يُفرح به أن يُدخل السرور على الناس، أو يساعدهم في حل مشكلة، أو يكون مستشارًا لهم في خير، أو يدفع عنهم ضرًّا أو يدعو لهم.

(١) ينظر: «ديوان لَبيد بن رَبيعة» (ص٨٩).

* ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤﴾:

لما ذكر تعالى الدنيا ودعا إلى الإنفاق وجعل في الدنيا ميزانًا معتدلًا لا يزيد ولا ينقص، ختم بذم ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾؛ لأن المصيبة قد تكون في المال، فهؤلاء يبخلون بأموالهم، فلا ينفقونها في سبيل الله، ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾، ويريدون أن يكون الناس مثلهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ والله ليس بحاجة إلى أحد، وإنما المقصود ابتلاؤهم، و﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ تشمل معنيين[1]:

الأول: المحمود، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المحمود على إفضاله وإنعامه وعطاياه.

الثاني: الحامد، فإن الله تعالى يحمد عباده على الخير والبر والإيمان، وعلى ما قدَّموا من خير، فهو حامد ومحمود[2].

* ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾:

أما البينات فهي: الحجج الظاهرة[3]، ومنها: القرآن، وورثة الرسل والأنبياء هم العلماء يوضِّحون هذه البيِّنات، ويُقِيمُون الحُجج على العباد، مما يدل على أن أصل المهمة الرسالية هو البيان وإقامة الحجة، ودعوة الناس إلى الخير.

ولم يقل: «بعثنا رسلَنا بالسيف»، وإن كان ثمة حديث مروي عن النبي ﷺ: **«بُعثتُ بين يَدَي الساعة بالسَّيْف، حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وجُعل رزقي**

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٢٥)، و«مع الله» (ص٢٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٦١٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٢٣٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧)، والمصادر السابقة.

تحت ظِلِّ رُمحي...»[1].

وفي بعض ألفاظه نكارة، وفي سنده ضعف واضطراب[2]، وهو بظاهره يتعارض مع العديد من نصوص القرآن والسنة، ومنها هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن كان من العلماء مَن حسَّنه[3].

فقوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قضية قطعية حاسمة، ومهمة الرسل هي البيان.

﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾: أنزل ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لإقامة الحجة، ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ لإقامة العدل[4]، وبالعدل قامت السماوات والأرض، ومما اشتهر: مقولة ابن تيمية في شأن العدل: «يُروى: اللهُ ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة». ويقول أيضًا: «العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، في جميع الأحوال، والظلم لا يُباح شيء منه بحال»[5].

﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾: ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى إنزال الحديد أنه كان في السماء ونزل في الأرض، وليس هذا ببعيد[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٤٠١)، وأحمد (٥١١٥، ٥٦٦٧)، والبخاري (٤/ ٤٠) معلَّقًا ببعضه بصيغة التمريض، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وأبو داود (٤٠٣١)- ببعضه- والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٣١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١١٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣١٧) (١٤١٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٥٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٤٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ٧٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر تفصيل الضعف في تخريج «مسند أحمد»، (طبعة الرسالة).

(٣) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٠٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٢٩)، و«فتح الباري» (٦/ ٩٨)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٤٥-٤٤٦)، و«إرواء الغليل» (١٢٦٩)، و«أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» (٧/ ٤٩٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٨٧).

(٥) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣)، (٣٠/ ٣٣٩).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٧)، والمصادر الآتية.

والمعنى الآخر: أن الله تعالى أنزل سُنَّة هذا الأمر، فالأمر بخلقه هو من عند الله تعالى من السماء، والسنة في التعامل معه هي من عند الله، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فيكون المقصود: خلقها وتشريع التعامل معها، رعاية وتملكًا وغير ذلك(١).

والبأس الشديد: وصف حيادي يدل على القوة التي قد تضر الناس وقد تنفعهم؛ وقد امتن الله على نبيِّه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فهؤلاء الأنبياء علَّمهم ربهم صنعة تقيهم بأس المعتدين، وهو القتال بالحديد، كالدُّروع والتُّروس، كما في قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، فهذه الدُّروع عُلِّمها داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لحماية الناس من البأس؛ مما يدل على أن الشريعة جاءت لحفظ حياة الناس، وهم خلق الله مؤمنهم وكافرهم برِّهم وفاجرهم، والله امتحنهم على الأرض ووضعها لهم، وابتلاهم بالدعوة والأمر والنهي والتكليف، ورزقهم كلهم من فضله.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾: فالبأس الشديد ليس نفعًا محضًا، بل الغالب عليه الضرر، وكثير من الحروب تأتي بمضار عظيمة، وقد يتحقق المقصود بدونها، إلا أنها تكون في حالات كثيرة ردعًا ودفعًا لعدو مغرور مستكبر مخمور بالقوة والسلاح، فأشار هنا إلى منافع الحديد بالوقاية من السلاح أو بالمنافع التي أصبحنا نراها اليوم، من الصناعات المتقدِّمة التي صارت جزءًا جوهريًّا في حياة الناس اليوم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾: فهذا الذي أنزله الله تعالى من الكتب والميزان والحديد مقصودها أن يعلم الله علم وجود وتحقق في واقع الحياة مَن ينصرُه ورسلَه ومَن يبغي ويتعدَّى ويظلم(٢)، وعلمه تعالى قبل حصول

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٧)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٤٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣١٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٨).

الشيء هو علم آخر، فهو تعالى يعلم الشيء قبل حدوثه، ويعلم أنه حدث فعلًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو ﴿قَوِيٌّ﴾ لا يُعجِزه شيء وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب.

* ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

وخص نوحًا وإبراهيم؛ لأنهما آباء الأنبياء، ولذلك قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، فالأنبياء الذين جاؤوا بعدهم هم من صلبهم ومن ذريتهم، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: من ذريتهم مهتد، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: أن الأكثرين من ذرية نوح وإبراهيم فاسقون، وهذا قبل بعثة النبي ﷺ[(١)].

* ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ومعنى ﴿قَفَّيْنَا﴾ أي: أتينا من بعدهم برسل، مأخوذة من «القفا»[(٢)]، أي: أرسلنا من بعدهم برسل منهم، ومن هؤلاء الرسل: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، وهو كتابه المنزَّل عليه، كما نزلت التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ أي: لينًا، ﴿وَرَحْمَةً﴾، وذلك أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعث ليُلطِّف من القسوة والغلظة والمادية التي غلبت على اليهود، وكان في رسالته السماحة والرأفة والرحمة، ولذلك يتداولون في كتبهم الكلمة المروية عنه: «مَن ضربك على خدِّك الأيمن، فأدِرْ له خدَّك الأيسر، ومَن

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣١٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٤٢)، و«البحر المديد» (٧/ ٣٢٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٧٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٠)، و«معترك الأقرآن» (٣/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٠).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» للسجستاني (ص٥٤٠)، و«مقاييس اللغة» (٥/ ١١٢) «ق ف ي»، و«مختار الصحاح» (ص٢٥٨)، و«لسان العرب» (١٥/ ١٩٤) «ق ف ا».

نازعكَ ثوبك، فزده رداءَك»[1]. فبُعث عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرحمة؛ ليُخفِّف من غلواء اليهود وقسوتهم، ولذلك جعل تعالى ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ بالناس وتواضعًا وسكينة، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾، ويمكن أن يكون هذا عطفًا على قوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ على أن الرَّهبانيَّة ليست مثل الرأفة والرحمة، فالرأفة والرحمة مطلوبة مطلقًا، أما الرَّهبانيَّة ففيها نظر؛ لأنها تطوَّرت إلى ما لا تُحمد عقباه، ولذا أشار هنا إلى بدعيتها.

وفي الآية احتمال أن يكون قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ مفعولًا لفعل يدل عليه ما بعده، فيكون تقدير الآية: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وابتدعوا رَهبانِيَّة أي: أنشؤوا واخترعوا من قِبل أنفسهم رهبانية[2]، ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أن الله تعالى لم يوجبها عليهم، قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

وهذا فيه احتمال أن يكون المعنى: أن الله تعالى لم يكتب عليهم هذه الرَّهبانيَّة، لكن هم عملوها ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾[3]، فالأولون منهم اتَّجهوا إلى الرَّهبانيَّة، والرَّهبانيَّة مأخوذة من الرَّهْب، وهو الخوف[4]، والغالب أن المقصود: الخوف من الله، فبسبب الخوف من الله كان المتقدِّمون من عُبَّاد النصارى يعتزلون الناس

---

(١) ينظر: «المِلَل والنِّحَل» للشهرستاني (٢/ ١٨)، و«مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٢٥)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٥٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٢).

وينظر أيضًا: «الصحاح» (١/ ١٤٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٦٦)، و«لسان العرب» (١/ ٤٣٦) «ر هـ ب»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ١٠٠).

ويقيمون في الصوامع والدِّيارات في القُرى والصحراء، ولا يدخلون على أحد، ولا يدخل عليهم أحدٌ، ويتفرَّغون للعبادة.

وكان من جرَّاء هذه الرَّهبانيَّة أن تركوا الزواج زهدًا وتفرغًا للعبادة، فتخفَّفوا من ذلك، حتى تحول هذا إلى دين عندهم، وبسبب العزوف عن الزواج شاعت الخيانات والتحرش الجنسي والعدوان، وكم خرج للناس من تسجيلات وثائقية تفضح قساوسة يتحرَّشون بالأطفال أو بالنساء أو بالراهبات؛ لأن هذا التشريع معاندة للفطرة البشرية في ميل الأنثى للذكر والذكر للأنثى.

فهم في الأصل فعلوها خوفًا من الله، ويمكن أن يكونوا فعلوها خوفًا من طغيان المتسلِّطين عليهم من اليهود والروم وغيرهم، فإن أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تعرَّضوا لحملات شديدة وأُحرقوا وقُتلوا وأُوذوا، ومن ذلك ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، فآل الأمر إلى التخفِّي والانعزال في الصوامع، علمًا أن الرَّهبانيَّة الصحيحة هي أن يُخالط الإنسان الناس ويصبر على أذاهم، كما قال النبيُّ ﷺ: **«المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبرُ على أذاهم»**[1].

وكما قيل: «ليس الناسك ناسك الصومعة، وإنما ناسك المدينة». أي: أن الرَّاهب الحقيقي هو الذي يختلط بالناس ويصبر عليهم ويدفع بالتي هي أحسن ويجتهد وسعه ما استطاع.

فالمعنى هنا أن الرَّهبانيَّة لم تُكتب عليهم، ولكن هم فعلوها ابتغاء رضوان الله، فكأن الله تعالى قَبِلها منهم أول الأمر وأذن لهم فيها، ولكنهم طوَّروها بعد ذلك إلى ما لا يجوز.

ويمكن أن يكون المعنى: أن الله تعالى لم يكتب عليهم ذلك، إلا أن يريدوا به رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه الطيالسي (١٩٨٨)، وأحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٧١)، والبيهقي (١٠/ ١٥٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

والأقرب أن الله تعالى لم يكتب عليهم الرَّهبانيَّة، ولكن هم فعلوها[1].

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: فهم ابتدعوها، وما استطاعوا أن يقوموا بحقوقها[2]، وهذا أصل في عدم تكليف الإنسان نفسه ما لا يطيق.

وربما الرَّهبانيَّة في بني إسرائيل مثل النذر في هذه الأمة، فالنذر ليس مشروعًا، ولا يأتي بخير - كما قال ﷺ- وإنما يُستخرجُ به من البَخِيل[3]، وامتدح اللهُ الموفون بنذورهم: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وسأل عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ ﷺ: إني نذرتُ في الجاهلية أن أعتكف ليلةً في المسجد الحرام. فقال: «أَوْفِ بنذرِكَ»[4]. بشرط أن يكون النذر في شيء مشروع أو مباح، وفي الحديث: بينا النبيُّ ﷺ يخطبُ، إذا هو برجل قائمٌ، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيلَ، نَذَرَ أن يقومَ ولا يقعدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكلمَ، ويصومَ. فقال النبيُّ ﷺ: «مُرْهُ فليتكلمْ وليستظلْ وليقعدْ، وليتمَّ صومَه»[5]. وفي الحديث الآخر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ رأى شيخًا يُهَادَى بين ابنيه، فقال: «ما بَالُ هذا؟». قالوا: نَذَرَ أن يمشيَ. قال: «إن اللهَ عن تعذيب هذا نفسَهُ لغنيٌّ». وأمره أن يركَبَ[6].

فنذر الإنسان طاعة من الطاعات إن حقَّق الله مراده يلزم الوفاء به عند القدرة، كقول أحدهم: نذرتُ لله إن شفى اللهُ مريضي أن أتصدَّق بكذا. هذا يجب عليه الوفاء.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣١٥- ٣١٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٢)، ومسلم (١٦٥٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه البخاري (٦٧٠٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢).

وثَمَّ نوع آخر يسمَّى: نذر اللَّجاج، وهو أن يريد الإنسان تَرْكَ شيء فيرغم نفسه على تركه بالنذر لئن فعله ليصومن كذا وكذا أو ليتصدقن بكذا وكذا، فيجب عليه أن يوفِ بنذره لو فعل ذلك الشيء الذي علَّق عليه النذر، فإن لم يوفِ بنذره فعليه أن يكفِّر كفارة يمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ لأنه قصد بهذا النذر ما يقصد باليمين من فعل الشيء أو تركه[1].

ولهذا قال هنا: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما حفظوها حقَّ حفظها، وقوله: ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي ما رعوها رعايتها الحقة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل من أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: كافرون[2]، مثل الذين قالوا من أتباع عيسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، أو الذين قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، أو الذين افتروا على الله الكذب، فهم في مقابل الذين آمنوا، والفسق يُطلق على الكفر، كما في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: ١٨- ١٩].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

قدَّم الأمر بالتقوى استدراكًا على رهبانية بني إسرائيل، وإلفاتًا للبصائر إلى الحق المتعيَّن، وهو التقوى، وترك المفضول الذي لا يغني من الحق شيئًا، وهو الرَّهبانيَّة التي ابتدعها بنوا إسرائيل.

---

(١) ينظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٠/ ٤٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٢).

والتقوى: حال في القلب يحمل على فعل الطاعة وترك المعصية، أَلَّا يجدك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك[1].

وكما يقول ابن المعتز[2]:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبالَ من الحَصَى

والمقصود بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: المسلمون من هذه الأمة[3]، وهذا محتمل وظاهر.

وقد يكون المقصود: الذين آمنوا من بني إسرائيل من أتباع عيسى عَلَيهِالسَّلَامُ[4]؛ الذين أشار إليهم بقوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾.

والأولى شمول الخطاب لهذه الأمة ولبني إسرائيل الذين كانوا مؤمنين بعيسى، فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، النبي الخاتم، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: ضعفين، والكِفل هو: المقدار العظيم[5].

وإذا كان الخطاب لبني إسرائيل، فقد شهد بمثل هذا شواهد من القرآن، كما

---

(١) ينظر: «موسوعة فقه القلوب» (٢/ ١٨٨٨).

(٢) ينظر: «ديوان ابن المعتز» (ص٢٩)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٩)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٤١١)، و«الكشكول» (٢/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٣٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٦)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «العين» (٥/ ٣٧٣) «ك ف ل»، و«معاني القرآن» للفراء (ص٢٨٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٥٥)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٩٦٩) «ك ف ل»، و«الصحاح» (٥/ ١٨١٠) «ك ف ل»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٧)، و«شمس العلوم» (٩/ ٥٨٥٩) «ك ف ل»، و«لسان العرب» (١١/ ٥٨٩) «ك ف ل»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٨).

في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص:٥٢- ٥٤]، هؤلاء الرهبان من بني إسرائيل الذين سمعوا القرآن فآمنوا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣]، فجعل لهم الأمر ضعفين، وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدركَ النبيَّ ﷺ فآمنَ به واتَّبَعهُ وصدَّقَهُ، فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أَدَّى حقَّ الله تعالى وحقَّ سيِّده، فله أجران، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ، فَغَذَاها فأحسنَ غِذَاءَهَا، ثم أَدَّبَها فأحسنَ أَدَبَهَا، ثم أعتقها وتزَوَّجها، فله أجران»[1].

وإذا كان الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، فهو تشريف لهم أن الله تعالى يُضاعف لهم الأجر أكثر مما كان يعطى مَن كان قبلهم من أهل الكتاب.

وهذا معنى مستقل صحيح؛ يشهد له حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُكم ومَثَلُ أهل الكتابين، كمَثَل رجل استأجرَ أُجراءَ، فقال: مَن يعملُ لي من غُدْوَةَ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعملُ لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: مَن يعملُ لي من العصر إلى أن تغيبَ الشمسُ على قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهودُ والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثرَ عملًا، وأقلَّ عطاءً؟! قال: هل نقصتُكُم من حقِّكُم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أُوتيه مَن أشاءُ»[2]. فهذا فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾: غير النور الذي في الآخرة، هذا نور في الدنيا؛ أي: نورًا في الدنيا[3]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وهذا من فضله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٤١-٥٤٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٥٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠).

سبحانه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذكر النور الدنيوي هنا مناسب لما أخبر عنه في ثنايا السورة من أن المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم[1].

* ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: ليعلم أهل الكتاب، وهكذا كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرؤها: (لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ)[2]، وهذه قراءة تفسيرية ليست وحيًا، وإنما يقرؤها ليُعلِّم طلابه أن هذا هو المقصود، وأن «لا» هنا صلة أو زائدة في سياق الكلام[3].

والمعنى: حتى يعلمَ أهلُ الكتاب، أي: ليعلم ويدرك من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾، فالفضل لله سبحانه ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وكأن أهل الكتاب كانوا يزدرون العرب ويتوعَّدونهم بنبي يُبعث، فيقتلونهم به قتل عاد وإرَم[4]: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، فلما وجدوا أن هذا الرسول ﷺ هو من العرب من ذرية إسماعيل منعهم الحسد أن يؤمنوا، وقالوا: «هؤلاء أبناء أَمَة»[5]. يعنون: هاجرَ، واستكبروا عن الرسالة،

---

(1) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 271)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 350)، و«البرهان في علوم القرآن» (3/ 79)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 395)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 251)، و«تفسير الماوردي» (5/ 486)، و«تفسير البغوي» (5/ 36)، و«تفسير الرازي» (29/ 475)، و«تفسير القرطبي» (17/ 267).

(4) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 211، 429)، و«تاريخ الطبري» (2/ 354)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص298)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 76، 434)، و«البداية والنهاية» (3/ 502)، (4/ 371)، وما سيأتي في «سورة البينة»: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 241)، و«تفسير الماتريدي» (1/ 509)، و«تفسير السمرقندي» (1/ 72)، و«تفسير البغوي» (1/ 142)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 325).

ونسوا أن الفضل بيد الله، وأن السابق يدرك أحيانًا أكثر مما أدرك اللَّاحق.

وهذا يُقوِّي أن المقصود بقوله سبحانه في «سورة الواقعة»: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾، أنه في هذه الأمة؛ حيث كتب اللهُ لهم من الفضل ما لم يكتبه لسابقيهم[1]، والله أعلم.

○○○

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الواقعة».

فهرس المحتويات

○○○

سلمان العودة

إشراقات قرآنية

حزب المُفَصَّل

الجزء الثاني

من « سورة المجادلة » إلى « سورة نوح »

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(٢)

إشراقات قرآنية

« حزب المُفَصَّل »

سلمان العودة

ⓒ مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج٢) من «سورة المجادلة» إلى «سورة نوح»

٤٣٦ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٧ - ٠ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨.

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

ردمك: ٧ - ٠ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٢)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.youtube.com/user/DrSalmanTv

www.islamtoday.net/salman/

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ المجَادلَةِ

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «سورة المجادَلة»، أو: «سورة المجادِلة»، بفتح الدال وكسرها[1]، والأقرب الكسر؛ إشارة إلى المرأة التي جادلت الرسول ﷺ في زوجها، ونوَّه الله تعالى بذكرها في صدر السورة، و«المجادَلة» بالفتح: فعل الجدال بين المرأة وبين رسول الله ﷺ، وهو الأشهر في كتب التفسير، والسنة[2].

واسمها في مصحف أُبيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سورة الظِّهَار»[3]؛ لأن الله تعالى بيَّن حكم الظِّهَار في صدر السورة بما لم يبيِّنه في «سورة الأحزاب».

ولها اسم ثالث، وهو: «سورة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾»[4]، بالنظر إلى ما بُدئت به السورة، وهذا يُستخدم عند تحزيب القرآن وذكر الأجزاء، كـ«جزء عمَّ»، و«جزء تبارك»، و«جزء قد سمع».

*** عدد آياتها:** إحدى وعشرون آية في عدِّ علماء مكة والمدينة، واثنتان

(١) ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ١٩٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٠)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٥٨)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٢٨٩)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٧).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٥/ ٢٩٨)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥).

(٤) ينظر: «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٤٨٠)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ١٦٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٤٣)، والمصادر السابقة.

وعشرون آية في عدِّ علماء الشام والعراق[1].

* **وهي مدنية** بالإجماع، قاله الماوردي، وابن عطية، وغيرهما[2].

وفي حكاية الإجماع نظر؛ فقد حُكي عن عطاء وجود آيات مكية فيها[3].

والظاهر أن السورة كلها مدنية؛ فموضوعات السورة مدنية، تعالج بعض هموم المجتمع المسلم الناشئ في المدينة؛ ففي بدايتها حديث عن امرأة تشتكي إلى رسول الله ﷺ حالة من الإشكال الزوجي داخل منزل فقير متواضع.

ثم ينتقل الحديث إلى النَّجْوى بين طوائف من الناس داخل المجتمع المسلم، وما يُحدثه من آثار.

ثم يشير إلى بعض آداب المجالس.

ثم آداب مناجاة الرسول ﷺ.

ثم الحديث عن موالاة الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه[4].

موضوعاتٌ ترسم مناخ المدينة في الفترة التي نزلت فيها السورة، حيث يعيش المسلمون واليهود والمنافقون.

وكان من المسلمين مَن هو حديث عهد بالإسلام، أو ضعيف الإيمان، وكانوا هدفًا للقوى التي تريد أن تُزعزع هذه المجموعة الوليدة.

والذي يظهر أن غالب خطاب السورة لهذه الفئة، وليس للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وإن كانوا داخلين في عموم الخطاب، كما أنها لا تخاطب

---

(١) فقد اختلفوا في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٢)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة (ص١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٩٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٤١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦)، والمصادر السابقة.

الكافرين والمنافقين خطابًا مباشرًا، بل تتهدَّدهم من طَرْفٍ خفيٍّ.

والمقصود الأعظم هو: تقوية إيمان أولئك الذين لم يتمحَّض إيمانهم، وأصبحوا هدفًا لخطابات مغرضة داخل المجتمع المدني.

* ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾:

استفتح تعالى السورة بهذا الخبر: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، مع أن الله سبحانه في آيات كثيرة في «سورة النساء»، و«سورة النور»، و«سورة الأحزاب» بيَّن أحكام النساء والاستئذان والدخول والخروج والطلاق، دون أن يستفتح بمثل هذا الاستفتاح العجيب!

وهذا يُذكرنا بآية «سورة آل عمران»: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهم: اليهود(١)، فقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يجعلك تستحضر الجو الذي يشوِّش فيه اليهود على حدثاء الإسلام بالتشكيك.

وابتداء السورة بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ يؤكِّد سماع الله حديث خَوْلة بنت ثعلبة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وشكواها في مجلس الرسول ﷺ(٢).

وهي: خَوْلة، أو: خُوَيلة، وفي بعض الروايات: جَميلة. ويحتمل أن يكون لهذه المرأة أكثر من اسم، أو يكون: «جميلة» وصفًا لها(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٣٣٨)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٠)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٢٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٩).

(٣) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٣١٠)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٨٣٠)، و«أسد الغابة» (٧/ ٩٢)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٤٢)، و«تهذيب الكمال» (٣٥/ ١٦٣)، و«الإصابة» (١٣/ ٣٤٠)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٧٤)، والمصادر السابقة.

وزوجها هو: أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(1)].

تقولُ خَوْلةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كنتُ عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقُه وضَجِرَ، فدخل عليَّ يومًا، فراجعتُه بشيء، فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلتُ له: كلَّا والذي نفسُ خُويلةَ بيده، لا تخلُصُ إليَّ وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكمَ اللهُ ورسولُه فينا بحكمه. فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تغلبُ به المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيتُه عنِّي، ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسولَ الله ﷺ، فجلستُ بين يديه، فذكرتُ له ما لقيتُ منه، فجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسولُ الله ﷺ يجادلُني فيه ويقولُ: «يا خُويلةُ، ابنُ عمك شيخٌ كبيرٌ، فاتَّقِي اللهَ فيه».

قالت خَوْلةُ: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيَّ القرآنُ، فتَغَشَّى رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشَّاه، ثم سُرِّيَ عنه، فقال لي: «يا خُويلةُ، قد أنزلَ اللهُ فيك وفي صاحبك». ثم قرأ عليَّ: «﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾».

فقال لي رسولُ الله ﷺ: «مُريه فليُعْتِقْ رقبةً». فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عنده ما يُعْتِقُ. قال: «فليَصُمْ شهرين متتابعين». فقلتُ: والله يا رسولَ الله إنه شيخٌ كبيرٌ ما به من صيام. قال: «فليُطْعِمْ ستينَ مسكينًا». فقلتُ: والله يا رسولَ الله ما عنده من شيء يتصدَّقُ به. فقال رسولُ الله ﷺ: «فإنَّا سنُعِينُه بعَرَق من تمر». فقلتُ: وأنا يا رسولَ الله سأُعينُه بعَرَق آخر. قال: «قد أصبتِ وأحسنتِ، فاذهبي فتصدَّقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا»[(2)].

---

(١) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٣٠٢)، و«أسد الغابة» (١/ ٣٢٣)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ١٢٩)، و«تهذيب الكمال» (٣/ ٣٨٩)، و«الإصابة» (١/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤، ٢٢١٥)، وابن الجارود (٧٤٦)، وابن حبان (٤٢٧٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٤١٠)، وينظر: «فتح الباري» (٩/ ٤٣٣)، و«إرواء الغليل» (٢٠٨٧).

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «الحمدُ لله[1] الذي وسع سمعُهُ الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجَها، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزلَ الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ...﴾»[2].

وفي رواية أخرى لهذه القصة: كانت خَوْلةُ تحت رجل من الأنصار، وكان سيِّئَ الخلق ضريرَ البصر فقيرًا، وكانت الجاهليةُ إذا أراد الرجلُ أن يفارقَ امرأته قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي[3]. فنازعتْهُ في بعض الشيء فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وكان له عَيِّلٌ أو عَيِّلَان، فلما سمعته يقول ما قال احتملتْ صبيانها، فانطلقت تسعى إلى رسول الله ﷺ، فوافقته عند عائشةَ أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بيتها، وإذا عائشةُ تغسلُ شِقَّ رأس رسول الله ﷺ، فقامت عليه ثم قالت: يا رسولَ الله، إن زوجي فقيرٌ ضَرِيرُ البصر سيِّئُ الخلق، وإني نازعتُهُ في شيء فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. ولم يرد الطلاقَ. فرفعَ النبيُّ ﷺ رأسه فقال: «ما أعلمُ إلَّا قد حُرِّمت عليه».

قال: فاستكانت وقالت: أَشْتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي. قال: وتحوَّلت عائشةُ تغسلُ شِقَّ رأسه الآخر، فتحوَّلَتْ معها فقالت مثلَ ذلك، قالت: ولي منه عَيِّلٌ أو عَيِّلَان. فرفعَ النبيُّ ﷺ رأسه إليها فقال: «ما أعلمُ إلَّا قد حُرِّمت عليه». فبكت وقالت: أَشْتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي.

وتغيَّرَ وجهُ رسول الله ﷺ، فقالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وراءَكِ. فتنحَّتْ ومكث رسولُ الله ﷺ ما شاء اللهُ، ثم انقطع الوحيُ، فقال: «يا عائشةُ، أين المرأةُ؟». قالت: ها هي هذه. قال: «ادْعِيهَا». فدعتها فقال النبيُّ ﷺ: «اذهبي فجِيئي بزوجك».

---

(١) وفي رواية: «تبارك...».

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٩٥)، والبخاري معلقًا (٩/ ١١٧)، وابن ماجه (١٨٨، ٢٠٦٣)، والنسائي (٦/ ١٦٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٥٤)، والحاكم (٢/ ٤٨١). وينظر: «البدر المنير» (٨/ ١٤٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «سنن البيهقي» (٧/ ٦٣٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٩)، و«القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» (٢/ ٧٣٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٥٢)، و«عمدة القاري» (٢٠/ ٢٨١)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧).

قال: فانطلقت تسعى، فلم تلبث أن جاءت به، فأدخلته على النبيِّ ﷺ، فإذا هو كما قالت ضريرُ البصر، فقيرٌ، سيِّئُ الخلق، فقال النبيُّ ﷺ: «أستعيذُ بالسَّميع العليم من الشيطان الرَّجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾. إلى آخر الآية. فقال له النبيُّ ﷺ: «أتجدُ عتقَ رقبة؟». قال: لا. قال: «أفتستطيعُ صومَ شهرين متتابعين؟». قال له: والذي بعثك بالحقِّ إذا لم آكُلِ المرة والمرتين والثلاث يكاد أن يغشو بصري. قال: «فتستطيعُ أن تطعمَ ستينَ مسكينًا؟». قال: لا إلا أن تعينني فيها. قال: فدعا به رسولُ الله ﷺ فكفَّر يمينه(١).

وخَوْلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذه هي التي استوقفت عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوقف لها وترك أعيان الناس ينتظرونه، وقالت له: هيه يا عمرُ، عهدتُك وأنت تسمَّى: عُميرًا في سوق عُكاظ تصارعُ الصبيانَ، فلم تذهب الأيامُ والليالي حتى سُمِّيتَ: عمرَ، ثم لم تذهب الأيامُ حتى سُمِّيتَ: أميرَ المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ في الرعية، واعلم أنه مَن خاف الوعيد قرب منه البعيد، ومَن خاف الموت خشي الفوتَ. فبكى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانتهرها أحد الصحابة، وقال لها: هيه، فقد اجترأتِ وأكثرتِ وأبكيتِ أميرَ المؤمنين! فقال له عمرُ: «أوما تعرف هذه؟ هذه خَوْلة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمرُ والله أجدرُ أن يسمعَ لها، والله لو حبستني إلى الصلاة، لاحتبستُ لها!»(٢).

وفي الآية يبرز جانب من التغيير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي، وبخاصة في قضية المرأة؛ لأن العرب كانوا يحتقرون المرأة ويزدرونها، فجاء القرآن بإثبات حقِّ المرأة في بثِّ شكواها ومطالبتها بحقوقها، ثم هي ها هنا تجادل رسولَ الله ﷺ.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٥٧)، و«طبقات ابن سعد» (١٠/ ٣٥٤- ٣٥٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٠)، و«تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥١- ٤٥٣)، و«أحكام القرآن» للطحاوي (٢/ ٣٨٩)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٦٣٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٢٣)، و«إرشاد الساري» (٨/ ١٦٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (٢/ ٣٩٤- ٣٩٥، ٧٧٣)، و«الرد على الجهمية» (٧٩)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٨٦)، و«الإصابة» (١٣/ ٣٤٣)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٩٩).

والجدال فيه شيء من القوة في المخاطبة، وليس مجرد عرض أو حديث أو سؤال، وكان النبيُّ ﷺ يقول لها أكثر من مرة: «**ما أَرَاكِ إلا قد حُرِّمت عليه**». وهي تجادله، وتراجعه في الكلام، وفي ذلك تكريس لحقِّ المرأة في الوجود، وحقها في الحياة، وفي المشورة والرأي، وهو ما لم يكن يحتمله ضيق الجاهلية وتبرمها من الأنثى وحصار صوتها، حتى كان يعدُّ عيبًا، ولا يزال بعض الناس يعدُّون صوتها عورة، وهو الذي كان يُسمع في مجالس النبي ﷺ(1).

كانت تجادل النبيَّ ﷺ، وأثناء المجادَلة كانت تشكو إلى الله عَزَّوَجَلَّ أمرها وحالها وصعوبة ما يمكن أن يحدث إن حُرمت من زوجها.. إلى أين تذهب، وهذا بيتها وأبو أولادها، وهؤلاء الأطفال ما مصيرهم؟ فكان في الأمر عُسْرٌ وشِدَّةٌ.

وكثيرًا ما يحتاج صاحب الهمِّ إلى البَوْحِ والتنفيس، وأن يفهم الآخرون معاناته وشكواه ويساعدوه، إنه لا يريد أن يوصل صوته إليهم فحسب؛ بل أن يجعلهم يشاركونه ألمه ومعاناته وإحساسه ومخاوفه ومشاهدة المخاطر المُحْدِقة به أو بأسرته وأولاده.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ إثبات سماع الله تعالى لكلامها، وليس له مزيَّة عن غيره من الكلام؛ إذ هو سبحانه يسمع كل كلام، ومن أسمائه: «السميع»(2)، ولكن فيه معنى أن الله تعالى قد أجابها، فإنه يُطلَق على الإجابة(3)، كما تقول: أعوذُ بالله من دعاء لا يُسمع، يعني: لا يُستجاب له(4).

وكما في قولك: سمع الله لمَن حمده، يعني: استجاب الله تعالى لمَن حمدَه

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (١٠١، ٦٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٥).

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٧٥)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٣٩).

(3) ينظر: «زاد المسير» (١/ ١١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٢/ ١٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨).

(4) ينظر: «معالم السنن» (١/ ٢٩٦)، و«الكاشف عن حقائق السنن» (٦/ ١٩١٥)، و«فتح الباري» لابن رجب (٧/ ١٩٤)، و«فيض القدير» (٢/ ١٠٨).

وكتب ثوابَه[1]، فالسمع هنا يتضمَّن معنى الإجابة، وقديمًا قال الشاعر[2]:

دعـوتُ اللهَ حتى خِفـتُ أَلَّا يكـونَ اللهُ يسـمعُ مـا أقـولُ

أي: لا يستجيب له.

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾: سمَّى الله حديثها: مجادلة، وسمَّى التراجع بينها وبين رسول الله ﷺ: تحاورًا. والتحاور ألطف من المجادلة، وكأن كل واحد يرجع إلى قول الآخر، وكأن الكلام يبدأ عند هذا، فإذا انتهى انتقل إلى الآخر ورجع إليه، بخلاف المجادَلة التي فيها شِدَّة وقوة؛ فهي تجادل، لأنها صاحبة حاجة، وتتكلَّم من معاناة وتلح، ومنه: جَدْل الحبل[3]، ومنه: الجَنْدل، وهو الصخر[4]، ولكنها ملتزمة بالأدب الواجب مع رسول الله ﷺ، والرسولُ ﷺ يحتوي جدلها ويُسكِّنه، فيتحول إلى محاورة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ فأكَّد هذا المعنى، وأن الله تعالى مع الناس بسمعه وبصره المتضمِّن لكمال علمه وسلطانه وتدبيره وحكمته، وهذا كله مما يستتبعه المعنى.

وفي الاستفتاح العظيم لهذه السورة تذكير بأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وتحذير للذين يتهامسون ويتسارُّون ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كما سيأتي[5].

---

(١) ينظر: «مطالع الأنوار» (٥/ ٥٠٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٤/ ١٢١)، و«شرح أبي داود» للعيني (٤/ ٢٥٤)، و«إرشاد الساري» (٢/ ٧١).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٣٤٢)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٣٨٦)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٥/ ١٧٩- ١٨٠)، و«تاج العروس» (٢١/ ٢٣٥) «س م ع»، منسوبًا إلى شُتَير- وقيل: شُمَير، وقيل: سُمير- بن الحارث الضَّبِّي.

(٣) ينظر: «جمهرة اللغة» (١/ ٤٤٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٩)، و«تاج العروس» (٢٨/ ١٩١) «ج د ل».

(٤) ينظر: «العين» (٦/ ٢٠٦) «ج ن د ل»، و«لسان العرب» (٣/ ١٢٩) «ج ل م د».

(٥) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾.

* ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾:

والمظاهرة: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي[1]. وكأنه حرَّم على نفسه أن يعاشرها أو يجامعها، مثلما تحرم عليه أمه، وحرمة الأم هي حرمة أبدية غليظة، كما هو معلوم، وبدأ الله تعالى بها في آية المحرمات: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]؛ لأنها من أشنع ما يكون.

والظِّهار مشتق من الكلمة التي كانوا يقولونها؛ وهي الظَّهْر[2].

وفي هذه الآية دليل على أن الأمر لا يخصُّ أوسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحده، وإنما هو حكم عام للناس جميعًا.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: ما زوجاتهم بأمهاتهم، ولا يمكن أن يكن كذلك؛ والتعليل ظاهر في قوله سبحانه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾، فمجرد أن يقول الإنسان لزوجته: إنها كأمه، أو كظهر أمه لا يجعلها في حكم الأم.

وفي هذا تمهيد لإبطال ما كانوا يعتقدونه من أن ذلك يعدُّ طلاقًا أو تحريمًا بائنًا، فأنكر سبحانه تشبيه الزوجة بالأم، وبيَّن أن الأم هي مَن ولدت[3]، وفي حكمها يدخل الأم من الرَّضاعة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وفي حكمها الخالة، كما قال ﷺ: «**الخالةُ بمنزلة الأمِّ**»[4].

فهو هنا يبيِّن أن القول الذي يقولونه باطل من حيث التكوين، وباطل من حيث

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٣)، و«فتح الباري» (٩/ ٤٣٢)، و«سبل السلام» (٢/ ٢٧٢).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٤١)، و«مختار الصحاح» (ص١٩٧)، و«المصباح المنير» (٢/ ٣٨٧) «ظ هـ ر».

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٣٢١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٨)، و«المغني» (٨/ ٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٩، ٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشريعة، وأن مجرد الحكم اللَّفظي على شيء ما بخلاف حقيقته لا يعني تحول الأشياء وفق تلك الأقوال المزوَّرة، كما كانوا في الجاهلية يسمون الحَجَر والشجر: إلهًا، فقال سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فهذا قول بالغ الفحش؛ لأن فيه إزراءً بحقِّ الأم بجعلها في مقام التحريم هكذا، وفيه تعريض الأم للخيالات والتصورات التي لا تليق بالبنوَّة.

وفي القول زور من جهة تشبيه الزوجة بالأم، وهذا بعيد كل البعد؛ فالأم لها جانب التربية والسبق والفضيلة والبِرِّ، والزوجة لها جانب المعاشرة والمودة والرحمة(١).

ولذلك عقَّب بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وما أسرع ما عاجلنا ربنا بالعفو والمغفرة بعد التحريم والنهي ووقوع العباد في المعاصي، وهذا يشمل عفوه سبحانه ومغفرته لمَن تاب بأن يتوب اللهُ عليه، ولمَن لم يتب بأن يغفر الله تعالى له، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

أو أن المقصود أن يعفو عن عباده، فلا يؤاخذهم بالذنب، ويغفر لهم ويستر عليهم، فيبدِّل سيئاتهم حسنات(٢).

وفيه إشارة إلى أن المقام في الحال التي يقع فيها الخطأ من الإنسان بسبب غضب أو شهوة أو هوى دون تقصُّد الخطأ أو الإضرار أو الظلم، يستدعي التيسير والرحمة والسَّعة، مع بيان الحكم والعقوبة أو الكفارة.

ولذلك فالأصل في الباب أن يُقتصر فيه على ما ورد، وأن لا توسع نواحيه

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨١- ٤٨٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٢٠).

وجوانبه، ولا يُقاس على اللفظ غيره مما لا يماثله في الشناعة والبشاعة[١].

* ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾:

ظاهر اللفظ يحتمل أنهم ظاهروا أول مرة، ثم عادوا وظاهروا مرة ثانية.

وبهذا فسَّره جماعة، كما نُقل عن الفرَّاء وداود الظاهري، ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٢]، وهو ضعيف.

والأقوى أن المعنى: أن يظاهر من زوجته، ثم يعود إليها ويعاشرها بعد أن حرَّمها على نفسه[٣]، كما وقع هذا لسَلَمة بن صخر البياضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه جاء للنبي ﷺ، وكان فيه شَبَق وغُلْمة[٤] وقوة في رغبته في النساء، فلما دخل رمضان ظاهر من امرأته؛ حتى يحافظ على صيامه وعلى صلاته، ثم وقع به شوق إليها، فواقعها[٥].

ودلالة الآية ظاهرة على أن مَن فعل ذلك فعليه كفارة، وهي المذكورة ترتيبًا في الآية نفسها: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾: وهذه هي **الخصلة الأولى في الكفارة**: أن يعتق رقبة قبل أن يجامع زوجته[٦].

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٨٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٤٨)، و«المحلى» (٩/ ١٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٠- ٢٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٥٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩- ٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦)، و«أضواء البيان» (٦/ ١٩١).

(٤) أي: شدة الشهوة. ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ١٧١)، و«تاج العروس» (٢٥/ ٤٩٠) «ش ب ق».

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٠٠)، وأبو داود (٢٢١٣)، والترمذي (٣٢٩٩)، وابن ماجه (٢٠٦٢)، وابن الجارود (٧٤٤)، وابن خزيمة (٢٣٧٨)، والحاكم (٢/ ٢٠٣). وينظر: «التلخيص الحبير» (٣/ ٤٤٤)، و«إرواء الغليل» (٢٠٩١).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٢).

وفيه دلالة على تشوّف الإسلام إلى تحرير الرَّقيق، وقد كان الرِّقُ عرفًا شائعًا في المجتمعات البشرية، ولا سبيل إلى إلغائه مرة واحدة، لكن عمد الإسلام إلى تجفيف منابعه، كما يقال: لا تقتل البعوض، ولكن جفِّف المستنقعات. وجاءت الشريعة بتشجيع الناس على تحرير الرَّقيق، فالناس وُلدوا أحرارًا، وهم في ذلك سواء.

وهل يشترط أن تكون هذه الرقبة رقبة مؤمنة؟

قولان للفقهاء: فذهب أبو حنيفة إلى عدم اشتراط ذلك[1].

والجمهور يشترطون أن تكون مؤمنة[2]؛ استدلالًا بالآية الأخرى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢].

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ تقييد للكفارة بأن تُخرج قبل أن يجامع المظاهِر زوجته[3].

وعبَّر بالمسيس؛ تهذيبًا وكناية عن المعاني التي يُستحى من التصريح بها.

والمقصود بالتماس هنا: الجماع[4]، كما أن في التعبير إشارة إلى التكافؤ بين الزوجين، بمعنى أنَّ التماس هنا مشترك من الطرفين، تأكيدًا إلى أن العلاقة الزوجية هي علاقة تكافؤ، وإشعارًا إلى أن المرأة ليست محلًّا لقضاء الوَطَر فحسب.

ومن الألفاظ التي استعملها القرآن تعبيرًا عن الجماع بلفظ مهذَّب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٥٦﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والناس بحاجة إلى معرفة الأحكام والحلال والحرام، وما يحلُّ وما لا يحلُّ في

---

(١) ينظر: «بدائع الصنائع» (٥/ ١٠٩- ١١٠)، و«البناية شرح الهداية» (٥/ ٥٤٢).

(٢) ينظر: «اختلاف الفقهاء» للمروزي (ص٣٦٥)، و«المغني» (٨/ ٢٢)، و«المجموع» (١٧/ ٣٦٨)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٢/ ٤٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٨- ١٩).

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٠١)، والمصادر السابقة.

العلاقة بين الزوجين، والآداب التي تحيط بهذه العلاقة، وتربية الناس على تهذيب الألفاظ، بعيدًا عن الابتذال، والسورة كلها تدور حول الأدب والذوق والتربية على العلاقات الاجتماعية الراقية، كما سوف يظهر.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: الأمر بتحرير الرقبة مما تُوعظون به، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه من أمركم شيءٌ، مما يستوجب على الناس أن يُراقبوا الله سبحانه، فلا يتكلموا إلا بخير(١).

وفيه إحياء لشعور الخوف من الله في النفوس؛ ليكون زاجرًا لها عن الحرام، وهو ما يسمى بالوازع الديني، فهذا الوازع لا يقتصر عمله وأثره على حَمْلِ الناس على الصلاة في المساجد، بل هو عام؛ يزجرهم عن رمي الطلاق من غير تبصر، أو ظلم الآخرين، أو بخس حقوقهم، أكانوا من الأباعد أو الأقربين.

* ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

وهي المرتبة الثانية في الكفارة: من قبل المسِّ لمَن لم يجد الرقبة أو ثمنها صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع ذلك؛ لضعفه أو عجزه أو غير ذلك انتقل **إلى المرتبة الثالثة:** ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، وكأنه جعل إطعام كل مسكين مقابل صيام يوم من الشهرين المتتابعين(٢).

وفيما يتعلق بهذه المرتبة الثالثة: الإطعام، لم يشترط فيها أن تكون ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؛ ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى عدم تقييد الإطعام بأن يكون قبل المسيس(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٣١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٣).

(٣) ينظر: «المحلى» (٩/ ١٩٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٥)، و«المغني» (٨/ ١١- ١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١).

والأقرب أنه مثل سابقه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾، لكنه اكتفى بما سبق من تكرار: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾؛ ولأن الإطعام لما كان بديلًا عن الصيام، لَمْ يَحْتَج أن يقول: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي: ليكون إيمانكم بالله ورسوله إيمانًا حقيقيًّا، وليكون عملًا تلتزمون به أمر الله عَزَّوَجَلَّ[2].

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ أي: ما سبق ذكره من كفارة الظهار وتحريمه[3].

والحدود جمع: حدٍّ، وهو ما يفصل بين الشيئين[4]، فكأن هذا هو الحدُّ الفاصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والإسلام والجاهلية.

ولهذا قال: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنهم لا يؤمنون بحدود الله، فلا يلتزمونها، ففي ذلك تحذير منهم ومن فعلهم، وفيه دعوة إلى التزام شريعة الله سبحانه، ووجوب العمل بها وتحكيمها، فالكافرون الذين لا يؤمنون بالحدود متوعَّدون بالعذاب المؤلم في الدنيا والآخرة.

وكأن هذا يُشبه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، وفيه تعريض بمَن يبتغون في الإسلام سنة الجاهلية من المنافقين وغيرهم الذين لا يؤمنون بالشريعة اعتقادًا، ولا يلتزمونها، ولا يعملون بها.

وهنا تم القسم الأول من هذه السورة، وهو ما يتعلَّق بقصة المجادلة.

---

(١) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٣١٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٣٧)، و«بدائع الصنائع» (٣/ ٢٣٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨٧)، و«المغني» (٨/ ١١- ١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٤/ ٢٦٨)، و«تاج العروس» (٨/ ٨)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٤٥٧) «ح د د»، وما سيأتي في «سورة الطلاق»: ﴿... وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾.

* **ثم انتقل السياق إلى موضوع آخر**، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥﴾:

هكذا توجَّه السياق إلى بعض مَن هم حول المؤمنين وليسوا منهم، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يقفون في الحدِّ الآخر المقابل للحقِّ، وهي مثل: ﴿شَآقُّواْ﴾ [الأنفال: ١٣]، أي: يتخذون شِقًّا وناحية غير ما فيه الله ورسوله والمؤمنون[1].

﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: أُذلوا وأُهينوا كما أُهين الذين من قبلهم من الأمم، وممن ترونهم حولكم، كما حدث لبني قَيْنُقَاع ولقريش في هزيمتهم النكراء في بدر[2].

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾: وعبَّر هنا بـ﴿مُّهِينٞ﴾؛ لأنه يتناسب مع قوله: ﴿كُبِتُواْ﴾، فالكَبْت الذي أصابهم في الدنيا يُناسبه يوم القيامة أن يكون العذاب مهينًا لهم، ولا أشد هوانًا لهم من أن يُحشروا في نارٍ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

* ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦﴾:

في ذلك تأكيد ودعوة للمؤمنين إلى أن يستحضروا كمال علمه وإحاطته سبحانه بخلقه، ولقد سمع هذه المرأة التي تجادل في زوجها، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ركن الدار لا تسمعها، فلا يخفى عليه سبحانه شيء مما يعمل العباد أو يقولون أو يسرُّون أو يظهرون: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠].

وما يفعله العباد يُكتب، وينبِّئهم الله تعالى به يومَ القيامة، فقد أحصاه حين نسيه

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٨)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣)، والمصادر السابقة.

الناس، والكلام هنا عن أولئك الذين كفروا بالله ورسوله، فإنهم نسوا أعمالهم، وأما المؤمن فإنه وإن كان يقع منه الخطأ، إلا أنه لا ينسى عمله، فهو يرى ذنبه وخطأه بين عينيه، فيُكثر من الاستغفار والندم حتى فيما يجتهد فيه أن يكون خيرًا، كما ورد عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما اعترض في صلح الحُدَيْبِيَة، أنه عمل لذلك أعمالًا صالحة؛ لتكفِّر عنه ما مضى من التوقف في امتثال الأمر ابتداء[١].

وربما وقع المرءُ في ذنب، فكان خيرًا له من جهة ما تبعه من ندم وتكفير بالصالحات وتواضع وانكسار وسلامة من العُجب والاغترار.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عليه من أمرهم شيء، سرهم وعلانيتهم، فهو شهيد حاضر معهم، كثروا أو قلُّوا، وهي درجة أبلغ من مجرد العلم أو الإحصاء[٢]!

* ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾:

إشارة إلى كمال علمه سبحانه الشامل السريع المحيط الذي لا يخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ ولهذا بدأ الآية بالعلم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، وختم الآية بالعلم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، ووسط الآية هو صورة تفصيلية موضحة لهذا العلم: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾[٣].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ١٠٦)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٤٦)، و«سبل الهدى والرشاد» (٥/ ٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٦٧)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٣).

(٣) ينظر: «إبطال التأويلات» (١/ ٢٣٠)، و«العلو» للذهبي (ص١٧٦)، و«تفسير القاسمي» (٥/ ٧٧).

والنَّجْوى: الهمس والمسارَّة بين اثنين أو أكثر، وغالبًا إذا كانوا اثنين يقال: مسارَّة، فإن كانوا أكثر عبَّر عنه بالنجوى[1]، وقد تُطلق النجوى على مجمل التناجي أو المسارَّة بين فئة دون الباقين[2].

والحقيقة التي تقرِّرها الآية أن الله معهم في نجواهم ومسارَّتهم بسمعه وبصره وعلمه التام الذي لا يضل، وحفظه وإحصائه الذي لا ينسى.

وبدأ بـ«الثلاثة»؛ ليكون قوله بعد ذلك: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ متناسبًا متقابلًا، فـ«الاثنان» أدنى من «الثلاثة»، ثم ذكر «الخمسة» وتجاوز «الأربعة»؛ لأن «الأربعة» تدخل في الأدنى المذكور، فلما قال: ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ...﴾ كان «الأربعة» أدنى من «الخمسة»[3]. واتسع اسم الإشارة ليشمل «الثلاثة» و«الخمسة»، على ما في السياق من تجنب تكرار العدد وهو أجمل وأبلغ.

فهو معهم بعلمه وبسمعه وبصره، كما قال لموسى وهارون عَلَيۡهِمَاالسَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وبسلطانه سبحانه، وإحاطته وقدرته، فهذا معنى المعيَّة، كما ذكره الأئمة والسلف، وأشار إليه ابن كثير في «تفسيره»[4].

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾: والنص أقرب للتحذير والوعيد، ففيه تعريض بالذين يشقُّون وحدة الصف المسلم بالتناجي، وبث الفرقة، وإشاعة القلق، لا بقصد الإصلاح، بل لغرض تنفير المؤمنين وزعزعة يقينهم، ولذا توعَّدهم بأن يخبرهم بما عملوا يوم

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٤/ ٦٤)، (١٠/ ١٢٥)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٤/ ٩٠)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٢٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٠٤)، و«زاد المسير» (١/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٨٣)، و«فتح القدير» (١/ ٥٩٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٣/ ٢٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٤٤٧- ٤٤٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٧٣)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٨).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٩٥)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ١٣١- ١٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢).

القيامة، وهو متضمِّن لمؤاخذتهم عليه.

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨﴾:

تشير الآية إلى أُناسٍ ظلُّوا يتناجون ويتهامسون منعزلين عن المجموعة، يتآمرون بمكائد وخُطط خبيثة، مقصودها النيل من الإسلام ومراغمة أهله، وهي الحرب النفسية والاجتماعية التي تسعى إلى تفتيت المجتمع ونشر الشائعات في داخله، على أن هذه النجوى ذاتها تُحدث الحزن، كما قال ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجَى اثنان دونَ صاحبهما، فإن ذلك يُحزنُهُ**»[(١)]. لأنه إذا أصبحوا يتهامسون فيما بينهم وهو منعزل عنهم ضاق صدره، ورأى أنه ليس محلًّا للثقة، وربما كانوا يتكلمون فيه، أو يُخفون عنه بعض الحقائق؛ شكًّا في أمانته.

ولذلك قال بعض أهل العلم: إنه يدخل في التناجي لو تكلموا بلغة أخرى غير اللغة التي يُحسنها؛ بقصد إخفاء الحوار عنه[(٢)].

والمعنيون في هذه الآية: أناس يتناجون بما لا يجوز، زيادة على أنهم قد نُهوا عن مجرد التناجي، فكيف إذا كان موضوعها الإثم والعدوان ومعصية الرسول؟

والإثم: يُقصد به هنا: ما يخصهم من المعاصي، كشرب المحرم أو اللهو المحرم[(٣)].

وأما العدوان: فهو على الآخرين، يتناجون بالوقيعة بفلان أو ضربه أو سرقة ماله[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٨، ٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٣، ٢١٨٤) من حديث ابن مسعود وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٦)، والمصادر السابقة.

وأما معصية الرسول ﷺ: فهي وإن كانت من الإثم والعدوان، لكنها ذُكرت تخصيصًا؛ لأنه بين أظهرهم، والمؤمنون يحبونه ويُطيعونه، إلا أن هؤلاء الناس كفروا النعمة، وأصبحوا يتناجون بمعصيته ﷺ، ولعل موضوع المعصية هنا ليس مجرد مخالفة سنته؛ بل التمرُّد على الأوامر التي تنظِّم حركة المسلمين في مواجهة خصومهم من اليهود والمشركين، وإرباك الموقف في الأزمات التي كانت تمر بالمجتمع المسلم الناشئ.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: والظاهر أن المقصود اليهود(١)؛ فقد كانوا إذا جاؤوا للنبي ﷺ قالوا له: السَّام عليك يا أبا القاسم(٢). والسَّام هو: الهلاك أو الموت(٣)، ويتظاهرون بأنهم يسلِّمون عليه، والنبيُّ ﷺ يأخذهم بظاهرهم، حتى أكثر الناسُ عليه، وقد سلَّم عليه أحدُهم، وردَّ عليه النبيُّ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنه يقول: السَّام؟ فقال: «ردُّوه عليَّ». فردُّوه عليه، فقال: «أقلتَ: السَّامُ عليك؟». قال: نعم. فأرشدهم ﷺ إذا شكُّوا في السلام أن يردُّوا بقولهم: «وعليكم»(٤). أما إن علمتَ أنه قال: السلام عليكم. فترد عليه بمثلها أو أحسن(٥).

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾: إما يقولون ذلك في قلوبهم، دون أن يتفوَّهوا به، أو يقولون في خاصة مجالسهم: أن هذا لو كان نبيًّا حقًّا لعذَّبنا الله بما نقول، فنحن نتكلَّم في ظهره بمعصيته ونتناجى بذلك، ونُلقي عليه التحية المُلبسة

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٦١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٣٥، ٦٢٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥، ٢١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٠- ٤٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١١).

(٣) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٥٧)، و«الاستذكار» (٨/ ٤٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (١٢٤٢٧، ١٣٤٥٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٠٥)، والترمذي (٣٣٠١)، وابن ماجه (٣٦٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأصله في «صحيح البخاري» (٦٩٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٣).

وفي «صحيح البخاري» (٦٢٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نحوه.

(٥) ينظر: «التمهيد» (١٧/ ٨٩)، و«عمدة القاري» (١٤/ ٢٠٦).

الخادعة، ولم يُعذِّبنا الله بهذا[1].

وهذا ملائم للعقلية اليهودية المريضة في تعاملها مع الشأن الإلهي، فهم يحسبون عقاب الله كعقاب البشر، فإن الإنسان إذا سخط ربما يُعجِّل العقاب، لكن الله تعالى حليم صبور، لا يعجِّل لعجلة عباده، ولهذا ردَّ عليهم فقال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، والمعنى ظاهر، فإن لم يلحقهم عذاب في الدنيا فحسبهم ما توعَّد الله عليهم من عقوبة الآخرة، وبئس العذاب.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: إن كان ولا بد من التناجي، فليكن في غير الإثم والعدوان ومعصية الرسول[2]، كما في الحديث لما قال الرسول ﷺ: **«إياكم والجلوسَ في الطرقات»**. قالوا: يا رسولَ الله، ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدَّثُ فيها. قال رسولُ الله ﷺ: **«فإذا أبيتُمْ إلَّا المجلسَ، فأَعْطُوا الطريقَ حقَّهُ»**. قالوا: وما حقُّهُ؟ قال: **«غضُّ البصر، وكفُّ الأذَى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر»**[3].

إذًا النهي عن النَّجْوى في السابق هو أولا للنجوى ذاتها، وأنها تُحدِث حُزنًا وانخزالًا بين المؤمنين وخوفًا ورعبًا.

وثانيا: لأن تلك النَّجْوى تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، فلذا نهاهم هنا أن يتناجوا كما يتناجى المنافقون، وأرشدهم إلى البديل؛ وهو التناصح والتحاور فيما يخدم وحدة المجتمع المسلم وأمنه.

فالتقوى في مقابل الإثم، والبِرُّ في مقابل العدوان، وقدَّم هنا «البِرّ» على

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٩١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«التقوى»، في حين أنه قدَّم «الإثم» على «العدوان»، والسِّرُ- والله أعلم- أن عمل الخير للآخرين أفضل؛ ولهذا يقول الفقهاء: النفع المتعدِّي يُقدَّم على النفع اللازم[1]. فالإحسان إلى الفقير أفضل من نوافل العبادة؛ لأن فيه نفعًا للآخرين.

* ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾:

بيَّن تعالى أن التحريض على هذه النَّجْوى إنما هو من الشيطان؛ ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2].

إن الله لا يُحب أن يُحزن الذين آمنوا، ولهذا لم يتعبَّدنا بالحزن، ونهى رسولَه ﷺ عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، فالقيم الإيمانية تؤسِّس للسعادة في القلب وانشراح النفس وقرة العين، وأن كل ما يدعو إلى تحقيق معنى الرضا والفرح والسعادة والسرور فإنه مطلوب ما لم يكن إثمًا.

ومن ذلك: ما يتعاطاه الناس فيما بينهم من بذل المعروف، وهو البِرُّ الذي أشارت إليه الآية، ومنه الطاعة لله والعبادة، وتجنب ما يثير الندم، وهو التقوى المذكورة، ولذا دعا إلى ما يدفع الحزن عن الآخرين؛ فالكلام الطيب، والقول الطيب، والوجه الطيب، والبشاشة، وحسن المعاملة، والإحسان إلى الخلق بكل ممكن مقدور هو مما تُحفِّز عليه الشريعة، وتحث عليه نصوص الكتاب والسنة[3]،

---

(١) ينظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص١٠٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (١/ ٣٣٠)، و«فيض القدير» (٦/ ٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤).

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]. وقوله ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلْقَى أخاكَ بوجه طَلْق». أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، وقوله: «مَن نفَّس عن مؤمن كُربةً من كُرب الدنيا، نفَّس اللهُ عنه كُربةً من كرب يوم القيامة، ومَن يسَّرَ على مُعْسر، يسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومَن ستَرَ مسلمًا، ستَرَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه». أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

فإدخال السرور على المؤمنين مطلوب، وإزالة الأحزان منهم مطلوبة.

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: فالمؤمن الذي حقَّق الإيمان أقرب إلى الرضا والسرور، مع أن الحزن والهمَّ والاكتئاب عوارض إنسانية قلَّ مَن يسلم منها، وقد تكون مرضًا يصيب الإنسان لعارض في الطفولة أو بسبب المورثات التي تجعله مهيَّئًا أكثر من غيره لتقبل الهمِّ والغمِّ والألم[1].

إن الحزن والاكتئاب لا ينحصر سببه في الذنب والمعصية، ومهما يكن فإن الإيمان هو من أقوى الوسائل التي تجعل الإنسان أكثر استعدادًا وتأهلًا للفرح والرضا والسرور ومقاومة الحزن؛ فإذا كان عند الإنسان إيمان قوي بالله وتوكُّل عليه واستحضار للوجود الإلهي المهيمن على كل شيء، والقادر على كل شيء، فذلك يورثه قوة نفسية على مقاومة الحزن، وحتى لو وُجد الاكتئاب، فالإيمان يؤسِّس ويرسِّخ الاستعداد والاستجابة النفسية للعلاج.

ومن نجوى الشيطان التي ذكرها بعضهم: ما يتعلق بالرُّؤْيا أو الحُلم[2]، فكثيرًا ما يستيقظ الإنسان وهو متكدِّر، وربما كان هذا بسبب رُؤْيا مزعجة رآها، سواءً تذكرها أو نسيها، ولكن بقي أثرها، يُفكِّر أن هذه الرُّؤْيا سوف تتحقَّق، فإنه يظل في كل لحظة يقول: متى تقع؟ فربما يقع شيء يشبهها، فيقول: هذا ما كنتُ رأيته. ثم يتولَّد عنده إحساس أنه كلما رأى شيئًا مخيفًا أو محزنًا فإنه سيقع.

ومَن توكَّل على الله استطاع أن يُكيِّف ويعوِّد نفسه على اعتقاد أن ما رأى من الشيطان، وأنه لن يضرَّه حتى لا يبالي به، وقد جربتُ هذا بنفسي كثيرًا منذ الطفولة، ووجدتُ الأمر كما وصفتُ!

وفي «الصحيحين» من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«الرُّؤْيا من الله، والحُلْمُ من الشيطان، فإذا رأى أحدُكم شيئًا يكرَهُهُ فلينفثْ[3] حين يستيقظ**

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٧).

(٣) النفث: نفخ لطيف بلا ريق.

ثلاثَ مرات، ويتعوَّذْ من شرِّها، فإنها لا تضرُّهُ»[١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾:

انتقل السياق من موضوع النَّجْوى إلى موضوع آخر متشابه، يشترك مع النَّجْوى في أنه من آداب المجالسة والعلاقة الاجتماعية.

وقد قُرئت الآية بالجمع والمفرد: ﴿ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾، و﴿ٱلۡمَجۡلِسِ﴾[٢].

ويحتمل أن يكون المقصود: مجلس النبي ﷺ، وهو يتكرر في أوقات مختلفة، فيسمى: «مجالس» بالجمع، وعلى الإفراد فالمقصود كل «مجلس»[٣].

وقد ورد في سبب النزول: أن النبيَّ ﷺ كان في خطبة الجمعة، أو في الصُّفَّة، وضاق المجلس، فجاء أُناس من أهل بدر من السابقين، وبعضهم كبير السن، وبعضهم من السابقين بالعلم ممن له وجاهة ومكانه ومنزلة، وبعضهم محتاج؛ مثلما ورد عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان ثقيل السمع، فيحتاج إلى أن يكون قريبًا، وهؤلاء قد تحملهم ظروفهم على التأخر أحيانًا، وكان النبي ﷺ يُضطر إلى أن يقول: «**قُمْ يا فلانُ، قُمْ يا فلانُ**». من باب التأديب والتدريب لناس يثق بمحبتهم وطواعيتهم، وأن ذلك لا يخدش مشاعرهم، وربما قال: «**يا فلانُ، أفسح لفلان**». وأحيانًا لا يخاطبهم فرادى، بل ينبِّه إلى التفسح ومراعاة ضيق المجلس في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٨- ٦٢٩)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٣)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٦٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٨٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٠٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٨- ٢٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٦- ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٩)، والمصادر السابقة.

طريقة الجلوس والتضام والإفساح للآخرين.

ولما قال مرة: «قُمْ يا فلان، قُمْ يا فلان». استغلَّها المنافقون، وقالوا للمسلمين: ألستم تزعمونَ أن صاحبَكم يعدلُ بين الناس؟ فوالله ما عدل بين هؤلاء؛ قومٌ أخذوا مجالسهم وأحبُّوا القربَ من نبيهم، أقامهم وأجلس مَن أبطأ عنهم مقامهم!؟[1].

وأرادوا بهذا إيغار صدورهم، وتحريك كوامن النفس والأنانية التي هي من شر ما يوتِّر العلاقة ويفسدها.

إن من أعظم ما يعانيه الناس في مجتمعاتنا طبع الأنانية؛ التي هي الأَثَرة في المجلس، في قيادة السيارة، في الوظيفة، في العمل، في الدراسة.. فسيطرة النزعة الأنانية على المجتمع كفيلة بتدميره والقضاء عليه، ولا يمكن محاربة هذه الأَثَرة إلا بتوظيف القيم الإيمانية وتحريكها[2]، كما نجد ها هنا، فالله سبحانه يخاطبهم بلفظ «الإيمان»: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ويختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾، إذًا الإيمان الموجود في قلوبكم يجب أن يتحول إلى برامج عملية واقعية تُرى على الجوارح والسلوك في الملبس والمأكل، والمجلس والعمل والطريق، ومع الأهل وغيرهم، فلا ينبغي أن نستسلم لعاداتنا الاجتماعية ولمألوفاتنا؛ بل أن نستلهم الإيمان في الذوق الذي نتعامل به في المجلس على صعيد الفرد أو الجماعة.

ولأن من طبيعة النفس أن تسرع للعمل حين تعرف جزاءه، بيَّن أن الإفساح في المجلس يترتَّب عليه أن يفسح الله لهم، وهذا يشمل الفُسحة في الحياة والرزق

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٦- ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥- ٤٦).

وأما ما ورد أن سبب النزول: أن النبيَّ ﷺ كان في مجلس، وكان إلى جنبه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فجاء عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فوقف ولم يجد مجلسًا، فأصبحَ النبيُّ ﷺ ينظرُ، فعرف أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأفسحَ له، وقال: ها هنا يا أبا الحسن... فلا يصح. ينظر: «معجم ابن الأعرابي» (١٤١، ٥٦٦)، و«مسند الشهاب» (١١٦٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٩٩)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٣٨٠- ٣٨١)، و«الفوائد المجموعة» (ص٣٧١)، و«السلسلة الضعيفة» (٣٢٢٧).

(٢) ينظر: «أنا.. وأخواتها» للمؤلِّف.

وسَعة النفس والبال، والفُسحة في منازلهم في الجنة لقاء طيبتهم وإيثارهم غيرهم بمجالسهم التي سبقوا إليها[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾: النُّشوز هو: الارتفاع، والمكان الناشز هو: المرتفع الناشز من الأرض، ومنه سُمِّيت المرأة التي تعصي زوجها ولا تؤدِّي حقوقه: ناشزًا: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾[2] [النساء: ٣٤].

وكذلك الرجل يقع منه النشوز في حق زوجته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾ [النساء: ١٢٨]، وإن كانت لغة الفقهاء تُطلق النشوز على المرأة دون الرجل في الغالب.

والمعنى: إذا قيل لكم: قوموا، فقوموا[3]. والمقصود: الانصراف حتى لا تثقلوا على المضيف، كما أمر الله سبحانه المؤمنين في شأن الرسول ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فإذا قيل لكم: قوموا، فقوموا، أو: انصرفوا، فانصرفوا، ولا تتثاقلوا وتستطيبوا الجلوس، غير متنبهين إلى حاجة المضيف للخلوة بنفسه أو أهله أو استطالته المجلس دون فائدة[4].

ومن المعنى: إذا طُلب من أحدكم أن يقوم عن مكانه في المجلس، مراعاة لحقِ كبير أو ضعيفِ سَمْعٍ أو نحوه، فليقم بطيب نفسه[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧١- ٥٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٦٩٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١١٣٥)، و«تفسير الرازي» (١١/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ٤١).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٠٦)، و«لسان العرب» (٥/ ٤١٨) «ن ش ز».

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٩)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٤)، والمصادر السابقة.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: إن تفعلوا ذلك دون ضيق أو حزن أو تبرُّم، فهي علامة الإيمان والعلم؛ لأن الدرجة ليست في صدارة المجلس أو التكريم الظاهر، بل في الإيمان والعلم.

وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أن الناس ليسوا سواسية، حتى أصحاب محمد ﷺ؛ فيهم الخلفاء الراشدون، وفيهم العشرة المبشرون بالجنة، وفيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وفيهم مَسْلَمة الفتح، وفيهم مَن روى أحاديث كثيرة، وفيهم مَن لم يرو إلا حديثًا واحدًا، وفيهم مَن لم يرو شيئًا، وفيهم مَن لا يُعرف في كتب السير إلا اسمه، وفيهم الأعراب الذين هم حُدثاء عهد بإسلام.. فالناس ليسوا سواسية، فهنا لما قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: بهذا الفعل، بمعنى أن أصحاب السابقة والإيمان يُقدَّمون على غيرهم، وكذلك أصحاب العلم يقدَّمون على غيرهم(١).

وهنا لفتة إلى مكانة العلم والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦]، فليس تميز الناس بأنسابهم أو مجدهم الاجتماعي، كما قيل(٢):

فلا تحسبُ الأنسابَ تُنجيكَ من لَظَى ... ولو كنتَ من قَيْسٍ وعبدِ مَدَان
أبو لهب في النار وهو ابنُ هاشم ... وسلمانُ في الفردوس من خُراسان

وكما قيل(٣):

كن ابنَ مَن شئتَ واكتسبْ أدبًا ... يُغنيكَ محمودُهُ عن النَّسَبِ
إن الفتى مَن يقول: ها أنا ذا ... ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

وفي ذلك دعوة إلى تعظيم أهل العلم والإيمان، أما إن كانوا من السابقين،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: «مقامات عائض القرني» (ص١٨٧).

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧١٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢٦/ ٤١)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٠٠)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٦).

فهذا لا شك فيه، وخاصَّة ممن أثنى الله تعالى عليهم وجعل على أيديهم قيام الدين ونصرته وحفظ القرآن والسنة.

والكفر بالتاريخ هو كفر بالذات، وإذا اعتقدنا أن الأجيال السابقة ما استطاعت أن تُطبِّق الدين أو طبَّقته بطريقة محرَّفة، أو ما قامت به، فينبغي أن نعتقد أن مَن بعدهم أولى أن لا يقوموا بذلك، فيكون هذا في النهاية إنكارًا للذات نفسها، وجحودًا للرسالة ومرسلها، وتمهيدًا لصغار النفوس واستعدادها للإفتتان، وتحذيرًا للصراع داخل الدوائر الفاضلة والمنتخبة.

وفي هذا إثبات لما ينبغي من محبة أهل العلم، والثناء عليهم، وحسن الظن بهم، والدعوة لهم، وتكريمهم، وتجنب الوقيعة فيهم بالذم والسَّلْب والعيب والتنقص والازدراء، و«**لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا ذو الفضل**»، فإذا رأيتَ الإنسان يتجرَّأ على الأكابر والعظماء وأهل الفضل ويزدريهم أو يحتقرهم، فاعلم أن هذا من دناءة نفسه، ومن قلة العلم والأخلاق والذوق أيضًا.

ولا يلزم من هذا اعتقاد عصمتهم، ولا تحريم الردِّ عليهم فيما يخطؤون فيه من اجتهادات، فقد يَرُدُّ الإنسانُ على مَن هو أعظم منه وأكثر علمًا، وقد يأخذ من هذا العالم أو من ذاك، والعلماء ليسوا معصومين، ولا كهنوت في الإسلام، ولكن لا بد عند الردِّ والنقد أن يكون بأدب وعدل، لا يخالف التوقير والاحترام ورعاية الحقوق.

فيجب أن نوازن بين هذين الجانبين اللذين كثيرًا ما يُظن أنهما متعارضان، فتوقير أهل العلم واحترامهم وإعطاؤهم المكان اللائق بهم، لا يمنحهم العصمة فيما يصدر منهم من فتاوى وآراء واجتهادات، كما أن تسويغ نقدهم ومراجعتهم والاستدراك عليهم، ورد بعض ما يصدر منهم من اجتهاد مرجوح أو خطأ صريح، لا يبيح الاستهانة بقدرهم، ولا الاستخفاف بمكانتهم، والتوازن في هذا مسلك يدل على حسن التربية، وصدق اللهجة، وسلامة الصدر.

وعلى العالم أو الفقيه أن يكون قريبًا من الناس، موطَّأ الأكناف لهم، حسن

المعاملة، بعيدًا عن الكِبْر أو سوء الظنِّ، وألَّا تشغله الدنيا أو المناصب، أو يظهر للناس من أمره ما يدل على افتتانه بالمجد والرئاسة ومجالسة الكبراء، والمسارعة في استرضائهم؛ لئلا يكون هو المتسبِّب في سقوط جاهه عند الناس، أو الوقيعة في عرضه، أو سوء الظن به.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾:

هذا تشريع مؤقَّت، سببه: أنهم كانوا يكثرون من مجالسة النبي ﷺ ومناجاته، حتى في بيته، وقد يطيلون الجلوس بما يثقله ويشغله عن أعماله ﷺ، فأراد الله بهذا تأديبهم(١).

والمعنى: إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: قبل أن تناجوه تصدَّقوا بشيء على الفقراء أو المساكين(٢)، وفي هذا التقييد ترشيد لمناجاتهم، وتهدئة لهذا الاندفاع؛ إذ بعض المناجاة مما لا تستدعيه الضرورة ولا الحاجة، ويمكن قضاؤها بمناجاة غير الرسول ﷺ من أهل الحصافة والرأي.

والصدقة تطهير للقلب وللمال، كما قال سبحانه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولذا قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾، وهو دليل على أن هذا لم يكن واجبًا قطعيًّا، بل على سبيل الاستحباب والترغيب(٣)؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، وفي هذا إشارة إلى فئة أخرى من المؤمنين لم يكونوا بأهل يَسَار حتى يجدوا ما يتصدقون به، فخفَّف الله عنهم(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٢٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٤).

* ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أشار إلى فئة أخرى من حدثاء العهد بالإسلام استثقلوا التصدق، فقال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ﴾ يعني: عجزتم أو خفتم من الفقر أو غيره، فلم تقدِّموا هذه الصدقات التي أُمرتم بها[(١)]، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾، ولم تتصدَّقوا ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: خفَّف عنكم، كما قال في «سورة التوبة»: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ١١٧]، فالتوبة هنا قد تعني: تخفيف الأمر[(٢)].

والآيتان نزلتا معًا، مما يدل على أن الأمر ليس فيه نسخ من الوجوب إلى الاستحباب، وإنما خُفِّف في السياق نفسه[(٣)]؛ ولهذا يقال: إن هذه الآية لم يعمل بها أحدٌ قط، إلا ما رُوي أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «هذه الآية ما عمل بها أحدٌ، ولا يعمل بها أحد بعدي». فإن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما نزلت هذه الآية كان عنده دينار، فصرفه اثني عشر درهمًا، وكان يتصدَّق على فقير، ثم يناجي النبي ﷺ[(٤)].

وقد يكون عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل ذلك على سبيل البركة وامتثال أمر الله تعالى، وإلا فإنه زوج بنت رسول الله ﷺ، والنبيُّ ﷺ يزورهما في بيتهما.

والمقصود تعظيم مقام النبي ﷺ؛ لأنه بين أظهرهم، وهو مَن هو في التواضع ولين الجانب والحياء من الناس، ولذا تولَّى الله حفظ مقامه وتأديب أصحابه ومجالسيه ببعض حقه الشريف ﷺ، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٢)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص٣٩٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٦).

(٤) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (ص٢٥٩)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٢١٢٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٣)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٦)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٥٩٦).

ﭐلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: فهذه هي الواجبات الأصلية والأركان العملية، والتي منها الصلاة، ومنها الزكاة الواجبة للفقراء والمساكين، ومنها طاعة الله وطاعة رسوله.

* ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

هذا المقطع الأخير من السورة، وهو متصل بما ذكرنا من تداخل الطوائف المختلفة في المجتمع المدني، ووجود بعض الضعفاء الذين لم يتحرَّر ولاؤهم خالصًا للإسلام وأهله، فهم على علاقة مع المنافقين أو مع اليهود أو مع الوثنيين، بحكم القرابة أو الجوار أو الشراكة أو الصداقة السابقة، ونحو ذلك، وقد قبسوا شيئًا من الإسلام أو حاولوا، ولكن لم يتحرَّر هذا الولاء عندهم، فجاءت هذه الآية لتعالج هذا الموضوع.

والآيات نزلت- كما يقول المفسرون- في قوم من العرب تولَّوا اليهود(١)، ولم يصرِّح السياق باسم اليهود الذين كانوا يوالونهم(٢)، لكن الغالب أن لفظ الغضب في القرآن يُطلق على اليهود(٣)؛ ولهذا قال هنا: ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾، فهؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم ليسوا عربًا مثلهم، فيكون بينهم القرابة والنسب، وليسوا مثلهم في الإسلام، فهؤلاء يُظهرون الإسلام، وأولئك يُظهرون الكفر بالله ورسوله(٤).

ويجوز أن يكون المعنى: أن هؤلاء القوم- كما قال تعالى في موضع آخر-: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: ١٤٣]، أي: ليسوا مع

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٨).

(٣) وفي الحديث المرفوع: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم». وقد تقدم تخريجه في «سورة الفاتحة»: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٨).

المسلمين، وليسوا مع أعداء المسلمين، بل هم متردِّدون متذبذبون(١)، كما في قول النبي ﷺ: «**مثلُ المنافق، كمثَلِ الشاة العائِرَة بين الغنمين تَعِيرُ إلى هذه مرةً وإلى هذه مرةً**»(٢). أي: ليست مع هذه الرعية، ولا مع تلك الرعية، فهي ضائعة بينهما(٣).

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: **والمقصود هنا**: المنافقون(٤)، يكذبون ثم يحلفون بالله على الكذب، فجمعوا ثلاث سوآت؛ **الأولى**: الكذب، **والثانية**: أن الكذب وقع منهم عن قصد؛ لأن الإنسان قد يقع منه الخطأ وهو لا يعلم، وفي لغة أهل الحجاز يُطلق الكذب على الخطأ(٥)، **والثالثة**: أنهم يحلفون بالله على ذلك الكذب. والفعل المضارع يدل على أن هذا وقع منهم مرارًا لا مرة(٦).

وإذا كان مذمومًا أن يكثر المسلم من الحلف، ولو صادقًا، كما يدل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، فيحلف على الحقير والجليل، والصغير والعظيم، فكيف بمَن يحلف على الكذب، ثم يكثر من الحلف، حتى يصبح عادة لسانية، تدل على استهانته بالله وبآياته.

وإذا كان النهي ورد عن كثرة الحلف، حتى مع الصدق، فكيف بمَن يحلف كاذبًا، ثم يكرِّر ذلك؟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١- ٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٨٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧/ ١٢٨)، و«عمدة القاري» (١٦/ ٦٩)، و«فيض القدير» (٥/ ٥١٥- ٥١٦).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٥٢)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٤٠).

(٥) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٠٣)، و«لسان العرب» (١/ ٧٠٩) «ك ذ ب».

(٦) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٩)، وما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾.

وإذا كان الحلف الواحد على باطل قد يكون يمينًا غَمُوسًا يغمس صاحبه في النار[1]، فكيف بمَن هذا ديدنه؟

فهؤلاء توعَّدهم الله بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

والعذاب الشديد قد يكون في الدنيا بما كتب الله تعالى لهم من الذلّ والهوان والغلبة، وهو أيضًا في الآخرة[2].

وقال بعضهم: إنه عذاب القبر[3]، حتى لا يكون في الآية تكرار؛ لأنه بعد ذلك قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

والأَوْلى أنه يشمل كل ما سوف يُعذَّبون به في الدنيا، من عذاب الذل والهوان والخسف الذي سوف يصيبهم، وعذاب القبر، وعذاب الآخرة، وأشده عذاب الآخرة، ولذا نص عليه فيما بعد على وجه التحديد.

* ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾:

هذا تفريع على قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأها الحسن البصري، وأبو العالية: (اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً) بكسر الهمزة[4]، أي: تظاهروا بالإيمان، حتى يخادعوا المؤمنين، وتستقيم حياتهم المعيشية، وربما أرادوا الكيد والمكر والخديعة، وليسوا بمؤمنين[5].

وقراءة الجمهور: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ بفتح الهمزة، جمع: يمين، أي: اتخذوا

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٩٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٠)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣١٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٧٨).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٢٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٠)، وما سيأتي في «سورة المنافقون»: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

من القَسَم بالله وقايةً يتسترون بها من المسلمين، ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: صدُّوا بأنفسهم، وصدُّوا غيرهم عن الحق بهذا الفعل الشائن، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وعبَّر بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ ليتناسب مع استهانتهم بالله وباسمه العظيم، وزجِّهم باليمين الكاذبة في غير مناسبة؛ فكان الجزاء من جنس العمل[1].

* ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾:

وهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾؛ حتى يقوا أنفسهم، ويحافظوا على أموالهم وأولادهم، وعلاقاتهم الأسرية والاجتماعية، فبيَّن أن الأموال والأولاد التي من أجلها فعلوا ما فعلوا لن تنفعهم من الله، وحتى لو كان أولادهم صالحين، كعبد الله ابن عبد الله بن أُبيٍّ ابن سَلُولَ، فالأبناءُ ناجون عند الله، ولكن لا يغنون شيئًا عن آبائهم، وقد يرثون أموالهم وينفقونها في سبيل الله، فينعمون بها في الدنيا والآخرة، ويُعذَّب بها الآباء الذين اكتسبوها باليمين الكاذبة وبالنفاق.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن قيمة الإنسان بالعمل، وليست بمجرد المال، أو النسب، أو الولد، وإنما المال والنسب والولد والمكانة تنفع الإنسان إذا أحسن توظيفها واستخدامها، وإلَّا فقد تكون وبالًا عليه، كما قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[2] [الأنفال: ٣٦].

* ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾:

لأنهم أدمنوا الحلف الكاذب، فأصبح عادة وشهوة لا يصبرون عنها، فيقع منهم يوم القيامة، فيحلفون بالله كما يحلفون من قبل في الدنيا للمسلمين على

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٧١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٤٩- ٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٢/ ٣١٧)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٨١)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (١/ ٥٦٩)، و«تفسير السعدي» (ص١٤٤).

الكذب[1]، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ الذين ما زالوا يكذبون ويتحرَّون الكذب ويسارعون فيه، حتى كُتبوا عند الله من الكذَّابين الذين صار الكذب سيماء وعلامة وصبغة تصبغ شخصياتهم، وليس مجرد فعل عارض يتوب الإنسان منه ويندم.

* ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: أن الشيطان استولى وسيطر عليهم من كل جانب[2]، وفي الحديث: «**ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إِلَّا قد استحوذَ عليهمُ الشيطانُ؛ فعليكَ بالجماعة؛ فإنما يأكلُ الذئبُ القاصيةَ**»[3].

والأَحْوذ والأَحْوذي هو: القوي الغالب[4]، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان واللهِ أحوذيًّا، نسيجُ وحدِه»[5].

وبهذا صاروا من جماعة الشيطان الذين استسلموا له وأعطوه القياد ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧١٠، ٢٧٥١٤)، وأبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٢/ ١٠٦)، وابن خزيمة (١٤٨٦)، وابن حبان (٢١٠١)، والحاكم (١/ ٢١١، ٢٤٦)، (٢/ ٤٨٢)، والبيهقي (٣/ ٧٧) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٥٦٣)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٨٧) «ح و ذ»، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٤).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠٥٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٦٨)، والحارث (٩٦٦- بغية)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٩١٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣١٨)، والقَطِيعي في «جزء الألف دينار» (٣٣٣)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٤٨) (١٨٥)، والبيهقي (٨/ ٣٤٩).

فمع تحزبهم واجتماعهم الذي هو مظنة الربح، إلا أنه حكم عليهم بالخسران المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأن اجتماعهم كان على حرب الله وحرب أوليائه، ومن حارب الله فليبشر بسوء النهاية مهما ظنَّ غير هذا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾:

أي: يتخذون حدًّا آخر غير حدِّ الله ورسوله، أو المعنى: يحاربون الله ورسوله، كأنهم استخدموا السلاح والحديد لمحاربة الله ورسوله[1].

وهم هنا يحاربون الرسول ﷺ، أو يحاربون المؤمنين، لكنهم في واقع الأمر يحاربون دين الله؛ لأن هذا مؤدَّى ما يفعلون، والله غالب على أمره، فمهما كانت كثرتهم وسلاحهم، إلا أنهم يُهزمون ويُخذلون، فيلحقهم الذُّل في الدنيا، والخزي في الآخرة.

و لم يقل: «ذليلون»؛ بل قال: ﴿فِى ٱلۡأَذَلِّينَ﴾، والأذل: هو الأكثر ذلةً، وإن كان كل الكافرين تلحقهم ذِلَّة، إلا أن بعضهم أشد من بعض ذلة حسب درجتهم في الكفر ومحادتهم لله ولرسوله ﷺ.

ولم يقل: «هم الأذلُّون»، وإنما قال: ﴿فِى ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ يعني: أنهم داخلون في عداد ناس كثيرين من ﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾، فليس لهم شأن ولا وزن ولا قيمة ولا اعتبار ولا ذكر، فهم منسيُّون ضمن هؤلاء الأذلين[2].

وهي سنة جارية لا تتخلف مضت على أقوام وأمم وطغاة لا يعلمهم إلا الله، والناموس لا يتخلَّف، ولكن الناس يغفلون عنه، ويغترُّون بالقوة العابرة أو الظهور الوقتي.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٤). وما تقدم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥﴾.

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٥٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٦).

* ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾:

﴿كَتَبَ﴾ أي: قضى وقدَّر وأنزل(١)، فهذا يعطي قوة عظيمة للمؤمنين ويعزِّز الإيمان في قلوبهم، ويدعو الضعفاء والمتردِّدين إلى أن يحسموا أمرهم وخيارهم إلى الإيمان والإسلام.

وعقَّب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ تأكيدًا للوعد، فالغلبة هنا تكون بالحجة والبيان والبرهان، وهذا دائم في كل وقت، والغلبة تكون كذلك بالقوة والسلطان، وإن كان يتفاوت بحسب المبلِّغين عن الله ورسله، وقوة حجتهم، وتمام معرفتهم، وجودة لغتهم، واستيعابهم لمعطيات عصرهم(٢).

وهذا يكون متى توفرت أسبابه، ويكون لرسل الله الذين بُعثوا بالقتال والجهاد، كموسى ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإن الله تعالى كتب لهم القوة والغلبة والانتصار، وأذلَّ أعداءهم، أما الرسل الذين لم يُبعثوا بمثل ذلك، كعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه لم يُبعث بقتال، فهؤلاء كتب الله لهم القوة والغلبة من جهة أن دينهم كُتب له الخلود والبقاء، وأن يقفِّي على آثارهم برسل يحيون شريعتهم وذكرهم ويجدِّدون عقيدتهم، كما جاءت رسالة محمد ﷺ لتعزِّز عيسى ودعوته ومكانته.

أما من بعد الرسل، فإن الله تعالى يكتب العزة والقوة للمؤمنين، بحسب ما يتحقَّق فيهم من الإيمان والتجرُّد والصفاء وصدق النية والامتثال للشروط الشرعية التي منها مراعاة السنن، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [الأنفال: ٦٦].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٦٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٧)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٨).

* ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

وهذا يعني استحالة أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر حقَّ الإيمان، ثم يقع في قلوبهم موادة، أي: تبادل الودِّ والحبِّ مع مَن حادَّ وحارب الله ورسوله وحارب المؤمنين[1].

وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ حتى عدَّ بعضهم اثني عشر تعرَّضوا لبعض قرابتهم في ساحة القتال، كأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونُقل ذلك عن أبي عُبيدة بن الجرَّاح أنه قتل أباه في المعركة، وجماعة من الصحابة كانوا في معركة بدر وأُحد وغيرها لا يتحاشون من أقربائهم الذين يكونوا في العُدوة الأخرى مع الجيش الكافر أن يقاتلوهم[2].

ولا يصح أن الآية نزلت في خصوص هؤلاء، وإنما المقصود أن هذا مما يشتمل عليه معنى الآية، علمًا أن بعض هذه الأخبار والقصص- وإن توارد عليها المفسرون- ليس لها أصل، كقصة أبي عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبيه، وأنه قتله في معركة بدر، وهي في عامة كتب التفسير، مع أن المحقِّقين من أهل العلم والسِّير أنكروها، وذكروا أن والد أبي عُبيدة مات قديمًا بمكة قبل الإسلام أو قبل الهجرة، ولم يشهد بدرًا[3]، وإنما تناقل الناس مثل هذه المعاني دون تحقيق، كشأن القصص والأخبار.

وهذا المعنى من حيث الجملة صحيح، ولا يستكثر ذلك على أتقياء المؤمنين، والله تعالى ذكر قصة نوح وولده، وقصة إبراهيم وأبيه، وقصة لوط وزوجه، وما فيه

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٥٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٥٨).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٤).

(٣) ينظر: «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص١٢٤).

أن الإيمان يفصل ما بين المؤمنين وما بين الذين يحاربون الله ورسوله ويعادونه، إلا أن كثيرًا من الشباب يغفلون عن معنى شرعي آخر؛ وهو حقوق الوالدين، وخاصةً حينما يكونان مسلمين.

على أن الموالاة والموادَّة على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: موادة المشركين والكافرين لشركهم، وما يترتب على ذلك من الرغبة في انتصارهم، وأن يكون هوى الإنسان وميله إليهم ومعهم، فهذا كفر وشرك؛ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

الضرب الثاني: نوع من الموالاة والموادة المحرَّمة، ولكنها دون الشرك، مثل: ألا يكون عنده الميل والهوى القلبي إلى دينهم وملتهم، ولكنه قد يُسِرُّ إليهم ببعض المودة أو يفشي لهم بعض الأسرار أو يميل إليهم في بعض الأشياء دون الشرك، فهذه كبيرة من الكبائر.

الضرب الثالث: القدر المباح؛ وهو المعاملة الحسنة والقول الطيب والخُلق الكريم الذي أمر الله تعالى به، كما في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]، وفي شأن الأبوين قال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ يعني: لا يوادونهم؛ ولهذا لم يذكر هنا في هذا المقام التُّقاة أو التَّقِيَّة، كما في «سورة آل عمران»: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، والتُّقاة تكون بالفعل وبالقول عند الحاجة إليها، وأما القلب فلا مجال للتُّقاة فيه(١)؛ وهنا كان الحديث عن المودة وهي فعل القلب، قال: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾، وبدأ هنا بالتدرُّج بحسب درجة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣١٥)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٦)، و«تفسير الرازي» (٨/ ١٩٣-١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٠).

القرابة: الأب، ثم الابن، ثم الأخ، ثم العشيرة والقبيلة[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾: وإذا كان الله سبحانه هو الذي كتب الإيمان في قلوبهم، فمَن الذي يمحو أو يزيل هذا الإيمان؟ إنها شهادة لهم من الله بصحة إيمانهم وبقائه وموتهم عليه؛ لأنه تعالى كتبه، فلا يمحوه أحد، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: نصرَهم وعزَّزهم بلُطف ورحمة وفضل منه جلَّ وعز، ونور يقذفه في قلوبهم وعزة يجعلها في حياتهم وأعمالهم[2]، ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فهم صارموا[3] أقرب قريب في مرضاة الله، وتخلَّى بعضهم عن زوجاتهم، وهاجر بعضهم من وطنه وترك أسرته وأهله وأولاده، فعوَّضهم تعالى بجزاء من جنس أعمالهم وهو أنه ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فحينما سخط عليهم البعيد والقريب والزوج والوالد والولد والجار والعشيرة، عوَّضهم تعالى برضوانه عنهم، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، في مقابل ما فات عليهم من المصالح الدنيوية، وتركوا من الدور والمنازل والمكانات والعلاقات والتجارات في سبيل الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الصادقين هم جميعًا «حزب الله»، وأن هذا اسم تشريف مثل اسم الإيمان، ومثل اسم الإسلام والسابقة[4]، وغيرها من الأسماء التي لا ينبغي أن يُخصَّ بها أحد دون أحد من المؤمنين، فإن الأسماء العامة كهذا الاسم، أو أمة الإسلام، أو أمة المؤمنين، أو جماعة المسلمين، لا يجوز لأحد أن يختصَّ به، والاختصاص يفضي إلى اعتقاد أن مَن هم داخل هذا التكوين أو الجماعة هم الذين لهم الحق في هذا الاسم، ومَن

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٣)، و«الجدول في إعراب القرآن» (٢٨/ ١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦١).

(٣) التصارم: التقاطع. ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٩٦٥) «ص ر م».

(٤) كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خارجه فكأنهم من الحزب الآخر.. من حزب الشيطان؛ لأن السياق يُوحي بأن الناس حزبان؛ حزب الله أو حزب الشيطان؛ لأنه لم يذكر شيئًا ثالثًا في نهاية الأمر، فالأسماء القرآنية الشرعية ينبغي أن تظل على جلالتها وقداستها وإطلاقها، وألَّا يجرأ أحد على اختصاصها لنفسه، فكل المؤمنين حزب الله، وكل المؤمنين هم جماعة المسلمين.

وبعض مَن ينتحلون هذه الأسماء يعتقدون كفر الأمة، كجماعة التكفير والهجرة التي نشأت في مصر، وانتشرت إلى بعض البلاد العربية، وكانت تعتقد كفر الأمة، وأنهم وحدهم جماعة المسلمين[1]، حتى قال شاعرهم[2]:

من قبل الطوفان اسمعني يا عبدَ الله
واخرج من أرضك واتبعني في أرض فلاة
أرض في قلبي لم يُعبد فيها الشيطان
أرض في فكري أحمله في كل مكان
فاحمل أزوادك واتبعني يا عبد الله
يكفينا زادًا في الدنيا هذا القرآن
في أرض الهجرة يا صحبي طُهر وسلام
وفرار من سُخف الدنيا ومن الآثام
وحكومة عدل وأمان..
صدقني.. في الأرض الواسعة أمان!

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ومثله تسمية: «حزب الله»؛ فإنها نقل للاسم الشريف المتصل بقيم ومعانٍ إيمانية ربانية إلى جماعة ذات انتماء خاص، ومنهجية خاصة، ومواقف سياسية وعسكرية محدَّدة، تقاتل عن عقيدتها وطائفتها ومصالحها، وليس لها الحق في احتكار الاسم أو ادعائه.

---

(١) ينظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٣٣٣).
(٢) منسوبًا إلى زعيمهم: شكري مصطفى.

ويا لها من منزلة سامية وفضيلة نادرة أن يصف الله جماعة من عباده بأنهم حزبه، وفريقه، وأنصاره، فينسبهم لذاته الشريفة ويعدهم بالفلاح؛ وهو حصول المرغوب وزوال المكروه في الدارين[1].

○○○

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (١/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٨٢)، و«تفسير السعدي» (ص١٦٢).

سُورَةُ الحَشْرِ

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور في المصاحف، وكتب السنة: «**سورة الحشر**»[1].

وجاء ذلك في حديث مرفوع استحباب قراءة آخر ثلاث آيات منها، ولكنه حديث ضعيف[2].

وقد سماها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كما في «صحيح البخاري»-: «**سورة النَّضِير**»[3]، أو: «**سورة بني النَّضِير**»، وهي إحدى قبائل اليهود بالمدينة، والتي بسببها نزلت السورة[4].

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٢)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢٦٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٠٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٣٠٦)، والدارمي (٣٤٦٨)، والترمذي (٢٩٢٢)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (٢٣٠)، والثعلبي (٩/ ٢٨٩)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٨٨) من حديث مَعْقِل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**مَن قال حين يصبحُ ثلاثَ مرات: أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرَّجيم. ثم قرأ الثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعينَ ألفَ مَلَكٍ يُصلُّون عليه حتى يُمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومَن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة**». وينظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٦٣٢)، و«نتائج الأفكار» (٢/ ٤٠٥- ٤٠٦)، و«بلوغ المرام» (٣٤٢).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٢).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٨٢)، و«صحيح مسلم» (٣٠٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١٦).

* **عدد آياتها:** أربع وعشرون آية باتفاق العلماء(١).

* **وهي مدنية** باتفاقهم(٢).

* ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾:

استفتحت السورة كسائر المسبِّحات(٣) بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، ولعلَّ اختيار الماضي هنا؛ لأن موضوع السورة عن أمر مضى وانقضى؛ وهو نصر الله تعالى للمؤمنين وهزيمة بني النَّضِير اليهود المحاربين، فهي تتحدَّث عن نعمة وقعت وانتهت(٤)؛ ولهذا بدأت بالتسبيح: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وكأن هنا إشارة إلى جند الله المبثوثين في السماء والأرض، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ومن ذلك الملائكة، ومن ذلك النواميس الكونية، فهي من جند الله تعالى(٥)، وكل ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات فهي تُسبِّح الله(٦).

وجاءت الصيغة في بعض السور بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، وهنا قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن الحديث عن نعمة أرضية وقعت في الأرض، وفي المدينة تحديدًا، ورآها الناس وكان لهم فيها يد عاملة وسبب مباشر، فناسب أن يُكرر الاسم الموصول، ففيه عناية وحفاوة بالأرض وما فيها ومَن فيها(٧).

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٣).

(٣) والسور التي افتتحت بالتسبيح هي: «الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن».

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة المدثر».

(٦) كما في قوله تعالى في «سورة الإسراء»: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾.

(٧) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ومن الملاحظ أن السورة خُتمت بما بدئت به؛ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فالعزَّة واضحة هنا بالانتصار والغلبة والتمكين للمؤمنين، فهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القويُّ الذي بفضله تمكن المؤمنون شيئًا فشيئًا بعد أن كانوا يُعذَّبون ويُقتلون بمكة صاروا يملكون أقوى قوة في جزيرة العرب، وأما ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ففيه إشارة إلى حكمته سبحانه في تدبير الأمور والتدرج والتوقيت، فهذا من الحكمة.

وفي الجمع بين الاسمين العظيمين التفات إلى أهمية الحكمة والتعقل والفهم مع القوة، وأن القوة بلا حكمة لا يُؤْمَن معها أن تفضي للظلم والتعدِّي، كما أن الحكمة بلا قوة لا تدفع ولا تكاد تغني، ولذا كان اعتماد المؤمنين في حربهم مع بني النَّضِير على الحكمة والصبر وحسن التدبير أكثر من اعتمادهم على السلاح، فتحقَّق لهم في نهاية الأمر الانتصار، وكأن هذا تعليم للمؤمنين؛ لأن الله بأسمائه الحسنى يُعلِّمنا التخلُّق بالأخلاق الفاضلة، يُعلِّمنا أن نكون أعزَّاء أقوياء، ويُعلِّمنا أن نكون حكماء، وأن القوة من غير حكمة ترتدُّ على صاحبها، وأن الحكمة من غير قوة قد تكون ذلًّا وهوانًا(١).

* ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾:

الحديث في السورة هو عن نعمة الله بإجلاء بني النَّضِير من المدينة(٢)، وخَضْدِ شوكة الشِّرك والنفاق، وقد خرج قبلهم بنو قَيْنُقاع(٣)، وسوف يحدث لبني قُريظة بعدهم ما يحدث، **والمقصود هنا**: بنو النَّضِير خاصَّة، حيث أخرجهم الله من ديارهم

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٣، ٤٧)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٦٠، ٢٣٧).

(٢) وقد كان إجلاؤهم سنة أربع للهجرة، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٩٠).
وقيل: سنة ثلاث. ينظر: «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٠٤- ٣٠٥).

(٣) وكان إخراجهم في شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره ﷺ، وقيل: في صفر سنة ثلاث. ينظر: «إمتاع الأسماع» (١/ ١٢٢)، و«سبل الهدى والرشاد» (٤/ ١٧٩).

بالمدينة(١).

وقد كان آباؤهم وآباء بني قُريظة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمرهم أن يخرجوا من فلسطين إلى مقاتلة العَمَالِيق، فلم يحسنوا قتالهم، وفي هذه الأثناء مات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرجعوا إلى مساكنهم في أَرِيحا وما حولها، فقال لهم قومهم: خذلتمونا، ولم تقوموا بما أوجب الله عليكم، فلا تدخلوا ديارنا، فردُّوهم، فلجأوا إلى جزيرة العرب وصاروا مزارعين كبارًا، وصارت لهم قرى وحصون عظيمة.

ومن المعروف أن لبني النَّضِير ستة حصون معروفة يتمنَّعون بها(٢)، وتحولوا إلى تجار يملكون التجارة، وإلى مرجعية ثقافية وعلمية في البلد؛ حيث كانت الجزيرة تشهد فراغًا معرفيًّا وثقافيًّا ودينيًّا في أوساط الوثنيين، فوجدوا مستقرًّا لهم، وكان منهم كبار وسادة مشاهير من أمثال: حُيَي بن أَخْطَب، وهو من زعمائهم، وهو والد صفية بنت حُيَي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومنهم السَّمَوْأَل بن عَادِيَاء.

فهذا أصل قصة مجيئهم إلى المدينة، وبعضهم أقام بخيبر، وبعضهم بتَيْماء(٣).

أخرجهم الله تعالى من ديارهم ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، واللام هنا هي لام التوقيت، يعني: لوقت، أو في وقت، أو عند أول الحشر(٤)، و﴿ٱلْحَشْرِ﴾ معناه: الجمع(٥)،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٦).

(٢) وهي: حصن الكُتَيْبَة، والوَطِيح، والسُّلالِم، والنَّطَاة، والوَخْدَة، وحصن شَقّ، وسيأتي ذكرها قريبًا.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٤- ٢٨٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٩)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٣٤٣)، و«تاريخ مكة المشرفة» (ص٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٦).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٧)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٢٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٨).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٨٣)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٧)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤١٣) «ح ش ر».

وليس المقصود: حشر القيامة- والله أعلم- وإنما أول الجمع[(١)].

وقال بعض المفسرين: أخرجهم لأول مرة؛ لأن بني النَّضِير لم يقع عليهم جلاء وإخراج قبل ذلك[(٢)].

وقيل: أخرجهم من ديارهم لأول الحشر من المدينة، ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثنَّى ذلك فأخرج بقيتهم من خيبر إلى الشام، فكان ذلك هو الحشر الثاني[(٣)].

وقيل: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: لمنطقة الحشر، وهي بلاد الشام[(٤)].

والقول الرابع في المسألة: أن ذلك أول الحشر، ويتلوه حشر آخر، وهو ما قبل القيامة، حيث النار التي تحشر الناس، وتبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا[(٥)].

ولا مانع من إرادة هذه المعاني كلها: أن الله عَزَّوَجَلَّ أخرجهم وقد كانوا أعزَّة، وأخرجهم لأول مرة حيث لم يقع عليهم إخراج قبلها، وتتالى عليهم النفي بعد ذلك، حتى أخرجوا إلى بلد الشام.

بل يحتمل أن حشر اليهود سيكون في فلسطين التي هم يتجمعون إليها الآن، فإن خروج هؤلاء من جزيرة العرب هو مؤذن ببداية طويلة لتنادي اليهود من كل مكان إلى هذه المنطقة التي أذن الله لحكمة يعلمها أن يتجمعوا فيها؛ وهي فلسطين،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٩).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٧).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٩٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦٩- ٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢- ٣)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص٢٥٨).

فيكون معنى قوله سبحانه: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي: لبداية تنادي اليهود وتجمعهم وحشرهم، سواء كانوا مكرهين بسبب ما يقع عليهم من الاضطهاد الذي غالبًا ما يقع بسبب غدرهم ومكرهم وعدم وفائهم بالعهود، وهذا مناسب للسياق ويشهد له الواقع الذي نراه الآن في تنادي اليهود إلى فلسطين.

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا؛ لأنهم متمكِّنون، والمسلمون أهل المدينة وُلدوا وهم يشاهدون اليهود في قصورهم وحصونهم، فكانوا يستبعدون أن يقع عليهم جلاء يستأصل وجودهم ويزيح شرَّهم عن عاصمة الإسلام الأولى(١).

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: وهم أيضًا ما ظنوا أن يخرجوا، وظنوا أن حصونهم ستمنعهم، وهي قلاع مَنِيعة أُعدّت للحرب(٢).

وفي التعبير شيء من السُّخرية بهم، وإلَّا فمَن الذي يستطيع أن يمتنع من ربِّه، كما قال كعبُ بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٣):

زَعَمَت سَخينَةُ أَن تُغالِبَ رَبَّها ... ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

كانوا يمتنعون بأبراجهم العالية، ومبانيهم المشيدة، والتي لا تزال بعض آثارها باقية، ولا يقيمون وزنًا للأبعاد المعنوية والعقائدية، فحساباتهم مادية صِرفة، لا تهتم إلا باستعراض ما تملك من ترسانة الأسلحة والأدوات التي تعترض قذائف الخصم، كما يقع للصهاينة اليوم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٩٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٦).

(٣) ينظر: «ديوان كعب بن مالك» (ص١٨٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٦١)، و«طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٢٢).

وقد نُسب إلى حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أيضًا، كما في «العقد الفريد» (٦/ ١٤٦)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٤٦٦).

وكان لبني النَّضِير ستة حصون عالية معدَّة للحرب ومليئة بأنواع السلاح، وهي: حصن الكُتَيْبَة- مصغَّرًا- والوَطيح، والسُّلَالِم- بضم السين[1]- والنَّطَاة، والوَخْدَة، وحصن شَقّ، بفتح الشين[2].

وهم بهذه الحصون وما تحتويه من عتاد وذخيرة ورجال يُعَدُّون قوة ضاربة في الجزيرة، وخاصة الحجاز لا تقارن بها قوة أخرى.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي: هزمهم من حيث لم يكونوا يتوقعون، وكما أن الله يرزق المتقين من حيث لا يحتسبون، وينصر المؤمنين من حيث لا يحتسبون، فكذلك أَتَى بنيان هؤلاء القوم من حيث لم يحتسبوا، واستأصله من القواعد ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3] [النحل: ٢٦].

ولم يقل سبحانه: «يحسبوا»، وإنما قال: ﴿يَحْتَسِبُوا۟﴾؛ لأن حساباتهم كانت قويَّة دقيقة، وكانت هذه الحسابات من أسباب هزيمتهم، وكانوا يستعدون لحرب شوارع في المدينة، ويعدُّون العدَّة لها[4]، فقَذَفَ الله في قلوبهم الرُّعب، وأتاهم من منطقة القلوب بالهزيمة التي لا ينفع معها السلاح النووي، ولا الصواريخ والطائرات.

ولما فتح المسلمون حصون بني النَّضِير وجدوا ثلاثمائة وأربعين سيفًا،

(١) وقيل: بفتحها، ويقال: السُّلاليم.

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٣٧)، و«سنن أبي داود» (٣٠١٤)، و«الأحكام السلطانية» للماوردي (ص٢٥٥)، و«الأحكام السلطانية» لأبي يعلى الفرَّاء (ص٢٠٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٢٢٦)، و«معجم البلدان» (٢/ ٤٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٢٩٧-٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٨٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٦٥).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، والمصادر السابقة.

وخمسين درعًا، وخمسين بَيْضة[1]، وألوانًا من السلاح، وسيف ابن أبي الحُقَيق الذي أعطاه النبيُّ ﷺ سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]، كان عندهم ترسانة ضخمة بقياس ذلك العصر، لكنها لا تغني، وقد أراد الله هزيمتهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وكأنك هنا أمام قذيفة؛ لأن المقام مقام حرب؛ ولذلك استخدم لفظ «القَذْف» الذي يدلُّ على السرعة والمباغتة والقوة وعلى الاجتياح، وأن «الرُّعْبَ» ليس في زاوية من قلوبهم؛ بل هو مستولٍ عليها عن آخرها.

و«الرُّعب» أشدُّ «الخوف» الذي يصبح معه الإنسان غير قادر على أن يُفكِّر التفكير الصحيح المتروِّي، وإنما جُلُّ همه أن ينجو بنفسه[3].

وفي هذا مصداق ما أخبر به ﷺ أنه نُصر بالرُّعْبِ مسيرة شهر[4]، فما بالك بمسيرة بضعة أميال عن المدينة، وكما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾: قُرِئ: ﴿يُخْرِبُونَ﴾، و﴿يُخَرِّبُونَ﴾[5].

وقد جرت هذه الجملة القرآنية على ألسنة الناس مجرى المثل؛ فكثيرًا ما يستخدمه الناس في مناسبات شتى: «فلان يُخرب بيته بيده»، وهذا من إعجاز الله

---

(١) أي: بيضة الحديد التي يُغطَّى بها الرأس في الحرب.

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٧٧- ٣٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١١)، و«عيون الأثر» (٢/ ٧٣- ٧٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٨٢- قسم السيرة)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ١١٧)، و«سبل الهدى والرشاد» (٤/ ٣٢٤- ٣٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٠).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٥٦)، و«تاج العروس» (٢/ ٥٠٤) «ر ع ب»، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧١).

(٤) كما جاء من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٥، ٤٣٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢١).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٢- ٥٠٣)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٣٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٦٣)، و«حجة القراءات» (ص٧٠٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٨٦- ٣٨٧).

تعالى في فعله، وإعجاز الله في قرآنه، فهذه القصور الضخمة التي شيَّدُوها والبيوت التي سكنوها أصبحوا يخربونها.

وهنا سؤال: لماذا يخربونها بأيديهم؟

في الجواب عن هذا عدة وجوه:

١- من باب الحسد للمسلمين أن يستولوا عليها بعدهم، فكانوا يخربونها حسدًا.

٢- ليكون أسرع لهم للهرب، فإذا حوصروا نقضوا البيت وخرجوا إلى البيت الذي خلفه، وهكذا.

٣- من أجل أن يأخذوا منها ما يسدون به بعض الطرق؛ لأنهم كانوا يستعدون لحرب شوارع.

٤- إن النبيَّ ﷺ قد أمرهم بأن يُجلوا من المدينة، وأذن لهم أن يأخذوا حمل بعير، إلا السلاح؛ ولذلك صار الواحد منهم يهدم الجدار ليأخذ أنفس ما فيه، وهذا مردُّه إلى الحكمة وحسن التدبير حيث انقلبت قوة العدو قوة عليه[1].

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فيُخربون بيوتهم بأيديهم؛ لأنهم السبب في كل ما جرى من نقض العهد والميثاق والغدر، وكونهم أخربوها بأيدي المؤمنين؛ أن المؤمنين أيضًا كانوا يساهمون في إخراب بعض هذه البيوت، من أجل ما تقتضيه مصلحة الحرب[2].

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: البصائر والعقول[3]، انظروا لما جرى، وخذوا منه العبرة، و«السَّعيد مَن وُعظ بغيره»[4]، ولا شك أن في هذا عبرةً للمؤمنين

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٦٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٤-٢٥٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤-٥).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٤٥) من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورُوي مرفوعًا.

ليسلكوا طريقة النبي ﷺ في الصدق والوفاء بالعهد والميثاق، والحذر واليقظة وحسن التدبير والصبر والتوكل على الله تعالى وألَّا يعتمدوا على قوتهم، فكثيرًا ما يُؤتى القوم من جهة الهزيمة النفسية، وإذا وقع الرُّعب فلن ينفع معه سلاح، و«المنهزم لا يلوي على شيء»(١). أي: لا يلتفت إلى شيء.

وفيه عبرة لصاحب المال أن لا يغتر بماله مهما كثر، وكم من أزمة اقتصادية ضربت العالم أو بلدًا من البلدان الغنية، وكان ضحاياها البنوك والمؤسسات الكبرى والأثرياء الذين يعدون على رأس قوائم تجار العالم!

وفيه عبرة لصاحب العلم والدين؛ فإن هؤلاء القوم من أهل الكتاب ومع ذلك لما أعرضوا ما نفعهم علمهم.

وقد أخذ كثير من الأصوليين من الآية دليلًا وحجة للقياس في إثبات الأحكام الشرعية، أي: قياس النظير على نظيره إذا توفرت العلة(٢).

وهو استنباط صحيح، على أن الاعتبار أوسع من ذلك، والآية لم تكن في سياق حكم فرعي تفصيلي؛ بل دعت إلى الاعتبار السنني المآلي في النظر إلى عواقب الأمور، واستنباط سنن التمكين وسنن الزوال والانهيار والاعتبار بها؛ لئلا يؤتى القوم من مأمنهم، أو يخطئوا في حساباتهم.

* ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾:

«الجلاء» يختلف عن «الخروج»، فالجلاء هو: خروج جماعة من الناس بالقوة والإكراه من مكان معين، يخرجون بنسائهم وأطفالهم، ويسمى: جلاء، وإجلاء(٣).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢٦)، (٣/ ٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٣٨٥)، (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير القاسمي» (٥/ ٣٦٩).

(٢) ينظر: «تقويم الأدلة في أصول الفقه» (ص٢٦٣)، و«المحصول» للرازي (٥/ ٢٦)، و«روضة الناظر» (٢/ ١٦٨)، و«شرح تنقيح الفصول» (ص٣٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥- ٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٦).

وإنما أَجْلَى الرسول ﷺ بني النَّضِير لغدرهم وتآمرهم[1]، وكان في هذا التصرف غاية الحكمة حفاظًا على دماء المسلمين؛ لأنه لو كانت بينه وبينهم حرب لأصاب المسلمين بعض الضرر والقتل، والنبي ﷺ شحيح بأرواحهم، وكان ﷺ حريصًا أشد الحرص على تجنُّبِ القتال؛ لأن القتال كره، كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وكان يقول: «أيها الناسُ، لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ»[2]. فأعفاهم النبي ﷺ من القتل، وأمرهم بالجلاء، مع أن الجلاء لن يستأصل شرَّهم، ولن يقطع مكرهم، ولسوف يتآمرون مرة أخرى، وهذا معلوم، لكن هكذا كان مقتضى الحكمة، ولذا قال سبحانه في «سورة الأحزاب»: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

والمعنى: لولا أن الله قدَّر عليهم الجلاء لعذَّبهم بعذاب آخر غير الجلاء؛ مثلما عذَّب غيرَهم بالقتل أو بأي عقوبات أخرى[3].

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي: في الحالين لهم في الآخرة عذاب النار إذا لم يتوبوا[4]، فهذا الذي أصابهم هو يسير بالنسبة لعذاب الآخرة.

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾:

إشارة إلى آثار البلاد وقد هُدمت ودخلها الفاتحون الجُدد، وسبب ذلك كونهم جعلوا أنفسهم في شِقٍّ غير شِقِّ الله ورسوله فهزموا، ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، فهذا بعض عقابه تعالى لهم، وأعاد المضاف دون ذكر «الرسول»؛ لأن الأصل مشاقة الله، ومشاقة الرسول من توابع ذلك، فهي وإن كان فيها طيٌّ لذكر

---

(١) وذلك حينما حاولوا قتل النبي ﷺ حين ذهب إليهم يستعينهم في دية العامريَّيْن اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري. ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث ابن أبي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٣).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٦٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٦).

الرسول، إلا أن فيها تعظيمًا له من حيث المعنى(١).

* ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾:

هذه قصة وقعت في هوامش الحرب، فقد كان لليهود مزارع خارج الحصون يسمونها: البُويرة، ولا زالت معروفة، والمكان الذي هم فيه يسمى: الزُّهرة، وحين حاصرهم المسلمون خلت مزارعهم من حراستهم، فأحرق بعضَها بعضُ المسلمين، فصاروا يقولون: يا محمد، أنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال إحراق النخيل؟!(٢).

ولم يذكر الله التحريق، ولم يقل: «ما أحرقتم»، وإنما قال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، مما يدل على أن الإحراق كان محدودًا؛ ولهذا قال علماء السير: إن الذي أُحرق إنما هو نخلة واحدة، وقال بعضهم: أربع نخلات، وأكثر ما قيل: ست نخلات(٣).

ورُوي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن المسلمين إنما أحرقوا تلك النخلة؛ لضرورة الحرب وتهيئة الميدان للدفاع والمواجهة والمنازلة(٤).

ويظهر أن واقعة الإحراق ثابتة، ويدل لذلك قول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥):

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٥).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٠)، و«السيرة النبوية» لابن حبان (١/ ٢٣٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦١)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٣٨- ٣٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٦٣، ٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦)، و«تاريخ الخميس» (١/ ٤٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤٢)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٧٢)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٥).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٣٢٦، ٤٠٣٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٦)، و«ديوان حسان بن ثابت» (ص١١٨).

وهـانَ علـى سَـراةِ بَنـي لُـؤَيٍّ ... حَـريـقٌ بـالـبُـوَيـرَةِ مُستَطيرُ

البُويرة هذه منازلهم[(١)]، **وسَراة بني لُؤي**: زعماء قريش الذين تعاهدوا مع هؤلاء اليهود، يقول: هان عليهم لم ينصروا هؤلاء الناس كما وعدوا[(٢)].

وقوله: حريق بالبُويرة مستطير: لا يدل على أنه حريق كبير، ولكن من المعلوم أن من طبيعة جذوع النخل كثافة الدخان عند اشتعالها، فيتوهم الرائي أن ثَمَّ حريقًا واسعًا، وإذا اقترب وجد الأمر أهون من ذلك.

ثم رد عليه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب يقول[(٣)]:

أدامَ اللهُ ذلـك مـن صَنِيـع ... وحـرَّق فـي نواحيهـا السَّـعيرُ

فكان أبو سفيان يريد الشماتة بأن ينتشر الحريق في المدينة كلها، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قطع وحرَّق في بني النَّضِير[(٤)].

والأقرب- والله أعلم- أن التحريق كان للنخل المقطوع، أي: قطعوها ثم حرَّقوها.

والتحريق هنا قد يكون لإثارة الرُّعب في قلوب اليهود، وهو جزء من الحرب، وقد يكون للحاجة؛ ليستدفئوا بها أو يطبخوا أو نحو ذلك من المصالح المباحة، ولم يرد أن النبيَّ ﷺ أمرهم بذلك أو نهاهم عنه، وإنما نزلت الآية الكريمة التي تحتمل الوجهين[(٥)].

واللِّيْنَة: النخلة، وأصلها: لِوْنة[(٦)].

---

(١) ينظر: «معجم البلدان» (١/ ٥١٢).

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٧/ ٣٣٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٠٣٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٦)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ١٥٠).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٠٣١، ٤٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٦).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٥).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٣٩٣)، و«تاج العروس» (٣٦/ ١٣١) «ل و ن».

وبعضهم يقول: إن اللِّينة هي: النخلة، إلا البَرْني، أو العجوة(١).

وذكر الطبري أن كل نخلة هي لينة، وتُجمع على: ألوان؛ لأن أصلها: لِوْنة(٢).

ولا زال الفلاحون عندنا يسمُّون ثمر النخل قبل أن يصير تمرًا: لونًا.

ومعنى الآية: ما قطعتم من نخلةٍ لحاجة أو تركتموها فلم تقطعوها ولم تحرقوها، فهو بقدر الله(٣)، وهكذا عبَّر بلفظ الجمع: ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ إشارة إلى أن معظم النخيل لم يُقطع؛ لأنه سيكون للمسلمين، وسمَّى الله تعالى النخلة بالشجرة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فالشجرة الطيبة هي: النخلة، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في «الصحيحين»(٤)؛ ولهذا ورد وصف النَّخل بأنها: «الرَّاسِخَات في الوَحْل»، يعني: في الطين، «المُطْعِمَات في المَحْلِ»(٥)، أي: في المجاعة.

فما قطعتم من لينة، أو تركتموها قائمة على أصولها فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فيكون هذا إذنًا قدريًّا كونيًّا علم بعدما وقعت الواقعة أنه كائن بقضاء الله وقدره، أي: أن الله تعالى أذن به، كقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وبعضهم قال: هو إذن شرعي، بمعنى: أن الله تعالى أذن لهم بذلك وأباحه باعتباره من الاجتهاد المتعلِّق بملاحظة المصلحة لتسهيل حركة المقاتلين أو تدفئتهم أو إرعاب العدو وتيئيسهم من العودة إلى ما كانوا عليه(٦).

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٦- ٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٠٩- ٥١٠).

(٣) ينظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٨/ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٧).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

(٦) ينظر: «التفسير الوسيط» (١٠/ ١٣٥٢- مجمع البحوث الإسلامية).

والأقرب أنه كان مسكوتًا عنه، وهم فعلوه لمصلحة الحرب، وليس لغرض آخر.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: إشارة إلى أن تلك الشائعة التي أُذيعت وضُخِّمت وبُولِغ فيها، فيها خزي للفاسقين.

والمقصود هنا: اليهود الذين خرجوا عن طاعة الله وخرجوا عن العقد والعهد والميثاق، فسُمُّوا: فاسقين[1]، وكان أعظم سرٍّ في ذلك هو الغَدْر، ففيه دعوة المؤمنين أن يرعوا العهد والميثاق وأَلَّا يغدروا، كما كان النبيُّ ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يوصون قادة الجيوش بتجنب ذلك[2]؛ لأن الغدر والبغي مرتع مبتغيه وخيم.

وكما قال الشاعر[3]:

قضـــى اللهُ أن البَغْـيَ يصـرعُ أهله وأن علـى الباغـي تـدورُ الدَّوائـرُ

وفي الحديث الصحيح: «ما من ذنب أَجدرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدَّخرُ له في الآخرة، مِثْلُ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحم»[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٨).

(٢) كما في حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه، وفيه: «ولا تغدِروا». أخرجه مسلم (١٧٣١).

وكان النبي ﷺ لا يغدر، كما في حديث أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هرقل، وفيه: «فهل يغدر؟ قلتُ: لا». أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

وعدَّ الغدر من صفات المنافقين، كما في «صحيح البخاري» (٣٤، ٢٢٢٧، ٢٤٥٩)، و«صحيح مسلم» (٥٨). وينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣٢)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٢٢٦- ٢٢٧)، و«الرحيق المختوم» (ص٤٠٦).

(٣) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٣٦٦)، و«صبح الأعشى» (١٣/ ٣٤٨).

(٤) أخرجه الطيالسي (٩٢١)، وأحمد (٢٠٣٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١)، وابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (١)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٢٦٦)، وابن حبان (٤٥٥، ٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٦)، (٤/ ١٦٢) من حديث أبي بَكْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩١٨).

* ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من بني النَّضِير[1]، والسياق في حكم الغنيمة والفيء.

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾: الإيجاف هو: الإسراع والإيضاع[2]، والمعنى: ما أسرعتم إليه[3]، والرِّكاب هي: الإبل[4]؛ ولذلك لا يسمى: راكبًا إلا إذا كان على الإبل، أما إذا كان على الخيل فإنه يسمى: فارسًا[5]. وذلك لأن المحل المقصود قريب، والمسلمون لم يحتاجوا إلى قتال ولا حرب، وإنما كانت إرهاصات وحصارات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾، فالأمر من عند الله، وهو الذي سلَّطَ رسوله ﷺ على هؤلاء اليهود ونُصر بالرُّعب، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهذا من قدرته عَزَّوَجَلَّ مما لم تظنوا أنتم ولا ظنوا هم أن يقع.

وكان المسلمون قد سألوا رسولَ الله ﷺ عما تركه اليهود من أرض ونخل، هل يُقسم كما تقسم الغنيمة؟ فأنزل الله هذه الآية ليُبيّن أن حكمه مختلف، وأنه ليس للمقاتلين، كما في غنائم الحروب[6].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٨).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٦٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٣)، و«تذكرة الأريب» (ص٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص٣٢٠)، و«تفسير الجلالين» (ص٧٣٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٩/ ٤٢٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥١٢)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (٧/ ١٤) «ر ك ب»، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٧٩).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٧٣)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٢٧)، و«روح البيان» (٩/ ٤٢٥).

(٦) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٦)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٠٩).

* ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: سواء بني النَّضِير أو غيرهم، مثل فَدَك وخيبر وما بعدها؛ لأن هذه القرى تساقطت تباعًا في قبضة المسلمين[1].

والعادة أن هذا يحدث مع أهل القرى، أما أهل البوادي فإنهم في الغالب لا يقع منهم الفيء؛ لأنهم إذا حوصروا في مكان انتقلوا إلى غيره لسهولة الحركة وخِفَّتها، بخلاف أهل القرى فإنهم مضطرون إلى المكث في المكان ذاته والدفاع عنه أو تسليمه.

ثم بيَّن سبحانه قسمته، فقال: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، وكل شيء هو لله سبحانه؛ لكن المقصود: أن الأمر والحكم فيه لله وللرسول ﷺ[2]، وكان النبيُّ ﷺ يُنفق منه على أهله وأزواجه نفقة سنة، ويجعل ما بقي عُدَّة في الكُراع[3] والسلاح[4]، ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب الذين حُرموا الزكاة من أقارب النبي ﷺ[5]،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٤٦).

(٣) أي: الخيل.

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٢٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت أموال بني النَّضِير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا رِكاب، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفقُ على أهله نفقةَ سنة، وما بقي يجعله في الكُراع والسلاح، عُدَّةً في سبيل الله».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٦)، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص٢٥٣-٢٥٧).

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: الذين لا يوجد لهم أموال ولا عائل[1]، ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: ويدخل فيهم الفقراء[2]، ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: من الذين انقطعت بهم السُّبُل، ولا يجدون ما يصلون به إلى بلادهم[3].

ثم علَّل ذلك التقسيم بقوله: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾، و«الدُّولَة» بضم الدال، أي: لئلا يكون متداولًا محتكرًا بين الأغنياء فحسب[4]، ومثلها الأموال الضائعة التي ليست لأحد، والرِّكَاز: الذي يعثر الناس عليه مدفونًا، والمعادن التي ليس لها مالك خاص، وهي ملك لله ولرسوله وللمؤمنين يعطون منها بحسب بلائهم وبحسب سابقتهم، كما رُوي ذلك عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

وهذا كله المقصود منه تقارب الطبقات؛ لئلا يزداد الغني غنى والفقير فقرًا، ويكون المجتمع منشطرًا إلى فئة تملك كل شيء، وفئة لا تملك شيئًا.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾: يجوز أن يكون المعنى: وما آتاكم من المال أو من الفيء فخذوه، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ حتى ولو كان قضيبًا من أَراك[6]؛ ولهذا سماه: غُلولًا، كما في قوله: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [آل عمران: ١٦١].

أو يكون معنى الآية أوسع من ذلك: فما آتاكم الرسول من الأمر والنهي والحكم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٥) «س ب ل»، و«روح البيان» (٩/ ٤٢٧)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٢٣٨)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٥- ٨٦).

(٥) ينظر: «شرح الطيبي على مشكاة المصابيح» (٩/ ٢٨٠٠)، و«الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (٦/ ٣٧٣).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٠٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٦).

والتشريع، فعلى المسلمين أن يأخذوه[1].

ولهذا يستدل العلماء بالآية على وجوب طاعة الرسول ﷺ، وعلى أن السُّنَّة تشريع يجب العمل به؛ ولهذا استدل بها الصحابة والتابعون والأئمة على كثير من الأحكام التي وردت مجملة في القرآن أو لم ترد أصلًا؛ كتحريم كل ذي نابٍ من السِّباع، وكل ذي مَخْلَب من الطير، وإلحاق الرَّضاعة في أحكامها بالنَّسب، فيحرم منها ما يحرم منه.

وورد أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى رجلًا محرمًا وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا! فقال الرجلُ: أتقرأ عليَّ بهذا آية من كتاب الله؟ قال: نعم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2].

ومثله: لَعْنَ الواصلةَ والمستوصلةَ والواشمةَ والمستوشمةَ[3].

والشافعي استدل بهذا في أشياء كثيرة مما لم يرد في القرآن؛ ولكن ورد فيه نص من السنة النبوية[4].

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٧)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٧٧)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢٤٨).

وأخرجه الآجري في «الشريعة» (١٠٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١/ ٢٤٩) (٨٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٣٨) عن عبد الرحمن بن يزيد. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٤٠).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٢٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لعن اللهُ الواشمات والمستوشِمات والمتنمِّصات والمتفلِّجات للحُسن المغيِّرات خلقَ الله». فبلغ ذلك امرأةً من بني أَسَد يُقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني عنك أنك لعنتَ كَيْت وكَيْت! فقال: وما لي ألعنُ مَن لعنَ رسولُ الله ﷺ، ومَن هو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحين، فما وجدتُ فيه ما تقولُ! قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري. فذهبت فنظرت، فلم تر من حاجتها شيئًا، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها. يعني: في البيت.

(٤) ينظر: «الأم» (٧/ ٣١٤)، و«سنن البيهقي» (٥/ ٣٤٧)، و«الشافي في شرح مسند الشافعي» (٣/ ٣٩٥)، والمصادر السابقة.

ويدخل في ذلك ما يتعلق بقسمة الفيء.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، وأكَّد على شدة عقاب الله لمَن خالف تقواه وتجرَّأ على عصيان رسوله ﷺ، وفيه إشارة إلى أن المال فتنة، فليحذر المسلم من أكله من غير حِلِّه.

* ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾:

أي: من مصارف الفيء هؤلاء الفقراء المهاجرون[1]، وفقرهم بسبب خروجهم طاعة لله ولرسوله، وإلا فهم أغنياء في بلادهم.

وهم بهذا الاعتبار يُشبهون أبناء السبيل؛ لكن الله تعالى خصَّهم وأثنى عليهم، فهم الذين استحقوا النصر، وأن تقاتل معهم الملائكة، وأن ينصرهم الله بالرُّعب؛ ولهذا جعل الله محبة هؤلاء الصِّدِّيْقين والثناء عليهم وذكرهم الحسن سيماء لمَن رضي عنهم وأرضاهم واختارهم من عباده، فلا يحبهم إلا مؤمن ولا يُبغضهم إلا منافق، لا سيما بعد أن أثنى الله تعالى عليهم في كتابه وأشاد بهم هذه الإشادة العظيمة، وأثنى على صبرهم على ما أصابهم من الفَاقة بسبب الهجرة في سبيل الله، وقد كان لهم ديار وأموال في مكة، لكنهم فضَّلوا عليها الإسلام، وآثروا الله تعالى ورسوله وطاعته على الدنيا فأُخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾.

والتعبير بالفعل المضارع دليل على أن إخراجهم وإن كان فعل عدوهم، إلا أنه كان باستطاعتهم تلافيه لو أرادوا التفريط في دينهم، ولكن ابتغاءهم فضل الله ورضوانه عرَّضهم لتلك الحرب التي أخرجتهم من ديارهم وأموالهم مع حبهم لها إيثارًا لحبِّ الله ورسوله.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ فهم جيل استثنائي يُثني عليهم الله سبحانه، وهو الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٦٧).

يعلم بواطنهم وظواهرهم بهذا الثناء المستفيض المطوَّل المفصَّل.

وهذه آية ينبغي أن نقف عندها ونستلهم منها حبَّ أصحاب محمد ﷺ، وأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه، فهم جيل لن يأتي بعده مثله، ولذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، فأي مدح فوق ذلك؟!

ووصفهم بالصدق.. صدق القلوب، وصدق الألسنة، وصدق الأعمال، والله سبحانه أمرنا أن نكون معهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

ومن هنا كان إجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حجَّة عند العلماء، كما ذكر ذلك ابن حزم وابن تيمية وغيرهما(١).

واختلفوا في إجماع مَن بعدهم، وإن كان الجمهور على اعتبار الإجماع(٢)؛ لكن إجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ له ميزة وخصيصة عظيمة مع وضوحه وانضباطه وصلته القريبة بزمن التشريع ونزول الوحي وقرب عهدهم بالنبوة مما يقتضي قوة إدراكهم لمقاصد التشريع ومراميه، مع سلامتهم من الأهواء والمرادات المخالفة للحق.

* ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾:

بدأ الثناء على المهاجرين؛ لفضلهم وسابقتهم، ثم ثنَّى بالثناء على الأنصار؛ إما لأن لهم جزءًا من الفيء، وقد أعطى النبي ﷺ ثلاثة من الأنصار من الفيء، أعطاهم لفقرهم أو لسبب آخر، ولم يعط بقية الأنصار من باب تصحيح الوضع الاقتصادي في المدينة؛ لأن المهاجرين لم يكن عندهم شيء بسبب خروجهم من

(١) ينظر: «الإحكام» لابن حزم (٤/ ١٤٧)، و«مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥٧)، و«معالم أصول الفقه» (ص١٥٨).

(٢) ينظر: «روضة الناظر» (١/ ٣٧٨)، و«الإبهاج في شرح المنهاج» (٢/ ٣٥٣)، والمصادر السابقة.

بلادهم، وأهل المدينة الأنصار كانوا أهل زَرْعٍ وضَرْع ولهم بيوت ومزارع، فكان المهاجرون في حاجة إلى أن تكون لهم أصول ثابتة يستعينون بها على معاشهم وحياتهم الاقتصادية، وكذلك لتحقيق: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾، وهذا مقصد اقتصادي أخلاقي عظيم[1].

ومعنى ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ أي: كانت مباءة لهم، يبوؤون إليها، أي: يعودون إليها، و﴿الدَّارَ﴾ هي: المدينة[2]؛ ولذلك صار من أسمائها: الدار.

وهل إيمان الأنصار قبل المهاجرين؟

كلا! ولكن المعنى- والله أعلم- أنهم جمعوا الثنتين معًا قبل غيرهم، يعني: هم اجتمع فيهم تبؤو دار الهجرة والإيمان معًا قبل المهاجرين، المهاجرون تبوؤوا الإيمان من قبل؛ لكن ما كان عندهم دار مستقرة، أما من اجتمع لهم الدار والإيمان معًا فكانوا هم الأنصار[3].

وهذا يوحي بأهمية الدار للإيمان، وكأن الإيمان يفتقر إلى دار تؤويه وتحفظ أهله، وإلا أصبح معنى فرديًا غير متمكّن.

ويحتمل الإشارة إلى أن الأنصار بدأ فيهم الإسلام قبل الهجرة، كما هو معروف، وبايعوا النبيَّ ﷺ، وأرسل إليهم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم فشا الإسلام في بيوتهم.

وقد يكون ذلك على سبيل التسامح في العبارة، كما قال بعضهم[4]:

ورأيتِ زوجَكِ في الوَغى ... متقلِّدًا سيفًا ورُمْحَا

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٧٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٠).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٨).

(٤) ينظر: «شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى» (ص٣٢)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢١، ٤٧٣)، (٣/ ١٢٣)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص١٣٦)، و«الكامل في اللغة والأدب» (١/ ٢٦٤).

والتقلُّد يكون لأحدهما.

ومثله قول الآخر(١):

قالوا: اقترح شيئًا نجد لك طَبخُهُ   قُلتُ: اطبُخوا لي جُبَّةً وَقَميصا

أو يكون المعنى: أن الإيمان أصبح دارًا وسكنى لهم تسكن إليه قلوبهم كما تسكن أجسادهم إلى بلادهم(٢).

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: وما أعظم هذا الثناء الإلهي، فلم يصفهم بالرضا عن إخوانهم المهاجرين أن يشاركوهم في مدينتهم وممتلكاتهم؛ بل زادوا على ذلك محبتهم؛ ولهذا كان الإخاء بين المهاجرين والأنصار مضرب المثل لكل مؤمن صادق ولكل تآلف أو تحالف.

وما أجمل تمثُّل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقول الطُّفَيل الغَنَوي(٣)، وهو يثني على الأنصار:

جزى الله عنا جعفرًا حين أَزْلَقَتْ   بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّت

أَبَوْا أن يملُّونا ولو أن أُمَّنا   تُلاقي الذين يلقون منا لملَّت

هم خلطونا بالنفوس وألجئُوا   إلى حُجُرات أدفأت وأظلَّت

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يجد الأنصار في صدورهم وَجْدًا ولا حسدًا ولا غِلًّا ولا ضيقًا مما أوتي أولئك المهاجرون(٤)، وذلك أن الرسول ﷺ جعل غالب أموال بني النَّضِير للمهاجرين، فلم يقع هذا في نفوس

---

(١) ينظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» (ص٢٦٥)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٤٥٥)، و«معاهد التنصيص» (٢/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٠).

(٣) ينظر: «الأم» (١/ ١٨٩)، و«حلية الأولياء» (٩/ ١٥٣)، و«معرفة السنن والآثار» (١٤/ ٤٨٩)، وما سيأتي في «سورة المنافقون»: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٢٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٢٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٦٩).

الأنصار؛ بل إن النبي ﷺ لما أراد أن يُقطع للأنصار من البحرين - منطقة الأَحْساء- قالوا: لا، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها(١).

إنها حالة إنسانية راقية رائعة نادرة في البذل والاستعلاء على حظوظ النفوس والمطاولة في ذلك دون ملل ولا تذمر ولا ضجر، ولا استثقال، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: والإيثار: أن تجعل حظ الآخرين من الشيء قبل حظك(٢)، والآية نزلت في الأنصار، وورد أنها نزلت في أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصَّةً؛ لما جاء ضيف النبي ﷺ فلم يكن عند أزواجه شيء، فذهب مع أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال لامرأته: ضيفُ رسولِ الله ﷺ، لا تدَّخريه شيئًا. قالت: والله، ما عندي إِلَّا قُوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبيةُ العَشاءَ فنَوِّميهم، وتعالَي فأَطْفئي السراجَ ونَطْوِي بطُوننا الليلةَ. ففعلت ثم غَدَا على رسولِ الله ﷺ فقال: «**لقد عَجِبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ- أو: ضحك- من فلان وفلانة**». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الآية(٣).

فهذه مقامات النبل الأخلاقي، والاستعلاء على الحاجات الذاتية، والانحياز للصديق والرَّفيق والجار والشريك، أو الانحياز للفريق والمجموع ولو على حساب المصالح الفردية.

فهنا أثنى على الأنصار بالإيثار، وهو مقام أعظم مما مدح الله به قومًا آخرين بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨].

فإن هؤلاء يحبون المال والطعام، ويطعمونه غيرهم، أما الأنصار ففوق الحب هم يحتاجونه وبهم إليه فاقة ملحة وخصاصة، ومع هذا يقمعون دوافع الأَثَرة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٧٦، ٣٧٩٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٣٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «الأسماء المبهمة» للخطيب (ص٣٩٨- ٤٠٠)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن بشكوال (١/ ٤٥٥- ٤٥٧)، و«فتح الباري» (٧/ ١١٩)، (٨/ ٦٣٢).

والأنانية ويقدِّمون غيرهم عليهم!

ولم يكن قصدهم أن يُثنى عليهم بهذا، كما كان عين الحال عند بعض العرب في الجاهلية، بل حبًّا في الله ورسوله وكَرَم أخلاقٍ جُبلوا عليها، ولذا قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فهم قد وقوا شُحَّ أنفسهم فوعدهم بالفلاح.

والفرق بين «الشُّحِّ» و«البُخْل» دقيق، وبعضهم قال: هما مترادفان[1].

وقيل: **البخل**: الامتناع من إخراج ما حصل عندك، **والشُّح**: الحرص على تحصيل ما ليس عندك.

وقيل: **الشُّحَّ** معنى نفسي، **والبخل** معنى عملي حِسِّي؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[2] [النساء: ١٢٨]، فما من نفس إلا وفيها شُحٌّ؛ شُحٌّ بالنفس، وشُحٌّ بالمال، وشُحٌّ بكل ما تملكه النفس.

وأما **البخل**: فهو ما يظهر على الإنسان من المنع وعدم العطاء أو الحرص على المال، فيكون البخل أثرًا للشُّحِّ، وكأن الشُّحَّ سيئة القلب، والبخل سيئة اليد واللِّسان[3].

والأقرب أن الشُّحَّ أشد درجات البخل[4].

وبعد، فنحن نُشهد الله سبحانه على حُبِّ المهاجرين والأنصار الذين أَحَبَّ بعضهم بعضًا، وأَحَبُّوا ربهم، وأَحَبُّوا نبيهم ﷺ، وشهد لهم الله تعالى في كتابه بخير

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩)، و«الآداب الشرعية» (٣/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٤١٠).

(٣) ينظر: «معجم الفروق اللغوية» (ص٢٩٥- ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٩٣)، و«سبل السلام» (٢/ ٦٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٤).

(٤) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٦٢)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٢٩٥)، و«النهاية» (٢/ ٤٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٥٩٣)، و«الإتقان» (٢/ ٣٦٤).

المنازل، ونسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم ويجمعنا بهم في جنات النعيم، وهكذا نقول: إن كل مؤمن بالله ورسوله لا بد أن تكون هذه من أصول دينه وإيمانه؛ أن يُحِبَّ هذا الجيل الذي أَحَبَّه الله ورسوله، وألا يتكلم فيهم إلا بخير، فهم خيرة الله من عباده، وصفوة خلقه بعد النبيين، وثمرة التربية المحمدية العظيمة التي زكَّاها الوحي؛ لتكون منارة يهتدي بها السائرون على الطريق إلى يوم الدين.

* ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾:

قد يكون المقصود بالذين جاؤوا من بعدهم: الذين جاؤوا إلى المدينة من غير المهاجرين ومن غير الأنصار، كالقبائل التي تأخر إسلامها[1].

والجمهور من المفسرين على أن المقصود: الأجيال اللاحقة بعد عصر المهاجرين والأنصار[2]، فهؤلاء يحبون المهاجرين والأنصار، ويدعون لأنفسهم ولهم بهذا الدعاء الخاشع المتبتِّل، وبدؤوا بأنفسهم؛ لأن من السُّنَّة أن يبدأ الإنسان بنفسه قبل غيره في الدعاء، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وكما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

فدعوا لمَن سبقوهم بالإيمان بالمغفرة، وأول ما يشمل ذلك المهاجرين والأنصار، ووصفوهم بـ«الأخوة»، وأي شرفٍ ومجدٍ أعظم من أن يعقد الله لواء الأخوة- بغض النظر عن الجنس واللون والشكل- بين هؤلاء المؤمنين وبين كل مَن يحبهم ويثني عليهم إلى يوم القيامة، وشهدوا لهم بالإيمان وأثنوا عليهم بالسابقة؛ وهي سابقة زمانية وسابقة رتبية في الفضل، ولذا جاء في حديث عمران وابن مسعود وغيرهما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: أن خير القرون قرن النبي ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٢- ٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٦).

الذي يلونهم(١).

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: دعوا ألَّا يجعل الله في قلوبهم حقدًا أو كراهية أو بغضًا للمؤمنين، سواءً كانوا سابقين أم لاحقين(٢).

والغِلُّ يقع للسابق بسبب ما يرثه الإنسان من معتقد، أو بسبب قراءة تاريخية خاطئة أو منحازة، كما يقع للمعاصر بسبب الاختلاف والتنافس والتحزب وسوء الظن، وتحريش شياطين الإنس والجنِّ، وتغرير الإعلام الذي من شأنه قلب الحقائق وتوسيع الشُّقَّة وزرع العداوة بين الناس ليحفظ بذلك سيادته.

وفيه وجوب محبة أصحاب محمد ﷺ، وقد ورد في ذلك نصوص كثيرة، وكتب فيه أهل العلم وألَّفوا، ولكن مما يستحق أن نشير إليه ونؤكده هنا أنه لا ينبغي لأحد من الناس أن ينال من أحد من أصحاب محمد ﷺ، حتى لو كان الصحابة اختلفوا فيما بينهم، فهم بشر يختلفون في أمر من أمور الدين وليسوا في منزلة واحدة؛ بل هم درجات عند الله، لكن لهم شرف الصحبة.

أما مَن جاؤوا بعدهم فهم بمنزلة دونهم، ولم ينالوا هذا الشرف؛ ولذلك ليس من حقك أن تتعصَّب أو تنحاز لهذا ضد هذا، أو تجعل من النيل والوقيعة دينًا يتدين به.

ولا شك أن الشتم والسَّبَّ ليس من قيم الدين ألبتة، فالله تعالى لا يُتعبَّد بالسَّبِّ، حتى إن الله نهى عن سَبِّ آلهة المشركين، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وحتى سَبُّ الشيطان لم نُؤمر به، وإنما أُمرنا بالاستعاذة منه، وحتى سَبُّ فرعون وهامان وقارون وأبي جهل ليس فيه أجر وليس عبادة، ولا يزيد القلب إشراقًا، ولا يزيد النفس إيمانًا، ولا يزيد الحسنات، ولا يثقل الميزان.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٣٣- ٢٥٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٩١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٥٥).

بل إن اعتياد اللِّسان على لغة السَّبِّ والوقيعة يفضي إلى الازدراء والاحتقار وخشونة الخُلق؛ ولذلك لا يتديَّن الإنسان بِسَبِّ المنحرفين والضالين والإفراط في ذلك إلا بقدر ما يستدعيه بيان الحق مما يتعلق بالأحكام الشرعية أو الجرح والتعديل في المرويات؛ لتعلقها بحفظ السنة النبوية.

* ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١١) ﴾:

وهذا المقطع عجيب؛ فقد التفت فيه السياق إلى جماعة أخرى تعمل في الظلام عمل الهدم والتحريش، يرأسهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ، ومعه سبعة أو ثمانية من رؤوس النفاق كانت تخطِّط في المعركة؛ لكن دون جدوى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، هم ليسوا إخوانًا في النَّسَب ولا في العروبة؛ لأن هؤلاء من بني إسرائيل وهؤلاء من العرب، وإنما الأخوة هنا أنهم كانوا حلفاء وإخوة لهم في الشَّر وفي حرب الله تعالى ورسوله ﷺ، وكأنه بعدما ذكر الأخوة السابقة الصادقة بين المؤمنين حتى بين الجيل المتأخِّر والجيل المتقدِّم انتقل إلى الأخوة الباطلة الفاسدة، وبيَّن أن هؤلاء منافقون يبطنون الشرك والكفر، وأولئك يهود من أهل الكتاب، وإنما جمعهم وألَّفَ بينهم العداءُ لله ورسوله والمؤمنين.

وهكذا يقع في كل زمان ومكان حينما يستشعر المجرمون الخطر من قوة الإسلام وأهله، يلجؤون إلى عقد التحالف وينسون ما بينهم من العداء والتباعد في الملة والمذهب والمقصد!

وكان القول المذكور تهامسًا في مجالس خاصَّة عُقدت لمعالجة الموقف، فهم يقولون لهؤلاء الكافرين من أهل الكتاب من بني النَّضِير قبل المعركة: نحن منكم وأنتم منَّا، والمصير واحد، ولئن أُخرجتم من المدينة لنخرجن معكم. وأرادوا بهذا التحريض على المقاومة والتثبيت لهم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نطيع فيكم محمدًا ﷺ، ولا غيره[1]، فما بيننا وبينكم من العقود والمواثيق أعظم من أن نطيع فيكم أحدًا.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، فإن صار الأمر إلى قتال فسوف نخوضه معكم[2]، وقال لهم عبد الله بن أُبيٍّ: إن عنده أكثر من ألفين مقاتل مدرَّبين مجهَّزين بأسلحتهم مستعدين لخوض المعركة[3]، فقال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، قال هذا في مقابل ما قال عن أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨﴾، فهم كاذبون حتى في هذه الدعوى المادية.

* ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢﴾:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾؛ لأن حُبَّ البلاد متأصِّل فيهم فلن يخرجوا، وليس لديهم عقيدة صادقة يُضحُّون من أجلها، ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ بل سوف يتخلُّون عنهم، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على افتراض ذلك[4]، ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

نفى سبحانه أن يكونوا صادقين في العزم على الخروج معهم من المدينة لو أُخرجوا منها، أو أن يكونوا مستعدِّين لمناصرتهم في المعركة لو وقعت، وقرَّر أنهم لو خاضوا المعركة سيُهزمون ويولُّون الأدبار، وخوضهم المعركة هو افتراض بعيد؛ إما على سبيل التنزُّل أو التهوين من شأنهم، أو أنه قد يوجد منهم مَن يفكِّر بخوض المعركة من أصحاب الهوج والحمق الذين لا يفكِّرون في عواقب الأمور.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٣٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٩٩).

(٢) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٤٢- ٢٤٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٥٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٣٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٣).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥١).

* ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾:

وهذا من الأسلوب المعجز في القرآن، ولو أردت التعبير عن هذه الحقيقة فلن تجد أبلغ ولا أدق وصفًا من هذا السياق؛ فأشخاصكم أصبحت مرهوبة عندهم وهم لا يُظهرون ذلك؛ بل يُكِنُّونه في صدورهم، وهم يَرْهَبُونكم أشد من رهبتهم من الله عَزَّوَجَلَّ، أما أنتم فيعلمون قوتكم وبأسكم وشجاعتكم ويرونها ماثلة أمامهم، وأما الله تعالى فإنهم لم يقدروه حق قدره؛ ولهذا لا يخافونه.

وقد قيل: «مَن كان بالله أعرفَ كان منه أخوفَ»(١)، ولذا قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، والفقه هو: المعرفة القلبية الباطنة، ومعرفة الله هي من المعرفة الباطنة التي تلامس القلوب فتورث الخشية؛ ولو كان عندهم فقه لخافوا الله عَزَّوَجَلَّ وخافوا بطشه خوفًا لا يقارن به خوف أحد؛ إذ الملائكة المسبِّحة بحمده تخافه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والأنبياء تخافه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فكيف بالعصاة من بني آدم؟ ولكن غياب الفقه عن قلوبهم جعلهم مشغولين بخوف البشر عن خوف الله، وبخوف العقاب العاجل عن الآجل.

والكلام يصدق على اليهود والمنافقين معًا؛ لأنه ليس أحد من الطرفين بأولى برجوع الضمير إليه من الآخر، فهذه صفة أنهم يخافون المؤمنين أكثر مما يخافون الله(٢).

وهل هم يخافون الله؟ قد يوجد منهم مَن يعرف الله بعض المعرفة، واليهود أهل كتاب، والمنافقون وإن كانوا في غالب أصلهم وثنيين، إلا أنه قد يوجد عند بعضهم إيمان بوجود الله، لكن خوفهم منه ضعيف أو منعدم(٣).

---

(١) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٧٢٨)، و«الرسالة القشيرية» (٢/ ٤٧٩)، و«تاريخ دمشق» (٧١/ ٢٢٤) منسوبًا إلى أحمد بن عاصم الأنطاكي.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٧)، والمصادر السابقة.

* ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

فليس لديهم استعداد أن يخوضوا معركة عسكرية فيها مواجهة جيش بجيش، والتاريخ بالاستقراء شاهد على هذا، فلا تجد في تاريخ اليهود مثل هذا، بخلاف الصليبيين؛ فلهم معارك ضارية مع المسلمين، ثم جاء الاستثناء كأنه استئناف لكلام جديد، فهم بارعون في الكيد والمكر والقتال من وراء الجُدُر والأحابيل والحيل التي يتفننون بها في القتال؛ وكانوا يمتنعون بالحصون المَشِيدة في قراهم، أما المواجهة فهم لا يحسنونها ولا يتقنونها؛ لأن الرُّعْبَ يعصف بقلوبهم.

﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾: والقتال من وراء الجُدُرِ يعني قتالًا من غير مواجهة؛ بل هو رشق بالنبل أو القذائف أو القنابل بلا رحمة، كما يفعلون الآن في حروبهم ضد الشعب الفلسطيني الأعزل.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾: هذا الوصف يحتمل معنيين:

١- أنهم إذا اجتمعوا قوَّى بعضهم بعضًا، فإذا جدَّ الجِدُّ وحزم الأمر غيروا ذلك ونقضوا ما أبرموا[1].

٢- وهو أصح: أن خلافاتهم فيما بينهم شديدة[2]؛ ولهذا عقَّب سبحانه بقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، فهم مختلفون ما بين قبائل وأحزاب وجماعات من الأشكناز والسفرديم والفلاشا وغيرها من مكونات المجتمع اليهودي، والأحزاب اليمينية واليسارية تتكايد فيما بينها حتى في حال الحرب يسعى بعضها لإسقاط بعض، على أنهم الآن في حالة التمكين بحبل من الله أو حبل من الناس، وربما لا تبدو هذه الاختلافات ظاهرة للعين، ولذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾، فالناظر

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٣٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٨٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٦).

يظنهم أمة واحدة مجتمعة، والله يخبر أن قلوبهم شتى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾: وصفهم في الآية السابقة بأنهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن معرفة الله فقه تحتاج إلى قلب واعٍ مؤمن بصير، ووصفهم هنا بأنهم ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن العقل الرشيد يدرك أهمية الاجتماع وعدم التفرُّق، وأن الله تعالى لا ينصر القوم المختلفين حتى لو كانوا من المؤمنين(١)؛ ولهذا خاطب محمدًا ﷺ وأصحابه بقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وكان الناس يوصي بعضهم بعضًا بالاتفاق والاجتماع، كما قال الرجل الذي حضرته الوفاة لأولاده(٢):

كونوا جميعًا يا بَنيَّ إذا اعتَرَى ... خَطْبٌ ولا تتفرقوا آحادَا

تَأْبَى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكسُّرًا ... وإذا افترقن تكسَّرت أفرادَا

فالعقل الرشيد حتى من دون إيمان يوحي بأهمية الاجتماع، وأن تضم قوتك إلى قوة غيرك، فمَن كان دأبه إذكاء الاختلاف وتأجيجه والانشغال به لم يعد في طاقته جهد لمواجهة عدوه والتفرغ لحربه، وبهذا ترك العمل بمشورة العقل ونصيحته، فجُمع لهؤلاء بين غياب الفقه القلبي وغياب الفهم العقلي؛ إذ فقدوا تأثير القلوب، حتى صاروا يخافون الناس أكثر مما يخافون الله، وفقدوا تأثير العقول، حتى أصبحوا مختلفين فيما بينهم، فماذا بقي لهم إلا الأجساد؟!

وقد أمرنا الله بالاعتبار في قصة بني النَّضِير، وهذا من أعظم مواطن الاعتبار، أن يكون خوفنا من الله فوق خوفنا من كل أحد من الناس، وأن نُصِرَّ على التوحد وتنسيق الجهد مهما كانت الفروق والاختلافات بيننا.

وإن أكثر ما جنى به المسلمون على أنفسهم وسبَّب لهم الهزيمة والفشل وذهاب الريح هو التفرُّق والتنازع الذي عصف بهم طويلًا، ومثله التعصب للمذهب أو البلد أو القبيلة أو الحزب.

---

(١) ينظر: «درة التنزيل» (١/ ١٢٦٤- ١٢٦٥)، و«أسرار التكرار في القرآن» (ص٢٣٥)، و«فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (ص٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٧).

(٢) نُسب إلى أكثم بن صيفي، والطُّغْرائي.

ومن المؤسف أن هذا سرى إلى بعض طلبة العلم والمثقفين والدُّعاة، فلم يعد التفكير: كيف نستطيع أن نوصل رسالتنا إلى العالم؟ ولا: كيف نستطيع أن نبني نهضة؟ ولا: كيف نستطيع أن نرسم القدوة الحسنة؟ بل أصبحت كثير من المشروعات والبرامج والانشغالات: كيف نسقط الآخر ونضعف قدرته؟ حتى مظهر الاجتماع الذي حكاه الله عن اليهود ليس مشاهدًا، فلا تحسبنا جميعًا، بل يدرك الناظر لأول وهلة أننا شيع وأمم وفرق تتهاجى، ويهدم بعضنا بنيان بعض، وصدق علينا قول محمد إقبال(١):

كلُّ شعب قام يبني نهضةً ... وأرى بنيانكم منقسمًا
في قيم الدهر كنتم أمةً ... لهفَ نفسي كيف صرتم أُممًا؟

بل إنك تجد الدولة المسلمة الواحدة عبارة عن أقاليم وجماعات وأعراق وتيارات، وكلها مستعدة لأن تتشظَّى وتسعى للانفصال، فهذا مما حذَّرنا الله منه؛ حين نهانا أن نتشبه بأهل الكتاب والمشركين، وقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

والنهي عن التشبه بهم ليس محصورًا في المظاهر الشكلية، ولكن يعم الجوانب الأخلاقية والعملية والتربوية، وهي أمور ينبغي أن نتقي الله فيها ونتواصى بها حتى يأتي ذلك الجيل الذي يدرك أهمية أن يكون المؤمنون جماعة واحدة، وأن نركِّز على ما يستحق الاجتماع عليه، كأصول التوحيد والإيمان وأصول العبادات والأخلاق بدلًا من التركيز الدائم على مسائل الاختلاف وأسبابه وتضخيمها، وجعلها سببًا للتنازع والفرقة.

* ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

والمقصود: قريش- والله أعلم- في هزيمتهم يوم بدر، أو بنو قُريظة الذين جرى لهم ما جرى بعد بدر(٢).

---

(١) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (٢/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٠٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٨١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦).

والوبال هو: السوء، ومنه المرعى الوَبِيل، إذا كان مرعى سيئًا ومذمومًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة[١].

* ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النَّضِير أن يخرجوا معهم لو أُخرجوا، هم في ذلك كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فلما كفر تبرأ منه[٢].

وادِّعاء الشيطان خوفه من الله هنا كذب؛ إلا أن يكون المقصود: خوفه من أن يأخذه الله عَزَّوَجَلَّ[٣].

وقد ذكر بعض المفسرين قصة الرجل الذي يسمى: بَرْصِيصا، والذي زيَّن له الشيطان أن يزني بامرأة ثم حملت، فزين له أن يقتلها، فأمسكوا به، فجاء الشيطان وزيَّن له أن يسجد له لينقذه، فسجد له ثم تخلَّى عنه وقُتل.

وهذه القصة لا يصلح أن يفسَّر بها القرآن الكريم؛ لأنه ليس لها إسناد يعتد به، وهي من روايات بني إسرائيل[٤].

(١) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٩٩- ٣٠٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦١- ٢٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٥- ٧٦)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٠٩).

وقد سمى الله سبحانه اليهود في علاقتهم بالمنافقين في أول «سورة البقرة» بالشياطين، كما في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾، وذكر في «سورة الزخرف» الشيطان القرين[1]، فلا مانع إذًا من إرادة الشيطان الإنسي في هذا السياق، وأنه يغري الإنسان بالكفر ثم يتخلَّى عنه.

وفي الآية تعريض باليهود الذين يخافون البشر أشدَّ من خوفهم من الله، وهم بهذا أسوأ حتى من الشيطان الذي قد يتخلَّى عن حليفه خوفًا من الله.

وليس لفظ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ مقصورًا على إبليس الذي وعده الله بالإنظار إلى يوم الدين؛ بل هو عام لكل شياطين الجن والإنس[2].

* ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

المثل هنا واضح، فكما أن المنافقين أَغْرَوْا اليهود بالبقاء وانخذلوا عنهم، وكان مصيرهم سيئًا، فاليهود طُردوا والمنافقون خُذلوا؛ لأنهم كانوا يتعزَّزون باليهود، فلما طُرد اليهود ذهبت قوتهم- ومنهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ ومَن معه- ولم يعد لهم شأن، فكذلك الشيطان والإنسان، فالشيطان يغري الإنسان ويقول له: ﴿اكْفُرْ﴾، وإذا كفر كان مصيرهما معًا هو النار، فهذا عذاب الدنيا، وذاك عذاب الآخرة[3].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾:

ختم الله تعالى السورة الكريمة بهذا النداء القوي المؤثِّر الذي هو تعقيب على مجمل الحوادث المذكورة؛ فيذكِّرهم بهذا الحبل المتين، وألَّا تلهيهم الانتصارات

(١) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٥٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٣٨)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٢٧٨) «ش ط ن».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٢)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٦٢).

والمكاسب التي حقَّقوها عن معنى الإيمان الذي به عَزُّوا وتميَّزوا، وألَّا تحملهم المعارك وخصوماتها وتفاصيلها والانهماك فيها عن مراعاة التقوى، حتى مع العداوة والشنآن، والتقوى معنى عامٌّ يقتضي فعل الأوامر وترك النواهي وتجنب الحرام(١).

والغد هو: ما بعد اليوم، مثلما أن الأمس هو ما قبله، وكما يقول زُهير(٢):

وأَعلَـمُ عِلمَ اليَـومِ والأَمـسِ قَبلَهُ ... ولَكِنَّنـي عَـن عِلـمِ مـا في غَـدٍ عَمِ

والمقصود بالغد: يوم القيامة؛ إشارة إلى قربه(٣).

ثم كرَّر الأمر بالتقوى، ويحتمل أن يكون الأمر الثاني مختلفًا عن الأول، فأمرهم بتقوى الله بفعل الطاعات؛ ولهذا قال: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: من الطاعات وأعمال الخير، ثم كرَّر وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى ترك المنهيات والمحرمات(٤).

* ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾:

وفي هذا إشارة إلى اليهود الذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم، فأصبح في تدبيرهم من الخرق وسوء التقدير وفساد الحساب ما هو ظاهر للعيان، فلا تكونوا مثلهم واعتبروا بحالهم(٥).

ومن المعاني هنا: أنهم انشغلوا بالأشياء عن أنفسهم؛ فكثير ممن نَسُوا الله تعالى تجدهم مشغولين بتجارة أو وظيفة أو شهرة أو متعة تلهيهم حتى عن حاجات

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات»: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص١١٠).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٣)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٣٩٥).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٦٠٧).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٧)، والمصادر الآتية.

نفوسهم[1].

وأنت تجد هذا بشكل أوسع في الأمم والشعوب التي نسيت الله تعالى وانشغلت بمادياتها وحياتها العاجلة، وشاعت فيها نظريات الإلحاد والكفر بالله والجراءة على ذاته العلية وحدوده وشرائعه باسم الحرية، بينما لا تسمح تلك الحرية بالمساس برموز تاريخية أو وطنية وتعاقب مَن يشكِّك أو ينفي الهولوكوست (المحرقة النازية)!

ثم تدرَّج بها الحال إلى أن تكفر بالإنسان ذاته ولا تُقيم له وزنًا، وتُشكِّك في حقيقته وأهميته وأصله وعقله، فهم نَسُوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، كفروا بالله فآل الأمر إلى أن يكفروا بالإنسان.

ومن هذا أنهم لما نسوا الله جعل الله الأشياء التي يمتلكونها وبالًا عليهم، وضرُّوا بها أنفسهم وأضلُّوا بها غيرهم وأضروهم:

فالعلم تحوَّل إلى أداة لتحصيل الأسلحة التي من شأنها تدمير الحياة البشرية على وجه الأرض، حينما انفلت من عقاله، ولم يكن باسم الله سبحانه.

والعبث في الجينات البشرية وعمليات الاستنساخ واللعب بالأجنة التي تحوَّلت إلى مزارع، ليس لخدمة الإنسان، أو للقضاء على بعض الأمراض أو معالجتها، فهذا مطلب مشروع، ولكن لأنه لم يكن باسم الله فقد انفلت من عقال الأخلاق والمصلحة الإنسانية العامة، وأصبح ضررًا ووبالًا على الإنسان.

ونحن اليوم نتكلم عن المدنية والحضارة والتسهيلات في المواصلات والاتصالات والإعلام والخدمات الطبية، لكن مَن الذي يستطيع أن يقول: إن الرفاهية والسعادة التي يشعر بها الإنسان اليوم أفضل مما كان عليه الإنسان قبل مائتين أو ثلاثمائة سنة؟

ومَن يقول: إن البشرية نجت من غوائل العدوانية والعنصرية والسعي لتكريس

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩٤).

الأنانية الفردية لثري أو زعيم، أو الأنانية الجماعية لجنس أو لون أو شعب على حساب الآخرين؟

* ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

فالناس صنفان، لا ثالث لهما، وهما متباينان كليًّا، وفي التعبير إشارة إلى عمق المسافة بينهما؛ ولهذا لم يقل: «أصحاب الجنة أفضل»، وإنما قال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أما أصحاب النار فلا فوز لهم بوجه من الوجوه.

* ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

المعنى: لو خاطبنا الجبل بالقرآن بعد أن أصبح مؤهَّلًا ومهيَّئًا للخطاب بقدرة الله سبحانه، مع أنه حجر صلد، لخشع وتصدَّع من خوف الله(١).

والمتصدِّع هو: المتشقِّق(٢)، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، فهذا مثل ضربه الله لعباده، **والمثل هو**: القول المأثور والحكمة التي يتناقلها الناس(٣)، وضرب الأمثال بمعنى: أنها تُسَكّ سكًّا وتُتخذ اتخاذًا، كما يستخدم في ضرب العملة الرائجة بين الناس، فيتعاطونها ويتناقلونها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يتدبرون معانيها ويُعملون فيها عقولهم(٤).

وهذه دعوة إلى الفكر والتفكر، وتدبر آيات الله الشرعية؛ لأن كل أحد من الناس لو قرأ القرآن بوعي وإقبال لأثمرت القراءة هدايةً لقلبه وصفاءً لروحه، وهذا من التيسير؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

ومن العوام مَن يدرك من معاني القرآن ودلالاته وقصصه وأخباره ما تدمع له

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٤٨- ٥٤٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١١٦).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٥٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٢٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١١٧).

عينه ويخشع له فؤاده، وإن فاتته المعاني التي تحتاج إلى مراجعة أو فهم أو قراءة في كتب التفسير، وفي القرآن قدر كبير واضح تعرفه العرب من لغاتها، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، وهي دعوة إلى التفكر في آيات الله الكونية في السماوات والأرض والجبال التي تسبِّح الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويشبه هذا ما جاء في «سورة البقرة»: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، وقد نزلت الآيات على المؤمنين وهم بعد انتصار فرحوا به، فكأنها تدعوهم إلى أن يتواضعوا لله عَزَّ وَجَلَّ، ويعرفوا أن الأمر كله لله، وأن النصر من عند الله، وأنه ليس لهم منه شيء إلا أن الله تعالى استعملهم وسخَّرهم فيه، والله يسلط رسله على مَن يشاء.

وفيه توبيخٌ لليهود؛ فإنهم يوصفون بقسوة القلوب، وغلظ الأكباد، والغفلة عن المعاني؛ ولهذا حذَّرنا ربنا عَزَّ وَجَلَّ أن يكون مصيرنا كمصيرهم في قسوة القلوب، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. وعاتبهم في «سورة البقرة» - كما سبق - بأن قلوبهم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها، وهذا يعزِّز مناسبة الآية لقصة بني النَّضِير وملحقاتها.

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾:

ختم الله تعالى السورة بآيات في تمجيده، وذكر طائفة من أسمائه الحسنى تناسب المقام، وتسعى لإحياء القلوب، ولله تعالى تسعةٌ وتسعونَ اسمًا، مائةٌ إِلَّا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٥٣)، و«تفسير الطبري» (١/ ٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٢٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٥/ ٥٨)، و«تفسير الرازي» (٧/ ١٤٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٤).

واحدًا، مَن أحصاهَا دَخَلَ الجنةَ[1].

وليس المقصود حصر الأسماء، فإن الله تعالى لا يحيط بأسمائه إلا هو؛ ولهذا كان في دعائه ﷺ- كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **«أسألُكَ بكلِّ اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو علَّمتهُ أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك»**[2].

ويوم القيامة يسجد ﷺ تحت العرش، فيُلهمه الله تعالى أسماء ومحامد يحمده بها، لم يكن يعلمها من قبل[3].

والمعنى: أن من أسماء الله الحسنى تسع وتسعين اسمًا، من صفتها وخصيصتها أن **«مَن أَحْصَاها دخلَ الجنةَ»**.

والإحصاء يكون بحفظها، ولهذا يحسن أن يكون عند المؤمن كتاب موثوق يجمعها أو لوحة تحصيها، وأن يحفظها ويُحفِّظها لأطفاله، وأن يتعلَّم معانيها، فهي ليست رموزًا ولا ألغازًا، وإنما أسماء معروفة المعنى، وأن يدعو الله تعالى ويناديه بها: يا غفور، اغفر لي، يا رحيم، ارحمني، وأن يحاول أن يقتدي بمعاني تلك الأسماء، فيتعلم؛ لأن الله عليم يحب العلماء، ورحيم يرحم من عباده الرحماء، ويغفر للناس حتى يغفر الله له، يعفو لمَن أخطأ عليه أو ظلمه؛ لأن الله عفو يحب

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) أخرجه أحمد (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧، ٨). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وأول «سورة الإخلاص».

(3) كما في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله ﷺ: **«فأقعُ ساجدًا لربي، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ ويلهمُني من محامده، وحُسْن الثناء عليه شيئًا لم يفْتَحْه لأحد قبلي»**.

وفي «صحيح البخاري» (٧٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله ﷺ: **«فأقومُ بين يديه، فأحمدُه بمحامدَ لا أقدرُ عليه- وفي رواية: لا تحضرني- الآن، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ»**. وينظر ما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

العفو، ويتوب؛ لأن الله يحب التوابين، وهو التواب الرحيم(١).

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، إشارة إلى تعظيمه جل وعزَّ، ثم ذكر اسمه العظيم؛ بل قيل: هو الاسم الأعظم: ﴿ٱللَّهُ﴾(٢).

وقيل: الاسم الأعظم مجموعة في قولك: «الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ، المنانُ، بديعُ السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام»، كما عند أحمد، وأهل «السنن»(٣).

والله هو الذي تألهه القلوب وتحنُّ إليه، فكل مَن عرف الله حنَّ إليه وأحبه وتمنَّى لقاءه ورؤيته، ومَن أكرمه الله بالرؤية ذهل عن كل نعيم سواها، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]، فلا نعيم أعظم من رؤيته جل وعزَّ وسماع كلامه،

---

(١) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧/ ٥)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٢٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٥٨٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩)، و«روح البيان» (٩/ ٤٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١١٨)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٤٣- ٥٣)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٣) أخرج أحمد (٢٢٩٦٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩٢)، والحاكم (١/ ٥٠٤)، وغيرهم، من حديث بُرَيْدَة بن الحُصيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ سمع رجلًا يدعو، وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهدُ أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد سألَ اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى».

وسنده جيد، بل هو أصحُّ ما ورد في باب الاسم الأعظم.

وأخرج أحمد (١٢١٥٠، ١٣٠٨١)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣- ٥٠٤)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رجلًا دعا، وقال: اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمدُ، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ. فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى». وما قبله أصح.

وثَمَّةَ أحاديث أخرى في هذا الباب. وينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٤٤- ٤٥).

وذكره تعالى واللَّهج بأسمائه يمنح القلب تعلقًا وحنينًا حتى يشتاق العبد للحظات الخشوع والاستحضار ويحزن لفقدها ويحاول استعادتها، حتى تصبح سرور قلبه ونعيم عيشه وبهجة حياته.

وهو الذي تألهه العقول وتتحيَّر فيه؛ لأنه لا يعلم ذاته وأسماءه وصفاته إلا هو.

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ ... نِ غدا الفِكْرُ كليلا
كلما أَقْدَمَ فكري ... فيك شبرًا فرَّ ميلا
ناكصًا يخبط في عَمْـ ... ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا[1]

ومن معانيها: المألوه المعبود الذي لا يُعبد بحق سواه[2].

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عن إحساس الناس وإدراكهم، فلم يعلموه ولا عاينوه، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الموجود الحاضر المدرَك مما علموا وشاهدوا.

وقيل: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: الآخرة، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الدنيا.

فكل ذلك في علمه سبحانه[3].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: واستفتح بهذه الآية الكريمة؛ إشارة إلى أن أسماءه الحسنى سبحانه كلها أسماء تتَّصف بالحُسن؛ بل هي أحسن الأسماء، فأسماؤه كلها حسنة، فيها الخير، والبر، والجُود، والكرم، والعطاء، والفضل، والرحمة، نحو: الله، الرحمن، الرحيم، البَر، الجواد، الكريم، التوَّاب، الغفور، الحليم، الشَّكور، الكريم.

لكن ليس في أسماء الله سبحانه: المنتقم، أو: المعذِّب، أو: الآخذ، أو: شديد

(١) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

(٢) ينظر: «مع الله» (ص٥٠- ٥٢)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٦١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٤٦).

العقاب.. على القول الصحيح(١)، أو: أليم العذاب، ولكنه صفة لبعض فعله؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾، فهنا ذكر المغفرة والرحمة وبدأ بها وخاطب بها عباده تقرُّبًا وتحبُّبًا، ثم لم يقل: «وأني المعذِّب، أو: الباطش، أو: الآخذ». وإنما قال: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، فوصف عذابه بأنه أليم.

ولذلك ذكر الغزالي وابن تيمية وابن القيم وسواهم ممن كتبوا في أسماء الله تعالى وصفاته: أن أسماء الله تعالى الحسنى تدور على أسماء الخير والبر والرحمة والجود(٢)؛ وبذلك يتعرف الله تعالى إلى عباده؛ لأن الناس ينساقون إلى الطاعة بالرحمة والعفو والمغفرة والرغبة أكثر مما ينساقون بالوعيد، مع أن أهل السنة يقررون المعاني الثلاثة؛ وهي الحبُّ والخوف والرجاء، والحبُّ بالاتفاق أفضل المعاني التي يتعبَّد بها الناس لربهم، ويأتي بعده الخوف والرجاء، وهما متساويان، كما قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا»(٣). أي: متساويين.

وبعضهم يرجِّح جانب الخوف عند الهمِّ بالمعصية، ويرجِّح جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويرجِّح جانب الرجاء عند الاحتضار، كما قال النبيُّ ﷺ: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ**»(٤).

كل هذه المعاني متآلفة متناسقة، لا يقضي بعضها على بعض، ولا يهدم بعضها بعضًا؛ ولهذا قال سبحانه عن الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦)، و«معارج القبول» (١/ ١١٧- ١١٨)، و«الصفات الإلهية» (ص٣٤٨)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢].

(٢) ينظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٨٢)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٧١)، و«حادي الأرواح» (ص٢٦٤)، و«أسماء الله وصفاته» لعمر الأشقر (ص٦١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٥- ١٨).

(٣) ينظر: «الإقناع» (١/ ٢١١)، و«كشاف القناع» (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، فجمع بين الخوف والرجاء والحب، ولكن الحب بمنزلة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمنزلة الجناحين(١)، والرأس أهم وألزم لبقاء الحياة من الأجنحة.

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تكرر هذا المطلع في بدايات الآيات؛ لتوكيد قيمة الألوهية التي ترسم صلة العبد بربه، وتقرِّر الوحدانية لله وأنه المعبود بلا شريك، وهذا هو المقصد الأَسْمى من سرد الأسماء؛ بل هو المقصد الأعظم للكتب والرسالات السماوية.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: لا مُلك إلا له، ولم يحدث في عصر من العصور أن وُجد من البشر من ملك الدنيا كلها شرقًا وغربها؛ حتى الملوك المشهورين، والأباطرة، والفراعنة، وغيرهم من أمثال بُخْتَنَصَّر، وذي القَرْنين، والإسكندر المَقْدوني، وهُولاكو، وجِنْكيزخان، وغيرهم ملكوا رُقعة من الأرض وزاحمهم غيرهم ونافسهم.

ولو فرض أن مَلِكًا مَلك الدنيا كلها، فهو يملكها اليوم، لكنه لم يملكها أمس ولن يملكها غدًا.

ولو فُرض أنه طال ملكه فهو إلى زوال، ولو دامت لك ما وصلت لغيرك، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك، وهذا كله ملك طارئ يتعلق بالتدبير، لكن ملك الله

---

(١) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ٣٥٩- ٣٦١)، و«شعب الإيمان» (٢/ ٣٢٨)، و«الرسالة القشيرية» (١/ ٢٦٠)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤١١)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١، ٢٠٧)، و«مدارج السالكين» (١/ ٥١٣)، (٢/ ٣٧)، و«فتاوى السبكي» (٢/ ٥٥٥)، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، و«سورة البروج»: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾.

سبحانه ملك أصلي؛ لأنه هو الذي خلقها وأوجدها من العدم، فهي تدين له في كل ذرة من ذراتها؛ وملكه سبحانه لكل شيء في السماء والأرض، والبر والبحر، والإنسان والحيوان، والدنيا والآخرة، والأملاك والأفلاك، ويوم القيامة يتجلَّى الأمر وينكشف، فيقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ثم يجيب جلَّ وعزَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾(1) [غافر: ١٦].

﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾: ففي ذلك تنزيه لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عما يعتري الملوك عادةً من صفات النقص، فإن بعض الملوك يقع له العُجب، ويقع منه الظلم ويتكبَّر على مرؤوسيه، ويقع في الشهوات، ويداخله العُجب، وتصيبه الآفات، ويعتريه النقص والعجز، أما الله سبحانه فهو المقدَّس الكامل المنزَّه عن النقائص والعيوب(2).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: يعني: السالم من كل آفة، فلا يعتريه نقص ولا عيب، ولا خطأ ولا زلل ولا نسيان، وهو الذي يُسلِّم عباده ويرزقهم، ولذا كان السلام تحية الإسلام، وملكه لعباده سلام وخير وبر ورحمة وجود.

ولذا كان في الدعاء الذي علَّمه الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فملكه خير وفضل وبركة(3).

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾: فهو يُؤمِّن عباده، أي: يمنحهم الأمن، فالأمن في الدنيا من عطائه وفضله، وهو مطلب ومقصد، فالأمن على النفس والمال والولد هو من الله، وهو نعمة من عنده، وكثير من الملوك ينشرون الخوف في رعاياهم لأجل الهيبة

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩٣٠)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٢/ ٢٤٧)، (٧/ ١٣٦)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١١٦).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢١٤)، و«مع الله» (ص٧١).

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢١٥)، و«مع الله» (ص٧٥- ٧٨).

والانكفاف، أما الله فهو يُؤمِّن عباده، ويخص المؤمنين السالمين من الظلم بالأمن التام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، وهو يُؤمِّن عباده بما جعل في الكون من الأسرار والحكم والنواميس بتوفير الهواء والماء والطعام والشراب والثروات في باطن الأرض والخيرات، وهو يُؤمِّن عباده من الظلم والجَوْر، ويُؤمِّن عباده يوم القيامة ألَّا يقع عليهم حَيْف(١).

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الشاهد الذي لا يغيب، والرَّقيب الذي لا يغفل، والملوك وإن كانوا يجتهدون في معرفة أحوال رعاياهم إلا أنه يخفى عنهم الكثير مما تخفيه صدور الناس أو ما يدبرونه في الخفاء، أما الله عَزَّ وَجَلَّ فهو مطَّلعٌ على أحوال عباده وأسرارهم وأقوالهم وذوات صدورهم وخططهم ونواياهم وظاهرهم وباطنهم(٢).

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: وهذا أيضًا من توابع الملك، فله تعالى العزَّة الذاتية التامة الدائمة، وهو يمنحها لمَن يشاء، كما منحها محمدًا ﷺ والمؤمنين معه حين نصرهم على المشركين واليهود والمنافقين(٣).

وكثير من ملوك الدنيا وسلاطينها، وإن كان لهم قوة وعزة ظاهرة، إلا أن نوعًا من الذُّل يغشاهم ممن هو أعلى منهم وأقوى فيخافون منه، بل حتى مَن دونهم يخافون من تمردهم وخروجهم عن طاعتهم، فيراعونهم ويخادعونهم، أما الله عَزَّ وَجَلَّ فهو العزيز من كل وجه؛ لأنه الغنيُّ عن خلقه والخلق كلهم مفتقرون إليه.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي يَجْبر كسر المنكسرين، ويَجْبر مصابهم، ويزيل ما بهم، ويعوِّضهم ويمنحهم الرضا والصبر.

و﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي يُجبر عباده على ما يشاء؛ فإنه لا يقع في الكون شيء إلا

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣١)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٢١)، و«مع الله» (ص٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٢٧)، و«مع الله» (ص٨١).

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٣٧)، و«مع الله» (ص٨٣).

بإذنه ولا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه[1].

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: والكبر من سيماء الملوك، ولكنه يُعَدُّ عيبًا؛ لأنهم يأخذون فيه ما ليس لهم ويتظاهرون بعظمة لا يستحقونها، فيورث ذلك ازدراءً منهم لِمَن تحت أيديهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، مَن نازعني واحدًا منهما ألقيتُهُ في جهنمَ»[2]. فالكبرياء لله سبحانه وحده.

ومن معاني ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: الكبير الذي لا أكبر منه عَزَّوَجَلَّ[3]؛ ولهذا يستفتح المصلِّي صلاته بـ«الله أكبر»، والمؤذِّن يستفتح أذانه بـ«الله أكبر» فهو أكبر من كل شيء وهو الكبير المتعال، وله الكبرياء في السماوات والأرض والدنيا والآخرة بالوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، فإن كبرياءه سبحانه تليق به.

وليس الكبر الذي اتصف به سبحانه هو الذي عند الناس حين يداخلهم التِّيه والغرور، مع ما فيهم من صفات النقص والضعف الأصلي والطارئ، وإنما الله تعالى له صفة الكمال والعظمة والمجد الذاتي.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تأكيدٌ لهذه المعاني كلها؛ فإن لله تعالى من هذه الأسماء أجمل المعاني، فمن حسن ظنك بالله وحسن معرفتك به أن تعلم أن له الكمال والجلال والجمال من كل شيء، فمُلكه كامل مقدَّس ليس كمُلك البشر،

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٤)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٤٠)، و«مع الله» (ص٨٥- ٨٦).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٥٠٩)، وأحمد (٧٣٨٢، ٩٥٠٨، ٩٧٠٣)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٥٥٠)، وابن حبان (٣٢٨، ٥٦٧١)، والحاكم (١/ ٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه (٤١٧٥)، وابن حبان (٥٦٧٢)، والضياء (١٠/ ٢٧٢- ٢٧٤) (٢٨٤- ٢٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٤١).

وفي «صحيح مسلم» (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «العزُّ إزاره، والكبرياءُ رداؤه، فمَن يُنازعني عذَّبتُه».

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٤١)، و«مع الله» (ص٨٧).

وكبرياؤه عظمة بحق وكمال، وعزته تامة لا يشوبها ذل، وقدرته لا يعتريها نقص..

والتسبيح معناه: التقديس والتنزيه[1]؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح»[2]. فهو السُّبُوح القدُّوس، المسبَّح المقدَّس المنزه عن كل ما يخطر ببال الناس من الخيالات والأوهام والظنون، وعن كل ما يقوله الضالون والمكذِّبون والمشركون.

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾: ثلاثة أسماء، قيل: هي مترادفة[3].

والصحيح أنها ليست مترادفة؛ ولكن بينها عمومًا وخصوصًا، فالخلق أعم، ثم البَرْء وهو ظهور المخلوقات إلى الواقع وإلى العيان، والتصوير هو: حصول المخلوقات على صورها؛ هذا إنسان، وهذا حيوان، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا أبيض، وهذا أحمر[4].

وقد يكون المعنى- كما أشار إليه أبو حامد الغزالي وغيره[5]-: أن السياق يشمل ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: الخلق، وهي التقدير، أي: أن الإرادة الإلهية قبل حصول الأشياء وكتابة الأشياء، فهذا يعتبر خلقًا، مثل قول الشاعر[6]:

ولأَنـتَ تَفْـرِي مـا خلقـتَ وبعــ ــضُ القـوم يخلُـقُ ثـم لا يَفْـرِي

أي: يعد ولا يفي، فيكون معنى الخلق: تقدير الأشياء قبل حصولها، فإن الله

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٥٠٣)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ١٢٥)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١/ ١٢٦)، و«التحرير والتنوير» (١١/ ١٠٢)، وما تقدم في أول السورة.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٢/ ٣٣)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٩١)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٨٩١- ٨٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٤).

(٤) ينظر: «مع الله» (ص٩٥- ٩٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «المقصد الأسنى» (ص٧٥)، و«مرقاة المفاتيح» (٤/ ١٥٦٧).

(٦) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص٥٦).

تعالى قدَّرها قبل أن تحصل وأراد أن تحصل في مواقيتها المعلومة، فهذا معنى الخلق والتقدير.

ثم مرحلة البَرْء، ومنه البَرِيَّة، وهم الناس(١)، وكل الأشياء بُرئت وخُلقت، كما قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والذي فَلَقَ الحبةَ وَبَرأَ النَّسَمةَ»(٢). أي: أوجد، فـ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: الموجد الذي خلق الأشياء التي نراها في العيان.

ثم ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: الذي أعطاها صورها وميَّز بعضها عن بعض(٣).

وفي هذه الأسماء الثلاثة معجزة الخلق والإبداع من العدم، وفيها الحكمة البالغة، وفيها الرحمة العظيمة التي بها تتراحم الناس والدواب والطيور، وفيها الجمال الباهر الذي جمال المخلوقات من جماله.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ختم بالتسبيح لله عَزَّوَجَلَّ، وأعاد الاسمين اللذين بدأ بهما أول السورة: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ إشارة إلى ربط هذه الأسماء بمجريات الواقع والأحوال، وأن أسماء الله الحسنى ليست مجرد أسماء يتبرَّك بها في الصباح والمساء- وإن كان هذا مطلوبًا مشروعًا- ولكنها عقيدة تصبغ حس المرء حينما يشاهد ما يقع في الكون من آيات وحوادث، فيلحظ آثار الأسماء الحسنى في جملها وتفصيلاتها.. في نفسه، وفي الآخرين، وفي الحوادث؛ الصغيرة والكبيرة، السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والعلمية المعرفية.. فإذا آمن العبد بالله وأحصى أسماءه واستحضر معانيها وهو يمضي في حياته ويتأمل ما حوله، لم تطش موازينه ولم تضطرب رؤيته، وقرأ العلم والقدرة والرحمة والحكمة والعزة والصبر وسائر الأسماء والصفات الجليلة في كل ما يرى ويسمع، فسبحانك الله وبحمدك، لا إله إلا أنت، ولا ربَّ سواك.

ooo

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٠٤٧، ٦٩١٥)، و«صحيح مسلم» (٧٨).

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٥- ٣٧)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٦٦، ٢٤١- ٢٤٤).

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة الممتحِنة»، وتنطق بكسر الحاء؛ باعتبارها وصفًا للسورة نفسها، حيث ورد فيها الامتحان، وهذا عند الأكثرين(١).

وبعضهم ينطقها بفتح الحاء: «سورة الممتحَنة»؛ إشارة إلى المرأة الممتحَنة(٢).

وأول امرأة وقع عليها الامتحان هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في القصة المعروفة(٣).

وبعضهم يسمِّيها: «سورة الامتحان»(٤)؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٣٣)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٢٨)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ١٨٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«الكواكب الدراري» (١٨/ ١٣٥).

(٣) أنه لما كان يوم الحُدَيْبِيَة اشترط سُهيل بن عَمرو على النبي ﷺ أنه لا يأتيكَ منا أحدٌ- وإن كان على دينك- إلا رَدَدْتَه إلينا... وفيه: وجاءت المؤمناتُ مهاجرات، وكانت أمُّ كُلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ، وهي عاتقٌ، فجاء أهلُها يسألونَ النبيَّ ﷺ أن يُرجعَها إليهم، فلم يُرجعْها إليهم، لما أنزل اللهُ فيهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. ينظر: «صحيح البخاري» (٢٧١١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٧٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ١٧١)، و«عيون الأثر» (٢/ ١٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٩)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٩٥)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص٢١١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٠٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٨١)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٠)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥).

جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

ولها اسم ثالث، وهو: «**سورة المودة**»(١).

* **عدد آياتها:** ثلاث عشرة آية(٢).

* **وهي مدنية** بالاتفاق(٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾:

لهذا السياق قصة رواها البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ لما خرج لفتح مكة أرسل حاطبُ بنُ أبي بَلْتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتاب إلى مشركي مكة؛ يخبرهم بخروج النبي ﷺ إليهم، وأعطاه امرأةً، فأخبر اللهُ نبيَّه ﷺ بذلك، فبعث عَلِيًّا والزُّبير والمقدادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «**ائتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظَعينةً معها كتابٌ، فخذوه منها**». يقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فانطلقنا تَعادَى بنا خيْلُنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتابَ. فقالت: ما معي كتابٌ. فقلنا: لَتُخرجنَّ الكتابَ أو لَتُلْقِينَّ الثيابَ. فأخرجته من عِقاصِها، فأتينا به رسولَ الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعةَ إلى ناس من المشركينَ من أهل مكة يخبرُهم ببعض أمر رسولِ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا حاطبُ، ما هذا؟**». قال: لا تعجلْ عليَّ يا رسولَ الله، إني كنتُ امرأً ملصقًا في قريش- كان حليفًا لهم، ولم يكن من أنفسها- وكان ممن كان معك

---

(١) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٠)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ١٨٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٢٩).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٧٥).

من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمونَ بها أهليهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذَ فيهم يدًا يحمونَ بها قرابتي، ولم أفعلْهُ كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبيُّ ﷺ: «صدق». فقال عمرُ: دعني يا رسولَ الله، أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهدَ بدرًا، وما يُدريكَ لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهل بدر فقال: اعملوا مَا شئتم، فقد غفرتُ لكم». فأنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾(١).

وهذه القصة فيها عجائب:

أن هذا يجري من صحابي قد شهد بدرًا، وشهد الحديبية، وشهد له النبيُّ ﷺ بالجنة؛ لما جاء غلامُه وقال: يا رسولَ الله، ليدخلنَّ حاطبٌ النارَ. فقال رسولُ الله ﷺ: «كذبتَ، لا يدخلها؛ فإنه شهدَ بدْرًا والحُدَيْبِيَةَ»(٢).

وهو صحابي جليل صادق بشهادة النبي ﷺ، فكيف يحدث منه مثل هذا الأمر العظيم المتعلق بإفشاء سرٍّ عسكريٍّ خطيرٍ إلى المشركين، وبطريقة سرِّية دقيقة توحي بأنه يدرك ما هو مقدم عليه؟!

ثم تتعجب كيف استطاع المجتمع المسلم آنذاك أن يستوعب هذا الموقف، ويتعامل معه بتوازن لا يُفهم منه الاستهانة بخطورة هذا الأمر فيتجرَّأ الناس بإفشاء الأسرار الخطيرة، وفي الوقت ذاته لا يتعامل بغلظة زائدة تجعل المجتمع ينشق على نفسه، فإن المجتمعات إذا كانت تتعامل وتُعامِل الخطَّائين وأصحاب الزلَّات معاملة قاسية، تُجاوز حد العدل والإنصاف والحكمة، فهذا قد يكون سببًا في إقصائهم وقطع صلتهم وصلة مَن يتعاطف معهم.

ونلحظ أن الله افتتح السورة بتقرير وصف الإيمان للمنادَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وإن وقع منه من الكبائر ما وقع، وهذا يدل على أن حَاطِبَ بن أبي بَلْتَعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو من الذين آمنوا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم كان التذكير بعداوة أولئك القوم لله ورسوله وعداوتهم للمؤمنين مهما تظاهروا لبعض المؤمنين بغير ذلك، وفيه تشنيع هذا الفعل؛ وهو اتخاذهم أولياء؛ لأن أعداء الله تعالى يصُدُّون عن المسجد الحرام، ويُحاربون الله ورسوله ﷺ، ويقتلون المؤمنين والمؤمنات، وهم لم يتوبوا من إجرامهم، فهم أعداء الله؛ فموالاتهم والبَوْح بالأسرار لهم خيانة لله؛ لأنهم عدو لله، وهي خيانة للنفس؛ لأنهم أعداؤكم.

ومعنى ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾: لا تجعلوا مَن عادى اللهَ ورسولَه وعاداكم وليًّا حَمِيمًا صديقًا تبوحون له بالأسرار تودُّدًا وتحبُّبًا إليهم[(١)].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾: وألقى الشيء: إذا رمى به، فصار المعنى هنا: ترمون إليهم بالوُدِّ وبالسِّرِّ على غير تفكُّر، وأحيانًا ربما يصدر من المرء شيء دون تفكير، فإذا فكَّر تعجب كيف صدر منه ذلك الفعل المشين؟! فهو إشعار بأن ما وقع كان من غير تأنٍّ ولا تحرٍّ ولا تخطيط؛ بل هي خاطرة عاجلة لم تأخذ حقها من النظر والتحرير وتقليب وجوه الرأي، والمودة هي: الحُب[(٢)]، والمقصود: ظاهر المودة المتمثِّل في إخبارهم بما همَّ به النبيُّ ﷺ من الفتح.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾: فيه تذكير بأنهم يعلنون كفرهم بالحقِّ الذي تؤمنون به، وليس هذا فحسب، بل و﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، فقد أخرجوا النبيَّ ﷺ من مكة وأخرجوكم أنتم منها[(٣)]، وحاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي نزلت هذه الآيات بسببه مهاجر، فقد أخرجوا المسلمين بالتضييق عليهم ومحاصرتهم واضطرارهم إلى الهجرة، وبمنعهم من العبادة، ومنعهم من إظهار دينهم، وهمُّوا بقتلهم، وقتلوا

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٣).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٦٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٦٠)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٥٣) «و د د».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٥).

منهم مَن قتلوا، والنبيُّ ﷺ كان يقول وقت خروجه منها: «**والله، إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منك ما خرجتُ**»[1].

فهكذا كان معنى الإخراج، وأنه ليس طردًا؛ ولكنهم حاصروه ﷺ وحاصروا المؤمنين معه، حتى اضطروا للبحث عن مناخ مناسب للدعوة وتأسيس الدولة[2].

﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: أخرجوكم بسبب الإيمان[3]، وحاربوكم في دينكم، ومنعوكم من الصلاة عند الكعبة. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾: وهذا هو الواقع أنه ما أخرجهم دنيا؛ بل هم تركوا الدنيا وراءهم وخرجوا من مكة؛ جهادًا في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته.

وصدَّر هذه الجملة بـ﴿إِن﴾ التي هي أداة للشرط، يعني: إذا كنتم خرجتم، وكأنه جعله محل تردد واختبار.

والمعنى: ما دمتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فكيف تُسِرُّون إليهم بالمودة، وتفشون إليهم هذا السِّر[4]؟!

﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾: أي أعلم ما أخفيتم من أمر الكتاب عن النبي ﷺ، وما أخفيتم من الإيمان في قلوبكم، وأعلم أن ما وقع منكم لم يكن كفرًا بعد

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧١٥- ١٨٧١٨)، وعبد بن حميد (٤٩١)، والأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ١٥٤)، والدارمي (٢٥٥٢)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٥١٤)، والترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٢٣٨)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٧، ٢٨٠، ٤٣١) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢١- ٢٣)، و«طرح التثريب» (٦/ ٥٠).

(٢) ينظر: «رسائل الغرباء» للمؤلِّف (ص١٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٧)، والمصادر السابقة.

الإسلام، ولا رغبة في القضاء على الدِّين؛ ولكنه طمع في مصالح الدنيا لم يحالفه التوفيق، ولم يرع حرمة الأمانة وحفظ السِّر[1].

وفي التذكير بالعلم الإلهي لكل خافية ومعلنة ترغيب وتحفيز للتوبة والإنابة، وترهيب من الفعل وما يصاحبه من ضعف نفسي وعزوب عن المراقبة الإلهية وغفلة عن مقتضياتها.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: فسمى الفعل: «ضلالًا عن السبيل»، ولم يتساهل فيه أو يجعل العذر مانعًا من توصيفه المستحق، كما لم يصفه بأنه كفر ورِدَّة.

وهذا الخطاب بعد حدوث الفعل ليس دعوة إلى الجَدَل أو التهرب؛ بل هو تذكير بخطورة الأمر، ودعوة إلى التوبة من هذا الجُرم العظيم، ولذا تاب حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مما فعل، واعتذر إلى الله ورسوله والمؤمنين، وفي ذلك دعوة للآخرين ألَّا يفعلوا، وإذا وقعوا في كبيرة أن يتوبوا.

وفيه إشارة إلى أن «الولاية» أنواع:

لقد ذكر الله تعالى عن حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «المودة» في موضعين: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، و﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، واعتُبر هذا ضلالًا عن سواء السبيل؛ ولكن لم يعدّه كفرًا، وجعل حاطبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عداد الذين آمنوا، واعتذر له عنه الرسول ﷺ بأنه شهد بدرًا، والبدريون مشهود لهم بالجنة.

فولاية الكفار منها ما هو كفرٌ؛ وهو أن يواليهم لدينهم؛ لأنه أحبَّ دينهم وفضَّله على دين الإسلام.

ومنها ما هو معصية؛ مثل: أن يواليهم ويظاهرهم على المسلمين لمصلحة خاصة، كما في قصة حَاطِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع طُمأنينة قلبه بالإيمان، وقد يرى أنَّ ما

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٦٠٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٨٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٨).

يفعله ليس مؤثِّرًا في النتائج النهائية للمعركة، فهو ينفعه ويدفع عنه، وضرره على المسلمين قليل أو معدوم، بالنظر إلى معطيات النصر الكثيرة المتوفرة لهم، فهذا جرم عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب وإثم وضلال عن سواء السبيل.

ويدخل في هذا الجاسوس الذي يتجسَّس على المسلمين، فهو مرتكب جُرمًا عظيمًا؛ ولكنه لا يكفر، وهل يُقتل؟ فيه خلاف بين الفقهاء[1].

والصواب أن ذلك إلى الإمام يُقدِّر ما هو الأصلح في شأنه.

وتأمل كيف أن حاطبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما سُجن ولا عوقب إلا بهذا اللَّوم، وحسبك بهذا تأنيبًا وتأديبًا!

* ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾: أي: هؤلاء الذين كتبتم إليهم وكشفتم لهم بعض أسرار المسلمين، لا تظنوا أنهم سوف يرقبون فيكم بذلك إلًّا وذِمة، سوف يُظهرون لكم العداوة[2].

﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ﴾: أي: يمدوا إليكم، ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: بالضرب والقتل، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾: أي: بالسَّبِّ والشتم والتعنيف[3]، ولن يلتفتوا إلى ما قدمتم لهم أو خدمتموهم، ليس هذا فحسب، بل ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

---

(١) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٥/ ١٦٣- ١٦٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/ ٦٧)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (١٨/ ١٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٤٥)، و«فتح الباري» (١٢/ ٣١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤١٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٣٩).

(٣) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٨٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٠).

وقد جاء التعبير في أول الآية وآخرها متغايرًا؛ ففي أولها عبَّر بالفعل المضارع: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾، ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ﴾، وفي آخرها عبَّر بالماضي، فقال: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾؛ لأن مودتهم الكفر ليست جديدة ولا مرهونة بأن يثقفوكم، وإنما هي أصلية راسخة عندهم قبل أن يظفروا بكم وبعد الظفر[1]، ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

* ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾:

الوقف يحتمل أن يكون على ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾، ثم الجملة التي بعدها مستأنفة: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، ويحتمل أن يكون الوقف على قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فعلى الثاني يكون المعنى: أنها لن تنفعكم يوم القيامة[2]، هذا وجه.

وعلى الأول يكون المقصود: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي: مطلقًا، ثم قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ جملة مستأنفة، أي: أن الله يفصل بينكم يوم القيامة[3]، وليس المقصود بـ«الفصل» هنا «الحُكْم»، وإنما المقصود: التفريق؛ بأن كل أحد مشغول بنفسه[4].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: أن ما عملتَ يا حاطب، وما أسررتَ وما كتبتَ وما أرسلتَ فالله تعالى يعلمه[5].

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥١٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤١).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥١٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤١).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤١).

(٥) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٨).

* ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾:

الأُسوة هي: القدوة(١)، وهو درس للمؤمنين، ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وإبراهيم أبو الأنبياء، وأبو الحنفاء عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قويًّا في الحقِّ صادعًا، وقوته مما عرفه العرب والعجم والروم والهند وغيرهم، حتى إن الهنود عندهم عبادة البراهمة، يقال: إن أصلها من اسم إبراهيم، ثم تحرَّف الاسم، وضلت العقيدة(٢)!

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مثالًا في القوة والصبر والتحمل، وهو من أولي العزم من الرسل، وقصته مبسوطة في مواضع كثيرة، كما في «سورة هود»، و«سورة الأنبياء»، و«سورة الصافات»، وفيها جرأته على قومه وتكسير الأصنام، دون اكتراث بهم وبوعيدهم، مع كونه شابًّا لا سند له من الناس!

جعله الله لنا أُسْوَةً حَسَنَةً في مصارمته لقومه، مع أنه لم يكن معه سوى ابن أخيه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وزوجته سارة، كانوا ثلاثة فقط، فأشاد الله بهم وجعلهم قدوة للمؤمنين عبر العصور.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾: وهذا موضع القدوة والأُسوة؛ وهو البراءة من أعداء الله(٣). ولم يقع منهم هذا لأول وهلة من الرسالة؛ بل صبروا على قومهم ودعوهم بالحسنى والكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فلما تبيَّن لهم أنهم أعداء

---

(١) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٨/ ٦٣٥) «أ س و»، و«النهاية» (١/ ٥٠) «أ س ا»، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٧).

لله كاشفوهم بالعداوة، ولقد وصل بهم الحال إلى أن يوقدوا النار لإحراق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والقضاء عليه، فلما ظهرت عداوتهم ويئس من إسلامهم وأعلنوا الحرب على الله وعلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ صرَّح لهم بقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ أي: من أفعالكم، من كفر ومحادَّة لله(1).

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من الأنداد والأصنام والمعبودات المختلفة، كالكواكب وغيرها. واستثنى اللهَ وحده(2).

وهل كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره، أو يعبدون الأصنام فقط؟ يحتمل.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: ظهر واستمر(3)، ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، وهذه هي الغاية.

درس في البراءة من المشركين الذين يحاربون الله تعالى ورسوله، ويخرجون المؤمنين ويعلنون عداوتهم وحربهم، فلا بد أن يكون المسلمون بُرآء منهم، وأن يفاصلوهم مفاصلة واضحة لا لبس فيها.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾، وهذا استثناء، أي: ليس لكم في هذا المستثنى قدوة ولا أسوة(4)، والمقصود: وعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه أن يستغفر له، فنهاه الله تعالى عن ذلك واستثنى هذا من موضع القدوة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقع منه هذا الأمر في شأن أبيه، ووقع من حاطب بن أبي بَلْتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما وقع في شأن قريش، يدل على أن تمازج المجتمع وتداخل

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٤٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٤).

(٣) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٩/ ٤٩٧)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٧).

العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فيحتاج الأمر إلى كثير من الإيضاح في ضوابط هذه العلاقة؛ ولهذا تكفلت السورة بإيضاح الأمر وتجليته وبيانه.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، وكأن هذا من تمام قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين معه أنهم أعلنوا توكلهم على الله وإنابتهم، أي: رجوعهم إليه، وأن إليه المصير[1].

* ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾:

واستمروا في دعائهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، دعوا ربهم ألَّا يجعلهم فتنة للكافرين، ومعنى الفتنة يحتمل وجوهًا[2]:

الأول: أن يتسلطوا عليهم فيفتنوهم عن دينهم.

الثاني: أن يقع عليهم عقوبة من الله أو عقوبة بأيدي الكافرين، فيكون في ذلك فتنة للذين كفروا؛ أن لو كان هؤلاء على خير ودين، وكان الله راضيًا عنهم ما أوقع فيهم هذه المصيبة، ولَمَا سَلَّطَ عليهم الأعداء.

* ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لتعزيز جانب التأسِّي بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، وفيه إلماح إلى أن المرء لو فاته عَرَض من الدنيا أو لحقه شيء من الأذى بسبب صدق ولائه، فالعوض عند الله، وعليه أن يكون رجاؤه في الله وفي ثواب الآخرة، وما عند الله خير وأبقى.

ويحذِّر أن يتكرر ما حصل من حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥١٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٤٨)، والمصادر السابقة.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾.

والتولِّي يحتمل معنيين:

١- أن مَن يعرض عن الله وعن وعده ووعيده ووعظه ويكرِّر الخطأ الذي صدر منه؛ فإن الله تعالى هو الغني عنه، الحميد للطائعين[١].

٢- أن يكون المعنى: مَن يقع منه التولِّي للكافرين والإفشاء إليهم بالأسرار، فهذا معرَّض للعقوبة[٢].

وفيما تقدم درس في وجوب البراءة من أعداء الإسلام، وممن يحاربون الله ورسوله، وفيه وجوب وضع الخطأ في نصابه، وألَّا يبخس المخطئ حقه، فلا يتهاون به، ولا يجار عليه.

وفيه بيان طريقة التعامل مع المخطئين في المجتمع، فمن الخطأ أن يُلاحق الناس بالعيب أو العار، أو التعيير في المواقع والمجامع والمجالس، والتحذير من التشهير والتذكير بالخطأ- ولو بعد سنوات- فمن المروءة والأخلاق والشهامة والدين أن يوقف الأمر عند حَدٍّ معين، وأن يَكُفَّ الناس ألسنتهم عن الوقيعة والقيل والقال والشتيمة ونقل الحديث والشماتة، وقد يكون بعض الذين يعيِّرون ويشمتون يقعون في مثل هذه الأخطاء أو ما هو شرٌّ منها.

* ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾:

تأمل لطفه سبحانه في قوله: ﴿عَسَى﴾، و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة[٣]، وفي ظاهرها الاحتمال القريب أن يجعل الله بينكم أيها المؤمنون وبين الذين عاديتم،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٦٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ١٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٩٦)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٨٨)، و«الإتقان» (٢/ ٢٤١).

ونهاكم الله عن ولايتهم بالباطل، أن يجعل بينكم مودة بالحقِّ سببها الإسلام[١]، وفي هذا دعوة إلى أَلَّا يُفرِّط الإنسان ويبالغ في العداوة، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[٢]. ولعل عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذ هذا المعنى من هذه الآية الكريمة.

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم إذا تابوا وأنابوا، وغفور رحيم لكم أيضًا فيما صدر منكم ثم تبتم منه[٣].

* ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧﴾:

هذه الآية توضِّح الفرق بين المحاربين وغيرهم، وأن الولاء المنهي عنه في الآية يُقصد به المحاربون المعادون لكم، وتوضِّح أيضًا الفرق بين المعاملة الحسنة الطيبة، وبين الموالاة الممنوعة، فالله تعالى لا ينهى المسلمين عن الإحسان والبِرِّ والقسط للقبائل التي تميل للمسلمين، ولا تحاربهم ولا تظاهر عليهم، مثل: خُزاعة ومُزَيْنة وأسْلَم وجُهَيْنة وغِفَار الذين كانوا مشركين؛ لكن كان هواهم مع الرسول ﷺ، وكانوا يحبون أن ينتصر على قريش، فهؤلاء لا ينهاكم الله عنهم[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٢١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٦٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٤٨٤)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٢٢٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٣٩٤)، والطبري في «تهذيب الآثار» (٣/ ٢٨٤- مسند علي)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٦٨، ٦١٦٩).

ورُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الترمذي (١٩٩٧)، وغيره، ولا يصح رفعه. ينظر: «علل الدارقطني» (٨/ ١١٠)، و«العلل المتناهية» (٢/ ٢٤٨)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٦٤- ٤٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٢).

وفي هذا درس لمَن يجعلون الكفار في ميزان واحد في التعامل، وهم ليسوا كذلك، فمنهم المعتدي المبارز بالعداوة والصدِّ عن سبيل الله، ومنهم المسالم المحايد، ومنهم المدافع عن حقوق المستضعفين من المسلمين.

وفي العصر الحاضر منهم مَن يكون متعاطفًا مع قضايا العروبة والإسلام، وقد يكون في سُدَّة الحكم والسياسة، أو في ميدان الإعلام، أو في مجال الفكر والثقافة، ويتحمل العناء بسبب وضوح آرائه ومدافعته عن الحق، وقد يُحرم من كثير من الميزات التي يتمتع بها غيره، فمثل هؤلاء يجب أن يُحتفى بهم، وتمدُّ معهم الجسور، ويُدعوا إلى المواسم والمناسبات المختلفة، ويُشجَّع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.

وقد جعل الله تعالى في الزكاة سهمًا للمؤلَّفة قلوبهم، ممن يُطمع في إسلامهم، أو إسلام مَن خلفهم(١).

على أنه ليس المال فقط هو الذي تؤلَّف به قلوب الناس؛ بل الخُلُق الحسن، والكلام الطيب، والصبر، وحسن المعاملة، والحفاوة والتقدير.

وقد أورد المفسرون في هذا الشأن قصة أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إذ جاءتها أمها بالمدينة وكانت مشركة، فسألت أسماءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبيَّ ﷺ، وقالت له: إن أمي قدمتْ وهي راغبةٌ، أفأصلها؟ قال: «نعم، صِلِي أُمَّكِ»(٢). فأمرها بالصلة وحسن المعاملة.

وكذلك الآباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وكذلك الزوجة، فإن للمسلم أن يتزوج كتابيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، مع ما يقع بين الزوجين من المودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وكما في قصة أبي طالب الذي أحبه النبي ﷺ، وحزن على موته، فأنزل الله تعالى

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٠، ٥٩٧٩)، ومسلم (١٠٠٣) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] [القصص: ٥٦]، ففرَّق الله بين الطائفتين، وشرَّع لغير المحاربين أمرين:

١ - البِر؛ وهو: الإحسان إليهم بالقول وبالفعل.

٢ - القِسْط، وهو: العدل[2].

وفي الآية حثٌ عليهما؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ ولهذا قال العلماء: إن العدل قيمة مطلقة، ليس فيها استثناء، حتى مع الأعداء، فالعدل واجب في كل الأحوال[3].

ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

* ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ⑨﴾:

فمَن وُجدت فيهم هذه الخصال الثلاث أو بعضها؛ بأن قاتلوكم في الدين، أو أخرجوكم من دياركم، أو ظاهروا على إخراجكم، فواحدة من هذه الجرائم تكفي لأن يكونوا محل النفي والعداوة، وتحريم البِرِّ والتولِّي، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وادَّعى بعضهم أن الآية منسوخة[4]، والصحيح أنه ليس فيها نسخ، وأنكر الطبري وعامة المفسرين دعوى النسخ؛ لأن الآية متأخرة النزول، نزلت في السنة الثامنة من الهجرة أو قريبًا من ذلك، ولم يأت بعدها ما ينسخها، بل هي توضيح لما

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٣). وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٣٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٦٨) «و ز ن».

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للكيا الهراسي (٣/ ٦٠)، و«تفسير الرازي» (١١/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ١١٠).

(٤) ينظر: «تفسير ابن وهب» (٣/ ٧١- ٧٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٣)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٥٩- ٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢١).

قبلها من الآيات(١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾:

سبب هذا السياق أنه بعد صلح الحُدَيْبِيَة الذي جرى فيه الصلح على هدنة بين المسلمين والكفار عشر سنين، ظهرت ظواهر جديدة، منها: أن بعض المسلمات من مكة هاجرن فرارًا بدينهن إلى المدينة، ووقع بسبب ذلك إشكال لمعارضته لشرط من شروط الصلح؛ وهو أن مَن يأتي إلى المسلمين فيجب رده إلى الكفار، فنزلت هذه الآيات جوابًا عن هذا الإشكال(٢)، وبيَّنت أن النساء لا ترد، ولكن تمتحن؛ بأن تُقسم أنها ما خرجت من مكة عشقًا لرجل، ولا كرهًا لرجل، ولا طلبًا لدنيا، وإنما خرجت إيمانًا بالله ورسوله، فإذا حلفت على ذلك صُدِّقت، وإذا دلَّت قرائن الحال على صدقها حتى بدون حلف قُبل منها ذلك ولم تُرجع إلى مكة(٣).

وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ إشارة إلى أنه ليس لكم إلا الظاهر(٤)، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ﴾ بما ظهر لكم من قرائن ودلائل وبينات(٥)، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٥٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٣).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٢)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٤٢٢- ٤٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٠٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٦).

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤١٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٢).

الوثنيين بمكة، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، فالمسلمة لا تحلُّ للمشرك الوثني، ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تأكيد للمعنى[1]، مثل قول: «لست منك، ولست مني». فأمرهم ألَّا يعيدوهن إلى أزواجهن الكفار.

وهل هذا نسخ للعهد الذي بينهم وبين المشركين؟ هذا احتمال[2]، والأقرب- والله أعلم- أن النساء لم يدخلن أصلًا في منطوق الشرط الذي تضمَّنه صلح الحُدَيْبِيَة، فإن ظاهره كان قاصرًا على الرجال ممن تتقوَّى به الشَّوْكة، وربما لم يكن هذا مفطونًا له عند قريش؛ ولذلك كان العقد مبهمًا، ولم تكن النساء داخلة فيه بشكل صريح، وتفسيره محل اختلاف، والله تعالى بيَّن أن المرأة لا مدخل لها في عقد الصلح المبرم.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾، وهذا من مقتضى الأمانة والعدل؛ أن المرأة المسلمة التي هاجرت يُعطَى زوجها المهر الذي أنفقه على زوجته[3].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: لا بأس عليكم أيها المسلمون أن يتزوج أحدكم بامرأة من هؤلاء المهاجرات بعدما تخرج من عدتها؛ لأنها لم تعد حِلًّا لزوجها الأول، فلكم أن تنكحوهن[4] ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وفيه إشارة إلى أن المال الذي أُعطي لزوجها مقابل ما أنفق لا يعني أن تُنكح بدون مهر، وإنما هذا تعويض لزوجها الكافر في مكة، وتُعطَى هي مهرًا لنفسها مقابل علاقة الزوجية الجديدة[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٢).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص٧١٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢١)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٤).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٥٩).

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: فالزوجات الكافرات المشركات اللاتي هاجر أزواجهن وبقين على دينهن بمكة ليس لكم أن تستمروا على نكاحهن(1).

﴿وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ أي: لكم أن تشترطوا على مشركي مكة أن تأخذوا منهم ما أنفقتم على أزواجكم المشركات اللاتي بقين عندهم من باب المعاملة بالمثل(2).

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: بحكم العدل بينكم وبينهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

* ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)﴾:

فما فاتكم وخسرتموه من نسائكم المقيمات بمكة واللاتي ذهبن إلى الكفار، فمن باب المعاقبة والمعاملة بالمثل، فالحكم هو ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي: المسلم الذي ذهبت زوجته عليه وبقيت في مكة أعطوه مثل ما أنفق أيضًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(3).

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12)﴾:

وهذه هي البيعة التي كان يأخذها النبيُّ ﷺ على المؤمنات(4)، والمعنى: إذا جئن مهاجرات يُبَايِعْنَكَ، والبيعة هي: العقد، وقد تُطلق على صفقة اليد، وتكون في الأمر العام، وتكون على الإسلام(5).

وقد بايع النبيُّ ﷺ النساء في مكة فيما بعد على مثل هذه البيعة، وكانت معهم

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 98)، و«تفسير القرطبي» (18/ 65)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 367)، و«فتح القدير» (5/ 257)، و«التحرير والتنوير» (28/ 159).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 586)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7428)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 286)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 94- 95)، و«التحرير والتنوير» (28/ 162).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 589- 590)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 160)، و«تفسير القرطبي» (18/ 69)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (19/ 521).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (7215)، و«صحيح مسلم» (1866).

(5) ينظر: «الكليات» للكفوي (ص563)، و«التعريفات الفقهية» (ص49).

هند بنت عُتبة زوجة أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلما قال النبيُّ ﷺ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ اعترفت بذلك وآمنت به وبالوحدانية، وكذلك النساء بايعنه على ذلك.

﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾: فقالت هند: يا رسولَ الله، إن أبا سفيانَ رجلٌ شَحيحٌ- وزوجها موجود- لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، إلَّا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهل عليَّ في ذلك من جناح؟ فقال رسولُ الله ﷺ: **«خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بَنِيك»**[1].

﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾: ولما قرأ هذا رسولُ الله ﷺ قالت هند: يا رسولَ الله، وهل تزني الحرة[2]؟ لأن الزنى في العرب كان في الجواري دون الحرائر غالبًا.

﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾: وهنا قالت هند: ربيّناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، وأنتم أعلم بهم[3]. فتبسم الرسول ﷺ ولم يغضب لقولها، وهذا من سعة حلمه ﷺ[4].

﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾: والبهتان معروف، وهو: أشدُّ الكذب[5]، كما قال ﷺ: **«إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبْتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ»**[6].

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١٠/ ٩، ٢٢٥- ٢٢٦)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٤٦٠)، و«تاريخ دمشق» (٧٠/ ١٨٠- ١٨٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٦١- ٤٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٨- ٩٩)، و«البدر المنير» (٨/ ٢٨٩، ٥٩٥- ٥٩٦)، و«طرح التثريب» (٧/ ٤٧)، و«فتح الباري» (٩/ ٥١٠- ٥١١)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٠٠)، و«الإصابة» (١٤/ ٢٦٧- ٢٦٨).

والحديث أخرجه البخاري (٢٢١١، ٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٧٥٤)، وفي إسناده ضعف، وينظر المصادر السابقة والآتية.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٤٦٠) (٧٨٦٨)، وابن عساكر (٧٠/ ١٧٧- ١٧٨)، وينظر المصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٠٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٠)، و«زاد المسير» (٥/ ١٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ١٢٠)، (١٨/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٨).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٨٥)، و«تفسير الرازي» (١٠/ ١٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٥٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والظاهر أن المقصود بالبهتان هنا معنًى خاص، وقد قرأتُ بعض ما كتبه علماء التفسير، وترجَّح لي أن المقصود هنا ليس مجرد كلام يُختلق، وإن كان كثير من المفسرين قالوا: كل الكلام المختلق والكذب والإفك داخل في هذا.

ولا مانع من إرادة هذا المعنى؛ لكن يتأكد النفي والنهي عن بهتان خاص؛ وهو أن تُدخل المرأة على زوجها مَن ليس من ولده؛ بأن تحمل من غيره، أو أنها لا تحمل فتدَّعي أنها حملت وولدت، فتنسب ولد غيرها إليها وإلى زوجها[١].

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: فيما أمرتهن به من ألوان المعروف، بما في ذلك فعل الطاعات وترك المعاصي[٢].

ومن هنا أخذ النبيُّ ﷺ عليهنَّ أَلَّا يَنُحْنَ.

ومن الطريف أن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما أخذ عليها ذلك قالت: يا رسولَ الله، أَسْعَدَتْني فلانةُ، فأريد أن أَجْزِيها. فما قال لها النبيُّ ﷺ شيئًا، فانطلقتْ ورجعتْ فبايعها[٣].

هذا أيضًا يدل على السماحة، وعلى الطيبة، وعلى الخلق العظيم، وكما قال النبيُّ ﷺ: «**استقيمُوا، ولن تُحْصُوا**»[٤]. وفيه أن شدة التدقيق كثيرًا ما تضر ولا تنفع، والسماحة كلها خير وبركة.

﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾: والنبيُّ ﷺ كان يبايعهن كلامًا، وما مسَّت يدُه يدَ امرأة قطُّ[٥]، وكان يقول: «**إني لا أصافحُ النساءَ، إنما قولي لمائة امرأةٍ كقولي لامرأةٍ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٠)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٤٢٩- ٤٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٠٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٠٦، ٤٨٩٢، ٧٢١٥)، و«صحيح مسلم» (٩٣٦).

(٤) أخرجه الطيالسي، وأبو عبيد في «الطهور»، وأحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٩١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

واحدةٍ»[١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾:

ختم السورة- كما هو المعتاد في سياقات القرآن- بما ابتدأت به، وهو موضوع التَّوَلِّي والولاية، وتأكيد النهي عن تولِّي هؤلاء القوم.

فيحتمل أن المقصود: اليهود[٢]؛ لكثرة وصفهم بأن الله غضب عليهم، كما في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، فيكون المعنى: لا تتولَّوْا هؤلاء اليهود الذين هم وإن كانوا أهل كتاب ويؤمنون بالآخرة، إلا أنهم يئسوا منها ومن الفوز بها[٣].

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الوثنيون المشركون من البعث[٤].

أو يكون المعنى: كما يئس الكفار المقبورون الأموات الذين شاهدوا وعاينوا وعرفوا أنه لا حظَّ لهم[٥].

أو يكون المعنى أعم من ذلك، ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يشمل التأكيد على عدم تولِّي الكافرين والوثنيين المشركين، ويكون معنى يأسهم من الآخرة:

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٧٢٦)، وأحمد (٢٧٠٠٦- ٢٧٠١٠)، والترمذي (١٥٩٧)، والنسائي (٧/ ١٤٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥٩٩)، وابن حبان (٤٥٥٣)، والحاكم (٤/ ٧١) من حديث أُميمة بنت رُقَيْقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٢٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٦٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٢٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٠).

أنهم لا يؤمنون بها، أو أن الله تعالى أيأسهم منها، فلا حظَّ لهم فيها، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: من الأموات المقبورين[1].

فرجع أمر السورة إلى تأكيد معنى الولاية بين المؤمنين، وتحريم موالاة الكفار المحاربين، ووجوب التعامل بالخُلق الحسن والعدل والإنصاف، وذكر حكم النساء القادمات إلى النبي ﷺ من مكة، والإشارة إلى شروط بيعة النساء، والله أعلم.

○○○

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٥٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٥)، والمصادر السابقة.

سُورَةُ الصَّفِّ

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الصَّف**»[1]، ووجه هذه التسمية وقوع لفظ: ﴿صَفًّا﴾ فِيهَا، وهو صَفُّ القتال.

ومن أسمائها: «**سورة الحواريين**»[2]؛ لذكر الحواريين فيها.

وسمَّاها بعضهم: «**سورة عيسى**»[3].

*** عدد آياتها:** أربع عشرة آية بلا خلاف[4].

*** وهي مدنية** عند الجمهور[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٨)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥١)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤١٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧١).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٧٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٣٣)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٣/ ١٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٥)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٤٢٤)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٠)، و«الإتقان» (١/ ٥٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٢).

وقيل: إنها مكية، ونُسب هذا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وقال بعضهم: إن فيها المكي والمدني[2].

والصواب أنها مدنية[3].

* ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾:

عبَّر بلفظ الماضي؛ إشارة إلى عَراقة التسبيح[4]، وقِدَم الرسالات التي أرسل الله تعالى إلى عباده، حتى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو نبيٌّ مكلَّمٌ[5].

واختار اسم ﴿الْعَزِيزُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾ مراعاةً لسياق السورة، وإشارة إلى عِزَّة وغلبة الذين يطيعونه، كما قال في آخر السورة: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ⑭﴾، فمن عِزَّته أن يُعزَّ أولياءه، ومن حكمته أنه يرسل الرسل تترا[6]، ويجعل لكل رسول شريعة وحُكمًا، كما أرسل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مصدِّقًا لما بين يديه، ثم محمدًا ﷺ خاتمًا للرسل ومصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ②﴾:

ظاهر النداء العتاب، وفي هذا تحذيرٌ من حال اليهود الذين لا يفعلون ما يقولون، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون[7].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣١٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٢).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٢١٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(٥) كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٢١٥٤٦)، وغيره، وتقدم تخريجه في أول «سورة نوح».

(٦) كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]. أي: يتبع بعضها بعضًا. ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٧٥).

(٧) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٥٧٥)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٠)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٠٥).

وقد ورد في سبب نزولها- كما في حديث عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند أحمد، والترمذي- أن جماعةً من الصحابة اجتمعوا وقالوا: لو نعلمُ أيَّ الأعمال أحبُّ إلى الله لعملناه. فأنزل الله هذه السورة، وقرأها عليهم رسولُ الله ﷺ[(١)].

فأُخبروا أن أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى الجهاد.

قال المفسرون: كان المسلمون يقولون: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالَنا وأنفسَنا. فدلَّهم اللهُ على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ...﴾. فابتُلوا يومَ أُحُدٍ بذلك، فولَّوْا مدبِرين، فأنزلَ الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾.

وعلى هذا السبب فالمعنى: لِمَ تَعِدُون بأمر ولا توفون به؟[(٢)]

ومن هنا أخذ بعض أهل العلم وجوب الوفاء بالوعد من الآية الكريمة[(٣)].

واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ، ومنها: إذا وعد أخلفَ**»[(٤)].

والعلماء متفقون على وجوب الوفاء بالوعد ديانةً، إذا لم يكن حرامًا، واختلفوا في الإلزام به قضاءً، أي: إذا رُفعت فيه دعوى مطالبة بالإلزام بالوعد، فذهب مالك إلى وجوبه إذا ترتب عليه التزام[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٨٨، ٢٣٧٨٩)، والترمذي (٣٣٠٩)، وابن حبان (٤٥٩٤)، والثعلبي (٩/ ٣٠٣)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٤/ ٢٩٠)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٤٣٦) (٤٠٩)، والحاكم (٢/ ٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٦٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢٦- ٤٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٥- ١٠٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٤٤٥)، و«لباب النقول» (ص١٩٥)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٥).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٥٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٥)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) ينظر: «الفروق» للقرافي (٤/ ٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٦)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٤٧).

وقيل: يجب الوفاء بالوعد قضاءً، فلو قلت لأحد: تزوَّج وأعطيك عشرة آلاف ريال، فإنه يجب عليك الوفاء؛ لأن عقد الزواج يترتب عليه التزام بالنفقة على الزوجة والمهر ونحو ذلك من الحقوق المالية.

وجمهور أهل العلم يرون أنه لا يجب الوفاء بالوعد قضاءً- أي: عند التقاضي[(١)]- لكن لا يجوز أن يتعمَّد أن يَعِدَ ويخلف، ولو وعد ثم طرأ عليه أن يخلف لعارض فلا حرج عليه، والموعود به لا يلزم إلا بالقبض، كالهبة لا تلزم إلا بالقبض[(٢)].

وقيل في سبب النزول: إن بعض الناس كان يقول: قاتلتُ. ولم يقاتل، وصليتُ. ولم يصلِّ[(٣)].

حتى ورد أن صُهيبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل رجلًا، فأعطاه النبيُّ ﷺ سَلَبه، فجاءه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: إن فلانًا يدَّعي أنه قتله. فذهب إلى النبي ﷺ وحلف أنه هو الذي قتله، فنزلت هذه الآية[(٤)]. فعلى هذا الوجه فهي تحذيرٌ من الادِّعاء والكذب.

وثَمَّ معنى يلتبس عند بعض الناس، ويظنونه داخلًا في دلالة الآية؛ وهو أن يأمر الإنسان بالشيء، ثم لا يفعله؛ كمَن يحثُّ على قيام الليل أو الصيام أو عمل الخير، ولا يفعله، ومثله: أن ينهى عن الشرِّ والمنكر، ويفعله.

وهذا غير داخل في معنى الآية؛ لأن الأمر بالخير خيرٌ، ولو لم يفعله، وعلى المؤمن أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وأن ينهى عن المنكر ولو قارفه، وقد نقل القرطبي عن بعض الأصوليين قولهم: «فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٦)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٤٧)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٤/ ٧٥).

(٢) ينظر: «الفروع» (١١/ ٩٢)، و«أسنى المطالب في شرح روضة الطالب» (٢/ ٤٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٦).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٧٨).

ينهى بعضهم بعضًا»[1]. ويكاد أن يجمع العلماء على أنه واجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وينهى عن المنكر ولو وقع فيه[2].

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، فهو دليل على أن من القبيح أن يأمر الإنسانُ الناسَ بالبِرِّ ثم ينسى نفسه فلا يأمرها به، ولا يعني هذا أَلَّا يأمر الناس بالمعروف، فكونه لا يفعل المعروف ولا يأمر غيره به شرٌّ من كونه يأمر غيره بالمعروف ولا يفعله، كما أن المأمورات متفاوتة؛ فمنها الفرائض والواجبات والمندوبات، وقد يكون في المرء نقص في بعض المعروف واجتهاد مشهود في غيره من الصور الأخرى[3].

* ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾:

المقت: أشدُّ البغض[4]، والآية تفيد بأنه مقت كبير عظيم عند الله أن يقع ما توعَّد عليه في الآية، وإذا كان البغض من الناس شاقًّا على نفس أحدنا، فكيف ببغض الله للعبد؟! وهذا يقع حين تدَّعي شيئًا لم تفعله، ولا يجوز لك بحال أن تحبَّ أن تُحمد بما لم تفعل، ولا تعد وفي نيتك أَلَّا تفي.. هذه قيم أخلاقية يربِّى الناس عليها.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾:

مقابل المقت العظيم للمُدَّعِين ما ليس فيهم ذكر الله تعالى **الحب** لنقيضهم من المؤمنين الباذلين نفوسهم في سبيله؛ ذودًا عن حِياض الدين، وحفظًا لمقام الإسلام، ودفعًا لغوائل الشر والعدوان عن الحقِّ وأهله، وليس في سبيل الدنيا وشهواتها.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤٧)، و«مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣٢٠٩).

(٣) ينظر للمؤلِّف: «رسائل الغرباء»: الرسالة الثالثة: «دفع الغربة»: «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» (ص٣٧٣).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٥١- ٥٢)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٧٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٧٢) «م ق ت»، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٥).

وقوله: ﴿صَفًّا﴾ أي: صافِّين، أو مصطفِّين[1]، والصَّفُّ يكون في الصلاة، ويكون في الحرب[2]، وهو إشارة إلى النظام واجتماع الكلمة والراية، وأن النظام والانضباط جزء من القيم الإسلامية؛ يكون في العبادة التي يقف الناس فيها أمام ربهم، ويكون في الجهاد الذي هو من أعظم شرائع الإسلام وذِروة سَنامه، وهو كذلك في سائر شؤون الحياة، يعلِّم الناس الانضباط ووحدة الكلمة والتقارب واجتناب أسباب الفرقة؛ ولهذا شبههم بـ«البنيان المرصوص»، فهم بشرٌ؛ لكنَّ أكتافهم وأجسادهم متراصة متلاحمة كالبنيان الذي لا تجد فيه ثغرة ولا فجوة ولا اعوجاجًا[3]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن المؤمنَ للمؤمن كالبُنيان؛ يَشُدُّ بعضُه بعضًا**»[4]. وقال: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد**»[5].

وقد وصف الله سبحانه صحابة رسوله ﷺ بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ويجوز أن يكون معنى «المرصوص»: الذي وُضع عليه الرصاص، كما ذكر الفرَّاء، وغيره من أئمة اللغة، واختاره ابن العربي، وذكر مباني في الشام وفي غيرها قد وضع فيها الرصاص، فكانت من أقوى ما يكون من البناء[6]، وفي ذلك إشارة إلى قيمة عظيمة من قيم الوحدة بين المسلمين وتقارب قلوبهم، وأن الله تعالى يحب هؤلاء، ومفاده: أن الله تعالى لا يُحِبُّ أولئك الذين ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٧٦).

(٢) وفي «المسند» (١١٧٦١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثةٌ يضحكُ اللهُ إليهم: الرجلُ يقومُ من الليل، والقومُ إذا صفُّوا للصلاة، والقومُ إذا صفُّوا للقتال**».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٥٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٧٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨١).

[الأنعام: ١٥٩].

* ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾:

ذكر تعالى أمرًا وقع لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه حين ناداهم بهذا الدعاء المحبَّب الذي يجعلهم يستجيبون له ويستمعون إليه، وعاتبهم على أذيتهم له مع علمهم برسالته، وقد آذوه في أشياء كثيرة، كما في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، وكما في قصة البقرة، وعبادتهم للعجل، وقصة دعوته لهم لدخول بيت المقدس، ولعلَّ هذا أقرب ما يكون علاقة بالآية الكريمة لما ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢] ثم قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤].

وفي هذا من سوء الخطاب وسوء الأدب مع الله ومع رسوله، ومع ذلك يتلطَّفهم فيقول لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾[1].

وقد بلغ من أذيتهم له أن عيَّروه عَلَيْهِ السَّلَامُ بشيء من خلقته الباطنة بما ليس فيه، كما في «الصحيحين» أنهم قالوا: «إن موسى رجل آدر». أي: أن في خصيتيه انتفاخًا[2]، وهكذا كل قوم خُزِنَ عنهم العمل وابتُلوا بالقول يبحثون عن أي شيء حتى يكون سببًا للقيل والقال، فأذن الله تعالى أن يراه كثير من الناس بعدما خرج واغتسل وذهبت ثيابه، فرآه الناس أجمل ما كان وأحسن ما كان، وعرفوا أن هذا كان إفكًا وفرية، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: **«كانت بنو إسرائيلَ يغتسلونَ عُراةً، ينظرُ بعضُهم إلى بعض، وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يغتسلُ وحده، فقالوا: والله ما يمنعُ موسى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرُ، فذهب مرة يغتسلُ، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجرُ بثوبه، فخرج موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حجرُ، حتى نظرت**

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥١)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٣٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٥٧٧) «أ د ر»، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ١٢٦)، و«فتح الباري» (١/ ٣٨٦).

بنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطَفِقَ بالحجر ضَرْبًا»(١).

وعبَّر بالماضي ولم يقل: «وقد علمتم»، وإن كان هذا هو المعنى، و«قد» تدلُّ على التحقيق، وهو التأكيد أنكم تعلمون، ولكن التعبير بالمضارع يشير إلى تجدد العلم بتوالي الآيات والمعجزات، وقد حصل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات شيء كثير؛ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾(٢) [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما أصرُّوا على الضلال والزيف والتحايل والكذب والتحريف، جاءت العقوبة من جنس عملهم؛ فصرفهم الله عن الحقِّ، فهم لا يهتدون(٣)؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فوصفهم بالفسق، كما قال في «سورة المائدة»: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾، وأشدُّ ما يكون الفسق حينما يكون من الأحبار الذين يعصون على بصيرة وعلم.

وفي الآيات إشارة إلى بقاء هذه الأمة، وأنها لا تزول مهما صادفها من النكبات، فإن التعبير بالفعل المضارع ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، يدل على التجدد والتكرر مرة بعد مرة.

وفيه إشارة إلى ديمومة صراع الحق والباطل إلى قيام الساعة، فلا تزول القوى الظالمة الضالة، سواء كانت معصيتها بعلم أو بجهل أو بكفر، ولا سبيل إلى استئصالها أو زوالها، ومن شأن هذا أن يجعل المؤمن أكثر تواضعًا واعتدالًا وتكيفًا مع ما في الحياة البشرية من النقائص والأخطاء، فالأرض لن تَتَمَحْضَ للخير، ولن

---

(١) أخرجه البخاري» (٢٧٨، ٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٢).

تسيطر عليها كلمة الله تعالى في كل مكان، وكانت الشيوعية تبشِّر الناس بالفردوس الموعود، وكانت الليبرالية الغربية تتنبأ بنهاية التاريخ واستسلام العالم لها، فالإسلام لا يوجد فيه هذا، وإنما يوجد فيه الإشارة إلى أن الخير والشر موجودان مما يجعل المؤمن سالمًا من اندفاع غير مدروس في دعوته أو عمله أو جهاده.

* ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾:

لم يقل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم: «يا قوم»؛ لأنهم ليسوا قومه[١]، فهو يخاطب بني إسرائيل الذين أُرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كانوا متعصِّبين للتوراة تعصبًا مفرطًا، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء مصدِّقًا لما بين يديه، أي: معزِّزًا ومؤكِّدًا لما سبقه من التوراة[٢]؛ حتى يؤلِّف قلوبهم على القبول، وإن كان التصديق لا يعني أنه لم ينسخ شيئًا منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وعيسى صلة بين موسى ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ولذا قال النبيُّ ﷺ حينما سُئل: ما كان بدء أمرك؟ قال: «**دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي أنه خرجَ منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام**»[٣]

والبشارة هي: الإخبار بالأمر السَّارِّ[٤]، وقد بشَّر الرسلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمحمد ﷺ، حتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكر تعالى في الكتاب الكريم بشارة النبي به في قوله:

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٢- ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٣)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٧٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٦٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٥٠)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٦٣٦)، والبزار (٤١٩٩)، وابن حبان (٦٤٠٤)، والحاكم (٢/ ٤١٨، ٦٠٠) من حديث العِرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الطيالسي (١٢٣٦)، وأحمد (٢٢٢٦١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٠٠)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص١٠٠)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١١٨).

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

ولذلك جاء في التوراة: «إن الحق أقبل أو تجلَّى من سَيْنَاء[١]، وأشرق من سَاعِير بفلسطين[٢]، واستعلن واستعلى في فَارَان[٣]؛ وفَارَان: جبل بمكة؛ إشارة إلى بعثة النبي ﷺ.

وفي التوراة أيضًا: «أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل جبل فَارَان»[٤]، وهو بالاتفاق جبل بمكة المكرمة، وفي هذا يقول الشاعر محمد إقبال في قصيدته[٥]:

يا طِيْبَ عَهْدٍ كنتَ فيه مَنارَنا ... فبَعَثْتَ نورَ الحقِّ مِنْ فارانِ
وأسرْتَ فيه العاشقينَ بلَمْحةٍ ... وسَقَيْتَهم راحًا بغير دِنَانِ
أحرقتَ فيه قلوبَهم بتوقُّدِ الـ ... إيمان لا بِتَلَهُّب النيرانِ
لم نبقَ نحن ولا القلوبُ كأنها ... لم تَحْظَ من نار الهَوَى بدُخَانِ

وجاءت البشارة في إنجيل مَتَّى، وإنجيل يُوحَنَّا، ومنها: الإشارة إلى الناموس الذي يأتي بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه الخاتم، وعباراته بعضها صريح باسم النبي ﷺ: «محمد»، وبعضها تشير إلى «وادي البكاء»، وهي هنا كلمة لا تعني «البُكاء»، وإنما تعني: «البَكَا»، وقد كُتبت بالحروف الكبيرة، مما يدل على أنها اسم علم؛ إشارة إلى مكة، فهنا تحريف لاسم الوادي: وادي مكة، وهذا موجود في الأناجيل المتداولة اليوم بين أيدي الناس مع تواصيهم بكتمان الأمر، ويوجد منهم المنصفون الذين يعترفون بذلك، فضلًا عن الإشارات الكثيرة التي ليس فيها تصريح باسمه ﷺ.

---

(١) وهو مكان نزول الوحي على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) وهي جبال بيت المقدس التي بُعث منها عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) ينظر: «البدء والتاريخ» (٥/ ٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٨٩)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٥٩)، و«فتح الباري» لابن رجب (٤/ ٣٤٠)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «البدء والتاريخ» (٥/ ٣٣)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ٩٠)، و«الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» (ص٢٦٥)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (١/ ٩٨).

و﴿أَحۡمَدُ﴾ من أسماء النبي ﷺ، وهو صيغة مبالغة من الحمد، فهو أكثر الناس حمدًا لربه عَزَّوَجَلَّ، وهو أكثر الناس استحقاقًا للحمد[1]؛ ولهذا من أسمائه: أحمد، ومحمد، وكذلك: الماحي، والحاشر، والعاقب[2].

وبعض العلماء أوصل أسماءه الشريفة إلى تسعة وتسعين اسمًا، وبعضهم أوصلها إلى ثلاثمائة اسم، وبعضها ألقاب أو صفات، كما ذكره ابن القيم، وغيره[3].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾: هل مرجع الضمير في هذا الفعل إلى عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ، أم إلى محمد ﷺ؟

وهل الذين قالوا هذا القول العظيم هم قوم النصارى، أم هم مشركو العرب؟

جاءت الآية بهذا مبهمًا لتشمل الأمرين، ويعزِّز هذا قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].

* ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾:

أي: لا أحد أشدُّ ظلمًا من هذا، ويحتمل أن يكون المقصود: كفار العرب الذين كذَّبوا وحي الله سبحانه[4]، وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١]، وهم يُدْعَون إلى الإسلام.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٨)، و«جلاء الأفهام» (ص١٧١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٣٢، ٤٨٩٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٤).

(٣) ينظر: «عارضة الأحوذي» (١٠/ ٢٨٠)، و«الشفا» (١/ ٢٢٨)، و«تاريخ دمشق» (٣/ ١٧)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٢)، و«جلاء الأفهام» (ص١٧١- ٢٠٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٥٣)، و«فتح الباري» (٦/ ٥٥٨)، و«تنوير الحوالك» (٢/ ٢٦٣)، و«كوثر المعاني» (١/ ٨٣)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص٣٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦١٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٤٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٥٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٨٨).

والأقرب أن المقصود: أهل الكتاب[1]؛ وذلك لسياق الآية أولا، وأنه في قوم عيسى، وثانيًا: لأنهم الأقرب أن يقال عنهم: إنهم افتروا على الله الكذب؛ لأنهم أهل كتاب، وتمكنهم من الكتاب يجعلهم يحاولون أن يلتمسوا من كتابهم ما يدفعون به الحقَّ، ويردُّون به الصواب، ويخدعون به دَهْماء الناس، ولذا كذَّبُوا برسالة محمد ﷺ وهم يُدعون إلى الإيمان بها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: وخَتْم الآية بهذا مناسب؛ لأنهم بَلَغُوا في الظلم مبلغه؛ إذ ظلموا عقول الناس وحالوا بينهم وبين الإيمان والهدى، وحَرَّفُوا الدين السماوي، وأدخلوا عليه المفاهيم الفلسفية الفاسدة المتناقضة، وتجاهلوا تعليمات الكتب المقدسة الحقيقية.

* ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: اللام هنا للتوكيد[2]، وأي شيء يريدون إطفاءه؟ إنه نور الله! وهل شيء أعظم من نور الله؟ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فمن نور الله سبحانه ما خلقه من الأنوار في الكون، كالشمس والقمر، ومَن ذا الذي يستطيع أن يطفئ نور الشمس؟ إنه لأمر مثير للسخرية، وبماذا يحاولون إطفاءه.. بأفواههم! فإذا كان هذا نور الشمس، فكيف بنور الحقِّ ونور الوحي ونور الإيمان؟!

وتأمَّل منذ أن بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ إلى يومنا هذا كم من المكائد والمؤامرات والعداوات عادى بها الكفار أجمعون الإسلام، فما زاده ذلك إلا انتشارًا وقوةً وظهورًا، فالحمد لله ربِّ العالمين.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ فهو نور تام كامل وسيظل كذلك، وفيها معنى الغلبة والنصر

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٧٨)، و«غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني» (ص١٥٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٥/ ٧٤٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٢٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٩)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٩٠).

وتحقيق المقاصد الربَّانية للبعثة المحمدية ولا بدَّ.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: وكأن الحديث هنا عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فالغالب أنهم يُوصفون بالكفر، في حين وصف غيرهم بالشِّرك[1].

* ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾:

الهُدى: القرآن، ودين **الحقِّ**: الإسلام.

وقيل: **الهُدى**: العلم النافع، ودين **الحقِّ**: العمل الصالح[2]، فأرسله الله سبحانه بالعلم والعمل.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾: أي: ليعليه وينصره على سائر الأديان، ولو كرهوا ظهور الإسلام.

والظُّهور له معنيان:

الأول: ظهور القوة والحجة، والبيان والبلاغة، والرسالة والدعوة، والتربية والتعليم، وهذا بيِّنٌ[3].

والثاني: ظهور الغلبة والسلطان[4]، وقد تحقَّق قدر كبير منه؛ لكن لا يلزم من هذا الوعد أن يتحقَّق بكماله في كل وقت؛ لأن هذا خلاف مقتضى الحكمة والابتلاء، وخلاف مقتضى السنة الإلهية في ابتلاء بعض الناس ببعض، وأن الدهر دُوَل، وأن النصر والهزيمة، والقوة والضعف، والكثرة والقلة؛ بل والتمدن والحضارة، والتخلُّف والجهل تنتقل وتتأثر بظروف ومعطيات كثيرة، وأن الله امتحن الناس بالعمل والتخطيط والدأب ليحصلوا على النتائج، وتوعدهم إن هم

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ١٩١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٣)، و«تفسير القاسمي» (٨/ ٤٥٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٥٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٣٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٠/ ٧٧).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٦)، و«التفسير القيم» (ص١٩٩)، و«تفسير السعدي» (ص٨٥٩)، والمصادر السابقة.

فرَّطوا أو قصَّروا بأن يروا عاقبة ذلك عيانًا.

وهذا الوعد الإلهي محفّز للمسلمين لتحقيقه، ومعنى أنه سيظهره على الدين كله: أن الأديان المشار إليها ستكون موجودة ولن تندرس؛ بل ستبقى، ولكن سيظهر الإسلام عليها بالقوة وبالغلبة وبالحجة، وهذا بواسطة مَن يُسخِّرُهم الله تعالى من المؤمنين، ففيه حفز للمؤمنين أن يبذلوا جهدهم في الدعوة إلى الله تعالى، وفي التأثير على الناس.

وكم يشعر المرء بالأَسَى في هذا العصر أنه لم يكن المسلمون على مستوى المسؤولية في إظهار دينهم، وفي إظهار صور قوته وبلاغته، وإعجازه وتأثيره، لا في قولهم ولا في فعلهم، فعلى صعيد السلوك والممارسة والواقع الاجتماعي تجد في المجتمعات الإسلامية ألوانًا من الضعف والخلل الأخلاقي، ونقصًا في الانضباط والذوق، ربما تَفُوقهم كثيرٌ من أمم الأرض، حتى إن بعض الذين أسلموا من الغربيين إذا جاؤوا إلى البلاد العربية والإسلامية حمدوا الله أنهم أسلموا قبل أن يروا واقع المسلمين في بلادهم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾:

كأنه ذكر التجارة هنا؛ لأن بعض المسلمين صدَّتهم التجارة عن الجهاد في سبيل الله، فذكر تعالى لهم الأفضل والأبقى والأربح؛ وهو الإيمان والجهاد.

واستخدم أسلوب العرض والاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾.. وكأنه يقول: أنتم تبحثون عن الأرباح الطائلة، وهذا الله يعرض عليكم أن يرشدكم إلى ما هو خير لكم إن كنتم تعلمون.

﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾: وفي ذلك إشارة إلى أن كثيرًا من التجارات الدنيوية تكون سببًا في العذاب الأليم يوم القيامة؛ فإن من الناس مَن يكون ماله عذابًا ووبالًا عليه، وشغلًا له عن الفرائض وطاعة الله.

وكما ذكر الله تعالى عن عدد من أهل الكتاب وغيرهم أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في

سبيل الله؛ فأشار عليهم ربهم الذي يحبهم بالتجارة الرابحة الطيبة المباركة التي تُنجي من العذاب الأليم؛ وهي الإيمان بالله ورسوله.

* ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ولا يصلح عمل إلا بالإيمان بالله ورسوله ﷺ.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾، فالجهاد بالمال بصرفه في مجالات الخير كلها.

وقدَّم المال؛ لأنه أول مصرف وقت التجهيز، وأن به قِوام الأنفس وحمايتها، ولنفاسته ولعزَّته في ذلك الزمان.

وقيل: للترقِّي من الأدنى إلى الأعلى(١).

والجهاد بالنفس هو: أن يبذل الإنسان نفسه في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، بالجهاد الأعظم الذي هو مقاتلة الأعداء، أو بما دون ذلك من ألوان بذل النفس في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وألوان الكرم والجود التي كان عليها النبي ﷺ والسابقون من أصحابه، ومن ذلك تحمُّل العنت والأذى في سبيل الله بصبر وطيب نفس واحتساب، دون أن يقول الإنسان: كيف يصيبني هذا وأنا معي الحق؟ لماذا لم يدفع الله عني؟

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: خير لكم مما أنتم متشاغلون به.

* والدليل على أنه خير لكم نتيجة ذلك: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

وكأنه ذكر المساكن والجنات إشارة إلى أن كثيرًا من الناس تحرمهم أعمال الخير والدعوة والجهاد وخدمة الناس والإحسان إلى الخلق من الاشتغال بالتجارة، أو من طول المكث والبقاء في بيوتهم ومساكنهم، في حين أن غيرهم يملكون بيوتًا مرفَّهة جميلة، فالمؤمنون حُرموا من هذا الترفه، أو من بعضه، أو لم يستقر بهم

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٨/ ١٥٣)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٢٧٨)، و«روح البيان» (٩/ ٥٠٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٥/ ٧٧٨).

مقام بين أهليهم بسبب تبعات العمل والدعوة والتعليم والإحسان والإصلاح، وما يترتب على معاناة ذلك من السفر والغربة والحبس والانشغال بأحوال الناس، لكنهم عُوِّضوا بسعادة صدورهم، وبالعطاء الذي يجدونه مضاعفًا يوم القيامة.

* ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: شيء مما جُبلت النفوس على محبته، والنفس مُولعة بحبِّ العاجل.

فما هذه العِدَةُ الأخرى؟ إنها ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: **قيل**: فتح مكة. **وقيل**: فتح بلاد فارس والروم[(١)].

واللفظ شامل لذلك كله، ومن أوله فتح مكة؛ لأن السورة- والله أعلم- نزلت قبل فتح مكة بسنة أو سنتين؛ فتحقق بدء النصر والفتح في حياته ﷺ بدينونة الجزيرة العربية له، ووضع الأساس لهذه الدولة الفتيَّة العظيمة.

ووصف «الفتح» بأنه قريب، أما «النصر» فهو عام، وهكذا يمكن أن يكون كما في «سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾»، فيكون مؤذنًا بفتح مكة، ويحتمل أن يكون «الفتح» فتح مكة، وهو قريب تحقَّق قبل موته ﷺ، أما النصر فما جرى بعد ذلك من انتصارات الدولة الإسلامية.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وهذا من إعجاز القرآن، فإن إسلام العرب، وفتح مكة، والنصر، ودخول الناس في دين الله أفواجًا كله من الغيب الذي وقع، كما أخبر به سبحانه.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

هذا النداء دعوة صريحة للمؤمنين من هذه الأمة أن يجعلوا شعارهم نصرة الله،

---

(١) ينظر: و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٦٤).

بنصرة دينه وشريعته وأمته، وليس نصرة شخص أو طائفة أو جماعة أو أسرة أو دولة أو نِحْلة...

ثم ذكَّرهم بقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾.

والحواريون هم: أصحاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا اثني عشر رجلًا[1].

والكلمة حبشية[2]. **وقيل**: هي عربية، من: الحَوَر؛ وهو شدة البياض، وقد كانوا شديدي بياض الثياب[3]، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتواصون بالاعتناء بنظافة الثياب، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعجبه من القارئ والطالب أن يكون حسن الثياب، طيب الرائحة[4].

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم ولغيرهم هذا القول: مَن الذين سوف يكونون أنصارًا لي في طريقي إلى الله وفي سعيي إلى نصرة الله وإقامة دينه؟

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، وأجابوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ذلك.

ويلحظ هنا اختلاف الصيغة والتركيب، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ فأضاف النصرة إليه، لكنها ليست نصرةً لشخصه؛ لأنه فلان، ولكن لأنه يدعوهم إلى الله، والفارق واضح بين الصيغتين؛ فالصيغة العيسوية تناسب بني إسرائيل، بل النخبة المختارة منهم: الحواريين، والذين التزموا بالنصرة، ومع ذلك وجد من بعضهم التردد والتساؤل.

أو أن تلك الصيغة تناسب بعثة عيسى إليهم خاصة في زمان محدود، فكان

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٢٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠١).

(٢) وقيل: نَبَطيَّة. ينظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٢٥٥)، (٢٨/ ٢٠١)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١/ ٥١٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٤٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٦٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٨٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٥/ ٢٨٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢٨).

(٤) ينظر: «الموطأ» (٥/ ١٣٣٧)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٨).

وجود النبي بينهم من أهم ضمانات الاستمرار على الحق وعدم النكوص، وكأن الحواريين بقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أظهروا تجردًا تامًّا وديمومةً على النصرة أكثر مما في مكنتهم وطاقتهم، والله أعلم.

أما ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، فلهذه الأمة التي يقوم وجودها أصلًا على الارتباط بمنهج الله وحده، سواءً وجد الرسول ﷺ بينهم أم لم يوجد، فهي أمة خاتمة وليست مؤقتة، ولهذا خُوطبت بمثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

كما أن دعوته ﷺ لم تكن خاصةً محصورةً في فريق أو قبيل أو جنس، بل هي دعوة للعالمين، ولذا فالإيمان والجهاد ماضيان إلى قيام الساعة، كما في قوله ﷺ: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ»[(١)]. وقوله ﷺ في الحديث الآخر أيضًا: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة: الأجرُ والمغنمُ»[(٢)].

ومثله حديث: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضرُّهم مَن خذلهم، حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلكَ»[(٣)]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

لذا نُوديت الأمة أن تربط نصرتها بالله لا بغيره، علمًا بأن نصرة الرسول ﷺ هي نصرة لله، ونصرة للمؤمنين كذلك، ولكن الملمح المهم هو عدم ربط النصرة بوضع معين، بل هي نصرة باقية ما بقي الليل والنهار، وأنه في حال القوة والضعف والغنى والفقر والكثرة والقلة والعزة والذلة، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ولكل قوم أئمة وسادة، ولكن هؤلاء الأئمة إنما يستحقون هذا اللقب الشريف

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤، ٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٩، ٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧١، ١٨٧٣) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٨٧٢) من حديث جَرِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٠، ٣٦٤١، ٧٣١١)، ومسلم (١٠٣٧/ ١٧٤، ١٧٥ - كتاب الإمارة، ١٩٢١) من حديث معاوية والمغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢٣) من حديث ثوبان وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بالتزامهم المنهج وصدقهم مع الله ورسوله، فإذا فرَّطوا أو قصَّروا حُرموا منه، واستبدل بهم غيرهم، وهذا لا يحدث إلا في أمة واعية يقظة حية، لا تبني دينها على التقليد والتبعية والهوى الأعمى، وإنما تبني دينها على العلم والهدى والنص والدليل، فهي ليست قطيعًا يُساق دون وعي لا يدري من أمره شيئًا إلا الثقة العمياء بمَن ينعق به، كلا إنها الأمة التي نُوديت بأن تنصر الله وحده، ونصرتها لمَن دونه إنما هي مشروطة بأن يكونوا من أنصار الله، فمتى أخلُّوا بهذه النصرة لم يكونوا جديرين بأن يُتَّبعوا أو يُقتدى بهم.

إن الله تعالى حين قرَّر قانون الانتصار الراسخ العظيم، أبرز فيه هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وكل أحد من فرد أو جماعة أو حزب قد يدَّعى نصرة الله ونصرة دينه، وأنه ما قام بذلك طمعًا ولا منافسة، ولذلك كان التعقيب الرباني لتحديد مَن هم الذين ينصرون الله؟ هل هم المدَّعون؟

كلا، إنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وأنت تلحظ جيدًا أن الله تعالى أعطاهم صفات لا تبين إلا في المستقبل ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ وكم من مدَّعٍ ينكث وعده ويتخلَّى عن عهده وينهمك في دنياه.

إن الكثيرين ينساقون مع الأحلام الوردية الجميلة، ويرسمون المستقبل بريشة مبدعة خيالية خالية من المآخذ، لكن حين يصبح هذا المستقبل واقعًا مشهودًا، وليس حُلمًا منشودًا، تتغير المعالم وتختلف القلوب وتتحرك المطامع، ويصبح الجمع شتيتًا، وتبدأ التُّهم.

إن الصيغة لم تُربط لنصر بالذين يعدون أنهم سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، لكن بالذين علم الله من حالهم المستقبلي أنهم إن مُكِّنوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، بعضهم آمن بعيسى، وبعضهم كفر[1]، ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾: أيدهم بالحجة، وبالتوفيق، وبالقدر، ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾: ظاهرين بالحجة منصورين[2].

هذا متناسب مع الإشارة إلى ظهور الإسلام، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ومتناسب مع قوله سبحانه في أول السورة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فهو أظهر أولياءه ونصرهم وأيّدهم ولو كانوا قليلًا، و﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

○○○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٤٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٣).

سُورَةُ الجُمُعَةِ

* **تسمية السورة:**

اسمها: «سورة الجُمُعة»، كما في كتب التفسير، والمصاحف، والسنن(١)، وفي الآثار المرفوعة إلى النبي ﷺ(٢).

ووجه تسميتها: وقوع لفظ: ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ فيها، وهو اسمٌ لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام.

* **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدِّ(٣).

* **وهي مدنية** باتفاق علماء التفسير(٤).

* ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾:

استفتحها بالتسبيح الدال على أن الكون كله خاضع لعبودية لله، وأن الذي يقع

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٥٩)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٤٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤١٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٠٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٥)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (٨٧٩).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٦)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩١)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٤)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٣)، و«الإتقان» (١/ ٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٥). وحُكي أنها مكية، وهو قول ضعيف جدًّا.

منه المخالفة والتمرد هم بعض الإنس والجنّ(١).

﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي: المالك الخالق المدبِّر، ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: المنزَّه الكامل الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: الذي له العزة، والذي يمنح العزة لمَن يشاء، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يضع الأمور في نصابها، والمحكم المتقِن لما يخلق، والحكيم في شرعه وأمره ونهيه ووحيه(٢)، ولذا ذكر بعدها بعثة محمد ﷺ.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: وهذا من مقتضى الملك؛ حيث اعتنى بعباده، ولم يهملهم ويتركهم سُدى، وإنما أرسل إليهم رسلًا، وأنزل إليهم كتبًا، ومن مقتضى القُدُّوسِية والتنزُّه عما لا معنى له، وهو مقتضى العزة، حيث سينصر رسله وأولياءه في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وهو مقتضى الحكمة فيما شرع لهم، وفيما قدَّر وقضى.

والأُمِّيُّون جمع: أُمِّيٌّ؛ وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب(٣)، وتُطلق على العرب من حيث الجملة، حتى لو كان فيهم مَن يقرأ، فإنهم يسمون: أمة الأُمِّيِّين، وهذا نبي الأُمِّيِّين، لما غلب عليهم من عدم القراءة والكتابة.

ووقوع البعثة في العرب لم يكن اتفاقًا، وإنما اصطفاء وابتلاء، ولحكمة أرادها سبحانه، مع أن في الأرض يوم ذاك أمم لها سيادتها وحضارتها وعلومها وفلسفتها وسلطانها؛ كالرومان، والفرس، واليونان، والصينيين، وغيرهم، ولكن اختار الله العرب؛ لأنهم أخلق وأجدر الأمم بحمل الرسالة آنذاك.

---

(١) ينظر ما تقدم في أول «سورة الحديد»، وما سيأتي في أول «سورة التغابن».

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠، ٣٣، ٥٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣، ٦٠، ٢١٤، ٢٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٥)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص١٨٦، ٢٠٨)، و«مع الله» (ص٧١، ٨٤، ١٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٣٥٤)، و«المحيط في اللغة» (٢/ ٤٨٧) «أ م م»، و«الإفصاح عن معاني الصحاح» (٤/ ٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٤٤٥)، و«روح البيان» (٩/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٨).

وليس معنى هذا أنهم كَمَلَة، كلا؛ بل فيهم عيوب، وفي غيرهم من الأمم خصائص يفوقون فيها العرب؛ لكن من حيث مجموع الصفات، فالعرب أخلق من غيرهم بحمل الرسالة، فقد كانت فيهم أخلاق عظيمة؛ كالكرم، والشجاعة، والصدق، ولم تفسدهم آثار الحضارة المادية، ولم يغلب عليهم الترف، فكان لديهم من الاستعداد الذاتي والنفسي الفردي والجماعي ما ليس لغيرهم.

وكونه مبعوثًا في الأُمِّيِّين هذا وصف للواقع، فقد كانت بعثته فيهم، وليس في النص أنه لهم، فهو مبعوث فيهم ومن بينهم؛ ولكنه مبعوث إلى الناس كافَّة، وإن كانت مسؤولية الأُمِّيِّين أعظم؛ لأن الرسول منهم، والكتاب بلغتهم، والحجة عليهم أعظم.

وكان ﷺ أُمِّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب؛ ولهذا لما جاءه الملَك وقال: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾. قال: ما أنا بقارئ[1]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وهذا أدعى إلى أن تتحقق فيه البشارة التي بَشَّر بها الرسل والأنبياء السابقون ببعثة النبي الأُمِّيِّ، فهي تتحقق بهذه الصفة، وهو أدعى إلى أن يتقبل العرب منه ويستجيبوا له ويتجمعوا حوله؛ لأنه رسول منهم، وهو نبيهم ﷺ؛ لئلَّا يرتاب المبطلون، أو يظنوا أنه تلقَّى هذا العلم من أحد أو قرأه في الكتب؛ فهو الأُمِّيُّ الذي علَّم البشرية كلها، واستفتح نبوته بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وجاء بالكتاب العظيم، وأنشأ أعظم حضارة على وجه الأرض.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: وهذا هو **المقصد الأول**، وبدأ بالتلاوة؛ لأنها أول مراحل العلم، وأول ما خُوطب به ﷺ قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، ومعناها: اتْلُ[2]، كما قال سبحانه: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولذا سُمِّيت قراءة القرآن: تلاوة، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]. فالتلاوة، وإن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٤٠٧)، و«تفسير الماتريدي» (٤/ ٣١٠)، و«الوجيز» للواحدي (ص٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٣٦٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٤/ ٢٢٧)، وما سيأتي في «سورة العلق».

كانت أولى المراحل، إلا أنها مشعرة بما بعدها من المتابعة والتأسِّي والإذعان.

والآيات هي: آيات الله، أو آيات القرآن(١).

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: وهذا هو **المقصد الثاني**: وهو تزكية القلوب(٢)، وهو مقصد عظيم؛ لأن مدار النجاح والفلاح على صلاح القلوب واستعدادها لتلقي الوحي وقبوله والإيمان به، وما يترتب على ذلك من حسن التنسك والعبادة، والصلة بالله التي هي سِرُّ الخشية والتقوى والخلق الكريم، والعلم الشرعي ليس المقصود به التكثُّر أو المباهاة أو المفاخرة، وإنما تزكية النفوس، وهذه دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، والتي تحقَّقت ببعثة محمد ﷺ.

وذكر التزكية التي هي أثر عن العلم؛ دليل على أن تصحيح المعرفة وتصحيح الفكر وضبط (عادات التفكير) أسبق من تصحيح السلوك، فالتزكية أثر عن المعرفة الصحيحة والفكر السليم، فالعقل أولًا، والقلب ثانيًا.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: وهذا هو **المقصد الثالث**، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقتضي الكتابة، فهو أُمِّيٌّ يُعلِّم الناس الكتابة(٣)، ولذا قال الشاعر(٤):

أَخوكَ عيسى دَعا مَيْتًا فَقامَ له ... وأَنتَ أَحيَيتَ أَجيالًا مِنَ الرِّمَمِ

ولهذا رُوي عنه ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(٥). يعني: ذكرًا كان أو أنثى.

والكتابة أصبحت جزءًا من ضرورة الشريعة في مسائل وأحكام كثيرة، كما في البيوع مثلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨).

(٤) ينظر: «الشوقيات» (١/ ٢٠١).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي تخريجه في «سورة العلق»: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ولم يعلِّمهم الكتابة بالخط أو بالقلم فحسب، بل علَّمهم ما هو أوسع من ذلك؛ إذ فتح مداركهم للمعرفة وللاطلاع وللبحث.

يا طالِبي عِلمَ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ ... ما أَنتُمُ وَسِواكُمُ بِسَواءِ
فمِدادُ ما تَجري بِهِ أَقلامُكُم ... أزكى وأفضلُ مِن دَمِ الشُهَداءِ(١)

ولم يكن الإسلام يخاف من المعرفة، ولا يحجر عليها، إلا ما كان ضررًا مَحْضًا أو غالبًا؛ بل جعل للعلم تلك المكانة العالية، وجعل فضل العلماء على سائر الناس كفضل القمر على سائر الكواكب(٢).

والكتاب هو أيضًا القرآن(٣)، وهو أعظم الكتب وأشرفها وأجمعها لخير الدنيا والآخرة.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، **فالمقصد الرابع**: أن يعلِّمهم الحكمة، وقد تكون هي السنة، كما قاله غير واحد من السلف(٤)؛ وهي المأثور عن النبي ﷺ، وفي هذا إشارة إلى ما أوتيه النبي ﷺ من جوامع الكَلِم، وإلا فإن لفظ الحكمة أبعد من ذلك، **فالحكمة** هي: القول المحكم المبني على الخبرة والتجربة والمعرفة، **والحكمة هي**: البصيرة، وهذا لا يتحقَّق إلا بطول المجالسة والاقتباس والتأسِّي، وهي أثر من صفاء القلوب بالتزكية، وصفاء العقول بالمعرفة.

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٥١) منسوبًا إلى ابن دُريد، و«الأربعين الطائية» (ص١٢٩)، و«معجم السفر» (ص٢١٣) منسوبًا إلى ابن الأنباري.

(٢) كما في حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«وإن فضلَ العالم على العابد، كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب»**. أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٧)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢١١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٨)، والمصادر السابقة.

وعقَّب بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهذا انتقال من الصلاح إلى الإصلاح، ففي المقام الأول: تزكية ذاتية للفرد والجماعة.

والتدرُّج والترقِّي ينتقل بهم إلى أن يكونوا علماء حكماء قادة.

ومما ظهر لي في الجمع بين الكتاب والحكمة: أن الكتاب يعني: الكتابة والقراءة والفهم والتعليم. وأن **الحكمة** هي: البصيرة والخبرة وخلاصة التجربة الإنسانية.

فهذه هي المقاصد الأربعة للبعثة، **وهذا مدعاة إلى أن نتساءل دائمًا:** هل الاهتمامات التي تشغل حياتنا اليوم، سواء كانت علمية معرفية، أو دعوية، أو اجتماعية، أو سياسية، هي ضمن هذه الأربع وبشكل جوهري؟ أم إننا فرَّطنا كثيرًا في الأولويات، وأصبحنا نُضيع كثيرًا من الوقت والجهد في أمور ليست جوهرية؛ بل هي فروع وتفصيلات في الشريعة وقع الخُلف فيها، واختار كل إمام أو فريق ما يميل إليه، أو هي جزئيات من أمر الحياة الدنيا لا يتعلق بها نهوض ولا نجاح ولا فلاح[1]!

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثته ﷺ في ضلال مبين[2].

ويمكن ربط هذه المقاصد الأربعة بأسماء الله الأربعة، فمن كمال ملكه سبحانه أن يوجِّه إلى عباده الرسالة، ويُقيم لهم الطريق والمحجَّة، و«القدُّوس» يُناسب قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ لأن القَدَاسة والتزكية متقاربان، والتقديس: تزكية، ولذا يسمَّى الصِّديق التَّقي: قِدِّيسًا. و«العزيز» يناسب تعليم الكتاب، وقد وصف الله كتابه بأنه عزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: ٤١]، والعِزُّ هو: بالتمسك بهذا الكتاب والأخذ به، و«الحكيم» يناسب تعليم الحكمة، فهو يُلْهِم عباده الصالحين الذين

---

(١) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١١)، و«روح البيان» (٩/ ٥١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٠).

يقتبسون من وحيه الحكمة والصواب في أقوالهم وآرائهم ودعائهم[١].

* ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾:

النص هنا يبيِّن أنه ﷺ لم يكن نبيًّا خاصًّا بالعرب؛ بل هو رسول للأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، ولكل أحد من الناس بلغته رسالته.

والمقصود: آخرون من العرب من الأجيال اللاحقة من التابعين وتابعي التابعين، أو من كانوا صغارًا وقت النبوة[٢]، وقد قال ﷺ: «وَدِدْتُ أَنَّا قد رأينا إخواننا»[٣].

فتشوَّف إلى أن يرى المؤمنين الذين آمنوا به، ووعدهم بأن الصابر منهم على دينه له أجر خمسين[٤]، فهؤلاء من «الأميين»، ولكنهم لم يلحقوا بهم في الزمان والرتبة، وهم متأخرون عنهم.

وقال ﷺ: «خيرُ أُمَّتي قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٥].

وقال أيضًا: «مثلُ أُمَّتي مثلُ المطر، لا يُدرى أولُهُ خيرٌ أم آخرُهُ»[٦].

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠، ٣٣، ٥٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣، ٦٠، ٢١٤، ٢٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٧)، و«مع الله» (ص٧١، ٨٤، ١٩٧).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣١١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٠٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٣)، و«الدر المنثور» (٨/ ١٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) كما في حديث أبي ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن وضَّاح في «البدع والنهي عنها» (١٩٢)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (٣١)، وابن حبان (٣٨٥)، والحاكم (٤/ ٣٢٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤، ٩٥٧)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٢٥٣٤، ٢٥٣٦) من حديث أبي هريرة، وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٦) تقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤﴾.

وفيه إشارة إلى فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأن الله تعالى اختارهم لصحبة النبي ﷺ والتلقِّي عنه، وفضَّلهم على غيرهم من أصحاب الأنبياء السابقين، وفضَّلهم على غيرهم من اللاحقين، فهم أفضل الأمم من حيث الجملة.

ويحتمل السياق معنى آخر؛ وهو أن المقصود: الأمم الأخرى من غير الأميين[١]، وكأن الضمير في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى المبعوث إليهم عامة، وليس إلى الأميين خاصَّة، وكأنه قال: هو الذي بعث في الأميين وبعث في آخرين أيضًا، أو يرجع إلى قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: وآخرين ممن كانوا في ضلال مبين بعث فيهم محمدًا ﷺ.

وعلى هذا فالآية تؤكِّد أن الرسالة للبشر كلهم جميعًا.

ومما يُعزِّز هذا: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ، فأُنزلت عليه «سورةُ الجمعة»: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال: قلتُ: مَن هم يا رسولَ الله؟ فلم يراجعه حتى سأَلَ ثلاثًا، وفينا سلمانُ الفارسيُّ، فوضع رسولُ الله ﷺ يده على سلمانَ، ثم قال: «**لو كان الإيمانُ عند الثُّرَيَّا، لنالَهُ رجالٌ- أو: رجلٌ- من هؤلاء**»[٢]. ولهذا قال مجاهد في الرواية المشهورة عنه: هم الأعاجم[٣].

وقيل: هم الفرس[٤]. وهو يعود إلى ما قبله.

وقيل: هم الأطفال الصغار[٥].

وقيل: هم الأمم الأخرى[٦].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٩)، و«تفسير السعدي» (ص٨٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦).

(٣) ينظر: «تفسير ابن وهب» (١/ ٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٢).

(٤) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٧٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٧١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٦).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨١).

(٦) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٤٤)، والمصادر السابقة.

وكل ذلك داخل في معنى الآية، فهؤلاء الآخرون الذين بُعث النبيُّ ﷺ فيهم لم يكونوا في درجتهم، أو لم يكونوا في زمانهم، وهذه معجزة نبوية في إخباره ﷺ بالغيب؛ لأنه يومئذ لم يكن من أتباع النبي ﷺ إلا القليل من الناس، كان فيهم سلمان الفارسيُّ، وصُهيب الرُّوميُّ[1]، وبلال الحبشيُّ رضي الله عنهم، أفراد يُعَدُّون على الأصابع، والسياق هنا عن أمم بُعث فيهم النبي ﷺ وسيلحقون بهم؛ لأن قوله: ﴿لَمَّا﴾ يعني: لم يلحقوه ولكنهم قاربوا أن يلحقوا[2]، وهكذا كان؛ فإن كل شعب من شعوب الأرض كان له أثر وعمل في خدمة الدين ورفعة شأنه، وقد نبغ علماء من غير العرب وتميَّزوا باللغة العربية والبلاغة والفصاحة، وكتبوا، وألَّفوا، وأصَّلوا، ونظَّروا، وفي النحو كذلك، وفي الحديث النبوي والفقه، ولعل المؤلِّفين من غير العرب أكثر وأشهر، وهؤلاء الأئمة الستة الذين صنَّفوا الكتب الستة في السنة النبوية غالبهم من الأعاجم، وكذلك أئمة التفسير، أما الأئمة الأربعة المتبوعون في الفقه فهم من العرب، غير أبي حنيفة فهو من فارس، رحمهم الله جميعًا.

* ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾:

أي: فضل الله تعالى بالرسالة للنبي ﷺ واختياره، وفضل الله واختياره للعرب الأُمِّيِّين، وكون الرسول منهم والقرآن بلغتهم، وفي ذلك رد على الحاسدين، وخاصة اليهود الذين حسدوا النبي ﷺ وأمته، والحاسد في حقيقة الأمر يعترض على قضاء الله تعالى واختياره[3].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ففضله يعود على مَن اختارهم بما لم يكونوا يحتسبون، وهو واسع أيضًا لغيرهم ممن تواضع لعظمته وسأله من فضله.

---

(١) لم يكن رضي الله عنه روميًّا، وإنما نُسب إلى الروم؛ لأنهم سبوه صغيرًا. ينظر: «الاستيعاب» (٢/ ٧٢٦)، و«الإصابة» (٣/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٨٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٣٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢٩).

* ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾:

انتقل السياق إلى الحديث عن أمة سابقة لها كتابها ورسولها وتاريخها يشبه من بعض الوجوه تاريخ الأمة المحمدية؛ وهم اليهود[1].

وفي الآية إشارة إلى أنهم كُلِّفوا ذلك الأمر على غير طوعهم، وثمة فرق بين مَن يختار الخير ويقصده ويبحث عنه، وبين مَن فُرضت عليه بعض الفروض أو العادات أو الرسوم فرضًا بسبب البيئة أو المجتمع الذي من حوله من غير أن يكون عنده اختيار؛ ولهذا فرَّق أهل العلم بين مسلمة الاختيار ومسلمة الاضطرار.

و﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ هي: الكتاب الذي أُنزل على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

والحمل هنا معنوي من باب: الحَمَالَة، كما تقول: فلان تحمَّل دينًا أو تبعةً معنوية[2]؛ ولكن اليهود لم يحملوها، أي: لم يقوموا بها[3]، فهم قرؤوها، وحفظوها، ظانين أنهم بذلك حملوا الأمانة وأدَّوها، ولكنهم لم يعملوا بها، ولم يقوموا بحقها، وفي ذلك تحذير للأُمِّيِّين أن يسلكوا سبيلهم، وحَثٌّ على أن يحققوا مقاصد الرسالة المشار إليها في أول السورة، وألَّا ينشغلوا باللفظ عن المعنى، ولا بالوجاهة والرئاسة والتصدر عن الإيمان والتقوى، ولا بالرسوم والأشكال الظاهرة عن الحقائق والمعاني والأحوال.

﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾: والمقصود ليس تشبيه شخص بعينه؛ لأن سياق الكلام هنا ليس عن شخص؛ بل عن أمة أو طائفة، وإنما ضُرب المثل بالحمار؛ لأنه من أكثر الحيوانات بلادة.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٩٠).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٦١)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٩٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٤).

وكان اليهود يفاخرون العرب بأنهم يقرؤون التوراة، وأنهم أصحاب علم وأهل كتاب، ويحتقرون العرب الأُمِّيِّين، وكان العرب يُسلِّمون لهم تسليم الجاهل للعالم، فلما كفروا وجحدوا فضحهم الله، وحقَّرهم، وكشف حقيقة أمرهم.

والمثل هنا يختلف عن قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا...﴾ إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، فـ«المثل» هنا حكاية عن شخص بعينه(١).

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: كذَّبوا بمحمد ﷺ، وأنكروا بعثته، وفي أحسن الأحوال قالوا: هو رسول العرب الأُمِّيِّين.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بجحد الحق، وظلموا أتباعهم بحرمانهم من الاتباع الصادق، وظلموا الحقيقة بالتنكر لها وافتروا.

وفي الآية بيان أن الله لا يهديهم، وأنه ميئوس منهم، وسيظلون كذلك، وهكذا وُجد، فمع أن الرسالة بُعثت وهم في المدينة، ثم طُردوا منها، ومن خيبر، ومن جزيرة العرب، إلا أن موقفهم ظل كما هو إلى اليوم وإلى الأبد، ولم يُسلم منهم إلا أفراد قلائل، كما أسلم عبد الله بن سلَام رضي الله عنه.

* ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾، وفي هذا تحقيق لمقام النبوة وخطاب للنبي الأُمِّيِّ أن يخاطبهم، ويقول لهم: إن الله تعالى يختبرهم بهذا.

وسمي اليهود بهذا؛ لأنهم عادوا وتابوا في عهد موسى عليه السلام إلى الله، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾(٢) [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦١٦)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٢٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٨)، و«زاد المسير» (٢/ ١٦٨)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥٧٧)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨١)، و«الدر المنثور» (١/ ١٨٢).

ويمكن أن يكون نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، أو مملكة يهوذا التي عاشوا في ظلها حقبة من الزمن(١).

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: لقد كان مما ادَّعوه أنهم أولياء الله وأبناؤه وأحباؤه، وأنهم فُضِّلوا بيوم السبت(٢)، فواجه دعواهم بهذه المطالبة لإثباتها؛ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: فادعوا على أنفسكم بالموت(٣).

والأمر بتمنِّي الموت ليس من باب ما جاء في النهي عن تمنِّي الموت، كما في حديث: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابَهُ»(٤). فإن الأمر بتمني الموت هنا يحمل على المباهلة، والله تعالى ذكر المباهلة في القرآن مع اليهود في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤]، بأن يجتمعوا فيدعوا على أنفسهم جميعًا أينا كان أرشد وأصدق وأقوم بأمر الله أن الله تعالى يحفظه وينجيه، وأن يهلك الظالم، والمباهلة مع النصارى في قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]، ومع الوثنيين في قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: ٧٥].

وهم لن يتمنوه، كما قال هنا: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾، وهو خبر، وفي «سورة البقرة» قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، وهو نفي، فهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ الآن، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ في المستقبل.

وقد ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهم لو تمنَّوه لم يبق على الأرض يهوديٌّ إلا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٢٢)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٥٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢/ ٤٠١).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢١٥).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٦٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مات(1).

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فهم يعرفون في دواخلهم أنهم ليسوا أولياء الله وليسوا على هُدى، وما قدمت أيديهم هو ما عملوا، وإنما يعبِّر باليد عن كل ما عمله الإنسان من قول أو فعل أو عمل؛ لأن غالب معاناة الأفعال باليد(2).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: فهم ظالمون لا ينفكون عن الظلم؛ وليسوا لله بأولياء؛ لأن الولاية لا تجتمع مع الظلم، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

* ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾:

شبَّه حالهم بحال مَن يفرُّ من الموت، ولا مَفَرَّ منه، فلا بد لكم من الموت.

وفيها تذكير بالأجل وقرب حلوله، ولو كان منتهى الأمر الموت لهان الأمر، ولكن بعد الموت بعث ونشور وجنة ونار:

ولــو أنــا إذا مُـتـنـا تُـركـنـا ... لـكان الـموتُ راحـةَ كلِّ حـيٍّ
ولـكـنَّـا إذا مُـتـنـا بُعثنا ... ونُسـألُ بعـدَ ذا عـن كلِّ شـيءٍ(3)

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الذي يعلم سركم ونجواكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وجاء التذكير بالموت كثيرًا في القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ،

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٨٠- ٢٨١)، و«مسند أحمد» (٢٢٢٥)، و«مسند البزار» (٤٨١٤)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٩٩٥)، و«مسند أبي يعلى» (٢٦٠٤)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٢٦٨- ٢٦٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٧٧)، و«المختارة» (١٢/ ١٤٢)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٦). وورد في بعض المصادر مدرجًا مرفوعًا، وهو خطأ.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٢٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١/ ٣٥٥)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٩١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٦١٦).

(3) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص٢٢٠)، و«أدب الدنيا والدين» (ص١٢٠).

بل ندب إلى الإكثار من تذكره؛ كما في قوله ﷺ: «أكثروا ذكرَ هاذمِ اللَّذَّات»[1]. أي: هادمها وقاطعها[2].

فالموت حقيقة واقعة، لا ينكرها إلا مسلوب العقل، وتذكر الموت لا يراد به إفساد حياة الناس والفرار من لأوائها بطلب الموت، ولا الحرمان من المتعة والبهجة والنعيم، كلا! وإنما لإصلاح الحياة بزجر النفس عن الظلم والإفساد والتعدِّي ونسيان حقوق الخلق والخالق ويحفِّزها على تدارك الزمان واغتنام الفرص والمبادرة.

ولذا كان الحث على استذكار النهاية أحد الوصايا الأساسية التي يكرِّرها علماء التنمية البشرية، كما فعل ستيفن كوفي صاحب كتاب «العادات السبع»، وستيف جويز صاحب شركة (أبل).

فالموت حافز على العمل والنجاح والصفاء واستثمار الوقت، ولا يشرع أن يكون الحديث عن الموت سلبيًّا بوصف الميت وحال بدنه بعد دفنه، وتعفنه وسريان الدود في لحمه وعظامه، والتهييج على النياحة، وإنما المشروع أن يكون الموت موعظة تجعل الإنسان أكثر انتفاعًا بالحياة، وأكثر عملًا فيها، وأبعد عن مقارفة المعاصي والاستجابة للمغريات والشهوات.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾:

انتقل من مخاطبة ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ وتقريعهم إلى مخاطبة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من الأمة الرسالية الخاتمة: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾.

والمقصود: النداء الذي يكون عند صعود الخطيب إلى المنبر[3]، ويسمى:

---

(١) سيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾.

(٢) ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٣٦) «هـ د م»، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٥٦٠- ٥٦١)، و«مرقاة المفاتيح» (٣/ ١١٦٠)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٨٩).

(٣) ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٨/ ٢١٥- ٢١٧).

النداء الثاني[1]، وأما النداء الأول فقد أمرَ به أميرُ المؤمنينَ عثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]؛ حتى يستعد الناسُ لصلاة الجمعة، ويكون قبل دخول الوقت.

و﴿مِن﴾ للتبعيض[3]، أي: وقت الزوال، ويوم الجمعة هو اليوم الذي خصَّ الله به تعالى هذه الأمة، فاليهود كانوا يفتخرون بيوم السبت، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، وهو قبل يوم السبت؛ ولهذا النبي ﷺ قال: «**نحن الآخرونَ، ونحن السابقونَ يومَ القيامة، بيد أن كلَّ أمة أُوتيت الكتابَ من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليومُ الذي كتبه اللهُ علينا، هدانا اللهُ له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غدًا، والنصارى بعد غد**»[4].

والعرب كانوا تبعًا للأمم الكتابية قبل البعثة، حتى جاء النبي ﷺ، وشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة، والجمعة اسم إسلامي قرآني، وبعضهم يقولون: إنه كان معروفًا على قلة عند العرب، فقُصَيٌّ بن كِلاب كان يُسمَّى: مُجَمِّعًا، وهو الذي قيل فيه:

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعَى مُجَمِّعًا ... به جمعَ اللهُ القبائلَ من فِهْرِ[5]

لكن الأقرب أنه اسم إسلامي جاء به القرآن، وكان يُسمَّى في الجاهلية: العَروبة، بفتح العين.

وكان العرب في الجاهلية يسمون يوم الأحد: أول، والاثنين: أَهْوَن، والثلاثاء:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٩١٢).

(٣) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢١٢)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٠٠)، و«روح البيان» (٩/ ٥٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٥٩)، و«نسب قريش» (ص٣٧٥)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٤٦٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٢) منسوبًا إلى حذافة بن غانم العدوي.

ونُسب إلى غيره. ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٧٣١)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٢٩٤)، و«الفائق» للزمخشري (٣/ ١٨٤).

جُبَار، أو: جِبار، والأربعاء: دُبَار، أو: دِبار، والخميس: مُؤْنِس، والجمعة: العَروبة، والسبت: شِيار[(١)].

ولا شك أن الأسماء المتداولة اليوم كانت معروفة عند العرب، وربما كانت الأسماء المشار إليها قديمة، وإلا فالسيرة النبوية والروايات تدل على أنهم كانوا يستخدمون أسماء الأيام المعروفة الآن، ولم يجر الإسلام لها تغييرًا جوهريًا، سوى الجمعة.

وفي «الجمعة» فضائل كَتَبَ العلماء فيها مصنفات، وأشار ابن القيم إلى طرف منها في «زاد المعاد»[(٢)]، منها: فضيلة اجتماع المسلمين للصلاة وقت الزوال، والخطبة، وأن صلاة الجمعة جهرية، ومشروعية الاغتسال، والطيب، ولبس أحسن الثياب، وساعة الإجابة، وقراءة «سورة الأعلى» و«سورة الغاشية» في صلاة الجمعة، وقراءة «سورة السجدة» و«سورة الإنسان» في فجرها.

وأوصل بعضهم خصائص الجمعة إلى أكثر من مائة خصيصة أو تزيد.

وأول جمعة في الإسلام كانت في المدينة، أقامها أسعد بن زُرارة، ومصعب ابن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(٣)]، وكان كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلما سمع نداء الجمعة ترحَّم على أسعد ابن زُرارة، فقال له ولده: أراك تترحَّم عليه. قال: نعم، هو أول مَن جمع بنا الجمعة في نقيع يقال له: نَقِيع الخَضِمات، قبل أن يهاجر النبي ﷺ[(٤)].

---

(١) ينظر: «الأيام والليالي والشهور» للفراء (ص٣٧)، و«الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقُطْرُوب (ص٣٦)، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص١٣٥)، و«لسان العرب» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (٣/ ٣٤١) «ع ر ب».

(٢) ينظر: «الجمعة وفضلها» للمروزي، و«الجمعة» للنسائي، و«زاد المعاد» (١/ ٣٦٣)، و«اللمعة في خصائص الجمعة» للسيوطي.

(٣) قيل: إن أول مَن جمَّع في المدينة مصعب بن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٥١٤٦)، و«الأوائل» لابن أبي عاصم (٤٧). وقيل: إن أول مَن جمَّع هو أسعد زُرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد جُمع بين الروايتين بأن أسعد كان آمرًا، ومصعب كان إمامًا. ينظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ١١٥)، و«عون المعبود» (٣/ ٢٨٣).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٦٩)، وابن ماجه (١٠٨٢)، وابن خزيمة (١٧٢٤)، وابن حبان (٧٠١٣)، والحاكم (٣/ ١٨٧). وينظر: «إرواء الغليل» (٦٠٠).

ولما هاجر النبي ﷺ كان وصوله المدينة يوم الاثنين، فجلس في قباء، وفي يوم الجمعة انطلق إلى المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدًا، فصلَّى فيه النبي ﷺ، وخطب في ذلك اليوم خطبة مروية ذكرها القرطبي في «تفسيره»(١)، وإن كانت تحتاج إلى التوثيق من سندها.

و«السعي إلى ذكر الله» هو: المضي إلى المسجد مشيًا بسكينة ووقار.

﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: فامْضُوا إلى ذكرِ الله، واعملوا له؛ **وأصل السعيِ في هذا الموضع**: العمل، أي: التوجُّه لاستماع الخطبة والصلاة، والمضي إليها، وترك ما يشتغل به من أعمال تؤخِّر عنها.

قال قتادة: «أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضيُّ إليها»(٢).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو كان السعي لسعيتُ حتى يسقط ردائي». قال: ولكنها: «فامضوا إلى ذكر الله»(٣).

وهذا يبيِّن أن المراد بالسعي التوجه والمضي إلى الصلاة، وليس المقصود السعي بمعنى العَدْو والإسراع في المشي.

و«ذكر الله» هو الخطبة والصلاة **على القول الراجح**(٤)، وسماها: «ذكرًا»؛ لما فيها من ذكر الله سبحانه.

وفي ذلك إشارة إلى أن هذا مقصد الخطبة؛ ولذلك جعلت الجمعة ركعتين، بخلاف الظهر، فكأن الخطبتين مقام الركعتين(٥)؛ ولذلك ينبغي أن تكون الخطبة

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٨- ٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣٩).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٥).

(٥) ينظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (٤/ ١٢٧٥)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٧/ ٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٣).

هادفة تخاطب القلوب وترقّقها وتشعل فيها جذوة الإيمان، وأن تكون توجيهات شرعية مؤصلة على قواعد النصوص لا على محض الاجتهادات الشخصية، ومن الخطأ أن نفرط أثناء الخطبة في تفصيلات جزئية تتحول إلى تصفية حسابات مع اتجاهات أو مذاهب أو أحزاب أو آراء.

والنبي ﷺ يقول: «**إذا أقيمت الصلاةُ فلا تأتوها تسعونَ، وأتوها تمشونَ عليكم السَّكينةَ، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا**»[(١)].

والمقصود: انبعاث القلب وتوجهه إلى ذكر الله، وترك الشواغل الأخرى، أي: استعدوا لذكر الله[(٢)].

ويشهد لهذا المعنى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، أي: أطاق الولد أن يمشي مع والده[(٣)].

أو: فامضوا إلى ذكر الله، وهكذا كان يقرأها عمر وابن مسعود رضي الله عنهما، وكأنها قراءة للتفسير[(٤)].

وينبغي أن نترقَّى بالخطبة؛ لتكون معنى يخاطب المصلِّين جميعًا؛ لأن الجمعة يحضرها المسلمون كلهم لزامًا، وقد استنصتهم الشرع للخطيب، لا لمعنى فيه يخصُّه حتى يجعل منبر الجمعة محلًّا لاجتهاداته الشخصية، ربما ليس لها دليل، بل يجب أن تنحصر في محكمات الشريعة وقيمها وأصولها التي تهم الناس جميعًا، وأن تكون قبسًا من الذكر الحكيم، ودعوة إلى التزكِّي والتطهُّر والخلق العظيم، وعرضًا لسير الصالحين، وعلى رأسهم قادتهم من الأنبياء والمرسلين.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١١٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٠).

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع في هذا الوقت[١].

وفيه دليل على جواز البيع من حيث الأصل؛ لكن طلب منهم ترك ذلك وقتًا محدَّدًا؛ ولهذا لا يجوز البيع والشراء بعد نداء الجمعة الثاني عند جماهير أهل العلم[٢]، وهو الصحيح، والبيع بعد ذلك باطل، وألحق طوائف من الفقهاء بالبيع والشراء ما كان في معناها من المعاملات المالية الأخرى؛ لأنها تشترك جميعًا في كونها تلهي عن ذكر الله[٣].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: فيه إلماح إلى قداسة هذا اليوم، وفضيلة هذا الوقت، وأنه وقت إجابة للدعاء، ووقت تجمع المسلمين، فهذا خير عند الله لمَن كان لديه العلم الهادي بقيم الأشياء.

* ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: انصرفتم منها[٤]، ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، و﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ غالبًا ما يُطلق على الرزق[٥]؛ ولهذا شُرع لداخل المسجد قول: «**اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك**». وإذا خرج قال: «**اللهمَّ إني أسألُك من فضلك**»[٦]. وفي الحج يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «البناية شرح الهداية» (٣/ ٨٩)، و«المدونة» (١/ ٢٣٤)، و«الأم» (١/ ٢٢٤)، و«المبدع» (٤/ ٤١)، و«المحلى» (٧/ ٥١٧).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٦٦)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٩٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧١).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٢٧).

(٦) أخرجه مسلم (٧١٣) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]. والمقصود: البيع والشراء(١).

وهكذا تأتي النصوص الشرعية لتربط ما بين الدين والدنيا، حتى لا يكون ثمة انفصال في واقع الحياة، فالدين لا يدعو إلى التخلِّي عن الدنيا وإهمالها، وذكر بعضهم أن في السعي في الأرض بعد الجمعة والضرب فيها والبيع والشراء بركة ورزقًا(٢).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، فذِكْر الله لا ينبغي أن يقتصر على وقت الخطبة، أو في وقت الصلاة، أو في المسجد، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان النبيُّ ﷺ يذكرُ اللهَ على كلِّ أحيانه»(٣).

وليس للذكر طقوس معينة، بل شُرع للمؤمنين أن يذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، متوضِّئين وغير متوضِّئين، فقد كان النبيُّ ﷺ يذكر اللهَ وهو جنب، غير أنه لا يقرأ القرآن إلا إذا تطَّهر، وفي حالة التبايع والمعاملات ينبغي ألَّا ينقطع فيها الذكر، وكان السلف يشوبون بيعهم بالذكر والدعاء والكلام المبارك.

* ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾:

سبب نزول هذه الآية: ما رواه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فجاءت عِيرٌ من الشام، فسمع الناسُ وقعها، وعادة ما يكون معها دفوف وطبول تخبر بقدومها، فخرج أكثرُ الناس من المسجد، والنبيُّ ﷺ يخطبُ، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا، فيهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا فيهم، فنزلت هذه الآية(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٧٥)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٥٠٤)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٥٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٨- ١٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٢- ١٢٣)، و«فتح الباري» لابن رجب (٨/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه مسلم (٣٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٥٨)، ومسلم (٨٦٣). وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٢٨).

وقد ورد أن النبيَّ ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحدٌ، لسالَ بكم الوادي نارًا**»[1].

وقد كانت الحادثة في السنة الرابعة أو قريبًا منها، وكانت الخطبة بعد الصلاة[2]، فهؤلاء صلوا مع النبي ﷺ، وجلسوا يستمعون الموعظة، كما هي الحال في صلاة العيد، ولم يكن الاستماع للخطبة واجبًا بعد، وكانوا في مجاعة شديدة وشظف من العيش، ومسهم الضُّر، وجاءت العِيرُ فتنادوا إليها.

ويظهر لي أن للمنافقين في هذا عملًا ويدًا، وهو تجرئة الناس على الانفضاض عن رسول الله ﷺ، فخرج المتعجِّلون، وخرج الأعراب، وخرج أطراف الناس، حتى لم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلًا على سبيل التقريب[3].

وفي رواية: بقي ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، ومن عَدَّ أسمائهم يتبين أنهم كانوا فوق الاثني عشر رجلًا، وبعضهم قدَّروا أنهم يستطيعون أن يسمعوا الفائدة أو الحكمة من غيرهم.

وبهذه الوجوه يزول الإشكال الذي يخطر بالبال في انصراف رجال الصدر الأول عن الخطبة إلى التجارة.

و«**اللَّهو**» تابع غير مقصود، بل المقصود: «**التجارة**»، وقرن تعالى بينهما؛ توبيخًا وتقريعًا لمَن فضَّل التجارة على الذِّكر والحكمة، وبدأ **بالتجارة**؛ لأنها هي المقصود، ولذا قال: ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ ولم يقل: «إليهما»؛ لأن انفضاضهم كان قصده التجارة[4].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٩٧٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٤٧)، وابن حبان (٦٨٧٧)، وابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (٢/ ٨٥١)، وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٦- ٢٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٤٧).

(٢) ينظر: «المراسيل» لأبي داود (٦٢).

(٣) ينظر: «سنن الدارقطني» (٢/ ٣٠٧- ٣٠٨)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٢٥٩)، و«فتح الباري» (٢/ ٤٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢)، و«فتح الباري» (٢/ ٤٢٤)، و«تحفة الأحوذي» (٩/ ١٥٠).

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾، وهذا دليل على أن خطبة الجمعة تكون عن قيام، وكان النبي ﷺ يخطب قائمًا، ثم يقعد، ثم يقوم للخطبة الثانية[1].

وفي السياق شيء من التأنيب والتوبيخ؛ إذ كيف يتركون النبيَّ ﷺ وهو قائم يحدِّثهم ويذكِّرُهم؟

وقيامه يدل على احتفائه وحرصه، وهو الرؤوف الرحيم بهم.

﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ أي: ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الآخرة خيرٌ مما ذهبتم إليه[2]، كما قال قبل: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

فالرزق عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا يُروى أن أبا هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: «يا أهلَ السوق، ما أعجزكم!». قالوا: وما ذاك يا أبا هريرةَ؟ قال: «ذاك ميراثُ رسول الله ﷺ يُقْسَم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه!». قالوا: وأين هو؟ قال: «في المسجد». فخرجوا سِراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرةَ لهم حتى رجعوا، فقال لهم: «ما لكم؟». قالوا: يا أبا هريرةَ، فقد أتينا المسجدَ، فدخلنا، فلم نر فيه شيئًا يُقْسَم. فقال لهم أبو هريرةَ: «أما رأيتم في المسجد أحدًا؟». قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام. فقال لهم أبو هريرة: «ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ»[3].

والقصة تدل على أن المجتمع المدني كان مجتمعًا بشريًّا، فلم يكونوا ملائكة في الأرض يخلفون، وكانت تحلُّ بهم الضرورات والحاجات، وفيهم القوي والضعيف، ولكن كان فيهم أكابر من عِلية الصحابة ومقدِّميهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزُّبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٢٠)، و«صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٢) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٦٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٤٢٩)، وينظر: «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨)، و«مجمع الزوائد» (١/ ١٢٤).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، بقوا مع النبي ﷺ، ولما نزلت هذه الآية تأدَّب بها الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ثم شُرعت الخطبة قبل الصلاة، فكانوا يأتون إليها مبكِّرين، ويستعدون لها بالطيب وجميل اللباس والغُسل والتبكير.

○○○

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

* **تسمية السورة:**

تُسمَّى: «سورة المنافقون» بالرفع على الحكاية[1]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾.

أو: «سورة المنافقين» على الإضافة[2].

* **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدِّ[3].

* **وهي مدنية بالاتفاق أيضًا**[4]؛ لأن حركة النفاق لم تظهر إلا في المدينة.

* **وسبب نزولها** مشهور، والراجح أنه كان في غزوة المُرَيْسِيع، أو غزوة بني المُصْطَلَق، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكَسَعَ[5] رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فغضب الأنصاريُّ غضبًا شديدًا، حتى

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٠١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٥٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤١٥)، و«مسند الحارث» (٢/ ٧٣١)، و«مسند البزار» (١٠/ ٢١٧)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، والمصادر السابقة.

(٥) أي: ضرب دبره بيد أو رجل أو سيف. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٧٣)، و«لسان العرب» (٨/ ٣٠٩) «ك س ع».

تَدَاعَوْا[1]، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «**ما بالُ دعوى الجاهلية؟**». قالوا: يا رسولَ الله، كَسَعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلًا من الأنصار. فقال: «**دعوها؛ فإنها منتنةٌ**». فسمعها عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ فقال: قد فعلوها، أَقَدْ تَدَاعَوْا علينا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. قال عمرُ: دعني أضربْ عُنقَ هذا المنافق. فقال ﷺ: «**دَعْهُ؛ لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أصحابه**»[2].

وعن زيد بن أَرْقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ في غزاة، فسمعتُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلُولَ يقول: لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدَّثته، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسولُ الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسولُ الله ﷺ ومَقَتَكَ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾. فبعث إليَّ النبيُّ ﷺ فقرأ، فقال: «**إن اللهَ قد صدَّقك يا زيدُ**»[3].

وقيل: إن الحادثة وقعت في غزوة تبوك، وهو ضعيف، بل كانت في غزوة بني المُصْطَلِق- وهي: المُرَيْسِيع- في السنة الخامسة من الهجرة[4].

---

(١) أي: حتى استغاثوا. ينظر: «عمدة القاري» (١٦/ ٨٨)، و«إرشاد الساري» (٦/ ١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

وينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٠- ١٢٢، ١٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧)، و«فتح القدير» (٢/ ٤٣٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٣١- ٢٣٢).

(٤) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٤٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٤٤)، و«الروض الأنف» (٧/ ١٨)، و«أسد الغابة» (١/ ٥٧٤)، و«عيون الأثر» (٢/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٤٩)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣١- ٢٣٢).

* ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ جمع: منافق، وهو اصطلاح شرعي جديد لم يكن مستخدمًا من قبل، وهو مأخوذ من النفق، وهو الطريق الخفي المفتوح من جهتيه[1]، وبعض الحيوانات تحفر في الأرض حفرة وتجعل لها بابين إن حوصرت من هنا خرجت من هنا، فهم قد وضعوا رِجْلًا مع الإسلام ورِجْلًا مع الكفر، فإن غلب هؤلاء كانوا معهم، وإن غلب هؤلاء كانوا معهم، وأول مَن أنشأ النفاق في المدينة هم اليهود، فهم مؤسِّسو النفاق وزعماؤه؛ ولذلك كان كثير من المنافقين من يهود أهل المدينة الذين أظهروا الإسلام، وفيهم من الأوس والخزرج الذين تأثروا بهم[2].

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ[3].

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾: فيعلنون إيمانهم خداعًا وحقنًا لدمائهم، وبحثًا عن مصلحتهم العاجلة، ويُقسمون على ذلك، أو أن الشهادة ذاتها تعتبر قَسَمًا ويمينًا وهم لم يقولوا: «نعلم»، وإنما صرحوا بلفظ: الشهادة: ﴿نَشْهَدُ﴾.

والشهادة: إقرار بالشيء كأنه يشاهده بعينه من شدة يقينه، وهم يؤكِّدون الشهادة بحرف «إنَّ»، وباللام، وبالقَسَم[4].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، ولأن الآية وصفتهم بالنفاق ابتداءً، فإن السياق يعتني بالفصل بين كون الرسالة حقيقة من عند الله، وبين كون ادِّعائهم أنهم يشهدون كذبًا بما ليس في قلوبهم المنطوية على الكفر.

فألغى شهادتهم، وكذَّبهم فيما نسبوه لأنفسهم، وأثبت الرسالة بعلمه المحيط،

---

(١) ينظر: «العين» (٥/ ١٧٧ - ١٧٨)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٤٣٢) «ن ف ق».

(٢) ينظر: «الإيمان» لابن تيمية (ص٢٣٥)، و«السيرة النبوية» لأبي شُهبة (٢/ ٤٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٤)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٣٨ - ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٢ - ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٤).

وهو الذي أرسله[١]، وعبَّر بلفظ العلم؛ تنويعًا، كما عبَّر بلفظ: الشهادة في «سورة آل عمران» في ابتداء الوحدانية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

* ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾:

تعريض بعبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، لما جاء إلى النبي ﷺ وحلف بالله أنه ما قال هذا، وزعم أن زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كاذب فيما نسب إليه[٢].

والجُنَّة- بضم الجيم-: الدِّرع أو التُّرس الذي يضعه الإنسان على جسده أو بعض جسده ليقيه من السلاح[٣]، فهم جعلوا أَيْمانهم وقاية من أن يُعاقبوا أو يُؤاخذوا أو تُقام عليهم الحدود والعقوبات[٤].

والأَيْمان جمع: يمين، وهو الحلف[٥]، فهم يحلفون على الكذب وهم يعلمون، ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم.

وقُرئ بكسر الهمزة: (إِيْمَانَهُمْ)[٦]، أي: أنهم تظاهروا بالإيمان لا صدقًا ولا رغبة فيما عند الله، بل لأجل عرض زائل من الدنيا، ومنه حماية أنفسهم، والحصول على ميزات اجتماعية يخافون فقدها[٧].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٥).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) ينظر: «تاج العروس» (٣٤/ ٣٦٨) «ج ن ن»، و«أضواء البيان» (٨/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٩٠).

(٦) وهي قراءة الحسن البصري. ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص١٥٧)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٦٧).

(٧) ينظر ما تقدم في «سورة المجادلة»: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦﴾.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: صدُّوا أنفسهم عن سبيل الله، وكأنهم استمرؤوا هذا وظنوا أن المسلمين لا يدركون حيلهم وأحابيلهم، وكذبوا وصدَّقوا الكذبة؛ ولهذا استمروا على كذبهم وتلبيسهم(١).

أو يكون المعنى: صدُّوا غيرهم عن سبيل الله، وهذا ظاهر من أفعالهم؛ فهم يحلفون ليغرُّوا غيرهم ويخدعوهم بتظاهرهم بالصدق ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾:

والآية تحتمل أنهم آمنوا عند النبي ﷺ، ثم كفروا عند أصحابهم وشياطينهم الذين يثقون بهم(٣)، كما قال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. والشياطين هؤلاء هم مدرسوهم من اليهود وغيرهم.

وتحتمل أنهم آمنوا ظاهرا بألسنتهم، ثم كفروا باطنًا بقلوبهم وأعمالهم(٤).

وتحتمل أن ناسًا من اليهود آمنوا بموسى، ولما جاء النبيُّ ﷺ كفروا به: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩].

والاحتمال الرابع: أن يكون ذلك إشارة إلى بعضهم الذين وقع منهم شيء من الإيمان ثم تركوه(٥)، كما في صدر «سورة البقرة»: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾(٦) [البقرة: ١٧].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٧).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٥- ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٧).

(٦) وقد أفاض ابن القيم في شرح المثل الناري والمثل المائي. ينظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١١٦- ١١٨).

فيكون المقصود أنهم أول ما سمعوا القرآن وقع عندهم شيء من الإيمان ولما رجعوا إلى أصحابهم غسلوا أدمغتهم وعقولهم وزيَّنوا لهم الباطل وصرفوهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فكفروا بعد ما وقع منهم شيء من الإيمان.

ولا مانع من حمل الآية على هذه المعاني كلها، والله أعلم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: والطبع على القلب أن يصبح أعمى، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، كالكُوز مُجَخِّيًا، كما قال ﷺ[1]، فالقلب المطبوع بخلاف القلب الحي السليم.

والطَّبع من الله، فهو الذي طبع على قلوبهم[2]، ولكن هذا الطبع بسبب أنهم استكبروا عن الإيمان والإذعان لدعوة الرسول ﷺ، واتخذوا أَيْمانهم جُنَّة، يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره؛ ولم يريدوا الحق ولا أصغوا إليه، ولا توجَّهوا إلى ربهم بسؤال الهداية.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: والفقه: المعرفة القلبية التي تميز بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والمعروف والمنكر[3].

* ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾: ليس المقصود المنافقين كلهم، ففيهم الطويل والقصير والسمين والنحيف، بل هو إشارة إلى مجموعة خاصة منهم، وعلى رأسهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ شيخُ النفاق[4]؛ ولذا قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) وقد قرأ زيد بن علي: (فَطَبَعَ) يعني: الله. وقرأ الأعمش وزيد بن علي- في رواية أخرى-: (فَطَبَعَ اللهُ). ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٦٧- ٤٦٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٩).

«كان عبدُ الله ابنُ أُبَيٍّ وَسِيمًا جَسِيمًا صَحِيحًا صَبِيحًا ذَلِق اللِّسان»[1].

فكان الرجل فيه خصال القوة في جسده، وهذا ليس مدحا في أصله وليس ذمًّا؛ لأن الله قال عن طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ولكن معناه أن هذه الأجساد خواء؛ وقد لقي أحد الشيوخ شابًّا فأعجبه، فقربه منه وسأله، فوجده لا يفقه شيئًا، فقال: ياله من بيت لو كان فيه سكان! فالجسم بيت جميل، ولكن لا روح فيه ولا عقل.

وبسطة الجسم صفة محايدة ليست صفة نقص ولا كمال، فهو يوجد في بعض المؤمنين وفي بعض المنافقين، وقد أثنى الله على جمال يوسف وقوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان محمد ﷺ حسن الصورة والقامة، كأن وجهه القمر بأبي هو وأمي.

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾: في ذلك إشارة إلى الفصاحة[2]، وهي بحد ذاتها معنى جميل، وكان النبي ﷺ يُوصف بأنه أُوتي جوامع الكَلِم[3]، وأفصح مَن نطق بالضاد[4]، وقال موسى عن هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ [القصص: ٣٤].

في كلام هؤلاء المنافقين كثير من التقعر والتفيهق والتكلُّف وزخرفة القول دون طائل، وأنت تجد خطيبًا أو شاعرًا يحسن الكلام والتصريف، وليس من وراء كلامه معنى، ولو كانت الفصاحة لنصرة الحق وهداية الناس أو للمعاني الجميلة لكانت محمودة.

﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾: و﴿خُشُبٞ﴾ بضم الخاء والشين، جمع: خشبة.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٣٩).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) وما يُروى أن النبيَّ ﷺ قال: «أنا أفصحُ مَن نطق بالضاد». فهو لا أصل له، قاله ابن كثير وغيره. ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٤٣)، و«المقاصد الحسنة» (ص١٦٧)، و«كشف الخفاء» (١/ ٢٢٨)، و«الفوائد المجموعة» (ص٣٢٧).

وفي قراءة: (خَشَبٌ) بفتحتين[1]. فوصفهم الله بحسن الصُّور، وإبانة النُّطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخُشُب.

و﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: ممالة إلى الجدار، فهم لا يسمعون الهُدى، ولا يقبلونه، كما لا تسمعه الخشب المسندة[2].

ولو كانت هذه الخشب في الأشجار لكانت حية مخضرَّة نامية ينتفع بها، ولو كانت مما يستفاد منه في البناء أو الإيقاد فكذلك، لكنها مسنَّدة مركونة على جدار تضر ولا تنفع، ولا يستفاد من طولها وعرضها وكثرتها إلا شغل المكان وتعويق الطريق[3]!

ويحتمل أن يكون شبَّههم بالخشب عند ما يكونون في ناديهم أو مجلسهم، وكل واحد منهم في زاوية وقد اتَّكأ على الجدار يقول الزور ويغشى الفجور[4].

لقد خسر المنافقون نبيل الصفات الإنسانية، وهي الصدق، والصدق محمدة حتى عند عرب الجاهلية، إذ كانوا يستقبحون الكذب، وفي قصة غَوْرث بن الحارث أنه قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: «الله». فسقط السيفُ من يده، فأخذه رسولُ الله ﷺ، فقال: «مَن يمنعك مني؟». قال: كن كخير

---

(١) وهي قراءة ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وسعيد بن المسيب. ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦).

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿خُشْبٌ﴾ بضم الخاء وسكون الشين، وقرأ الباقون: ﴿خُشُبٌ﴾ بضمتين. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص٤٣٦)، و«حجة القراءات» (ص٧٠٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص٣٨٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٦، ٢٨٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٦٩- ٤٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٣- ٦٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٠).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦).

آخذ، قال: «أتشهدُ أن لا إله إلا الله؟». قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله[1].

فهذا مع جهله لم يحقن دمه بالكذب، ولا اتخذ إيمانه جُنَّة؛ لأن فيه كرامة الإنسان وصدقه ووضوحه.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: كلما سمعوا صائحًا في المدينة لا يعرفون مصدره ظنوا أنهم المستهدَفون المقصودون، وأنه ينادي لمحاربتهم؛ لأنهم أصحاب مكائد ومؤامرات ودسائس، اجتمع لهم خبث نواياهم وقبح أعمالهم وإضمارهم العداوة والحقد والبغضاء للمؤمنين، وفي كل لحظة يتوقعون أنهم افتضحوا وبانت حقيقتهم، فلذا يحسبون كل صيحة عليهم، وهذا من خورهم وجبنهم[2].

﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾: إشارة إلى شدة عداوتهم، وكأنه لا عدوّ غيرهم، كما قيل[3]:

فمنهم عدوٌّ كاشرٌ عن عدائه ... ومنهم عدوٌّ في ثياب الأصادقِ
ومنهم قريبٌ أعظمُ الخَطْب قربُه ... له فيكم فعلُ العدوِّ المفارقِ
أردتم رضا الرحمن قلبًا وقالبًا ... ولم يطلبوا إلا حقيرَ الدوانقِ
فسدَّد في درب الجهاد خطاكُمُ ... وجنَّبكم فيه خفيَّ المزالقِ

وخصَّهم بذلك؛ لتلبسهم ومخالطتهم المؤمنين بالمدينة، واطلاعهم على عورات المسلمين، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾: ونلحظ هنا أن الله لم يقل: «فاقتلهم»، أو: «فانفهم من الأرض»، وإنما أمره بالحذر[4]، وهذا أصل عظيم في التعامل مع المنافقين،

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٩)، وابن حبان (٢٨٨٣)، والحاكم (٣/ ٢٩) من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٥- ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٠- ٢٤١).

(٣) للشاعر عصام العطار.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«أضواء البيان» (٨/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤١).

فقد كانوا يُصلُّون مع المسلمين ويصومون، وقد يقع لبعضهم الخروج للجهاد، وكانوا يُعاتَبون على القعود عن الجهاد، كما في قصة تبوك: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٩٠]، وجاءوا واعتذروا من النبي ﷺ، فقبل منهم عذرهم.

وليتنا نعامل بعضنا بعضًا مثلما كان الرسول ﷺ يعامل المنافقين، ففي حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، أنه لما جاء المنافقون واعتذروا من النبي ﷺ قَبِلَ منهم علانيتهم وكفَّ عنهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله(١).

وإن استغفرت لأخيك المسلم فبها ونعمت، وإن لم تستغفر فهذا شأنك، يكفي أنك تكف عنه شرَّك، ولا تفسِّر أعماله تفسيرًا سيِّئًا، وأوكلت سريرته إلى الله.

إن المنافقين تنظيم سري متآمر متغلغل في الأمة وعدو لها، وهذا يقتضي الحذر والتيقظ، وبخاصة أنهم من البيئة نفسها ويتكلمون اللغة ذاتها، وينتمون إلى المكونات عينها، ويتظاهرون بأنهم من الطينة نفسها، وربما زادوا وزايدوا وحاولوا هدم الإسلام باسم حمايته والغيرة عليه.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: وهذه صيغة دعاء تستعمل حتى مع مَن يخطئ، فيقال: قاتل الله فلانًا، كيف فعل كذا، أو قال كذا!

ويجوز أن يكون المعنى: أن الله تعالى هو الذي يتولَّى قتالهم ويحبط مخططاتهم، ولم يقل لنبيه ﷺ: قاتلهم(٢).

وهذا يلقي مزيدًا من الضوء على قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

إن مجاهدة المنافقين تختلف عن مجاهدة الكفار، وليس قتالهم موكولًا إلى الناس.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٦- ٣٠٧).

ثم تعجب منهم كيف يصدفون عن الحق على رغم وضوحه وبيانه، وأنهم يحاجون في الله من بعد ما استجيب له، فقد رأوا النبي ﷺ وشهدوا التنزيل وخالطوا المسلمين ورأوا العبر والآيات، ولكن السبب هو ما سبق من الطبع على قلوبهم، لمَّا صدوا وأعرضوا[1].

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝﴾:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: لعل القائل ممن يختلط بهم، وهو أحسن حالًا منهم، فهم كانوا درجات، كما نُقل عن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ أنه لما رجع في غزوة أُحد بثلث الجيش، أو بعد قصة المُرَيْسِيع بدأ الناس يتفرقون من حوله ويسيئون الظن به، فحينئذ جاءه بعضهم وقال له: تعال يستغفر لك رسولُ الله[2].

وتعال: أصلها مشتق من العلو، أي: اذهب إلى جهة العلو، لكن نُسي هذا المعنى، وصار يراد بها معنى: هلم، أو: احضر[3].

وإنما قالوا ذلك؛ لأنهم عرفوا أن رسول الله ﷺ رجل لين سمح سهل يحب الخير للناس ويؤثر جانب الرحمة، وقد قال له ربه: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

وليس المقصود العدد، وإنما المراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار فلن يغفر لهم ربهم[4]، ومع هذا قال ﷺ: «إني خُيِّرتُ فاخترتُ، لو أعلمُ أني إن زدتُ على

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص٢٩٥)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢/ ٢٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٨٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٨٤، ٥٨٤) «ص ع د»، «ع ل ا»، و«زاد المسير» (١/ ٢٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٣)، و«عمدة القاري» (١١/ ١٥١).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٤)، و«فتح القدير» (٢/ ٤٤١)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٢٧٨).

السبعينَ يُغفرُ له لزدتُ عليها»[1].

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾: قُرئت بالتشديد وبالتخفيف[2]، والتشديد أبلغ؛ لأن معناه أنه لم يلووه مرة واحدة، وإنما مرات[3]، وقالوا: لن نذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لنا.

و﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ مظهر من مظاهر الإعراض والتعالي والصدود، فهم يميلون رؤوسهم ويصرفون وجوههم امتناعًا واستهزاءً، ولذا قال: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

وفيها معنى آخر، وهو أنهم لا يريدون أن تلتقي أعينهم بأعين مَن يحادثهم ويقترح عليهم؛ لأن العيون تفضح؛ ولهذا قال سبحانه عنهم: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[4] [الأحزاب: ١٩].

فهم يلوون رؤوسهم إلى غير جهة المتحدِّث حتى لا يراهم ولا يقرأ علامات الكذب والخبث في عيونهم.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: فليس في صدورهم إيمان ولا هُدى، إنما هو الكِبر، وما منعهم من الإيمان إلا هو؛ ولهذا لا يجتمع الإيمان والكبر في قلب امرئ مسلم، قال ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً. قال: «إن اللهَ جميلٌ يحبُّ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٢٦٩، ١٣٦٦، ٤٦٧٠، ٤٦٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٠، ٢٧٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٤)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٣٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٨)، و«معجم القراءات» (٩/ ٤٧١ - ٤٧٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٦- ١٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢٧).

الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس»[(١)].

وكان من رحمة الله برسوله ﷺ ألَّا يأتوا إليه؛ لأنهم لو جاؤوه فاستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فمن حِفظ الله لنبيه ﷺ ألَّا يدعو الدعاء الذي لا يستجاب، فرحمه الله بأنهم لم يأتوه وصاروا يصدون وهم مستكبرون.

* ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾:

﴿سَوَآءٌ﴾ هنا، وفي «سورة البقرة» في شأن الذين كفروا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، تدل على استواء الطرفين؛ ولهذا يأتي بعدها ذكر الطرفين، وهما هنا الاستغفار وعدمه[(٢)]، وفي «سورة البقرة» الإنذار وتركه؛ ولأنه يستوي عندهم الاستغفار وعدمه حَكَم الله عليه بأنه سواء عليهم هذا أم ذاك، فالله تعالى علم منهم ما جعل المغفرة عليهم حرام: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، والفاسق هو: الخارج على الطاعة وعن الحق[(٣)]، فهم لا يهتدون.

* ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: يحتمل أن يكون المراد المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وتركوا أموالهم وبيوتهم في سبيل الله، فيقولون: لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا، ويتركوه ويبتعدوا عنه[(٤)]، وهم يظنون

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٦٣)، (٢٢/ ٦٥٨)، و«الكشاف» (١/ ٤٧)، (٤/ ٥٤٣)، (٣٠/ ٥٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٢٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٨).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٣٦)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ١٢٠)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٣٠٢) «ف س ق».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٧).

أن الدنيا تدار بالدرهم والدينار، وبمجرد ما يتوقف الإنفاق سوف ينفضون مسرعين زرافات زرافات!

وربما قصدوا فئة من الفقراء، كأصحاب الصُّفَّة، وبعض الأعراب الذين يأتون وما عندهم شيء.

وقد ورد أن عبد الله بن أُبيٍّ قال ذلك مظهِرًا للشفقة، وأعلنه؛ ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: «على من عند محمد»؛ لأنه قالها في المجلس، فذكر أن النبيَّ ﷺ يأتي عنده الأعراب والفقراء فيحضرون مائدته، فلا تقدِّموا الطعام حتى يذهبوا بعيدًا[(١)].

وهم بهذا يظهرون الشفقة، وقصدهم أن يبتعد الناس عن النبي ﷺ وعن الإيمان والعلم، وينقطعوا عن مجالسته[(٢)].

والمهاجرون كانوا رجالًا يعتمدون على أنفسهم في الكسب والتجارة، وهم أهل أسواق ومواسم ورحلات مشهورة.

يدل لذلك: قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لما آخى النبيُّ ﷺ بينهما، فعرض سعد بن الرَّبيع عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئًا من أَقِطٍ وسمن، فرآه النبيُّ ﷺ، بعد أيام وعليه وَضَرٌ من صُفْرة، فقال النبيُّ ﷺ **«مَهْيَمْ يا عبدَ الرحمن؟»**. أي: ما الخبر؟ قال: يا رسولَ الله، تزوجتُ امرأةً من الأنصار. قال: **«كم أصدقتها؟»**. فقال: وزن نواة من ذهب، فقال ﷺ: **«بارك اللهُ لك، أولم ولو بشاة»**[(٣)].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٣٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢١، ١٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٤٨) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٢٠٤٩، ٣٧٨١، ٣٩٣٧)، ومسلم (١٤٢٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أثنى أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ على الأنصار وحسن بلائهم، واستشهد بقول الطُّفَيل الغَنَوِيِّ(1) لبني جعفر:

جزى اللهُ عنا جعفرًا حين أَزْلَقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّت

أَبَوْا أن يَمَلُّونا ولو أنَّ أُمَّنا ... تُلاقي الذي يَلْقَونَ منا لملَّت

هم خَلَطونا بالنفوس وألجئُوا ... إلى حُجُرات أَدْفَأَتْ وأظلَّت

والإسلام دين ينهى عن التواكل، ويحث على العمل والكدح والإنتاج.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: **قيل**: خزائن السماوات: المطر، وخزائن الأرض: النبات.

وقيل: خزائن السماوات: الغيوب، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]، وخزائن الأرض: القلوب، أن يسخر الله قلوب العباد بعضهم لبعض.

والأولى العموم، ويدخل في خزائن السماوات: المطر، والشمس بأشعتها، والهواء، وكل ما ينزل مما ينفع الناس، وغيرها مما لا يعلمه الناس، وخزائن الأرض: النبات والنفط والثروات المكنوزة في باطنها، وما يظهر ويدب على ظاهرها من حيوانات وناس(2).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾: فهذا من المعاني الإيمانية القلبية، والمنافقون لا يفقهون في الإيمان والأخوة والإيثار والقيم النبيلة، فكيف لمَن هم كالخُشُب المسندة أن يفقهوا هذه المعاني المشرقة؟ إنما هم عكوف على ظاهر من الحياة الدنيا وعلى الأشكال والرسوم.

---

(1) ينظر: «الخراج» ليحيى بن آدم (٨٤)، و«الأم» (١/ ١٨٩)، و«الحماسة الصغرى» (ص٢٥١)، و«تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة (٢/ ٤٨٩)، و«عيار الشعر» (ص١٤٠)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٧١)، و«لسان العرب» (٩/ ١٧١)، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١٣/ ١١٦)، وما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ ...﴾ [الحشر: ٩].

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٥٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٨).

* ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

وهم يعتقدون أنفسهم أعزة، وأن الرسول ﷺ ومَن معه هم الأذلاء(١)، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالعزة لله ولرسوله ولمَن آمنوا بالله ورسوله، فلهم عزة الباطن بالإيمان، وعزة الظاهر بالنصر والغنى والتمكين، وفي حال الاستضعاف لهم عزة الثقة بالله والانتساب لدينه وانتظار فرجه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وقد عبَّر في شأن المال والخزائن بأنهم لا يفقهون(٢)؛ لأن الأمر يتطلَّب فقهًا قلبيًّا عميقًا، في حين أنه عبَّر هنا في شأن العزة بعدم العلم؛ لأن الأمر أوضح وأظهر، فهو مدرَك بالعيان لمَن أراد، وإن كان بعض المنافقين يغالطون ويجادلون في الحقائق، ويتجاهلون الدلائل الواقعية على ظهور الإسلام وقوته وانتشاره وغلبة أهله.

وهم حسبوها حسية سطحية أن عدد أهل المدينة كذا وعدد المهاجرين كذا، فأهل المدينة أكثر، ولذا يمكن أن نُخرجهم من المدينة، في حين أن الأمر على خلاف تقديرهم لأمرين:

١- أن المهاجرين ازدادوا يومًا بعد يوم؛ وإذا كانت غزوة المُريْسِيع في السنة الخامسة، فمن المحتمل آنذاك أن يكون عدد المهاجرين متساويًا لأهل المدينة إن لم يكن أكثر.

٢- أن أهل المدينة أنفسهم أصبح أكثرهم مع صف الإيمان بالرسول ﷺ ومع المهاجرين ضدكم أيها المنافقون؛ ولذلك أنتم محشورون منعزلون وعددكم قليل ولكنكم لا تعلمون ولم تدركوا أن ثمة تغيرًا يطرأ على الساحة تتسارع خطاه.

والجملة التهديدية التي قالها ابنُ سَلُولَ كانت في حالة غضب، فكانت في بدايتها صغيرة، ومعظم النار من مستصغر الشَّرر.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٤٩).

(٢) كما في الآية السابقة. ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٠).

وكثيرًا ما تكون الحروب العظيمة بسبب شرارة لا يُؤْبَه لها، والظاهر أن إدراك المنافقين- وكبارهم بخاصة- أن الوقت ليس في صالحهم، وأن قوتهم تتآكل، وقوة الإسلام تزداد، يجعلهم يفتعلون مثل هذه الحوادث، ويستغلونها لإحداث البلبلة وتهييج البسطاء، وتغريرًا لحدثاء العهد بالإسلام، وإضلالًا لهم ليرجعوا إلى الكفر.

وهنا فائدة، وهي أن على العقلاء والحكماء أَلَّا يسترسلوا في سماع كلام الصغار والسفهاء ولو نشروه في وسائل الإعلام، فقد يُثير فتنًا من لا شيء، وطي الكلام وتجاهله ما أمكن أفضل من إشاعته وإعادته وترديده ولو على سبيل النقد أو الرفض له، فإماتة الباطل بتجاهله أفضل وأولى.

ثم إن من المداخل الخطيرة على المجتمعات محاولة زرع الفتنة فيها، وتحريك بذور العصبيات التي تحمل على الاحتراب، كالإقليمية والقبلية والعنصرية والعصبية الجاهلية، والواجب أن يشعر الناس بنعمة الله عليهم بالوحدة: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وأن لا يتعاطى طرف ازدراءً أو تهوينًا أو تحقيرًا لغيره، ولا يستعرض قوته وعدته، فالأمر كما قيل[(١)]:

جـاء شَقِيـقٌ عـارضًـا رُمحه إن بنـي عمـك فيهـم رِمـاحُ!

وفي القصة مشهد يسترعي الانتباه، وهو أن عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلُولَ بعد ما قال ما قال، استأذن عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ النبيَّ ﷺ في قتله، فأبى عليه رسولُ الله ﷺ، وقال: «ادعُوا لي عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ». فدعاه، فقال: «أَلَا ترى ما يقولُ أبوك؟». قال: وما يقولُ بأبي أنت وأمي؟ قال: «يقولُ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ». فقال: فقد صدق والله يا رسولَ الله، أنت والله الأعزُّ، وهو الأذلُّ، أما والله، لقد قدمتَ المدينةَ يا رسولَ الله، وإن أهلَ يثربَ ليعلمون ما بها أحدٌ أبرَّ مني، ولئن كان يُرْضي اللهَ ورسولَه أن آتيَهما برأسه لآتينَّهما به. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا». فلما

(١) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٢٢٢)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص٤١٣)، و«معاهد التنصيص» (١/ ٧٢) منسوبًا إلى حَجَل بن نَضْلة.

قدموا المدينةَ قام عبدُ الله بنُ عبد الله بن أُبَيٍّ على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائلُ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؟ أما والله لتعرفنَّ العزةُ لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظلُّه، ولا تأويه أبدًا إلا بإذن من الله ورسوله. فقال: يا للَخزرج، ابني يمنعني بيتي، يا للَخزرج، ابني يمنعني بيتي. فقال: والله لا تأويه أبدًا إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجالٌ فكلَّموه، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبيَّ ﷺ فأخبروه، فقال: «اذهبوا إليه، فقولوا له: خَلِّه ومسكنه». فأتوه، فقال: أما إذ جاء أمرُ النبي ﷺ فنعم(١).

ثم جاء ابنه إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تريدُ قَتْلَ عبدِ الله ابنِ أُبَيٍّ، فإن كنتَ فاعلًا فَأْمُرني به، فأنا أحملُ إليك رأسَهُ، فوالله لقد عَلِمَتِ الخزرجُ ما كان بها رجلٌ أبرُّ بوالدِهِ مني، ولكني أخشى أن تأمرَ به رجلًا مُسلمًا فيقتلَهُ، فلا تَدَعُني نفسي أن أنظرَ إلى قاتلِ عبدِ الله يمشي في الأرض حيًّا حتى أقتلَه، فأَقْتُلَ مؤمنًا بكافرٍ، فأدخلَ النارَ. فقال ﷺ: «بل نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، ونَتَرَفَّقُ به ما صَحِبَنا»(٢).

وعاده النبيُّ ﷺ في مرضه، وصلَّى عليه عند موته، وفيه نزل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾(٣) [التوبة: ٨٤].

ففي هذا البر والحفاظ ورعاية الحقوق وحسن التأنِّي وسياسة الأمور بصبر وروِيَّة وتسامح مع اليقظة والحذر وعزل التأثير السيء للقوى المضادة.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾:

مناسبة الآية لما قبلها(٤): أن من سمات المنافقين أنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٦٦).

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٥)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٦١)، و«كشف المشكل» (٢/ ٥٣٢)، و«أسد الغابة» (٢/ ١٣٣)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٨)، و«الإصابة» (٤/ ١٥٥)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٥٩٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٠).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٠).

خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، بخلاف المؤمنين الأتقياء الذين ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، بألسنتهم، وبقلوبهم، وبأبدانهم، بالتزام الطاعة وترك المعصية.

ففي الآية التحذير من صفات المنافقين الذين اعتزُّوا بأموالهم وأولادهم، وظنوا أن المال هو كل شيء، وأن مَن أعطوه المال فقد كسبوه، ومَن حرموه المال افتضَّ وذهب، وأن الغنى دليل الفلاح والنجاح، والفقر دليل الشقاء والتعاسة والتحقير: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وليس المقصود التخلِّي عن المال، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح**»(١).

والمال له عبودية وزكاة، وبه يستطيع المسلم أن يعف ويكف وينفق ويتصدَّق ويجاهد، وإنما المذموم تجاوز حدود ما أمر الله به، أو أن يكون المال مشغلة عن ذكر الله.

* ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾:

طلب إليهم أن يكسبوا المال من حلال، وأن ينفقوه في حلال، وأن يبادروا الآجال بصالح الأعمال، وذكَّرهم بأن المال عارية، وهو من الله وإليه، فهو من فضله ورزقه، وسوف يزول عنك أو تزول أنت عنه، وتصبح وحيدًا فريدًا بلا أهل ولا مال، ولذا عبَّر بقوله: ﴿أَحَدَكُمُ﴾ ولم يقل: «من قبل أن يأتيكم الموت»؛ لأن الإنسان يموت وحده، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٥]. والإنسان يتعزَّز بقرابته وأهله ومَن حوله، لكن إذا حضرته الوفاة لم ينفعه أحد ﴿فَيَقُولَ﴾ إذا أتاه الموت على سبيل التمنِّي والدعاء: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾، يريد أيامًا معدودات، وفرصة ولو قصيرة

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٠٦١)، وأحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم (٢/ ٢، ٢٣٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طالما توفرت له فضيَّعها وسوَّف وماطل وغفل ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ولن ينفع هذا التمني بعد إذ وقع الأمر موقعه وحضرت الوفاة.

وفي الآية سر عظيم، فما من أحد يموت إلا وتحضره ندامة؛ إن كان محسنًا ندم أَلَّا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أَلَّا يكون نزع وتاب، **وغالب ما يندم عليه المرء عند الموت يتعلق بأمور خلاصتها ما يأتي:**

١- يندم أَلَّا يكون مؤمنًا صالحًا تقيًّا، كما أشارت الآية، وهذا يتعلق بصلته بربه، وضمن ذلك استذكار الذنوب والمعاصي والمخالفات والأوقات التي أُهدرت فيها، وكلما كانت المعصية أكثر متعةً وأطول وقتًا كانت ندامتها عند الموت أعظم.

٢- يندم أَلَّا يكون قدَّم إحسانًا إلى الناس وخيرًا، كما دلَّ عليه الندم في الآية على عدم الصدقة والإنفاق، ويشمل هذا من باب أولى الندم على ظلم الناس أو بخسهم حقوقهم أو العدوان عليهم في أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم.

٣- يندم على أن يكون عاش عمره في مجاملة للآخرين وتصنع لهم، ولم يعش حياته كما يريد هو، ويتمنى لو أنه اعتزل التمثيل وظهر بشخصيته الحقيقية وأحلامه وطموحاته.

٤- يندم على الإفراط في العمل الدنيوي كالوظيفة أو التجارة بما أَثَّر على صحته ونفسيته، ومن ثَمَّ حُرم من متعة الحياة وزينتها، وقصَّر في حقوق الأهل والقرابة من أجل شيء لم يعد ينفعه في قليل ولا كثير.

٥- يندم على تفويت الأصدقاء الذين كانوا يستحقون أن يضحِّي من أجلهم فضحَّى بهم.

٦- يندم على فوات فرص الاستمتاع والسعادة التي كانت على مقربة منه، ولكنه عاش مع المظاهر والشكليَّات وليس مع الحقائق.

٧- يندم على كبت مشاعره وأحاسيسه، سواءً كانت إيجابية بالتعبير عن الرضا والحب والامتنان، أو سلبية بالتعبير عن العتب والمؤاخذة.

وقد كتبت الممرضة الاسترالية (بروني وير) كتابًا مفيدًا عن أهم خمسة أشياء

يندم عليها الإنسان عند الموت(١).

* ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾:

النفس: مشتقة من النَّفَس الذي يتردد شهيقًا وزفيرًا، وهو علامة الحياة، فيكون معناه: الروح، ويحتمل أن يكون المقصود: الإنسان(٢): ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومصداق هذه الآيات: حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ويؤمرُ بأربع كلمات: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ»(٣). فهي آجال مضروبة وأعمال مكتوبة لا تتقدم ولا تتأخر.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: الخبير من أسماء الله الحسنى، والخبرة أدقُّ وأخص من العلم، وهي المعرفة بالدقائق واللطائف والأسرار(٤).

وهذا مناسب للسياق؛ لأن ما يقوله الإنسان عند بغتة الموت هي دعوى كاذبة غالبًا، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولو صحت منه النية لحسن منه العمل، والمؤمن يُؤجر على نيته الصادقة ولو حال القدر بينه وبين العمل؛ ولهذا قال ﷺ: «يقولُ الله: إذا أراد عبدي أن يعملَ سيئةً، فلا تكتبوها عليه حتى يعملَها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنةً، وإذا أراد أن يعملَ حسنةً فلم يعملها فاكتبوها له حسنةً، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف»(٥).

○○○

(١) اسمه: «أمنيات ما قبل الموت».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٤) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٥١).

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور، ولا تُعرف إلا به: «**سورة التغابن**»(١).

* **عدد آياتها:** ثماني عشرة آية باتفاق علماء العدِّ(٢).

* **وهي مدنية** عند جمهور المفسرين(٣)، وذهب الضحاك إلى أنها مكية(٤).

ولابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وعكرمة وجماعة أن فيها المكي والمدني(٥).

وهذا أظهر وأقوى؛ فإن ما في السورة من موضوع البعث ومجادلة المشركين ما هو من أغراض السور المكية، وفيها من التحذير من عداوة الأولاد والأزواج ما هو أشبه بالمدني.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٢)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٥)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٨).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٨)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣٠٩)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٤٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٤٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٩٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٨٩)، والمصادر السابقة.

* ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾:

الاستفتاح بالتسبيح معهود في مطالع السور، وخاصة المسبِّحات، وهو يأتي بصيغة المضارع، كما في هذه السورة، و«سورة الجمعة»، ويأتي بصيغة الماضي، كما في «سورة الحديد»، و«سورة الصف»، ويأتي بصيغة المستقبل(الأمر)، كما في «سورة الأعلى».

وصيغة الماضي إشارة إلى عراقة التسبيح، وأن التسبيح لله وُجد منذ وُجد مَن يسبِّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فليس أمرًا طارئًا، بل هو راسخٌ قديمٌ قدم الأكوان.

أما في المضارع، فهو إشارة إلى التجدُّد، وأنه ليس شيئًا وقع وانتهى، بل هو مستديم مستمر مستغرق للزمان.

وأما الأمر، فهو إشارة إلى المستقبل وأن التسبيح باق لا يزول(١).

وثمة تسبيح الكون اللاهج بالثناء على الله وتمجيده: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ④④﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن تسبيح الكائنات: انسياقها لأمر الله في نظام فلكي رباني منضبط لا يتقدم ولا يتأخر، وبهذا فسره بعض أهل العلم(٢)، وهو جزء من المعنى، لكن لا يمنع أن نفهم من السياق أن كل شيء يسبِّح الله بلغة لا نفهمها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، في حين أن حركة الأفلاك مما يفقهه الناس ويدركونه ويقرؤونه.

ففي آيات الأمر بالتسبيح إشارة إلى الفرق بين تسبيح الكائنات الاضطراري الذي جُبلت عليه، وبين التسبيح الاختياري الذي يُؤمر به الجان والإنسان فيكون به مكلَّفًا؛ ولهذا لما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ [الأعلى: ١]، قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم». ولما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ⑦④﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال:

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤١- ٤٤٢، ٥٢٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٠)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥٤١)، (٨/ ٤).

(٢) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (٩/ ١٠٠٦)، و«صفوة التفاسير» (٣/ ٣٠٢).

«اجعلوها في ركوعكم»[1]. والصلاة جزء منها تسبيح.

والتسبيح: تقديس الله سبحانه وتنزيهه عن صفات النقص كلها، وإثبات الكمال له وحده[2].

﴿وَمَا﴾ تُطلق غالبًا على غير العاقل[3]، كالسماء والأرض والنجوم والأفلاك.

وفي ذلك إشارة إلى أن في السماوات عوالم عظيمة لا يعلمها إلا الله، وفي الأرض مثل ذلك، فهي تفتح عقل الإنسان على امتداد المخلوقات وسعتها، وأنها كلها على كثرتها تلهج بالتسبيح بربها، أفلا يليق بالإنسان أن يكون مثلها؟! أَلَا يستحق المولى الذي ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، هذا التسبيح؟! فهو سبحانه متفرِّد بالملك التام المطلق.

ولذلك من أسمائه: المَلِك، والمالك، ومالك يوم الدين، ولا ملك إلا له؛ لأن ملك الناس ملك ناقص محدود بزمن، أما ملك الله سبحانه فهو دائم لا يزول ولا يحول ولا يتغير[4].

وهو الذي خلق الأشياء ومنحها خصائصها ووجودها، وهو المتصرِّف وحده، فليس ثمتَ مُلْك حقيقي إلا له؛ ولهذا يقول سبحانه يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ويجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾[5] [غافر: ١٦].

---

(١) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان من حديث عقبة ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٤٧١)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٦٢) «س ب ح»، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٦٤)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾.

(٣) ينظر: «شرح ابن عقيل» (١/ ١٤٧)، و«شرح الأشموني» (١/ ١٣٥)، و«شرح التصريح على التوضيح» (١/ ١٥٧)، و«همع الهوامع» (١/ ٣٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٨)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٦٥)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٥) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٢٣٦)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٥٠)، (٢٠/ ٢٩٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٧)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٤٣- ١٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٥١)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٠٠)، والمصادر السابقة.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فلا حمد حقًّا إلا له، ولا يستحق الحمد المطلق إلا هو سبحانه[1]، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فهو المحمود بحق واستحقاق، وهو الخليق بقول المتنبي[2]:

تملَّك الحمدَ حتى ما لمفتخر ... في الحمد حاءٌ ولا ميمٌ ولا دالُ

والحمد هو: الثناء على الله بصفات الكمال، كالقدرة والعلم والحلم والشكر والرضا والكرم والجود والفضل[3].

ويلحق الحمد الشكر، وهو الثناء على المحمود بالنعم التي أسداها إلى العباد، فتشكره على السمع والبصر والعقل والمال والولد[4].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: له القدرة التامة، ومن قدرته خلق السماوات والأرض وما فيهما[5].

وهذا الاستهلال العظيم يوحي بما بعده؛ لأنه سوف يتوجَّه بالتوبيخ والعتاب للشاردين عن الله.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أيها البشر[6].

ويحتمل أن يكون هنا وقف، ثم جاء ما بعده مستأنفًا: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢٦٥)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٩)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٣/ ٢٨٥).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ١٣٥)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٥٣)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٢٠١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٥٦)، و«المصباح المنير» (١/ ١٤٩) «ح م د».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٥).

(٦) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٢)، والمصادر السابقة.

ويحتمل أنه كلام متصل كالجملة الواحدة، وبين المعنيين فرق[1]:

وعلى قراءة الفصل يكون المعنى: أن الله تعالى خلق الناس، ثم بعد ذلك استأنف خبرًا جديدًا، وهو أن الناس أقسام؛ منهم الكافر ومنهم المؤمن، وعلى هذا لا إشكال.

أما على قراءة الوصل فالمعنى: أن الله تعالى خلقكم مختلفين، منكم الكافر ومنكم المؤمن، والمؤمن أشرف وأعظم منزلة، فكان المظنون أن يبدأ به، لكن الله تعالى بدأ بالكافر؛ لأنه حال أغلب الناس، كما في آيات كثيرة ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولأن سياق السورة في معاتبة وتوبيخ صنف من الكافرين، ودحض حججهم وادعاءاتهم، فكان من المناسب أن يبدأ بذلك تمهيدًا لما بعده[2].

وليس في الآية ما يدل على أن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا مشيئة؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن للأمر بالإيمان معنى، والله تعالى ضمَّن السورة نفسها الأمر بالإيمان: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التغابن: ٨]، وحذَّر من الكفر، وأن مَن كفر فإن الله تعالى غني عنه، وتوعَّد الكافرين، مما يدل على أن الإيمان أو الكفر هو اختيار العبد لنفسه، وإن كان الله علم ماذا سوف يحدث من العباد جملة وتفصيلًا.

فهو عليم بصير خبير لا تخفى عليه خافية[3]، وقد ثبت أن الله لو شاء ما أشركوا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠٠]، فلو شاء الله أن يجبر الناس على الإيمان لأكرههم عليه فكانوا مؤمنين كلهم، أو جعله جِبلَّة فيهم لا مندوحة

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٨٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١).

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٥٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٩٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦٤).

لهم عنها كشأن الملائكة، ولكنه أراد بحكمته أن يجعل لهم مشيئة وإرادة، وهي ضرورة نفسية يعرفها كل أحد، أنه إن شاء أن يرفع هذا الإناء أو يضعه أو يشرب أو يقرأ أو يقوم أو يقعد أو يتكلم أو يسكت... وقد يأخذ شيئًا ثم يعزف عنه ويقول: لا أريده، هذا أمر مستقر معلوم، وكذلك ما يتعلق بالأخلاق والدين الأصل فيها أن الإنسان كائن مختار وحسابه على ضوء ما اختار لنفسه.

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهر، فبعد ما ذكر أن التسبيح يصدر من السماوات والأرض وما فيها على سبيل الفطرة والجِبلَّة، انتقل إلى خصوص الكائن المختار الذي بمقدوره أن يسبِّح أو يكفر وهو الإنسان، فبيَّن أن خلق الناس خاصة توجد فيه صفة أن يكون كافرًا أو مؤمنًا، وأن كثرة الكفر لا تضر الله شيئًا، ولله عوالم وملائكة تسبِّح دون فتور ولا كفور!

* ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾:

ومن الحقِّ: إتقان خلق السماوات والأرض، ووجود النظام والسنن والنواميس الضابطة لحركة الأفلاك، فلا يبغي بعضها على بعض، ولا تصطدم، وكلها تسير بمقدار يحقِّق مصالح الذين يعيشون على ظاهرها[(١)].

ومن الحقِّ: أن الله تعالى خلقها لحكمة في الدارين، ولإرادة تتعلق بإنزال الكتب وإرسال الرسل وابتلاء الناس؛ ولهذا ذكر عن المؤمنين تسليمهم ويقظة قلوبهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[(٢)].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أعطى كل إنسان صورته[(٣)].

---

(١) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٥٥)، و«روح البيان» (١٠/ ٥)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٥٦)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٣١٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٢)، و«تفسير المراغي» (٢٨/ ١١٩)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٨٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٥٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، والمصادر السابقة.

ولهذا من أسمائه سبحانه: الخالق، البارئ، المصوِّر، فهذه معانٍ متسلسلة نهايتها التصوير، وهو ظهورك للحياة بهذه الصورة التي أنت عليها(١).

والله تعالى يمتن على الإنسان بحسن الصورة، واعتدال القوام وجمال الوجه والثغر والشعر واللسان والعقل والحركة، وفيه دليل على أن حسن صور الناس أمر مقصود، وكلها من أسرار الخلقة الربانية للإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].

وهذا يصنع إدراكًا لفضيلة الإنسانية، فهو بشر ومختار، وصورته أحسن صورة، ولو شاء الله لجعله كسائر الحيوان، كما قال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٨]، وما يطرأ على هذه الصورة من نقص، فإن الغالب أنه من فعل الناس وتعدياتهم على الأجنة، كتسربات نووية إشعاعية، وهو خلاف الصورة المألوفة العامة بين الخلق كلهم، ومع ذلك هو لا يؤثِّر على أصل الصورة وجمالها، وإذا قارنت الإنسان بالحيوان، وجدت الفرق الكبير في الجمال والاعتدال والأشكال والنظرة والابتسامة والتفاهم، ومع تفاوت الناس في الصورة إلا أنهم يشتركون في حسن الخلقة.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: وهو إلماح إلى أن العمل من إيمان أو كفر سوف يرى ويحاسب عليه(٢).

* ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾:

فعلمه سبحانه محيط بكل شيء، فيعلم ما تعلنون من الأعمال وما تسرون من العقائد والنوايا، ويعلم ما تظهرون وما تسرون، وما سوف يقع منكم من هذا وذاك

---

(١) ينظر ما تقدم في آخر «سورة الحشر»: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ...﴾ [الحشر: ٢٤].

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«روح البيان» (١٠/ ٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٢)، و«تفسير المراغي» (٢٨/ ١٢٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٦).

في المستقبل مما لا تعلمونه الآن[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: صاحبة الصدور التي لم تغادرها، كالأشياء المستكنة في الصدر، ومنها الشعور الخفي الذي لا يحس به صاحبه والعقل الباطن (اللاواعي) الذي يحتوي على مخزون المشاعر والانفعالات والبواعث والذكريات التي لا يشعر بها صاحبها[2].

* ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑤﴾:

أي: من قبلكم من الأمم السابقة الذين عُذِّبوا، ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عاقبة كفرهم في الدنيا بالاستئصال والنكال، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة[3].

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ⑥﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أصابهم في الدنيا وينتظرهم في الآخرة، ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ كيف يرسل الله بشرًا مثلنا لهدايتنا[4]؟ وفيه ازدراء للإنسانية.

فاستنكروا أن ينتمي النبي إلى جنس البشر، ولو عقلوا لعرفوا أن غاية تكريم

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٤٣).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٨)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١).

البشرية أن يكون من بينهم مَن يختاره الله للرسالة والنبوة[(١)].

والبشر لا يهديهم إلا نبيٌّ مثلهم، فلو جاءهم مَلَك ما استطاع أن يتعامل معهم كما يتعاملون هم، ولا يعرف طبائعهم وتكوينهم وعاداتهم وما جُبلوا عليه؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩]؛ فكونه بشرًا أدعى للتأثير والاقتداء؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

ومن الحكمة في الدعوة أن يكون من كل أمة دعاة من أنفسهم، ولذا فالأبلغ أن يكون الدعاة في الولايات المتحدة الأمريكية من شعبها نفسه، وأن يكون دعاة الأوربيين منهم، وأن يكون مَن يدعو العجم من العجم، ومن الفرس الفرس؛ لأن كونه من جنسهم أدعى أن يكون أعرف بثقافتهم وخطابهم ولغتهم، وأقدر على معرفة طريقتهم في التفكير وأكثر فهمًا واستيعابًا لهم.

فاستنكارهم أن تكون هدايتهم من بشر عين الخطأ والإزراء بالإنسانية، ولذا قال: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ كفروا بالرسل والأنبياء، وأعرضوا عنهم وعن دعوتهم[(٢)].

﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾: والله تعالى غني بكل حال، ولكن يذكر الغنى بمناسبة وقوع الكفر، كما في قوله سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ﴾ [الزمر: ٧].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أوَّلَكُم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكُم كانوا على أَتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»[(٣)]. وذلك إشارة إلى أنه حينما دعاهم لم يكن ليستكثر بهم من قلة ولا ليستعزَّ بهم من ذلة، وإنما دعاهم لأنفسهم وأمهلهم وأقام عليهم الحجج وصبر عليهم، وهو الغني وهم الفقراء، ومع

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٢٨/ ١٢٢)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٠٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فقرهم وكفرهم وغناه سبحانه فإنه يصطفي قومًا غيرهم من المؤمنين العارفين ثم لا يكونوا أمثالهم.

ومعنى استغنى: غَنِيَ، أو استغنى عن تكرار الدعوة لهم، فبعدما رفضوا الدعوة عوقبوا، وهو سبحانه غني عمَّن عصاه حميد لمَن أطاعه[1].

* ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾:

والزَّعْم هو: حكاية قول مظنته الكذب[2]؛ ولهذا جاء في الحديث: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرجلِ: زعموا»[3]. وفي سنده ضعف[4]، ومعناه: أن يحدِّث بكل ما سمع، ولا يتحقَّق من أخباره[5].

ومن معانيه: الادِّعاء دون بينة[6]، ومنه زَعْم الذين كفروا هنا؛ فقد ادَّعوا أَلَّا بعث ولا نشور، والمقصود: كفار مكة ومَن كان على ديانتهم الوثنية[7]، أما غيرهم كأهل الكتاب فهم يؤمنون بالبعث، وإن لم يكن بالصورة الصحيحة السالمة من الخرافات.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٠) «ز ع م»، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤٨٨)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٠٧٥)، وأبو داود (٤٩٧٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٦٢، ٧٦٣)، وغيرهما من حديث أبي مسعود الأنصاري، أو حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «المهذب اختصار سنن البيهقي» للذهبي (٨/ ٤٢٦٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٥٥١)، و«الإصابة» (١٢/ ٤٢٣)، و«النكت الظراف» (٣/ ٤٥ - ٤٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٨٦٦).

(٥) ينظر: «معالم السنن» (٤/ ١٣٠)، و«فيض القدير» (٣/ ٢١٤)، و«عون المعبود» (١٣/ ٢١٤)، وما تقدم في «سورة الحجرات»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾.

(٦) ينظر: «الكليات» للكَفَوي (ص٤٨٨)، والمصادر السابقة.

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، والمصادر السابقة.

ولما كان زعم الذين كفروا باطلًا قال الله لنبيه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾: أقسم عليهم بأن ما زعموه باطل، وأن الله تعالى سوف يبعثهم[1].

وهذه آية من ثلاث آيات في القرآن الكريم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه ﷺ أن يُقسِم فيها.

وفي «سورة يونس»: ﴿۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]، وفي «سورة سبأ»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

وفي هذه السورة أقسم على حقيقتين: **الأولى**: البعث، وهي القضية الأهم التي مَن يؤمن بها سيلزمه الإيمان بما بعدها من الحساب.

والثانية: أن الإنسان سوف يُنبأ بما عمل: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، وليس المقصود مجرد الإخبار والكشف، بل المحاسبة والجزاء بالخير والشر[2].

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: وما له لا يكون يسيرًا عليه سبحانه، وهو الذي إذا أراد شيئًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

* ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: والمخاطَبون ربما زعم بعضهم أنهم يؤمنون بالله، ولكن الله يريد أن يكون إيمانًا حقيقيًا موافقا لما جاءت به الرسل، وأن يتحول من مجرد إيمان نظري عقلي أو لفظي إلى إيمان عملي، فبعض الناس يؤمن بوجود الله، ولكن لا يعبده، ولا يلتزم بشرائعه مطلقًا، ولا يدين بها، فلا ينفعه هذا الإيمان، حتى يتحول إلى إيمان حقيقي والتزام واقعي.

﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن؛ بقرينة الإنزال[3]. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٣).

* ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾: يجمع أعضاءكم، ثم تعود الروح إلى الجسد، ويخرج الناس من قبورهم، فهذا يوم القيامة، ومن أسمائه: يوم الجمع(١).

وسُمِّي: يوم الجمع؛ لأن الناس كلهم يجتمعون فيه(٢)، وتجمع لكل نبي أمته(٣) كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وفيه جمع أعضاء الإنسان بعدما تفرقت؛ وذاك سمي: يوم الجمع، كما قال سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾(٤) [الشورى: ٧].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: ولم يرد في القرآن الكريم لفظ ﴿التَّغَابُنِ﴾ إلا هنا، وهو مأخوذ من الغَبْن، وهو: أن يبيع الإنسان سلعة بأقل من ثمنها، ويكون الفرق فاحشًا(٥).

ووصف ذلك اليوم بـ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، والأصل أن التغابن يكون بين طرفين، كما تقول: تضاربا، أو تقاتلا(٦).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٤).

(٥) ينظر: «غريب الحديث» للحربي (١/ ٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٤)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٣١٧)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٨١).

(٦) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨١)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ١١٥)، وينظر: «شرح ابن عقيل» (٤/ ٢٦٤)، و«همع الهوامع» (٣/ ٣٠٤)، و«جامع الدروس العربية» (١/ ٢٢٠).

والوجه الآخر: أنه ما من مكلَّف إلا ويقع له غَبْن يوم القيامة، ويتمنى أن يُعاد إلى الدنيا، إن كان مسيئًا حتى يستعتب ويتوب، وإن كان محسنًا حتى يزداد إحسانًا[1]، فيكون الغَبْن لكل أحد من الناس، حتى الصالح الذي عمل الخير يتمنى أن يعود ليعمل أفضل، وإذا رأى ما عند الله من الفضل والكرامة تمنَّى المزيد، كما جاء في الحديث: «يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاء الثوابَ لو أن جلودَهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض»[2]. ولا تغابن حقًّا إلا في ذلك اليوم.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: فيه إشارة إلى علاج الغَبْن بالمبادرة إلى التوبة وعمل الصالحات مما يكون سببًا في تكفير الذنوب[3]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وفي استطاعتك يا عبد الله أن تنقذ نفسك من مغبة الغَبْن والتغابن يوم القيامة بأن تبادر للعمل الصالح والثبات على الإيمان.

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: والجنات بالنظر إلى مجموع المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وكل امرئ منهم له جنته.

والآية دليل على الخلود الأبدي السرمدي الذي لا يحول ولا يزول ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٨].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في مقابل ﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾، فهذا هو الفوز في الجنة[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٨)، و«الوجيز» للواحدي (ص١١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٢)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٠٢)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٢٤١)، والخليلي في «الإرشاد» (٢/ ٦٦٦)، والبيهقي (٣/ ٥٢٦)، وفي «شعب الإيمان» (٩٤٥١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٠٢- ٢٠٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «علل الدارقطني» (١٣/ ٣٤٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٢٠٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٦٩)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٠١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٨٢).

* ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾:

ولم يقل ﴿أَبَدًا﴾، ومن هنا أخذ بعض أهل العلم أن ثمتَ فرقًا بين خلود أهل الجنة وخلود أهل النار، وأن خلود أهل الجنة سرمدٌ لا نهاية له، وخلود أهل النار هو المكث الطويل، وهذا ما يُفهم من كلام ابن تيمية في بعض كتبه، وابن القيم، وحكاه شارح «الطحاوية» قولًا في مذهب أهل السنة، واختاره رشيد رضا من المتأخرين، وألَّف فيه الصنعاني.

واختلف أهل العلم في هذه المسألة اختلافًا كبيرًا، والمسألة ليست من مسائل الإجماع، ولا من القطعيات، بل هي من مواطن الخلاف، ومَن أخذ بقول منها فلا حرج عليه[1].

* ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

الحديث عن المصائب بعد الحديث عن الإيمان والكفر، قد يكون متعلّقًا بمصائب سببها الكفار بعدوانهم على المؤمنين بالتعذيب أو الأذى أو القتل أو مفارقة الأهل والديار، كما تعرَّض له المؤمنون بمكة، أو تكون المصيبة أحيانًا في كفر قريب، كأب أو أم أو أخ، فيغتم لذلك قريبهم المسلم الذي حاول هدايتهم فلم تنفعهم الذكرى.

والمصيبة هي: ما يصيب الإنسان[2]، ولكن جرى العرف اللُّغوي على أنها لا تستخدم إلا في الشر، كما هنا، والمصيبة وإن كان لها سبب معلوم غالبًا، إلا أنها مكتوبة من قبل، ولذا ذكر الإذن الإلهي، وهو العلم والقدر المكتوب عند الله تعالى.

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ﴾: يقول علقمة بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو الرجلُ تصيبه

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٧٩).

المصيبةُ، فيعلمُ أنها من عند الله، فيسلِّم لذلك ويرضى»(١).

ويقول بعض السلف: يَهْد قلبه إلى أن يكثر من قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»(٢).

ويقول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «يَهْد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»(٣).

فمَن يؤمن بالله ويعلم أن المصائب بإذنه وأنه يُؤجر على الصبر ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

وفي قراءة بفتح الدال وبعدها همزة ساكنة: (يَهْدَأْ قَلْبُه)(٤)، أي: يصبح قلبه هادئًا في مواجهة المصيبة؛ لأن المصائب تجعل القلب يضطرب ويرتبك، ويفقد الإنسان قدرته على الاتزان، فمَن آمن بالله رُزق الهدوء عند المصيبة، فيرضى ويسلِّم ويلجأ إلى ربه فيذكره ويسترجعه.

وقد كتب ابن القيم «عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، وكتب أبو يحيى الغرناطي «جَنَّة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضى»، وكتب كثيرون مؤلفات عن الصبر على البلاء والمصاب وفضله وحسن عاقبته.

ويُروى أن ذا القَرْنين لما نزل به الموت، وحزنت أمه حزنًا شديدًا، قال لها: يا أم، إذا أنا مت فاصنعي وليمة وادعي إليها الناس، واطلبي أَلَّا يحضر إلى الوليمة أحدٌ أُصيب بمصيبة. فعملت وليمة ودعت الناس إليها وقالت: كل مَن أُصيب بمصيبة فلا يأت. فلم يحضر أحد، قالت: أين الناسُ؟ قالوا: وضعتِ شرطًا لا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣١٤)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٢)، والبيهقي (٤/ ١١٠)، وفي «شعب الإيمان» (٩٥٠٣). وينظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٤٢).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١/ ٦٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٢).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩- ٣٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٩٠- ٢٩٢).

يتحقَّق في أحد. فعلمت أنه أراد تسليتها بعد موته[١]!

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: فيما قدَّر من المصائب، وفيما يقع من الناس من التسليم أو الاحتجاج أو الاعتراض، فمَن تذكَّر علم الله تجلَّد وصبر، ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

* ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾:

أمر بطاعته سبحانه، ثم أمر بطاعة رسوله ﷺ، وأعاد فعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾، ولم يكتف بالعطف فقط، مع أنه يغني، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]؛ ففي إظهار فعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ هنا إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة، فكما يُطاع الله فيما أمر ونهى، كذلك يُطاع الرسول ﷺ فيما أمر ونهى؛ فتجب طاعته فيما يأمر به، ولو كان غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهَّم السامع أن طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلِّغه عن الله دون ما يأمر به غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير[٢]. ولهذا قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ويُؤخذ من هذه الآية الكريمة أن السنة النبوية الثابتة حجة مستقلة بذاتها، وقد تنفرد بتشريع أحكام لم ترد بنصها في القرآن، كما في تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها[٣]، وأنه يحرم من الرَّضاع ما يحرم من النسب[٤]، وتحريم كلِّ ذي ناب من السباع، وكلِّ ذي مِخْلَب من الطير[٥].

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: فمهمة الرسول ﷺ البلاغ،

---

(١) ينظر: «الاعتبار وأعقاب السرور» لابن أبي الدنيا (ص٨٢)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٧٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٥/ ٩٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥١٠٨، ٥١٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٤٠٨).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٤٥، ٥٢٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٤٤٤، ١٤٤٥).

(٥) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٣٤).

والهداية بيد الله يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء، فليس على الرسول ﷺ هدايتهم، وإنما عليه أن يقيم الحجة والبلاغ[1]، وأضاف الرسول إلى ذاته العلية سبحانه، فقال: ﴿رَسُولِنَا﴾ تشريفًا لمقامه وتعظيمًا لقدره[2].

* ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٣﴾:

تذكير بكلمة التوحيد، ووحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي التي لأجلها بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب، فليس أحد من الرسل بمعبود، بل المعبود هو الله وحده، وليس لأحد شيء من الأمر، فالأمر كله لله.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فإذا كان المرء موحِّدًا لله، فيلزمه أن يتوكَّل على الله الحي الذي لا يموت، والتوكل معنى قلبي، لا تفي به العبارة، وهو جمع بين فعل السبب الممكن وبين الاعتقاد الجازم بأن الأمر بيد الله، وأن ما يفعله الله فهو خير للعبد مما يتمنى.

والتوكل قرين الإيمان: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾:

هذه الآية مدنية، وسبب نزولها- كما قال ابن عباس وعكرمة وغيرهما[3]- أن أناسًا من المسلمين بمكة أرادوا أن يهاجروا، فمنعهم أولادهم وأزواجهم، فتركوا الهجرة، فلما هاجروا بعد ذلك وجدوا الناس سبقوا وتعلَّموا وحفظوا وفقهوا في الدين، فهمَّ هؤلاء أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا سببًا في تأخر

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨١).

(٢) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ١٢٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤)، و«جامع الترمذي» (٣٣١٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٣٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٣).

هجرتهم، فأنزل الله الآية.

وعبَّر هنا بـ﴿أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾، ولم يقل: «زوجاتكم»؛ حتى تعم الكلمة الرجال والنساء، وكذلك الأولاد تعم الأبناء والبنات.

و﴿مِنۡ﴾ هنا للتبعيض، أي: أن بعض أزواجكم وبعض أولادكم عدو لكم[1].

ومفهوم العداوة هنا ليس منصرفًا للعداوة في الدين فحسب، بل يشمل الصد عن الخير والإلهاء عنه بأي سبيل، فيكون معنى العداوة أن يكون أثره عليك كأثر الأعداء.

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾: فلم يقل سبحانه: «ضارّوهم»، أو: «عاقبوهم»، وإنما قال: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي: احذروا أن يبلغ بكم الحب للزوجة أو الولد أن يرتكب المؤمن الإثم بسببهم أو بترك الطاعات.

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾: ذكر ثلاثة أشياء: أن يعفوا عنهم، فتعفوا عمن ظلمكم، وأن تصفحوا عن الجاهل، كما قال: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وأن تغفروا للمسيء، فهي ثلاث درجات[2].

ويحتمل أن يكون العفو أَلَّا تُؤاخذ أحدًا بالعقوبة، وإن جرى منك عتاب له، والصفح أن تضرب صفحًا عنه، والصفح درجة أعلى من العفو، وأما الغَفْر فمن معانيه: السَّتْر[3]، فلا تذكر ما فعله أولادك وزوجتك من الأعمال السيئة[4].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾: فهذه من أسمائه الحسنى، والمغفرة والرحمة

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٩)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٥)، و«تاج العروس» (١٣/ ٢٤٧) «غ ف ر».

(٤) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ١٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٥)، والمصادر السابقة.

من صفاته، والله يحب من عباده أن يغفروا ويرحموا؛ وهو جميل يحب الجمال، وغفور يحب المغفرة، ورحيم يحب الرحماء، وعفو يحب العفو، فمَن أراد أن ينال رضى الله فليتخلق بهذه الأخلاق النبيلة.

* ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾:

وهذا لفظ عام، ولم يأت ما يدل على التبعيض كما في الآية السابقة[1].

ويدأ بالأموال؛ لأن الغالب أنها إذا توفرت شغلت حتى عن الأولاد[2]، وفتنةُ الناس بالأموال ظاهرة لا تحتاج إلى استدلال، وقد يُشغل الإنسان عن ولده ولا يُشغل عن ماله، والأولاد يعم الأبناء والبنات وأولادهم وأحفادهم، وفي هذا يقول الشاعر[3]:

لَـوْلا بُنَيَّـاتٌ كَزُغْـبِ القَطـا[4] ... رُدِدْنَ مـن بَعْـضٍ إلـى بَعْـضِ
لَـكـانَ لِـي مُـضْـطَـرَبٌ واسِـعٌ ... في الأَرْضِ ذاتِ الطُّـولِ والعَرْضِ
وإنَّـمـا أَوْلادُنـا بَـيْـنَـنـا ... أَكْبادُنـا تَمْشـي على الأَرْضِ
لـو هبَّـتِ الريـحُ على بعضِهـم ... لامتنعـتْ عيني عـن الغمـضِ

وكان أبو حَكِيم المُرِّي- وهو شاعر جاهلي- يحب أن يعيش من أجل ولده حَكِيم، وكان يقول[5]:

يَقَـرُّ بعينـي وهـو يُنقِـصُ مدَّتـي ... مـرورُ الليالـي كـي يَشِـبَّ حَكِيـمُ
مخافـةَ أن يغتالنـي المـوتُ قبلَـهُ ... فيغشـى بيـوتَ الحـيِّ وهـو يتيـمُ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٩٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٢).

(٣) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ١٠٩)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ١٠٢)، و«جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (٢/ ٢٦٩) منسوبًا إلى حطان بن المعلَّى.

(٤) الزُّغب: أول ما يطلع من الريش، والقَطَا: طائر معروف.

(٥) ينظر: «حماسة الخالديين» (ص٩٨)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ٤٣٤)، و«التذكرة الحمدونية» (٩/ ٣١٧)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٥٢).

والفتنة هي: الابتلاء والاختبار[1]، وليس في هذا ذم للمال ولا للأولاد.

والمقصود أن وصف الولد والمال بالفتنة لا يعني الترغيب في التخلص مما في اليد من المال ولا في إهمال الولد، وإنما هو تحذير وطلبُ ترشيد للعاطفة في هذين المحبوبَيْن، وأكثر الناس إذا اغتنى طغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦- ٧]، فأصبح يتوسع ويتأوَّل، أو يجترئ على الحرام، ويزداد تعلقه بالدنيا.. هذا حال أكثر الناس.

ومن الناس مَن يعطيه الله المال، فلا يزيده إلا إيمانًا وطاعة وتصدقًا وتواضعًا وقربًا ومزيد شكر.

ومثل هؤلاء مَن عناهم بعض الصحابة بقوله: إن فقراء المهاجرين أَتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهلُ الدُّثُور بالدرجات العُلى، والنعيم المقيم! فقال: «وما ذاك؟». قالوا: يصلون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتقونَ ولا نُعتقُ! فقال رسولُ الله ﷺ: «أفلا أعلِّمُكم شيئًا تُدركونَ به مَن سبقكم، وتسبقونَ به مَن بعدكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ منكم إلا مَن صنعَ مثلَ ما صنعتم؟». قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: «تسبِّحونَ، وتكبِّرونَ، وتحمدونَ دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثينَ مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسولُ الله ﷺ: «ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاءُ»[2].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تذكير لهم أَلَّا ينسوا أجر الآخرة، فإن الدنيا لا تعدّ شيئًا في مقياس الآخرة[3]، كما قال ﷺ: «والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعلُ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٣، ٦٣٢٩)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٦).

أحدُكم إصبعه هذه في اليمِّ، فلينظرْ بمَ ترجعُ؟»[1].

* ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾:

ولهذه الآية شواهد، كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهي تدل على أن المؤمن لا يكلّف إلا قدر طاقته[2].

وكيف نوفِّق بينها وبين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]؟

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هذه الآية ناسخة، وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما نزلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ شقَّ ذلك عليهم، فأنزل الله سبحانه التخفيف بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾. ونُقل هذا عن الحسن البصري.

والراجح الذي اختاره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأكثر المفسرين: أنه ليس في الباب نسخ بمعنى إبطال الحكم الأول بالثاني، ولكنه التخصيص لذلك العموم، أو التبيين لذلك المجمل، فالآية الثانية بيَّنت وأوضحت الآية الأولى، وأن تقواه حقَّ تقاته لا تدل على أنه يحمِّلكم فوق قدرتكم، فلا تكليف بما لا يُطاق، وإنما المقصود استيعاب التقوى فيما تقدرون عليه، وفيه تحفيز للنفوس على التقوى[3].

ولاشك أن من تقوى الله حقَّ تقاته أن يعرف الإنسان حدود الاستطاعة؛ لأن تكليف النفس فوق طاقتها خلاف التقوى، وتكليف الزوجة والأولاد فوق طاقتهم خلاف التقوى، والمرء يعرف طاقة نفسه جيدًا، مثل تطبيقه لما جاء في قوله ﷺ:

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٥٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨١- ٣٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٣٨)، و«فتح القدير» (١/ ٤٢٠).

«صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنب»[١].

وثمتَ نوع من الاستطاعة فقهه خفي، وكثير من الفتن تقع بسببه، وهو ما يتعلَّق بالمجموع، كالأسرة والمؤسسة والمدرسة والوزارة والشركة، ففيها قدر من الاستطاعة يراعى؛ لأن تجاهله يحدث مفسدة أكثر مما يرجى فيه من المصلحة، فحمل الناس عليه ليس من التقوى التي أمر بها الشرع، فربما قصَّروا في كثير من الطاعات والعبادات بسبب المشقة، وسياسة المجتمعات أدق وأحوج إلى الفقه، ولذا ينبغي لمَن يخالط الناس بقصد الإصلاح أن يستوعب «فقه الممكن»، فلا يحمل الناس على ما لا يطيقون، وهذا مَزْلق يقع فيه المسؤول أو الوالي الذي يغفل عن طاقة الناس وإمكانيَّاتهم، ويقع فيه الداعية أو المصلح الذي يقودهم إلى المستوى المثالي، دون أن يراعي رغباتهم وهممهم وانفعالاتهم.

ومحمد ﷺ كان هو الأسوة في تحقيق التقوى، ولذا لما حاصر الطائف ولم ينل منهم شيئًا قال: «إنا قافلونَ إن شاء الله». فثقُل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه! فقال: «اغدُوا على القتال». فغَدَوْا فأصابهم جراح، فقال: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله». فأعجبهم، فضحك النبيُّ ﷺ[٢].

وحمل الناس على الصعب والوعر وعلى العزائم لا يطيقه إلا أولو العزم من الناس، وهم قليل، ولهم في فعل الرسول ﷺ في صلح الحُدَيْبِيَة أسوة حسنة مع الشروط التي رضيها ﷺ وأمضى المعاهدة بها، وكانت فتحًا للمسلمين وتيسيرًا لهم، رغم كرههم لها أول الأمر، وإذا كانت الاستطاعة مشروطة في العبادات، فالاستطاعة فيما يخص أمور المال والدنيا والتعليم والسياسة آكد وألزم.

﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾: والمراد: اسمعوا لله، واسمعوا لرسوله، وأطيعوا الله، وأطيعوا رسوله[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٨٨).

﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾: والأمر بالإنفاق ليس أمرًا بالتخلِّي عن المال برمته، فإنه لا يُؤمر بالإنفاق إلا الواجد للمال الذي عنده ما يزيد عن نفقته ونفقة مَن يعول من أهله.

ومعنى الآية: أنفقوا إنفاقًا يكون خيرًا لأنفسكم، أو أنفقوا شيئًا يكون خيرًا لأنفسكم(١).

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: هذه من الآيات العظيمة التي تُساق مساق المثل، وفيها إشارة جلية إلى موطن الخلل في نفس المرء، فعلى الإنسان أن يتوقَّى شحَّ نفسه، ليس في المال فحسب، وإنما في كل شيء(٢).

وكان عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في طوافه: «اللهمَّ قني شُحَّ نفسي». لا يزيد على ذلك، فقيل له في ذلك، فقال: «إني إذا وُقيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزنِ، ولم أفعل شيئًا»(٣).

والفلاح الذي يبتغيه الناس ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ هو بأن يوقى الإنسان شح النفس ويسلم من الأَثَرة.

ولا يشق على المتأمِّل المخالط للناس أن يلمح التشاح بينهم في الطعام والشراب ومواقف السيارات والطريق، وعند الطبيب وفي كل اصطفاف، ولذا قال ﷺ: **«فمَن أحبَّ أن يُزَحزحَ عن النار، ويُدْخَلَ الجنةَ، فلتأته منيَّتُهُ وهو يُؤْمنُ بالله واليوم الآخر، ولْيَأْتِ إلى الناس الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه»**(٤).

ولهذا كان من أفضل ما مُدح به أصحاب محمد ﷺ أنها خلصت نفوسهم من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٤- ٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٣٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥١٤- ٧٥١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦- ٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٧).

(٣) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ٢٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٥٣٠)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٤/ ٤١١)، وابن عساكر (٣٥/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حظ نفوسهم.

* ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

والمقصود: الصدقة، وفيها تأكيد للأمر بالإنفاق، فإن تنفقوا صدقة فكأنكم تقرضون الله، وإنما تقرضون مليئًا سبحانه، وسيوفي لكم ما أنفقتم أضعافًا مضاعفة(١).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾: ﴿شَكُورٌ﴾ يشكر لعباده أعمالهم الصالحة، كما قال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، و﴿حَلِيمٌ﴾ على العصاة، فلا يعاجلهم بالأخذ والنكال(٢).

* ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾:

تتميم للتذكير بعظمة الله تعالى، مع مناسبتها للترغيب والترهيب اللذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها؛ لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يُفِيتُ شيئًا من الجزاء عليها بما رتَّب لها.

ولأن ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يعجزه شيء، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما تقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها، ونَوْط الأمور بما يناسب حقائقها(٣).

○○○

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩١).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

*** تسمية السورة:**

اسمها الغالب: «سورة الطَّلاق»، وهو المتداول في كتب التفسير، والسنن[1].

وتُسمَّى: «سورة النِّساء الصغرى»[2]. أما «سورة النِّساء الطُّولَى» فهي المستفتحة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[3] [النساء: ١].

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود وأبيٍّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنهما كانا يسمِّيانها: «سورة النساء القصرى»[4]، يعني: القصيرة.

*** عدد آياتها:** اثنتا عشرة آية وقيل: إحدى عشرة آية، وقيل: ثلاث عشرة آية[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٣)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٣٥٥)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص١٨٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥١٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ٢١١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٢/ ٦٨١).

(٣) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ٢١١)، و«التفسير القرآني للقرآن» (٢/ ٦٨١).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٣٢، ٤٩١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ٢٠١).

(٥) واختلافها في ثلاث آيات: قوله: ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، و﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾، و﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الطلاق: ١٠]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤٩)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٤- ٣١٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٩٤).

* وهي مدنية إجماعًا(١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: الخطاب موجَّه له ﷺ، إلا أن المقصود الأمة كلها؛ ولهذا لم يقل: «إذا طلقت»، وإنما قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾(٢).

والنبي ﷺ لم يقع منه الطلاق المفارق إلا مرة واحدة؛ وهي قصة ابنة الجَوْن التي استعاذت منه ﷺ، فقال: **«لقد عُذتِ بعظيم، الحَقِي بأهلك»**(٣)؛ وذلك لأنه ﷺ كان يكره الطلاق، وقد جاء في حديث: **«أبغضُ الحلال إلى الله تعالى الطلاقُ»**(٤). والصواب إرساله(٥)، ويغني عنه ما في «صحيح مسلم»، أن الشيطان يبعث سراياه، وأقربهم إليه هو مَن يقول له: ما زلتُ به حتى فرَّقت بينه وبين امرأته(٦).

فالطلاق كسر لنفس المرأة، وتفريق للزوجية، وشتات للأولاد، وهدم للبيوت،

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٥٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، والحاكم (٢/ ١٩٦)، والبيهقي (٧/ ٥٢٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) رجَّح إرساله: أبو حاتم والدارقطني وغيرهما.

والمرسل أخرجه أبو داود (٢١٧٧)، وغيره، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٢٩٧)، و«معالم السنن» (٣/ ٢٣١)، و«علل الدارقطني» (١٣/ ٢٢٥)، و«المحرر» لابن عبد الهادي (ص٥٦٧)، و«البدر المنير» (٨/ ٦٥-٦٧)، و«المبدع» (٦/ ٢٩٣)، و«إرواء الغليل» (٢٠٤٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨١٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومدخل من مداخل الفساد إن لم يقع موقعه الصحيح، والفتنة للرجل والمرأة بسبب الحرمان من الإشباع بعد أن تعوَّدا عليه، وكسر بعض الحواجز التي كانت تحول بين الإنسان وبين المعصية؛ ولهذا فالطلاق مكروه لغير حاجة، وقد يكون محرَّمًا أو جائزًا أو واجبًا بحسب الحال[١].

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: في قُبل عدتهن[٢]، فـ«اللام» هنا لام التوقيت[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: طلقوهنَّ الطلاق الذي تبدأ بعده العدة مباشرةً.

والعدة هي: المدة التي تقضيها المرأة بعد الطلاق ممنوعة فيها من الزواج[٤].

وهذا يقتضي أَلَّا تطلَّق الزوجة إلا وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه، فهذا طلاق السنة[٥]؛ حتى تكون مستقبلة لعدتها مباشرة.

والحامل تُطَلَّق في أي وقت؛ لأن عدتها تبدأ فور الطلاق[٦].

والطلاق البدعي هو: أن يطلقها في الحيض، أو في طهر جامعها فيه[٧].

وثمة طلاق لا يوصف بأنه بدعي ولا سني؛ وهو طلاق الصغيرة والآيسة التي

---

(١) ينظر: «المغني» (٧/ ٣٦٣- ٣٦٤)، و«الفقه على المذاهب الأربعة» (٤/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٤٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٥).

(٣) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٤٧)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٢/ ٣١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٥).

(٤) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ١٩٠)، و«مغني المحتاج» (٥/ ٧٨)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٢٩/ ٣٠٤).

(٥) ينظر: «البناية شرح الهداية» (٥/ ٢٨٢)، و«مواهب الجليل» (٤/ ٣٨)، و«مغني المحتاج» (٤/ ٤٩٩)، و«المغني» (٧/ ٣٦٤).

(٦) ينظر: «المدونة» (٢/ ٤)، و«الأم» (٥/ ٢٢٩)، و«المحلى» (٩/ ٣٧٤).

(٧) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ٩٣- ٩٤)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٢/ ٣٦١)، و«المجموع» (١٧/ ٧٣)، و«المغني» (٧/ ٣٦٦)، و«المحلى» (٩/ ٣٧٧).

لا تحيض، ومَن لم يدخل بها زوجها بعد[1].

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾: من الإحصاء؛ وهو: الضبط والإتقان، فلا تزيد ولا تنقص؛ لأن النقص ضرر على الزوج، والزيادة ضرر على المرأة[2].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾: أمر بالتقوى، وكرَّر الأمر في السورة كثيرًا؛ لأن أعظم ما يحجز الإنسان عن المضارة والإساءة هو الخوف من الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: النساء المطلقات[3]، فالمطلقة الرجعية التي يحق للزوج أن يراجعها دون إذنها ولا إذن وليها؛ فلها ما للزوجات من حقوق إلا المبيت؛ لأنها ما زالت زوجة، وإنما أضاف البيت لهن في قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾؛ لأن لها حق الانتفاع بالسكنى فيه[4]، فلا يجوز للرجل أن يطردها من البيت كما يقع كثيرًا.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: حتى لو وجدت إحداهن بعض المضايقة في البيت فعليها أن تبقى في منزلها.

والبقاء له مقاصد عظيمة: منها: أنه ربما رأى الزوج منها ما يدعوه إلى مواقعتها، فيحصل بذلك رجعتها.

ومنها: أنه قد يكون لها أولاد منه فيحتاجون إلى رعايتها، وإذا خرجت من البيت قد لا تجد مكانًا يؤويها، وربما استشرفتها العيون ووقعت لها حالات من المضايقة والابتزاز.

والفاحشة التي تسوِّغ خروجهن هي الفعل الشنيع، والغالب أن الفاحشة إذا جاءت معرَّفة بـ(ال) فالمقصود بها: الزنى ونحوه، كما قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا

(١) ينظر: «البناية شرح الهداية» (٥/ ٢٨٨)، و«اللباب في الفقه الشافعي» (ص٣٢٨)، و«المغني» (٧/ ٣٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٧- ٢٩٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٣).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٩٩).

سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، أما إذا جاءت نكرة وبدون إضافة، كما هنا، وكما في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، فالمقصود بها: الفعل الشنيع أو السيئ[١]، وليس خصوص الزنى، كما في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: ٢٨]، وكما في آية الطلاق هذه، على أنه قد نصَّ بعض الصحابة والتابعين والمفسرين أن المقصود هنا: الزنى، وهو قول الحسن وعطاء وغيرهما[٢].

وقال آخرون: المقصود أن تكون سليطة اللسان على أهله، فتفحش في القول وتسب وتخوض في عرضه وعرض محارمه، كأمه وأخواته، أو أن تكون ناشزًا ترفض حقه، فإذا وُجد شيء من ذلك، فإن المصلحة حينئذ متعينة في إخراج هذه المرأة من بيت الزوجية إلى بيت آخر، وهذا مروي عن أُبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما[٣].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: والحدود جمع: حدٍّ؛ وهو الشيء الفاصل بين الحلال والحرام، والحق والباطل[٤]، فهذه حدود الله فيما يتعلق بعقد الزوجية من الإمساك والطلاق، وبقاء المعتدة في بيتها لا يجوز العبث بها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: فالذي يخرج المرأة من بيتها قد

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٧٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١١/ ٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٠٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٥٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٣)، و«الدر المنثور» (٨/ ١٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤)، و«أحكام القرآن» للطحاوي (٢/ ٣٢٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠١).

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٢١) «ح د»، و«المطلع على ألفاظ المقنع» (ص٤٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٤).

ظلم نفسه قبل أن يظلمها، بتحميلها آثام ظلم الآخرين، ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، وهذا ليس خطابًا للنبي ﷺ، وإنما هي لغة جارية عند العرب في مناسبات كثيرة، أي: لا تدري بعد الطلاق أن يُحدث الله تعالى أمرًا، فيقلب البغض إلى محبة، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقيل: إن الآية تحتمل معنى أن يراجعها زوجها، وذلك في الطلاق الرجعي فتكون مراجعتها هي الأمر الذي أحدثه الله سبحانه[(١)].

ويمكن أن يكون سبب الطلاق هو عدم وجود الأولاد؛ فربما تحمل المرأة أو تنجب، وقد يكون سبب الطلاق الفقر وثقل النفقة، فيُحدث الله أمرًا من السَّعة والغنى، وهذا يفتح آفاق المستقبل ويُدرِّب على نظرة التفاؤل، والمقصود: أمرًا طيبًا حسنًا، خلاف ما كان في السابق[(٢)].

وهو تلقين من الله الذي بيده المقادير أن نتربَّى على التفاؤل ونظرة الإشراق والأمل.

وكم أمرٍ تُساءُ به صباحًا ... وتأتيك المَسَرَّةُ بالعَشِي
إذا ضاقت بك الأحوالُ يومًا ... فثِقْ بالواحد الأحد العلي[(٣)]

* ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾:

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربت أن تنتهي عدة المطلقة[(٤)]؛ وهي ثلاثة قروء، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. والقروء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٥٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٣/ ٩٩٦)، و«الشقائق النعمانية» (ص٣٧٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٣١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٨).

جمع: قرء، **قيل**: هو الطهر[1]، فتعتد المرأة ثلاثة أطهار بعد طلاقها، فإذا خرجت من الطهر الثالث فقد خرجت من العدة.

وقيل هو: الحيض[2]، فإذا طلقها في الطهر الذي لم يجامعها فيه بدأت العدة بعد الحيضة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، فإذا طهرت من الحيضة الثالثة واغتسلت خرجت من العدة، وإذا كانت غير ذات قروء فسيأتي حكمها.

وليس المقصود: انتهاء العدة؛ لأنها إذا انتهت لا يجوز للزوج أن يراجعها؛ بل المقصود: شارفن على نهاية العدة، فله الخيار بين أن يمسكها بمراجعتها أو يترك ذلك فتبين منه، بخلاف المعنى الوارد في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]، أي: انتهى منه وخرج[3]، ولذا عبَّر هنا ببلوغ الأجل، وعبَّر في قصة موسى بقضاء الأجل.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: وغالبًا ما يظن الرجل أن المرأة هي المخطئة، وتعتقد المرأة أن الرجل هو المخطئ، ولذا يجد المصلح صعوبةً في إقناع كل من الطرفين أن يغض الطرف عن أخطاء الآخر، ويحاول تصحيح أخطائه هو، فالزوج يلوم الزوجة، والمرأة تلوم الرجل، وبهذا لا يمكن تحقيق الإصلاح.

والله تعالى يعالج المشكلة بتربية حكيمة تحقق الخير للأزواج المتشاكسين بقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، والخطاب هنا للرجل بأن يُحسن إليها فلا يعاتبها ولا يوبِّخها ولا يزجرها ولا يقصِّر معها، و«المعروف» نكرة يشمل كل خير، كالنفقة وحسن المعاملة وأداء الحقوق[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٩٥)، و«زاد المسير» (١/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٠٨)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ١٢٢)، و«فتح القدير» (١/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٣٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٢٣٥)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٨٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٢٥٢)، و«تفسير النسفي» (١/ ١٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٠٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٤٧)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٢٠٥)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٣٦٣)، و«التفسير المظهري» (٧/ ١٦١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٣١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٨٣).

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، والفراق بمجرده مؤلم، وهو مما تتألم له النفوس، فإذا كان ولا بد فليكن بمعروف دون تعيير ولا فضح ولا تشهير، ومن كرم الرجل أن يُظهر ألمه على فراق زوجته ولا يذكرها إلا بخير، وقد أخذ الشافعي هذا المعنى فقال(١):

وعاشر بمعروف وسامح مَن اعتدى ودافع، ولكن ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: ظاهر الآية: وجوب الإشهاد على الرجعة، والإشهاد على الطلاق، وبهذا قال كثير من الفقهاء ونُسب إلى بعض الصحابة، وهذا هو أحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد(٢)، وإذا وقع الطلاق أو وقعت الرجعة بدون إشهاد صحَّ(٣)، وعليه أن يُشهد حتى لا يقع تجاحد أو احتكام، وحتى لا تدَّعي المرأة على زوجها أنها قد خرجت من عدتها، وقد يتوفَّى أحدهما فيقع التردد هل يرثه الآخر أم لا؟ فالإشهاد يقطع دابر التنازع.

وهذا مما يخاطب به ولاة الأمر والقضاة المسؤولون عن مثل هذه القضايا؛ أن يكون ثمة نظام منضبط لتوثيق الرجعة والطلاق وبالشهود، وأن يُشدَّد في هذا الأمر، فكثيرًا ما يذهب بعض الرجال إلى المحكمة لاستخراج صك الطلاق فيجعل تاريخ الطلاق متقدِّمًا أو متأخِّرًا عن الواقع والمرأة لا تعلم، وقد يسافر بها ويعاشرها دون أن يخبرها بوقوع طلاقه.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾: معتدلة واضحة لا لبس فيها، ولا مجاملة لأحد، وأن تكون لله، وذلك بضبط الشهادة خوفًا من الله لا من أجل الزوج أو الزوجة أو القرابة(٤).

---

(١) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص١٦٣).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٦٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٨).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٠).

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الوصايا والأوامر والتوجيهات[1]، ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فقرن السياق بين الأحكام التشريعية التي هي قوانين واضحة، وبين الوعظ والتذكير وغرس التقوى في النفوس، والقانون إذا وجد وحده لم يلتزم به الناس؛ فإن المجتمعات تنحرف، ولا بد من وازع الدين والخلق.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: وهذا حافز على التقوى، ولهذه الآية معنى خاص مباشر؛ وهو تقوى الله في شأن الطلاق، بأن يوقعه كما أمر الله، فيطلِّق طلقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه عند تأكد الحاجة إلى الطلاق من غير طيش ولا تسرع ولا قصد إضرار، وهو يحسب أن الطلاق خير للمرأة وخير له من بقاء عصمة الزوجية، فمَن امتثل حكم الشرع في أمر الطلاق فقد جعل الله له مخرجًا في ذلك بأن يمكنه مراجعتها[2]؛ لأنه لم يطلقها إلا واحدة، ولا تتطلَّب الرجعة إلا أن يتلفظ بها ويشهد على ذلك عدلين، بخلاف مَن لم يتق الله فطلَّق ثلاثًا جميعًا، أو طلَّقها في حيض، أو في طُهر جامعها فيه، أو على غير السنة مما أوجد عنده نقصًا في التقوى، ومما يدل على تسرعه وكثرة إيقاعه للطلاق لأتفه الأسباب، فهذا يصعب عليه المخرج، وقد لا يجد مفتيًا يخرجه من ضائقته بعد ندمه.

وثمة معنى عامٌّ في الآية؛ وهو أن مَن يتق الله في سائر أموره يجعل الله له مخرجًا وفرجًا من كل ضيق، سواء أكان ذلك في شأن أسري أو اقتصادي أو سواهما[3].

والآية تلهم المصلحين أن يحرصوا على تحقيق الرضا والتوافق الاجتماعي، وإذا استطاعوا أن يصنعوا السعادة في بيوتهم فسيجدون أنهم أصبحوا أكثر نجاحًا في حياتهم وأكثر توفيقًا في تجارتهم؛ بل وأكثر طاعة لربهم، ومن هنا فإن من أعظم مهمات المستشار والمصلح الاجتماعي السعي في إيجاد السكن والاستقرار في

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٥٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٦)، والمصادر السابقة.

البيوت.

* ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾:

غالب معاناة الناس هي من نقص المال، أو قلة ذات اليد أو الدِّين، وبعض الأزواج يتغيَّر على زوجته بسبب الضائقة المالية، ويصبح متبرِّمًا متلوِّمًا غضوبًا كثير النقد والتأفُّف.

و﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من جهة لم تخطر على باله[1]، وهو داخل فيما يسميه بعضهم: بالتفكير خارج الصندوق، فقد يرزقه الله القناعة، وهي كنز، وهي خير ما يُرزقه المرء، فيتصرف في ماله بطريقة راشدة من غير إسراف ولا تقتير، وقد تكون المرأة سببًا للرزق؛ إما لقرابتها الأغنياء، أو لحسن مشورتها، أو لغير ذلك.

وهذه الحقيقة يجب أن يسلِّم لها المسلم من غير تردد ولا شك، وأن يحسن ثقته بالله حتى يتحقَّق له موعوده، ولا يترك الأسباب منتظرًا الفرج من الله من غير عمل ولا بذل سبب، فإن العمل وبذل الجهد والسبب هو من تقوى الله، على أن يكون في يدي الله أوثق منه فيما يده.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: وهذا هو البعد الإيماني في الرزق، وهو غائب عن كثير من الحضارات والثقافات والمشروعات؛ ولذلك تقع الأزمات والنكبات بسبب اعتماد الناس المحض على الحسابات المادية، في حين أنهم لو توكلوا على الله حقَّ توكله، لرزقهم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بطانًا[2]، فهي لم تقبع في وكورها تنتظر «الرزق»؛ بل ذهبت غدوًا ورواحًا، ولكنها لا تعلم

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٢١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣٠).

(٢) كما في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «لو أنكم تتوكلونَ على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا وتروحُ بِطانًا». أخرجه أحمد (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤)، وسيأتي في «سورة الملك»: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩﴾.

على وجه اليقين مكان رزقها ولا نوعه، بل الله يسخر لها من فضله فلا تكاد تموت جوعًا!

وقد ذكر ابن القيم فئتين انحرفا في هذا السبيل؛ من يعملون الأسباب المادية ويغيب عنهم الدعاء والتوكل، ومن يقعدون ولا يعملون، وقد يلجأ أحدهم إلى الدعاء أو الصلاة، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وكمال الإيمان والعقل والحزم فعل السبب مع التوكل على الله، وألَّا يقول الإنسان كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾: فما أراده الله تعالى سوف يبلغه ويحقِّقه[1].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾: فكل شيء عنده بمقدار، والناس يحلمون أحلامًا بعيدة المنال، أو هي على خلاف السنن الربانية، دون أن يبذلوا لذلك أسبابًا.

* ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾: هذا حكم جديد في شأن العدة يخص مَن انقطع حيضها أو لم تحض بعدُ، واليائسة هي الكبيرة التي توقَّف عنها الحيض، وهذا قد يكون في سن الستين أو الخمسين، كما قاله الفقهاء من الشافعية وغيرهم[2]، والصواب: أنه يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى عصر، والله تعالى قرنه بالإياس من المحيض؛ وهو انقطاع الحيض انقطاعًا كليًّا دون نظر للسن، فهذه عدتها ثلاثة أشهر بدل ثلاث حيض أو ثلاثة أطهار[3].

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾: مثل الجارية الصغيرة التي لم تحض، فعدتها ثلاثة أشهر

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٦)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٢/ ١٥).

(٣) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ١٩٥)، و«مواهب الجليل» (٤/ ١٤٣)، و«المجموع» (١٨/ ١٤١)، و«المغني» (٨/ ١٤٢).

أيضًا[1].

وقد أخذ بعضهم من هذه الآية جواز تزويج الصغيرة التي لم تحض بعدُ، وجواز الدخول بها ومواقعتها[2]؛ لأن غير المدخول بها لا عدة عليها أصلًا.

على أن المسألة لم يأت فيها حكم شرعي قاطع بسن معين للزواج؛ ولكن مدار الأمر فيه على تحقيق المصالح ودفع المفاسد، وولي الأمر ينبغي أن يراعي أحوال الناس، وما هم عليه من التقوى والإيمان والحرص، أو ضد ذلك من الشره والغفلة والطمع بالمال.

وقد ظهر اليوم أن بعض الآباء والأولياء يدفعه الطمع إلى أن يزوِّج الصغيرة التي لم تبلغ، فيقدِّم مصلحته على مصلحتها، وإذا فعل ذلك سقطت ولايته عليها؛ لأن عماد الولاية هو الرشد في العقد، وهو أن يزوِّجها بالكفء المناسب الذي تتحقَّق مصلحتها في الزواج به، فلا بأس حينئذ أن يوجد تحديد يمنع الأولياء من أن تكون البنات الصغيرات سلعة تباع وتشترى.

وأحيانًا يقصد بتزويجها مضارة أمها المطلقة وحرمانها من حضانتها، فناسب أن يُمنع من ذلك من باب السياسة الشرعية، ويكون إنفاذ الحالات العادلة التي لا مضارة فيها ولا طمع بواسطة إذن قضائي إداري استثنائي.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: والآية تدل على أن عدة الحامل: وضعها لحملها[3]، وسياقها في غاية الدقة؛ فإن الله تعالى لم يقل: «أن يلدن»؛ بل قال: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لاحتمال أن يكون في رحمها أكثر من ولد، فلا تخرج من العِدة إلا بوضع حملها كله، ولاحتمال أن تضع حملها قبل أن يكتمل نموه، ويسمى: ولدًا[4].

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣١٩).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٦٨)، و«شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٧/ ٢٤٧)، و«أحكام القرآن» للكيا الهراسي (٢/ ٣١٤)، و«المجموع» (١٦/ ١٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٨٩).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٣).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، وهذا عود إلى التقوى والتحفيز عليها للأزواج وللزوجات؛ لأن من النساء مَن قد تعاني ما تعاني في الطلاق، وقد تشعر بالقهر والحرمان والحزن على فراق بيت الزوجية، والبعد عن الأولاد، فهنا خير عزاء للمرأة تذكيرها بالتقوى، وحفظ اللسان والفرج، والصبر، فلعل الأمر الذي ضاقت به ذرعًا أن يجعله الله عاقبته يسرًا: إما برجعة تعود بها الأمور أحسن مما كانت عليه أو بزوج آخر ينسيها آلام الأول وعذاباته.

* ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾:

هذه الأوامر والنواهي والتعليمات والأحكام والمواعظ هي أمر الله الشرعي الواجب الإنفاذ والرعاية لمصالح العباد(١).

وفي هذه الآية أعظم العزاء للمبتلَى، ليعلم أن تقوى الله موجبة لرحمته وتكفير السيئات ومضاعفة الحسنات ورفعة الدرجات، وقد يكون ما وقع من طلاق وفراق بسبب ذنب يصيبه الزوج أو الزوجة أو هما معًا، فيقع الطلاق عقوبة، ولا يمنع أن تكون العقوبة المعجَّلة تكفيرًا للسيئات، وقد تحمل المصيبة الزوج والزوجة على تقوى الله ومراجعة النفس، فهذا يداوي الإنسان من الشعور بالكآبة على أمر مضى وانقضى.

* ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾: أمر إلهي واجب لكل مطلقة رجعية يؤكِّد لها حق السكن؛ لأنها لا زالت زوجة ما دامت في العدة، حيث يسكن الزوج فيه، وعلى حسب حاله يسارًا أو فقرًا.

والوجد هو: الموجود أو المقدور، وتُنطق بضم الواو أو كسرها أو فتحها، فهي

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٤).

مثلثة، ومعناها واحد، أي: مما تجدون(١).

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾: والمضارة: أن يتعمَّد الرجل أن يضرَّ المرأة أو يؤذيها أو يضيِّق عليها بأي طريقة(٢)، وقد تقع المضارة من الزوجة، ولكن القرآن وجَّه النهي للرجل؛ لأنه يملك من وسائل المضارة في شأن الطلاق أو الحضانة ما لا تملكه المرأة.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: وذكر الحامل هنا على وجه الخصوص ليس لأن للحامل حكمًا خاصًّا؛ ولكن لأن الحامل تطول عدتها بطول حملها؛ فقد تكون تسعة أشهر، وربما استثقل بعض الأزواج النفقة، ولذلك جاء التأكيد والتذكير بأن الإنفاق على الحامل يجب أن يستمر حتى تضع حملها؛ ولأنه ينفق عليها ويرعى حملها الذي هو ولده(٣).

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: وهنا انتهت عقدة الزوجية وبقي تنظيم الأمر لما بعد الطلاق، فبيَّنت الآية حق المطلقة أن تأخذ أجرة على إرضاع ولدها من طليقها مع أنه من رحمها(٤)؛ ولكن لا يجب عليها إرضاعه إلا بأجر على والده.

﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تآمروا، أي: ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف، أو تشاوروا فيما بينكم بالخُلق الكريم(٥).

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ واختلفتم ولم تطيعوا الله في الائتمار بمعروف ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٥)، و«تاج العروس» (٩/ ٢٦١) «و ج د».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٢٧).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٤٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٧)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٣).

أُخۡرَىٰ﴾، وفي هذه الآية إعجاز وإيجاز؛ فالتعريض بـ﴿أُخۡرَىٰ﴾ تأديب للمرأة ألَّا تبالغ فتكون سببًا في تولِّي امرأة أخرى إرضاع ولدها، وفيها تأديب للزوج ألَّا يتشدَّد؛ لأنه إن لم يدفع أجرة للأم دفع أجرة لامرأة أخرى ترضع ولده، والأم أحنُّ وأرحم وأنصح(1).

* ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾:

﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾: هنا تقرير قاعدة عامة في شأن الإنفاق على الأهل والولد- وإن كان سياق الآية في شأن أجرة الإرضاع- أن النفقة من الرجل مطلوبة بحسب قدرته إذا كان غنيًّا ينفق نفقة الغني(2).

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ أي: ضُيِّق عليه(3)، ﴿فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ أي: فاتقوا الله ما استطعتم.

﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾: وهذا متعلِّق بالمال قبل غيره؛ لأن السياق عن النفقة، وتأمَّل كيف جاء بالعسر واليسر منكرتين: ﴿بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾، ولم يقل: «بعد العسر يسرًا»، في حين قال سبحانه في «سورة الشرح»: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥﴾، فذكر أن اليسر مع العسر في الوقت نفسه وليس بعده، وهذا أقوى وأبلغ؛ لأن السورة كلها في سياق أشياء معنوية ليست مادية، فقبلها ذكر انشراح الصدر، ووضع الوزر؛ وهو الهمُّ أو الذنب، ورفع الذكر بين العباد، وفيهما معان عظيمة تتعلق بالنبوة والدعوة والعلم، فاليسر موجود في ذلك السبيل مع العسر وليس بعده؛ لأنه يعتمد على الله، ويتفاءل بالخير، وينتظر الفرج، وقد يُحرم من شيء فيعوَّض بخير منه، كما يقولون: انظر إلى النصف المليء من الكأس.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (28/ 329).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 463)، و«تفسير السمعاني» (5/ 466)، و«تفسير القاسمي» (9/ 262)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 1013)، و«التحرير والتنوير» (28/ 330- 331).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 68)، والمصادر السابقة.

إنه حديث في شأن النبوة والمعاني الروحانية العالية التي يستشعر فيها أصحاب مقاماتها فضل الله في كل عطاء أو منع أو شدة أو رخاء.

أما هنا فالقصة تتعلق بجانب مادي، ولأناس يتفاوت إيمانهم قوة وضعفًا، وتؤثِّر فيهم الأشياء المادية، وقد تكون متصلة برجل ليس عنده غداء أو عشاء الليلة، أو لديه مشكلة في توفير السكن أو في توفير الطعام أو القوت أو اللباس لأولاده، فهو يشعر بمعاناة، فمن هنا لم يقل سبحانه: «إنه مع العسر»؛ لأنه يحس بعسر، وقد يضعف إحساسه باليسر معه، وإنما بعده يعني: هنا عليك أن تنظر إلى المستقبل، وأن تنتظر اليسر والفرج.

وهذا وعد من الله وتحفيز للنفوس أن تكون متفائلة، والتفاؤل ثبت علميًّا أنه مما يعين على الشفاء من المرض ومقاومته، فتكون قابليته للعلاج قوية، بخلاف المتشائم.

* ثم بعد بيان بعض أحكام الشريعة المتعلِّقة بشؤون الأسرة؛ من طلاق وعدة وحضانة ورضاع ونفقة- وكلها من أحكام الشريعة الواجب امتثالها- كان من المناسب أن يعقِّب بما يتضمن الوعيد لمَن خالف الشريعة وتعدَّى حدود الله، فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ⑧﴾:

والمقصود: عذاب الاستئصال في الدنيا الذي ذكره الله تعالى عن الأمم السابقة(١)، كما ذكر عن قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو غيرهم ممن عاقبهم الله وحاسبهم حسابًا شديدًا، وكأن الحساب الشديد كان هو مقدمات العذاب التي تأتيهم ثم يُنزل عليهم عذابًا منكرًا فظيعًا شديدًا تنكره النفوس، ولا يكاد الناس أن يصدِّقوه لهوله وفظاعته.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٧٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٤).

* ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾:

﴿فَذَاقَتْ﴾ تلك القرية ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، وهم كانوا يطلبون الربح لكن في غير محله، ولذا كانت عاقبتهم الخسارة التامة؛ خسارة النفس والمال والأهل والدنيا والآخرة.

* ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝١١﴾:

وهذا عذاب الآخرة[(١)]، فجمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: تذكير بالتقوى في سورة تذكر أحكام الطلاق، ولن يفقه هذا إلا مَن هو على اطلاع على مشكلات الأسر وأحوال البيوت وما يجري فيها، **وأولو الألباب**: أصحاب العقول[(٢)] الذين يُخاطَبون بالإيمان، وهم أهل التكليف، وهم أيضًا مَن ينتفعون بالنصح، وتدرك قلوبهم مقاصده فتلين للحق وتذعن وتنقاد.

﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وهو القرآن[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ولكن عقَّب بقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾، فهل «الذِّكر» هو الرسول؟

قال بعضهم: إن ﴿رَسُولًا﴾ هنا بدل اشتمال من ﴿ذِكْرًا﴾؛ لأنه إنما أصبح رسولًا

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٥- ٣٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٧).

بنزول الذكر عليه الذي هو من الوحي[1].

ويجوز أن يكون في المسألة تقديرٌ؛ أي: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، وهو القرآن، وأرسل إليكم ﴿رَّسُولًا﴾، وهو محمد ﷺ؛ ولكنه حُذف للعلم به[2].

أو أن المقصود بـ﴿رَّسُولًا﴾: جبريل[3]، وهو رسول ملكي ينزل بالوحي.

ولكن هذا بعيد؛ لأن السياق هنا عن الرسول ﷺ، وهو الذي يصدق عليه وصف إخراج الذين آمنوا وعملوا من الظلمات إلى النور.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾: وقُرئ بكسر الياء وفتحها: ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾، و﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾[4]، فهي شديدة الوضوح، وهي مبيِّنة للناس ما أَشْكَل عليهم، ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وهم كانوا في الظلمات قبل أن يكونوا مؤمنين، لكن وصفهم بصفتهم التي صاروا إليها بعد؛ وهي أنهم آمنوا وعملوا الصالحات، فأخرجهم الله تعالى من ظلمات الكفر والشرك والجهل والمعصية إلى نور الطاعة والإيمان.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾، ذكر تعالى الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه لا يتصور وجود إيمان بلا عمل صالح يمتثل به تكاليف الشرع، وبقدر قوة الإيمان تكون قوة العمل، وهنا

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ١٠١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٧١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣١٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٥٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٨٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٨٨)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٤).

(٤) ينظر: «حجة القراءات» (ص٤٩٨، ٧١٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص١٦٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص١٩٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤٨، ٣٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٥)، و«معجم القراءات» (٩/ ٥١٢).

أذكِّر بأن المؤمن يؤجر على إيمانه كل يوم؛ بل كل ساعة، حتى ولو لم يكن في عبادة؛ إذ الإيمان هو أعظم الطاعات والقربات.

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾: ذكر تعالى في كتابه السماوات السبع كثيرًا، ولكن ذِكْر الأرض يأتي عادة مفردًا دون النص على أنها سبع، وهنا قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾، فهل المعنى أن الأرض سبعٌ كالسماوات؟

نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه يقول: إنها سبع أراضين تفصل بينها البحار(١).

فعلى هذا كأنها بقع أو قطع من الأرضين متفاوتة تفصل بينها البحار كالقارات، وليست طبقات بعضها فوق بعض.

وذهب الأكثرون إلى أنها طبقات مثل السماوات، بعضها فوق بعض(٢)، فقد يكون هذا ما ذكره علماء الجيولوجيا من وجود طبقات الأرض؛ لكن أولئك العلماء لا يتكلمون عن سبع طبقات؛ بل دون ذلك، فهل هم لم يصلوا إلى العلم الحق؟ أو أن ثمة مزيدًا يتعلق بمعرفة طبقات الأرض هو المقصود؟

الله تبارك وتعالى أعلم، ونؤمن بما قال الله على مراد الله، وقد ورد في حديث: **«مَن ظلمَ قِيدَ شبر من الأرض**- يعني سرقه أو أخذه من الأرض- **طُوِّقه من سبع أَرَضينَ»**(٣). وهذا معناه أنه يعاقب بأن يحمله من سبع أراضين، فأخذ بعضهم من هذا دلالة على أن الأرضين سبع، وجاء في هذا حديث نصه: **«ربُّ السماوات السبع**

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٠).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ١٨٠)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٥)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٠، ١٦١٢) من حديث سعيد بن زيد وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم (١٦١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أقللن»(١).

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل الأمر بين السماوات وبين الأرض، والمقصود هنا أمر الوحي(٢)، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، ومن قدرته خلق السماوات وخلق الأرض، ومن إحاطته بالعلم سبحانه تنزيل الوحي وأحكام الحلال والحرام، وهكذا يتوافق الخلق مع الأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

○○○

(١) أخرجه البزار (٢٠٩٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٧٦، ١٠٣٠١)، وابن خزيمة (٢٥٦٥)، وابن حبان (٢٧٠٩)، والحاكم (١/ ٤٤٦)، (٢/ ١٠٠)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٤٦٥)، والضياء في «المختارة» (٨/ ٧٢) (٦٩) من حديث صُهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٦٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٥٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٠).

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

* **تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «سورة التحريم»(١).

وفي «صحيح البخاري»- في إحدى النسخ-: «سورة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾»(٢)؛ بالنظر إلى أولها.

وسماها بعضهم: «سورة النبي ﷺ»(٣)؛ لذكره في مطلعها.

* **عدد آياتها:** اثنتا عشرة آية باتفاق علماء العدِّ(٤).

* وهي مدنية باتفاق أهل العلم. وقيل: إن فيها آيتين مكيَّتين في آخرها، والأرجح أنها مدنية كلها(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٦٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٣)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «التعديل والتجريح» (٢/ ٩٢٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٩)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٤٧)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٣٩٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٧)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٩٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣١٠)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٧)، و«الإتقان» (١/ ٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾:

يُناديه باسم النبوَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وفي القرآن الكريم نُودي بعض الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأسمائهم الصريحة، كقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: ٤٨].

ولكن النبي ﷺ نودي باسم النبوة؛ لمزيد شرفه ومكانته، ونودي أيضًا بالرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾[1] [المائدة: ٦٧].

والفرق بينهما على القول المختار: أن النبيَّ هو: مَن نُبِّئ ولم يوحَ إليه بشرع جديد، **والرسول** هو: الذي أوحي إليه بشريعة جديدة[2].

ولهذا كان الأنبياء أكثر من الرسل، وهم كثرةٌ في بني إسرائيل، حيث جاؤوا مجدِّدين لشريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دون أن يأتوا بشريعة جديدة.

والخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته، وما ثبت له من الأحكام يثبت لغيره، إلا إذا دلَّ دليل على استثنائه[3].

على أن في الآية عتابًا من الله لنبيه ﷺ في تحريم ما أحلَّ الله له، وهو متضمّن للنهي، وليس المقصود به التحريم الشرعي بمعنى أن النبي ﷺ حرَّم في دين الله على الناس ما أباحه الله لهم، كلا! ولكنه ﷺ حرَّم على نفسه شيئًا كان حلالًا عليه في الشرع، كما قال سبحانه: ﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ﴾[4] [آل عمران: ٩٣].

وهذا الذي حرَّمه ﷺ على نفسه هو العسل.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الشرح»: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾.

(٢) ينظر: «الكاشف عن حقائق السنن» (٢/ ٤٢٥)، و«روح المعاني» (٩/ ١٦٥)، و«الجموع البهية للعقيدة السلفية» (٢/ ٤٤٦- ٤٤٧).

(٣) ينظر: «المسودة في أصول الفقه» (ص٣١).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٦).

يدل على ذلك: ما جاء في «الصحيحين»، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسولَ الله ﷺ كان يشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويمكثُ عندها وقتًا طويلًا، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فغرتُ وقلتُ: أما والله لنحتالنَّ له، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أن أيَّتُنا دخلَ عليها فلتقلْ له: أكلتَ مَغَافيرَ، إني أجدُ منك ريحَ مَغَافيرَ[1]. فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «**لا، ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تُخْبري بذلك أحدًا**».

وكان ﷺ يكره أن تُوجد منه رائحة كريهة، فلما دخل على سَوْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد لقَّنتها عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتمَّ ترتيب الموقف بإحكام، تقول سَوْدَةُ: والذي لا إله إلَّا هو، لقد كِدْتُ أن أُبادئه بالذي قُلتِ لي وإنه لعلى الباب فَرَقًا منكِ[2]. فلما دنا منها قالت له: يا رسولَ الله، أكلتَ مغافيرَ؟ قال: «**لا**». قالت: فما هذه الريحُ؟ قال: «**سقتني زينبُ شربةَ عسل**». قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ، أي: أن ذلك النحل قد أكل نوعًا من النبت المعروف في الصحراء الذي توجد فيه هذه الرائحة[3].

فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك، ثم دخل على صفيةَ فقالت مثل ذلك، فقال ﷺ: «**شربتُ عسلًا عندَ زينبَ، فلن أعودَ له**». فتركه وحرَّمه على نفسه.

قالت سَوْدةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سبحان الله! والله لقد حَرَمناه». شعرت بشيء من الحزن، لتسببها في حرمان النبي ﷺ من شيء يحبه، فهمزتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت لها: «اسْكُتِي»[4]. أي: دعِ الأمر يمر على ما هو عليه.

وورد في سبب التحريم قصة أخرى، عند النسائي، وغيره- وصحَّح إسنادها الحافظ ابن حجر- عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم

---

(١) المغافير جمع: مغفور، وهو: صمغ حلو كالناطف، وله رائحة كريهة، ينضحه شجر يقال له: العُرْفُط، يكون بالحجاز.

(٢) أي: خوفًا منك.

(٣) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٠/ ٧٦)، و«فتح الباري» (١٢/ ٣٤٣- ٣٤٤).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٣١٦، ٢٥٨٥٢)، و«صحيح البخاري» (٤٩١٢، ٥٢٦٧، ٥٢٦٨، ٦٩٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٤).

تزلْ به عائشةُ وحفصةُ حتى حرَّمها على نفسه، فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾ إلى آخر الآية(1).

وحديث تحريم العسل أصح إسنادًا؛ فهو في «الصحيحين»، ولذا رجَّح الخطَّابي والقاضي عياض- كما سيأتي- أنه سبب النزول.

وذهب بعضهم إلى أن السبب هو مجموع القصتين، كما قال الحافظ ابن حجر: «الصحيح أنه نزل في كلا الأمرين»(2).

وكما هو ظاهر من سياق الآية، ودلالة الحديث أن تحريم النبي ﷺ العسل على نفسه إنما كان لترضية أزواجه؛ لأن بعض أمهات المؤمنين وجدن في نفوسهن أن يمكث فترة أطول في بيت زينب؛ ليشرب عندها العسل، ولكن جاء في العتب ما يبرئ النبي ﷺ أن يكون تحريمه ما أحل الله له لمصلحة نفسه ومنفعتها الخالصة، حيث قال سبحانه: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

والأزواج جمع: زوج، وهو يُطلق على الذكر وعلى الأنثى(3)، وتسمَّى المرأة: زوجة، والأفصح تسميتها: زوجًا، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكما في قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وتسمية المرأة والرجل: «زوجًا» فيه معنى الكفاءة، وهو الأصل، إذ إنهما على قدم المساواة في التكليف وفي الأجر والمثوبة، كما قال الله سبحانه: ﴿أَنِّي

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٧١)، وفي «الكبرى» (٨٨٥٧، ١١٥٤٣)، والحاكم (٢/ ٤٩٣)، والضياء (٥/ ٦٩- ٧٠) (١٦٩٤، ١٦٩٥)، والبيهقي (٧/ ٥٧٨). وينظر: «فتح الباري» (٩/ ٣٧٦)، و«لباب النقول» (ص١٩٩).

وأخرج الهيثم بن كُليب في «مسنده»- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٩)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٦١٤- ٦١٥)- ومن طريقه الضياء (١/ ٢٩٩- ٣٠٠) (١٨٩) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه. وصحَّح إسناده ابن كثير. وينظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣/ ٤٣٣- ٤٣٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٩- ٣٣٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٦٥٧)، (٩/ ٢٨٩- ٢٩٠، ٣٧٥- ٣٧٦)، (١٢/ ٣٤٣)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٤٢٢).

(٣) ينظر: «المخصص» (٥/ ١٤٧)، و«مشارق الأنوار» (١/ ٣١٣) «ز و ج».

لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأكَّد على حقوق المرأة في نصوص كثيرة، وأن المرأة لا يُكرمها إلا كريم، ولا يهينها إلا لئيم، وهكذا الأصل في العقوبة والجزاء الدنيوي إلا ما دلَّ الدليل على استثنائه، وكذلك ما يتعلق بأمر العلاقة بين الرجل والمرأة.

والإنسان في البيئات التي لم تستنر بنور الوحي أو غلبت عليها عادات الجاهلية ولو كانت مسلمة، ينظر إلى المرأة على أنها مخلوق من الدرجة الثانية، فيزدريها ويمتهنها وكأنها موضع لقضاء الوطر فحسب، والشيء اللطيف أن يكون تكريس الله لهذه الحقوق في سياق هذه السورة التي جرى فيها ما جرى من أمهات المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: وعادة ما يجمع الله تعالى بين المغفرة والرحمة.

والمغفرة هي: السَّتْر، يُقال: غَفَرَ، أي: ستر، ومنه المِغْفر، وهو غطاء الرأس الذي يحميه في الحرب(١). فالمعنى: أن الله تعالى يغفر الذنوب، أي: يسترها ويمحوها عن العباد، وليس يمحو الذنب فحسب، بل يرحم المذنب فيُبدِّل سيئاته حسنات، ويتقبل منه صالح ما عمل ويتجاوز عنه، فمن هنا جمع بينهما(٢).

وفي ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين عناية رفيعة بمقام النبي ﷺ؛ لأنه بدأ بوصفه بالنبوة، ثم عاتبه العتاب الرقيق اللطيف: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، ثم بالمغفرة والرحمة الدالة على عفوه وتجاوزه سبحانه عما حدث وجرى، مع أنه

---

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مطالع الأنوار» (٥/ ١٦٢) «غ ف ر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٧).

لم يكن من النبي ﷺ الأمر الذي يكون عليه معصية أو إثم، حاشاه من ذلك، ولم يتجاوز أن حلف ألَّا يأكل العسل مرة أخرى ترضية لأزواجه.

* ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾:

هنا انتقال الخطاب من النبي ﷺ إلى الأمة، و﴿فَرَضَ﴾: بيَّن ووضَّح وأنزل وحكم بتحلة الأيمان(١)، وهي جمع: يمين، وتحلتها في «سورة المائدة» في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ﴾ [المائدة: ٨٩]، فإذا حلف ألَّا يفعل شيئًا، وأراد أن يفعله، كفَّر عن يمينه، ثم لا حرج عليه أن يفعل ذلك الشيء ما دام مباحًا.

وفي «الصحيح» قال ﷺ: «وإني والله- إن شاء الله- لا أحلفُ على يمين، فأَرَى غيرَها خيرًا منها، إلا كفَّرتُ عن يميني، وأتيتُ الذي هو خير»(٢).

بخلاف اليمين الغموس: التي تغمس صاحبها في الإثم، والتي بها يأكل المرء حقوق الناس بغير حق، وهي الحلف على أمر ماضٍ باطل، كأن يحلف أنه باعه وهو لم يبعه، أو أن هذه السلعة له وليست له، فلا كفارة فيها(٣)، وهي أعظم من أن تُكفَّر، وإنما فيها التوبة والاستغفار، فإن أكل بها حق أحد وجب عليه رد الحق إلى أهله، وجاء في الوعيد عليها قوله ﷺ: «لا يحلفُ على يمينِ صَبْرٍ يقتطعُ مالًا وهو فيها فاجرٌ، إلَّا لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ»(٤).

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾: تأكيد لرفقه سبحانه بالنبي ﷺ وأهل بيته وصحابته، وقربه منه،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) هذا هو مذهب الجمهور، خلافًا للشافعية. ينظر: «العناية» (٥/ ٦٠)، و«البناية شرح الهداية» (٦/ ١١٣)، و«مواهب الجليل» (٣/ ٢٦٦)، و«مغني المحتاج» (٦/ ١٨٨)، و«المغني» (٩/ ٤٩٦)، و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٤٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٨٣)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمولى هو: الولي، وهو القريب الرحيم[1].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما شرع لكم، فهو العليم بأحوالكم وحاجاتكم، وهو الحكيم في تشريعه المبني على هذا العلم؛ ولهذا جمع بين الاسمين الكريمين[2].

* ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾:

الإسرار المشار إليه هنا هو قوله ﷺ لحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما قالت: أجدُ منك ريحَ مَغَافِيرَ، فقال: «**لا، ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنت جَحْش، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تُخْبري بذلك أحدًا**».

وقد رُوي في الإسرار المذكور قصة أخرى، وهي أن النبيَّ ﷺ خلى بمارية القبطية- أم ولده إبراهيم- في بيت حفصة في غيبتها في بيت أبيها، وأنها لما عادت إلى بيتها وجدت النبيَّ ﷺ ومعه مارية، فغضبت، وقالت: أتفعلُ هذا في بيتي وفي يومي، ما صنعتَ بي هذا من بين نسائكَ إلَّا من هواني عليك! فقال لها النبيُّ ﷺ: «**فإنها عَلَيَّ حرامٌ، ولا تُخْبِرِي بذلك أحدًا**»[3].

ولكن القصة ضعيفة بهذا السياق؛ فهي مروية بأسانيد ضعيفة أو مرسلة، مع نكارة في متنها، ولذا قال الخطَّابي: «إن يمين النبي ﷺ إنما وقعت في تحريم العسل، لا في تحريم أم ولده مارية القبطية، كما زعمه بعض الناس».

وقال القاضي عياض: «الصحيح أنه في أمر العسل، لا في قصة أم إبراهيم،

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٨٥) « و ل ي».

(٢) ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٤٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (١٧٠٧)، و«طبقات ابن سعد» (١٠/ ١٧٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٤- ٨٥)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٢٣١٦، ٨٧٦٤)، و«المعجم الكبير» (١٢٦٤٠)، و«سنن الدارقطني» (٥/ ٧٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٧٤٨٩)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٥٧٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٣٨- ٤٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«أسد الغابة» (٧/ ٢٥٣)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٥٩- ٦١)، و«الإصابة» (٨/ ٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

كما جاء في غير «الصحيحين»، ولم يأت بتلك القصة طريق صحيح.

ونقل النووي كلام القاضي عياض، ثم قال: «وهذا أحد الأقوال في معنى السِّرِّ، وقيل: بل ذلك في قصة مارية، وقيل غير ذلك»(١).

فالصحيح أن الإسرار كان في أمر تحريم العسل(٢).

وإسرار الرسول ﷺ إلى بعض أزواجه بالحديث جاء على وفق طبيعة البشر، فما أكثر ما يسر الزوج بالحديث لزوجته ويستودعها من شؤونه الشخصية بحكم خصوصية العلاقة بينهما وحميميتها؛ فإن كلًّا منهما لباس للآخر.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: لما أفشتْ حفصةُ السِّرَّ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا(٣)، أخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بذلك، كما يدل لذلك قوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أظهر الله نبيَّه ﷺ على إفشاء حفصة بالسِّر لعائشة، فجاء الوحيُ بإخباره ﷺ بذلك، فدخل على حفصة معاتبًا، فعرَّف بعض الكلام وأعرض عن بعض، أي: عاتبها على بعضه، وعرَّفها بعضًا مما أخبره الله تعالى به(٤).

ولهذا قيل: «ما استقصى كريمٌ قطُّ»(٥). أي: أن الرجل الكريم لا يستقصي الأمور مع زوجته أو شريكه أو ولده أو صديقه فضلًا عن غيرهم، ولا يُبالغ في

---

(١) ينظر: «معالم السنن» (٤/ ٢٧٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٢٩٢- ٢٩٣)، و«إكمال المعلم» (٥/ ٢٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٠/ ٧٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٦٧- ٢٦٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٠)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (٢/ ١٠٢٧- ١٠٣٨)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٣).

(٥) ينظر: «المجالسة» (١/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٦)، و«البخلاء» للخطيب (ص٧٨)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٣).

الاستقصاء والتحري والإحصاء، فهو أسلوب مُنَفِّرٌ لا يزرع الثقة، ولا ينمي الوازع الديني والرقابة الذاتية، ولذا نهي عن التجسس.

وقيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: «العافيةُ عشرةُ أجزاء، تسعةٌ منها في التغافل». فقال: «العافيةُ عشرةُ أجزاء، كلها في التغافل»(١).

وكان الشافعي يقول: «الكَيِّس العاقل هو: الفطن المتغافل»(٢).

فالحَصيف لا يقف عند الأشياء الصغيرة، ولا يتتبَّع كل الأمور، كما فعل الرسول ﷺ في هذه القصة؛ حيث ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، فعاتب حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على شيء، وسكت عن شيء.

وما الذي عاتبها عليه، وما الذي سكت عنه؟ لم يُبيِّن القرآن هذا؛ لأن المقصود العبرة، ولذا كان من الحكمة الإلهية ألَّا يأتي القرآن على ذكرها وتفصيلها؛ لأنها من جزئيات العلاقة الخاصة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾: لما أخبر النبيُّ ﷺ حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعاتبها على إفشائها سِرَّه، تعجبت وقالت: مَن أخبرك؟ وربما ظنت أن مَن أنبأته هي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنها الطرف الثالث في القصة، ولكن حفصة تستبعد أن تفعل عائشة ذلك؛ لما بينهما من التعاهد على السِّرِّ؛ ولهذا تعجَّبت كيف علم النبي ﷺ بذلك وتساءلت، ومع أنها في موقف محرج، إلا أنها وجدت الجرأة على أن تسأل الرسول ﷺ هذا السؤال!

ولو كان المسؤول أحدنا لغضب أشد الغضب، وأرغى وأزبد، وأعرض عن الجواب بكبرياء، ولكن الرسول ﷺ يجيبها عن ذلك بحلم وأناة: ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾: ولم يقل: «الله»؛ لأن من المناسب الإشارة إلى شمول علمه وسعته وإحاطته بكل الدقائق، فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يخفى عليه شيء(٣)؛ ﴿مَا

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٢٨).

(٢) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (٦٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٣٠)، وابن عساكر (٥٦/ ١٣). ورُوي عن غيره أيضًا.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٥).

يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فهذا العليم، وهو الذي يحيط بالدقائق والأسرار، والتذكير بهذا الاسم العظيم هنا له مزيد معنى وإلفات إلى كمال خبرته بخلقه، ومن هنا ندرك أن الخبرة أخص من العلم[١].

وفي هذه القصة كشف لشيء من أحوال بيت النبوة، وهو بيت تظلِّله السكينة، والقوامة فيه لأفضل البشر ﷺ، إلا أنه لم تخرج عن حدود الطبيعة البشرية، والرسل بشر من البشر؛ يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويقع في داخل بيوتهم المشكلات ثم يتدرجون في حلها وإزالتها.

* ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾:

ثم يأتي العتاب لحفصة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٢]، ومجرد ذكر التوبة معناه أنه قد صدر منهما ما يستدعي التوبة[٣].

والتوبة تكون من الكبائر ومن الصغائر، ومن اللَّمم، ومن فعل المكروه، أو ترك المستحب، فهو باب واسع، والله تعالى يقول: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]؛ لكن ها هنا المبادرة بذكر التوبة وعرضها يوحي بأنه قد صدر منهما ما يستوجب ذلك؛ وهو إفشاء سرِّ النبي ﷺ.

و«صغو قلوبهما»، أي: ميلها[٤]. والآية تحتمل معنيين:

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٨٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٧٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٧)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

١ - إن تبتما فقد مالت قلوبكما إلى الحق[1]، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

٢ - إن تبتما إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما إلى غير الحق[2].

وهنا لم يقل: «قلباكما» مع أنهما اثنتان، لما في اللفظ من الشدة والصعوبة في النطق فيما يتعلق بذكر مثنيين في كلمة واحدة، والاثنان أقل الجمع عند العرب[3].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: إن تُصرَّا على مثل هذا، ويتكرر منكما هذا الفعل في حقه ﷺ، فما العاقبة؟

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: حسبه وكافيه وحافظه ومتولِّي أمره[4]، فما بالك بمَن يعاديه أو يؤذيه؟! إن معنى هذا أن كل مَن يؤذيه أو يضاره بشيء فقد عرَّض نفسه لعقاب الله.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: الصالحون من المؤمنين أولياء له[5].

وبعض المفسرين قال: إن المراد هو: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]، ولا شك أن أبا بكر مولى للنبي ﷺ، وفي الآية ثناء عليه؛ لأنه كان يعاتب عائشة، ويقف في حقِّ النبي ﷺ في كل مشهد.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٧)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٦- ٣٥٧)، و«شرح الكافية الشافية» (٤/ ١٧٨٧)، و«حاشية الصبان» (٣/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٨)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (٩٨- زوائد عبد الله)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٤).

وبعضهم قال: إن المراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، وهو من صالح المؤمنين، وكان يدخل على النبي ﷺ، فإذا وجد حفصة قد أغضبت النبي ﷺ في شيء عاتبها ووبَّخها وطالبها بأن تلتزم طاعة النبي ﷺ وخدمته وتيسير أمره وجعل بيته سكنًا، حتى إن قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ في الآية التي بعدها كانت من موافقات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للشرع، فكان يقول لحفصة ولغيرها من أزواج النبي ﷺ: «عسى ربُّه إن طلَّقكنَّ أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن». فنزلت هذه الآية[2].

وفي الآية إثبات لفضل أبي بكر وعمر، ولفضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم من صالح المؤمنين، فوصفهم الله تعالى بالإيمان والصلاح، وهم الموالون لرسول الله ﷺ والمجاهدون معه المؤمنون به الذَّابُّون عنه.

و﴿وَصَٰلِحُ﴾ هنا وإن كانت مفردًا، إلا أنها تعني الجمع[3].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾: واللفظ صريح في العموم، فالملائكة كلهم ظَهِير له ﷺ، و﴿ظَهِيرٌ﴾ وإن كان مفردًا إلا أنه مثل قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، لا يُقصد به رفيق واحد بل رفقاء[4]، فكل هؤلاء مع النبي ﷺ.

وفيه دعوة لأمهات المؤمنين أن يكنَّ في هذا الصف؛ الصف الذي فيه الله تعالى وجبريل وصالحو المؤمنين والملائكة، وتقديم «صالح المؤمنين» قد يستدل به مَن يرى فضلهم على الملائكة.

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣١٩٩٦)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (٣٠٥، ٣٣٣- زوائد عبد الله)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٠٢، ٤٤٨٣، ٤٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩، ٢٣٩٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣١٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩١- ١٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٥٩).

وفي هذه الآيات بيان لمقام أزواج النبي ﷺ، حتى ولو حصل منهن بعض الهنَّات، فلله في ذلك حكمة، وهن قد شرفن بالاقتران بالرسول ﷺ، وكونهن زوجاته في الدنيا وفي الآخرة.

وفيه تكريس لعظمة بيت النبوة وجلالة قدره، وأن كل ما يؤثِّر فيه يؤثِّر في المسلمين جميعًا، حتى ينزل القرآن من السماء يتحدث عن بعض حوادثه اليومية.

* ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾:

﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة، فهو أمر متحقّق؛ ولكن الأمر هنا معلّق بشرط، وهو الطلاق(١)، والنبيُّ ﷺ لم يُطلِّق، وإنما آلى من نسائه شهرًا، أي: حلف ألَّا يدخل عليهن شهرًا، فلما تمَّ تسعة وعشرون يومًا دخل ﷺ على نسائه، فقيل له: إنك حلفتَ أن لا تدخل شهرًا؟ فقال: «**إن الشهر يكون تسعةً وعشرين يومًا**»(٢).

ويحتمل أن يكون الخطاب متوجِّهًا لأزواجه كلهن تحفيزًا لهن على الطاعة، وتحذيرًا من مخالفة النبي ﷺ، والإشفاق عليه.

ويحتمل أن يكون خطابًا لحفصة وعائشة اعتبارًا بما حصل منهما(٣).

وفي الآية إثبات الخيرية لأمهات المؤمنين؛ ولهذا نقول: إن محبة أزواج النبي ﷺ إيمان، والمؤمن الذي يحبُّ رسول الله يحبُّ أصحابه وأزواجه أكثر مما يحبُّ أمه وأباه؛ لأنهن أزواج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، فنحبهم لحبِّ الله ولحبِّ رسول الله ﷺ.

والنيل من زوجة أي أحد بالبهتان أو الوقيعة أو التنقص في كتاب أو مجلس أو موقع أو قناة فيه إساءة وحط من قدر الزوج، ما دامت باقية في عصمته ومات عنها،

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧٨، ١٩١٠، ٢٤٦٩، ٥٢٠١)، و«صحيح مسلم» (١٠٨٣-١٠٨٥).

(٣) ينظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٤٩- ٣٥٠).

فكيف بالنبي ﷺ الذي مات وهو عنها راضٍ، بل مات وهو راضٍ محب، بل مات بين سَحْرِها ونَحْرِها، كما حدث للصِّدِّيقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]، فالنيل من أزواج النبي ﷺ هو نيل من مقام النبوة ومن قدر النبي ﷺ، وفي الآية وصف لهن بأنهن خيِّرات؛ ولكن توعَّد إن طلقهن أن يبدله خيرًا منهن وأفضل.

ثم شرع في سرد الصفات التي تحقَّقت في هؤلاء النساء، وتتحقَّق في مَن يبدله الله تعالى لو طلقهن:

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾: بدأ بالإسلام، ويُطلق على الأعمال الظاهرة.

﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: وثنَّى بالإيمان، وهو الأعمال الباطنة.

وقد يكون الإنسان مسلمًا، ولا يكون مؤمنًا، فالإسلام درجة والإيمان درجة أعلى وأكمل، فإذا ذُكر الإسلام والإيمان معًا دلَّ الإسلام على عمل الظاهر، ودلَّ الإيمان على عمل القلب.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: والقنوت: زيادة العبادة والطاعة[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وقال بعضهم: القنوت: قيام الليل. وهذا من باب التفسير بالمثال، وإلا فإن المقصود بالقنوت: أن يكون القلب موصولًا بالله تعالى.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: تعريض وتذكير بوجوب التوبة على مَن حصل منهن ما حصل مما كان سببًا في نزول الآيات[3]، فإن لم تتبن يأت الله تعالى بمَن هو خير منكن وأصدق توبة.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾: يشمل ألوان العبودية لله تعالى بما هو أوسع وأعم من النُّسك والصلاة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: وقد تكون السياحة: الصوم، كما قال بعض المفسرين.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١).

وقال آخرون: السائحات هن: المهاجرات[1]، والمهاجرات أفضل من غيرهن، مَن هاجرن إلى الله ورسوله إلى المدينة[2].

ثم قال: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾، وجاء قوله: «أبكارًا» معطوفًا على «ثيبات»، ولم يرد حرف العطف فيما سبق؛ ليؤكِّد أن هذه الصفات كلها متحقِّقة في كل امرأة، فليست بعضهن ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾، وبعضهن ﴿مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾، وبعضهن ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ على سبيل التنويع، كلا، بل كل واحدة متحقِّق فيها كل هذه الصفات، فهي مسلمة مؤمنة تائبة عابدة سائحة قانتة[3].

ثم قد تكون ثيِّبًا، وقد تكون بِكْرًا، فهو للتنويع؛ منهن ثيبات ومنهن أبكار[4]، وذلك أن في أزواج النبي ﷺ ثيبات، وهن غالب نسائه ﷺ، حتى خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد تزوجت قبله، وإنما تزوج النبي ﷺ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وحدها بِكْرًا[5].

وفي ذلك دليل على أن زواجه ﷺ لم يكن على سبيل التلذُّذ بالتنويع، وتطلُّب المزيد من المتعة، وإن كانت المتعة جِبِلَّة لا يُلام الإنسان في طلبها فيما أحلَّ الله، **وإنما كان ذلك لمقاصد عظيمة، من أهمها**: نقل خصوصيات الرسالة في داخل البيت وأحوال الزواج وأحوال المعاشرة والوضوء والغسل وغيرها مما لا تستطيع القليل من النساء أن تقوم به، بخلاف قضايا الحياة العامة، فإن كل أصحاب النبي ﷺ يتوفرون على معرفتها ونقلها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠١- ١٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٠).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٦٧- ٥٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦١)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٠)، و«تفسير القاسمي» (٧/ ٢١)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٥٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾:

انتقل الخطاب إلى نداء رباني عام لكل المؤمنين؛ بأن يتقوا النار بفعل الطاعة وترك المعصية، ويسعوا في وقاية أزواجهم وأولادهم؛ بأن يوصوهم بذلك، ويحثّوهم عليه ويرغّبوهم فيه.

وقوله: ﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: نكَّرها للتعظيم والتهويل(١)، وهي تسعر بالعصاة والكفار والمجرمين.

والحجارة: **قيل**: هي حجارة الكبريت؛ لأنها تزيد النار اشتعالًا(٢). **وقيل**: هي الحجارة التي كانوا يعبدونها(٣)، كما يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهي كقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]، فكأن الإنسان حينما يُرمى في النار صار مثل الحجارة، لم ينتفع بشيء من عقله وقلبه وحواسه، فكأنما هو بلا شيء من ذلك.

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ في خلقتهم وقوتهم، فهم غلاظ أقوياء في الخلقة، شِداد على مَن أُمروا به، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾: وصفهم بصفتين:

الأولى: أنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أي: يطيعون الله تعالى، وهذا يشمل قيامهم بالعبادة كما أمرهم الله؛ فإنهم يعبدون الله قائمين وراكعين وساجدين، ويشمل طاعة الله تعالى فيما كُلِّفوا به.

الثانية: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ فهم لا يرتكبون المعصية، ولا يفعلون إلا الطاعة.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٧)، و«فتح القدير» (١/ ٦٣)، و«روح المعاني» (١/ ٢٠١)، و«أضواء البيان» (١/ ١٨).

وفيه نفي الكسل والعجز عنهم، فالله تعالى زوَّدهم بالقدرة التي تجعلهم يفعلون كل ما أُمروا به، وهم خزنة جهنم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾:

وهذا التفات في الخطاب بعد انتقال من المؤمنين إلى الكافرين.

وكأن هذا من كلام الملائكة يخاطبون أهلَ النار من الكفار؛ ليكون مشهدًا حاضرًا متصوَّرًا يراه الناس، ويرون الملائكة الغلاظ الشداد يخاطبون أهل النار حين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيكبتونهم ويوبِّخونهم ويقطعون طريق الكلام عليهم بأن وقت المعذرة قد ذهب وولَّى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾(١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾:

جاء الأمر هنا عامًّا للمؤمنين بعد أن أمر به بعض أمهات المؤمنين.

والتوبة النصوح هي: أن يترك الذنب، ويعزم على ألَّا يعود إليه حتى يعود اللَّبَن في الضَّرْع، كما قال عمر وأُبَيٌّ ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٢)، فهي توبة صادقة لا تردد فيها.

وقد نُقل عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره أن من شروطها: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم الصادق على عدم العود، وأن يُجهد نفسه في طاعة الله كما

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٧٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٦٦- ٣٦٧).

(٢) ينظر: «العظمة» (٤/ ١١٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٠٩)، (٩/ ٣٥٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢١٣)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣١٦)، و«الدر المنثور» (٨/ ٢٢٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٢).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

أجهد نفسه في معصية الله، وأن يرد الحقوق إلى أهلها(١).

وفي هذا يقول ابن المعتز(٢):

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى

لا تحقرنَ صغيرةً إن الجبالَ من الحَصَى

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة(٣)، فهذا الوعد الطيب الصادق، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

والتعبير بنفي الخزي عن النبي ﷺ والمؤمنين تقرير لفوزهم الأخروي بعد فوزهم الدنيوي، كما قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ: «والله لا يخزيك الله أبدًا»(٤). وهو تعريض بالمشركين الذين جاءهم الخزي بالنار التي وقودها الناس والحجارة(٥).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ حاضرون في الموقف، فإما أن يكون قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يعني: في الدنيا، أو يكون المعنى: إن الذين آمنوا هم معه في ذلك الموقف لا ينالهم الخزي(٦)، و﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]، فهنا ثناء على الذين آمنوا مع النبي ﷺ، وهم أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٢٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٦٩)، والمصادر السابقة.

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٩٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٠).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾: «النور» مقابل «النار»، فالكفار محشورون في نارٍ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، أما هؤلاء الأنبياء والذين آمنوا فإن لهم النور الذي يخرج من كتبهم، فهم يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، وهذه الكتب فيها من أعمال الخير ما يجعلها نورًا لأصحابها؛ فيظهر نورهم ويمضي.

والعادة أن الإنسان يأخذ الأشياء بيمينه ويعطيها بيمينه، وهؤلاء مؤمنون فيُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم بخلاف الكافرين، نورهم يسعى أمامهم ويسعى من عن يمينهم، أما عن شمالهم فكأن ثمة ظلمة والله أعلم؛ ظلمة الكفر والكافرين والنار؛ فلذلك لم يشر إليها، فهؤلاء المؤمنون يمضون وهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: إما أن يكونوا يخافون أن ينطفئ، وهم يرون الناس في كرب القيامة، فينادون ربهم ويدعون بهذا الدعاء الخاشع الملهوف، وما دعوا به إلا أن الله تعالى ألهمهم إياه.

فالمؤمن في مثل ذلك الموقف، وقد جاءه النور وهو ينادي ربه بهذا النداء الجميل: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، مثلما كان ينادي في الدنيا: يا مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي على طاعتك، يا مصرِّفَ القلوب صرِّف قلبي على دينك. ما ألهمهم الله تعالى هذا الدعاء في هذا الموقف إلا وهو يريد أن يتم لهم نورهم ويوصلهم إلى رضوانه.

كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»(١).

وربما كان هذا إذا انطفأ نور المنافقين، فاستعاذوا بالله أن يكونوا مثلهم.

ويحتمل أن يكون الدعاء من بعضهم، وليس منهم جميعًا؛ لأن نورهم متفاوت على قدر إيمانهم، كحال عبورهم الصراط(٢).

﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: وكأنهم يَبْرؤون من حولهم وقوتهم، وأن الأمر موقوف على رحمته سبحانه.

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة الرحمن»: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٠٩)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠١- ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٠- ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾:

أمره بالجهاد، ويشمل ألوان الجهاد؛ ولهذا ذكر الكفار والمنافقين، فأما الكفار المحاربون فجهادهم باللِّسان وبالسِّنان وبالقوة وبالحجة والمال، وبكل ممكن، كما ذكر أهل العلم، وأما المنافقون فإن هدي النبي ﷺ وسيرته في جهادهم أنه بالحجة، وما اقتضاه مقام البلاغ والرسالة من البيان والتحذير من أقوالهم وأعمالهم، كما في «سورة المنافقون»[(١)].

* ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾:

ختم السورة الكريمة بأربعة أمثلة ضربها للناس متصلة بالقصص السابقة في بيت النبوة:

أما الأول والثاني: فقوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ﴾.

وهذا المثل يخاطب به الذين كفروا؛ ليُبيِّن لهم أن قرب الإنسان من أحد أولياء الله لا ينفعه، وإنما ينفع الإنسان عمله، فهاتان امرأتان تحت نبيين عابدين صالحين: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾: والمقصود بالخيانة عند أكثر المفسرين: خيانة الدين[(٢)].

وقد ذُكر أن امرأة نوح ركبت معه السفينة، ثم طُوي ذكرها بعد ذلك، فهل هي امرأته الخائنة لرسالته، أم هي امرأة له أخرى؟ الله تعالى أعلم[(٣)].

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٠٤)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٣- ٢٢٤)، وما تقدم في «سورة المنافقون»، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٩٥)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٤٢٩)، (٢٣/ ١١١)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢١٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٤- ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

والمقصود هنا امرأة لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن على دينه، خانته بذلك، وكذلك امرأة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصتهما معروفة، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ مع قربهما.

﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾: دليل على إهمالهم وإخماد ذكرهم، وأنه لا شأن لهم ولا قيمة ولا اعتبار، فإنها تدخل النار ضمن العديد من أهلها دون اعتبار، وفي ذلك تحذير أن يستبدل الإنسان الضلالة بالهدى، أو يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

* ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾:

والمثلان الآخران هما: قصة امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهو موجَّه للمؤمنين أنه لا يضرك أن تكون مع قوم كافرين إذا أطعت الله تعالى واتقيته(١).

ويحتمل أن يكون المعنى: وضرب الله مثلًا من الذين آمنوا؛ فإن امرأة فرعون كانت من المؤمنين.

والأقرب أن ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هذا هو فرعون الذي أُرسل إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

وكانت امرأته يقال: إنها كانت آسيوية، وفي «الصحيحين» أن النبيَّ ﷺ ذكر أن اسمها: «آسية»، وفي بعض الروايات: «ابنة مزاحم»(٣).

وهذا الاسم يبدو أنه عربي، وذكر المؤرِّخون أنها كانت على غير دين أهلها وقومها المصريين آنذاك، وكانت على ديانة التوحيد، وقد آمنت بموسى، وبلغ

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٦)، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢٦٦٨، ٢٩٥٧)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٣٣٦، ١٥٧٦)، و«صحيح البخاري» (٣٤١١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣١)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠١٠)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٧، ٥٧٥، ٥٩٤)، و«المختارة» (٧/ ٢١- ٢٢) (٢٤٠٠، ٢٤٠١)، (١٢/ ١٦٧- ١٦٨) (١٨٧- ١٩٠).

الخبر فرعون فعذَّبها وعاقبها، ويبدو أنه آخر الأمر طردها وأبعدها عمَّا يسمونه: الحضرة الملكية والقصر؛ ولهذا قال: ﴿... ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، فبدأت بالجار قبل الدار، ودعت الله تعالى أن يبني لها عنده ﴿بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾؛ لأنها حُرمت من القصر والبيت الذي كانت تعيش فيه، والفراعنة لهم مدافن في قصورهم(١).

وهنا تلحظ كيف أن امرأة تتحدَّى بطش الفرعون وتتمرَّد عليه بإيمانها بالله، وتصبر وتصابر حتى تُطرد أو تُقتل، وكل ما تقوله: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، وتدعو ربها أن ينجيها منه ومن عمله الذي أعظمه الشرك بالله تعالى.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المحيطين به من البطانة والأعوان، وربما من أولئك الذين يعذِّبونها(٢)، فقد ورد أنهم عذَّبوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حتى ماتت(٣)، هذا المثل الثالث.

* والمثل الرابع: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾:

جاء ذكرها بالاسم صريحًا، ولم يرد في القرآن من أسماء النساء سواها، وأنزل تعالى سورة خاصة باسمها؛ وفي ذلك إشادة بها.

﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: الإحصان: هو جعل الشيء حَصِينًا، ومنه نقول: مدينة

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٧)، و«أضواء البيان» (٨/ ٢٢٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٩٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٤٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٧).

(٣) ينظر: «مسند أبي يعلى» (٦٤٣١)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«المطالب العالية» (٣٧٦٢)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٥٩٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٥٠٨).

حَصِينة، أي: مَنِيعة الأسوار، ليست قصيرة يتجاوزها كل أحد أو يقفز عليها[1].

ومن النساء مَن لا يكون عندها هذا السور، فيؤثِّر فيها الحديث والوسوسة والكلام والإغراء والغزل، فتلين بعد تمنُّع، كما قال أحد الشعراء[2]:

عُسْـرُ النِّسـاءِ إلـى مُياسَـرَةٍ والصَّعـبُ يسـلس بَعدَمـا جَمَحَـا

ويشمل إحصان الجسد كله، فالعفة ليست في الفرج فحسب، وإنما عفة الوجه، والعين، واليد، والقلب ذاته، كما قال المتنبي[3]:

ولا عِفَّـةٌ فـي سَـيفِهِ وسِـنانِهِ ولكنهـا في الكـفِّ والفَـرجِ والفَمِ

فعفة اليد: الكف عن الحرام، وعفة الفَرْج: ألَّا يقع الإنسان في الفواحش ومقدماتها، وعفة اللسان: التوقف عن الكلام الذي لا يجمل ولا يليق.

والفَرْج يُطلق على جيب الدِّرْع[4]؛ وهو ثوب المرأة الذي تلبسه يكون فيه جيب عادةً من الأمام، وكل فتحة في الثوب تسمى: فَرْجًا، كما في قوله تعالى عن السماء: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

فالفُرُوج هي: الفتحات[5]، والثناء عليها يشمل إحصان جسدها في هيئتها ولباسها وكلامها وقلبها، ومن باب أولى وأكمل فرجها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: حيث جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فنفخ في جيب درعها النفخة السريعة التي تحولت بقدرة الله إلى حمل بصورة خارقة غير معهودة،

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٨).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٩)، و«تاج العروس» (٣٤/ ٤٣٥) «ح ص ن».

(٢) ينظر: «طبقات الشعراء» (ص٢٥)، و«العقد الفريد» (٨/ ١٠٤)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص٩١٧)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٢/ ٤٦٨) منسوبًا إلى بشار بن بُرد.

(٣) ينظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ١٠٥٥)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٥٠٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٣- ٢٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٠)، و«التفسير اللغوي للقرآن» (ص٦٢٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٧).

وولدت من ذلك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

ومن تشريف الله لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ إسناده النفخ في فرجها لروحه، وهو يعني أن تكون منسوبة إليه، نسبة الخلق والتشريف والتكريم، كما يقال: بيت الله، وناقة الله، أو يكون المقصود: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾: ومن كلماته: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ومن كلماته: الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين، فهي صدَّقت بكلمات ربها كلها، وكتبه المنزَّلة على أنبيائه(٣).

وهذا يعني أن الله أثنى عليها بالعلم، وهو دليل على شرف العلم وفضله؛ لأنه لا يقع التصديق بكلمات الله وكتبه إلا مع العلم بها ومعرفتها.

ومن العجيب أنك تجد في بعض الآثار والنصوص الضعيفة تحذير المرأة من الكتابة؛ كحديث: «لا تعلموهنَّ الكتابةَ»(٤)، وهو حديث مكذوب لا يصح.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥)، و«أضواء البيان» (٣/ ٣٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٠٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٣٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧١٣)، والحاكم (٢/ ٣٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٢٧)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٣/ ٣٠٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٣٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٦٨- ٢٦٩) من حديث ابن عباس وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وينظر: «معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة» لابن القيسراني (ص٢٤٨)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (٢/ ٨٧٩)، و«إتحاف المهرة» (١٧/ ٣٤٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٨)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٠١٧).

في حين أن الله تعالى يثني على سيدة نساء العالمين بأنها صدَّقت بكلمات ربها وكتبه، فهي إذًا على اطلاع بالكتب ومعرفة وإيمان بها، والإيمان هنا ليس تقليدًا؛ بل فهم راسخ للحقائق ومعرفة وحجة.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: والقنوت هو: الطاعة، وطول القيام في العبادة، وقيل: قيام الليل.

وهذا من باب التفسير بالمثال، فجمع الله لها بين العلم الصحيح، والعمل الصالح[1].

وقد كانت متبتِّلة في طاعة الله تعالى ورضوانه، كما وعد الله نبيه ﷺ بالنساء القانتات، وأمر نساءه أن يَكُنَّ كذلك.

وضَرْبُ المثل بمريم دعوة لنساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين لامتثال هذه الأخلاق العلمية العملية.

○○○

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٢٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٣٧٨)، وما تقدم في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾.

سُورَةُ المُلْكِ

* تسمية السورة:

اسمها المشهور: «سورة المُلْك»، وهو الذي في المصاحف، وكتب الحديث، والتفسير(١).

وسماها رسولُ الله ﷺ: «المنجية»، في قوله: «إن سورةً من القرآن ثلاثونَ آيةً شفعت لرجل حتى غُفرَ له، وهي: سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٢).

وفي حديث آخر: «هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تُنجِيه من عذاب القبر»(٣).

وبعضهم يسمِّيها: «سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٤)، كما في الحديث السابق.

وتختصر إلى: «سورة ﴿تَبَٰرَكَ﴾»(٥).

ويُسمَّى الجزء كله: «جزء تبارك».

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٥٨)، و«جامع الترمذي» (٥/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٧٥)، وعبد بن حميد (١٤٤٥)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، وابن ماجه (٣٧٨٦)، وابن حبان (٧٨٧)، والحاكم (١/ ٥٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم، وابن الملقِّن في «البدر المنير» (٣/ ٥٦١- ٥٦٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٤٠).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٧)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (٢/ ٦٤٢).

(٥) كما في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم. وينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٣).

ومن أسمائها- كما في الحديث السابق-: «**المانعة**»؛ فهي تمنع عذاب القبر عن صاحبها(١).

وقد ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سماها: «**المجادِلة**»؛ لأنها تجادل عن صاحبها يوم القيامة(٢).

وعدَّ بعض أهل العلم لها نحوًا من ثمانية أسماء، وغالبها صفات(٣).

* **عدد آياتها:** ثلاثون آية(٤)، كما في الحديث السابق.

* **وهي مكية** عند جميع المفسرين(٥).

* **وموضوع السورة:** آيات الله في الأنفس والآفاق، والأرض والسماء والنجوم والطيور وغيرها، وإقامة للحجة على الكافرين بدلائل السمع والبصر والعقل.

* ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾:

تستفتح هذه السورة بقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي: تعاظمت بركته، وعظم خيره وعطاؤه وفضله.

و﴿تَبَٰرَكَ﴾ مأخوذ من البركة، وتعني: الخير الكثير الدائم(٦)، فالله عَزَّوَجَلَّ هو

---

(١) وكما رُوي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَن قرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ كلَّ ليلة، منعه الله بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسمِّيها: المانعة، وإنها في كتاب الله سورة، مَن قرأ بها في كل ليلة، فقد أكثر وأطاب». أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٧٩)، والحاكم (٢/ ٤٩٨)، وحسَّنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٥/ ٥٠- ٥١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد (٦٠٣).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥- ٧).

(٤) وقيل: إحدى وثلاثون؛ باعتبار قوله: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ [الملك: ٩] آية. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٥).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٢)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٨).

وينظر أيضًا: «جمهرة اللغة» (١/ ٣٢٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١١٩) «ب ر ك».

صاحب الخير والفضل والإحسان والمَنِّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فخيره كثير لا يُحصى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩]، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢]، وما رِزْقُ أهل السماء والأرض، والبر والبحر، والأملاك والأفلاك، إلا قطرة في بحر جوده وكرمه، فهو ذو الخير الكثير، وهو ملجأ العبد في ملماته وأحواله وضروراته.

أقـولُ لعبـد الله لـمَّـا لقيتُه وقدْ شـدَّ أحلاسَ المَطِيِّ مُشـرِّقا:
تتبَّـعْ خَبَايـا الأرضِ وادعُ مَليكَها لعلَّـكَ يومًـا أنْ تُجـابَ فتُرزقـا
سيؤتِيكَ مَـالًا واسـعًا ذا مثابـةٍ إذا مـا مِياهُ الأرضِ غارتْ تدفقا(١)

فالخير من الله دائم لا ينقطع، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: ٣]، فهو جَوَاد يرزق المؤمنَ والكافرَ، والبرَّ والفاجرَ، وخيره يشمل أهل الدنيا وأهل الآخرة، لا يمل مع إلحاح السؤال، ولا ينفد ملكه مع كثرة النوال(٢).

اللهُ يغضـبُ إن تركـتَ سُـؤَاله وبُنَـيُّ آدمَ حيـن يُسـألُ يَغْضـبُ(٣)

وجاء في القرآن الكريم لفظ يشبه لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾، وهو: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾، كما في قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ

(١) رُوي أن ابن شِهاب الزُّهري خاطب بها أخاه عبد الله، وقيل: إنه قالها لعبد الله بن عبد الملك ابن مروان، وقيل: لعبد الله بن عبد الله بن الحارث، ورُويت من قول عُروة بن الزُّبير، وصحَّح الزمخشري أنها لعمر بن أبي الجدير العجلاني. ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (٤٣٢ - زوائد عبد الله)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٣٠٣، ٣٠٧)، و«معجم الشعراء» للمرزباني (ص٤١٣)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٢١١)، و«أسماء شيوخ مالك» لابن خلفون (ص١٩٥)، و«بهجة المجالس» لابن عبد البر (١/ ٢٣)، و«تاريخ دمشق» (٢٩/ ٣٥٠)، (٤٣/ ٥٥٣)، و«ربيع الأبرار» (١/ ١٦٩ - ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٠٦).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم».

(٣) نسبه الخطَّابي في «العزلة» (ص٦٧) إلى الخُزَيمي، ونسبه ابن رجب في «نور الاقتباس» (٣/ ١٢٦ - مجموع رسائل ابن رجب)، وابن عبد الهادي في «آداب الدعاء» (ص١٠٢)، وفي «مراقي الجنان» (ص٣٦٣) إلى أبي العتاهية.

﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقد جمع النبيُّ ﷺ بينهما في دعاء الاستفتاح، حيث كان يقول: «**سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، وتبارك اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غيرُكَ**»[١]. أي: علت منزلتك، وعظم ملكك وسلطانك[٢].

فـ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ معناها: علا وارتفع[٣]، والله له العلو المطلق؛ علو القدر، والقهر والغلبة، وعلو الذات، فهو العلي الأعلى بذاته وأسمائه وصفاته وجلاله وعظمته[٤].

وجاء فعل ثالث، وهو: «تقدَّس»، وإن لم يكن ورد في القرآن، لكنه جاء في حديث متكلَّم فيه: «**ربَّنا اللهُ الذي في السَّماء، تقدَّس اسمُكَ**»[٥].

و«تقدَّس» مثل ﴿تَبَٰرَكَ﴾، و﴿تَعَٰلَىٰ﴾، وفيه إثبات القدسية له سبحانه، و«القدُّوس» اسم من أسمائه، وهو المنزَّه عن كل عيب ونقص، المثبت له كل

---

(١) أخرجه أحمد (١١٦٥٧)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وابن ماجه (٨٠٤)، والنسائي (٢/ ١٣٢)، وابن خزيمة (٤٦٧) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦)، وابن خزيمة (٤٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٢٨٨)، و«البدر المنير» (٣/ ٥٣٢- ٥٣٣، ٥٣٧- ٥٣٩)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٤١٥- ٤١٦)، و«نتائج الأفكار» (١/ ٣٩٦- ٤٠٥)، و«إرواء الغليل» (٣٤٠، ٣٤١)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٦)، و«فقه العبادة» (٢/ ١٦١).

(٢) ينظر: «النهاية» (١/ ٢٤٤)، و«حاشية السيوطي على سنن النسائي» (٢/ ١٣٢)، و«مرقاة المفاتيح» (٢/ ٦٧٧)، و«فيض القدير» (٥/ ٩٩).

(٣) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٥٤)، و«النهاية» (١/ ٢٤٤)، و«شرح أبي داود» للعيني (٣/ ٣٨٨).

(٤) ينظر: «مع الله» (ص١٦٣).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٧)، والحاكم (٤/ ٢١٨) من حديث فَضَالة بن عُبيد رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٠)، والبزار (٤٠٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨١٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٠٨٢)، والحاكم (١/ ٣٤٣) من حديث فَضَالة، عن أبي الدرداء رضي الله عنهما.

وفي إسنادهما ضعف. وينظر: «المجروحين» (١/ ٣٠٨)، و«الكامل» (٤/ ١٤٥)، والتعليق على «مسند أحمد».

كمال[1]؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والرُّوح»[2].

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: كل شيء ملكه سبحانه، فهو المَلِك الآمر الناهي، الذي ليس فوقه مَلِك ولا سلطان، وهو يأخذ السماوات والأرض بيمينه يوم القيامة، ويقول: «أنا المَلِك، أين ملوكُ الأرض؟»[3].

ومن أسمائه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، و﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[4].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لا يُعجزه شيء، فله القدرة التامة، والقدرة تدل على العلم.

* وإن من مظاهر قدرته سبحانه خلق السماوات والأرض والأكوان؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾:

واستفتح السورة بهذا الاستهلال الذي فيه التنزيه والتعظيم، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: هذا من بركته وملكه، فالدنيا والآخرة، والموت والحياة، هي خلقه وتدبيره.

وابتدأ بـ«الموت» قبل «الحياة» لوجهين:

١- أن الموت سابق: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فالناس كانوا أمواتًا، والأرض كذلك: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

٢- للإشارة إلى أن الإنسان يصير إلى الموت بعد الحياة، وأن عليه أن يذكر الموت فلا ينساه ما دام حيًّا؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «أكثروا ذكرَ هاذمِ

---

(١) ينظر: «مع الله» (ص٧١- ٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) وهي قراءة سبعية، كما تقدم في «سورة الفاتحة»، وينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٣- ٤٦)، و«مع الله» (ص٦٥).

اللَّذَّاتِ»[1]. وهاذم اللَّذَّات: قاطعها[2]. وفي الروايات الأخرى: «هادم»[3]، أي: يهدم اللَّذات، لكن المقصود «هاذم اللَّذَّات»، أي: لذات أهل الدنيا، فيأتي الموت على الإنسان فيقطع لذته، أو أن يتذكر الموت فيكدِّر عليه لذته ومتعته، ويحمله على الانقطاع عنها.

إنَّ الحياة انتصار على الموت؛ ولذا فهي الباقية وإن اعترضها الموت، وإنما يخاطب بالشريعة الأحياء، والقرآن ذاته حياة، وذِكْرُ الموت يقمع الغرور والاندفاع، ولكنه لا يعكِّر جمالية الحياة ومتعتها الحلال: «إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ»[4].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: فالابتلاء مرتبط بخلق الموت والحياة، ويقع على الإنسان ما دام حيًّا، أما قبل أن يكون حيًّا فليس محلًّا للابتلاء والمحاسبة والسؤال.

وفي هذا دليل على شرف الحياة وفضلها، فالإنسان فيها يذكر ربه ويعبده، ويقدِّم لنفسه عملًا صالحًا، كما قال ﷺ، وقد سُئل: مَن خيرُ الناس؟ فقال: «مَن طالَ عمرُه، وحسُنَ عملُه»[5]. وقال: «وإنَّه لا يزيد المؤمنَ عمرُهُ إلَّا خيرًا»[6]. فلو مُدَّ لأحدنا ساعة في الأجل، فتصدَّق وصلَّى وذكر الله كثيرًا، لكان له بذلك الخير والأجر العظيم.

إن الحياة دار عمل، وفرصة للتزوُّد بأجور الطاعات والقربات، وما دام هذا النَّفَس يتردَّد، فبإمكان الإنسان أن يستثمر الحياة بجلائل الأعمال: و«كلُّ معروف

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والنسائي (٤/ ٤)، وابن حبان (٢٩٩٢)، والحاكم (٤/ ٣٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «البدر المنير» (٥/ ١٨١)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٢٠٧)، و«إرواء الغليل» (٦٨٢).

(٢) ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٣٦) «هـ د م»، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٥٦٠- ٥٦١)، و«مرقاة المفاتيح» (٣/ ١١٦٠)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٨٩).

(٣) وهي رواية ابن ماجه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الطيالسي (٩٠٥)، وأحمد (١٧٦٨٠، ٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٢٩، ٢٣٣٠)، والحاكم (١/ ٣٣٩)، والضياء (٩/ ٤٣) (٢٠) من حديث أبي بَكْرة وعبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صدقةٌ»[1]، و«في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ»[2].

ولو تصوَّر الإنسان حجم الخير والإحسان الذي يمكن أن يقدِّمه لنفسه وللقريب وللبعيد ما دام حيًّا لشمَّر عن ساعد الجِدِّ.

وأبواب الخير كثيرة وواسعة، حتى اللُّقمةُ يضعها الرجل في فمِ امرأته له بها أجر[3]، بل يتجاوز ذلك إلى الإحسان إلى الحيوان[4].

وفي الحديث المرفوع عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مثلُ الَّذي يذكرُ ربه، والَّذي لا يذكرُ ربه، مثلُ الحيِّ والميت**»[5]. فشبَّه الذاكر الله تعالى بالحيِّ، وشبَّه الذي لا يذكر الله تعالى بالميت، وبينهما فرق كبير.

ويرد كثيرًا في تعبير القرآن وَصْف المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢]، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الروم: ٥٢].

فالمؤمن يفرح بالحياة الطيبة ويحتفل بها، ليس لمجرد المتعة، ولكن أيضًا لما فيها من فرص الخير والبذل والعمل.

فالابتلاء مداره على العمل طيبًا كان أو سيئًا، والآية فيها إيجاز بليغ يدفع للتنافس والاستباق إلى الخيرات، فمَن كان عمله حسنًا فهو إلى الجنة، ومَن كان عمله سيئًا فهو إلى النار.

وذكر الجانب الحسن؛ حثًّا للناس وتحفيزًا إلى حسن العمل، وفي ذلك إشادة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٥٣٥٤)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٨٦- ٢٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

بالعمل وقيمته وأهميته، وأنه ضرورة للنجاح في الدنيا والآخرة.

ولم يجعل كثرة العمل ميزانًا للتفاضل، بل جعل الميزان في إحسان العمل وإتقانه، فدل على أن المطلوب هو الإحسان والإتقان؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن اللهَ يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملًا أن يتقنه»[1].

وهنا لم يحدِّد نوع العمل؛ كـ«أيكم أحسن صلاة»، أو: «أحسن عبادة»، وإنما قال: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ ليشمل العمل كله، فالمدار على إحسان العمل، سواءً كان دينيًّا أو دنيويًّا، اكتسابًا أو بذلًا.

ومن أحسن ما قيل في ذلك: ما ورد أن الفُضيل بن عِياض سُئل عن أحسن العمل، فقال: «أخلصه وأصوبه». ثم قال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، فلا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا»[2].

والعمل الخالص هو ما أُريد به وجه الله، والمقصود عمل الآخرة، وأما عمل الدنيا فيكفي فيه ألَّا يُراد به مقصد سيِّئ، فلو أحسن إلى فقير أو مسكين، ولم يستحضر نية التقرب إلى الله، لكنه لم يعمله رياءً وسمعة، وإنما بدافع حُبِّ الخير أو العطف، فهذا يُؤجر عليه، كما نص عليه أهل العلم، وجاءت دلائله في الكتاب والسنة[3].

وأما العبادة والقربة المحضة، فلا بد أن يكون مرادًا فيها وجه الله سبحانه.

والشرط الثاني في العمل هو الصواب، والصواب في مجال العبادات هو

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٩٧)، وابن عدي في «الكامل» (٨/ ٨٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٢٩- ٤٩٣١) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١١٣).

(٢) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٥٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٣٢٠، ٢٣٦٣، ٢٦٣١، ٣٤٦٧، ٦٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (٣٥، ١٥٥٢، ١٥٦٠، ٢٢٤٤، ٢٢٤٥)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٥- ٦٦)، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، و«سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

اتِّباع النبي ﷺ، ولزوم طاعته وطريقته؛ كالصلاة والصيام وسائر العبادات[1].

وأما في المصالح العامة وأمور الدنيا، فأصوب العمل فيه هو ما كانت مصلحته أعظم، وضده ما كانت مفسدته أعظم.

وإنما يَعرف قدر المصلحة مَن رزقه الله البصيرة والعقل، والفهم والإدراك، ومعرفة مآلات الأمور.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾: وما أجمل هذا الختام لهذه الآية! أي: منكم مَن يُخفق في هذا الابتلاء فيعصي، وينحرف، فهذا يُقابله قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ فإن الله عزيزٌ قويٌّ منتقمٌ ممن عصاه، فإيراد اسم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يناسب حال مَن أخفقوا في هذا الابتلاء تعمدًا للضلال واختيارًا لطريقه.

وأما قوله: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ فيناسب حال مَن أحسنوا في العمل، ونجحوا في الابتلاء، وعرض لهم في ثنايا ذلك ألوان من الغفلة أو التقصير، فإن الله تعالى غفور لهم، كما قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[2] [طه: ٨٢].

* ثم يقول سبحانه في سياق تعداد النعم، وإقامة الحجة على العباد: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾:

والسماء هي هذه القبة التي يراها الناس فوق رؤوسهم[3]، والقرآن خاطب الناسَ بمقتضى ما يعرفون، فالقرآن ليس كتابًا خاصًّا للفلكيين في مختبراتهم ومعاملهم، ولا بالفلاسفة، أو أهل العلوم الدقيقة، بل هو عام لكل الناس؛ للعلماء والفلاسفة والمختصين، وللبادي في باديته، وللمزارع في حقله، وكون هذه

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦)، و«العبودية» (ص٧١)، و«تجريد التوحيد المفيد» (ص٤٢)، و«فتح المجيد» (ص٣٧٢).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥- ١٦).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾.

السماوات مجرات أو نجومًا أو غير ذلك مما يشاء الله تعالى، فمسألة لم نتعبَّد بها، وإنما نؤمن بأن فوقنا سبع سماوات، وأنها ﴿طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض(١).

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ فهي في غاية الإحكام والدِّقَّة والإتقان؛ ولهذا تشقَّق يوم القيامة وتفتح وتكون أبوابًا وتتصدَّع(٢).

وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ ليس خطابًا خاصًّا بالنبي ﷺ، وإنما هو خطاب لكل أحد(٣)، فانظر بعينيك أيها القارئ والسامع، فالله قد أعطاك بصرًا، فانظر في هذه السماوات، هل ترى فيها من ﴿تَفَاوُتٍ﴾؟

والتفاوت: الاختلاف، أو العيب، أو الخلل(٤).

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أي: انظر إلى السماء مرة أخرى، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى من شُقوق أو صدوع في السماء(٥)؟

وهذا يُدرَك بالحِسِّ، وهو لفت إلى معنى الجمال والزينة في الخلق، وأنه من المقاصد العظيمة.

* ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾:

وليس المقصود مرتين فقط، بل مرة بعد مرة(٦)، مثلما تقول لمَن ناداك: لبيك

---

(١) ينظر: «العين» (٥/ ١٠٨) «ط ب ق»، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦).

(٢) كما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٨٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٢١)،)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٧٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٤)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٣٥) «ف و ت»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٤٦)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٥١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٩)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾.

(٦) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧).

وسعديك. أي: أُجيبك إجابة بعد إجابة مرة بعد أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾ [العلق: ١، ٣]. ليس المقصود أن تقرأ مرتين، ولكن مرة بعد مرة[1]، وتكرارها هنا ليس مثل قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإنه سبحانه عند ما يقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: ليس بثلاث، فالثالثة تبين بها المرأة[2].

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾: لم يقل: «يرجع»؛ لتجنب التكرار مع قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، فلم يناسب أن يقول: «يرجع إليك البصر»، وإنما قال: ﴿يَنقَلِبْ﴾؛ لأن النظرة الأولى كانت من الإنسان ابتداءً، فقيل له: كرِّرها، وارجع وانظر مرة أخرى، ثم ارجع مرة أخرى؛ لينقلب، وكأنه يرجع ويرتدّ إليك مكرهًا، فإن الإنسان نظر باختياره مرة أولى، وباختياره مرة أخرى، وكأنه يبحث عن صدوع وتفاوت[3].

﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: منقطعًا عن ذلك[4].

* ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ⑤﴾:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ مع الجودة والقوَّة والمتانة والإحكام للسماوات السبع، فالجمال مقصود، وأنت عند ما تشاهد النجوم بالليل- خاصة في الصحراء- بإشراقها وتألقها الذي طالما تغنَّى به الشعراء، ووجد الناس فيه من الجمال الشيء العظيم؛ تشعر بالذهول والانبهار.

وعند ما تدخل قُبَّة فلكية تحكي السماء، تصبح أكثر وعيًا واندهاشًا.

الجمال والزينة في السماء وفي الأرض وفي الخلق، كما يشهد قوله:

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (٣/ ٩٧)، و«عمدة الفقه» (ص١٠٥).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٩).

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ ﴾ [النحل: ٦]. وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ [ق: ٦- ٧].

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم(١)، وقد جرت العادة أن يُزيِّن الناسُ قبابهم وسقوفهم بالمصابيح، ويسمونها: الثُّريَّات؛ تشبيهًا لها بالسماوات، على أنها تبدو كلعب الأطفال صغيرة حين تُقارن بالنجوم والمجرات، وهي معلَّقة محكمة بالسلاسل والحديد، في حين أن هذه المصابيح والشموس والأقمار والنجوم والكواكب الضخمة، التي لا يقدر قدرها ولا يحصي عددها إلا الله، لا شيء يمسكها إلا هو: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ [فاطر: ٤١].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾: والمصابيح ثابتة، كما هو معلوم، ولكن تنفصل منها الشُّهب التي تُرجَم بها الشياطين حينما يحاولون استراق السمع(٢)، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، وقال: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٨].

وكان قتادة يقول: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمَن تأوَّل فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به»(٣).

وليس مقصود قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها لم تُخلق إلا لهذه الثلاث، ولكن هذه الثلاث وردت في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وقال سبحانه:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩١٣)، و«العظمة» (٤/ ١٢٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ١٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٦)، و«شرح السنة» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٧).

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾، وقال في «سورة النحل»: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾، لكن هذا لا يمنع أن يكون الله خلق النجوم لمصالح أخرى مما نعلم وما لا نعلم.

وإنما مقصوده التشنيع على المنجِّمين وأدعياء علم الغيب، وبعض الفلاسفة وبعض الفلكيين في العصور السابقة، الذين ينسبون إلى النجوم من القوة والتأثير في الأقدار ما ليس لها(١).

وأما ما ثبت من مصالح النجوم غير هذه، فهذا لا تثريب فيه، فالشمس - مثلًا - فيها مصالح للإنسان والأرض والنبات والحيوان، لا يعرف البشر منها إلا القليل، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة(٢)، ويتكرر عند ذكر الشياطين الوعيد لهم بعذاب السعير، و﴿السَّعِيرِ﴾ هي النار، أو دَرَك من دَرَكاتها(٣).

أو يقال: إن ﴿عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ هو الذي يُعذَّب فيه مردة الجنِّ والشياطين، كما في قوله سبحانه في قصة الجنِّ: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾(٤) [سبأ: ١٢].

ويجوز أن يكون المقصود: النار عامة؛ كما في «سورة الجن»: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾، وجهنم: من أسماء النار(٥).

* ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾:

فالعذاب ليس خاصًّا بالجنِّ أو مردة الشياطين، بل هو شامل للعصاة من بني

---

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٨٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٧).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٩/ ٥٩٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٨٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٣٢١)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٨٢٨).

آدم؛ ولهذا عقَّب بقوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: من بني آدم(١)، ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فهو بئس المصير على بئس العمل، كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، فمظهر العزة أن الله تعالى يُعاقب هؤلاء الكافرين بعذاب جهنم، وبئس المصير.

وبدأ الجملة بذكر وصف الكفر؛ تنويهًا بالعدل، فهم الذين اختاروا هذا المصير المؤلِم، باختيارهم الكفر والجحود، والظلم والعدوان، وهو تمهيد لما سيرد من اعترافهم باستحقاق هذا المصير.

* ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾:

أي: إذا ألقتهم الملائكة في النار، فهم مقهورون، يُرمون فيها رميًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣١].

والشَّهِيق هو: صوت النفس عند خروجه من الحلق، ويجوز أن يكون صوت النار، وأن الله تعالى يجعل لها يوم القيامة من الصفات ما ليس للنار في الدنيا، فيكون لها صوت وشَهِيق، وهذا هو ظاهر النص، وهو أقرب وأولى(٢).

وقال بعضهم: إن المقصود بالشَّهِيق: صوت مَن دخل النار قبل هؤلاء(٣)، كما قال سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٦- ١٠٧].

ويُضعّف هذا القول أن السياق في وصف النار، وما بعده يؤكِّد اختلاف نار الآخرة عن نار الدنيا، حتى تصبح كأنها حيٌّ يتملَّكه شعور الغضب من هؤلاء

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٠٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٥٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٧٧)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٦).

البشر الشاردين عن الإيمان!

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: وهي تغلي بمَن فيها(١).

* ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تكاد تتقطَّع(٢)، فمع أنها متصلة بعضها ببعض، إلا أنها تكاد تتقطَّع من شدة الغيظ والحَنَق على الكافرين.

وهذا أيضًا مما ينبغي أن يُحمل على ظاهره؛ فإن الله تعالى يجعل هذا في النار يوم القيامة، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ»(٣). فالعذاب في الآخرة ليس كما في الدنيا، وجهنم ليست كما يتخيَّله أحدنا!

والتعبير بالتميّز- وهو التقطّع- كناية عن شدة الغضب، كما يقال: إن فلانًا غضب، حتى خرج منه شعبتان: شعبة إلى السماء، وشعبة في الأرض. ويقصد من وراء ذلك شدة الغيظ والحَنَق(٤).

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾: ﴿كُلَّمَآ﴾ تدل على التكـرار، والمعنى: أنه يُلقى في النار فوجٌ بعد فوج، وكلُّ فوج يحدث له هذا، فكما أن المؤمنينَ يُحشرونَ إلى الجنة أفواجًا، فإن الكفارَ يُحشرونَ إلى النار أفواجًا، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، والتفويج يكون بحسب الأمم، أو بحسب درجة الكفر، أو بحسب نوع الضلالة التي ارتكبوها،

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٧٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٠).

(٣) كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه وكيع في «نسخته عن الأعمش» (١)، وهنَّاد في «الزهد» (٣، ٨)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، والضياء (١٠/ ١٦) (٦)، وصحَّحه غير واحد. ينظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤/ ٣١٦)، و«الفتوى الحموية الكبرى» (ص٥٤٤)، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٣/ ٤٤٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤).

فالوثنيون طبقة، وعبدة النار طبقة، ومكذبو الرسل طبقة، والملحدون الذين لا يؤمنونَ بالله تعالى طبقة، والله أعلم.

والفَوْج: هم الجماعة من الناس[1].

والخَزَنة جمع: خازن، وهم الملائكة الموكَّلون بالنار، القائمون عليها[2]، والمقصود: أنهم قائمون على ديمومة وقود النار، وعلى عذاب أهل النار، وبقائهم فيها، كما في قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

فخَزَنة جهنم يردُّون على أهلها، كما في قولهم ردًّا على طلب التخفيف، فيقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٥٠].

وفي هذا السياق ذكر تعالى أن الخَزَنة تقول لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أمَا جاءكم رسول؟ أما قامت عليكم الحجة؟ أما سمعتم بنبي؟ أما جاءكم كتاب؟

وهو سؤال لإقامة الحُجَّة والبلاغ؛ ولهذا يُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يَهْلِكَ الناسُ حتى يَعْذِرُوا- أو: يُعْذِرُوا- من أنفسهم»[3]. أي: لا أحد يدخل النار ويقول: أنا مظلوم، كما هو الحال في الدنيا، فلو زرت سجنًا من السجون لوجدت كل مسجون يقول: أنا مظلوم[4]، كما قال الشاعر[5]:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٢)، و«روح البيان» (٦/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥)، والمصادر الآتية.

وينظر أيضًا: «العين» (٦/ ١٩٠)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٤٨٩)، و«الصحاح» (١/ ٣٣٦) «ف و ج».

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥١٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١١)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٤٨)، وابن الجعد (١٢٨)، وأحمد (١٨٢٨٩، ٢٢٥٠٦)، وأبو داود (٤٣٤٧)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١)، والبغوي (٤١٥٧) من حديث أبي البَخْتري، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

(٥) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ١١٦)، و«الحيوان» (٢/ ٣٠٧)، و«عيون الأخبار» (١/ ١٤٩)، (٢/ ١٣٢).

ما يدخلُ السجنَ إنسانٌ فتسألُه: ما بالُ سجنك؟ إلا قال: مظلومُ

* ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾:

وهذا دليل على أن أهل النار هم مَن بلغتهم الحجة، وجاءهم النذير والرسول، وجاءهم القرآن والبلاغ، فأصرُّوا وكذَّبوا واستكبروا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، أما أهل الفَتْرة الذين ماتوا قبل الإسلام، أو ماتوا بعد الإسلام، ولم تبلغهم الرسالة والحُجَّة، ولم تصل إليهم الدعوة، فهؤلاء لا يُحكم عليهم بهذا المصير، وإنما يكون أمرهم إلى الله فيما يقتضي كرمه وعدله جل وعز، وفيهم الأقوال المتداولة بين أهل العلم(١).

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: جاءنا رسولٌ يُبلِّغ عن الله، فكذَّبنا به وقلنا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أبدًا، وهذا نفي مطلق، فكذَّبوا الرسل والكتب والشرائع جميعًا؛ لأن ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾، تدل على استغراق جميع الأشياء، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]. فهذا اعتراف لفظي، حيث ظلوا يستذكرون ما جرى في الدنيا ويحكونه بالتفصيل، ويقرُّون على أنفسهم بوصول الحجة إليهم وقيامها عليهم، وتكذيبهم لها ورفض سماعها.. وإنما سماه هنا: ﴿نَذِيرٌ﴾؛ لمناسبة النِّذارة لحال العذاب الذي يقاسونه، كما يسمى: ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾: يجوز أن يكون هذا من تمام كلامهم، وأنهم كانوا يسخرون بالنذير، ويقولون له ذلك في الدنيا(٢).

ومع كونه نذيرًا واحدًا، فقد عبَّر هنا بلفظ الجمع: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ إشارة إلى النذير ومَن آمن به، أو يكون لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ معبِّرًا عن الجنس، أي: النُّذر، ومَن

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» (٣/ ٦٥- ٧٥)، و«أهل الفترة» لموفق أحمد شكري (ص٧٠)، وما بعدها.

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٩/ ٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١١).

كذَّب برسول فقد كذَّب بالرسل أجمعين؛ لأن دعوتهم واحدة، كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾[1] [الشعراء: ١٠٥].

ومن الإعجاز أن هذا الكلام نفسه يصلح أن يكون من كلام الخَزَنة للكفار[2]، أي: فهذا الكلام الذي كنتم تقولونه للرسل في الدنيا ينطبق عليكم الآن: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: كيف يأتيكم رسل الله بالبينات والهدى والحجج، ثم تكذِّبون وتقولون: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: إنْ أنتم يا أهل النار إلا في ضلال، أي: ضياع عن الجادة والطريق والمنهج، ووصفه بأنه ﴿كَبِيرٍ﴾ أي: بعيد[3]، وليس مجرد انحراف يسير يمكن تداركه.

* ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠﴾:

رجع الكلام هنا لأهل النار؛ ولذا كرَّر كلمة: ﴿وَقَالُوا﴾، ويلاحظ أنهم قدَّموا السمع على العقل، وهذا دليل على قوة حجة السمع[4].

والسمع: الوحي الذي أقام به الرسل الحُجَّة على الناس، وهم كانوا يسمعون، لكن لم يكن سمعهم المستفيد، كما قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ١٢﴾ [الحاقة: ١٢]، فهؤلاء كان لهم آذان، ولكنها غير واعية، ومن هنا تأسَّفوا وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى أن العقل من أعظم النعم، ولا يخاطب بالديانة أصلًا إلا مَن لهم عقول؛ فإن العقل هو مناط التكليف، ومناط الحُجَّة على العباد، وغير العاقل غير مكلَّف، والإسلام جاء ليخاطب العقول، ويحتج على الناس بدلالاتها وأحكامها الصحيحة، ويأمرهم بتحريكها والانتفاع بها، والتبصُّر والنظر في السماوات والأرض، كما قال سبحانه في أول السورة: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٥)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٥).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٧٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٩٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٥).

(٤) ينظر: «التفسير المظهري» (١٠/ ٢٣).

﴿فُطُورٍ ۝٣﴾، فهذا بصر، ولكنه لا يفيد، إلا مَن كان له عقلٌ يتدبَّر ويعتبر.

وقد نفوا العقل عن أنفسهم، وربما كانوا يعقلون في أمور الدنيا، وفي المصالح المادية، والمكر والكيد والتخطيط، ولكنه عقل محدود، لم يخترق حُجُب المادية، ولم يرشد أصحابها إلى أن يعملوا لآخرتهم، كما يعملون لدنياهم، وأن يحرصوا على أن يحسنوا العمل الصالح الرباني، كما يحسنون العمل الصالح المادي.

* ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾:

و«الاعتراف سيد الأدلة»، وهو من كمال العدل الإلهي مع الإنسان، وليس بعد الاعتراف شيء، فبأي شيء يُعذرون، وقد اعترفوا بذنبهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿فَسُحۡقٗا﴾ أي: بُعدًا وذَهابًا وهلاكًا وبوارًا ودمارًا(١)، ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فصاروا أصحاب السعير، وصارت لهم وهم لها، يُكونَ ويُصْلَونَ فيها.

فأصحاب السَّعير هم: العصاة والكفار، الذين أخفقوا في الابتلاء، وأساؤوا في العمل، فانتقم الله منهم؛ لأنه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾.

ومن معنى كونهم أصحاب السَّعير: أنهم باقون خالدون فيها لا يخرجون.

* وأما الذين أحسنوا ونجحوا في الابتلاء، فأحسن اللهُ إليهم، وغفر لهم؛ لأنه ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾؛ ولهذا ناسب أن يثنِّيَ بذكر الصالحين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾:

أي: يخافون الله تعالى بالغيب(٢)، والله غيب لم يروه، وإنما قامت الحجج والبينات الكونية والعقلية والسمعية على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته.

أو يكون معنى ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: في خلواتهم، بعيدًا عن عيون الناس، فليس فعلهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٣).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٤)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٣١٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٢٥).

ذلك تظاهرًا بالخوف، ولا رياءً، ولا مجاملةً، ولا نفاقًا(١)، فهؤلاء ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، والغَفر: السَّتْر(٢)، فستر ذنوبهم وأخفاها، ولم يؤاخذهم بها؛ لأنهم ليسوا من أصحاب الضلال الكبير البعيد، بل ممن سدَّدوا وقاربوا، وأخطؤوا بالليل ليتوبوا بالنهار، أو زلُّوا بالنهار ليتوبوا بالليل، وعلموا أن لهم ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ولهم أجر كبير، ولو اقتصر على المغفرة، فقد يُفهم منها محو الذنوب والتسامح عنها فحسب، لكن لما قال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ دلَّ ذلك على أن لهم زيادة على مجرد العفو، إما مقابل حسناتهم، أو المقصود سيئاتهم التي تابوا منها، فأبدلها الله لهم حسنات(٣).

* وفي قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ إشارة إلى عظمة الإيمان بالغيب الذي لم يروه، فناسب أن يقول: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾:

أي: سواء كان الإنسان في الملأ أو منفردًا، فالله تعالى مطَّلع عليه، وإذا تكلم العبدُ سرًّا أو جهرًا، فالله يسمعه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، وقد كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في طرف الحجرة، لا تدري ما تقول هذه المجادِلة، ولكن سمعها الله من فوق سبع سماوات، فأنزل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ١٣٨)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٥) «غ ف ر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٢٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢/ ٥٥٩)، (٦/ ٢٦١)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٣)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٣٥٦).

(٤) كما في «مسند أحمد» (٢٤١٩٥)، و«صحيح البخاري» معلقًا (٩/ ١١٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٨، ٢٠٦٣)، و«سنن النسائي» (٦/ ١٦٨)، و«المستدرك» (٢/ ٤٨١)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «الحمدُ لله الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت، تشكو زوجَها، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزل اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ...﴾»، وتقدم في أول «سورة المجادلة».

[آل عمران: ١٨١].

وفي قصة الثلاثة الذين قال أحدُهم: أترونَ أن اللهَ يسمعُ ما نقولُ؟ وقال الآخرُ: يسمعُ إن جهرنا، ولا يسمعُ إن أخفينا. وقال الآخرُ: إن كان يسمعُ إذا جهرنا، فهو يسمعُ إذا أخفينا. فأنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ...﴾ الآية(١).

ومعنى الآية: أن السرَّ والجهرَ عند الله سواء، كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]؛ لأنه سبحانه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فهو عالم بما في قلبك، حتى قبل أن تنطق به، بل هو عالم به قبل أن يكون في قلبك(٢).

وهو سبحانه يعلم الوسوسة التي في خاطرك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: عليم بالحاجة التي ما زالت في الصدر لم يبح بها صاحبها(٣)، كما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]. وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وأخفى من السِّرِّ الذي لا يعلم به صاحبه ما لم يكن سرًّا، ولكنه سوف يكون سرًّا، فالله تعالى يعلمه، فمن هنا قال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ﴾(٤).

وهذه الرقابة الإلهية التي لا يفوتها شيء، حريٌّ أن تجعل المؤمنَ يستحضر رقابة علَّام الغيوب في حركاته وسكناته، وعلانيته وخلوته؛ فإن ذلك يحفِّزه إلى الطاعة ويزجره عن المعصية.

وكان من مناسبة هذا السياق أن بعض المشركين كانوا يسخرون من المؤمنين، ويقولون: إن الله تعالى يسمع كلامنا إذا جهرنا، ولا يسمع إذا أسررنا، فاهمسوا، حتى لا يسمعكم إله محمد. ففضحهم تعالى، وبيَّن أنه يسمع هذا الهمس، ويعلمه،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٩/ ٦)، و«أضواء البيان» (٢/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٩٧)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٤٢)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٩٧٦).

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحديد»: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

وأنزل فيهم قرآنًا يُتلى(١).

* ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾:

كيف لا يعلم وهو الخالق؟ فقوله: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ أي: أفلا يعلم الله سبحانه السِّرَّ وهو الخالق وهو اللطيف؟

بلى، فهو خالق الإنسان والعقل والقلب والروح والسِّرَّ والخطرة واللسان والأذن والحركة والهواء الذي ينتقل به الصوت وكل شيء؛ ولذا قال: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ ولم يحدِّد مخلوقًا، فهو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ويحتمل المعنى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾: أَلَا يعلمُ اللهُ مَن خلق؟ فكيف لا يعلم الخالق مَن خلق؟ هذا شيء خلاف العقل؛ لأنه إذا كان هو الخالق للإنسان بكل تفاصيله ودقته، فمقتضى ذلك قدرته عليه، وأن يكون عليمًا مطَّلعًا على كل شيء منه وفيه(٢).

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، و﴿اللَّطِيفُ﴾ من اللُّطف، وهو الشأن الخفي(٣).

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أي: الذي يعلم دقائق الأشياء وتفاصيلها ومعانيها ومفرداتها، وهذا من خصوص معنى ﴿اللَّطِيفُ﴾.

و﴿الْخَبِيرُ﴾: صاحب الخبرة التامة، ومن خصوص معنى ﴿الْخَبِيرُ﴾: الذي يعلم الأشياء قبل وقوعها وحدوثها(٤)، والخبرة في البشر هي التي تؤهلهم لتوقع المستقبل وحساباته واحتمالاته، وتسمَّى بعض دوائر البحث: «بيوت الخبرة».

وختام الآية بهذين الاسمين مناسب لقوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾، فالله لطيف يعلم السِّرَّ ويعلم الجهرَ، ويعلم الدقيق والجليل، والكبير والصغير، ويعلم كلام الاثنين والثلاثة والأربعة والخمسة، وخبير يعلم ما سيقع من سر أو علانية،

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٢)، وما تقدم في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١).

(٤) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص١٤٥، ١٥١).

ومن خاطرةٍ أو حديث نفس قبل أن تقع.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

وهذا من نعمته وفضله وحجَّته سبحانه على عباده، فهي نعمة تحتاج إلى شكر، وآية توجب الإيمان.

والأرض هي محل التكليف بالخلافة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والمخاطبون هم البشر؛ مسلمهم وكافرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ١٠]، ووصفها هنا بوصف عجيب، وهو ﴿ذَلُولًا﴾[1]، كما تقول: بَعِير مذلَّل، أي: مسخَّر، فالبعير المذلَّل يركبه الصغير والكبير، وربما ضربه أو استعجله وهو مطرق، وعادة ما يُطلق على البعير المخصَّص للسفر والترحال، حتى صار اسمًا، لا وصفًا، فيقال: هذا ذَلول فلان، يعني: بعيره، وأصله مأخوذ من الذُّل والتذلُّل، فكذلك الأرض جعلها الله مسخَّرة، يحفر الناس فيها ويدفنون ويزرعون ويبنون، ويتحركون عليها ويمشون، فهي قابلة لكل ما يصلح حياة الناس، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٧]، ففي السياق معنى التسخير، وينطوي تحت هذه الكلمة كل نواميس التسخير التي وضعها الله في الكون لخدمة الإنسان.

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: وهذا إذن وإباحة يتضمن أمرًا شرعيًّا أو مصلحيًّا؛ أن يسير الناس في مناكب الأرض وفجاجها؛ لمصالح الدين والدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المزمل: ٢٠]، فقد ينتقل الأمر للاستحباب أو الوجوب، كما هو

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٥٨)، و«لسان العرب» (١/ ٧٧٢).

الشأن في السفر، حيث تجري فيه الأحكام الخمسة[1].

والمَنْكِب: الكتف، وللأرض مناكب، وهذه المناكب قد تكون هي الجبال، كما نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنها مرتفعة في الأرض مثل المناكب[2].

وقد تشمل الطرق المذلَّلة المعبَّدة للسير، والأقرب أن المقصود: جهاتها وأطرافها ونواحيها.

وهو دليل على أن الأصل جواز السفر والتنقل في الأرض، ولا ينتقل الحكم عن ذلك إلا بدليل صحيح صريح، وأن من حقوق الناس أن يضربوا في الأرض ويتنقلوا بين أقطارها.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: مما يخرجه لكم من هذه الأرض، أو ينزله لكم من السماء، أو يكون مشتركًا بينهما، وهو دليل على أن الأصل في المأكول والمشروب الحلّ والإباحة، ولا ينتقل الحكم عنه إلا بدليل.

والرزق هنا يشمل ما أودعه الله في الأرض من المزروعات والنباتات واللحوم، ويشمل المركب الذي يصنعه الإنسان ويسخِّره، فجميع ذلك من رزق الله.

وأطيب المأكول ما أخرجه الله لنا من الأرض من الطيبات، فهو أهنأ وأبرأ وأمرأ وأصح وأنفع للبدن، وإذا اعتاد المرء عليه صار ألذّ، وإن انصرفت عنه أجيال تأثرًا بالصنعة المغرية القائمة في الأطعمة الجاهزة والوجبات السريعة.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فهو وإن مشى وأكل وشرب، فعليه ألَّا ينسى أن الحياة إلى نهاية، والنَّشْر: البعث، كما قال الأَعْشَى[3]:

لـو أَسْـنَدتْ مَيْتًـا إلـى نحرِهـا ... عــاش ولــم يُـنـقـلْ إلــى قـابِـرِ
حتـى يقـولَ النـاسُ ممـا رَأَوْا ... يــا عـجـبًـا للميت الـنـاشـرِ

(١) ينظر: «الحاوي الكبير» (٢/ ٣٥٨)، و«البناية شرح الهداية» (٣/ ٣٥)، و«مواهب الجليل» (٢/ ١٣٩- ١٤٠)، و«الشرح الممتع» (٤/ ٣٤٨- ٣٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٧- ١٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٩).

(٣) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩).

أي: المنشور، و﴿ٱلنُّشُورُ﴾ هو: الحياة بعد الموت[1]، كما جاء في أذكار الاستيقاظ من النوم: «**الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشورُ**»[2].

* ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾:

أي: أيها الناس، هل أمنتم عذاب الله حين غفلتم عن عبادته، بأن يخسف بكم الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: ترتجّ[3]؟ كما هو فعل الزلازل، فما هي إلا ثوانٍ معدودة، فإذا بناطحات السحاب تتساقط، وإذا بالمباني تتهدَّم، وإذا بالبحار تصطفق وتضطرب، وقد يحدث لها طوفان على الأرض، كما في «تسونامي» الذي ضرب بعض بلاد شرق آسيا[4].

* ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾:

وهذا نوع آخر من العقاب، فالأرض لو سكنت، فالله تعالى قادر على أن يبعث عليكم ريحًا قاصفًا، فيهلككم بهذه الريح التي تضرب وجوهكم بالحصباء والحجارة، سواء كان هذا الحاصب من السماء أو من الأرض نفسها.

والتعبير بـ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ عظيم، فيه إشارة المهابة والجلال للربِّ المدبِّر القدير، وفيه تأكيد العلو؛ علو القهر وعلو القدر وعلو الذات[5]، وفيه إلماح إلى جنوده تعالى في أكوانه، الذين سخَّرهم لمصالح الحياة، ويسخرهم للبطش والعقاب والتنكيل بالمفسدين.

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: حين ترون هذه الآيات العظيمة كيف يكون نذير الله تعالى لكم، فقد أنذركم ذلك وحذَّركم منه، وأمركم بطاعته، وقال: ﴿ظَهَرَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٩)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٣٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢، ٦٣٢٥) من حديث حذيفة وأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (٢٧١١) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٠)، والمصادر السابقة.

(٤) ومن ذلك ما حصل من المد البحري في إندونيسيا، وذلك عام (٢٠٠٤م)، والذي خلَّف مئات الآلاف بين قتيل وجريح.

(٥) ينظر: «التدمرية» (ص٨٥)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ١٤٤).

ﵟٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ﵞ [الروم: ٤١].

* ﵟوَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ﵞ:

فقبل تكذيب العرب بالنبوة كذَّبت أممٌ رسلَ الله عَزَّوَجَلَّ، فكان نَكِير الله تعالى عليهم بتكذيبهم نَكِيرًا شديدًا وأخذًا وَبِيلًا، والمعنى: تهديد هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم(١).

* ﵟأَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ﵞ:

وما أكثر الذين يغفُلون بسبب الإِلْف والعادة! فقد اعتادوا أن يمشوا على الأرض، ناسين ذاهلين عن نعمة بسطها واستقرارها، وكذلك ما يشهدونه في ملكوت السماوات(٢).

ولم يقل تعالى: «ألم يَرَوْا الطير»، بل عدَّى الفعل بـ﴿إِلَىٰ﴾، وكأنه ضمَّنه معنى: ﴿يَنظُرُواْ﴾(٣).

وبين الرؤية والنظر فرق، وهو أن النظر أمكنُ في القصد، فيقال: نظر إلى كذا، أي: تعمَّد وقصد الرؤية، بخلاف «رأى»، فقد تقع قصدًا أو اتفاقًا دون إرادة، وهنا استعمل «يرى» عوضًا عن «ينظر»؛ لأن في السياق تحفيزًا إلى مشاهدة الطير، ومعرفة سرِّ الإبداع والخلق فيها، وإشارة إلى تكرار حدوث النظر منهم إليها؛ لأنها من المشاهد المتاحة.

﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ أي: تصف بأجنحتها عند الطيران في السماء(٤)؛ فإن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧).

(٣) كما في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ [ق: ٦].

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٦).

الطير إنما يكون طيرانه من خلال صف هذه الأجنحة، بمقتضى ما جعل الله تعالى من تكوين جسمه، ومن قدرته على الطيران، ومن تسخير الهواء وقابليته لذلك.

والأصل أنهن خلال الطيران صافَّات، ولكنهن أحيانًا يقبضن؛ ليساعدها هذا على سرعة الطيران واستمراره، والناس إذا رأوا شيئًا لأول مرة اندهشوا منه، فالذي يرى الفيل لأول مرة يندهش لخلقه ويتعجب منه، فإذا تعوَّد على رؤية البعير أو كان في بيئته منذ أن كان طفلًا، فإنه لا يلفت نظره، فالعادة تحرم الإنسان من كثيرٍ من الاعتبار(١).

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، فبإرادته ظلت هذه الطير صافَّات بأجنحتها في السماء، كما بإرادته أمسك السماوات والأرض أن تزولا.

واختار اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأن من رحمته وضع نواميس الخلق الجارية، ومن رحمته الصبر على عباده، وعدم معاجلتهم، وتصريف الآيات لهم، وفيه- فوق هذا- الإلماح إلى الرحمة بالمخلوقات، و«**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»(٢)، «**والشاةُ إن رحمتها رحمك اللهُ**»(٣).

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾: والبصير معناه: المبصر، الذي لا يفوته شيءٌ، فهو يرى كل شيء(٤).

ومن معاني ﴿بَصِيرٌ﴾: عليم بما يصلح الشيء، كما تقول: هذا الإنسان بصير بهذا العمل، أو بصير بهذه الآلة، أي: أنه صاحب معرفة بها(٥).

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧).

(٢) كما في «مسند أحمد» (٦٤٩٤)، و«سنن أبي داود» (٤٩٤١)، و«جامع الترمذي» (١٩٢٤)، و«المستدرك» (٤/ ١٥٩)، و«الآداب» للبيهقي (٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٢٥).

(٣) كما في «مسند أحمد» (١٥٥٩٢، ٢٠٣٦٣)، و«الأدب المفرد» (٣٧٣)، و«مسند الرُّوياني» (٩٤٢)، و«مكارم الأخلاق» للطبراني (٤٩)، و«المستدرك» (٣/ ٥٨٦) من حديث قرة بن إياس المزني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦).

(٤) ينظر: «مع الله» (ص١٤١).

(٥) ينظر: «تاج العروس» (١٠/ ١٩٨) «ب ص ر».

* ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾:

والمعنى: هل لكم جند خاص ينصركم من دون الله؟ وهل جندكم من الشياطين والأوثان التي تعبدونها ينصرونكم من دون الله؟ وهو سؤال إنكار واستنكار(١).

وتكرر اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ في السورة أربع مرات، وكأن **المعنى** هنا: إذا خذلكم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ فمَن ينصركم؟ وإذا لم تسعكم رحمته العظيمة، فأي أرض تُقِلُّكم، وأي سماء تُظِلُّكم؟

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ فهم مخدوعون، لا يُفيقون من الخديعة إلا عند الموت، أو عند قيام الساعة.

* ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: إذا أمسك الله تعالى عنكم الرزق، فهل ثَمَّ أحدٌ غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ كلا.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى ينزل عليهم المطر الذي تقوم عليه حياة الأرض والنبات: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وأهل مكة كانوا يعتمدون كثيرًا على الآبار، ولو أن السماء توقفت عن المطر لجفت هذه الآبار؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: أصرُّوا وأمعنوا، **فعاب الله عليهم أمرين**(٢):

١- **العتو**، وهو الكبرياء في نفوسهم، والاغترار بالمال والولد والأهل والجاه والمنزلة في الدنيا.

٢- **النفور**، وهو الإعراض، فهم لا يحبون أن يسمعوا تذكيرًا ولا وعدًا ولا وعيدًا ولا خيرًا، ولا أن يغيِّروا ما هم فيه من الضلالة، فهم مصرون عليه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٨)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٤)، والمصادر السابقة.

* ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٢٢﴾:

وهذا مثال، **والمعنى**: هل الإنسان الذي يمشي قائمًا على قدميه، معتدل الجسد والرأس، على صراط مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، أفضل، أم مَنْ هو مُكِبٌّ على وجهه، مطأطئ الرأس، كأنما يبحث عن معالم الطريق على الأرض، وهو يمشي في طريق غير واضح؛ ولهذا يعثر، فهو في كل حين ينكبُّ على وجهه، يكاد يسقط على وجهه؛ لأن الطريق ليس معبَّدًا ولا مستقيمًا؟

وهذا هو الفرق بين طريق المؤمنين وطريق الكافرين، والله تعالى يضرب لهم هذا المثل، ويدعوهم إلى التأمُّل: هل المضيِّع لطريقه الذي لا يهتدي أفضل وأهدى، أم مَن يمشي سويًّا على صراط مستقيم؟

ويحتمل معنى آخر، وهو: أن الإكباب على الوجه، يعني الخُرور ومواجهة الأرض بالوجه؛ كحال المُحْدَوْدَب الذي لا يقدر على الاعتدال.

والمقصود: ضرب المثال في عالم المعنى، والمقارنة بين المؤمن السائر على الطريق المستقيم ومَن يتوهم ذلك، وهو ليس على شيء، والله أعلم[1].

* ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣﴾:

﴿قُلْ﴾ تأكيد لمعاني النعم والآيات يستدعي الشكر والاعتبار.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم طفلًا، ثم مراهقًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ومنكم مَن يرد إلى أرذل العمر، وكنتم لا تعلمون شيئًا، ولا تقدرون على شيء، حتى كبرتم واستغنيتم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ﴾ وهذه الثلاثة: ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ﴾ هي: وسائل المعرفة، وهي أدوات حسية ملموسة قائمة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]، وبها يهتدي

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٧٩- ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨١).

الإنسان إلى الحق والإيمان؛ ولذا قال أهل النار- كما تقدَّم-: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

ومن أسرار إفراد ﴿السَّمْعَ﴾: أن العادة أن الإنسان يسمع شيئًا واحدًا سماع تيقظ وفهم، وإذا تداخلت عنده الأصوات تشوَّش وفقد التركيز، بخلاف العين، فهي ترى أشياء كثيرة وعديدة في وقت واحد وتستوعبها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لحال أكثر الناس من قلة الشكر على النعم السابغة، ولو قَضَوْا حياتهم كلها شكرًا لله سبحانه، ما أدَّوْا حقيقة الشكر، ولكن الله يرضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمده عليها، أو يشربَ الشربةَ فيحمده عليها[1].

إذا كان شُكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مِثلها يَجِبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالت الأيامُ واتصلَ العُمرُ[2]

فالشاكرون من الناس قليل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

والشكر من هؤلاء الشاكرين قليل في جنب النعم والعطايا.

* ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي: نشركم[3]، وهذا دليل على نشر عظيم متكاثر، فالله تعالى وزَّعكم ونشركم في الأرض التي خلقها لكم، وسخَّرها لكم، وجعلها مذلَّلة معبَّدة ساكنة.

فمن مجموع الآيتين- هذه الآية وما قبلها- يتحصل أن الله خلق الأرض مزوَّدة بكل مصالح العباد، وخلق الإنسان مزوَّدًا بأدوات المعرفة والاكتشاف، وسلَّطه وجعله سيِّدًا ممكَّنًا في الأرض إلى يوم الوقت المعلوم، وهو الحشر.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكير بالغاية العظمى التي لأجلها بُسطت الأرض، وأُسبغت

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا (٨٣)، و«الفاضل» للمبرد (ص٩٥)، و«فضيلة الشكر لله» للخرائطي (٤٥)، و«ربيع الأبرار» (٥/ ٢٨٤) منسوبًا إلى محمود بن الحسن الورَّاق.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٥٥).

النعم، فالخلق لم يُخلقوا عبثًا، ولم تذلَّل لهم الأرض لأجل أن يعيشوا فيها فحسب، بل ذلك لغاية عظيمة، هي عبادة الله وطاعته، وإعمار الأرض بإقامة شريعته.

* ولكنَّ الكافرين لا يريدون أن يذكِّرهم أحد بالآخرة، ويقولون: أكثرتم علينا بذكر الموت والبعث والجزاء والحساب، فمتى هذا؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾: ولو كانوا يؤمنون به ما سألوا هذا السؤال؛ لأن سؤالهم على سبيل التعجيز والإنكار، وإلا فإن الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ وهو يقول: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ كان يسأل سؤال مستفهم مستعلم، فقال له النبيُّ ﷺ: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبَّ الله ورسوله! فقال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»(١).

ولا يعلم موعد القيامة إلا الله، ولا فائدة من السؤال، ولا من الجواب؛ لأنه إذا فُرض ضرب موعد، فلن يتم التحقق من صدقه إلا عند حصوله، وعند حصوله ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولن يشاهده إلا مَن كان على قيد الحياة آنذاك، فالناس ليسوا بحاجة إلى موعد مضروب، بل إلى إيمان واستعداد وعمل يقوم به الخلق جيلًا بعد جيل، ورعيلًا بعد رعيل.

* ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: ليس إليَّ تحديد وقت الساعة ولا أمرها، فلا أحد يعلمها إلا الله، حتى النبي ﷺ يقول له ربه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ويقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. فالنبي ﷺ هنا يقول: لا أدري متى الساعة، فما أنا إلا نذير، مهمتي النِّذارة وإقامة الحجة عليكم والبلاغ، وعبَّر بـ«المبين»؛ إشارة إلى أنه قام بمسؤوليته التي كُلِّفها خير قيام، وهذه شهادة من الله له بالبلاغ والنِّذارة(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٩).

* ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: رأوا هذا الأمر الذي ينكرونه ويتساءلون متى يكون، أمام عيونهم مُزْلِفًا قريبًا سِيئَتْ وجوههم[(١)].

والزُّلْفة هي: الشيء القريب[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٣]، أي: قُربت لأهلها؛ حتى يدخلوها.

والضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يجوز أن يكون المقصود به الموت، أو عذاب يوم بدر، أو العذاب الذي يلحق الكافرين والمشركين والمعاندين.

أو يكون المقصود: الآخرة والبعث، وأنهم إذا حدث هذا الحدث ورَأَوْه زُلْفة سِيئَتْ وجوههم، أي: ضُربت بالسوء[(٣)].

وذكر الوجه؛ لأنه هو الذي تظهر على قسماته المضمرات من المشاعر والانفعالات والمخاوف.

وهذا رد على سؤالهم عن الوعد ومتي هو.. وبيان أن العبرة في صدق الأمر بذاته وحتمية تحقيقه، أما متى، فهو سؤال غير ذي معنى.. حتى لو فرض قيام الجواب عليه؛ لأن المشكِّك إذا رأى الأمر سِيءَ وجهه، ولم يعد أمامه فرصة للعمل.

وقد يكون سؤال ﴿مَتَىٰ﴾ مشعِرًا بالاستبطاء وتأخر الموعد؛ ولذا قال: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: قالت الملائكة لهم: هذا الشيء الذي كنتم به

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٦).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٧٥)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٧٠)، و«تاج العروس» (٢٣/ ٤٠٠) «ز ل ف».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٥)، والمصادر الآتية.

﴿تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبونه وتستعجلونه[1]، كما في قول الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ [المعارج: ١]، وكما حكى الله عنهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

أو يكون معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾: تكذِّبون وتشكُّكون[2].

* ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٨﴾:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ خطاب للنبي ﷺ؛ ليسأل هؤلاء القوم: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ أي: من المؤمنين ﴿أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فنحن عَبيده، وهو ربنا، آمنا به، وعليه توكلنا، ولا تشغلوا أنفسكم بنا: ماذا نريد؟ وما نوايانا ومقاصدنا؟ وما مصيرنا؟ لكن أنتم مَن يُجيركم من هذا العذاب الأليم؟ فالخير لكم أن تفكِّروا بأنفسكم ومآلكم.

لأنهم كانوا يقولون: إن نزل عذاب سوف يصيبكم كما يصيبنا، وإن كانت الآخرة، فسيكون لنا ما ليس لكم من الجنات والأنهار والنعيم.

والتقدير: أمرُنا إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ونحن عَبيده، وسواء أهلكنا كما تتمنَّون وتدَّعون، وتتوعدون، أو رحمنا، كما نأمل ونرجو، فمَن يجيركم أنتم من العذاب الأليم[3]؟

وهذا الردُّ يكشف أن أعداء الحق في كل زمان ومكان ينصرفون عن الموضوع إلى الشخص، ويُعرِضون عن مناقشة الحجج والبينات إلى مهاجمة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٦٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٥٨٢- ٥٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٦- ٥٩٧)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٩٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٥٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٨٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥١- ٥٣)، والمصادر السابقة.

الرسل وأتباعهم، والتشكيك في تطابق أقوالهم وأعمالهم، أو في حُسن نواياهم، أو مصيرهم وعاقبتهم.

* ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾:

فنحن آمنا بربنا وتوكلنا عليه، وظننا به ظنًّا حسنًا أنه لن يُهلكنا، ونأمل أن يرحمنا بفضله ورحمته، وهو أرحم الراحمين: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة: ٨٤]، لكن أنتم ليس لكم ذلك، ولم يواجههم بالخطاب، فيقول: «فمَن يجيركم»؟ من باب عدم القطع عليهم بسوء المصير، وفتح باب الرجوع، وحتى لا تتحول الدعوة إلى حلبة صراع، ليس فيه روح الدعوة والهداية، فأنتم أيها المخاطَبون يمكن أن تؤمنوا وتكونوا مع الناجين الفائزين.

وجمع الله بين الإيمان والتوكل؛ إشارة إلى تحقيقهم للعبادة وللعمل والتوكل، وأن التوكل ليس قعودًا ولا نكوصًا ولا نكولًا، وإنما هو العمل، والإيمان من التوكل، والدعاء من التوكل، وعمل الدنيا من التوكل، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لو أنَّكم تتوكَّلونَ على الله حقَّ توكُّله، لرزقتم كما يرزقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا، وتروحُ بِطانًا**»(١).

فهذه الطير توكَّلت على الله، لكنها لم تقعد في أعشاشها، وإنما غدت وراحت، وبحثت عن الرزق، فرزقها الرزَّاق سبحانه الذي يرزق الحياتَ في جُحُورها، والبشر في بكورها، كما قال النبيُّ ﷺ: «**اللَّهمَّ بارك لأمتي في بُكُورِهَا**»(٢). أي: العمل المبكِّر أول الصباح، بأن تستقبل الحياة بالعمل والإنجاز، وليس بالقعود،

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥١)، وأحمد (٢٠٥، ٣٧٠، ٣٧٣)، وعبد بن حميد (١٠)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وابن أبي الدنيا في «التوكل على الله» (١)، وأبو يعلى (٢٤٧)، وابن حبان (٧٣٠)، والحاكم (٤/٣١٨)، والضياء (١/ ٣٣٤) (٢٢٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

(٢) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم من حديث صخر الغامدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي تخريجه في «سورة الضحى»: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾.

فالإسلام دين يأمر بالعمل، ويجعل بذل كل الأسباب من التوكل.

ولأن غالب الناس في الحوار العقائدي يغلبهم الهوى والعصبية، لما ألفوه من ديانة ومعتقد، ناسب أن يجعلهم في مواجهة مع أنفسهم بدل المواجهة مع الداعين، وترك الأمر للمستقبل الموعود؛ ليعلموا هم بأنفسهم مَن هو الصادق والكاذب، ومن هو الناجي والهالك، فقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

* ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: إذا جفت آباركم، ولم يُنزل الله تعالى المطر من السماء، فمَن الذي يأتيكم بالماء المَعِين؟

والمَعِين: العذب الذي يُرى بالعيون(١).

والأصل أن هذا الماء من السماء، فإذا قحط المطر، وأجدبت الأرض؛ جفَّت الينابيع، وقد حدث شيء من هذا لقريش لما دعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأصابتهم سبع سنوات عِجاف شِداد من القحط والجوع وقلة الماء(٢).

ذكر الزمخشري عن رجل سماه أنه قُرئت عليه هذه الآية، فقال: «تأتي به الفؤوس والمعاول». يظن أن بذل الأسباب كافٍ في تحقيق المطلوب، فلما أصبح وجد أنه قد ذهب ماء عينه، فعمي، وهذا من مكر الله تعالى بالمستهزئين(٣).

وختام السورة يناسب ما سبق من وجوه:

١- التسخير المشهود في الكون للإنسان، وأن الله لو شاء لمنعه وحرمه منه.

٢- أن الدنيا والآخرة من الله وإليه، فبيده المصلحة والهداية والضرُّ والنفع، وهو الذي إن شاء رحم وإن شاء عذَّب، فاعبدوه واشكروا له.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٢٦٠).

وينظر أيضًا: «العين» (٢/ ٢٥٥)، و«تهذيب اللغة» (٣/ ١٣٣) «باب العين والنون»، و«لسان العرب» (١٣/ ٤١٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٨٣).

٣- الجمع بين التوكل وفعل السبب، فالماء الغائر يحتاج إلى حفر ومعالجة؛ حتى ينبثق ويُرى، ولكن ذلك لا يكفي حتى يوافق عونًا من الله، كما قيل[١]:

إذا لـم يكـن عـون مـن الله للفتى فـأول مـا يجنـي عليـه اجتهـاده

والله أعلم.

ooo

(١) ينظر: «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ١٧٧)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٥٣٢)، و«صيد الأفكار» (١/ ٩٠) منسوبًا إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُورَةُ القَلَمِ

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾»، وهو الذي في معظم كتب الحديث والتفسير(١).

وأحيانًا تُختصر، فيقال: «سورة ﴿نٓۚ﴾»، بالحرف الأول منها(٢).

وهي إحدى ثلاث سور تبدأ بحرف واحد، مع «سورة ﴿صٓۚ﴾»، و«سورة ﴿قٓۚ﴾».

وسُمِّيت في بعض المصاحف: «سورة القلم»، إلا أنه يلتبس مع «سورة العلق»، التي يسميها البعض: «سورة القلم»؛ لذكر القلم فيها: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾(٣).

*** عدد آياتها:** اثنتان وخمسون آية بالاتفاق(٤).

*** وهي مكية** بإجماع المفسرين، حكاه ابن عطية(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٩)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٢).

(٢) ينظر: «جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٤)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٦٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٣).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٢)، و«الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص٢٠١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٣٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٥).

ونُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجماعة: أن أولها مكيٌّ وآخرها مدنيٌّ(١).

والجمهور على أنها مكية، وهو المناسب لسياقها وموضوعاتها، وقد نزلت في أول البعثة، ونزل قبلها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] يقينًا، وربما «المدثِّر» و«المزمِّل»، فهي الرابعة أو الثالثة في ترتيب النزول(٢).

وإذا أردت أن تتدبَّر السورة، فحاول أن تستحضر الفترة التي نزلت فيها، فإنه لم يكن نزل من القرآن في ذلك الوقت إلا الشيء اليسير، وكانت دعوة النبي ﷺ في أولها عُرضة للهمز واللَّمز والأقاويل من كل جانب، يتجرَّأ عليه صناديد الكفر؛ كالوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث بن كَلَدَةَ، والأَخْنس بن شَرِيق، وأبي جَهْل؛ ليرموه بأبشع الألقاب والأوصاف، فينزل القرآن مدافعًا عن النبي ﷺ، يوم لم يكن يملك الدفاع عنه أحدٌ من الناس، وقد وضعوا سَلَا الجَزورِ(٣) على ظهره وهو يصلِّي(٤)، وضربوا أصحابه، بل ضربوه هو ﷺ، فجاء أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليدافع عنه، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾(٥) [غافر: ٢٨].

وينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي إلى النبي المَكْلوم بما يقذفونه به من أقبح

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لقتادة (ص٥٢).

(٣) السَّلاَ: اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/ ١٥١).

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٢٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما رسولُ الله ﷺ يصلِّي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوسٌ، وقد نُحرت جَزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقومُ إلى سَلَا جَزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعثَ أشقَى القوم فأخذه، فلما سجدَ النبيُّ ﷺ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا، وجعلَ بعضُهم يميلُ على بعض، وأنا قائمٌ أنظرُ، لو كانت لي مَنَعةٌ طرحتُه عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبيُّ ﷺ ساجدٌ ما يرفعُ رأسَه، حتى انطلقَ إنسانٌ فأخبرَ فاطمةَ، فجاءت- وهي جُوَيْرِيةٌ- فطرحته عنه، ثم أقبلتْ عليهم تشتِمُهم...».

(٥) كما في «صحيح البخاري» (٣٨٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الألقاب والصفات؛ ليواسيه بهذه الكلمات الإلهية النورانية ويثبِّت جنانه، وما أشبه الليلة بالبارحة! فالتواصي والإطباق الإعلامي على كلمة سواء في الحملات التشويهية التي يتعرض لها المصلحون، إنما تواجه باستحضار الموقف النبوي، وتلاوة الذكر الحكيم الملائم لها بإيمان وثقة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٨].

* ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾:

﴿نٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، وتنطق: «نون»، وإنما كُتبت: ﴿نٓ﴾؛ لأن القرآن ليس كتابًا فقط، وإنما هو كتاب وقرآن، كتاب للمكتوب وقرآن للمقروء، فلا بد أن يتواطأ فيه السمع والبصر.

وفي قوله: ﴿نٓ﴾ إشارة إلى عدة معان(١):

١- إعجاز القرآن، فهذا الحرف من صدر السورة من جنس ما تنطقون به أيها العرب، وهذا من الإعجاز اللُّغوي الذي تحدَّى اللهُ به أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان، فبُهتوا.

٢- فيه إشارة إلى أهمية اللغة، وأن من نعمة الله تعالى على العباد أن مكَّنهم من اللغة، وأقدرهم عليها قراءة وكتابة، وجعلها خصيصة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم خلقه، أن زوده بالمَلَكَات والمهارات اللُّغوية العظيمة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١- ٤]؛ ولذا تسمى البهائم بالعجماوات؛ لأنها لا تنطق ولا تفصح، أما الإنسان فالله تعالى ميَّزه باللغة، وما يترتب عليها من الفهم والتفاهم والحوار والذوق والمعرفة والعقل والإدراك.

٣- فيه تحفيز إلى التعلم والتعليم؛ ولهذا قال بعضهم: إن المقصود بـ﴿نٓ﴾: الدواة.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«تفسير التستري» (ص١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ١٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٨)، و«الإعجاز البياني للقرآن» (ص١٦٢)، و«الموسوعة القرآنية المتخصصة» (١/ ٣٢٩)، والمصادر الآتية.

وسواء أصح هذا القول أم لم يصح، إلا أن بداية السورة بـ﴿نٓ﴾، ومثلها: ﴿قٓ﴾، و﴿صٓ﴾، فيها تحفيز إلى القراءة.

وقد بُعث النبيُّ ﷺ في أمة أُمِّيَّة، لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب، والعلم كان عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فجاء القرآن في أول ما جاء ليقول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وثالث ما جاء: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾، فبداية الوحي متضمِّنة للتأكيد على أهمية القراءة والكتابة والقلم والعلم، فما جاء الإسلام ليربِّيَ الناس على التقليد، ولا على الهوى، ولا على العاطفة المجرَّدة، لكن جاء ليجعل المعرفة من أهم الأسس في الحضارة(١).

لقد كان من البداهة أن يحارب الإسلام التقليد؛ لأنه عدوه، ولن يؤمن بالتوحيد والرسالة إلا مَن تحرَّر من سطوة العادات والتقاليد وموروثات الآباء والأجداد: ﴿مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فالإسلام دين العلم، لا يعاديه، ولا يخشى على حصونه منه، ولا يتوجس من العقل والتفكير، فليس في الإسلام أسرار ولا مشكلات، بل هو دين واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، والعلم والمعرفة والعقل والفهم كلها أدوات تعزِّز الإيمان، إذا استخدمت بالطريقة الصحيحة.

وبعض المفسرين يذكرون أن ﴿نٓ﴾ هو: الحوت الذي خلقه الله، وجعل الأرض عليه، فيزعمون أن الأرض على ظهر حوت، وبعضهم يقول: ثَوْر(٢).

ومن الطريف أنهم يقولون: إن الثَّوْر إذا تعب نقل الأرض من قرنه الأول إلى قرنه الثاني، فيحدث بسبب ذلك الزلزلة(٣).

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٣٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٧/ ٤٦١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨٥ - ١٨٦)، و«تفسير ابن رجب» (١/ ١٠٣)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٦٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣١٨).

(٣) ينظر: «المنار المنيف» (ص١٣٨).

وهذه أخبار إسرائيلية، جرت عادة بعض المفسرين بنقلها، استئناسًا أو حكاية مجردة، من باب ذكر جميع ما قيل في الآية.

ولكن الناس بحاجة إلى تهذيب كتب التفاسير وتنقيتها من هذه الخرافات، وألَّا تساق الأقوال والروايات المضحكة في معاني كلام الله؛ لأن كلام الله مقدَّس، فلا يُنسب إليه ما هو من قَبِيل المحالات والخرافات، وما هو مدعاة للسُّخرية والاستهزاء.

والعقلاء كلهم- حتى قبل البعثة- يعرفون أن الأرض ليست على قرن ثور أو ظهر حوت، وإنما هي في الفضاء معلقة، وهذا لفظ القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، فليس ثمة ثَوْر ولا حوت، وإنما هي قدرة الله التي تمسك الطير في السماء، وتمسك النجم والشمس والقمر والأرض والأفلاك كلها، والأرض ليست أكبر هذه الأفلاك، وإنما هي جِرْم صغير بالقياس إلى الشمس وغيرها من الأفلاك.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يُقسم سبحانه بالقلم؛ إشادة به، وتذكيرًا بأهميته، وقد يكون المقصود هنا القلم الذي كتب اللهُ تعالى به مقادير الخلائق، كما في الحديث: «**أولُ ما خلقَ اللهُ القلمَ، ثم قال له: اكْتُب. قال: وما أكتب؟ قال: القدر. فكتبَ ما يكونُ، وما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة**»(١).

وليس القلم هو أول المخلوقات، لكن أول خَلْقه له، وفي هذا إشارة إلى علم الله تعالى، أو هو القلم الذي يعرفه الناس، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾(٢) [العلق: ٤- ٥].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، وأحمد (٢٢٧٠٥، ٢٢٧٠٧)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٣)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣٦)، والضياء (٨/ ٢٧٤، ٣٥٠) (٣٣٦، ٤٢٦) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٣٣، ٣١٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٨)، وما سيأتي في «سورة العلق».

والقلم أثره كبير في بناء الحضارات ورقيها، ولو نظرتَ إلى آثار العلم والكتابة والكتب، لوجدتها عظيمة، والأمم التي كانت تستهدف إسقاط غيرها كانت تستهدف ثقافتها، كما فعل التتار بكتب المسلمين في بغداد حين تعمَّدوها بالإتلاف(1)، والنعمة ليست بخلق القلم، أو صناعته فحسب، بل بإلهام الإنسان أن يكتب، وأن يقرأ، وأن يبحث، وأن يتطور، وقد مر القلم بمراحل تطور، ابتداءً بالكتابة، ثم الوسائل الحديثة من الطباعة وغيرها، ولما تردد المسلمون في استخدامها والإفادة منها تخلفوا، ثم جاءت التقنيات الحديثة الإلكترونية التي فتحت للإنسان مجالًا واسعًا لجمع المعرفة وتوظيفها وتنظيمها والاستفادة منها.

وهذا كله ليس إلا ومضةً من مدلول قوله سبحانه: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، سواء كان الذي يسطرونه ما يكتبونه في سطور اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور: ١ - ٣]، أو ما يكتبه الأنبياء مما يملونه على أتباعهم من الكتب المقدَّسة والوحي الإلهي، كما كان للنبي ﷺ كُتَّابٌ للوحي، يملي عليهم فيكتبون، أو كان قَسَمًا بكل ما يُكتب؛ إشادة بأهمية الكتابة والتدوين.

وها هي البشرية تتوارث الكتب السماوية وشروحها، إضافة إلى نوادر المؤلفات البشرية التي بقيت بجودتها وتجديدها وإبداعها، ويحسن هنا استذكار القوائم المخصصة لأكثر الكتب طباعة عبر التاريخ الإنساني.

فهو قَسَمٌ بكل ما يُكتب، سواء كتبه أهل السماء، أو أهل الأرض الأقدمون أو المتأخرون، في خير أو شرٍّ، في حقٍّ أو باطل.

* ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾:

وهنا تناسب رائع، فيقسم اللهُ تعالى بالعلم والمعرفة والقلم واللغة والمعاني الحكيمة على ضلال ما يدَّعيه المشركون من التُّرَّهات، التي لا تستند إلى برهان، ولا إلى علم، ولا إلى هدى، ولا إلى كتاب منير، ويزكِّي عقل النبي ﷺ وعلمه.

---

(1) ينظر: «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٦٦٣)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٥١).

والأمر المقتضِي للقَسَم: أن المشركين لما كفروا بالدعوة، طاروا كل مُطَيَّر، وقالوا كل ما يخطر على بال، مما لا تقبله العقول ولا الأذواق ولا الأخلاق.

ومن ذلك أنهم وصموا محمدًا ﷺ بهذه الفرية البذيئة، فقالوا- كما سيأتي-: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾، وأن هذا الذي يقوله محمد هذيان تمليه عليه الجن، قصدًا إلى صرف الناس عنه وعن دينه، حتى إن بعضهم وضع القطن في أذنيه؛ خشية أن يسمع شيئًا من كلام النبي ﷺ؛ لكثرة ما سمع عنه[١].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بما أنعم الله به عليك، فهي مثل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]، أي: وأنت متلبِّس بما أنعم به عليك من العلم والمعرفة والوحي والرسالة والفضل[٢]، فهو ﷺ أفضل البشرية كلها بإجماع العقلاء والمنصفين من المؤمنين وغيرهم، وقد فضَّله الله تعالى على جميع ولد آدم[٣]، وهو أول مَن يدخل الجنة[٤].

وهم إنما وصفوه بالجنون بعد الوحي، **فكأن المعنى**: إن هذه الرسالة التي اختصك الله تعالى بها وميَّزك لست فيها بمجنون، وإنما هي نعمة تفضَّل الله بها عليك.

وكان هؤلاء القوم يستكبرون أن يعترفوا بأنه يُوحى إلى النبي ﷺ، فيقولون: إن الذي يأتيه الشيطان، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢].

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٨٢)، و«طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣- ٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١- ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١- ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٨٧).

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«أنا سيِّدُ ولد آدمَ يومَ القيامة»**.

(٤) كما في «مسند أحمد» (١٢٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٩٦، ١٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٠)، وما سيأتي في «سورة عبس»: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

وليس المقصود هنا مجرد نفي الجنون، بل نفي كل ما لا يليق بمقامه الشريف، والدفاع عن كمال عقله وعلمه وصدقه ومنزلته ﷺ في جميع المقامات، وكفى بذلك فخرًا.

والرد والنفي هنا جاء بوحي منزَّل؛ لأن الأمر لا يتعلق بمنزلة إنسان عادي، بل هو متعلِّق بصميم الرسالة والإيمان والتوحيد، مثلما نفى الله عن ذاته العلية ما تقوَّله المتجرِّئون من ادِّعاء الصاحبة له والولد والتعب والبخل، وما زيَّنت لهم الشياطين من الكذب، كما قال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فيكون من كمال إيضاح الرسالة وبيانها وإقامة الحجة أن ينص على نفيها، ويثبت ضدها.

* ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾:

بُدئت السورة بالتأكيد بالقَسَم، ثم النفي القاطع لدعوى النقص، وهو الجنون، ثم إثبات للفضيلة هنا، مؤكَّدة بـ«إنَّ»، واللام، وبالتنكير الدال على سعة الأجر وعظمته، وأنه يفوق الوصف، ثم تقرير لديمومته دون انقطاع، فالنبي ﷺ له الأجر في الدنيا وفي الآخرة، وله الرفعة والثواب والجنة والرضوان(١).

فـ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ تحتمل أن هذا الأجر ليس من الناس، فيمنُّون به عليك، ويتبعون ما يقدمونه بالمَنِّ والأذَى(٢)، كما كان الناس يفعلون في الجاهلية، فقد كانوا يمدحون أنفسهم بما تفضَّلوا به على غيرهم، كما قال النابغة(٣):

عليَّ لعمروٍ نعمةٌ بعدَ نعمةٍ ... لوالِده ليستْ بذات عقاربِ

أي: لا يتبعها المَن والأذى والقيل والقال، فالله سبحانه يذكر أنها نعمة من الله، ليس فيها منٌّ ولا أذى، أو أن هذا الأمر غير مقطوع، بل هو أجر دائم(٤).

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٢- ٦٣)، وما تقدم في أول «سورة الملك».

(٢) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣١٩).

(٣) ينظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٢٩)، و«العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (٢/ ٢٢٩).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٣).

وهذا من الإعجاز بالإخبار بالغيب الذي صار شهادة، فحين نزلت عليه هذه السورة كان أتباعه يعدون على الأصابع، لكننا اليوم نرى مظان هذا الأجر غير المنقطع، فقد دعا ﷺ إلى الهُدى؛ فله من الأجر مثل أجور مَن تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء[1]، وسَنَّ سُننًا حسنة، فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة[2]، ولا أحد من المسلمين يمنّ على رسول الله ﷺ، بل المنة لله ورسوله، كما قالت الأنصار عند ما سألهم النبيُّ ﷺ[3].

فالله تعالى هو الذي مَنَّ علينا أن هدانا للإيمان، وللنبي ﷺ في أعناقنا مِنن بعد مِنن، بما علَّمنا وأرشدنا، وسنَّ لنا السُّنن، وبيَّن لنا الطرائق، ونصحنا أصدق النصيحة وأكملها وأوفاها، فالمنة لله ورسوله.

وهو غير مقطوع ما بقي في الأرض مَن يقول: الله الله. ولأجر الآخرة خير وأكمل وأوفى، فإن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب ليجود ويغدق، وقد وعد نبيه بما هو خير وأبقى، حتى أنه أعظم الناس منزلة، وقد قال ﷺ: «ثم سَلُوا اللهَ ليَ الوسيلةَ، فإنها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأل ليَ الوسيلةَ حلَّت له الشفاعةُ»[4]. فيُشرع عقب كل أذان أن يقول السامع: «اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْهُ مقامًا محمودًا الذي وعدته»[5].

* ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

تأكيد آخر بـ«إنَّ»، وباللام، وبحرف «على»، فلم يقل: «إنك لذو خُلق عظيم»، وإنما قال: ﴿لَعَلَىٰ﴾، و«على» تعني التمكن، كما تقول: فلان راكب على الفرس،

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٠١٧) من حديث جَرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ابن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه البخاري (٦١٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يعني أنه متمكِّن فوقها، فكأن الخلق العظيم شيء مجسَّد، والنبي ﷺ متمكِّن عليه(١).

إن خُلقه العظيم ﷺ ليس شيئًا متكلَّفًا مصطنعًا، أو في حال دون حال، كأن يكون على خُلق عظيم في حال الضعف والمسكنة، حيث لا يستطيع شيئًا فوق ذلك، ولهذا يقول الحكماء: «الأخلاق تبين عند القدرة»، ولقد وصفه ربه بذلك، وهو ما يزال في مكة يعاني ظلم ذوي القربى وإيذاء كفار قريش وسخريتهم، ثم لما نصره الله وتمكَّن من التشفِّي والانتقام يوم فتح مكة قال لمشركي قريش: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»(٢). وهكذا كان خُلقه ﷺ لا يغيِّره اختلاف الأحوال ولا تعاقب الزمان.

إن من الناس مَن ترى أخلاقه في غاية الدَّماثة والحسن، لكنه مع أهله وولده وخدمه سيِّئ الخلق، ضيِّق العَطَن، سريع الغضب، أما هو ﷺ فكان خير الناس لأهله، يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويكون في مهنة أهله(٣)، وما ضرب امرأةً ولا خادمًا ولا أحدًا، إلا أن يُقاتلَ في سبيل الله(٤)، وكانت المرأة من نسائه ترفع صوتها عليه، وقد تهجره إلى الليل، فما تتغير أخلاقه(٥)، وهو بذلك رسم للمؤمنين سبيل التعامل مع أهلهم وذويهم.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٣).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢- ١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠- ٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٩٩)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧- ٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧- ٥٦٨)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٥٨- ١٨٥).

(٣) كما في «مسند أحمد» (٢٤٧٤٩، ٢٤٩٠٣، ٢٦١٩٤)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٥٣٦٣)، و«صحيح ابن حبان» (٦٤٤٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٧١).

(٤) كما في «صحيح مسلم» (٢٣٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأصله في «صحيح البخاري» (٣٥٦٠). وينظر أيضًا: «صحيح البخاري» (٢٧٦٨، ٦٠٣٨، ٦٩١١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٩).

(٥) كما في «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن الناس مَن يكون على خُلق عظيم مع الموافق من أصحابه وأصدقائه، لكن إذا اختلف مع أحد تغيَّر حاله وتنكَّر ونسي جميله، أما هو ﷺ فكان عنوان الوفاء، كما في قصة خَدِيجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(١)]، وكما في شهادته لأبي العاص بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]، وفي حفاوته بأصحابه، وتعاهدهم في السفر والحضر، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والحياة والموت.

وكان ﷺ من خُلقه العظيم أن يصبر عليهم حين قالوا عنه: ﴿شَاعِرٌ﴾.. ﴿سَٰحِرٌ﴾.. ﴿كَاهِنٍ﴾.. ﴿مَجْنُونٌ﴾، بل كان يدعوهم إلى الله ويتحمَّل الأذية، فربه سبحانه يعزِّيه عن ذلك.

وهذا فيه إشارة إلى أن الأخلاق من المعاني التي عظَّمها الإسلام وأولاها اهتمامًا منذ أول البعثة؛ ولهذا كان من خُلقه العظيم ﷺ الدعوة إلى الأخلاق، كما قال: «**إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**». وفي رواية: «**لأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاق**»[(٣)]، ولما سُئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلقه ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُهُ القرآنَ»[(٤)].

ومن الناس مَن قد يتكلم عن الخُلق بلسانه، لكن عند ما تسأل عنه المحيطين به؛ تجدهم يشتكون من فظاظته وغلظته وسرعة غضبه ونَزَقِه وبخله وكذبه، أما محمد ﷺ فقد زيَّنه الله تعالى بالأمرين معًا، فجاء دينه يحث على معالي الأخلاق، وكان في سلوكه وتطبيقه العملي خير قدوة لذلك.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٨١٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا ذبح الشاةَ يقولُ: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خَدِيجة**».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣١١٠، ٣٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٩) من حديث المِسْور ابن مَخْرَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٣)، والبزار (٨٩٤٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩١- ١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي إسناده اختلاف أشار إليه البيهقي، وقد صحَّحه الحاكم، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٣- ٣٣٤)، وفي «الاستذكار» (٨/ ٢٨٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٠١)، ومسلم (٧٤٦).

وفي هذا حجة علينا نحن المسلمين، أن نقتدي به ﷺ في أخلاقه، كما نقتدي به في صفة صلاته ونسكه، وهذا الخلق العظيم واسع لا يمكن قصره على بعض الأخلاق والأحوال؛ ولهذا يقول ربنا: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]، فجزء كبير من الخير يعرفه الناس بالفطرة، ولا يلزم فيه تفصيل وبيان؛ لأنه مما توارثه الخلق من أصول الأخلاق؛ كالكرم والصدق والعفاف والشجاعة والإحسان والوفاء والعدل.

* ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾:

أي: سترى بعينك أو تعلم(١)، ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ هم أيضًا ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾: سوف ترون أيكم الذي هو مفتون، أنت أم هم؟

وهذا رد على قولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، ولم يقل: «بأيكم المجنون»؛ لأن من معاني الفتنة: الجنون(٢)؛ لأنهم يقولون: فلان فتنته الجن، يعني أصابته بالجنون.

وفيها التربية على الذوق والأدب واللُّطف في الرد، حتى على السفهاء والسبَّابين، وكأن الله تعالى لا يريد أن يقول: إنهم مجانين؛ لأنهم سيكونون غير مكلَّفين ولا مأمورين ولا منهيين ولا محاسبين ولا ملومين، فالجنون أمر يخرج الإنسان عن تبعة التكليف(٣).

والفتنة أصدق وأصح؛ فهي تدل على المعنى الواسع، أي: أيكم الذي وقع في

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٦٥).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢١٢)، و«الكليات» للكفوي (ص٦٩٢)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٤٩٢) «ف ت ن».

(٣) كما قال ﷺ: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظَ، وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ، وعن المجنون حتى يعقلَ». أخرجه أبو داود (٤٤٠١- ٤٤٠٣)، والترمذي (١٤٢٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢)، وابن خزيمة (١٠٠٣)، وابن حبان (١٤٣)، والحاكم (١/ ٢٥٨) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الطيالسي (١٤٨٥)، وأحمد (٢٤٦٩٤)، والدارمي (٢٣٤٢)، وأبو داود (٤٣٩٨)، وابن ماجه (٢٠٤١)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن حبان (١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وله شواهد كثيرة، وقوَّاه غير واحد. وينظر: «كتاب الحج من شرح بلوغ المرام» (ص٦٦) (ح٧١٤).

الفتنة والضَّيْر والنقص والهوى والضلال، أنت أم هم؟ وإلا فليسوا هم مجانين، وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]، وكما قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١١- ١٤]، وقوله في «سورة الملك»: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾، ويسمى بالتنزل للخصم، أي: انتظروا واصبروا وسوف تبصرون، فكأن المعنى ستعلمون بأيكم وقعت الفتنة.

إن مثل هذه السياقات تدرِّب على الهدوء في المجادلة والمناظرة، وعدم اللَّجاج الذي لا يفضي إلى بيان حق ولا دحض باطل، بل هو مجرد انتصار للنفس، ومحاولة إثبات لصواب المتحدِّث وخطأ الآخر؛ ولذا يقال: كسب الأشخاص أهم من كسب المواقف؛ لأن عينك هنا هي على محاولة هداية الخصم دون يأس، وليست على محاولة للتغلب والانتصار عليه.

* ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾:

وفي هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ ومَن معه هم المهتدون، وأن هؤلاء القوم قد ضلوا عن سبيله وما كانوا مهتدين، ولكنها كسابقتها، لا تنصيص فيها على المهتدين ولا على الضالين، بل فيها رد الأمر إلى الله، ولكن التعبير بـ﴿رَبَّكَ﴾ يوحي بهذا، والتعبير بالضلال والهدى يؤكِّد أن النزاع ليس بين العقل والجنون، بل بين الخير والشر، والحق والباطل.

* ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾:

وهذا من دلائل النبوة، فالنبي ﷺ يقرؤه، ويلقِّن أصحابه نهيَ الله تعالى له وتحذيره من طاعة المكذِّبين، وقد كان الكفار يقولون له: اترك هذه الدعوة، ولا تفنِّد عباداتنا، ولا تنتقد الشرك والوثنية، ونحن نكف عن تعييرك ووصفك بأنك شاعر أو ساحر أو كاهن أو مجنون، ومرة قالوا له: نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة. فإذا كان الذي تفعله صوابًا نكون أخذنا جزءًا منه، وإذا كان ما نحن عليه صوابًا تكون قد أخذت شيئًا منه، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾[1] [الكافرون: ١- ٣]، فالديانة والعبادة والعقيدة ليست قابلة للمساومات والتنازلات، بل هي قضية مبدأ لا يتحول.

* ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾:

أي: ودَّ كفار مكة أن تسكت فتطاوعهم فيما يريدون، ليسكتوا هم أيضًا عن محاربتك وإيذائك، وفي الآية نهي صريح عن المداهنة.

والمداهنة غير المداراة[2]، فـ«مداراة الناس صدقة»، كما قيل[3]؛ لأنها لا تجاوز حدود المجاملة بما يدرأ شر الطرف الآخر، دون تنازل عن شيء من أصول الدين وقطعياته.

ومعظم الناس قد لا يدركون هذا، فيخلطون بينهما، وربما أغلظوا في القول وأساؤوا في الخُلق، وظنوا هذا من الديانة والقوة والغيرة، وربما فرَّط آخرون وتنازلوا عن حكم شرعي بغير سبب يقتضي ذلك، وداهنوا في دينهم، وظنوا هذا من السياسة الشرعية، في حين أن بينهما فاصلًا واضحًا، والله تعالى لما أرسل موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون أوصاهما بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤]، وقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فاللُّطف والسماحة والهدوء النفسي والأخلاقي والعبارة الجميلة مداراة حسنة، وسبب لكسب القلوب، وهو من هَدْي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والإِدْهان والمُداهنة هي قلب الحق باطلًا، وقلب الباطل حقًّا؛ من أجل رئيس

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٦١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧١١)، وما سيأتي في «سورة الكافرون».

(٢) ينظر: «صحيح ابن حبان» (٢/ ٢١٨)، و«الغرباء» للآجري (ص٧٨)، و«التوضيح» لابن الملقن (٢٨/ ٥١٤)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٥٤، ٥٢٨)، (١٣/ ٥٢- ٥٣).

(٣) ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٥٠٨).

أو وجيه أو متبوع أو مرغوب أو مرهوب.

وثَمَّ درجة ثالثة، وهي باب المصالح والمفاسد؛ كما في عقد الحُدَيْبِيَة الذي لم يكن ادْهانًا، بل تقديرًا صحيحًا للموقف، وتطبيقًا لشرعية الاستطاعة، وهذا الباب شديد الالتباس لدى الناس، وهو يتأثر بالحماس وبالطبع، وبشمولية الرؤية وبكمال التجرد، والله المعين.

* ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾:

هذا تأكيد للمعنى الأول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم: ٨]؛ ليبيِّن شناعة ما هم عليه، فوصفهم بعشر صفات.

والآيات قيل: نزلت في الأَخْنس بن شَرِيق، وقيل: في الأسود بن عبد يغوث، وقيل: في أبي جهل، وقيل: في الوليد بن المغيرة[1]، وعلى كلٍّ فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ومن صفات كل واحد من هؤلاء المعاندين المستكبرين أنه ﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف، بالحق وبالباطل، وبمناسبة وبغير مناسبة، وهذا دليل على عدم تعظيمه للحلف؛ لما في قلبه من الفجور، ويكشف عن شعوره بأن الناس لا يصدقونه، فيكثر من الحلف؛ ولهذا ذُكر من معاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]: أي: لا تجعلوا اليمين مبتذلة في حق وباطل، وقيل: لا تستكثروا من اليمين بالله؛ فإنه أهيب لقلوبكم؛ ولذا قال: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾. وكانت العرب تمتدح بقلة الأيمان، حتى قال قائلهم[2]:

قليلُ الأَلَايا حافظٌ ليمينه وإنْ صدرتْ منه الأَلِيَّةُ بَرَّتْ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٧٢)، (٢٣/ ١٦٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٥٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧١).

(٢) ينظر: «أنساب الأشراف» (٦/ ٣٣٣)، (٨/ ١٢٤)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٣٢١)، و«تاج العروس» (٣٧/ ٩٤) «أل و» منسوبًا إلى كثير بن عبد الرحمن الخزاعي.

وفي ذلك تعظيم للعهد والميثاق والحلف عند الصادقين المؤمنين، بخلاف مروِّجي الأكاذيب بالادِّعاء والحلف المزيَّف(١).

و﴿مَّهِينٍ﴾: من المهانة، وهي الحقارة، فالصفة الثانية كونه مهينًا حقيرًا في نفسه وضيعًا لا شأن له:

وما المَـرءُ إلَّا حيثُ يجعلُ نفسَـه ... ففي صالح الأعمال نفسَك فاجعلِ

فاهتماماته وانشغالاته رديئة ساقطة، وشخصيته واهية، مطعون في صدقه وأمانته، ولا يعنيه هذا؛ لأنه استمرأ المهانة وتقبل الإهانة.

* ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾:

والهمَّاز: الذي يكثر من همز الناس، أي: يعيبهم، فلا يكاد يمر عليه أحدٌ إلا لمزه بلسانه أو بإشارته أو تقاسيم وجهه.

وأصل الهمز بالأعضاء؛ باليد أو الرِّجْل أو اللِّسان، والغرض من ذلك أذية الآخرين، وعيبهم بأي طريقة كانت(٢).

ولا شك أن هذا الفعل الذميم متضمِّن للكِبر، فمن الكِبر احتقار الناس، كما قال ﷺ: «**الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»(٣).

ويدخل فيه الهمس بالعيب والتنقص؛ لأنه لا يجرؤ على الإعلان بذلك لحقارته، فيجعله سرًّا بينه وبين جليسه، وهو مستعد للإنكار والنفي والحلف على ذلك إذا سُئل!

وهو يحاول أن يفسد العلاقة الاجتماعية بين الناس، فقوله: ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ يعني كثير المشي بالنَّمِيمة، وهي: «**القالة بين الناس**»(٤)، ينقل كلام هذا في هذا، وكلام هذا في هذا، على سبيل الوقيعة.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٩٧)، وما تقدم في «سورة المجادلة»: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) كما في «صحيح مسلم» (٢٦٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو يغتاب الناس، وقد قال الله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ويخرج الغيبة بمخارج ومسوِّغات باطلة، ويمشي بالنميمة، فيفسد ما بين الناس من الوُدِّ وحسن الصحبة.

والتعبير بـ﴿مَّشَّآءِ﴾ يدل على كثرة ذلك منه، حتى أصبح كأنه عادة له بكثرة التكرار توصم به شخصيته الخاوية، وقد قال ﷺ في الذي يعذَّب في قبره: «فكان يمشي بالنَّمِيمة»(١). وقال أيضًا: «لا يدخلُ الجنَّةَ قَتَّاتٌ»(٢). أي: نَمَّام(٣).

* ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾:

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ صيغة مبالغة، فهو شديد المنع(٤)، والخير: المال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾(٥) [العاديات: ٨].

وهنا لم يصفه بالبخل؛ لأن البخل يتفاوت، لكن حينما يصفه بأنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، فهذا يعني شدة بخله، حتى لكأنما وضع على الخير أبوابًا موصدة، فلا يصل من خيره إلى الناس شيء.

بل في الوصف ما هو أشد، فهو يمنع الخير من نفسه ومن غيره، فلو وجد إنسانًا يريد أن يتصدَّق أو ينفق، لحاول أن يصرفه عن ذلك، ويمنعه من المضي في بذل الخير بأنواع المعاذير.

على أن هذا الموصوف بهذا الوصف الذَّميم لم يبخل بماله فحسب، بل هو مَنَّاع لكل خير من مال وغيره، فهو يَحولُ بين الناس وبين الإيمان، ويحاول أن يصدَّهم وأن يصرفهم وأن ينشر قَالةَ السوء عن المؤمنين؛ حتى يمنع الناسَ من

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦١)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في رواية أخرى للحديث.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٩)، وما سيأتي في «سورة العاديات».

الخير.

﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾: فمن شأنه أن يعتدي على الناس، ففيه أَثَرة، ونَزَق، وظلم، وطَيْش؛ ولهذا يبغي على الناس بالمال إن كان تاجرًا، وبالعلم إن كان عالمًا، وبالديانة إن كان ظاهره التدين، ويبغي عليهم إن كان شريكًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [ص: ٢٤]، وكثيرًا ما يبغي المختلفون بعضهم على بعض، ويتجاوزون حدود العدل والإنصاف والأخلاق؛ ولهذا قال الله: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧- ٩].

فأساس علاقته مع الناس الاعتداء والتجاوز، أما علاقته مع الله، فأساسها الإثم؛ ولهذا قال: ﴿أَثِيمٍ﴾، ومَن ارتكب إثمًا يقال له: آثم، مَن أكل الرِّبا فهو آثم، ومن زنا فهو آثم، لكن الله وصفه بأنه ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم[1]، وهذا معناه أن الإثم لم يعد مجرد حالات خاصة، فإن المؤمن قد يُخطئ، وقد يعصي، وقد يستزله الشيطان، أو تستزله النفس الأمَّارة بالسوء، ولكنه سريع الأَوْبَة، لا يقيم، ولا يصر على المعصية، أما هذا، فالإثم مطبوع عليه، حتى أصبح جزءًا من خُلُقه وشخصيته، ودخل فيمَن وصفهم الله بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾ [البقرة: ٨١].

وفي تقديم وَصْفه بأنه ﴿مُعۡتَدٍ﴾ على وصفه بأنه ﴿أَثِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى عظم شأن حقوق الناس، وأن الدين جاء بحفظ الحقوق والأمر بها، ووعده بأعظم الأجر على أدائها، وتوعَّد بأعظم الوعيد على الإخلال بها، وهذه معانٍ يحتاجها الناس الذين يقرؤون القرآن، فيتعلَّمون أن حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة[2]، وأن من غير المفهوم أن يكون فرد ما أو مجتمع

(١) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٤).

(٢) ينظر: «المنثور في القواعد الفقهية» (٢/ ٥٦)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤/ ٢٤١).

متصفًا بالتدين التعبدي، محافظًا على قرباته، ثم هو يستخف بالحقوق الإنسانية، ويعتدي عليها، ولا يقيم لها وزنًا، ولا يعترف- ولو نظريًّا- بالكثير منها!

* ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

﴿عُتُلٍّ﴾- بضم العين والتاء وتشديد اللام-: غليظ الأخلاق[(١)].

وفي ذلك إشارة إلى أن من علامات التدين والإيمان: الرفق والسماحة، فلا تكن فظًّا ولا غليظًا ولا عبوسًا، بل تواضع وابتسم وطيِّب كلامك.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إضافة لما سبق في الآية قبلها من اعتدائه على الناس، وجرأته على حدود الله، فهو غليظ قاسٍ، لا يندَى ولا يلين ولا يتأسف ولا يتراجع، وكأن هذا السياق يفسِّر نمطًا من الطِّباع المرذولة والأخلاق الفاسدة في فِئَام من الناس تبين عند الأزمات، فيتسلطون بغير حق، ويهاجمون ويكذبون ويزوِّرون ويمعنون في إجرامهم، بلا تردد ولا ضمير ولا خوف من الله، ولا من عباده، ولا حساب للعواقب!

﴿زَنِيمٍ﴾: والزَّنَمة: قطعة صغيرة من اللحم معلَّقة برقبة الحيوان أو أذنه[(٢)].

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه ملحق بقومه، وليس منهم[(٣)].

وقد ورد أن الوليد بن المغيرة ادَّعاه أبوه وعمره ثماني عشرة سنة، أما النضر ابن الحارث بن كَلَدَةَ فقد ورد أنه لم يكن من قريش، وإنما كان من ثَقِيف أو غيرها، ثم جاء إليهم وأصبح حَلِيفًا لهم.

وليس المقصود هنا التعيير بالنسب، وإنما معاملته بنقيض ما يدَّعي، فبعدما قطع عنه الفخر بالأخلاق وبالدين، قطع عنه الفخر بالنسب، وقال: إنه ملحق

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣٢).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١١/ ٤٢٣)، و«تاج العروس» (٢٩/ ٤٢٥) «ع ت ل».

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٢٧٥)، و«تاج العروس» (٣٢/ ٣٣٥) «ز ن م».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٦٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١- ٣٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٣).

بهؤلاء القوم، وليس منهم أصالةً، فلم يعد له ما يفخر به من أمر الدين ولا من أمر الدنيا.

وجرت العادة أن الملحَق بالقوم وليس منهم أصالة يكون مزايدًا على ما يذهبون إليه، فيكون ملكيًّا أكثر من المَلِك- كما يقال- لأنه يريد بهذا إثبات رسوخه وولائه، أو الحصول على موقع متقدِّم، بسبب حاجة المجموعة التي ينتمي إليها، لسلاطة لسانه وجرأته في مهاجمة الخصوم، وهو أمر يتكرر في حِقَب التاريخ.

* ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾:

هذا على سبيل الاستنكار، أن يكفر ويعاند لكونه ذا مال وولد، وقد ورد في قصة الوليد بن المغيرة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ [المدثر: ١٢- ١٤]، فبدلًا من أن يشكر كفر[(١)].

وقد يكون المعنى: أن كفره وإيغاله في الشر والتنقيص من صاحب الرسالة وأتباعه، هو للحفاظ على مكاسبه من المال، وتحقيق الفرص التي يحتاج إليها للمزيد من لُعاعة الدنيا[(٢)] له ولبنيه! ولذا يُوصف المال والولد بأنه فتنة، وكم من عقل رشيد ضل وتجاهل الحق لأجل منصب أو رئاسة أو فرصة تجارية.

* ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إذا قُرئ عليه القرآن يكذِّب، ويزعم أن قصصه وأخباره أساطير مأثورة عن السابقين، والوليد هو أول مَن قال: هذا ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾[(٣)] [المدثر: ٢٤]، وبعد ذلك تلقَّفته عنه أفواه زعماء الكفر والضلالة، فصاروا يقولون: هذه ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، **والأَساطير** جمع: أُسطورة، وهي الأُكذوبة، **وقيل**: هي كلمة عربية مأخوذة من

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٦٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢١- ٤٢٢)، وما سيأتي في «سورة المدثر».

(٢) أي: الشيء القليل منها.

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٦٢)، وما سيأتي في «سورة المدثر».

السطر والكتابة[1]، أو كلمة رومية معرَّبة[2].

* ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾:

أي: سنضع له وَسْمًا مثل ما يُوسم الحيوان، والعادة أن وَسْم الحيوان يكون في أذنه ليُعرف، أما هذا فوَسْمه على الخرطوم، **والخرطوم**: الأنف، وغالبًا ما يُستخدم للحيوان، مثل خرطوم الفيل، **والمقصود** هنا: أنف الإنسان[3].

وذكره هنا مناسب لقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾، ففيه إشارة إلى غياب الجوانب الإنسانية فيه، وظهور الجوانب البهيمية والحيوانية من جنس الشَّرَه في الأكل والشرب، والعدوانية، وتميزه عنها بإرادة الشر ومنع الخير والتسلط على الناس، فهذه صفات بارزة فيه.

وقد حدث هذا يوم بدر، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن صاحب هذه الآية ضربه المسلمون يوم بدر على أنفه، فكان وَسْمًا فيه إلى أن مات، وأصبح الناسُ يعرفونه به[4].

وهذا مناسب لسياق الوعد، فإنه لم يكن وقت نزول الآية موسومًا، بل توعَّده الله بذلك.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٧)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٥٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٧)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٢٩)، و«لسان العرب» (٤/ ٣٦٣) «س ط ر».

(٢) ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٩/ ٤٣٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٦/ ٥٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٦)، (٣٠/ ١٩٨)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾، و«سورة الفيل»: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٧٩) «خ ر ط».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٨)، والمصادر السابقة.

قصة أصحاب الجنة:

بعد المواجهة مع الملأ المشركين المتمرِّدين العُتاة، ينتقل السياق إلى قصة لم تُذكر في غير هذه السورة، وقد ضربها الله مثلًا لزعماء قريش، كما سيضرب المثل بصاحب الحوت للنبي ﷺ.

* ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم بالمال والولد والزرع والإيمان والكفر[(١)]، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: وهذه جنة كانت في اليمن، قريبة من صنعاء، في قرية اسمها: ضَرَوانُ، قيل: كان صاحب البستان رجلًا كريمًا، يعطي الفقراء والمساكين والمحتاجين، وكان له ثلاثة من الولد، فلما تُوفِّيَ تغيَّرت طريقتهم، وقرَّروا أن يمنعوا الفقراء والمساكين حقَّهم؛ فعاقبهم الله تعالى عقابًا عاجلًا، فأحرق جنتهم، فأصبحت كالصَّريم[(٢)].

وَضَرْبُ الله تعالى المثلَ في هذه القصة إشارة إلى أن أهل مكة إن أصرُّوا على كفرهم وجحودهم، فسوف يصنع الله تعالى بهم كما صنع بأصحاب الجنة[(٣)].

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: حلفوا لَيَصْرِمُنَّها صباحًا، وفي آية سابقة قال: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم: ١٠]، وهؤلاء أقسموا، وقال في آية سابقة: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢]، وهؤلاء منعوا الخير، فهنا تشابه، وقد تقاسم هؤلاء الإخوة فيما بينهم على قطع ثمار الجنة ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: أول الصباح، قبل أن يأتيهم الفقراء والمساكين؛ قصدًا إلى حرمانهم من ثمارها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٨٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦١٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٣٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٧).

والصِّرام: قطف الثمرة من النخل في موسم معروف[1].

* ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾:

ما قالوا في قَسَمهم: إن شاء الله؛ لأنهم واثقون بقدرتهم على ذلك، ولم يستثنوا حق الفقراء والمساكين؛ لأنهم قصدوا أن يصرموها أول الصبح؛ حتى لا يعلم بهم أحد[2].

* ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾:

والطائف غالبًا يأتي بالليل، ومنه يقال: الطَّيْف، يعني الحُلُم الذي يراه الإنسان في المنام، وهذا الطائف نار أحرقتها وهم نائمون، كانوا يظنون الأمور على ما يرام[3].

* ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾:

والصَّريم: الليل المظلم[4]، الذي ليس فيه برق ولا نور، فأصبحت المزرعة كالليل المظلم، وهم لا يعلمون بذلك.

وبين الصَّرْم- الذي هو القطف- والصَّريم- الذي هو الليل- تناسب لفظي، وفيه تعجيب وسخرية من حالهم وجهلهم وسوء تدبيرهم.

* ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

نادى بعضُهم بعضًا آخر الليل، وكلٌّ واحد يستعجل الآخر: إذا كنتم عازمين على الصِّرام فهيًّا عجِّلوا.

---

(١) بكسر الصاد وفتحها، وأصل المادة الدلالة على القطع، ومنه: الصُّرم والصَّرم، وهو القطيعة. ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٤١٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٢٨٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٣٨).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص١٧٥)، و«لسان العرب» (١٢/ ٣٣٤) «ص ر م».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٤)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٧٤٤) «ر ص م».

وهذا لا يُقصد به الشرط، وإنما يُقال على سبيل الاستبطاء والحث على التعجيل[1].

والغُدُوُّ: الذهاب المبكِّر في أول النهار[2]، والعادة أن أصحاب المصالح يبادرون إليها؛ ولذا عدَّ النبيُّ ﷺ الغدوةَ في سبيل الله أو الرَّوْحةَ خيرًا من الدنيا وما فيها[3]، وقال: «كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها»[4]. فرايات المبادر إلى الخير أو الشر تُرفع وتتنافس أول النهار مع أشعة الشمس الأولى أو قبلها، حيث تتجدَّد الحياة في الكون وما يحتويه.

* ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ وهذا يوحي بالسرعة والعجلة، ومع الانطلاق هم ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ كل واحد يهمس في أذن الثاني[5]، في حين يخبرنا الله العليم بماذا يتخافتون، فعلم بهم أول الأمة وآخرها، القاصي والداني، وأنهم كانوا يقولون: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: لا يدخل عليكم مزرعتكم أو حديقتكم أحد من المساكين، فأَحْكِموا الإغلاق.

* ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

وأقرب معاني **الحَرْد** هنا: المنع، فهم يظنون أنهم قادرون على أن يمنعوا الفقراء والمساكين، وما كان بينهم وبين الوصول إلى الحديقة إلا يسير.

ومن معاني **الحَرْد**: الحقد والمقت والغضب، فهم غاضبون على الفقراء

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨١- ٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٤). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٣)، و«لسان العرب» (١٥/ ١١٦)، و«القاموس المحيط» (ص١٣١٧) «غ د ا»، و«فتح الباري» (٦/ ١٤).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٦٨) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٤).

والمساكين، ناوون بهم شرًّا[1].

وهكذا هو الإنسان الجحود، يظن أن بيده تدبير الأمور، فهذه أمواله يتصرف فيها ويُعطي ويمنع، وهذه أرضه، وهذا قراره.. فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، وغالبًا ما يحمله الغرور على تكرار حماقاته دون اعتبار، وقليلًا ما يفيق ويرعوي ويستغفر ويتوب.

* ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧﴾:

أي: أخطأنا طريق جنتنا[2]، ثم أدركوا أن هذا عقاب الله تعالى لهم، وأنهم قد ضلوا حينما منعوا الفقراء حقهم؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي: أن الله تعالى أراد حرماننا ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦]، و«الجزاء من جنس العمل»، فلما حرموا الفقراء والمساكين رأوا المصيبة والنكبة، وجرى بينهم حوار أشبه ما يكون بالمراجعة والنقد للنفس والتبكيت لها.

* ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾:

﴿أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أي: سنًّا، وأعقلهم، وأعدلهم، وأكثرهم إيمانًا، وأفضلهم رأيًا[3]، ويبدو أنه لم يكن على رأيهم، بل كان معترضًا، ولكنه رآهم مصرِّين على ذلك، فوافقهم وانطلق معهم؛ ولهذا كان أسرعهم أَوْبة وإفاقة: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تسبحون الله تعالى فتعطون المساكين حقهم ولا تبخسونهم[4].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٣- ٣٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٢١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٩)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٤٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٦٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩١)، والمصادر السابقة.

* ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾:

سبَّحوا ربهم بعد ما رَأَوْا العاقبة، واعترفوا بذنبهم، وهذا دليل على إيمانهم(١).

* ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾:

واللَّوم درجة وسط دون التوبيخ وفوق العتاب، فأنت تعاتب ثم تلوم ثم توبِّخ، فهم كانوا ﴿يَتَلَـٰوَمُونَ﴾ ويقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ﴾، لكن هذا التلاوم مفيد؛ لأنه تضمن اعترافًا بمسؤولية كل فرد منهم، وكل واحد منهم يُلْقي باللائمة على نفسه ويقول: أنا كنتُ ظالمًا، أما التلاوم غير المفيد فهو التلاوم الذي يُقصد به إلقاء التَّبِعة على الآخرين، وتبرئة النفس من ذلك، والتهرب من المسؤولية.

* ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾:

آمنوا بالله واعترفوا بالخطأ؛ ولذلك أبدلهم الله تعالى خيرًا منها؛ لأنهم أنابوا(٢).

وهي حال قليلة الحدوث، فالغالب هو الإصرار حتى نزول العذاب، كما في قصة صاحب الجنتين في «سورة الكهف»(٣).

وسرد هذه القصة بخاتمتها الطيبة الإيجابية فيه عظة وعبرة وزجر وتحذير لا

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٩٧)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٨٨).

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

يحمل على اليأس والقنوط.

* ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

يعني: هذا جزء من عذاب الدنيا بذهاب المال[1]، وفيه تعريض أن يصيب الله كفار مكة بعذاب، وإن كانوا في نعمة فارهين، وقد حدث هذا، فلما استكبروا دعا عليهم النبيُّ ﷺ وقال: «اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسفَ»[2].

* ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾:

بعد أن ذكر جنة الدنيا والمال والبنين ذكر أنه أعدَّ للمتقين ما هو خير من ذلك، وقد كان أولئك القوم يقولون للنبي ﷺ: نحن خيرٌ منكم في الدنيا، وسوف نكون خيرًا منكم في الآخرة، كما قال صاحب الجنة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦]، أما أصحاب الجنة فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ٣٢].

فقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فيه تذكير وبيان أن جنة الآخرة ليست كجنة الدنيا الزائلة التي لا يُؤمن عليها الآفات والطوفان والجفاف[3].

* ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

كلا والله، لا يكون هذا! بل بينهم البون الشاسع ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾[4] [السجدة: ١٨].

* ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: بأي ميزان، وبأي منطق حكمتم بأنكم سوف تكونون أفضل من المؤمنين

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠٧، ٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ». وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٩٢).

في الآخرة؟!

هذا حكم جائر لا يقوم على اعتبار العمل والإيمان والأخلاق، بل على اعتبار شرف النسب أو السمعة أو المكانة العابرة في الدنيا.

* ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

هل بنيتم هذا الحكم على كُتب درستموها، فأوصلتكم إلى هذه الحقيقة؟!

وفي ذلك إشارة إلى أهمية العلم والمعرفة، وأن أي دعوى يدَّعيها الإنسان بدون علم وحجة فهي مردودة عليه، وكما قال ﷺ: «**لو يُعطَى الناسُ بدَعْواهم، لادَّعى ناسٌ دماءَ رجال وأموالَهم، ولكنَّ اليمينَ على المُدَّعى عليه**»(١).

وهم كانوا أُمِّيِّين، لا كتاب لهم، فمعظم ما وقعوا فيه سببه الجهل والعماية والتقليد الراسخ في عقولهم لموروثهم، وكانوا يعرفون أهل الكتاب، ويعتقدون بفضلهم، ففي الآية تعريض بجهلهم.

فهذا المدَّعِي أنه سيكون في الآخرة أفضل من بلال وعمار وصُهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أين يجد البيِّنة على ذلك؟ أله كتاب درس فيه ذلك؟ أله حجة وبرهان؟

* ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

يعني: هل هذا الكتاب الذي تدرسون فيه على هواكم، فيه الشيء الذي تختارونه، وفيه أن لكم الجنة والمجد والفضيلة والرفعة، حتى في الآخرة؟

وهذا سخرية منهم، واستضعاف لعقولهم، وكأن هذا الكتاب الذي يدرسونه جعل لهم كل ما يختارونه، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل: ٦٢].

* ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

وهذا سؤال تهكُّمي، والمعنى: هل جاءكم نبيٌّ أو رسولٌ بأَيْمان مغلَّظة من عند الله بعقود وعهود لكم خاصة يا معشر قريش؟!

لقد كانوا يقولون: نحن أهل الحرم وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية وأهل بيت

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٢)، ومسلم (١٧١١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الله، فهل لهم أَيْمان إلى يوم القيامة- وليس فقط في الدنيا- بأن تكون لهم الدنيا، ولهم الخير، حتى يوم القيامة؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كأن الحكم صار لكم في الدنيا، وصار لكم في الآخرة، في حين أن أحدكم لا يستطيع أن يتحكَّم في نفسه.

ولغة الغالب المتسلِّط المغرور تقول له: إن لك الدنيا وأنت فيها بمَعْزِل عن الهلاك والزوال، وكلما ذهب منك جيل ورث السُّؤْدُد جيل آخر يجدِّد أمرك، وكأنك استثناء من سنن الله ونواميسه في كونه.

وتقول له: إن لك الآخرة أيضًا، خاصة حين ينخدع بزخرف المدح والثناء والإطراء وتسويغ ما يقع منه وإلباسه لبوس العمل الصالح.

وقريش كانت تغتر بقيامها على البيت الحرام وخدمة الحجيج، وترى لها بذلك فضلًا على سائر العرب!

* ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: اسألهم يا محمد: مَن هو الذي يكون زعيمًا لهم بهذا؟ والزعيم هو: القائد أو الكفيل، كما قال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾(١) [يوسف: ٧٢]، مَن الذي يتكفَّل عن جماعته وقومه بأن يعطيهم هذه الوعود في الدنيا والآخرة؟ لم يكن لهم كتاب يدرسون فيه، ولا عندهم عهود ومواثيق من الله بالغة إلى يوم القيامة، وما عندهم كفيل يكفل لهم ذلك ويتعهَّد لهم به، فما سر ثقتهم وطمأنينتهم إلى مستقبلهم، وكأنه لا يعنيهم، أم أنهم حاصلون على أمان قاطع؟

* ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾:

فهل لهم أحد ينصرهم من الأوثان والأنداد والمعبودين؟

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾: ليأتوا بهم في الدنيا؛ ليثبتوا هذا الأمر، أو ليأتوا بهم يوم القيامة(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٥٣)، (٢٣/ ١٨٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٨٦)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٣).

إن السياق يحاصرهم بكافة الاحتمالات والوجوه بأسئلة صريحة لا ينتظر منهم إجابتها، بل عليهم أن يواجهوا بها أنفسهم؛ علَّها أن تقودهم إلى الحقيقة.

* ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: سوف تبين حقائقهم ومصايرهم في ذلك اليوم العظيم، يوم الشدة العظيمة، والعرب كانوا يعبِّرون عن الشدة بهذا[(١)]، كما صحَّ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه كان يقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: عن شدةٍ[(٢)]، والشاعر يقول[(٣)]:

قد شَمَّرتْ عن ساقها فشُدُّوا ... وجَدَّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا

لأن الناسَ في الشدة يكشفون عن سُوقهم، والمرأة تكشف عن ساقها للخدمة، والرجل يكشف عن ساقه للقتال أو للهرب أو للانشغال عن ستره وملاحظته.

وصحَّ من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما يوضِّح هذه الشدة؛ ففي «الصحيحين»، أن رسولَ الله ﷺ قال: **«يكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجدُ له كلُّ مؤمن ومؤمنة، فيبقى كلُّ مَن كان يسجدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ ليسجدَ، فيعودُ ظهره طبقًا واحدًا»**[(٤)].

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ حين يتجلَّى ربنا سبحانه، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يملكون السجود في ذلك اليوم، وهم يخاطَبون الآن حيث يستطيعون، وبمقدورهم ألَّا يكونوا من أهل ذلك الموقِف العصيب.

---

(١) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص٨٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٣٦) «س ا ق».

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٣٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٤٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٩)، و«فتح الباري» (١٣/ ٤٢٨).

(٣) ينظر: «الكامل في اللغة والأدب» (١/ ٢٩٨)، و«تاريخ دمشق» (١٢/ ١٣٠)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢١/ ٢٠٨) منسوبًا إلى الحجَّاج الثقفي.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٩، ٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

* ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾:

هذا خشوع اضطراري بسبب الانتكاسة التي يشعرون بها، والذِّلة التي تغشاهم من كل مكان، وقد كانوا في الدنيا سالمين، أصحاء الأبدان، أقوياء الأجسام، الواحد منهم عُتُلٌّ طويل عريض، فيستكبرون عن السجود، أما الآن فهم يريدونه فلا يمكنون منه[1].

* ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾:

أي: اتركني معهم، واتركهم لي، ولا تحمل لهم همًّا، ولا تقلق منهم، ولا تدخل معهم في شيء، دعني وإياهم.

وفيه تسلية للنبي ﷺ، وتطمين له بأن يمضي في دعوته ويصبر، وفيه تهديد ووعيد شديد لهم؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ صاحب القدرة التامة والعلم والملك يتوعدهم بأنه لهم بالمرصاد وإن أمهلهم[2].

والمقصود بـ﴿هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾: القرآن، أو حديث الآخرة والغيب والجنة والنار[3].

﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: وفي هذا وعيد شديد، والاستدراج أن تُنزل عدوك درجة بعد درجة، فتتدرَّج معه، وتمهله وفق خطة محكمة يقع في نهايتها في الفخ أو المصيدة بعدما ظن أنه فاز أو نجا!

ومن أي طريق سيستدرجهم؟ من الجهة التي لا يعلمونها ولا يدركونها، مثل مَن يتوقع أن يأتيه العدو من هذه الجهة، وعنده يقين بذلك، فيفاجأ به وقد خَتَله[4] من الجهة الأخرى التي لم تكن تخطر على باله، ولو كان يعلم لاتَّقى

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٧٢)، والمصادر السابقة.

(٤) أي: خدعه.

ذلك الاستدراج، لكن إذا كان البلاء سيصيبهم من حيث لا يعلمون، فكيف لهم بتلافيه؟ اللهم ارحمنا ولا تكلنا إلى أنفسنا.

وهذا وإن كان وعيدًا للكفار، إلا أنه يمنع المرء المسلم أن يغتر بعطاء الله، فقد يكون ذلك استدراجًا لا رضًا، كما قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، فقد يعطيك الله المال والولد والسُّمعة والرئاسة والجاه والمنصب والزوجة والسكن والعافية، فلا تقل: هذه النعم دليل على أن الله راضٍ عني، فالله يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، حتى العلم بالشريعة أو التعبد والصلاح قد يكون استدراجًا، إن لم يصاحبه صدق إيمان وخضوع وانكسار وتواضع لله.

والله يستدرج الكافرين في الدنيا من حيث لا يعلمون، كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد نشأ في حِجْر فرعون، وكذلك قريش كادوا للنبي ﷺ، فأنقذه الله منهم، وحماه وأظهر دعوته.

* ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾:

الإملاء: الإمهال، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، أي: أمهلهم وأَنْظرهم وأعطِهم الفرصة بعد الفرصة(١).

والمرء من طبعه العجلة في الدعاء وتوقع التغيير ونزول العذاب ونصرة المؤمنين والمظلومين، ولكن الله لا يعجل لعجلة خلقه، ولا يستجيب لرغبات البشر السريعة التي ربما يندمون عليها بعد وقوعها!

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: الكيد هنا في مواجهة كيد الكائدين وكفر الكافرين؛

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٢٠٠)، و«الكشاف» (٢/ ٥٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٢).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٧٧)، و«النهاية» (٤/ ٣٦٣)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٩٠) «م ل ا».

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥- ١٦]، فكيدي في مقابل كيدهم ومكرهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿مَتِينٌ﴾ يعني: ليس ككيدهم وكيد أنصارهم من الشياطين، فكيدهم ضعيف، كما قال الله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

ووصفه بأنه ﴿مَتِينٌ﴾ يُوحي بأنه بطيء؛ ولكنه مؤكَّد راسخ عصي على التدارك(١).

* ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: هل أنت تسألهم أجرًا، فتريد منهم أن يعطوك مقابل دعوتك مالًا؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: يقولون: العطاء ثقيل علينا، هذا هو المَغْرم، والنبيُّ ﷺ كان يستعيذ بالله من المأْثَم والمَغْرَم، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا رسولَ الله من المَغْرَم! فقال: «إنَّ الرجلَ إذا غَرِمَ حدَّث فكذبَ، ووعدَ فأخلفَ»(٢).

وفي هذا دليل على أنهم أصحاب أموال، وفيه تعريض بمنعهم للخير، وحبهم الشديد للمال، فهل تكذيبهم بسبب أنه كان يطلب منهم أجرًا؟ كلا، فالنبي ﷺ يقول: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩].. وهكذا جواب الرسل جميعًا، فالدعوة ليست خاضعة للمساومات المالية، ولا تتطلَّب من المدعوين ضرائب وأموالًا باهظة، بل هي دعوة التطهر والصلاح، والغالب أن أهلها هم الفقراء والضعفاء والمساكين، فهل هؤلاء من الدَّيْن مُثْقَلُون، يقولون: لن ندفع ما يترتب على دعوتك من تبعات واستحقاقات مالية؟!

* ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

فيعلمون كل شيء، ويطَّلِعون على الغيب وينقلون منه، ليس الأمر كذلك، فهم لا يعلمون، ولا يكتبون، ولا يقرؤون!

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٩/ ١٩٢)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٧)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والنبيُّ ﷺ نفسه لا يعلم الغيب، فهل عندهم من الغيب ما ليس عنده؟!

* ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾:

كما ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة مَثَلًا لقريش، وتهديدًا لهم بأنهم إن كفروا سيعذِّبهم؛ ذكر لنبيه ﷺ قصة ذي النُّون[١].

والمقصود بقوله: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: لقضائه وقدره[٢]، وإن كان الحكم يشمل أيضًا الأمر الشرعي، فالله يكتب ما يشاء، ويعجِّل ما يشاء، ويؤجِّل ما يشاء؛ فاصبر لحكم الله بالمرض والصحة، والقوة والضعف، والغنى والفقر، فلا بد من الصبر على القَدَر، واصبر لحكم الله الشرعي، فإذا أمرك الله بالصلاة فَصَلِّ، وإذا أمرك بالإعراض فأعرِضْ، وإذا أمرك بالهجر فاهجرْ هجرًا جميلًا، وإذا أمرك بالصبر فاصبر صبرًا جميلًا.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي: فلا يقع منك ما وقع لصاحب الحوت، وهو يُونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان في العراق في نِينَوَى[٣]، فضاق ذَرْعًا بقومه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أي: أن لن نضيِّق عليه، وأنه لا يلزمه دعوة هؤلاء القوم[٤]، فخرج مغاضبًا، وركب السفينة، فعطبت وأُلقي في البحر: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]، يعني: آت بما يُلام عليه[٥].

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: نادى ربه: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾

---

(١) النُّون: الحوت.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٣٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٨٧)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٣٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (١١/ ٢٩٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٨)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٣٠٢)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٥/ ١٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٩٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٣٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٦).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٦٠)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨)، و«التفسير المظهري» (٨/ ١٤٤)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٧١).

[الأنبياء: ٨٧]: ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[١]، وقد رُوي أن الملائكة كانوا يقولون: يا ربَّنا، هذا صوت معروف من مكان غير معروف![٢].

والكظم يكون في داخل الإنسان ولا يبوح به، فكان يُونس ضائقًا بما جرى من قومه، وهو أيضًا مكظوم في بطن الحوت بما صار إليه الأمر، نادمٌ على ما جرى منه، عالمٌ أنه لا يزيل عنه هذا الكرب إلا الله، كما قال سبحانه عن يعقوب: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

* ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾:

فقد جعل الله تعالى الحوت يلقيه بالساحل، فأخرجه الحوت، كما في قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، فتداركته نعمة الله وعنايته، فسلم من الذم والعقاب، وتحقَّق له الاجتباء وحسن المآب، فعلى الإنسان أن يسبِّح الله إذا عصى مثلما سبَّح أصحابُ الجنة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك: ٢٩]، وكما ألهم الله يُونس عَلَيْهِ السَّلَامُ التسبيح والاستغفار: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣].

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾: يعني أتى بما يذم عليه[٣]، وهو قد نُبذ بالعراء، ولكنه غير مذموم، فالله تعالى غفر له.

أو أن المعنى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لبقي في بطن الحوت، كما في قوله: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤]، ولكن ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فأخرجه من بطن الحوت، وأخرجه بعفو ومغفرة.

* ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

يعني: أرسله إليهم مرة أخرى، واختاره واصطفاه، فآمن قومه، ومتَّعهم الله

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٣٥١)، و«زاد المسير» (٣/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٧).

(٢) ينظر: «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٣٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٦٢٨)، و«الدعاء» للطبراني (٤٧)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (١٠٧٩)، و«الدر المنثور» (١٠/ ٣٥٩)، (١٢/ ٤٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٨٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٣- ٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٠٦).

إلى حين.

فهي دعوة لرسول الله ﷺ بالصبر، وعدم الاستعجال للمكذِّبين، وتفويض الأمر لرب العالمين، فالأمر منه وإليه، وهو ولي الصالحين بالعاقبة الحسنة، ومتوعِّد المفسدين بالنَّكال، لكن متى؟ وكيف؟ وأين؟ فهذه موكولة إلى الجبار المدبِّر، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وقد يقع كثيرًا للمصلحين والغيورين استبطاء التغيير والفرج، والانزعاج من تقلب الظالمين في البلاد، وتَلَعُّبهم بالعباد، ويرون أنهم يدعون ويدعون، ولا يُستجاب لهم، وفي مثل هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام: ٣٥].

* ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾:

أي: ينظرون إليك نظرًا حديدًا[1]، ويقولون فيك قولًا شديدًا، ويحاولون أن يؤثِّروا في دعوتك، وأن يجعلوك تنزلق عن الطريق وتنحرف ولو قليلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال قبل: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

ومن معاني هذه الآية أنهم بشدة نظرهم إليه وحِدَّته يحاولون أن يسقطوه عن الطريق، فلا يدعوه يمشي ﷺ.

وحمله بعضهم على المعنى الحِسِّي، واستدلوا به على إثبات الإصابة بعين الحاسد[2]، والأقرب أن المقصود معنوي.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾: وهذا قد نفاه ربه في أول السورة[3]، فأعاد ذكره في آخر السورة؛ توبيخًا لهم، وتعجيبًا منه بعدما ساق في السورة من المعاني والقصص

(١) من الحدة. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ١٤٢)، و«تاج العروس» (٨/ ١٠) «ح د د».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠١).

(٣) عند قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾.

والأمثال ما فيه مقنع للعقلاء.

* ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾:

في صدر السورة أثنى الله على النبي ﷺ بكمال العقل، وصدق الدعوة، ونفي تهم الأدعياء والأغبياء، وفي آخر السورة قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ إشارة إلى أن الأمر بالنسبة للمشركين لم يكن متعلِّقًا بشخص رسول الله ﷺ، وإنما كان متعلِّقًا بهذا القرآن، فمنذ أن سمعوه بدؤوا يشرقون ويغربون ويقولون ما لم يقولوه من قبل، فمشكلتهم ليست مع شخصه، بل مع دعوته التي تسلبهم ملكهم ورياستهم، وتكسر عاداتهم وتقاليدهم الشركية، وتعيد تشكيل عقولهم وأديانهم وعلاقاتهم وعاداتهم، وهي خير لهم عاجلًا وآجلًا، وعز وشرف، ولكنهم لا يفقهون: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهم يحاصرونه في مكة، ويلاحقونه من بيت إلى بيت، ويقولون: أسلم من بني فلان رجل، وأسلم من بني فلان اثنان، وأسلم أبو بكر، وأسلم علي، وأسلم مصعب. والأمر أعظم وأوسع، فهي رسالة الله للبشر، ومهما حاصروها فهي إلى انتشار وانتصار.

وهذه رابع سورة في القرآن فيها: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]، ففيه أن هذا القرآن سيشرق ويغرب، ويسمع به الناس، ويرتفع صوت الأذان بـ«أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» في جميع أرجاء الأرض، فلا يبقى في الأرض بيت مَدَرٍ ولا وَبَر إلا أدخل الله تعالى فيه هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليل[2].

وهذه القوة والعزة التي وعد الله تعالى بها تحقَّقت، وهذا من الأجر غير

(١) كما هنا، و«سورة يوسف» (١٠٤)، و«سورة ﴿صٓ﴾» (٨٧)، و«سورة التكوير» (٢٧).

(٢) كما في حديث تميم الدَّاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخلَهُ الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ». وتقدم تخريجه في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾.

الممنون، فحقَّق الله تعالى ما وعد به رسولَه ﷺ من الخلود والفلاح والنجاح، ولم يقبضه حتى نزل عليه: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ [النصر: ٢].

والحمد لله رب العالمين.

○○○

سُورَةُ الحَاقَّةِ

* **تسمية السورة:**

اسمها عند عامة المفسرين والمحدِّثين والعلماء: «**سورة الحاقة**»(١).

* **عدد آياتها:** اثنتان وخمسون آية(٢).

* **وهي مكية** بإجماع العلماء(٣).

* **وقد ورد في فضلها** حديث مشهور: «شَيَّبتني هودٌ، وأخواتها: ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، و﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾»(٤). ولا يصح(٥).

* ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾:

يستهل ربنا سبحانه هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ بالمد المثقَّل، فكأن الإنسان عند ما يمد الحاء يرتفع إلى علو شاهق بقدر طاقته، ثم تأتي القاف

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧١)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٤١٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٠).

(٢) وقيل: إحدى وخمسون آية؛ باعتبار قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ الأولى ليست رأس آية، واختلف في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٦] أيضًا. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١١).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٨٠٤) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأكثر طرقه لا تذكر: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾.

(٥) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٩٣١)، وما تقدم في أول «سورة الواقعة».

المشدَّدة، فكأنه ينزل بثقل، وكأنك تسمع صوت ارتطام شديد وضربة مُدوية؛ هي: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾، واستفتح تعالى السورة بهذا اللفظ المعبِّر، ولم يبيِّن ما هي ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، فـ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وصف لموصوف محذوف، وقد لا يُعرف أول الأمر ما هي.

ومن معناها:

١- أنها مأخوذة من الحقِّ، فهو شيء يحق، أي: يقع؛ ولهذا سماها تعالى بـ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ فقال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١﴾ [الواقعة: ١]، وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة: ١٥]، ومنه قوله سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: ٧٠].

٢- أنها حقٌّ من حيث إن كمال العدل يقتضي البعث، فيقتص من الظالم للمظلوم، وينتصر للمغلوب الضعيف المستضعف من الغالب المعتدي.

فهي حق بمقتضى العدل والحكمة الإلهية التي قد لا تظهر بتمامها في الدنيا.

٣- وهي حقٌّ؛ لأن الله يحق فيها الحق، ويبطل فيها الباطل، ففي الدنيا جدل كثير وأسئلة ومنازعات وخصومات، وكل أمة قد زُيِّن لها عملها، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ومن حكمة الله أن جعلها كذلك؛ لأن هذه المنافسات من أسباب ديمومة الحياة وتدافع القوى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾[1] [البقرة: ٢٥١].

ومن حكمة الله أن جعل للبشر في هذه الدنيا طرقًا شتى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ۝١١﴾ [الجن: ١١]، و«كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له»[2]، وأقام على الجميع حجته البالغة التي قد تظهر وقد تخفى، لكنه في الآخرة يحق الحق ويبطل الباطل، وينتصر للحق،

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/١٢٨- ١٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٤).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٤٥، ٤٩٤٩، ٧٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧- ٢٦٤٩) من حديث علي وجابر وعمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ويقيم القسط والميزان.

وهي ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وهي ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، وهي ﴿ٱلْقَـارِعَةُ﴾، وهي ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، وهي ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، وهي ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمَّى وطوله وتنوعه وكثرة أحداثه، ولا تجد هذا في أسماء ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في القرآن الكريم.

* ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾:

وهذه صيغة قرآنية متكرِّرة، مثل قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ [القارعة: ٢]، وهو سؤال تعظيم وترهيب، يذهب بالعقل كل مذهب، ويحرِّك الخيال؛ لتصوُّر معنى ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، واستحضار أحداثها؛ لأن الإيمان بالآخرة لا يكفي فيه قيام حجة العقل أو الشرع ليكون مؤثِّرًا، بل ينبغي أن يلامس المشاعر والأحاسيس، ويداعب الخيال، وأن يعيش المرء فيه على سبيل التوهم، حتى يصبح كالحقيقة القريبة.

* ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾:

قال سُفيان بن عُيينة: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به»(١).

وهذا في الغالب؛ فقد جاءت: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ثلاث عشرة مرة، كلها أخبره بها، إلَّا ما في هذه السورة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾، وما عداها فقد أخبره بها، وهي:

في «سورة المدثر»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾، وفي «سورة المرسلات»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾، وفي «سورة الانفطار»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، وفي «سورة المطففين»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾، وأيضًا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾، وفي «سورة الطارق»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾، وفي «سورة البلد»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾، وفي

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣/ ٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٣)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٢٠٤- ٢٠٥)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٥٥)، و«عمدة القاري» (١١/ ١٣٠)، و«إرشاد الساري» (٣/ ٤٣٠).

«سورة القدر»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾، وفي «سورة القارعة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾، وأيضًا: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾، وفي «سورة الهمزة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾ فكلها أخبره عنها، إلا ما في «سورة الحاقة».

أما ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فقد جاءت ثلاث مرات: في «سورة الأحزاب»: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾، وفي «سورة الشورى»: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾، وفي «سورة عبس»: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾، فلم يخبره فيها صراحة، إلا أنه في الثالثة قد يكون أخبره؛ لأنه قال: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾، فهو وإن لم يصرِّح هل هو تزكَّى أم لا، إلَّا أن «لعل» من الله تعالى للتحقيق[1].

والمقصود التعظيم والتهويل، وتوجيه الإنسان إلى أن يسأل: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ لأن لغة البشر عادةً تقف عاجزة، وتقصر عن التعبير عن بعض المعاني التي لا نظير لها فيما يرى ويشاهد ويلمس، فالناس يعرفون أشياء؛ لأنهم رأوها بأعينهم، أو بمقايستها بشبيهاتها، أو بالشهود الذين يصفونها، لكن أمر ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ شيء عظيم، فما رَأَوْهُ ولا رَأَوْا مثله، ولا رآه أحد من الناس فيصفه لهم، فإنه من أمر الغيب، وهو أمر بالغ في الهول مبلغًا لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: لا تدري ولا أحدٌ يدري[2].

وعادةً ما يرد بعد هذه الصيغة ما يشبه الجواب الذي يزيد الأمر مهابةً وعظمة.

أما إذا جاء اللفظ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ بصيغة المضارع، فإن الأمر يختلف، وقد يدل على نفي العلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾ [عبس: ٣]، أي:

---

(١) باختصار من تتمة «أضواء البيان» (٨/ ٤٩١- ٤٩٢)، وينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٤٤)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٥٥- ٢٥٦)، و«الإتقان» (٢/ ١٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٤).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٦٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٣).

لست تدري[1]، وعادةً تكون متضمِّنة لإثبات جواب، مثل قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]، ففيه إشارة إلى أن الساعة قريبة.

* ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾:

و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ هي ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، لكنه ذكر لها اسمًا آخر؛ زيادة في تهويلها، وملء العقول والأسماع والقلوب بهولها، فلم يقل: «كذَّبت ثمودُ وعادٌ بها»، ولم يقل: بـ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ لأن التكرار إذا زاد على ثلاث فهو غير مستساغ في لغة العرب؛ ولهذا نوَّع سبحانه في اللفظ، فجاء باسم جديد يكشف عن صفة من صفاتها الرَّعيبة، وهو القرع، أي: الضرب بشدة على الأسماع والقلوب[2].

وذكر الله ثمودَ وعادًا؛ لأنها قبائل من العرب العاربة الذين كانوا ثم بادوا، وهم معروفون بمساكنهم القريبة نسبيًّا من مكة في جزيرة العرب، وقد كان العرب يمرون على مساكنهم، فيشاهدون آثارهم القائمة، ولم تغن عنهم قوة أجسامهم وعمارتهم حين جاءهم العذاب، وفي ذلك العبرة والعظة لغيرهم.

وفي ذلك تنبيه لقريش أنكم لستم أكثر منهم عددًا ولا أقوى منهم، فهم ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: ٩].

وفيه تسلية للنبي ﷺ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤]، فإن آمنوا وإلا فإن العقاب ينتظرهم.

* ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾:

وديار ثمود تقع في الحِجْر، شمال الجزيرة العربية، وهم قوم صالح، وما زالت آثارهم موجودة على الطريق بين الحجاز والشام، وكانت قريش يمرون عليها وهم ذاهبون إلى الشام، ومر بها النبيُّ ﷺ في طريقه إلى تبوك[3]، وقد كانوا أشداء أقوياء: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢]، فذكر الله هنا أنهم

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة عبس».

(٢) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٧٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٩٢)، و«روح البيان» (١٠/ ٤٩٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٧٨، ٣٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٠).

أُهلكوا ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

وفي ذلك إشارة ضمنية إلى جريمتهم، وهي الطغيان، والجزاء من جنس العمل؛ فلأنهم طغوا وكفروا وكذَّبوا نبيَّهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧]، وفي هذا التحدِّي طغيان ظاهر، فكان عقابهم بـ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ التي قضت عليهم وأهلكتهم عن بَكْرة أبيهم، وترك الله تعالى بيوتهم وآثارهم عِبْرة تدل عليهم.

وفي عذابهم أقوال أخرى[(١)].

* ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾:

﴿وَأَمَّا﴾ للتقسيم والتنويع، و﴿عَادٞ﴾ كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية[(٢)]، وقد كانت العرب تسمع أخبارهم، وترى آثارهم، وآثار قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

والريح الصَّرْصَر العاتية: الريح الشديدة، التي لا تذر شيئًا أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم، و﴿صَرۡصَرٍ﴾ تحتمل عدة معان:

أنها التي تَصِرُّ، فيُسمع لها صوت، والرياح إذا عصفت بالأبواب والنوافذ يكون لها صوت مخيف وصفير مرعب.

أو أنها الريح الباردة، زيادة على شدتها التي تحدث صوتًا[(٣)]، واجتماع هاتين الصفتين يجعلها أكثر شدة وقسوة؛ ولذلك كانت العرب تقول: «الريح الصِّر تهلك الحرث والنَّسْل»، كما قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وكان العربي[(٤)] يقول لغلامه:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٧- ٢٠٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٦٠-٧٦٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٣)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٠٤)، و«في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٦٩)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم تخريجه في «سورة القمر»: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾.

أَوْقِـــدْ فـــإنَّ الـلـيـلَ لـيـلٌ قَرُّ والـرِّيــحُ يـا واقـــدُ ريـــحٌ صِـرُّ

عـــلَّ يـــرى نـــارَك مَـــن يمرُّ إن جَـلَـبَـتْ ضيفًا فأنت حُـرُّ

ووصفها بكونها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: بالغة في الشدة مبلغها[1]، وهو مناسب لحال القول، فإنهم عَتَوْا عن أمر ربهم، فعُذِّبوا بالريح العاتية.

* ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾: الأصل أن الرِّياح مسخَّرات للناس، ومبشِّرات بالخير والمطر، وفي القرآن مواضع كثيرة يذكر الله تعالى فيها هذا المعنى، لكنه هنا ذكر الرِّيح بالإفراد، وهذا دليل على أنها عَقِيم، كما في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: ٤١]، ليست رياحًا يهدِّئُ بعضها بعضًا ويعزِّز بعضها بعضًا، وإنما هي ريح واحدة، وقد رُوي أن النبيَّ ﷺ كان إذا عصفت الريحُ يقول: «اللهمَّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا». ولا يصح[2]، ولكنه ظاهر في لغة القرآن، فالقرآن يذكر ﴿ٱلرِّيحُ﴾ للعذاب، ويذكر ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ في الغالب للرحمة، كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم: ٤٦]، فهي بمجموعها مسخَّرة للبشر في الزرع والحرث والمطر والإنبات والتلقيح والتبشير، وأما الريح الواحدة فمسخَّرة للهلاك.

والتعبير بالتسخير فيه سُخرية، مثل التعبير بالتبشير بالعذاب، وبدل أن تكون مسخَّرة لهم صارت مسخَّرة عليهم.

﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾: وهنا تحديد مدة العذاب، ومعناه أن الريح بدأت في الصباح وانتهت في الليل؛ ولذلك صارت الأيام أكثر من الليالي.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٩)، و«الكشاف» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٥٣٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٢١٧).

وأما قوله تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ فهو استعمال قرآني ليس مشهورًا عند العرب، ومعناه: أنها متصلة متتابعة غير منقطعة[1]، ومما يعرفه الناس أنه قد تعصف الرياح ثم تسكن ثم تعصف، لكن الأمر بالنسبة لهؤلاء كان متصلًا دون انقطاع أو هدوء أو توقف.

وقد رأينا آثار الدمار المرعب الذي خلَّفه إعصارات كثيرة، مع أنهم كانوا يرصدون حركته ويقدِّرون سرعته، فلم يستطيعوا له دفعًا ولا تحويلًا، وليست هذه الأعاصير في شدتها كالريح التي سُلِّطت على القوم المذكورين.

ومن معناه: أنها قاضية، والحَسْم: القضاء، ومنه تسمية السيف بالحُسام؛ لأنه يقطع[2]، فالريح أبادتهم واستأصلتهم، ولم تستثن منهم أحدًا؛ ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾، وقد يكون الضمير عائدًا إلى أرضهم، أو يكون المقصود في هذه الحادثة العظيمة: فترى القومَ فيها صرعى مجندلين على الأرض.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: وفي «سورة القمر»: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾، وتقدَّم أن كل ما كان الفارق فيه بين المفرد والجمع هو تاء التأنيث، فإنه يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل: «شجر، وشجرة»، فيُذكَّر باعتبار اللفظ، ويؤنَّث باعتبار المعنى[3].

فقد شبَّههم بالنخل التي اجْتُثت من فوق الأرض، والعَجُز: نهاية الشيء[4]،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٣٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢١١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٧)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٩)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «جمهرة اللغة» (١/ ٥٣٤)، و«الصحاح» (٥/ ١٨٩٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٣٥) «ح س م».

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة القمر».

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٨)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «العين» (١/ ٢١٥)، و«لسان العرب» (٥/ ٣٧٠) «ع ج ز».

وهو تشبيه مبتكر مرعب، وأصبح الشعراء يستعيرونه في الحوادث العظيمة، ومنه قول يحيى البَرْمَكي للرَّشِيد(1):

إن البَرَامِكَةَ الذيـ ... ـن رُمُوا لديك بداهيهْ
صُفْرُ الوجوه عليهمُ ... خِلَعُ المَذَلَّة باديهْ
فكأنهم مما بهم ... أعجازُ نخلٍ خاويهْ

فأصبح مثلًا يُضرب، وسبحان الله! كم في ذكر الأعجاز من الإعجاز؛ لأنه أشار إلى اقتلاع النخل من جذوره، وهذا قلَّما يحدث؛ فإن النخلة قد تنكسر في الريح العاصف أو تميل، لكنها لا تنقلع؛ لتجذرها في الأرض، وهذا الأخذ الشديد يذكِّرنا بقول الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿خَاوِيَةٍ﴾(2)، والأقرب أنها: مقطوعة الرأس، وإذا كانت أصولها قد قُلعت، فأولى أن تكون رؤوسها قد تحطَّمت وقُطِّعت، فأصبحت جذوعًا مجتثة من فوق الأرض خاوية من رؤوسها.

وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء القوم لا ثمرة ولا بركة فيهم، وقد شبَّههم الله بأعجاز النخل الخاوية التي ليس فيها ثمر ولا عُسُب ولا شيء يُنتفع به.

ووجه الشبه بينهم وبين أعجاز النخل الخاوية الطول والثقل، من حيث الشكل وقلة النفع، فهم كانوا مقطوعي الخير والنفع.

* ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

هذا خطاب لغير معيَّن، ممن قرأ؛ ليعتبر وليتذكَّر جزاء مَن طغى وعصى، والعرب كانوا يعرفون ذلك، وفي هذا تلويح لهم وتهديد بالعقاب الإلهي.

---

(1) ينظر: «العقد الفريد» (٥/ ٣٢٧)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢٢/ ١٤٥)، و«سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» (٣/ ٤١١).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٧- ١٦٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٥)، و «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٤)، والمصادر السابقة والآتية.

إنه عذاب استئصال جاء عليهم عن آخرهم، ولم يترك مُخْبِرًا عنهم.

* ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾:

ذكر مختصر لـ﴿فِرْعَوْنُ﴾ وقومه، وقصته مفصَّلة في القرآن، وقبل فرعون أمم كثيرة؛ منها: أمة نوح، وإبراهيم، ولوط، وشُعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقوم عاد، وثمود.

وأما المؤتفكات: فهي التي جاءت بالإفك، وهو: الكذب أو الإجرام[1]، والأقرب أن المقصود قوم لوط، فقد ذكرهم الله تعالى في غير موضع بهذا[2].

وهم ثلاث قرى، وقيل: أربعون قرية في بلاد الشام، وكانوا يأتون الذكران من العالمين، وجريمتهم الكبرى تكذيب رسالة الرسل، وإمعانهم في الشرك والكفر، فلما دعاهم نبيُّهم إلى الطهارة والتوحيد رفضوهما، بل اعتبروا الطهارة جريمة، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]، أي: لا يصلح أن يجلس أناس يتطهَّرون بيننا، وهذا مسخ في الفطرة؛ لأن الفطرة البشرية السليمة تَأْبى مثل هذا العمل.

وكان لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [الحجر: ٧١]، أي: انكحوا النساء كما أمركم الله وأحل لكم وشرع، وليس المقصود بناته فقط، وإنما بنات القرية والقبيلة، بأن يتزوجوهن[3]، ولكن الله أخبر عنهم أنهم ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]، والسَّكْرة: نوع من الإدمان وانتكاس الفطرة، والافتتان بالمتعة العابرة الحرام، وتطلبها مهما كلَّف الأمر، واستحسانها ولو كانت قبيحة[4]؛ لأن الإدمان يفسد الذوق أو يلغيه، ومثل هذه كثير من الحالات الشاذة التي تجد التشجيع

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢١)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٩١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٧)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٩١)، و«الكشاف» (٢/ ٥٨٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٦٧).

والترغيب والقانون الذي يحميها، وفي العالم الغربي شُرِّعت قوانين تسوِّغ الشذوذ، وهذا من مسخ الفطرة والانتكاس.

* **والخاطئة**: الفعلة الشَّنيعة من تكذيب الرسل وسبِّهم ورد دعوتهم، فتعود إلى ما فعله فرعون ومن قبله من الأمم، وما فعله قوم لوط؛ ولذا فسر الخاطئة بما بعدها من عصيانهم لرسول ربهم: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾:

و﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ هو: الرسول المرسَل إلى كل قوم من هؤلاء، فإفراد ﴿رَسُولَ﴾ أي: رسول لكل جماعة منهم، والإفراد هنا أجمل نظمًا من أن يقال: «فعَصَوْا رُسُلَ ربهم»، لما في إفراد ﴿رَسُولَ﴾ من التفنن في صيغ الكَلِم من جمع وإفراد؛ تفاديًا من تتابع ثلاثة جموع؛ لأن صيغ الجمع لا تخلو من ثقل؛ لقلة استعمالها، فأن يأتي بجمع ثم مفرد ثم جمع أجمل في السياق(١).

وفي ذلك إشارة إلى أن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كأنهم رسولٌ واحد؛ لأنهم جاؤوا برسالة واحدة في حقيقتها؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «**الأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّات**(٢)، **أمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»(٣). فأصل الدين هو التوحيد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وكل الرسل بُعثوا بدين واحد، وهو التوحيد: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١]، ولم يُبعث فيهم إلا رسولٌ واحد، ولما كذَّبوه صاروا في حكم من كذَّب الرسلَ جميعًا.

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: مرتفعة شديدة قوية، لا يحتاجون بعدها إلى غيرها(٤).

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢١- ١٢٢).

(٢) أولاد العلاَّت: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢١٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٢).

* ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾:

﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾: ارتفع وزاد[1]، والمقصود هنا: الطوفان الذي أغرق قوم نوح، وقد يكون عمَّ الأرض كلها؛ ولهذا امتن الله تعالى على الناس الموجودين في زمن النبي ﷺ بأنهم نَجَوْا زمن الطوفان، فهم ومَن بعدهم من ذرية مَن كانوا محمولين في الجارية- وهي السفينة- مع نوح، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]، أي: من ذرياتهم، حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم.

وعلى هذا فالناس الذين عاشوا على الأرض وامتدوا فيها هم من ذرية نوح، وممن حمل الله تعالى مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

والتعبير بالحَمْل يذكِّر بحمل المرأة بجنينها، وكأن البشرية وُلدت من جديد بعد عصر آدم، وسَلِمت من الانقراض، والتعبير بلفظ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ يعزِّز هذا؛ فإن لفظ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ يُطلق على الأنثى.

* ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾:

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: القصة التي سقناها لكم تذكرة وعبرة.

فمن الاعتبار: الاعتبار بقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والاعتبار بآيات الله تعالى في الكون وفي النفس، والاعتبار بالتجارب والدروس التي تقع للإنسان أو لغيره؛ ولذا فعمر الإنسان لا يقتصر على السنوات التي عاشها فحسب، وإنما يمتد سنين طويلة مضت أخبره الله عنها خبر الصدق، وسنين طويلة قادمة في الدنيا ثم في الآخرة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾: وفعل: تَعِي، واسم الفاعل: واعٍ، و﴿وَٰعِيَةٌ﴾ لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع، وهو اليوم من أكثر الأفعال استخدامًا في الدعوة إلى الفهم والإدراك والاعتبار من جهة، وفي الدعوة إلى الفعل والتصرف الملتزم

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠).

بالمنهج الشرعي الحق من جهة أخرى.

وكلا الأمرين مراد في الآية:

- فهم قصص السابقين وأسباب هلاكهم.

- الاعتبار بذلك، بفعل الخير المفضي إلى البقاء والمجد والعز، وتجنب ما يؤول إلى الشر والفساد والهلاك.

وعبَّر بالأُذُن؛ حفاوةً بالسماع، وتأكيدًا على الاهتمام بالوعي الذي يبدأ من الأُذُن، ولأن المرء إن غفل عن سماع الحكمة والعبرة، فهو عن تدبرها أغفل؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧]، ولأن المقام مقام حديث عن قصص السابقين، ولا سبيل إلى إدراكه ومعرفته إلا بالسماع.

وقوله: ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ أي: صاحبة وعي وإدراك وفهم[١]، وفي ذلك إشارة إلى العقول؛ لأن الأُذُن لا تَعِي بذاتها، فالأُذُن هي مجرى للصوت أو السمع، ولكن الوعي هنا هو لمدرك الحس، وهو العقل والفهم والفؤاد.

وفي ذلك دليل على عظيم نعمة الحواس والعقل، وأن من تقدير هذه النعمة الانتفاع بها، وقد حثَّ الإسلام على العقل والتفكر والتدبر والنظر والاعتبار.

* ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾:

لم يبيِّن مَن الذي نفخ، ولا ما هو ﴿ٱلصُّورِ﴾؛ لأن المقصود وقوع النفخة، والناس غالبًا ما يسألون أسئلة تفصيلية لا تنفعهم كثيرًا، ويغفلون عن المعنى والأثر والاعتبار.

و﴿ٱلصُّورِ﴾ في لغة العرب هو: القَرْن[٢]، لكنه ليس كالقَرْن الذي نعرفه في الحيوانات، بل هو شيء غيبي، لا تحيط به عقول البشر.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٢).

(٢) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٤١٦)، و«تاج العروس» (١٢/ ٣٦٢) «ص و ر».

والنفخات في القرآن ثلاث:

النفخة الأولى: نفخة الفزَع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

النفخة الثانية: نفخة الصَّعْق: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، فالناس كلهم يصعقون ويموتون.

والنفخة الثالثة: نفخة البعث: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

وقيل: هما نفختان، والذي ينفخ هو: إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

وبعضهم يقول: ﴿ٱلصُّورِ﴾ جمع: صورة، أي: في صور الناس، وهذا من نتيجة النفخ في الصور، فإنه إذا نفخ في الصور المرة الأولى خرب الكون كله وتهدَّم بإذن خالقه ومنشئه(٢).

وأما النفخة الثانية، فهي التي يقوم فيها الناس لرب العالمين، وتذهب كلُّ روح إلى جسدها وصورتها.

وهنا تساؤل: كيف نجمع بين الآيات التي تدل على حصول نفختين أو ثلاث، وبين هذه الآية التي تنص على ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؟

والجواب: ليس المقصود أنه لا يكون بعدها نفخة أخرى، إذ إن الأمر لا يستدعي أكثر من نفخة لتحقيق المراد، فالواحدة تكفي لهذا، فإذا نفخ في الصور حصل الدمار الذي يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي واحدة في وقتها لا تحتاج إلى تكرار، وفيه إشارة إلى ضخامتها وعظمتها وهولها(٣).

والنفخة الثانية هي أيضًا نفخة واحدة يقوم فيها الناس لرب العالمين، والأمر لا يتطلب التكرار.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٣٩)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٧٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٢٢٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠١)، و«روح البيان» (١٠/ ١٣٧).

* ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾:

والإخبار هنا بدكِّ الأرض يوافق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وما جاء في «سورة القارعة» من وصف الجبال يوم القيامة بأنها ستكون ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾، وكذلك مما يترتب على دَكِّ الجبال بسطها، فتصبح كما قال سبحانه: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه: ١٠٦]، وهذا من معاني الدَّكِّ؛ فإن العرب إذا قالوا: هذه الناقة دَكَّاء، أي: ليس لها سَنام، بل ظهرها مستوٍ[(١)].

ووصفها بأنها ﴿وَٰحِدَةً﴾ يدل على أن ما جاء في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾، لا يعني التكرار، بل يعني التأكيد والقوة والشدة[(٢)].

* ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾:

أي: حدثت الحادثة الرهيبة، ذات الشأن المهيب، وما كان وعدًا في علم الغيب اليوم، هو واقع يُشاهد بالعيان ويُسمع بالآذان.

* ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾:

فهذه السماء المتينة القوية تنشق لهول ذلك اليوم العظيم، فالملائكة فيها نازلون صاعدون في المهمات الجسام والخَطْب الجَلَل.

﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفة رِخْوة[(٣)]، ليست كعادتها.

* ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾:

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ﴾: وليس المقصود مَلَكًا واحدًا، وإنما الملائكة كلهم أو جلّهم، فهو اسم جنس يشمل الجمع[(٤)]، ولذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «الكتابُ

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٣٢٤)، و«تاج العروس» (٢٧/ ١٥٠) «د ك ك».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٢٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٧٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٦)، والمصادر السابقة.

أكثر من الكتب»(1).

﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: قائمون على بقية أطراف السماء المتشققة، التي ما زالت باقية قائمة(2)، وهو جمع: رجا، أي: ناحية(3).

وقد يكون المقصود ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: على أرجاء الأرض وأرجاء الكون(4)، فحتى الملائكة في أمر عظيم، لا يتكلمون بسبب المشهد العظيم الرهيب.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾: وهنا موعد فصل القضاء، فيأتي الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، بما لا تحيط به العقول، ولا تدركه المدارك، ولا يعلم كيف هو سبحانه إلا هو، أما البشر فتأتي في عقولهم خيالات وتصورات وتهيؤات، و«كل ما خطر في بالك، فالله ليس كذلك»، فكل خيال يعرض فهو مجافٍ للحقيقة، ولا سبيل إليه لمعرفتها؛ لأن شأن الله أعظم من أن يحيط به عقل أو يلحقه خيال.

والعرش ورد ذكره في القرآن الكريم نحو عشرين مرة؛ منها: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر: 75]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5].

ووُصف بأنه «كريم»، و«عظيم»، و«مجيد»، فهو من الخلق الغيبي الذي لا يقدر قدره إلا الله، ولا تحيط به الظنون، ولا تبلغه الأوهام.

والعرش هنا ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾، يعني فوق الثمانية الذين يحملونه، وفوق الملائكة الذين هم على أرجائها، وفوق أهل الموقِف والمحشر كلهم، فالله تعالى أعلى من

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (5/ 149)، و«الكشاف» (1/ 331)، و«البحر المحيط في التفسير» (2/ 757)، و«التحرير والتنوير» (29/ 127).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص671)، و«تفسير الطبري» (23/ 227)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 212)، و«روح المعاني» (15/ 51).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 216)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 176)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص346) «ر ج ا»، و«تفسير الرازي» (30/ 625).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 81)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 157)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 406)، والمصادر السابقة.

كل علي، وأعظم من كل عظيم.

وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: من الملائكة، والله أعلم بصفة كل مَلَك، وفي الحديث: **«أُذِنَ لي أن أحدِّث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش: إنَّ ما بين شَحْمة أُذُنِهِ إلى عاتِقِهِ مسيرةُ سَبعمائة عامٍ»**[1].

وقوله: «سَبعمائة عامٍ» هل هي سبعمائة عام من الأعوام التي نعرفها، أو من الأعوام التي عند الله؟ الله أعلم.

وقد يكونون ثمانية أصناف من الملائكة، أو صفوف، أو طبقات، أو ما شاء الله، كما قال الحسن البصري: «ما أدري: أثمانية أشخاص، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية صفوف، أو ثمانية عشرات، أو ما شاء الله»[2]. فالله أعلم.

وقد جاء من شعر عبد الله بن رَواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]:

شهدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ ... وأنَّ النارَ مثوى الكافرينا
وأنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ ... وفوقَ العرش ربُّ العالَمينا
وتحملُهُ ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الإلهِ مُسوِّمينا

وهذا من كلام ابن رَواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ليس فيه نص نبوي، ولا نص قرآني، والله غني عن خلقه، وغني عن العرش، ولكن هذا مما بيَّنه الله تعالى في كتابه، فنؤمن به كما بيَّنه، ونقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولا نشبِّه الله تعالى بشيء من خلقه، وكل هذه المشاهد الرهيبة المتتالية المقصود بها تحريك قلب الإنسان للتذكر، فينبغي ألَّا يشتغل عنها بتتبع الإسرائيليات وغرائب المرويات في شأن ذلك وتفصيلاته.

* وأولى من الجدل الطويل حول غيب رمزت له هذه الآيات أن يتساءل القارئ: لماذا هذا العرش يُوضع؟ ومَن المقصود؟ مَن القاضي؟ ومَن المحاكَم؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٤٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥١).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٦).

(٣) ينظر: «تاريخ دمشق» (٢٨/ ١١٢ - ١١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣٨).

ومَن الشهود؟ وما النتيجة المحتملة لهذه المحكمة العادلة؟ وهذا ما وجهت إليه الآيات بعدها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾:

والخطاب للثقلين، يُعرضون على ربهم سبحانه، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾؛ لأن الله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، فكما لا تخفى عليه منكم في الدنيا خافية، فكذلك في الآخرة(١).

ومن معاني الآية: أن ما كانوا يخفونه في الدنيا يظهره الله تعالى يوم القيامة، عيانًا أو كالعيان، كما قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾(٢) [غافر: ١٦].

وهنا صار الخطاب لهم جميعًا؛ لأنهم المقصودون بهذا الموقِف، والمجموعون للحساب، بخلاف الآية قبلها المتعلِّقة بذكر العرش وحملته، حيث كان المخاطَب فيها الرسولُ ﷺ، على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: بيده اليمنى، واليمنى هي علامة اليُمْن والبركة والفَأْل، والأمر على ظاهره أن المؤمنين يأخذون كتاب أعمالهم بأيديهم اليمين(٣).

﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾: ﴿هَاؤُمُ﴾ تنبيه للتأكيد، أي: خذوا! انظروا! اقرؤوا كتابي(٤)، يقولها لمَن حوله، وحُقَّ له ذلك؛ لأنه الفوز الأبدي.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٢).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٩)، و«الكليات» للكفَوي (ص٩٥٢)، والمصادر السابقة.

وينسى أن كل أحد مشغول بنفسه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]، وأن المرء يفر من أقرب قريب، ففرحته أنسته ذلك كله، فهو يعرض لهم كتاب نجاحه وفوزه، ويطلب إليهم قراءته، قائلًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، غير جاحد رحمة الله وفضله.

* ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: أيقنت، والظَّن يُطلق أحيانًا على اليقين(١).

وقوله هذا قد يكون استذكارًا لإيمانه الذي هو سبب نجاته، كما في موضع آخر: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦- ٢٧]، وهو بيان حسن؛ لأن تأهلهم لرحمة الله كان بسبب أعمال صالحة قدَّموها، ويعزِّزه قوله تعالى هنا: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

* ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: مرضية(٢)، ولكن العيشة نفسها راضية، فهي راضية بصاحبها، وصاحبها راض بها، وكأن الرضا انتقل من الشخص نفسه إلى العيشة، والإنسان حين يكون مرفَّهًا في سكنه ووظيفته وصحته وزوجته وأولاده وأموره كلها، يقول: حياتي راضية، أي: في رضا.

* ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾:

عالية ذاتًا ومكانًا، فهي عالية الصفات والقدر، وفي مكانٍ عالٍ، وهذا من علو أصحابها(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٢)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣١)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.
وينظر أيضًا: «العين» (٨/ ١٥٢) «ظ ن»، و«التصاريف لتفسير القرآن» (ص٢٦٢).

(٢) ينظر: «العين» (١/ ١٣٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٥٥)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٢٧١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٣).

* ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾:

فمع أنها عالية، إلا أن قطوفها دانية، أي: قريبة المأخذ، مذلَّلة للآكلين(١).

والقَطْف هو ما يطيب من الثمر(٢)، فإذا أراد قطفه دنا منه، وأطيب ما يكون المأكل حين يكون الآكل هو الذي اختاره في شجرته، ثم قطفه بيده.

* ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾:

وهذا أمر تكريم؛ لأن الآخرة ليس فيها تكليف.

وهنا تلحظ انتقال الخطاب من المفرد إلى الجمع، فقد كان السياق حديثًا بضمير الفرد، وهنا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، وكأن كل واحد منهم كان يضيَّف ضيافة خاصة، ويرحَّب به ترحيبًا خاصًّا، والأمر لا يتعلق بفرد بعينه، بل بكل ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾(٣).

والهنيء: الطيِّب الذي لا يخالطه هم ولا غم ولا كَدَر ولا مرض، بخلاف مأكولات الدنيا، فمهما طاب الطعام في الدنيا، فإن التُّخَمة تفسد البطن، وأغلب العلل والأمراض من البطن(٤).

والحكم الإلهي لهم بالهناءة بما أسلفوا، هو إشادة بعملهم، ولا شك أنهم دخلوا الجنة برحمة الله، كما قال ﷺ: «لن يُدخلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلَّا أن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ منه بفضل ورحمة»(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٨)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٤)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٧٤)، و«الموسوعة القرآنية» (٨/ ٦١٨).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٦، ٢٨١٨) من حديث أبي هريرة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن أعمالهم جعلتهم أهلًا لهذه الرحمة؛ فرحمة الله قريب من المحسنين، وفي ذلك تذكير بالعمل، وأن أهل الجنة دخلوها بسبب أعمالهم، وأهل النار دخلوها بسبب أعمالهم.

فأهل الجنة ذهب عنهم التعب والعناء والجهد، وثبت الأجر، وأهل النار ذهبت عنهم اللذة، وبقي الإثم:

إنَّ أحلى عيشةٍ قضيتها ذهبتْ لذاتُها والإثمُ حَلْ[1]

و﴿هَنِيٓـًٔا﴾ تُقال في الدنيا على سبيل الدعاء والتمنِّي والتكريم[2]، لكنها في الجنة تُسمع من الملائكة المقرَّبين الموكَّلين، ومن الولدان، وغيرهم، وهي حكم قاطع من رب العالمين أنهم أفضوا إلى الدار التي لا يمرض أهلها ولا يموتون، ولا تتكدَّر نفسياتهم أو يحزنون، ولا يملون.

* ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق: ١٠]، وهذا يحتمل أن بعض أهل النار يأخذ كتابه بشماله، وبعضهم يأخذه من وراء ظهره، والمعنى الآخر- وهو الأقوى- أن يجمع بين الآيتين، فيقال: يأخذ الواحد منهم كتابه بشماله من وراء ظهره[3].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: فهذا من شؤم عمله الخبيث، وعلامة خيبته وخسرانه، فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾: ليتني لم آخذ هذا الكتاب؛ لأنه يشعر بالعار والخزي والخسارة والهوان من حمله لكتاب الفضائح والقبائح حين تبين الأمور وينكشف المستور.

* ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾:

يا ليتني لم أعرف هذا الحساب ولم أُخلق، وليت الموت كان القاضي عليَّ

---

(١) ينظر: «عون الأطفال شرح لامية ابن الوردي» (ص١٤).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٦) «هـ ن أ».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٧٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٩)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٧٨).

ولم أُبعث، يا ليتني كنتُ ترابًا مدفونًا في التراب(١).

فلا يطمع في مصير المؤمنين ولا يحلم به: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، هو يتمنى الخلاص فحسب، أو أن يكون حجرًا أو شجرًا أو عدمًا.

* ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨)﴾:

لقد كان ذا مال في الدنيا، ولكن ماله لم يغن عنه شيئًا، بل هو من أسباب إخفاقه واغتراره، وغالب أتباع الأنبياء من الضعفاء والفقراء.

* ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ (٢٩)﴾:

فقد كان ذا سلطان ورياسة، وجاه ومنصب، لكنها لم تنفعه، ولم يبق منها إلا خبر يتذكره في الموقف الصعب بحسرة وندم.

ومن معاني السلطان: الحجة(٢)، فيكون المعنى: ذهبت عني حجتي، فلا حجة لي الآن ولا عذر(٣)، كما قال: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات: ٣٥- ٣٦].

* ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾:

وهذا أمر إلهي، ينفَّذ فورًا دون إبطاء ولا تأخير، وهو موجَّه لملائكة ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦].

ولعله كان يومًا يضع الأغلال في أطراف الضعفاء ويعذِّبهم ويستعلي عليهم، وربما كانت هذه اليد مُنعَّمة محلَّاة بالأساور الثمينة!

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٨٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٩٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٠).

وغلُّوه أي: ضعوه في الأغلال، فيُغل من يديه ورجليه[1].

* ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾:

﴿الْجَحِيمَ﴾: أدنى دَرَكات النار[2]، أي: ضعوه فيها يصلاها بكل ذرة منه، ولعله كان لا يُطيق حر الشمس، ولا يحتمل لسعة الرَّمْضاء.

* ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾:

إنها سلسلة مرعبة محدَّدة الطول، ذرعها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، بذراع لا يعلمه إلا الله، فليس بذراعي ولا ذراعك، ويقال: بذراع المَلَك[3]، وقد يكون العدد هنا غير مقصود، وإنما كان تعبيرًا عن الكثرة، كما في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. وكثيرًا ما يعبَّر عن الكثرة بعدد السبعين[4].

والأقرب أن العدد هاهنا مقصود؛ لأنه جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، وفي سياق الوصف، والله أعلم.

والمقصود الاعتبار، فالكافر يُسلك في هذه السلسلة، حتى تحيط به من كل جانب، فلا مطمع له من الخلاص منها؛ لأنه قيَّد نفسه بأغلال الشهوة، أو أغلال التبعية، أو أغلال الهوى، أو أغلال التقليد، أو أغلال المال والسلطان، وغفل عن ربه، فكان الجزاء من جنس العمل.

وذِكْر السلسلة يدعو إلى التيقظ لسلاسل الذنوب التي يمسك بعضها بنواحي بعض، حتى تحيط بالعبد: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٧)، و«التيسير في أحاديث التفسير» (٦/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٨٢)، و«فتح القدير» (١/ ٦١١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٥٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٣٨).

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وأكثر ما يرهق الناس في الضلال والخطأ، هو تلك الحلقات المتصلة من العادات السيئة بالذكريات الماضية التي يزينها الشيطان، والعلاقات التي يصعب الانفكاك منها.

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾:

إشارة إلى عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعِظَم جُرم الكفر بالله(١).

وذلك في مقابل المؤمن الذي قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

* ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾:

وتأمل كيف قرن الله بين تَرْك الإيمان بالله، وتَرْك إطعام المسكين.

ففي هذا تأكيد للمعاني الإنسانية لهذا الدين، وأن الإيمان من تجلياته وآثاره: الشفقة على الضعفاء والمساكين والأيتام والأرامل والأيامى والمعدومين، وليس احتقارهم أو ازدراؤهم أو نهب حقوقهم.

وما يقع اليوم في بلاد المسلمين من سلب للحقوق، واعتداء على أموال الضعفاء وأعراضهم وابتزازهم، فإنه مناف لتعاليم الدين، وغريب حال هذه الأمة تخالف تعاليم دينها، في حين تجد أن أُممًا أخرى تعظِّم حرمات الناس وتحمي حقوقهم، ليس بتأثير شريعة سماوية كشريعة الإسلام، بل بثقافة إنسانية وتجربة ميدانية.

وما نرى هذه المخالفات في بلاد الإسلام لآدابه وحرماته، إلّا شرًّا مؤذنًا بخطر عظيم، يوجب على كل عالم وداعية وخطيب ومُصلح أن يعظِّم من شأن هذه الحرمات في أعين الناس، كما يدعو الناسَ إلى الإيمان بالله العظيم، وإلا فإن الخطر داهم، والبوار قادم.

وقد ورد أنه لما رجعت مُهاجرَةُ الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: **«ألَا تحدِّثُوني بأعجبِ ما رأيتم بأرضِ الحبشة؟»**. فقال فتيةٌ منهم: يا رسولَ الله، بينا نحن جلوسٌ،

---

(١) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ٣٧٠).

مَرَّت علينا عجوزٌ من عجائزِهم، تحملُ على رأسها قُلَّةً من ماء، فمرَّت بفتىً منهم، فجعلَ إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتُها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت: ستعلمُ يا غُدَرُ[(١)]، إذا وضعَ اللهُ الكرسيَّ، وجمعَ الأوَّلين والآخِرين، وتكلَّمَتِ الأيدي والأرجلُ بما كانوا يكسبون، فسوف تعلمُ أمري وأمرَكَ عنده غدًا! فقال رسولُ الله ﷺ: **«صَدَقَتْ، ثم صَدَقَتْ، كيف يقدِّسُ الله قومًا لا يُؤْخَذُ لضعيفِهم مِن شديدِهم؟»**[(٢)].

وقال: **«لا قُدِّسَتْ أمةٌ، لا يأخذُ الضعيفُ فيها حقَّه غيرَ مُتَعْتَعٍ[(٣)]»**[(٤)].

أي: غير متردِّد، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا رئيسًا، ولا ذا جاه، وإنما يأخذ حقه وهو مطمئن؛ لأن النظام يحميه والمجتمع يحميه.

والوعيد هنا هو على ترك الحضِّ على طعام المساكين، فقد بخل بماله وبخل بجاهه أو فصاحته وسماع الناس له، فلم يكن قدوة للآخرين في بذل المعروف، ولا محرِّكًا لهممهم في العطاء، وقد يعذر الرجل بعدم التصدق؛ لقلة ذات اليد، لكنه غير معذور في ترك الحض على طعام المسكين، وكذلك المجتمع بمؤسساته

---

(١) معدول عن: «غادر»؛ مبالغة في وصفه بالغدر.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠)، وأبو يعلى (٢٠٠٣)، وابن حبان (٥٠٥٨، ٥٠٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٤٩) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخرج ابن أبي عاصم في «السنة» (٥٨٢)، والبزار (٤٤٦٤)، والبيهقي (٦/ ٩٥)، (١٠/ ٩٤)، وفي «الأسماء والصفات» (٨٦٠) نحوه من حديث بُريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أي: من غير أن يصيبه أذى أو يزعجه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢١٠٥)، وابن ماجه (٢٤٢٦)، وأبو يعلى (١٠٩١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٢٧٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٢٣٣) (٥٩١)، وفي «الأوسط» (٥٠٢٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٣١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٢٣٢) من حديث خَوْلة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وله شواهد. ينظر: «المستدرك» (٣/ ٢٥٦)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (٤/ ١٨٩٤ - ١٨٩٧)، و«البدر المنير» (٩/ ٥٤١ - ٥٤٥)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٣٨)، و«السلسلة الضعيفة» (١٤/ ٣٥٥ - ٣٥٧) (٦٦٤٧).

وجمعياته ووسائل إعلامه، عليه السعي لإيصال الحقوق للفقراء والمساكين والمعوزين، وألا يعتبر هذا تفضلًا ولا منَّة، بل هو حق لهم على القادرين.

* ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥)﴾:

لأنه لم يقدِّم إيمانًا، ولم يقدِّم إحسانًا، فلا كان ممن آمن بالله، ولا كان ممن حضَّ على طعام المسكين، فكان جزاؤه ألَّا يجد اليوم صديقًا يقف معه أو يسانده.

* ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾:

لأنه كان لا يحض على طعام المسكين، فلن يجد هو طعامًا يشبعه إلا الغِسلين.

والغِسْلين: أحد أطعمة أهل النار، مثل الزَّقُّوم والضَّريع(١).

وقيل: هو: غُسالة أبدان أهل النار، أو هو: من شجر جهنم.

يقول قتادة: «هو شرُّ الطعام وأخبثه»(٢).

والسياق يدل على خبثه من جهة أنه الطعام الوحيد لهم، ليس لهم طعام سواه، وكأنهم مضطرون إليه؛ لعدم وجود غيره، ولهذا قال في موضع آخر: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)﴾ [الغاشية: ٦- ٧]. فيجوز أن يكون الضَّريع والغِسْلين واحدًا(٣)، ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقتصرون على هذا تارة وعلى هذا تارة، فهي أحوال لهم يتقلبون فيها، وكلها شرٌّ عليهم(٤)، أو يكون هذا طعام طبقة، وذاك طعام طبقة أخرى(٥).

* ومما يوحي بشدة قبحه ورداءته: قوله سبحانه: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾:

فهو طعام خاص بالخاطئين، لا يسيغه سواهم، ولا يتجرَّعه غيرهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٧)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٦٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٨٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤١).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٧).

(٤) ينظر: «الانتصار للقرآن» (٢/ ٥٩٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٢٢٢).

(٥) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٣).

وهذا كاف في تشنيعه وتبشيعه، وقال ابن زيد: «الغِسلين والزَّقُّوم لا يعلم أحدٌ ما هو»(١). وهذا أجود من قول: إنه غُسالة أهل النار(٢).

والخاطئ: المذنب، بعكس المخطئ الذي يفعل الشيء عن جهل(٣).

* ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

قَسَم إلهي عظيم، قال بعض أهل العلم: هذا أعمُّ قَسَم في القرآن؛ لأنه سبحانه أقسم بكل شيء، فقال: ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، والكون فيه المرئي وغير المرئي، وكذلك الغيب والشهادة(٤).

وليس المرئي وغيره مقصورًا على المغيب، فثَمَّ في خلق الله العظيم مما حولنا ما تعجز العين عن إدراكه؛ لضآلة حجمه، وهو مع ذلك شديد الأهمية، حتى الذرات والجزئيات والنيترون والإلكترون والنانو.. تدخل في ذلك.

والعلم لا يزال يكتشف في الكون المحيط بنا عوالم هائلة لا نراها، فكيف بالأكوان كلها والمجرات والسماوات، فكيف بالآخرة، وبالملائكة والعوالم العليا.. فكيف بالجنة والنار.. وما يعلم الله ولا يعلم الناس؟!

إنه لقَسَم عظيم، وفيه تربية للعالم على التواضع، وترك الاستكبار، أو الغرور بالمعرفة، أو سرعة التكذيب بما لا يحيط به.

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: هذا القرآن قول رسول كريم، إما النبي ﷺ، أو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٥)، فسمَّاه:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٢٦)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٥٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٣/ ٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٧)، (٥/ ٣٦٢)، و«تفسير الرازي» (١٨/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤١)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص١٧٥).

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٤١- ١٤٢).

رسولًا، وهو الرسول البشري محمد ﷺ الذي بلَّغه للناس، أو الرسول الملائكي وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، نزل به من رب العزة إلى النبي ﷺ، كما قال الله تعالى في السورة الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ١٩- ٢٢].

والأقرب أن ﴿رَسُولٖ﴾ هنا يشملهما معًا، على أن الله تعالى هو المتكلِّم بهذا القرآن على وجه الحقيقة، فالقرآن كلامه سبحانه، وإنما نسبه إلى الرسول لأنه بلَّغه، وليس في الأمر التباس؛ لأنه لما سماه رسولًا دل على أنه مرسَل بهذا الكلام المقدَّس، وليس منشِئًا أو مبتدعًا له من عند نفسه، وإلا لما كان رسولًا(١).

* ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: هو قول الله سبحانه، أوحى به إلى نبيه ﷺ، وليس كما تزعمون أن النبيَّ ﷺ تلقَّاه من شاعر، أو قاله من عند نفسه وهو شاعر، كما قال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠].

﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾، كما قالت طائفة أخرى منكم ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

والمعنى- والله أعلم-: أنكم لا تؤمنون أصلًا، ولا تتذكَّرون، والعرب تقول: «قليل» للمبالغة في النفي، وأنه لا يوجد منه شيء أبدًا(٢).

ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم أحيانًا يقع في قلوبهم بعض الإيمان، ولكنهم يقمعونه ويكبتونه؛ حفاظًا على أموالهم وأولادهم وسلطانهم ومصالحهم(٣)، أو يكون المراد إقرارهم بالألوهية أحيانًا حين يُسألون: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٧)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٦٦).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٨)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (١/ ١٩٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٤).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٤).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٥).

ونفى عن نبيه الشعر، كما قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. وهم أدرى الناس بالشعر والشعراء، كما نفى عنه الكَهانة وسَجْعها وزَمْزَمَتها[١]، وهو ﷺ أبعد الناس منها، ولكنهم كانوا يقولون ذلك زجرًا للمغفَّلين عن التفكير في القرآن ودلالاته.

ولو تأملوا لوجدوا أن ما فيه من الأخبار والقَصَص والمواعظ والحِكَم والأسرار والوعد والوعيد والأحكام، ما لا يمكن معه وصفه بغير الوحي من الله العزيز العليم.

* ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

فهو من الله سبحانه، ليس من إنشاء هذا الرسول، ولا من جبريل، ولا من قول الشعراء ولا الكهان.

* ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: لو زاد هذا الرسول بعض القول والحديث ونسبه إلى الله تعالى[٢]- وحاشاه ﷺ- ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، ويوحي الله هذا القرآن إلى النبي ﷺ بهذا التهديد، ولا يملك ﷺ وهو بمكة إلا أن يقرأه على الناس، ويحفِّظهم إياه، ويضرب بالحجة بين ظهورهم، مع أن التهديد موجَّه إليه هو، وهذا من عظمة القرآن وحفظه، وتكفَّل الله سبحانه بأن يقصم ظهر كل مَن ينسب إلى الله الكذب والزُّور، فمع محبة الله له واصطفائه واختياره، وعِلْم الله به سبحانه، يأتي هذا التهديد؛ إقامةً للحجة على المشركين بأن هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي موضع آخر توعَّد مَن يكتم شيئًا من وحيه، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥].

---

(١) زمزمة الكاهن: الكلام الخفي الذي لا يفهم. ينظر: «جمهرة اللغة» (١/ ٢٠١) «ز م ز م».

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٨).

فهو إذًا مُبلِّغ، ليس عليه إلا البلاغ والبيان والدعوة والصبر حتى يحكم الله.

وهو دليل على عظمة القول على الله بغير علم، ووجوب التثبُّت والتحرِّي في الكلام في الديانة، وعدم التسرع أو الجزم إلا بحجة ظاهرة، ورحم الله الإمام مالك فإنه قلمَّا يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾[(١)] [الجاثية: ٣٢]، ولكن لا يقول: هذا حكم الله وهذا دين الله إلا في القطع الذي لا مِرية فيه ولا تردد، وما أكثر الجاهلين والمتقوِّلين!

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾: يجوز أن يكون المعنى - كما قال الحسن وغيره -: إن الله تعالى يأخذ منه بيده اليمنى، ثم يقطع رقبته[(٢)]. والسيَّاف - أحيانًا - إذا أراد أن يضرب الإنسان بالسيف يأخذ بيده اليمنى، ثم يضربه من الأمام، أما لو أخذه بالشمال فربما ضربه من خلفه، فهذا أشد ما يكون من الأخذ.

ومن معاني قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة[(٣)].

إذا ما رايَــةٌ رُفِـعَــت لِمَجدٍ   تَلَقَّاهــا عَــرابَــةُ بِاليَميــنِ[(٤)]

فقولهم: أخذ الشيء بيمينه، أي: بقوة، وليس بالضرورة أن يكون باليد اليمنى.

* ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿الْوَتِينَ﴾: عرق ممتد من القلب للرأس، وهو الذي يقطع من الذبيحة، فيسيل دمها فتموت[(٥)]، والله سبحانه يقول هذا عن رسوله ومصطفاه، تأكيدًا على رسالته واختياره، وعلى صدقه وأمانته، فإن ربه أسرع له بكل خير، وأعطاه فأجزل، وكتب له الظهور والغلبة والنصر والفتح والعز.

---

(١) ينظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٤- ٦٣٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦٦).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٩٩٤)، و«مقاييس اللغة» (٦/ ١٥٨) منسوبًا إلى الشَّمَّاخ.

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٤٤١) «و ت ن».

وقد يحدث أن يدَّعي بعض الناس النبوة، ثم يمهلهم الله تعالى إلى أوان عقابهم، أو يعذِّبهم على يدي بعض أوليائه، كما حصل لمُسيلمة الكذَّاب والأسود العَنْسي، وأدعياء النبوة عبر التاريخ إلى زماننا هذا كثير، ولكن الله يفضحهم حتى لا يكادون يُعرفون، ولا يوجد لهم أتباع ولا شرائع، ولا تقوم لهم قائمة.

* ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

فلو فُرض أن تقوَّل على الله بعض الأقاويل؛ لفعل الله به هذا، ثم لا أحدٌ يحول بين الله تعالى وبينه أو يحميه أو يحجزه(١)، وهذه من أعظم دلائل النبوة، وقرآنية القرآن.

ومَن يريدون المجد والسؤدد وثناء الناس ينسبون الأشياء لأنفسهم، وقد يُخمِلون ذكر مَن أخذوا عنه؛ لئلا ينافسهم، أما أن يعلن الرسول ﷺ أنه ليس سوى مبلِّغ وناقل، وأنه ليس له من الأمر شيء، وأنه لا يدري ما يُفعل به ولا بهم، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، فإنها النبوة تتجلَّى في صدقها ووضوحها ونصاعتها، والحمد لله رب العالمين.

* ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

فحين أعرضتم عنه أنتم، ولم تتَّعظوا به وتتَّبعوه، فسوف يقيِّض الله له مَن هم جديرون بهذا الوصف من الأخيار الذين ربما ازدريتموهم واحتقرتموهم، ولكن الله فضَّلهم عليكم بتقواهم وصلاح قلوبهم(٢).

* ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: أرسلنا هذا الرسول، وأنزلنا هذا القرآن، ونحن نعلم أن منكم مَن لن ينتفع بهذا الوحي، ولكن: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٤٧).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٤٨- ١٤٩).

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1] [الأنفال: ٤٢].

* ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

الحَسْرة: ما يتحسَّر عليه الإنسان بعد فوات الأوان، مأخوذة من: الحَسْر، فتقول: فلان حَسَر عن ثوبه، إذا رفع ثوبه قليلًا، أو حَسَر رداءه[2]، فهنا قال: «حَسْرة»؛ لأنهم يظهرون الألم بعد فوات الأوان:

نَـدِمَ البُغـاةُ ولاتَ سـاعةَ مَنْـدَمِ والبَغـيُ مَرْتَـعُ مُبتغيـه وَخِيـمُ[3]

فهذا الكتاب المبين حَسْرة على الكفار في الدنيا؛ لأنهم لا يستطيعون أن يقاوموا حجته، ولا أن يردُّوه، وحَسْرة عليهم؛ لأن الله تعالى يكتب لأهله النصر والقوة والتمكين، رغم أنوف الكائدين، ثم هو حَسْرة عليهم في الآخرة؛ لأن الحجة قامت به عليهم[4].

* ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

وحقُّ اليقين: هو: العلم الصادق القاطع الذي لا شك فيه، وهو المقطوع به شرعًا بلا تردد ولا جدال، والمقصود: الوحي والقرآن.

أما عين اليقين فهي: المعاينة ورؤية الشيء الموعود حين يرى أهل الجنة الجنة وأهل النار النار عيانًا كفاحًا مواجهة[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٤)، و«مختار الصحاح» (ص٧٢)، و«تاج العروس» (١١/ ١١) «ح س ر».

(٣) ينظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٣٧٧)، و«شرح الأشمونى لألفية ابن مالك» (١/ ٢٦٩)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٤/ ١٧٥) منسوبًا إلى غير واحد.

(٤) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٧٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير الرازي» (٤/ ١٨٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٤٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢١٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٦١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٠).

* ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾:

أي: سبِّحه بأسمائه الحسنى، ونزِّهه عما يقول الكافرون والظالمون، ووحِّده إذ جحده المشركون، واعترف بعظمته إذا نسبوا إليه الأنداد أو الصاحبة أو الأولاد.

ولمَّا نزلت هذه الآية قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». أي: قولوها في الركوع، تسبيحًا له وتنزيهًا، وإقرارًا بعظمته ومجده سبحانه، ولمَّا نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[1].

والركوع هو تحية الملوك والأكابر في الجاهلية، فيناسبه أن تقول: «سبحان ربي العظيم»، والسجود خضوع يذل فيه الإنسان جبهته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فناسب أن يقول: «سبحان ربي الأعلى»، فيناجي الأعلى فوق عرشه بالاعتراف له، والإيمان به، فيا أيها المؤمن الكريم، سبِّح باسم ربك العظيم تسبيح الحامد المؤمن المنتظر لثوابه الخائف من عقابه.

○○○

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.

سُورَةُ المَعَارِجِ

* **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «سورة المعارج»[1].

وتسمى بـ«سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾»، كما في كتب السنن، والتفسير[2].

وقد تُختصر فيقال: «سورة ﴿سَأَلَ﴾»[3]؛ إذ ليس في القرآن الكريم من السور المفتتحة بفعل ﴿سَأَلَ﴾ إلا هي[4].

* **عدد آياتها:** أربع وأربعون آية[5].

* **وهي مكية** باتفاق أهل التفسير[6].

* ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾:

ومعنى الآية: أن داعيًا دعا وسأل واستعجل العذاب الواقع.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٤٤)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٥٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٢).

(٣) ينظر: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٥٥٦).

(٤) وذكرها أبو عمرو الداني في «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٣٥٤) باسم: «سورة الواقع».

(٥) وقيل: ثلاث وأربعون آية، وقد اختلفوا في قوله: ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٣٥٤)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٦).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٨)، والمصادر السابقة.

والسؤال هنا يحتمل أنه سأل عن العذاب، والله تعالى لم يقل: «سأل سائلٌ عن العذاب»، وإنما قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ﴾، فهذا يدل على أن ﴿سَأَلَ﴾ ليست مجرد سؤال عفوي أو بريء، وإنما هو سؤال مقرون بالاستعجال والاستهزاء(١).

وقد ورد أن هذا السائل هو: النضر بن الحارث بن كَلَدَةَ، وكان يقول: اللهمَّ إِنْ كان ما يقولُ محمدٌ هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أوِ ائْتنا بعذاب أليم. فأنزل اللهُ هذه السورة(٢).

وقد حكى الله تعالى عنهم هذا الاستعجال والاستفتاح في مواضع من القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

وهنا نلحظ التوافق في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾، وأما المؤمنون فهم ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، وقد افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، ثم بعد آيات قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، فأثنى على المؤمنين الذين يخافون ولا يستعجلون العذاب، ويعلمون أن العذاب عند الله، فيطلبون الإمهال والمغفرة.

ومن معاني ﴿سَأَلَ﴾: أنه دعاءٌ من السائل على نفسه بالعذاب، كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقد كان الكفار كثيرًا ما يدعون على أنفسهم بالعذاب استهزاءً وسُخرية(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٦/ ٣١٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٦).

فهذا السائل سأل، بمعنى استفسر واستفهم، وقال: متى العذاب؟

ويقع أحيانًا أن يسأل أحدٌ أو يطلب العذاب على سبيل المباهلة، أن يعذِّب هو أو يعذِّب خصمُه؛ لشدة اعتقاده فيما يرى هو بصواب نفسه، أو لإظهار ذلك بقصد تثبيت الأتباع وعدم زعزعة ثقتهم به.

وليس المقصود أن النبيَّ ﷺ هو الذي سأل فاستعجل العذاب على المشركين، فهذا بعيد(١)؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يطلب إمهالهم وإنظارهم، وألَّا يُعاجَلوا، ولما عرض عليه المَلَكُ يوم العقبة أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبين، قال: «**بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبدُ اللهَ وحدَه لا يُشركُ به شيئًا**»(٢). وكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي، فإنهم لا يعلمونَ**»(٣).

وأما ما ورد أن النبيَّ ﷺ لما أبطأت عليه قريشٌ وتأخرت قال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسبعِ يُوسفَ**»(٤). أي: سبع سنين، فأصابتهم مجاعة، حتى كانوا يرون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من الجوع، وحتى أكلوا أوراق الشجر والعظام من الجوع، وقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ١٢]، فهذا ليس المقصود به العذاب، وإنما الشدة التي تضعفهم عن الصدِّ عن سبيل الله، وهذا هو الظاهر من السياق.

* ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾:

لقد سأل هذا السائل بالعذاب مستبعدًا مستعجلًا مستهزئًا، وفي الآية

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٤- ٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٩٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٤٨٨)، وابن حبان (٩٧٣)، والآجري في الشريعة (١٠٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٥٦٩٤، ٥٨٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧٦) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وينظر: «فتح الباري» (٧/ ٣٧٢- ٣٧٣)، (٨/ ٥٠٨)، (١٢/ ٢٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٧٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٧٠٨٨)، وما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾، و«سورة الشرح»: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

ذاتها جوابه الملائم لاستعجاله، فالعذاب آت لا محالة، وهو واقع في موعده المضروب، لا يقرِّبه استعجالهم ولا يؤخِّره، ولا يدفعه عنهم إلا تجنب أسبابه التي أساسها الكفر، إذ هو عذاب للكافرين، وهم المقصودون به، وقد يُصيب غيرَهم تبعًا، كما ورد عن النبي ﷺ لما سُئل: يا رسولَ الله، كيف يُخسفُ بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقُهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «**يُخسفُ بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثونَ على نياتهم**»[1].

وقد مضت سنة الله تعالى أنه إذا عذَّب قومًا أخذهم كلهم، فيردون موردًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، وقد يعم مَن ليس منهم تبعًا، فهذا أمر عام دلَّت النصوص عليه.

ثم هو ليس له دافع يدفعه عنهم، فإذا نزل فلا حيلة في دفعه ولا رفعه، كما عذَّب الله أقوامًا بالصَّيْحة أو الزلزال أو الطوفان، فإذا وقع فإنه لا يُرفع، وإن كان المقصود عذاب الآخرة فمن باب الأولى لا يدفعه أحدٌ عنهم إلا الله.

* ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾:

وكأنه يبيِّن لماذا لا يملك أحدٌ دفعه؛ لأنه من الله، ومَن ذا يرد عذاب الله؟ فالله هو الذي أرسله على الكافرين جزاءً وفاقًا.

و﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ جمع: مِعْرج، أو: مِعْراج[2]، أي: ذو الرِّفعة والعُلو[3].

وفيه تأكيد لعلو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، ولهذا كان من أسمائه: العلي[4].

ومن معاني ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾: الطرق والمدارج التي تصعد بها الملائكة إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٣٢٢)، و«تاج العروس» (٦/ ٩٥) «ع ر ج».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٨٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٠)، و«الإتقان» (٢/ ٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

(٤) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٨)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٠٨- ١٠٩)، و«مع الله» (ص١٦٣).

السماء[1]، كما في قصة المعراج، ووصفه سبحانه بهذا يؤكِّد ألَّا مدفع لهذا العذاب، فذو المعارج هو صاحب السلطان الأعظم على خلقه وكونه، وصاحب العرش العظيم[2]، فكل ملوك الدنيا وجيوشهم وأجنادهم لا تنفع ولا تدفع عذاب الله في الدنيا، فضلًا عن الآخرة.

ومن باب آخر، فجنوده عظيمة، منها الملائكة التي لها طرق بين السماء والأرض، ولها القدرة التي منحها الله إياها في عذاب الكافرين في الدنيا، كما عذَّب قومَ لوط، وعذابهم في الآخرة، كما بيَّنه القرآن في مواضع.

* ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾:

والرُّوح المقصود به: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما خصَّه لشرف منزلته، كما قال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾[3] [القدر: ٤].

وقد يجوز أن يشمل الرُّوح: أرواح بني آدم، فإن أرواحهم تصعد في النوم وعند قبض الرُّوح، على ما فصَّلته الأحاديث، كحديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الطويل[4]، وغيره، وخاصة أرواح المؤمنين[5].

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: يجوز أن يكون المقصود مدة عروج الملائكة، أو مدة العذاب الواقع للكافرين في ذلك اليوم[6].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٦٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

(٤) كما في «مسند الطيالسي» (٧٨٩)، و«مسند أحمد» (١٨٦١٤)، و«سنن أبي داود» (٣٢١٢، ٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، و«المستدرك» (١/ ٣٧).

(٥) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢١).

(٦) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥).

وعلى المعنى الثاني أن العذاب إنما يكون في ذلك اليوم الطويل الذي هو يوم القيامة، فهي إشارة إلى أن الله تعالى لن يعذِّب هذه الأمة عذابًا عامًّا قبل ذلك اليوم، ولن يُسلِّط على هذه الأمة عذاب الاستئصال الذي سُلِّط على الأمم السابقة، كأمة نوح وهود وشُعيب وصالح وغيرهم من المكذِّبين الذين أرسل الله تعالى عليهم عذابًا أفناهم عن آخرهم.

وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**سألتُ ربي أن لا يُهلكَ أمتي بالسَّنة، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلكَ أمتي بالغرق، فأعطانيها**»(١). فلما بُعث النبيُّ ﷺ أمنت أمته ذلك، وصار يأتيهم عذاب جزئي؛ ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، وهذا شرف لمحمد ﷺ، فوجوده أمانٌ لأمم الأرض من العذاب التام المطبق، وهذا الأمان الأول، والأمان الثاني هو: الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٢) [الأنفال: ٣٣].

أما إذا كان المعنى أن عروج الملائكة والرُّوح إلى الله تعالى هو الذي يكون في ذلك اليوم، فيُشْكِل عليه أن عروجَهم يقع باستمرار، فالملائكة تصعد وتنزل في أمر الوحي، وفي أمر الموت والحياة، وفي شؤون كثيرة كلَّفهم الله بها، وأقدرهم عليها.

ويحتمل أن المقصود: كمال العروج في ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس، فهو يختلف عما قبله.

وقد ورد أن الله تعالى يقول للناس في ذلك اليوم: «**إني قد أنصتُّ منذُ خلقتُكم إلى يومكم هذا، أسمعُ كلامكم، وأُبصرُ أعمالكم، فاليومَ أنصتوا إليَّ، فإنما هي صحفُكم تُقرأ عليكم وأعمالُكم، فمَن وجدَ خيرًا فليحمد اللهَ، ومَن وجدَ غيرَ ذلك**

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩، ٢٨٩٠) من حديث ثوبان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٥١)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨)، و«الدر المنثور» (٧/ ١٠٥).

فلا يلومنَّ غيرَ نفسه»(١). فيسكت الناسُ ولا يتكلمون، قال الله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقد جاء أيضًا في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضبَ اليومَ غضبًا، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»(٢). فذلك يوم له ميزته وخاصته، ومنها كثرة نزول الملائكة فيه وصعودها.

وطوله منذ أن يُبعث الناس إلى أن يصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار خمسون ألف سنة، كما ذكر الله تعالى هنا، وكما قال النبيُّ ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يُؤدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القيامة، صُفِّحت له صفائحُ من نار، فأُحْمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بَرَدَتْ أُعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»(٣).

وقال بعضهم: إن المقصود لو أن أحدًا من الناس كان هو الذي يتولَّى الحساب

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٨٠)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦١١)، (٢٤/ ٣٨٦-٣٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٨- ٢٩٣١)، والطبراني في «الأحاديث الطوال» (٣٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٨٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو حديث طويل، يُعرف بـ: حديث الصُّور. قال ابن كثير: «هذا حديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم مَن وثقه، ومنهم مَن ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة؛ كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلَّاس، ومنهم مَن قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر، إلا أنه يُكتب حديثه في جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه، فغريب جدًّا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعله سياقًا واحدًا، فأُنكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجَّاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنَّفًا قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم». وينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٨٧- ٢٨٨)، و«البداية والنهاية» (١٩/ ٣٢٢)، و«فتح الباري» (١٠/ ٣٦٨- ٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بموجب مقاييسهم وطرائقهم في الدنيا، لكان يستغرق هذه المدة، أما الله تعالى فإنه يحاسب الخلائق في ساعة من نهار(١).

وهذا ليس بظاهر، بل الظاهر أن طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة من أيام الدنيا، ولكن الله تعالى يخفِّف هذا اليوم عن المؤمنين(٢).

وذكر طول اليوم مناسب لاستفتاح السورة بسؤالهم عن العذاب، واستعجالهم إياه.. فمقاييسهم ساذجة محدودة، وهم بمعزل عن إدراك الأمور العظيمة التي تنتظرهم؛ ولهذا ناسب أن يوجِّه نبيَّه إلى الصبر، وهو الجدير بمَن يعلم ما عند الله من الآماد والأحقاب التي تنتظر البشر: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤].

* ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾:

والصبر: حبس النفس على الشيء(٣)، فلا يستعجل، ولا يستجيب لمشاعره الشخصية، فالأمر بالصبر تربية ربانية كثيرة الورود في التنزيل، وجاء بالمصدر: ﴿صَبْرًا﴾ للتأكيد، ثم وصفه بأنه جميل، فالصبر خُلق جميل، وعند ما يصفه الله تعالى بأنه جميل، فالمقصود صبر ليس فيه تشكٍّ ولا جزع ولا استعجال ولا تسخط.

وبعض الناس قد يصبر، ولكن لا يكون صبره جميلًا، فيتذمَّر ويتكلَّم ويُفضي بالسر لبعض أقاربه وخلصائه، ويذكر لهم أنه تحمَّل من فلان شيئًا عظيمًا، وصبر عليه.

وهذا يؤكِّد على الخلق العظيم الذي لا يُتصور حصول النجاح إلا به، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»(٤). وكما قال النبيُّ ﷺ: «مَن يتصبَّر

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٢).

(٣) ينظر: «مختار الصحاح» (ص١٧٢) «ص ب ر»، و«التفسير الوسيط» للواحدي (١/ ١٣١).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) معلقًا، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، والحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

يُصبِّرْهُ اللهُ»[1]. فيكون صابرًا، ثم صبورًا.

والذين يواجهون العَنَت والأذى، يعرفون معنى الصبر الذي يحبس النفس عما لا يجمل بالأحرار، ويعرفون مستوياته ودرجاته، وأن الصابر قد يَضِيق أو يبوح لبعض خلصائه وخاصته، أو يتردد أو يشك، أما الصبر الجميل فبمَعْزل عن ذلك كله.

* ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾:

أي: يستبعدون العذاب بعقولهم فيجحدونه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٣].

أو يستبعدون زمانه؛ ولذلك لا يقيمون له وزنًا؛ لأنهم مشغولون بالشيء القريب، وهو الدنيا[2].

وكثير ممن يطرقون طُرق الهلاك حين يسمعون الناصح والمحذِّر يضرب لهم الأمثال ويخوِّفهم ما قد يقع لهم من الأحوال، يشيحون بوجوههم، ويشعرون أنها مخاوف لا حقيقة لها، ولا تحملهم على تغيير طريقتهم أو تجنّب ما يفضي إلى العِثار.

* ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾:

أي: في الوقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وحكى أنهم يتساءلون ويتخافتون فيما بينهم: كم لبثنا في الدنيا؟ فيقول بعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: ١٠٣]، فيقول سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٤]، فأعقلهم يؤكِّد أن لبثهم لم يكن سوى يومٍ واحدٍ، فإذا جاء يومُ القيامة تغيَّرت الموازين والحسابات تغيرًا كبيرًا، وقد كانوا من قبل يستعجلون به، فهم الآن يقولون كلامًا آخر، وقد كانوا في الدنيا

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾».

ينظرون إلى الآخرة المستقبلة بسخرية واستبطاء، فإذا هم في الآخرة ينظرون إلى الدنيا الماضية بتعجب وتقليل[1]!

* ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾:

المُهْل: المعدن المذاب، دُرْدِيُّ الزيت المذاب[2]، أي: ما يبقى في أسفل الزيت من البقايا والحُثالة.

فهذا أحد تشبيهات السماء يومئذ، أنها تكون كالمعدن المذاب.

وقد جاءت صفات أخرى في شأن السماء؛ كقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧]، أي: مالت إلى الحمرة[3]، ولعل المقصود بالدِّهان هنا مثل قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أي: الزيت أو دُرْدِي الزيت.

ويحتمل أن يكون المقصود أن هذا يقع مرة بعد أخرى، فيوم القيامة يوم طويل، مقداره خمسون ألف سنة، فتقع تحولات في أحوال السماء وألوانها وشكلها وهيئتها، وكذلك الأرض[4].

* ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾:

العِهْن: الصوف، وغالبًا ما يُطلق على الصوف الملون المصبوغ[5]، وقال سبحانه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، أي:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٤)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٣١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٢٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٧٢٨)، (٢٤/ ٢٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ١٤٣- ١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٧)، و«زاد المسير» (٢/ ٥٢٠)، و«تفسير الرازي» (١٩/ ١١١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٤١١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢١٣).

وينظر أيضًا: «العين» (١/ ١٠٨) «ع هـ ن»، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٧).

المفرَّق[1].

والجبال في الدنيا ملونة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]، فمنها الأبيض والأحمر والأسود، فهكذا يوم القيامة تتغير حقيقتها وتذهب كثافتها وتصبح كالصوف المنفوش، ويكون فيها ألوان وطرائق مختلفة.

والمرء ينظر من حوله، فيرى الجبال من أعظم ما خلق الله، وبها يُضرب المثل في الشدة والقوة والرسوخ، ويرفع رأسه فيرى السماء في سموقها وإحكامها وجمالها.. ففي ذلك اليوم تتفتت الجبال، فتبدو كالقطن أو الصوف، وتضعف السماء، فتغدو كالمُهْل، فما بالك بالإنسان الضعيف الذي هو المقصود من وراء كل تلك الحوادث؟!

وعادة ما يلجأ الناسُ بعضهم لبعض عند حلول الحوادث، ويتبادلون الحديث مع معارفهم وأصدقائهم، ويقلِّبون وجوه الرأي، وطرائق الحياة، ولكن هيهات ذلك في موقف القيامة.

* ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

فكل إنسان مشغول بنفسه؛ لما يرى من الهول، ولا يعنيه أن يسأل عن حال أقرب قريب.

وقد أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري لما مات أبوه، ورثاه بقصيدة، فيها[2]:

فيا ليتَ شِعري هل يخفُّ وقارُه ... إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعِهْنِ؟

وهل يَرِدُ الحوضَ الرَّويَّ مبادرًا ... مع الناس أم يأبَى الزّحامَ فَيَستأني؟

يقول: هل سيزاحم مع الناس من أجل الحوض، أم أنه لا يريد أن يزاحم فيستأني؛ لأنه كان في الدنيا وقورًا قليل المخالطة للناس؟

---

(١) ينظر: «روح المعاني» (١٥/ ٤٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٢)، وما تقدم في «سورة الواقعة»، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

(٢) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٤٤).

والحَمِيم: الصديق اللَّصيق الوثيق(١)، **والحَمِيم أيضًا**: الماء الحار، وكلاهما يرد في القرآن في حديثه عن الآخرة، في فرار الحَمِيم من حَمِيمه، وفي الماء الحَمِيم الذي يشربه أهل النار(٢)، وقد جمع المعنيين الشاعر فقال(٣):

لا تَغْتَـرِرْ ببنـي الزَّمـان ولا تَقُـلْ عنـد الشَّـدائد: لـي أخٌ ونَدِيـمُ
جرَّبتُهـم فـإذا المُعاقِرُ عاقـرٌ والآلُ آلٌ والحَمِيـمُ حَمِيـمُ

والمعنى ظاهر، ففي يوم القيامة لهول المطلع وكرب الموقف وانشغال كل امرئ بنفسه، يقول كل امرئ منهم: نفسي نفسي، ولا يسأل الصديقُ صديقَه عن حاله ولا عن شيء مما يجري: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٧]، ولم يبيِّن سبحانه متعلّق السؤال، أي: لا يسأل أي سؤال، لا عن نفسه، ولا عن أحد، ولا عما يجري.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يطلب منه شيئًا من باب المسألة، فلا مجال لمساعدة أو دعم أو إسناد أو شفاعة(٤).

* ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١﴾:

كأن بعض الناس قال: كيف يسأله وهو لا يراه أصلًا؛ لكثرة الخلق المحشورين للعرض والحساب في صعيد واحد.

فكانت هذه الآية جواب التساؤل، أي: يجعل الله بعضهم يُبصر بعضًا على رغم ذلك، فيتمكنون من رؤيتهم، وقد يكون هذا من المؤمنين وهذا من الكفار، أو هذا في الجنة وهذا في النار، وهذا في مكان وهذا في مكان آخر، ومع ذلك يراه

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٥٤- ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٠).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [يونس: ٤]، وقوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾ [النبأ: ٢٥]. ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٥/ ٢٢٠٧)، و«الوافي بالوفيات» (٢٤/ ١٠٠) منسوبًا إلى الحريري.

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤١).

ويُبصره، ويتعمَّد أن يصد عنه، ولا يسأله عن شيء.

ولا غرابة، فمع بُعد العهد وحدوث الحوادث العظيمة والتحولات الجسيمة، إلا أن ذلك الموقف كما وصفه الله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]، حتى الوالد لا يسأل ولده، والزوج لا يسأل زوجته، والأم لا تسأل ولدها، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

إنه تأكيد لمسؤولية الفرد عن نفسه، فلا يسأل أحدٌ عن أحد، ولا ينفع أحدٌ أحدًا، إلا بما أخبر الله به من الشفاعة.

هنا الفرد في مواجهة صارمة مع ذاته، كما كان في الدنيا مسؤولًا عنها؛ ولكنه مشغول عنها بالآخرين، حتى يصل الحال إلى أن المستحق للعقوبة يتمنى أن تنزل بأقرب قريب وأحب حبيب لينجو منها هو!

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١﴾: هذا المجرم هو الذي كان في الدنيا يستعجل العذاب، ويسأل: متى هو؟ فها هو في يوم القيامة يود لو يفتدي العذاب بأخلص أصدقائه وأقرب الناس له رحمًا، وربما هؤلاء الناس الذين يراهم ويبصرهم في عَرَصات يوم القيامة قد كانوا في الدنيا من أسباب ضلاله، وربما كان يستعرض أمامهم قوته وذكاءه وكبرياءه وسخريته، ومن أجلهم كذَّب أو كفر، لم يعد يلتفت إليهم، بل وَدَّ لو يفتدي نفسه بهؤلاء جميعًا، يود أن يخلص من العذاب، ويدفع فدية مقابل تخليصه من العذاب، ولو ﴿بِبَنِيهِ﴾ الذين خُلقوا من صلبه، وبدأ بالبنين؛ لأنهم أشد الناس علاقة به؛ فإن الولد بَضْعة من أبيه، وموضع حبه(١).

وثمة فرق بين النسب الذي تعزَّز وترسَّخ بالتقوى والإيمان، وما ليس كذلك،

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦١).

فكل نسب ينقطع يوم القيامة، إلا نسب النبي ﷺ وسببه، كما قال ﷺ[1].

* ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢﴾:

والصاحبة: الزوجة[2]، وهي أقرب من الأخ لقلب الإنسان بعد بنيه؛ ولذا بدأ بها، ثم عطف عليها الأخ.

* ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ١٣﴾:

قال مالك: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾: أمه؛ لأنه يأوي بعد أن انفصل عنها[3].

والأكثرون على أن المقصود بـ«فَصِيلته التي تُؤْويه»: أفراد القبيلة القريبة منه، كما يقولون: القبيلة والفخذ والفصيلة، فهم الأقارب المحيطون بالرجل، مثل العم وابن العم، وهذا أقرب[4]، فيكون السياق بدأ متسلسلًا بالبنين، ثم بزوجته، ثم بأخيه، ثم بفصيلته، وهي الدائرة الأوسع.

والترتيب في «سورة عبس» عكس هذا؛ لأنه هنا يريد أن يفتدي بهم، فناسب أن يبدأ بالأقرب والأحب؛ إظهارًا لشدة حاجته واستعداده للفداء، ولذا قدَّم بنيه، ثم زوجته، ثم أخاه، ثم قبيلته، ثم الناس جميعًا، على معنى أن تقول: فلان قد هجر حتى أقربَ الناس إليه، فهم مضرب المثل، وهو لم يعد يبالي بأحد من الناس.

وجاء في «سورة عبس» عكس ذلك؛ لأن الأمر هناك أمر فرار: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤﴾، فبدأ بالأخ، وانتقل إلى مَن هو أقرب: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥﴾، ثم انتقل إلى الأقرب: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾. والفرار قد يعني التنصل من المساعدة التي

(١) كما في «مسند أحمد» (١٨٩٠٧)، و«المستدرك» (٣/ ١٥٨) من حديث المِسْور بن مَخْرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وإن الأنسابَ يومَ القيامة تنقطع، غيرَ نسبي وسببي وصِهْري». وينظر: «البدر المنير» (٧/ ٤٨٧-٤٩٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٦١).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦١).

جرت عليها العادة في الدنيا، أن الإخوة يساعد بعضهم بعضًا، وكثيرًا ما يحتاج الأبوان إلى المساعدة من الأبناء، أما الزوجة والأولاد فهم محل الضرورة، فكان الفرار تدريجيًّا، يبدأ بالأخ، ثم الأبوين، وأخيرًا يفر حتى من بنيه وزوجه، وقد يكون الاختلاف بين الموضعين للتنويع، ففيما يتعلق بالفرار بدأ بالأبعد ثم الأقرب، وفيما يتعلق بالافتداء بدأ بالأقرب، وهم الأبناء، ثم الصاحبة، ثم الأخ، ثم الفصيلة[(١)].

* ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾:

فليس عنده تردد أن يفتدي بالناس كلهم، فيعذَّبوا من أجل أن ينقذ نفسه، وهذا الكافر كان يمكنه في الدنيا أن يفتدي بأقل من ذلك، ولكن كانت السخرية والاستعجال تهكمًا وتحديًا يمنعه من ذلك.

وهل يقول الإنسان هذا الكلام بلسانه، أم بقلبه، ويدل عليه لسان حاله؟

السياق تعبير عما يود أن يكون، لكن لم يصرِّح بأنه يقول ذلك تلفظًا، وفي سياقات أخرى ما يدل على أنه يقول ذلك عند مناسبته، كما في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨- ٢٩]. وفي بعض نصوص السنة ما يرشد إلى ذلك[(٢)].

إن كشف هذا الموقف الجليل لا يحمل المؤمن على جفاء القرابة والتنكر لها في الدنيا، فالصلة والخُلُق الكريم قربة إلى الله، وسبيل إلى النجاة في الموقف العصيب، و«الرَّاحمونَ يرحمهم الرحمنُ»[(٣)]، ومَن وصل رحمًا وصله الله[(٤)]،

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٥).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٣٤، ٦٥٣٨، ٦٥٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٠٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُقالُ للكافر يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان لك ملْءُ الأرض ذهبًا، أكنتَ تفتدي به؟ فيقولُ: نعم. فيُقالُ له: قد سُئلتَ أيسرَ من ذلك**».

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٥٩٨٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكنه يحمل على تقديم الحق والصواب ومرضاة الله على كل حبيب أو قريب؛ ليكون فراره إلى الله، ونعم بالله، وليس فراره إلى نفسه التي هي الأخرى تفر منه.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾: ولم يقل: «فينجيه»، وإنما قال: ﴿ثُمَّ﴾، وهي تدل على الاستبعاد، أي: مع هذا كله يا ليت الأمر ينفع! ويا ليته ينجو، لكن هيهات!!

* ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة تقال للردع والزجر، تدل على النفي[1]، أي: لن يُنجيه قريب ولا بعيد ولا حميم ولا صديق ولا شفيع.

والضمير ليس إلى مذكور سابق، والعرب يقولون: هذا ضمير الشأن، ويقصدون به الإشارة إلى أنه إذا جاء أمر جَلَل، فإنه يُورد ضميره قبله، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: إن الأمر أو القصة أو الخبر أو الشأن يتعلق بشيء عظيم[2].

و﴿لَظَىٰ﴾ من أسماء النار، أو دَرَكة من دَرَكاتها، وهي مأخوذة من التلظِّي، وهو شدة الاشتعال[3]، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: ١٤]، أي: تتوقَّد وتشتعل وتتلمَّظ، تريد هؤلاء الناس.

* ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

أي: تنزع الشَّوَى، فتأخذه أخذًا قويًّا شديدًا.

والشَّوَى: جلدة رأس الإنسان، **وقيل**: الأطراف[4]؛ فالصياد إذا ضرب ولم يصب الصيد في مقتل، وإنما أصاب أطرافه، يقولون: أشوى، أي: أصاب الأطراف[5]، ومنه قول العامة إذا كان الأمر المَخُوف أهون مما ظنوا قالوا:

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٠).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٦٨).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٣).

أشوى.. يعني: أسهل وأهون.

والذي يظهر أن المراد ليس أنها تنزع الجلدة من الإنسان، وإنما المقصود أنها تنزع الإنسان بجلدته وتنزعه بأطرافه، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١]، أي: يُحمل بأطراف يديه ورجليه وجلدة رأسه، ويلتقط التقاطًا[١].

* ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾:

أي: تنادي مَن كان في الدنيا قد أدبر وتولَّى عن قبول الحق والانقياد له، وليس ببعيد أن يكون نداءً حقيقيًّا[٢]؛ فقد ذكر الله تعالى عن النار أشياء كثيرة ليست من شأن النار في الدنيا، مثل التغيُّظ والزَّفِير والتميُّز[٣].

وقال بعض الأئمة: إن المقصود هنا دعاء الخَزَنة الذين وكَّلهم الله تعالى بالنار، فعبَّر عن دعاء الخَزَنة ومناداتهم لهؤلاء القوم بأنه دعاء النار[٤].

والأول أقرب، وحقائق الآخرة والغيب ينبغي أن تبقى على ظاهرها، وألَّا تخضع لموازين العرف والعادة والمادة.

وهنا تناسبٌ بين قوله سبحانه في أول السورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾، والإخبار هنا عن النار بأنها ﴿تَدْعُوا۟﴾، لقد كانوا في الدنيا يدعونها ويستعجلونها، ويوم القيامة هي التي تدعوهم وتستعجلهم، وتقول: تعالوا، هذا ما كنتم تُوعدون.

إن النار يوم القيامة ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، فهي لا تنادي الإنسان بنسبه ولا بحسبه ولا ببلده ولا بقبيلته، وإنما بعمله، وهذه الآيات تصف القوم المكذِّبين المستعجلين الذين تدعوهم النار، وقد أُعدَّت لهم، لا يستطيعون

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٧٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥).

(٣) كما في قوله تعالى في «سورة الفرقان»: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾، وينظر ما تقدم في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٤).

الاقتداء منها، ولو بأقرب الناس إليهم، والإدبار: الإعراض، يقال: ﴿أَدْبَرَ﴾: إذا ولَّاك ظهره(١)، فهؤلاء أعرضوا أولًا ثم أدبروا، والإنسان قد يعرض فيكتفي بالسكوت، وقد يخالف الطريق ويعترض عليه.

وأصل التولِّي: الإقبال، ومنه المولَى، قال تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾(٢) [الأنفال: ٤٠]، والمعنى: أن هذا الإنسان أدبر وأعرض عن الحق وتولَّى شيئًا آخر، أعرض عن الإيمان وتولَّى الكفر، لقد أدبر عن النور وتولَّى الظلام، فهو أدبر عن شيء وتولَّى ضده، وهكذا المرء لا يخلو: إذا هجر طريقًا انتقل بفطرته إلى ضده، فإذا لم يسلك الإنسان طريق الخير سلك طريق الشر، وإن لم يشغل نفسه بالخير شغلته بالشر، وإن لم يشغل وقته في طاعة شغله بمعصية.

فهذا الإنسان في الدنيا أعرض عن الإيمان ومقتضياته بطوعه واختياره، فإذا كان يوم القيامة نادته ﴿لَظَىٰ﴾ ليأتيها مكرهًا، وقد كان يمكن أن يأتي الحق والإيمان في الدنيا طائعًا مختارًا.

* ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾:

أي: جمع المال في أوعية، وأحكم إغلاقه(٣).

وجمع المال ليس عيبًا لذاته، وإنما المذموم ألَّا يتورَّع عن الكسب الحرام، أن يبخل به عن إنفاقه على ما أوجب الله، فلا يُطعم منه المسكين، وقد عاب القرآن على المشركين إمساكهم عن إطعام المسكين، كما كان يعيبهم على الشرك بالله وتركهم للصلاة، وكما سجَّل عليهم إدبارهم وتوليهم عن الإيمان سجَّل عليهم أنهم جمعوا الأموال بكل سبيل، وجعلوها في أوعية، وأغلقوا عليها، فلا يُطْعم منها يتيم ولا مسكين، ولا يُؤدَّى منها حق، ولا يراعى ما لله تعالى فيها من الشكر الواجب.

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٧) «د ب ر».

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٨٦) «و ل ي».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥).

وفي القدر السابق من السياق تبدو طبيعة الإنسان المتناقضة، التي تستعجل العذاب وهو واقع، وتستبعد العقاب وهو قريب، وتنسى ما مرَّ عليها، حتى يصبح العمر كله عندها يوم القيامة وكأنه ساعة من نهار، وترفض الإيمان الاختياري، لتحتمل عذابًا قسريًّا قهريًّا يوم الدين؛ ولذا ناسب أن يسلط الضوء على هذه النفسية العجيبة!

* ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾:

والأقرب أن المقصود جنس الإنسان، وبعضهم يقول: المقصود الكافر، أو شخص بعينه، كالنضر بن الحارث بن كَلَدة، أو غيره من أعيان المشركين(١).

والصواب أن المقصود جنس ابن آدم(٢)، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومثل قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، ومثل قوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وفيها الإشارة إلى ما جُبل عليه الإنسان بالفطرة من ضعف أو عجلة أو ظلم أو جهل.

والله تعالى يُسجِّل على جنس الإنسان أنه ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾، وكلمة ﴿خُلِقَ﴾ تأتي أحيانًا بذكر الخلق الجسماني، مثل قوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]، يعني: قوة أجسامهم في الدنيا(٣)، وتأتي أحيانًا لذكر الخلق النفسي والروحي، كما في هذه الآية.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٠٩- ٤١٠).

﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: جُبل بفطرته على الهَلَع(١).

والعلماء مختلفون في أجمع عبارة يُفسَّر بها الهَلَع(٢):

وأجمع وأجمل ما يقال في تفسيرها: هو ما بعدها في السياق، وقد سُئل ثعلب عن معنى ﴿هَلُوعًا﴾ عند العرب، فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾(٣).

والهَلوع: الضعيف المتهالك المسترخي عند الأزمات، فإذا صام بان عليه الجوع، وصار يترقَّب أوان الفطر، وإذا خاف انتفض واضطرب ولم تحمله قدماه، وإذا حلَّت به نازلة أو مصيبة جزع، وإذا توقَّع ضررًا أو مرضًا بالغ في التخوُّف والتحوُّط(٤).

والتعبير بصيغة المبالغة: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعًا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾، يدل على هذه الطبيعة المتطرِّفة الغالية البعيدة عن الاعتدال(٥).

ومع المال تجده مستعجلًا، يريد أن يجمعه بكل حيلة، فهو شديد الحرص.

والمقصود بـ﴿الشَّرُّ﴾ هنا: الفقر أو الجوع أو المرض(٦)، وهذه تُسمى في القرآن الكريم «سيئة» أيضًا، كما قال الله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فالمقصود الشر الدنيوي.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ والمقصود بـ﴿الْخَيْرُ﴾: الرزق والعافية والسَّعة

---

(١) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٠/ ٤٠٠)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٨٤)، و«روح البيان» (١٠/ ١٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٨).

(٣) ينظر: «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٨٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٠).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٢٣).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٦٧).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٣٢).

والمال والولد[1]، فإذا أصابه الخير فإنه يحبسه ويبخل به أن ينفقه على محتاج.

والتعبير بـ﴿مَسَّهُ﴾ عجيب؛ فهو يوحي بتأثير الأحوال في الإنسان عامة، وفي الهلوع خاصة، فهي تقترب منه وتحيط به وتداخله.

وهو يدل أيضًا على أن الأحوال لا تدوم، فهي تمسي اليوم بخير وغدًا بغيره، وتصبح على حال وتمسي على سواها، والعاقل الحكيم إن أصابته نعمة فرح وسُرَّ، ولم يخرجه ذلك إلى أَشَر وبَطَر ونسيان واعتقاد دوام الحال، وإن مسه ضرٌّ أو شرٌّ صبر وانتظر فراقه بالفرج والحول من الله، ولم يقنط أو ييأس.

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣].

وقد يتساءل البعض: إذا كان الله خلق الإنسان كذلك، فكيف يعاتبه على شيء جَبَله عليه؟

والجواب: إن الله تعالى خلق الإنسان على مقتضى حكمته في الدنيا لمصالح، وجبله على الشهوة، فهو يضبط هذه الشهوة فيصرفها في طريقها الصحيح الذي خُلقت له؛ لاستمرار دفة الحياة وحفظ النوع والتكاثر والابتلاء والامتحان، ويدافعها عن مراتع الهوى والهلكة، وإذا زل أو عثر، سارع بالتدارك مستعينًا بالله.

وإن وضعها الإنسان في خير أو في شر، فهذه مسؤوليته، وهكذا موضع الطباع الأخرى؛ كحب المال، فإذا سيطر حب المال وطغى صار مذمومًا لتجاوزه حد المباح.

والآية الكريمة تدل على أثر الإيمان في تهذيب الإنسان، وهي من أعظم الدلالات القرآنية على أن الإيمان والعبادات- ولا سيما الصلاة- ذات أثر كبير في تهذيب الأخلاق، فقد يكون الإنسان شرسًا سيِّئ الطبع، سيِّئ الخلق، بسبب التربية أو البيئة أو الطبائع الموروثة، أو الظروف التي ألـمَّت به؛ فتجده قاسيًا غليظًا جحودًا نَزِقًا طائشًا متسرِّعًا، ثم إذا به بالتقوى والإيمان والصلاة يُذعن

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٠).

ويلين، والآية تؤكِّد هذا المعنى وتبرزه بقوة.

* ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

استثنى الله فئة من الناس وصفهم بالمصلِّين، وهم المسلمون، كما قال في «سورة المدثر»: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾، والمصلُّون هنا هم المؤمنون بالله(١)، وذكرهم بالصلاة؛ لأنها أخص الصفات الإيمانية العملية، فدلَّ على أن الإنسان يمكن بفعله وبمحاولته وبعبادته أن يُهذِّب كثيرًا من أخلاقه.

وهذا ما تجده في تربية النبي ﷺ لأصحابه؛ فقد كانوا على بعض أخلاق الجاهلية، فلما جاء الإسلام أَذْعَنوا ولانوا وذلُّوا وانقادوا، وفي قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ، وقال: أوصني. قال ﷺ: «لا تغضبْ». فردَّدَ مرارًا، قال: «لا تغضبْ»(٢).

وهذا يتطلَّب أن يكون الإنسان رقيبًا على نفسه، أما الذي يسلِّط ملاحظاته على الآخرين ويعيبهم ويبحث عن مثالبهم، فهو يمضي قُدُمًا لا يلوي على شيء، منشغلًا بمثالب الناس عن عيوبه، فهو لا يصحِّح نفسه، ولا يرى لنفسه خطأً أصلًا، إلا على سبيل التواضع والتنظير!

ويكفي الصلاة شرفًا أن جعلها الله تعالى عنوانًا للإيمان وللأخلاق الكريمة والصفات النبيلة، ولا يُوصف الإنسان بالمصلِّي إلا إذا كان مداومًا على الصلاة، ومع ذلك أكَّد هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: مستمرون عليها، لا ينقطعون عنها، ولا يضيِّعونها، لا يشغلهم عنها مال ولا أهل ولا ولد، ولا فرح ولا خوف ولا حزن، وهذا ملائم لسلامتهم من الهَلَع؛ لأنه كلما حزبهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما كان يفعل ﷺ(٣)، ولأن الدنيا والتجارة والبيع لا تلهيهم عن

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٨٤٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «مسند أحمد» (٢٣٢٩٧)، و«سنن أبي داود» (١٣١٩) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى».

الصلاة، بل هذَّبت أخلاقهم، وربَّتهم على الإيمان تربية ربانية.

وكلمة «الدَّوام» لا تعني البقاء الأبدي، كما يتوهم بعضهم، فيقولون: الدَّوام لله[١]. وهذا معلوم قطعًا؛ فالله تعالى هو الحي الذي لا يموت، وإنما المقصود الدَّوام النسبي الذي يكون في أمر الدنيا، والعرب يسمون المطر المتواصل: دِيمة[٢]، ولما سُئلت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن عمل النبي ﷺ قالت: «كان عملُه دِيمةً»[٣]. أي: كان إذا عمل عملًا أثبته، كما في حديث آخر[٤].

فالدَّائم هو: المستمر، وليس من صفات الله تعالى، وإن كان قد يُخْبَر به عن الله، لكن على سبيل الخبر لا على سبيل الاسم أو الوصف.

ومن معنى الدَّوام: الإقبال على الشيء المقصود[٥]، فإذا صلَّى فإنه لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، فهو مداوم على استقبال القبلة لا ينصرف عنها، بل يظل مقبلًا على صلاته بكليته، بقلبه وجوارحه، ولا يكترث لشأن الدنيا ما دام في مناجاته لربه.

* ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾:

والزكاة تُقرن مع الصلاة في القرآن كثيرًا، فالصلاة حق البدن والروح، والزكاة حق المال، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة، والسُّدِّي، وغيرهم: «الحقُّ المعلوم هو: الزكاة»[٦].

وهذه الآية نزلت بمكة قبل فرض الزكاة بمقاديرها وأنصبتها المعروفة، وقد

---

(١) ينظر: «معجم المناهي اللفظية» (ص٦٢١)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٧٩٠).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٤٧)، و«الصحاح» (٥/ ١٩٢٤) «د ي م»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٢٣) «د و م».

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٦)، ومسلم (٧٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٧٠).

قرَّر العلماء أن في المال في أول الإسلام حقًّا يجب إخراجه للمساكين[1].

* ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾:

والسائل هو: الذي يسأل الناس ويمد يده، **وأما المحروم** فهو المتعفِّف، وهو نقيض السائل[2]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ ولهذا لا يعرفه الناس ولا يعطونه؛ لأنه لا يسألهم شيئًا، وقد نهى النبيُّ ﷺ عن المسألة، فقال: «**مَن سأل الناسَ، وله ما يغنيه، جاء يومَ القيامة ومسألتُه في وجهه خُموشٌ، أو خُدوشٌ أو كُدوحٌ**»[3]. لأن المسألة تذل الإنسان، وتريق ماء وجهه، ومن الإيمان أن تُعطي المحتاج ولا تضْطَره للسؤال، أن تبحث عنه، لا أن يبحث هو عنك، ولكن قد يقع للناس ضرورات أو مجاعات أو أحوال نازلة مفاجئة تحمل بعضهم على أن يسأل الناس؛ ولذا اعتبر الله حاله فذكره في الآية.

وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «**للسائلِ حقٌّ، وإن جاء على فرسٍ**»[4].

على أنه إذا كان السائل متكثِّرًا، فلا ينبغي إعطاؤه؛ لأن في ذلك إغراءً له على الكسل، وامتهان السؤال، والخلود للدَّعة والراحة، وتعويدًا على البطالة، وكثيرًا ما تتحول المسألة إلى عادة وإدمان، حتى لو أثرى الإنسان واستغنى، فإن نفسه تميل إلى مد اليد والتعرُّض للسؤال.

ويدخل في المحروم ذلك المحارَف المتعثِّر، الذي كلما اشتغل في شيء

---

(١) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٧- ٢١)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾، وما سيأتي في أول «سورة الأعلى».

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٧٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، وابن ماجه (١٨٤٠)، والنسائي (٥/ ٩٧)، والحاكم (١/ ٤٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٠)، وأبو داود (١٦٦٥)، وابن خزيمة (٢٤٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٩٣) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٣٧٨).

أخفق ولم يوفَّق، فدخل في التجارة وأسَّس المحل وأقام البناء، ثم خسر، وانتقل إلى شركة واجتهد وخسر، ثم دخل في الأسهم ونكب، وذهب للزراعة فلم يُوفق، فهذا يُسمى محارَفًا، أي: لم تقع في يده حرفة، وهو من صنف المحرومين(١).

وبعض الناس ربما يداومون على صلاتهم، ولكنهم لا يؤدُّون حقَّ الله في أموالهم، ويظهر فيهم البخل والشُّح والأَثَرة؛ ولذا جمع الله بين المحافظة على الصلاة وإخراج الزكاة للبراءة من الهلع؛ فالصلاة سكينة القلب، والزكاة طهارة المال والبراءة من تقديم حب الدنيا والعاجل على حب الله ورسوله.

* ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦)﴾:

و﴿الدِّينِ﴾: الجزاء والدينونة والحساب(٢)، فهم يؤمنون بيوم القيامة، والعادة جارية أن يعبِّر القرآن عن ذلك بالإيمان، لكن هنا عبَّر بالتصديق؛ ليبيِّن أن التصديق جزء مَكِين في الإيمان وأساس رَكِين، ولكنه لا يكفي حتى يصاحبه إحساس القلب بهذا التصديق.

* ولذا عقَّب بذكر الخشية والخوف والإشفاق: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧)﴾:

أي: خائفون وجلون(٣)، وهذه الصفة أعلى من مجرد التصديق العقلي.

ميَّز الله بين أولئك المستبعدين المستعجلين عذاب الله، وبين الذين هم به مصدِّقون ومنه مشفقون، يدعون الله تعالى بأن يدفعه عنهم، كما قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن: ٤٦]، فإذا صدَّق بيوم الدين فلا بد أن يخاف ويبتعد عن الكبائر، ويُؤْثِر ما عند الله، ويسرع بالتوبة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٣)، و«تاج العروس» (٢٣/ ١٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٠٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٣)، وما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩)﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٧)، و«تفسير السعدي» (ص٨٨٧).

* ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

وإنما يأمنه المنافق والمكذِّب بيوم الدين، فهو يستبعده، بل وربما يستعجله تحديًا وسخرية، وقد سُئل الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ عن النفاق، فقال: «والله ما أمنه إلا منافقٌ، ولا خافه إلا مؤمنٌ»(١).

فعلى العبد أن يملأ قلبه من شعور الإشفاق من عذاب الله، وأن عذاب الله تعالى غير مأمون، وليعلم أن الرسل والأنبياء يقولون يوم القيامة: «**اللهمَّ سلِّم سلِّم**»(٢). فما بالك بمَن دونهم؟! ولعل هذا الخوف يكون سببًا في نجاة العبد، وفي مرضاة الرب.

وكرَّر في الموضعين ذكر ﴿رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل: ﴿ٱللَّهِ﴾؛ إشعارًا بقربهم ورحمته بهم، ولذا فإن المؤمن جمع عملًا وخوفًا، والمنافق جمع إساءة وأمنًا، ووصف الربوبية فيه تلطف وتعطف، وإضافته إليهم لا تخلو من تأمين وتطمين، فـ«**مَن خاف أَدْلَجَ، ومَن أَدْلَجَ بلغَ المنزلَ**»(٣).

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

وهذا له اتصال بالإشفاق والخوف؛ فإنه لا شيء يردع الإنسان عن الشهوة كالخوف من الله؛ ولهذا يقول النبيُّ ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ**»(٤). فالخوف من عذاب الله هو خير رادع عن الوقوع في الكبائر.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٨) معلقًا، والفريابي في «صفة النفاق» (٨١)، وأبو بكر الخلال في «السنة» (١٦٥٦)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٥٧) (١٠٥٧). وينظر: «فتح الباري» (١/ ١١١)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٥٣- ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في «مسند عبد بن حميد» (١٤٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٤٥٠)، و«قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (١١٥)، و«الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٣٨٢)، و«المستدرك» (٤/ ٣٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٥٤، ٢٣٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٧٢)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمقصود بحفظ الفروج: حفظها من الانكشاف، كما في حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «احفظ عورَتكَ، إلَّا من زوجتكَ، أو ما ملكت يمينُكَ»(١).

فالنظر إلى عورات الناس لا يجوز إلا لحاجة أو ضرورة(٢)؛ ولذا عُوتب آدمُ وحواءُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بكشف سوءاتهم، وامتنَّ الله على ذريته باللباس المواري لها.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: مع أزواجهم، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وملك اليمين: لفظ يُطلق على الرَّقيق، ويقصد بها هنا: الإماء، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وما أجمل هذا التعبير! فإن عادة الإنسان أنه قد يجد في نفسه بعض الاستقذار للعلاقة الجنسية لأسباب عديدة، والآية تنفي الملامة ما دامت العلاقة في حدود ما أباح الله، وهو معنى أخلاقي تربوي نفسي مهم للآباء وللأزواج وللمربِّين، ومهم للشباب وللفتيات؛ ليفرِّقوا بين الحياء المشروع والخجل المذموم، وبين التبجح المرذول وبين الفطرة السوية، وقد جعل الله للرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أزواجًا وذُرية، وجاء الإسلام ليُهذِّب الغرائز ويرتقي بها؛ حتى لا يشعر الإنسان أن العلاقة الجنسية شيء مستقذر أو ممقوت، ما دامت في الحلال، بل هي تحصين للنفس وللزوج، وقد سمى الرسول ﷺ ذلك صدقة، فقال: «وفي بُضْع أحدكم صدقةٌ». قالوا: يا رسولَ الله، أيأتي أحدُنا شهوته، ويكون له فيها أجرٌ؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ»(٣).

* ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾:

والمقصود بـ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: كشف العورات والاندفاع وراء الشهوات المحرمة، و﴿ٱلْعَادُونَ﴾ هم الذين تعدَّوْا حدودَ الله تعالى، فعُوقبوا(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩).

(٢) ينظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (١٤/ ١٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١٢)، و«أضواء البيان» (٥/ ٣٠٩).

والتعبير بـ«العادي» يختلف عن «المعتدي»، فالمعتدي: المغتصب بالقوة؛ لأنه من العدوان، أما العادي فهو: الذي تجاوز حدًّا وخطًّا مرسومًا له، حتى لو كان بالتراضي بينهما، فالقوانين التي تجرِّم الفعل حين يكون اعتداء وتبيحه حين يكون بالتراضي، هي أحكام جائرة عادية معتدية على حدود الله.

والآيات كلها في صفة المؤمنين المصلِّين، ولكن سياق آية الفروج موجَّه إلى الرجال أصالة وإلى النساء تبعًا؛ لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، والمرأة لا يحل لها ملك يمينها؛ وذلك لأن الرجال أكثر تطلبًا للوصال وجرأة عليه وقدرة ومالًا وتقلبًا وحركة وسفرًا، والمرأة وإن كانت طرفًا، إلا أن الغالب أنها مطلوبة وتابعة فيما يظهر، والله أعلم(١).

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾:

تشمل الأمانات: التكاليف الشرعية؛ كالصلاة والصوم والزكاة والغسل والوضوء، وحتى الإيمان فهو أمانة، وتشمل أمانات الناس من القيام بواجب السلطة أو الوظيفة أو أداء الأمانة، سواء كانت أمانة في المال أو السر أو العلاقة أو العهد والميثاق(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، وقال النبيُّ ﷺ: «**أَدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنكَ، ولا تَخُنْ مَن خانكَ**»(٣).

وفي الأمانة يقول الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٤١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٧٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٤١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧١).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٦٣٩)، وأبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٨٤)، والحاكم (٢/ ٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أحمد (١٥٤٢٤)، وأبو داود (٣٥٣٤)، والبيهقي (١٠/ ٤٥٦) من حديث رجل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «الأم» (٥/ ١١٢)، و«علل ابن أبي حاتم» (١١١٤)، و«العلل المتناهية» (٩٧٣- ٩٧٥)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٤٥)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٧٧- ٧٨)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٠٩- ٢١٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٢٣).

[الأحزاب: ٧٢]، وهنا قال: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾؛ لأنهم مصلُّون؛ فاستثناهم من الهلوعين، أما الذي لا يراعي الأمانة فهو الظلوم الجهول الهَلوع، والإيمان يُربِّي الإنسان على حفظ العهد والأمانة، حتى مع الكافر والفاجر.

وقد تجد من المسلمين ومَن يتظاهرون بالصلاح مَن يكونون بين أقوام كافرين، فيستحلون دماءهم وأموالهم، ويدخلون بلادهم بموجب العهد والأمانة والميثاق والأوراق الثبوتية الرسمية، ثم يغدرون بهم ويسرقون ويغشُّون ويكذبون، وهم بذلك يزعمون أنهم مؤمنون!

ويا للعجب! كيف يسوّغ للمسلم أن ينقض العهود؟!

وكيف تدعو الناس إلى الإسلام وأنت تمد يدك لجيوبهم لتسرق ما فيها؟!

وكيف تدَّعي الإيمان وأنت تكذب؟!

وكيف تبرم للناس مواثيق ثم تخونها؟!

قد كان أشراف العرب في الجاهلية يأنفون من خَفْر الذمم ونقض العهد وخيانة الأمانة، كما في قصة أبي سفيان مع هرقل(١).

فهذا الأثر العملي للصلاة حين تطبع شخصية المؤمن، وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «مَن لم تأمرْهُ صلاتُه بالمعروف، ولم تنهَهُ عن المنكر، لم يزددْ من الله إلا بعدًا»(٢)، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح(٣).

لكن جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾:

ومن أعظم الشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ومنها أن يكون المسلم قدوة لغيره في الأخلاق، فيشهد بحق على ما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٨٧٨)، وأبو داود في «الزهد» (١٢٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٩٤).

(٣) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢).

ومنها الشهادة بالحق الواضح لصاحبه، سواء أكان قريبًا أم بعيدًا، عدوًّا أم صديقًا، مسلمًا أم كافرًا، لا تحمله القرابة والصلة والعاطفة على تجاوز العدل أو كتمان الشهادة، كما قال سبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

* ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أعاد الصفة التي بدأ بها، وهي الصلاة، واستخدم فعل ﴿يُحَافِظُونَ﴾، وهو فعل مضارع يدل على الاستمرار وتجدد الاهتمام بالصلاة، فهم يحافظون على الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها، والخشوع والإقبال على الله تعالى، والأذكار والقرآن والتسبيح والدعاء.

وأجد في هذا الموضع من الحفاوة بالصلاة ما لم أجده في غيره من القرآن؛ لأنه جعل اسمهم: ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ثم بدأ صفاتهم بدوام الصلاة، ثم ختمها بالمحافظة عليها، ولا غرابة ما دامت قلوبهم مشفقة وجلة عامرة بالإيمان(١).

* ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

ويا له من موعود عظيم كريم، وهو وعد يأتي في مقابل وعد أولئك المكذِّبين: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾، ولم يقل أنهم «في جنة»، بل قال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾، كما هو أسلوب القرآن في مواضع، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: ٥٤]، وقد يعبِّر بالمثنى، كما في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢]، فهي أربع جنان أو أكثر، وقد يعبِّر بـ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾، كما في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]. والمفرد على تسمية العموم، وهو الغالب، و﴿جَنَّتَانِ﴾ على إرادة درجاتها، كما هو مفصَّل في «سورة الرحمن»، و﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيضًا على إرادة طبقاتها، كما قال ﷺ لأم حارثة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**إنها جنانٌ في الجنة، وإن ابنك أصاب**

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٧٤)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٢١٦).

الفردوسَ الأعلى»(1). وكما هم على صلاتهم دائمون، فهم في جناتهم خالدون؛ جزاءً من ربك عطاءً حسابًا.

وفي هذه الجنات من ألوان الكرامة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

* ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾:

لماذا هم ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ أي: مسرعين؟! فالمُهْطِع هو الذي يمشي بسرعة، وهو رافع رأسه، إما على سبيل الكِبْر، أو على سبيل الاستهزاء أو السُّخْرية(2).

* فهم مهطعون في هذه المشية الغريبة المستنكرة: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾: بعضهم عن يمينك وبعضهم عن شمالك، أي: وبعضهم أمامك وبعضهم وراءك، فإنه قد يُكتفى باليمين والشمال عن الأمام والخلف، كما قال الشاعر(3):

فلقد أراني للرِّماح رديئةً ... من عن يميني تارةً وأمامي

أي: أحيانًا أمامي أو عن يميني أو ورائي أو عن شمالي، فهؤلاء القوم يُحيطون بالنبي ﷺ من كل جهة.

وقوله: ﴿عِزِينَ﴾ جمع: عِزَة، أي: فئة، فمعنى ﴿عِزِينَ﴾: جماعات متفرِّقة، بعضهم هنا، وبعضهم هناك، وناس يتلفتون هنا، وناس ينظرون هناك(4)، كما ذكر

(1) أخرجه البخاري (2809) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (13/ 706- 707)، و«تفسير الماتريدي» (6/ 409)، و«تفسير الماوردي» (6/ 96)، و«تفسير الرازي» (30/ 646)، و«تفسير القرطبي» (18/ 293)، و«فتح القدير» (3/ 138)، و«التحرير والتنوير» (29/ 176).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص233)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص442)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر: 8].

(3) ينظر: «أمالي القالي» (2/ 190)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (4/ 1099) منسوبًا إلى قَطَري بن الفُجاءة.

(4) ينظر: «مجاز القرآن» (2/ 270)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 233)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص565) «ع ز ا»، و«تفسير البيضاوي» (5/ 247)، و«فتح القدير» (5/ 351)، و«التحرير والتنوير» (29/ 177).

الله تعالى في «سورة المطففين»: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾.

* ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

استفهام تهكمي يهز الوجدان هزًّا، أكل واحد منهم ينتظر أن يكون له جنة نعيم وحده، فلماذا هذا الكبرياء؟! أليسوا هم الهلوعون الجزوعون المنوعون؟! أليسوا ممن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١٧- ١٨]؟! أهذا يؤهِّلهم لجنة النعيم؟!

﴿كَلَّا﴾ أي: لن يأتيهم هذا، ولن يتحقق لهم؛ فلقد تمادى طمعهم فتجاوز الدنيا إلى الآخرة، وقال قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ فهم يدركون مم خُلقوا، وهو لا يؤهلهم لجنة النعيم؛ لأنه ماء مهين: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، خُلق الإنسان من نُطْفة ثم مُضْغة ثم عَلَقة، فهو شيء حقير صغير، ومع ذلك فقد اختاره ربه سبحانه واصطفاه ورقاه في المدارج، حتى أصبح ذا شأن ومكانة، فالرسل تُبعث إليه، والملائكة تنزل من أجله، والقرآن يُخاطبه، والرب سبحانه يناديه ويناجيه ويدعوه: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهو يعرض ويطغى ويسخر ويمضي في غيه دون ارعواء!

* ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

هذا قَسَم، مثل قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ [البلد: ١]، فيقسم عَزَّوَجَلَّ بذاته العلية، وأنه رب المشارق والمغارب، أي: مشارق الشمس ومغاربها، وهي ثلاثمائة وستون مشرقًا وثلاثمائة وستون مغربًا، في كل يوم مشرق ومغرب لا يتكرر في العام(١)، أو مشارق الشمس والقمر

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧).

والنجوم ومغاربها[1]، وجاء بالجمع هنا؛ لأن الأمر يتعلق بالإعجاز والقدرة.

وأيضًا: يتعلق بهؤلاء الناس الذين لا يُحصي عددهم إلا الله، وتتنوع مساكنهم ومقارهم ومطالعهم ومغاربهم، وفي «سورة الرحمن» قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾؛ لأن «سورة الرحمن» كانت تخاطب الجن والإنس، وكل شيء ورد فيها مثنى مثنى، وفي الموضع الثالث قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] مفردًا؛ لأن المقام مقام التوحيد، وبيان وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩].

فالله عَزَّوَجَلَّ يقسم هنا بذاته العلية وربوبيته وبالمشارق والمغارب بالعموم الذي لا يند عنه شيء على قدرته.

وتضمين القسم ذكر المشارق والمغارب له صلة بالاستعجال الذي سجله عليهم في صدر السورة، وكأنهم لا يرصدون حركة الأفلاك والنجوم والشمس والقمر، والتي يقرب معها البعيد ويهرم معها الشاب ويضعف معها القوي، وأحيانًا يقوى معها الضعيف، فتقع حركة التبديل والإحلال، بزوال قوم ومجيء آخرين في حركة سنية ربانية لا تحابي..

* ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: قادرون أن نأتي بخير منهم بدلًا عنهم، ونبدلهم بهم، وتدور الأيام والليالي على سواهم[2]، أفكانوا يعتقدون أنهم خالدون؟! ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

ويحتمل أن يكون المقصود أن نأتي بهم يوم القيامة فنعيد خلقهم أقوى وأحسن مما خلقناهم في الدنيا[3]؛ كما قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧١)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٠).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٠).

[الإنسان: ٢٨]، ويكون المقصود بالخيرية هنا خيرية القوة والجسد، وليست خيرية الإيمان والتقوى؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فالمقصود: نُعيد خلقهم في الآخرة بطريقة أعظم مما في الدنيا[١]، فإذا كانوا يستغربون إعادة الإنسان كما هو، فالله تعالى يُعيدهم يوم القيامة بخلقة أعظم.

ومما يقوِّي هذا المعنى، وأن المقصود الإشارة إلى شيء سيقع فعلًا: أنه لم يقل: «وإن شئنا»، أو: «ولو شئنا» على سبيل الاحتمال، بل قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾، فكأنه شيء قادم ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨﴾ أي: خلقناهم مرة أخرى بخلقة أخرى أقوى وأعظم[٢]، وقد ورد أنهم يُبعثون في صورة أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣].

وابن القيم قال بهذا المعنى، ووافق الزمخشري، مع ما بينهما من التباعد في المعتقد![٤].

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا أحد يُعجز الله سبحانه ولا يغلبه، وهو القوي العزيز الذي أمره بقول: ﴿كُن﴾، وله الجنود التي لا يعلمها إلا هو، لا تعصيه طرفة عين.

* ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾:

أي: اتركهم ولا تأس عليهم ولا تحزن واصبر، وذرهم في خوضهم يلعبون، ولا تدخل معهم في مماحكات أو مجادلات لا طائل من ورائها ما داموا لا يبحثون عن الحق، ولذا سمَّى ما هم عليه: خوضًا ولعبًا؛ لأنهم غير جادين في حديثهم وسؤالهم.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٨٣- ٧٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٧)، (١٩/ ٩٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٨)، وما تقدم في «سورة الواقعة».

(٢) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٧٣).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٧٥)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص١٩٨).

وهذا ليس أمرًا متعلقًا بقتالهم أو عدمه، فالبعض يقولون عن مثل هذه الآيات: هي منسوخة بآية السيف[١]، وزعم بعضهم أن آية السيف نسخت أكثر من سبعين آية[٢].

وهذا فيه نظر ظاهر، حتى آية السيف لم يحصل اتفاق على تعيينها، وإنما هذه توجيهات إلهية للنبي ﷺ بأن يعرض عنهم، وأن يتركهم وما هم فيه، مع القيام بالدعوة.

والخَوْض هو: الكلام في الأمور التي لا يحسنها الإنسان[٣]، كما قال الله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، فمَن تكلم بغير حجة، فهذا يسمى خائضًا[٤].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ كأن هذا اليوم كائن حيٌّ شاخص يلاقونه وينتظرهم وينتظرونه، وهو يسعى إليهم كما يسعون هم إليه، وفي بعض القراءات: (يَلْقَوْا)[٥].

و﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ هو اليوم الذي يستعجلونه، وهو واقع بهم، وقد عاصروا في هذه الدنيا الكثير من الأيام، وشاهدوا المشارق والمغارب، وسمعوا كثيرًا من العبر والتحولات والأجيال التي حلَّت محل غيرها، ولكنهم ظنوا أنفسهم شيئًا مختلفًا، وأن السنة لا تجري عليهم.

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٢٨٠)، و«تفسير الرازي» (١٣/ ٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٣)، وما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٨).

(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ١٩٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٢)، و«تاج العروس» (١٨/ ٣٢٤) «خ و ض».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٥٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٣٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٧)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٢٥٩).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٢٠)، و«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٤٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٩٠).

* ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

والمقصود بـ﴿الْأَجْدَاثِ﴾: القبور[1]، و﴿سِرَاعًا﴾ أي: سريعين مُهْطِعين[2]، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، والنُّصُب: التمثال والصنم[3]، فشبَّه إسراعهم بحالهم في الدنيا حينما يركضون إلى أصنامهم، ومعنى ﴿يُوفِضُونَ﴾: يركضون إلى هدف معلوم![4].

* ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

ولم يقل: «خاشعين»؛ إشارة إلى أن الخشوع هنا ليس خشوع الإيمان الذي كان يُطلب منهم في الدنيا في الصلاة، كما مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢]، وإنما هو خشوع الذل والاضطرار والخوف. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تغشاهم وتغمرهم من كل مكان ﴿ذِلَّةٌ﴾، فمَن لم يذل في الدنيا لربه أذلّه الله تعالى يوم القيامة بالعذاب، ومَن ذل لله وعفَّر جبهته لجلاله واستغفره وصلَّى وخشع واعترف له بالوحدانية، فإن الله تعالى يحفظه يوم القيامة ويمنحه العز والأمن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ إشارة إلى ما كانوا يستبعدونه، وهو يوم البعث والنشور، فها هو قد تحقَّق أمام نواظرهم، فتبدأ السورة باستعجالهم العذاب، وتنتهي بالإشارة إلى هذا اليوم الذي كانوا يستعجلونه حين يسمعون الوعد به، والله أعلم.

○○○

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٤٧)، و«روح البيان» (١٠/ ١٧٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٠٧) «ن ص ب».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٤).

سُورَةُ نُوحٍ

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «سورة نوح»، كما في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسُمِّيت- كما في «صحيح البخاري»-: «سورة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾»[2]، أو: «سورة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾»، كما في بعض التفاسير[3]، ويبدو أن هذا الاسم مشهور عند السلف.

*** عدد آياتها:** ثمان وعشرون آية باتفاق علماء التفسير[4].

*** وهي مكية**[5] نزلت بمكة، ونزل قبلها ما يزيد على أربعين سورة، والظاهر أنها نزلت جملة واحدة، فهي بهذا تشبه «سورة الجن» التي نزلت في سياق واحد غير منقطع.

*** موضوعها:** قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أول الرسل، كما جاء في حديث الشفاعة يوم القيامة، قالوا له: **«يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض»**[6].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٣٩).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٤٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٩٩)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٥).

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان قبله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا مُكلَّمًا[1] مُعلَّمًا، وعلَّم أهله وذريته وأولاده الإيمان والتوحيد، وظلت البشرية بعد آدم قرونًا على الهدى والإيمان، ثم حصل التغيير، وكان أصله أنه لما مات الأولون من أهل الديانة والعبادة والتقوى والإيمان قال الشيطان لمَن بعدهم: لو نصبتم لهم نُصبًا، حتى تستعينوا بهم وتتذكروهم. فنصبوا لهم في محافلهم نُصبًا- أي: تماثيل- كالأصنام، فلم تُعبد، ثم اندرس العلم فعُبدت، كما جاء في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2].

فبعث الله تعالى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مجدِّدًا لدعوة التوحيد؛ ونوحٌ ليس اسمًا عربيًّا، فلا معنى لقول مَن يقول: إنه مشتق من النَّوْح، أو ما أشبه ذلك، وإنما هو اسم أعجمي[3]، أرسله الله تعالى إلى قومه وكان عمره يوم أُرسل ثلاثمائة وخمسين سنة، على ما حكاه بعضهم[4]، والأقرب أن عمره كان أربعين سنة، كعادة الله تعالى في إرسال الرسل والأنبياء على رأس الأربعين[5]، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤].

وهذه السورة حكاية مجملة لعمر دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه، والتي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا.

---

(١) كما في حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال للنبي ﷺ: أيُّ الأنبياء كان أولًا؟ قال: «آدمُ». قلتُ: ونبيًّا كان؟ قال: «نعم، نبيًّا مكلَّمًا». أخرجه الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٢١٥٤٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٩٨).

ونحوه من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، وابن حبان (٦١٩٠)، والحاكم (٢/ ٢٦٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٤٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٤/ ٢٤١٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٥/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٦).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٣٢).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٨)، والمصادر السابقة.

قيل: إن قوم نوح كانوا قلة[1].

ومن حكمة الله تعالى أنه لما كان البشر قليلًا كان الله يمد في أعمارهم؛ تعويضًا عن النقص الموجود في العدد، فقد كانت أعمارهم تطول، لاقتضاء حكمة الله أن يمتدوا وينتشروا.

* ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١﴾:

الاستفتاح التحم بضمير العظمة؛ لتكريس مبدأ الربانية في دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وترسيخها في دعوة محمد ﷺ، وعادة ما يستخدم ضمير الجمع في هذا السياق فيما للملائكة فيه مدخل، فالرسالة تكون بواسطة مَلَك، كجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أو غيره، وكذلك التثبيت، ومثله العذاب للمكذِّبين.

وقد يكون المقصود بـ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾ عموم الناس في زمنه؛ لأنه لم يكن ثَمَّ يومئذ إلا قومه[2]، وعليه يكون الطوفان الذي أرسله الله تعالى قد اجتاحهم وعمَّ الأرض كلها، ولم ينج إلا مَن كان مع نوح في السفينة.

وقد يؤيِّد هذا المعنى حديث الشفاعة ومجيئهم إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقولهم له: «**يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض**»[3].

فيحتمل أن يكون نوح أُرسل إلى الخلق كلهم، ويحتمل أن يكون أُرسل لقومه، والطوفان عمَّ الأرض التي كان فيها قومه الذين كذَّبوه، ولا يمنع هذا أن يكون في مواضع أخرى من الأرض أممٌ وأقوام لم يُرسل إليهم نوحٌ[4].

وقد يعتضد هذا المعنى بقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومه خاصةً، وبُعثتُ إلى الناس كافةً**»[5]. ويتعزَّز هذا بظاهر سياق الآية

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١٧٧)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٢١)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٧١٠).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٧).

(٣) تقدم قريبًا.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٨)، و«تفسير المنار» (١٢/ ٨٩- ٩١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكريمة.

وخلاصة هذه الرسالة ذكرها الله تعالى في صدر الآية عنوانًا للقصة كلها، فقال: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾ أي: أنذرهم العذاب الأليم، والمعنى ظاهر، أي: ادعهم إلى التوحيد والإيمان بالله وطاعته واتِّباع رسله، حتى لا يُعذَّبوا.

وقد يكون العذاب الأليم: الطوفان الذي اجتاحهم بعد ذلك، أو هو العذاب الأليم في الآخرة؛ لأن الرسل جاؤوا كلهم جميعًا يُذكِّرون بالآخرة ويحذِّرون من عقاب الله تعالى لأهل معصيته[1].

والأقرب إرادة الأمرين معًا، فالأنبياء يحذِّرون أقوامهم عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، خاصة عذاب الاستئصال الذي كان ينزل بالأمم السابقة المكذِّبة، فيبيد خضراءها، ولا يكون معه مَدْفَع.

* ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ②﴾:

فيه دلالة على أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قام بهذه الدعوة بمجرد ما أوحى الله تبارك وتعالى إليه، من غير تلبُّث ولا تريُّث ولا تأخُّر، فقام إلى قومه فنادى بحرف (يا)، وفيه توجيه ولفت للأنظار، ثم وجَّه خطابه لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، والكسرة على الميم قائمة مقام ياء المتكلِّم[2]، وكأنه يقول: يا جماعتي، يا أهلي. وهذا تذكير بالرابطة التي بينه وبينهم، وأنه واحد منهم.

وكان من حكمة الله أنه يبعث النبيَّ من القبيلة نفسها؛ لأنه لو كان الرسول أجنبيًّا أو غريبًا، لرفضوه ونبذوه.

وهو سبحانه لم يبعث ملائكة، بل بشرًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

- لأن كون الرسول منهم يجعلهم يراعون القرابة والعلاقة بينه وبينهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٦ - ١٨٧).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٢٢٢).

- ولأنه حين يكون منهم فإنه يتقن لغتهم ولسانهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

- ولأنه أعرف بعاداتهم وطرائقهم وأعرافهم، وما يمكن أن يؤثِّر في الدعوة قبولًا أو رفضًا.

- ولأنه مثلهم في العقل والفكر والشعور والإحساس والاحتياج، وهذا يُسهِّل المداخل في الدعوة، إذ كيف يدعو المرءُ جنسًا لا يعرف مواقع رضاه ولا غضبه ولا حبه ولا بغضه ولا احتياجه ولا استغناءه.

وهذا دليل على أن الداعية ينبغي أن يتحرَّى كل الأسباب والوسائل التي تكون مدعاة إلى قبول دعوته.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، و«إنَّ» من أدوات التوكيد، والنَّذير: منذر، كما يقال: فلان سميع، أي: مُسْمِع للناس، يُسْمِع الناسَ(١)، فليس المقصود أنه يَسْمَع، ولكن تأتي بمعنى أنه يُسْمِع، وبمعنى أنه جَهِير الصوت، كما قال عمرو بن مَعْدي كرب(٢):

أمِن ريحانةَ الدَّاعي السَّميعُ يُؤَرِّقُني وأصحابي هُجوعُ؟

أي: الداعي المصوِّت الذي يصيح فيُسْمِع الناسَ.

و﴿مُّبِينٌ﴾: بيِّن النِّذارة، ونص على أنه لهم، فهم المقصودون بالرسالة، والمصلحة تعود لهم، كما قال النبيُّ ﷺ في دعوته قومه وصعوده على الصفا: واصباحاه، واصباحاه! فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**إني أنا النَّذيرُ العُريان**»(٣). والنذير العُريان هو الذي كان ينذر الناس، ومن شدة حرصه يخلع ثوبه ويلوِّح به للناس إذا كانوا بعيدين، يحذِّرهم العدوَّ، وهذا مَثَلٌ يُضرب، فيقال: «النَّذير العُريان»(٤).

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٦٤)، و«تاج العروس» (٧/ ٢٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٨).

(٢) ينظر: «ديوان عمرو بن معدي كرب» (ص١٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ٤٨)، و«فتح الباري» (١١/ ٣١٦- ٣١٧).

* ثم شرع في تحديد ماهية الدعوة ولبابها وأساسها: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾: فذكر ثلاثة أمور:

١- ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحِّدوه، ولا تعبدوا إلا إياه، وهم كانوا مشركين، قد تركوا عبادة ربهم، فهو يدعوهم إلى التوحيد، والعبادة هي التذلُّل[1]، كما يُقال: طريق معبَّد، أو بعير معبَّد، إذا كان مذلَّلا[2]، وطَرَفة بن العبد يقول[3]:

إلـى أن تَحامَتنـي العَشـيرَةُ كُلُّهـا وأُفـرِدتُ إِفـرادَ البَعيـرِ المُعَبَّـدِ

أي: تُرِك وحده ترك البعير الجرب، فالتعبيد هو الإطراق، والبعير المعبَّد هو الذي حُمل عليه كثيرًا حتى تعب وأجهد.

فالعبودية تعني الذل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والانقياد والاعتراف بألوهيته، وتقديم حقه سبحانه، وأساسه الإيمان بقوة الله وقدرته وكماله وعلمه وسائر صفاته، وأنه المدبِّر المصرِّف المستحق للعبادة.

٢- ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: والفرق بين التقوى والعبادة، أن العبادة هي فعل ما أمرنا الله تعالى بفعله، والتقوى ترك النهي[4]، **والمطلوب في الإيمان شيئان:**

- **فعل الأمر**؛ كالتوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج.

- **ترك النهي**؛ كترك الفواحش والمُوبقات والقطيعة والرِّبا والزِّنا والفجور والشرك.

فهما ركنان لا بد منهما، وقد تكون المنهيات في زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قليلة، وكذلك المأمورات؛ لأن أصلها التوحيد، وما وُجد بعد ذلك في شريعة موسى أو عيسى أو في شريعة محمد ﷺ لم يكن قوم نوح مأمورين به، إنما كانوا مأمورين بالأصول العامة والكليات[5].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٥٨)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٢٩).

(٣) ينظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص٢٥).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٢٠- ٢٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٩).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٩).

٣- ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: لأنه نبيٌّ مبلِّغ عن الله، فهم إذا آمنوا به وأطاعوه عبدوا الله واتقوه، ولو لم يطيعوا هذا النبي لم تتحقق لهم العبادة، أي: فيما آمركم به من طاعة الله.

* ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾:

وعدهم هنا بشيئين: دنيوي وأخروي، والمغفرة: السِّتر، ومنه المِغْفر الذي يستر به الرأس[(١)]، فالمعنى: أن يستر الله ذنوبكم عليكم، ولا يؤاخذكم بها، ولا يفضحكم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وتعني محو الذنب والعفو عنه.

وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: إما أن تكون ﴿مِّن﴾ بمعنى: ﴿عَن﴾، أي: يُسامحكم عن ذنوبكم[(٢)]، أو تكون ﴿مِّن﴾ هنا للتوكيد[(٣)]، وهذا جيد على طريقة نُحاة الكوفة، فهم يزيدون ﴿مِّن﴾ في الإثبات[(٤)]، كما لو سألك إنسان: هل هناك مطر في البلد؟ فتقول: نعم، قد كان من مطر. أي: هناك مطر، ومطر قوي، فهكذا قول الله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم كلها، ولا يُبقي منها شيئًا، وهو في النفي أوضح، كما لو سألك أحدهم فقال: أجاء أحد إلى هذا المكان؟ فتقول: ما جاء من أحد.

ومثله قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ﴾ [المائدة: ١٩]، أي: ينفون مطلقًا أن يكون أتاهم بشير أو نذير، فهي للتوكيد، وأنه ما جاءهم من أحد.

ويجوز أن تكون للتبعيض[(٥)]، أي: يغفر بعض ذنوبكم، وإن آخذكم ببعضها، وهذا متصوَّر وواقع أن الله يغفر للمؤمن ذنبًا برحمته، ويؤاخذه بذنب آخر بعدله؛

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٦٦٦) «غ ف ر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٨٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٢٩).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٩).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٦).

(٥) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٣).

لحكم وأسباب تظهر أو تخفى[1].

وقد يُحمل المعنى على أن تُغفر لهم ذنوبهم التي كانت قبل إسلامهم؛ لأنهم كانوا على جهالة وعمى، والإسلام يَجُبُّ ما قبله، ثم إذا أذنبوا بعد الإسلام فلا تغفر لهم إلا بتوبة تتجدَّد منهم، وهذا تشجيع وتحفيز لهم إلى الإيمان؛ لتُمحى ذنوبهم.

وفي الآية فضيلة الاستغفار، وأنه لا ينبغي أن يُحتقر من الذنب صغير ولا كبير، وقد كان النبيُّ ﷺ يستغفر ربه، ويكثر من ذلك، كما في دعاء «سيد الاستغفار»[2]، وكان من استغفاره ﷺ: «اللهمَّ اغفر لي ذنبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسِرَّه»[3]. وكان يدعو ويقول: «اللهمَّ اغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أنت أعلمُ بِهِ مني، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، لا إله إلَّا أنت»[4].

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: والتأخير معناه دفع عذاب الدنيا الذي كان متوعَّدًا عليهم[5]، فهو كان نذيرًا لهم قبل العذاب الأليم الدنيوي والأخروي، فإن أطاعوا سلموا من عذاب الآخرة بالمغفرة، وسلموا من عذاب الدنيا بتأخيرهم إلى الآجال التي تنتهي فيها أعمار؛ كل منهم على حِدَة، وليس أن يعاجلوا بعذاب يأخذهم جميعًا.

ومن لطف دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ أن اختار لهم المعنى الإيجابي في الإنذار، فلم يقل: «إن لم تطيعوا فسوف يأتيكم العذاب»، بل قال: «إن أطعتم فسوف يُدفع

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٣١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (٧٧١) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٦).

عنكم العذاب»، فبدأ بالترغيب، وهو الأصل، والترهيب إنما يكون بعد ذلك لمَن أصرَّ، والدعوة عامة ينبغي أن تبدأ بجانب الترغيب، وإثارة المعاني الإيجابية في النفوس، ثم يكون الترهيب للمصرِّين والمعاندين والمكذِّبين والجاحدين.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾: والأجل المسمَّى: الأجل المكتوب المضروب[١]، فلهم أعمارهم المحدودة مهما طالت.

وغالبًا ما يُطلق الأجل على آجال الإنسان، كما قال النبيُّ ﷺ لأمِّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سألت طول العمر: «قد سألتِ اللهَ لآجال مضروبة»[٢].

وفي ذلك إشارة إلى أن الدنيا قصيرة مهما طالت، كما قال الشاعر[٣]:

إذا عاش الفتى مائتين عامًا فقد ذهب اللَّذاذةُ والفَتاءُ

والذي سماه هو الله تعالى، وهو غير معروف للناس، وإنما يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال سبحانه في ذكر الغيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، فهذا مما استأثر الله تبارك وتعالى بعلمه؛ ولذا وصفه بـ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ على صيغة المبني للمجهول، الذي لا يعرفه صاحبه ولا غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ يحتمل أن المقصود آجالهم المسماة المضروبة، فلا يؤخَّر الأجل، فلا طاعة تدفعه ولا معصية تقرِّبه، فهو أجل مكتوب.

ويحتمل- وهو أوسع وأقرب- أن الأجل المسمَّى يشمل الأعمار، ويشمل آجال الله تعالى للأمم؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فكما للأفراد آجال فللأمم آجال، فإذا جاء أجل الأمة حل بها عذاب الله وطُويت صفحتها.

وأجل الأمة يكون بالاستئصال بالطوفان أو بغيره، ويكون بتكاثر أسباب

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٠)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٦٢)، و«مجالس ثعلب» (ص٥٩)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٠٣) منسوبًا إلى الرَّبيع بن ضَبُع الفزاري، وكان من المعمَّرين.

الضعف والشيخوخة والإهمال والتراخي، حتى تهلك الأمة وسط موجة من التلاوم والتشاتم وتبادل الاتهام.

ويحتمل أن ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ هو: يوم القيامة؛ لأن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم إلى التوحيد ذكَّرهم بالبعث والنشور والجزاء والحساب، والمشركون والكافرون والمكذِّبون آنذاك لا ينفعهم أن يطلبوا مهلة أو تأجيلًا أو إنذارًا أو رجوعًا[1].

وقوله: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم لم يكونوا يعلمون؛ لأنهم لم يكونوا مؤمنين ولا مسلمين ولا عالمين.

* ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥﴾:

والقرآن اختصر آمادًا طويلة في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يفهم أنه أُرسل في الليل، بل هو دعاهم زمانًا طويلًا، حتى كاد ييأس من إجابتهم.

فالذين يستدلون بها على جواز الدعاء على الكافرين عامة، عليهم أن يدركوا أن هذا لم يقع منه إلا بعد مئات السنين، فلا ينبغي للداعي الاستعجال، بل القصة تلهم الصبر والأَناة وطول النفَس.

ولا يُفهم من هذا أن دعوته كانت مستغرقة الليل والنهار، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل غيره يصلِّي وينام ويأكل ويشرب، وقومه كذلك، وليس المطلوب في الدعوة الإلحاح الذي يُنفِّر الناس، بل الاستمرار في تحيُّن الأوقات المناسبة، وعدم اليأس، ومراعاة التنويع، وتحرِّي أوقات الإجابة.

والمقصود أنه كان يتعاهدهم ويتخوَّلهم، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السآمة علينا»[2].

وهذه الآية تفيد أنه كان يُنوِّع الوقت، فأحيانًا يكون الليل أفضل، حيث الناس في سمر واجتماع، والأذهان في حالة صفاء واسترخاء، وأحيانًا يكون النهار أفضل.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٩٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٥٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٦)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٨٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

والدعوة ليست براءة للذمة فحسب أو إقامة الحجة، كلا، فالمقصود الفائدة والنفع؛ ولهذا يقول ربنا سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: ٩]، إن نفعت فذكِّر، أما إذا عرفت أنها لا تنفع، فاصبر وانتظر وقتًا آخر، كإنسان ليس لديه استعداد للسماع والقبول، فتؤجِّل الكلام معه إلى وقت آخر يكون عنده تأهّل وجاهزية للاستماع.

* ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾:

بدلًا من أن يزيدهم قربًا من الله سبحانه وإقبالًا على دعوته، والعجب أن يفر العبد من ربه مع أن مصيره إليه.

وكيف يفرُّ المرءُ عنه بذنبه ... إذا كان تُطْوَى في يديه المَراحلُ[1]؟

لأنهم كفروا بدعوته، وصاروا يسخرون منه، ويجمعون الأدلة والحجج على تكذيبه.

* ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾:

وفيها دليل على أن هذه أصبحت عادة لهم، فكلّما دعاهم قابلوه بفعلهم ذلك، وجاء بقوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ ليُبين العجب من هؤلاء القوم، فهو لم يدعهم إلى نفسه ولا إلى أمر يخصه، بل إلى مغفرة الله لهم.

والمغفرة من أثر الدعوة للتوحيد، ليكونوا أهلًا للمغفرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ولكن كان ردهم باستمرار هو إحكام غلق آذانهم وجعل أصابعهم فيها؛ خشية أن يتسرب إليها شيء من الحق.

والأذن لا تستوعب الأصبع كله، وهو لم يقل: «أناملهم»، وإنما قال: ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾؛ إشارة إلى مبالغتهم في ذلك[2].

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٥)، و«التفسير الواضح» (٣/ ٧٥٤).

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ زيادة على ذلك غطَّوا وجوههم بثيابهم(١)، وغالبًا ما يقال: استغشى ثيابه، لمَن غطَّى وجهه ورأسه بثوبه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: ٥]، أي: الإنسان الملتحف المتلفِّف المتغطِّي، فهم يغطُّون عيونهم ووجوههم بثيابهم؛ حتى لا يرونه، فهم لا يريدون أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وربما فعلوا ذلك لأنهم لا يريدون أن يعرفهم بأعيانهم(٢).

وقاموا بذلك من أجل أمر آخر هو العناد والتكبر: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

والإصرار: العناد المُفْرِط، والمداومة على الشرك، ورفض الحوار بشأنه(٣)، عكس ما حكى الله عن المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فالمؤمن لا يصرُّ ولا يستكبر، بل إذا ذُكِّر تذكر، وإذا قيل له: استغفر. استغفر، حتى لو كان مغضبًا.

وفي الحديث قصة الرجل المغضَب الذي قال النبيُّ ﷺ: «**إني لأعلمُ كلمةً، لو قالها لذهب عنه ما يجدُ، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرَّجيم**». فقالوا له ذلك، فقال: أَتُرَى بي بأسٌ، أمجنُونٌ أنا؟ اذهب(٤).

فالمؤمن إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر الله فاستغفر لذنبه ولم يُصر، أما هؤلاء القوم فهم يُدعون ليغفر الله لهم فيُصرون على ما فعلوا وهم يعلمون.

والاستكبار أنهم يرون في أنفسهم شيئًا لا يرونه في هذا النبي، فهم يحتقرونه ويزدرونه، ويقولون: نحن أكثر أموالًا وأولادًا وجاهًا، فكيف نُطيعه؟ وهذا هو ما

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٥١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥١)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٠)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالوه لنوح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، فأنت واحد مثلنا، ليس لك ميزة علينا.

وأيضًا قالوا: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا قال فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢- ٥٣].

ودعوة الله لا تميِّز بين الناس، بل هي لمَن سبق إليها؛ ولهذا لما قالت قريشٌ للنبي ﷺ مثل هذا، وقالوا له: اطرُد هؤلاء، قال له الله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1] [الأنعام: ٥٢]، أي: لا تطرد أحدًا آمن، فقيرًا كان أو مسكينًا، ضعيفًا أو كَفِيفًا، عاجزًا معوقًا، ما دام مسلمًا.

فقوم نوح فعلوا أمرين حسِّيَّيْن، وهما: إغلاق الآذان والعيون، وترتب على ذلك أمران معنويان، وهما: الإصرار والاستكبار؛ ولهذا كان الكبر من أعظم أعداء الإصلاح والدعوة، والنبيُّ ﷺ يقول: «لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر»[2]. والتواضع هو سيد الأخلاق.

* ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾:

يذكر عَلَيْهِ السَّلَام أنه راعى الوقت في قومه، فدعاهم بحسب المناسبة، ليلًا ونهارًا، وراعى الأسلوب والطريقة في مخاطبة الفرد والجماعة، وفي الإعلان والإسرار؛ للبحث عن مفاتيح تحرُّك قلوبهم وتحقُّق استجابتهم.

وكثير من الناس عند الصدمة الأولى يفقد صبره، وربما يعامل مَن لم يستجب له معاملة سيئة، وقد لا يكون الأمر يتعلق بدعوة إيمان وكفر وهُدى وضلال،

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنما بخلاف محتمل، أو بأمور ملتبسة، والكثير من الناس يسيطر عليهم الاندفاع والعدوانية والروح الغضبية، فهؤلاء ينبغي أن يتعلَّموا من مدرسة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الصبر والمصابرة والمرابطة.

وكأن نوحًا في أول الأمر كان يتعاهدهم سرًّا، واحدًا واحدًا؛ ليكون بعيدًا عن الناس، كما فعل النبي ﷺ في دعوته السرية، من باب التدرج؛ ولأن بعض الناس قد يرفض الدعوة مجاملة للآخرين، أو حياءً، وربما يؤثِّرون فيه، ويحرِّضونه على التمسك بدينه، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيهم واحدًا واحدًا، ثم انتقل إلى الجهار، كما في الآية الكريمة، وصار يغشاهم في الملأ والتجمعات، ويرفع صوته يدعوهم إلى الله.

* وفي المرحلة الثالثة راوح بينهما فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾:

فأسر، ثم جهر، ثم جمع بين الجهر والإسرار، وراوح وزاوج بينهما.

والأصل في الدعوة الإعلان والإجهار؛ لأنها تغيير لواقع الناس، وإقامة للحجة وبيانها؛ ولذا قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولتُفْشُوا العلمَ، ولتَجلسوا حتى يُعَلَّمَ مَن لا يَعْلَمُ؛ فإن العلمَ لا يَهْلِكُ حتى يكونَ سرًّا»(١).

وقد دلَّت الآثار والتجارب على أن تناجي مجموعات من الناس وسط المجتمع المسلم في مسائل من العلم واستسرارهم غالبًا ما يكون بداية فتنة؛ لأنه يُفضي إلى أن يعتنقوا آراء غريبة، بعيدًا عن عيون المجتمع والأمة وعامة الناس وخاصتهم.

أما أن يسر أعماله وشؤونه الخاصة، فهذا لا بأس به.

أما تعليم العلم في العقيدة والتفسير والفقه والحديث والآداب والأخلاق،

---

(١) وضُبطت أيضًا: «حتى يَعْلَمَ مَن لا يَعْلَمُ». ينظر: «صحيح البخاري» (١/ ٣١)، باب كيف يُقبض العلم، و«فتح الباري» (١/ ١٩٤- ١٩٥)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٨٨)، و«إرشاد الساري» (١/ ١٩٥- ١٩٦).

فيجب أن يكون علانية، وأن يبذل للناس كلهم، وألا يتناجى فيه قوم دون غيرهم من المسلمين.

ولهذا كان النبي ﷺ والرسل جميعًا يخالطون الناس ويصبرون على أذاهم، ويأمرون بمخالطة الناس وبالصبر على أذاهم.

وفي الآية دليل على أن وسائل الدعوة وطرقها ليست توقيفية، فيمكن أن يستخدم للدعوة كل وسيلة مباحة، في المسجد والشارع والنادي والسوق وفي المناسبات المختلفة، وكذلك الكتابة، فقد كتب العلماء المؤلَّفات والمصنَّفات، واستخدام القنوات الفضائية والإذاعات والصحافة والإعلام ومواقع الإنترنت، وكل ما يجد من الوسائل التي طرأت وأفاد الناس منها وأمكن الوصول إليهم من خلالها، والأمر في ذلك واسع، ووسائل الدعوة ليست توقيفية، بحيث لا يجوز لأحد أن يستخدم وسيلة إلا أن تكون منصوصًا عليها، كلا، وإنما هذه الوسائل مفتوحة ما لم يثبت الدليل بتحريمها.

وحتى على الزعم بأن الوسائل توقيفية، فبمقدور الداعية أن يدخل كل وسيلة جديدة تحت بند من البنود القديمة.

* ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾:

وهذا يوحي بطرائق دعوته لهم، فمع تنويعه في الأساليب والأوقات كان ينوِّع في الصيغ والعبارات وجوانب العرض، فمرةً يستخدم الترغيب، ومرة الترهيب، ومرة يعدهم بمرغبات دنيوية، ومرة بمرغبات أخروية؛ من أجل استمالتهم والتأثير فيهم.

وهو هنا يذكِّرهم بالاستغفار، ويذكر اسم الرب الذي هو الخالق المدبِّر، وينسبه إليهم، وهو أسلوب ترغيب.

وقد أمر النبي ﷺ أمته بالاستغفار(١)، ولما قال أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٠٢) من حديث الأَغَرِّ المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «يا أيها الناسُ، توبوا إلى الله؛ فإني أتوبُ في اليوم مائةَ مرةً».

رسولَ الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال ﷺ: «قل: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفورُ الرحيمُ»(١).

ورُوي عنه ﷺ: «مَن لزم الاستغفارَ، جعلَ اللهُ له من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كلِّ ضيق مخرجًا، ورزقه من حيثُ لا يحتسب»(٢).

فعلى المؤمن ألا يُفارق الاستغفار، ولو بعد الطاعات، بل هو أفضل الاستغفار، كما أثنى الله على المنفقين بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، فيستغفر بعد الطاعة؛ خشية أن يكون قد قصَّر فيها، وكان ﷺ بعد الفريضة يقول: «استغفرُ اللهَ، استغفرُ اللهَ، استغفرُ اللهَ»(٣).

والاستغفار بعد العبادة مناسب، ولا يستغني العبد عن الاستغفار؛ فربما وقع في صلاته أو عبادته خلل وتقصير، فناسب أن يستغفر بعد الصلاة، وإن لم يحصل من ذلك شيء فلأجل أن يقطع على نفسه العُجب بالعمل، وإن كان على لهو استغفر؛ لأنه تلهَّى عن طاعة الله، وقد كان النبيُّ ﷺ إذا خرجَ من الخلاء قال: «غُفرانكَ»(٤). يطلب المغفرة عن وقت ليس مناسبًا للذكر بحكم الضرورة، فيستغفر ربه عن ذلك الوقت، أو يستغفر عن التقصير في شكر النعمة(٥).

* ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾:

وهنا أغراهم بأمور دنيوية من ثمرات الاستغفار، فمثلما قال عن الآخرة:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والحاكم (٤/ ٢٦٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٧٠٥).

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٥٩١) من حديث ثَوْبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٢٢٠)، وأبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، وابن ماجه (٣٠٠)، وابن الجارود (٤٢)، وابن خزيمة (٩٠)، وابن حبان (١٤٤٤)، والحاكم (١/ ١٥٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «إرواء الغليل» (٥٢).

(٥) ينظر: «معالم السنن» (١/ ٢٢- ٢٣)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (١/ ٤١- ٤٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أغراهم بمرغِّبات دنيوية، وقد كانوا أهل زرع وحرث وسَعة في الأموال والأولاد، فقال: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾ أي: المطر والغيث[1].

والمدرار: المستمر الذي لا يُخشى معه قحط ولا جدب[2]، ومنه در الضَّرْع إذا تجمَّع فيه اللَّبَن[3].

وقد أخذ أهل العلم من ذلك أن الاستغفار سبب في نزول المطر، وقد ورد أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استسقى بالناس، فصعِد المنبر، واستغفر الله تعالى، ثم نزل، فقالوا له: نسيتَ يا أميرَ المؤمنين، ما طلبتَ السُّقيا؟! فقال: «والله، لقد استسقيتُ بمَجادِيح السماء»[4].

والمَجادِيح: نوء يعرفه العرب وقت الغيث[5]، وكأنه يقول: استسقيتُ بأعظم وأوثق وسيلة لطلب السُّقيا؛ لأن المعاصي سبب في زوال النعم:

إذا كُنتَ في نِعمَةٍ فَارعَها ... فإنَّ المَعاصي تُزِيلُ النِّعَم[6]

وما فعله نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من وعدهم بالمغفرة في الآخرة، ووعدهم بالرزق في الدنيا، هو من التنويع الإيجابي، فالاستقامة على الخير وترك الزنا سبب في صحة البدن والنجاة من الأمراض المختلفة؛ كالهربس والإيدز والزهري والسيلان،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٢)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٠، ٣٥٣)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٨٠)، و«تاج العروس» (١١/ ٢٨١) «د ر ر».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٢/ ٤٧٧).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٠٢)، وسعيد بن منصور (١٠٩٥)، وابن سعد (٣/ ٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٨٥)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (٨٤)، والطبراني في «الدعاء» (٩٦٤)، والبيهقي (٣/ ٤٩٠)، وينظر: «نتائج الأفكار» (٥/ ١١٨- ١١٩)، و«إرواء الغليل» (٦٧٣).

(٥) ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (٣/ ٢٥٩- ٢٦٠)، و«لسان العرب» (٢/ ٤٢١)، و«تاج العروس» (٦/ ٣٣٤) «ج د ح».

(٦) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٧٥).

وحَسَنٌ أن يترك الإنسان المعصية طلبًا لمرضاة الله، وخوفًا من عقابه، وخوفًا من الفضيحة، وخوفًا من المرض، والاقتصاد الإسلامي الناضج يحقق مستوى جيدًا من الأرباح والمصالح، مع مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبر الوالدين وصلة الأرحام سبب في طول العمر، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه، ويُنسأ له في أثَره، فليصلْ رحمه»[1]. فصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحاويج تزيد في العمر وتوسِّع في الرزق، وتكون سببًا في الصحة والعافية.

وفي مجال الإدارة الخاصة أو العامة يجب ألَّا يكون التدين سببًا في حرمان الناس من مصالحهم، بل على النقيض، يجب أن يعود عليهم بالمزيد من المكاسب المادية والثراء واليسار والرَّغَد، فالفرد الممكَّن أو الجماعة أو الحزب يجب أن يسعى في خدمة الناس وتوفير الضروريات وتسهيل الحياة ورفع مستوى المعيشة والوضع التعليمي والصحي، وهذا من تطبيق الشريعة، فليست الشريعة قصرًا على الحدود والعقوبات، كما يتوهم أقوام.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ زيادة على ما عندكم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: زروعًا وبساتين وحقولًا، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾، تجري في وسط هذه الجنات.

والمطر المدرار هو سبب خصب هذه الجنات وجريان الأنهار فيها بإذن الله، وهذا يشبه قول الله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

* ﴿مَّا لَكُمْ﴾ أي: ما السبب الذي يجعلكم ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾؟

أي: لا تقيمون لله توقيرًا وتعظيمًا، والوَقار: التمجيد والثناء[2]، فلماذا لا ترجون وقار الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي خلقكم أطوارًا؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٢٩١) «و ق ر»، و«القاموس المحيط» (ص٤٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٧).

ويجوز أن يكون قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون، فالرجاء أحيانًا يُستخدم بمعنى الخوف[1]، كما يقال:

إذا لَسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لسعَها[2]

أي: لم يخف لسعها، فعلى هذا يستنكِر عليهم متسائلًا: لماذا لا تخافون من الله؟

والمعنى بكل حال أنه يذكِّرهم بربهم، ويجعلهم في موقفٍ بين الخوف والرجاء، أن يرجوا ربهم يوم الحساب، وأن يرجوا عاجل خيره وبره في الدنيا، وأن يخافوا منه أن يُعذبهم.

بعد أن دعاهم إلى التوحيد وأمرهم بالاستغفار ذكَّرهم بالله وبآلائه ونعمه وحججه؛ ليحيي في قلوبهم الخوف منه، والاستنكاف عن الأصنام التي لا تنفع ولا تدفع، ثم ذكَّرهم بعظمة الله وجلاله وآياته المشهودة، وأن أمر الدنيا والآخرة إليه، فلماذا لا تعظِّمونه؟ أو: لماذا لا ترجون توقير الله لكم، أن يجازيكم بالخير إن أطعتموه، وبالنَّكال إن خالفتم أمره؟

والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر حجج الله في النفس؛ كالسمع والبصر والأفئدة والقدرة والأعضاء التي ركَّبها في الإنسان، وأحيانًا يُقدمها ثم يذكر ما في الكون، وأحيانًا يذكر ما في السماوات والأرض، والشمس والقمر والنجوم[3].

* وفي هذا الموضع بدأ بذكر النفس: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾:

أي: طَوْرًا بعد طَوْر، في مراحل وحالات مختلفة، وهذا يشمل أطوار الأَجِنَّة في الأرحام، من نُطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة، ثم تقلبهم في المهد والطفولة، فالمراهقة فالشباب فالكهولة فالشيخوخة والهَرَم- وهكذا هي الحياة- ثم

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٣).

(٢) القائل: أبو ذُؤيب الهذلي، وتمام البيت: وخالفَها في بيتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ. ينظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٤٣)، و«معاني القرآن» (١/ ٢٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٤).

الموت، فالأطوار هي التقلبات والتحولات[1]، وهذا دليل على عظمته وقدرته، وعلى حكمته وألوهيته وربوبيته، فاعبدوه ولا تعبدوا سواه، وهو تذكير بالنفس وأصلها يعقبه دعوة إلى التأمل في السماوات والأرض وما أبدع الله فيها وأودع.

وهو الذي حدث لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في مراحل خلقه وأطواره، فآدم كان من تراب، فطين، فطين لازب، فصلصال كالفخار، فحمإٍ مسنون، فجسد من لحم وعظم وشحم ودم، ثم روح تسري فيه بإذن ربها، ولعل قوم نوح كانوا يعلمون ذلك لحداثة العهد نسبيًّا.

* ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾:

يجوز أن تكون الرؤية هنا البصرية، أي: ترون بعيونكم[2]، وهم يرون السماء التي فوقهم، وإن كانوا لا يعرفون إن كانت سبعًا أو ليست بسبع، وأراد أن يخبرهم أن السماوات- التي يرونها- سبع، أو أن هذا كان معروفًا عندهم، وكثير من الأمم السابقة كالكلدانيين في العراق كان عندهم معلومات عامة فيما يتعلق بالفضاء والكواكب والنجوم والأكوان والأفلاك، فهو هنا يُذكِّرهم بشيء يرون بعضه، أو يُذكِّرهم بمعلومة متداولة عندهم من كون السماوات سبعًا.

وكونها ﴿طِبَاقًا﴾ أي: أنها طبقة فوق طبقة فوق أخرى[3]، وهذا من غيب الله الذي نؤمن به، فالله تعالى خلق سبع سماوات طباقًا، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرًا، وأما كيفيته فهي عند الله، ومعظم ما يقوله العلماء السابقون، حتى ممن كتبوا في التفسير أو في الأفلاك أو في غيرها، إنما هو من الظنون، أو مما يُنقل عن اليونان أو الكلدانيين أو سواهم، في وقت لم يشهد علم الفضاء هذا التطور العظيم، ولم يملك الإنسان تلك المناظير الهائلة، ولا كان قادرًا على السير

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٧).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٢).

والمعرفة الميدانية المباشرة.

وقد تطوَّر علم الفلك من خلال المراصد المعقَّدة والتجارب البشرية، ولا شك أنها مجاهل تدهش الألباب، واكتشف في السماء أعدادًا كبيرة من المجرَّات، وكل مجرَّة فيها ما لا يحصى من النجوم، وفي ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وهذا غيب من غيب الله.

من النجوم التي نراها الآن نجوم قد احترقت منذ زمن، والذي نراه هو ضوؤها الذي استغرق سنوات ضوئية ليصل إلينا، وثَمَّ نجوم مخلوقة منذ زمن لا يعلمها إلا الله، ونحن لا نراها؛ لأن ضوءها لا يزال في الطريق لم يصل إلى الأرض بعد.

وكثير من العوام والبسطاء تضيق عقولهم وأفهامهم ومداركهم عن ذلك، ويعجزون عن تصور بعض المسائل، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم، وشأنهم ألَّا يتكلموا فيه، ولا يُشغلوا أنفسهم به، فيكفيهم أن يصلوا الصلوات الخمس، وأن يقوموا بما أوجب الله عليهم، وأن يشتغل الواحد منهم برزقه وإصلاح أمره، أما مثل هذه القضايا، فهي تترك لأهل الاختصاص ولأهل العلم، وربما يكون دخول غير المختصين فيها بابًا من أبواب الفتنة، أو التزيد أو التقول على الله تبارك وتعالى بغير علم، وليست هي من علم الآخرة الذي يتعبد به كل أحد من الناس، حتى لو لم يصدِّقوا هذه الأخبار، فلا يضرهم ما داموا غير مختصين، وإنما يحتاج إليها الباحثون والعلماء الذين يبنون عليها نتائج، ويرتِّبون عليها آثارًا، ويسهمون في تطويرها وتوسيعها.

* ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦﴾:

وهذا مما احتج به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، و﴿ٱلْقَمَرَ﴾ قيل: في السماء الأولى[(١)].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (٤/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٣)، والمصادر السابقة.

وقد يكون المعنى: معهن، كما تقول: جاء القوم وفيهم فلان، وليس بلازم أن يكون منهم أو معهم، فقد يكون جاء بعدهم[1]، كما يقول الشاعر[2]:

تَضوَّعَ مِسكًا بَطنُ نُعمانَ أن مَشَت ... بـه زينَبٌ فـي نِسوَةٍ عَطِراتِ

وقد يكون المقصود أن نور القمر في السماء، كما نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3].

وهذا كله غيب، ويكفينا في القرآن الحجة؛ لأن الله تعالى هنا لم يرد أن يقدِّم لنا معلومة فلكية نختلف حولها، وإنما أراد أن يُقدِّم لنا القدر المتفق عليه، الذي يجب على الناس كلهم الإيمان به، وهو أن الله تعالى خلق القمر، وجعله نورًا، وهو حجة على الناس، فالقمر مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فرَّق بين الشمس والقمر، فوصف القمر بأنه نور، ووصف الشمس بأنها سراج، إذ الشمس كتلة ملتهبة مثل السراج، وفيها نور ونار؛ ولهذا قال في الآيات الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، أما القمر فنور فقط، وهذه حقيقة متقررة، والنور الذي فيه إنما هو انعكاس لضياء الشمس، وهذا ما يقرره العلماء قديمًا وحديثًا، فالقمر جِرْم قابل للإضاءة، فإذا انعكس عليه نور الشمس أضاء[4].

ويظهر من السياق أن قوم نوح لديهم اهتمام بالأفلاك وبعض العلوم الطبيعية؛ ولذا وردت هذه المعلومات الدقيقة في خطاب نبي الله لهم.

* ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾:

فرجع إلى الحجة عليهم بأنفسهم؛ ليبني عليها أمر الآخرة والبعث،

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤).

(٢) ينظر: «المحاسن والأضداد» (ص٢١٧)، و«الكامل في اللغة والأدب» (٢/ ٧٨) منسوبًا إلى محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي.

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٥٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٤٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٤)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٢٠٠).

والمقصود هنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالله تعالى خلقه من طين الأرض، وهل مرَّ آدم بحياة نباتية قبل نفخ الروح؟ الله أعلم، وبعض العلماء قالوا ذلك أخذًا بظاهر هذه الآية، وكنتُ مستبعدًا لهذا القول، حتى وقفتُ على حديث الصُّور المتقدِّم، والذي فيه أن الخلق يوم القيامة ينبتون أمثال الطَّراثِيث[1]، مع قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فرأيتُ الأمر قريبًا، وليس فيه ما يُنكَر أو يُستغرب، والله تعالى أعلم بغيبه.

أو **المقصود**: الذرية، وأن الله تعالى أنبتهم[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. فالله تعالى أنبتهم وجعلهم ينتقلون من حال إلى حال، ومن طَوْر إلى طَوْر، ويأكلون مما يُخرج الله تبارك وتعالى لهم من خيرات الأرض، ويشربون من مائها.

* ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾:

﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: بالموت، ولذلك بنى عليه النتيجة: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[3]:

ويُؤخذ منه في التعليم والدعوة أن يكون الانتقال من المعلوم المتقرر إلى المجهول الذي يراد أن يقروا به ويؤمنوا، فهم يؤمنون بالأول والثاني، وهو نبَّههم على الأمر الثالث المبني عليهما.

وجاء بالمصدر بعد الفعل؛ لتأكيد الأمر الذي يجحدونه أو يشكون فيه، وهو الإخراج والبعث[4].

---

(١) كما في حديث الصُّور المتقدم في «سورة المعارج»: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾.

والطَّراثِيث جمع: طرثوث، وهو نبت ينبسط على وجه الأرض كالفطر. ينظر: «النهاية» (٣/ ١١٧)، و«لسان العرب» (٢/ ١٦٤- ١٦٥) «ط رث».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٤).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٥٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٥٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٤).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٤٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٨٤).

* ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾:

أي: خلقها وسخَّرها، فكلمة ﴿جَعَلَ﴾ تختلف عن معنى ﴿خَلَقَ﴾؛ لأن الخلق واسع، وأما الجعل، فمعناه أنه قد ركَّب في خلقها ما يجعلها صالحةً للحياة عليها، كما ترى البشر الآن كيف يتصرفون على هذه الأرض تصرفات هائلة، فيبنون عليها ناطحات السحاب، ويحفرون الطرق والأنفاق، ويشقون الجبال، وهي مذلَّلة مسخرة لهم؛ لأنها مجعولة[(١)].

وقوله: ﴿لَكُمُ﴾ أي: مخلوقة لكم، وما عليها مسخَّر لكم، فهذه علة خلقها.

وكونها ﴿بِسَاطٗا﴾ أي: منبسطة[(٢)]، وليس المقصود أن الأرض ليست كُرويَّة، بل هي كُرَويَّة الشكل باتفاق العلماء، كما ذكره ابن تيمية عن ابن المنادي وغيره[(٣)]، وكذلك باتفاق علماء الفلك، وهذه من الحقائق الحسية القطعية، ولكن قد يجهل الإنسان مثل هذا، وليست من أمور الدين التي ينبغي أن تُعلم لكل أحد، ولكنها من مصالح الدنيا، أما مَن كان يعمل في مجال الاتصالات أو المواصلات أو الأقمار أو غيرها من المصالح، فهذه عنده من البدهيات والمعلومات الضرورية المفروغ منها.

* ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾:

أي: طرقًا مختلفة، **والفج** هو: الطريق[(٤)]، وقد يكون بين جبلين في الغالب، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: ٢٧]، أو هو الطريق

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٣١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٦)، و«تفسير المراغي» (٢٩/ ٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٧١٢).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٦٦)، (٢٥/ ١٩٥)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ...﴾ [ق: ٧]، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٤٥)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٧١١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٢٤).

الواسع العريض[1]، وكل ذلك حجج عليهم في الأرض والسماء تحاصرهم في أنفسهم ومن تحت أقدامهم ومن فوقهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

* بعد رحلة طويلة استغرقت الليل والنهار، ودامت مئات السنين، وتنوَّعت فيها الأساليب والطرائق بين الإسرار والإجهار، وتناولت كل الموضوعات، ما بين التذكير بالله والدعوة إلى التأمل في مخلوقاته، إلى التذكير بالنفس وأسرار خلقتها، إلى النظر في الكون والأرض والسماء والشمس والقمر، إلى تقرير البعث والنشور، وتراوحت بين الترغيب- وهو الغالب- وبين الترهيب والتخويف.

بعد هذا كله لم يُؤمن به إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠]، مع طول المدة، وشدة الدأب في الدعوة[2].

ثم هاهو نوح يعرض أمره لربه- وهو أعلم- ويجمع بين الاعتذار والشكوى، ولسان حاله يدعو أن يهديهم الله أو يهلكهم: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾:

أي: لم يطيعوني ولم يقبلوا دعوتي في أصلها، وليس المراد أنهم خالفوه في جزئية مما يدعوهم إليه، واتبعوا أكابرهم من زعمائهم وسادتهم وأمرائهم: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾ [الأحزاب: ٦٧].

والغالب أن الضالين المصرِّين على مخالفة الحق لهم أكابر يحضُّونهم على ما هم عليه؛ لأنهم أصحاب مصالح يخشون أن تضيع، فيُصرون على الناس ويُغرونهم، وهم هنا من الكبار الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا خسارة،

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٠)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٤٥)، (٦/ ١٠٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٥/ ٦١)، (٢٢/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٥).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٢٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٣٨)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٢٠٣) «ف ج ج».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤١٠- ٤١٢)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ٧٣).

فهم أصحاب أموال وأولاد، وما كانوا كبارًا وسادة إلا لذلك: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥]، ولكن أموالهم وأولادهم كانت سببًا في كبريائهم وإعراضهم، فصدتهم عما هو خير منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٤- ١٥].

فينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون ماله وولده وزوجه مما يقرِّبه من طاعة الله تعالى، وهذا يكون بالتربية الصالحة والنية الطيبة والطعام الحلال والدعاء الصادق والتوافق بين الأزواج.

وفي الآية إشارة من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حسن توظيف الأموال والأولاد، وإلى شكر النعم؛ لأنه قال قبلها: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقد جاء رجلٌ إلى الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يشكو الجَدْبَ، فقال له: استغفر اللهَ. وجاءه آخر يشكو الفقر والفاقة، فقال له: استغفر اللهَ. وجاءه ثالث يشكو العُقم، فقال له: استغفر اللهَ. فقالوا له: يا أبا سعيد، جاءك ثلاثة يشتكون من أمراض شتى، ووصفت لهم دواءً واحدًا، وهو الاستغفار! فاحتج بهذه الآية[(١)].

ففي الآية دلالة على أن المال والولد والزوجة تكون خيرًا إذا أطاع الله واستغفر، فيُوسع الله عليه في الدنيا والآخرة، وتكون شرًّا وضررًا إذا أساء استخدامها.

وهذا مثل الآيات الغيبية والآيات الشرعية والقرآن والعلم، فإن من الناس مَن ينتفع به، فيزداد إيمانًا ويتقبَّله بقبول حسن، ومن الناس مَن يرفضه ويأباه، فيزيده خسارًا.

* ثم قال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾:

ونوح هنا يخص بشكواه العِلية والأكابر الذين كانوا يعوقون الدعوة، ويصدون

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٣٨٦)، و«فتح الباري» (١١/ ٩٨)، و«عمدة القاري» (٢٢/ ٢٧٧)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٤٥).

الناس عنها، وإلا فغالب الناس عاديون، لا مشكلة لهم مع الخير والحق، ولكنهم سريعو التأثر بالتهريج والخداع والتضليل الذي يمارسه أصحاب النفوذ والمال والسلطان والإعلام.

والمكر: الكيد، ويُطلق على الكيد الخفي اللَّطيف[(١)]، كما في قوله سبحانه: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وكما في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ [الطارق: ١٥]، إنه مكر خفي مدروسٌ طويل، كما في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[(٢)] [النمل: ٥٠].

ووصفه هنا بأنه ﴿كُبَّارًا﴾، ومعناها: كبير[(٣)]، وهي من الألفاظ العربية المحفوظة في بعض القبائل واللغة اليمانية، يقال: إنسان وضَّاء، إذا كان جميل الصورة، نادر الجمال[(٤)]، كما قال الشاعر[(٥)]:

والمَـرْءُ يُلْحِقُـه بفتيـان النَّـدَى ... خُلُـقُ الكريـم، وليـسَ بالوُضَّـاء

أي: تكرمه الأخلاق والخصال والخلال الجميلة، وإن لم يكن جميلًا بوجهه.

ومن المكر الكبار أنهم يكرِّرون دون ملل أو خجل التشكيك في نية نوح، وأنه يقصد العلو عليهم أو منافستهم فيما هم فيه، وأحيانًا يسخرون من أتباعه، وأنهم أراذل، ويشكِّكون في شخصيته، وأنه ليس له عليهم فضل، فما معنى أن يكون نبيًّا أو يحدثهم بما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.

ومع هذا المكر الكُبَّار الصبر الكبار أيضًا، فقد صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا يُضرب به وبأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ المثل في الصبر، وبهذا وغيره كان من أولي العزم من الرسل،

(١) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٥٣٣)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ١٣٥)، و«مجمل اللغة» (١/ ٧٧٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٢٨، ٧٧٢)، و«لسان العرب» (٥/ ١٨٣) «ك ي د»، «م ك ر».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٠).

(٤) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٠).

(٥) ينظر: «الصحاح» (١/ ٨١)، و«لسان العرب» (١/ ١٩٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٧) منسوبًا إلى أبي صَدَقة الدُّبَيْري.

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الأنبياء مدرسة في الصبر والتحمُّل، وعلينا أَلَّا نتعجل لا مع أنفسنا ولا مع غيرنا، فلا نيأس من نفوسنا، مهما تلومت علينا وأبطأت، ولا ييأس المرء من زوجه وولده ومَن يدعوهم من تلاميذه وخصومه، ومَن يختلف معهم، حتى مع أعدائه، لا يفقد الأمل، ما دامت الروح في الجسد.

* وكان من مكرهم الكُبَّار أنهم كلما وجدوا ليونة في الأتباع استفزوهم من جديد، وخاطبوهم خطابًا مؤثِّرًا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: احذروا، فهذه آلهتكم وأربابكم، سموها: آلهة؛ حتى يتعلق الناس بها ويحبوها ولا يفرِّطوا بها، وكأنهم يقولون: هذه الآلهة هي آلهتكم وآلهة آبائكم من قبل، وفي ذلك إثارة للعصبية، والعصبية هي أعظم دليل عند كثير من الناس، فقد لا يملك التابع دليلًا على ما يعتقده إلا التعصب لما وجد عليه آباءه وأجداده: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وهي عذر الجاهلين والمكذِّبين، وهذا ما كانت قريش تفعله وتقوله لصد الناس عن دعوة النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا ...﴾ أي: بعدما قالوا: لا تتركوا الآلهة، بدؤوا يفصِّلونها، ويذكرونها بالأسماء؛ من أجل استثارة الحمية، واستمالة العاطفة، والترغيب في المألوف المعتاد، فهي أسماء طالما ترددت على أسماعهم، وسجدوا لها، وظنوا أنها السبب الجالب للمطر والرزق والعافية، فإذا ذكروا أسماءها على وجه التفصيل استثاروا مشاعر الناس للتمسك بها، فصاروا يسمونها واحدة واحدة، والعرب لا يكررون النفي أكثر من ثلاث مرات.

ومن هنا قال: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ﴾، فذكر ﴿لَا﴾ ثلاث مرات، ثم قال: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾، فلم يكرر ﴿لَا﴾؛ لئلا تستثقل على اللسان، وإن كانت داخلة في المعنى، وربما كانت هذه الأصنام ليست على مقام واحد عندهم عبوديةً واحترامًا.

وهذه أسماء القوم الصالحين الذين نُصبت تماثيلهم ثم عبدوا، وهي أسماء غير عربية، ولما وقع الطوفان جرف هذه الأوثان وألقى بها إلى حيث شاء الله تعالى.

وقد نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن العرب كانت لهم أصنام بهذه الأسماء من دُومة الجَنْدل إلى عُكاظ وإلى بلاد اليمن ومكة والمدينة، وكانت بعض هذه الأصنام على صورة امرأة، وبعضها على صورة نَسْر، وبعضها على صورة حيوان[(١)].

وكان العرب يتسمون بها أيضًا، مثل: عبد وُد الحارثي الذي جاء ذكره في غزوة الخندق في المبارزة[(٢)]، وكذلك عبد يَغُوث الشاعر الجاهلي المشهور، الذي أمسكه أعداؤه وجرحوه وتركوه ينزف حتى مات[(٣)]، وقال القصيدة المشهورة[(٤)]:

أَلَا لا تَلُومانـي كَفـى اللَّـومَ ما بِيا ... ومـا لَكُما فـي اللَّـومِ خَيـرٌ وَلا لِيا

أَلَـم تَعلَمـا أَنَّ المَلَامَـةَ نَفعُهـا ... قَليلٌ وما لَوْمي أَخي مِن شِـمالِيا[(٥)]

ولعلها أوثان أخرى وليست هي نفسها، وإنما بقيت الأسماء وتناقلها الناس ثم سمى العرب بها، والله أعلم.

* ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾:

أي: هؤلاء الكبار المتبوعون السادة أضلُّوا كثيرًا من الناس بمثل هذا الكلام؛ ولهذا قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، فدعا عليهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا بعد أن أُوحي إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود: ٣٦]. لقد وصفهم بالظلم فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾، وهي الصفة الصادقة على كل مَن يحارب الحق ويقف في سبيله، فهو يظلم نفسه، ويظلم غيره، ومن أجل الحفاظ على مكانته ورئاسته يستمر في الكذب والعدوان والقتل والحرمان

---

(١) ينظر: «كتاب الأصنام» للكلبي (ص١١- ١٣)، و«صحيح البخاري» (٤٩٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٠٩- ٢١٠).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٥)، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» (ص١٧٤).

(٣) ينظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ١٩٧)، و«في تاريخ الأدب الجاهلي» (ص٣٩٧).

(٤) ينظر: «المفضليات» (ص١٥٥- ١٥٦).

(٥) الشِّمال: الطَّبع والخُلُق.

والتزوير والتضليل؛ لأن المعركة عنده معركة موت أو حياة.

فدعا عليهم بعدما يئس منهم بالوحي، ويئس منهم بالاستقراء التام الذي استغرق ألف سنة إلا خمسين سنة، وليس في يوم وليلة، فلا تقس نفسك على نوح، فالمدرسة النبوية ليست كذلك، فلا بد أن تطمئن نفسك بالإيمان والرضا والتسليم، وتكون واسع الصدر ولا تعجل.

ويقينًا ليس مقصود نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الدعاء عليهم بالضلال في الدين؛ لأنه جاء لينقذهم منه، ولكن المقصود بالضلال هنا أن يذهب الله كيدهم، فدعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا ليس على قومه كلهم، وإنما على عِلْيَتهم وأكابرهم الذين كانوا يكيدون له، فهو بعدما بيَّن كيدهم، وأنه كيد كُبَّار، دعا الله تعالى أن يُبطل هذا الكيد، وأن يجعله في ضلال، مثلما دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وكيده، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر: ٣٧].

ولما تقول: الكيد في ضلال، أي: ذهبت المؤامرات أدراج الرياح، فما نفعت ولا أثمرت.

* **وبعدما طُويت الصفحة، وانتهت القصة، وتم البيان، قال سبحانه:** ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥﴾:

فهذا حكم الله فيهم قد تم وجرى، ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: من خطيئاتهم، و«ما» هنا صلة للتوكيد[(١)]، وهي تأتي في لغة العرب، كقول بعضهم[(٢)]:

اللهُ يعلمُ أنَّا في تَلَفُّتنا ... يومَ الفِراق إلى جيراننا صُورُ
وأنني حيثما يَثْنِي الهَوَى بَصري ... من حيث ما سلكوا أدنُو فأنْظُورُ

أي: حيث سلكوا، ويزيدون كلمة «ما» للتوكيد والصلة: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾،

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٨٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٦٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦١).

(٢) ينظر: «المنتخب من كلام العرب» (ص٦٩٥)، و«المخصص» (١/ ١٠٩)، و«الذخائر والبصائر» (٥/ ١٦١)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ١٢١).

وهذا من العجب أنهم يُغرقون في الماء ويُحرقون بالنار، والماء نقيض النار، فأرواحهم إلى الحرق وأجسادهم إلى الغرق[1].

والمقصود: نار في الدنيا، وهي نار البرزخ.

وهذا دليل على عذاب القبر وثبوته[2]، وقد جاء في غير موضع من القرآن، كما في قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، وكما في «سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»، فقد ذكر طائفة من أهل العلم أنها تدل على عذاب القبر[3].

وعلى القول بأنه عذاب القبر، فهو تمهيد لعذاب الآخرة، أو يكون المقصود أنهم سيدخلون نار جهنم، فعبَّر بالماضي؛ لتحقق الوقوع، أي: كأنهم أدخلوا؛ لأنهم في حكم الله تعالى قد غادروا الدنيا وأقبلوا على العذاب.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: تبَّرأ بعضهم من بعض، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]، وهم الذين كان لهم أموال وأولاد، فلم ينفعهم، ولم يغن عنهم ذلك من الله شيئًا[4].

لقد كان لهم في الدنيا أنصار يدافعون عنهم، ويحمونهم، ويشيعون ما يحبون أن يُشاع، ويمنحونهم القوة والوجاهة بكثرتهم ونفاقهم وتزلفهم، فأين هم الآن؟!

* ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾:

كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ آية في الصبر عليهم، وقد قيل: إنه هو الذي قال فيه ابن مسعود

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٢).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١١)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٥٤٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٨٨).

(٣) ينظر: «جامع الترمذي» (٣٣٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٢)، و«التفسير القيم» (ص٥٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦١٩)، وما سيأتي في «سورة التكاثر».

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٩).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كأني أنظرُ إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومُه فأَدْمَوْه، وهو يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمونَ**»[1]. أي: يطلب من الله أن يمهلهم، وألَّا يعاجلهم بعذاب[2].

وقد ذكر تعالى ما جرى من إغراقهم قبل أن يذكر دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ليبيِّن لهم أن ما حاق بهم إنما كان لذنوبهم، فهم أُغرقوا بذنوبهم وبخطاياهم.

وإنما دعا عليهم نوح بعدما بيَّن الله له أنهم لن يؤمنوا: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود: ٣٦]، فدعا عليهم، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، والدَّيَّار: ساكن الدار[3]، والعرب يقولون: هذا المكان ما فيه من دَيَّار ولا نافخ نار[4]. أي: ليس فيه من مقيم ولا مسافر، ولا بر ولا فاجر.

وفي الاستدلال بدعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على مشروعية الدعاء على عموم الكفار نظر؛ لوجوه:

١- أن هذا كان بعد اليأس منهم، والإخبار بأنهم لن يؤمنوا.

٢- أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يستأني بهم ويطلب الإمهال، كما في آية: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾. فكان يطلب المهلة، ويخاطب ربه، فنهاه الله أن يطلب المهلة والإنظار؛ لأنهم مغرقون لا محالة.

٣- **وقيل**: إن دعوته كانت على المضلِّين للعباد، الصادِّين عن سبيل الله؛

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢). وينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٠٠٨)، و«الزهد» لأحمد (١/ ١٢٨).

(٢) ينظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٨٢)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٣٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥٠٥)، (٦/ ٢٠٢٢)، (٨/ ٢٧٨٧)، و«أخبار أصبهان» (٢/ ١١٥)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٦٣)، و«فتح الباري» (٦/ ٥٢١)، (١٢/ ٢٨٢)، و«عمدة القاري» (١٦/ ٦٠)، (٢٤/ ٨٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣٤)،)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٦).

(٤) ينظر: «جمهرة اللغة» (٣/ ١٣٠٥).

لقوله بعدها:

* ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾: فقد جرَّب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما جرى له، حيث كانوا سببًا في إضلال العباد، وسيكونون كذلك ما داموا باقين، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾:

أي: حتى أولادهم يربونهم منذ نعومة أظفارهم على الكفر والفجور.

وفيه إشارة إلى تعاهد النشء، وأن النشء بحسب ما يكون عليه المجتمع.

ففي كلمة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إشارة إلى العناية بالأولاد؛ من حيث اختيار الأم، وهي المنشأ والمحضن، ومن حيث اختيار ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون؛ فـ«**أيما جسد نبتَ على سُحْت، فالنارُ أولى به**»(١). ومن حيث حسن التربية والتلقين والتأديب، ومن حيث القدوة الحسنة، والدعاء، والتعاهد بكل ما يمكن من الوسائل لتربيتهم، ولكل عصر وسائله وأدواته، وآية هذا الزمان القنوات والبرامج والأشرطة والألعاب والقصص والمدارس والمحاضن.

* ثم ختم الدعاء بهذا الكلام المؤثِّر الخاشع، وقد كفر الناس وأصرُّوا، وعُوقبوا وعُذِّبوا، وسخط الله عليهم، وأنزل الله نقمته، فها هو نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذا العمر المديد الطويل، وهذا الجهد الكبير، يرفع يديه خاشعًا متواضعًا متضرِّعًا إلى ربه مستغفرًا معتذرًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾:

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: وقد كان والداه مسلمين، ولا فائدة من البحث في اسمهما، فيكفي إجمال القرآن، والإشارة إلى أنهما كانا مؤمنين به(٢).

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٤١)، و«مسند الدارمي» (٢٨١٨)، و«جامع الترمذي» (٦١٤)، و«صحيح ابن حبان» (١٧٢٣)، و«المستدرك» (٤/ ١٢٧)، و«شعب الإيمان» (٧/ ٥٠٤)، و«البدر المنير» (٩/ ٣٥٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٥٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٥).

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾: والمقصود: منزله، وقيل: المسجد، أو السفينة، وقيل: ديني[1]، وكأنه دعا لأهل بيته وأسرته من المؤمنين، واستثنى غير المؤمن، وهذا يصدق على ابنه غير المؤمن، والذي قيل: إن اسمه: كنعان، وقيل: يام[2].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فهو صبور حليم رحيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعدما عُوقب قومه، دعا لكل المؤمنين والمؤمنات، فجزاه الله عنا خير ما جزى الأنبياء والمرسلين، وجزى الله كل الأنبياء والمرسلين أعظم الجزاء وأوفاه.

وهو درس للمؤمن في دعائه أن يعم فيدعو للمؤمنين والمؤمنات جميعًا.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا وبوارًا[3].

وأعاد وصف الظلم ليبيِّن سوء عاقبتهم بالتَّبار والبوار، بعدما دعا عليهم قبل ذلك بالضلال[4]، أي: لفساد كيدهم ومكرهم وسعيهم، فخسروا الدنيا، وكانت الجولة لغيرهم، وخسروا الآخرة بالهلاك، وحقَّت كلمة الله لنوح ومَن معه من المؤمنين بالنجاة، وأن يكونوا سكَّان الأرض إلى قيام الساعة.

○○○

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٢/ ٤٧٦)،)، و«الكشاف» (٢/ ٣٩٦)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٧٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ١٥٧).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٧٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٦٢) «ت ب ر».

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٥).

فهرس المحتويات

سلمان العودة

إشراقات قرآنية

حزب المُفَصَّل

الجزء الثالث

من « سورة الجن » إلى « سورة البروج »

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(٣)

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمـان العـودة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض ، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج ٣) من «سورة الجن» إلى «سورة البروج».

٤٦٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٤ - ١ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٦/ ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٦/ ١٤٣٦هـ

ردمك: ٤ - ١ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٣)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى- جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.youtube.com/user/DrSalmanTv

www.islamtoday.net/salman/

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الجِنِّ

* **تسمية السورة:**

تُسمَّى: «سورة الجنِّ»، كما في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

وتُسمَّى أيضًا: «سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾»، أو: «سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير[2].

* **عدد آياتها:** ثمان وعشرون آية، باتفاق علماء العدِّ[3].

* **وهي مكية** بإجماع أهل العلم[4]، والظاهر: أنها نزلت جملة واحدة، وليست مجزَّأة، كما يدل على ذلك سياقها.

* **سبب نزولها:** عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «انطلقَ رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدينَ إلى سوق عُكاظٍ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُّهبُ، فرجعت الشياطينُ، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشُّهبُ. قال: ما حالَ بينكم وبين خبر السماء

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٥٥)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٥١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٤٧).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٦)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٦).

إلا ما حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغاربَها، فانظروا ما هذا الأمرُ الذي حدثَ؟ فانطلقوا فضربوا مشارقَ الأرض ومغاربَها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلقَ الذين توجَّهوا نحو تِهامةَ إلى رسول الله ﷺ بنَخْلَةَ[1]، وهو عامدٌ إلى سوق عُكاظٍ، وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآنَ تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حالَ بينكم وبين خبر السماء. فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾. وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾»[2].

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد ذهاب رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثَقِيف، أي: في سنة عشر بعد البعثة، وقبل هجرته بثلاث سنين[3]. وقد عُدَّت السورة الأربعين في نزول السور، نزلت بعد «سورة الأعراف»، وقبل «سورة يس»[4].

وقد رُوي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ علم بوجود الجنِّ، فذهب إليهم، وكان معه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

---

(١) موضع بين مكة والطائف.

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٣، ٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩). وينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠).

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢١- ٤٢٢).

(٤) ينظر: «فضائل القرآن» لابن الضريس (ص٣٣)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٧).

(٥) أخرجه أحمد (٣٨١٠)، وأبو داود (٨٤)، والترمذي (٨٨)، وابن ماجه (٣٨٤)، وغيرهم.

وله طرق أخرى لا يصح منها شيء، كما قال الدارقطني، والبيهقي، وغيرهما، وقد ضعَّفه بجميع طرقه: ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٥٥- ٣٥٦)، وابن حجر في «الدراية» (١/ ٦٣- ٦٧)، ونقل النووي في «المجموع» (١/ ١٤١)، والحافظ في «فتح الباري» (١/ ٣٥٤) إجماع المحدِّثين على ضعفه.

ومع ضعفه، فهو مخالف لما في «صحيح مسلم» (٤٥٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سُئل: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا. وينظر: «مختصر صحيح مسلم» للمنذري (٢١١٥)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠٣٨).

ومن أهل العلم مَن يقول: إن القصة تكررت؛ فمرة لم يعلم النبي ﷺ، ومرة أخرى عَلِم، وقد جاء في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فهؤلاء نفر غير أولئك.

والأقرب أن القصة واحدة، فكلهم نفرٌ من الجنِّ، وكلهم استمعوا، وكلهم تعجَّبوا مما استمعوه، ولكن في كل موضع حُكِيَ طرفٌ من القصة، كشأن القرآن في تكرار قصص الأنبياء ونحوها، والله أعلم[١].

* ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾:

استفتح السورة بقوله: ﴿قُلْ﴾ أي: أخبر الناسَ[٢]، والنبيُّ ﷺ ينقل النص للناس كما هو، فيُمليه عليهم ويكتبونه، وكلمة: ﴿قُلْ﴾ هي من الوحي، وهي المقدِّمة التي نزل بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على النبي ﷺ، فحفظها وقالها، وأملاها على أصحابه، كما في: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، وهذا من ضمن إتقان المصحف وضبطه؛ بحيث لا يسقط منه حرف ولا يزيد، وهو بيان لمصدر الوحي، وأن جبريل تلقَّاه عن ربِّ العزة، ثم ألقاه إلى محمد ﷺ[٣].

والاستماع عند العرب غير السَّماع، فالاستماع: تقصُّد السماع وشدَّة الإنصات والاهتمام، فالمستمع قاصد مُقْبِل، وأما السماع، فهو بغير قصد ولا طلب[٤].

وبينهما فرق حتى في ثبوت الأجر ومشروعية السجود[٥]، وعكسه في سماع

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٤٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٤٤٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٣)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢٥٩).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الكافرون»: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾.

(٤) ينظر: «معجم الفروق اللغوية» (ص٤٩)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٤٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ١٤٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨١٣).

(٥) ينظر: «المجموع» (٤/ ٥٨)، و«المغني» (١/ ٤٤٦- ٤٤٧).

المحرَّم؛ فلا يثبت الإثم إلا على المستمع، أما السامع دون قصد، فلا إثم عليه[1].

والنَّفَر: ما بين ثلاثة إلى عشرة[2].

وكان سرُّ استماعهم أنهم لاحظوا تغيرًا في الأفلاك والنجوم والشُّهب، فذهبوا في كل وادٍ يبحثون عن الأمر الذي طرأ، حتى جاءت جماعةٌ منهم إلى بطن نخلة، فاستمعوا إلى قراءة النبي ﷺ للقرآن، ثم قالوا: هذا الذي بسببه سُلِّطت علينا الشُّهب، ومنعنا من خبر السماء. وقد كانوا رسلًا من قومهم يبحثون عن السبب، ولكن الله تعالى أراد لهم الخير، فاستمعوا وآمنوا[3].

والجنُّ: مأخوذة من الاجتنان؛ وهو الاستتار، ومنه سُمِّيَ الحَمْل: جنينًا؛ لأنه مستتر في بطن أمه[4].

وهم خلق مستترون، لا تراهم العيون، ولا تسمعهم الآذان، إلا ما شاء الله، وهذا ليس بغريب؛ فإن العين لا ترى إلا في مستوى معين، والأذن لا تسمع إلا ذبذبة معينة، فما كان دون ذلك أو فوقه يصبح غير مرئي ولا مسموع ولا محسوس، والعلم البشري يكتشف اليوم في الكون عوالم واسعة كانت خارج مستوى الإدراك، وقد أثبت القرآن وجودهم وخلقهم، وأنهم مُكلَّفون ومنعَّمون ومعذَّبون.

ونحن نؤمن بما أخبر به سبحانه، ولا نجحد شيئًا من ذلك مهما تقوَّل المتقولون من الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجنِّ، ومعظم الأمم والشعوب من أهل الإسلام.

أما أتباع الديانات المختلفة فإنهم يؤمنون بوجود الجنِّ[5]، وقد يسمونهم:

---

(١) ينظر: «المغني» (١٠/ ١٥٤)، و«الشرح الممتع» (٤/ ٩٤).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨٩)، و«تاج العروس» (١٤/ ٢٦٧) «ن ف ر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢١٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٠٣)، و«مختار الصحاح» (ص٦٢) «ج ن ن».

(٥) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٠).

الأشباح، وغالبًا ما تحاط عند عوام الناس بالأساطير، حتى يتصورونهم في صور مرعبة يُخوّف بها، مع أن الجنَّ أضعف من الإنس قدرة وعقولًا، وأقل منهم شأنًا، ومع ذلك فالإنس يخافون من الجنِّ، كما هو واضح من هذه السورة، وكما هو معروف عند الناس.

ويُبالغ كثير من الناس في الحديث عن أثر الجنِّ، وملاحقتهم للإنس، وتأثيرهم فيهم، بما ليس له أصل في كتاب ولا سنة، وإنما هو بسبب ضعف الإيمان، وضعف التوكل على الله تعالى، والإنسان إذا بالغ في الخوف من الجنِّ تسلَّطت عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وظاهر السياق أن النبيَّ ﷺ لم يعلم بهذه الواقعة إلا عن طريق الوحي[١]، فأخبره الله تعالى أنه صرف إليه نفرًا من الجنِّ، وأنهم استمعوا إليه حين أعرض الإنس، وكيف أخذتهم بلاغته وتعجَّبوا من معانيه وآمنوا به لأول وَهْلة، وفي «سورة الرحمن» كانوا إذا سمعوا قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ يقولون: «لا بشيء من آلائك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد». فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**لقد قرأتُها على الجنِّ، فكانوا أحسنَ مَرْدودًا منكم**»[٢].

كثير من المسلمين لا يدركون عظمة القرآن وإعجازه وبلاغته، ولا يُخالط شغاف قلوبهم، ولا يُلامس أرواحهم، في حين أن الجنَّ أول ما سمعوه قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾؛ عجيبًا في بلاغته وإعجازه ومعانيه ودلالاته[٣]، والذي سمعوه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٩)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٤) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
وفي إسناده نظر، تقدم بيانه في «سورة الرحمن»: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٤).

هو بعض القرآن، وهو ما قرأه النبيُّ ﷺ في صلاة الفجر، وسماه الله: ﴿قُرْءَانًا﴾؛ لأن القرآن يُطلق على المصحف كله، وعلى الجزء منه، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: قراءة صلاة الفجر[١].

* ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾:

أي: أنه كتاب هداية ورشاد[٢]، وهذا يعني: أن مهمة القرآن ومقاصده هي هداية الناس والأخذ بعقولهم وقلوبهم وحياتهم إلى طريق الهداية والرشاد، وهذا اختصار بديع لمهمة القرآن ورسالته، إنها الهداية والهداية إلى الرشد..

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ الفاء للتعقيب، آمنوا بمجرد ما سمعوا سورة من الكتاب العزيز، لنفترض أنها «سورة الرحمن» مثلًا، والذي أخبر عنهم هو الله، وهذا دليل على سلامة فطرتهم وسهولة تقبلهم، ولم يراجعوا الرسول أو يستفهموه عن شيء في هذه الواقعة؛ لأنه لم يعرف أنهم استمعوا إلا من الوحي.

والإيمان معنى زائد على مجرد الإعجاب بالقرآن أو الثناء عليه؛ إنه استسلام وانتقال إلى مقام التعرض لهدايته، والتفويض لحكمه، والتسليم التام لتشاريعه وأخباره.

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾: بعد ما أعلنوا إيمانهم بالله وبالقرآن وبالنبي الذي جاء به، اعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا مشركين، ولما سمعوا القرآن أخذ بعقولهم وقلوبهم إلى الهداية والإيمان والتوحيد، أي: لن نطيع أحدًا في معصية الله، ولن ندعو غير الله، ولن نعبد سواه[٣].

وقد يكون مقصودهم: أنهم لن يطيعوا الشيطان في معصية الله؛ لأن الشيطان

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٤٤٠)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٦/ ٤٢٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢١).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٤).

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] [الكهف: ٥٠].

ويطول العجب من هذا الفقه الفطري الصائب، الذي أدرك أن القضية العظمى الأساس هي الإيمان ورفض الشرك، وهذا ما خُوطب به الجنُّ والإنس على حدٍّ سواء، فأعلنوه دون مُواربة أو تردد؛ أنهم آمنوا بالله وبالقرآن وما يدعو إليه، وانتقلوا من الشرك إلى التوحيد.. وكم ينقص هذا الفقه أناسًا شابت لحاهم في الإسلام وغالب همومهم وأحاديثهم لا ترقى إلى مستوى حديث الجنِّ هنا!

* ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾:

قُرئت الهمزة في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بالوجهين: بالفتح وبالكسر في عشرة مواضع، وكلاهما قراءة سبعية متواترة[2].

و﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أي: علا، وهي مبالغة في العلو والارتفاع والمجد والعظمة[3].

والجَدّ في اللغة: الحظ والنصيب والبَخْت[4]، فجَدُّ الإنسان هو حظُّه.

وفي الحديث لما قدم النبيُّ ﷺ قال اليهوديُّ: «يا معاشرَ العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون»[5]. أي: هذا نصيبكم وحظكم من الأنبياء قد وصل.

والمعنى: تعالى الله وتعالى أمره وتعالت عظمته[6].

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٢٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٠١، ١٩٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٧)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٩٦)، و«حجة القراءات» (ص٧٢٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٥)، و«الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٩٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩١)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١١٥- ١١٦).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧).

(٤) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٤٥٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٨)، و«لسان العرب» (٣/ ١٠٧) «ج د د».

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٦) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٩).

وحكاية القرآن لهذا التعبير يدل على أنها عبارة صحيحة، خلافًا لمَن توهَّم فيها معنى مكروهًا[1].

وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: **«سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، وتباركَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ»**[2].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ كان يقول بعد النهوض من الركوع: **«اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعْطي لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»**[3]. أي: لا ينفع صاحب الغنى والحظ والمكانة والسلطان ذلك منك يا رب، وإنما تنفعه الطاعة والإيمان والتقوى.

﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فالفرية التي كان يردِّدها المشركون كانت معروفة لديهم، وهذا ليس بغريب؛ لأنهم في الآية الأخرى يقولون: **﴿كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾** [الأحقاف: ٣٠]، فعندهم نوع من الاتصال والمعرفة بما يجري، ومنهم مَن هو من أتباع موسى، ومنهم غير ذلك، فمن هنا سارعوا في نفي هذه الفرية، أي: تَنَزَّه الله عما ادَّعاه المشركون وغيرهم من أن لله تعالى صاحبة[4].

وهذا النفي للصاحبة والولد لم يرد فيما يبدو في الآيات التي سمعوها، فلعلهم أدركوه بالفطرة السوية، وعدم وجود الدليل، وتأكد لهم بالآيات التي تثني على الله بأسمائه وصفاته ووحدانيته.

والصاحبة: تُطلق على الزوجة، كما في قول الله تعالى: **﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾** [المعارج: ١٢]، وقوله: **﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾**[5] [عبس: ٣٦]، وقد كان المشركون يقولون: إن لله صاحبة من الجنِّ، ولدت له الملائكة؛ ولهذا قال الله

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٨).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٥)، وما تقدم في «سورة المعارج»، وما سيأتي في «سورة عبس».

تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾(1) [مريم: ٨٨- ٩٤]، فالناس كلهم عبيده، وهم سواسية كأسنان المشط إلا بالتقوى، فليس لله منهم صاحبة ولا ولد.

وهؤلاء الجن لما آمنوا أسرعوا إلى تنـزيه الله سبحانه عما نُسب إليه زورًا، وأثنوا عليه، ونسبوا أنفسهم إليه، فهو ربهم وخالقهم، والفطرة السوية إذا لامسها بصيص من نور الوحي أشرقت، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

والبشر يتخذ الواحد منهم زوجة؛ لأن الناس جُبِلوا على الشهوة، والرجل يحتاج إلى المرأة في الصحبة والطريق، فهي تؤانسه وتساعده وتتحمل معه التبعات، والله تعالى خلق البشر أزواجًا، فقال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾ [النبأ: ٨]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وكذلك الولد فهو كمال للبشر، ويحتاجون إليه، ويعطفون عليه بالفطرة، وهو مُكمِّل لشخصية الأب، وعند ما يكبر يحتاج إليه أكثر، وتوالد الناس بقاء للنوع البشري وفق حكمة الله سبحانه، وبعد الموت يبقى الولد ذكرًا لأبيه إن كان صالحًا أو ناجحًا، والعقيم يبذل جهده في تحصيل الولد، وإذا لم يحصل له اعتبر هذا نقصًا فيه.

أما الله تعالى فهو الحي الذي لا يموت، القوي الذي لا يعجز، فهو مستغنٍ عن الصاحبة والولد، بل هو كما قال عن نفسه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ أي: الغني الكامل في سؤدده ومجده وعظمته(2)، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٤٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٣٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٤٨٤)، و«تفسير السعدي» (ص٧٠٨).

(٢) وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦)، و«مع الله» للمؤلف (ص٢٤١- ٢٤٥)، وما سيأتي في «سورة الإخلاص»: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾.

﴿٣﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١- ٤]، فلا شريك له ولا مثيل، وهو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر والباطن(١).

* ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾:

شهدوا أن بعض سفائهم من الجنِّ يفترون على الله، والسفيه هنا مفرد، ولكن المقصود الجنس، أي: سفاءهم، وصدر سفائهم: أبليس(٢).

والأمر الشَّطَط هو: البعيد في غلوه وفساده وانحرافه(٣)، فيقولون: إن سفهاءنا يقولون على الله تعالى قولًا بالغًا مبلغًا عظيمًا في الضلال؛ إذ نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة أو الولد.

وهذه شجاعة ملفتة من الجنِّ؛ لأن قومهم ربما يعتبرون تلك الفرية التي تتحدَّث عن نسب- تعالى الله عما يقولون- بين الله وبين الجنِّ فيها رفع لقدر الجنِّ؛ لأنهم يقولون: إن الله تعالى له صاحبة من الجنِّ، فكون هؤلاء يسارعون بعد إثبات الوحدانية بنفي الصاحبة والولد، مع أن إخوانهم من الجنِّ ينزعجون من هذا النفي، ويرون أنهم حرموهم من مجد وسؤدد كانوا يفخرون به، ولكن هؤلاء الجنُّ اعترفوا بهذا الأمر بشجاعة، فضلًا عن شجاعتهم في الحديث عن إيمانهم وتوحيدهم ومخالفة قومهم، وهو من المقامات الصعبة، وغالبًا ما يشعر المخالف لقومه بالغربة والكربة والوحشة، وقد يُؤْثِر الموافقة أو الصمت، أما الحديث الواضح المكشوف كما فعلت الجنُّ هنا، فهو توفيق واصطفاء من الله لبعض خلقه، فوفَّقهم وأعانهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٣/ ٥٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٣/ ٥٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٥)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣١٧).

* ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝﴾:

أي: كنا نظن ألَّا يتواطأ الإنس والجنُّ في الكذب على الله تعالى، فالكذب عليه أمر عظيم[1].

لقد ساق الله هؤلاء النفر إلى الإيمان؛ لأن فطرتهم سليمة؛ ولذا آمنوا لأول وَهْلة عند سماعهم للقرآن الحق، وقالوا هنا: ما كان يخطر في بالنا أن يتواطأ الإنس والجنُّ على أن يكذبوا في أمر، فكيف أن يكذبوا في أمر يتعلق بالألوهية، وأن يقولوا كذبًا على الله سبحانه؛ ولذلك صدقناهم، وقلنا مثل قولهم، أما الآن فقد بان لنا وجه الصواب.

* ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾:

كان العرب في جاهليتهم يخافون الجنَّ، ولا يزال كثير من الناس على ذلك اليوم، وبعض الأمهات يخوِّفن أبناءهن من الجنِّ، وهي تربية خاطئة!

والجنُّ أضعف مما نتصور، وقد فضَّل الله الإنسَ عليهم بأشياء كثيرة؛ فالإنسُ منهم الرسل والأنبياء، وليس من الجنِّ نبيٌّ ولا رسولٌ على القول الصحيح[2]، والإنس لهم تأثير كبير في الحياة وفي الأرض، وبسبب الخوف منهم وقع كثيرون في السحر والشعوذة والكهانة والتنجيم، وينسبون كثيرًا مما يحصل لهم من الأمراض والأحوال النفسية والبدنية إلى الجنِّ، وهذا فيه احتقار للإنسان وقدراته ومكانته، وظلم للجنِّ بنسبة أشياء لهم لم يثبت فعلهم لها بكتاب ولا سنة.

وقد كان الجنُّ يخافون الإنس ويَفْرَقون منهم، فلما رأوا الإنس يخافون ويستعيذون بهم انتبهوا، وقالوا: نُخادعهم ونزيدهم خوفًا وهَلَعًا ورُعبًا، وصاروا يتعرضون للناس في بعض الوديان في السفر والظلام والأماكن المجهولة، وقد

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 321)، و«تفسير الرازي» (30/ 667)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 417)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 239).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 196)، و«تفسير الطبري» (9/ 560)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (4/ 1389)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 293)، و«زاد المسير» (2/ 78)، و«طريق الهجرتين» (ص416)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 340)، و«فتح القدير» (2/ 185).

يقع منهم ما يزيد الناس خوفًا[1].

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: والرَّهَق هنا: الخوف، وقد يكون المعنى: أن الإنس بهذه الاستعاذة زادوا الجنَّ غرورًا وعُجْبًا، ولا مانع من إرادة المعنيين، فهذه الاستعاذة الباطلة زادت الجنَّ كبرياء وغرورًا، وزادت الإنس خوفًا ورعبًا[2].

* ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾:

والسياق لا يزال في حكاية كلام النفر من الجنِّ، والمعنى: أن الجنَّ ظنوا كما ظننتم أنتم أيها الإنس: أن الله لن يبعث رسولًا، ولعل المعنى: بعد موسى، فهم كانوا يعلمون ببعثته، أو أن منهم مَن لا يؤمن بالوحي جملة[3].

وقد يكون المراد بالبعث: إعادة الخلق ليوم القيامة، فيكون المراد: أنهم كانوا يظنون أنهم لن يُبعثوا[4]، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤- ٦]، ولفظ البعث أليق وألصق بهذا المعنى، وأكثر استخدامًا في القرآن، والله أعلم.

* ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾:

﴿لَمَسْنَا﴾ أي: التمسناها[5]، وقد يكون المقصود: اللَّمْس باليد[6].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٢٢٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٦).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٧). و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٨٤٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٤٩٥).

(٦) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٤٩)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢٦١).

والأقرب أن المعنى: التمسنا، وبينهما فرق[١]، كما في قول النبي ﷺ للصحابي الذي طلب الزواج من الواهبة نفسها: «فهل عندك من شيء تُصْدِقها؟». فقال: ما أجد شيئًا. فقال ﷺ: «الْتَمِسْ، ولو خَاتمًا من حَدِيد»[٢]. أي: ابحث ولو عن خاتم من حديد.

فالمعنى: حاولنا الوصول إلى السماء، أو التقاط ما يجري فيها، فوجدنا أن الوضع بخلاف المعهود، وأن الحفظ للسماء وما فيها أكثر إحكامًا.

والمَلْء في اللغة يُطلق على الكثرة الكاثرة الهائلة[٣]، مثل قول النبي ﷺ عن المهدي: «يَمْلأُ الأرضَ قِسْطًا وعَدْلًا، كما مُلِئَتْ ظُلْمًا وجَوْرًا»[٤]. وعلى أن السماء مكتظَّة بالملائكة، كما في حديث الأَطِيط: «إن السماءَ أَطَّت، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع، إلا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدًا لله»[٥].

والحَرَس: هم الذين يحيطون بالشيء ويحفظونه، وليس له إفراد في لفظه، ولكنه يُفرد أحيانًا بالنسبة، فيقال: حَرَسي، وقد يكون جمعًا مفرده: حارس[٦]، فهم وجدوا السماء محاطة بحرس شديد، من الملائكة يتربصون بهؤلاء الجنِّ.

والشُّهب يُرمى بها مَن يحاول استراق السمع من الجنِّ.

---

(١) «اللمس» باليد، و«الالتماس»: الطلب. ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٨٥) «ل م س».

(٢) أخرجه البخاري (٥١٣٥)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تاج العروس» (١/ ٤٤٠)، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٨٨٢) «م ل ئ».

(٤) أخرجه أحمد (١١١٣٠، ١١٣١٣)، وأبو داود (٤٢٨٥)، وأبو يعلى (٩٨٧)، وابن حبان (٦٨٢٤، ٦٨٢٦)، والحاكم (٤/ ٤٦٥، ٥٥٧) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٤٢٨٢)، وابن حبان (٦٨٢٣، ٦٨٢٥)، والحاكم (٤/ ٤٤١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٢٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، وأبو نعيم في «العظمة» (٣/ ٩٨٢) (٥٠٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢).

(٦) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٢٧)، و«لسان العرب» (٦/ ٤٨)، و«تاج العروس» (١٥/ ٥٣١) «ح ر س».

وهذا من الحِكَم في الرمي بالشُّهب، وقد يكون لها حِكَم أخرى لا نعلمها.

* ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾:

أي: قبل ذلك كنا نقعد من السماء مقاعد[1]، وكأنه كان لهم مقاعد معروفة، وكل فريق منهم قد حجز له موضعًا أو مدخلًا إلى السماء.

والقعود هنا قد يكون بمعناه اللُّغوي، فالقاعد هو الجالس.

وقد يكون المقصود: الأماكن التي يكونون عليها[2]، وهذا جار في اللغة، كما قال امرؤ القَيْس[3]:

فقُلْتُ: يَمِينُ الله أَبْرَحُ قَاعِدًا ... ولو قطَّعوا رأسِي لدَيكِ وأوْصَالي

فلا يلزم أن يكون القعود بصورته المعهودة، وإنما المكث في المكان.

وقد تجد أن بعض المخلوقات من الإنس والطير والحيوانات وغيرها يميل إلى شيء، ويتعلق به، ويُغامر من أجله، ويموت في سبيله، فهؤلاء الجنُّ كانت مهماتهم وغاياتهم التي يحاولونها ويتعاونون بها مع الشياطين ومع ضُلَّال بني آدم من السَّحَرة والكهنة والعرَّافين والمنجِّمين، هي التقاط إشارات معينة على الأقدار التي ستقع في المستقبل، والفرح بها وتناقلها، وهم بطبيعتهم ليسوا محلًّا للثقة؛ فيزيدون مع الحقيقة أضعاف أضعافها من المبالغات والأوهام والتخويفات، وينشرونها عند الناس، ومن عادة المتلقِّين أنهم لا يزالون يذكرون الحالة الواحدة التي صدقوا فيها فيما أخبروا، ويسحبون ذيل التجاهل والنسيان وغض الطرف عن وعودهم الكثيرة التي لم تصدق!

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فهذه الشُّهب المترصِّدة يُرمى بها، فتصيب

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٦).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٨)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «ديون امرئ القيس» (ص١٢٥).

أو تقتل مَن يحاول التنصُّت على الملأ الأعلى(١).

والمعنى: حُجبت عنهم السماوات وحُرست، ومنعوا من استراق السمع الذي كانوا يحاولونه، وبذلك بطلت الكهانة، وقد كان الجنُّ يركب بعضهم بعضًا، حتى يصلوا إلى مقربة من الملائكة، فيلتقطوا بعض الكلام، وكلُّ واحد يُلقيه إلى الذي يليه، حتى يصل إلى الكاهن أو المنجِّم، فيضيف إلى هذه الكلمة مغالطات وأقاويل يُشيعها بين الناس(٢).

وأكثر أهل العلم على أن هذه الشُّهب كان يُرمى بها في الجاهلية، وقد ذكرها العرب في أشعارهم، كما ذكر ذلك الزمخشري في «الكشاف»(٣)، وغيره، خلافًا لما قاله الجاحظ من أنها لم تكن موجودة في الجاهلية، ولم يكن يُرمى بها(٤).

لقد كان يُرمى بها في الجاهلية، وبعد بعثة الرسول ﷺ زادت وكثرت(٥)، فشدِّدت الحراسة على السماء، فليس للجنِّ من سبيل.

* ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾:

لما رأوا الحَرَس الشديد والشُّهب والرَّصْد تعجبوا، وأثار ذلك تساؤلهم: هل ذلك إرهاص لعذاب سوف ينزل بالناس، أم هذا الحَرَس الشديد والشُّهب متعلِّق بخبر خير ورحمة؟

وهذا من حُسن كلامهم؛ لأنهم لما جاء أمر الشرِّ نسبوه للمجهول، لا إلى الله،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٣٨، ٦٧٣)، و«عمدة القاري» (١٩/ ١٠)، و«فتح القدير» (٣/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٠١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٦٧)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٢٠٨)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٤).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٢٥- ٦٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٧).

(٤) ينظر: «الحيوان» (٦/ ٤٥٧).

(٥) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٦٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣).

من باب التأدب، ولما جاء أمر الرَّشَد والخير نسبوا إرادة ذلك لله، فقالوا: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، مع أن الأمر كله إلى الله[1].

وقد يكون المعنى: لا ندري بعد هذه البعثة المحمدية، هل يُوفَّق الناس إلى طاعة النبي ﷺ واتِّباعه، فيكون ذلك رَشَدًا لهم، أو يعصونه، فيكون ذلك شرًّا ووبالًا عليهم، ويُعاقبون ويُعذَّبون؟[2].

وهنا لفتة تربوية: متى نتعلم من الجنِّ كلمة: «لا ندري»؟ ورحم الله امرأً لم يعلم الشيء، فقال: لا أعلم.

وهذا تعليم للمسلم على أن يكون وقَّافًا عند حدود علمه، وألَّا يقفو ما ليس له به علم، وأنت ترى هؤلاء الجنّ قد تكلموا بصدق وعفوية على السجية، وهذا ما يحتاجه الناس اليوم؛ لأن التكلف والمبالغة والتقليد والتعصب والهوى تقضي على شخصية الإنسان واستقلاليته وصفائه.

* ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ۝١١﴾:

وهذا قبل أن يسمعوا القرآن، فهم يتحدَّثون عن أنفسهم وعن جماعتهم من الجنِّ؛ أن منهم الصالحين من أتباع الأنبياء السابقين، أو مَن يتلمسون الطريق والخير بحسب اجتهادهم، ويتحرَّون من الله أن يهديهم، فهم على الفطرة السوية، ومنهم مَن هم دون ذلك، أي: أقل صلاحًا[3].

وهذا دليل على أنهم مكلَّفون بأصول الشريعة وشيء من أعمالها مما يطيقونه ويتناسب مع خلقهم، والله تعالى أعلم بتفصيل ذلك، وليس علينا أن نحوِّل أمر الجنِّ إلى قضية جدلية وسفسطة كلامية، وإنما المتعيَّن الإقبال على القرآن بقلب حي يتدبر، وعقل يقظ يفهم، ونفس مؤمنة تؤمن وتُسلِّم.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٦٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٢).

والآية تدل على أنهم مُكلَّفون محاسبون، فإما أن ينعَّموا أو يعذَّبوا.

ونلحظ أنهم لم يُفصِّلوا: ﴿مَادُونَ ذَٰلِكَ﴾، هل المقصود: مَن هم أقل صلاحًا، أو مَن هم نقيض الصلاح؟ وسيأتي قولهم بعدُ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

المهم هنا الإشارة إلى أنهم درجات، حتى الصالحون منهم ليسوا على درجة واحدة، وهذا من العدل، ومن الفائدة أن تعرف أن الناس درجات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال عن المؤمنين المصطفَين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وكل طائفة هي طرائق متعدِّدة، والذين اصطفى الله تعالى- سواء كانوا من المقتصدين أو من السابقين بالخيرات أو من الظالمين لأنفسهم- درجات مختلفة متفاوتة، وهم في ميدان السبق والمنافسة.

و﴿طَرَآئِقَ﴾ جمع: طريقة، **والطريقة** هي: الطريق، والغالب أن يُوصف بها الطريق الواسع الذي يستوعب العدد الكثير من الناس، والدين أو المذهب أو الملة أو النِّحْلة تُسمى: طريقة، وهؤلاء كانوا طرائق متعدِّدة[١].

و﴿قِدَدًا﴾ جمع: قِدَّة، **والقَدُّ**: قطع الشيء طولًا، قال تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦]. **والقِدَّة**: القطعة من جلد المقطوعة طولًا، كالسَّير.

وتقدَّد القوم: تفرَّقوا وتقطَّعوا، أي تفرَّقت حالاتهم وأهواؤهم[٢].

وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: كنا جماعات متفرِّقين، مسلمين وغير مسلمين، **والطريق المقدودة**: المسلوكة المطروقة من قبل.

وفي ذلك إشارة إلى أن كل طريقة لهم كبراء يسبقونهم في هذا السبيل، كما

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٨/ ٤٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤١)، و«روح البيان» (١٠/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٥٧)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٤٤)، و«تاج العروس» (٩/ ١٤) «ق د د».

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١]. ربما في ذلك إشارة إلى وضع تقليدي جامد، وفي مثل هذا الحال تكون الحاجة إلى البعثة أعظم؛ لأنها تجديد لمسالك الناس وطرائقهم، وتحرير لعقولهم، وتفكيك لأفكارهم الجامدة الموروثة[١].

* ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾:

والظَّن هنا بمعنى اليقين[٢]، وهذا أليق بالسياق، أي: أيقنا أننا لا يمكن أن نُعجز الله[٣].

والإعجاز هو نسبة العجز إلى الآخر، أعجزته، أي: جعلته يعجز[٤]، وهم يقولون: عرفنا أن الله لن يَعْجز عن أن يُنزل علينا العذاب أو يُهلكنا، ولن نخرج من الأرض إلى مكان آخر.

وهذا دليل على أن للجنِّ قدرة ليست للإنس في سرعة الحركة وحدودها، وهذا السياق يُشبه قوله سبحانه: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣]، أي: لا تستطيعون النفاذ، وهو يكون في الدنيا، كما في هذه الآية، ويكون في الآخرة على سبيل الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٩].

* ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾:

أي: لما سمعنا هذا القرآن من النبي ﷺ آمنا به، وكرَّروا الإيمان؛ تأكيدًا وفرحًا به واستبشارًا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٩٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٦٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٦٠١)، و«أضواء البيان» (٥/ ٢٨٣)، والمصادر السابقة.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: **البَّخْس**: النقص، فلا يبخسهم الله شيئًا من أعمالهم، **والرَّهَق**: المشقة، وذلك بأن يحمِّلهم ما لا يطيقون، فنفوا الأمرين: أن تنقص أعمالهم أو يحرموا ثواب طاعاتهم، أو أن يُزاد عليهم ما لا يُطيقون أو ما لم يعملوه من ذنوب غيرهم(١).

* ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾: رجعوا هنا ليقرِّروا أن منهم ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾، ومنهم ﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

والمسلم يُطلق على مَن آمن بالأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، **والقاسط** هنا من القَسط، بفتح القاف، **والقَسط**: الجَوْر، بخلاف **القِسط**- بكسر القاف- فهو العدل(٢).

والفرق بين المُقْسط، والقاسط: أن المُقْسط هو صاحب العدل، كما قال ﷺ: «**إنَّ المُقسِطِينَ عندَ الله على منابرَ من نور، عن يمين الرحمن** عَزَّوَجَلَّ»(٣). وهم الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما وَلُوا.

والقِسْط: الميزان(٤)، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩].

وأما القَسْط، فهو: الجَوْر أو الظُّلم أو الكفر(٥)، وقد ذكر الزمخشري، وغيره قصة سَعِيد بن جُبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الحَجَّاج، أنه كان يريد أن يقتله، فقال له الحَجَّاجُ:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦- ١٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩٢٣٦).

وينظر أيضًا: «مقاييس اللغة» (٥/ ٨٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٧٠)، و«تاج العروس» (٢٠/ ٢٤- ٢٨) «ق س ط».

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٨)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٤٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠).

(٥) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٥٣)، و«لسان العرب» (٧/ ٣٧٧- ٣٧٨) «ق س ط».

ما تقول فيَّ؟! فقال سَعِيد: قاسطٌ عادلٌ. فقال القومُ: ما أحسنَ ما قال! حسبوا أنه يصفه بالقِسْط والعدل، فقال الحَجَّاج: يا جهلةُ، إنه سماني ظالمًا مشركًا. وتلا لهم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾(١) [الأنعام: ١].

وفي قول الجنِّ هذا لفتٌ للأنظار إلى صفاء هذه النفوس التي سمعت القرآن لأول مرة، فأدركت نقاءه وصفاءه وعدله، وهذا يتطابق مع قول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والإسلام جاء بالعدل والإنصاف مع القريب والبعيد، والموافق والمخالف، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: الذين أسلموا منهم بحثوا وحاولوا واجتهدوا، وتلمَّسوا والتمسوا، حتى وصلوا إليه.

والتحرِّي: التدقيق في البحث(٢)، ومنه: تحرِّي رؤية الهلال، أي: ترقُّب الهلال في خروجه وعدمه، وتلمُّس مواضعه.

ومن معاني ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾: انتظروا وتوقَّعوا توفيقًا من الله تعالى، وجزاءً وشكورًا ونعمة في الجنة(٣).

* ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾:

وهذا من تمام كلام الجنِّ على القول الصحيح(٤)، وهو دليل على أنهم عرفوا

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٢/ ٦٧٠)، و«إرشاد الساري» (١٠/ ٤٨٢)، و«فيض القدير» (٢/ ٤٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٧١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٤٩٤)، و«لسان العرب» (١٤/ ١٧٤) «ح ر ا».

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٦).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٩)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤٠٤)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٤).

أن ثمة جنة ونارًا، لا سيما أنهم يعرفون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في حكاية الجنِّ في «سورة الأحقاف»[1].

أشاروا إلى أن هؤلاء الكافرين الذين استحقوا العقوبة والنار مثل الحطب يُلقون في جهنم إلقاءً[2]، كما قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

فهم وإن كانوا بشرًا في الدنيا، إلا أنهم كالخُشُب، كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، ومن ذلك قول القائل[3]:

ترى الفتيانَ كالنَّخْلِ، وما يدريكَ ما الدَّخْلُ

أي: قد ترى الإنسان بمظهره، ولا تدري ما مخبره:

تَرى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزدَريهِ ... وفي أَثوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ
ويُعجِبُكَ الطَّريرُ[4] فتبتَليهِ ... فيُخلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ
لَقَد عَظُمَ البَعيرُ بِغَيرِ لُبٍّ ... فَلَم يَستَغنِ بالعِظَمِ البَعيرُ[5]

والإنسان ليس بجسمه وقوته، ولا بماله، وإنما بصفاء قلبه وصدق نيته وعمله وإيمانه، كما كان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[6].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٧١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٧).

(٣) ينظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص١٣٠)، و«مجمع الأمثال» (١/ ١٣٧)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (٦/ ١٦٦).

(٤) الهَصُور: الشديد الذي يفترس، والطَّرير: ذو المنظر والهيئة الحسنة.

(٥) ينظر: «أمالي القالي» (١/ ٤٧)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ٢١)، و«التذكرة الحمدونية» (٦/ ٤١٠)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٢٤١) منسوبًا إلى عباس بن مرداس.

(٦) ينظر: «ترتيب الأمالي الخميسية» للشجري (١/ ١٧٧)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٠٦)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٧٤)، و«فيض القدير» (٤/ ١١٠).

* ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾:

هذا إنشاء من كلام الله، وليس على لسان الجنّ[1].

والطريقة هي الإسلام والإيمان، وهذا منقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسَعِيد ابن جُبير، وقتادة، ومجاهد، وجماعة من علماء التفسير واللغة[2].

والمعنى: أن الناس لو استقاموا على الإسلام وآمنوا بالله لسقاهم ماءً غدقًا.

والغَدَق: الكثير الطيب[3]، والمقصود هنا ليس الماء فقط، وإنما الخير كله، فالماء ما يكون تعبيرًا عن الرزق والنعمة[4].

وهذا المعنى مثل قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وهذا هو أحد معاني الآية الكريمة.

والاستقامة على الطريقة هي: الالتزام بأحكام الديانة وآدابها في النفس والمجتمع، فهي بمجموعها أساس بناء المجتمع السليم الرغيد، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فالصلة بالله صلاةً ودعاءً وتسبيحًا وذكرًا تورث التقوى، وتكون خير رقيب على السلوك، وتفعل فعلها داخل النفس بالراحة والسكينة والهدوء والأمل والصبر والتسامح وقوة الاحتمال، وهذه خلائق وصفات لا بد منها لنجاح الحياة واستمرار السير في الطريق الموصل للمقصود.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٢- ٢٤٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٠٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥٥- ٢٥٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨).

وهنا تلحظ أنه بعدما انتهى كلام الجنِّ في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، أنشأ كلامًا جديدًا، هو كالقاعدة الكونية القدرية التي يقرِّرها ربُّ البشر؛ وهي أن طاعته أساس الفلاح والنجاح في الدارين.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود: لو استقاموا على الكفر، وأجمعوا وأصروا عليه، لصببنا عليهم النعمة والرزق فتنة لهم، وهو منقول عن محمد بن كعب القُرَظي، وابن قُتيبة، وجماعة من علماء التفسير واللغة(١).

وزعم بعضهم أن الأمرين مقصودان معًا(٢)، وكأن المعنى: أن الناس لو اجتمعوا كلهم، أولهم وآخرهم؛ إنسهم وجِنّهم، على طريقة واحدة من إيمان أو كفر، لسقاهم الله تعالى ﴿مَّآءً غَدَقًا﴾، وهذا في الدنيا؛ وذلك لأنه قال: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وهم إما أن يكونوا مؤمنين، فيكون المقصود: لنختبرهم، فنعلم مَن يثبت منهم على الإيمان، ومَن لا يثبت، ومَن يشكر ومَن يكفر، وإما إن يكونوا كافرين، فيكون المعنى: حتى يملي لهم الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقد اقتضت حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يزال في هذه الدنيا البَر والفاجر، والمؤمن والكافر، وهذا سرٌّ من أسرار الابتلاء الإلهي، واختلاف الناس؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩]، ولو فرض أن الناس أجمعوا كلهم على طريقة من الطرق، إما إيمان أو كفر، هُدى أو ضلال، لسقاهم الله تعالى ماءً غدقًا، وبذلك يجتمع القولان المنقولان عن السلف في تفسير هذه الآية.

وهذا جيد، ولا يعكِّر عليه إلا لفظ: الاستقامة؛ فإنه أليق بالاستقامة على الخير والهُدى، ولم يرد في القرآن والسنة إلا كذلك، والله أعلم.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٣).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٩- ٣٠٠).

* ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾:

أي: حتى لو كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم، ثم مدَّ الله لهم في الرزق والعطاء والماء الغدق، فإن هذا فتنة لهم، ومَن يعرض منهم عن ذكر الله، فسوف يسلكه ربه عذابًا صَعَدًا، فلا ينفعه هذا الماء الغدق؛ لأن في قلبه من الشقاء والقلق والهمِّ والغمِّ والضيق ما يُنغِّص عليه لذاته، ويحرمه من النعيم، كما في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، فالعذاب الصَّعَد يشبه المعيشة الضنك، وهو متصل - والله أعلم - بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والصَّعَد: هو العذاب المتزايد المتصاعد(١)، فيشمل ذلك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ومنه قوله سبحانه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدثر: ١٧]، أي: عذابًا شديدًا مرهقًا شاقًّا عليه(٢)، وهو يزداد ولا ينقص: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧].

* ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾:

هذا خطاب للناس كلهم؛ إنسهم وجِنِّهم، **فالمساجد** هي بيوت الله، وهي مواضع الصلاة، ومنها المسجد الحرام الذي لم يكن يومئذ مسجد عامر يُصلَّى فيه إلا هو(٣)، وكان المشركون يجعلون فيه الأوثان، ويمنعون أهل الإيمان من الصلاة، فعاتبهم الله تعالى أن جعلوا هذه المساجد للأوثان، وأقاموا فيها النُّصُب،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٠).

فكان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

ويحتمل أن ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ هي أعضاء السجود[2]، فالمعنى: لا تسجدوا إلا لله، وقد جاء في الحديث: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ»[3]. وفيها إلماح إلى أن الأمر سيتسع وتكثر المساجد ويمكِّن اللهُ للمؤمنين.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا تسجدوا لغير الله[4]، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والمقصود هنا: إما العبادة؛ فـ«**الدعاءُ هو العبادةُ**»، كما في حديث النعمان ابن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[5]، أو يقصد الدعاء بخصوص الذي هو سؤال الله بقدرته تحصيل خير أو دفع شر مما هو ليس من شأن البشر، بل من شأن الخالق القدير الرحيم[6].

* ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾:

المقصود بـ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: محمد ﷺ[7]، وهنا لم يذكر اسمه ﷺ، وإنما سماه: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، واختار له هذا الاسم، كما اختاره له في «سورة الإسراء»، في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، وكما اختاره له في وقت تنزل الوحي عليه

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٨١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٥) أخرجه الطيالسي (٨٣٨)، وأحمد (١٨٣٨٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٠).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٧) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١١٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٢).

فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وهي تسمية تشريف(١).

ومـمَّـا زادنـي شَـرَفًـا وتيهًا ... وكِـدْتُ بأَخْمُصي أطَـأُ الثُّرَيَّا
دُخولي تحتَ قولك: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ ... وأن صيَّرتَ أحمدَ لي نبيًّا(٢)

وغاية العبودية: التحرر من سلطان النفس، فإذا عبد الإنسان ربه، فهو مَدِينٌ لهذا الإيمان بالتحرر من سلطة النفس والهوى والشهوة، فضلًا عن سلطة العباد.

والمعنى: أنه لما قام الرسول ﷺ يعبد الله سبحانه بالصلاة، كاد الكفار أن يكونون عليه لِبدًا، والمقصود: كفار قريش، حيث تألَّبوا عليه، على سبيل المضايقة والتهديد والتخويف(٣).

وهل اجتمعوا في مكان واحد، أم أن هذا حدث في مناسبات متفرقة، كما قال أبو جهل: هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ فقالوا: نعم. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. وجاء للنبي ﷺ يريد أن يطأ بعقبه على رأسه، فمنعه الله من ذلك وحجبه(٤).

ولعل الأمر أوسع من ذلك، فإن النبي ﷺ لما قام بما أمره به ربه، رمته العرب عن قوس واحدة، وتجمَّعوا في مواجهته.

واللِّبد: الشيء المتلبِّد المتجمِّع بعضه على بعض، ومنه: لِبْدة الأسد(٥).

وبعض المفسِّرين حملوا الآية على الجنِّ؛ بدلالة السياق والقصة(٦).

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾، وما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

(٢) ينظر: «نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض» (٤/ ١٣٢)، و«حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (ص٢٣٥) منسوبًا إلى القاضي عياض.

وذكر في «التحرير والتنوير» (٢٣/ ١١١) أنه يُنسب إلى الشافعي.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤١).

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٩٧)، وينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣٧)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٢- ٣٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨).

ويعزِّزه أنه في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم اقتربوا من النبي ﷺ، حتى كادوا يركب بعضهم بعضًا من كثرتهم[1].

والمعنى الأول أوسع وأقرب، ويؤيِّده ما يأتي بعده من إصراره على دعوته ورفض الشرك.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بتوحيده ولو رغمت أنوف المعاندين، ولو اجتمعوا على كيده والمكر به، فكل ذلك لا يجوز أن يصرفه عن دعوته.

* ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾:

فأنا لم آت حُوبًا ولا زورًا، وإنما عبدت الله تعالى وحده، ولم أشرك به أحدًا، وهذا ديني ودعوتي[2].

* ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾:

أمره أن يقول لهم هذه الحقيقة؛ ليعلموا حدود ما يستطيعه النبي ﷺ، وعليه فلا يجوز أن يُعبد أو أن يُدعى من دون الله.

والآية فيها ما يسميه العلماء بالاحْتِباك[3]، أي: الاختصار.

وكأن المعنى: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا ضلالًا ولا رَشَدًا؛ لأن الضرَّ يقابله النفع، والرَّشَد يقابله الضلال، فأتى بالطرفين وترك الوسط؛ لأنه معروف[4].

والمقصود هنا: أنه لا يملك لهم التوفيق والإلهام، وإنما يحملهم على ذلك بهداية الإرشاد والتبليغ؛ ولهذا قال له ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، فهو ﷺ يهدي بخُلُقِه وبلسانه وبعمله، كل ذلك هداية، لكن ليس بيده التوفيق أو الخذلان، أو الإلهام أو الحجب والحرمان، أو جعل الإيمان في

---

(١) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٩٩٦٨)، و«عيون الأثر» (١/ ١٥٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨)، و«الخصائص الكبرى» (١/ ٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٦).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الكافرون».

(٣) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٢)، و«الكليات» للكفوي (ص٥٧).

(٤) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٣٦)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٣).

قلوب الناس، وإنما هذا إلى الله.

* ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: لن يحميني من الله تعالى أحدٌ لو أراد تعذيبي أو إهلاكي[١]، فأنا عبده، فكيف بكم أنتم أيها المكذِّبون المتمرِّدون على ألوهيته؟

وفي الخطاب التنصل من الحول والطَّوْل والقوة، والتواضع لله، وبيان حقيقة النبوة والدعوة، وأنها ليست مكاسب أو انتفاعات أو مراكز أو استعلاء على الخلق.. فمَن يستطيع أن يقول مثل هذا القول إلا رسول الله؟!

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: الملتحد: الملجأ[٢]، ومنه اللَّحْد، وهو القبر الذي يهرب إليه الإنسان.

والمعنى: ليس ثمة أحد يجيرني من الله، ولا مكان أختبئ فيه، وكل شيء في قبضته وقدرته، والله تعالى يأمر نبيه أن يبيِّن للناس هذه الحقيقة، ومن قبل كان الجنُّ يقولون في حديثهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

* ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾:

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي: لا شيء ينفعني ويحميني، إلا أن أُبلغ رسالات ربي[٣]، فقوله: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: عن الله، كما قال النبي ﷺ: «**بلِّغُوا عنِّي، ولو آيةً**»[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٩)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٢٤٤)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٨٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٤٢١)، و«تاج العروس» (٩/ ١٣٦) «ل ح د».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: بلاغ رسالاته، بمعنى أن يُبلِّغ النبيُّ ﷺ رسالات ربه بنصوصها وحروفها؛ ولهذا قال له ربه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فالله يعصمك من الناس، والناس لا يعصمونك من الله، ولن يجيرك من الله أحد، ولن تجد من دونه ملتحدًا إلا بالبلاغ، فإذا بلَّغت فلا يضرك هؤلاء الذين كادوا يكونون عليك لبدًا، فالله يحميك منهم ويصرف عنك كيدهم.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: ومن المعصية: رفض التبليغ عن الله، ورفض رسالته ودعوته أصلًا، ولعله المقصود هنا بقرينة السياق، وبضميمة ما بعده[1].

وليس المقصود مطلق المعصية[2]؛ فإنما يُتوعد بالخلود الأبدي في نار جهنم الكفار الذين ردُّوا دعوة الرسل والأنبياء، وأصرُّوا على الكفر والشرك، وأما عصاة المؤمنين ممن يقع منهم ما يقع من الذنوب أو الكبائر التي هي دون الشرك، فهم تحت المشيئة، إن شاء الله عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا متواتر في النصوص، وظاهر في سياقات القرآن الكريم والسنة النبوية[3]، وعليه إجماع الأمة[4].

* ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾: لم يحدِّد السياق ما الذي يوعدون، بل ترك المعنى مفتوحًا، فهل هو ما يوعدون من الخيبة والهزيمة في الدنيا، كما حصل لهم يوم بدر؟ أو هو ما يوعدون عند النَّزْع والاحتضار؟ أو هو ما يوعدون في الدار الآخرة؟

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٣٧٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦- ٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٠٣)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣٠٤، ٧٤٣٩، ٧٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٣- ١٩٩).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٠٩).

أو هو كل ذلك[1]؟

وقد كانوا دائمًا يتعزَّزون بعددهم وقوّتهم، أو بأنصارهم وحلفائهم، فالله سبحانه يؤكِّد لهم: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

ولم يبيِّن مَن هو «الأضعف»، ومعروف من السياق أن المشركين الظالمين سيكونون هم الأضعف ناصرًا والأقل عددًا، كما قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ١٠].

والناصر: الحليف أو المعين المساعد[2]، فسيكون ضعيفًا، وهي إشارة تعني أن لا ناصر لهم مطلقًا، كما في آية «سورة الطارق»[3]، حتى الشيطان يتبرأ منهم في ذلك الموقف[4]، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويتخلّى القوي عن الضعيف، والضعيف عن القوي.

أما الأقل عددًا، فالمقصود عديدهم الذاتي، فهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ [القمر: ٤٤]، أي: عدد كبير مجتمعون، غالبون فائزون، مستنصرون بحلفائنا وأعواننا[5].

* ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥﴾:

وهذا من تعليم الله لنبيه ﷺ أن يعلن لهم أنه لا يدري: أقريب ما يوعدون أم لا؟! فـ﴿إِنْ﴾ هنا نافية[6].

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٥٠)، و«لسان العرب» (٥/ ٢١٠)، و«تاج العروس» (١٤/ ٢٢٣).

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨١).

(٦) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٠).

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي: مسافة طويلة، والأَمَد مقابل القريب، أي: أمدًا طويلًا أو بعيدًا[1]، كما حكى الله على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]، وفي الآيات الأخرى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، فهذه كلها سياقات يُعزِّز بعضها بعضًا، ويوضِّح بعضها بعضًا، وكل سياق منها يُحمل على المناسب له، يكون المقصود النظر إلى مقاييسهم هم، فقد كانوا يستبعدون هذه الأشياء، ولو وُعدوا بها في الآخرة لرأوا أن الآخرة شأنها بعيد وأنها مؤجَّلة؛ ولهذا لا يهمهم كثيرًا أن يوعدوا بشيء في الآخرة في وقت كفرهم.

ولذا جعل الأمر محتملًا؛ فقد يصيبكم شيء قريب، وقد يكون مفاجئًا، كما في يوم بدر وما بعده، وفيه إظهار البراءة من هذا الأمر، وأنه إلى الله تعالى، فإن النبي ﷺ وهو بمكة محارَب مطارَد مؤذًى، وأصحابه يُقتلون ويُعذَّبون، ومع ذلك ينزل عليه ﷺ هذا الوحي، فيعلم أنه لا يُنجِّيه إلا البلاغ عن الله وتبليغ رسالاته، فيبلِّغ هذا الوحي كما أُنزل إليه، مهما كانت الوقائع، ومن ذلك أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾، ويقول: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

فحين يعلن أنه لا يدري إن كان موعودهم قريبًا أم بعيدًا كما هنا، وكما في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، فقد يكون المقصود: أجل كل فرد منهم بعينه؛ لأنهم يستعجلون العقاب العام، فأشار إلى أن كل فرد منهم له أجله المضروب، فإذا جاء أجله قامت قيامته.

وهذا أولى من القول بأنه لم يكن يدري ثم تجدَّدت له المعرفة بذلك فيما

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٧).

بعد، والله أعلم.

والمهم أنَّ الله يلقِّنه لفظ: «لا أدري» كما ألهم الجنَّ أن يقولوا: ﴿لَا نَدْرِيٓ﴾، وهو درس بليغ لكل داعية وكل متعلِّم أَلَّا يستحي من قول: «لا أدري»، ولا يظنَّ أن جاهه ينكسر أو مكانته تتراجع، أو أن أتباعه ينتقصونه، و«مَن ترك لا أدري أصيبت مَقَاتِلُهُ»(١).

وتكرر لفظ ﴿رَبِّيٓ﴾؛ إشارة إلى إن الله تعالى يحفظه، وهو الذي يحميه وينجيه وينصر دعوته، وهو الذي يجيره، وقد كان النبيُّ ﷺ يقول في صلاته: «اللهمَّ أعوذُ برضاك من سخطكَ، وبمعافاتكَ من عقوبتكَ، وأعوذُ بك منكَ، لا أحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»(٢).

فما دام الله حافظه وحاميه، فلا يبالي ما وراء ذلك، ولو اجتمع الناس عليه.

* ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾:

أي: هو وحده ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، فلا يعلم الغيب إلا هو.

و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ هو ما يقابل الشهادة، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هي: ما تراه العيون أو تحسه الحواس، و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما وراء الحس، سواءً كان من عالم الآخرة، أو كان من عالم الملائكة، أو كان ماضيًا مما لا يعلمه الناس... أو نحو ذلك مما لا سبيل للناس إلى معرفته بوسائل المعرفة التي منحهم الله(٣).

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، وهذا له علاقة باستراق الجنِّ للسمع، والكهنة والعرَّافين الذين كانوا يأخذون «الكلمة» ويضيفون إليها مائة كذبة(٤).

---

(١) ينظر: «أخلاق العلماء» للآجري (ص١١٦)، و«حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾.

(٤) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في «صحيح البخاري» (٣٢١٠): «إنَّ الملائكةَ تنزلُ في العَنَان- وهو: السحاب- فتذكرُ الأمرَ قُضِي في السماء، فتَسْتَرِقُ الشياطينُ السَّمْعَ فتسمعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبونَ معها مائةَ كَذْبة من عند أنفسهم».

فهو وحده الذي يعلم الأجل المضروب لكم، وهل هو قريب أو بعيد؟

* ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: استثناء، فهو يستثني الرُّسل الذين ارتضاهم الله، وفي ذلك إشارة إلى أن الرُّسل إنما كانوا لأن الله ارتضاهم واختارهم واصطفاهم، ويشمل ذلك الرسول البشري؛ كالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والرسول الملائكي الذي ينزل بالوحي؛ كجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهؤلاء ارتضاهم الله تعالى وأطلعهم على شيء من غيبه، وهناك من ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ما لا يعلمه إلا الله.

والأَوْلَى أخذ الآية بعمومها، خلافًا لما مال إليه الفخر الرازي، فإنه ذكر أن المقصود بقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: الساعة. واحتج بأن من الناس من قد يعلم شيئًا من الغيب(١).

وهذا غلط؛ فهذه من الآيات التي يجب أن تُؤخذ على عمومها وإطلاقها، إلا في المقامات التي ورد فيها الاستثناء.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: أن هذا الرسول البشري أو الملائكي سوف يحيطه الله بحرس من أمامه ومن خلفه أشداء أقوياء أن ينالهم أحد بشيء.

ومن ذلك أن الله إذا أراد أن يُظْهِر أحدًا منهم على شيء من غيبه بالمعاينة، جعل معه ﴿رَصَدًا﴾ أمامه وخلفه، كما جرى للنبي ﷺ يوم الإسراء والمعراج.

ومن ذلك أن الله حين يختار ويرتضي أحدًا ليكون رسولًا، فإنه يجعل عليه حَفَظَةً وحَرَسًا يحمونه لأداء المهمة التي أُنيطت به(٢).

* ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾:

من الإعجاز أنه لم يذكر مَن هو الفاعل الذي يُراد أن يعلم، وفي بعض

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٩).

القراءات: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بضم الياء[1]؛ فيشمل كل مَن يصح أن يُسند إليه الفعل، فيصدق هذا الكلام على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ليعلم الله عَزَّوَجَلَّ، وهو العالم، ولكن ليتحقَّق علمه بواقع الحياة، وهذا كثير في القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٦- ١٦٧]، فالله تعالى يعلم كل شيء، لكن ليتحقَّق علمه في الأرض.

وليعلم الرسل ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فالنبيُّ محمد ﷺ لما يرى الملائكة والرَّصَد يدري أنه هو المختار، وأنهم قد أُرسلوا إليه دون غيره، وأُرسلوا بهذا، فالأمر فيه ضبط وتوثيق وإحكام، فيعلم النبي ﷺ بذلك.

وكذلك ليعلم الرَّصَدُ بأن الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم، وكأنهم شهود على الأداء يوافون بشهادتهم يوم القيامة[2].

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: الله تعالى، فإنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٤].

فالوحي محاط بسِياج، لا يقتحمه إلا مَن شاء الله، وفي حدود معينة، أما ما يتعلَّق بما يمكن معرفته بالوسائل الطبيعية؛ كالفهم أو القياس أو الإدراك، أو بالوسائل الروحية؛ كالرُّؤْيا الصالحة والتفرُّس، فهذا ممكن، وهو باب آخر، والنبيُّ ﷺ عَدَّ الرُّؤْيا من المبشِّرات ومما بقي من آثار النبوة[3].

لكن هذه لا يُقطع بها، وإنما هي من باب التوقع والالتماس، وكذلك الإلهام

---

(١) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص٤٤٩)، و«الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٩٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٢)، و«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٥٦٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٣٣).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٦// ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٩٨٣، ٦٩٨٧، ٦٩٨٨، ٧٠١٧)، و«صحيح مسلم» (٢٢٦٣، ٢٢٦٤).

والتحديث، كما قال ﷺ: «قد كان في الأمم قبلكم محدَّثونَ[1]؛ فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ، فإن عمرَ ابنَ الخطاب منهم»[2].

فقد يقع لأحد أن يظنَّ الشيء فيكون كما ظنَّ وتوقَّع، كما حدث لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]، وهو يَحْدُثُ لأصناف من الناس، وقد يقع هذا بسبب فرط الذكاء، وشدة الخبرة، وحِدَّة العقل والتجربة، فالإنسان ربما يتوقع بعض الأشياء توقعًا يقرب من اليقين، وهذا كله ليس من الاطلاع على علم الغيب؛ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله أو مَن أطلعه الله تعالى على شيء منه لحكمة يعلمها.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ والإحصاء متصل بالعدد، كما قال سبحانه: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٤- ٩٥].

فقررت الآية شمول العلم الإلهي، وإحاطته بكل شيء، وإحصاءه كل شيء، وهل يمكن أن يقال- أخذًا بظاهر الآية-: إن الماديات كلها عبارة عن أعداد؟ الله أعلم.

○ ○ ○

---

(١) بفتح الدال، جمع: محدَّث، واختُلف في تأويله؛ فقال بعضهم: هو الملهَم، قاله الأكثر، وقيل: مَن يجري الصواب على لسانه بغير قصد، وقيل غير ذلك. ينظر: «تصحيفات المحدِّثين» (١/ ٢٦٧)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «علل الدارقطني» (٩/ ٣١٣)، (١٤/ ٣١٠)، و«الإلزامات والتتبع» (ص١٢٤- ١٢٦)، و«هدي الساري» (ص٣٦٤- ٣٦٥)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٠٢) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وافقت ربي في ثلاث: فقلتُ: يا رسولَ الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وآية الحجاب، قلتُ: يا رسولَ الله، لو أمرتَ نساءك أن يحتجبن؛ فإنه يكلمهن البرُّ والفاجرُ. فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساءُ النبي ﷺ في الغَيْرة عليه، فقلتُ لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت هذه الآية».

سُورَةُ المُزَّمِّل

* **تسمية السورة:**

تسمَّى: «سورة ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾»، أو: «سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾»، كما في كتب التفسير، والحديث، والمصاحف[1].

* **عدد آياتها:** عشرون آية، **وقيل:** ثماني عشرة، **وقيل:** تسع عشرة[2].

* **وهي مكية** في أولها، مدنيةٌ في آخرها، على اختيار ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وجمهور المفسرين[3].

وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي نسخ آخرها أولها، ففي أولها قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، فأمر الله نبيَّه ﷺ بالقيام، وفي آخرها قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، فنسخ ما كان في أولها من وجوب القيام على المسلمين، وصار تطوعًا ونافلة[4].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 356)، و«صحيح البخاري» (6/ 161)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 315)، و«تفسير الطبري» (23/ 357)، و«المستدرك» (2/ 504)، و«تفسير القرطبي» (19/ 31)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 249)، و«التحرير والتنوير» (29/ 252).

(2) وقد اختلفوا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ [المزمل: 15]، وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾، وقوله: ﴿ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص257).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 386)، و«تفسير القرطبي» (19/ 31)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 500)، و«التحرير والتنوير» (29/ 252).

(4) ينظر: «زاد المسير» (4/ 353)، و«تفسير القرطبي» (19/ 35)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 259)، و«اللباب في علوم الكتاب» (19/ 453)، و«التحرير والتنوير» (29/ 278).

وهي سورةٌ عظيمة من أوائل سور القرآن نزولًا(١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾:

وفي السورة التالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾، وبعض أهل العلم يقولون: هذه أسماء للرسول ﷺ، والأكثرون أنها ليست أسماء(٢)، ولكنها أوصاف خُوطب بها بحكم الحال التي كان عليها، والنبيُّ ﷺ يقول: «**لي خمسةُ أسماء: أنا محمدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحِي الذي يمحُو اللهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحشرُ الناسُ على قدَمِي، وأنا العاقبُ**»(٣).

وفي ذلك نوع من التلطف معه ﷺ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ حينما يُخاطبه ويبيِّن الحال التي هو عليها أثناء الخطاب، ففي ذلك احتفاء به وإكرام وملاطفة(٤).

وكان ﷺ يفعل ذلك أحيانًا مع بعض أصحابه، كما في قصته مع علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما لم يجده في بيته وذهب يبحث عنه، فوجده نائمًا في المسجد، وقد أثَّر التراب في جنبه؛ فقال له النبيُّ ﷺ: «**قُمْ أبا التُّراب، قُمْ أبا التُّراب**»(٥).

وقد كانت هذه الكنية أحب إلى عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من غيرها؛ لأن النبي ﷺ هو الذي كنَّاه بها(٦).

والمقصود بالتزمُّل: التحاف الإنسان بما يغطِّيه لنوم أو لغير ذلك(٧).

---

(١) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٩٣)، و«الإتقان» (١/ ٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جُبير بن مُطْعِم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٠٣، ٦٢٠٤)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٦) ينظر المصادر السابقة.

(٧) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٨).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٣)، و«تاج العروس» (٢٩/ ١٣٨) «ز م ل».

وقد ورد أنه كان متزمِّلًا برداءٍ أو لحافٍ أو قطيفة لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١]، فهو قريب في المعنى من قوله: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وبينهما فرق لطيف[٢].

والذي يظهر - والله أعلم- أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ يتعلق بالنِّذارة والدعوة ومخاطبة الناس، وقد أعقبها بمجموعة وصايا: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ - ٧]، فكان صدر هذه السورة متعلِّقًا بالنِّذارة، وهذا يناسبه موضوع التدثُّر أو الدِّثار؛ لأن الدِّثار يُطلق على الثوب الذي يراه الناس على الإنسان بخلاف الشِّعار[٣].

والدِّثار غالبًا يُلبس للدفء عند النوم، وهو مناسب للأمر بـ﴿قُمْ﴾، فهي دعوة إلى اليقظة وتحمل مسؤولية الدعوة.

ويُروى أن النبيَّ ﷺ بلغه أن قريشًا اجتمعوا يتشاورون بم يصفونه؛ بالشاعر، أو الساحر، أو الكاهن، أو المجنون، فاغتم لذلك، ونزلت الآية[٤].

لقد كانت حملة قاسية ظالمة لرجل لم يتعوَّد أن يُقال فيه مثل هذا؛ ولذا كان وقعها شديدًا عليه، ولكن الله جمَّله بـالصبر، وأمره بالاحتمال، ووعده بالعاقبة.

أما ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فالسياق كان بصدد عبودية النبي ﷺ لربه، وتلقِّيه للوحي، وصبره عليه، واحتماله له، وقيامه بتكاليف ذلك مما فيه مشقة وثقل، فكان مناسبًا لذلك التعبير بـ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؛ لأن فيه معنى الحِمْل[٥]، وهذا معروف حتى في العامية الدارجة، فالمزمول: المحمول، وفلان يزمل للدراسة أو للعمل أو لمواجهة الناس أو للسفر.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨١)، والمصادر السابقة.

(٢) الفرق بينهما في الاشتقاق. ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٦٥٥)، و«النهاية» (٢/ ١٠٠)، و«المصباح المنير» «د ث ر» (١/ ١٨٩).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥- ٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٦).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨١).

وبعضهم يقول: إن الفعل: زمل، مهجور غير مستعمل[1]، أي: يقلق ويهتم ويتحمل عناء بسببه، ففيه تحمل، وهذا مناسب لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، ولذا أمره هنا بالقيام والصلاة؛ لأنها خير عون على هذا الحمل.

جاء في «الصحيح» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النبيُّ ﷺ يأتي حِرَاءَ فيتحنَّثُ فيه- وهو التعبد- اللياليَ ذوات العدد...». فقبل أن يُوحى إليه ﷺ ألهمه ربه حُبَّ الخلوة، فكان يذهب الليالي ذوات العدد إلى غار حراء، بعيدًا عن الناس، يتعبَّد، حتى فاجأه المَلَك وهو بالغار، قال الله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، لم يكن ينتظر وحيًا، ولا يترقَّب أحدًا يطرقه؛ ولذا فوجئ وهو في الغار بالمَلَك يأتيه على حين غِرَّة[2]، ويتوجَّه إليه في لحظة لا أنيس معه فيها، ولا يستطيع أحد أن يدفع عنه.. مخلوق عظيم غير مألوف الهيئة يطرقه ويضمه ويعصره حتى يُجهد، ثم يرسله ويقول له بلغة الآمر: ﴿اقْرَأْ﴾. ثم يأخذه ويقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، فأصاب النبيَّ ﷺ من ذلك همٌّ وغمٌّ ورعبٌ وفزع؛ لأنه لم يكن يترقب ذلك، وكان أحب الناس وأقربهم إليه زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي موضع سرِّه وأمانه، فجاءها فزعًا يقول: «زَمِّلُوني زَمِّلُوني»[3]. فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١]، ثم نزلت بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١﴾.

وقد كان نزول السورتين قريبًا في الزمن، وإذا كانت ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ ثاني سورة بعد ﴿اقْرَأْ﴾، فـ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ هي الثالثة أو الرابعة، ولا يعني ذلك أن السورة كلها نزلت جميعًا، وإنما المقصود صدرها.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٣٦- ٢٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٣٠١- ٣٠٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٤٧)، و«الشفا» (٢/ ١٠٢)، و«تاريخ دمشق» (٦٣/ ١٢)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٩)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ①﴾ مثلما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾، لكن القيام هنا مختلف؛ لأن القيام في ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ للنِّذارة والدعوة، وأما في ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ فالمعنى: صَلِّ لربك، و﴿قُمْ﴾ فعل لازم ليس له مفعول؛ ولهذا قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾، فـ﴿اللَّيْلَ﴾ منصوب على الظرفية[1]؛ لأنه محل القيام، فيأمره ربه أن يقوم.

وقد يجوز أن يكون ﷺ وقتها كان مضطجعًا على فراشه أو على فراش خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ملتفًّا باللِّحاف، فالجو بارد، والخوف يزيد الإنسان قشعريرةً وانتفاضًا، والنبي ﷺ قلق من هذا الأمر الطارئ في حياته.

* ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾:

لم يأمره ربه أن يقوم الليل كله، وكان النبيُّ ﷺ لا يقوم الليل كله، إلا في العَشْر الأواخر من رمضان، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان إذا دخل العَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأَحْيا ليلَهُ، وأَيْقَظَ أهلَهُ»[2].

وكان ﷺ في سائر أيامه يصلِّي وينام؛ كما في «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألونَ عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا، كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر! قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا. وقال آخرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطرُ. وقال آخرُ: أنا أعتزلُ النساءَ، فلا أتزوجُ أبدًا. فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم، فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله، لكني أصومُ وأُفْطِرُ، وأصلِّي وأَرْقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغبَ عن سنتي فليسَ منِّي»**[3].

فخيَّره الله سبحانه بين أن يقوم نصف الليل أو يَنقص منه قليلًا؛ فيقوم ثلث الليل، أو يزيد على الثلث قليلًا؛ فيقوم ثلثي الليل، وينام ثلثه.

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٧٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٠١).

* ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾:

﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾: يجوز أن يكون هذا هو القليل، أي: نم قليلًا هو النصف أو أقل من النصف بقليل أو أكثر من النصف بقليل.

ويجوز أن يكون المعنى: قم الليل، قم نصفه أو أقل من النصف بقليل أو أكثر من النصف بقليل. والمؤدَّى واحد، والمقصود بيان أن الآية الثانية والثالثة تعود إلى ﴿ٱلَّيْلَ﴾ الذي يُقام، أو إلى ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ الذي ينام[1].

* ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾:

عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل، ولذلك لم يقيِّد ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ بمثل ما قيَّد به النقص بقوله: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾؛ لتكون الزيادة على النصف متَّسعةً[2]، وقد ورد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقلتُ له: يا رسولَ الله، أتصنعُ هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»[3].

والتخيير المستفاد من حرف ﴿أَوْ﴾ منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر؛ لأن لذلك ارتباطًا بسعة النهار للعمل، ولأخذ الحظ الفائت من النوم.

وفي ذلك توسيع على النبي ﷺ برفع حرج تحديده لزمن القيام، فسُلك به مسلك التقريب.

وأمره سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ مع أنه لم يكن قد نزل عليه من القرآن إلا سورة أو سورتان أو ثلاث، وهي: ﴿ٱقْرَأْ﴾، و﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، و﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، و﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ولم تكن هذه السور قد نزلت كاملة؛ لأن بعض السور- كهذه السورة- لم ينزل آخرها إلا في المدينة[4]، فالمراد إذًا: رتِّل ما أُنزل عليك

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٦٣٦- ٦٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٦)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٤) كما تقدم في أول السورة.

من القرآن، وما سوف ينزل[1].

والترتيل: حسن التلاوة بإرسال الكلام من الفم بسهولة واستقامة[2].

وأصله من: الرَّتَل، يقال: جاء القوم أرتالًا، أي: مجموعة بعد أخرى، ومنه: رتل الأسنان، وهو أن يكون بين كل سن والتي تليها فراغ[3]، وهذا نوع من الجَمَال، حتى إن بعض الناس يتكلَّفونه، وهو ما نهى عنه النبيُّ ﷺ[4].

والمقصود: أن تقرأ القرآن بتدبُّر وترسُّل، وكان ﷺ يقرأ القرآن بتدبر، كما في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن قراءةَ النبي ﷺ كانت مفصَّلة حرفًا حرفًا[5].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سُئل عن قراءة النبي ﷺ، فقال: «كانت مَدًّا». ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، يمدُّ ﴿اللَّهِ﴾، ويمدُّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، ويمدُّ ﴿الرَّحِيمِ﴾[6].

ولما قال رجلٌ لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنني قرأتُ المفصَّل البارحة. قال له: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعر!»[7].

وكان من عادة العرب السرعة في إلقاء الشِّعر، وكما تلحظون اليوم أن كثيرًا ممن يلقون الشِّعر يهذُّونه هذًّا؛ إظهارًا لإتقان الحفظ، أو سرعته البديهية بارتجال الشِّعر، لكن القرآن ليس كهيئة الشِّعر، فهو كتاب للتدبر، وكتاب لحياة الأمم؛ فحقه أن يرتل ترتيلًا، دون عجلة ولا تسرع.

والترتيل يعني أيضًا: تدبر القرآن، والوقوف عند آياته، وترديد بعضها[8]، وقد قام النبيُّ ﷺ ليلةً حتى أصبح بآية واحدة يردِّدها ويبكي؛ وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٤١)، و«لسان العرب» (٢٩/ ٣٢) «ر ت ل».

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٠).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٩٣١)، و«صحيح مسلم» (٢١٢٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٥٢٦)، وأبو داود (١٤٦٦)، والترمذي (٢٩٢٣)، والنسائي (٢/ ١٨١)، وابن خزيمة (١١٥٨)، والحاكم (١/ ٢٣٢، ٣٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٤٦).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢).

(٨) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩).

عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1] [المائدة: ١١٨].

وأكثر المسلمين اليوم غافلون عن قراءة القرآن إلا في المناسبات والمآتم؛ يجتمعون حول قارئ حسن الصوت تنشغل أسماعهم بالاستمتاع بجمال الصوت، متشاغلين بذلك عن تدبره والخشوع عند تلاوته.

وكثير ممن يقرؤون يغلب على قراءتهم الحَذْر الشديد الذي يفوت معه التدبر؛ استعجالًا لختم القرآن، كما في رمضان، وكم من القرّاء يقرأ بترتيل وتجويد ويقف عند معاني الآيات ويعرض قلبه وسلوكه وحياته عليها؟!

وهذه الآيات أخذ منها جماعة أن الله تعالى أوجب على نبيه ﷺ قيام الليل؛ ليكون زادًا في طريقه ودعوته[2].

ويحتمل أن يكون حكم ذلك صار إلى الاستحباب؛ لقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[3] [الإسراء: ٧٩].

وهذا لا فائدة من بحثه الآن؛ لأن النبيَّ ﷺ إلى أن لقي ربه كان يقوم أكثر الليل، ولا يترك قيام الليل إلا لعارضٍ من مرضٍ أو غلبة نوم أو نحو ذلك.

قال كثير من أهل العلم: كان المؤمنون مخاطبين بقيام الليل، وقد أوجب عليهم سنةً أو أكثر، ثم خفّف عنهم بعد ذلك، وقيل: نزل التخفيف بالمدينة[4].

والأقرب أن الأمر بالنسبة للمؤمنين كان استحبابًا[5]، ولم يكن واجبًا عليهم شيء قبل الصلاة المكتوبة، إلا ركعتان قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، كما نُقل

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٢٨، ٢١٣٨٨، ٢١٤٩٥)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٤٨)، والنسائي (٢/ ١٧٧)، والحاكم (١/ ٢٤١)، والبيهقي (٣/ ٢٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال ابن خزيمة (١/ ٢٧١): «إن صح الخبر». وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٥٣٤ - ٥٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٨).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٤)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٩).

في كتب السير[١]، فلم يكن قيام الليل واجبًا عليهم وجوبًا متعينًا، وإن قال بهذا بعض أهل العلم.

* ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾:

وكأن هذا تعليل لأمره له بالقيام الطويل، وأن يصفَّ قدميه ثلث الليل أو نصف الليل أو ثلثيه يخاطب ربه ويرتِّل القرآن.

والإلقاء يستخدم في الكلام، فتقول: ألقى محاضرةً أو خطبةً أو قصيدة، لكنه في الأصل يعني: إلقاء الشيء الثقيل، كأن تقول: ألقى حجرًا أو حملًا بشِدَّة وقوّة[٢]، فهو إشارة إلى القول الثقيل، والمقصود: الوحي الموجَّه إلى النبي ﷺ[٣]، وسماه تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ **بالنظر إلى أمور:**

١- ثقل استقباله على النبي ﷺ، كما جاء في قصة بدء الوحي، حين جاءه المَلَك فقال له: «اقرأ. قال: ما أنا بقارئ». فأخذه وغطَّه حتى بلغ منه الجَهْد[٤].

وكان النبي ﷺ يعاني من التنزيل شدة؛ حتى إنه ربما نزل عليه الوحي وهو على الناقة، فبركت حتى يفرغ الوحي[٥].

وربما نزل عليه الوحي- كما تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- في اليوم الشديد البرد، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينهُ ليتفصَّدُ عرقًا مثل الجُمَان[٦]، أي: مثل حبات اللؤلؤ من جبينه ﷺ.

وثبت أن الوحي نزل عليه مرةً وفخذه على فخذ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى كادت ترضُّها من ثقلها[٧].

---

(١) ينظر: «الروض الأنف» (٢/ ٢٨٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٢٩٨).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٤٥)، و«بصائر ذوي التميز» (٤/ ٤٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦١).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم تخريجه عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١﴾.

(٥) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٧/ ٥٣).

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (٢، ٢٦٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠).

(٧) أخرجه البخاري (٢٨٣٢) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وترضّها: تدقّها.

إن الوحي اتصال بالملأ الأعلى، واستقبال رسالة من عند الله تبارك وتعالى؛ ولهذا كان له ثقل على جسد النبي ﷺ، فهو قولٌ ثقيل.

٢- وهو قول ثقيل باعتبار أن النبي ﷺ مطالب بأن يقرأه ويحفظه، وأن يُبلِّغه إلى الناس؛ ولذلك كان جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا قرأ القرآن على النبي ﷺ حرَّك النبيُّ ﷺ شفتيه؛ خشية أن ينسى شيئًا[1]، ثم نُهي عن ذلك، وقال الله تعالى له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٧].

٣- وهو ثقيل باعتبار تبعاته من الأوامر والنواهي والتكليف، والأمر بالدعوة والبلاغ وإقامة الحجة وتبليغ الدعوة والصبر على الناس، وما يتوجب عليه من الالتزام بهذا القرآن والعمل به.

٤- وهو ثقيل باعتباره قولًا فصلًا ليس بالهزل، ثقيل المقدار والقيمة، وأنت تقول: هذا كلامٌ ثقيل. وتقصد أنه ليس كلام سفسطة ولا سفاسف، وإنما له وزن وقيمة، وهكذا القرآن فيه لبُّ العلم والمعرفة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

٥- وهو ثقيل بمعنى أنه ثابت لا يتغير، فهو ثابت ثبوت الجبال الثِّقال الراسيات، فالقرآن مُحْكَم كله، وإن كان فيه المتشابه، كما قال الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١].

٦- وهو قولٌ ثقيلٌ من جهة أنه باقٍ عصي على محاولات التحريف والتبديل التي يحاولها أقوام إلى اليوم، فيبقى القرآن ثقيلًا في رسوخه وثباته، وتذهب كل هذه المحاولات أدراج الرياح.

٧- وهو ثقيلٌ في الميزان عند الله تعالى يوم القيامة، وثقيل في الأجر والثواب، سواء في تلاوته أو العمل به، فمَن قرأه فله بكل حرف عشر حسنات[2]. وكذلك هو حجة للعامل به، كما قال النبي ﷺ: «والقرآنُ حجةٌ لك أو عليكَ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٤)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في «جامع الترمذي» (٢٩١٠)، و«المستدرك» (١/ ٥٥٤)، و«شعب الإيمان» (١٨٣١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٦٠، ٣٣٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أخذ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية أن تكاليف الدِّين كلها ثقيلة، وقد سُئل عن مسألة، فقال: «لا أدري». فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب، وقال: «ليس في العلم شيءٌ خفيفٌ، أما سمعتَ قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يسأل عنه يومَ القيامة»[1].

وكيف نوفِّق بين هذا، وبين قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]؟

الجواب: أنه ثقيلٌ باعتبار، وميسَّر باعتبار آخر، وهو ثقيلٌ على قوم لم يرد الله لهم الهداية، وميسَّر على مَن أراد الله تعالى أن يفتح على قلوبهم.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم**»[2]. فوصفها بأنها ثقيلة وأنها خفيفة، فهي ثقيلة باعتبار أجرها، وخفيفة باعتبار سهولة نطقها وقصرها، وأنت تجد هذا في القرآن؛ فهو ميسَّر للحفظ، يحفظه صغار الأعاجم، مع أنهم لا يحسنون العربية، ومن الناس مَن يعجز عن الحفظ، لكن تجد عنده سلاسة في قراءة القرآن.

ومن تيسيره: وضوح معانيه في معظم آياته، وسهولة أوامره وأحكامه؛ لموافقتها للفطرة، ووضعها الآصار والأغلال عن المكلَّفين.

ومن تيسيره: أن عقائده لا تعقيد فيها ولا غموض، فيسهل على كل أحد أن يفهم التوحيد وأصول الإيمان.

* ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾:

﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ هي: أوقات الليل المختلفة، وهذا مذهب الأكثرين[3].

---

(١) ينظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٤- ١٨٥)، و«أدب المفتي والمستفتي» (ص٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٦٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٢).

وقيل: المقصود: صلاة الليل[1]، والناشئة هي التي تنشأ، يقال: أنشأ الشيء: إذا ابتدأه[2]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾ [الواقعة: ٣٥]، فـ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ هي أوقات الليل المتنوعة.

ويحتمل أنها القيام بعد النوم، فيكون ذلك مخصوصًا بأن يستيقظ بعد نومه.

والقول الأول هو مذهب الأكثرين، واختاره مالك وغيره[3]، فيكون المقصود: أن الصلاة في أوقات الليل كلها وإنشاء الذكر والعبادة فيها أفضل من النهار؛ لأنها أشد كُلفة وتعبًا؛ فالوطء والمواطأة معناها: التعب، تقول: وَطِئه التعبُ، ووطئه الأمرُ، إذا شقَّ عليه وكلَّفه، وقيام الليل فيه تعب وعناء، فالنفوس تخلد في الليل إلى الراحة، والنوم يداعب الأجفان، فمقاومة ذلك والقيام لله تعالى فيه وطء على النفس وشدة.

ومن معانيها: أنها أشد أثرًا في النفس، ومنه آثار المواطئ أو آثار الأقدام في الأرض[4]، فكأن قلب الإنسان مثل الأرض، وقيامه في الليل كآثار الماشين والعابرين على هذه الأرض، يترك وَسْمًا وعلامة لا تُنسى، ويظل الإنسان يحنُّ إلى هذه الأوقات التي يخلو بها بربه ويناجيه، وهي أبعد عن أعين الناس وأسلم من الرِّياء، وهذا يجعلها ثقيلة عند قوم ومؤثِّرة[5].

أما كونها ثقيلة؛ فلأن من الناس مَن قد يقوم بالعبادة؛ ليُذكر بها، فيفعلها رِياءً، ومن الناس مَن يستسهل العبادة إذا كان مع الآخرين؛ ولهذا شرع الإسلام صلاة

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٩).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٢).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٢- ٢٦٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٧٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ١٥١٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

الجماعة؛ لأن الإنسان ينشط فيها ما لا ينشط إذا كان منفردًا، فهذا يجعلها شاقة، ولكنه يجعل أثرها أعظم؛ لأن المصلِّي يخلو بربه ويخاطبه ويناجيه، وربما بكى أو دمعت عينه أو استحضر معنى آية وهو يدري أن لا أحد يسمعه ويراه إلا الله.

ومن معانيها: أنها أشد مواطأةً وموافقةً بين ما تقوله بلسانك وما تستشعره بقلبك، أو تفكر فيه بعقلك[1]؛ فإن قارئ القرآن ربما قرأ وقلبه غافل، حتى إنك لتجد بعضهم يقرأ سورة ثم ينتقل إلى سورةٍ أخرى لا علاقة لها بها، فتتداخل الآيات والسور بسبب غلبة النوم وشدة الإجهاد، أو الغفلة والسرحان.

أما قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: قرآن الليل أكثر استحضارًا، فيقل خطأ القارئ[2]؛ لأن المواطأة تحصل بين اللسان والقلب والعقل، فتجمع قوى النفس كلها، في هدوء الليل دون إزعاج ولا أصوات ولا حركة أقوام يدخلون ويخرجون؛ فيكون أكثرًا خشوعًا، والذين يحفظون القرآن ويرددونه ويراجعونه يجدون في الليل فرصة وإدراكًا وفتوحًا لا يجدونها في النهار.

وقد لا تكون الآية خاصة بتلاوة القرآن، بل بالصلاة كلها، والمصلِّي في الليل يقوم ويركع ويسجد، ويسبِّح ويحمد ويشكر ويطيل في ذلك، ويتدبر المعاني، والنبي ﷺ كان يفعل ذلك، فكان الله تعالى يفتح عليه من المعاني ما لم يكن في البال، وقد جاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ ذكر يوم القيامة فقال: «**فأحمدُه بمحامد لا أقدر عليه الآن، يُلهمُنيه الله**»[3].

فهي إذًا أقوم قيلًا في القرآن وفي التسبيح وفي الدعاء وفي الاستحضار.

* ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾:

السَّبْح الطويل: من جوامع الكَلِم القرآني، وكلمة السَّبْح مأخوذة من سَبَحَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يسبح؛ لأن الإنسان الذي يسبح في الماء يحرك كل جسده في الماء ويمضي فيه لا يعترضه ما يعوقه، واستعير ذلك لجري الخيل، فسمِّيت: السابحات.

وقيل: السَّبْح: الفراغ، أي: فراغًا طويلًا لحوائجك في النهار، فافرغ لصلاتك بالليل، والسَّبْح هو الضرب في الشؤون كلها[1].

ووصفه بالطويل إشارة إلى بركة الوقت، وأن الليل والنهار خِلْفَة، فما فاتك هنا تعوِّضه هناك، وإذا أحسن الإنسان استثمار الوقت كان بركة وإنجازًا ومتعة في الوقت ذاته، وأكثر ما يقضي على الوقت إضاعته عند أناس، وقتله عند آخرين، وإن من الناس مَن يستطرد في أحاديث أو ثرثرة لساعات طويلة دون أن يشعر، فإذا كان في أمر جِدٍّ، فإنه يستثقل الوقت حتى لو كان بضع ساعات، وهذا مثل قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧- ٨]، أي: انصب في عبادة الله سبحانه وارغب إليه في الذكر والتسبيح والصلاة وقراءة القرآن في الليل[2].

وفي «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾» جعل الله النهار هو مقصد الحديث، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

فإذا فرغت من عمل النهار فانصب في الليل وارغب إلى الله؛ لأن الليل يأتي بعد احتدام الدعوة، وانشغال النبي ﷺ بأمر الناس وانهماكه فيه، أما في هذه السورة فالدعوة ما زالت في بدايتها؛ ولهذا جعل الله الليل هو مقصد الحديث، فقال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾، باعتبار أن النبي ﷺ كان يتهيأ لأمر جَلَل، وخَطْبٍ عظيم، ومواجهة الناس بهذه الدعوة التي علم الله ماذا سوف يكون من مواجهة الناس لها، وماذا سوف يكون من أثرها العظيم في البشرية كلها إلى قيام الساعة.

* ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾:

أي: اذكره بلسانك[3]، و﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾ هنا المقصود به جنس الأسماء، أي:

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٣- ٢٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٣)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٥).

اذكر أسماء ربك وأوصافه وجلاله وكمالاته سبحانه[1]، كما في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، فهنا أمرٌ بأن يذكر النبي ﷺ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ويُوحِّده ويحمده.

وفي آية أخرى ذكر تعالى الذكر في النَّفْس، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فهذا ذكر القلب، وكلا الأمرين المقصود به المواطأة، فتذكر ربك بقلبك وتذكره بلسانك، مع المواطأة، بحيث يكون مع ذكر اللسان استحضار عظمة مَن تناجي.

والمقصود: اذكر اسم الله في قيام الليل، واذكره أيضًا في النهار؛ ولهذا صح عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ كان يذكرُ اللهَ على كُلِّ أحيانه[2]، أي: في كل حال، كما قال تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهكذا المؤمن لا يفتر لسانه عن: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، على كل حال، حتى عند تقلب الطقس؛ كهبوب ريح ونحو ذلك، أو إن رأى شيئًا يعجبه قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، وإذا سأله أحد عن حاله قال: الحمد لله. فلا يزال لسانه رَطْبًا بذكر الله.

والتَّبَتُّل: الانقطاع، أي: انقطع إلى ربك، ولا تذكر غيره، ولا تعبد إلا الله[3]، ففيه معنى الوحدانية.

ومن معاني التبتل: الانقطاع عن الزواج؛ ولهذا يقال لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ: البتول؛ لأنها انقطعت عن الرجال فلم تتزوج[4].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٦٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٣٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٧٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٣٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٥).

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٠٧)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٣٢)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ٥٤)، و«لسان العرب» (١١/ ٤٣)، و«تاج العروس» (٢٨/ ٥٢) «ب ت ل».

وبعضهم يسمون فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنت النبي ﷺ: البتول[1].

وهذا إن أريد به العبادة، فقد كانت كذلك، وبناءً عليه نستطيع أن نقول أيضًا: عائشة البتول، وخديجة البتول.. وهكذا، وفضل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عظيم، ومقامها كبير، وهي من سيدات نساء الأمة[2].

وبيان فضيلة أحد من الرجال أو النساء لا يعني مصادرة فضيلة الآخرين، ففضل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند جميع المؤمنين عظيم، وهي بنت نبينا ﷺ، ونحن نحبها أكثر من بناتنا وأكثر من أخواتنا وأكثر من أمهاتنا، وفي الوقت ذاته فإن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي بالمحل الأرفع؛ لأنها زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، وهي أحب نسائه إليه، كما أخبر بذلك النبي ﷺ[3].

* ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾:

أي: تبتَّل إليه، وأفرده بالعبادة؛ لأنه ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بمعنى: رب الآفاق مشرقها ومغربها؛ مشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه.

والجمع بينها وبين ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: ١٧]، و﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] مبسوط في «سورة المعارج».

ومن معانيها: ربُّ وقت الشروق ووقت الغروب، فإنه يسمى: مشرقًا ومغربًا[4].

والله سبحانه هو ربُّ الزمان وربُّ المكان، ولكن تعبير ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أبلغ؛ لأنه إشارة إلى تحول الأحوال وتغيرها، ففيه إشارة إلى طلوع الشمس وإلى

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٨٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ١٤)، و«روح البيان» (١٠/ ٢١١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٦٢، ٣٧٧٢، ٤٣٥٨، ٧١٠٠، ٧١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٤).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٧).

غروبها، وطلوع الشمس وغروبها يكون به الليل والنهار، وفي ذلك انتقاص من عمر الإنسان، فهي دعوة إلى تدارك الوقت واستغلاله، وأنه ينبغي ألا تغيب عليك الشمس ولا تطلع إلا وأنت في خير، كما كان بعض السلف يقول: «إذا طلعت عليَّ الشمسُ أو غربت وأنا لست في خير، فلا بُورك لي في ذلك اليوم».

وفيه إشارة إلى ربوبية الله، وأنه خالق الزمان والمكان، وهذا ما كانوا يؤمنون به في الجاهلية من حيث المبدأ النظري؛ ولهذا عقَّب عليه سبحانه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فانتقل من الأمر المقرر الذي يؤمنون به وهو الربوبية، إلى الأمر الجديد الذي يُجادلون فيه، وهو الألوهية، وألَّا يُعبد إلا هو، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: توكَّل عليه، فقرن بين العبودية وبين التوكل، والتوكل من العبودية، ولكنه يُجمع معها في القرآن في مواضع كثيرة، كما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب لتحقيق العبودية واستمرارها، ودفع ما يطرأ على النفس وعلى الحياة من عوارض.

واتخاذه وكيلًا سبحانه لا يعني القعود، كما يظن بعض الناس؛ لأن الله تعالى أمره بقيام الليل، وهذه عبادة، وأمره بالسَّبْح الطويل في النهار، وهذا عمل، فالتوكل يكون مع استيعاب الأسباب كلها والقيام بها، وليس هو التواكل وترك العمل، كما يظنه بعض العوام الذين يقعدون ويتركون العمل، ويظنون أن السماء تمطر عليهم ذهبًا أو فضة أو جنودًا يقاتلون عنهم.

وكم جنى هذا الفهم السقيم للتوكل على المسلمين وأخَّرهم عن ركب الحضارة والمدنية؛ فقد تحوَّلوا من متوكِّلين إلى متواكلين، وكان العدو إذا طرق بلادهم اجتمعوا في الجوامع يقرؤون القرآن أو يقرؤون «صحيح البخاري»، ويظنون أن قراءة القرآن في المسجد أو قراءة «صحيح البخاري» في المسجد تدفع شرَّ العدو الذي بات يحاصرهم ويدك حصونهم، والله تعالى أمرهم أن يواجهوا الأسباب بما يكافئها، حتى الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أُمروا بذلك.

* ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩﴾:

أمره بالصبر، وما أكثر ما يتردد ذكر «الصبر» والأمر به في القرآن الكريم! وكثير من الناس قد لا يدركون فضل الصبر، ولو سُئل كل الناجحين عن سرِّ نجاحهم، لأجمعوا على الصبر؛ ولهذا ختم الله سبحانه صفات الناجين بقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فالإيمان يحتاج إلى صبر، وعمل الصالحات يحتاج إلى صبر، والحق يحتاج إلى صبر، والصبر يحتاج إلى صبر.

أمره بالصبر على ما يقولون؛ لأنهم كانوا يقولون قولًا عظيمًا مؤلمًا، كقولهم: ﴿سَاحِرٌ﴾.. ﴿شَاعِرٌ﴾.. ﴿كَاهِنٍ﴾.. ﴿مَجْنُونٌ﴾[1]، وهو أطهر الناس وأصدقهم وأعقلهم وأكملهم، فكان أمرًا شاقًّا على النفس، وأحدنا يجد في حكاية ذلك عنهم ثقلًا وانزعاجًا، فكيف والنبي ﷺ يسمعه منهم ويبلغه عنهم، بل هو يُواجه هذا العناء من بعض أقرب الناس إليه!

وظُلْمُ ذَوِي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً ... على المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[2]

وخص الصبر على القول؛ لأن أكثر ما كانوا يؤذونه به هو الإيذاء بالقول، ويظنون أن هذا سيضطره إلى الكَفِّ عن الدعوة، ولأن القول الرديء أشد وقعًا على النفس من كثير من الأفعال، وهذا مجرَّب معروف، والقول يقدر كل أحد أن يقول ويردِّده، بخلاف الفعل، فإنه لا يطيقه إلا أصحاب القوة والرئاسة فيهم.

وفي الآية سرٌّ بديع؛ حيث جمعت بين الصبر، والهجر.

فهي قد حوت أصول معاملة الناس؛ إما أن تخالطهم فتصبر عليهم، أو تهجرهم فتسلم منهم، والنبي ﷺ أُمِر أولًا أن يصبر على ما يقولون، أي: أن يخالطهم ويصبر

(١) ينظر ما تقدم في «سورة القلم»: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ②﴾.

(٢) ينظر: «ديوان طَرَفة بن العبد» (ص٢٧).

وذكر في «شرح المعلقات التسع» - المنسوب خطأ إلى أبي عمرو الشيباني - (ص٧٣)، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لأبي بكر الأنباري (ص٢٠٩)، و«شرح القصائد العشر» لأبي زكريا التبريزي (ص٩٣) عدم صحة نسبته إلى طَرَفة بن العبد، وإنما هو لعدي بن زيد العِبَادي، ونسبه إليه في «عيون الأخبار» (٣/ ١٠١)، و«الصداقة والصديق» (ص١٢٤)، وغيرهما.

على أذاهم، وهذه هي وصيته ﷺ: «**المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم، ولا يصبرُ على أذاهم**»[1].

فإن من شأن الناس الأذية، إلا مَن رحم الله، وأنت واحد منهم، تُؤذِي الناس مثلما يؤذونك، وكما أنك تشتكي من زوجتك، فزوجتك تشتكي منك، وتشتكي من جارك، وجارك يشتكي منك، وزميلك في العمل تشتكي منه، ويشتكي منك، وأخوك لأمك وأبيك تشتكي منه، ويشتكي منك، فما من إنسان إلا وهو يُؤذِي ويُؤذَى، إلا مَن رحم الله، وقد يؤذِي بغير قصد، لكن بحكم القصور ونوازع النفس البشرية.

وزهَّــدني في الناس معرفتي بهم ... وطُولُ اختباري صاحبًا بعدَ صاحبِ
فلم تُــرِني الأيــامُ خِــلًّا تسرُّني ... مباديه إلا ســاءني في العواقبِ
ولا صِرتُ أدعــوهُ لدفعِ ملمَّةٍ ... من الدهر إلا كان إحدى النوائبِ[2]

والأمر الثاني: أن تهجر الناس، وليس المقصود هنا: أن يتركهم كليّةً، كلا! لأنه ﷺ مطالب بأن يغشاهم في مجالسهم، ويدعوهم إلى الله، فليس هجرًا مطلقًا بمعنى: أنه لا يكلمهم، وإنما هجر مقالاتهم ومجادلاتهم، فلا تدخل معهم في جدل عقيم.

وهذا يُشبه ما قاله الله تعالى لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

وكما أمره الله بالصبر الجميل، أمره أيضًا بأن يكون هجره هجرًا جميلًا، والهجر الجميل: هو الذي لا يصحبه جفاء ولا إغلاظ ولا سبٌّ[3].

فبعض الناس يهجر أخاه المسلم لأمر من أمور الدنيا، حتى لو كان زميله

(١) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ...﴾ [الحديد: ٢٧].

(٢) ينظر: «الحلة السيراء» لابن الأبار (ص١٠٣)، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ص٤٩) منسوبًا إلى المعتصم بالله بن صمادح الأندلسي.

ونُسب أيضًا إلى ابن الرومي، ينظر: «ديوان ابن الرومي» (ص٢٤٦).

(٣) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٠).

أو شقيقه أو صديقه، فلا يكلِّمه ولا يستجيب لدعوته، وهذا محرَّم، فقد جاء في الحديث: «**لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاث**»(١).

وبعض الناس لا يكون هجره جميلًا؛ لأنه إذا ذكر عنده في مجلس سبَّه واغتابه، فإذا كان ورعًا ولا يريد أن يغتابه قال: اتركوه، الله يستر علينا وعليه. وهذه غيبة مبطنة؛ مثل قول بعضهم: لا نريد أن نغتاب. فهي من أشد الغيبة؛ لأنه يعني أن للغيبة فيه مجالًا واسعًا، ولكننا ورعون عافون كافّون! ولو أردنا أن نقول فهناك مجال للقول.

وقد وَجَدتَ مكانَ القَولِ ذا سَعَةٍ ... فإن وَجَدتَ لِسانًا قائِلًا فَقُلِ(٢)

وهذا من أعظم التوجيهات الربانية للدعاة؛ لأن كثيرًا من المصلحين يدخلون في هذا المعترك، فيأخذ من جهدهم وأعمارهم، والعمر محدود، والطاقة محدودة، فالدخول في معارك كلامية أو إعلامية تحفز إليه دوافع التوضيح والرد، وفي حالات عديدة يكون مباحًا وربما مشروعًا، ولكن حظوظ النفس تفسده وتجعله ضررًا على الداعية حين يكون كلامه دفاعًا عن نفسه أكثر مما يكون بيانًا للحق أو نقضًا للباطل، ومَن جرَّب عرف(٣)!

ومن المهم أن نتذكر أن أمر الدعوة والتعليم والبناء والإصلاح هو أمر ابتدائي، نقوم به في بناء الحياة، وتعليم الناس ونشر الأخلاق والقيم، وتوجيه الضالين وهداية الحائرين وإجابة السائلين، دون أن نُلزم أنفسنا بأن نكون وقودًا لمعارك إعلامية أو كلامية يكثر فيها التعدِّي والسِّباب، وقد يكون ثمة مَن يحاول أن يُسلِّط هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء، فيتحول الناس إلى احتراب وتنازع، في حين أن الدعوة تتطلب الحلم والصبر الجميل والهجر الجميل أيضًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥، ٦٠٧٧، ٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٥٨، ٢٥٦٠) من حديث أنس وأبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «شرح شعر المتنبي» (٢/ ٧٣)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٤٥٥)، و«التذكرة الحمدونية» (٤/ ٦٦)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٤٥٣).

(٣) وينظر حول ذلك: «شكرًا أيها الأعداء» للمؤلِّف.

* ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: لا تشتغل بهم، واتركهم لي[1]، ولم يذكر مكذِّبًا واحدًا، كما في «سورة المدثر»: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾، وإنما ذكر مجمل المكذِّبين، ولم يسمِّ في القرآن من هؤلاء الكافرين الذين كانوا أحياء إلا أبا لهب، أما بقيتهم فقد ذُكرت صفاتهم دون تعيين أشخاصهم؛ لعلهم أن يهتدوا ويصلحوا، وحفاظًا على أولادهم وأسرهم ألا يتأثروا أو يتضرروا بذكرهم.

﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي: أصحاب النَّعْمة، المرفَّهين، المنعَّمين، المستمتعين المترَفين[2].

وهذا فيه تعريض بهم، إذ لم يشكروا النعمة، ولا أَدَّوْا حقها، ولا شكرها، وإنما زادتهم كبرًا وعتوًّا وترفعًا أن يؤمنوا بدين أكثر أتباعه من الضعفاء والمساكين.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: وقتًا يسيرًا[3]، والحياة الدنيا كلها قليل: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، ولم يُحدَّد هنا: هل هي الدنيا كلها، فيكون الإمهال إلى الموت، أو الإمهال إلى يوم توعَّدهم الله فيه بالنَّكال الشديد، فيكون ما أصابهم يوم بدر هو موعدهم الذي أنظرهم الله تعالى فيه في هذه السورة؟

* ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾:

هذا من توابع الإمهال؛ وهو وإن كان عذابًا موعودًا في الآخرة أو في البرزخ بعد موتهم وقبل بعثهم، إلا أنه من «الإمهال».

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٣٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١١)، «تفسير السمعاني» (٦/ ٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٤٣).

نعم أمهلهم، لأهوال كثيرة تنتظرهم:

منها: الأنكال، وهي جمع: نِكْل، وهي القيود التي تكون في الأرجل[1]، وكأن هذا في مقابل أنهم كانوا يضربون في الأرض، تنعُّمًا وترفًا، فلهم يوم القيامة أنكال وقيود تُوضع في أرجلهم فلا يتحركون.

ولدينا: جحيم؛ وهي النار التي تُكْوَى بها أجسادهم؛ جزاء كفرهم وصدِّهم عن دين الله.

ولدينا: طعام ذو غُصَّة، يَغَصُّ به الحلق؛ كالشَّوك والغِسلين والزَّقُّوم، فيغصّون به فيَنْشَب في حلوقهم، بدلًا من الطعام اللذيذ الذي كانوا يتمتعون به في الدنيا[2].

ولدينا: عذاب أليم؛ إشارة إلى أن الألم ينتظرهم في مقابل اللَّذَّة، وهم قد منعتهم اللذات من الإيمان.

* **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾﴾**:

سينالون ذلك العذاب في اليوم الذي ترجف فيه الأرض والجبال، وقد كانوا يرون الأرض راسية بتلك الجبال لا تضطرب ولا تميد، فهي يوم القيامة ترجف وتميد، وترجف الجبال معها وقد كانت من قبل سببًا في ثبات الأرض ورسوِّها وحفظ توازنها.

﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ أي: تتحول بعد الرجفة إلى رمل مجتمع، وليس كالرَّمل الذي يعرفه الناس، وإنما هي رمال مهالة، والإهالة: النثر، ومنه إهالة التراب على الميت، فهو ذاهب في الهواء كالتراب الذي يُهال من أعلى[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٦).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٣٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٥)، و«تاج العروس» (٣١/ ٣٣) «ن ك ل».

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٢).

وقد ورد في مواضع أخرى تشبيهُ الجبال بأنها تكون كالسَّراب، وكالعِهن[1]، وهي أوصاف متقاربة لموصوف واحد، أو هي دلالة على تحول الجبال، فتكون أوصافًا مختلفة في أوقات مختلفة.

* ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يبيِّن لكم الحق، ويُبَلِّغكم رسالة الله، وينصح لكم، وهو شاهد عليكم يوم القيامة إن آمنتم أو كفرتم[2].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: وهذه أول مرة يذكر فيها ﴿فِرْعَوْنَ﴾ في القرآن من حيث ترتيب النزول؛ فهذه السورة من أوائل ما نزل.

وهنا ذكر تعالى اسم ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ولم يذكر اسم الرسول؛ لأن المقام مقام تهديد للكافرين، وخصوصًا كبارهم، وقد كان أبو جهل يُعرف بـ«**فرعون هذه الأمة**»[3]، وكان المشركون في مكة يُشْبِهُونَ آلَ فرعون في كثير من مقالاتهم، فكان فرعون يعترض ويحتج على أن يُختار موسى بالرسالة، فيقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢ - ٥٣]، وكذلك قالت قريش، كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وكانوا يفتخرون بأموالهم وأنهم أولو نَعْمة، وكان ثمة الملأ الكبار والسادة الذين يتآمرون ويحاولون أن يصرفوا عقول الناس عن الإيمان، وأن ينشروا بينهم قالة السوء، ومن هنا كان مناسبًا ذكر فرعون ومصيره، مع الإشارة إلى الرسول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أنه كثيرًا ما يُذكر في القرآن قصة موسى وفرعون؛ لوجود شبه كبير حتى في المصير، وإهلاك الله تعالى لأعدائه، وقيام الأمر والدعوة، ووجود أمة كبيرة تتبع موسى، وأثر دعوته العظيم،

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٩، القارعة: ٥].

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٢).

(٣) كما في «مسند الطيالسي» (٣٢٦)، و«مسند أحمد» (٤٢٤٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٥/ ٤٣٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو من أولي العزم من الرسل[1].

* ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

ذكر ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ هنا معرفًا؛ لأنه ذكر قبل، والمقصود هنا: الأخذ الدنيوي الذي عرفوه، مع ما يدَّخِرُه الله له في الآخرة من العذاب الشديد: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، أي: أخذًا حاضرًا قويًّا شديدًا عاجلًا، فهذا هو الذي ينتظركم إن لم تؤمنوا[2].

* ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾:

سؤال استنكاري عام للناس كلهم: هل تستطيعون إذا كفرتم بالله ورسوله، ولم تؤمنوا بالحساب أن تتقوا ما تشاهدونه من العذاب والأَنْكال والجحيم والأغلال، وقد فات وقت الإمهال؟ كيف تنجون من يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾؟ وهذا من بديع الوصف!

وقد أخذ بعض الأدباء والشعراء هذا المعنى وتصرَّفوا فيه، حتى قال الصِّمَّة ابن عبد الله القُشيري[3]:

ذَرانِـيَ من نَـجْـدٍ فـإنَّ سِنِينَه ... لعِبْـنَ بنـا شِـيبًا وشَـيَّبْنَنا مُـرْدَا

وقال الآخر[4]:

والهـمُّ يَخْتَـرِمُ الجَسِـيمَ نَحَافَـةً ... ويُشِـيبُ ناصِيـةَ الصبـيِ ويُهْـرِمُ

لكن شتَّانَ شتَّانَ ما بين القرآن وما بين كلام الناس!

إن الإنسان لا يشيب في الدنيا في يوم ولا في عشر سنوات، وإنما في عشرات

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٢)، و«أمالي ابن الشجري» (٢/ ٢٦١)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٦٣).

(٤) ينظر: «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص٣١)، و«أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه» (ص١٣٨)، و«مجاني الأدب في حدائق العرب» (٤/ ١٠٧).

السنين، أما في يوم القيامة فيشيب في يوم؛ ربما لطوله، وربما لهول ما فيه، وقد أطلق وصف «الشَّيْبِ» ليشمل كل آثار الشيخوخة في الشعر والجسد والروح..

فهنا قال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: يشيب الصغار مباشرةً من ذلك اليوم وأهواله(١).

* ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بذلك اليوم، كما في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾.

وعبَّر بالمذكَّر، ولم يقل: «منفطرة»، إما لأن السماء يجوز فيها التذكير والتأنيث، كما قال بعض أهل اللغة(٢)، وإما على إرادة السقف(٣)، وقد قال الشاعر(٤):

إذا نَـزَلَ السماءُ بـأَرضِ قَـومٍ   رَعَـيـنـاهُ وإن كـانـوا غِضَابا

أي: إذا نزل المطر، فقد تُذكَّر السماء، باعتبار ما يراد منها، كما إذا أريد منها المطر أو أريد منها السقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: ٥].

ويجوز فيما يظهر أن التأنيث على إرادة الجمع، أي: السماوات منفطرة.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: وعد ذلك اليوم حق واقع لا ريب فيه.

ويحتمل المعنى: كان وعد الله لكم بالبعث والنشور والجزاء والحساب مفعولًا لا ريب فيه(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٩)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٩٩)، و«الإتقان» (٢/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٦).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥١).

(٤) ينظر: «تحرير التحبير» (ص٤٥٨) منسوبًا إلى جرير، و«جواهر البلاغة» (ص٣٠١) منسوبًا إلى معاوية بن مالك.

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٣).

* ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾:

أي: أن هذه الآية، أو هذه السورة، أو هذه الشريعة، تذكرةٌ لكم جميعًا، فتذكروا، وهي تذكرة، حتى لأولئك الذين أعرضوا وكذَّبوا وهدَّدوا وتوعَّدوا، فيعرض الله تبارك وتعالى عليهم طريق الأوبة إليه[1].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فالأمر بأيديهم وبمقدورهم، وهم حينما يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] كاذبون، فما الذي أدراهم أن الأمر متعلِّق بالمشيئة قبل أن يفعلوا؟! ولِم لم يعتقدوا أن الهداية والصلاح بمشيئة الله أيضًا؟! وهذا ما تبيِّنه الآية الكريمة، أن بمشيئتهم أن يتخذوا سبيلًا للطاعة يوصِّلهم إلى الله[2].

ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولو أرادوا الهداية لسلكوا سبيلها.

وهذا القسم الأول من السورة نزل بمكة.

ثم جاءت خاتمتها بالآية الطويلة التي نزلت بالمدينة على الراجح؛ لأن سياق هذه الآية الكريمة سياقٌ مدنيٌّ، كما هو ظاهر[3]؛ وهي قوله تعالى:

* ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

فهذه من ثواب الله للنبي ﷺ في الدنيا، بعد سنواتٍ طوال من القيام والتهجد والتبتل والتضرع والتخشع والعبودية، ويكفيه أن يقول له ربه: إنه يعلم بنصبه

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٨٧- ٢٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧٨)، والمصادر السابقة.

(٣) كما تقدم أول السورة.

وقيامه، كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢١٩]، فالله يعلم أنك تقوم نصف الليل، وتقوم ثلثه، وتقوم أقل من ثلثيه أو ثلثيه، كما أمرك ربك جَلَّ وعَزَّ.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ معية الصحبة والطاعة والاتِّباع والتأسِّي.

ويحتمل أن يكون المقصود: الذين يقومون ولو في بيوتهم ممن آمن معك.

أو الذين يقومون الليل معك مُؤْتَمِّين بصلاتك منصتين لقراءتك(١)، فربما توارد الصحابة إلى النبي ﷺ فصَلَّوْا بصلاته، كما في الحديث، أن رسولَ الله ﷺ اتخذَ حجرةً من حصير في رمضان، فصلَّى فيها ليالي، فصلَّى بصلاته ناسٌ من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: «قد عرفتُ الذي رأيتُ من صنيعكم، فصلُّوا أيها الناسُ في بيوتكم؛ فإن أفضلَ الصلاة صلاةُ المرء في بيته إلَّا المكتوبةَ»(٢). وفي حديث آخر: «لكني خشيتُ أن تفرضَ عليكم، فتعجزُوا عنها»(٣).

والمقصود: ثمة أناس يصلون معك، وقد يكونون من أزواجه أو من خاصة أصحابه، فكانوا يُصلون معه في السفر أو في الحضر، فالله تعالى يقول: هذه الطائفة ربك يعلمهم ويحصي قيامهم، ويكتب لهم الأجر والثواب، ويمنحهم هذه الفضيلة وهذا الشرف أن يذكرهم في كتابه بصحبة نبيه وقيامهم نصف الليل أو ثلثه أو نحوًا من ثلثيه(٤).

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: والتقدير: تقليب الليل والنهار، فيزيد هذا وينقص

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٣٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٢)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٩٢٤، ١١٢٩)، ومسلم (٧٦١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٩/ ٤٨٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٢٤)، والمصادر السابقة.

ذاك، فيختلف الصيف عنه في الشتاء[1].

ومن هنا قال سبحانه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، **وأصل الإحصاء**: العدُّ بالحصى، فقد كان العرب يستخدمون الحصى في العدِّ، فسُمِّي: إحصاءً[2]، **والمقصود**: لن تضبطوه ضبطًا تامًّا؛ لأن الليل لا ينضبط، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف على وجه الدقة: كم ثلث الليل، وكم نصفه، ولا يعرف متى يبدأ ثلث الليل الآخر، فمثل هذه الأمور لا يستطيع أن يحصيها المرء بدقة[3].

ومن معنى ذلك: أنه لن يستقيم لكم القيامُ بالأمر على وجهه التام[4]؛ فالإنسان يُصيبه المرض والعجز والانشغال، وتضعف همته؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن لكُلِّ عابدٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**»[5].

فالعابد أحيانًا يقوى ويندفع ويتحمَّس، وأحيانًا يصيبه فتور وقعود وملل وسأم، وهذه جِبلَّة جبل الله تعالى العباد عليها.

وفي الآية درس عظيم، وهو: أن على الإنسان أن يكون معتدلًا، فلا يَشُقُّ على نفسه، ولا يُحمِّلها ما لا تطيق، ولا يثقل عليها، والنبي ﷺ يقول: «**اكْلَفُوا من العمل ما تُطيقونَ**»[6]. أي: تكلَّفوا العمل الذي تستطيعونه، ولا تشُقُّوا على أنفسكم أو تحمِّلوها أثقالًا.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٤٤). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٥٩).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٣).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥).

(٥) أخرجه أحمد (٦٧٦٤، ٦٤٧٧)، وابن خزيمة (٢١٠٥)، وابن حبان (١١) من حديث عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصله في «صحيح البخاري» (٥٠٥٢).

وأخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، وابن حبان (٣٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكم من الناس مَن حمَّل نفْسَه ما لا تطيق، ففُتن والعياذ بالله! كما ذكر النبي ﷺ عن بني إسرائيل في تعبدهم في الصوامع وانحرافهم عن دين الله[1].

وهذا الاعتدال منهج مطلوب في العبادة والدعوة والعمل والجهاد وغير ذلك؛ فلا تحَمِّل نفسك ما لا تطيق، ولا تحَمِّل الآخرين ما لا يطيقون، فتكلفهم وتشقَّ عليهم، وتَعَلَّم كيف تسوس زوجتك وتتعامل معها دون أن تشقَّ عليها، وتَعَلَّم كيف تعامل أولادك في البيت، وممَّ تمنعهم وبماذا تأمرهم، وكيف تربِّيهم، وتَعَلَّم كيف تعامل طلابك في المدرسة أو جيرانك أو عامة الناس.

وهذا يتأكد لمَن يخاطبون جماعات متنوعة ليست على طبيعة واحدة، بل هي طبقات وفئات وشعوب ومستويات في عصر الخطاب المعولم في القنوات الفضائية أو الإذاعات أو الشبكات الاجتماعية أو المواقع الإلكترونية أو الكتابة، فعَسْفُ الناس على المشقات لا خير فيه، والرفق بهم مأمور به محمود؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**سدِّدُوا وقاربوا**»[2].

وقال في حديثٍ آخر: «**إنكم لن تُطيقوا كلَّ ما أُمرتم به**»[3]. أي: لن تطيقوه كله، فما من أحد من الناس إلا ويقع عنده تقصير أو عجز أو انشغال أو فتور في الهمة، والنفس البشرية تنتابها حالات مختلفة، وعلينا أن نراعي هذا في نفوسنا وفي الآخرين.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سامحكم وغفر لكم، وحطَّ عنكم بعض ما أمركم به سبحانه، ولم يجعل قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٢- ٤] أمرًا حرفيًّا يشق عليكم ويعنتكم، أو يتحول عند بعضكم إلى محاسبة للنفس دقيقة، تتحول إلى العجز أو الوسوسة أو الانقطاع.

---

(١) كما في «سنن أبي داود» (٤٩٠٤)، و«مسند أبي يعلى» (٣٦٩٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسولَ الله ﷺ كان يقول: «لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشَدَّدَ عليكم، فإن قومًا شدَّدوا على أنفسهم فشدَّدَ اللهُ عليهم، فتلك بقاياهم في الصَّوامع والدِّيار ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧]».

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٨٥٦)، وأبو داود (١٠٩٦)، وأبو يعلى (٦٨٢٦) من حديث الحكم بن حَزْن الكُلَفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «البدر المنير» (٤/ ٦٣٢- ٦٣٤).

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾: قد يكون هذا في الصلاة؛ لأن الآية نزلت بعد فرض الصلوات الخمس في المدينة؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: لما فرضت الصلوات الخمس سقط عنهم وجوب قيام الليل[(١)]، فمن هنا قال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ أي: في صلاة الفريضة[(٢)].

وقال بعضهم: أي: في صلاة المغرب والعشاء، أو صلاة العشاء وصلاة الفجر[(٣)].

و﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يصدق على كل قدر من القرآن تتيسر قراءته.

ولكن صحَّ في السنة- كما في حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[(٤)]. فسورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعيَّن على كل مصلٍّ أن يقرأها في كل ركعة[(٥)]، إلا أن يكون غير قادرٍ على قراءتها لحَدَاثَةِ عهده بالإسلام، أو لكونه أبْكَم، فيسقط عنه ذلك، أو يكون مأمومًا في الصلاة الجهرية فتكفيه قراءة إمامه، فإن سكت الإمام بين قراءة الفاتحة والسورة الأخرى قرأ في سَكَتَاتِه، وإلا فلا شيء عليه.

والتعبير بـ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يشير للتيسير والتسهيل، وأن تقرأ ما حفظت، حتى من قصار المفصَّل، والرجل الذي قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، قال له النبيُّ ﷺ: «**حُبُّك إيَّاها أدخلكَ الجنةَ**»[(٦)]. وقال في الحديث الآخر: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٧)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٦٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٧٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٥) ينظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٧)، و«المغني» (١/ ٣٤٤). وينظر: «فقه العبادة» (٢/ ١٦٩- ١٧٤).

(٦) أخرجه أحمد (١٢٤٣٢)، والبخاري معلقًا (١/ ١٥٥)، والترمذي (٢٩٠١)، وابن خزيمة (٥٣٧)، وابن حبان (٧٩٢)، والضياء في «المختارة» (٥/ ١٢٨- ١٢٩) (١٧٥٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعدلُ ثلثَ القرآن»[١]. مع أنها من قصار السور.

وكذلك «سورة العصر» فقد ورد أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا إذا التقوا، ثم أرادوا أن يفترقوا، قرأ أحدهم: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢...﴾ حتى يختمها[٢].

وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ٤٠]، وشاهد على تعهده سبحانه وتكفله بحفظ القرآن، ولكن من الناس مَن يشق عليهم الحفظ؛ لانشغالهم أو لكبرهم أو لكونهم لا يجدون في أنفسهم قدرةً عليه.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾: والمرضى محتاجون إلى النوم والرِّفق، ويشقُّ عليهم القيام، وكان عددهم أول الأمر قليلًا، والأعذار بينهم محصورة باعتبارهم جماعة ناشئة، ولكن الله علم أنهم سيكثرون ويزيدون وتتنوع ظروفهم وأحوالهم، فيحتاجون إلى التوسعة في التشريع، وهكذا يظهر الفرق البيِّن بين جماعة صالحة نشأت واحتضنت الشباب تربية ودعوة، فمن أعظم الخطأ أن تغفل عن أن طبيعة مجتمع الناس من حولها مختلفة عن طبيعتها، ولا يمكن انتظام الخلق كلهم في مجموعات أو جماعات، فيظل الناس على عادتهم وبساطتهم وسذاجتهم، ولا بد من توسيع أبواب العذر وتفهم ظروفهم.

﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: والمقصود: المسافرون؛ لأن الذي يمشي يضرب الأرض بقدميه، باعتبار أنه يمشي على قدميه، ثم أصبح ذلك معنى لكل مَن يسافر، كما قال الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، أي: إذا سافرتم، وهذا أيضًا من الأعذار الموجِبة للتخفيف، فالسفر

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣- ٥٠١٥) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨١١، ٨١٢) من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٣٩).

وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٦/ ٥٣٩- ٥٤٠): «هذا حديث غريب جدًّا، ورواته مشهورون». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٨)، وما سيأتي في «سورة العصر».

والغربة قطعة من نار[1]، وقد لا يتيسر للمسافر المسكن ولا الطعام الذي يريد؛ ولذا خُفِّف عنه الصوم والصلاة.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: وهذا الاصطلاح يُقصد به: الرزق والتجارة[2]، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: في الحج، فلا بأس بالبيع والتجارة في الحج[3].

ولذلك إذا دخل الإنسان المسجد قال: «اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك». وإذا خرج قال: «اللهمَّ إني أسألُكَ من فضلك»[4]؛ لأنه انتقل من العبادة إلى شؤون المعاش.

وهكذا قال سبحانه في يوم الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، أي: انشغلوا بالتجارة وطلب المعاش بعد أن مُنعتم من ذلك بخطبة الجمعة وصلاتها: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

والناس مطالبون بأن يضربوا في الأرض طلبًا للرزق والمعاش، وقد أحلَّها الله لهم وسلَّطهم عليها، بل جعل هذا من أبواب الخير، وقرنها بالقتال في سبيله دفاعًا عن دينه، فقال: ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في جهادٍ شرعي لحماية البَيْضة وإقامة الدولة، فجمع الله تعالى بينهما.

وهذا فيه إشارة وتوكيد على أهمية الضرب في الأرض، والاشتغال بالزرع والحرث والتجارة وأعمال الدنيا التي لا بد للناس منها، وهي سبب للرزق

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٨٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «السفرُ قطعةٌ من العذاب».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٩٦/٢٣)، و«فتح القدير» (٣٨٦/٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٨٦/٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٠٢/٣)، و«تفسير البغوي» (٢٢٨/١)، و«تفسير القرطبي» (٤١٣/٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥٤٩/١).

(٤) أخرجه مسلم (٧١٣) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والاستغناء عن الناس، كما هي سبب للصحة والنشاط والحيوية وسعادة القلب.

والآية أشارت للجهاد في سبيل الله، ولعلها إرهاص وتعبئة للمؤمنين أن أسباب هذا الجهاد قد انعقدت وقُرب فرضها دفاعًا عن أنفسهم، قبل أن ينزل قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ يعني: من القرآن، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلوات الخمس المفروضة التي أصبحت واجبةً عليكم[1]، فلا تُقصروا فيها حضرًا ولا سفرًا، سواء كنتم مرضى أو غير مرضى.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يا مَن تضربون في الأرض تبتغون من فضل الله، فالصلاة حق النفس في العبادة، والزكاة حق المال.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾ أي: فوق الزكاة، والقرض: هو العطاء، أي: أعطوا الله تعالى، وسماه: قرضًا، مع أن المال من عنده سبحانه، والمقصود: أن تتصدَّقوا، ليوفيكم يوم القيامة أجورًا مضاعفة، فأعطوا الفقير والمسكين وابن السبيل، شيئًا فوق الزكاة، فهو على سبيل الندب والاستحباب، أو على سبيل الوجوب إذا وُجد ما يدعو إلى ذلك، مثل: أوقات الضرورات، والفاقة، والحاجة الشديدة، فإنه يتعيَّن ويتوجَّب على أهل الغنى واليَسار أن يرفقوا بإخوانهم المسلمين؛ لقول الله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾، وسماه: ﴿حَسَنًا ۚ﴾ لئلا يكون فيه مِنَّة، وليكون طيبًا غير خبيث[2]، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال: ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ أي: ستجدون ما قدمتم عند الله تعالى خيرًا مما قدمتموه، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٨).

ولم يحدِّد الأجر هنا؛ لأن هذا يختلف بحسب صِدْق النية، وبحسب الفاقة والحاجة، وبحسب الغنى، وقد جاء في الصحيح: «**سَبَقَ درهمٌ مائةَ ألف درهم**»(١). وصحَّ عنه ﷺ لما سُئل: أيُّ الصدقة أفضلُ؟ قال: «**جُهْدُ المُقِلِّ**»(٢).

والتاجر بطبعه يميل للحساب، ويقارن بين الفرص التجارية؛ ولذا أكدَّ أنهم سيجدونه ولن يضيع، بل سيجدونه خيرًا وأعظم مما أعطوه، وفي الآية الأخرى حدَّد لهم نسبة الربح بدقة؛ ليحسنوا الأمور جيدًا، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾: أمر بالاستغفار في ختم العبادة؛ إشعارًا للنفس بتقصيرها؛ حتى لا يدخلها العُجب بالعمل، ولأنه قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تحصوا الصلاة ولا العمل ولا القرض، ولكن ابذلوا وقدِّموا واستغفروا الله على التقصير؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا(٣).

وهكذا في الحج أمرنا الله بأن نستغفر الله ونحن نتقلب بين المناسك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩]، فقد كان ﷺ يستغفر، كما استغفر ليلة جَمْع، يعني: ليلة مزدلفة(٤).

لقد شرع الله الاستغفار عقب الأعمال الصالحة؛ لأن العمل قد يُداخله نقص أو انشغال أو انصراف ذهن، أو تقصير في الطهارة، أو في حضور القلب، أو في النية، أو في أشياء ربما يذهل عنها، زد على ذلك أن العبد مهما عمل فإنه يظل

(١) أخرجه أحمد (٨٩١٦)، والنسائي (٥/ ٥٩)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٠٢)، وابن زنجويه في «الأموال» (١٣٣٤)، وأبو داود (١٦٧٧)، وابن خزيمة (٢٤٤٤، ٢٤٥١)، وابن حبان (٣٣٤٦)، والحاكم (١/ ٤١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٦٦)، و«إرواء الغليل» (٨٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).

مقصرًا، قال الله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: ٢٣].

ثم إن الاستغفار يقطع الطريق على العُجب بالعمل أن يتسلَّل إلى القلب، ويشعر المستغفِر أنه على تقصير ونقص مهما اجتهد في الإتقان.

فكفى بالإنسان إثمًا أن يقدِّمَ عملًا ثم يتبعه بالإدلال[1] على ربه بهذا العمل، أو يظن أنه أدَّى ما عليه، أو قام بما يلزمه، ولو أنه قضى عمره كله في سجدة واحدة لربه ما أدَّى شكر نعمته، ولكنه يطلب منا القليل، ويسامحنا على الكثير، ويوصينا أن نستغفره عقب الأعمال الصالحة، وإذا كان الله يأمر محمدًا ﷺ والصحابة وأمهات المؤمنين بعد قيام الليل وبعد صيام النهار وبعد القرض الحسن أن يستغفروه فكيف ونحن أصحاب الذنوب والإسراف والظلم؟!

أستغفر الله العلي العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

○ ○ ○

---

(١) أي: المنة والافتخار. ينظر: «تاج العروس» (٢٨/ ٥٠١- ٥٠٢) «ب ت ل».

سُورَةُ المُدَّثِّر

*** تسمية السورة:**

هي من السور ذات الاسم الواحد، كما في المصاحف، وكتب التفسير والسير والحديث: «سورة المدَّثِّر»[1].

*** عدد آياتها:** ستٌّ وخمسون آية عند أهل الشام وأهل المدينة، وخمس وخمسون عند أهل الكوفة والبصرة[2].

وهذا الاختلاف لا يعني زيادة في أحرف القرآن أو نقصانًا، فهم يختلفون أحيانًا في بعض الآيات، فإنها قد تُقسم عند بعضهم إلى آيتين، وعند آخرين هي آية واحدة.

*** وهي مكية** بإجماع أهل العلم، ذكره ابن عطية، وغيره[3].

ورُوي عن مقاتل وغيره في إحدى آيات هذه السورة أنها نزلت بالمدينة؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ

---

(١) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٤١١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦١)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٠)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩١).

(٢) وقد اختلفوا في آيتين: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾، و﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٨)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩١).

رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾، وهو غريب[1].

وهي أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ بعد فترة الوحي.

وقد جاء في «الصحيحين» ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، فروى جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال- وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني». فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾، فحمي الوحي وتتابع[2].

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد أن «سورة ﴿اقْرَأْ﴾» هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر المَلَك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه في حراء بـ«سورة ﴿اقْرَأْ﴾»، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمِّله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل «سورة المدثر»، أي: أول ما نزل بعدما فتَرَ الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول ﷺ بـ﴿اقْرَأْ﴾، ثم فتَرَ- كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ثم عاوده الوحي بـ«سورة المدثر»، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير[3].

وهو ما يقتضيه النظر؛ فإنه ﷺ نُبِّئ بـ﴿اقْرَأْ﴾، وأُرسل بـ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾، فكانت ﴿اقْرَأْ﴾ نبوءة له، وكانت ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ رسالة، فقيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وهذه المدة التي فتَرَ فيها الوحي، قال بعضهم: إنها سنتان. وهذا خطأ،

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٥٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤، ٤٩٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٦١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٧- ٥٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٠)، (٣٢/ ٢١٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٦)، (٢٠/ ١١٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٣)، (٨/ ٢٦١، ٤٣٦)، و«فتح الباري» (١/ ٢٨)، (٨/ ٦٧٨، ٧١٤- ٧١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥٨)، (٣٠/ ٤٣٣)، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

والصواب: أنها أيام، قيل: خمسة عشر يومًا، وقيل: كانت نحوًا من أربعين يومًا، وهو الأقرب[1].

وهي سورة النِّذارة، وقد نزلت ولم يكن يومئذٍ قرآنٌ يُتلى عند الناس، فكل معانيها جديدة وقوية ومؤثِّرة.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾:

أي: المتدثِّر[2]، والدِّثار: الغطاء[3]، وما كان تَدَثُّر النبي ﷺ إلا من فُجاءة الوحي الذي لم يكن يرتقبه، فأصابه بسبب ذلك رعب ورهبة.

وفيه إشارة إلى أن النبي ﷺ لم يكن متطلِّعًا إلى شيءٍ مما أعطاه الله إيَّاه، وقد كان في مكة والجزيرة العربية مَن يتطلَّع إلى النبوة ويشرئب إليها، كأمية بن أبي الصَّلْت[4]، فاختار الله تعالى نبيًّا لم يكن هذا أمَلَه ولا من طَلَبِه ولا من تَطَلُّعِه، فلم يكن يتطلَّع إلى مجد أو مكانة، ووجَّه إليه خطابًا خاصًّا مباشرًا، أي: أنت على وجه التعيين والتحديد مَن اختارك الله من بين جميع البشر، وقد جاء في الحديث: «**إن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض، فَمَقَتَهُم، عَرَبهم وَعَجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[5]. ثم نظر فوجد قلب النبي ﷺ أصفاها وأصدقها وأصحها فاختاره لهذه الرسالة العظيمة.

والدِّثار: الثوب، وهو مقابل الشِّعار الذي يلي الجسد، وسمِّي: شِعارًا؛ لأن

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٢)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٣)، (٣٠/ ٤٤٣)، و«التفسير البياني للقرآن الكريم» (١/ ٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٧٦)، و«تاج العروس» (١١/ ٢٧٢) «د ث ر».

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٦)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٩/ ١٧٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عِياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان يشعر به، وأما الثوب الذي يراه الناس فيسمَّى: دِثارًا[1]، كما جاء في الحديث الصحيح: «**الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ**»[2]. أي: الأنصار مثل الثوب الذي يلي جسدي، والمقصود بهذا: قرب الأنصار من النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى أنهم لن يكونوا أصحاب رئاسة وسلطة وولاية، فعلاقتهم به روحية صرفة[3].

بناءً على هذا فيمكن أن يكون المقصود بالتدثر هنا: ما دثَّره الله به وخصَّه وأعطاه من النبوة والعلم والوحي[4]، فالثوب لا يُطلق فقط على الثوب المادي، بل يُطلق على الثوب الحسِّي وعلى الثوب المعنوي، كما قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، وكثيرًا ما يُطلق الثوب على السُّمعة والمال والجاه والمظهر، كما قيل:

مُـدَثَّـر بـرداء الـوحـي جلَّله ... نورٌ من الله لا صوف ولا خزفٌ

وفي تفسير ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ مزيد بيان في المقارنة بينهما.

* ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾:

الأمر هنا ليس طلبًا للقيام فحسب، بل هو دعوة للشروع في جهاد تبليغ الرسالة، فأنت عند ما تقول: فلان قام بهذا الأمر، أو وَلِيَ هذه الولاية، فقام بها خير قيام، فليس المقصود أنه قام على قدميه، وإنما أدَّى عمله على أكمل وجه[5].

وتتضمن الكلمة: القيام من النوم، وقد كان النبيُّ ﷺ قليل النوم بعد ذلك، وفي الآيات الأخرى يخاطبه الله فيقول: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]، فكان ﷺ لا ينام من الليل إلا قليلًا.

وقد امتثل ﷺ هذا الأمر، وباشر الإنذار والصَّدْعَ بالدعوة، فقام على الصفا

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (١/ ٣١١)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٧٦) «د ث ر»، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٥٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

وقال: «يا صباحاهْ!». فاجتمعت إليه قريشٌ، فقال: «إني نَذِيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد»(1).

أمره أن ينذر، ولم يبيِّن مَن هم الـمُنذَرون، فلم يقل: «أنذر أهل مكة، أو العرب، أو الناس»، وإنما قال: «أنذر»؛ ليكون ذلك شاملًا لكل الناس، عَرَبهم وعَجَمهم، حاضرهم وقادمهم، فكانت هذه الآية دليلًا على شمولية رسالته وخلودها.

ولم يبيِّن بِمَ يُنْذِر؟ فلم يقل: «أنذرهم النار»، أو «أنذرهم الموت»، أو «أنذرهم العقاب»، وترك الأمر مفتوحًا؛ ليشمل كل ما يُنذر به من العذاب في الدنيا والآخرة، فمع هذا الاختصار في اللفظ إلا أنه يدل على الشمولية والتوسع في كل ما يُنذر.

وهذه الآية متضمنة رسالة النبي ﷺ ووظيفته في الحياة.

* وتضمنت السورة الكريمة سبع وصايا، هي من جوامع الحِكَم والأوامر الربانية، وهي للنبي ﷺ، ولكل العلماء والدُّعاة والمصلحين؛ لشدة حاجتهم إليها، وهي:

1- القيام بهذا الأمر والحرص عليه والاستعداد لتبليغه، وليس مجرد الشعور العابر، فقد كان يوجد في الجاهلية الحنفاء، من أمثال: زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأُميَّة ابن أبي الصَّلْت، وكانوا يستنكرون عبادة الأوثان، ويرفضون كثيرًا من معتقدات الجاهلية الفاسدة، وقد كان زيدٌ يقول(2):

عزلتُ اللَّاتَ والعُزَّى جميعًا ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أَدِينُ ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولكن أعبدُ الرحمنَ ربي ... ليغْفِرَ ذنبيَ الرَّبُّ الغفورُ

---

(1) أخرجه البخاري (4801)، ومسلم (208) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(2) ينظر: «الأصنام» للكلبي (ص21- 22)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 226- 227)، و«سبل الهدى والرشاد» (2/ 184).

٢- النِّذارة بشموليتها لمَن توجَّه إليهم، وعمومها لكل أمر مخوف قادم يجب أن يحذروا منه ويستعدوا له.

٣- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾: فالقيام بالنِّذارة ليس مشروعًا شخصيًّا، ولا مجدًا ذاتيًّا، ولا عزًّا هاشميًّا، وليس قيامًا لفرد أو قبيلة أو جنس أو بلد، بل هو قيام لله، كما قال سبحانه: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ولذا أمره بالتكبير، فالله تعالى هو الكبير، والدعوة له وحده لا شريك له.

ويدخل في هذا: أن تقول: «الله أكبر»، فهو من تكبير الله[١]، ولم تكن الصلاة يومئذٍ مفروضة؛ لأن هذه السورة من أول ما نزل.

ولا يمنع أن يكون هذا إرهاصًا بمشروعية الصلاة وتمهيدًا لها، لا سيما أنه أمره بعد ذلك بطهارة الثياب، وكأن هذا الأمر تمهيد لعبادة معينة[٢]، والصلاة تبدأ بالتكبير، كما هو معروف، لكن النص أوسع من هذا؛ لأن المقصود بتكبير الله سبحانه: تعظيمه بلفظ: «الله أكبر»، وبمعرفته سبحانه وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وبالعبودية له، وامتلاء القلب بإجلاله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ونفي ما يقول المشركون عنه من النقص والعيب بالتسبيح والتنزيه.

ومن معاني التكبير: العبادة، فلا يعبد إلا الله تعالى؛ عبادة القلب واللِّسان والجوارح، ويشمل توحيد الله وترك عبادة غيره[٣]؛ لأنه سبحانه لما قدَّم اسم «الرب» على الفعل الذي هو التكبير، صار حصرًا وقصرًا أَلَّا تكبِّر تكبير التأليه إلا لله، ولا تعبد سواه، ولا تعظِّم غيره[٤].

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٨٩)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٦).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٤٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٦٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٥).

٤- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾: والمقصود: أَلَّا تكون الثياب نجسة، بل تكون طاهرة نظيفة[١].

وطهارة الثياب في الصلاة شرط لصحتها عند الفقهاء[٢]، والله تعالى يقول: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وحسن الثياب وجمالها أمر مطلوب، وفي الحديث عند الترمذي: «إن اللهَ نظيفٌ، يحبُّ النظافةَ»[٣]، وهو حديثٌ غريب، ولكن جاء في «صحيح مسلم»: «إن اللهَ جميلٌ، يحبُّ الجمالَ»[٤].

فحُسن الثياب كان من هَدْي النبي ﷺ حتى في أول الدعوة؛ ليكون كالشَّامَةِ بين الناس في جمال المظهر والمَخْبَر.

ومن طهارة الثياب: أن تكون طيبة حلالًا، فلا تكون مغصوبةً، أو من مال حرام، وإنما تكون من رزقٍ حلال، ومن لبس حلال؛ ليست حريرًا، ولا لباس فتنة[٥].

ويدخل في الثياب المعنوية: سمعة الإنسان، كما ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيره: أن سُمعة الإنسان تسمى: ثوبًا[٦]، وكان غَيْلان بن سلمة الثقفي يقول[٧]:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٧).

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ١١٤)، و«منح الجليل» (١/ ٢٠٧)، و«المجموع» (٣/ ١٣١)، و«المغني» (٢/ ٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩)، والبزار (١١١٤)، وأبو يعلى (٧٩٠، ٧٩١) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «العلل المتناهية» (١١٨٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٦)، و«السلسلة الضعيفة» (٧٠٨٦).

(٤) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٥)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٨٦)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٦٨)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٤٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٥)، والمصادر السابقة والآتية.

(٧) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٩٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ١٠٠)، و«التذكرة الحمدونية» (٣/ ٨)، و«لسان العرب» (١/ ٢٤٥).

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ لبستُ ولا من خزيةٍ أتقنَّعُ

يقول: ما لبستُ ثوبَ غدر أو غيلة أو تغرير أو خيانة، ولا تقنعت وتسترت من خطأ أو انحراف أو خزي.

والدِّين ثوب، كما في رؤيا النبي ﷺ لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعليه ثوب يجرُّه، وفسَّره بالدِّين[1]، والأخلاق الحسنة ثوب، والإحسان إلى الناس ثوب، وقد قال ﷺ: «مَثَلُ البَخيل والمُنْفق كمَثَل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقيهما، فأما المُنْفقُ فلا يُنفقُ إلَّا سَبَغَتْ- أو: وَفَرَتْ- على جلده، حتى تُخفيَ بنانه وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ..»[2]. أي: تسحب وراءه مثل الثوب الطويل الذي يسحب، فهكذا ثوب المنفق المتصدق.

والعرب كانت تمدح الإنسان بطهارة الثوب، كما في قول أبي تَمَّام[3]:

مَضى طاهِرَ الأَثواب لَم تَبقَ رَوضَةٌ غَداةَ ثَوى إِلَّا اشْتَهَت أَنَّها قَبرُ

وكانوا يقولون: فلان نقي الثوب، نقي الجيب، أي: لا تلحقه سُبَّة.

٥- ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾:

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: بضم الراء وكسرها قراءتان سبعيتان[4]، ومعناهما متقارب، ويُطلق الرِّجْز على العذاب[5]، قال تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ

(١) كما في حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ عُرضوا عليَّ، وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغُ الثُّدِيَّ، ومنها ما يبلغُ دونَ ذلك، وعُرِضَ عليَّ عمرُ وعليه قميصٌ اجترَّهُ». قالوا: فما أوَّلْته يا رسولَ الله؟ قال: «الدِّينَ». ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٩١، ٧٠٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ينظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٦)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٨٥٧)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٥/ ٢١٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٠)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٥٩)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ١٠٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٥٨).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٠٦- ٤٠٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٦- ٦٧).

﴿مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ [الأعراف: ١٣٤].

ويُطلق على الأصنام[1]، والنبيُّ ﷺ لم يسجد لصنم في الجاهلية قط، ولا طاف ولا تمسَّح به، فيكون تأكيدًا لترك الأصنام، ودعوة إلى الثبات على ذلك.

وهجر الأصنام: البعد عن كل ما يلابسها؛ كعدم الأكل مما ذُبح للأصنام، وقد كان النبيُّ ﷺ لا يأكل مما ذُبح على النُّصُب[2]، وكان قبل البعثة بمعزل عنها، حماه ربه من كل ما كان عليه أهل مكة من عبادتها أو التقرب إليها أو الذبح لها أو القسم بها أو النذر أو الاستقسام أو غير ذلك من صور التعظيم.

وقد يكون من معاني هجر الرُّجْز- وإن لم أجد مَن ذكره في هذا الموضع-: عدم سبِّها بما يُفضي إلى سبِّ الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فهذا كقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾، وكان ﷺ حريصًا على هدايتهم واختيار أفضل الطرق لدعوتهم.

ويُطلق الرُّجْز على الشيطان وعلى المعاصي[3]؛ ولذا وصف الله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها رجس من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]، والاجتناب: الهجر[4].

وكان ﷺ مجتنبًا لكل هذا، حتى قبل أن يُبعث[5]، فالآية تحمل الثناء عليه

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «مسند الطيالسي» (٢٣١)، و«مسند أحمد» (١٦٤٨)، و«صحيح البخاري» (٣٨٢٦، ٥٤٩٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ١٣٠- ١٣١)، و«العواصم والقواصم» (٣/ ٢٣٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٦٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٧/ ٢٥).

(٥) ينظر: «فتح الباري» (٧/ ١٤٤)، و«خاتم النبيين» لأبي زهرة (١/ ١٥٨).

بامتثاله أمر الله، حتى قبل أن يُوحى إليه، وتحمل تأكيد الاستمرار على ذلك، وتحمل دعوة الناس جميعًا إلى هذا.

٦- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾:

أي: إذا أعطيت فلا تَمُنَّ، وقد كان ﷺ كريمًا معروفًا بالعطاء والسَّخَاء قبل البعثة وبعدها[(١)].

تَــراهُ إذا مـا جِـئـتَـهُ متهَلِّلًا كأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أنت سائِلُه[(٢)]

ما قال: «لا» قطُّ إلَّا في تشهُّده لولا التشهُّد كانت لاؤه: «نَعَمُ»[(٣)]

وفي الحديث أن خَدِيجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت له: «والله، لا يخزيك اللهُ أبدًا؛ إنك لَتَصِلُ الرحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتعينُ على نوائب الحقِّ»[(٤)]. فهذه بعض خصاله قبل بعثته[(٥)].

فهو هنا يقول: لا تنتظر من الناس أن يردُّوا لك أكثر مما أعطيت[(٦)].

وقيل: هذا خاصٌّ بالنبي ﷺ، وأما عموم الأمة فللإنسان أن يعطي ويُهدي هدية ويرجو أكثر منها[(٧)].

والمعنى الأوسع: لا تنتظر من الناس ردَّ الجميل، فليس مؤكَّدًا أن يردُّوا لك الجميل، والذي ينتظر ردَّ الجميل ربما يُصدم بأن كثيرًا من الناس يقابلون الإحسان

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٣١٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما سُئل رسولُ الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة».

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص٩٢).

(٣) ينظر: «ديوان الفرزدق» (ص٥١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة الضحى»: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤).

(٧) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٥٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٩٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥).

بالإساءة.

لا تَغْتَرِرْ ببني الزمانِ ولا تَقُلْ عند الشدائِدِ: لي أخٌ ونَدِيمُ
جربتُهم فإذا المُعاقِرُ عاقرٌ والآلُ آلٌ والحَمِيمُ حَمِيمُ[1]

ويقول عنترة[2]:

نُبِّئْتُ عَمرًا غيرَ شاكِرِ نِعمَتي وَالكُفرُ مَخبَثَةٌ[3] لنَفسِ المُنعِمِ

فالإنسان الذي يعطي الناس وهو ينتظر الردَّ سوف يفاجأ بعكس ذلك.

والأب ربما يفقد ثقته بأولاده فيقول: ربيتهم صغارًا ثم أهملوني كبارًا، وتجاوزوني ونسوا فضلي، والشريك والأخ والزوج والمولى وابن العم والجار.. فكيف بالبعيد؟!

ولذلك نهانا الله عن المَنِّ بالعطاء وانتظار الجزاء من الناس، وأمرنا بالإخلاص واحتساب الأجر، وحكى قول المؤمنين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]، ومَن أعطى وهو ينتظر ويرجو أن يكسب قلوب مَن أعطاهم، وأن يقفوا معه في الشدائد، أو يوافقوه في دعوته، فسيطول انتظاره ويخيب رجاؤه كثيرًا، وربما حمله ذلك على الانقطاع عن العطاء؛ لأن الوقائع سوف تثبت له أنهم يجاملونه ثم يتخلون عنه ويتنكرون أو يجدون مَن يعطيهم أكثر.. أما إن أعطاهم إيمانًا واحتسابًا، فلن يتوقف عن العطاء مهما وجد من النكران.

ومن معانيها: أَلَّا تنتظر من الناس جزاءً ولا شكورًا على دعوتك لهم إلى الخير والبر وعبادة الله[4]، وقد عَلِمَ ربنا سبحانه أن النبيَّ ﷺ مقبل على مهمة جليلة جسيمة هي الأكبر في التاريخ، فهو قائد أكبر حركة وأكبر نهضة وأعظم أمة، فكم أجرى تعالى على يديه من الخير لمَن آمن به وحتى لمَن لم يؤمن به! فهو رحمة

---

(١) ينظر: «معجم الأدباء» (٥/ ٢٢٠٧)، و«الوافي بالوفيات» (٢٤/ ١٠٠) منسوبًا إلى الحريري.

(٢) ينظر: «ديوان عنترة» (ص٨٣).

(٣) أي: مفسدة. ينظر: «تاج العروس» (٥/ ٢٣٥) «خ ب ث».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤).

للعالمين، وعليه أَلَّا ينتظر من الناس ردَّ ذلك، فلا يستكثر ما أَعْطَى، فمهما أَعْطى فهو قليل، وفي ذلك تربية للمسلم لكي لا يكبر في عينه عمله؛ لأن هذا قد يفضي إلى العُجب بالعمل، وبعض الدعاة إذا ألقى كلمة في مسجد خُيِّل إليه أن هذه الكلمة سوف تُغير وجه التاريخ.

وقد يعمل أحدنا العمل اليسير، كالاستغفار، وهو مطلوب، ويظن أنه عمل شيئًا لم يأت به الأولون والآخرون، وقال الشاعر(١):

وإنِّي وإن كنتُ الأخيرَ زَمَانُه ... لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ

عليك أَلَّا تستكثر العمل الذي تقوم به، فهذا مما ربَّى الله تعالى عليه نبيه محمدًا ﷺ، وسواءً كان هذا مع القريب؛ كالعلاقة بين الزوجين، أو بين الآباء والأبناء، أو بين الشركاء، أو بين التلاميذ والشيوخ، أو بينك وبين سائر الناس.

وعلى المسلم أَلَّا يطلب رد الجميل الذي عمله، وأَلَّا يستكثر العمل الذي قدَّمه، بل يحمد الله الذي وفَّقه إليه، وجعل بعض حاجات الناس عنده، واستعمله في خير أو إحسان.

* ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾:

وهي خاتمة الوصايا، والصبر هو إِكْسير الحياة، وهي ضرورة للعبادة: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وضرورة للعلم والصحبة: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [الكهف: ٦٧- ٦٨].

وقدَّم قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الصبر المطلوب المثاب عليه هو ما كان لله تعالى، بخلاف الصبر من أجل مصالح الدنيا ومكاسبها، فهو تعالى أمر نبيه بأعلى درجات الصبر؛ وهي أن يكون صبره لله، ليس صبرًا للدنيا أو من أجل الحصول على نجاح أو مجد.

ومن معاني الآية الكريمة: الصبر لحكم الله(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ

---

(١) ينظر: «الحماسة المغربية» (١/ ٧٦٦)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٤٥٠) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(٢) ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٥٣٨)، و«روح البيان» (١٠/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٩).

رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨]، فالله تعالى هو الذي يحكم بين الناس، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩]، أي: لا تعجل بنفسك ولا تستعجل العقوبة لمَن أخطأ، ولا تستعجل الحكم ولا تستعجل الأمر(١).

وهذا مما يُبتلى به كثير من الناس، فيضعف إيمانهم بحكمة ربهم، حتى إن أحدهم لعجلته وقلة صبره كأنما ينازع ربه حكمه وتدبيره، والعبد يعجل والله تبارك وتعالى حكيم حليم لا يعجل لعجلة عبده.

ومنه الصبر لحكمه الشرعي؛ في أوامره ونواهيه، وأحكامه وتشريعاته، فهو من البلاغ المبين الذي أمره ربه أن يتمثله قولًا وفعلًا(٢).

فهذا المقطع الأول من السورة، وهو مجموعة وصايا تتعلق بالدعوة والأخلاق والعطاء والكرم وسلامة النفس والصبر، ومن لم يعمل بها فلن يستطيع أن يقوم بأمر الله حق القيام.

* ثم انتقل السياق إلى موضوع آخر، وهو التذكير بمعنى من أعظم معاني الرسالة؛ وهو البعث: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨﴾:

وهذه الآية الوحيدة التي فيها ذكر ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، وهو: الصُّور الذي يُنقر فيه، أي: يُنفخ فيه(٣)، كما قال الله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، وهو قَرْنٌ، أو بُوقٌ، الله تعالى أعلم بصفته.

وعند ما نقول: هو قَرْن، أو بُوق، فلا يذهب بك الظن والوهم والخيال إلى أنه من جنس ما تعرف من القرون والأبواق التي يُنفخ فيها، ولو حاولت أن تبالغ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٠٦)، و«تفسير الماتريدي» (٦/ ٩٣).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٩)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٠).

وتتصور بوقًا أو قرنًا بحجم مدينة أو بحجم الأرض أو.. أو.. فلن يفلح خيالك أن يتصوره، إنها مجرد كلمة للوصف أو التقريب، أما تصورها فكل ما خطر عنها بخيالك فأمرها أعظم من ذلك، والعقل قاصر عن تصور الأمر على حقيقته.

والخبر جاء مجملًا دون تفصيل، وهو ليس من أمر الدنيا ومادياتها، وإنما هو من أمر الغيب ومن أمر الآخرة، فلا يقدر قدره إلا الله تعالى، ومهما تخيَّل الإنسان فأحوال الدنيا لا تقاس بأحوال الآخرة.

والنَّقْر: هو الضرب والطَّرْق بشدة[1]، وهنا عبَّر بالنَّقر في النَّاقُور، وفي سور أخرى عبَّر بالنَّفْخ في ﴿ٱلصُّورِ﴾[2]، وهو أكثر، وهما لفظان لمعنى واحد، الله أعلم به، فنحن لا ندري كيف ينفخ حتى نقول: إن النَّقْر مختلف عنه، فهي من أمور الغيب التي يَصْدُقُ عليها أنها «نَقْر»، وأنها «نَفْخ»، وهو الصُّور، وهو ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، وإسرافيل عَلَيهِ السَّلَامُ هو الذي ينفخ، والله وحده هو الذي يعلم كيف ينفخ..

والمقصود: الاعتبار والخوف من هول ذلك الموقف، فهو ينقر في القلوب ويثير الفزع لدى الخلق أجمعين.

* ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾:

«**ذلك**» اسم إشارة إلى اليوم الذي نُقِرَ فيه ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، و«**إذا**» في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ تُوحي بالزمان، ففي صبيحة ذلك اليوم ينقر في ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، ومن عادة العرب أنهم يصفون اليوم بما يُلابسه من الأحوال، فيقولون: هذا يوم نَحْسٍ، كما قال سبحانه: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩﴾ [القمر: ١٩]، أو يقولون: هذا يوم سَعْد؛ لأنه يوم مبارك وجميل، ويقولون: هذا يومٌ عَسِير؛ لأن فيه صعوبات وعقبات، وهنا سماه: ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾؛ إشارة إلى تعسر الأمور فيه من كل وجه، وأن العُسْر سمة من أقوى وأظهر سماته.

---

(١) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ٤٦)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٥٤٢).

(٢) كما في «سورة الأنعام»: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣﴾، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ۝١٨﴾.

* ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾:

وهذا ليس تكرارًا، بل هو تأكيد، وتخصيص[١].

فهو ﴿عَسِيرٌ﴾ على الناس كافة، حتى يقول الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[٢]. «نَفْسِي نَفْسِي»[٣]، ولكن الله يقول: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح: ٦]، فثَمَّ وجوه من اليُسر للأخيار والصالحين، وإن كان ظاهرها العُسر.

أما الظالمون والمعاندون فليس لهم فيه وجه من اليُسر، بل هو ﴿عَسِيرٌ﴾ عليهم عُسْرًا لا فرج معه ولا بعده.

وفي الآية تلميح إلى وجوه اليُسر للمؤمنين؛ وهو رُكُون المؤمنين إلى رحمة الله وفضله وكرمه وعطائه، وشعورهم بأنهم موقوفون بين يديْ رحيم غفور[٤].

وهذا اليوم وعيد للكافرين وإنصاف للمظلومين، ووصفه بـ﴿عَسِيرٌ﴾ تكرر في مثل قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ٢٦﴾ [الفرقان: ٢٦].

ولعل من مناسبة ذلك أنه جزاء ما كانوا يكيدون به لرسول الله ﷺ، فيلقى بسببهم عناءً وعسرًا ومشقةً في تبليغ الدعوة، وقد علم الله أنهم سيضطرون نبيه وأصحابه إلى الهجرة ومفارقة أوطانهم وأولادهم وأموالهم، وأنهم سيلقون العَنَت والأذى، ويعزِّز هذا المعنى ما يرد بعده من التهديد لبعض معارضي الدعوة ومعانديها.

* ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١﴾:

أجمع العلماء على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة[٥]، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٣)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٦٥٧٣)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٨٣، ١٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٥٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٣٠).

(٥) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٦- ٤٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٣).

أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش- وكان ذا سِنٍّ فيهم- وقد حضر المَوْسِم، فقال لهم: يا معشرَ قريش، إنه قد حضر هذا المَوْسِمُ، وإن وفودَ العرب ستقدمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا، فيكذِّبَ بعضُكم بعضًا، ويردَّ قولُ بعضكم بعضًا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقولُ به. قال: بل أنتم، فقولوا أسمع.

فقالوا: نقولُ: كاهنٌ! قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّانَ، فما هو بِزَمْزَمَةِ الكُهَّان[1] ولا سجعهم.

قالوا: فنقولُ: مجنونٌ! قال: والله ما هو بمجنون، فقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخَنْقه ولا تخالُجه[2] ولا وسوسته.

قالوا: فنقولُ: شاعرٌ! قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشِّعرَ كله؛ رَجَزَهُ وهَزَجَه وقَرِيضَه ومقبُوضَه ومبسُوطَه، فما هو بشاعر.

قالوا: فنقولُ: ساحرٌ! قال: والله ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحرهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم.

قالوا: فماذا نقولُ يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله حلاوةً، وإنَّ أصله لعَذِقٌ[3]، وإن فَرْعَه لجَناةٌ[4]، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرفَ أنه باطلٌ، وإن أقربَ القول فيه أن تقولوا: ساحرٌ، فما يقولُ سحرٌ يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرَّقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسونَ بسُبل الناس حين قدموا المَوْسِم، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلا حذَّروه إيَّاه، وذكروه، فأنزل الله في الوليد من قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ

---

(١) أي: الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

(٢) التخالج: اضطراب الأعضاء وتحرُّكها من غير إرادة.

(٣) أي: كثير الشُّعَب والأطراف في الأرض. ورُوي: «الغَدِقٌ» أي: كثير الماء.

(٤) أي: فيه ثمر يُجنى.

خَلَقْتُ وَحِيدًا ...﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1] [المدثر: ١١- ٢٦].

ويؤكِّد هذه الرواية: خبر فُتور الوحي؛ فإن الوحي بدأ في رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ثم فتر، وكانت فترة انقطاع الوحي أربعين يومًا على الراجح، أي: إلى أواخر شوال أو أوائل ذي القَعْدة، وموسم الحج على الأبواب، وقريش يشعرون بأن الحج ربما يكون فرصة ليدعو النبي ﷺ الناس فيها إلى دين الإسلام، فكان لا بد أن يتفقوا على أمر يقولونه للحُجَّاج، وقد بدأت أوائلهم تصل إلى مكة، فاجتمعوا في ذلك الوقت ربما قبل الحج بشهر أو نحوه، واتفقوا على رأي الوليد بن المغيرة أن يقولوا: إن محمدًا ﷺ ساحر.

وكان زعيم هذه الفِرْية الوليد بن المغيرة، فيتصدَّى الله له، وينزل وحيه على نبيه ﷺ المهموم المغموم، فيقول سبحانه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: اتركني- يا محمد- وإيَّاه، ولا تحمل همَّه. وفي هذا تذكير الرسول ﷺ بمعيَّة الله له، وكأن الجانب واحد؛ فمحمد ﷺ مع ربه وربه معه، وهذا الوحيد الضعيف يحارب الله ويحارب رسول، فهو إلى هلاك.

وقوله: ﴿ذَرْنِي﴾ استخدام عربي معروف يُوحي بالتهديد، أي: دعه لي واتركني له، سأتولَّى أمره[2].

وجاء وصفه في الآية: بالوحيد، مطابقًا لما كان الوليد بن المغيرة يسمَّى به، فقد كان يسمَّى في مكة: الوحيد[3]؛ لأنه لم يكن أحد بمكة مثله؛ كان عنده عشرة من البنين، وقيل: ثلاثة عشر ابنًا من أكابر أبناء مكة، وهم شباب أقوياء يتعزَّز بهم،

(١) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص١٥٠- ١٥١)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص٢٣٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٩٨- ٢٠٠)، و«عيون الأثر» (١/ ١١٩- ١٢٠)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ١٥٥- ١٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٩- ٥٥٠)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٣- ١٥٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٥٤- ٣٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٣).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

وكان عنده أموال كثيرة، قيل: كان عنده أكثر من ألف ألف دينار من الذهب(١)، وكان يملك أراضي واسعة بين مكة والطائف(٢)، وكان له جاه كبير، ولبنيه من بعده، وكان كبير السن، فهو من أكبرهم سنًّا، وله عقل ورأي؛ ولذلك كان متوجًا موحدًا في منزلته، لا يوجد في مكة مثله.

وهنا وصفه بالوحيد، ولكن بطريقة أخرى، فالله خلقه في بطن أمه وحيدًا، وأخرجه من بطن أمه وحيدًا فردًا لا أحد معه(٣)، كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

* ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾:

أي: أنعمت عليه وأعطيته مالًا طويلًا عريضًا كثيرًا(٤)، فهو أكثر الناس مالًا، ليس بكَدِّه وكسبه، بل بما رزقه الله، وهو يدري أن أمواله غالبها يعتمد على الماء النازح من الأرض أو النازل من السماء، وعلى تجارة تنميها الكعبة بقدسيتها وتعتمد على الحجاج والمعتمرين والزوار المتنابين لمكة.

* ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾:

أي: كثيرين، قيل: كانوا ثلاثة عشر ابنًا لا يغيبون عنه، بل هم شهود حاضرون، ملازمون له، قد كُفُوا إدارة المال بالخدم والعبيد، فلا يحتاجون إلى سفر يخشى عليهم فيه من مخاطر السفر ومغبته، فهم عند أبيهم، وهو يتعزَّز بهم إذا جاءه ضيوف أو حلَّت به مصيبة(٥)، والعرب كانت تفاخر بكثرة البنين.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧١)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٧٠)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٢٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٣)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٦).

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٤).

* ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾:

تقول: هذا طريق ممهَّد، أي: مذلَّل مسهَّل ليس فيه عقبات، ومنه: مَهْدُ الصبي؛ لأنه يُمهد فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾ [الروم: ٤٤]، فالمهد، والمهاد، والتمهيد: التسهيل، أي: سهَّلتُ له تسهيلًا، فكل شيء مسَهَّل له؛ المال والصحة والفراغ والولد والأزواج والجاه، كل ما يريد وما يتمنى موجود(١).

* ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾:

أي: بعد هذا كله يطمع أن أزيده في الدنيا(٢)، فهو يفكِّر كل يوم بالمزيد من الأرباح والمكاسب والصفقات، ولا يخشى النقص أو الفوات، ولا يفكِّر بالخسارة في ماله أو في ولده أو صحته وعافيته.

و«الطمع يُذهب ما جمع»، وهذا نهي عن أن يكون الإنسان طمَّاعًا طموحًا في أمر الدنيا مع ما رزقه الله، وأنه ينبغي أن يكون طمعه وطموحه في أمر الآخرة، فالإنسان لا يُذم بأن يكون عنده طموح أخروي، بل بالطمع الدنيوي الذي يفضي إلى التعدي على حقوق الآخرين، أو بنسيان الآخرة والغفلة عنها.

والتعبير بالطمع فيه معنى الذَّم والعيب؛ لأن الطمَّاع مثال الدَّناءة والخِسَّة، بخلاف طمع الآخرة، فهو رُقِيٌّ ونُبل، كما في استخدام لفظ: الطمع في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ [الشعراء: ٥١]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقوله: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: ٤٦].

وفيه إشارة إلى أنه يدرك أن المال من الله سبحانه؛ ولهذا فهو يطمع من الله أن يزيده، فهم مُقِرُّون أن الأصنام لا ترزقهم، وإنما يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله زلفى، كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٥).

* ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾ أي: لن أزيده، وقد كان طمعه في الدنيا في المجد والملك، وطمعه في الآخرة أن يقول: إذا بُعثت فسوف أكون أكثر الناس مالًا وولدًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]، فأخبر سبحانه أنه لن يزيده، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، وهذا متضمن لكفرانه للنعم، فلم يكن كفره بسبب الجهل أو عدم بلوغ الرسالة أو نقص العقل والفهم، كلا، كان العناد والإصرار هو السبب في رفض الدعوة وجحد الآيات، وعبر بالجمع، فلم تكن آية واحدة، بل آيات كثيرة، وكما قال سبحانه عن آل فرعون: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

ويشمل هذا الآيات القرآنية التي تلاها عليهم النبي ﷺ، واعترف هو ومَن معه بصِدْقِها وقوتها وعظمتها، ثم تحايلوا كيف يصرفون الناس عنها.

ومنها الآيات القدرية والأحداث التي تجري، وفيها حِكَم وأسرار، ثم يعرضون عنها ولا يعتبرون[1].

ولذا كان الله تعالى يُبيِّن أن العقاب والعذاب على مَن عَلِمُوا ثم عاندوا وجحدوا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

* إن شكر النعمة هو سبب المزيد، يقول تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، وهذا كَفَر؛ ولهذا فالعذاب ينتظره، ولا شك أنه بعد نزول هذه الآية كان في انحدار وتسفل، ينقص ماله وولده، وتكثر همومه وغمومه[2]، فإذا توقف العطاء عن المزيد بدأ النقص والتراجع؛ ولذا جاء الوعيد بعدها مباشرة، ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢).

توعَّده بالإرهاق والتعب في الدنيا والآخرة، والإرهاق: الإتعاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ [الكهف: ٧٣]، أي: لا تحمِّلني ما لا أطيقه، والمعنى: سأكلِّفه وأُجهده وأُتعبه(١).

والصَّعود: صعود الإنسان لجبل وَعْر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ومنه العقبة التي في الجبل، فإن صعودها مرهق(٢)، والناس يسمونها: صَعْدة، كما سميت بذلك بعض المدن؛ لوعورتها(٣)، وهذه العقبة الشديدة التي توعَّدها الله تعالى للوليد بن المغيرة لم يسمها: صَعْدة، بل: ﴿صَعُودًا﴾، على صيغة المبالغة؛ لشدتها وكلفتها؛ لأنه كَفَرَ ورمى النبيَّ ﷺ بالسحر، فالله سوف يرهقه صَعُودًا، وهذا عقاب دنيوي، فتكون الأمور صعبة عليه مشدَّدة، كلما جاء إلى طريق وجده مغلقًا، وهذا مقدمة لعذابه في الآخرة.

وقد نُقل عن ابن عباس وأبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهما أن ﴿صَعُودًا﴾: جبل في النار(٤).

وهذا لا يُعارض ما نُقل عن جماعة من السلف من أن المقصود: العذاب(٥)، فيشمل العذاب في الدنيا قبل العذاب في الآخرة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

فالعذاب الدنيوي هنا من نقص الولد والمال وتعسر الأمور بسبب عدم الشكر لنعمة الله عليه بالمال والولد وكان عنيدًا.

* ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾:

أي: أعمل فِكْره وعقله، والتفكير بحد ذاته ليس أمرًا معيبًا، بل هو مطلوب،

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٦).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٨٤) «ص ع د»، و«شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» (٦/ ٣٧٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٧).

(٣) ومن ذلك مدينة: «صَعْدَة» في اليمن. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٢٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٧).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٥٦)، والمصادر السابقة.

وهو من المساءلة والمسؤولية والمؤاخذة لهذا ولغيره أن يستخدموا ما أعطاهم الله من الفكر والعقل في العناد وجحد الحق، وإلا فالله تعالى وعَظَهم بأن يتفكروا، وقال لهم: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، والعقل الصحيح الرشيد لا يخطئ، والفكر الصحيح الرشيد لا يخطئ، وإنما يخطئ إذا تلبَّسه الهوى.

هذا الوحيد المغرور قد فكَّر وقلَّب الأمور على وجوهها؛ لينظر أنسب وصف يمكن أن يصف به النبيَّ ﷺ؛ ليصرف الناسَ عنه، وعَقَدَ حلقة نقاشية استمع فيها لآراء القوم، لينتهي إلى اختيار أقروه كلهم واعتمدوه، أن يقولوا: إن النبي ساحر، ويعتمدوا في هذا على ما يجري حين يسلم بعض الشباب، فيثور عليهم ذووهم وأهلوهم، ويكون ذلك سببًا في مفارقة الزوج لزوجته وكذا العكس، ومفارقة القبيلة، فهذا إذًا يفرِّق بين الناس بدعوته(١).

ومع التفكير فهو قد قدَّر وحسب حساباته فيما كان له من الجاه والمكانة، وماذا سوف يقول الناس عنه، وماذا سوف يخسر إذا لم يقل هذا.

التفكير هنا ليس حرًّا ولا متجرِّدًا، ولا إعمالًا للعقل السليم، بل هو تفكير مبني على التقدير.

* ويحتمل كلمة: «قدَّر»- والله تعالى أعلم-: التقدير، بمعنى: التضييق، أي: أنه لم يُفكِّر في الأمر تفكير الباحث عن الحق، وإنما ضيَّق على نفسه، فقصر تفكيره على ما يمكن أن يجيب به عن القرآن فقط، وحصر نفسه بين خيارات ثلاثة: إما سحر أو شعر أو كهانة، وحينئذ اختار واحدًا منها، ولو أنه وسَّع إطاره وفكَّر تفكيرًا حرًّا متجرِّدًا، فإن الله تعالى سيهديه إلى الصواب، والله سبحانه هنا لم يعبه بالتفكير، وإنما عاب عليه التقدير، فقال: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾: وهو دعاء عليه بالهلاك، وهذا جارٍ في لغة العرب مثل قولهم: ثكلته أمه،

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٠٩).

أي: هلك أو قتل، كما قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ [عبس: ١٧]، وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ [المنافقون: ٤]، فهذا دعاء عليهم(١).

وفيه معنى العتب وتعييب على فعلهم، فطريقته في التقدير كانت هوى وضلالًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠﴾ فيه تكرار، ولكن التكرار في القرآن يحمل على التوكيد(٢)، أو يحمل كل لفظ على أمر مختلف عن الآخر.

فالأولى: دعاء عليه بالهلاك؛ كيف كان تقديره وتفكيره حين قرَّر اختيار المال والجاه والدنيا على الدعوة والإيمان.

والثانية: دعاء عليه بخصوص الموقف حين قدَّر وقرَّر أن يقول: إن القرآن سحر والنبي ساحر، ويختار أمر التفريق بين الأحبة، وهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا الإفك لا ينطلي إلا على الجهلة الأغرار، ولكن التكرار والنقل يجعله سائغًا، خاصَّة عند القادمين لمكة لفترة محدودة، ومصالحهم مرتبطة بتجار قريش وسادتها.

* ثم ذكر تعالى تفصيل ما جرى، وكأنك تراه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾:

والمقصود بـ﴿نَظَرَ﴾: نظر العين، وليس نظر العقل فقط؛ ليكون زائدًا على ما أفاده ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾. و﴿نَظَرَ﴾ معناه: أنه كان يُقلِّب عينيه في الحضور، والإنسان الذي يتظاهر بأنه حَصِيف وعاقل وصاحب تفكير بعيد وتحليل عميق، يسكت ثم يُجيل نظره في الحاضرين، ويتأمَّل، فهذا يعطيه هَيْبة، ويعطيه فرصة لاستجماع فكره وصياغة كلامه، ويهيِّئ الحاضرين لاستماع ما يقوله(٣).

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٨).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٤٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٣٠- ٣٣١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٩).

* ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢﴾:

أي: طأطأ رأسه وقطَّب جبينه؛ إشارةً إلى صعوبة الأمر[1]، وأنه يحتاج إلى إعمال الفِكْر والذهن.

* ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ٢٣﴾:

هذه هي النتيجة، والإدبار قد يكون إدبارًا حسيًّا، بمعنى: أنه قام من المجلس منصرفًا، وقد يكون معنويًّا؛ بأن قرَّر بعد هذا التفكير المجْهِد والتقدير والنظر والعُبوس والبُسور، أن يُعْرِض عن الإسلام، وأن يستكبر، وأن يختار طريق الكفر والضلال[2].

* وهذا هو الذي كان منه ولُعن بسببه، ثم قرَّر تبعًا لهذا أن يفتري الفرية التي عنها يصدرون: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤﴾:

أي: هذا الذي جاء به محمد ﴿سِحْرٌ﴾ أخذه عن غيره؛ يُفرِّق به بين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، ويؤثِّر في نفوس مستمعيه، ويشلّ قدرتهم على التفكير؛ فما هو إلا أن يسمع أحدهم كلام محمد حتى يزول عقله ويتغير مزاجه.

وهذا الذي قاله مخالف للواقع الذي يشهد أن أصحاب النبي ﷺ كانوا أحسن الناس برًّا بآبائهم وأمهاتهم، حتى في حال الكفر، كما علَّمهم ربهم فقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥]. وكانوا أحسن القوم عقولًا وأسلمهم نفوسًا وأصبرهم على الحق وأطوعهم للحجة.

وادَّعى أنه ﴿سِحْرٌ﴾ قوي يغيِّر الناس بقوله وليس بنفثه وعقده، وأن محمدًا يأخذه عن أناس سابقين، فهو يقول: هو نوع خاص من السحر يعرفه أهل الصناعة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٦).

والتخصص.

وكم تنطلي مثل هذه التعبيرات على الجاهلين أو المتعالمين! وقال هذا لأن نصوصه فيها إعجاز وبلاغة، والعرب يعرفون ذلك، فخرج من هذا المأزق بقوله: إنه ساحر، أخذًا عن بعض مَن سبقوه.

* ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: هذا من كلام الناس، وهذا ما تفتق عنه ذهنه الفاسد!

* وبعد أن وصف الله تعالى موقف الوليد بن المغيرة من القرآن، وتزعمه للحرب الضَّروس الشرسة على نبي الإسلام، ذكر العقاب الذي توعَّده به في الآخرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾:

والصِّلِي هنا معناه: أن يدخل فيها كله[1]، كما قال الله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: ٧٠]، وكما في قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٥]، وقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٩].

فالمقصود: المَصْلِيّ التام الذي يُشوى كل جزء من جسده، وهو كان صاحب سفر وعزٍّ وجاه، يُوقد النيران في الشتاء ويصطلي بها من البرد، ويختار المكان الذي يريده قربًا أو بعدًا من النار، أما هنا فالأمر ليس بيده، بل بيد الله يُصليه هذا السعير.

و﴿سَقَرَ﴾ أحد أسماء النار، وقيل: هو اسم لإحدى دَرَكاتها، **قيل**: الدَّرَك السادس[2].

وهو أول موضع ذُكر فيه هذا الاسم لها، فكل مَن سمعها سوف يسأل: ما ﴿سَقَرُ﴾؟ **فالجواب**: أن لا أحد يدركها، فأمرها أعظم من أن يُحيط به عقل، أو

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٣)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٧)، (١٧/ ١٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١١).

يحدّه ذهن، أو يفهمه سمع، أو تدركه لغة، أو يلحقه خيال.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر(١).

* ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾:

هذه أوصاف ﴿سَقَرَ﴾؛ فهي ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾، وهذه كلمة جارية عند العرب، فيقولون: فلان لا يُبقي ولا يَذَر، أي: لا يترك شيئًا، والمعنى: لا تُبقي أحدًا ممن يستحق العذاب إلا أصابته(٢)، فهي لا تستثني منهم أحدًا، ولا تترك منهم شيئًا، ولا تتركهم وقتًا من الأوقات، فعذابها دائم لا يُرفع أو يُخفف، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أي: تلوِّح وتضرب أبشارهم، والبَشَر هي: الجلود، جمع بَشَرة، فهي تضرب جلودهم، فتُصيبها بالسواد والعذاب وتباشرها(٣)؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦]. وإنما سُمي الناس: بشرًا؛ لظهور بشرتهم، بخلاف الحيوانات التي تكون مغطاة بالشعر أو الوَبَر أو الصوف أو الريش.

﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ أي: يقوم عليها ويتولَّى أمرها تسعة عشر مَلَكًا ممن يعلم الله قوتهم وبأسهم، فهم قادرون على ما وُكِّلوا به مهما كان: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر مَلَكًا، أو تسعة عشر ألف مَلَك، أو ما شاء الله، ولم يأذن الله للبشر أن يعرفوا أكثر من ذلك؛ ولذا كانت عدتهم خوفًا وتقوى

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٢).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٨٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٢).

للمؤمنين، وفتنة للكافرين والمرتابين؛ فعند ما نزلت هذه الآية قابلها الملأ من قريش بالتهكُّم والسخرية، فقالوا: هذا عدد يسير. وقال رجل يقال له: أبو الأَشَدَّين الجُمَحي: خلُّوا بيني وبين خَزَنة جهنم، أنا أكفيكم مؤنتهم(١).

وجاء آخر فقال: كل ثلاثة منَّا على واحد، فإذا عجزنا عنهم فليس فينا خير(٢).

وأصبح هؤلاء الحقراء يوظِّفون العدد توظيفًا للسخرية بالنبي ﷺ وإيذائه، ولصدِّ الناس عن الدين، ولإثارة الشبهة في القرآن، وصاروا يتساءلون: لماذا لا يكونون عشرين أو ثمانية عشر؟! ولو كانوا تسعة عشر ألفًا أو أكثر فيمكن أن يُخاف منهم.

* ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾:

وأنتم لا تعرفون شأن الملائكة، ولم تروهم بأعينكم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وهكذا كل ما يُبيِّنه الله تعالى من العلم والوحي يختلف الناس فيه بحسب ما يكون في قلوبهم من المعاني، فمَن أقبل عليه بصدق استفاد وازداد إيمانًا، ومَن أعرض عنه وكذَّب به ازداد كفرًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: فهم خلق لا يعلمه إلا خالقه، وبيان عددهم في هذه السورة جعله الله فتنة للكافرين، بين مستقلٍّ ومستخِفٍّ ومتساءل.

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٨٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٧٠)، و«الكشاف» (٤/ ٦٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٩).

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: و﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فاليهود يعرفون هذا العدد، وهو مما استأثر به علماؤهم[1]؛ ولهذا جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ناسٌ من اليهود لأُناس من أصحاب النبي ﷺ: هل يعلمُ نبيُّكم كم عددُ خَزَنة جهنمَ؟ فقالوا: لا ندري حتى نسأله. فجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا محمدُ، غُلبَ أصحابُكَ اليومَ. قال: «وَبِمَ غُلبوا؟». قال: سألهم يهودُ: هل يعلمُ نبيُّكم: كم عددُ خَزَنة جهنمَ؟ قال: «فما قالوا؟». قال: قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا. قال: «أفغلبَ قومٌ سُئلوا عما لا يعلمون، فقالوا: لا نعلمُ حتى نسألَ نبيَّنا؟». ثم أخبرهم أنهم تسعة عشر[2].

فالنصُّ على العدد ليتيقن أهل الكتاب صدق النبي ﷺ، وأنه يوافق ما عندهم مما جاء في كتبهم ونزل عليهم، و«الاستيقان» هنا لا يعني أنهم آمنوا، بل استيقنوا وعرفوا أنه حق، ولكن لم يؤمنوا به؛ إما لأنهم يقولون: هو نبي العرب. أو لأنهم حسدوه، أو طاعة لكبرائهم وسادتهم[3].

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ فيقوى إيمانهم؛ لتواطؤ ما جاء به القرآن مع ما هو موجود عند أهل الكتاب؛ ولأنه جاء بعلم جديد فآمنوا بها، فزاد عدد ما آمنوا به، فإن الإيمان يزيد حتى في قدره؛ فإن قوة يقين الإنسان بالشيء تزداد كلما تضافرت الأدلة[4].

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يرتاب الكافرون والمشركون والوثنيون الجاهلون الساخرون المتخذون آيات الله هزوًا، وأمّا الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون فلا يرتابون في ذلك، ولا يؤثر فيهم أن يكون العدد تسعة عشر

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٢٧). وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٣٤٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٥).

(٤) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٩٦).

أو أقل أو أكثر[1]؛ لأن الإنسان لا يسأل مثل هذا السؤال، وإلا لكان يقول: لماذا السماوات سبع، والأرضون سبع؟ ولماذا فُرضت الصلوات؟

ومن آمن بالله آمن بأنه الخالق المُشرِّع ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فهذا يُؤخذ بالتسليم؛ ولا يدرك تفصيله بالعقل.

إن عقل المسلم عقل إيماني وليس عقلًا أسطوريًّا، عقل يؤمن بالغيب إذا جاء بالخبر الصحيح، ولكنه يقف عنده، ولا يؤمن بالأساطير والخرافات والأقاويل، وما لا يدل عليه دليل، ولا تقوم عليه حجة، وإن كان من المسلمين اليوم مَن تحولت عقولهم إلى عقول خرافية، تؤمن بالكهانة والتنجيم والخرافات والروايات المنكرة التي لا سند لها أكثر مما تصدق بالأخبار الصحيحة؛ وهذا بسبب غفلتهم عن القرآن وهديه وأدبه.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مرض الشك من الكافرين، وليس مرض النفاق؛ لأن النفاق لم يكن وُجد يومئذ[2].

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من أهل الكتاب أو من المشركين، فالذين يقولون هذا القول فئتان:

١- الشاكُّون الذين في قلوبهم مرض الشك، وهم غير مؤمنين، بل متردِّدون لا يجزمون.

٢- المكذِّبون ممن يعلن الكفر الصريح من المشركين أو أهل الكتاب.

وهؤلاء وأولئك يتساءلون: ماذا وراء هذا المثل؟ ولماذا ضربه الله؟

وهم وإن اشتركوا في القول، إلا أنهم متفاوتون في المنْزلة، فالأولون في مقام التردُّد والشك الذي يمكن أن يزول ويمكن أن يبقى ويزيد، والآخرون كفروا وأعلنوا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٤٠)، و«الكشاف» (٤/ ٦٥٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٠- ٧١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٤١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٢)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٧٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٧).

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: في مثل هذا؛ كعدد ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾، يقع الإضلال والهداية لمَن شاء الله تعالى من العباد، فتكون الآية الواحدة أو المعلومة الواحدة حجة لقوم وسببًا في زيادة إيمانهم، وحجة على آخرين وسببًا في زيادة كفرهم وتردِّيهم(١).

ويمكن أن يكون هذا خاصًّا بمَن ذكروا الله في قلوبهم ومَن بعدهم من الكافرين، فإن الشك قد يزول بهداية من الله، وقد يغلب على صاحبه فيضله الله.

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فلا أحد يعلم حقيقة مراده سبحانه بهذا العدد، ولا مدى قوتهم.

قال بعضهم: هؤلاء هم القائمون عليها، ولا يمنع أن يكون تحت الواحد منهم مَن لا يحصيه إلا الله من عدد الملائكة(٢)، كما جاء في الحديث، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُؤْتَى بجهنمَ يومئذ، لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كلِّ زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجُرُّونها**»(٣).

ولا ينحصر جنود الله في الملائكة فحسب، بل هم خلق كثير لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه؛ فمن جنوده الريح، ومن جنوده المطر، ومن جنوده البحر، ومن جنوده النجوم، ومن جنوده البشر، ومن جنوده الرعب والفزع؛ ولذا قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ أي: ﴿سَقَرَ﴾ التي سخروا من ملائكتها، ما ذكرها هنا إلا لتذكيرهم؛ حتى تُساق نفوسهم إلى الخير سوقًا بسياط الخوف والرهبة،

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٠)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٩٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورجَّح الدارقطني وغيره وقفه. ينظر: «الإلزامات والتتبع» (ص٢٢٧)، والتعليق على «مختصر صحيح مسلم» للمنذري (١٩٧٣)، وما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾.

والرغبة فيما عند الله(١).

* ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ٣٤﴾:

﴿كَلَّا﴾ هنا للنفي، وفيه معنى الردع والزجر عما ادَّعوه وقالوه وسخروا به(٢).

وهنا يُقسِم تعالى بثلاثة مخلوقات، لعلها بعض جنوده:

١- القمر: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾.

٢- والليل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾، و﴿إِذْ﴾ تعني: حين أدبر، وهي حكاية الماضي(٣).

٣- والصبح: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: حين يسفر، وهي حكاية الحال والمستقبل، فـ﴿إِذَآ﴾ ظرف للمستقبل، بخلاف ﴿إِذْ﴾(٤).

وهذه الثلاثة التي أقسم الله بها كلها نور أو على مقربة من النور، فأقسم بالقمر، وأقسم بالليل إذ أدبر وصار في آخره، وأقسم بإسفار الصبح، أي: إذا أضاء وعمَّ الكون.

فالقَسَم إشارة إلى كشف ظلمات الجاهلية والشرك وانتصار الإسلام، وفيه إيحاء وإيماء للنبي ﷺ بأن أمرك ظاهر ظهور الشمس والقمر، بيِّن بيان الصبح لكل ذي عينين، كما قال سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، فهناك ظلمات الكون، وهناك ظلمات القلوب والعقول، وبينهما ترابط.

* ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ٣٥﴾:

هذا هو جواب القَسَم، أي: ﴿سَقَرُ﴾ إحدى الأمور الكبيرة العظيمة، و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ جمع، والمفرد: كُبْرى، وقد يقال: كبريات(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٨٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٢).

(٤) ينظر: «حروف المعاني والصفات» (ص٦٣)، و«شرح المفصل للزمخشري» لابن يعيش (٣/ ١٢٠).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٧). وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١٥/ ٤٠٨)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٢٥٢)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (٣/ ١٨٩٦).

* ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾:

أي: نِذارة للناس جميعًا، وليس لبعضهم، ليس للعرب ولا لقريش ولا للناس في عصر الرسالة، بل للبشر كلهم جميعًا، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

* ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾:

أي: ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ في الطاعة، أو ﴿يَتَأَخَّرَ﴾ فيها، أو ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ للإسلام، أو ﴿يَتَأَخَّرَ﴾ في الكفر[١].

وفي ذلك إشارة إلى أن التقدم والتأخر معياره: التقوى والإيمان، وهذا لا يُعارض التقدم في العلم والمعرفة والحضارة، والبناء والتشييد والاقتصاد، والانتفاع من الكون، فهذا مما يأمر الله به، وهو من نتائج العبودية الحقة له سبحانه، فالإيمان بالله ليس هروبًا من الحياة ولا إعراضًا عنها، وإنما هو إعراض عن الحرام والمعصية.

* ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾:

كل النفوس ذلك اليوم مرهونة، والرَّهْن: الأسر والإمساك، ومنه رهن المال؛ بأن يرهنه شيئًا يؤتمن عليه ويضمن به حقه[٢]، كما قال: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾ [الطور: ٢١].

والرَّهْن هنا ليس لحسب ولا لنسب، ولا لأسرة ولا لبلد، وإنما بالعمل والكسب، فيطلقها العدل أو يوبقها الجَوْر[٣]؛ ولذا قال ﷺ: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو مُوبِقُها**»[٤].

---

(١) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٦٧) «ر هـ ن»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ١٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٤)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩﴾:

قيل: إن ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ هم: أطفال المؤمنين الذين ماتوا قبل الحُلُم، وقيل: هم الأطفال جميعًا، فهم في مأمن لعدم التكليف[1].

والأقرب ما عليه جمهور أهل التفسير؛ وهو أن المقصود بـ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾: أهل الإيمان والإسلام[2]، فإنهم يُحاسبون حسابًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨]، والنبيُّ ﷺ يقول: «مَن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب»[3]. وإنما يُعرض عليهم عرضًا، ثم يخلصون إلى الجنة برحمة أرحم الراحمين.

* ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١﴾:

يسأل بعضُهم بعضًا، والسياق يدل أن النفوس مرهونة في ذُعْر وخوف، في حين أن هؤلاء الناجين قد حَطُّوا رحالهم في الجنة، واطمأنوا على أنفسهم، فصاروا يتساءلون عن غيرهم.

وفي طيَّاتِ المعنى: أنهم أُقدِروا بقدرة الله على مخاطبة المجرمين، ومساءلتهم عن سوء مصيرهم، وما الذي قادهم إليه؛ ولذا وجَّهوا الخطاب إليهم مباشرة، والله تعالى ذكر في «سورة الصافات» قصة أحدهم: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٥٥٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٥)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقال في «سورة الأعراف»: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٥٠]، فعلى رغم البُعد بينهم، إلا أن الله تعالى ذكر محاورات ومخاطبات ومساءلات ونداءات فيما بينهم، وهذا مما لا يحيط به العقل، ولكن يؤمن به بموجب ما أخبر.

ونحن نرى اليوم كيف أن التقنية قرَّبت البعيد بمجهود البشر العادي، ووفق السنن والنواميس المادية، فكيف بأمر الآخرة الذي لا يخضع للنواميس الدنيوية؟! ولذا سَمَّى الله يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ [فاطر: ٣٢]، الذي ينادي فيه بعضهم بعضًا[١].

* ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾:

السَّلْكُ: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المَخِيط.

والمعنى: ما جعلكم مسلوكين في هذا السَّلْك؟! وما الذي أَوْدَى بكم في ﴿سَقَرَ﴾؟ وما أدخلكم فيها[٢]؟

فيأتي جوابهم، وهو دليل على أن السؤال لم يكن سؤال توبيخ وتبكيت، وإنما هو سؤال مستفهم: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ...﴾.

ولماذا يسأل المؤمنون عن هذا، مع أنهم يعرفون حقيقة الأمر؟

الجواب: يجوز أن يكون هذا سؤالًا لبعض أهل ﴿سَقَرَ﴾ الذين كانوا على الخير في ظاهر الأمر، مثلما جاء في حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: **«يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة، فيُلْقَى في النار، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النار، فيدورُ كما**

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٠٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٣١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٤/ ١٣٦).

وينظر أيضًا: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٢٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٩٦).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (١٩/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٩٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٤٧).

يدورُ الحمارُ برَحاهُ، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أَيْ فلانُ، ما شأْنُكَ، أليسَ كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1]. فعُذِّب بإتيانه للمنكر وتركه للمعروف، وليس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

أو سألوا أقوامًا لا يعرفونهم؛ لأن الخطاب بين أمم وقرون وأجيال في قديم البشر وحديثهم، وليس وقفًا على مَن كانوا في عصر الرسالة.

وقد يكون السؤال سؤال توبيخ وتبكيت، وهو جزء من عذاب الكافرين والظالمين[2].

* ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: تركوا الصلاة، وتَرْك الصلاة معناه: ترك العبودية لله، فهو إشارة إلى تركهم للعبادة، كما قال في وصف المؤمنين الناجين: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ٢٢].

* ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: تركوا الإحسان إلى الخلق، ودائمًا يُقرن الإحسان في طاعة الله بالإحسان إلى عباد الله، فيُذكر هذا وهذا لتربية المؤمن، فبقدر ما يكون عابدًا لله ينبغي أن يكون محسنًا إلى عباد الله، والصلاة قُرنت مع الزكاة في أركان الإسلام[3].

* ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

والخوض هو: الكلام الذي لا فائدة منه من القيل والقال، كما قال سبحانه: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٦- ٣٢٧)، والمصادر السابقة.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٨)، و«صحيح مسلم» (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة...».

فالغالب أن الخوض: الهذر، يلقى ناسًا يتكلمون فيتكلم معهم، ولا يشعر بأهمية الكلمة؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالًا، يرفعه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يَهْوي بها في جهنَّم»**[1].

وهذا ينطبق على ﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾ في المواقع الإلكترونية أو القنوات والحوارات أو المجالس العامة، الذين يلقون الكلام على عواهنه من غير رويَّة ولا تفكير، وقد يكون سخرية بآيات الله أو عباده الصالحين أو نصرة لباطل أو تعويقًا لحق دون تبين، بل لمجرد المجاراة والموافقة للأصدقاء أو النصرة بالباطل للظالمين أو الاسترزاق بالوقيعة والكذب والتشويه، ولا يستوي هؤلاء ومَن على كلمته نور وبرهان، يقولها نصرة لحق أو إزهاقًا لباطل.

* ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾:

وختم الله أوصافهم بذلك؛ لأنه أهم الأسباب كلها، فكأنه سبب لما قبله.

* ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾:

المقصود بـ﴿ٱلْيَقِينُ﴾: الحق الذي لا مرية فيه، أي: أتاهم اليقين بالموت[2]، والموت من اليقين، كما قال النبيُّ ﷺ: **«أما هو فقد جاءهُ اليَقِينُ من ربِّه»**[3]. أي: الموت، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

و﴿ٱلْيَقِينُ﴾: البعث ثم النار؛ فإنها قد أصبحت يقينًا؛ لأنهم رأوها عيانًا، ولم تعد مجرد خبر يُخبرون عنه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧]، ويمكن أن يقال: أتاهم الحق ثم الموت ثم النار، وكل من هذه الثلاث المتتابعة يقين يقوِّي ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ الذي قبله.

وكونهم كانوا يكذِّبون بيوم الدين حتى أتاهم ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ يدل على أن مقصودهم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٤٥٧) من حديث أم العلاء الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بـ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾: الخبر إذا تحوَّل إلى حقيقة، ولا مجال للمجادلة في وقوعه، فهو ماثِلٌ للعيان، وهكذا صار أمر الموت والبعث والعذاب بالنسبة لهم.

* ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾:

في هذا إشارة إلى أن المؤمن قد يُعذَّب، ولكن تنفعه ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، فمَن يُقصِّر في الصلاة، أو يخوض مع الخائضين، أو يقع منه ما يقع مما لا ينقض أصل الإيمان؛ عُرضة للعذاب، ولكن يخرج بـ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ من الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، أو برحمة أرحم الراحمين، بخلاف هؤلاء المكذِّبين، فلا يشفع لهم أحد، بل كُتب عليهم الخلود في النار.

* ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩﴾:

أي: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ بـ﴿سَقَرَ﴾، و﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ بالقرآن، و﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ بالآخرة ﴿مُعۡرِضِينَ﴾، فلا يلتفتون ولا يُصغون، مع أنهم كانوا يخوضون ﴿مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ في كل شيء، فإذا جاء الجِدُّ أعرضوا عنه أو خاضوا بالباطل والهزء والتكذيب(١).

* ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠﴾:

﴿حُمُرٞ﴾ جمع: حمار، والمقصود: حمار الوحش؛ لأنه هو الذي يُستنفر، بخلاف الحمار الأهلي، وحُمُر الوحش متوحِّشة سريعة النفور، وإذا نفر أحدها لحقه بقية القَطِيع بسرعة(٢)، وفي بعض القراءات: ﴿مُّسۡتَنفَرَةٞ﴾ بفتح الفاء(٣)، أي: أتاها مَن ينفِّرها، أو ما ينفرها، فهي مذعورة، ورواية حفص عن عاصم: ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾؛ لأنها في حالة نفار، يعني: هاربة.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٩)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥٤)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦٠)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٥٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٧٣- ١٧٤).

* ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾:

القَسْوَرَة جمع: قَسْوَر، وهو الصياد، وهذا هو قول جمهور المفسرين؛ لأن حمر الوحش تُؤكل، وهي من أفضل الصيد.

وقيل: القَسْوَرَة: الأسد، بلسان الحبشة، أي: فرَّت من الأسد(١).

والمقصود: أنها فرَّت من شيء تخافه، فهؤلاء الناس يعرضون عن الموعظة التي تنفعهم إعراض هذه الوحوش، وفي ذلك وصف لهم بأنهم شابهوا هذه الوحوش في شدة النفور عن الحق، وقوة الإعراض عن سماعه وقبوله.

وجدير بالتأمل أن الذَّمَ الآن على إعراضه عن أصل التذكرة والدعوة والقرآن، فلا يسوّغ إطلاق هذه الآية على مؤمنين أعرضوا عن موعظة عابرة؛ لشغل أو لسآمة أو لوجهة نظر، وأين هذا من ذاك؟!

* ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾:

بعدما شبَّههم بالحُمر الوحشية في حالة فرار ونِفَار، لا تسمع ولا ترى، أَضْرَبَ عن هذا المعنى ليشير إلى أن الحُمُر أحسن حالًا منهم من بعض الوجوه؛ لأنهم مع جهلهم ونفارهم مصابون بالكِبر والغرور والإعجاب بالنفس على غير شيء ومن دون سبب، فهم مثل العائل المستكبر الذي حُرِّمت عليه الجنة(٢)، فكل واحد منهم يقول: إنه لن يؤمن حتى ينزل عليه كتاب يخصه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهو دليل التكبر، ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وهو دليل الحسد، إذ يقولون: كيف يُبعث محمد ولا نُبعث نحن؟! وقالوا: كيف يأخذ بنو هاشم الرِّفادة والنبوة

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٩٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥٥، ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٠).

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامة، ولا يزكِّيهم، ولا ينظرُ إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ».

أيضًا؟! فلذلك أعرضوا.

والله لم يخبر أن ذلك إرادة كل مجموعة أو قبيلة، بل إرادة كل فرد ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ﴾، يريد أن يكون عنده ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ مكشوفة تقوم بها الحجة![1].

* وهذا تعجيز وتحكُّم وصدود؛ لأن القرآن حجة للجميع؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣﴾:

﴿كَلَّاۖ﴾ أي: لن يُؤتوا هذه الصحف المنشَّرة، فمَن هم؟! وبأي حجة يطلبون ذلك؟! فخلقتهم لا تؤهِّلهم لذلك، والمال والولد والوجاهة لا يؤهِّلهم لذلك، فهذا للدنيا متاع، والله تعالى يُؤتي النبوة مَن يشاء، فهم ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: ليس عندهم خوف، وإلا لآمنوا وأسلموا، ﴿لَّا يَخَافُونَ﴾ بسبب إعراضهم وخوضهم وشكِّهم، وإلا لو وُجد عندهم شيء من الخوف لحملهم على البحث والتحرِّي والاستعداد واليقظة.

* ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤﴾:

أي: لن يُؤتى أحدٌ منهم صحفًا منشَّرة، ولا يحلمون بهذا، فعندهم تذكرة واحدة هي ﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾، وهم من البشر، والنبيُّ ﷺ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، والقرآن ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: موعظة تدعو الغافل أن يتذكَّر فيؤوب، والعاصي أن يتوب[2].

* ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾:

فالمسؤولية على الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، وأعاد المشيئة إليهم، فلهم مشيئة التذكر أو الإعراض، وحجتهم بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] حجة داحضة، وهم قادرون على

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٠- ٤٦١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٤٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٩- ٤٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢١٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤).

أن يهتدوا باختيارهم كما ضلوا باختيارهم، وقد جعل الله تعالى لهم الإذن بذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

* ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: لن يُطاع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولن يُعصى إلا بعلمه، فالله أقام الحجة على الناس بالوحي، ثم وفَّق مَن شاء من عباده إلى سلوك السبيل وخَذَل مَن يشاء، وتلطَّف بمَن شاء من عَبيده، فسهَّل لهم الإيمان ومهَّده لهم تمهيدًا، وعاقب مَن يشاء من عَبيده بصدودهم وإعراضهم، فجعل مسلكهم صعودًا: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو سبحانه أهلٌ لأن يُتَّقى ويُخَاف بتجنب الشرك وكبائر الذنوب، وهو أهلُ المغفرة للمتَّقين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾(١) [الأعراف: ٥٦].

والتعبير هنا بـ﴿أَهْلُ﴾ متفرد، لم يرد في غير هذا الموضع في حقِّ الله سبحانه، يعني: صاحب ومستحق(٢).

ooo

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٨)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٤).

سُورَةُ القِيَامَةِ

*** تسمية السورة:**

تسمى: «سورة القيامة»، وهو اسمها في المصاحف، وكتب التفسير(١).

وسُمِّيت في بعض التفاسير: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾»(٢).

وسماها البعض: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾»(٣).

وفي هذا نظر؛ لأن المقصود بالتسمية التميز، وهذه التسمية لا تميزها؛ لأنها تصدق على «سورة البلد»: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾.

*** عدد آياتها:** تسعٌ وثلاثون آية عند جمهور العلماء، وهي أربعون آية عند الكوفيين(٤).

*** وهي مكية** بالاتفاق(٥).

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٨٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٨).

(٣) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٥٠)، و«معجم علوم القرآن» (ص٢٢٧).

(٤) واختلفوا في آية: ﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٩)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٦).

* ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾:

يستفتح سبحانه السورة بقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهو من حيث الظاهر نفي؛ لأن ﴿لَآ﴾ نافية، ومن هنا أخذ بعضهم المعنى على ظاهر اللفظ، وهو النفي؛ فيكون المعنى: أن الله تعالى لا يقسم بيوم القيامة، ولا يقسم بالنفس اللَّوَّامة، ولا يقسم بهذا البلد، ولا يقسم بمواقع النجوم(١).

وذهب الأكثرون- وهو قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وابن جرير الطبري- إلى أن الآية قَسَم(٢)، وهو الأصح، فهو تعالى يقسم بيوم القيامة وبالنفس اللَّوَّامة، وإن كان ظاهر الصيغة «النفي»، والدليل على ذلك أمور:

١- من حيث اللغة، فإنه جار على قواعد اللغة، فالإنسان إذا أقسم على شيء منفي فإنه يأتي بـ﴿لَآ﴾، كما لو قال لك إنسان مثلًا: إنك فعلت كذا وفعلت كذا، فقلت له: لا وربِّ الكعبة ما فعلته. فيكون فيه نفي، ومعناه القسم.

٢- أن ذِكْر المقسَم به آيةٌ على وجود القَسَم، فهو هنا أقسم ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وأقسم ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، كذلك أقسم ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، وأقسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾[الواقعة: ٧٥]، وأقسم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ [التكوير: ١٥]، فذِكْر المقسَم به يدل على وجود القَسَم.

٣- أن الله تعالى ضمَّن السياق إشارة للمقسَم عليه واضحة جلية أو منصوصة، وهو جواب القَسَم، وهو شيءٌ عظيم، كالقَسَم هنا على البعث، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٧]، فذكر الشيء المقسَم عليه- وهو البعث وعظمته- دليلٌ على أن الأمر فيه قَسَم.

وليس جيدًا أن يقال: إن ﴿لَآ﴾ هنا نافية للقَسَم، أو أن يقال: إنها زائدة، كما

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٤٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٨).

يقول بعضهم[١]، فليس في القرآن شيءٌ زائد، وإن كانوا يقصدون: أن لا إعراب لها.

وعادة القرآن القَسَم على أمور عظام، واستفتاح بعض السور بالقَسَم، وهذه منها، فالله تعالى يقسم بيوم القيامة، وهو يوم قيام الناس لرب العالمين، ويوم بعث الناس من قبورهم، وهي القيامة العامة التي يجادل بها المكذِّبون.

ويدخل في القَسَم: القيامة الخاصة، وهي قيامة كل فرد، كما ورد- وفي سنده ضعف-: «**إذا ماتَ أحدُكم فقد قامت قيامتُه**»[٢]. وقد جاء في صحيح السنة ما يشهد لهذا المعنى من قول النبي ﷺ في شأن غلام صغير: «**إن يَعِشْ هذا لا يدركه الهَرَمُ حتى تقومَ عليكم ساعتُكم**»[٣]. فالمقصود- والله أعلم-: القيامة الخاصة[٤].

فأنت نصيبك من هذه الدنيا هو عمرك المحدود، وقيامتك التي تخصُّك هي حينما ينهدم هذا الجسد بمغادرة الروح، كما ينهدم الكون في القيامة الكبرى، حيث يختل نظام الكون، ويُدمر ويتغير كل شيء.

* ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾:

هذا قَسَمٌ ﴿بِٱلنَّفۡسِ﴾، وقد أقسم تعالى بها في موضع آخر فقال: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧- ٨]، والمقصود: القَسَم بكل نفس، سواءً كانت نفسًا مؤمنة أو غير مؤمنة، فالقَسَم هو بما خلقه الله تعالى من النفوس، سواء أُلهمت فجورها، أو أُلهمت تقواها[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩١).

(٢) ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٤٣٦)، و«الفوائد المجموعة» (ص٢٦٧)، و«السلسلة الضعيفة» (١١٦٦، ٥٤٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٩٠)، و«فتح الباري» (١٠/ ٥٥٦)، و«إرشاد الساري» (٩/ ٢٩٧).

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٨)، وما سيأتي في «سورة الشمس».

وأقسم هنا ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: نفس المؤمن؛ وهي التي تلوم صاحبها، فإن كان مسيئًا لامته: لماذا أساء؟ وإن كان محسنًا لامته: لماذا لم يزدد إحسانًا؟ كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمنَ لا تراهُ إلا يلومُ نفسه؛ يقولُ: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ فلا تراهُ إلا يعاتبُها، وإن الفاجرَ يمضي قُدُمًا، فلا يُعاتبُ نفسه»(١).

والنفس اللَّوَّامة تحمل صاحبها على الطموح والتطلُّع للأفضل. وغالب نفوس الناس ليست ممحضة للخير ولا خالصة للشر، بل هي في برزخ بين هذا وذاك؛ تغريها الشهوة ثم تندم وتحْدُوها التوبة إلى الملام، وهكذا لا تستلم للشر، ولا تَسْلم منه!

وكما أن منازل الناس في الجنة مختلفة، وبينهم كما بين المشرق والمغرب، فكذلك هم في الدنيا في مقدار طموحهم وأعمالهم؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إني لأعلمُ آخرَ أهل النار خروجًا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولًا: رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ اللهُ: اذهب فادخل الجنةَ. فيأتيها، فيخيلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ: اذهب فادخُل الجنةَ. فيأتيها فيخيلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى، فيقولُ: اذهب فادخُل الجنةَ، فإن لك مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها- أو: إن لك مثلَ عشرة أمثال الدنيا**»(٢).

وكأن هذا الرجل كان في الدنيا من الناس الذين كلما فُتح لهم بابٌ من الخير تردَّدُوا وأحْجَمُوا وقالوا: لا مكان لنا. وإذا جيء لهم بمشروع خيري أو عمل أو إصلاح قالوا: ليس ثَمَّ مجال، فالمساجد مليئة والدروس مليئة وفرص الخير قد ضاقت بطلَّابها، فلا مكان لنا، حتى إذا وافوا الجنة وقيل لأحدهم: ادخل، يرجع ويقول: «وجدتُها ملْأى»!

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (١٦١٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٢)، و«ترتيب الأمالي الخميسية» (١٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٢- ٩٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن وراء هذا اللَّوم عمل وإنجاز وبر وخير، وكم استخرج الله به من نفس عبده من صدقة عظيمة لا يقدر عليها غيره، وبر بوالد، أو صلة رحم، أو عطف على مسكين، أو بحث عن أسباب المغفرة والتوبة، أو رحمة لملهوف رجاء أن يدخل صاحبها في عموم: «**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[1].

وكم وقع فيها من انكسار القلب، وتواضع النفس، والخوف من سوء العاقبة، وعدم الاعتداد بالعمل مهما كان.

ومن معاني ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾- كما قال ابن تيمية وابن القيم[2]-: التي تتلوَّم على صاحبها، والتلوم: التردد وعدم الاستقرار، وهذا من طبيعة النفس الإنسانية، فإن النفس متقلِّبة في الساعة الواحدة؛ بل في اللحظة الواحدة، ومشاعر الإنسان وأحاسيسه متردِّدة ما بين الغضب والرضا، والحزن والسرور، والتفاؤل والتشاؤم، والطمأنينة والقلق، والإيمان والشك، وسواها من الأحوال المتناقضة، وهذا أمرٌ جَبَلَ الله تعالى العباد عليه، حتى إن العبد في اللحظة الواحدة يجمع بين معصية وطاعة، فقد يسمع ما حرم الله أو يشاهد ما حرم الله، فيتذكَّر ويستغفر ويسبِّح، أو يركب سيارته لعمل مشبوه ويقرأ دعاء الراحلة، أو ينتظر موعدًا لا يرضاه إيمانه وهو يسبِّح ويستغفر، أو يسافر سفر معصية وهو يصلِّي ويصوم ويتصدَّق، وقد يلقى إنسانًا على غير طاعة ويدعوه إلى الإسلام فيسلم، أو يدعوه إلى التوبة من بدعة غليظة أو معصية ما كالمخدرات وهو مشارك له في معصية أهون منها، ولا يضيع عند الله تبارك وتعالى شيء، فهذه النفس متلاومة متحوِّلة متقلِّبة، وعلينا أن ندرك هذا في طبيعة الناس، فلا نعاملهم كما لو كانوا حجارةً أو حديدًا.

ولذلك سمِّي: إنسانًا، وسمي القلب: قلبًا؛ لتقلبه واختلاف أحواله.

وما سُمِّي الإنسانُ إلا لنَسْيِه ... ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ[3]

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ ...﴾ [الملك: ١٩].

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٩٤)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٧٨).

(٣) ينظر: «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي (ص١٨٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٢٤).

والله أقسم بالقيامة الكبرى، ثم بالنفس اللَّوَّامة؛ لأن القيامة الكبرى ليس المقصود بها: حشر الوحوش والبهائم، وإنما حشر الإنسان؛ ولهذا تكرر ذكره في هذه السورة خمس مرات؛ تنبيهًا على وظيفته، وما حمل من أمانة عظيمة.

* ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾:

لم يذكر السياق المقسَم عليه تصريحًا، بل جاء ضمنًا هنا، فالقَسَم على أن الله تعالى سيجمع عظام الناس، أي: سيبعثهم(١)، وهذا كثير، كما في «سورة الحاقة»، و«سورة القارعة»، وغيرهما.

والمقصود: الكافر أو المكذِّب، وقيل: إنسانٌ خاص، هو أبو جهل أو الأَخْنس ابن شَرِيق أو غيرهما من المشركين الذين كانوا ينكرون البعث(٢)، وقد كان أحدهم يأتي بالعظام، وهي رَمِيم، ويشير إليها ويقول: هل ستُجمع هذه العظام كلها؟ والله لا أؤمن حتى تجمع هذه العظام(٣)، والآيات وإن نزلت في معين، إلا أنها عامة تخاطب كل مَن ينكر البعث أو يشك فيه.

وجَمْعُ العظام تأكيد على البعث من جديد، فبعد جَمْعِ العظام تُكسى باللحم، **وأشار إلى العظام لأسباب، منها:**

١- أن العظام هي من أول ما يُخلق، كما قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

٢- أن العظام كما أنها أول ما يتكون من الإنسان فهي آخر ما يبقى منه، فيزول اللحم والشحم والدم، وتبقى العظام لفترة طويلة.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٠).

٣- أن أصل الإنسان من العظم، كما جاء في الحديث، أن النبيَّ ﷺ قال: «**وليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى، إلا عظمًا واحدًا؛ وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يركَّبُ الخلقُ يومَ القيامة**»(١). وعَجْبُ الذَّنَب: العظم المستدير الصغير الذي يكون في أسفل الظهر، فمنه خُلق الإنسان، ومنه يُبعث ويُركَّب(٢).

٤- أن سبب النزول هو إنكار المشركين للبعث، وربما كانوا يستبعدون جمع العظام بعدما تفرقت أكثر مما يستبعدون غيره، ويضربون بها المثل؛ لأنهم يرون عظام الحيوانات من الإبل والبقر والحمير وغيرها وهي مرمية ذات اليمين وذات الشمال بعدما تحلَّلت أجزاؤها وبقيت عظامها، فكانوا يحتجون على النبي ﷺ بهذه العظام.

وهذا دليل على القدرة الإلهية أولًا، ودليل على الإرادة ثانيًا، فالله تعالى قدير وقد أراد ذلك، وأخبر أنه سوف يجمع عظامهم، وذكر العظام خاصة هنا يحدث هزة نفسية في القارئ الحيّ المتحرك وهو يرى نفسه فجأة قد بلي وصار عظامًا متفرقة.

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية، الذاهبة في التراب، المتفرقة في الثرى، لإعادة بعث الإنسان حيًّا! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدًا وقوعه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾(٣).

* ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾:

فلن نجمع العظام فقط، بل نحن ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

وقد ذهب أكثر أهل العلم- وهو المنقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وسَعيد بن جُبير وعكرمة- إلى أن المعنى: أن نجعل يد الإنسان مُسَوَّاة بدلًا من أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٩٢)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٧٦٨).

تكون متفرقة بالأصابع، فتكون كخف الحيوان أو حافره بلا أصابع، فلا يستطيع أن يتناول بها شيئًا، أو أن يأكل بها ويشرب(١).

وذكر الشيخ محمد عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ في تتمة «أضواء البيان» أن جميع المفسرين على هذا، واستغربه، وقال: «وهذا في الواقع لم نفهم له وجهًا مع السياق»(٢).

والصحيح أن في المسألة قولًا آخر ذكره الزجَّاج وابن قُتيبة وعدد من أئمة اللغة، واختاره ابن القيم، وهو أن المعنى: أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان وعلى جمع عظامه حتى جمع الأطراف وتسويتها وإعادتها(٣).

والبَنَانُ: الأصابع، أو أطراف الأصابع(٤)، وفي هذا إشارة إلى كمال قدرته سبحانه.

وقد اكتشف العلماء المعاصرون أن البَصْمَة علامة فارقة بين البشر، فلكل إنسان بصمته، فلا يمكن أن يتفق اثنان في العالم في صفة تخطيط البَصْمَة، وفي ذلك إشارة إلى تحديد المسؤولية، بحيث: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ولا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، وإنما: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾ [الطور: ٢١]. كما يتعامل الناس بالبَصْمَة في الدنيا عند ما يحدِّدون المسؤول عن عمل ما، فيوم القيامة كل أحد يتحمل عمله خيرًا أو شرًّا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٦).

(٢) ينظر: تتمة «أضواء البيان» (٨/ ٣٧٢).

(٣) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص٢٠٦- ٢٠٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٤)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص١٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٧٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤١).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٧٧)، و«مختار الصحاح» (ص٤٠)، و«تاج العروس» (٢٤/ ٢٧٨) «ب ن ن».

* ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾:

والذين ينكرون البعث في الغالب ينكرونه لأحد أمرين:

١- شبهة عارضة في عقولهم، فهم يستبعدون هذا الأمر استبعادًا عقليًّا، ولهؤلاء جاء الجواب الإلهي بإثبات القدرة على تسوية البَنَان، فالذي خلق هذا الإنسان أول مرة قادر على أن يعيده، وعلى أن يسوِّي أدق التفاصيل فيه، وفي هذا إطاحة بالشبهة العقلية.

٢- شهوة، فإن من الناس مَن ليس عنده وقت ليفكِّر في مسألة البعث، ولا يريد أن يفكِّر؛ لأنه لا يريد أن يشغل بالَه بشيء يلهيه عن ملذاته، يريد أن ينطلق فيعبّ من الشهوات عبًّا، فيستمتع بشبابه وبحيويته وبالفرص المتاحة له، ويعبث بما تمكن منه من شرابٍ ونساءٍ ولذاتٍ، ولا يريد أن يسمع شيئًا يعكِّر عليه مسار حياته وعاداته وعلاقاته ونظامه.

وعن مثل هؤلاء تحدثت الآية الكريمة، وجاء حرف ﴿بَلْ﴾ للإضراب[1] والانتقال من سبب سابق- هو الشك في البعث- إلى سبب آخر هو أوسع انتشارًا وأعمق في نفوس كثيرين، وكأن الدافع الأقوى والأكبر هو إرادة الفجور، فأبرز كلمة ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مرة أخرى فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: يريد الفجور[2].

وفيه إشارة إلى تعلق الإنسان بالشهوة المستقبلة، وليس بالشهوة الماضية، فالشهوة التي مضت أصبحت حُلُمًا أو خيالًا أو وهمًا، وقصاراها أنها تغريه بالمزيد والتكرار وتلح على خياله وتمنعه التوبة، ولسان حالها يقول: كيف تدع متعًا جميلة مغرية متاحة في متناول يدك؟ ولو استحضر الآخرة، ومتعها ونعيمها وسرورها وخلودها السرمدي، لصغرت في عينه الشهوة الدنيوية، حتى لو كانت حلالًا، فكيف بالحرام؟

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٢).

يـأسَـفُ الـمَـرءُ على مـا فاتَهُ ... مِـن لُبانـات[1] إذا لَـمْ يَقْضِهـا
وتَـــراهُ فَــرِحًــا مُـسْـتَـبْـشِــرًا ... بالَّتي أَمضــى كَأَن لَـمْ يُمضِهـا
إنها عِـنـدي كـأَحـلامَ الـكَـرَى ... لقريـب بَعضُهـا مِـن بَعضِهـا[2]

والفجور: المعصية والفسق، والفاجر: العاصي، ومن معاني الفجور: التكذيب، والعرب يُطلقون الفجور على التكذيب، فيقولون: فلان فاجر، أي: كذَّاب[3]، لا سيما إذا حلف يمينًا بالله على شيء وهو كاذب.

* ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ⑥﴾:

أي: ومن فجوره: سؤاله هذا، والله تعالى يوثِّق عليه هذا الموقف، فكأنك ترى هذا الفاجر الذي فضحه الله وجرَّده وعرَّاه وعرَّى مشاعره ومقاصده، لا يزال متبجِّحًا متعاظمًا يسأل وكأنه عالـم أو محقِّق أو مدقِّق: متى يوم القيامة؟ وهو سؤال استبعاد واستنكار؛ ولذا جاء بأداة ﴿أَيَّانَ﴾، وهو أدلّ من «متى» على الاستبعاد.

ومن عادة الناس التعلق بالأرقام؛ ولذا يتحدَّثون عن الساعة الموعودة ويحاولون تحديدها وبالتقريب، فبعضهم يستنبط ذلك من الآثار النبوية، كحديث: **«مَثَلُ المسلمينَ واليهود والنصارى، كَمَثَل رجل استأجر قومًا، يعملونَ له عملًا إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار...»** الحديث[4]، وبعضهم يحاول استخراج أجلها المضروب من الحروف المقطَّعة في أوائل السور[5]، وبعضهم يحسبونها

(١) جمع: لُبانة، وهي الحاجة النفسية.

(٢) ينظر: «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (١/ ٣١٥)، و«نفح الطيب» (١/ ١١٩)، (٥/ ١٦١) منسوبًا إلى عمران بن حِطَّان.

(٣) ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٤٦- ٤٧)، و«تاج العروس» (١٣/ ٢٩٩- ٣٠٠) «ف ج ر».

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٨، ٢٢٧١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «مَثَلُ المسلمينَ واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجرَ قومًا، يعملونَ له عملًا إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجركَ. فاستأجرَ آخرينَ، فقال: أكملوا بقيةَ يومكم، ولكم الذي شرطتُ. فعملوا حتى إذا كان حينَ صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا. فاستأجر قومًا، فعملوا بقيةَ يومهم حتى غابت الشمسُ، واستكملوا أجر الفريقين».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٢٠)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٢٥٣- ٢٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦١).

بالنجوم.

وكله من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإن كانت أشراطها قد اقتربت وعلاماتها قد ظهرت، وقبل مدة خرجت علينا قصة: «هرمجدون» وأشراط الساعة الكبرى، وخرج كتاب يقول صاحبه: لم يبق إلا ستون سنة أو سبعون سنة على القيامة!

والله تعالى يريد من الناس ألَّا يتعلَّقوا بهذه الأوهام، وأن يصمدوا للحقائق؛ ولهذا لم يُجب الله عن السؤال بما يريد السائل، وإنما اكتفى بذكر ما يحدث فيها، وما يقول الإنسان، وما يترتب على البعث من سؤال وحساب، ونعيم وعذاب.

وهذا مثل قول الله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، فقد كانوا يسألون عن الهلال: لماذا يصبح صغيرًا ثم يكبر؟ فما أجابهم الله على السؤال بخصوصه؛ لأنه لا فائدة لهم أن يُخبروا عنه بالوحي، والوحي لم يأت ليخبرهم بتفاصيل الفلك، وإنما أخبرهم الله سبحانه عن الحكمة من وراء ذلك، فقال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فأخبرهم بالمقصد والمصلحة من وراء ذلك، وترك لهم أن يبحثوا: لماذا يبدأ الهلال صغيرًا ثم يكبر؟ فيدركوا ذلك بعلومهم وعقولهم ومحاولتهم[١].

* ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾:

﴿بَرِقَ﴾ أي: أصابه من البرق شيء، فعند ما يكون البرق شديدًا وينظر إليه الناظر فإن العين تتأثر وتنتكس الرؤية ولو مؤقتًا، ويقال: برقت العين.

وفي قراءة أهل المدينة بفتح الراء، وكلاهما قراءة سبعية: ﴿بَرَقَ﴾[٢]، كأن هذا ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ أصبح مشدودًا لا يطرف ولا يلتفت بسبب الهول[٣].

وهي من علامات القيامة، والجواب هنا يغني جوابًا عن السؤال عن أوانها.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦١)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٥٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٨٥- ١٨٦).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٤).

* ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ⑧﴾:

أي: ذهب ضوؤه[1].

* ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ⑨﴾:

قد يكون جمعهما: بأن يذهب ضوء كل منهما[2]، فاشتركا في الحكم.

أو أن المعنى: جُمع ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ معًا، بدلًا من أن تكون الشمس في جهة والقمر في جهة، فطلعت الشمس من مغربها، وأصبح القمر بإزائها.

أو يكون المعنى: أنهما جُمعا ثم أُلقيا[3]، كما ورد أن الشمسَ والقمرَ يلقيان في النار يومَ القيامة؛ ليُعذَّب بهما الذين كانوا يعبدونهما من دون الله ويبكتوا، فقال ﷺ: «الشمسُ والقمرُ مُكوَّران يومَ القيامة»[4]. ولا مانع من إرادة المعاني كلها، وأنها تقع في وقت واحد، أو في أوقات مختلفة، والله أعلم.

وذهب بعضهم إلى أن هذه العلامات تكون عند النزع والاحتضار قبيل خروج الروح[5]، وهذا مفهوم في قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾، لكنه غير واضح في قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، إلا إن قيل: إن هذا بسبب اضطراب حواس الإنسان، كما ذكره بعضهم، وهو بعيد.

والصحيح أن المقصود هنا ما أخبر الله عنه في غير هذا الموضع من علامات يوم القيامة حينما يخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر.

وهنا تلحظ أن الله تعالى لم يجبهم إلى ما سألوه؛ وإنما لفت أبصارهم إلى ما كان يجب أن يهتموا به ويستعدوا له، ونظير ذلك في السنة النبوية قصة الأعرابي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٦)، و«روح البيان» (١٠/ ٢٤٦).

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٦- ٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٦).

الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال له: متى الساعةُ؟ فقال له النبيُّ ﷺ: «وماذا أعددتَ لها؟». قال: لا شيء، إلا أني أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ﷺ. فقال: «أنتَ مع مَن أحببتَ»[1].

فلم يجبه النبيُّ ﷺ على خصوص السؤال؛ وإنما أجاب الإجابة المفيدة النافعة.

وقـائـلٍ: هـل عـمـلٌ صالـحٌ أَعْدَدْتَـه يدفعُ عنك الكُـرَبْ
فقلتُ: حسبي خدمةُ المصطفى وحبُّـه، فـ«المرءُ مع مَـن أحبْ»[2]

* ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾:

فهذه العلامات تقع يوم القيامة، وهذا الإنسان الذي كان يسأل قبل: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٦] هو نفسه الآن يقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟

والمعنى: أنه لا مفرَّ، فهو يتلفت فيرى الأمر صعبًا، والملائكة تحيط به من كل جانب، فيقول: لا مفرَّ، وهو كان يسأل بتبجح وتعاظم، والآن يسأل بخوف وذُعر.

* ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾:

ولعل هذا من قول الحق سبحانه جوابًا على سؤال: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، ويحتمل أنه من تمام كلام الإنسان، فهو يرجع إلى نفسه بالتأنيب والتذكير[3].

و﴿وَزَرَ﴾ في الأصل: هو الجبل أو الواقي، قال الشاعر[4]:

تَعَـزَّ فـلا شيءٌ عـلى الأرضِ باقيَـا ولا وَزَرٌ ممـا قَضَـى اللهُ واقيَـا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «الجواهر والدرر» (٢/ ٨٤٩)، و«شرح صحيح البخاري» للسَّفِيري (١/ ٤٠٨)، و«العقد التليد في اختصار الدر النضيد» للعَلْمَوي (ص٢٨٠)، و«المطالع البدرية في المنازل الرومية» لبدر الدين الغَزِّي (ص١٨٠)، و«ريحانة الألِبَّا» للشهاب الخفاجي (ص١٤٣) منسوبًا إلى الحافظ ابن حجر.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) ينظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٣٧٦)، و«اللمحة في شرح الملحة» (١/ ٤٨٥)، و«أوضح المسالك» لابن هشام (١/ ٢٧٥).

فالوَزَر هو: الشيء الذي يقي الإنسان(١)، وهنا لا شيء يقي الإنسان أو يمنعه من مواجهة الحساب.

والمؤازرة: المساعدة والمساندة، فالمرء هناك بلا حليف ولا أنيس ولا صاحب ولا أخ ولا قريب، واعتماده على ما قدَّم من عمل، أو ما ظن بربه من فضل ورحمة.

* ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾:

أي: أن الاستقرار موكولٌ إلى الله سبحانه، فهو الذي بعث عباده وجعل لهم هذا المستقر، فهذا فعله عَزَّوَجَلَّ.

أو أن الناس استقروا إلى ربهم وعادوا إليه.

أو أن الحساب والمصير إلى جنة أو نار بيده(٢).

وهو جواب مناسب لسؤالهم: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ فلا مفرَّ، بل الأمر ثابت مستقر واضح، وشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا فيه إمهال وإملاء، بل هو أمر صارم، والإنسان في مصيدة لا نجاة له منها، إلا بما أسلف.

* ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾:

وهذا شيء عجيب؛ أن يذكَّر الإنسان بما عمله هو، فكيف ينساه؟! كما قال الله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وبعض الناس يتناسى ويتجاهل، فينبَّأ يوم القيامة بما عمل.

وهذا الإنسان كان يريد أن يفجر أمامه ويمضي في طريقه دون تردد، في حين أن آخر لوَّام لنفسه يقدِّم رِجْلًا ويؤخِّر أخرى، وكل هذا أو ذاك مرصود مدوَّن، حتى الهَمُّ والنية(٣).

وينبَّأ فوق هذا بما حصل من أثر عمله بعد موته من خير أو شر، كما قال

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٦).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]، أي: من مضاعفة حسنات أو عظمة سيئات بأسباب عملوها ولم يتوقعوا أن تصير إلى هذا، فقد يرونه صغيرًا هينًا، وهو عند الله عظيم.

وربما قدَّم الإنسان الأعمال الصالحة فعملها في حياته، وأخَّر بعضها فلم يعملها وسوَّف؛ لأنه كان يمنِّي نفسه بالأماني والآمال، فأخَّر العمل حتى باغته الموت قبل أن يتمه(١).

أو يكون المقصود: ما قدَّم من الأعمال وما أخَّر من الآثار: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، كالسنن الحسنة، والعلم النافع، والولد الصالح، والصدقة الجارية التي بقيت بعد موته وحفظت له، أو ضد ذلك من سيئة جارية؛ فقد يوقف الإنسان مالًا في معصية أو بدعة، أو يسن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وكل ذلك صحيح وداخل في معنى الآية.

ومن ذلك: أن ينبَّأ بما قدَّم من المال وما أخَّر فتركه لورثته(٢)؛ «**فإن مالَ الإنسان ما قدَّم، ومالَ الوارث ما أخَّر**». كما قال ﷺ(٣).

* ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾:

فهو يوم القيامة بصير على نفسه، مبصر عارف بها، تشهد عليه جوارحه وأعضاؤه إذا جحد أو أنكر، كما في الحديث أن الإنسان يقول: «**يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقولُ: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقولُ: كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ شهيدًا، وبالكرام الكاتبينَ شُهودًا. قال: فيُختمُ على فِيهِ، فيقالُ لأركانه: انْطِقِي. قال: فتنطقُ بأعماله**»(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٥٥).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٤٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهو بصيرٌ على نفسه في الدنيا، وكثيرًا ما يجادل عن نفسه بالباطل، ويحتج ويعتذر، وهو في قرارة نفسه يعرف الحق، ولو أنه كان صادقًا مع نفسه، بعيدًا عن الخداع والتمثيل والتلاعب، لأدرك حقيقة الأمور التي يجادل عنها، كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: أعذاره[١]، وقد تكون جمعًا أو جمع الجمع؛ جمع مِعذار، أو عذر، ومهما اعتذر الإنسان فهو يعلم حقيقة هذا في نفسه.

وقيل: المعاذير: السُّتور[٢]، فلو وضع الستور وأرخاها عليه في الدنيا حتى لا يراه أحد، فهو بصير على نفسه، ولا يوجد عليه شهود، ولكنه يعرف حقيقة الأمر ويشهد على نفسه.

وورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن المعاذير بلغة اليمن: الثياب، أي: ولو أَلْقَى ثيابه[٣].

وهذا يحتاج إلى تأمل، وكأن المعنى: أن الإنسان ولو كان فيه نوع من الخبل أو الجنون يلقي ثيابه ويتعرَّى من شدة جنونه، فهو يعرف ما يضره وما ينفعه في كثير من الحالات مما يأكل أو يشرب أو غير ذلك، وهذا معنى ضعيف.

وفي هذا درس تربوي يحث الإنسان على أن يخلو بنفسه، يراقبها ويحاسبها، ويسلِّط على النفس اللَّوَّامة هذا المصباح الكاشف، بدلًا من أن يسلِّطه على الآخرين، كما يقول ابن كثير[٤]: «كان يقال: إن في الإنجيل مكتوبًا: «يا ابنَ آدمَ،

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٩٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٦١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٥٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٧).

تبصرُ القَذاةَ في عين أخيك، وتتركُ الجذع في عينك لا تبصره!»[1].

* ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾:

أي: بالقرآن، وكان النبيُّ ﷺ يتلقَّى الوحي، ومنه هذه السورة التي ربما نزل قبلها حوالي ثلاثين سورة، فكثرت السور، وكان ﷺ حريصًا على حفظها وإتقانها، حتى إنه من شدة حرصه إذا نزل عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يلقِّنه القرآن، يحرِّك شفتيه مع جبريل همسًا؛ ليتأكد من حفظها وضبطها، وخوفًا من النسيان.

وجاء أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حرَّك شفتيه، وقال: «أنا أحرِّكهما لكم كما كان رسولُ الله ﷺ يحرِّكهما». وهكذا فعل الراوي عنه، وهو سَعيد بن جُبير[2]، وهذا يسمى في مصطلح المحدثين: بالتسلسل، فالحديث المسلسل: ما تواطأ الرواة فيه على قول أو فعل أو صفة[3]، أي: حكى فعل النبي ﷺ بتحريك الشفتين.

وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، وكأن نزول الآية ووجودها في هذا السياق بسبب عارض؛ وهو تحريك النبي ﷺ شفتيه أثناء نزول هذه الآيات، فنهاه ربه عن ذلك وعن الاستعجال، وأمره بالإنصات والإصغاء، ولعله من ذلك أخذ النبي ﷺ حين خرج على الصحابة وهم يجهرون بالقرآن، فقال: «**إنَّ المصلِّي يناجي ربَّه** عَزَّوَجَلَّ، **فلينظرْ أحدُكم بما يناجي ربَّه، ولا يجهرْ بعضُكم على بعض بالقراءة**»[4].

---

(١) وقد رُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصواب وقفه. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٣)، و«تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة» (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «الاقتراح في بيان الاصطلاح» (ص١٨)، و«فتح المغيث» (٤/ ٣٩)، و«التقريرات السنية شرح المنظومة البيقونية» (ص٢٨)، و«تيسير مصطلح الحديث» للطحان (ص٢٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥٣٤٩، ٦١٢٧)، وابن خزيمة (٢٢٣٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه أبو داود (١٣٣٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٧) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأوله في «صحيح البخاري» (٤٠٥)، و«صحيح مسلم» (٥٥١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٩٧، ١٦٠٣).

* ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾:

فالله تعالى سوف يجمعه لك في صدرك، وسيجمعه في المصحف، وعد من الله حق، وقد حقَّق هذا الوعد بجمع المصحف في عهد أبي بكر الصديق، ثم في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، وظلَّت المصاحف موجودة في أيدي المسلمين، لا يختلفون في حرف منها، فجمعه في السطور، وجمعه في الصدور، وجعل المهمة الأولى للخليفة الأول هي جمع المصحف وضبطه بملأ من الصحابة وإجماع قاطع، وصار القرآن يحفظ متلوًّا عن ظهر قلب، ويحفظ مسطورًا في الصحف، كما وعد الله.

وهو هنا سماه: قرآنًا، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وفي موضع آخر سماه: كتابًا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، فأشار للكتاب قبل أن يُجمع؛ إشارة إلى ما سوف يحدث من ضبطه وجمعه، وإذا قيل: «القرآن» قصد به: «الكتاب»، وإذا قيل: «الكتاب» قصد به: «القرآن»، فالقرآن مجموعٌ محفوظ في هذا الكتاب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

* ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾:

أي: إذا قرأه عليك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾: اقرأ بعده كما كان يقرأ واعمل بمقتضاه[2].

وفيه تنبيه للتأدب مع الشيخ بالاستماع، وعدم الاستعجال في السؤال، والتأنِّي والتفهم، فقد أمر الله نبيه هنا أن يستمع إلى جبريل حين يلقي إليه الوحي، ثم يتبعه بعد فراغه بأن يقرأ كقراءته، وقد كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يعارض النبيَّ ﷺ القرآن في كل سنة مرة، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه عارضه مرتين[3]، حتى يضبط ويتقن

(١) ينظر: «فضائل القرآن» للمستغفري (١/ ٣٥١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٧-٦٠٨).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٦).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٢٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

القرآن.

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآيات: إن النبيَّ ﷺ كان يعاني من التنزيل والوحي شِدَّة، وكان مما يحرِّك شفتيه، فأنزل الله هذه الآية[1].

* ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾:

تكفَّل الله تعالى لنبيه ﷺ ببيان القرآن الكريم، كما قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ ولهذا فإن أعظم البيان: تفسير القرآن بالقرآن؛ فبعض الآيات يفسِّر بعضًا.

ويكون البيان بحديث النبي ﷺ وأقواله وأفعاله، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في التفسير ليست كثيرة؛ ليجتهد الناس في البحث والاستنباط، وليفهموا القرآن وفق لغة العرب، وعلى ضوء قواعد الشريعة، وكان النبي ﷺ يبيِّن القرآن بأفعاله، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فإن خُلُق نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ»[2]. ولما قال له ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩] سجد النبيُّ ﷺ، وقال: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ»[3].

لقد كان ﷺ يعمل بالقرآن، ويفسِّره بفعله، وعبادته، وخُلُقه، وعمله، وحياته كلها[4].

* ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾ بمعنى: حقًّا[5]، وهذا عتاب وتقريع وتوبيخ للكافرين، والغافلين من

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥، ٤٩٢٨، ٧٥٢٤)، و«صحيح مسلم» (٤٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدكَ، اللهمَّ اغفرْ لي». يتأوَّل القرآن. وينظر ما سيأتي في «سورة النصر»: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٦١).

المؤمنين، فبعدما ذكر أن النبي ﷺ كان يستعجل حفظ القرآن الكريم بترديده، ونهاه عن ذلك، وكأن العجلة طبيعة في الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١٧].

وهنا يتبين الفرق الهائل والبَوْن الشاسع بين مَن عجلته في الخير والقرآن والوحي، ومَن يتعلَّق بالدنيا العاجلة الفانية ويؤثرها على الآخرة.

وفي هذه الآية تقريعٌ وتوبيخٌ للكافرين على إيثارهم الدنيا وتركهم للآخرة، وليس العيب مجرد حبهم للدنيا أو رغبتهم في الخير العاجل، كما قال الشاعر(١):

إني لأرجو مِنكَ خَيرًا عاجِلًا والنَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ العاجِلِ

لكنهم يتركون الآخرة ويغفلون عنها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧]، فهذه وإن كانت عاجلة مقدَّمة لكنها قصيرة، والآخرة مؤجَّلة ولكنها طويلة، وهذه فانية وتلك باقية.

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾:

عبَّر بالوجوه؛ لأن الوجه مجمع كمال الإنسان، ومشاعر الفرح والحزن والغضب والرضا تظهر عليه، ويعبَّر عنها بلغة الوجه، فأحيانًا قد ترى إنسانًا فتسأله عن معاناته فينكرها، فتقول له: ملامح وجهك وحركة عينيك توحي بأنك تخفي شيئًا ما.

و﴿وُجُوهٌ﴾ هنا نكرة، والتنكير للتقسيم والتنويع(٢)؛ لأن وجوهًا كذا ووجوهًا كذا، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النضرة، أي: الجَمَال، قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤]، فهي جميلة حسنة، مشرقة مضيئة، تبرق بالسرور(٣)، كما قال ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه،

(١) ينظر: «ديوان جرير» (٢/ ٢٥٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٠٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨// ٢٧٩).

ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقهُ منه»[1].

مع أنه وقع ما أخبر الله عنه في أول السورة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾، وأصبح الناس في رعب يتساءلون: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟

* فهذه الوجوه لها ملجأ ولها مستقر، وتبين عليها علامة الفرح والغبطة والرضا والحُبور: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾:

أي: تنظر إلى جمال ربها في الجنة، فمنهم مَن ينظر إلى جمال الله وجلاله ووجهه الكريم في اليوم مرات، ومنهم مَن ينظر إليه في الأسبوع كيوم الجمعة، ومنهم دون ذلك[2]، فهم على درجات متفاوتون حتى في مقدار النظر ومتعته ووقته بحسب إيمانهم وأعمالهم[3].

والآية أثبتت نظر المؤمنين إلى ربهم، وهذا ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وهو الذي يفهم من قول الله تعالى عن المنافقين والكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي: «ما حجب الكافرين إلا لأنه أذن للمؤمنين»[4].

وجادل في ذلك أقوام[5]، وقد زلَّ في تفسيرها الإمام مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللهُ،

---

(١) أخرجه الطيالسي (٦١٨)، وأحمد (٤١٥٧، ١٣٣٥٠، ١٦٧٣٨)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦- ٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠- ٢٣٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وابن حبان (٦٦- ٦٩، ٦٨٠)، والحاكم (١/ ٨٦- ٨٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٤- ١٩٩) عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وينظر: «جزء فيه قول النبي ﷺ: «نضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فأدَّاها» لابن مَمَّك، و«نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص٣٣- ٣٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٠٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٠٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٩).

(٣) كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً لينظرُ في مُلكِ ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظرُ في أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلةً لينظرُ في وجه الله تعالى كلَّ يوم مرتين». ينظر: «مسند أحمد» (٤٦٢٣)، و«رؤية الله» للدارقطني (١٧٣)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطة (٧/ ١٥) (١٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٩)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٨٤١).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١١٧)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣١).

(٥) ينظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٣١).

وحسبُك به جلالةً وإمامةً في التفسير، فقد أخذ التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وله قدم صدق في الإسلام والعلم والمعرفة والخير، ومع ذلك قال في تفسير هذه الآية: «تنتظر الثواب من ربها»[1].

وهذه من زلات العلماء، ومع ذلك انظر إلى أدب الأمة في احترام علمائها، حيث لم يسقطوا كل عالم بخطأ وقع فيه، بل حفظوا مقامات الرجال، ولم يقعوا في أعراضهم، ولم يلمزوهم، ولم يتابعوهم على الخطأ؛ لجلالة أقدارهم.

ومما يدل على أنها تنظر إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنه عدَّى الفعل بـ﴿إِلَىٰ﴾، كما تقول: نظرتُ إلى الشمس، نظرتُ إلى القمر، والنبيُّ ﷺ لما سُئل: هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ قال: «**هل تُضارُّونَ في القمر ليلةَ البدر؟**». قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: «**فهل تُضَارُّونَ في الشمس، ليس دونها سحابٌ؟**». قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»[2].

* ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: كالحة مكفهِرَّة[3]، وهي كانت ﴿بَاسِرَةٌ﴾ في الدنيا، كما قال سبحانه في «سورة المدثر»: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾، فذاك الذي نظر وعبس وبسر في الدنيا حربًا على الحقِّ يُحرم من النظر إلى الله، ويكتب عليه العبوس والبسور في الآخرة.

* ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: تتيقَّن[4]؛ فالأمر يقينٌ لا شك فيه، و﴿فَاقِرَةٌ﴾: أمرٌ يكسر فَقَار الظهر[5]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٠)، و«فتح القدير» (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨١).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٠).

وهذا مثل يضرب، فإذا أصابت الإنسان مصيبة صغيرة تحملها، فإذا كانت عظيمة يقعد لها فيقال: فلان انكسر ظهره، أي: لا حيلة له، وكما قال الحُطَيْئَة(١):

وتلك لَعَمْرُ الله قاصمةُ الظَّهْر

أي: هذه الفاقرة التي تقصم الظهر وتكسره، فمصيبة الكافر يوم القيامة لا مصيبة أعظم منها؛ لأن فيها خسارة النفس والأهل والحرمان الأبدي السرمدي الذي لا يعوض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

* ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾:

وتكرار ﴿كَلَّآ﴾ هو مزيد من الوعيد والتهديد يعود إلى أولئك الذين يحبون ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ويتركون ﴿ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وينشغلون بزخارف عابرة عن الوجوه الناضرة، وهذا إيذان بالقيامة الصغرى.

ولم يذكر تعالى ما هذه التي ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾، لكن المقصود: الروح، أو النفس للمعرفة بالسياق(٢)، فيكون المعنى: إذا وصلت الروح إلى التَّرْقُوة، وبلغت الحلقوم، كما في الآية الأخرى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣].

والتَّرْقُوة: العظم المشرف في أعلى الصدر بين ثغرة النحر والعاتق، وللإنسان ترقوتان يمين ثغرة النحر وشمالها(٣)، وربما سميت بذلك لأنه يرتقي فيها النفس.

و﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾ ذكرهما هنا بالجمع؛ لأن أقل الجمع اثنان(٤)، ولأنه أجود وأجمل من التثنية، وقد يكون إشارة إلى عموم الناس(٥).

---

(١) ينظر: «فوات الوفيات» (١/ ٢٧٦)، و«الوافي بالوفيات» (١١/ ٥٤)، و«ديوان الحطيئة» (ص٤٦).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٧).

(٣) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٤٥)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٢) «ت ر ق».

(٤) ينظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٢/ ٢٢٢)، و«المزهر» للسيوطي (١/ ٣٩)، و«البُلغة إلى أصول اللغة» لصديق حسن خان (ص٨٠)، و«فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية» (ص٢٠٨-٢٠٩)، و«النحو الوافي» (١/ ١٤٩).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٨).

* ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾:

لم يذكر تعالى مَن هو القائل، بل جاء به على صيغة ما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأن القائل- والله أعلم- متعدِّد، فالملائكة فيما بينهم يتكلمون ويقولون: ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: مَن الذي سوف يرقى بهذه الروح وينزعها، ويذهب بها إلى الملأ الأعلى؟ فهم يتدبرون الأمر فيما بينهم، والناس لا يحسُّون بذلك(١).

وأهل الميت يبحثون عن الحيل، ويقولون: هل ثَمَّ راقٍ ينفث أو يقرأ على هذا المريض لعله يشفى(٢)، وقد أدركوا أن الطب لم يعد يجدي، وقد أعلن عجزه وإخفاقه في حالة هذا المريض، وإنما بحثوا عن السبب الإلهي الرحماني الربَّاني، فقالوا: لعل راقيًا يرقيه، فربما يكون الدعاء سببًا في الشفاء، كما جرت عادة الناس أن يفعلوا، وقد يكون من بركة القراءة والنفث على المريض أن تهدأ نفسه ويسكن، وكأنها نوع من الرعاية التلطيفية لمحتضر يعالج النزع.

قرأ حفص عن عاصم بالسكت عند ﴿مَنْۜ﴾، مثل قوله في «سورة المطففين»: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤]، وجمهور القراء على الإدغام: ﴿وَقِيلَ مَن رَّاقٍ﴾(٣).

* ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: أدرك المريض الأمر، وأيقن الفراق لهذه الدنيا وأهلها(٤)، وهو لم يصل إلى درجة المعاينة والنزع الأخير، ولكنه تيقن أو غلب على ظنه أن الأمر قد اقترب.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥١٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٢)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١١)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦١)، و«معاني القراءات» للأزهري (١/ ١٠٦- ١٠٧)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٥٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٩٣- ١٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٥١٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٠)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.

وما أشد ألم الفراق حين يكون المرء قد بلغ تمام النعمة عليه! فالأطفال صغار، والبيت جديد، والزوجة مشتاقة، والحياة جميلة، والآمال باقية!

* ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿ٱلسَّاقُ﴾ لها نبأ وخبر، وهما ساقان؛ فهناك الساق الحسية، وهو العضو المعروف، فتلتف إحدى الساقين بالأخرى، فالمريض تيبس ساقاه، وسوف تُلفُّ ساقاه في الكفن، فهناك التفاف حسي.

وفي مثل هذا المشهد تلتقي أمور متنوعة، تلتقي الدنيا بالآخرة في آخر مرحلة من الدنيا وأول مرحلة من الآخرة، وتلتقي الشدائد والأهوال[1]، حتى إن الرجل العظيم المتكبِّر المتجبِّر يكون في أضعف حال مكسورًا هزيلًا ضعيفًا محطَّمًا خائفًا مرعوبًا مجرَّدًا باكيًا حزينًا، والآخر المستضعف المؤمن يجد الراحة والسكينة وتتنزل عليه الملائكة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

* ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾:

فالمساق إلى الله، وليس هذا نهاية المطاف، فمن الناس مَن يقدم على ربه كقدوم الغائب على أهله بالبشر والسرور، ومن الناس مَن يقبل على ربه كالعبد الآبق يقدم على سيده:

قالوا: غدًا نأتي ديارَ الحِمَى ... وينزلُ الرَّكبُ بمغناهمُ
فقلتُ: فلي ذنب فما حيلتي ... بأيِّ وجهٍ أتلقَّاهمُ
وكلُّ مَن كان مطيعًا لهمُ ... أصبحَ مسرورًا بلُقياهمُ
قالوا: أليس العفوُ من شأنهم ... لا سيِّما عمَّن ترجَّاهمُ[2]

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٤١)، و«تاريخ الإسلام» (٤٧/ ١٩٥) منسوبًا إلى أبي الحسن السَّخاوي.

* ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾:

هذا حال صنف من الناس، ويظهر أنه ذاك الذي كان يقول: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٦]، ويحسب أن لن يجمع الله عظامه، فهو قد ترك التصديق، وتجرَّد من الإيمان، وقيل: ترك الصدقة[(١)].

والأقرب أنه لم يصدِّق بالإيمان[(٢)]، كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥- ٧]، فذكر الله التصديق بالقلب والعمل بالجوارح، وهنا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: كفر بالإيمان، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، وترك العبادات والأعمال، فلم يكن في قلبه إيمان، ولا في حياته عبادة وطاعة للرحمن.

* ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾:

فسجَّل عليه نقيض ما أمر به وطلب منه، وبعض الناس لم يؤمن بسبب أنه لم يأته بشير ولا نذير، ولا قامت عليه حجة، ولا بلغته دعوة، أما هذا فهو قد كذَّب وتولَّى عن عمدٍ وتقصد، فالتكذيب مقابل قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾، والتولِّي: الإعراض، مقابل قوله: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾.

* ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝٣٣﴾:

قيل: المراد به أبو جهل، والمعنى: يتبختر؛ افتخارًا بذلك، وقيل: ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ أصله: يَتَمَطَّطُ، وهو التمدُّد من التَّكسُّل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الدَّاعي إلى الحقِّ[(٣)].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٦)، و«تفسير السعدي» (٩٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٨- ١٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٢).

* وسجل تعالى عليه أربعة ذنوب، ثم هدَّده بأربع تهديدات، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ هذا تهديد، ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ تهديد آخر، ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ هذان تهديدان آخران(١)، أي: الويل لك، فهذه كلمة تهديد جارية في عرف العرب.

* ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾:

أي: هل يظن الكافر المكذِّب أنه سيترك ﴿سُدًى﴾، بلا أمر ولا نهي ولا شريعة؟!(٢).

هذا محالٌ في العقول: أن يخلق الله الخالق الحكيم الثقلين ثم يترك أهم ما يحتاجون إليه وهو الإيمان وما بعد الموت بغير بيان!

* ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: قطرةً من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، وهو المني، إشارة إلى ضآلة الإنسان وضعفه، ثم الله تعالى درَّجه في مدارج الكمال حتى وصل إلى ما وصل إليه.

وبداية خلق الإنسان، وما فيها من معان كثيرة مطوية، وكيف يكبر ثم يطغى ويريد أن يفجر أمامه ولا يبالي بوعد القيامة، وفي السياق نموذج للغة القرآنية التي تسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية للحاجة العلمية أو التربوية أو القانونية التي لا بد منها في بيان الحجة ووضوح التكليف، مع التسامي عن الدخول في التفاصيل التي لا حاجة إليها، فيُعبِّر عنها بأجمل عبارة وأوضح إشارة، كما يعبِّر تعالى عن إتيان النساء بالمس، فيقول: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، أو باللمس، فيقول: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، أو بالتغشِّي، فيقول: ﴿فَلَمَّا

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١١)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠٠).

تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وكما في قوله تعالى عن عيسى ومريم: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

* ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

انتقل من كونه نطفة إلى علقة من دم أحمر تلتصق وتعلق بجدار الرحم، ثم تم الخلق والتسوية، وأنشأه الله تعالى إنسانًا بسمعه وبصره وقيامه وقعوده، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٧].

وللتسوية معنى بديع، والإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لو وُجد عنده عيب في شعره أو ظفره أو سِنِّه أو جلده أو شفته، فإنه يشعر بالحرج البالغ، مع أن الله خلقه في أحسن تقويم، وربما غفل عن أسرار الجمال والكمال في الصنعة الربانية.

ولو أن الإنسان سأل نفسه عن خلق العينين والأنف والشفتين والوجه والشعر واليدين والأصابع والأظفار والقدمين، فضلًا عن القوة الخفية من قوى السمع والبصر والأجهزة العصبية والهضمية والتناسلية والمخ وغيرها لوجد حقائق مذهلة، يقف الناس أمامها حائرين.

* ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾:

والزوج: يُطلق على المرأة والرجل، فالرجل زوج والمرأة زوج[1]، وهذه حكمة لله في بقاء النسل على ظهر الأرض، وشاء الله أن يتكامل الخلق من البشر وغيرهم، وتتقارب نسبة الذكور والإناث؛ لتستمر الحياة وفق مشيئته إلى الأجل الذي ضربه لعباده.

* ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

وهذا دليل عقلي على البعث، فالقادر على ابتداء الخلق قادر من باب أولى

---

(١) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٧/ ٥٢٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٤)، و«تاج العروس» (٦/ ٢٠) «ز و ج».

على إعادته.

وقد رُوي أن النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه السورة في الصلاة قال: «سُبحانكَ فبلى»[1]. أي: بلى ربنا قادر على أن يحيي الموتى.

○○○

(١) أخرجه أحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، والبيهقي (٢/ ٤٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٨٨٤)، والبيهقي (٢/ ٤٤٠)، والبغوي (٦٢٤) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي إسناده انقطاع، وله شواهد مرسلة. وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (١/ ٤٠٧-٤٠٨).

سُورَةُ الإنسان

*** تسمية السورة:**

تعدَّدت أقوال العلماء في تسميتها: فسُمِّيت في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾»، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبيُّ ﷺ يقرأُ في الجمعة في صلاة الفجر: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾»(1).

ولها اسم آخر مختصر: «سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾»، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النظائر التي كان النبي ﷺ يقرأُ بها في الصلاة، وفيه: «أنه كان يقرأ فيها بـ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾، و﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾»(2).

ومن أسمائها: «سورة الإنسان»، وهو المثبت في كثير من المصاحف، وكتب التفسير(3).

ومن أسمائها أيضًا: «سورة الدَّهْر»(4)؛ لذكر الدهر فيها. فهذه أسماء أربعة

---

(1) أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠).

وأخرجه مسلم (٨٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(2) أخرجه البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦، ٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢)- بدون سرد السور- وأبو داود (١٣٩٦)، وابن خزيمة (٥٣٨).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩).

(4) ينظر: «غريب القرآن» (١/ ٥٠٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٥٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩)، و«الموسوعة القرآنية- خصائص السور» (١٠/ ٢٨٠).

مشهورة.

ولها اسمان غير مشهورين: أحدهما: «سورة الأبرار»[١]؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾، وتشترك معها «سورة المطففين» في ذكر ذلك.

والثاني: «سورة الأَمْشاج»[٢]؛ لأن الأَمْشاج لم تُذكر في القرآن الكريم إلا في هذه السورة.

* **عدد آياتها:** إحدى وثلاثون آية عند جميع علماء العدِّ[٣].

* **وهي مكية** عند كثيرٍ من أهل العلم، فقد رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره أنها نزلت بمكة[٤].

وقيل: مدنية، قاله الحسن وعكرمة، وهي رواية أخرى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٥].

والأكثرون على أنها مكية، وأسلوب آياتها يدل عليها، وموضوع السورة يشبه القرآن المكي؛ حيث فيها جدل مع المشركين الآثمين الذين كانوا يحاولون صدَّ رسول الله ﷺ عن دعوته وعن طريقه، فيقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤]، ويوصيه بالصلاة، والصبر، والتبتُّل، وهذا كله من شأن القرآن المكي، وفيها شيء من تفصيل النعيم في الجنة، وما كان هذا شأنه فالغالب أنه مكي.

وفي القرآن المكي قبل الهجرة إلى المدينة كان يأتي الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وفي المدينة ظل الخطاب كذلك، وأضيف إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) ينظر: «روح المعاني» (١٥/ ١٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩).

(٢) ينظر: «روح المعاني» (١٥/ ١٦٦)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٨٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٣١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٠).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٠).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٠)، والمصادر السابقة.

ءَامَنُوٓاْ﴾.

فالراجح أن السورة كلها نزلت بمكة، وهي في سياقٍ واحد.

* ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾:

بدأ الله تعالى صدر السورة بسؤال تقريري مبدوء بـ﴿هَلۡ﴾.

و﴿هَلۡ﴾ في القرآن تأتي للنفي والإنكار والجحد، وتأتي للإثبات بحسب السياق[١]، فالسياق هنا معناه الإثبات، أي: قد جاء على الإنسان حين من الدهر لم يكن فيه شيئًا مذكورًا[٢]، وعند ما يقول تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبة: ٥٢]، أي: لا تتربصون بنا[٣]، وكذا قوله: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]، أي: لا تنقمون منا شيئًا إلا هذا[٤].

و﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ هنا قيل هو: آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[٥]؛ وذلك لأن الله تعالى لما خلقه من طين الأرض، ظل مُنْجَدلًا في طينته سنين طويلة الله تعالى أعلم بها، فبعضهم يقول: مائة وعشرون سنة[٦]، وكان مُخَلَّقًا مصوَّرًا مثل التمثال، ليس فيه روح، ثم نفخ الله تعالى فيه من روحه فقام واستوى بشرًا سويًّا.

وقد ورد عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**لما صوَّر اللهُ آدمَ في الجنة تركه ما شاء اللهُ أن يتركه، فجعل إبليسُ يُطيفُ به، ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوفَ عرف أنه خُلِقَ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«حروف المعاني والصفات» (ص٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١٢)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٢٢٤).

(٤) ينظر: «الكشاف» (١/ ٦٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٤٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٦١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾.

(٦) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٧).

خَلْقًا لا يتمالكُ»[1]. أي: يتأثر بالمغريات والشهوات؛ لأنه جُبل عليها.

وعلى هذا فـ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ هو الوقت الطويل الممتد لما شاء الله قبل أن يكتمل خلق آدم وتنفخ روحه[2].

والأقرب أن المقصود: كل إنسان؛ آدم وذريته[3].

والدليل على ذلك: أن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، وآدم لم يُخلق من نُطفة، بل من طين الأرض.

وإذا قلنا: المقصود ﴿ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ فيحتمل أن يكون ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ ما لا يحصيه إلا الله؛ لأن المقصود أن الواحد منا قبل أن يخلق لم يكن شيئًا.

ويحتمل أن المقصود: الآجال التي يمكثها الإنسان في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح[4].

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾: إما أن المعنى: أنه لم يُذكر في الكتب السماوية؛ ولم يُذكر في الوحي، ولم يُذكر في العلم، فيكون المقصود: أنه ليس شيئًا يذكر[5].

وإما أن يكون المقصود: أنه لم يكن شيئًا له أهمية وقدر[6]، وهذا معروف، تقول: هذا المال الذي كسبه فلان ليس شيئًا مذكورًا، أي: شيء لا يستحق الذكر؛ لأنه قليل، والمعنى: أتى عليه حين من الدهر لم يكن له ذكر وشأن، فهي إذًا إشادة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٦٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٦)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٢).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

بالإنسان، وأنه شيءٌ مذكور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد ذكر الله تعالى الإنسان في كتابه وخاطبه، وحسبه شرفًا وفخرًا أن الله تعالى يخاطبه.

وهذا تكريم لجنس الإنسان؛ ولذلك جاء الدين ليعمِّق المعاني الإنسانية الفطرية، حتى قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة»[١]. فالمعاني الإنسانية جاء الدين بتقويتها وتعزيزها، ومنها احترام جنس الإنسان.

* ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾:

النُّطْفة في الأصل هي: القطرة من الماء[٢].

ولما كان عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة مُؤْتة، أنشد يخاطب نفسه لما رأى منها جُبْنًا، فقال[٣]:

أَقسَمتُ يا نَفسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّ أو لَتُكرَهِنَّهْ
إن أَجْلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنَّةْ ... ما لي أَراكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّةْ
قد طالَ ما قد كُنتِ مُطمَئِنَّةْ ... هل أَنتِ إِلَّا نُطفَةٌ في شَنَّةْ

فقوله: نُطفَةٌ في شَنَّةْ، أي: قطرة في قربة يابسة.

والإنسان مخلوق من قطرة من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ بَدَلٌ من ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وهما شيء واحد، والأَمْشاج إما أن تكون جمعًا أو مفردًا على صيغة الجمع[٤]؛ وهي الأخلاط عند جمهور المفسرين[٥]؛ فهي مختلطة من ماء الرجل

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨١١)، و«تاج العروس» (٢٤/ ٤١٩) «ن ط ف». وينظر أيضًا: «مشارق الأنوار» (٢/ ١١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٦٦)، وابن ماجه (٢٧٩٣)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٥٨). وينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٧٩)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (١٧/ ٢٨٠- ٢٨١).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٠- ١٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٥)، والمصادر السابقة.

وماء المرأة، والعرب لم يعرفوا هذا إلا من القرآن، وكانوا يظنون أن الإنسان يُخلق من ماء الرجل فقط، فجاء القرآن يؤكِّد لهم أن الإنسان يُخلق من ماء الرجل مع بُويضة المرأة(١).

ومن معاني **الأَمْشاج**- كما ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: الألوان التي يدخل بعضها في بعض، فالشيء ذو الألوان المتعدِّدة المتداخلة يسمى: أمشاجًا.

ومن معاني الأَمْشاج: العناصر؛ فإن النُّطفة في الرَّحم هي مجموعة من العناصر والمركبات المختلفة التي تتكون منها هذه النُّطفة(٢).

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: خلقنا الإنسان لنبتليه، **فالمقصود من الخَلْق**: الابتلاء، وهذا نص في أن الله تعالى خلق الإنسان للابتلاء؛ ولهذا قال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وهذا من عدله سبحانه، فإنه لم يخلق الإنسان كما خلق الحيوان أو الجماد مسخَّرًا لشيء لا يتعدَّاه ولا يتحرك إلا بالغريزة، وإنما خلقه ليبتليه، ومنحه العقل والسمع والبصر والمَلَكَات.

والابتلاء إما أن يكون بالإيمان والكفر، وبالسؤال والحساب، فيكون الإنسان مبتلى بسلوك إحدى السبيلين: الإسلام أو الكفر، كما قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾(٣) [البلد: ١٠].

وإما أن المعنى: نبلوه بالخير والشر، بالحسنة والسيئة، بالفقر والغنى، والصحة والمرض، والعزِّ والذُّل، وغير ذلك من ألوان تقلبات الحياة التي تمر به، فيُبتلى بما سبيله الواجب الشكر، ويُبتلى مرة أخرى بما سبيله الواجب الصبر، وهكذا(٤)، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وكلا

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٠) «آ د م»، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢١)، و«الموسوعة القرآنية» (١١/ ٤٠٦).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة البلد».

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٦).

القولين مراد، ولا تعارض بينهما، فيُبتلى المرء بالإسلام والكفر، ويُبتلى كذلك بالسراء والضراء.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: وهذا من شروط الابتلاء، فالابتلاء يقتضي أن يكون الإنسان مسؤولًا عن قرار يتخذه، وهو تعالى يذكر هنا شروط الابتلاء.

فالشرط الأول: وجود الحواس، وأهمها: السمع والبصر، وهذا قد ذكره الله تعالى صراحةً.

وتضمنت الآية شرطًا آخر، وهو: العقل والفهم؛ وذلك لأن السمع والبصر لا ينفع إلا لمَن كان له عقل وفهم؛ فالسمع والبصر حاستان توصلان إلى المخ إشارات معينة، فيترجمها المخ، والإنسان الذي لا يعقل لا ينفعه سمعه ولا بصره؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١]، أي: كإنسان يصرخ في القَطِيع، ولكن هذا القَطِيع لا يسمع ولا يعقل، فذكر الصمم والبكم والعمى، أي: وإن كانت هذه الحواس موجودة عندهم إلا أنها في حكم المفقود؛ لأنهم لم ينتفعوا بها؛ لأن الهوى وعماية الجهل غطَّت عليها(١).

* **وهناك شرط ثالث**، وهو: هداية الله تعالى للإنسان بالفطرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾:

والهداية هنا تحتمل- والله أعلم- الهداية الفطرية، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل شيء(٢).

فالله هدى الحيوان كيف يأكل ويشرب ويتوالد ويحمي نفسه وصغاره، وهدى الطفل لمثل ذلك، وهدى الإنسان العاقل للبحث عن مصالحه، فهذه من الهداية

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الملك».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٠٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥- ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٦- ٢٧٧).

العامة.

ومن ذلك: الهداية إلى مصالح الدنيا.

ومن هداية السبيل: دلالته على طريق الخير وطريق الشر، أي: بيَّنَّا له الطريقين(١).

فـ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ يمكن أن يسلكه الإنسان مهتديًا، ويمكن أن يسلكه ضالًّا، قال الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالمعنى: دللناه على الطريق، وبيَّنَّا له الحجة، وأقمنا عليه البينة، فكملت لوازم الابتلاء الأربعة:

١- السمع والبصر والحواس.

٢- العقل.

٣- الهداية الفطرية، فالإنسان بفطرته يعرف الخير والمصلحة، ويستطيع أن يصل إلى المصالح.

٤- الحجَّة الشرعية والهداية الربانية بنزول الكتاب وإرسال الرسول، فهذا من هداية السبيل.

﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إشارة إلى أن الله تعالى هدى الإنسان هذا السبيل أو ذاك السبيل، فيكون ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ محتملًا للأمرين معًا: سبيل الخير أو سبيل الشر.

وقدَّم الشاكر لأنه أحب إلى الله؛ ولأن سياق السورة فيه احتفاء كبير بالشاكرين، ولهذا كانت غالب آياتها في وصف نعيم الجنة، وليس فيها إسهاب في وصف عذاب أهل النار.

ولم يقل: «وإما كافرًا»، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الكفر إذا وُجد- وإن كان في أدنى درجاته- فهو جحود عظيم، وحرمان من رضوان الله تعالى ودخول

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٦).

الجنة، وتنكر للعقل والفطرة والوحي والشريعة، فقليله كثير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾، فهو تشنيع وتفظيع للكفر، ولأن الآية تبيِّن صنفين من الناس؛ فإنها ذكرت الشاكر المقرّ بنعمة الله وهو المؤمن، وذكرت مقابله الكفور، فهو في أبعد درجات الكفر؛ لأنه اختار الطريق الأسوأ عمدًا وقصدًا، وليس على كفر الجهالة وعدم العلم، بل أضاف إليه كفرًا آخر اختاره بنفسه، وسبيلًا أراده وقصده، فصار كفورًا.

* ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾:

بدأ بذكر الكافرين؛ لأنه سوف يَطْوي خبرهم.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ بالتاء: أعددنا، وهما فعلان بمعنى واحد، فـ«أَعْتَدَ»، و«أَعَدَّ»، و«أَعْدَدَ» بمعنى واحد؛ ولذلك يقال: الإعداد، وأحيانًا يقال: العتاد، وغالبًا ما يقال الأخير في أمر السلاح[1].

والسلاسل جمع: سلسلة، وهي ممنوعة من الصرف، وفي بعض القراءات بالتنوين: ﴿سَلَٰسِلًا﴾[2]، ومن العرب مَن يصرفون كل الأسماء التي لا تنصرف[3]، أي: هذه لغة عند العرب، وإن كانت في الأصل لا تنون إلا أنهم ينونونها.

و﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ هنا فيها ألف المد من غير تنوين على القراءة المشهورة، وهذا من ضبط القرآن وإتقانه؛ فإن هذه الكلمة مضبوطة في المصاحف كما كُتبت أول مرة منذ عهد النبوة إلى اليوم[4]، وهذه أبلغ حجة على

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٧).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦٣)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٨٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٣٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٠٧- ٢٠٩).

(٣) ينظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢/ ٧٨٣)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٧١٣)، و«الموسوعة القرآنية» (٤/ ٤٨٤).

(٤) وثَمَّ مخطوطات نادرة للمصحف، موجودة في تركيا وألمانيا وطشقند واليمن ومصر وهولندا، كُتبت عنها دراسات قيِّمة تكشف دقتها وأهميتها التاريخية، والباحثون بصدد التنقيب عن المصحف الإمام الذي جُمع وكُتب في عهد أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووُزِّعت على الأمصار نسخ منه في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس في ضبط المصحف وحفظه وإتقانه، كما قال الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، حتى ما يُكتب ولا ينطق- كالألف الأخيرة من كلمة ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾- فهو موجود، فالقرآن تتواطأ فيه الكتابة والنقل والرواية والمشافهة عن الأئمة.

والسلاسل عادةً ما تكون في الأيدي، والأغلال جمع: غُل، بضم الغين، أما الغِل بكسرها، فهو الحقد، أما الغُل، فهو قيد يوضع في الرقبة(١)، قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ [غافر: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ [يس: ٨]، فالرباط الذي يوضع في العنق هو الغُل، والرباط الذي يوضع في اليد هو السلسلة، والعادة أن الإنسان المقيَّد المكبَّل يفعل به هذا وهذا، وتجمع يده إلى عنقه.

والسَّعير: النار التي توقد وتُسعَّر، عقوبة لهم على عدم توظيفهم ما أعطاهم الله تعالى في معرفته واتباع هديه؛ ولهذا كان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «ارفعوا أيديكم إلى ربكم، واسألوه قبل أن تُغل أيديكم إلى أعناقكم»(٢).

* ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾:

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع: بَرٍّ، وهو مَن اتصف بالبِرِّ(٣)، وفي القرآن الكريم كثيرًا يرد ذكر البِرِّ، كما في قوله سبحانه: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي الحديث عن الكفار الذين لم يحاربوا قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]، ومدح الله التعاون على البر

---

(١) ينظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٢)، و«الصحاح» (٥/ ١٧٨٣)، و«لسان العرب» (١١/ ٥٠٤) «غ ل ل».

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٩).

والخير، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢].

فـ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ صنف من أهل الجنة درجتهم دون درجة المقرَّبين، كما في «سورة المطففين»[١].

والكأس: القدح حين يوجد فيه الشراب، فإذا خلا من الشراب سمي: كُوزًا وكُوبًا[٢]، ولا يسمى: كأسًا إلا إذا كان الشراب فيه: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾ [النازعات: ٣٤].

وهذا معروف في اللغة في إطلاق الأسماء على الأشياء، فتُسمى باسم في حال وباسم آخر في حال أخرى: فالهَوْدَج لا يُسمى: هَوْدَجًا، إلا إذا كانت المرأة فيه، وإلا فيسمى: رَحْلًا.

والمقصود بالشراب هنا: الخمر الذي أعدَّه الله تعالى للمؤمنين في الجنة[٣].

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: تمزج الخمر بالكافور[٤]، والكافور: نوعٌ من النبات فيه رائحة عطرية طيبة، ويُتخذ منه ألوان من الطيب، وجرت عادة مَن يشربون الخمر في الدنيا أن يأتوا بكأس الخمر فيمزجوها مع الماء أو غيره، وقد يضعون على أطرافها شيئًا من المسك أو الكافور لتطييب رائحتها، فذكر تعالى هذا في نعيم الجنة، وظاهر الآية أن الكافور يُمزج مع الخمر فيشربونه ممزوجًا، والكافور الذي في الجنة ليس هو الذي في الدنيا، فكافور الدنيا لا يُشرب؛ لأن فيه أضرارًا، وخمر الدنيا فيها أضرار، كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ

---

(١) سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٨)، و«التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» (ص١٩٨)، و«مشارق الأنوار» (١/ ٣٤٩)، و«تاج العروس» (١٦/ ٤٢٣)، و«الكليات» للكفوي (ص٧٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٧).

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ومن أضرارها: أنها تذهب بالعقل؛ ولهذا قال الله تعالى عن خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]، قال بعض العلماء: الغَوْل هنا هو الكحول الموجود في خمر الدنيا، فخمر الجنة لا تسكر، وليس فيها آفات خمر الدنيا[1].

* ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾:

فالكافور: عين في الجنة اسمها: كافور[2]، أو هي عين تنبع بالكافور، وهذا لا غرابة فيه، فالجنة فيها ما لا عين رأت، قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

ففيها عين من الكافور يشرب بها المؤمنون، ولم يقل: «يشربون منها»، وإن كان المعنى متقاربًا، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض أحيانًا[3]، لكنه قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؛ لأنها تمزج لهم، فلا يشربونها خالصة ولكن ممزوجة، ولهذا وصفهم الله بأنهم ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾؛ إشارة للرضا عنهم، فهم ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾، وهم ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، وهذه عبودية الاختيار؛ لأنه استهل السورة بذكر خلق الإنسان وابتلائه وهدايته سبيل الشكر أو الكفر، فهؤلاء العباد الذين نجحوا في الابتلاء سماهم: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ تسمية الرضا، مع أنه قد يسمى القوم: عباد الله، وهم غير مؤمنين، بمقتضى العبادة الاضطرارية، مثل قول الله سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فهؤلاء كافرون، ومع ذلك سماهم: عبادًا.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: المعنى: أن هذه العين ليست كعيون الدنيا؛ لها مكان

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٠٦)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٥٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ١١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨١).

(٣) وهذا مذهب أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، أما البصريون فلا يرون ذلك. ينظر: «الجنى الداني» (ص٤٦)، و«مغني اللبيب» (ص١٥٠- ١٥١).

مخصَّص مَن أرادها جاء إليها ليغترف منها أو يشرب منها، بل هي تأتيهم حيث كانوا، فيفجرونها ويُجْرونها حيث شاؤوا، سواء كانوا في علو أو نزول، أو في الطريق أو في مساكنهم أو في أي مكان، وليس الإنسان قادرًا على أن يتصور تفصيل النعيم في الجنة، ولا على أن ينفكّ وينفصل عن جاري العادات في الدنيا.

وفي الآية إشارة إلى سهولة ذلك عليهم وتكرره منهم. وفي ذكر المصدر إشارة إلى قوة نبعها وكثرته، وعبر عن ذلك بصيغة المبالغة بالفعل المضَّعف بقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾.

* ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾:

وهذا نوع من الانتقال الذي فيه تنويع للخطاب، ولفتٌ للنظر، ومراوحة بين حالهم في الجنة وحالهم في الدنيا، فأحيانًا تكون مع القرآن في الجنة، ثم ينقلك إلى الدنيا، ثم يُعيدك إلى الجنة؛ من أجل أن يكون ذهن الإنسان حاضرًا، والكلام إذا كان كله على وتيرة واحدة يملُّه الإنسان أو يسهو عنه، لكن إذا كان السياق فيه تنقل يكون مدعاةً للانتباه.

والمقصود ﴿بِالنَّذْرِ﴾ أحد أمرين:

إما أن يكون النَّذْر: كل طاعة، فالطاعات كلها نذور، أي أنها واجبة بأصل الشرع[1]، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وذلك في الحج والنُّسك، فيكون أثنى على قيامهم بالطاعات كلها، فالصلاة والصيام والحج تدخل في هذا المعنى.

أو يكون المعنى: النَّذْر الخاص[2]؛ وهو ما أوجبه المسلم على نفسه، مثل أن ينذر لله أن يصوم، أو يتصدَّق، أو يصلِّي، بناءً على أمر يمكن أن يتحقَّق له، فيُلْزِم

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٣/ ٤٣٥)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤١٧)، (٨/ ٢٨٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢١)، و«روح المعاني» (٩/ ١٣٩)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٢)، والمصادر السابقة.

نفسه بما ليس بواجب عليه في أصل الشرع، فهذا يسمى: نذرًا، وهو مكروه، وقال بعض السلف بأنه محرم[1]؛ لأن بعض الناس يلجأ إليه وكأنه يشارط ربه، فيقع في الحرج الشديد، ويعجز عن الوفاء بالنذر؛ ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عن النَّذْر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرجُ به من البخيل»[2].

فالنذر لا يأتي بشيء لم يكن مكتوبًا في أصل القضاء والقدر، فإذا قال: إن شفى الله مريضي، أو إن نجحت في الاختبار فعلت كذا؛ فهذا لن يغيِّر شيئًا في القدر لم يكن مكتوبًا.

وهؤلاء القوم إذا كانوا يوفون بالنذر الذي أوجبوه على أنفسهم، فمن باب أولى أن يوفوا بما أوجبه الله تعالى عليهم في أصل الديانة[3]، وهذا إشارة إلى التزامهم بالواجبات التعبدية، وبالإحسان في عبادة الله تبارك وتعالى، وهذا هو أحد أركان العمل الصالح، والركن الثاني هو الإحسان إلى عباد الله بالبر والإقساط والجود، وهو الذي ذكره سبحانه في قوله بعده: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فذكر الخوف الذي حملهم على هذا الفعل، فقد كانوا يخافون شر ذلك اليوم العظيم، وذلك اليوم فيه خير عظيم، وهو كان خيرًا لهم بالعقبى الحسنة.

وعبَّر بالشر؛ لأن المقام مقام خوف، والإنسان إنما يخاف من الشر، والمستطير: الطائر، كقولهم: استطار الفجر، أي: انتشر في الأفق، فالمستطير: هو الشيء المشتهر العظيم المنتشر الذائع[4].

والخوف هو أحد دوافع العبادة، وهو طبع في النفس الإنسانية لا تنفك عنه بحال، ومثله الرجاء، وهو الطمع في فضل الله وعطائه ونعيمه.

---

(١) ينظر: «المغني» (١٠/ ٣)، و«المجموع» (٨/ ٤٥٠)، و«الشرح الممتع» (١٥/ ٢٠٧)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٢)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٠١).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٢)، و«لسان العرب» (٤/ ٥١٣).

والخوف والرجاء كالجناحين للطائر متساويان، وقد يغلب هذا حينًا وهذا حينًا.

والحب أعظم منهما؛ فهو أساس الإيمان، ولُبَاب العلاقة مع الرحمن، وصفة أولياء الله السابقين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾(1) [المائدة: ٥٤].

ولعله وصفهم بالخوف هنا لأنهم ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾، ويكون الحب صفة مَن سبقوهم من المقربين، والله أعلم.

* ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⁽٨⁾﴾:

إشارة إلى إطعامهم الطعام مع محبتهم له وحاجتهم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ويحتمل أن يكون المقصود: على حُبِّ الله تبارك وتعالى(2)، فهم يطعمونه حبًّا لله، وآثروا محبة الله على محبة الطعام، ولا مانع من إرادة الأمرين معًا، فالمقصود أنهم مع محبتهم للطعام وحاجتهم إليه قدَّموا محبة الله تبارك وتعالى فأطعموا الطعام، وهذا من أعظم القربات، كما قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ⁽١٤⁾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⁽١٥⁾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⁽١٦⁾﴾ [البلد: ١٤- ١٦]، والآيتان متشابهتان، فهنا قال: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، والمسكين: الذي لا يجد شيئًا(3)، واليتيم: الذي مات أبوه قبل البلوغ(4)، وهو مظنة ألا يجد مَن ينفق عليه، والأسير: المأسور(5)، وقد

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ⁽٢٢⁾﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ⁽١٤⁾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٩٤).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ⁽٣⁾﴾.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ⁽١٧⁾﴾، و«سورة البلد»: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⁽١٥⁾﴾، و«سورة الماعون»: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ⁽٢⁾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩١٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٩).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وسَعيد بن جُبير والحسن البصري وغيرهم: لم يكن يومئذٍ أسيرٌ إلا أهل الشرك[1]. ومع ذلك أمر الله تعالى بإطعامهم؛ لأن «في كلِّ كبد رَطْبة أَجْرٌ» كما قال النبي ﷺ[2].

فالله تعالى بيَّن حق الأسير، وفرَّق بينه وبين المقاتِل، فما دام قد ترك القتال وكُفَّ شرُّه، فإن من البر أن يُطعم ويُسقى ويُحسن إليه، فـ«في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ». والإحسان إليه يحبب الإسلام إليه.

وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالأسير: العبد الرَّقيق[3].

وقيل: المقصود: المرأة؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «أَلَا واستوصُوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٍ عندكم»[4]. أي: أسيرات في أيديكم.

وهذان قولان ضعيفان؛ لأن المرأة لا تسمى: أسيرة، وكذا العبد لا يسمى: أسيرًا، وأما الحديث النبوي: «أَلَا واستوصُوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٍ عندكم». فهذا في مناسبة خاصة، وهو إلى التشبيه أقرب، وليس وصفًا مطَّردًا بحيث يشملهم إطلاق لفظ الأسير، والواقع: أن الرجل وإن كان مطلوبًا منه أن ينفق على عبيده وزوجاته وبناته، إلا أن المقصود بالأسير في هذا السياق: هو المأسور أيًا كان، والمأسور المسلم من باب أولى؛ لأن الإنفاق والإطعام والإحسان إليه فيه الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أسيرًا عندك، بل تطعمه إن استطعت، ولو

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٠٧)، والترمذي (١١٦٣، ٣٠٨٧)، وابن ماجه (١٨٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٢٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٥٢٤) من حديث عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج البخاري (٣٣٣١، ٥١٨٥، ٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «واستوصوا بالنساء خيرًا». وينظر: «إرواء الغليل» (١٩٩٧، ٢٠٣٠).

كان أسيرًا عند معتدين أو ظالمين أو كافرين، ومن باب أولى السعي في فَكاكه وإطلاقه بكل ما يمكن، فقد قال ﷺ: «فُكُّوا العاني»[1].

* ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾:

أي: كأنهم يقولون ذلك، وهذا مقول القول، كما قال بعض السلف: إنهم ما قالوا هذا، وإنما علم الله تعالى ذلك منهم[2].

فحكاية القول والمخاطبة لمَن يطعمونهم كأنها بلسان الحال، فهؤلاء القوم فعلوا ما فعلوا لوجه الله تبارك وتعالى، وإلا فهم لم يكونوا يمنُّون على الناس ويخبرونهم بمثل هذا العمل، وربما لا يرون هذا الذي يطعمونه أو لا يستطيعون مخاطبته.

والأقرب أن هذا الكلام كانوا يقولونه في أنفسهم، وقد يقولونه عند مناسبته، فلا يمتنع أن يكون بعضهم قال هذا[3]، لكن ليس المقصود: أنه قولٌ يقوله كل واحد منهم كلما أطعم، أو يُشرع لكل واحد منهم أن يقوله، ومعنى كونه ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: ابتغاء مرضاة الله[4]، ومن هنا جمعوا بين الخوف والرجاء، فهم يخافون يوم القيامة، ويطعمون الطعام لوجه الله ورجاء ما عنده.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾: والجزاء بالفعل، والشُّكور بالقول[5]، نفى عنهم أن يكون الدافع الرِّياء والسُّمعة أو انتظار الشكر والمجازاة بأحسن مما فعلوا، وفي ذلك إشارة إلى أنهم جمعوا في هذا الإطعام بين أمرين:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٦) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢٥)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٢٠٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١٦)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٨)، والمصادر السابقة.

١- وجود الدافع الإنساني الأخلاقي في البذل والإحسان.

٢- ووجود الدافع الإيماني وإرادة وجه الله، ولو أن أحدًا عمل الخير ليس بدافع الرغبة فيما عند الله، ولكن حبًّا في الإحسان إلى الناس لكان له بذلك أجر، كما في قصة المرأة التي سقت كلبًا فغفر الله لها بذلك(١).

وقد نص أهل العلم على أن أعمال الإحسان لا يشترط فيها حضور نية التقرب إلى الله، فقد يكون باعثها الرحمة والرقة والعطف، فيثيب الله عليها(٢)، كما قال ﷺ: «والشاةُ إذا رحمتها رحمك اللهُ». وقال: «الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ»(٣).

ولكن إذا وُجدت النية تضاعف الأجر والثواب، كما في هذا السياق، وكما في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

* ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾:

فأكَّدوا على معنى الخوف منه سبحانه، وأنهم يخافون ذلك اليوم، فهو مفعول به، أي أنهم يخافون من يوم القيامة، أو أنهم يخافون من الله سبحانه حين يكونون في ذلك اليوم وهم لا يدرون ما هو فاعل بهم.

ووصف الله ذلك اليوم بهذين الوصفين، وكأنها أوصاف لمَن يقومون فيه، فالعَبوس من العُبوس، وهو كُلوح الوجه وشدته، والقَمْطَرير: هو إما تقطيب ما بين الحاجبين، أو يكون بمعنى الطويل(٤)، وهذا معروف في لغة العرب؛ فهم

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

(٢) ينظر: «التوضيح» لابن الملقن (٢/ ٢٠١)، و«عمدة القاري» (١/ ٣٥، ٣١٤)، وما تقدم في «سورة الملك»: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

(٣) تقدم تخريجهما في «سورة الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ...﴾ [الملك: ١٩].

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩).

يصفون يوم الحر الشديد بالعَبوس القمطرير.

* ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ انتهى الكرب، وطُويت الصحائف، وعُلِمَ الفائزون وامتازوا عن غيرهم، ووقاهم الله تعالى شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه، لقد خافوا حتى بلغوا المأمن، و«مَن خاف أَدْلَجَ، ومَن أَدْلَجَ بلغَ المنْزِلَ»(١).

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ تلقتهم النضرة والسرور، واستقبلتهم فأصبحت جزءًا منهم، فجمع لهم حُسنًا في وجوههم، وسعادة في قلوبهم يسرُّون بها.

والنضرة في الوجه تكون لأسباب:

منها: الصحة والعافية، والجمال والبهاء.

ومنها: الراحة النفسية، فالإنسان قد يكون صحيحًا، ولكنه مهموم مغموم، فيظهر الحزن والهم والغم والقَتَرة على وجهه، فهؤلاء القوم لقَّاهم الله ﴿نَضْرَةً﴾ في وجوهم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم(٢).

* ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

فيه إشادة بالصبر، وأنه أساس الإيمان، فالصبر أمره عظيم، وهو من أعظم صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

ومن الصبر: الصبر على طاعة الله تعالى؛ فلا يكون الإنسان متقلبًا.

ومن الصبر: الصبر على المعصية، وإن كثرت المغريات.

ومنه: الصبر على النفس وإن تلاومت وعاندت، فيحاول الإنسان أن يطبعها على الخير.

ومنه: الصبر على الأذى من العباد، من الأقربين والأبعدين.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه عبد بن حميد (١٤٦١)، والترمذي (٢٤٥٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٧)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١١٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٤، ٢٣٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩).

ومنه: الصبر في طلب العلم.

ومنه: الصبر على الولد والزوج والشريك والقريب.

ولا يستقيم الإيمان إلا بالصبر، ولا الإسلام إلا بالصبر، ولا الحياة إلا بالصبر، وكما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[1].

* ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾:

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هذا وصف لمجلسهم، وهذا من صفة أهل الجنة في تنعمهم وتلذذهم، فمأكلهم ومشربهم بخلاف حال الدنيا؛ ولهذا كان النبي ﷺ لا يأكل متكئًا، ويقول: «**لا آكلُ متكئًا**»[2]. ويقول: «**آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**»[3]؛ لأن أكل المتكئ يدل على كمال التلذذ والتنعم، والإنسان الذي يدري أنَّ للمسكين والفقير حظًّا في طعامه لا يبالغ في ذلك.

أما أولئك الأبرار فهم متكئون؛ لأنهم وصلوا الغاية، فلم يعد ثَمَّ ما يقلقهم بعد اليوم.

و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير الذي عليه الوسائد[4]، وغالبًا ما يكون عليه مثل الظلة، فإذا كان السرير كذلك سُمِّي: أَرِيكة، وتُسمَّى: الحِجال، فهي سُرر عليها ظِلال، لكن سُرر أهل الجنة لا تحتاج إلى شيء يظلُّها، ولذلك قال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: ليس فيها حرٌّ، ولا زمهرير، وهو: البرد الشديد[5].

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة المعارج»: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٨) من حديث أبي جُحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن سعد (١/ ٣٢٨)، وأبو يعلى (٤٩٢٠)، والبغوي (٢٨٣٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «البدر المنير» (٧/ ٤٤٥- ٤٤٦)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٦٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٥٣٠)، و«التفسير المظهري» (٦/ ٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٠).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اشتكتِ النارُ إلى ربها، فقالت: ربِّ، أكلَ بعضي بعضًا. فأَذِنَ لها بنفسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف، فأشدُّ ما تجدونَ من الحرِّ، وأشدُّ ما تجدونَ من الزَّمْهَرِيرِ»[1].

والزمهرير: البرد، بلغة الحجاز، وهو بلغة طيئ: القمر[2]، والمقصود هنا: البرد، ويحتمل أن يكون المقصود: القمر، وبناءً عليه فيكون السياق فيه نفي الشمس والبرد والحر والقمر، فكل هذه ليست موجودة في الجنة، وإنما فيها اعتدال الجو.

* ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

وهذا يثير العجب، جنةٌ ليس فيها شمس، ومع ذلك دانية عليهم ظلالها، فمن أين جاءت الظلال؟

يحتمل أن يكون المعنى: دانية عليهم أشجارها وأغصانها، فهي بمثابة الظلال في الدنيا[3].

ويحتمل أن في الجنة ظلالًا ليست كالظلال الذي يعرفها الناس في الدنيا، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾، ودنو الظلال عليهم يعني: دنو الأشجار[4]، **والقُطوف هي**: الثمار[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٢)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٢)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

والتذليل يعني: قربها منهم، يأكلونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين(١).

* ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾:

أي: وتُدار عليهم آنية مصنوعة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، وصناعة الآنية من فضة إشارة إلى وجود آنية من الذهب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، فذكر أحد الطرفين قد يُغني عن الآخر، والأكواب ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، يُروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يقول: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾»(٢)، أي: هي مصنوعة من فضة، فكيف تكون قوارير يرى ما بداخلها؟!

نقول: إما أن هذا من خصائص الجنة لها ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾، ومع ذلك يُرى ما بداخلها.

وإما أن تكون ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ ليس بمعنى أنها من زجاج، وإنما بمعنى أنها مدوَّرة(٣).

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدَّرها الله لهؤلاء، فوضعها بمقدار، فلا تثقل اليد بحملها، وتكون بقدر الفم، وتكون بقدر الحاجة، وبقدر ما يروي الإنسان(٤).

وهذا فيه بيان جانب الحاجة، وجانب جمال الشكل والمظهر، وجانب الصفاء، وكل ذلك مطلوب؛ فالإنسان ينظر إلى الشراب وإلى الوعاء الذي فيه الشراب وإلى نظافته، وكل ذلك مذكور في الآية الكريمة.

* ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾:

بعد أن ذكر القوارير التي هي وعاء الشرب، أتبعها بوصف الشراب؛ فيُسقى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٦٢)، و«تفسير المراغي» (٢٩/ ١٦٩).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩١)، والمصادر السابقة.

أصحاب الجنة من كأس من الخمر ممزوجة بالزَّنْجبيل، فهذا مما يخلط معها أيضًا، وهي عين أخرى مثل عين الكافور، لكنها دونها في الفضل، فهؤلاء خلطوا عملًا صالحًا بآخر سيئًا.

* ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾:

لعلَّ الأقرب أن هذا اسم للعين، فاسمها: سَلْسَبِيل[١]، وذكر ابن الأعرابي أنه لا يُعرف «السَّلْسَبِيل» إلا في القرآن الكريم[٢]، ولكن غيره من علماء اللغة أثبتوا السَّلْسبيل، وقالوا: إن السَّلْسَل، والسَّلْسال، والسَّلْسبيل، كلها ألفاظ لغوية تعني: الماء البارد العذب الفرات[٣]، ولهذا يخلط مع الزَّنْجبيل شيءٌ من السَّلْسبيل؛ لأن الزَّنْجبيل يكون حارًّا مؤذيًا، فإذا وُضع معه الماء البارد العذب فإنه يزيل حدته.

* ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بهم، ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان صغار السن؛ لأنهم أسرع وأخفّ في الحركة، وأكثر استعدادًا للخدمة، ولا يجد الإنسان حرجًا أو مشقة في أن يأمرهم وينهاهم[٤].

وهم ولدان لا يتغيرون عن هذه الصفة التي وصفهم بها ربهم، وليسوا ولدان اليوم شيوخ الغد، فهم لا يكبرون ولا يَفْنَون، فالزمن يؤثِّر في الإنسان في الدنيا، حيث يكبر ويهرم، لكن الدار الآخرة شيء آخر، لا يفعل فيهم الزمان فعله، ولا

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٢)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٥٧)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٦١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩٦)، والمصادر السابقة والآتية.

وينظر أيضًا: «المحكم والمحيط الأعظم» (٨/ ٦٥٦)، و«لسان العرب» (١١/ ٣٤٤) «س ل س ل»، و«تاج العروس» (٢٩/ ٢٢١) «س ل س ب ل».

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢١٧)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ١٢١٩)، و«الزاهر في معاني كلام الناس» (٢/ ١٩٦)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩٧).

يؤثِّر، ولا يُغيِّر، فأهل الجنة يدخلونها وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنة[1]، وهؤلاء الولدان مخلَّدون في خدمتهم.

ومن معاني التخليد: أنهم يلبسون ألوانًا من الأساور والأقراط في آذانهم[2]، فهذا مما يمتع به أهل الجنة، حتى منظر خدمهم يدعو إلى الراحة والفرح والرضا.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الوِلْدان وهم متفرقون، هذا ذاهب وهذا آت وهذا قائم وهذا قاعد؛ إذا رأيت هذا المنظر بشموليته وعمومه وَجَدْتَهم كاللؤلؤ المنثور، وهذا تشبيه لانتشارهم في خدمة أهل الجنة، فهم هنا وهناك، وأينما وقعت العين وقعت على حسن وجمال[3]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، فمع قيامهم بالخدمة على أتم وجه، إلا أنهم كاللؤلؤ المكنون، فقد جمعوا بين الجمال والتذلل لأهل الجنة بالعمل، وهم يشبهون اللؤلؤ المكنون في نظافتهم وسلامتهم، ويشبهون اللؤلؤ المنثور في حركتهم وانتظامهم.

* ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿ثَمَّ﴾ معناها: هناك[4]، أي: إذا رأيت هناك في الجنة رأيت نعيمًا عظيمًا، وما سبق ليس سوى شيء يسير مما وعد الله المتقين، وفي الحديث: «**إني لأعلمُ آخرَ أهل النار خروجًا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولًا الجنةَ؛ رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى له: اذهبْ فادخل الجنةَ. فيأتيها فيخيَّلُ إليه أنها مَلْأَى،**

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٧٩٣٣)، و«جامع الترمذي» (٢٥٤٥)، و«صفة الجنة» لابن أبي الدنيا (١٥)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (٢٥٥)، و«صفة الجنة» للضياء المقدسي (١٠٨)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٠٨) من حديث معاذ وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠١).

فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى له: اذهبْ فادخل الجنةَ. قال: فيأتيها، فيخيَّلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ اللهُ له: اذهبْ فادخل الجنةَ، فإن لك مثلَ الدنيا وعَشَرَةَ أمثالها- أو: إن لك عَشَرَةَ أمثال الدنيا»[1].

وقال ﷺ: «إن أهلَ الجنة يتَرَاءَوْنَ أهلَ الغرف من فوقهم، كما يتَرَاءَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم». أي: يرون كوكبًا لا يكاد يُرى من بُعْده وعظمته يتلألأ فيقولون: إن هذه درجة فلان، وفي الحديث: قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهُم! قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمَنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ»[2].

فهو مُلك كبير؛ لكثرة الخدم والحشم، والسعادة العظيمة، واللباس، وتيجان الملوك على رؤوسهم، والملائكة لا يدخلون عليهم إلا باستئذان، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤]، فيدخلون عليهم بتبريك وتهنئة وتزكية وثناء على صبرهم وعلى جهدهم، وهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

* ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾:

السُّندس، وهو ما يلي البدن، وهو من الحرير الناعم.

والإستبرق هو: الحرير الغليظ الظاهر الذي تراه العيون، وفيه لمعان[3].

﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ إضافة إلى هذه الثياب فعندهم أساور من فضة يلبسها

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٣).

الرجال والنساء، والذهب حرامٌ على الرجال في الدنيا، حِلٌّ للإناث[1]، وأما في الجنة فهو حِلٌّ لهم رجالًا ونساءً، يتمتعون به كيف شاؤوا، ولا يتناقض هذا مع كمال رجولتهم وتمتعهم بألوان النعيم.

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ وصفه هنا بأنه طَهور، وفي ذلك تعريض بخمر الدنيا؛ ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى أن خمر الدنيا نجسة نجاسة حسيَّة.

وقال آخرون: هي طاهرة، وهو الراجح[2]، وإن كانت خبيثة محرمة.

وفي الحديث: «**مَن شربَ الخمرَ في الدنيا، ثم لم يتبْ منها، حُرِمها في الآخرة**»[3].

ثم ذكر أن الذي سقاهم هو الله سبحانه، فهذه مِنَّةٌ عُظمى؛ لأنه هو الذي أعدَّ لهم هذا، وأمر بأن يُسقوا منه، فيسقيهم إيَّاه الولدان أو غيرهم.

وهذا شرابٌ خاص إذا شربه المؤمن كان سببًا في زوال الشبع وتجدد شهوته، ويتحول الطعام الذي أكله إلى عَرَقٍ كالمِسْك[4]، فأهل الجنة لا يتبولون ولا

---

(١) كما في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**الحريرُ والذهبُ حرامٌ على ذكور أمتي، وحِلٌّ لإناثهم**». أخرجه الطيالسي (٥٠٨)، وأحمد (١٩٥٠٢، ١٩٥١٥)، والترمذي (١٧٢٠)، والنسائي (٨/ ١٩٠)، وغيرهم.

وأخرجه أحمد (٧٥٠، ٩٣٥)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي (٨/ ١٦٠)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، وابن حبان (٥٤٣٤)، والضياء (٢/ ٢٠٦- ٢٠٧) (٥٨٨- ٥٩١) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورُوي عن غير واحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وله أصل في «صحيح البخاري» (٨٨٦، ٢٦١٤، ٢٦١٩، ٥٤٢٦، ٥٩٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨، ٢٠٧١، ٢٠٩٠). وينظر: «نصب الراية» (٤/ ٢٢٢- ٢٢٥)، و«البدر المنير» (١/ ٦٤٠- ٦٥٠)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٨٦- ٨٩)، و«إرواء الغليل» (٢٧٧).

(٢) ينظر: «المغني» (٩/ ١٧١)، و«المجموع» (٢/ ٥٦٣)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٥/ ٢٧)، و«موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي» (١/ ١١٨)، و«فقه العبادة» (١/ ٩٩- ١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٦٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٧).

يتغوطون ولا يمتخطون[١]، وهو بمثابة ما يتعاطاه الناس من أشربة الهضم بعد الطعام.

* ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: شَكَرَه الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الشكور الحليم[٢]، الذي وفَّقهم إليه واستعملهم فيه وأعانهم عليه، ثم قبله منهم وكافأهم عليه أفضل المكافأة، فأي فضل ورحمة أعظم؟!

فجمع الله بين العدل والفضل؛ فجازاهم على سعيهم بأن شكرهم، وجازاهم على ذنبهم بأنه غفره، وزادهم من واسع فضله ورحمته ما لم يكونوا يحتسبون.

* ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

إشارة إلى أنه نزل منجَّمًا على حسب الوقائع والأسباب والأحوال، وقد استمر نزوله حتى آخر حياة النبي ﷺ، فاستمر ثلاثًا وعشرين سنة[٣].

* ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: إن كذَّبوك ولم يؤمنوا بهذا الكتاب، والأمر بـ«الصبر» هنا له ﷺ ولأمته أجمعين.

اصبر فيما أمرك الله واصبر عما نهاك، واصبر على ما قدَّره عليك، واصبر للشريعة ولا تعجل؛ كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ ولهذا كان ﷺ في أول بعثته كلما عُرض عليه قتال الكفار قال: «لم نُؤمر بقتال»[٤]. فكان يقول ذلك مع ما يلقاه من الأذى؛ لأنه مصطبر لحكم ربه،

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٤٥، ٣٣٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٦٩).

(٣) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٤٦)، و«قلائد المرجان» (ص٢٣٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٤/ ٢١٥)، وابن حبان (٧٠١١)، والآجري في «الشريعة» (١١٤٢)، والحاكم (٣/ ٤٤١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٤٩). وينظر أيضًا: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٨)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٢٠٤).

ولن يُقدم حتى يأذن له بذلك، فهذا أمره وهذا شرعه.

وقد أُمِر بالصبر لحكم ربه، لا إلى حكم غيره، ولا إلى حكم النفس، والذين ينزلون عند حكم نفوسهم تضطرب أمورهم، وإن كانوا يحتسبونه حكم الله ورسوله.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾: فالكفار كانوا يحاولون أن يصرفوا النبيَّ ﷺ ومَن معه عن بعض الوحي[1]؛ فأمره الله بالصبر وثبَّته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، فهذا أبو جهل قال: «هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ فقالوا: نعم. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنّ على رقبته، أو لأعفرنّ وجهه في التراب». فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩]»[2].

وهذه الآية ليست خاصة بأبي جهل، بل عامة لكل مَن هو على شاكلته، والآثم هو فاعل الإثم، وأما الكَفور فهو الذي في قلبه الكفر؛ ولهذا فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفورًا، فقد يقع المرء في الإثم الذي هو دون الكفر[3].

* ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾:

أي: مما يُثبِّتك ويُصبِّرك أن تذكر اسمه تبارك وتعالى ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، ويدخل في هذا الصلوات الخمس؛ لأن البُكور يعني: صلاة الفجر، والأَصيل هو آخر النهار، والمراد به: صلاة العصر[4]؛ ولذا جاءت الأحاديث في فضل هاتين الصلاتين[5].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٩٧)، وما سيأتي في «سورة العلق».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧٢)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٢٢)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٧٠).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٥٤، ٥٧٤)، و«صحيح مسلم» (٦٣٥).

وقد يراد بالأَصِيل: النصف الآخر من النهار، فتدخل صلاة الظهر معها[1].

* ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: صلاة المغرب وصلاة العشاء[2]، فذكر الصلوات الخمس، كما ذكرها في مواضع أخرى، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، والأمر ليس مقصورًا عليها فحسب، وإنما الأمر بالذكر عام، فلا يزال اللسان رطبًا بذكر الله تبارك وتعالى، ومن ذلك: الذكر طرفي النهار بأذكار الصباح والمساء، وذكر الله تعالى يكون في كل حين وأوان، وكلما تجدَّدت للإنسان نعمة وكلما ألمَّ به أمرٌ.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ أي: قيام الليل[3]، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل: ٢- ٤]، وقد كان قيام الليل واجبًا أول الأمر، ثم تحول إلى نافلة[4].

وقيام الليل من أشقِّ ما تجاهده النفس، وحريٌّ بالمؤمن أن يقوم ولو بثلاث ركعات أو خمس أو سبع أو تسع أو إحدى عشرة أو ما يسَّر الله، ولو أن تقوم ساعة أو نصف ساعة أو ربع ساعة، ففي ذلك خير كثير.

* ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾:

القاعدة المطردة أن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة للجماعة، وإذا جاءت في القرآن

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٧٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٨٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٤٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة المزمل»، والمصادر السابقة.

الكريم دون أن يسبقها شيء فإن المقصود بها الإشارة إلى الكافرين[1]، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]، وكما هنا، وهذا فيه تعريض بحمقهم؛ لأنهم أحبوا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾، وليس هذا فقط، بل تركوا ﴿وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾!

ووصف الله الدنيا بـ﴿الْعَاجِلَةَ﴾، وسماها: الدنيا، من الدون[2]، فهؤلاء يحبون الحياة الدنيا دون غيرها، ولو أحبوا العاجلة والآجلة لم يضرّهم ذلك، فإن الله يقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وأثنى على المؤمنين الداعين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: المقصود باليوم الذي وراءهم هو: ما أمامهم من يوم القيامة، وإنما جاء التعبير هنا بالوراء؛ لأنهم غفلوا عنه وتركوه وراءهم، فلم يهتموا به، ولم يذكروه، ولم يعملوا له، وولّوه ظهورهم[3].

فهو ليس كسائر الأيام التي ألفوها، وإنما هو يوم ثقيل، طويل مهول رَعيب.

ثم إن كلمة «وراء» و«أمام» تأتي في اللغة بمعنى واحد[4]، وهذا يسمى: التضاد في الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم[5].

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٥٢)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٣٠٣) «د ن ى»، و«تاج العروس» (٣٨/ ٦٩) «د ن و».

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٧).

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢١٩)، و«تاج العروس» (١/ ٤٨٦).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٧)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٧٨)، و«روح المعاني» (٨/ ٣٣٢).

وهذا تدوين لحماقة الذين أحبُّوا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾، فلو أنهم عاشوا الدنيا كلها منذ خُلقت إلى قيام الساعة ما كانت مكافئة وموازية للآخرة، فكيف والواحد منهم ما عاش سوى خمسين أو سبعين أو مائة سنة؟!

* ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾:

والأَسْر: الأطراف، أو اتصال بعض الجسد ببعض، يقال: إنسان شديد الأَسْر، أي: قوي الجسم[1].

وما دام أنه هو الذي خلقهم فهو قادر على إعادتهم، فهو احتجاج بالخلق الأول على الخلق الثاني[2]، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، أي: هم يستغربون من الخلق الجديد، فلماذا لم يتذكَّروا خلقهم أول مرة[3]؟!

أولم يعلموا أن الذي خلقهم أول مرة قادر على بعثهم؟! فهذا بقياس العقل أهون، وإن كان الأمر بالنسبةِ لله عَزَّوَجَلَّ سواء.

وفيها تذكير بالنعمة ودعوة إلى الشكر، أليس الله سبحانه قد أحسن خلقهم وشدَّ أسرهم؟ فالأطراف والمفاصل والأعضاء أحكمها الله عَزَّوَجَلَّ، وكلما تقدم العلم اكتشف المزيد من القوة والإبداع والقدرة والأسرار في خلق الإنسان والحيوان.

في أول السورة ذكر الله الإنسان والروح الذي به أصبح إنسانًا، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾، وبيَّن مراحل خلق الإنسان، وأنه صار إنسانًا لما نُفخ فيه الروح؛ ولهذا يقول تعالى في «سورة المؤمنون»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٧).

مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أما قبل نفخ الروح- حتى مع حياة الحيوان المنوي- فليس بإنسان.

وفي آخر السورة أشاد بالجسد وجماله وإتقانه وأَسْره[1].

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: جمهور المفسرين على أن المعنى: أن الله تعالى قادر على أن يذهب بهؤلاء ويأتي بغيرهم[2]، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣].

وهناك معنى آخر أشار إليه بعض المفسرين، ومنهم الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو: أن المقصود إحياؤهم للبعث مرة أخرى، كما خلقهم في الدنيا[3].

* ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: هذه السورة، أو هذه الشريعة[4]، وهو الأقرب، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: اختار، كما في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، أي: مَن شاء أن يكون شاكرًا ومَن شاء أَلَّا يكون كذلك، ولم يذكر الأمر الآخر؛ وهو: مَن شاء اتخذ إلى الشيطان سبيلًا؛ لأن سياق السورة- كما ذكرنا- يبين جانب الرحمة والإيمان والنجاة والجنة، وهذا فيه إشارة إلى مسؤولية العبد في الاختيار، وأن مشيئة العبد مؤثِّرة وفاعلة في اختياره الطريق والسبيل إما إلى إيمان أو كفر، أو طاعة أو معصية- وليس صحيحًا

(١) وما ذكره بعض المتقدمين من أن العظام والعصب ونحوها من ماء الرجل، واللحم والشحم من ماء المرأة؛ فليس عليه دليل لا طبي ولا شرعي، وإنما هي اجتهادات لا تُسلَّم. ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٥٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٧)، و«خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد علي البار (ص٢٩٧- ٢٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٠).

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٠٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٤٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ١٥٣).

أن الإنسان مقهور بالجينات كما يقال- وهي ضرورة يجدها الإنسان في نفسه، وأنه ليس بمجبور مطلقًا.

* ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾:

هذا معنى آخر، وليست الآية ناسخة للأولى كما ادَّعى بعضهم[1]، بل هما في سياق واحد هنا وفي مواضع أخرى، كـ«سورة التكوير»[2]؛ فإن مشيئة العبد وإرادته منطوية في إرادة الله تبارك وتعالى، فالعبد لا يغلِب ربه ولا يسبقه، والذين يكيدون لربهم تحبط أعمالهم ولا يصلون إلى شيء، ومن حكمته تعالى وعدله أن الذي يريد الهُدى يهديه، والذي يريد الضلال يخلِّي بينه وبين ما يريد حتى يلقى الله بذنبه، ومشيئة الله ثابتة؛ وهو تعالى علم مَن سيطيع ومَن سيعصي، وكتب ذلك عنده في كتاب، وليس الإنسان مقهورًا على طريق الخطأ أو على طريق الانحراف، ولا على طريق الطاعة، ولكنه مختار؛ ولذا ينعَّم أو يعذَّب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو سبحانه عليم بعباده وما سيفعلونه، وسيختارونه، وهو حَكِيمٌ في خلقه؛ ولهذا كان القدر سره في عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكان عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ- يعني: فتحة- فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ»[3].

ومراده: أن ينازع المؤمن أقدار الضلال بالهدى، والكفر بالإيمان، والجهل بالمعرفة، والإخفاق بالنجاح، والمرض بالعلاج، وهذا قَدَرٌ وهذا قَدَرٌ، كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نفرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله»[4]. مع الاستعانة بالله على ذلك، ومعرفة

---

(١) ينظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٥٠٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٧).

(٢) في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٨)، (٨/ ٣٠٦)، (١٠/ ١٥٨)، و«طريق الهجرتين» (ص٣٧)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أنه لا يريد الكفر والضرر على عباده إرادة شرعية، وإن كان هذا يقع كونًا وقدرًا.

* ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾:

والرحمة هنا هي: الجنة[1]، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي عن الجنة: «أنت رحمتي، أَرْحَم بك مَن أشاءُ من عبادي»[2].

وهي أوسع من الجنة، فتشمل الإيمان في الدنيا؛ فإنه من رحمة الله تبارك وتعالى، وتشمل المغفرة والتوبة واللطف الإلهي.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هؤلاء هم الطرف الآخر الذين أخفقوا في الابتلاء.

وقال هنا: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منصوب بفعل محذوف، أي: وتوعَّد الظالمين بأن أعد لهم عذابًا أليمًا، وفي «سورة الشورى» يقول: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾، فقال: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنه ليس بعدها فعل، أما هنا فبعدها فعل، فنُقدر قبلها فعلًا يدل عليه ويتضمنه الفعل الذي جاء بعدها[3].

وفي ابتداء السورة ذكر قصة الإنسان، وفي ختامها ذكر نهاية القصة، وأن هؤلاء صاروا إلى الجنة وهؤلاء صاروا إلى النار، والأمر لم يكن صعبًا ولا شاقًّا ولا شديدًا، بل هو يسيرٌ على مَن يسره الله عليه.

○○○

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٦٦- ٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣).

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

*** تسمية السورة:**

لها أسماء عدة، منها:

«سورة المرسلات»، وهو المثبت في المصاحف، ومعظم كتب التفسير(١).

و«سورة ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾»، كما في بعض روايات حديث النظائر(٢).

و«سورة ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾»(٣)، وهذا المعروف عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ في غار، وقد أُنْزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، فنحن نأخذُها من فِيهِ رَطْبَةً، إذ خرجت حيَّةٌ، فقال: «اقتلوها». فابْتَدرناها لنقتلها، فسبقتنا، فقال رسولُ الله ﷺ: **«وقاها اللهُ شرَّكُم، كما وقاكم شَرَّها»**(٤).

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا في النظائر التي كان النبيُّ ﷺ يقرأ بها في الصلاة، أنه كان يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ①﴾، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ①﴾ في ركعة(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٨٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٧).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٠، ٤٩٣١)، ومسلم (٢٢٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦، ٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢)- بدون سرد السور- وأبو داود (١٣٩٦)، وابن خزيمة (٥٣٨).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن أمَّ الفضل سمعته وهو يقرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا...﴾، فقالت: «يا بُنيَّ، والله لقد ذكَّرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في المغرب»[1].

وبعضهم يذكر أن من أسمائها: «سورة العُرف»[2]؛ لذكر «العُرف» فيها في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾.

* **عدد آياتها:** خمسون آية باتفاق علماء العدِّ[3].

* **وهي مكية** عند أكثر العلماء[4]، **ويدل على ذلك ما يأتي:**

١ - حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، وفيه أنها نزلت في الغار؛ ولهذا قال ابن العربي وغيره: إن من طرائف السورة أنها نزلت تحت الأرض، فكما أنه وجد في القرآن المكي والمدني والسفري وغير ذلك، فيوجد ما نزل تحت الأرض، ومنه هذه السورة، فإنها نزلت في الغار[5].

٢- أن نزولها كان في ليلة الجنِّ بمنى[6].

٣- ومما يؤكِّد ذلك موضوعات السورة؛ فإنها حافلة بالوعيد والتهديد والتخويف، وذلك غالب في القرآن المكي.

٤- أن السورة مليئة بتقرير التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب والجنة والنار، وهذا شأن القرآن المكي في الغالب.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٢) ينظر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ١٤٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٨٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٨).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٩).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٨).

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٥٦).

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٣٠، ٤٩٣٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٧٢).

٥- أن من علامات المكي قِصر آياته[١]، والسورة من هذا القبيل.

وقد أشكل على كونها مكية ذكر الركوع في آخرها في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فذُكر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره أنهم يرون هذه الآية مدنية[٢].

والصواب أن السورة كلها مكية، وأما ذكر الركوع، فإن الذين استشكلوه ظنوه مدنيًّا وقالوا: إن هذا يوم القيامة، أي: إذا قيل لهم يوم القيامة: اركعوا، لا يركعون، كما ورد في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣]، وهذا شأن المنافقين، والنفاق لم يوجد إلا في المدينة.

والصواب أن ذلك في الدنيا، وفيه إشارة إلى تمردهم وإبائهم ورفضهم الانصياع للحق وعدم إيمانهم وأدائهم للصلاة، كما في قوله سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ﴾ [الروم: ٣١- ٣٢]، فذم المشركين بأنهم لا يقيمون الصلاة، فيكون المقصود: وصف المشركين في الدنيا، وبناءً عليه فالسورة مكية على القول الراجح.

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! فقال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾**»[٣].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك ابن الصلاح، وغيره[٤].

---

(١) ينظر: «مباحث في علوم القرآن» لصبحي صالح (ص١٨٣).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨)، والترمذي (٣٢٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٥٠) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الواقعة».

وتتميَّز بأن فيها عشرة مقاطع، كل مقطع منفصل عن الآخر ليس معطوفًا عليه، وإنما يبدأ مستقلًّا، يُفصل بينه وبين سابقه بالتهديد الرباني: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ ليعطي معنى جديدًا يتعلَّق بالمقطع المشار إليه.

* ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾:

وهذا القَسَم يُشبه القَسَم في «سورة الذاريات»: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾، وفي «سورة النازعات»: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١)﴾، فهو قَسَم بأشياء أراد الله تعالى أن يلفت نظر الناس إليها مما لا يعرفه الناس لأول وَهْلة.

ويقول بعض المفسِّرين: إن المقسَم به هنا كله شيء واحد؛ وهو القَسَم بالرِّيح[1]، فهي «المرسلات»، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وجاء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ كان أجودَ الناس بالخير من الريح المرسلة[2].

وهي «العاصفات»، وهذا من أسمائها، ومن صفتها: أنها «الناشرات»، و«الفارقات».

ويشكل على ذلك أنه قال في آخرها: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾، فهل الرياح تُلْقِي ذِكرًا؟

قيل: نعم، تُلْقِي ذِكرًا؛ لأن الريح إذا عصفت ودمَّرت، فإن الناس يفزعون إلى الذِّكر والتسبيح والاستغفار ويلجؤون إلى ربهم، والنبيُّ ﷺ أمر بالدعاء وسؤال الله الرحمة، والاستعاذة بالله من العذاب عند هبوب الريح[3]، فكأنها ألقت على

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٦- ٣٧٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٧٦٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في «صحيح مسلم» (٨٩٩): «كان النبيُّ ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهمَّ إني أسألُك خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به».

ألسنة الناس ذكرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو جدَّدت لهم ذكرًا لما نسوه[1].

* ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾:

والأقرب أن المقسَم به قسمان:

الأول: الرياح.

الثاني: الرُّوح؛ وهي الملائكة[2].

فالمرسلات هي: الرياح، وهذا ظاهر.

و﴿عُرْفًا﴾: عُرْف الفرس: الشعر الذي يكون على ناصيتها ذات اليمين وذات الشمال[3]، وكذلك عُرْف الديك، فيكون المقصود: الرياح المتتابعة[4]؛ لأن العرب يقولون: جاء القوم إلى فلان عُرْفًا كعُرْف الفرس، أي: إذا التفوا وتتابعوا عليه.

* ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾:

الفاء ليست من حروف القَسَم، وإنما هي حرف عطف، فلا بد أن تكون «العاصفات» هي «المرسلات»؛ لأنها صفة لها وذكر لبعض فعلها، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ هي: الرياح إذا اشتدت هبوبها وعصفت[5]، وقد وصف الله تعالى الرياح في القرآن الكريم بأنها عاصفة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٦- ٣٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٧٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٠).

(٣) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٢/ ١١١)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٤١) «ع ر ف»، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٨٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٨٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١).

فتبدأ الريح هادئة ثم تزداد حتى تعصف عصفًا.

ولو قلنا: إن المقصود هو الملائكة، لكان المعنى واضحًا، فالملائكة تُرسَل إلى الأرض، فالله تعالى ﴿يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، و﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، يُرسلهم بالوحي وبالعذاب وبما شاء.

وعليه يكون قوله: ﴿عُرْفًا﴾ أي: معروفًا؛ فإنهم يُرسلون بالمعروف[1]، فيكون القَسَم هنا ليس بكل إرسال، وإنما بإرسالهم بالأمر الشرعي المعروف، كإرسالهم بالوحي وما أشبه ذلك.

ويكون المقصود بـ«العاصفات»: الملائكة في عصفها بالباطل، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، أو في عصفها بالمبطلين وإزالتهم ودحض حجتهم.

والأقرب أن المقصود بهاتين الآيتين: الرياح.

* ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾:

هذا قَسَم آخر، وهنا أبدل الفاء بالواو، فلم يقل: «فالناشرات»، بل قال: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾، فدل على أنه قَسم مختلف جديد[2]، والقسم هنا بالملائكة، فأقسم الله بالريح والرُّوح.

وهنا مناسبة لطيفة في الجمع في القَسم بين الرياح والملائكة؛ لأن الريح تُرسل مبشِّرة، تبعث السحاب، كما قال الله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، فهي تُرسل بالمطر، والمطر حياة للأرض وللنبات، والملائكة تُرسل بالوحي والحق، والحق فيه حياة القلوب؛ ولهذا جمع الله تعالى بينهما؛ لأن سرَّ الحياة فيهما.

وكثيرًا ما يجمع تعالى بين حياة القلوب وحياة الأرض، فمثلًا في «سورة

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٠).

الحديد» لما ذكر تعالى حياة القلوب في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عقَّب ذلك بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]؛ إشارة إلى أن القلوب الميتة تحيا بالقرآن، كما تحيا الأرض بالمطر.

* ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾:

وهذا قَسم واحد بشيء واحد، هو: الناشرات الفارقات الملقيات، وعطف بعضها على بعض بالفاء، والفاء ليست حرف قسم، كما سبق(١)، فالملائكة تنشر أجنحتها حينما تطير بين السماء والأرض، وتنشر الحق والخير، وتنشر الصحف، سواءً كانت هذه الصحف في السماء أو كانت في الأرض أو كانت يوم القيامة(٢)، كما قال الله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ [التكوير: ١٠]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣]؛ فإذا أخذت المصحف وفتحته فهو منشور بين يديك، وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قُتل والمصحف منشور بين يديه، وقد جاء في قصة الرجل والمرأة اللَّذَيْن زنيا من اليهود وفيه: «فأتوا بالتوراة فنشروها»(٣). ففتح الكتاب يسمى: نشرًا. والمصدر للتوكيد.

وبعدما نَشَرَت فَرَقَتْ، والفَرْق: التمييز والبيان، فهي تَفرُق فرقًا وفرقانًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والإيمان والكفر، وبين أهل الجنة وأهل السعير(٤).

وقد ذكر الله الفرقان في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، والفرقان: التفريق والتمييز بين الحق والباطل، فالملائكة تفرق بما جاءت به من الوحي من السماء بين الحق والباطل، فيكون الفرق أثرًا

---

(١) تقدم في قوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١- ٤٢٢).

عن نشرها[1].

وعند نزولِ الملائكة يبدأ الوضوح ويتمحَّض الحق من الباطل، ولا يحتاج الأمر إلى جهد جَهِيد وعمل كبير، فبعدما نشرت أجنحتها فرقت بين الحق والباطل، حتى قبل أن يتم إلقاء الذِّكر؛ لأن المقصود البداية والإرادة والتوجه لهذا الأمر؛ ولذا عبَّر بحرف الفاء الدال على التعقيب والمباشرة، والذِّكر هو الفرقان، فهي تُلقي الذِّكر على الرُّسل والأنبياء المصطفين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومنه القرآن، كما قال: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦].

* ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾:

أي: هذا الذِّكر المنزَّل يكون إعذارًا أو إنذارًا، وفي القرآن معنى ثالث هو التبشير، كما في قوله سبحانه: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ٢]، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الإسراء: ٩]، ولم يذكر البشارة هنا؛ لأن سياق الآيات سياق وعيد وتهديد وتخويف للكافرين المصرِّين الذين تعاظمت عليهم الحجج، ومع ذلك يصرفون وجوههم عنها، ويصدُّون عنها صدودًا.

والذِّكر عذر للمؤمنين الذين إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ﷺ فاضت أعينهم من الدمع وأقبلوا وآمنوا بالله ورسوله، فكان ذلك إعذارًا لهم، وبيانًا للحجة، وغفرانًا لما سلف؛ لأن الله لا يؤاخذهم على ما كان منهم في زمن الجاهلية قبل أن تقوم عليهم الحجة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال عن الكافرين: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي: حتى لا تقولوا ذلك.

والنُّذْر يكون للكافرين؛ لئلا يكون لهم حجة؛ لأنهم لم ينتفعوا بالوحي، ولكن الحجة قامت عليهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٢).

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فليس لهم حجة؛ لأن الإنذار بلغهم.

وعلى هذا المعنى يكون العذر في حق المؤمنين؛ لأنهم آمنوا ولأنهم بإيمانهم انتهوا، فغُفر لهم ما قد سلف، فلا يُؤاخذهم الله على ما كان منهم في زمن الجهل والشرك؛ لعدم العلم وقيام الحجة.

ولا بأس أن يكون المعنى عكس ذلك؛ فيكون إعذارًا للكافرين؛ لأنهم لن ينتفعوا من الوحي، ولكن معذرة إليهم لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهو إنذار للمؤمنين الذين كانوا في عماية وجهالة قبل الوحي، فأنذرهم وصدَّقوا النذير وآمنوا(١).

* ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

هذا جواب القَسَم، قَسم على أن الوعد واقع، والمقصود به: وعد الآخرة؛ القيامة والجزاء والحساب(٢)، وسياق السورة كلها جاء بالوعد والوعيد ووصف القيامة وأحوالها وما يكون فيها.

ويحتمل أن يكون ما يُوعدون أشمل من ذلك، فكل ما تُوعدون على الإجمال وعلى التفصيل سيقع، فيدخل في ذلك الوعد بالخير أو بالشر، كقوله جل وعلا: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]، ويدخل فيه تفاصيل الوعد الذي أخبر الله تعالى أنه سيقع من الكوارث والمصائب وأمور الخير والشر المذكورة في القرآن، أو فيما ثبت في صحيح السنة(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٣٩٢)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٣)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٨١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٦٧).

وفيه إشارة إلى الفرق بين الوعد الحق والوعد الكاذب أو الوعد المفترى، والفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فوعد الشيطان وعد كاذب، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وأما وعد الله تعالى فهو حق: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس:٥٥].

وثمة أمر ثالث بينهما، وهو وعد الإنسان، والنبيُّ ﷺ يقول في وعد الإنسان لأخيه: «آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعَدَ أخلفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»(١). وهذا دليل على أن المسلم إذا كان من عادته إخلاف الوعد، ففيه علامة من علامات النفاق، ولكنه لو وعد وفي نيته أن يفي، ثم لم يف لعارض فليس عليه شيء، وإذا ترتب على الوعد إقدام الآخر على فعل يكلِّفه ويحمله ما لم يكن يحتمل، فالأقرب أنه يجب الوفاء بالوعد ما لم يكن إثمًا.

* انتهى المشهد الأول، وانتقل السياق في السورة إلى مشهد آخر: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾:

* ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾:

ذكر تعالى طمس النجوم، ولم يذكر مَن الذي طمسها؛ لأنه معلوم، فالأمر بيد الله سبحانه، والأمر أصبح عيانًا لا شك فيه؛ ولهذا لم يكن ثمة حاجة إلى أن يُبيِّن مَن هو الفاعل، وإنما أجمله بنوع من الاختصار.

والطَّمْس يحتمل أمرين:

١- ذُهب بنورها فأظلمت، وعلى هذا فتكون ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ أجرامًا لا ضوء لها(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٩١)، والمصادر الآتية.

٢- ذُهب بها وبنورها، فأُزيلت ومُحيت[١].

تقول: طُمس الكتاب إذا كان عليه كتابة فمُحيت، وكذلك الطمس على الأعين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، أي: بالعمى أو بإزالة العين بالكلية، وكذلك قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، أي: نسألك أن تأخذ منهم أموالهم أو تُحيلها شيئًا آخر لا ينتفعون به.

من علامات الساعة والقيامة: أن تُطمس النجوم، وقد يكون في ذلك إشارة إلى زوال الشمس؛ لأن الشمس هي أكبر الأجرام الفلكية المضيئة القريبة من الناس، وكثير من النجوم التي يراها الناس نورها من نور الشمس، فذهاب نورها إشارة إلى ذهاب نور الشمس[٢]، كما جاء النص عليه في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١].

* ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾:

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ هي هذه القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، وقوله: ﴿فُرِجَتْ﴾ معناها: تشقَّقت وصارت أبوابًا[٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩]، أي: صار فيها شقوق وصدوع.

وأنت اليوم تنظر إليها فتجدها في غاية الإحكام والإتقان والجمال، كما قال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣- ٤]، أما في ذلك الموقف فالسماء تتصدَّع وتضعف فهي واهية مشقوقة.

* ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾:

النَّسْف قد يكون: التفجير، وقد يكون معناه: أن تتحول إلى شيء خفيف

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣١).

كالهباء[1].

* ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾:

وهذه هي القراءة المشهورة، وثمة قراءة أخرى متواترة بالواو: ﴿وُقِّتَتۡ﴾[2]، والمعنى واحد، أي: حُدِّد لها وقت[3]، فالرسل حُدِّد لهم وقت منذ أن بُعثوا، كما قال: ﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فتوقيت الرسل: تحديد وقت لهم يُجمعون فيه[4]، والمقصود: أنه حان وقت تنفيذ ما أُقِّتت له.

* ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣﴾:

لقد بُعث نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وكانت الرسالة تأتيهم والأجل يُضرب لهم، فأجّل الحساب للرسل ولأممهم، وربما استعجلت بعض الأمم، لكن الله تعالى يصبر على عباده، فيقول: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩]، وهو يوم الحساب.

فهذا المشهد يصوِّر لنا الدنيا وقد زالت، والنجوم وقد طُمست، والسماء وقد فُرجت، والجبال وقد نُسفت، والرُّسل وقد أُقِّتت وجُمعت، وانتهت الدنيا، وجاء موقف يوم القيامة.

و﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ يكون بين الخلق بعضهم مع بعض، فيُقتص لبعضهم من بعض، حتى يُقتص للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[5]، قال الله: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٤)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (٣/ ٢٢٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦٦)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٣٨- ٢٤٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ١١٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٤)، و«حجة القراءات» (ص٧٤٢).

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٨٢).

(٥) كما في «صحيح مسلم» (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

ويكون بين الرسل والمكذِّبين، ويكون بين المؤمنين والكافرين، ويكون بين المظلومين والظالمين، فيقتص للناس بعضهم من بعض، وترفع المظالم وينصف المظلوم من الظالم حتى لو كان المظلوم كافرًا أو فاجرًا، ففجوره على نفسه.

* ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾:

هذا تأكيد وتعظيم لماهيته ومعناه، وأن المسؤول عنه أمر عظيم فوق الإدراك والاستيعاب والقدرة، **والمقصود**: التعظيم والتهويل من شأنه[(١)].

وقال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[(٢)].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾:

الويل: العذاب[(٣)]، **والمعنى**: العذاب للمكذِّبين بالرسل يوم القيامة.

وهذا الوعيد متصل بميقات يوم القيامة، فهو يقول: الويل الشديد والعذاب الأكيد في موقف الفصل والقيامة للمكذِّبين بهذا الموقف الجاحدين للبعث الظالمين المعتدين.

* ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

وهذا استفهام، **والتقدير**: أهلكناهم[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٧٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٨٣).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (١/ ١١٥)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٥٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٤).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٨)، و«تفسير الجلالين» (ص٧٨٤)، و«روح البيان» (١٥/ ١٩٢).

والمقصود: الأمم القديمة، مثل: أمة نوح، قال: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: الأمم المتأخرة، كقوم هود وشعيب وصالح وموسى.

وقد يكون المقصود بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: كل الأمم الذين كانوا قبل رسالة محمد ﷺ، وهذا أحسن، فيكون المقصود بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هنا: كل السابقين الذين أهلكهم[1].

وهل المقصود هنا: الإهلاك بالموت، أو الإهلاك بعذاب من عند الله سبحانه؟

الأقرب أن المقصود الإهلاك بالعذاب، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾، فدل على أن المقصود: الإهلاك بعذاب الاستئصال[2]، كأن ينزل الله تعالى عليهم عذابًا من السماء، أو يسقط عليهم كسفًا، أو يزلزل بهم الأرض، أو يُبيدهم سبحانه بآيةٍ من عنده، فهذا موضع العبرة، مع أن في هذا إشارة إلى الاعتبار بالموت والهلاك، وأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة.

و﴿نُهْلِكِ﴾ مجزوم بـ«لم»، في حين أنه قال في الآية التي بعدها: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ بالرفع في الفعل المضارع، فلم يقل: (ثُمَّ نُتْبِعْهُمْ) بالجزم، وإن كانت قراءة لبعضهم[3]؛ إشارة إلى أن المعنى: أننا سوف نتبعهم الآخرين، أو نحن نتبعهم الآخرين[4].

فكما أهلكنا مَن قبلكم نهلككم أنتم إذا فعلتم مثل فعلهم، فيكون المقصود بـ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ هنا: مَن كانوا في عهد الرسالة المحمدية وبلغتهم هذه الآيات، ومَن جاء بعدهم إلى اليوم، وفيه إشارة إلى عظمة القرآن، وأنه حجة على أبي لهب

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٠- ٧٧١)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣١)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٩٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٧٤)، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص١٦٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٤)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣٤٦)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٤١- ٢٤٢).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧١)، والمصادر السابقة.

وأبي جهل وعُتْبة وشيبة والنَّضر بن الحارث بن كَلَدَة، كما هو حجة على الذين يسمعون القرآن اليوم، ففيه إشارة إلى أن الذي أهلك ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قادر على أن يهلك ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ إذا عصوا وأصرُّوا.

فهو هنا يدعوهم إلى الاعتبار بحوادث التاريخ وسننه، وأن يستدركوا أنفسهم قبل أن تحق عليهم السنة الربانية.

* ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: كما أهلكنا ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نهلك ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾؛ لأن السُّنَّة واحدة، وليس بين أحد من البشر وبين الله نسبٌ ولا سبب إلا التقوى، فالأرض لا تُقدِّس أحدًا، والقبيلة لا تقدِّس أحدًا، ولو كان من نسل الأنبياء الكرام، ولو كان من عُمَّار المسجد الحرام، ولو كان مَن كان، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾:

وهذا وعيد متصل بالسياق، وعيد لمَن يسخرون من مصاير الأمم السابقة، ويستخفون بمَن يحذِّرهم الهلاك إن لم يرعووا، فيوم يأذن الله لهلاك الآخرين كما أذن لهلاك الأولين، فالويل ثم الويل لهم.

* ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾:

وهذا استئناف لمعنى جديد غير متصل بما قبله، ولم يأت بحرف عطف، بل ابتدأ بسؤال عن أصل الخلق.

فهنا انتقل إلى حجة أخرى، **فالحجة الأولى** كانت حجة كونية: النجوم، السماء، الجبال.

والحجة الثانية كانت حجة تاريخية وهي قصص الأمم الغابرة والحاضرة.

وهنا **حجة ثالثة** في الإنسان، بين جنبيه، في أصل خلقته، تأتي بصيغة سؤال تقرير، والقرآن كثيرًا ما يطرح الأسئلة للفت البصائر والأبصار إلى محل الاعتبار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ألستم مخلوقين؟

هل من خالق غير الله؟

هل ادَّعى أحدٌ خلق شيء في الكون؟ حتى ذبابة أو بعوضة أو ما دونها؟

أليس خلقكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ضعيف مستقذر؟

سماه: ماءً مهينًا، وسماه: ماء دافقًا[(١)]، **والمقصود**: ماء الرجل[(٢)]، مع أن الإنسان مخلوق من ماء الرجل ومن بويضة المرأة، كما في الحديث: «**ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا، فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله**»[(٣)]. وسماه: أمشاجًا، كما في «سورة الإنسان»[(٤)]؛ لأنه مخلوط من مائهما، وهو في الحالين ﴿مَّهِينٍ﴾.

وفي هذا أعظم العبرة؛ كيف خلق الله تعالى من هذا الماء المهين إنسانًا قويًّا جلدًا يسمع ويرى، ويبصر ويفكِّر، ويعقل ويتحرَّك، ثم يتعالى على ربِّه ويستكبر في نفسه ويعرض عن الإيمان.

* ولأن السؤال عن الخلق ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تقرير وتوكيد كان بمثابة الخبر بأن خلقناكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وفيه مزيد السؤال المستفِز للعقل؛ عطف عليه خبرًا آخر عن هذا الماء المهين: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

وهو رحم المرأة[(٥)]، يستقر فيه تسعة أشهر غالبًا أو ما دون ذلك، في مكان ثابت محكم متمكن، من الذي يمسكه إلا الله أن يسقط؟ ومَن الذين هيَّأ هذا المكان ووفَّر فيه متطلبات الحياة لهذا الجنين؟

---

(١) كما في «سورة الطارق»: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠١)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٣٠١)، و«فتح القدير» (٤/ ٢٨٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٣٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «صحيح البخاري» (٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و«صحيح مسلم» (٣١٤، ٢١١) من حديث أم سُليم وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نحوه. وينظر: التعليق على «مختصر صحيح مسلم للمنذري» للمؤلِّف (١٩٦١).

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان»: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ...﴾ [الإنسان:٢].

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣١).

* ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢﴾:

القدر المعلوم: قدر نزول الحمل إن كان تامًّا أو ناقصًا[(١)].

* ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾:

﴿فَقَدَرۡنَا﴾ من: القدرة، فالله القدير الذي أذن بذلك وأمر فكان[(٢)].

وفي قراءة أخرى سَبْعية: ﴿فَقَدَّرۡنَا﴾[(٣)] من التقدير[(٤)]، وهذا معنى صحيح، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: ٢]، أي: قدَّر أن يكون نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً، إلى أن يصل إلى كماله الإنساني[(٥)].

* ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾:

أي: ويل للذين تقوم عليهم هذه الحجة في أنفسهم، ويرون خلق الله تعالى، ويتذكرون أصل نشأتهم، ثم يُكَذِّبون ويتنكرون!

* ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾:

سؤال جديد، وموضوع مختلف، وفي كل مرَّة يحاصر المكذِّب بسؤال محيط به قريب منه لا مخلص له ولا مفرَّ من مواجهته، هذه الأرض التي تحملك مَن أنشأها؟ مَن جعلها ﴿كِفَاتًا﴾؟ والكَفْت: الضم والجمع[(٦)]، فمن خصائص الأرض

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٨٣).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٤٤- ٢٤٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٥)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٥)، و«حجة القراءات» (ص٧٤٣).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٠).

(٦) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٥٦)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧٧٣).

أنها جُعلت كَفْتًا أو ذات كَفْت، تضم وتجمع الأشياء إليها من حيٍّ أو ميت(1).

ومن أقرب ما يفسِّر هذا: الجاذبية الأرضية التي تجعل الأشياء تنجذب إلى الأرض وتستقر عليها، ولولا ذلك ما كانت الأرض صالحة لحياة البشر.

* ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: جبالًا، ترسو بها الأرض وتثبت ولا تضطرب في حركة دورانها، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧]، أي: تثبت الأرض، وكذلك هي شامخة رفيعة، وفي اللغة يقال: شمخ فلان بأنفه، إذا ارتفع وتكبَّر، فقوله: ﴿شَامِخَاتٍ﴾ أي: مرتفعة(2).

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾: الفرات: العذب، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ومنه سُمي: نهر الفرات؛ لأنه عذب، والأنهار كلها عذبة(3).

والأرض والجبال والماء الفرات هي سرٌّ من أسرار الحياة، فلولا الماء ما عاش الناس، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وخاصية الكَفْت والجاذبية هي التي استدعت المطر من السماء؛ ليكون فراتًا عذبًا سائغًا للشاربين، والجبال بشموخها سبب في جريان الأنهار والينابيع ووصول الماء إلى مواقع لا يصل إليها إلا حين ينحط من قمم الجبال.

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦١).

(2) ينظر: «غريب القرآن» للزجاج (٥/ ٢٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٦)، و«روح البيان» (١٠/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٤)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

وينظر أيضًا: «العين» (٤/ ١٧٤)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ٤٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٩٥) «أ ن ف».

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣١٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٢٨) «ف ر ت».

* ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٨﴾:

أي: ويل يوم القيامة لهؤلاء المكذِّبين، الذين يمشون على الأرض، ويستمتعون بها، ويُسخِّرون الجبال في منافعهم، ويشربون المياه، ثم يكفرون بنعمة الله تبارك وتعالى ولا يؤمنون به.

* ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾:

الآن طُويت الدنيا، وانتقل المشهد إلى عَرَصات القيامة، والحديث عن الكفار والمجرمين والمكذِّبين؛ ولهذا يأتيهم خطاب الله تعالى آمرًا لهم بالانطلاق.. ولكن إلى أين؟

هم مقيَّدون مكبَّلون خائفون فزعون، فأول ما يسمع الواحد منهم كلمة ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ ربما يُداخله تساؤل عن الانطلاق من الأَسْر ومن القيود، ومن النار التي يسمعون حسيسها، أو يرونها من بعيد، أنه تهكُّم وسخرية.

والأمر بالانطلاق هنا ليس مخرجًا للنجاة، بل انطلاقٌ باتجاه هذا العذاب الذي يهربون منه!

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: انتهى الأمر، وأصبح عيانًا أمامكم، فهذا الذي كنتم به تكذِّبون، والأمر بالانطلاق فيه معنى السخرية(١)، كما في تبشير الكافرين بالعذاب في مواضع أخرى(٢).

* ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣﴾:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ مرة أخرى، وهذا قول الله تعالى، ويجوز أن يكون قول الملائكة(٣).

والانطلاق لفظ يبعث بعض الأمل أن ينفكُّوا من مضيقهم الذي هم فيه.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٥).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤].

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٤٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩).

﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾: إنهم يبحثون عن الظل؛ لأنهم قد آذاهم حرُّ الشمس، ولفحهم هجيرها، ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾، فهذا الظل الذي ينطلقون إليه ليس كما يتمنون، بل هو ﴿مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ من دخان النار[1]، ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣- ٤٤]، بخلاف ظل المؤمنين، فهم في ظلٍ ظليل: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، أما هؤلاء فظلهم هو النار نفسها أو ظل الدخان قبل أن يدخلوا النار.

فإذا بحثوا عن الظل قيل لهم: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾، ولكنه ليس كظل المؤمنين، بل هو ظلٌّ خاصٌّ، إنه ظل دخان جهنم، ﴿ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾، قال كثير من السلف: إن هذا الظل من سرادق النار[2]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال بعضهم: إن هذا الظل هو النار ذاتها[3]، فالنار قد تسمى: ظلًّا أو ظُلَّة، كما في قوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

لكن الأقرب أن هذا الظل شيء يسبق النار، فهو كالتمهيد أو المقدِّمة لها؛ ولهذا قال تعالى في «سورة الواقعة»: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ فقال: «نُزُل»، والعرب تسمِّي ما يُقدَّم للضيف في بداية دخوله: نُزُلًا، وهي مقدِّمة الضيافة[4]، وليس هذا كل ما هنالك، فهناك ما هو أشدُّ وأنكى.

وفي قوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ كأنما طوى الله تعالى الدنيا كلها، وأصبحنا في موقِف الآخرة، فالأمر يُشاهَد بالعيان، وطريقة القرآن في تقرير

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٣٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٤٥)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٠٠) «ن ز ل».

معاني العقيدة وحوادث الآخرة تنقسم إلى قسمين:

الأول: مخاطبة العقل بإقامة الحجج، والله تعالى حينما خلق العقل خلقه ليكون شاهدًا للإنسان ومرشدًا، فالنظر في ملكوت السماوات والأرض وخلق الإنسان والأحوال هذا كله خطابٌ للعقل ليؤمن ويعتبر.

الثاني: مخاطبة الروح، وهو خطابٌ للقلب والعاطفة؛ لأنه ليس كل كفر سببه وجود الشبهات، بل قد يكون سببه الغفلة، وهذه يمكن رفعها بالمواعظ التي توقظ القلوب وتهزها هزًّا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند ما يقول: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ يشعر القارئ أنه انطلق من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وكأنه يشاهد الأمر بعينيه، وكأنه معنيٌّ بهذا الخطاب.

وهنا ستجد في الآية الكريمة النص على ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾، فأنت إذًا أمام تفصيل واضح محدَّد، لم يرد له ذكر في غير هذا الموضع من الكتاب الكريم، فلماذا هذه الشُّعب؟

الظن- والله أعلم- أنها درجات ومنازل ورُتب بحسب كفر الكافرين، فكما أن الله تعالى جعل للمؤمنين درجات بعضها فوق بعض في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فكذلك الأمر بالنسبة للكافرين، فهم دركات وهلكات بحسب كفرهم.

ومن جميل ما يمكن فهمه هاهنا: أن قوله تعالى: ﴿ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ يفسِّره ما بعده، فيكون الظل غير ظليل.

وعادة العرب أن الظل إذا كان معتدلًا لا حارًّا ولا باردًا قالوا: هذا ظل ظليل، أي: جميل ومناسب، بخلاف ما إذا كان مكدَّرًا بهواء السَّموم، فهو لا ينفع ولا يقي حرَّ الظَّهيرة، فيتركون الظل؛ لأنه لا ينفع مع حرِّ الشمس، فهذا ليس ظلًّا ظليلًا، وإنما الظل الظليل هو الظل الوارف الجميل الذي فيه هواء عليل، وهو ظل أهل الجنة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

أما ظل الكافرين: فمنه هذا القسم الأول الذي هو غير ظليل، لا ينفع ولا يدفع.

ومنه القسم الثاني، وهو: ظل أشد من سابقه درجة، ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، فهذا الظل فيه لهب النار، فلا يقيهم من اللَّهب، فهم قريبون من النار بحيث تلفحهم أو يصيبهم حرها.

والقسم الثالث: الظل الذي هو أقرب إلى النار، حتى إن شَرَر النار يغشاهم ويصل إليهم وهم في الظل، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾.

والمقصود بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار[1]، وليست مذكورة في السياق، وإنما أعاد الضمير إليها في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾؛ لأنها حاضرة في الأذهان، والقارئ أو السامع مأسور بالمشهد، وكأنه يرى النار ويسمع زفيرها ويجد لهيبها؛ فلا حاجة إلى ذكرها، بل تكفي الإشارة إليها بالضمير.

والشَّرر جمع: شررة، والشَّرار جمع: شرارة، والشَّرارة قطعة صغيرة من النار تنطلق منها[2]، وسرعان ما تنطفئ؛ لأنها انفصلت عن الأم، أما في هذه النار فالأمر مختلف، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي﴾ أي: كأنها قصدًا تدفع إليهم بشواظ من لهب وشَرَر ضخم ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾.

والأقرب من أقوال المفسرين- وهو قول الجمهور- أن المقصود: القصور والحصون والمباني المعروفة[3]؛ فتكون الشَّرارة حينما تنطلق كأنها القصر العظيم من ضخامتها وهولها، ثم تتفرق هذه الشَّرارة أيضًا؛ لأنه إذا كان الظل

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٣)، و«لسان العرب» (٤/ ٤٠١) «ش ر ر».

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١١٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، والمصادر السابقة.

﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ فلا غرو أن الشَّرارة أيضًا تتفتت وتتقسم بعدما تنطلق، فبدايتها تكون كالقصر، ثم تتوزع فيكون القسم منها ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، وهي: الإبل أو النُّوق، ذات اللون الأصفر، وهو معروف؛ وذلك لأن الشَّرر في الغالب يكون أصفر؛ لما فيه من اللَّهب[1].

وذهب بعض المفسرين إلى إن الأصفر هنا هو المائل إلى السواد؛ وذلك لما فيه من النار[2]، وليس ثمة ما يمنع أن يكون الشَّرر أصفر، ويكون فيه سَفْعة من السواد؛ لقرينة خروجه من النار.

وهذا الشَّرر يأتيهم وهم في الظِّل الذي هو ذو ثلاث شُعب، ولو كانوا داخل النار لم يكن لوعيدهم بالشَّرر معنى؛ لأن الشَّرر يخرج من النار، فهذا يُرجِّح- والله أعلم- أن هذا الشَّرر يصلهم وهم في الظل الذي أُمروا أن ينطلقوا إليه.

وقوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾: ذكر الجمهور أن القَصْر هو البناء[3].

لكن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسَّرها بأنها أطراف الخشب التي تُقطع على قدر الذراع والذراعين، وتُتخذ في الصيف؛ من أجل أن يوقد بها في الشتاء، فهذه تسمى: قَصْرًا[4].

وقيل: إنها أطراف النَّخيل[5].

ولكن المعنى الأول هو الأرجح، وهو المتبادر للذهن، وهو واحد القصور.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٤)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٩٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٨٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٨٤)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٣١)، والمصادر السابقة والآتية.

وقد شبَّه الله تعالى الشَّرر بالقَصْر؛ لأن هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا منعَّمين، يسكنون القصور المشيدة الفخمة، ويأكلون الطيبات من الأطعمة، ويستمتعون بالحياة الدنيا، فكان ذلك تشبيهًا وإمعانًا في التهكُّم بهم فيما يُعذَّبون به في الدار الآخرة.

وكذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾؛ لأنهم كانوا يستمتعون بألوان المراكب في الدنيا، فالتشبيه له علاقة بما كانوا يتمتَّعون به في الدنيا، وكأن المعنى: ماذا أغنت عنهم دنياهم؟!

أو أن القَصْر إذا أوقدت مصابيحه ليلًا غدا أصفر يتلألأ، فكذلك الشَّرارة من النار تخرج صفراء تتلألأ مضيئة كأنها قصر في عظمها.

وذهب مجاهد إلى أن قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: أن تكون واحدة من الشُّعب فوق رأسه، وأخرى عن يمينه، وثالثة عن شماله[1].

فعلى هذا التفسير لا يكون المقصود بالشُّعب شُعبًا لعامة المعذَّبين، وإنما كل واحدٍ منهم، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤- ٣٥]، فالله تعالى توعَّدهم بهذا الظِّل الذي هو مقدِّمة لما بعده من العذاب.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

فهذا الموقِف الذي تشاهدونه الآن هو الوَيْل، وهو العذاب للمكذِّبين، قد أصبح عيانًا لا مجال للجدل ولا للتكذيب.

* ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة، والإشارة عادة تكون لأمر مشاهَد يُرى بالعيان، واليوم

(١) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ١٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤).

قد حلَّ ووقع، وقُرئ بالضم: ﴿يَوْمُ﴾، وبالفتح: (يَوْمَ)[1]، فعلى الفتح هو ظرف؛ فهذا هو الوقت الذي لا ينطقون فيه، وعلى الضم خبر للمبتدأ، وهو اسم الإشارة.

وكيف يُجمع بين هذه الآية وبين آيات أخرى تدل على أنهم ينطقون ويحاجُّون، كقوله: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، ويعتذرون إلى ربهم ويقولون: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ [فاطر: ٣٧]... إلى غير ذلك مما يقولونه في الآخرة؟

والجواب: أن المقصود بالآية هنا: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يقولون كلامًا له قيمة، فكلامهم هذر لا ينفع، ولا يدفع عنهم عذابًا؛ لأنه كلام باطل ولغو زائف، وهذا قول الحسن البصري[2].

أو يكون المقصود: حالًا دون حال، وهذا جواب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لنافع بن الأَزْرق عند ما سأله عن هذا[3]، فيوم القيامة- وإن كان الله تعالى سماه: يومًا- مقداره خمسون ألف سنة من سنوات الدنيا، فما بالك بما بعده من الجنة أو النار؟!

فإذا كان يوم القيامة ﴿مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، فليست كلها على حال واحد، وإنما فيها أحوال تختلف وتتغير، فأحيانًا يتجادلون، وأحيانًا ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سبأ: ٣١]، وأحيانًا يسكتون، وأحيانًا يُبلسون، وأحيانًا يتكلمون.. إلى غير ذلك[4].

وثَمَّ جواب ثالث متفرِّع عن الثاني؛ وهو أن يكون المقصود بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٨)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٦٤٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٥١- ٢٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩٢)، و«المستدرك» (٤/ ٥٧٣).

(٤) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٨٥).

يَنطِقُونَ﴾ في وقت خاص، وذلك حينما يُقال لهم: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٩- ٣٠]، فلا ينطقون ولا يستطيعون جوابًا، ولا يمتنعون من شيء، فينطلقون بالقدر والأمر الإلهي الرباني من غير إرادتهم، ولا يتكلمون، بل يختم الله تعالى على أفواههم وعلى ألسنتهم[(١)].

وهذا غاية في الذِّلة والإهانة، أن يكونوا معذَّبين ينطلقون إلى ما يعلمون به عذابهم دون أن يتكلموا أو يعتذروا.

* ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: لا يُؤذن لهم في الكلام أصلًا، إشارة إلى أن ذلك الموقِف موقِف رُعب، كما قال الله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، فإذا كان جبريل والملائكة والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يتكلمون إلا مَن أذن له الرحمن، فكيف بمثل هؤلاء المجرمين المكذِّبين؟!

فهم لا يتكلمون أصلًا، ولا يُؤذن لهم في الكلام، ولا أحد يتكلم إلا بإذن الله تعالى، ولو تكلَّموا واعتذروا لربما كان أكثر ما يعتذرون به ما كانوا يردِّدونه في الدنيا من الاعتذار بالقضاء والقدر: يا ربِّ، عصينا بعلمك وبإذنك، ولو شئتَ ما أشركنا. وهذا ليس بعذر، بل هذا كلام لا طائل تحته؛ لأنهم كانوا يعلمون ويدركون في الدنيا أن لكل إنسان إرادة خاصة، وهي التي يُحاسَب عليها، فهم الآن ينطلقون إلى الظلِّ اللاهب مقهورين مأمورين غير مخيَّرين، أما حينما كانوا ينطلقون إلى شهواتهم وجرائمهم ومظالمهم ومطامعهم فكانوا ينطلقون بمحض رغبتهم.

وهم في الدنيا يمكن أن يعتذروا كغيرهم عن خطأ أو زلل، ويمكن أن يتوبوا، فباب التوبة مفتوح، وربهم يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويقبل توبة العبد ما لم يغرغر، فلو أن أحدهم قبل أن يموت بلحظة ندم وتاب وأناب واستغفر صادقًا لنفعه ذلك.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٨).

وفي مواقف أخرى يمنعهم الله من الكلام، ويسمح لأعضائهم أن تنطق، فتتكلم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر، يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]، فالأيدي والأرجل حتى الألسن تتكلم، وليس هو الكلام المعتاد الذي يخرج من الحلق، وإنما يتكلم اللسان كقطعة أو مضغة، فيُعبِّر عما قال من باطل أو لغو أو غير ذلك، فهم في ذلك الموقف لا ينطقون ولا يُؤذن لهم فيعتذرون.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

والويل هنا محدَّد، والله تبارك وتعالى أعلم بشدة ما يعانونه من هول الموقِف ومن عجزهم حتى عن النطق وعن الاعتذار.

* ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: الفصل بين الناس في الخصومات، الفصل في بيان الحق من الباطل؛ لأنه في الدنيا يكثر القيل والقال والجدل، فهناك خصام كبير في الدنيا، وجدل بين الناس حتى بين الطائفة الواحدة، وجدل بين المؤمنين، وجدل بين العلماء، وجدل بين الأزواج، وجدل في أمور الدين، وجدل في أمور العلم، وجدل في أمور الدنيا، فالله يقول: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم إزالة اللبس والوهم عن كل قضية وفي كل أمر.

إنه تحريض للإنسان أن يكون صادقًا في الدنيا؛ لأن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، فالصادقون ينتفعون في يوم الفصل بالصدق، بخلاف الذي يجادل بالباطل، فحجته داحضة عند ربه؛ لأنه طالما جادل بالكلام الفارغ والسفسطة[1].

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾: يخاطب الله تعالى كفار قريش، أي: بعثناكم الآن لهذا اليوم، وجمعنا معكم الأولين من الأمم السابقة قبلكم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٢).

وعند ما تقرأ كلمة: ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ تشعر بأن الأمر يتعلق بالديانة والإيمان، فلا يجدر بمن يؤمن بأن ثمة يومًا للفصل أن يقف مع قضية ظالمة أو كاذبة أو خاسرة، بل يجب أن يكون منساقًا للحق، وإن كلَّفه ذلك أعز ما يملك، فالمهم أن يكون ما بينك وبين الله قائم وعامر(1):

فلَيتَ الَّذي بيني وبَينَكَ عامِرٌ وبيني وبَينَ العالَمينَ خَرابُ
إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكل هيِّنٌ وكلُّ الذي فوقَ التراب ترابُ

وخاطب الأولينَ أيضًا بأنهم جُمعوا وجُمعت معهم أمم الأرض كلها، ولكن في ذلك إشارة إلى أن الحجة على الإنسان تقوم بالأولين أكثر مما تقوم بالآخرين، فالإنسان يعتبر بما سلف وما رأى بعينه أو سمعه بأذنه، وبذلك تقوم عليه الحجة، بخلاف ما لم يقع بعد.

* ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾:

لقد كان الله يمهل الظالمين والطاغين ويصبر عليهم، ففرعون يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، والمشركون يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وكفرة أهل الكتاب يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وصبر عليهم وأمهلهم سبحانه، أما الآن فالأمر مختلف، وكلٌّ قد أتى فردًا، فلا يعتزون بالكثرة كما كانوا في الدنيا يقويهم اجتماعهم ويصبرهم، ففي ذلك الموقِف الرَّعيب أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، وليس أحد منهم قادرًا أن ينفع نفسه ولا يساعد غيره، فضلًا عن أن يغيِّروا المعادلة أو يكيدوا له كما كانوا يكيدون له ولعباده المؤمنين في الدنيا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥- ١٧]، وأين هم من الكيد، والواحد منهم عاجز، حتى أن يتكلم بكلمة، وإنما الحال على ما وصف الله سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٨- ١٩]، فإن كان

(1) ينظر: «يتيمة الدهر» (1/ 95)، و«علم العروض والقافية» (ص158).

لديكم قدرة تستطيعون بها أن تتخلَّصوا من العذاب أو تحتالوا كما كنتم تفعلون في الدنيا فافعلوا، وهذا تعجيز لهم؛ لأنهم لا يستطيعون.

والأقرب أن هذا كلام الله تعالى لهم، وهذا أوقع وأشد(١).

ويجوز- كما قال بعض المفسرين- أن يكون هذا من كلام الرسل أو الرسول ﷺ(٢)، كما قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٥]، وكما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

وهذا تكريرٌ للوعيد والتهديد، وهو متصلٌ بما قبله كاتصال نظيره المذكور آنفًا(٣).

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

طوى صفحة المكذِّبين وحالهم وظلالهم وما قال الله لهم ليذكر ما يقابلها، وهي عادة القرآن ألَّا يذكر أهل النار إلا ذكر أهل الجنة، والمقصود بالتقوى أنهم اتقوا الكفر بالإيمان؛ كما كان يقول ابن المعتز(٤):

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها ... وكَبيرَها ذاك التُّقَى
واصنع كماشٍ فَوقَ أَر ... ضِ الشَّوكِ يَحذرُ ما يَرَى
لا تَحقِرَنَّ صَغيرَةً ... إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٢).

(٤) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى، فقال: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟». قال: نعم. قال: «فكيف صنعتَ؟». قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: «ذاك التقوى»(١).

وفي يوم القيامة وما بعده ظِلال المتقين ليست كظلال أولئك القوم المكذِّبين، بل ظلال حقيقة قبل الجنة، يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة، وقد جاء في الحديث المتفق عليه: «**سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأَ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقَا عليه، ورجلٌ طلبته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُهُ ما تُنْفقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه**»(٢).

فهذا نموذج ممن وعدهم الله تعالى بالظل الظليل، وهم خلقٌ كثير.

والمتقون، وإن تفاوتت ظلالهم، إلا أنهم جميعًا في ظلال طيبة؛ ولهذا جاء التعبير بالجمع: ﴿ظِلَٰلٍ﴾ اعتبارًا لكثرته وسعته، وأما في حق المجرمين فقد جاء مفردًا: ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠﴾ [المرسلات: ٣٠].

ولهم كذلك عيون يشربون منها، والماء البارد قريب من الظل، وهذا قد يكون قبل دخول الجنة، كما يكون في الجنة أيضًا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ **والفواكه**: كل ما يُتفكَّه به(٣).

وربما يبدو في نظر السامع والقارئ أن المقصود بالفواكه ألوان الفاكهة التي في الدنيا، فالناس يعرفون البرتقال والرمان والتفاح وما أشبهه مما يسمى: فواكه،

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٩٨)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (٩٦٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤)، و«الدر المنثور» (١/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ينظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (ص٣٦٥)، و«المصباح المنير» (٢/ ٤٧٩) «ف ك هـ».

وهي من المقصود في الآخرة، لكن شتَّان ما بين فواكه الجنة وفواكه الدنيا، فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، وإلا فالطعم مختلف، والحجم مختلف، فيفكهون بها وبالأصوات والمناظر الجميلة، وأعظم ذلك التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم في جنة عدن؛ لأن النظر إلى جمال الدنيا من الخضرة أو المياه يبهج النفوس، فكيف بالنظر إلى وجه الله الكريم؟!

وهم مع هذه المتع كلها يستمتعون برضوان ربهم عليهم، كما جاء في الحديث: «أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبدًا»[2].

وهذا من أطيب النعيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهو سبحانه لم يقل لهم هذا إلا لرضاه عنهم، وما أعطاهم الذي أعطاهم إلا برضاه عنهم سبحانه.

وفي ذلك إشارة إلى أن أكلهم وشربهم هنيء لا تخالطه تخمة ولا مرض ولا ضعف ولا فتور، ولا عيب من العيوب التي تلحق متع الدنيا، وليس هذا عوضًا عن عملهم، بل هو فضل الله تعالى عليهم، ولكن بسبب أعمالهم تأهلوا لرحمة الله، فالباء هنا ليست باء المعاوضة المحضة، وإنما هي باء السببية.

* ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: مثل هذا الجزاء نجزيه المحسنين.

* وفي المقابل قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: الذين يكذِّبون بهذا النعيم لهم الويل بالعذاب المقيم في النار.

* ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

أَرْجَعَ الخطاب الآن للمكذِّبين أن يأكلوا ويتمتعوا بما عندهم من النِّعم العاجلة، التي هي قليل بالنظر إلى نعيم الجنة، والدنيا قليل بالنظر إلى الآخرة.

وهذا فيه إشارة إلى أن من أسباب تكذِيبهم وإيثارهم الدنيا على الآخرة

---

(١) تقدم في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

استغراقهم في المتاع العاجل وركضهم وراءه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]، فهذا الأكل والشرب والتمتع كان من أسباب تكذيبهم وكفرهم، وهم ربما وجدوا في الدنيا بعض المتعة والراحة، وهذا ليس مستغربًا، فالتمتع بملذات الدنيا مشاع بين الخلق، يناله المسلم والكافر، فالله يعطي الدنيا مَن يحب ومن لا يحب، ولكن لا يعطي الآخرة إلا مَن يحب.

ومما يدل على أنه يتمتع في الدنيا قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ [الانشقاق: ١٣]، أي: كان في الدنيا في سرور وفرح(١).

والدنيا جنَّة الكافر بالقياس إلى ما ينتظره عند الله تعالى من النَّكال والعذاب، والدنيا كلها متاع قليل، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء: ٧٧].

فهم يخاطَبون بأن يأكلوا ويتمتعوا وهم في الدنيا، ويوصفون بأنهم مجرمون، وهم الذين كتب الله عليهم أن يموتوا كافرين.

وفي السياق لم يخصِّص الله منهم أحدًا، وترك لهم باب التوبة مفتوحًا، كما قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾:

وهو مثل نظيره المذكور ثانيًا في هذه السورة، وله ارتباط خاصٌّ بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾؛ لما في «تمتَّعوا قليلًا» من الكناية عن ترقُّب سوء عاقبة لهم، فيقع قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ موقعَ البيان لتلك الكناية، أي: كلوا وتمتَّعوا قليلًا الآن، وويلٌ لكم يوم القيامة(٢).

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الانشقاق».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٦).

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

الراجح في الآية- والذي عليه جمهور المفسرين- أن المقصود بها: الكفار في الدنيا، الذين يأبون الركوع[١]، والمقصود بالركوع عند الجمهور: الصلاة كلها، فقد يُعبَّر عن الصلاة ببعض أجزائها، كما هو معروف[٢].

والركوع يُعبَّر به عن السجود أيضًا، فقد يقول الله في القرآن: ﴿ارْكَعُوا﴾، ويقصد به: اركعوا واسجدوا، فإذا لم يذكر السجود فهو يدخل في الركوع، فهنا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أي: اركعوا واسجدوا، وكان بعض قبائل العرب يستنكفون عن الركوع، فقالوا للنبي ﷺ: نؤمن لك، لكن لا نركع ولا نسجد[٣]. يقولونها أنفة عن تمريغ الجِباه والأنوف بالأرض، فهم لم يتذوقوا لذة المناجاة في السجود؛ لكِبْر في قلوبهم، ولجهالتهم، وإلا فلو أدرك الإنسان ما في الركوع والسجود من لذة التذلل لله ما أنف عنهما[٤].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلةً بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكون التعبير بـ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٥).

(٣) كما عند الطيالسي (٩٨١)، وأحمد (١٧٩١٣)، وأبي داود (٣٠٢٦)، وابن الجارود (٣٧٣) من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن وفد ثَقِيف لما قدموا على رسول الله ﷺ اشترطوا أن لا يُجَبُّوا، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «لا خيرَ في دين ليس فيه ركوعٌ». وينظر: «نصب الراية» (٤/ ٢٧٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٣١٩)، و«ضعيف أبي داود» (٥٢٩).

والمراد بقولهم: «أن لا يُجَبُّوا» أي: لا يصلون، وأصل التجبية: أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: أن ينكبَّ على وجهه باركًا، وهو السجود. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٣٨)، و«جامع الأصول» (٨/ ٤١٣).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٦).

لقصد وصفهم بالتكذيب.

والتقدير: ويل يومئذ لهم أو لكم، فهي تهديد ناشىء عن جملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكون اليوم المشار إليه بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: الزمان الذي يفيده «إذا» من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ الذي يُجازَى فيه بـ«الويل» للمجرمين الذين إذا ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: لا يؤمنون، وتفيد مع ذلك تقريرًا وتأكيدًا لنظيرها المذكور ثانيًا في هذه السورة[1].

* ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾:

ختام حاسم قاطع أن الله تعالى صرف لهم الآيات من الكون والنفس والدنيا والآخرة وأخبار السابقين، وصوَّر لهم مشاهد الحساب والقيامة كأنها رأي عين، فخاطب أرواحهم وعقولهم وأمهلهم وأنظرهم ثم أصرُّوا وعاندوا وكذَّبوا، فمَن سوف يهديهم من بعد الله؟!

○○○

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٧).

سُورَةُ النَّبَإِ

*** تسمية السورة:**

التسمية الأشهر لهذه السورة: «سورة النبأ»(١)؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وسُمِّيت في بعض المصاحف، وكتب التفاسير، وهي كذلك في «صحيح البخاري»: «سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾»(٢).

وتختصر في بعض المصاحف والكتب إلى: «سورة ﴿عَمَّ﴾»(٣).

وسمَّـاها بعض العلماء: «سورة التساؤل»(٤)؛ أخذًا للمصدر من الفعل في قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وتُسمَّى: «سورة المُعْصِرات»(٥)؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (١٤)﴾.

وقد كتب الشيخ محمد عبد الله دراز كتابًا سماه: «النبأ العظيم»، ودوَّن فيه من معاني الربانية في القرآن ما يثلج الصدور.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٢)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٢)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٦٨٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٥) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص٢٩٥، ٤٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

* **عدد آياتها:** أربعون آية، أو إحدى وأربعون، على خلاف بين علماء العَدِّ(1).

* **والسورة مكية** بإجماع أهل التفسير، حكاه ابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم(2).

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! فقال: «شَيَّبتني هودٌ، و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»(3).

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك ابن الصلاح، وغيره(4).

* ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ①﴾:

﴿عَمَّ﴾ كلمة مركبة من حرفين: «عن»، و«ما»، فأُدْغِمت النون في الميم، وحُذِفت الألف؛ لدخول حرف الجر «عن» على «ما»، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟

وهذا تساؤل عن التساؤل: عن ماذا يتساءل هؤلاء القوم وعلامَ يختلفون؟!

* ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ②﴾:

أي: عن الأمر الهائل المُفْظِع، والحدث الكبير الذي وقع على العقول والقلوب والأسماع وقعًا عظيمًا غير هَيِّن، فهم يتساءلون عنه في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم وأسفارهم.

ويحتمل أن تكون الآية استكمالًا للسؤال، أي: عن ماذا يتساءلون؟ هل

---

(1) واختلافهم في قوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: 40]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص262)، و«الكشاف» (4/ 683)، و«تفسير القرطبي» (19/ 169)، و«روح المعاني» (15/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 423)، و«زاد المسير» (4/ 387)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 541)، و«روح المعاني» (15/ 201)، و«التحرير والتنوير» (30/ 5).

(3) أخرجه الترمذي (3297)، والحاكم (2/ 343)، والبغوي (4176)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(4) ينظر ما تقدم في أول «سورة الواقعة».

يتساءلون عن النبأ العظيم[1]؟

أو يكون الأول سؤالًا والثاني جوابًا، والمعنى: أن الله تعالى سأل- وهو أعلم-: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ ثم أجاب بأنهم يتساءلون ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الموضوع خطير، وكفاه أن الله تعالى سمَّاه نبأً عظيمًا.

هل كان تساؤلهم تساؤل الجادِّ الباحث عن الحقيقة، يختارها، ثم يُؤثِرها، ويضحِّي في سبيلها؟ أم تساؤل العابث الذي يريد التشغيب والتسلية والتندُّر؟ أم تساؤل المُكذِّب الذي اتخذ قرارًا بالتكذيب قبل أن يسمع الخبر، وإنما يطرح بعض الأسئلة والشبهات حتى يصرف الناس؟!

وقد جاءت أقوال في ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2]:

فقيل: القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧- ٦٨].

وقيل: النبي ﷺ؛ لأن القرآن أُنزِل على شخصه ﷺ، وبه صار نبيًّا، وقد نُبِّئ بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وأُرْسِل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وكان يقول: «**إني نذيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ**»[3].

وقيل: البعث؛ لأنه من أعظم ما جاء به النبي ﷺ، وكان بالنسبة لهم أمرًا مُستغرَبًا، كما قال قائلهم[4]:

حيـاةٌ ثـم مـوتٌ ثـم نَشْـرٌ ... حديـثُ خُـرافـةٍ يـا أُمَّ عَمرِو

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩- ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦- ٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥- ٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) تقدم تخريجه في «سورة ﴿ قٓ ﴾»: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ منسوبًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، وأبي العلاء المَعَرِّي.

وهذه الأقوال كلها حق، وقد يعمُّ المعنى ما هو أشمل وأوسع، وهو أمر الإسلام والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء.. فهي عندهم نبأ عظيم يختلفون حولها ويتساءلون.

* ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾:

والاختلاف هنا يحتمل أمرين(١):

- **الاختلاف بين المُكذِّبين والمُصدِّقين**، وهذه سنة الله في العباد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ [النمل: ٤٥].

- **الاختلاف في تشخيصهم للرسول ﷺ، ووصفهم إياه، فمنهم مَن قال:** ساحر. ومنهم مَن قال: مجنون. ومنهم مَن قال: يريد الدنيا. ومنهم مَن قال: شاعر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ [الطور: ٣٠- ٣١].

ذكر الله تعالى تساؤلهم واختلافهم، وسمَّى الموضوع الذي تساءلوا حوله بـ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، **وهذا يقودنا إلى قضية التساؤل والاهتمام، وكيف يجب أن يكون؟**

١- **الموضوع**؛ بمعنى هل يستحق موضوعٌ ما أن يتساءل الناسُ عنه؟

والذي ينبغي في ذلك أن يُراعَى صدق الموضوع، فيكون جديرًا بأن يبحثه الناس، أو يتساءلوا عنه.

ولو نظرتَ إلى واقع المسلمين، بل بعض خاصتهم من الفقهاء وطلبة العلم والدعاة؛ لوجدتَ كثيرًا مما يشتغلون به من الأنباء والحوادث والقضايا، لا يستحق هذا الجهد.

وهذه مشكلة تتصل بقصور في الجانب التربوي؛ فالكثير من المعارك

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١١٢- ١١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠).

والصراعات تدور حول أشخاص أو مسائل وقتية أو هامشية على حساب ما هو أهم، بل حياة المسلمين اليوم أصبحت موبوءة بانشغالات، لا تنفعهم في دينهم، ولا تقرِّبهم إلى الله، ولا تصفِّي قلوبهم، ولا تنفعهم في دنياهم، بحيث تحقِّق لهم التقدم المدني والحضاري، بل هي أفكار وصراعات ومعارك، تشعرهم بالنشوة، وتخلق لهم شعورًا طيبًا بالإنجاز وهزيمة الطرف المقابل، والاحتشاد الوقتي حول قصة وهمية، أو موقف صغير يتم تضخيمه بتكرار الحديث عنه؛ حتى يصبح منفوخًا، وحقيقته: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

ولا يلتفت العاقل بعد سنة أو عشر ليتساءل: ماذا جنى وأفاد من الخروج من موقعة أو غزوة للولوج في أخرى؟ مع ما يصاحب ذلك من تغير النيات وقسوة القلوب والعجز عن الإنجاز الحق والبناء والتشييد، والمسألة مرتبطة من وجه آخر بخلل في التفكير ورعاية الأولويات وفقه الموازنات والمقادير.

٢- **الاعتماد على المصادر الصادقة**، وليس على شائعات أو ظنون أو وسائط مشكوك فيها، فهل سمعوا كلُّهم كلام الرسول ﷺ مباشرة؟

كلا، بل كان بعضهم يصل به الحال أن يضع في أذنه القطن، حتى لا يسمع النبي ﷺ؛ فيصيبه شيء من أثره وفعله في القلوب(١).

إن بعض الناس يعتمد في حكمه وتصوره للأمور على وسائط ونَقَلَةٍ يقع منهم التحريف والتدليس والتشويه، ويفقد حياديته واتزانه وبحثه عن الحق لصالح أمر سبق أن قرَّره واعتقده.

والواجب أن يعتمد في تلقِّيه على منهج سليم ونقل مصدَّق، وفق الشريعة، فالحجة: آياتٌ قرآنية ظاهرة الدلالة، أو أحاديثُ نبوية صحيحة مُحْكَمة، ليست

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣- ٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١- ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١، ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥)، وما تقدم في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

ضعيفة ولا مردودة ولا متشابهة، أو وثيقةٌ واضحةٌ فيما يُحكى ويُنْسَب إلى قائله، فلا تكون مزوَّرة ولا محرَّفة.

٣- **قضية الدليل**، أكان دليلًا عقليًا، مثل استدلالات القرآن على البعث بخلق الإنسان وبإحياء الأرض بعد موتها، أو كان شرعيًا بإثبات حكم أو نفيه، أو كان منطقيًا أو حسيًا... إلخ.

أما الإِلْف والعادة، أو الموروث، أو قول فلان من الناس، فهذا كله ليس بدليل، وإنما ينبغي أن يكون الدليل على نمط ما في هذه السورة، فمثلًا قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾، فهذا نقل صادق قطعي؛ لأنه من الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله، وهو دليل عقلي؛ لأنهم يشاهدونه بأعينهم، ولا يملكون نفيه أو نسبته لغيره، إذ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه فعل ذلك.

٤- **الفهم**، حيث إن كثيرًا من الناس يعادون أفكارًا، لو سألتهم عنها لحاروا، ولم يعرفوا كنهها!

وقد يكتب أحدهم نقدًا لمسألة لم يفهمها جيدًا، أو كان سمعها ممن حرَّف ودلَّس، فبنى حكمه على تصور خاطئ، كما قال المتنبِّي[1]:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفتُه من الفهمِ السَّقِيمِ

ولذا كان العلماء يعتنون في بحوثهم بتحرير محل النزاع والخلاف، بعد بيان ما هو متفَق عليه.

وقد يكون سبب الاختلاف عدم فهم أحدهم للآخر؛ فيتكلم أحدهم عن مسألة، ويتكلم الآخر عن مسألة أخرى، كما يُنسب إلى ابن عطاء الله السَّكَنْدري:

أقولُ له: عمرًا، فيسمعُه: سعدًا ... ويكتبه: حمدًا، وينطقه: زيدًا!

وقد يسمع أحدهم خلافًا، ليس لديه تصور واضح عنه، فينزع إلى أحد الطرفين، دون تحقيق ولا نظر، بل لأول بادرة في ذهنه، أو لأن أحدهم يتكلم بطريقة تعجبه وتناسبه، أو لأنه يعرفه ويعظِّمه.

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٣٢)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٤/ ١٢٠).

٥- المقصد، وأهمية التجرُّد وسلامة القصد:

وكم من جدل وحوار بدأ بنية طيبة، ثم تحول مع الزمن إلى وسيلة للانتصار والغلبة وجرِّ نواصي الخَلْقِ وإذلالهم، أو إظهار التفوق والسيطرة، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

كم هو عدد الذين يتساءلون ويتجادلون بحيادية دون غرض، يبحثون عن الحق بصفاء وتجرد، وأنَّى وجدوه أخذوه! ومَن كان كذلك فإنه يُوَفَّق للخير، وحتى لو لم يُصِبْ في مسألة ما، إلَّا أنه أصاب حسن النية، فهو مأجور؛ لصدق مقصده واستفراغ وسعه في طلب الحق وعدم الصدود عنه، ومعذور في خطئه.

* ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾ عند جمهور أهل اللغة كلمة زجر وردع(١)، وهو يعني أن هؤلاء المتسائلين لم يكونوا أهل تحرٍّ وبحث عن الحق، وإنما تساءلوا تساؤل المكذِّب أو الملبِّس أو المشوِّه أو المُعرِض، ولهذا عاتبهم تعالى في مطلع البيان، والتكرار من أجل التوكيد(٢).

ولا يعني أنه ليس ثمة معنًى آخرُ، وإن كان التوكيد نفسه معنى؛ لأنه دعوة إلى منح الأمر أهمية مضاعفة.

قال بعض المفسرين: إن ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الدنيا، و﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الآخرة(٣).

وعذاب الدنيا حصل لهم في معركة بدر، حينما قُتِلوا وسُحِبوا إلى القَلِيب(٤)،

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢).

(٢) ينظر: «الصناعتين في الكتابة والشعر» (١/ ١٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٣٨)، و«همع الهوامع» (٢/ ٥٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٨)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٨٢).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٤، ٢٨٧٥).

وأُتْبِعوا لعنة، ويوم القيامة بئس الرِّفْد المرفود.

وقريب منه أن يقال: إن الأولى إشارة إلى أن كثيرًا منهم سيعلم أن الله تعالى سينصر دينه ويعزُّ رسوله ﷺ، وأن مكة سوف يرثها القومُ الذين هم الآن مستضعَفون بها، حتى إن بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصعد على الكعبة ويؤذِّن، وقد علموا هذا ورأوه عيانًا بعد سنين.

فهي كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٧-٨٨]، أي: سيعلمون نبأ الإسلام، ونبأ القرآن، ونبأ النبي ﷺ، وما سيكون له من رفعة الشأن وظهور الدين وكسر شوكة أعدائه، ثم يعلمون عند ما يُبعثون صدق ما أخبر به(١)، وأن الميزان هناك ليس ميزانهم المادي، بل ميزان قسط يثقل فيه أمثال صُهيب وبلال وعَمَّار وسلمان وسُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، ويطيش أكابر المجرمين وزعماء المكذِّبين، كأبي جهل وأبي لهب وساداتهم الذين ماتوا على الكفر، وهذه هي الثانية.

و﴿ثُمَّ﴾ تُستخدم للترتيب الزمني، بمعنى عطف المتأخِّر على المتقدِّم، كما هنا لأنهم سيعلمون في الدنيا، ثم يعلمون في الآخرة.

ما السر وراء تهديد الله لهم؟

هو أن يحملهم على النظر إلى الموضوع بجِدٍّ، وكأنه يقول لهم: انظروا.. تفكَّروا.. تدبَّروا.. تأمَّلوا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١٣- ١٤]، إنه جدٌّ لا لعبَ فيه، فهو يقصد تحفيزهم وحملهم على أن يتأمَّلوا، ويتدبَّروا، وينظروا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

من المسلمين اليوم مَن عزبوا وغفلوا عن آيات القرآن التي تدعو إلى التفكر والتعقُّل والبحث المتجرّد والنظر، بل ظن بعضهم أن الدين ينافي استخدام

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ٣١٠).

العقل، وأصبح العقل مسبَّة عند آخرين، وربما كان ذلك بسبب الخلط بين العقل والهوى.

والتهديد المبطن ليس هو الأسلوب الأوحد ولا الأول الذي جاء في القرآن، فهناك التعليم والترغيب وإثارة الأسئلة، وتحريك العواطف.

ومن أعظم الخطأ أن يعتمد الناس والمربُّون والآباء والدُّعاة على أسلوب التهديد والتخويف وحده، ويُغفلون الحديث عن الرحمة وزرع الثقة بالمستهدفين وإعطاء الأهمية لهم، وهي خير ما يقودهم إلى الحق، **وإنما يكون التهديد والترهيب في أحوال؛ منها:**

١- أن يكون أسلوبًا ضمن أساليب أخرى يكمِّل بعضها بعضًا.

٢- أن يكون لقوم أفرطوا وأمعنوا في الإهمال وعدم المبالاة وترك الانصياع، و«آخرُ الدواء الكَيُّ».

٣- أن يكون في حالات خاصة يحتاج المرء فيها إلى تحريك الخوف لترك معصية أو مخالفة شهوة.

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾:

السياق استفهام يحفِّز العقول على التفكير، والمعلومة قد تُقدَّم للإنسان جاهزة فيأخذها تقليدًا، أو لا يلتفت إليها بالكلية، فإذا جاءت مصوغة في قالب سؤال، كانت دعوة إلى المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية واستحضار المعلومة السابقة.

ولم يقل: «ألم نخلق الأرض»، وإنما عبَّر بـ«الجعل»؛ لأن الله خلقها ولم تكن مهادًا، ثم جعلها مهادًا بعد ذلك، فالمهد والبسط جاء متأخِّرًا.

ويعزِّز هذا: قوله تعالى في «سورة النازعات»: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾ أي: بعد خلقها دُحِيَت، وبُسِطَت، ومُهِّدت، وجُعِلَت قابلة للحياة.

وظاهر السياق أن الأرض خُلِقَت قبل السماء؛ لأنه لما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾، والليل والضُّحى

يكون في الأرض؟! ففيها إشارة إلى أن خلق الأرض كان سابقًا.

وهكذا هنا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي: خُلِقَت أولًا، وكانت غير ممهَّدة، ثم بعد ذكر خلق السماء عاد السياق إلى الأرض؛ ليبيِّن جعلها مهادًا[١].

الأرض مهد للإنسان، وهي في مقام الأم الرَّؤوم، كما قال الشَّابيُّ[٢]:

وقالت ليَ الأرضُ لـمَّا سَأَلْتُ: أَيَا أمُّ هل تكرهينَ البَشَرْ؟!
أبارِكُ في النَّاس أهلَ الطُّموح ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَرْ
ومَن يتهيَّبْ صعودَ الجبال يَعِشْ أبدَ الدَّهرِ بين الحُفَرْ

وفي الآية إشعار بالبعث؛ لأن هذه الأرض التي هي مهاد لهم وهم أحياء، هي مهاد لهم وهم أموات؛ حيث يُدفَنون فيها، ثم يُبعَثون منها، ولهذا سمَّاها الله تعالى مستودَعًا، تُودَعُ أجسادُهم وعظامُهم فيها، ثم تؤدِّي ما استُودِعَت.

فهذه إشارة تمهيدية عابرة تهيِّئ العقل لقبول ما بعدها، وهذا من لطيف العلم، كما يقول بعض أهل العلم في تحريم الخمر: إن قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، إيماء غير مباشر إلى منع الخمر؛ لأنه فرَّق بين السَّكَر والرزق الحسن، فجعل السَّكَر شيئًا مغايرًا للرزق الحسن[٣].

فإنَّ جَعْل الأرض مهادًا مشعرٌ بخروجهم من المهد إلى البعث.

جعل الله الأرض مهادًا بالعيش فيها، والمشي عليها، والبناء، وجعلها مستعدة لتحمل تكاليف وجود البشر، كما ترى في رصف الطرقات وحفر الأنفاق والبناء الشاهق وأنواع الاستخدامات التي سخَّر الله الأرض لها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾: الجبال من الأرض، وإنما خصَّها؛ لأن لها مهمة أن تكون أوتادًا للأرض، وهذه الآية الوحيدة التي وصف الله تعالى فيها الجبال بالأوتاد، ومن

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات».

(٢) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص٩١).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٤١)، و«الدر المنثور» (٥/ ٤٦٧)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١/ ١٥١- ١٥٢)، و«التفسير المنير» للزحيلي (٢/ ٩٢)، و«التفسير الواضح» (٢/ ٣٢١).

معاني كونها أوتادًا: أنها تثبِّت الأرض أن تميد وتضطرب، فهي تحفظ توازنها[1].

ومن إقحام المعاني الغريبة: الاستدلال بالآية على أن الأرض ثابتة لا تدور، والله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وسواء كان هذا في الآخرة، كما يدل عليه السياق[2]، أو في الدنيا، كما يدل عليه اللحاق ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فهو يدل على أن الحواس قد يقع لها انخداع وترى الأشياء على غير حقيقتها، فالاستدلال بظواهر الحس على الحقائق العلمية مضلِّل.

* ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾:

اختلف السياق هنا من الاستفهام إلى الخبر، وهو مقصود في تغيير رتابة السؤال؛ لأنه مع الطول يُؤْلَف فيحتاج إلى تنويع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١- ٢]، ولم يقل: «ألم نضع»؟

وفي الآية إشارة إلى جواب السؤال، وكأن المعنى: قد جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا؛ ولذلك عطف سبحانه وقال: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا وأنواعًا وأشباهًا، فهناك الذكر والأنثى، وهذا سرٌّ من أسرار الألوهية؛ لأن الزوجين مختلفان، فالذكر غير الأنثى، ومع ذلك فخَلْقُهما في غاية الحكمة والرحمة والإبداع؛ وما كان الرجل ليشعر بسعادة الحياة وهنائها لولا المرأة، ولا المرأة تشعر بكمال سعادة الحياة لولا الرجل، فجعل تعالى الأنثى تحنُّ للذكر، والذكر يحنُّ للأنثى، كما قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ولا يصح حصر الأزواج من الخلق في جنس الرجال والنساء، بل يشمل أجناسًا كثيرة من المخلوقات، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩)، و«الكشاف» (٢/ ٥٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٤/ ١١٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ١٨٦)، و«روح المعاني» (٨/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٠/ ٥٠)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥١٠).

[الذاريات: ٤٩]، أي: في الألوان، وفي الأعداد، وفي الأحوال(١).

ومن ذلك: الغنى والفقر، ويقابله: الشكر والإحسان للغني، والصبر والرضا للفقير.. والصحيح والمريض.. والقوي والضعيف.. والمأمور والأمير.. والعالم والجاهل.. والذَّكي والبَلِيد...

وهذا التنويع موجِب للشكر لمَن فضَّله الله على غيره، ومقتضٍ للصبر؛ فالإنسان إذا ابتُلِي بمصيبة، أو آفة، أو عاهة، أو فقر، أو مرض؛ عليه أن يصبر ويؤدِّي عبودية ما هو فيه.

وهو مدعاة للإحسان: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، إذ جعل الله تعالى بين العباد التعاون؛ لأن التعاون بين الضدَّين يُوجِد حالة من الانسجام في الحياة، تستقيم الحياة بها.

وهو مَدْرَجٌ إلى التكامل، فهذا يبني، وهذا يصنع، وهذا يزرع، وهذا يتعلَّم، وهذا يفكِّر، وهذا يكتب، وهذا يقرأ، فمن خلال مجموع هذه الأعمال يوجد تكامل رائع في الحياة، وهو من أسرار الصنعة الإلهية.

والتعبير بصيغة الماضي إشارة إلى تقرير المسألة وبدهيتها ووضوحها للمخاطبين؛ لأن منهم مَن لا يتأمل السماء والأرض والجبال، لكن الزوجية قضية ضرورية يعايشونها في ذاتهم ويرونها فيمَن حولهم، فهي مما لا يحتاج إلى استدلال، بل هي نفسها دليل وحجة.

* ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾:

أضاف النوم إلى الناس؛ لأنه لا يغني فيه أحد عن أحد، فكل إنسان يحتاجه، ولو أن في الناس مَن لا ينام مطلقًا، لشعر بالحرمان والنقص والعَطَب والخلل؛ فالنوم ضروري لا غنى عنه، ولا حياة لمَن حُرِمه.

وقد ذكر الأطباء مدة معينة إذا عاشها الإنسان دون نوم فإنه يصاب بالإجهاد

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٧)، (٢٤/ ٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧).

ثم الهلوسة ثم يموت؛ إذ لا بد لهذا الجسم أن يأخذ حقَّه من الراحة والاسترخاء، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حزم في «طوق الحمامة»(١).

لم يقل الله: «ليلكم»؛ لأنه سيأتي في الآية التي بعدها، ولأن الليل ليس خاصًّا بالإنسان، بل المخلوقات على الأرض يتلبَّسها الليل، حتى إن إحدى الشركات في اليابان وضعت إعلانًا مضيئًا في وسط مزرعة، فاكتشف المُزارع أن زرعه تأثر بهذه الإضاءة الليلية، فرفع عليهم دعوى يطالب فيها بالتعويض عما لحق زرعه، ودخل النزاع في مرحلة من البحوث العلمية، وكانت النتيجة العجيبة أن هذا الإعلان المضيء قد أقلق راحة النبات؛ لأنه يؤرِّقه بالليل، وهي فترة راحته، وتبيَّن أنه حتى النباتات تحتاج إلى فترة إظلام معينة، وأن توزيع النبات على ظهر الأرض ليس تابعًا للرطوبة والجفاف، والحرارة والبرودة فحسب، ولكن تابع كذلك لطول الليل والنهار، أما النوم فهو للأرواح(٢).

يقول أهل اللغة: السُّبات هو: القطْعُ(٣)، أي: أن النوم يقطع حياة الإنسان الرتيبة؛ لأن الإنسان في النهار يعمل ويكدح، وربما يصاب بأمراض جراء ضغوط العمل والحياة، وقد ينام المرء على تعب وعناء ويصحو على سكينة وراحة وهدوء وسعادة.

ومن معاني السُّبات: أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النَّفَس يتردد، بلا حسٍّ ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يردُّ الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة، **أما كيف يتم النوم؟** فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية.

والنوم نفسه يخلُد فيه الإنسان إلى عالم آخر مستقلٍّ، فيه أحلام ورُؤى، وأحوال غريبة؛ فالنائم يسافر ويطير، ويكتب ويمضي عقودًا، ويهادن ويحارب، ويرى الموتى أحياء، والأشياء على غير مألوفها.

---

(١) ينظر: «طوق الحمامة» (ص٣٠٧).

(٢) ينظر: «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (ص١٥٩).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٢)، و«القاموس المحيط» (١/ ١٩٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٠٩٤) «س ب ت».

وقد جعل اللهُ تعالى النوم أَمَنَةً، كما قال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]، حتى كان السيف يسقط من يد الصحابي مرارًا من شدة النُّعاس، ثم يصحو، فإذا به قد استعاد قوته ونشاطه[١]، فالنوم يقطع عن الإنسان التعب والإجهاد والإعياء، ويعيد له قوته وحيويته، وكأنه يضخ فيه طاقة روحية جديدة.

والعلماء يسمون النوم: الوفاة الصغرى. أخذًا من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد جعل الله تعالى النائم قابلًا للاستيقاظ من ذاته أو من غيره، بخلاف الحالات الاستثنائية، كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١].

فمن معنى جعل النوم سُباتًا، أنه يقبل القطع، ويكون بقدر حاجة الإنسان.

والنوم ضرورة من ضرورات صحة البدن، ولا يزال العلماء يؤكِّدون أن الإنسان يدفع ثمن قلة النوم أو اضطرابه من صحته وحياته؛ بسبب الإجهاد، وضعف التركيز، وهَرَم الذاكرة والنسيان، والتأثير في الاستقرار العاطفي والنفسي، فيكون نقصه سببًا لسرعة الانفعال والغضب، كما يؤثِّر على خلايا المخ، فعلى الإنسان أن يأخذ القدر الكافي من النوم، وهو يختلف من شخص لآخر، ولكن غالب الناس يحتاجون ما بين ستٍّ إلى ثمانٍ ساعات، من أجل المحافظة على حيويتهم وقوتهم ونشاطهم، وتجنب التعرض للأزمات النفسية أو القلبية، وإذا قسمها الإنسان بين الليل والقيلولة كان أنفع، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ.

ونوم الليل أفضل من نوم النهار، وبعض العلماء يقولون: نوم ساعة واحدة في الليل أفضل من ساعتين في النهار؛ لأن الليل مناسب بهدوئه وصفائه للاسترخاء،

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٠٦٨، ٤٥٦٢)، و«صحيح مسلم» (١٨١١).

وينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ١٦١- ١٦٣)، و«زاد المسير» (١/ ٣٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٣٣).

وأخذ قسط من الراحة، واسترخاء ساعة في الليل يعادل نوم نصف ساعة حتى لو لم يستطع أن ينام!

* ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾:

فهو لباسٌ للأرض، أشبه ما يكون بالثوب أو الجلباب الذي تلبسه الأرض.

وهو لباس للإنسان ذاته، يمنحه قَدْرًا من الهدوء والسكون، وأكثر الناس لا يجدون الراحة إلا في الليل، ففيه من لحظات الأنس، والسمر، والجلسات الممتعة ما ليس في النهار.

وصف الله الليل بالسَّكَن ووصف العلاقة الزوجية بالسَّكَن: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. والمرأة أشبه بالليل، سترًا وروحانية وعاطفة، والرجل أشبه بالنهار، ظهورًا وتجليًا ودأبًا واحتمالًا، وفي الحياة تناسق رائع بين مهمات الرجل ومهمات المرأة، وطبيعة كل منهما، فالزوجية تتجلَّى في الليل والنهار، وفي السماء والأرض، كما تتجلَّى في الذكر والأنثى؛ ولذا أقسم الله بذلك كما في «سورة الليل».

والليل غالبًا ملتقى الحياة الزوجية ومستراحها بعد الفراق والعناء والسَّبْح الطويل مع الناس.

ذكر القرطبي في «تفسيره» أن بعض المغفَّلين قال: ما دام الليل لباسًا، فللإنسان أن يصلِّي فيه وهو عُريان؛ لأن الليل بحدِّ ذاته يغني عن اللباس[1].

وهذا من أقوال أهل الغفلة، فكون الليل لباسًا فيه معانٍ متعدِّدة، لكنه لا يغني عن اللباس الحسِّي الذي امتنَّ الله به على الناس، كما قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد جاء عن النبي ﷺ: «اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه»[2].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠)، والبخاري (١/ ٦٤) معلقًا، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩) من حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والناس ينقطعون في الليل غالبًا عن الخروج، ويأوون إلى بيوتهم أو حقولهم، ويجتمع شملهم على طعامهم وشرابهم ونومهم، فتكون المساكن كاللِّباس لهم.

وبعض الناس عكسوا الحال، فجعلوا الليلَ نهارًا، والنهارَ ليلًا، على أن غالب الأمم يهجعون أول الليل إلى مضاجعهم ويأوون إلى بيوتهم، ويقومون مبكرين إلى أعمالهم ومصالحهم.

حين يشرق الصباح يصحو الكون ويتهيّأ ليوم جديد، فلتكن روحك متطلِّعة لهذا الصباح الجميل، قانعة راضية متفائلة بعطاء الله الكريم، داعية بالخير للعباد.

* ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾:

كرَّر «الجعل»، ولم يقل: «والنهار معاشًا»؛ لأن الآيات قصيرة، ولا يلائم أن تقتصر على مفردتين.

وفيه بيان أن الاستفهام في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تقريري للإثبات؛ ولذا عقَّب عليه بفعل ماضٍ يدل على حصول الفعل، وعلى الفاعل وهو الله تعالى.

وفي الآية تكرار التذكير بالنعمة واستحضارها؛ لأن الإلف يُنسي النعم، فهذه الشمس التي تشرق كل يوم ثم تغيب، لا يدرك الناس قيمتها؛ لاعتيادهم عليها، وكذلك مَن يعيشون في المناطق الخضراء الممطرة، لا يلفت نظرهم ما فيها من الجمال الأخَّاذ مما يلفت نظر غيرهم، وكذلك أهل الصحراء والرمال أو السواحل والبحار..

﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه تأكيد الردِّ على مَن لا يؤمنون بالصانع سبحانه من الدهريين والطبائعيين، كالمانوية الذين يجعلون آلهة للنور وآلهة للظلام... فالآيات تدحض هذه المقولة، وتبين أن الفاعل هو الله وحده لا شريك له، وأنه خلق النور والظلام، كما قال المتنبِّي[1]:

وكم لظلامِ الليلِ عندك من يدٍ ... تخبِّر أن المانَوِيَّةَ تكذِبُ

وأقرب ما يكون من معنى كلمة «المعاش»: أنه ظرف لطلب العيش، والتصرف

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٦٦)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (١/ ١٧٨).

في شؤون الرزق[1]، وهذا ظاهر في حال أكثر الأمم والشعوب.

* ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾:

البناء يدل على القوة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، والأيد هنا: القوة[2]، فالله تعالى هو الذي بنى الكون كلَّه، ومن ذلك السماء ﴿فَوْقَكُمْ﴾ شيء ترونه وتشاهدونه في عُلوِّه وشموخه، والبناء كلما ارتفع وعلا فإنه يدل على قدرة الصانع، وفي القديم كان الناس يتفاخرون بالمباني الشامخة العظيمة، ولا زالوا يتفاخرون بناطحات السحاب، والمباني الضخمة، ولذلك جاء السياق يمتنُّ عليهم، ويذكِّرهم بالقدرة الإلهية في بناء السماء التي لا يتصوَّرون سعتها وأبعادها، والإنسان يرى النجوم حوله تلمع، لكنه لا يدري أنها ذرات في مجرات تسبح في فضاء واسع لا يحيط به إلا الله.

وهذا ليس بحديث خرافة وتَخَرُّص، بل هو صنع الله العظيم، والمتخصِّصون في علم الفلك يشاهدون من خلال المكبِّرات في هذه القبةَ الزرقاءَ ونجومها وشموسها وأقمارها ومَجَرَّاتها أشياء هائلة تُذهِل العقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥- ٧٦].

والمراد: السماوات السبع، وصَفَها بالشدَّة؛ لكونها قويةً مُحْكَمةً مُحَصَّنةً، بحيث لا تستطيع الشياطين ولا البشر أن يصلوا إليها؛ فإن كل إمكانيَّات البشر وقدراتهم وحديثهم هو عما دون السماء الأولى، وإلا فالسماوات التي بناها الله تعالى فوق ذلك، لا يصل إليها علم البشر ولم يحيطوا بها علمًا.

وعامة البشر يؤمنون بأن فوقهم سبعَ سماواتٍ، وهذا مألوفٌ وموروث ثقافي عند معظم الشعوب، وقد جاء في القرآن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٩٧) «أ ي د»، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١١).

مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

والآية وما شاكلها دلالة على أن فوقنا سبع سماوات، وأنها طِباق- أي: بعضها فوق بعض- وهذا هو المقصود في الآية، وهو الذي عليه جمهور المفسرين(١).

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: «يجوز أن يُراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشترَى والمريخ والشمس والزُّهَرة وعُطارد والقمر».

وقال: «وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظفر؛ لأن المخاطَبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد»(٢).

والأقرب هو ما ذهب إليه الجمهور أن المقصود سبع سماوات، كما في مواضع أخرى، وكون الناس لا يعرفونها بالرؤية؛ فإن الله تعالى يعرِّفهم بها، ويحتج عليهم بالقدر المعروف والمشهور منها.

والقرآن الكريم حجة على الناس في كل زمان ومكان، وفي العصور السابقة لم يكن عندهم إلمام ومعرفة بهذه المَجرَّات الهائلة، والمدارات الفلكية المُذهِلة، وهذا البعد الذي تدور منه الرؤوس، وكلما تقدَّم العلم، زاد فَهم الناس وتعمَّق لبعض الألفاظ ودلالاتها.

وأمام البشر فرص ضخمة لمزيد من الكشوف الفلكية والاستدلال على وجود العوالم العليا، وها هم علماء الفلك قاموا أخيرًا بطرد الكوكب (بُلوتو) من المجموعة الشمسية، ليصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية ثمانية.

* ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾:

ذكر الشمس دليل على أن المقصود السماوات السبع وليس الكواكب؛ لأن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣).

الشمس هي أحد النجوم السبعة، فالأقرب أنه بعدما ذكر السماء ذكر بعض ما في السماء، وهي الشمس.

ولم يذكر اسم الشمس اكتفاءً بما هو معلوم، وسمَّاها: ﴿سِرَاجًا﴾؛ لأنها تضيء الكون، فهي مصباح ضخم هائل أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، كما يقول الفلكيون، ومع ذلك يراها الرائي بسبب بُعدها بهذا الحجم الصغير، وهي معلقة في الفضاء، لا يمسكها إلا الله سبحانه بسننه ونواميسه التي تجري في سائر الأفلاك.

والوهَّاج: المتوقِّد، ففي الشمس إنعام آخر بالإنضاج والحرارة، والحرارة هي إحدى النعم العظيمة في الكون، والتي تسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات وتحقيق البيئة المتوازنة(١).

* ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾:

هذا له علاقة بالشمس؛ لأن الشمس هي أحد أسباب تبخُّر ماء البحر؛ ليكون مطرًا وغيثًا.

وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾.. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾.. ﴿وَبَنَيْنَا﴾ صياغات تشعر بتمام القدرة وكمال التصريف الإلهي وراء كل شيء، فهذه الأشياء العادية التي يمرُّ بها الناس وهم عنها معرضون، ينبغي أن ينظروا فيها بروح أكثر حيوية، وأكثر إيمانًا، وأكثر استحضارًا لقدرة الخالق المبدِع الرحيم الكريم سبحانه.

والإنزال إشعار بأن كل قطرة تنزل من السماء هي بقَدَر: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وهي رحمة وحكمة، وكل شيء بحسبان؛ ولذا يقول العلماء: إن كمية المطر النازل إلى الأرض هو بقدر كفاية الناس، فهو موزون ومخزون، ولكن العبث البشري يؤثِّر على المطر كما يؤثر على البحر وعلى اليابسة وعلى البيئة كلها،

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٥١)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٦٨٤)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٨٣).

وهو جزء من الفساد في الأرض الذي نهى عنه القرآن وشنَّع على مرتكبيه.

واختُلِف في تفسير ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ على أقوال[1]:

هل هي: الرياح، أم: السماء، أم: السُّحب؟ **وهذا قول الأكثرين.**

وفي الآية تشبيه بليغ؛ لأن «المُعْصِر» عند العرب هي الجارية قُبَيْل بلوغها، أي: آن لها أن تحيض ولم تحض بعد، فيقال: هذه جارية مُعْصِر[2]، شبَّه السَّحاب هنا بالجواري، فهو يخلع على السحاب روح الحياة، وما لها لا تكون حية، ومنها ينزل الغيث الذي يُحيي الله به الأرض بعد موتها، والسُّحب ورد وصفها بالجارية في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣].

وصف المطر بأنه ثجَّاج، أي: يُصَبُّ صبًّا بدفق وقوة[3]، وفيه دليل على الحكمة الإلهية في تصريف الكون، وتحريكه، ولذلك تُسمَّى الأرض بالكوكب الأزرق، لأن أكثر من (٧١٪) من مساحتها ماء.

وهذا الماء يصعد من البحر إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، ويقال: إن ما ينزل من المطر كل سنة يكاد أن يكون متساويًا، ويُروى حديث: «**ما عامٌ بأمطَرَ من عامٍ، ولكِنَّ اللهَ يصرِّفُه حيث يشاءُ**»[4]. فهذه حكمته سبحانه، أنه يُنزِلُ من هذه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١- ١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١١٩- ١٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٣- ١٩٦).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦).

(٤) أخرجه العقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٦٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٨)، وابن مردويه- كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٦٤)- والبيهقي (٣/ ٣٦٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وقال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٢٦): «منكر... غريب جدًّا».

وأخرجه موقوفًا: الفسوي (٣/ ٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (٧٦)، وابن وضَّاح في «البدع» (٧٦/ ٢٢٩)، والطبري (١٤/ ٤٠)، (١٧/ ٤٦٩)، والعقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (١٠)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٢١٣، ٢١٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣).

ورجَّح الموقوف غير واحد. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤١٣١، ٤٤٦٠).

السماء الماء الثجّاج الذي يُصَبُّ بقوة.

وفيه معنى الكرم، والعطاء الذي يُصَبُّ على العباد صبًّا، ومع أنه محسوب، وكل قطرة بإرادة الله، إلا أنه عطاء جزيل، وهذا أقوى ما يكون حجة على الناس، فهم يرون الأرض يابسة، فإذا نزل عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، والعرب خاصة يعلمون هذا؛ لأن حياتهم تقوم غالبًا على الرعي والمطر والغيث، فيمتنُّ الله تعالى به عليهم.

* ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾: عبَّر بالفعل المضارع؛ إشارة إلى الحركة التدريجية في النبات، فالنبات لا يأتي دفعة واحدة، بل يتكون شيئًا فشيئًا، لذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

والحَبُّ هو: القمح والحنطة والشَّعير[1]، ونحوه مما يأكله الناس، والغالب أن الحبَّ يكون أقواتًا للناس، مع أن الحيوان يستفيد منه أيضًا، وبدأ به؛ لأنه من الضروريات التي لا غنى للإنسان عنها، وكل شعب في الأرض تتكون وجبته الرئيسية من الحب.

والمقصود بالنبات ما يكون أخضر، فيشمل طعام الإنسان من الخضراوات والبقول، ويشمل طعام الحيوان من الأعلاف وغيرها.

ثم ذكر «الجنَّات»، وهي الأشياء التحسينية التجميلية للحياة، وتدخل فيها الفواكه، **والجنة** هي البستان الذي تكثر فيه الأشجار، ولهذا وصفها بقوله: ﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفٌّ بعضها فوق بعض[2].

حينما يرى الإنسان مظاهر الإبداع في خلق الكون يجد عجبًا، ولذلك فإن الزُّرَّاع أكثر تديُّنًا وصلاحًا واستعدادًا لقبول الحق والفطرة ممن يتعاملون مع

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦)، و«الهداية الى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾.

الآلة؛ لأن الذي يتعامل مع الأرض حرثًا وزرعًا، ويراقب الصنعة الإلهية بشكل مباشر، يرى آثار هذه الصنعة والإبداع، فيقوى إيمانه ويزيد تواضعه، في حين أن الذي يتعامل مع الآلة يتعامل مع شيء من صنع الإنسان؛ فيغلب عليه النظر إلى إنجاز الإنسان وإبداعه ويذهل أن مبدِع الإنسان هو الله جل وعز، فهو خالق عقله وقدرته وإمكانيَّاته، وهو خالق الأمم والحضارات والأكوان، ومسخِّر الآلة والمادة وواضع نواميسها وقوانينها.

وفي الآية إشارة إلى ملحظ الجمال، وهو مقصود في صنع الله تعالى، ففي السماء تلحظ القوة والشدة، والبعد والارتفاع، كما تلحظ الجمال في النجوم المتلألئة، وكأنها تتناجى في هذا الليل المظلم، ولو نظر الإنسان إليها عبر المكبِّر، أو في الصور الوثائقية أو العروض الفضائية؛ أو التقنيات ثلاثية الأبعاد؛ لرأى شيئًا يذهل ويدهش.

وهذا كله مما امتنَّ الله به على عباده في هذه الدار، وسخَّره لهم، ورزقهم إياه، وجعل به قوام الحياة إلى أجل مسمًّى، وعلى المرء أن يحسن الانتفاع به، ولا ينشغل به عما هو أهم وأعظم.

* ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾:

وعادةً ما يعقد الله تعالى المقارنة بين إحياء الأرض بالنبات، وبين إحياء الإنسان بالبعث، كما في سور: ﴿قٓ﴾، والأنعام، ويونس، والحج.

وفي هذا السياق ذكر المطر، وأنه يحيي الأرض بعد موتها، ويجعل منها جنات ألفافًا؛ فناسب أن يبين أنها جنات عابرة تذبل وتموت، وعلى الإنسان أن يستعد لجنات الآخرة، ولذا ذكَّرهم بالبعث وخروجهم من قبورهم.

لم سمَّاه: يوم الفصل؟

١- لأنه حقٌّ لا ريب فيه، ومَن كذَّب به فهو في ضلال بعيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣- ١٤]، أي: لقولٌ حقٌّ، وليس بالكذب والهزل، فهو اعتقاد يقيني قطعي لا تردد فيه من جهة النقل ولا ريب فيه

من جهة العقل.

٢- لأنه يَفْصِل بين الناس فيما كذَّبوا به، وهو الذي ينهي جدلهم ونزاعهم، ويفصل القضية بالحق الذي يرونه بأعينهم، وينتقل من كونه خبرَ وحيٍ إلى كونه شهادةَ عينٍ.

٣- لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين العباد في مظالمهم وحقوقهم، ويقتصُّ لبعضهم من بعض، والعدل المطلق لا يُرى إلا إذا وُصلت فصول الحياة بعضها ببعض، والحياة الدنيا ليست سوى الفصل الأول فحسب، وفي الآخرة الفصل الأكبر والأخير والدائم(١).

ومن الطريف أن الله سماه هنا: فصلًا، بل هو الفصل، والألف واللام قد تدخل على الاسم لتدل على الاستيعاب والأهمية الجوهرية، وكأنه لا «فصل» إلا هو.

وحينما تنظر للدنيا متصلة بالآخرة، فسوف ترى العدل المطلق للحق سبحانه، فلن يهمل الظالمين، ويغفل عنهم، ويترك المظلومين بلا نصرة، فهناك في عَرَصات(٢) القيامة تتكامل فصول العدل، فربما رأيتَ الظالم يموت بعد أن أسرف في طغيانه وتعديه وتمتَّع متاعًا واسعًا دون أن يناله شيء من عقوبة البغي في الدنيا، وربما رأيت آخر مبتلى بالقهر والحرمان وتسلط الظلمة عليه فيموت ولم يقتص ممن ظلمه، فهل هذا مما يناقض العدل الإلهي؟!

كلا! لأن فصول القصة لم تنتهِ بعدُ، فثمة جنة ونار وحساب وعقاب، فيأتي يوم الفصل لتُسْتكْمَل فيه الأمور، ويُقتصَّ لبعض الناس من بعض، وتكتمل الحكمة الربانية التي لا يراها الناس أحيانًا في هذه الدنيا.

وربما سُمِّي: فصلًا؛ لأن الأمور تُحسم فيه، وثَمَّ نهايتان وطريقان، هما الجنة

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٢٠٩)، (١٠/ ٣٧٩، ٣٩٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٧٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢، ٢٥٦)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٠٦).

(٢) مفردها: عَرْصَة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

والنار، أما في الدنيا فثَمَّ آلاف الطرق والمذاهب والأفكار والنظريات والأعمال والخيارات.

والميقات له عدة معانٍ(١):

١- أن له وقتًا محدودًا، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقد اختصَّ الله بعلمه، فلم يبلِّغ به مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسَلًا، فهذا من العلم الذي لا يحيط به إلا الله، ومَن ادَّعى أنه يعلم ميقات يوم الفصل فقد كذب.

وكل الحكايات والأقاويل التي تُنشر في الصحف والأفلام والمواقع، والرُّؤى والتوقعات والحسابات بقيام الساعة ونهاية العالم باطلة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢- أنه اليوم الموعود الذي واعد الله فيه عباده بالفصل بينهم ومحاكمتهم.

وإذا كان يوم الفصل ميقاتًا، فهذا يعني أنه لا جدوى من استعجاله؛ لأنه مؤقَّت بوقت معلوم عند رب العالمين، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر لرغبة أحد: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

ومن لوازم كونه ميقاتًا، أنه حقٌّ فلا تكذِّبوه؛ لأن الله تعالى أخبر به، وبيَّن أن له وقتًا مضروبًا عنده سبحانه.

وفيه تصبير للمكلومين والمعذَّبين في الدنيا والمقهورين المستبطئين؛ لأن من عادة الإنسان إذا علم أن أمامه موعدًا محدَّدًا، كان أقرب إلى الاطمئنان والسَّكينة.

* ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾:

شرع في ذكر وقائع ذلك اليوم، والإنسان هو المقصود الأول من خلق الكون والحياة؛ ولذا بدأ السياق في الحديث عنه.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤)، والمصادر السابقة.

والحساب والجزاء والسؤال هو لك شخصيًّا، فلا تحسب للآخرين حسابًا، ففي يوم القيامة يهتمُّ كلٌّ بنفسه، حتى الرسل والأنبياء يقول الواحد منهم: «**نفسي.. نفسي**». وينسى أهله وقرابته، ويفر من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه[1].

والنفخ في الصُّور هو للحياة، و**الصُّور**: بوق، أو قرن يُنْفَخ فيه[2]، لكن هيئته وشكله وطوله وعرضه وصفته مما لم نُحِطْ بعلمه، فنحن نؤمن بأن ثَمَّ صُورًا، وأنه يُنفخ فيه، وتشخيص صفة الصُّور أو طريقة النفخ، هي من الغيب الذي لم نحط به علمًا، ولا طائل من البحث وراءها، ونتيجة لذلك تأتي الصيحة الصاخَّة الطامَّة التي يُبْعَث الناس بها من قبورهم.

ولاحظ تسارع السياق: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، حيث عبَّر بالحرف «فـ»، فبمجرد ما يُنفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجًا، أي: جماعات[3]، كل أمة تأتي مع نبيِّها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١]، فكل أمة تُدْعَى إلى كتابها، وتُدْعَى مع نبيِّها، المؤمنون مع المؤمنين، والكافرون مع الكافرين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، أي: قُرِنت مع أشباهها[4]، فأهل الإيمان مراتب، وأهل الكفر والنفاق مراتب، ويوم القيامة طويل يقع فيه اختلاط الناس حينًا وتمايزهم شيئًا فشيئًا، حسبما تدل عليه النصوص المختلفة الواردة.

* ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾:

هذا مما يقع بعد انبعاث الناس ومجيئهم أفواجًا، **والمعنى**: شُقِّقت ومُزِّقت،

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة المدثر»: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة عبس»: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٣٧٥)، و«النهاية» (٣/ ١٢٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٥٦٦)، و«تاج العروس» (١/ ٣٠٨١).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٨٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤١)، وما سيأتي في «سورة النصر»: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير».

لتنزل منها الملائكة إلى الأرض للمهمَّات التي انتُدِبوا إليها[1].

والسَّماء من مقاصدها أنها سقف للأرض، إلا أنها ليست مقصورة على هذه المنفعة، فهي عالم آخر وبناء مستقل، ولهذا عبَّر بالبناء، وكما عبَّر عنها في آية أخرى بكونها: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ولم يقل: «سقفًا حافظًا»، أي: محفوظًا عما دونه[2]، فقصارى ما يستطيعه الإنسان هو أن يلحظوا هذه السماء على هيئة السَّقف، وأما ما وراءها فهو محفوظ لا يستطيع البشر أن يلاحظوه إلا بإذن ربهم.

* ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾، وقال في «سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾:

وهذه إحدى أحوال الجبال؛ أن يأذن الله لها أن تسير سيرًا سريعًا، حتى إنها تمرُّ مرَّ السحاب، وتُرى مثل السَّراب، وقد ورد عن الجبال سبع صفات في القرآن الكريم، هذه أحدها.

وتكون مرةً كالعِهْن، وكالهباء وكالسَّحاب، وتزول كما في قوله: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٦- ١٠٧].

وكأن هذا يقع بالتدريج خلال هذه السنين المتطاولة التي يشملها اسم «يوم الفصل»، وهذا أحسن من النظر إلى تلك الأحوال باعتبارها مترادفة، فالقول باستقلال كل لفظ بمعنى خاص أولى من حمل بعضها على بعض، وأمكن في الإفادة.

* ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾:

حين تقرأ هذه الآية المؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ تشعر أن ما سبقها من علامات وتغيرات

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ١٢٧)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٢٨٥)، و«فتح القدير» (٣/ ٤٧٩)، و«روح المعاني» (٩/ ٣٧).

لم يكن إلا تمهيدًا لهذه الحقيقة المرعبة المخيفة.

وإذا كان تلك الآيات الممهِّدة تثير الفزع من النفخ في الصُّور، ومجيء الأمم كلها جماعات، وتشقُّق السماء، وتسيير الأرض، فكيف حين تُرى النار وهي تترصَّد وتتربَّص بمَن وُعدت بهم.

والمِرصاد هو الذي يقف في الطريق يترصَّد[1]، ولهذا قال في «سورة الفجر»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾، فلو أن إنسانًا يمشي في طريق وهو يعرف أن أحدًا ينتظر مروره ليوقع به، كيف يكون حاله؟ سوف يحذر ويتوقَّى كلَّ ما يريب، وهذا السياق إنما يقال؛ لأن المقام مقام وعيد للمكذِّبين والمتسائلين باستخفاف عن ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وإلا فالأصل في صفات الرب تعالى الرحمة واللُّطف والبِرّ والجُود والكرم والعفو والصفح، ولا يقع في أسمائه الحسنى إلا كل جميل، كما هو مقرَّر معلوم مبسوط في بابه[2].

وكونها مرصادًا يدل على أن الناس كلهم سوف يمرُّون عليها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وذلك أن الصراط منصوب على متن جهنم، فالناس يمرُّون عليه جميعُهم؛ المؤمنون والأنبياء والمرسلون، وسائر البشر، لكن منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يمشي ويعثر، ومنهم مَن يسقط ويهوي[3].

وبدأ بذكر جهنم؛ لأنها في الطريق إلى الجنة، مع كون السياق تهديدًا للمكذِّبين.

* ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾:

تخصيص بعد عموم، وهذا اللفظ يُطلَق على الكفار، الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته، وعَصَوْا رسله، واتَّبعوا أمرَ كل جبار عنيد، واسترسلوا وراء

(١) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٠٢).

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المغريات والشهوات واللذَّات، فيتوعَّدهم بأن جهنم أُعدت لهم.

والتعبير بـ«الطغيان»؛ إشارة إلى سبب التعذيب، وهو الاستكبار والتعاظم الذي يحول دون قبول الحق، ويكون سببًا في العدوان على الخلق وازدرائهم، ولذا قال ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبر**». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس**»(1).

وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وناسب مقابلة الكبر بالإهانة والتعذيب.

والمآب هو: المرجع(2)، فمرجعهم ومصيرهم إليها، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، والعادة أن الإنسان ربما يتعب في سفر، ثم يؤوب إلى بيته وأسرته، فيجد الراحة والأنس، ويزول عنه العناء والتعب، فكيف إذا كان مردُّ الإنسان هو العذاب، ولعل هذا من معاني قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٨- ٩].

والمؤمنون الذين يعصون الله تعالى، ما شأنهم؟ يغفر الله تعالى لمَن يشاء منهم، ويعذِّب مَن يشاء، ورحمته سبقت غضبه، ولكننا نعلم بمقتضى النصوص الشرعية المتوافرة أن من المسلمين مَن يُعذَّب، ثم يخرج من النار برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بغير ذلك من الأسباب التي أذن بها رب العالمين(3).

* ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣﴾:

﴿لَّابِثِينَ﴾ أي: ماكثين(4)، و﴿أَحْقَابًا﴾ جمع: حُقُب(5)، **والحِقْبة**: سبعون سنة،

---

(1) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٩٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٣٣) «أ و ب».

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٤٥٨١، ٤٧١٨، ٧٥٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٨٣).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٣٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٠٥)، والمصادر الآتية.

(5) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٤٨)، و«مختار الصحاح» (ص٧٧)، و«لسان العرب» (١/ ٣٢٦)، و«تاج العروس» (٢/ ٢٠١) «ح ق ب».

وقال آخرون: سبعون ألف سنة، وقيل غير ذلك.

وفي الآية لم يحدِّد مدَّتها، ومن هنا قال جمهور المفسرين: إن المقصود بالأحقاب: الدُّهور التي لا نهاية لها(١).

وقال آخرون: إن السياق دليل على أنهم يمكثون فيها مددًا طويلة، ولكن لها أمد تنتهي إليه.

ولذلك اختلف أهل السنة: أتفنى النار أم لا؟

أما الجنة: فلا خلاف في بقائها أبد الآبدين، وهذا محل إجماع أهل الإسلام(٢).

وأما النار: فقد ذكر شارح «الطحاوية» عند قول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان». قولين لأهل السنة:

الأول: أن النار باقية، وأصحابها من الكفار والمشركين باقون فيها أبدًا، وأما الموحِّدون فيخرجون منها، وهذا مذهب الأكثرين.

الثاني: أنه يخرج منها أهل الإيمان، ثم تبقى فترة ثم يأذن الله تعالى بزوالها وفنائها.

واستدلوا على ذلك بهذه الآية الكريمة؛ لأن التحديد بالأحقاب دليل على التوقيت، كما استدلوا بقوله تعالى في «سورة هود»: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

وقالوا: إن الخلود من معانيه: المكث الطويل، وهو معروف في اللغة، **والمعنى**: خالدين فيها ما دامت موجودة.

وابن القيم في بعض كتبه يميل إلى هذا القول، وذُكِر عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن البصري، وجماعة من السلف، ويُنسب إلى ابن

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٨- ٦٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦).

(٢) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص١٧٣).

تيمية، وذكر الشيخ رشيد رضا هذا القول، وأطال فيه النفس مقرِّرًا مؤيِّدًا[1].

فهو قول ضمن أقوال أهل السنة، وليس منكرًا يُوصم صاحبه بالتضليل أو التكفير أو التبديع، أو يُدعى إلى الملاعنة أو المباهلة، كما يقع من بعضهم بسبب التعصب والاستغراب.

* ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾:

البرد هو: البرودة، وذلك أنهم في حر شديد ونار، فهم يتمنَّون البرودة فلا يذوقونها، لأن الإنسان إذا شعر بشدة الحرارة تمنَّى البرودة، وإذا شعر بشدة البرودة تمنَّى الحرارة واللَّهب، وفي الحديث مرفوعًا عن خَوْلة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ابنُ آدمَ إن أصابه البردُ قال: حَسِّ[2]. وإن أصابه الحرُّ قال: حَسِّ»[3].

ومن الطريف أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد حتى كاد يهلك، ثم وجد نارًا يستدفئ بها، فقال: اللهمَّ اكتبها لي ولوالدي!

ومن معاني البرد: النوم[4]، قال الشاعر[5]:

فإن شئتِ حرَّمتُ النِّساءَ سواكمُ ... وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بَرْدا

---

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٨٥)، و«الرد على مَن قال بفناء الجنة والنار» لابن تيمية، و«حادي الأرواح» (ص٢٤٨)، و«شفاء العليل» (ص٢٦٤)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص٢٦٣)، و«رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني، و«تفسير المنار» (٨/ ٥٩)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، و«سورة الحديد»: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [الحديد: ٢١].

(٢) بفتح الحاء وكسر السين المشدَّدة: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضَّه وأحرقه غفلةً، كالجمرة. ينظر: «حاشية السندي على مسند أحمد» (١٥/ ١٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٣١٦)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٣١) (٥٨٩). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٧)، والمصادر الآتية.

(٥) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٥/ ١٦)، و«الفاخر» للمفضَّل بن سلمة (ص١٧)، و«الصحاح» (١/ ٤٥٦)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٢٠) منسوبًا إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان العَرْجي.

والنُّقَاخ هو: الماء، والبَرْد: النوم، وهو قول مجاهد وبعض السلف[١]، وهو معروف في اللغة[٢]؛ وذلك لأن الإنسان في النوم أبرد منه في اليقظة، وكذا إذا مات برد جسمه.

فلا برودة تخفِّف عنهم من لهب النار، ولا يذوقون الماء البارد، ولا يذوقون النوم الذي يخفف عنهم، أو يُنسيهم، أو يعطي أجسادهم بعض البرد.

* نفى البَرْد، ثم نفى الشراب؛ لأن عادة المرء أن يحب الشراب باردًا، فإذا نفى البرد لم يكن إلى البرودة إليهم من سبيل بوجه من الوجوه، ثم عقَّب بنفي الشراب كله بارده وغير بارده، إلا ما استثناه في الآية بعدها: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾:

الحَمِيم: الماء الحار، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فإذا غلي الماء سُمِّي: حَمِيمًا[٣].

ومنه: الحمَّام؛ لأنهم كانوا يتطهَّرون ويتنظَّفون بالماء الحارِّ.

ومنه: الحمَّى أيضًا، فهم يشربون الماء الحميم الحارَّ المغلي، الذي يُقطِّع أمعاءهم ويُمزِّق أجوافهم[٤].

والغَسَّاق: قيل: هو: الشراب المنتن.

وقيل: البارد شديد البرودة، الذي يعذِّبهم ببرودته[٥].

ولا مانع من اجتماع الأمرين، فيكون الغسَّاق شرابًا باردًا منتنًا يشربونه،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٧٣)، و«تاج العروس» (٧/ ٣٦١) «ن ق خ».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٣)، و«تاج العروس» (٣٢/ ١١).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٤١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧).

وينظر أيضًا: «معجم ديوان الأدب» (١/ ٣٢٩)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٢٥٢) «غ س ق».

عقوبة على ما كانوا يتلذَّذون به في الدنيا مما حرَّم الله تعالى من ألوان المطاعم والمشارب والشهوات.

* ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾:

فهو جزاء عادل، موافق لنوع العمل، وليس فيه زيادة في العقوبة، بل هو مكافئ للإجرام، وفي جزاء المؤمنين قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾؛ فهو فضل من الله تعالى، وليس مقابلًا لأعمالهم، بل هو فوقها.

ولهذا لا أحد يدخل النار وهو يقول: أنا مظلوم. ولا أحد يُعاقَب وهو يقول: لا أستحق هذا، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠- ١١].

وهذا من كمال العدل الإلهي، حتى إن الجوارح تشهد على الإنسان والملائكة، والديوان المسطور الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

* ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾:

هذا بيان لكمال الحجة عليهم، وعظم الذنب الذي اقترفوه، وأنه لا ذنب أعظم من الحَوْبِ الذي وقعوا فيه، وهو جحود الخالق والكفر به وتكذيب أنبيائه ورسله، وهم كانوا في الدنيا لا ينتظرون البعث وما بعده، وجمع بين الفعل الماضي والمضارع، أي: لم يكونوا يرجون حسابًا، وما من حجة أقيمت عليهم في إثبات الجزاء والنشور إلا قابلوها بالاستكبار والرفض، ولذا أعرضوا عنه ولم يضعوه في اعتبارهم ولم يدرجوه في حسابهم، وكانت غايتهم الحياة الدنيا، وبهذا اختل ميزانهم.

وعبَّر بـ«الرجاء»، وهو يُطلَق على ما يحب الإنسان، أي: لم يكونوا يرجون الجنة والرضوان، ولهذا لم يكونوا يفعلون الطاعات؛ لأن الذي يرجو لا بد وأن يفعل الطاعة، وفي ذلك إشارة إلى أن أصل كفرهم ترك الطاعة والإيمان، وهو أعظم من الوقوع في المعصية.

* ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ٢٨﴾:

ذكر تكذيبهم بصيغة الماضي؛ للإشارة إلى أنه كان حاسمًا جازمًا صريحًا،

وكان سريعًا لم يسبقه بحث ولا تأمل ولا تفكير.

والآيات جمع: آية، وهي نوعان:

١- الآيات الكونية الدالة على الله، وهذا من جنس ما ذكره في صدر السورة من الأرض والجبال والليل والنهار، وكثير من المشركين زمن النبي ﷺ كانوا يقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فتكذيبهم بها عدم تحققها في نفوسهم وعدم الالتزام بمقتضى ما يقولون بألسنتهم من الإيمان المجرد بالإله الخالق.

٢- الآيات الشرعية، فكذَّبوا بوحي الله، ومن ذلك: التكذيب بالقرآن، والعربيُّ إذا قرأ القرآن عَرَفَ بعربيته إعجازَه وبلاغته وفصاحته.

فهؤلاء كذَّبوا بالآيات كلها، عقليها ونقليها، مسطورها ومشهودها، ولذا استوعب تكذيبهم الآيات كلها، ولهذا قال: ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا، فهو مصدر، ولكنه أبلغ من «تكذيبًا»، أي: كذَّبوا مرة بعد أخرى، وكلما وُجِد في قلوبهم شيء من الميل أو التصديق قاوموه ودافعوه[1].

و﴿كِذَّابًا﴾ قُرئت بالتخفيف والتشديد، كما سيأتي في قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾.

وهذا التكذيب بآيات الله جعلهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يعملون له، ولا يرتدعون عن المعاصي.

* ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾:

التقدير: وأحصينا كلَّ شيء. فـ«كل»: مفعول به، وفي «سورة يس»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾، أي: في كتاب حافظ، وهو: اللَّوح المحفوظ[2].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٤٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٤٢)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٥٠٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٥١٩).

و«كل» من ألفاظ العموم؛ كما قال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، كل صغير أو كبير من الأفعال والأقوال والخواطر التي في القلب والنيات والمقاصد مُحصًى عند الله ومسطور.

ولذا يقول المجرمون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويدل لفظ: «كل» على استيعاب ما عملوا وما لم يعملوا، فهو مكتوب.

أي: كل ما تركوا مما هو واجب عليهم أن يعملوه، وما همُّوا به ثم أعرضوا عنه، أو عجزوا عن فعله، فيُكتب لهم ما تركوه لله، ويُكتب عليهم ما تركوه عجزًا.

والكتابة هي: الحفظ والضبط والتسجيل الدقيق.

وهي وثيقة يُبنى عليها الحساب والثواب والعقاب، كما يُبنى عليها الترك لما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وهو عموم لا يدع مجالًا للتوقع بأن ثَمَّةَ شيئًا فات ذلك الإحصاء الدقيق(١).

واختلف العلماء فيما يكتبه المَلَك(٢)؟

فقال الحسن وقتادة ومجاهد: «يكتب كل شيء».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في إحدى الروايتين عنه- وعكرمة: «يكتب ما فيه ثواب وعقاب».

وظاهر الآية الأول، ويؤيِّده قوله تعالى في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحًا، مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم.

والإحصاء يدل على الضبط الدقيق، فهو مُحْصًى معروف؛ لأن الله تعالى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨).

عليم بكل شيء، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

والضمير يعود إلى الله سبحانه، فهو يعلمه، وأيضًا بواسطة ملائكته الكتبة الحافظين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وغالب ما تأتي النون فيما يكون للملائكة تكليف فيه، كالموت والعلم والمعية والنصر.

وهذا الإحصاء ليس علمًا فحسب، بل هو مكتوب أيضًا؛ لأن عند الله كتابًا لكل إنسان يخصه، ويُزاد فيه يومًا بعد يوم، ويُكْتَب فيه الخير والشر، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وهو الكتاب الذي يقول تعالى عنه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، يرون الكتاب من بعيد، قبل أن يأخذوه، فهم منه مشفقون.

وقوله: ﴿كِتَابًا﴾ أي: مكتوبًا أو كتابةً[١]، ولا يمنع أن يكون مدونًا بأعلى صيغ التوثيق التي لا تدع لقائل مقالة، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

وإذا كان البشر بإمكانيَّاتهم القليلة استطاعوا أن يوثِّقوا ويضبطوا حركات الإنسان وأعماله من خلال وسائل التقنية والكاميرات الدقيقة المبثوثة في كل مكان، فتُصوِّر الحركات والسكنات وتُسجِّل الأصوات وهي في غاية الخفاء والضآلة، فكيف بقدرة الخالق العظيم جل وتعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ؟!

فثَمَّ شريط شاهد على ما يعمله الإنسان يعرض عليه يوم القيامة.

* ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾:

ذوقوا بدايات العذاب، فما تجدونه ما هو إلا عينة لما هو أشد؛ ولهذا قال في

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٣).

آية أخرى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦]؛ أي: البداية التي تُقدَّم للضيف.

وهذا دليل على أن العذاب يزيد، أي: سوف نزيدكم عذابًا؛ لأن العذاب الجديد يضاف إلى العذاب الأول، فالعذاب الأول نال من الإنسان، من جلده ومن نفسه، فإذا جاء العذاب الجديد كان مضافًا إلى الأول، فهو عذاب بعد عذاب، وقد يكون العذاب الثاني أشد من العذاب الأول.

وهذا أقوى مما لو قال: «فسوف نزيدكم عذابًا»؛ لأن فيه نفيًا وإثباتًا، فهو نفى أن يزيدهم شيئًا آخر؛ أي: لن نزيدكم رحمةً وعفوًا ومغفرةً ونعيمًا، وإنما نزيدكم عذابًا فحسب.

* وبينما القوم يتألَّمون بالمعاناة والعذاب الذي هو جزاء لأعمالهم، تنتقل السورة إلى الفريق الآخر وما له من النعيم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾:

بدأ بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة؛ إشارة إلى عظمة هذه الحقيقة، والمتَّقِي هو: مَن اتَّقى الكفر بالإيمان، فلكل مؤمن قدر من التقوى يزيد بقدر ما عنده من توقِّي الذنوب؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فكل مؤمن له حظٌّ من هداية القرآن؛ لأن أول مراتب التقوى هي الإسلام(١).

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى؟ فقال: هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: ذاك التقوى(٢).

والذي يمشي في حقل ألغام، يحذر أن يضع قدمه إلا في مكان آمن، فهكذا المتقي لا يضع رجله أو يده أو عمله إلا حيث يعلم أنه لا حرج عليه، والتقوى لا تعني العصمة، وكان ابن المعتز يقول(٣):

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٨٠).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة المرسلات»: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

(٣) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يَرَى
لا تحقرنَ صغيرةً إن الجبالَ من الحَصَى

قال سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٥].

فالمتقي عنده أوبة كلما وقعت منه زلة، والمؤمن يخطئ ويتوب ويستغفر.

فهؤلاء المتقون علموا أن كل شيء سيُحصَى عليهم، فتركوا ما لا يُرضي الله قَدْرَ استطاعتهم، وكانوا يرجون الحساب ويخافون العذاب، وبهذا تميزوا عن الطائفة الأولى.

والمفاز: النجاة[1]، وكفى بها فوزًا؛ لأنه لـمَّا ذكر وعيد المشركين ذكر نجاة المتقين، ولذلك كان الأنبياء في ذلك الموقف يطلبون السلامة، ويقولون: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[2].

* ولكن الله تعالى بفضله وكرمه وعَدَهَم بما هو أعظم من ذلك وخير: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾:

والحدائق جمع: حديقة، وهي البساتين ذات الأشجار العظيمة[3]، سُمِّيت «الجنة» بذلك؛ لما فيها من الأشجار الملتفَّة، التي تجن وتغطي ما دونها، والقارئ عند ذكر الحدائق أو الأعناب يتبادر إلى ذهنه الصور التي يعرفها ويتذوَّقها مما في

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٣٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٢)، والمصادر السابقة.

الدنيا، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ»، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)]، وقال سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث الصحيح أن الجنة: «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ»[(٢)].

ولم يقل: ﴿وَعِنَبٗا﴾، كما في «سورة عبس»: ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨﴾، بل قال: ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾، إشارة إلى كثرتها وتنوُّعها، فهي ضروب وألوان وأشكال، وذلك لأن آية «سورة عبس» امتنان على أهل الدنيا، فذكر العنب مفردًا، أما في الجنة، فجاء بصيغة الجمع؛ إشارة إلى كثرتها وتنوعها.

والكواعب جمع: كاعب، وهي الفتاة التي تفلَّك أو تكعَّب ثديها[(٣)]، أصبح مثل كعب الإنسان في استدارته ونضجه وتصلُّبِه، فالله تعالى ذكر المرأة كأجمل وأكمل ما تكون في مرحلة بلوغها وفتوَّتها وعنفوان شبابها[(٤)].

وأعمار أهل الجنة هي ثلاث وثلاثون سنة[(٥)]، وهي مرحلة اكتمال الشباب.

والأتراب جمع: تِرْب، أي: المتشابهات في السن، فسِنُّهن واحد[(٦)].

فعند ما تكون نساء الجنة كواعب جميلات، وأترابًا في سِنٍّ واحد، فهذا يعني أن الحب والمودة لهن في درجة واحدة، فلا توجد واحدة منهن تظن أن غيرها تُحَبُّ أكثر منها أو أنها أجمل منها، بل كلهن في جمال واحد، وسن واحد، والميل

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥١٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٣) «ك ع ب»، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧٧٦).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن رجب» (٢/ ٣٠٢).

(٥) كما في حديث أبي هريرة ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه أحمد (٧٩٣٣، ٨٥٢٤)، والترمذي (٢٥٤٥).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١١)، وينظر: «المزهر» (١/ ٣٤٢).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١/ ٢٣١)، و«تاج العروس» (٢/ ٦٨) «ت ر ب».

لهن واحد، وهنَّ أتراب فيما بينهن، وعادة النساء عند ما يكون سِنُّهن واحدًا أن يكون بينهن الأُنس، وهذا متعة للنساء المتقيات بكونهن الكواعب الموصوفات بالجمال والحسن والنعيم، لأنه قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ يشمل الذكور والإناث.

وقد يكون قوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: مع أزواجهن[1]، وهذا مُلاحَظ أن سِنَّ الرجل وسِنَّ المرأة واحد في الجنة، وهذا أدعى لكمال المتعة وحسن المعاشرة في الجنة.

والبعض يتعجَّب: لماذا يذكر الله سبحانه في القرآن مثل هذه المتعة؟

وهذا من المغالطة؛ لأن من أعظم ما يُفتَن به الإنسان في الدنيا التعلق بالجنس الآخر، وحتى مَن يستشكل هذا يعرف حقيقة نفسه وكيف يعاني من ضغط الميل النفسي والجسدي، إن كان تقيًّا يعاني من مدافعة الشهوة، وإن كان فاجرًا يعاني من ملاحقة صنوف الإشباع وتبعاته المرهقة، وهو مما جبل الله عليه البشر، وهو من أعظم ألوان النعيم والمتعة في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله تعالى لهم أنواع النعيم بالمجالس والبيوت وبالمطاعم والمشارب وبالمناكح والمَلذَّات.

فإن قيل: فماذا للنساء؟

فأقول: لهن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٧]. وهن شريكات في سائر النعيم المفصَّل، بما في ذلك رؤية الله تعالى وسماع كلامه، وسائر المتع والمباهج المعنوية والحسية المسوقة في الكتاب العزيز.

وقد يقول قائل: لماذا للرجل أكثر من امرأة في الجنة؟

فأقول: هذا من حكمة الله، أن المرأة عادة أحادية العاطفة، إذا أحبَّت شخصًا فلا ترى في الدنيا إلا هو، ولهذا لو تزوَّج عليها وَجَدَتْ في قلبها ألمًا عظيمًا وإن صبرت، ولا تجد في نفسها ما يجده الرجل من التطلع وإمكانية وجود الحب لأكثر من امرأة، فإن مسارات العاطفة عنده قابلة للتعدد.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥)، والمصادر السابقة.

وكثير من الرجال يحب امرأته ويقصر نفسه عليها، وهذا حسن، وهو أدعى للألفة، وأبعد عن المشكلات، وأجدر أن ينشأ الأولاد في جو من الأنس والصفاء، لكن المقصود أن طبيعة الرجل العاطفية تختلف عن المرأة؛ ولهذا وصفهن الله بقوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

فالمرأة قاصرة الطرف على زوجها لا ترى إلا حسنه وجماله، ولا تستمتع إلا به ومعه، ولا تطمح في نظرها إلى سواه(١).

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: وهذا نعيم آخر مع السَّمَر، والمجالس الجميلة، والخضرة، والمآكل والمشارب، والزوجات الحسان الجميلات، والكأس لا يُذكَر في القرآن إلا ويُراد به الخمر، وهذا معروف في لغة العرب، فإذا قال: شربت كأسًا، ولم يميِّز، فهو يعني الخمر(٢).

والدِّهاق لها معانٍ، منها: الملأى المتابعة عند أكثر المفسرين(٣)، وملء الكأس يُعَدُّ من كرم الساقي.

وقيل: الصافية، كما يقول الصاحب بن عَبَّاد(٤):

رقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ ... فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

ويقول محمد إقبال(٥):

كمثلِ الكأسِ تُبْصِرُها دِهاقًا ... وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

فاجتمع صفاء الخمر وصفاء الكأس، فهذا من أجود وأحسن ما يكون، وعادة ما

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٦٨)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٥٣٨).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢١٧)، و«إعراب القرآن» لقوام السُّنَّة (ص٣٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٨).

(٤) ينظر: «خاص الخاص» (ص١٦١)، و«يتيمة الدهر» (٣/ ٣٠٤)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٢٣٠).

(٥) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (١/ ١٠٦).

يمدح العرب الخمر المعتقة القديمة، التي أُتقِن صنعها، فالله تعالى يذكر للمؤمنين هذه الخمر التي هي ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]، فيجتمع لهم كل ألوان اللَّذَّة في الجنة(١).

* وجرت العادة أن مثل هذه المجالس في الحدائق تشتمل على صنوفٍ من النعيم، والنساء الجميلات، والمآكل والمشارب والمطاعم، والأصوات الجميلة بالغناء وغيره، ولما كانت هذه المجالس لا تخلو غالبًا من غوائل السكر بالخمر؛ من التشاتم والسباب والبطش والاعتداء، عقَّب بما يميِّز مجالس الخمر في الجنان عن مجالسها في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾:

فعند ما يشربون لا تذهب عقولهم، كأهل الدنيا، بل يتمتعون بالخمر دون أن يفقدوا لذَّاتهم وكمالاتهم النفسية: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، فلا تغتال عقولَهم، ولا تذهب بألبابهم، فيدوم لهم نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح برحمته والرجاء في مزيد فضله، مع نعيم الشرب والسماع ولذة العين والنظر.

واللَّغو هو: الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه، وهو الكلام البذيء الفاحش(٢).

و﴿كِذَّٰبًا﴾ قُرئت بالتخفيف والتشديد، كقوله في الآية السابقة: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾(٣). وتعني: شدة التكذيب والتكاذب والقول السوء(٤).

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٣).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢٩٦)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٣٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٩٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٤٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥، ٤٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٩)، و«حجة القراءات» (١/ ٧٤٦).

وفي هذه الآية تلميح إلى ما كانوا عليه في الدنيا، وأن من أعظم صفاتهم حفظَ اللسان، فهم يتكلمون بالكلام النافع المفيد، كأن يكون ذكرًا لله، أو علمًا نافعًا، أو إحسانًا إلى عباد الله، أو تسلية مؤمن، أو تطييب خاطر، أو دفاعًا عن حق، أو ردَّ خطأ، فليسوا من أهل اللغو الذين يكثُرُ فيهم الهرج والمرج والقيل والقال، وليسوا من أهل الكلام الباطل الذين يتزيَّنون بالأباطيل والألاعيب والأكاذيب، ولهذا جُوزوا في الجنة بذلك، والجزاء من جنس العمل.

وأهل الدنيا يقع التكاذب بينهم، ويكذِّب بعضُهم بعضًا، فيقول هذا لهذا: كذبت. أو يكذِّب بعضهم على بعض، وإذا سكروا كبُر هذا فيهم، وهذا كله ليس في الجنة، وفيه إشارة إلى أن ضبط اللسان من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد إلى ربه سبيلًا لنيل مرضاته.

* ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾:

بخلاف أولئك الذين قال فيهم: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، وهذا دليل على أن هذا من الله تعالى للمؤمنين فضل، ومنه سبحانه بالنسبة للكافرين عدل، وهو ﴿جَزَآءً﴾ أي: أن ثَمَّةَ عملًا لهم في الدنيا فجُوزوا عليه بالجنان، وهو مصداق لقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ أي: بسبب عملكم في الدنيا(١).

وليس المعنى أنهم لم يجازوا إلا بأعمالهم، بل أعمالهم سبب لنيل الرحمة، والرحمة لا حد لها، فجُوزوا بالحسنة عشرًا، وثماني عشرة، وعشرين، وخمسًا وعشرين، وسبعًا وعشرين، وخمسين، وسبعمائة، وأضعافًا كثيرة، لا يقدر قدرها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وبيَّن مصدر الجزاء، فهو من عند الله الرب الكريم.

وفيه دليل على الفضل والعطاء، ولهذا قال: ﴿عَطَآءً﴾، فليس هو محض جزاء فحسب، ولو جُوزوا بأعمالهم ما وصلوا إلى هذا، وربما استنفدت أعمالهم النعم التي أُعطوها في الدنيا، ولكنه عطاء وجود من الله تعالى.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٢/ ١٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤١٦)، و«فتح القدير» (٣/ ١٩٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٧/ ٢٣٧).

ومن معاني ربوبيته سبحانه: رحمته بخلقه ومجازاته لهم؛ ولهذا لم يذكر هذا بالنسبة للكافرين؛ لأن المقام مقام توبيخ وتقريع وتخويف.

وجاء في مواضع أنهم أُعطوا بغير حساب، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فيقول أهل اللغة: إن ﴿حِسَابًا﴾ هنا ليس معناه: أنهم حُوسبوا على أعمالهم وجُوزوا عليها، وإنما: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: عطاءً كبيرًا بغير عَدٍّ ولا إحصاء[١]، فيُعطى ثم يُعطى ثم يُعطى، حتى يقول: «حَسْبِي.. حَسْبِي..». أي: يكفي، فيُعطى حتى تنقطع مسألته، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا**»[٢].

وأهل الجنة كلما تطلَّعت نفوسهم لشيء تحقَّق لهم بفضل الله تعالى عليهم، فلهم كل ما تمنّوا، لا مثنوية ولا رجعة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥]، أي كل ما يريدون، قصورًا أو أفلاكًا.. أو كواكب، أهلًا.. مالًا.. ولدًا.. كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر عليه أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، أي: ما لم يشاؤوا ولم يخطر ببالهم[٣].

أن ينعَّم المرء في الدنيا مائة سنة بصحة وهناء وعيش رغيد ومال وفير وزوجة حنون وذرية صالحة، يشعر بالسعادة في مأكله ومشربه ونومه وحديثه وسفره وإقامته، ويستمتع بلحظاتها، فهذا عطاء لا يقاومه شكر، ولا يقدَّر بثمن، فكيف بنعيم الجنة السرمدي؟!

وكيف لا يكون العطاء بهذا القدر وهذا الفضل والرحمة، وهو عطاء رب

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥١٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٣) وفي الحديث أن الله تعالى يقول: «أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ». أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٦)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢١).

السماوات والأرض، فهو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وعطاؤه كلام، وأمره كلام، وعقابه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، هذا معنى كون عطائه كلامًا، ومَنْعِه كلامًا، فهو يخلق لهم بكلامه ما يتنعَّمون به.

* ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾:

قرأ عاصم، وابن عامر، وغيرهما: ﴿رَّبِّ﴾ بكسر الباء؛ لأنها بدل من قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ في الآية السابقة، وقرأها الجمهور بالضم: ﴿رَّبُّ﴾[1] على أنها ابتداء[2].

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقها ومدبِّرها[3]، وهي مسخَّرة بأمره تسخيرًا جبريًّا، لا حيلة لها فيه ولا ثواب.

﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي: ما فيهما من إنس وجن، وخلق وبشر، وملائكة، ونجوم.. وغيرها.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾: اختار هذه الصفة؛ لأنها مناسبة ولائقة بمقام الرحمة بالمؤمنين وجزائهم[4].

وفي هذا الاختيار توبيخ للكافرين؛ فإذا كانوا هلكوا وعُوقبوا- والذي عاقبهم هو الرحمن- فمعناه أنه لم تُجْدِ فيهم طرائق الخير وأسبابه وأبوابه وتمحَّضوا للشر والكفر والعدوان، فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ أي: في ذلك الموقف، لا يستطيع الناس مخاطبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المقام مقام هيبة وجلال ترتعد منه الفرائص ويخافه الناس حتى الأنبياء والملائكة.

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٠).

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

* ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾:

صار الوصف للمشهد كله، فالخلق قيام لرب العالمين، إنسهم وجنهم وملائكتهم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ويشي هذا برهبة الموقف وعظم شأنه وهول مشهده.

وفي الرُّوح أقوال(١):

١- أنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر: ٤].

٢- المقصود كل ذي روح من الإنس والجن.

٣- أن يكون خَلْقًا من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، الله أعلم به.

والأقرب هو العموم، فيدخل جبريل والملائكة وغيرهم، ويكون المقصود بالروح هنا: المخلوقات ذوات الروح مما نعلم وما لا نعلم، فهي تقوم أيضًا، وهذا أنسب للسياق؛ لأن المقصود أصلًا بالبعث والمحاسبة هم أولئك المخلوقون العقلاء المكلفون، والله أعلم.

وبذا يكون ذكر الروح تأسيسًا وليس تأكيدًا أو ذكرًا خاصًا.

وكل ذي روح يقوم، والملائكة يقومون صفوفًا بعضهم خلف بعض.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: يفيد أن في ذلك المشهد الرهيب صمتًا مُطْبِقًا، بخلاف عادة الناس فإنهم إذا احتشدوا في منتدياتهم ومجالسهم وساحاتهم تسمع منهم الضجيج والصياح، لكن في ذلك الموقف: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨]، وكما في قوله: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [طه: ١٠٣].

وقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ لها ثلاثة معانٍ(٢):

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٦)، وما سيأتي في «سورة القدر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٩).

١- لا يتكلمون إلا همسًا فيما بينهم.

٢- لا يتكلمون مطلقًا، وذلك في بعض مواقف القيامة، فهم حينًا يتهامسون، وحينًا يتوقفون حتى عن الهمس.

٣- أنهم لا يخاطبون الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يتكلمون إليه.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ وهم الرسل وغيرهم من الشافعين.

وقد اشترط تعالى الرضا والإذن، فقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وهو سبحانه يعلم أن هؤلاء الذين أذن لهم بالكلام لا يقولون إلا صوابًا، مثل شفاعة سيدنا محمد ﷺ في فصل القضاء بين الناس، والشفاعة في بعض المؤمنين أن لا يدخلوا النار، والشفاعة في بعض مَن دخل النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في بعض أهل النار أن يُخَفَّف عنهم من عذابها، والشفاعة في بعض أهل الجنة أن تُرْفَع درجاتهم ومنازلهم فيها.. إلى غير ذلك مما هو خير وثواب يحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩)﴾:

إشارة إلى عظمة ذلك اليوم، الذي هو الحق، خلافًا لمن كذَّب به، فهو حق لا مرية فيه، يبيِّن صدق ما جاء به المرسلون.

واليوم الحق خلافًا لأيام الدنيا، فهي لعب ولهو، وأشبه ما تكون بالباطل، لقصرها وسرعة تصرُّمها ونسيان أفراحها وأتراحها، وتحولها من صفة إلى أخرى.

اليوم الحق الذي يُفْصَل فيه بين الناس، ويُقْتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى في أصغر الأمور وأحقرها.

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾: فيه إشارة إلى أن سلوك الطريق الصحيح مرهون بإرادة الإنسان ومشيئته، فلا وجه لأن يحتجَّ أحد بقَدَر الله على المعاصي، فإنه ما عصى اللهَ أحدٌ، ولا ترك طاعة إلا وهو يعمل ما تملي عليه نفسه، وتحفِّزه إليه رغبته وشهوته وميله، فهو يجد ضرورة في نفسه أنه يُقْدم على الأشياء التي

يحبها ويترك الأشياء التي يكرهها.

وهذا هو الأمر الذي يُحاسَب عليه في الآخرة، وهو لا يدري ما المقدور إلا بعد أن يفعل ما فعل، والقدر ليس قسرًا للمكلَّف على ما لا يحب، بل هو إذن الله للعبد أن يفعل أو لا يفعل، ولو شاء الله لقسر الناس على ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]. ولكنه لم يفعل، بل تركهم وإرادتهم الحسية الضرورية في عمل الآخرة كما هي في عمل الدنيا سواءً بسواء.

و﴿ٱتَّخَذَ﴾ أقوى من «أخذ»؛ وهو دليل على الاستمرار، وعلى أن الإنسان كدح حتى شقَّ له طريقًا إلى ربه، والعادة أن «الاتخاذ» في اللغة يُستعمل في الأمر المعتاد المتكرر، كاستعمال الآنية والملابس والفرش والمواضع والبساتين ونحوها، فكأن المعنى هنا أنه كرر العبودية بصيغها المتعددة حتى صارت سَجِيَّة وطبعًا، ومع تراكمها الزمني سهلت عليه، وذل لها قلبه ولسانه وجوارحه، وذهبت عنه مع الزمن وتقادم الأيام دواعي الشهوات ونوازعها، ومواضع الشبهات والتباساتها، فآمن عقله وقلبه وجوارحه، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

والمآب هو: الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه(١).

* ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾:

آية خاتمة جامعة لأول الحديث وآخره، يتكلم تعالى بضمير المعظِّم لنفسه، المعظَّم من عباده: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، والإنذار هو: التعليم على سبيل التحذير والتخويف(٢)، وهو واضح في هذه السورة، بذكر النار وعذابها وهول الموقف، وقدَّمه لتقدمه في السياق ولطبيعة الحال التي نزلت فيها السورة؛ حيث كان النبي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠١٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢/ ٩٥)، (١٥/ ٩٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٨٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٦).

ﷺ يواجه التكذيب والعناد بمكة.

وكيف يكون هذا العذاب قريبًا[1]؟

١- يجوز أن يكون المعنى أن يوم القيامة أجل معدود، وميقات معلوم، إلا أنه قريب بالقياس إلى سرعة أيام الدنيا: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١].

٢- أو يكون قريبًا باعتبار أن المقصود عذاب الدنيا؛ لأن الله أنذرهم عذاب الدنيا والآخرة، كما وقع لهم في بدر وفتح مكة، وهذه كانت للمخاطبين أنفسهم وليس لجنسهم، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

٣- **ومن معاني كونه قريبًا**: أنه مرهون بالموت، فإن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ بعينه ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، والمقصود: ما عمل، وما سمعت أذنه، وما مشت إليه قدمه، وما فاه به لسانه، وهو جارٍ على لغة العرب في التعبير باليدين، والمقصود: الجوارح.

وقوله هنا: ﴿يَنظُرُ﴾ يعزِّز أن المرء يوم القيامة يرى صورته وهو يعمل أو يقول، وهي مسجلة كما وقعت، تُرى وتُسمع وتُدْرك بما لا يدرك في الدنيا.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ إشارة إلى أن أصل الوعيد للكافرين، وأن المؤمن بمنجاة من ذلك كله، وإن عُذِّب في ذنب ما إلا أن مَرَدَّه بإذن الله إلى رحمة الله ورضوانه، ولهذا قال هنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾، واستخدام حرف ليت يدل على بُعْد هذا الأمر، وأنه صار مجرد أمنية!

وقد يجوز أن يكون المعنى: أنه يتمنى ذلك إذا رأى الحيوانات والوحوش قد استحالت ترابًا، حين يقال لها: «كوني ترابًا». فتكون ترابًا، بعدما يُقتَصُّ لبعضها

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٩١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٨)، والمصادر السابقة.

من بعض- كما قاله بعض السلف[1]- فيتمنى مصير الحيوانات وهو تحوُّلها إلى تراب، ويحتمل تمنِّي أنه لم يُخلق؛ لأنه مخلوق أصلًا من التراب، أو لم يبعث بعدما هلك، كما قال: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

وكلا المعنيين قريب[2]، والله أعلم.

○○○

(١) ينظر: «العظمة» (٣/ ٨٢١)، و«المستدرك» (٢/ ٣١٦)، (٤/ ٥٧٥)، و«البعث والنشور» للبيهقي (ص٣٣٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٧)، والمصادر السابقة.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

* تسمية السورة:

اسمها المشهور: «سورة النازعات»، أو «سورة ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾»[1].

ويسمِّيها البعض بأسماء باعتبار ألفاظٍ لم تَرِد إلَّا فيها، كـ: «سورة الساهرة»، و«سورة الطامَّة»[2].

* عدد آياتها: ست وأربعون آية عند أهل الكوفة، وخمس وأربعون عند الجمهور[3].

* وهي مكية بإجماع المفسِّرين، كما ذكر ابن عطية، والقرطبي، وابن الجوزي، والقاسمي، وابن عاشور، وغيرهم[4].

* ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾:

هذا قَسَمٌ من الله بـ«النازعات»، وقد اختلف المفسرون في تحديد معناها على

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٣) وقد اختلفوا في قوله: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٩٥)، والمصادر السابقة.

أقوال:

هل هي الملائكة؟ أم سكرات الموت؟ أم هي الوحوش؟ أم هي النجوم؟ إلى غير ذلك من الأقوال المبثوثة في كتب التفسير.

والمختار أن «النازعات» وما عُطِف عليها من المُقْسَم به في هذه السورة ترجع إلى شيء واحد، ولعلها «الملائكة»، كما هو قول ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجماعة من السلف وأئمة التفسير[(١)].

أقسم تعالى بها على أحوال متعدِّدة، فأول ما أقسم به: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوة وشدة.

وقوله: ﴿غَرۡقٗا﴾ أي: أنها تستغرق في النزع مثل صاحب القوس، فالملائكة تنزع أرواح الكفار من كل أطرافهم؛ فإن روح الكافر تتفرَّق في جسده، فيجمعها الملائكة وينتزعونها نزعًا شديدًا كما يُنتَزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، ولذلك يُقال لحالة الموت: حالة النـزع.

* ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾:

الناشطات هي: الملائكة حينما تنشط أرواح المؤمنين فتقبضها برفق ورحمة ولين، فتسيل روح المؤمن كما تسيل القطرة مِن فم السقاء، وكما قال النبيُّ ﷺ: «**المؤمنُ يموتُ بعَرَقِ الجبينِ**»[(٢)]؛ لأن الملائكة تنزع روحه برفق وتبشِّره: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

* ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾:

هي الملائكة تَسْبَح بين السماء والأرض، فتصعد بأرواح المؤمنين، أو تنزل لقبض مَن حانت منيَّته من العباد، أو تنزل بالوحي، أو تنزل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والنسائي (٤/ ٦)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ذكر الله أن للملائكة أجنحةً، كما في قوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

* ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾:

من هنا اختلف السياق وانتقل من كونه قَسَمًا إلى كونه عطفًا، فالسابقات هنا تابعة للسابحات، وهي الملائكة تَسْبح بين السماء والأرض، والسَّبْح يدل على السرعة، مما ناسب أن يعطف على ذلك السَّبْقِ في قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾، فالملائكة سَبقت بني آدم بالإيمان: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وسَبقت بالوحي إلى الأنبياء، وسَبقت بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وتسبق بتنفيذ ما أُمرت به.

* ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾:

عامة المفسرون على أن المقصود بالمدبِّرات: الملائكة[1]؛ فهي تدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بإذن ربها؛ فمنهم مَن يكون مُوكَلًا بالقَطْر، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بالوحي، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بقبض الأرواح، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بالحفظ، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بالأخذ والعقاب.. إلخ.

وفي قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾.. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾.. ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ تسلسل طبيعي في بيان شيء من وظائف الملائكة، فهي تَسْبَح بين السماء والأرض وتسبق؛ لأنها من أمر الله، وتدبِّر ما كُلِّفت به، وهذا أحد أسباب اختيار هذا القول، وهو أن المقصود بالقَسَم كله: الملائكة، **للأسباب الآتية:**

١- عامة المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾: الملائكة، فكذلك ما قبله؛ لأن حمل قسم على معنى وحمل الآخر على معنى مختلف، لا يخلو من بُعد وتكلُّف.

٢- أن السورة كلها تتعلق بالدار الآخرة والبعث والجزاء والنشور، وأول

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٣).

مراحل الدار الآخرة هو الموت، فكان مناسبًا أن يكون القسم مبدوءًا بـ«النازعات» ثم «الناشطات» إشارة إلى بداية مرحلة الدار الآخرة، وإنما فَصَل الله تعالى في أول السورة بين «النازعات» و«الناشطات» للفرق بين حالة قبض أرواح المؤمنين وحالة قبض أرواح الكافرين، وأنهما مختلفتان لا تستويان، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه من بداية انتقالهم من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى يبدأ الفرق يتضح ويظهر جليًّا، فهؤلاء تُنْزَع أرواحُهم بقوة وشدة، وأولئك تُنْزَع أرواحهم برفق ولين، وتُنشط نشطًا.

* ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾:

وهنا لا نجد جواب القَسَم في السياق، ولا في اللفظ، لكنه متضمّن في المعنى، وهو يتعلق بالراجفة والرادفة والبعث، فيكون معنى القسم: لتُبْعَثُنَّ أيها الناس، إذ البعث واقع لا محالة.

وهذا القَسَم فيه قوة؛ لأن الله تعالى لا يُقْسم إلا بعظيم ينبغي أن تلتفت إليه الأنظار، وعند ما يكون القسم بأشياء جديدة يسمعها لأول وهلةٍ، فإن هذا يهزُّ الإنسان هزًّا، خاصة إن كان ممن لديهم ذائقة عربية صافية، فيلتفت لهذا القَسَم ويصغي، باحثًا عن الموضوع، لكنه يفاجأ بأن السياق تجاوز موضوع المقسم عليه، وترك التصريح بجواب القسم، وانتقل بالإضراب إلى موضوع آخر، فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾، فهذا يُحدِث في القلب تطلُّعًا إلى البحث، ويأتي الجواب أن المُقْسَم به محذوف معروف، وتقديره هو البعث وعودة الأرواح إلى أجسادها، كما دلت عليه الأقسام ذاتها.

وهذا يدل على عظمة موضوع البعث، وأنه من أركان الإيمان، وهو الفارق بين الإيمان والكفر، فإن الإنسان إذا آمن بالبعث اعتدل الميزان عنده، وسعى لإصلاح آخرته، كما يسعى لإصلاح دنياه.

والراجفة هي: النفخة الأولى، وهي الظرف الذي يقع فيه البعث، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، فهي صوت مُزَلزِل

مُجلجِل قوي، الله تعالى أعلم بكُنْهِه، من أثره تحصل زلزلة الأرض، وموت الكائنات، وتغيُّر نظام الحياة المألوف.

والرَّادفة هي: صيحة أخرى، وبينهما ما شاء الله تعالى من السنين، وفيها إحياء الناس بعد موتهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وقيام الناس لرب العالمين(١).

* وهذه الحقيقة جديرة أن تغيِّر من حياة المرء الذي يؤمن بها، وتضيف بُعدًا جديدًا لحساباته ومقاييسه، وتؤثِّر في مواقفه وخياراته، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي: يوم البعث، وجاءت القلوب هنا مُنكَّرة؛ إشارة إلى عدم الاستغراق، أي: ليست كل القلوب كذلك، وإنما ثمة قلوب واجفة وهي قلوب الكافرين، والتعبير بالجمع يدل على كثرتها.

والواجفة هي: الخائفة القلقة(٢)، كما وصفها بقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

* ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾:

قال: ﴿أَبْصَارُهَا﴾، ولم يقل: «أبصارهم»، أي: أبصار تلك القلوب.

وفيه معنى لطيف؛ وهو أن السمع والجوارح مرتبطة بالقلب، فبمجرد ما ترى الإنسان تعرف كثيرًا مما يخفي قلبه، كما يقول الشاعر(٣):

والعينُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدِّثِها ... إن كان من حزبِها أو مِن أعاديها

وكما تقول لإنسان: إني أقرأ في عينيك أنك خائف أو متردِّد.

وكثيرًا ما يمكن معرفة الصفات الأساسية عبر قراءة الملامح الأولى للإنسان، حين نشاهده لأول وهلة.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٣- ٣٩٤)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨٢)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥، ٦٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «غرر الخصائص الواضحة» (ص٥٨)، و«فاكهة الخلفاء» (ص٢٦١).

ومشهد الأبصار الخاشعة مناسب لمشهد القلوب الواجفة، فما دامت هذه القلوب واجفة قلقة خائفة مرعوبة، فإن هذا يظهر في الأبصار جليًّا، وثَمَّ فرق بين إنسان ثابت البصر قويه، وآخر زائغ العين، قلق لا يستقرُّ على حال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥].

ولم يقل: «ذليلة»، وإن كان المعنى مقاربًا، لكنه عبَّر بـ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ لأن هؤلاء كانوا في الدنيا يُطْلَب منهم الخشوع لله، فيُعْرِضون ويستكبرون: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وربما كان لهم صولجان وسلطان وبأس وقوة، وكانت تخشع منهم النفوس وتخشاهم، فيوم القيامة يصوِّرهم الله تعالى بهذا المشهد المَهِين، وهو أن قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة منكسرة، نقيض ما كانوا يظهرون عليه من القوة والبطش في الدنيا، وفي حال مثل التي كانوا يذيقونها الناس من التخويف والإرعاب!

* ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾:

وهذا المقال يقولونه- والله أعلم- في الدنيا، فبعد أن صوَّر لنا الله هذه اللمحة السريعة والصورة العابرة عنهم وهم في موقف القيامة، أراد أن يقارن ذلك بما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا ينكرون ويجحدون.

والتعبير بالفعل المضارع يدل على التكرار، فهم كثيرًا ما يجادلون في شأن البعث والنشور، فكلما دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث استكبروا، وقالوا: هل سوف نُرَدُّ إلى الحافرة؟

والحافرة هي: الحالة الأولى، كما تقول العرب: رجع فلان إلى حافرته. يعني: إلى ما كان عليه في حالته الأولى. فلو أن إنسانًا كان على فساد، ثم صلح، ثم رجع إلى ما كان عليه، فإنك تقول: فلان رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى.

أو هي الأرض، تُسمَّى: الحافرة؛ لأنها تُحفَر بأقدام الخلق في مشيهم وركضهم وسعيهم، وفي ذلك إشارة إلى العمل والدأب في الدنيا، فهم يقولون:

هل سوف نعاد إلى الأرض مرة أخرى؟[1].

* ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾:

هذا يؤكِّد أن مساق كلامهم في الدنيا؛ لأنهم لو كانوا في الآخرة لما قالوا ذلك؛ لأنهم قد كانوا عظامًا نَخِرة ثم بُعِثوا، وهم يتساءلون عن المستقبل بعد الموت، وهم يؤمنون بالموت، إذْ لا أحد إلا وهو يؤمن بالموت، أي: إذا بَلِيَت أجسادُهم، ولم يبقَ إلا العظام المتآكلة، وحتى العظام تَبْلَى، ولكنهم يتحدَّثون عما يشاهدون من آثار الموتى، فهم بقولهم هذا يستبعدون البعث، وينسون أن الروح مما لم يشهدوا ولم يقفوا له على فناء!

فإذا بلي الجسد بقيت الروح، ثم تعود مرة أخرى بإذن ربها.

* ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾:

ظاهر هذا القول الاستهزاء والسخرية.

وهنا نلحظ أنه تعالى عبَّر في هذه الآية بـ﴿قَالُوا۟﴾، ولم يعبِّر بـ«يقولون»؛ لأن قولهم هذا ليس من الحجج التي يكرِّرونها، ولكنها كلمة خرجت في حالة استبعاد للأمر، أو تضاحك بعضهم مع بعض.

* ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ فالأمر يسير، ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي: لا يحتاج الأمر إلى معالجة وجهد؛ لأن أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإعادة خلقهم في الآخرة لا يحتاج إلى ما كانت عليه نشأتهم أول مرة بأن يكون أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة، ويظلَّ تسعة أشهر في بطن أمه، ثم يولد... إلخ، فهاهم على ظهر الأرض أحياءً بعدما كانوا في بطنها أمواتًا.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٤٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٦).

وينظر أيضًا: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٣٦٠)، و«أساس البلاغة» (١/ ١٩٩)، و«الجمهرة» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (١١/ ٦٤، ٦٨، ٦٩) «ح ف ر».

والساهرة على قول الجمهور: الأرض. وبعضهم يقول: هي: أرض الشام. والصواب: أنها الأرض كلها[1].

واختيرت هذه المفردة دون غيرها؛ لأن الأرض التي سيُبْعَثون عليها غير أرض الدنيا، في تضاريسها وطبيعتها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فمعنى كونها «ساهرة» أي: ممتدة ليس فيها جبال ولا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، أي: يمشي فيها السَّراب، فيرى الناس الأرض كالسَّراب؛ لامتدادها واتساعها.

* ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾:

خطاب للنبي ﷺ، وقد أتاه هذا الحديث مرارًا، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أكثر قصص القرآن، حتى قال بعض المفسرين[2]: كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل؛ لشدة الشبه بين دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوة سيدنا محمد ﷺ، وللمعركة التي علم الله أنها سوف تكون في آخر الزمن بين الأمة المسلمة وبين الصهاينة ومَن وراءهم.

والمعنى: قد أتاك[3]، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي.

واختار الله تعالى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تسليةً للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة، فهي دعوة لاقتباس العبرة والدرس.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٣).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (١/ ٣١٣)، و«في ظلال القرآن» (١/ ٦٦، ٢٦١)، (٣/ ١٣٢٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٠/ ١١٢).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠٨)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٥)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾، وأول «سورة الغاشية».

وهو تلويح وتلميح للمشركين بمكة أن سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إن لم يعتبروا.

* ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾:

ذُكِرَت قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مختصرة، والاختصار يتطلَّب ذِكْرَ الأمر المهمِّ في السياق، وهذا من أسرار التكرار في القرآن، فإن القصة تُكرَّر، وفي كل موضع يُذْكَر ما يناسب السياق، فهنا بدأ من وقت نداء الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا يشبه ما في «سورة طه»: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

ولك أن تتصور إنسانًا يتيه في الصحراء، ثم يجد النار، فيذهب إليها كي يظفر بقبس يهتدي به في الطريق هو وزوجته، فيفاجأ أن الله تعالى يمنحه قَبَسًا يهديه، ويهدي به مَن شاء من عباده إلى خيري الدنيا والآخرة، ثم يخاطبه ربه مباشرة.

ووقع التكليم مرة أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ولتكرار التكليم سُمِّي موسى بـ«الكليم».

و﴿طُوًى﴾ اسم الوادي على القول الصحيح، وقيل غير ذلك(١)، وهذا الوادي يوجد في سَيْناء، قريبًا من مصر، أي: بين مصر وفلسطين، وهو بقرب جبل الطُّور.

وقد وصفه تعالى بأنه «مقدَّس»، أي: مطهَّر، ولذلك اختاره محلًّا للنداء.

* ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ واحد الفراعنة، وهي أمة حكمت مصر أزمنة متطاولة، ويقال: إن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، (٣/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨)، (٢٤/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٩)، (٣١/ ٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٥).

«إخناتون» هو أول مَن تَسمَّى بفرعون، والملك الذي خاطبه موسى ودعاه يُسمَّى فرعون أيضًا.

وفي القرآن ما يدل على أن الفراعنة ليسوا وحدهم الذين حكموا مصر قديمًا، كما في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث سمَّى الله تعالى حاكم مصر بـ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٤]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]، ولم يكن يُسمَّى بـ«الفرعون».

واختلف المؤرِّخون وعلماء الآثار في تحديد اسم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الذي أُرْسِل له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكثيرون منهم يقولون: إنه: رمسيس الثاني.

وموريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في العلم الحديث» رجَّح أن فرعون المرسَل إليه موسى هو: ابن رمسيس الثاني(١).

ويقال: إن جثة فرعون الذي أُرسل إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هي الموجودة اليوم في المتحف المصري في القاهرة، وهي محنَّطة بطريقة تحفظ الجثة تمامًا، حتى إنك ترى الأظفار والشعر والجسد كاملًا غير منقوص، ويقول بعضهم: إن هذه الجثة فيها كسور في العظام من غير أن يكون فيها جروح في الجلد، مما يدل على أن الكسر كان بسبب ضغط الماء، وقد ذكر الله سبحانه في ذلك آية معجزة، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، فبعدما أغرقه البحر، وأماته الله تعالى، قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه من بعده وحنَّطوه، وبقي بأمر الله؛ ليكون لمَن خلفه آية، وهذا احتمال لا يمكن الجزم به.

وكلمة ﴿فِرْعَوْنَ﴾ كلمة مركَّبة من لفظين: «فر»، ومعناه: القصر، أو المبنى الفخم. و«عون»، ومعناه: العظيم، فيكون معنى «فرعون»: عظيم القصر، وهو مكان سكن فرعون.

---

(١) ينظر: «قصة الحضارة» (٢/ ١٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٤٦٨)، و«التفسير الوسيط» لطنطاوي (٥/ ٣٤٢)، (٧/ ٢٦٧)، (١٠/ ٣٧٤)، (١٢/ ٢٧٨)، و«التفسير الوسيط» (١/ ٩٨)، (٤/ ١٣٦- مجمع البحوث الإسلامية)، وما تقدم في «سورة التحريم»: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ...﴾ [التحريم: ١١].

وقد وصف تعالى فرعون في هذه الآية بالطغيان، وهو مجاوزة الحد بأمرين(١):

١- عصيان الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الطغيان تمرُّد على الله تعالى وكفرٌ به، ويكفي من كفره ادعاء الألوهية.

٢- استعباد الناس.

فهو تمرُّد على الله، وظلم لعباد الله.

* ومع أن فرعون قد طغى، إلا أن الله علَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الأدب في الدعوة، فقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾:

وجملة: ﴿هَل لَّكَ﴾ أسلوب من أساليب التلطُّف والتأدُّب.

وقال تعالى لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ولكن في هذه الآية تحديدًا ذكر تعالى أنه رتَّب لموسى هذا القول اللَّين، فأمره أن يقول لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، أن تكون زاكيًا طاهرًا، فعرض عليه الأمر الأول الذي هو في مصلحته، وفيه زكاة قلبه وطهارته بالمعاني الفاضلة، وفي عقله وفي ضميره، وفي وجدانه وحياته.

* ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

ولم يذكر اسم الله تعالى هنا، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، يعني: إلى خالقك وموجدك؛ لأن الفطرة تهدي إلى الله، وتدلُّ على الخالق الموجِد المبدِع سبحانه؛ ولأن الفراعنة كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة.

وهكذا كان فرعون هذا يزعم أنه ابن للإله، ولهذا خاطبه موسى بهذا الخطاب، فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ يعني: الذي خلقك ورزقك وسوَّاك وعدلك.

وقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ نقض لمفهوم الربوبية المزيَّف الذي كان ينتحله الفرعون وحاشيته، وتأسيس لمفهوم جديد يقوم على التوحيد والعبودية والفصل الحاسم بين الخالق المعبود وبين المخلوق الخاشع المتذلِّل.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٩٠)، و«زاد المسير» (١/ ٢٣١)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٩)، و«فتح القدير» (١/ ٥٣).

وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ دليل على أن العلم الحقيقي ثمرته الخشية، ولا خير في علم لا يُورث الخشية.

* وطَوَى الله تعالى كثيرًا من القصة، فقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، أي: العصا أو اليد التي فيها العبرة، وقصتها معلومة وردت مفصَّلة في مواضع من القرآن.

* ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾:

إشارة إلى سرعة التكذيب، وفيه دلالة على مبلغ الكِبْر في نفس فرعون، مع أنه مستيقن بصدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] والطغيان يفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه.

والعصيان: نتيجة طبيعية مرتَّقبة للتكذيب برسالات الله.

* ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾:

الإدبار إعراض، وكأنه انشغل بحرب الدعوة عن التفكير فيها وتأملها.

والتعبير بـ﴿يَسْعَىٰ﴾ إشارة إلى بذل غاية الوسع في التخطيط والكيد وللقضاء على الدعوة التي تهدِّد سلطانه وملكه، وإلى الاستعجال والسرعة نتيجة الشعور بالخطر، ولهذا قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، يعني: حشر السَّحَرة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، فحشرهم من كل الأنحاء في اجتماع عامٍّ، وجمع الناس وناداهم وصاح فيهم بدعوى الإلهية.

* ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾:

وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى هذا القول: أنا سيِّدكم.. أنا حاكمكم.. أنا الذي تجب عليكم طاعتي، وقد أشار الرازي إلى شيء من هذا المعنى(١).

والأرجح أنها على ظاهرها، ولا يعني بالضرورة ادِّعاء أنه مبدع الكون

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٤١).

وخالقه، لكن كان يعتقد أن له نسبًا إلى الآلهة.

ومثل هذا الاعتقاد كان منتشِرًا في الأمم الوثنية، كاليونان والرومان وغيرهم؛ ولهذا لما اعتنق قُسطنطين النصرانية حرَّفها وخلط فيها بين الألوهية وبين البشرية، فاعتقدوا أن في بعض البشر شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن فرعون كان منذ أربعين سنة يقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]»[١].

ولكي يظهر للناس صدقه، فإنه خاطب هامان بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

والتعبير بالظن كان كلامًا خاصًّا، وإلا فهو يعلن للناس تكذيبه بتصريح مشبَّع باليقين.

* وعند نشوة الطغيان والتكبر كان أمره أقرب ما يكون إلى الزوال، وهذه سنة الله تعالى في الظالمين: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾:

الفاء تدل على التعقيب، أي: أنزل عليه عقابًا مُنَكِّلًا يعتبر به المعتبرون، و﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هي: الدار الآخرة، وقدَّمها؛ لأن عقابها أطول وأشد، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ هي: الدنيا؛ لأن عقابها مهما طال فهو يسير، ففرعون غرق في الماء، وكان هذا عقابه وعقاب مَن معه، وهذا اختيار ابن كثير وجماعة.

أما الطبري فيرى أن المقصود بـ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾: الكلمة الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وهذا له وجه، وأولى منه ما قاله مجاهد: إن المقصود بقوله: ﴿ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: أخذه الله عقوبة الأول والآخر من أعماله[٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

وهذا معروف في أساليب العرب، فيقولون على سبيل التهديد والوعيد: يا فلان، إذا عاقبتك فسوف أعاقبك عقوبة الآخرة والأولى من أعمالك، يعني: على كل عمل عملته وأسلفته من الأخطاء والذنوب.

* ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

في نهاية حال فرعون عبرة لقريش إن كانوا يعتبرون ويخشون مثل هذا المصير أن يحلَّ بهم، وهو كان أقوى منهم، وهم يعلمون مصيره، وقد كان في قريش مَن سُمِّي بفرعون هذه الأمة، فكان من وعيد الله وتهديده إياه أن قال في شأنه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥].

ومن العبر العظيمة التي تضمَّنتها القصة:

١- أهمية الاعتبار بالحوادث؛ فإن التاريخ يعيد نفسه، والحاضر هو نمط الماضي، والمستقبل نمط الحاضر، والتاريخ يخلو غالبًا من القفزات والمفاجآت، فهو يمضي وفق سُنَّة وناموس، فمَن عرف هذا الناموس من خلال استقراء أحداث الماضي استطاع أن يوظِّفه بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

ولهذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فأثنى الله تعالى على مَن يعتبرون ويفيدون من مثل هذه العبر والآيات، وكما قال الشاعر:

فمَن وعَى التاريخَ في صَدْرِه ... أضافَ أعمارًا إلى عُمْرِه

وقال آخر:

اقرؤوا التاريخَ إذ فيهِ العِبَرْ ... ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبرْ

وما أكثر الذين يقرؤون كتب التاريخ قراءة التسلية وحب الاطلاع، دون قراءة الاعتبار والاتعاظ الكاشفة للنواميس والسنن الإلهية، أو أن يقيسوا أنفسهم عليها، كأفراد أو جماعات أو دول.

٢- مع طغيان فرعون أمر موسى باللِّين!

وفي هذا السياق قصة شهيرة، وهي أن رجلًا قال لهارون الرَّشيد: يا أميرَ

المؤمنين، إني أريدُ أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة، فاحتملها. فقال: كلا؛ إن الله أمر مَن هو خيرٌ منك بإلانة القول لمَن هو شرٌّ مني؛ قال لنبيِّه موسى إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾(١) [طه: ٤٤].

ومن الحقائق المؤسفة أن في خطاباتنا الدعوية شيئًا من القسوة والتعنيف، خاصة للبسطاء والضعفاء، وعامة الناس فضلًا عن خاصتهم، وثَمَّ خلط بين مفهوم القوة في الحق وبين القسوة، كالصلف والاندفاع، والتهجم على المخالف أو التسرع في تصنيفه والحكم عليه، وهذا ليس من القوة في شيء، كما أن الهدوء واللِّين ليس ضعفًا، و«**الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب**»(٢).

فالهدوء في لغة الخطاب، والتدرج، والبحث عن الأساليب التي تكون مدعاة للقبول أمر مطلوب، وهو من أسباب الاستجابة، كما يقول سُليمان التَّيْمِيُّ: «ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منك»(٣).

ويقول سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ينبغي للداعية أن يستخدم اللِّين في دعوته.. والابتسامة.. والكلمة الطيبة.. وتحمُّل ما يصدر من الناس من الانفعال أو ردود الأفعال.. والتدرُّج، بحيث يهيِّئ نفسه أن الفرد أو المجتمع لا يحتمل الاستجابة جملة واحدة، فيحتاج إلى التدرُّج والترقِّي، دون مساسٍ بكرامته، أو تبكيت أو تقريع، بل تحفيز على قبول النصح مع

---

(١) ينظر: «العقد الفريد» (٣/ ١١٠)، و«مرآة الجنان» (٢/ ٥٥).

ونحوها مع المأمون وغيره: ينظر: «العفو والاعتذار» للرقام البصري (٢/ ٥٧٩)، و«العقد الفريد» (١/ ٥٤)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٦/ ٥٤)، و«مرآة الجنان» (٢/ ٥٥)، (٤/ ١٣٥)، و«نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة» (ص٩).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦١١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥)، و«اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» لابن رجب (ص٨٤).

الحفاظ على إنسانية الفرد وكرامته ومكانته.

وقد كان أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا حديث عهد بإسلام، ومع ذلك فإن النبيَّ ﷺ من باب الحفاظ على شخصيته، وأن يشعر أن الدين لم يرزأه شيئًا[1] قال يوم الفتح: «مَن دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ»[2]. والناس ليسوا بحاجة إلى الخروج لدار أبي سفيان؛ لأن مَن دخل داره فهو آمن، لكن من باب تشجيعه على تغيير موقفه التاريخي الرافض للإسلام.

فإياك أن تظن أن دعوة إنسان تستوجب إذلاله وتحقيره وتجريده من كرامته، ولا بد من بيان أن حقيقة التوبة والإنابة إلى الله لا تستدعي أن يفضح الإنسان نفسه أمام الخلائق، ولا أن يفتح لهم صفحات الماضي؛ ليظهر لهم توبته من كل خطيئة، بل يكفيه أن يجعل الأمر بينه وبين ربه.

يقول الشاعر[3]:

ولو أنَّ فرعونَ لمَّا طغى وقال على الله إفكًا وزورا
أنابَ إلى الله مستغفرًا لما وجدَ اللهَ إلا غفورا

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فرحمة الله تعالى واسعة، والداعي يُعتَبر دليلًا أو دلَّالًا يدلُّ الناس على الطريق، وليس مُقَنِّطًا من رحمة الله، أو مُنَفِّرًا عن الصراط المستقيم.

٣- أشار الغزالي وابن القيم وغيرهما إلى أن النفس البشرية غالبًا ما تتشرَّب من منزع الفرعونية إن لم يعالجها صاحبها[4].

---

(١) أي: لم ينقصه شيئًا.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص٨٨١) منسوبًا إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصُّولي.

(٤) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠)، و«الفوائد» لابن القيم (ص٧٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٢٤).

إن مداخل التفرعن والأنانية والطغيان عند الإنسان تحتاج إلى تتبعها بالمناقيش، ولو أن الإنسان جاهد نفسه زمنًا طويلًا وذلَّلها وجرَّدها من بعض أنانيتها ثم غفل عنها قليلًا، لوجد في نفسه ركامًا من التعاظم والطغيان، وقد يقع بعض ذلك تحت ستار التدين والزهد والاحتساب.

وكثير من ألوان الطغيان والكبر قد تبدو لصاحبها خفيفة وهي لطيفة المدخل، وتتسلَّل إلى النفوس كما يتسلَّل الهواء، وكما يتسلَّل النوم إلى عين المُجْهَد، حتى تتمكَّن من القلب، فيصبح الإنسان مُعْجَبًا بنفسه متكبِّرًا متعاظِمًا، فمرة يتعاظم بعلمه، كما قال تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، ومرة يتعاظم بماله، كما قال تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، ومرة بجاهه ومنصبه أو بنسبه أو بجماله أو بمنطقه، أو بشخصيته أو بصلاحه.

وكثرة مسارب العُجب(١) والغرور والكِبْر إلى النفس تتطلَّب من صاحبها مراجعة دقيقة ومعالجة دائمة لنفسه(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾؛ إشارة إلى سُنَّة الله سبحانه في الطغاة- من أمثال فرعون- فإنهم هم العائق الأكبر في وجه الأنبياء والمصلحين، ومن الملاحَظ أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُبعَث إلى فرعون وهامان وقارون فحسب، بل بُعِثَ إلى بني إسرائيل كذلك، وإنما خصَّهم الله تعالى بالذكر، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤]؛ لأن هؤلاء الطغاة صادروا حقوق الناس، وصادروا الأرض فجعلوها ملكهم، وصادروا المال فحازوه لهم، وصادروا حرية البشر فجعلوهم عبيدًا لهم، بل صادروا حتى عقولهم.

والمتأمِّل في حياة الناس اليوم يجد بعض ذلك في وسائل الإعلام، فكثير منها تُمارِس وصاية ومصادرة لعقول الناس، وتستخِفُّ وتستهين بها، وإن كانوا

---

(١) المراد: مداخله.

(٢) ينظر: «أنا وأخواتها» للمؤلِّف.

يتظاهرون بالواقعية والموضوعية والحياد، ولهذا جعل الله تعالى مقارعة الطغيان ومقاومته سرًّا في ابتلاء المؤمنين.

٥- أهلك الله تعالى فرعون بالغرق، ولكن ظلَّ الحكم في مصر للفراعنة من بعده، وامتد الحكم الفرعوني لمصر طويلًا، حتى قيل: إنه تعاقب على الحكم عشرون أسرة فرعونية.

وسنة الله لا تحابي أحدًا، ولا تسير وفق هوى الناس، وإنما هي حكم ونواميس يجب أن يفقهها الإنسان ويفهمها.

ولا شك- مع ذلك- أن هلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل من بطشه مدعاة للسرور والفرح، ولذا لما قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال لهم: «ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟». فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وغرَّق فيه فرعونَ وملأَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسولُ الله ﷺ: «فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم». فصامه رسولُ الله ﷺ، وأمر بصيامه[1]، فنحن نصومه لله تعالى شكرًا.

فمِن حقِّنا أن نفرح بهلاك الطاغية، ولو كان هذا شيئًا جزئيًّا.

وبعض الناس محرومون من هذه المشاعر؛ لأنهم لا يعبؤون بالمكاسب الجزئية، ونحن نقول: أعطِ نفسَك فرصةً أن تفرح بما تحقَّق من الخير، واندفع من الشر، وأحسِن الظن، أما أن يظلَّ الإنسان لا يفرح إلا بتحقُّق الخير من جميع الوجوه، وزوال الشر من جميع الوجوه، ففي هذا شيء من الخيالات البعيدة التي لا يسندها الواقع.

* ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾:

عَطْفُ هذه الآية على ما سبق فيه مناسبة ظاهرة، وهي أن فرعون لما تعاظم في نفسه، وادَّعى الربوبية جاءت الآية مبيِّنة لجانب من عجز الإنسان مهما طغى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤، ٣٩٤٣، ٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه البخاري (٢٠٠٥)، ومسلم (١١٣١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

وتجبَّر.

وجواب هذا السؤال معروف، فمَن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو تأملت آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت إلى ما تشاهده في ملكوت السماوات والأرض؟! وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ أي: أقوَّتكم أشدُّ وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

والسماء تُطلَق على كل ما علا وارتفع[1]، وقد يكون المقصود: هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مَجرَّاتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجز عن أن يحيط بأبعادها، فضلًا عن أن يقيس نفسه بها، ولهذا عبَّر بالبناء، أي: القوة والإحكام، فإذا كان هؤلاء البشر يبنون هياكل ومعابد، وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.

* ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾:

والسَّمْك: السقف[2]، فالله تعالى جعلها مستوية، ليس فيها شقوق، كما قال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

يقول ابن تيمية: «إن في هذا دليلًا على كُرَوِيَّة الأرض والسماء؛ لأن عدم التفاوت والتسوية إنما يكون في الجِرْم المدوَّر الذي يستوي، بخلاف ما إذا كان مربَّعًا أو مستطيلًا أو مسطَّحًا أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يُوصَف بأنه مستوٍ؛ لأن فيه

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٥٠).

وينظر أيضًا: «العين» (٥/ ٣١٨)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٥٠)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٤٤)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٢١٠) «س م ك».

أشياء تختلف عن غيرها، وفيه زوايا وأطراف وغير ذلك»[1].

* ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: أظلمه، فجعله شديد الظلمة، **والليل** هنا هو الليل الذي يراه الناس على الأرض، ولكن مصدر الظلمة والنور الشمس التي هي في السماء، ولذا قال: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾، **والضُّحى** هو نور طارئ؛ بسبب الشمس، والظلمة سببها غياب الشمس، أي: عدم وجود مصدر للنور، ولو لم يوجد مصدر للنور لكان الكون مظلمًا[2].

* ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾:

أي: بعد خلق السماء، **وقد اختلف العلماء في أيِّهما خلق أولا؛ السماء أم الأرض؟**

فذهب جمع إلى أن السماء خُلِقت أولًا؛ استدلالًا بهذه الآية.

وذهب آخرون- وهو الأرجح- إلى أن الأرض خُلِقت أولًا، ثم خُلِقت السماء، ثم دُحيَت الأرض بعد خلق السماء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩- ١١].

وهذه الآيات تدل على أن الأرض خُلِقَت أولًا في يومين، ثم بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، ثم استوى إلى السماء، وهذا مذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3]، مع أن الآيات تحتمل، والسياق لم يأت ليقرِّر مسألة فلكية ويقطع بها، بل ليوجِّه نظر الإنسان للتأمل والاعتبار والتواضع والشكر.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٠)، (٦/ ٥٦٥)، وما تقدم في «سورة نوح»: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨٩، ٩١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٩٣- ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦- ٤٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٨٤).

والدَّحْو هو: البسط والتهيئة[1]، أي: جعلها مدحوَّة مهيَّأة مُعَبَّدة مذلَّلة؛ ليعيش الناس عليها، ويمشوا ويركبوا ويبنوا ويزرعوا... فلو أن الأرض كانت صخرية لمات الناس جوعًا وعطشًا، ولو كانت مضطربة تميل؛ لما أمكن أن يبنوا عليها.

وقد جعل الله قشرتها صالحة للسُّكنى، وصالحة للنبات، وأودع في باطنها خيرات مكنوزة من الماء وغيره، وجعلها كرة معلقة في الفضاء، والذي يمسكها هو الله سبحانه، كما قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

* ومن معاني «الدَّحْو»: أن يُضمن باطن الأرض الخيرات الكثيرة، ولهذا قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وغالب ما يحتاجه الإنسان هو: الماء والمرعى- أي: الطعام والشراب- ولهذا نجد في سياق نعيم أهل الجنة ذِكْر هاتين النعمتين، وما أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ففي قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إلى نعمة الزرع والرزق، وفي قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى نعمة الماء.

* ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾:

وهذا معدود من دحو الأرض وضبطها، أي: جعل الجبال لها أوتادًا تثبتها، فالجبل بالنسبة للأرض كالوتد بالنسبة للخيمة، فهي تجعل حركتها منتظمة غير قلقة، حتى إن الإنسان لا يحس بها.

فكل جبل مغروس متجذِّر في باطن الأرض؛ ليحفظ توازنها[2]، فلا تميل ولا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٥٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٤٦).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

تضطرب، إضافة إلى كونها مصدرًا من مصادر الرزق، حيث تشتمل على المعادن وغيرها مما ينتفع الناس به.

* ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾:

هذه الآية تكررت مرتين، مرة هنا، ومرة في «سورة عبس»، لكن هنا لها سياق، وهناك لها سياق آخر، ففي «سورة عبس» ذكرها الله تعالى بعد آيات في تعداد مفردات من الرزق في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾، بخلاف السياق هنا فلم يكن تعدادًا لمفردات الرزق، وإنما هو لفت الأنظار إلى سنن الله تعالى في الكون والحياة، وكأنه إشارة إلى أن هذه الأرزاق لو لم يكن معها سنن إلهية تحفظها لما انتفع بها الإنسان.

أو أنها محصِّلة سننٍ إلهية لطيفة كان من جرَّائها بقاء الرزق وتنوعه وتجدده بقدر حاجة البشر.

* ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: الشيء العظيم الذي يعمُّ ويغطِّي[1]، وهي شيء مرعب مفزع لا أعظم ولا أهول منه.

تجد هذا المعنى في إيقاع الكلمة ووزنها، كما هو ظاهر، والمقصود: القيامة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2].

والتعبير بهذا الوصف أبلغ مما لو قال: «فإذا جاءت القيامة»؛ لأنه جاء بوصف جديد مضافًا إلى الحقيقة نفسها، وهي أن القيامة مرعبة مفزعة.

* ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾:

والتذكر يكون بعد انقطاع بذهول أو نسيان أو موت، ويكون عند رؤية القيامة والبعث، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٢٢)، (١٢/ ٢٠٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٣٥).

وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

وفي موضع آخر يتذكر ما سعى حين يُعرَض عليه الحساب ويُناقَش؛ فإذا جحد شيئًا شهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه بما كان يكسب[١]، ويجدها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فيتذكر ما سعى حين شهادة الجوارح عليه، وحين الحساب، وحين يؤتى الكتاب.

وهذا التذكر هو للإنسان مطلقًا، على أن من الناس مَن يتذكر ما يزيد سروره وسعادته؛ لأنه تذكر أشياء محمودة يحبها الله ويرضاها، ومنهم مَن يتذكر ما يؤلمه ويخيفه من الجرائم والجرائر.

وقد ذكر النبي ﷺ قصة ذلك الرجل الذي تاب؛ فيقرِّره الله تعالى بذنوبه الصغار، ويترك عنه الكبار، وهو يقرُّ بها، ولا يستطيع أن ينكر منها شيئًا، حتى إذا بشَّره الله بأنه قد أبدلها له حسنات؛ لأنه تاب إلى الله منها، فيقول: ربِّ، قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا. ثم ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه[٢].

* ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾:

والمقصود هنا: الكافر[٣]، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وكما أن الكفار يرون النار، فإنها تراهم، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢]، وكذلك المؤمنون يرون النار، لكنها ليست رؤية الفزع والخوف والرُّعب، بل رؤية الطُّمأنينة في أن الله تعالى نجَّاهم منها، ولم يجعلهم يعملون عمل أهلها.

* ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾:

مثل فرعون ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، وفيه تعريض بالطُّغاة في مكة الذين كانوا

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت: ٢٠].

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٠).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٥٩).

يحاربون دعوة النبي ﷺ.

* ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾:

أي: استحبَّها على الآخرة، وقدَّم شهواته على مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧]، وهذا سرُّ الطُّغيان؛ فإن الإنسان يتعلق بالدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها، ويُؤثِر المشهود على الموعود، ويُؤثِر الفاني على الباقي[(١)]!

* ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾:

أي: مردُّه ومصيره ومنتهاه إليها.

* ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ وهي إشارة إلى مشروعية أن يُعبد الله ويُتقرَّب إليه خوفًا من النار، كما يُتقرَّب إليه حبًّا له سبحانه، والإنسان لا يعبد الله بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، بل يعبده بالحب والرجاء والخوف، وآيات القرآن تشهد لهذا، وتدل على مشروعية أن يفعل المرء الطاعة، ويحذر المعصية؛ خوفًا من الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وخوف مقام الله، إما أن يكون المقصود الخوف منه سبحانه، ومَن همَّ بالمعصية فاستحضر عظمة الله ومشاهدته ورقابته، فتركها؛ خوفًا من الله، كتبت له حسنة كاملة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عبدُك يريدُ أن يعملَ سيئةً- وهو أبصرُ به- فقال: ارْقُبُوه، فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جَرَّايَ[(٢)]»**[(٣)].

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الأعلى».

(٢) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٤٨): «بالمدِّ- يعني: جرائي- والقصر، لغتان، معناه: من أَجْلي».

(٣) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

فعلامة الخوف من الله أن يترك المعصية حيث لا يراه إلا الله، ولا يجوز أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك.

وإما أن يكون المقصود الخوف من مقام الله تعالى يوم الحساب، فإنك ستُوقَف بين يديه، وسيسألك ويحاسبك، فما هو جوابك؟ وما هو قولك؟

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ إشارة إلى وجود الهوى في النفس، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه مِن الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدِّقُ ذلك أو يكذِّبُه**»(١). وليس النهي في أن يقع الهوى في نفس الإنسان؛ فإن كل إنسان سَوِيٍّ يقع عنده الهوى، ولكن المشروع أن ينهى نفسه عن الهوى، وعن الاسترسال معه، والعمل بمقتضاه.

وفي ذلك إشارة للفضلاء من أصحاب محمد ﷺ الذين خافوا مقام ربهم سبحانه، وآثروا ما عنده على شهواتهم وتحمَّلوا الأذى في سبيله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وشتان ما بين المصيرين؛ فالمؤمنون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات، والأرض خالدين فيها أبدًا، لا يبلى شبابهم، ولا يزول نعيمهم، وأولئك في نار تلظَّى، يتمنى أحدهم راحة يوم فلا يجدها، أو نومًا فلا يجده، أو تخفيفًا فلا يظفر به.

* ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾:

بعد ما أُخبروا عن المصيرَيْن إذا بهم يسألون عن الساعة: متى رُسُوُّها؟ والرُّسُوُّ عادة ما يكون للأشياء الكبيرة، مثل قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، وهكذا السفينة يقال عنها: ترسو، ولا يقال: رسا القارب؛ لصغره.

والسائلون هم كفار مكة، كانوا يسألون عن الساعة، ويقولون: متى هي؟ وهو سؤال استعجال وتكذيب وسخرية.

أما اليهود والنصارى فكانوا يسألون النبيَّ ﷺ عن الساعة، لكن سؤالهم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

سؤال تعجيز[1].

وكذلك بعض المسلمين كانوا يسألون النبيَّ ﷺ، ولكن على جهة الاستعداد، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رجلًا من أهل البادية أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبَّ الله ورسوله. قال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[2].

أناسٌ يتساءلون اليوم عن وقت قيام الساعة، ويحاولون أن يحدِّدوا موعدها من خلال علم النجوم والسِّحر والكَهانة والحسابات الفلكية، أو يحاولون الوصول إلى تحديد نهاية لهذا الكون.

وبعضهم يحاول ذلك باعتماد الرُّؤى والأحلام والظُّنون، ووُجِد مَن يحاول ذلك بتأويل النصوص القرآنية[3].

* والقرآن يحسم ذلك كله بما لا مجال معه للتردد أو التأويل: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ليس هذا إليك، وليس لك علم به، فلا تلتفت إليهم، ولا تُجِبْهم؛ لأن هذا من علم الله عَزَّوَجَلَّ[4]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

* ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: منتهى علمها، وهذا معنًى واضح ومناسب للسياق، أي: أن الذي يعلم متى تقوم الساعة هو الله وحده.

أو أنَّ أمْرَ الساعة إلى الله، فهو الذي يقيمها، وهو الذي يقدِّرها متى شاء، فهي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٩)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٢٨٤)، (٦/ ١٩٩)، و«تفسير النسفي» (١/ ٦٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥١٨)، و«فتح القدير» (٢/ ٣١١)، و«مباحث في علوم القرآن» لمنَّاع القطَّان (ص١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة القيامة»: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٩).

من أمره ومنه وإليه[1].

وليست مهمتك أن تخبر الناس متى الساعة، ولا أن تجيب عن سؤالهم عنها، وإنما شأنك أن تحدِّثهم عن أشراطها، وتَحُثَّهم على الإيمان بها والاستعداد لها، كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال: فأخبِرْني عن الساعةِ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائلِ. قال: فأخبِرْني عن أمارتِها؟...»[2]. يعني: علاماتها الصغرى والوسطى والكبرى.

* ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾:

قرأ الجمهور: ﴿مُنذِرُ﴾، وقُرِئت: ﴿مُنذِرٌ﴾ بالتنوين[3]، أي: مَن يخشى الساعة فيؤمن بها ويستعد لها، ولا يتخذ الكلام في الساعة لهوًا وعبثًا.

* ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾:

العشيَّة: ما بين زوال الشمس إلى غروبها، والضُّحى: من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، أي: كأن مقامهم في الدنيا كوقت العَشِيِّ أو الضُّحى في قصره، وسرعة تقضِّيه.

وذكر الله عنهم في آيات أخرى أنهم يقولون: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ [المؤمنون: ١١٣]. ومرة: عشرة أيام، ومرة: ساعة من نهار، كما في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٣- ١٠٤].

وإنما اختلفت إجاباتهم؛ تبعًا لاختلاف ما لبثوا وعمّروا في الحياة الدنيا،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٠٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٩٦).

فمنهم مَن قال: لبثنا عشرة أيام. وأعقلهم وأكثرهم خبرة ومعرفة قال: لبثنا يومًا. وبعضهم قال: إنما هو بعض يوم. وبعضهم قال: إنما هي عشية أو ضحاها.

أو يكون ذلك لاختلاف تقديراتهم وحساباتهم وظنونهم، والله أعلم.

○○○

سُورَةُ عَبَسَ

*** تسمية السورة:**

اسمها الشهير في كتب التفسير والحديث: «سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»، أو: «سورة ﴿عَبَسَ﴾»[1].

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور التي لها أكثر من اسم[2].

غير أنك تجد في المصادر أسماء أخرى للسورة مُقْتَبَسة من بعض مدلولاتها ومضامينها، وقد سُمِّيت: «سورة ابن أم مكتوم»؛ بالنظر إلى سبب النزول، و«سورة الأعمى»، و«سورة الصاخَّة»، وذكر العيني لها اسم: «سورة السَّفَرة»[3].

*** عدد آياتها:** أربعون آية، **وقيل:** إحدى وأربعون، **وقيل:** اثنتان وأربعون[4].

*** نزلت بمكة** اتفاقًا، ويظهر أنها من أوائل السور المكية؛ لأن عبد الله ابن أم

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٨٩)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٤) وقد اختلفوا في ثلاث آيات: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين إلى الإسلام[١].

* **سبب نزولها:** أن النبيَّ ﷺ كان مشغولًا بدعوة الأكابر من قريش، كعُتْبة وشَيْبة ابني رَبِيعة، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فكان ينادي النبيَّ ﷺ ويقول: يا رسولَ الله، علِّمني مما علَّمك الله. فكأن النبي ﷺ وجد في نفسه عليه، فأعرض عنه؛ لأنه مشغول بهؤلاء القوم الذين كان يرجو إسلامهم، وذلك موقف عابر وخاطر طائر، لم يكن له استقرار ولا ثبات.

وهي تربية ربانية تأخذ بالألباب، أن يحدث هذا بسبب موازنة وترجيح نبوي بين المصالح المتعارضة، فينزل عليه الوحي الذي اعتاد أن يكون له مسلِّيًا معزِّيًا مصبِّرًا، فإذا به يحمل عتابًا على عبوسه وتولِّيه عن هذا الأعمى، وهو مشهد مليء بالدروس في الدعوة.. والصبر.. والتواضع.. وفي حساب المصالح والمفاسد.

وعبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسمه: عمرو، أو: عبد الله، وعمرو أشهر، وأمه: عاتكة، واشتُهِر بهذا اللقب، وهو قريب لخديجة زوج النبي ﷺ، ومن المسلمين الأوائل.

والنبي ﷺ وَكَله إلى ما عنده من الدين والسابقة، حيث إنه كان من أول المهاجرين- بعد مصعب بن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إلى المدينة، ولما جاء سأله أهلُ المدينة: ما فعلَ أصحابُك الذين من بعدك؟ قال: هم أولاء على أثري، سيأتون من بعدي.

وقيل: إنه استُشهِد في معركة القادسية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

* ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾:

أي: كَلَحَ وقطَّب وتجهَّم وجهه[٣]، **والمقصود:** النبي ﷺ قطعًا من دون شك،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٩٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٦٤- ٣٦٥)، و«الإصابة» (٧/ ٣٣٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٢)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٣٤٠).

وأعرض ببدنه، فالعُبوس يكون بالوجه، والتولِّي يكون بالبدن(١).

عاتب الله عَزَّوَجَلَّ رسولَه ﷺ على لمحة العُبوس التي ظهرت في تقاسيم الوجه، ولم يقع منه ﷺ غير هذين الأمرين؛ العُبوس والتولِّي عن الأعمى؛ ذلك لأن مقام النبوة عظيم، لا ينبغي أن يكون فيه مثل هذا.

وفيه دليل على التفات الإسلام منذ أيامه الأولى إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ولهذا لما سأل هِرَقل أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أشرافُ الناسِ يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم»(٢).

وقد وقع للإمام الرازي- صاحب «التفسير الكبير»- زلة في تفسير هذه السورة، فذكر أن ما فعله ابن أم مكتوم كان معصية؛ لأنه أتى النبيَّ ﷺ يسأله وهو مشغولٌ بدعوة كبراء قريش، وإن ما فعله النبيُّ ﷺ كان سائغًا أن يفعله.

ثم حاول بهذا أن ينفك من الإشكال، فذكر أن الله تعالى عاتب النبيَّ ﷺ، إما لأنه التفت لهؤلاء بحكم القرابة، أو أنه أعرض عن ابن أم مكتوم بحكم العمى(٣).

وهذا تأويل رديء، وافتعال لإشكال لا معنى ولا وجود له في الآيات، فإن العتاب واضح مصدره وسببه.

والأقرب أن أساس العتاب للرسول ﷺ هو زيادة الحرص منه ﷺ على هداية هؤلاء القوم الذي حمله على الإعراض عن الأعمى والعُبوس في وجهه.

والإنسان كلما علا قَدْره، وزادت منزلته كان العتب عليه يَرِد في أصغر الصغائر؛ لأنه محل الكمال والجلال.

وكان دافعه ﷺ الحرص على هداية القوم، وتوقُّع الخير الكثير من وراء

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٧، ٢٩٤٠، ٢٩٤١، ٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٢- ٥٣)، وينظر أيضًا: «نكث الهميان في نكت العميان» (ص٢٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٥٣).

إسلامهم، وعادة ما يترتب على مثل هذا أن يكون الداعية منهمكًا منشغلًا، فربما أرجأ أمر الأَتْباع الموثوقين أو وَكَلَهم إلى ما عندهم من الإيمان.

والإنسان إذا أفرط في الانشغال، أو تكاثفت عليه الأعمال وملأت خاطره؛ فإنه لا يكون مع زوجته وأهله ومَن حوله على حال الانسجام والرضا والطواعية، وربما علاه شيءٌ من التوتر والانفعال.

وفي هذا تأكيد على القاعدة الشرعية المعروفة، وهي أن المصلحة المُحَقَّقة لا تُتْرَك لمصلحة متوقَّعة، والأمور المؤكَّدة لا تُترَك لما هو أقل تأكيدًا منها، والمصلحة العظمى لا تُترَك للمصلحة الصغرى.

ويتحصَّل من هذا الموقف دروس عديدة وفوائد كثيرة:

١- العناية بالمقبِل أكثر من المُعرِض؛ لأن له سابقة ومبادرة، والإعراض عنه ربما يفضي إلى صدوده أو انتكاسه.

٢- دعوة المسلمين مقدَّمة على دعوة الكفار.

صحيح أننا مؤتمَنون أن ندعو الناس كلهم إلى الإسلام، ونقيم الحجة عليهم، ولكن الذي يظهر أن دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم أولى وأهمُّ، وهذا لا يعني التقليل من أهمية وجود مَن يتخصَّصون في دعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

٣- دعوة المهتدين وتعليمهم في الجملة أولى من دعوة المنحرفين الضالِّين البعيدين، وهذا لا يعني التقصير في دعوة المفرِّطين، فيجب أن يكون في المسلمين مَن يتخصَّص بدعوة أسرى الشهوات والشبهات.

ربما تكون هذه المقارنات موهمة، أو تستخدم في غير سياقها، وإنما أردت التفضيل في حال وجود شخص واحد متردِّد بين هذا وهذا، ولا يمكنه التوفيق بينها، لا وقته ولا جهده يسمح بذلك، فلا بد له من اختيار أحد الطريقين، فالأفضل له كقاعدة عامة دعوة المسلمين، ودعوة المقبلين بصفة أخص.

٤- الواقعية في أمر الدعوة؛ وتحديد الأهداف ووضوحها وكونها ممكنة

التحقيق، فمن الشباب مَن يفكر في واقع الأمة ومشكلاتها، ويغرق في هذا إلى درجة تعميه عن الأعمال المستطاعة التي تخفِّف المعاناة ولو جزئيًّا.

عليك أن تفكِّر في الأشياء المقدورة، وبدلًا من أن تقول: متى يتغير واقع الأمة. قل: ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أستطيع أن أستثمر طاقاتي ومواهبي؟ يمكنك أن تتعلَّم أو تُعلِّم أن تكون خطيبًا ناجحًا، أو كاتبًا، أو شاعرًا، أو أديبًا، أو داعيةً، أو إداريًّا، أو أستاذًا أو مُبدِعًا...

* ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾:

هذا شروع في بيان السبب المباشر، وإلا لم يكن النبي ﷺ عبس بسبب الأعمى فحسب، فهو صاحبه وحبيبه، وله سابقته وإسلامه، ووَصَفَ تعالى الرجلَ القادم بالأعمى، ولم يذكر اسمه، بل ذكر عاهة مكروهة عند بعض الناس.

لماذا وصف الله عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالأعمى، وليس بوصفٍ آخر؟

كان هذا لبيان عذر الرجل، وأنه لم يكن يرى المشهد، ولم يلحظ انهماك النبي ﷺ في دعوة أولئك الملأ، وهو عتاب للنبي ﷺ، وكأنه يقول: الرجل معذور بالعمى؛ والعمى سبب للتخفيف فيما هو فوق ذلك.

ربما يظن ظان أن الإسلام وهو في بداية ظهوره لن يفيد من رجل أعمى كإفادته من البصير القوي كامل الحواس، ولذا جاء العتاب مُعْلَنًا يُتلى في آيات محكمات إلى يوم القيامة، ولو أراد الله لجعله عتابًا يُسِرُّ به جبريل إلى النبي ﷺ من غير أن يعلم بذلك أحدٌ، ولكنه أراد أن يكون درسًا للأمة كلها: أن الإيمان والتقوى إذا أشرقت في قلب فقد تحقق بذلك المقصود الأعظم من الرسالة، أيًّا كان هذا القلب، وأن المصالح العاجلة يجب أن تتأخر في هذا المقام: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وفي هذه الآيات دلالة على ربانية القرآن، وأنه وحي الله، فالعتاب لم يأتِ من أحد من البشر، بل من رب العالمين، والمسلم متعبِّد بحفظ هذه الآيات وتلاوتها وتعليمها للناس، كما هو متعبِّد بأن يحفظ ويتلو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكلا الأمرين لا يخلو من مدخل يتسلَّل منه الخصوم ليقولوا مرة: إنه يمدح نفسه ويزكِّيها. ويقولوا أخرى: انظروا إلى كراهيته لموقف رجل من أصحابه وتبرمه منه ومن عاهته. أو يقولوا: ودَّعه ربه وقَلَاه وعاتبه.

وهنا النبوة والصدق في التبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، يعني: لو كتمت آيةً أو لفظًا أو حرفًا لم تكن مبلِّغًا لرسالة الله عَزَّوَجَلَّ، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لو كان محمدٌ ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنْزِل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»(١).

وهذا عتاب أعظم وأبلغ في شأن زواجه ﷺ بزينب، وكشفٌ عن شيء كان يخفيه في نفسه، والله تعالى يقرِّر إبداءه وإعلاءه ليسمعه التابع الموافق والكافر واليهودي والمنافق.. خطاب الله العظيم لمصطفاه: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهو شيء عظيم حقًّا، ولو أن أبًا عاتب ابنه، أو قائدًا عاتب متبوعه بمثل هذا، لكان حريصًا على تجاوز الموقف ونسيانه وكتمانه أو التشكيك فيه.. فكيف والخطاب من رب العالمين من فوق سبع سماوات، وفي ظروف وأحوال صعبة ومخاطر محدقة!

وجاء الخطاب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بضمير الغائب، مع أن النبي ﷺ هو المخاطَب به، وفي عتاب الله إياه في «سورة الأحزاب» جاء العتاب بخطاب مباشر: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي هذا أسرار لطيفة:

١- عدم مفاجأة النبي ﷺ بالخطاب والعتاب؛ لأن مخاطبة الغائب أولى من مخاطبته في البداية وجهًا لوجه، وعلى هذا فالبداية هذه أخفُّ وألطف مما لو قال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

له: «عبستَ وتولَّيتَ». ففي العتاب تدرج وترقٍّ، بدأ بمخاطبة الغائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾:

٢- هذا العُبوس والتولِّي أخفُّ من أن يُوصف بالذنب، وإنما هو خلاف الأولى، ومع ذلك عاتبه فيه ربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه ليس من مألوف أخلاق النبي الكريم ﷺ، فجاء الخطاب بصيغة الغائب للإشارة إلى أن ذلك الحدث كان استثناء بالقياس لأخلاقه ﷺ.

٣- التعبير بضمير الغَيبة يجعل المعنِيَّ به كأنه يراه واقعًا من غيره، وهذا أبلغ في تصوير المشهد وملاحظة ما فيه من مخالفة ما هو الأولى في حقه.

٤- أن الرجل الأعمى لم يلحظ ذلك؛ لأنه لا يرى، ولأنه لم يظهر من فعل النبي ﷺ شيء سوى ما حدث على سيماء وجهه الطاهر من أثر الضيق العابر.

٥- جاء الخطاب متَّسقًا مع فعل النبي ﷺ مع عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فهو ﷺ قد أعرض، فقابل فعله شيء من الإعراض في المخاطبة المباشرة إلى خطاب الغَيبة، ولكنه لم يدُم طويلًا، ولذا جاء بعد هاتين الآيتين خطاب مباشر: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾، فهو عتاب المحب لحبيبه، وهو دليل على عظمته، وقوة احتماله، ورباطة جأشه ﷺ.

كما أنه دليل على أهمية المراجعة والتصحيح، وأن قوة الإنسان وكماله ليست بالادِّعاء، ولا بالشهرة، ولا بالاسم، ولا بالنسب، وإنما هي بدأبه وصبره ومواصلته في تطلُّب الكمال وتدارك العثار.

* ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾:

يحتمل أن تكون الآية استفهامًا؛ يعني: ما يدريك لعل هذا الرجل الذي أعرضتَ عنه ولم تُجِبْه، لعله يتزكَّى.

وقال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر(١).

وفي الآية ثناء على عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بأنه من المتزكِّين الأوائل، شهد له بذلك ربه جلَّ وعلا، والنبيُّ ﷺ عند ما أعرض عنه إعراضةً خفيفةً وهو منشغل بما يظن أنه أهم، ترتَّب عليه أن يُنزل الله شهادةً لابن أم مكتوم في وحي يُتلى أنه ﴿يَزَّكَّىٰ﴾، فهذه بركة نبينا ﷺ، كما قال في آخر عمره: «اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن سببتُه أو جلدتُه، فاجعلْ ذلك كفارةً له يومَ القيامة»(٢).

فكان من بركة ذلك العُبوس أن تنزل تزكية الرجل من السماء، وأن يخلِّد الله ذكره والثناء عليه إلى يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى أنه وإن كان أعمى البصر، فهو مُبصِر بقلبه، ولذلك سيتزكَّى ويَذَّكَّر.

* والفرق بين قوله: ﴿يَزَّكَّىٰ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④﴾: أن ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة من البر والمعروف والخير والصلاة والذكر والتقوى والإيمان وكل عمل صالح.

أما ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ فهي إشارة إلى الانزجار عن الذنوب والمعاصي، وهذان هما الركنان الأساسيان للرسالة: فعل الطاعة وترك المعصية، فعل المعروف وترك المنكر، وقد أجمع العلماء على أن الرُّسل كلهم بُعِثوا بأمرين:

١- تحصيل المصلحة.

٢- دفع المفسدة.

فكل ما أمر الله تعالى به فهي مصالح ينبغي تحصيلها، وكل ما نهى الله تعالى عنه فهي مفاسد ينبغي دفعها وإبعادها قَدْرَ المستطاع.

ولذلك انتفع الناس بهذا التعليم الرباني، فكان النبي ﷺ شديد القرب من

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ③﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أصحابه الضعفاء والفقراء، وكان يتلو: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

وفعل هذا أصحابه من بعده، والأئمة والعلماء، حتى قيل: «إن الفقراء في مجلس سفيان الثوري كانوا كالملوك في تكريمهم واحترامهم، وتوقيرهم وتقديرهم، والإقبال عليهم»[(١)].

هذه هي النبوة، ليست مُلْكًا ولا سلطانًا، ولا فخرًا ولا رياءً، بل تواضعًا لله واهتمامًا بالناس وبضعفائهم، ولا يعني هذا قصد إهانة الأكابر، فليس هذا مطلوبًا، ولا هو من المروءة، بل يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَه.

ولم يعاتب الله نبيَّه ﷺ على مجرد الإقبال عليهم ودعوتهم، وكان واجبًا عليه أن يدعو الأكابر كما يدعو المستضعفين، وإنما العتاب في الإعراض عن الضعفاء والفقراء.

* ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾:

أي: عن الحق وقبوله[(٢)]، وهذا هو ما يُذمون به، لا أن يكونوا كبراء وسادةً وأغنياء في قومهم، فالغنى في ذاته ليس بمذموم، كما أن الفقر في ذاته ليس بممدوح.

* ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾:

أي: تَصْدُد، وأُبدلت الدال الثانية حرف علة، أي: تلتفت وتتوجَّه إليه وتدعوه[(٣)]، وحاشاه ﷺ أن يكون طامعًا في أموالهم أو جاههم، وإنما كان يطمع في إسلامهم؛ لأن بإسلامهم يسلم أتباعهم، وهو دليل على شدة حرص النبي ﷺ

---

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» (١/ ٩٧)، و«المجالسة» للدينوري (٧/ ٧٧) (٢٩٥١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠٧)، والمصادر السابقة.

على هداية الناس حتى المعرِضين منهم.

* ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾:

أي: إذا قمت بالواجب وبلَّغْتَه الدعوة، ثم لم يقبل، فليس عليك من وزره شيء: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]. ليس عليك تبعته بعد أن أقمت الحجة، وأديت واجب البلاغ[١].

* ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾:

وهذه شهادة أخرى لعبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه يخشى الله، وهي من بركة النبي ﷺ عليه.

* ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾:

وبأي شيء تلهَّى عنه ﷺ؟ يتلهَّى بدعوة الأكابر، فهو قد صدَّ عن دعوة إلى دعوة أخرى، ومع ذلك عاتبه ربه، فيتلقن الدرس ﷺ، وهذه هي العظمة والنبوة، وبمثل هذا وغيره صار إمام المرسلين، فلا يُفتح باب الجنة لأحد قبله[٢]، وصارت أُمَّتُه خير الأمم، وأتباعه خير الأتباع، وأصحابه خير الأصحاب، وهديه خير الهدي، وسيرته أفضل السير، فيؤدِّب الله سبحانه نبيَّه ﷺ هذا التأديب الرباني الواضح المُعْلَن على خاطر عابر لعل صاحب الشأن فيه وهو ابن أم مكتوم لم يعلم به إلا من الوحي!

* ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع، يعني: لا تَعُدْ لمثل هذا[٣].

وهذا درس للعلماء والدعاة والأفراد والجماعات في استيعاب الناس

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٧)، والمصادر السابقة.

(٢) كما في «مسند أحمد» (١٢٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٩٦، ١٩٧)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٠)، وما تقدم في «سورة القلم»: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٤- ١١٥).

والتواصل معهم، بعيدًا عن حسابات الغنى والفقر والذكاء والنبوغ أو الضعف، فدعوة الإيمان والتزكية والطهارة لا يجوز أن تكون مربوطة بمصالح فئوية أو حزبية أو مكاسب عاجلة، بل هي فوق ذلك.

ودرس في ضرورة قبول النقد والتصحيح والمراجعة، وأن لا يصرَّ الناس على تكرار تجارب فاشلة أو خاطئة، لمجرد أنها مألوفة أو متلقاة عن الشيوخ والقادة.

ودرس للحكام، فهذا سيدهم محمد ﷺ يتلقَّى من ربه العتاب والتأديب، ويعلنه على الناس، ولم ينقص هذا من قَدْرِه؛ بل زاده رفعة وعظمة، فلِمَ يظنون أن نقد فعل فعلوه أو قول نطقوه أو سياسة جروا عليها هو ازدراء لهم أو بخس لحقهم؟

ودرس لعامة الناس وخاصتهم في التوازن، وعدم الانخراط في قراءة المصالح المادية البحتة، فالجانب الإنساني والأخلاقي هو من أهم المصالح وأولاها بالاعتبار.

ودرس في قبول النقد والتدرب عليه وعدم التبرُّم منه، أو اعتقاد أن النقد يدمِّر الإنسان، بل الواقع يقول: أهميتك بقدر النقد الموجَّه إليك، فلا تقلق من النقد، والناس دائمًا يختلفون حول الأشياء المهمة والأشخاص المهمِّين والقضايا المهمَّة، أما مَن لا حضور لهم ولا تأثير، فهم يخطئون ويصيبون ويتنقلون ولا أحد يكترث لهم!

ولستَ بناجٍ من مَقَالــةِ طاعــنٍ ولو كنتَ في غـارٍ على جبلٍ وَعْـرِ
ومَن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ (١)

نَمْ قرير العين، وتأكَّد أن النقد جرعات تطعيم تقوِّي شخصيتك، وتشد أزرك، وامضِ بثقة وجرأة، ودَعِ الناس ينقدونك كيف شاؤوا، وعليك الاستماع له، والإفادة بما فيه من الحق، وإن وجدتَ شيئًا غير مقنع فارفضه ولا تبال به، ولا تقل:

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافِيَتَي النَّسْر: الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خافية.

هذا حاسد، أو حاقد، أو شانئ، أو مُعْرِض، أو مدفوع. فلا يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح.

على أن النقدَ يجب أن يكونَ بأسلوبٍ عادلٍ صادقٍ راقٍ لَيِّنٍ، يقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، بل انظروا في أعمالكم كأنكم عبيد»[1].

يجب أن تكون متواضعًا بعيدًا عن التعالي، وعليك أن لا تجزم بصوابك فيما ليس فيه نص، ولو جزمت بصوابك فعليك أن تراعي الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين مع مَن تختلف معهم.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ضمير المؤنث، وفي «سورة المدثر» جاء مذكرًا: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، والمعنى واحد.

ويحتمل أن يكون المراد به السورة كلها، أو الموعظة التي في هذا السياق، يعني: هذا الجزء من السورة الذي عُوتب به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون القرآن كله[2].

* ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ وهؤلاء الناس الذين أعرضوا ولم يقبلوا منك ليس عليك من حسابهم شيء، فالقرآن إنما هو تذكرة وعظة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، فلا تحزن عليهم، ولا تقلق من إعراضهم، فقد أدَّيت ما عليك، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

* ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾:

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ لأنها من الكريم سبحانه، وتنـزَّل بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مَلَك

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٥)، وابن أبي شيبة (٣١٨٧٩، ٣٤٢٣٠)، وأحمد في «الزهد» (٣١١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٨، ٣٢٨).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٣/ ٥٦١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٥٤)، (١٩/ ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٥).

كريم ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠- ٢١]، على نبيٍّ كريم وهو محمد ﷺ.

و﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أذن الله بتطهيرها ورِفْعتها، وأن لا يمسّها إلا المطهَّرون، ومطهَّرة من الخطأ واللغو والباطل، وكل رجس معنوي.

* ﴿بِأَيۡدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾:

يعني: هي محمولة بأيدي سَفَرة، والسَّفَرَة جمع: سافِر، وقد يكون من السِّفْر، وهو: الكتاب، والسافر هو: الكاتب، ومنها: السَّفِير الذي ينتقل بين فريقين للإصلاح.

قال وهب بن مُنبِّه: «هم أصحاب محمد ﷺ»(١).

وقد وردت صفتهم في الإنجيل بـ«القدِّيسين».

وقال قتادة: «هم القرَّاء»(٢)، ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقال أكثر أهل العلم- كما نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيره-: هم الملائكة(٣).

وقد يشهد له حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذي يقرأُ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران»**(٤).

وفيه الثناء على أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم حملة القرآن وحُفَّاظه، والثناء على قُرَّاء القرآن عبر العصور؛ فهم فهموه وعملوا بما يقتضيه.

وهو توكيد لحفظ الله تعالى لكتابه بتسخير السَّفَرة الكرام البَرَرة المعنيين

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/١٠٩)، و«الكشاف» (٤/٧٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٢١٦).

(٣) ينظر: «مسند الدارمي» (٣٤١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٤)، (٢٤/ ١٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/١١٨- ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

بحفظه في السماء والأرض، خلافًا لأباطيل السَّحرة والمكذِّبين التي تطير بها الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢٢٢].

* ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾:

هذا- والله أعلم- حديث عن بعض أولئك المكذِّبين من عِلْيَة القوم الذين انشغل بهم ﷺ(١).

فإذا كان عُتْبة وشَيْبة ابنا رَبيعة، والأَخْنس بن شَرِيق، وغيرهم من المستكبرين قد رفضوا دعوة النبي ﷺ، وتصدَّى النبيُّ ﷺ لدعوتهم يوم جاءه ابن أم مكتوم، فالآيات تتضمن التوعُّد والدعاء عليهم، والدعاء من الله واجب؛ لأن بيده الأمر.

وهي إشارة إلى أن أولئك النفر ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون.

والسياق يقرِّر أن مهمة الرسل هي تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، وأنه لا عذر لمَن بلغته فتولَّى وكفر، ولذا حقَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

والصيغة صيغة دعاء، إلا أن حقيقتها توبيخ وزجر وتأنيب، فهذا الجاحد المعرض مستحق للموت ما دام ليس في قلبه إيمان ولا حياة، فالموت أجدر به.

* ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾:

تدرُّجٌ إلى المجادلة وإقامة الحجة.

وهؤلاء القوم المتحدَّث عنهم موصوفون بصفتين: الكفر، والكِبْر عن قبول الحق، فأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بالكفر بالآيات، وأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بالكبر بتذكيرهم بأصل الخلق الذي خُلقوا منه، فهذه الخلقة لا تهيِّئ الإنسان أن يتكبَّر أو يتعاظم.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠١)، والمصادر السابقة.

وكثير من المفسرين يرون أن المقصود شخص بعينه، مثل عُتبة، أو شيبة، أو الأَخْنس، أو عُتبة بن أبي لهب... وهذا احتمال، ولكن السياق عام في جنس الإنسان، كما يُشعر بذلك قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؛ ولهذا ذهب آخرون إلى أن المقصود بالإنسان هنا الجنس[1].

وهنا إيراد يحتاج إلى كشف، وهو أن المعهود في القرآن أن الله تعالى يرفع الإنسان ويكرِّمه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، **فما معنى أن يقول: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وأن يشير إلى هوان أصله ومهانته؟**

والجواب: أننا إذا قلنا: إن المقصود: جنس الإنسان، فلا يعني ذلك الناس كلهم؛ لأن جنس الإنسان فيهم الأنبياء والعلماء والصلحاء والدعاة، وإنما الإشارة لما صار إليه غالب الناس: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولا يلزم أن يكون المراد بالكفر الجحود والكفر الأكبر، وإنما يشمل هذا، ويشمل ما دونه من الكبائر التي لا تُخرِج من الملة، ولذلك فسَّرها الرازي والسعدي وغيرهما بأن المقصود كفر النعمة، أي: جحودها[2]. وفيه تناسب مع السياق حيث عدَّد نعمه على الإنسان بعد هذه الآية.

وكأن المقصود جنس الإنسان الكافر، **وهذا المعنى محتمل وجيه.**

وقوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي: ما أشدَّ كفره وعناده[3]، كما تقول: ما أشد بياض هذا الشيء، أو: سواده.

ويكفي في شدة كفر الإنسان: إعراضه عن عبادة ربه سبحانه، مع أنه الذي أسبغ عليه نعمه وعرَّفه بآياته وصفاته وأظهر له عظمته وكبرياءه، ثم يذهب يعبد

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/ ٢١٩)، (٣١/ ٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٢/ ٧٥)، (٢٠/ ١٦٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

صنمًا، أو حجرًا، أو بقرةً.. فلا شك أن هذا جدير بأن يوصف بشدة الكفر ويتعجب منه[1]!

فيا عجبًا كيف يُعْصَى الإلـ ـهُ أم كيف يجحدُه الجاحدُ؟
ولله في كـلِّ تحريكـةٍ وتسكينـةٍ أبـدًا شاهـدُ
وفي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ على أنـه واحـدُ[2]

أو يكون قوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ استفهام، أي: ما الذي جعله يكفر؟ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وهذا مروي عن قتادة[3].

والمؤمن يستشعر هنا الحلم الرباني؛ لأن الله تعالى وهو يُعجِّب من فعل الإنسان، ويبيِّن استحقاقه للقتل واللعن، يصبر عليه ويحلم، ولا يعاجله بالعقاب: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما أحدٌ أصبرُ على أذًى يسمعُه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له ندًّا ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم»[4].

وفي الأثر: «إني والإنسُ والجنُّ في نبإٍ عظيمٍ! أخلقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزقُ ويُشكَرُ غيري»[5].

وفي الأثر أيضًا: «يا ابنَ آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعدُ إليَّ!»[6].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٤٠/٤)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ منسوبًا إلى أبي العتاهية.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٧)، (٤/ ٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩).

ولو كان الأمر في يد واحد من أحلم البشر وأصبرهم، لأباد كلَّ مَن يخالفه في الدين أو في الرأي أو المَشْرب، وعاجلهم بالأخذ، وكان الشاعر أبو القاسم الشَّابي يقول[1]:

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّابًا ... فأهوِي على الجذوعِ بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ ... تَهُدُّ القبورَ رَمْسًا برَمْسِ
ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأَطْوِي ... كلَّ مَا يخنقُ الزُّهُورَ بنحسي

* ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨﴾:

هنا سؤال عن مادة الخلق، متجاوزًا السؤال عن الخالق والمخلوق، فذلك شيء معلوم مُسَلَّم به، فليس ثَمَّ أحد يقول: إنه غير مخلوق، حتى فرعون وهامان والنمرود وأبو جهل يعترفون بأنهم مخلوقون، والله تعالى ينقلهم من الأمر المعروف المتفق عليه إلى سؤال آخر، وهو: من أي شيء خُلقتم؟ كما في الآية الأخرى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦]، فهذه تُلامِس ضميرَ الإنسان وتحرِّكه: أنت مخلوق.. ومخلوق من ماذا؟[2].

هل ادَّعى أحدٌ أنه خالق يخلق كخلق الله؟

في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النمرود قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، هل كان النمرود يقصد أنه يحيي الموتى؟ كلا، وإنما يقصد أنه يأتي برجل مستحق للقتل فيعفو عنه، فذلك إحياؤه إياه، ويأتي بآخر لا يستحق القتل فيقتله[3]، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ والعبارات.

(١) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص١١٧).
(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الطور».
(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٣٣).

* أما الخالق الذي يُوجِد من عدم، ويحوِّل الجماد الهامد الرَّميم إلى حيٍّ متحرك، عاقل متكلِّم، واعٍ فاهم، فهو واحد لا شريك له، وهو الذي يخاطب الإنسان ويقول: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، والنطفة هنا هي الشيء اليسير من ماء الرجل الذي خُلِق منه الإنسان(١)، فهل يتكبَّر وقد خُلِق من نطفة ضعيفة ليس لها قوام؟

والدفقة فيها الملايين من الحيوانات المنوية، والإنسان مخلوق من حيوان واحد من هذه الملايين، وهي مؤهَّلة من حيث الإمكان المجرَّد أن يُخلَق منها الملايين، لكن الله تعالى بحكمته يختار حيوانًا واحدًا منها، فيسبق غيره ويخترق البويضة ويتكوَّن منه الإنسان.

فلماذا يتكبَّر وهذه حقيقته؟! وكيف ينسى ربَّه، ويجحد فضله، وهو الذي رعاه منذ كان نطفة في رحم أمه حتى صار رجلًا بالغًا راشدًا؟

وفي السؤال تنشيط للعقل ولفت للأنظار، وهو أسلوب مجدٍ مع مَن كفرُهم كفرُ جهالةٍ لا كفر عناد وجحود.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: الفاء للتعقيب، يعني: بعد الخلق جاء التقدير مباشرة.

وللتقدير ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة(٢):

١- قدَّر أعضاءه، فجعل له عينين ولسانًا وشفتين، ولو اختلَّ فيه شيء من أعضائه لظهر فيه النقص والعجز والتشوه.

٢- قدَّر الأطوار التي يمرُّ بها؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم يكون إنسانًا سويًّا خلقًا آخر، ثم طفلًا، ثم فتى، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

هَرِمًا، وهي مراحل وتحولات في غاية الانسجام والانضباط، والحكمة والإبداع: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

٣- قدَّره في اعتدال قامته، وسلامة أعضائه في جماله، حيث جعله في أحسن تقويم، وميَّزه عن الحيوانات والوحوش وغيرها.

* ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾:

﴿ثُمَّ﴾ تفيد التراخي، والمعنى: ثم الله تعالى يسَّر السَّبيل، فالسَّبيل: مفعول به منصوب وهو الذي وقع عليه التيسير.

و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ له معانٍ:

١- هو مَخْرَج الجنين من رحم الأم. وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعكرمة وقتادة، ورجَّحه الطبري(١).

والمقصود أن الله تعالى يسَّر للإنسان السَّبيل للخروج من رحم الأم.

وهو معنى جيد، وفيه إشارة إلى صبر الأم على خروج الجنين، فإنها تعاني من حمله تسعة أشهر، ثم المعاناة الأشد في الولادة وآلام الطَّلْق التي تشبه الموت.

إن في خروج الإنسان من هذا المضيق وبهذه الطريقة آيةً وعبرةً يجب أن لا ينساها، كما يجب ألَّا ينسى فضل الأم التي حملته وعانت، وقبله فضل الرب الذي يسَّر له السَّبيل.

٢- يَسَّر طريق الخير والشر، الهُدى والضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وهذا قول مجاهد، واختاره ابن كثير(٢).

٣- يسَّر له معرفة المنافع والمضار، فإن الإنسان بطبعه حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، يعرف شيئًا من مصالحه، يعرف كيف يرضع من لبن الأم، ثم كيف يتجنب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٠- ١١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٠/ ٤٠٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٦).

الأشياء الحارة، وكيف يتجنَّب المخاطر، وإذا عَقَلَ بدأ يفكِّر في مصالحه التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهذا من تيسير الله تعالى.

ولعل المعاني الثلاثة كلها مقصودة.

* ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾:

وهذا انتقال إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الجنين وبعد مرحلة الحياة الدنيا كما كان: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

والنص يؤكِّد أن الموت فعل مقصود، ليس مجرد بِلًى أو انتهاء.

ولم يقل: «فقبره»؛ لأن الذي يباشر دفنه في القبر هو إنسان مثله، وأما الله تعالى فهو يسخِّر ويهيِّئ له القبر، كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦].

وقد علَّم الله الإنسان كيف يحفر الأرض ويدفن فيها الموتى، كما في قصة ابني آدم: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].

وجعل تعالى من طبيعة الأرض ما يسهِّل ذلك، حتى إن بعض البلاد الصخرية أو الجزر يكون وجود المقبرة فيها من أصعب الأمور.

فالله تعالى يُقبِر، بضم الياء، والإنسان يَقبُر، بفتحها، قال الأعشى[1]:

لو أَسْنَدَتْ مَيْتًا إلى صدرِها ... قام ولم يُنْقَلْ إلى قابرِ

حتى يقولَ الناسُ لمَّا رَأَوْا: ... يا عجبًا للميتِ الناشرِ

والقابر هو: الذي يتولَّى القبر.

دلَّت الآية على أن الله تعالى شرع للمسلمين أن يدفنوا موتاهم، فيجب أن يحفروا لهم القبور وأن يدفنوهم، وبعض الأمم الأخرى، كالفرس وبعض الهنود كانوا يحرقون الأموات، ثم يرمون رمادهم في الأنهار أو الصوامع، ومنهم مَن يترك الموتى لجوارح الطير والسباع، وهذا كان موجودًا عند العرب، لا سيما إذا ماتوا في

(١) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩- ١٤١).

المعارك؛ لأنهم يفتخرون بذلك، حتى قال الشَّنْفَرَى[1]:

ولا تَقبُروني إنَّ دَفني مُحَرَّمٌ   عَلَيكُم ولَكِن أَبْشِـرِي أُمَّ عامِرِ

وأم عامر هي: الضَّبُعة[2]؛ وهي تأكل أجساد الموتى، وكان الفراعنة يقبرون عظماءهم في أبنية وأقبية عظيمة، ومنها الأهرامات المعروفة، واشتُهِروا بتحنيط الموتى، في حين شرع الإسلام أن يُحْفَر للإنسان قبرٌ ويُدْفَن فيه.

ولما مات النبي ﷺ قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا أنسُ، أطابت أنفسُكم أن تَحْثُوا على رسول الله الترابَ؟»[3].

* ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢)﴾:

أي: إذا شاء الله تعالى بعثه[4]، وهذا انتقال من المعلوم للمجهول، ومن المتفق عليه إلى محل الجدل والإقناع مع المعاندين المُعْرِضين، المكذِّبين بالبعث.

وإيراد حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن البعث يأتي بعد زمان طويل مقرَّر في علم الله، وهم كانوا يستعجلونه ويقولون: ما رأينا أحدًا بُعِثَ بعد موته. فكان قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ تعليقًا للنشور بإرادة الله وأنه لا يستجيب لاستعجالهم.

ولو أن الناس كانوا يُبْعَثون على دفعات في هذه الحياة، لما كان ثَمَّةَ حكمة في الابتلاء بالإيمان، فاستبطاؤهم لا معنى له!

* ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)﴾:

الأكثرون على أن معناها: إن الإنسان لم يؤدِّ ما عليه من حقِّ الله كاملًا، و﴿لَمَّا﴾ قريبة المعنى من «لم»، على أنها تفيد احتمال الحدوث في المستقبل القريب، تقول: هممت ولمَّا. يعني: لم أفعل بعد، وربما أفعل قريبًا، أو قاربت

---

(١) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص٢٥٢)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٠٥)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص٣٤٧).

(٢) ينظر: «حياة الحيوان الكبرى» (٢/ ١١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٦).

الفعل.

يقول مجاهد: «لا يقضي أحدٌ أبدًا كلَّ ما افتُرض عليه»(١).

ومما يناسب هذا المعنى: قوله ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ»(٢).

والعبد مهما اجتهد لن يؤدِّي شكر نعمة الله تعالى عليه، وهو لم يتدبَّر حقَّ التدبُّر، ولم يتفكَّر حقَّ التفكُّر، ولو تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في نفسه؛ لأبصر الآيات، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

إلهي رأيتُك.. إلهي سمعتُك..
رأيتُك في كلِّ شيء..
سمعتُك في كلِّ حيٍّ..
تعاليَت لم يبدُ شيءٌ لعيني..
تباركتَ لم ينبُ صوتٌ بأذني..
ولكنَّ طيفًا بقلبي يطل..
ومِن طيفِه كلُّ نورٍ يهل..

لقد رأى آيات الله، التي جعلته يعبده كأنه يراه، أو يحاول.

وهذا المعنى مناسب لما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي: فليتدبَّر إذًا بالنظر إلى طعامه.

قال ابن كثير: «لم أجد للمتقدِّمين فيه كلامًا سوى هذا». أي: أن الإنسان لم يؤدِّ ما أوجب الله تعالى عليه.

ثم قال: «والذي يقع لي في معنى ذلك- والله أعلم- أن المعنى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القَدَر من بني آدم ممن كتب الله

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقَدَرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم»(١).

وكأنه جواب لما يثار من تساؤل: لماذا لم يبعث الآن الأقدمون؟

فكان الجواب: لو شاء الله لأنشر الإنسان الآن، ولكن لم يشأ ذلك، ولم ينته بعد ما أمر الله به قضاءً وقدرًا من خلق الناس، فقد أذن الله أن تأتي أجيال بعد أجيال، وأمم وقرون، حتى ينتهي الأمر، ويأذن الله تعالى بالبعث، أما بعث الناس قبل موعد البعث فلا يكون.

وهو معنى لطيف، وابن كثير- وإن كان مفسِّرًا سلفيًّا- لم يجد غضاضة أن يبتكر معنى للآية جميلًا صحيحًا، تدل عليه نصوص أخرى، ولم يسبقه إليه أحد فيما يعلم.

وقد يظن بعض الناس أن الإتيان بالمعاني اللطيفة الجديدة والأسرار من الآيات خطأ، وليس الأمر كذلك، بل الأمر كما قال علماء السلوك: كما أن القرآن نزل على النبي ﷺ منجَّمًا- يعني: مفرَّقًا- فكذلك قرَّاء القرآن تأتيهم أسرار القرآن ومعانيه منجَّمة، فكلما قرأ الإنسان تجدَّد له معنى لم يلحظه من قبل.

وقد نقل الرازي عن الأستاذ ابن فُورَك معنًى في الآية مختلفًا، فقال: «كلا لم يقضِ لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك الكِبْر، بل أمره بما لم يقضِ له به»(٢).

يعني: كلا لن يؤمن هذا الكافر؛ لأن الله لم يرد له أن يؤمن، ولم يقضِ له الإيمان، فالله أمره بالإيمان، لكن لم يقضِه له.

وهذا المعنى صحيحٌ في ذاته، فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

لكن السياق لا يساعد؛ لأنه يبدو وكأنه يعطي الكافر العذر في كفره إذ لم يُقْضَ له ذلك.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٨- ٥٩).

* ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤)﴾:

بعدما ذكر تعالى خلق الإنسان، انتقل إلى نوع آخر من الحجج والآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه، وهي من النعم والفضائل والكرامات التي أكرم الله بها الإنسان، ودعا إلى التأمُّل في شيء محسوس قريب تشتد الحاجة إليه، وهو الطعام.

﴿فَلْيَنظُرِ﴾ هو نظر واسع؛ نَظَرَ إيمانٍ واعتبار، فمَن نظر في هذه المخلوقات توصَّل إلى الإيمان بخالقه سبحانه، وإدراك حكمته في الخلق ورحمته وكرمه وأسمائه الحسنى.

نَظَر امتنانٍ وشكر؛ لأنه إذا نظر إلى هذا الطعام شكر مَن أعطاه إياه.

وهو نظر دائم؛ لأن الطعام، ومثله الشراب، من الضرورات الملازمة للإنسان في ليله ونهاره[1].

* ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥)﴾:

الجمهور يقرؤونها بكسر الهمزة: ﴿إِنَّا﴾، على سبيل الاستئناف، وأما قراءة عاصم فهي بالفتح: ﴿أَنَّا﴾[2]، وهذا ما يسمِّيه النحويون: بدل الاشتمال[3].

والرابط بين الآية وبين الطعام ظاهر، والصبُّ عادة يكون من الأعلى إلى الأسفل، والمقصود بـ﴿ٱلْمَآءَ﴾ هنا: المطر[4].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٨).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٠)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣١١).

(٣) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣٠٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٠٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٨).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٩٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٨).

و﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق، وهو دليل على قوة الصَّبِّ، والله تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه وذاته، كما توحي الآية، وإن كان وكَّل به الملائكة(١).

* ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾:

جاء التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى النواميس الإلهية في هذه الحياة، فالنبات لا ينبت إلا بالماء بإذن الله، والأرض تحيا بالنبات، وبعضه مترتِّب على بعض، ترتيب النتيجة على السبب، ولو شاء الله لأنبت الزرع وأحيا الأرض بغير نزول المطر، ولكنها سنته.

وفي الآية صورة تخيلية، فكأنك ترى الأمطار تهطل بغزارة، تجتاز تلك المسافة بسرعة، فتستجيب الأرض، وتتشقَّق بالنبات، حتى إنك ترى الأرض يابسة هامدة شهباء: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وأشار إلى الفاصل الزمني بعد نزول المطر وقبل خروج النبات، وهو يوضِّح معنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] أنه لا يعني النبات الفوري.

* وقد ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾:

الحَبّ هو كل ما يُحصَد، كالقمح والبُر والحِنطة والشَّعير والأرز، وهي غالبًا قوت للإنسان.

ثم العنب، وهو فاكهة معروفة، وهو مفيد للهضم، فإذا جُفِّف سُمِّي زَبيبًا، وكان العرب يجفِّفونه ويجعلونه قوتًا يأكلونه في غير موسمه، وله منافع كثيرة للبدن، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ العنب والرُّطب والتِّين، كما قال ابن القيم(٢).

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٢٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٩- ٣٤١).

والقَضْبُ هو: القَتُّ، أو العلف، ويُسمَّى قديمًا: الفِصْفِصَة، وهو ما تأكله الحيوانات، وبعض أهل العلم يقولون: إن القَضْب هو ما يُحْصَد مرة بعد أخرى[1].

والزيتون معروف، وزيته نافع، وقد ذكره تعالى في مواضع من القرآن، وسمَّى بلاد الشام بلاد التين والزيتون بالبلاد المباركة[2].

والنخل معروف، ولم يقل: «تمرًا»؛ لأن ثمرة النخل تتشكَّل على أنواع، فتبدأ بُسرًا، ثم رُطبًا، ثم تمرًا.

ولأن النخل لا تنحصر الإفادة منه في جني ثمرته، وإنما يُنتفَع من أجزائه كلها، حتى لا يكاد يُرمى منه شيء.

والحديقة هي: البستان، والغالب أنها تُطلَق على الأشجار الملتفَّة الكثيرة المحيط بعضها ببعض، ففيها ثمار وجمال في منظرها، يقول مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي: أشجارًا ملتفة. وأكثر أهل التفسير على أن الغُلْب جمع: أَغْلَب، ويُطلق على الأشياء المتينة[3].

والفاكهة معلومة، أما الأَبُّ، فقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد: هو: الكلأ، أو ما تنبت الأرض من الحشيش أو المرعى، وهي ألفاظ متقاربة[4]. وسُمِّي بذلك؛ لأن الناس يأُبُّونه، أي: يؤمُّونه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٩).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١]. وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٠٤)، (١٦/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٢)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٩٦)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٣).

وذكر الطبري في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قرأ هذه الآية، فقال: «قد عرفنا الفاكهة، فما الأَبُّ؟». ثم أقبل على نفسه وقال: «لعَمْرُكَ يا ابن الخطاب، إن هذا لهـو التكلُّف»[1].

وسُئل أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذه الآية بخصوصها؟ فقال: «أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم!»[2].

فالصِّدِّيق والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقفا عند «الأَبِّ» ولم يحدِّداه.

وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَبْر الأمة وترجمان القرآن عرَّفه، ونقله عنه مجاهد، كما سلف.

أما توقُّف أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند «الأَبِّ» وعدم تحديده، فله احتمالان:

١- أن تكون من الكلمات التي جاءت في القرآن، وليست على لغة قريش.

٢- أن يكونا قد عرفا «الأَبَّ»، لكن لأنه لفظ مشترك يُطلَق على أكثر من شيء، فقد تردَّدا في تعيينه، هل المقصود بالآية المرعى والكلأ، أم المقصود به نبات آخر؟

وهذا درس في عدم التكلف والتنقير والهجوم على المشتبهات دون علم، خاصة وأن السياق مفهوم، وهو في مقام تعداد النعم والامتنان بها على الخلق وشكرها، وليس أمرًا تعبديًّا ولا يتعلق بخصوصه تكليف من زكاة أو غيرها حتى يتوجب على المكلَّفين معرفته.

وتوقُّف الشيخين في تحديد معناه لم يمنع غيرهما من البيان؛ لأن المفردة من العلم قد توجد عند المفضول وتخفى على الفاضل.

وفي الآية إشارة إلى أن هذه النعم يشترك فيها الإنسان والحيوان، ولذا ذكر ما يخص الإنسان كالفاكهة، وما يخص الحيوان كالعلف، وما يشتركان فيه كالحب،

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٢٧)، وسعيد بن منصور (٤٣- تفسير)، وابن أبي شيبة (٣٠١٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٥٩). وينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٢٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٠٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٢٧)، وينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (٣٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٥١).

مما يوجب الحذر أن يكون الأكل والتمتع هو قصارى ما يسعى إليه العقلاء.

يا خادمَ الجسمِ كم تَشْقَى بخدمتِه   لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبِلْ على النفسِ فاستكمِلْ فضائلَها   فأنت بالنَّفسِ، لا بالجسمِ إنسانُ[1]

ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ [محمد: ١٢]، والذين آمنوا أَلَا يتمتعون ويأكلون؟

بلى، ولكن الذين كفروا: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، أما المؤمن فإنه يأكل باسم الله، وينتهي بحمد الله: «إن اللهَ ليرضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلَةَ فيحمدَه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمدَه عليها»[2]. ويتزوَّد ويتقوَّى بها على الطاعة، ويستحضر الفضل والنعمة لمُسْدِيها ومُوليها.

* ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾:

فهذه المذكورات بعضها للناس، وبعضها للأنعام: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾[3] [يونس: ٢٤]. وكأن المعنى: كلوا وتمتعوا، وتذكَّروا أن هذا الأمر في حدِّ ذاته لا يرفع قيمة الإنسان، فليست قيمته بما يأكل أو يلبس، أو يملك، وإنما هي بأمر فوق ذلك بكثير.

والسياق يشير من طرف خفي إلى أن على المكلَّف أن يبحث عن الكمال الإنساني، وأن يترفَّع عن مشابهة البهائم والأنعام التي لا هَمَّ لها إلا الأكل والشرب، ومع تمتعه بما أحل الله له، فعليه أن يفعل ذلك بطريقة شرعية مستحضرًا اسم الله وحمده، والتزام أحكامه، ومعرفة حقوق الجائع والمسكين وابن السبيل.

وأن يتذكَّر النعم التي شُرِّف بها الإنسان وكُرِّم دون الحيوان، وهي نعمة العقل والتكليف والمعرفة والاختيار والمواهب والأشواق والخيالات والمناجاة التي

---

(١) ينظر: «ديوان أبي الفتح البُستي» (ص١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٤٥).

هي من أعظم المتعة: «أرحنا بها يا بلالُ»[١].

وفي هذا السياق: دعوة إلى التوحيد والاعتراف بالخالق الرازق تبارك وتعالى.

ودعوة إلى شكر الخالق الرازق، فالله تعالى حقيق بأن يُشْكر ويُحْمَد عليها.

ودلالة على البعث؛ وهذه الأرض التي كانت هامدة، ثم شقَّها الله تعالى بالنبات كثيرًا ما تأتي في القرآن إشارة إلى البعث، وتنبيهًا إلى أن البعث يحاكي ما يقع في الأرض من خروج النبات.

* ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾:

تضمنت الآيات السابقة دعوة إلى التأمل والتوحيد والإيمان، فناسب أن يأتي بعدها تأكيد البعث، ونقل المشهد من الدنيا إلى يوم النشور، و«إذا» أداة شرط.

وقد ذكر الشيخ ابن عاشور في «التحرير والتنوير»[٢] أن جواب الشرط قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وهذا بعيد، والأقرب أن الجواب قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي: الصيحة، وهي من أسماء القيامة، كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[٣]، وقد أُطلِق يوم القيامة في القرآن حتى صار عَلَمًا عليه، وهو يوم النفخة.

فهي الصوت الذي يصخُّ الأسماع، وقد يكون معناه: تصيخ له الأسماع، وقد يقال: فلان يصيخ، يعني: ينصت للصوت، وهذا رأي الطبري والزمخشري وجماعة[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٥٤٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٢١٥)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٠٩٧) (٧١٤٩) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ. وفي إسناده اختلاف، ورُوي مرسلًا. وينظر: «علل الدارقطني» (٤/ ١٢٠- ١٢٢)، و«تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٤٢- ٤٤٥)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٦٢- ٦٣)، و«تخريج أحاديث الإحياء» (ص١٩٥).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٥)، والمصادر الآتية.

وذهب آخرون إلى أنها الصوت القوي الذي يصخُّ أو يصمُّ الأسماعَ بقوته[1]، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالأمر قريب.

فإذا جاءت القيامة بصوتها المجلجل القوي فذلك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، وورود التسلسل بهذه الصيغة انتقال من القريب إلى الأقرب، فأخوه قريب، وأقرب منه أمه وأبوه، وأقرب منهما زوجته وبنوه، في حين أن في «سورة المعارج» كان التسلسل من الأقرب إلى الأبعد، حيث يقول تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

وسبب فرار الإنسان من أقرب الناس إليه أنه مشغول بما يهمُّه، حتى الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هِجِّيرَاهم[2]: «نفسي.. نفسي»[3].

أو يفرُّ منهم خشية المطالبة، كما قال قتادة؛ لأنهم بحكم المخالطة والقرابة يكون بينهم حقوق، ولهذا قال قتادة: يفرُّ قابيل من هابيل[4]؛ لأنه سوف يُمْسِك به ويقول: يا ربِّ، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ وهكذا كل قاتلٍ يُسأَل يوم القيامة: لماذا قَتَل؟

ذلك أنه إذا اشتد الخوف والقلق أصبح الإنسان يهتمُّ بنفسه أكثر مما يهتمُّ بزوجه أو ولده أو والده أو أخيه أو قرابته، ثم إن النتيجة المحصّلة ليست أمرًا سهلًا يمكن أن يتحمله أحد عن أحد، أو يؤثر فيه مَن يحب ويعظِّم، فهي نهاية المطاف وخاتمة المسعى، والجنة أبدًا أو النار أبدًا.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٤)، وينظر أيضًا: «أساس البلاغة» (١/ ٥٣٩)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٣)، و«تاج العروس» (٧/ ٢٩٠) «ص خ خ».

(٢) أي: شأنهم ودأبهم.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الشفاعة الطويل.

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥١).

وعبر بـ﴿مِنْ﴾، ولم يقل: «عن أخيه»؛ لأن الأخ هو المقصود بالفرار، فيفرُّ منه بالذات؛ لأنه مشغول عنه، أو لأنه يخشى أن يطالبه، فسبب الفرار هو الأخ نفسه، أما لو قال: «عن أخيه»: فمثل أن يكون الإنسان في معركة مثلًا وفرَّ عن أخيه، أو عن زوجه، أي: تخلَّى عنهم، دون أن يقصدهم بالفرار(١).

* ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾:

يشغله عما سواه، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا**(٢)». فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، النساءُ والرجالُ جميعًا، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال ﷺ: «**يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ**»(٣).

الخطب عظيم، وأمامهم من الأهوال والكروب ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض، ليس هذا الموقف بضع دقائق أو ساعات أو أيامًا، بل ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾:

بدأ بالفريق الأول؛ لأن السورة نزلت في شأن عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جهة، وحثَّ النبيَّ ﷺ على الاهتمام بالمؤمنين ولو كانوا من الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وعاتب الله تعالى نبيَّه بشأن هؤلاء الكفار الذين استظهرنا فيما سبق من الآيات أنهم ممن كتب الله عليهم الشقاء، وعلم أنهم لا يؤمنون، وسجَّل عليهم ذلك، فكان الأنسب أن يبدأ بالمؤمنين؛ ليبشرهم بحسن مآلهم.

والوجه قد يُراد به وجه الإنسان، ويُعَبَّر به عنه غالبًا تقول: فلان وجهه طيب.

---

(١) وقد ذهب البعض إلى أن ﴿مِنْ﴾ و﴿عَنْ﴾ في هذا الموضع سواء. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٣٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٤- ١٢٥)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦٠٥).

(٢) أي: غير مختونين.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

وأنت لا تقصد وجهه بالذات، لكن طِيْب معدنه وخلقه، وهي مُسْفِرَة؛ لأنها آمنت بالله عَزَّوَجَلَّ وصدَّقت المرسلين.

وجمع فيهم الصفات الثلاث كلها:

الإسفار في الوجه، وهو نور الإيمان، والتقوى، والصفاء في قلوبهم فاض على وجوههم.

الضحك، وهو فعل الإنسان، وعادةً أنه لا يضحك إلا في طمأنينة وانشراح، وهي درجة أعلى من الإسفار.

الاستبشار، وهي درجة ثالثة أعلى منهما، أي: أن في قلوبهم بِشْرًا وفرحًا وابتهاجًا، فهم يرون من هدايا ربهم ولطفه وتحفه وعطاياه ما يطمئنهم ويبشِّرهم[1].

* ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾:

وهي في مقابلة الوجوه الأولى، وكُرِّرت كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ لطول الفصل، واستحضارًا للموقف نفسه.

والغَبَرَة: لون الغبار المائل للسواد، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ومع سوادها ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تدركها وتغشاها، و﴿قَتَرَةٌ﴾ هي: الغبرة، وقيل: سواد كالدخان، أي أن وجوههم كاسفة ذليلة مغبرَّة سوداء لما هي فيه من الكرب والشدة[2]، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3] [يونس: ٢٧].

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٩- ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٣٢، ٦٠١).

* ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾:

﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ بما في قلوبهم من الجحود والعناد والاستكبار، و﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ في أعمالهم، وكثيرًا ما يُطْلَق الفجور على الأعمال، كقوله ﷺ: «إذا خاصم فجرَ»[1]. وغالبًا ما يكون الكافر فاجرًا، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧].

فجمعوا بين الكفر والفجور؛ ولذا جمع الله لهم بين الصفة الذاتية، وهي السَّواد في وجوههم، وبين ما يحيط بهم من حولهم، وهو القَتَرة التي تغشاهم.

وكما أن الفجور يظهر في تصرفاتهم وأعمالهم جعل القَتَرة تغشاهم وترهقهم وتحيط بهم كإحاطة أعمالهم السيئة الظالمة الفاجرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾ [البقرة: ٨١]، وقال عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، والله أعلم.

○○○

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

* **تسمية السورة:**

اسمها في غالب كتب التفسير: «سورة التكوير»[1]، ومع كونه لم يرد نصًّا في السورة، إلَّا أنه مصدر من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، مثل «الانفطار» من قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و«الزلزلة» من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

وتسمَّى: «سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن ينظرَ يومَ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»[2].

وكذلك سمَّاها البخاري، وبوَّب بذلك في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، وبعض المفسرين[3]، فهو اسم للسورة بإحدى آياتها، كما تُسَمَّى «الانفطار»: «سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾».

* **عدد آياتها:** تسع وعشرون آية، أو ثمان وعشرون، حسب اختلافهم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٤) واختلافهم في قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

* **وهي مكية** بإجماع أهل التفسير(١).

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبتني هودٌ، و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ابن الصلاح، وغيره، وقد تقدم(٢).

* **موضوع السورة:**

في صدرها أخبر تعالى باثني عشر خبرًا متتاليًا: ستة منها تتعلق بالدنيا، وستة تتعلق بالآخرة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣).

فالستة التي تتعلق بالدنيا ستقع في آخرها، والستة التي تتعلق بالآخرة ستقع في أولها، فكأنها متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض.

* ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾:

﴿إِذَا﴾ أداة شرط للمستقبل، وقد تكرر هنا ثنتي عشرة مرة، وفيه إطناب، ولم يقل: «إذا كوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم، وسيِّرت الجبال».. وهذا من البلاغة؛ لأنه يشعرك أن كلَّ حدث خبر مستقلٌّ له هيبته ووَقْعُه وتأثيره، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتكريس، وفيه تشويق للخبر الذي بعده؛ فبعد ثنتي عشرة آية مُصَدَّرة بـ﴿إِذَا﴾ يأتي الجواب: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

وفيه تخويف؛ لأنه يسرد مجموعة من الحوادث العظيمة الهائلة بسرعة، ولكن بتفصيل، وكأنها مشاهد متلاحقة، كل واحد منها يستقل بإطاره، ثم يمضي ليلحقه ما بعده.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (٣/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) تقدم تخريجه في أول «سورة الواقعة»، و«سورة المرسلات».

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦).

ويُرْوَى أن أبا الوفاء بن عَقِيل كان في مجلس، وقُرِئت هذه السورة، فقال بعض الحاضرين: يا سيدي، هَبْ أنه أَنشر الموتى للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلِمَ هدَمَ الأبنيةَ، وسيَّر الجبالَ، ودكَّ الأرضَ، وفطَرَ السماءَ، ونثرَ النجومَ، وكوَّر الشمسَ؟

فذكر أن ذلك لعدة معان:

١- أنه بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها؛ لانتقال الساكن منها.

٢- في ذلك تكذيب لأهل الإلحاد والزنادقة، وفضحهم وتكذيبهم؛ بهدم آلهتهم ونثر معبوداتهم ومحوها.

٣- في ذلك إظهار أن العالَم مربوب محدَث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء، تكذيبًا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم[1].

٤- في ذلك بيان لعزة الله وقهره وغلبته.

وقدَّم الاسم: ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾.. ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ على الفعل: ﴿كُوِّرَتۡ﴾.. ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾؛ لأن الشمس والنجوم والجبال موجودة ويراها الناس، ومستقرة في الأذهان، فإذا قال لك قائل: «الشمس» تخيَّلت صورة الشمس وهي في كبد السماء تلقائيًّا، وكذلك إذا قال لك: «النجوم» تخيَّلت هذه القبة الزرقاء، وتخيَّلت نجومها تتلألأ وتضيء، فيكون الخبر واقعًا على أمر حاضر في الأذهان، يسرع الخيال إلى تصوره وتصويره، فيكون أقوى في التأثير، حيث جعل الاسم المُسْنَد إليه أولًا، ثم بيَّن ما يطرأ عليه من الفعل، وتغيير صورته البهيَّة الجميلة.

ومعنى ﴿كُوِّرَتۡ﴾: ذهب ضوؤها فأظلمت، وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ويحتمل أن يكون المعنى: توقفها، وعدم جريانها مع ذهاب ضوئها، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وإنما جُمِعَا، لاختلال نظام جريانهما.

---

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٣).

ويحتمل أن يكون المعنى: رُمِيَت وأُلقِيَت، كما يقال: إن فلانًا صارع فلانًا، فكوَّره. يعني: أسقطه أرضًا.

وكل هذه المعاني واردة، فهي تعني أن الشمس تُظْلِم ويذهب ضوؤها وتنطفئ، وتتوقف عن حركتها المعتادة وطلوعها وغروبها، وتسقط.

ولا يلزم أن تقع هذه الحوادث كلها دفعة واحدة، بل تقع على التوالي مرة بعد أخرى[(١)].

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾:

و﴿ٱلنُّجُومُ﴾ معروفة، وانكدارها: ذهاب ضوئها، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾ [المرسلات: ٨].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ٢]، وعلى هذا فإن من معاني الآية: انتثارها وتفرُّقها، فعند ما يحصل انهيار النظام الكوني المعهود تظلم النجوم وتسودُّ وتتساقط، وربما تهوي في الفضاء، ويحطِّم بعضها بعضًا، أو تسقط في الأرض، أو في البحر[(٢)].

* ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾:

والجبال راسخة، حتى صارت مثلًا ورمزًا للقوة والثبات، ومع ذلك تُسيَّر، وجاء وصف المشهد في آيات أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج: ٩]، وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

تصبح مثل القطن في خِفَّته، وكالسَّحاب في مروره، ثم تُدَكُّ وتزول، وتصبح الأرض بعد ذلك ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨٢)، (٢٤/ ١٢٨- ١٣١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤١- ١٤٢).

ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا(١).

* ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾:

أكثر المفسرين على أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ هي: النوق الحوامل؛ فالناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تُسَمَّى: عُشَراء، حتى تلد، وكانت من أنفس أموال العرب.

ويحتمل أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ هي: الأرض أو الدِّيار التي تُعشَّر، أي: يُؤْخَذ منها الخراج، فالأرض الثمينة النفيسة لدى أصحابها تُهمل وتُتْرَك وتعطَّل، وهذا لا يكون إلا لوقوع أهوال من علامات الساعة في الدنيا(٢).

وتعطيلها: تركها، فلا أحد يهتمُّ بها، ولا يركبها، ولا يقتنيها، ولا يحلبها، ولا يعتني بها؛ لأن الناس مشغولون بما هو أعظم.

* ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾:

والوحوش معروفة، وهي الحيوانات المتوحِّشة، ﴿حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعت، وهذا أحسن وأصحُّ ما قيل، وهو أكثر ما يَرِدُ في القرآن في معنى الحشر، كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣]. يعني: جمع قومه، ونادى فيهم.

ومنها: قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، يعني: جمعناهم.

وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]، يعني: مجموعة.

وقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: اجمعوهم(٣).

فهذا هو الأقرب في معنى الآية، ولا يمنع أن يكون جمعها هنا لإهلاكها،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٠)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣١).

يعني: جُمِعَت ثم أُهْلِكَت؛ لأن السياق قبلها وبعدها لا يزال في وصف زوال الدنيا وقيام الساعة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ستٌّ في الدنيا...» وذكرهن، وقد تقدم.

أما لو كان السياق عن الآخرة ويوم القيامة، فيكون معنى ﴿حُشِرَتْ﴾: بُعِثَت، ليُقْتَصَّ لبعضها من بعض، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[1]، ثم يقال لها: «كوني ترابًا»[2].

وقد يكون جمع الوحوش بسبب الخراب الذي سيلحق الحياة البشرية، فترتعد له الوحوش الضواري، ويقترب بعضها من بعض، وقد ورد عن مجاهد- ورُوي مرفوعًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، يعني: «حتى ينزلَ عيسى ابنُ مريم، فيُسْلِم له كلُّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ، وكلُّ صاحبِ مِلَّة، وتأمنُ الشاةُ الذئبَ..»[3].

* ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾:

وجاء في «سورة الانفطار»: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾.

ولا مانع من إرادة المعنيين، فتفجيرها يكون بإعادتها إلى عناصرها الأولية، وإحداث الانفجار، ومِن ثَمَّ تتوقَّد وتخرج منها النار، والتسجير هو من: سجَّرت التنور، يعني: أوقدته.

ويحتمل المعنى: أن تُفْتَح البحار بعضها على بعض، ثم تفجَّر وتكون لهبًا ونارًا[4].

فهذه ست آيات تتعلَّق أخبارها بالدنيا، وهي علامات على يوم القيامة.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٨٢).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠﴾.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٠٤)، و«أشراط الساعة» لعبد الملك بن حبيب (٤/ ١٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٨٨)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٠٨)، و«تاريخ دمشق» (٤٧/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٢٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٧)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٠).

ثم انتقل إلى ذكر آيات أخرى تتعلق بالدار الآخرة، بعد بَعْث الناس من قبورهم، ورؤيتهم لمشاهد الآخرة عيانًا أمام أبصارهم.

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾:

وفي تفسيرها ثلاثة أقوال:

١- أشهرها: حشرُ كلٍّ إلى نظيره، فيُحْشَر الأخيار مع الأخيار، والأشرار مع الأشرار.

وتدل على أهمية الصحبة الصالحة؛ لأن الإنسان يُحْشَر مع قرنائه وأَخِلَّائه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: نظراءهم[١]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فالأشرار يُحْشَرون معًا، ولكنهم متباغضون، والأخيار يُحْشَرون معًا متحابِّين متآلِفين حتى في عرصات القيامة، وهذا من بركة الأخوة والمحبة في الله، فهي لا تنقطع بالموت.

وهذا القول منسوب إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختاره الطبري، وابن كثير، وعليه أكثر المفسرين[٢].

٢- إعادة الأرواح إلى أجسادها[٣]، وهو معنًى صحيح، ويؤيده أن ذلك بداية البعث وأوله، وما بعده تبع له مما جاء في سياق السورة.

٣- قرن النفوس بأعمالها. قاله الزَّجَّاج، وغيره[٤]، فكأنه حكاية عن إيتاء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٣/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤١- ١٤٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٥، ٥١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٩)، (٨/ ٣٣٢)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٦١)، و«فتح الباري» (٦/ ٦٩٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٥)، (١٥/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٤)، و«معجم ابن المقرئ» (٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

الإنسان كتابه بيمينه أو شماله.

* ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾:

بعدما قام الناس أحياءً، وزُوِّجَت الأجساد بأرواحها، وحُشِرَ الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، ينتظر السامع عما سيقع بعد ذلك، فيُفاجأ بأول ما يطرق سمعه بعد، وهو مشهد الموءودة تُسأل: بأي ذنب قتلت، والناس يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله، وعما كانوا يعملون، وماذا أجابوا المرسلين، وعن النعيم، والسورة مكية متقدِّمة النـزول، وقد تضمَّنت تقريعًا للمشركين على الفعلة الشنعاء.

و﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾: الجارية الوَئِيدة[1]، وقد كان القليل من قبائل العرب إذا قاربت المرأة الحامل عندهم أن تضع حملها وضعوها على شفير حفرة، فإن كان غلامًا أخذوه، وإن كانت جارية وضعوها في الحفرة، وواروها بالتراب!

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩]، يعني: هل يبقيها حيَّة مع الهوان أو يدفنها؟

وقد رُوي أن قيس بن عاصم المِنْقَري- وهو مَن هو في شرفه ومجده وكرمه- وأد عشرًا من البنات[2]؛ ولذلك كان الفرزدق- وهو تميمي- يفخر بجدِّه صَعْصَعة ابن ناجية الذي يقال: إنه أحيا أكثر من أربعمائة وئيدة، وكان إذا أراد والدها أن يئدها، قال له: أنا أكفلها. ويعطيه ناقتين، ثم يتركها حيَّة؛ فكان الفرزدق يثني عليه

(١) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٤٢)، و«تاج العروس» (٩/ ٢٤٦) «و أد».

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٦).

بقوله[1]:

ومـنَّـا الـــذي مَـنـعَ الـوائِـداتِ وأحـيَـا الـوَئِـيـدَ فـلـمْ يُـــوأَدِ

ويُروى أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وأد إحدى بناته، وكانت تنفض الترابَ عن لحيته، وأنه كان يروي قصته بعد الإسلام ويبكي، وهي قصة موضوعة لا تصح[2].

وهذه العادة كانت موجودة في بعض قبائل العرب، وعند كثير من أمم الأرض، كالصينيين والهنود وغيرهم، ولا تزال بعض الأمم تمارِس شيئًا من الوأد الظاهر أو الوأد الخفي، منها التحكم في المواليد واختيار الذكور على الإناث، ففي كوريا كان يُولد في أوائل التسعينات من القرن العشرين (١٢٢) صبيًّا مقابل (١٠٠) بنت، كما بلغت في الصين الشعبية (١١٧) صبيًّا لكل (١٠٠) بنت، وأدَّى هذا إلى نقص البنات في آسيا، وبحلول العقد الثاني من القرن (٢١) ستواجه الصين حسب التقديرات وضعًا لن يجد فيه خُمس السكان الذكور في سن الزواج عرائس لهم! مما يترتب عليه نزوع الشباب إلى الجريمة، علمًا أن النسبة الطبيعية هي (١٠٥) فتى مقابل (١٠٠) بنت[3].

ومن ذلك عمليات التحويل الجنسية المتبادلة لأسباب شتى، مما يجور على الأنثى في الحالين، ويبخسها حقها وخصوصيتها.

ومن ذلك تجاهل الفروق الجوهرية بين الذكر والأنثى، وقد أظهرت دراسات علمية وجود فروق ثابتة، فالأنثى تملك قدرات لفظية أكثر من الذكر، وتتفوق عادة في القدرات البصرية، بينما يملك الولد قدرات رياضية، وتكون عدوانية الذكور أكثر بكثير، ولعب الأولاد بدني أكثر من البنات، وهم أكثر تنافسية جماعية، وخطاب البنات يركز أكثر على العلاقات الأسرية.

---

(١) ينظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٧)، و«منتهى الطلب» (ص٢٢٥، ٢٢٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٨٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٥١٩)، و«الإصابة» (٣/ ٤٣٠).

(٢) ينظر: «عبقرية عمر» للعقاد (ص٢٢١- ٢٢٢)، و«دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ» (ص١١١- ١١٢).

(٣) ينظر: كتاب «مستقبلنا بعد البشر» لفوكوياما.

هذا فضلًا عن الفروق الجسدية، والتي كثيرًا ما تجور عليها طبيعة الأعمال التي تسند إلى المرأة، أو نوع التربية أو تركيز الإعلام.

أما تسليع المرأة وتوظيف جسدها في الإثارة والتشويق والاستهلاك، فقد أصبح فنًّا تقوم عليه دوائر اقتصادية ضخمة، وتسخَّر له جهود وإمكانيَّات، والله المستعان.

وفي العالم الإسلامي طرف من ذلك كله، فضلًا عن التبرم بولادة الأنثى، واعتبارها عارًا وعيبًا في بعض المجتمعات، والاستحياء من النطق باسمها، وحرمانها من حقوقها المشروعة، حتى من الميراث أحيانًا، ومن حق اختيار الزوج، وحق الدراسة والعمل المباح، والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام حتى استشيرت النساء في مَن يلي الخلافة بعد عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ!

وهنا سؤال: لماذا تُسأل الموءودة، مع أن السؤال في حقيقته موجَّه لوائدها، وهو سؤال يرد في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

والجواب:

١- أنه في يوم القيامة ينطق مَن لم يكن ينطق، ويُبِيْن مَن لم يكن يُبِين، ويتكلم كل أحد بحجته، فالمظلومون في الدنيا من الضعفاء والفقراء والنساء والمستضعفين المحرومين من حقوقهم يمكَّنون من البوح بشكواهم والمطالبة بالاقتصاص والشكوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي لما سُئلت، تجيب: إنها قُتِلَت بغير ذنب.

٢- أن سؤال الموءودة توبيخ وتبكيت لوائدها، والظالم قد يتمادى في الغي والاستبداد والطغيان، ويزيِّن له عقله وبطانته الفاسدة كثيرًا مما يعمل، فلا يلتفت ولا يتوقف، ثم يأذن الله بانكشافه وتأنيب ضميره بما يسمعه من شكاية مظلوميه، وهكذا مجرد كون الموءودة تُسأل وتُعطى حق السؤال وحق الجواب، وتعترض وتحتج، وتشتكي إلى الله، فهذا تبكيت وإيلام للوائد، فضلا عن أنه يُوحِي بمجيء

الحساب.

والوائد غالبًا هو الأب أو مَن يقوم مقامه، وفي هذا عبرة، فالله تعالى ينتقم يوم القيامة للولد من أبيه، فينتقم للموءودة من وائدها، ويعاقبه بالنار والنَّكال الشديد، وهذا دليل على ثقل المسؤولية، وأنها لا تعني إطلاق اليد، وإنما تعني التبعة والمحاسبة والسؤال، كما قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ولذلك يكون أصحاب المسؤوليات أطول وقوفًا، وأعظم سؤالًا يوم القيامة.

* ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾:

وفيه تقبيح لفعل الوائد؛ فإن هذه الموءودة قُتِلَت وهي صغيرة، فأيُّ ذنب قد جَنَتْهُ حتى تُقْتَل؟! وهو تجريد لهذه الفعلة من أي مسوِّغ، فهي فعلة شنيعة، يزيدها شناعة براءة مَن وقعت عليه من كل ذنب؛ لأنه ليس محلًّا لصدور الذنب منه.

وتضمَّنت الآية إشارة إلى مبحث مصير الأطفال يوم القيامة، وهو بحث طويل، تكلَّم فيه أهل العلم؛ كالبخاري والأشعري وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم.

أما أولاد المسلمين، فنُقِل عن الإمام أحمد الإجماع على أنهم في الجنة[١].

وأما أطفال المشركين، فقد اختُلف فيهم على أقوال، ذكرها ابن القيم في «أحكام أهل الذمَّة»[٢]، وأطال كثير من الباحثين القول فيها، وأفردوا فيها مصنفات خاصة، أحد هذه الأقوال أن أطفال المشركين ممن ماتوا دون البلوغ هم في الجنة، ونُقِل هذا عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ مستدلًّا بهذه الآية، ونُقِل أنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمَن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾». وهذا مذهب البخاري وابن

(١) ينظر: «المنتخب من علل الخلال» (ص٥٣)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/ ١٨٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤)، وما بعدها.

(٣) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٠٧٩)، ولُوَين في «حديثه» (٣٣)، وابن نصر - كما في «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٠)- والبيهقي في «القضاء والقدر» (٥٦٧).

حزم وجماعة من الفقهاء والسلف والمتكلِّمين(١).

وقيل: إنهم يختبرون في عَرَصات القيامة، وهذا ما مال إليه ابن القيم.

لكن يحتاج إلى أدلة قوية ثابتة؛ لأنه خلاف الأصل الراسخ أن الاختبار في الدنيا قبل الموت وليس بعده.

والراجح أنهم في الجنة، كما في حديث الرؤيا أنه ﷺ رأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحوله صبيان؛ أولاد الناس، وفيه: «وأما الولدان الذين حوله، فكلُّ مولود مات على الفطرة». فقال بعضهم: يا رسولَ الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»(٢).

* ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾:

﴿ٱلصُّحُفُ﴾ جمع: صحيفة، وهي: الكتب، فآخذٌ كتابَه باليمين، وآخذٌ كتابَه بالشمال، فنَشْر الصُّحف: إعطاؤها لأصحابها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾(٣) [الإسراء: ١٣ - ١٤].

ومن معاني النَّشْر: فتح الصحائف، فهي تُفَرَّق على أصحابها منشورة، أي: مفتوحة(٤).

* ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾:

وهذا في الآخرة، وليس في الدنيا، فهو مختلف عما جرى لها قبل ذلك مما

(١) ينظر: «أمالي الشجري» (١/ ٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤)، وما بعدها، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٨)، وما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٥).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٠٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٨٤)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤٩٢).

ورد أنها تتشقَّق وتتمزَّق وتُفتَّح فتكون أبوابًا لنزول الملائكة، وهذه هي حالها في آخر الدنيا، أما كَشْطُ السماء هنا فمُوجِب السياق أنه يكون يوم القيامة بعد البعث[1].

والكَشْط هو: الإزالة[2]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

* ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾:

فيه إشارة إلى أن النار مخلوقة الآن، وهو ظاهر النصوص الشرعية، كما يقول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[3].

ولكن يزاد يوم القيامة تسعير الجحيم.

* ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾:

عَطَف الجنة على النار؛ ليقارن المكلَّف بينهما، والإزلاف هو: التقريب، وسُمِّي المشعر الحرام «مزدلفة» بهذا الاسم؛ لأنه يقترب إليها الحجاج، والزُّلْفَى: القربى، وازدلف يعني: تقرَّب، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[4] [ق: ٣١].

وفي هذا التقريب إكرامٌ لأهلها، فكأنها هي التي تأتيهم أو تقترب منهم؛ إشادة بأعمالهم الصالحة وتقواهم التي تقرَّبوا بها إلى ربهم.

* ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾:

أي: علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها، وقد جاء في بعض

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٨/ ٤٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧١).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٢)، و«لسان العرب» (٧/ ٣٨٧) «ك ش ط»، و«تاج العروس» (٢٠/ ٥٩).

(٣) ينظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٨٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٨).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٤٦)، و«لسان العرب» (٩/ ١٣٨) «ز ل ف».

الآيات حكاية عن الكافرين أنهم عند أول وهلة من البعث لا يستوعبون حدث البعث العظيم، فيتساءلون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، فهم بين مصدِّق ومكذِّب، فيبهتهم الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، وإذا بالمشاهد العظيمة تتوالى عليهم، كل مشهد أشد من سابقه.

فإذا حصل هذا: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ أي: ما في يدها الآن، وما في كتابها، فالكتاب معها حاضر، ترى ما فيه خيرًا أو شرًّا.

* انتقل السياق إلى موضوع آخر، وقَسَم رباني عجيب مهيب: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾:

* ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾:

هذا قَسَم، وإن كان ظاهره النفي، كما في نظائره الكثيرة في القرآن الكريم(١).

ويخنس، أي: يختفي(٢)، ومنه قيل للشيطان: الوسواس الخنَّاس؛ لأنه يوسوس، فإذا استعاذ منه الإنسان هرب، فالخُنَّس هي: الأشياء التي تظهر ثم تختفي.

وفسرها بـ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ أي: التي تجري فتدخل في الكِناس، وهو مكان الاختفاء، والعرب تسمِّي بيت الظَّبي: كِناسًا؛ لأن الظَّبي يختفي فيه(٣)، ومنه: الكَنِيْسة أيضًا.

ويحتمل أن يكون المقصود بها: النجوم التي تظهر بالليل وتختفي في النهار(٤). قال بعض أهل العلم: إنها نجوم خمسة: عُطارد، والمِرِّيخ، والمشترِي، والزُّهَرة، وزُحَل.

وقال بعضهم: النجوم كلها، وشبَّهها بالظِّباء؛ لأن النجم في خِفَّته وإشراقه

---

(١) ينظر ما تقدم في سورة «الواقعة»: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾، وما سيأتي في «سورة الانشقاق»: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٠)، و«لسان العرب» (٦/ ٣٥١)، و«الكليات» للكفوي (ص٤٣٧).

(٣) ينظر: «حياة الحيوان الكبرى» (٢/ ١٤١)، و«تاج العروس» (١٦/ ٤٥١) «ك ن س».

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦- ٢٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٥٢).

وحركته يُشبَّه بالظَّبي، وهذا تشبيه حيوي بديع.

وقال بعضهم: المراد بالخُنَّس: الظِّباء.

وقيل: بقر الوحش التي تشبه الظِّباء.

وقيل: المقصود: الملائكة(١).

والأقرب القول الأول، وأن المقصود: النجوم، وهو أليق بالسياق، والليل والصبح.

* ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾:

﴿عَسۡعَسَ﴾ تحتمل معنى: أقبل، ومعنى: أدبر، **والأظهر** أن المعنى شامل للصورتين؛ إقبال الليل وإدباره، فكلاهما يتحقق بالتدرج، وكأن ﴿عَسۡعَسَ﴾ على هذا من الأضداد(٢).

* ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾:

والمقصود بتنفس الصبح: شروقه(٣)، والتعبير بالتنفس في غاية الروعة، وهو يُوحي بالحياة والإشراق والتجدُّد والتغيير، وأن كل صبح يمرُّ عليك ينبغي أن يُحيي فيك يومًا جديدًا، فتتزود فيه بالطاعة، فهو على عملك شهيد، وإذا طُوِيَت صفحته فإنه لا يعود إلى قيام الساعة، وأن يبعث فيك الأمل والتفاؤل والثقة بما عند الله، والرغبة المتجدِّدة في النجاح والإنجاز وتخطِّي الصعاب، فما ليس ممكنًا بالأمس هو اليوم مقدور ومتاح.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إِلَّا يتكلَّمُ يقولُ: يا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦، ٢١٧)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقُطْرُب (ص٥١)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص٣٢)، و«تهذيب اللغة» (١/ ٦٢)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (٤/ ٢٢)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٤/ ١٧٨)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤١٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٨)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٥٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٢).

أيها الناسُ، إني يومٌ جديدٌ، وأنا على مَن يعملُ فيَّ شَهِيدٌ، وإني لو غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»(١).

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾:

هذا جواب القسم، والمقصود: القرآن، ولا يعني أن الرسول تقوَّله من تلقاء نفسه، ولكنه المُبَلِّغ به من ربه، ووَصْفُه بأنه ﴿رَسُولٖ﴾ يوحي بهذا، كما هو ظاهر.

والمقصود عند الجمهور: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢)، وصفه تعالى بستٍّ صفات جليلة:

فأول وصف: ﴿رَسُولٖ﴾ والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فالرُّسل يكونون من الملائكة، ويكونون من الناس.

الثاني: ﴿كَرِيمٖ﴾ والكرم: الشرف والفضيلة، ويكفي في كرمه أنه مبلِّغُ وحي ربِّنا سبحانه إلى أفضل خلقه، وهم الرسل، ومكانته عند الملائكة عظيمة.

الثالث: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ويكفي في قوته: أن الله تعالى لما أمره أن يحمل قرى قوم لوط، حملهم جميعًا على جناحه حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها(٣).

وأعظم من ذلك تحمُّله تبعات الوحي والتلقِّي عن رب العزة وحمل الرسالة للنبي البشريِّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٤)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٢٢)، وابن الجوزي في «حفظ العمر» (ص٣٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٠٨)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٦) من قول عبد الرحمن ابن زُبيد اليَامي نحوه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٥٨).

(٣) ينظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (ص٩٩- ١٠٣)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٠٤- ٣٠٦)، و«ذم اللواط» للآجري (ص٣٨)، و«العظمة» (٢/ ٧٩٨)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٥٧)، و«البداية والنهاية» (١/ ٩٩).

الرابع: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: صاحب مكانة عند الله، وأي مكانة أعظم من أن يكون رسول ربه إلى الرسل والأنبياء والمؤتمن على وحيه؟

الخامس: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾، و﴿ثَمَّ﴾ ظرف، ومعناها: هناك، فهو مُطَاع عند الملائكة والملأ الأعلى، بمثابة الرئيس عليهم، وله عليهم الطاعة.

السادس: ﴿أَمِينٍ﴾ يعني: مأمون فيما كُلِّف به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخل بشيء منه. فهذه الصفات الست لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

* ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾:

والمقصود هنا: محمد ﷺ، ووصفه هنا بـ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ على سبيل التذكير لهم بأنه لم يَفِدْ إليهم من غيرهم غريبًا لا يعرفون نسبه وسيرته، بل قد وُلِدَ ونشأ فيهم، وعرفوا أصله ونسبه وسيرته وخُلُقَه، وهذا ردٌّ على ما كانوا يَدَّعونه من أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كأن السياق يقول: لا حاجة إلى مزيد من التفصيل في شأن محمد ﷺ، فأنتم تعرفونه، وهو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾[(١)].

وفيه تحفيز للإيمان؛ لأن اختيار رسول منهم هو رفعة للجنس كله، وهو صاحبكم عزه عزكم ونصره نصركم وأنتم أسعد الناس به.

* ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: الأفق البيِّن الواضح، فقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورته التي خُلق عليها، وله ستمائة جناح، قد سدَّ ما بين السماء والأرض، وهذه هي الرؤية الأولى[(٢)]، وكانت بالبَطْحاء، ثم رآه ﷺ بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣- ١٥].

* ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

والضَّنين: البخيل، وفي قراءة سبعية: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء[(٣)]، **والمقصود به**:

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٩)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٢٩- ٣٣٠).

المُتَّهم، أي: لم يكن متهمًا بسوء[1].

* ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾:

وقد كان الكفار يدَّعون أن القرآن من إلقاء الشيطان، كما يُلْقِي على السَّحرة والكهنة والعرَّافين والشعراء، فرد الله عليهم ذلك[2].

* ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

قد أُغْلِقت الأبواب أمامكم، وليس لكم حجة أبدًا، فهذا مُنْزِلُ الوحي وهو الله، وهذا ناقله وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مُتَلَقِّيه وهو محمد ﷺ.

وكان من مألوف كلام العرب قولهم لمَن عمل سوءًا أو قبيحًا يُلْمَز به: أين يُذهب بك؟ يعني: أين ذهب عقلك؟ فجاء القرآن بأسلوب مبتكَر، لم يكن موجودًا عندهم، ثم استعملوه، وجرى عندهم مجرى المثل، وهو أقوى من قولهم: أين يُذْهَب بك؟ لأنه حين يقال: أين يُذهَب بك؟ كأنه يُعْطَى عذرًا بأنه ذُهب به بغير اختياره، أما صيغة أين تذهب؟ فهي تحمِّله المسؤولية، وأنه هو الذي تعمَّد صرف وجهه عن الحق، والإعراض عن آياته[3].

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

فهو ليس سوى ذكر، ودعوة، وإصلاح، ووعظ، وبيان، وهدًى، ليس للعرب بخاصة، بل للعالمين كافَّة، إنسهم وجِنِّهم، فهذه هي عالمية الإسلام، تأتي مؤكِّدة في أوائل السور المكية، وهي لفتة إلى دعاة الإسلام أن يأخذوا بعالمية الرسالة في الدعوة، وأن يطبِّقوه في أقصى درجات التمدن والحضارة، كما كانوا يطبِّقونه في أدنى درجات البساطة والضعف، وأن يستوعبوا النماذج البشرية المختلفة وينقوا الرسالة من الإضافات المحلية الخاصة حين يريدون عرضه على العالمين، بل

---

(١) ينظر: «حجة القراءات» (ص٨٥٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧١).

يقدموه بأصوله وقواعده الربانية وخياراته المتنوعة في التطبيق وسَعته وشموليته في احتواء الموروث الإنساني وتنقيته والتعامل معه.

* ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾:

فهو مِن حيث تنزيله هداية للناس كلِّهم، فليس دينًا إقليميًّا أو عنصريًّا، أما قبول الناس وعدم قبولهم فهو شأن آخر، فمِن الناس مَن يشاء الاستقامة، فيستقيم، فيكون القرآن ذكرًا عمليًّا له، ومنهم مَن لا يريد ذلك، وهو المسؤول المحاسب على اختياره.

وفي الآية الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد الخير هداه الله، ويَسَّر له أسبابه، ومهما تكن العقبات في النفس أو في المجتمع فإن الإرادة الصادقة تذلِّلها بإذن الله، وقد جاء في الحديث القدسي: **«ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلْتُ إليه أهرولُ»**(١).

* ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾:

فللإنسان مشيئته الخاصة به، وللرب المشيئة المطلقة التامَّة، وكثير من الناس يدخلون في جدال في القدر: هل العبد مُسَيَّر أم مخيَّر؟ وإذا كان الله قد قدَّر كلَّ شيء فلِمَ العملُ إذًا؟

وهو جدل لا ينتهي، على أن الإنسان يعرف بفطرته الضرورية المحسوسة أن له إرادة، فإذا تهدَّده خطر فرَّ منه بكل ما أوتي من قوة، وثَمَّةَ فرق بين إنسان يريد أن يصنع شيئًا فيصنعه، وبين آخر يُجْبَر على شيء، ويُقْهَر عليه قهرًا، بين مَن يريد النزول فيأخذ الدرج، خطوة خطوة حتى يصل، وآخر يتم حمله قَسْرًا والرمي به أرضًا، وهذا القدر المدرك لعامة العقلاء يكفي أن يكون مناط التكليف والمحاسبة.

ثم مَن الذي يظن أن مشيئة الله سبحانه مشيئة عشوائية، فيريد لهذا الهدى، ولهذا الضلال، ولهذا الخير، ولهذا الشرِّ، بمعزل عن إرادتهم ورغبتهم الذاتية!

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالله تعالى حكيم، وقد علم من الأزل أنَّ مِن خلقه المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، وأن هذا من أهل الهداية، وهذا من أهل الشقاوة، فأراد الهداية لقوم والضلال لقوم، وهو يعلم ما أرادوه لأنفسهم، فهو قد علم وأراد، فلا يُظَن أن إنسانًا كان يريد الهداية، ولكن الله عوَّق مسيرته، ولم يُرِدْ له الهداية، وإن كان تعالى قد يتدارك عبده ويرحمه فيهديه ولو لم يكن مريدًا للهداية أصلًا، لكن أن يريد الإنسان الهداية فلا تتحقق له؛ لأن الله لا يريدها له، فهذا لا يكون؛ لأن الله تعالى حكيم في أعماله، عادل في أحكامه، سبحانه وبحمده.

○○○

سُورَةُ الانفِطَارِ

*** تسمية السورة:**

الذي في غالب المصاحف، وكتب التفسير: «**سورة الانفطار**»[(١)]، وهو مصدر من ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ كما مضى في «سورة التكوير».

وتسمَّى: «سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»، وهو الذي ورد في السنة، واعتمده البخاري في «صحيحه»، وبعض كتب التفسير[(٢)].

وفي «السنن» من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن سرَّه أن ينظر إلى يومِ القيامةِ، كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[(٣)]. وهو من تسمية السورة بإحدى آياتها، وقد يتسامح بعضهم فيُسَمِّيها: «سورة ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾» اختصارًا[(٤)].

*** عدد آياتها:** تسع عشرة آية باتفاق[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦١١)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٨)، و«المحرز الوجيز» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٧- ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٣) تقدم تخريجه في أول «سورة التكوير».

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٠٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٥) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

* **وهي مكية** إجماعًا[1].

* ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾:

﴿إِذَا﴾ ظرف للمستقبل، وموضوع السورة عن أهوال يوم القيامة والساعة وما يجري فيها، وفي السورة تسلسل عجيب، فهي تبدأ بانفطار السماء، **والمقصود**: هذه القبة الزرقاء التي نشاهدها فوقنا، وإلا فإن لفظ السماء في اللغة يُطلَق على كل ما علا وارتفع؛ ولذلك يُسمُّون السَّحاب: سماء[2].

هذه القبة التي نرفع أبصارنا فنراها في أجمل صورة، تنفطر وتنشق، وتتغير حالها يوم القيامة، وتبدو متهتِّكة متمزِّقة، وقد يكون هذا لنزول الملائكة.

* ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾:

والكواكب: النجوم، وهي ذات علاقة بالسماء؛ فقد جعلها زينةً لها، وفي ذلك اليوم ينخرم نظامها ويتناثر عقدها، فتتساقط وتتهافت[3].

والانتثار: وقوع الأشياء على الأرض على غير انتظام، لكن إذا كان على غير الأرض، فهل يُسمَّى نثرًا؟

هذا وارد على سبيل المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، والهباء المنثور ليس على الأرض، وإنما هو في الهواء.

فيكون معنى النَّثْر: التفريق غير المُرتَّب، سواءً كان على الأرض أو على غيرها[4].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٩)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ٩٨)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٢٨٣)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٣٠٣) «س م و».

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٨).

(٤) ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٣٨٩)، و«المخصص» (٤/ ١٠١)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (٤/ ١٦٠)، و«تاج العروس» (١٤/ ١٧٥) «ن ث ر».

والمقصود: خروج الكواكب عن مداراتها؛ لأن الله تعالى جعل لها نظامًا دقيقًا، وفي ذلك اليوم تضطرب، وتخرج عن سياقها المعتاد، وتَسْبَح في الفضاء على غير مسارها، ويترتَّب على ذلك تضاربها وتصادمها، وسقوطها على الأرض، كما تفيده الآية الأخرى في «سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

بدأ السياق بالسماء؛ لأنه عادة ما يكون الهدم من أعلى، فإذا أراد إنسان أن يهدم بيتًا أو بناءً بدأ بهدم أعلاه، وهذا فيما إذا كان الهدم مقصودًا، أما الهدم الذي يكون بغير اختيار، بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزلازل، فليس له نظام، وهكذا جاء الأمر هاهنا مرتَّبًا من الأعلى؛ لأنه مقصود، فأول ما بدأ بذكر السقف، وهو السماء وما يتعلق بها وهي النجوم، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحار.

* ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾:

تفجير البحار أن يُفْتَح بعضها على بعض، وتزول الحدود والبرازخ بينها، فيتصل بعضها ببعض وتصبح بحرًا واحدًا.

وقيل: معناه أن يخرج الماء إلى اليابسة.

وقيل: معناه أن تيبس ويذهب ماؤها[1].

وثمة معنًى رابع قَلَّ مَن ذَكَرَه، وهو أن المقصود أن تنفجر وتلتهب نارًا.

ويدل على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، فإن التسجير هو الإحراق، كما في قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾[2] [الطور: ٦].

فالماء الذي يطفئ النار يتحول إلى نارٍ تتلهَّب وتتلظَّى، وهذا اختيار إمام المفسِّرين مجاهد، ونُقِل عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل يهوديًّا: أين

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٢-٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٧١).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الطُّور»، و«سورة التكوير».

جهنم؟ فقال اليهوديُّ: البحرُ. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما أُراه إلا صادقًا، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[1] [التكوير: ٦].

* ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾:

والقبور في اليابسة، وكأن هذا من تسوية الأرض، فالإشارة إلى بعثرة القبور تنبيه على مجموعة حوادث تقع على الأرض، منها قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٢].

فالأرض تُخرِج ما فيها، ومن ذلك: أن تُخرِج ما في باطنها من الناس، وهكذا يسوِّي الله تعالى الأرض، فلا يكون فيها مرتفَع ولا منخفَض وتتحول إلى أرض مستوية.

و﴿بُعْثِرَتْ﴾: أُثيرت وفُتحت وأُخرِج ما فيها[2]. فكأنك تشاهد الأرض وهي كلها أو جُلُّها قبور، كما يقول أبو العلاء المَعَرِّي[3]:

صاحِ، هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطء ما أظنُّ أَدِيم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحُم الأضدادِ
ودَفِينٍ على بقايا دَفِينٍ في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

والحوادث مختصَرة هنا، في حين أنها قد فُصِّلت في «سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، وقد ختمها الله سبحانه هنا ببعثرة القبور، وأن هذا الحدث ليس عشوائيًّا أو عاديًّا، وإنما هو اليوم الموعود المُرتَّب المقصود، المضروب للجزاء والحساب.

* ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾:

فإذا وقعت تلك الحوادث العظيمة، علمت كلُّ نفس ما عملت من خير أو

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، (١٩/ ٢٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

(٣) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾.

شرٌّ.

وأهل اللغة والأصول يقولون: إن النكرة في سياق النفي تفيد العموم. فإذا قلت: لم يأتِ أحدٌ. فهو نفي مُطلَق، أما إذا كانت في سياق الإثبات كما هنا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ فهي لا تدل على العموم بذاتها إلا بالسياق، فالسياق هنا أبلغُ مِن كل كلام، أبلغ مِن أن يقول: علمت كلُّ نفس؛ لأنه حين يقال: «كل» ينتقل الحديث للعامَّة، والعادة في الحديث العامِّ أن كل واحد يظن أنه غير مقصود به؛ لكن إذا قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ فكل واحد يشعر أنه هو المقصود. وهذا من جليل المعاني، وبليغ المواعظ؛ لأن من البلاء أن يشعر كل أحد أن الخطاب موجَّه إلى غيره، فلا يستفيد منه، بخلاف ما لو أدرك أنه هو المخاطب دون غيره، أو قبل غيره.

﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: لم يذكر ماذا قدَّمت، وماذا أخَّرت؛ لأنها سوف تعلم حينئذ ماذا قدَّمت من الأعمال، فتذكره إن كانت ناسية، وتحيط بما لم تحط به من قبل، وتعلم ثوابه وجزاءه وقيمته.

وسوف تعلم ما أخَّرت، فلم تعمله، بل أجَّلت وسوَّفت.

ويشمل ما قدَّمت لنفسها في الآخرة، وما أخَّرت لورثتها بعد موتها.

ويشمل ما قدَّمت في صدر حياتها، وما أخَّرت في نهاياتها، والله أعلم(١).

ولا أحد يموت إلا وعنده أعمال كان ينوي أو يهم أن يعملها، وقد تكون خيرًا، فإن كانت كذلك أُجر عليها، ولكنها ليست كالأشياء التي عملها وباشرها، وكما قيل(٢):

نروحُ ونغدو لحاجاتنا ... وحاجةُ مَن عاش لا تنقضي

فالآية تحثُّ على: تقديم العمل الصالح.

والمبادرة، وعدم التأجيل والتسويف، وكان بعض السلف يقول: «أنذرتكم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٥- ١٧٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٩١- ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩).

(٢) ينظر: «الحيوان» (٣/ ٢٣٠)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٩٣)، و«الكامل» للمبرد (٣/ ١٣٥)، و«المجالسة» (٨/ ٢٠) (٣٣١١)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٤٧) منسوبًا إلى الصَّلَتان العبدي.

سوف».

وإيثار الآخرة، فهي خيرٌ وأبقى، وألَّا ينشغل عنها بالعاجل.

وترشد إلى أن التقدم هو بالعلم والعمل، وليس بالأماني والظنون، فلا ينفع المرء أن يكون مولودًا في أرض مباركة، ولا أن يكون من قبيلة أو شعب أو عائلة، حتى لو كان من قريش، أو آل بيت النبي ﷺ، أو من ذُرِّيَّته، وكل الناس أولاد أنبياء، وفي الحديث: «مَن بطَّأَ به عملُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه»[1].

لا ينفع إلا العلم النافع، والعمل الصالح، سواءً كان من الأمر الأخروي، أو من الأمر الدنيوي.

يقول سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الأرض لا تقدِّسُ أحدًا، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُه»[2].

وهذا يبيِّن أن العمل معنًى مُقَدَّس في الإسلام، و«مَن أَمْسَى كالًّا مِن عملِ يديه، أَمْسَى مغفورًا له»[3].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾:

خطاب قوة وجزالة لجنس الإنسان، الذي هو صاحب النَّفْس، وتكريس لمعنى الإنسانية، وأنها محلُّ التكليف، ومناط التشريف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد جعل الأنبياء والرسل من بني آدم، وخاطب الإنسانَ مباشرة.

وأيُّ تعظيم أكبر من أن يُخاطِب اللهُ الإنسانَ مباشرة ويناديه؟

قرأ الرسولُ ﷺ «سورة البيِّنة» على أُبَيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال له: «إنَّ اللهَ أمرني أن أقرأَ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾». قال: وسمَّاني لك؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٧٦٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (٨٤٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٥)، واللَّالَكائي (١٧١٨)، وابن عساكر (١/ ١٥٠).

(٣) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٦٢٦).

قال: «نعم». قال: فبكى[1].

عند ما ذكر ربُّ العزة اسمَ أُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان هذا شرفًا له، لم يخطر على البال، ولو بلغ أحدَنا أن أميرًا أو وزيرًا أو عالمًا ذكره في مجلسه بذِكْرٍ حسن، استطار من الفرح، فكيف إذا علم أن ربَّ العزة قد ذكره؟!

وذِكْره سبحانه يحصل لمَن ذكره وتوكَّل عليه، كما في الحديث القدسي: «**إنْ ذَكَرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم**»[2].

والقرآن ذِكْرٌ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾: ما الذي جعلك تغترُّ بربِّك الكريم، وتنساه؟! أغرَّك الإمهال؟ أم غرَّك الغنى؟ أم غرَّك الغرور[3]؟

والمقام مقام تهديد؛ وسياق أول السورة يدلُّ عليه، وهنا تودُّدٌ وتلطُّفٌ؛ إذ جاء بلفظ الربوبية، ووصف ذاته بالكرم، ولم يقل: «بربِّك المنتقم، أو الجبَّار، أو ذي البطش الشديد، أو ذي العذاب الأليم»، وقد ورد عن الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «لو قال لي: ما غرَّك بي؟ قلتُ: غرَّني بك ستورُك المرخاةُ»[4]. أي: سترك الدائم عليَّ.

وقال آخر: لو سألنا: ما غرَّكم بي؟ لقلنا: غرَّنا كرمُك.

والعرب يعتبرون كرم الإنسان سببًا في جرأة أهله عليه، كما يُروَى أن عليَّ ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نادى أحدَ غلمانه، فتأخَّر عليه، وكان واقفًا في الباب، ثم رآه عليٌّ، فقال: «ما لك لم تجبني؟». قال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٤).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٢).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧١٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٥)، و«فيض القدير» (١/ ١٢٨).

ومن كلام العرب: مِن كَرَمِ الرجل سوءُ خلقِ غلمانه[1].

والناس يعرفون الكريم، فيجرؤون عليه أكثر ممن يخافون بطشَه وعقابَه، والخوف ليس هو الأولى، ولا الأول، وإنما الرجاء والحب قبل الخوف، ومما يناسب هذا السياق قول قيس بن زُهير يَرْثِي الرَّبيعَ بنَ زياد العَبْسي[2]:

أظـنُّ الحِلْـمَ دلَّ علـيَّ قـومـي وقـد يُسْـتَجْهلُ الرجـلُ الحليـمُ
ومارسـتُ الرجـالَ ومارسـوني فمعـوَجٌّ علـيَّ ومسـتقيـمُ

وهل هذا السياق يفضي إلى أن يتجرَّأ العبد على ربِّه؟

كلا، فالعاقل يزيده هذا مهابة وخجلًا، كما قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، ومثله قول النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا، لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيستغفرونَ اللهَ فيغفرُ لهم»[3].

وبعض الناس قرأ هذا الحديث وقال: هذا إغراء بالذنب.

والحق أنه ليس إغراءً بالذنب، بل إشارة إلى ما جُبِل عليه الإنسان من الضعف والنقص والميل للشهوات، ولئلا يتحوَّل وقوعه في الخطأ إلى قنوط ويأس من رحمة الله، وفي الحديث: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يبسطُ يدَه بالليلِ؛ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ؛ ليتوبَ مسيءُ الليلِ»[4].

فهو عتابٌ يحمل العبد على أن يستحي من الله، فيكون الحياء وازعًا يردف وازع الخوف، والمعرفة بكرم الله ولطفه ورحمته، تدفع إلى الطاعة وتَرْكِ المعصية،

---

(١) ينظر: «التمثيل والمحاضرة» (ص٢٢١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٩٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص٩٧)، و«أنساب الأشراف» (١٣/ ١٣٥)، و«العقد الفريد» (٦/ ٢٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦١)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (ص١٦٤)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتفعل ما لا يفعله الخوف.

وكذلك يُحْمَل على معنى آخر، وهو الخوف من غضب الكريم، فإذا فرَّطت ولم تصل إلى رحمته، ولا فزت برضوانه، فهلاكك مُحَقَّق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾:

هذا من معاني الربوبية ﴿بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، ولكنه تفصيل بعد إجمال، فخلق المادة التي خَلَقَ منها الإنسان، خَلَقَ التراب الذي خَلَقَ منه آدم، فأصل الخَلْق هو الإيجاد من عدم، وهو لله تعالى خاصة.

والتسوية: خَلْقُ أجزاء الإنسان باستقامة وتناسُب، لا انحراف فيه، ولا قبح في أصل خِلْقته. وهذا عامٌّ في المخلوقات من إنس وحيوان... إلخ.

والعدل: تخصيص الإنسان بمزيد نعمة، وهي خَلْقُه في أحسن تقويم، في جمال واعتدال.

وفي قراءة سبعيَّة: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بالتشديد[1]، والمعنى واحد، فإن العدل والتعديل في خلق الإنسان أظهر حيث قامته واستقامته ومشيه على قدميه وقيامه وقعوده وتميز صفته وشكله عن بقية الحيوان[2].

* ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾:

﴿مَّا﴾ مصدرية أو صِلة، فالمقصود أن الله تعالى يركِّبك في أي صورة يشاء[3].

والآية تحتمل ثلاثة معانٍ[4]:

١- في أي صورة شاء الله تعالى ركَّبك من الصور الموجودة، فكل واحد من

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٢)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٤٦)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٩).

الناس يختلف عن الثاني، فلا تجد اثنين متفقين في كل شيء، حتى التوائم الذين يتشابهون، إذا أَطَلْتَ مُجالستهم أدركت الفروق بينهم، ولكل إنسان بصمة تختلف عن غيره، وكذلك حدقة العين، ونبرة الصوت، وفي الشكل والطول والملامح والشعر والأصابع والصفات الظاهرة والباطنة يبدو كل إنسان مختلفًا عن غيره.

وفي الحديث أن رجلًا قال: إنَّ امرأتي ولدت غلامًا أسودَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «هل لك من إبل؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فما ألوانُها؟». قال: حمرٌ. قال ﷺ: «هل فيها من أَوْرَقَ؟». قال: إن فيها لوُرْقًا. قال ﷺ: «فأَنَّى أتاها ذلك؟». قال: عسى أن يكون نَزَعَه عِرْقٌ. قال ﷺ: «وهذا عسى أن يكونَ نزَعَه عِرْقٌ»[1].

ونَزَعَه عِرْقٌ أي: وراثة من جدِّه الرابع أو الخامس، ولم تظهر إلا في هذا المولود.

٢- أن الله تعالى قادر على تركيب الإنسان في صورة أخرى غير الصور المعهودة، كصور الحيوانات التي يراها الإنسان فيستقبح شكلها أو هيئتها.

٣- أو يكون المقصود شمولية الصورة، صورة الجسد، وصورة الروح والخلق، وهذا معنى جميل، ولا يتعارض مع المعنيين السابقين، قال بعض السلف: قد يكون الإنسان في صورة الحمار في بلادته، أو في صورة الخنزير في شَرَهِهِ أو ضعف غيرته، وقد يشبه طائرًا أو حيوانًا في صفة رديئة يتلبسها وينطبع بها.

فالجمال أو القبح لا ينحصر في ملامح الشكل وحُسْن الوجه.

وربما رأيت إنسانًا لأول وهلة فيعجبُك حُسْنُ مظهرِه وجمالُ ملامحه، فإذا جالستَه وخالطتَه، نفرت منه، ولذا يجدر بالباحث عن شريك أن يعتني بجمال الروح والعقل والأخلاق، فهو الذي يبقى بعد ذبول الجسد، وهو الذي يُشْعِرُك أنك تعيش مع إنسان بمعنى الإنسانية، ولست أمام تمثال من الجمال الجسدي أو الحسِّي المحض، فالجمال مطلوب، لكن بمعناه الواسع، وهذا داخل في قول

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النبي ﷺ: «إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ»(١).

* ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾:

نفي للكلام السابق، وقد يقول قائل: غرَّني كذا، وغرَّني كذا. فجاءت الآيات لتنفي هذا كله، وتقول: ما غرَّك إلا شيء واحد، وهو التكذيب بيوم الدين.

والدين: الجزاء والحساب(٢)، والمقصود به: يوم القيامة، والدينونة: أن يُدان الإنسان ويُجازى بما عمل خيرًا أو شرًّا؛ ولهذا قال العلماء: التكذيب بيوم الدين جماع الذنوب.

وحين تتأمَّل القرآن تجد هذا واضحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

فمدح الله الصالحين بالإيمان بيوم القيامة وذكره، وذمَّ الفجارَ بالتكذيب، وقال في المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، وهذا يدل على أهمية الإيمان بيوم الحساب في حسِّ المؤمن وعقيدته، وأنه لا ينبغي أن يكون صوريًّا شكليًّا، لا يحمل على طاعة، ولا يردع عن معصية.

وعند ما نتعلم العلوم في مدارسنا، وكُتُبِنا، وحلقات علمنا؛ علينا أن ننظر: هل ما درسناه يزيد اليقظة والإيمان في ضمائرنا؟ هل يحيي نفوسنا ويبعث فينا الخير؟ ويَئِد فينا عوامل الشرِّ؟ أم أنها مجرد معلومات تُضاف إلى مثلها؟!

وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ خطاب للمكذِّبين، لكن هل الإنسان الذي خُوطب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ هو الإنسان الكافر، أو أن الخطاب عام؟

الأقرب أن خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ موجَّه لكلِّ إنسان، ثم خصَّ الله المكذِّبين

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٠٠)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦﴾، وما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١﴾.

بالدين بخطاب آخر.

* ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿عَلَيْكُمْ﴾ لفظ يدل على الاستعلاء، فهم فوقكم، ومكانتهم منكم مكانة السلطان والرَّقيب الذي له فوقية وعلو؛ لأنه مبعوث من الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يقل: «معكم»، فهم مسؤولون عنكم، مُسَلَّطون على أعمالكم وأقوالكم بكتابتها وتدوينها.

وصف الله سبحانه هؤلاء الحَفَظَة بأربعة أوصاف:

١ - الحفظ، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

والحِفْظ شامل، ومن معانيه أن يرقب ما تقول وما تعمل، فيكتبه لك أو عليك، وأن يحفظك أنت، حتى إذا حلَّ القَدَر أسلمَك إلى قَدَرِك[١].

٢ - الكرم، فهؤلاء الملائكة كرام، وأرسلهم ربك الكريم، وهم معك وعليك، والتذكير بهذا الوصف يستدعي أن تستحيي منهم، وقد جاء في الحديث: «**إيَّاكم والتعرِّي؛ فإن معكم مَن لا يفارقُكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجلُ إلى أهلِه؛ فاستحيوهم وأكرموهم**»[٢]. وفي سنده نظر[٣].

والمَلَك مخلوق كريم يراقبك ويلاحظك، وهذا مدعاة للحياء، حتى لو كنتَ منفصلًا عن الناس منفردًا، فتخشى أن يراك المَلَك على ما لا يحسُن، ولو أن أحدًا وَجَدَهُ أبوه أو أخوه أو صديقه بحالة لا تسرُّ، لاستحى، فكيف إذا عرفتَ أن هذا المَلَك معك على الدوام، ولا يفارقك إلا بالموت؟!

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/ ١٤)، (٣١/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٠)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «إرواء الغليل» (٦٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٠٠٦).

نحن نصحب كرامًا من الملائكة وهذا يستدعي أن نتحلَّى بمكارم الأخلاق، ونقتبس من ملائكيتهم الطهر والصفاء.

٣- الكتابة، أي: يسجِّلون كل شيء، وهذا من معاني الحفظ، ولو لم توثَّق أعمال الإنسان لأمكنه أن يجادل، ويجحد، لكن كل شيء مكتوب ومسطور: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤]، ولا مانع أن يكون التوثيق بعدة صيغ، منها: كتابة المَلَك، ومنها: الحفظ الذي قد يعني التصوير المتقن لكل ما يحدث والاحتفاظ به، ولذا يرى الإنسان أعماله يوم القيامة عيانًا.

٤- ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فقد زوَّدهم الله بالمقدرة على أن يعلموا كل شيء مما من شأنه أن يُحفظ أو يحاسب عليه من قول أو فعل، بل وما يخطر في قلبك من المعاني التي يُثاب عليها أو يُعاقَب؛ لأنها مِن فِعْل القلب، بل هذا من أعظم الأفعال؛ وأن أفعال القلب أصل لأفعال الجوارح، فطاعات القلب أصل لطاعات الجوارح، مثل: الإيمان، والرجاء، والحب، والخوف[1].

ومعاصي القلب أصل لمعاصي الجوارح، مثل: الشك، والشبهة، والحسد، والكِبْر..

كيف تعلم الملائكة ما في القلوب؟

لا شك أن ربنا سبحانه أقدر هؤلاء الملائكة على المهمة التي أوكلها إليهم، فجعل لهم قدرة على معرفة كل ما يتعلَّق بعملهم، بما في ذلك همُّ العبد وخطرات قلبه، وقد جاء في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «إن اللهَ كتبَ الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك: فمَن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عنده حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عندَه

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/ ١٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ١٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٨/ ١٩٦)، (١١/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٧٩).

حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً»(١).

فلا يفلت منهم شيء: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

* ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

والأبرار جمع: بَرٍّ، وهو مَن يفعل البرَّ(٢)، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

والنعيم الذي وعده الله للأبرار عام، شامل للدنيا والآخرة، كما قال ابن تيمية(٣)، فهم في نعيم تامٍّ يوم القيامة، ويصلهم مِن ذلك وهم في البرزخ وفي قبورهم، ويصلهم وهم في الدنيا من السرور والبهجة وقرَّة العين والرضا والأنس بالله ما تسعد به نفوسهم.

* ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾:

وهم أهل الفجور ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ١١]، فهم في الآخرة في جحيم، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها(٤).

وقيل: من الصَّلْي، وهو معروف؛ يقال: صَلَى الشاة، إذا شواها، فكمال العذاب بالنار كيًّا وشيًّا يكون في الآخرة، وفي قبورهم يُفتَح لهم باب من النار، فيصلهم من عذابها(٥)، وفي الدنيا يصلهم من الشقاء والعذاب النفسي والضيق،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٦٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾.

(٣) ينظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٣٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٤٣)، (٣/ ١٧١، ٤١٦)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٤٤٩)، (٥/ ٣٨٧)، (٦/ ١٧٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٧٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٠٣)، و«فتح القدير» (٤/ ٥٠٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٠٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٢٦)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٤)، والمصادر السابقة.

وإن كان منهم مَن يكون في أهله مسرورًا بمظاهر الحياة، لكن في قلبه قلق وتوتر.

والمؤمن قد يجد آلامًا وأمراضًا نفسيَّةً، ابتلاءً من الله؛ من أجل أن يُثاب عليه إذا صبر، مثل ابتلاء الإنسان بأمراض البدن، ولكن هذا المصاب بالمرض لو كان كافرًا، فسيكون مرضه أضعاف ما هو عليه، فإذا تصوَّرناه مؤمنًا، وجدنا الإيمان خير دواء مسكِّن أو مزيل لهذا المرض الذي يعانيه.

وهي أمور نسبية، وقد يرتبك مَن يحاول أن يقرأ حالة كل إنسان على انفراد، أما القاعدة العامة فهي ظاهرة: أن الإيمان من أعظم أسباب السعادة وزوال الآلام واحتمال المصائب.

وقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ لا يعني حصر صليهم بالنار في يوم الدين، بل ذلك هو كمال الصَّلْي، وينالهم شيء من الصَّلْي في قبورهم في البرزخ وفي الحياة الدنيا(١).

* ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: لا يُرفَع عنهم العذاب، ولو لحظة واحدة، ولا يُخَفَّف عنهم(٢): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩- ٥٠]. بل يبلغ بهم الحال أن يسألوا الملائكة الموت: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ...﴾(٣) [الزخرف: ٧٧].

ولو تأمَّلتُ التعبير بقوله: ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ لوجدت أمثال هؤلاء في الدنيا يحضرون ويغيبون، يحضرون عند الطمع والشهوة والمتاع، ويغيبون عند الجد والموعظة والخير والمبادرة والإحسان، فكان من المناسب أن يسجل عليهم الحضور الدائم

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الطور»: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ ...﴾ [الطور:١٦]، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾، و«سورة الليل»: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٣)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٥).

هناك!

وقد يجوز أن يكون بعض مَن نزلت فيهم السورة من مشركي مكة؛ كانوا لا يطيقون أن يحضروا مجالس المؤمنين، ولا أن يستمعوا إليهم، فكانت العقوبة أن لا يغيبوا عن نار جهنم يومًا ولا بعض يوم.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

والتكرار له معانٍ وأسرار:

١- أن يكون لتأكيد المعنى، ولَفْت ذهن السامع إلى يوم الدِّين وعظمته البالغة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾[2].

وربما تخيَّل السامع ذلك اليوم العظيم، الذي تفطَّر فيه السماء، وتُنْثَر الكواكب، وتنكدر النجوم، وتتفجر البحار، وتُبَعْثَر القبور، فتأتيه الآية لتقول: إن الأمر الذي تخيَّلته ليس بشيء بالقياس إلى حقيقة يوم الدين.

ولو أن الإنسان ضاعف طاقته التخيُّلية والتصوُّرية آلاف المرات، ما استطاع أن يتخيَّل حقيقة ذلك اليوم؛ ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماءُ»[3]: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة: ٢٥].

٢- أن يكون التكرار إشارة إلى أهل الجنة، وأهل النار، فتكون إحدى الآيتين لأصحاب الجنة، وكأنه قال: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للأبرار، ممن هم في نعيم

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»، وما سيأتي في «سورة القارعة».

(٣) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨﴾.

من ألوان السرور، والمتعة، والنعمة التي لا تخطر على بالهم؟ وما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للفجار من العذاب والنَّكال، والأغلال والوَبال؟ والمعنيان متقاربان[1].

* ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾:

نفى أن تملك أي نفس لأي نفس أي شيء على الإطلاق: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو لله في الدنيا والآخرة، لكن في الدنيا قد يبدو أن الناس يعملون أو يتسبَّبون، أما في ذلك اليوم فقد تجلَّت الحقيقة للناس جميعًا، بل للثقلين ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فالأمر لله، ولا تملك نفس لنفس شيئًا إطلاقًا، لا خيرًا ولا شرًّا.

والآية لا تعارض الشفاعة؛ لأن الشفاعة إذن من صاحب الأمر[2]: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

○○○

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٤)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٥٢)، و«أسرار التكرار في القرآن» (ص٢٤٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «مسند الطيالسي» (٣٨٩)، و«مسند أحمد» (١١٢٠٠)، و«صحيح البخاري» (٧٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٣).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

* **تسمية السورة:**

عُرِفت في كتب الحديث بـ«سورة ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«السنن»، وغيرها[1].

وغالب كتب التفسير على تسميتها: **«سورة المطفِّفين»**[2] اختصارًا.

وذكر بعض المتأخرين من أسمائها: **«سورة التطفيف»**[3]، وهذا على سبيل التصرُّف واستخراج المصدر من أصل الفعل.

* **عدد آياتها:** ست وثلاثون آية بالاتفاق[4].

* **واختلف في نزولها:**

فقيل: مكية، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩١)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١١)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٧)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٦٩٤)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص٣٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

وقيل: مدنية، وهو اختيار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)].

وذكر الواحدي في «أسباب النزول» عن السُّدِّي أن سبب نزولها أنه كان رجل في المدينة عنده مكيالان، أحدهما كبير يكيل به لنفسه، والثاني صغير يكيل به للناس. وهذا ضعيف[(٢)].

وقيل: فيها المكي والمدني[(٣)].

وقيل: نزلت بين مكة والمدينة، ذكره جابر بن زيد وغيره[(٤)]، وهو جيد من جهة أنه يجمع بين الأقوال، لأن الذين قالوا: إنها مكية. ربما قصدوا أنها من آخر أو آخر ما نزل بمكة، واعتبروا أن ما نزل بالطريق فهو تابع للمكي.

والذين قالوا: إنها مدنية. نظروا إلى أن ما نزل بالطريق إلى المدينة فهو مدني.

ففيه توفيق بين القولين، وإيماء إلى أن التطفيف خطيئة عامَّة، منتشرة بين التجار، سواءً بمكة أو المدينة، وكانت مكة مركزًا تجاريًّا للعرب، وكان عند الكثير من مشيخة مكة وكبرائها كبرياء وازدراء للناس، فيكيلون لهم بغير ما يكيلون به لأنفسهم.

ونَفَسُ السورة مكيٌّ، فالسياق والوعد والوعيد والوصف الذي فيها أقرب ما يكون إلى صفة الآيات المكية.

وبالمقابل فالمدينة من المراكز التجارية، وفيها اليهود المطفِّفون، فالقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة وجيه.

---

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٢٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧)، وهو القول الآخر لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

* ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾:

﴿وَيۡلٞ﴾ قريبة من كلمة: ويح، التي يُعَبَّر بها عن التوجُّع أو الوعيد، وعادة الإنسان إذا أصابه شيء أن يقول: يا ويلي. فهو توعُّد لهم بالويل[1].

والذين قالوا: «﴿وَيۡلٞ﴾: وادٍ في جهنم»[2]. حاولوا أن يفسِّروا سياق اللفظ، لكن هذا المعنى غير معروف في لغة العرب، وهي لفظة مُستخدَمة قبل الإسلام، ولم يُقْصَد بها وادٍ في جنهم، ولا كانت اسمًا علمًا يُطلق على مكان، وإنما يُطلق للوعيد، وهو إذا كان مُبْهَمًا أقوى في الوعيد.

والتطفيف يحتمل معنيين[3]:

١- أنه مأخوذ من الشيء الطَّفيف، أي: القليل اليسير التافه، فهم الذين بلغ مِن دناءتهم أن يغشوا الناس بالشيء اليسير، فإذا كالوا أو وزنوا أخذوا شيئًا يسيرًا وأضافوه إلى مالهم.

وهو تسفيه لهذا العمل وتنفير منه؛ لأنه يدلُّ على دناءة وحقارة، إلى حدٍّ أنه يسرق اللقمة من فم الفقير.

٢- أن الطفَّ هو حدُّ الصاع وطرفه، فيكون المطفِّف هو الذي قارب الوصول إلى حدِّ الصاع ولم يُوَفِّه.

والمعنيان متقاربان من حيث الاشتقاق اللُّغوي، وقد جاء السياق مفسِّرًا حيث وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الهمزة».

(٢) وهذا لم يصح فيه شيء. ينظر: «مسند أحمد» (١١٧١٢)، و«صحيح ابن حبان» (٧٤٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٦٤، ١٦٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٢)، (٨/ ٢٦٦، ٢٩٨)، و«فتح الباري» (١/ ٢٠٧، ٢٦٦)، (١٠/ ٥٥٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٤٣٤، ٤٣٥)، (٣/ ٥٥١)، (١٥/ ١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦٥)، وما سيأتي في «سورة الهمزة».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٥٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٦/ ٥٢٠)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٢٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٨٨٤)، والمصادر السابقة والآتية.

يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

والمطفِّف مَن يستوفي لنفسه من الناس، فيأخذ حقه وافيًا، ويُخْسِر لغيره، فأما إذا زاد على ذلك بأن يكيل بمكيالين، فيبخس الناس حقوقهم آخذًا ومعطيًا، فهو في غاية الفجور والعدوان(١).

و«الكيل بمكيالين» أصبحت كلمة تجري مجرى المَثَل عند الحديث عن السياسات الدولية التي لا تقيم العدل، ولا تراعي المعايير الصحيحة في التعامل مع الأحداث، وتوظِّف قضايا أخلاقية كحقوق الإنسان لمصالح سياسية أو اقتصادية.

والآية الكريمة أصل في النهي عن الظلم، ودعوة إلى العدل والإنصاف، وحفز الإنسان على أن يكون في تعامله مع الآخرين على ما يحب أن يتعاملوا معه، وكما في قول النبي ﷺ: «فمَن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أن يُؤْتَى إليه»(٢). أي: أن يفعل الشيء الذي يريد أن يفعله الناس معه.

والتطفيف في الكيل والوزن مثال قائم مشهودٌ وقت نزول الآية الكريمة، والعدل نفسه يؤكِّد أن كل ما ماثله أخذ حكمه، وربما كان من صور التطفيف ما هو أعظم جرمًا وأشد إثمًا وأوسع ضررًا من بخس المكيال والميزان.

كان سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الصلاةُ مكيالٌ، فمَن وفَّى وُفِّي له، ومَن طفَّف فقد علمتم ما أنزل الله تعالى في المطفِّفين»(٣).

وقال النبيُّ ﷺ: «أَسْوأُ الناسِ سرقةً: الذي يسرقُ مِن صلاتِه»(٤). فالسرقة

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥١٩)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٦)، والبيهقي (٢/ ٢٩١)، وفي «شعب الإيمان» (٣١٥٠). وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٨٠٩).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٣٣٣)، وأحمد (١١٥٣٢، ٢٢٦٤٢)، والحاكم (١/ ٢٢٩) من حديث أبي سعيد وأبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (٣/ ٦٤٤- ٦٤٦).

تكون من كل شيء.

والوعيد عامٌّ في كل ألوان التطفيف، حيث يكون الإنسان أنانيًّا في تعامله مع الناس، وفي حُكْمِه عليهم، وفي حفظ الحقوق، ولا بد أن يكون المؤمن يَقِظًا عادلًا، يكيل للناس بالمكيال الذي يكيل به لنفسه، بل الأَرْقى والأكمل أن يكيل الإنسان بمكيالين، لكن على نقيض ما يفعله المطفِّفون، فإذا كان الأمر يتعلَّق به كال بمكيال العفو والتسامح وحسن الظنِّ والتماس العذر، وإذا كان المكيال للناس، كان حريصًا على حِفْظ حقوقهم، وعلى الورع والتحرِّي، بحيث لا يصيب أحدًا بسوء.

وهذه هي الدرجة الأولى: وهي المستوى الأفضل والأكمل؛ أن يؤدِّي إليهم حقوقهم كاملة موفاة، ويتسامح معهم إذا قصَّروا في بعض حقه.

والدرجة الثانية: درجة العدل، بأن يكيل الإنسان للناس بالمكيال الذي يريد منهم أن يكيلوا له، فينصف معهم ولا يظلمهم، ولا يقبل منهم أن يظلموه.

والثالثة: درجة التطفيف، أن يكيل فيما يخصُّه بالمكيال الأوفى إذا كان الحق له، أما إذا كان الحق عليه، فإنه ينقص المكيال والميزان ويبخس الناس أشياءهم.

والرابعة: أن يطفِّف في الحالين، فيأخذ فوق حقه إذا اكتال، ويبخس حق الآخر إذا كال أو وزن.

إن السورة تؤسِّس لمبدأ أخلاقي عظيم، وهو مبدأ العدل والقسط في المعاملة بين الناس.

وأين المسلمون من هذا المعنى؟! أين علماؤهم؟ دعاتهم؟ أزواجهم؟ شبابهم؟ حكامهم؟

أين الإنسان الذي يعطي للناس ويتسامح معهم؟!

أين الذي يأخذ حقًّا ويعطي حقًّا؟!

لقد انتشرت في الناس اليوم مبادئ الشحِّ والأنانية والهوى، فصار الإنسان يشدِّد في الحساب ويدقق في الميزان في الأمر الذي يخصُّه ويحاسب على

النَّقِير والقِطمير، وإذا كان الأمر يخصُّ الآخرين، فإنه لا يقيم وزنًا لمشاعرهم وأحاسيسهم ولا لحقوقهم، **إن مبدأ العدل والإنصاف ينبغي أن يشمل الجانبين كليهما:**

الأول: الجانب المعنوي، في الأحكام والمواقف والأقوال، وقد جاء في الحديث: «**وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم**- أو قال: **على مناخرِهم- إِلَّا حصائدُ ألسنتِهم؟!**»(١).

حينما تحكم على شخص، أو جماعة، أو جامعة، أو مشروع، أو كتاب، أو موقع، أو نشاط، فهي شهادة ينبغي أن تحذر فيها من التطفيف، ووجود الحق والصواب في هذا العمل لا يمنعك من أن تقدِّم ما تَلْحَظه من مآخذ بإنصاف وعدل، كما أن الخطأ الكثير لا يبيح لك أن تتجاوز الصواب وتجحد ما فيه من الحق.

الثاني: الجانب الحقوقي في شتى شؤون الحياة، فكثير من الحقوق في المجتمعات الإسلامية مُهدَرة، ولا زال المسلمون محتاجين إلى تكريس ثقافة الحقوق وتحقيقها بشكل صحيح في الميادين كافَّة.

كيف يتعامل الأستاذ مع طلابه..

كيف يتعامل الزوج مع زوجته..

كيف يتعامل الجار مع جاره..

كيف يتعامل الناس في بيعهم وشرائهم وتعاملهم..

كيف يتعامل الحاكمون مع شعوبهم؟ وما طبيعة العلاقة، أهي علاقة سلطوية متعسِّفة، قائمة على الصراع والتآكل، أم علاقة ودية منصفة، قائمة على التعاقد الرشيد والتكامل؟

فإذا تأمَّلت هذه الجوانب وجدت تضييعًا واسعًا للحقوق، حتى أصبح

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٢٢، ٣٢٨٤).

التطفيف جزءًا من البناء التربوي والمألوف السلوكي، وهذه السورة العظيمة تُسهم إسهامًا مباشرًا ومؤثِّرًا في إعادة بناء الأخلاق الاجتماعية.

مَن هم المطفِّفون؟

* ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾:

وهذا نموذج للتطفيف له أهميته، ويومئ إلى ما وراءه، حتى لقد ذكره الله تعالى في أكثر من سبعة مواضع في القرآن الكريم، وكان من الأنبياء مَن بُعِث للأمر بالقسط في المكيال والميزان مع التوحيد، وهو شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨١- ١٨٢]، والاقتصاد الدولي يجب أن يقوم على الانضباط والاعتدال في الكيل والوزن.

ومع تقدم العلم والحضارة والوسائل التقنية، فإن الكيل والوزن يظل شديد الحضور في حياة الناس، وهو رمز للتعاطي، بأي وسيلة من وسائل الإيفاء والاستيفاء للحقوق.

وهؤلاء المتوعَّدون إذا كان الحق لهم يأخذونه وافيًا غير منقوص، ولم يقل: «اكتالوا من الناس»، بل قال: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾؛ لأن ﴿عَلَى﴾ فيها معنى استعلاء هؤلاء المطفِّفين، وقد يكون مع التطفيف كبرياء وتسلط وفوقية، إضافة إلى البَخْس والأخذ من الناس، فكأن الاكتيال على حساب الناس وحقوقهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾: والمعنى المتبادر والذي عليه جمهور المفسرين: أنهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم؛ يُخسِرون ويُنْقِصون.

وهذا جارٍ في لغة الحجاز وغيرها، يقولون: كال فلانًا، أي: كال له. وزن فلانًا، أي: وزن له، وهو معنى واضح، فمعنى ﴿كَالُوهُمْ﴾: أعطوهم كيلًا، ومعنى ﴿وَّزَنُوهُمْ﴾: أعطوهم وزنًا(١).

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٢)، و«صحيح البخاري» (٣/ ٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩١).

وقال بعض المفسرين: وإذا كالوا هم، أو وزنوا هم، فجعلوا «هم» ضميرًا لتوكيد الفاعل، فالمعنى: إذا كالوا أو وزنوا، فإنهم يُخْسِرون.

وهذا ضعيف، كما قال الطبري، وغيره؛ لأنه لو كانت كذلك لفَصَل بين الفعل وبين الضمير المؤكِّد بفاصل، وهو الألف التي تلحق واو الجماعة، وهذا لا يوجد في رسم القرآن، فدلَّ على أن الأول هو المعنى الصحيح، أي: أعطوهم بأن باعوا عليهم، أو اشتروا منهم كيلًا أو وزنًا؛ فإنهم يرجعونهم بالصفقة الخاسرة، ولا يعطونهم حقَّهم، وهنا مقابَلة بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ وبين ﴿يُخْسِرُونَ﴾[1].

فهم لم يصلوا إلى الفضل، بحيث إن الواحد منهم إذا كال لغيره وفَّى، وإذا كال لنفسه احتاط فأنقص، ولم يصلوا إلى العدل، بحيث إن الإنسان أوفى لنفسه ولغيره، ولكنهم إذا اكتالوا مِن الناس يستوفون، وإذا كالوا أو وزنوا للناس فإنهم يخسرون.

* ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾:

وهذا سؤال في معنى الاستنكار: أَلَا يظنون- ولو مجرَّد ظن- أنهم مبعوثون؟ فإن مجرَّد الظن كافٍ لأن يجعل الإنسان يعيد النظر فيما هو فيه، فكيف والأمر يقينٌ لا مِرية فيه، بدلالة العقل والشرع والفطرة!!

والسياق تنفير من فعل المطفِّفين؛ فإنه توعَّدهم بالويل، ثم سمَّاهم: «مطفِّفين»، ثم فصَّل فعلهم؛ فكان التفصيل عرضًا مخجلًا لأنانية هؤلاء الظلمة.

وكأنك عند ما تقرأ الآية، ترى إنسانًا يعتقد أنه مخلوق من طينة غير الطينة التي خُلِقَ منها الناس، ومنطق الحق يعاتبه ويقول: هل لك فضل على عباد الله، بحيث تتعامل معهم بغير ما تريد أن يتعاملوا به معك؟

وأشار إليهم بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو اسم إشارة يوحي بالبعد، فلو كانوا قريبين لقال: «أَلَا يظنُّ هؤلاء...»، فهم بعيدون عن رحمة الله، بعيدون عن الفضل، بعيدون عن الذكر الطيب، بعيدون عن الإيمان بالآخرة وجزائها.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦- ١٨٧).

ويحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين، أي: أَلَا يوقنون.. وهو قول جمهور المفسرين[1]، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥- ٤٦].

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصفه بالعظيم؛ لطوله ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فهو عظيم بمدَّته، عظيم بالحوادث التي تجري فيه، عظيم بظهور القدرة الإلهية التامَّة والعدل المطلق، حيث يدرك المشركون حينذاك أنه لا حول لهم ولا قوة.

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾:

يقوم الناس من قبورهم، وتُنْفَخ الأرواح في الأجساد.

ومن معاني القيام لرب العالمين: وقوف الناس في عرصات القيامة؛ خوفًا، وحياءً، وخجلًا، وانتظارًا للحساب ثم المصير، وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **حتى يُغيِّب أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**»[2]. أي: يتصبَّب منه العرقُ طيلة هذه المدة من شدة الكرب وطول الموقف.

إن نظام ذلك اليوم وسُنَنَه مختلفة عمَّا عليه الأمر في الدنيا، فنحن نرى الماء في الدنيا مادة سيالة، يسيل من المرتفع إلى المنخفض، لكن القوانين تتغيَّر يوم القيامة بإذن الله تعالى؛ حتى نظام الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأرض قد اختلف عما كان معهودًا في الدنيا[3].

والله سبحانه ذكر القيام، ولم يذكر الانتقام أو المطالبة بالقصاص، لأن غالب عمل المطفِّفين كان خفيًّا، لا يدركه الطرف المظلوم، ولا يفطن له، ولا يُطالِب

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٨٣)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الانشقاق»: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) كما تقدم في «سورة الانفطار».

به، فلهذا توعَّد تعالى المطفِّفين بأنه سيكون هو المُطالِب لهم، وهو الذي سيأخذ منهم حقوق المظلومين، فالمطفِّف والظالم والمعتدِي على حقوق الناس سيكون خصمه الله تعالى يوم القيامة.

وفي الحديث القدسي: «**ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامةِ: رجلٌ أعطى بي ثم غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطِه أجرَه**»(١).

وإنما كان الله خصمهم؛ لعظم الذنب، ولأنه حق عظيم من حقوق العباد؛ فمَن لم يُعْطِ الأجيرَ أجرَه، أو باع حرًّا وأكل ثمنه، فقد قارف أسوأ أنواع التطفيف.

وفي السياق دليل على أن التطفيف إنما يصدر في الأصل من غير المؤمنين، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقد يصدر من المؤمن، وقد يقع الظلم والخطأ والبغي منه، ولا يخرج من دينه بهذا الفعل، بل ذلك دليل على ضعف إيمانه وتناسيه يوم الحساب، ففِعْلُه فِعْلُ الكافرين وإن كان لسانه لسان المؤمنين، وفي هذا مزيد تنفير.

إن لدى الكثير من الشعوب المتقدِّمة اليوم ثقافة تعلَّموا بموجبها كيف يؤدُّون الحقوق، وكيف يحفظونها، وكيف ينضبطون في المصالح العامة، فلا يعتدون على حقوق غيرهم، ولا يسمحون أن يعتدي أحدٌ على حقوقهم، وكيف يضعون الأشياء في مواضعها، ويستخدمونها استخدامًا رشيدًا؛ استشعارًا للروح الاجتماعية، وهذا إنما أخذوه بالتربية والتعويد والتوارث، دون أن ينتظروا عليه جزاءً أخرويًّا.

وفي العالم الإسلامي لا تتوافر التربية الاجتماعية أو الثقافة المحفِّزة على العدل والانضباط، ولم يكن إيمانهم بالله بالقوي الراسخ الذي يحملهم على الالتزام الاجتماعي والانضباط الحقوقي والأخلاقي، فضعفت أخلاقهم؛ لغياب الوازع الديني، وصاروا يقدِّمون صورة سيئة عن الدين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأكثر الناس يحكمون على الديانة من ممارسات أهلها، وأنت لو رأيتَ شخصًا ينتمي إلى ملَّة لا تعرفها يقوم بأعمال مرذولة لا يقبلها العقل، فإنك بعفويَّة ستقول: الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام! لأنك تظن أن ما فَعَلَه كان بمقتضى دينه، وقد لا يكون ذلك مباحًا في دينه، لكن دفعه إلى ذلك الفعل جهلُه أو غفلتُه، أو تربيتُه السيئة، فإذا تكرر هذا معك من شخص آخر فثالث ترسَّخ عندك أن الدين الذي ينتحلونه سبب في فساد فعلهم.

وكذلك الآخرون ربما يأخذون صورة سيئة عن الإسلام؛ بسبب مقارفة بعض المسلمين للرذائل وانتهاك القيم والفضائل، وفي ذلك صدٌّ عن سبيل الله وتشويه لجمال الإسلام لدى مَن لا يعرفونه.

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة إعراض وإضراب عن الموضوع السابق إلى موضوع آخر مرتبط بما قبله، و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ جمع: فاجر، وهو الذي يتعدَّى الحدَّ، وكتابهم هو: الكتاب الذي تُكْتَب فيه أعمالهم وأقوالهم(١).

وقد بدأ بالفجار، خلافًا لعادة القرآن في تقديم أهل الإيمان؛ مراعاة لموضوع السورة وسياقها، حيث كانت بدايتها في وعيد المطففين، وهم الفجار.

وذكر المفسرون في ﴿سِجِّينٍ﴾ أربعة أقوال(٢):

١- **الأرض السابعة**، وهو قول الأكثرين، ونُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ولا أظنه يصحُّ عنه- وقتادة وكعب وغيرهما، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

٢- **في سِفال**، أي أنه في مكان سافل، أو في وضع سافل، وهذا معنى صحيح.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٢، ١٩٤- ١٩٥)، وما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير ابن وهب» (٢/ ١٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٥٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣١٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢)، والمصادر السابقة والآتية.

٣- في سِجِّين ضيق، فهي صيغة مبالغة، كما تقول: فلان سِكِّير، أي: يكثر من شرب الخمر.

وجهنم سجن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، أي: سجنًا يُحْصَرون فيها(١).

٤- في ضيق وشدة وكربة وسِفال، ولا يلزم أن يكون ذلك في الأرض السابعة، كما قال بعض المفسرين، أو في صخرة عندها، أو عند الشيطان.

وتلك الأقوال وما شابهها ذُكِرَت في كتب التفسير، وليس لها أسانيد صحيحة، ولا أدلة واضحة، والأَوْلَى أن يُتْرَك النصُّ القرآني على إطلاقه وعمومه(٢).

و﴿سِجِّينٌ﴾ كلمة عربية معروفة وليست شائعة الاستعمال(٣).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أسلوب قرآني لتعظيم الأمر، وتعظيم السؤال عنه.

وقال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر(٤).

* ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾:

والراجح- ما ذهب إليه ابن كثير، وكثير من المفسرين- أن هذا ليس جوابًا لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؛ فسياق ذلك انتهى بالتشنيع والتهويل، ثم أنشأ يتكلم عن الكتاب؛ لأنه قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، فكأنه قيل: وما هو كتاب الفجار؟ فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾(٥)، وفيه إشارة إلى أنه قد كُتِبَ لهم فيه السجن والنار والعذاب.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥٠٧)، و«زاد المسير» (٣/ ١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٨)، و«روح المعاني» (٨/ ٢٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤١٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الصحاح» (٥/ ٢١٣٣)، و«تاج العروس» (٣٥/ ١٧٠) «س ج ن».

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٤).

و﴿مَّرۡقُومٞ﴾ اسم مفعول من الرَّقْم، ومعناه: الكتابة، كما في «سورة الكهف»: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾، فالرَّقيم هو: الكتاب، وقيل: كتاب فيه أسماؤهم وأخبارهم، وهنا قال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي: مكتوب.

قد يقال: هذا تحصيل حاصل، فمعلوم أن الكتاب مكتوب!

والجواب: أن في ذلك فوائد:

١- أنه كتاب مضبوط، لا يُزاد فيه ولا يُنْقَص منه.

٢- أنه كتاب واضحٌ مجوَّد بَيِّنٌ في دلالاته وما فيه، ففيه البداية والنهاية والكثير والقليل، ولهذا يقول تعالى في «سورة الكهف»: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهو هذا الكتاب المرقوم، ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾.

فهذا ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ وهؤلاء مطفِّفون يزيدون وينقصون، أما الكتاب فلا تطفيف فيه ولا زيادة ولا نقص، وكل شيء مضبوط فيه ومحفوظ.

٣- أنه مميَّز بعلامة، وليس ببعيد أن يكون كتاب الكافر مميَّزًا بعلامة تخصُّه، وكتاب المؤمن مميَّزًا بعلامة تخصُّه، فكتاب الكافر مرقوم، وكتاب المؤمن مرقوم، لكن شتان بين رَقْم ورَقْم.

فالمرقوم: المختوم، الذي عليه الختم أو الخاتم[1].

٤- ويحتمل أن يكون الكتاب مشتملًا على رقم يدل على صاحبه، كما تجري العادة في مثل التجمعات الواسعة أن يُعطى كل فرد بطاقة فيها رقم، ولعل كل كتاب لإنسان مسلم أو كافر يحوي رقمًا يدل على صاحبه؛ ولذا سُمِّي مرقومًا، والله أعلم.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٨).

إنه كتاب دقيق متقن مفصَّل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، مضبوط لا يتمكَّن أحد من الزيادة فيه ولا النقص منه، مميَّز مُعلَّم، بحيث يعرف كل أحد كتابه، فهذا يأخذ كتابه بيمينه، وذاك يأخذ كتابه بشماله.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾:

وصفهم بالمكذِّبين بعدما قال عنهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾؛ ليحدِّد معنى الظن، وأنه التصديق[(١)].

ثم بيَّن متعلَّق التكذيب، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾؛ ليبرز شناعة ما عملوه.

ووصفهم بالمكذِّبين دليل على أنهم دُعوا وبُلِّغوا وقامت عليهم الحجة وسمعوا آيات الله؛ لأن المكذِّب هو الذي سمع الخبر وأدلته، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك هو يعرِض ويصرُّ على التكذيب.

وهو دليل على أن العقاب للكافرين يوم القيامة يلحق مَن بلغته الحجة وقامت عليه دلائل الرسالة والنبوة، فأصرَّ وعاند وكذَّب، أما مَن لم تبلغه الحجة، فلا يدخل في هذا، وأمرُه إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وهذا المعنى يرد في القرآن كثيرًا، وسبق في «سورة النبأ»[(٢)].

ودلائل الشريعة على هذا اليوم عظيمة، والذي يقرأ القرآن - خصوصًا المكِّي - يجد كثرة الحديث عن البعث، ولا يوجد عند الأنبياء السابقين والكتب السابقة مثلما يوجد في القرآن الكريم من تفصيل أخبار الآخرة والبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والصراط والميزان، فدلالة القرآن واضحة قوية، والإيمان بيوم الدين فيصل حاسم بين فئتين من البشر، فإن الإيمان بالآخرة يجعل الإنسان أكثر جدية واهتمامًا في التعاطي مع قضايا التدين والعبادة والأخلاق والحقوق.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٧)، وما تقدم في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

والفطرة تغتبط بمثل هذا الإيمان، فهو يمنحها فسحة وانشراحًا ورضًا وانتظارًا لوعد الصدق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فلو تخيَّل المخلوق أن هذه الروح تفنى بالموت، وكأنها لم تمشِ على الأرض ولا عاشت، بل تحوَّلت إلى رماد ورميم ونهاية وعدم، فهو إحساس قاتل، يجعل الإنسان يموت قبل أوان الموت.

فهنا يكون في النفس تطلُّعٌ إلى أن يكون بعد الموت حياة أخرى، كما كان قبل الحياة موت آخر.

والإنسان يرى في هذه الدنيا أشياء عديدة لم يستقم فيها الميزان، فهذا مطفِّف هلك، وقد أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا ظالم مات في عزٍّ ومَنْعة ومتعة لم يُنتقَم للمظلوم منه، وهذا محسن مات ولم يُكافَأ على إحسانه، وهذا شهيد لقي حَتْفه في ضيق وشدة وكرب، ولم ير بصيصًا من الرَّوْح والفرج، فلا بدَّ مِن دار أخرى تُرَدُّ فيها الحقوق لأصحابها، ويُنْتَصَف من الظالم للمظلوم، وترجع الأمور فيها إلى نصابها.

فهذا يوم الدين، أي: يوم الدينونة، والدِّين: الجزاء[1]، كما تقول: أدينك بهذا، أي: أجازيك به، ومنه: «كما تدين تُدان»، أي: كما تعمل تُجازَى، فالدينونة معناها أن يردَّ الدين للإنسان بما أخذ، ويُوفَّى عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

* ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾:

لا يكذِّب بيوم الدين بعد قيام الحجة ودلالات الشريعة إنسانٌ سَوِيٌّ متجرِّد من الأهواء، **لا يُكَذِّب به إلا مَن كان مُتَّصفًا بثلاث صفات:**

١- **العدوان**، وهذا يرجع لتأكيد مسألة حقوق الناس، وقد بدأ تعالى بحقوق

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٦)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

الناس قبل حقِّه، فقال: ﴿مُعْتَدٍ﴾، فهو يريد أن يمضي في عدوانه دون خوف من بعث أو حساب.

٢- **الإثم**، والأثيم على وزن فعيل، وهو صيغة مبالغة، **والإثم**: الذنب والمعصية، وإذا أدمن عليه صاحبه وأصرَّ سُمِّي: أثيمًا.

وقدَّم «المعتدي» على «الأثيم»؛ لأن الإضرار بحقوق الناس معصية لله وأذى للناس في الوقت ذاته، فهو إثم مضاعَف، بخلاف الأثيم فذنبه على نفسه وليس على غيره.

والإضرار بحقوق الناس والعدوان عليهم سبب في فساد الدنيا، كما قال رسولُ الله ﷺ: «**يوشِكُ أن يأتي زمانٌ يُغربَلُ الناسُ فيه غربلةً، تبقى حُثالةٌ من الناس قد مَرِجَتْ**[(١)] **عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا**». وشبَّك النبيُّ ﷺ بين أصابعه[(٢)].

أي: فلا تدري أين المحقُّ، وأين المبطل، وأين الصادق، وأين الكاذب، فهذا الحسد والبغي والعدوان، ولهذا كان من أعظم ما جاء الرسل بدفعه والنهي عنه البغيُ والعدوانُ.

وسواء كان البغي والعدوان بالعلم، كما وقع لبني إسرائيل، أو بالرياسة، أو بالمال، أو باسم ينتحله أو مذهب يترسمه؛ فكله مذموم محرَّم.

ولم يقل: «آثم»؛ ليبيِّن أن الإثم قد أصبح جزءًا من شخصيَّته، وطبعًا لا يستطيع الخلاص منه، ولذا قال في السورة ذاتها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، فهي حالة انطباع عاطفي وجسدي بالمعصية لا يسهل الفكاك منها.

٣- تكذيب القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

---

(١) **الحُثالة**: سفلة الناس، ومَرِجَت: اختلفت وفسدت.

(٢) أخرجه نُعيم بن حَمَّاد في «الفتن» (٦٩٣)، وأحمد (٦٥٠٨، ٧٠٦٣)، وأبو داود (٤٣٤٢، ٤٣٤٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١١٧٦)، والحاكم (٢/ ١٥٩)، (٤/ ٤٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه ابن حبان (٥٩٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٠)، و«فتح الباري» (١/ ٥٥٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٥).

﴿١٣﴾، تُلي عليه القرآن؛ فأعرض وقال: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وهذا قاله النضر بن الحارث في مكة، حين كان يقرأ على قريش كتب رُستم واسْفَنْدِيار وأساطيرهم المدوَّنة، ويقول لهم: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟ لماذا يتبعه الناس ويتركونني[1]؟

والآية عامَّة لكل مَن تحقَّقت فيه هذه الصفات المرذولة؛ لأنه تعالى عمَّم الحكم على ﴿كُلُّ﴾ مَن كان كذلك.

وهذا لا يخصُّ شخصًا بعينه، بل يشمل كُلَّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، من السابقين واللاحقين والعرب وغيرهم.

واليوم تجد مَن يقول: للقرآن الكريم أن يحدِّثنا عن قصة إبراهيم وإسماعيل، لكن هذا لا يعني أنها حقيقة، ومَن يقول: إن قصة أصحاب الكهف، وعصا موسى التي تلقف ما يأفكون أسطورة، ولا يلزم أن تكون حقيقة!

و﴿أَسَـٰطِيرُ﴾ جمع: أُسطورة- مثل: أُكْذُوبة وأُعْجُوبة وأُحْدُوثة- مأخوذ من السَّطْر، وهو الكتابة والتسطير، أي: الأشياء التي سطَّرها وكتبها الأولون.

والوزن الصرفي: «أفعولة» قليل الاستعمال، كما في الأمثلة السابقة، وقيل: ليس لها واحد من لفظها، مثل: ﴿أَبَابِيلَ﴾[2].

والأساطير: خرافات يرفضها العقل، وقد تكون قصصًا وهمية أو أمثالًا تُضرب كقصص الحيوانات والطيور والجن.

أما الغيب، فهو الحق الذي أخبر الله به، مما لا تستطيع العقول إدراكه بذاتها، لكنه ليس مُحالًا، ولا تأنف العقول من الإيمان به، بل تستسلم له مِن غير أن تدركه،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٠، ٣٥٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٣٩٩)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/ ٥٣)، و«شعب الإيمان» (٧/ ١٦٦- ١٦٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٢٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٦)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٢٠٠)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٣٠)، و«لسان العرب» (٤/ ٣٦٣)، و«تاج العروس» (١٢/ ٢٦) «س ط ر»، و«التحرير والتنوير» (٧/ ١٨٢)، وما سيأتي في «سورة الفيل»: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾.

ولهذا قال ابن تيمية: «إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بمحارات العقول، لا بمحالات العقول»[1].

والأساطير تُذكر في سياق التكذيب، فتقول: هذه أسطورة، أي: كذبة، وإن كانت شائعة عند الناس، كما في كتاب «كليلة ودِمنة»، أو قصص الرومان واليونان والفراعنة والصينيين وغيرهم.

فإذا حكى الله تعالى لنا قصص الأنبياء، أو قصة أصحاب الكهف، أو أصحاب الأُخدود؛ فهي حقائق تاريخية في أعلى درجات الوثوق والمصداقية؛ لأنها تنزيل من الله العزيز العليم.

عقلية المؤمن ليست خرافية، بل هي إيمانية غيبية، وأعظم ما يميِّز المؤمن عن الملحِد هو الإيمان بالغيب، ولهذا قال سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢- ٣]؛ لأنه إذا لم يؤمن بالغيب لم يؤمن بالله، ولا بالآخرة، ولا بالجنة، ولا بالنار، ولا بالوحي.

فالإيمان بالغيب ليس شيئًا ثانويًّا، بل هو أصل وركن في عقيدة المسلم، هو إيمان حقيقي يؤثِّر في تصوره ومنهجه وسلوكه، ولذلك كان المكذِّبون يطفِّفون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا يظنُّون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وبذا تجرؤوا على حقوق الناس، والمؤمن قد يتخلَّى عن بعض حقِّه في الدنيا، لا من باب أنه لا يريد هذا الحقَّ، أو لا يحبُّه؛ ولكن لأنه يدَّخره ليوم آخر هو عنده أكثر يقينًا من المشهود الذي يراه ويحسُّه.

إن عقلية المؤمن الغيبية لا يجوز أن تتحوَّل إلى عقلية أسطورية خرافية، تؤمن بكل ما يخالف الحسَّ، وتقيس قياسًا فاسدًا، فتقيس أوهام الناس وحكاياتهم وأقاويلهم على خبر الكتاب المنزَّل، وكثير من عوامِّ المسلمين وشعوبهم ضعف حسهم النقدي، وصاروا يتلقَّفون الغرائب ويؤمنون بها!

يُفترَض أن يكون مبدأ المؤمن رفض الروايات الموهومة، والأخبار المناقِضة

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٤٤)، و«الجواب الصحيح لمَن بدَّل دين المسيح» (٤/ ٣٠٩)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٣٢٧).

للشرع والعقل، والمناقِضة للحسِّ، أما أن يكون مُستودَعًا للأوهام، فهذا انحراف كبير في المنهج.

لما أُخْبِرَ أبو بكر الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإسراء والمعراج، وجاءته قريش يقولون له: هذا صاحبُك يزعمُ أنه قد أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَ قال ذلك؟». قالوا: نعم. فقال: «فإنِّي أشهدُ إن كان قال ذلك لقد صدقَ». فقالوا: أتصدِّقه بأنه جاء الشامَ في ليلة واحدة، ورجعَ قبل أن يُصبحَ؟ قال: «نعم؛ إني أصدِّقه بأبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرةً وعشيًّا»[1].

فكان الخبر غريبًا على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا لم يعطِ إيمانًا مطلقًا؛ لأن الذين أخبروه به أخبروه على سبيل الإزراء، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدقَ»، فعلَّق الإيمان به على ثبوت الخبر وصِدْقِهِ عن النبي ﷺ، وهكذا ينبغي أن يقول المؤمن، فلا يتعجَّل في قبول الروايات والأخبار دون تحرٍّ.

وكثير من الدُّعاة والوُعَّاظ منذ قديم يدغدغون مشاعر المتلقِّين من البسطاء والسُّذَّج بقصص خرافية أو مبالغات وتوهمات وحكايات لا أصل لها، وربما ساق مصنِّف أو واعظ أو مجاهد في الميدان رواية غريبة منكرة، ونسبها إلى ثقة صالح، فلا يلزمنا قبولها، وإنما الذي يلزمنا قبول ما جاء في الكتاب والسنة.

فلو قال لنا قائلٌ خبرًا يتعلَّق بعذاب القبر، أو بكرامات حصلت لفلان أو علان، فلا يلزم الإيمان بخصوص هذه الروايات، ولكن نؤمن بأصل الاعتقادات الشرعية، ونتوقف في تفصيل المرويات، حتى نطمئن إلى صدقها وعدالة رواتها وسلامة عقولهم وحواسهم.

يسألنا شابٌّ عن مقطع في اليوتيوب، يظن أنه يسجِّل صراخ المُعَذَّبين في قبورهم، والله تعالى جعل أمر البرزخ وعذاب القبر ونعيمه من عالم الغيب، ولو أن الناس سمعوه وشاهدوه لكان من عالم الشهادة.

نعم، صحَّ أن رسولَ الله ﷺ سمع يومًا وَجْبَةً، فقال: «تدرونَ ما هذا؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النارِ منذُ سبعينَ خريفًا، فهو يَهْوِي

(١) تقدم تخريجه في «سورة النجم»: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

في النار الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِها»(١). فنقول: صَدَّقنا بذلك؛ لأن النبيَّ ﷺ أخبرنا به.

وكذلك قال: «إن هذه الأُمَّةَ تُبتلَى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه»(٢).

فبيَّن السبب في إخفاء هذه الأمور، ولم يَدْعُ اللهَ أن يراها الناس أو يسمعوها.

المهم أن هذه أخبار قالها النبي ﷺ، أما بعد وفاته فإننا لا نستطيع أن نجزم أن فلانًا يُعَذَّب في قبره، ولا أن في هذا القبر نارًا أو نعيمًا، ولا أن ما يُسَجَّل في هذا الشريط أنه أصوات المُعَذَّبين، ولا أن ما يصوَّر في الفيديو هو مَلَكٌ أو شيطان أو طائف من الجن، وما يدرينا أن تكون تلك الأصوات حِمَمًا أو براكين أو نيرانًا تتلهَّب وتغلي، أو أصواتًا مُقَلَّدة أو مشبَّهة.

وفي الولايات المتحدة رجل من أهل الكتاب وضع عنده متحفًا، ووضع فيه ما جاء في الكتب السماوية عن الآخرة، وصوَّرها تصويرًا حسِّيًّا مشهودًا، فصوَّر الجنة والنار وغيرها، وربما سجَّل أصواتًا تتعلَّق بذلك.

والله تعالى يقول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]، أي: لا تحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم صوتًا(٣).

ولا ينبغي ربط إيمان الناس بأشياء مُحتمَلة، بل يُرْبَط إيمانهم بالحقائق القرآنية والحقائق النبوية الناصعة التي مَن آمن بها فقد آمن، ومَن كفر بها فقد كفر، أما أخبار الناس فهي مما تحتمل الصدق والكذب، ولا ينبغي أن يُمْتَحَن المكلَّف بها، ولا أن تُعتبَر حجة أو دليلًا أو برهانًا، وإن كنا نقول: إذا اغترَّ أحد وسمع هذه الأشياء واستفاد وأناب وتاب، فهو كما لو تاب بسبب سماعه لحديث موضوع أو ضعيف، هو شيء يفرح به، ولا يعني قبول الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والوَجْبَة: السَّقْطة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٤٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٣/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٣/ ١٦٣).

الحكايات الباطلة.

مهمٌّ أن تكون العقلية الإسلامية عقلية ناضجة رزينة، لا تتسرَّع في قبول الظنون والاحتمالات، ولا تتسرَّع في نفيها، فالعلم أوسع مما تظن، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولا يزال العلم البشري يحبو في مجال الروحانيات والإيمانيات والمسائل النفسية، وهذا سر شرف المصادر الشرعية التي يتلقاها المسلم بالقبول، قائلًا مع أمثاله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

* ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

إضراب وانتقال من موضوع إلى آخر، أو زجر، أو نفي، والمعنى: ليس الأمر كذلك، وليست الآيات من أساطير الأولين، بل من كلام رب العالمين.

ثم ذهب إلى تعليل ما وقعوا فيه فقال: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: أنهم كذَّبوا بسبب الرَّان الذي أصابهم[1].

والرَّان: غلاف يكون على قلب الإنسان، ويُسَمَّى: الرَّانُ، أو الرَّين[2]، وأشد منه: الطَّبْعُ، كما في قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]، وأشد منهما: القُفْل، كما في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وهي آفات تصيب قلب الإنسان، تجعله محجوبًا عن تشرُّب الحقائق فلا يقبلها، ويعمى عنها ويماري في الحقِّ.

رحلتها الطويلة مع الهوى والانحراف جعلتها تكره الخير والصدق، والطهارة والعفاف، وتحب ضدَّ ذلك من الشر والفجور، والكذب والريبة، وهذا يحدث حين يعتاد امرؤٌ حياة الرذيلة والفسق، أو الانهماك في صفة مذمومة؛ ولذا قال:

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٨٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ١٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٢٥).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١٣/ ١٩٢)، و«تاج العروس» (٣٥/ ١٣٠) «ر ي ن».

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الزمر: ٤٥].

تجد شابًّا إذا رأى فتاة محتشمة ازدراها، وامتعض لرؤيتها؛ لأنه يريد المتبرِّجة، اللَّعوب التي يسهل اصطيادها واستغلالها، وإذا وجد نفسه في بيئة محافظة جادة شَرِقَ بذلك، فهذا سببه الرَّانُ الذي يغطِّي على القلب.

ومنه ما يُسَمَّى بالإدمان، كمَن يتعاطى المخدرات، حتى تجري سمومها في دمه، فلو مُنِع عنها بالقوة صار يعاني ما يُسَمَّى بالأَعْراض الانسحابية.

ومثله إدمان الرذيلة أو المشاهدات الإباحية أو المكالمات والعلاقات المحرمة.

والرَّان شيء غير الغَين، كما في حديث: **«إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائةَ مرة»**(١). فكأن **الغَين** شيء خفيف يَعْرِض لقلوب الأخيار والصلحاء من الغفلة، فيدفعونه بالاستغفار، أما **الرَّان**، فغالبًا ما يصيب قلوب الكافرين أو أهل الفجور.

وفي ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ ﴾ بين اللام والراء إدغام عند بعضهم، وبعضهم يفصلونها بغير إدغام، فيقولون: «بلْ رَان»، وبعضهم يفصلون بينهما بسكتة لطيفة دون تنفُّس، وهذه قراءة حفص(٢).

* ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾:

وفي عطف هذه الآية على السابقة مناسَبة جميلة؛ حيث ذكر الرَّان الذي حجب قلوبهم عن الحق والمعرفة والإيمان والعمل الصالح؛ فناسب أن يكون عقابهم في الآخرة حجابًا كالذي كان عندهم في الدنيا.

والحجاب عن الله هو أنْ يُحْرَموا من رؤيته سبحانه، فلا يرونه كما يراه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأَغَر المزني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص٤٦٧)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٤٦- ٣٤٨).

المؤمنون؛ فهو تجلَّى لأهل كرامته، واحتجب عن أهل معصيته.

واستدلَّ الشافعي بهذه الآية على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

وهو استدلال بمفهوم المخالفة؛ فإن الله لما عاقب المكذِّبين بحرمانهم من رؤيته، دلَّ على أن غيرهم من المؤمنين يرونه.

وقد تضافرت الأدلة عليه، وهو مذهب أهل السنة، كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]، ورؤية الله من أعظم النعيم الذي يُنعَّمون به في الجنة، فبعد أن تنعَّموا بذكره في الدنيا، تنعموا برؤيته في الآخرة[١].

وعن جَرِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «**أما إنكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هذا القمرَ، لا تُضامُّونَ في رؤيتِه**»[٢].

والمقصود: تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي.

* وحجاب الكافرين عنه سبحانه يفعل في القلوب والأرواح مثلما تفعل النار بالأجساد من الحرقة والألم والإهانة، ولذا عقَّب بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾، وهذا عقاب أجسادهم.

والصَّلْي: الشَّي والكي والإحاطة من كل جانب[٣]، **والجحيم**: أشد النار.

* ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾:

عند ما يرون مصيرهم يوم القيامة، يقال: هذا الذي كنتم تقولون عنه: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. فكان عقاب الفجار في الآخرة: الحجاب، ثم الصَّلْي بالنار، ثم التوبيخ والتبكيت.

ولما انتهى من ذكر حال الفجَّار المكذِّبين ومآلهم، انتقل إلى الكتاب الآخر، وهو كتاب الأبرار، وهذه طريقة جارية في القرآن، أنه يكرِّر ذكر الجنة والنار،

(١) ينظر: «شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٣/ ٥١٩)، و«الحجة في بيان المحجة» لِقِوام السنة (٢/ ٥٢٤)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٩٩)، و«حادي الأرواح» (ص٢٩٢)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٩١)، و«تفسير الشافعي» (٣/ ١٤٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

والخير والشر، والإيمان والكفر[1].

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ١٨﴾:

كتابهم الذي كُتِبَت به أعمالهم، فهو صحيفة الأعمال[2].

والأبرار جمع: بَرٍّ، وهو صاحب البِرِّ، وهو اسم جنس لأعمال الخير والطاعة[3].

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأبرار هم الذين لا يُؤْذُون شيئًا حتى الذَّرَّ»[4]. والذَّرُّ: نوع من النمل، وفي الحديث الصحيح: «**نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحت شجرةٍ، فلَدَغَتْه نملةٌ، فأَمَرَ بجهازِه فأُخرِجَ من تحتِها، ثم أَمَرَ بها فأُحرِقَت، فأوحى اللهُ إليه: فهَلّا نملةً واحدةً**»[5]. يعني: أحرقت بيت النمل كله من أجل نملة واحدة قرصتك، لماذا لم تنتقم من النملة التي قرصتك فقط؟ إن كان ولا بد!

وهذا السياق مناسب لموضوع التطفيف؛ فبعد وعيد المطفِّفين وهم أهل بغي وعدوان، جاء ذكر الأبرار أصحاب العدل والإنصاف.

وليس المقصود بالبِرِّ المظهر الذي يبدو به الإنسان وكأنه أصبح معدودًا في الأخيار، بل البِرُّ هو الإيمان في الأصل، وهو من المعاني القلبية التي تفيض على الجوارح ويظهر أثرها.

والدين ظاهر وباطن، وسلوك وعمل، والإيمان قول وعمل واعتقاد، والاعتقاد هو الأصل؛ ولهذا عرَّف النبي ﷺ الإحسان بـ«**أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه**»[6]. وهذا

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) كما تقدم في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ٧﴾.

(٣) «المفردات في غريب القرآن» (ص١١٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢١١)، و«مفردات القرآن» للفراهي (ص٢٦٤).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٢٨٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٤٦)، والدينوري في «المجالسة» (٤٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شيء في القلب، وكذلك الإيمان أصل تحقيقه في القلب.

ثم درجة الإسلام، وهي الظاهر الموافِق للباطن، وكل هذه الدرجات مشروعة.

و﴿عِلِّيُّونَ﴾: كلمة عربية تُطلَق على الذين يسكنون في الأعالي[1]، وبضدهم: السُّفليُّون الذين يسكنون في الأسافل.

وقد تنوَّعت عبارات السلف في تفسيرها، فقيل: سِدرة المنتهى، وقيل: السماء السابعة، وقيل: عند العرش[2].

والمقصود: المنازل السامية الرفيعة، كما أن كتاب الفجار في سِجِّين، الذي مِن أشهر معانيه: السُّفل، وهو دليل على أن الجنة في السماء وسقفها عرش الرحمن عَزَّوَجَلَّ[3].

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾:

وهي إشادة به، وأنه بالغ مبلغ الارتفاع والسمو[4].

* ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾: تفسير لـ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، وليس تفسيرًا لـ﴿عِلِّيِّينَ﴾، وإنما دخلت كلمة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ بين الكتاب وبين وصفه؛ للتعظيم والتفخيم.

* ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾:

أي: يحضره، وقيل: يطَّلع عليه المقرَّبون[5]، وهم الملائكة والأنبياء والرسل

---

(١) كما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦- ٢١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٢).

(٤) وينظر ما تقدم في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢).

والصِّدِّيقون والشهداء، وكلهم يشهدون كتب الأبرار، وهو من بركة ما رُقِمَ فيه من الأعمال الصالحة.

* ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢)﴾:

أي: الذين هذا كتابهم، ولم يقل: «لفي النَّعيم»، بل جاء بها نكرة تشمل كل نعيم، فكل ما يُتَصوَّر أو يَخْطُر على البال من النَّعيم فهم فيه، وكأن النَّعيم وعاء، والأبرار قد وُضِعوا فيه، فهم يتنعَّمون بكل ما فيه.

ومنه: النَّعيم المعنوي، نعيم الأرواح والقلوب برضوان الله وسماع كلامه سبحانه، والنظر إلى وجهه الكريم، والرضوان، كما قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهناك النَّعيم الحِسِّي، من المآكل والمطاعم والمشارب والأصوات الجميلة، والمَلذَّات، والنكاح وألوان المتع التي نعرف، والتي لا نعرف.

* ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣)﴾:

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع: أريكة، وهي السُّرر والمتكآت التي يقعدون عليها في الجنة(١)، ثم هم ينظرون، ولم يذكر الله تعالى إلى ماذا ينظرون؟

وعند ما يأتي الإطلاق في القرآن فإنه يدل على عموم المتعلِّق، فهم هنا ينظرون إلى النَّعيم والمُلْك الذي أُعطُوه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، والإنسان يتلذَّذ بالنظر إلى ما يملك، وهو في ذاته متعة.

وينظرون إلى الأشياء الجميلة التي يلتذُّ المرء بالنظر إليها، فإن الإنسان حين ينظر إلى المناظر الجميلة يتمتَّع حتى لا يريد أن يغمض عينيه، وقد يكون هذا عنده ألذ من الطعام والشراب وألوان المَلذَّات، ولو لم تكن الأشياء ملكًا له.

وينظرون إلى وجه الله سبحانه، وهو أعظم نعيم.

وينظرون إذا شاؤوا إلى الكفار في النار، ليذَّكَّروا نعمة الله تعالى عليهم، كما في قصة الصافات، والمؤمن الذي كان له صديق في الدنيا يشكِّكه، فيحب أن

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٥٥)، (٢٤/ ٣٢٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٠٤).

ينظر إليه، فيريه الله إياه في النار، فيخاطبه وهو في النار: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٦- ٥٧].

فهذا هو نعيم الجنة، نعيم متنوِّع، تستمتع به كل جارحة، وكل حاسَّة من حواسِّ الإنسان.

* ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾:

بلغ بهم النَّعيم أن صار علامةً تُرى في وجوههم.

فكما كان أثر الطاعة والإيمان في وجوههم في الدنيا ظاهرًا، فكذلك تظهر في وجوههم نضرة النعيم(١).

* ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾:

وهذا من ألوان نعيمهم، حيث تُدار عليهم الخمر وهم في مجالسهم وسَمَرهم.

واختلفوا في «الرَّحيق» على أقوال(٢):

أنه الخمر الصافي، أو الخمر القديم المعتَّق- لأن الناس في الدنيا يعدُّونها أجود الخمر- أو الخمر الأبيض الجيِّد.

وهي خمر، لا تَذْهَب بالعقول والألباب كخمر الدنيا، وليس فيها كحول ولا سكر.

والمختوم يكون في أكواب وقوارير مغلقة خاصة بصاحبها، فهو الذي يقوم بفتحها وفضِّها، وهذا من كمال النعيم(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٦٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٤- ٢١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٢٥٤)، والمصادر السابقة.

* ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾:

والخَتْم نفسه مِسْك؛ ولذا قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾، وفي بعض القراءات: (خَتَمُهُ مِسْكٌ)[1]. فالختم الذي خُتِمَ به على القارورة أو الكأس من المسك، فما بالك بما في داخلها؟! ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾:

وكان أهل التطفيف في الدنيا يتنافسون بالدرهم والدينار، وبالتطفيف بشيء قليل من الطعام يأخذونه من أفواه الفقراء والمساكين، فـ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

أما المؤمنون فقد كانوا يتنافسون في النَّعيم العظيم الذي حُقَّ لهم أن يتنافسوا فيه، وهو ما يجب أن يكون فيه التنافس.

هـذي المـكارمُ لا قَعْبـانِ مـن لبنٍ   شِـيبا[2] بماءٍ فعـادا بعدُ أبـوالَا[3]

وهي إشارة إلى مشروعية التنافس في الخير، كالتنافس في العلم، حتى قال بعض الفقهاء: لا إيثار في القُرَب، ففي مجال القربات والطاعات ينبغي أن يتنافس الناس.

ولا يعني هذا المنع من التنافس في خير الدنيا وطيبها ومتاعها المباح وفرصها التي سُخِّرت للإنسان، مثل التنافس في تجارة يُنْفِق الإنسان منها في سبيل الله، أو وظيفة ينفع وينتفع بها، أو منصب يبذل فيه طاقته ويجد فيه نفسه، كما يتنافس الناس في الانتخابات وغيرها، فهذا يرجع إلى نيَّة الإنسان.

ولو كان لدى المرء رغبةٌ في سمعة أو مكانة أو جاه مباح، فهذا مما لا يُلام عليه، وهو طبيعة وجِبِلَّة، لكن فَرْقٌ بين إنسان في نيَّته أن ينفع الناس، وآخر همُّه الرياء والسمعة والتفاخر.

---

(١) ينظر: «المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٧)، و«الإتقان» (٤/ ١٨١)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٥٠- ٣٥١).

(٢) أي: خُلِطَا.

(٣) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٦٥) منسوبًا إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة، شاعر جاهلي، وهو والد أمية بن أبي الصلت، قاله في قصيدة مادحًا فيها سيف بن ذي يزن.

وشر منهم ثالث قصده الإضرار بالخلق والظلم والانتقام.

وعادةً لا يمكن تحصيل الخير إلا بشيء من مراعاة حظِّ النفس، وعلى المؤمن أن يصحِّح نيَّته.

وفي الآية معنى لطيف: وهو أن مجرد دخولك ميدان المنافسة محمود؛ حيث يشملك بذلك وصف المتنافسين، وأنت على خير، ولو سُبقت فحَسْبُك أن تكون من المتنافسين، ولهذا لما خَيَّرَ رسولُ الله ﷺ دُورَ الأنصار، قال له سعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله، خُيِّرَ دُورُ الأنصار، فجُعِلْنا آخِرًا! فقال ﷺ: «**أو ليس بحَسْبِكم أن تكونوا من الخيار؟**»[1].

* ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ من المَزْج، **والمَزَاج**: الشيء المختلط الممزوج[2]، وتُستخدم في الأشياء المعنوية، فيقال: فلان مزاجه متعكِّر، وإذا خُلِط شراب بشراب قيل: هذا مزيج، أو مزاج، أي: ممزوج بعضه ببعض[3].

و﴿تَسْنِيمٍ﴾: عين في الجنة، وهي أفضل ماء الجنة، وهذه العين تصب على جنانهم من علو؛ مشتقة من السَّنام، وسَنام البَعير: أعلاه، فكأنها في الجنة سَنامٌ؛ لعلوها[4].

وقال ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: «إنها تُمزَج لأصحاب اليمين مزجًا، ويشربها المقرَّبون صِرْفًا»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حُميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٦٦) «م ز ج».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٠٧).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٣)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٢٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٠٨).

(٥) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١٥٢٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٠٩١)، و«الزهد» لهناد (٦٥، ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢١)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (٣٠٦)، و«البعث والنشور» للبيهقي (٣٢٧)، و«المختارة» (١٠/ ٣٠٠) (٣٢٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣١٠).

فأصحاب اليمين يشربونها ممزوجة بغيرها، أما المقرَّبون فيشربونها صِرْفًا غير ممزوجة؛ لأن المقرَّبين أفضل من أصحاب اليمين[1].

* ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: يشرب منها المقرَّبون، فالباء بمعنى «من»، وهو معروف في اللغة[2]، فالمقرَّبون يشربونها صِرْفًا، أما الأبرار وأصحاب اليمين فإنها تُمزَج لهم مزجًا.

* ختم تعالى هذه السورة بذكر ما كان عليه الأبرار والفجار في هذه الدار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

ولم يقل: «المجرمين»، بل عرَّفهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ثم بالفعل الماضي ﴿أَجْرَمُوا۟﴾، فبيَّن أن فعلهم- وهو الإجرام- أمر مضى، فالله تعالى يذكر هؤلاء المجرمين يوم القيامة بصفتهم التي كانوا عليها في الدنيا، ولذلك قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات مما يوبِّخ الله تعالى به المجرمين يوم القيامة.

وسواء كان ذلك توبيخًا لهم، أو تقييدًا لما عملوه في الدنيا، فالأمر يتعلق بذكر معنًى مهم وواقع، وهو أنهم أجرموا، ومن أعظم إجرامهم كفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

وعند ما تجد في القرآن ذكر الإجرام والكفر، وبمقابل ذلك الإيمان، لا تجد أن شيئًا من ذلك مقرونًا باسم قبيلة أو بلد أو شخص، فالعبرة بفعل الإنسان، لا بما كان عليه الآباء والأجداد.

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِبْ أَدَبًا ... يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
فلَيسَ يُغني الحَسيبَ نِسبَتُهُ ... بلا لِسانٍ لَه ولا أَدَبِ
إِنَّ الفَتى مَن يَقُولُ: ها أَنا ذا ... لَيسَ الفَتى مَن يقول: كانَ أَبي[3]

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٩٣)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦١٣)، و«التفسير المنير» للزحيلي (٣٠/ ١٣٠).

(٢) ينظر: «المخصص» (٤/ ٢٤٠)، و«شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٣/ ٢٢)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٠٣).

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧١٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢٦/ ٤١)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٠٠)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٦).

ويُنسب إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

لَعَمـرُكَ مـا الإنسـانُ إلَّا بدينِـــهِ فَلا تَترُكِ التقوى اتّكالًا على النَّسَبْ
فقد رَفَعَ الإسـلامُ سَـلمانَ فارِسٍ وقد وَضَعَ الشِّركُ الشَّريفَ أبا لَهَب

﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾: إشارة إلى الأكابر من قريش، كأبي جهل وأبي لهب وعُتبة وشَيبة ابني رَبيعة والنضر بن الحارث وغيرهم من صناديد الكفر الذين كانوا يضحكون من المؤمنين، ويسخرون منهم في نواديهم.

وهم لم يكونوا يفعلون ذلك في الجاهلية قبل الإسلام، والله أعلم، لكن لما بُعِث الرسول ﷺ فأسلموا معه صاروا يسخرون منهم، وهذا غاية التطفيف، والتغاضي عما لديهم من الصدق وحسن النية والإخلاص.

وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك عن الأنبياء السابقين مع قومهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف: ٧].

وهذه الآية درس في التربية والأدب، فأسلوب الضحك من الآخرين أسلوب ممجوج، لا يصدر من سويٍّ حسن الخلق؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، والمرء قد يضحك من إنسان من أجل لونه، أو شكله، أو خلقته، أو طريقة كلامه، وهو خير منه عند الله، وهو فعل الذين أجرموا، وهذا غاية التنفير للمؤمن من الوقوع فيه.

* ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾:

هذا الوصف الثاني للمجرمين، فالاستهزاء لم يقع مرة أو مرتين، بل صار خُلُقًا لصيقًا بهم.

والضمير في قوله: ﴿مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ محتمَل، فيجوز أن يكون المشركون جالسين

---

(١) ينظر: «مفيد العلوم» (ص٣٧٨)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٣٧)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٢).

فيمرُّ المؤمنون بهم، فيتغامزون عند رؤيتهم، أو العكس، وهو أن يكون المؤمنون قعودًا، فإذا مرَّ المشركون نظروا إليهم فغمزوهم، وسخروا منهم.

وإبهام الضمير يشمل الحالتين معًا[1].

والفعل: ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ مشترك يدلُّ على أنه ليس فِعْلَ فرد، وإنما هو فعل جماعة يتنافسون فيه ويتسابقون إليه.

ومن معاني التغامز: اللمس بطرف اليد أو الرِّجل، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فإذا سجدَ غَمَزَني فقبضْتُ رِجلي»[2]. فيمكن أن يغمز بعضهم بعضًا، وكأنه ينبهه على المشهد الذي لا ينبغي أن يفوت.

وقد يقلِّد حركة الشخص على سبيل التنقُّص والسخرية، وهذا نوع من السَّفَه الذي لا يمتُّ إلى القيم والأخلاق بصلة، ولا يُحِقُّ حقًّا، ولا يبطل باطلًا، وغاية ما يدلُّ عليه أن الذي تصدر منه هذه الحركات سيئ الخلق، فاسد المزاج، خفيف العقل معتلِّ الشخصية.

ذلك أنهم يعيشون في مجتمع واحد، وكأنهم قد خاضوا غمار البحر في سفينة تُقِلُّهم جميعًا، فمن العقل والمروءة أن يكون بينهم قَدْر من العلاقات المشتركة الإنسانية التي تضمن التعايش والتعاشر بالحسنى، لكنهم أطاحوا بكل هذه المعاني، وصاروا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾.

ولهذا نهى الله تعالى عن الغمز واللَّمز والهمز، وتوعَّد فاعله، كما في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

* ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾:

وهذا الوصف الثالث للمجرمين.

والانقلاب: معناه الرجوع إلى معتاد يذهب إليه الإنسان[3].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢)، ومسلم (٥١٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٤)، و«روح المعاني» (٦/ ٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٣).

ولم يقل: «إلى بيوتهم» وإنما قال: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾؛ لأن هؤلاء القوم يُشْرِكون أزواجهم وأطفالهم في السخرية، فهي ليست موقفًا عابرًا، بل أصبحت جزءًا من طبيعتهم وأخلاقهم، فيُشْرِكون أزواجهم وأهلهم معهم فيها وقت الراحة والأنس والجمام!

وتكرار الفعل في قوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، يعطي صورة من أجمل الصور البلاغية، وكأن السياق يُشعِر بأنهم لا ينقلبون إلى أهلهم إلا وينقلبون فَكِهين، فهم دائمًا يرجعون بهذه الصفة، ولا يُكرَّر الفعل إلا لمثل هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾ [القصص: ٦٣]، فالتكرار جاء لإنشاء معنًى جديد، وهو ذِكْر ارتباط الانقلاب بهذه الصفة.

والجمهور يقرؤونها: ﴿فَكِهِينَ﴾ مقصورة، وقرأها عاصم، وغيره: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالمد[١]، والفرَّاء يذهب إلى التفريق بين الفعلين، والأقرب أن معناهما واحد[٢].

ومن معاني ﴿فَكِهِينَ﴾: أنهم ينقلبون متنعِّمين إلى بيوتهم، حيث المآكل والمشارب، والمطاعم والخيرات، ويشعرون بالتنعُّم والفرحة والسعادة، فالله يسجِّل عليهم النعمة التي أنعم بها عليهم فلم يشكروها ولم يقدِّروها، بل ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[٣] [إبراهيم: ٢٨].

ومن معانيها: مَرِحين، فهم أهل مرح وسرور ونعيم، فإن الكفار قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾[٤] [التوبة: ٨٢].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٥٤، ٣٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٥٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٨٦)، (٥/ ١١٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٥)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٤)، و«فتح القدير» (٤/ ٦٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢٦)، والمصادر السابقة والآتية.

ومن معانيها: ساخرين متندِّرين، **وهذا أقوى المعاني**، أي أن جزءًا من فكاهتهم ونكتهم التي يتداولونها والطرائف التي يذكرونها، هو من المعركة التي يديرونها ضدَّ الحقِّ، فإذا رجع الواحد منهم إلى أهله بدأ يحدِّث أهل بيته وسُمَّاره بما رأى، وما عمل، وما قال، وما سمع، على سبيل السخرية، ويُظهر أنه كان منتصرًا وفائزًا ومتفوِّقًا وخفيف الظل حاضر البديهة(١).

* ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾:

هذا هو الوصف الرابع للمجرمين.

فكلما رأوهم أطلقوا عليهم هذا الوصف افتراءً وتضليلًا، ويؤكِّدون الوصف بأدوات التوكيد: «إن»، واسم الإشارة، واللام في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

وماذا يريدون بالضَّلال(٢)؟

يحتمل أن مقصودهم أنهم قوم ليس لهم علم ولا فهم ولا إدراك، وذلك لأنهم- في نظر المجرمين- يعملون أعمالًا لا معنى لها إلا النَّصب والجوع والعطش، كالصلاة والصيام، ويتركون الربا مع أرباحه المضاعفة، فهذا في نظرهم ضلال.

أو يكون المقصود: الضلال في الدين، وهذا أعجب وأطرف، حين يصبح أبو جهل وأبو لهب وعتبة وشيبة والنضر حُكَّامًا في تمييز الهدى من الضلال، وقد كان فرعون من قبلهم يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ويقول عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ففرعون يتظاهر لقومه بأنه خائف من الفساد أن يظهر على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويزعم أنه يهديهم سبيل الرشاد والهدى!

والمؤمن يتألَّم مما يُقال فيه من السخرية واللَّمز، ومِن أشد الألم الذي يجده

---

(١) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (١٦/ ١٤٩٨)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٤٤٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٣).

أن يجتهد في دعوة الناس للخير والهدى، ثم يُتَّهَم بأنه يريد الإفساد وإشاعة الفتنة.. إلخ.

والالتزام بالحق له تَبِعة كبيرة، وأكثر مَن يحسُّ ذلك ويعاني تَبِعاته مَن نشأ في بيئة غير صالحة، حيث السخرية والهمز واللَّمز مِن كل ما يتميَّز به عنهم مِن سيما الصلاح وآثاره.

إن السخرية ممارسة قبيحة وحصار إعلامي وقح، يمارسه الملأ من قريش ضد دعوة النبي ﷺ؛ حتى يحولوا بين الناس وقبول الحق، وهذه سنة الله في كل دعوة تستهدف إصلاح أحوال الناس فتُبْتَلى بمَن يحاربونها.

وليس مَن يحاربها الكفار فحسب، بل يقع هذا في المسلمين، إذ تجد التنابز بالألقاب والتصنيف والسخرية والتشكيك ونشر الشائعات والأباطيل في مجتمعات المسلمين، كما تجده في المجتمعات الأخرى.

* ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾:

ولك أن تنظر إلى هذا النسف الهادئ لكل ما قالوه، فإن الله تعالى لم يَرُدَّ عليهم ردودًا طويلة مُفَصَّلة، واكتفى بهذا الرد المفحم، فهو لم يرسلهم على خصومهم حتى يحفظوهم أو يراقبوا أعمالهم.

ولم يقل: «وما أرسلوا لهم، أو إليهم»؛ لأن فعلهم فعل التسلُّط والعلوِّ وكأنهم عذاب مرسل، فالله تعالى يقول: لم نرسلهم على هؤلاء المؤمنين حافظين لأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم.

وهذا توبيخ للمشركين أنهم لم يُكلَّفوا بهذه المهمة، وتصبير للمؤمنين، وهو يومئ إلى أن الحكم والأمر والنهي والتصويب والتخطئة لله سبحانه، فما دام لم يرسلهم حافظين، فلا يهمَّنَّكم ما يقولون، ولا تلتفتوا إليهم.

وفيه تأديب عام لجميع الخلق؛ فإنه لم يُرْسَل أحدٌ حافظًا على أحد، حتى النبي ﷺ قيل له: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢]، وإنما الحافظون هم الملائكة الذين يرسِلهم الله إلى الإنسان يحفظون أقواله ويسجِّلون عليه: ﴿وَيُرۡسِلُ

عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾[1] [الأنعام: ٦١].

وعلى الناس أن يلزموا حدودهم، فلا أحد حافظٌ على أحد، إلا بمُقْتضَى مسؤوليته إن كانت، كالأب على أولاده، أو المسؤول في حدود وظيفته.

والمراقبة على تصرفات الناس تنتهي إلى البحث عن الأخطاء والعيوب والزلَّات، وقد رُوي عن النبي ﷺ: **«مَثَلُ الذي يجلسُ فيسمعُ الحكمةَ، ثم لا يحدِّثُ عن صاحبِه إلا بشرِّ ما سمعَ، كمَثَلِ رجلٍ أتى راعيًا، فقال: يا راعي، أَجْزِرني شاةً[2] من غنمِك. قال: اذهب فخذْ بأُذُنِ خيرِها، فذهب فأخذَ بأُذنِ كلبِ الغنمِ»**[3].

ومثل هذا مَن يحضر موعظة، أو يقرأ كتابًا، أو يسمع برنامجًا، فيجد علمًا وخيرًا، لكنه لا يتذكَّر إلا الزَّلل، فهو كالذي أخذ الكلب، وترك الغنم، وقد كان يسعه أن يأخذ أثمن شاة[4]!

وفي الآية وجوب عناية المرء بنفسه، وأن أولى ما يبدأ به إصلاح عيبه ورعاية سلوكه.

ابـدأ بِنَفسِـكَ فَانْهَهـا عَـن غَيِّهـا فَـإِذا انتَهَـتْ عَنـهُ فَأَنـتَ حَكيمُ[5]

ومن دروسها: أن كثيرًا من الناس يُحْسِنون ردَّ الفعل أكثر مما يُحْسِنون المبادرة، ويتفاعلون عند وقوع منكر أكثر مما يتفاعلون عند غياب معروف.

على المؤمن أن ينكر المنكَر، لكن لا ينبغي أن يكون نشاطه وحيويَّته واندفاعه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٢٨٩)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٨)، وما سيأتي في «سورة الغاشية».

(٢) أي: أعطني شاة تصلح للذبح.

(٣) أخرجه الطيالسي (٢٦٨٦)، وأحمد (٨٦٣٩، ٩٢٦٠)، وابن ماجه (٤١٧٢)، والبزار (٩٥٨١)، وأبو يعلى (٦٣٨٨)، والرامهرمزي في «الأمثال» (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٧٦١).

(٤) ينظر: «شكرًا أيها الأعداء» للمؤلف.

(٥) ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ١٧٣)، و«عيون الأخبار» (٢/ ٢٣)، و«المجالسة» للدينوري (٥/ ٣١٢) (٢١٨٥)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١١٨٨) منسوبًا إلى أبي الأسود الدُّؤلي وغيره.

مرهونًا بإثارة أو استفزاز، فإذا ذهب المثير خمد ولم يكن عنده فاعلية، لأن معنى ذلك أن يكون عدوك هو الذي يوجِّه طاقتك أو يُسَكِّنها، ويختار الموضوع والوقت والمكان الذي يستفز طاقتك فيه وإليه، وهو يفضي إلى أن يكون الناس سلبيِّين حتى توجد المثيرات أو المحفِّزات، وربما تفاعلوا معها بطريقة خاطئة تعويضًا عن سلبيتهم.

ومن دروس الآية: أن الله وصف الكفار بأنهم يضحكون ويتغامزون ويتفكَّهون، ولم يذكر عن المؤمنين أنهم قابلوا ذلك بمثله.

إن مقياس القوة ليس الصراخ والضجيج والصخب، وإنما الحجة والصبر، والنبي ﷺ يقول: «ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ[1]، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَه عند الغضبِ»[2].

فقدرتك على أن تملك نفسك عند الساخرين واللَّامزين هي القوة والكفاءة.

وفي المثل العربي: «أوسعتُهم سبًّا، وأَوْدَوا بالإبل». وذلك أن لصًّا أخذ الإبل، فتبعه الراعي يسبُّه، ويشتم آباءه، فلما أخبر الناس بخبره سألوه: ماذا فعلت؟ فذكر المثل[3]!

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ويقول أبو تمام[4]:

إذا جارَيتَ في خُلُقٍ دَنِيئًا ... فأنتَ ومَن تُجاريه سَواءُ

فإذا عاملت سفيهًا بالمِثْل، فكأنك نزلت إلى درجته، فأنت تحفظ بالإعراض مكانتَك عند الله وعند نفسك، فهو أرفع في درجاتك يوم القيامة.

وأنت بذلك تجعل المجال مفتوحًا للخير والهدى، ولهذا يقولون: كَسْب

(١) الصُّرَعة: الذي يَصْرَع الناسَ كثيرًا، والصُّرْعة: الذي يَصْرَعه غيرُه كثيرًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «الفاخر» للمفضَّل بن سلمة (ص١٧٦- ١٧٧)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١١٦)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٣٦٣)، و«المستقصى في أمثال العرب» (١/ ٤٣١)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ١٧).

(٤) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص٤٨٥).

الأشخاص أفضل من كَسْب المواقف، ومقام الهداية أولى بالرعاية من مقام النكاية.

مقام الهداية هو تأليف قلوب الناس على الخير، وهو أحب إلى الله وأنفع لعباد الله من النكاية، والغلبة والإيقاع بالخصم.

* ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤﴾:

ما زال السياق في مشهد القيامة، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في مقابل ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، وصفهم بالإيمان الذي مضى منهم، وهم قد بلغوا اليوم النعيم المقيم، وهم يضحكون من الكفار، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا يضحكون منهم في الدنيا.

فالمؤمن بقيمه وأخلاقه لا يسخر من الناس، وإنما هو داعٍ وهادٍ، والسخرية ليست من أساليب الدعوة.

وضحك الذين آمنوا من الكفار؛ لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا، وأن الكفار لم يجدوا ما منَّتهم به أنفسهم من الأماني الباطلة، ولم يجدوا لوعود الشيطان حقيقة، فحُقَّ للمؤمنين أن يضحكوا منهم كما ضحك منهم الكفار في الدنيا؛ زيادة في عذابهم، ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦﴾[1].

* ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾:

و﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جمع: أَرِيكة، وهي: السُّرُر المحجَّلة[2]، وهي مقابل ما كان عليه الكفار من التفكّه والنَّعيم، فالمؤمنون اليوم هم الفَكِهون مع أزواجهم: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

والمجالس والمتكآت المعدَّة لهم من أجمل ما يكون، مما لا يخطر على بال بشرٍ، فهم في هذا النعيم ينظرون.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٨)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٥٥)، (٢٤/ ٣٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٦)، (٨/ ٣٥٢)، وما تقدم في قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾.

وقد أطلق النظر هنا، فهم ينظرون إلى وجه الله الكريم، وينظرون إلى النَّعيم في الجنة والمُلْك، وينظر بعضهم إلى بعض لما فيه من المتعة والسرور والأنس: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

والتعبير بالمضارع: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يدل على الاستمرار، فنظر الذين آمنوا في الجنة دائم، إذ ليس يغشاهم موت ولا فوت ولا غفلة ولا نوم.

* **ومن معاني الآية**: أنهم ينظرون إلى ما جُوزي به الكفار، ولهذا ربما يكون تكرار الآية ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾؛ لقرنها بقوله سبحانه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: يشاهدون ذلك، وهم يعلمون يقينًا أنْ قد ثُوِّب الكفار، ولكن يراه عيانًا بعد ما آمنوا به في قلوبهم.

وهنا قال: ﴿ثُوِّبَ﴾، والثواب غالبًا ما يُطلَق في القرآن الكريم على الثواب الحسن، وهو الجنة، وعلى النَّعيم والرضوان؛ وقد يكون إطلاقه هنا من باب المعنى اللُّغوي العام[1].

أو يكون قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ من باب السخرية؛ لأنه تقدم ذكر سخريتهم بالمؤمنين.

وقوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ دليل على أن هذا الأمر كان منهم عادةً وخُلُقًا، جرى منهم مجرى السجيَّة النفسيَّة، وفيه إشارة إلى أهمية أن يتخلَّق الإنسان بالخُلُق الفاضل؛ حتى يكون سجيَّة له وطَبْعًا، وقد قال النبي ﷺ للأشجِّ؛ أشجِّ عبد القيس: «**إن فيك خَصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ**»[2]. وقال في رواية: يا رسولَ الله، أنا أتخلَّق بهما، أم اللهُ جَبَلَني عليهما. قال: «**بل اللهُ جَبَلَك عليهما**». قال: الحمدُ لله الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٧، ١٨) من حديث ابن عباس وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصله في «صحيح البخاري» (٥٣).

جَبَلَني على خَلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه[1].

فهي أخلاق جِبِلِّيَة، لكنها تحتاج إلى ترشيد وتحصيل وتثبيت، وقد تكون مفقودة، فيحتاج المرء إلى أن يتعلَّمها، ومن ذلك أن يتعلَّم الصبر إذا وجد مَن يستهزئ به أو يسبُّه، فلا يقابل السيئة بالسيئة، بل يعفو ويصفح، كما علَّم اللهُ المؤمنين وربَّاهم على مصانعة شياطين الإنس في ثلاث مواضع في كتابه، منها: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، والله أعلم.

○○○

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع العبدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

*** تسمية السورة:**

الذي في غالب كتب التفسير، وعلوم القرآن، وكتب الحديث، كالبخاري والترمذي وغيرهما: «سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(1).

وفي «الصحيح» عن أبي رافع قال: صلَّيت مع أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاةَ العَتَمَةِ، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، فسجد فيها، فقلتُ له: ما هذه السجدةُ؟ فقال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزالُ أسجدُ بها حتى ألقاه»(2).

وشهرتها: «سورة الانشقاق»، كما في «سنن النسائي»، وبعض التفاسير(3)، وهو مصدر، كما سلف.

وتسمَّى: «سورة ﴿ٱنشَقَّتْ﴾»، كما في بعض الكتب اختصارًا(4).

وسمَّاها بعضهم: «سورة الكَدْح»(5)؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص714)، و«معاني القراء» للفراء (3/ 249)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 407)، و«صحيح البخاري» (6/ 167)، و«جامع الترمذي» (5/ 293)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص268)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 111)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(2) أخرجه البخاري (1078)، ومسلم (578).

(3) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (10/ 328)، و«تفسير الطبري» (24/ 230)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 158)، و«الكشاف» (4/ 725)، و«المحرر الوجيز» (5/ 456)، و«تفسير القرطبي» (19/ 269)، و«روح المعاني» (15/ 286)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(4) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، (2/ 555)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 508)، و«روح المعاني» (15/ 286)، و«التحرير والتنوير» (30/ 217).

(5) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 186).

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾.

* **عدد آياتها:** خمس وعشرون آية عند الجمهور، **وقيل:** ثلاث وعشرون آية، وجمعوا قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ على أن أنهما آية واحدة، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ على أنهما آية واحدة[(١)].

* **وهي مكية** باتفاق علماء التفسير[(٢)].

* ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾:

بدئت السورة بأداة الشرط: ﴿إِذَا﴾، وهي أداة ظرف للمستقبل، كما تقدم في «سورة التكوير»، و«سورة الانفطار».

وما ورد في السورة جاء في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

والانشقاق، والانفطار معناهما واحد[(٣)].

وفي السورة طرف مما في السورتين قبلها: «التكوير»، و«الانفطار»، مع ربطه بإذن الله وإرادته، والسياق مشعر بانتقال هائل من حال إلى حال، مُؤْذِن بتغيُّر واختلاف، وفي نهاية السورة تعريج عليه وتوكيد له بقَسَم آخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾، يعني: حالًا بعد حال[(٤)]. فهذا نوع من التغير.

---

(١) ينظر: «البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص٢٦٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٨).

(٤) ينظر ما سيأتي في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

* ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾:

﴿وَأَذِنَتْ﴾ أي: استمعت، يُقال: أَذِنَ له، أي: استمع[1].

ولعله تعريض بالبشر الغافلين الذين لا يسمعون كلام الله وأمره بطوعهم واختيارهم!

وهو أبلغ من قوله: «سمعت»، أو: «استمعت»، وبين «سمع»، و«استمع» فرق، فـ«سمع»: لما يسمعه الإنسان، حتى لو كان بغير قصد، و«استمع»: إذا كان قصد الإنصات، و«أَذِنَ» أبلغ منهما، وفي الحديث: «**ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنَّى بالقرآن، يجهرُ به**»[2]. أي: استمع لنبيٍّ، قال الشاعر[3]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِـرْتُ به ... وإن ذُكِـرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

أي: أَصْغَوْا.

وكأن معترضًا قال: السماء جماد، لا يعي ولا يحس، فكيف يستمع ويَصْغِي؟

فكان الجواب في قوله سبحانه: ﴿وَحُقَّتْ﴾ يعني: وحُقَّ لها أن تأذن[4]؛ لأن الذي يخاطبها ويأمرها ربها الذي ركَّب طبيعتها وهو على تغييرها قدير.

وانشقاقها ليس اختياريًّا، بل هو أمر كوني مِن عند ربها، وكما وُجِدَت بأمر الله، وتكوَّنت بإذنه، وكانت صفتها وكينونتها بإرادته؛ فهكذا ما يطرأ عليها يوم القيامة، هو بأمره وإذنه وإرادته سبحانه.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٨)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٩٦)، و«أمالي القالي» (١/ ١٢٢)، و«الصداقة والصديق» (ص٢٢٠) منسوبًا إلى قَعْنب بن أم صاحب.

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٠- ٢٣١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٥- ٣٥٦).

* ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾:

المدُّ- كما قال ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: أن الله تعالى يبسطها يوم القيامة بسط الأَدِيم[1]، وهو الجلد، وكأن الأرض تُبسَط بسطًا، وتتحول من شكلها الكروي، لتكون مسطَّحة ممتدَّة.

ويحتمل أن المقصود: أن ما في الأرض من مرتفعات ومنخفضات تكون على مستوى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، بحيث تكون مستوية تمامًا؛ لتستوعب الناس كلهم.

وللآية احتمال ثالث، وهو التوسعة والبسط، وهو معنًى لُغويٌّ صحيح وجيه؛ فإن الله احتجَّ عليهم بأنه ينقص الأرض من أطرافها، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، فلا يمنع أن يكون من الآيات العظيمة في ذلك الموقف أن تُمَدَّ الأرض وتتسع أكثر مما كانت عليه؛ حتى تتسع للخلائق الذين يُحشَرون عليها[2].

* ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾:

ألقت ما كان في بطنها، كقوله سبحانه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، فأخرجت ما فيها من الموتى الذين كانوا في بطنها؛ ليكونوا على ظاهرها، أحياء بعدما نُفخت فيهم الأرواح[3].

ويُحتمَل أنها ألقت ما فيها من الكنوز والخزائن والمدفونات[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٧)، والمصادر السابقة.

وهذا وإن كان معنًى صحيحًا، إلا أنه ليس مناسبًا لهذا الموقف؛ لأن الأرض قبل قيام الساعة تُخْرِج كنوزها وخيراتها[1]، فيكون المقصود هنا بإلقاء ما فيها: إخراج الناس، خصوصًا وأن مدار الكلام على الإنسان، فهو محطُّ التكليف والعناية، كما سوف يأتي هنا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: والتخلِّي من الخلوِّ، وكأن المعنى: «خَلَتْ»، لكن إضافة التاء مع التشديد توحي بالمبالغة في التخلص من كل ما في بطنها، وأنه لم يبقَ في جوفها شيء ألبتة[2].

وربما كان ذلك لأنه حتى الجمادات في ذلك الموقف يكون فيها شيء من الوَجَل، تريد أن تتخلَّى مِن كل شيء حتى لا يُسائِلها أحد ولا يطالِبُها بتبعة.

ولذلك يتمنَّى الكافر أن يكون جزءًا من هذه الأرض التي ألقت ما فيها وتخلَّت، ويتمنَّى أن يكون ترابًا[3].

* ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥﴾:

تكرار في موضعه؛ لأنه ذكر السماء، فذكر استماعها لربها، ثم ذكر الأرض، وذكر استماعها لربها، وذلك في نهاية الأمر، كما حدث في بداية الخلق حين قال سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فهو تفصيل مناسب في موضعه، جاء في أعلى درجات البلاغة والتأثير.

فهذه السماء، وهذه الأرض، وهما محيطان بالإنسان قد أذنتا لربهما وجاءتا طائعتين وكأنهما من العقلاء، ولذلك عاملهما لغويًّا كذلك، فعبَّر بـ﴿طَآئِعِينَ﴾، وهو جمع الذكور السالم العاقل، فما بالك بالإنسان المزوَّد بآلة السمع، والمميِّز

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٠١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدها...».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الزلزلة»: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾.

(٣) كما في قوله تعالى في «سورة النبأ»: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ۝٤٠﴾.

بالفهم والعقل، وهو يصد ويعرض ويتغافل!

* ولذا جاء الخطاب مباشرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾:

وهذا خطاب لفرد، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المقصود به: رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: المقصود أشخاص بأعيانهم من الكفار، كأبي جهل أو أُبي بن خلف، والأقرب أن المقصود جنس الإنسان أيًا كان.

وليس فيه تخصيص أحد عن أحد، ولذا ذكر اختلاف مصيرهم بين نعيم وعذاب، مما يؤكِّد أن المقصود الجنس، أيًا كان طريقه ومذهبه، من مؤمن وكافر وبر وفاجر[1].

وخطابه تعالى للفرد دليل على شرف الإنسانية وتميزها، وها قد تخلَّت الأرض، فلم يعد عليها حساب، ولم يوجَّه إليها سؤال ولا عتاب، بخلاف الإنسان الذي حمَّله ربُّه التكليف، وجعله أهلًا لذلك، فهو سيد الأرض.

فالحرية تقابلها مسؤولية: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فمن شرف الإنسان أن يكون عاقلًا مسؤولًا محاسبًا، وإذا أخفق كان الوبال عليه عظيمًا؛ وأصبح بمنزلة أحطَّ مِن المخلوقات المُسَيَّرة التي ليس لها اختيار، كالأرض التي يطؤها والكون الذي سُخِّر له.

ومن الأهمية بمكان الحفاظ على هذه الإنسانية، ولذا جاء الإسلام بحفظ حقوق الناس، حتى قال النبيُّ ﷺ في خطبته الشهيرة في حَجَّة الوداع: **«فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم بينكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا»**[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بَكْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فوظَّف المقدَّس الزماني والمكاني الذي يرعى الناس حرمته؛ للتأكيد على أهمية حفظ الحقوق الذاتية والمالية والمعنوية والضرورات التي بها قوام الحياة.

واليوم تبدو حقوق الإنسان وكأنها مُنْتَج غربي، حتى إنَّ من المسلمين مَن يسمع كلمة حقوق، أو كرامة، أو حرية، فيحسُّ أنها ألفاظ مجلوبة من أمم أخرى، متناسيًا ترسيخ الإسلام لهذه الحقوق العظيمة في النصوص القطعية.

إن مخاطبة الإنسان بإنسانيته دليل على أن دين الله لم ينزل للإطاحة بإنسانيته أو دوس كرامته أو جرِّ ناصيته، ولكن جاء ليحفظه بالتقوى والشريعة وطاعة الله ورسوله؛ ولذلك جاءت الشرائع والحدود والعقوبات الرادعة للمتجاوزين، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال عن بني إسرائيل: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

والذين يربطون الاستجابة لدين الله بإهدار كرامة المدعو أو إذلاله، يعانون مشكلة عويصة في فهمهم لدين الله، ويعجزون عن التمييز بين الدين المنزَّه العظيم، وبين أمزجتهم ومشاعرهم وعصبياتهم النفسية والجماعية التي لم يفلحوا في الخلاص منها.

وفي شأن المعصية يقول النبيُّ ﷺ: **«إذا زَنَتِ أَمَةُ أحدِكم فتبيَّن زناها، فليجلدْها الحدَّ، ولا يثرِّبْ(١) عليها»**(٢).

ليس من حقه أن يعيِّرها أو يشتمها أو يهينها استجابة لدافع نفسي مريض، ولكن عليه أن يقيم عليها حد الله دون مواربة.

وفي حديث شَدَّاد بن أَوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبحَ، وليُحِدَّ أحدُكم**

---

(١) التثريب: التوبيخ واللَّوم على الذنب.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شفرتَه، وَلْيُرِحْ ذبيحتَه»[1].

والقتل هنا يراد به حين يكون مشروعًا للقصاص أو غيره، والذَّبح يكون لحيوان، ولا يجوز التمثيل بجثة القتيل، ولو كان قتله مشروعًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾: الكَدْح: السعي والتعب[2]؛ فالإنسان ساعٍ إلى ربِّه، ساع في آخرته وإصلاحها والاستعداد لها، وساع في دنياه بنجاحاتها وفرصها، والكدح إلى الله يشمل الاثنين معًا، ويشمل المؤمن والكافر؛ ولذا قال بعده: ﴿فَأَمَّا﴾.. ﴿وَأَمَّا﴾. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ماض إلى الآخرة ولقاء الله، وكل يوم يدنيك منها، سواء كنت يقظًا مؤمنًا، أو غافلًا، أو منكرًا.

وفي حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها»[3]. فإعتاقها بالطاعة، وإيباقها بالمعصية.

ولو تأمَّلت قدرة الإنسان وإمكانيَّاته، لوجدتَّها محدودة متواضعة، لكن الله جعل فيها أسرارًا وإعجازًا، ونوَّرها بالعقل الذي يفكِّر ويحفظ التجارب ويبني عليها حتى يحقِّق له تسخير الكون وبناء الحضارات: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

لقد أصبح الإنسان اليوم يطير في الفضاء، ويغوص في الماء، ويقرِّب المسافات، ويوظِّف ألوان الخبرات والإمكانيَّات للتسهيل والترفيه، والسعادة والراحة، والعلاج والتواصل...

والتعب والعمل جزء من الفطرة وسنة الحياة، وبقَدْر ما تكون الحياة صعبة يتحقَّق معها النجاح والتوفيق، ولو ترك الإنسان العمل؛ لكان عليه من الهموم والغموم الشيء العظيم، وبقَدْر ما يشعُر بالتعب والمرارة في العمل يشعُر بالسعادة

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١١٣)، ومسلم (١٩٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

والرضا عن الإنجاز ولو كان يسيرًا.

ولذا قال تعالى لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، هي نخلة ثابتة، ومريم امرأة ضعيفة القوى وفي حالة طَلْق، وحال نفسية أليمة، ومع ذلك يأمرها سبحانه أن تهزَّ بجذع النخلة، ويَعِدُها أنها إذا فعلت فسوف تساقط عليها النخلة رطبًا جنيًّا، فعلى الإنسان السعي، ومن الله تعالى التوفيق والنجاح.

كم يكون طعم الرُّطب لذيذًا حين يشعر الإنسان أنه أخذه بنفسه أو شارك في زراعته أو قطافه!

و﴿كَدۡحٗا﴾ مصدر يُقْصَد به التوكيد.

وقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يحتمل أمرين:

أن يكون مرجع الضمير إلى ﴿رَبِّكَ﴾ أي: إنك كادح إلى ربك فملاقٍ ربك، والخطاب عام للمؤمن والكافر، فكلهم ملاقو ربهم جل وعز، كما قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، واللقاء هنا معناه: البعث، وهذا أحد استخدامات لفظ اللقاء والملاقاة.

وثَمَّ معنى آخر، وهو رؤيته يوم القيامة، وهذا خاص بالمؤمنين.

وعليه فالمقصود هنا: فملاقيه، أي: اللقاء العام الذي يشترك فيه الناس جميعًا.

ويجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إلى الكَدْح، فالعمل الذي عملته وكدحت فيه سوف تجده في الدار الآخرة، والفاء تدل على التعقيب المباشر، فبمجرد ما يلفظ الإنسان آخر نفس من أنفاسه ينتقل إلى مرحلة اللقاء، وينتقل من طَبَقٍ إلى طَبَقٍ، ومن حال إلى حال[1].

وفيه إشارة إلى أن الإنسان يلقى جزاء عمله الدنيوي ولا يبخس شيئًا، كما

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٢).

ورد في العديد من النصوص القرآنية والنبوية، أن الله لا يظلم الكافر شيئًا، وأنه يُجازى بثواب ما عمل في الدنيا، من العافية والرزق والسمعة الحسنة وغير ذلك من عاجل الجزاء[1].

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧﴾:

أمَّا: للتقسيم، والكتاب هو: ما تُدوَّن فيه أعمال الإنسان، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة.

مع أن الذي يحاسب هو الله تعالى، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ومِن كمال عدله أن جعل لكل إنسان كتابًا يشهد بأعماله ويحصيها عليه[2].

واليمين: اليد اليمنى، وهم المؤمنون أصحاب اليمين أهل الجنة.

* ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾:

وهو العَرْض، كما في «الصحيح» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ قال لها: «**مَن حُوسِب يومَ القيامةِ عُذِّب**». فقالت له: أليس قد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «**ليس ذاك الحسابُ، إنما ذاك العَرْضُ، مَن نُوقِش الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب**»[3].

والعَرْض: أن تُعْرَض عليه ذنوبه، وفي الحديث: «**يدنو أحدُكم من ربِّه، حتى يضعَ كَنَفَه**[4] **عليه، فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرِّره، ثم يقول: إني سترتُ عليك في الدنيا، فأنا أغفرُها لك اليومَ**»[5].

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٠٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إن اللهَ لا يظلم مؤمنًا حسنةً، يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافرُ فيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنةٌ يُجْزَى بها**».

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩﴾، و«سورة المطففين»: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧﴾.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٤) أي: سِتْره.

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾:

الانقلاب: الرجوع(١)، قال الله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]، وهذا يوحي بأن العَرْض يكون في زمن يسير، ليس فيه إبطاء ولا تأخير.

والمقصود بالأهل: أهله الذين معه في الجنة(٢)، سواءً كانوا هم أهله في الدنيا، أو غيرهم، يرجع إليهم مسرورًا سرورًا لا انقطاع له ولا حِوَل عنه.

وهذا في مقابل الكَدْح في الدنيا الذي كان يصحبه- ولا بد- تعب وعناء وألم وكمد وضيق ونكد.

* ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾:

وفي «سورة الحاقة»: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]، ولا تَعَارُض بين الآيتين، فالمقصود: أن تُشَدَّ يده إلى ظهره، ثم يُؤتَى كتابَه بيده الشمال وهي وراء ظهره، كما أن يده اليمين مغلولة إلى عنقه.

ويحتمل أن الكافر يأتيه كتابه من وراء ظهره، فيأخذه بشماله من خلفه(٣).

* ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾:

أي: ينادي بالثُّبور، وجرت العادة أن الإنسان إذا نزلت به مصيبة يقول: يا ويلاه! واثبوراه! **والثُّبور**: الهلاك الأكيد الطويل(٤).

* ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

أي: يدخل عذاب السَّعير، ومثل هذا قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٩]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٨١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٩).

(٣) وتقدم في «سورة الحاقة» مزيد بيان.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤١١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٧١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٣٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٩).

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥]، ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١]، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠]، فالصَّلْي أبلغ في الوصف وأشد في النَّكال[1].

فالسَّعير تستوعبه مِن فوقه ومِن تحته، وعن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن ورائه، فهو يقاسي حرَّها وعذابها.

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾:

فقد كان مسرورًا في الدنيا بالسخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم، والسياق له صلة بسخرية المشركين بالمؤمنين بمكة، وكانوا إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين مسرورين.

وقد يكون مسرورًا بالدنيا وزينتها، وفي هذا دلالة على أن الله يمنح الكفار من لذَّات الحياة الدنيا برحمته وفضله، كما جاء في الحديث: «**إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعطي الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ، ولا يعطي الدينَ إلا لمَن أحبَّ**»[2].

وحين دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، أجابه ربُّنا سبحانه فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فحتى الكافر يرزقه الله مِن فضله، وهو يكفر به، ويعبد غيره؛ ولذلك تجد عند الكافرين شيئًا من السعادة العاجلة والاستمتاع بالأموال والأحوال والأولاد والطبيعة، لكن تظل الروح في عطش وقلق وكآبة، لا يكتمل معها سرور ولا يطول معها حُبور.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٩)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (١/ ٣٣)، (٢/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وأخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٣٤٥٤٥، ٣٤٥٧٨)، وأبو نعيم (٤/ ١٦٥)، واللَّالَكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٦٩٧). ورجَّحه العقيلي، والدارقطني، وغيرهما. ينظر: «التاريخ الكبير» (٤/ ٣١٣)، و«ضعفاء العقيلي» (٣/ ٢٢٨)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٢٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

* ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾:

﴿ظَنَّ﴾: أيقن، أو شك[1]، والحَوْر: الرجوع[2]. حار يعني: رجع، وفي الحديث: «ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوُّ الله. وليس كذلك؛ إلا حارَ عليه»[3]. يعني: رجع عليه، فهذا من معاني الحَوْر.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا سافر يستعيذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[4]، يعني: النقص بعد الكمال، والضلال بعد الهدى، والكفر بعد الإيمان[5].

والمعنى يحتمل:

١- أنه لن يُبعَث بعد الموت.

٢- على فرض البعث بعد الموت، فسوف يكون على خير ولن يُعذَّب، كما قال الله عن صاحب الجنة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، فيظن أنه لن يتغير وضعه حتى ولو بُعث.

٣- ظن أنه في ازدياد دائم ونمو متواصل، ولن يعتريه نقص، مع أن النقص سنة الله لمَن وصل إلى التمام، كما قيل[6]:

إذا تـمَّ شيءٌ بـدا نـقـصُـهُ ... تـرقَّـب زوالًا إذا قـيـل: تـمْ!

وإذا بدأ النقص فهو كالمُسْرِع النازل من قمة جبل سرعان ما يجد نفسه في قرارة الوادي.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٤٣) من حديث عبد الله بن سَرْجِس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٩/ ١١١).

(٦) ينظر: «عيون الأخبار» (٢/ ٣٥٨)، و«الزهد» لابن أبي الدنيا (ص٩٠)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص٣٩)، و«يتيمة الدهر» (٤/ ٢٥٩).

٤- التغيير، تقول: هذا الكلام فيه تحوير. يعني: فيه تغيير، وحَوَّر الشيء: غيَّره أو بدَّله.

أي: ظن أنه لن يتغير عما هو عليه، وهذا يقع للأفراد من جهة نفوسهم، فالإنسان إذا كان ممتَّعًا موسَّعًا له في الرزق والعافية والصحة والشباب، لا يكاد يتخيَّل نفسه على غير تلك الحال، ويظن أنه باقٍ عليها، وإن كان يعرف نظريًّا أن الأيام والليالي تمرُّ عليه وتؤثِّر فيه، فالغني لا يتصوَّر نفسه قد افتقر، والمُعَافى لا يتصوَّر نفسه قد مرض والشاب لا يتصوَّر نفسه قد هَرِمَ وشاخ، وهذا من أسباب الركون والغفلة.

وكذلك الأمم والجماعات، يغلب على الناس الشعور ببقاء ما هم عليه، ويستبعدون حين يسمعون مَن يحذِّرهم من عواقب الأمور، وكأنهم استثناء لا تجري عليهم السنن، ولا تحق عليهم الآيات! كما قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

* ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾:

ومَن كان بعبده بصيرًا، فلا شك أنه بصير بما في قلبه من الكفر والتكذيب والظنون.

* ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾:

هو إن كان نفيًا، إلا أنه نوع من القَسَم، فالله تعالى يقسم ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾[1].

وفي الشَّفق أقوال، أشهرها: أنها الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت أذان العشاء، نحو ساعة.

وهذا قول جماعة من الصحابة، كابن عمر وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو المعروف عند أهل اللغة، كالخليل بن أحمد والجوهري

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾، و«سورة التكوير»: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾، وما سيأتي في «سورة البلد»: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾.

وغيرهما[(١)].

وفيه أقاويل أخرى ذكرها المفسرون، كابن الجوزي، وغيره[(٢)].

* ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾:

يقسم بالليل، وبما جمعه الليل. والعطف دليل على أن قوله: «لا أقسم» هو قسم، بمثابة قوله: أقسم.

والوَسَق: الجمع، ومنه «الوَسْق» وهو إناء كبير يسع ستين صاعًا، كما هو معروف عند أهل اللغة والفقه[(٣)].

والمقصود ما يحتويه الليل من أحوال، من نوم وعبادة وطاعة ومعصية، وما يسكن فيه من حيوان وطير وهوام، وإنس وجن وحيتان، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

ويدخل فيما وَسَق: النجوم والكواكب والقمر، فهي وإن كانت موجودة في الليل والنهار، إلا أنها لا تُرى إلا بالليل، فهي به أنسب وألصق؛ ولهذا أقسم الله تعالى بالليل، وأقسم بما جمعه هذا الليل[(٤)].

* ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾:

أي: اكتمل نوره وصار بدرًا[(٥)]، والقمر مظهر من مظاهر الجمال، والعرب في

---

(١) ينظر: «العين» (٥/ ٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٢١١١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٣٣٣)، و«مسائل عبد الله بن أحمد» (١٨٦، ١٨٧)، و«الأوسط» (٢/ ٣٣٩- ٣٤٢)، و«الصحاح» (٤/ ١٨٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٢٦٩)، و«سنن البيهقي» (١/ ٣٧٣)، و«فقه العبادة» (٢/ ٧١- ٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٤).

(٣) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٠٩)، و«الصحاح» (٤/ ١٥٦٦)، و«النهاية» (٥/ ١٨٥)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٤٧١) «و س ق».

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٥، ٢٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٦٩)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٠)، والمصادر السابقة.

أشعارهم يشبِّهون الوجه الجميل بالقمر؛ لبياضه واستدارته.

وفي القَسَم إشارة للإبداع الرباني في الخلق، فالجمال والزينة مقصد من مقاصد الخلق، والنجوم زينة، والحُسن نعمة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وكذلك الانتظام والترتيب والاتساق وبلوغ الشيء كماله درجةً درجةً، ومثله التنويع والتبادل والتناوب ما بين الليل والنهار والشمس والقمر والذكر والأنثى.

* ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾:

هذا جواب القسم، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، والحسن البصري: لتركبن حالًا بعد حال[1].

والقراءة المشهورة بضم الباء: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾، لخطاب الجماعة، وفي قراءة بفتحها: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾[2]، أي: لتركبن أيها الإنسان، والمقصود الجنس، فهو ينتقل من حال إلى حال، من الطفولة إلى الشباب.. إلى الكهولة.. إلى الشيخوخة.. إلى الهرم، وتتداوله النقائض من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل، والقوة والضعف والاندفاع والفتور[3].

وانتقال الإنسان من حال إلى حال هو من الحَوْر، وفيه رَدٌّ على مَن ظن أن لن يحور، وما الانتقال من الدنيا إلى الآخرة إلا ركوب طبق عن طبق، فالحور أصل في خلقة الإنسان وكينونته، في الفرد والأسرة، والجماعة والمجتمع، والدولة والأمة، فلا تستقر الأمور، بل هي في تغير مستمر، وهذا التغيُّر فطري وضروري

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٠)، و«صحيح البخاري» (٤٩٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٠- ٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٩).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٦١- ٣٦٣).

(٣) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٩١)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٦).

يؤكِّد أن الإنسان مربوب مخلوق على صفة خاصة، فلا استقرار ولا استمرار.

والكَدْح المذكور يستدعي التغير والانتقال فيما يظن أنه أفضل وأكمل، وكدح المؤمن يشمل الشكر والطاعة والعبادة، وهي بحسب الحال التي هو عليها، فطاعة الصغير ليست كالكبير، وطاعة الغني ليست كالفقير، والصحيح ليس كالمريض، والقوي ليس كالضعيف، والعزيز ليس كالذليل.. وتغيرات الحياة تتطلَّب الكَدْح واليقظة المستمرة.

والمعتاد في اللغة أن يقال: «لتركبن طبقًا بعد طبق»، لكن قوله: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أقوى وأبلغ في الدلالة؛ لأنها تدل على عمق التبدل والانتقال، كأنه ينتقل من طبق إلى طبق آخر، فيدل على التبدُّل وركوب حالة كأنها الدابة التي توصل المرء إلى مراده ونهايته.

ومن معاني «الطَّبَق» في اللغة: الشدة، حتى إن العرب يسمون المصيبة أو الداهية: بنت طَبَـق، ومن أسماء الحيات عندهم: أم طَبَقٍ، وبنت طَبَق، وهذا اسم حية مخيفة، فاستعاروه للنوازل والمصائب التي تلمُّ بالإنسان(١).

إن طبيعة الحياة الانتقال والتغير، انتقال تفرضه المرحلة العمرية، أو انتقال لما هو أفضل؛ من الجهل إلى العلم، ومن المعصية إلى الطاعة، أو انتقال متصل بطبيعة الحياة والمجتمع ومستواه الاقتصادي والثقافي، انتقال اختياري طوعي، أو انتقال قَسْري اضطراري.

وقد رأيتُ الناس يتشاءمون بما يقع من التغيرات، وينظرون إلى الجانب المظلم منها، وينظرون للماضي دائمًا على أنه خير من الحاضر، ويظنون القادم أسوأ؛ بسبب الإفراط في الخوف، والخير للإنسان أَلَّا يفرط في التشاؤم، والتوازن مطلوب، والوسط هو جادة المنهج الحق.

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس كل ما يقع من التغيير هو بإرادة الإنسان، بل ثَمَّ

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥١٦)، و«لسان العرب» (١٠/ ٢١٣)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٥٣) «ط ب ق».

تغييرات جارية متصلة بالشَّفق والليل، والقمر، فالزمن يفعل فعله في الأجساد والعقول والنفوس والأحوال.

وقد حاول الأطباء البحث عن دواء يؤخِّر الشيخوخة، فلم يعودوا بطائل، ولو أمكن هذا فأنَّى لهم أن يؤخِّروا الموت: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

ولذلك كان كثير من الحكماء يقول: إذا رأيتَ تحولات تقع عليك، فاعلم أن التدبير بيد غيرك.

والزمن وعاء للتحولات الإرادية المبنية على الرؤية والتخطيط والفعل والمبادرة، ولا يصح معها حرق المراحل، ولا استعجال النتائج.

* ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

سؤال استنكاري، أَبَعْدَ كل هذه الآيات والدلائل على ألوهية الله وقدرته على البعث والنشور لا يؤمنون!؟

* ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾:

والمقصود بالسجود: الطاعة والامتثال(١)؛ ولهذا قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست من عزائم السجود؛ لأن المقصود فيها ليس فعل السجود، وإنما ما يترتب على سماع القرآن من الإيمان، والخضوع لله سبحانه، والتوجه بالعبادة له وحده؛ فالعتب لتركهم الإيمان والاستجابة لله.

وقد ورد في «الصحيحين» أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلَّى بالناس فقرأها وسجد، وأخبرَ أنه سجدَ بها خلف النبي ﷺ(٢)؛ ولذلك عَدَّها الشافعي وأحمد وغيرهما من مواضع السجود في القرآن، وعددها أربعة عشر موضعًا(٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٦٦، ١٠٧٤)، و«صحيح مسلم» (٥٧٨).

(٣) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ٣٤٧- ٣٥٣).

* ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾:

﴿بَلِ﴾ للإضراب وبيان السبب[1]، و﴿يُكَذِّبُونَ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، فهم كلما ورد إلى قلوبهم وارد من دواعي الإيمان جحدوه وقاوموه، بدل أن يؤمنوا ويسجدوا[2].

وهل الآية عامَّة في الكفار كلهم، أم هي لبعضهم؟

الأرجح أنها لبعضهم؛ لأن الله تعالى ذكر إسلام بعضهم، والواقع يشهد لهذا، فكم من أمة أو طائفة دُعيت إلى الإسلام فأسلمت، وصَدَقَت في إسلامها.

فهؤلاء الذين أسلموا، وكانوا بالأمس كفارًا، كان سبب كفرهم في الغالب الجهل وليس الكِبْر والمعاندة، فلم يأتهم بشير ولا نذير، ولم تقم عليهم حجة، ولم يسمعوا الحق بصفائه من غير تشويه، ومجموع أخبار القرآن عن المعرضين تدل على أن من الناس مَن يكفر جحودًا وهو يعلم الحق، وهؤلاء ممن أخبر الله عنهم في هذه الآية.

وبعض الناس يقع له شك أو تردد، ثم يزول بالبحث والتحرِّي والنظر، وهذه أحوال مختلفة، وعليه فالسياق في حق فئة من الكفار، خصوصًا صناديد قريش المعاندين.

* ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾:

﴿يُوعُونَ﴾: من الوعاء، كما تضع الشيء في وعاء[3]. فالله أعلم بما يوعون،

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة القيامة»: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ١٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٢)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٩٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٦/ ١٥٠٩)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٤٢٧).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨١٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٤).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٤)، و«معاني القرآن» لابن قتيبة (ص٥٢١).

أي: بما تحويه قلوبهم من التكذيب إن كانوا مكذِّبين، أو من الجحد إن كانوا جاحدين، أو من الحقد على النبي ﷺ، أو الكيد والمؤامرة؛ لأنهم لم يقتصروا على الكفر فحسب، بل زادوا الحرب وصد الناس عن الإيمان، والاستهزاء بالمؤمنين(١).

* ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾:

ولفظ البشارة سيق مساق الاستهزاء والسخرية؛ لأنهم كانوا يبطنون في قلوبهم شيئًا، ويظهرون بألسنتهم شيئًا آخر، فجاءت الآية تقول: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، والبشارة في الظاهر تُستخدَم في الخير، وفي الحقيقة في نقيضه في حقهم، فعوملوا بجنس فعلهم(٢).

والمقصود: يوم القيامة، وهو في مقابل السرور الذي كانوا فيه في الدنيا(٣).

* ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾:

هذا استثناء، وهو عند جمهور المفسرين متصل غير منقطع، يعني: بشِّر الكافرين بعذاب أليم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهذا يعني أنهم بدَّلوا الكفر بالإيمان، وبدَّلوا الأعمال السيئة التي كانوا يعملونها بالعمل الصالح.

ولا يمنع هذا أن يكون المقصود كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء سبق هذا الإيمان كفر أو لم يسبقه؛ لأنه إذا جاز أن يكون هذا الوعد لقوم كفروا وكذَّبوا وعاندوا، ثم آمنوا وعملوا الصالحات، فوسعتهم رحمة ربنا سبحانه،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٧٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٣٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٠).

(٣) كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

وينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٧٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٣)، و«تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ١٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٦).

ووعدهم بالأجر والفضل، فلأن يكون ذلك لـمَن لم يسبق منه كفر ولا عناد من باب أولى[1].

وفيها تأكيد ما بين الإيمان والعمل الصالح من اتصال وثيق، ولفظ الإيمان يعمُّ العمل الصالح؛ وذُكر هنا على سبيل التوكيد، وأن الإيمان ليس مجرد عمل القلب، بل هو وما يفضي إليه من الأعمال الصالحة.

وأجرهم ليس فيه مَنٌّ ولا أذى، وشأن الناس أنهم يمنُّون إذا أعطوا، فبيَّن سبحانه أن الأجر الذي يُعطَون ليس فيه مَنٌّ ولا أذى لهم ولا إهدار لإنسانيتهم.

وللآية معنى آخر، وهو أن الأجر دائم مستمر بلا انقطاع، جزاء كدحهم في العبادة والطاعة الذي استغرق عمرهم كله؛ ولذلك ورد أن الإنسان لو ترك العمل الصالح لعذر مثل مرض أو سفر أو هَرَم، فإنه يُكتَب له ما كان يعمله وهو صحيح مقيم[2].

وتحتمل الآية معنًى ثالثًا، وهو: الزيادة وعدم النقصان، أي: غير منقوص، فإنه لا ينقص مع الوقت، بل هو مستمر، وفي زيادة، فكل يوم لهم من ربهم سبحانه هدايا وإفضالات عظيمة.

والآية الكريمة تشمل أجر الدنيا وأجر الآخرة[3].

○○○

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٤).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢).

سُورَةُ البُرُوجِ

* **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «سورة البُروج». وهو المثبت في المصاحف، وغالب كتب التفسير[1].

وورد تسميتها بـ«سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾»، كما في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ونحوهما من السور[2].

* **عدد آياتها:** اثنان وعشرون آية، وليس في ذلك خلاف فيما أعلم[3].

* **وهي مكية** باتفاق أهل التفسير، ذكره جمع[4]، وواضح من سياق السورة وموضوعاتها أنها مكية.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٨)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه الطيالسي (٨١١)، وأحمد (٢٠٩٨٢، ٢١٠١٨، ٢١٠٤٨)، وأبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والنسائي (٢/ ١٦٦)، وفي «الكبرى» (١٠٥٣)، وابن حبان (١٨٢٧).

ووردت روايات بدون الواو فيهما: «السماء ذات البروج»، «السماء والطارق». وينظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٢٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦، ٢٥٧).

وهي من السور القليلة المخصَّصة من أولها إلى آخرها لمعالجة قصة واحدة، وهي في هذا تشبه «سورة يوسف»، المخصَّصة لسرد القصة، واستنطاق عبرها، ولفت الأنظار إلى دروسها.

وقد اختلف العلماء والمؤرِّخون في قصة الأخدود، والأقرب أنها وقعت في أطراف اليمن، في منطقة نجران، وعندهم وادٍ يسمى بالأُخدود، وقد يكون هذا الاسم مُستحدَثًا، لكن غالب الروايات التاريخية تؤكِّد أن نجران هي مسرح القصة.

وكان وقوعها بعد الـ(٥٠٠) من الميلاد، في عام (٥٢٢) أو (٥٢٣)، فهي قبل حادثة أصحاب الفيل، وقبل ميلاد النبي ﷺ بعشرات السنين.

وهذا يجعل من المحتمَل أن يكون بعض القصة وصل إلى العرب، وتداولوه وعرفوه، فيكون حديث القرآن عن هذه القصة هو لاستخراج العبر، ولتصحيح الروايات المغلوطة، وإن كنا لا نعرف في شعر العرب- الذي هو ديوان حياتهم وسِجل ثقافتهم- نصوصًا تؤكِّد معرفتهم بهذه القصة، فالله أعلم.

وقد ورد في «صحيح مسلم» قصة الغلام والساحر والرَّاهب، وأن هذا الغلام- الذي يقال: إن اسمه: عبد الله- تردَّد بين الساحر والراهب؛ لينظر أيهما أصدق وأحب إلى الله، فجعل الله له آية في الدابة التي حبست الناسَ، فدعا الله، فقال: «اللهمَّ إن كان أمرُ الرَّاهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتُلْ هذه الدابةَ؛ حتى يمضيَ الناسُ». وأخذ حجرًا، فرماها فقتلها، وخرج الناسُ وانطلقوا يمشون في طريقهم، ثم عالج وزيرَ المَلِك فشُفِي وكان أعمى، ثم علم به الملك وقرَّره على الشرك بالله، فأصرَّ الغلام على الإيمان، فقتله بقوله: «بسم الله رب الغلام».. بعد أحداث مذكورة في الحديث؛ فآمن الناسُ كلهم، وقالوا: آمنا برب الغلام. فخدَّ المَلِك لهم أخاديد، وحفر لهم في الأرض، وعرضهم على النار، فمَن ارتدَّ منهم تركه، ومَن أصرَّ منهم على التوحيد أحرقه(١).

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٣٠٠٥).

وليس في السياق النبوي نصٌّ على أن هذه هي قصة أصحاب الأُخدود، إلَّا أن السياق متقارب، وعلى ما هو ظاهر من السياق، فإن الملك الذي عذَّبهم كان مشركًا، والوثنية كانت موجودة في منطقة اليمن.

وهناك احتمال آخر، **وهو الأرجح عند المؤرِّخين**، أن الملك الذي عَذَّبهم هو: يوسف ذو نُوَاس، وكان يهوديًّا، واليهود أيضًا كان لهم وجود في اليمن، وكانت لهم فيها هيمنة اقتصادية، فكأن النصارى بنجران صار لهم شوكة وقوة ونفوذ، وكان بينهم وبين اليهود اختلاف، فاستنجد اليهود بهذا الملك، فأتى وأنجدهم وعرض المؤمنين على النار وأحرقهم.

وكان من جرَّاء ذلك أن تداعت الأمم النصرانية لنجدة إخوانهم، ولقتال هذا الملك الظالم، وجاءت جيوش الحبشة وغيرها، وهزمت الملك، حتى قيل: إنه في آخر أمره ألقى بنفسه في البحر فغرق(1).

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾:

أقسم تعالى بالسماء المعروفة، وبـ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾، وهي جمع: بُرْجٍ، وهو مأخوذ من التبرُّج، وهو الظهور، كما يقال: تبرَّجت المرأة؛ إذا أظهرت مفاتنها، والبُرْج يُطلَق على القصر، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فالبرج المُشَيَّد هو القصر(2).

والبُرْج يُطلق على النجم، قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾(3) [الفرقان: ٦١].

---

(١) ينظر: «نسب مَعَد» (٢/ ٥٤٧)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (١/ ١٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٩)، و«تاريخ دمشق» (٧١/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٠، ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٣٤- ٢٣٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ١٠٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ٤٧٩)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٤٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٠- ٣١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١٦)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ١٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٦٥)، والمصادر السابقة.

وتطلق ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾ على منازل الشمس والقمر التي يلحظها الفلكيُّون[1]، وإلَّا فهي ليست في الواقع منازل، لكنهم من خلال مراقبتهم لحركة الشمس في اليوم، وحركة القمر في الشهر، يلاحظون الجِرْم الفلكي ينتقل من منزل إلى آخر فيما يرى الإنسان، حتى إنهم يقولون: إن القمر يمكث في كل برج يومين وثلث يوم تقريبًا، فيظهر في ثمانية وعشرين يومًا، ويبقى يومين يستتر فيها فلا يُرى، وهي التي تُسمَّى: ليالي السِّرار[2].

فهذه البُروج مجموعة ثابتة من الأبعاد لا تتفاوت فيما بينها، ينزل فيها القمر أو تنزل فيها الشمس، يتخيَّلها الناس، ويسمُّونها بُروجًا، وهي اثنا عشر بُرْجًا، أطلقوا عليها أسماء بحسب شكلها، كالأسد، والحُوت، والدَّلْو، والسَّرطان، والسُّنبلة، والحَمَل، والثَّور، والعقرب، والجَدْي.

وأجمع المفسِّرون على أن اليوم الموعود هو يوم القيامة[3]، وورد في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا وموقوفًا: «**اليومُ الموعودُ: يومُ القيامة**»[4].

* ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾:

واختلفت أقوال أهل التفسير إلى أكثر من أربعة وعشرين قولًا في تفسير

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (٢/ ٧٩)، و«مختار الصحاح» (ص١٤٦)، و«تاج العروس» (١٢/ ١٦) «س ر ر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٧٢)، والترمذي (٣٣٣٩)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٠٨٧)، وابن عدي (٢/ ٢١٩)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠)، وفي «شعب الإيمان» (٣٤٨٢)، وابن عساكر في «فضل يوم عرفة» (٥) مرفوعًا.

وأخرجه موقوفًا: أحمد (٧٩٧٢، ٧٩٧٣)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠)، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٦٨٨)، و«علل الدارقطني» (١١/ ١٢٠)، و«زاد المعاد» (١/ ٣٩٨- ٣٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٢).

«الشاهد»، و«المشهود»، **ولعل المقصود**: كل شاهد وكل مشهود(١)، فكل ما ورد في القرآن والسنة أو صحَّ في العقل أو الحس أنه شاهد أو مشهود، فقد أقسم الله به هنا.

وأعظم شاهد هو: الله سبحانه؛ كما قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]. وهو خير الشاهدين.

ثم النبي محمد ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وكذلك الأنبياء؛ لأنهم يشهدون على أممهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].

ويقول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

ويدخل فيه: الملائكة الحَفَظَة، والشهود من الناس، حتى الأرض تدخل في الشاهد؛ لأنها تشهد على الإنسان بما عمل عليها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤- ٥].

ويدخل في ذلك: أعضاء الإنسان؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤].

فكل ما صحَّ أنه شاهد، فهو داخل في هذا القَسَم العام.

والمشهود: كل مُبْصَر- بفتح الصاد- تصحُّ الشهادة عليه، من أعمال الناس وأقوالهم، من الخير ومن الشر(٢).

ففي هذا القسم معنى عظيم مناسب للقصة؛ فالله تعالى أقسم بالسماء ذات البروج، في مقابلة الأُخدود الذي حفروه في الأرض، ووضعوا فيه النيران، وأحرقوا فيه المؤمنين، فكأنه تعالى أقسم بالسماء؛ إشارة إلى مَن هو فوق السماء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٣- ٢٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤- ١٩٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٢- ٢٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣- ٤٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

عَزَّوَجَلَّ، ينتقم ويعاقب الظالمين، وينتصر للمؤمنين ولو بعد حين.

وأشار في اليوم الموعود إلى وقت الحساب والجزاء، وإيصال الحق إلى أصحابه، ونزول العقوبة بالظالمين.

وأشار بالشاهد والمشهود إلى ضبط الحوادث وحفظها، وأنه لا يضيع منها شيء، فكل شيء محفوظ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، أي: في كتاب بَيِّن مقروء[١].

* أقسم تعالى بهذه المعاني الثلاثة على معنى، وهو على الراجح ما ذكره بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، والقتل في لغة القرآن يأتي بمعنى اللَّعن[٢]، فالمعنى أن الله أقسم بأنه قد لعنهم.

والمقصود بـ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: الظَّلَمَة الذين قَتَلوا المؤمنين[٣].

ويجوز أن يكون المقصود: المؤمنين الذين أُحْرِقوا، فيكون معنى القتل: الموت بالإحراق بالنار الذي حصل لهم على أيدي الظالمين.

ولكن هذا معنى ضعيف، والأول أقوى؛ أنه إشعار أن عقوبة الله ولعنته حلَّت على أولئك القتلة الفجرة المارقين الذين كانوا يتلذَّذون بمشاهدة المؤمنين من الرجال والنساء، والصبيان والنار تشويهم.

وهي حادثة بشعة؛ لأن التعذيب بالنار من أبشع ألوان التعذيب، ولهذا توعَّد الله به الكافرين يوم القيامة، وأنت لو رأيتَ صور بعض الناس الذين أصابتهم النار وأحرقت وجوههم أو أجسادهم، لرأيتَ مشهدًا يقشعر منه البدن، حتى لا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٤١٢)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٥٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٦/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٦٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٤١٥)، (٢٤/ ٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«تاج العروس» (٣٠/ ٢٣٤) «ق ت ل»، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٤).

يكاد يطيق الإنسان رؤية الجسد المتهتك المحترِق، وصاحبه يصيح من الألم؛ لأن الجلد هو موضع الإحساس، فإذا تسلَّطت عليه النار تألَّم.

فهذا الحدث مشهد رَعِيب، وحادث مروِّع؛ لكن السياق يضعه في وضعه الطبيعي، حين يربطه بالزمان وبالمكان، يربطه بالسماء ذات البُروج، وكأنه يقول: ارفع رأسك، وانظر إلى ما عن يمينك وشمالك، وأمامك ووراءك، وما فوقك من آيات الخلق والإبداع، فلا يكن نظرك مقصورًا على حادثة معيَّنة، أو مصيبة أو نازلة، بحيث تقيدك أو تعيقك حتى تشلَّ تفكيرك وتسيطر على مشاعرك، فهنا امتداد مكاني يخفِّف من التحديق في الواقعة الخاصة وكأنها كل ما هنالك!

وثَمَّ امتداد آخر زماني في قوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾، فهذا الحادث الذي وقع لن يستغرق أكثر من ساعات أو أيام، وهي بالنسبة لعمر الدنيا ومضة عابرة، والدنيا نفسها قصيرة بالنسبة للآخرة: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وهذا من شأنه أن يجعل نظر الإنسان إلى المصيبة نظرًا متوازنًا، فبقدر ما يتألم منها، فإنه يتصوَّرها ضمن سياق مكاني وزماني واسع، فلا تعجزه هذه الحادثة أن يفهم مقاصدها وأسرارها، فلا يجعلها حجر الزاوية في شعوره وتفكيره ونظره وفهمه ومنهجيته.

وفي قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: نسبهم إلى الأُخدود؛ لأنهم الذين حفروه؛ ليحرقوا فيه المؤمنين، والأُخدود معروف، وهو: الشَّقُّ في الأرض(١).

* ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾:

و﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ ليس هو النار، وإنما هو المكان المحفور الذي وُضِعَت فيه النار، لكن كأن هذه الأخاديد مُلِئت نيرانًا، حتى جعل النار بدلًا من الأُخدود، ويسمَّى

(١) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص٩٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٧٥)، و«إعراب القرآن» لقِوام السُّنَّة (ص٥٠٩)، و«لسان العرب» (٣/ ١٦١)، و«تاج العروس» (٨/ ٥٢) «خ د د».

هذا: بدل الاشتمال؛ وفي ذلك إشارة إلى كثرة الوقود الذي وُضِع في الأُخدود(١).

* ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾:

والمقصود: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، وهم ذو نُواس وأعوانه الذين أوقدوا النار، فقعدوا حولها كأنما هم في حالة استعراض، يتفرَّجون ويتمتعون كما يتمتع الآكل بمظهر اللحم يُشوى على النار، وفي هذا عدة معانٍ:

١- الإشارة إلى أنهم هم الذين تولَّوا كِبْرَ العمل بأنفسهم وبطوعهم واختيارهم، وليس هذا مجرد حادث عارض- كما يقال- أو أنه تصرُّف من بعض الدوائر أو الأشخاص الثانويين، كما جرت العادة أن الطغاة يتنصَّلون من تبعات أعمالهم بنسبتها إلى مَن دونهم! بل قاموا به عن عمد وسبق إصرار.

٢- والإشارة إلى الجحود والقسوة والغلظة التي في قلوبهم، إلى درجة أنهم يرون هذا المشهد الأليم من صراخ الصغار وتألُّم الكبار من شدة الإحراق، فلا تلين قلوبهم ولا ترقُّ، وهذا غاية في الوقاحة والقسوة والغلظة.

* ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾:

فهم شهود على أنفسهم، شهدوا فعل أنفسهم وشهدوا نتيجته، وتأتي ﴿شُهُودٌ﴾ بمعنى: حضور، فهذا يتناسب مع قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾، فهم شهود على أنفسهم في الدنيا، وهم شهود على أنفسهم يوم القيامة(٢).

وفي الآية إلماحٌ إلى سبب التعذيب، وهو أن المُعَذَّبين قوم مؤمنون، فلم يقع من هؤلاء المؤمنين ظلم ولا عدوان، إنما جريرتهم الوحيدة هي الإيمان بالله، ولذا وصفهم بالمؤمنين.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨١٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٧٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٩).

إن المؤمن قد يعذَّب في الآخرة لذنب ارتكبه، وقد يعذَّب في الدنيا أو يعاقب على تجاوزِ حدٍّ من حدود الله، أو عدوان على أحد من عباد الله، أو إفساد في الأرض، وهذا العذاب ليس لإيمانه، بل لما يقتضي الإيمانُ الحقُّ تركَه والنأيَ عنه.

وعلينا أن نفرِّق بين استهداف المؤمن لأنه مؤمن فحسب، وبين استهدافه بحقٍّ، وبين استهداف بسبب آخر قد لا يكون حقًّا، ولكنه ليس بسبب الإيمان، كما يقع عادة في الخصومات بين الناس على الدنيا والمال والعقار والمناصب.

وعلى العبد أن يعرف متى يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* وجاءت الآية التالية؛ لتؤكِّد هذا المعنى في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾:

أي: ما غضبوا عليهم ولا آخذوهم بشيء من أمر الدنيا إلا لإيمانهم، وفعل: ﴿نَقَمُواْ﴾، أو: (نَقِمُواْ)، له وجهان في اللغة، والأشهر هو الفتح[1].

وتعليل القتل بالإيمان يوحي بأن الذين قاموا بالقتل من المشركين، أو من اليهود، واليهود يؤمنون بالله العزيز الحميد في الجملة، وديانتهم ديانة توحيدية، ولكن هؤلاء الحكام الظلمة سخَّروا الديانة لخدمة أغراضهم، ومن أجل أن يدين لهم قومهم، وحقيقتهم أبعد ما تكون عنها، كما شهد الله عليهم هنا أنهم قتلوا القوم؛ لمجرد أنهم آمنوا بالله.

والعزيز والحميد: اسمان من أسماء الله؛ فـ«العزيز» اسمه، والعزة صفته، فهو عزيز غالب، قادر على أن ينتقم من هؤلاء المعتدين، فالاسم مناسب للانتقام من المجرمين.

و«الحميد» من معانيه: المحمود، الذي يُحْمَد على الخير وعلى كل حال.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٨٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٢٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٤)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٦٩).

ومن معانيه: أن يحمد عباده على الخير، فيكون قريبًا من «الشكور»[1].

فهو سوف يكافئ المؤمنين على ثباتهم على دينهم، وقد عُذِّبوا بعذاب الحريق في الأُخدود.

* ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾:

وهؤلاء الذين قتلوا المؤمنين هم ملوك أو فيهم ملوك كذي نُواس، فالله تعالى أعظم منهم مُلْكًا وقوة، فله ملك السماوات والأرض، وما ذو نُواس ومَن فوقه إلَّا ذرة في بحر ملكه وخلقه، وهذا مُتَضَمِّن للتذكير بأن الله قادر عليهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو تعالى شاهد، يرى ويعلم ويسمع، وإجرام المجرمين ليس بغائب عن شهادته وعلمه، وسوف ينتقم منهم.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾:

الفَتْنُ في اللغة هو: الإحراق، ومنه: فَتَنْتُ الذهب، أي: وضعته على النار؛ حتى يتميَّز طيبه من رديئه، وصافيه من مغشوشه[2].

وهو هنا بمعنى: أحرقوا المؤمنين، وابتلوهم بالنار والعذاب[3].

وفي ذكر المؤمنات هنا إشارة إلى صبرهن وقوة إيمانهن، والتشنيع على أولئك المجرمين الذين امتد إجرامهم ليشمل النساء مع الرجال، وقد جاء في الحديث المتقدم، أن امرأةً كان معها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّهْ، اصبري؛ فإنك على الحقِّ[4].

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٣، ٥٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٢٥، ٢٣٧)، و«مع الله» (ص٨٣، ١٦١، ٢٢٧).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٣١٧)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٤٨٩) «ف ت ن»، وما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٨- ٧١٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠، ٢٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٥).

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

والعدوان على الناس جريمة، فإذا كان العدوان على النساء وبالإحراق، فهو أبشع وأشنع.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إشارة إلى أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم، لكنهم لم يتوبوا، وهذا من سعة فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم قوم أحرقوا المؤمنين والمؤمنات وكفروا بالله، ثم يعرض الله تعالى عليهم التوبة، فلو تابوا بعد ما فعلوا الذي فعلوا، لتاب الله عليهم، كما قال الحسن البصري(١).

وفي هذا فتح لباب التوبة لكل مذنب مهما عظم ذنبه، حتى لزعماء قريش الكفار الذين كان القرآن ينزل عليهم وهم مكذِّبون، وتتعجب أن بعض المؤمنين قد يقع في ذنب ثم يحيط به اليأس حتى يقول: لا يغفر الله لي. وهذا قنوط من رحمة الله، ويأس من رَوْح الله، وقد حذَّر الله منه فقال: ﴿وَلَا تَأْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

المؤمن العارف بربه، يمدحه باسمه: الرحمن الرحيم، فيتعلم معنى رحمة الله، ولا ييأس من رَوْح الله، ويكرِّر الندم والتوبة، ويتقرَّب إلى ربه كلما أذنب.

ويُؤخذ من سياق الآية أن القاتل له توبة، وقد نُقِلَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لا يرى لقاتل العمد توبة(٢).

وهذا مرجوح؛ فإن المشرك إذا تاب تاب الله عليه، والساحر إذا تاب تاب الله عليه، فكذلك القاتل إذا تاب تاب الله عليه، وما نُقِلَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ربما كان في حادثة عين، فقد رُوي أنه جاءه رجل يسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «لا؛ إِلَّا النار». فربما غلب على ظن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذا الرجل قد همَّ بأن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٨).

(٢) أخرجه ابن الجعد (٨٢٤)، والبخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).

وينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٩٠)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٢، ٣٤٥)، (١٧/ ٥٠٨)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٩٤- ٥٩٧، ٦٠٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٩).

يقتل رجلًا ثم يتوب بعد ذلك، فقال له: «لا»؛ حتى يزجره ويردعه عن الفعل(١).

أو مراده أن حقوق العباد لا تُمحى بمجرد التوبة.

أما لو أن إنسانًا قتل وتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه، على الصحيح؛ لقصة الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم تاب فمات وهو في طريقه إلى بلد يريد أن يقيم مع الصالحين فيه، فتنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقبضته ملائكة الرحمة(٢).

وهذه التوبة تنفعه في الآخرة، أما أحكام الدنيا فالأصل أن يؤاخذ على جرمه.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: قال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق هو النار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت وامتدت حتى أتت على الظالمين.

وهذا ليس ببعيد ولا غريب، ولكنه لا يثبت بالأسانيد الصحيحة، فيبقى الاحتمال الآخر- وهو الأقوى-: أن المعنى مضاعفة العذاب لهم في الدار الآخرة(٣).

والمعذَّبون تتفاوت عقوباتهم في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فزادهم الله تعالى عذابًا فوق العذاب؛ لأنهم أضافوا إلى الكفر الصدَّ عن سبيل الله، فالكافر الذي لا يدعو إلى كفره أقلُّ عذابًا من الكافر الداعي، وهكذا أصحاب الأُخدود؛ لم يكتفوا بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، بل قاموا بإحراق

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٧٧٥٣)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٣٣)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٣٨٩)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٦٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ١٦٥).

ورُوي عنه أنه قال: «ليس لقاتل مؤمن توبة، إلَّا أن يستغفر الله». ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٦١٧)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي عُبيد (٤٩٣)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٧)، و«السنة» للخلال (١٢٣٨)، والمصادر السابقة.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٤).

المؤمنين، فناسب أن يضاعف لهم العذاب.

وكأن المعنى: أنهم يشتركون مع عموم الكافرين في جهنم، ولكن يُخَصُّون بمزيد من العذاب من نوع الإحراق الشديد جزاءً وفاقًا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ⑪﴾:

بعد ما توعَّد الله الكافرين بالعذاب الأليم، ناسب أن يعطف على ذلك وعده الصادق للمؤمنين.

وأول مَن يدخل في ذلك: المؤمنون الذين أُحْرِقوا في الأُخدود؛ لأنهم صبروا وصابروا؛ ابتغاء وجه ربهم، وفُتِنوا في دينهم غاية الفتنة، حتى عُرِضوا على النار وأَبَوْا إلا أن يموتوا على الإيمان، فقد ذهب ألم الإحراق بالنار، وبقي لهم الأجر والثواب والجِنان، مقابل النار التي أُحرِقوا بها في الدنيا.

والفوز الكبير: وصف لم يَرِد في القرآن إلا في هذا الموضع.

ونلحظ أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولم يقل: «تلك» مع أنه سبق ذكر الجنات، إشارةً إلى وجود ما هو أعظم؛ فإن الله تعالى وعدهم الآن بالجنات، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن النَّعيم المعنوي في الجنة أعظم من النَّعيم الحسي، فرضوان الله الذي يُحِلُّه على المؤمنين، وسماعهم كلامه سبحانه، وتمتعهم برؤية وجهه الكريم؛ أعظم من ألوان النَّعيم الأخرى؛ وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «أسألُك لذَّةَ النظر إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائك»(1).

والفوز هو: حصول المطلوب وزوال المرهوب.

والذي يعلمه الناس أن المَلِك الظالم أحرق المؤمنين، ففي بادي الرأي أن الحادثة انتهت بهزيمتهم؛ فقد تُسُلِّط عليهم وأُوذوا، واعتُدِيَ عليهم حتى قَضَوْا

---

(1) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤- ٥٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩- ٣٠)، وابن حبان (١٩٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وتقدم في أول «سورة الفاتحة».

نحبَهم.

والحق أن هذه النهاية لم تكن هزيمة، فأرواحهم صعدت إلى الجنة والرضوان، بخلاف أولئك الذين أحرقوهم؛ فإن لهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق.

وفي القصة دروس مستفادة، منها:

١- التنفير من العدوان على الناس، واضطهادهم في دينهم، وأن ذلك يستوجب أقسى العقوبات في الآخرة، ويستنزل سخط الرب تبارك وتعالى.

ودين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ، جاءت شريعته بقوله سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وبقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وبقوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩- ١٠].

ولهذا لا يُعلم في التاريخ الإسلامي أن المسلمين أكرهوا الشعوب على الدخول في الإسلام، مع أنهم فتحوا بلدانًا كثيرة وكان لهم الغلبة والقوة والسلطان، فعاش النصارى واليهود، والوثنيون في عموم البلاد على دياناتهم، تُؤخَذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، ولا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام، فهذه شهادة عظيمة[١].

فجاء الإسلام لحماية حرية الفرد في اعتقاده، وعدم السماح باضطهاد الناس أو تعذيبهم.

٢- أن السورة نزلت بمكة، والمسلمون فيها مضطهدون، فمنهم مَن عُذِّب حتى قُتِلَ؛ كما فُعل بسُمَيَّة أُمِّ عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبلغ من تعذيبهم أنهم كانوا يقولون للمسلم والجُعَلُ[٢] يمر من عنده: هذا الجُعَلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم؛ لما يتَّقي منهم من الأذى والتعذيب[٣].

---

(١) ينظر: «المدونة» (١/ ٥٢٩)، و«الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٣/ ١١٠).

(٢) دابة تشبه الخنفساء.

(٣) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص١٩٢- ١٩٣)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٨٤)، و«أسد الغابة» (٤/ ١٢٢)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢١٩)، و«رسائل الغرباء» للمؤلِّف (ص١٠٢- ١٠٣).

وبلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُضرَب في حرِّ الرَّمْضاء، ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»(١).

وقد تجاوز الطغاة من قريش القيم العربية التي كانوا يفتخرون بها من الكرم والعدل، وحفظ الجوار والإعراض عن الأذية، فتسلَّطوا حتى على النساء، مثلما نجد في قصة سُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث ضربها أبو جهل في موضع العِفَّة منها بحربةٍ فقتلها(٢).

ويُفهم من هذا الفعل الأَرْعَن اللَّئيم إلى جوار الاعتداء على حرية التديُّن، احتقارًا للأنوثة، وكأن لسان حاله يقول: ما احتملنا الخروج عن ديننا من الرجال الذين صفتهم كيت وكيت، فكيف نحتمله منك ومن أمثالك من النساء. ولا زال أهل الجاهلية إلى اليوم يعيِّرون المرأة بأنوثتها، كفرًا بالخالق، وإعراضًا عن فهم حكمته في الخلق.

فجاءت السورة سُلوانًا للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين، وضرب الله فيها مثلًا من الأمم السابقة، كما في القصة التي رواها البخاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بُرْدةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا؟! أَلَا تدعو لنا؟! فقال: **«قد كان مَن قبلَكم، يُؤخذُ الرجلُ، فيُحفرُ له في الأرض، فيُجعلُ فيها، فيجاءُ بالمِنشار، فيُوضعُ على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، والله ليَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموت، لا يخافُ إِلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلونَ»**(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٣٢)، وفي «فضائل الصحابة» (١٩١)، وابن ماجه (١٥٠)، وابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم (٣/ ٢٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٨١- ٢٨٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٧- ٣٤٨).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ١٩٢)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢٠)، و«أنساب الأشراف» (١/ ١٩٧)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٨٦٤- ١٨٦٥)، و«أسد الغابة» (٧/ ١٥٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٠٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٦٩٤٣).

فهذا نوع من التسلية بضرب المثل، وقد اقتضت سنته سبحانه أن يوجد في البشر مِن ذوي النفوذ والسلطان مَن يفتنون الناس في دينهم، ويهينون كرامتهم؛ إرغامًا لهم على اتِّباعهم والاستسلام لأهدافهم، وكسرًا لإرادتهم في مواجهة الشرِّ والاحتلال والاضطهاد والاستغلال، والشواهد من جرائم المحتلِّين والغاصبين في سائر بلاد الله كثيرة.

ولا يخلو زمان من طُغاة ومجرمين ومتجبِّرين، ليس عندهم عدل ولا ميزان؛ ليمتحن الله إيمان الناس وصبرهم وتوكُّلهم عليه، ويقينهم بوعده سبحانه، وهذا الدرس هو ما تشير إليه هذه السورة.

ومثل ذلك: قول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦]، يعني: أن الأمر محتمل أن يُرى ما وُعد ﷺ، أو أن يتأخر ذلك عن حياته، ويحدث فيما بعد[١].

وإذا تجاوزنا التسلُّط العام الذي تمارسه جهة ذات قوة ونفوذ، فلا يخلو المؤمن أن يجد مَن يؤذيه، حتى من ذويه، وقد ورد في بعض الآثار: «لو كان المؤمنُ على قَصَبة في البحر، لقيَّضَ اللهُ له مَن يؤذيه»[٢]، وكما قيل:

ولستَ بناجٍ من مَقالة طاعنٍ ... ولو كنتَ في غارٍ على جبلٍ وَعْرِ
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا ... ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ[٣]

وقال ابن الوَرْدي[٤]:

ليسَ يخلو المرءُ من ضدٍّ وإنْ ... حاولَ العُزْلةَ في رأسِ جَبَلْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ١٨٨)، و«تفسير الماتريدي» (٦/ ٤٨)، و«تفسير الرازي» (١٧/ ٢٦١)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٣٤٨)، و«فتح القدير» (٢/ ٥١٠- ٥١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٤٢) من قول سلمة بن كُهيل.
وأخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (٤٤٣) من قول طَلْق بن حَبيب.
ورُوي نحوه مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٣٦٠).

(٣) تقدم تخريجه في «سورة عبس»: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾.

(٤) ينظر: «الكشكول» (١/ ٢٣٤)، و«نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص١٥٦).

وحتى لو كان لا يتعرَّض لأحد، ولا يتعدَّى حدوده، ويتنازل عن بعض حقوقه، فربما تسلَّط عليه جار أو زميل أو رئيس أو مرؤوس أو قريب أو زوج؛ فهذه سنة الله في الحياة، وفي مثل هذه الأحوال من التسلُّط الفردي أو الجماعي تأتي دروس الصبر والعزاء في القرآن الكريم.

٣- وهذه الدروس في الصبر والتسلية، لا ينبغي أن تُفْهَم على غير وجهها، فيفهم منها التشوُّف والتطلُّع إلى افتعال الصراع مع الآخرين بغير سبب ولا مُوجِب.

ولقد تأمَلتُ طرائق المؤمنين فيما يعرض لهم من تحديات وصعوبات، فوجدتُها تدور حول ثلاث طرائق:

الأولى: هي أسلوب الاعتزال والترك.

وهذا أظهر ما يكون في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، وذلك أنهم هربوا من أهليهم وبيوتهم وأُسَرهم، فهداهم الله إلى الكهف، حيث لم يكن لهم قوة ولا قدرة ولا طاقة في مواجهة عدوهم، ولذلك كان الاعتزال هو المناسب لهم؛ ليحفظوا دينهم، فحفظهم الله، وأثنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[1] [الكهف: ١٣].

وقد يكون الاعتزال في بعض الأحيان هو المناسب للمؤمن فردًا أو جماعة.

والاعتزال إما أن يكون اعتزالًا كليًّا؛ وذلك إذا كان لا يجد إِلَّا شرًّا، أو كان يخشى على نفسه، ولما سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن أفضل الناس قال: **«رجلٌ يجاهدُ في سبيل الله بماله ونفسه»**. قال: ثم مَن؟ قال: **«مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشعابِ يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه»**[2].

فهذا إنسان يخاف على دينه أو يخشى إن داخل الناس وخالطهم أنه ربما غيَّر بطريقة منفِّرة، فأفسد من حيث أراد الإصلاح؛ ولهذا قال: **«يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ**

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٨٨٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناسَ من شرِّه»؛ فهذه طريقة، ولكنها ليست الطريقة الفاضلة.

وقد يكون الاعتزال جزئيًّا؛ باعتزال أماكن السوء، مع مخالطة الناس ومداخلتهم ومعاشرتهم، حتى لو عاش بين أظهر قوم مشركين أو منافقين، فلا بد له من مخالطتهم، فإنه لا يستغني عنهم في أمور دنياه؛ لكنه يقتصر من المخالطة على القدر الضروري، ويبتعد عن الأماكن التي فيها سبب لفتنته عن دينه، أو إثارة شهوته، أو حمله على المواقف السيئة.

الطريقة الثانية: المواجهة والمصادمة.

والمصادمات تُحدِث الحماس، وتستثير المشاعر والأحاسيس، ويجري فيها التحشيد والتجييش، حيث ينقسم الناس إلى فريقين: كل فريق يتكاتف على وجهته، وربما ترتفع وتيرة التعاطف، لكن العبرة بالنتائج؛ لأن النفس البشرية تستعجل في مثل هذه المواقف، وتندفع بسبب الغَيرة مع حداثة السن، أو ضعف التجربة، ومِن ثَمَّ تخسر أكثر مما تربح، بل قد تكون الخسارة فيها صرفة لا ربح فيها، وقد يتحول الدافع إلى أن يصير دافعًا غير شرعيٍّ، بل هو الانتقام أو الإصرار أو إلحاق الأذى، وإن كان يدري أن المصلحة تجافيه.

فالخوارج مثلًا لما أحدثوا المصادمة داخل المجتمع الإسلامي، كان دافعهم الغَيرة، والشعور بأن ثَمَّ شيئًا مختلًّا يجب تصحيحه، وإعادته إلى الأمر الأول، لكن الواقع يشهد بأن الذي قام به هؤلاء لم يُصْلِح النقص الذي زعموه، بل زاد الطين بِلَّة، وشغل المسلمين عن حركة الفتوح والإصلاح والتغيير، وأسهم في مزيد من التسلُّط والاستبداد السياسي؛ لأن الحكومة عند ما تنشغل بمقاومة تمرُّد داخلي، تجد ذلك عذرًا في تأجيل الإصلاحات وبخس الحقوق.

ومعظم الحركات التي تقوم على المصادمة والمواجهة العسكرية تؤول إلى الخسارة والهزيمة، والحركات التي نجحت في هذا الجانب محدودة، وقد أشار ابن خلدون في «مقدمته» إلى كثيرين يذهبون مأزورين غير مأجورين؛ لضعف فقههم، وقلة بصيرتهم وخبرتهم، وقد يكون عند بعضهم تدين وعاطفة، لكن ليس

عندهم فهم وإدراك ورؤية[1].

وبعض المجموعات أصبحت تأنس بالصراع والمقاومة، وهذا يتجاوب مع شيء في النفس، حتى إننا الآن لو قلنا: إن خطأً وقع؛ لسارع الناس إلى المواجهة والإنكار والمتابعة والتواصي بذلك.

ولو طُلِب منهم فعل خيري إصلاحي ابتدائي، وليس رد فعلٍ، كالقيام بدعوة، أو تنمية، أو إعلام، فلن يكون الحماس بنفس القدر، **فهذا مأخذ تربوي يجب أن يُتَفَطَّن له.**

هل معنى ذلك أن نبطل الصراع؟

لا أحد يستطيع أن يبطل الصراع؛ لأنه سنة ربانية، وحتى لو أبطلته أنت، فلن يبطله خصومك، ونصوص الكتاب والسنة في أخبار الأنبياء مع أممهم، وحوادث التاريخ، ومعاينات الواقع المشهود تثبت وجود الصراع وأنه قدر لا مفر منه.

ولكن ثَمَّ فرق بين إلغاء الصراع أو استبعاده من الحياة بالكلية، وبين أن تتولَّد فكرة تأجيج الصراع أو استعجاله، وفي الحديث: «**يا أيها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ**». وافتعال الصراع في غير محله وفي غير أوانه ودون استفراغ الوسائل الأخرى، غالبًا يحدُث ممن لا صبر له، ولذلك سرعان ما يفر من الصراع إذا جد الجد، ولذلك قال: «**فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[2]. أي: فإذا أصبحت المعركة مفروضة على المسلمين، فعليهم حينئذٍ أن يصبروا وألَّا يفرُّوا، كما قال الشاعر:

فما كلُّ صبَّار على الصَّبرِ يَصْبِرُ

فالأمر يتطلَّب فقهًا وحكمةً؛ ولذلك ينبغي أن نعلم بأن التضحية مطلوبة، لكن

---

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم» (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوْفى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾.

قبلها الحكمة والفهم والفقه، وقبل أن تستخدم يدك، عليك أن تستخدم عقلك.

الطريقة الثالثة: المدافعة، كما سمَّاها الله تعالى، حيث قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١، الحج: ٤٠].

وتكون المدافعة من خلال دفع قَدَر الشر بالخير، وقَدَر المعصية بالطاعة، وقَدَر الشهوة بالتقوى، وقَدَر الشبهة بالعقل، وقَدَر التفرُّق بالوِحدة، وقَدَر الضلال بالهدى، وبَذْل الممكن والمستطاع في ذلك في مصالح الدين والدنيا.

وقد كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يتطلَّعون إلى هذا المعنى، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول لفرعون وقومه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، أي: خلِّ بيني وبينهم، واتركني وشأني أدعو قومي من بني إسرائيل.

وشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

ومحمد ﷺ كان يقول لقريش: **«يا وَيْحَ قريشٍ! لقد أَكَلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائرِ الناسِ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ عليهم، دخلوا في الإسلامِ وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوةٌ، فماذا تظنُّ قريشٌ! والله إني لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ له حتى يظهرَه اللهُ له، أو تنفردَ هذه السالفةُ»**(١). ولكنهم أَبَوْا.

وفي «المسند»، و«السنن» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ أنه قال: **«المؤمن الذي يخالِطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالِطُهم، ولا يصبرُ على أذاهم»**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٩٨٨)، وأحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

مخالطة الناس والصبر على أذاهم منهج نبوي، وطريقة سلفية، وما كان من الأنبياء السابقين، كقول موسى وشعيب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فليس منسوخًا في شرعنا، ولكنه باقٍ يُعمل به في نطاقه وفي ظرفه وحالته.

وهذه الطريقة هي أمَرُّ وأشد الطرق على النفس وأطول تضحية، مع أنه قد يظهر بادئ الرأي أن الثانية أشد وأكثر تضحية.

الطريقة الثانية أكثر إزهاقًا للأرواح، وقد يظن بأنها حل سريع، لكن الطريقة الثالثة أشق وأضمن، وربما خرج الإنسان من حال ليجد نفسه فيما هو أسوأ منها.

وهذه نوازع النفس الإيمانية الغيورة، ولكن ليس بالضرورة أنْ تُؤتي أُكُلَها وتعطي ثمارها، ما لم تكن موزونة بعقل ورأي، وإدراك ومعرفة؛ بأن يعرف الإنسان أين يضع نفسه، وأين يضحِّي بها، ومتى يُقْدِم، ومتى يُحْجِم.

فالطريقة الثالثة أصعب وأشق على النفس؛ لأنها تتطلَّب صبرًا طويلًا وجميلًا، وطول نفس، كما أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ، ولأن الإنسان يلقى الابتلاء حتى من بعض الأخيار، الذين لا يدركون هذه المعاني، ويكونون في عجلة من أمرهم، ويعيِّرون مَن لا يقرُّهم على خطئهم بالنكوص والتراجع والجُبن، أو بالتواطؤ مع الخصوم، أو بالضلال والجهالة، وربما يكون هدفًا سهلًا لهم، خاصةً مع ضعف التقوى وقلة العقل عند شباب مندفع في مقتبل عمره، وهو في حالة يأس من الحياة وتشبُّع بأفكار ومفاهيم يرى العالم من خلالها، ويراها مقدَّسة لا يفكر بتغييرها والمساس بها!

يحتاج الأمر إلى هَدْي النبي ﷺ وحكمته وبصيرته، والتأسِّي به في الصبر والمصابرة، حيث ينزل الدعاة إلى الميدان، ويخالطون المجتمع، ويصبرون على الأذى، ويُصْلِحون بقدر المستطاع، دون حرق للمراحل، ولا إطلاق للنزعات الفردية.

وضمن ما كتب الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذه السورة في كتابه: «معالم في الطريق»، أو «في ظلال القرآن»؛ أجده اتَّكأ على هذا المعنى

اتكاءً كبيرًا، حتى إنه قال: «هذا هو الطريق»[1].

فصار بعض الشباب يستعجل المحنة ويتطلَّع إليها، وصار هذا يحمله على العزلة وترك مخالطة الناس، والتربُّص والانتظار، وعدم القدرة على مراجعة التجارب وتصحيحها مهما كانت نتائجها.. على اعتبار أن البلاء سُنة إلهية.

وحين يسمع شاب عن الابتلاء، لا يقع في نفسه إلَّا تسلُّط الحاكم والسجون والمعتقلات وتعليق بعضهم على أعواد المشانق، أما الابتلاء من داخل النفس بضياع البوصلة وتخبُّط الطريق، أو من الأتباع بالتعصُّب والتحالف على غير الحق، وازدراء المخالفين، وتطلب شهوات الحياة بالمخالفة والتصدر، أو الخطأ في الاجتهاد حتى مع خلوص النية؛ فهذا ما يعزب عن الكثيرين التفكير فيه ضمن مفهوم «الابتلاء»!

* ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

البطش في الأصل هو: الأخذ؛ ولذلك يقول النبيُّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها**»[2]. يعني: يأخذ بها، ويعطي، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وقد يُطلَق على الأخذ بقوة وشدة[3]، كما تقول: بطش فلان ببني فلان. أي: ضربهم أو قتلهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[4] [الشعراء: ١٣٠].

وقد تتبَّعت المواضع التي فيها لفظ «البطش» في القرآن الكريم، فوجدتها

---

(١) ينظر: «معالم في الطريق» (ص١٧٣ - ١٨٦)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٦٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٦١٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٧٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٤)، و«الدر المنثور» (١١/ ٢٨٢).

تتعلق بالأخذ في الحياة الدنيا، **إلا في مواضع ثلاثةٍ فيها اختلاف:**

١- هذا الموضع، فإنه محتمِل لأن يكون بطش الله بهم في الدنيا بالعقوبات كالزلازل، أو العذاب الذي ينزل من السماء، أو الغرق، ويُحتمَل بطش الآخرة بالنَّكال والنار[1].

٢- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، **فالأقرب** أن البطشة الكبرى في الدنيا، وأنها غزوة بدر أو غيرها مما توعَّد الله به الكافرين في الدنيا من العذاب، **وقيل**: المقصود عذاب الآخرة[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]، وهو قد أنذرهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة[3].

وقال: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾؛ لأن السورة مكية، والسياق إيماء لما يفعله كفار قريش وزعماؤهم، ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، ويؤذون النبيَّ ﷺ بشتى صور الاضطهاد والإيذاء، فكان التذكير بأن البطش بطش ربك أنسب وأولى؛ لما يحمله من الرحمة والرعاية والتدبير، فهو الذي يحميك وينصرك.

فالآية جمعت معنيين: معنى الرحمة في لفظ: ﴿رَبِّكَ﴾ المأخوذة من نسبة الرب إليه، و﴿بَطْشَ﴾ المتضمن العذاب والغلظة على الأعداء.

وفي الآية ربط بين قصة أصحاب الأُخدود، وبين ما يفعله طغاة قريش بالمؤمنين من الأذى والتعذيب.

وفيها الوعد للنبي ﷺ والمؤمنين بأن ينصرهم الله ويحفظهم، وفيها وعيد

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٤٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٢٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٨٧).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ١١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٤).

للمشركين بالانتقام.

فهي من معجزات النبي ﷺ؛ لأنها يوم نزلت كان المؤمنون قلة، وكان للمشركين سلطة في مكة وجزيرة العرب، فما هي إلا سُنيَّات حتى تبدَّل الحال، وفتح الله تعالى على المسلمين؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥]، ودانت مكة وجزيرة العرب للإسلام.

والآية الكريمة تُوحي بأن على المؤمن مواكبة الظروف والمتغيرات، وأن الله جعل من سنته في الحياة أن يتناوب فيها القوة والضعف، والشدة واللِّين، والغنى والفقر، والتمكين والاستضعاف، والقلة والكثرة، والقبول والرد، حتى إن النبي ﷺ قال: «عُرِضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحدٌ»(١).

ولكل حال عبودية، على أن تعايش المؤمن مع الظروف لا يعني الاستسلام، بل التدرُّج، ومراعاة المصالح والمفاسد، والصبر.

ليس ثَمَّ ضمانة للمؤمن أن يحصل على التمكين والقوة، ولا أن يدوم له ذلك لو حصل، فلا يجوز أن يكون عمله مرهونًا بظرف خاص؛ لأن هذا شأن غير المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

كان الشيخ البشير الإبراهيمي يقول لقادة الاستعمار: سوف ندعو إلى الله في المساجد، فإن حرمتمونا فسندعو في المدارس، فإن حرمتمونا فسندعو في الأسواق، فإن حرمتمونا فسندعو في البيوت، وإن سجنتمونا، فسندعو في السجون.

هذه الروح العالية لا يمكن أن توجد إلَّا إذا تربَّى المسلم على منهج رباني نبوي، أما مَن تشبَّعت نفسه بالتطلُّع لأن يكون لشخصه أو لجماعته غَلَبَةٌ وتمكين، فقد يرى القيام بالدعوة في الظروف الصعبة مضيعةَ وقت.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الدعوة منهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبعض الأنبياء لم يُبْعَثوا أصلًا إلَّا بها، وبعض الأنبياء بُعِثوا بها وبالقوة، كما في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، وحتى الحديد ليس بشرٍّ محض أو قسوة، بل ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

* ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣)﴾:

والبدء والإعادة جاءت في القرآن تعبيرًا عن الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، أي: يحيي ويميت، ثم يحيي مرة أخرى، فهو يبدأ الخلق أول مرة، ثم يميتهم، ثم يحييهم ويعيد إليهم الحياة(١).

وفي الآية معنى آخر ذكره ابن عطية وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أنه يُبدئ ويُعيد كل شيء مما هو قابل لهذا وذاك(٢).

وهذا المعنى أجود وأليق بالسياق؛ لتعلقه بمداولة الأيام بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فإذا كانت هذه القصة شهدت معاناة المؤمنين فالله تعالى يبدئ ويعيد.

فتشمل أنه يحيي الموتى، ويثيبهم بما عملوا، وتشمل أن يعيد شأن المؤمنين فينصرهم، وهو إن لم ينصرهم في أشخاصهم، فإنه ينصر مبدأهم ودينهم الذي ضحُّوا من أجله، ولهذا نقول: إن بعثة النبي ﷺ تعتبر انتصارًا لكل الأنبياء ولكل المضطهدين؛ لأنه جاء بتجديد الدين وبالشريعة الخاتمة وبالعقيدة الصافية الواضحة، فهي تجديد لملة إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٣٧٩)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١١٥- ١١٦)، (٢٤/ ٢٨٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٢٦، ١٩٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٦)، و«الدر المنثور» (٧/ ٦٣٠)، (١١/ ٥٩٦)، (١٥/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢)، و «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٤٥- ٤٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠١).

ومن معاني ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: أن الحياة لا تعرف الاستقرار، وإنما هي دُول تنتقل، فالمُستضعَفون يمكِّن الله لهم في الأرض، كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[1] [القصص: ٥-٦].

والعبرة أَلَّا يغترَّ الإنسان بتمكين أو غنى، أو سلطان أو مكانة في الدنيا؛ لأن الدنيا متقلِّبة، ولا يركن إلى يأس أو قنوط أو عجز؛ لأن الفُرص تأتي للجادِّين الصادقين الذين يُحسنون كيف يستثمرونها وينتفعون بها.

ومما يؤكِّد شمول معنى الإبداء والإعادة لكل ذلك: أنه تعالى لم يذكر متعلّق الفعل هنا، كما ذكره في آية الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]؛ ليُفهم منه العموم، أي: يُبدئ كلَّ شيء، ويعيد كلَّ شيء، مما هو صالح للبدء والإعادة.

وعليه، فالآية تؤكِّد على الأمل والطمع فيما عند الله، وسنة الله في تقليب الأيام ومداولتها بين الناس[2].

* ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾:

مأخوذ من الغَفْر، وهو: السِّتر والتغطية، ويُطلَق على معنى محو الذنوب وعدم المؤاخذة بها، فإذا قيل: غفر الله له، فالمعنى: سامحه عن الذنب الذي وقع فيه، وهو صيغة مبالغة، أي: كثير المغفرة[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٨٢- ٨٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٧٢- ٧٧٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٣٩- ٤٠).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٧٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٢٠)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٩)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ١٣٨)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٣٥٦)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٣٦).

فهو يغفر للعبد إذا تاب وأناب كل الذنوب بدون استثناء، حتى القتل والشرك، فلو تابوا لغفر لهم.

فهذا اسم عظيم، على المؤمن أن يستحضره، حتى لا يغلبه اليأس والقنوط من رحمة الله، فالله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مُسيءُ الليل[1]، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا عيب أن يستره.

وما من أحد إلَّا وله ذنوب معلَنة أو خفيَّة، كثيرة أو قليلة، معلومة أو مجهولة، وهو تعالى لا تخفى عليه خافية، فسدِّد نقصك بكثرة الاستغفار على الذنوب التي فعلتَ أو الطاعات التي قصَّرتَ؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفرَ ثلاثًا[2].

وإذا كانت الآية التي قبلها- وهي آية البطش- تتوجَّه للمشركين بالتهديد والوعيد، فهذه الآية تتوجَّه للمؤمنين بالوعد الطيب.

ومن مغفرته سبحانه أن يغفر للمؤمنين خطاياهم وتقصيرهم، وما كانوا عليه قبل الإيمان[3].

وذكر مع المغفرة صفة أخرى، وهي الوُد، و﴿ٱلْوَدُودُ﴾ صيغة مبالغة معناها: كثير الحُبِّ للمؤمنين، فالوُدُّ: المحبة الصافية الخالصة، وبعض الناس يمكن أن يسامحك ظاهرًا، لكن لا يصفِّي قلبه مما يجد عليك من تقصيرك في حقِّه أو خطئك عليه، خصوصًا إذا كان الخطأ كبيرًا.

فالله يمحو الذنب ويسمح ويصفح ويعفو، وأيضًا: يودُّك ويحبك، وترجع مكانتك عنده مثلما كانت أو أفضل، وهذا فضل عظيم.

ومما تدعو إليه الفطرة: محبة الناس لربهم؛ إذ كيف لا يحبونه وهو خالقهم

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في «صحيح مسلم» (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل أن تُحَوَّل القبلة. وينظر ما سيأتي في «سورة العصر»: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومولاهم، وكل نعمة في الناس فمن الله، فالسمع والبصر والفؤاد والنفس، والأكل والشرب، والمال والأهل والولد، والدنيا والصحة والعافية، والجمال من الله، فكيف لا تحب الذي أنعم عليك وأعطاك وهداك!

والعجيب أن يحبك ربك سبحانه، وأنت خَلْقٌ من خلقه ضعيف، مُعَرَّض للأخطاء والذنوب والمعاصي والغفلة، وهو مع ذلك يحب عباده المؤمنين، ويحب التَّوابين ويحب المتطهِّرين، ويحب المحسنين[1].

فتخيَّل إن كان الله يحبك، باسمك وشخصك، وهو الإله العظيم الذي لا يستطيع البشر أن يقدروا قدره، فلا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا تحيط به العقول.

والله تعالى يُعبَد بالحب والخوف والرجاء، لكن أهمُّ ما يُعْبَد به الحب، والخوف ينتهي في الجنة؛ قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، وكذلك الرجاء؛ لأن كل شيء موجود، ويبقى الحب؛ فهو مما تُعُبِّدوا به في الدنيا، ويتنعَّموا به في الآخرة، وهو بمثابة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمثابة الجناحين، وفي قطع الرأس موت للطائر بخلاف الجناحين، وإذا انقطع الحب انقطعت معه العبودية والإيمان، فالمؤمن الموفَّق يعبد الله تعالى بالحب والخوف والرجاء، ومقام الحب عنده أعظم[2].

إنه درس للدعاة؛ أن يرفقوا بالعصاة ويفتحوا لهم أبواب التوبة، ويرغِّبوهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٣)، و«تفسير السمرقندي» (١٢/ ٨١٨٦)، و«التوحيد» لابن منده (٢/ ١٩٦)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٧٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠١)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٤٨)، (٣٠/ ٢٤٩).

وينظر أيضًا: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٥٢)، و«مع الله» (ص٢٠٣).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة الإنسان» ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾.

فيها، ويحصِّنوهم من القنوط، فإنه لا يزيدهم إِلَّا عنادًا وإصرارًا على خطئهم.

وينبغي أن يكون الداعية أبعد الناس عن الانتقام والتشفِّي والنكاية بالمخالف والعاصي، وأن يتسامى عن نوازع الانتصار للنفس، ولا شك أن الرفق والترغيب والحكمة والموعظة الحسنة أدعى للتجرُّد عن النوازع الشخصية النفسية المذمومة.

* ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾:

والعرش يُطلَق في أصل اللغة على كرسيِّ الملك، وجاء في القرآن في حق ربنا سبحانه في سبعة مواضع مقرونًا بالاستواء، وهو مخلوق غيبـي، لا يُعْلَمُ كيفيته ولا كيفية استوائه عليه إِلَّا هو سبحانه؛ ولهذا لما سأل رجلٌ الإمامَ مالكًا: كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول». أي: معنى الاستواء في اللغة معروف، وهو العلو مثلًا، ثم قال: «والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[(١)].

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد أغلق هذا الباب، وهو باب تقحُّم العقل البشري في الغيبيَّات وما يترتب على ذلك من ضياع الجهود في معارك وصراعات حول أمور لا تنفع ولا تزيد معرفة الله، ولا المحبة له، ولا الزُّلفى إليه، ولا تفيد في النجاح والفوز الدنيوي وتحقيق التقدم والتنمية، وإنما تستنزف الجهود والعقول فيما لا طائل تحته.

والآثار الواردة في صفة العرش غالبها لا يصحُّ، وإنما يكفينا ما ورد في القرآن.

وربما تخيَّل المؤمن شيئًا، وكل ما تخيَّله أو خطر بباله، فالله ليس كذلك؛ ولن يصل خياله ووهمه إلى الحقيقة؛ لأنه لا يحيط الخلق بعلمه، ولا يدركون حقيقته

---

(١) ينظر: «الرد على الجهمية» (١٠٤)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ٢١٤)، و«معجم ابن المقرئ» (١٠٠٣)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٦٦٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٦)، و«الأسماء والصفات» (٨٦٧)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص١١٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٣٩)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠)، و«مع الأئمة» (ص١١١- ١١٢).

ولا حقيقة أسمائه وصفاته.

وإذا كان الله تعالى يقول عن الجنة: «أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ»(١). فالخيال لا يدرك النَّعيم، وهو مما يتلذَّذ به الناس، فكيف بربنا تبارك وتعالى!

والذين يستنكرون هذه المعاني إنما استنكروها؛ لأنهم تخيَّلوها وقارنوها وشبَّهوها بالمحسوسات والمألوفات، فترتَّب على ذلك أنهم نزَّهوا الله تعالى عن أن يُشَبَّه بخلقه، ولذلك كان السلف يقولون: «أَمِرُّوها كما جاءت». والمعنى: اقرؤوها وآمنوا بها، دون أن تدخلوا في إشكالات وتخيُّلات تولِّد من الشكوك أكثر مما تصنع من الإيمان.

والآية متضمِّنة القوة والحُكم والملك المطلق، وفي هذا السياق تعريض بالذين يَدَّعون شيئًا من السلطان والمُلك كذي نُواس، فلن ينفعهم ملكهم ولا سلطانهم؛ لأنه عارض ومؤقَّت، والملك الحقيقي والسلطان التامُّ إنما هو لله سبحانه.

و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه قراءتان، فعلى القراءة بالخفض تكون صفةً للعرش، وهي قراءة الكوفيين، وأكثر القراء يقرؤونها بالرفع(٢)، وعليه تكون صفةً لله تعالى؛ لأنه هو ذو العرش، أي: مالك العرش وخالقه، وهو الذي له المجد والكمال، والعظمة والسؤدد(٣).

* ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾:

صيغة مبالغة تدل على كثرة مفعولاته؛ أي: كثرة الأشياء التي يفعلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٤)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٨)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٣) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٩٣)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٢).

وفي ذلك تشابه مع قوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(1) [الرحمن: ٢٩].

من شأنه أن يعزَّ أقوامًا ويذلَّ آخرين، ويرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويهدي ويضل، أي: فلا تستغرقك اللحظة الحاضرة، واعلم أن الله تعالى كل يوم هو في شأن(2).

وفي الآية أسرار لطيفة، فهي أثبتت لله الإرادة، وهي أسبق من الفعل؛ لأنه إذا أراد شيئًا فعَلَه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وأثبتت له الفعل، وهو الخلق.

فلله تعالى إرادة وله قدرة، وبذلك يتحقَّق الفعل، ولا يكون هذا إلا للخالق، أما المخلوق فإرادته لا تستدعي الفعل وتحقيق المراد مباشرة، وليس كل ما أراده المخلوق قدر عليه، إلَّا أن يشاء الله، وكثيرًا ما توجد العوائق والموانع التي تحول دون تحقيق ما يريد العبد.

في حين أن لربنا كمال الإرادة وكمال القدرة، والإرادة الواردة في هذه الآية هي إرادة التكوين، وهي إرادة الخلق والفعل.

أما الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فهي الإرادة الشرعية، بمعنى: محبة الله لذلك الأمر، لكن لا يلزم أن يتحقق مدلوله، فالله تعالى أراد من الخلق أن يؤمنوا، ولهذا بعث إليهم الرسل وأنزل الكتب، لكن ليس كل الخلق حقَّقوا الإرادة، والمحبة الإلهية.

وهو تعالى لا معقِّب لحكمه؛ ولا ممانع، ولا يحتاج إلى مُعين، بخلاف

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، (٢٢/ ٢١٢)، و«فتح القدير» (٣/ ١٥٠)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٨-٢٩)، (٣٠/ ٢٣٨)، وما تقدم في «سورة الرحمن».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٩)، (٢٢/ ٢١٢- ٢١٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥)، و«تفسير السعدي» (ص٧٢٢).

الخلق.

فهذه السياقات في وصف الله مناسبة لقصة أصحاب الأُخدود، ومناسبة لحال المؤمنين بمكة، وهي متناسبة فيما بينها(١).

* ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾:

كأن هذا السياق تفصيل للبطش الشديد، فذكر فرعون وثمود مثال لبطش الله تعالى بأعدائه.

وهو مثال البدء والإعادة، فهم قوم جرى عليهم الرفع والخفض.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «نعم قد جاءني»(٢). ومثل ذلك: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥]، وهي واردة في صيغة سؤال، لكنها في الواقع توكيد، والمعنى: قد أتاك(٣).

والمقصود بالحديث: الخبر، وسمَّاهم جنودًا باعتبار المجموع، وإلَّا فإن فرعون لم يكن إلَّا فردًا له حكم وسلطان على قومه وجنده.

ومن المعاني في توصيفهم بالجنود: أنه تعالى يشير إلى أن ظهورهم وعلوهم لم يكن بحق؛ ولا لأنهم أصحاب علم وحضارة، وإنما بسبب القوة العسكرية البحتة، والجند والحرس والجيوش المدجَّجة، كما هو شأن الطغاة الخائفين من انتفاضة الناس عليهم.

ويتكرَّر المشهد نفسه عند ما ننظر إلى ممارسات الحكومات الفاسدة

---

(١) ينظر: «الموسوعة القرآنية- خصائص السور» (١١/ ١٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٢)- عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٩٥)، (٦/ ٢٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٣)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾، و«سورة النازعات»، وما سيأتي في «سورة الغاشية».

الباغية، ونرى الفضائح التي تتكرر في العراق وأفغانستان، والسجون الخفيَّة والممارسات المنحرفة، والاغتصابات التي تظهر في وسائل الإعلام العالمي، وتدل على الاستخفاف بحقوق الإنسان.

وأما ما يتعلق بالقوانين والنظم والدساتير، فكأنها حِكْرٌ على الأقوياء وحدهم، فالكلام عن حقوق الإنسان يوظف للاستغلال السياسي، أو الضغط على دولة من الدول، وإذا تحسَّنت العلاقات السياسية معها سكت الحديث!

أما قضية الضمير والعدل والنموذج الأخلاقي والمعاني الإنسانية التي جاءت بها الديانات السماوية كلها، واتفق عليها الأنبياء؛ فهي من المعاني التي يتبجَّح كثيرون بها، وهم أبعد ما يكونون عنها.

وفرعون يشبه ذا نُواس الذي جاء السياق في ذكره، وثمود: اسم جَدِّ القبيلة، ويُطلَق على القبيلة كلها[1].

وذكرهم يناسب أهل مكة؛ لأنهم كانوا يسكنون الحِجْر، وهو إلى الشمال من مكة في ديار العرب، وأخبارهم كانت معروفة، ويوجد في جنوب الجزيرة العربية في عُمان مكان يقولون إنه موطئ الناقة.

وهذا مُستغرَب، بل مُستنكر، إذ كيف ذهبت الناقة إلى جنوب الجزيرة العربية، في حين أن ثمود كانت في أقصى الشمال!

* ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾:

تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾، والتعبير بالتكذيب أقوى؛ وكأن التكذيبَ وعاءٌ محيطٌ بهم، من فوقَهم ومن تحت أرجلهم، فهم يكذِّبون بكل شيء، ولا يصدِّقون بشيء، ولهذا عقَّب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، فالتكذيب محيط بهم، والله تعالى محيط بهم وبتكذيبهم، فلا يفوتونه[2].

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص١٧٦)، و«لسان العرب» (٣/ ١٠٥)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٣٣٠) «ث م د».

(٢) ينظر: «روح البيان» (١٠/ ٣٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٢).

فيا أيها الظالم الجبَّار، عش ما شئتَ، واهرب إلى ما شئتَ، فأينما ذهبتَ فربك لك بالمرصاد، محيط بك في المكان الذي لا بد لك من عبوره وسلوكه، فلا مهرب منه ولا مفر.

و﴿بَلِ﴾ للإضراب، وتستخدم للانتقال من معنى إلى معنى[1].

* ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الذي هو بمعنى الرفض للمعنى الأول وإثبات نقيضه؛ أي: رفض تكذيبهم وإثبات الحق، وكأنه يقول: كيف يكذِّب به المجرمون، وهو قرآن مجيد محفوظ صادق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[2].

فتكذيبهم ناشئ عن سوء ظنهم بالقرآن الكريم، وسوء ظنهم بالنبي المختار ﷺ، وسوء ظنهم بمَن أرسله ومَن أنزل عليه هذا الكتاب.

وفيه تبشيع للفعل، فهم لا يكذِّبون بأساطير أو أحاديث محتملة، بل يكذِّبون ربهم الخلَّاق الفعَّال لما يريد، الغفور الودود، وهذا الذي يكذِّبونه ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾.

والقرآن كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ، وهو ما بين دفتي المصحف، المبدوء بـ«الفاتحة»، المختوم بـ«الناس».

ولفظة «القرآن» مأخوذة من: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو اسم للمقروء[3]، الذي يكون مكتوبًا في ورقة ونحوها ويُقْرَأ، أو يكون محفوظًا فيُقْرَأ.

وهي مثل «قربان» لما يُتَقَرَّب به، ومثل «شكران» لما يُشْكَر به؛ ثم أصبح عَلَمًا على كتاب الله تعالى، وسُمِّي قرآنًا؛ لكثرة ما يُقرَأ ويُتلى.

وهنا ذكره مُنكَّرًا، والتنكير يأتي للتعظيم، كما هنا، ولهذا وصفه بقوله: ﴿مَّجِيدٌ﴾؛ لأنه من إله مجيد، أي: كامل عظيم كريم.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾، و«سورة الإنشقاق»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٢)، وما تقدم في الآية قبلها.

(٣) ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠)، و«تاج العروس» (١/ ٣٧١).

* ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾:

وقد جرت عادة العرب أن يُطلَق اللوح على المصنوع من الخشب، لكن اللوح المذكور هنا غير مصنوع من خشب؛ لأن الله سبحانه قال في الآية الأخرى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨- ٧٩]، فعُلِمَ أن اللوح كتاب، فيه مقادير الخلائق كلها، وفيه ما أنزل الله سبحانه، وفيه الأحكام والشرائع وكل شيء.

وورد وصف اللَّوح المحفوظ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه من ياقوتة ودُرَّة، ولا يصحُّ[1]، ويكفينا الوقوف عند ما ذكر الله من أنه من المخلوقات ذات المجد والقدسية والعظمة، ومعنى كونه محفوظًا:

١- أنه محفوظ من الزيادة والنقص، كما في قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢].

٢- أنه محفوظ من أن يطَّلع عليه أحد، إلَّا مَن شاء الله، من الملائكة أو المقرَّبين، ولهذا قال: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨- ٧٩]، وأحد الأوجه في تفسيرها أنهم الملائكة[2]، كما في قوله: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٥- ١٦].

ويُطلق عليه: الذكر، وهو من الألفاظ المشتركة بينه وبين القرآن، وبين ذكر الله وتسبيحه.

فاللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون، وهو محفوظ لا يطَّلع عليه أحد، إلَّا بإذن الله، ولا يُزاد عليه، ولا يُنقَص منه، إلَّا بإذن الله، كما قال سبحانه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فكأن أم الكتاب هي اللوح المحفوظ[3].

---

(١) أخرجه البغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٨٩)، وسنده ضعيف جدًّا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٥).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٨)، وما تقدم في «سورة الواقعة».

و﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾ صفة للوح، وهذا قول الجمهور، وهو مقتضى قراءة الخفض، وفي قراءة: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظٌ﴾ برفع «محفوظ»، وتكون صفة للقرآن، فكأنه قال: بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح[1]. والله أعلم.

○○○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٦)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٨)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٧٣).

فهرس المحتويات

سلمان العودة

إشراقات قرآنية



جزء عم (1)

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية



salman_alodah

آيات "جزء عم" على وجازة ألفاظها وقصرها، بديعة المعاني، رائقة الألفاظ، حاوية من دقائق الإعجاز ما يبهر العقول، ويأخذ بالألباب.

وإنني لأشعر بانشراح وأنس عند الوقوف على هذه الآيات وتدبر معانيها، وتكرار النظر فيها، وأجد لذلك لذة ليست لغيرها.

إن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضايا هذه السور هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

ولذا رأيت البداءة في تلقي إشراقات القرآن بـ "جزء عم".

الإسلام اليوم
للنشر والإنتاج
المملكة العربية السعودية
الرياض ص.ب. 28577 الرمز: 11447
هاتف: 012081920 فاكس: 012081902
www.islamtoday.net

3 3

إشراقات قرآنية

« جزء عم »

(١)

إشراقات قرآنية

« جزء عم »

سلمـان العـودة

ⓒ مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد

إشراقات قرآنية. / سلمان بن فهد العودة، الرياض ، ١٤٣٣ هـ

٤٤٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - جزء عم - تفسير

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٢٤٨ / ١٤٣٣

رقم الإيداع: ٨٢٤٨ / ١٤٣٣

ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى - رمضان ١٤٣٣هـ

الرياض:

هاتف: ٠١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.islamtoday.net/salman

www.youtube.com/drsalmantv

إشراقات قرآنية

«جزء عم»

سلمان بن فهد العودة

الجزء الأول

من «سورة النبأ» إلى «سورة البلد»

بالإضافة إلى «سورة الفاتحة»

الإسلام اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعدُ:

فإن المتأمِّل في القرآن الكريم يجد أن سياق آياته في غالبها مما يسهل فهمه على الناس، يفهمه الشاب والشيخ والمتعلِّم والأُمِّي والذَّكي وغير الذَّكي.

وفي الوقت ذاته تجد في الآيات من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إِلَّا الخواص، وهذا إعجاز للقرآن الكريم؛ فالعامِّيُّ يفهم ما يحتاجه، والمتخصِّص يجد ما يغنيه ويشبع تطلُّعَه.

وكلما مر القارئ على آية أو سورة تجدَّد له بالتأمُّل والتدبُّر من الأسرار واللطائف ما لم يكن لديه من قبل.

وكلما مر جيل وحدثت للناس معارف جديدة لم يكونوا يعلمونها من قبل، وجدت أن القرآن يستوعبها، لجهة عدم وجود ما يخالفها، أو كون بعض الإشارات تدل عليها.

ومنهج القرآن في ذلك إرشادي، يقوم على دعوة الناس إلى المعرفة والاكتشاف والضرب في الكون وإعمال العقول والانتفاع بخيرات الأمم، ولا يصلح أن يتحوَّل ذلك إلى الإغراق في ربط منجزات العلم التفصيلية بنصوص الكتاب.

ونحن نعيش مع آيات «جزء عم» نجدها على وجازة ألفاظها وقصرها، بديعة المعاني، رائقة الألفاظ، حاوية من دقائق الإعجاز ما يُبهر العقول، ويأخذ بالألباب.

وإنني لأشعر بانشراح وأُنْس عند الوقوف على هذه الآيات وتدبُّر معانيها، وتكرار النظر فيها، وأجد لذلك لذَّة ليست لغيرها؛ **ولذلك أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم تنبيهات ينبغي مراعاتها عند تدبُّر القرآن والتأمُّل في معانيه:**

الأول: إذا وقفت أمام آية من آيات الكتاب الكريم، وخفي عليك إعجازها وبلاغتها وأسرارها، فإياك أن يذهب بك الظن إلى أن هذه الآية ليس فيها أسرار، ولكن:

وعادةُ النَّصلِ أن يُزْهَى بجوهرِه　　　وليس يعملُ إلا في يَدَيْ بطلِ

فربما يكون عجزُ العقل حالَ دون إدراك هذه الآية وأسرارها، وربما يكون تكرار القراءة أو سماعها من قارئ حسن الصوت سببًا في قدح زِناد التدبُّر.

الثاني: أن الله تعالى جعل في القرآن ألوانًا من الأسرار، منها ما يتعلق باللغة، ومنها ما يتعلق بالتشريع، ومنها ما يكون إعجازًا علميًّا، ومنها ما يكون إعجازًا

تاريخيًّا، أو أخلاقيًّا..

والله تعالى قد وزَّع المواهب بين الخلق، فمِن الناس مَن يطرب لجوانب البلاغة والإعجاز اللفظي، ويستنبطها وتروق له؛ ولذلك يشعر بتجاوب مع هذا النوع من الإعجاز، ومنهم مَن تكون اهتماماته علمية بحتة، فهو يبحث عنها، ومنهم مَن تكون ميوله روحانية، فيأنس حين يجد الله في القرآن يخاطب عباده ويعرِّفهم بنفسه مباشرة، ويخاطب رسله وأنبياءه ويكشف للخلق حياتهم وسرَّهم ومصيرهم.

والله قد جعل القرآن منهلًا يَرِدُه الخلقُ كلُّهم فيَسَعُهم، وكل إنسان يجد فيه بغيته وطلبته إذا كانت طِلْبَةَ حق؛ ولذلك فالواردات والخواطر الصحيحة على الذهن، لا بد أن توجد أصولها متضمنة في القرآن الكريم.

والقرآن ليس كتاب جيل فحسب، بل هو كتاب الأمة كلها والتاريخ كله، فلم يحتو على معلومات موغلة في الغرابة ولو كانت صحيحة؛ لئلا تكون فتنة لمَن لم يكتشفها، ولا تزال كشوف العلم ومستجداته تُزِيد القارئ فيه فهمًا وبصيرة وغوصًا على أسراره بما لم يقع لأجيال سبقت.

والإنسان يُؤتى من قِبَل ضعف قواه وملكاته وقدراته؛ ولذا كان كمال العلم البشري دعوة إلى الإيمان بالله، وكان الأئمة يعتنون بالتدبر والفهم والغوص على أسرار القرآن.

وقلما تجد عالمًا مشهورًا إِلَّا وصنَّف في التفسير، وبعض ذلك نقل وتكرار، أو جمع مرشَّح أو غير مرشَّح.

وبعضهم يعتني بجانب لا يعتني به غيره، كما تجد البلاغة والإعجاز اللغوي، في «الكشاف» للزَّمخشري، وكتب عبد القاهر الجُرْجاني، و«التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور.

ومنها ما يهتم بالأحكام الفقهية، ويطيل النفس في آياتها، كالقرطبي، وابن العربي، والشنقيطي.

ومنها ما يهتم بالإشارات الدقيقة الروحانية والصوفية، ومنها قدر طيب انتفع به علماء كثيرون، كابن تيمية وابن القيم، وقدر محل تردد، ومنها ما هو تحريف للكلم عن مواضعه.

واهتم المعاصرون بالإعجاز العلمي، وسبق إليه الأستاذ فريد وجدي، ثم طنطاوي جوهري، ثم د. مصطفى محمود، و د. زغلول النجار، والشيخ عبد المجيد الزنداني، و د.عبد الله المصلح، وغيرهم، وقد تعاطاه بعضهم بنَفَس معتدل، وحصل من بعضهم تكلُّف في إقحام بعض المعاني، وربطها بالقرآن الكريم.

الثالث: أن من المعاني اللطيفة ما يدركه مَن يتكلم العربية وهي لغته، بخلاف مَن تعلَّمها وتكلَّمها، فإنه يفوته كثير من صور التدبر؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ومن شكر نعمة الله هذه أن يُقْبِل صاحب اللغة العربية على القرآن الكريم، ويستدرك هذه المعاني اللطيفة التي قد تفوت على غيره.

الرابع: من ألطاف القرآن الكريم ما يقع في النفوس وتُشرق به القلوب ويُعْجِز الألسنةَ الإفصاحُ عن معانيه، حتى يكون القارئ حين استقبال هذه الموجات العالية من الإيمان والمشاهدة غير راغب في تدوينها أو الحديث عنها؛ لأن ذلك يقطع حبل تسلسلها واتصالها، ولأن اللغة لا تستوعبها؛ ولذا قال النِّفَّري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»[1]. وباليقين وقع للأنبياء ثم الصحابة ثم أكابر المحققين والمؤمنين الراسخين ومَن دونهم من ذلك ما لا يخطر على بال.

---

(١) ينظر: «المواقف والمخاطبات» للنفري (ص٥١).

ولذا فالقرآن هو أعظم أدلة الوجود والوحدانية والإيمان، وعلى الداعية والمحاور والمدافع عن حقائق التوحيد أن يعمِّق صلته به؛ إذ ليس الإيمان معنى عقليًّا صرفًا كالمسائل الرياضية، بل هو حجة عقلية وضرورة قلبية وحياتية ومعرفية قد يضعفها الجدل فيها، إلَّا ما دعت إليه الحاجة لتثبيت إيمان أو إقامة حجة أو رد شبهة عارضة.

ولا يزال المتأمِّل في كتاب الله عز وجل يتلقَّى أنواعًا من المعاني العظيمة التي تُشرق لها النفس وتحيا وتطمئن.

ولذا رأيتُ أن أتلقَّى هذه الإشراقات، مستعينًا في ذلك بجهد السابقين من علماء الأمة في تفاسيرهم المشهورة المعتمدة.

ورأيتُ البداءة بـ «جزء عم»؛ فإن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خُوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضايا هذه السور هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

كما أني رأيتُ أغلب المفسرين إذا وصلوا إلى هذا الجزء، وهو آخر جزء في القرآن، لا يكون عطاؤهم كما كان عندما شرعوا في التفسير من أول جزء.

وقد كانت البداءة بهذه الإشراقات في دروس ألقيتُها، وكان للإلقاء والتفاعل مزيته، ثم أعدتُ كتابتها واجتمعت عليها، وكان للتأمُّل والاستغراق مزيته الأخرى.

ثم ها هو الجهد بين يديك، سائلًا الله أن يسلكني وإياك في سلك أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن هداهم الله بهذا القرآن للتي هي أقوم وأنالهم به كريم البُشرى بأن لهم أجرًا كبيرًا.

وإنني أَطْمَحُ من قرَّاء هذا الكتاب إلى التواصل معي عبر وسائل الاتصال؛ لتوصيل أي ملحوظة أو اقتراح أو نقد أو تعديل؛ فهذه التغذية الراجعة، هي دومًا من مصادر فرحي وسعادتي، وهي تُسْهِم في تطويري ذاتيًّا، مثلما تُسْهِم في تطوير الكتاب وتحسينه، والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب وإرساله إليَّ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

سلمان العودة

١ رمضان ١٤٣٣هـ

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.islamtoday.net/salman

www.youtube.com/drsalmantv

○ ○ ○

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة(1)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

---

(١) هذه السورة وإن كانت ليست من «جزء عم»، إلا أنه لكثرة قراءة المسلم لها في صلواته، وحاجته إلى معرفة معانيها؛ كانت البداءة بتفسيرها، كما فعل بعض العلماء، ومنهم الشيخ محمد بن عثيمين في تفسيره لـ«جزء عم»، والشيخ محمد الأشقر في «تفسير العشر الأخير».

* سورة الفاتحة: سورة عظيمة، يقرؤها المسلم في اليوم الواحد بعدد ركعات الصلوات؛ لقوله ﷺ -كما في «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه-: **«لا صلاة لمَن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»**[1].

وقد ذكر الشرَّاح أن معنى الحديث: أن يقرأ بها في كل ركعة من صلاته، فدل هذا على عظيم شأن السورة، وجليل قدرها، وأنه ينبغي تأمل معانيها، فلحكمة بالغة شرع الله تكرارها في الصلوات من بين جميع سور القرآن وآياته.

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة أسمائها تدل على عظيم قدرها[2]:

١ - **«سورة الفاتحة»**، فقد سماها النبي ﷺ: **«فاتحة الكتاب»**، كما في حديث عبادة رضي الله عنه المتقدم؛ وذلك لأنها أول ما يُقرأ من القرآن، فهي أول سورة مكتوبة في المصحف، وإن لم تكن أول سورة نزلت، ولهذا سمَّاها النبيُّ ﷺ: **«فاتحة الكتاب»**[3].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٩٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص ٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (ص ١٢٨-١٢٩)، و«الإتقان» (١/ ١٨٧-١٩١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣١).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ١٩٣)، و«تفسير مقاتل» (١/ ٣٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٥)، و«تفسير الطبري» (١/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣١).

٢- «أم القرآن»، وهكذا سمَّاها النبيُّ ﷺ، فقال: «أم القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم»[(١)]؛ لأن معاني القرآن ترجع إلى مضمونها؛ فهي شاملة للمعاني الكلية، والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

٣- «السبع المثاني»، كما في الحديث المتقدِّم؛ وذلك لأنها سبع آيات تُقرأ مرة بعد مرة، وسُمِّيت بـ«المثاني»؛ لأنها شاملة لمجملات المعاني المفصَّلة فيما سواها.

٤- «القرآن العظيم»، فقد سمَّاها بذلك النبيُّ ﷺ، فقال: «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[(٢)]. وكما في الحديث المتقدِّم أيضًا.

٥- «سورة الحمد»[(٣)]؛ لأنها بدأت بحمد الله عز وجل في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦- «الصلاة»، كما في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قال: مجَّدني عبدي. -وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي- فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى ﷺ.

(٣) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٤٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٧)، و«سنن الدارقطني» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٢)، و«تفسير الخازن» (١/ ١٥).

(٤) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فسمّاها: «الصلاة»، إما لأنها ذكر ودعاء؛ فإن السورة فيها دعاء وتبتُّل إلى الله بأعظم مطلوب وهو الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فسُمِّيت السورة ببعض أجزائها، وببعض معانيها، وهو الدعاء.

والدعاء في اللغة يسمى: «صلاة»، كما قال الله عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادع لهم[١].

وقد قال الأعشى:

تقولُ بنتي وقد قَرَّبْتُ مُرتحِلًا يا ربِّ جنِّبْ أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثل الذي صلَّيْتِ فاغتمضي نومًا فإن لجنب المرء مُضْطَجَعًا[٢]

يعني لك من الدعاء مثل الذي دعوت به لي.

أو سميت بذلك لأنه لا تصح الصلاة إلاَّ بها؛ فهي ركن في الصلاة.

إلى غير ذلك من الأسماء التي تدل على عظمة هذه السورة، وجليل قدرها، ووجوب العناية بها.

ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلَّا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام، وينطق بالشهادتين يحفظ سورة الفاتحة قبل غيرها؛ حتى تصح بها صلاته، ولو أن الإنسان اقتصر عليها في الصلاة لصحت صلاته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب، وليس بواجب[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٥٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٨)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٤٠٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٩)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٤٣٧) (ص ل و).

(٢) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٠١).

(٣) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ١١١-١٦٠)، و«المدونة» (١/ ١٦٣)، و«المجموع» (٣/ ٣٤٩)، و«المغني» (١/ ٢٩١-٣٣٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٧٦).

* عدد آياتها: سبع آيات بلا خلاف، ومَن لم يعد ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية، فقد عدَّ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ آية[1].

* والسورة مكية على قول الأكثرين، وهو مروي عن علي رضي الله عنه، والحسن، وأبي العالية، وقتادة.

وقيل: مدنية. وهو قول مجاهد، ومروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعطاء بن يسار، والزُّهري.

ورُوي القولان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: نزلت مرتين، مرةً بمكة ومرةً بالمدينة؛ ولذلك سُمِّيت: مثاني.

وقيل: نزل نصفها بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة. وقال ابن كثير عنه: «وهو غريبٌ جدًّا».

والأظهر ما رجَّحه كثير من الأئمة أنها مكية؛ لأن الله تعالى مَنَّ على الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]. والمراد منها: فاتحة الكتاب، وسورةُ الحجر مكية بالإجماع، فلم يكن يَمُنُّ عليه بها قبل نزولها، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفظ أنه كان في الإسلام قطُّ صلاةٌ بغير ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «لا صلاةَ لمَن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[2]. وهذا خبرٌ عن الحكم، لا عن الابتداء[3].

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ١٣٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٥)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ١٥)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ١٣٩)، و«الكشاف» (١/ ١)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٠)، و«زاد المسير» (١/ ١٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١/ ١٦٧)، و«روح المعاني» (١/ ٣٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥).

* ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]:

اختلف أهل العلم هل «البسملة» آية من الفاتحة؟ أم آية من القرآن؟ أم آية من كل سورة؟

وكل سورة في القرآن تبدأ بـ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إلا سورة التوبة[(١)].

* وفي هذه السورة خاصة قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢-٣]: فأعاد هذين الوصفين العظيمين لله تعالى.

وفي هذه السورة ذُكر لله خمسةٌ من أسمائه الحسنى، وهي: «الله»، «الرب»، «الرحمن»، «الرحيم»، «الملك».

١ - الله:

وهو الاسم الأعظم لله عز وجل على قول بعضهم، فهو أكثر الأسماء ترددًا في القرآن والسنة، وعلى ألسنة المخلوقين بمختلف لغاتهم وألسنتهم، ولأنه الاسم الذي تُنسب الأسماء الأخرى إليه، فيقال: «الله الملك، الله الخالق، الله العليم... »، ولا يشاركه في هذا الاسم غيره؛ فلم يتسمَّ به أحد قط، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[(٢)] [مريم: ٦٥].

«الله» الذي تألهه القلوب، أي: تحن إليه، وتشتاق إلى لقائه، وإلى رؤيته، وتأنس بذكره، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: **«وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك..»**[(٣)].

(١) ينظر: «التمهيد» (٢/ ٢٢٨)، (٢٠/ ٢١٥)، و«الاستذكار» (١/ ٤٥٧-٤٦٢)، و«المغني» (١/ ٣٤٤-٣٤٥)، و«المجموع» (٣/ ٣٣٤-٣٤٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٥-٤٤٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٦٥-١٦٩).

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٤٣-٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤)، وابن حبان (١٩٧١).

ومن معاني لفظ الجلالة: «الله» أنه الذي تحار فيه العقول، فلا تحيط به علمًا، ولا تدرك له من الكُنْه والحقيقة إلا ما بيَّن سبحانه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا تعلم كيفية ذاته سبحانه، ولا تحيط به؛ وإذا كانت العقول تحار في بعض مخلوقاته في السماوات والأرض، والبر والبحر، فكيف بذاته جل وعلا؟! فالعقل يرتد كليلًا حسيرًا عن إدراك ذات الله جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وفي حديث الشفاعة يقول الرسول ﷺ: «.. **فأستأذن على ربي، فيُؤْذَنُ لي، ويُلهمني محامدَ أحمدُهُ بها، لا تحضرُني الآن، فأحمدُهُ بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا..**»(١).

فأخبر أن الله يعلِّمه من المحامد ما لا يعلمها الآن، ويفتح عليه من العلم به آنذاك ما لم يكن لديه من قبل.

ومن معانيها: أنه الإله المعبود المتفرِّد باستحقاق العبادة؛ ولهذا جاء هذا الاسم في الشهادة؛ فإن المؤمن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، ويقول: «الله أكبر».

أطلق هذا الاسم العلم الذي هو أصل لكل الأسماء الأخرى؛ إظهارًا للاعتقاد أنه لا معبود بحقٍّ إلا هو: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾(٢) [الحج : ٦٢].

٢- الرب:

فهو ربُّ العالمين، ربُّ كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل مَن في السماوات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره.

٣- الرحمن:

«الله» و«الرحمن» من الأسماء الخاصة به جل وعلا، لا يشاركه فيها غيره، ولهذا قال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس ﷺ.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٥١-٥٢).

سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

أما الأسماء الأخرى، فقد يُسمَّى أو يُوصف بها غير الله، كـ «الرحيم»، و«السميع»، و«البصير»، كما قال سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والاسم يدل على صفة الرحمة لله وعظمتها وتقديمها، حتى ورد في «الصحيح» أن الله خلق مائة رحمة، أنزل منها رحمة في الدنيا، وادخر باقيها ليوم الحساب(١).

وجعل كتابه رحمة، وأرسل رسوله رحمة، وقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وبدأ كتابه العزيز بهذا الاسم تأكيدًا على استشعار الرحمة في العبادة وفي التعليم وفي الدعوة وفي الدعاء، وأن مَن خرج منها إلى أن يكون مغضوبًا عليه، فبسبب إمعانه في الغي وإعراضه عن الله.

٤- الرحيم:

وهو مثل «الرحمن» في أصل الاشتقاق، واختلفوا في الفرق بينهما:

فقيل: «الرحمن»: رحمة عامة بجميع الخلق، و«الرحيم»: رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيل: إن اسم «الرحمن» بالنظر إلى وجود الصفة، وأما «الرحيم» فبالنظر إلى متعلَّقها في الخلق، يعني: حصول أثرها في الخلق برحمته تعالى لهم، أشار إليه الإمام ابن القيم(٢)، فالله هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما(٣).

والأقرب أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على وزن (فَعْلان) صيغة مبالغة، تدل على الامتلاء

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٢).

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٣) ينظر: «زهرة التفاسير» (١/ ٥٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص ٥٥-٦٤).

والتناهي في التحقق بالصفة، وأما ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهي بصيغة (فَعِيل) التي تدل على التكرار ، وأن هذه صفة دائمة، فـ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ أدل على المبالغة في تحقق الصفة، والتناهي في عظمها، و﴿الرَّحِيمِ﴾ أدل على المبالغة في تكرارها ودوامها.

وهاهنا ينبغي أن نتأمل سرًّا من أسرار تكرار هذين الاسمين، فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ، أو يدخل أو يخرج أو يأكل أو يخطب أو يتكلم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد ورد: «كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»- وفي رواية: بـ«الحمد لله» - فهو أبتر، أو أقطع، أو أجذم»[1]. والمعنى: ناقص البركة.

لكن من المعلوم أن العبارة تقال هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فلم يقل أحد من الناس قط: «بسم الله المنتقم الجبار»، أو: «بسم الله العزيز الحكيم»، مع أن هذا حق؛ وإنما يقال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي هذا إشارة إلى قوله عز وجل في الحديث القدسي: «إن رحمتي سبقت غضبي»[2].

على الإنسان ألّا يقنط من رحمة الله، مهما أسرف على نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر : ٥٦]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧]؛ ولهذا كان اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله من صفات الكافرين.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يتشبَّث أبدًا بطلب رحمته جل وعلا، وأن يعلِّم الناس

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٨٧١٢)، و«سنن أبي داود» (٤٨٤٠)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٩٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٤٢٧-٤٢٨)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٧-٢٢)، و«إرواء الغليل» (١-٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الثقة برحمته سبحانه.

وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه الرجاء فيما عند الله، وأن تكون ثقة الإنسان بالله وبرحمته أعظم من ثقته بعمله؛ فإن عمله قد يداخله الرياء والعُجْب، أو لا يكون على وفق ما شرع رسول الله ﷺ، فيُرَدُّ على صاحبه، لكن يكون اعتماد العبد على رحمة الله جل وعلا، قال ﷺ: «لن يُدخِلَ أحدًا عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة»[1].

وهكذا ينبغي أن يُدعى الناس والعصاة بخاصة إلى الله عز وجل بتذكيرهم برحمته، مع تذكيرهم بعقوبته، فالله عز وجل يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

قدَّم المغفرة والرحمة على العذاب، وجعلها صفة له، بينما عبَّر في الآية الأخرى عن عذابه بأنه أليم، ولم يصف نفسه بالمعذِّب أو الباطش أو المعاقِب.

بعض الدعاة يفيضون في الحديث عن الوعيد والتشديد والتخويف والترهيب، إلى درجة تُحدِث أثرًا عكسيًّا، وهو تقنيط العصاة من روح الله ورحمته، فيتملكهم اليأس، ويفقدون الأمل، فيتشبثون بما هم عليه من المعاصي، ويستغرقون فيها، أما فتح أبواب الرجاء في القلوب فأسلوب قرآني عظيم يواجهك في مطلع أول سورة في القرآن الكريم، حتى إن الإنسان الذي يريد أن يتكلم عن النار سيقول في أول حديثه: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والذي يريد أن يتكلم عن الحدود الشرعية سيبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ومَن يريد أن يتحدث عن الكفر والتكفير يستهل حديثه بـ«بسم الله الرحمن الرحيم».

فينبغي أن يُعطى هذا الحديث قَدْرَهُ عند الناس، ويُذكَّروا دائمًا بأن يتعلقوا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بـ «الله»، «الرحمن»، «الرحيم»؛ وهذه الأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي «الله»، و«الرب»، و«الرحمن»، فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية، واسم «الرحمن» متضمن لصفات الجود والبر والإحسان.

فالربوبية من الله لعباده، والتأليه منهم إليه، والرحمة سبب واصل بين الرب وبين عباده، فبرحمته أرسل رسله، وأنزل كتبه، وبها رزق عباده وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة[1].

٥- المالك:

* ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]:

أي، يوم يُدان الناس بعملهم، ويجازون به خيرًا أو شرًّا، فبعدما اعترف لله قائلًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ زاد الاعتراف قوة وثباتًا بأن أثنى على الله سبحانه بصفاته وأسمائه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي قراءة سبعية[2]: (ملك يوم الدين) بالقصر بلا مد[3]؛ وكلاهما جائز أن يُقرأ به في الصلاة.

وقد استفتح السورة بالحمد، وهو: الثناء على المحمود بإفضاله وإنعامه، أما المدح فهو: الثناء عليه بصفات الجلال والجمال والكمال.

إذًا؛ فالحمد ثناء على الله تعالى بما أنعم عليك، وما أعطاك، فإذا قيل: إن فلانًا حمد

---

(١) ينظر: مقدمة «مدارج السالكين».

(٢) أي: من القراءات السبع المتواترة، وهي قراءة نافع وغيره.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٤٩)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص ٢٣٣)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٤)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٤٦)، و«الكشاف» (١/ ١١)، و«تفسير الرازي» (١/ ٢٠٤)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ١١)، و«إتحاف فضلاء البشر» (ص ١٥)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١/ ٨-١٣).

فلانًا. فمعناه أنه شكره على إحسان قدمه إليه، لكن إذا قيل: مدحه. فلا يلزم أن يكون مدحه بشيء قدمه، بل قد يكون مدحه مثلًا ببلاغته وفصاحته، أو بجماله، أو بقوته.

وعليه، فالمدح أعم من الحمد؛ لشموله الثناء بصفات الجمال والجلال والكمال مطلقًا؛ فالحمد فيه معنى الشكر، ومعنى الاعتراف بالجميل.

وعبَّر ابن القيم عن ذلك، فقال: «الإخبار عن محاسن الغير، إما أن يكون إخبارًا مجرَّدًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان مجرَّدًا عن الحب والإرادة، فهو المدح، وأما الحمد، فهو إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[(١)].

والحمد يتضمن الاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة؛ وقد يعبد الإنسان ربه عبادة الـمُدل الـمُعْجَب بعمله؛ فلا يُقبل منه؛ لأن الإعجاب لا يتفق مع الاعتراف والذل؛ فلا يدخل العبد على ربه من باب أوسع وأفضل من باب الذل والانكسار؛ بل هذا هو معنى العبادة المذكور في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، تقول العرب: هذا طريق معبَّد، يعني: مذلَّل تطؤه الأقدام[(٢)]؛ فمن أعظم معاني العبادة: الذل له سبحانه.

كان النبي ﷺ كثير الاعتراف لله تعالى على نفسه، فكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي ذنبي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ، وعلانيَتَهُ وسِرَّهُ**»[(٣)].

حتى قول: «اللهم اغفر لي». فيه معنى الاعتراف على النفس بالذنب والنقص، والاعتراف لله تعالى بأنه هو الغفور الرحيم.

ونقيض الاعتراف هو الإنكار والجحود، والذنب الذي كفر به إبليس هو

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

(٢) ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٣٤٠) (ع ب د).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الجحود؛ فإبليس يعرف ربه، ويدعوه ويحلف به، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، ويؤمن بيوم القيامة: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩]، ولكن ذنبه هو الجحود والاستكبار عن الطاعة والعبادة، وهكذا قال عز وجل عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تبرًّأ من هذا كله، وكأن أول ما تدل عليه هذه الكلمة: أن العبد وهو واقف يقول: أعترف بأنني عبد محتاج، فقير، ذليل، مقصِّر، وأنك الله ربي المنعم المتفضِّل، فهذا فيه معنى الحمد، إذ إن العبد يحمد ربه على فضله عليه في دينه، ودنياه.

* ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]:

هذه الآية فيها أعظم المعاني؛ وهو الإقرار بالعبودية، وهذا أصل التوحيد، الذي بُعث به الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦].

والشرك في الألوهية من أخطر ألوان الشرك الذي بُليت به الأمم كلها؛ لأن قضية الربوبية - وهي الاعتراف بالله خالقًا ورازقًا - أمر تقر به الفطر والنفوس، وإن كان يحتاج إلى ترسيخ وتذكير؛ لأنه يستلزم الإيمان بالألوهية وصرف العبادة لله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فيه تقديم للضمير، إشارة إلى التخصيص؛ يعني: لا نعبد إلَّا إياك، ففيها حصر وقصر.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فيه إثبات الاستعانة بالله، ونفي الاستعانة عمَّن سواه، يعني لا نطلب إلا عونك؛ فلا نستعين بغيرك، ولا نستغني عن فضلك، فمن الناس مَن يستعين بغير الله، ومنهم مَن قد يستعين بالله وبغيره، وهؤلاء لم يحققوا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وهذه الآية هي التي بين الله وبين عبده، فمن العبد الدعاء والعبودية، ومن الله العون والقوة، حتى على العبادة، إذ ليس للعبد قدرة على تحول أو فعل إلا إذا استمد من ربه واعتصم به، ولهذا كان من قول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

* ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦]:

من معانيها:

١- ثبِّتنا حتى لا ننحرف أو نزيغ؛ لأن الإنسانَ يكون اليوم مهتديًا، وغدًا من الضالين، أي: ثبِّتنا على الصراط المستقيم صراط الذين أنعمتَ عليهم.

٢- قوِّ هدايتنا، فالهداية درجات، والمهتدون طبقات؛ منهم مَن يبلغ درجة الصِّدِّيقيَّة، ومنهم مَن يكون في أدنى درجات الإسلام، وبحسب ذلك تكون منازلهم في الجنة، وبحسب هدايتهم يكون سيرهم على الصراط؛ فإن لله تعالى صراطين: صراطًا في الدنيا، وصراطًا في الآخرة، والأمن على الصراط الأخروي، هو بقدر الاستقامة على الصراط الدنيوي.

والصراط الدنيوي هو طريق الله، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وهو بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه.

وصراط الآخرة هو الجسر المنصوب على متن جهنم، وهو دحض مزلة، يمشي الناس فيه بقدر أعمالهم، فمنهم مَن يمر كالبرق، ومنهم مَن يمر كالريح، ومنهم مَن يمر كأجاود الخيل، ومنهم مَن يمر كالراكب، ومنهم مَن يمشي تارة ويعثر أخرى[1].

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. ينظر: «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣).

وعليه فـ﴿ ٱهۡدِنَا﴾ أي: زِدْ إيماننا وعلّمنا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]؛ فالعلم من الإيمان، وكلما ازداد العبد التزامًا بالصراط المستقيم، ازداد علمه، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ فزيادة الإيمان هي زيادة ثبات على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]؛ وكقوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣].

وقد كتب الإمام الهروي «منازل السائرين إلى الحق المبين»، ثم شرحه ابن القيم في «مدارج السالكين»، وهو تفصيل لمنازل الناس ومقاماتهم في سلوكهم إلى رب العالمين.

٣- جَدِّد هدايتنا؛ إذ «إن معنى الصراط المستقيم: أن يفعل العبد في كل وقت ما أُمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أُمر به في ذلك الوقت وما نُهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم»[1].

وبصفة عامة، فالعبد يحتاج إلى هذه الهداية في جميع ما يأتي ويذر: من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها، وأمور يحتاج أن يحصل له من الهداية في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية،

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧).

وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فلما كان العبد محتاجًا إلى هذا كله، فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة[1].

ولتحقيق الهداية لا بد من:

١- معرفة الموقف الصحيح، وماذا يريد الله ورسوله منه في هذه المسألة، وما هو الصواب والأصح له في هذه القضية.

٢- العمل وفق هذه الرؤية عن طريق وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى العمل.

فحين يقول العبد: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو ينادي ربه ويسأله قائلًا: يا ربنا، دُلَّنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوِّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه، والذي دللتنا عليه وعلَّمتنا إياه.

وسر الانحراف يرجع إلى فقد أحد هذين الأمرين: العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، وهما:

١- الجهل: فإن الإنسان قد توجد عنده الرغبة في عمل الخير، ولكن يجهل الطريقة لتحصيله، فيسلك طرقًا غير موصِّلة، ويجهد نفسه فيها بغير طائل، وكم من إنسان يسير بسرعة هائلة نحو هدفه، فيكتشف في نهاية المطاف أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس، وأنه كان يسرع ويمعن في البعد عن ذلك الهدف!

وكم من المسلمين مَن يجتهد ويتعب في أعمال غير مشروعة، وهو يظن أنه ممن يحسنون صنعًا، وذلك بسبب قلة العلم، فحين يقول العبد: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو يسأل ربه أن يعلِّمه ويَدُلَّه، فلا يبقى في ضلال الجهل متخبطًا على غير بصيرة.

---

(١) ينظر: «الصلاة» لابن القيم.

٢- الهوى: فقد يرتفع الجهل بالعلم؛ فيكون الإنسان عالمًا، ولكن ليس لديه العزيمة التي تجعله ينبعث للعمل بهذا العلم، فيترك الواجب أو يرتكب المحرَّم عامدًا مع علمه بالحكم؛ لضعف الإيمان، وغلبة الشهوة وتعجل المتعة الدنيوية.

* ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]:

هذا تأكيد للمعنى السابق وتفصيل له، ولذلك أعاده سبحانه هاهنا؛ لأن القرآن مثاني، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني يعاد معناه مرة بعد أخرى.

فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ نسب الصراط للذين حازوا الهداية التامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، فهم الذين سلكوه ولزموه وماتوا عليه، ومَن سلكه من بعدهم فقد تأسَّى بهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾:

المغضوب عليهم: هم الذين عرفوا الحق وتركوه، قال الله: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، ومنهم اليهود الذين عرفوا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وفي الحديث المرفوع: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضلالٌ»[1].

ولكن الغضب ليس محصورًا في اليهود؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [النساء: ٩٣]، وقال

(١) أخرجه الطيالسي (١١٣٥)، والترمذي (٢٩٥٣/ م، ٢٩٥٤) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

ﷺ: «مَن اقتطع مالَ امرئ مسلم بيمين كاذبة، لقي الله وهو عليه غضبان»[1]. وقال أيضًا: «مَن حلف على يمينِ صبرٍ؛ يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان»[2]. وفي قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، قال: «إن الله قد رضي عنك وسخط على صاحبيك»[3].

فالمغضوب عليهم من اليهود أو غيرهم: لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم، وسبب عدم هدايتهم هو: الهوى، فهم يعلمون ولا يعملون.

وقدَّم الله تعالى المغضوب عليهم على الضالين؛ لأن أمرهم أخطر، وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل، فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان بسبب الهوى، فإنه لا يكاد ينزع عن ضلال.

فمَن كان عالمًا أصلًا، ولكنه لا يعمل ولا يؤمن، يقابل كل حجة تقال له بالإعراض، فهو مثل المدخِّن الذي صار معنيًّا بموضوع التدخين؛ يقرأ عنه ويتابع التقارير والأخبار؛ حتى حصل على ثقافة ممتازة عن التدخين وخطره ومحتويات السيجارة، ولديه القدرة على إلقاء محاضرة عن التدخين، ولكنه يدخِّن، فما هي الحيلة في هذا الإنسان؟ إن قضيته ليست فقدان العلم، ولكنها فقدان الإرادة والعزيمة على الفعل.

ولهذا جاء الوعيد الشديد في شأن مَن لا يعمل بعلمه، حتى قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النار، فيدور كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النار

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٨٣)، ومسلم (١٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
ويمين الصبر هي التي يحبس الحالف نفسه عليها.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عليه فيقولون: أيْ فلانُ، ما شأنك؟! أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].

فهذا الإنسان عالم يعرف المعروف والمنكر، بل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولكنه لا يعمل؛ ولهذا كان بهذه المثابة من العذاب.

أما الضالون، فهم الذين تركوا الحق عن جهل وضلال، وربما طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار والتعصب، ومنهم كثير من النصارى الذين كذَّبوا عن جهل وضلال، ومع أن المثل يُضرب بأهل الكتاب، إلا أنه كما قال حذيفة ﷺ: «نِعْمَ الإخوةُ لكم بنو إسرائيل، إنْ كانت لكم كلُّ حُلْوَة، ولهم كلُّ مُرَّةٍ، والله لتَسْلُكُنَّ طريقَهم قدر الشِّراك»[2].

فلا يحسن أن يكون سوق المثل صارفًا عن النظر في أنفسنا معشر هذه الأمة، علماءَ وحكامًا ودعاةً وعامةً، أين أصبنا وأين أخطأنا، وأين هُدينا وأين ضللنا، أما تزكية النفس باللسان والإمعان في الحال التي عليها الإنسان دون بصيرة ولا مراجعة ولا تقوى، فليست من خصال المهتدين.

إننا الآن أمام ثلاث طرق:

الأول: الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وطريقتهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الصف:٩]، يعني: العلم النافع، والعمل الصالح.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٠)، والمروزي في «السنة» (٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٤٣) (٦٤٣٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٠١٢)، والحاكم (٢/ ٣١٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٥٠)، (٤/ ١٧٩).

الثاني: طريق المغضوب عليهم، مَن يعرفون الحق ولا يعملون به.

الثالث: طريق الضالين الذين يعملون بغير علم، ولهذا قال ابن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن فسد من علمائنا، ففيه شبه من اليهود، ومَن فسد من عُبَّادنا، ففيه شبه من النصارى»[1]. لأنهم يعبدون الله على جهل وضلال، والله أعلم.

ونحن في كل قراءة للفاتحة نسأل الله أن يسلك بنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، وأن يجيرنا من طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

○ ○ ○

(١) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ١٩٧)، (١٣/ ١٠٠)، (١٦/ ٥٦٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٨)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٨٢١)، (١٩/ ٤٢).

سُورَةُ النَّبَإِ

سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا
وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا
يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ:١-٤٠].

* تسمية السورة:

١ - التسمية الأشهر لهذه السورة: «**سورة النبأ**»[١]؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:٢].

٢- وسُمِّيت في بعض المصاحف، وفي «صحيح البخاري»: «سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾»[٢]؛ للآية الأولى فيها.

٣- وسُمِّيت: «سورة ﴿عَمَّ﴾» في بعض المصاحف والكتب[٣].

٤ - وسمَّاها بعض العلماء: «سورة التساؤل»[٤]؛ أخذًا للمصدر من الفعل في قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.

٥- وتُسمَّى «سورة المعصرات»[٥]؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٦٩٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٢)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٦٨٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٥) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

ﵟٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗاﵞ [النبأ: ١٤].

وقد كتب الشيخ محمد عبد الله دراز كتابًا سماه: (النبأ العظيم) ودوَّن فيه من معاني الربانية في القرآن ما يثلج الصدور.

* عدد آياتها: أربعون آية، أو إحدى وأربعون آية، على خلاف بين علماء العَدِّ(١).

* **والسورة مكية بإجماع أهل التفسير**، حكاه ابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم(٢).

* ﵟعَمَّ يَتَسَآءَلُونَﵞ [النبأ:١]:

ﵟعَمَّﵞ: كلمة مركبة من حرفين، هما: «عن»، و«ما»، فأُدْغِمت النون في الميم، وحُذِفت الألف؛ لدخول حرف الجر «عن» على «ما»، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟

وهذا تساؤل عن التساؤل: عن ماذا يتساءل هؤلاء القوم وعلامَ يختلفون؟!

* ﵟعَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِﵞ [النبأ: ٢]:

أي: عن الأمر الهائل المُفْظِع، والحدث الكبير الذي وقع على العقول والقلوب والأسماع وقعًا عظيمًا غير هَيِّن، فهم يتساءلون عنه في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم وأسفارهم.

وقوله تعالى: ﵟعَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِﵞ يحتمل أن يكون استكمالًا للسؤال، أي: عن ماذا يتساءلون؟ هل يتساءلون عن النبأ العظيم؟

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

أو يكون الأول سؤالًا والثاني جوابًا، والمعنى: أن الله تعالى سأل -وهو أعلم-: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ثم أجاب بأنهم يتساءلون: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الموضوع خطير، وكفاه أن الله تعالى سمَّاه نبأ عظيمًا.

هل كان تساؤلهم تساؤل الإنسان الجادِّ الباحث عن الحقيقة، يختارها، ثم يُؤْثِرها، ويضحِّي في سبيلها؟ أم تساؤل العابث الذي يريد التشغيب والتسلية والتندُّر؟ أم تساؤل الإنسان المُكذِّب الذي اتخذ قرارًا بالتكذيب قبل أن يسمع الخبر، وإنما يطرح بعض الأسئلة والشبهات حتى يصرف الناس؟!

وقد جاءت أقوال في النبأ العظيم:

١- القرآن[(١)]، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فالقرآن نبأ عظيم.

٢- النبي ﷺ[(٢)]؛ لأن القرآن أُنزِل على شخص رسول الله ﷺ، وبه صار نبيًّا، وقد نُبِّئ بـ (اقرأ)، وأُرْسِل بـ (المدثِّر)، وكان يقول: «**إني نذيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ**»[(٣)].

٣- البعث[(٤)]؛ لأنه من أعظم ما جاء به النبي ﷺ، وكان هذا بالنسبة لهم أمرًا مُستغرَبًا، كما قال قائلهم:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْرٌ حديثُ خرافةٍ يا أُمَّ عمرو[(٥)]

وهذه الأقوال كلها حق، وقد يعمُّ المعنى ما هو أشمل وأوسع، وهو أمر الإسلام

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦)، «الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦)، «الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠).

(٥) ينظر: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» (ص ١٣٠) منسوبًا إلى ابن الزبعرى.

والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء.. فهي عندهم نبأ عظيم يختلفون حولها ويتساءلون.

* ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ:٣]:

والاختلاف هنا يحتمل أمرين:

١- أنه الاختلاف بين المُكذِّبين والمُصدِّقين، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في العباد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل:٤٥].

٢- أن يكون الاختلاف في تشخيصهم للرسول ﷺ، ووصفهم إياه، فمنهم مَن قال: ساحر. ومنهم مَن قال: مجنون. ومنهم مَن قال: يريد الدنيا. ومنهم مَن قال: شاعر، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور:٣٠-٣١].

ذكر تعالى تساؤلهم واختلافهم، وسمَّى الموضوع الذي تساءلوا واختلفوا حوله بـ﴿ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وهذا يقودنا إلى قضية التساؤل والاختلاف والاهتمام، وكيف يجب أن يكون؟

١- الموضوع؛ بمعنى هل يستحق هذا الموضوع أن يتساءل الناس حوله أو يختلفوا؟!

والذي ينبغي في ذلك أن يُراعَى صدق الموضوع، فيكون جديرًا بأن يبحثه الناس، أو يختلفوا حوله، أو يتساءلوا عنه.

ولو نظرتَ إلى واقع الناس اليوم، بل المسلمين، بل بعض خاصتهم من الفقهاء وطلبة العلم والدعاة؛ لوجدتَ كثيرًا مما يشتغلون به من الأنباء والحوادث والقضايا، لا يستحق هذا الجهد.

وهذه مشكلة تتصل بقصور وخلل في الجانب التربوي؛ فإن الكثير من المعارك والصراعات تدور حول أشخاص أو مسائل وقتية على حساب ما هو أهم، بل حياة المسلمين اليوم أصبحت موبوءة بانشغالات، لا تنفعهم في دينهم، ولا تقرِّبهم إلى الله، ولا تصفِّي قلوبهم، ولا تنفعهم في دنياهم، بحيث تحقِّق لهم التقدم المدني والحضاري، بل هي أفكار وصراعات ومعارك، ولا يريدون أن يتخلَّصوا منها، وهي تشعرهم بالنشوة وتخلق لهم شعورًا طيبًا بالإنجاز وهزيمة الطرف المقابل والاحتشاد الوقتي حول قصة وهمية أو موقف صغير يتم تضخيمه بتكرار الحديث عنه؛ حتى يصبح منفوخًا أو سرابًا يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولا يلتفت العاقل بعد سنة أو عشر ليتساءل: ماذا جنى وأفاد من الخروج من موقعة أو غزوة للولوج في أخرى؟ مع ما يصاحب ذلك من تغير النيات وقسوة القلوب والعجز عن الإنجاز الحق والبناء والتشييد، وقد تكون المسألة مرتبطة من وجه آخر بخلل في التفكير ورعاية الأولويات وفقه الموازنات والمقادير.

٢- الاعتماد على المصادر الصادقة، وليس على شائعات أو ظنون أو وسائط مشكوك فيها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾، وقبلها قال: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، فهل سمعوا كلُّهم كلام الرسول ﷺ مباشرة؟

كلا، بل كان بعضهم يصل به الحال أن يضع في أذنه القطن، حتى لا يسمع النبي ﷺ؛ فيصيبه شيء من أثره وفعله في القلوب(1).

إن بعض الناس يعتمدون في حكمهم وتصورهم للأمور على وسائط ونَقَلَةٍ يقع منهم التحريف والتدليس والتشويه، ويفقدون حياديتهم واتزانهم وبحثهم عن الحق

---

(1) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣-٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١، ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١، ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥).

لصالح أمر سبق أن قرروه واعتقدوه.

والواجب أن يعتمد الإنسان في تلقِّيه على منهج سليم ونقل مصدَّق، أي: آيات قرآنية ظاهرة الدلالة، أو أحاديث نبوية صحيحة مُحْكَمة، ليست ضعيفة ولا مردودة ولا متشابهة، أو وثيقة واضحة فيها يُحكى ويُنْسَب لزيد أو عبيد، لا تكون مزوَّرة ولا محرَّفة.

٣- **قضية الدليل والحجة**، سواء أكان دليلًا عقليًا، مثل استدلالات القرآن على البعث بخلق الإنسان وبإحياء الأرض بعد موتها، أو كان شرعيًّا بإثبات حكم أو نفيه، أو كان منطقيًا أو حسيًّا... إلخ.

أما الإِلْف والعادة، أو الموروث، أو قول فلان من الناس، فهذا كله ليس بدليل، وإنما ينبغي أن يكون الدليل على نمط ما في هذه السورة، فمثلًا قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦-٧]، فهذا نقل صادق قطعي؛ لأنه من الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله، وهو دليل عقلي أيضًا؛ لأنهم يشاهدونه بأعينهم، ولا يملكون نفيه أو نسبته لغيره، إذ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه فعل ذلك.

٤- **الفهم**، حيث إن كثيرًا من الناس يعادون أشياء أو أفكارًا، ولو سألت أحدهم: ما الموضوع؟ لَحَارَ في جوابه.

وقد يكتب أحدهم نقدًا لفكرة أو مسألة لم يفهمها جيدًا، أو كان سمعها ممن حرَّف ودلَّس، فبنى حكمه على تصور خاطئ، كما قال المتنبِّي:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا   وآفتُه من الفهمِ السَّقيمِ[1]

ولذلك كان العلماء يعتنون في أبحاثهم بتحرير محل النزاع، وهو بيان محل الخلاف، بعد بيان ما هو متفَق عليه مما لا يقبل خلافًا، فيكون سبب الاختلاف هنا:

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٣٢) وشرحه المنسوب للعكبري (٤/ ١٢٠).

عدم فهم أحدهم للآخر؛ فيتكلم أحدهم عن مسألة، ويتكلم الآخر عن مسألة أخرى، كما يقول أحدهم:

أقولُ له سعدًا فيسمعُه حمدًا ... وينطقُه زيدًا ويكتبه بكرَا

وقد يسمع أحدهم خلافًا، ليس لديه تصور واضح عنه، فينزع إلى أحد الطرفين، دون تحقيق ولا نظر، بل لأول بادرة في ذهنه، أو لأن أحدهم يتكلم بطريقة تعجبه وتناسبه.

٥- المقصد، وأهمية التجرُّد وسلامة الإرادة وحسن النية.

وكم من جدل وحوار بدأ بنية طيبة، ثم تحول مع الزمن إلى وسيلة للانتصار والغلبة، وجرِّ نواصي الخَلْقِ وكسر أذرعتهم وإذلالهم، أو إظهار التفوق والسيطرة، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

كم هو عدد الذين يتساءلون ويتجادلون بحيادية دون غرض، يبحثون عن الحق بصفاء وتجرد، وأنَّى وجدوه أخذوه!! ومَن كان كذلك فإنه يُوَفَّق للخير، وحتى لو لم يُصِبْ في مسألة ما، إلَّا أنه أصاب حسن النية، فهو مأجور؛ لصدق مقصده واستفراغ وسعه في طلب الحق وعدم الصدود عنه.

* ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥]:

١- ﴿كَلَّا﴾ عند جمهور أهل اللغة كلمة زجر وردع[1]، وهو يعني أن هؤلاء المتسائلين لم يكونوا أهل تحرٍّ وبحث عن الحق، وإنما تساءلوا تساؤل المكذِّب أو الملبِّس أو المشوِّه أو المُعرِض، ولهذا عاتبهم الله تعالى في مطلع البيان.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢).

٢- ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ تكرار، والتكرار من أجل التوكيد[١].

ولا يعني ذلك أنه ليس هناك معنًى آخرُ، وإن كان التوكيد نفسه هو معنى من أعظم المعاني؛ لأنه دعوة إلى منح الأمر أهمية مضاعفة.

وقد قال بعض المفسرين: إن ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾: عذاب الدنيا، و﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾: عذاب الآخرة[٢].

وعذاب الدنيا حصل لهم في معركة بدر، حينما قُتِلوا وسُحِبوا إلى القَلِيب، وأُتبِعوا لعنة، ويوم القيامة بئس الرِّفْد المرفود.

وأجود منه أن يقال: إن ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم سيعلمون في الدنيا، أي: كثير منهم أن الله تعالى سينصر دينه ويعزُّ رسوله ﷺ، وأن مكة -التي هي يومئذ قلعة من قلاع الوثنية- سوف يرثها القومُ الذين هم الآن مستضعَفون بمكة، حتى إن بلالًا ﷺ يصعد على الكعبة ويؤذِّن، وقد علموا هذا ورأوه عيانًا بعد سنين.

وأن ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ أمر الآخرة، وما يقع فيه من ثواب المؤمنين والمطيعين بالجنة، ومن عقاب العاصين بالنار ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٧-٨٨]، والآية الكريمة في سورة (ص) تشبه الآية الكريمة الواردة في هذه السورة (عم)، أي: سيعلمون نبأ الإسلام، ونبأ القرآن، ونبأ النبي ﷺ، وما سيكون له من رفعة الشأن وظهور الدين وكسر شوكة أعدائه، ثم يعلمون عندما يبعثون صدق ما أخبر به، وأن الميزان هناك ليس ميزانهم المادي، بل ميزان قسط يثقل فيه أمثال صُهيب وبلال وعمّار وسلمان وسُمَيَّة ﷺ، ويطيش أكابر المجرمين وزعماء المكذِّبين، كأبي جهل وأبي لهب وساداتهم الذين ماتوا على الكفر.

(١) ينظر: «الصناعتين في الكتابة والشعر» (١/ ١٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٣٨)، و«همع الهوامع» (٢/ ٥٩٤).

(٢) ينظر: «البرهان» للزركشي (٤/ ٢٨٢).

و﴿ ثُمَّ ﴾ تُستخدم للترتيب الزمني، بمعنى عطف المتأخِّر على المتقدِّم، كما هنا لأنهم سيعلمون في الدنيا، ثم يعلمون في الآخرة.

٣- السِّرُّ وراء تهديد الله لهم بقوله: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ هو أن التهديد سوف يصنَعُ في قلوب بعضهم الإيمانَ، والتهديد بذاته لا يجعل الإنسان يؤمن، وإنما يجعله ينظر إلى الموضوع بجدية، وكأنه يقول لهم: انظروا.. تفكَّروا.. تدبَّروا.. تأمَّلوا: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، إنه جدٌّ لا لعبَ فيه.

إذًا التهديد يرقى إلى تحفيزهم وحملهم على أن يتأمَّلوا، ويتدبَّروا، وينظروا، كما قال سبحانه في الآيات الأخرى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾ [سبأ:٤٦].

وكثير من المسلمين اليوم عزبوا وغفلوا عن آيات القرآن التي تدعو إلى التفكر والتعقُّل والبحث المتجرِّد والنظر، بل ظن بعضهم أن الدين ينافي استخدام العقل، وأصبح العقل مسبَّة عند آخرين، وربما كان ذلك بسبب الخلط بين العقل والهوى.

وهنا تجد أن التهديد المبطن ليس هو الأسلوب الأوحد ولا الأول الذي جاء في القرآن، فهناك التعليم والترغيب وإثارة الأسئلة، وتحريك العواطف.

ومن أعظم الخطأ أن يعتمد الناس والمربُّون والآباء والدعاة على أسلوب التهديد والتخويف، وكأنه الوحيد في الباب أو الأسبق، بينما الحديث عن الرحمة وزرع الثقة بالمستهدفين وإعطاء الأهمية لهم هي خير ما يقودهم إلى الحق، وإنما يكون التهديد والترهيب في أحوال؛ منها:

١- أن يكون أسلوبًا ضمن أساليب أخرى يكمِّل بعضها بعضًا.

٢- أن يكون لقوم أفرطوا وأمعنوا في الإهمال وعدم المبالاة وترك الانصياع، و«آخر الدواء الكَيُّ».

٣- أن يكون في حالات خاصة يحتاج المرء فيها إلى تحريك الخوف لترك معصية أو مخالفة شهوة.

ثم انتقل الأمر بعد ذلك إلى سرد الأدلة والحجج والبيِّنات، ومخاطبة العقل بالتأمل والبحث في الكون وأسراره.

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ:٦-٧]:

١- السياق استفهام يحفِّز العقول على التفكير، والمعلومة قد تُقدَّم للإنسان جاهزة فيأخذها تقليدًا، أو لا يلتفت إليها بالكلية، فإذا جاءت مصوغة في قالب سؤال، كانت دعوة إلى المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية واستحضار المعلومة السابقة.

٢- لم يقل: (ألم نخلق الأرض)، وإنما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ ﴾، والله خلقها ولم تكن مهادًا، ثم جعلها مهادًا بعد ذلك.

فالمهد والبسط جاء متأخِّرًا، ويعزِّز هذا قولُه تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠]، فقوله: ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: بعد خلقها دُحِيَت، وبُسِطَت، ومُهِّدت، وجُعِلَت قابلة للحياة.

٣- ظاهر السياق في سورة النازعات أن الأرض خُلِقَت قبل السماء؛ لأنه لما قال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩]، والليل والضحى يكون في الأرض؟!

ففي هذه الآية إشارة إلى أن خلق الأرض كان سابقًا، وهكذا هنا، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾، أي: خُلِقَت أولًا، وكانت غير ممهَّدة، ثم بعد ذكر خلق السماء عاد السياق إلى الأرض ليبيِّن جعلها مهادًا، وفي سورة النازعات: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٣٠].

الأرض مهد للإنسان، وهي في مقام الأم الرَّؤوم، كما قال الشَّابيُّ:

وقالــت لِيَ الأرضُ لـمَّـا سألْــت ... أَيَا أمُّ هـل تكـرهينَ البَشَـرْ؟!

أبـــاركُ في النَّاس أهلَ الطُّمـوح ... ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَـــرْ

ومَن يتهيَّـبْ صعــودَ الجبـــال ... يعِشْ أبدَ الدَّهرِ بين الحُفَـــرْ[1]

٤- في الآية إشعار بالبعث؛ لأن هذه الأرض التي هي مهاد لهم وهم أحياء، هي أيضًا مهاد لهم وهم أموات؛ حيث يُدفَنون فيها، ثم يُبعَثون منها، ولهذا سمَّاها الله تعالى مستودَعًا، تُودَعُ أجسادُهم وعظامُهم فيها، ثم تؤدِّي ما استُودِعَت، فهذه إشارة تمهيدية غير واضحة تهيِّئ العقل لقبول ما بعده، وهذا من لطيف العلم، كما يقول بعض أهل العلم لما تكلموا عن موضوع الخمر وتحريمه، قالوا في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]، قالوا: هذا أول إيماءة غير مباشرة إلى منع الخمر؛ لأنه فرَّق بين السَّكَر والرزق الحسن، فجعل السَّكَر شيئًا مغايرًا للرزق الحسن، فهذا يهيِّئ النفوس لقبول ما بعده[2].

وهكذا هنا في قوله تعالى: ﴿مِهَٰدًا﴾، فكما أنه جعل الأرض مهادًا، فإنه جعل هذه الآية تمهيدًا لذكر البعث وما بعده.

٥- جعل الله الأرض مهادًا بالعيش فيها، والمشي عليها، والبناء، وجعلها مستعدة لتحمل تكاليف وجود البشر، كما ترى في رصف الطرقات وحفر الأنفاق والبناء الشاهق وأنواع الاستخدامات التي سخَّر الله الأرض لها.

وكلمة: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هنا تشمل الأرض كلها، ولكنه سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، والجبال من الأرض وإنما خصَّ الجبال؛ لأن لها مهمة

(١) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص ٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٤١)، «الدر المنثور» (٥/ ٤٦٧).

خاصة؛ وهي أن تكون أوتادًا للأرض، وهذه هي الآية الوحيدة التي وصف الله تعالى فيها الجبال بأنها أوتاد، ومِن معاني كونها أوتادًا: أنها تثبِّت الأرض، أن تتحرك وتميد، فهي تحفظ توازنها.

ومن إقحام المعاني الغريبة الاستدلال بالآية على أن الأرض ثابتة لا تدور، على أن الله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، وسواء كان هذا في الآخرة كما يدل عليه السياق، أو في الدنيا كما يدل عليه اللحاق ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فهو يدل على أن الحواس قد يقع لها انخداع وترى الأشياء على غير حقيقتها، فالاستدلال بظواهر الحس على الحقائق العلمية مضلِّل.

* ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨]:

١- اختلف السياق هنا عما كان عليه في الآية الأولى، حيث كان بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾. ثم صار هاهنا خبرًا ماضيًا، وهو مقصود في تغيير رتابة السؤال؛ لأنه مع الطول يُؤْلَف فيحتاج إلى تنويع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، ولم يقل: (ألم نضع)؟

٢- في الآية إشارة إلى جواب السؤال؛ لأنه لما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، كان المعنى: قد جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا؛ ولذلك عطف عليه سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أصنافًا وأنواعًا وأشباهًا، فهناك الذكر والأنثى، وهذا سرٌّ من أسرار الألوهية؛ لأن الزوجين نقيضان، فالذكر غير الأنثى، ومع ذلك فخَلْقُهما في غاية الحكمة والرحمة والإبداع؛ وما كان الرجل ليشعر بسعادة الحياة وهنائها لولا المرأة، ولا المرأة تشعر بكمال سعادة الحياة لولا الرجل، فجعل الله تعالى الأنثى تحنُّ للذكر، والذكر يحنُّ للأنثى، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

٣- أن قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ لا يدل على حصر الأزواج من الخلق على جنس الرجال والنساء، بل يشمل أجناسًا كثيرة من المخلوقات، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي: في الألوان، وفي الأعداد، وفي الأحوال.

ومن ذلك: الغنى والفقر: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾، يعني: غنيًّا وفقيرًا، وهذا فيه جانب الشكر والإحسان للغني، وجانب الصبر والرضا للفقير.. الصحيح والمريض.. القوي والضعيف.. المأمور والأمير.. العالم والجاهل.. الذكي والبليد.. إلى بقية ألوان الزوجية التي خلقها الله عز وجل.

وهذا التنويع موجِب للشكر لمَن فضَّله الله على غيره.

ومن الجانب الآخر هو مقتضٍ للصبر؛ فالإنسان إذا ابتُلِي بمصيبة، أو بآفة، أو بعاهة، أو بفقر، أو بمرض؛ عليه أن يصبر.

وهو مدعاة للإحسان: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، إذ جعل الله تعالى بين العباد التعاون؛ لأن التعاون بين الضدَّين أحيانًا يُوجِد حالة من الانسجام في الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا بهذا.

وكما هو مَدْرَجٌ إلى التكامل؛ فإن الحياة لا بد فيها من التكامل، فكل إنسان يتكامل مع الآخر، فهذا يبني، وهذا يصنع، وهذا يزرع، وهذا يتعلم، وهذا يفكِّر، وهذا يكتب، وهذا يقرأ، فمن خلال مجموع هذه الأعمال يوجد تكامل رائع في الحياة، وهو من أسرار الصنعة الإلهية.

ثم إن التعبير بصيغة الماضي هنا: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ ﴾ إشارة إلى تقرير المسألة وبدهيتها ووضوحها للمخاطبين؛ لأن منهم مَن لا يتأمل السماء والأرض والجبال، لكن الزوجية قضية ضرورية يعايشونها في ذاتهم ويرونها فيمَن حولهم، فهي مما لا يحتاج إلى استدلال، بل هي نفسها دليل وحجة.

* ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [النبأ: ٩]:

١- أضاف النوم إلى الناس، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾؛ لأنه لا يغني فيه أحد عن أحد، فكل إنسان يحتاجه، ولو أن في الناس مَن لا ينام مطلقًا، لشعر هذا الإنسان بالحرمان والنقص والعَطَب والخلل؛ فالنوم من الأشياء الضرورية لكل إنسان، فلا غنى عنه، ولا حياة لَمن حُرِمه.

وقد ذكر الأطباء مدة معينة- تختلف باختلاف الأجساد- إذا عاشها الإنسان دون نوم فإنه يموت؛ إذ لا بد لهذا الجسم أن يأخذ حقَّه من الراحة والاسترخاء، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن حزم في «طوق الحمامة»[١].

٢- لم يقل الله: (ليلكم)؛ لأنه سيأتي في الآية التي بعدها، ولأن الليل ليس خاصًّا بالإنسان، بل المخلوقات على الأرض يتلبَّسها الليل، حتى إن إحدى الشركات في اليابان وضعت مصابيح ضخمة في منطقة معينة تضيء الليل كله، فاكتشف المُزارع- بجانب هذه الشركة- أن زرعه تأثر بهذه الإضاءات الليلية، فرفع عليهم دعوى وكسبها، وتبيَّن أنه حتى النباتات وغيرها تحتاج إلى هذا الظلام الذي يلفها، أما النوم فهو للأرواح[٢].

٣- يقول أهل اللغة: السُّبات هو: القطْعُ، أي: أن النوم يقطع حياة الإنسان الرتيبة[٣]؛ لأن الإنسان في النهار يعمل ويكدح، وربما يصاب بأمراض جراء ضغوط العمل والحياة، وقد ينام المرء على تعب وعناء ويصحو على سكينة وراحة وهدوء وسعادة.

ومن معاني «السُّبات» أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين

---

(١) ينظر: «طوق الحمامة» (ص ٣٠٧).

(٢) ينظر: «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (ص ١٥٩).

(٣) ينظر: «القاموس المحيط» (١/ ١٩٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٠٩٤).

يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النَّفَس يتردد، بلا حسٍّ ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يردُّ الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة، أما كيف يتم النوم؟ فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية.

٤- النوم نفسه يخلُد فيه الإنسان إلى عالم آخر مستقلٍّ، فيه أحلام ورُؤى، وأحوال غريبة؛ فالنائم يسافر ويطير، ويكتب ويمضي عقودًا، ويهادن ويحارب، ويرى الموتى أحياء، والأشياء على غير مألوفها، وقد جعل تعالى النوم أَمَنَةً، كما قال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال:١١]، حتى كان السيف يسقط من يد الصحابي من شدة النعاس، وخلال ثوانٍ يصحو، فإذا به قد استعاد قوته ونشاطه[1]، فالنوم يقطع عن الإنسان التعب والإجهاد والإعياء، ويعيد له قوته وحيويته، وكأنه يضخ فيه طاقة روحية جديدة.

والعلماء يسمون النوم: الوفاة الصغرى. أخذًا من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

٥- جعل الله تعالى النائم قابلًا للاستيقاظ من ذاته أو من غيره، بخلاف الحالات الاستثنائية، كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١].

فمِن رحمة الله أن جعل النوم سُباتًا، يقبل أنك تقطعه، وتستيقظ وتذهب لحاجاتك ومقاصدك، فيكون النوم بقدر حاجة الإنسان.

٦- النوم ضرورة من ضرورات صحة البدن، ولا يزال العلماء يؤكِّدون أن الإنسان يدفع ثمن قلة النوم أو اضطرابه من صحته وحياته؛ بسبب الإجهاد،

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢)، و«تفسير النيسابوري» (٢/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٣٣).

وضعف التركيز، وهَرَم الذاكرة والنسيان، ويؤثِّر في الاستقرار العاطفي والنفسي، فيكون سببًا لسرعة الانفعال والغضب، كما يؤثِّر على خلايا المخ، ولهذا فعلى الإنسان أن يأخذ القدر الكافي من النوم، وهو يختلف من شخص لآخر، ولكن غالب الناس يحتاجون ما بين ستٍّ إلى ثمانٍ ساعات، من أجل المحافظة على حيويتهم وقوتهم ونشاطهم، وتجنب التعرض للأزمات النفسية أو القلبية، وإذا قسمها الإنسان بين الليل والقيلولة كان أنفع، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ.

ونوم الليل أفضل من نوم النهار، وبعض العلماء يقولون: إن نوم ساعة واحدة في الليل أفضل من نوم ساعتين في النهار؛ لأن الليل مناسب بهدوئه وصفائه للاسترخاء، وأخذ قسط من الراحة، واسترخاء ساعة في الليل يعادل نوم نصف ساعة حتى لو لم يستطع أن ينام!

* ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ [النبأ: ١٠]:

١- قوله: ﴿ لِبَاسًا ﴾ أي: للأرض، فهو أشبه ما يكون بالثوب أو الجلباب الذي تلبسه الأرض.

وهو لباس للإنسان ذاته، يمنحه قَدْرًا من الاسترخاء وهدوء الأعصاب، وأكثر الناس لا يجدون الراحة إلا في الليل، ففيه من لحظات الأنس، والسمر، والجلسات الممتعة ما ليس في النهار.

٢- وصف الله الليل بالسَّكَن ووصف العلاقة الزوجية بالسَّكَن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. والمرأة أشبه بالليل، سترًا وروحانية وعاطفة، والرجل أشبه بالنهار ظهورًا وتجليًا ودأبًا واحتمالًا، وفي الحياة تناسق رائع بين مهمات الرجل ومهمات المرأة، وطبيعة كل منهما، فالزوجية تتجلَّى في الليل والنهار، وفي السماء والأرض، كما تتجلَّى في الذكر والأنثى؛ ولذا أقسم الله بذلك في مواضع كما في سورة الليل.

والليل غالبًا ملتقى الحياة الزوجية ومستراحها بعد الفراق والعناء والسبح

الطويل مع الناس.

٣- ذكر القرطبي في «تفسيره» أن بعض المغفَّلين قالوا: ما دام الليل لباسًا، فللإنسان أن يصلِّي فيه وهو عُريان؛ لأن الليل بحدِّ ذاته يغني عن اللباس(١). وهذا من أقوال أهل الغفلة، فكون الليل لباسًا فيه معانٍ متعدِّدة، لكنه لا يغني عن اللباس الحسِّي الذي امتنَّ الله به على الناس، كما قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد جاء عن النبي ﷺ: «الله أحق أن يُستحيا منه»(٢).

٤- من معاني: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أن الناس ينقطعون في الليل غالبًا عن الخروج من منازلهم، ويأوون إلى بيوتهم أو حقولهم ويجتمع شملهم على طعامهم وشرابهم ونومهم، فتكون المساكن كاللباس لهم.

وبعض الناس عكسوا الحال، فجعلوا الليلَ نهارًا، والنهارَ ليلًا، على أن غالب الناس من الأمم المختلفة يهجعون أول الليل إلى مضاجعهم ويأوون إلى بيوتهم، ويقومون مبكرين إلى أعمالهم ومصالحهم.

حين يشرق الصباح يصحو الكون ويتهيَّأ ليوم جديد، فلتكن روحك متطلعة لهذا الصباح الجميل، قانعة راضية متفائلة بعطاء الله الكريم، داعية بالخير للعباد.

* ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ١١]:

١- قال: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، ولم يقل: (والنهار معاشًا)؛ لأن الآيات قصيرة، فلو قال: (والنهار معاشًا) فإن الآية تكون قد اختُزِلت كثيرًا.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠)، والبخاري معلقًا، كتاب الغسل، باب من اغتسل وحده في الخلوة (١/ ٦٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩) من حديث بَهْز بن حَكِيم عن أبيه عن جده ﷺ.

وفيه بيان أن الاستفهام في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ هو تقريري للإثبات؛ ولذا عقَّب عليه بفعل ماضٍ يدل على حصول الفعل، وعلى الفاعل وهو الله تعالى.

٢- في الآية تكرار التذكير بالنعمة واستحضارها؛ لأن كثيرًا من الناس بسبب الإلف ينسون هذه النعم، فهذه الشمس التي تشرق عليهم كل يوم ثم تغيب، لا يدركون قيمتها؛ لاعتيادهم عليها، وكذلك مَن يعيشون في المناطق الخضراء الممطرة، لا يلفت نظرهم ما فيها من الجمال الأخَّاذ مما يلفت نظر غيرهم، وكذلك أهل الصحراء والرمال أو السواحل والبحار..

٣- ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه تأكيد الردِّ على مَن لا يؤمنون بالصانع سبحانه من الدهريين والطبائعيين، كالمانوية الذين يجعلون آلهة للنور وآلهة للظلام... فالآيات تدحض هذه المقولة، وتبين أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وأنه خلق النور والظلام، كما قال المتنبِّي:

وكم لظلامِ الليلِ عندكَ من يدٍ تخبِّرُ أن المانَوِيَّةَ تكذِبُ[1]

٤- أن أقرب ما يكون من معنى كلمة: ﴿مَعَاشًا﴾ أنه ظرف لطلب العيش، والتصرف في شؤون الرزق، وهذا ظاهر كما هو حال أكثر الأمم والشعوب.

* ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]:

١- البناء يدل على القوة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، و«الأيد» هنا: القوة، فالله تعالى هو الذي بنى الكون كلَّه، ومن ذلك السماء ﴿فَوْقَكُمْ﴾، شيء ترونه وتشاهدونه في عُلوِّه وشموخه، والبناء كلما ارتفع وعلا فإنه يدل على قدرة الصانع، وفي القديم كان الناس يتفاخرون بالمباني الشامخة العظيمة، ولا زالوا يتفاخرون بالعمائر الشاهقة، وناطحات السحاب، والمباني الضخمة، ولذلك جاء السياق في القرآن الكريم يمتنُّ عليهم، ويذكِّرهم بالقدرة الإلهية في بناء السماء العالية

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٦٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (١/ ١٧٨).

التي لا يتصوَّرون سعتها وأبعادها، والإنسان يرى النجوم حوله تلمع، لكنه لا يدري أنها ذرات في مجرات تسبح في فضاء واسع لا يحيط به إلا الله.

وهذا ليس بحديث خرافة وتخرص، بل هو صنع الله العظيم، والإنسان أحيانًا لا يستطيع أن يستوعب هذه العظمة بعقله، وإن كان العلماء المتخصِّصون يُدرِكون شيئًا مُذهِلًا، وبخاصة المختصين في علم الفلك، إذ يشاهدون من خلال المكبِّرات هذه القبةَ الزرقاءَ، ونجومها وشموسها وأقمارها ومجَرَّاتها، أشياء هائلة تُذهِل العقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

٢- ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾: المراد: السموات السبع، وصفها سبحانه بكونها ﴿شِدَادٗا﴾؛ لكونها قوية مُحْكَمة مُحَصَّنة، بحيث لا تستطيع الشياطين ولا البشر أن يصلوا إليها؛ فإن كل إمكانيات البشر وقدراتهم وحديثهم هو ما دون السماء الأولى، وإلا فالسماوات التي بناها الله تعالى فوق ذلك، لا يصل إليها علم البشر ولم يحيطوا بها علمًا، وكذلك النجوم.

٣- عامة البشر يؤمنون بأن فوقهم سبعَ سماواتٍ، وهذا مألوف لدى البشر، وموروث ثقافي عند معظم الشعوب، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [نوح: ١٥].. في مواضع أخرى مشابهة.

والآية وما شاكلها دلالة على أن فوقنا سبع سماوات، وأنها طِباق -أي: بعضها فوق بعض- وهذا هو المقصود في الآية، وهو الذي عليه جمهور المفسرين(١).

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: يجوز أن يُراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشتري والمريخ والشمس والزُّهرة

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٦).

وعُطارد والقمر.

وقال: وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظفر؛ لأن المخاطَبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد[١].

والأقرب هو ما ذهب إليه الجمهور أن المقصود سبع سماوات، كما في مواضع أخرى كثيرة في القرآن الكريم، وكون الناس لا يعرفونها بالرؤية؛ فإن الله تعالى يعرِّفهم بها، ويحتج عليهم بالقدر المعروف والمشهور منها.

وأيضًا: فإن القرآن الكريم هو احتجاج على الناس في كل زمان ومكان، وفي العصور السابقة لم يكن عندهم إلمام ومعرفة بهذه المَجرَّات الهائلة، والمدارات الفلكية المُذهِلة، وهذا البعد الذي تدور منه الرؤوس، وكلما تقدَّم العلم، زاد فَهم الناس وتعمَّق لبعض الألفاظ ودلالاتها.

وأمام البشر فرص ضخمة لمزيد من الكشوف الفلكية والاستدلال على وجود العوالم العليا، وها هم علماء الفلك قاموا أخيرًا بطرد الكوكب (بلوتو) من المجموعة الشمسية، ليصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية ثمانية.

* ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣]:

١- ذكر الشمس دليل على أن المقصود السماوات السبع وليس الكواكب؛ لأن الشمس هي أحد النجوم السبعة، فالأقرب أنه بعدما ذكر السماء ذكر بعض ما في السماء، وهي الشمس.

٢- لم يذكر اسم الشمس اكتفاءً بما هو معلوم، وسمَّاها سراجًا؛ لأنها تضيء الكون، فهي مصباح ضخم هائل أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، كما يقول الفلكيون، ومع ذلك يراها الرائي بسبب بعدها بهذا الحجم الصغير، وهي

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣).

معلقة في الفضاء لا يمسكها إلا الله بسننه ونواميسه التي تجري في سائر الأفلاك.

٣- الوهَّاج: المتوقِّد، ففي الشمس إنعام آخر بالإنضاج والحرارة، والحرارة هي إحدى النعم العظيمة في الكون، والتي تسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات وتحقيق البيئة المتوازنة.

* ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٤]:

هذا له علاقة بالشمس؛ لأن الشمس هي أحد أسباب تبخُّر ماء البحر؛ ليكون مطرًا وغيثًا.

١- ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾.. ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾.. ﴿ وَبَنَيْنَا ﴾ صياغات تشعر بتمام القدرة وكمال التصريف الإلهي وراء كل شيء، فهذه الأشياء العادية التي يمرُّ بها الناس وهم عنها معرضون، ينبغي أن ينظروا فيها بروح أكثر حيوية، وأكثر إيمانًا، وأكثر استحضارًا لقدرة الخالق المبدِع الرحيم الكريم سبحانه.

٢- قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ إشعار بأن كل قطرة تنزل من السماء هي بقَدَر: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١]، وهي رحمة وحكمة، وكل شيء بحسبان؛ ولذا يقول العلماء: إن كمية المطر النازل إلى الأرض هو بقدر كفاية الناس، فهو موزون ومخزون، ولكن العبث البشري يؤثِّر على المطر كما يؤثر على البحر وعلى اليابسة وعلى البيئة كلها، وهو جزء من الفساد في الأرض الذي نهى عنه القرآن وشنَّع على مرتكبيه.

٣- اختُلِف في تفسير ﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ على أقوال[١]:

الأول: الرياح.

الثاني: السماء.

الثالث: وهو قول الأكثرين: السحب.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١-١٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٣-١٩٦).

٤- في الآية تشبيه بليغ؛ لأن «المعصر» عند العرب هي الجارية قُبَيْل بلوغها، أي: آن لها أن تحيض ولم تحض بعد، فيقال: هذه جارية مُعْصِر، شبَّه السحاب هنا بالجواري، فانظر إلى هذا التشبيه، يخلع على السحاب روح الحياة، وما لها لا تكون حية، ومنها ينزل الغيث الذي يُحيي الله تعالى به الأرض بعد موتها، والسحب ورد وصفها بالجارية في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣].

٥- في قوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾، وصف المطر بأنه ثجَّاج، أي: يُصَبُّ صبًّا بدفق وقوة، وفيه دليل على الحكمة الإلهية في تصريف الكون، وتحريكه، ولذلك تُسمَّى الأرض بالكوكب الأزرق، لأن أكثر من (٧١٪) من مساحتها ماء.

وهذا الماء يصعد من البحر إلى السماء ثم يعود إلى الأرض، ويقال: إن ما ينزل من المطر كل سنة، يكاد أن يكون متساويًا، ويُروى حديث: «**ما عامٌ بأمطرَ من عامٍ**»[(١)]. فهذه حكمة الله سبحانه وتعالى، أنه يُنزِلُ من هذه السماء الماء الثجاج الذي يُصَبُّ بقوة.

٦- قوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾ فيه معنى الكرم، والعطاء الذي يُصَبُّ على العباد صبًّا، ومع أنه محسوب، وكل قطرة بإرادة الله، إلا أنه عطاء جزيل، وهذا أقوى ما يكون

(١) أخرجه العقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٦٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٨)، وابن مردويه -كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٤٦٤)- والبيهقي (٣/ ٣٦٣)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٢٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الذهبي: «منكر... غريب جدًّا».
وأخرجه الفسوي (٣/ ٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في «الرعد» (٧٦)، وابن وضاح في «البدع» (٧٦/ ٢٢٩)، والطبري (١٤/ ٤٠)، (١٧/ ٤٦٩)، والعقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (١٠)، والداني في «الفتن» (٢١٣، ٢١٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣) موقوفًا، ورجَّحه غير واحد. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤١٣١، ٤٤٦٠).

حجة على الناس، فهم يرون الأرض يابسة، ثم إذا نزل عليها المطر: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، والعرب خاصة يعلمون هذا؛ لأن حياتهم تقوم غالبًا على الرعي والمطر والغيث، فيمتنُّ الله تعالى به عليهم.

* ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٥-١٦]:

١- قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ إشارة إلى الحركة التدريجية في النبات، فالنبات لا يأتي دفعة واحدة، لكن يتكون شيئًا فشيئًا، وقد ذكره الله تعالى في آية أخرى فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

٢- ﴿حَبًّا﴾ الحبُّ هو القمح والحنطة والشعير، وغير ذلك مما يأكله الناس، والغالب أن الحبَّ يكون أقواتًا للناس، مع أن الحيوان يستفيد منه أيضًا، لكن الله تعالى بدأ به؛ لأنه يعتبر من الضروريات التي لا غنى للإنسان عنها.

٣- ﴿وَنَبَاتًا﴾ المقصود بالنبات ما يكون أخضر، فيشمل طعام الإنسان من الخضراوات والبقول، ويشمل طعام الحيوان من الأعلاف وغيرها.

٤- ﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ وهذه من الأشياء التحسينية التجميلية للحياة، وتدخل فيها الفواكه، والجنة هي البستان الذي تكثر فيه الأشجار، ولهذا وصفها بقوله: ﴿أَلْفَافًا﴾، أي: ملتفٌّ بعضها فوق بعض.

٥- حينما يرى الإنسان مظاهر الإبداع في خلق الكون يجد عجبًا، ولذلك فإن الزُّرَّاع هم أكثر تديُّنًا وصلاحًا واستعدادًا لقبول الحق والفطرة ممن يتعاملون مع الآلة؛ لأن الذي يتعامل مع الأرض حرثًا وزرعًا، ويراقب الصنعة الإلهية بشكل مباشر، يرى آثار هذه الصنعة والإبداع، فيقوى إيمانه ويزيد تواضعه، في حين أن الذي يتعامل مع الآلة يتعامل مع شيء من صنع الإنسان؛ ولذلك يغلب عليه النظر إلى إنجاز الإنسان وإبداعه ويذهل أن مبدِع الإنسان هو الله جل وعز، فهو خالق عقله وقدرته وإمكاناته، وهو خالق الأمم والحضارات والأكوان، ومسخِّر الآلة

والمادة وواضع نواميسها وقوانينها.

٦- ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ إشارة إلى ملحظ الجمال، وهو مقصود في صنع الله تعالى، ففي السماء تلحظ القوة والشدة، والبعد والارتفاع، كما تلحظ الجمال في النجوم المتلألئة، وكأنها تتناجى في هذا الليل المظلم، ولو نظر الإنسان إليها عبر المكبِّر، أو في الصور الوثائقية أو العروض الفضائية؛ أو التقنيات ثلاثية الأبعاد؛ لرأى شيئًا يذهل ويدهش.

وهذا كله مما امتنَّ الله به على عباده في هذه الدار، وسخَّره لهم، ورزقهم إياه، وجعل به قوام الحياة إلى أجل مسمًّى، وعلى المرء أن يحسن الانتفاع به، ولا ينشغل به عما هو أهم وأعظم.

* ولذا يتوقف السياق وينتقل إلى موضوع جديد، ليقول: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ [النبأ: ١٧]:

وعادةً ما يعقد الله تعالى المقارنة بين إحياء الأرض بالنبات، وبين إحياء الإنسان بالبعث، وهذا كثير كما في سورة (ق)، والأنعام، ويونس، والحج.

وفي هذا السياق تجد الشيء ذاته، لما ذكر المطر، وأنه يحيي به الأرض بعد موتها، ويجعل منها جنات ألفافًا؛ ناسب أن يبين أنها جنات عابرة تذبل وتموت، وعلى الإنسان أن يستعد لجنات الآخرة، ولذا ذكَّرهم بالبعث وخروجهم من قبورهم، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾.

لِمَ سمَّاه: يوم الفصل؟

١- لأنه حقٌّ لا ريب فيه، ومَن كذَّب به فهو في ضلال بعيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، أي: لقولٌ حقٌّ، وليس بالكذب والهزل، فهو اعتقاد يقيني قطعي لا تردد فيه من جهة النقل ولا ريب فيه من جهة العقل.

٢- لأنه يَفْصِل بين الناس فيما كذَّبوا به، فيوم الفصل هو الذي ينهي جدلهم ونزاعهم؛ لأنه يفصل القضية بالحق الذي يرونه بأعينهم، وينتقل هذا من كونه خبرَ وحيٍ إلى كونه شهادةَ عينٍ.

٣- لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين العباد في مظالمهم وحقوقهم، ويقتصُّ لبعضهم من بعض، والعدل المطلق لا يُرى إلا إذا وُصلت فصول الحياة بعضها ببعض، والحياة الدنيا ليست هي الفصل الوحيد للحياة، بل هي الفصل الأول فحسب، وفي الآخرة الفصل الأكبر والأخير والدائم.

ومن الطريف أن الله سماه هنا: «فصلًا» بل هو ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ والألف واللام قد تدخل على الاسم لتدل على الاستيعاب والأهمية الجوهرية، وكأنه لا «فصل» إلا هو.

وحينما تنظر للدنيا متصلة بالآخرة فسوف ترى العدل المطلق للحق سبحانه، فلن يهمل الظالمين، ويغفل عنهم، ويترك المظلومين بلا نصرة، فهناك في عَرَصات[1] القيامة تتكامل فصول العدل الإلهي المطلق، فربما رأيتَ الرجل الظالم الطاغية يموت بعد أن أسرف في طغيانه وظلمه وتعديه وتمتَّع متاعًا واسعًا دون أن يناله شيء من عقوبة الظلم والطغيان في الدنيا، وربما رأيت الرجل مبتلى بالقهر والحرمان وتسلط الظلمة عليه فيموت ولم يقتص ممن ظلمه، فهل هذا مما يناقض العدل الإلهي؟!

كلا! لأن فصول القصة لم تنته عند حدود الدنيا، فثمة جنة ونار وحساب وعقاب، فيأتي يوم الفصل لتُسْتكْمَل فيه الأمور، ويُقتصَّ فيه لبعض الناس من بعض، وتكتمل الحكمة الربانية التي لا يراها الناس أحيانًا في هذه الدنيا.

وربما سُمِّي فصلًا؛ لأن الأمور تحسم فيه، وثم نهايتان وطريقان، هما الجنة والنار، أما في الدنيا فثَمَّ آلاف الطرق والمذاهب والأفكار والنظريات والأعمال والخيارات.

---

(١) مفردها: عَرْصَة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

وقوله: ﴿مِيقَـٰتًا﴾ لها عدة معانٍ:

١- أن له وقتًا محدودًا، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، وقد اختصَّ الله بعلمه، فلم يبلِّغ به مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسَلًا، فهذا من العلم الذي لا يحيط به إلا الله، ومَن ادَّعى أنه يعلم ميقات يوم الفصل فقد كذب.

وكل الحكايات والأقاويل التي تنشر في الصحف والأفلام والمواقع، وكل الرؤى والتوقعات والحسابات بقيام الساعة ونهاية العالم باطلة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢- أنه اليوم الموعود الذي واعد الله فيه عباده بالفصل بينهم ومحاكمتهم.

وإذا كان يوم الفصل ميقاتًا، فهذا يعني أنه لا جدوى من استعجاله؛ لأنه مؤقَّت بوقت معلوم عند رب العالمين، لا يتقدم ولا يتأخر لرغبة أحد: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ [الشورى:١٨].

ومن لوازم كونه ميقاتًا، أنه حق فلا تكذِّبوه؛ لأن الله تعالى أخبر به، وبيَّن أن له وقتًا وضروبًا عنده سبحانه.

وفيه تصبير للمكلومين والمعذَّبين في الدنيا والمقهورين المستبطئين؛ لأن من عادة الإنسان إذا علم أن أمامه موعدًا مضروبًا محدَّدًا، كان أقرب إلى الاطمئنان والسكينة.

ثم ذكر الله تعالى بعض وقائع هذا اليوم، فقال:

* ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]:

الإنسان هو المقصود الأول من خلق الكون والحياة والبعث؛ ولذا بدأ السياق في الحديث عنه مباشرة.

والحساب والجزاء والسؤال هو لك شخصيًّا، فلا تحسب للآخرين حسابًا، ففي يوم القيامة يهتمُّ كلٌّ بنفسه، حتى الرسل والأنبياء يقول الواحد منهم: «نفسي.. نفسي». وينسى الإنسان أهله وقرابته، ويفر من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

والنفخ في الصور هو للحياة، و«الصور» هو بوق أو قرن يُنْفَخ فيه[1]، لكن هيئته وشكله وطوله وعرضه وصفته مما لم نُحِطْ بعلمه، فنحن نؤمن بأن ثَمَّ صورًا، وأنه يُنفخ فيه، وتشخيص صفة الصور أو طريقة النفخ، هي من الغيب الذي لم نحط به علمًا ولا طائل من البحث وراءها، ونتيجة لذلك تأتي الصيحة أو الرادفة أو الصاخَّة أو الطامَّة التي يُبْعَث الناس بها من قبورهم، والإنسان عندما يتخيَّل نعيم الجنة أو عذاب النار، أو ما يجري يوم القيامة، تمرُّ بذهنه خواطر وصور مما يعرف، لكن عليه أن يدفعها، ويدرك أن ما خطر بباله شيء، وما عند الله شيء آخر مختلف، لا سبيل إلى إدراكه، فلا تحاول، ولا تضيِّع جهدك ووقتك وإمكانياتك، بل اصرفها في النافع.. في العلم.. في الإصلاح.. في العمل.. في الخير.. في الدعوة.. في المصالح الدينية أو الدنيوية، أما الرجم بالغيب والظنون والتخيلات في أمور أخروية، فهذا لا جدوى من ورائه.

ولاحظ تسارع السياق: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، حيث عبَّر بالحرف «فـ»، فبمجرد ما يُنفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجًا.

وقوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، أي: جماعات، بعضهم مع بعض، كل أمة تأتي مع نبيِّها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١]، فكل أمة تُدْعَى إلى كتابها، وتُدْعَى مع نبيِّها، المؤمنون مع المؤمنين، والكافرون مع الكافرين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]، أي: قُرِنت مع أشباهها، فأهل الإيمان مراتب، وأهل الكفر والنفاق مراتب، ويوم القيامة طويل يقع فيه اختلاط الناس

---

(١) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٣٧٥)، و«النهاية» (٣/ ١٢٢)، و«تاج العروس» (١/ ٣٠٨١).

وتمايزهم شيئًا فشيئًا، حسبما تدل عليه النصوص المختلفة الواردة في السياق.

* ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ:١٩]:

١- هذا مما يقع بعد انبعاث الناس ومجيئهم أفواجًا: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾، أي: شُقِّقت ومُزِّقت، ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ تنزل منها الملائكة إلى الأرض للمهمَّات التي انتُدِبوا إليها.

٢- السَّماء وإن كان من مقاصدها أنها سقف للأرض، إلا أنها ليست مقصورة على هذه المنفعة، فهي عالم آخر وبناء مستقل، ولهذا عبَّر بالبناء، وكما عبَّر عنها في آية أخرى بكونها: ﴿سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء:٣٢]، ولم يقل: (سقفًا حافظًا)، وإنما ﴿مَّحۡفُوظٗاۖ﴾، أي: عما دونه، فقصارى ما يستطيعه الإنسان هو أن يلاحظ هذه السماء على هيئة السقف، وأما ما وراءها فهو محفوظ لا يستطيع البشر أن يلاحظوه إلا بإذن ربهم.

فالسماء في ذلك اليوم على شدتها وقوتها ومتانتها تشقق، وتكون أبوابًا لنزول الملائكة.

* ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠]. وقال في آية أخرى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير:٣]:

وهذه إحدى أحوال الجبال؛ أن يأذن الله لها أن تسير بمفردها، وتسير سيرًا سريعًا، حتى إنها تمرُّ مرَّ السحاب، قال سبحانه: ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾، وقد ورد عن الجبال سبع صفات في القرآن الكريم، منها هذه الصفة.

ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل:٨٨]، وتكون كالعهن، وكالهباء، وتزول كما في قوله سبحانه: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه:١٠٧].

وكأن هذا يقع بالتدريج خلال هذه السنين المتطاولة التي يشملها اسم «يوم الفصل»، وهذا أحسن من النظر إلى تلك الأحوال باعتبارها مترادفة، فالقول باستقلال كل لفظ بمعنى خاص أولى من حمل بعضها على بعض، وأمكن في الإفادة.

* ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ:٢١]:

١- حين تقرأ هذه الآية المؤكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ تشعر أن ما سبقها من علامات وتغيرات لم يكن إلا تمهيدًا لهذه الحقيقة المرعبة المخيفة.

وإذا كان تلك الآيات الممهِّدة تثير الفزع من النفخ في الصور، ومجيء الأمم كلها جماعات، وتشقُّق السماء، وتسيير الأرض، فكيف حين تُرى النار وهي تترصَّد وتتربَّص بمَن وُعدت بهم.

٢- والمرصاد هو الذي يقف في الطريق يترصَّد[1]، ولهذا قال في سورة الفجر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، فلو أن إنسانًا يمشي في طريق وهو يعرف أن أحدًا يترصَّد له فيه ليوقع به، كيف يكون حاله؟ سوف يحذر ويتوقَّى كلَّ ما يريب، وهذا السياق إنما يقال؛ لأن المقام مقام وعيد للمكذِّبين والمتسائلين باستخفاف عن النبأ العظيم، وإلا فالأصل في صفات الرب تعالى الرحمة واللطف والبر والجود والكرم والعفو والصفح، ولا يقع في أسمائه الحسنى إلا كل جميل، كما هو مقرر معلوم مبسوط في بابه.

٣- وكونها ﴿مِرْصَادًا﴾ يدل على أن الناس كلهم سوف يمرُّون عليها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، وذلك أن الصراط منصوب على متن جهنم، فالناس يمرُّون عليه جميعُهم؛ المؤمنون والأنبياء والمرسلون، وسائر البشر، لكن منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يمشي ويعثر، ومنهم مَن يسقط ويهوي[2].

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٠٢).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣) من حديث أبي سعيد ﷺ.

وبدأ بذكر جهنم؛ لأنها في الطريق إلى الجنة بسبب أن السياق تهديد للمكذِّبين.

* ﴿ لِلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [النبأ:٢٢]:

١- تخصيص بعد عموم، وهذا اللفظ يُطلَق على الكفار، الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته، وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واسترسلوا وراء المغريات والشهوات واللذَّات، فيتوعَّدهم الله سبحانه وتعالى بأن جهنم أُعدت لهم.

٢- التعبير بـ «الطغيان» إشارة إلى سبب التعذيب، وهو الاستكبار والتعاظم الذي يحول دون قبول الحق، ويكون سببًا في العدوان على الخلق وازدرائهم، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر**». قال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبرُ بَطَر الحق وغَمْطُ الناس**»[1]. وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٦٠]. وناسب مقابلة الكبر بالإهانة والتعذيب.

٣- والمآب هو المرجع، فمهما طال الزمن أو قصر، فمرجعهم ومصيرهم إليها، كما قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٦٨]، والعادة أن الإنسان ربما يتعب في سفر، ثم يؤوب إلى بيته وأسرته فيجد الراحة والأنس، ويزول عنه العناء والتعب، فكيف إذا كان مردُّ الإنسان هو العذاب، ولعل هذا من معاني قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة:٨-٩].

٤- المسلمون الذين يعصون الله تعالى، ما شأنهم؟ يغفر الله تعالى لمَن يشاء منهم، ويعذب مَن يشاء، ورحمته سبحانه سبقت غضبه، ولكننا نعلم بمقتضى النصوص الشرعية المتوافرة أن من المسلمين مَن يُعذَّب، ثم يخرج من النار برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بغير ذلك من الأسباب التي أذن بها رب العالمين.

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

* ﴿ لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ [النبأ:٢٣]:

﴿ لَّبِثِينَ ﴾: أي: ماكثين، والأحقاب جمع حِقْب، والحقب أو الحقبة، قال بعضهم: سبعون سنة. وقال آخرون: سبعون ألف سنة، وفي الآية لم يحدِّد مدَّتها، ومن هنا قال جمهور المفسرين: إن المقصود بالأحقاب: الدهور التي لا نهاية لها(١).

وقال آخرون: إن السياق دليل على أنهم يمكثون فيها مددًا طويلة، ولكن لها أمد تنتهي إليه، **ولذلك اختلف أهل السنة: أتفنى النار أم لا؟**

أما الجنة: فلا خلاف في بقائها أبد الآبدين، وهذا محل إجماع أهل الإسلام(٢).

وأما النار: فقد ذكر شارح «الطحاوية» عند قول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان». قولين لأهل السنة:

الأول: أن النار باقية، وأصحابها من الكفار والمشركين باقون فيها أبدًا، وأما الموحِّدون فيخرجون منها، وهذا مذهب الأكثرين.

القول الثاني: أنه يخرج منها أهل الإيمان، ثم تبقى فترة ثم يأذن الله تعالى بزوالها وفنائها.

واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة المذكورة آنفًا؛ لأن التحديد بالأحقاب دليل على التوقيت، كما استدلوا بقوله تعالى في سورة هود: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧].

وقالوا: إن الخلود من معانيه: المكث الطويل، وهو معروف في اللغة، والمعنى: خالدين فيها ما دامت موجودة.

وابن القيم رحمه الله في بعض كتبه يميل إلى هذا القول، وفي «شرح «العقيدة

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص١٧٣).

الطحاوية» ذِكرُ هذا القول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، والحسن البصري، وجماعة من السلف، ويُنسب إلى ابن تيمية، وذكر الشيخ رشيد رضا هذا القول، وأطال فيه النفس مقرِّرًا مؤيِّدًا[1].

فهو قول معتبر ضمن أقوال أهل السنة، وليس قولًا منكرًا يُوصم صاحبه بالتضليل أو التكفير أو التبديع أو يُدعى إلى الملاعنة أو المباهلة، كما يقع من بعضهم بسبب التعصب والاستغراب.

* ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [النبأ:٢٤]:

١ - «البرد» هو البرودة، أي: ضمن الحرارة، وذلك أنهم في حر شديد ونار، فهم يتمنَّون البرودة فلا يذوقونها، لأن الإنسان إذا شعر بشدة الحرارة تمنَّى البرودة، وإذا شعر بشدة البرودة تمنَّى الحرارة واللهب، وفي الحديث مرفوعًا عن خَوْلة بنت قيس رضي الله عنها: «ابنُ آدم إن أصابه البردُ قال: حَسِّ. وإن أصابه الحرُّ قال: حَسِّ»[2].

ومن الطريف أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد حتى كاد يهلك ثم وجد نارًا يستدفئ بها فقال: اللهم اكتبها لي ولوالدي!

ومن معاني البرد: النوم:

قال الشاعر:

فإن شئتِ حرَّمتُ النساءَ سواكمُ وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بردا[3]

---

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٨٥) فما بعدها، و«حادي الأرواح» (ص ٢٤٨)، و«الرد على من قال بفناء الجنة والنار» لابن تيمية (ص ٧٤)، و«رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني، و«تفسير المنار» (٨/ ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٣١٦)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والطبراني (٢٤/ ٢٣١) (٥٨٩). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٨).

(٣) ينظر: «الحيوان» (٥/ ١٦)، و«الفاخر» (ص١٧)، و«الصحاح» (١/ ٤٥٦)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٢٠) منسوبًا إلى عبدالله بن عمرو بن عثمان العَرْجي.

والنُّقاخ هو الماء.

والبرد، قيل: هو النوم، وهو قول مجاهد وبعض السلف، وهو معروف في اللغة[1]؛ وذلك لأن الإنسان في النوم أبرد منه في اليقظة، وكذا إذا مات برد جسمه.

فلا برودة تخفِّف عنهم من لهب النار، ولا يذوقون الماء البارد، ولا يذوقون حتى النوم الذي يخفف عنهم، أو ينسيهم، أو يعطي أجسادهم بعض البرد.

٢- وقوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾، نفى البرد، ثم نفى الشراب؛ لأن عادة المرء أن يحب الشراب باردًا، فإذا نفى البرد لم يكن إلى البرودة إليهم من سبيل بوجه من الوجوه، ثم عقب بنفي الشراب كله بارده وغير بارده، إلا ما استثناه في الآية بعدها.

* ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٥]:

«الحميم» هو: الماء الحار، ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، فإذا غلي الماء سُمِّي حميمًا.

ومنه: الحَمَّام؛ لأنهم كانوا يتطهَّرون ويتنظَّفون بالماء الحارِّ، فسمَّاه هنا حميمًا.

ومنه: الحمَّى أيضًا، فهم يشربون هذا الماء الحميم الحارَّ المغلي، الذي يقطِّع أمعاءهم ويمزِّق أجوافهم[2].

والغسَّاق: قيل: هو الشراب النتن.

وقيل: البارد شديد البرودة، الذي يعذِّبهم ببرودته[3].

ولا مانع من اجتماع الأمرين، فيكون الغسَّاق شرابًا باردًا منتنًا يشربونه، عقوبة

(١) ينظر: «القاموس المحيط» (١/ ٣٤١)، و«مختار الصحاح» (ص ٧٣).

(٢) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٣)، و«تاج العروس» (٣٢/ ١١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٤١)، و«معجم ديوان الأدب» (١/ ٣٢٩)، و«تاج العروس» (غ س ق) (٢٦/ ٢٥٢).

على ما كانوا يتلذَّذون به في الدنيا مما حرَّم الله تعالى من ألوان المطاعم والمشارب والشهوات.

* ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦]:

فهو جزاء عادل، موافق لنوع العمل، وليس فيه زيادة في العقوبة بل هو مكافئ للإجرام، وفي جزاء المؤمنين قال: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣٦]؛ أي: أنه فضل من الله تبارك وتعالى، وليس مقابلًا لأعمالهم، بل هو فوقها.

ولهذا لا يمكن أن يدخل أحد النار وهو يقول: أنا مظلوم. بخلاف الدنيا، ربما كثير من الناس لا يحسُّ بخطئه، أو لا يريد أن يعترف، أو يُظلم وتضاعف عليه العقوبة، ربما يُعاقَب ويُسْجَن ويُعذَّب ويُقتَل بحق، وهو يصيح: مظلوم! مظلوم! حتى قال الشاعر:

لن يدخلَ السجنَ إنسانٌ فتسألهُ: ما بالُ سجنِك؟ إلا قال: مظلومُ

أما في الآخرة، فهذا مُنْتَفٍ، فلا يوجد أحد يُعاقَب وهو يقول: لا أستحق هذا، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠-١١].

وهذا من كمال العدل الإلهي، حتى إن الجوارح تشهد على الإنسان وليس الملائكة فحسب، ولا الديوان المسطور الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

* ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ [النبأ:٢٧]:

هذا بيان لكمال الحجة عليهم، وعظم الذنب الذي اقترفوه، وأنه لا ذنب أعظم من الحَوْبِ الذي وقعوا فيه، وهو جحود الخالق والكفر به وتكذيب أنبيائه ورسله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ:٢٧-٢٨]، وهم ﴿ كَانُواْ ﴾ في الدنيا لا ينتظرون البعث وما بعده، وجمع بين الفعل الماضي والمضارع:

﴿كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لم يكونوا يرجون حسابًا، وما من حجة أقيمت عليهم في إثبات الجزاء والنشور إلا قابلوها بالاستكبار والرفض، ولذا أعرضوا عنه ولم يضعوه في اعتبارهم ولم يدرجوه في حسابهم، وكانت غايتهم الحياة الدنيا، وبهذا اختل ميزانهم.

وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ عبَّر بـ«الرجاء»، وهو يُطلَق على ما يحب الإنسان، أي: أنهم لم يكونوا يرجون الجنة، والرضوان، ولهذا لم يكونوا يفعلون الطاعات؛ لأن الذي يرجو لا بد وأن يفعل الطاعة، وكأن في ذلك إشارة إلى أن أصل كفرهم ترك الطاعة والتوحيد والإيمان، وهو أعظم من الوقوع في المعصية.

* ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ:٢٨]:

انتقل من التعبير بالمضارع إلى التعبير بالماضي، فقال: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ للإشارة إلى أن تكذيبهم كان حاسمًا جازمًا لا تراجع فيه ولا تردد، وكان سريعًا لم يسبقه بحث ولا تأمل ولا تفكير.

و«الآيات»: جمع آية، وهي نوعان:

١- الآيات الكونية الدالة على الله، وهذا من جنس قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:٦-١١]، وكثير من المشركين زمن النبي ﷺ كانوا يقرُّون بتوحيد الربوبية بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فتكذيبهم بها عدم تحققها في نفوسهم وعدم الالتزام بمقتضى ما يقولون بألسنتهم من الإيمان المجرد بالإله الخالق.

٢- الآيات الشرعية، فكذبوا بوحي الله، ومن ذلك: التكذيب بالقرآن، والعربيُّ إذا قرأ القرآن عَرَفَ بعربيته إعجازَ القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته وسحر بيانه.

فهؤلاء كذَّبوا بالآيات كلها، عقليها ونقليها، مسطورها ومشهودها، ولذا استوعب تكذيبهم الآيات كلها. ولهذا قال: ﴿كِذَّابًا﴾، والكِذاب معناه: تكذيبًا، فهو مصدر، لأن المعنى: كذبوا بآيات الله، ولكنه صيغة (كذابا) أبلغ من (تكذيبًا)، مرة بعد أخرى، وكلما وُجِد في قلوبهم شيء من الميل أو التصديق قاوموه ودافعوه.

وهذا التكذيب بآيات الله جعلهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يعملون له، ولا يرتدعون عن المعاصي.

* ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ:٢٩]:

﴿وَكُلَّ﴾ مفعول به منصوب على تقدير: (وأحصينا كل شيء)، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢]، أي: في كتاب حافظ.

و﴿وَكُلَّ﴾: من ألفاظ العموم؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]، كل صغير من الأفعال والأقوال والخواطر التي في القلب والنيات والمقاصد مُحصًى عند الله ومسطور.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

ويدل لفظ: «كل» على استيعاب ما عمل هؤلاء الناس وما لم يعملوا، فهو مكتوب.

والمقصود بـ «ما لم يعملوا»؛ أي: كل ما تركوا مما هو واجب عليهم أن يعملوه، وربما دخل فيه ما هموا به ثم أعرضوا عنه، أو عجزوا عن فعله، فيكتب لهم ما تركوه لله، ويكتب عليهم نية ما تركوه عجزًا.

والكتابة هنا هي الحفظ والضبط والتسجيل الدقيق، وهي وثيقة يُبنى عليها

الحساب والثواب والعقاب، كما يبنى عليها الترك لما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب.

فقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ يشمل المفعول والمتروك من المعاصي والطاعات.

وهو عموم لا يدع مجالًا للتوقع بأن ثَمَّةَ شيئًا لم يشمله هذا العموم.

واختلف العلماء فيما يكتبه الملك؟

فقال الحسن وقتادة ومجاهد: يكتب كل شيء. وقال ابن عباس -في إحدى الروايتين عنه- وعكرمة: يكتب ما فيه ثواب وعقاب.

وظاهر الآية الأول، ويؤيِّده قوله تعالى في سورة (ق): ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحًا، مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم(١).

وقوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ الإحصاء يدل على الضبط الدقيق، فهو مُحْصًى معروف؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

والضمير -النون- في قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يعود إلى الله سبحانه وتعالى، فهو يعلمه، وأيضًا بواسطة ملائكته الكتبة الحافظين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وغالب ما تأتي النون فيما يكون للملائكة تكليف فيه، كالموت والعلم والمعية والنصر.

ثم قال: ﴿كِتَٰبًا﴾، أي: ليس فقط علمًا، وإنما هو مكتوب أيضًا؛ لأن عند الله

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن رجب» (٢/ ٣٠٢).

تعالى كتابًا لكل إنسان يخصه، ويُزاد فيه يومًا بعد يوم، ويُكْتَب فيه الخير والشر، وهذا نطق به القرآن الكريم، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء:١٣]، وهو الكتاب الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]، يرون الكتاب من بعيد، قبل أن يأخذوه، فهم منه مشفقون.

فهنا قال: ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ أي: مكتوبًا أو كتابةً، ولا يمنع أن يكون ذلك مدونًا بأعلى صيغ التوثيق التي لا تدع لقائل مقالة، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ:٤٠].

وإذا كان البشر بإمكاناتهم القليلة استطاعوا أن يوثِّقوا ويضبطوا حركات الإنسان وأعماله من خلال وسائل التقنية والكاميرات الدقيقة المبثوثة في كل مكان، فتُصوَّر الحركات والسكنات وتُسجَّل الأصوات وهي في غاية الخفاء والضآلة، فكيف بقدرة الخالق العظيم جل وتعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ؟!

فثَمَّ شريط شاهد على ما يعمله الإنسان يعرض عليه يوم القيامة.

* ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٣٠]:

أي: ذوقوا بدايات العذاب، فما تجدونه ما هو إلا عينة لما هو أشد؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٥٦]؛ أي: البداية التي تُقدَّم للضيف.

وهذا دليل على أن العذاب يزيد، أي: سوف نزيدكم عذابًا؛ لأن العذاب الجديد يضاف إلى العذاب الأول، فالعذاب الأول نال من الإنسان، من جلده ومن نفسه، فإذا جاء العذاب الجديد كان مضافًا إلى الأول، فهو عذاب بعد عذاب، إضافة إلى أنه قد يكون من معاني الآية: أن العذاب يزيد، فيكون العذاب الثاني أشد من العذاب الأول.

وقوله: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أقوى مما لو قال: (فسوف نزيدكم عذابًا)؛ لأن فيه نفيًا وإثباتًا، فهو نفى أن يزيدهم شيئًا آخر؛ أي: لن نزيدكم رحمة وعفوًا ومغفرة

ونعيمًا، وإنما سوف نزيدكم عذابًا فحسب.

وبينما القوم يتألَّمون بالمعاناة والعذاب الذي هو جزاء لأعمالهم، تنتقل السورة إلى الفريق الآخر وما له من النعيم:

* ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ:٣١]:

١- بدأ بـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة، إشارة إلى عظمة هذه الحقيقة، والمتَّقِي هو مَن اتقى الكفر بالإيمان، فلكل مؤمن قدر من التقوى يزيد بقدر ما عنده من الإيمان والوازع؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، فكل مؤمن له حظٌّ من هداية القرآن؛ لأن أول مراتب التقوى هي الإسلام، وهناك مراتب للتقوى أعلى تصل إلى مرتبة الإحسان والكمال.

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى؟ فقال: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: ذاك التقوى»[1].

فالمتَّقِي كالذي يمشي في حقل ألغام، يحذر أن يضع قدمه إلا في مكان آمن، فهكذا المتقي لا يضع رجله أو يده أو عمله إلا حيث يعلم أنه لا حرج عليه، والتقوى لا تعني العصمة، وكان ابن المعتز يقول:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أر ... ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى

لا تحقرنَ صغيرةً ... إن الجبالَ من الحَصَى[2]

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٩٨)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (٩٦٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤)، و«الدر المنثور» (١/ ١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٩)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤).

قال سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، والمتقون هم مَن ذُكِر بعد هذه الآية إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمتقي عنده أوبة كلما وقعت منه زلة، وهذا لا ينافي التقوى، والمؤمن يخطئ ويتوب ويستغفر.

٢- قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أنهم علموا أن كل شيء سيُحصَى عليهم، فتركوا ما لا يُرضي الله قَدْرَ استطاعتهم، فهم مؤمنون بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾، وكانوا يرجون الحساب ويخافون العذاب، وبهذا تميزوا عن الطائفة الأولى.

٣- ﴿مَفَازًا﴾: المفاز: السلامة، وكفى بها فوزًا؛ لأنه لـمَّا ذكر وعيد المشركين قال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ولذلك كان الأنبياء في ذلك الموقف يطلبون السلامة، ويقولون: «اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»(١).

* ولكن الله تعالى بفضله وكرمه وعَدَهَم بما هو أعظم من ذلك وخير: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣٢-٣٤]:

و«الحدائق»، وهي الأشجار العظيمة، والجنة سُمِّيت بذلك؛ لما فيها من الأشجار الملتفَّة، التي تجن وتغطي ما دونها، وقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، باللغة التي نعرف؛ لأن هذا قصارى ما يمكن أن يصل إليه الإدراك، والإنسان عندما يقال له: ﴿حَدَآئِقَ﴾. يتبادر إلى ذهنه ما يراه في الدنيا، وعندما يُذْكَر له الأعناب يتبادر إلى ذهنه ألوان العنب وأشكاله وطعومه المختلفة التي يعرفها ويتذوَّقها.

و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(٢)، وقال

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

سبحانه: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥]، وقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث الصحيح أخبر ﷺ أن الجنة: «**فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[(١)].

﴿ وَأَعْنَٰبًا ﴾ لم يقل: (وعنبًا)، كما في قوله: ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [عبس: ٢٨]، بل قال: ﴿ وَأَعْنَٰبًا ﴾، إشارة إلى كثرتها وتنوُّعها، فهي ضروب وألوان وأشكال، وذلك لأن آية «عبس» هي امتنان على أهل الدنيا، فذكر العنب مفردًا، أما في الجنة، فجاء لفظ «الأعناب» مجموعًا؛ إشارة إلى اتساع أنواعه بقدر عظيم عما هو في الدار الدنيا.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾: «الكواعب» جمع: كاعب، وهي الفتاة التي تفلَّك أو تكعَّب ثديها، أصبح مثل الكعب، أي: مثل كعب الإنسان في استدارته وفي شبابه، وفي نضجه وتصلُّبِه، فالله تعالى ذكر المرأة كأجمل وأكمل ما تكون في مرحلة بلوغها وفتوَّتها وعنفوان شبابها.

وأعمار أهل الجنة هي ثلاث وثلاثون سنة[(٢)]، أي: في مرحلة اكتمال الشباب.

و«الأتراب» جمع تِرْب، أي: المتشابهات في السن، فسِنُّهن واحد[(٣)].

فعندما تكون نساء الجنة كواعب جميلات، وأترابًا في سِنٍّ واحد، فهذا يعني أن الحب والمودة ستكون لهن في درجة واحدة، فلا توجد واحدة منهن في نفسها أن غيرها تُحَبُّ أكثر منها أو أنها أجمل منها، بل كلهن في جمال واحد، وسن واحد، والميل لهن واحد، وأيضًا هنَّ كواعب أتراب فيما بينهن، وعادة النساء عندما يكون سِنُّهن واحدًا أن يكون بينهن شيء من الأُنْس، وهذا متعة للنساء المتقيات بكونهن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: أخرجه أحمد (٧٩٣٣، ٨٥٢٤)، والترمذي (٢٥٤٥).

(٣) ينظر: «المزهر» (١/ ٣٤٢)، و«لسان العرب» (١/ ٢٢٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٦٨).

الكواعب الموصوفات بالجمال والحسن والنعيم، لأنه قوله: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يشمل الذكور والإناث.

وقد يكون قوله: ﴿ أَتْرَابًا ﴾، أي: مع أزواجهن، وهذا مُلاحَظ أن سِنَّ الرجل وسِنَّ المرأة واحد في الجنة، وهذا أدعى لكمال المتعة وحسن المعاشرة في الجنة.

وقد يُستغرَب: لماذا يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن مثل هذه المتعة؟

وهذا من المغالطة؛ لأن من أعظم ما يُفتَن به الإنسان في الدنيا التعلق بالمرأة، وحتى مَن يستشكل هذا يعرف حقيقة نفسه وكيف يعاني من ضغط الميل النفسي والجسدي، إن كان تقيًّا يعاني من مدافعة الشهوة، وإن كان فاجرًا فهو يعاني من ملاحقة صنوف الإشباع وتبعاته المرهقة، وهو مما جبل الله عليه البشر، وهو من أعظم ألوان النعيم والمتعة في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله تعالى لهم أنواع النعيم بالمجالس والبيوت وبالمطاعم والمشارب وبالمناكح والمَلذَّات.

فإن قيل: فماذا للنساء؟

فأقول: لهن أن الله تعالى قال فيهن: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

وهن شريكات في سائر النعيم المفصَّل، بما في ذلك رؤية الله تعالى وسماع كلامه، وسائر المتع والمباهج المعنوية والحسية المسوقة في الكتاب العزيز.

وقد يقول قائل: لماذا للرجل أكثر من امرأة في الجنة؟

فأقول: هذا من حكمة الله، أن المرأة عادة أحادية العاطفة، إذا أحبَّت شخصًا فلا ترى في الدنيا إلا هذا الإنسان، ولهذا لو تزوَّج عليها زوجها وجدت في قلبها ألمًا عظيمًا وإن صبرت، ولا تجد في نفسها ما يجده الرجل من التطلع وإمكانية وجود الحب لأكثر من امرأة، فإن مسارات العاطفة عنده قابلة للتعدد.

وكثير من الرجال يحب امرأته ويقصر نفسه عليها، وهذا حسن، ولعله أدعى للألفة، وأبعد عن المشكلات وأجدر أن ينشأ الأولاد في جو من الأنس والألفة والصفاء، لكن المقصود أن طبيعة الرجل العاطفية تختلف عن المرأة؛ ولهذا وصفهن الله بقوله: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٥٦].

فالمرأة قاصرة الطرف على زوجها لا ترى إلا حسنه وجماله، ولا تستمتع إلا به ومعه، ولا تطمح في نظرها إلى سواه.

﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴾: وهذا نعيم آخر مع السمر، والمجالس الجميلة، والخضرة، والمآكل والمشارب، والزوجات الحسان الجميلات، والكأس لا يُذكَر في القرآن إلا ويُراد به الخمر، وهذا معروف في لغة العرب، فإذا قال: «شربت كأسًا» ولم يميز، فهو يعني الخمر.

وقوله: ﴿ دِهَاقٗا ﴾ لها معانٍ، منها:

١- «الملأى المتابعة» عند أكثر المفسرين، وملء الكأس يُعَدُّ من كرم الساقي.

٢- «الصافية»، كما يقول الصاحب بن عبَّاد:

رقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنها خمرٌ ولا قدحٌ وكأنها قدحٌ ولا خمرُ[1]

وكما يقول محمد إقبال:

كمثلِ الكأسِ تُبْصِرُها دِهاقًا وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

فهنا اجتمع صفاء الخمر وصفاء الكأس، فهذا من أجود وأحسن ما يكون، وعادة ما يمدح العرب الخمر المعتقة القديمة، التي أُتقِن صنعها، فالله تعالى يذكر للمؤمنين هذه الخمر التي هي: ﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [الصافات:٤٦]، فيجتمع لهم

(١) ينظر: «خاص الخاص» (ص ١٦١)، و«يتيمة الدهر» (٣/ ٣٠٤)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٢٣٠).

كل ألوان اللذة في الجنة[1].

* وجرت العادة أن مثل هذه المجالس تشتمل على صنوفٍ من النعيم واللذَّة والحدائق والبساتين، والنساء الجميلات، والمآكل والمشارب والمطاعم، والأصوات الجميلة بالغناء وغيره، ولما كانت هذه المجالس لا تخلو غالبًا من غوائل السكر بالخمر؛ من التشاتم والسباب والبطش والاعتداء، عقَّب الله على هذه الآية ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ بما يميِّز مجالس الخمر في الجنان عن مجالسها في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ:٣٥]:

فعندما يشربون لا تذهب عقولهم، كأهل الدنيا، بل يتمتعون بالخمر دون أن يفقدوا لذَّاتهم وكمالاتهم النفسية: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات:٤٧]، فلا تغتال عقولَهم، ولا تذهب بألبابهم، فيدوم لهم نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح برحمته والرجاء في مزيد فضله، مع نعيم الشرب والسماع ولذة العين والنظر.

وقوله: ﴿ لَغْوًا ﴾: «اللغو»: هو الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥].

﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ إشارة إلى الكلام السيئ، وفي هذه الآية تلميح إلى ما كانوا عليه في الدنيا، وأن من أعظم صفاتهم حفظَ اللسان، فهم يتكلمون في الدنيا بالكلام النافع المفيد، الذي إما أن يكون ذكرًا لله، أو علمًا نافعًا، أو إحسانًا إلى عباد الله، أو تسلية مؤمن، أو تطييب خاطر، أو دفاعًا عن حق، أو ردَّ خطأ، فليسوا من أهل اللغو الذين يكثرُ فيهم الهرج والمرج والقيل والقال، وليسوا من أهل الكلام الباطل الذين يتزيَّنون بالأباطيل والألاعيب والأكاذيب، ولهذا جُوزوا في الجنة بذلك، و«الجزاء من جنس العمل».

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٧).

و«الكِذَّابُ» هو التكاذب فيما بينهم، أن يكذِّب بعضهم بعضًا، فيقول هذا لهذا: كذبت. أو يكذب بعضهم على بعض، وهذا كله ليس في الجنة، وفيه إشارة إلى أن ضبط اللسان من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد إلى ربه سبيلًا لنيل مرضاته.

* ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣٦]:

بخلاف أولئك الذين قال فيهم: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾، وهذا دليل على أن هذا من الله تعالى للمؤمنين فضل، ومنه سبحانه بالنسبة للكافرين عدل، وهو ﴿ جَزَآءً ﴾ أي: أن ثَمَّةَ عملًا لهم في الدنيا فجُوزوا عليه بالجنان، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]؛ أي: بسبب عملكم في الدنيا، وليس المعنى أنهم لم يجازوا إلا بأعمالهم، بل أعمالهم سبب لنيل الرحمة، والرحمة لا حد لها، فجوزوا بالحسنة عشرًا وثماني عشرة وعشرين وخمسًا وعشرين وسبعًا وعشرين وخمسين وسبعمائة وأضعافًا كثيرة لا يقدر قدرها إلا الله.

﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾، بيان لمصدر الجزاء. أي: من عند الله، فهو سبحانه المجازي.

وفيه دليل على الفضل والعطاء، ولهذا قال: ﴿ عَطَآءً ﴾، فليس هو محض جزاء لهم، بل لو جُوزوا بأعمالهم ما وصلوا إلى هذا، وربما استنفدت أعمالهم النعم التي أُعطوها في الدنيا، ولهذا قال: ﴿ عَطَآءً ﴾، أي: فضلًا وتكرُّمًا من الله تعالى.

ومن معاني ربوبيته سبحانه: رحمته بخلقه ومجازاته لهم؛ ولهذا لم يذكر هذا بالنسبة للكافرين؛ لأن المقام مقام توبيخ وتقريع وتخويف.

﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾: جاء في مواضع أنهم أُعطوا بغير حساب، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

فيقول أهل اللغة: إن ﴿ حِسَابًا ﴾ هنا ليس معناه: أنهم حوسبوا على أعمالهم وجوزوا عليها، وإنما: ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾، أي: عطاءً كبيرًا بغير عَدٍّ ولا إحصاء، فيُعطى

ثم يُعطى ثم يُعطى، حتى يقول: «حسبي.. حسبي..». أي: يكفي، فيُعطى حتى تنقطع مسألته، كما في حديث جابر ﷺ: «فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا»[1].

وأهل الجنة كلما تطلعت نفوسهم لشيء تحقق لهم بفضل الله تعالى عليهم، فلهم كل ما تمنوا، لا مثنوية ولا رجعة ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ [ق:٣٥]، أي كل ما يريدون، قصورًا، أو أفلاكًا.. أو كواكب، أهلًا.. مالًا.. ولدًا.. كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر عليه أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥]، أي: ما لم يشاؤوا ولم يخطر ببالهم، وقال هنا: ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾.

أن ينعَّم المرء في الدنيا مائة سنة بصحة وهناء وعيش رغيد ومال وفير وزوجة حنون وذرية صالحة، يشعر بالسعادة في مأكله ومشربه ونومه وحديثه وسفره وإقامته، ويستمتع بلحظاتها، فهذا عطاء لا يقاومه شكر، ولا يقدَّر بثمن، فكيف بنعيم الجنة السرمدي؟!

وكيف لا يكون العطاء بهذا القدر وهذا الفضل والرحمة، وهو عطاء رب السماوات والأرض، فهو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وعطاؤه كلام، وأمره كلام، وعقابه كلام: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، هذا معنى كون عطائه كلامًا، ومَنْعِه كلامًا، فإذا أراد شيئًا قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، فهو يخلق لهم بكلامه ما يتنعَّمون به.

* ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ:٣٧]:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقها ومدبرها وهي مسخَّرة بأمره تسخيرًا جبريًّا لا حيلة لها فيه ولا ثواب.

﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وما فيهما من إنس وجن، وخلق وبشر، وملائكة، ونجوم..

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

وغيرها، ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، أي: ما بين السماء والأرض، فهو مالكه وخالقه ومدبره.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وغيرهما: ﴿ رَبِّ ﴾ بكسر الباء؛ لأنها بدل من قوله: ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ في الآية السابقة، وقرأها الجمهور بالضم «ربُّ» على أنها ابتداء[1].

ثم قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، اختار هذه الصفة؛ لأنها مناسبة ولائقة بمقام الرحمة بالمؤمنين وجزائهم.

وفي هذا الاختيار توبيخ للكافرين؛ لأن هؤلاء إذا كانوا هلكوا وعُوقبوا -مع أن الذي عاقبهم هو الرحمن- فمعناه أنه لم تُجْدِ فيهم طرائق الخير وأسبابه وأبوابه وتمحَّضوا للشر والكفر والعدوان، فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك.

﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي: في ذلك الموقف، لا يستطيع الناس مخاطبة الله عز وجل؛ لأن المقام مقام هيبة وجلال ترتعد منه الفرائص ويخافه الناس حتى الأنبياء والملائكة.

* ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ:٣٨]:

صار الوصف للمشهد كله، فالخلق قيام لرب العالمين، إنسهم وملائكتهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦]، ويشي هذا برهبة الموقف وعظم شأنه وهول مشهده.

وفي ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ أقوال:

١- أنه جبريل عليه السلام، كما في موضع آخر في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٨٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص ٧٤٧)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٢٧٣).

٢- المقصود بالروح: كل ذي روح من الإنس والجن.

٣- أن يكون خَلْقًا من خلق الله عز وجل، الله أعلم به.

والأقرب هو العموم، فيدخل جبريل والملائكة وغيرهم، ويكون المقصود بالروح هنا: المخلوقات ذوات الروح مما نعلم وما لا نعلم، فهي تقوم أيضًا، وهذا أنسب للسياق؛ لأن المقصود أصلًا بالبعث والمحاسبة هم أولئك المخلوقون العقلاء المكلفون، والله أعلم.

وبذا يكون ذكر الروح تأسيسًا وليس تأكيدًا أو ذكرًا خاصًّا.

وكل ذي روح يقوم، والملائكة يقومون صفوفًا بعضهم خلف بعض.

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ يفيد أن في ذلك المشهد الرهيب صمتًا مُطْبِقًا، بخلاف عادة الناس فإنهم إذا احتشدوا في منتدياتهم ومجالسهم وساحاتهم تسمع منهم الضجيج والصياح، لكن في ذلك الموقف: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨]، وكما في قوله: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه:١٠٣].

وقوله: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾، لها ثلاثة معانٍ:

١- لا يتكلمون إلا همسًا فيما بينهم.

٢- لا يتكلمون مطلقًا، وذلك في بعض مواقف القيامة، فهم حينًا يتهامسون، وحينًا يتوقفون حتى عن الهمس.

٣- أنهم لا يخاطبون الله عز وجل، ولا يتكلمون إليه.

﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾، وهم الرسل وغيرهم من الشافعين.

وقد اشترط تعالى الرضا والإذن، فقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٩]، فهنا قال: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي:

ورضي له قولًا، وهو سبحانه يعلم أن هؤلاء الذين أذن لهم بالكلام لا يقولون إلا صوابًا، مثل شفاعة سيدنا محمد ﷺ في فصل القضاء بين الناس، والشفاعة في بعض المؤمنين أن لا يدخلوا النار، والشفاعة في بعض مَن دخل النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في أهل النار أن يُخَفَّف عنهم من عذابها، والشفاعة في بعض أهل الجنة أن تُرْفَع درجاتهم ومنازلهم فيها.. إلى غير ذلك مما هو خير وثواب يحبه الله عز وجل.

* ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٣٩]:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى عظمة ذلك اليوم، الذي هو اليوم الحق، خلافًا لمن كذَّب به، فهو حق لا مرية فيه، يبيِّن صدق ما جاء به المرسلون.

واليوم الحق خلافًا لأيام الدنيا، فهي لعب ولهو، وأشبه ما تكون بالباطل، لقصرها وسرعة تصرمها ونسيان أفراحها وأتراحها، وتحولها من صفة إلى أخرى.

اليوم الحق الذي يُفْصَل فيه بين الناس، ويُقْتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى في أصغر الأمور وأحقرها.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فيه إشارة إلى أن سلوك الطريق الصحيح مرهون بإرادة الإنسان ومشيئته، ولهذا فلا وجه لأن يحتجَّ أحد بقَدَر الله على المعاصي، فإنه ما عصى اللهَ أحدٌ، ولا ترك طاعة إلا وهو يعمل ما تملي عليه نفسه، وتحفِّزه إليه رغبته وشهوته وميله، فالإنسان يجد ضرورة في نفسه أنه يُقْدم على الأشياء التي يحبها ويترك الأشياء التي يكرهها، وهذا هو الأمر الذي يُحاسَب عليه الإنسان في الآخرة، وهو لا يدري ما المقدور إلا بعد أن يفعل ما فعل، والقدر ليس قسرًا للمكلَّف على ما لا يحب، بل هو إذن الله للعبد أن يفعل أو لا يفعل، ولو شاء الله لقسر الناس على ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]. ولكنه لم يفعل، بل تركهم وإرادتهم الحسية الضرورية في عمل الآخرة كما هي في عمل الدنيا سواء بسواء.

وقال: ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ولم يقل: (أخذ)؛ لأن ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أقوى، وهو دليل على الاستمرار، وعلى أن الإنسان كدح حتى شقَّ له طريقًا إلى ربه، وكلمة ﴿ٱتَّخَذَ﴾ تستعمل في مادة اللغة على الأمر المعتاد المتكرر كاستعمال الآنية والملابس والإماء والفرش والمواضع والبساتين ونحوها، فكأن المعنى هنا أنه كرر العبودية بصيغها المتعددة حتى صارت سجية وطبعًا، ومع تراكمها الزمني سهلت عليه، وذل لها قلبه ولسانه وجوارحه، وذهبت عنه مع الزمن وتقادم الأيام دواعي الشهوات ونوازعها، ومواضع الشبهات والتباساتها، فآمن عقله وقلبه وجوارحه، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

و«المآب» هو الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه.

* ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

آية خاتمة جامعة لأول الحديث وآخره، يتكلم تعالى بضمير المعظِّم لنفسه، المعظَّم من عباده: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾، والإنذار هو التعليم على سبيل التحذير والتخويف، وهو واضح في هذه السورة، بذكر النار وعذابها وهول الموقف، وقدَّمه لتقدمه في السياق ولطبيعة الحال التي نزلت فيها السورة؛ حيث كان النبي ﷺ يواجه التكذيب والعناد بمكة.

وكيف يكون هذا العذاب قريبًا؟

١- يجوز أن يكون المعنى أن يوم القيامة أجل معدود، وميقات معلوم، إلا أنه قريب بالقياس إلى سرعة أيام الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:١].

٢- أو يكون قريبًا باعتبار أن المقصود عذاب الدنيا؛ لأن الله أنذرهم عذاب الدنيا والآخرة، كما وقع لهم في بدر وفتح مكة، وهذه كانت للمخاطبين أنفسهم

وليس لجنسهم، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

٣- ومن معاني كونه قريبًا: أنه مرهون بالموت، فإن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ بعينه ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، والمقصود: ما عمل، وما سمعت أذنه، وما مشت إليه قدمه، وما فاه به لسانه، وهو جارٍ على لغة العرب في التعبير باليدين، والمقصود: الجوارح.

وقوله هنا: ﴿يَنظُرُ﴾ يعزِّز ما رجَّحناه أن المرء يوم القيامة يرى صورته وهو يعمل أو يقول، وهي مسجلة كما وقعت، تُرى وتُسمع وتُدْرك بما لا يدرك في الدنيا.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ إشارة إلى أن أصل الوعيد للكافرين، وأن المؤمن بمنجاة من ذلك كله، وإن عُذِّب في ذنب ما إلا أن مَرَدَّه بإذن الله إلى رحمة الله ورضوانه، ولهذا قال هنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾، وفي قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾، إشارة إلى بُعْد هذا الأمر، وأنه صار مجرد أمنية!

وقد يجوز أن يكون المعنى: أنه يتمنى ذلك إذا رأى الحيوانات والوحوش قد استحالت ترابًا، حين يقال لها: «كوني ترابًا»، فتكون ترابًا، بعدما يُقتَصُّ لبعضها من بعض -كما قاله بعضهم[1]- فيتمنى مصير الحيوانات وهو تحوُّلها إلى تراب، ويحتمل تمنِّي أنه لم يُخلق؛ لأنه مخلوق أصلًا من التراب، أو لم يبعث بعدما هلك، كما قال: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧].

وكلا المعنيين قريب، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «العظمة» لأبي الشيخ (٣/ ٨٢١)، و«المستدرك» (٢/ ٣١٦)، (٤/ ٥٧٥)، و«البعث والنشور» للبيهقي (ص ٣٣٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سورة النازعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾
فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾
قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل
لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ
﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ
وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا
فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا
مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ
﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ
﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ
ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات:١-٤٦].

* تسمية السورة:

١- اسمها: «**سورة النازعات**»، وبعضهم يزيد الواو، فيسميها: «**سورة** ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ﴾»[١].

٢- وقد يسمِّيها بعضهم بأسماء باعتبار ألفاظٍ لم تَرِد إلَّا فيها، كـ: «**سورة الساهرة**» [النازعات:١٤]، أو: «**سورة الطامَّة**»[٢] [النازعات:٣٤].

* عدد آياتها: ست وأربعون آية عند أهل الكوفة، وخمس وأربعون آية عند الجمهور[٣].

* وهي مكية بإجماع المفسِّرين، كما ذكر ابن عطية والقرطبي وابن الجوزي والقاسمي وابن عاشور وغيرهم[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٤) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

* ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴾ [النازعات:١]:

هذا قَسَمٌ من الله بـ «النازعات»، وقد اختلف المفسرون في تحديد معناها على أقوال:

فمنهم مَن قال: هي الملائكة، ومنهم مَن قال: هي سكرات الموت، ومنهم مَن قال: هي الوحوش، ومنهم مَن قال: هي النجوم، إلى غير ذلك من الأقوال المبثوثة في كتب التفسير.

والمختار أن «النازعات» وغيرها وما عُطِف عليها من المُقْسَم به في هذه السورة ترجع إلى شيء واحد، ولعلها «الملائكة»، كما هو قول ابن عباس وابن مسعود وجماعة من السلف وأئمة التفسير[1].

أقسم الله تعالى بها على أحوال متعدِّدة، فأول ما أقسم به: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوة وشدة.

وقوله: ﴿ غَرۡقٗا ﴾ أي: أنها تستغرق في النزع مثل صاحب القوس، فالملائكة تنزع أرواح الكفار من كل أطرافهم؛ فإن روح الكافر تتفرَّق في جسده، فيجمعها الملائكة وينتزعونها كما يُنتَزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، فتُنْزَع من أطرافهم نزعًا شديدًا، ولذلك يُقال لحالة الموت: إنها حالة النـزع، أي: الوقت الذي تُنْزَع فيه روحه من بدنه.

* ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴾ [النازعات:٢].

و«الناشطات» هي الملائكة أيضًا، حينما تنشط أرواح المؤمنين فتقبضها برفق ورحمة ولين، فتسيل روح المؤمن كما تسيل القطرة مِن فم السقاء، وكما قال النبيُّ ﷺ:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١).

«المؤمنُ يموتُ بعَرَقِ الجبينِ»[1]؛ لأن الملائكة تنزع روحه برفق وتبشِّره: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

* ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣].

وهي الملائكة تَسْبَح بين السماء والأرض، فتصعد بأرواح المؤمنين أو غيرهم، أو تنزل لقبض مَن حانت منيَّته من العباد، أو تنزل بالوحي، أو تنزل بأمر الله عز وجل.

وقد ذكر الله أن للملائكة أجنحةً، كما في قوله: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر:١].

* ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات:٤]:

من هنا اختلف السياق وانتقل من كونه قَسَمًا إلى كونه عطفًا، فـ«السابقات» هنا تابعة للسابحات، وهي الملائكة تَسْبح بين السماء والأرض، والسَّبْح يدل على السرعة، مما ناسب أن يعطف على ذلك السَّبْقِ في قوله: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، فالملائكة سَبقت بني آدم بالإيمان: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وسَبقت بالوحي إلى الأنبياء، وسَبقت بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

* ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]:

أجمع المفسرون على أن المقصود بالمدبِّرات هنا: الملائكة؛ فهي تدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بإذن ربها؛ فمنهم مَن يكون مُوكَلًا بالقَطْر، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بالوحي، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بقبض الأرواح، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بالحفظ، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بالأخذ والعقاب.. إلخ.

وفي قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾.. ﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾.. ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾» تسلسل طبيعي

---

(١) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والنسائي (٤/ ٦)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة رضي الله عنه.

في بيان شيء من وظائف الملائكة، فهي تَسْبَح بين السماء والأرض وتسبق؛ لأنها من أمر الله، وتدبِّر ما كُلِّفت به، وهذا أحد أسباب اختيارنا لهذا القول، وهو أن المقصود بالقسم كله الملائكة، للأسباب الآتية:

١- إجماع المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة، فكذلك ما قبله؛ لأن حمل قسم على معنى وحمل الآخر على معنى مختلف، لا يخلو من بُعد وتكلُّف.

٢- أن السورة كلها تتعلق بالدار الآخرة والبعث والجزاء والنشور، وأول مراحل الدار الآخرة هو الموت، فكان مناسبًا أن يكون القسم مبدوءًا بـ«النازعات» ثم «الناشطات» إشارة إلى بداية مرحلة الدار الآخرة، وإنما فَصَل الله تعالى في أول السورة بين «النازعات» و«الناشطات» للفرق بين حالة قبض أرواح المؤمنين وحالة قبض أرواح الكافرين، وأنهما مختلفتان لا تستويان، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه من بداية انتقالهم من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى يبدأ الفرق يتضح ويظهر جليًّا، فهؤلاء تُنزَع أرواحُهم بقوة وشدة، وأولئك تُنْزَع أرواحهم برفق ولين، وتُنشط نشطًا.

* ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات:٦-٧]:

وهنا لا نجد جواب القَسَم في السياق، ولا في اللفظ، لكنه موجود في المعنى، وهو يتعلق بالراجفة والرادفة والبعث، فيكون معنى القسم: لتُبعَثُنَّ أيها الناس، إذ البعث واقع لا محالة.

وهذا القسم فيه قوة؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا أقسم بشيء فهذا دليل على أنه شيء عظيم، ينبغي أن تلتفت إليه الأنظار، وعندما يكون القسم بأشياء جديدة يسمعها لأول وهلةٍ، فإن هذا يهزُّ الإنسان هزًّا، خاصة إن كان ممن لديهم ذائقة عربية صافية، فيلتفت لهذا القسم ويصغي، باحثًا عن الموضوع، لكنه يفاجأ بأن السياق تجاوز موضوع المقسم عليه، وترك التصريح بجواب القسم، وانتقل بالإضراب إلى

موضوع آخر، فقال: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾، فهذا يُحدِث في القلب تطلُّعًا إلى البحث، ويأتي الجواب أن المُقْسَم به محذوف معروف، وتقديره هو البعث وعودة الأرواح إلى أجسادها، كما دلت عليه الأقسام ذاتها.

وهذا يدل على عظمة موضوع البعث، وأنه من أركان الإيمان، وهو الفارق بين الإيمان والكفر، فإن الإنسان إذا آمن بالبعث اعتدل الميزان عنده، وسعى لإصلاح آخرته، كما يسعى لإصلاح دنياه.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾: الراجفة هي النفخة الأولى، وهي الظرف الذي يقع فيه البعث، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ [المزمل:١٤]، فهي صوت مُزَلزِل مُجلجِل قوي، الله تعالى أعلم بكُنْهِه، من أثره تحصل زلزلة الأرض، وموت الكائنات، وتغيُّر نظام الحياة المألوف.

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾، وهي صيحة أخرى بينهما ما شاء الله تعالى من السنين، والرادفة فيها إِحياء الناس بعد موتهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وقيام الناس لرب العالمين.

* وهذه الحقيقة جديرة أن تغيِّر من حياة المرء الذي يؤمن بها، وتضيف بعدًا جديدًا لحساباته ومقاييسه، وتؤثِّر في مواقفه وخياراته، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات:٨] أي: يوم البعث، وجاءت القلوب هنا مُنكَّرة ﴿ قُلُوبٌ ﴾؛ إشارة إلى عدم الاستغراق، أي: ليست كل القلوب كذلك، وإنما ثمة قلوب واجفة وهي قلوب الكافرين.

والتعبير بالجمع يدل على كثرة هذه القلوب، وأنها ليست قليلة.

﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي: خائفة قلقة، كما وصفها بقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨].

* ﴿ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴾ [النازعات:٩]:

لم يقل: (أبصارهم)، وإنما قال: ﴿ أَبْصَـٰرُهَا ﴾، أي: أبصار تلك القلوب، وهذا فيه معنى لطيف، وهو: أن السمع والجوارح مرتبطة بالقلب، فبمجرد ما ترى الإنسان تعرف غالبًا كثيرًا مما يخفي قلبه، كما يقول الشاعر:

والعينُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدِّثِها إن كان من حزبِها أو مِن أعاديها[1]

وكما تقول لإنسان: إني أقرأ في عينيك أنك خائف أو متردِّد، وكثيرًا ما يمكن معرفة الصفات الأساسية عبر قراءة الملامح الأولى للإنسان، حين نشاهده لأول وهلة.

ومشهد الأبصار الخاشعة مناسب لمشهد القلوب الواجفة، فما دامت هذه القلوب واجفة قلقة خائفة مرعوبة، فإن هذا يظهر في الأبصار جليًّا، وثَمَّ فرق بين إنسان ثابت البصر قويه، وآخر زائغ العين، قلق لا يستقرُّ على حال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

والتعبير بلفظ: ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ له معنى خاص، فلم يقل: (ذليلة)، وإن كان المعنى مقاربًا، لكنه عبَّر بـ ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾؛ لأن هؤلاء كانوا في الدنيا يُطْلَب منهم الخشوع لله، فيُعْرِضون ويستكبرون: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات:٣٥]، وربما كان لهم صولجان وسلطان وبأس وقوة، وكانت تخشع منهم النفوس وتخشاهم، فيوم القيامة يصوِّرهم الله تعالى بهذا المشهد المَهِين، وهو أن قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة منكسرة، نقيض ما كانوا يظهرون عليه من القوة والبطش في الدنيا، وفي حال مثل التي كانوا يذيقونها الناس من التخويف والإرعاب!

* ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴾ [النازعات:١٠]:

وهذا المقال يقولونه والله أعلم في الدنيا.

---

(١) ينظر: «غرر الخصائص الواضحة» (ص ٥٨)، و«فاكهة الخلفاء» (ص٢٦١).

فبعد أن صوَّر لنا الله هذه اللمحة السريعة والصورة العابرة عنهم وهم في موقف القيامة، أراد أن يقارن ذلك بما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا ينكرون ويجحدون.

والتعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على التكرار، فهم كثيرًا ما يجادلون في شأن البعث والنشور، فكلما دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث استكبروا، وقالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: هل سوف نُرَدُّ إلى الحافرة؟

و﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: إما الحياة الدنيا، كما تقول العرب: رجع فلان إلى حافرته. يعني: إلى ما كان عليه في حالته الأولى. فلو أن إنسانًا كان على فساد، ثم صلح، ثم رجع إلى ما كان عليه، فإنك تقول: (فلان رجع إلى حافرته)، أي: إلى حالته الأولى.

أو هي الأرض، تُسمَّى الحافرة؛ لأنها تُحفَر بأقدام الخلق في مشيهم وركضهم وسعيهم، وفي ذلك إشارة إلى العمل والدأب في الدنيا، فهم يقولون: هل سوف نعاد إلى الأرض مرة أخرى[1]؟

* ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١١]:

هذا يؤكِّد أن مساق كلامهم في الدنيا؛ لأنهم لو كانوا في الآخرة لما قالوا ذلك؛ لأنهم قد كانوا عظامًا نخرة ثم بُعِثوا، ولذلك يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ أي: في المستقبل بعد الموت، وهم يؤمنون بالموت، إذا لا أحد إلا وهو يؤمن بالموت، أي: إذا بَلِيَت أجسادُهم، ولم يبقَ إلا العظام المتآكلة، وحتى العظام تَبْلَى، ولكنهم يتحدَّثون عما يشاهدون من آثار الموتى، فهم بقولهم هذا مستبعدين البعث، وينسون أن الروح مما لم يشهدوا ولم يقفوا له على فناء!

فإذا بلي الجسد بقيت الروح ثم تعود مرة أخرى في الدار الآخرة بإذن ربها.

---

(١) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٣٦٠)، و«أساس البلاغة» (١/ ١٩٩)، و«الجمهرة» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (ح ف ر) (١١/ ٦٤، ٦٨، ٦٩).

* ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات:١٢]:

ظاهر هذا القول الاستهزاء والسخرية.

وهنا نلاحظ أنه تعالى عبَّر في هذه الآية بـ ﴿ قَالُواْ ﴾، ولم يعبِّر بـ (يقولون)؛ لأن قولهم هذا ليس من الحجج التي يكرِّرونها، ولكنها نتيجة حجتهم التي كانوا ينازعون بها، فناسب أن يورده بالفعل الماضي.

* ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [النازعات:١٣]:

فيه إشارة إلى أن الأمر يسير، ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٤]، أي: لا يحتاج الأمر إلى معالجة وجهد؛ لأن أمره: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧]، فإعادة خلقهم في الآخرة لا يحتاج إلى ما كانت عليه نشأتهم أول مرة بأن يكون أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة، ويظلَّ تسعة أشهر في بطن أمه، ثم يولد... إلخ، بل الأمر: ﴿ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾، أي: على ظهر الأرض أحياءً بعدما كانوا في بطنها أمواتًا.

* ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٤]:

و«الساهرة» على قول الجمهور: الأرض. وبعضهم يقول: هي أرض الشام. والصواب أنها الأرض كلها[1].

واختيرت هذه المفردة دون غيرها، إشارة إلى أن الأرض التي سيُبْعَثون عليها غير أرض الدنيا، في تضاريسها وطبيعتها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فمعنى كونها «ساهرة» أي: ممتدة ليس فيها جبال ولا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح البيان» (١٥/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٣).

قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، أي: يمشي فيها السَّراب، فيرى الناس الأرض كالسَّراب؛ لامتدادها واتساعها.

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [النازعات:١٥]:

هذا خطاب للنبي ﷺ، وقد أتاه هذا الحديث مرارًا، وقصة موسى عليه السلام هي أكثر قصص القرآن، حتى قال بعض المفسرين(١): كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل؛ لشدة الشبه بين دعوة موسى عليه السلام ودعوة سيدنا محمد ﷺ، وللمعركة التي علم الله أنها سوف تكون في آخر الزمن بين الأمة المسلمة وبين الصهاينة ومن وراءهم.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ معناها: «قد أتاك»، فهو سؤال للتقرير، فيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي، واختار الله تعالى قصة موسى عليه السلام لأمرين:

١- تسليةً للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة، فهي دعوة لاقتباس العبرة والدرس.

٢- تلويح وتلميح للمشركين بمكة أن سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إن لم يعتبروا.

* ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٦]:

ذُكِرَت قصة موسى عليه السلام مختصرة في هذه السورة، والاختصار يتطلَّب ذِكْرَ الأمر المهمِّ في السياق، وهذا من أسرار التكرار في القرآن، فإن القصة تُكرَّر، وفي كل موضع يُذْكَر ما يناسب السياق، فهنا الله تعالى لم يذكر أول قصة موسى، وإنما

(١) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (١/ ٣١٣)، و«في ظلال القرآن» (١/ ٦٦، ٢٦١)، (٣/ ١٣٢٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٠/ ١١٢).

بدأ من وقت نداء الله لموسى عليه السلام فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، والله تعالى نادى موسى، وسمع موسى نداء ربه، كما قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، وقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤-١٦].

ولك أن تتصور إنسانًا من خلق الله يتيه في الصحراء، ثم يجد النار، فيذهب إليها كي يظفر منها بقبس يهتدي به في الطريق هو وزوجه، فيفاجأ أن الله تعالى يمنحه قبسًا يهديه، ويهدي به مَن شاء من عباده إلى خيري الدنيا والآخرة، ثم يخاطبه ربه جلَّ وعزَّ مباشرة.

كما وقع التكليم مرة أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ولتكرار التكليم لموسى سُمِّي بـ«الكليم».

و﴿طُوًى﴾: اسم الوادي على القول الصحيح، وقيل غير ذلك[1].

وقد وصفه الله عز وجل بأنه «مقدَّس»، أي: مطهَّر، ولذلك اختاره محلًّا للنداء.

وهذا الوادي يوجد في سَيْناء، قريبًا من مصر، أي: بين مصر وفلسطين.

وهو بقرب جبل الطُّور.

* ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٧].

«فرعون» واحد الفراعنة، وهي أمة حكمت مصر أزمنة متطاولة، ويقال: إن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، (٣/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨)، (٢٤/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٩)، (٣١/ ٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٥).

«إخناتون» هو أول مَن تَسمَّى بفرعون، والملك الذي خاطبه موسى ودعاه يُسمَّى فرعون أيضًا.

وفي القرآن ما يدل على أن الفراعنة ليسوا وحدهم الذين حكموا مصر قديمًا، كما في قصة يوسف ﷺ، حيث سمَّى الله تعالى حاكم مصر بـ «الملك»، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٤]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦]، فكان يُسمَّى بـ «الملك»، ولم يكن يُسمَّى بـ «الفرعون».

واختلف المؤرِّخون وعلماء الآثار في تحديد اسم «فرعون» الذي أُرْسِل له موسى ﷺ، والكثيرون منهم يقولون: إنه يُسمَّى: «رمسيس الثاني».

وموريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في العلم الحديث»، رجَّح أن فرعون المرسَل إليه موسى هو «ابن رمسيس الثاني»، والمشهور: أنه «ابن رمسيس الثاني»(١).

ويقال: إن جثة فرعون الذي أُرسل إليه موسى ﷺ هي الموجودة اليوم في المتحف المصري في القاهرة، وهي محنَّطة بطريقة تحفظ الجثة تمامًا، حتى إنك ترى الأظفار والشعر، وترى الجسد كله كاملًا غير منقوص، ويقول بعضهم: إن هذه الجثة فيها كسور في العظام من غير أن يكون فيها جروح في الجلد، مما يدل على أن الكسر كان بسبب ضغط الماء، وقد ذكر الله سبحانه في ذلك آية معجزة، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]، فبعدما أغرقه البحر، وأماته الله تعالى، قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه من بعده وحنَّطوه، وبقي بأمر الله؛ ليكون لمَن خلفه آية.

---

(١) ينظر: «قصة الحضارة» (٢/ ١٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٤٦٨)، و«التفسير الوسيط» (٥/ ٣٤٢)، (٧/ ٢٦٧)، (١٠/ ٣٧٤)، (١٢/ ٢٧٨).

وكلمة «فرعون» هي كلمة مركَّبة من لفظين: الأول هو: «فر»، ومعناه: القصر أو المبنى الفخم. والثاني: «عون»، ومعناه: العظيم، فيكون معنى «فرعون»: عظيم القصر، وهو مكان سكن فرعون.

وقد وصف الله تعالى فرعون في هذه الآية بالطغيان، والطغيان هو مجاوزة الحد بأمرين:

١- عصيان الله عز وجل؛ لأن الطغيان تمرُّد على الله تعالى وكفرٌ به، ويكفي من كفره ادعاء الألوهية.

٢- استعباد الناس.

والطغيان تمرُّد على الله وظلم لعباد الله.

* ومع أن فرعون قد طغى، إلا أن الله علَّم موسى عليه السلام الأدب في الدعوة، فقال له: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات:١٨].

وجملة: ﴿ هَل لَّكَ ﴾ أسلوب من أساليب التلطُّف والتأدُّب.

﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ إشارة إلى أن هذا أمر يخصُّك أنت وحدك، والله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]، ولكن في هذه الآية تحديدًا ذكر تعالى أنه رتَّب لموسى هذا القول اللين، فأمره أن يقول لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾، يعني: أن تكون زاكيًا طاهرًا، فعرض عليه الأمر الأول الذي هو في مصلحته، وفيه زكاة قلبه وطهارته بالمعاني الفاضلة، وفي عقله وفي ضميره، وفي وجدانه وحياته.

* ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات:١٩]:

ولم يذكر اسم الله تعالى هنا، وإنما قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، يعني: إلى خالقك وموجدك؛ لأن الفطرة تهدي إلى الله، وتدلُّ على الخالق الموجِد المبدِع سبحانه؛ ولأن الفراعنة

كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة.

وهكذا كان فرعون هذا يزعم أنه ابن للإله، ولهذا خاطبه موسى عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب فقال: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ يعني: الذي خلقك ورزقك وسواك وعدلك.

وقول موسى: ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ نقض لمفهوم الربوبية المزيف الذي كان ينتحله الفرعون وحاشيته، وتأسيس لمفهوم جديد يقوم على التوحيد والعبودية والفصل الحاسم بين الخالق المعبود وبين المخلوق الخاشع المتذلِّل.

وقوله: ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ دليل على أن العلم الحقيقي ثمرته الخشية، ولا خير في علم لا يورث الخشية.

* وطَوَى الله تعالى كثيرًا من القصة، فقال: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٢٠]، أي: العصا أو اليد التي فيها العبرة، وقصتها معلومة وردت مفصَّلة في مواضع من القرآن.

* ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ [النازعات:٢١]:

فيه إشارة إلى سرعة التكذيب، وفيه دلالة على مبلغ الكِبْر في نفس فرعون، مع أنه مستيقن بصدق موسى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] والطغيان يفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه.

﴿ وَعَصَىٰ ﴾ العصيان: نتيجة طبيعية مرتَّقبة للتكذيب برسالات الله.

* ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ [النازعات:٢٢-٢٣]:

التعبير بـ: ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ إشارة إلى بذل غاية الوسع في التخطيط والكيد وللقضاء على هذه الدعوة التي تهدِّد سلطانه وملكه، وإلى الاستعجال والسرعة نتيجة الشعور بالخطر، ولهذا قال: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾، يعني: حشر السَّحَرة، كما قال تعالى في الآية

الأخرى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[الأعراف:١١١]، فحشرهم من كل الأنحاء في اجتماع عامٍّ، وجمع الناس وناداهم وصاح فيهم بدعوى الإلهية.

* ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]:

وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى هذا القول على خلاف ظاهره، أي: أنه كان يقول: أنا سيدكم.. أنا حاكمكم.. أنا الذي تجب عليكم طاعتي، وقد أشار الرازي إلى شيء من هذا المعنى(١).

والأرجح -والله أعلم- أن قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ على ظاهره، ولا يعني بالضرورة ادعاء أنه مبدع الكون وخالقه، لكن كان يعتقد أن له نسبًا إلى الآلهة.

ومثل هذا الاعتقاد كان منتشِرًا في الأمم الوثنية، كاليونان والرومان وغيرهم؛ ولهذا لما اعتنق قسطنطين النصرانية حرَّفها وخلط فيها بين الألوهية وبين البشرية، فاعتقدوا أن في بعض البشر شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن فرعون كان منذ أربعين سنة يقول لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]»(٢).

ولكي يظهر للناس صدقه، فإنه خاطب هامان بقوله: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨].

والتعبير بالظن كان كلامًا خاصًّا، وإلا فهو يعلن للناس بتصريح مشبع باليقين: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، لكنه قال في الأخير بعد أن استتبَّ له الأمر: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، وهذه أشنع كلمة قالها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٤١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

وعند نشوة الطغيان والتكبر كان أمره أقرب ما يكون إلى الزوال، وهذه سنة الله تعالى في الظالمين.

* ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥]:

الفاء تدل على التعقيب، وقوله: ﴿نَكَالَ﴾ أي: عقابًا مُنـكِّلًا يعتبر به المعتبرون، و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ هي: الدار الآخرة، وإنما قدَّمها؛ لأن عقابها أطول وأشد، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ هي: الدنيا؛ لأن عقابها مهما طال فهو يسير، ففرعون غرق في الماء، وكان هذا عقابه وعقاب مَن معه، وهذا اختيار ابن كثير وجماعة[١].

أما الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فيرى أن المقصود بـ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ هي الكلمة الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وهذا له وجه، وأولى منه ما قاله مجاهد: إن المقصود بقوله: ﴿ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: أخذه الله عقوبة الأول والآخر من أعماله[٢].

وهذا معروف في أساليب العرب، فيقولون على سبيل التهديد والوعيد: يا فلان، إذا عاقبتك فسوف أعاقبك عقوبة الآخرة والأولى من أعمالك، يعني: على كل عمل عملته وأسلفته من الأخطاء والذنوب.

* ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٦]:

أي: في نهاية حال فرعون عبرة لقريش إن كانوا يعتبرون ويخشون مثل هذا المصير أن يحلَّ بهم، ففرعون كان أقوى منهم، وهم يعلمون مصيره، وقد كان في قريش مَن سُمِّي بفرعون هذه الأمة، فكان من وعيد الله وتهديده إياه أن قال في شأنه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥].

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣).

وهذه بعض العبر التي تضمَّنتها القصة:

١- في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، إشارة إلى أهمية الاعتبار بالحوادث، وأن يعتبر الإنسان بتاريخ الأمم السابقة؛ فإن التاريخ يعيد نفسه، والحاضر هو نمط الماضي، والمستقبل هو نمط من الحاضر، والتاريخ يخلو غالبًا من القفزات والمفاجآت، فهو يمضي وفق سُنَّة وناموس، فمَن عرف هذا الناموس من خلال استقراء أحداث الماضي استطاع أن يوظِّفه بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]، فأثنى الله تعالى على مَن يعتبرون ويفيدون من مثل هذه العبر والآيات، وكما قال الشاعر:

فمَن وعَى التاريخَ في صَدْرِه ... أضـافَ أعمـارًا إلى عُمْـرِه

وقال آخر:

اقرؤوا التاريخَ إذ فيهِ العِبَـرْ ... ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبر

وما أكثر الذين يقرؤون كتب التاريخ قراءة التسلية وحب الاطلاع، دون قراءة الاعتبار والاتعاظ الكاشفة للنواميس والسنن الإلهية، أو أن يقيسوا أنفسهم عليها، كأفراد أو جماعات أو دول.

٢- يقول تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، ومع ذلك خاطب موسى وهارون في دعوتهما له، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

وفي هذا السياق قصة شهيرة، وهي أن واعظًا جاء إلى أحد الخلفاء، فقال له: إني ناصحك، فمُشدِّد عليك في النصح. فقال له: رويدك؛ لستَ بخير من موسى، ولستُ بشرٍّ من فرعون، وقد بعثه الله إليه وأمره بالرفق، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾.

ومن الحقائق المؤسفة أن في خطاباتنا الدعوية شيئًا من القسوة والتعنيف، وثَمَّ خلط بين مفهوم القوة ومفهوم القسوة، فبعض الدعاة يأخذون بصور من القسوة، ويرون أنها من صور القوة في الحق، كالصلف والاندفاع، والتهجم على المخالف أو التسرع في تصنيفه والحكم عليه، وهذا ليس من القوة في شيء، كما أن الهدوء واللين ليس ضعفًا، و«**الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

فالهدوء في لغة الخطاب، وفي التدرج، وفي البحث عن الأساليب التي تكون مدعاة للقبول أمر مطلوب، وهو من أسباب الاستجابة، كما يقول سليمان التَّيْمِيُّ: «ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منك»[1].

ويقول تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا ينبغي للداعية أن يستخدم اللين في دعوته.. الابتسامة.. الكلمة الطيبة.. تحمُّل ما يصدر من الناس من الانفعال أو ردود الأفعال.. والتدرج بحيث يهيئ نفسه أن هذا الذي يستمع لنصحه لا يحتمل الاستجابة جملة واحدة، فيحتاج الأمر إلى التدرُّج والترقِّي، دون مساسٍ بكرامته، أو تبكيت أو تقريع، بل تحفيز المرء على قبول النصح مع الحفاظ على إنسانيَّته وكرامته ومكانته.

وقد كان أبو سفيان رضي الله عنه رجلًا حديث عهد بإسلام، ومع ذلك فإن النبي ﷺ من باب الحفاظ على شخصيته، وأن يشعر أن الدين لم يرزأه شيئًا[2] قال يوم الفتح: «**مَن دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ**»[3]. مع أن الناس ليسوا بحاجة إلى الخروج لدار أبي سفيان؛ لأن مَن دخل داره فهو آمن، لكن من باب تشجيعه على تغيير موقفه التاريخي

(١) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥).

(٢) أي: لم ينقصه شيئًا.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرافض للإسلام.

فإياك إياك أيها الداعية أن تظن أن دعوة الإنسان تستوجب إذلاله وتحقيره وتجريده من كرامته ومكانته، ولا بد من بيان أن حقيقة التوبة والإنابة إلى الله لا تستدعي أن يفضح الإنسان نفسه أمام الخلائق، ولا أن يفتح لهم صفحات الماضي؛ ليظهر لهم توبته من كل خطيئة، بل يكفيه أن يجعل الأمر بينه وبين ربه.

يقول الشاعر:

ولو أنَّ فرعونَ لما طغى وقال على الله إفكًا وزورا

أنابَ إلى الله مستغفـرًا لما وجـدَ اللهَ إلا غـفــورا[1]

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، فرحمة الله تعالى واسعة، والداعي يُعتَبر دليلًا أو دلاَّلًا يدلُّ الناس على الطريق، وليس مُقَنِّطًا من رحمة الله، أو مُنَفِّرًا عن الصراط المستقيم.

٣- قضية الطغيان: قد أشار الغزالي وابن القيم وغيرهما إلى أن النفس البشرية غالبًا ما تتشرَّب من منـزع الفرعونية إن لم يعالجها صاحبها[2].

بل أقول -عن مشاهدة ومراقبة للنفس-: إن مداخل التفرعن والأنانية والطغيان عند الإنسان تحتاج إلى تتبعها بالمناقيش، ولو أن الإنسان جاهد نفسه زمنًا طويلًا ثم غفل عنها قليلًا، لوجد في نفسه ركامًا من معاني التعاظم والطغيان، ولو كانت متسترِّة، وبعضها يتضخم تحت ستار التدين والزهد والاحتساب.

(١) ينظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص ٨٨١) منسوبًا إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصولي.

(٢) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠)، و«الفوائد» لابن القيم (ص ٧٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٢٤).

وكثير من ألوان الطغيان وإن كانت خفيفة، إلا أنها لطيفة المدخل، وتتسلَّل إلى النفوس كما يتسلَّل الهواء، وكما يتسلَّل النوم إلى عين المُجْهَد، حتى تتمكَّن من القلب، فيصبح الإنسان مُعْجَبًا بنفسه متكبِّرًا متعاظِمًا، فمرة يتعاظم بعلمه، كما قال تعالى: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، ومرة يتعاظم بماله، كما قال تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، ومرة أخرى بجاهه ومنصبه أو بنسبه أو بجماله أو بمنطقه، أو بشخصيته أو بصلاحه.

وكثرة مسارب العجب[1] والغرور والكِبْر إلى النفس تتطلَّب من صاحبها مراجعة دقيقة ومعالجة دائمة لنفسه.

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٦]. إشارة إلى سُنَّة الله سبحانه وتعالى في الطغاة، فإن الله تعالى جعل من حكمته الصراع في أهل الدنيا، وأن هؤلاء الطغاة -من أمثال فرعون- هم العائق الأكبر في وجه الأنبياء والمصلحين، ومن الملاحَظ أن موسى عليه السلام لم يُبعَث إلى فرعون وهامان وقارون فحسب، بل بُعِثَ إلى بني إسرائيل كذلك، وإنما خصَّهم الله تعالى بذكر، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]؛ لأن هؤلاء الطغاة صادروا حقوق الناس، وصادروا الأرض فجعلوها ملكهم، وصادروا المال فحازوه لهم، وصادروا حرية البشر فجعلوهم عبيدًا لهم، بل صادروا حتى عقولهم.

والمتأمِّل في حياتنا اليومية يلاحظ نوعًا من المصادرة، ويجده كثيرًا في وسائل الإعلام، فكثير منها تُمارِس وصاية ومصادرة لعقول الناس، بل وتستخفُّ وتستهين بها، وإن كانوا يتظاهرون أن عندهم قَدْرًا من الواقعية والموضوعية والحياد، ولهذا جعل الله تعالى الحكمة في مقارعة هذا الطغيان ومقاومته سرًّا في ابتلاء المؤمنين.

---

(١) المراد: مداخله.

٥- أهلك الله تعالى فرعون بالغرق، ولكن ظلَّ الحكم في مصر للفراعنة من بعده، وامتد الحكم الفرعوني لمصر طويلًا، حتى قيل: إنه قد تعاقب على الحكم عشرون أسرة من الأسر الفرعونية.

وفي هذا حكمة ربانية؛ فهؤلاء الناس على رغم ما هم فيه من الطغيان والظلم، إلا أن الله أذن لهم بالبقاء والاستمرار بعد هلاك فرعون؛ لأن الحكمة الإلهية والناموس الكوني يقتضي ذلك، وسنة الله لا تحابي أحدًا، ولا تسير وفق هوى الناس، وإنما هي حكم ونواميس يجب أن يفقهها الإنسان ويفهمها.

ولا شك -مع ذلك- أن هلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل من بطشه مدعاة للسرور والفرح، ولذا لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال لهم: «ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟». فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وغرَّق فيه فرعونَ وملأَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصيامه[1]، فنحن نصومه لله تعالى شكرًا.

فمِن حقِّنا أن نفرح بهلاك الطاغية، ولو كان هذا شيئًا جزئيًّا.

وبعض الناس محرومون من هذه المشاعر؛ لأنهم لا يعبؤون بالمكاسب الجزئية، ونحن نقول: أعطِ نفسَك فرصةً أن تفرح بما تحقَّق من الخير، واندفع من الشر، وأحسِن الظن، أما أن يظلَّ الإنسان لا يفرح إلا بتحقُّق الخير من جميع الوجوه، وزوال الشر من جميع الوجوه، ففي هذا شيء من الخيالات البعيدة التي لا يسندها الواقع.

* ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]:

وعَطْفُ هذه الآية على ما سبق فيه مناسبة ظاهرة، وهي أن فرعون لما تعاظم

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في نفسه، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] جاءت هذه الآية مبيِّنة لجانب من جوانب عجز الإنسان مهما طغى وتجبَّر.

وجواب هذا السؤال معروف، فمَن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو ذهبت إلى آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت من آثارهم شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت من حيث عظمته وقوته إلى ما تشاهده في ملكوت السموات والأرض؟! وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، أي: أقوَّتُكم أشدُّ وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

و«السماء» تُطلَق على كل ما علا وارتفع[1]، وقد يكون المقصود: هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مجرَّاتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجز عن أن يحيط بأبعادها ونجومها ومجرَّاتها، فضلًا على أن يقيس نفسه بها، ولهذا قال: ﴿بَنَىٰهَا﴾، أي: أن هذا الوصف للسماء إشارة إلى قوتها وإحكامها، فإذا كان هؤلاء البشر يبنون هياكل ومعابد، وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.

* ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٨]:

و«السَّمْك»: السقف، فالله تعالى رفع سقف السماء، وسوَّاها، أي: جعلها مستوية ليس فيها شقوق، كما قال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن في هذا دليلًا على كروية الأرض والسماء؛ لأن عدم

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (س م و) (١/ ٢٩٠)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠١).

التفاوت والتسوية إنما يكون في الجرم المدوَّر الذي يستوي، بخلاف ما إذا كان مربَّعًا أو مستطيلًا أو مسطَّحًا أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يُوصَف بأنه مستوٍ؛ لأن فيه أشياء تختلف عن غيرها، وفيه زوايا وأطراف وغير ذلك»[1].

* ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٢٩]:

قوله: ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أي: أظلمه، فجعله شديد الظلمة، والليل هنا هو الليل الذي يراه الناس على الأرض، ولكن مصدر الظلمة والنور الشمس التي هي في السماء، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، والضحى هو نور طارئ؛ بسبب الشمس، والظلمة سببها غياب الشمس، أي: عدم وجود مصدر للنور، ولو لم يوجد مصدر للنور لكان الكون مظلمًا.

* ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠]:

أي: بعد خلق السماء، وقد اختلف العلماء في أيِّها خُلق أولًا؛ السماء أم الأرض، فذهب جمع إلى أن السماء خُلِقت أولًا؛ استدلالًا بهذه الآية، وذهب آخرون -وهو الأرجح- إلى أن الأرض خُلِقت أولًا، ثم خُلِقت السماء، ثم دُحيَت الأرض بعد خلق السماء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:٩-١١].

وهذه الآيات تدل على أن الأرض خُلِقَت أولًا في يومين، ثم بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، ثم استوى إلى السماء، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما[2]، مع أن الآيات

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٠)، (٦/ ٥٦٥)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦-٤٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٨٤).

تحتمل، والسياق لم يأت ليقرِّر مسألة فلكية ويقطع بها، بل ليوجِّه نظر الإنسان للتأمل والاعتبار والتواضع والشكر.

و«الدحو» هو: البسط والتهيئة، أي: جعلها مدحوَّة مهيَّأة مُعَبَّدة مذلَّلة؛ ليعيش الناس عليها، ويمشوا ويركبوا ويبنوا ويزرعوا... فلو أن الأرض كانت صخرية لمات الناس جوعًا وعطشًا، ولو كانت مضطربة تميل؛ لما أمكن للناس أن يبنوا عليها.

وقد جعل الله قشرتها صالحة للسُّكنى، وصالحة للنبات، وأودع في باطنها خيرات مكنوزة من الماء وغيره، وجعلها كرة معلقة في الفضاء، والذي يمسكها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النحل:٧٩]، فهو الذي يمسك السماوات والأرض: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر:٤١].

* ومن معاني «الدحو»: أن يُضمن باطن الأرض الخيرات الكثيرة، ولهذا قال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات:٣٠-٣١]، وغالب ما يحتاجه الإنسان هو: الماء والمرعى -أي: الطعام والشراب-، ولهذا نجد في سياق نعيم أهل الجنة ذِكْر هاتين النعمتين، وما أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ففي قوله: ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ إشارة إلى نعمة الزرع والرزق، وفي قوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إشارة إلى نعمة الماء.

* ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:٣٢]:

وهذا معدود من دحو الأرض وضبطها، أي: أن الله تعالى جعل الجبال لها أوتادًا تثبتها، فالجبل بالنسبة للأرض كالوتد بالنسبة للخيمة، وحتى مع حركة الأرض فهي تجعل حركتها منتظمة غير قلقة، حتى أن الإنسان لا يحس بها.

فكل جبل مغروس متجذر في باطن الأرض؛ ليحفظ توازنها، فلا تميل ولا تضطرب، إضافة إلى كونها مصدرًا من مصادر الرزق، حيث تشتمل على المعادن

وغيرها مما ينتفع الناس به.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [النازعات:٣٣]:

هذه الآية تكررت مرتين، مرة هنا، ومرة في «سورة عبس»، لكن هنا لها سياق، وهناك لها سياق آخر، ففي «سورة عبس» ذكرها الله تعالى بعد آيات في تعداد مفردات من الرزق في قوله: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضۡبًا (٢٨) وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس: ٢٧-٣٢]، بخلاف السياق هنا فلم يكن تعدادًا لمفردات الرزق، وإنما هو لفت الأنظار إلى سنن الله تعالى في الكون والحياة، وكأنه إشارة إلى أن هذه الأرزاق لو لم يكن معها سنن إلهية تحفظها لما انتفع بها الإنسان.

أو أنها هي محصلة سنة إلهية لطيفة كان من جرائها بقاء الرزق وتنوعه وتجدده بقدر حاجة البشر.

* ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٤]:

﴿ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ هي الشيء العظيم الذي يعمُّ ويغطِّي، وهي شيء مرعب مفزع لا أعظم ولا أهول.

تجد هذا المعنى في إيقاع الكلمة ووزنها، كما هو ظاهر، والمقصود: القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

والتعبير بهذا الوصف أبلغ مما لو قال: (فإذا جاءت القيامة)؛ لأنه جاء بوصف جديد مضافًا إلى الحقيقة نفسها، وهي أن القيامة مرعبة مفزعة.

* ﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات:٣٥]:

والتذكر يكون بعد انقطاع بذهول أو نسيان أو موت، وهذا التذكر يكون عند رؤية القيامة والبعث، كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٢٢)، (١٢/ ٢٠٥)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤١٢).

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢].

وهناك أمر آخر وهو: أن الإنسان يتذكر ما سعى حين يُعرَض عليه الحساب ويُناقَش؛ فإذا جحد شيئًا شهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه بما كان يكسب، ويجدها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فيتذكر ما سعى حين شهادة الجوارح عليه، وحين الحساب، وحين يؤتى الكتاب.

وهذا التذكر هو للإنسان مطلقًا، على أن من الناس مَن يتذكر ما يزيد سروره وسعادته؛ لأنه تذكر أشياء محمودة يحبها الله ويرضاها، ومنهم مَن يتذكر ما يؤلمه ويخيفه من الجرائم والجرائر، وقد ذكر النبي ﷺ قصة ذلك الرجل الذي تاب؛ فيقرِّره الله تعالى بذنوبه الصغار، ويترك عنه الكبار، وهو يقرُّ بها، ولا يستطيع أن ينكر منها شيئًا، حتى إذا بشَّره الله بأنه قد أبدلها له حسنات؛ لأنه تاب إلى الله منها، وهو في ذلك الموقف يقول: ربِّ، قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا. ثم ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه(١).

* ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٦]:

والمقصود هنا الكافر، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴾ [الكهف:٥٣]، وكما أن الكفار يرون النار، فإنها هي أيضًا تراهم، قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴾ [الفرقان:١٢]، وكذلك المؤمنون يرون النار، لكنها ليست رؤية الفزع والخوف والرعب، وإنما رؤية الطمأنينة في أن الله تعالى نجَّاهم منها، ولم يجعلهم يعملون عمل أهلها.

* ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧]:

مثل فرعون، كما تقدم: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧]، وفيه تعريض بالطغاة في مكة الذين كانوا يحاربون دعوة النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٠).

* ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النازعات:٣٨]:

أي: استحب الحياة الدنيا على الآخرة، وقدم شهواته على مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وهذا يُظهر سرَّ الطغيان؛ فإن الإنسان يتعلق بالدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها، ويُؤثِر المشهود على الموعود، ويُؤثِر الفاني على الباقي.

* ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٩]:

أي: مردُّه ومصيره ومنتهاه إلى النار.

* ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠]:

وهي إشارة إلى مشروعية أن يُعبد الله ويُتقرَّب إليه خوفًا من النار، كما يُتقرَّب إليه حبًّا له سبحانه، والإنسان لا يعبد الله بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، بل يعبده بالحب والرجاء والخوف، وآيات القرآن تشهد لهذا، وتدل على مشروعية أن يفعل المرء الطاعة، ويحذر المعصية؛ خوفًا من الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

وقوله: ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ إما أن يكون المقصود خاف من ربه سبحانه وتعالى، فاستحضر عظمته ومشاهدته له، فكفَّ عن المعصية، ومَن همَّ بالمعصية، فتركها؛ خوفًا من الله، كتبت له حسنة كاملة، كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عبدك يريدُ أن يعملَ سيئةً- وهو أبصرُ به- فقال: ارْقُبُوه، فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جَرَّايَ[1]»**[2].

(١) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٤٨): «بالمدِّ- يعني: جرائي- والقصر، لغتان، معناه: من أجلي».

(٢) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

فعلامة الخوف من الله أن يترك العبد المعصية حيث لا يراه إلا الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك.

وإما أن يكون المقصود من ذلك الخوف من مقام الله تعالى يوم الحساب، فإنك ستُوقَف بين يديه، وسيسألك ويحاسبك، فما هو جوابك؟ وما هو قولك؟ وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، إشارة إلى وجود الهوى في النفس، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه مِن الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنى وتشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذِّبُه**»(1). وليس النهي في أن يقع الهوى في نفس الإنسان؛ فإن كل إنسان سَوِيٍّ يقع عنده الهوى، ولكن المشروع أن ينهى نفسه عن الهوى، وعن الاسترسال معه، والعمل بمقتضاه.

* وفي ذلك إشارة للفضلاء من أصحاب محمد ﷺ الذين خافوا مقام ربهم، وآثروا ما عنده على شهواتهم وتحمَّلوا الأذى في سبيله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١]، وشتان ما بين المصيرين؛ فالمؤمنون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات، والأرض خالدين فيها أبدًا، لا يبلى شبابهم، ولا يزول نعيمهم، وأولئك في نار تلظَّى، يتمنى أحدهم راحة يوم فلا يجدها، أو نومًا فلا يجده، أو تخفيفًا فلا يظفر به.

* ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢]:

بعد ما أُخبروا عن المصيرَيْن إذا بهم يسألون عن الساعة: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى رُسُوُّها؟ و«الرُّسُوُّ» عادة ما يكون للأشياء الكبيرة، مثل قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]، وهكذا السفينة يقال عنها: ترسو، ولا يقال: رسا القارب؛ لصغره.

والمقصود بالسائلين هنا هم كفار مكة، فقد كانوا يسألون عن الساعة ويقولون: متى هي؟ وهو سؤال استعجال وتكذيب وسخرية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

أما اليهود والنصارى، فقد كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة، لكن سؤالهم كان سؤال تعجيز.

وكذلك بعض المسلمين كانوا يسألون، ولكن على جهة الاستعداد، فعن أنس ﷺ، أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: «ما أعددتَ لها؟». قال: حبُّ الله ورسوله، قال: «أنت مع مَن أحببتَ»[1].

أناس يتساءلون اليوم عن وقت قيام الساعة، ويحاولون أن يحدِّدوا موعدها من خلال علم النجوم والسِّحر والكهانة والحسابات الفلكية، أو يحاولون الوصول إلى تحديد نهاية لهذا الكون.

وبعضهم يحاول ذلك باعتماد الرؤى والأحلام والظنون، ووُجِد مَن يحاول ذلك بتأويل النصوص القرآنية.

والقرآن يحسم ذلك كله بما لا مجال معه للتردد أو التأويل.

* ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٣]:

أي: ليس هذا إليك، وليس لك علم به، فلا تلتفت إليهم، ولا تُجِبْهم؛ لأن هذا من علم الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه:١٥].

* ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٤]:

أي: منتهى علمها، وهذا معنًى واضح ومناسب للسياق، أي: أن الذي يعلم متى تقوم الساعة هو الله وحده.

أو أنَّ أمْرَ الساعة إلى الله، فهو الذي يقيمها، وهو الذي يقدِّرها متى شاء، فهي من أمره ومنه وإليه.

وليست مهمتك أن تخبر الناس متى الساعة، ولا أن تجيب عن سؤالهم عنها، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

شأنك أن تحدِّثهم عن أشراطها، وتحُثّهم على الإيمان بها والاستعداد لها، كما في حديث جبريل عليه السلام: «قال: فأخبِرْني عن الساعةِ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائلِ. قال: فأخبِرْني عن أمارتِها؟...»(١). يعني: علاماتها الصغرى والوسطى والكبرى.

* ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥]:

قرأ الجمهور (مُنذِرُ)، وقُرِئت (مُنذِرٌ) بالتنوين(٢)، أي: مَن يخشى الساعة فيؤمن بها ويستعد لها، ولا يتخذ الكلام في الساعة لهوًا وعبثًا.

* ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]:

«العشيَّة»: تُطلَق على ما بين زوال الشمس إلى غروبها، و«الضحى»: من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، أي: كأن مقامهم في الدنيا كوقت العَشِيِّ أو الضحى في قصره، وسرعة تقضِّيه.

وذكر عنهم في آيات أخرى أنهم يقولون: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ [المؤمنون:١١٣]. ومرة: «عشرة أيام». ومرة: «ساعة من نهار». قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه:١٠٣-١٠٤]. وإنما اختلفت إجاباتهم؛ تبعًا لاختلاف ما لبثوا وعمَّروا في الحياة الدنيا، فمنهم مَن قال: «لبثنا عشرة أيام»، وأعقلهم وأكثرهم خبرة ومعرفة قال: «لبثنا يومًا»، وبعضهم قال: «إنما هو بعض يوم»، وبعضهم قال: «إنما هي عشية أو ضحاها»، أو يكون ذلك لاختلاف تقديراتهم وحساباتهم وظنونهم، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٥).

سُورَةُ عَبَسَ

سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ
﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾
وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾
مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ
﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ
﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا
ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾
وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ
﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ
ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ١-٤٢].

* تسمية السورة:

١- اسمها الشهير في كتب التفسير والحديث: «سورة ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾»، أو: «سورة ﴿ عَبَسَ ﴾»[١].

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور التي لها أكثر من اسم[٢].

٢- غير أنك تجد في المصادر أسماء أخرى للسورة مُقْتَبَسة من بعض مدلولاتها ومضامينها، وقد سُمِّيت: «سورة ابن أم مكتوم»؛ بالنظر إلى سبب النزول، وسماها آخرون: «سورة الأعمى»، وسماها بعضهم: «سورة الصاخَّة»، وذكر العيني لها اسم: «سورة السفرة»... إلى غير ذلك من الأسماء[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٨٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

* عدد آياتها: أربعون آية، وقيل: إحدى وأربعون، وقيل: اثنتان وأربعون[1].

* وقد نزلت بمكة اتفاقًا، ويظهر أنها من أوائل السور المكية؛ لأن عبد الله ابن أم مكتوم ﷺ من السابقين إلى الإسلام[2].

* سبب نزولها:

أما سبب نزول هذه السورة، فهو أن النبي ﷺ كان مشغولًا بدعوة الأكابر من قريش، كعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فكان ينادي النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله، علِّمني مما علمك الله. فكأن النبي ﷺ وجد في نفسه عليه، فعبس وتولَّى عنه؛ لأنه مشغول بهؤلاء القوم الذين كان يرجو إسلامهم، وذلك موقف عابر وخاطر طائر، لم يكن له استقرار ولا ثبات.

وهي تربية ربانية تأخذ بالألباب، أن يحدث هذا بسبب موازنة وترجيح نبوي بين المصالح المتعارضة، فينزل عليه الوحي الذي اعتاد أن يكون له مسلِّيًا معزِّيًا مصبِّرًا، فإذا به يحمل عتابًا على عبوسه وتولِّيه عن هذا الأعمى، هو مشهد مليء بالدروس.. دروس في الدعوة.. دروس في الصبر.. دروس في التواضع.. دروس في حساب المصالح والمفاسد.

* شخصية ابن أم مكتوم ﷺ:

عبد الله ابن أم مكتوم ﷺ، اسمه: عمرو، أو عبد الله، وعمرو أشهر، وأمه عاتكة، واشتُهِر بهذا اللقب: «ابن أم مكتوم»، وهو قريب لخديجة زوج النبي ﷺ، ومن المسلمين الأوائل.

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٩٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

وقد يكون النبي ﷺ وَكَله إلى ما عنده من الدين والسابقة، وهذا الرجل تاريخه طويل مشرِّف، حتى إنه كان من أول المهاجرين -بعد مصعب بن عُمير رضي الله عنه- إلى المدينة، ولما جاء- كما يقول البراء رضي الله عنه-: سأله أهلُ المدينة: ما فعلَ أصحابُك الذين مِن بعدك؟ قال: هم أولاء على أثري، سيأتون من بعدي.

قيل: إنه استُشهِد في معركة القادسية، رضي الله عنه(١).

* ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١]:

أي: كلح وقطب وتجهَّم وجهه، والمقصود: النبي ﷺ قطعًا من دون شك.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرض ببدنه.

فالعبوس يكون بالوجه، والتولِّي يكون بالبدن.

عاتب اللهُ رسولَه ﷺ على لمحة العبوس التي ظهرت في تقاسيم الوجه، ولم يقع منه ﷺ غير هذين الأمرين؛ العبوس والتولِّي عن الأعمى.

ذلك لأن مقام النبوة عظيم، لا ينبغي أن يكون فيه مثل هذا، وفيه دليل على التفات الإسلام منذ أيامه الأولى إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «أشرافُ الناسِ يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم»(٢).

وقد وقع للإمام الرازي -صاحب «التفسير الكبير» - زلة في تفسير هذه السورة، فذكر أن ما فعله ابن أم مكتوم كان معصية؛ لأنه أتى النبي ﷺ يسأله وهو مشغول بدعوة كبراء قريش، وإن ما فعله النبي ﷺ كان سائغًا أن يفعله.

ثم حاول بهذا أن ينفك من الإشكال، فذكر أن الله تعالى عاتب النبي ﷺ، إما

---

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٩٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٦٤-٣٦٥)، و«الإصابة» (٧/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه.

لأنه التفت لهؤلاء بحكم القرابة، أو أنه أعرض عن ابن أم مكتوم بحكم العمى[1].

وهذا تأويل رديء، وهو افتعال لمشكلة لا لزوم لها في الآيات، فإن العتاب واضح مصدره وسببه.

والأقرب أن أساس العتاب من الله سبحانه للرسول ﷺ هو زيادة الحرص منه ﷺ على هداية هؤلاء القوم الذي حمله على الإعراض عن الأعمى والعبوس في وجهه.

والإنسان كلما علا قَدْره، وزادت منزلته، كان العتب عليه يَرِد في أصغر الصغائر؛ لأنه محل الكمال والجلال.

وكان دافعه ﷺ شدة الحرص على هداية القوم، وتوقُّع الخير الكثير من وراء إسلامهم، وعادة ما يترتب على مثل هذا أن يكون الداعية منهمكًا منشغلًا، فربما أرجأ أمر الأتْباع الموثوقين أو وَكَلَهم إلى ما عندهم من الإيمان.

ومَن مارس الدعوة أو التعليم يقع له ذلك كثيرًا؛ فالإنسان العادي إذا أفرط في الانشغال، أو تكاثفت عليه الأعمال، وملأت خاطره؛ فإنه لا يكون مع زوجته ومع أهله ومَن حوله على حال الانسجام والرضا والطواعية، وربما علاه شيءٌ من التوتر والانفعال.

وفي هذا تأكيد على القاعدة الشرعية المعروفة التي هي: «عدم ترك الأمر المعلوم للأمر الموهوم»، يعني: المصلحة المُحَقَّقة لا تُتْرَك لمصلحة متوقَّعة، وكذلك الأمور المؤكَّدة لا تُتَرَك لما هو أقل تأكيدًا منها، والمصلحة العظمى لا تُتَرَك للمصلحة الصغرى.

ويتحصَّل من مثل هذا الموقف دروس عديدة وفوائد كثيرة، منها:

١ - العناية بالمقبِل أكثر من المُعرِض؛ لأن له سابقة ومبادرة، والإعراض عنه

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٢-٥٣).

ربما يفضي إلى صدوده أو انتكاسه.

٢- دعوة المسلمين مقدَّمة على دعوة الكفار.

صحيح أننا مؤتمنون أن ندعو الناس كلهم إلى الإسلام، ونقيم الحجة عليهم: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، لكن -من حيث الترتيب فقط- أيهما أولى: دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم والتفقه فيه، أم دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام؟

الذي يظهر لي أن دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم أولى وأهمُّ، وهذا لا يعني أبدًا التقليل من أهمية وجود مَن يتخصَّصون في دعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

٣- دعوة المهتدين وتعليمهم في الجملة أولى من دعوة المنحرفين الضالِّين البعيدين، وهذا لا يعني التقصير في دعوة المفرِّطين، فيجب أن يكون في المسلمين مَن يتخصص بدعوة الشاردين والمبتعدين وأسرى الشهوات والشبهات، حتى ولو تخصَّص أناس في هذا لم يكن كثيرًا، ولكن في مقام المقارنة الصرفة، نقول: توجيه المهتدين والمقبِلين على الخير في مجالس العلم والذكر أولى من ذلك، وهذا من حيث المفاضلة العامَّة، ولا يعني ذلك الإزراء بحق أحد من هؤلاء.

ربما تكون هذه المقارنات موهمة، أو تستخدم في غير سياقها، وإنما أردت التفصيل في حال وجود شخص واحد - على سبيل المثال- متردِّد بين هذا وهذا، ولا يمكنه التوفيق بينها، لا وقته ولا جهده يسمح بذلك، فلا بد له من اختيار أحد الطريقين، فالأفضل له كقاعدة عامة دعوة المسلمين، ودعوة المقبلين بصفة أخص.

٤- تحديد ما بوسع الإنسان أن يفعله، والمقصود بذلك الواقعية في أمر الدعوة؛ وهذا يوجب تحديد الأهداف ووضوحها وواقعيتها.

من الشباب مَن يفكر في واقع الأمة ومشكلاتها، ويغرق في هذا إلى درجة تعميه عن الحلول الممكنة وعما بوسعه أن يعمله من الأعمال المستطاعة التي تخفِّف المعاناة

ولو جزئيًّا.

عليك أن تفكِّر في الأشياء المقدورة، وبدلًا من أن تقول: متى يتغير واقع الأمة. قل: ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أستطيع أن أستثمر طاقاتي ومواهبي؟ يمكنك أن تتعلَّم أو تُعلِّم، أو تكون خطيبًا ناجحًا، أو كاتبًا، أو شاعرًا، أو أديبًا، أو داعيةً، أو إداريًّا موفَّقًا، أو أستاذًا أو مُبدِعًا...

* ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:٢]:

هذا شروع في بيان السبب المباشر، وإلا لم يكن النبي ﷺ عبس بسبب الأعمى فحسب، فهو صاحبه وحبيبه قطعًا، وله سابقته وإسلامه، ووصف الله تعالى الرجل القادم بالأعمى، ولم يذكر اسمه، بل ذكر عاهة مكروهة عند بعض الناس.

وهنا تساؤل: لماذا وصف الله عبد الله ابن أم مكتوم بالأعمى، وليس بوصفٍ آخر؟

كان هذا لبيان عذر الرجل، وأنه لم يكن يرى المشهد ولم يلحظ انهماك النبي ﷺ في دعوة أولئك الملأ، وهو مزيد عتاب للنبي ﷺ، وكأنه يقول: الرجل معذور بالعمى؛ والعمى سبب للتخفيف فيما هو فوق ذلك.

ربما يظن ظان أن الإسلام وهو في بداية ظهوره لن يفيد من رجل أعمى كإفادته من الرجل البصير القوي كامل الحواس، ولذا جاء العتاب مُعْلَنًا يُتلى في آيات محكمات في كتاب مقدَّس إلى يوم القيامة، ولو أراد الله لجعله عتابًا يُسِرُّ به جبريل إلى النبي ﷺ من غير أن يعلم بذلك أحد، ولكنه أراد أن يكون قرآنًا متلوًّا تعلمه الأمة قاطبة؛ ليكون درسًا لها كلها أن الإيمان والتقوى إذا أشرقت في قلب فقد تحقق بذلك المقصود الأعظم من الرسالة، أيًّا كان هذا القلب، وأن مصالح الدنيا وحساباتها يجب أن تتأخر في هذا المقام ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وفي هذه الآيات دلالة على أن القرآن وحي الله، بلَّغه الرسولُ ﷺ إلى الأمة كما تلقَّاه، لم يُخفِ منه شيئًا، ولم يزِد فيه، ولو كان من تأليف النبي ﷺ لما كانت فيه مثل هذه الآيات.

هذا العتاب لم يأتِ من أحد من البشر، بل من رب العالمين، والمسلم متعبَّد بحفظ هذه الآيات وتلاوتها وتعليمها للناس، كما هو متعبَّد بأن يحفظ ويتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، وكلا الأمرين فيه حرج؛ فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه مدح وتزكية مما يحمل الخصوم على أن يتهموه بأنه تقوَّل القرآن؛ لما فيه من تزكية نفسه.

وقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ فيه حرج من جهة المؤاخذة على هذا الموقف وكشف ما لابسه من كراهية نفسية لما جرى، ولكنه حرج أذهبه تبشير ربه له بأنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.

وهنا النبوة والصدق في التبليغ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]، يعني: لو كتمت آية أو لفظًا أو حرفًا لم تكن مبلِّغًا لرسالة الله عز وجل، تقول عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمدٌ ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنزِل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧]»[(١)].

وهذا عتاب أعظم وأبلغ في شأن زواجه ﷺ بزينب، وكشفٌ عن شيء كان يخفيه في نفسه، والله تعالى يقرِّر إبداءه وإعلاءه ليسمعه التابع الموافق والكافر واليهودي والمنافق.. ليسمعوا جميعًا خطاب الله العظيم لمصطفاه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

وهو شيء عظيم حقًّا، ولو أن أبًا عاتب ابنه، أو قائدًا عاتب متبوعه بمثل هذا، لكان حريصًا على تجاوز الموقف ونسيانه وكتمانه أو التشكيك فيه.. فكيف والخطاب من رب العالمين من فوق سبع سماوات، وفي ظروف وأحوال صعبة ومخاطر محدقة!

وقد جاء الخطاب في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ بضمير الغائب، مع أن النبي ﷺ هو المخاطَب به، وفي عتاب الله إياه في سورة الأحزاب جاء العتاب بخطاب مباشر: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وفي هذا أسرار لطيفة، يظهر منها:

١- عدم مفاجأة النبي ﷺ بالخطاب والعتاب؛ لأن مخاطبة الغائب أولى من مخاطبته في البداية وجهًا لوجه، وهذا يدل على أن البداية هذه أخفُّ وألطف مما لو قال له: (عبست وتوليت) ففي العتاب تدرج وترقٍّ، بدأ بمخاطبة الغائب: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ [عبس:٣]، وعلى هذا يكون الأمر أخف.

٢- أن هذا العبوس والتولِّي أخفُّ من أن يُوصف بالذنب، وإنما هو خلاف الأولى، ومع ذلك عاتبه فيه ربه؛ لأنه ليس من مألوف أخلاق النبي الكريم ﷺ، فجاء الخطاب بصيغة الغائب للإشارة إلى أن ذلك الحدث كان استثناء بالقياس لأخلاق النبي ﷺ.

٣- التعبير بالغَيبة يجعل المعنِي به كأنه يراه واقعًا من غيره، وهذا أبلغ في تصوير المشهد وملاحظة ما فيه من مخالفة ما هو الأولى في حقه.

٤- جاء الخطاب بالغَيبة متسقًا مع فعل النبي ﷺ مع عبد الله ابن أم مكتوم، فهو ﷺ قد أعرض عنه وتولَّى، فجاء الخطاب فيه شيء من الإعراض في المخاطبة المباشرة إلى خطاب الغَيبة، ولكنه لم يدُم طويلًا، ولذا جاء بعد هاتين الآيتين خطاب مباشر

للرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٣]، فهو عتاب المحب لحبيبه ﷺ، وهو دليل على عظمته ﷺ، وقوة احتماله، ورباطة جأشه، كما أنه دليل على أهمية المراجعة والتصحيح، وأن قوة الإنسان وكماله ليست بالادِّعاء، ولا بالشهرة، ولا بالاسم، ولا بالنسب، وإنما هي بدأب الإنسان وصبره ومواصلته في تطلُّب الكمال وتدارك العثار.

* ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٣]:

يحتمل أن تكون الآية استفهامًا؛ يعني: ما يدريك لعل هذا الرجل الذي أعرضت عنه، ولم تُجِبْه، لعله يتزكى. و«لعل» من الله واجبة.

وفي الآية ثناء على عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، بأنه من المتزكِّين الأوائل، شهد له بذلك ربه جل وعلا، والنبي ﷺ عندما أعرض عنه إعراضة خفيفة وهو منشغل بما يظن أنه أهم، ترتَّب عليه أن الله تعالى من فوق سبع سماوات يُنزل شهادة لعبد الله ابن أم مكتوم في وحي يُتلى أنه ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾، فهذه بركة سيدنا محمد ﷺ، كما قال في الحديث في آخر عمره، قال ﷺ: **«اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن سببتُه أو جلدتُه، فاجعلْ ذلك كفارةً له يومَ القيامةِ»**[1].

فكان من بركة ذلك العبوس أن تنزل تزكية الرجل من السماء، وأن يخلِّد الله ذكره والثناء عليه في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى أنه وإن كان أعمى البصر، فهو مُبصِر بقلبه، ولذلك سيتزكَّى ويذكَّر.

* والفرق بين قوله: ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾، و﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ [عبس:٤]:

أن الأول ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة من البر والمعروف والخير

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والصلاة والذكر والتقوى والإيمان وكل عمل صالح.

أما قوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ فقد تكون إشارة إلى الانزجار عن الذنوب والمعاصي، وهذان هما الركنان الأساسيان للرسالة: فعل الطاعة وترك المعصية، فعل المعروف وترك المنكر، وقد أجمع العلماء على أن الرسل كلهم بُعِثوا بأمرين:

١- تحصيل المصلحة.

٢- دفع المفسدة.

فكل ما أمر الله تعالى به فهو مصالح ينبغي تحصيلها، وكل ما نهى الله تعالى عنه فهي مفاسد ينبغي دفعها وإبعادها قَدْرَ المستطاع.

ولذلك انتفع الناس بهذا التعليم الرباني، فكان النبي ﷺ شديد القرب من أصحابه الضعفاء والفقراء ويرحب بهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

وفعل هذا أصحابه من بعده، والأئمة والعلماء، حتى قيل: إن الفقراء في مجلس سفيان الثوري كانوا كالملوك في تكريمهم واحترامهم، وتوقيرهم وتقديرهم، والإقبال عليهم[1].

هذه هي النبوة، ليست مُلْكًا ولا سلطانًا، ولا فخرًا ولا رياءً، وإنما تواضعًا لله واهتمامًا بالناس وبضعفائهم، ولا يعني هذا قصد إهانة الأكابر، فليس هذا مطلوبًا، ولا هو من المروءة، بل يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه.

ولم يعاتب الله نبيَّه ﷺ على مجرد الإقبال عليهم ودعوتهم، وكان واجبًا عليه أن يدعو الأكابر كما يدعو المستضعفين، وإنما العتاب في ازدراء الضعفاء والفقراء

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» (١/ ٩٧)، و«المجالسة» (٧/ ٧٧) (٢٩٥١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ٢٣٠).

والإعراض عن دعوتهم.

* وهنا لم ينتهِ العتاب، بل قال سبحانه: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ [عبس:٥]:

أي: عن الحق وقبوله، وهذا هو ما يُذمون به، لا أن يكونوا كبراء وسادةً وأغنياء في قومهم، فالغنى في ذاته ليس بمذموم، كما أن الفقر في ذاته ليس بممدوح.

* ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ [عبس:٦]:

﴿ تَصَدَّىٰ ﴾ معناها: تَصْدُد، وأُبدلت الدال الثانية حرف علة؛ «تصدَّى»، يعني: تصَدَّد إليه، أي: تلتفت وتتوجَّه إليه وتدعوه، وحاشاه ﷺ أن يكون طامعًا في أموالهم أو جاههم، وإنما كان يطمع في إسلامهم؛ لأن بإسلامهم يسلم أتباعهم، وهو دليل على شدة حرص النبي ﷺ على هداية الناس حتى المعرِضين منهم.

* ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٧]:

أي: إذا قمت بالواجب وبلَّغْتَه الدعوة ثم لم يُقبل فليس عليك من وزره شيء: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٥٢].. ليس عليك تبعته بعد أن أقمت الحجة، وأديت واجب البلاغ.

* ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ [عبس:٨-٩]:

وهذه شهادة أخرى لعبد الله ابن أم مكتوم بأنه يخشى الله، وهي من بركة النبي ﷺ، فلولا هذا العتاب لربما لم يتلُ في القرآن هذه التزكية العظيمة.

* ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس:١٠]:

ولكن بأي شيء تلهَّى عنه رسولُ الله ﷺ؟ كان يتلهَّى بدعوة الأكابر، فهو قد صدَّ عن دعوة إلى دعوة أخرى، ومع ذلك يعاتبه ربه في ذلك، فيتلقن الدرس ﷺ، وهذه هي العظمة والنبوة، وبمثل هذا وغيره صار النبي ﷺ سيد الأنبياء، وإمام المرسلين، فلا يُفتح باب الجنة لأحد قبله، وكانت أُمَّتُه خير الأمم، وأتباعه

خير الأتباع، وأصحابه خير الأصحاب، وهديه خير الهدي، وسيرته أفضل السير، فيؤدِّب الله سبحانه نبيَّه ﷺ بمثل هذا التأديب الرباني الواضح المُعْلَن الذي يُتلَى إلى يوم القيامة.

* ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس:١١]:

﴿كَلَّآ﴾: كلمة زجر وردع. يعني: لا تَعُدْ لمثل هذا.

١- وهذا درس للعلماء والدعاة والأفراد والجماعات في استيعاب الناس والتواصل معهم، بعيدًا عن حسابات الغنى والفقر والذكاء والنبوغ أو الضعف، فدعوة الإيمان والتزكية والطهارة لا يجوز أن تكون مربوطة بمصالح فئوية أو حزبية أو مكاسب عاجلة، بل هي فوق ذلك.

٢- ودرس في ضرورة قبول النقد والتصحيح والمراجعة، وأن لا يصرَّ الناس على تكرار تجارب فاشلة أو خاطئة، لمجرد أنها مألوفة أو متلقاة عن الشيوخ والقادة.

٣- ودرس للحكام: فهذا سيدهم محمد ﷺ يتلقى من ربه العتاب والتأديب، ويعلنه على الناس، ولم ينقص هذا من قَدْرِه؛ بل زاده رفعة وعظمة، فلِمَ يظنون أن نقد فعل فعلوه أو قول نطقوه أو سياسة جروا عليها هو ازدراء لهم أو بخس بحقهم؟

٤- وهي درس لعامة الناس وخاصتهم في التوازن، وعدم الانخراط في قراءة المصالح المادية البحتة، فالجانب الإنساني والأخلاقي هو من أهم المصالح وأولاها بالاعتبار.

٥- ودرس في قبول النقد والتدرب عليه وعدم التبرُّم منه، أو اعتقاد أن النقد يدمِّر الإنسان، بل الواقع يقول: أهميتك بقدر النقد الموجَّه إليك، فلا تقلق من النقد، والناس دائمًا يختلفون حول الأشياء المهمة والأشخاص المهمِّين والقضايا المهمَّة، أما مَن لا حضور لهم ولا تأثير، فهم يخطئون ويصيبون ويتنقلون ولا أحد يكترث لهم!

ولستَ بناجٍ من مَقَالـــةِ طاعـــنٍ   ولو كنتَ في غـارٍ على جبلٍ وَعْـرِ
ومَن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا   ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ (١)

نَمْ قرير العين، وتأكَّد أن النقد جرعات تطعيم تقوِّي شخصيتك، وتشد أزرك، وامضِ بثقة وجرأة، ودَعِ الناس ينقدونك كيف شاؤوا، وعليك الاستماع له، والإفادة بما فيه من الحق، وإن وجدتَ شيئًا غير مقنع فارفضه ولا تبال به، ولا تقل: هذا حاسد، أو حاقد، أو شانئ، أو مُغرِض، أو مدفوع. فلا يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح.

على أن النقدَ يجب أن يكونَ بأسلوبِ عادلٍ صادقٍ راقٍ لَيِّنٍ، يقول عيسى عليه السلام: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، بل انظروا في أعمالكم كأنكم عبيد»(٢).

يجب أن تكون متواضعًا بعيدًا عن التعالي، وعليك أن لا تجزم بصوابك فيما ليس فيه نص، ولو جزمت بصوابك فعليك أن تراعي الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين مع مَن تختلف معهم.

والضمير في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ضمير المؤنث، وفي سورة أخرى جاء مذكرًا: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤]، والمعنى واحد.

ويحتمل أن يكون المراد به السورة كاملة، أو الموعظة التي في هذا السياق، يعني: هذا الجزء من السورة الذي عُوتب به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون القرآن كله.

* ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كأن ربنا سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: هؤلاء الناس الذين أعرضوا ولم يقبلوا منك ليس عليك من حسابهم شيء، فهذا القرآن إنما هو تذكرة وعظة:

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافيتي النسر: هي الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خَافِيَةٌ.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٥)، وابن أبي شيبة (٣١٨٧٩، ٣٤٢٣٠)، وأحمد في «الزهد» (٣١١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٨، ٣٢٨).

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس:١٢].. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، فلا تحزن عليهم، ولا تقلق من إعراضهم، فقد أدَّيت ما عليك، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

* ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس:١٣-١٤]:

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ لأنها من الكريم سبحانه، وتنـزَّل بها جبريل عليه السلام وهو مَلَك كريم: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠-٢١]، على نبيٍّ كريم وهو محمد ﷺ.

وهي ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ أذن الله بتطهيرها ورِفْعتها، وأن لا يمسَّها إلا المطهَّرون، ومطهَّرة من الخطأ واللغو والباطل، وكل رجس معنوي.

* ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٥-١٦]:

يعني: هي موضوعة ومحمولة بأيدي سفرة، و«السَّفَرَة»: جمع سافِر، وقد يكون من السِّفْر، وهو الكتاب، والسافر هو الكاتب.

ومنها: السفير الذي ينتقل بين فريقين للإصلاح.

قال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقد وردت صفتهم في الإنجيل بالقديسين.

وقال قتادة: هم القرَّاء. ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقال أكثر أهل العلم -كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره-: إن السفرة الكرام البررة هم الملائكة(١).

---

(١) ينظر: «مسند الدارمي» (٣٤١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٤)، (٢٤/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٨-١١٩).

وقد يشهد له حديث عائشة ﵂: «الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذي يقرأُ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران»[1].

وبكل حال ففيه إشارة إلى الثناء على أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم حملة القرآن وحُفَّاظه، والثناء على قُرَّاء القرآن عبر العصور؛ فهم فهموه وعملوا بما يقتضيه.

وهو توكيد لحفظ الله تعالى لكتابه بتسخير السفرة الكرام البررة المعنيين بحفظه في السماء والأرض، خلافًا لأباطيل السَّحرة والمكذِّبين التي تطير بها الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

* ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]:

هذا سياق جديد، فيه الانتقال من مشهد إلى آخر، وعلاقة هذا الموضوع بما قبله تتبيَّن مما يأتي:

١- إذا كان أولئك النفر: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والأخنس بن شَرِيق، وغيرهم من المستكبرين قد رفضوا دعوة النبي ﷺ، وتصدَّى النبي ﷺ لدعوتهم يوم جاءه عبدالله ابن أم مكتوم، فإن هذه الآيات تتضمن التوعُّد والدعاء عليهم، والدعاء من الله تعالى واجب؛ لأن الله تعالى بيده الأمر.

وهي إشارة إلى أن أولئك النفر ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، والله أعلم.

٢- السياق يقرِّر أن مهمة الرسل هي تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، وأنه لا عذر لمَن بلغته الدعوة أن يتولَّى ويكفر، ولذا حقَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، وإن كان صيغته صيغة الدعاء، إلا أن حقيقتها توبيخ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

للإنسان وزجر وتأنيب له، وأنه مستحق للموت ما دام أنه ليس في قلبه إيمان ولا حياة، فالموت أجدر به.

* ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس:١٨-٢٢]:

وهو تدرج إلى المجادلة معهم وإقامة الحجة عليهم.

وهؤلاء القوم المتحدَّث عنهم موصوفون بصفتين: الكفر، والكِبْر والتعالي عن قبول الحق.

فأقام الله عليهم الحجة فيما يتعلق بـ«الكفر» بالآيات، وأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بـ«الكبر» بتذكيرهم بأصل الخلق، الذي خُلقوا منه، ولهذا جاء السياق بعد ذلك مباشرة: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، فهذه الخلقة لا تهيئ الإنسان أن يتكبَّر أو يتعاظم.

على أن هناك خلافًا في المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ .. ﴾ فكثير من المفسرين يرون أن المقصود شخص بعينه، مثل عتبة، أو شيبة، أو الأخنس، أو عتبة بن أبي لهب... وهذا احتمال، ولكن السياق عام في جنس الإنسان، كما يُشعر بذلك قوله: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾؛ ولهذا ذهب آخرون إلى أن المقصود بالإنسان هنا: الجنس(١).

وهنا إيراد يحتاج إلى كشف، وهو أن المعهود في القرآن أن الله تعالى يرفع الإنسان ويكرِّمه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]، فما معنى أن يأتي الآن السياق ليقول: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾، وأن يشير إلى هوان أصله ومهانته؟

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/ ٢١٩)، (٣١/ ٥٨)، و«اللباب في علم الكتاب» (١٢/ ٧٥)، (٢٠/ ١٦٠)، و«نظم الدرر» (٢١/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٠).

والجواب: أننا إذا قلنا: إن المقصود «جنس الإنسان» فلا يعني ذلك الناس كلهم؛ لأن جنس الإنسان: فيهم الأنبياء، والعلماء، والصلحاء والدعاة... إلخ.

وإنما المقصود الإشارة لغالب الناس، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

ولا يلزم أن يكون المراد بالكفر الجحود والكفر الأكبر، وإنما يشمل هذا، ويشمل ما دونه من الكبائر التي لا تُخرِج من الملة، ولذلك فسَّرها الرازي والسعدي وغيرهما بأن المقصود هو كفر النعمة، أي: جحودها[١]. وفيه تناسب مع السياق حيث عدَّد نعمه على الإنسان بعد هذه الآية.

وكأن المقصود جنس الإنسان الكافر، وهذا المعنى محتمل وجيه.

وقوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ يحتمل معنيين:

١ - أي: ما أشدَّ كفره وعناده كما تقول: ما أشد بياض هذا الشيء أو سواده.

ويكفي في شدة كفر الإنسان: إعراضه عن عبادة ربه سبحانه، مع أنه الذي أسبغ عليه نعمه وعرَّفه بآياته وصفاته وأظهر له عظمته وكبرياءه، ثم يذهب يعبد صنمًا.. أو حجرًا.. أو بقرة.. فلا شك أن هذا جدير بأن يوصف بشدة الكفر ويتعجب منه[٢]!

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحدُه الجاحدُ
ولله في كــلِّ تحريكــةٍ وفي كلِّ تسكينةٍ شاهـدُ
وفي كــلِّ شيءٍ لــه آيــةٌ تدلُّ على أنه الواحـــدُ

٢ - أن يكون قوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ استفهام، أي: ما الذي جعله يكفر؟ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، أي: ما الشيء الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير السعدي» (ص ٩١١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٤/ ٤٠)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

جعلك تكفر بالله عز وجل؟ وهذا مروي عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وقوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ دعاء، ولكن حقيقته تشنيع وتقبيح لما يعمله الإنسان، وهو إن كان تأنيبًا، إلا أن المؤمن يستشعر فيه الحلم الرباني؛ لأن الله تعالى وهو يُعجِّب من فعل الإنسان، ويبيِّن استحقاقه للقتل واللعن، يصبر عليه ويحلم، ولا يعاجله بالعقاب: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر:٤٥]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**ما أحدٌ أصبر على أذًى يسمعُه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له ندًّا ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**»[2].

وفي الأثر: «إني والإنسُ والجنُّ في نبإٍ عظيمٍ! أخلقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزقُ ويُشكَرُ غيري»[3]. وفي الأثر أيضًا: «يا ابنَ آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعدُ إليَّ!»[4].

ولو كان الأمر في يد واحد من أحلم البشر وأصبرهم لأباد كلَّ مَن يخالفه في الدين، أو في الرأي أو المَشْرب، وعاجلهم بالأخذ، وكان الشاعر أبو القاسم الشَّابي يقول:

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّابًا ... فأهوي على الجذوعِ بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ ... تَهُدُّ القبورَ رمسًا برمسِ
ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأطوي ... كلَّ مَا يخنقُ الزُّهُورَ بنحسي[5]

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٧، (٤/ ٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩).

(٥) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص١١٧).

* ﴿ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [عبس:١٨]:

هنا سؤال عن مادة الخلق، متجاوزًا السؤال عن الخالق والمخلوق، فذلك شيء معلوم مُسَلَّم به، فليس ثَمَّ أحد يقول: إنه غير مخلوق، حتى فرعون وهامان والنمرود وأبو جهل يعترفون بأنهم مخلوقون، والله سبحانه وتعالى ينقلهم من الأمر المعروف المتفق عليه إلى سؤال آخر وهو: «من أي شيء خُلقتم؟»، كما في الآية الأخرى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، فهذه تُلامِس ضميرَ الإنسان وتحرِّكه: أنت مخلوق .. ومخلوق من ماذا؟

هل ادَّعى أحد أنه خالق يخلق كخلق الله؟

في قصة إبراهيم ﷺ مع النمرود قال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، هل كان النمرود يقصد أنه يحيي الموتى؟ كلا، وإنما يقصد أنه يأتي برجل مستحق للقتل فيعفو عنه، فذلك إحياؤه إياه، ويأتي بآخر لا يستحق القتل فيقتله، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ والعبارات.

* أما الخالق الذي يُوجِد من عدم، ويحوِّل الجماد الهامد الرميم إلى حيٍّ متحرك، عاقل متكلِّم، واعٍ فاهم، فهو واحد لا شريك له، وهو الذي يخاطب الإنسان ويقول: ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس:١٩]، والنطفة هنا هي الشيء اليسير من ماء الرجل الذي خُلِق منه الإنسان(١)، فهل يتكبَّر وقد خُلِق من نطفة ضعيفة ليس لها قوام ولا وجود؟

والدفقة من المني فيها الملايين من الحيوانات المنوية، والإنسان مخلوق من حيوان

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٣٩).

منوي واحد من هذه الملايين، وهي مؤهَّلة من حيث الإمكان المجرَّد أن يُخلَق منها الملايين، لكن الله تعالى بحكمته يختار حيوانًا واحدًا منها، فيسبق غيره ويخترق البويضة ويتكوَّن منه الإنسان.

فلماذا يتكبَّر وهذه حقيقته؟! وكيف ينسى ربَّه، ويجحد فضله، وهو الذي رعاه منذ كان نطفة في رحم أمه حتى صار رجلًا بالغًا راشدًا؟

وفي السؤال تنشيط للعقل ولفت للأنظار، وهو أسلوب مجدٍ مع مَن كفرُهم كفرُ جهالةٍ لا كفر عناد وجحود.

﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ الفاء تدل على التعقيب، يعني: بعد الخلق جاء التقدير مباشرة.

ولقوله: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، ثلاثة معانٍ، وكلها صحيحة:

١ - قدَّر أعضاءه، فجعل له عينين ولسانًا وشفتين، ولو اختلَّ فيه شيء من أعضائه لظهر فيه النقص والعجز والتشوه.

٢ - ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، يعني: في الأطوار التي يمرُّ بها؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم يكون إنسانًا سويًّا خلقًا آخر، ثم طفلًا، ثم فتى، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هرمًا، وهي مراحل وتحولات في غاية الانسجام والانضباط، والحكمة والإبداع: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

٣- ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: فسوَّاه.. في اعتدال قامته.. وسلامة أعضائه.. في جماله، حيث جعله في أحسن تقويم، وميَّزه عن الحيوانات والوحوش وغيرها[(١)].

* ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس:٢٠]:

﴿ ثُمَّ ﴾ تدل على التراخي؛ لأن فيه فاصلًا، والضمير في: ﴿ يَسَّرَهُۥ ﴾ عائد على

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾، معناه: ثم يسَّر ﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾، وهذا الذي يسمِّيه النحويون الاشتغال، أي: ثم الله تعالى يسَّر السَّبيل، فالسَّبيل: مفعول به منصوب وهو الذي وقع عليه التيسير.

و﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾ له معانٍ:

١- هو مَخْرَج الجنين من رحم الأم. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة، ورجَّحه الطبري(١).

ولذا يقال في نواقض الوضوء: الخارج من السَّبيلين.

والمقصود أن الله تعالى يسَّر للإنسان السَّبيل للخروج من رحم الأم، وهذا له ارتباط بقوله: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس:١٩]، وهو معنى جيد، وفيه إشارة إلى صبر الأم على خروج الجنين، فإنها تعاني كثيرًا، من حمله تسعة أشهر في رحمها، ثم المعاناة الأشد في الولادة وآلام الطَّلْق التي تشبه الموت.

إن خروج الإنسان من هذا المضيق وبهذه الطريقة آية وعبرة يجب أن لا ينساها، كما يجب ألَّا ينسى فضل الأم التي حملته وعانت، وقبله فضل الرب الذي يسَّر له السَّبيل.

٢- أن يكون المقصود بالسَّبيل: طريق الخير والشر، الهدى أو الضلال، ولهذا شاهد في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، وهذا قول مجاهد، واختاره الإمام ابن كثير(٢).

٣- يسَّر له معرفة المنافع والمضار، فإن الإنسان بطبعه حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، يعرف شيئًا من مصالحه، يعرف كيف يرضع من لبن الأم، ثم كيف يتجنب الأشياء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٠-١١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٢-١١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣).

الحارة، وكيف يتجنَّب المخاطر، وإذا عَقَلَ بدأ يفكِّر في مصالحه التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهذا من تيسير الله تعالى.

والأقرب أن هذه المعاني الثلاثة كلها مقصودة.

* ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ [عبس:٢١]:

وهذا انتقال إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الجنين وبعد مرحلة الحياة الدنيا كما كان: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨].

وقال: ﴿ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾، ولم يقل: (فقبره)؛ لأن الذي يباشر دفنه في القبر هو إنسان مثله، وأما الله تعالى فهو يسخِّر له ويهيِّئ له القبر، كما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وقد علَّم الله الإنسان كيف يحفر الأرض ويدفن فيها الموتى، كما في قصة ابني آدم: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة:٣١].

وجعل الله تعالى من طبيعة الأرض ما يسهِّل ذلك، حتى إن بعض البلاد الصخرية أو الجزر يكون وجود المقبرة فيها من أصعب الأمور.

فالله تعالى «يُقبِر» بضم الياء، والإنسان «يَقبُر» بفتحها، قال الأعشى:

لو أَسْنَدَتْ ميتًا إلى صدرِها   قام ولم يُنْقَلْ إلى قابـرِ

حتى يقولَ النـاسُ لما رأوا   يا عجبًا للميتِ الناشرِ(١)

والقابر هو الذي يتولَّى القبر.

دلَّت الآية على أن الله تعالى شرع للمسلمين أن يدفنوا موتاهم، فيجب أن يحفروا لهم القبور وأن يدفنوهم، وبعض الأمم الأخرى، كالفرس وبعض الهنود كانوا يحرقون الأموات، ثم يرمون رمادهم في الأنهار أو الصوامع، ومنهم مَن يترك الموتى

(١) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩-١٤١).

لجوارح الطير والسباع، وهذا كان موجودًا عند العرب، لا سيما إذا ماتوا في المعارك؛ لأنهم يفتخرون بذلك، حتى يقول الشَّنْفَرَى:

وَلا تَقبُروني إِنَّ دَفني مُحَرَّمٌ عَلَيكُم وَلَكِن أَبشِري أُمَّ عامِرِ[1]

وأم عامر، هي: الضبعة؛ لأن الضبعة تأكل أجساد الموتى، وكان الفراعنة يقبرون عظماءهم في أبنية ومقابر عظيمة، ومنها الأهرامات المعروفة، واشتُهِروا بتحنيط الموتى، في حين أن الإسلام شرع لنا أن يُحْفَر للإنسان قبرٌ ويُدْفَن فيه، حتى لما مات النبي ﷺ قالت فاطمة ﵂: «يا أنس، أطابت أنفسُكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟».[2] فهذه سنة الله تعالى في عباده.

* ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٢]:

أي: إذا شاء الله تعالى بعثه، وهذا انتقال من المعلوم للمجهول، ومن المتفق عليه إلى محل الجدل والإقناع مع هؤلاء المعاندين المُعْرِضين، المكذِّبين بالبعث.

وإيراد الحرف ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أن البعث يأتي بعد زمان طويل مقرَّر في علم الله، وهم كانوا يستعجلونه ويقولون: ما رأينا أحدًا بُعِثَ بعد موته. فكان قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾، تعليقًا للنشور بإرادة الله وأنه لا يستجيب لاستعجالهم.

ولو أن الناس كانوا يُبْعَثون على دفعات في هذه الحياة، لما كان ثَمَّةَ حكمة في الابتلاء بالإيمان، فاستبطاؤهم لا معنى له.

* ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٣]:

الأكثرون على أن معناها: إن الإنسان لم يؤدِّ ما عليه من حقِّ الله كاملًا، و«لمَّا» و«لَمْ» معناهما متقارب، ولكن «لمَّا» تفيد احتمال الحدوث في المستقبل القريب،

---

(١) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص ٢٥٢)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٠٥)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس بن مالك ﵁.

تقول: هممت ولمَّا. يعني: لم أفعل بعد، وربما أفعل قريبًا، أو قاربت الفعل.

يقول مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يقضي أحد أبدًا كلَّ ما افتُرض عليه»(١).

ومن المناسب لهذا المعنى قوله ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني الله منه بفضلٍ ورحمةٍ»(٢).

والعبد مهما اجتهد، لن يؤدِّي شكر نعمة الله تعالى عليه.

ويدخل في هذا: أن الإنسان لم يتدبَّر حقَّ التدبُّر، ولم يتفكر حقَّ التفكُّر، ولو تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في نفسه؛ لأبصر آيات الله عز وجل، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

إلهي رأيتُك.. إلهي سمعتُك..

رأيتُك في كلِّ شيء..

سمعتُك في كلِّ حيّ..

تعاليَت لم يبدُ شيءٌ لعيني..

تباركتَ لم ينبُ صوتٌ بأذني..

ولكنَّ طيفًا بقلبي يطل..

ومِن طيفِه كلُّ نورٍ يهل..

لقد رأى آيات الله، التي جعلته يعبده كأنه يراه، أو يحاول.

فالسبب في كفر الكافر: أنه لم يتدبَّر، ولو تدبَّر لعرف من أي شيء خُلق، وعرف ما أمر به.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٦٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا المعنى مناسب لما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:٢٤]، أي: فليتدبَّر إذًا بالنظر إلى طعامه.

وفي الآية معنى آخر محتمل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا». أي: أن الإنسان لم يؤد ما أوجب الله تعالى عليه.

ثم قال: «والذي يقع لي في معنى ذلك والله أعلم، أن المعنى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القَدَر من بني آدم ممن كتب الله له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقَدَرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم»(١).

وكأنه جواب لما يُثار من تساؤل: لماذا لم يُبْعَث الآن الأقدمون؟ فكان الجواب: لو شاء الله لأنشر الإنسان الآن، ولكن لم يشأ ذلك؛ لأن الإنسان: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لم ينته ما أمر الله به قضاءً وقدرًا من خلق الناس، فقد أذن الله أن تأتي أجيال بعد أجيال، وأمم وقرون، حتى ينتهي الأمر، ويأذن الله تعالى بالبعث.

وهو معنى لطيف، وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن كان مفسِّرًا سلفيًّا إلا أنه لم يجد غضاضة أن يبتكر معنى للآية جميلًا صحيحًا، وتدل عليه نصوص أخرى، ولم يسبقه إليه أحد فيما يعلم.

وقد يظن بعض الناس أن الإتيان بالمعاني اللطيفة الجديدة والأسرار من الآيات خطأ، وليس الأمر كذلك، بل الأمر كما قال علماء السلوك: كما أن القرآن نزل على النبي ﷺ منجَّمًا، فكذلك قرَّاء القرآن تأتيهم أسرار القرآن ومعانيه منجَّمة، فكلما قرأ الإنسان تجدَّد له معنى لم يلحظه من قبل.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

وقد نقل الرازي عن ابن فُورَك الأستاذ معنًى في الآية مختلفًا أيضًا، وهو أن الله تعالى لم يقضِ لهذا الإنسان الكافر ما أمره به من الإيمان، يعني: كلا لن يؤمن هذا الكافر؛ لأن الله لم يرد له أن يؤمن، ولم يقضِ له الإيمان، فالله أمره بالإيمان لكن لم يقضِه له(1).

وهذا المعنى صحيحٌ في ذاته، فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:107]، ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:111]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:28-29].

لكن السياق لا يساعد؛ لأنه يبدو وكأنه يعطي الكافر العذر في كفره إذ لم يُقْضَ له ذلك.

* ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:24]:

انتقل السياق للحديث عن آيات الله في الآفاق، وهذا كثير: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53].. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:21-22]، فبعدما ذكر تعالى خلق الإنسان، انتقل إلى نوع آخر من الحجج والآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه، ومن النعم والفضائل والكرامات التي أكرم الله بها الإنسان، فوجب على العبد أن يحمد ويشكر، ودعا إلى التأمُّل في شيء محسوس قريب تشتد الحاجة إليه وهو الطعام.

* ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ هو نظر واسع:

1- نظرةَ إيمانٍ واعتبار؛ لأن الإنسان إذا نظر في هذه المخلوقات النظرة قادته إلى الإيمان بخالقه سبحانه، وإدراك حكمته في الخلق ورحمته وكرمه وأسمائه الحسنى.

2- نظرةَ امتنانٍ وشكر؛ لأنه إذا نظر إلى هذا الطعام شكر مَن أعطاه إياه.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 56).

* ثم انتقل بعد الإجمال إلى التفصيل: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ [عبس:٢٥]، وجمهور القرَّاء يقرؤونها بكسر الهمزة: (إنا صببنا الماء صبًّا) فيكون هذا على سبيل الاستئناف، وأما قراءة عاصم فهي بالفتح: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾[1]، وهذا ما يسمِّيه النحويون: بدل الاشتمال.

والرابط بين قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وبين الطعام رابط ظاهر، والصبُّ: عادة يكون من الأعلى إلى الأسفل، والمقصود بالماء هنا: المطر.

و﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق، وهو دليل على قوة الصَّبِّ، والله تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه وذاته، كما توحي الآية.

وفي الآية صورة تخيلية، فكأنك ترى الأمطار تهطل بغزارة، تجتاز تلك المسافة بسرعة، فتستجيب الأرض، وتتشقَّق بالنبات، حتى إنك ترى الأرض يابسة هامدة شهباء: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

* ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٦]:

جاء التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى النواميس الإلهية في هذه الحياة، فالنبات لا ينبت إلا بالماء بإذن الله، والأرض تحيا بالنبات، وبعضه مترتِّب على بعض، ترتيب النتيجة على السبب، ولو شاء الله لأنبت الزرع وأحيا الأرض بغير نزول المطر، ولكنها سنته.

وإشارة إلى الفاصل الزمني بعد نزول المطر وقبل خروج النبات، وهو يوضِّح معنى الآية في سورة الحج ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣١١).

مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج:٦٣] أنه لا يعني النبات الفوري.

* وقد ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات: ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٢٧-٣١]:

ذكر «الحَبَّ»، وهو كل ما يُحصَد مثل القمح والبر والحنطة والشعير والأرز، وهي غالبًا ما تكون قوتًا للإنسان.

ثم «العنب»، وهو فاكهة معروفة، وهو مفيد للهضم، فإذا جُفِّف سُمِّي زَبيبًا، وكان العرب يجفِّفونه ويجعلونه قوتًا يأكلونه في غير موسمه، وله منافع كثيرة للبدن، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ العنب والرُّطب والتين، كما قال ابن القيم[1].

و«القَضْبُ» هو القَتُّ أو العلف، ويُسمَّى قديمًا الفصفصة، وهو ما تأكله الحيوانات، وبعض أهل العلم يقولون: إن القتَّ هو ما يُحْصَد مرة بعد أخرى، فكلَ ما يُحْصَد ثم ينبت مرة أخرى يسمى القضب أو القت.

و«الزيتون» معروف، وزيته نافع، وقد ذكره تعالى في مواضع من القرآن، وسمَّى الله تعالى بلاد الشام بلاد التين والزيتون بالبلاد المباركة.

و«النخل» معروف، ولم يقل: (زيتونًا وتمرًا)، وذلك لأمور:

١ - أن ثمرة النخل تتشكَّل على أنواع، فتبدأ بُسرًا، ثم رُطبًا، ثم تمرًا.

٢ - أن النخل لا تنحصر الإفادة منه في جني ثمرته، وإنما يُنتفَع من أجزائه كلها، حتى لا يكاد يُرمى منه شيء.

و«الحديقة» هي البستان، والغالب أن الحديقة تُطلَق على الأشجار الملتفَّة الكثيرة المحيط بعضها ببعض، ففيها ثمار وجمال في منظرها، يقول مجاهد في قوله: ﴿ وَحَدَآئِقَ

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٩-٣٤١).

غُلْبًا ﴾ أي: أشجارًا ملتفة. لكن أكثر أهل التفسير على أن ﴿ غُلْبًا ﴾: جمع أغلب، ويطلق على الأشياء المتينة(١).

و«الفاكهة» معلومة، أما «الأَبُّ» فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو الكلأ أو ما تنبت الأرض من الحشيش أو المرعى، وهي ألفاظ متقاربة. وسُمِّي «الأَبُّ» بذلك؛ لأن الناس يأُبُّونه، أي: يؤمُّونه(٢).

وذكر الطبري في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا الفاكهة، فما الأَبُّ؟! ثم أقبل رضي الله عنه على نفسه وقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إن هذا لهـو التكلُّف»(٣).

وسُئل أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عن هذه الآية بخصوصها؟ فقال: «أيُّ سماءٍ تظلُّني، وأيُّ أرضٍ تقلُّني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!»(٤).

فهنا تجد الصِّدِّيق والفاروق وقفا عند «الأَبِّ» ولم يحدِّداه.

وابن عباس رضي الله عنهما حَبْر الأمة وترجمان القرآن عرَّفه، ونقله عنه مجاهد، كما سلف.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب بدء الخلق (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٢)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٩٦)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٢١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٣).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٢٧)، وسعيد بن منصور (٤٣-تفسير)، وابن أبي شيبة (٣٠١٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٥٩). وينظر: «الدر المنثور» (٨/ ٤٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٠٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٧)، وينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (٣٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٢١).

وأما توقُّف أبي بكر وعمر ﭬ عند «الأبّ» وعدم تحديده فله احتمالان:

١- أن تكون هذه الكلمة من الكلمات التي جاءت في القرآن، وليست على لغة قريش.

٢- أن يكونا قد عرفا «الأَبَّ»، لكن لأنه لفظ مشترك يُطلَق على أكثر من شيء فقد تردَّدا في تعيينه، هل المقصود بالآية المرعى والكلأ، أم المقصود به نبات آخر غيره؟

وهذا درس ينبغي أن تتفطن له، في عدم التكلف والتنقير والهجوم على المشتبهات دون علم، خاصة وأن السياق مفهوم، وهو في مقام تعداد النعم والامتنان بها على الخلق وشكرها، وليس أمرًا تعبديًّا ولا يتعلق بخصوصه تكليف من زكاة أو غيرها حتى يتوجب على المكلَّفين معرفته.

وتوقف الشيخين في تحديد معناه لم يمنع غيرهما من البيان؛ لأن المفردة من العلم قد توجد عند المفضول وتخفى على الفاضل.

وفي الآية إشارة إلى أن هذه النعم يشترك فيها الإنسان والحيوان، ولذا ذكر ما يخص الإنسان كالفاكهة، وما يخص الحيوان كالعلف، وما يشتركان فيه كالحب، مما يوجب الحذر أن يكون الأكل والتمتع هو قصارى ما يسعى إليه العقلاء.

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمتِـه لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسـرانُ

أقبِلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلَها فأنت بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ ﴾ [محمد:١٢]، والذين آمنوا ألَا يتمتعون ويأكلون؟

بلى، ولكن الذين كفروا: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾، أما المؤمن فإنه يأكل باسم الله، وينتهي بحمد الله: **«إن اللهَ ليرضى عن العبدِ يأكلُ الأَكْلةَ فيحمدُه**

عليها، أو يشربُ الشَّربةَ فيحمدُه عليها»[1]. ويتزوَّد ويتقوَّى بها على الطاعة.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات:٣٢]:

وهذا يؤكِّد المعنى السابق، فهذه المذكورات بعضها للناس وبعضها للأنعام: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [يونس:٢٤]. وكأن المعنى: كلوا وتمتعوا، وتذكَّروا أن هذا الأمر في حدِّ ذاته لا يرفع قيمة الإنسان، فليست قيمته بما يأكل أو يلبس، أو يملك، وإنما هي بأمر فوق ذلك بكثير.

وهي تلميح من طرف خفي إلى أن على الإنسان أن يبحث عن الكمال الإنساني، وأن يترفَّع عن مشابهة البهائم والأنعام التي لا هَمَّ لها إلا الأكل والشرب، ومع تمتعه بما أحل الله له عليه أن يفعل ذلك بطريقة شرعية مستحضرًا اسم الله وحمده، والتزام أحكامه، ومعرفة حقوق الجائع والمسكين وابن السبيل.

وأن يتذكَّر ألوانًا من النعم التي شُرِّف بها الإنسان وكُرِّم دون الحيوان، وهي نعمة العقل والتكليف والمعرفة والعبادة التي هي من أعظم أنواع المتعة: «أرحنا بها يا بلال»[2]. والآيات تحفيز للإنسان أن يلتفت إلى كل ذلك.

وفي هذا السياق من الآيات:

١- دعوة إلى التوحيد والاعتراف بالخالق الرازق تبارك وتعالى.

٢- دعوة إلى شكر الخالق الرازق، فالله تعالى حقيق بأن يُشْكر ويُحْمَد عليها.

٣- دلالة على البعث؛ وهذه الأرض التي كانت هامدة ثم شقَّها الله تعالى بالنبات كثيرًا ما تأتي في القرآن إشارة إلى البعث، وتنبيهًا إلى أن البعث يحاكي ما يقع في الأرض من خروج النبات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، والطبراني (٦٢١٥) من حديث رجل من الأنصار رضي الله عنه.

* ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ [عبس:٣٣]:

بما أن الآيات السابقة تضمنت دعوة إلى التأمل والتوحيد والإيمان، ناسب أن يأتي بعدها تأكيد البعث، وهو نقل للمشهد من الدنيا إلى يوم النشور، و«إذا» كما هو معروف أداة شرط.

وقد ذكر الشيخ ابن عاشور[١] أن جواب الشرط قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [عبس:٣٨]، وهذا عندي بعيد، والأقرب أن الجواب قوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس:٣٤]، وكأنه قال: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾، فذلك: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾، و﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار:١٩].

و﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ هي: الصيحة، وهي من أسماء القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[٢]، وقد أُطْلِق يوم القيامة في القرآن حتى صار عَلَمًا عليه، وهو يوم النفخة.

و﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾: الصوت الذي يصخُّ الأسماع، وقد يكون معناه: تصيخ له الأسماع، وقد يقال: فلان يصيخ، يعني: ينصت للصوت، وهذا رأي الطبري والزمخشري وجماعة، أنه مأخوذ من الإصاخة، تقول: أَصِخْ، يعني: أنصت واستمع.

وذهب آخرون إلى أن: ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ هي الصوت القوي الذي يصخُّ أو يصمُّ الأسماعَ بقوته[٣]، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالأمر قريب.

* والمعنى: فإذا جاءت القيامة بصوتها المجلجل القوي فذلك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٦]، وورود التسلسل بهذه الصيغة فيه انتقال من القريب إلى الأقرب، فأخوه قريب، وأقرب منه أمه وأبوه، وأقرب منهما

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٢٤).

(٣) ينظر: «أساس البلاغة» (ص خ خ) (١/ ٥٣٩)، و«لسان العرب» (ص خ خ) (٣/ ٣٣)، و«تاج العروس» (ص خ خ) (٧/ ٢٩٠).

زوجته وبنوه، في حين أن في سورة المعارج كان التسلسل من الأقرب إلى الأبعد، حيث يقول تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ [المعارج:١١-١٣].

وسبب فرار الإنسان من أقرب الناس إليه:

١- أنه مشغول بما يهمُّه، حتى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقول أحدهم: «نفسي نفسي»(١).

٢- يفرُّ منهم -كما قال قتادة- خشية المطالبة؛ لأن هؤلاء بحكم المخالطة والقرابة يكون بينهم حقوق، ولهذا قال قتادة: يفرُّ قابيل من هابيل(٢)؛ لأنه سوف يُمْسِك به ويقول: يا رب، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ وهكذا كل قاتلٍ يُسأل يوم القيامة: لماذا قَتَل؟

ذلك أنه إذا اشتد الخوف والقلق أصبح الإنسان يهتمُّ بنفسه أكثر مما يهتمُّ بزوجه أو ولده أو والده أو أخيه أو قرابته، ، ثم إن النتيجة المحصلة ليست أمرًا سهلًا يمكن أن يتحمله أحد عن أحد، أو يؤثر فيه مَن يحب ويعظِّم، فهي نهاية المطاف وخاتمة المسعى، والجنة أبدًا أو النار أبدًا.

وعبر بـ: ﴿ مِنْ ﴾، ولم يقل: (عن أخيه)؛ لأن سبب الفرار هو الأخ فيفرُّ منه بالذات؛ لأنه مشغول عنه، أو لأنه يخشى أن يطالبه، فسبب الفرار هو الأخ نفسه، أما لو قال: (عن أخيه)، فمعناه: أن يكون الإنسان في معركة مثلًا وفرَّ عن أخيه، أو عن زوجه، دون أن يقصدهم بالفرار.

* ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٧]:

لكل إنسان منهم شأن.. يشغله عما سواه، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال:

(١) كما في حديث الشفاعة. أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥١).

«يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حفاةً عُراةً غرلًا[1]». فقالت عائشة: يا رسولَ الله، النساءُ والرجالُ جميعًا، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال ﷺ: «يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»[2].

الخطب عظيم وأمامهم من الأهوال والكروب ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض، ليس هذا الموقف بضع دقائق أو ساعات أو أيامًا، بل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨-٣٩]:

بدأ بالفريق الأول؛ لأن السورة نزلت في شأن عبد الله ابن أم مكتوم من جهة، وحثَّ النبيَّ ﷺ على الاهتمام بالمؤمنين ولو كانوا من الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وعاتب الله تعالى نبيَّه بشأن هؤلاء الكفار الذين استظهرنا فيما سبق من الآيات أنهم ممن كتب الله عليهم الشقاء، وعلم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وسجَّل عليهم ذلك، فكان الأنسب أن يبدأ بالمؤمنين؛ ليبشرهم بحسن مآلهم.

و«الوجه» قد يُراد به وجه الإنسان، وهو يُعَبَّر به عنه غالبًا تقول: فلان وجهه طيب. وأنت لا تقصد وجهه بالذات، لكن طِيْب معدنه وخلقه، وهي «مُسْفِرَة»؛ لأنها آمنت بالله عز وجل وصدَّقت المرسلين.

وقوله: ﴿مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾، فالصفات الثلاث كلها مجتمعة فيهم:

١- الإسفار في الوجه، أي: يظهر في الوجه لون الإسفار، وهو نور الإيمان، والتقوى، والصفاء في قلوبهم فاض على وجوههم.

٢- الضحك: والضحك هو فعل الإنسان، وعادة الإنسان أنه لا يضحك إلا في طمأنينة وانشراح، وهو درجة أعلى من الإسفار.

---

(١) أي: غير مختونين.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

٣- الاستبشار: وهي مرحلة ثالثة أعلى منها، أي: أن في قلوبهم بِشْرًا وفرحًا وابتهاجًا، فهم يرون من هدايا ربهم ولطفه وتحفه وعطاياه ما يطمئنهم ويبشِّرهم، ويستبشرون بالمزيد: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥].

* ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس:٤٠-٤١]:

وهي في مقابلة الوجوه الأولى، وكُرِّرت كلمة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾؛ لطول الفصل، واستحضارًا للموقف نفسه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

وقوله: ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي: فيها سواد، فهي مثل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦]، ذكر وجوه المؤمنين المبيضَّة وفي مقابلها وجوه الكافرين المسودَّة.

ومع سوادها فإنها: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي: تغشاها وتحيط بها، و«القترة» هي الظلام والسواد، فالوجوه مسوَدَّة، ومع سوادها فعليها هالات من السواد والظلمة، وتنتظرها النار المظلمة، كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس:٢٧].

* ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٤٢]:

«الكفرة» بما في قلوبهم من الجحود والعناد والاستكبار، و«الفجرة» في أعمالهم، وكثيرًا ما يُطْلَق الفجور على الأعمال، مثل قوله ﷺ: «إذا خاصم فجر»(١). وغالبًا ما يكون الكافر فاجرًا، وهما صفتان متلازمتان غالبًا، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فجمعوا بين الكفر والفجور؛ ولهذا جمع الله تعالى لهم بين الصفة الذاتية وهي السواد في وجوههم، وكما أن الفجور يظهر في تصرفاتهم وأعمالهم، جعل الله تعالى القترة تغشاهم وترهقهم وتحيط بهم كإحاطة أعمالهم السيئة الظالمة الفاجرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ...﴾ الآية [البقرة:٨٠]، وقال عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ
﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ
رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا
تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير:١-٢٩].

* تسمية السورة:

١ - اسمها الوارد في غالب كتب التفسير: «سورة التكوير»[١]، ومع كونه لم يرد نصًّا في السورة، إلَّا أنه مصدر من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، مثل «الانفطار»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و«الزلزلة» من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

٢ - «سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن ينظرَ يومَ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[٢].

وكذلك سمَّاها البخاري، وبوَّب بذلك في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، وبعض المفسرين[٣]، فهو اسم للسورة بإحدى آياتها، كما تُسَمَّى «الانفطار»: ﴿إِذَا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٦)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾.

* عدد آياتها: (٢٩) آية، أو (٢٨) آية، حسب اختلافهم[١].

* وهي مكية بإجماع أهل التفسير[٢].

وقد ورد في فضلها حديث أبي بكر ﵁، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾»[٣].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك الحافظ ابن الصلاح وغيره[٤].

* موضوع السورة:

في صدرها أخبر تعالى باثني عشر خبرًا متتاليًا: ستة منها -كما قال ابن عباس ﵄- تتعلق بالدنيا، وستة تتعلق بالآخرة[٥].

فالستة التي تتعلق بالدنيا ستقع في آخرها، والستة التي تتعلق بالآخرة ستقع في

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (٣/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨)، والترمذي (٣٢٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٥٠) من حديث ابن عباس ﵄.

(٤) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١/ ٦٤١، ٦٦٥)، و«علل الدارقطني» (١/ ١٩٣-٢١١)، و«فتح المغيث» للسخاوي (١/ ٢٩٤)، و«النكت على ابن الصلاح» لابن حجر (١/ ١١٨)، و«تدريب الراوي» (١/ ٣١٢)، و«الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» لطارق عوض الله (ص ٣٥١-٣٥٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٥).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦).

أولها، فكأنها متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض.

كرَّر لفظ: ﴿ إِذَا ﴾، وهو أداة شرط للمستقبل، وفيه إطناب؛ لأنه يمكن أن يُكتفَى بأداة واحدة، فيُقال: إذا كوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم، وسيِّرت الجبال.. والتكرار هنا من البلاغة؛ لأنه يشعرك أن كلَّ حدث هو خبر مستقلٌّ له هيبته ووَقْعُه وتأثيره، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتكريس، فليس التكرار هنا من الحشو الذي لا فائدة منه، بل هو بليغ مؤثِّر، وفيه تشويق للخبر الذي بعده؛ فبعد ثنتي عشرة آية مُصَدَّرة بـ﴿ إِذَا ﴾ يأتي الجواب: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير:١٤].

وفيه تخويف؛ لأنه يسرد مجموعة من الحوادث العظيمة الهائلة بسرعة ولكن بتفصيل، وكأنها مشاهد متلاحقة كل واحد منها يستقل بإطاره ثم يمضي ليلحقه ما بعده.

ويُرْوَى أن أبا الوفاء بن عَقِيل رَحِمَهُ اللهُ كان في مجلس، وقُرِئت هذه السورة، فقال بعض الحاضرين: يا سيدي، هَبْ أنه أَنشر الموتى للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلِمَ هدَمَ الأبنيةَ وسيَّر الجبالَ ودكَّ الأرضَ وفطَرَ السماءَ ونثَرَ النجومَ وكوَّر الشمسَ؟

فذكر له أن ذلك لعدة معان:

١ - أنه بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها؛ لانتقال الساكن منها.

٢- في ذلك تكذيب لأهل الإلحاد والزنادقة، وفضحهم وتكذيبهم؛ بهدم آلهتهم ونثر معبوداتهم ومحوها.

٣- في ذلك إظهار أن العالم مربوب محدث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء،

تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم[1].

٤ - في ذلك بيان لعزة الله وقهره وغلبته.

تقديم الاسم على الفعل في الآية:

قدم السياق الاسم «الشمس .. النجوم...» على الفعل «كورت.. انكدرت..»؛ لأن الشمس والنجوم والجبال موجودة ويراها الناس، ومستقرة في الأذهان، فإذا قال لك قائل: «الشمس» تخيَّلت صورة الشمس وهي في كبد السماء تلقائيًّا، وكذلك إذا قال لك: «النجوم» تخيَّلت هذه القبة الزرقاء، وتخيَّلت نجومها تتلألأ وتضيء، فيكون الخبر واقعًا على أمر حاضر في الأذهان، يسرع الخيال إلى تصوره وتصويره، فيكون أقوى في التأثير، حيث جعل الاسم المُسْنَد إليه أولًا، ثم بيَّن ما يطرأ عليه من الفعل، وتغيير صورته البهيَّة الجميلة.

* ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١]:

أي: ذهب ضوؤها فأظلمت، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

ويحتمل أن يكون المعنى: توقفها، وعدم جريانها مع ذهاب ضوئها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة:٩] وإنما جُمِعَا، لاختلال نظام جريانهما.

ويُحْتَمَل أن يكون المعنى: رُمِيَت وأُلْقِيَت، كما يقال: إن فلانًا صارع فلانًا فكوَّره. يعني: أسقطه أرضًا.

وكل هذه المعاني واردة وتحتملها الآية، فهي تعني أن الشمس تُظْلِم ويذهب ضوؤها وتنطفئ، وتتوقف عن حركتها المعتادة وطلوعها وغروبها، وتسقط.

لكن لا يلزم أن تقع هذه الحوادث كلها دفعة واحدة، بل تقع على التوالي مرة

---

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤).

بعد أخرى[1].

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢]:

﴿ٱلنُّجُومُ﴾ معروفة، وانكدارها هو ذهاب ضوئها.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢]، وعلى هذا فإن من معاني الآية: انتثارها وتفرُّقها، فعندما يحصل انهيار النظام الكوني المعهود تظلم النجوم وتسودُّ وتتساقط، وربما تهوي في الفضاء، ويضرب بعضها بعضًا، ويحطِّم بعضها بعضًا، أو تسقط في الأرض، أو في البحر، أو في ما شاء الله.

* ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]:

و﴿ٱلْجِبَالُ﴾ راسخة، حتى صارت مثلًا ورمزًا للقوة والثبات، ومع ذلك تُسيَّر: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، وجاء وصف هذا المشهد في آيات أخرى كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج:٩]، وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥].

تصبح مثل القطن في خِفَّته، وكالسحاب في مروره، ثم تُدَكُّ وتزول، وتصبح الأرض بعد ذلك ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٦-١٠٧]، ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، كما مر في «سورة عم»: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠].

* ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير:٤]:

أكثر المفسرين على أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ هي: النوق الحوامل؛ لأن الناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تُسَمَّى: «عُشَراء» حتى تلد، والنوق كانت من أنفس أموال العرب.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٤٦).

ويحتمل أن ﴿ ٱلْعِشَارُ ﴾ هي: الأرض أو الديار التي تُعشَّر، أي: يُؤْخَذ منها الخراج، فالأرض الثمينة النفيسة لدى أصحابها تُهمل وتُتْرَك وتتعطَّل، وهذا لا يكون إلا لوقوع أهوال من علامات الساعة في الدنيا[1].

و﴿ عُطِّلَتْ ﴾: أي: تُرِكَت، فلا أحد يهتمُّ بها، ولا يركبها، ولا يقتنيها، ولا يحلبها، ولا يعتني بها؛ لأن الناس مشغولون بما هو أعظم.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير:٥]:

﴿ ٱلْوُحُوشُ ﴾ معروفة، وهي الحيوانات المتوحِّشة، و﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي: جُمِعت، وهذا أحسن وأصحُّ ما قيل، وهو أكثر ما يَرِدُ في القرآن في معنى الحشر، منها قوله تعالى: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ [النازعات:٢٣]. يعني: جمع قومه، ونادى فيهم[2].

ومنها: قوله: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٧]، يعني: جمعناهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٩]، يعني: مجموعة.

وقوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: اجمعوا.

فالحشر بمعنى الجمع هو الأقرب في هذه الآية، ولا يمنع أن يكون جمعها هنا لإهلاكها، يعني: جُمِعَت ثم أُهْلِكَت؛ لأن السياق قبلها وبعدها لا يزال في وصف زوال الدنيا وقيام الساعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ستٌّ في الدنيا...» وذكرهن، وقد تقدم.

أما لو كان السياق عن الآخرة ويوم القيامة، فيكون معنى ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي: بُعِثَت، ليُقْتَصَّ لبعضها من بعض، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء[3]، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩).

(٢) وهو قول قتادة. ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣١).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٨٢).

يقال لها: «كوني ترابًا»[1].

وقد يكون جمع الوحوش بسبب الخراب الذي سيلحق الحياة البشرية، فترتعد له الوحوش الضواري ويقترب بعضها من بعض، وقد ورد عن مجاهد -ورُوي مرفوعًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤]، يعني: «حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيُسْلِم له كلُّ يهودي ونصراني، وكلُّ صاحبِ مِلَّة، وتأمنُ الشاةُ الذئب..»[2].

* ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦]:

وجاء في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:٣]. ولا مانع من إرادة المعنيين، ففي قوله تعالى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ يكون تفجيرها بإعادتها إلى عناصرها الأولية، وإحداث الانفجار، ومِن ثَمَّ تتوقَّد وتخرج منها النار، وهنا قال: ﴿سُجِّرَتْ﴾، والتسجير هو من: سجَّرت التنور، يعني: أوقدته. ويحتمل المعنى: أن تُفْتَح البحار بعضها على بعض، ثم تفجَّر وتكون لهبًا ونارًا.

فهذه ست آيات تتعلَّق أخبارها بالدنيا، وهي علامات على يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

ثم انتقل السياق بعد ذلك إلى ذكر آيات أخرى تتعلق بالدار الآخرة، بعد بَعْث الناس من قبورهم، ورؤيتهم لمشاهد الآخرة عيانًا أمام أبصارهم.

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]:

في تفسيرها ثلاثة أقوال:

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ» عند قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ:٤٠].

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٠٤)، و«أشراط الساعة» لعبد الملك بن حبيب (٤/ ١٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٨٨)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٠٨)، و«تاريخ دمشق» (٤٧/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٢٨).

أشهرها: أن المقصود: حشرُ كلٍّ إلى نظيره، فيُحْشَر الأخيار مع الأخيار، والأشرار مع الأشرار.

وهذه آية تدل على أهمية الصحبة الصالحة؛ لأن الإنسان يُحْشَر مع قرنائه وأَخِلَّائه، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: نظراءهم[١]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، فالأشرار يُحْشَرون معًا، ولكنهم متباغضون، والأخيار يُحْشَرون معًا متحابِّين متآلِفين حتى في عرصات القيامة، وهذه من بركة الأخوة والمحبة في الله، فهي لا تنقطع بالموت ولا بغيره.

وهذا القول منسوب لعمر ﷺ، واختاره الطبري، وابن كثير، وعليه أكثر المفسرين[٢].

الثاني: إعادة الأرواح إلى أجسادها[٣]، وهو معنًى صحيح، ويؤيده أن ذلك بداية البعث وأوله، وما بعده تبع له مما جاء في سياق السورة.

الثالث: هو قرن النفوس بأعمالها. قاله الزَّجَّاج وغيره[٤]، فكأنه حكاية عن إيتاء الإنسان كتابه بيمينه أو شماله.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٣/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤١-١٤٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٥، ٥١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٩)، (٨/ ٣٣٢)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٦١)، و«فتح الباري» (٦/ ٦٩٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٥)، (١٥/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٤)، و«معجم ابن المقرئ» (٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

(٤) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

* ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ [التكوير:٨]:

بعدما قام الناس أحياءً، وزُوِّجَت الأجساد بأرواحها، وحُشِرَ الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، ينتظر السامع عما سيقع بعد ذلك، فيُفاجأ بأول ما يطرق سمعه بعد وهو مشهد الموءودة تُسأل: بأي ذنب قتلت، مع أنه قد ورد في القرآن الكريم أن الناس يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله، وعما كانوا يعملون، وماذا أجابوا المرسلين، وعن النعيم، والسورة مكية متقدمة النزول، وقد تضمَّنت تقريعًا للمشركين على الفعلة الشنعاء.

و﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾: الجارية الوئيدة، وقد كان القليل من قبائل العرب إذا قاربت المرأة الحامل عندهم أن تضع حملها وضعوها على شفير حفرة، فإن كان غلامًا أخذوه، وإن كانت جارية وضعوها في الحفرة، وواروها بالتراب!

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، يعني: هل يبقيها حيَّة مع الهوان أو يدفنها؟

وقد رُوي أن قيس بن عاصم المِنْقَري -وهو مَن هو في شرفه ومجده وكرمه- وأد عشرًا من البنات[1]؛ ولذلك كان الفرزدق -وهو تميمي- يفخر بجدِّه صعصعة ابن ناجية الذي يقال: إنه أحيا أكثر من أربعمائة وئيدة، وكان إذا أراد والدها أن يئدها، قال له: أنا أكفلها. ويعطيه ناقتين، ثم يتركها حيَّة؛ فكان الفرزدق يثني عليه بقوله:

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٦).

ومنَّا الذي مَنعَ الوائِداتِ وأَحيَا الوئيدَ فلمْ يوأَدِ[1]

ويُروى أن عمر رضي الله عنه وأد إحدى بناته وكانت تنفض التراب عن لحيته، وأنه كان يروي قصته بعد الإسلام ويبكي، وهي قصة موضوعة لا تصح[2].

وهذه العادة كانت موجودة في بعض قبائل العرب، وعند كثير من أمم الأرض، كالصينيين والهنود وغيرهم، ولا تزال بعض الأمم تمارِس شيئًا من الوأد الظاهر أو الوأد الخفي، منها التحكم في المواليد واختيار الذكور على الإناث، ففي كوريا كان يولد في أوائل التسعينات من القرن العشرين (١٢٢) صبيًّا مقابل كل (١٠٠) بنت، كما بلغت في الصين الشعبية (١١٧) صبيًّا لكل (١٠٠) بنت، وأدى هذا إلى نقص البنات في آسيا، وبحلول العقد الثاني من القرن (٢١) ستواجه الصين حسب التقديرات وضعًا لن يجد فيه (خُمس) السكان الذكور في سن الزواج عرائس لهم! مما يترتب عليه نزوع الشباب إلى الجريمة، علمًا أن النسبة الطبيعية هي (١٠٥) فتى مقابل كل (١٠٠) بنت[3].

ومن ذلك عمليات التحويل الجنسية المتبادلة لأسباب شتى، مما يجور على الأنثى في الحالين، ويبخسها حقها وخصوصيتها.

ومن ذلك تجاهل الفروق الجوهرية بين الذكر والأنثى، وقد أظهرت دراسات علمية وجود فروق ثابتة، فالأنثى تملك قدرات لفظية أكثر من الذكر، وتتفوق عادة في القدرات البصرية، بينما يملك الولد قدرات رياضية، وتكون عدوانية الذكور أكثر بكثير، ولعب الأولاد بدني أكثر من البنات، وهم أكثر تنافسية جماعية، وخطاب البنات يركز أكثر على العلاقات الأسرية.

---

(١) ينظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٧)، و«منتهى الطلب» (ص ٢٢٥، ٢٢٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٨٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٥١٩)، و«الإصابة» (٣/ ٤٣٠).

(٢) ينظر: «دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر» (ص ١١١-١١٢).

(٣) ينظر: كتاب «مستقبلنا بعد البشر» لفوكويا ما.

هذا فضلًا عن الفروق الجسدية، والتي كثيرًا ما تجور عليها طبيعة الأعمال التي تسند إلى المرأة، أو نوع التربية أو تركيز الإعلام.

أما تسليع المرأة وتوظيف جسدها في الإثارة والتشويق والاستهلاك، فقد أصبح فنًّا تقوم عليه دوائر اقتصادية ضخمة، وتسخَّر له جهود وإمكانات، والله المستعان.

وفي العالم الإسلامي طرف من ذلك كله، فضلًا عن التبرم بولادة الأنثى، واعتبارها عارًا وعيبًا في بعض المجتمعات، والاستحياء من النطق باسمها، وحرمانها من حقوقها المشروعة، حتى من الميراث أحيانًا، ومن حق اختيار الزوج، وحق الدراسة والعمل المباح، والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام حتى استشيرت النساء في من يلي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه!

وهنا سؤال: لماذا تُسأل الموءودة، مع أن السؤال في حقيقته موجَّه لوائدها، وهو سؤال يرد في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]:

١- فذلك أنه في يوم القيامة ينطق مَن لم يكن ينطق، ويُبِيْن مَن لم يكن يُبِين، ويتكلم كل أحد بحجته، فالمظلومون في الدنيا من الضعفاء والفقراء والنساء والمستضعفين المحرومين من حقوقهم يمكَّن لهم يوم القيامة من البوح بشكواهم والمطالبة بالاقتصاص والشكوى إلى الله عز وجل، فهي لما سُئلت، تجيب: إنها قُتِلَت بغير ذنب.

٢- أن سؤال الموءودة توبيخ وتبكيت لوائدها، والظالم قد يتمادى في الغي والاستبداد والطغيان، ويزين له عقله وبطانته الفاسدة كثيرًا مما يعمل، فلا يلتفت ولا يتوقف، ثم يأذن الله بانكشافه وتأنيب ضميره بما يسمعه من شكاية مظلوميه، وهكذا مجرد كون الموءودة يوم القيامة تُسأل وتُعطى حق السؤال وحق الجواب، وتعترض

وتحتج، وتشتكي إلى الله، فهذا تبكيت وإيلام للوائد، فضلًا عن أنه يُوحِي بمجيء الحساب.

والوائد غالبًا هو الأب أو مَن يقوم مقامه، وفي هذا عبرة، فالله تعالى ينتقم يوم القيامة للولد من أبيه، فينتقم للموءودة من وائدها، وهو أبوها، ويعاقبه على ذلك بالنار والنكال الشديد، وهذا دليل على ثقل المسؤولية، وأنها لا تعني إطلاق اليد، وإنما تعني التبعة والمحاسبة والسؤال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]، ولذلك يكون أصحاب المسؤوليات أطول وقوفًا، وأعظم سؤالًا يوم القيامة.

* ﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾ [التكوير:٩]:

فيه تقبيح لفعل الوائد؛ فإن هذه الموءودة قُتِلَت وهي صغيرة، فأيُّ ذنب قد جَنَتْهُ حتى تُقْتَل؟! وهو تجريد لهذه الفعلة من أي مسوِّغ، فهي فعلة شنيعة بكل حال، ويزيدها شناعة براءة مَن وقعت عليه من كل ذنب؛ لأنه ليس محلًّا لصدور الذنب منه.

٣- كما تضمنت الآية إشارة إلى مبحث مصير الأطفال يوم القيامة، وهو بحث طويل، تكلَّم فيه أهل العلم؛ كالبخاري والأشعري وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم.

أما أولاد المسلمين، فنُقِل عن الإمام أحمد الإجماع على أنهم في الجنة(١).

وأما أطفال المشركين، فقد اختُلف فيهم على أقوال، ذكرها ابن القيم في «أحكام أهل الذمَّة»(٢)، وأطال كثير من الباحثين القول فيها، وأفردوا فيها مصنفات خاصة، أحد هذه الأقوال أن أطفال المشركين ممن ماتوا دون البلوغ هم في الجنة، ونُقِل هذا

---

(١) ينظر: «المتنخب من علل الخلال» (ص ٥٣)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١٨٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤) وما بعدها.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه[1]، وابن عباس رضي الله عنهما؛ مستدلًّا بهذه الآية، ونُقِل أنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمَن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾». وهذا مذهب البخاري وابن حزم وجماعة من الفقهاء والسلف والمتكلِّمين[2].

وقيل: إنهم يختبرون في عَرَصات القيامة، وهذا ما مال إليه ابن القيم، لكن يحتاج إلى أدلة قوية ثابتة؛ لأنه خلاف الأصل الراسخ أن الاختبار في الدنيا قبل الموت وليس بعده.

والراجح أنهم في الجنة، كما في حديث الرؤية أنه ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام وحوله صبيان؛ أولاد الناس، وفيه: «وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة». فقال بعضهم : يا رسول الله ، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»[3].

* ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التكوير:١٠]:

﴿ ٱلصُّحُفُ ﴾ جمع صحيفة، وهي: الكتب، فآخذٌ كتابَه باليمين، وآخذٌ كتابَه بالشمال، فنَشْر الصحف هو: إعطاؤها لأصحابها، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٠٧٩)، ولُوَين في «حديثه» (٣٣)، وابن نصر - كما في «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٠)- والبيهقي في «القضاء والقدر» (٥٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٠٦) (١٩١٦٦)، و«أمالي الشجري» (١/ ٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤) وما بعدها، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

ومن معاني النشر أيضًا: فتح الصحائف، فهي تُفَرَّق على أصحابها، منشورة؛ أي: مفتوحة.

* ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴾ [التكوير:١١]:

وهذا في الآخرة، وليس في الدنيا، فكَشْطُ السماء مختلف عما جرى لها قبل ذلك مما ورد أنها تتشقَّق وتتمزَّق وتُفتَّح فتكون أبوابًا لنزول الملائكة، وهذه هي حالها في آخر الدنيا، أما كَشْطُ السماء هنا فمُوجِب السياق أنه يكون يوم القيامة بعد البعث.

و«الكَشْط» هو: الإزالة[1]، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

* ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴾ [التكوير:١٢]:

فيه إشارة إلى أن النار مخلوقة الآن، وهو ظاهر النصوص الشرعية، كما يقول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[2].

ولكن يزاد يوم القيامة تسعير الجحيم.

* ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴾ [التكوير:١٣]:

عَطَف الجنة على النار؛ ليقارن المكلَّف بينهما، والإزلاف هو: التقريب، وسُمِّيَت جَمْعٌ: مزدلفةَ؛ لأنه يقترب إليها الحجاج، والزُّلْفَى هي: القربى، وازدلف، يعني: تقرَّب، كما قال سبحانه: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق:٣١]، أي: قرِّبت.

وفي هذا التقريب لأهلها إكرامٌ لهم، فكأنها هي التي تأتيهم أو تقترب منهم؛ إشادة بأعمالهم الصالحة وتقواهم التي تقرَّبوا بها إلى ربهم.

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٥١).

* ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير:١٤]:

أي: علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها، وقد جاء في بعض الآيات حكاية عن الكافرين أنهم عند أول وهلة من البعث لا يستوعبون حدث البعث العظيم فيتساءلون: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾، فهم بين مصدِّق ومكذِّب، فيبهتهم الجواب: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢]، وإذا بالمشاهد العظيمة تتوالى عليهم، كل مشهد أشد من سابقه.

فإذا حصل هذا: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾، أي: ما في يدها الآن، وفي سورة الانفطار: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار:٥]، وكل سياق له ما يناسبه، والمعنى هنا: علمت ما أحضرت في كتابها؛ لأنه قال: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التكوير:١٠]، فالكتاب معها حاضر، فترى النفس ما في كتابها، سواء كان خيرًا أو شرًّا.

* وبعد ذلك انتقلت السياقات في الآية إلى موضوع آخر، وقَسَم رباني عجيب مهيب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٥]. يخنس؛ أي: يختفي، ومنه قيل للشيطان: الوسواس الخنَّاس؛ لأنه يوسوس، فإذا استعاذ منه الإنسان هرب، فـ«الخُنَّس» هي الأشياء التي تختفي.

* وفسرها هنا بـ ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٦]؛ أي: التي تجري فتدخل في الكِناس وهو مكان الاختفاء، والعرب تسمي بيت الظبي: كِناسًا؛ لأن الظبي يختفي فيه، ومنه الكَنِيْسة أيضًا.

ويحتمل أن يكون المقصود بها: النجوم التي تظهر بالليل وتختفي في النهار[1]. قال بعض أهل العلم: إنها نجوم خمسة، وهي: عطارد، والمريخ، والمشتري، والزهرة، وزحل.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

وقال بعض المفسرين: إن المقصود: النجوم كلها، وشبَّهها بالظباء؛ لأن النجم في خِفَّته وإشراقه وحركته يُشبه بالظبي، وهذا تشبيه حيوي بديع.

وقال بعضهم: إن المراد بالخنس: الظباء.

وقيل: بقر الوحش التي تشبه الظباء.

وقيل: المقصود الملائكة[1]. والأقرب القول الأول، وهو أن المقصود بها: النجوم، وهو أليق بالسياق، والليل والصبح[2].

* ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ [التكوير:١٧]:

﴿ عَسۡعَسَ ﴾ تحتمل معنى أقبل، ومعنى أدبر، والأظهر: أن المعنى شامل للصورتين؛ إقبال الليل وإدباره، فكلاهما يتحقق بالتدرج، وكأن عسعس على هذا من الأضداد.

* ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٨]:

والمقصود بتنفس الصبح: شروقه، والتعبير بـ«التنفس» هنا في غاية الروعة، وهو يُوحي بالحياة والإشراق والتجدُّد والتغيير، وأن كل صبح يمرُّ عليك ينبغي أن يُحيي فيك يومًا جديدًا، فتتزود فيه بالطاعة، فهو على عملك شهيد، وإذا طُوِيَت صفحته فإنه لا يعود إلى قيام الساعة، وأن يبعث فيك الأمل والتفاؤل والثقة بها عند الله، والرغبة المتجدِّدة في النجاح والإنجاز وتخطِّي الصعاب، فما ليس ممكنًا بالأمس هو اليوم مقدور ومتاح.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إلَّا يتكلَّمُ يقولُ: يا أيها

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦، ٢١٧)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣٧)، «الدر المنثور» (١٥/ ٢٦٨).

الناسُ، إني يومٌ جديدٌ، وأنا على مَن يعملُ فيَّ شَهِيدٌ، وإني لو غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»(١).

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [التكوير:١٩]:

هذا جواب القسم، والمقصود القرآن، ولا يعني أن الرسول تقوَّله من تلقاء نفسه، ولكنه الْمُبَلِّغ به من ربه، ووَصْفُه بأنه ﴿رَسُولٖ﴾ يوحي بهذا، كما هو ظاهر.

والمقصود بهذا الرسول عند الجمهور جبريل عليه السلام(٢)، وصفه الله تعالى بستٍّ صفات كلها جليلة:

فأول وصف: ﴿رَسُولٖ﴾، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فالرسل يكونون من الملائكة إلى الناس، ويكونون من الناس كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الثاني: ﴿كَرِيمٖ﴾، والكرم: الشرف والفضيلة، ويكفي في كرمه أنه مبلِّغُ وحي ربِّنا سبحانه وتعالى إلى أفضل خلقه، وهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومكانته عند الملائكة عظيمة.

* ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:٢٠]:

الثالث: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ويكفي في قوته: أن الله سبحانه وتعالى لما أمره أن يحمل قرى قوم لوط، حملهم جميعًا على جناحه حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٤)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٢٢)، وابن الجوزي في «حفظ العمر» (ص٣٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٠٨)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٦) من قول عبد الرحمن ابن زُبيد اليَامي نحوه.

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٣)، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٨).

ديكتهم، ثم قلبها[1].

وأعظم من ذلك تحمُّله تبعات الوحي والتلقِّي عن رب العزة وحمل الرسالة للنبي البشريِّ.

الرابع: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: صاحب مكانة عند الله، وأي مكانة أعظم من أن يكون رسول ربه إلى الرسل والأنبياء والمؤتمن على وحيه؟

* ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١]:

الخامس: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ و﴿ثَمَّ﴾ ظرف، ومعناها: هناك، فهو مطاع عند الملائكة والملأ الأعلى، بمثابة الرئيس عليهم، وله عليهم الطاعة.

السادس: ﴿أَمِينٍ﴾ يعني: مأمون فيما كُلِّف به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخل بشيء منه. فهذه الصفات الست لجبريل عليه السلام.

* ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]:

والمقصود هنا محمد ﷺ، ووصفه هنا بـ ﴿صَاحِبُكُم﴾ على سبيل التذكير لهم بأنه لم يَفِدْ إليهم من غيرهم غريبًا لا يعرفون نسبه وسيرته، بل قد وُلِدَ ونشأ فيهم، وعرفوا أصله ونسبه وسيرته وخُلُقَه، وهذا ردٌّ على ما كانوا يَدَّعونه من أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كأن السياق هنا يقول: لا حاجة إلى مزيد من التفصيل في شأن محمد ﷺ، فأنتم تعرفونه، وهو ﴿صَاحِبُكُم﴾.

وفيه تحفيز للإيمان؛ لأن اختيار رسول منهم هو رفعة للجنس كله، وهو ﴿صَاحِبُكُم﴾ عزه عزكم ونصره نصركم وأنتم أسعد الناس به.

---

(١) ينظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (ص ٩٩-١٠٣)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٠٤-٣٠٦)، و«ذم اللواط» للآجري (ص ٣٨)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٢/ ٧٩٨)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٥٧)، و«البداية والنهاية» (١/ ٩٩).

* ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير:٢٣]:

أي: الأفق البيِّن الواضح، فقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ ﷺ في صورته التي خُلق عليها، وله ستمائة جناح، قد سدَّ ما بين السماء والأرض، وهذه هي الرؤية الأولى[١]، وكانت بالبطحاء، ثم رآه ﷺ بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

* ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير:٢٤]:

و«الضنين» هو البخيل، وهناك قراءة سبعية (بظنين) بالظاء[٢]، والمقصود به المُتَّهم، أي: لم يكن متهمًا بسوء[٣].

* ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير:٢٥]:

حيث كان الكفار يدَّعون أن القرآن من إلقاء الشيطان، كما يُلْقِي الشيطان على السَّحرة والكهنة والعرَّافين وغيرهم، فرد الله عليهم ذلك[٤].

* ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير:٢٦]:

أي: قد أُغْلِقت الأبواب أمامكم، وليس لكم حجة أبدًا، فهذا مُنْزِلُ الوحي وهو الله، وهذا ناقله وهو جبريل ﷺ، وهذا مُتَلَقِّيه وهو محمد ﷺ.

وكان مِن مألوف كلام العرب قولهم لمَن عمل سوءًا أو قبيحًا يُلْمَز به: أين يُذهب بك؟ يعني: أين ذهب عقلك؟ فجاء القرآن بأسلوب مبتكَر، لم يكن موجودًا

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٩)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٣)، و«حجة القراءات» (ص ٨٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٧).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢).

عند العرب، ثم استعملوه، وجرى عندهم مجرى المثل، وهو أقوى من قولهم: أي يُذْهَب بك؟ لأنه حين يقال: أين يُذهَب بك؟ كأنه يُعْطَى عذرًا بأنه ذُهب به بغير اختياره وإرادته، أما صيغة أين تذهب؟ فهي تحمِّله المسؤولية، وأنه هو الذي تعمَّد صرف وجهه عن الحق، والإعراض عن آياته.

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٧]:

فهو ليس سوى ذكر، ودعوة، وإصلاح، ووعظ، وبيان، وهدًى، ليس للعرب بخاصة، بل للعالمين كافَّة، بإنسهم وجِنِّهم، فهذه هي عالمية الإسلام، تأتي مؤكِّدة في أوائل السور المكية، وهي لفتة إلى دعاة الإسلام وأبنائه أن يأخذوا بعالمية الرسالة في الدعوة، وأن يطبِّقوه في أقصى درجات التمدن والحضارة، كما كانوا يطبِّقونه في أدنى درجات البساطة والضعف والتخلف، وأن يستوعبوا النماذج البشرية المختلفة وينقوا الرسالة من الإضافات المحلية الخاصة حين يريدون عرضه على العالمين، بل يقدموه بأصوله وقواعده الربانية وخياراته المتنوعة في التطبيق وسَعته وشموليته في احتواء الموروث الإنساني وتنقيته والتعامل معه.

* ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير:٢٨]:

يعني: هو مِن حيث تنزيله للعالمين هداية للناس كلِّهم، فليس دينًا إقليميًّا أو عنصريًّا، أما قبول الناس وعدم قبولهم فهو شأن آخر، فمِن الناس مَن يشاء الاستقامة، فيستقيم، فيكون القرآن ذكرًا عمليًّا له، ومنهم مَن لا يريد ذلك، وهو المسؤول المحاسب على اختياره.

وفي الآية الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد الخير هداه الله، ويَسَّر له أسبابه، ومهما تكن العقبات في النفس أو في المجتمع فإن الإرادة الصادقة تذلِّلها بإذن الله، وقد جاء في الحديث القدسي: «ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا

تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلْتُ إليه أهرولُ»[1].

* ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٩]:

فللإنسان مشيئته الخاصة به، وللرب المشيئة المطلقة التامَّة، وكثير من الناس يدخلون في جدال في القدر، هل العبد مُسَيَّر أم مخيَّر، وإذا كان الله قد قدَّر كلَّ شيء فلِمَ العملُ إذًا؟

وهو جدل لا ينتهي، على أن الإنسان يعرف بفطرته الضرورية المحسوسة أن له إرادة، فإذا تهدَّده خطر فرَّ منه بكل ما أوتي من قوة، وثَمَّةَ فرق بين إنسان يريد أن يصنع شيئًا فيصنعه، وبين إنسان يُجْبَر على شيء، ويُقْهَر عليه قهرًا، وبين إنسان يريد النزول فيأخذ الدرج، خطوة خطوة حتى يصل، وآخر يتم حمله قسرًا والرمي به أرضًا، وهذا القدر المدرك لعامة العقلاء يكفي أن يكون مناط التكليف والمحاسبة.

ثم مَن الذي يظن أن مشيئة الله سبحانه مشيئة عشوائية، فيريد لهذا الهدى، ولهذا الضلال، ولهذا الخير، ولهذا الشرّ، بمعزل عن إرادتهم ورغبتهم الذاتية!

فالله تعالى حكيم، وقد علم من الأزل أنَّ مِن خلقه المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، وأن هذا من أهل الهداية، وهذا من أهل الشقاوة، فأراد الهداية لقوم والضلال لقوم، وهو يعلم ما أرادوه لأنفسهم، فهو قد علم وأراد، فلا يُظَن أن إنسانًا كان يريد الهداية، ولكن الله عوَّق مسيرته، ولم يُرِدْ له الهداية، أو أن آخر كان لا يريد الهداية، لكن أُكْرِه عليها جبرًا من الله، وإن كان الأمر الثاني ممكنًا من باب الفضل والرحمة؛ فالله تعالى قد يتدارك عبده ويرحمه فيهديه، لكن أن يريد الإنسان الهداية فلا تتحقق له؛ لأن الله لا يريدها له، فهذا لا يكون في حقيقة الأمر؛ لأن الله تعالى حكيم في أعماله، عادل في أحكامه، سبحانه وبحمده.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سورة الانفطار

سورة الانفطار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾
ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ
﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ
﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ
يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١-١٩].

* تسمية السورة:

١- الموجود في غالب المصاحف وكتب التفسير: «**سورة الانفطار**»[١]، وهو مصدر من ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ كما مضى في «سورة التكوير».

٢- «**سورة** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»، وهو الذي ورد في السنة، واعتمده البخاري في «صحيحه»، وبعض كتب التفسير[٢].

وفي «السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**مَن سرَّه أن ينظر إلى يومِ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[٣]. وهو من تسمية السورة بإحدى آياتها، وقد يتسامح بعضهم فيُسَمِّيها: «**سورة انْفَطَرَتْ**» اختصارًا[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦١١)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٧-١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٠٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

* عدد آياتها: تسع عشرة آية باتفاق[1].

* **وهي مكية إجماعًا**[2].

* ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١]:

﴿إِذَا﴾ ظرف للمستقبل، وموضوع السورة عن أهوال يوم القيامة والساعة وما يجري فيها، وفي السورة تسلسل عجيب، فهي تبدأ بانفطار السماء، والمقصود بالسماء- في أبسط وأسهل معانيها- هذه القبة الزرقاء التي نشاهدها فوقنا، وإلا فإن لفظ السماء في اللغة يُطلَق على كل ما علا وارتفع؛ ولذلك العرب يُسمُّون السحاب: سماء[3].

هذه القبة التي نرفع أبصارنا فنراها في أجمل صورة، ها هي تنفطر وتنشق، والله تعالى خاطبنا بمقتضى ما تراه أبصارنا؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣-٤]، يعني: لو كَرَّرْت النظر إلى السماء التي فوقك مرة بعد أخرى، فلن ترى فيها صدوعًا ولا فطورًا في الدنيا، وإنما ترى منظرًا جميلًا مُدْهِشًا عظيمًا في زرقة تحاكي زرقة البحر.

ولكن هذه السماء التي نراها بهذه الصفة تتغير حالها يوم القيامة، وتتفطَّر وتتشقَّق، فهي لا تكون يوم القيامة كما نراها الآن، وإنما تبدو متهتّكة متمزِّقة، وقد يكون هذا لنزول الملائكة، وقد يكون لانفطارها بالغمام، وقد يكون بشيء آخر، والقرآن الكريم يخاطب كل الناس، لا يخاطب الفلاسفة وحدهم، ولا علماء الفلك،

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٩)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠٣).

ولا المتخصِّصين؛ ويفهمه القارئ العادي كما يفهمه المتخصِّص.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢]:

و﴿ ٱلْكَوَاكِبُ ﴾ هي النجوم، وهي ذات علاقة بالسماء؛ فقد جعلها زينةً لها، وفي ذلك اليوم ينخرم نظامها ويتناثر عقدها.

و«الانتثار» هو وقوع الأشياء على الأرض على غير انتظام، لكن إذا كان على غير الأرض، فهل يُسمَّى نثرًا؟

هذا وارد على سبيل المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، والهباء المنثور ليس على الأرض، وإنما هو في الهواء.

فيكون معنى النثر: التفريق غير المُرتَّب، سواءً كان على الأرض أو على غيرها.

والمقصود خروج الكواكب عن مداراتها؛ لأن الله تعالى جعل لها نظامًا دقيقًا، وفي ذلك اليوم تضطرب، وتخرج عن سياقها المعتاد، وتَسْبَح في الفضاء على غير مسارها، ويترتَّب على ذلك تضاربها وتصادمها، وسقوطها على الأرض، كما تفيده الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:٢].

بدأ السياق بالسماء؛ لأنه عادة ما يكون الهدم من أعلى، فإذا أراد إنسان أن يهدم بيتًا أو بناءً بدأ بهدم أعلاه، وهذا فيما إذا كان الهدم مقصودًا، أما الهدم الذي يكون بغير اختيار، بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزلازل، فليس له نظام، وهكذا جاء الأمر هاهنا مرتَّبًا من الأعلى؛ لأنه مقصود، فأول ما بدأ بذكر السقف، وهو السماء وما يتعلق بها وهي النجوم، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحار.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار:٣]:

قال بعضهم: تفجير البحار أن يُفْتَح بعضها على بعض، وتزول الحدود والبرازخ

بينها، فيتصل بعضها ببعض وتصبح بحرًا واحدًا(١).

وقيل: انفجارها أن يخرج الماء على اليابسة(٢).

وقيل: انفجارها: أن تيبس ويذهب ماؤها(٣).

وثمة معنًى رابع قَلَّ مَن ذَكَرَه، وهو أن المقصود أن تنفجر وتلتهب نارًا.

ويدل على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، فإن التسجير هو الإحراق، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦].

فالماء الذي يطفئ النار يتحول يوم القيامة إلى نارٍ تتلهَّب وتتلظَّى، وهذا اختيار إمام المفسِّرين مجاهد، ونُقِل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سأل يهوديًّا: أين جهنم؟ فقال اليهودي: البحرُ. فقال علي ﷺ: والله ما أُراه إلا صادقًا، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦](٤).

* ثم انتقل إلى اليابسة: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:٤]، والقبور في اليابسة، وكأن هذا من تسوية الأرض، فالإشارة إلى بعثرة القبور تنبيه على مجموعة حوادث تقع على الأرض، منها قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:١-٢].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٧١).

(٣) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٣).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، (١٩/ ٢٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٠).

فالأرض تُخْرِج ما فيها، ومن ذلك: أن تُخْرِج ما في باطنها من الناس، وهكذا يسوِّي الله تعالى الأرض، فلا يكون فيها مرتفَع ولا منخفَض وتتحول إلى أرض مستوية، بعدما تُخْرِج ما فيها من الكنوز والأموات وغير ذلك.

﴿ بُعْثِرَتْ ﴾ أي: أُثيرت، وفُتحت، وأُخْرِج ما فيها. فكأنك تشاهد الأرض وهي كلها أو جُلُّها قبور، كما يقول أبو العلاء المَعَرِّي:

صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويلِ الأزمانِ والآبادِ(١)

والحوادث مختصَرة هنا، في حين أنها قد فُصِّلت في سورة: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، وقد ختمها الله سبحانه هنا ببعثرة القبور، وأن هذا الحدث ليس عشوائيًّا أو عاديًّا، وإنما هو اليوم الموعود الْمُرتَّب المقصود، المضروب للجزاء والحساب.

* ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار:٥]:

أي: إذا وقعت تلك الحوادث العظيمة، حينئذ تعلم كلُّ نفس ما عملت من خير أو شرٍّ، وأهل اللغة والأصول يقولون: إن النكرة في سياق النفي تفيد العموم. فإذا قلت: لم يأتِ أحد، فهو نفي مُطلَق، أما إذا كانت في سياق الإثبات كما هنا: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾، فهي لا تدل على العموم بذاتها إلا بالسياق، فالسياق هنا أبلغُ مِن كل كلام، فقوله هنا: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾، أبلغ مِن أن يقول: علمت كلُّ نفس ما قدَّمت وأخَّرت؛ لأنه حين يقال: (كل) ينتقل الحديث للعامَّة، والعادة في الحديث العامِّ أن كل واحد يظن أنه غير مقصود به؛ لكن إذا قال: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ فكل واحد يشعر أنه هو

(١) ينظر: «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٦٤)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٨٨٠)، و«إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٨٢)، و«مسالك الأبصار» (١٥/ ٤٤٦).

المقصود. وهذا من جليل المعاني، وبليغ المواعظ؛ لأن من البلاء أن يشعر كل أحد أن الخطاب موجَّه إلى غيره، فلا يستفيد منه، بخلاف ما لو أدرك كل إنسان أنه هو المخاطب دون غيره، أو قبل غيره.

﴿ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾: هذا من الإعجاز، فهو لم يذكر ماذا قدَّمت، وماذا أخَّرت، لأنها سوف تعلم حينئذ ماذا قدَّمت من الأعمال، وماذا أخرت، تعلم العمل ذاته، فتذكره إن كانت ناسية، وتحيط بها لم تحط به من قبل، وتعلم ثوابه وجزاءه وقيمته.

«تعلم ما قدمت» أي: ما عملت، و«ما أخرت» فلم تعمله، بل أجَّلت وسوَّفت وما قدمت من الصالحات لنفسها، وما أخرت وما عملت من خير يقدِّمها أو شر يؤخِّرها للورثة، فإن مال الإنسان ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر.

ولا أحد يموت إلا وعنده أعمال كان ينوي أو يهم أن يعملها، وقد تكون خيرًا، فإن كانت كذلك أُجر عليها، ولكنها ليست كالأشياء التي عملها وباشرها، وكما قيل:

نروحُ ونغدو لحاجاتنا وحاجةُ مَن عاش لا تنقضي[(١)]

فالآية تحثُّ على:

- تقديم العمل الصالح.

- المبادرة، وعدم التأجيل والتسويف، وكان بعض السلف يقول: «أنذرتكم سوف».

- إيثار الآخرة، فهي خيرٌ وأبقى، وألَّا ينشغل عنها بالعاجل.

---

(١) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٢٣٠)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٩٣)، و«الكامل» للمبرد (٣/ ١٣٥)، و«المجالسة» (٨/ ٢٠) (٣٣١١)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٤٧) منسوبًا إلى الصَّلَتان العبدي.

- وترشد إلى أن التقدم هو بالعلم والعمل، وليس بالأماني والظنون، فلا ينفع المرء أن يكون مولودًا في أرض مباركة، ولا أن يكون من قبيلة أو شعب أو عائلة، حتى لو كان من قريش، أو آل بيت النبي ﷺ، أو من ذُرِّيَّته، وكل الناس أولاد أنبياء، وفي الحديث: «مَن بطَّأ به عملُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه»(١).

لا ينفع إلا العلم النافع، والعمل الصالح، سواءً كان من الأمر الأخروي، أو من الأمر الدنيوي.

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إن الأرض لا تقدِّس أحدًا، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُه»(٢).

وهذا يبيِّن أن العمل معنًى مُقَدَّس في الإسلام، و«مَن أمسى كالًّا مِن عملِ يديه أمسى مغفورًا له»(٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]:

خطاب قوة وجزالة لجنس الإنسان، الذي هو صاحب النَّفْس، وتكريس لمعنى الإنسانية، وأنها محلُّ التكليف، ومناط التشريف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، وقد جعل الأنبياء والرسل من بني آدم، وخاطب الإنسانَ مباشرة.

وأيُّ تعظيم أكبر من أن يُخاطِب اللهُ الإنسانَ، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾.

قرأ الرسول ﷺ سورة البيِّنة على أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، وقال له: «إنَّ اللهَ أمرني أن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٧٦٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٥)، واللالكائي (١٧١٨)، وابن عساكر (١/ ١٥٠).

(٣) ينظر: «المعجم الأوسط» للطبراني (٧٥٢٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٦٢٦).

أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾». قال: وسمّاني لك؟ قال: «نعم». قال: فبكى[1]، عندما ذكر رب العزة اسم أُبَيّ رضي الله عنه، كان هذا شرفًا له، لم يخطر على البال، ولو بلغ أحدَنا أن أميرًا أو وزيرًا أو عالمًا ذكره في مجلسه بذِكْرٍ حسن، استطار من الفرح، فكيف إذا علم أن ربَّ العزة قد ذكره؟!

وذِكْره سبحانه يحصل لِمَن ذكره وتوكَّل عليه، كما في الحديث القدسي: «إنْ ذَكَرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم»[2].

والقرآن ذِكْرٌ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾: أي: ما الذي جعلك تغترُّ بربِّك الكريم، وتنساه؟! أي: أغرَّك كذا، أم غرَّك كذا؟

والمقام مقام تهديد؛ وسياق أول السورة يدلُّ عليه، وهنا تودُّدٌ وتلطُّفٌ؛ إذ جاء في الآية قوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ جاء بلفظ الربوبية، ووصف الله بالكرم، ولم يقل: (بربِّك المنتقم)، أو (الجبَّار)، أو (ذي البطش الشديد)، أو (ذي العذاب الأليم)، وقد ورد عن الفُضَيل بن عياض رحمه الله أنه قال: «لو قال لي: ما غرَّك بي؟ قلتُ: غرَّني بك ستورُك المرخاةُ»[3]. أي: سترك الدائم عليَّ.

وقال آخر: لو سألنا: ما غرَّكم بي؟ لقلنا: غرَّنا كرمُك.

والعرب أحيانًا يعتبرون كرم الإنسان سببًا في جرأة أهله عليه، يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه نادى أحدَ غلمانه فتأخَّر عليه، وكان واقفًا في الباب، ثم رآه عليٌّ، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٢).

ما لك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك[1].

ومن كلام العرب: مِن كَرَمِ الرجل سوءُ خلقِ غلمانه[2].

وهذا ليس قاعدة مُطَّرِدة، لكن الناس يعرفون الكريم، فيجرؤون عليه أكثر ممن يخافون بطشَه وعقابَه، والخوف ليس هو الأولى، ولا الأول، وإنما الرجاء والحب قبل الخوف، ومما يناسب هذا السياق قول قيس بن زهير يرثي الربيع بن زياد العبسي:

تعلَّم أنَّ خيرَ الناسِ ميْتٌ ... على جفر الهباءةِ ما يريمُ

ولولا ظلمه ما زلتُ أبكي ... عليه الدهرَ ما بدت النجومُ

ولكن الفتى حمل بن بدرٍ ... بغى والبغيُ مصرعُه وخيمُ

أظنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُسْتَجْهلُ الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجالَ ومارسوني ... فمعوَجٌّ عليَّ ومستقيمُ[3]

وهل هذا السياق: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ يفضي إلى أن الإنسان يتجرَّأ على ربِّه؟

كلا، فالعاقل يزيده هذا مهابة وخجلًا، كما قال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٥٣]، ومثل قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٧٠]، ومثل قول النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا، لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون اللهَ فيغفرُ لهم»[4].

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧١٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٥)، و«فيض القدير» (١/ ١٢٨).

(٢) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٩٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص ٩٧)، و«أنساب الأشراف» (١٣/ ١٣٥)، و«العقد الفريد» (٦/ ٢٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦١)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص ١٦٤)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٣٧٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبعض الناس قرأ هذا الحديث وقال: هذا إغراء بالذنب. والحق أنه ليس إغراءً بالذنب، بل إشارة إلى ما جُبِل عليه الإنسان من الضعف والنقص والميل للشهوات، ولئلا يتحوَّل وقوعه في الخطأ إلى قنوط ويأس من رحمة الله، وفي الحديث: «إنَّ اللهَ عز وجل يبسطُ يدَه بالليلِ؛ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ؛ ليتوبَ مسيءُ الليلِ»(١).

فهو عتابٌ يحمل الإنسان على أن يستحي من الله، فيكون الحياء وازعًا يردف وازع الخوف، والمعرفة بكرم الله ولطفه ورحمته، تدفع إلى الطاعة وتَرْكِ المعصية، وتفعل ما لا يفعله الخوف.

وكذلك يُحْمَل على معنى آخر، وهو الخوف من غضب الكريم، فإذا فرَّطت ولم تصل إلى رحمته، ولا فزت برضوانه، فهلاكك مُحَقَّق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧]:

هذا من معاني الربوبية ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ولكنه تفصيل بعد إجمال، فخلق أصل المادة التي خَلَقَ منها الإنسان، وخَلَقَ منها آباءك وأجدادك، خَلَقَ التراب الذي خَلَقَ منه آدم، فأصل الخَلْق الذي هو الإيجاد من عدم هو لله تعالى خاصة.

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ ومعنى التسوية: خَلْقُ أجزاء الإنسان باستقامة وتناسُب، لا انحراف فيه، ولا قبح في أصل خِلْقته. وهذا عامٌّ في المخلوقات من إنس وحيوان... إلخ.

﴿فَعَدَلَكَ﴾، دليل على تخصيص الإنسان بمزيد نعمة، وهي خَلْقُه في أحسن تقويم وفي صورة جمال. وفي قراءة سبعيَّة: (فعدَّلك) بالتشديد(٢)، والمعنى واحد،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٢)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٢)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣٣٦-٣٣٧).

فإن العدل والتعديل في خلق الإنسان أظهر حيث قامته واستقامته ومشيه على قدميه وقيامه وقعوده وتميز صفته وشكله عن بقية الحيوان.

* ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨]:

﴿مَّا﴾ مصدرية أو صِلة، فالمقصود أن الله تعالى يركِّبك في أي صورة يشاء.

والآية تحتمل ثلاثة معانٍ:

١ - في أي صورة شاء الله تعالى ركَّبك من الصور الموجودة، فكل واحد من الناس يختلف عن الثاني، فلا تجد اثنين متفقين في كل شيء، حتى التوائم الذين يتشابهون، إذا أَطَلْتَ مُجالستهم أدركت الفروق بينهم، ولكل إنسان بصمة تختلف عن غيره، وكذلك حدقة العين، ونبرة الصوت.

فهو قد ركَّبك على صورة أشبه بآبائك، وهذا أشبه بأعمامه، وفي الشكل والطول والملامح والصوت والشعر والأصابع والصفات الظاهرة والباطنة يبدو كل إنسان مختلفًا عن غيره.

وفي الحديث أن رجلًا قال: إنَّ امرأتي ولدت غلامًا أسودَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «هل لك من إبل؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فما ألوانُها؟». قال: حمرٌ. قال ﷺ: «هل فيها من أورقَ؟». قال: إن فيها لوُرْقًا. قال ﷺ: «فأنَّى أتاها ذلك؟». قال: عسى أن يكون نزعه عرقٌ. قال ﷺ: «وهذا عسى أن يكونَ نزعَه عرقٌ»[1].

ومعنى نزعه عرق، أي: وراثة، لعلها من جدِّه الرابع أو الخامس، ولم تظهر إلا في هذا المولود الجديد.

٢ - أن الله تعالى قادر على تركيب الإنسان في صورة أخرى غير الصورة المعهودة، كصور الحيوانات التي يراها الإنسان فيستقبح شكلها أو هيئتها.

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- أن يكون المقصود شمولية الصورة، صورة الجسد، وصورة الروح والخلق، وهذا معنى جميل، ولا يتعارض مع المعنيين السابقين، قال بعض السلف: قد يكون الإنسان في صورة الحمار في بلادته، أو في صورة الخنزير في شَرَهِهِ أو ضعف غيرته، وقد يشبه طائرًا أو حيوانًا في صفة رديئة يتلبسها وينطبع بها.

فالجمال أو القبح لا ينحصر في ملامح الشكل وحُسْن الوجه.

وربما رأيت إنسانًا لأول وهلة فيعجبُك حُسْنُ مظهرِه وجمالُ ملامحه، فإذا جالستَه وخالطتَه، نفرت منه، ولذا يجدر بالباحث عن شريك أن يعتني بجمال الروح والعقل والأخلاق، فهو الذي يبقى بعد ذبول الجسد، وهو الذي يُشْعِرُك أنك تعيش مع إنسان بمعنى الإنسانية، ولست أمام تمثال من الجمال الجسدي أو الحسِّي المحض، فالجمال مطلوب، لكن بمعناه الواسع، وهذا داخل في قول النبي ﷺ: «**إن الله جميل يحبُّ الجمال**»[1]. أي: مما يقدر عليه الإنسان ويستطيع أن يكتسبه.

* ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩]:

﴿كَلَّا﴾ نفي للكلام السابق لمَّا قال: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، وقد يقول قائل: غرَّني كذا، وغرَّني كذا. فجاءت الآيات لتنفي هذا كله، وتقول: ما غرَّك إلا شيء واحد، وهو التكذيب بيوم الدين.

و«الدين» هو الجزاء والحساب، والمقصود به هنا: يوم القيامة، والدينونة أن يدان الإنسان ويُجازى بما عمل خيرًا أو شرًّا؛ ولهذا قال الأئمة: «التكذيب بيوم الدين جماع الذنوب».

وحين تتأمَّل القرآن تجد هذا واضحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧]، وقال: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فمدح الله الصالحين بالإيمان بيوم القيامة وذكره، وذمَّ الفجارَ بالتكذيب، وقال في المطففين: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴾ [المطففين:٤]، وهذا يدل على أهمية الإيمان بيوم الحساب في حسِّ المؤمن وعقيدته، وأنه لا ينبغي أن يكون صوريًّا شكليًّا، لا يحمل على طاعة، ولا يردع عن معصية.

وعندما نتعلم العلوم في مدارسنا، وكُتُبِنا، وحلقات علمنا؛ علينا أن ننظر، هل ما درسناه يزيد اليقظة والإيمان في ضمائرنا؟ هل يحيي نفوسنا ويبعث فينا الخير؟ ويَئِد فينا عوامل الشرِّ؟ أم أنها مجرد معلومات تُضاف إلى مثلها؟!

وقوله: ﴿ بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾، خطاب للمكذِّبين، لكن هل الإنسان الذي خُوطب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ هو الإنسان الكافر، أو أن الخطاب عام؟

الأقرب أن خطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ موجه لكلِّ إنسان، ثم خصَّ الله المكذِّبين بالدين بخطاب آخر.

* ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]:

﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ لفظ يدل على الاستعلاء، فهم فوقكم، ومكانتهم منكم مكانة السلطان والرَّقيب الذي له فوقية ومكانة؛ لأنه مبعوث من الله عز وجل، فقال: ﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وليس (معكم)، فهم مسؤولون عنكم، مُسَلَّطون على أعمالكم وأقوالكم بكتابتها وتدوينها.

وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الحفظة بأربعة أوصاف:

١ - الحفظ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار:١٠]، ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ [الطارق:٤]، ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام:٦١]، فهم حافظون أو حَفَظَة.

والحِفْظ شامل، ومن معانيه أن يرقب ما تقول وما تعمل فيكتبه لك أو عليك، وأن يحفظك أنت، حتى إذا حلَّ القَدَر أسلمَك إلى قَدَرِك.

٢- الكرم: فهؤلاء الملائكة كرام، وأرسلهم ربك الكريم، وهم معك وعليك، والتذكير بهذا الوصف يستدعي أن تستحيي منهم، وقد جاء في الحديث: «إيَّاكم والتعرِّي؛ فإن معكم مَن لا يفارقُكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجلُ إلى أهلِه؛ فاستحيوهم وأكرموهم». وفي سنده نظر(١).

والمَلَك مخلوق كريم يراقبك ويلاحظك، وهذا مدعاة للحياء، حتى لو كنتَ منفصلًا عن الناس منفردًا، فتخشى أن يراكَ الْمَلَك على ما لا يحسُن، ولو أن أحدًا وَجَدَهُ: أبوه أو أخوه أو صديقه بحالة لا تسرُّ، لاستحى، فكيف إذا عرفت أن هذا المَلَك معك على الدوام ولا يفارقك إلا بالموت؟!

نحن نصحب كرامًا من الملائكة وهذا يستدعي أن نتحلَّى بمكارم الأخلاق ونقتبس من ملائكيتهم الطهر والصفاء.

٣- الكتابة: أي: يسجِّلون كل شيء، وهذا من معاني الحفظ، ولو لم توثَّق أعمال الإنسان لأمكنه أن يجادل، ويجحد، لكن كل شيء مكتوب ومسطور: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، ولا مانع أن يكون التوثيق بعدة صيغ، منها: كتابة الملك، ومنها: الحفظ الذي قد يعني التصوير المتقن لكل ما يحدث والاحتفاظ به، ولذا يرى الإنسان أعماله يوم القيامة عيانًا.

٤- ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، فقد زوَّدهم الله بالمقدرة على أن يعلموا كل شيء مما من شأنه أن يُحفظ أو يحاسب عليه من قول أو فعل، بل وما يخطر في قلبك من المعاني التي يُثاب عليها أو يُعاقَب؛ لأنها مِن فِعْل القلب، بل هذا من أعظم الأفعال؛ وأن أفعال القلب أصل لأفعال الجوارح، فطاعات القلب أصل لطاعات الجوارح، مثل:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) من حديث ابن عمر ﷺ. وينظر: «إرواء الغليل» (٦٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٠٠٦).

الإيمان، والرجاء، والحب، والخوف.

ومعاصي القلب أصل لمعاصي الجوارح، مثل: الشك، والشبهة، والحسد، والكبر..

كيف يعلم الملائكة ما في القلوب؟

يمكن الجواب عن ذلك بأن ربنا سبحانه أقدر هؤلاء الملائكة على المهمة التي أوكلها إليهم، فجعل لهم قدرة على معرفة كل ما يتعلَّق بعملهم، بما في ذلك همُّ العبد وخطرات قلبه، وقد جاء في «الصحيح»: «**إن اللهَ كتبَ الحسناتِ والسيئاتِ، ثم بيَّن ذلك، فمَن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عنده حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ عز وجل عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً**»(1).

فلا يفلت منهم شيء: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣].

* ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣]:

و﴿الْأَبْرَارَ﴾: جمع برٍّ، والبَرُّ هو مَن يفعل البِرَّ، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

والنعيم الذي وعده الله للأبرار عام، شامل للدنيا والآخرة، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فهم في نعيم تامٍّ يوم القيامة، ويصلهم مِن ذلك وهم في البرزخ وفي قبورهم، ويصلهم وهم في الدنيا من السرور والبهجة وقرَّة العين والرضا والأنس بالله ما تسعد به نفوسهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٤]:

وهم أهل الفجور ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المطففين:١١]، فهم في الآخرة في جحيم.

* ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٥]:

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾: أي: يدخلونها[1].

وقيل: ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ من «الصَّلْي»، وهو معروف؛ يقال: «صَلَى الشاة»، إذا شواها، فكمال العذاب بالنار كيًّا وشيًّا يكون في الآخرة، وفي قبورهم يُفتَح لهم باب من النار، فيصلهم من عذابها[2]، وفي الدنيا يصلهم من الشقاء والعذاب النفسي والضيق، وإن كان منهم مَن يكون في أهله مسرورًا بمظاهر الحياة، لكن في قلبه قلق وتوتر.

ولا يمنع هذا أن يعاني المسلم آلامًا وأمراضًا نفسيَّةً، ابتلاءً من الله من أجل أن يُثاب عليه إذا صبر، مثل ابتلاء الإنسان بأمراض البدن، ولكن هذا المصاب بالمرض لو كان كافرًا، فسيكون مرضه أضعاف ما هو عليه، فإذا تصوَّرناه مؤمنًا، وجدنا لو كان الإيمان خير دواء مسكِّن أو مزيل لهذا المرض الذي يعانيه.

وهي أمور نسبية، وقد يرتبك مَن يحاول أن يقرأ حالة كل إنسان على انفراد، أما القاعدة العامة فهي ظاهرة أن الإيمان من أعظم أسباب السعادة وزوال الآلام واحتمال المصائب.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٤٣)، (٣/ ١٧١، ٤١٦)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٤٤٩)، (٥/ ٣٨٧)، (٦/ ١٧٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٧٨)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٢٠٣)، و«روح البيان» (٦/ ٤٨٥)، و«فتح القدير» (٤/ ٥٠٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٩)، و«روح البيان» (٦/ ٤٨٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٢٦)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٤)، والمصادر السابقة.

وقوله: ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ لا يعني حصر صليهم بالنار في يوم الدين، بل ذلك هو كمال الصَّلْي، وينالهم شيء من الصَّلْي في قبورهم في البرزخ وفي الحياة الدنيا.

* ﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٦]:

أي: لا يُرفَع عنهم العذاب ولو لحظة واحدة، ولا يُخَفَّف عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٤٩-٥٠]. بل يبلغ بهم الحال أن يسألوا الملائكة الموت: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ ... ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقد تأمَّلتُ التعبير بقوله: ﴿ بِغَآئِبِينَ ﴾ فوجدت أمثال هؤلاء في الدنيا يحضرون ويغيبون، يحضرون عند الطمع والشهوة والمتاع، ويغيبون عند الجد والموعظة والخير والمبادرة والإحسان، فكان من المناسب أن يقال: ﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾، وقد يجوز أن يكون بعض مَن نزلت فيهم السورة من مشركي مكة؛ كانوا لا يطيقون أن يحضروا مجالس المؤمنين، ولا أن يستمعوا إليهم، فكانت العقوبة أنهم لا يغيبون عن نار جهنم يومًا ولا بعض يوم ﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾.

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨]:

والتكرار له معانٍ وأسرار، فمنها:

١- أن يكون لتأكيد المعنى، ولَفْت ذهن السامع إلى يوم الدين وعظمته البالغة، كما قال عز وجل: ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:١-٣]، ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٣]:

أو يكون المعنى أنه لما قال: ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ أن الإنسان المؤمن تخيَّل اليوم العظيم، الذي تتفطَّر فيه السماء، وتُنْثَرُ الكواكب، وتنكدر النجوم،

وتتفجر البحار، وتُبَعْثَر القبور، وربما وقع في ذهنه تصوُّر هذا اليوم، فتأتيه الآية لتقول له: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾، أي أن الأمر الذي تخيَّلته أو تصوَّرته أو انقدح في ذهنك؛ ليس بشيء بالقياس إلى حقيقة يوم الدين، ولو أن الإنسان ضاعف طاقته التخيُّلية والتصوُّرية عشرات، بل آلاف المرات ما استطاع أن يتخيَّل ذلك اليوم؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماء»[1]. ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥].

والجنة – كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه – فيها: «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة:١٧]»[2].

٢- أن يكون التكرار إشارة إلى أهل الجنة، وأهل النار، فتكون إحدى الآيتين لأصحاب الجنة، وكأنه قال: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للأبرار، ممن هم في نعيم من ألوان السرور، والمتعة، والنعمة التي لا تخطر على بالهم؟

والثانية لأصحاب النار، أي: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للفجار من العذاب والنكال، والأغلال والوبال؟ والمعنيان متقاربان.

* ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩]:

نفى أن تملك أي نفس لأي نفس أي شيء على الإطلاق: ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾، فهو لله في الدنيا والآخرة، لكن في الدنيا قد يبدو أن الناس يعملون أو يتسبَّبون، أما في ذلك اليوم فقد تجلَّت الحقيقة للناس جميعًا، بل للثقلين ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ

---

(١) أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦]، فالأمر لله، ولا تملك نفس لنفس شيئًا إطلاقًا، لا خيرًا ولا شرًّا.

والآية لا تعارض الشفاعة؛ لأن الشفاعة إذن من صاحب الأمر: ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾، وهؤلاء لا يملكون لأنفسهم شيئًا، حتى الأنبياء شعارهم وحديثهم يوم القيامة: «اللهمَّ سلِّم سلِّم»(١).

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

سورة المطففين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ
يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن
رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ
إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ
﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟
فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين:١-٣٦].

* تسمية السورة:

١- عُرِفت السورة في كتب الحديث بـ: «سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«السنن»، وغيرها[١].

٢- وغالب كتب التفسير على تسميتها: «سورة المطففين»[٢] اختصارًا.

٣- وقد ذكر بعض المتأخرين أن من أسمائها: «سورة التطفيف»[٣]، وهذا على سبيل التصرُّف واستخراج المصدر من أصل الفعل.

* عدد آياتها: (٣٦) آية بالاتفاق[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩١)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧١١)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص ٣٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

* واختلف المفسرون في نزولها:

فقيل: مكية، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزلت بمكة»[1].

وقيل: مدنية، وهو اختيار ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وذكر الواحدي وغيره في «أسباب النزول» عن السُّدِّي أن سبب نزولها أنه كان رجل في المدينة عنده مكيالان، أحدهما كبير يكيل به لنفسه، والثاني صغير يكيل به للناس. وهذا ضعيف[3].

وقيل: فيها المكي والمدني[4].

وقيل: نزلت بين مكة والمدينة، ذكره جابر بن زيد وغيره[5]، وهو جيد من جهة أنه يجمع بين الأقوال، لأن الذين قالوا: إنها مكية. ربما قصدوا أنها من آخر أو آخر ما نزل بمكة، واعتبروا أن ما نزل بالطريق فهو تابع للمكي.

والذين قالوا: إنها مدنية. نظروا إلى أن ما نزل بالطريق إلى المدينة فهو مدني.

ففيه توفيق بين القولين، وإيماء إلى أن التطفيف خطيئة عامَّة، منتشرة بين التجار،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٢٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧) وهو القول الآخر لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

سواءً بمكة أو المدينة، وكانت مكة مركزًا تجاريًّا للعرب، وكان عند الكثير من مشيخة مكة وكبرائها كبرياء وازدراء بالناس، فيكيلون للناس بغير ما يكيلون به لأنفسهم.

ونَفَسُ السورة مكيٌّ، فالسياق والوعد والوعيد والوصف الذي فيها أقرب ما يكون إلى وضع وصفة الآيات المكية.

وبالمقابل فالمدينة من المراكز التجارية، وفيها اليهود المطفِّفون، فيكون القول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قولًا وسطًا معتدلًا يجمع الأقوال.

* ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١]:

﴿وَيْلٌ﴾ قريبة من كلمة «ويح»، التي يُعَبَّر بها عن التوجُّع أو الوعيد، وعادة الإنسان إذا أصابه شيء أن يقول: «يا ويلي». فعندما يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فهو توعُّد لهم بالويل.

والذين قالوا: «إن الويل وادٍ في جهنم»[(١)]. حاولوا أن يفسِّروا سياق اللفظ، لكن هذا المعنى غير معروف في لغة العرب، وهي لفظة مُستخدَمة في لغة العرب قبل الإسلام، ولم يكن يُقْصَد بها وادٍ في جنهم، ولا كانت اسمًا علمًا يطلق على مكان، وإنما يُطلق للوعيد، وهو إذا كان مُبْهَمًا كان أقوى.

والتطفيف يحتمل معنيين:

١- أنه مأخوذ من الشيء الطَّفيف، أي: القليل، تقول: هذا شيء طَفِيف. أي: يسير تافه، فهم الذين بلغ مِن دناءتهم أن يغشوا الناس بالشيء اليسير، فإذا كالوا أو

---

(١) وهذا لم يصح فيه شيء، كما سيأتي في «سورة الهمزة».
ينظر: «مسند أحمد» (١١٧١٢)، و«صحيح ابن حبان» (٧٤٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٦٤، ١٦٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٢)، (٨/ ٢٦٦، ٢٩٨)، و«فتح الباري» (١/ ٢٠٧، ٢٦٦)، (١٠/ ٥٥٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٤٣٤، ٤٣٥)، (٣/ ٥٥١)، (١٥/ ١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦٥).

وزنوا أخذوا شيئًا يسيرًا وأضافوه إلى مالهم.

وهو تسفيه لهذا العمل وتنفير منه؛ لأنه يدلُّ على دناءة وحقارة، إلى حدٍّ أنه يسرق اللقمة من فم الفقير.

٢- أن الطفَّ هو حدُّ الصاع وطرفه، فيكون المطفِّف هو الذي قارب الوصول إلى حدِّ الصاع ولم يُوَفِّه.

والمعنيان متقاربان من حيث الاشتقاق اللغوي، وقد جاء السياق مفسِّرًا حيث وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٢-٣].

والمطفِّف مَن يستوفي لنفسه من الناس، فيأخذ حقه وافيًا، ويُخْسِر لغيره، فأما إذا زاد على ذلك بأن يكيل بمكيالين، فيبخس الناس حقوقهم آخذًا ومعطيًا، فهو في غاية الفجور والعدوان.

و«الكيل بمكيالين» أصبحت كلمة تجري مجرى المَثَل عند الحديث عن السياسات الدولية التي لا تقيم العدل، ولا تراعي المعايير الصحيحة في التعامل مع الأحداث، وتوظِّف قضايا أخلاقية كحقوق الإنسان لمصالح سياسية أو اقتصادية.

والآية الكريمة أصل في النهي عن الظلم، ودعوة إلى العدل والإنصاف، وحفز الإنسان على أن يكون في تعامله مع الآخرين على ما يجب أن يتعاملوا معه، وكما في قول النبي ﷺ: «فمَن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أن يُؤْتَى إليه»[1]. أي: أن يفعل الشيء الذي يريد أن يفعله الناس معه.

والتطفيف في الكيل والوزن مثال قائم مشهودٌ وقت نزول الآية الكريمة،

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والعدل نفسه يؤكِّد أن كل ما ماثله أخذ حكمه، وربما كانت من صور التطفيف ما هو أعظم جرمًا وأشد إثمًا وأوسع ضررًا من بخس المكيال والميزان.

كان سلمان الفارسي ﷺ يقول: «الصلاة مكيال، فمَن وفَّى وُفِّي له، ومَن طفَّف فقد علمتم ما أنزل الله تعالى في المطفِّفين»(١).

وذكر بعض العلماء قول النبي ﷺ: «أَسْوأُ الناسِ سرقةً الذي يسرقُ مِن صلاتِه»(٢). وقال: السرقة تكون مِن كل شيء.

فالوعيد عامٌّ في كل ألوان التطفيف، حيث يكون الإنسان أنانيًّا في تعامله مع الناس، وفي حُكْمِه عليهم، وفي حفظ الحقوق، ولا بد أن يكون المؤمن يَقِظًا عادلًا، يكيل للناس بالمكيال الذي يكيل به لنفسه، بل الأَرْقى والأكمل أن يكيل الإنسان بمكيالين، لكن على نقيض ما يفعله المطفِّفون، فإذا كان الأمر يتعلَّق به كال بمكيال العفو والتسامح وحسن الظنِّ والتماس العذر، وإذا كان المكيال للناس، كان حريصًا على حِفْظ حقوقهم، وعلى الورع والتحرِّي، بحيث لا يصيب أحدًا بسوء.

وهذه هي الدرجة الأولى: وهي المستوى الأفضل والأكمل؛ أن يؤدِّي إليهم حقوقهم كاملة موفاة، ويتسامح معهم إذا قصَّروا في بعض حقه.

والدرجة الثانية: هي درجة العدل، بأن يكيل الإنسان للناس بالمكيال الذي يريد منهم أن يكيلوا له، فينصف معهم ولا يظلمهم، ولا يقبل منهم أن يظلموه.

والثالثة: درجة التطفيف، أن يكيل فيما يخصُّه بالمكيال الأوفى إذا كان الحق له، أما إذا كان الحق عليه، فإنه ينقص المكيال والميزان ويبخس الناس أشياءهم.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٦)، والبيهقي (٢/ ٢٩١)، وفي «شعب الإيمان» (٣١٥٠).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٣٣٣)، وأحمد (١١٥٣٢، ٢٢٦٤٢)، والحاكم (١/ ٢٢٩) من حديث أبي سعيد وأبي قتادة ﭭ، وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (٣/ ٦٤٤-٦٤٦).

والرابعة: أن يطفِّف في الحالين، فيأخذ فوق حقه إذا اكتال، ويبخس حق الآخر إذا كال أو وزن.

إن السورة تؤسِّس لمبدأ أخلاقي عظيم، وهو مبدأ العدل والقسط في المعاملة بين الناس.

وأين المسلمون مِن هذا المعنى؟! بل أين علماؤهم.. دعاتهم.. شبابهم.. حكامهم.

أين الإنسان الذي يعطي للناس ويتسامح معهم؟!

أين الذي يأخذ حقًّا ويعطي حقًّا؟!

لقد انتشرت في الناس اليوم مبادئ الشحِّ والأنانية والهوى، فصار الإنسان يشدِّد في الحساب ويدقق في الميزان في الأمر الذي يخصُّه ويحاسب على النَّقِير والقِطمير، وإذا كان الأمر يخصُّ الآخرين، فإنه لا يقيم وزنًا لمشاعرهم وأحاسيسهم ولا لحقوقهم، **إن مبدأ العدل والإنصاف ينبغي أن يشمل الجانبين كليهما:**

الأول: الجانب المعنوي، في الأحكام والمواقف والأقوال، وقد جاء في الحديث: **«وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم -أو قال: على مناخِرِهم- إلا حصائدُ ألسنتِهم؟!»**[1].

حينما تحكم على شخص، أو جماعة، أو جامعة، أو مشروع، أو كتاب، أو موقع إلكتروني، أو على نشاط، فهي شهادة ينبغي أن تحذر فيها من التطفيف، ووجود الحق والصواب في هذا العمل لا يمنعك من أن تقدِّم ما تَلْحَظه من مآخذ بإنصاف وعدل، كما أن الخطأ الكثير لا يبيح لك أن تتجاوز الصواب وتجحد ما فيه من الحق.

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٢٢، ٣٢٨٤).

الثاني: الجانب الحقوقي في شتى شؤون الحياة، فكثير من الحقوق في المجتمعات الإسلامية مُهدَرة، ولا زال المسلمون محتاجين إلى تكريس ثقافة الحقوق وتحقيقها بشكل صحيح في الميادين كافَّة.

كيف يتعامل الأستاذ مع طلابه..

كيف يتعامل الزوج مع زوجته..

كيف يتعامل الجار مع جاره..

كيف يتعامل الناس في بيعهم وشرائهم وتعاملهم..

كيف يتعامل الحاكمون مع شعوبهم؟ وما طبيعة العلاقة، أهي علاقة سلطوية متعسِّفة، أم علاقة ودية منصفة، قائمة على التعاقد الرشيد والتكامل أو على الصراع والتآكل؟

فإذا تأمَّلت هذه الجوانب وجدت تضييعًا واسعًا للحقوق، حتى أصبح التطفيف جزءًا من البناء التربوي والمألوف السلوكي، وهذه السورة العظيمة تُسهم إسهامًا مباشرًا ومؤثِّرًا في إعادة بناء الأخلاق الاجتماعية.

مَن هم المطففون؟

* ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ [المطففين:٢-٣]:

وهذا نموذج للتطفيف، وله أهميته، ويومئ إلى ما وراءه، حتى لقد ذكره الله تعالى في أكثر من سبعة مواضع في القرآن الكريم، وكان من الأنبياء مَن بُعِثَ للأمر بالقسط في المكيال والميزان مع التوحيد، وهو شُعيب عليه السلام: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٢]، والاقتصاد الدولي يقوم على الانضباط والاعتدال في الكيل والوزن.

ومع تقدم العلم والحضارة والوسائل التقنية، فإن الكيل والوزن يظل شديد الحضور في حياة الناس، وهو رمز للتعاطي، بأي وسيلة من وسائل الإيفاء والاستيفاء للحقوق.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي: إذا كان الحق لهم يأخذونه وافيًا غير منقوص، ولم يقل: (اكتالوا من الناس)، بل قال: ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ لأن ﴿ عَلَى ﴾ أقوى في الدلالة على المقصود مِن كلمة «من»؛ إذ فيها معنى استعلاء هؤلاء المطفِّفين، وقد يكون مع التطفيف نوع كبرياء وتسلط وفوقية، إضافة إلى أن معنى البَخْس والأخذ من الناس، فكأن الاكتيال على حساب الناس وحقوقهم.

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾:

المعنى المتبادر والذي عليه جمهور المفسرين: أنهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم؛ يُخسِرون ويُنْقِصون، وهذا جارٍ في لغة الحجاز وغيرها، يقولون: كال فلانًا، أي: كال له. وزن فلانًا، أي: وزن له، وهو معنى واضح، فمعنى ﴿ كَالُوهُمْ ﴾: أعطوهم كيلًا، ومعنى ﴿ وَّزَنُوهُمْ ﴾: أعطوهم وزنًا(١).

وقال بعض المفسرين: وإذا كالوا هم، أو وزنوا هم، فجعلوا «هم» ضميرًا لتوكيد الفاعل، فالمعنى: إذا كالوا أو وزنوا، فإنهم يُخْسِرون، وهذا ضعيف، كما قال الطبري وغيره؛ لأنه لو كانت كذلك لفَصَل بين الفعل وبين الضمير المؤكَّد بفاصل، وهو الألف التي تلحق واو الجماعة، وهذا لا يوجد في رسم القرآن، فدلَّ على أن الأول هو المعنى الصحيح، أي: أعطوهم بأن باعوا عليهم، أو اشتروا منهم كيلًا أو وزنًا؛ فإنهم يُخسِرون، أي يرجعونهم بالصفقة الخاسرة، ولا يعطونهم حقَّهم، وهنا

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب البيوع (٣/ ٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩١).

مقابَلة بين ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾، وبين ﴿يُخۡسِرُونَ﴾[1].

فهم لم يصلوا إلى الفضل، بحيث إن الواحد منهم إذا كال لغيره وفَّى، وإذا كال لنفسه احتاط فأنقص، ولم يصلوا إلى العدل، بحيث إن الإنسان يوفِّي لنفسه ولغيره، ولكنهم إذا اكتالوا مِن الناس يستوفون، وإذا كالوا أو وزنوا للناس فإنهم يخسرون.

* ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين:٤-٥]:

وهذا سؤال في معنى الاستنكار لفعلهم، ألَا يظنون -ولو مجرَّد ظن- أنهم مبعوثون، فإن مجرَّد الظن كافٍ لأن يجعل الإنسان يعيد النظر فيما هو فيه، فكيف والأمر يقيني لا مِرية فيه، بدلالة العقل والشرع والفطرة!!

والسياق تنفير من فعل المطفِّفين؛ فإنه قال أولًا: ﴿وَيۡلٞ﴾ وهو تهديد ووعيد، ثم سمَّاهم «مطفِّفين»، ثم لما قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ فكان التفصيل عرضًا مخجلًا لما يفعله هؤلاء الظلمة.

وكأنك عندما تقرأ هذه الآية، ترى إنسانًا عنده ميزانان: واحد لنفسه، وواحد للناس، وكأنه مخلوق من طينة مختلفة عن الطينة التي خُلِقَ منها الناس، ومنطق الحق يعاتبه ويقول: هل لك فضل على عباد الله، بحيث تتعامل معهم بطريقة مختلفة عما تريد أن يتعاملوا به معك؟

وأشار إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو اسم إشارة يوحي بالبعد، فلو كانوا قريبين لقال: (ألَا يظنُّ هؤلاء...) فهم بعيدون عن رحمة الله، بعيدون عن الفضل، بعيدون عن الذكر الطيب، بعيدون عن الإيمان بالآخرة وجزائها.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾، أي: ألَا يوقنون.. وهو قول

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦-١٨٧).

جمهور المفسرين[1]، وقد يطلق الظن على اليقين، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصفه بـ«العظيم» لطوله، فطوله خمسون ألف سنة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، فهو عظيم بمدَّته، عظيم بالحوادث التي تجري فيه، عظيم بظهور القدرة الإلهية التامَّة، حيث يدرك المشركون حينذاك أنه لا حول لهم ولا قوة.

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦]:

يقوم الناس من قبورهم، وتُنْفَخ الأرواح في الأجساد.

ومن معاني القيام لرب العالمين: وقوف الناس في عرصات يوم القيامة؛ خوفًا، وحياءً، وخجلًا، وانتظارًا للحساب ثم المصير، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **حتى يُغيِّب أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**»[2].

أي: يتصبَّب منه العرقُ طيلة هذه المدة من شدة الكرب وطول الموقف.

وهذا يدلُّك على أن نظام ذلك اليوم وسُنَنَه مختلفة عمَّا عليه الأمر في الدنيا، فنحن نرى الماء في الدنيا مادة سيالة، يسيل من المرتفع إلى المنخفض، لكن القوانين تتغيَّر يوم القيامة بإذن الله تعالى، ولذلك لا تستطيع أن تحاكم قوانين ذلك اليوم إلى قوانين الدنيا، والذي يحاول ذلك ترتبك عليه الأمور؛ حتى نظام الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأرض قد اختلف عما كان معهودًا في الدنيا.

ويُلاحَظ أن الله سبحانه ذكر القيام ولم يذكر الانتقام أو المطالبة بالقصاص، لأن

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

غالب عمل المطفِّفين كان خفيًّا، لا يدركه الطرف المظلوم، ولا يفطن له، ولا يُطالِب به، فلهذا توعَّد تعالى المطفِّفين بأنه سيكون هو المُطالِب لهم، وهو الذي سيأخذ منهم حقوق المظلومين، فالمطفِّف والظالم والمعتدِي على حقوق الناس سيكون خصمه الله تعالى يوم القيامة.

وفي الحديث القدسي: «ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامةِ: رجلٌ أعطى بي ثم غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطِه أجرَه»[1].

وإنما كان الله خصمهم لعظم الذنب، ولأنه حق عظيم من حقوق العباد؛ فمَن لم يُعْطِ الأجيرَ أجرَه، أو باع حرًّا وأكل ثمنه، فقد قارف نوعًا من أسوأ التطفيف.

وفي السياق دليل على أن التطفيف إنما يصدر في الأصل من غير المؤمنين، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقد يصدر من المؤمن، وقد يقع الظلم والخطأ والبغي منه، ولا يخرج من دينه بهذا الفعل، بل ذلك دليل على ضعف إيمانه وتناسيه يوم الحساب، ففِعْلُه فِعْلُ الكافرين وإن كان لسانُه لسانَ المؤمنين، وفي هذا مزيد تنفير.

وإذا أردنا مقارنة المؤمنين بغيرهم في هذا العصر، فسنجد أن لدى الكثير من الشعوب المتقدِّمة ثقافة تعلَّموا بموجبها كيف يؤدُّون الحقوق، وكيف يحفظونها، وكيف ينضبطون في المصالح العامة، فلا يعتدون على حقوق غيرهم، ولا يسمحون أن يعتدي أحدٌ على حقوقهم، وكيف يضعون الأشياء في مواضعها، ويستخدمونها استخدامًا رشيدًا؛ استشعارًا للروح الاجتماعية، وهذا إنما أخذوه بالتربية والتعويد والتوارث، دون أن ينتظروا عليه جزاء أخرويًّا.

وفي العالم الإسلامي لا تتوفر التربية الاجتماعية أو الثقافة السائدة المحفِّزة على العدل والانضباط، ولم يكن إيمانهم بالله بالقوي الراسخ الذي يحملهم على الالتزام الاجتماعي والانضباط الحقوقي والأخلاقي، فضعفت أخلاقهم لغياب الوازع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

الدنيوي وهشاشة الوازع الأخروي، وصاروا يقدِّمون صورة سيئة عن الدين، وأكثر الناس يحكمون على الديانة من ممارسات أهلها، وأنت لو رأيتَ شخصًا ينتمي إلى ملَّة لا تعرفها يقوم بأعمال مرذولة لا يقبلها العقل، فإنك بعفويَّة ستقول: الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام! لأنك تظن أن ما فَعَلَه كان بمقتضى دينه، وقد لا يكون ذلك مباحًا في دينه، لكن دفعه إلى ذلك الفعل جهلُه أو غفلتُه، أو تربيتُه السيئة، فإذا تكرر هذا معك من شخص آخر فثالث ترسَّخ عندك أن الدين الذي ينتحلونه سبب في فساد فعلهم، وكذلك الآخرون ربما يأخذون صورة سيئة عن الإسلام؛ بسبب مقارفة بعض المسلمين للرذائل وانتهاك القيم والفضائل، وفي ذلك صدٌّ عن سبيل الله وتشويه لجمال الإسلام لدى مَن لا يعرفونه.

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين:٧- ٨]:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة إعراض وإضراب عن الموضوع السابق إلى موضوع آخر، لكن هذا الموضوع الجديد مرتبط بما قبله، و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: جمع فاجر، وهو الذي يتعدَّى الحدَّ، و﴿كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾: هو الكتاب الذي تُكْتَب فيه أعمالهم وأقوالهم.

وقد بدأ بالفجار خلافًا لعادة القرآن في تقديم أهل الإيمان؛ مراعاة لموضوع السورة وسياقها، حيث كانت بدايتها في وعيد المطففين، وهم الفجار.

و﴿سِجِّينٌ﴾: ذكر فيها المفسرون أربعة أقوال:

١ - الأرض السابعة، ونُقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا أظنه يصحُّ عنه[1]، ولا دليل على أن ﴿سِجِّينٌ﴾ مكان في الأرض السابعة أو في غيرها.

٢- في سِفال، أي أنه في مكان سافل، أو في وضع سافل منحط، وهذا معنى صحيح.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٢-٢٨٣)، و«التخويف من النار» (ص٤٥).

٣- أن في ﴿ سِجِّينٌ ﴾ معنى السجن والضيق والضرر، فهي مبالغة في السجن، كما تقول: فلان سِكِّير أو عِرْبيد، أي: يبالغ في شرب الخمر.

وجهنم سجن، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨]، أي: سجنًا يُحْصَرون فيها، وقال: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان:١٢-١٣].

٤- ويظهر أن المقصود بـ ﴿ سِجِّينٌ ﴾: ضيق وشدة وكربة وسفال، ولا يلزم أن يكون ذلك في الأرض السابعة كما قال بعض المفسرين، أو في صخرة عندها، أو عند الشيطان، وهذا هو القول الرابع، لكن هذه الأقوال وما شابهها ذُكِرَت في كتب التفسير، وليس لها أسانيد صحيحة، ولا أدلة واضحة، والأَوْلَى أن يُتْرَك النصُّ القرآني على إطلاقه ولا يُفَسَّر بشيء ليس له حقيقة.

و﴿ سِجِّينٌ ﴾ ليست كثيرة الاستعمال عند العرب، وإن كانت عربية معروفة.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ يُؤْتَى بها لتدلَّ على تعظيم الأمر، وتعظيم السؤال عنه، ثم لم يأتِ جواب محدد.

* ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين:٩]:

والراجح ما ذهب إليه ابن كثير وكثير من المفسرين أن قوله: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾، ليس جوابًا لقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾؛ فسياق ذلك انتهى بالتشنيع والتهويل، ثم أنشأ يتكلم عن الكتاب؛ لأنه قال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾، فكأنه قيل: وما هو كتاب الفجار؟ فقال: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾[1]، ويكون في قوله سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ إشارة إلى أن هذا الكتاب قد كُتِبَ لهم فيه السجن والنار والعذاب.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٤).

و﴿ مَّرۡقُومٞ ﴾ اسم مفعول من الرَّقْم، ومعناه: الكتابة، كما في سورة الكهف: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:٩]، فالرقيم معناه: الكتاب، وقد قيل: هو الكتاب المكتوب فيه معلوماتهم وأسماؤهم، وهنا قال: ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾، أي: مكتوب.

قد يقال: هذا تحصيل حاصل، فمعلوم أن الكتاب مكتوب، والجواب أن في ذلك فوائد:

١- أنه كتاب مضبوط لا يُزاد فيه ولا يُنْقَص منه.

٢- أنه كتاب واضحٌ مجوَّد بَيِّنٌ في دلالاته وما فيه، ففيه البداية والنهاية والكثير والقليل، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾، وهو هذا الكتاب المرقوم، ﴿ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف:٤٩].

فهذا ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾ وهؤلاء «مطففون» يزيدون وينقصون، أما الكتاب فلا تطفيف فيه ولا زيادة ولا نقص، وكل شيء مضبوط فيه ومحفوظ.

٣- أنه مميَّز بعلامة، وليس ببعيد أن يكون كتاب الكافر مميَّزًا بعلامة تخصُّه، وكتاب المؤمن مميَّزًا بعلامة تخصُّه، فكتاب الكافر مرقوم، وكتاب المؤمن مرقوم، لكن شتان بين رَقْم ورَقْم.

وبعض العلماء والمفسرين يقولون: «المرقوم» هو المختوم، أي: الذي عليه الختم أو الخاتم، والخاتم نوع من العلامة والميزة.

٤- وعندي أنه يحتمل في ذلك أن يكون الكتاب مشتملًا على رقم يدل على صاحبه، كما تجري العادة في مثل التجمعات الواسعة أن يُعطى كل فرد بطاقة فيها

رقم، ولعل كل كتاب لإنسان مسلم أو كافر يحوي رقمًا يدل على صاحبه؛ ولذا سمي مرقومًا، والله أعلم.

إنه كتاب دقيق متقن مفصَّل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، مضبوط لا يتمكَّن أحد من الزيادة فيه ولا النقص منه، مميَّز مُعلَّم، بحيث يعرف كل أحد كتابه، فهذا يأخذ كتابه بيمينه، وذاك يأخذ كتابه بشماله.

والكتاب المذكور هنا هو المذكور في السور الأخرى، والله أعلم.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين:١٠-١١]:

ذكر هنا التكذيب وهو أعمُّ؛ لأنه قال قبلها: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، أي: فهم مكذِّبون، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة.

ولما قال: «المكذِّبين» عُرف بأن هؤلاء كذَّبوا، لكن لم يتبيَّن متعلَّق التكذيب، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، إشارة إلى شناعة ما عملوه.

١- وقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى أنهم دُعوا وبُلِّغوا وقامت عليهم الحجة وسمعوا آيات الله؛ لأن المكذِّب هو الذي سمع الخبر وأدلته، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك هو يعرِض ويصرُّ على التكذيب.

وهو دليل على أن العقاب للكافرين يوم القيامة يلحق مَن بلغته الحجة وقامت عليه دلائل الرسالة والنبوة، فأصرَّ وعاند وكذَّب، أما مَن لم تبلغه الحجة فلا يدخل في هذا وأمرُه إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف:٣].

وهذا المعنى عندما تتأمَّله في القرآن تجده كثيرًا، وسبق في «سورة النبأ»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**والذي نفسي بيدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلا**

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

كان مِن أصحابِ النارِ»[1].

٢- فيه إشارة إلى أن دلائل الشريعة على هذا اليوم عظيمة، والذي يقرأ القرآن خصوصًا المكّي، يجد كثرة الحديث عن يوم البعث، ولا يوجد عند الأنبياء السابقين والكتب السابقة مثلما يوجد في القرآن الكريم من تفصيل أخبار الآخرة والبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والصراط والميزان، فدلالة القرآن واضحة قوية، والإيمان بيوم الدين هو فيصل حاسم بين فئتين من البشر، فإن الإيمان بالآخرة يجعل الإنسان أكثر جدية واهتمامًا في التعاطي مع قضايا التدين والعبادة والأخلاق والحقوق.

والفطرة تغتبط بمثل هذا الإيمان، فهو يمنحها فسحة وانشراحًا ورضًا وانتظارًا لوعد الصدق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فلو تخيَّل المخلوق أن هذه الروح تفنى بالموت وكأنها لم تمشِ على الأرض ولا عاشت، بل تحوَّلت إلى رماد ورميم ونهاية وعدم، فهو إحساس قاتل، يجعل الإنسان يموت قبل أوان الموت.

فهنا يكون في النفس تطلُّعٌ إلى أن يكون بعد الموت حياة أخرى، كما كان قبل الحياة موت آخر أيضًا.

والإنسان يرى في هذه الدنيا أشياء عديدة لم يستقم فيها الميزان، فهذا مطفِّف هلك، وقد أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا ظالم مات في عزٍّ ومَنْعة ومتعة لم يُنتقَم للمظلوم منه، وهذا محسن مات ولم يُكافَأ على إحسانه في الدنيا، وهذا شهيد لقي حتفه في ضيق وشدة وكرب، ولم ير بصيصًا من الرَّوْح والفرج، فلا بدَّ إذًا مِن دار أخرى تُرَدُّ فيها الحقوق لأصحابها، ويُنْتَصَف من الظالم للمظلوم، وترجع الأمور فيها إلى نصابها.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٥٣).

فهذا يوم الدين، أي: يوم الدينونة، والدين: الجزاء، كما تقول: أدينك بهذا، أي: أجازيك به، ومنه: «كما تدين تدان»، أي: كما تعمل تُجازَى، فالدينونة معناها أن يردَّ الدين للإنسان بما أخذ، ويُوفَّى عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

* ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين:١٢]:

أي: لا يكذِّب بيوم الدين بعد قيام الحجة ودلالات الشريعة إنسانٌ سَوِيٌّ متجرِّد من الأهواء، ولا يُكَذِّب به إلا مَن كان مُتَّصفًا بثلاث صفات:

١ - العدوان، ﴿مُعۡتَدٍ﴾ وهذا يرجع لتأكيد مسألة حقوق الناس، وقد بدأ الله تعالى بحقوق الناس قبل حقِّه، فقال: ﴿مُعۡتَدٍ﴾، فهو يريد أن يمضي في عدوانه دون خوف من بعث أو حساب.

٢- ﴿أَثِيمٍ﴾ والأثيم على وزن فعيل، وهو صيغة مبالغة من الإثم، وهو الذنب والمعصية، وإذا أدمن عليه صاحبه وأصرَّ سُمِّي: أثيمًا، لكن الله تعالى قدَّم المعتدي على الأثيم؛ لأن الإضرار بحقوق الناس هو معصية لله وأذى للناس في الوقت ذاته، فهو إثم مضاعَف، بخلاف الأثيم فذنبه على نفسه وليس على غيره.

والإضرار بحقوق الناس والعدوان عليهم سبب في فساد الدنيا، كما قال ﷺ: «يوشِكُ أن يأتي زمانٌ يغربَلُ الناسُ فيه غربلةً، تبقى حُثالةٌ من الناس قد مَرِجت عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا». وشبَّك النبيُّ ﷺ بين أصابعه[1].

أي: فلا تدري أين المحقُّ، وأين المبطل، وأين الصادق، وأين الكاذب، فهذا الحسد والبغي والعدوان، ولهذا كان من أعظم ما جاء الرسل بدفعه والنهي عنه البغيُ والعدوانُ.

---

(١) أخرجه نُعيم بن حمَّاد في «الفتن» (٦٩٣)، وأحمد (٧٠٦٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١٧٦)، والحاكم (٢/ ١٥٩)، (٤/ ٤٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٥).

وسواء كان البغي والعدوان بالعلم، كما وقع لبني إسرائيل، أو بغيًا بالرياسة، أو بغيًا بالمال، أو باسم ينتحله أو مذهب يترسمه، فكله مذموم محرَّم.

بدأ بـ«المعتدي»، وثنَّى بـ«الأثيم»، وهو كثير الإثم، ولم يقل: (آثم)؛ ليبيِّن أن الإثم قد أصبح جزءًا من شخصيَّته، وأصبحت المعصية طبعًا لا يستطيع الخلاص منه، وهكذا الذنب إذا أكثر منه الإنسان واعتاد عليه؛ أصبح الخلاص منه صعبًا وصار صفةً لازمة له، ولذا قال في السورة ذاتها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فهي حالة انطباع عاطفي وجسدي بالمعصية لا يسهل الفكاك منها.

٣- تكذيب القرآن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، تلي عليه القرآن؛ فأعرض وقال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهذا قاله النضر بن الحارث في مكة، حين كان يقرأ على قريش كتب رُستم واسْفَنْدِيار وأساطيرهم المدوَّنة، ويقول لهم: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟ لماذا يتبعه الناس ويتركونني[1]؟

والآية عامَّة لكل مَن تحقَّقت فيه هذه الصفات المرذولة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين:١٢]، وهذا لا يخصُّ شخصًا بعينه، بل يشمل كُلَّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، من السابقين واللاحقين والعرب وغيرهم، في مكة كانوا يقولون: القرآن أساطير الأولين: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥].

واليوم تجد مَن يقول: للقرآن الكريم أن يحدِّثنا عن قصة إبراهيم وإسماعيل، لكن هذا لا يعني أنها حقيقة، ومَن يقول: إن قصة أصحاب الكهف، وعصا موسى

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٠، ٣٥٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٣٩٩)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/ ٥٣)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٣١٠)، و«شعب الإيمان» (٧/ ١٦٦-١٦٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص ٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٢٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢١٧).

التي تلقف ما يأفكون أسطورة، ولا يلزم أن تكون حقيقة!

و﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمع أسطورة، مثل أُكْذُوبة وأُعْجُوبة وأُحْدُوثة وما أشبه ذلك، والغالب أن الوزن الصرفي (أفعولة) محدود في كلمات معيَّنة، فهي لفظ عربي مأخوذ من السَّطْر وهو الكتابة، والتسطير، أي: الأشياء التي سطَّرها وكتبها الأولون، ثم نقلوها إلينا.

و«الأساطير» خرافات يرفضها العقل والمنطق، وقد تكون قصصًا وهمية أو أمثالًا تضرب كقصص الحيوانات والطيور والجن وغيرها.

أما الغيب فهو الحق الذي أخبر الله به مما لا تستطيع العقول إدراكه بذاتها، لكنه ليس محالًا ولا مرفوضًا، ولا تأنف العقول من الإيمان به، وإنما تسلِّم وتستسلم له مِن غير أن تدركه، ولهذا قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بمحارات العقول، لا بمحالات العقول»[1].

و«الأساطير» لا تذكر إلا في سياق التكذيب، فتقول: هذه أسطورة، أي: كذبة، وإن كانت شائعة عند الناس، كما في كتاب «كليلة ودِمنة»، أو قصص الرومان واليونان وغيرها؛ لأنها حكايات وروايات وهمية، تداولها الناس على هذا الأساس.

فإذا حكى الله سبحانه وتعالى لنا قصص الأنبياء، أو قصة أصحاب الكهف، أو قصة أصحاب الأُخدود؛ فهذه حقائق تاريخية في أعلى درجات الوثوق والمصداقية؛ لأنها تنزيل من الله العزيز العليم.

عقلية المؤمن إيمانية وليست خرافية؛ فهي ليست عقلية أسطورية خرافية، ولكنها عقلية إيمانية غيبية، بمعنى أن أعظم ما يميِّز المؤمن عن الملحِد هو الإيمان بالغيب، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣]؛ لأنه إذا لم يؤمن بالغيب لم يؤمن بالله، ولا بالآخرة، ولا بالجنة، ولا بالنار، ولا بالوحي.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٤٤).

فالإيمان بالغيب ليس شيئًا ثانويًا، بل هو أصل وركن في عقيدة المسلم، هو إيمان حقيقي يؤثِّر في تصور المسلم ومنهجه وسلوكه، ولذلك كان المطفِّفون يطفِّفون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا يظنُّون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وبذا تجرؤوا على حقوق الناس، والمؤمن قد يتخلَّى عن بعض حقِّه في الدنيا، لا من باب أنه لا يريد هذا الحقَّ، أو لا يحبُّه؛ ولكن لأنه يدَّخره ليوم آخر هو عنده أكثر يقينًا من المشهود الذي يراه ويحسُّه.

إن عقلية المؤمن الغيبية لا يجوز أن تتحوَّل إلى عقلية أسطورية من شأنها أن تؤمن بكل ما يخالف الحسَّ، وتقيس قياسًا فاسدًا، فتقيس أوهام الناس وحكاياتهم وأقاويلهم على خبر الصادق المصدوق، أو على خبر الكتاب المنزَّل، وكثير من عوامِّ المسلمين وشعوبهم -بل وخواصِّهم أحيانًا- تتسلَّل إلى نفوسهم معنى التساهل في رواية الأساطير وحكاياتها، وقياسها على ما ذكر الله، وهذا قياس فاسد؛ لأنه قياس للباطل على الحق، وللخطأ على الصواب.

فلذلك يُفترَض أن يكون مبدأ المؤمن رفض الروايات الموهومة، والأخبار المناقِضة للشرع والعقل، والمناقضة للحسِّ، أما أن يكون مُستودَعًا للأساطير، فهذا انحراف كبير في المنهج.

ونذكر بهذا المقام قصة الصِّدِّيق ﷺ لما أُخْبِرَ بالإسراء والمعراج، وجاءته قريش يقولون: هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر ﷺ: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: «فإني أشهد إن كان قال ذلك لقد صدق؛ إني أصدِّقه بأبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرة وعشيًّا»[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٧١٩)، والحاكم (٣/ ٦٢)، واللالكائي (١١٦٤) من حديث عائشة ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٠٦).

فكان هذا الخبر غريبًا على أبي بكر ﷺ، ولهذا لم يعطِ إيمانًا مطلقًا، ويبصم على هذا الخبر، لأن الذين أخبروه به كفار، وإنما أخبروه على سبيل الإزراء، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدق»، فعلَّق الإيمان به على ثبوت هذا الخبر وصِدْقِه عن النبي ﷺ، وهكذا ينبغي أن يقول المؤمن، فلا يتعجَّل في قبول الروايات والأخبار دون تحرٍّ.

وكثير من الدعاة والوعاظ منذ قديم يدغدغون مشاعر المتلقِّين من البسطاء والسُّذَّج بقصص خرافية أو مبالغات وتوهمات وحكايات لا أصل لها.

أذكر هنا قصة حصلت لي لما كنت صبيًّا إذ ذهبت إلى مكتبة، ووجدت كتابًا عن الإسراء والمعراج منسوبًا لابن عباس ﷺ، فاشتريته وأنا في السادسة الابتدائية، وطفقت أقرؤه بنَهَم، ووجدت فيه مبالغات وأشياء غريبة، حتى إنه يقول: إنه شاهد مَلَكًا في السماء نصفه من ثلج ونصفه من نار، فلا الثلج يُطفئ النار، ولا النار تُذِيب الثلج، وغير ذلك، فصار عندي تردُّد ونوع من الوسوسة ذلك الوقت، بسبب أن الإنسان يرى شيئًا يظنُّه حقًّا ودينًا فلا بد أن يؤمن به، وفي الوقت ذاته يعجز عقله عن استيعابه، فيحصل عنده تناقض، ولذلك كان من أخطر الأشياء أن يُجْعَل الدين في مقام الضدِّيَّة مع الحقائق العلمية.

وربما ساق مصنِّف أو واعظ أو حتى مجاهد في الميدان رواية غريبة منكرة، ونسبها إلى ثقة صالح، فلا يلزمنا قبولها، وإنما الذي يلزمنا قبول ما جاء في الكتاب والسنة.

فلو قال لنا قائل خبرًا يتعلَّق بعذاب القبر، أو بكرامات حصلت لفلان أو علان، فلا يلزم الإيمان بخصوص هذه الروايات، ولكن نؤمن بأصل الاعتقادات الشرعية، ونتوقف في تفصيل المرويات، حتى نطمئن إلى صدقها وعدالة رواتها وسلامة عقولهم وحواسهم.

يسألنا شاب عن مقطع في اليوتيوب، يظن أنه يسجِّل صراخ المُعَذَّبين في قبورهم، والله تعالى جعل أمر البرزخ وعذاب القبر ونعيمه من عالم الغيب، ولو أن

الناس سمعوه وشاهدوه لكان من عالم الشهادة.

نعم، صح أن الرسول عليه الصلاة والسلام سمع يومًا وَجْبَةً فقال: «تدرون ما هذا؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «هذا حجرٌ رُمِيَ به في النارِ منذُ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرِها»(1). فنقول: صَدَّقنا بذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا به.

وكذلك قال: «إن هذه الأُمَّةَ تُبتلَى في قبورِها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه»(2).

المهم أن هذه أخبار قالها النبي ﷺ، أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فإننا لا نستطيع أن نجزم أن فلانًا يُعَذَّب في قبره، ولا أن في هذا القبر نارًا أو نعيمًا، ولا أن ما يُسَجَّل في هذا الشريط أنه أصوات المُعَذَّبين، ولا أن ما يصوَّر في الفيديو هو ملك أو شيطان أو طائف من الجن، وما يدرينا أن تكون تلك الأصوات حِمَمًا أو براكين أو نيرانًا تتلهَّب وتغلي، أو أصواتًا مُقَلَّدة أو مشبهة، وفي الولايات المتحدة رجل من أهل الكتاب وضع عنده متحفًا، ووضع فيه ما جاء في الكتب السماوية عن الآخرة، وصوَّرها تصويرًا حسِّيًا مشهودًا، فصوَّر الجنة والنار وغيرها، وربما يكون سجَّل أصواتًا تتعلَّق بذلك.

والله تعالى يقول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم:98]، أي: لا تحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم ركزًا.

ولا ينبغي ربط إيمان الناس بأشياء مُحتمَلة، بل يُرْبَط إيمانهم بالحقائق القرآنية والحقائق النبوية الناصعة التي مَن آمن بها فقد آمن، ومَن كفر بها فقد كفر، أما أخبار الناس فهي مما يحتمل الصدق والكذب، ولا ينبغي أن يُمْتَحَن المكلَّف بها، ولا أن تُعتبَر

(1) أخرجه مسلم (2844) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم (2867) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

حجة أو دليلًا أو برهانًا، وإن كنا نقول: إذا اغترَّ أحد وسمع هذه الأشياء واستفاد وأناب وتاب، فهو كما لو تاب بسبب سماعه لحديث موضوع أو ضعيف، هو شيء يفرح به، ولا يعني قبول الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو الحكايات الباطلة.

مهمٌّ أن تكون العقلية الإسلامية عقلية ناضجة رزينة، لا تتسرَّع في قبول الظنون والاحتمالات، ولا تتسرع في نفيها، فالعلم أوسع مما تظن ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، ولا يزال العلم البشري يحبو في مجال الروحانيات والإيمانيات والمسائل النفسية، وهذا سر شرف المصادر الشرعية التي يتلقاها المسلم بالقبول، قائلًا مع أمثاله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، ولكنها تؤمن بالغيب.

* ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]:

و﴿كَلَّا﴾ إضراب وانتقال من موضوع إلى آخر، أو زجر، أو نفي، والمعنى: ليس الأمر كذلك، وليست الآيات من أساطير الأولين، بل من كلام رب العالمين.

ثم ذهب إلى تعليل ما وقعوا فيه فقال: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: أنهم كذَّبوا بسبب الرَّان الذي أصابهم.

فـ«الرَّان»: غلاف يكون على قلب الإنسان، ويُسَمَّى: الرَّانُ أو الرَّين، وأشد منه «الطَّبْعُ»، كما في قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٩٣]، وأشد منهما «القُفْل»، كما في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، وهي درجات تصيب قلب الإنسان تجعله محجوبًا عن تشرُّب الحقائق فلا يقبلها، ويعمى عنها ويماري في الحقِّ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر:٥]؛ فهي قلوب تسمَّمت، فلم تعد محلًّا لقبول الحق.

رحلتها الطويلة مع الهوى والانحراف جعلتها تكره الخير والصدق، والطهارة والعفاف، وتحب ضدَّ ذلك من الشر والفجور، والكذب والريبة، وهذا يحدث لكثير

من الناس حين يعتادون على حياة الرذيلة والفسق، أو الانهماك في صفة مذمومة؛ ولذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الزمر:٤٥].

قد تجد شابًّا إذا رأى فتاة محتشمة ازدراها، وامتعض لرؤيتها؛ لأنه يريد المتبرِّجة، اللَّعوب التي يسهل اصطيادها واستغلالها، وإذا وجد نفسه في بيئة محافظة جادة شَرِقَ بذلك، وإذا ظفر بضدها فرح وطرب؛ فهذا سببه «الرَّانُ» الذي يغطِّي على القلب.

وهو يحدث بسبب كثرة مقارفة الذنب، ومنه ما يُسَمَّى بالإدمان، كمَن يتعاطى المخدرات حتى تصبح طبعًا فيه تجري سمومها في دمه، حتى إنه لو مُنِع عنها بالقوة صار عنده ما يُسَمَّى بالأَعْراض الانسحابية الضارة.

ومثله إدمان الكحول أو الخمر أو الحشيش أو الرذيلة أو المشاهدات الإباحية أو المكالمات والعلاقات المحرمة.

و«الران» شيء غير «الغين»، كما في حديث: «**إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»(١). فكأن «الغَين» شيء خفيف يَعْرِض لقلوب الأخيار والصلحاء من الغفلة، فيدفعونه بالاستغفار، أما «الران» فغالبًا ما يصيب قلوب الكافرين وأهل الفجور.

وفي ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ بين اللام والراء إدغام عند بعضهم، وبعضهم يفصلونها بغير إدغام فيقولون: (بلْ رَان)، وبعضهم يفصلون بينهما بسكتة لطيفة دون تنفُّس، وهذه قراءة حفص ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأَغَر المزني ﷺ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٥)، و«الحجة في القراءات» (٦/ ٣٨٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص ٤٦٧)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٩).

* ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]:

وفي عطف هذه الآية على السابقة مناسَبة جميلة، حيث ذكر في الآية السابقة: «الران» الذي حجب قلوبهم عن الحق والمعرفة والإيمان والعمل الصالح؛ فناسب أن يكون عقابهم في الآخرة حجابًا من جنس «الرَّان» الذي كان عندهم في الدنيا، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم القيامة، والحجاب عن الله هو أنْ يُحْرَموا من رؤيته سبحانه، فلا يرونه كما يراه المؤمنون؛ وقد قيل: «إنه تجلَّى لأهل كرامته واحتجب عن أهل معصيته».

وقد استدلَّ بها الشافعي على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وهو استدلال بمفهوم المخالفة، فإن الله لما عاقب المكذِّبين بحرمانهم من رؤيته، دلَّ على أن غيرهم من المؤمنين يرونه، وقد تضافرت الأدلة عليه، وهو مذهب أهل السنة، كما في صريح قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، ورؤية الله من أعظم النعيم الذي يُنَعَّمون به في الجنة، فبعد أن تنعَّموا بذكره في الدنيا، تنعموا برؤيته في الآخرة.

وعن جَرِير بن عبد الله ﷺ قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمرَ لا تُضامُّون في رؤيتِه»(١). والمقصود: تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي.

* ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٦]:

وحجاب الكافرين عن الله سبحانه وتعالى يفعل في القلوب والأرواح مثلما تفعل النار بالأجساد من الحرقة والألم والإهانة، ولذا عقَّب بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وهذا عقاب أجسادهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

والصَّلْي معناه: الشَّي والكي والإحاطة من كل جانب، ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، والجحيم: هو أشد النار.

* ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٧]:

تقدم أنهم قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فعندما يرون مصيرهم يوم القيامة، يقال: هذا الذي كنتم تقولون عنه: إنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. فكان عقاب الفجار في الآخرة: الحجاب، ثم الصَّلْي بالنار، فإذا صُلِّيَ بالنار ظنَّ أن هذه هي النهاية، وأن بعدها الفرح والعفو، فيأتيهم الجواب الذي يبهتهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وهو العقاب الثالث.

ولما انتهى السياق من ذكر حال الفجَّار المكذِّبين ومآلهم، انتقل إلى الكتاب الآخر، وهو «كتاب الأبرار»، وهذه طريقة جارية في القرآن، وهي إحدى معاني كونه مثاني: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣]، فالمقصود بالمثاني: أنه يكرِّر ذكر الجنة والنار، والخير والشر، والإيمان والكفر وغير ذلك[1].

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨].

﴿كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: هو الذي كُتبَت به أعمالهم، فهو صحيفة الأعمال.

و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾: جمع «بَرٍّ»، وهو صاحب البِرِّ، وهو اسم جنس لأعمال الخير والطاعة.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «الأبرار هم الذين لا يُؤْذُون شيئًا حتى الذَّرَّ»[2]، والذَّرُّ نوع من النمل، وفي الحديث الصحيح: «نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحت شجرةٍ، فلَدَغَتْه نملةٌ، فأَمَرَ بجهازِه فأُخرِجَ من تحتِها، ثم أَمَرَ بها فأُحرِقَت، فأوحى اللهُ إليه:

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦).

فهَّلا نملةً واحدةً»[1]. يعني: أحرقت بيت النمل كله من أجل نملة واحدة قرصتك، لماذا لم تنتقم من النملة التي قرصتك فقط؟ إن كان ولا بد!

وهذا السياق مناسب لموضوع التطفيف؛ فبعد وعيد المطفِّفين الذين عندهم بغي وعدوان، جاء ذكر الأبرار الذين عندهم العدْلُ والإنصافُ.

وليس المقصود بالبِرِّ هو المظهر الذي يُرَى به الإنسان أنه أصبح معدودًا في الأخيار، وأنه جاوز القنطرة، بل البِرُّ هو الإيمان في الأصل، وهو المعاني القلبية التي تفيض على الجوارح ويظهر أثرها.

والدين ظاهر وباطن، وسلوك وعمل، وحتى الإيمان حين عرَّفه السلف قالوا: الإيمان قول، وعمل، واعتقاد. والاعتقاد هو الأصل؛ ولهذا عرَّف النبي عليه الصلاة والسلام «الإحسان» بـ: «أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه»[2]. وهذا شيء في القلب، وكذلك الإيمان أصل تحقيقه في القلب.

ثم درجة الإسلام، وهي الظاهر الموافِق للباطن، وكل هذه الدرجات مشروعة.

و«عِلِّيُّون»: كلمة عربية تُطلَق على الذين يسكنون في الأعالي، وبضدهم «السُّفليُّون» الذين يسكنون في الأسافل.

وقد تنوَّعت عبارات السلف والمفسرين في تفسيرها، فقال بعضهم: هي سدرة المنتهى، وقال بعضهم: السماء السابعة، وقال بعضهم: عند العرش.

والمقصود بـ«العِلِّيِّين» على القول الراجح: العلو والارتفاع، فهي المنازل السامية الرفيعة، كما أن كتاب الفجار في «سِجِّين»، الذي مِن أشهر معانيه: السفل، وهو دليل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

على أن الجنة في السماء وسقفها عرش الرحمن عز وجل(1).

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطففين:١٩]:

وهي إشادة به، وأنه بالغ مبلغ الارتفاع والسمو.

* ﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴾ [المطففين:٢٠]:

﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴾: تفسير لـ ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾، وليس تفسيرًا لـ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾، وإنما دخلت كلمة: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ بين ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ وبين وصفه للتعظيم والتفخيم.

* ﴿ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:٢١]:

أي: يحضره، وقال بعضهم: يطَّلع عليه المقرَّبون.

و﴿ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾: هم الملائكة والأنبياء والرسل والصِّدِّيقون والشهداء، وكلهم يشهدون كتب الأبرار، وهو من بركة ما رُقِمَ فيه من الأعمال الصالحة.

* ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [المطففين:٢٢]:

أي: الذين هذا كتابهم، ولم يقل: (لفي النعيم)، بل قال: ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وهذه نكرة تشمل كل نعيم، بمعنى: أن كل ما يُتَصوَّر أو يَخْطُر على البال من النعيم فهم فيه، وكأن النعيم وعاء، والأبرار قد وُضِعوا فيه، فهم يتنعَّمون بكل ما فيه.

ومن «النعيم»: النعيم المعنوي، نعيم الأرواح والقلوب برضوان الله وسماع كلامه سبحانه، والنظر إلى وجهه الكريم، و«الرضوان» كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ﴾ [التوبة:٧٢].

وهناك النعيم الحِسِّي، من المآكل والمطاعم والمشارب والأصوات الجميلة،

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦-٢١٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٢).

والمَلذَّات، والنكاح وألوان المتع التي نعرف، والتي لا نعرف.

* ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]:

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: جمع أريكة، وهي السُّرر والمتكآت التي يقعدون عليها في الجنة، ثم هم ينظرون، ولم يذكر الله تعالى إلى ماذا ينظرون؟

وعندما يأتي الإطلاق في القرآن فإنه يدل على عموم المتعلّق، فهم هنا ينظرون:

١ - إلى النعيم والمُلْك الذي أُعطُوه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠]، والإنسان يتلذَّذ بالنظر إلى ما يملك، وهو في ذاته متعة.

٢ - ينظرون إلى الأشياء الجميلة التي يلتذُّ المرء بالنظر إليها، فإن الإنسان حين ينظر إلى المناظر الجميلة يتمتَّع حتى لا يريد أن يغمض عينيه، وقد يكون هذا عنده ألذ من الطعام ومن الشراب ومن ألوان المَلذَّات، ولو لم تكن هذه الأشياء ملكًا له.

٣- النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وهو أعظم نعيم.

٤ - ينظرون إذا شاؤوا إلى الكفار في النار، ليذَّكَّروا نعمة الله تعالى عليهم: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات:٥١-٥٢]، أي: كان لي زميل في الدنيا يشكّكني، فيحب أن ينظر إليه، فيريه الله إياه في النار، فيخاطبه وهو في النار: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧].

فهذا هو نعيم الجنة، وهو نعيم متنوِّع، تستمتع به كل جارحة، وكل حاسَّة من حواسِّ الإنسان.

* ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤]:

بلغ بهم النعيم أن صار علامةً تُرى في وجوههم.

وهذا الجزاء على سبيل المقابلة، فكما كان أثر الطاعة والإيمان في وجوههم في الدنيا ظاهرًا، فكذلك تظهر في وجوههم نضرة النعيم.

* ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ [المطففين:٢٥]:

وهذا من ألوان نعيمهم، فإنه تُدار عليهم الخمر وهم في مجالسهم وسَمَرهم، فيُسْقَون من رحيق مختوم.

واختلفوا فيه على أقوال:

١ - أنه الخمر الصافي.

٢ - أنه الخمر القديم المعتَّق؛ لأن الناس في الدنيا يعرفونها أجود ألوان الخمر.

٣ - الخمر الأبيض الجيِّد[(١)].

وهي خمر، لا تَذْهَب بالعقول والألباب كخمر الدنيا، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»[(٢)]، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشربْها في الآخرة»[(٣)]. أي: إلا أن يتوب، فهذه عقوبة الحرمان على مَن استعجل شرب هذه الخمرة في الدنيا أن يُحْرَم منها في الجنة.

وقوله: ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ أي: أن هذا الرحيق يكون في أكواب أو قوارير مغلقة، بحيث إن الكأس أو القارورة خاصة بصاحبها، فهو الذي يقوم بفتحها وفضِّها، وهذا من كمال النعيم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٤-٢١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٤).

(٢) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

* والختم نفسه مسك؛ ولذلك قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ [المطففين:٢٦]، وفي بعض القراءات: (خَتَمُه مسك)[1]. فالختم الذي خُتِمَ به على القارورة أو الكأس أو الكوب مصنوع من المسك، فما بالك بما في داخلها؟!

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]:

كان أهل التطفيف في الدنيا يتنافسون بالدرهم والدينار، وبالتطفيف بشيء قليل من الطعام يأخذونه من أفواه الفقراء والمساكين، فـ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

أما المؤمنون فقد كانوا في الدنيا يتنافسون هذا النعيم العظيم الذي حُقَّ لهم أن يتنافسوا فيه، وهو ما يجب أن يكون فيه التنافس.

هذي المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ شِيبا[2] بماءٍ فعادا بعدُ أبوالَا[3]

وهي إشارة إلى مشروعية التنافس في الخير، كالتنافس في العلم، حتى قال بعض الفقهاء: لا إيثار في القُرَب، ففي مجال القربات والطاعات ينبغي أن يتنافس الناس.

ولا يعني هذا المنع من التنافس في خير الدنيا وطيبها ومتاعها المباح وفرصها التي سُخِّرت وذُلِّلت للإنسان، مثل التنافس في تجارة يُنْفِق الإنسان منها في سبيل الله، أو وظيفة ينفع وينتفع بها، أو منصب يبذل فيه طاقته ويجد فيه نفسه، كما يتنافس الناس في الانتخابات وغيرها، فهذا يرجع إلى نيَّة الإنسان.

ولو كان لدى المرء رغبةٌ في سمعة أو مكانة أو جاه مباح، فهذا مما لا يُلام عليه، وهو طبيعة وجِبِلَّة، لكن فَرْقٌ بين إنسان في نيَّته أن ينفع الناس، وآخر همُّه الرياء والسمعة والتفاخر.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤١٧)، و«معجم القراءات» لعبداللطيف الخطيب (١٠/ ٣٥٠-٣٥١).

(٢) أي: خُلِطَا.

(٣) ينظر: «نهاية الأرب» (٣/ ٦٥) منسوبًا إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة، شاعر جاهلي، وهو والد أمية بن أبي الصلت، قاله في قصيدة مادحًا فيها سيف بن ذي يزن.

وشر منهم ثالث قصده الإضرار بالخلق والظلم والانتقام.

وأحيانًا لا يمكن تحصيل الخير إلا بشيء من مراعاة حظِّ النفس، وعلى المؤمن أن يصحِّح نيَّته.

وفي الآية معنى لطيف: وهو أن مجرد دخولك ميدان المنافسة محمود؛ لأنه يشملك بذلك وصف «المتنافسين»، وأنت على خير ولو سُبقت فحَسْبُك أن تكون من المتنافسين، كما قال النبي ﷺ لبعض قبائل الأنصار لما سمعوا أن النبي ﷺ فضَّل عليهم، فقال: «أو ليس بحَسْبِكم أن تكونوا من الخيارِ؟»[1].

* ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ [المطففين:٢٧]:

«المزاج» من «الْمَزْج»، وهي كلمة تُستخدم كثيرًا، ويُقصَد بها الشيء المختلط الممزوج، وتُستخدم في الأشياء المعنوية، فيقال: فلان مزاجه متعكِّر.

وإذا خُلِط شراب بشراب قيل: هذا مزيج أو مزاج، أي: ممزوج بعضه ببعض.

و﴿تَسۡنِيمٍ﴾: عين في الجنة، وهي أفضل ماء الجنة، ولذلك سُمِّيَت: «تسنيمًا»، من السنام، وسنام الإبل معروف وهو أعلاه، ولذلك قيل: إن هذه العين تجري فوق بيوت أهل الجنة.

وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم في هذه الآية: «إنها تُمزَج لأصحاب اليمين مزجًا، ويشربها المقرَّبون صِرْفًا»[2].

فأصحاب اليمين يشربونها ممزوجة مع غيرها، أما المقرَّبون فإنهم يشربونها صرفًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١٥٢٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٠٩١)، و«الزهد» لهناد (٦٥، ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢١)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (٣٠٦)، و«البعث والنشور» للبيهقي (٣٢٧)، و«المختارة» (١٠/ ٣٠٠) (٣٢٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣١٠).

غير ممزوجة، وذلك لأن المقرَّبين أفضل من أصحاب اليمين.

* ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨]:

أي: يشرب منها المقرَّبون، فالباء بمعنى (من)، وهو معروف في اللغة، أما غيرهم من الأبرار وأصحاب اليمين فإنها تُمزَج لهم مزجًا.

* ثم ختم الله تعالى هذه السورة بذكر ما كان عليه الأبرار والفجار في هذه الدار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩]:

ولم يقل: (المجرمين) بل عرَّفهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ثم بالفعل الماضي ﴿أَجْرَمُواْ﴾، فبيَّن أن فعلهم- وهو الإجرام- أمر مضى، فالله تعالى يذكر هؤلاء المجرمين يوم القيامة بصفتهم التي كانوا عليها في الدنيا، ولذلك قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات مما يوبِّخ الله تعالى به المجرمين يوم القيامة.

وسواء كان ذلك توبيخًا لهم، أو تقييدًا لما عملوه في الدنيا، فالأمر يتعلق بذكر معنًى مهم وواقع، وهو أنهم أجرموا، ومن أعظم إجرامهم كفرهم بالله عز وجل.

وعندما تجد في القرآن ذكر الإجرام والكفر، وبمقابل ذلك الإيمان، لا تجد أن شيئًا من ذلك مقرونًا باسم قبيلة أو بلد أو شخص، وإنما تجده باعتبار القيم الأخلاقية وقَدْر تحقيقها، فالعبرة بفعل الإنسان، لا بما كان عليه الآباء والأجداد:

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِبْ أَدَبًا   يُغنيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
فَلَيسَ يُغني الحَسيبَ نِسبَتُهُ   بِلا لِسانٍ لَهُ وَلا أَدَبِ
إِنَّ الفَتى مَن يَقولُ ها أَنا ذا   لَيسَ الفَتى مَن يقول كانَ أَبي[1]

(١) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧١٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢٦/ ٤١)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٠٠)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٦).

وقال الآخر:

لَعَمرُكَ ما الإنسانُ إلّا بِدينِهِ ... فَلا تَترُكِ التقوى اتّكالًا عَلى النَّسَبْ

فَقَد رَفَعَ الإِسلامُ سَلمانَ فارِسٍ ... وَقَد وَضَعَ الشِّركُ الشَّريفَ أَبا لَهَبْ[1]

﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾:

إشارة إلى الأكابر من قريش، كأبي جهل وأبي لهب وعُتبة وشَيبة ابني ربيعة والنضر بن الحارث وغيرهم من صناديد الكفر الذين يحاربون الدعوة، ويصدُّون عن سبيل الله، ويُؤذون المؤمنين، فقد كانوا يضحكون من المؤمنين، ويسخرون منهم في نواديهم.

وهم لم يكونوا يفعلون ذلك في الجاهلية قبل الإسلام، والله أعلم، لكن لما بُعِث الرسول ﷺ فأسلموا معه صاروا يسخرون منهم، وهذه غاية التطفيف، والتغاضي عما لديهم من الصدق وحسن النية والإخلاص.

وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك عن الأنبياء السابقين مع قومهم، وأنهم كانوا يتعرَّضون لمثل هذا، كما قال عن نوح: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وهذه الآية درس في التربية والأدب، فأسلوب الضحك من الآخرين أسلوب ممجوج، لا يصدر من سويِّ حسن الخلق؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، وأنت قد تضحك من إنسان من أجل لونه، أو شكله، أو خلقته، أو

(١) ينظر: «مفيد العلوم» (ص ٣٧٨)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٣٧)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٢).

طريقة كلامه، أو صفة من صفاته، وهو خير منك عند الله، وهو فعل تشبهت به بالذين أجرموا، وهذا غاية التنفير للمؤمن من الوقوع فيه.

* ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠]:

وهذا هو الوصف الثاني للمجرمين.

وفي الآية إشارة إلى أن الاستهزاء لم يقع مرة أو مرتين، بل هو خُلُق لصيق بهم.

والضمير في قوله: ﴿ مَرُّوا بِهِمْ ﴾ محتمَل، فيجوز أن يكون المشركون جالسين فيمرُّ المؤمنون بهم، فيتغامزون عند رؤيتهم، أو العكس، وهو أن يكون المؤمنون قعودًا، فإذا مرَّ المشركون نظروا إليهم فغمزوهم، وسخروا منهم.

ولعل إبهام الضمير يشمل الحالتين معًا.

والفعل: ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ فعل مشترك يدلُّ على أنه ليس فِعْلَ فرد، وإنما هو فعل جماعة يتشاركون فيه.

ومِن معاني «التغامز»: اللمس بطرف اليد أو الرِّجل، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «فإذا سجدَ غَمَزَني فقبضْتُ رِجلي»(١). فيمكن أن يغمز بعضهم بعضًا، وكأنه ينبهه على المشهد الذي لا ينبغي أن يفوت.

وقد يحصل بأن يقلِّد حركة الشخص على سبيل التنقُّص والسخرية، وهذا نوع من السفه الذي لا يمتُّ إلى القيم والأخلاق بصلة، ولا يُحِقُّ حقًّا، ولا يبطل باطلًا، وغاية ما يدلُّ عليه أن الإنسان الذي تصدر منه هذه الحركات سيئ الخلق، فاسد المزاج، خفيف العقل معتلّ الشخصية.

وذلك أنهم قوم يعيشون في مجتمع واحد، وكأنهم قد خاضوا غمار البحر في سفينة تقلهم جميعًا، فالعقل والمروءة أن يكون بينهم قَدْر من العلاقات المشتركة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢)، ومسلم (٥١٢).

والمعاني الإنسانية التي تضمن التعايش والتعاشر بالحسنى، لكنهم أطاحوا بكل هذه المعاني، وصاروا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مرُّوا بهم يتغامزون.

ولهذا نهى الله تعالى عن الغمز واللمز والهمز، كما في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

* ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]:

وهذا الوصف الثالث للمجرمين.

والانقلاب: معناه الرجوع إلى معتاد يذهب إليه الإنسان.

ولم يقل: (إلى بيوتهم) وإنما قال: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾؛ لأن هؤلاء القوم يُشْرِكون أزواجهم وأطفالهم في السخرية، فهي ليست موقفًا عابرًا، بل أصبحت جزءًا من طبيعتهم وأخلاقهم، فيُشْرِكون أزواجهم وأهلهم معهم فيها وقت الراحة والأنس والجمام!

وتكرار الفعل ﴿انقَلَبُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، يعطي صورة من أجمل الصور البلاغية، ولو قال: (وإذا انقلبوا إلى أهلهم كانوا فكهين) لأدَّت المعنى، ولكنها أقلُّ جزالة وبلاغة، وكأن السياق يُشعِر بأنهم لا ينقلبون إلى أهلهم إلا وينقلبون فَكِهين، فهم دائمًا يرجعون بهذه الصفة، ولا يُكرَّر الفعل إلا لمثل هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣]، فالتكرار جاء لإنشاء معنًى جديد، وهو ذِكْر ارتباط الانقلاب بهذه الصفة ﴿فَكِهِينَ﴾.

والجمهور يقرؤونها ﴿فَكِهِينَ﴾، وقرأها عاصم وغيره: (فاكهين)، والفرَّاء يذهب إلى التفريق بين الفعلين، والأقرب أن معناهما واحد[1].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٨٦)، (٥/ ١١٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٥).

ومن معاني ﴿ فَكِهِينَ ﴾: أنهم ينقلبون متنعِّمين، فهم ينقلبون إلى بيوتهم حيث المآكل والمشارب، والمطاعم والخيرات، ويشعرون بالتنعُّم والفرحة الدنيوية والسعادة، فالله عز وجل يسجِّل عليهم النعمة التي أنعم بها عليهم فلم يشكروها ولم يقدِّروها، بل: ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم:٢٨].

ومن معاني ﴿ فَكِهِينَ ﴾: مَرِحين، فهم أهل مرح، وسرور، ونعيم، فإن الكفار قوم عُجِّلت لهم طيباتهم أو حسناتهم في الحياة الدنيا، وقد قال الله عنهم: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة:٨٢].

ومن معاني ﴿ فَكِهِينَ ﴾: ساخرين متندِّرين، وهذا أقوى المعاني، أي أن جزءًا من فكاهتهم ونكتهم التي يتداولونها والطرائف التي يذكرونها، هو من المعركة التي يديرونها ضدَّ الحقِّ، فإذا رجع الواحد منهم إلى أهله بدأ يحدِّث زوجته وأطفاله وأهل بيته وسُمَّاره بما رأى، وما عمل وما قال، وما سمع على سبيل السخرية بهؤلاء المؤمنين، وسيظهر أنه كان منتصرًا وفائزًا ومتفوقًا وخفيف الظل حاضر البديهة[١].

* ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين:٣٢]:

هذا هو الوصف الرابع للمجرمين.

فكلما رأوهم أطلقوا عليهم هذا الوصف افتراءً وتضليلًا.

وانظر كيف يؤكِّدون هذا الوصف بأدوات التوكيد: إن، واسم الإشارة واللام في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾.

وماذا يريدون بالضلال؟

يحتمل أن مقصودهم أنهم قوم ليس لهم علم ولا فهم ولا إدراك، وذلك لأنهم -

---

(١) ينظر: «تفسير الواحدي» (٤/ ٤٤٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٣).

في نظر المجرمين- يعملون أعمالًا لا معنى لها إلا النصب والجوع والعطش كالصلاة والصيام، وكذلك حين يتركون الربا مع أرباحه المضاعفة، فهذا في نظرهم ضلال.

أو يكون المقصود: الضلال في الدين، وهذا أعجب وأطرف، حين يصبح أبو جهل وأبو لهب وعتبة وشيبة والنضر حُكَّامًا في تمييز الهدى من الضلال، وقد كان فرعون من قبلهم يقول: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩]، ويقول عن موسى: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦]، ففرعون يتظاهر لقومه بأنه خائف من الفساد أن يظهر على يد موسى عليه الصلاة والسلام، ويزعم أنه يهديهم سبيل الرشاد والهدى!

والمؤمن يتألَّم مما يُقال فيه من السخرية واللَّمز، ومِن أشد الألم الذي يجده أن يجتهد في دعوة الناس للخير والهدى، ثم يُتَّهَم بأنه يريد الإفساد وإشاعة الفتنة.. إلخ.

والالتزام بالحق له تَبِعة كبيرة، وقد لا يحسُّها كما هي مَن نشأ في بيت صالح يعينه على الخير والهدى، وأكثر مَن يحسُّ ذلك ويعاني تَبِعاته مَن نشأ في بيت غير صالح، حيث السخرية والهمز واللَّمز مِن كل ما يتميَّز به عنهم مِن سيما الصلاح وآثاره.

إن السخرية ممارسة قبيحة وحصار إعلامي وقح، يمارسه الملأ من قريش ضد دعوة النبي ﷺ؛ حتى يحولوا بين الناس وقبول الحق، وهذه سنة الله في كل دعوة أو حركة تستهدف إصلاح أحوال الناس فتُبْتَلى بمَن يحاربونها.

وليس بالضرورة أن يحاربها الكفار، بل يقع هذا في المسلمين، إذ تجد التنابز بالألقاب والتصنيف والسخرية والتشكيك ونشر الشائعات والأباطيل في مجتمعات المسلمين، كما تجده في المجتمعات الأخرى.

* ﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ [المطففين:٣٣]:

ولك أن تنظر إلى هذا النسف الهادئ لكل ما قالوه، فإن الله تعالى لم يَرُدَّ في هذه

السورة على الكفار ردودًا طويلة مُفَصَّلة، وإنما بهذا الرد المفحم، فهؤلاء المشركون لم يرسلهم الله تعالى على المسلمين حتى يحفظوهم أو يراقبوا أعمالهم.

وقال: ﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾. ولم يقل: (وما أرسلوا لهم)؛ لأن الإرسال عادة يقتضي التسلُّط والعلوَّ، فالله تعالى يقول: لم نرسلهم على هؤلاء المؤمنين حافظين لأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم.

وهذا توبيخ للمشركين أنهم لم يُكلَّفوا بهذه المهمة، وفيها تصبير للمؤمنين؛ فكأن الله تعالى يقول: إن الحكم والأمر والنهي والتصويب والتخطئة لله سبحانه، فما دام لم يرسل هؤلاء الكفار حافظين، فلا يهمَّنَّكم ما يقولون، ولا تلتفتوا إليهم.

وفيها تأديب عام لجميع الخلق، فإنه لم يُرْسَل أحد حافظًا على أحد، حتى النبي ﷺ، قال عنه تعالى: ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢٢]، وإنما الحافظون هم الملائكة الذين يرسِلهم الله إلى الإنسان يحفظون أقواله ويسجِّلون عليه.

ففي السياق درس مهمٌّ، وهو التنبيه لعموم الناس، أن يلزموا حدودهم، فالله تعالى لم يرسل أحدًا من البشر حافظًا على أحد إلا بمُقْتَضَى مسؤوليته عليه إن كانت، كالأب على أولاده، أو الزوج على زوجته، أو المسؤول في حدود وظيفته، أما أن يكون حافظًا للناس فلا.

والمراقبة على تصرفات الناس تنتهي إلى بحث عن الأخطاء والعيوب والزلَّات، وقد رُوي عن النبي ﷺ: «مَثَلُ الذي يجلسُ فيسمعُ الحكمةَ، ثم لا يحدِّثُ عن صاحبِهِ إلا بشرِّ ما سمعَ، كمَثَلِ رجلٍ أتى راعيًا فقال: يا راعي أجزرْ لي شاةً[1] من غنمِك. قال: اذهب فخذْ بأُذُنِ خيرِها، فذهب فأخذَ بأُذنِ كلبِ الغنمِ»[2].

---

(١) أي: أعطني شاة تصلح للذبح.

(٢) أخرجه أحمد (٨٦٣٩)، وابن ماجه (٤١٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٧٦١).

ومثل هذا مَن يحضر موعظة، أو يقرأ كتابًا، أو يسمع برنامجًا، فيجد علمًا وخيرًا وفوائد جليلة؛ لكنه لا يلتفت ولا يتذكَّر إلا الزَّلل ، فهو كالذي أخذ الكلب، وترك الغنم، وقد كان يسعه أن يأخذ أثمن شاة!

وفي الآية إشارة إلى وجوب عناية المرء بنفسه، وأن أولى ما يبدأ به إصلاح عيبه ورعاية سلوكه.

ابدأ بِنفسِكَ فَانْهها عَن غَيِّها   فَإِذا انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ

ومن دروس هذه الآية الكريمة، أن كثيرًا من الناس يُحْسِنون ردَّ الفعل أكثر مما يُحْسِنون المبادرة، وتجدهم يتفاعلون عند وقوع منكر أكثر مما يتفاعلون عند غياب معروف كان من الواجب تحقيقه وإقامته.

ولا شك أن على الناس أن ينكروا المنكر، لكن لا ينبغي أن يكون نشاط الإنسان وحيويَّته واندفاعه مرهونًا بإثارة أو استفزاز، ثم إذا ذهب هذا المثير خمد ولم يكن عنده إنتاج أو فاعلية، لأن معنى ذلك أن يكون عدوك هو الذي يوجِّه طاقتك أو يُسَكِّنها، ويختار الموضوع والوقت والمكان الذي يستفز طاقتك فيه وإليه، وهذا أمر خطير؛ لأن معنى ذلك أن يكون الناس سلبيِّين حتى توجد المثيرات أو المحفِّزات، وربما تفاعلوا معها بطريقة خاطئة.

ومن دروس هذه الآية: أن الله حين وصف الكفار بأنهم يضحكون ويتغامزون ويتفكَّهون، لم يذكر عن المؤمنين أنهم قابلوا ذلك بمثله.

وهو دليل على أن مقياس القوة ليس الصراخ والضجيج والصخب، والسباب والشتام، وإنما الحجة والصبر، والنبي ﷺ يقول: «**ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَه عند الغضبِ**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقدرتك على أن تملك نفسك عند الساخرين واللامزين هي القوة والكفاءة، وليست الغلبة بالصياح واللَّجَاج والصَّخَب، بل بقوة الحجة وسلامة المنطق ولغة العقل، سواء في القول أو في الفعل.

وفي المثل العربي: «أوسعتُهم سبًّا وأَوْدَوا بالإبل». وذلك أن لصًّا أخذ الإبل على رجل كان يرعاها، فتبعه الراعي يسبُّه، ويشتم آباءه، فلما أخبر الناس بخبره سألوه: ماذا فعلت؟ فذكر المثل(1)!

وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥]، ويقول الشاعر:

إِذا جارَيتَ في خُلُقٍ دَنِيئًا فَأَنتَ وَمَن تُجاريهِ سَواءُ

فإذا عاملت سفيهًا بالمِثْل، فكأنك نزلت إلى درجته، ووصلت إلى الحضيض الذي وصل إليه، فأنت تحفظ بالإعراض مكانتَك عند الله وعند نفسك، فإن هذا أرفع في درجاتك يوم القيامة.

وبهذا تربِّي نفسك على القيم الفاضلة التي يتميَّز بها الإنسان عن الحيوان.

وأخيرًا: فأنت بذلك تجعل المجال مفتوحًا للخير والهدى، ولهذا يقولون: كَسْب الأشخاص أفضل من كَسْب المواقف، ويقال: إن مقام الهداية أولى بالرعاية من مقام النكاية.

والمعنى: أن مقام الهداية وتأليف قلوب الناس على الخير أحب إلى الله وأنفع لعباد الله من النكاية، والتسلُّط والشماتة بالناس وتنفيرهم عن الهدى.

---

(١) ينظر: «الفاخر» (ص١٧٦-١٧٧)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١١٦)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٣٦٣)، و«المستقصى في أمثال العرب» (١/ ٤٣١).

* ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦]:

ما زال السياق في مشهد القيامة، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في مقابل ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾، فوصفهم بهذا الإيمان الذي مضى منهم، وهم قد بلغوا اليوم النعيمَ المقيمَ، وهم ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا يضحكون منهم في الدنيا.

فالمؤمن بقيمه وأخلاقه لا يسخر من الناس، وإنما هو داعٍ وهادٍ، والسخرية ليست من أساليب الدعوة.

وضحك الذين آمنوا من الكفار؛ لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا، وأن الكفار لم يجدوا ما منَّتهم به أنفسهم من الأماني الباطلة، ولم يجدوا لوعود الشيطان حقيقة، فحُقَّ للمؤمنين أن يضحكوا منهم كما ضحك منهم الكفار في الدنيا؛ زيادة في عذابهم، جزاءً وفاقًا[1].

و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السُّرُر المحجَّلة، جمع: أريكة، وهي مقابل ما كان عليه الكفار: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ فالمؤمنون اليوم هم الفكهون مع أزواجهم: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٦].

والمجالس والمتكآت المعدَّة لهم من أجمل ما يكون، مما لا يخطر على بال بشرٍ، فهم في هذا النعيم ينظرون.

وقد أطلق النظر هنا، فهم ينظرون إلى وجه الله الكريم، وينظرون إلى النعيم في الجنة والمُلْك، وينظر بعضهم إلى بعض لما فيه من المتعة والسرور والأنس: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/٢٢٨)، و«زاد المسير» (٤/٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٢٦٨).

ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٤]، وينظرون أيضًا إلى الكفار وهم يُعَذَّبون في النار.

والتعبير بفعل المضارع ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يدل على الاستمرار، فيدل على أن الذين آمنوا ينظرون في الجنة دائمًا وأبدًا، فليس فيها نوم ولا موت.

ومن معاني ﴿ يَنظُرُونَ ﴾: أنهم ينظرون إلى ما جُوزي به الكفار، ولهذا ربما يكون تكرار الآية ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾؛ لقرنها بقوله سبحانه: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: يشاهدون ذلك، وهم يعلمون يقينًا أنه قد ثُوِّب الكفار، ولكن يراه المؤمنون عيانًا بعد ما آمنوا به في قلوبهم بيانًا.

وهنا قال: ﴿ ثُوِّبَ ﴾ والثواب غالبًا ما يُطلَق في القرآن الكريم على الثواب الحسن وهو الجنة، وعلى النعيم والرضوان؛ وقد يكون إطلاقه هنا من باب المعنى اللغوي العام.

أو يكون قوله: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ من باب السخرية؛ لأنه تقدم ذكر سخريتهم بالمؤمنين، فقال هنا: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ ﴾؛ أي: هل جُوزوا ما كانوا يفعلون، نعم، وبئس ما جُوزوا به.

وقوله: ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ دليل على أن هذا الأمر كان منهم عادة وخلقًا، وأنه قد جرى منهم مجرى السجيَّة والطبيعة النفسيَّة، وفي ذلك إشارة إلى أهمية أن يتخلَّق الإنسان بالخُلُق الفاضل؛ حتى يكون سجيَّة له وطَبْعًا، وقد قال النبي ﷺ للأشجِّ؛ أشجِّ عبد القيس: «إن فيك خَصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ»[1]. وفي رواية: «يا رسول الله، أنا أتخلَّق بهما أم اللهُ جَبَلَني عليهما. قال: «بل اللهُ جَبَلَك عليهما». قال: الحمدُ لله الذي جَبَلَني على خَلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧، ١٨) من حديث ابن عباس وأبي سعيد رضي الله عنهم، وأصله في «صحيح البخاري» (٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع العبدي رضي الله عنه.

فهي أخلاق جِبلِّية، لكنها تحتاج إلى ترشيد وتحصيل وتثبيت قد تكون مفقودة، فيحتاج المرء إلى أن يتعلَّمها، ومن ذلك أن يتعلم الصبر إذا وجد مَن يستهزئ به أو يسبُّه، فلا يقابل السيئة بالسيئة، بل يعفو ويصفح، كما علَّم الله تعالى المؤمنين وربَّاهم على مصانعة شياطين الإنس في ثلاث مواضع في كتابه، منها: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥]، والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

سورة الانشقاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ
(٤) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا
مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا
(٩) وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ (١٠) فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا (١١) وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ
أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا (١٥) فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ
(١٦) وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ (١٩) فَمَا لَهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ
(٢٢) وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ (٢٥) ﴾ [الانشقاق:١-٢٥].

* تسمية السورة:

١ - الموجود في غالب كتب التفسير، وكتب علوم القرآن، وكتب الحديث، كالبخاري والترمذي وغيرهما: «سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[١].

وفي «الصحيح» عن أبي رافع: صلَّيت مع أبي هريرة رضي الله عنه صلاةَ العَتَمَةِ، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد فيها، فقلتُ له: ما هذه السجدةُ؟ فقال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزالُ أسجدُ بها حتى ألقاه»[٢].

٢ - «سورة الانشقاق»[٣]، وهو مصدر كما سلف.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧١٤)، و«معاني القراء» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٣)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص ٢٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٥٧٨).

(٣) ينظر: «سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

٣- «سورة انشقت» كما في بعض الكتب(١).

٤ - وسمَّاها بعضهم: «سورة الكدح»، كما في «تفسير السمعاني»(٢)؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦].

* عدد آياتها:

الجمهور على أنها (٢٥) آية، وعدَّها بعضهم (٢٣) آية، وجمعوا قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الانشقاق:٧]، وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:٨] على أن أنها آية واحدة، وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ [الانشقاق:١٠]، وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾ [الانشقاق:١١] على أنها آية واحدة(٣).

* وهي مكية باتفاق علماء التفسير(٤).

* ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق:١]:

بُدِئت السورة بأداة الشرط: ﴿ إِذَا ﴾، وهي أداة ظرف للمستقبل، كما مر في السورتين قبلها.

وما ورد في السورة جاء في مواضع أخرى، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، (٢/ ٥٥٥)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٦).

(٣) ينظر: «البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص ٢٦٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

و«الانشقاق»: الانفطار، فمعناهما واحد، والسماء معروفة.

وفي السورة طرف مما في السورتين قبلها «التكوير»، و«الانفطار» مع ربطه بإذن الله وإرادته، والسياق مشعر بانتقال هائل من حال إلى حال، مُؤْذِن بتغيُّر واختلاف، وفي نهاية السورة تعريج عليه وتوكيد له بقَسَم آخر.

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق:١٦-١٩]، يعني: حالًا بعد حال. فهذا نوع من التغير.

* ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق:٢]:

وليس معنى «أذنت»: أعطت الإذن؛ لأن ربها تعالى أعظم من ذلك، فحُكْمُه نافذ على كل مخلوقاته، وإنما المقصود هنا: «استمعت». يعني: وضعت أذنها، تستمع إلى ربها، ، ولعله تعريض بالبشر الغافلين الذين لا يسمعون كلام الله وأمره بطوعهم واختيارهم!

وقوله: «أذنت»، أبلغ من قوله: «سمعت»، أو: «استمعت»، وبين «سمع» و«استمع» فرق، فـ «سمع» لما يسمعه الإنسان، حتى لو كان بغير قصد، و«استمع» إذا كان قصد الإنصات، و«أذن» أبلغ منهما، وفي الحديث: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنَّى بالقرآن، يجهرُ به»(١)، أي: استمع لنبي، قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرْتُ به   وإن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا(٢)

وأذنوا بمعنى: أصغوا.

وكأن معترضًا قال: السماء جماد لا يعي ولا يحس، فكيف يستمع ويصغي؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٩٦)، و«أمالي القالي» (١/ ١٢٢)، و«الصداقة والصديق» (ص ٢٢٠) منسوبًا إلى قعنب بن أم صاحب.

فكان الجواب في قوله سبحانه: ﴿ وَحُقَّتْ ﴾، يعني: وحُقَّ لها أن تأذن؛ لأن الذي يخاطبها ويأمرها ربها سبحانه الذي ركَّب طبيعتها وهو على تغييرها قدير.

وانشقاقها ليس اختياريًّا، بل هو أمر كوني مِن عند ربها وخالقها، وكما وُجِدَت بأمر الله، وتكوَّنت بإذنه، وكانت صفتها وكينونتها بإرادته؛ فهكذا ما يطرأ عليها يوم القيامة، هو بأمره وإذنه وإرادته سبحانه.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق:٣]:

«المدُّ» كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهما، أن الله تعالى يبسطها يوم القيامة بسط الأديم(١)، وهو الجلد، وهذا مجرد مثال يُعرَف به ما معنى المدِّ والبسط، أي: أن الأرض تُبسَط بسطًا كاملًا، تتحول من شكلها الكروي، وتكون مسطَّحة ممتدَّة.

ويحتمل أن المقصود: أن ما في الأرض من مرتفعات ومنخفضات تكون على مستوى واحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، بحيث تكون الأرض مستوية تمامًا لتستوعب الناس كلهم.

وللآية احتمال ثالث، وهو التوسعة والبسط، وهو معنًى لغويٌّ صحيح وجيه؛ فإن الله احتجَّ عليهم بأنه ينقص الأرض من أطرافها فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد:٤١]، فلا يمنع أن يكون من الآيات العظيمة في ذلك الموقف أن تُمَدَّ الأرض وتتسع أكثر مما كانت عليه؛ حتى تتسع للخلائق الذين يُحشَرون عليها في ذلك الموقف، والذين مرَّت عليهم قرونٌ اللهُ تعالى أعلمُ بطولها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣١٤).

* ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق:٤]:

ألقت ما كان في بطنها، ومثل هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة:٢].

فيُحتمَل أن يكون المقصود: أخرجت ما فيها من الموتى الذين كانوا في بطنها؛ ليكونوا على ظاهرها، أحياء بعدما نفخت فيهم الأرواح.

ويُحتمَل أن تكون ألقت ما فيها من الكنوز والخزائن وغيرها، وهذا وإن كان معنًى صحيحًا إلا أنه ليس مناسبًا لهذا الموقف؛ لأن الأرض قبل قيام الساعة تُخرِج كنوزها وخيراتها، كما جاء في أكثر من حديث صحيح[1]، فيكون المقصود هنا بإلقاء ما فيها: إخراج الناس، خصوصًا وأن مدار الكلام كله على الإنسان، فهو محطُّ التكليف والعناية، كما سوف يأتي هنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ ﴾ [الانشقاق:٦].

﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾، والتخلِّي من الخلوِّ، وكأنه يقول: (خَلَتْ)، لكن إضافة التاء مع التشديد (تخلَّت) توحي بالمبالغة في التخلص من كل ما في بطنها، وأنه لم يبقَ في جوفها شيء ألبتة.

وربما كان ذلك لأنه حتى الجمادات في ذلك الموقف يكون فيها شيء من الوَجَل، تريد أن تتخلَّى مِن كل شيء حتى لا يُسائِلها أحد ولا يطالِبُها بتبعة.

ولذلك يتمنَّى الكافر أن يكون جزءًا من هذه الأرض التي ألقت ما فيها وتخلَّت وانتهت مهمتها: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ:٤٠].

* ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق:٥]:

تكرار في موضعه؛ لأنه ذكر السماء، فذكر استماعها لربها، ثم ذكر الأرض، وذكر استماعها لربها، وذلك في نهاية الأمر، كما حدث في بداية الخلق حين قال سبحانه:

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٠١٣).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. فهو تفصيل مناسب في موضعه، جاء في أعلى درجات البلاغة والتأثير.

فهذه السماء، وهذه الأرض، وهما محيطان بالإنسان قد أذنتا لربهما وجاءتا طائعتين وكأنهما من العقلاء، ولذلك عاملهما لغويًّا كذلك، فعبَّر بـ﴿طَآئِعِينَ﴾ وهو جمع الذكور السالم العاقل، فما بالك بالإنسان المزوَّد بآلة السمع، والمميَّز بالفهم والعقل، وهو يصد ويعرض ويتغافل، ولذا جاء الخطاب مباشرة:

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]:

وهذا خطاب لفرد، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المقصود به: الرسول ﷺ.

وقال آخرون: المقصود أشخاص بأعيانهم من الكفار، كأبي جهل أو أُبي بن خلف أو غيرهما، والواقع أن المقصود بالآية هو جنس الإنسان أيًّا كان.

والنص يستغرق جنس الإنسان، وليس فيه تخصيص أحد من أحد، ولذا ذكر اختلاف مصيرهم بين نعيم وعذاب، مما يؤكِّد أن المقصود كل إنسان أيًّا كان طريقه ومذهبه، من مؤمن وكافر وبر وفاجر(١).

وخطابه تعالى للفرد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دليل على شرف الإنسانية وتميزها، وقبل ذلك قال عن الأرض: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، فلم يعد عليها حساب، ولم يوجَّه إليها سؤال ولا عتاب، بخلاف الإنسان الذي حمَّله ربُّه التكليف وجعله أهلًا لذلك.

فالحرية تقابلها مسؤولية، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، فمن شرف الإنسان أن يكون عاقلًا مسؤولًا محاسبًا، وإذا أخفق كان

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨).

الوبال عليه عظيمًا؛ وأصبح بمنزلة أحطَّ مِن المخلوقات المُسَيَّرة التي ليس لها اختيار، كالأرض التي يطؤها والكون الذي سُخِّر له.

ومن الأهمية بمكان الحفاظ على هذه الإنسانية، ولذا جاء الإسلام بحفظ حقوق الناس، حتى قال النبي ﷺ في خطبته الشهيرة في حجة الوداع: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم بينكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا**»(١).

فوظَّف المقدَّس الزماني والمكاني الذي يرعى الناس حرمته؛ للتأكيد على أهمية حفظ الحقوق الذاتية والمالية والمعنوية والضرورات التي بها قوام الحياة.

واليوم تبدو (حقوق الإنسان) وكأنها مُنْتَج غربي، أو نظام من أنظمة الأمم المتحدة، حتى إنَّ من المسلمين مَن يسمع كلمة حقوق، أو كرامة، أو حرية، فيحسُّ أنها ألفاظ مجلوبة من أمم أخرى، متناسيًا ترسيخ الإسلام لهذه الحقوق العظيمة في النصوص القطعية.

إن مخاطبة الإنسان بإنسانيته دليل على أن دين الله لم ينزل للإطاحة بإنسانيتهم أو دوس كرامتهم أو جرِّ نواصيهم، ولكن جاء ليحفظ إنسانيَّتهم بالتقوى والشريعة وطاعة الله ورسوله؛ ولذلك جاءت الشرائع والحدود والعقوبات الرادعة للمتجاوزين، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال عن بني إسرائيل: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

والذين يربطون الاستجابة لدين الله بإهدار كرامة المدعو أو إذلاله يعانون

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

مشكلة عويصة في فهمهم لدين الله، ويعجزون عن التمييز بين الدين المنزه العظيم، وبين أمزجتهم ومشاعرهم وعصبياتهم النفسية والجماعية التي لم يفلحوا في الخلاص منها.

وفي شأن المعصية يقول النبي ﷺ: **«إذا زَنَتِ أَمَةُ أحدِكم فتبيَّن زناها، فليجلدْها الحدَّ، ولا يثرِّبْ عليها»**(١).

ليس من حقه أن يعيِّرها أو يشتمها أو يهينها استجابة لدافع نفسي مريض، ولكن عليه أن يقيم عليها حد الله دون مواربة.

وفي حديث شَدَّاد بن أَوس ﷺ مرفوعًا: **«إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبحَ»**.

والقتل هنا يراد به حين يكون مشروعًا للقصاص أو غيره، والذبح يكون لحيوان: **«وليحدَّ أحدُكم شفرتَه، وَلْيُرِحْ ذبيحتَه»**(٢).

ولا يجوز التمثيل بجثة القتيل، ولو كان قتله مشروعًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾: ومن معاني «الكدح»: السعي.. والتعب؛ فالإنسان ساعٍ إلى ربِّه، ساع في آخرته وإصلاحها والاستعداد لها، وساع في دنياه بنجاحاتها وفرصها، والكدح إلى الله يشمل الاثنين معًا، ويشمل المؤمن والكافر؛ ولذا قال بعده: ﴿ فَأَمَّا ﴾.. ﴿ وَأَمَّا ﴾. وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي: ماض إلى الآخرة ولقاء الله، وكل يوم يدنيك منها، سواء كنت يقظًا مؤمنًا، أو غافلًا، أو منكرًا.

وفي حديث أبي مالك الأشعري ﷺ مرفوعًا: **«كلُّ الناس يغدُو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»**(٣). فإعتاقها بالطاعة، وإيباقها بالمعصية.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١١٣)، ومسلم (١٩٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

ولو تأمَّلت قدرة الإنسان وإمكاناته، لوجدتَها محدودة متواضعة، لكن الله جعل فيها أسرارًا وإعجازًا، ونوَّرها بالعقل الذي يفكِّر ويحفظ التجارب ويبني عليها حتى يحقِّق له تسخير الكون وبناء الحضارات: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

لقد أصبح الإنسان اليوم يطير في الفضاء، ويغوص في الماء، ويقرِّب المسافات، ويوظِّف ألوان الخبرات والإمكانات للتسهيل والترفيه، والسعادة والراحة، والعلاج والتواصل...

والتعب والعمل جزء من الفطرة وسنة الحياة، وبقَدْر ما تكون الحياة صعبة يتحقَّق معها النجاح والتوفيق، ولو ترك الإنسان العمل؛ لكان عليه من الهموم والغموم الشيء العظيم، وبقَدْر ما يشعُر من التعب والمرارة في العمل يشعُر بالسعادة والرضا عن الإنجاز ولو كان يسيرًا.

ولذا قال تعالى لمريم: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم:٢٥]، هي نخلة ثابتة، ومريم امرأة ضعيفة القوى وفي حالة طلق، وحال نفسية أليمة، ومع ذلك يأمرها سبحانه أن تهزَّ بجذع النخلة، ويَعِدُها أنها إذا فعلت فسوف تساقط عليها هذه النخلة رطبًا جنيًّا، فعلى الإنسان السعي، ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق والنجاح.

كم يكون طعم الرطب لذيذًا حين يشعر الإنسان أنه أخذه بنفسه أو شارك في زراعته أو قطافه!

و﴿ كَدۡحٗا ﴾ مصدر يُقْصَد به التوكيد.

وقوله: ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ يحتمل أمرين:

١- أن يكون مرجع الضمير إلى ﴿رَبِّكَ﴾ أي: إنك كادح إلى ربك فملاقٍ ربك، والخطاب عام للمؤمن والكافر، فكلهم ملاقوا ربهم جل وعز؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥]، واللقاء هنا معناه: البعث، وهذا أحد استخدامات لفظ اللقاء والملاقاة.

وثَمَّ معنى خاص بلقاء الله، وهو رؤيته يوم القيامة، وهذا خاص بالمؤمنين، يقول الله سبحانه وتعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، أما المؤمنون فيرون ربهم: «**أما إنكم سترون ربَّكم، كما ترون هذا القمرَ، لا تُضامُّون في رؤيته**»[١].

وعليه فالمقصود هنا: فملاقيه، أي: اللقاء العام الذي يشترك فيه المسلم والكافر كما سلف.

٢- أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إلى الكدح. يعني: العمل الذي عملته وكدحت فيه سوف تلاقيه وتجده في الدار الآخرة، والفاء هنا تدل على التعقيب المباشر، فبمجرد ما يلفظ الإنسان آخر نفس من أنفاسه ينتقل إلى مرحلة اللقاء، وينتقل من طَبَقٍ إلى طَبَقٍ، ومن حال إلى حال[٢].

وفيه إشارة إلى أن الإنسان يلقى جزاء عمله الدنيوي ولا يبخس شيئًا، كما ورد في العديد من النصوص القرآنية والنبوية، أن الله لا يظلم الكافر شيئًا، وأنه يُجازى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨).

بثواب ما عمل في الدنيا، من العافية والرزق والسمعة الحسنة وغير ذلك من عاجل الجزاء[1].

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٧]:

«أمَّا» للتقسيم، و«الكتاب»: كتاب تُدوَّن فيه أعمال الإنسان، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة.

مع أن الذي يحاسب هو الله تعالى، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ومِن كمال عدله أن جعل لكل إنسان كتابًا يشهد بأعماله ويحصيها عليه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: بيده اليمنى، وهم المؤمنون أصحاب اليمين أهل الجنة.

* ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]:

وهو العرض، كما في «الصحيح» عن عائشة ﷺ، أن النبي ﷺ قال لها: «مَن حُوسِب يومَ القيامةِ عُذِّب». فقالت له: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «ليس ذاك الحسابُ، إنما ذاك العَرْضُ، مَن نُوقِش الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب»[2].

والعرض أن تُعْرَض عليه ذنوبه، فيُعطى هذا الكتاب، وفي الحديث الآخر: «يدنو أحدُكم من ربِّه، حتى يضعَ كَنَفَه عليه -أي: ستره- فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرِّره، ثم يقول: إني سترتُ عليك في الدنيا، فأنا أغفرُها لك اليومَ»[3].

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر ﷺ.

* ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴾ [الانشقاق:٩]:

«الانقلاب»: الرجوع، قال الله: ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا ﴾ [الفتح:١٢]، وهذا يوحي بأن العرض يكون في زمن يسير ليس فيه إبطاء ولا تأخير.

والمقصود بـ«الأهل» هنا أهله الذين معه في الجنة، سواءً كانوا هم أهله في الدنيا، أو من غيرهم، يرجع إليهم مسرورًا سرورًا لا انقطاع له ولا حِوَل عنه.

وهذا في مقابل الكدح في الدنيا الذي كان يصحبه ولا بد من تعب وعناء وألم وكمد وضيق ونكد جبلت عليه تلك الدار.

* ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴾ [الانشقاق:١٠]:

وفي سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة:٢٥]، ولا تَعَارُض بين الآيتين، ويجمع بينهما بأن المقصود: أن تُشَدَّ يده إلى ظهره، ثم يُؤتَى كتابَه بيده الشمال وهي وراء ظهره، كما أن يده اليمين مغلولة إلى عنقه.

ويُحتمَل أن الكافر يأتيه كتابه من وراء ظهره، فيأخذه بشماله من خلفه.

* ﴿ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴾ [الانشقاق:١١]:

أي: ينادي بالثبور، وجرت العادة أن الإنسان إذا نزلت به مصيبة يقول: يا ويلاه! واثبوراه! والثبور: هو الهلاك الأكيد الطويل.

* ﴿ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق:١٢]:

أي: يدخل عذاب السعير، ومثل هذا قوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ ﴾ [إبراهيم:٢٩]، ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴾ [الليل:١٥]، ﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة:٣١]، ﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴾ [مريم:٧٠]، فـ«يصلى» أبلغ في الوصف وأشد في النكال.

فالسعير تستوعبه مِن فوقه ومِن تحته، وعن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن

ورائه، فهو يقاسي حرَّها وعذابها.

* ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق:١٣]:

يعني: في الدنيا، فقد يكون مسرورًا بالسخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم، كما في سورة المطففين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:٢٩-٣١]، وهذا السياق له صلة بسخرية المشركين بالمؤمنين في مكة، فهؤلاء إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين مسرورين.

وقد يكون مسرورًا بالدنيا وزينتها، وفي هذا دلالة على أن الله يمنح الكفار من لذَّات الحياة الدنيا برحمته وفضله، كما جاء في الحديث: «إنَّ اللهَ عز وجل يعطي الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ، ولا يعطي الدينَ إلا لِمَن أحب»[1].

وحين دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه بقوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾، أجابه ربُّنا سبحانه فقال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:١٢٦]، فحتى الكافر يرزقه الله مِن فضله، وهو يكفر به، ويعبد غيره؛ ولذلك تجد عند الكافرين شيئًا من السعادة العاجلة والاستمتاع بالأموال والأحوال والأولاد والطبيعة، لكن تظل الروح في عطش وقلق وكآبة، لا يكتمل معها سرور ولا يطول معها حبور.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٩)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (١/ ٣٣)، (٢/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٤٥، ٣٤٥٧٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٥) موقوفًا.
ورجَّحه الدارقطني وغيره. ينظر: «علل الدارقطني» (٥/ ٢٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

* ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق:١٤]:

﴿ظَنَّ﴾: أيقن، أو: شك، والآية تحتمل عدة معانٍ:

١- أنه لن يُبعَث بعد الموت.

٢- على فرض البعث بعد الموت، فسوف يكون على خير ولن يُعَذَّب، كما قال الله عن صاحب الجنة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، فيظن أنه لن يتغير وضعه حتى ولو بعث، وهذا ما كان يقوله المشركون في مكة.

٣- «الحَوْر» معناه الرجوع. «حار» يعني: رجع، وفي الحديث: **«ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوُّ الله. وليس كذلك؛ إلا حارَ عليه»**[١]. يعني: رجع عليه، فهذا من معاني الحور.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا سافر يستعيذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[٢]، يعني: النقص بعد الكمال، والضلال بعد الهدى، والكفر بعد الإيمان.

فيكون المعنى: ظن أنه في ازدياد دائم ونمو متواصل، وأن النقص لن يعتريه، مع أن النقص سنة الله لمَن وصل إلى التمام، كما قيل:

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالًا إذا قيل: تم!

وإذا بدأ النقص فهو كالمُسْرِع النازل من قمة جبل سرعان ما يجد نفسه في قرارة الوادي.

٤- التغيير. تقول: هذا الكلام فيه تحوير. يعني: فيه تغيير، وحَوَّر الشيء. أي: غيَّره أو بدَّله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤٣) من حديث عبد الله بن سرجس ﷺ.

أي: ظن أنه لن يتغير عما هو عليه، وهذا يقع للأفراد من جهة نفوسهم، فالإنسان إذا كان ممتَّعًا موسَّعًا له في الرزق والعافية والصحة والشباب، لا يكاد يتخيَّل نفسه على غير تلك الحال، ويظن أنه باقٍ عليها، وإن كان يعرف نظريًّا أن الأيام والليالي تمرُّ عليه وتؤثِّر فيه، فالغني لا يتصوَّر نفسه قد افتقر، والمُعَافى لا يتصوَّر نفسه قد مرض والشاب لا يتصوَّر نفسه وقد هَرِمَ وشاخ، وهذا من أسباب الركون والغفلة.

وكذلك على صعيد الأمم والجماعات، فإنه يغلب على الناس الشعور ببقاء ما هم عليه، ويستبعدون حين يسمعون مَن يحذِّرهم من عواقب الأمور، وكأنهم استثناء لا تجري عليهم السنن ولا تحق عليهم الآيات! كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤] أي: ما لكم من تغيير.

* ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:١٥]:

ومَن كان بعبده بصيرًا، فلا شك أنه بصير بما في قلبه من الكفر والتكذيب والظنون.

* ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق:١٦]:

هو إن كان نفيًا، إلا أنه نوع من القسم، فالله تعالى يقسم بالشَّفَق، وفيه أقوال:

منها: الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت أذان العشاء، نحو ساعة، وهذا قول جماعة من الصحابة، كابن عمر وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة رضوان الله عليهم، وهو المعروف عند أهل اللغة، كالخليل بن أحمد والجوهري وغيرهما.

وفيه أقاويل أخرى ذكرها المفسرون، كابن الجوزي وغيره[1].

* ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق:١٧]:

يقسم بالليل وبما جمعه الليل. والعطف دليل على قوله: (لا أقسم) هو قسم بمثابة قوله: أقسم..

و﴿ وَسَقَ ﴾ أي: جمع، ومنه (الوَسْق) وهو إناء كبير يسع ستين صاعًا، كما هو معروف عند أهل اللغة والفقه، ووسق الشيء: جمعه.

والمقصود ما يحتويه الليل من أحوال، من نوم وعبادة وطاعة ومعصية، وما يسكن فيه من حيوان وطير وهوام، وإنس وجن وحيتان في البحر، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله: ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد:١٠].

ويدخل فيما وسق: النجوم والكواكب والقمر، فهي وإن كانت موجودة في الليل والنهار، إلا أنها لا ترى إلا بالليل، فهي به أنسب وألصق؛ ولهذا أقسم الله تعالى بالليل، وأقسم بما جمعه هذا الليل.

* ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ [الانشقاق:١٨]:

أي: إذا اكتمل نوره وصار بدرًا، والقمر مظهر من مظاهر الجمال، والعرب في أشعارهم كثيرًا ما يشبِّهون الوجه الجميل بالقمر لبياضه واستدارته.

وفي القَسَم إشارة للإبداع الرباني في الخلق، فالجمال والزينة مقصد من مقاصد الخلق: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ [النحل:٦]، والنجوم زينة،

(١) ينظر: «كتاب العين» (٥/ ٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٢١١١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٣٣٣)، و«مسائل عبد الله بن أحمد» (١٨٦، ١٨٧)، و«الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٣٣٩-٣٤٢)، و«الصحاح» (٤/ ١٨٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٢٦٩)، و«سنن البيهقي» (١/ ٣٧٣)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ٧١-٧٧).

والحسن نعمة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤]، وفي «الصحيح»: «إن الله جميل يحب الجمال»(١).

وكذلك الانتظام والترتيب والاتساق وبلوغ الشيء كماله درجة درجة، ومثله التنويع والتبادل والتناوب ما بين الليل والنهار والشمس والقمر والذكر والأنثى.

* ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]:

هذا جواب القسم، وقال ابن عباس والحسن البصري وغيرهما: أي: لتركبن حالًا بعد حال(٢).

والقراءة المشهورة: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء لخطاب الجماعة، وفي قراءة: (لَتَرْكَبَنَّ)(٣) أي: لتركبن أنت أيها الإنسان، والمقصود الجنس، فهو ينتقل من حال إلى حال، من الطفولة إلى الشباب.. إلى الكهولة.. إلى الشيخوخة.. إلى الهرم، وتتداوله النقائض من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل، والقوة والضعف.

وانتقال الإنسان من حال إلى حال هو من الحَوْر، وفيه رَدٌّ على مَن ظن أن لن يحور، وما الانتقال من الدنيا إلى الآخرة إلا ركوب طبق عن طبق، فالحور أصل في خلقة الإنسان وكينونته، في الفرد والأسرة، والجماعة والمجتمع، والدولة والأمة، فلا تستقر الأمور، ولكنها في تغير مستمر، وهذا التغيُّر فطري وضروري كون المقصود إنسانًا مربوبًا مخلوقًا على صفة خاصة فلا استقرار ولا استمرار.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧١٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٠)، و«صحيح البخاري» (٤٩٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٠-٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٩).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٧)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٦)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣٦١-٣٦٣).

و«الكدح» المذكور في السورة: يستدعي شيئًا من التغير والانتقال، فالكدح هو للانتقال من حال إلى حال فيما يظن أنه أفضل وأكمل، وكدح المؤمن يشمل الشكر والطاعة والعبادة، وهي ملائمة للحال التي هو عليها في الدنيا، فطاعة الصغير ليست كالكبير، وطاعة الغني ليست كالفقير، والصحيح ليس كالمريض، والقوي ليس كالضعيف، والعزيز ليس كالذليل.. وتغيرات الحياة تتطلب الكدح واليقظة المستمرة.

المعتاد في اللغة أن يقال: لتركبن طبقًا (بعد) طبق، لكن قوله: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أقوى وأبلغ في الدلالة؛ لأنها تدل على عمق التبدل والانتقال، كأنه ينتقل من طبق إلى طبق آخر، ويقع له التغيير الذي هو سُنَّة إلهية.

ومن معاني «الطبق» في اللغة: الشدة، حتى إن العرب يسمون المصيبة أو الداهية: «بنت طَبَق»، ومن أسماء الحيات عندهم: «أم طَبَقٍ»، و«بنت طَبَق»، وهذا اسم حية مخيفة، فاستعاروه للنوازل والمصائب التي تلمُّ بالإنسان[1].

إن طبيعة الحياة هي الانتقال والتغير، ثم انتقال تفرضه المرحلة العمرية من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة، أو انتقال لما هو أفضل؛ من الجهل إلى العلم، ومن المعصية إلى الطاعة، أو انتقال متصل بطبيعة الحياة والمجتمع ومستواه الاقتصادي والثقافي.

أو انتقال قسري اضطراري لا حيلة للمرء فيه.

وقد رأيت الناس يتشاءمون بما يقع من التغيرات، وينظرون إلى الجانب المظلم منها، وينظرون للماضي دائمًا على أنه خير من الحاضر. ويظنون القادم أسوأ، وهذا ربما بسبب الإفراط في الخوف، والخير للإنسان أَلَّا يفرط في التشاؤم، والتوازن مطلوب،

(١) ينظر: «لسان العرب» (ط ب ق) (١٠/ ٢١٣)، و«تاج العروس» (ط ب ق) (٢٦/ ٥٣).

والوسط هو جادة المنهج الحق.

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس كل ما يقع من التغيير هو بإرادة الإنسان، بل ثَمَّ تغييرات جارية متصلة بـ«الشَّفق» و«الليل إذا وَسَق» و«القمر إذا اتَّسق»، متصلة بالليل، فالزمن يفعل فعله في الأجساد والعقول والنفوس والأحوال، وقد حاول الأطباء البحث عن دواء يؤخِّر الشيخوخة فلم يعودوا بطائل، ولو أمكن هذا فأنَّى لهم أن يؤخِّروا الموت ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨].

ولذلك كان كثير من الحكماء يقول: إذا رأيت تحولات تقع عليك، فاعلم أن التدبير بيد غيرك.

* ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠]:

والسؤال هنا استنكاري، أَبَعْدَ كل هذه الآيات والدلائل على ألوهية الله وقدرته على البعث والنشور لا يؤمنون.

* ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:٢١]:

المقصود بالسجود هنا الطاعة والامتثال؛ ولهذا قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست من عزائم السجود؛ لأن المقصود بالسجود فيها ليس هو فعل السجود بذاته، وإنما ما يترتب على سماع القرآن من الإيمان، والخضوع لله سبحانه، والتوجه بالعبادة له وحده؛ فليس العتب أنهم لا يسجدون السجود الحسِّي، وإنما لتركهم الإيمان به والاستجابة لأمره، وقد ورد في «الصحيحين» أن أبا هريرة رضي الله عنه صلَّى بالناس فقرأها وسجد[١]؛ ولذلك عَدَّها الشافعي وأحمد وغيرهم رحمهم الله من مواضع السجود في القرآن، وعددها أربعة عشر موضعًا[٢].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٧٨).

(٢) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٣٤٧-٣٥٣).

* ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٢]:

﴿ بَلِ ﴾: للإضراب، وبيان السبب، و﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، فهم كلما ورد إلى قلوبهم وارد من دواعي الإيمان جحدوه وقاوموه، بدل أن يؤمنوا ويسجدوا.

وهل الآية عامَّة في الكفار كلهم، أم هي لبعضهم؟

الأرجح أنها لبعضهم؛ لأن الله ذكر لنا إسلام بعضهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣].

والواقع يشهد لهذا، فكم من أمة أو طائفة دعيت إلى الإسلام فأسلمت، وصَدَقَت في إسلامها.

فهؤلاء الذين أسلموا، وكانوا بالأمس كفارًا، كان سبب كفرهم في الغالب الجهل وليس الكبر والمعاندة، فلم يأتهم بشير ولا نذير، ولم تقم عليهم حجة، ولم يسمعوا الحق بصفاته من غير تشويه، ومجموع أخبار القرآن عن المعرضين تدل على أن من الناس مَن يكفر جحودًا وهو يعلم الحق، وهؤلاء ممن أخبر الله عنهم في هذه الآية، وكما في قوله في الآية الأخرى: ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣].

ومن الناس مَن يكون سبب كفره الجهل، فإذا بُيِّن له الحق لان له قلبه وقَبِلَه، وبعض الناس قد يقع له شك أو تردد، ثم يزول بالبحث والتحرِّي والنظر، وهذه أحوال مختلفة، وعليه فيكون السياق في قوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ في حق فئة من الكفار، وكأن مَن كانوا يعاندون ويواجهون النبي ﷺ من هذا الصنف، خصوصًا صناديد قريش.

* ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٣]:

﴿ يُوعُونَ ﴾: من الوعاء، كما تضع الشيء في وعاء. فالله أعلم بما يوعون، أي: بما تحويه قلوبهم من التكذيب إن كانوا مكذِّبين، أو من الجحد إن كانوا جاحدين، أو من الحقد على النبي ﷺ، أو من الكيد والمؤامرة؛ لأنهم لم يقتصروا على الكفر فحسب، بل زادوا الحرب وصد الناس من الدخول فيه، والاستهزاء بالمؤمنين.

* ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق:٢٤]:

ولفظ البشارة هنا سيق مساق الاستهزاء والسخرية؛ لأنهم كانوا يبطنون في قلوبهم شيئًا، ويظهرون بألسنتهم شيئًا آخر، فجاءت الآية تقول: ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾، والبشارة في الغالب تُستخدَم في الخير، وإنما استُخدِمت هنا في نقيضه في حقهم، فبُشِّروا بعذاب أليم نقيض ما ينتظرونه.

والمقصود يوم القيامة، وهو في مقابل السرور الذي كانوا فيه في الدنيا ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾.

* ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ [الانشقاق:٢٥]:

هذا استثناء، وهو عند جمهور المفسرين استثناء متصل غير منقطع. يعني: بشِّر الكافرين بعذاب أليم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهذا يعني أنهم بدَّلوا الكفر بالإيمان، وبدَّلوا الأعمال السيئة التي كانوا يعملونها بالعمل الصالح، ولا يمنع هذا أن يكون المقصود كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء سبق هذا الإيمان كفر أو لم يسبقه؛ لأنه إذا جاز أن يكون هذا الوعد لقوم كفروا وكذَّبوا وعاندوا، ثم آمنوا وعملوا الصالحات، فوسعتهم رحمة ربنا سبحانه، ووعدهم بالأجر والفضل، فلأن يكون ذلك لـمَن لم يسبق منه كفر ولا عناد لمِن باب أولى.

وفيها إشارة إلى ترابط الإيمان والعمل الصالح، ولفظ الإيمان يعمُّ العمل

الصالح؛ وذكر هنا على سبيل التوكيد، وأن الإيمان ليس مجرد عمل القلب، بل هو ما يفضي إليه من الأعمال الصالحة.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: ليس فيه مَنٌّ ولا أذى، كما هو شأن الناس أنهم يمنُّون إذا أعطوا، فبيَّن سبحانه أن الأجر الذي يعطون في الجنة -وحتى في الدنيا- ليس فيه مَنٌّ ولا أذى لهم ولا إهدار لإنسانيتهم.

وللآية معنى آخر وهو أن الأجر دائم مستمر بلا انقطاع، جزاء كدحهم في العبادة والطاعة الذي استغرق عمرهم كله؛ ولذلك ورد أن الإنسان لو ترك العمل الصالح لعذر مثل مرض، أو سفر، أو هَرَم، فإنه يُكتَب له ما كان يعمله وهو صحيح مقيم[1].

وتحتمل الآية معنًى ثالثًا وهو: الزيادة وعدم النقصان، أي: غير منقوص، فإنه لا ينقص مع الوقت، وإنما هو مستمر، بل هو في زيادة، فكل يوم لهم من ربهم سبحانه هدايا وإفضالات عظيمة.

والآية الكريمة تشمل أجر الدنيا وأجر الآخرة.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى ﷺ.

سُورَةُ البُرُوجِ

سورة البروج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ
(٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا
نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ
وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١)
فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ (٢٢) ﴾ [البروج:١-٢٢].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة البروج». وهو الموجود في المصاحف، وعليه غالب كتب التفسير[1].

٢ - وقد ورد تسميتها في السُّنَّة: «سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾»، كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ونحوهما من السور[2].

* عدد آياتها: (٢٢) آية، كما في المصحف، وليس في ذلك خلاف فيما أعلم[3].

* وهي مكية باتفاق أهل التفسير، ذكره جمع؛ كالطبري، والقرطبي، والألوسي،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الطيالسي (٨١١)، وأحمد (٢٠٩٨٢، ٢١٠١٨، ٢١٠٤٨)، وأبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والنسائي (٢/ ١٦٦)، وفي «الكبرى» (١٠٥٣)، وابن حبان (١٨٢٧).
ووردت روايات بدون الواو فيهما: «السماء ذات البروج»، «السماء والطارق». وينظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥).

وابن عاشور، وغيرهم[1]، وواضح من سياق السورة وموضوعاتها أنها مكية.

أما فيما يتعلق بموضوعها، فهي من السور القليلة المخصَّصة من أولها إلى آخرها لمعالجة قصة واحدة، وهي في هذا تشبه سورة يوسف، المخصَّصة لسرد القصة، واستنطاق عبرها، ولفت الأنظار إلى دروسها، حتى ختمها بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١].

وقد اختلف العلماء والمؤرِّخون في قصة الأخدود، والأقرب أنها وقعت في أطراف اليمن، في المنطقة التي تُسمَّى اليوم: (نجران)، وعندهم وادٍ يسمى بالأُخدود، وقد يكون هذا الاسم مُستحدَثًا، لكن غالب الروايات التاريخية تؤكِّد أن (نجران) وما حولها هي مسرح القصة.

وكان وقوعها بعد الـ (٥٠٠) من الميلاد، في عام (٥٢٢) أو (٥٢٣)، فهي قبل حادثة أصحاب الفيل، وقبل ميلاد النبي ﷺ بعشرات السنين.

وهذا يجعل من المحتمَل أن يكون بعض القصة قد وصل إلى العرب، وتداولوه وعرفوه، فيكون حديث القرآن عن هذه القصة هو لاستخراج العبر، ولتصحيح الروايات المغلوطة، وإن كنا لا نعرف في شعر العرب -الذي هو ديوان حياتهم وسِجل ثقافتهم- نصوصًا تؤكِّد معرفتهم بهذه القصة، فالله أعلم.

وقد ورد في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قصة الغلام والساحر والرَّاهب، وأن هذا الغلام -الذي يقال: إن اسمه عبد الله- تردَّد بين الساحر والراهب؛ لينظر أيهما أصدق وأحب إلى الله، فجعل الله له آية في الدابة التي حبست الناسَ، فدعا الله، فقال: «اللهمَّ إن كان أمرُ الرَّاهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتُلْ هذه الدابةَ؛ حتى يمضيَ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٢٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦، ٢٥٧).

الناسُ». وأخذ حجرًا، فرماها فقتلها، وخرج الناس وانطلقوا يمشون في طريقهم، ثم عالج وزيرَ المَلِك فشُفِي وكان أعمى، ثم علم به الملك وقرَّره على الشرك بالله، فأصرَّ الغلام على الإيمان فقتله بقوله: «بسم الله رب الغلام».. بعد أحداث مذكورة في الحديث؛ فآمن الناس كلهم، وقالوا: آمنا برب الغلام. فخدَّ المَلِك لهم أخاديد، وحفر لهم في الأرض، وعرضهم على النار، فمَن ارتدَّ منهم تركه، ومَن أصرَّ منهم على التوحيد أحرقه(١).

وليس في السياق النبوي نصٌّ على أن هذه هي قصة أصحاب الأُخدود، إلَّا أن السياق متقارب، وعلى ما هو ظاهر من السياق، فإن الملك الذي عذَّبهم كان مشركًا، والوثنية كانت موجودة في منطقة اليمن.

وهناك احتمال آخر، وهو الأرجح عند المؤرِّخين، أن الملك الذي عَذَّبهم هو: يوسف ذو نُوَاس، وكان يهوديًّا، واليهود أيضًا كان لهم وجود في اليمن، وكانت لهم فيها هيمنة اقتصادية، فكأن النصارى الذين بنجران صار لهم شوكة وقوة ونفوذ، وكان بينهم وبين اليهود اختلاف، فاستنجد اليهود بهذا الملك، فأتى وأنجدهم وعرض المؤمنين على النار وأحرقهم.

وكان من جرَّاء ذلك أن تداعت الأمم النصرانية لنجدة إخوانهم ولقتال هذا الملك الظالم، وفعلًا جاءت جيوش من الحبشة وغيرها، وهزمت هذا الملك، حتى قيل: إنه في آخر أمره ألقى بنفسه في البحر فغرق(٢).

وفي هذه القصة دروس مستفادة؛ حيث تظلُّ العبرة قائمة في هذه السورة على

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٣٠٠٥).

(٢) ينظر: «نسب مَعَد» (٢/ ٥٤٧)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (١/ ١٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٩)، و«تاريخ دمشق» (٧١/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٠، ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧١).

كل حال، وقبل أن أنتقل إلى ما يتعلق بسياقات القرآن، أشير إلى عدد من المعاني المهمة المتعلِّقة بالقصة:

١- يلحظ القارئ في السورة التنفير من العدوان على الناس، واضطهادهم في دينهم، وأن ذلك يستوجب أقسى العقوبات في الآخرة، ويستنزل سخط الرب تبارك وتعالى.

ودين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ، جاءت شريعته بقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وبقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩]، وبقوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٩-١٠].

ولهذا لا يُعلم في التاريخ الإسلامي أن المسلمين أكرهوا الشعوب على الدخول في الإسلام، مع أنهم فتحوا بلدانًا كثيرة وكان لهم الغلبة والقوة والسلطان، فعاش النصارى واليهود، بل والوثنيون في عموم البلاد على دياناتهم، تُؤخَذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، ولا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام، فهذه شهادة عظيمة(١).

فجاء الإسلام لحماية حرية الفرد في اعتقاده، وعدم السماح باضطهاد الناس أو تعذيبهم.

٢- أن السورة نزلت بمكة، والمسلمون فيها مضطهدون، فمنهم مَن عُذِّب حتى قُتِلَ؛ كما فُعل بسُمَيَّة أُمِّ عمار بن ياسر ﭬ، وبلغ من تعذيبهم أنهم كانوا يقولون للمسلم والجُعَلُ(٢) يمر من عنده: هذا الجُعَلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم؛ لما

(١) ينظر: «المدونة» (١/ ٥٢٩)، و«الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٣/ ١١٠).

(٢) دابة تشبه الخنفساء.

يتّقي منهم من الأذى والتعذيب[1].

وبلالٌ ﷺ كان يُضرَب في حرِّ الرَّمْضاء، ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[2].

وقد تجاوز أولئك الطغاة من قريش القيم العربية التي كانوا يفتخرون بها من الكرم والعدل، وحفظ الجوار والإعراض عن الأذية، فتسلَّطوا حتى على النساء، مثلما نجد في عدد من الحالات، منها: قصة سُمَيَّة ﷺ، حيث ضربها أبو جهل في موضع العِفَّة منها بحربةٍ فقتلها[3].

ويُفهم من هذا الفعل الأَرْعَن اللَّئيم إلى جوار الاعتداء على حرية التديُّن، احتقارًا للأنوثة، وكأن لسان حاله يقول: ما احتملنا الخروج عن ديننا من الرجال الذين صفتهم كيت وكيت، فكيف نحتمله منك ومن أمثالك من النساء. ولا زال أهل الجاهلية إلى اليوم يعيِّرون المرأة بأعضائها الداخلية، كفرًا بالخالق، وإعراضًا عن فهم حكمته في الخلق.

فهذه السورة جاءت سُلوانًا للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين، وضرب الله فيها مثلًا من الأمم السابقة، كما في القصة التي رواها البخاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بُرْدةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا؟! أَلَا تدعو لنا؟! فقال: «قد كان مَن قبلَكم، يُؤخذُ الرجلُ، فيُحفرُ له في الأرض، فيُجعلُ فيها، فيجاءُ بالمِنشار، فيُوضعُ على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويُمشَطُ

---

(١) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص١٩٢-١٩٣)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٨٤)، و«أسد الغابة» (٤/ ١٢٢)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٣٢)، وفي «فضائل الصحابة» (١٩١)، وابن ماجه (١٥٠)، وابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم (٣/ ٢٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٨١-٢٨٢) من حديث ابن مسعود ﷺ. وينظر: «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٣) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ١٩٢)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢٠)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٨٦٤- ١٨٦٥)، و«أسد الغابة» (٧/ ١٥٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٠٩).

بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، والله ليَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموت، لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

فهذا نوع من التسلية بضرب المثل، وقد اقتضت سنته سبحانه أن يوجد في البشر مِن ذوي النفوذ والسلطان مَن يفتنون الناس في دينهم، ويهينون كرامتهم؛ إرغامًا لهم على اتِّباعهم والاستسلام لأهدافهم، وكسرًا لإرادتهم في مواجهة الشرِّ والاحتلال والاضطهاد والاستغلال، والشواهد من جرائم المحتلِّين والغاصبين في سائر بلاد الله كثيرة.

فجرت حكمته أَلَّا يخلو زمان من طغاة ومجرمين ومتجبِّرين، ليس عندهم عدل ولا ميزان؛ ليمتحن إيمان الناس وصبرهم وتوكُّلهم عليه، ومدى يقينهم بوعده سبحانه.

وهذا الدرس هو ما تشير إليه هذه السورة، ومثل ذلك قول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ [يونس:٤٦]، يعني: أن الأمر محتمل أن يُرى ما وُعد ﷺ، أو أن يتأخر ذلك عن حياته، ويحدث فيما بعد.

وإذا تجاوزنا التسلُّط العام الذي تمارسه جهة ذات قوة ونفوذ، فلا يخلو المؤمن أن يجد مَن يؤذيه، حتى من ذويه، وقد ورد في بعض الآثار: «لو كان المؤمن على قَصَبة في البحر، لقيَّض الله له مَن يؤذيه»[2]. وكما قيل:

ولستَ بناجٍ من مَقَالة طاعنٍ ... ولو كنتَ في غارٍ على جبلٍ وَعْرِ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٦٩٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٤٢) من قول سلمة بن كُهيل.
وأخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (٤٤٣) من قول طَلْق بن حَبيب.
ورُوي نحوه مرفوعًا من حديث أنس ﷺ، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٣٦٠).

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا ولو غاب عنهم بين خافِـيَتَيْ نَسْرِ[1]

وقال ابن الوَرْدي:

ليسَ يخلـو الـمـرءُ مـن ضدٍّ وإنْ حـاولَ العُـزْلـةَ في رأسِ جَـبَـلْ[2]

وحتى لو كان لا يتعرَّض لأحد، ولا يتعدَّى حدوده، وقد يتنازل عن بعض حقه، فربما تسلَّط عليه جار أو زميل أو رئيس أو مرؤوس أو قريب أو زوج؛ فهذه سنة الله في الحياة، وفي مثل هذه الأحوال من التسلُّط الفردي أو الجماعي تأتي دروس الصبر والعزاء في القرآن الكريم.

٣- وهذه الدروس في الصبر والتسلية، لا ينبغي أن تُفْهَم على غير وجهها، فيفهم منها التشوُّف والتطلُّع إلى افتعال الصراع مع الآخرين بغير سبب ولا مُوجِب.

ولقد تأمَّلتُ طرائقَ المؤمنين فيما يعرض لهم من تحديات وصعوبات، فوجدتُها تدور حول ثلاث طرائق:

الأولى: هي أسلوب الاعتزال والترك.

وهذا أظهر ما يكون في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف:١٦]، وذلك أنهم هربوا من أهليهم وبيوتهم وأُسَرهم، فهداهم الله إلى الكهف، حيث لم يكن لهم قوة ولا قدرة ولا طاقة في مواجهة عدوهم، ولذلك كان الاعتزال هو المناسب لهم؛ ليحفظوا دينهم، فحفظهم الله، وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣][3].

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافيتي النسر: هي الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خَافِيَةٌ.

(٢) ينظر: «الكشكول» (١/ ٢٣٤)، و«نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص ١٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٠٦).

وقد يكون الاعتزال في كثير من الأحيان هو المناسب للمؤمن فردًا أو جماعة.

والاعتزال إما أن يكون **اعتزالًا كليًّا**؛ وذلك إذا كان لا يجد إلَّا شرًّا محضًا، أو كان يخشى على نفسه، ولما سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن أفضل الناس قال: «**رجلٌ يجاهدُ في سبيل الله بماله ونفسه**». قال: ثم مَن؟ قال: «**مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشعابِ يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه**»[1].

فهذا إنسان يخاف على دينه أو يخشى إن داخل الناس وخالطهم أنه ربما غيَّر بطريقة منفِّرة، فأفسد من حيث أراد الإصلاح؛ ولهذا قال: «**يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه**»؛ فهذه طريقة، ولكنها ليست هي الطريقة الفاضلة.

وقد يكون **الاعتزال جزئيًّا**؛ وذلك باعتزال أماكن السوء، مع مخالطة الناس ومداخلتهم ومعاشرتهم، حتى لو عاش المرء بين أظهر قوم مشركين أو منافقين، فلا بد له من مخالطتهم، فإنه لا يستغني عنهم في أمور دنياه؛ لكنه يقتصر من المخالطة على القدر الضروري، ويبتعد عن الأماكن التي فيها سبب لفتنته عن دينه، أو إثارة شهوته، أو حمله على المواقف السيئة.

الطريقة الثانية: **المواجهة والمصادمة**.

والمصادمات تُحدِث الحماس، وتستثير المشاعر والأحاسيس، ويجري فيها التحشيد والتجييش، حيث ينقسم الناس إلى فريقين: كل فريق يتكاتف على وجهته، وربما ترتفع وتيرة التعاطف، لكن العبرة بالنتائج؛ لأن النفس البشرية تستعجل في مثل هذه المواقف، وتندفع بسبب الغَيرة مع حداثة السن، أو ضعف التجربة، ومِن ثَمَّ تخسر أكثر مما تربح، بل قد تكون الخسارة فيها صرفة لا ربح فيها، وقد يتحول الدافع إلى أن يصير دافعًا غير شرعيٍّ، بل هو الانتقام أو الإصرار أو إلحاق الأذى، وإن كان يدري أن المصلحة تجافيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٨٨٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

فالخوارج مثلًا لما أحدثوا المصادمة داخل المجتمع الإسلامي، كان دافعهم الغَيرة، والشعور بأن ثَمَّ شيئًا مختلًّا يجب تصحيحه، وإعادته إلى الأمر الأول، لكن الواقع يشهد بأن الذي قام به هؤلاء لم يُصْلِح النقص الذي زعموه، بل زاد الطين بِلَّة، وشغل المسلمين عن حركة الفتوح والإصلاح والتغيير، وأسهم في مزيد من التسلُّط والاستبداد السياسي؛ لأن الحكومة عندما تنشغل بمقاومة تمرُّد داخلي، تجد ذلك عذرًا في تأجيل الإصلاحات وبخس الحقوق.

ومعظم الحركات التي تقوم على المصادمة والمواجهة العسكرية تؤول إلى الخسارة والهزيمة، والحركات التي نجحت في هذا الجانب محدودة، وقد أشار ابن خلدون في «مقدمته» إلى كثيرين يذهبون مأزورين غير مأجورين؛ لضعف فقههم، وقلة بصيرتهم وخبرتهم، وقد يكون عند بعضهم تدين وعاطفة، لكن ليس عندهم فهم وإدراك ورؤية[1].

وبعض الجماعات الإسلامية اليوم داخَلها بعض الاندفاع، فأصبحت تأنس بالصراع والمقاومة، وهذا يتجاوب مع شيء في النفس، حتى إننا الآن لو قلنا: إن خطأً وقع؛ لسارع الناس إلى المواجهة والإنكار والمتابعة والتواصي بذلك.

ولو طُلِب من الناس فعل خيري إصلاحي ابتدائي، وليس رد فعلٍ، كالقيام بدعوة، أو تنمية، أو إعلام، فلن يكون الحماس بنفس القدر، **فهذا مأخذ تربوي يجب أن يُتَفَطَّن له.**

هل معنى ذلك أن نبطل الصراع؟

لا أحد يستطيع أن يبطل الصراع؛ لأنه سنة ربانية، وحتى لو أبطلته أنت، فلن يبطله خصومك، ونصوص الكتاب والسنة في أخبار الأنبياء مع أممهم، وحوادث التاريخ، ومعاينات الواقع المشهود تثبت وجود الصراع وأنه قدر لا مفر منه.

---

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص٢٠٠).

ثَمَّ فرق بين إلغاء الصراع أو استبعاده من الحياة بالكلية، وبين أن تتولَّد فكرة تأجيج الصراع أو استعجاله، وفي الحديث المتفق عليه: «**يا أيها الناس، لا تتمنَّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**». وافتعال الصراع في غير محله وفي غير أوانه ودون استفراغ الوسائل الأخرى، غالبًا يحدُث ممن لا صبر له، ولا نَفَس طويلاً له، ولذلك سرعان ما يفر من الصراع إذا جد الجد، ولذلك قال: «**فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(١). أي: فإذا أصبحت المعركة مفروضة على المسلمين، فعليهم حينئذٍ أن يصبروا وألَّا يفرُّوا، كما قال الشاعر:

فما كلُّ صبَّار على الصَّبرِ يَصْبِرُ

فالأمر يتطلَّب فقهًا وحكمة؛ ولذلك ينبغي أن نعلم بأن التضحية مطلوبة، لكن قبلها الحكمة والفهم والفقه، وقبل أن تستخدم يدك، عليك أن تستخدم عقلك.

الطريقة الثالثة: المدافعة، كما سمَّاها الله تعالى، حيث قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ كما في سورة البقرة [٢٥٢]، وكما في سورة الحج [٤٠].

وتكون المدافعة من خلال دفع قَدَر الشر بالخير، وقَدَر المعصية بالطاعة، وقَدَر الشهوة بالتقوى، وقَدَر الشبهة بالعقل، وقَدَر التفرُّق بالوِحدة، وقَدَر الضلال بالهدى، وبَذْل الممكن والمستطاع في ذلك في مصالح الدين والدنيا.

وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتطلَّعون إلى هذا المعنى، فموسى ﷺ كان يقول لفرعون وقومه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧]، أي: خلِّ بيني وبينهم، واتركني وشأني أدعو قومي من بني إسرائيل.

وشعيب ﷺ كان يقول: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).

أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٧].

ومحمد ﷺ كان يقول لقريش: **«يا وَيْحَ قريشٍ! لقد أَكَلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائرِ الناسِ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ عليهم، دخلوا في الإسلامِ وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوةٌ، فماذا تظنُّ قريشٌ! والله إني لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ له حتى يظهرَه اللهُ له، أو تنفردَ هذه السالفةُ»**[١]. ولكنهم أَبَوْا.

وفي «المسند»، و«السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«المؤمن الذي يخالِطُ الناس، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالِطُهم، ولا يصبرُ على أذاهم»**[٢].

مخالطة الناس والصبر على أذاهم منهج نبوي، وطريقة سلفية، وما كان من الأنبياء السابقين، كقول موسى وشعيب عليهما السلام فليس منسوخًا في شرعنا، ولكنه باقٍ يُعمل به في نطاقه وفي ظرفه وحالته.

وهذه الطريقة هي أَمَرُّ وأشد الطرق على النفس وأطول تضحية، مع أنه قد يبدو في بادئ الرأي أن الثانية أشد وأكثر تضحية.

الطريقة الثانية أكثر إزهاقًا للأرواح، وقد يظن بأنها حل سريع، لكن الطريقة الثالثة أشق وأضمن، وربما خرج الإنسان من حال ليجد نفسه فيما هو أسوأ منها.

وهذه نوازع النفس الإيمانية الغيورة، ولكن ليس بالضرورة أنْ تُؤتي أُكُلَها وتعطي ثمارها، ما لم تكن موزونة بعقل ورأي، وإدراك ومعرفة؛ بأن يعرف الإنسان أين يضع نفسه، وأين يضحِّي بها، ومتى يُقْدِم، ومتى يُحْجِم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٩٨٨)، وأحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

فالطريقة الثالثة أصعب وأشق على النفس؛ لأنها تتطلَّب صبرًا طويلًا وجميلًا، وطول نفس، كما أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ، ولأن الإنسان يلقى الابتلاء حتى من بعض الأخيار، الذين لا يدركون هذه المعاني، ويكونون في عجلة من أمرهم، ويعيِّرون مَن لا يقرُّهم على خطئهم بالنكوص والتراجع والجُبن، أو بالتواطؤ مع الخصوم، أو بالضلال والجهالة، وربما يكون هدفًا سهلًا لهم، خاصة مع ضعف التقوى وقلة العقل عند شباب مندفع في مقتبل عمره، وهو في حالة يأس من الحياة وتشبُّع بأفكار ومفاهيم يرى العالم من خلالها، ويراها مقدَّسة لا يفكر بتغييرها والمساس بها!

ولله در قيس بن زُهير حين قال:

أظنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُسْتَجْهلُ الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجالَ ومارسوني ... فمعوَجٌّ عليَّ ومستقيمُ[1]

وإذا كان النبي ﷺ يقول لأصحابه ﷺ بمكة: «ولكنكم تستعجلون»[2]. فماذا يمكن أن يقول المرء عن اندفاعات عديدة غير رشيدة؟ يحتاج الأمر إلى هَدْي النبي ﷺ وحكمته وبصيرته، والتأسِّي به في الصبر والمصابرة، بحيث ينزل الدعاة إلى الميدان، ويخالطون المجتمع، ويصبرون على الأذى، ويُصْلِحون بقدر المستطاع، دون حرق للمراحل، ولا إطلاق للنزعات الفردية.

وضمن ما كتب الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعليقه على هذه السورة، سواء في كتابه: «معالم في الطريق»، أو في كتاب «في ظلال القرآن»؛ أجده اتَّكأ على هذا المعنى

---

(١) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص ٩٧)، و«أنساب الأشراف» (١٣/ ١٣٥)، و«العقد الفريد» (٦/ ٢٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦١)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص ١٦٤)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٣٧٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٦٩٤٣).

اتكاءً كبيرًا، حتى إنه قال: «هذا هو الطريق»(١).

فصار بعض الشباب يستعجل المحنة ويتطلَّع إليها، ويفرز هذا في نفوسهم شيئًا من الانفصال عن الناس، والتربُّص والانتظار، وعدم القدرة على مراجعة التجارب الفاشلة وتصحيحها مهما كانت نتائجها.. على اعتبار أن البلاء سُنة إلهية.

وحين يسمع شاب عن الابتلاء، لا يقع في نفسه إلَّا تسلُّط الحاكم والزج بهم في السجون والمعتقلات وتعليق بعضهم على أعواد المشانق، أما الابتلاء من داخل النفس بضياع البوصلة وتخبُّط الطريق، أو من داخل الجماعة بالتعصُّب والتحالف على غير الحق، وازدراء المخالفين، وتطلب شهوات الحياة بالمخالفة والتصدر، أو الخطأ في الاجتهاد حتى مع خلوص النية؛ فهذا ما يعزب عن الكثيرين التفكير فيه ضمن مفهوم «الابتلاء»!

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ [البروج:١-٢]:

أقسم تعالى في صدر السورة بـ«السماء» المعروفة، وبـ«البروج»: وهي جمع بُرْجٍ، وهو مأخوذ من التبرُّج، وهو الظهور، كما يقال: تبرَّجت المرأة؛ إذا أظهرت مفاتنها، والبُرْج يُطلَق على القصر، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء:٧٨]، فالبرج الْمُشَيَّد هو القصر(٢).

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، والبُرْج هو النجم(٣).

---

(١) ينظر: «معالم في الطريق» (ص١٧٣-١٨٦)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٣٤-٢٣٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ١٠٠٨)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٤٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٠-٣١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١٦).

وتطلق البروج على منازل الشمس والقمر التي يلحظها الفلكيُّون[1]، وإلَّا فهي ليست في الواقع منازل، لكنهم من خلال مراقبتهم لحركة الشمس في اليوم، وحركة القمر في الشهر، يلاحظون أن الجرم الفلكي ينتقل من منزل إلى آخر فيما يرى الإنسان، حتى إنهم يقولون: إن القمر يمكث في كل برج يومين وثلث يوم تقريبًا، فيظهر في ثمانية وعشرين يومًا، ويبقى يومين يستتر فيها فلا يُرى، وهي التي تُسمَّى: ليالي السِّرار[2].

فهذه البروج هي مجموعة ثابتة من الأبعاد لا تتفاوت فيما بينها، ينزل فيها القمر أو تنزل فيها الشمس، يتخيَّلها العرب وغيرهم، ويسمُّونها بروجًا، وهي عندهم اثنا عشر بُرْجًا، أطلقوا عليها أسماء بحسب شكلها، كالأسد، والحُوت، والدَّلْو، والسَّرطان، والسُّنبلة، والحَمَل، والثَّور، والعقرب، والجَدْي... فسمَّوها بأسمائها.

وأجمع المفسِّرون على أن اليوم الموعود هو يوم القيامة[3]، وورد في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا وموقوفًا: «**اليوم الموعود: يوم القيامة**»[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (٢/ ٧٩)، و«تاج العروس» (١٢/ ١٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٢)، و«تفسير الواحدي» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٧٢)، والترمذي (٣٣٣٩)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٠٨٧)، وابن عدي (٢/ ٢١٩)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠)، وفي «شعب الإيمان» (٣٤٨٢)، وابن عساكر في «فضل يوم عرفة» (٥) مرفوعًا.

وأخرجه أحمد (٧٩٧٢، ٧٩٧٣)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠) موقوفًا، وينظر: «علل الدارقطني» (١١/ ١٢٠)، و«زاد المعاد» (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٢).

* ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج:٣]:

واختلفت أقوال أهل التفسير إلى أكثر من أربعة وعشرين قولًا في تفسير «الشاهد»، و«المشهود»(١)، ونكتفي بذكر القول الراجح، وهو أن المقصود: عموم كل شاهد وكل مشهود(٢)، فكل ما ورد في القرآن والسنة أو صحَّ في العقل أو الحس أنه شاهد، فقد أقسم الله به هنا.

وأعظم شاهد هو: الله سبحانه وتعالى؛ كما في قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٧٩]. وهو خير الشاهدين.

ثم النبي محمد ﷺ: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

وكذلك الأنبياء؛ لأنهم يشهدون على أممهم؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل:٨٩].

ويقول عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٧].

وتدخل فيه: الملائكة الحفظة، والشهود من الناس، حتى الأرض تدخل في الشاهد؛ لأنها تشهد: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة:٤-٥]، فتشهد الأرض على الإنسان بما عمل عليها، والسماء تشهد عليه بما صعد إليها من عمله.

ويدخل في ذلك: أعضاء الإنسان؛ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٣-٢٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤-١٩٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٢-٢٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣-٤٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

وَأَرْجُلُهُم ﴾ [النور:٢٤].

فكل ما صحَّ أنه شاهد، فهو داخل في هذا القَسَم العام.

و«المشهود» كل مُبْصَر -بفتح الصاد- تصحُّ الشهادة عليه، من أعمال الناس وأقوالهم، من الخير ومن الشر[١].

ومن هنا، ففي هذا القسم معنى عظيم مناسب للقصة؛ فالله تعالى أقسم بـ«السماء ذات البروج»، في مقابلة الأُخدود الذي حفروه في الأرض، ووضعوا فيه النيران، وأحرقوا فيه المؤمنين، فكأنه تعالى أقسم بالسماء؛ إشارة إلى مَن هو فوق السماء عز وجل، ينتقم ويعاقب الظالمين، وينتصر للمؤمنين ولو بعد حين.

وأشار في قوله: ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ إلى وقت الحساب والجزاء، وإيصال الحق إلى أصحابه، ونزول العقوبة بالظالمين.

وأشار بقوله: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ إلى ضبط الحوادث وحفظها، وأنه لا يضيع منها شيء، فكل شيء محفوظ: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢]، أي: في كتاب بيِّن مقروء.

* أقسم الله تعالى بهذه المعاني الثلاثة على معنى، وهو على الراجح ما ذكره بقوله سبحانه: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج:٤]، والقتل في لغة القرآن يأتي بمعنى اللَّعن[٢].

فالمعنى أن الله أقسم بأنه قد لعنهم، وهو هنا يختلف عن قوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٤١٥)، (٢٤/ ٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«تاج العروس» (٣٠/ ٢٣٤).

﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]؛ لأن هذا من الله دعاء عليه، أما هنا فالمعنى أنه حكم عليهم بالقتل، وهو اللعن؛ لأنه أقسم عليه.

والمقصود هنا بـ «أصحاب الأُخدود»: الظَّلَمَة الذين قَتَلوا المؤمنين(١).

ويجوز أن يكون المقصود: المؤمنين الذين أُحْرِقوا، فيكون معنى القتل: الموت بالإحراق بالنار الذي حصل لهم على أيدي الظالمين، ولكن هذا معنى ضعيف، والأول أقوى؛ أنه إشعار أن عقوبة الله ولعنته حلَّت على أولئك القتلة الفجرة المارقين الذين كانوا يتلذَّذون بمشاهدة المؤمنين من الرجال والنساء، والصبيان والنار تشويهم.

وهي حادثة بشعة؛ لأن التعذيب بالنار من أبشع ألوان التعذيب، ولهذا توعَّد الله به الكافرين يوم القيامة، وأنت لو رأيتَ صور بعض الناس الذين أصابتهم النار وأحرقت وجوههم أو أجسادهم، لرأيتَ مشهدًا يقشعر منه البدن، حتى لا يكاد يطيق الإنسان رؤية الجسد المتهتك المحترِق، وصاحبه يصيح من الألم؛ لأن الجلد هو موضع الإحساس، فإذا تسلَّطت عليه النار تألَّم؛ ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

فهذا الحدث مشهد بشع وهائل، وحادث مروِّع؛ لكن السياق يضعه في وضعه الطبيعي، حين يربطه بالزمان وبالمكان، يربطه بـ «السماء ذات البروج»، وكأنه يقول: ارفع رأسك، وانظر إلى ما عن يمينك وشمالك، وأمامك ووراءك، وما فوقك من آيات الخلق والإبداع، فلا يكن نظرك مقصورًا على حادثة معيَّنة، أو مصيبة أو نازلة، بحيث تقيدك أو تعيقك حتى تشلَّ تفكيرك وتسيطر على مشاعرك، فهنا امتداد مكاني يخفِّف من التحديق في الواقعة الخاصة وكأنها كل ما هنالك!

وثَمَّ امتداد آخر زماني في قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، فهذا الحادث الذي وقع لن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٤).

يستغرق أكثر من ساعات أو أيام، وهي بالنسبة لعمر الدنيا ومضة عابرة، والدنيا نفسها قصيرة بالنسبة للآخرة: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

وهذا من شأنه أن يجعل نظر الإنسان إلى المصيبة نظرًا متوازنًا، فبقدر ما يتألم منها ويردِّد: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾، فإنه يتصوَّرها كذلك في ضمن سياق مكاني وزماني واسع، فلا تعجزه هذه الحادثة أن يفهم مقاصدها وأسرارها، فلا يجعلها حجر الزاوية في شعوره وتفكيره ونظره وفهمه ومنهجيته.

وفي قوله: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾، نسبهم إلى الأُخدود؛ لأنهم الذين حفروه، من أجل أن يحرقوا فيه المؤمنين، و«الأُخدود» معروف، وهو الشَّقُّ في الأرض[1].

* ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴾ [البروج:٥]:

و«الأُخدود» ليس هو النار، وإنما الأُخدود هو المكان المحفور الذي وُضِعَت فيه النار، لكن كأن هذه الأخاديد مُلِئت نيرانًا، حتى جعل النار بدلًا من الأُخدود، ويسمَّى هذا بدل الاشتمال، وفي ذلك إشارة إلى عِظَم الإحراق، وكثرة الوقود الذي وُضِع في هذا الأُخدود.

* ﴿ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴾ [البروج: ٦]:

والمقصود: أصحاب الأُخدود، وهم ذو نُواس وأعوانه الذين أوقدوا النار، فقعدوا حولها كأنما هم في حالة استعراض، يتفرَّجون ويتمتعون كما يتمتع الآكل بمظهر اللحم يُشوى على النار، وفي هذا عدة معانٍ:

١ - الإشارة إلى أنهم هم الذين تولَّوا كِبْرَ العمل بأنفسهم وبطوعهم واختيارهم، وليس هذا مجرد حادث عارض -كما يقال- أو أنه تصرُّف من بعض الدوائر أو

---

(١) ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٥٢).

الأشخاص الثانويين، كما جرت العادة أن الطغاة يتنصلون من تبعات أعمالهم بنسبتها إلى مَن دونهم! بل قاموا به عن عمد وسبق إصرار.

٢- والإشارة إلى الجحود والقسوة والغلظة التي في قلوبهم، إلى درجة أنهم يرون هذا المشهد الأليم من صراخ الصغار وتألُّم الكبار من شدة الإحراق، فلا تلين قلوبهم ولا ترقُّ، وهذا غاية في الوقاحة والقسوة والغلظة.

* ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [البروج:٧]:

فهم شهود على أنفسهم، شهدوا فعل أنفسهم وشهدوا نتيجته، وتأتي ﴿ شُهُودٌ ﴾ بمعنى حضور، فهذا أيضًا يتناسب مع قوله: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج:٣]، فهم شهود على أنفسهم في الدنيا، وهم شهود على أنفسهم يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى سبب التعذيب، وهو أن الْمُعَذَّبين قوم مؤمنون، فلم يقع من هؤلاء المؤمنين ظلم ولا عدوان، إنما جريرتهم الوحيدة هي الإيمان بالله، ولذا وصفهم بالمؤمنين.

إن المؤمن قد يعذَّب في الآخرة لذنب ارتكبه، وقد يعذَّب في الدنيا أو يعاقب على تجاوزِ حدٍّ من حدود الله، أو عدوان على أحد من عباد الله، أو إفساد في الأرض، وهذا العذاب ليس لإيمانه، بل لما يقتضي الإيمانُ الحقُّ تركَه والنأيَ عنه.

وعلينا أن نفرِّق هنا بين استهداف المؤمن لأنه مؤمن فحسب، وبين استهدافه بحق، وبين استهداف بسبب آخر قد لا يكون حقًّا، ولكنه ليس بسبب الإيمان، كما يقع عادة في الخصومات بين الناس على الدنيا والمال والعقار والمناصب.

وعلى العبد أن يعرف متى يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* وجاءت الآية التالية؛ لتؤكِّد هذا المعنى في قوله: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨]:

أي: ما غضبوا عليهم ولا آخذوهم بشيء من أمر الدنيا إلا لإيمانهم، وقوله:

«نقَموا»، أو: «نقِموا» وجهان في اللغة، والأشهر هو الفتح[1].

وتعليل القتل بالإيمان يوحي بأن الذين قاموا بالقتل من المشركين، وقد يكونون يهودًا كما سلف، واليهود يؤمنون بالله العزيز الحميد في الجملة، وديانتهم ديانة توحيدية، ولكن هؤلاء الحكام الظلمة سخَّروا الديانة لخدمة أغراضهم، ومن أجل أن يدين لهم بها قومهم، وحقيقتهم أنهم أبعد ما يكونون عنها، كما شهد الله عليهم هنا أنهم قتلوا القوم؛ لمجرد أنهم آمنوا بالله.

و«العزيز» و«الحميد»: اسمان من أسماء الله؛ فـ «العزيز» اسمه، والعزة صفته سبحانه، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى عزيز غالب، قادر على أن ينتقم من هؤلاء المعتدين.

وأما «الحميد» فمن معانيه: المحمود، الذي يُحْمَد على الخير وعلى كل حال.

ومن معانيه: أن يحمد عباده على الخير، فيكون قريبًا من «الشكور».

وفيه إشارة إلى أنه سوف يكافئ هؤلاء المؤمنين على ثباتهم على دينهم وقد عُذِّبوا بعذاب الحريق في الأُخدود.

فالاسم الأول «العزيز» إيراده مناسب لجرم المجرمين للانتقام منهم، والاسم الثاني «الحميد» إيراده مناسب لصبر المؤمنين لمجازاتهم ومكافأتهم.

* ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩]:

فيه إشارة إلى أن هؤلاء الذين قتلوا المؤمنين وإنْ كانوا ملوكًا، أو فيهم ملوك كذي نُواس، فالله سبحانه وتعالى أعظم منهم مُلْكًا وقوة، فإن له ملك السماوات والأرض، وما ذو نُواس وغيره إلَّا ذرة في بحر ملكه وخلقه، وهذا مُتَضَمِّن للتذكير

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٨٦)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٧٣٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٤)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٧٤٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٦٩).

بأن الله قادر عليهم.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ فهو سبحانه وتعالى شاهد، يرى ويعلم ويسمع، فإجرام هؤلاء المجرمين ليس بغائب عن شهادته وعلمه سبحانه، وسوف ينتقم منهم.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]:

الفَتْنُ في اللغة هو الإحراق، ومنه: فَتَنْتُ الذهب، أي: وضعته على النار؛ حتى يتميَّز طيبه من رديئه، وصافيه من مغشوشه[(١)].

وأقرب ما نقول في لفظ: ﴿فَتَنُواْ﴾ أنه بمعنى: أحرقوا المؤمنين، وابتلوهم بالنار والعذاب[(٢)].

وفي ذكر المؤمنات هنا إشارة إلى صبرهن وقوة إيمانهن، والتشنيع على أولئك المجرمين الذين امتد إجرامهم ليشمل النساء مع الرجال، وقد جاء في الحديث المتقدم، أن امرأةً كان معها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّهْ، اصبري؛ فإنك على الحقِّ[(٣)].

ومعلوم أن العدوان على الناس جريمة، فإذا كان العدوان على النساء وبالإحراق، فهو أبشع وأشنع.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾، إشارة إلى أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم، لكنهم لم يتوبوا، وهذا من سعة فضل الله سبحانه وتعالى، فهم قوم أحرقوا المؤمنين والمؤمنات

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٣١٧)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٨- ٧١٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠، ٢٨٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

وكفروا بالله، ثم يعرض الله تعالى عليهم التوبة، فلم يتوبوا، فلو تابوا بعد ما فعلوا الذي فعلوا، لتاب الله عليهم، كما قال الحسن البصري(١).

وفي هذا فتح لباب التوبة لكل مذنب مهما عظم ذنبه، حتى لزعماء قريش الكفار الذين كان القرآن ينزل عليهم وهم مكذِّبون، وتتعجب أن بعض المؤمنين قد يقع في ذنب ثم يحيط به اليأس حتى يقول: لا يغفر الله لي. وهذا -والعياذ بالله- قنوط من رحمة الله، ويأس من رَوْح الله، وقد حذَّر الله منه فقال: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وأما المؤمن العارف بربه، فإنه يمدح ربه باسمه «الرحمن الرحيم»، فيتعلم معنى رحمة الله، ولا ييأس من روح الله عز وجل، ويكرِّر الندم والتوبة، ويتقرَّب إلى ربه كلما أذنب.

ويُؤخذ من سياق الآية أن القاتل له توبة، وقد نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا يرى لقاتل العمد توبة(٢).

وهذا مرجوح؛ فإن المشرك إذا تاب تاب الله عليه، والساحر إذا تاب تاب الله عليه، فكذلك القاتل إذا تاب تاب الله عليه، وما نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما ربما كان في حادثة عين، فقد رُوي أنه جاءه رجل يسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «لا، إِلَّا النار».

فربما غلب على ظن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الرجل قد همَّ بأن يقتل

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٧١٨).

(٢) أخرجه ابن الجعد (٨٢٤)، والبخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).
وينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٩٠)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٢، ٣٤٥)، (١٧/ ٥٠٨)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٩٤- ٥٩٧، ٦٠٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٩).

رجلًا ثم يتوب بعد ذلك، فقال له: «لا». حتى يزجره ويردعه عن الفعل(١).

أما لو أن إنسانًا قتل وتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه، على الصحيح؛ لقصة الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم تاب فمات وهو في طريقه إلى بلد يريد أن يقيم مع الصالحين فيه، فتنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقبضته ملائكة الرحمة(٢).

وهذه التوبة تنفعه في الآخرة، أما أحكام الدنيا فالأصل أن يؤاخذ على جرمه.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: قال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق هو النار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت وامتدت حتى أتت على الظالمين(٣).

وهذا ليس ببعيد ولا غريب، ولكنه لا يثبت بالأسانيد الصحيحة، فيبقى الاحتمال الآخر وهو الأقوى: أن المعنى مضاعفة العذاب لهم في الدار الآخرة.

ومن المعروف في القرآن أن الكافرين تتفاوت عقوباتهم في الآخرة، وأنهم ليسوا سواء، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، فزادهم الله تعالى عذابًا فوق

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٧٧٥٣)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٣٣)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٣٨٩)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٦٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ١٦٥).

ورُوي عنه أنه قال: «ليس لقاتل مؤمن توبة، إلَّا أن يستغفر الله».

ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٦١٧)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي عُبيد (٤٩٣)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٧)، و«السنة» للخلال (١٢٣٨)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٤).

العذاب؛ لأنهم أضافوا إلى الكفر الصدَّ عن سبيل الله، فالكافر الذي لا يدعو إلى كفره أقلُّ عذابًا من الكافر الداعي، وهكذا أصحاب الأُخدود؛ لم يكتفوا بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، بل قاموا بأبشع صورة من صور الصدِّ، وهي إحراق المؤمنين، فناسب أن يضاعف لهم العذاب.

وكأن المعنى: أنهم يشتركون مع عموم الكافرين في جهنم، ولكن يُخَصُّون بمزيد من العذاب من نوع الإحراق الشديد جزاءً وفاقًا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج:١١]:

بعدما توعَّد الله الكافرين بالعذاب الأليم، ناسب أن يعطف على ذلك بوعده الصادق للمؤمنين الذين أُحْرِقوا، ويدخل في ذلك غيرهم، وعادة القرآن أنه يأتي بالترغيب والترهيب في سياق واحد، وهذا من معاني كون القرآن مثاني[1].

وأول مَن يدخل في هذا السياق، هم المؤمنون الذين أُحْرِقوا في الأُخدود؛ لأنهم صبروا وصابروا؛ ابتغاء وجه ربهم، وفُتِنوا في دينهم غاية الفتنة، حتى عُرِضوا على النار وأَبَوْا إلا أن يموتوا على الإيمان، فقد ذهب العناء، وذهب ألم الإحراق بالنار، وبقي لهم الأجر والثواب والجِنان، مقابل النار التي أُحرِقوا بها في الدنيا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وصف لم يَرِد في القرآن إلا في هذا الموضع.

ونلحظ أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل: (تلك) مع أنه سبق ذكر الجنات، إشارةً إلى وجود ما هو أعظم؛ فإن الله تعالى وعدهم الآن بالجنات، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن النعيم المعنوي في الجنة أعظم من النعيم الحسي؛ ولهذا لما ذكر الله الجنة في سورة التوبة قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

(١) ينظر ما تقدم في تفسير «سورة الفاتحة».

[التوبة:٧٢]، فرضوان الله الذي يُحِلُّه على المؤمنين يوم القيامة في الجنة، وسماعهم لكلامه سبحانه، وتمتعهم برؤية وجهه الكريم؛ هي أعظم من ألوان النعيم الأخرى؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**أسألُك لذَّةَ النظرِ إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائك**»(١).

والفوز هو حصول المطلوب وزوال المرهوب.

وفي هذا اللفظ سرٌّ عظيم؛ لأن الذي يعلمه الناس أن المَلِك ذا نُواس أحرق هؤلاء المؤمنين وانتهوا، ففي بادي الرأي أن الحادثة انتهت بهزيمة المؤمنين؛ فقد تُسُلِّط عليهم وأُوذوا، واعتُدِيَ عليهم حتى قَضَوْا نحبَهم، لكن القرآن سَجَّل أن هذه النهاية لم تكن هزيمة، فأرواحهم صعدت إلى الجنة والرضوان، بخلاف أولئك الذين أحرقوهم، وظهر في بادئ الأمر أنهم انتصروا؛ فإن لهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق.

* ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢]:

البطش في الأصل هو الأخذ؛ ولذلك يقول النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «.. **فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها**»(٢). يعني: يأخذ بها الأشياء، ويعطي بها، فهذا معنى البطش، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٩٥].

لكن قد يُطلَق البطش على الأخذ بقوة، أو الأخذ بشدة، كما في هذه الآية(٣).

وإذا كان أصل البطش هو الأخذ باليد؛ إلا أن كلمة البطش هنا تدل على

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤-٥٥)، وابن حبان (١٩٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٦٧).

العقوبة، كما تقول: بطش فلان ببني فلان. أي: ضربهم أو قتلهم، فصار البطش يُطلَق على التعذيب، حتى لو كان بصورة غير مباشرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠][1].

وقد تتبَّعت المواضع التي فيها لفظ «البطش» في القرآن الكريم، فوجدتها في الغالب تتعلق بالحياة الدنيا، إلا في مواضع ثلاث فيها اختلاف:

١- هذا الموضع، فإنه محتمِل لأن يكون بطش الله سبحانه وتعالى لهم في الدنيا بالعقوبات كالزلازل، أو العذاب الذي ينزل من السماء، أو الغرق، ويُحتمَل بطش الآخرة بالنَّكال والنار.

٢- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦]، فالأقرب أن هذه البطشة الكبرى في الدنيا، وأنها غزوة بدر أو غيرها مما توعَّد الله به الكافرين في الدنيا من العذاب، أو المقصود عذاب يوم القيامة.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦]، فتحتمل أن يكون المقصود العقوبة الدنيوية، وتحتمل أن يكون المقصود العقوبة في الآخرة.

ونسب البطش هنا إلى «الرب»، ولم يقل: (إن بطش الله)؛ لأن السورة مكية، والسياق فيه إيماء وإشارة إلى ما يفعله كفار قريش وزعماؤهم؛ كأبي جهل وأبي لهب وعتبة وشيبة والنضر بن الحارث وغيرهم ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ويحاربونهم، بل ويؤذون النبي ﷺ بشتى صور الاضطهاد والإيذاء، فكان التعبير بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ أنسب وأولى؛ لما تحمله من معنى الرحمة والرعاية والتدبير، فهو ربك، سوف يحميك وينصرك أنت وأتباعك من أذى الكافرين.

فالآية جمعت معنيين: معنى الرحمة في لفظ: ﴿رَبِّكَ﴾ المأخوذة من نسبة الرب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٦١٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٧٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٤)، و«الدر المنثور» (١١/ ٢٨٢).

إليه، فهو ربك الذي يحوطك ويرعاك ويحميك ويبطش بأعدائك.

وقرنُها بالبطش متضمنٌ مَعاني مناسبة من معاني الربوبية وهي: العذاب والشدة والغلظة على الأعداء، وسوف يبطش بالأعداء الذين يعذِّبون المؤمنين.

ونجد في الآية ترابطًا بين قصة أصحاب الأُخدود وما جرى منهم، وبين كفار قريش وما يفعلونه بالمؤمنين من الأذى والتكذيب، ونجد فيها الوعد للنبي ﷺ والمؤمنين، بأن الله تعالى سينصر هذا الدين ويحفظه؛ لأنه ربه وربكم، وفيه وعيد للمشركين بأن الله تعالى سوف ينتقم منهم.

فهذه الآية من معجزات النبي ﷺ؛ لأنها يوم نزلت كان المؤمنون قلة، وكان للمشركين سلطة في مكة وفي جزيرة العرب، فما هي إلا سُنيَّات حتى تبدَّل الحال، وفتح الله تعالى على المسلمين مكة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، ودانت جزيرة العرب للإسلام.

والآية الكريمة تُوحي بمعنى مهم، وهو أن المؤمن يفترض أن يكون عنده قدرة على مواكبة الظروف والمتغيرات، وذلك أن الله جعل من سنته في الحياة أن يكون فيها القوة والضعف، والشدة واللِّين، والغنى والفقر، والتمكين والاستضعاف، والقلة والكثرة، والقبول والرد، حتى إن النبي ﷺ قال: «**عُرِضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحدٌ**»[1].

فهي تربية على تكيف المؤمن مع الأحوال المختلفة، منطلقًا في ذلك من قاعدة أن لكل حال عبودية، على أن تعايش المؤمن مع بعض الظروف لا يلزم منه أن يقرَّ بما فيه من خطأ أو مخالفة، وإنما هو أخذ بالتدرُّج ومراعاة المصالح والمفاسد.

ليس ثَمَّ ضمانة للمؤمن أن يحصل على التمكين والقوة، ولا أن يدوم له ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لو حصل عليه، فلا يجوز أن يكون عمله مرهونًا بظرف خاص؛ لأن هذا شأن غير المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ [الحج:١١].

وكان الشيخ البشير الإبراهيمي يقول لقادة الاستعمار: سوف ندعو إلى الله في المساجد، فإن حرمتمونا من المساجد، فسوف ندعو في المدارس، فإن حرمتمونا منها، فسوف ندعو في الأسواق، فإن حرمتمونا منها، فسوف ندعو في البيوت، وإن سجنتمونا، فسوف ندعو في السجون.

هذه الروح العالية لا يمكن أن توجد إلَّا إذا تربَّى المسلم على منهج رباني نبوي، أما مَن تشبَّعت نفسه بالتطلُّع لأن يكون لشخصه أو لجماعته غَلَبَةٌ وتمكين، فقد يرى القيام بالدعوة في الظروف الصعبة مضيعةُ وقتٍ.

الدعوة هي منهج الأنبياء عليهم السلام، وهي متفق عليها، وبعض الأنبياء لم يُبْعَثوا أصلًا إلَّا بها، وبعض الأنبياء بُعِثوا بها وبالقوة، كما في قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾، فذكر هذا أولًا، ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾، وحتى الحديد ليس بشرٍّ محض أو قسوة، بل ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد:٢٥].

* ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج:١٣]:

والبدء والإعادة جاءت في القرآن الكريم تعبيرًا عن الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم:٢٧]، وهذا أحد المعاني(١).

وقد ذهب كثير من المفسِّرين إلى أن المقصود بـ﴿ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أي: يحيي ويميت،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٣٧٩)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١١٥-١١٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٢٦، ١٩٥١)، و«الدر المنثور» (٧/ ٦٣٠)، (١١/ ٥٩٦).

ثم يحيي مرة أخرى، فهو يبدأ الخلق أول مرة، ثم يميتهم، ثم يحييهم مرة أخرى ويعيد إليهم الحياة، فهذا معنى[1].

وفي الآية معنى آخر ذكره ابن عطية وغيره عن ابن عباس، وهو أن المقصود أنه يُبدئ ويُعيد كل شيء مما هو قابل لهذا وذاك[2].

وهذا المعنى أجود وأليق بالسياق؛ لتعلقه بمداولة الأيام بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فإذا كانت هذه القصة شهدت معاناة المؤمنين فالله تعالى يبدئ ويعيد[3].

فتشمل أنه يحيي الموتى، ويثيبهم بما عملوا، وتشمل أن يعيد شأن المؤمنين فينصرهم، وهو إن لم ينصرهم في أشخاصهم، فإنه ينصر مبدأهم ودينهم الذي ضحُّوا من أجله، ولهذا نقول: إن بعثة النبي ﷺ تعتبر انتصارًا لكل الأنبياء ولكل المضطهدين؛ لأنه جاء بتجديد الدين، وبالشريعة الخاتمة وبالعقيدة الصافية الواضحة، فهي تجديد لملة إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

من معاني ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: أن الحياة لا تعرف الاستقرار، وإنما هي دُول تنتقل، فالمُستضعَفون يمكِّن الله لهم في الأرض، كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦].

والعبرة ألَّا يغترَّ الإنسان بتمكين أو غنى، أو سلطان أو مكانة في الدنيا؛ لأن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٨٢-٨٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٧٢-٧٧٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٣٩-٤٠).

الدنيا متقلِّبة، ولا يركن إلى يأس أو قنوط أو عجز؛ لأن الفُرص تأتي للجادِّين الصادقين الذين يُحسنون كيف يستثمرونها وينتفعون بها.

ومما يؤكد شمول معنى الإبداء والإعادة لكل ذلك، أنه تعالى لم يذكر متعلَّق الفعل هنا، كما ذكره في آية أخرى فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، وإنما لم يذكره هنا ليُفهم منه العموم، أي: يُبدئ كلَّ شيء، ويعيد كلَّ شيء مما هو صالح للبدء والإعادة.

وعليه، فهذه الآية أيضًا تؤكِّد على الأمل والطمع فيما عند الله، وسنة الله في تقليب الأيام ومداولتها بين الناس تجعل المؤمن مستمسكًا بحبل الله واثقًا بما عنده.

* ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]:

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ مأخوذ من الغَفْر، وهو السِّتر والتغطية[١]، لكنه في القرآن الكريم يُطلَق على معنى محو الذنوب وعدم المؤاخذة بها، فإذا قيل: «غفر الله له»، فالمعنى أنه سامحه عن الذنب الذي وقع فيه.

و﴿ٱلْغَفُورُ﴾: كثير المغفرة، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

فهو يغفر للعبد إذا تاب وأناب كل الذنوب بدون استثناء، حتى القتل والشرك، فلو تابوا لغفر لهم.

فهذا اسم عظيم، على المؤمن أن يستحضره حتى لا يغلبه اليأس والقنوط من رحمة الله، فالله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مُسيءُ الليل[٢]، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره سبحانه وتعالى، ولا عيب أن يستره،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٢٠)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ١٣٨)، و«الدر المصون» (١/ ٣٥٦).

(٢) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

فيلجأ المؤمن إلى الاستغفار بين السجدتين، وفي السجود، وفي دعاء الاستفتاح، وبعد التشهد الأخير.

وما من أحد إِلَّا وله ذنوب معلَنة أو خفيَّة، كثيرة أو قليلة، معلومة للناس أو مجهولة، لكن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، فسدِّد نقصك بكثرة الاستغفار على الذنوب التي فعلت أو على الطاعات التي قصَّرت؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفرَ ثلاثًا[1].

وفيه مناسبة للمؤمنين الذين أُوذوا وعُذِّبوا وقُتِلوا وأُحرِقوا بالنار، وإذا كانت الآية التي قبلها، وهي آية البطش تتوجَّه للمشركين بالتهديد والوعيد، فهذه الآية تتوجَّه إلى المؤمنين.

ومن مغفرته أن يغفر للمؤمنين خطاياهم وتقصيرهم وما كانوا عليه قبل الإيمان؛ ولم يذكر المغفرة فقط، بل ذكر صفة أخرى واسمًا آخر، وهو: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾.

و﴿ٱلْوَدُودُ﴾ صيغة مبالغة من الوُدِّ، ومعناه: كثير الحُبِّ للمؤمنين، فالوُدُّ هو المحبة الصافية الخالصة، وبعض الناس يمكن أن يسامحك ظاهرًا، لكن لا يستطيع أن يصفِّي قلبه مما يجد عليك من تقصيرك في حقِّه أو خطئك عليه، خصوصًا إذا كان الخطأ كبيرًا.

فالله يمحو الذنب ويسمح ويصفح ويعفو، وأيضًا: يودُّك ويحبك، وترجع مكانتك عنده مثلما كانت أو أفضل، وهذا فضل عظيم.

ومما تدعو إليه الفطرة: محبة الناس لربهم؛ إذ كيف لا يحبونه وهو خالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم ومولاهم، وكل نعمة في الناس فمن الله، فالسمع والبصر والفؤاد والنفس، والأكل والشرب والزوجة، والمال والولد، والدنيا والصحة

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان ﷺ.

والعافية، والجمال والمال، كل ذلك من الله، فكيف لا تحب ربك وهو الذي أنعم عليك وأعطاك وهداك!

لكن العجيب أن يحبك ربك سبحانه وتعالى، وأنت خَلْقٌ من خلقه ضعيف، مُعَرَّض للأخطاء والذنوب والمعاصي والغفلة، وهو مع ذلك يحب عباده المؤمنين، ويحب التَّوابين ويحب المتطهِّرين، ويحب المحسنين[1].

فتخيَّل إن كان الله يحبك، باسمك وشخصك، وهو الإله العظيم الذي لا يستطيع البشر أن يقدروه قدره، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا تحيط به العقول؛ فهذه نعمة عظيمة وفضل كبير، ولهذا فالحرص على أن يحبك الله من أعظم المقامات التي ينبغي أن يسعى إليها العبد، والتي تحرِّكه إلى الطاعة.

ولهذا يقول العلماء: إن الله سبحانه وتعالى يُعبَد بالحب والخوف والرجاء. لكن أهمُّ ما يُعْبَد به الحب، ومن مزايا العبادة بالحب أن الخوف ينتهي في الجنة؛ قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩]، وكذلك الرجاء؛ لأن كل شيء موجود، ويبقى الحب؛ لأن الحب وإن كان أمرًا تُعُبِّدوا به في الدنيا، إلَّا أنهم يتنعَّمون به في الآخرة، ولهذا كان الحب بمثابة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمثابة الجناحين، وفي قطع الرأس موت للطائر بخلاف الجناحين، ولهذا إذا انقطع الحب انقطعت معه العبودية والإيمان، لكن لو أن أحد الجناحين أصابه عيب لكان من الممكن أن يعيش الطائر ولا يموت، وأهل السنة يعبدون الله تعالى بالحب والخوف والرجاء، ومقام الحب عندهم أعظم[2].

وفي هذه الآية درس للدعاة؛ بأن يرفقوا بالعصاة وأن يفتحوا لهم أبواب التوبة،

---

(١) ينظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ١٩٦)، و«الدر المصون» (١٠/ ٧٤٨)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٤٨)، (٣٠/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١، ٢٠٧).

ويرغِّبوهم فيها، وأن يحصِّنوهم من القنوط من رحمة الله، مبتعدين في ذلك عن أسلوب الإقصاء والمجافاة؛ فإنه لا يزيدهم إلَّا عنادًا وإصرارًا على خطئهم، فسياق آيات السورة كان في شأن قوم فعلوا أعظم الجرائم، وهو الصدُّ عن دين الله وتعذيب المؤمنين بسبب إيمانهم، ومع ذلك كله يفتح الله لهم أبواب الأوبة والرجوع.

وينبغي أن يكون الداعية أبعد الناس عن دوافع الانتقام والتشفِّي والنكاية بالمخالف والعاصي من المسلمين.. هذه الدوافع التي يُلبسها بعضهم لباس الغَيرة على الدين، مع أنك لو فتَّشت وتأمَّلت لوجدت فيها من نوازع الانتصار للنفس والتشفِّي لها ما لا يمكن إنكاره، ولا شك أن الرفق ومحاولة الترغيب بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة أدعى للتجرُّد عن هذه النوازع الشخصية النفسية.

* ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]:

و«العرش» يُطلَق في أصل اللغة على كرسيِّ الملك، ولكن هذا المعنى جاء في القرآن الكريم في حق ربنا تعالى في سبعة مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وهو مخلوق غيبـي أخبر الله تعالى أنه استوى عليه، ولا يُعْلَمُ كيفية العرش ولا كيفية استوائه إلَّا هو سبحانه؛ لأنا نقول: لا نعلم كيف هو حتى نعلم كيف استوى، ولهذا لما سأل رجل الإمام مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: كيف استوى؟ فقال: «الاستواء غير مجهول». أي: معنى الاستواء في اللغة معروف، وهو العلو مثلًا، ثم قال: «والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(١).

(١) ينظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (١٠٤)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (٢/ ٢١٤)، و«معجم ابن المقرئ» (١٠٠٣)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٦٦٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٦)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٦٧)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ١١٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٣٩)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠).

وصدق رَحِمَهُ اللهُ، فقد أغلق هذا الباب، وهو باب تقحُّم العقل البشري في الغيبيَّات وما يترتب على ذلك من ضياع الجهود في معارك وصراعات حول أمور لا تنفع ولا تزيد معرفة الله، ولا المحبة له، ولا الزُّلفى إليه، ولا تفيد في النجاح والفوز الدنيوي وتحقيق التقدم والتنمية، وإنما تستنزف الجهود والعقول فيما لا طائل تحته.

والآثار الواردة في صفة العرش غالبها لا يصحُّ، وإنما يكفينا ما ورد في القرآن الكريم.

والإنسان إذا قرأ مثل هذه الآية ربما تخيَّل شيئًا، فنقول: كل ما تخيلته أو خطر ببالك، فالله ليس كذلك؛ ولن تصل بها إلى الحقيقة؛ لأنه لا يحيط الخلق بعلمه، ولا يدركون حقيقته ولا حقيقة أسمائه وصفاته.

وإذا كان الله تعالى يقول عن الجنة: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[1]. فالخيال لا يدرك النعيم، وهو مما يتلذَّذ به الناس، فكيف بالجنة ذاتها، فكيف بربنا تبارك وتعالى، والذين يستنكرون هذه المعاني إنما استنكروها؛ لأنهم تخيَّلوها وقارنوها وشبَّهوها بالمحسوسات والمألوفات التي عندهم، فترتَّب على ذلك أنهم نزَّهوا الله تعالى عن أن يُشَبَّه بخلقه، لكن لو أدركوا أن هذه المعاني التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وتلاها النبي ﷺ وأقرَّ بها الصحابة وآمنوا دون أن يقحموا أنفسهم في تكييف أو تشكيل أو تصوُّر، ولذلك كان السلف يقولون: «أَمِرُّوها كما جاءت»، والمعنى: اقرأها وآمِن بها، دون أن تدخل في إشكالات وتخيُّلات قد تولِّد من الشكوك أكثر مما تصنع من الإيمان.

والآية متضمِّنة القوة والحُكم والملك المطلق، وفي هذا السياق تعريض بالذين يَدَّعون شيئًا من السلطان والملك كذي نُواس، فلن ينفعهم ملكهم ولا سلطانهم؛ لأنه عارض ومؤقَّت، والملك الحقيقي والسلطان التامُّ إنما هو لله سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾: يحتمل معنيين، وفيه قراءتان، فعلى القراءة بالخفض تكون (المجيد) صفة للعرش، وهي قراءة الكوفيين، أما أكثر القراء فإنهم يقرؤونها بالرفع[(١)]، وعليه تكون صفة لله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو ذو العرش، أي: مالك العرش وخالقه، فـ ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ هو الذي له المجد والكمال، وله العظمة والسؤدد[(٢)].

* ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦]:

وهذه آخر الصفات التي ساقها الله تعالى عن ذاته الكريمة في هذا المقام.

و﴿ فَعَّالٌ ﴾: صيغة مبالغة من (فَعَل)، وهي صيغة تدل على كثرة مفعولاته؛ أي: كثرة الأشياء التي يفعلها سبحانه وتعالى[(٣)]، وفي ذلك تشابه مع قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩].

من شأنه أن يعزَّ أقوامًا ويذلَّ آخرين، ويرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويهدي ويضل، أي: فلا تستغرقك اللحظة الحاضرة، واعلم أن الله تعالى كل يوم هو في شأن[(٤)].

وفي الآية أسرار لطيفة، فمنها أنها أثبتت لله سبحانه وتعالى الإرادة، وهي أسبق من الفعل؛ لأنه إذا أراد شيئًا فعَلَه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٥٤)، و«السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص٦٧٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٢٢١).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٣/ ١٥٠)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٨-٢٩)، (٣٠/ ٢٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٩)، (٢٢/ ٢١٢-٢١٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥)، و«تفسير السعدي» (ص٧٢٢).

فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، وأثبتت له الفعل، وهو الخلق.

فلله تعالى إرادة وله قدرة، وبذلك يتحقَّق الفعل، ولا يكون هذا إلا للخالق، أما المخلوق فإرادته لا تستدعي الفعل وتحقيق المراد مباشرة، وليس كل ما أراده المخلوق قدر عليه، إلَّا أن يشاء الله، وكثيرًا ما توجد العوائق والموانع التي تحول دون تحقيق ما يريد العبد.

في حين أن لربنا كمال الإرادة وكمال القدرة، والإرادة الواردة في هذه الآية هي إرادة التكوين، وتُسمَّى: الإرادة الكونية، وهي إرادة الخلق والفعل.

أما الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] فهي: الإرادة الشرعية، بمعنى: محبة الله لذلك الأمر، لكن لا يلزم أن يتحقق مدلوله، فالله تعالى أراد من الخلق إرادة شرعية أن يؤمنوا، ولهذا بعث إليهم الرسل وأنزل الكتب، لكن ليس كل الخلق حقَّقوا الإرادة، والمحبة الإلهية.

والله تعالى لا معقِّب لحكمه؛ ولا ممانع، ولا يحتاج إلى مُعين، بخلاف الخلق.

فهذه السياقات في وصف الله مناسبة لقصة أصحاب الأُخدود، ومناسبة لحال المؤمنين بمكة، وهي متناسبة فيما بينها.

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ [البروج:١٧-١٨]:

وكأن هذا السياق تفصيل للبطش الشديد، فجاء ذكر «فرعون» و«ثمود» كمثال لبطش الله تعالى بأعدائه.

وكذلك البدء والإعادة، فهم قوم جرى عليهم الرفع والخفض.

ومثلها المغفرة لِمَن آمنوا ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «نعم قد جاءني»[1]. ومثل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢)- عن عمرو بن ميمون مرسلاً.

ذلك: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية:١]، ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه:٩]، وهي واردة في صيغة سؤال، لكنها في الواقع توكيد، والمعنى: قد أتاك.

والمقصود بالحديث: الخبر، وسمَّاهم الله جنودًا باعتبار المجموع، وإلَّا فإن فرعون لم يكن إلَّا فردًا له حكم وسلطان على قومه وجنده.

ومن المعاني التي ظهرت لي في توصيفهم بالجنود، أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أن هؤلاء القوم لم يكن ظهورهم وعلوهم بحق؛ ولا لأنهم أصحاب علم وحضارة، وإنما كان بسبب القوة المادية البحتة، والقوة والجند والحرس والجيوش المدجَّجة، كما هو شأن الطغاة الخائفين من انتفاضة الناس عليهم.

ويتكرر اليوم المشهد نفسه عندما ننظر إلى ممارسات الحكومات الفاسدة الباغية، ونرى الفضائح التي تتكرر في العراق وأفغانستان، والسجون الخفيَّة والممارسات المنحرفة، حتى الاغتصابات التي تظهر في وسائل الإعلام، والتي تدل على الاستخفاف بحقوق الإنسان.

وأما ما يتعلق بالقوانين والنظم والدساتير، فإنها ربما كانت حكرًا على الأقوياء وحدهم، فالكلام عن حقوق الإنسان يوظف للاستغلال السياسي، أو الضغط على دولة من الدول، وإذا تحسَّنت العلاقات السياسية معها سكت الحديث!

ومن هنا نجد أن قضية الضمير، والعدل، والنموذج الأخلاقي والمعاني الإنسانية التي جاءت بها الديانات السماوية كلها، واتفق عليها الأنبياء؛ هي من المعاني التي يحتاج المسلمون إلى أن يضربوا بها المثل بصورة عملية صحيحة، وبكل مرارة أقول: ما أبعدهم منها!

وضرب الله تعالى هنا مثلين: ﴿ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴾، وفرعون: يشبه ذا نُواس الذي جاء السياق في ذكره، وأما ثمود، فهو اسم جَدِّ القبيلة، ثم صار يُطلَق على القبيلة كلها.

وقد يكون ذِكرُ هذا السياق مناسبًا من وجهين: ففرعون يناسب ذكره أصحاب الأُخدود وذا نُواس، بينما ثمود يناسب ذكرهم أهل مكة؛ لأن ثمود كانوا يسكنون الحِجْر وهو في الشمال من مكة في ديار العرب، وأخبارهم كانت معروفة، وإن كان اللَّبْس موجودًا، حيث يوجد في جنوب الجزيرة العربية في عمان مكان يقولون عنه إنه: موطئ الناقة، وهذا مُستغرَب، بل مُستنكر، إذ كيف ذهبت الناقة إلى جنوب الجزيرة العربية بينما كانت ثمود في أقصى الشمال.

* ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج:١٩-٢٠]:

وقد جاء في سورة أخرى قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٢]، والتعبير بالتكذيب أقوى؛ وكأن التكذيبَ وعاءٌ محيطٌ بهم؛ فوقَهم ومِن تحتِ أرجلِهم، فهم يكذِّبون بكل شيء ولا يصدقون بشيء، ولهذا ناسب قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾، يعني أن التكذيب محيط بهم، والله تعالى محيط بهم وبتكذيبهم، فلا يفوتونه.

وهذا مثل قوله عز وجل في سورة الفجر: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:١٤]، أي: عش ما شئت، واهرب إلى ما شئت، فأينما ذهبت فربك لك بالمرصاد، محيط بك في المكان الذي لا بد لك من عبوره وسلوكه، فلا مهرب لهؤلاء الناس منه.

و﴿ بَلْ ﴾ هي للإضراب، وتستخدم أيضًا للانتقال من معنى إلى معنى، وتستخدم لرفض المعنى الأول، وإثبات معنى نقيض له، وكأنها سبقت في الآية للانتقال إلى معنى جديد.

* ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ [البروج:٢١]:

﴿ بَلْ ﴾ هنا للإضراب الذي هو بمعنى الرفض للمعنى الأول وإثبات نقيضه؛ أي: رفض تكذيبهم وإثبات الحق، وكأنه يقول: كيف يكذِّب به المجرمون، وهو قرآن

مجيد محفوظ صادق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

فتكذيبهم ناشئ عن سوء ظنهم بالقرآن الكريم، وسوء ظنهم بالنبي المختار ﷺ، وعن سوء ظنهم بمَن أرسله ومَن أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا وقعوا في التكذيب.

وهذا فيه تبشيع للفعل، وهم لا يكذِّبون بأساطير أو أحاديث أو أخبار محتملة، وإنما يكذِّبون ربهم جل وتعالى، الخلَّاق الفعَّال لما يريد، الغفور الودود، وهذا الذي يكذِّبونه ﴿ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾.

والقرآن هو كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ، وهو ما بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، المختوم بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.

والقرآن يأتي مُعَرَّفًا بـ «ال»، كما قال تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق:١]، ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص:١]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [النمل:٧٦]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، ويأتي غير معرَّف كما هنا.

ولفظة «القرآن» كلمة لغوية مأخوذة من: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو اسم للمقروء[1]، الذي يكون مكتوبًا في ورقة ونحوها ويُقْرَأ، أو يكون محفوظًا فيُقْرَأ.

وهي مثل (قربان) لما يُتَقَرَّب به، ومثل (شكران) لما يُشْكَر به؛ فكذلك القرآن هو اسم للمقروء، ثم أصبح عَلَمًا على كتاب الله عز وجل، وسُمِّي قرآنًا؛ لكثرة ما يُقرَأ ويُتلى.

وهنا ذكره مُنكَّرًا، والتنكير يأتي للتعظيم، كما هنا، ولهذا وصفه بقوله: ﴿ مَّجِيدٌ ﴾؛ لأنه من إله مجيد، أي: كامل عظيم كريم.

---

(١) ينظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٣٠)، و«تاج العروس» (١/ ٣٧١).

* ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج:٢٢]:

وقد جرت عادة العرب أن يُطلَق اللوح على المصنوع من الخشب، لكن اللوح المذكور هنا غير مصنوع من خشب؛ لأن الله سبحانه قال في الآية الأخرى: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩]، فعُلِمَ أن اللوح هو كتاب، وهذا الكتاب فيه مقادير الخلائق كلها، وفيه ما أنزل الله سبحانه، وفيه الأحكام والشرائع وكل شيء، فهذا هو اللوح المحفوظ.

وقد ورد في وصف اللوح المحفوظ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه من ياقوتة ودُرَّة، وهذا لا يصحُّ[1]، ولا ينبغي روايته ولا التشاغل به؛ لأنه يتكلم عن شيء من علم الغيب، ويكفينا الوقوف عند ما ذكر الله عز وجل من أن عنده في السماء من المخلوقات ذات المجد والقدسية والعظمة والثبوت شيئًا اسمه اللوح المحفوظ، أو الكتاب المكنون، فهو محفوظ عند الله، ومعنى كونه محفوظًا:

١- أنه محفوظ من الزيادة والنقص، كما في قوله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢]، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه؛ لأنه من عند الله.

٢- أنه محفوظ من أن يطَّلع عليه أحد، إلَّا مَن شاء الله، من الملائكة، ولهذا قال: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩]، وأحد الأوجه في تفسيرها أنهم الملائكة، كما في قوله: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٥-١٦].

وأيضًا في قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ دليل على أنه لا يطَّلع عليه أحد من الخلق إلَّا مَن شاء الله عز وجل، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، والمقصود به القرآن؛ لأن الذكر يُطلَق على القرآن، ويطلق على اللوح المحفوظ، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالذكر من أسماء القرآن، ومن أسماء اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه البغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٨٩)، وسنده ضعيف جدًّا.

فاللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون، والله أعلم، وهو محفوظ لا يطَّلع عليه أحد، إِلَّا بإذن الله عز وجل، ومحفوظ لا يُزاد عليه، ولا يُنْقَص منه، إِلَّا بإذن الله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد:٣٩]، فكأن أم الكتاب هي اللوح المحفوظ[١].

و﴿ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ صفة للوح، وهذا قول الجمهور، وهو مقتضى القراءة بخفض كلمة محفوظ، لكن في قراءة لبعضهم: (في لوحٍ محفوظٌ) برفع «محفوظ»، وعليها تكون صفة للقرآن، فكأنه قال: (بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح)[٢]. والله أعلم.

○ ○ ○

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٧)، «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٨).

(٢) ينظر «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٦)، و«السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص٦٧٨)، و«الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (ص٣٦٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٩).

سُورَةُ الطَّارِقِ

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ
(١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ
أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: ١-١٧].

* تسمية السورة:

١- أشهر أسمائها: «سورة الطارق»[(١)]، وبه سماها البخاري في «صحيحه»، وعامَّة المفسرين والعلماء؛ وذلك لِوَجَازته واختصاره.

٢- «سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»، سمَّاها به بعض المفسرين[(٢)].

وورد في السنة النبوية، كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. كما تقدم في «سورة البروج»[(٣)].

* عدد آياتها: سبع عشرة آية عند جمهور علماء العَدِّ، وقيل: ست عشرة آية، وكأن القائل بهذا عدَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ آية واحدة[(٤)].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٣) تقدم تخريجه في «سورة البروج»: «تسمية السورة».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص ٢٠٧)، و«تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» للفيروزآبادى (ص٥٠٧)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٦).

* وهي مكية باتفاق العلماء، كما ذكر ابن عطية والقرطبي وابن عاشور وغيرهم[1].

ومما يدل على مكيَّتها: موضوعاتها، كالحديث عن الخلق والآيات الربانية، والبعث، ووعيد الكافرين، وهي معانٍ تتكرر في القرآن المكي.

وجاء في حديث مشهور رواه أحمد، وابن خزيمة عن عبد الرحمن بن خالد العَدواني، عن أبيه، أنه أبصر رسولَ الله ﷺ في مشرق ثَقِيف وهو قائم على قوس أو عصًا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصرَ، قال: «فسمعتُه يقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ...﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثَقِيفٌ، فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم»[2].

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١]:

في الآية قَسَمان: الأول بـ: «السماء»، والثاني بـ «الطَّارق».

أما «السماء»، فهي كل ما علا وارتفع[3]، وتُطلَق على السبع الطِّباق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٢].

والغالب في أقسام القرآن أنها متعدِّدة، فمن ذلك: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٥٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٢٧٤، ١٢٧٥)، وابن خزيمة (١٧٧٨)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٢/ ٢٣٩) (٥٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٤١٢٦- ٤١٢٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٩٤٧) (٢٤٤٨).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ١١٢)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٨٩).

وتعدُّد القسم في القرآن فيه إشارة إلى تعدُّد الخلق ووحدانية الخالق تعالى.

وقد وجدتُ أن ثَمَّةَ مواضع يكون القَسَم فيها مفردًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١]، أقسم بالنَّجم وحدَّد حالًا خاصة وهي: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾، فكأنَّ القَسَم هنا إما أن يكون بمتعدِّد يدل على تعدُّد الخلق، أو يكون قَسَمًا بجزء؛ فهو لم يقسم بالنجم كله، وإنما أقسم بالنجم في حالة كونه يهوي، وهذا ليس عامًّا للنجوم كلها، بل هو خاص بالنجم الذي يهوي، وهو الشِّهاب الثاقب المذكور في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠].

وهذا يؤكِّد المعنى الأول، وهو أن القسم في القرآن يشير إلى تعدُّد الخلق وانقسامه، ووحدانية الخالق وكماله وجلاله.

فأقسم بـ «**السماء**»، وثنَّى بـ«**الطارق**»، وهذا الطارق يهوي من السماء كما سيأتي، فهناك علاقة واضحة بينه وبين السماء.

و«**الطارق**» مأخوذ من الطَّرْق، وهو الضرب الشديد، ومنه المِطرقة؛ لأن الإنسان يضرب بها، وغالبًا ما يُطلَق «الطارق» في اللغة على الشيء الذي يأتي في الليل(١)، ولذلك جاء في الحديث: أن النبيَّ ﷺ نهى أن يَطْرُقَ الرجلُ أهلَه ليلًا؛ يتخوَّنهم، أي: إذا جاء من سفر فإنه يطرق بيته في الليل كأنه يختبر أهله، يخشى الخيانة من زوجته، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك، وقد علَّل النهي بقوله: «**حتى تمتشطَ الشَّعِثةُ، وتَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ**»(٢). أي: لكي تتجمَّل الزوجة، وتستعد لزوجها، فلا يفاجئها بالمجيء ليلًا.

وربما كان إطلاق الطَّرْق على الضرب ليلًا؛ لأن الآتي في الليل يحتاج إلى أن يطرق الباب، في حين أن أبواب النهار مفتوحة، والناس في أمن وطمأنينة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ٣٤٥)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٦٣- ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر ﵁.

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [الطارق:٢]:

سؤال تفخيم وتعظيم، ودعوة إلى التطلُّع إلى معرفة هذا الطارق، وحفاوة واهتمام وتضخيم لأمره؛ ليكون الذهن متحفِّزًا لتلقِّي الجواب.

والقرآن يوجِّه المخاطبين إلى العناية بالنجوم ومراقبة حركاتها والانتقال من ذلك إلى الإيمان بخالقها، حتى قال سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦]؛ لأنها من مظاهر الخلق والإبداع الرباني.

* ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق:٣]:

سُمِّي النجم بـ«الثاقب»؛ لأنه يثقب الظلام بضوئه[1]، وهذا من معاني الثَّقْب، وهو تعبير قرآني في وصف النجم لم يكن معروفًا عند العرب، وجاء في القرآن في موضع آخر في سورة الصافات: ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ [الصافات:١٠].

وقيل: إن من معنى الثاقب أنه يَقْصِد الشياطين فيحرقهم ويهلكهم[2].

واختلفوا في هذا النجم، أهو الثُّرَيَّا أم زُحَل[3]؟

والأقرب أن المقصود جنس النجوم، وعليه فإن الله تعالى أقسم بالنجوم كلها.

* ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ [الطارق:٤]:

﴿ إِن ﴾ بسكون النون، وقد يكون معناها النفي، يعني: ما كل نفس إِلَّا عليها

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٦٠)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٠).

حافظ، وقد يكون معناها الإثبات، فتكون مثل «إنَّ»، والمعنى: إنَّ كل نفس لعليها حافظ[1]، وعلى هذا تكون «ما» في قوله: ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا﴾، زائدة أو صلة كما يقولون، والآية في الحالين تقرِّر حقيقة، وهي أن كل نفس عليها حافظ، والتقرير هنا جاء بصيغة النفي والإثبات، أي: لا يوجد نفس إلَّا عليها حافظ، أو بطريقة الإثبات والتوكيد: إنَّ كل نفس لعليها حافظ، والمعنى واحد، لكن طريقة تقريره مختلفة.

وهذا الحافظ، قيل: هو الله تبارك وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]، فهو حفيظ على العباد، ومن أسمائه سبحانه وتعالى: «الحفيظ» و«الحافظ».

والأقرب -وهو قول الجمهور- أن المقصود بالحافظ: الملائكة الحفظة، كما جاء في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢][2].

ولهذا خَصَّ كل نفس بأن عليها حافظًا، أي: من الملائكة، وهذا صريح في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، فالمعنى: أن كل نفس عليها حافظ يخصُّها وحدها، ومن مهمَّته أن يحفظ أعمال الإنسان ويراقبه، والله تعالى أعطى هؤلاء الملائكة الحافظين الكرام الكاتبين القدرة على أن يعلموا كل ما يحتاج إلى علم ومعرفة فيقيِّدوه، حتى ما يُسِرُّه الإنسان في ضميره من الهمِّ والقول والفعل، وفي الحديث

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٤٨- ٣٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٧١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٧)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٥).

المشهور: «قال الله عز وجل: إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتُها له حسنةً، فإن عملها، كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها، لم أكتُبْها عليه، فإن عملها، كتبتُها سيئةً واحدةً»[1].

فجعل تعالى لهم القدرة على معرفة ما يَهُمُّ به الإنسان، فضلًا عما يقوله، أو يعمله، وهؤلاء لا سبيل إلى الخلاص منهم، فقد يتخلَّص الإنسان من الناس ويستتر عنهم؛ لكنه لا يستتر من الكرام الكاتبين، فهم كرماء فضلاء، ولو كان عندك اثنان من أصدقائك الذين تعزُّهم وتجلُّهم، فإنك لن تجرؤ على فعل ما لا يليق أمامهم، والملائكة أولى، ولو أن الإنسان آمن بحقيقة أن معه ملائكة لا يفارقونه، لاستقامت له سريرته؛ ولهذا جاء في الحديث: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ»**[2].

فالمعنى الأول: أنهم يحفظون ويكتبون ويقيِّدون على الإنسان كل ما يعمل.

والمعنى الثاني: أنهم يحفظون للإنسان ما كُتِبَ له من رزقه، ومن أجله، ومن عمله، كما قال: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، **فإذا جاء القدر خلَّوْا بينه وبين قَدَر الله، ولذلك ربما يتعرَّض الإنسان لكرب مفاجئ، ثم ينجو من ذلك بأعجوبة؛ لأن الله تعالى وَكَّلَ به مَن يحفظه من الموت؛ فأجله لم يَحِنْ بعدُ.**

والمعنى الثالث: أنهم يحفظون الإنسان في حياته إلى الموت، وهو قريب من المعنى الثاني[3].

فهؤلاء هم الملائكة، وهذه وظائفهم، وهذه الحقيقة تُعَدُّ شيئًا جديدًا على أهل الجاهلية، فجاء القَسَم عليها في القرآن الكريم؛ لترسيخ الإيمان بها باعتباره فاصلًا بين الخير والشر، والإيمان والكفر، والهُدى والضلال؛ لأن الحفظ له ما بعده، وهو أن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥، ٦٨١٠)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١١٩).

المرء راجع إلى ربه، ثم هو محاسِبه ومجازيه على عمله.

وهل ثَمَّ تناسب بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه؟

نعم، وكأن العلم والاطلاع الذي أَقْدَر الله عليه الملائكة، ومن قبله وبعده علم الله سبحانه وتعالى الذي يتخلخل ظلمات النفس الإنسانية، يشبه النجم الثاقب الذي يخترق الظلام ليصل إلى مداه وما كُتِبَ له، ويزيل الظلمة من حوله، فهكذا العلم يكشف ظلمات النفس، وصدق الشاعر إذ يقول:

وإذا خَلَوْتَ بريبـةٍ في ظـلـمـةٍ والنفسُ داعيـةٌ إلى الطغيـانِ
فاستحي مِن نَظَرِ الإلهِ وقلْ لها: إنَّ الـذي خـلـقَ الظـلامَ يراني

قد يكون في القلب معانٍ خفيَّة غامضة لا يتفطَّن لها صاحبها، والعلم الإلهي يخرق الحجبَ ولا يُكِنُّ منه سترٌ، ثم الملائكة الموكَّلون يطَّلعون ويدوِّنون؛ فخليق بالإنسان أن يكون مراقبًا لنفسه حق المراقبة، عارفًا بها، مدركًا لدوافعها ونوازعها.

* ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥]:

وهذا تبصير وتذكير بأن الإنسان قد يكون غنيًّا بماله أو جاهه أو سلطانه، فبيَّن الله ضعفه الفطري بالنظر إلى أصل خلقته.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ صيغة أمر، بفعل مضارع مع لام الأمر، والمعنى: انظر مم خُلِقْتَ، والأمر يدل على الوجوب، أي: فيجب على الإنسان أن يتفكَّر كيف خُلِقَ ومم خُلِق.

ونظر الإنسان للمادة التي خُلِقَ منها، وهي الماء الدافق، هو نظر اعتبار وتبصُّر وتعقُّل؛ لأن الماء الذي يراه يخرج منه، هو من جنس الماء الذي خُلِقَ منه.

وليس المقصود بـ«الإنسان» هنا: الكافر، كما قال بعضهم[1]، وإن كان سياق

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٥).

النص يوحي بذلك؛ لأن الآية فيها نوع من التوبيخ والعتاب، لكن الأمر عام لجنس الإنسان، أن عليه أن ينظر ويتدبَّر، كما قال تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [عبس:١٨][1].

* ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٦]:

وهذه إشارة إلى هوان أصل الخِلقة، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج:٣٩]، أي: من الشيء الذي يعلمون أنه شيء مَهِين، وفي الآية الأخرى: ﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة:٨]، فأصل الخِلقة لا يؤهِّل الإنسان للاستكبار والكفران.

وليس في الآية حَطٌّ من قدر الإنسان؛ فالله تعالى قد خلق الأنبياء والبشر من هذا الماء، ولهذا اختلف الفقهاء في المنيِّ، هل هو طاهر أو نجس؟ والراجح أنه طاهر؛ لأنه أصل الناس، ويبعد أن يخلق الإنسان من نجس، لا سيما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد كان النبي ﷺ يُفرك المني من ثوبه ثم يصلِّي فيه، وكان يغسله ثم يخرج إلى الصلاة وأثر الغسل في ثيابه[2]، وهذا ليس شأن النجاسة، ولذلك نقول: إن الإسلام لا يستقذِر الدوافع الجنسية، ولا يكرهها بذاتها، وحتى الاغتسال الذي أُمِرَ به الإنسان بعد المواقعة، ليس لأنه قارف خطيئة، فهو يغتسل ليتطهر منها، ولكنه إعادةٌ للحيوية والنشاط إلى جسد الإنسان.

ولذا فليس في وصف الماء بأنه ﴿ مَّهِينٍ ﴾ تقذير أو تنقيص؛ لأن المعنى: أنه ضئيل أو قليل جدًّا أو ضعيف، أو رقيق، وغالب كلام المفسرين يدور حول هذا المعنى[3].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٢٩-٢٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨- ٢٩٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٦١- ٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٤٤)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠٠)، (٢٣/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١١٨)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٩)، و«البحر المحيط» (٩/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٨).

وقد أشار القرآن الكريم إلى قضايا الجنس، والعلاقة بين الرجل والمرأة في مواضع كثيرة، ومنها هذه الآية، فجعلها محلًّا للاعتبار.

وبعد أن قال: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾؛ قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧]، وقال في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩].

وهذا يشير إلى أن مثل هذه المعاني ليست مما ينبغي كتمانه أو التستُّر عليه، بل هي حقائق مهمَّة، لا حرج أن تدركها الفتاة، ويدركها الفتى، وليس فيها استثارة للغرائز، ولا ذِكْرٌ لما ينبغي الأَنَفة منه.

إن حديث القرآن والسنة عن هذه الحقائق والمعاني حديث عفيف محتشم، ليس فيه إثارة ولا تهييج، وفي سورة يوسف عليه السلام ذكر الله تعالى قصته مع امرأة العزيز: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٣-٢٤]، فهذا معنى يشير إلى وجود خلوة دبَّرتها امرأة العزيز؛ لتوقع يوسف عليه السلام، ولكن السياق جاء بها بطريقة متعالية عن الإسفاف والإثارة، مما يؤدِّي إلى الرُّقيِّ بهذه الدوافع والوعظ فيها، وليس إلى التحريض على فعلها.

أما حينما تتحوَّل هذه المعاني إلى وسائل للإثارة والإغراء، كما نجده في بعض الروايات التي تعتمد في الترويج على استثارة الغرائز، وكأنها تعرض فيلمًا إباحيًّا، بحجة الواقعية في السرد، فهذا توظيف سلبي حيواني جاهلي، كما أن شدة التوقِّي والإفراط هي جاهلية أخرى مستترة، فينبغي أن يُعَالَج الإفراط والتفريط بالرجوع إلى أسلوب القرآن والسنة، ومراعاة قدر التعليم والتثقيف والمصلحة والمفسدة.

وقوله سبحانه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، سماه الله: «ماء». والأصل في المياه الطهارة، ووصفه بأنه «دافق».

وكثير من العلماء يقولون: ﴿دَافِقٍ﴾ أي: مدفوق، ويقولون: إن هذه لغة الحجاز، فهو مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، أي: مرضيَّة[1].

والأقرب ما رجَّحه ابن القيم وغيره، أن ﴿دَافِقٍ﴾ معناه أنه دافق بذاته[2].

ويتقوَّى هذا المعنى إذا علمنا أن هذا الماء الدافق يحمل ملايين الحيوانات المنوية، وإنما سُمِّيت حيوانات؛ لأنها حية، والذي يلقِّح البُويضة إنما هو واحد من هذه الملايين، ولذلك عبَّر بقوله: ﴿دَافِقٍ﴾، إشارة إلى ما يحمله هذا الماء من تلك الحيوانات.

* ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧]:

وقد أجمع العلماء على أن «الصُّلب» هي عظام الظهر، والأكثرون على أن الترائب هي عظام الصدر، وخصَّها بعضهم بعظام الصدر للمرأة، فمن هنا ظن بعض علماء السلف أن ماء الرجل يخرج من ظهره، وأن ماء المرأة يخرج من صدرها، غير أن هذا الكلام لا يثبت أمام النقد العلمي والطبي التشريحي[3].

وقد استشكل بعض المعاصرين قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧]، وأحدث لَبْسًا على ضعفاء الإيمان، وحاول بعض المغرضين التشكيك في صحة القرآن وقدسيَّته من خلال هذه الشبهة، فقالوا: ما علاقة الصُّلب الذي هو الظهر والترائب التي هي عظام الصدر بهذا الماء الذي يخرج من الخصية والبويضة التي تتخلَّق في عنق الرحم؟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٦٩)، (١٢/ ٤١٨)، (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٩)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥١)، و«روح البيان» (٤/ ١٣٢).

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص١٠٢)، و«أعلام الموقعين» (١/ ١١٢)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢- ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤- ٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٢).

قرأتُ أقوالَهم، ووجدتُ أن أحسن ما يقال في هذا الموضع، أنه لا يُقْصَد به خروجه الآني الفوري من الصدر أو الظهر؛ لأن هذا من المخالف للحسِّ الذي يعرفه كل أحد في كل وقت؛ فلو كان في هذا الكلام مأخذ أو مطعن لكان المشركون الأولون أول مَن يستنكر ذلك، ويستغلُّه لتكذيب الرسول ﷺ، ولكنهم وجدوا أنه معنى صحيح جارٍ على قواعد لغتهم، وموافِق ومطابق للمحسوس، فلم يستنكروه.

و«الصُّلب» يشمل عظام الظهر حتى عظام العجز، فكلها تُسَمَّى صُلبًا، فكل ما كان من العظام خلف ظهر الإنسان فهو صلب من عظام الكتفين إلى أسفل الظهر، وبهذا يدخل العجز في الصلب.

وكذلك ما يتعلَّق بـ«الترائب»: فهي عظام الصدر وموضع القلادة، وأيضًا عظام الأضلاع والعظام التي في أسفل البطن في المثانة وغيرها، فهي داخلة في عظام الترائب، وهذا ليس غريبًا، بل إن الضحاك يقول: إن الترائب هي عظام الرأس واليدين والرجلين.

والمسألة فيها أقوال، وقد ذكر ابن الجوزي، وابن كثير وغيرهما أربعة أقوال للغويِّين في تفسير «الصلب» و«الترائب»[1]، أجودها أن المقصود بـ«الصُّلب»: عظام الظهر، حتى عظام العَجُز، و«الترائب»: عظام الصدر، حتى عظام الحوض، فيكون المعنى: يخرج من ملتقى عظام الظهر وعظام الترائب، أي: من ملتقى العجز والصدر، وهو موضع الاتصال بين الزوجين.

فيخرج ذلك من بينهما، ويكون المقصود عظام الرجل والمرأة على حدٍّ سواء؛ لأن موضع النسل والإنجاب هو فرج الرجل وفرج المرأة، وهذا معنى سهل واضح متفق مع قواعد اللغة العربية.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢-٢٩٦)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥-٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٨).

وإذا أراد الناس أن يبتكروا أو يطبِّقوا على القرآن بعض الدلالات العلمية المعجزة، فيجب أن يكون ذلك من غير تكلُّف، فبعضهم يقول: إن قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، فيه إشارة إلى أن الجنين في بطن أمه تكون أعضاؤه التناسلية مرتفعة عند الكلية تقريبًا، حتى الخصية تكون هناك، ثم تنزل وتهاجر إلى مكانها الْمُقَدَّر لها في الموضع المعلوم، وهذا له وجه ذكره المراغي وغيره، ودندن حوله عدد من العلماء المعاصرين[1].

لكنني لا أرى أن هذا مُعَبِّر تعبيرًا بليغًا عن معنى الآية؛ لأنه قال: ﴿يَخْرُجُ﴾، أي: الماء، ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم يقل: إن العضو الذي يكون منه الماء يخرج من بين الصُّلب والترائب، فالأقرب أن المقصود هو الماء ذاته الذي يخرج من بين الصُّلب والترائب، وليس الجنين، أي: من ملتقى هذه العظام، وأن الصُّلب: عظام الظهر كلها حتى أسفلها، والترائب: عظام الصدر كلها حتى أسفلها.

* ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق:٨]:

أي: قادر على إرجاع الإنسان حيًّا بعد موته، وثَمَّ تناسب قوي بين ما سبق ذكره من بداية الخلق، ومن وجود الحفظة، ولذلك عقَّب بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

والضمير يرجع على الله بلا خلاف، وإن لم يكن لفظ الجلالة مذكورًا في السورة، إلَّا أنه معلوم في الأذهان.

وقوله: ﴿رَجْعِهِ﴾: مرجع الضمير فيه إلى الإنسان، على الصحيح[2]، أي: أن الله

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ١١٢-١١٥)، و«التفسير المنير» لوهبة الزحيلي (٣٠/ ١٧٧)، و«مباحث في إعجاز القرآن» لمصطفى مسلم (ص٢١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٨)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦).

تعالى قادر على إعادة الإنسان بعدما يموت، وهذا هو الذي سوف يحدث، فكأن الآية تحدَّثت عن قدرة الله سبحانه وتعالى على البعث، ولكنها لم تقرِّر هذا المعنى، فمجرَّد القدرة لا تعني تحقُّق وقوع الشيء حتى يأتي الإخبار عن حتمية وقوعه من الله.

* ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق:٩]: فأخبر أن الرجوع سيتحقَّق.

وقال بعضهم: إن المقصود بقوله: ﴿ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ ﴾ أي: على رجع الماء الذي يخرج من الإنسان، بحيث لا يخرج، كما قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك:٣٠]، أو على رجع الشيخ إلى شبابه، وهذه ذكرها غير واحد[1].

وهذه المعاني وإن كان الله قادرًا عليها، لكنها ليست هي المقصودة في الآية فيما يظهر؛ فالمقصود أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان للحياة بعد موته، ولذلك قال: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق:٩]، وهذا صريح في أن المقصود يوم البعث، أي: أن رجوع الإنسان هو في ذلك اليوم الذي تُبلى فيه السرائر.

و﴿ تُبْلَى ﴾: تُختبَر وتُكشَف وتظهر، وهنا نلاحظ تناسبًا قويًّا بين هذه الآية وبين قوله في السورة ذاتها: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق:٤]، فقد حُفِظَت الأعمال في الكتب المطوية، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥٢-٥٣]، أي: مكتوب في سطور[2].

و﴿ ٱلسَّرَآئِرُ ﴾: جمع سَرِيرة، والمقصود بها هنا معنيان:

١- الأفعال التي فعلها الإنسان سرًّا دون أن يراها الناس.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٧- ٢٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٩٢).

٢- النيات والمقاصد؛ حيث إن الإنسان قد يعمل عملًا في ظاهره أنه خير، لكن مقصده فيه سيئ، فتظهر السرائر يوم القيامة، وحينئذ تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه كما ذكر الله عز وجل[١].

* ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق:١٠]:

أي: الإنسان، فمن أين تأتيه القوة والناصر وقد خُلق من ماء مهين؟!

والفرق بين «القوة» وبين «الناصر»: أن «القوة» من النفس، وأما «الناصر» فمن خارجها، كما قال الله: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف:٤٣]، أي: ناصر من غيره، ولا هو من المنتصرين بنفسه[٢].

وقد يكون المعنى: أن «القوة» هي قوة المجموع، كالقبيلة؛ لكن «الناصر» هو الحليف الذي ينصرها من غيرها[٣].

والمقصود أنه قد تفلَّتت يده من جميع أنواع القوة الذاتية والخارجية.

قد يستشكل بعض الناس ثبوت الشفاعة يوم القيامة التي هي نوع من النُّصرة، فيُجاب: إما بأن المقصود في السياق هو الإنسان الكافر[٤]، وقد ذكر الله تعالى الكفار

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٧- ٢٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠١)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٤٩٤)، (٣١/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

فقال: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨]، وذكر أن الشفاعة لمَن ارتضى، فقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٩]، فتكون الشفاعة للمؤمنين كما وردت به السنة النبوية[١]، أما غيرهم فليس لهم من قوة، وليس لهم من ناصر، وقد يقال: إن المقصود جنس الإنسان، وأنه ليس له من قوة ولا ناصر، فإنا نقول: إلا بإذن الله! فيُستثنَى من ذلك الشفاعة وغيرها مما ورد في الكتاب والسنة.

ثم قوله: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾، فيه نفي مصحوب بـ﴿ مِن ﴾، فهو نفي مؤكَّد مستغرِق، فكأنه يقول: ليس له أدنى قوة ولا أدنى ناصر، فهو أقوى في النفي مما لو قلنا: ليس لك قوة ولا ناصر، فمجيء ﴿ مِن ﴾ تعني نفي كل ألوان القوة والنصرة.

* ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطارق:١١-١٢]:

وهذا قَسَمٌ جديد، وهو قَسَمٌ ثنائي، فأقسم الله تعالى بالسماء وبالأرض، ووصف السماء بأنها ذات الرَّجع.

و«الرَّجع» يُحتمَل أن يكون المقصود به المطر الذي ينزل مرة بعد أخرى في كل عام، فهو يرجع للناس ويحيي الله به الأرض بعد موتها[٢].

ويجوز أن يكون المقصود: أن المطر يخرج من الأرض، ثم يذهب إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، فالمطر من البحر[٣].

وقد كان هذا معروفًا عند العرب في الجاهلية، والشاعر يصف السَّحاب فيقول:

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، ومسلم (١٨٣، ١٩٣-١٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٢-٣٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣).

شربْنَ بماء البحر ثم تَرَفَّعَتْ مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لهنَّ نئيجُ[(١)]

وقوله: «متى لُجَجٍ» أي: على لُجَجٍ.

فماء البحر يرفعه الله تعالى بإذنه، فتنشأ به السحب، ثم يأذن الله تعالى له فيرجع، ولهذا سُمِّيت: بذات الرجع، وهذا فيه علاقة مع الماء الدافق، فكما أن بالمطر تحيا الأرض، وينبت الزرع، فكذلك بالماء الدافق يتخلَّق الناس.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ فيه علاقة مع دور المرأة التي تستقبل هذا الماء، والتي تتصدَّع بخلق الإنسان، وهذه كرامة للمرأة؛ فالأنبياء خُلقوا في أرحام النساء، والمقصود بـ ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ أنها تنصدع وتنشق عن النبات، والأرض هنا صبورة موطأة ذلول، وهي أخلاق الأنثى في أجمل حالاتها[(٢)].

وثَمَّ تناسب بين ظلام يُشق بالنجم الثاقب، وبين الأرض التي يشقُّها المطر ثم يخرج منها النبات، وبين المرأة التي هي موضع النسل، وبين الأرض التي هي موضع الحرث والزرع، وهنا يتبيَّن فضل الإنسان على السماء والأرض، فما هي إِلَّا جمادات مسيَّرة، لكن بالنسبة للذكر والأنثى، فهما مخلوقان لهما إرادة واختيار، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، فجعل للمرأة دورًا مثل الرجل، وليست مثل الأرض تُوضَع فيها البذرة ثم تنمو، دون أن يكون لها إرادة، وإنما هي مجرد محضن لها، بل هو أمر يختاره الرجل والمرأة.

---

(١) ينظر: «ديوان الهذليين» (١/ ٥١-٥٢)، و«شرح أشعار الهذليين» (١/ ١٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٦) منسوبًا إلى أبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي.
والمعنى: أن السحابة استقت ماءها من موج البحار، ثم ارتفعت على سحائب أخرى سود، تمر مرًّا سريعًا في السماء محدثة صوتًا. و(متى) هنا بمعنى (من) وهي لغة هُذيل.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٤-٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣).

* ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴾ [الطارق:١٣]:

أي: القرآن، وهذا أحسن ما قيل، وعليه جمهور المفسرين، وبعضهم يقول: الضمير يعود على الكلام السابق[١]، والكلام السابق من القرآن، والأَوْلى حمل الضمير على القرآن كله.

ومعنى ﴿ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴾، أي: فاصل، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص:٢٠].

فقوله: ﴿ فَصۡلٞ ﴾، يعني أنه يفصل بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، وهذا القَسَم الرَّباني على القرآن دليل على أنه محتوٍ على لباب المعاني والأحكام، والأصول والقواعد التي يحتاجها الناس.

وأنا أعجب من هذه النصوص القرآنية القطعية، التي يقرؤها الصغار والكبار، ثم إذا نظرت إلى عموم الناس وجدت منهم الإعراض عن قراءة القرآن وتدبُّره، حتى إنك تجد عند المتعلِّمين وطلبة العلم ولعًا شديدًا بحفظ السنة ومتابعتها، واهتمامًا بالأحاديث والروايات، والرجال، والجرح والتعديل، وما أشبه ذلك، وربما قضى الإنسان وقتًا طويلًا في تخريج حديث مثلًا، ووصل في النهاية إلى تضعيفه، في حين تسود الغفلة عن المعاني المبذولة في آيات القرآن الكريم من حِكَمٍ وأحكام وعبر وآيات، وتجد أن الدروس في شروح الأحاديث والقراءة فيها والاعتناء بها أكثر من الدروس المعتنية بكتاب الله تدبُّرًا وتفسيرًا، وحتى الدروس القرآنية غالبًا ما تنصرف إلى جوانب لغوية أو فقهية أو خلافية دون ملامسة لمقاصد القرآن وهداياته ومعانيه ودلالاته!

وأحسب أن هذا من أعظم أسباب التخلف الذي يعانيه المسلمون اليوم؛ حيث

---

(١) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٣).

تجد العقلية الإسلامية مستغرقة في جزئيات وتفاصيل، مع أن الوقت يجب أن يُصرَف للبحث في القضايا الكبار، والأمور العظام؛ ولذا فإن الإفادة من دلالات القرآن ومعانيه، تجعل الإنسان كبيرًا في عقله، كبيرًا في فهمه، كبيرًا في اهتماماته، ولا تقل: أنا أهتم بكذا وكذا وبالقرآن، فهذا من حيث المبدأ سليم، لكن لن تستطيع له طلبًا وتحقيقًا؛ لأنه إذا أُغْرِق الإنسان في شيء أخلَّ وقَصَّر في غيره.

ولهذا فإن مما أغفل المسلمين عن تدبُّر القرآن، والتخلُّق بأخلاقه، والعمل بشريعته؛ ما وقعوا فيه من تعصُّب مذهبي؛ لأنهم أُولعوا بكتب الفقهاء، ثم انفتح كثير من طلبة العلم في رِدَّة فعل لذلك التعصُّب على رفض التقليد؛ والأخذ مباشرة من أحاديث السنة، لكن ترتَّب على الإفراط في هذا الأمر؛ أنِ غلوا في الكثير من التفاصيل والفروع، وغفلوا عن اللباب والأصل الذي هو القرآن الكريم.

والقرآن فصلٌ فيما يختلف المؤمنون فيه، وما أكثر الخلافات والصراعات التي توجد حلولها في القرآن، في حين أن كثيرًا من الناس لا يرجعون إلى القرآن.

ونحن لا ندعو إلى إهمال الحديث، ولا إهمال الفقه، ولا الجور على شيء من علوم اللغة أو الأصول أو سواها، لكن ندعو إلى وضع الأمر في نصابه ولجم الاندفاع بأكثر مما ينبغي مما يحدث ارتباكًا وخللًا في «فقه المقادير»، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

* ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق:١٤]:

فأثبت سبحانه وتعالى أنه «قول فصل»، ثم نفى عنه الهَزْل، وبيَّن أن ما أخبر به من الحفظة أو الوعد أو الوعيد أو غيرها؛ ليس مجالًا للهَزْل.

وفيه إشارة إلى مَن يجعل من الجِدِّ هَزْلًا، فإذا ذكر لهم البعث الذي ذكره الله تعالى هنا، قال قائلهم: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٦] أو أخذ عظمًا باليًا ففتَّه ونفخه، وقال: ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨]، فهؤلاء اتخذوا القرآن هزوًا وهزلًا.

* ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ [الطارق:١٥]:

يعني الكافرين[١]، وهذا يرجِّح أنهم المقصودون فيما قبله.

و«الكيد»: هو المكر الخفي[٢]، والله تعالى أكَّد كيدهم بقوله: ﴿كَيْدًا﴾، ولم يقل: (كيدًا عظيمًا)، ولا: (كيدًا سهلًا)، وهذا من الإعجاز؛ فهو كيد عظيم وسهل، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

وقد قيل: إن المقصود الإشارة إلى عظمة كيدهم، وقيل: الإشارة إلى هوانه[٣].

فكيد الكفار «عظيم» بالقياس إلى قدرة الناس وطاقتهم، و«هيِّن»؛ لأن الله يبطله؛ فهو لا يصلح عمل المفسدين.

* ولما قال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق:١٦]، جعله كيدًا مطلقًا؛ ليدل على أنه كيد يليق بعظمته سبحانه.

والمعنى: أن كيدهم يليق بهم، والكيد من الله تعالى يليق به، فكيدهم يتصف بصفات البشرية من الضعف والعجز، والكيد من الله يتصف بمطلق القوة والشدة على ما يليق بجلاله.

وجاء ذكره هنا على سبيل المقابلة والمشاكلة، ولأن الله تعالى لا يُوصَف بالكيد إلَّا على سبيل مقابلة فعلهم، كما قال: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ [النمل:٥٠]..

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٤٣)، (١١/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٢).

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٥٤]، أي: أن الله تعالى يكيد لمَن يكيدون له، ولرسله[١].

* ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق:١٧]:

أي: انتظر لهم، وأعطهم فرصة، وهذا أمر مُوَجَّه للنبي ﷺ، وقد تفهَّم هذا الأمر، وتأدَّب به، حتى إنه لما جاءه مَلَك الجبال وعرض عليه أن يُطبِق عليهم الأَخْشَبين[٢]، قال: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَنْ يعبدُ اللهَ وحدَه لا يشركُ به شيئًا»[٣]. فهذا من أثر تعلُّمه ﷺ في مدرسة القرآن.

أما الفرق بين «مهِّل» و«أَمْهِل»، فهو مثل الفرق بين: نزَّل وأَنْزَل، أو: علَّم وأَعْلَم، فـ(علَّم ونزَّل) فيها تدريج وبطء، أما (أَعْلَم وأَنْزَل) ففيها مباشرة، فكأنه قال: مَهِّلْهم، أي: ببطء وتدرج.

أما الثانية: ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ فهي سريعة؛ لأنها مربوطة بقوله: ﴿ رُوَيْدًا ﴾ أي: وقتًا يسيرًا، فكأن قوله: ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ دليل على قرب العقاب الذي ينتظرهم[٤].

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بآية السيف: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة:٥].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٢)، (٣١/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٦)، و«الإتقان» (٣/ ١٤٠، ٣٢٢)، و«روح البيان» (١٠/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (١/ ٣٩٥)، (٢/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٢/ ١٧١)، (٥/ ١٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٤٩٦).

(٢) أي: جبلي مكة أبي قبيس وقعيقعان، سُمِّيا بذلك لصلابتها وغلظ حجارتها.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة ﵂.

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨).

والراجح أنها غير منسوخة، ولكنها مُنـزَّلة على حال، وتلك الآية مخصوصة بحال[1]، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص ١٩٦)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص ٦٥)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٦٢٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص ٤٩٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٧٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٤٩)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشنقيطي (ص ٢٥٦).

سُورَةُ الأَعْلَى

سورة الأعلى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى (١) ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ
(٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ (٥) سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ
(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ (٨) فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى
(١١) ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ (١٣) قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ
ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (١٦) وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي
ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى:١-١٩].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها عند جمهور أهل التفسير، وعليه غالب كُتَّاب المصاحف: «سورة الأعلى»(١)؛ أخذًا من هذا الاسم المتميِّز في السورة في قوله سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ حيث خُصَّت به السورة.

٢ - «سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾»(٢)، حيث تُسَمَّى بالآية الأولى منها، وورد هذا في أحاديث عدة عن النبي ﷺ، كما في قصة معاذ رضي الله عنه لما أطال بقومه الصلاة، فقال له النبي ﷺ: «فلولا صليت بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾...»(٣).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «ما قدم النبي ﷺ المدينة حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُور من المُفَصَّل»(٤).

---

(١) ينظر: «سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٨)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٢٥، ٤٩٤١).

٣- «سورة سبِّح»، ومنه قول الفقهاء: يقرأ في الجمعة بـ«سبح» و«الغاشية»[(١)].

* عدد آياتها: (١٩) آية باتفاق العلماء[(٢)].

* توقيت النزول:

الجمهور على أنها مكية، والدليل على ذلك: حديث البراء المتقدِّم، وقد ذكر أكثر العلماء أنها السورة الثامنة من حيث النزول.

ومما يؤكِّد مكيَّتها: الموضوعات التي تناولتها؛ فإن فيها الحديث عن تسبيح الله، والإيمان به، والوعظ الذي يَكثُر في السور المكية.

وذهب بعضهم إلى أنها مدنية، أو أن فيها آيات مدنية، ويُنْسَب هذا لأبي سعيد الخدري ﷺ وغيره، وأنهم قالوا في قوله سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]، أن المقصود: زكاة الفطر وصلاة العيد، وهاتان الشعيرتان لم يكونا إلَّا بعد الهجرة.

والصحيح أن السورة مكية كلها، حتى على فرض أن المقصود بالآيتين صلاة العيد وصدقة الفطر، فهذا لا يلزم منه أن تكون السورة مكية؛ لأن هذا قد يكون مما تضمَّنته الآيات من المعاني، لا أنها نزلت في مشروعيتها[(٣)].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٢) -وفيه: «سورة سبح الأعلى»- و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١٩٨)، و«زاد المعاد» (١/ ٢٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٧)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص ٦١٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٧٠-٣٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١-٢٧٢).

* ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]:

هذا أمر للنبي ﷺ، والتسبيح لفظ معروف متداوَل في القرآن الكريم، وغالبًا ما يُطلَق على مجمل التعبُّد، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]؛ فقوله: ﴿ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ معناه: من الذاكرين الله والمستغفرين ونحو ذلك.

والتسبيح لفظ عربي معروف المعنى، وقيل: إنه من اللسان العبراني، ولكنه عُرِّب، ولا بأس بهذا، فلفظ التسبيح هنا يشمل أربعة معانٍ(١):

١- تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به، مما نَسَبَهُ إليه المشركون أو الجاهلون، فننزِّه عن الصاحبة والولد، والعجز واللغوب والجهل، وكل معاني النقص، وهو ما يمكن أن يُطلَق عليه السَّلب، أي: نفي صفات النقص، لكن نفي صفات النقص لا يلزم منه بمجرده إثبات الكمال.

٢- إثبات صفات الكمال لله عز وجل، فنثبت لله أسماءه الحسنى وصفاته العليا، وكماله المطلق، وجلاله وجماله، وعظمته ومجده وسلطانه، وعلمه وقدرته، وحكمته ورحمته، وكل ما ورد في مُحْكَمات النصوص من معاني الكمال.

٣- أن يكون المقصود: نزِّه اسم الألوهية عن أن يُطلَق على الأوثان، كما كانت العرب تطلق على اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألفاظ الألوهية، وتمنحها شيئًا من ذلك؛ أي: نزِّه ربَّك أن تطلق اسمه الشريف العظيم المقدَّس على غيره من الأوثان.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩-٣١٠)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ٢٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤)، و«لسان العرب» (٢/ ٤٧١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٥)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٣).

وهذا الذي ذكره الطبري وابن حزم والرازي وكثير من أهل العلم[1]، وأخذوه من قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقالوا بأن ذكر الاسم معناه: لا تطلق هذا الاسم على غير الله عز وجل.

٤ - أن تنزِّه الله تعالى عن أن تتسبَّب في سبِّه سبحانه وتعالى، وهذا معنى لطيف، وإن لم يكن ظاهرًا في الآية، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يسبُّوا آلهة المشركين؛ لئلا يتجرَّأ المشركون فيسبُّوا ربنا سبحانه وتعالى عَدْوًا بغير علم.

فينبغي للمؤمن أن يتفطَّن إلى أن عليه أَلَّا يأتي بابًا من أبواب الخير، إذا كان سيترتب عليه مفسدة أعظم، ولعل هذا مرتبط بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، وسنزيد الأمر إيضاحًا عند تلك الآية الكريمة.

وذكر بعضهم أن لفظة ﴿ٱسْمَ﴾ في الآية تُعَدُّ صلة، كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وأن معنى قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾: سبِّح ربَّك[2]، ويستدلون بقول لَبِيد الشاعر:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ومَن يَبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ[3]

وقصده: ثم السلام عليكما، ولكن يُؤتَى بهذا اللفظ على سبيل الصلة، وقد يقول البعض: إنه لفظ زائد، لكنهم يكرهون أن يطلقوا الزيادة على شيء من القرآن الكريم؛ لأن القرآن ليس فيه شيء زائد.

---

(١) ينظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٥/ ١٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٦)، و«تفسير ابن عطية» (١/ ٥٦)، (٢/ ٤٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣).

(٣) ينظر: «ديوان لبيد» (ص٥١).

وقد جاء في آية أخرى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٧٤] بزيادة الباء، وعدل عن أن يقول: (سبح اسم الله)، لأن «الربَّ» مختصٌّ بالتربية والعناية والرعاية والعطف واللُّطف، وهذه من أعظم الإفضالات والإنعامات التي يجود بها على العباد عامة، ففضله عامٌّ للخلق، وخاصٌّ للبشر، وهو للمؤمنين أخصُّ، أما الأنبياء فلهم من مقامات الصفاء والتكريم والعناية واللطف ما لا يقدر قدره إِلَّا هو سبحانه.

وقد ناسب أن يذكر اسم «الرب» هنا؛ لأن المقام مقام ثناء على عطاء ربنا تعالى وعلى نعمه وإكرامه، فلفظ الربوبية أليق؛ لأن الرب يُطلق على الخالق، ويُطلق على المالك المتصرِّف، ويُطلق على المُنْعِم.

ولفظة: ﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وردت في القرآن في غير هذا الموطن في قصة موسى عليه السلام: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٨]، وهذا دليل على أن لفظ «الأعلى» لا يختص بالله.

فالأسماء التي تختصُّ بالله تعالى، ولا تُطْلَق على غيره: «الله»، و«الرحمن».

و﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ مأخوذ من العلوِّ، ومثله ﴿ ٱلْعَلِيُّ ﴾: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فاسم الله هو ﴿ ٱلْعَلِيُّ ﴾، و﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ في معناه، ولكنها صيغة مبالغة تدل على كمال العلوِّ، ونحن نؤمن لله تعالى بالعلو من جميع وجوهه، فالله تعالى له العلوُّ في ذاته، حيث استوى على العرش، وهو فوق السماوات: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]، وهو معنى قررته الشريعة، ودلَّت عليه الفطرة، ودلَّ عليه العقل، من غير أن نسمح لعقولنا بتصوُّر كيفية لذلك؛ وله سبحانه علوُّ القهر والغلبة والسلطان على عباده، وله علوُّ القَدْرِ والمكانة[1].

---

(١) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٣-١٦٤).

و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾: صفة للرب، وليس صفة لـ﴿ٱسۡمَ﴾ لأنه قال بعدها: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢] فالذي خلق وسوَّى هو ﴿رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾.

ولا بأس أن يكون المقصود الاثنين معًا، فيكون وصفًا للاسم بالعلو، ووصفًا للرب تبارك وتعالى بالعلو؛ لأن الاسم مَردُّه إلى الله عز وجل، فالمقصود أسماء ربك العليا، أي: سبِّح ربك بأسمائه العليا؛ لأن العبد إذا أُمِر بتسبيح خالقه، فلن يسبِّحه إلَّا بذكر أسمائه الحسنى، فإن الأصل أن يُثني العبد على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله التي وردت في القرآن والسنة، ولا يخترع أشياء من عنده.

ولو أن الإنسان وصف الله سبحانه وتعالى بأمور من عنده، فلا تردُّ مطلقًا، ولكن ننظر: فإن كانت مما ورد معناه في القرآن والسنة، فلا بأس بوصف الله بها، من غير أن تكون أسماء؛ لأن الأسماء توقيفية، فلو قال أحد مثلًا: «ربنا هو وجدان المحرومين، ونصير المظلومين، وأمان الخائفين، ودليل التائهين». فلا بأس بذلك؛ لأن هذه كلها معان صحيحة، والإمام أحمد كان من دعائه: «يا دليل الحائرين، دُلَّني على طريق الصادقين»[1].

فلا حرج أن تُقال على سبيل الخبر أو على سبيل الوصف، دون التسمية؛ لأن الأسماء توقيفية، لا تزاد ولا تنقص، وإنما يقتصر فيها على ما ورد[2].

والذكر الذي يملأ القلوب بالإيمان والسكينة والطُّمأنينة، ويقرِّب إلى الله، ويحقِّق ما أمر به سبحانه؛ هو الانهماك في التسبيح، والثناء على الله والتقرُّب إليه، وليس أن ننخرط في جدال: هل الاسم هو عين الْمُسمَّى، أو هو غيره؟ وهذا مما طرحه بعض المفسِّرين، في هذه الآية، وخاضوا في مجادلات تَحْرِمهم لذة الاستمتاع بالنصِّ وتدبُّره

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨٦)، (٢٢/ ٤٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص ١٥٩)، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» لابن عثيمين (ص ١٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٣٨).

وتأمُّل معانيه الجميلة، وتلطيف وهج النفس وصخب الحياة بدلالاته وآياته.

إن لله تعالى الأسماء الحسنى، كما قال النبيُّ ﷺ: **«إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخلَ الجنةَ»**[(1)].

وقد قرَّرنا في غير هذا الموضع[(2)] أن الحديث لا يعني حصر الأسماء الحسنى، وإنما المقصود أن من أسمائه تسعة وتسعين اسمًا مَن أحصاها دخل الجنة، وإلَّا فإنه لا يحصي أسماءه إلَّا هو سبحانه، حتى رسول الله ﷺ، كما في حديث الشفاعة إذا طلب الناس منه الشفاعة لفصل القضاء، يأتي فيخرُّ ساجدًا تحت العرش، قال: **«ثم يفتحُ اللهُ عليَّ، ويُلْهِمُني من محامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْهُ لأحدٍ قبلي»**[(3)].

ولله تعالى من المحامد ما لم يعلمه النبي ﷺ حتى في ذلك المقام، على جلالة قَدْره ﷺ! فإن الله تعالى له الكمال المطلَق الذي لا يحيط به إلَّا هو.

جاء في الحديث: أنه لما نزلت هذه الآية ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال النبيُّ ﷺ: **«اجعلوها في سجودِكم»**[(4)].

لأن الآية عبَّرت بالعلوِّ، فقال: **«اجعلوها في سجودِكم»**. وهذا مناسب؛ لأن السجود هو المقصود الأعظم في الصلاة، وما قبله فهو كالتهيئة له، فالقيام ثم الركوع كالتحية، ثم السجود هو نهاية المطاف وذروة التعبُّد لله سبحانه وتعالى؛ فهنا اختار النبي ﷺ لفظ: **«سبحان ربي الأعلى»** للسجود، إشارة إلى أن الإنسان في هذا المقام يقرُّ لله

---

(1) أخرجه البخاري (٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(2) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٣٦-٣٧).

(3) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(4) أخرجه الطيالسي (١٠٩٣)، وأحمد (١٧٤٥٠)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وابن خزيمة (٦٧٠)، وابن حبان (١٨٩٨)، والطبراني في «الدعاء» (٥٨٤)، والحاكم (١/ ٢٢٥)، (٢/ ٤٧٧) من حديث عقبة بن عامر ﷺ. وينظر: «إرواء الغليل» (٢/ ٤٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٨٧).

سبحانه وتعالى بالعظمة والمجد، والكمال والفضل، ويقرُّ لنفسه بالعبودية والضعف.

فكلما زاد الإنسان ذلًّا، زاد تعظيمًا لعلوِّ الله تبارك وتعالى، وقربًا منه.

وَكَمْ للهِ مِـن لُـطْـفٍ خَـفيٍّ   يَدِقُّ خَفَاهُ عن فَهمِ الـذَّكـيِّ
وكم يُسرٍ أتى مـن بـعـد عُسْر   ففرَّج كُربةَ القلـبِ الشَّجـيِّ
وَكَمْ أَمْرٍ تُـسـاءُ بـه صبـاحًـا   وتأتيـك المَسَرَّةُ بالعشـيِّ
إذا ضَاقتْ بك الأحوالُ يومًا   فثِقْ بالواحدِ الصَّمد العلـيِّ[1]

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]:

فهذا فِعْله تبارك وتعالى، وجاء بالاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:٢-٤]، فنلاحظ أنه كرَّر الاسم الموصول؛ إشارة إلى أن المقصود في السياق هو التعريف بالله سبحانه وتعالى.

ولذلك يناسب ذكر ما يدل عليه في مطلع كل آية من الآيات؛ ليرجع إليه الفعل، والخلق، والقدرة، وإخراج المرعى، فالمقصود الإشارة إلى التعريف بالله وذكر بعضٍ مِن نعمه وأفضاله تتناسب مع الربوبية.

بدأ بالخلق؛ لأن الخلق من أول أدلة الألوهية، فعندما تتأمَّل الفرق بين الحي والميت، وبين الإنسان والجماد؛ تجد معنى الألوهية العظيم، ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام يستدلُّون على الله سبحانه وتعالى بالخلق، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

والنبيُّ ﷺ أول ما نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[2] [العلق:١].

---

(١) ينظر: «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (١/ ٣٨٩)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص٢١٧).

(٢) كما في حديث بدء الوحي. أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وإبراهيم عليه السلام مع ربه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء:٨١].

فالإبداع والخلق وإيجاد الحياة في الأرض، أو في الإنسان، من أعظم دلالات العظمة الربانية والإبداع والفضل، ولذا قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وأيضًا لم يقل: (وسوَّى)، بل جاء بالفاء التي تدلُّ على الاتصال القوي بين الخلق والتسوية.

والمقصود بالتسوية هنا أن يكون خلقه حسنًا، كما قال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤]، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المعنى: خلق الإنسان. وقال بعضهم: خلق آدم. وقال بعضهم: خلق الأحياء(١).

والصواب أن نقول: خلق كلَّ شيء فسوَّاه، حتى السموات، والأرض، والجمادات، وغيرها، كما يدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك:٣]، فخلقه سبحانه وتعالى وتسويته شاملة لا تقتصر على خلق آدم، أو الإنسان، أو الحيوان؛ بل تشمل خلق كل شيء.

وإذا كان المقصود بالتسوية أن يكون الخلق حسنًا، فذلك يشير إلى أن الخلق كما هو آية من آيات الله فالتسوية هي آية أخرى، وهي الجمال في الخلق والإبداع، والحسن والنظام الذي يجده الإنسان في مخلوقات الله.

والفاء في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ تشير إلى أن الأمر الثاني مقصود مثل الأول، أو أشد؛ أي أن التسوية مقصودة مثل الخلق؛ لأنه لو وُجِد خلق بغير تسوية، ربما لم تكتمل به الحكمة ولا النعمة، لكن إذا خلق فسوَّى اكتملت.

فالانتظام والدقة والكمال في الخَلْق في الأجهزة والأعضاء والغرائز.. ثم بين

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص ١١٩٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٤)، والتحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٥).

المخلوقات جميعًا في تكاملها وتسخير بعضها ببعض، وقيام بعضها ببعض.. كله من كمال القدرة والحكمة والرحمة والإرادة

* ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]:

وهذا جانب آخر من الإعجاز، والذي عليه أكثر المفسرين أن معنى: ﴿ قَدَّرَ ﴾: جعل لكل شيء ما يناسبه، أي أنه سبحانه خلق كل شيء من الطير، والحيوانات، والسباع، والهوام، والنجوم، والسماء، والأرض لما يناسبه، فكل شيء له حكمة في الخلق، كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1] [الفرقان:٢].

والجمهور يقرؤون ﴿ قَدَّرَ ﴾ بالتشديد، وقرأها الكِسائي بالتخفيف[2].

وليس المقصود هداه من الضلالة، وإنما المقصود: هداه لما خلقه له؛ فهو سبحانه خلق كل شيء لغاية، ثم هدى هذا المخلوق لما خلقه من أجله[3].

الطفل الصغير منذ ولادته لا يستطيع أن يعبِّر عما في نفسه، لكنه إذا جاع عبَّر عن ذلك بالبكاء، وإلَّا لمات جوعًا دون أن يوجد ما يدل على جوعه، ثم قدَّر له أن يمتصَّ اللَّبَن من ثدي أمه، وهو لا يعرف ولا يدري ما هذا الذي يلتقمه، لكن الله ألهمه أن في ذلك غذاءه!

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥-١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٢)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٣٦٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٧١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٦)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩).

حتى عملية الولادة نفسها إنما جاءت نتيجة هداية، فإن الله تعالى هو الذي هدى الذكر والأنثى إلى الاتصال ببعضهما، فهدى آدم إلى حواء، وحواء إلى آدم، وجعل بينهما من الانسجام والعلاقة ما دعا إلى التواصل الجسدي، وعلَّمهما ما يكون به الإنجاب، وهدى الرحم إلى وضعية مناسبة ودرجة حرارة ملائمة واستعداد ليكون بيئة للطفل، ثم هداه ليدفعه إلى الحياة ويسَّر له السبيل.

وهكذا الطيور، والحيوانات، والوحوش، والدواب، حتى إنك تجد عند الحيوانات من الغرائز المدهشة ما تتَّقي به المخاطر وتتعرَّف به على الأعداء، وتحصل به على أقواتها وتحمي به صغارها.

هذه الغريزة أو الفطرة هي الهداية، والله تعالى هو الذي ألهمها كيف تحصل على هذه الأشياء.

أما الإنسان فتميَّز بالعقل والنفس التي بها صار إنسانًا، ولذلك فهو يملك إمكانيات هائلة؛ اللغة والفهم والحوار، والشِّعْر، والنثر، والبيان والإعراب، وهذا تقدير من الله وهداية.

ويملك التفكير للوصول إلى الحقائق وحلِّ المشكلات، والتعرُّف على سنن الله في الكون، والاختراع والاكتشاف، وأين الإنسان اليوم من الإنسان البدائي الذي هداه الله إلى التأمُّل والكشف، فاكتشف النار، واكتشف الزراعة، والصناعة، وأقدره الله سبحانه وتعالى على تسخير هذا الكون، والانتفاع به؟

ولذلك كان من أسوأ ما يفعله الإنسان بنفسه أن يضيِّع ما قدَّر الله تعالى له، فيترك توظيف عقله بسبب التقليد والتعصب والهوى، كالذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، أو يترك طلب الرزق؛ اتكالًا على أُعطيات الناس، أو يترك العمل الصالح؛ اعتمادًا على حسبه ونسبه، وإنما ينجو الإنسان أو يهلك بعمله.

* ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ [الأعلى:٤-٥]:

كأن إخراج ﴿ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾ نموذج لما سبق، فهذا ربك خلق، ومِن خلقه ﴿ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾، وهذا ربُّك قدَّر فهدى، ومِن تقديره وهدايته أنه هدى الحيوانات إلى أن تبحث عن المرعى الجيد فترعاه وتأكله، وإلَّا لهلكت.

و﴿ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾ يُطلَق على النبات نفسه، فالمعنى: أخرج النبات، كما يقول الشاعر:

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هِيا[1]

ويُطلَق أيضًا على المكان الذي يوجد فيه النبات؛ لأن الغنم ترعاه، وهذا صحيح في اللغة[2]، فتراه أخضر جميلًا يُؤكل، ثم ما هي إلَّا فترة وجيزة حتى ينتهي المرعى ليصبح غثاءً.

و«الغثاء»: هو الشيء التافه اليابس، والهشيم الذي تذروه الرياح؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ ﴾ [الكهف:٤٥].

ومعنى ﴿ أَحۡوَىٰ ﴾: يميل إلى السَّواد، ولذلك يُسمَّى الأسمر: آدم، من الأدمة، وهي السمرة، والحُوَّة بنفس المعنى، و﴿ أَحۡوَىٰ ﴾ مذكر يقال في مؤنثه: «حواء»، أي: تميل إلى السواد أو الخضرة الشديدة، فهذا هو المعنى، ولله سرٌّ في خلق الإنسان بهذه الصفة، والله تعالى أعلم.

فالمقصود أن الله تعالى أخرج المرعى، وما هو إلَّا وقت وجيز حتى اسودَّ؛ بسبب

---

(١) ينظر: «ديوان زفر بن الحارث» (ص٢٥٩).

والدِّمن: ما تلبده الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها. والمراد: نظهر الصلح وقلوبنا تخفي غيره، كما ينبت النبات النضر ويخفي تحته ما تخلفه الإبل.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ٣٢٦-٣٢٧)، و«تاج العروس» (٣٨/ ١٦٣).

اليبس، وأصبح هشيمًا لا قيمة له[1].

* ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى:٦-٧]:

الآية الكريمة انتقال إلى موضوع مختلف، وقد ظهر لي أن في ذلك إشارة إلى الفرق الهائل بين الإنسان وبين الحيوان، فلذلك أخرج المرعى للحيوان؛ لأن الحيوانات إنما يهمها أن تأكل وتشرب وتتمتع، ولذلك وصف الله الكافرين بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، في حين أن المؤمن ليست مهمته الشهوة، والمتاع الرخيص، وإن كان هذا كله يتحقق له، بل مقامه أعظم من ذلك، وهو مقام الإنسانية التي اصطفاه الله لها، فيعبد الله، ويسبحه، ويقرأ، ويتعلَّم، ويؤمن ويتذكر، فكل هذه المعاني إشادة بإنسانية المؤمن الذي لا يستغرقه الأكل والشرب، والجمال في الصورة، والغنى والشهرة والسلطان، عن التسبيح لله والاقتباس من نوره.

وفيه معنى المقارنة بين الدنيا والآخرة؛ لأنه هنا قال: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ ﴾، والفاء تدل على التعقيب، إشارة إلى سرعة زوال الدنيا، كما قال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

وضرب المثل للدنيا بالمرعى الذي صار غُثاءً أَحْوى، بخلاف الآخرة التي فيها الخلود الأبدي بلا زوال، كما قال في آخر السورة: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٢-١٣]، وقال أيضًا: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

فبين أول السورة وآخرها ترابط واضح!

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٢- ٣١٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦- ١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩).

إن ذكر المرعى، وإن كان على سبيل الإشادة بنعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، وأعجوبة كان العرب يرونها ويشاهدونها وهم يتنقَّلون بين المراعي، ويعرفون الفرق بين المرعى الوفير الذي فيه خير وخضرة وخصوبة، وبين غيره؛ إلا أن المقصود أبعد من ذلك، وهو المعنى اللَّطيف في التفريق بين الإنسان والحيوان؛ وكلهم ممن خلق الله تعالى فسوَّى، وقدَّر فهدى.

ولفظ الهداية يدل على أن الناس متفاوتون في هدايتهم؛ للتفاوت في عقولهم، فيتفاوتون في تجاراتهم، وتحصيلهم للخير؛ لأن من الناس مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا فقط، فهذا حصل على نوع من الهداية، ومنهم مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا وطريق الآخرة، وهذا هو الكمال.

وقوله: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ ﴾: وعد وبشارة للنبي ﷺ بأن الله تعالى سوف يُقرئه، وهذه السورة متقدِّمة، فهي ثامن سورة في النزول[1]، وقد وعد الله سبحانه النبيَّ ﷺ بأن يُقرِئه حتى لا ينسى، فكان جبريل عليه السلام يُقْرِئه ويردِّد عليه السور؛ حتى يحفظها ﷺ، وقد كان يستعجل، فيقرأ مع جبريل؛ خشية النسيان، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴾[2].

والمعنى: سوف نقرئك هذه السور وهذه الآيات فلا تنساها، فكان هذا وعدًا وبشارة للنبي ﷺ بأن يرزقه الله حفظ القرآن، ولا ينسى شيئًا منه، وقد تحقَّق هذا الوعد، على رغم تشابه بعض الآيات، ومع أن النبي ﷺ كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، إلَّا أنه حفظ القرآن، وأتقنه، وأقرأه أصحابه.

وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ القرآن، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وقد ضُبِطَ برواية الثقات العدول الذين يروي بعضهم عن

---

(١) ينظر ما تقدم أول السورة: «توقيت النزول».

(٢) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بعض إلى النبي ﷺ، إلى جبريل، إلى ربِّ العزة جل وعلا، فتوافر في هذا الكتاب -على رغم عدم وجود إمكانيات في ذلك الوقت- من الضبط والحفظ ما هو من آيات الله المعجزة في حفظ هذا الدين، وتحقيق موعود الله تبارك وتعالى إلى اليوم المعلوم.

وذكر الإقراء، وأنه فعل الله سبحانه، فهو الذي أقرأه، وهي إشادة إضافية للقراءة والإقراء زيادة على ما في تفسير سورة العلق، فهذا تأكيد على أهمية القراءة، وأنها من أعظم ما ينفع الإنسان، ويحقق له زكاة العقل والنفس، أن يطلع ويتعلم ما ينفعه، واليوم تجد كثيرين يقرؤون ما لا ينفعهم، فإذا نُشِرَت خصومة بين شخصين في صحيفة، أو مناظرة في قناة فضائية، وجدتَ الناس يتقاطرون عليها ويتابعونها، كما يتجمهرون عندما يحصل صدام في الشارع بين سيارتين، دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء السؤال عما ينتفعون به من ذلك.

لكن الشيء الذي ينتفعون به مما يقوِّي إيمانهم، أو يصحِّح عقولهم، أو ينفعهم في دينهم، أو يعرِّفهم بربهم، أو يعرِّفهم بمصالحهم الدنيوية؛ فربما لا يعيرونه اهتمامًا كاهتمامهم بفضول المعرفة والعلم والاطلاع.

ثم إنه نَسَبَ الإقراء في الآية إلى الله سبحانه وتعالى، ونَسَبَ عدم النسيان إلى النبي ﷺ، فلم يقل: (سنقرئك فلا ننسيك)؛ إشارة إلى أن الصفات الموجودة فيه هي من فضل الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ فأثرها ينبغي أن يكون في طاعته، فقوة الذاكرة -مثلًا- نعمة ينبغي أن تُوَظَّف في الخير للإنسان أو لبني جنسه.

وكتب التفسير تُرجِّح أن المقصود بالقراءة هنا: قراءة القرآن[1]، والقرآن مقصود يقينًا، لكن لا مانع من أن يكون المراد بالقراءة أوسع من ذلك، فإن علم النبي ﷺ ليس

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨).

مقصورًا على قراءة القرآن، بل جاء في الحديث: «أَلَا إني أُوتيت القرآنَ ومثلَه معه»[1].

فالنبيُّ ﷺ أُوتي القرآن، وأُوتي من ألوان العلوم العظيمة الكثيرة ما جاء بعضه في السنة النبوية، وتلقته عنه أصحابه، فلذلك فإن الإقراء هنا يشمل القرآن يقينًا، ويدخل فيه غيره من العلوم والفهوم التي منحها الله تعالى نبيَّه محمدًا ﷺ واختصَّه بها.

قوله: ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾: هذا خبر وليس نهيًا، أي: سنقرئك حتى لا تنسى، فلا تخف أن تنسى شيئًا من القرآن، وهذا قول جمهور المفسرين.

وقال بعضهم: إن قوله ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ نهي، أي: نحن سنقرئك، وعليك أَلَّا تنسى، فهو نهي للنبي ﷺ عن أن ينسى.

وبقيت الألف هنا مع الجزم من أجل الإطلاق في آخر الآية.

والمعنى الأول هو المختار، أي: سنقرئك حتى لا تنسى[2].

وقوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾: هذا استثناء، وهو يحتمل أمورًا:

منها: أن يكون المقصود أن ينسى النبيُّ ﷺ ما نُسِخَ من القرآن، فإن القرآن يُنْسَخ منه ما شاء الله، قال تعالى: ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾ [البقرة:١٠٦]، أي: فتنسى ما شاء الله أن تنساه مما أذن الله تعالى أن يُنسخ، وهذا المعنى ذكره جمهور المفسرين، وهو صحيح[3].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والمروزي في «السنة» (٢٤٤)، والآجري في «الشريعة» (٩٧) من حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٤-٣١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥-٣١٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩).

ومما استثناه الله تعالى في هذه الآية: النسيان الطارئ المؤقَّت[1]، فإن النبي ﷺ قد ينسى في وقت معين آية، كما في الحديث: كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد فقال: «رحمَهُ اللهُ، لقد أذْكَرَني آيةً كنتُ أُنْسِيتُها»[2]. ولكن ليس المقصود أنه ﷺ نسيها مطلقًا، وإنما نسيها وهو يقرأ، ولو قرأ من الغد لأتى بهذه الآية.

ومما يمكن أن نقول: إنه استُثني نسيانُ ما هو وراء القرآن، وهو أن ينسى من العلم ما هو غير القرآن الكريم، فهذا أيضًا جائز وممكن، وليس مستحيلًا، وقد نسي النبي ﷺ في صلاته، وسلَّم من ركعتين، كما في الحديث المتفق عليه من قصة ذي اليدين[3]، وورد عند مالك حديث ضعيف: «إني لأَنْسَى -أو: أُنَسَّى- لِأَسُنَّ»[4]. أي: لأشرِّع للناس وأعلِّمهم، والله أعلم.

ومن المعاني: أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ جاء على سبيل التبرُّك بذكر المشيئة، والإشارة إلى طلاقتها، من غير أن يكون المقصود أنه سينسى شيئًا، فيكون مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، ومعلوم أن أهل الجنة لا يخرجون منها، ولكن ذِكْر المشيئة على سبيل الإشارة إلى أن هذا الأمر هو بمشيئة الله وإرادته، وأنه هو الذي شاء أن يخلدوا، وليس المقصود أن منهم مَن يخرج، فهكذا هنا[5].

وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: يعلم ما تجهر به من قراءته، وما تخافت، ويعلم ما هو معلوم لديك ومحفوظ، وما أُنْسِيتَه من هذا العلم فخفي عليك، وإن لم

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «الموطأ» (١/ ١٠٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠١).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١).

يكن قد زال بالمرة، فإنه قد يكون موجودًا لكنه خافٍ غير ظاهر، وفي ذلك إشارة إلى حكمة الله تعالى، وأن إثبات شيء أو نسخ شيء هو وفق حكمته وعلمه، فالله تعالى يعلم كل شيء، فإذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو نسخ، أو أحكم؛ فذلك لعلمه وحكمته.

والمفعول المتعلِّق بقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ هو القرآن والإسلام والشريعة، وفيها إشارة إلى أن الله تعالى علَّم نبيَّه ﷺ ذلك كله، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء:١١٣]، فهذه هي الشريعة، وقد وقع في أذهان بعض الناس أن الشريعة صبغتها الزجر والمنع والنهي والتشديد والتعسير، حتى صار كثير من الناس يظنون أن فقه العالِم هو في تشديده على الناس، وكثرة التحريم في فتواه، وأن هذا دليل على الورع وعلى التقوى، في حين أن هذه الآية الكريمة تدل على غير هذا؛ لأنه قال: ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي: القرآن والعلم والشريعة.

* ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨]:

وفي ذكره التيسير لليسرى إشارة إلى أن الله وإن جاء بهذه الشريعة؛ لينقل الناس عن حكم الهوى والذوق والعادة إلى حكم الله سبحانه وتعالى، لكن حكمه سبحانه السماحة والتيسير، ومراعاة ظروف الناس وأحوالهم، وتَرْك ما يشقُّ عليهم ويعنتهم ويحرجهم، ولهذا قال: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، ولهذا يقول سفيان الثوري ومَعْمَر رحمهما الله: إنما العلمُ عندنا الرخصةُ من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد»[1].

ومع ورود التيسير في مواضع كهذه الآية، وفي أحاديث، مثل: «بُعثتُ بالحنيفيَّة

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٦٧، ١٤٦٨).

السَّمْحَة»[(١)]، و«يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا»[(٢)]، و«يَسِّرا ولا تُعَسِّرا»[(٣)]، و«إن هذا الدِّينَ يُسْرٌ»[(٤)]؛ إلَّا أنه لم يرد مطلقًا وصف الشريعة بالشدة أو العسر أو بمشتقيهما، أو وجود شيء من ذلك فيها، وهذا عجيب، والغفلة عنه أعجب، حتى عند بعض الفقهاء، ومن الناس مَن يقول: التيسير هو اتباع الدليل! وهذه غفلة؛ فاتباع الدليل حسب رأي المجتهد حق، ولكن لو كان هو التيسير لتساوت النصوص الآمرة باتباع الدليل في معناها مع نصوص التيسير، ولكانت تلك النصوص لغوًا، فهو أمر زائد غير الاتِّباع، والنصوص تؤسِّس لمعنى جديد، هو أن من شأن الشريعة التيسير، وهذا يحفِّز المجتهد إلى اختيار اليُسر والترجيح به في المضايق ومراعاة أحوال الناس في الفتوى، إلى غير ذلك.

وقد وجدتُ أن بعض القراء وبعض المتفقِّهين كلما أَشْكَل عليه شيء أخذ بالأحوط، وشقَّ على الناس.

وأن تأخذ بالأحوط لنفسك، فهذا لا بأس به؛ لكن أن تحمل الناس على الأحوط، فهذا يوقعهم في ألوان من الحرج ومشقَّات عظيمة، وتكون قد احتطت لنفسك بالتضييق على الناس، ولا شك أن تحليل الحرام كتحريم الحلال، وقد كان بعض الحكماء يقول: «مَن قَلَّ فقهُهُ كَثُرَ وَرَعُه». يعني: يكثر احتياطه بسبب عدم معرفته، ولذلك إذا اختلف العلماء في مسألة؛ فمِن الناس مَن يدعو إلى تَرْك الشيء؛ خروجًا من الخلاف، مع أنه قد يكون اختلاف العلماء مما لا يمكن التورُّع فيه؛ لأنك إن وافقت هذا خالفت ذاك، وإن خالفت ذاك وافقت هذا؛ لأن منهم مَن يقول في شيء: إنه واجب. ومنهم مَن يقول في ذلك الشيء نفسه: إنه محرم. فلا تستطيع أن

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨، ٤٣٤١، ٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩)، والنسائي (٨/ ١٢١)، وابن حبان (٣٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تحتاط في الحالة هذه؛ لأنك إن وافقت أحدهما ارتكبت خطأ عند الآخر، فينبغي أن نراعي أن هذه الشريعة هي شريعة اليسر.

وقد رأيتُ أن كثيرًا من طلبة العلم يتحدَّثون عن يُسر الشريعة باعتباره مبدأ عامًّا وقاعدة كلية، لكن هذا المعنى يغيب في تطبيقاتهم؛ لأنه يغلبهم حينئذ ما في نفوسهم من الميل إلى الحظر والحجر، فيترتَّب على ذلك أن كل أمر جديد غير مألوف تميل النفس إلى إدخاله في دائرة المنع والحظر، ويغلب على ظن المتسرع أن ذلك الممنوع المحظور، هو باب شر وفتنة، ويسرع خياله إلى تصوّر الناس كيف سيستخدمونه وكيف سيكونون معه، فلا يرى إلا النتائج الوخيمة المردية في ظنه.

وثَمَّ محرمات ظاهرة التحريم بالدليل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥].

وثَمَّ أشياء ليس فيها من ذلك شيء، وإنما يقع تحريمها بالاجتهاد، والنظر الذي يتأثَّر بظروف الإنسان ونفسيَّته وثقافته الشخصية وما تربَّى عليه؛ فيترتب على ذلك مشكلات عويصة وكبيرة تتطلَّب من طالب العلم أن يكون متيقِّظًا.

وليس الحلُّ هنا هو الانطلاق من غير زمام ولا معرفة، وإنما التوازن والاعتدال والهدوء في النظر، وألَّا يكون الحكم في الأشياء مبنيًّا على عدم الإلف، أو عدم استحسان الذوق، وإنما يُفَرَّق بين الأشياء المحرَّمة الصريحة، والأشياء التي ليس فيها تحريم صريح، وبين الأشياء التي فيها مصالح للناس أو مفاسد، والأشياء التي يشقُّ الاحتراز عنها؛ لعموم البلوى بها، كما يقول الأصوليون، وهي أشياء يصعب على الإنسان الخلوص منها، وبين أشياء يسهل تجنُّبها والخلاص منها، إلى قواعد يعرفها الفقيه الذي عنده فقه في نفسه ومعرفته، بحيث يكون في دائرة الاعتدال؛ فلا ينساق مع أناس بالتيسير المطلق، ولا ينساق مع آخرين بالتشديد المطلق، ولا يتوقف عند حال معين؛ لأن أحوال الناس تتغير بحسب الأزمنة، وقد يكون بمقدورهم ترك

شيء في وقت ما، ثم يشيع حتى لا يستطيعون الاستغناء عنه ومن ذلك ما نراه من التسهيلات والخدمات والأجهزة والكهرباء والطرقات ووسائل النقل ووسائل الاتصال والتعليم والإعلام وغيرها.

* ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٩]:

أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ بالتذكير، ثم علَّق الأمر بقوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ﴾، أي: إن كانت الذكرى تنفع فذكِّر، وقد جعله بعضهم أمرًا بالتذكير مطلقًا دون اعتبار للشرط؛ لأنه لا مفهوم له هنا، وعلى هذا المعنى جمهور المفسرين، فيكون في إيراد الشرط معنى آخر، وهو تهدئة نفس المذكِّر والناصح والواعظ، حتى لا يستغرب عدم قبول الناس وإحجامهم وإعراضهم.

وثَمَّ معنى آخر للآية، ذهب إليه ابن كثير والشنقيطي والسعدي وجماعة[1]: وهو أن الآية على بابها، وأن التذكير واجب إذا كان ينفع، فإذا كان لا ينفع فليس واجبًا، وهذا جيد.

وعلى المعنى الثاني المذكور يكون الشرط معمولًا به، فيكون الأمر بالتذكير مبنيًّا على تقدير حصول المصلحة والمنفعة.

والمصلحة هنا قد تكون منفعة للشخص نفسه، بمعنى أن يكون قابلًا للتوجيه والتذكير فينتفع، كما في أول سورة عبس: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ [عبس:٨-٩]، وكما قال هنا: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠].

وقد تكون المصلحة على الناصح نفسه، ونفع الناصح هو براءة الذمة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد:٤٠].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، «تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٢-١٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٠٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٠).

وهذا حاصل مع الإخلاص والتزام الأدب والخُلق الكريم، ولكن المراد أنه إذا تساوى جانب المصلحة والمفسدة، فقد يترجَّح الفعل؛ لأنه فعل، والفعل أولى من الترك، ولأن فيه براءة ذمة، والله أعلم.

وفي الآية معنى ثالث، وهو: إقامة الحجة، بمعنى أن يكون الإنسان قد بلَّغ وعلَّم، ولذلك كان بعضهم يقول للرسول ﷺ: قد بلَّغتَ، أو: قد أبلغت، فكان ﷺ يقول: «**ذلك أريدُ**»[1]. أي: هذا ما أريد الوصول إليه وبيانه، وكان النبي ﷺ قد قال في حَجَّة الوداع: «**وأنتم تُسْأَلون عني، فما أنتم قائلون؟**». قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس: «**اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ**». ثلاث مرات[2].

أما إنْ كانت الذكرى تضرُّ، ومضرَّتها ترجح على مصلحتها، فالواجب تركها، ولو اعتذر بعض الدعاة بالرغبة في إبراء الذمة، فإن إبراء الذمة لا تكون إلَّا باتباع الشريعة، فإذا كانت قواعد الشريعة تقتضي ترك الموعظة في موضع ما، فبراءة الذمة بألَّا يفعلها، ولهذا ذكر ابن تيمية وغيره أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجري فيه الأحكام الخمسة، فقد يكون واجبًا، أو مستحبًّا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو حرامًا[3].

وهكذا الدعوة، تجري فيها الأحكام الخمسة.

وقد يعلم الإنسان في حالات أن الذكرى لا تنفع، كما قال الله سبحانه وتعالى لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]؛ وذلك لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة ربك، فلا يؤمنون، وهكذا أبو لهب بعد نزول قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٤)، ومسلم (١٧٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (ص١٤، ١٦، ٣٧، ٥٣)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية (ص ١٢-١٣).

أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١].

قد يكون ذلك بطريق النص، أو بدلالة العقل، وإن كان أمرًا ظنيًّا اجتهاديًّا، لكن الشريعة جاءت بإعمال غلبة الظن، فقد يغلب على ظنك أن الكلام في هذا المكان علاج مناسب، ويغلب على ظنك أنه في ذاك المكان علاج غير مناسب.

وإذا كانت أمراض الناس الجسدية لا بدَّ لها من وصفات علاجية تناسب الصحة، وتترك إذا كان المريض مصابًا بمرض آخر قد يزيده هذا الدواء، فكذلك العلاجات المعنوية والروحية، تحتاج إلى مراعاة ظروف الزمان والمكان والإنسان.

وقد يُدرك ذلك باليقين والمعرفة التامة بالمشاهدة، أو بالتجربة أو الاعتبار بتجارب الآخرين.

ومسألة الدعوة وتبليغ الأمر والنهي ليس أمرًا عفويًّا، بمعنى أنه في كثير من الحالات قد يستجمع الإنسان عزيمته لنصح أحد، ويحرج نفسه حرجًا كبيرًا في ذلك، وهو يعلم في قرارة نفسه أن مجال قبول النصح هنا غير مناسب، وأنه لن يثمر؛ لأنه دواء في غير محله، والظروف تدل على أن المصلحة في ترك ذلك.

* ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠]:

أي: سينتفع بالموعظة والذكرى مَن يخشى الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿ مَن يَخْشَىٰ ﴾ يحتمل أن المقصود المؤمنون، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥]، وهذا ظاهر؛ فإن المؤمن هو الذي يخشى الله، والفقيه -كما قال الحسن البصري وغيره- هو الذي يخشى الله[١].

---

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (٢٢١٧)، و«شرح مشكل الآثار» (٤٠١٧)، و«فوائد تمام» (٧٦٤)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٠)، و«تعظيم الفتيا» لابن الجوزي (٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠).

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه سيقبل التذكير مَن كان عنده قابلية وصفاء في قلبه واستعداد للخشية؛ لأننا وجدنا أن من الكفار مَن ذُكِّر فأسلم، وحينئذ تكون الذكرى قد نفعته فأدخلته الإسلام، فبالتذكير ترتفع عنه الجهالة، وتشرق أنوار الحق في قلبه[1].

فقوله: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ يشمل المؤمن الذي يخشى الله تعالى، كما وصف الله عبدَ الله ابنَ أم مكتوم ﷺ في سورة عبس: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾[2] [عبس:٨-٩]، ويشمل الذي لديه استعداد فطري للقَبول، وليس عنده تعصب ولا هوى، ولا تحجُّر ولا جمود، ولا جاهلية، ولا منافع دنيوية يخشى عليها فتمنعه من قبول الحق، ولذلك قال سبحانه في بعض أهل الكتاب: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣].

* ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ [الأعلى:١١]:

الضمير في ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ عائد إلى الذكرى، ومعنى ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾: يترك جانبها، أي: يعرض عنها، والتجنب والاجتناب في القرآن يُوحي بأنه ليس القصد أن تترك الشيء فقط، بل أن تترك الشيء وما حوله، كما قال تعالى في الخمر وغيرها: ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة:٩٠]، فمعناه ألَّا تشرب الخمر، وألَّا تجلس مع قوم يشربون الخمر؛ لأن الراعي الذي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه[3]، فكذلك

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٣)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٥).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة عبس».

(٣) كما في حديث النعمان بن بَشِير ﷺ مرفوعًا: «إن الحلالَ بيِّنٌ، وإن الحرامَ بَيِّنٌ، وبينهما مشتبهاتٌ، لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من الناس، فمَنِ اتَّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقعَ في الشبهات وقعَ في الحرام، كالرَّاعي يرعى حولَ الحِمى، يُوشِك أن يرتَعَ فيه...». أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

والحِمى: المحمِي، وهو المحظور على غير مالكه.

هنا، فالأشقى لا يحب الموعظة ولا يأنس بها ولا يجالس أصحابها، وينفر قلبه منها، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر:٤٩]، وقال عن المشركين: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن عنده صفاء فطري إذا سمع الذكر والخير لم ينفر منه، حتى وإن لم يكن عنده معرفة وإيمان، وليس من الضرورة أن يقبله من أول وهلة، بل يسأل ويبحث حتى يصل إلى الحق، أما المتشبع بالهوى فإنه ينفر من الذكر والعلم، ولا يزيده استماعه إلا بعدًا.

ورد في آيات أخرى وصف (شقي)، كما في قوله: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥]، فسماه شقيًّا، لكن اختار هنا لفظ: ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾، أي: الأكثر شقاوة؛ لأنه يتكلَّم عمَّن يتجنب الذكرى فلا يستمع.

وقد تكون الإشارة هنا إلى شخص معين، كما جرت العادة عند علماء التفسير أنهم ينزلون هذه الآيات على رجال من كفار قريش، كأمية بن خلف أو أبي جهل أو أبي لهب أو غيرهم[١]؛ لكن الآية مطلقة، والمعنى أنه يتجنب التذكرة مَن غلبت عليه الشقاوة، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ [المؤمنون:١٠٦]، وفي قراءة: (شقاوتنا)[٢]، فمَن غلبت عليه الشقاوة صار هو الأشقى.

* ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [الأعلى:١٢]:

ولم يقل: (يدخل)، بل قال: ﴿ يَصْلَى ﴾، لأنها أبلغ وأقوى؛ لأن الصَّلْيَ دليل

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٧، ٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١١٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٥/ ٣٠٢)، و«حجة القراءات» (ص ٤٩١)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٣/ ١٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١٥٣).

على معاناة العذاب ومقاساة الحرارة، وقد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ [مريم:٧٠].

و﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ في قوله: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، صفة للنار، وهذا إما أن يكون بالقياس على عذاب الدنيا، كما قاله جماعة من المفسرين، أي أن فيه إشارة إلى أنه في الدنيا قد وجد عذابًا ووجد نارًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة:٢١]، ويحتمل أن يكون المقصود أن ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ وهو الأكثر شقاوة ﴿ يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، فيكون هناك تناسب بين النار الكبرى وبين وصفه بالأشقى.

والنار دركات، كما أن الجنة درجات، فبين مراتب الجنة تفاضل، وبين دركات النار تفاوت، فكلما نزلت كانت أشد عذابًا، فقد ذكر الله أن المنافقين ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

فهنا قال: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أي: لشدة شقاوته، وهذا دليل على اختلاف أهل النار في دركاتها، وأنهم ليسوا في مقام واحد، وأن الإنسان كلما كان أشد كفرًا كان أشد عذابًا، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل:٨٨]، فزيد عليهم من العذاب فوق العذاب على الكفر؛ لأنهم يصدون عن سبيل الله.

وقال عن فرعون: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

وقد جاء عن النبي ﷺ في حال عمه أبي طالب أنه قال: «هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار»(١). وفي الحديث الآخر: «إن أهونَ أهل النار عذابًا يوم القيامة، لرجلٌ تُوضع في أَخْمَصِ قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغُه»(٢)،

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

فذكر النبيُّ ﷺ تفاوت واختلاف أهل النار في دركاتها ومقاساة حرها.

* ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٣]:

هذا المعنى، وهو عدم الموت وعدم الحياة ورد في القرآن في مواضع أخرى، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه:٧٤]، فذكر أن المجرمين لا يموتون ولا يحيون في جهنم.

فمن أهل التفسير مَن قال: المعنى أنه لا يحيا حياة ينعم فيها كما يحيا أهل الجنة، أو لا يحيا كما كان يحيا في الدنيا متنعمًا فيها ببعض النعيم، ولا يموت فيستريح(١)، ومما يعزِّز هذا المعنى ويقوِّيه: قوله سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦].

فهذا أحد المعاني، وهو أنه لا يموت فيرتاح، ولا يحيا حياة التنعم كما كانت حياته في الدنيا، ولكنه حي كميت!

وثَمَّ معنى آخر ذكره الطبري، والرازي وجماعة من المفسرين، وهو أن الآية على ظاهرها، وأن أهل النار هم بالصفة التي ذكر الله عز وجل، فلا هم أموات ولا هم أحياء، ولذلك قال الطبري: «إن نَفْسَ أحدهم تصير في حلقه، فلا تخرج فتفارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا»(٢). وذلك من شدة العذاب الذي يعانونه ويقاسونه. وهذا القول وجيه.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ أن الكافر من أهل النار لا يموت فيها ولا يحيا، فقال: «أما

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٣، ١٥٩)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٨).

أهلُ النارِ الذين هم أهلُها، فإنهم لا يموتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ..»[1]. وأما المؤمنون فقال: «فيخرجون من النار وقد امْتَحَشُوا[2]، فيُصبُّ عليهم ماء الحياة، فينبُتُون منه كما تنبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ»[3]. أي: يظهرون شيئًا فشيئًا حتى يحيوا ويدخلوا الجنة، وهم الذين يقال لهم: «الجَهَنَّميون».

وعلى كلٍّ، فلا بأس أن تُؤخذ الآية على ظاهرها، فيقال: إن نَفْس أحدهم تكون في حلقه، لا تصل إلى بدنه فيحيا ولا تخرج فيموت ويرتاح؛ وذلك لأن أمور الآخرة لا يصح قياسها على أمور الدنيا.

فإذا قال قائل: كيف لا يموت ولا يحيا؟ فنقول: هذا إلى الله سبحانه وتعالى، وهذه حال لا يمكن قياسها على أمر الحياة الدنيا، ولكنه حال ذكرها الله تعالى في كتابه، وهو معنى صحيح جاء في السنة النبوية، وربما لا يعرف الناس في هذه الدار إلا صنفين؛ حياة أو موت، أما في الآخرة فلا يمكن إجراء نواميس الحياة الدنيا عليها.

وهي حياة مختلفة ليس لدينا شيء في الدنيا نقيسها عليه، فتبقى من شأن الآخرة.

وبينما أنت تتأمَّل حال الأشقى تتخيَّله مَصْليًّا بالنار الكبرى، وهو لا يموت فيها ولا يحيا، يفجؤك السياق نقلة إلى مشهد آخر، وهو في غاية المفارقة والمضادة للمشهد الأول.

* ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]:

﴿ قَدْ ﴾: يعرفها أهل اللغة بأنها حرف تحقيق، أي أن فيها معنى التوكيد، فهي تفيد التأكيد على الفلاح، ثم عبَّر بالفعل الماضي، الذي فيه الإشارة إلى أن الفلاح متحقِّق لمَن تزكَّى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٢) أي: احترقوا.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ مأخوذ من التزكِّي، والزكاة والزكاء يحمل كل منهما معنى الزيادة والفضل والتطهُّر؛ لأن الزكاة تبارك المال وتطهِّر القلب من الضغائن.

ولم يقل: (قد أفلح مَن زكَّى)، أو: (زكَّى نفسه)، فزيادة التاء في الغالب تدل على شيء من المعاناة والمعالجة، أي أن في الآية إشارة إلى أن التزكِّي عملية فيها المعاناة، والمشقة، ولكن يأتي العون من الله سبحانه وتعالى لمَن يريد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وهنا لفتة مهمة وهي أن التزكِّي يتطلَّب مجاهدة ومصابرة، فكم من إنسان تنازعه رغبة في الخير والاستقامة، وتوجُّه صادق للتوبة، وسرعان ما تفتر همته وتسقط عزيمته وتخور قواه وينقطع صبره، وتلوح له الجواذب والنوازع فيميل إليها ويترك الخير، أو تقف عقبات أمامه في الطريق فيتوقف عندها.

والتزكِّي درجات كما تفيد الآية، كما أن الشر دركات، وعلى المؤمن أن يستمسك بالحبل الذي يوصله إلى الجنة، وهو حبل الشهادة والإيمان بالله.

حتى لو أنه زل أو عثر، فهذا لا يدل على أنه ترك التزكِّي؛ لأن أصل التزكِّي ولبَّه هو زكاة القلب بالتوحيد، وألَّا يكون مشركًا بالله، وهذا حاصل لكل مؤمن، ومع ذلك فقد لا يحصل له كمال التزكِّي، فلديه عيوب وأخطاء وشهوات تغلبه، فتغلبه عينه بنظرة، ويغلبه لسانه بكلمة، وتغلبه محبة المال، ويغلبه قعود أو رغبة في مأكل أو مشرب أو نوم أو أهل أو ولد، فيقع عنده التقصير؛ فهذا لا يعني أنه أفلت من التزكِّي كله.

وهكذا الطاعات التي يترك، والمعاصي التي يقارف؛ فلو أنه يقع في المعصية كل يوم، فلا ييأس ويقول: هذه معصية لا مَخْلَص لي منها، بل عليه أن يحدِّث نفسه بالتوبة والإنابة والاستغفار، فعسى أن يَمُنَّ الله عليه فيتوب عليه، وهذا جزء من معنى قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾.

كما أن في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إشارة إلى أن التزكِّي والتزكية من أعظم مقاصد البعثة النبوية وبعثة الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

والتزكِّي يكون بصفاء النفس والقلب؛ لأن القلب إذا صفا أشرقت عليه المعاني الطيبة، فلا يصدر منه غالبًا إِلَّا الطيب من القول والفعل، فيجب أن يكون من مقاصد التعليم والدعوة تزكية الناس، وليس فقط حشد المعلومات، بل العلوم يُفرح بها لأنها تزكِّي، فكلما كان الإنسان أكثر علمًا، فالمفترض أن يكون أكثر تزكية.

أما إذا كانت مجرد معلومات مختزنة في الذهن، وليس لها تأثير في حياة المرء وسلوكه؛ فقد تتحوَّل إلى المفاخرة والمباهاة، وإذا كان الإنسان في منصب فربما ينسى كثيرًا من الأشياء التي كان يقول بها ويدعو إليها.

وقول النبي ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[1]. يتطابق مع هذه الآية الكريمة؛ لأن المقصود من مكارم الأخلاق أخلاق الظاهر وأخلاق الباطن، فأخلاق الظاهر بالابتسام والكرم وحسن العلاقة مع الناس، وأخلاق الباطن بأن يكون القلب مشتملًا على الإيمان والسماحة والصدق والصفا والطيبة، متخليًا عن أضدادها.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾: «مَن تطهَّر من الشرك»[2].

وذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن معنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾: أخرج زكاة الفطر، و﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾: صلاة العيد، ونُقل هذا أيضًا عن ابن مسعود رضي الله عنه[3].

وهو معنًى صحيحٌ، ولكن لا ينبغي قصر دلالة الآية عليه، لا سيما أنها نزلت في

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩١-١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٦٨).

(٣) ينظر ما تقدم أول السورة: «توقيت النزول».

مكة قبل أن تفرضَ زكاةُ الفطر، وقبل أن تفرضَ الصلاةُ على الناس، فهو داخل في عموم الآية، وليستِ الآيةُ خاصَّةً به.

وقيل: معنى ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾: اتقى[1]. وهو قريب من الأول.

﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ فعطف هذه الآية على الآية السابقة بالواو، ثم عطف الصلاة على الذكر بحرف الفاء، فقال: ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾، ولم يقل: (وصلَّى). وفي هذا إشعار بقوة اتصال الصلاة بالذكر، كما يُشعر بذلك قولُه تعالى لموسى ﷺ: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه:١٤]، وفي الحديث المتفق عليه: «مَن نسي صلاةً، فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، لا كفارةَ لها إِلَّا ذلك»[2].

وهي إشارة إلى أن الذكر متلبِّس بالصلاة؛ فالصلاة ذكر، بل هي أعظم الذكر؛ وأيُّهما أفضل؛ الذكرُ أم الصلاةُ؟ الصلاة أفضل؛ لأن الصلاة مشتملةٌ على الذكر، والقرآن، والتسبيح، والاستغفار.

وفيه إشارةٌ إلى أن الصلاة مبنية على ذكر الله، وفيها معنى عظيم، وهو أن مقصود الذكر هو الذكر بالقلب؛ لأن أكثر الناس يظنون أن حقيقة الذكر لا تجاوزُ ذكرَ اللِّسانِ، وهذا خلاف دِلالة الآية.

وقد بحث العلماء مسألة الأجر على ذكر اللسان دون حضور القلب؛ هل يثبُتُ أم لا؟

فذهب النووي إلى أنه يؤجر، لكن دون أجر الذاكر المستحضر؛ وذلك لأن مَن ذكرَ اللهَ سبحانه وتعالى بقلبه ولسانه حصل له أثر الذكر وثمرته، بل مَن ذكر اللهَ بقلبه دون أن يتحرك لسانُه، فهو أفضل ممن يَذكرُ باللسان دون القلب[3].

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص ١٩٢)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «الأذكار» للنووي (ص ٩).

والذكر بالقلب إذا لم يصحبه ذكر باللسان، قد يفضي إلى نوع من التيه والضياع، كما حدث لبعض المتصوفة الذين اقتصروا على الذكر بالقلب ولم يَصحب ذلك ذكرُ اللسان، فلم تنضبط لهم معاني الذكر والحضور، ووقعوا في بعض الشَّطَحِ، كما وقعوا فيما يسمى بالفناء والغَيْبة وما أشبه ذلك.

وإذا ذَكرَ الإنسانُ ربَّه بقلبه، وواطأ هذا الذكرَ باللسان، حصل الانضباط بمعرفة الأسماء الحسنى، ومعرفة عظمة الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وأن يحفظ مقامات الشرع.

* ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعلى:١٦]:

و﴿ بَلْ ﴾ للإضراب، والمعنى أنه يضرب عن شيء؛ لينتقل إلى معنًى آخر، وهذا الإضراب يكون أحيانًا لإنكار المعنى الأول، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٠].

وأحيانًا يكون بقصد الانتقال إلى معنى آخر جديد كما في هذه الآية.

وكأن ذلك بيان للسبب الذي جعل الناس يعرضون عن تزكية نفوسهم وذِكْرِ الله سبحانه وتعالى، وعن الصلاة والتسبيح، إلى ما يضرُّهم ولا ينفعُهم.

وإيثار العاجلة من أعظم أسباب الانحراف في حياة الناس؛ لأن حقيقة إيثار الدنيا هو الزهد في الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وإيثارُ الحياة الدنيا على الآخرة من أسباب الضلال المبين، والمقصود هنا الإيثار المطلق، ولذلك وصف الله المشركين في مواضع بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٣]، وإلا فإنه قد يقع للمؤمن أن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة في موقف خاص، ويكون ذلك ذنبًا لا كفرًا! وذلك كما لو قَصَّر إنسان في إخراج الزكاة المفروضة، فهذا منه إيثارٌ للدنيا على الآخرة يقينًا، ومع ذلك فلا نقول:

إنه كافرٌ بعدم إخراج الزكاة؛ لأن الصحيح أنه لا يكفر، والنبي ﷺ يقول- كما في حديث أبي هريرة ﷺ-: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحَتْ له صفائحُ من نار، فَأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُهُ، كلَّما بَرَدَتْ أُعِيْدَتْ له في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العباد، فَيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنة، وإما إلى النار»[1]. فدلَّ ذلك على أنَّه لا يَكْفُرُ بهذا.

وكذلك الإنسان الذي يقع في المعصية وهو يدري أنها معصية، فإنه يكون قد آثر الحياة الدنيا وشهوتها على ما عند الله في الآخرة.

فهذا آثر الحياة الدنيا في هذا المقام، لكن لم يُؤْثِرْها مطلقًا في حياته كلها، ولذلك فهو يصلِّي، ويذكر الله ويستغفر؛ ففرق بين المؤمن الذي آثر الحياة الدنيا في بعض الأحوال، وبين الكافر الذي آثر الحياة الدنيا على الآخرة إيثارًا مطلقًا.

* ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٧]، أخبر عن الآخرة بوصفين:

١- أنها خير، أي: أحسن، وأحسن بما لا يُقاس؛ لأن الجنة ليس فيها مما في الدنيا إلا الأسماء[2]؛ ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[3]، وفيها من النعيم المقيم ما لا يقدِّر قدره إلا الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، لكن هذا مما طُوي عن العباد.

٢- أنها أبقى، أي: أطول منه، والتفضيل هنا للإيضاح، وإلا فلا مقارنة بينهما؛ لأن الدنيا محدودة، والآخرة غير محدودة، بل هي أبقى.

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧).

(٢) كما قال ابن عباس ﷺ: أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٣) كما في حديث أبي هريرة ﷺ. أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

فالجنة خير من الدنيا، وحتى لو فَرضنا استواءَهما في المدة، بأن تعيش في الدنيا مائة سنة في طاعة الله، وتعيش في الآخرة مائة سنة فقط؛ لكانت الآخرة في هذه الحالة خير، فكيف إذا إنضاف إلى هذه الصفة صفةٌ أخرى وهي أنها أبقى؟! ويدخل في ذلك ما أريد به الآخرة فإنه أعظم أجرًا وأبلغ في تحقيق الرضا النفسي والسعادة في الدنيا والأجر والمثوبة في الآخرة.

* ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأعلى:١٨]:

﴿ هَٰذَا ﴾ اسم إشارة، والمُشار إليه هنا ما سبق ذكره في السورة الكريمة من المعاني المذكورة(١).

وقال بعضُهم: إن المقصود هو ما ذكر بقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٧]، فقالوا: هذا هو المذكور في الصحف الأولى(٢).

* والأقرب أن المذكور السورةُ كلها، وأنها مما تضمنته ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى:١٩].

وهي من الدِّين العام الجامع، أي: من محكمات الشريعة وأصولها التي اتفق عليها الأنبياء؛ لأن الدين الجامع هو ما اتفق عليه الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

فيشمل ذلك أصولَ الاعتقاد، وأصولَ الأوامر والنواهي العامة التي أطبق عليها الأنبياء، فهذه المعاني: من ذكر الجنة والنار، والتزكي، وأسماء الله تعالى، وعبادته

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٧٥٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤١٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢-٣٨٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٧٦-٣٧٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢-٣٨٣).

موجودة في صحف إبراهيم وموسى.

وإنما ذكر صحفَ إبراهيم وموسى بخاصة؛ لأنهما من أولي العزم من الرسل، ولأنهما من أفضل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولأن آثار ثبوتها باقية عند اليهود وعند العرب في مكة.

○ ○ ○

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

سورة الغاشية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣
تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا
يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ
فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ
۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ
۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ
مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ
ٱلۡأَكۡبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾ [الغاشية:١-٢٦].

* تسمية السورة:

١- اسمها في المصاحف وكتب التفسير والحديث: «سورة الغاشية»[1].

٢- وسماها البخاري: «سورة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾»[2]، وورد هذا في «الموطأ»، و«صحيح مسلم»[3].

٣- وسماها بعضهم: «سورة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ ﴾»[4]، وذلك على سبيل الاختصار.

* عدد آياتها: ست وعشرون آية باتفاقهم[5].

* وهي مكية، على رأي جمهور المفسرين، كابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، وغيرهم[6]، ولم أجد من ذكر غير هذا.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٠)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٣).

(٣) ينظر: «الموطأ» (١/ ١١١)، و«صحيح مسلم» (٨٧٨).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٢).

(٦) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٠).

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية:١]:

الأقربُ أن ﴿ هَلْ ﴾ بمعنى: «قد»، وأن السؤال تقرير، بمعنى: قد أتاك حديث الغاشية.

وفيه إشارة إلى أن تفاصيل يوم القيامة مما لا يمكن للإنسان معرفته إلا عن طريق الوحي، مع أن الإنسان قد يدرك بالعقل والفطرة حقيقة البعث والنشور، لينالَ فيها المحسن جزاءه، ويُقتص فيها للمظلوم من الظالم، وتتجلَّى فيها الحكمة الربانية من الخلق.

ولذلك جاءت الرسالات لتحدِّد وتوضح وتفصِّل ما تؤمن به الفِطَرُ السليمة والعقول المستقيمة، من حقائق البعث والنشور والجنة والنار، فجاء «حديث الغاشية» و«حديث القيامة» في القرآن والسنة مفصَّلًا.

والحديث يطلق على الكلام أو الخبر أو القصة، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١].

و﴿ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾ صفة لموصوف لم يُذكر، وقد اختلف المفسرون في معناها على ثلاثة أقوال، أشهرها وأصحها: أنها القيامة، وقيل: هي النار؛ لأنها تغشى وجوه أصحابها، وقيل: صيحة البعث، لكن الراجح أنها القيامة؛ لأنه ذكر بعد الغاشية ما يقع فيها، وذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار، فهي تغشى الناس جميعًا، ولا مخلص لأحد منها[1].

* ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴾ [الغاشية:٢]:

في السياق مناسبة بين قوله: ﴿ وُجُوهٌ ﴾، وبين: ﴿ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾؛ لأن الغاشية

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٣٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٦-٣٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٤).

غالبًا ما يَبِينُ أثرُها على وجه الإنسان؛ لأن ما في قلب الإنسان من الخوف أو الحياء أو الارتباك يظهر أثرُه على وجهه، ولهذا ناسب أن يعبِّر بـ﴿ وُجُوهٌ ﴾، وإن كان المقصود بالوجوه أصحابها.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني: يوم الغاشية، يوم القيامة، فهذه الأوصاف لهم في الآخرة.

وفي ذلك ثلاثة أقوال:

١ - أن هذه أوصافهم في الآخرة، فوجوههم خاشعة ذليلة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

* وعليه، فقوله: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية:٣]، يعني: في الآخرة أيضًا، فهم في الموقف من ركضهم وذهابهم وإيابهم وقلقهم وحركتهم يعملون وينصبون ويعذبون، ويكلفون أحمالًا[1].

٢ - أنها أوصاف لهم في الدنيا، وبناءً عليه قال: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، أي: من الخشوع، وهذا يعني أنهم كانوا يعبدون الله على غير هدًى، كعبادة الرهبان، أو عبادة الخوارج الذين عندهم خشوع في ظاهر الأمر من العبادة، ولكنه على غير هدى.

وهكذا هم يعملون أعمالًا في الدنيا، لكنها لا تنفعُهم في الدار الآخرة، وهي كذلك: ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي: من النصب، وهو التعب[2].

٣ - أن تكون صفات مشتركة، بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة، فالخشوع

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٢٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٦٥)، (٢٠/ ٢٧)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

في الدنيا، والعمل والنصب في الآخرة، أو العكس[1].

والمختار الأول: أن هذه الصفات لهم في الدار الآخرة، وليست في الدنيا، وبناءً عليه، فمعنى: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة من هول ما ترى.

وقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، أي: في الموقف بما يقع لها من الحيرة والذهاب والإياب، كما ورد في مجيئهم إلى الأنبياء وتردُّدهم عليهم[2].

وأيضًا: حينما يصيرون إلى النار؛ فإنهم ينصبون ويتعبون فيها تعبًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧].

* ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٤]:

أي: هذه الوجوه وأصحابها، ولا شك أن أشد ما تَصْلَى النار من الإنسان وجهه، وكونهم يتقون النار بوجوههم هو من أشد ما يكون عليهم؛ لأن الحرق لو كان في رِجل الإنسان أو في يده، لكان أهون بكثير من أن يكون في وجهه، فإنه يجد في وجهه من أثر الحر وألمه الشيء العظيم.

ولم يقل: (تكوى)، وإنما ﴿تَصْلَىٰ﴾ فكأن النار هي مسكنهم، والعرب يعبِّرون بالصَّلْيِ، إذا قالوا مثلًا: شاة مَصلِية، فإنهم يحفرون حفرة، ويضعون فيها جمرًا شديدًا، ثم يضعون فيه الشاة أو اللحم الذي يريدون شَيَّه أو إنضاجه، وهذا أشد ما يكون، والكي يكون عابرًا ويزول بخلاف الصَّلْي.

وقال: ﴿نَارًا﴾، وهذا تنكير للنار، وفيه إشارة إلى عظمتها وهولها، وأنها وإن

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٢٠)، و«تفسير القشيري» (٨/ ٧١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ في الشفاعة. ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

كانت تشبه نار الدنيا من حيث الأصل، إلا أنها شيء آخرُ مما يعلمه الله ولا يتصوره البشر قط، وكل صورة تخطر في بالك عن نار الآخرة فالأمر أشد من ذلك، وليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء(١).

ووصف النار بأنها: ﴿حَامِيَةً﴾ مع أن هذه الصفة لازمة، فما من نار إلا وهي حامية.

وهذا إما أن يكون إشارة إلى أنها لا تَفتُر ولا تبرد، فليست كنار الدنيا، التي تستعر ثم تخبو، وإنما تَتوقَّد وتتلهب أبدًا.

وإما أن يكون زيادة على حرها وسعيرها، فهي تتغيَّظ على هؤلاء الكافرين.

وهذا المعنى صحيح، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٨] يعني: تتقطع من شدة غضبها وحَنَقِهَا(٢) على الكافرين.

وقال بعضهم: إنها سبب في الحماية، بمعنى أن النار هذه تحمي الإنسان من الوقوع في المعاصي؛ لأنه إذا تذكَّر النار امتنع عن الذنوب، وهذا بعيد، فالأقرب والله أعلم المعنيان الأولان(٣).

* ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥]:

كأن السامع تصوَّر هذا المعذَّب وهو يُصلَى بالنار، فتذكَّر الماء الذي يطفئ النار، ويروي الظمأ؛ ليخطئ هذا الوهم؛ فشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا، فذكر ما

(١) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٢) أي: شدة الغيظ.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٨)، و«تفسير العز بن عبد السلام» (١/ ١٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٦).

يشربون، وهي عين من الماء، لكنها: ﴿ءَانِيَةٍ﴾، أي: شديدة الحرارة، كما في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤]، و«الحميم» هو الماء الحار، و«الآن» هو البالغ في الحرارة منتهاه، وليست كحرارة مياه الدنيا، فهذا شرابهم إذا استسقوا، ولهذا قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فمن شدة حرارته يشوي وجوهَهم قبل أن يشربوه، فكيف إذا شربوه؟! ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، والإنسان إذا تقطعت أمعاؤه في الدنيا يموت، أما في الآخرة، فهم بين الموت والحياة؛ لأنه لو كان في الآخرة موت، لماتوا بمجرد دخول النار، ولكن أمر الآخرة لا يقاس بنواميس الحياة المعروفة.

* وبعد أن ذكر شرابهم بيَّن طعامهم، فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦]:

و«الضريع» على قول جمهور أهل اللغة والتفسير: نوع من نبات الصحراء سَامٌّ شوكِيٌّ، تأكله الإبل، وتسمِّيه العرب: الشِّبرِق، فإذا يبس سمِّي: ضَرِيعًا، وقد تأكله الإبل فلا ينفعها ولا يسمنها(١).

* ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٧]:

وفي هذا مزيد عذاب لأصحاب النار، فيعذَّبون بالجوع والعطش، ويشربون الماء الحميم، ويأكلون الضريع.

وقد ذكر القرآن الكريم تسمية طعام أهل النار بغير ذلك، فسماه: «الزقوم»، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٢)، و«المفردات» للراغب الأصبهاني (ص٢٩٥)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٦٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٨)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٢٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٨).

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]، وسماه: «الغسلين»، قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٧].

وللجمع بين هذه الأسماء الأخرى وبين قوله هنا: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ نقول: إما أن هذه أسماء لمسمى واحد وهي أنواع داخلة تحته، أو أنها حسب مقام الإنسان في النار، فلكل دَرْكةٍ نوع من الطعام، أو يقال: إن هذا في أحوال مختلفة، والله تعالى أعلم، والمقصود الوعيد.

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية:٨]:

أي: يوم الغاشية التي هي القيامة، وقوله: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ من النعيم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤].

* ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:٩]:

أي: أنها رضيت سعيها في الدنيا، فلما رأوا المصير حمدوا سعيهم واجتهادهم وصبرهم، وكما قيل: «عند الصباح يحمد القوم السُّرَى»(١).

ويحتمل أن يكون المعنى: راضية لنتيجة سعيها وثوابه وجزائه في الدار الآخرة، فحصل منهم كمال الرضا، والرضا هنا معنى قلبي، فلما كان النعيم والنعومة في الوجه، كان الرضا في القلب.

* ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:١٠]:

والعلو هنا علو حسي، بارتفاعها وعظمتها وسعتها، فإن الجنة في السماء، والنبي ﷺ قال: «**إن أهلَ الجنة ليَتَرَاءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما يَتَرَاءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**لا والذي نفسي بيده، بل رجالٌ آمنوا بالله**

---

(١) السُّرَى: سير الليل.

وصدَّقُوا المرسلينَ»[1]. وقال: «إن في الجنة مائةَ درجة أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[2].

فتلك نار حامية، وجمرٌ وكَيٌّ، وعقوبة وصَلْي، وهذه جنة عالية، وهو سبحانه وتعالى يتحبَّب إلى عباده ويصبر عليهم ويحلُم، ولا يعاجلهم، بل يقيم عليهم الحجج، ويظهر لهم آياته، وربما عصى العبد فأمهله، وربما سلَّط عليه بعض مصائب الدنيا وأعراضها، من مرض أو فقر أو جوع أو دَيْن أو همٍّ أو غمٍّ؛ حتى يتطهر من ذنوبه قبل أن يلقى ربه.

وعلو الجنة علوٌّ معنويٌّ كذلك بارتفاع رتبتها، وكونهم في جِوار ربهم تبارك وتعالى، وما فيها من رفعة المنزلة، ورفعة الخلق والشأن.

* ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية:١١]:

وهذا من العلو المعنوي؛ أي: لا يُسمع في الجنة كلمة فيها لغو، وأصل اللغو هو الكلام الذي ليس له معنى، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ [القصص:٥٥]، وقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور:٢٣].

فمن باب أولى أنه ليس فيها الكلام الفاحش أو البذيء أو المحزن، وإنما كلام أهلها خير وَبِرٌّ، حتى جاء أنهم: «يُلْهَمُونَ التسبيحَ والتحميدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[3]. فكلامهم ذكر وبر وشكر وحمد وثناء، فقد قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج:٢٤]، يعني: من غير تكلف؛ لأن الجنة ليس فيها تكلُّف أصلًا، بل هي تجري منهم كما يجري النَّفَسُ، وهو جزء من النعيم الذي يتلذَّذون به.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

* ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ [الغاشية:١٢]:

بدأ السياق يتحدَّث عن مجالسهم ومطاعمهم ومشاربهم.

و﴿ عَيْنٌ ﴾ هنا: اسم جنس بمعنى: عيون[١].

وعيون الجنة تجري على أرضها، وعلى ظاهرها، من غير أن يكون لها أخاديد تمشي فيها أو سَوَاقٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد:١٥]، فهذه الأشياء تجري على الأرض، ويجريها الإنسان كيف شاء، ومن غير حاجة إلى أن يكون للنهر دفتان؛ لأن هذه قوانين المادة في الدنيا، في حين أن الجنة شيء آخر، فهذه العين جارية مُطَّرِدة ساعية.

* ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية:١٣]:

السرير معروف، ووصفه بأنه مرفوع، ومَن تعوَّد على سرير في الدنيا، توقع أن السرر المرفوعة بحجم ما يعرف من القياسات، لكن الشيء الذي في الآخرة لا تستطيع أن تتخيله، فرفعته ربما أرفع من قدر الأرض، وأرفع من قدر السماء، وأرفع مما يعلم الناس؛ ولهذا يكفي أن الله تعالى وصفها بأنها ﴿ سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾.

وفي الآية إشارة إلى رِفعتها المعنوية؛ لأنها أُعدَّت للأطهار الأبرار الذي نقَّوا فروجهم عما لا يحِل، وطهروها احتسابًا لذلك اليوم.

ومن معاني ذلك: أن مَن على السُّرُر هن النساء الطاهرات المطهَّرات المكتملات في الهيئة والشكل والظاهر والباطن والخَلْق والخُلُق.

---

(١) ينظر: «تفسير القشيري» (٨/ ٧٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢١).

* ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ [الغاشية:١٤]:

يقول علماء اللغة والتفسير: إن الكوب هو الإناء أو الكوز الذي ليس له مِقْبَضٌ أو عُرى، ولا يكون له أيضًا مَصبٌّ يصب منه الماء[١].

وذكر الرافعي أن لفظ «الكوب» استُعمل في القرآن مجموعًا، ولم يأت به مفردًا؛ لأنه لا يتهيَّأ فيه ما يجعله في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذي هو الجمع[٢].

ووصفها بأنها موضوعة في مقابل ﴿ مَّرْفُوعَةٌ ﴾، أي: قريبة منهم وفي متناولهم.

ومن معانيها: أنها مقدَّرة، مصنوعة بمقدار يناسب كل حال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان:١٥-١٦]، فهي مقدَّرة ومناسبة، وفيها من أسباب النعيم والسرور والبهجة، والترف ما لا يخطر على بال.

* ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ [الغاشية:١٥]:

«النمارق»: جمع نُمْرُقَة -بضم النون والراء، وفتحهما، وكسرهما- وهي الوسائد، فهي مصفوفة بعضها إلى جنب بعض، لقعودهم ومُتَّكَئِهم.

* ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية:١٦]:

«الزَّرابي»: جمع: زِرْبي أو زُرْبي، وهي البُسط، ويقول بعض المحققين: إن أصل كلمة زرابي مأخوذة من «أذربي»، يعني: أذربيجان اختصارًا، ومؤنثها: (أذربية)، فصاروا يقولون: زَرْبِيَّة؛ فقد قيل: إن الذال ليست في لغة الفرس[٣]، لكن الله تعالى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٤١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ١١٦)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (٢٥/ ٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٥٥).

(٢) ينظر: «إعجاز القرآن» للرافعي (ص١٦٠).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٠٣).

عندما يقول عن الجنة أن فيها هذا اللون، فإن هذا فقط من باب تقريب المعنى لعقل السامع بذكر ما يعرف الناس نعومته وجمال شكله.

* ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية:١٧]:

وخلق الإبل مدعاة للتعجب والاعتبار في خِلقته وقوته، وصبره واحتماله للجوع والعطش، وقدرته على حمل الأثقال، وسهولة انقياده؛ ولذلك اختار الله الإبل هنا، مع أنه توجد في الحيوانات ما هو أقوى منه أو أشد منه، كالفيل أو الأسد أو التمساح أو النمر، لكن الله تعالى ذكر الإبل، لعَجبِ خلقها أولًا، ولأُنسيَتِها، وكونها قريبة من الإنسان، مألوفة لناظريْهِ يخالطها ويستخدمها.

وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يكتشف العلماء من دقائق المعاني في خلق الإبل ما لم يكن يعرفه الناس.

* ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشية:١٨]: أي: إلى هذه القبة الزرقاء.

* ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية:١٩]:

فيرى الإنسان هذه الجبال وما فيها من القوة والرسوخ، إضافة إلى ما فيها من حفظ الأرض؛ فإن الله تعالى جعل الجبال أوتادًا تحفظ الأرض ويستقر بها توازنها.

* ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية:٢٠]:

وفي الآية إشارة إلى أن الأرض هُيِّئَتْ لاستخدامات الخَلْق، من مشي ونوم وعمران وعمل وزراعة، ولا ينفي ذلك كروية الأرض، كما ظن بعض مَن أخطأ الفهم، ونسبوه إلى القرآن، فكرويتها قطعية عند علماء الإسلام وعند علماء الفلك، حتى قبل أن يشاهدها العلم وهي كرة تدور في الفضاء العظيم.

* ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]:

أي: لست بمتغلِّب أو متسلِّط، وهذا معنى عظيم؛ فإن الله سبحانه يقول لمحمد

ﷺ: ذكِّر هؤلاء بالقرآن ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

و﴿ إِنَّمَآ ﴾ للحصر، فحصر عمله ورسالته في التذكير، فأنت مذكِّر فحسب، فلست ذا سلطانٍ فتَقْهَرَهم، ولا حاكمًا متغلِّبًا فتأخذَهم بالقوة، وإنما أنت نبي مبلِّغ، وهذا معنى عظيم فيه التأكيد على أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ليست قهرًا وإلزامًا، وإنما أصلها قائم على الحرية في اختيار الناس، ويشبه هذا المعنى ما جاء في سورة الكهف: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾.

فأصل المخاطبة بالإيمان لا يقوم على أساس القهر والإلزام، وإنما يقوم على أساس التذكير والإقناع: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف:٢٩].

وقد غفل كثيرون عن هذا المعنى، فتجد الأَبَ يربِّي أولاده على الخوف منه أكثر مما يربيهم على الخوف من الله، وتجد بعض الدعاة يربُّون الناس على الخوف من المجتمع وعين الرقيب، ويعوِّلون في إصلاحهم وتربيتهم على السلطة التي تقهر الناس على الخير وتمنعهم من الشر، ويغفلون عن مخاطبة قلوب الناس بالخير والتذكير والتخويف بالقرآن حتى يحيا وازع الخوف من الله ومراقبته في قلب العبد، واليوم بعد أن غلبت العولمة وتقدمت وسائل الاتصال ضعفت السلطة وصار من المهم التربية على الرقابة الذاتية التي تعني مخافة الله وتعظيم حرماته.

ولا يعني هذا إلغاء جانب المسؤولية للأب أو الزوج أو المعلِّم أو الحاكم، وإنما المقصود أن يكون الاعتماد على الإيمان الذي في القلوب، وهنا تأتي مسؤولية الرقابة والحذر التي تؤدِّي دورًا وقائيًّا، وإلَّا فمَن لم يكن عنده إيمان لو منعته من الشر فلن يفعل الخير، وبمقدوره أن يصل إلى ما يريد دون علمك وإذنك، حيث يظن بعضهم أن الرسل بعثوا للجهاد، فصار الجهاد في نفسه غاية ومقصدًا لا بد من إقامته وتحقيقه مهما كانت الظروف! وهذا خطأ، والجهاد وسيلة وليس غاية،

والرسل بُعِثوا للهداية، وأكثرهم لم يبعث بقتال أصلًا، والقتال إنما يُشرع في ظروف خاصة، لا لأجل التوسع ولا جِباية الأموال، وإنما لإزالة الظلم ونصرة الحق ومقاومة الباغين والمعتدين وحماية الحق وشريعة الله.

* ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ [الغاشية:٢٣]:

استثناء منقطع، أي: بمعنى «لكن»، أي: لكن مَن تولى وكفر فشأنه إلى الله تعالى؛ حيث الوعيد: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ [الغاشية:٢٤].

وقال بعضُهم: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾: هذا استثناء، والمقصود أن الله يسلِّطك عليهم بأن تعذِّبهم بالجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة:١٤].

وهذا معنى ضعيف؛ لأن المستثنى هو المستثنى منه، والله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾، يعني: لست على الكفار بمسيطر، فكيف يستثني ويقول: إلا الكفار. وهذا لا يستقيم في الكلام الفصيح، وإنما المقصود من السياق معنى جديد مستأنف.

* ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ [الغاشية:٢٤]:

يعني: أمره إلى الله، ليس إليك، وإنما أنت مذكِّر، فالداعية يجب أن يستحضر معنى كونه مذكِّرًا، وليس بمتسلِّط على الناس ولا متفوق عليهم، ولا يقهرهم ولا يأخذهم، وإنما يدعوهم إلى الله تعالى، فمَن تولَّى وكفر ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾.

وسمَّى عذابه في الآخرة: ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾، كما ذكر في أول السورة: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾؛ وذلك لأنهم عُذِّبوا عذابًا أدنى في الدنيا، فيحصل لهم ألوان من العذاب: من المصائب والأمراض والشرور والفتن وغيرها مما يقع عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة:٢١].

* ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية:٢٥]:

فلا تعجل عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[النحل: ١٢٧]، فأمر الدنيا يسير ومهما طال فهو قصير، وإلى الله تعالى إيابهم ورجوعهم.

* ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية:٢٦]:

أي: فيحاسبهم الله تعالى بما عملوا، والمعنى: ليس عليك من حسابهم من شيء، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢].

وهذه دعوة إلى المؤمنين أن يكفُّوا عن محاسبة الناس والحكم عليهم بالكفر والنار، وترك ذلك لأهله، والاشتغال بإصلاح النفس والقلب والعقل، والسعي في إصلاح الآخرين وهدايتهم، والإحسان إلى العباد، وكف الشر عنهم، أما حسابهم والحكم على نواياهم وعلى مصيرهم، فإلى الحَكَم العدل الذي لا يُظلَم عنده أحد، ولا يُشْرِك في حكمه أحدًا!

○ ○ ○

سُورَةُ الفَجْرِ

سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ
قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا
فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ
فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾
وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾
وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ
صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾
يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾
يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي
جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ١-٣٠].

* تسمية السورة:

اسمها في المصاحف وكتب التفسير والحديث: «سورة الفجر»[1].

* عدد آياتها مختلف فيه، بحسب المكي والمدني والبصري والشامي، فقيل هي: (٣٢) آية، وقيل: (٣٠)، وقيل: (٢٩)[2].

* وهي مكية، وأكثر المفسرين على ذلك ولم يذكروا غيره، ولكن نُقل عن علي ابن أبي طلحة أنها نزلت بالمدينة، وكذلك نقل ابن عطية عن أبي عمرو الدَّاني أنها مدنية، والقول الأول هو الصحيح[3].

وهذه السورة لا يُعرف لها سبب نزول، والذي يظهر أنها نزلت في وقت شدة على النبي ﷺ، وكان فيه محتاجًا إلى أن يُذَكَّر بمعنيين:

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٢)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٤٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

(٣) ينظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (٦٦٢)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٨٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

١- نعمة الله تعالى عليه بالنبوة وخلافة الأنبياء، وأن وعد الله تعالى له بالنصر والتمكين آت لا محالة.

٢- عقاب الله تعالى للمعاندين والمكذِّبين والظالمين، وأنه مهما أبطأ فسوف يأتي، فالنصر لك ولدينك وأهل ملتك، والعقوبة على الظالمين المكذِّبين: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

* ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر:١]:

هذا قَسَم، والمفسرون وأهل اللغة والقُرَّاء يقولون: إن المقصود من القسم هو توكيد حقيقة عظيمة، فإذا كان المقسم به هو الله تعالى كان الأمر أكثر توكيدًا وإلحاحًا.

وهذه الأشياء المقسم بها على أي وجه فُهمت فهي من آيات الله، ولذلك ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ أن المقسم عليه هو المقسم به[١].

وهذا كلام بديع، لم أجده لغيره، يعني: أننا لا نحتاج إلى أن نبحث: على ماذا أقسم الله تعالى؟ بل يكفي أن نقول: إن الله أقسم بهذه الأشياء؛ لتوجيه النظر إليها، والإشارة إلى بديع صنعه فيها، وإلى عظيم نعمته على عباده.

وثَمَّ قدر مختلف فيه، وهو المتعلِّق بتحديد ماهية المقسم به، وحين تستعرض الأقوال تجد كثيرًا منها صحيحة المعنى ووجيهة، فالأمر فيها واسع؛ لأنه لا يتعلق بها حكم عملي، وإنما هي ألوان من اللطائف والمعاني والأسرار التي يتميز الناس بها بحسب قوة فهمهم، ودقة إدراكهم.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو: الفجر الصادق، أي: حينما يبزُغ النهار وتزول

---

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٢٣).

ظُلْمة الليل، وهو وقت صلاة الفجر على ما هو متفق عليه عند العلماء[1].

وأقسم في موضع آخر بالصبح، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٨]، وهو هنا أشار إلى الفجر؛ لانفجار النهار، كما تقول: انفجر الماء. والمقصود: وقت الصبح؛ إشارة إلى ما يكون في وقت الفجر من الفضيلة، فهو وقت زوال النوم، وخروج الناس من الموتة الصغرى إلى حالة اليقظة والانطلاق في طلب المعاش والعبادة ومصالح الحياة.

والله تعالى يُقسم بالشيء وبنقيضه، وفي هذا إشارة إلى أن كلًّا منهما نعمة؛ فالنوم بقَدْر نعمة، واليقظة بقَدْر نعمة، وإذا زاد أحدهما عن القَدْر المطلوب يصبح حالة تحتاج علاجًا واستشفاءً.

فأقسم بـ«الفجر»، ثم أقسم بضده، وفي هذا بيان الحكمة والرحمة في خلق الأضداد؛ فإنه سبحانه خلق الليل والنهار، والنوم واليقظة، والذكر والأنثى، وجعل الزوجية في مخلوقاته.

وعرَّف «الفجر» بـ(ال)؛ لأن المقصود الفجر المعروف، والوقت الفاضل، الذي جعله تعالى ظرفًا لإحدى الصلوات الخمس، كما قال الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء:٧٨]، ولذلك كان النبي ﷺ يطيل صلاة الفجر[2].

وفيه إلماحة -والله أعلم- وتنبيه للنبي ﷺ إلى منة الله عليه بمناجاته ربه، وقربه منه، وخاصة في الأوقات الفاضلة، كوقت السَّحر الذي هو وقت النزول الإلهي، وأنسام الرحمة، فيصلِّي، ويتلو كتاب الله في هذا الوقت المشهود.

---

(١) ينظر: «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٤٣٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٤١)، و«صحيح مسلم» (٤٦١).

* ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر:٢]:

انتقل من التعريف إلى التنكير، فلم يقل: (والليالي العشر)، والتنكير قد يكون للتعظيم.

وأقوى ما قيل فيها: إنها ليالي عشر ذي الحِجَّة، وقد نُقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وغيرهما، وذهب إليه أكثر المفسرين[١].

وقيل: هي العشر الأواخر من رمضان؛ لأن فيها ليلة القدر[٢].

وقيل: العشر الأُوَل من رمضان[٣]، والقول الأول أرجح.

وعشر ذي الحجة قد ورد فيها فضل عظيم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام». يعني: أيام العشر. قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهادُ في سبيل الله، إلَّا رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء»[٤].

وقد شرع الله فيها التسبيح والتهليل والتكبير والحج والهدي والأضحية والأعمال الصالحة، وهذه المناسك مأثورة عن الأنبياء، وعن إبراهيم عليه السلام.

وهذا فيه توجيه للنبي ﷺ إلى حفظ الله تعالى له ورعايته، وإلى وراثته لما كان عليه الأنبياء من قبل، وأن دين الله تعالى منصور، فكما نصر الله تعالى دين الأنبياء على

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٦، ٣٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٩)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٨٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٤٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٢)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩١)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٩٦٨)، والبخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨).

الوثنية والشرك، فكذلك سوف ينصر دينَك، ويقيِّض له مَن يقوم به.

وفيه: تطييب لخاطر النبي ﷺ أن الله شرع له في أماكن إقامة العبادة والنسك والذكر والقرآن وأزمنتها ما يَقْوَى به قلبُه.

ولعل من معاني التنكير في قوله سبحانه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: الإشارة إلى تحريف الجاهلية للشهور، وتبديلهم لها؛ فيما عرف بـ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، وهو أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى انتهاك حرمة شهر من الأشهر الحرم جعلوا مكانه غيره، فترتب على ذلك أن اختلطت الشهور، ولم يكن وقت الحج في الجاهلية هو وقته في الشرع.

حتى كان العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع، فصادف أن استدار الزمان، وانطبق التاريخ على ما هو على الحقيقة، فكان العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع هو العام الذي تطابقت فيه أزمنة الحج ومناسكه، مع ما يعلم الله تعالى أنه هو الحق من يوم خلق السماوات والأرض.

وأما قبل ذلك فكان الناس يحُجُّون ويقفون ويَبِيتُون في غير الوقت المحدَّد؛ بسبب اضطراب التاريخ عندهم الناتج عن النَّسيء الذي كان يعمله أهل الجاهلية.

وقد كانت الليالي العشر زمن الجاهلية غير محدَّدة، وهكذا في أول الإسلام قبل الهجرة، حتى وقت نزول هذه السورة.

وكانت الليالي العشر لا ينطبق الواقع عليها، فلذا نكَّرَها إشارة إلى أنه سيأتي تعريفها من الله تعالى بالفعل، وذلك عندما حج النبي ﷺ، ولهذا قال في حجَّة الوداع: «**إن الزمانَ قد استدارَ كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض...**»[1].

* ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣]:

«الشفع» ضد «الوتر»، و«الوتر» هو: المفرد، و«الشفع» هو المثنى أو الزوج،

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٢)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وأصلها الأعداد[1]، يعني: أن «الشفع» اثنان و«الوتر» واحد. وقد جاء في الشفع والوتر أكثر من عشرين قولًا، ذكرها الرازي وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم[2]، فمنهم مَن قال: إن الشفع هو المخلوق، والوتر هو الله الخالق، كما في الحديث: «إن الله وِتْرٌ يحبُّ الوترَ»[3]. والأقرب أن الشفع والوتر هو كل شفع ووتر متعلق بالسياق.

وما دام الحديث عن العبادات وعن المناسك وعن الليالي العشر من ذي الحجة؛ فإن من معاني الشفع: يوم النحر؛ لأنه هو اليوم العاشر، والوتر: يوم عرفة؛ لأنه هو اليوم التاسع، وهذا معنًى صحيح.

ومن معاني الشفع: اليومان اللذان يأتيان بعد العيد؛ لأنه مَن تعجَّل بعد يوم العيد في يومين فلا إثم عليه، فهذا هو الشفع، ومَن تأخر إلى اليوم الثالث فأصبح وترًا فلا إثم عليه لمَن اتقى، وهكذا كل ما يصلح أن يكون شفعًا أو وترًا مما له تعلُّق بالمناسك وأيام العيد.

﴿ وَٱلْوَتْرِ ﴾ فهو بفتح الواو وكسرها: «الوَتر» و«الوِتر»، وكلاهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان صحيحتان، كما ذكر الطبري، فـ«الوَتر» بفتح الواو قراءة الأكثرين، ولغة كثير من قبائل العرب، وبالكسر لغة بني تَمِيم، وهي قراءة ثابتة متواترة أيضًا، والمعنى واحد[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٧-٤٠٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٤٧، ١٤٨)، و«زاد المسير» (٩/ ١٠٢-١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٨-٤٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٣-٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥٦)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٨٣)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٣٦٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١٥).

* ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر:٤]:

و﴿ يَسۡرِ ﴾ أصلها: «يسري»، حذفت الياء للتخفيف ولرعاية فواصل السورة، وبعضهم أثبتها فقرأ: (والليل إذا يسري)[١].

والسُّرى أصله في الليل، وجمهور المفسرين يقولون: إن (يسري) هنا فعل الليل نفسه، أي: إذا يُقبل؛ لأن الإنسان إذا مشى أول الليل يقال عنه: سَرَى، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ [التكوير:١٧] على أحد التفسيرين[٢].

وقد أقسم الله بالليل بوجوه مختلفة، فمرة أقسم بالليل فقط، ومرة أقسم بـ «الليل إذا يغشى»، ومرة بـ «الليل إذ أدبر»، يعني آخر الليل، وهنا أقسم بـ«الليل إذا يسر»، وفي إقسام الله تعالى بالليل على صور عديدة إشارة إلى تنوع أحواله، فأول الليل عبرة وأوسطه عبرة وآخره عبرة، ولكل وقت من الليل ميزة ليست لغيره.

وقد أقسم بـ «الفجر» وبـ «الليل إذا يسر»، ولا مانع هنا أن يكون من معاني الليل إذا يسر ليلة خاصة، مثل ليلة مزدلفة[٣]؛ لتعلق الأمر بالمناسك.

* ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ [الفجر:٥]:

هذا تقرير، و﴿ هَلۡ ﴾ بمعنى: «قد»، ففي هذا القَسَم قَسَم (لذي حِجْر)، يعني: لذي عقل؛ لأن الحِجْرَ هو الذي يحجُرُ على صاحبه ويمنعه، أو يعقله، وكما يقال: إن فيه لآيات لأولي النهى؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يجوز وما لا يليق.

وهذا ليس تحديدًا لمهمة العقل أنه يحجر ويمنع فحسب، بل لعله إشارة إلى أن

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٠٦)، و«حجة القراءات» (ص ٧٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤١٧)، و«زاد المسير» (٩/ ١٠٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٢)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٤١).

العقل مسلَّط على كل شيء، إلا ما استثني وحُجر مما لا جدوى منه، أو ما دل العقل على أنه فعل فاسد، وأن هذا الحمى الممنوع ما لم يجتنب يكون سببًا في ضياع العقل وذهاب منفعته، وإلا فالعقل يكتشف ويرتاد ويبدع ويخترع وينجز، ودوره ليس مقصورًا على المنع والحجر والنهي.

والخطاب هو لذوي العقول، وهذا تأكيد على أن الإسلام دين يخاطب العقل البشري، ويحترمه ويبني مهمة التكليف على وجوده.

والعقول السليمة والفطر المستقيمة تدلَّان على كثير مما جاءت به الشريعة.

فمعنى الآية: في ذلك قَسَم لذي عقل يتأمل ويعقل، ويلاحظ ويفهم خطاب الله تعالى.

* ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر:٦]:

هذا خطاب للرسول ﷺ، وهو وإن كان حديثًا عن العقوبات، إلا أنه موجَّه للنبي ﷺ، وهو لم ير هذا الفعل، ولذلك نقول: إن الرؤية هنا علمية، والمراد: «ألم تعلم» عبَّر بالرؤية عن العلم؛ لأنه من الأمور اليقينية القطعية المعلومة بالضرورة، فكان العلم بها كرؤيتها.

كما نلحظ أن القَصص الثلاث التي ذكرها عن عاد وثمود وفرعون لها آثار مادية محسوسة، ويمكن رؤية آثار العذاب الذي حاق بهم.

وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أضاف لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ، إشعارًا بحمايته لك وخذلانه لأعدائك.

و«عاد» اسم شخص، ثم تحول إلى اسم قبيلة، كما نقول: تميم أو بنو تميم، وعاد كانوا في جنوب جزيرة العرب، في حضرموت، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ [الأحقاف:٢١]، والأحقاف هي: جبال من

رمل أو تراب، الواحد منها: «حِقْفٌ»، فهي مناطق رملية[1].

* ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر:٧]:

الأقرب أن ﴿ إِرَمَ ﴾ هو: اسم جَدِّ عاد، فهو اسم قبيلة من عاد نفسها، وهو هنا بدل، وهو المقصود بعاد الأولى المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم:٥٠]، التي جاءها الهلاك، وثَمَّ قبيلة أخرى من عاد، لكنها كانت موجودة في وسط الجزيرة العربية ممن لم يصبهم الهلاك، وهم من عاد، لكنهم ليسوا من عاد الأولى ولا من إرم.

وقال بعضهم: إن ﴿ إِرَمَ ﴾: اسم مدينة، وهذا قول مشهور[2].

وقوله تعالى: ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ أي: أنها مدينة لها أعمدة، وقد يكون المقصود: الأبنية التي يُجعل لها أعمدة، وعليه، فهي مدينة مطمورة بالرمل، ويحاول الكثير من المنقبين البحث عن آثار لتلك المدينة التاريخية، ويُنشر أحيانًا صور يزعم بعضهم أنها التقطت لها من تحت الأنقاض.

أو يكون المقصود أنها ذات القوة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف:٦٩]، فكانوا أقوياء وأشداء في طولهم، وفي بعض كتب التفسير مبالغة في ذكر أطوالهم بما لا يدل عليه دليل، وهذا مما ينبغي رده، ولكن لا شك أنهم كانوا أقوياء، قد استكبروا في الأرض، وبلغ بهم الاستكبار أن قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

وقد يراد بذلك القوة، سواءً قوة البدن أو قوة البناء:

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١٨٨)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٥٥١)، و«مختار الصحاح» (ص ١٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٤)، (٨/ ٣٩٥).

* ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر:٨]:

وفي قراءة: (لم نخلق مثلَها)[١]، وهذا يحتمل الرجوع إلى عاد بخلقهم وشدتهم، أو إلى بنائهم وأعمدتهم[٢].

وقد أرسل الله إلى عاد هودًا عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥]، وهود أخوهم في النسب، وسماه الله تعالى أخًا لهم؛ لأنه من القبيلة نفسها.

* ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر:٩]:

أما «ثمود» فقد أُرسل إليهم أخوهم صالح عليه السلام، وقد كانوا يسكنون في شمال جزيرة العرب، فيما يسمى بـ «مدائن صالح»، أو: «وادي القُرى»، أو: «الحِجْر»، وهي منطقة فيها زرع وجبال؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾.

ومعنى: ﴿ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ ﴾ أي: قطعوا الصخر، وهذا هو المعنى الصحيح، كما يقال: جاب الشيء، يعني: قطعه، وسمي الجيب كذلك؛ لأنه مشقوق، وهكذا الجوبة، كما في حديث أنس رضي الله عنه: «صارت المدينة مثل الجوبة»[٣]. حين وصف السحاب.

وقوله: ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾: «الواد» هو: وادي القُرى، والوادي في الأصل هو: المنحدر بين الجبلين، ثم أصبح يطلق على منطقة ثمود ووادي القرى، ولا يزال إلى اليوم يسمى بهذا.

والمعنى: نحتوا من الصخر بيوتًا، كما قال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٤٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٨)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٢٠-٤٢١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٩]، وكان العرب يعرفون قصتهم، وتكذيبهم لنبيهم، وعقرهم للناقة وما نزل عليهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر:٧٦]، فهم كانوا بطريق العرب في أسفارهم، وقد كانوا يرون هذه الآثار عند مرورهم عليها.

والنبي ﷺ رأى هذه الآثار هو وأصحابه حين مروا بمدائن الحِجْر، وقد غطَّى النبي ﷺ وجهه وأسرع المشي، وقال لأصحابه: **«لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم، إِلَّا أن تكونوا باكينَ؛ أن يصيبكم ما أصابَهُم»**[(١)].

كما أمر النبي ﷺ بالماء الذي استقوه من البئر أن يصب، وأمر بالعجين أن يعلف للدواب[(٢)]، وتجاوز هذه المنطقة.

والظاهر -والله أعلم- أنه يكره، بل أطلق بعضهم التحريم- أن يذهب الإنسان إلى مثل هذه الأماكن، إلا أن يكون معتبرًا؛ لقوله ﷺ: **«إِلَّا أن تكونوا باكينَ»**. يعني: معتبرين.

* ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [الفجر:١٠-١١]:

«فرعون» هو الذي بُعث إليه موسى وهارون عليهما السلام، وهو حاكم مصر، وقد ذكر الله قصته كثيرًا في القرآن، وجاءت هاهنا مختصرة.

وقد اختلف المفسرون في ﴿ ٱلْأَوْتَادِ ﴾: فقيل: هي الأوتاد التي كان فرعون يعذب بها مَن لا يستجيبون لسلطته وطغيانه، وقد عذَّب امرأته نفسها، كما جاء في بعض الروايات: «أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٧٩).

(٣) ينظر: «جامع معمر» (٢٠٤٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٣٦٠٤)، و«مسند أبي يعلى» (٦٤٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٢)، و«شعب الإيمان» (١٥٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٦).

وقيل: هي الجيوش والجنود التي كانت تحمي قوته ودولته وسلطانه[1].

وقيل: هي أعمدة كان فرعون يضعها من أجل اللعب في المناسبات والأعياد أيام الحفل وغيره[2].

ولعل المقصود بالأوتاد هنا: الأهرامات الموجودة إلى اليوم في مصر، والتي بناها الفراعنة، وورثها فرعون صاحب موسى عمن قبله[3]، وقد يكون أقام شيئًا منها، وهذا المعنى قريب؛ لعدة اعتبارات:

١- لأن الله تعالى سمى الجبال في القرآن: ﴿أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، فليس غريبًا أن تسمى كذلك، والأهرامات تشبه الجبال.

٢- لضخامتها وشدة بنائها وقوتها.

٣- لبقائها عبرة يراها الناس، فهي من أولى ما يطلق عليه ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾.

ولقد ذكر الله تعالى ثلاث قصص لثلاث أمم كلها لها آثار مشهودة:

فهناك «عاد» وما بنوه من المدن والأبنية الهائلة، التي هي من مقتضى قوتهم وشدتهم؛ فقد ذكر الله تعالى عن عاد في القرآن هذا المعنى في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨] وهذا دليل على شدتهم في البناء.

أما «ثمود»؛ فقد كانوا ينحتون الصخور، ويبنون منها بيوتًا ما زالت موجودة إلى اليوم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٤).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٧١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٤).

وأما «الفراعنة» فمن أعظم آثارهم الأهرامات.

وهنا نلاحظ أن الله تعالى ضرب الأمثلة بثلاث حضارات لثلاث أمم كان لها قوة في البناء، وقوة في السلطان، وقوة في الجيش، وقوة في الاقتصاد، ثم انظر: كيف فعل ربك بهم؟!

لم يكن توبيخه وعتابه سبحانه لهم لأنهم بنوا، فالبناء بذاته ليس هو المذموم، ولا لأنهم جابوا الصخر، ولا لأنهم وضعوا الأوتاد، فهذا الفعل بمجرده ليس هو المذموم، وإنما طغيانهم وغرورهم.

ويُشعر بهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، فليست المشكلة في امتلاك القوة والجيوش والاقتصاد، وامتلاك العلم والحضارة، فهذا بحد ذاته عنصر إيجابي، بل المذموم الطغيان والاستخفاف بالناس.

والطغيان حالة نفسية يكبر معها الإنسان في عين نفسه، ويرى ذاته، ويزدري غيره، ويكفُر بربه، ويغتر بقوته.

* ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ [الفجر:١٢]:

وفي ذلك إشارة إلى أن الطغيان سبب في كثرة الفساد.

وهذا الفساد، منه: الفساد الأخلاقي، بالفجور والخمر والفواحش والموبقات.

ومنه: الظلم الذي يقع على العباد، وهو أشد من الأول؛ لأن الأول الجناية فيه على صاحبه في الغالب، أما الفساد الأعظم الذي يكون به هلاك الدول والأمم فهو الظلم وانتهاك الحقوق وبَخْس الناس واستعبادهم؛ ولهذا جعل الله تعالى العقاب مقرونًا بالظلم، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، والقرى هي: البلاد، والنبي ﷺ يقول: «إن اللهَ

لَيُمْلي للظَّالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ»[1].

ومنه: الاختلاف؛ فإذا اختلفت وتنازعت صارت أهواءً شتَّى وضعفت قوتها، وأسرع إليها الانهزام.

* ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر:١٣]:

«الصبُّ» يستخدم غالبًا للماء والسوائل، وهذا مقصود هنا، وهو إشارة إلى شدة المباغتة والسرعة، فلا ينجو منه أحد، وهو مع سرعته سيَّال يتخلل كل مكان، ولا يُكِنُّ منه شيء مهما كان ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣].

وهذا ملاحظ في عقوباته عليهم، فقوم عاد كانت عقوبتهم الريح، وثمود الصيحة، وفرعون الغرق، وهذه كانت أشياء مفاجئة، أتتهم بغتة فأهلكتهم.

وربك الذي تعبده، وتدعو إليه، هو الذي عذَّبهم، فهو إذن حاميك وناصرك.

و﴿ سَوْطَ ﴾ نكرة؛ لأنه قليل مما عند الله، ومع ذلك فهو بالنسبة لهم ساحق ماحق.

ولذلك قال الحسن البصري: «كم عند الله من سِياط العذاب، وإنها صب الله عليهم منها سوطًا واحدًا»[2].

* ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:١٤]:

و«المرصاد» من الرصْد، فإذا كان الناس في ساحة يلعبون ويركُضون، ولها طريق واحد للخروج؛ وعلى هذا الطريق حراس وجنود ينتظرونهم، فهم الرصد، وهذا هو المرصاد.

والآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل طاغية وظالم، فدعهم يعبثوا ويتمتعوا، فسواء طال الزمن بهم أم قصر، فلن يفلتوا من عقابه.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٠).

وكثيرون يستغرقون في اللحظة الحاضرة من مشاهدة العدوان والقوة، ويظنون أن التاريخ انتهى، وأن الأمر توقف، لكن لو تذكروا هذه الآية لعرفوا أنها سنة الله؛ يلعبون لعبتهم في الميدان، لكن إذا أرادوا الخروج فـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾، فهي فترة إملاء وإمهال، وإذا أخذهم لم يفلتهم.

والله تعالى أقسم في أول السورة بقوله: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾، ثم لم يذكر تعالى الشيء الذي أقسم عليه، وإنما انتقل القسم إلى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾، وهذا ليس من الأمور التي يكثر استخدامها عند العرب، ولكنها -والله أعلم- من مبتكرات القرآن العظيم التي تهزُّ الضمير والوجدان هزًّا، ولو أن أحدهم أقسم لك بالله العظيم القوي العزيز ثم سكت وانتقل إلى موضوع آخر، لتساءلت: هذا القسم على ماذا؟

وهنا يبدأ عقل الإنسان في البحث عن المقسم عليه، وهذا أبدع وأبلغ مما لو أعطيته جواب القسم مباشرة.

والظاهر أن القسم -والله أعلم- هو على ما تضمنه السياق، يعني: كأن الله تعالى أقسم بقوله: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ أي: لنهلكن الظالمين.

* ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر:١٥]:

وهنا نحتاج أن نربط بين الآيات وما قبلها، حيث كان السياق عن الأمم السابقة، وأن الله أعطاهم السلطان والعلم والقوة والمال، فكفروا، فكانت العاقبة أن أهلكهم، فدل هذا القدر على أن العبرة ليست بملكية الأشياء؛ فقد يملك البشر الأشياء ظاهرًا، وفي الحقيقة أنها هي التي تملكهم، وإنما العبرة بحسن الاستخدام وحسن التصور وحسن الشكر وحسن الصبر.

والمقصود هنا الإنسان، الكافر أو العاصي، إذا ابتلاه ربه بالعطاء والمال والصحة والقوة وملذات الدنيا، قال: ما أعطاني هذه النعم التي حُرِمها كثيرون إلا لرضاه

عني ولكرامتي عنده.

وقد جاء في القرآن آيات أخرى في معنى هذه الآية، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت:٥٠]، وقوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ [الحج:١١]، وهذا صنف من الناس، وإذا أُعطي من الدنيا ظن أن هذه كرامة عند الله يستحقها؛ لأنه جدير بها!

وفي قوله: ﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ قراءة عند الوقف بسكون النون، وفي قراءة بالياء، وفي قراءة تحذف الياء عند الوقف، وتثبت عند الوصل، وهكذا في قوله: ﴿ أَهَٰنَنِ ﴾، ثلاث قراءات: بحذف الياء، وبإثباتها مطلقًا، وبإثباتها عند الوصل وحذفها عند الوقف، وكلها قراءات متواترة[1].

* ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر:١٦]:

«قَدَرَ» أي: ضيَّق، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ [الطلاق:٧]، وعلى هذا فقوله: «قَدَرَ عليه رزقه»، يعني: أعطاه بقدْر أو بقدَر، يعني: شيئًا قليلًا، وفيها قراءة أخرى: (فقدَّر عليه رزقه)، وهي بالمعنى ذاته[2].

﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾، أي: لم ينزلني المنـزلة التي أستحقها، ولم يعاملني بما أستحقه، فجعل معيار الإكرام والإهانة هو العطاء الدنيوي.

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٨٤-٦٨٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٢)، و«تحبير التيسير» (ص٦١٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ١٦٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٢٢).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات» (ص ٣٧٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٣٢٣)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٢٤).

وفي الآيات إشارة إلى إبطال معيار الكرامة والإهانة الذي اعتبروه؛ فـ«**إن الله تعالى يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا مَن يحب**»[1].

وعطاء الله تعالى إنما هو لِحِكَم وأسرار يعلم العباد بعضها، ويجهلون الكثير منها، ومَن حاول أن يستقصي، ربما آل به الأمر إلى الجحود والكفر، وبمثل هذا ضل ابن الرَّاوَنْدي، فكان يقول[2]:

كم عالمٍ عالمٍ ضاقتْ مذاهبُـــه ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقًا

هذا الذي جعَلَ الأذهانَ حائرةً ... وصيَّر العالم النِّحرير زِنْديقًـا

إن المسلم مأمور بالرضا والإيمان والتسليم، على الحال الذي وصفه النبي ﷺ في قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمرَهُ كلَّهُ له خيرٌ؛ إن أصابتْهُ سراءُ شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابتْهُ ضراءُ صبر؛ فكان خيرًا له**»[3].

* ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر:١٧-١٨]:

﴿كَلَّا﴾ يعني: ليس الأمر كما زعم هؤلاء، و﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر ونفي لما ادعوه.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٩)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (١/ ٣٣)، (٢/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٦) مرفوعًا.
وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٤٥، ٣٤٥٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٥) موقوفًا. ورجَّحه الدارقطني وغيره. ينظر: «علل الدارقطني» (٥/ ٢٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

(٢) ينظر: «الأمل والمأمول» المنسوب للجاحظ (ص٤)، و«غرر الخصائص الواضحة» للوطواط الدمشقي (ص٧٠)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٤/ ٢٣٢)، و«معاهد التنصيص» للعباسي (١/ ١٤٧)، وفيها اختلاف في الرواية، وفي النسبة بين أبي العلاء المعري، وابن الراوندي، وغيرهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

وفي قوله: ﴿كَلَّآ﴾ نفيٌ لمعنًى آخرَ ظنوه وتوهموه، وهو: أن من طَبْعِ الإنسان أنه يظن الحال التي هو عليها حالًا ثابتة مستقرة، لا تتغير ولا تتبدل.

فإن من الناس مَن إذا كان في حالة من الفقر ظن أنه لن يغتني، وإن كان في حالة من الغِنى استطرد وظن أنه لن يفتقر، وإن كان مريضًا ظن أنه لن يتعافى، وإن كان معافىً ظن أنه لن يمرض!

ومن هنا ندرك قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ لأن الإنسان الذي يكرم اليتيم هو المؤمن الذي لا يقول: «أكرمني.. أهانني»؛ لأنه يعرف أن العطاء والمنع من الله، وأنه لحكم وأسرار، وأنه إن أعطاك اليوم فقد يمنعك غدًا، وإن منعك اليوم فقد يعطيك غدًا، ولذلك يعرف أن للناس حقًّا في عقله وفي لسانه وفي سمعه وبصره وقواه وماله.

وقوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه معنى الاستنكار، أي: لماذا لا تكرمون اليتيم، مع أنكم أغنياء ولديكم أموال؟ فإن الإنسان يقول: هذا أوتيته على علم عندي، وربي أكرمني بهذا؛ لأني جديرٌ وخَلِيق، ومن هنا يتضح الربط بين قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ مع قوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾. و«اليتيم»: من فقد أباه قبل البلوغ، وقيل: يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس، خاصة مع ضعف حديث: «**لا يُتْمَ بعد احتلام**»[1]. وهذا قول صحيح.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٦٥٨)، والبيهقي (٦/ ٥٧) من حديث علي ﷺ.

وأخرجه الطيالسي (١٨٧٦)، والبيهقي (٧/ ٣١٩) من حديث جابر ﷺ.

ورُوي عن غيرهما، وفي أسانيدها ضعف. ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٤٢٨)، و«علل الدارقطني» (٤/ ١٤١-١٤٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ٢٧٥-٢٧٨)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢١٧-٢١٨)، و«إرواء الغليل» (١٢٤٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٨٠).

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ﴾ وفي قراءة سبعية: (تحضُّون)[1]، أي: لا تحضون الآخرين، أو لا يحض بعضكم بعضًا؛ ووصف المسكين إذا أطلق يعم المسكين والفقير.

و﴿ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ يحتمل أن يكون معناه: إطعام المسكين، فيكون مصدرًا، ويحتمل أن يكون المقصود الطعام الذي هو المطعوم، يعني: لا تحاضُّون على بذل الطعام للمسكين من غداء أو عشاء أو سواه.

- لا يكرمون اليتيم.
- ولا يتحاضُّون على إكرام اليتيم.
- ولا يطعمون المسكين.
- ولا يتحاضُّون على طعام المسكين.

والخلاصة: أنهم لا يفعلون هذه الأشياء بأنفسهم، ولا يحرِّضون ويحثون الآخرين على فعلها، فنفى عنهم القول والفعل.

والإنسان قد يكرم بالقول، أو بالفعل، والإكرام بالفعل كأن يعطيه طعامًا وشرابًا، أما الإكرام بالقول، فقد لا يستطيع أن يعطيه لعجزه، لكن قد يحرِّض غيره على ذلك، ويكون شافعًا للفقير والمسكين عند أصحاب الغنى والكرم.

والأصل في المجتمع المتراحم أن تكون الأعمال الإغاثية والتطوعية أعمالًا جماعية يتحاض الناس عليها ويتنافسون فيها، وفي هذه الآيات لفتة إلى أن مراعاة حقوق الناس وحاجاتهم وإصلاح حالهم من القضايا الكبيرة التي جاءت بها رسالة الإسلام، وأن الأمر بذلك والحض عليه جاء في الآيات المكية وفي أوائل ما نزل من القرآن.

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٨٥)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦).

* ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ [الفجر:١٩]:

﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ هو: المال الموروث من الموتى، و«أكل التراث» هو: الاستيلاء عليه بغير وجه حق وحرمان الوارث منه، لا سيما إذا كان امرأة أو يتيمًا[١].

وقد يكون المقصود به: أكل الطعام، وهذا احتمال؛ لأنه من مقاصد التملك.

والأقرب -وهو الأكثر في استعمال القرآن- أن المقصود: الاستحواذ والانتهاب من غير وجه حق، فهو من أكل أموال الناس بالباطل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

* ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر:٢٠]:

والحب معنًى قلبيٌّ، وهذا يعني: أن قلوبهم معلَّقة بالمال وحب تملكه بكل سبيل، وأحسن ما قيل في الزهد: أن يكون المال في يدك وليس في قلبك[٢].

وقد يملك الإنسان المال، ولكن ليس عنده الحب الشديد له، ولذلك لا يبخل به، بل ينفقه ويتصدق منه.

و«الجمُّ» في الأصل هو: الكثير، كما يقال: جم الماء، إذا كان كثيرًا في عين أو بئر، وإذا بدأ الماء يتجمع شيئًا فشيئًا في أسفلها، فإننا نقول: إن الماء بدأ يجم[٣]، والمعنى: حبًّا كثيرًا ينمو ويزيد.

* ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر:٢١]:

﴿كَلَّآ﴾ أعادها مرة أخرى، و﴿كَلَّآ﴾ الأولى كانت إشارة إلى واقعهم في الدنيا، أي أن ادعاءكم أن ربكم أكرمكم، أو أن ربكم أهانكم، بناءً على ما أعطاكم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٥٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٠).

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٤).

في الدنيا ليس صحيحًا.

ثم جاءت ﴿كَلَّا﴾ الثانية لتنقلَهم إلى عالم الآخرة، أي: أن الدنيا ليست نهاية المطاف، وهب أنك بَقِيْتَ في الدنيا سالمًا غانمًا معافًى إلى وقت الموت، فماذا ينفعك هذا عند الحساب؟

و«الدك» ورد في مواضع أخرى؛ كما في سورة الحاقة: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤] وهنا قال: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾، وليس المقصود التعدد أو التثنية، بل التوكيد أو التفصيل، كما أقول: إنني أخذت الكتاب فقرأته حرفًا حرفًا. وهذا معناه: أنني استوعبته تمامًا، وليس معناه أنني قرأته مرتين، أو كما أقول: عرضت الحساب على فلان رقمًا رقمًا وبابًا بابًا، وهذا معناه: أنني انتقلت معه بالتدريج إلى المسائل كلها، والله أعلم.

وكثير من النصوص تبين دك هذه الأرض التي فيها الجبال والعمران والمنخفضات، والتي أقمنا عليها العماد، وتحركنا فيها، والتي يمشي الإنسان فيها متبخترًا متكبرًا بخُيَلاءَ وفخرٍ، وهو يظن أنه لا يموت ولا يزول، ولا ينطوي ملكُه، وينسى مَن قبله، وينسى ما بعده، فهذه الأرض كلها سوف تُدَكُّ وتكسَّر وتفتَّت، فكيف بما عليها؟

* ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]:

هذا مشهد مهيب، ومن المتكلمين مَن يقول: إن هذا محمول على المجاز؛ لأن المجيء في حقيقته انتقال، والانتقال لا يكون إلا للأجساد؛ والله تعالى منزه عن التجسيم[1].

والأولى باللبيب أن يتدبر الآية، ويتذكر ذلك الموقف المهيب، ولا يشغل نفسه في تأويلها، وكيف يصرفها عما تدل عليه؟!

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٥٤).

ولو أننا أبقينا القرآن على جماله ورونقه، ووضوحه وظاهره، لكان هذا الأجدر بالهداية الربانية، ولذلك كان من طريقة السلف: «أمِرُّوا النصوص كما جاءت».

ومن مذهب السلف ﷺ: أن كل ما يخطر في الذهن عند قراءة هذه الآية ونحوها خيال بعيد عن الواقع؛ والله منزه عنه، كما قالوا: «كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك».

فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾، وتخيلت أن كرسيًّا يُنْصَب، وأن مَلِكًا يقعد عليه، فإن هذا الخيال الذي في ذهنك مما يجب أن يُنـزَّهَ عن الله، ولذلك نقول: مَن قال: إن الظاهر غير مراد. فإن قصد بالظاهر هذه الصورة الخيالية التمثيلية التي ارتسمت في أذهاننا ونحن نقرأ السورة فهو صحيح؛ لأن هذا غير مراد، ولكننا نقول أيضًا ببقاء السياق والنص على ظاهره، ولا نقول: إنه مجاز وغير حقيقي، بل نقول: يأتي الله سبحانه وتعالى ويجيء. من غير تكييف؛ لأننا لا نعلم كيف هو، فلا نعلم كيف أفعاله، ولا كيف صفاته، ولا يعلم ذلك إلا هو سبحانه، لكننا ندري أن الموقف مهيب؛ لأنه إذا كان مجيء ملوك الدنيا من المواقف المهابة، فكيف بمجيء الرب العظيم الكامل في أسمائه وصفاته، وعظمته ومجده، وقدرته وسلطانه؟!!

ومع ذلك يأتي إلى عباده؛ لفصل القضاء بينهم، ونصر المظلوم من الظالم، وإعادة الحق إلى أصحابه، وثواب المطيعين المؤمنين الصابرين، وعقاب الكافرين المعاندين!!

فهذا المشهد مشهد عظيم مَهِيب تَوْجَلُ له القلوب.

ثم الملائكة يُصَفُّون صفوفًا بعضهم خلف بعض، وورد أنهم يصفون سبعة صفوف، وهم محيطون بالبشر، ولهذا: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة:١٠-١٢][1]، وهذا من معاني المرصاد!

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٩).

* ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]:

«جهنم»: اسم من أسماء النار، وقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**يُؤْتَى بجهنمَ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كل زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجرونها**». فهذا مما يدل على رهبة المشهد وعظمته.

والحديث ورد موقوفًا ومرفوعًا، وكأن الموقوف على ابن مسعود رضي الله عنه أشبه، فقد رجَّحه غير واحد، واستدركه الدارقطني على الإمام مسلم في رفعه(١).

ويُؤتى بالجنة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ [التكوير:١٣]، يعني: قرِّبت من أهلها، وإنما ذكر جهنم فقط؛ لأن المقام مقام تهديد ووعيد.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: هذا الإنسان هو الذي كان يقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ إن مُنع المال والدنيا، وكان يقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ إن أعطي المال والدنيا، ففي ذلك الموقف يستعيد ذكرياته، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لفظ استفهام، معناه: الإنكار أو الاستبعاد، يعني: أنى له أن ينتفع بالذكرى؟! وإلا فهو قد تذكر فعلًا، والمعنى أنه لا يستفيد من الذكرى؛ لأن وقت العمل قد ذهب، وجاء وقت الحساب.

* ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]:

إما يقولها بلسانه أو يقولها بقلبه، وهما سِيان، يعني أن الذي مُتِّع في الدنيا، وأُعطي ونُعِّم فيها حتى أسرف على نفسه، واشتغل بملذاتها عن فعل الفرائض

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٤٢)، و«جامع الترمذي» (٢٥٧٣)، و«مسند البزار» (١٧٥٤-١٧٥٦)، و«علل أحاديث صحيح مسلم» لابن عمار الشهيد (ص ١٥٠-١٥١)، و«الضعفاء» للعقيلي (٣/ ٣٤٤)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٨٦)، و«الإلزامات والتتبع» (٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٩).

والقيام بحق الله، وشك في اليوم الآخر، سوف يأتي يوم القيامة متحسّرًا أعظم التحسر على التفريط في جنب الله قائلاً بلسانه أو بقلبه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ وسيوقن أن الحياة الحقة هي في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي: لهي الحياة الحقة.

* ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]:

وفي قراءة: (لا يُعَذَّب عذابَه أحدٌ، ولا يُوثَق وثاقه أحدٌ)[1]، أي: أن عذاب الله في الدار الآخرة لا يشبهه عذاب أحد من الناس إطلاقًا، وكل ما تعرفونه من ألوان العذاب فهو مختلف.

و«الوثاق» هو: القيد، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، ولا أحد يوثِق مثل وثاق القيد الذي يجعله الله تعالى للكافرين، كما قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢]، ومَن قرأ هذه الآيات فإنه يتخيل سلاسل الحديد الموجودة في الدنيا، ودوائرها الضيقة، وحتى الذراع؛ يتخيل الذراع الذي يعتاده، ومن ثَمَّ يقع عند الإنسان شيء من التشبيه، ولهذا قال هنا: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾، وأن ما عند الله تعالى من العذاب ومن النعيم لا يخطر على بال، ولا يستطيع أن يتصوره خيال.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يعذِّب اللهُ تعالى عذابَ هذا الكافر أحدًا غيره، أي: لا يتحمل أحد عن أحد عذابه ولا وثاقه، فعذاب كل إنسان يتحمله هو، ولا يعذَّبه أحد غيره.

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة القوة والشدة والوعيد والتهديد والعقوبات

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩١)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٨٥)، و«الحجة في القراءات» (ص ٣٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٦).

الدنيوية للأمم الكافرة، وأما العذاب الحقيقي فهو في الآخرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾.

وذكر الوِثاق هنا قد يكون مناسبًا -والله أعلم- مع ما يذكر عن فرعون وغيره من أنهم كانوا يوثِقون ويقيِّدون ويحارِبون مَن لا يوافقهم من المؤمنين.

* ثم ختم تعالى السورة بهذا الختام اللطيف الدال على رحمته وفضله وكرمه وعطائه ولطفه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر:٢٧].

والسورة فيها مقامان:

١ - مقام التنبيه للنبي ﷺ على فضل الله عليه ومنَّتِه.

٢ - مقام الإشارة إلى أعدائه وما سيصنع الله بهم.

ومن هنا ناسب أن يقول: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾، وهذا خطاب للنبي ﷺ ونفسه المطمئنة، وهو خطاب لكل الصالحين، ولذلك نقول: إن النفس هنا هي كلُّ النفوس المطمئنة، والمطمئنة صفة، والمقصود: الثناء على تلك النفوس بأنها مطمئنة.

وهنا هي مطمئنة بذكر الله عز وجل؛ فإن ذكر الله طمأنينة للقلب، كما في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

وهي أيضًا مطمئنة بالنظر وإعمال العقل والفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي آيات الله الكونية المخلوقة، وفي آيات الله الشرعية المنزلة، ويدل على هذا المعنى قول الله عز وجل حاكيًا عن إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]، يعني: أنه كان يريد مزيدًا من الطمأنينة، وهي تكون برؤية الملكوت، وتكون برؤية الله عز وجل في الآخرة، وتكون بمحض الفضل من الله، كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، فهذه النفس المطمئنة تنال الأمن والبشارة.

ومن معاني المطمئنة: المنخفضة، كقولنا: هذه أرض مطمئنة، يعني: غير مرتفعة؛ فمن معانيها: التواضع، فهي متواضعة لعظمة ربها تبارك وتعالى[(١)].

ومن معاني المطمئنة: استواء المشاعر من حيث التسليم والرضا بالمقدور في حال الشدة والرخاء والغنى والفقر والخوف والأمن.

وأولئك كانوا إذا أصابهم المال والغنى قالوا: ربُّنا أكرَمَنا. وإذا أصابهم الفقر والجوع والمرض قالوا: ربُّنا أهانَنا. وهذا يدل على أن نفوسهم لم تكن مطمئنة.

وهنا نلاحظ التوافق والتناسب بين أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر:١٥] وبين الخاتمة هنا في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، وهذا استثناء للنفوس المؤمنة بربها المطمئنة إلى وعد الله تبارك وتعالى، فهي مطمئنة بمواقفها ومشاعرها في حال الخوف والأمن، والشدة والرخاء، والسَّعة والضيق، والغنى والفقر، والمرض والعافية، والكثرة والقلة، والعزة والذلة.

وهي راضية بقضاء الله، ذاكرة له، وهي ممتلئة من الإيمان والتدبر والتأمل في كتاب الله المشهود «الكون»، وفي كتاب الله تعالى المنزَّل «القرآن».

وقد قسَّم بعض العلماء النفوس إلى ثلاثة أقسام[(٢)]:

١- النفس المطمئنة.

٢- النفس اللَّوَّامة.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٢).

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ٤٠٦)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٤)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٢٩٠).

٣- النفس الأمَّارة بالسوء.

وهذه الأقسام هي أحوال للنفس؛ فإن الإنسان الواحد قد يكون في حال مطمئنًّا، وفي حال أخرى لائمًا لنفسه، وفي حال أخرى تكون نفسه أمَّارة بالسوء.

* ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر:٢٨]:

فالمعنى فيه على قولين:

١- ارجعي إلى الله، وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو الصحيح[(١)].

وقد جاء في أثر عن بعض السلف أنه سُئل: كيف القدوم على الله؟ فقال: «أما المحسن، فكالغائب يقدم على أهله مسرورًا، وأما المسيء، فكالآبق يقدم على مولاه محزونًا»[(٢)].

والرجوع هنا كأنه اختياري لها وبطوعها، وقد جاء في «الصحيحين»: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كره لقاءَ الله كره اللهُ لقاءَهُ**»[(٣)].

فالكافر يُساق سوقًا، وقد ورد في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما الطويل في قصة النزع والاحتضار أن نفسَ الكافرِ وروحَه تتفرَّق في جسده، فتنتزعها الملائكة كما تنتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، وتنزعها من كل أنحاء الجسد نزعًا، وأما المؤمن؛

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٩-٣٩٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٨)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٠)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٤).

(٢) ينظر: «مسند الدارمي» (٦٧٣)، و«المجالسة» (٨/ ١٤٩) (٣٤٥٦)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٤)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٧)، و«إحياء علوم الدين» (٢/ ١٤٧)، و«تاريخ دمشق» (٢٢/ ٣٠)، و«المنتظم» (٨/ ٣٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٠٧، ٦٥٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٣-٢٦٨٦).

فإنه عند النزع والاحتضار تخرج نَفْسُه وروحه كما تخرج القطرة من فيِّ السقاء[1]، يعني: بسهولة ولين، وكما في الحديث الآخر: «المؤمنُ يموتُ بعرق الجَبين»[2].

فالنفس المطمئنة هي التي تطمئن في حال الفقر والغنى، والصحة والمرض، والأحوال المتقلبة المختلفة، وترجع إلى ربها راضية مرضية، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة:٨]، فتحقق لها هذا كلُّه.

٢- أن المقصود بقوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: صاحبك؛ أي: إلى الجسد الذي كنت تعمرينه في الدنيا، وهذا قول مرجوح[3].

* ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٩-٣٠]:

أي: فادخلي في عبادي الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩]، أي: ضمن عباد الله الصالحين.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، فانظر إلى هذا الفضل العظيم، وإلى هذا العطاء الجزيل، وإلى هذا الختام الجميل؛ اللائق بفضل ربنا وكرمه جل وتعالى.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه الطيالسي (٧٨٩)، وأحمد (١٨٦١٤)، وأبو داود (٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٢٨).

(٢) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والنسائي (٤/ ٦)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة ﷺ.

(٣) ينظر مصادر القول الأول.

سُورَةُ الْبَلَدِ

سورة البلد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢) وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (٥) يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا (٦)
أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ
(١٠) فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي
مَسۡغَبَةٖ (١٤) يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ (١٥) أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ
بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (١٧) أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ [البلد:١-٢٠].

* تسمية السورة:

١- المشهور في كتب التفسير والمصاحف: «سورة البلد»[(١)].

٢- وسماها البخاري في «صحيحه»: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾»[(٢)]، وهذا يشتبه مع سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وفي بعض التفاسير: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾»[(٣)].

٣- وذكر الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» أن من أسمائها: «سورة العقبة»[(٤)]؛ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]، وهو مناسب؛ لأن هذا الاسم يميزها عما سواها.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٨)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٣٣).

(٤) ينظر: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٥٢٠).

* عدد آياتها: عشرون آية باتفاقهم(١).

* وقد نزلت بمكة، ولم يذكر أكثر المفسرين كالقرطبي وابن الجوزي وغيرهما إلا هذا، ولكن ذكر ابن عطية والرازي قولًا آخر: أنها مدنية، وقيل: إن أولها مكي. وهذا ضعيف.

والراجح أن السورة مكية، كما هو قول الجمهور، وحُكي إجماعًا(٢).

* ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١]:

يعتبر هذا جمع من المفسرين نفيًا للقَسَم، أي: أن الله لم يقسم.

والراجح: أن هذا قَسَم، وهو كثير التكرار في القرآن الكريم، كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥].

وهو جارٍ على لغة العرب، بل يظهر أن القسم بلفظ الفعل بصيغة المتكلم لم يرد في القرآن إلا مقرونًا بـ ﴿لَآ﴾، فلا تجد في القرآن «أقسم»، وإنما تجد: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾؛ و﴿لَآ﴾ ليست نافية، وإنما هي حرف صلة، وبعضهم قد يقول: زائدة، ولا يقصدون زيادتها في المعنى، وإنما يقصدون زيادتها في الإعراب(٣).

ويبدو أن ﴿لَآ﴾ هنا يصلح أن تكون حرف استفتاح، مثل كلمة: «ألا»،

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ١٨٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٥١٠، ٢٦١٠)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢١٤).

وتأتي للأهمية أو التوكيد أو التطويل في القَسَم لما يقتضي زيادة القَسَم[1]؛ فكلمة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أقوى من كلمة: «أقسم»؛ لأن فيها القسم، وفيها زيادة الاستفتاح.

فهذا قَسَم، لا سيما أن الله تعالى أقسم بهذا البلد، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]، فكيف يقسم الله به ثم يقال: إنه لا يقسم به، أو لم يقسم به؟!

فالراجح الذي عليه الأكثر: أن الآية هنا قَسَم مؤكَّد، وليست نفيًا.

و«هذا» اسم الإشارة، واللافت للنظر في القرآن أن كلمة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ غالبًا ما تأتي في القرآن مسبوقة باسم الإشارة، كما هنا، وكما في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين:٣]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، فالإشارة فيها تقوية وتعزيز وإشهار وإظهار، وهذا يؤكِّد أن الآية قَسَم؛ لأن قَسَم الله بشيء فيه تعظيم له.

وفي هذا القَسَم تحديد للمقصود؛ حتى لا يلتبس، فليس المقصود بالقَسَم أي بلد، وإنما هذا البلد خاصة، وهو مكة، وفي ذلك إشارة إلى تعظيم الله تعالى لهذه البقعة المباركة التي اختارها واصطفاها، وجعل من أرضها وتربتها المكان المقدَّس يوم خلق السماوات والأرض، والكعبة التي حجَّها الرسل والأنبياء وطافوا بها، وأمَّها المسلمون في صلاتهم، ولا زالوا يَؤُمُّونها إلى يوم الدين.

وهذا القدر كان معروفًا عند الأنبياء السابقين وعند الأمم السابقة، لكن في هذا القَسَم إشارة إلى مرحلة جديدة من القوة والظهور لهذا البلد، بحيث يكون مركزًا للعلم والدعوة والإيمان والنصر والفتح، وهذا ما لم يكن موجودًا آنذاك، ولكن عُرف فيما بعد.

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٨).

وفي ذلك إعجاز رباني وإلماح إلى ما سيقع.

ويقول كثير من الجغرافيين: إن مكة في مركز الكرة الأرضية. وتاريخيًّا هي كذلك[(١)].

ولها من التأثير والعظمة شيء يطول منه العجب، فإن أكثر من مليار وخمسمائة مليون إنسان يستقبلون هذا البلد بصلاتهم، ويقصدونه بحجهم، حتى أنهم يتنافسون في فرص أداء الحج والعمرة؛ حيث صارت بالقرعة في بعض بلاد المسلمين، ولو فُتح لهم الطريق لضاقت بهم شعاب مكة وفجاجها.

* ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:٢]:

وهذا خطاب للرسول ﷺ، أي: وأنت يا محمد، وهذه الآية يمكن أن تكون جملة معترضة، ليست تبعًا للقَسَم، ويمكن أن تكون حالية بمعنى: أقسم بهذا البلد حين تكون -يا محمد- حلًّا به.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿حِلٌّ﴾ على معانٍ:

١- أن هذا البلد الذي حرمه الله، وأصبحت فيه الطيور تأمن، والوحوش والهوام والدواب والحمام، إلا أن قريشًا قد استحلت عرضك ودمك في هذا البلد الأمين[(٢)].

٢- أن المعنى: وقد أحللنا لك هذا البلد، كما قال ﷺ: «وإنما أُحلَّت لي ساعةً من نهار»[(٣)]. يعني: في فتح مكة، وهذا يشكل عليه أن الإحلال كان متأخرًا والسورة

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٥١٠، ٢٦١٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١٠/ ٤٨٠)، و«الدر المصون» (١١/ ٥)، و«اللباب» (٢٠/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

مكية، وليس له وجه ظاهر في السياق.

٣- وهو مشهور، ذكره ابن كثير وابن القيم وجماعة[١]، وهو أن المعنى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، يعني: وأنت حالٌّ مقيم بهذا البلد، أي: ساكن.

وهذا المعنى هو الأجود والأجمل، وإن كان هناك من اعترض عليه، كالشيخ الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، حيث قال: إنه لا يعرف في لغة العرب أنهم يقولون: فلان حل، بمعنى: مقيم أو ساكن.

والمعروف أن لغة العرب واسعة، والاستعمال معروف عندهم، وإن كان نادرًا؛ كما في «بصائر ذوي التمييز»، وذكره غير واحد، فإنهم يقولون: حل بهذا المقام، يعني: أقام به، فهو حال وحل، وكما يقال: محرم، إذا دخل في الحرم، كذلك يقال: حل إذا دخل في الحل زمانًا أو مكانًا، ومنه حل به: أي أقام به، أو كان ظرفًا له[٢].

فالمعنى المختار: أنك مقيم بهذا البلد، فهذا تشريف وافٍ، يعني: يقسم الله تبارك وتعالى بهذا البلد الذي هو شريف، وزاده شرفًا مقامُك فيه يا محمد! ولاحظ كيف أن الله سبحانه وتعالى كرر كلمة «هذا البلد» مرتين في آيتين، ومع ذلك تجدها من أجمل وأفضل ما يكون، ولا يحس الإنسان بثقل ترديد العبارة، أو تكريرها، بل كلما كررها أحس فيها بروح الجمال والبلاغة والجودة.

* ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣]:

هذا القَسَم الثاني، و«الوالد»: هو آدم عليه السلام وأولاده. وقيل: إبراهيم وذريته.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٢)، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٣)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٦١٠)، و«الدر المصون» (١/ ٥٨١٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٨).

وقيل: كل والد وما ولد[1].

وإن نظرنا إلى مناسبة البيت والبلد قلنا: ربما يكون اختيار إبراهيم عليه السلام أنسب؛ لعلاقة إبراهيم بالبيت العتيق؛ ولأن محمدًا ﷺ من ولد إبراهيم، وهو الذي عمَّر هذا البيت بالإيمان، وجدَّد ملة إبراهيم عليه السلام.

وإن نظرنا إلى السياق العام في السورة قلنا: لا مانع أن يكون المقصود كل والد وما ولد، ويدخل في ذلك آدم وولده، وإبراهيم وذريته، وغيرهم من الناس، فيكون أقسم بالوالد وما ولد.

ولم يقل: (ومَن ولد)، مع أن «مَن» تستخدم للعاقل، وإنما قال: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ إشارة إلى معنًى خاص، وهو نوع من الوصف لما ولد، إما لكثرة مَن ولد، وذلك إشارة إلى كثرة البشرية وامتدادها وتنوعها، أو إشارة إلى الفضل والتعظيم، وكأنه يقول: انظر إلى صفات مَن ولد، كإبراهيم ومحمد ﷺ وغيرهما.

* ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]:

هذا جواب القَسَم، والأقرب أن المقصود كل إنسان، فيشمل المسلم والكافر، والذكر والأنثى.

و﴿فِى﴾ ظرفية، واختلف العلماء في تفسير: «الكبد» على أقوال، أهمها:

١- المشقة والتعب والعناء، وهذا الأقرب والأشهر، حتى إنه يتوارد إلى الذهن من دون مراجعة لكتب التفسير.

٢- في استقامة وانتصاب، خلقه الله قائمًا على قدميه، قوي البنية، كما في قوله

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٥)، و«زاد المسير» (٩/ ١٢٧-١٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦١-٦٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٣٧، ٤٣٨).

تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:٢]، وكما في قوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤][1].

والأول أقوى؛ فقد جعل «الكبد» وعاء للإنسان، وأصل كلمة ﴿ كَبَدٍ ﴾ مأخوذة من الكبد؛ فالإنسان إذا أصابه وجع في كَبِدِه يقال: كَبَد فلان، وإذا واجهه ما يؤلمه، قال: هذا فَتَّ كبدي وفراه.

فالإنسان عادة يعبِّر بما يصيب الكبد عما يواجهه وما يعانيه، ومن هنا أخذ الكبد والمكابدة، فيقال: يكابد الإنسان العمل والتعب والعناء، فهذا المعنى قريب من قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦].

ومع ذلك جعل الله في الحياة معاني أخرى، حتى إن الإنسان الذي لا يفكر قد يتعجب من الجمع بين ما يشبه النقيضين في الحياة، فمع أن في الحياة كبدًا، إلا أن الله تعالى جعل فيها من السرور والرضا والنعيم وقرة العين ما لو أن الإنسان أدام النظر في هذا الجانب وتأمَّله لنسي أنه قد خُلق في كبَدٍ، وظن أن الحياة هي النعيم والسرور وقُرة العين.

ومن عجائب الحياة أن بالكبد تُستلذ المتع والراحة وملذات الدنيا، فالذي يحس الجوع يستلذ الشبع غاية الاستلذاذ، والذي يحِس التعب يستلِذُّ الراحة غاية الاستلذاذ، وربما تطاولت النِّعَمُ بالمرء فأنساه ذلك لذَّتها وذهب بذلك طعمُها الذي وجده أول استطعامِه لها.

زرتُ جارًا لي أصيب بالسرطان في القولون، وعنده تورم في بطنه، وكان يعاني من آلام مبرحة، ويُعطى جرعات من المسكن، ومع ذلك يظل يعاني الألم ويتلوَّى منه، فكان يقول لي: سبحان الله! إذا هدأ الألم عني أشعر بلذة ما أعرِفُها طولَ حياتي

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/٤٠٨-٤١١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٣).

لمجرد إحساسي بالراحة من الألم!

والمرأة تجد كبدًا في الحمل والولادة؛ ولعل هذا من معاني الربط في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣]؛ لأن في الولادة مكابدة، وفي الولد مكابدة، يعني: يُبتلى الأب بولده، ويُبتلى الولد بأبيه؛ ولذلك تجد كثيرًا من الآباء يشتكي من ولده، وكثيرًا من الأبناء يشتكي من أبيه، وتجد الأب يتلذَّذ بولده، من النظر إليه، وشمه، وذكره، والابن مثل ذلك يعتز بأبيه، فالحياة ليست لونًا واحدًا، لكن قدَّر الله سبحانه وتعالى أنها لا تستقيم للإنسان إلا بقدر من المكابدة والتحمُّل.

وهذا معنًى عام حتى في العبادة، كما كان بعض السلف يقول: «كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، وتنعمتُ به عشرين سنة أخرى»[(١)].

وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ في الحديث القدسي: «إنما بعثتُكَ لأبتليَكَ وأبتليَ بك»[(٢)]. فقد ابتُلِي النبيُّ ﷺ بالكفار والمشركين والمنافقين والمؤذين وضعفاء الإيمان، وابتُلي به الناس ليَعْلَم مَن يؤمن ومَن يكفر، وابتُلي به الأعداء أيضًا في النكاية بهم.

وهذا يعطي الإنسان العبرة ويربيه على معايشة الحياة بأسباب:

١- الطمأنينة والرضا والتسليم بقدر الله وقضائه.

٢- الشعور بضرورة استخراج السَّعادة من براثن الشقاء؛ فالإنسان يستطيع أن يسعَدَ، ويهنأَ، لكن يحتاج إلى أن يتدرَّبَ على ذلك وأن يكابِدَ في طريقه.

وفي الحياة ألوان من المتعة، منها: المتعة بالعبادة.. المتعة بالحياة.. المتعة بالمال.. المتعة بالزوجة.. المتعة بالولد.. المتعة باكتشاف المعلومات.. المتعة بالإنجاز، لكن

---

(١) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ٧١)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٠)، (١٠/ ١٠)، و«سير السلف الصالحين» لقوام السنة (ص ٧١٧)، و«تاريخ الإسلام» (٨/ ٥٦)، (١٠/ ٣٤٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٤، ٣٥٥)، و«لطائف المعارف» (ص ٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.

تحتاج هذه المتعة إلى شيء من مكابدة براثِن الشَّقاء[1]، فينبغي أن يتدرب الإنسان على كيفية قطف هذه المتعة.

ومن المهم هنا أن نعتبر بأن القناعة الذاتية عامل مؤثِّر في مسألة استشعار السعادة، فالإنسان الذي يقتنع أنه سعيد، وأنه يجب أن يكون سعيدًا، سيجد السعادة، حتى لو كان في جو شقاء، والإنسان الذي يستشعر الشقاء ويقوله ويكثر من اللوم، ولو كان عنده المال والصحة والفراغ والعافية والشباب والقوة، إلا أنه سوف يشعر بالتعاسة والحسرة.

* ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ [البلد:٥]:

أي: هل يظن الإنسان أنه لن يُبعث ولن يقدِرَ الله عليه؟ فإن الله خلقه، وحين أصبح إنسانًا قائمًا قويًّا نسي مَن خلقه، وصار يدَّعي أنه لن يُبعث؟!

فهذا عتاب للإنسان الجاحد الذي نسي خلقه الأول، وظن أنه تعالى لن يقدر عليه!

* ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ [البلد:٦]:

«اللُّبَد»: هو الكثير، بعضه فوق بعض، وقد وردت الكلمة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن:١٩]، وهي بضم اللام وبكسرها، فهذا الإنسان يتكلم ويدعي ويفتخر ويقول: أنا أهلكت مالًا كثيرًا في الإنفاق والبر والجود والإطعام والعطاء، وعبَّر بكلمة: ﴿ أَهْلَكْتُ ﴾ إشارة إلى أنه مال ضائع هالك.

* ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [البلد:٧]:

بلى، فإن الله سبحانه وتعالى يراه، كما قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾

---

(١) البراثن: المخالب، والمراد: شوكة الشقاء وشدته.

[العلق:١٤]، فيعلم صدق دعواه بالإنفاق من كذبها، ويعلم قصده من الإنفاق، وأنه أراد به الفخر والادعاء، ولذا صار يتبجَّح به في المجالس ويقول: إنه أنفق وأنفق، أو يعبِّر بالإهلاك؛ لأنه لا يرجو ثواب ذلك العمل.

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:٨-١٠]:

هذا المخلوق الذي جعل الله له حرية واختيارًا، فلا هو مثل الشيطان الرجيم، ولا هو مثل المَلَك الكريم، وإنما هو قابل لهذا وهذا، وهذا جزء من كَبَدِه في البحث والمجاهدة، والوصول إلى الحق ولزومه.

والاستفهام هنا استفهام تقرير، يعني: قد جعلنا، ومن معانيه: الإشارة إلى ما يعتقده الإنسان من أنه لن يُبعثَ قط، وكيف لا يبعث والله تعالى زوَّده بالسمع والبصر واللغة، وهداه طريق الخير أو طريق الشر. قال عز وجل: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة:٣٦-٣٩]، فآخر سورة القيامة يوضِّح هذه السورة، فخِلقة الإنسان وجبلَّته تدل على أنه سيبعث، هذا معنى.

المعنى الآخر: أن الله تعالى يمتن عليه بأن خلق له الوسائل التي تعينه على معرفة الحق واتباعه، ومن ذلك العين واللسان والعقل والفهم الذي به يعرف النجدين، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

وفي الآية معنى ثالث: أنه إذا كان الإنسان قد جَعل الله له عينين ينظر بهما، ولسانًا ينطق به، وعقلًا يميِّزه، أفيظن بربه الذي خلقه أنه لا يرى ولا يعلم؟! فالله أولى بالكمال؛ ولهذا كان من قواعد الصفات: أن كل كمال في حق الناس فالله أولى به، وكل نقص فالله تعالى أولى بالتنزه عنه.

و«النجدان»: مثنى نجد، وهو الطريق المرتفع.

والنجد مناسب للكبد، فهو طريق لا يخلو من المشاق، وفيه إشارة إلى أن كلًّا

من طريق الخير والشر لا ينفك عن الصعوبة والكبد، والبعض يظن أن طريق الشر سهل ممتع، وهذا ليس دقيقًا، صحيح أن فيه لذّات وشهوات ومغريات، لكن فيه صعوبات، حتى الشهوة والمعصية التي يريدها الإنسان أحيانًا يتعب ولا يظفر بها، فترى العاصي قد اتصل بعشرات الفتيات، وعاكس وواعد واجتهد، ولم يحصل على ما يحب ويتخيل ويحلم! وبعد حصوله يجد الأمر محفوفًا بكثير من المزعجات والمنغِّصات المادية والمعنوية والمخاوف الصحية والاجتماعية والآلام النفسية واحتقار المتعة بعد الحصول عليها، وقد يشعر أنه تورط، ويتمنى الخلاص، ثم يتملك قلبه الهمُّ والغمُّ والقلق، والذكريات المؤلمة والتأنيب، فهذا كله عناء وكبد ومشقة، لكن كبد الطاعة ومشقتها محفوف بلطف الله، وكل عمل يعمله الإنسان فله ثمن، لكن ثمن الطاعة قبلها من الجهد والمكابدة ثم يعقبها الرضا والرَّوح والسرور، وثمن المعصية بعدها من الهم والغم وتأنيب الضمير والمعاناة النفسية والحسية.

* ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]:

أي: لم يقتحم العقبة، ولاحظ تناسق السورة هنا؛ لأن الاقتحام أمر صعب وفيه مخاطرة ويتطلَّب قوةَ قلبٍ وصبر، وهو مناسب للكبد، ومناسب للنجدين.

و«العقبة» هي: الطريق بين جبلين؛ طريق مرتفع ضيق، والعقبة معروفة، تقول: أريد أن أُنجِزَ هذا العمل لكن أمامي عقبات -يعني: صعوبات- فيتطلب الأمر إقدامًا وصبرًا؛ ولذلك قال الحسن البصري وغيره في تفسير الآية: إنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس[1].

وفي الآية إشارة إلى أن أغلب الناس لا يَقْتَحِمون العقبة، فهم يؤثِرون الرخاوة

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٧)، و«تفسير النسفي» (٤/ ٢٧٥)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٤٣)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٩٤).

وعدم الاقتحام؛ ولذلك يفشلون في الاختبار، والمطلوب منهم خلاف هذا.

* ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ [البلد:١٢]:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللهُ: كلُّ شيء قال الله تعالى فيه في القرآن: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد بيَّنه لنبيه محمد ﷺ، وكل شيء في القرآن قال الله فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لم يبيِّنه له(١)، وهذا تفريق لطيف ينبغي مراعاته في سائر المواضع.

* فقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ سؤالُ تفخيم وتهويل، أي: ما هي؟! وقوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد:١٣]: تعريف للعقبة واقتحامها.

و«الرقبة» معروفة، فهي: تُطلق على العبد الرقيق، وكان الإسلام حتى وهو في الفترة المكية يتشوَّف إلى عتق الأرِقَّاء وتحريرِهم، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه في أصل خِلقتهم، فإن الله خلقهم أحرارًا ولم ينزل مع آدم عبد من السماء، بل كلُّهم بنوه، وإنما طرأ الرِّقُّ عليهم، وهذا دليل على أن الإسلام لا يتشوف إلى استرقاق الناس، بل إلى الإعتاق، وجعل الله تعالى العتق في كثير من الكفَّارات، وجاء من النصوص في فضل عتق الرقيق الشيءُ الكثيرُ، حتى قال بعض أهل العلم: إن أفضل أنواع الصدقة أن يعتق الإنسان رقبةَ رقيق.

* ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ [البلد:١٤]:

«المسغبة»: هي الجوع الشديد؛ لأن المقام مقام اقتحام، ومقام عقبة، ومقام كبد؛ ناسب أن يذكر الإنفاق في أشد حالاته، وأشقِّها على النفس، وهو في اليوم الشديد المسغبة وهي المجاعة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان:٨].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٧)، (٢٠/ ٦٨)، و«اللباب» لابن عادل (١٩/ ٣١٣)، (٢٠/ ٣٤٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٢٦٦، ٣٩٤).

* ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٥]:

يعني: إطعام الطعام ليتيم، و﴿يَتِيمًا﴾ هنا مفعول به منصوب معمول المصدر ﴿إِطْعَامٌ﴾.

و«اليتيم» هو الصغير الذي فقد أباه قبل بلوغه، وقد يستمر اليتم بعد البلوغ بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية(١).

و«المقربة»: القرابة، والأقربون أولى بالمعروف.

* ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٦]:

أي: إطعام مسكين محتاج لا شيء عنده، فهو ذو مَتْربة، لازق بالأرض من شِدَّة المسكنة، ولهذا إذا صار الإنسان فقيرًا قيل: يداه في التراب، والعرب كانت إذا دعت على إنسان قالت: تربت يداك، أو تربت يمينك، وهذا دعاء عليه، وأحيانًا لا يقصد حقيقته، وإنما هو دعاء جارٍ على الألسنة(٢).

فالأمر الأول -الذي ذكره الله تعالى في اقتحام العقبة- هو ما يتعلق بالتحرر من سطوة المال والتعلُّق به، وإنفاقه في سبيل الله، بخلاف أولئك الذين لا ينفقون، ويقول أحدهم: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد:٦]، أو ينفقون القليل، ويدعون أنهم ينفقون الكثير.

لم يعتمد الإسلام على جانب واحد في حماية حقوق الفقراء والمساكين والأرِقَّاءِ، بل وضع نظامًا تكامليًّا من أربعة محاور:

١- الوعظ والترغيب الأخلاقي بكافة أشكاله، والوعد الدنيوي بالعوض

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر» عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧﴾.

(٢) ينظر: «الاستذكار» (١/ ٢٩٥)، و«التمهيد» (٨/ ٣٤٠)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» للحميدي (ص ٣٢١)، و«شرح السنة» للبغوي (٧/ ٢٣٥).

والخلف، والأخروي بالمثوبة والأجر والرضوان؛ مما يحفز المؤمنين إلى البذل وإيثار ما عند الله، والتغلب على شح النفس.

٢- تشريع الأحكام الملزمة لكل المؤمنين بأنواع الكفارات والزكاة والنذور وسواها، مما يترتب عليه الإلزام الشرعي بإخراج المال للفقير والمسكين.

٣- الإلزام العام للمجتمع بكفالة فقرائه ومحاويجه وأيتامه، وهذا إيجاب للإنفاق على الموسرين بما يحقِّق ذلك، ودعوة إلى بناء المؤسسات والفرق الطوعية التي تحقق ذلك، فلا تترك حقوق الناس لمجرد التقوى أو الإيمان؛ لأنه يوجد من الناس من لا إيمان عنده ولا تقوى، فيفترض أن توجد جهات ومؤسسات ولجان وجمعيات وأجهزة تَحفَظُ حقوقَ الأطفال والنساء والأيتام والفقراء والغرباء وعامة الناس، وفي العالم الغربي أصبحت هذه صناعة وثقافة وأعرافًا سارية، وقوانين محكمة، ولها أصول وقواعد وتنافس، أما في العالَم الإسلامي، فإهدار وإطاحة بالحقوق على مستوى الحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة، والأستاذ والطالب، والداعي والمدعو، والعالِم والمتعلِّم، حتى أصبحت بلاد العالَم الإسلامي في وضع لا تُحسد عليه، ولا يتشجع الناس للدخول في هذا الدين الذي لم يجدوا النموذج الحسن في أهله وأتباعه.

٤- حث المساكين والفقراء والأيتام على العمل والكدح والسعي؛ للاستغناء عن الناس، ولذلك جاءت قصة صاحب الفأس الذي علَّمه النبي ﷺ جمع الحطب وأشرف عليه حتى حقَّق النجاح[1]، وجاءت أحاديث الوعيد في المسألة من غير

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٢١٣٤)، و«سنن أبي داود» (١٦٤١)، و«جامع الترمذي» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢١٩٨)، و«سنن النسائي» (٧/ ٢٥٩)، و«الحث على التجارة» للخلال (١١٧)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٢٥)، و«الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣٥)، (٢/ ٣٣٣)، و«نصب الراية» (٤/ ٢٢).

حاجة، خاصة من القوي القادر ، كما في قول النبي: «لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»(١).

* ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ [البلد:١٧]:

كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ في الأصل للعطف والترتيب، فهل الإيمان يأتي بعد الإطعام أو قبله؟

الجواب: قبل الإطعام. وقد أخَّر الله تعالى الإيمان هنا لأسباب:

١- الإشارة إلى علو الرتبة، ولا شك أن رتبة الإيمان والتواصي بالصبر والمرحمة والإيمان أعلى رتبة وأقدم مما قبلها، بل ما قبلها فرع عنها.

٢- إن صاحب الفطرة السليمة الكريمة الباذل المعطاء قد يمن عليه بالإيمان والعمل الصالح، كما في قصة حَكِيم بن حِزام رضي الله عنه لما قال: أي رسول الله، أرأيتَ أمورًا كنتُ أتحنثُ بها في الجاهلية من صدقة أو عَتاقة أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير»(٢).

أي: لمَّا آمنتَ كُتبت لك أعمالك الصالحة.

فمن معاني قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾: أن أناسًا قبل الإسلام كان عندهم أخلاق طيبة، ولم يكن عندهم إيمان، ثم لما جاء النبي ﷺ أصبحوا من: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾، فكُتبت لهم أجورهم، وربما كان إيمانهم بسبب ما أسلفوا وسبق لهم من الخير؛ ولهذا نقول:

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٢٧١)، وأحمد (٦٥٣٠، ٨٩٠٨)، وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وابن خزيمة (٢٣٨٧)، وابن حبان (٣٢٩٠)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٧/ ١٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رضي الله عنهم، وينظر: «إرواء الغليل» (٨٧٧).

والمقصود بقوله: «ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»: القوي على الكسب والعمل.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).

إن الإنسان إذا أسلم وحسن إسلامه فإنه يكتب له ما كان يعمله قبل الإسلام من الأعمال الصالحة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ متناسب مع قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، والكبد يهوِّنه على الإنسان الصبرُ؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[(١)].

فبالصبر تطيب الحياة، ويتحول الكبد إلى لذة، والمكابدة والمعاناة للصيام أو الصلاة أو طلب العلم أو بر الوالدين أو الأعمال الصالحة، تتحول إلى لذة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ وهذه متناسبة مع سياق السورة؛ لأن هناك من الفقراء والجياع مَن يكابدون شَظَف العيش، ويحتاجون إلى مَن يُشفق عليهم؛ وهناك مَن يدَّعي أنه بذل وأنفق وأهلك مالًا لبدًا، وهناك مَن ينفقون المال في فك الرقاب، والإطعام في المساغب، بل ومَن لا يكتفون بمجرد العطاء والبذل، حتى يُوصُّوا به غيرهم، وهنا نجد طريقين، فمَن يهلك المال لبدًا وهو يحسب أن لم يره أحد، ومَن ينفق المال في فك رقبة، وإطعام في مسغبة، وتواصٍ بالمرحمة.

* ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٨]:

أي: أصحاب اليمين الذين تجري أمورهم على اليسر والتوفيق، وهذا من معاني اليمين واليُمن، فهم يُعطون كتبهم باليمين، وهم أصحاب الجنة.

* ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد:١٩]:

جعل الله تعالى الكفر هنا عنوانًا لكل شر، كما قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فالكافر هو الذي يجحد البعث والنشور، وهو الذي يبخل بالمال، وهو الذي يكفر نعمة الله عليه، وهو الذي لا يصبر إذا أصابته مصيبة، وهو الذي لا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) -معلقًا- في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

يرحم اليتيم والمسكين، قريبًا كان أو بعيدًا.

و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ من الشؤم، والمقصود بها: الشمال، يعني: هم ممن يُؤتى كتابه بشماله، وهم أصحاب الشمال[1].

وقد جرت أعراف الناس ولغاتهم وعاداتهم على أن اليمين مما يتفاءل به، وأن الشمال مما يتشاءم به، حتى اليَمَن سُمِّيت يمنًا تفاؤلًا، والشَّام سُمِّيت شامًا عندهم تشاؤمًا، فجاء الإسلام لينفي هذا المعنى، فقال ﷺ: «اللهمَّ بارك لنا في شامنا»[2]؛ ليبيِّن أن هذا الأمر لا يُعبأ به.

فـ«المشأمة» تعني: الشؤم على أنفسهم، بأعمالهم الفاسدة.

* ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ٢٠]:

ختم السورة بالإطباق والإغلاق عليهم، وقُضي الأمر، و«الوصيد» هو: الباب[3]، لا تُفتح لهم أبدًا، وفي ذلك إشارة إلى أن الذين كفروا لا يخرجون من النار، بخلاف عصاة الموحدين، فإن الله يعذِّب مَن أراد عذابه، ثم يخرجون منها برحمة الله، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٨)، (٢٠/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: «العين» للخليل (٧/ ١٤٥)، و«الجيم» لأبي عمرو الشيباني (٣/ ٣١٣).

فهرس المحتويات

○ ○ ○

سلمان العودة

إشراقات قرآنية



جزء عم (٢)

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية



salman_alodah

آيات "جزء عم" على وجازة ألفاظها وقصرها، بديعة المعاني، رائقة الألفاظ، حاوية من دقائق الإعجاز ما يبهر العقول، ويأخذ بالألباب.

وإنني لأشعر بانشراح وأنس عند الوقوف على هذه الآيات وتدبر معانيها، وتكرار النظر فيها، وأجد لذلك لذة ليست لغيرها.

إن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضايا هذه السور هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

ولذا رأيت البداءة في تلقي إشراقات القرآن بـ"جزء عم".

الإسلام اليوم

للنشر والإنتاج

المملكة العربية السعودية

الرياض ص.ب. 28577 الرمز : 11447

هاتف : 012081920 فاكس : 012081902

www.islamtoday.net

3 369856 12

إشراقات قرآنية

« جزء عم »

(٣)

إشراقات قرآنية

« جزء عم »

سلمـان العـودة

ⓒ مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العودة، سلمان بن فهد
إشراقات قرآنية. / سلمان بن فهد العودة، الرياض ، ١٤٣٣ هـ
٤٤٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - جزء عم - تفسير
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ٨٢٤٨ / ١٤٣٣
رقم الإيداع: ٨٢٤٨ / ١٤٣٣
ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم
الطبعة الثانية - ذو الحجة ١٤٣٣هـ
الرياض:
هاتف : ٠١٢٠٨١٩٢٠
فاكس : ٠١٢٠٨١٩٠٢
بريدة:
هاتف : ٠٦٣٨٢٦٤٦٦
فاكس : ٠٦٣٨٣٠٠٥٣
جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤
ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز : ١١٤٤٧
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah
/SalmanAlodah
salman@islamtoday.net
www.islamtoday.net/salman
www.youtube.com/drsalmantv

إشراقات قرآنية

«جزء عم»

سلمان بن فهد العودة

الجزء الثاني

من «سورة الشمس» إلى «سورة الناس»

الإسلام اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الشَّمْسِ

سورة الشمس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا (١) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (٢) وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا (٣) وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا
(٤) وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا (٥) وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا (٦) وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧) فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقۡوَىٰهَا (٨) قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (١٠) كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ
(١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا (١٥) ﴾

[الشمس: ١-١٥].

* تسمية السورة:

١- اسمها: «سورة الشمس»، أو «سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾»، كما في معظم كتب التفسير والحديث[1].

٢- وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾»[2]، بالآية الأولى منها، وهكذا هي في بعض كتب التفسير، وهذا جيد للتفريق بينها وبين السور الأخرى في جزء (عم) المبدوءة بالشمس، مثل قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ ونحوها.

* عدد آياتها: (١٥) آية، أو (١٦) بحسب اختلاف المصاحف[3].

* وهي مكية بإجماع المفسرين[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٠٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢١٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣١)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٩)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

وفي هذه السورة خَصِيصة ليست لغيرها، وهي: افتتاحها بأحد عشر قَسَمًا متتالية، وأنت إذا تأملت القرآن، وجدت جمهور معانيه ودلالاته التي يحتاج إليها في تقرير الإيمان ورسم مسيرة الإنسان في الدنيا والآخرة، مما يسهل فهمه على الشاب في مقتبل عمره، والأعرابي في الصحراء، وغير المتخصِّص، والعامي في متجره أو دكانه، دون حاجة إلى مراجعة كتب التفسير؛ لأنه خطاب لهم، وهم متعبدون بتلاوته والإيمان به.

وفي الوقت نفسه تجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إلا الخواص، لأنه من العلم الذي يخاطب به الخاصة دون غيرهم، أيًّا كان اختصاصهم.

وفي القرآن الكريم أنواع عظيمة من الإعجاز المبهر، على أنه لم يحشد من المعاني التي لم يكن الناس يعرفونها بها يكون ابتلاءً لهم، وقد يكون سببًا في كفرهم، فلو قال الله لهم: إن حجم الشمس كذا؛ وبعدها عن الأرض كذا، مما لم يكن العلم قد وصل إليه ولا ألمَّ به، لكان في ذلك محنة لهم.

ولو قال الله لهم: سوف تأتي طائرات في الفضاء، وسيارات، وأجهزة اتصال، وأجهزة بث فضائي وكمبيوترات دقيقة ومتطورة؛ قبل مشاهدتهم لها؛ لربما كان ذلك سببًا في كفرهم؛ لأنهم يستبعدونها بالحس، ولا يعرفون كيف ستقع؛ ولهذا جعل الله تعالى الإشارة إلى مثل هذه المعاني في القرآن إشارات عامة، يؤمن بها كل أحد دون الدخول في التفاصيل، فأشار إلى النجوم، ومواقعها وعظمتها، لكن التفاصيل تُترك لأهل الاختصاص الذين يطلعهم الله في كل وقت على ما لم يكن معروفًا عند أهل العلم من قبلهم.

وقد منح الله الناس العقول وسلَّطهم على الكون باكتشافه وتسخيره، ولم تأت الكتب السماوية لتلقِّن الناس تفصيلات تلك العلوم، بل لتحفز عقولهم ومداركهم على البحث عنها واستقصائها وتجريبها.

* استفتح الله السورة بالقَسَم بـ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس:١]:

وهذا المعنى يشير إلى ضخامة الشمس، وأهميتها في الحياة؛ ولذلك أقسم الله تعالى بها أولًا، وأقسم بضحاها ثانيًا، فهما قَسَمان.

أقسم بالشمس، سواءً أكانت طالعة أم غائبة، مرئية أم غير مرئية؛ لأنها جِرْم هائل، وهي كتلة من اللَّهب جعل الله من شأنها أن تَفِيض على هذا الوجود طاقةً عجيبة.

إن الله خالق الشمس والكون، قد جعل لكل شيء سببًا، فجعل الشمس في هذا الوجود مصدر حياة النباتات والحيوانات والإنسان وغيره، ولها من ضخامة الحجم ما ينكره بعض الناس ويستغربونه ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ [يونس:٣٩].

وهذا ليس من الكلام الذي يجب على الناس الإيمان به، ولم يُمتَحنوا به، لكنَّ أهل الاختصاص وأهل الذكر في هذا الجانب بنوا ذلك على حقائق ومعلومات واستنتاجات علمية صحيحة.

والشمس كتلة من اللهب بحجم كتلة الأرض مليون وثلاثمائة ألف مرة، ويا للحكمة والقدرة الربانية أن تبقى هذه الكتلة معلقة في الفضاء، ثم يجعل الله سبحانه وتعالى بينها وبين الأرض بعدًا كبيرًا، بحيث لا تصل أشعتها إلى الأرض إلا وقد بردت، وأمكن أن يستفاد منها، ولذلك يذكر العلماء أن متوسط حجم المسافة بين الشمس والأرض مائة وخمسون مليون كيلو مترًا.

والشمس ليست إلا كوكبًا من الكواكب التي نثرها سبحانه وتعالى في السماوات، إلى جوار مجرات وأفلاك وعوالم، لو أن الإنسان قرأ وتأمل فيها لاستشعر معنى جدية الخلق، وجدية الكون، وجدية الإيمان، لكن كثيرًا من الناس لا يمنحون عقولهم وقلوبهم الإيمان والانتفاع والاعتبار.

كذلك ما يتعلق بحرارة الشمس، يقول العلماء: إن حرارة الشمس تتفاوت كثيرًا ما بين حرارتها عند سطحها وما بين حرارتها في مركزها، فيقولون: إن حرارتها عند السطح تصل إلى خمسة آلاف وخمسمائة درجة مِئوية، لكن حرارتها عند المركز تصل إلى عشرة ملايين درجة مئوية، وانظر الفارق الهائل!

والإنسان الساذج يرى هذه الشمس التي هي عنده عبارة عن قرص مدوَّر، فلا يفرق بينها وهي تمشي من بعيد في هذا الأفق، وبين المصابيح الكاشفة التي يراها في بعض المدن!!

فالله سبحانه وتعالى هنا يكشف ويزيل عن الإنسان الغفلة والعادة والإِلف حينما يطرق سمعك بالقَسَم بالشمس، والقَسَم بضحاها.

والضحى عبارة عن شيئين:

١- نور الشمس الذي يضيء هذه الأكوان، فتشرق بعد ظلام.

٢- الحرارة، والضحى مكون من الحرارة ومن النور، وكما يقول العلماء: لا يصل إلى الأرض من حرارة الشمس إلا اثنين من بليون، فاثنان من بليون من حرارة الشمس التي تصل إلى الأرض وينتفع الناس بها، أما البقية فهي تضيع في هذا الفضاء الهائل الذي خلقه الله وأبدعه، ومع هذا القدر اليسير، انظر كم فيه من البركة والخير والنماء والحياة!!

وكم فيه من الحرارة التي تُصهر وتُذيب حين يكون الإنسان في وهج الظهيرة وفي قلب الصحراء وليس ثَمَّ ما يُكِنُّه من الهجير.

فهذا القَسَم من شأنه لفْتُ نظر الإنسان إلى بديع مخلوقات الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ يستَدِلُّ بالمخلوق على الخالق.

* ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس:٢]:

القمر بالنسبة للأرض مولود صغير؛ فهو أقل من جزء من خمسين جزءًا من حجم الأرض، وهو ذرة صغيرة بالنسبة للشمس.

والقمر عبارة عن تابع من توابع الأرض، وكذلك هو تالٍ للشمس، فهو يدور حول الأرض، وفي الكون أقمار هائلة، لكن الله سبحانه وتعالى خص ذكر القمر لنفعه في الأرض التي خلق الله عليها البشر لينتفعوا بها، وإذا كانت الشمس هي آية النهار، فالقمر هو آية الليل، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

ومعنى محو القمر أنه ليس فيه ضوء بذاته، وإنما نوره انعكاس الشمس عليه.

فهذا من معاني قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس:٢]، كما ذكره المفسرون، كالفراء وغيره، فإنهم قالوا: أي: تبعها، فالقمر ضوؤه من ضوء الشمس، ونوره من نورها[١].

والمشهور عند أكثر المفسرين -ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره- أن المعنى: أن القمر يجيء بعد الشمس[٢]. وذلك أنه إذا أظلمت الدنيا وذهبت الشمس حل القمر محلها، وبخاصة في أول الشهر وفي أيام البِيض حينما يكون القمر بدرًا، فكأنه يخلف الشمس في إنارة الأرض وإشراقها.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢١٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٣٦).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢١٢)، و«فضائل القرآن» لأبي عبيد (١٢٨)، و«الزهد» لأبي داود (٤٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠٣)، (٨/ ٤١٠)، و«الدر المنثور» (١/ ٥٧٦)، (١٥/ ٤٥٥).

ولهذا كان القَسَم بالشمس أقوى؛ لأنه أقسم بجِرمها، ثم بضحاها، أما بالنسبة للقمر فأقسم بالقمر وحده، وذكر حالة خاصة له، وهي: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: الشمس، وفي ذكر القمر أشار إلى نسبته إلى الشمس!

* ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس:٣]:

النهار يتناسب مع الشمس؛ لأنه أثر من ضوئها وضيائها، وقوله: ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: كشفها وأظهرها. ويحتمل أن يكون مرجع الضمير إلى الشمس، يعني: أنها تتجلَّى وتُرى في النهار.

ويحتمل أن معنى: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ أي: جلَّى البسيطة، أي: الأرض[1]، وإن لم يكن في السياق، ولكن هذا معروف، وهو أسلوب من أساليب القرآن البديعة، وكثير من أهل البلاغة يُعَتِّمون عباراتهم وألفاظهم بالضمائر وغيرها، لكن في القرآن تجدها في الأشياء الواضحة التي يفهمها كل أحد، ولا يحتاج الأمر فيها إلى عود الضمير على مذكور، لأن كل سامع يدري أن النهار هو الذي يكشف ويجلِّي ويوضِّح الأرض.

* ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس:٤]: أي: يغطي الأرض فتظلم.

أقسم تعالى بـ «الشمس» وبـ «النهار»، وأقسم بـ «القمر» وبـ «الليل»، وكل ذلك فيه الإشارة إلى النور؛ فالشمس نور، وضحاها نور، والقمر نور، والنهار نور، وحتى الليل، وإن كان ظلامًا يَغْشَى إلا أن الله جعل فيه نورًا، كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح:١٦]، وفي ذلك إشارة إلى غلبة النور وكثرته وأصالته وعمقه، ومن هذا المعنى أخذ بعض المفسرين أن هذه الآية فيها إيماء وإشارة إلى قوة الدين وغلبته وظهوره وعزته.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١٠)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٥٦).

* ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ [الشمس:٥-٦]:

استكمل الله بهاتين الآيتين كل ما حول الإنسان، بحيث إذا نظرت يمينًا أو شمالًا أو إلى فوق أو تحت أو أمام أو وراء؛ فلا مخرج لك من هذه الأقسام التي أقسم الله بها.

وهنا إشارة إلى بناء السماء، فقوله: ﴿ وَمَا ﴾، يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، يعني: والذي بناها، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا موجود في القرآن مثل قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء:٢٢]، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: والسماء وبنائها، وفي هذا إشارة إلى صفة بناء السماء، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧].

وحينما يتأمل الإنسان في ملكوت السماوات والأرض مما يقرأ أو يشاهد في المواقع المتخصِّصة أو البرامج العلمية والأفلام، يجد أمرًا عجبًا، فمن أسباب قوة الإيمان رؤية السماء والنجوم والمجرَّات والكواكب الهائلة المذهلة، وكذا رؤية البحر والأرض، وما خلق الله.

هنا تظهر قوة البناء وإحكامه وإبداعه؛ بحيث يجد المتأمِّل في ذلك ما يعزِّز إيمانه ويقوِّيه.

ويدخل في بناء السماء المجرات والأفلاك والنجوم؛ لأنها كلها في السماء؛ فالكثيرون يفهمون من كلمة «السماء» أنها فقط السماء التي فيها الملائكة، في حين أن الصحيح في الشرع واللغة: أن كل ما علا وارتفع فهو سماء، فيدخل في ذلك الأفلاك والمجرات والكواكب والنجوم والسماوات السبع التي ذكرها الله[1].

﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾: لما ذكر السماء أعقبها بذكر الأرض التي جعلها مهادًا

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (س م و) (١٤/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠٩).

وبساطًا، وقرَّبها للناس وسهَّلها لهم، و«الطحو» جاء في موضع آخر بلفظ «الدحو»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، والدال والطاء متقاربان في المخرج، وله عدة معانٍ:

منها: كون الأرض كرة كما هو معروف، وهذا أمر بدهي، وقد ذكره المتقدمون من أهل الإسلام وغيرهم، وممن ذكر هذا ابن تيمية، ونقله عن أبي الحسين ابن المنادي من الحنابلة، ونقل إجماع العلماء عليه[1]، ولكن تجد في بعض البيئات الإسلامية التي يغلب عليها الجهل والاعتماد على الثقافة المحلية التشكيك في هذا.

وهذه ليست من الأمور التي يُمتَحن الناس بها بإيمانهم في الدار الآخرة، لكن يُمتَحنون بها في الدنيا؛ لأن الإنسان إذا لم يعرف أن الأرض كروية ويستفيد من القوانين العلمية، فالتخلف العلمي يفرز نقصًا وقصورًا، ويبعد أهله عن حسن التوظيف، والانتفاع بما جعل الله تعالى في هذا الكون من النواميس والأسرار.

ومن معاني: ﴿طَحَىٰهَا﴾ أي: بسطها، فمع أن الأرض كروية، إلا أنها مبسوطة للناس؛ يمشون عليها، ويستفيدون منها، وينتفعون بها.

وإذا أراد الإنسان أن يبني عليها أو يزرع أو أن يقيم بناءً، يجد في الأرض إمكانيات هائلة لكل ما يحتاج.

ومن معاني الطَّحو: أن جعل في باطنها من الخيرات والمعادن والبركات الشيء الكثير، والله سبحانه وتعالى قال في موضع آخر: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠] فمن معاني «الطحو»: أن جعل في الأرض أقواتها وخيراتها.

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ١٩٥)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٨٨).

* ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧]:

هذه خلاصة القَسَم، ومدار الأمر وواسطة عقد النظام في الأقسام، أقسم الله بالنفس، وكأن هذه المخلوقات كلها خُلِقتْ وذُلِّلَتْ من أجل الإنسان، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

وهذا يثمر عند الإنسان حالة من الإيمان والاعتبار، ولا يمكن أن يحصل عليها بسهولة إلا إذا أعمل فكره وتأمَّل.

والصحيح: أن القسم ليس بنفس خاصة، كنفس الرسول ﷺ، أو نفس شخص بعينه، وإنما اللفظ عام، وهذا كما في قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار:١٩].

فأقسم بالنفس الإنسانية التي سوَّاها سبحانه، والنفس تطلق على الروح، وتطلق على الإنسان من حيث هو بدن وروح، والمدار هنا على الإنسان بعدما اكتمل، وإن كان في ذلك إشارة إلى النفس وشرفها؛ لأنه لما أقسم بالنفس لم يقسم بالجسد المجرد، وإنما أقسم بالنفس التي يصير بها هذا التمثال الجامد كائنًا حيًّا مكلَّفًا مُكَرَّمًا عزيزًا، ويتلقى الإلهام، ومنهم الأنبياء والرسل، ومنهم مَن يدخل الجنة ويتشرَّف بجوار الله عز وجل، ومنهم مَن يكون له من المقامات في العلم والعمل القدر الكبير.

فالقَسَم هنا بالنفس، وإن كان قَسَمًا بالإنسان من حيث هو جسد وروح، إلا أن فيه إشارة إلى شرف النفس، وما أحسن ما قيل:

يا خادمَ الجِسمِ! كَمْ تَشْقَى لِخِدْمَتِهِ! ... أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِيمَا فيه خُسْـرانُ

أَقْبِل علَى النَّفْسِ فاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَها ... فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ(١)

وقد خلق تعالى جسم الإنسان جميلًا، إلا أن النفس أجمل؛ فبها ترقَّى الإنسان

---

(١) ينظر: «الكشكول» (١/ ٢٤٠).

عن رتبة الحيوان.

فإقبال الإنسان على نفسه بتزكيتها بالإيمان وبالعبادة وبالعلم، هذا هو الذي يصبح به الإنسان أشرف وأكرم، في حين أن غالب الناس يعتنون بأجسادهم وصحتها ما لا يعتنون بأرواحهم وهذا من تقديم المفضول على الفاضل.

* ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس:٨]:

كلمة «الإلهام» ليست كثيرة الاستعمال في اللغة العربية، ومن العرب مَن لا يعرف معنى الإلهام، إلا «اللَّهْم»، فإذا صار عند الإنسان شيء يَلْهَمُه دفعة واحدة، أي: يضعه في فمه ويبتلعه، كما قال رُؤْبة:

كالحوتِ لا يُرْوِيه شيءٌ يلهَمُهْ يصبحُ ظمآنَ وفي البحر فمُهْ[1]

فهو تعبير عن الرغبة الشديدة فيه.

الإلهام معنًى نفسي عزيز راقٍ، وهو العلم الضروري عند الإنسان الذي لا يحتاج إلى استدلال، أي: أن الله تعالى يوصل إلى الإنسان معلومات وحقائق دون مقدمات؛ لأن كثيرًا من العلوم تحتاج إلى مقدمات وأدلة، بخلاف الإلهام.

وهنا ذكر الإلهام للتقوى والفجور، فيحمل على معنى المشاكلة والاتباع، أو يكون المعنى أنه يسَّرها لذلك، ويسَّره لها، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، والله أعلم.

وفي التقوى خاصة يلهم بعض المؤمنين من اللطائف والأسرار والمعاني ما يأتي دون بحث أو تنقيب، ويكون حلًّا لمشكل، أو بيانًا لغامض، أو كلامًا عذبًا يهز الوجدان، أو توقعًا لمستقبل لا تقوم عليه أدلة.

وأصول الأشياء تُعرف بالإلهام والفطرة، كأصل الإيمان بالله؛ فإنه فطرة، يعرفها الخاص والعام، لكن جاءت الرسالات بأسماء الله وبصفاته، وأصول الأخلاق تعرف

---

(١) ينظر: «ديوان رؤبة بن العجاج» (ص١٥٩).

بالفطرة، وكل الناس يدرون أن الكذب مذموم، وأن الصدق فضيلة، وأن الظلم شؤم، وأن العدل محمدة.

والله سبحانه خلق لنا السمع والأبصار والأفئدة، والسماوات والأرض، وما فيهما من الشمس والقمر والنهار والليل، ثم سلَّط قدراتِنا ومَلَكاتِنا وجوارحَنا وأعضاءنا عليها، فنرى ونسمع ونفكِّر ونحلِّل، حتى يصل الإنسان إلى الحق؛ فهذا من الإلهام؛ ولذلك كان مناسبًا أن يذكر الله تعالى هذه الآية بعد أقسام شملت كل ما خلقه الله تعالى مما يراه الإنسان أو يحسه.

والسمع والأبصار والأفئدة منافذ لرؤية الأشياء المحسوسة من حولنا، واكتشاف الإيمان والوصول إليه، فتجد أن الحجة قامت على الخلق حقيقة من وجوه:

١- الخلق المحسوس الذي نراه ونسمعه ونلمسه ونشاهده.

٢- القوى البشرية من السمع والبصر والفؤاد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

٣- الإلهام، بمعنى: المَلَكة والمقدرة العقلية والنفسية على الاستفادة من هذه الأشياء، وأن تتحول إلى فَهمٍ وإدراك وإيمان ومشاعر؛ ولذلك لا أحد يستطيع أن يعرِّفَ الحبَّ والبغض، والفرح والحزن، والرضا والسخط، والسرور والهم والغم؛ لأن هذه المعاني والواردات النفسية عبارة عن عالم هائل يصعب حصره، لكن كلُّنا يحس به.

فقد جعل الله به كمال الحجة على الإنسان؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾، وهذا المعنى يشبه قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [البلد:١٠]، وقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، يعني: أن الله تعالى ألْهم الإنسان معرفة الفجور ومعرفة التقوى، وبيَّن له الخير والشر، والهدى والضلال، ثم أقدره على أن يسلك أي النجدين وأي السبيلين؛ لأنه لو جعله بالاضطرار تقيًّا مؤمنًا لم يكن ثَمَّ

مجال للتفوق والامتحان.

* ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ﴾ [الشمس:٩]:

«الفلاح»: نيل المطلوب من خير الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ زَكَّنٰهَا ﴾ أقرب وأفضل ما نقول في تفسيرها: نمّاها؛ ولهذا سُمِّيت الزكاة؛ لأنها تُنَمِّي المال، والمعنى: أن يكون الإنسان طيبًا، وأن يكون طاهرًا[1].

أصل المعنى اللغوي في ﴿ زَكَّنٰهَا ﴾ هو: نمّاها، فهل النفس تكبر؟

الجواب: النفس لا تكبر كبرًا حسيًّا، وإذا شعر بالكبر سُمِّي متكبرًا؛ لأنه كبَّر نفسه، والواقع أنها صغيرة، لكن بالزكاة تكبر النفس كبرًا معنويًّا، في حين أن صاحبها يراها صغيرة، وليس عن تكبر، ولكن عن نمو صحيح وطهارة وزكاة، ولذا قال عُتبة ابن غَزْوان ﷺ: «وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيرًا»[2].

فالنفس واحدة، لكنها تكبر بالإيمان، كما تكبر بالعلم، فالإنسان الذي عنده عشرة آلاف معلومة أحسن من الذي عنده ألف معلومة، وأوسع نطاقًا منه الذي عنده مليار معلومة، مع أنهم يقولون: إن الإنسان لا يستفيد من عقله إلا بأقل من عشرة في المائة في كل الأعمال التي يجريها، هذا في مجال العلم فقط، وهكذا مجال تزكية النفس وطهارتها.

* ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:١٠]:

«الدَّس» هو الإخفاء[3]. وهو في مقابل ﴿ زَكَّنٰهَا ﴾؛ يعني: ضيقها وضيعها

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ١٨٤)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٧٦٥)، و«اللسان» (١٤/ ٣٥٨)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٥٤)، و«تاج العروس» (١/ ٨٤١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧١).

وصغَّرها وقلَّلها، ودائمًا تجد الخير واضحًا، والشرَّ في الغالب يقصد فيه الاستخفاء والإخفاء.

* ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ [الشمس:١١]:

ولا أعلم سبب تخصيص ذكر قصة ثمود في هذه السورة، إلا أن يكون هذا لأن قصتهم معروفة عند العرب، وديارهم ليست بعيدة عن ديارهم، فكان من المناسب أن يذكِّرهم الله تعالى بما يعرفون، وأن يذكر لهم مثلًا مما سبق في تاريخهم، وكثير من الناس إذا ذكرت له مثالًا من تاريخه الذي يعرفه تأثر به أكثر من تأثره بما لا يعرف؛ ولذلك تجد الفلَّاح إذا عرضت له قصة النبات، وكيف تخرج الزهرة والوردة والشجرة يتأثر بها أكثر مما لو حدَّثته عن الفلك، وقد يكون هذا أنموذجًا واضحًا لإلهام الفجور والتقوى، كما قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧].

و«الطغوى»: الطغيان، وهي صيغة مبالغة، والمعنى: أنهم بطغيانهم كذَّبوا، وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن الله تعالى عاقبهم بجنس عملهم، كما في سورة الحاقة: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة:٥] يعني: بالصيحة الطاغية التي تتناسب مع طغيانهم.

* ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ [الشمس:١٢]:

يعني: أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف، وكان سيدًا زعيمًا كبيرًا، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**انْبَعَثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ في رهطه مِثْلُ أبي زَمْعَةَ**»[1]. ولم ينبعث للناقة إلَّا بعدما بايعوه كلهم وأقروه؛ ولذلك كان الراضي المقر للفعل مثل الفاعل.

وهو أشأم رجل على قومه، وكان قد أظهر نيته في قتل الناقة، وكأنهم حرَّكوه وأغروه، كما قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر:٢٩] أي: فعقر الناقة.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زمعة ﷺ.

* ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣]:

﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ هو صالح ﷺ: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾، يعني: احذروا، ولفظ: ﴿ نَاقَةَ ﴾ هنا منصوب على التحذير، أي: احذروا ناقة الله وسقياها، ولا تتعرَّضوا لها بسوء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٧٣]، وذلك أنه كان لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم، ففي يوم كان الماء لبهائمهم ودوابِّهم، وفي يوم آخر تشرب الناقة، ثم تدر لهم ما يحتاجونه من اللبن.

* ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤]:

أي: فيما جاء به وكفروا بالدين والتوحيد، وخالفوا أمره، فعقروا الناقة، والعقر في الأصل هو: قطع رجلَي الدابة أو يَدَيْها فتسقط، ثم صار يستعار للقتل، أي: فقتلوها.

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾: والعلماء يختلفون في معنى «دمدم»[1]، لكنك حين تسمع الكلمة تجد في أذنك صوت الصيحة التي ألمت بهؤلاء القوم، حتى إنك لا تجد كلمة أخرى أجل وأوضح من كلمة ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾؛ لتعريفها وبيانها، وهو صوت الصيحة تخرق آذانهم، ثم تفضي إلى قلوبهم، فيتساقطون ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧].

﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾: أي: تساووا جميعًا في العقوبة؛ لأنهم تساووا في الجريمة، وقد يكون المعنى: أن الله سوَّى الأرض بهم، وهذا قريب أيضًا[2].

والعامة تعبِّر بهذا الفعل فتقول: سوَّاها فلان، يعني: عملها.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٥).

* ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس:١٥]:

فالله سبحانه وتعالى لا يخاف شيئًا، والإنسان إذا همَّ أن يعاقب أحدًا قد لا يبالغ في العقاب، ويقول: أُبْقِي للصلح موضعًا. وربما تعاقب فتبالغ فيكون عند الطرف الآخر ردة فعل قوية، وقد ينتقم منك ويجد فرصة الرد ولو بعد حين؛ ولذلك لا يكون عقابهم مهما طال وزاد بليغًا، أما الله تعالى فمِمَّا يَخاف؟ وممَّن يَخاف؟!!

فكان أخذه كما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ اللَّيْلِ

سورة الليل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا
مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨)
وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ (١٢)
وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى (١٥) ٱلَّذِي كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى (١٧) ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ
تُجۡزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٠) وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ [الليل: ١ - ٢١].

* تسمية السورة:

١- الذي في كتب التفسير عامة: «سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾»، أو: «سورة الليل» بدون واو[1].

٢- وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾»[2].

* عدد آياتها: (٢٠) آية، أو (٢١) آية، على اختلاف المصاحف[3].

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي»، أبواب القراءات (٥/ ٤١)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٥)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٣٥)، و«معاني القراءات» (٣/ ١٥١)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢١٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٠)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٨)، و«مستخرج أبي عوانة» (٢/ ٤٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

* وهي سورة مكية عند الجمهور، وبعض المفسرين لم يذكروا إلا هذا، لكن نُقل عن بعضهم أنها مدنية.

وقال آخرون: إن السورة فيها المكي وفيها المدني، ففي آخر السورة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٧-١٨]، جاء في بعض الروايات أنها نزلت في أبي الدَّحْداح الأنصاري ﷺ، حيث أنه كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «تبيعها بنخلة في الجنة؟». فأبى، فاشتراها أبو الدَّحْداح ﷺ، فنزلت هذه الآية[١].

هكذا ذكر بعضُ المفسرين، واستدلوا بذلك على أن السورة مدنية أو أن يكون فيها المكي والمدني.

والسبب المذكور -على القول بثبوته- لا يلزم منه أن يكون هو سبب نزول الآيات؛ ولذا نرجِّح ما ذهب إليه الجمهور من أن السورة نزلت بمكة، بل هي من أوائل السور نزولًا بمكة، والموضوعات التي تُعالج في القرآن المكي واضحة في السورة[٢].

* ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:١-٣]:

أقسم سبحانه بثلاثة أشياء.

بـ«الليل» حين يغطي الكون والأرض بظلامه، وقرنه بفعل مضارع ﴿يَغْشَىٰ﴾.

وبـ«النهار»، وجعل مع النهار الفعل: ﴿تَجَلَّىٰ﴾، وهو ماضٍ.

---

(١) سيأتي قريبًا.

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«الإتقان» (١/ ٥٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

وقد بدأ تعالى بالليل قبل النهار هنا، بينما في «سورة الضحى» قدَّم الضحى على الليل في القَسَم.

ومما خطر لي في تعليل هذا الاختلاف أنه في «سورة الضحى» كان الخطاب فيها للنبي ﷺ على سبيل الامتنان، ففيها أن الله ما ودعك ولا تركك، ولسوف يعطيك، والوحي لم ينقطع؛ ولذلك كان المناسب البداءة بالضُّحى، وبالنهار وبالإشراق، أما في «سورة الليل» فكان السياق لبيان الهُدى والضلال، والحق والباطل، ومصير المؤمن والكافر وحقيقة الجنة والنار؛ ولذلك رجع الحكم فيها إلى الأصل، فالذي خُلِق أولًا هو الليل؛ فإن الكون كان ظُلْمة حتى خَلَق الله الشمس والقمر، وخَلْقُ السماوات والأرض كان قبل خلق الشمس والنور، والله أعلم.

فالأصل أن الظلام كان موجودًا، فأشرق بنور ما خلق الله سبحانه وتعالى.

فالبدء بالليل إشارة إلى أنه هو الأول وهو الأصل؛ ولذلك يبدأ التاريخ من الليل، والليلة تسبق يومها، فنقول مثلًا: ليلة الاثنين، والاثنين بعدها، فالليل يكون قبل النهار، وهذا في الشريعة معتبر، إلا في حالة واحدة، وهي ليلة عرفة؛ فإن ليلة عرفة تكون بعد نهار عرفة.

فهذا التقديم سِرٌّ من الأسرار، وقد يكون هناك أسرار أخرى، مثل الإشارة إلى أن الإنسان يُعتبر في ظلمة، إلا إذا هداه الله وأنار له الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فالإنسان كما قال الله عنه كان: ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، فينكشف جهله بالعلم، وينكشف بالتقوى، وبالإيمان.

و﴿يَغْشَىٰ﴾، فعل مضارع، وقوله: ﴿تَجَلَّىٰ﴾، فعل ماضٍ، قال ابن القيم رحمه الله: إن السبب أن الليل يأتي متدرِّجًا، فهو يغشى شيئًا فشيئًا، بخلاف النهار فهو يخرج

دفعة واحدة سريعًا[1]؛ حيث تشرق الشمس، فإذا الكون كلُّه نور، فهذا سرٌّ من أسرار التعبير.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾: «ما» يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، بمعنى: الذي، يعني: والذي خلق الذكر والأنثى، فيكون القَسَم بالله سبحانه، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: وخَلْقِ الله الذكر والأنثى، وهذا في نظري أقرب وأجود؛ ليكون القَسَم بالخلق، أي: خلَق الليل، وخلَق النهار، وخلَق الذكر والأنثى.

والله خَلَق الليل والنهار، وخَلَق الذكر والأنثى، فلماذا قال هنا: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، ولم يقل في الليل والنهار: وما خلق الليل والنهار؟

وقد خطر لي في هذا: أن الليل والنهار مخلوقات ليس عليها تكليف، وليست مطالبة بالمعرفة، وإنما جاء ذكرها هكذا كآيات، أما الذكر والأنثى فجاءت مقرونة بخلقها إشارة إلى أنها متعبدة بمعرفة خالقها، مكلفة بطاعته والإيمان به؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، وهذا خطاب للذكر والأنثى.

وهنا نلاحظ التنويع؛ حيث ذكر الليل والنهار، ومن الممكن أن نقول: إن الذكر والأنثى مثل الليل والنهار، فالذكر قد يشبه النهار من جهة الفعل والعمل والحركة والسعي والظهور، والأنثى تشبه الليل من جهة الهدوء والاستقرار والسكون والروحانية والخفاء، والحياة البشرية لا تقوم إلا بهذا، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٣]، فالكون يصلح بالليل والنهار، وكذلك يصلح بالذكر والأنثى.

---

(١) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص ٥٥).

وجاء في «الصحيحين» رواية عن أبي الدرداء وابن مسعود قراءة: (والذكر والأنثى)[1].

وهذه القراءة ليست من القراءات المتواترة السبعية، ولا يصح القراءة بها، وحملها بعضهم على أن هذا كان في أول القرآن لما أذن للناس بشيء من الاجتهاد في القراءة ولو لم يكن بحرفيتها، ثم جمع الله تعالى الناس على القراءة الأخيرة التي قرأها جبريل على النبي ﷺ، وقرأها النبي ﷺ على جبريل في رمضان في آخر سنة مرتين[2]، وصارت هي القرآن الذي تعبد الله الناس به، والله أعلم.

* ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]:

هذا هو المُقْسَم عليه، ولم يقل: (عملكم)، وإنما قال: ﴿سَعْيَكُمْ﴾، فهل «السعي» مثل «العمل»؟

هو قريب منه، لكنهما مختلفان، فـ «السعي» أقوى؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاةُ فلا تَأْتُوها وأنتم تَسْعَونَ** -يعني: تركضون- **وأْتُوهَا تمشون، وعليكم السَّكينةُ**»[3].

فالسعي يدل على نوع من السرعة والشدة، وفيه إشارة إلى أن في طبيعة الحياة شدة ومكابدة، والنجاح فيها يتطلب جهدًا عقليًّا وبدنيًّا؛ حتى يستطيع الساعي أن يحصل على المطلوب، وأن يتغلب على العقبات.

وفي الآية بيان أن من طبيعة الناس السعي، وانظر الآن إلى أعداء الحق كم

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (٨٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٢٣، ٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يسعون؟! وانظر إلى أهل الحق كم يسعون؟! وانظر إلى أهل الدنيا في دنياهم، والحياة كلها كدح ومكابدة وحركة، فالإنسان البطَّال الكسول لا يمكن أن يكون له حضور مع هذه الحركة.

ومعنى: «شتى» مختلف، وهذا قد يكون جمع شتيت، كما يقال: مريض ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى.

ونجد هنا أن هذه الآيات الأربع اشتملت على العناصر التي يحصل بها النجاح للأمم، وتحقيق الرقي والتقدم والنمو والحضارة وهي:

١- الزمان، وهو الليل والنهار، فهما عنصرا الزمان.

٢- الإنسان، وهو الذكر والأنثى معًا، ولكل منهما دوره وحضوره، فإن الإنسان هو العنصر الأساسي؛ ولذلك يقولون: أهم استثمار هو الاستثمار في الناس، فإن الإنسان إذا صلح يستطيع أن يحقق الانتصارات الكبيرة.

٣- العمل، وهو السعي.

وقَـلَّ مَـنْ جَدَّ في أَمـرٍ يُحَاوِلُـهُ   واسْتَصْحَبَ العزمَ إِلَّا فازَ بِالظَّفَرِ[1]

* ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الليل:٥-٦]:

«أمَّا» هنا للتقسيم، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أفعال بها يفوز الإنسان وينجو، وهي: «أعطى»، و«اتَّقى»، و«صدَّق بالحُسنى».

يقول العلماء: إن الإنسان فيه ثلاث قوى:

١- قوة الفعل.

٢- قوة الترك والامتناع.

---

(١) ينظر: «الآمل والمأمول» (ص٦)، و«الشعر والشعراء» (١/ ١٩٤)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص ١٩٣)، و«ربيع الأبرار» (ص ٣٢٥)، و«حماسة القرشي» (ص ٢٨).

٣- قوة العلم والعقل.

فهذه الآيات اشتملت على القوى الثلاث، فمَن «أعطى» فقد استخدم ووظَّف «قوة الفعل»، بما في ذلك قوة البدن والعطاء والإحسان التي تصبح جزءًا من شخصيته، والمال أول مذكور، ولهذا جاء في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل:١١]، يعطي الكلمة الطيبة، وهي صدقة، ويعطي الابتسامة، والشفاعة في الجاه؛ بحيث يكون البذل عنده سجِيَّة، فيبذل من ماله ووقته وعلمه وعقله وتفكيره ومشورته وجاهِه، وهذا يعني تنمية القوة العملية عند الإنسان بالعطاء.

ومَن «اتَّقى» فقد نجح في توظيف «القوة التَّرْكية أو الامتناعية»؛ لأن التقوى ترك المعاصي والمخالفات، فتقوى الله هي: ترك معاصيه، بأن يمتنع من الشهوة الحرام، والمال الحرام، والنكاح الحرام، وكل ما لا يرضي الله، فتقوى الله عنده مَلَكة الامتناع والترك.

وجماهير المفسرين على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه(١).

وقد أخرج الحاكم وغيره، أن أبا قحافة قال لابنه أبي بكر رضي الله عنهما: يا بني، إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالًا جلداء يمنعونك ويقُومون دونك. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت، إني إنما أريد ما أريد. فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ إلى آخر السورة(٢).

---

(١) ونقل الإجماع على ذلك: البغوي وابن عطية والرازي وغيرهم.
ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢١٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٩/ ١٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٨٠، ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٦٦، ٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٤١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (١)، و«الحاكم» (٢/ ٥٢٥)، وابن عساكر (٣٠/ ٦٩).

وذكر الثعلبي والقرطبي وغيرهما سببًا آخر في نزول هذه الآية، أنه كان لرجل من الأنصار نخلة يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «تبيعها بنخلة في الجنة؟». فأبى، فخرج فلقيه أبو الدَّحْداح ﷺ، فقال: هل لك أن تبيعنيها بـ«حُسْنَى» حائطٍ له؟ فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحْداح إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، اشترها مني بنخلة في الجنة. قال: «نعم، والذي نفسي بيده». فقال: هي لك يا رسول الله. فدعا النبيُّ ﷺ جارَ الأنصاري فقال: «خذها». فنزلت ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ... ﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة، وفي سنده ضعف شديد[1].

﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾: هذه الآية الثالثة تمثل «القوة العلمية أو العقلية»، بأن يكون عنده تصديق بالحق.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في «الحُسنى» فقال بعضهم: هي الجنة، وقيل: هي الشريعة، أو كلمة: «لا إله إلا الله»، أو الصلاة، وكلها معانٍ صحيحة، لكنها أمثلة فحسب، والمقصود بـ«الحسنى»: كل حق يجب التصديق به[2].

وخطر لي أن «القوة العلمية» تؤدِّي بالإنسان أحيانًا إلى حصول شبهات وشكوك.

و«القوة العملية» تفضي إلى الوقوع في الشهوات، فهذه السورة قرَّرت وجود هذه القوى عند الإنسان، ثم شجعت الإنسان على الامتناع من توظيفها فيما لا يحل ولا يحسن، وذلك بتحقيق التقوى.

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦١-٤٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٧-٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٢-٣٨٣).

وذكْرُ الخلق في السورة دعوة إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي خلق الناس لدفع الشبهات وتعزيز الإيمان.

كما أن التحذير من النار الحامية المعدَّة لمتبعي شهواتهم يحيي في القلب التقوى ومراقبة الله.

* ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٧]:

أحسن ما قيل في معنى ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: أن يسهِّل الله أموره في الدنيا والآخرة، من السعادة والهناء وقرة العين.

ومن التيسير لليسرى: رضا الله.

ومن التيسير لليسرى: فرح الإنسان بلقاء الله تعالى عند الموت، ونعيم القبر، ومنها: التيسير في الحساب.

ومنها: أن يسهِّل الله له دخول الجنة، فبقدر ما تكون الأعمال الصالحة سهلة عليه يسهل عليه كل شيء حتى دخول الجنة، وبقدر ما تشق عليه هذه الأعمال -حتى ولو كان من الصالحين- يكون الأمر بالنسبة له أصعب، وفي حديث معاذ ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: يا رسولَ الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة.قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه**»[1].

ومن ذلك أن ييسر الله له الذكر ويطوِّع له لسانه وقلبه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والحاكم (٢/ ٤١٣)، وينظر: «علل الدارقطني» (٦/ ٧٣-٧٩)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٣٤-١٣٦) (٢٩)، و«إرواء الغليل» (٤١٣).

* ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠]:

ذكر ثلاثة أعمال، أولها: البخل، وليس المقصود البخل بالمال فحسب، وإنما البخل بكل ما يمدح الإنسان ببذله مما هو مشروع، كالنصيحة والكلمة الطيبة.. والبشاشة.

﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ هذه تقابل قوله: ﴿أَعۡطَىٰ﴾ ووجه المقابلة بين العطاء والبخل ظاهر، أما بين «التقوى» و«الاستغناء»؛ فلأن «المتَّقِي» عبد خاضع لربه، متَّقٍ لسخطه، مُقِرٌّ بالعبودية والافتقار إليه، ويقابله «المستغني»، وليس الغني، بل هو مَن رأى نفسه غنيًّا بما لديه، مغترًّا بقوته ناسبًا الفضل لنفسه، معرضًا عن ربه، متكبرًا على عباده.

والأمم التي كفرت بالله تعالى، وإن كان لها إنجازات حضارية، فلديها خَوَاءٌ روحي وخلل إيماني بسبب شعورها بالاستغناء؛ فإنهم شعروا بسبب المكتشفات والعلم والحضارة والتقدم وتوظيف العقل أنهم لم يعودوا بحاجة -كما يعبِّرون- إلى وصاية الله عليهم؛ ولهذا استغنوا عن الله تعالى، وكذَّبوا بالحُسنى، فهؤلاء ييسِّرهم للعسرى.

ولو أنهم اتقوا الله وأطاعوه مع ما عندهم من الحضارة، لكان ما هم فيه من التيسير أعظم وأتم، وهم قد حُرِموا من النعيم الإيماني؛ ولذلك تجد أن أعلى نسبة للانتحار والأمراض النفسية في الدول التي تكون نسبة دخل الفرد عالية فيها.

وعند هذه الآيات يبحث العلماء موضوع القَدَر، وقد جاء في «الصحيحين» من حديث علي ﷺ: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل ينكت به الأرض، فقال: **«ما منكم من أحد إِلَّا وقد كُتِبَ مقعدُهُ من النار، ومقعدُهُ من الجنة»**. قالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكل على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ قال: **«اعملُوا؛ فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، أما مَن كان من أهل السعادة؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل السعادة، وأما مَن كان من أهل الشَّقاء؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل الشَّقاوة»**. ثم قرأ النبي ﷺ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ

﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-١٠]..»[1].

وفي الآيتين جعل الله البدء من عند الإنسان نفسه، فالذي يسَّره الله لليسرى هو مَن سبق أن «أعطى واتقى» فيسَّره الله بعد ذلك لليسرى، ولذا جاء حرف السين الدال على المستقبل، والذي «بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى» هو الذي سوف ييسِّره الله للعسرى، وكأن المعنى أن الله مكَّنهم وأقدرهم على سلوك الطريق الذي يختارونه دون قهر أو إلزام هذه واحدة.

٢- إن الحساب والعقاب في الآخرة، إنما يكون بموجِب ما جعله الله تعالى في الفطرة من الإدراك الضروري الذي يعلم كل أحد أنه يفعل باختياره، وأنه لا يوجد قوة تفرض عليه إجراء مثل هذه التصرفات؟!

وحين يكون لديه خيارات متعدِّدة في المسكن أو الزواج أو القرارات الأخرى، يفكِّر ويبحث ويستشير، ثم يختار بمحض إرادته ويتحمل نتائج خياره.

إن أمور الإنسان الدنيوية؛ من دراسة، وأكل وشرب، ونوم ويقظة، وكلام، وذهاب وإياب وسفر، لا يحتج الإنسان فيها بالقضاء والقدر.

بل يفعل الإنسان ما يحلو له، وما يقتنع به وما يريد، فهذا الشعور الضروري الذي يوجد عند كل إنسان هو الذي سيحاسب بموجبه يوم القيامة، وليس بالضرورة أن تقام جلسة مناظرة في كلام السُّفَسطائيين والفلاسفة والجبرية والقدرية وغيرهم، ألم يكن لديك -وأنت إنسان- شعور ضروري تحس به حتى ولو كنت طفلًا صغيرًا أنك تفعل باختيارك، وتترك باختيارك؟!

وهذا هو الوسع ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وهو الفطرة،

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧).

ولو أن الناس كانوا مقهورين على طريق ما لم يكن للحياة معنى ولا للاختيار حكمة ولتساوى البر والفاجر والصالح والطالح.

٣- الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، فهل يمكن أن يقول أحد: إن الله يخلق الناس ويفاجأ بما يعملون؟!

تعالى الله عن ذلك، بل الله علم ما الخلق عاملون، وعِلْم الله سبحانه وتعالى مكتوب عنده: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢]، والكون كله خلقه الله تعالى بإرادته، لكن هل علم الله تعالى هو الذي يملي على الإنسان ما يعمل، ويقهره عليه؟ تعالى الله عن ذلك.

وهل نظن أن إرادة الله اعتباطية، بحيث إن هذا الإنسان يريد الخير والله يريد له الشر؟! وهل يقول أحد بهذا؟!

قطعًا لا، إنما إرادة الله سبحانه وتعالى هي فيما يعلم الله أن هذا الإنسان يريده، بمعنى أن الإنسان هذا لو ترك وشأنه لم يكن ليفعل إلا ما فعله من قبل نفسه من خير أو من شر.

٤- القدر أُخْفِي، وهناك شرع أُظْهِر، وكان القدر ابتلاءً ليؤمن به الإنسان، والشرع ابتلاءً ليعمل به الإنسان، ولا تضاد ولا تناقض بينهما[1].

* ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل:١١]:

«ما» هنا نافية، أي: لا يغني عنه ماله، ويحتمل أن تكون استفهامية، أي: ما الذي يغني عنه ماله؟ ولم يَذْكُرْ هنا شخصًا؛ فهي تعم كل مَن ينطبق عليه الوصف.

وإذا كان مدار رُقِي الأمم وقيام الحضارات على المكان والزمان والإنسان، فهذه الآية تشير إلى شرط المال؛ فإن المال عصب الحياة، والذي يملك المال يملك القوة؛

---

(١) وللمزيد ينظر تعليق المؤلِّف على «مختصر صحيح مسلم»، كتاب القدر (١٨٣٨-١٨٤٤).

ولذلك أبرزه الله في هذه السورة مع أنه من العطاء المذكور في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، وهو واحد من الأشياء التي يبخل بها، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾.

وقد يكون تخصيصه هنا إشارة إلى تعلُّق بعض الغافلين به؛ لأن المقام مقام ذم، فهو يشير إلى فئة شغلتها أموالها عن التزكِّي والتطهُّر والسُّمو.

معنى: ﴿تَرَدَّىٰ﴾ أي: هوى في نار جهنم، وقد يكون المعنى تردَّى في قبره، أو تردَّى رداء الكفن الذي يلبسه، والأقرب أن المعنى: إذا هلك وسقط، ويدخل في ذلك هلاكه في الدنيا، أو في الآخرة؛ وذلك لأن المال من الأشياء التي تحول أحيانًا بين الناس وبين الهداية والطاعة ولزوم الطريق المستقيم.

* ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٢-١٣]:

والمعنى: إن الله تعالى أوجب على نفسه -كرمًا منه وفضلًا- الهدى، وهو بيان الحق للناس، وليس معناه: هداية الناس كلهم للدين الحق؛ لأن الواقع أن الناس منهم المهتدي ومنهم الضال، فهي هداية البيان وإقامة الحجة وليست هداية الإلهام والتوفيق ولزوم الطريق.

وفي هذا إشارة إلى استطاعة الاهتداء، ومهما يكن فالثمرة من اهتداء الإنسان هي له، والله لا ينفعه هداية مهتدٍ ولا ضلالة ضال، ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، فلا ينفع الناسُ ربَّهم إن أطاعوه، ولا يضرونه إن عصوه؛ فله الدنيا وله الآخرة، ومَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَن ضل فإنما يضل عليها.

وقد قال جل وعلا في الحديث القدسي: «...**يا عبادي، لو أن أوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد،**

ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا..»[1].

* ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل:١٤]:

هذا من الهدى الذي وعد الله أن ينذر الناس النار.

ومعنى: ﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ أي: تتوهَّج وتتَّقد، وخطب النبي ﷺ في المسجد فجعل يقول: «أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ». حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لَسَمِعَه حتى وقعت خَمِيصة كانت على عاتقه عند رجليه[2].

* ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل:١٥-١٦]:

﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾: الأكثر شقاوة، وقد ورد أن الشَّقِي في النار: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥]، فإما أن يكون معنى ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾: الشقي، وهنا لا إشكال، أو يكون المقصود هنا نارًا خاصة، وهي نار الكفار التي لا يخرجون منها، وهي نار الخلود الأبدي السرمدي؛ وهذا كقوله: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ [مريم:٧٠] فيكون في ذلك إشارة إلى أن الأشقى هو الكافر، والنار يدخلها الكفار، ويدخلها بعض عصاة المؤمنين ممن شاء الله تعذيبهم فيها، ثم يخرجهم منها بإذنه.

﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فيه إشارة إلى أن الشقاء هنا يتعلق بالتكذيب وبالتولِّي، والتكذيب يكون باللسان ورفض الدين، والتولِّي يكون بالفعل، فهو جمع بين التكذيب بلسانه والتكذيب بفعله، ولا نقول: إن الكفر لا يكون إلَّا بالتكذيب، بل إن الإنسان قد يكفر بالتكذيب، وقد يكفر بالفعل، وقد يكفر بترك الفعل.

* ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ [الليل:١٧]:

﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ هنا أيضًا أفعل تفضيل من التقوى، وهو: المُيَسَّر لليسرى، وقد ذكر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطيالسي (٨٢٩)، وأحمد (١٨٣٩٨)، والدارمي (٢٨٥٤)، وابن حبان (٦٤٤، ٦٦٧)، والحاكم (١/ ٢٨٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﵁[1]، ولكن لا يعني هذا قصر الآية عليه.

ومرجع الضمير إلى النار، ولأن المقام في هذه الآيات مقام وعيد وتخويف وإنذار، ناسبَ أَلَّا يذكر الله الجنة هنا، مع العلم أن مَن زُحزح عن النار فسيدخل الجنة برحمة الله.

* ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٨]:

أي: يعطي ماله طلبًا لزكاة نفسه من البخل والشح، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، وطلبًا للإحسان إلى عباد الله، فهو لم يفعل ذلك رياءً ولا سمعة.

* ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليل:١٩]:

يعني: ما أعطاهم ليرد لهم جميلًا، وهذا فيه إشارة إلى مشروعية رد الجميل؛ لأن الإنسان السَّوي يحفظ الجميل، ومن اللؤم نسيان الجميل، بل من أسباب انقطاع الناس عن فعل الجميل أن يفعل الإنسانُ المعروفَ لشخص، ثم يتنكَّر له، كما قال عنترة:

نُبِّئْت عَمرًا غَيرَ شَاكرِ نِعْمَتِي والكُفْرُ مَخبَثَةٌ لنَفسِ المُنْعِمِ[2]

* فالمقصود: أن أبا بكر الصديق ﵁ وكل مَن يصلح له الخطاب لم يكن عطاؤه مجرد رد يُجازي به، وإنما كان ابتداءً بالفضل والإحسان، وابتغاء وجه ربه الأعلى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:٢٠].

* ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:٢١]:

وهذا وعد، وانظر قوله عن الرضا: ﴿وَلَسَوْفَ﴾ فأحال على المستقبل؛ لأن الرضا يكتمل له في الدار الآخرة بما يُعطاه من الثواب في الجنة، وهو الرضا الذي لا يعقبه

(١) كما تقدم عند قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾.

(٢) ينظر: «ديوان عنترة بن شداد» (ص٨٣).

سخط، وأعظمه حينما يتلقَّى أهل الجنة رضا الله عنهم: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة:٨]؛ ولذا فإن الله عز وجل إذا سأل أهل الجنة: «هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»[1].

ولذا، فإن تمام الرضا ودوامه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [القارعة:٦-٧].

وهنا معنًى لطيف: أيهما نزلت أولًا: «سورة الليل»، أو «سورة الضحى»؟

الأقرب: أن «سورة الضحى» نزلت قبل «سورة الليل»؛ ففي «سورة الضحى» أعطى سبحانه النبي ﷺ، ومهَّد له كثيرًا، وقال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] يعني: يعطيك حتى ترضى، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، فناسب أن يكون له نصيب من هذا الرضا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾، وناسب أن تكون السورتان متجاورتين؛ فتلك فيها البشارة والرضا للنبي ﷺ، وهذه فيها البشارة والرضا لأبي بكر الصديق، وإن كنا نقول: إن الآية ليست خاصة بأبي بكر الصديق، وإن كان هو سبب نزولها، إلَّا أنها لكل من عمل بمثل هذه الأعمال الصالحة الفاضلة، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ
ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا
تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ [الضحى:١-١١].

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة الضحى»، أو: «سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي»، وكتب السنة والتفسير، ولم يُذكر اختلاف في التسمية[1].

* عدد آياتها: (١١) آية، وهي السورة الحادية عشرة تقريبًا في ترتيب النزول، فهي مكية بإجماع المفسرين، كما ذكر القرطبي وابن الجوزي وابن عطية والقاسمي والطاهر ابن عاشور وغيرهم، فقد اتفقوا على أنها من السور المكية، بل ومن السور المتقدِّمة في النزول[2].

ولنزولها سبب مروي في «الصحيحين» وكتب التفسير، وهو أن النبي ﷺ أصابه مرض، فترك القيام ليلتين أو ثلاثًا، فقال له بعض المشركين: ما نرى ربك إلا قد

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٣)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٠١)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٢)، و«تفسير القاسمي» (١٧/ ٦١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٣).

قَلَاك، أو جفاك. فحزن لذلك النبي ﷺ، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣][(١)].

وفيهما معنى عظيم، وهو الثناء البالغ على النبي ﷺ والبُشرى بالوعد الحق له، مما يظهر منزلته عند ربه، وقد أذن الله أن يكون السبب في ذلك هو أذيَّة المشركين، لما قالوا له: إن ربك قد جفاك أو قَلَاك. والله تعالى قد يستخرج للعبد المؤمن الخير والفضل في الدنيا والآخرة بسبب أعدائه وخصومه، ويأذن له من الثناء الحسن والسمعة الطيبة ورِفعة المنزلة، وثقل الميزان في الدار الآخرة، ما لا يحصل عليه إلا بفضله تعالى، ثم بسبب العدو الذي يريد المضرَّة؛ فهذا سبب النزول.

وعليه، فـ «سورة الضُّحى» نزلت بعد فترة الوحي أي: فتوره وتأخره، وهذا قال به كثير من المفسرين وأهل السير.

والذي يظهر -والله أعلم- أن الوحي فَتَر في النزول على النبي ﷺ أكثر من مرة، فبعد أن نزلت «سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾»، حصل فُتور في الوحي، ثم أنزل تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، ثم نزلت بضع سور، قد تكون ثماني سور، ثم حصلت فترة، ظلت أيامًا معدودة، فحزن لذلك النبي ﷺ، ثم نزلت «سورة الضُّحَى»[(٢)].

فكأن النبي ﷺ لما تهيَّأ لنزول «سورة الضحى»، كانت قد تَروَّضت نفسُه، واستعدت لتلقِّي الوحي، وعادة ما يتم الترويض بعد الثلاث، فكان بداية ذلك أن يمهِّد ربنا سبحانه وتعالى بهذه البشارات العظيمة في هذه السورة.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٢٥، ٤٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٤٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٤- ٤٨٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٣).

* ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢]:

والقَسَم لا يكون إلا بأمور جليلة وعظيمة، و«الضحى» هو أول النهار، وقد يكون ذلك قَسَمًا بالنهار كله أو بجزء منه، والأقرب أن القَسَم هو بجزء من النهار، هو وقت الضحى، وهو بداية حرارة الشمس، لكنه ليس وقت القيلولة.

فيقسم الله سبحانه وتعالى ببداية النهار، وما فيه من الحياة والإشراق والعمل، كما يقسم بالليل، وهذا قَسَم بالليل كله، ولكنه تحديد لحالة معينة منه وهي: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، ومعنى ﴿سَجَىٰ﴾: غطى، والليل عبارة عن لباس يُغَطِّي الكون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠]، وتقول: هذا رجل مُسجًّى، أي: مُغَطًّى.

أي: إذا عمَّ الكونَ وغطَّى عليه بظلامه.

ومن معاني ﴿سَجَىٰ﴾: هدأ، تقول: البحر الساجي، أي: الهادئ الذي هدأت عواصفه وأمواجه، وهَدْأَة الليل: آخره، ولذلك إذا قال لك شخص يريد أن يأتيك بدون أن يعلم الجيران: متى آتيك؟ تقول: ائتني هدأة الليل؛ أي: إذا سكن الناس، ونام كل أحد، ولم يعد في الطريق ذاهب ولا آيب.

ومن معاني هدوء الليل: قلة الناس، وهذا قد يكون فيه إشارة إلى الوقت الذي كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ.

وقد ذكرنا أنه ﷺ ترك قيام الليل ليلة أو ليلتين، بسبب مرض أصابه(١).

ومن معاني: ﴿سَجَىٰ﴾: طال، فيكون قَسَمًا بالليل وطوله، وطوله ظرف لتلذذ العباد الذين يفرحون بالليل كلما طال؛ ويناجون ربهم ذا الجلال، ويتلذذون بقراءة كتابه.

وإذا طال الليل، فأطول ما يكون على المحب وعلى الحزين وعلى الخائف؛ لأنه

---

(١) تقدم قريبًا.

لا ينامه بسبب اشتياقه أو همه أو حزنه ولا يدري عمَّ ينبلج وينجلي، وكثيرًا ما كان الشعراء يشتكون طول الليل.

أَرِقْتُ فَباتَ لَيْلِي لا يَزُولُ وليلُ أخي المصيبةِ فيهِ طولُ[1]

وقول الآخر:

لكلِّ ما يُؤْذِي وإِنْ قَلَّ أَلَمْ ما أطولَ الليلَ علَى مَنْ لم يَنَمْ[2]

وقد يكون في هذا إشارة إلى معاناة النبي ﷺ في انتظار الوحي، ومعاناته من الصعوبات التي كانت تعترض دعوته.

وهذا القَسَم له مناسبة بسبب النزول، كما أن له ارتباطًا لصيقًا بالمقسم عليه، وفيه إشارة إلى الجمع بين معنيين مهمين:

١- العمل والنشاط والاستمرار، فالضحى أول النهار الذي هو أول وقت النشاط، وفي الحديث: «**اللهمَّ بارك لأمتي في بُكُورها**»[3]. وإذا سجى الليل فذلك وقت العبادة ووقت العلم والسَّهر على ما فيه من خير، ومصلحة وإنجاز، فهذا المعنى يكرِّس المعنى الأول، أعني: معنى الإقبال على الجد والعمل.

٢- الهدوء والاستقرار والطمأنينة، فإن بعض الناس قد يغلبه الجد فيتحول الجد إلى أزمة في نفسه، حتى تجده لا يبتسم ولا يضحك ولا يمزح ولا يهنأ بعيش، وبعض

---

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٤/ ١٦٧٥)، و«الروض الأنف» (٧/ ٥٩٨)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٧٨٦)، و«أسد الغابة» (٦/ ١٤١) منسوبًا إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ.

(٢) ينظر: «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٥٩)، و«معاهد التنصيص» (٢/ ٢٨٣) منسوبًا إلى أبي العتاهية من أرجوزة «ذات الأمثال».

(٣) أخرجه الطيالسي (١٣٤٢)، وأبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وابن حبان (٤٧٥٤) من حديث صخر الغامدي ﷺ. وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢٣٠٠)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٢٤، ٢٣٦).

الناس على النقيض من ذلك، حياتُه كلُّها عبث ولهو ولعب، فنهاره وضحاه وقت للسعي والنشاط، لكن في غير خير، وليله وقت للسهر في غير طاعة، ولذلك جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لا سَمَرَ بعد الصلاة -يعني: العشاء- إلَّا لأحد رجلين: مُصَلٍّ، أو مسافر**»(١).

وفي بعض الأحاديث أنه عد من السهر المحمود مداعبة الرجل أهله ومحادثة ضيفه، وقد كان النبي ﷺ يسهر مع أهله بعد صلاة العشاء(٢).

ومن معاني ذلك: الإشارة إلى التنوع في خلق الله سبحانه، وما قدره سبحانه وتعالى من قوة وضعف، وعز وذل، وغنى وفقر؛ وهو تنوع عظيم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فالمعنى: لا يدوم إنسان على حال، ودوام الحال من المحال، وما يعانيه الإنسان، يتغير كما يتغير النهار والليل، وأنه تعالى كما امتن على البشرية بالليل وما فيه من الهدوء والسكون للكائنات حتى النباتات، كذلك امتن عليهم بالنهار وما فيه من الحركة والنشاط.

وكذلك كان الناس في الجاهلية في ظلام وجهل يشبه الليل المظلم، فامتن الله عليهم بالوحي الذي هو نور وإشراق وبصيرة.

وعندما أقرأ كلام المفسرين حول آية من القرآن، أشعر أن الوقوف عند آية واحدة يمكن أن يمتد بالإنسان إلى ما شاء الله من توليد لطائف جديدة.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٣٦٣)، وأحمد (٣٦٠٣)، وأبو يعلى (٥٣٧٨)، والطبراني (١٠٥١٩) من حديث ابن مسعود ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٢، ٣٥٨١، ٤٥٦٩) ، و«صحيح مسلم» (٧٦٣، ٢٠٥٧)، و«سنن أبي داود» (١٣٩٣)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٤٥)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (٥/ ١٣٦، ١٤٦)، و«فتح الباري» لابن رجب (٥/ ١٧٣-١٧٥)، و«عمدة القاري» (٥/ ٢٩)، و«إرشاد الساري» (١/ ٥٠٤).

وهذا من معجزات القرآن؛ فإنه كلما تأمل القارئ وتدبر وجد أن وراء هذا المعنى معنى آخر.

* ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:٣]:

هذا المُقْسَم عليه، وهذه الحقيقة التي أراد الله بشارة النبي ﷺ بها، بعدما قال المشركون: إن ربك تركك وقلاك.

والفرق بين «وَدَّعَ» و«قَلَى»: أن «الوَدْع» هو الترك والهجر، و«القِلَى» هو البغض، فيكون المعنى: إن الله لم يترك نبيه ولم يبغضه.

وفي قراءة: (ما وَدَعك) بالتخفيف(١)، والمعنى واحد.

وهنا لم يقل الله: (وما قلاك)، وفي هذا رعاية لفواصل السورة؛ لأنها ألف مقصورة؛ ولأن المقصود نفي القَلَى وهو البغض، فمن محبة الله لنبيه ﷺ أن ضميره لا يجتمع مع لفظ القَلَى، مبالغة في تأكيد الرد على ما ادعاه الكفار من ذلك.

وهذه الآية وإن جاءت بصيغة النفي، إلا أن المقصود منها بشارة النبي ﷺ بأن الوحيَ مستَمِرٌّ، وأنه رسول الله ونبيه ومصطفاه، وأن الله يحبه ولن يتخلَّى عنه.

* ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤]:

تطلق الآخرة في القرآن ويراد بها الدار الآخرة، أي: وإن الدار الآخرة خير لك من الدار الدنيا.

وهناك معنًى أعمُّ وأشملُ وأعظمُ من هذا، وهو أن الحال الآخرة خير لك من الحال الأولى، وهذا المعنى أشار إليه جمع من المفسرين المتقدِّمين والمتأخرين، وكنتُ

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٤١)، و«الكامل في القراءات» (ص٦٦٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٧٩).

ذكرته مرة لبعض الإخوة فاستغربوه، ثم وجدتُ نص العلماء عليه، وممن نص عليه من المتأخرين الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وحاصل هذا المعنى: أن كل حال لك يا محمد بعد البعثة فما بعدها خير منها، وهذا يعني ترقِّي النبي ﷺ في مدارج الفضل ومعارج الكمال والعز والرفعة؛ فكل حال آتية فهي أفضل مما قبلها، حتى إن النبي ﷺ ما مات إلا وهو في أكمل أحواله عليه الصلاة والسلام تقوى وإيمانًا، وعلمًا وعملًا وكذلك الوحي الذي أرسل به.

وفيه دعوة للمؤمن إلى الترقِّي والاستمرار، وألَّا يكتفي بدرجة معينة، بل كلما وصل إلى درجة، تطلَّع إلى ما هو خير وأفضل منها.

والوحي مر بثلاث مراحل بالنسبة للفتور والتواصل، فالحالة الثالثة -التي نزلت فيها هذه السورة- أكمل وأفضل من الحال التي قبلها، ويكفي أن هذه السورة نزل فيها من البشائر والوعود ما لم يكن من قبل.

وإن حال النبي ﷺ في المدينة كانت أكمل من حاله بمكة؛ لما في ذلك من اكتمال الشريعة ونصرة أصحابه، وقوة الدعوة، ومن هذا المعنى أن حاله في الآخرة خير وأفضل من حاله في الدنيا.

وورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال في تفسير هذه الآية: «**عُرِضَ عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمتي بعدي، فسرَّني، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ..﴾**»[2]. فيكون هذا من معاني الآية.

---

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص ٩٢٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٢)، والضياء في «المختارة» (١٢/ ٣٤٥) (٣٨٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٠).

* ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى:٥]:

هذه الآية وما قبلها، كلها في سياق واحد مما يدل على التدرُّج:

١- نفى الله ما زعمه المشركون بقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾، وهذا متضمن قدرًا كبيرًا من الرضى والمحبة من الله للنبي ﷺ.

٢- ثم انتقل إلى مرحلة ثانية وهي أن حاله أكمل من التي قبلها، فقال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾.

٣- ثم جاء الوعد بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾، وهذا وعد أُكِّد باللام وبـ«سوف»، ولم يذكر ماذا يعطيه، فيعم كل عطاء؛ كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٩]، فيعطيه الرسالة، والسمعة الحسنة والذكر الطيب، والأصحاب الأفاضل، والعلم الغزير، والمجد والدولة والسلطان، والشفاعة والكَوثر والجنة، والوسيلة التي هي درجة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وهو محمد ﷺ، ويعطيه ما لا يخطر على بال ولا يعلمه أحد ولا يحيط به عقل، ولا يدركه خيال، ولهذا قال: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾، ولم يذكر المفعول الثاني لـ «يُعطِي»، ولم يحدِّد ذلك العطاء؛ لكنه حدَّد نهايته وهي الرضا، مع أنه ﷺ راض عن ربه، وإن منعه، كما قال الشاعر:

رَضِيْتُ في حُبِّكَ الأيامَ جائرةً فعلقَمُ الدَّهْرِ إن أرضَاكَ كالعَذْبِ

فهو ﷺ يرضى عن الله وهو محروم من المال، أو من الأصحاب، أو ينزل الموت ببعض أحبابه، أو يؤذيه المشركون، فيحتسب ذلك كله في ذات الله ويقول: «إِنْ لم يَكُنْ بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي»(١).

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٦٨)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٤)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢٨٥)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣١)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٣٦).

وهنا جمع الله له بين الأمرين، وذلك أن الله تعالى يمنحه كمال الرضا وكمال العطاء.

ومثل هذا لو طلب منك إنسان شيئًا فقلت له: ائتني وسأعطيك حتى ترضى، وكأنك تقول له: سأُحَكِّمُك فيما تريد.

وربنا سبحانه وتعالى لم يقل هذا لمحمد ﷺ؛ لأنه لو حكَّم إنسانًا فيما يريد، فإنه لا يصل ظنه وخياله إلى ما عند الله تعالى، ولهذا جعل الله تعالى العطاء منه، فيعطي النبي ﷺ ما لم يخطر له على بال وما لم يدر في خيال.

ويلاحظ أن القَسَم كان بـ ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وهما أمران، فجاء السياق في بقية الآيات مشابهًا له، فقال أولًا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ عدم الترك وعدم البغض.

ثم قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وهما أيضًا اثنتان: الآخرة والأولى، وكلاهما للنبي ﷺ خير، لكن إحداهما خير من الأخرى.

ثم قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهما اثنتان: العطاء والرضا، فهذا يتناسب مع سياق القسم بأمرين: الضحى والليل، وهذا العطاء له ﷺ ولأصحابه ولأمته في الدنيا وفي الآخرة.

* ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى:٦]:

انتقل السياق إلى التذكير بالماضي على سبيل البرهنة على تحقق الوعد الآتي كما تحقق في الماضي ما سيذكره هنا.

فقد مات أبوه ﷺ وهو حَمْل، وكان له إذ ذاك ستة أشهر في بطن أمه، ثم ماتت أمه في صغره، ثم كفَلَهُ جده، ثم مات جده، فكفَلَهُ عمُّه أبو طالب، فهذا من الإيواء، وهو أن يُقَيِّض الله تعالى له مَن يعتني به في طفولته.

ومثل ذلك في الرضاعة، لما كانت المراضع يأتين إلى بيوت قريش ويأخذن أولاد الأكابر والأثرياء والتجار؛ طمعًا فيما عندهم، وكان ﷺ يتيمًا لا مال له، فتحتسب حَلِيمة السَّعْدية، وتختاره لترضعه، وهذا من إيواء الله عز وجل له.

ومعنى: ﴿ يَجِدْكَ ﴾: يَعْلمك، ومعنى: «آواك»: جعل لك مَن تأوي إليه.

ثم يقيض الله تعالى للنبي ﷺ خديجة رضي الله عنها قبل الرسالة وفي أول الرسالة، ثم يقيض له أتباعه الذين يؤمنون به، ثم يقيض له أهل المدينة يؤمنون به وينصرونه، فهذا كله من الإيواء، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأهل المدينة: «ألم أجدكم ضُلَّالًا، فهداكم اللهُ بي؟». عاد فقال: «ألَا تقولونَ: أتيتنا طَريدًا فآويناك؟»[1]. إذن هذا من الإيواء.

يا يتيمًا واليُتْمُ دمعٌ وضَعْفٌ — كيف ذَلَّتْ لِيُتْمِكَ الأقوياءُ؟!

فانظر هذا اليتيم الذي عنده من الجَلَد والصبر والقوة والمقاومة، وكمال العلم والعمل، وكمال الشخصية، وكمال العقل والفصاحة ما عنده، ثم يختاره ربه سبحانه وتعالى ويصطفيه بالرسالة، ولذلك فهو ﷺ فخر للأيتام كلهم، كما أنه فخر للعرب أن يختاره الله تعالى منهم، بل هو فخر للإنسانية أن يختار الله واحدًا منها للنبوة وينزل عليه الوحي، وهو أيضًا قدوة للأيتام كما هو قدوة لكل أحد.

* ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧]:

وهنا جاء وصف الضلال، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الذي جاء التعبير فيه بهذا اللفظ عن النبي ﷺ، ولذلك اختلف المفسرون كثيرًا في تفسير هذا الحرف على نحو من ستة أقوال:

فقال جمهور المفسرين: إن معنى ﴿ ضَآلًّا ﴾، أي: ضالًّا عن الوحي وعن الشريعة

(١) أخرجه أحمد (١١٥٤٧، ١٣٦٥٥) من حديث أنس وأبي سعيد رضي الله عنهما.
وبنحوه عند البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

والإيمان[1]، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

فليس الضلال هنا اتباع الباطل؛ لأن النبي ﷺ في جاهليته وإن لم يكن عنده معرفة بالوحي ولا بالشريعة ولا بالإيمان ولا بالكتاب؛ إلا أنه كان يتمسك بالفطرة السليمة وما تمنع عنه من الضلالات، فكان يتعبد ويتحنث على الملة الحنيفية، ولم يقع في الشرك الذي وقع فيه من حوله.

ويشبه هذا ما جاء في قصة يوسف، حيث قال إخوتُه لأبيهم: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف:٩٥]، فهم لا يقصدون الضلال في الدين، وأبوهم كان نبيًّا، وإنما مقصودهم أنك لا زلت في غفلتك القديمة، فهكذا كان النبي ﷺ في غفلة عن الإيمان والكتاب.

ومن اللطيف أنه حتى في سورة يوسف أخبر الله نبيه محمدًا ﷺ بأنه كان قبل وحي القرآن من الغافلين فقال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣]!!

فالضلال هنا بمعنى الغفلة، والسياق يدل على أن الضلال لم يكن سوى عدم معرفة الطريق إلى إنقاذ الناس ودعوتهم وهدايتهم، ثم هداه الله تعالى إلى ذلك.

وقيل: معناها: ناسيًا[2]، وهو مستعمل في القرآن الكريم، كما في آية الدَّيْن: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٧).

إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وتضل هنا معناها: تنسى.

وقال بعضهم: تائهًا، وفسروها بالمعنى الحسي، وهو أنه لما سافر في تجارة خديجة ضاع في الطريق، وقالوا: إن الشيطان نفخه حتى وقع بعيدًا[١].

وفي نظري أن هذه من الروايات التي ينبغي تنزيه كتاب الله عنها، فالشيطان أضعف وأذل من أن يفعل هذا برسول الله ﷺ حتى قبل البعثة، وإنما تسلَّط الشيطان على بني آدم بالوسوسة والكيد وما أشبه ذلك.

وقال بعضهم: إنه ضاع قريبًا من مكة[٢]، حتى قلق عليه عمُّه، فكان يمسك بباب الكعبة ويدعو ربه ويقول:

رُدَّ إِلَيَّ صَاحِبِي مُحَمَّدَا رُدَّهْ إِلَيَّ واصطَنِعْ عِنْدِي يَدَا[٣]

حتى جاء به أبو لهب أو أبو جهل على بعيره، وهذا المعنى بعيد أيضًا.

وقال بعضهم: إن المقصود ضلال الناس من حوله، يعني وجدك في قوم ضالين في مكة، فهداك وهداهم بك[٤]، واللفظ لا يساعده.

وأول الأقوال أولاها، والله أعلم.

* ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى:٨]:

و«العائل»: الفقير، وقد يكون ذا العيال الكُثُر، والمقصود هنا الأول.

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٧)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٦).

(٣) ينظر: «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٥١)، (٢/ ٢٠) و«تاريخ الإسلام» (١/ ٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٩٢)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٨).

وقد كان النبي ﷺ فقيرًا، فأغناه الله تعالى بمال خديجة لما ذهب مع غلامها ميسرة، وتاجر في الشام وربح، وكذلك كان ﷺ عائلًا فأغناه الله تعالى بالأموال الطائلة التي سيقت له بالفتح وغيره، ومع ذلك؛ فإنه ﷺ ما اعتبر هذا المال له، وإنما كان ينفقه في سبيل الله ويتصدق به، ولم يكن يدخر منه شيئًا لنفسه، حتى إنه مات ﷺ ولم يورث دينارًا ولا درهمًا.

وهذا دأب الأنبياء والصالحين، فالواحد منهم ولو تيسرت له الدنيا فإنها تكون في يده ولا تكون في قلبه، وإنما يستعملها كما يستعمل الفِراش الذي يجلس عليه والدابة التي يركبها، فيستخدمها ولا يخدمها، ولا يكون عبدًا للدرهم والدينار. وغناه ﷺ غنى لأصحابه، فإنهم كانوا عالة فأغناهم الله به ﷺ كما قال ذلك للأنصار[1]، وكذلك المهاجرون كانوا فقراء بعدما أُخِذت بيوتهم في مكة، فلما هاجروا إلى المدينة فتح الله تعالى عليهم خزائن الأرض.

بل غِناه ﷺ غِنًى لأمته، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**بينا أنا نائمٌ، أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض، فوُضعت في يديَّ**». قال أبو هريرة ﷺ: وقد ذهب رسول الله وأنتم تنتثِلونها[2].

فمن معاني الآية: غنى الأمة كلها، فإنه وإن كان الله تعالى يخاطب بها النبي ﷺ، إلا أن الخطاب يعم أمته من بعده، ولو تأملنا ما سبق لوجدنا العطاء للنبي ﷺ عطاء لأمته، والنبي ﷺ لما دعا كان يقول: «**ربِّي، أُمَّتي أُمَّتي**». فكان ربه سبحانه وتعالى يقول: «**إِنَّا سنُرْضيك في أُمَّتك ولا نسُوؤُكَ**»[3]. فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًا عن

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

وتنتثلونها: تخرجون ما فيها وتتمتعون به.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

أمته، ورضي وأنعم.

وعندما يقول: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى:٦]؛ تجد هذا منطبقًا على الأمة التي كانت أمية جاهلة، ليس لها تاريخ ولا حضارة.

ولو نظرت معنى اليتم، لوجدت أن اليتيم هو مَن انقطع تسلسلُه مع مَن قبله، فلم يجد مَن يرعاه، وهكذا كانت الأمة يتيمة، وإنما كانت الحضارة عند اليونان والرومان، والهنود والصينيين وغيرهم، وكانت حضارات عريقة وراسخة، ومع ذلك أَبَى الله تعالى إلا أن يختار هذه الأمة اليتيمة فيؤويها ويصطفيها كما آوى واصطفى نبيها محمدًا ﷺ.

وهي أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم، حتى أنزل الله تعالى عليها الحكمة والكتاب، فأصبحت أمة العلم وصار رجالها سادة الأمم وقادتها حقبًا طويلة.

تتكلم مصنفات كثيرة عربية وغربية عن أثر الأمة ومجدها في قيادة البشرية كلها، حتى في علوم الدنيا فضلًا عن علوم الهدى والإيمان والسلوك والآخرة.

وهذا وإن كان حسنًا إلا أنه من غير المستساغ أن نعيش في تخلفنا ونكتفي بالحديث عن الماضي ومضغ الذكريات الجميلة وكان هذا يكفي!

وهكذا قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾، والعرب قد كانوا فقراء لا يجدون غير المرعى والمطر يرقبونهما ليعيشوا عليهما، يقتل بعضهم بعضًا على المرعى، وتاريخهم معروف في ذلك، فلم يكن عندهم إلا واحات صغيرة في جزيرة العرب، ورحلة الشتاء والصيف.

وها هي الثروات الهائلة، وأهمها النفط؛ الذي يوجد أكثر مخزونه واحتياطيه في بلاد المسلمين، والثروات الأخرى الهائلة التي منحها الله تعالى هذه الأمة وأغناهم بها من عيلة!

فهذا من إعجاز القرآن وتجدد معانيه.

ثم يلاحظ أنها ثلاث آيات تقابل الثلاث الأولى:

١ - فإنه قال: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:٣]، ويقابل ذلك قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى:٦].

٢ - وقال: ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤]، ويقابله قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧].

٣ - وقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]، يقابله قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى:٨].

وليس المقصود غنى المال فقط، بل يتناول غنى النفس، كما قال النبي ﷺ: «**ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس**»[1]. وقد أعطاه الله تعالى الغنى في نفسه والقناعة باليسير.

فضلًا عما أعطاه من العلم والنبوة والحكمة والبصيرة والخلق الجميل.

وختم الله تعالى السورة بثلاث أيضًا؛ فهي «سورة الثلاثيات المتقابلة المتوافقة»، ويُسمِّي ذلك علماء البلاغة: «اللَّف والنشر المرتب»[2].

* ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى:٩]، يتناسب مع قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾، وهذه الفاء الفصيحة، و«أما» هنا للتفصيل والتقسيم، لكن المعنى: مهما يكن من شيء ومهما يكن من أمر فلا تقهر اليتيم.

ومن الخطاب الجاري في اللغة أن يقال: لا تقهر اليتيم، ولكن السياق أبلغ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص ٤٢٥)، و«نهاية الأرب» (٧/ ١٢٩)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» (٢/ ١٨٥).

فإنه قدم لفظ اليتيم، إشارة إلى الحفاوة والعناية؛ لأن تقديم المعمول يشعر بالتنبيه والاهتمام، كما لو قال: أما البيت فلا تدخله مطلقًا، وأما المال فلا تأخذ منه شيئًا، وأما الأولاد فلا تعتدِ عليهم؛ فإن المخاطب يشعر أنها نقاط محددة، وقد استجمع هذا الأسلوب كل ذهنه للاستماع والإنصات.

وفيه الإشارة إلى أن مدار الشريعة يكاد أن يكون قائمًا على حفظ حقوق الناس؛ لأن اليتيم لا يجد مَن يأخذ حقه ويدافع عنه، وكذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]، فإنه وصية خاصة بالضعفاء، كما وصَّى رسول الله ﷺ بحق المرأة وبحق اليتيم[(١)].

وهي وصية بحقوق الناس.

إن مدار الشريعة على حفظ الحقوق حتى العبادات فيها معنى التربية على التزكية وتهذيب السلوك، ولهذا قال في الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال عن الزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال عن الصوم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقال عن الحج: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، وجماع ذلك كله حديث النبي ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[(٢)].

كثيرون يظنون أن الدين لم يأت بالحقوق ولم يحافظ عليها، بسبب نقص العلم وسوء التطبيق عند المسلمين، ويتمثل ذلك في الإطاحة بالحقوق بين الأزواج، فمعظم البيوت قائمة على مشكلات وبلايا، حتى الأبناء والآباء.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «اللهمَّ إني أُحرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيم، والمرأة»: أخرجه أحمد (٩٦٦٦)، وابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٠٤، ٩١٠٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩١-١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي بعض المجتمعات الإسلامية شيء من تعميق الصراع بين الآباء والأبناء، والأزواج والزوجات، والأولاد والبنات، وبين طبقات المجتمع والقبائل والبلدان، وهكذا... في حين أن الأمم الغربية قامت حضارتها اليوم على حفظ الحقوق، ولذلك حصل لهم العز والنصر والتمكين في الدنيا.

والقهر يكون بالقول كالسَّبِّ والشَّتم، ويكون بالفعل كأخذ المال، ويكون بالإشارة مثل الازدراء أو التحقير أو الإعراض أو الإهمال، وهذا يتناسب مع قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾.

* ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى:١٠]:

وهذا يتناسب مع قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾، ووجه التناسب أن السائل هنا هو طالب العلم الذي يسأل عن دينه ويريد الجواب، وهذا قول سفيان بن عُيينة وجمع من السلف، واختاره طائفة من المفسرين، وهو قوي[(١)].

وقد كان النبي ﷺ يأتيه الناس يسألونه عما لا يُسأل عن مثله الأنبياءُ عادة، فكان ﷺ يجيب بصبر وحلم وهذا مما أدَّب الله به نبيه ﷺ، حتى لما قال له الرجل: يا رسول الله، مَن أبي؟ قال: «أبوكَ فلانٌ». ولم يمتنع عن الجواب، وربما سأله رجل عن ناقته إذا ضلَّت[(٢)]، فكان النبي ﷺ في غاية التواضع للناس.

وفي هذا تربية لأصحاب الخطاب الدعوي وحملة العلم والهدى من بعده، أن يكون عندهم من الصبر على الناس وتحمل حماقاتهم وإزعاجهم وعجلتهم وطيشهم، ما لا ينفرهم عنهم.

وكذلك في الخطاب العام: كخطبة الجمعة، وسائر المواعظ، أن لا يكون الدعاة

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٣٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٢٢، ٧٢٩٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

أشداء، بل رحماء.

وإذا خُوطب وأُدِّب بهذا محمد ﷺ، فنحن من باب أولى؛ لأن الناس ينقادون له بالنبوة، أما غيره فلا ينقاد لهم الناس كذلك، وقد يكون لدى الآخرين من العلم أو الخير أو الأخلاق مثلما عند الدعاة أو أقل أو أكثر، أو هكذا يظنون، فلذلك ينبغي الحرص على رعاية هذا الجانب.

ومن معاني ﴿ ٱلسَّآئِلَ ﴾: الفقير الذي يطلب المال، وقد امتثل النبي ﷺ فأعطى رجلًا غنمًا بين جبلين، وأعطى آخر مائة من الإبل، ولم يُسأل شيئًا قط فقال: لا[1].

ما قال: «لا» قطُّ إِلَّا في تَشَهُّدِهِ   لَولَا التَّشَهُّدُ كانَتْ لاءَهُ «نَعَمُ»[2]

ويقول آخر:

تَـراهُ إذا مَا جِئْتَـهُ مُتَهَـلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

ولَوْ لم يَجِدْ في كَفِّه غيرَ رُوحِه   لجَادَ بها فليتَّقِ اللهَ سَائِلُـهْ[3]

فكان ﷺ أكرم الناس وأجودهم.

* ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١]:

وهذا متناسب مع قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]، أي: أعطاك فرضيت، فتحدث بنعمة الله تعالى عليك!

ونِعَمُ الله تعالى على الناس لا تحصى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وإنك لو أردت أن تحصي الخلايا الموجودة في جسمك، لما استطعت؛ لأنها تفوق العدَّ والحصر، وهذه الخلايا لو انفجرت خلية

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣١٥٠، ٦٠٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢، ٢٣١١، ٢٣١٢).

(٢) ينظر: «ديوان الفرزدق» (ص٥١٢).

(٣) ينظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» (ص٩٢).

واحدة منها بشكل غير طبيعي لسبَّب لك الأمراض المستعصية، فعندك بقدر هذه الخلايا من النعمة بسلامتك من هذا المرض!

ولو ذهبنا نعدِّد الأمراض التي سلِمت منها لم نحصِها، ولا نقضي العمر قبل إحصائها، فكيف لو أردتَ أن تَعُدَّ جميع النعم في البدن؟! فكيف إذا ذهبتَ تعدِّد النعم المعنوية من الإسلام والعقل والفهم والوالدين والمال والولد والزوجة: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨]؟! وهنا قال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾؛ أي: لا تعدها، ولكن تحدَّث بالنعمة.

فكيف بالنعم في البيئة والكون والطبيعة، والنعم على الناس كلهم سابقهم ولاحقهم؟

وقد يكون من مقاصد النعمة هنا: النبوة، كما قال: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم:٢]، أي: فادع الناس إلى ربك وإلى الإيمان بك، وحدِّثهم أن الله تعالى أوحى إليك هذا القرآن، وتحدَّث بما أنعم الله تعالى به عليك.

وهنا مسألة: هل يناسب أن يتكلم الإنسان عن أعماله الصالحة من باب التحدُّث بالنعمة؟

الجواب: لا يناسب في الأغلب؛ لأن إخفاء العمل خير من إظهاره، لكن جاءت نقولات خاصة عن بعض السلف كعمرو بن ميمون وغيره، أنه قد يتحدَّث لبطانته ولمَن يحب، إذا كان في ذلك تحفيز على العمل، وأمن من العُجب والرِّياء(١).

وكثير من النعم ليست خفية، وإنما إظهارها من باب الاعتراف بها وشكرِ الله تعالى عليها وحث النفس على إدراكها وحسن توظيفها، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ١٧٨)، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢٧، ٢٢٩)، (٣/ ٣١٨)، و«مقاصد الرعاية» (ص ٩٧).

سُورَةُ الشَّرْحِ

سورة الشرح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ
ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب
﴿٨﴾ ﴾ [الشرح:١-٨].

❊ تسمية السورة:

١ - غالب كتب التفسير والحديث على تسميتها: «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾».

والبعض يختصر: «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾»، أو: «سورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾»[١].

٢ - ومن أسمائها: «سورة الشرح»، وهو المصدر[٢].

٣ - وبعضهم يسميها: «سورة الانشراح»[٣].

❊ عدد آياتها: ثمان آيات[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٣٢)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٩٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٣)، و«التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥).

* وهي مكية باتفاق، قاله كثير من المفسرين(١).

وخالف في ذلك بعضهم، كالقاسمي الذي رجح أنها مدنية(٢).

وقد يحتج بدلالة السورة ومعناها ومضمونها، وهو خلاف قول الجمهور، ومن السلف، كعمر بن عبد العزيز وبعض الصحابة مَن يَعُدُّ «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾»، و«سورة: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾» كالسورة الواحدة، وبعضهم لا يفصل بينهما بالبسملة، ويقرؤهما في الركعة، ولأن مضمون السورتين ومعناهما متقارب(٣).

وربما تكون هذه السورة في ترتيب النـزول الثانية عشرة، ونزلت بعد «سورة **الضحى**»(٤).

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]:

بدأ تعالى السورة بصيغة السؤال، الذي قصد به الإثبات لا النفي، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك. وجواب السؤال معلوم، ولذا عطف عليه قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢].

يمتن سبحانه على النبي ﷺ بحالة الرضا والسكينة والطمأنينة والإيمان التي يجدها ﷺ في قلبه، فيهون بها كل شيء، وهي من أعظم الأسباب المحققة لنجاح

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٦٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٥٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٩)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٩٩)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٦٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ١٣٥)، و«تفسير الخازن» (١/ ١٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥).

الدعوة، ولذلك لما أنزل الله الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام وأمره بالبلاغ، كان أول ما دعا به: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه:٢٥-٢٦]، لأن الداعية يواجه من العنت والأذى الشيء الكثير.

والأنبياء والصالحون هم أطيب الناس عيشًا، وأرضاهم نفسًا، وأكملهم سعادةً، لما جعل الله في قلوبهم من الانشراح، بخلاف من يعانون فراغًا روحيًّا وخَوَاءً قلبيًّا لا يقاوم مصاعبَ الحياة ولأواءها.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير «الشرح»، فنُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «شرح الله صدره للإسلام»[1].

ويشهد لهذا قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

فنزول الوحي على النبي ﷺ هو من شرح الصدر، إضافة إلى ما جعل الله تعالى في قلبه من الفرح بفضل الله؛ ولهذا قال الحسن: «إن قلب النبي ﷺ مُلِئَ حكمة وإيمانًا»[2].

ويجوز أن يكون المقصود به ما حدث للنبي ﷺ أكثر من مرة، لما جاء الملك واستخرج قلبه، ثم غَسَلَه وملأه حِكمةً وعلمًا، ثم ردَّهُ، فقد ثبت أنه حدث للنبي ﷺ في طفولته، وفي يوم المِعراج[3]، وهذا واحد من الأشياء التي شرح الله بها صدر النبي ﷺ، وملأه بها علمًا وإيمانًا وحكمة.

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٢) تعليقًا، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم -كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥)- وابن مردويه، كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٢)، وفي إسناده ضعف.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).

وبهذا نقول: إن العلم من أكثر ما يشرح صدر الإنسان؛ فالإنسان لا ينشرح صدره بكثرة المال؛ لأنه يصبح عنده ترقُّب وهمٌّ من زوال المال.

ولا بكثرة الولد؛ فالأولاد يخاف الإنسان عليهم من الموت ومن المصائب.

فَيَبْكي إِنْ نَأَوْا خَوْفًا عَلَيْهِمْ   وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ(١)

ولا بالسلطان؛ لأنه يخشى من ذهاب السلطان، فيصبح في قلق وترقب، لكن العلم سرور وقُرَّةُ عين وسعادةٌ وأُنسٌ، فأكثر ما ينصح به الإنسان الحرص على العلم النافع، وليس المعلومات التي يتكثَّر بها الإنسان، أو يتصدر بها المجالس، بل العلم النافع الذي يظهر أثرُه على صاحبه بالسرور، وقُرَّةِ العين، كما يظهر في حسن القول، وصدق العمل، والخُلق الفاضل والإحسان.

وقال سهل بن عبد الله التُّستَرِي: «شرح الله صدره بنور الرسالة»(٢).

ونقل ابن عطية عن الجمهور: إن الله سبحانه وتعالى شرح صدر رسول الله ﷺ بالمعرفة، وشرح صدره بالطاعة، وشرح صدره بفعل المعروف والمبادرة إليه(٣).

وبعضهم قد يفسرون ذلك بالأثر الناتج عن انشراح الصدر، وهو أن يكون النبي ﷺ طيِّب الخاطر في كل الأحوال، يمرَض وهو كذلك، يغتني أو يفتقر، ينتصر أو يهزَم، يقيم أو يظْعَن وهو طيب النفس، مثلما قال المتنبي:

وحَالاتُ الزَّمانِ عَلَيكَ شَتَّى   وحَالُكَ واحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ(٤)

---

(١) ينظر: «أمالي الزجاجي» (ص ٤٤)، و«ديوان المعاني» (١/ ٢٦٦)، و«اللطائف والظرائف» (ص٢٣٨).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٦٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (٣/ ٢٠).

وفي إضافة كلمة ﴿ لَكَ ﴾ في الآية مزيد بيان، أي: شرحناه من أجل إسعادك وإرضائك.

ولم يقل: نشرح لك (قلبك)، وإنما قال: ﴿ صَدْرَكَ ﴾، وهذا فيه رعاية للفواصل، فكلها بالراء والكاف، وله مقصد آخر هو أن شرح الصدر أبلغ من شرح القلب؛ لأن الصدر هو البحر الذي يسبح فيه القلب؛ فإذا انشرح الصدر كان القلب منشرحًا من باب أولى، ولهذا تجد التعبير بالصدر في القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

وانشراح صدر النبي ﷺ له صور عديدة، منها:

١- الصبر على المخالفين.

فهذا من انشراح الصدر؛ لأن ضيِّقَ العَطنِ لا يطيق أحدًا يخالفه، ولا يرد عليه، في حين أن النبي ﷺ كان منشرح الصدر حتى مع المخالفين، مع أنه كان على بينة من ربه، ويعلم أنه على الحق.

ومن ذلك أنه شجَّه قومه حتى أَدْمَوه، وهو يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[(١)]، وأوذي ﷺ بمكة حتى وضعوا سَلَى الجَزور بين كتفيه وهو يصلِّي[(٢)]، وتآمروا على قتله في مكة.

٢- صبره على الأتباع، الذين قد لا يوافقونه في كل حال على ما يحب، مثلما حصل من الأنصار في حُنَين عندما وجدوا أن رسول الله ﷺ أعطى قومه عطاءً ولم يُعطهم، فقال بعضهم: لقد لقي رسولُ الله قومه! فجمعهم وقال: «**ما قالةٌ بلغتني**

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٢)، و«صحيح ابن حبان» (٩٧٣)، و«شرح النووي» (١٢/ ١٥٠)، و«فتح الباري» (٧/ ٣٧٢)، (٨/ ٥٠٨)، (١٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود ﵁.

عنكم...؟» الحديث[1].

وهكذا في الحُدَيْبِيَة، لَـمَّـا عقد النبي ﷺ الصلح، ولم يكن يريد بذلك مصلحة لنفسه، ولا يريد دنيا، ومع ذلك تألَّمَ أصحابُه وخالفوا أمره ولم يسارعوا إلى طاعته بالتحلل بالحلق أو التقصير حتى فعل ذلك أمامهم، حتى لقد قال عمر رضي الله عنه: أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟ قال: «بلى». قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِل؟ قال: «بلَى». قلتُ: فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه وهو ناصري». قلتُ: أو ليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنا سنأتي البيت فنطوفُ بِهِ؟ قال: «بلى، فأخبرتُكَ أنا نأتيه العامَ؟»، قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومطَّوِّفٌ به». قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيُّ الله حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنَا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلتُ: فلِم نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا إذًا؟ قال: أيُّها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصِـي ربَّه وهو ناصِرُه، فاستمسِك بغرزه، فوالله إنه على الحق[2]. أي: الزم طريقه وتمسك بجادته، ولا تخرج ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ فإنه رسول الله ﷺ.

٣- صبره على المنافقين الذين يُحسبون ظاهرًا على المسلمين، وكان يقع منهم على الرسول ﷺ كثير من الأذى والمضايقة، كما كان يفعل عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ وغيره ممن كانوا يتآمرون على النبي ﷺ.

ومن أشد ذلك: إشاعتهم لحادثة الإفك المعروفة، التي فيها طعنٌ في عرض عائشة رضي الله عنها، حتى نزلت براءتُها من السماء، وكان النبي صابرًا في تلك الفترة محتسبًا[3].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٣٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٧٥) من حديث سهل بن حُنيف رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المِسوَر بن مَخرَمة ومروان بن الحكم.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠).

٤- ثقة النبي ﷺ بالمستقبل؛ فقد أنزل تعالى هذه السورة بمكة، وكانت عاشر سورة ولم يكن الإسلام قد انتشر آنذاك، وكم كان ﷺ يتأذى لصُدودِ قومه عنه، ومع ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، بل قال بعدها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]. وهو آنذاك ما ارتفع له ذكر في الدنيا عند الناس، فأتباعه قليل، وهو في مكة محاصر ولم تظهر بوادر النصر، لكن كان عنده ثقة كبيرة بنصر هذا الدين.

ولهذا روى البخاري حديث خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه وقول المستضعفين: يا رسول الله، أَلَا تدعو لنا، أَلَا تستنصر لنا؟! فيقول رسولُ الله ﷺ: «وَالله، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ، حتى يمشيَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخافُ إِلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه»[1]. يقول هذا وهو متوسِّد بردة بجانب الكعبة، لا يملك إِلَّا أتباعًا يُعذَّبون!

لقد كان يتعامل بهدوء واتِّزان وثقة بالله؛ لأن الصراخ والانفعال والغضب والتأثر بالحوادث لا يصنع شيئًا، سوى تدمير صاحبه من الداخل.

وهذا الموقف يعتبر تعبيرًا عن الهدوء والسكينة النفسية، التي ينبغي أن يتحلَّى بها العالم والداعية، بل والإنسان الناجح أيًّا كان في كل الظروف.

وهكذا لما هاجر النبي ﷺ ولحق به سُراقة بن مالك رضي الله عنه، فقال له: «كيف بك يا سُرَاقَةُ إذا لَبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرَى؟». فقال سراقة: كِسْرَى بنُ هُرْمُزَ؟! قال: «كِسْرَى ابنُ هُرْمُزَ»[2]. وهذا رجل كان كافرًا، ومع ذلك يخبره أنه سوف يلبس سِواري كسرى

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

(٢) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٣٦٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٦١٠)، و«مسند أحمد» (٣)، و«صحيح البخاري» (٣٦٥٢)، و«صحيح ابن حبان» (٦٢٨١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٨٤)، (٦/ ٣٢٥)، و«الاستيعاب» (١/ ١٧٤)، و«أسد الغابة» (١/ ٤٢٢)، و«الكامل» لابن الأثير (١/ ٢٧٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٨٧-١٨٨)، (٦/ ١٩٤)، و«الإصابة» (٣/ ٤١).

ابن هرمز وهو أعرابي من بني مُدلج! وقد تحقق ذلك.

وعندما تجمَّع الأحزاب حول المدينة، والنبي ﷺ يحفر الخندق مع أصحابه، فضرب صخرة فلمِعَتْ، فقال النبي ﷺ: «**رُفعت لي مدائنُ كِسْرَى، ومدائنُ قَيْصَرَ**»[1]. ففي وقت الضعف والخوف والقلق، وتسلُّطِ الأعداء ووقوع الحصار يبشرهم.

وكان المنافقون يقولون: محمَّد يعِدُنا بكنوز كسرى وقيصر، والواحد منا لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط![2].

وهكذا لما قال النبيُّ ﷺ لعدي بن حاتم ﷺ: «**هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟**». قال: لم أرَها، وقد أُنْبِئْتُ عنها، فقال النبيُّ ﷺ: «**فإن طالت بك الحياةُ؛ لترَيَنَّ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرَةِ حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ أحدًا إلَّا الله**»[3].

فكانوا يستغربون ويستكثرون ذلك؛ لما يعلمونه من خطورة الطريق من الحيرة إلى مكة، ومع أنها من الغيب، إلا أنهم آمنوا بها؛ لأن النبي ﷺ أخبر بها، فوقعت وشهد عديٌّ بعضَها.

٥- مداومته ﷺ على العمل، والدعوة، والطاعة، دون يأس أو ملل؛ فالنبي ﷺ كان بمكة أولًا، ثم ذهب إلى الطائف، ثم إلى المدينة، وفي قلبه من السرور وقرة العين ما يجعله يتغلَّب على الصعاب.

وأكثرُ الناس تقعد بهم الصعوبات، وقد يبدأ الفرد منهم متحمسًا لمشروعه العلمي أو الإعلامي أو التجاري أو التعليمي أو الوظيفي، فإذا واجه العقبات بدأ

---

(١) ينظر: «سنن النسائي» (٦/ ٤٣)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٣١).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٢٢)، (٢/ ٢٢٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٧٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣٠)، و«سنن البيهقي» (٩/ ٣١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٠٢، ٤٣٥)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٢٨٩)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١١)، (٦/ ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

يتذمَّرُ ودبَّ إليه اليأس، وملَّ وترك ما هو فيه من خير، ولو صبر ليَسَّرَ الله له ما تعسَّر.

فالتعليم على سبيل المثال، يتطلب نوعًا من الدَّأب والمواصلة، والصبر والحفظ، وقد يعرض للإنسان ملل أو تعب، لكن عليه أن يحاول ويواصل، وهكذا مجال الدعوة.

٦- عدم استعجال النبي ﷺ للنتائج وقطف الثمار على طريقة حرق المراحل .

وما أكثر الذين يستعجلون؛ لأنهم ليسوا أهلًا لتحمل النجاح.

٧- محافظة النبي ﷺ على الخلق الكريم والتسامح، فعن أنس رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجذبهُ جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرت به حاشيةُ الرِّداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفتَ إليه رسولُ الله ﷺ فضحك، ثم أمرَ له بعطاء[١]. وكان هذا من حسن خلقه ﷺ.

وكذلك موقفه من أهل مكة يوم الفتح بعدما حصل منهم ما حصل، ومع ذلك قال: «ما ترونَ أني صانعٌ بكم؟». قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»[٢]. ثم إنه لم يسترجِع منهم أموال المهاجرين ودُورَهم، ولا انتقم منهم.

وكذلك غَوْرث بن الحارث الذي رفع السيف عليه وهو نائم تحت شجرة

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٩، ٥٨٠٩)، ومسلم (١٢٨).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢-١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١١٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧-٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

وقال: مَن يمنعك مني؟ قال ﷺ: «اللهُ». فسقط السيف من يده، فأخذه رسولُ الله ﷺ فقال: «من يمنعكَ مني؟». قال: كُن كخيرِ آخِذٍ. قال ﷺ: «أتشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي رسولُ الله؟». قال: لا، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتِلَكَ، ولا أكونَ مع قومٍ يُقَاتِلُونَكَ. فخلَّى سبيله ﷺ[(١)].

وبهذا نعلم ما كان عليه من كرم الأخلاق في جميع الظروف، ومع جميع الناس حتى من أساؤوا إليه.

٨- الهدوء في معايشة الحياة مع أطفاله وأهل بيته، ومن ذلك أنه سابق عائشة ﵄، وكانوا في غزوٍ[(٢)]، على سبيل المتعة والمؤانسة وأداء الحقوق، وهذا يزيد من القدرة على التعليم، ويضمن استمرار العمل والعلاقة.

٩- عدم استغراقه ﷺ في اللحظة الحاضرة؛ فإن الحياة لها تيَّار متدفق، والتاريخ لا ينتهي ولا يتوقف حتى يأذن الله سبحانه وتعالى بخراب هذا الكون.

الإيمان يعطي قدرًا من التفاؤل بالمستقبل، وتأتي الأمور على أفضل مما تظن.

* ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٢-٣]:

أكثر المفسرين على أنه وضع عنه ذنوبه عليه الصلاة والسلام، وغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[(٣)].

والذي يظهر عدم حصر الآية في هذا المعنى، وأن الأقرب حمل الوِزر على المعنى

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٩)، وابن حبان (٢٨٨٣)، والحاكم (٣/ ٣١) من حديث جابر ﵁، وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٥٦٥)، والحميدي (٢٦١)، وأحمد (٢٦٢٧٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة ﵂. وينظر: «إرواء الغليل» (١٥٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢-٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٥، ١٠٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦٢).

اللُّغوي، والوِزر في اللغة هو: الحِمْل الذي يثقل الإنسان، ومن ذلك الحرج، ومنه الشيء الثقيل. فوضع الوزر عن النبي ﷺ يشمل عدة أمور:

١- وضع الآصار والأغلال عن هذه الأمة، وإنزال الشريعة التي فيها: اليسر والسماحة ورفع الحرج والمشقة، فهذه الشريعة هي شريعة اليسر: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨].. ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧].

ولا شك أن ما وضع عن الأمة، فقد وضع عنه ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] فيَعِزُّ عليه ﷺ ما يُعَنِّتُ أمته ويحرجها.

٢- وضع ما كان عليه أهل الجاهلية، مما كانوا يعملونه؛ كتغييرهم دين إبراهيم الخليل ؏، فعلَّمه الله تعالى ما لم يكن يعلم.

٣- إزالة الحزن والكرب الذي كان يتغشَّاه ﷺ أول الأمر، ففي «الصحيحين» أنه لما نزل الوحي على النبي ﷺ، خاف في أول الأمر، وجاء إلى خديجة ؓ يقول: «زَمِّلُونِي»، «دَثِّرُونِي»، وقال لها: «لقد خشيتُ على نفسي»[(١)].

وكذلك لما انقطع عنه الوحي قلق من الانقطاع، فوضع ربُّه عنه وزرَه، وأزال عنه الـحُزنَ، وأَذهب عنه الكربَ، وقال له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣].

٤- غُفرانُ الذنب، كما قال تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢].

فإن قيل: وما الذنب؟

فنقول: إن «سيئاتِ الأبرارِ حسناتُ المقربين»، فالذنبُ بالنسبة للنبي ﷺ هو ترك الأولى، وقد يكون فعل ما يدخل في باب المكروه في حقه ﷺ بخلاف عموم

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣، ٤، ٤٩٢٢، ٤٩٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠، ١٦١).

الناس، وقد يفعل شيئًا باجتهاده فيعاتبه ربه كما قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ..﴾ [الأنفال:٦٧].

وكذلك غفران الذنب لأُمَّته من بعده عليه الصلاة والسلام، وذلك بما جاء في الشريعة من التوسعة والكفارة والتوبة إلى غير ذلك.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقل ظهرك، وذلك أن الحمل إذا كان ثقيلًا؛ فإنه يكون له صوت وأَطِيطٌ من ثقله، وهذا الذي جعلنا نستبعد أن يكونَ المقصود الذنب فحسب؛ لأن النبي ﷺ ليس له ذنب يوصف بهذا الوصف.

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]:

وذكر النبي ﷺ مرفوع باللسان أولًا، ومرفوع في قلوب المؤمنين به.

وأما ذكره باللسان؛ فإن الله تعالى قد قرن اسمَ محمدٍ ﷺ مع اسمه في الأذان والإقامة والشهادة.

في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية لم يكن النبي ﷺ يُعرف إلا في حدود مكة، لكن الله رفع ذكره في الملأ الأعلى، كما أنه سبحانه ناداه في القرآن بالنبوة والرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ...﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ...﴾ بخلاف الأنبياء الآخرين الذين يذكرهم الله تعالى بأسمائهم: ﴿يَٰيَحْيَىٰ...﴾، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ...﴾، ﴿يَٰعِيسَىٰ...﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰ...﴾ .. إلى غير ذلك.

* ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]:

هذه الفاء الفصيحة، وسميت فصيحة؛ لأنها تختصر كلامًا طويلًا، كأنه يقول: فإذ قد شرحنا لك صدرك، ورفعنا لك ذكرك، ووضعنا عنك وزرك؛ إن مع العسر يسرًا. والمعنى: أنه ما دام هذا كله صنيع الله تعالى بك فيما مضى، فكيف تظن بصنيع الله تعالى بك فيما يأتي؟! فلتكن أكثر ثقة وطمأنينة بوعده.

وأكثر المفسرين يفسرون الآية: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ على أنها نوع من الاستعارة، قالوا: لأن العسر واليسر نقيضان، فلا يجتمع العسر واليسر.

وما ذهبوا إليه فيه نظر، والأقرب أن الآية على ظاهرها وليست استعارة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هنا لم يقل: إن العسر يسر، وإنما قال: «إن مع» أي: يقارنه ويصاحبه، وهذا مشاهد معروف.

وقد جاء في بعض الأحاديث: **«لن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرين»**[1]. و: **«لو كان العسرُ في جُحْر، لدخل عليه اليُسرُ؛ حتى يخرجه»**[2]. وهذه أحاديث ضعيفة، ولكنها في معنى الآية الصريحة.

والتكرار للتوكيد، فكأنه لما قال في المرة الأولى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كان هذا كالتعقيب على ما يتعلق بحال النبي ﷺ، وأن الصعوبات التي يلاقيها معها يسر، وهي دعوة إلى قراءة الوجه الإيجابي للعسر، وأنه مصحوب في الوقت ذاته بألوان من اليسر والروح والفرح والرحمة، لمن تأمل ونظر، ولم يستغرق في التشاؤم.

ثم انتقل إلى إنشاء حكم جديد، ومسألة مستأنفة، وسياق آخر، وقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وهذا تأسيس أيضًا، فهو يؤسس لقاعدة عظيمة لا تخصُّ النبيَّ ﷺ، بل

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٣٣)، والحاكم (٢/ ٥٢٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٤١) عن الحسن مرسلًا.

ورُوي من قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما. ينظر: «الموطأ» (٢/ ٤٤٦)، و«الجهاد» لابن المبارك (٢١٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٨)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٩٤٨٦، ٣٣٨٤٠)، و«الزهد» لأبي داود (٧٦)، و«الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٣١)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٣٣٤)، و«المستدرك» (٢/ ٣٠٠)، و«شعب الإيمان» (٩٥٣٨).

(٢) أخرجه البزار (٧٥٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه الطبراني (٩٩٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧١٢).

هي لكل الناس، فالأُولى مربوطة بما قبلها، والثانية تأكيد وتأسيس لقاعدة عامة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، وفيها عدة معان:

١- أنه نكَّر كلمة «يُسر»، وعرَّف كلمة «العُسر»، وفي هذا معنى لطيف، وهو: أن «العُسر» غالبًا معروف، فكل إنسان يعرف «العُسر» الذي يعانيه، كالفقر، أو المضايقة، أو الأذى، أو الظلم، أو المرض، لكن «اليُسر» قد يأتيه من حيث لا يحتسب ولا يدري، ولذلك قيل:

عَسَى فرجٌ يأتِي بـه اللهُ إنَّـهُ لهُ كلَّ يومٍ في خليقتِهِ أَمْرُ[1]

وقيل:

عَسَى الكَربُ الذي أمسيتَ فيه يكونُ وراءه فرجٌ قريـبُ[2]

وعلى المؤمن أن لا ييأس من رَوْح الله، مهما ادْلَـهَمَّت في وجهه الخطوب والصعاب، ولو ظن أنه لا سبيل إلى فرج، فإن الفرج قريب، والله عند ظن عبده به.

٢- جاء «اليُسْرُ» مكررًا مرتين، وهو نكرة، بخلاف «العسر» فهو واحد؛ لأنه معرفة، فالعسر الأول هو الثاني، وهو يقابل يسرين، و«لن يغلبَ عُسرٌ يُسرين»، فما **هذان اليسران؟**

اليُسر الأول: يسر الصبر والرضا والشكر؛ لأنه إذا كان الإنسان في مصيبة كمرض، ثم رزقه الله سبحانه وتعالى سرور القلب، والطمأنينة، والرضا، حتى صار لا يبالي شُفي أم لم يُشفَ لِـمَـا عنده من الإيمان، كان هذا يسرًا عظيمًا.

وبذا تحصل سعادة القلب، وسرور النفس، فهذا اليسر المصاحب للرضا والصبر والشكر.

---

(١) ينظر: «خريدة العصر» (١/ ٢٠٨)، و«بهجة المجالس» (١/ ٣٤).

(٢) ينظر: «العقد الفريد» (٢/ ٣٥٥)، و«أمالي القالي» (١/ ٧٢).

اليُسر الثاني: هو يسر الفَرَج وزوال الغمِّ، أي: زوال الشيء الذي يعاني منه الإنسان مرضًا كان أو فقرًا، أو سجنًا، أو همًّا، أو غمًّا.

وهذا غير الأول؛ فالأول أن يسلِّم ويرضى بقضاء الله، والثاني أن يهيَّأَ له انكشافُ هذا الأمر من حيث لا يحتسب.

اليُسر الثالث: يسر يعمله الإنسان ويحاوله، وهو يسر التسبب والحيلة؛ لأنه مطلوب من الإنسان أن يبذل الأسباب، بأن يتعالج، أو يطلب العلم، أو يبذل المال، فيحرص على إزالة الأسباب الموجبة للهمِّ والغمِّ، وتحصيل الأسباب الموجبة للسعادة.

اليُسر الرابع: يسر العطاء والمنحة والفضل من الله سبحانه وتعالى من غير سبب، والله تعالى يقول: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [ص:٣٩]، فقد يعطي الله تعالى العبد من غير تسبب.

اليُسر الخامس والسادس: يُسر الدنيا ويسر الآخرة، وهو ما يعطي الله تعالى العبد في الدنيا من الخير والبرِّ والفضل؛ فإن فاته ذلك ظفر باليسر الأُخروي، ولذلك إذا تخيل المؤمن ما عند الله تعالى من النعيم والفضل والعطاء، سُرَّ بذلك واطمأنَّتْ نفسُه وَقرَّت عينُه.

اليُسر السابع والثامن: يسر الحال والمآل: فيسر الحال هو ما يعيشه المرء الآن، والمصيبة قد تكون سببًا في ألوان من الخير والفيض والعطاء.

وأما يُسر المآل، فهو الانتظار والترقب، وانتظار القادم، وتوقع الأفضل.

والعسر مسبوق بيسر ومتبوع بيسر، وقبل الفراق كنت مع من تكره فراقَه، وأحببت الاجتماع به زمانًا طويلًا، ثم أنت الآن محروم، وستعود إليه، ويعود إليك، كما يقول القائل:

إذا رَأَيْتَ الوَدَاعَ فاصبِرْ ولا يَـهُـوْلَــنَّــك البِعَــادُ
وانْتَظِرِ العَوْدَ مِنْ قَريبِ فإنَّ عَكسَ الوَدَاعِ: «عادُو»[1]

فينبغي بالعبد أن يدرك أن العسر محفوف باليسر معه وقبله وبعده.

* ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح:٧-٨]:

قال مجاهد وغيره: إذا فرغت من دنياك[2]. فالإنسان يضطرب في دنياه وكسبه، فإذا فرغت منها فأقبل على ربك، بالنَّصَب والعبادة.

وقال الحسن وغيره: إذا فرغت من الجهاد[3].

لكن الآية لم تذكر المفعول للفعل ﴿ فَرَغْتَ ﴾، ولا للفعل ﴿ فَٱنصَبْ ﴾، ولذلك تجري مجرى المَثَل، لاشتمالها على أقصر وأخصر الألفاظ وأعظم المعاني، والمعنى: كلما وجدت فراغًا فاستثمِرْه، وأقبل على ربك، وانصب نفسك له بالعبادة.

وذلك لأن العبادة شكر على العطاء الذي منه شرح الصدر، وهي ينبوع من ينابيع السعادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:٢٨]، وقال النبي ﷺ: «**العبادةُ في الهَرْج كهجرة إِلَـيَّ**»[4]. وذلك لأن الإنسان ينشغل بأمر نافع، بينما الناس ينشغلون بالقيل والقال.

ولأن العبادة تكسب الإنسان سكينة وطمأنينة، وتخفف من التوتر والاحتقان

---

(١) ينظر: «يتيمة الدهر» (٤/ ٤٩٦) منسوبًا إلى أبي عبد الرحمن النيلي.

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١١٤٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٩)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٩)، (٢٤/ ٤٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار ﷺ.
والهرج: الفتنة واختلاط أمور الناس.

النفسي الذي يحدث بسبب الضغوط، وتجعل الإنسان أكثر اعتدالًا وهدوءًا وتعقُّلًا في قوله وفعله، وتبعده عن الحالات التي قد يفضي فيها إلى يأس أو قنوط، وقد يقول أو يفعل ما يوبق دنياه وآخرته.

وبعض الناس إذا غضب قد يطلِّق زوجته أو يقتل، أو ينتحر، أو يقول الكفر أو يفعله، بسبب فرط الانفعال والغضب.

وقدَّم قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على الفعل للاختصاص، أي: لا ترغب إلَّا إلى الله سبحانه وتعالى في تحصيل ما تريد من أمر الدنيا وأمر الآخرة. والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ التِّينِ

سورة التين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ
تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ
مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨ ﴾ [التين:١-٨].

* تسمية السورة:

هذه السورة معروفة باسم واحد عند المفسرين، وفي المصاحف، وهي: «سورة التين»، وقد يذكرون الواو، فيقولون: «سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾»[1].

* عدد آياتها: ثمان آيات[2].

* وهي مكية، ولم يذكرها صاحب «الإتقان» وغيره في السور المختلف في نزولها؛ لأن الأكثرين يرون أنها مكية.

ويرجِّح القول بمكيتها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣]، فهو إشارة إلى مكة البلد الأمين، الذي كان فيه النبي ﷺ، فتكون الإشارة إلى معهود حضوري، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مدنية، والراجح هو الأول[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٤٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٠)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٩- ٤٢٠).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«زاد المسير» (٩/ ١٦٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٩).

وهي من السور المبدوءة بالقَسَم، وقد أقسم تعالى هنا بأربعة أشياء فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣].

وتوجد علاقة بين الأشياء التي يقسم الله تعالى بها، وبين الموضوع الذي يقسم عليه؛ لأن لورود كل شيء في القرآن سرًّا وحكمةً.

* ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين:١]:

افتتحت السورة بالقسم بـ «التين والزيتون»، وهما شجرتان معروفتان، وثمرتان مأكولتان، فهل المقصود التين والزيتون المعروف؟

هذا ما قاله جمع من أهل التفسير، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، ورجَّحه الإمام الطبري[2]، وقالوا: إن هذا ظاهر سياق القرآن الكريم.

ويرى بعض الباحثين المعاصرين المهتمين بالإعجاز العلمي، أن القسم بـ «التين والزيتون» مرتبط بخواص غذائية لهاتين الشجرتين.

والذي يترجح -والله أعلم- أن القسم هنا بـ «التين والزيتون» ليس قسمًا محضًا بهاتين الشجرتين، وإنما هو قسم بمواطن التين والزيتون ومنابتها.

* والتين غالبًا ينبُت في بلاد الشام، والزيتون ينبُت في بيت المقدس وأرض فلسطين وما حولها، وهذا يتناسب تمامًا مع قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢].

والمقصود بـ «الطور» عند أهل اللغة: الجبل، وأدق من ذلك أن يقال: إن الطور هو الجبل الذي تنبت فيه الأشجار؛ لأننا نعرف أن غالب جبال الجزيرة العربية جرداء، بخلاف جبال الشام وأوروبا وغيرها، فهي مكتسية بالخضرة، وفيها ألوان من الأشجار.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨) بسنده إلى «تفسير مجاهد» عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وهو في «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧) من قول مجاهد، وكذا في «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٣).

فالراجح أن «الطور» هو: الجبل الذي فيه الشجر[1].

وقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، قيل: ﴿سِينِينَ﴾ معناها: جميل أو حسن، أي: الطور الحسن، أو المبارك، أو الجميل.

وذهب الأكثرون إلى أن «طور سنين» اسم موضع، وهو المذكور في آية أخرى، حيث قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وهذا نُقل عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، وهذا الطور يسمى: جبل موسى؛ لأنه هو الجبل الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾[2] [مريم:٥٢].

فهنا أقسم الله تعالى ببلاد الشام ومهد المسيح عليه السلام، ومنابت التين والزيتون، فالمسيح عليه السلام وُلد في بيت لحم في فلسطين، وعاش في بيت المقدس[3]، فأقسم الله تعالى بـ«التين والزيتون»، أي: جبل بيت المقدس، وأقسم بـ«طور سينين» وهو جبل سيناء، وهو جبل موسى عليه السلام، وحتى في بيت المقدس يوجد جبل يسمى: جبل زيتا وجبل سيناء، ففي القسم إشارة إلى الموضع وإشارة إلى الشجرة أو الثمرة لذاتها ولمنافعها، والسياق القرآني يظل مفتوحًا على المعاني الصحيحة المحتملة لغويًّا.

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٧)، و«تاريخ دمشق» (١/ ٢١٦)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ١٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير يحيى بن سلَّام» (١/ ٣٩٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٦٢٢)، (٢٤/ ٥٠٣، ٥٠٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٨)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٩٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«غريب القرآن» للأصبهاني (ص٣٠٩)، و«تاريخ دمشق» (١/ ٢١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١١٤)، (٢٠/ ١١٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٣)، و«الإتقان» (٢/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٣٤).

(٣) ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٥١)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٢٧٤)، و«المختصر في أخبار البشر» (١/ ٣٥)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ١٧٢)، و«الروض المعطار» (ص ٥٧١).

* ﴿ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾ [التين:٣]:

ذِكْرُ البلد الأمين جاء في نهاية القسم، وهي إشارة إلى ترابط النبوات، وأن الأنبياء إخوة، كما قال النبي ﷺ: «الأنبياءُ إخوةٌ من علَّاتٍ[١]، وأمهاتهم شتَّى، ودينهم واحدٌ»[٢].

فيأخذ بعضهم بركاب بعض، ويزكِّي بعضُهم بعضًا، ويصدِّق بعضُهم بعضًا، عقيدتهم واحدة، وإن اختلفوا في الشرائع.

فأقسم الله تعالى بمهد المسيح عليه السلام، ثم بجبل موسى عليه السلام، إشارة إلى الديانات السماوية -أعني: دين المسيح ودين موسى- ولا أريد أن أسميها اليهودية، لأن هذا الاسم لم يرد إشارة إلى دين موسى عليه السلام، وإن كانت اسمًا ينتحله الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام، لكن لا نقول إن موسى دينه اليهودية، وإنما دينه المنزَّل من عند الله تعالى.

فهذا القَسَم بالأديان السماوية التي نزلت على الأنبياء، وبخاصة الأديان التي بقي لها أثر وحضور، وامتداد تأريخي، وهو قَسَم يؤكِّد معنى ربانيًّا إيمانيًّا، وهو أن الأنبياء كلهم إخوة، وملَّتهم واحدة، وليس بينهم تعارض ولا تناقض، وكلهم جاؤوا بالتوحيد، هذا أولًا.

ثانيًا: تأكيد ختم الرسالات والنبوات بمحمد ﷺ، حيث جاء ذكر البلد الأمين في آخر هذا القَسَم.

ثالثًا: تأكيد معنى الوراثة -أعني: وراثة النبي ﷺ للأنبياء كلهم- فقد جاء

---

(١) أولاد العلات: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ليجدِّد شرائعهم، وقد كان ﷺ يقول: «**أنا دعوة أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عيسى**»(١).

ولدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام علاقة قوية بالبلد الأمين.

فالقَسَم بالبلد الأمين ليس إشارة إلى محمد ﷺ المبعوث في البلد الأمين فحسب، بل فيه إشارة إلى إبراهيم عليه السلام، وأن محمدًا ﷺ هو مجدِّد ملة إبراهيم، ومحيي دينه، ومزيل أوثان الجاهلية عن البيت الحرام.

وفيه معنى وراثة النبي ﷺ لكل معاني القيم الفاضلة والتوحيد الخالص، التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وألتمِسُ في هذا القسم معنًى رابعًا، وهو: أن دِيْنَ محمد ﷺ لما كان خاتمًا للرسالات وناسخًا للشرائع لا يدخله التبديل ولا التحريف ولا النسخ، وبقي بصفائه ونقائه، فقد جاء القَسَم المتعلِّق بهذه النبوة ومكانها بوضوح بعيدًا عن اللبس وغموض المعنى، ولم يذكر ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ مطلقًا بغير قيد ولا تحديد، كما في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١]، الذي يمكن أن يصدُقَ على أي بلد، ولم يقل: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ فحسب؛ لأنه يحتمل أن يقع من الناس نوع من التساؤل عن مرجع الإشارة، ولم يقل: ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ فقط، ولكن أشار إليه وسمَّاه ووصفه بما يزيل كل التباس، وإذا كان المفسرون قد اختلفوا في تحديد التين والزيتون وطور سينين، فإنهم لم يختلفوا قط في أن البلد الأمين هو مكة(٢).

ثم هناك معنًى خامس: فأنت تقرأ هذه السورة، وفي مقدمتها هذا القَسَم، تلحظ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٠)، وابن حبان (٦٤٠٤)، والحاكم (٢/ ٤١٨) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٣)، و«أضواء البيان» (٨/ ٥٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٢).

أن هذه المواطِن التي أقسم الله بها أو بما ينبُت فيها، يجمعها خاصية ظاهرة؛ وهي أنها أماكن تكاد تجتمع فيها أهم الحوادث والصراعات بين الأمم والطوائف الدينية.

ولذلك يتقوّى أن نربطَ بين ما أقسم اللهُ به في هذه السورة وبين مشاهد الحوادث في هذه المنطقة، لا سيَّما إذا استدعينا بعضَ النصوص النبوية التي يذكر فيها النبي ﷺ أرض الشام، وأرض المَحْشر والمَنْشر، وأرض الميعاد، وأرض الطائفة المنصورة، وأرض المجاهدين في سبيل الله إلى قيام الساعة، حتى يقاتل آخرُهم المسيحَ الدجالَ.. إلى غير ذلك، مما يعطي المؤمن شعورًا بأن القَسَم هنا له امتدادات ومعانٍ عميقة، قد يدرك الناس طرفًا منها بالتأمُّل.

* ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤]:

هذا جواب القَسَم، ولأهميته احتاج الأمر إلى تأكيده بالقَسَم السابق، ثم باللام، ثم بحرف التحقيق وهو «قد»، مما يُشعر بأهمية المقسم عليه.

ليس المقسم عليه هو مجرد خلق الإنسان؛ لأن خلق الله تعالى للإنسان من المعلوم، حتى للمشركين ، فقد كانوا يعترفون بتوحيد الربوبية، وأنه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما.

وقد يقال: إنه نزَّلهم منزلة المنكرين لهذا المعنى؛ لأنه لم يظهر أثره عليهم، فهم يقولون ذلك بألسنتهم، لكنهم لا يعبدونه سبحانه، ولا يطيعون رسله، ولا يلتزمون بأوامره، فكأنهم نزلوا منزلة مَن ينكر خلق الله تعالى له، فهذا وجه!

والأقوى: أن يكون القَسَم غير منصبٍّ على مسألة خلق الإنسان، بل على خلقه في أحسن تقويم، ثم ردَّه أسفل سافلين، وهذا معنى أوسع؛ لأنه اشتمل على قضية خلق الإنسان، وعلى أنه خُلق في أحسن تقويم، وعلى أنه رُدَّ إلى أسفل سافلين، وعلى الاستثناء: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [التين:٦]، فهي أربع قضايا إذًا.

وإذا تقرر هذا، فما هو التقويم الحسن الذي خُلق عليه الإنسان؟

أكثر المفسرين يميلون إلى الكلام عن الجانب الجسدي المشهود في الإنسان، من حسن صورته واعتدال قامته، واكتمال أعضائه وسمعه وبصره وخلقته، وهذه من مظاهر القدرة العظيمة والحكمة الباهرة والعلم المحيط في خلق الإنسان بهذه الصفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦-٨].

عندما تنظر إلى الجمال في خلق البشر، صورة وشكلًا لوجدته ظاهرًا، فلو فقد الإنسان من أعضائه جزءًا صغيرًا لشعر بالنقص والتعيب، كما لو فقد ظفرًا من أظفاره، أو أُصيب هذا الظفر بسواد، فإنه يخفيه عن الناس، ولو فقد بعض شعره الظاهر، كشعر حاجبه أو لحيته، أو فقد بعض أصابعه، أو تغيَّرت صورة جلدِه، لشعر بحرج من نقصها، وحاول إخفاءها.

ومن الخَلْق في أحسن تقويم ما رُكِّب فيه من الأجهزة الباطنة، كالجهاز التنفسي والهضمي والعصبي..

وكذا العقل الذي ميَّز الله به الإنسان، وأقدره على الفَهم والإدراك، ومعرفة المقدِّمات والأسباب والنتائج، والاستفادة من التجارب والخبرات، ولذا جعل تعالى الإنسان إنسانًا بالعقل لا بالجسد فحسب، وإلا فقد تجد من الحيوانات ما هو أجمل منه كالطاووس، وما هو أقوى منه كالفيل أو الأسد، ومن الجبال ما هو أغلى من الإنسان؛ بما تحتويه من معادن الذهب والفضة.

إن إنسانية الإنسان بالعقل والإدراك، وبالمسؤولية والتكليف الشرعي المبني على العقل، وبالنفس التي كُرِّمت بالخطاب والتكليف، فهو إنسان باستقرار نفسه وسعادته وطِيب عيشه وسروره، وفرحه ورضاه واغتباطه.

فتبيَّن أن إنسانية الإنسان وكونه في أحسن تقويم، لا يتمثل بالجمال والكمال في الجسد فقط، بل هي في الجسد، وفي العقل، والروح، والنفس، وفي المواهب، والقدرات، وفي الملكات، والأعطيات التي لا تنتهي ولا يحيط بها عد: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [النحل:١٨].

حتى التوازن في خلقة الإنسان بين الروح والجسد، حيث يتقاصر عن درجة المَلَك الكريم ويتعالى على درجة الشيطان المريد، ويجعل الروح والجسد والعقل تعمل بانسجام، وربما لا يدرك هذه النعم، وقد لا يستوعب الكلام عنها وهي من التقويم العظيم!

* ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين:٥]:

وهذا جزء من المقسم عليه، أن هذا الإنسان الحسن في شكله وهيئته وتقويمه، يُرَدُّ أسفل سافلين، عندما ترى الشاب في توقُّده وحيويته وقوته وعنفوانه واندفاعه، ترى مظهرًا من مظاهر الجمال والقوة والنشاط، وقد يخيَّل للشاب أنه سيستمر شابًّا، ولا يتصور أنه سيصبح يومًا شيخًا هرِمًا، تذهب نضارة وجهه إلى غضون وتجاعيد، ويتساقط شعر حاجبيه على عينيه، وتتساقط الأسنان، ويصاب بثقل الكلام وبطء الحركة، ويحدودب ظهره، وتغزوه الأمراض، ويبدأ الارتعاش وتظهر عليه مقدمات (الزهايمر)! هل في هذا الوجه الضعيف الذابل أثر من ذلك الوجه الصبوح النضير؟

ومن معاني رده أسفل سافلين: رده في حياته العقلية إلى أرذل العمر، فترى هذا الإنسان العاقل الخبير الذي يتقد ذكاءً وفطنةً، في آخر عمره خرفًا هرمًا كالطفل، بل الطفل أفضل حالًا منه.

ومن معانيها: ذهاب الشهوة، فترى الذي قضى شبابه بالأمس يَعُبُّ الشهوات عبًّا، دون تقوى أو ازدجار، قد كبر وشاخ وعجز، ولم يبق له إلَّا الذكريات السيئة

المؤلمة والحرمان.

يحـزنُ المـرءُ على ما فـاتـه   من لذاذاتٍ إذا لم يقـضِـها

وتـراهُ فـرِحًـا مستبـشـرًا   للتي أمضَى كأن لم يُمْضِـها

إنها عندي كأحلامِ الكَرَى   لقريبٌ بعضُها من بعضِـها

وقيل: معنى ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾: «السافلون» هم سفلة الاعتقاد، والإشراك أسفل الاعتقاد، فيكون ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾؛ وذلك أن الإنسان يأخذ في تغيير ما فُطر عليه من التقويم والإيمان بإله واحد وتوجه الفطرة إليه بالعبادة والتعظيم فيصير ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾.

وهل أسفل ممن يعتقد ألوهية الحجارة أو الأشجار أو الحيوانات، أو ممن يجحد وجود الخالق وهو يشاهد مخلوقاته ويتلقَّى إنعامه!

ومن السُّفول الذي يرد له مَن تجاوز تقويم الفطرة: السُّفول في الأخلاق من طمع وجشع وجزع وهلع وجبن وفحش، فهل بعد هذا من تسفل في الأخلاق[١].

وقيل ﴿ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾: أي أن الصورة القويمة سوف ترد إلى صورة قبيحة مشوَّهة حينما تُلقى في ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ وهي أسفل دركات النار، فيكون المراد بـ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾: الدرك الأسفل من الجحيم موضع العصاة المتمردين على ربهم[٢].

* ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦]:

وفي هذا الاستثناء أسرار، فإن الله تعالى استثنى المؤمنين، والسؤال: أليس يمر

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٧- ٤٢٨).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٧٣)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٩).

وينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٩، ٥١٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ١٢)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤١٠)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٦٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٠٨، ٥١٣).

عليهم الهرم والكبر والشيخوخة كغيرهم؟

بلى.. ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ [النحل:٧٠]، والسنن البيولوجية لا تحابي أحدًا.

والمؤمن قد يصيبه الخرف في عقله، وبعضهم يقول: إن الذي يحفظ القرآن لا يصيبه الخَرَف، وهذا فيه نظر؛ لأنه لم يثبت ذلك في القرآن، ولا في السنة، ولا في التاريخ، ولا يدل عليه الواقع؛ فإننا نجد من الناس مَن يكون عالِـمًا وحافظًا ثم يتغير، والمحدِّثون كانوا يحجرون على الشيخ إذا كبر سنه وتغير حفظه، ويمنعون الناس من الأخذ عنه والتلقِّي منه، ويقولون: فلان اختلط. لئلا يختلط حديثه الصحيح بغيره فيُرَد، مع أنه كان مُحَدِّثًا قضى عمره كله في: «قال»، «حدثنا»، «أنبأنا»، «أخبرنا».

وقد نقول: إن ذلك فيهم أقل منه في غيرهم؛ لأن الإنسان إذا نقص عقله يظل يردِّد الأشياء المألوفة فيما مضى من عمره، فيقرأ القرآن ويسبِّح ويسوق الحديث النبوي.

أو يردِّد ما ألفه واستقر في ذاكرته من أمور رديئة أو فاسدة، فتسمع منها ما يعيبه ويُعَدُّ منقصة فيه.

وثَمَّ وجه آخر: أن الإنسان في كبره يبقى في وجهه نور وإشراق من أثر الطاعة والعبادة، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسَعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لسوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغضًا في قلوب الخلق»(١).

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٣٠)، و«منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٧)، و«روضة المحبين» (ص٤٤١)، و«الوابل الصيب» (ص٣٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٢٣)، و«روضة المحبين» (ص٤٤١).

وقد ذكر أنس رضي الله عنه أنهم نظروا إلى وجه النبي ﷺ فكأنه ورقة مصحف، وذلك في آخر عمره(١).

وقد استشهدت عائشة رضي الله عنها في وصفه ﷺ بقول أبي كَبِير الهذلي:

ومُبَرَّأٍ من كلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وفساد مرضعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ

وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كبَرْقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ(٢)

ومعنى ثالث: أن الإنسان الذي يحتقب ذكريات اللهو والمعاصي، يتمنى المعصية حين يعجز عنها، وربما يُكتب عليه وزرها، أما المؤمن فإنه يُكتب له الأجر، وفي «الصحيح» مرفوعًا: «إذا مرض العبدُ أو سافرَ، كُتب له ما كان يعملُ مقيمًا صحيحًا»(٣).

فإذا عجز عن صلاة الليل أو الصيام أو الذكر أو التعليم أو الجهاد، لعارض من كبر السن أو المرض؛ فإن أجره يدرُّ عليه، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، حتى وإن كبروا وعجزوا، فالأجر لا يقطع، بل هو مستمر لهم على ما كانوا يعملون، بخلاف أولئك الذين لم يكونوا من الأخيار ولا من الصالحين.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: لا يَمُنُّ به عليهم، بل يتفضل الله سبحانه وتعالى عليهم من غير أن يَمُنَّ عليهم به أحد؛ لأنه من الله سبحانه وتعالى المعطي المتفضِّل، بخلاف عطاء الناس فإنه قد يلحقه مَنٌّ أو أذى، ولذلك مدح الله الذين ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٢]، وقال هنا: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) ينظر: «حلية الأولياء» (٢/ ٤٥)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٤٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾[1].

فهناك رابط بين القسم الذي أقسم الله به: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾، وبين الأمر المقسم عليه، وهو خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم إرجاعه إلى أسفل سافلين: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

وهذا القسم إشارة -والله أعلم- إلى القيمة الحقيقية للإنسان، وأنها الإيمان، فهو الذي يصحِّح عقل الإنسان، ويحفظ عمل جسده فلا ينقطع أجره، ويحفظ نفسه وروحه وماله، ودنياه وآخرته[2].

* ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [التين:٧-٨]:

وهذا خطاب للإنسان المكذِّب بالدين، و«الدين» هنا هو الجزاء والحساب في الدار الآخرة، حيث يُدان الإنسان بما عمل، أي: يُجزى به، ومنه الدينونة، أي: ما الذي جعلك تكذب بالدار الآخرة، وأنت تَرَى الإنسان يُخلَقُ في أحسن تقويم، ثم يُرَدُّ إلى أسفل سافلين؛ في جسده وفي نفسه وفي عقله؟

وهل تظن أن الذي خلق الإنسان بهذه الحكمة والعظمة والإبداع، وأرسل إليه الرسالات، وكلَّفه بالتكاليف، أتظن أنه يترك الإنسانَ سُدًى، ولا يبعثه بعد ذلك، ولا يدينه ويجازيه؟

ما الذي يجعلك تكذِّب بعد هذا كله بالدين؟

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٨٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ١٠٣)، و«نظم الدرر» (٢٢/ ١٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥١٧، ٥١٩، ٥٢١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٦).

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ ألَا تدري أن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، أي: صاحب الحكمة، والحكمة تقتضي أن لا يُخْلَق الإنسان سُدًى.

وفي حكم البشر أنه لو عمل أحد شيئًا بغير جدوى، لقال الناس: هذا ليس من مقتضى الحكمة، حتى النعل يلبسه الإنسان ليتقي الحر والبرد والأشواك، وغيرها مما يكون في طريقه، فكيف يُترك هذا الإنسان بكلِّيته سُدًى؟! ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة:٣٦-٣٧]، وهذا المعنى موجودٌ في سورة التين.

أفمن الحكمة: أن يُخلق الإنسان بهذه القوة والكثرة، والامتداد التاريخي والجغرافي والإبداعي، ثم يُترك ويُهمل، فيذهب الظالم والمظلوم، والمخطئ والمصيب، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويأكلهم التراب والدود، فلا يُبعثون ولا يُسألون ولا يُحاسبون ولا يُجازون ولا يُقتص للمظلوم من الظالم؛ هل يتوافق هذا مع الحكمة؟! كلا؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾؟ بلى، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وقد يكون معنى الاستفهام، أي: يا رسول الله، ما الذي يجعلهم يكذِّبونك بعد هذا؟ والمعنى متقارب.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثًا عن النبي ﷺ قال فيه: «**مَن قرأَ منكم بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[1]. والحديث فيه ضعف، ورجَّح أبو زرعة وقفه[2].

○ ○ ○

---

(١) أخرجه الحميدي (١٠٢٥)، وأحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٦)، والبيهقي (٢/ ٣١٠)، وفي «شعب الإيمان» (١٩٢٩).

(٢) ينظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (١٧٦٣)، و«علل الدارقطني» (١١/ ٢٤٦-٢٤٨)، «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٤/ ٢٤٣-٢٤٤)، و«نتائج الأفكار» (٢/ ٤١)، و«تمام المنة» (ص١٨٥-١٨٦).

سُورَةُ العَلَق

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ
﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ
﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾
أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ
خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

[العلق:١-١٩].

* تسمية السورة:

١ - الذي عند جمهور المفسرين: «**سورة العلق**»(١).

٢ - «**سورة** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾»، أو: «**سورة** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»، وبعضهم يختصرها: «**سورة** ﴿ٱقۡرَأۡ﴾»(٢).

٣- وقد سماها بعضهم، كابن العربي، وابن الجوزي، وابن القيم، وغيرهم: «**سورة القلم**»؛ لتشابه سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم:١](٣).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٣)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٧٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٦)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٣٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٨)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«ملاك التأويل» (٢/ ٥٠٩)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص ٢٩٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٣٠٧)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

وسورة ﴿ نٓ ﴾ أشهر أن تسمى بالقلم، أما هذه السورة فالأشهر أن تسمى: «العلق»، أو ﴿ اقْرَأْ ﴾.

* عدد آياتها: تسع عشرة، وقيل: ثماني عشرة، وقيل: عشرون[1].

* وهي مكية بالإجماع، وأول ما نزل عند جماهير المفسرين، خصوصًا صدرها، وكان نزولها في رمضان ليلة السابع عشر منه[2].

* قصة نزول سورة العلق:

هذه السورة على وجازة ألفاظها، وقصر آياتها، بديعة المعاني رائعة الألفاظ، دقيقة الإعجاز، تُبهر العقول وتأخذ بالألباب، وهي أول سورة طرقت سمع النبي ﷺ.

نزلت بدايات هذه السورة في غار بعيد يصعب الوصول إليه (غار حراء)، حيث كان النبي ﷺ يعبد ربه فيه في ظل جاهلية جَهْلاء غطَّت عقول الناس وحياتهم، ومكة تضج بالأوثان، كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، والناس كما قال الشاعر:

أتيتَ والناسُ فوضى لا تمرُّ بهم ... إلا على صنمٍ، قد هام في صنمِ
والأرض مملوءةٌ جَوْرًا، مسخَّرةٌ ... لكلِّ طاغية في الخَلْق محتكمِ
مسيطرُ الفرس يبغى في رعيته ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عمِ[3]

تلك كانت الحياة الملأى بالضَّلالات والظُّلمات والجَهالات في جزيرة العرب خاصة، لا دين ولا دنيا، ولا حضارة ولا علم، وكان النبي عليه الصلاة والسلام

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٧٤)، و«زاد المسير» (٩/ ١٧٥)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٦٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٣٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: «الشوقيات» (١/ ١٩٧).

يتعبَّد كل سنة في غار حراء الشهر الذي يوافق شهر رمضان، فإذا بالمَلَك يأتيه، وكان أول ما يخاطبه به ويقرَع سمعَه هذه الكلماتُ.

وقد ذُكرت قصة نزول الوحي في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، وكيف أن النبي ﷺ في أول الأمر قال: «ما أنا بقارئٍ.. ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ». كل ذلك يأخذه ويغطُّه ويضغطه، حتى يبلغ منه الجَهد، حتى خشي على نفسه ﷺ، ثم قال له هذه الآيات.

والظاهر والله أعلم أن النبيَّ ﷺ قرأها في الموقف، ثم رجع إلى خديجة رضي الله عنها ترجف بوادره، وهو يقول: «زمِّلوني زمِّلوني». فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، ثم قال لخديجة رضي الله عنها: «أي خديجة، ما لي؟». وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيتُ على نفسي». قالت له رضي الله عنها: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتَصلُ الرحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِينُ على نوائب الحقِّ. ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتُبُ الكتابَ العربيَّ ويكتُبُ من الإنجيلِ ما شاء اللهُ أن يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خديجة رضي الله عنها: يا ابنَ عمِّ، اسمعْ من ابنِ أخيكَ. قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي، ماذا تَرى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه. فقال له ورقة: هذا النَّاموسُ الذي أُنزل على موسى ﷺ، يا ليتني فيها جَذَعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرِجُكَ قومُكَ. قال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟». قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدركْنِي يومُك أنصرْكَ نصرًا مؤزَّرًا[1].

والحديث يدل على أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وبها نُبِّئ النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ففي «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، أن النبي ﷺ قال- وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «**بينا أنا أمشي سمعتُ صوتًا في السماء، فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، قال: فرُعِبْتُ منه، ورجعتُ وقلتُ: زمِّلوني**». فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فحمي الوحي بعد ذلك وتتابع(1).

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد الأمر الأول، وهو أن سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر الملك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه بسورة اقرأ، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل سورة المدثر؛ أي: أول ما نزل بعد ما فتر الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول ﷺ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾، ثم فتر كما في حديث عائشة، ثم عاوده الوحي بسورة المدثر، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير.

وهو ما يقتضيه النظر، فإنه ﷺ نُبئ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأُرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فكانت ﴿ٱقْرَأْ﴾ نبوءة له، ثم أُرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١-٢].

إن التعبد الذي كان يعمله النبي ﷺ في غار حراء كان على ملة الحنيفية في عبادة الله تبارك وتعالى، وفي العبادة أنس للقلب، وراحة للنفس، وقرب من الله تبارك وتعالى، فكان النبي ﷺ يأنس بعبادة ربه؛ ولذلك سُميت: عبادة؛ لأنها تذلِّل النفس لطاعة الله تعالى، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل ما يكون العبد

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤)، و«صحيح مسلم» (١٦١).

حينما يقترب من ربه، فكانت العبادة له ﷺ أُنسًا لا يخالطه عناء، لكن الله سبحانه وتعالى أراد بسابق حكمته وبالغ رحمته أن يواجه الرسول ﷺ أمر الدعوة إلى الله عز وجل، وأمر توجيه الناس، وهذا فيه العناء والجهد والمشقة، وفيه الجرح والقتل والطرد والتكذيب والتعذيب؛ ولذلك لما جاء جبريل عليه السلام كان أول ما فعله مع النبي ﷺ أن أخذه وغطَّه، يعني: ضمَّه وضغطه وهزَّه، حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، وقال له: «اقرأ»: فقال له النبي ﷺ : «ما أنا بقارئ». أي: أنني لا أحسن القراءة؛ فأنا أميٌّ لا أقرأ ولا أكتب.

وقد جاء في بعض الروايات الضعيفة- وهي من المراسيل- أن جبريل عليه السلام جاء النبي ﷺ بديباجة فيها هذه السورة، فكان يقول له: «اقرأ ما هو مكتوب»[1].

ولا يلزم هذا التقدير، بل إن جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «اقرأ» كان المفترض أن يكون مع النبي ﷺ شيء يقرأ منه، أو يكون في صدره ما يقرؤه؛ فإن القراءة تطلق على ما يُقرأ من الورق، أو ما يقرأه الإنسان من صدره، فلو قلت لرجل: اقرأ. فقرأ من حفظه، لكان امتثل.

والله تعالى أمر المؤمنين بقراءة القرآن، فقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠]، وإنما سُمي قرآنًا؛ لأنه يُقرأ.

فجبريل عليه السلام كان يريد من النبي ﷺ أن يقرأ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: أنا لا أحسن القراءة؛ لأنه أمي، كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٩)، و«إتحاف المهرة» (٣/ ٢٩٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٠١).

فهذا معنى قوله: «ما أنا بقارئ»، مع أن البعض قد يظنها تأبيًا من النبي ﷺ، وكأنه يقول: لا، لن أقرأ. وليس هذا المعنى، إنما معنى قوله: «ما أنا بقارئ»، أي: لا أحسن القراءة، إنما أنا أميٌّ، ولم يسبق لي تعليم.

وفي الغَطِّ والضغط إشارة إلى أن مرحلة التعبد الناعمة التي تخلو بها بربك وتناجيه وتدعوه وتسأله دون تحمل مسؤولية تقلق مضجعك وتثقل ظهرك قد انتهت، وجاءت مرحلة أخرى جديدة تتحمل فيها ثقل الدعوة، وبلاغ الرسالة، وما يترتب على ذلك؛ ولذلك كانت هذه هي البداية، ثم جاءت بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:١-٢]، والأمر بالقيام فيه أمر بالنهوض والإنذار والبيان، ثم جاءت الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١-٢]، فعرف النبي ﷺ أنه دخل مرحلة جديدة وعهدًا فيه المشقة والتعب والعناء، ولكن في ذات الله عز وجل.

وفي قوله ﷺ: «ما أنا بقارئ» أنه كان خلوًّا من الترقب والتطلع والانتظار، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن في الجاهلية يترقب الرسالة ولا ينتظرها، خلافًا لما كان عليه كثير من الحنفاء وأهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت؛ فإنه كان ينتظر الرسالة، فلما كانت إلى النبي ﷺ حسده، وكفر، مع أنه مؤمن في قرارة نفسه؛ ولذلك لما قُرئ شعره على النبي ﷺ قال: «آمن شعره، وكفر قلبه»[1].

فالنبي ﷺ لم يكن يترقب شيئًا من ذلك؛ ولذلك قال الله عز وجل له: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا

(١) ينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (١٩٧٣)، و«التمهيد» (٤/ ٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٥٠)، و«تاريخ دمشق» (٩/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٠٣)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٩٢)، و«فتح الباري» (٧/ ١٥٤).

﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

* ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]:

لم يحدِّد المقروء، إما للعلم به، وهو القرآن، أي: اقرأ القرآن، أو اقرأ القدر الذي أعلِّمك إياه الآن.

أو المقصود: اقرأ كل ما يُحتاج إليه من علم نافع، فيكون أمرًا لأمته من بعده، ودعوة إلى طلب العلم النافع في أمر الدين أو الدنيا، فتكون الآية دليلًا على إيجاب طلب العلم المحتاج إليه، فمنه ما يجب على الأعيان، ومنه ما يجب على الكفاية، كما في حديث: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»[١].

نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو من أمة أمِّية[٢] يغلب عليها الجهل، وما كانوا يعرفون القراءة إلا نادرًا، كانت تُعرَف في اليمن والشام والعراق، أما عرب مكة والجزيرة فما كانوا يعرفون الكتابة، وكانوا يرونها من خصائص اليهود والنصارى؛ لأنهم أهلُ كِتاب، وفي الشَّاهد النحوي:

كما خُطَّ الكتابُ بكفِّ يومًا   يهوديٍّ يقاربُ أو يزيدُ[٣]

وربما وُجد في البلد كاتب واحد؛ فالناس يأتون إليه إذا كان عندهم ما يحتاجون إلى كتابته، أو قراءته.

وكانوا على ضلال مبين من عبادة الأوثان، فقد كان الواحد منهم إذا نزل في

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والبزار (٩٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٥٤٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥). وينظر: «العلل المتناهية» (١/ ٥٤-٦٦)، و«جزء فيه طرق حديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم» للسيوطي.

(٢) كما أخبر بذلك ﷺ: أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص ٢١٥)، و«عيار الشعر» (ص ٧١)، و«الموشح» (ص ٢٩٠) منسوبًا إلى أبي حية النميري.

مكان بحث عن أربعة أثافٍ، وجعل منها ثلاثة لِقَدْرِه، والرابع يجعله صنمًا يعبده، وإذا لم يجد أحجارًا يحثو بشيء من التراب يجمعه، ثم يحلب عليه الشاة -كما قال أبو رجاء العُطاردي- ثم يعبده[1]. وأما الكعبة فقد كان فيها ثلاثمائة وستون صنمًا.

أما الطب والصناعة والزراعة، فقد كانوا فيها على الفطرة والمعلومات الأولية، وأما التجارة فكانت محدودة.

كانت الجزيرة معزولة بصحرائها، ممتنعة عن أن تفرض عليها سلطة عالمية، مما جعلها معزولة عن التقدُّم والرقي والحضارة التي كانت عند غيرها، ولذلك تجد عجبًا أن يكون أول خطاب للرسول ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أول واجب على المكلَّف هو العلم؛ لهذه الآية، لأنها أول ما خاطب الله بها رسولَه صلى الله عليه وآله سلم»[2].

والناظر إلى أحوال الأمة العربية والإسلامية في عهد النبوة وما بعده يلحظ أنها حصَّلت علومًا كثيرة، بل استطاعت أن تتفوق بها على الأمم الأخرى، ثم تصلحها إصلاحًا شرعيًّا وتنشرُها بين الناس، ثم حصل التراجع المحزن للأمة، حتى آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة تدعو إلى العلم والتفكير، حتى في مصالح الحياة الدنيا، فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ [الأنعام:١٤١]، آيات تتحدَّث عن الزراعة والنبات، ومراحل تكوينه وأطواره، تلقتها الأمة من ربها، وليس من شيء يتعاطونه، بل بوحي القرآن الذي يعظمونه، وعلى ضوئه يتوقع أن

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٧).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٤)، و«الفتاوى الكبرى» (٢/ ٢٣٤)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ١١٦).

تكون الأمة خطت خُطوات كبيرة في العلم بحرث الأرض والزرع وألوانه وأنواعه وتكوينه وتنميته، وبناء الأرض واستعمارها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، مما يثير الاستغراب لهذا التخلف والتأخر العظيم عند المسلمين، وغالب بلادهم زراعية!

ومن السنة: الحديث الصحيح: «**ما أنزلَ اللهُ من داء إلَّا وأنزلَ له دواءً، علمهُ مَن علمَهُ، وجهلَهُ مَن جهلَهُ**»(١).

وهنا سَمَّى رسول الله ﷺ العلم بالأدوية علمًا، وسَمَّى عدم المعرفة به جهلًا، كما لقَّنه ﷺ لأمته، أنه ليس هناك داء أو مرض إلا وله دواء ، إلا الموت، وهذا مما يدفع الأمة للبحث والنظر والتجربة والتعليم، فهو كقول مَن يقول لك: إن الحل موجود فابحث عنه. ومن ثَمَّ يصبح لدى الإنسان دافع للبحث؛ ليُصاب دواء الداء، فيبرأ بإذن الله تبارك وتعالى، ولكن الأمةَ عِيالٌ على أمم الشرق والغرب في الطب منذ قديم، حتى قال الشافعي: «ذاك علم غلبنا عليه أهل الكتاب»(٢)!

ومع أن الله سبحانه وتعالى جعل أصولًا تنطلق الأمة منها إلى المعرفة والتعليم والاشتقاق والوصول، إلا أن الانقطاع عن ميراث النبوة، وعن الالتزام بهدي الله سبحانه وتعالى، والانشغال بأشياء بالَغْنا فيها، وأعطيناها أكثر مما ينبغي أخَّر المسيرة، وما وُجد سرفٌ إلا ومعه حقٌّ مضيَّعٌ.

إن العبادة بدون علم ضلالٌ، والدعوةَ بدون علم دعوةٌ إلى جهل، والجهاد بدون

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٢٢، ٤٢٦٧)، وابن ماجه (٣٤٣٨) من حديث ابن مسعود ﵁.
وأخرج البخاري (٥٦٧١) من حديث أبي هريرة ﵁ نحوه مختصرًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٥٠، ٢٨٧٣).

(٢) ينظر: «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٣٣٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٧)، و«طبقات الشافعيين» (ص ٣٢).

علم انتهاكٌ لحرمات وتطويحٌ بالعدل والإحسان، وهكذا كل الأعمال المشروعة، إذا لم تكن مستنيرة بنور العلم والبصيرة، فإنها لا تعطي نتيجتها وثمرتها، ولذلك يقول الشاعر:

يا طالبي علـمَ النبيِّ محمدٍ ما أنتم وسـواكـم بسـواءِ
فمدادُ ما تجري به أقلامُكم أعلى وأغلى من دمِ الشهداءِ

البداءة بالعلم بداءة منطقية وضرورية؛ لأن كل المطالب: من عبادة ومخالطة ودعوة وجهاد ومصالح دنيوية، كالتجارات وعلاقات الزواج، مفتَقِرة إلى العلم في ثمرتها الأخروية، وفي حصيلتها العاجلة.

تشير الآية إلى الترابط المطلوب بين العلم والدين، وإذا انفصل العلم عن الدين، فإنه ينذِر بوجود كارثة كبيرة : كما في قضية الاستنساخ والخلايا الجذعية والتعديل الوراثي والجيني للإنسان والحيوان والنبات، والذي يوشك أن ينفلت دون رقابة أو مسؤولية، فيكون عبثًا بالفطرة الإنسانية.

ومثله سباق الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية والجرثومية، والتي من الممكن أن تدمِّر البشر على وجه الأرض.

إن العلم الذي حضنه الإسلام، وتربى في المجتمع الإسلامي، كان له أثره على البشرية في تقدمها ورقيها وقربها من الله تعالى، وفي المحافظة على القيم والأخلاق والمبادئ، وحتى الذين لم يستنيروا بنور الإسلام استفادوا من هذه العلوم في تسهيل أمور دنياهم.

فربط القراءة باسم الله تأكيد على أن المعرفة منحة من الله للإنسان، وليست ظفرًا إنسانيًّا ينتهبه الناس من الآلة كما تزعم الأساطير اليونانية، وهو دعوة إلى تكريس المبدأ الأخلاقي للعلم والذي غايته نفع البشرية وخدمتها وليس تدميرها.

لقد بُدئت السورة بالأمر بالقراءة، وخُتمت السورة بالأمر بالسجود: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩]، وتوسطت بذكر الصلاة: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٩-١٠]؛ وذلك أن أعظم أقوال الصلاة ذكر الله تعالى وقراءة القرآن، وهو ما بُدئ بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وأعظم أفعالها هو السجود، وهو ما خُتمت به السورة.

والعبد يبدأ صلاته قائمًا، ثم يركع، ثم يسجد، ثم يقعد، ثم يسجد، فكان السجود هو آخر ما يُراد في الصلاة، وهو أكمل ما يكون من العبودية لله سبحانه وتعالى؛ حيث يعفر الإنسان جبهته ووجهه لله عز وجل؛ ولذلك قال ﷺ: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»[1].

كرر لفظ: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ في السورة مرتين: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١]، الثانية: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣]. والتكرار للتوكيد، وترسيخ المعلومة، والأمر الأول بطلب الامتثال، والأمر الثاني لتوكيد حصول العلم بالقراءة، وأن هذا فضل من الله الأكرم، فمَن قرأ عرف!

وهو دعوة للمداومة وعدم الانقطاع، والمحاولة وعدم اليأس، والقراءة الأولى للتعلم والفقه، والثانية للتعليم والدعوة ونفع الناس.

وتكررت كلمة ﴿ رَبِّكَ ﴾ ثلاث مرات: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١]، الثانية: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣]، الثالثة: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨]. وكلها تأكيد للُّطف والرحمة وأنها بداية الرسالة، ولذا كان النبي ﷺ رحمة للعالمين.

أما كلمة: ﴿ خَلَقَ ﴾ فإنها مكررة مرتين: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق:١-٢]؛ فالخلق الأول خلق مطلق يشمل خلق السماوات والأرض والملائكة

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والجن والإنس والدنيا والآخرة، وما نعلم وما لا نعلم، والثاني خاص بخلق الإنسان.

وكلمة: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تكررت ثلاث مرات: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢]، الثانية: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:٥]، الثالثة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ [العلق:٦].

فالأولى لذكر الخلق والفطر، والثانية للتعليم وقابلية المعرفة لدى الإنسان، والثالثة للتحذير من الطغيان بالعلم، وبيان أن العلم إذا انفصل عن القيم والأخلاق والفضائل صار طغيانًا.

أما كلمة: ﴿عَلَّمَ﴾ فقد كررت مرتين: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:٤-٥].

وهذا يسمى عند أهل القراءات بالترديد، وهو وجود كلمة تتكرر في القرآن مرتين متجاورتين بلفظها، وكثير من الناس لجمال القرآن وبلاغته وإعجازه لا يفطنون لهذا إلا إذا نُبِّهوا عليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق:٥-٦]، وقوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة:١٠٨]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الروم:٦-٧]، وقوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه لفظ الجلالة مرتين متجاورتين.

والتكرار يدخل في باب التثنية أو المثاني؛ فإن الله تعالى وصف القرآن بأنه مثاني فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر:٢٣].

والتثنية ليس المقصود بها أن يكون العدد اثنين، بل هي بداية العدد مطلقًا، أي: تكرار العدد، كما في قوله عز وجل: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك:٣-٤]، فليس المقصود هنا مرتين فقط، وإنما المعنى: كرِّر النظر إلى السماء، وتأمَّل النظر في ملكوت الله تعالى مرة بعد مرة حتى تعتبر وتؤمن.

وفي هذا إشارة إلى ثنائية الخلق ووحدانية الخالق تعالى، والله تعالى يأمر وينهى، والإنسان عبد مربوب مأمور مطيع.

والله سبحانه كريم ذو فضل عظيم وعطاء جزيل، وكل خير فمنه وإليه، والإنسان فقير بطبعه، منتظر متطلع إلى عطاء الله تبارك وتعالى وتعليمه.

ويدل على ذلك قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؛ فإنه اختار من أسماء الله تعالى لفظ «الرب» الدال على الملكية والخلق والتدبير، كما يقال: رب الأسرة، أو رب المنزل، أو رب الإبل، أي: مدبِّرها ومتولِّي شؤونها ومصرِّف أمورها، فالله سبحانه وتعالى هو الرب المدبِّر، وقد ناسب اختيار هذا المعنى باعتبارين:

١- الإشارة للنبي ﷺ ولكل مخاطب إلى أن الطريق طويل وشاق، وفيه عناء وأشواك، والاستعانة بالله عز وجل تذلل الصعاب، يقول كثير من العلماء: إن الباء في قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ للاستعانة، يعني: اقرأ مستعينًا بالله تعالى، كما أنك حينما تعاني أمرًا من الأمور تقول: بسم الله. يعني: أستعين بالله على هذا العمل، وقال عز وجل في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وفيه إشارة إلى أن العبد لا يستطيع أن يقوم بالتبعات: العلم والدعوة ومسؤوليات الحياة إلا بالاستعانة بالله؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

٢- أن كلمة «الرب» تشير إلى القرب والعناية والمعية والرأفة.

و«الرب» هو الاسم المناسب للمقام؛ لأن النبي ﷺ كان مرعوبًا من هذا المَلَك

الذي فاجأه وهو في الغار، وقد طرق سمعه لأول مرة ناموسٌ يقول له: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وهذا تكليف وإشعار بأن النبي ﷺ ابتدأ الآن حياة جديدة مبنية على التعبد، والانقياد والأمر والنهي.. فالأمر كان كبيرًا؛ ولذلك فزع النبي ﷺ؛ فلما قال: ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ كان هذا مشعرًا باللُّطف، وأنه هو الذي ربَّاك وتعهدك، وحمَاك في الجاهلية مما كان يفعله أهل الجاهلية، وحفِظَك وتولَّاك، وأعانك حتى كنتَ تتعبَّد في مثل هذه الأوقات، فضلًا عن الإشعار بالحفظ في المستقبل.

فهو ربك الذي سيتعاهدك ويحميك في إقامتك وسفرك، وحِلِّك وظعنك، وحربك وسِلْمك، وليلك ونهارك، فهي تذكير بالماضي، وتطمين للمستقبل.

لقد كان ورقة يقول للنبي ﷺ: «**لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إِلَّا عودي**»؛ لأنه يدري بعلمه بالكتاب والنبوات السابقة أن مهمة الرسول ﷺ تغييرية؛ وإنه جاء ليغير عقول الناس وسلوكهم وأخلاقهم وعقائدهم وعباداتهم، وأن هذه المهمة الشاقة لا تتم إلا بالاستعانة بالله، فهو محتاج إلى التزود الدائم من العلم، وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بالله، ومحتاج إلى بذل هذا العلم للناس، وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بالله، والرب هو الذي يمدك بعطاءات ربوبيته، ويمنحك فيوض معرفته كلما ازددت من القراءة طلبًا للعلم النافع، وهو الذي يفتح لك من الأبواب والمسالك لاكتساب المعارف مما يجر إليه تسلسل الفكر، وترابط الذهن ما لا يمكن أن تجده إلا بعونه.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أمر بالقراءة، ثم أشار إلى الخلق، فربك هو الخالق المعبود، كما قال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهنا يظهر زيف الأصنام، ويتجلَّى الإقرار المطلق بالوحدانية التامة لله تعالى؛ لأنه ما من أحد ادَّعى الخلق مع الله سبحانه وتعالى.

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢]:

فيه إشادة بالإنسان، فبعد أن ذكر المخلوقات كلها كرَّمه وخصَّصه، وأي تكريم أعظم من أن يختار الله تعالى من جنس الإنسان نبيًّا يوحي إليه، كما قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وهذا من الاحتفاء والتكريم، نقيض ما كان المشركون يقولون: كيف يكون نبيًّا وهو بشر؟

وثَمَّ معنى آخر، وهو أن كون الإنسان محلًّا للابتلاء، هو في حقيقته تكريم؛ لأن الحيوانات والطيور والجمادات ليست مخاطبة، أما الإنسان فقد كرمه الله تعالى واصطفاه، وخاطبه وكلَّفه وميَّزه بالعقل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾: قد يكون العلق اسم جمع لعلقة، ولم يقل سبحانه: (خلق الإنسان من علقة)؛ لأن المقصود بالإنسان الجنس وليس الفرد، كما في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، يعني: خلق الناس، وهنا ناسب أن يكون خلق الناس من علق، وقد يأتي التعبير في القرآن أحيانًا بصيغة المفرد، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج:٥].

والفرق أن سياق «سورة العلق» خبر عن جنس الإنسان، أما «سورة الحج» فهي خطاب مباشر، والخطاب يتجه عادة للفرد ويحسِّن حفز كل مستمع أن يشعر أنه المقصود دون سواه، ولذا عبَّر بلفظ الفرد، والله أعلم.

و«العلقة» مرحلة من تكوين الجنين، والإنسان يُخلَقُ من الحيوان المنوي، وهو من الأحياء الدقيقة التي لا يمكن مشاهدتها إلا بمكبرات ضخمة، وعندما يلقح

البويضة يبدأ وجود الإنسان، وقد تكون العلقة هي هذا الحيوان المنوي، والأقرب من سياقات القرآن أن المقصود بالعلقة مرحلة متقدِّمة، لأن الإنسان لم يُخلق من الحيوان المنوي للذكر فقط، وإنما مع بُويضة المرأة، فالأنسب أن تكون العلقة بعد التلقيح، ولهذا قال: ﴿ خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾، والنطفة ماء الرجل، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج:٥] وهي تشبه العلقة الموجودة في الماء حيث تعلق في رحم المرأة.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾: فيه إشارة إلى الفرق بين الإنسان وبين العلق، بين هذه المادة التي تخلق منها ومر بمرحلتها وبين كونه إنسانًا قد كرمه ربه وسواه وعدله، ورزقه العقل، وفرض عليه التكليف، فثَمَّ نقلة بعيدة بين هذا وذاك، وسرعان ما يسرح الخيال مقارنًا بين علقة لا ترى إلا بالمجهر وبين إنسان سوي قائم عاقل قارئ مكرم، ولهذا قال تعالى عن الكفار: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾. ثم رد بقوله: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج:٣٨-٣٩]، فهم يعرفون مِمَّ خُلِقوا؟ كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٦]، وكأن المعنى أن المادة التي خُلِقْتَ منها لا تؤهِّلُكَ للمطالب العالية بمجردها إذا لم تستخدم الوظائف التي أَقْدرك عليها الله سبحانه.

* ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣]:

﴿ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ هنا ليست صفة مبالغة بقياس الله تعالى لأحد من خلقه، فالله تعالى له من الكرم والجود والفضل ما لا يقاس به أحد؛ لأن كرمَ المخلوقين كلَّه في بعض ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكرَمُه في خلقه للعباد، ومنحهم العقول والأفهام، ووضع هذا الكون الفسيح الممتد المحكم المنضبط وتمكينهم من قراءة نواميسه وتسخيره لهم، ثم بإنزال الرسالة إليهم، ولم يكِلْهم إلى أنفسهم.

* ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٤-٥]:

فيه إشارة إلى أن العلم من أعظم الكرم الرباني، والكرم يشمل الحياة والصحة والعافية، والجوارح والسمع والبصر، والعقل واللسان، وكل الفضائل والنعم كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، ولكنه نص هنا على نوع خاص من الكرم وهو التعليم بالقلم.

والله تعالى هو المعلِّم، ولم يبين من هو المعلَّم، فدخل في ذلك الإنسان والملائكة، وكل ما يصلح للخطاب.

وفي الآية لفتة إلى أن النبي ﷺ لم يكن كاتبًا، وأنه لا يزال أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فلم تُشر الآية إلى تعليم النبي ﷺ نفسه بالقلم، وفيه إلماح إلى عدم زوال الأمية عن النبي ﷺ، فهي بالنسبة له كمال، في حين أنها بالنسبة لغيره نقص، ولهذا يقول القائل:

إن أميةَ الرسولِ قضَاها الـ ـله عن حكمــةٍ لها بينــاتُ
كلُّ أميةٍ سواها يسيـحُ الـ ـجهلُ فيها وتسبحُ الظلماتُ

ففي أميته الدلالة على مصدر تعليمه، وهو الوحي، ومع أميته فهو سيد العلماء، وإمام الفقهاء ودليل العارفين، وقائد الدعاة، وهو الذي قال: «**نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقَهُ منه**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٥٠، ١٦٧٣٨، ١٦٧٥٤)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠، ٢٣١)، والحاكم (١/ ٨٦-٨٨) عن جماعة من الصحابة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤).

وفيها إشادة بالقلم، حتى في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، فإن جميع وسائل الحفظ لا تخرج عن مفهوم القلم والكتابة، ويظل القلم هو سيد الأدوات والآلات ويظل للكتاب مقامه ومكانته، ولا تجد بيتًا إلا وفيه مكتبة، وثقة الناس بالكتاب لا زالت أكثر من ثقتهم بأي وسيلة إعلامية أخرى.

وقد ذُكر القلم في مواضع، منها هذا الموضع، ومنها: قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤].

وإذا كانت ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي أول الأوامر، فإن القلم هو أول المخلوقات، كما في «سنن أبي داود»: «**أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[١].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القلم أول المخلوقات، وذهب آخرون إلى أن العرش قبله.

ومعنى الحديث السابق: أن الله أول ما خلق القلم قال له ذلك، وليس المعنى أن القلم هو أول مخلوق.

والراجح: أن العرش متقدِّم على القلم، وأن القلم خُلق بعده، ولهذا معناه ودلالته[٢].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، وأحمد (٢٢٧٠٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٤٦)، (٢٣/ ١٤٠-١٤٧)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢١)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٧٥)، (١٨/ ٢١٣)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص٢٦٥).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن الأقلام اثنا عشر، منها قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، ومنها قلم الوحي الذي يُكتب به الوحي الذي ينزله الله تعالى على أنبيائه ورسله، وقد وصل النبي ﷺ يوم الإسراء والمعراج إلى مستوًى يسمع فيه صريف الأقلام، ومنها قلم التوقيع عن الله عز وجل، وهو قلم المفتين والفقهاء الذين يبيِّنون للناس شريعة الله، ومنها قلم الطب، أي: طب الأبدان الذي يحفظ صحة الإنسان ويدفع عنه المرض، ومنها قلم الملوك والساسة والمدبِّرين في الأوامر والنواهي والقوانين، وقلم الحساب، وقلم الحكم والقضاء، وقلم الشهادة، وقلم التعبير، يعني: تعبير الرؤيا، وقلم التاريخ وتدوين الحوادث، وقلم اللغة وكتابة المعاني، والقلم الجامع لرد الشبهات والأباطيل[1].

يقول أبو تمّام في وصف القلم:

لـكَ القـلـمُ الأعلى الـذي بـشَـبَـاتِــهِ
تصابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ

لـعـابُ الأفاعـي القـاتـلاتِ لـعـــابُـه
وأَرْيُ الجَنَى اشتَارتـه أيدٍ عواسلُ

فصيحٌ إذا استنـطـقْـتَـه وهـــو راكـــبٌ
وأعجـمُ إن خاطبـتَه وهو راجلُ

أطـاعـتْـه أطــرافُ القَنـا وتـقـوَّضـتْ
لنجواهُ تقويـضَ الخيامِ الجحافلُ

وقد رَفَــدَتـه الخِـنـصَـران وشـــدَّدت
ثـلاثَ نـواحـيه الثلاثُ الأناملُ

---

(١) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٠٦- ٢١٢).

لــه ريــقــةٌ طــلٌّ ولــكــنَّ وقـعَـهـا
بآثـارِه في الشرقِ والغـربِ وابلُ

له الخَـلَـواتُ الـلَّاءِ لــولا نـجـيُّـهـا
لما احتفلـتْ للمُلكِ تلك المحافلُ

إذا ما امتطى الخمسَ اللطافَ وأفرغتْ
عليه شعـابُ الفكرِ وهْي حوافلُ

إذا استغزرَ الذهـنَ الذكـيَّ وأقبـلـتْ
أعاليـه في القرطاسِ وهْي أسافلُ

رأيــتَ جليلًا شـــأنُـه وهْـو مـرهـفٌ
ضنًى وسمينًا خطبُه وهْو ناحلُ[1]

إن أُميَّةَ الرسول ﷺ هي أمر خاص به من باب الإعجاز: حتى لا يظن أحد أنه تلقن ذلك من بشر أو تعلَّمه من كتاب، كما قال تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، ولذلك ظل ﷺ أميًّا حتى مات، على القول الصحيح من أقوال أهل العلم، ولم يكن يقرأ ولا يكتب.

وأما ما ورد في صلح الحُدَيْبِيَة من أن النبي ﷺ كتب «محمد» بدل «رسول الله» كما في بعض الألفاظ في «صحيح البخاري»، فقيل: إن المعنى: أنه أمر مَن يكتب، وقال بعضهم: إنه لا مانع أن يكون الرسول ﷺ تعلَّم هذه الكلمة فقط؛ لأنها اسمه الكريم، ومن السهل على كثير من الناس حتى لو كانوا أميين أن يعرف الواحد منهم كيف يرسم اسمه دون أن يكون قادرًا على الخط والكتابة، وهذا ما ذكره الذهبي وغيره.

(١) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص ١٣٨-١٣٩).

وقد تحمل الإمام الباجي عناءً كبيرًا حينما تبنى القول بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يكتب وقال به، ورد عليه كثير من الناس، وشنعوا عليه، وبالغوا في ذلك، كما هي عادة الأقران بعضهم مع بعض(١).

فالإشارة إلى القراءة بالأمر الإلهي ثم إلى الكتابة بذكر القلم هي دعوة لهذه الأمة أن يقرؤوا ويتعلَّموا، ويفتحوا كنوز العلم، ويتخلَّصوا من أميتهم، ويبدأوا مسيرتهم العلمية المترقية في كل مجالات العلوم، فليست هذه فضيلة لأحد بعد الرسول ﷺ، فالأمة مأمورة بالقراءة والكتابة والتعلم والتعقل والتفكير.

وفي ذكر الكرم الإلهي وعد لطالب العلم إذا صدق وبدأ عمله باسم الله تعالى، مستعينًا به، صادقًا في نيته، مفوِّضًا إليه، باذلًا للأسباب؛ أن يعينه الله ويساعده، ويذلل له العقبات؛ ولهذا قال: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:٥]، يعني: علم الإنسان الأشياء التي لم يكن يعلمها من قبل، ولذلك قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ﴾ [النساء:١١٣]، فهو علم نبيه من الوحي ما لم يكن يعلم، وعلم الإنسان - جنس الإنسان- ما لم يكن يعلم.

* ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق:٦]:

وهذا أول موضع ترد فيه كلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ من حيث النزول، وقد وردت كلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ في القرآن الكريم في ثلاثة وثلاثين موضعًا، منها ثلاثة مواضع في هذه

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢٥١)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٤٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٥٢)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٢٢٠)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠٣)، (٨/ ٢٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١٠).

السورة، وغالبًا في القرآن المكي؛ لأن كلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ فيها معنى الزجر والتوبيخ والتهديد والوعيد، وهذا مناسب لعناد الكفار وتكذيبهم وإيذائهم لرسول الله ﷺ.

وإلى هذا المعنى ذهب فقهاء البصرة، وسيبويه والخليل المُبَرِّد والزَّجَّاج وجماعة[1].

وذهب آخرون إلى أن ﴿ كَلَّآ ﴾ تأتي بمعنى «حقًّا»، وقد تكون حرف جواب، بمعنى: «إي» أو «نعم»، وقد تكون حرف استفتاح، بمعنى: «ألَا»[2].

وهذه الآيات الكريمة المبدوءة بـ﴿ كَلَّآ ﴾ متراخية في النزول عن أول السورة؛ فإن الآيات الخمس الأولى هي أول ما نزل في غار حراء، ثم جاءت فترة الوحي، فتأخر الوحي عن النبي ﷺ مدة اختلف المفسرون وأهل السيرة في تحديدها، قال بعضهم: سنتين، وهذا مستبعد؛ فإن النبي ﷺ كان يتطلع إلى الوحي، وخلال هذه الفترة جدَّت أحكام أخرى، فيحتمل أنه نزل وحي آخر غير القرآن والله أعلم[3].

واستفتح السياق الجديد بـ﴿ كَلَّآ ﴾؛ لأن الحديث انتقل إلى المكذِّبين المعارضين، فناسب أن يبدأه بالزجر والتعنيف والتهديد.

لقد سبق ذكر خلق الإنسان من علق، وهنا يظهر التناسب اللطيف بين الموضعين، بين إنسان مخلوق من ماء مهين، ثم من نطفة، ثم من علقة، وبين هذا الإنسان المكتمل النمو؛ فهو يزهو بنفسه ويطغى بما أوتي من غنى ومال وولد وقوة وجاه.

---

(١) ينظر: «مغني اللبيب» (ص ٢٤٩)، و«اللامات» للزجاجي (ص٣٦)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٤٦).

(٢) ينظر: «مغني اللبيب» (ص٢٥٠)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧).

و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هنا يحتمل مقصودين:

١- عموم الناس.

٢- شخص معين، وهو أبو جهل؛ وقد جاء في الحديث الصحيح، أن أبا جهل لما رأى النبي ﷺ يركع ويسجد ويعفِّر وجهه، قال: واللات والعُزَّى، لئن رأيته يفعل ذلك، لأَطَأَنَّ على رقبته، أو لأُعَفِّرَنَّ وجهَهُ في التراب. قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي، زَعَمَ ليَطأ على رقبته. قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو ينكُصُ على عَقِبَيْهِ ويتَّقِي بيديه. فقيل له: مَا لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخَنْدَقًا من نار وهَوْلًا وأجنحةً[1]. فتراجع ولم يتعرَّض للنبي ﷺ.

ونلاحظ أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي جهل نصًّا في الآية، مع أنه «فرعون هذه الأمة»، وقد سبق في علم الله أنه يموت يوم يموت كافرًا، ومع ذلك لم يسمه ربنا؛ لنتعلَّم من هذا الأدب أنه ينبغي على الإنسان أن يحرص على عفة اللفظ والقول، وألَّا يسمِّي إلا إذا كان ثمَّة حاجة إلى التسمية؛ لأن أولئك الناس هم محل دعوة، وقد يؤمنون وقد يسلمون، وقد يستقيمون، فأبقِ لهم فرصة، وابن لهم جسرًا يعبرون به إلى الخير، ولا تحاول أن تحاصرهم بأخطاء أو بأسماء، أو بأغلاط، وكأنك لا تريد أن يخرجوا من أخطائهم، أو كأنك ترى أن الخير والإسلام خصوصية وملكية شخصية لك، فكلما كثر الناس عليها قل نصيبك منها، وكأنك تقول: ماذا بقي لي إذا كان كل الناس أخيارًا وصلحاء ومستقيمين، وطلبة علم، ودعاة؟! وهل المطلوب أنك تتميز؟

يحسن أن نتعلم من القرآن الكريم أن نوصل الرسالة بدون أن نجعل فلانًا وفلانًا وسيلة إيضاح، ومن سب الناس سبوه، وكما قال الشافعي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومَن هاب الرجالَ تهيَّبُوه ومَن حَقَرَ الرجالَ فلن يُهَابا[1]

ولو مت وأنت لم تلعن فرعون ولا أبا جهل، فلن يحاسبك الله على ذلك يوم القيامة، فكيف بأخيك المسلم؟ فلماذا لا تعود لسانك العفة في اللفظ؟! وتصريف القول في معالي الأمور: في بناء النفس، وفي العلم، والعمل، والإخلاص، ومصالح الدنيا، وبناء الخير، وصناعة الحياة.

وهنا عبر بـ «يطغى»، وفي «سورة طه» كان الحديث عن فرعون، فعبر بلفظ: ﴿طَغَىٰ﴾، والتعبير هنا أشد من التعبير عن فرعون موسى؛ والسبب -والله أعلم- أن الآية نزلت وأبو جهل حيٌّ يرزَق، يمارسُ طغيانَه ويفعلُه، فهي تتكلم عن أمر يقع الآن ويقع في المستقبل، وليس عن أمر مضى، وإن كان قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤] خطاب لموسى عليه السلام، لكنه نزل في القرآن الكريم حكايةً عمّا كان.

ولا يبعد أن يقال: إن طغيان أبي جهل أشدُّ من طغيان فرعون، لأنه حتى قبل النبوة ما كان يعرف عن أبي جهل حسن المعاملة مع النبي ﷺ، بخلاف فرعون موسى الذي تربَّى في قصره: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨]، ثم لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، بخلاف أبي جهل فرعون هذه الأمة لما ضُرب في معركة بدر وخَرَّ صريعًا ولم يمت كان يقول: لَمن الدائرة اليوم؟ ولما رقي ابن مسعود رضي الله عنه على صدره قال: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيعِيَ الغنم[2]. فكانت بدايته ونهايته الطغيان، ولا يبعد أن يكون في قلب أبي جهل

(١) ينظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧).

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٨٩-٩٠)، و«سيرة ابن هشام» (٣/ ١٤٨)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٥٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥٩٧٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٨٥-٨٦)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٣٧، ١٥٩).

من العتوِّ والتمرُّدِ والطُّغيان أشدَّ مما في قلب فرعون.

* ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٧]:

يعني: أن رأى نفسه؛ فالغنى في حد ذاته ليس المشكلة، وإنما المشكلة هي رؤية الإنسان ذاته مستغنيًا مغرورًا.

وهنا نلاحظ الفرق اللطيف بين قوله هنا: ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ وبين قوله في «سورة الليل»: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾، لم يقل: (ورآه استغنى)، لأنه هنا يبيِّن سبب الطغيان، وسبب الطغيان ليس هو الغنى، وإنما هو شعور الإنسان بالاستغناء عن الله سبحانه وتعالى، وفي الآية دلالات نفسية عميقة، فالإنسان إذا تُرِك وشأنه كبرت عليه نفسه.

والإنسان إذا شعر بالاستغناء في العلم حمله ذلك على الطغيان والكِبر والعُجْب، كما قال قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨]، وكذلك الاستغناء بالعلم على مستوى الأمم؛ فالغرب لديهم حضارة وعلم، ولكن شعورهم بالاستغناء، وافتقادهم للقيم الإيمانية الربانية أوجد عندهم طغيانًا ونسيانًا لحق الله.

والطغيان يمنع الإنسان من قبول الحق، ولذلك من فضل الله تعالى على العبد أن يرزقه التواضع، وكثرة مراقبة النفس، وبقدر ما تراقب الآخرين راقب نفسَك ولاحظْها، وتعاهدها، وانتبه إلى أنه تعالى قد يسخِّرُ لك حتى من خصومِك وأعدائك مَن يعينك على نفسك؛ حتى لا تكبُر نفسُك وتؤذيك.

والذي تعوَّد أن لا يسمع إلا المدح، تطرُب أذنُه للمديح، ويستلذُّ به، فإذا سمع صوتًا ينتقد، أو يصحِّح، أو يستدرك، أو يقتصد في الثناء؛ أصبح نشازًا في أذنه، وقد يكره صاحبه أو يظنه متحاملًا، ولو أن أحدنا سمع النقد والذم والتوجيه والملاحظة لمدة عشر سنوات بلا انقطاع، ثم توقف عنه ذلك أسبوعًا لا يسمع فيه إلا الثناء والمدح، فإن طبعَه يفسد أثناء الأسبوع، حتى لو جاءه في اليوم الثامن مَن ينتقده، لما

وجد الأريحِيَّة والتقبل الذي كان يجده من قبل.

فمن رحمة الله وحكمته أن يقع للبشر نوع اختلاف، وعلى الإنسان دائمًا أن لا ينظر للأمور نظرة محدودة، فلله سبحانه وتعالى في خلقه شؤون، وهذا يعوِّد الإنسان أن لا يرى نفسه ولا يستغني بعلم أو مال أو سلطان، أو خبرة، أو جاه، ولذلك كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «مَنهومان لا يشبَعان: صاحبُ العلمِ وصاحبُ الدُّنيا، ولا يَستويان، أمَّا صاحِبُ العلمِ، فيزدادُ رضًا للرحمنِ، وأمَّا صاحبُ الدُّنيا، فيتَمادى في الطُّغيانِ»[1].

وفي القرآن الكريم ذم الأَثَرة أو الأنانية؛ كقوله تعالى إخبارًا عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقال: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨].

وقد علَّم النبي ﷺ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن يقول: «**اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**»[2].

حدث مرة في بلاد الأندلس أن أُصيبت بقحط وجَدْب، فجاع الناس وهلكت المواشي، وتواعد الناس للخروج لصلاة الاستسقاء، وأرسل الأمير عبد الرحمن الناصر إلى الفقيه المنذر بن سعيد القاضي يأمره بالخروج، فقال القاضي للرسول: يا ليتَ شعري ما الذي يصنعه الأميرُ يومنا هذا؟ فقال: ما رأيتُهُ قَطُّ أخشعَ منه الآن، قد لبس خشنَ الثياب، وافترَشَ الترابَ، وجعله على رأسه ولحيته، وبكى، واعترفَ

(١) أخرجه الدارمي (٣٤٤)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٠٠٩)، والآجري في «أخلاق العلماء» (١/ ٦٨)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

بذنوبه، ويقول: هذه ناصيتي بيديكَ، أَتُراكَ تُعَذِّبُ هذا الخلقَ لأجلي؟ فقال القاضي: يا غلامُ احمل المِمْطَرَ[1] معك، فقد أَذِنَ الله بسقْيانا؛ إذا خَشَعَ جَبَّارُ الأرض رَحِمَ جَبَّارُ السماء. فاستسقى، وسُقِيَ الناس[2].

* ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨]:

﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: الرجوع، وأول مراحل الرجوع: الموت، ثم الدار الآخرة، وفي هذا تذكير لذلك الإنسان الذي «طغى» وكبرت عليه نفسه، فقد ذكَّره أولًا أنه «خُلق من علق»، ثم ذكَّره آخرًا أن «إلى الله الرجعى»، فكأنها تقول: إن الإنسان محصور بين بدايةٍ من علق، ونهاية إلى تراب، ثم رجوع إلى رب الأرباب، فكيف له أن يتمرَّد أو يتكبَّر أو يطغى، فعليه أن يلغي كبرياءه وغروره ويعرف قدر نفسه.

وهي دعوة للإنسان أن يتواضع لربه ويعرف قدره، فالغنى وتملُّكُ المال لا يكون مذمومًا إذا راعى فيه ثلاثة أمور:

١ - أن يكون طلبُ المال من حلال، لا عدوان فيه ولا ظلم.

٢ - أَلَّا ينفقه فيما حرَّم الله.

٣- أَلَّا يَحجزَه عما أوجبه الله عليه فيه، من زكاة وإطعام الفقراء والمساكين والمحاويج ومَن تجب عليه نفقتهم.

* ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ تدل على التعجب من حال هذا الإنسان الذي لم يكتف بالإعراض عن

(١) هو ما يُلبس في المطر يُتوقَّى به.

(٢) ينظر: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» (ص٢٥١-٢٥٢)، و«الكامل» لابن الأثير (٧/ ٣٤٧)، و«تاريخ الإسلام» (٢٥/ ٤٤٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٦٣)، (١٦/ ١٧٧)، و«البداية والنهاية» (١٥/ ٣٨٠)، و«نفح الطيب» (١/ ٥٧٣).

الصلاة، بل نهى المصلِّين عن الصلاة، والنهي هنا يدل على الزجر والتهديد والوعيد لمَن فعل، وهو أبو جهل نهى النبي ﷺ عن الصلاة، وكان يؤذيه بقبيح الكلام.

و«العبد» هنا هو الرسول ﷺ، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيد العابدين، ومع ذلك فإن الله تعالى أتى بهذا اللفظ ﴿عَبْدًا﴾ نكرة، وفي هذا معان:

١- افترِضْ أن أي إنسان نهى أي عبد، وليكن هذا العبد من ضعفاء الناس أو من أطرافهم، المهم أنه عبد يصلِّي، ويأتي آخر ينهاه عن طاعة الله، فهذا تشنيع لهذه الجريمة، أيًّا كان الشخص الذي وقعت عليه، أو وقعت منه.

٢- وفي ذلك تشريف لمقام النبي ﷺ وثناء عليه بالعبودية، وتعريض بخصمه المتجرِّد من تحقيق هذه الفضيلة.

وهذا شيء مثير للغرابة؛ فهو ينهاه عن الصلاة التي هي عبودية لله تعالى، والله تعالى وصف محمدًا ﷺ بالعبودية في مواطن كثيرة، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، يقول الفُضيل بن عِياض:

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وكِدْتُ بأَخْمَصي أطأ الثُّريَّا

دخولي تحتَ قولك: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ ... وأنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبيًّا[(١)]

نسبته ﷺ إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، لما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا[(٢)]، فمقام العبودية هو أشرف المقامات التي

---

(١) ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٩)، و«خلاصة الأثر» (١/ ١٦١).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ: أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢).

وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا ﷺ.

٣- وفي ذلك إشارة إلى تناقض ذلك الناهي؛ لأن من شأن العبد أن يصلِّي لمولاه وسيده، فكيف يتجرَّأ على نهيه وتهديده؟ وربما كان من إيحاءاتها أن الناس ليسوا عبيدًا لك يا أبا جهل لتنهاهم كما يفعل السادة مع عبيدهم، بل هم عبيد لله وحده.

٤- وفيها تبشيع الفعل؛ لأن السامع إذا سمع ﴿يَنْهَىٰ﴾ تبادر إلى ذهنه تساؤل: ينهى عن ماذا؟ وقد يتخيَّل قائمة طويلة من المنهيات، ثم يفاجئه السياق بأن النهي ليس عن شيء منها، بل عن الصلاة التي هي سرور النفس وقرة العين ومعراج الروح وسلوة الفؤاد.

وكان النبي ﷺ يأتي إلى الكعبة يصلِّي ويعبد، فأتاه أبو جهل فنهاه، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والاستهانة بقيمة الإنسان، الذي خلقه ربه وعلَّمه ما لم يكن يعلم، واستعبده في الأرض، فتسلط من الطغاة من يمنع هذا الإنسان من أن يؤدِّي شيئًا من العبادة، ولو مجرد الصلاة، وهي سلوك شخصي صرف.

* ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق:١١-١٢]:

الراجح أن المقصود هو النبي ﷺ، وليس أبا جهل[١].

وفي الآية تنزل للخصم أيًّا كان المقصود بذلك، فهي تقول: هب أنه على الهدى، يأمر بالتقوى احتمالًا فلماذا تنهاه؟

والمؤمن مطمئنٌّ قلبه بالإيمان، وعلى بينة من ربه، والنبي ﷺ كذلك، لكن في مقام المخاطبة والدعوة يأتي مثل هذا الأسلوب الذي يستمِيلُ القلوب، ويهز قناعة كثير من الناس.

(١) ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٩)، و«خلاصة الأثر» (١/ ١٦١).

فمن أساليب الدعوة التنـزل في الخطاب على أسلوب: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، ثم قال بعدها: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ [سبأ:٢٤-٢٥].

ففيما يتعلق بفعلنا أنتم لا تسألون عما أجرمنا، يعني: فيما تعدونه أنتم جرمًا: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٥]، ولم يقل: عما تجرمون، وهذا لم يغير من الحقيقة شيئًا، لكنه جاء بصياغةٍ تستمِيلُ القلوب.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾: قوله: ﴿عَلَىٰٓ﴾ يدل على التمكن، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة:٥]، يعني: أنهم على هذا الهدى مستقِرُّون متمكِّنون، وقال: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام:٥٧].

﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ أي: أمر غيره، فهذا مقام دعوة وبيان، فلماذا يتم الاعتداء عليه ومصادرة حقه في الدعوة إلى الله، ولهذا قال ﷺ: «**يا ويحَ قريش! قد أكلَتْهُم الحربُ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائرِ الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادُوا، وإن أظهرَني اللهُ تعالى دَخَلُوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفْعلُوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظنُّ قريشٌ، فوالله لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهرَني اللهُ عز وجل أو تنفردَ هذه السَّالفةُ**»(١).

* ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق:١٣]:

أي: أبو جهل، وكل مَن يصلح له الخطاب ممن عمل عمله وكان على شاكلته، والضمائر في الآيات وإن كانت غير مرتبة، إلا أن السِّياق لا لبسَ فيه؛ فإن الذي على الهدى أو أمر بالتقوى هو النبي ﷺ، والذي كذَّب وتولَّى هو أبو جهل.

وقوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: كذَّب في نفسه، وتولَّى في حقِّ غيره، كما قال: ﴿وَإِذَا

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥]، فهو قد كذَّب في نفسه، وتولَّى للصد عن دين الله؛ ليمنع النبي ﷺ من الدعوة، ويَحُول بين الناس وبينه.

* ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤]:

وهنا نلاحظ أن الله لم يبادئه بالتهديد بالعقوبة الأخروية وإنما ذكَّره باطلاع الله عليه، وفي هذا رادع لمَن كان له قلب.

كما قيل:

وإذا خلوتَ بـريـبـةٍ في ظـلـمـةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيـانِ
فاستَحْيِ من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لها: إنَّ الذي خَلَقَ الظَّلامَ يراني[١]

وفيه طُمأنينة كبيرة للمؤمنين، فهذه دعوةُ الله، وهذا دينُه، والله تعالى حافظٌ دينَه، ومظهر دعوته.

* ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق:١٥]:

﴿ كَلَّا ﴾ تهديد يناسب ما صدر من أبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من التكذيب والتولِّي والإيذاء ﴿ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ هذه نون التوكيد الخفيفة، وإن كانت تُكْتَب في القرآن ألفًا.

أما الناصية، فهي مقدَّمُ الرأس، ومن معاني السَّفع:

١ - الأخذ بالناصية؛ أي: يجر برأسه على وجهه، وهذا إذلال يقابل كبرياءه، كما قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن:٤١]، أي: يؤخذ بناصية هذا الرجل ومَن كان على شاكلته ويسحب إلى نار جهنم: ﴿ يَوْمَ

(١) ينظر: «مجموعة القصائد الزهديات» (١/ ١٦٠).

﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٣-١٤]، وهو معنى مرعب مخيف، وتهديد يزلزل قلوب مَن ليسوا مقصودين بهذا التهديد، فكيف بالمخاطِب لو كان له قلب؟!

٢- الصَّفع؛ أي: الضرب على وجهه، والناصية قد تطلق على مقدم الشعر باعتبار القرب، أي: إذا لم يكف فسوف يضرب على وجهه، وضرب الوجه إهانة وإذلال.

٣- السَّفع هو السواد، يقال: فلان فيه سَفعة، أي: ضرب من السواد، ومنه المِسْفَع، وهو: الغطاء الأسود الذي تلبسه المرأة، والمقصود الوجه وأطلق الناصية عليه من باب المجاورة، أو إطلاق الجزء والمراد الكل، فالمقصود: تسويد وجهه.

وهذا يشمل سواد الوجه الحقيقي بالمعصية، والسواد بالهزيمة، كما حصل لهم في بدر؛ فإنهم اسودت وجوههم وعاينوا سوء المصير، وقد يقال للإنسان الذي نزلت به نازلة أو مصيبة: إنه مسود الوجه.

ومنه تسويد الوجوه يوم القيامة، والمقصود ناصية أبي جهل، أي: الناصيةُ المعروفة المعهودة، التي استقرت في الأذهان، ناصية هذا الطاغية المتمرد.

* ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦]:

وَصَفَ الناصية بأنها كاذبة خاطئة، أي: كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها.

و«الخاطئ» هنا: من فِعل الخطيئة، وليس من الخطأ، والفرق بينهما واضح، كما قال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٧].

والسياق وإن كان سببَه أبو جهل، إلا أن تقييده بالوصف يدل على أن كلَّ ناصية تفعل مثل ذلك ويتوفر فيها هذا الوصف، فهي حقيقة بهذا التهديد وليست ناصية أبي جهل فحسب؛ لأن الله سبحانه ما عرَّض بهذا الرجل إلا لأنه صاحبُ كذبٍ وخطيئةٍ، فكل مَن كان مثله بهذا الوصف، فهو جدير بالعقوبة وبالتهديد.

وجاء الوعيد هنا مخصَّصًا لأبي جهل من بين سائر المجرمين، بأن يُؤخذ بناصيته إن لم ينته، فلما كانت معركة بدر، وأُصيب أبو جهل، جاء إليه ابن مسعود نفسه، فارتقى على صدره، حتى قال له أبو جهل: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم. وسأله: لِمَن الدائرة؟ قال: لله ولرسوله وللمؤمنين. ثم سُحب أبو جهل بناصيته وأُلقي في القليب[(١)]!

وكانت معركة بدر في السنة الثانية، فكان بين الوعيد وبين إنفاذه نحو من أربع عشرة سنة!

* ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٧-١٨]:

و«النادي» هو المنتدى الذي يجتمع فيه القوم ويتنادون إليه، ومنه: دار الندوة؛ التي كانوا يجتمعون فيها في مكة ويتشاورون في شؤونهم.

والنادي غالبًا ما يكون في النهار، وأما المجتمع في الليل فيسمَّى: السامر، كما قال تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٧]، من السمر، وهو: ضوء القمر الذي يأنَس به السُّمَّار، فيسهرون إلى غياب القمر.

إن كان يهدِّد بجماعة النادي فليدعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢]!

قوله: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾: ﴿ سَنَدْعُ ﴾ الراجح أن فيه واوًا؛ لأنه فعل مضارع ليس منصوبًا ولا مجزومًا، وإن كانت غير مكتوبة في المصحف لاعتبارات ذكرها أهل الرسم، وبعضهم يقول: إن (ندع) هنا مجزومة، ولكن هذا ليس بقوي؛ لأنه مسبوق بالسين[(٢)].

وقوله: ﴿ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾: جمع ليس له مفرد من لفظه عند بعضهم، وبعضهم يقول:

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: «روح المعاني» (٣٠/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٢).

له مفرد: زباني، أو زِبْنِيَة، أو زابن... والكلمة مستخدمة عند العرب، والمقصود بها الرجال الأقوياء الأشدَّاء، وإنما سموا «الزبانية» من الزبن، وهو الدفع.

والمراد بهم: الملائكة المكلَّفون، من خزنة جهنم أو غيرهم ممن يكلفون بعذاب مَن أراد الله تعالى تعذيبه.

والسين للاستقبال، ولكن فيها نوعٌ من التأخير، أو التنفس بعض الشيء.

* ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]:

هذا خطاب للنبي ﷺ أن لا يطيع أبا جهل، كما قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم:٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

فالسجود هو قرب إلى الله تعالى، وهو الذي كان ينهى عنه أبو جهل، أمر تعالى نبيَّه ﷺ بالإمعان في ذلك، والإصرار عليه والصبر، وأن يسجد لربه ويقترب منه؛ ولهذا قال النبي ﷺ استنباطًا من هذه الآية: «**أقرَبُ ما يَكونُ العبدُ مِنْ رَبِّهِ وَهْو سَاجِدٌ**»(١).

فالقرب والاقتراب من الله تعالى يكون بالسجود؛ لأن أشرفَ ما في الإنسان هي جبهته وأنفه.

فالإنسان إذا سجدَ لربه، وعفَّر وجهَه بالتراب، وأذلَّ نفسَه لربه، تخلَّص من كبرياء الأنانية، وكان في غاية العزة، وفيه دليل على أن صلاة النبي ﷺ التي كان يصلِّيها في أول الإسلام كانت قيامًا وركوعًا وسجودًا، وإنما كانت ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره.

لقد علِم تعالى أنَّ هذا الرجل يموت كافرًا، ولهذا تهدَّده وتوعَّده وبيَّن جرمه وغلظه، وسوء مصيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ذكر تعالى أبا جهل بما لم يذكر به غيره من رؤوس الكفر، وظهر بعد حينٍ أن كثيرًا من شيوخ الضلالة أسلموا وحسن إسلامهم، وكان الرسول ﷺ يستأني بهم، حتى حدثت غزوة بدر وأَسَرَ منهم مَن أَسَرَ، وكان رأي النبي ﷺ ورأي أبي بكر رضي الله عنه إطلاق الأسرى مقابل الفِداء، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: يا رسول الله، أرى أن تستأني بهم؛ لعل الله تعالى أن يهديهم[1].

إن مسألة وجود أعداء للرسالات وللدعوات وللمصلحين، أمر لابد منه، والذي يحاول غير ذلك يحاول محالًا، ولكن ينبغي أَلَّا يُفهم من هذا افتعال العداوات أو صناعة الأعداء؛ فإن العدوَّ موجود ولا بد ولا يلزم من ذلك صناعة الأعداء ولا توسيع العداوات، ومَن لم تستطع أن تتخذه صديقًا، فعليك أن لا تتخذه عدوًّا، ومَن لم تستفد منه فلتحاول السلامة من شرِّهِ، والقرآن جاء بمصانعة العدو بالتي هي أحسن والإعراض عنه، ودفع السيئة بالحسنة حتى يصبح العدو وليًّا حميمًا.

وسيرة النبي ﷺ طافحة بهذا المعنى، كما في قصته مع ثُمامة بن أُثال، ومع غَوْرَث ابن الحارث، ومع أبي سفيان، ومع هند بنت عُتبة، ومع عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابن سَلُولَ، ومع أهل الطائف ومكة ومع المنافقين.. وغير ذلك.

وإذا تأملت «سورة العلق» وجدتها متضمنة معاني الدين:

كأمر الربوبية: ﴿رَبِّكَ﴾، وأمر الألوهية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]، وأمر الأسماء والصفات: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣].

وأمر البعث: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨].

وأمر النبوة في قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق:١]، وأمر الرسالة في قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق:١٢]، وأمر الكتب في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:٤].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

وأمر القدر؛ فإن الخلق هو أول مراتب القدر، وبعده الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذا في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:٤].

وفي السورة تضمين لنظرية المعرفة وفلسفتها، أو ما يسمونها: «الأبستمولوجيا»، فهي تأكيد على أهمية المعرفة ونظام تحقيقها، والغيب والشهادة، وإشارة إلى وسائل المعرفة، وهي:

١- الوحي، وهو طريق معرفة الغيب وما لا يحيط به البشر، ولأنها أول سورة جاء بها الوحي كان مناسبًا أن تكون مؤسسة لنظرية المعرفة الإسلامية.

لقد استطاع العلم أن يكشف الكون ويحيط بنواميسه، ولكن الإنسان وتشريح دماغه ونفسيته لا يزال لغزًا تحيط به الكثير من الحواجز، وكلما اتسعت دائرة العلم تضاءل العقل البشري وتأكدت حاجته لمصدر آخر، هو الوحي.

ولا تزال علوم النفس والاجتماع أقرب إلى الملاحظات والمجملات منها إلى العلم.

٢- العقل، وهو وسيلة لاكتشاف الحياة والكون، ولفهم الوحي والشرع، ولذا فليس هو ندًّا للوحي ولا ندًّا للكون؛ لأنه أداة، أما هي فموضوع.

والإنسان مخلوق عاقل، ولذا علَّم الله آدم الأسماء كلها: الأرض، والسماء، والجبال، والبحار، والأنهار، والدواب، والحيوانات.. وإذا علم الأسماء فقد علم الصفات، فعرف أن هذا حيوان متميِّز بشيء واسمه كذا، وهذا ماء، وهذا بحر، وهذا نهر، وهذا ليل وهذا نهار، وهذه أرض وهذه سماء، وهذه نجوم وهذه أفلاك، علمه مباشرة أو ألهمه ذلك، أو منحه آلة التعقل والاستخراج، وكل ذلك من تعليم الله تعالى.

٣- الكون الذي أمرنا أن ننظر فيه، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٤٦]، فهو مصدر معرفة تنجم عن جولة العقل والتجربة لاكتشافه ومعرفة مجاهيله وأسراره ونواميسه.

٤- الحواس، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فالأفئدة تعي وتستوعب ما تستقبله الحواس من سمع وبصر وغيرها، والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ القَدْرِ

سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ
شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ
(٥) ﴾ [القدر: ١-٥].

* تسمية السورة:

هذه السورة لها أسماء عدة:

١ - أشهرها: «سورة القدر»، وهو المشهور في المصاحف وكتب التفسير[١].

٢ - «سورة ليلة القدر»[٢].

٣ - «سورة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾»[٣]، من باب حكاية الآية الأولى على أنها اسم للسورة.

* عدد آياتها: خمس آيات، وعدها بعضهم ستًّا باعتبار قوله تعالى: (ليلة القدر) الثالث آية[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٠)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

(٢) ينظر: «جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠١)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٥)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٠).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

* وقد اختلف فيها: هل هي مكية أو مدنية؟ وحكى بعضهم كالثعلبي عن الجمهور أنها مدنية، وحُكِي عن الجمهور أنها مكية، وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت بالمدينة المنورة[1].

وظاهر سياق السورة -والله أعلم- أشبه بالسور المكية، في موضوعها وطبيعتها، وقصر آياتها ووجازتها.

* ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]:

السورة تبدأ بهذا الضمير العظيم ﴿ إِنَّآ ﴾، وهو يدل على التفخيم والتعظيم لله الواحد الأحد، وعادة ما يستعمل في سياق المنة والنعمة، أو في سياق الأخذ والانتقام، وهو مشعر بأنه تعالى يمضي ما أراد بواسطة ملائكته المسخَّرين لذلك، فثَمَّ ملائكة للوحي، وآخرون للعذاب، وغيرهم لتدوين الأعمال..

وهي بهذا تبدأ بتحديد مصدر هذا القرآن وأنه من عند الله تبارك وتعالى.

ولو أنه قال: (نحن أنزلناه)، لكان هذا خبرًا مجردًا أن الله أنزله، لكن لما قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ جعل مع الضمير التوكيد بـ«إنَّ»، وفيه تعظيم الْمُنزِل، وهو الله تعالى، فيدرك الإنسان قبل أن يسترسل في السورة أن الشيء الذي من عند الله لا بد أن يكون فيه من القوة والكمال والرحمة والفضل ما لا يخطر على بال.

إن في قوله سبحانه: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ إشارة إلى العلو والعظمة والفوقية لله تبارك وتعالى، وهي وإن لم تكن منصوصة في الآية، إلا أنها مفهومة؛ لأن الإنزال إنما يكون

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٤٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٢)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤٢٦)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

من الأعلى إلى الأسفل، فتدرك من هذا المعنى إثبات العلو لله تبارك وتعالى، علو الذات كما نص عليه في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وعلو القدر وعلو القهر، فهو العلي الأعلى.

والضمير المنصوب في قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يعود على القرآن، والقرآن ليس مذكورًا في السورة؛ فأعاد الضمير إلى شيء غير مذكور! وذلك لأمرين:

١- لأن اللبسَ مأمون، فالشيء الذي ينطبق عليه أنه أُنزِل في ليلة القدر، هو القرآن.

٢- في ذلك إشادة وتعظيم وتفخيم لشأن القرآن بأنه حاضر في الأذهان، وإن لم يكن منصوصًا عليه في السياق، فهذا أفخم وأعظم من أن يُنطق باسمه.

ونلاحظ أيضًا أنه ذَكَر المُنْزِل جلَّ وعلا، ثم ذَكَر المُنْزَل وهو القرآن بواسطة الضمير.

وعندما قال: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فإنه يفهم منه تلقائيًّا وجود وسيط، وهو جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]. وهو أفضل الملائكة وسيدهم، ولذلك كان له اسم خاص، وهو الروح، وسيأتي ذكر للروح في هذه السورة ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر:٤].

والقارئ عندما يتلو هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، فإنه يتذكر مَن أُنْزِل عليه القرآن وهو محمد ﷺ، وأن الله تعالى اختاره بإنزال هذا القرآن عليه، وجعل في قلبه من العلم والبصيرة والقوة لتلقِّي هذا القرآن والدعوة إليه والعمل به، ما جعله به سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ إشادة بالوقت الذي نزل فيه القرآن، فاجتمعت العظمة في المُنْزِل وهو الله عز وجل، وكذلك المُنْزَل، وهو القرآن، وفي الوسيط،

وهو جبريل ، وفي المُنَزَّل إليه، وهو محمد ﷺ، ثم في الزمان الذي نزل فيه القرآن، وهو ليلة القدر.

وسُمِّيت كذلك لعظم قدرها، وهذا يتناسب مع جو الآية الذي يدل على التفخيم للأشياء المذكورة، ويكفي في فضلها أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣].

ويحتمل أن تكون سُمِّيت بهذا؛ لأنه تُقدَّر وتكتب فيها الأشياء، فآجال السنَةِ كلِّها تنقل من اللوح المحفوظ في هذه الليلة[1].

ومما يعزِّز هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، فيكون «القدر» هو الفرق والتقدير.

ولا مانع من إرادة المعنيين معًا، فهي ليلة فاضلة، ومن فضلها أن الله يقدِّر فيها مقادير الخلائق.

وهنا سؤال: ما معنى إنزال القرآن في ليلة القدر، مع أننا نعرف أن القرآن نزل مفرَّقًا بحسب الأحوال والوقائع والأسباب خلال ثلاثة وعشرين سنة؟

والجواب: أن في ذلك معاني:

١ - أن إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره[2]، وهو مما لا يُقال بالرأي.

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١١٦)، و«البحر المحيط» (٩/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٩١)، وابن الضريس (١١٩)، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٩١)، وابن جرير (٣/ ٤٤٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٠) (١٦٥٠)، (٨/ ٢٦٩٠) (١٥١٢٩)، والطبراني (١٢٣٨١، ١٢٣٨٢)، والحاكم (٢/ ٢٢٣، ٦١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩٦).

وحاصله أن الله تعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في تلك الليلة، ثم نزل القرآن مُنَجَّمًا مفرَّقًا.

٢- أن يكون ابتداء إنزال القرآن في ليلة القدر، وعلى هذا يكون أول ما نزل على النبي ﷺ من القرآن وهو: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ نزل في ليلة توافق ليلة القدر من رمضان.

وهذان المعنيان لا تعارض بينهما، وكلاهما صحيح.

٣- ويحتمل ما ذكره بعض المفسرين، كالرازي وغيره، وهو إنزال قرآن يُتلى في فضل ليلة القدر وفي ذكر أجرها وما يتعلق بذلك[1]، وهذا فيه ضعف، والله أعلم.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾: احتفاء بهذه الليلة، وبما أُنزل فيها وهو القرآن، واحتفاء برسالة النبي ﷺ، والقرآن هو الكتاب الأخير، والنبي هو الخاتم، وقد أذن ربنا سبحانه وتعالى أن لا تتفتح السماء بوحي بعد ذلك الحين، وأن لا يُبْعَثَ إلى البشر رسولٌ بعد محمد ﷺ.

ولذلك جعل الله ليلة القدر تعويضًا لنا؛ لأن الأمم السابقة كان يبعث فيهم أنبياء كثيرون، وكانت أعمار تلك الأمم طويلة.

ففي هذه السورة تعويض كبير لهذه الأمة، واحتفاء بهذه الليلة التي نزل فيها هذا الكتاب، فتَشْرُف الليالي بحسب ما يقع فيها، وبحسب اختيار الله لها: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

ولذلك يوجد اختيار اصطفائي من عند الله سبحانه وتعالى، ويوجد تشريف اختياري من عند الإنسان، وذلك بأن يجعل الإنسان العمل الفاضل للوقت الفاضل فيُؤجر على ذلك، فالإنسان ربما يضيِّع ليله في لهو محرم، فيكون الوقت وبالًا عليه،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨).

وقد يبذل وقته في عمل فاضل فيكون مأجورًا، وهنا سر تلاحظه في فضل ليلة القدر؛ حيث ثبت فضل إحياء تلك الليلة والدعاء بها، حتى ورد أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ما أقول فيها؟ قال: «**قُولِي: اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي**»[1].

وقال النبي ﷺ: «**مَن قامَ ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**»[2].

وفيه إشارة إلى أن أفضل ما يبذل الإنسان من الوقت، هو ما يبذله لحفظ القرآن وتلاوته والعمل به، وهذا سر من أسرار الإشادة بتلك الليلة، وأن أعظم فضيلة تُنسب إليها أن الله تعالى أنزل فيها القرآن.

* ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر:٢]:

الغالب أن هذا التركيب: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ يستخدم في الأشياء العظيمة التي لا يحيط بها عقل الإنسان، ولكن الله أطلَعَ نبيه ﷺ على شيء من فضلها، وهنا تستحضر شخصية النبي ﷺ؛ لأن الله خاطبه وقال له: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾.

ولذلك كثر اختلاف العلماء في ليلة القدر، حتى ذكر ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» قرابة الخمسين قولًا في ليلة القدر، وذكر أن من العلماء مَن قال: إنها كانت عند الأنبياء السابقين، وعند النبي ﷺ، وهذا هو الصحيح.

ومنهم مَن قال: إنها رُفعت بموت النبي ﷺ، ومنهم مَن قال: إنها باقية.

ثم الذين قالوا: إنها باقية، منهم مَن قال: إنها تكون في السنة كلِّها، وكان ابن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٦٥، ١٠٦٤٣)، والحاكم (١/ ٥٣٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مسعود ﷺ يقول: «مَن يقم الحول يُصِبْ ليلة القدر»[١]. ففهم بعضُهم من قول ابن مسعود هذا أنه يرى أن ليلة القدر تكون في أي ليلة في السنة، وهذا ليس بلازم، بل قصد ابن مسعود ﷺ من هذا أن يعمل الناس وأن لا يقصُروا عملَهم على ليلة معينة في السنة، بل يكون عملهم دائمًا غير منقطع، وكأن مَن يقوم الحول يتهيأ لإدراك ليلة القدر، وكان أُبَيٌّ بن كعب ﷺ يحلف ولا يستثني أنها في رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، وأن ابن مسعود يعلم ذلك[٢].

ومنهم مَن يقول: إنها تكون في رمضان، حتى ورد عن الحسن البصري أنها تكون ليلة السابع عشر التي كانت ليلة بدر، وهي يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

ومنهم مَن يقول: تكون في العشر الأواخر.

ومنهم مَن يقول: تكون ليلة ثلاث وعشرين، أو إحدى وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، وأرجى ما يمكن أن يقال: إنها ليلة سبع وعشرين.

ومنهم مَن يقول: إنها تتنقل، وهذا هو الراجح، فلا يلزم أن تكون ثابتة في كل سنة؛ فقد تكون هذا العام في ليلة إحدى وعشرين، وتكون في عام آخر ليلة سبع وعشرين، ولكنها تكون في الدنيا كلها في ليلة واحدة، وإن لم يعرفها الناس[٣].

وجزء من الاختلاف في ليلة القدر سببه عظمتها، وجزء من الاختلاف فيها هو إخفاء الله تعالى لأسرارها حتى يتطلع الناس إليها ويجتهدوا فيها، كما أخفى الله تعالى عن الناس أشياء كثيرة منها إخفاء الآجال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]؛ حتى يجتهد الناس في العمل والعبادة.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٢).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٦٢).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٢٦٢-٢٦٦).

* ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:٣]:

وتلاحظ أن الله تعالى في الآيات الثلاث يذكرها باسمها؛ لأنها هي المقصودة بالسورة، وليس المقصود الأصلي بالسورة الكلام عن القرآن، وإن كان قد ذكر إنزاله؛ ولذلك لم يذكر القرآن صريحًا بل مضمرًا.

وقد حسب العلماء ألف شهر، فوجدوها ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهذا كعمر رجل من المعمَّرين من أمة محمد ﷺ، لأنه ورد أن أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين[1]. فجعل تعالى هذه الليلة الواحدة تقوم بعمر إنسان، بل هي أفضل من عمر إنسان.

* ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ [القدر:٤]:

أي: في هذه الليلة تتنزل الملائكة، ويتنزل معهم «الرُّوح»؛ وهو جبريل عليه السلام على المشهور عند المفسرين، وكما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النبأ:٣٨]، ويكون هذا من باب عطف الخاص على العام.

وقال بعضهم: الروح صنف من أشراف الملائكة، وهذا لا يعارض المعنى الأول، ويكون سيدهم هو جبريل عليه السلام.

وقال بعضهم: «الرُّوح» خَلْق آخر غير الملائكة[2]. وهذا بعيد ولا دليل عليه.

فالملائكة تنزل في هذه الليلة الفاضلة، وتكون أبواب السماوات مفتحة، والأرض ملأى بالملائكة، يجوبون جنباتها يقِفون عند المصلِّين، ينزلون بالبرِّ وبالرحمة، وينزلون بالأقدار.

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦) وأبو يعلى (٥٩٩٠)، وابن حبان (٢٩٨٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٧٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ يفيد أنه ليس لأحد غير الله قدر ولا أمر ولا نهي، بل الأمر كله لله سبحانه، فله الخلق وله الأمر، وهو الذي يفضِّل مَن يشاء، وهو الذي يقدِّر الأقدار التي تكون في تلك الليلة من حياة أو موت، أو ذل أو عز، أو غنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو هدى أو ضلال، أو ما شاء تعالى من الأحوال للأفراد والجماعات والأمم وغيرها.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ أي: كل ما يأمر الله تبارك وتعالى به مما ذكرناه؛ فإنهم يتنزلون به في تلك الليلة.

* ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر:٥]:

فهي ليلة سلَام، أي: فيها السلامة للناس، وفيها الرحمة والقبول، ويكفي ما ورد عن النبي ﷺ، أن مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه[١].

ويكفي أن الله تعالى وصفها في الآية الأخرى بأنها ﴿لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

ولو ربطنا هذا بالتحية والشعار الذي يتداوله المسلمون: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، لوجدنا أن الله تعالى جعل من الأعمال والشرائع ما يتحقَّق به للمسلم في كل وقت المعنى الموجود بقدر أو بآخر، فالسلام موجود يتبادله المسلمون فيما بينهم، وقد ذكر فيه الرحمة والبركة، والملائكة تنزل بالرحمة، ويفرح الناس بهذه الليلة لما فيها من تنزل الرحمة والدعاء بها وبالمغفرة لأهلها، وكذلك البركة؛ فإنها ليلة مبارَكة، وبركتها تشمل السَّنَة كلَّها.

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، يفيد أن ليلة القدر تستمر من غروب الشمس، إلى مطلع

(١) تقدم قريبًا.

الفجر، سمَّاها ليلة، والليل يبدأ بمغيب الشمس، وفيه نوع من التقليل لوقتها، ولذلك قال بعضهم: إن تسميتها بـ «ليلة القدر» مأخوذ من الضيق، فقد يكون من ضيق الأرض لكثرة الملائكة الذين ينزلون، وقد يكون إشارة إلى قصرها.

كما تجد ذلك في ساعة الجمعة؛ فإن النبي ﷺ لما ذكر يوم الجمعة قال: «**فيه ساعةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلِّي، يسألُ الله تعالى شيئًا إِلَّا أعطاه إيَّاهُ**». وأشار بيده يُقَلِّلُها[1].

وقد يقول قائل: هذا عطاء من الغني الجَوَاد الكريم المتفضِّل، فلماذا التقليل لوقت الليلة؟

والجواب: إنه -وإن كان الوقت قليلًا- فالفضل عظيم، وفيه حث العبد على أن يستثمرها ويستغلها في الطاعة والعبادة؛ لأن من طبيعة الإنسان أن يمل، فجعل الله سبحانه وتعالى بعض الأيام أفضل من بعض، وبعض الساعات وبعض العبادات وبعض الليالي، فشهر رمضان ثم العشر الأواخر ثم الأوتار ثم ليلة سبع وعشرين، وحتى ليلة القدر بعضها أفضل من بعض؛ فالثلث الأخير منها أفضل، وذلك كما في الأحاديث المتواترة في أنه: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدُّنيا، حين يبقى ثلثُ اللَّيلِ الآخر، فيقولُ: مَن يدعُوني فأستَجِيبَ له، ومَن يسألُني فأُعطِيَه، ومَن يستغفرُني فأغفرَ له**»[2].

والحاصل أن التقليل فيه دعوة للإنسان إلى استثمار هذه الليلة بالذكر والعبادة، فهي ليلة في السنة، وهي بضع ساعات، ومع ذلك يمكن أن تعوِّض شيئًا لا يُقدَّر بثمن، فهذا يجعل الإنسان يقبل على هذه الليلة بالذكر والاستغفار.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد تكلم العلماء وصنَّفوا كثيرًا في ليلة القدر، وصفاتها، وعلاماتها، وأسرارها، ومقاصدها[1].

○ ○ ○

(١) كـ«شرح الصدر بذكر ليلية القدر» لأبي زرعة ابن العراقي، و«شرف البدر بضياء ليلة القدر» لبدر الدين القرافي، و«إسفار البدر عن ليلية القدر» للمناوي، وغيرها. ينظر: «معجم الكتب» (ص٦٤)، و«كشف الظنون» (٢/ ١٠٤٢، ١٠٤٦، ١٠٨٨)، و«معجم المطبوعات العربية» (٢/ ١٠٣١)، و«إيضاح المكنون» (٣/ ٧٩)، (٤/ ٥٠، ٤٤، ٥٤٦)، و«هدية العارفين» (١/ ٤٢، ١٢٣، ٢٢٣، ٢٨٩، ٣٣٩، ٤٩٣، ٥١٠)، (٢/ ٤٤٩، ٤٩٨).

سُورَةُ البَيِّنَةِ

سورة البينة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ
مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي
نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة:١-٨].

* تسمية السورة:

هذه السورة أسماء كثيرة:

١ - «سورة ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾»، كما في حديث أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال لأُبيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾». فقال أُبَيٌّ: وسَمَّاني لَكَ؟ قال: «نَعَمْ». فبكى أُبَيٌّ[1].

وغالب المصاحف وكتب التفسير يختصرونها بـ: «سورة: ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾»[2].

٢ - «سورة البينة»: وهذا موجود في بعض المصاحف، ومعظم كتب التفسير[3]؛ لأن الله سبحانه ذكر فيها «البينة» مرتين.

٣- «سورة القيمة»[4]؛ لقوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٤).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٨)، و«زاد المسير» (٩/ ١٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٤)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

٤- «سورة أهل الكتاب»(١)؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أهل الكتاب غير مرة.

٥- «سورة البريَّة»(٢)؛ لقوله فيها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧].

٦- «سورة المنفكِّين»(٣)، أو «سورة الانفكاك»(٤)؛ لقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البينة:١].

٧- وفي بعض الكتب: «سورة القيامة»(٥)، والذي يظهر لي أن هذا تصحيف من «القيمة»؛ لأنه ليس للقيامة ذكر مباشر في السورة.

* عدد آياتها: ثمانٍ عند الجمهور، وعدَّها البصريون والشاميون تسعًا(٦).

* وقد ذكر القرطبي وابن الجوزي وغيرهما من المفسرين أنها مدنية، وأن هذا قول الجمهور(٧).

وينسب القول بأنها مكية إلى يحيى بن سلَّام صاحب «التفسير»(٨)، ووهم ابن

(١) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٩١)، (٣٠/ ٤٦٧).

(٢) ينظر: «إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ٢٩١)، و«الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٠٧)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٢)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«أضواء البيان» (٩/ ٣٩).

(٤) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة (ص٢٨)، و«الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٥) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«أضواء البيان» (٩/ ٣٩)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤١٨).

(٦) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص٢٨٢).

(٧) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«زاد المسير» (٩/ ١٩٥)، و«فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٦٧٣).

(٨) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٥)، و«زاد المسير» (٩/ ١٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠).

عطية، فجعل قول الجمهور أنها مكية، ونسب إلى ابن الزبير وعطاء بن يسار أنها مدنية[1].

وكثيرًا ما يقع اللبس والوهم في حكاية قول الجمهور، حتى في المسائل الفقهية؛ فإن البعض قد يقول: هذا قول الجمهور، وبعد التحقيق يتبين أنه ليس قول الجمهور، وأحيانًا إذا كان مَن يحكي هذا القول يميل إليه، فالغالب أنه يبحث عمَّن قال به، فيجدهم كثرة ويخيل إليه أنه مذهب الجمهور، ولو بحث في أنصار القول الآخر لوجدهم أكثر، والجمهور في هذه السورة على أنها مدنية، ومن أقوى الأدلة على مدنيتها: حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الذي ذُكر آنفًا: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عليك سورة:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾».

نعم، هذا ليس نصًّا في كونها مدنية؛ لأنه قد يقرأ عليه سورة مكية، ولكن يعزِّز القول بأنها مدنية أن فيها جدلًا مع أهل الكتاب ومحاجة لهم، والغالب أن مخاطبة أهل الكتاب كانت في المدينة بعدما نزل النبي ﷺ إلى جوار اليهود، وخالطهم المسلمون، واحتاجوا إلى مجادلتهم ومُحَاجَّتهم.

وقد ذُكر فيها إيتاء الزكاة، وهي إنما فُرضت في المدينة، وليس هذا بقوي؛ لأن إيتاء الزكاة ذُكر في سور مكية، كسورة فصلت.

* ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١]:

و«المنفكُّون»: جمع مُنفَكٍّ، من الانفكاك وهو الانفصال، والجمهور على أن المعنى: لم يكونوا منفصلين عن الضلال والشرك والكفر الذي هم فيه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، والبينة هي: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٢-٣].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٨)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠).

وذكر الفخر الرازي وغيره أن في السورة إشكالًا، غلط فيه بعض أكابر أهل العلم، وهو جدير بالتأمل حتى ننطلق منه إلى فهم السورة.

ذلك أنه في أول آية، ذكر الله تبارك وتعالى أن أهل الكتاب والمشركين لن ينفكوا عن كفرهم وشركهم إلى وقت معلوم، وهو أن تأتيهم البينة، ثم في الآية التي بعدها قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤]؛ فهل البينة سبب في أن ينفكوا عن شركهم وكفرهم ويكونوا مؤمنين، أم هي سبب في أن يتفرقوا ويختلفوا؟[١].

وقد ذكر المفسرون، كالقرطبي والآلوسي والطاهر ابن عاشور أكثر من تسعة عشر قولًا في حل هذا الإشكال[٢]، وترجع إلى جملة أقوال:

١- أن الآية الأولى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، حكاية عما يدَّعونه من أنه لو جاءهم رسول بالبينة لآمنوا، فكأن الله تعالى حكى هذا عنهم.

٢- أن كلمة ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لا تعني أنهم ينفكُّون عن الضلال ويتركون الشرك، وإنما المقصود أنهم لم يكونوا منفكين عن انتظار النبي ومدحه ﷺ وذكر فضائله إلى أن بُعث إليهم.

فاليهود كانوا يذكرون في كتبهم أن نبيًّا أطلَّ وأقبَلَ زمانه سيبعث، وأنهم سيتبعونه ويقتلون العرب به قتل عاد وإرم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]، وكذا المشركون كانوا في الجاهلية يسمونه: الأمين، فلما بُعث كفروا به وكذَّبوه وخوَّنوه، فانفكوا عن مدحه بعدما جاءتهم البينة ببعثته إليهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤١)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٩).

٣- أن المعنى: أنهم ليسوا منفكين حتى ولو جاءتهم البينة، فإنهم سيظلون على ما هم عليه، وعلى هذا يكون معنى الآية أن القرآن لا يزيدهم إلا نفورًا، كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

٤- أن المعنى: أنهم ليسوا بميتين حتى تأتيهم البينة، وتقوم عليهم الحجة قبل موتهم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

٥- وقريب منه ما ذكره ابن عطية من أنهم ليسوا متروكين سُدَى[1]: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

٦- أن المعنى: حتى يأتيهم مَلَك من السماء، ويكون هذا نوعًا من السخرية منهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا ملكًا معه كتاب، كما كان المشركون يقولون: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢][2].

والذي أميل إليه: أن الآية لا تحتاج إلى تأويل وليس فيها إشكال، وأن معناها واضح.

وبيان ذلك: أن الله تعالى قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: ليسوا تاركين شركهم وكفرهم، حتى تقوم عليهم الحجة، وحتى يبعث فيهم الرسول، وتنزل إليهم الكتب؛ وذلك لأنه لا يستطيع أحد أن يهتدي بغير صراط الله وطريقه.

فالآية تنفي أن يكونوا منفكين عن الضلال إلى الهدى إلا ببينة، ولكن الآية لم

---

(١) أي: هَمَلًا، لا يُؤمر ولا يُنهى.

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٩).

تقل: إن أهل الكتاب والمشركين إذا جاءتهم البينة سوف ينفكون جميعًا عن الضلال ويهتدون حتمًا، ولكن سيكون منهم مَن يهتدي ومنهم مَن لا يهتدي.

وهذا معنى سهل واضح، ومعه لا يبقى في السورة إشكال؛ لأن الآية الأولى تقرر أن أهل الكتاب والمشركين لا يمكن أن يهتدوا من ضلالهم إلا ببينة من عند الله تبارك وتعالى، ولذلك بعث الله إليهم الرسول وأنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي يختلفون فيه.

وأما: هل نفعتهم هذه البينة وآمنوا بها، أو أنهم استكبروا وأصروا على كفرهم؟ فهذا موضوع آخر لم تتعرض له الآية.

وهذا الكلام وإن لم أجده منصوصًا عند معظم المفسرين، إلا أنه يبدو مقصود كثير منهم، وكثير ممن يقرأ القرآن يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى، ولا يجد في السورة إشكالًا.

ثم الذين كفروا قسَّمهم الله تعالى في هذه الآية إلى فئتين: «أهل الكتاب» و«المشركين».

أما أهل الكتاب، فهم: اليهودُ والنصارى، وأما المجوس، ففي دخولهم في أهل الكتاب خلاف، ولكن الأقرب أنهم لا يدخلون؛ وذلك لقول الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [الأنعام:١٥٦]. وإنما أُلحق المجوس بأهل الكتاب في بعض الأحكام كالجزية مثلًا، ولذلك لا تُنْكَح نساؤهم كنساء أهل الكتاب.

فالمقصود هنا -والله أعلم- اليهود والنصارى، واليهود كانوا موجودين في المدينة، والنصارى كانوا في نجران.

وأما المشرِكون، فهم الوثنيون من أهل مكة وغيرِها.

وقد قدَّم الله تعالى ذكر أهل الكتاب على المشركين؛ لأن أهل الكتاب بُعِث فيهم رسلٌ، وأنزلت كتب، فالعَتَبُ عليهم في الضلال أشد، ولهذا عاتبهم الله تعالى ووبَّخهم لما جاء المشركون إليهم يسألونهم: نحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى. فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١].

والجاهل ربما وقع في الخطأ بغير قصد، أما العالم فالحجة عليه قائمة، فإذا أخطأ كانت المؤاخذة عليه أكثر؛ ولهذا بدأ الله تعالى بهم في هذه السورة.

وعلى اعتبار أن السورة مدنية، فقد كان الخطاب فيها عتابًا لأهل الكتاب قبل غيرهم، ولذلك ناسب أن يقدِّمهم؛ لأنهم المقصود الأول من الخطاب.

وهنا وصمهم الله تعالى بالكفر؛ لتكذيبهم رسالة النبي ﷺ مع معرفتهم به.

و﴿ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ هي الحجة الواضحة، وجمعها: «بينات»، وقد وصف الله القرآن بأنه «بينات» فقال: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

فالقرآن «بيِّنة» في إعجازه اللغوي، وفي إعجازه العلمي، وفي إعجازه التشريعي، وفي إعجازه التاريخي، وفي أخباره وقصصه وآياته.

وكذلك الرسول ﷺ نفسه هو «بينة» في الحجج التي جاء بها، وفي الوحي، وفي أنه رجل أُمِّيٌّ، ومع ذلك ألهمه الله تعالى البلاغة والإعجاز، وهو «بينة» بما جعل الله تعالى على يديه من الآيات التي آمن بها مَن آمن من الناس، سواءً الآيات التي حصلت في عصره ورآها الناس، أو الآيات الباقية والتي منها القرآن وما يخبر به ﷺ من أحوال الزمان.

* فـ «البيِّنة» هنا معنى مشترك، يدخل فيه القرآن ويدخل فيه النبي ﷺ؛ ولهذا قال في الآية الثانية: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة:٢]: وهذا هو تفسير

«البينة»، فسَّرها بالنبي محمد ﷺ، وما يتلوه من الصحف.

و«الصحف» جمع: صحيفة، والمقصود بها الورق، وهي مطهَّرة تطهيرًا حسيًّا ومعنويًّا.

أما التطهير الحسِّي: فلأن لها قداسة وحرمة وأحكام، بحيث لا يمس القرآن إلا طاهر: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٩].

وأما القداسة والطهارة المعنوية: فلأنها ليس فيها شك ولا ريب: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢]، ولا خطأ ولا ظلم، بل هي حق محض.

ولأجل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، ذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة إلى أنه لا يجوز أن يمس المصحف إلا متوضئ، وقد جاء في حديث عَمرو بن حَزْم في وصية النبي ﷺ: «**لا يمسُّ القرآنَ إلَّا طَاهِرٌ**»[(١)].

* ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة:٣]:

أي: جعل الله تعالى في تلك الصحف كتبًا قيمة.

والكتب القيمة هي: الآيات والسور، وأحكام الحلال والحرام؛ لأن الكتب جمع كتاب، وهو المكتوب.

وكلمة ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾، يفهم منها أنها ذات قيمة، يقال: هذا شيء قيم. أي: غالي القيمة، لكن المقصود بـ ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ أي: مستقيمة، معتدلة، ليس فيها عوج ولا خلل.

---

(١) أخرجه الدارمي (١٦٢١، ١٦٢٨، ١٦٣٥)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٥٩)، والنسائي (٨/ ٥٧، ٦٠)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والدارقطني (١/ ١٢٢)، والحاكم (١/ ٥٥٢). واختلف في وصله وإرساله، والصواب المرسل، إلا أنه تلقاه العلماء بالقبول، واشتهر شهرة تغني عن إسناده، كما قال ابن عبد البر، وينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٣٩٩-٤٠١).

وكان يمكن أن يقال في تفسير الآية: إن قوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اسم جنس فيشمل الرُّسلَ كلَّهم، ومنهم محمد ﷺ، ويدخل في ذلك الحجج التي جاء بها الأنبياء السابقون والكتب التي بُعثوا بها.

ولكن القول بأن المقصود هو الرسول محمد ﷺ أقوى، من جهة ملاحظة سبب النزول.

* ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤]:

هذه الآية هي التي وقع فيها مع الآية الأولى إشكالٌ عند بعض المفسرين، فهنا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، ولم يذكر المشركين، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: بعد أن قامت عليهم الحجة، وهي رسالة الرسول ﷺ والقرآن الذي معه، فمعناه أن المقصود بتفرق أهل الكتاب هنا هو تفرقهم بين الإيمان والكفر؛ فمنهم مَن آمن بالنبي ﷺ ومنهم مَن كفر، فتفرقوا على هذا، وهذا المعنى يذكره جمهور المفسرين(١).

ويوجد معنى آخر، وهو أن المقصود بتفرُّقِهم: إعراضهم عن النبي ﷺ، وتفرُّقهم في كيفية الرد، فبعضهم قال: دَعِيٌّ. وقيل: شاعر. وقيل: ساحر. وقيل: مجنون. لكن لا يدخل في ذلك الذين آمنوا منهم؛ لأنهم لا يُوصفون بأنهم من أهل الكتاب بعد أن دخلوا في دين الإسلام، فعلى هذا المعنى الثاني يكون المقصود بتفرُّقِهم: إعراضَهم عن النبي ﷺ، وعدم إيمانهم به.

وثَمَّ معنى ثالث جيد وغير مشتهر، وهو: أن المقصود بتفرق أهل الكتاب: اختلافهم على أنبيائهم قبل النبي ﷺ؛ كما في حديث: «إنما هلك الذين كانوا من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٧٩).

قبلكم بتفرقهم واختلافهم على أنبيائهم»[1].

واختلافهم على أنبيائهم إنما حدث بعد ما جاءتهم البينة، أي: من بعد ما قامت عليهم حجج أنبيائهم، ومن ذلك اختلافُهم بعد بعثة النبي ﷺ.

فيكون الاختلاف المذموم هنا اختلافًا آخر، وهذا يبعد الإشكال الذي نقلناه عن الواحدي والرازي وغيرهما بين الآية الأولى والآية الرابعة، ويبين أن الآية الأولى في معنى والآية الرابعة في معنى آخر؛ فالآية الأولى تتكلم عن الذين آمنوا بالنبي ﷺ، وأن انفكاكَهم وإيمانَهم كان من بعد ما جاءتهم البينة، أما هذه الآية، فهي تتكلم عن الكافرين الباقين على كفرهم أنهم اختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات.

وهذا ينسجم مع آية آل عمران: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وفي هذه السورة تكرار كلمة (البينة)، فقد يكون ذلك؛ لأنها موجودة في كتب أهل الكتاب، فناسب أن تذكر لأن الجدل والحديث معهم، أو يكون ذلك أن القوم أهل علم واطلاع ومعرفة، فالمقام معهم ليس مقام وعظ مجرد، وإنما هو مقام حجة.

والبينة هي الحجة التي تُفحِم المخاصمين والمعاندين.

وفيه تحذير بالإيماء والإشارة للمؤمنين من الاختلاف والتفرق، وبخاصة الاختلاف والتفرق على الكتاب، وفيه ذمٌّ للعلم الذي يكون سببًا في الاختلاف؛ فإن كثيرًا من العلم الذي ينتظر أن يكون سببًا في سماحة المتعلِّمين ولطفهم مع الخلق وإيثارهم لهم، يكون سببًا في نشوء صراعات وخلافات وتحزُّبات، تفسد معها الأخلاق وتشتد المنافسة وتقسو القلوب.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٦٧، ٨١٤٤)، وابن خزيمة (٢٥٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٤)، والبيهقي (١/ ٣٨٨)، (٤/ ٢٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وغالب طلبة العلم اليوم أكثر ولعًا بالخلاف فيما بينهم، وأكثر تحاسدًا وتنافسًا، حتى إنهم إذا كانوا في مؤسسة أو مدرسة أو جامعة وقع بينهم من التعاند والتغاير، ما لا يحسن ولا يحمد.

فسبحان الله! ما أكثر النصوص والآيات والأحاديث التي فيها النهي عن التفرُّق والاختلاف، ولكنها بمَعْزل عن واقعنا، وليس المقصود الاختلاف العلمي، فهذا طبيعي، بل هو محمود في كثير من الحالات، وإنما المقصود اختلاف التناحر والاقتتال والاحتراب، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

فأي ثمرة وأي قيمة لعلم لا يكون سببًا في صفاء قلبك، وسلامة نفسك، وعفاف لسانك، وحسن ظنك بالناس، ومحبتك الخير لهم؟!

وأنا أتعمد أحيانًا أن أثني خيرًا على بعض مَن يستحقون الثناء، وأعرف أنهم ليسوا بحاجة إلى ثنائي؛ لكن أقصد أن أتربَّى على مراعاة الإيجابيات واعتبارها، وعدم الاعتياد على لحظ الأخطاء والمخالفات أولًا، وكأنها أول ما يطرق خيالك أو يخطر ببالك عند ذكر مَن ليس من أصحابك وجلسائك وخاصتك.

ومع وجود النقص والعيب، فإن الثناء على الناس بما هم عليه من خير هو فضل ومروءة، كما قيل:

مَنْ ذَا الَّذِي ما سَاء قطْ ... ومَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ
سَامِحْ أَخَاكَ إِذَا خَلَطْ ... مِنهُ الإِصَابَةَ بالغَلَطْ
وتَجَافَ عن تَعْنِيفِهِ ... إنْ زَاغَ يومًا أو قَسَطْ

وقيل:

ومَنْ ذَا الَّذِي تُرضَى سَجايَاهُ كلُّها ... كَفَى المرءَ نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعَايبُهْ

وقِسْ على نفسك، فإنك إذا عابك أحد بخطأ موجود فيك، تقول: لماذا عابوني بهذا الخطأ الذي يظنونه وتجاهلوا الصواب الكثير الذي عندي؟ فكذلك الآخرون يقع مثل هذا في نفوسهم.

فأَوْلَى النَّاس بمعنى العدل هم مَن جاءتهم البينة.

* ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥]:

في هذا مزيد عتبٍ عليهم على تفرقهم وضلالهم، مع أنهم لم يؤمروا إلا بما بُعث به الرسل جميعًا، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين.

و«العبادة» كما فسَّرها ابن تيمية وغيره: «اسم جامع لكل ما يحبُّه اللهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»(١)، وهو فعل القربات والطاعات المحضة بنية التقرب إلى الله.

وقوله: ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ حال من فاعل «يعبدوا»، أي: فلا يعبدون مع الله تعالى غيره.

و﴿ حُنَفَآءَ ﴾: حال ثانية، والحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وهذا قول أكثر أهل اللغة(٢). لكن أرى أن من الأجود أن نقول: إن الحنيف هو المعتدل عن الشرك إلى التوحيد، فالحنيفية هي الاعتدال، وأصل الحنف يكون في الرِّجْل، يقال: فلان أحنف، ومنه الأحنف بن قيس الذي كانت أمه ترقِّصه وهو صغير وتقول:

واللهِ لولا حَنَفٌ في رِجْلِهِ   وقِلَّةٌ أَخَافُهَا من نَسْلِهِ

مَا كَان في فِتْيانِكُمْ مِنْ مِثْلِه

(١) ينظر: «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩)، و«الفتاوى الكبرى» (٥/ ١٥٥).

(٢) ينظر: «اللسان» (٩/ ٥٦)، و«تاج العروس» (٢٣/ ١٧٠).

ومعنى الحنف في الرِّجْل هو: اعوجاجها عن المعهود، لكن إذا كانت مائلة نحو الأخرى كانت مستقيمة، وفي نفس الوقت سُمِّي هذا حَنَفًا.

فالحنيف هو: المستقيم على التوحيد، وإن قلنا المائل عن الشرك إلى التوحيد، فالأمر واسع.

وقيل: معنى الحنيف: هو المختون(١)، وقيل: الحاج(٢)، والمقصود، والله أعلم: أنه أمرَهُم أوَّلًا بالإخلاص في أعمالهم، ثم أمرهم بأن يكونوا حنفاء، أي: على ملة الأنبياء.

﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي: ذلك دين الملة القيمة، أو دين الأمة القيمة، فالقيمة وصف لشيء محذوف تقديره: الأمة، أو الملة، وهذه الأمة هي التي جعلها الله تعالى شاهدة على الناس: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

* ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة:٦]:

هنا أعاد وصف أهل الكتاب بالكفر، والفرق بين وصفهم بذلك في هذه الآية وبين وصفهم بذلك في الآية الأولى: أن الآية الأولى وصفتهم بذلك قبل أن تأتيهم البينة، أما الآن فانتقل الأمر إلى وصف أولئك الذين أصرُّوا على الكفر من أهل الكتاب والمشركين، ولذلك ناسب أن يتوعدهم الله تعالى هنا لإصرارهم.

وجمع أهل الكتاب مع المشركين هو غاية التأنيب والتوبيخ، فقد كانوا يرون لأنفسهم فضلًا ومكانة ويعيِّرون أهل الشرك ويزدرونهم، فلما حصحص الحق كفروا مثلهم، فأُلحقوا بهم وحُشروا معهم، فلم ينفعهم ما عندهم من العلم بالكتاب.

---

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ١١١).

(٢) ينظر: «الكليات» للعكبري (١/ ٥٥٣)، و«المحيط» لابن سيده (١/ ٢٣٢).

وقوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي إنهم موعودون بنار جهنم في الآخرة، وهذا لا يمنع أن يأتيهم شيء من العذاب في قبورهم أو في دنياهم.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ هم شر البرية على الإطلاق، أو شر البرية في زمانهم، وقد يأتي هناك مَن هو شر منهم.

و﴿الْبَرِيَّةِ﴾ هي المبرية، أي: المخلوقة، وهم البشر، ومن ذلك اسم الله «الباري»، وأصلها البريئة بالهمز، ولكنه خُفِّفَ، أو من البراء وهو التراب، فيكون المقصود شر البشر وشر الناس.

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]:

وقد بدأ بذكر الأشرار؛ لأن السورة تتحدَّث عن أهل الكتاب الذين كفر غالبهم بالنبي ﷺ، أما الذين أسلموا منهم فهم قليلون، فلما كان السياق من أهل الكتاب والمشركين الكافرين بالله وبرسوله، ناسب أن يبدأ بالوعيد، بخلاف «سورة الزلزلة» مثلًا؛ فإن الوعظ فيها كان عامًّا، فبدأ الله تعالى فيها بالخير، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وأيضًا: فإن الله تعالى جمع ما يتعلق بالكفار في آية واحدة، في حين أنه ذكر جزاء المؤمنين في آيتين، وهذا فيه ثناء ومدح لهم وترضية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، وهذا العموم يدخل فيه الذين آمنوا من أهل الكتاب، الذين انفكُّوا عن كفرهم بمبعث النبي ﷺ، ويدخل فيه الذين آمنوا من المشركين، ومن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢].

وقد يحتج بهذه الآية مَن يقول: إن صالحي البشر أفضل من الملائكة- وذلك

إذا اعتبرنا أن البريَّة هي المبروءة، أي: المخلوقة- أما إذا قلنا: إن البرية هم البشر، فسيكون المقصود أنهم أفضل الناس.

* ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]:

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: على ما عملوا في الدنيا وما صبروا ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، و«العَدْنُ» هو: الإقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان، أي: أقام فيه، فهذه الجنات جنات خلود[1].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وهنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى التأبيد للكفار، وذكر التأبيد للمؤمنين؛ وذلك لأن المقام مقام رحمة، ورحمته سبحانه وتعالى تغلب غضبه.

ومن هذه الآية وأمثالها أخذ بعضُ أهلِ العلم القول بفناء النار، كما في بعض كتب ابن القيم وابن تيمية رحمهما الله، وذكره رشيد رضا وانتصر له في «التفسير»، وذكره شارح «الطحاوية» كأحد قولي أهل السنة في فناء النار[2].

ولعل مسألة فناء النار من المسائل التي يصلح أن نضرب فيها المثل لقضية الجدل من بعد ما جاءت البينة، فبحث هذه المسألة بحثًا علميًّا عاديًّا لا تثريب فيه؛ لكن أن تتحول إلى صراع وخصومات وجدل وسؤالات تشغل ذهن الإنسان، وتثار في كل مناسبة وفي غير مناسبة، ويقع بسببها تضليل وتجهيل وتبديع، وأحيانًا مباهلة؛ فهذا من التفرُّق بعد البينة، ومن الجدل الذي نهانا الله عنه، وهو غالبًا أمارة على علم يكون الجهل خيرًا منه؛ لأنه لم يرشد مسيرة الإنسان إلى البحث عما هو أفضل وأحسن له في

---

(١) ينظر: «الفائق» للزمخشري (١/ ٤١٧)، و«مقاييس اللغة» (٤/ ٢٨٤)، و«المخصص» لابن سيده (٢/ ١٧٦)، و«اللسان» (١٣/ ٢٧٩).

(٢) تقدم ذلك في «سورة النبأ» عند قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

دينه أو دنياه، ولو أن الإنسان اشتغل بحرث أو بيع أو شراء فيما أحل الله، لكان خيرًا من بعض الخصومات والمجادلات التي لا طائل من ورائها، سوى شغل الأذهان وفوات المصالح الدينية والدنيوية!

وقوله: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ غاية ما يبحث عنه المؤمن أن يرضى الله تعالى عنه، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، أي: بسبب ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى من الفضل والنعيم، وهذا دليل على احتِفاء ربِّنا تبارك وتعالى بهم، حتى إنه يرضى عنهم ثم يرضيهم جل وتعالى بما أعطاهم من الفضل والنعيم.

وقد جاء هذا المعنى في الحديث الصحيح لما قال الله تعالى: «تُريدون شيئًا أزيدكُم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلم تُدْخِلْنا الجنة وتُنْجِنَا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحِجابُ فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَر إلى ربهم عز وجل»[1]. فيعطيهم الله سبحانه وتعالى النظر إلى وجهه الكريم، فلا يرون شيئًا أمتع ولا ألذَّ ولا أعظمَ من النظر إلى وجهه في جنة عَدْنٍ.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، فجعل مدار القضية على أمر يتعلق بعمل القلب الذي هو أصل عمل الجوارح؛ لأن الخشية من عمل القلب، وهي أثر الإيمان، ونتاجها العمل الصالح ومجانبة السيئات؛ ولذا وصفهم بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات.

○ ○ ○

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب الرومي ﷺ.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا
(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8-1].

* تسمية السورة:

١ - الذي في مصحف المدينة وغيره، وكثير من كتب التفسير: «سورة الزلزلة»[١]، وهو اسم رُوعِيَ فيه المعنى، دون اللفظ؛ فإن الآية ليس فيها «الزلزلة»، وإنما فيها «الزلزال».

٢- ولذلك سُميت في بعض المصاحف وكتب التفسير: «سورة الزلزال»[٢].

٣- «سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»، وهو الوارد عن بعض الصحابة ﷺ، وثبتت تسميتها في «صحيح البخاري»، وغيره: «سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾»[٣].

* عدد آياتها: ثمان آيات كما في غالب المصاحف، وفي بعضها: تسع؛ وذلك

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (٨/ ٢١٢)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٥١٩)، و«الفواتح الإلهية» (٢/ ٥٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٨)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٥)، و«جامع الترمذي» كتاب التفسير (٥/ ٣٠٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٠٧٩)، و«تهذيب الآثار» (٢٦٤٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

باحتساب قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦]. آيتين وليست آية واحدة[١].

* والسورة مكية على قول ابن عباس رضي الله عنهما[٢] ومجاهد وجماعة، واختاره كثير من المفسرين؛ كابن كثير، والطاهر بن عاشور، والنيسابوري، وغيرهم[٣].

* وأما فضل هذه السورة: فلم يصح فيه شيء، وأما ما ورد من كونها تعدل نصف القرآن، فلا يثبت[٤].

وكذلك ورد أن: «مَن قرأها فله من الأجر مثل أجر داود». ولا يصح[٥].

وورد في «سنن أبي داود» أن النبي ﷺ قرأها في الركعة الأولى والثانية من صلاة الفجر[٦]، وفيه نظر.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص ٢٨٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٠).

(٢) ونُقل عنه أنها مدنية.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩)، والمصادر الآتية.

(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٦٢)، والترمذي (٢٨٩٣، ٢٨٩٤)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (٢٩٨)، والحاكم (١/ ٥٦٦) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهم، وينظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٩٣)، و«زاد المعاد» (١/ ٣١٧-٣١٨)، و«المنار المنيف» (ص ١١٤)، و«فتح الباري» (٩/ ٦١-٦٢)، و«نتائج الأفكار» (٣/ ٢٦٨-٢٧٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١٣٤٢).

(٥) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٣٦)، وقال: «منكر».

(٦) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والبيهقي (٢/ ٣٩٠) من حديث رجل من جهينة رضي الله عنه. وينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٧/ ٥٦)، و«نتائج الأفكار» (١/ ٤٣٥).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة: لرجل أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجل وزرٌ... **». ثم سُئل ﷺ عن الـحُمُر، أي: عن زكاتها، فقال: «**ما أُنزل عليَّ في الحُمُر شيءٌ، إلا هذه الآية الفاذة الجامعة:** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»[1].

وقيل: مدنية. وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ وغيره[2].

والذين قالوا: إنها مدنية. لاحظوا سبب النزول؛ فقد جاء عن مقاتل أنها نزلت في رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يتقالُّ الشيء أن يتصدَّق به، وكان الآخر لا يبالي أن يعمل الذنوب الصغيرة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، لكن هذا لا يثبت في حديث صحيح[3].

وموضوع السورة قريب الشبه بموضوع سورة القارعة، وهو الحديث عن بعض حوادث الدار الآخرة، وهذا يقوِّي القول بأنها مكية.

وهو موضوع مهم؛ لأن وازع السلطة والرقابة ليس كافيًا ولا ضامنًا، فلا بد من التعويل على وازع الإيمان في النفوس، حتى ينكف الناس عن المعاصي[4]، ويقبلوا على الطاعات؛ رجاء ثواب الله تعالى والدار الآخرة، وهذا من مقاصد الخطاب الإسلامي التي ينبغي أن تؤصل وتنشر.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٦٠)، و«صحيح مسلم» (٩٨٧).

(٢) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٧٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٢٤)، و«أسباب النـزول» للواحدي (ص ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٨١).

(٤) أي: يعدل الناس عن المعاصي.

* وقد بدأها الله سبحانه وتعالى بالشرط المستقبلي: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]:

و«الزلزال» هو: الحركة الشديدة المعروفة، لكنه هنا زلزال فريد في قوته وشدته ووقته.

ويشهد لهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، فهي زلزلة لا تخطر على البال؛ ولهذا قال: ﴿زِلْزَالَهَا﴾. يعني: زلزالها المتفرد، الذي لا يشابهه شيء، ولا يدانيه، ولا يقاس إليه.

واختلف العلماء في ميقات هذا الزلزال:

فقال بعضهم: يكون عند النفخة الأولى التي يموت بها كل شيء. وقالوا: إنه قد يكون بسبب النفخ.

وقال بعضهم: إنه عند النفخة الثانية التي يقوم بها الناس[(١)].

وعزَّزوا ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أتبعه بقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢].

ولا مانع أن يكون المراد في الآية النفختين معًا؛ فزلزال يكون مع النفخة الأولى حينما يهلك الخلائق جميعًا ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، ثم يكون الزلزال الثاني عند النفخة الثانية، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وبين النفختين أربعون سنة، كما ورد[(٢)]، وذلك شيء يسير بالنسبة ليوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن وقع زلزالان بينهما أربعون سنة، يعتبر ما بينهما قليلًا، وكأنهما زلزال واحد.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٧-١٤٨)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥٢٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥).

* ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢]:

وهنا ذكرت ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مرة أخرى؛ لأن تكرارها يزيد من الحضور الذهني للمتكلَّم عنه وهو الأرض، وإخراج الأرض لأثقالها خطوة ثانية بعد الزلزلة، أي: أخرجت ما في جوفها كما تضع الحاملُ حملَها.

وفي موضع آخر قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣-٤]، أي: أخرجت ما في جوفها، وهنا قال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، **فما هذه الأثقال؟**

اختلف المفسرون فيها، والأقرب أنها: كل ما في جوف الأرض من معادن وغير ذلك ويدخل فيه البشر الذين قد استودعوا باطن الأرض، فيخرجون منها إلى ظهرها.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها، أمثالَ الأُسطوان من الذهب والفضة، فيجيءُ القاتِلُ فيقول: في هذا قَتلْتُ. ويجيءُ القاطِع فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحِمي. ويجيءُ السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي. ثم يدعونَه فلا يأخذونَ منه شيئًا**»[(١)].

* ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة:٣]:

والمقصود: كل إنسان، وقال بعضهم: المقصود: الكافر[(٢)]؛ لأن المؤمن يكون آمنًا مطمئنًا، والقول الأول هو الأقرب؛ لأن المؤمن يصيبه شيء من الفزع، وكلام الرسل والأنبياء في عرصات القيامة: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، «**نفسي نفسي**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٩٠-٧٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٨).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٩٤).

فالأمر فيه هول وفزع، ولهذا عبَّر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ولم يقل: (وقال الناس). ولعل فيه إشارة إلى أن كل إنسان مشغول بنفسه ونجاتها؛ لأنه كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج:٢]. وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٦]، فكل واحد مشغول بنفسه.

وعبَّر بالإنسان؛ لأنه لو قال: (وقال الناس). لربما فهم منه أن الحديث جماعي فيما بينهم، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل كل إنسان مشغول بفزع نفسه يتساءل: ﴿مَا لَهَا﴾، أي: ما الذي حصل لها؟! في حيرة وانبهار!

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي: ما للأرض؟ وما الذي يجعلها تميد وتضطرب؟

* ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]:

يلاحظ أن في الآيات الثلاث تسلسلًا؛ فالآية الأولى فيها الزلزلة، وفي الثانية إخراج الأثقال، وهو تابع من توابع الزلزلة، وفي الثالثة كلام الإنسان؛ فبعدما حصلت الزلزلة والرجفة وخرجت الأثقال ومن ضمنها الإنسان، خرج وردت إليه الروح وأصبح ناطقًا عاقلًا، فبدأ يتساءل: ﴿مَا لَهَا﴾؛ فحينها يأتيه الجواب: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

قال بعض المفسرين: أي تُخبر بما عمل الناس عليها من خير أو شر، وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**أَتدْرونَ ما أخبارُها؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارَها: أن تَشهدَ على كلِّ عبدٍ وأمةٍ بما عملَ على ظهرها، أن تقول: عَمِلْتَ عليَّ كذا وكذا، يومَ كذا وكذا**». قال: «**فهذه أخبارها**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والترمذي (٢٤٢٩، ٣٣٥٣)، وابن حبان (٧٣٦٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٦، ٥٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والحديث قال عنه الترمذي: حسن غريب صحيح، وقال مرة: حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وهو ضعيف[1].

لكن لا مانع أن نقول: إن من أخبارها أن تشهد على الإنسان بما عمل عليها، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٩].

وقال بعضهم: إن المقصودَ بها ما يحصل من الزلزلة وما يتبعها، فيكون مجازًا، وهذا لا بأس به، فهو من أخبارها، وليس هذا من التأويل المردود، فإنه معروف في اللغة، كما أن العرب يتكلمون ويخاطبون الديار:

عُوجوا فحيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَـةَ الدَّارِ ماذا تُحيُّونَ مِنْ نُؤْيٍ وأحجارِ
فَاستعْجَمتْ دارُ نعمٍ لا تُكلِّمُنا والدَّارُ لو كلَّمَتْنا ذاتُ أَخْبـارِ

فهم يستنطقون البيوت والديار والآثار، ويقرءون ما تحدث وما تقول، وهو جار على لغتهم، فقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يشمل أن تخبر بما أذن الله تعالى أن تخبر عن الناس، ويجعل الله تعالى فيها هذه القابلية وهذه القدرة، ويشمل أيضًا ما يقع للأرض من الأحوال والحوادث والأخبار التي تقع وتحدث، فيراها الناس وكأن الأرض تتحدَّث أو تخبر عنها، وذكر هذا الطبري وغيره[2].

* ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥]:

الباء سببية، أي: بسبب أن ربك أوحى لها، و«الوحي» هو الخبر الخفي غالبًا.

فقوله هنا: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: وحي أمر كوني قدري، والوحي على نوعين:

---

(١) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٨٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٥٨-٢٥٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٩-٣٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١١).

١- وحي شرعي، وهو الذي تنزل به الملائكة على الرسل والأنبياء عليهم السلام؛ فالقرآن الكريم وحي من الله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، على قلب محمد ﷺ.

٢- وحي تسخيري إلهامي، أو وحي تكويني، يخلق الله به، فهو مثل الأمر؛ فالأمر أمران: أمر قدري يخلق الله به ويرزق، وأمر شرعي، مثل إيجاب شيء أو تحريم شيء.

فمعنى قوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أمرها أمرًا تسخيريًّا تكوينيًّا، لا تملك إلا أن تنفذه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨]. والوحي إلى النحل إنما هو وحي تسخير وتكوين وإلهام، لا وحي تكليف.

فإن قيل: لماذا قال في النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾، في حين قال هنا: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴾، ولم يقل: (أوحى إليها)؟

فالجواب:

١- هذا هو المناسب لفواصل الآيات، فهو أنسب مما لو قال: (أوحى إليها).

٢- أن قوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴾فيه تضمين، والتضمين هو أن يضمن الفعل «أوحى» معنى الفعل «أذن»، أي: أن ربك أذن لها، أو معنى (قال لها)، كما في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت:١١-١٢]، فالوحي يكون خلقًا، ويكون تكوينًا، ويكون تسخيرًا لما شاء الله تعالى من أمر السموات والأرض.

ولرُؤبة بن العجَّاج:

وَحَى لها القَرارَ فاستقرَّتِ ‌‌ ‌‌ ‌‌ وشدَّها بالراسياتِ الثُّبَّتِ

* ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[الزلزلة:٦]:

صدور الناس أشتاتًا يحتمل أكثر من وجه:

١- صدورهم متفرقين: بين مؤمن وكافر، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، أصحاب الجنة وأصحاب النار، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣].

وقريب منه أن يُحشر الناس كلٌّ مع نظيره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]. أي: حُشر الإنسان مع نظيره؛ فالأخيار مع الأخيار، والفجار مع الفجار، واليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمؤمنون مع المؤمنين، وأهل الضلالة مع أهل الضلالة، وهكذا كل فئة تُحشر مع فئتها، ولعل من هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[الإسراء:٧١].

٢- ويحتمل أن يكون المعنى: يصدُرون مجموعاتٍ على غير انتظام ولا اتفاق ولا انضباط فيما بينهم، فهذا من معاني التشتت.

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بضم الياء، ولم يذكر مَن الذي يريهم؛ للعلم به، فهو ربُّهم تبارك وتعالى، ولكن هل سيرون حقيقة هذه الأعمال؟

المشهور: يرون جزاءها، وقد يرونها في موازينهم، وقد يرونها في صحائف أعمالهم، ولا غرابة أن يرى الناس حقيقة أعمالهم في الدار الآخرة، فنحن نرى اليوم أن الإنسان بوسائله العادية البسيطة يحفظ الصوت والصورة، كما تفعل أجهزة التصوير التي تستخدم للتجسس أو للإثبات أو التوثيق.

في يوم القيامة تشهد على الإنسان جوارحه وحواسه وجلده بما عمل، فلا غرابة أن يرى صورة عمله؛ والمتقدمون يقولون: تصور لهم أعمالهم، وتحول إلى أشياء مرئية، والأولى أن تظل الآية على شمولها، ومن ذلك أن يروا أثر العمل، وأن يروا حساب العمل، وأن يروا العمل مكتوبًا في صحائفهم، وأن يروا العمل ذاته موثقًا مشهودًا.

* ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]:

هذا دليل على أن مرد الأمر إلى العمل، وأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، وأن الأعمال السيئة سبب لدخول النار، وفي الآية تذكير بأهمية العمل وخطره وأنه معدود على المرء حَقُرَ أم عَظُمَ، فللقلب أعمال وللجوارح أعمال وللسان أعمال؛ ولذلك قال بعض السلف: «مَن عَدَّ كلامَه مِن عملِه، قلَّ كلامه فيما لا ينفعه»[1].

وقد يقع من عمل الإنسان ما هو داخل في دائرة المباح، الذي لا يُوصف بأنه خير أو شر، إلا بموجب القصد والنية، فإن قصد به خيرًا أُجر عليه، وإن قصد به شرًّا أثم، وما لم يقصد بها هذا ولا ذاك، فهو من العفو الذي لا يحاسب عليه، ولذا لم يذكره في الآية.

ومع أن هذه الآية تعظِّم من شأن الأعمال، فإن كثيرًا من المسلمين يتساهلون فيها، وبعضهم يترك عمل الفرائض مدَّعيًا أن التقوى في القلب وحَسْب، أو يقصر الأعمال الخيرة في فعل العبادات دون السلوك والأخلاق!!

والله يحب عمل الدنيا النافع، ويثيب عليه، وقد يعاتب على تركه؛ لأنه يترتب عليه فوات مصالحه الخاصة، أو مَن يعول من زوجة أو أهل أو ولد أو نحو ذلك، أو

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٧٩٥)، وابن المبارك (٣٨٣)، والدارمي (٣١٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٦١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٧) من قول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

يذل نفسه بالسؤال أو بالسرقة، وبهذا الفكر والإهمال لأهمية العمل تتحول الأمة في مجموعها إلى أمة متخلِّفة ضعيفة، مستهلِكة غير منتجة.

ومن الخلل البيِّن أن بعض الناس لما يقرؤون مثل هذه الآية ينقدح في أذهانهم أن الأعمال التي توزن هنا، هي العبادات المحضة من صلاة أو صدقة أو نسك، وهذا جهل مفرط بالدين؛ لأن دينك ما ترك شيئًا إلا انتظمه؛ مصالح الأفراد أو الأسر أو الجماعات والأمم، والإخلال بشيء من ذلك مظنة المحاسبة والمؤاخذة، والإنسان إذا أخل بأمر يخصه في عبادته كان الحساب عليه فقط، لكن إذا أخل بأمر يتعلق بمصلحة الأمة، مثل أن يكون قصَّر في وظيفته أو خان أمانته، أو لم يقم بواجبه؛ كان ضرر ذلك على كل مَن تحت يده، وينبغي أن نحرِّر هذا المعنى ونصحِّحه، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ [الحج:٧٧]، وقال هنا: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾.

و«الذرة» فيها أقوال خمسة، ذكرها ابن الجوزي وغيره، وأشهرها: أن الذَّرة واحدة الذَّرِّ، وهو النمل الصغير. أو هي ذرة الهباء التي يراها الإنسان في الهواء تحت ضوء الشمس من كوة أو غيرها[(١)].

والعلماء المعاصرون يعنون بالذرة شيئًا آخر، وهو ذلك الجزء المتناهي في الصغر الذي تتكون منه المادة.

والسياق يدل على أن المعنى: مَن يعمل أقل مقدار من الخير يرَهُ، أو أقل مقدار من شرٍّ يرَهُ، وهذا لا يُستثنى فيه شيء، فكل ما يتصور من الصغر فهو مقصود في هذه الآية،

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤٠٦/١)، و«البحر المحيط» (٦٤١/٣)، و«الدر المنثور» (٥٩٥/١٥)، و«روح المعاني» (٤٣٧/١٥).

والله تعالى أعلم، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، ولا هباءة ولا ما هو دونها ولا ذرة صغيرة، ولا حتى جزءًا من الذرة والله سبحانه وتعالى لا يظلم شيئًا، ولا يظلم أحدًا.

والمثقال هنا قدر من الوزن.

وها هنا مسألة: هل ينفع الكافر ما يعمله من خير؟

والجواب: أنه يُجازى عليه في الدنيا؛ لأن الله لا يظلم أحدًا شيئًا، فيُجازي الكافر في الدنيا بمقدار ما عمل من الخير والطاعات.

وأما المؤمن فما عمل من خير -وإن كان شيئًا يسيرًا- قد يُجازى عليه في الدنيا ويُدَّخر له في الآخرة ما هو أعظم، وما عمل من شر -وإن كان قليلًا- فقد يُعجَّل له عقوبته في الدنيا بما يُخفِّف عنه عقوبته في الآخرة، وقد تُؤخَّر عقوبته إلى يوم القيامة، وقد يغفر الله له ذنبه، وأصحاب الكبائر تحت مشيئة الله، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كما في قصة الرجل الذي قال الله تعالى فيه: «**اعرِضُوا عليه صِغَارَ ذُنوبِه، وارفَعُوا عنه كِبَارهَا، فتُعرضُ عليه صغَارُ ذنوبِه، فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مشفِقٌ من كِبَارِ ذنوبِهِ أَنْ تعرَضَ عليهِ، فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً. فيقول: ربِّ! قد عملت أشياءَ لا أراها هاهنا**»[1].

وفي الآية حث للإنسان على أمرين:

١- أَلَّا يستهين بخير يعمله كائنًا ما كان هذا الخير، ولو كان زهيدًا، كما قال ﷺ:

(١) أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذرٍّ ﷺ.

«لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ»(١). وقال: «الكَلِمةُ الطيبة صَدَقةٌ»(٢). وقال: «وأَمْرٌ بالمعْروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكَرِ صدقةٌ»(٣). وقال: «ولا يزالُ لِسَانُك رطبًا بذكرِ الله»(٤). والخيرات كثيرة كلٌّ مستطيع أن يأخذ منها بنصيب.

ومن ذلك: عملُ القلب، مثل: العفو عن المؤمنين والمؤمنات، ومسامحتهم إن أخطؤوا وظلموا، والتذكر والتفكر.

وهكذا في الأعمال الصالحة المتعدِّية نفعها للناس، سواءً أكانت أعمالًا تعبُّدية شرعية؛ كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم أعمالًا دنيوية؛ كالبِرِّ والجود والإحسان والصِّلة ونفع الناس في دنياهم ومعاشهم، والتسلية عن همومهم... إلى غير ذلك من المقاصد التي يحبها الله ويرضاها.

٢- أَلَّا يستهين بمعصية ولو قلَّت؛ فإن المحقَّرات من الذنوب تجتمع على الرجل العظيم حتى تهلِكَه؛ فلا يستهين بكلمة غيبة، أو نميمة، أو نظرة حرام، أو سخرية، أو غفلة، أو تأخر في صلاة، أو كلمة سيئة في حق الوالد، أو تقصير في واجب، أو غِشٍّ يسير، أو تجاوز، فهذه أشياء تجتمع على الإنسان حتى تهلكه أو تكاد، وقد تحبِطُ عمله أو توبِقهُ.

فحريٌّ بمَن يقرأ هذه الآية أن يقف عندها؛ ولهذا ورد أن صَعْصَعة بن معاوية ﷺ، عم الأَحنف جاء إلى النبي ﷺ، فسمعه يقرأ هذه الآية، فقال: «حسبي لا أبالي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٠) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٦٩٨)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وابن حبان (٨١٥)، والحاكم (١/ ٤٩٥) من حديث عبد الله بن بسر ﷺ.

أن لا أسمع غيرها»[1].

وقرأ الحسن البصري هذه الآية عند أعرابي، فلما قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. قال الرجل: انتهت الموعظة[2].

○ ○ ○

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٩٤)، والطبراني (٧٤١١)، والحاكم (٣/ ٦١٣).

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٨٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٥).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

سورة العاديات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ
لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ
﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات:١-١١].

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة العَاديات» في معظم المصاحف وكتب التفسير، وبعضهم يضيف الواو، فيسميها: «سورة ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾»[1]. وهذا بالنظر إلى حكاية الآية وسياقها.

* عدد آياتها: (١١) آية باتفاقهم[2].

* واختلف هل هي مكية أم مدنية؟ فذهب بعضهم إلى أنها مكية، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، وعطاء، والحسن، وعكرمة[3].

وذهب آخرون إلى أنها مدنية، منهم ابن عباس ، وأنس رضي الله عنهما، وقتادة، ورجَّحه الطاهر ابن عاشور[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٣)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٩٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٠)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٣)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤١).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٥)، و«زاد المسير» (٩/ ٢٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٩٦).

(٤) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (٨/ ٢١٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٩)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٤٩)، و«الإتقان» للسيوطي (١/ ٤٦، ٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٧).

واعتمد في الترجيح على سبب النزول، وحاصله أن النبيَّ ﷺ بعث سريةً فأبطأت عليه شهرًا لا يأتيه خبرها، فاغتم لذلك ﷺ، ثم نزلت هذه السورة(١).

وهذا ضعيف، شأنه شأن معظم أسباب النزول، فإنه يغلب عليها الضعف، ولم يصح في فضل هذه السورة حديث فيما أعلم، وذكر الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» آثارًا لا تصح ولا تثبت(٢).

اشتملت السورة على ثلاثة أقسام:

الأول: يشمل خمس آيات، وهي قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات:١-٥]، وهي مقدمات تعتبر قَسَمًا أقسم الله تعالى به، وهو الثلث الأول من السورة.

الثاني: الحقيقة التي أقسم الله عليها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٦-٨].

الثالث: وعظ وتذكير، وهو بقية السورة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات:٩-١١]:

* ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]:

«العاديات» مأخوذة من العَدْو، وهو الركض السريع، ولا يخص الحيوانات فحسب، بل هو شامل للإنسان.

فـ«العاديات» هنا هي الحيوانات العادية، أقسم الله بها حال عدوها، ويحتمل أن

---

(١) أخرجه البزار (٢٢٩١- كشف)، والدارقطني في «الثاني من الأفراد» (٥)، والواحدي (ص ٤٦٣)، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٦٧٣)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين» (٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٧)، و«الدر المنثور» (٨/ ٥٩٩-٦٠٠)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٥٣٨).

تكون هي الخيل بخاصة، وهذا قول أكثر المفسرين؛ وخصُّوا الخيل لقوله: ﴿ضَبْحًا﴾، لأن الضَّبْح -وهو الحمحمة- هو صوت الخيل إذا أسرعت وركضت، فيصير لها صوت قوي في داخلها لا يبين، هكذا: (أح أح أح)، فهذا الصوت يسمى بالضَّبْح، وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنه لا يضبح إلا الثعلب والكلب والفرس[1].

وقيل: هي الإبل، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيكون هذا على سبيل الاستعارة والنقل، فالإبل لا تضبح كما تضبح الخيل.

وقد روى الشَّعْبيُّ وغيره أن رجلًا سأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عند زمزم، فقال له: ما «العاديات ضبحًا؟»، فقال له عليٌّ: هي: الإبل. فكأن الرجل استغرب، فقال له علي: هل سألتَ أحدًا قبلي؟ قال: نعم. قال: مَن؟ قال: سألت ابن عباس. قال: فما قال لك؟ قال: قال: إنها الخيل. قال: عليَّ به. فجاؤوا بابن عباس- وكان هذا في خلافة علي رضي الله عنه - فقال له علي: يا ابنَ عباس، أقلتَ في «العاديات ضبحًا»: إنها الخيل؟ أتفتي فيما لا علم لك بها، والله لقد غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، وما كان معنا إلا فَرَسان، وما كانت إلا الإبل، فالعاديات هي الإبل، وقد أقسم الله بها وبغارتها[2].

وابن عباس رضي الله عنهما ما قال: إنها كانت في بدر أو في غيرها، وكأن عليًّا رضي الله عنه يرى أن القَسَم هو بركائب المسلمين في بدر وغارتها، وظاهره أنه يرى أن السورة مدنية.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٤، ١٥٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٨٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٩)، و«نظم الدرر» (٨/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٨).

(٢) ينظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص ٣٦٤، ٣٦٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٠)، و«المستدرك» للحاكم (٢/ ١١٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٧)، و«تخريج الكشاف» (٤/ ٢٦٧).

﴿ضَبۡحٗا﴾: الضبح أو الضبع هو الصوت مع مد العنق، و﴿ضَبۡحٗا﴾، مفعول مطلق، أي: تضبح ضبحًا.

* ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ [العاديات:٢]:

أورى: أوقد أو شبَّ، فالذي يُوري هو الذي يقدح.

والمقصود: الخيل إذا جرت؛ لأنها تقدح النار إذا ضربت حوافرها في الصخر أو الحجارة التي في الأرض لسرعتها، فإنه يقع من جراء ذلك نوع من الشرر أو القدح، وهذا قول جمهور المفسرين(١).

وهذا يقوِّي القول بأن المقصود بها الخيل؛ لأن الإبل لا يقع لها ذلك بخفافها، إلا إذا قلنا بنوع من التكلف: إن الإبل إذا أسرعت تضرب الحجارة بعضها ببعض، ويقع من جراء ذلك قدح للنار أيضًا.

وقيل: «الموريات» هي نيران المجاهدين إذا أوقدوها؛ لأنهم غالبًا إذا هموا بالهجوم يوقدون النيران؛ حتى يظن أنهم كثير، ولو لم يكونوا كذلك.

وبعضهم قال: إن «الموريات» هي مكر الرجال، وتحريكهم لعقولهم في استنباط الحيل! أو هي ألسنتهم إذا كشفت الحجج وأبانت عنها.

وقيل: هي نيران الحجيج إذا أوقدوها بعرفة أو مزدلفة. وهذا على القول بأن «العاديات» هي الإبل إذا مضت بالحُجَّاج.

والأقرب أن المقصود: الخيل؛ لأنها إذا ضربت بحوافرها في الأرض الصلبة أورت النار؛ ولذلك يقول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غَيرَ أن سُيوفَهم   بِهِنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتَائِب

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٠).

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضاعَفَ نسجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الْحُبَاحِبِ(١)

* ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات:٣]:

أي: المغيرات التي تُغِير على العدو في الصباح؛ لأنهم أكثر ما يُغيرون في الصباح؛ لأن الأمور في النهار مكشوفة، والنور يفضح.

وفي الحديث: «إنا إذا نَزَلْنَا بساحة قومٍ، فسَاءَ صباحُ الْمُنْذَرِينَ»(٢). وهكذا في القرآن: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٧].

وإذا كان المقصود بـ «العاديات»: الإبل، فتكون الغارة هنا هي الدفع من عرفة إلى مزدلفة، ثم الدفع من مزدلفة إلى منى والعرب كانوا يقولون في الجاهلية -كما في «الصحيح»-: «أَشْرِقْ ثَبِيرُ؛ كَيْما نُغِيرُ»(٣).

وليست الغارة مقصورة على الحرب، بل دفع الإبل مجموعةً إلى مكانٍ ما يسمى غارة، ولو لم يغيروا على عدو، فهم كانوا يذهبون إلى منى بعد الإشراق، فيقولون: «أَشْرِقْ ثَبِيرُ» -وهو جبل بمزدلفة- «كَيْما نُغِيرُ»، فلا ينصرفون إلا إذا سطع عليه نور الصباح.

فهذه ثلاث أشياء أقسم الله تعالى بها، وهي: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١-٣].

---

(١) ينظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٥).
والفلول: جمع فل، وهو تشقق حد السيف، وقراع الكتائب: مجالدة الجيوش، وتقد: تشق، والسلوقي: درع منسوبة إلى سلوق؛ مدينة بالروم، والمضاعف نسجه: الذي نُسِج حلقتين حلقتين، والصفاح: حجارة عريضة، والْحُباحب: ذُباب يطير بالليل في أذنابه كشرر النار، وقيل: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١، ٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس ﷺ.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٨٤).

* ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ [العاديات:٤]:

«الإثارة» معروفة، وهي: تحريك الشيء الساكن، و«النقع» هو: الغبار، كما قال حسان ﷺ:

عدِمنَا خيلَنـا إنْ لـمْ تـروْهَا ... تُثيرُ النقعَ موعِـدُهـا كـداءُ

وقال بَشَّار بن بُرْد:

كَأنَّ مثارَ النقعِ فَوقَ رؤوسِنـا ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكِبُهُ

فـ «النقع» إذا جاء معه كلمة «أثار» فالغالب أن المقصود به الغبار، وضمير الهاء في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، يجوز أن يكون عائدًا إلى العَدْو المذكور في أول السورة، أو يعود إلى المكان الذي يُثار فيه الغبار.

* ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات:٥]:

يحتمل أن يكون الضمير كسابقه عائدًا للعَدْو، ويحتمل أن يكون عائدًا للمكان، أي: صرن في وسط هذا الجمع من الأعداء الذين استهدفتهم الغارة. وإذا قلنا: إن «العاديات» هي الإبل. فقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: مزدلفة، و«جمع» اسم من أسمائها، ومنه قولهم: ليلة جمع. أي: مزدلفة. فيكون المعنى: دخلت الإبل بمزدلفة حتى صارت في وسط هذا المشعر.

ومن الملاحظ أن السياق كان في البداية أسماء ثم صار أفعالًا، أقسم الله تعالى بـ«العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. ثم انتقل السياق وتغير، بخلاف سور أخرى مثل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، ومثل ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ والسياق هنا أبلغ مما لو ساق مجموعة من الأسماء المتسلسلة، كما قال الشاعر العربي، الذي يدعي أنه لقي الغول:

بأني قد لقيتُ الغولَ تهوي ... بسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحَانِ

فأضرِبُها بلا دهْشٍ فخرَّت   صـريـعًـا لليـدَيْـنِ وللـجِـرَانِ[1]

فغاير بين الفعل الماضي والمضارع ثم الماضي.

فالتنويع يحدث عند الإنسان نوعًا من عدم الاسترسال، ويغيِّر النمط الذي سمعه.

* ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦]:

وهذا هو المقسم عليه، **فمَن هو الإنسان؟**

أكثر المفسرين على أنه الكافر أو الفاجر[2]. وهذا محتمل.

ويمكن أن يكون المقصود: جنس الإنسان من حيث هو؛ فأصله وطبعه كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]، فكل الناس حملوا الأمانة، والغالب في الإنسان أنه ظلوم جهول، إلا مَن حفظه الله تعالى ورحمه.

وقد ورد من حديث أبي أمامة ﷺ مرفوعًا وموقوفًا: «**الكَنُود: الذي يضرِب عبدَه، ويمنعُ رِفدَه، ويأكلُ وحدَه**»[3].

ولا يصح، وهذه صفات سيئة في الإنسان، وهي بعض صفات الكنود، وقد وصف بصفات أخرى، فقال بعضهم: إن «الكَنُود» هو: الكفور الذي يجحد النعمة، ويكفر.

---

(١) ينظر: «ديوان تأبط شرًّا» (ص ٢٢٤-٢٢٥)، و«الكشاف» (٣/ ٦٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٢٧)، و«البحر المحيط» (٩/ ١٦).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٣).

(٣) أخرجه مرفوعًا: ابن جرير (٢٤/ ٥٨٦)، وابن أبي حاتم - كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٧)- والطبراني (٧٧٧٨، ٧٩٥٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٧١).
وأخرجه موقوفًا: ابن معين في «تاريخه» (٥٤٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٦٠)، والطبري (٢٤/ ٥٨٧). وهو ضعيف موقوفًا وأشد ضعفًا مرفوعًا، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٣٣).

ومنهم مَن قال: «الكنود» هو: الجحود الذي لا يعترف بالفضل والإحسان، وإنما يذكر السيئ.

ومنهم مَن قال: «الكنود» هو: الحقود، أو الحسود.

وبعضهم نظم هذا في أبيات فقال:

يا أيُّها الظَالِـمُ في فِعْـلِـه　　والظُّلْمُ مردودٌ على مَنْ ظَـلَـمْ
إلى مَتى أنتَ وحتَّى متَى　　تَشْكُو المُصيبَاتِ وتَنْسَى النِّعَمْ

أقسم تعالى على هذا الوصف، وكأن في ذلك إشارة إلى ما شرعه الله تعالى لعباده وأوجبه عليهم، من الجهاد بالنفس والمال، فالذي يحول بين الإنسان وبين طاعة الله تعالى هو حظ النفس، وما يكون في الإنسان من الجحود والكنود والنكران والأثرة وحب المال والنفس.

* ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]:

﴿وَإِنَّهُۥ﴾أي: الإنسان، وبعضهم يُرجع الضمير إلى الله؛ لأنه أقرب مذكور، وهذا ضعيف. والراجح الأول.

وهل الإنسان يشهد على نفسه بأنه كنود؟

هذا فيه إشكال، والذين قالوا: إن مرجع الضمير إلى الله، أرادوا الخروج من هذا الإشكال.

ولعل شهادته تكون بأنه يدرك ذلك من نفسه حال الهدوء والمراجعة والملاحظة والنظر في حال النفس، فإن الإنسان تمر به أحوال شتى، فربما غلب عليه الغضب أو الهوى أو الشهوة، ثم يفيق، ويشهد على نفسه بالخطأ، وتجد في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]؛ ولذا كان من أعظم ما يربِّي

النفس اعتياد المرء على مراقبتها ولحظ تصرفاتها ودوافعها وانفعالاتها وذلك ينفع أكثر مما تنفع نصائح الآخرين؛ لأنك قد ترى أنهم ظلموك أو جاروا عليك؛ ولذا قال سبحانه: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة:١٤-١٥].

ويحتمل أن يكون المعنى: يشهد بعضهم على بعض، كما يشهدون في مصالح الدنيا والحقوق وغيرها، فكذلك يشهد بعضهم على بعض في الآخرة وفي الدنيا، وهو اجتهاد في فهم الآية يخضع للأخذ والرد.

ونلاحظ أن الإنسان يدرك من عيوب غيره ما لا يدركه من عيوب نفسه، فهذا من الشهادة على الآخرين، فيشهد على فلان بأنه جحود، أو كذَّاب، أو بخيل، وفي الحديث الصحيح: «**هذا أَثنَيْتُمْ عليه خيرًا؛ فوجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أَثْنَيْتُمْ عليه شرًّا؛ فوجَبَتْ له النارُ، أنتُمْ شهداءُ الله في الأرضِ**»[١].

وهي شهادة على نفسه من وجه آخر؛ فكونه يبصر القَذَاة في عيون الآخرين، ولا يبصر الجِذْع في عينه، دليل على أنه يشكو المصيبات وينسى النعم، ويرى السيئات ويجحد الحسنات.

ويحتمل أن المعنى أنه يشهد على نفسه في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، فتشهد على الإنسان جوارحه بكل ما عمل.

وهناك معنًى خامس، وهو أنه يشهد بلسان الحال، وإن لم يشهد بلسان المقال، يعني: قد لا يعترف الإنسان بأنه كنود وجحود، لكن حاله تشهد بذلك، وأنت إذا قرأت في كتب الأدب، كـ «العِقْد الفريد»، أو كتب ابن قتيبة، كـ «عيون الأخبار» والكتب الجوامع؛ وجدتهم كثيرًا ما يذمون جنس الإنسان. ويقولون الناس صاروا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

شوكًا لا ورق فيه، ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المُتَنبِّي:

وَلَما صار وُدُّ الناس خِبًّا ... جَزَيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصِرتُ أَشكُّ فيمَنْ أصطفِيهِ ... لعِلْمي أنَّهُ بَعضُ الأَنامِ[1]

وقال المعتصم بن صُمادح:

وزهَّدني في الناسِ معرفتي بهم ... وطولُ اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم تُرني الأيامُ خِلًّا تسرُّني ... مباديه إلا ساءني في العواقبِ
ولا صرتُ أرجوه لكشفِ ملمَّةٍ ... من الدهرِ إلا صار إحدى المصائبِ[2]

ولعل جميع هذه المعاني صحيحة.

ويحتمل أن تكون ﴿عَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «مع»، كقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]. يعني: مع حبه، فيكون المعنى: وإنه مع ذلك لشهيد، يعني: شهيد على هذه الحقيقة.

* ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]:

أكثر المفسرين على أن المقصود بالخير هو المال، وقد يكون المقصود جنس الخير ويشمل المال وغيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، والغالب أن المال محبوب، وأن الناس يعدُّونَه خيرًا، وأنه سبيل إلى الخير.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: أنه يحب المال حبًّا شديدًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٣)، وشرحه المنسوب لأبي البقاء العكبري (٤/ ١٤٤).

(٢) ينظر: «البرق الشامي» (٣/ ٨١)، و«المطرب» (ص ١٧٣)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٥١)، و«المغرب في حلي المغرب» (٢/ ١٩٧).

وبعضهم يقولون: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ يعني: لبخيل بسبب حب المال، فتكون اللام هنا سببية، والشديد تأتي بمعنى البخيل، كما قال الشاعر:

أرى الموتَ يَعتامُ الكرامَ ويَصْطَفِي   عَقيلةَ مالِ البَاخِلِ المتَشدِّدِ

المتشدِّد: الممسك. والمعنى متقارب.

وهذا مقسم عليه في السورة؛ فالله أقسم على أن الإنسان كنود، وأنه على هذا شهيد، وأنه لحب المال لشديد.

* ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات:٩]:

هنا بدأ الوعظ والتخويف والزجر والتهديد، والمعنى: أفلا يعلم هذا الإنسان إذا بُعثر ما في القبور؟

و«البعثرة»: كلمة تدل على شيء غير منظم، يقال: أشياء مبعثرة: مرمية على غير انتظام، فما أثير وأخرج وفرق ورمي على غير انتظام يقال له: مبعثر.

ولم يقل: (مَن في القبور)، مع أن المقصود هو الإنسان، للإشارة إلى أنه يبعث كل ما في القبور، حتى الحيوانات تحشر.

ولأن الإنسان حينما يبعثر من قبره ليس عاقلًا ولا مكلَّفًا ولم تعد إليه روحه، فكان كما لو كان غير عاقل، وعومل معاملة غير العاقل، وفي ذلك إشارة أيضًا إلى أن الناس يوم القيامة يكونون كما قال عنهم ربهم: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

* ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]:

أي: أُبرز وأُظهر وبُيِّن ومُيِّز، كما قال لَبِيد:

وكُلُّ امْرِئٍ يومًا سَيعلمُ سَعْيَهُ   إذا كُشِّفَتْ عِندَ الإلهِ الحَصَائِلُ

وهذا يعني إظهار الصحف التي تتطاير يوم القيامة، وفيها كل شيء، أو يعني أن يظهر الإنسان يوم القيامة على حقيقته، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩].

* ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]:

وربهم سبحانه وتعالى خبير بهم في كل حال وفي كل حين، ولكن يومئذ: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، ولا يجادل أحد في علمه سبحانه وتعالى كما كان يجادل في الدنيا؛ فالخبرة تظهر ظهورًا ضروريًّا لا يجادل فيه أحد.

الترابط الموضوعي في السورة:

لما أقسم الله سبحانه وتعالى بـ «العاديات وضبحها»، ثم بـ «النار التي تُورى وتُقدح»، ثم بـ «الغارة التي تشنها هذه الخيل أو الإبل»، نلاحظ تسلسلًا متسقًا:

فالآية الأولى تتعلق باحتدامٍ واندفاع من داخل النفس، وذلك هو الضبح.

ثم في الآية الثانية: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾. تأخذ الخيل في سرعة شديدة حتى إذا ضربت بحوافرها الحجارة الصلبة أورت النار قدحًا وهو أمر عَرَضي، لكنه مشهد واقع لتلك الخيل المغيرة.

ثم في الآية الثالثة: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾. والغارة مقصودة يقينًا، وهي الغاية.

وهكذا لو تأملت لوجدت أن الأشياء كلها -والله أعلم- تمر بهذه الدرجات الثلاث، تبدأ من داخل النفس حركة شعور وإرادة ورغبة وهمة؛ ولذلك جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**أحبُّ الأسماء إلى الله عز وجل: عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وأصدَقُها: حارثٌ وهمَّامٌ**»(١)؛ وهي تتطلب نقل ذلك إلى الواقع بعمل دؤوب وجهد متواصل ويمكن تشبيه هذا بـ«الموريات قدحًا»، وهذه هي **الدرجة الثانية** التي هي الانطلاق

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨١٤)، وأبو داود (٤٩٥٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٠٤، ١٠٤٠).

والسير والمواصلة والوسيلة.

ثم الثالثة: هي ثمرة العمل والجهد الذي كان همًّا بادئ الأمر، فمَن هَمَّ بتجارة، أو بزواج، أو ببناء، أو بوظيفة، أو بتخصُّص؛ فإنه يكون في أول الأمر همًّا يختلج في داخل النفس، ثم ينتقل إلى جهد وعمل ميسر، وينتهي إلى الهدف المقصود.

وبدأ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة بالأسماء، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، ثم انتقل إلى الفعل، فقال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ لأن المقصود الأعظم والأسمى هو الفعل الذي يراد من الإنسان أن يصل إليه.

وخذ على سبيل المثال: الحرب، حيث يقول الشاعر:

أرى خَللَ الرَّمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشِكُ أن يكونَ لها ضِرامُ
فإنَّ النَّارَ بالعودَين تُذْكَى ... وإنَّ الْحَربَ أوَّلُها كَلامُ
إذا لم يُطْفِها عُقَلاءُ قومٍ ... يكونُ وقودُها جُثَثٌ وهَامُ

ولماذا شرَّف الله الخيل؟ ولماذا أقسم الله بها؟ هل ذلك لكونها حيوانًا فقط؟

الجواب: لا، وإنما يكون شرف الخيل بشرف مالكها، وهو الإنسان.

فالله تعالى أقسم بالخيل بالنظر إلى أن الإنسان هو سائقها وسائسها ومالكها، وفضلها من فضل مستعملها؛ ولهذا جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال عن الخيل: «الخيلُ لثلاثة لرجل أَجْرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجل وزرٌ»[1].

ومن هنا كان القَسَم بها في هذه السورة.

والإنسان نفسه عبارة عن جسد وروح، وشرف الإنسان ليس ببدنه أو بقوته، أو بجماله أو بكبريائه، أو بطوله أو بعرضه، أو بوزنه أو بشعره، وجسم الإنسان عبارة

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عن مركوب، والراكب هو الروح والعقل والنفس، فإذا كانت النفس شريفة بتقوى الله تعالى وطاعته، وبالعلم النافع وبالعمل الصالح وبالهمم الكبار، كان شرف الجسم تبعًا لذلك، وإذا صار مدار أمره على الدنيا من المال والشهوة والمنظر الجميل؛ فإنه يفقد بذلك معناه وقيمته.

وفي السورة معنًى آخرُ يتعلق بالزمن؛ فقد بدأ الله تعالى بـ «العاديات»، وهذا يصدق على «العاديات» في كل ساعة من ليل أو نهار، ثم انتقل إلى معنًى أخص وهو «الموريات»، وهذا إنما يكون في الليل، ثم انتقل إلى معنًى أخص منه وهي «المغيرات»، وهذا غالبًا يكون في الصباح، ولذلك قيده في الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات:٣].

وفي ذلك إشارة إلى شرف الوقت وأهميته، وأن مدار الجزاء الموعود في آخر السورة هو على استثمار هذا الوقت الذي يتناقص، فيكون عندك واسعًا في أول الأمر، ثم يضيق عليك شيئًا فشيئًا.

والتسلسل الزمني في: «العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. يتناسب مع المقسم عليه؛ فإن الله تعالى أَقْسَم على ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦]، وقلنا: إن الكنود هو: الجحود، فهذا يتعلق بالأرض السبخة اليابسة التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، وهذا من معاني الكنود.

الثاني: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]، فتنتقل من مقام الجحود إلى مقام الاعتراف، فهو يعترف على نفسه، سواءً اعترف بلسانه على نفسه أو اعترف على غيره، وهذا يتضمن الاعتراف على نفسه، أو أن المقصود الاعتراف في الدار الآخرة.

الثالث: ثم انتقل بعد ذلك إلى مقام البخل والإمساك، والعمل، وحب الخير الذي من معانيه: حب المال، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

ويقابل ذلك ثلاثة أشياء، ذكرها تعالى في السورة نفسها؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦]، يقابله قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات:٩]. فهذا الإنسان الكنود الجحود هو كالأرض السبخة، ويوم القيامة تقع البعثرة، فتحفر القبور، ويخرج من فيها من الناس.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]، هذا الاعتراف يقابله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]، وقد يكون هذا من معاني قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]، وسبق احتمال أن المقصود شهادته في الدار الآخرة على نفسه، فقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]. هو باعتراف جوارحه أو بشهادة غيره عليه أو بشهادة الكرام الكاتبين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، وكما في الحديث: «أَوَ لَيْسَ كَفَى بِي شهيدًا، وبالملائكةِ الكرامِ الكاتِبِينَ؟!»(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]. هذا قد يناسب قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، فهو الآن يحب ما يعتقد أنه خير، وهو المال، ولا ينفقه، وقد يكون هذا المال شرًّا له، فإذا قيل له: أنفق. تمنَّع ورفض، وقال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد:٦]، وهذا في الناس كثير، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]، فهو خبير بما أنفقوا، وبما لم ينفقوا، بل هو خبير بما عرفوا من عيوبهم وأخطائهم، وما تجاوزوا، وهكذا يتبين خيط دقيق بين الأشياء التي أقسم الله تعالى بها وبين الأشياء التي أقسم الله تعالى عليها، وهي المعاني الثلاثة، وبين الآيات الثلاث التي فيها الوعظ والتذكير بالدار الآخرة،

---

(١) أخرجه البزار (٧٤٧٦)، وأبو يعلى (٣٩٧٥)، وابن جرير (٢٠/ ٤٠٧)، وابن أبي حاتم -كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٧٠)- والحاكم (٤/ ٦٠١)، والثعلبي (٨/ ٢٩١) من حديث أنس ﷺ.

فالإنسان يخرج من القبر بعد أن كان فيه، ثم يخرج منه ما كان في صدره، أو قلبه.

وفي ختام السورة إشعار بأن الجحود والإنكار لن يجديهم شيئًا، فالله عليم خبير لا تخفى عليه خافية.

وهذه السورة وغيرها تجعل الإنسان دائمًا في حالة رقابة للنفس، وهذه من المقامات العظيمة التي قد يغفلها الكثير من الناس، وقد رأيتُ من المربِّين والدعاة مَن قد يلاحظ الآخرين أكثر مما يلاحظ نفسه؛ لأن الآخرين بمرأى عينه وسمعه وبصره، فهو نَقَّاد دقيق الملاحظة، لكنه عن نقد نفسه في غفلة.

والمشكلة أن في الإنسان خِلَّتين؛ إحداهما شرٌّ من الأخرى: غفلته عن عيوبه؛ لأنه مشغول بالآخرين.

قَبِيحٌ مِنَ الإنسانِ ينْسَى عيوبَهُ ويذكُرُ عَيْبًا في أَخِيهِ قَدِ اخْتَفَى

كثرة النقد للآخرين مما يولِّد لديه احتقارًا وازدراءً لهم، وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس**»[1]. فبَطَرُ الحقِّ هو: جحده، بحيث لا يرى في نفسه عيبًا.

وقد يُبتلى بالكِبر طالب العلم أو الداعية أو الواعظ أو غيرهم، فيكون كبيرًا في عين نفسه، ويرى من نفسه ما لا يراه الناس، ولذلك يقول الشاعر:

تَواضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لنَاظرٍ على صَفَحاتِ الماءِ وَهوَ رفيعُ

ولا تَكُ كالدُّخَانِ يعلُو بِنَفْسِه إلى طَبَقَاتِ الجوِّ وَهو وَضِيعُ

فالإنسان المتكبِّر مثل الدخان في سرعته وخفته، والإنسان المتواضع مثل النجم، يُرَى في الماء وهو في مكانه، فهما أمران متلازمان: الكبر الذي هو بطر الحق وجحده، ورؤية الإنسان نفسه بمنظار الكمال.

○ ○ ○

(١) أخرجه مسلم (٩١).

سورة القارعة

سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥
فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ
مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾

[القارعة:١-١١].

* تسمية السورة:

لا يعرف لهذه السورة اسم إلا: «سورة القارعة»، وهذا ما ورد في جميع المصاحف وكتب التفسير وغيرها، ولم يُنقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أو الأئمة تسميتها بغير هذا الاسم[1].

* عدد آياتها: إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي، وعشر آيات في مصحف مكة والمدينة، وثمان آيات في مصحف البصرة والشام[2]؛ وذلك بحسب تقسيم الوقفات، فـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢] بعضهم يعدها آيتين وبعضهم يعدها آية واحدة... وهكذا.

* وهي مكية بإجماع العلماء، وممن حكى ذلك: ابن الجوزي، والقرطبي، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٠٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٢)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٦)، و«زاد المسير» (٩/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

وقد ورد في فضلها حديث ضعيف، أن النبيَّ ﷺ دخل على أبي بكر وعمر، فرأوا في وجهه ولحيته الشيب، فحزنوا وقالوا: شِبْتَ يا رسول الله! فقال ﷺ: «شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها، وآلُ حامِيم، والمرسلاتُ، والقارعةُ».

وفي الحديث اضطراب، وفي معظم رواياته لم يرد ذكر «القارعة»[1].

* ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١]:

مأخوذة من القرع وهو الطرق أو الضرب بشدة، وسُمِّيت: «القارعة»؛ لأنها تقرع الآذان بجلجلتها وزلزلتها، وتقرع القلوب بمخاوفها ووجلها وتساؤلاتها؛ وتقرع العقول بالحيرة، حتى تدع الحليم حيرانًا: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

و«القارعة» هي الحادثة العظيمة الجليلة، ومثل هذا في المعنى: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد:٣١]، والمقصود بهذه الآية ما يصيبهم في الدنيا من نكبة أو عذاب.

وجمهور المفسرين على أن القارعة هي القيامة، فتكون اسمًا من أسمائها.

ويرى بعضهم أن القارعة هي النفخة الأولى.

وذهب آخرون إلى أنها النار، والأرجح الأول، أن القارعة هي القيامة، وهذا أحد أسمائها، ولها أسماء أخرى، مثل:

«الحاقة»، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣].

(١) تقدم تخريجه في أول «سورة التكوير».

«الطامة»، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات:٣٤].

«الصاخة»، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس:٣٣].

«التغابن»، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

«يوم الدين»، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

«الغاشية»، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

«الساعة»، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨].

«يوم التناد»، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢].

«الجاثية»، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:٢٨].

«الواقعة»، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١].

«الزلزلة»، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]... إلى غير ذلك من الأسماء الكثيرة، والقرآن الكريم مليء بها.

* ولما ذكر الله القارعة قال: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:٢]، ومن بلاغة القرآن استخدام أسلوب الاستفهام؛ لأن كثيرًا من الحقائق والمعاني الكبيرة تمر على الناس دون أن يتفطَّنوا لها، والأسئلة في القرآن الكريم على نوعين:

الأول: أن يرد ذكر السؤال ومعه الجواب، ويكون المقصود لفت النظر للجواب.

والثاني: أن يرد ذكر السؤال وليس معه جواب، وحينئذ يكون المقصود إعمال الذهن وتحريك الفكر بحثًا عن الجواب.

فهنا ليس المقصود السؤال عن اللفظ اللغوي؛ لأن كل واحد يعرف أن «القارعة» هي الشيء الذي يقرع، بل السؤال عما جاء في السورة نفسها، فهو استفهام تعظيم وتهويل لا ينتظر له جواب.

* ثم كرر السؤال بصيغة أخرى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:٣]:

أي: ما أعلمك؟ وكأن المعنى يشير إلى أن القارعة فوق مستوى إدراك الإنسان وعقله وفهمه، والآيات التي فيها استخدام هذا اللفظ في القرآن كثيرة، منها:

موضعان في سورة القارعة: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:٣]، وفي آخر السورة قال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾ [القارعة:١٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٧]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر:٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [الطارق:٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ [الهمزة:٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴾ [المطففين:٨]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطففين:١٩].

ففيه الإشارة إلى أن البشر لا يستطيعون أن يستقلوا بمعرفتها ولا أن يدركوها بمحض عقولهم، وأن المصدر الذي يمكن أن يعلِّمهم بها هو القرآن، والله تعالى وحده هو الذي يعلم حقيقة هذه الأشياء ويطلع عباده منها على ما يشاء، ولهذا خوفنا الله تعالى من النار ورغبنا في الجنة، ومع ذلك أخبر النبي ﷺ أن في الجنة: «**ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشَرٍ**»(١).

لو حركت خيالك للتعرف على نعيم الجنة ما استطعت، ولو حركت خيالك للتعرف على عذاب النار ما استطعت، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

في الدنيا إلا الأسماء»[1].

فالعقل محدود بحاجز الزمان، ولا يعرف الكثير من الماضي أو المستقبل.

وبحاجز المكان؛ فلا يعرف ما وراء المكان الذي هو فيه بحواسه مجردة.

وبحاجز الإمكان؛ فهو ينفع في مجاله وميدانه ويتوقف حين يوضع أمام قضايا عينية لا تعرف نواميسها.

* ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة:٤]:

قد يظن أن هذا الجواب للاستفهام السابق، والذي يظهر أن هذا ليس جوابًا؛ لأن السؤال كان عن ما هية القارعة، أي: حقيقتها.

أما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ فهو وصف لبعض حوادث ذلك اليوم، ومع هذا لم يحدِّد زمن ذلك اليوم الموعود؛ لأن الساعة من الأمور التي لا يَعلم ميقاتها إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فلا مجال للسؤال عن تحديد اليوم هنا؛ ولذا انتقل إلى وصف مشهد من مشاهده، كأنها يشهده الإنسان، ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٤-٥]، ذكر الله تعالى في هذه السورة تغييرين، أحدهما يتعلق بالإنسان، والآخر بالجبال.

فعلى رغم ثقلها وصلابتها إلا أنها ستكون كالعهن المنفوش، وأما الناس

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦) (٢٦٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ١٦) (٦). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

فسيكونون ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾.

والفراش: هي الحشرات التي تتطاير حول النار، وكثيرًا ما تقع فيها، كما في الحديث الصحيح: «إنما مَثَلي ومثلُ النَّاس كمَثَل رجل استوقدَ نارًا، فلما أضاءتْ ما حولَهُ جعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تقعُ في النار يقعنَ فيها، فجعل ينزعُهُنَّ ويغلبْنَهُ فيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وهم يَقْتَحِمُونَ فيها»(1). وكثيرًا ما يضرب بها المثل بالجهل والطيش وسوء المعرفة بالعواقب.

فالناس يكونون كالفراش المبثوث، وفي سورة القمر وصفهم بوصف آخر: ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر:٧].

وهناك فرق بين «الفراش» و«الجراد»، فالناس قد شُبِّهوا بالفراش في تفرقه، فكل واحد يهيم على وجهه على غير هدى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١١]، ليس له مكان يختفي فيه، ولا يوجد مكان يلجأ إليه، فهذا ما يتعلق بالفراش.

وشُبِّهوا بـ«الجراد» في خروجهم من الأَجْداث- أي: القبور- في كثرة واضطراب يكاد يركب بعضه بعضًا، وما بالك بموقف يحشر فيه الناس كلهم أولهم وآخرهم من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى آخر الناس، على صعيد واحد، فهاهنا الاضطراب والتداخل.

* ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]:

هنا ثنَّى الله تعالى بالجبال التي ذكر أنها تصبح كالعهن المنفوش، وهو الصوف،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما عند جمهور المفسرين[1].

والمنفوش: هو المتفش المتطاير الخفيف، فهذه الجبال القوية المتينة تضعف حتى تصبح كالصوف المتفش المتطاير.

وفي «سورة النبأ» بيان لاختلاف الأخبار عن الجبال في يوم القيامة وتوجيهها.

فإذا كانت الجبال يقع لها مثل هذا، فما بالك بالإنسان وما يقع له من الروع والخوف والقلق؟ وفي هذا يقول أبو العلاء الـمَعَرِّي لما رثى والده:

فيا ليتَ شِعرِي هل يَخِفُّ وقارُه إذا صارَ أحدٌ في القيامةِ كالعِهْـنِ

وهل يَرِدُّ الحوضَ الروِيَّ مُبادرًا مع الناسِ أم يأبى الزِّحام فيستأني

* ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦-٩]:

وهذه الآيات هي مقصود السورة؛ فالنهاية إما جنة أو نار، والميزان هو الحكم العدل.

لقد بدأ الله سبحانه بـ «من ثقلت موازينهم» تقديمًا لجانب الرضا والرحمة منه؛ لأن الناس في حال رعب وخوف، وفي السورة وصف لهذا المشهد، حيث ذكرت حال الناس والجبال، والصوت المرعب، فهو تعالى أسرع بالرحمة والرضا، ولذلك قدم من ثقلت موازينه من أهل الجنة؛ لأن رحمته تسبق غضبه.

والجمع هنا قد يدل على وجود أكثر من ميزان، وقد يكون الميزان واحدًا وإنما تعدد بحسب الأعمال، وقد يكون الأمر شيئًا آخر مما يعلمه ربنا ولا نعلمه، لكننا

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٢٥٨)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٤)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٢).

نؤمن بأن عند الله تعالى موازين، وهذا في القرآن واضح، كما يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

بل السياق يوحي بأن لكل مكلَّف (موازين) تطيش أو تثقل، نحن أمام موازين عدل توزن بها الأعمال، فمَن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومَن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره، أما كيفية الوزن، فأنت لا تعرف ما هو أهم من هذا وهو حقيقة يوم القيامة، ولا تستطيع أن تتخيل ما يجري فيه، إلا أن الله تعالى قرَّبه إليك بهذه المعاني التي تطيقها لغتك ويدركها عقلك، فلا تُدخِل نفسك فيما هو خارج عن حدود عقلك ولا يدركه فكرك، وعليك أن تؤمن بالله وبكتابه دون الحاجة إلى تخييل أو تأويل.

وجمهور أهل السنة يؤمنون بالموازين ويثبتونها، سواءً كانت ميزانًا واحدًا أو موازين، وبعضهم يقولون: توزن الأعمال ويوزن الأشخاص وتوزن السِّجِّلات والصحائف، وهذا كله لا حرج فيه.

لكن ليس مطلوبًا أن نخوض في جدل حول هذه القضايا، بل المهم هو النظر فيما تثقل به الموازين، وربما يطيل بعضهم الجدل حول الموازين وتكون موازينه مملوءة بالغيبة والنميمة، والقيل والقال، والغل والحسد، والحقد والكذب، والشحناء..، ففقه اللسان لا يغني عن فقه القلب.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة ذات رضا، يعني: اندمج فيها الرضا، فأصبحت العيشة نفسها راضية، فضلًا عن صاحبها الذي يتمتع بهذه العيشة الراضية المرضية، فهو في عيش ناعم منعم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يعني: من الكفار أو من المسلمين المسرفين على

أنفسهم بالذنوب والمعاصي الذين كانت سيئاتهم أكثر من حسناتهم، ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

والحق ثقيل، كما قال أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ[1]، فإذا أردت أن يثقل ميزانك فعليك بعمل الصالحات والاجتهاد في الطاعات، واستجماع الإرادة والعزيمة، ومدافعة للنفس، أما الباطل فخفيف، لا يحتاج إلى عناء واجتهاد ذي بال.

وهذه الآية تحتمل ثلاثة معانٍ:

١- أن المقصود بـ «الأم»: جهنم؛ وسمَّاها أمًّا له لأنه يأوي إليها، فهي مثل الأم، وهو معروف عند العرب، يقول أُمَيَّة بن أبي الصَّلت:

الأرضُ معْقِلُنا وكانَتْ أمَّنا فيها مقابِرُنا وفِيها نولَدُ[2]

فشبَّه الأرض بالأم؛ لأنه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥]، ويقول أبو القاسم الشَّابي من المعاصرين:

وقالتْ لِيَ الأرضُ لَمَّا سألتُ أَيا أمُّ هل تكرَهِينَ البَشَرْ؟![3]

٢- أن المقصود بـ «الأم»: الرأس، وهذا معروف أيضًا، يقولون: أم رأسه. يعني: رأسه. كأنه يقول: أمُّ رأسِهِ تهوي في النار. فعلى هذا يكون التقدير: فأم رأسه

---

(١) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ١٣٧)، (٢/ ٨٤)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٣٠)، و«الآداب الشرعية» (١/ ٤١).

وهو مروي من قول ابن مسعود وحذيفة ﷺ وغيرهما. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٢٩٠، ٨٥٠، ١٣٣٠)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣٤)، (٤/ ٣٦٥)، (٨/ ١٤٥)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٤٢٨).

(٢) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٣/ ١٧٣)، (٥/ ٢٣٣).

(٣) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص٩١).

هاوية. كأنه يقول: رأسُه تَهوِي وتتردَّى في جهنمَ.

٣- يعني: أمه ثاكلة حزينة، أو في مقام الحزينة، وكأنه مثلٌ يضرب، ولذلك يقول سعد الغنوي في رثاء أخيه:

هَوَتْ أُمُّهُ ما يبعثُ الصبحُ غاديًا   وماذا يؤدي الليلُ حين يؤوبُ

(هَوَتْ أُمُّهُ): يعني: على سبيل التوجع له، كما يقولون: فلان ثكلته أمه. وهذا لا يراد به حقيقة معناه.

والأول أرجح أن ﴿هَاوِيَةٌ﴾ صفة لجهنم، يعني: فأمه نارٌ هاوية، وليست اسمًا لها؛ لأنها منونة في القرآن، ولو كانت اسمًا لكانت ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث، فالمقصود أنها هنا وصف للنار وليست اسمًا لها.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة:١٠-١١]:

أي: الهاوية، والهاء في: ﴿مَا هِيَهۡ﴾ هاء السكت، وهي تنطق وقفًا ووصلًا عند جمهور القراء، أي: هي نار حامية، وكل نار فهي حامية.

و﴿حَامِيَةُۢ﴾ هنا توكيد لفظي، كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧]، وكأن المعنى: أن هذه النار مستعدة لهم أصلًا، والناس تعودوا في نار الدنيا أن يجمعوا حطبًا؛ حتى يوقدوا النار، فتشتعل مرة وتنطفئ مرة أخرى، أما نار الآخرة فشيء آخر، فلا تقاس بنار الدنيا، وقد أُوقد عليها -كما في بعض الآثار- ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام[1]، وفُضِّلَت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا[2]، كلهن مثل حرِّها، فكأن النيران الأخرى لا تعد شيئًا بالقياس

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٩١٠، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ٥٤٠١)

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٣).

إلى نار الآخرة.

أسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجيرنا من النار، وأن يجعلَنا من أهل الجنة دارِ القرار، وندعو بما كان يدعو به عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللهمَّ إن لم أكن أهلًا أن أبلُغَ رحمتك، فإن رحمتك أهلٌ أن تبلُغَني؛ رحمتُك وسِعَت كلَّ شيءٍ، وأنا شيءٌ، فلتسعْنِي رحمتُك، يا أرحمَ الراحمين»[1].

○ ○ ○

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٨).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:١-٨].

* تسمية السورة:

١ - اسمها المشهور: «سورة التكاثر»، وهذا المُثْبت في معظم المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[١].

٢ - وتسمَّى السورة عادة باسم الكلمة الأولى منها، فيكون من أسمائها: «سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾»، وهذا ذكره البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير، وساق فيه حديثًا سيأتي قريبًا.

والبعض يضيف قوله: ﴿التَّكَاثُرُ﴾، فيسميها: «سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾»[٢].

٣ - وكان بعض الصحابة ﷺ يسمونها: «سورة المَقْبَرة»[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٦)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٢٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

* عدد آياتها: ثمان آيات بلا خلاف[(١)].

* وجمهور المفسرين على أنها مكية[(٢)]، بل حكى ابن عطية في «المحرر الوجيز» الإجماع على ذلك[(٣)].

والصحيح أن في ذلك خلافًا، وإنما هو قول الجمهور، والقول الآخر أنها مدنية، وقد يعزِّز هذا حديث أنس ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهبٍ، أَحبَّ أن يكونَ له واديان، ولن يملأَ فاهُ إلَّا الترابُ**»[(٤)].

قال البخاري ﵀: وقال لنا أبو الوليد -أي: الطيالسي-: حدَّثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب ﵄ قال: كنا نرى هذا من القرآن - يعني: قول النبي ﷺ: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهبٍ أحبَّ أن يكونَ له وادِيان**» - حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١][(٥)].

وهذا يدل بظاهره على أن السورة مدنية؛ لأن أبي بن كعب وأنس بن مالك ﵄ من الأنصار[(٦)].

لكن في الاستدلال بالحديث نظر؛ لأمور:

١ - سنده ليس على شرط الصحيح؛ لأن البخاري لم يقل: «حدثنا أبو الوليد».

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥١٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٢)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦١٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٤٠).

(٦) ورجح ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ٤٤٢)، والسيوطي في «الإتقان» (١/ ٤٦) كونها مدنية.

بل قال: «وقال لنا أبو الوليد». وفي الغالب أنه لا يقول هذا إلا لشيء في الإسناد[1].

٢- أن قول أُبَيٍّ بن كعب: «كنا نرى»، لا يلزم أنه يتكلم عن نفسه، بل يحتمل أنه يتكلم عن جماعة الصحابة ﷺ، وعلى هذا الاحتمال فلا يكون الكلام خاصًّا بأُبَيٍّ، وإنما بالمسلمين، ولا يلزم أن يكون بالمدينة.

٣- قوله: «كنا نرى هذا من القرآن». الغالب أن المقصود أنهم كانوا يظنونه من القرآن، والذي يغلب على ظني -والله أعلم-: أنه لا يعني أنهم كانوا يعتقدونه ويحسبونه من المصحف؛ لأن بلاغة القرآن وتميزه عن سائر الكلام لا يخفى، وحديث: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب، أحب أن يكون له واديان**»، فليس له إعجاز الأسلوب القرآني، وإن كان كلامًا فصيحًا قويًّا، فلعلهم كانوا يظنونه من الأحاديث القدسية؛ لأن النبي ﷺ ربما يقول لهم في أوله أحيانًا: «قال الله تعالى». والحديث القدسي يشترك مع القرآن الكريم في كونه منسوبًا إلى الله تعالى، لكن القرآن مُعْجِز متعبَّد بتلاوته متحدًّى به، بخلاف الحديث القدسي، فليس مُعْجِزًا ولا متعبَّدًا بتلاوته ولا متحدًّى به، ولا يُقرأ به في الصلاة، مثل قول الله تبارك وتعالى: «**إني حَرمتُ الظلمَ على نفسِي وجعلتُه بينكُم محرَّمًا فلا تَظَالموا**»[2]. ومثل قوله تعالى: «**إنَّا أنزلنا المالَ إلا لإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ**»[3]. فهذه أحاديث قدسية ينسبها النبي ﷺ إلى ربه، وقد يكون ألقاها جبريل عليه السلام إليه، لكن ليس في لفظها إعجاز ولا تحدٍّ.

فقد يكون الصحابة ﷺ ظنُّوا هذا الحديث من هذا الباب، وإلا فهم أهل البلاغة والفهم والإدراك وجودة اللغة، وكانوا يميِّزون بين القرآن الفصيح البليغ

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٠٦) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٩).

الـمُعْجِز الذي هو تنزيل من حكيم حميد، وبين ما كان دون ذلك مما لا تتوافر فيه هذه الشروط.

وقد يكون حصل ذلك لبعض المؤمنين في أول عهدهم بالإسلام قبل أن يتمكَّنوا من إدراك جوانب البلاغة والعظمة في القرآن الكريم، فوقع عندهم شيء من عدم التمييز بينه وبين سائر الكلام.

كما استدل القائلون بأنها مدنية بما ورد عن مقاتل وغيره أن سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ نزلت في مفاخرةٍ بين بعض قبائل المدينة أو اليهود، فهذه القبيلة فاخرت تلك القبيلة، وقالوا: نحن أكثر منكم، ومنا السادة، ومنا، ومنا، ومنا...، فلما انتهوا من الأحياء، قالت إحدى القبائل: هلم نذهب إلى القبور حتى نتفاخر بالأموات؛ فسيدنا فلان الذي مات منذ كذا وكذا، فصاروا يتفاخرون بهم، فذهبوا إلى المقابر يتفاخرون بالموتى(١).

ولو صح هذا الوجه في سبب النزول لكان دليلًا على أن السورة مدنية.

لكن ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن قبائل من العرب من بني عبد مناف وبني سهم وغيرهما من القبائل المكية، تفاخروا حتى وصلوا إلى القبور فتفاخروا بها(٢).

والأقرب أن السورة خطاب مَكِّيٌّ؛ لأنه وعيد للكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين لهوا بأموالهم وبأولادهم، ومثل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٤).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧، ٥١٨)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤٧٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٣).

أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ﴾ [المدثر:١١-١٦].

في حين أن خطاب الله تعالى للمؤمنين في الغالب خطاب عطف ولطف وحماية، وتناسب بين الخوف والرجاء، وغالبًا يُذكر الوعد والوعيد، ولم يكن المسلمون في مطلع العهد المدني أهل مال وثراء وجاه، ومَن كان كذلك لم يكن هذا يلهيه عن آخرته.

فالراجح هو ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن السورة نزلت بمكة قبل الهجرة.

* ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]:

أي: شغلكم، وجعلكم تلهون به عما هو خير منه وأبقى، أي: شغلكم عن الأمور المهمة.

و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هو تفاعل من الكثرة، ولها ثلاثة معانٍ:

١- الاستكثار من شيء وطلب الزيادة منه، كإنسان عنده مال فيطلب المزيد، فهذا نوع من طلب الكثرة، وإنسان عنده أولاد، وهو يريد المزيد.

وطلب الزيادة يلهي غالبًا عن ذكر الله.

٢- مسابقة الآخرين ومغالبتهم، فيما يتنافس الناس فيه من جاه أو علم أو مال أو ولد، وقد لا يكون له رغبة في الشيء ذاته بقدر الرغبة في الغلبة والسبق، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد:٢٠]، فالتفاخر يكون مع الآخرين؛ لأن الإنسان لا يتفاخر مع نفسه، إنما يتفاخر مع الآخرين.

وهذا هو الموضع الثاني الذي ذُكر فيه لفظ (التكاثر) في القرآن، وهو التنافس مع الآخرين.

٣- المفاخرة بالكلام دون الفعل وهو مقصور على المفاخرة بما مضى من أفعالهم أو أفعال آبائهم.

والآية عتاب ولوم على التكاثر في أمر الدنيا والغفلة عن الآخرة، وأن العبرة بالكيف لا بالكم، أما الاهتمام بالكم فهو التكاثر.

وغالب الناس مشغوفون بالكم أكثر من الكيف، فتجد الإنسان حريصًا على جمع المال ورصده، لا يبالي أمن الحلال أم من الحرام؟ وقد يكون بخيلًا، فلا يرى عليه أثر النعمة والغنى، فيعيش عيشة الفقراء محرومًا من طيب اللباس والطعام والسكن، وما هو إلا وبال عليه، كما قال علي ﷺ: «عجبتُ للبخيل؛ يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيشُ في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء!»[1].

ومثله: التكاثر في عديد الأولاد، دون اهتمام بالتعليم والتربية والأدب، وكأنه في زمن الجاهلية، يريد أولادًا يخوِّف بهم أعداءه أو يحمي بهم ذِماره[2]، وقد يعجز عن الإنفاق عليهم، أو منحهم العاطفة والحب، أو مساعدتهم على النجاح والتفوق.

وفي العبادات، صارت عناية الناس بالمبنى دون المعنى، وبشكل العبادة دون حقيقتها وروحها، ويتحدَّثون: فلان كم صلَّى، وكم صام، وكم ختم المصحف، وكم حفظ من فنون العلم ونصوصه دون أن يتساءلوا عن أثر ذلك على سلوكه وخلقه وسمته.

وغالب ثقافة الناس عددية: كم عدد المسلمين، كم أتباع هذه الجماعة أو

---

(١) ينظر: «نثر الدر في المحاظرات» (١/ ٢٢٢)، و«الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص ٣٩)، و«الشكوى والعتاب» للثعالبي (ص ١٥٨)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ٤٢٢)، و«الصواعق المحرقة» لابن حجر الهيتمي (٢/ ٣٨٠)، و«أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (ص ٣٦٢).

(٢) أي: أهله وكل ما يلزم المرء حفظه وحمايته والدفاع عنه.

الحزب، وكم عدد قراء هذا الكتاب، أو مشاهدي هذا المقطع، أو متابعي هذه القناة أو البرنامج، أو مشتري هذه المطبوعة، أو متصفحي هذا الموقع...؟ أما السؤال عن التأثير والتغيير فقلما نعيره الأهمية اللازمة.

وفي غزوة حُنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فحاقت بهم الهزيمة وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ...﴾ [التوبة:٢٥].

إن مطلق التكاثر لا يذم، بل التكاثر المذموم هو التكاثر الملهي، كما تنصُّ الآية.

ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠-١١]. فإذا كان هذا عنده أعمال، وهذا عنده أعمال، وأعمالهم متكافئة طمأنينة وإتقانًا وإخلاص نية وعلى وفق السنة، فإنهم يتفاضلون بعد ذلك بالكثرة، أي: بما استغرق من أوقاتهم وجهدهم من تلك الأعمال.

وسواءً حملناه على طلب المزيد، كما هو المعنى الأول، أو على منافسة الآخرين، كما قد يقع في الجهاد أحيانًا؛ فقد تجد قومًا يكون لهم بلاء، فالآخرون يريدون أن يكون لهم بلاء أعظم، أو هؤلاء لهم دعوة، فالآخرون يحاولون أن يحقِّقوا نجاحًا في الدعوة يسبقون به هؤلاء، أو كان نوعًا من التكاثر بالقول الذي لا يقصد به الاغترار بالعمل، وإنما يقصد به المنافسة في الخير، أو إثبات الحق، فليس مذمومًا بإطلاق، وإنما المذموم منه ما كان ملهيًا عن طاعة الله تعالى، ولهذا يقول النبي ﷺ: «**سبق درهمٌ مائةَ ألفِ درهم**»[1]. وذلك لأن الدرهم هو كل ما يقدر عليه وتوفر فيه الصدق والإخلاص وتجرد من المن والأذى.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩١٦)، والنسائي (٥/ ٥٩)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

* ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر:٢]:

﴿ حَتَّىٰ ﴾ حرف غاية عند أهل اللغة، يعني: ألهاكم إلى غاية معينة.

والمعنى: أي: استغرقتم في ملذات الدنيا، فلم تفيقوا إلا وأنتم في القبور؛ فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ يعني: حتى مُتم ودفنتم في المقابر.

وعبَّر عن ذلك بالزيارة؛ لأنهم سوف يرتحلون منها إلى الدار الآخرة، فهي إقامة مؤقتة، وقد جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ زار أعرابيًّا مريضًا، وكان فيه حمًّى شديدة، فقال له النبي ﷺ: «**لا بأسَ طهورٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى**». فقال الأعرابي: كلا، بل حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور. فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذًا**»(١).

فالمقصود: أن قوله: (تزيره القبور)، يعني: توصله إلى الموت.

وكيف ماتوا فعلًا وهم مخاطبون أحياء يسمعون الخطاب، ويردون الجواب، ويتقلبون في الأرض، ويتكاثرون بالأموال والأولاد، ويسعون سعيًا كادحًا حثيثًا؟

الجواب: أن هذا باعتبار ما سيكون، ويقول العلماء: هذا لتحقق الوقوع، وقد يعبر بالفعل الماضي لتحقق الوقوع، وهذا أمر مقطوع به، ولا أحد يشك في أنه سوف يزور المقابر.

وعبَّر هنا بالفعل الماضي ﴿زُرۡتُمُ ﴾ ولم يقل (تزوروا)؛ لتحقق الوقوع، فهو أمر مقطوع به، متعلق بالتكاثر، والمعنى: إن حبكم للتكاثر والتهاءكم به حملكم على التفاخر بالأموات فكأنكم ذهبتم إلى القبور لتستنطقوا منها مآثر آبائكم.

﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ﴾ إشارة إلى أنهم حُرِموا من المحاسبة والمراجعة والنظر والتأمل في أحوالهم؛ ولذلك يموتون ولديهم حاجات وأمنيات معلَّقة، وكانوا يتوهمون أنهم

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يحققونها، وكانوا يعوِّلون على شيء اسمه: «المستقبل»، وهذا المستقبل لما صار حاضرًا، تجدَّدت له الآمال والطموحات والأطماع، حتى زار المقابر دون أن يشعر.

فصاحب المال زار القبر ولم يتمكَّن من كتابة الوصية!!

وصاحب الذنب زار القبر ولم يتمكَّن من التوبة!!

فالكثير يموتون، وتموت بموتهم آمالهم وأحلامهم وفي الآية حث على استثمار الحياة والتحذير من التسويف وطول الأمل.

والله سبحانه وتعالى لم يذكر ما هو الشيء الذي لهوا عنه، أما الذي لهوا فيه فهو ظاهر، ولم يذكره لظهوره ولهوانه، وأما الذي لهوا عنه، فلم يذكره لعظمته؛ فالإنسان ربما لهى بأمورٍ دنيئةٍ خسيسةٍ حقيرة عن أمور عظيمة، وعن جنة عرضها السماوات والأرض، وعن رضا الله تبارك وتعالى، وعن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، وعن أجمل لذات الحياة ومتعها.

ربما يُشْغَلُ كثيرون بلذة الجسد الحسية والمتاع الجنسي، ويقعون في حبائله بالحلال أو بالتأويل أو بالحرام، ويرونه غاية اللذة، فيلهيهم عن كسب المعارف والعلوم، وما فيه من المتعة والبهجة، وعن العبادة وما فيها من الطمأنينة وقرة العين، وربما شغلهم عن تذوق حلاوة الأخلاق والعقل والروح لدى المرأة.

* ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣-٤]:

الآية مكررة مرتين، و﴿ كَلَّا ﴾ حرف زجر ووعيد وتهديد، في غالب سياقات القرآن.

ولا يوجد في القرآن تكرار من غير معنًى مضاف، وقد صنَّف بعض أهل العلم كتبًا في أسرار التكرار في القرآن العظيم، سواءً تكرار القصص، أو المعاني، أو الألفاظ،

وهو ما يسمى بالتكرار اللفظي، أو التوكيد اللفظي[1].

وقوله: ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد التراخي، والتكرار لا يعني مرتين فقط، بل هو إلى ما لا نهاية؛ فالعرب عادة يستخدمون المرتين تعبيرًا عن مطلق العدد، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[الملك:٤]، أي: مرة بعد مرة؛ لأن مثل هذا يقصد به مطلق العدد، وعلى هذا فقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، تكرار يقصد به مطلق العدد، فهو تحذير وإنذار وتوبيخ وتقريع مستمر مرة بعد مرة، وهو حجة بالغة عليهم أن الله أمهلهم ومدّ لهم وحذَّرهم المرة تلو الأخرى.

ويحتمل أن التحذير الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: في الدنيا، وذلك بما سوف ترون من المصائب وذهاب القوة وورود المرض، والهزيمة والخذلان، وظهور الحجج والآيات، ونصر الله تعالى لأوليائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، ورفعةِ شأن هذا الدين..، سوف تعلمون هذا في الدنيا، ثم تعلمون إذا صرتم إلى الموت، وعند الموت يؤمن الكافر، ويبر الفاجر، ولات ساعة مندم.

والدنيا فيها من العبر الشيء الكثير، والذين يرحلون عنها سوف يجدون شيئًا آخر مختلفًا عما كانوا يعيشونه في الدنيا ويتمتعون به.

أما الثاني فهو وعيد يتعلَّق بالبرزخ، ولذلك كان بعض الصحابة -كعلي وابن عباس رضي الله عنهم- يرون أن في هذه الآية دليلًا على إثبات عذاب القبر[2]؛ لأن قوله: ﴿ ثُمَّ

---

(١) ينظر: «متشابه القرآن» للكسائي، و«أسرار التكرار»، أو «البرهان في توجيه متشابه القرآن» للكرماني، و«هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب» لأبي الحسن السخاوي.

(٢) ينظر: «جامع الترمذي» (٣٣٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٢)، و«التذكرة» للقرطبي (١/ ١٦٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٦)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٩).

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾دليل على ما سوف يرونه ويعلمونه بعد الدنيا، وذلك حينما يكونون في قبورهم. وقد تكون الأولى للدنيا، والثانية للآخرة مطلقًا، وليس للقبر فقط، وإنما للقبر وللنشر وللحساب وللجزاء وللنار إذا دخلوها.

ويحتمل معنى ثالثًا أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ للمؤمنين، وقوله: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ للكفار.

وهذا معنًى لا بأس به، وإن لم يكن في قوة المعنى الأول والثاني؛ فالمؤمنون سوف يعلمون، وسيرون فضل الله تعالى ورحمته وآياته في الأنفس وفي الآفاق، كما قال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]، والكفار سوف يعلمون وعيد الله تعالى وصدق ما أخبر به الرسل.

ولم يبيِّن ماذا سوف يعلمون؛ ليكون التهديد غامضًا مبهمًا ضخمًا؛ لأن كل شيء يحتمل أن يكون مرادًا هنا، فقد يكون المراد: سوف تعلمون العذاب، أو الوعيد، أو النار، أو السخط، أو الروع والخوف والرعب الذي يداخلكم وقت حلول الوعيد.

ومن معاني الإبهام وعدم تحديد المعلوم: الإشارة إلى أن السبب في لهوهم وانشغالهم بالتكاثر هو نقص علمهم أو عدم علمهم، فعدم العلم هو سبب اللهو، وسبب التكاثر، ولو عرفوا المعرفة الصحيحة لعقلوا.

وفي ذلك إشادة بالعلم، وأنه أول درجات الاستقامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩].

* ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥]:

لم يذكر جواب: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾، فإن ﴿لَوْ﴾ أداة شرط، وفي العادة أنه يُذكر جوابُها، كما يقال: لو جاء صالح لأوسعنا له في المجلس. ونقول: لو شرب الإنسان هذا الماء لرَوِيَ. ونقول: لو حضر الدرس فلان لأفاد. فـ﴿لَوْ﴾ لابد لها من جواب.

فالله سبحانه وتعالى قال هنا: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ فأين الجواب؟ وماذا يحصل لو تعلمون علم اليقين؟

الجواب: المستقر في أذهاننا أن قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] هو الجواب؛ لأن فيها اللام؛ والعادة أن جواب ﴿لَوۡ﴾ يكون مصحوبًا باللام، ولو تأملت لوجدت أن التركيب لا يستقيم على هذا المفهوم، وإنما الصواب أن قول الله تعالى: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ شرط ليس له جواب، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾ [الأنبياء:٣٩] فإنه ليس لها جواب؛ لأن الجواب مفهوم من سياق الشرط.

فالجواب مستبطن في الشرط نفسه، وهو مفهوم ظاهر؛ فإنه لما ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر بالطريقة المذمومة، ولما قصَّرتم في الواجبات، ولما ارتكبتم المحرمات، وعصيتم الله تعالى، فسوف تعلمون العاقبة.

وهذا من عظمة ترك الجواب، ولذلك نلاحظ أن في السورة محذوفات كثيرة من أجل لفت الأنظار وتحريك الفكر، وهذا من أقوى صور الإيجاز والبلاغة والتأثير، ومَنْ عنده معرفة باللغة العربية، وحِسٌّ بلاغي، يجد من ذلك أشياء كثيرة تأخذ بلُبِّه وتهزه هزًّا!

﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ إشارة إلى أن عندهم معلومات كثيرة مما يظنونه علمًا وليس بعلم، وهذه مشكلة، فهناك ألوان من العلوم مضلة، وقد تَحْجِب عن الله تعالى، أو تكون غير مطابقة للواقع، أو تكون مما يختلط فيها الحق بالباطل، أو تكون علومًا ظاهرية، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الروم:٧]، حتى من العلوم الشرعية؛ فقد ينشغل الإنسان وينهَمُك في علم المسائل والأحكام والأقوال والمذاهب والترجيح، ويكون العلم في لسانه لم يصل إلى قلبه، والمقصود بالعلم: علم اليقين الذي يلامس القلب؛ فيتحول إلى حقيقة عملية في حياة الإنسان.

والعلم الحقيقي اليقيني يطلق على ثلاثة أشياء:

١- المحسوس، فأنت ترى أمامك الإناء، وهو محسوس يقينًا، ولا يجادل في هذا إلا أهل الأوهام، ومن اليقين طلوع الشمس وغروبها، والأشياء التي يراها الإنسان بعينه أو يحسها بحواسه.

٢- المعقول من مصادر العلم اليقيني، وبعض الناس عنده وحشة من العقل، وكأنه استقر في أذهان البعض أن العقل نقيض للشرع، وهذا خطأ، فالله سبحانه وتعالى أحالنا على العقول في القرآن الكريم كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.. بل حتى في أمر الدين والوحي والرسالة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦]. ولا يحيلنا اللهُ على شيء يحتَمِل الحقَّ والباطلَ والخطأَ والصوابَ.

إن الوهم في العقول يأتي مما يظنه الناس معقولًا وليس بمعقول، مما يكون تلبيسًا أو تدليسًا أو وهمًا أو تضليلًا وقد يتكلم الناس عنه، ويظنونه من المعقولات، ويقول بعضهم: هذا يُدرك بالعقل، وهذا شيء معقول، وهذا مستحيل عقلًا، مع أنه في واقع الأمر ليس كذلك؛ لأنه جعل تصوره الشخصي للأشياء هو معيار العقل.

٣- النقل المصدَّق أو الوحي من القرآن وصحيح السنة المستفيض.

* ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]:

هذا خبر جديد، فقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جملة مستأنفة، وهذه صيغة قَسَم على الأغلب، فاللام لام القسم، وهي مؤكدة، ومثلها النون في آخر الفعل.

* ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧]:

أقسم تعالى للمخاطبين بأنهم سوف يرون الجحيم، ثم يرونها عين اليقين،

والفرق بين «عين اليقين» و«علم اليقين» هو: أن علم اليقين علم في القلب والصدر، أما عين اليقين، فشيء محسوس مشاهد؛ ولهذا قال: ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾.

وفي السورة وجوه من الإنذار:

١ - حرف الردع ﴿كَلَّا﴾، وقد تكرر في السورة ثلاث مرات، وغالبًا أن أقصى ما ينتهي إليه التهديد هو أن يكون ثلاث مرات، وقد أنذر الله تعالى في هذه السورة ثلاث مرات، فقال: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

٢- كلمة: ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الإنذار الثاني، أبلغ وأقوى من الإنذار الأول.

٣- حذف جواب: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ وهو يفيد الإثارة والتخويف.

٤- لام القسم في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

٥- نون التوكيد في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

٦- تكرار القسم مرة أخرى في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

٧- التحذير بقوله: ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾. إشارة إلى أن ما تخبرون عنه الآن خبرًا سوف ترونه رؤية، وسيصبح عين اليقين بعد أن كان علم اليقين.

* ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]:

والنعيم هو ما ينعم به الإنسان من خارج جسده، كما يقول بعض المفسِّرين؛ فالصحة -مثلًا- لا تسمَّى نعيمًا، وإنما النعيم هو المال والجاه والرزق، والمأكل، والمشرب، والملبس، والأشياء المحيطة بالإنسان، أما الأشياء التي في ذات الإنسان، فهي تسمى نعمة.

وهذا ذكره الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في «التحرير والتنوير»[1]، وهو محتمل، وأغلب المفسرين لا يفرقون بين هذا وهذا، فيعدون النعيم والنعمة مترادفين في المعنى، فالناس جميعًا يسألون عن النعيم، سواء كان نعيمًا في ذواتهم من الصحة والعافية والشباب وحسن الهيئة وجمال الصورة، أو كان في خارجهم من الغنى والمال والجاه وغير ذلك.

وهل السؤال خاص بالكفار، أو عام للناس كلهم؟

الصحيح أنه عام للناس كلهم، وقيل: خاص بالكفار؛ لأن السورة خطاب للكافرين[2].

وقد جاء في حديث ضعيف، أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج لم يخرجه إِلَّا الجوع، وأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج لم يخرجه إِلَّا الجوع، وأن النبي ﷺ خرج عليهما، وأنهما أخبراه أنه لم يخرجهما إلا الجوع، فقال: انطلقوا بنا إلى منزل رجل من الأنصار يقال له: أبو الهيثم ابن التَّيِّهان، فإذا هو ليس في المنزل ذهب يستسقي، قال: فرحَّبت المرأة برسول الله ﷺ وبصاحبيه، وبسطت لهم شيئًا فجلسوا عليه، فسألها النبي ﷺ: **«أين انطلق أبو الهيثم؟»**. قالت: ذهب يستعذب لنا. فلم يلبث أن جاء بقربة فيها ماء فعلقها، وأراد أن يذبح لهم شاة، فكأن النبي ﷺ كره ذاك لهم، قال: فذبح لهم عناقًا، ثم انطلق فجاء بكبائش من النخل، فأكلوا من ذلك اللحم والبسر والرطب وشربوا من الماء، فقال أحدهما إما أبو بكر وإما عمر: هذا من النعيم الذي نسأل عنه. فقال النبي ﷺ: «المؤمن

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٤-١٧٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٩٦)، و«روح البيان» (١٠/ ٥٠٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٤).

لا يُثَرَّب على شيء أصابه في الدنيا، إنما يُثَرَّبُ على الكافر»[1].

وأصل القصة في «صحيح مسلم» وفيها: «خرج رسولُ الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: **«ما أخرجكُما من بيوتِكُما هذه السَّاعة؟»**. قالا: الجوع يا رسول الله. قال: **«وأنا والذي نفسي بيدِه لأخرجنَي الذي أخرجكما، قوموا»**. فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسولُ الله ﷺ: **«أين فلان؟»**. قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني! قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب. فقال: كلوا من هذه. وأخذ المُدْيَة، فقال له النبيُّ ﷺ: **«إياك والحلوب»**. يعني: إذا كنت ولابد ستذبح، فلا تذبح الحلوب، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: **«والذي نفسي بيدِه، لتُسألُنَّ عن هذا النعيمِ يوم القيامة، أخرجكُم من بيوتِكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابَكُم هذا النعيمُ»**[2]. وهذا الرجل هو: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وقيل: أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنهما[3].

يُسأل الكفار إذًا سؤال توبيخ وتقريع وتقرير على عدم شكرهم لله عز وجل، وعقوبة لهم على سوء استخدامهم وتصرفهم في تلك النعم، وعدم شكرهم لمسديها ومموليها.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٦٧٢).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

(٣) ينظر: «التمهيد» (٢٤/ ٣٤١)، و«الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة» للخطيب (٤/ ٢٨٤)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن شكوال (٢/ ٦٣٠)، و«شرح النووي» (١٣/ ٢١٣).

ويُسأل المؤمنون سؤال تشريف وتكريم ورفعة لهم عند الله تعالى يوم القيامة.

ولعل مَن قال: إن السؤال خاص بالكافرين، أراد سؤال التوبيخ والتقريع، ولا مانع أن يُسأل المؤمن عن مدى شكره لنعمة الله تعالى؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**إن اللهَ ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمدُه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمده عليها**»[1].

○ ○ ○

(١) أخرجه مسلم» (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

سُورَةُ العَصۡرِ

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة العصر»، وهو المثبت في معظم التفاسير، وفي «صحيح البخاري»: «سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾» بإثبات الواو على الحكاية[1].

وفي حديث أبي مَدِينة الدَّارمي قال: «كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ اذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر»[2].

وصحَّح إسناده غير واحد، وأشار البيهقي إلى الاختلاف في إسناده، وقال الذهبي: «حديث غريب جدًّا، ورواته مشهورون»[3].

* وهذه السورة هي إحدى أقصر ثلاث سور في القرآن الكريم وهي: «العصر»

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٢٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٨)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (٨٦٣٩).

(٣) ينظر: «تاريخ الإسلام» (٦/ ٥٣٩-٥٤٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٦٤٨).

و«الكوثر» و«النصر»، وهي ثلاث آيات من كتاب الله تعالى[١].

* وهي مكية عند أكثر المفسرين، ورُوي عن قتادة ومجاهد أنها مدنية[٢].

واختيار الصحابة ﭫ هذه السورة لقراءتها عند لقياهم، لم يكن على سبيل التبرُّك؛ فإن القرآن كله فيه البركة والخير، وبكل حرف عشر حسنات، ولا مراعاة لفضيلة السورة فحسب، وإلا لاختاروا الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن[٣]، وإنما اختاروا سورة العصر لمعانٍ تضمنتها هذه السورة، فهي شاملة لمعاني الكمال العلمي والعملي في النفس وفي الغير، ومؤسسة للعلاقة الإيجابية الفعالة بين المؤمنين بما تضمنته من التواصي بالحق والصبر المبني على الإيمان والعمل الصالح.

قال الإمام الشافعي: «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم، أو لوسعتهم»[٤].

* ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر:١]:

القسم دليل على عظمة وأهمية الـمُقْسَم عليه.

أكَّد الـمُقْسَم عليه بالقَسَم، و بـ «إن»، وهي حرف توكيد، وباللام وهي حرف توكيد أيضًا، فما هو العصر؟

في تأويل ذلك أقوال:

١- هو الدَّهر أو الزمن، ونسبه ابن القيم للجمهور[٥].

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠١٣-٥٠١٥)، و«صحيح مسلم» (٨١٢).

(٤) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٣)، (٨/ ٤٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٨).

(٥) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٥٤).

٢- وقت العصر، الذي هو آخر النهار.

٣- فترة من الزمن.

٤- صلاة العصر.

ولعل هذه المعاني كلها داخلة في المعنى؛ لأن اللفظ عام ولم يأت ما يخصِّص بعضها.

وقد كان الناس ينسبون ما يصيبهم إلى الزمن، كما في الحديث القدسي في «الصحيحين»: **«يؤذيني ابنُ آدم! يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّب الليلَ والنهارَ»**. وفي لفظ عند مسلم: **«لا تَسبُّوا الدهرَ»**(١).

ويريدون بذلك أن ينفصلوا من التبعة ومن المسؤولية فيما يقعون فيه من أخطاء.

والأمر كما قال الشافعي:

نعيبُ زمانَنَا والعيبُ فِينَا　　وما لزمانِنا عيبٌ سِوانا

وقد نَهْجُو الزمانَ بغير جرم　　ولو نطقَ الزمانُ بِنا هَجانا(٢)

والقَسَم به يبرز أن ظرف الزمان محايد، والعبرة بما يصنعه الناس فيه، ولذا فالتعبير بفساد الزمان ليس جيدًا، إلا باعتبار أن المقصود أهل الزمان، وحتى على هذا فهو نوع من عيب الناس على سبيل التعميم وفي باطنه استثناء النفس.

فأقسم الله بالعصر تشريفًا وتعظيمًا لشأنه، فهو ظرف لأعمال الإنسان، وهذه مناسبة القسم به، وقد ذكر الله سبحانه الزمان والمكان، فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾، فذكر ما في السماوات وما في

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٦).

(٢) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص١٠٠).

الأرض، وهو المكان، وفي الآية بعدها قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٢-١٣]، فالليل والنهار زمان، والمكان والزمان ظرفان للحوادث، ولا يمكن أن ينفك الإنسان في دنياه عن هذين الظرفين.

وعلى أن المقصود بالعصر آخر النهار، فما وجه مناسبته للقَسَم على أن الإنسان في خُسر؟

ثَمَّة مناسبة لطيفة، وهي أنه عادة الناس في السعي إلى مكاسبهم أنها تكون من الصباح، كما قال النبي ﷺ في الحديث: «**كلُّ النَّاسِ يغدو، فبائعٌ نفسه فمعتقُها أو موبِقُها**»[1]. فالغدو يكون أول النهار، ومنهم مَن يغدو إلى خير وبر، ومنهم مَن يغدو إلى إثم وقطيعة رحم وشر.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ إشارة إلى نهاية المطاف، ووقت الحصاد، حيث يكون الناس في نهاية أعمالهم، فالموظف يرجع إلى بيته، والطالب يرجع إلى أسرته، والعامل يرجع إلى أهله.

وبعضهم استخرج معنى لطيفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣]، حيث أقسم سبحانه بالضحى على أن النبي ﷺ محفوظ بحفظ الله، وأن الله ما تركه ولا قلاه ولا أبغضه، فكان القسم هنا بالضحى الذي هو بداية العمل والنشاط والانطلاق.

وأقسم بالعصر على الخسارة لأولئك الذين تجافوا عن سواء السبيل، وحاربوا رسول الله وآذوا أتباعه.

ويحتمل أن يكون العصر هو الزمان أو الوقت الذي تعيشه الآن، ومن قول بعضهم: «المعاصرة»، أي: العيش في العصر، ومنه سميت العصور السياسية والأدبية،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

ويكون في القسم بهذا الجزء من الزمن تنبيه على أهمية فهم العصر وما يجري فيه والقيام بأمر الشريعة وفق مقتضيات الواقع المعاش، وليس التنظير المحض.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إنما أجلُكم في أجلِ مَن خلا من الأمم كما بين صلاةِ العصر ومغرِب الشمس، ومثلُكم ومثلُ اليهودِ والنصارى، كمثلِ رجلٍ استعمل عمّالًا، فقال: مَن يعملُ لي إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ؟ فعملت اليهود، فقال: مَن يعملُ لي من نصفِ النهار إلى العصرِ على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصرِ إلى المغربِ بقيراطين قيراطين. قالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاء. قال: هل ظلمتُكم من حقِّكم؟ قالوا: لا. قال: فذاك فضلي أُوتيهِ من شِئْتُ**»[1].

وعلى أن المقصود بالعصر صلاة العصر، يكون تعالى أقسم بها، وهي ذات علاقة بما قبلها؛ لأنها تقع في آخر النهار، وهي صلاة فاضلة، بل هي الصلاة الوسطى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن تركَ صلاةَ العصرِ، فقد حَبِط عملُه**»[2]. وحبوط العمل: خسارته، وقال: «**الذي تفوته صلاةُ العصر، كأنما وُتِر أهلَه ومالَه**»[3].

وأشد الخسارة: أن يخسر الإنسان نفسه وأهله وماله، والنبي ﷺ جعل مَن فاتته صلاة العصر كأنما وُتر أهله وماله، وهذا يدل على أهمية صلاة العصر، والمحافظة عليها مع الجماعة، وأدائها في وقتها.

* ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]:

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنس، و«ال» لاستغراق جنس الإنسان، وقال بعضهم: هو هنا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري» (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أبو جهل، وقيل: أبو لهب(١).

والصواب أن المقصود جنس الإنسان؛ ولذلك قال الله تعالى بعدها: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فدل على أن المقصود الجنس، وليس شخصًا بعينه؛ فإن الشخص لا يُستثنى منه.

الغالب على الناس إذًا هو الخسار؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، ويقول: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِى ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦].

وعبَّر بأن الإنسان في خُسر، ولم يقل: (إن الإنسان لخاسر). وبين اللفظين فرق ظاهر؛ فحرف الجر «في» يدل على الظرفية، وكأن الخسر في الآية وعاء أو ظرف؛ والإنسان مغموس فيه؛ ولذا قال: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ﴾.

أما قولك: (إن الإنسان لخاسر). لا يعدو أن يكون وصفًا مجردًا، والظرفية أدل على المقصود من جهة الإشارة إلى أن الخسارة محيطة بالإنسان من كل وجه؛ كما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ [البقرة:٨١].

والتنكير في كلمة ﴿ خُسۡرٍ ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى تنوع الخسارة، بمعنى أن الخاسرين درجات، وهذا واضح من السياق، فإن الله سبحانه وتعالى لم يستثن من الـخُسر ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن مَن نقص شيئًا من الإيمان، العمل الصالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر؛ تكون خسارته جزئية، بخلاف مَن ترك هذه الصفات كلها، فإن خسارته تكون مُطبِقة.

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٦٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٤).

فالتنكير دليل على تنوع الخسر ودرجاته، وأنه ليس بمنزلة واحدة، بل منه خسر تام مطبق، ومنه دون ذلك.

وبعضهم قال: إن التنكير هنا للتهويل، ولتعظيم الخسر، وأن الإنسان خسر كل شيء، وليس كالذين خسروا بعض الشيء، مثل مَن نزلت مراتبهم في الجنة، فما فاتهم شيء عظيم بالقياس إلى ما أدركه السابقون، وإن كانوا بالقياس إلى مَن دونهم على خير كثير.

والتعبير بالخسارة صيغة قرآنية دارجة، يعبِّر الله بها عن أهل النار، مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:٢١]، وقوله: ﴿فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

وعندما نقول: خسر التاجر. معناه: أنه ضاع عليه رأس المال، أو جزء من رأس المال، ورأس المال بالنسبة للمكلَّف هو الوقت، هو العصر، هو العمر؛ ولذا قال بعض السلف: «تعلمتُ معنى هذه الآية من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا مَن يذوب رأس ماله!»(١).

والوقتُ أَنفَسُ ما عُنيتَ بحفظِهِ وأراهُ أسهلَ ما عليكَ يَضِيعُ

والأخسرون أعظم خُسرًا، كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل:٥]، وكيف يكونون أكثر خسارة؟

يكون ذلك باستئصال رأس المال كله.

والوقت الذي يضيع بغير خير خسارة؛ لأنه كان ممكنًا أن يُملأ بطاعة، والوقت الذي يضيع عليك بمعصية أكثر خسارة؛ لأنه محسوب وكان جديرًا أن يُعمر بطاعة أو بمباح لا إثم فيه، فهو خسارة مركَّبة أو خسارة مضاعفة.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٨).

* ﴿إلا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]:

لم يذكر تعالى سبب الخسارة، وذكر سبب الربح، مع أن السورة بدأت الكلام عن الخسر؟

الجواب: لأن طريق الربح واحد، لكن طرق الخسارة كثيرة لا تنتهي، منها: الفعل، ومنها: الترك، بخلاف الربح: فالمنهج فيه واضح منضبط محصور، وهو المذكور في هذه الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

يقول ابن القيم: «جعل الله تعالى في هذه الآية نهاية الكمال العلمي والعملي، والكمال اللازم والمتعدِّي»[١].

فالكمال العلمي للإنسان بالإيمان: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والمقصود صدق تصورات الإنسان، فيؤمن بالله تعالى وملائكته والقدر والآخرة.

والكمال العملي: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: من الصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام والأخلاق الفاضلة وغيرها.

والكمال اللازم أي: الكمال الشخصي في الإنسان، والكمال المتعدِّي هو ما يفيض من الإنسان إلى الآخرين بالنفع أو التواصي أو التعليم أو الأمر أو النهي.

وفي هذه السورة الكريمة أربع دوائر متداخلة:

١- دائرة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، وهي الدائرة الأوسع، ولو اقتصرنا على لفظ الإيمان لدخل فيه العمل الصالح وما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فأداء الزكاة من الإيمان،

---

(١) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦-٥٧).

وأداء الصلوات وبر الوالدين والحج والصوم من الإيمان.

ولهذا إذا ذكر الإيمان مجرَّدًا، ولم يذكر معه غيره يدخل في الإسلام.

٢- دائرة أضيق، وهي: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، ولو لم يذكر إلا العمل الصالح لدخل فيه الإيمان، ولكن من باب التخصيص والتنصيص، ولهذا رُوي عن النبي ﷺ: «الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ»(١).

٣- دائرة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، والتواصي بالحق من الإيمان ومن الأعمال الصالحة، لكن ذكَرَه إشادة بأهله وبيانًا لمزيتهم عن غيرهم.

٤- دائرة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، والصبر من الإيمان ومن العمل الصالح ومن الحق الذي يتواصى به، وقد ذكره على سبيل التخصيص فقال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فكأنه ذكره أربع مرات.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يذكر بماذا آمنوا وبمَن آمنوا، وقد صرح بذلك في سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ [النساء:١٣٦]، وفي قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

الواو هنا واو الجماعة، فالله تكلم عن جماعة، وهذا غالب ما تجده في القرآن الكريم، وهو يدل على أهمية الاجتماع والتآلف، وأن الله سبحانه وتعالى يحب اجتماع المؤمنين ويكره فرقتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣١٩)، وأحمد (١٢٣٨١)، وأبو يعلى (٢٩٢٣)، والعقيلي (٣/ ٢٥٠)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١١١)، وابن عدي (٥/ ٢٠٧) من حديث أنس ﷺ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٦٩٠٦).

فأين هدي القرآن؟ وأين هي تعاليمه من واقع الناس اليوم؟!

لقد قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما: «**تطاوَعا ولا تختَلِفا**»[1]. وهو دليل على وجود اختلاف بينهما في الرأي، لكنه أرشدهما إلى الحلول العملية، وهي أن يكونوا ميسِّرين سهلين لينين بأيدي إخوانهم، وألَّا يصنعوا مواقف متناقضة أو مزدوجة، أو تكون سهامُ بعضهم مصوَّبة إلى بعض، أو جهود بعضهم تدمر بعضًا، وأن يتوجهوا إلى الهم الواحد، ويجتهدوا في التعليم والدعوة والإصلاح دون أن يفترضوا أنه لا يمكن أن يقوموا بعمل ناجح إلا أن يكون عملهم متقاطعًا مع جهود الآخرين.

أليس بمقدور المسلم اليوم أن يوجِّه همَّه نحو الأمر المثمر الفعال، وأن يشتغل في أي خير: دعوة، إغاثة، أو علم، أو دنيا، وفق الشروط التي يراها، وليس لأحد عليه سبيل، ولا يمنع هذا من النصيحة، ولا من النقد باللغة الراقية المناسبة، وفق الضوابط الشرعية، إنما الخطر في الانشقاق الذي دمَّر الطاقات، وقضى على الجهود، واستغرق الأوقات.

ثَمَّ مشكلة أخرى، وهي قضية التجمعات الإسلامية، وهي أفضل من التفرُّق، فالاجتماع والتقارب والتفاهم وحسن التعامل والمودة بين المسلمين أمر مطلوب، والاجتماع على الخير والبر والطاعة والتقوى من الأصول الثابتة.

لكن ينبغي ألَّا يتحول الاجتماع إلى تعصب لجماعة أو حزب، فنكون قد خرجنا من ورطة إلى أخرى.

خرجنا من ورطة الفردية والذاتية والأنانية للشخص، ودخلنا في ورطة الأنانية الذاتية والفردية للمجموعة، وعندما يجتمع الناس على خير يلزمهم تعاهد دائم ألَّا يكون الولاء الديني فيما بينهم يعني نبذ مَن سواهم، وإنما لُحْمة الولاء لهذه الأمة أشمل وأبقى، وينبغي أن تكون هي الأصل، وإنما هم أشبه بشركة أو جامعة التقت

---

(١) أخرجه البخاري» (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

على عمل خاص تتعاون عليه، دون أن تقيم حدودًا أو سدودًا مع الآخرين.

إن كثيرًا من الأعمال الصالحة شُرعت جماعة، كالصلاة، والصوم، والحج.

والعجب ممن يجمعهم كل ذلك من الأصول العلمية والأركان العملية، ثم يتجاهلون الأصل العظيم المحكم الذي هو حسن الخلق، فيهجر بعضهم بعضًا بسبب اختلاف في موقف أو مسألة علمية أو سياسية أو تأويل أو لنقل بسبب خطأ صدر من بعضهم بغير قصد أو بقصد.

والنبي ﷺ يقول: «**لا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ**»[1]. فهم يلتقون في المسجد، ورِجْل هذا إلى رِجْل الآخر، فإذا سلَّم لم يلتفت إليه بوجهه، بل يغمض عينيه لئلا يراه، أو لا يبالغ في الالتفات لما يجده في قلبه! فانظر كيف عمل الشيطان في الإغراء بالفرقة والخلاف والتناقض، وأضعف ذلك أثر ما نمارسه من عبادات وأعمال جماعية في نفوسنا، وصار الإنسان يمارس العبادة ويمارس نقيضها في الوقت نفسه!

ذكر أبو بكر بن العربي أن شيخه أبا بكر الطُّرْطُوشي زار المغرب، فصلَّى في مسجد للمالكية، فرفع الطُّرْطُوشي يديه عند الركوع وعند الرفع منه، فرآه رئيس البحر فانزعج من ذلك وأمر بقتله!

قال ابن العربي: فطار قلبي من بين جوانحي، وقلتُ: سبحان الله! هذا الطُّرْطُوشي فقيه الوقت! فقال لي: لماذا يرفع يديه؟ قال ابن العربي: فما زلتُ أبيِّن له أن هذه سنة النبي ﷺ حتى سكن غضبه[2].

---

(١) أخرجه البخاري» (٦٠٧٥)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨١)، و«الاعتصام» (١/ ٢٧٤).

وأول ما يُوصي الإنسان نفسه، وأصل الوصية تكون للناس، لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ دل على أن المقصود التواصي بين العديد من الناس، وهو ترسيخ لقضية الاجتماع على الخير والبر والتقوى.

وعبَّر في الآية بـ (تواصوا)؛ لأن فيها معنى الاستمرار، بخلاف (أوصوا)، فقد يكون مرة ثم ينتهي.

كذلك التواصي فيه معنى التفاعل بين الطرفين، أي: أنا أوصيك وأنت توصيني، فلا تجد في الإسلام فئة فقط هي التي توصي الناس، والبقية يكون دورهم هو مجرد الاستماع، وإنما كل مسلم يوصي أخاه بالحق، فهي عملية تبادلية بين جميع المؤمنين، وقد قيل: لا أحد أقل من أن يفيد، ولا أحد أكبر من أن يستفيد، فلا يقال: هذا العالم جاوز القنطرة فلا ينصح. ولا أحد يقول: هذا حقير لا يوجد عنده شيء.

وهذا يشمل التواصي، ويشمل التواصي بالتواصي، فعندما نقول: يا إخوان، علينا أن يُوصي بعضُنا بعضًا، فنحن نوصي بعضنا بالوصية، تقول: أوصيك أن توصي الآخرين بالصبر، والنبي ﷺ يقول: «استَوصُوا بالنساءِ خيرًا»[1]. يعني: ليوصي بعضُكم بعضًا بالنساء خيرًا.

والحق يُعرف بأدلة الشريعة، وهي مسألة مهمة، وهي: أن علينا أن نتواصى بالحق الذي هو «الشرع»، فإذا كانت القضية مجرد اجتهادات وآراء فلا يشملها الأمر؛ لأن الرأي يخطئ ويصيب.

ولا حظر أن يتناقش المختلفون ويتحاوروا حول الرأي الأصوب والأَسَدِّ؛ لكن دون تعصب أو توهُّم أن الرأي دين لا يسع أحدًا مخالفته.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ والصبر من الحق، وهو رأس الفضائل؛ ولذلك قال علي

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﷺ: «الصبر مطية لا تكبو»(١). ولو تأملت وصايا الله تعالى لعباده بالصبر لوجدت شيئًا كثيرًا مذهِلًا، والحقيقة أنه لا دين ولا دنيا إلا بالصبر، حتى قال عمر ﷺ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»(٢).

فالإيمان يحتاج إلى صبر، بل الإيمان نصفه الصبر.

ومثله العمل الصالح، وقد يستقيم المرء شهرًا أو سنة، لكن إذا لم يكن عنده صبر، فإنه ينقطع.

وهكذا التواصي بالحق، قد نتواصى بالحق مرة أو مرتين، لكن إذا لم يكن عندنا صبر، فإننا نتوقف أو نمل.

والإنسان قد يصبر سنة أو سنتين، لكن إذا لم يكن عنده صبر على الصبر فإنه ينقطع.

والصبر يكون في الصحبة: بين الزوجين، أو في التجارة، أو في طلب العلم، أو في الدعوة، أو في الجهاد؛ لأنه ما من عمل إلا والإنسان يقوم به مع غيره، والإنسان محتاج فيه إلى غيره.

ولا يمكن أن توجد صحبة بين اثنين إلا بصبر وتسامح؛ ولهذا لما ذهب موسى مع الخضر عليهما السلام قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وهما اثنان، وهذا نبي

---

(١) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٨٥)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٣٥٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٩٨١)، و«سراج الملوك» (ص ٧٩)، شرح نهج البلاغة» (١/ ٣١٩)، و«(١١/ ٢٠٣)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥٨)، و«عدة الصابرين» (١/ ٩، ٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٤).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) -معلقًا- في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

وهذا نبي، قال: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف:٦٧-٦٨].

إن الذين يذهبون إلى طلب العلم كثير، والذين يتعبدون الله كثير، والذين يتجهون إلى الخير كثير، ولكن الذين يصلون إلى الغاية، ويقطعون المشوار إلى نهايته قليل.

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا   فَقدْ صارُوا أَقلَّ مِنَ القليلِ

وهؤلاء هم الصابرون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه!!

○ ○ ○

سُورَةُ الهُمَزَةِ

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ
﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾
ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:١-٩].

* تسمية السورة:

١- أشهر أسمائها: «سورة الهمزة»[١].

٢- وسماها البخاري وغيره: «سورة ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾»[٢]، وهذا تسمية للسورة بأول آياتها.

٣- وقد ذكر الفيروز آبادي في كتابه: «بصائر ذوي التمييز» أن من أسماء هذه السورة: «الحُطَمة»، لورود اسم الحُطَمة فيها[٣].

* عدد آياتها: تسع آيات بالاتفاق[٤].

* وهي مكية باتفاق العلماء[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٩)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٣) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٤٣)، و«إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

وذكر بعض المفسرين أنها نزلت في جماعة من صناديد كفار مكة، الذين كانوا ينالون من المسلمين ويهمزونهم ويلمزونهم، ويسبونهم ويعيبونهم، وينسبون إليهم الأباطيل التي يحاولون بها تشويه صورتهم.

وممن قيل أن السورة نزلت فيه: الوليد بن المغيرة، والأخنس بن شَرِيق، وأُمَيَّة ابن خلف، وأُبَيّ بن خلف، وجَمِيل بن مَعْمر الجُمَحي، والعاص بن وائل السَّهْمي، والأسود بن عبد يَغُوث، وغيرهم.

ومن المفسرين مَن قال: إنها لم تنزل في أحد بعينه[1].

والملاحظ أن القرآن لا يذكر أسماء الذين نزلت فيهم الآيات، **وهذا فيه دروس وفوائد، منها:**

١- أن المقصود الفعل وليس الشخص؛ فالأشخاص يذهبون وينسون، لكن العبرة بالأفعال الطيبة التي يُراد من الناس أن ينتهجوها، والأفعال السيئة التي يُراد أن يجتنبوها.

٢- في الإبهام فسح مجال للتوبة، بخلاف ما لو ذُكر اسمه مذمومًا في آية تُتلى، فربما عزَّ عليه الرجوع، وقد تأخذه العزة بالإثم، ومن هؤلاء الذين قيل أن السورة نزلت فيهم: جَمِيل بن مَعْمر، وقد أسلم وحسن إسلامه، وشهد مع النبي ﷺ غزوة حُنين[2].

وفي المثل: «للعدو الهارب ابنِ جسرًا». والنبي ﷺ كان يبني لهم جسورًا، وقد علَّمه ربُّه هذا، والشرع لا يأمر بتعيير الناس بأخطائهم ولا تيئيسهم من التوبة، والمؤمن المشفق على العصاة حريص على أن ينهضوا من عثرتهم، وعلى أن يستقيموا،

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: «الإصابة» (١/ ٥٠٠).

ولذا فهو يجتهد في هدايتهم، لا كما يفعل بعضهم من استحداث شروط تعجيزية أمام توبة التائبين، مثل أن يقوم على الملأ ويعدِّد أخطاءه السابقة، ويعلن الرجوع عنها، وفي هذا إطاحة بإنسانيته وتعويق له، وقد لا يجد شجاعة ليخطِّئ نفسه، وربما لا يرى ذلك من المصلحة، أو كان تدرَّج في طريق الهداية شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما وصل إليه.

ومن علامات التوفيق للداعية أن يفرح بما يراه من الناس من بوادر الخير، وكل خطوة يتقدَّم بها هؤلاء إلى الصراط المستقيم يبش لها ويتفاءل ويفرح، ولعل الخطوة تمهِّد لما بعدها، وليس الدين ملكية الأشخاص، وإنما هو دين الله، والناس فيه سواسية، لا فضل بينهم إلا بالتقوى.

٣- أن في ذكرهم بأسمائهم تعييرًا لذريتهم من بعدهم؛ ولهذا قال ﷺ عن أبي جهل: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ**»[(١)].

وقد يكون في هؤلاء المؤمن، والتقي، والصالح، والعالم، فيكون في ذكر اسم أبيه مذمومًا في القرآن تعييرٌ له وسبٌّ وإيذاء، وهذا أمر مشاهد؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتخلَّى عن قراباته، وقد ورد في السيرة أن عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ لما بلغه في غزوة الُمريْسِيع[(٢)] أن النبيَّ ﷺ كان يريد أن يقتل أباه، قال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لا بد فاعلًا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَيٍّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، وأدخل النار. فقال رسولُ الله ﷺ: «بل

(١) أخرجه أحمد (١٨٢١٠)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢)، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٩٧).

(٢) هي غزوة بني المصطلق، وهو ماء لخزاعة، وهو من قولهم: وسعت عين الرجل. إذا دمعت من فساد. ينظر: «الروض الأنف» (٤/ ١٣)، و«السيرة النبوية» (٤/ ٢٥٢).

نترفَّقُ بِهِ ونحسِنُ صحبَتَهُ ما بَقِي معنَا»[1].

ففي عدم ذكر أسماء مَن نزلت فيهم الآيات حفاظ على مشاعر أقاربهم وأسرهم ومَن له بهم علاقة.

وعند عامة الأصوليين: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»، والمدار على هذه الأوصاف المرذولة والتحذير منها ووعيد أهلها.

* ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]:

كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ التي افتتحت بها السورة تكررت في القرآن الكريم كثيرًا؛ ومن ذلك:

١- وردت في شأن اليهود، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩].

٢- وعلى لسان مَن يخالل الأشرار، فيصدونه عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨].

٣- وفي الذين ينقصون المكيال، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١].

٤- في الأفَّاك الأثيم، وهو الكذَّاب المفتري الذي يسمع آيات الله ثم يصر على كفره وضلاله مستكبرًا، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية:٧].

٥- في المكذِّبين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥].

٦- في القاسية قلوبهم، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٥)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٦١)، و«كشف المشكل» لابن الجوزي (٢/ ٥٣٢)، و«أسد الغابة» (٢/ ١٣٣)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٨)، و«الإصابة في معرفة الصحابة» (٤/ ١٥٥)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٥٩٩)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٦٦-١٦٩).

٧- وفي الظالمين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف:٦٥].

٨- في الذين يغفلون عن صلاتهم ويقصِّرون في أدائها، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥].

وفي هذه السورة وعيد لكل همزة لمزة غَيَّاب عَيَّاب.

في «الويل» معنى التهديد والوعيد، وبكل حال فالغالب على هذه المواضع أنها في شأن أولئك الذين يؤذون عباد الله، كما في الأفَّاك الأثيم، والمطفِّفين، وفي الـهُمزة اللُّمزة، والظالمين، الذين آذوا الناس وظلموهم.

وكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ قد تكون دعاءً على الإنسان، وقد تكون خبرًا، وأيًّا ما كانت، فهي بيان عن سوء حال هذا الإنسان الذي جاءه الوعيد.

وكأن أصل الكلمة -والله أعلم- أن الإنسان إذا نزلت به نازلة أو مصيبة يقول: (وي). ثم يقول: (لي)، وهذه كلمة توجعٍ، وتحزُّنٍ، وتخوفٍ، وقلقٍ، فلكثرة استعمالها صارت: (ويل)، اختصارًا من: (ويلي)، وقد تأتي معرفة بـ (ال) ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وثَمَّ فرق بين «ويح» و«ويل»، فـ«ويح» فيها الرحمة والترحم، أما «ويل» ففيها التوعُّد[(١)].

وقال بعض المفسرين: ﴿وَيْلٌ﴾: «واد في جهنم». وهذا لم يصح فيه شيء[(٢)].

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٤٦) (و ي ل)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص ٥٧٩)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» (ص ٥٦٤)، و«الفائق في غريب الحديث» (٤/ ٨٥)، و«تاج العروس» (و ي ح) (٧/ ٢٢٠).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة المطففين» عند قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

والتعميم في «كل» يدل على أن السورة لم تنـزل في شخص بعينه، بل هي لكل همّاز لـمّاز.

و﴿هُمَزَةٍ﴾: من الهمز، و﴿لُّمَزَةٍ﴾: من اللَّمز، وهما على وزن «فُعلَة» والمقصود بالـهُمزة اللُّمزة: كثير الهمز واللَّمز. ولهذا نظائر، كما يقال: فلان ضُحكة. أي: كثير الضحك، وفلان لُعَنَة أي: كثير اللعن، وهو يدل على أن الصفات المذكورة تلبَّست بالإنسان، وصارت جزءًا من شخصيته، بل لعلها أبرز معالم شخصيته، فلو قيل: ما الصفة المميزة له؟ لقلت: فلان همزة. أي: كثير الهمز في كل مجلس، وهكذا إن كان ضحَّاكًا أو لعَّانًا، فهي عادة أدمنها، وغرم بها، حتى صارت الغالب من فعله.

وهل الهمزة هو اللمزة، أم أن بينهما فرقًا؟

قال ابن قتيبة والزَّجاج: لا فرق بينهما، فهما بمعنى واحد، وكأنه من باب مترادف الألفاظ وهو: العيَّاب الطعَّان الذي إذا لقيك أحسن إليك وضحك، وإذا انصرفت عنه سبك وعيَّرك، كما قال القائل:

إذا لقيتُكَ عن كُرهٍ تُكاشِرُني ... وإن تغيبتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ[1]

وقد يعيِّر بظاهر من القول تارة، أو بغمز أو همز تارة أخرى، وهذا معنى جيد؛ لأن المعاني في القرآن لا يلزم معها الانشغال بحقيقة الفروق الدقيقة بين لفظ ولفظ عن المعنى المراد، ولكن ثَـمَّ أقوال تفرِّق بين اللفظين، وهي كثيرة أوصلها ابن الجوزي في «زاد المسير» إلى سبعة[2].

منها: أن «الهمز» في اللغة أصله الكسر، يقولون: همزت الخشبة، إذا وضعتها على

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«تذكرة الأريب» (ص ٣١٢)، و«تفسير الرازي» (١٦/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٣٦٧)، و«لسان العرب» (٥/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (١٥/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨).

كتفيك ثم كسرتها، ويوجد كلمة أخرى قريبة من الهمز إذا قلبنا الزاي سينًا، وهي: «الهمس»، الذي يكاد لا يسمع(١).

وهل بين «الهمز» و«الهمس» تقارب؟

بينهما تقارب في المخرج، وتقارب في المعنى(٢)؛ لأن الهمس هو الصوت الخفي، فقد يكون المقصود بالهمز: تنقص الناس وازدراؤهم واحتقارهم من خلال حركات الجوارح الخفية التي ربما لا يكاد الناس يتفطنون لها، يغمز بطرف عينه مثلًا، أو بشدقيه، أو بوجهه، أو بحركة يده.

فهذا هو الهمز، وقد يدخل فيه مَن يحاكي الناس في حركاتهم، أو أصواتهم وأقوالهم، من أجل أن يُضْحِك الآخرين على سبيل التعيير، أو الازدراء.

ولو قلَّد صوت الآخر على سبيل الإعجاب بصوته واستحسانه، فليس فيه بأس، لأن بعض الصحابة حاكوا صوت النبي ﷺ في قراءته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١](٣)، والعبرة هنا بدافع الفعل، فإذا قلَّد إنسان صوت قارئ أو متحدِّث أو محاضر أو خطيب؛ لأنه معجب بصوته، ولم يقصد ذمًّا، فهذا لا بأس به.

أما اللَّمز؛ فالغالب أن يكون باللسان، وقوعًا وولوغًا في أعراض الناس، تعييرًا وتعييبًا وازدراءً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وغيرهما(٤).

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (هـ م ز) (٥/ ٣٢٦)، و«تاج العروس» (هـ م ز) (١٥/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (هـ م ز)، (هـ م س) (٦/ ٢٥٠)، و«تاج العروس» (هـ م س) (١٧/ ٤٠).

(٣) أخرجه الطيالسي (٩٥٧)، والبخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤)، والروياني (٨٧٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٠٥٧)، وابن حبان (٧٤٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٢٩).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٦).

والكلام في الناس بالجرح والتعديل أنواع:

١ - ما لا يدخل في الوعيد، كأن يتكلم في الناس بحق واعتدال، ويكون أهلًا لذلك، والناس بحاجة إليه.

- أن يكون باعتدال؛ فلا يبخس الناس أشياءهم ولا يظلمهم، ولا يحط من أقدارهم.

- أن يكون أهلًا لذلك؛ فلا يهجم على الكلام في الناس مَن لم يتأهل للجرح، ولا يجرِّح أو يعدِّل في الناس مَن هو بحاجة إلى مَن يعدِّله.

ولذلك صنَّف علماء الجرح والتعديل فيمَن يُعتمد على قوله في الجرح والتعديل، فلا يُقبل الجرح ولا التعديل من كل أحد، بل لا بد أن يكون الجارح أو المعدِّل إمامًا مشهورًا معروفًا بالإمامة والحفظ والعلم، ومعرفة درجات العدالة.

- أن يكون ثَمَّة حاجة إلى ذلك؛ كحاجة علماء الحديث السابقين إلى معرفة صحيح حديث النبي ﷺ من ضعيفه، وكالحاجة إلى بيان أحوال مَن قد يلتبس أمره، فتكون الأمة بحاجة إلى بيان حاله، مع أن الذي عليه عامة أهل العلم وأهل السنة، أنه إذا أمكن بيان الحق من غير ذكر الشخص فهو أولى، وأما إذا احتيج إلى ذكر شخص بعينه فلا بأس بذلك.

وقد ابُتلي كثير من الناس اليوم بالتلذُّذ بالولوغ في أعراض الناس، والجراءة على ذلك يخشى أن تدفع بصاحبها إلى الوقوع فيما حذر الله تعالى منه.

٢ - المكروه؛ وهو ما يكون فيه استرسال واستطراد، ونوع من الحظوظ النفسية، مع وجود الحاجة فيه.

٣- المحرم؛ وهو أن يكون من غير المتأهِّل، أو يكون فيه ظلم وعدوان، أو يكون على سبيل البغي على الناس، وهذا قلَّ مَن يسلم منه، حتى من أهل الصلاح.

وقد يتطور إلى ما يخشى على دين صاحبه، وهو ما يكون فيه همز ولمز للشريعة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

والاشتغال بالناس في الأصل مَذمَّة، ولو أن إنسانًا صرف عمره كله للعن فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأُبِيِّ بن خلف، لم يكن رشيدًا مصيبًا في ذلك.

ويُروى أن الخوارج دخلوا على عمر بن عبد العزيز، فلم يدع لهم حجة إلا كسرها، فقالوا: لسنا نجيبك حتى تكفِّر أهل بيتك وتلعنهم وتتبرأ منهم. فقال لهم عمر: إن الله لم يجعلني لعانًا، ولكن إن أبقى أنا وأنتم فسوف أحملكم وإياهم على المحجَّة البيضاء. فأَبَوْا أن يقبلوا ذلك منه. فقال لهم عمر: إنه لا يسعكم في دينكم إلا الصدق، منذ كم دنتم الله بهذا الدين؟ قالوا: منذ كذا وكذا سنة. قال: فهل لعنتم فرعون وتبرأتم منه؟ قالوا: لا. قال: فكيف وسعكم تركه، أَلَا يسعني ترك أهل بيتي، وقد كان فيهم المحسن والمسيء، والمصيب والمخطئ؟[1].

* ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ [الهمزة:٢]:

اختلف القراء فيها، فقراءة عاصم: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾ بالتخفيف، وقرأ حمزة والكِسائي وابن عامر بتشديد الميم في (جَمَّعَ)[2]، وهو أبلغ من (جَمَع)، وتدل على الجهد الذي بذله في تجميع المال، فهو قد أخذ وقتًا طويلًا في تجميعه، وبذل فيه كثيرًا من الأسباب والحيل.

---

(١) ينظر: «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص٩٤-٩٥).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٩٧)، و«حجة القراءات» (ص ٧٧٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص ١٤١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٣)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٥٧٥-٥٧٦).

وجاء المال نكرة هنا ﴿مَالًا﴾؛ لأن المال في ذاته ليس هو الذي ينفع الإنسان، وإنما الذي ينفعه عمله الصالح.

وأيضًا: جمع المال بحد ذاته ليس مذمة، وإنما المذمة ما وراء ذلك من سوء التصرف فيه.

وفيها معنى أنه لم يكن يهتم بنوع المال وسلامة مصدره، بقدر ما يهتم بجمعه، حتى لو كان من حرام أو غش أو سرقة.

ولقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أكثر من معنى:

١- أنه جعله عُدَّة، بمعنى أنه أَعَدَّه، وادَّخره لنوائب الدهر وصروف الزمان. ونسي أن هذا المال قد يخذله، وهو أحوج ما يكون إليه.

٢- أن معنى: «عدَّده»: أحصاه، ولكن عدَّده مرة بعد مرة، وهذا ينبئ عن الحرص والنهم الشديد والخوف على زواله، وليس المذموم هو الغنى أو كثرة المال، وإنما الحرص والانشغال به عن طاعة الله أو تصريفه في الحرام.

٣- ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: نوَّعه، يعني: عنده أنواع وألوان من الأموال أرصدة، وسبائك ذهب، وعقار، وماشية... إلخ.

إن كل ما كان سببًا في احتقار الناس وازدرائهم فهو معيب، حتى لو كان ذلك بعبادة أو بعلم أو بجاه أو بنسب أو بحسب أو بجمال أو بمال، على أن كسب المال ليس عيبًا بذاته.

ذَرِيني للغِنَى أسعَى فإنــي   رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأحقرُهم وأهونُهم لدَيهِم   وإن أمسَى لهُ نســبٌ وخيرُ
ويُهمِلُه النـديُّ وتـزدريـهِ   عقيلتُه ويهمـلُـه الصـغـيرُ

إلى قوله:

قليلٌ ذنبـهُ والذنـبُ جـمٌّ ولكِـنْ للغِنَى ربٌّ غَـفـورُ(١)

فالغنى منه ما يكون سببًا في رفعة الإنسان في الدنيا، واحترام الناس له، ومنه ما يكون سببًا في رفعته في الآخرة، ووصوله إلى أعلى الدرجات.

* ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة:٣]:

أي: أخلده في الدنيا، وأتى بالفعل الماضي: ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾، ولم يقل: (يخلِّده). على سبيل التهكُّم بهذا الإنسان الذي يحسب أن القضية مفروغ منها، فما دام عنده مال، فهو قد أخلده، والأمر قد حسم وانتهى، فيقال له: رويدك، وهَوِّن عليك! ليس الأمر كما تظن.

وكيف يحسب أن ماله أخلده؟ هذا له عدة احتمالات:

١- يحسب أن المال أطال عمره، ومن الناس مَن يظن أنه بالمال يتداوى من الأمراض، ويأكل أطيب الطعام، وأن المال يكون سببًا في طول عمره، والواقع أن الإنسان قد يموت بسبب ماله، وإن كان من المعلوم بالحساب والإحصاء أن معدل أعمار الأفراد في الدول المتقدِّمة أطول منه في الدول النامية، بسبب الخدمات الصحية، والغذائية، والوقائية، وهذه من الأسباب الشرعية، وليس سببًا خارقًا أو خارجًا عن القضاء والقدر، فالبلاد التي تشيع فيها الأمراض والمخاطر البيئية، وتكثر فيها حالات المصادرة والقهر والحرمان والأذى للناس؛ يكون الفرد فيها أقصر عمرًا.

لكن هل الأغنياء والمشاهير في البلاد المتقدِّمة أو غيرها هم أطول أعمارًا من غيرهم؟

---

(١) ينظر: «البخلاء» للجاحظ (٢/ ١٣٥-١٣٦)، و«البيان والتبيين» للجاحظ (ص ١٣٠)، و«عيون الأخبار» (١/ ١٠٣)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٤٧٩)، و«العقد الفريد» (١/ ٢٦١)، و«الأمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي (ص ٦١)، و«أخلاق الوزيرين» لأبي حيان التوحيدي (ص ٦٠).

١- إن من أكثر أسباب مرض الضغط والسكر والقلق والجلطات الدماغية، الانشغال بالمال والإفراط فيه.

٢- أنه نسي الموت بانهماكه بالدنيا وانشغاله بها، فعمله على مَن يعتقد الخلود، كما يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه مِنَ الموتِ»[1].

٣- أنه يظن أن المال أخلده في الذكر، والذكر عُمْر، كما قال الشاعر:

فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِك ذكرَها ... فالذِّكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِي

فهو بنى المباني الفخمة، وشَيَّد وأَسَّس، فلذلك يحسب أن هذا المال خلَّده ببقاء ذكره بعد الموت، ومن الناس مَن يكون له شيء من الذكر بالمال إذا أحسن استخدامه، ومع هذا فالناس سَرَعان ما ينسون، وإن ذكروا فذكرهم لا ينفع الميت إِلَّا أن يكون دعاء وثناء بخير.

٤- أن يكون المقصود خلود مَن بعده من الورثة والقرابة ونحوهم، فهو يظن أنه بنى لهم مجدًا لا يزول بهذا المال.

٥- أنه يحسب المال أخلد طريقته ومنهجه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم:٤٤]. هم يعرفون أنهم يموتون، ولكن يقولون: يرثنا قوم آخرون، يكونون مثلَنا، على طريقتنا ومنهجنا. وفي كتاب: «نهاية التاريخ» أن الحضارة الأمريكية ونظام الحكم الديمقراطي الليبرالي هو نهاية التاريخ والتطور البشري.

وفي الآية الكريمة تعريض لطيف بأن المجد ليس بالمال، ولهذا قال بعده:

---

(١) ينظر: «البديع في البديع» (ص ١٢٥)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص ٣٠٩)، و«التمثيل والمحاضرة» (ص ٤٠٤)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ٩٣٤)، و«دلائل الإعجاز» (ص ٦٠٤)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٠٥)، و«الكشكول» (٢/ ٢٢٩).

﴿ كَلَّا ﴾. وإنما سبب الخلود في الدنيا والآخرة هي الأعمال الصالحة، والفضائل المعنوية: فضيلة العلم، الخلق، الإحسان إلى الناس، التعبد، التواضع. فالفضائل المعنوية والعلوم والأخلاق، هي المجد الباقي لصاحبه في الدنيا والآخرة.

فبذلك يضمن الإنسان شيئًا من الخلود في الدنيا بالذكر الحسن، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]. وكذلك الخلود في الجنة.

* ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴾ [الهمزة:٤]:

وهذا زجر وإنكار لهذا الحسبان ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ﴾، يعني: حسابه خطأ، ولا خلود له.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: شديدة الحطم والتحطيم، وجاء في «صحيح مسلم» أن عائذَ بن عمرو صاحب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد وهو أمير بالكوفة، وكان بطَّاشًا ظلومًا، فقال له: أي بُنَيَّ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن شرَّ الرِّعاءِ الـحُطَمَةُ». يعني: الذي يحطم رعيته حطمًا بقسوة وغلظة، لا يبالي بكبير ولا صغير ولا ضعيف ولا غيره، ثم قال: «فإياك أن تكون منهم»، فقال له: اجلس، فإنما أنت من نُخالة أصحاب محمد ﷺ. فقال: وهل كانت لهم نُخالة؟ إنما النُّخالة بعدهم وفي غيرهم[1].

وهذه من الأجوبة المفحمة المسكتة، يعني: أنت وأمثالك النخالة.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ المراد بها: شديدة الحطم، تحطم الإنسان، وتأتي عليه كله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ من النَّبْذ، وهو الرمي والإلقاء، كما تُنبذ النواة، أو كما تُنبذ الحصاة، وفيه إشعار بالإهمال والنسيان، كما لو كان نواة تخرج من التمرة، أو حصاة أو شيئًا حقيرًا مستكرهًا، فيُنبذ ويُلقى ويُهمل ويُنسى، فلا يتفطن له أحد،

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٨٣٠).

وسوف يُهمل ذكره، بخلاف ما كان يظن أن ماله أخلده.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ فيُنسى ولا يُذكر، ولا يخلد ولا يبقى، ولهذا قال الله تعالى مثلًا عن فرعون الذي يحسب أن ماله وسلطانه أخلده: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٤٠]، ولاحظ النبذ هنا! يعني: في احتقار وازدراء وتهوين.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: صفة لجهنم، وهو أحد أسماء النار، وهي على وزن: «فُعَلَة»، كـ(همزة) و(لمزة)؛ فالجزاء من جنس العمل، فهذا الإنسان همزة لمزة، توعَّده الله سبحانه أن يُنبذ في الـحُطَمة، جزاءً وفاقًا لما كان عليه في الدنيا من تحطيم الناس باحتقارهم والاستهزاء بهم والتكبر عليهم.

* ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥]:

وهو سؤال تفخيم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢].

وفي الآية الكريمة إشارة إلى خيبة طموح الإنسان في الخلود: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[الهمزة:٣]؛ لأن الله قال له: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ومتى يُنبذ في الحطمة؟ في الآخرة، يعني: بعد الموت.. فهو سوف يموت ولا يخلَّد.. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٨٠]، فآماله وطموحاته في الخلود والبقاء تبخرت وذهبت أدراج الرياح، فلا أهل ولا مال ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:١٥].

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ ليست معروفة في لغة العرب، ولعل هذا من أسرار السؤال عنها كـ «القارعة» و«الحاقة» وغيرها؛ فالله تعالى يذكر هذه الأسماء التي هي أسماء عربية، لكن لم يعرفها العرب من قبل، أو كانوا يستخدمونها في معنى ثم غيَّر القرآن استخدامها ووظَّفها في غيره.

فلما قال: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾، قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾

[الهمزة:٥-٦]، فـ «الـحُطَمة» هي النار، أو إحدى دَرَكات النار، أو باب من أبوابها، والأقرب الأول، وهو أن الحطمة هي النار.

* ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة:٦]:

فنسبها الله تعالى إليه، وهي ليست نار شيخ من شيوخ العرب، أو نار قبيلة من قبائلهم توقدها تفاخرًا أو تعاظمًا أو تهديدًا، وهي ليست كنار الدنيا التي تُوقَدُ ثم مآلها إلى أن تخبو وتنطفئ، وإنما هي: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾، وهذا الوقد وصف يصح أن يطلق عليها مطلقًا، فكل وقت هي موقدة؛ فالنار كانت موقدة، وهي الآن موقدة، ويوم القيامة موقدة.

* ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة:٧]:

﴿ ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾: هي القلوب، والمقصود أن النار تصل إلى قلوبهم، هذا القلب الرقيق الذي يتألم لأي شيء؛ فالنار تصل إليه بحرِّها وسمومها، فتؤلم هذه القلوب أشد الإيلام؛ وذلك لأن القلوب هي محل الكفر، ومحل الكبر، ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ من كِبرٍ**». قال رجلٌ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ؛ الكبرُ بطَرُ الحقِّ، وغمْطُ الناسِ**»(١).

ومن ذلك الهمز واللمز وازدراء الناس وبطر الحق.

* ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة:٨]:

أي: مغلقة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف:١٨]، و«الوصيد» هو الباب، والنار لها سبعة أبواب، كما قال الله: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[الحجر:٤٤]، كما أن الجنة لها أبواب ثمانية، كما في الحديث:

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﵁.

«أدخله الله من أي أبوابِ الجنة الثمانيةِ شاءَ»[1].

وقرأ عاصم وجماعة: ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بالهمز، والجمهور يقرؤونها بالواو[2]، والمعنى واحد.

وهذا دليل على أنهم يدخلون النار، كما ورد في مواضع كثيرة في القرآن، ويخرج الله منها مَن شاء، كما في حديث الـجَهَنَّميين وغيرهم[3]، ممن يأذن الله تعالى في خروجهم منها من أهل الإسلام، ولكن بالنسبة للكافرين الذين هم أهل النار، فإن وجود الأبواب يزيد في تعذيبهم؛ لأنه كلما رأى الباب همَّ بالخروج وتمنَّاه وتطلَّع إليه، وكان حاله حال السَّجِين الذي كلما سمع قعقعة الباب عاودته الآمال، وظن أن هذا إيذان بفرجه، فهؤلاء في نار جهنم ينظرون إلى الأبواب، ويتطلعون إلى خروجهم منها، ولكن هيهات!

* ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة:٩]:

قراءة الجمهور بفتحتين ﴿عَمَدٖ﴾ وقرأ حمزة والكِسائي: (عُمُد) بضم العين والميم[4]. وكلاهما جمع، وقد يكون جمعًا لعمود.

و﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ صفة لـ ﴿عَمَدٖ﴾ وليست صفة لـ ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾، خلافًا لما يظنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.
وفي «صحيح مسلم» (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر ﷺ نحوه.

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٨٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٣٧٢)، و«حجة القراءات» (ص ٧٦٦)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٣٩٣-٣٩٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٥٨٠-٥٨١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٥٩، ٦٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٩١).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (٦٩٧)، و«حجة القراءات» (ص ٧٧٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص ١٤١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٥٨١-٥٨٣).

بعضهم من أن النار ممددة في أعمدة، وقد تكون هذه العمد من نار، وقد تكون مما شاء الله تعالى، وهذا غيب لا يستطيع أحد أن يتكلم فيه، والكلام فيه رجم بالغيب، وإن ذكره بعض المفسرين[1].

هذه العمد الطويلة قد تكون عمدًا في النار يوثقون بها كما يوثق السَّجين في الغُلِّ، ويقيدون بها، وقد تكون عمدًا ممددة على الأبواب مبالغة في إحكامها، وعدم خروجهم منها، وقد ورد في صفة النار حديث مشهور، وفيه: «**أُوقِدَ على النارِ ألفَ سنةٍ حتى احمرَّت**»[2]. والحديث في سنده ضعف، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٣٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٩١٠، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ٥٤٠١).

سُورَةُ الفِيلِ

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل:١-٥].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة الفيل»، كما في جميع المصاحف وكتب التفسير[١].

٢ - ويسميها بعضهم: «سورة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، وهكذا في بعض الروايات عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه، وغيره[٢].

* عدد آياتها: خمس آيات بلا خلاف[٣].

* وهي مكية بإجماع أهل العلم، وهي والسورة التي تليها سورة قريش في مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه سورة واحدة، حتى إنه ورد أنه لم يفصل بينهما بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٤].

وقد ورد أن عمر رضي الله عنه قرأ بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ في الركعة الثانية

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٧٥)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (٢/ ٦٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٣).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٧).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«روح المعاني» (٣/ ٢٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٣، ٥٥٣).

من صلاة المغرب، وقد ذكر ذلك القرطبي وجماعة من أهل التفسير[1]، مما يدل على أنهما عنده كالسورة الواحدة وأن معناهما مترابط.

والقصة التي نزلت فيها السورة معروفة، وخلاصتها: أن أَبْرَهَة الحبشي الأَشْرم كان ملك اليمن من قِبَلِ النجاشي في الحبشة، حيث كانت اليمن تابعة للحبشة، الذين دخلوا اليمن بعد حادثة الأُخدود، والتي وقعت في نجران، وهي جغرافيًّا وتاريخيًّا من اليمن، والذين قُتلوا فيها كانوا من النصارى المؤمنين الموحِّدين، وحصل عليهم من التعذيب ما ذكره الله تعالى في «سورة البروج»، وبعدها غزا الأحباش اليمن، وحكموها ردحًا من الزمن، وكان مندوبهم في اليمن الذي يحكم باسمهم هو أَبْرَهة الأَشْرم، وكان قد بنى في صنعاء كنيسة سماها: «القُلَّيس»[2].

فأراد أَبْرَهة صرف قلوب الناس إليها بالتعبد والذكر، فَهَمَّ بغزو الكعبة؛ لئلا تنافس القُلَّيس، أو لأن بعض العرب حاولوا هدم هذه الكنيسة أو تخريبها أو إهانتها، فجمع جيشًا كبيرًا، وجعل معهم أفيالًا، وقيل: فيلًا واحدًا؛ ولهذا سماهم: «أصحاب الفيل»، فغزا مكة، وجاء إليها؛ ليهدم الكعبة، ولما اقترب من مكة جاءه بعض وجوه العرب وعرضوا عليه الفدية والمال في مقابل أن يرجع عن مسيره، فأَبَى ورفض، وأخذ جيشه إبلًا لعبد المطلب، فجاءه عبد المطلب وكان رجلًا جميلًا حسن الصورة، فقال له: إنكم قد أخذتم بعض إبلي. فقال له: كنتَ عظيمًا في عيني، والآن سقطت منها؛ أتيتُ لهدم البيت الذي هو عزُّك وعزُّ آبائك وأجدادك، ولا تخاطبني فيه وتخاطبني من أجل إبل أخذناها! فقال: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه. ثم رجع من عنده، وأمسك عبد المطلب بحلقة باب الكعبة وصرخ بأعلى صوته:

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، والأثر أخرجه عبد الرزاق (٢٦٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٣)، والطحاوي (١/ ٣٤٨).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٦).

اللَّـهـمَّ إن العـبـدَ يمـ ـنعُ رحلهَ فامنـعْ رحالَك

لا يغلِبَـنَّ صـلـيبُـهـم ومِـحَـالُهم غدْوًا مِحَالَك[1]

إن كنتَ تاركَهم وكعـ ـبتَنا فأمـر مـا بـدالك[2]

وخرجت قريش بنسائها وأطفالها خشية أن يغشاهم الجيش أو ينتهك أعراضهم أو يعتدي عليهم، وتركوا الكعبة أيامًا، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث عليهم طيرًا أبابيل، أي: جماعات معها حجارة، كل طير معه ثلاثة أحجار: واحد في فمه، واثنان في رجليه، ترمي هؤلاء القوم حتى أهلكتهم جميعًا.

قال ابن عباس ﷺ: رأيتُ عند أم هانئ نحو قَفِيز من هذه الحجارة مخططة كالجزع الظفاري[3].

والجذع الظفاري: نوع من الخرز الصغار، دون حبات الحِمَّصِ وفوق العَدَسِ، فهي حجارة صغيرة مخططة، وهذا يدل على بقاء آثار أصحاب الفيل.

وورد أن بعض روثه كان موجودًا في مكة، وكأن العرب تركوه من باب الإبقاء على ما يدل على إهلاك هؤلاء القوم.

وورد عن عائشة ﷺ أنها رأت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس[4].

---

(١) المحال: الكيد والقوة، والغدو: الغد.

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢١٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥١).

(٤) أخرجه ابن إسحاق (ص ١٦)، والواقدي -كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨٩)- وخليفة ابن خياط في «تاريخه» (ص ٥٣)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٤٨)، والبزار (٣٠٠)، والدينوري في «المجالسة» (١٢٥٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢٥).

وهذا الأثر إن صح فهو يدل على أن هؤلاء الناس عُمِّروا، وهم من العرب الذين خانوا، وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغَالٍ؛ لأنه هو الذي دلَّهم على الطريق.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة؛ تذكيرًا وتثبيتًا للنبي ﷺ، بأن الله يدافع عنه وعن دينه، وإذا كان الله تعالى حمى الكعبة وهي حجارة، أفلا يحمي الله تعالى نبيه ﷺ وأولياءه ودينه ووحيه؟!

كما أن في ذلك عَلَمًا من أعلام نبوة النبي ﷺ؛ لأنه أخبر بهذه القصة ولم يكن النبي ﷺ شهدها، وكان بعض الذين شهدوا القصة أحياء، فكان من المعمَّرين: حَكِيم بن حِزام، ونَوْفَل بن عبد العُزَّى؛ فقد عمرا مائة وعشرين سنة، وهما ممن عاصروا الحادثة.

وقد ذُكرت قصة الفيل في القرآن مرة واحدة، وفي ذلك فوائد عظيمة، منها:

إقامة الحجة على العرب، متقدِّميهم ومتأخِّريهم؛ ولحماية النبي ﷺ، وتثبيت قلوب المؤمنين.

ولم يتكرر ذكرها؛ لئلا يداخل العرب شيء من الغرور والعجب والتعاظم بأن هذا بيتهم، وربما صرفهم هذا عن الخير.

وذُكرت حادثة الفيل في سُنَّة النبي ﷺ في الحُدَيْبِيَة، لما خرج النبي ﷺ إلى مكة خَلَأَتِ القصواء، يعني: بركت ناقته ﷺ، فقال الصحابة: خَلَأَتِ القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خَلَأَتِ القصواءُ، وما ذاك لها بخُلُقٍ -أي: ليس من عادتها- ولكن حبسَها حابِسُ الفِيلِ».

ولاحظ أن النبي ﷺ عبَّر هنا عن حبس الفيل، وليس عن الكعبة فقط، فالله حمى الكعبة وحمى مكة المكرمة، وفي هذا يظهر تعظيم النبي ﷺ للكعبة ولمكة، حتى وهو يقدمها باسم الله تبارك وتعالى لحج بيت الله الحرام، وللعمرة، ومعه المؤمنون،

ومع ذلك لما خلأت تراجع وقال: «والذي نفسِي بيدِهِ، لا يسألونِي خُطَّةً يعظِّمونَ فيها حُرماتِ الله إلا أعطيتُهم إيَّاها»[1].

وانظر إلى هذا الموقف النبوي وإلى مواقف بعض المسلمين عبر التاريخ الذين انتهكوا حرمة البيت، فالباطنية القرامطة الملحدون، وهم من المحسوبين على الإسلام، انتهكوا حرمة البيت، وقتلوا الحُجَّاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وهربوا به إلى مقر مملكتهم وحكومتهم في الأحساء، ومكث عندهم أكثر من خمس عشرة سنة!!

وأعجب من هذا، الحادثة الشهيرة التي انتهك فيها حرمة البيت الحرام عام (١٤٠٠هـ)[2].

إن المؤمن بحاجة إلى مراقبة النفس بشكل دائم، وألَّا يسمح لنفسه أن تصول وتندفع؛ تأسِّيًا بموقف النبي ﷺ، وكيف جاء بأصحابه ورُدَّ عن البيت، ولم يعط لنفسه أي تأويل، ولما عرضوا عليه الصلح -مع ما فيه من مذلة في ظاهر الأمر- قبله النبي ﷺ وأمضاه، هذا موقف.

والموقف الثاني: أن النبي ﷺ لما فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة خطب الناس وقال: «إن الله حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسلَّطَ عليها رسولَه والمؤمنين، وإنها لم تحِلَّ لأحدٍ كان قبلي، وإنها أُحلَّت لي ساعةً مِن نهارٍ، وإنها لن تحلَّ لأحدٍ بعدي، فلا يُنفَّر صيدُها ولا يُختلَى شوكُها، ولا تَحِلُّ ساقطتُها إلا لمُنشِدٍ»[3].

وحادثة الفيل وقعت في العام الذي وُلد فيه النبي ﷺ، بإجماع المؤرِّخين وعلماء السير، كما ذكره خليفة بن خَيَّاط، وأبو الخطاب بن دحية، وذكره ابن كثير وابن القيم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) ينظر: «طفولة قلب» للمؤلف (ص ١٨٩-١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري» (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وابن حجر وغيرهم، ونقل غير واحد الإجماع عليه، سواءً من المفسرين أو من أهل السيرة[1].

ولكن كانت ولادة النبي ﷺ بعد حادثة الفيل بخمسين يومًا، وحادثة الفيل كانت في شهر الله المحرم، وهو يوافق شهر شباط أو فبراير من الشهور الأعجمية، وذلك سنة (٥٧٠) من ميلاد المسيح ﵇، وبعد ذلك اليوم بخمسين يومًا وُلِد النبي ﷺ.

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]:

الاستفهام هنا تقريري، والمعنى: أنك قد رأيتَ، ولكنه غالبًا يأتي بصيغة النفي الذي ظاهره النفي وحقيقته الإثبات، ويفيد معنى التحدِّي، فلا المخاطب ولا غيره يستطيع أن ينفي هذه الحادثة، فهي في ثبوتها قضية يقينية لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشكِّك فيها.

وهذا الاستفهام التقريري مثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦].

والرؤية هنا يحتمل أن تكون علمية، يعني: علمًا بالخبر، أي: علمتَ العلم اليقيني القطعي أن الله تعالى فعل بأصحاب الفيل ما فعل.

ويحتمل أن تكون الرؤية رؤية بصرية، يعني: بعينك، وهل رأى النبي ﷺ أصحاب الفيل وما جرى لهم بعينه؟ كلَّا.

---

(١) ينظر: «تاريخ خليفة» (ص٥٣)، و«العقد الفريد» (٥/ ٣)، و«شرف المصطفى» لأبي سعد الخركوشي (١/ ٤٤١)، و«تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٢-٢٣)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢٥)، و«زاد المعاد» (١/ ٧٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٨٠).

فإما أن يحمل على مَن رأوا هذه الحادثة، وكان بعضهم أحياء كما ذكرنا، وهم مخاطبون بهذا القرآن ويسمعونه.

أو أن يكون ذلك إشارة إلى ما رأوا من الآثار، مثل أثر ابن عباس ﷺ أنه رأى في بيت أم هانئ ﷺ بعض الحجارة، ومثل ما ذكر بعضهم أن آثار الأفيال كانت موجودة في أنحاء مكة، وإلى غير ذلك من الآثار التي بقيت ورآها الناس.

وتأمل أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، ولم يقل: (ماذا فعل ربك بأصحاب الفيل)، وفيه إشارة إلى استحضار الصورة في الذهن؛ لأن الكيفية عبارة عن صورة تفصيلية، فإذا قيل لك: «كيف فعل ربك»، تخيَّلت الكيفية وهذا الجيش وهذه الأفيال، ثم هذه الحجارة وهي تقصفهم قصفًا.

وفي قوله: ﴿كَيْفَ﴾، أراد أن يلفت نظر المستمع إلى أن يعتني بالكيفية في الأشياء، وهذا كثير في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦]، فيتخيل الإنسان هذا الظل وهو يمتد حسب حركة الشمس.

فالكيفيات مهمة عندما يتخيلها الإنسان ويتصورها في كثير من الأشياء، وحينما يذكر الله تعالى الأشياء بالكمية، فإنه يذكر أشياء أخرى تتعلق بشكلها وأهميتها وصفتها؛ للفت الأنظار إلى الكيفية.

ففي قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]، عبَّر بـ ﴿كَمْ﴾ وهذا من حيث كثرة أنواع النبات، لكن هذا غير خارج عما نقوله؛ فهو يلفت النظر إلى الصفة وهي تتعلق بالكيفية، فالزوج الكريم والبهيج هي صفات تتعلق بالكيفية.

فالكيفية مقصودة، وملاحظتها وتدبرها ضرورية، وعلى الإنسان أن يلاحظ في موضوع الكيفية شيئين:

١- ما يتعلق بالأشياء القَدَرية المخلوقة من الله تبارك وتعالى، فإن مراعاة كيفيتها مما يقيم الحجة على الناس، وهو أبلغ في الاعتبار، فإذا فكَّر الإنسان: كيف يسمع؟ كيف يبصر؟ كيف يأكل؟ كيف يفكِّر ويعقل؟... إلخ، فإن التأمل في هذه الكيفية يحدث للإنسان يقظة القلب والإيمان، والتدبر شيء ضخم هائل، وجرب ذلك في الكلام. نحن نسمع الكلام ونقول الكلام، ولكن لا يفكِّر أحدنا في كيفيته، وكيف يخرج؟ وكيف تتكون الحروف؟ وكيف يسمع الكلام؟ وكيف يصل؟ وكيف يحلِّله الدماغ؟ وكيف تنقله الأعصاب؟ وكيف يستجيب له الجسم؟ وكيف تتكون اللغات وتكتمل وتتنوع؟ أو كيف يأكل الإنسان؟ أو كيف يشرب؟ أو كيف ينام؟ وما الفرق بين النوم واليقظة؟ أو كيف يفكر العقل؟ وكيف يستذكر؛ لكان التأمل في هذه الكيفيات من أعظم ما يعزِّز الإيمان.

٢- ما يتعلق بالأمر الاختياري، فإن على الإنسان أن يضبطه بالمعيار الشرعي، ويصحِّحه ويلتزم فيه بالأدب والخلق والتهذيب، ويطوِّره شيئًا فشيئًا؛ لأن العبرة بالكيفيات، وليس فقط بالكميات، يعني: ليس العبرة كم لك من صديق؛ لأن كثرة الأصدقاء ليست بحد ذاتها أمرًا محمودًا، ولهذا قال ابن الرومي:

عدوُّك من صديقِك مستفادُ ... فلا تستكثرنَّ من الصحابِ

فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه ... يكونُ من الطعامِ أو الشرابِ(١)

بل العبرة بكيفية الصحبة، وحسن المعاشرة، وحسن الأدب، والتلطف، والصبر، والاستفادة منهم، ومثله سائر الأعمال والعبادات والطاعات والمصالح، فإن العبرة بكيفية إنجازها وأدائها، فليتأمل المؤمن كيف يصلِّي، وكيف يصوم، كيف يحج، كيف يعبد ربه، كيف يطبق تعاليم الإسلام بالأخلاق والعلاقات وغيرها.

(١) ينظر: «ديوان ابن الرومي» (١/ ١٠٨).

وهذا يبيِّن فضل معرفة الكيفيات المفصَّلة على الإجمال والإبهام.

فلو قيل لك: إن جيشًا غزا مكة وقتلوا، ربما لا يلفت نظرك، لكن إذا فصل ذلك كما في السياق؛ لوجدت العجب في ترسيخ الإيمان وتدعيمه، حتى إن الأساطير المركبة المتداولة في ثقافات الشعوب ذات تأثير عظيم بسبب تفصيلها وتحديد مساقاتها.

وهنا لاحظ أنه قال: ﴿فَعَلَ﴾، ولم يقل: (صنع)، أو: (خلق)، أو: (أرسل)؛ لأن الأمر الذي جرى على أصحاب الفيل فيه خَلْقٌ، مِن خَلْقِ الطير والحجارة، وفيه إرسال، وفيه جعل، فاختار الله سبحانه وتعالى كلمة: ﴿فَعَلَ﴾، حتى تشمل هذه الأشياء كلها.

وقال: ﴿رَبُّكَ﴾ ولم يقل: (الله)؛ لما فيه من إشارة إلى ارتباط حادثة الفيل بمبعث الرسول ﷺ، وأن هذه الحادثة وإن كانت قبل البعثة، بل وقبل ميلاده ﷺ، إلا أنها من إرهاصات بعثته ﷺ؛ ولذلك استعمل لفظ «الرب»، المتضمِّن لمعنى الرحمة والرعاية، وفيها الملك والتدبير، وفيها التصريف والتربية.

فـ﴿رَبُّكَ﴾ هو الذي ربَّاك بنعمه، وتعاهدك بفضله وعطائه، فكأن في ذلك إشارة إلى أن حادثة الفيل هي من لطف ربك، وحسن تدبيره وتصريفه ورعايته لك، فقدَّم بين يدي بعثتك بل بين يدي ميلادك هذه الحادثة العظيمة التي كان من آثارها حفظ الكعبة، وكون قبائل العرب في الجزيرة العربية يتجهون إلى الكعبة بالتعظيم، ويحبون الكعبة وأهلها، ويكون لقريش من المكانة ما يمهد ويهيئ لقبول رسالة النبي ﷺ وخروجه فيهم.

كذلك إضافة كلمة «رب» للنبي ﷺ، فيه معنى الاختصاص، فالذي أَهْلَك أهل الفيل هو ﴿رَبُّكَ﴾، وهو الذي سوف يهلك كل عدو يقصدك بسوء؛ لأنك أنت وكل مؤمن أعظم حرمة من الكعبة، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة وقال: «**ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد**

بيده، لحرمة المؤمن أعظمُ عند الله حرمةً منك»[(١)]. وقتل المؤمن أعظم عند الله تعالى من زوال الكعبة!

فهذا فيه ربط للنبي ﷺ بحادثة الفيل، فهو مثل قول الله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١-٢]، فهذه هي مكة التي وُلدت فيها، وبُعثت فيها، وسوف تكون منطلقك ومردك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يرى جمهور المفسرين أن نسبتهم إلى الفيل هو مجرد تعريف، مثل قولك: «أصحاب الجمل»، وهم عائشة ﵂ ومن معها، ومثل: «أصحاب الكهف»، و«أصحاب السجن»، و«أصحاب السَّبْت»، و«أصحاب الجنة»، أي: البستان، فقد يُنسب الناس إلى أدنى ملابسة تتعلق بهم.

أما العرب، فلم تكن تعرف الفيل أصلًا، بل كانوا يتخيلونه مجرد تخيل بأذهانهم، كما قال كعب بن زُهير:

وقد أقومُ مقامًا لو يقومُ به ... أرى وأسمع ما لا يسمع الفيلُ[(٢)]

وكما قال لَبِيد:

ومقام ضيق فرَّجته ... ببيانٍ ولسان وجدلْ

لو يقومُ الفيلُ أو فياله ... زلَّ عن مثل مقامي وزحلْ[(٣)]

والفيل أعظم من الجمل الذي تعرفه العرب، وله هذا الخرطوم الذي يلتف به على ما يريد، وكانوا في الحروب يعتبرونه محفة، ويركب عليه ستة أو سبعة من الجنود،

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر ﵄. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢٠).

(٢) البيت من قصيدة اعتذاره للرسول ﷺ، وهو في «ديوانه» (ص ٤٩).

(٣) ينظر: «ديوان لبيد» (ص ٨٥).

وهو سلاح هائل يحطم ما أمامه.

فجيش أَبْرَهة جاؤوا إلى جزيرة العرب بشيء لم يكن معروفًا عند العرب يشبه أسلحة العصر الحاضر من الطائرات الضخمة والبارجات الهائلة والدبابات العظيمة التي لا عهد للعرب بها، فوقع لهم من الدهشة والخوف والرعب ما لا يخطر على بال، وكان أبرهة وجنده يظنون أنهم مانعتهم أفيالهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ ولهذا ناسب أن ينسبهم إليه، وفي هذا نوع من التحقير المبطن لهم؛ لأن هذا الفيل -وهو حيوان- بَرَكَ، وحُبِس عن مكة، فكان إذا وُجِّه إلى الكعبة بَرَكَ، وإذا وُجِّه إلى أي جهة أخرى ثار وأسرع في المسير، في حين يصرُّ هؤلاء على هدم بيت الله تعالى وأذية أهل بيته! فكان الفيل خيرًا منهم عملًا وأحسن مصيرًا.

* ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل:٢]:

وفي السياق دعوة إلى رؤية «فعل الله» بدلًا من الوقوف الطويل على «فعل العباد» فالسورة لم تستطرد في حكاية القصة ولا سرد المؤامرة، بل وجَّهت العناية إلى الفعل الإلهي تحذيرًا للمؤمنين من المبالغة في استحضار الكيد الفاجر، أو سيطرة الخوف المفرط على النفوس والغفلة عن الحكمة والتدبير الإلهي ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وفيه تأكيد وتحديد للكيفية، فبعد أن قال: ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾، انتقل السياق ليحدِّد لك هذا الكيف، وهذا بيان للإجمال، والله سبحانه وتعالى سمَّى عملهم «كيدًا»، والغالب أن الكيد هو التدبير الخفي اللطيف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨]، وما فعله أهل الفيل كان ظاهرًا مكشوفًا، فقد جاؤوا بالفيل مع جيش عرمرم، فهذا ليس خفيًّا، فلماذا سماه الله تعالى «كيدًا»؟ إن في هذا أكثر من احتمال:

١ - إما لأن هؤلاء القوم وإن جاؤوا بحجة أنهم يثأرون لكنيستهم المهانة، أو

جاؤوا بحجة هدم الكعبة، إلا أن حقيقة ما جاؤوا له كان أعظم مما أعلنوه، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]، وكذلك يفعل الطغاة دومًا، فهم يتحدَّثون عن إسقاط حكومة أو إزالة نظام، لكن حقيقة مقاصدهم أعظم مما يبوحون به، وهكذا أصحاب الفيل، أعلنوا هدفًا محدَّدًا، وهو هدم الكعبة، أو الانتصار لكنيسة القُليس بصنعاء، لكن حقيقة ما يهدفون إليه كانت أبعد من ذلك، فكان دافعهم الحسد للعرب، ومحاولة صرف الناس عن ملة الحنيفية بكل وسيلة، وعلى ما هو مقرَّر؛ فإن هدم رمز من رموز الدين هو هدم للدين نفسه.

٢- أو لأن مثل هذه الحروب عادة ما تكون مصحوبة بعمل استخباراتي واسع قبلها ومعها وبعدها، ولولا هذا العمل الاستخباراتي ما تحقَّقت أهدافها، وهو عمل يقوم على استقراء الظروف، ومعرفة الطرق، والعدو والتخطيط له، والمكر والمباغتة، وغير ذلك من الأساليب والفنون الحربية، وهذا كله يدخل في باب الكيد؛ ولذلك ذكره الله تعالى عن فرعون: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧]؛ لأن جانب المؤامرة فيه ظاهر: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٦]، وكونهم حاذرين يقتضي منهم التحرز والاحتياط وعمل الاستخبارات والمكر والتجسس ورسم الخطط وتبييت الحيل... إلخ.

ولكن لم يغنهم حذرهم شيئًا، واستدرجهم الله إلى اليم ليغرقوا فيه، وهم ظانون أنهم مدركو موسى عليه السلام ومَن معه.

والتضليل هو: الضلال، فلم يصل هذا الكيد إلى أهدافه التي حدَّدوها، ولم يحقِّق القوم مقصودهم، فَضَلَّ هذا الكيدُ وذهب أدراجَ الرياح، وجعل الله كيدهم في تضليل.

* لقد انتهى كيد أصحاب الفيل وفشل سريعًا، وكان بمقدورهم أن يعودوا إلى بلادهم سالمين، ويعيدوا الكَرَّة بعد حين، لكن الله تعالى باغتهم بجنود من عنده،

فقال: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل:٣]:

وهذا من ذكر الكيفية التي فعلها بهم ربنا تبارك وتعالى، فهو لم يقل: (أرسل إليهم)، وإنما قال: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ ليدل على أن ما أرسل إليهم واقع بهم لا يخطئهم.

ونكَّر ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾، ولم يقل: (الطير الأبابيل)؛ لمقاصد منها:

١ - أن هذه الطيور ليست مما تُعرف، فهي طيور منكرة؛ ولهذا قال العلماء: ليست بنجدية ولا تهامية ولا مما يعرفه العرب، وإنما هي طير من عند الله تعالى، مخلوقة لهذا الغرض بخاصة.

٢- أن في التنكير إشارة إلى غموض أمر هذه الطير، والغموض في المعارك مما يزيد الأعداء خوفًا، وقد يقول القائل: كيف يزيد الأعداء خوفًا وقد ماتوا وفنوا؟

نقول: كذلك مَن بعدهم ممن خُوطبوا بهذا الوعيد من قريش، ومن أمم الكفر في غابر الزمان وحاضره ومستقبله، فيقال لهم: إن الله تعالى أرسل على قوم طيرًا أبابيل، وعنده من الجنود ما لا يعلمه إلا هو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١].

ولا غرابة أنها كانت غامضة حتى على مَن أرسلت إليهم، فهم لا يعلمون جهتها ولا طبيعتها، وكانت مفاجأة غير محسوبة عندهم.

٣- أنها جاءت نكرة لعظم أثرها، فإنك إذا رأيت كيف صنعت بهؤلاء القوم الأشداء رأيت شيئًا عظيمًا، والتنكير يكون للتعظيم، كما هو معلوم عند العرب.

٤- أن من معاني التنكير التصغير والتحقير، فهذه الطيور صغيرة حقيرة في نظر الإنسان، ولكنها على صغرها وهوانها عند مَن يراها، إلا أن الله تعالى أجرى بسببها هذا الأثر العظيم وهذا من الإعجاز.

ومعنى ﴿أَبَابِيلَ﴾: أي: جماعات، وهذه الكلمة معروفة عند العرب، كما ذكر أهل اللغة، وقال بعضهم: ليس لها واحد من لفظها، مثل: أساطير، وإن كان المتأخرون يقولون: أسطورة، ومعنى ﴿أَبَابِيلَ﴾: جماعات، هذا قاله الأخفش والفرَّاء وجماعة من أهل اللغة، وقيل: إن لها مفردًا، واختلفوا هل مفردها: إبيل، أو أُبول، أو إبال، أو إبالة؟

وكثير من المفسرين خاضوا في صفة هذه الطير بما يثير العجب والاستغراب، فإن ربنا تعالى لم يذكر شيئًا من ذلك، وإنما وصفها بأنها «طير» وحسب، وأنها أتت جماعات جماعات، يعني: فرقًا من الطيور، تأتي هذه من هنا، وهذه من هنا، وهذه من هنا، وهذا هو محل الاعتبار، أما الخوض في شيء من صفاتها مما لم يذكره القرآن، فهو أمر لا ينبغي أن نتشاغل به عن محل العبرة والعظة ومقصود السياق، كما أن فيه تتبعًا لما لم يأتنا فيه خبر ولا علم، وإنما هي مجرد ظنون واجتهادات.

* ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[الفيل:٤]:

و«ترمي» فعل مضارع، والمضارع يدل على أن الفعل يحدث الآن، وإنما جاء التعبير بالمضارع من أجل استحضار الحال، كأنك تتخيل هؤلاء القوم والطير ترميهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[فاطر:٩]، يعني: حالة إثارتها للسحاب؛ وقد جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر هذه الحجارة التي يرمون بها، وقال: «لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل، جعل لا تقع منها حجر برجل منهم، إلا نفط مكانه». قال: «فذلك أول ما كان من الجُدَرِي»[(١)].

وهو مروي عن سعيد بن جبير وغيرهم، وذكره معظم المفسرين[(٢)]، ولم يكن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٦١).

(٢) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٦٢).

العرب يعرفون مرض الجدري قبل الحادثة.

وهنا أود أن أشير إلى أن عددًا من المفسرين المعاصرين، مثل الشيخ المراغي، والشيخ محمد عبده، وجماعة قالوا: إن هذه الطير مثل الذباب أو البعوض التي تنقل الأمراض والأوبئة، وأنها نقلت مرض الجدري إلى هؤلاء، وقالوا: إن هذا فيه عبرة[1].

وفي كل صنع ربنا تبارك وتعالى عبرة وأُسوة، حتى خلق البعوض أو الذباب وما هو أحقر منهما، فلا شك أن فيه عبرة لـمَن اعتبر، لكن الله تعالى ذكر أنها ترميهم بحجارة، وتأويل الحجارة بالجراثيم أو الأوبئة بعيد لا يساعده السياق، وهذه الحجارة من جنس الحجارة التي عُوقب بها قوم لوط، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، والسِّجيل المنضود هو الحجارة من الطين، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ...﴾ [الذاريات: ٣٣].

فتبيَّن من هذا أن ما أُرسل على أصحاب الفيل هو ما أُرسل على قوم لوط؛ ولذا فإن تأويل ذلك بالجراثيم أو الجدري بعيد، والأقرب أن الأمر كان آية ربانية خارقة للمألوف، وربنا تعالى على كل شيء قدير، والذي أنزل على قوم لوط هذه الحجارة قادر على أن ينزلها على هؤلاء، فهذا من حكمته وقدرته وانتقامه ممن عصوا أمره.

وبعض المفسرين المتقدِّمين يذكرون عن الحجارة من سجِّيل شيئًا آخر، فبعضهم يقول: إن «السِّجِّيل» هو «السِّجِّين» المذكور في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، أي: فهي من النار، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هي السماء الدنيا. وهذا لا يعرف في لغة العرب، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هو السِّجِل المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٤٣)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٩٧٦).

نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، أي: أن هذه الحجارة مما كُتب في القدر واللوح المحفوظ أن يعاقبوا بها(١).

وكل هذه الأقوال بعيدة، والقرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، فذكر الله تعالى عن قوم لوط أنهم عُوقبوا بحجارة من «سجِّيل»، و﴿ مِّن ﴾هنا بيانية، يعني: المادة التي تكونت منها هذه الحجارة هي السجِّيل، وهي الطين المتحجر، وليست الحجارة الصخرية.

* ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾[الفيل:٥]:

قيل: إن «العصف» هو الشيء الذي تعصف به الرياح، ولذلك قال بعضهم: العصف: ورق الحنطة، وقال بعضهم: التبن.

و«العصف» ورد في القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾[الرحمن:١٢]، فالعصف هو الورق أو التبن، وقيل: العصف هو القشر الذي يكون على حبة البُرِّ، فيزال عنها(٢).

ومادة «عصف» هي ما يعصف أو يحطم من الزرع، مثل التبن، أو الورق اليابس.

والله لم يجعلهم كعصف فقط، بل كعصف مأكول، وكيف يكون العصف

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٥)، و«تفسير السمعاني» (٢/ ٤٤٩)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٦١)، و«تفسير ابن عطية» (٣/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٨٢)، (٢٠/ ١٩٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ١٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٦٣٦، ٧٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٣-١٨٥)، (٢٤/ ٦٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٩٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٤-٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٦)، (٢٠/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، (٨/ ٤٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠٣).

مأكولًا؟

يحتمل أن يكون معنى مأكول: أي: أكله الدود، فالورق قد يصير ضعيفًا شديد الضعف واهيًا.

ويحتمل أن يكون المعنى كزرع أُكِل حبه وبقي العصف وهو القشر.

ويحتمل أن يكون المعنى أُكِلَ أكثرُه، وبقي بعضه، فإنه إذا أكلت البهائم التبن أو غيره، فإنها تأكل منه، ويبقى منه بقية مقطعة ممزقة منثورة ذات اليمين وذات الشمال، وهذا أحقر ما يكون، يعني: لم يجعلهم مثل التبن فقط، بل مثل التبن الذي أكلت منه الحيوانات، وفرقته فلم يعد له قيمة ولا معنى حتى إن البهائم استنكفت عن ذلك لحقارته.

وفي هذه القصة آية وعبرة أجراها الله تعالى حماية لبيته العتيق، فإن الله سبحانه وتعالى امتن بحمايته يوم كان الناس في الجاهلية قبل بعثة الرسول ﷺ، وكان هذا إرهاصًا للبعثة، وحماية للنبي ﷺ، وإيذانًا بانتشار الرسالة، وقوتها وعظمتها.

ومع ذلك يذكر التاريخ أن الكعبة على مدى حكم الإسلام لها قد تضرَّرت أكثر من مرة، فالـحَجَّاج حاصر الكعبة في عهد عبد الملك بن مَرْوان، ورماها بالـمِنجنيق، فتهدَّم بعضها ومع ذلك لم يأت لجيشه ما جاء لأصحاب الفيل.

وهكذا النبي ﷺ أَخْبر أنه في آخر الزمان «يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَيْن من الحبشةِ»(١). تصغير ساق!

وأصحاب الفيل هم من الحبشة، فربما يكون عندهم في بعض كتبهم أنهم هم الذين يُخَرِّبون الكعبة، وهذا قد يكون موجودًا في الكتب السابقة، فلعلهم تلقَّوا في كتبهم التي يتوارثونها أن الحبشة يُخَرِّبون الكعبة، فكل واحد منهم يستعجل أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

له هذا الذي يعتبره شرفًا، ويريد أن يتم هذا على يده، والله تعالى أعلم، وهذا كثيرًا ما يقع، كما تجده في هذه الأمة في الروايات والآثار الواردة في ظهور الـمَهْدي الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلئت جورًا وظلمًا، فمنذ عهد بني أمية وكثير من الناس يدعون هذا، فقد يستعجل الواحد أن يكون صاحبها، فقد يكون مجيء أصحاب الفيل إلى مكة بدافع أنهم يجدون في كتبهم مثلما نجد نحن في كتبنا أن الذي يهدم الكعبة هو ذو السُّوَيْقَتَيْن، فاستعجلوا ذلك وعاقبهم الله تعالى، وإنما يكون هدمها في آخر الزمان، وقد قال النبي ﷺ: «**كأني به أسود أَفْحَجَ، يقلعها حجرًا حجرًا**»[1].

والسؤال: لماذا أنزل الله تعالى ما أنزل على أصحاب الفيل، ولم يعاقب الـحَجَّاج ومَن معه، ولم يعاقب ذا السُّوَيْقَتَيْن؟

والجواب - والله أعلم -: أن العقوبات كانت تأخذ الأمم قبل البعثة المحمدية، كما حكى الله عن أمم الأنبياء فهكذا قصة أصحاب الفيل، وأن قصة أصحاب الفيل وما نزل بهم كان من نوع الإرهاص بميلاد النبي ﷺ وبعثته، فهي حال خاصة تلفت أحياء العرب إلى هذا البيت وما سيكون حوله من بعثة محمد ﷺ.

وأما بعد ذلك فقد تحمَّلت الأمة مسؤولية الجهاد والدفاع والمدافعة عن البيت، ولا يلزم أن مَن قصده بسوء يُنتظر به ما نزل بأصحاب الفيل؛ فالحَجَّاج أصاب الكعبة بالمنجنيق، والقرامطة قصدوا الكعبة بالعدوان وانتزعوا أعظم أحجارها؛ الحجر الأسود، ولم يصح حصول أمر استثنائي أو عقوبة سماوية بهم؛ ليتحمل المسلمون مسؤوليتهم ويجري الله عقوبته على مَن ظلم بأيديهم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

أما ما يتعلق بذي السُّوَيْقَتَيْن فإن الأمر مختلف؛ لأن الكعبة إنما تكون عظمتها

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بمَن يطوف بها ويصلِّي إليها، والله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، فلما لم يبق في الأرض مَن يحج، ولا مَن يعتمر، ولا مَن يصلِّي إلى البيت الحرام، فقد تعطلت منافعها، فيأذن الله تبارك وتعالى بهدمها آخر الزمان حينما لا يبقى في الأرض مسلم يقول: «الله الله»، كما أخبر النبي ﷺ[1]، وقال أيضًا: «**وليُسْرَى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية**»[2]. وذلك حينما يندرس الإسلام، وينتهي أمره قبيل قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٤/ ٤٧٣، ٥٤٥) من حديث حذيفة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٨٧).

سُورَةُ قُرَيْشٍ

سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش:١-٤].

* تسمية السورة:

هذه السورة اسمان:

١- «سورة قريش» وهو ما ورد في المصاحف كلها، وغالب كتب التفسير[(١)].

٢- «سورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾» وقد جاءت هذه التسمية في رواية عَمرو بن ميمون الأَوْدي، لما ذكر صلاة عمر ﵁ المغرب، وقراءته بهاتين السورتين، وذكره الإمام البخاري في «صحيحه»[(٢)].

* عدد آياتها: أربع آيات عند الجمهور، وعدَّها أهل المدينة خمس آيات[(٣)].

* وهي مكية بإجماع أهل العلم، كما قال ابن عطية[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٥٥)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٩٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٥٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

ورُوي عن الضحاك والكلبي أنهما قالا: هي مدنية[1]، وهو قول ضعيف، فالسورة ذات علاقة وثيقة- على الأرجح- بسورة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١].

وهي سورة مستقلة عن سورة الفيل، وجاءت في مصحف أُبي بن كعب بجوارها غير مفصول بينهما بالبسملة، ولعل أبيًّا كان يرى أن السورتين سورة واحدة، والله أعلم[2].

وهذا ليس نصًّا، فقد يكون الأمر فيها كالأمر في «سورة الأنفال» و«سورة براءة»، حيث لم يفصل بينهما بالبسملة، ومع ذلك فهما سورتان، وبعض المفسرين يحكي الإجماع على أنهما سورتان لا سورة واحدة[3].

والسورة على قصرها حوت فوائد وحِكَمًا عظيمة، وما أكثر الذين يقرؤونها ولا يدركون حِكَمها وفوائدها، أو لا يفهمون معناها.

* ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١]:

«الإيلاف» مأخوذ من الإِلْف والأُلفة والتأليف، وهو أن يلزم الإنسان الشيء، ويعكف عليه، ويعتاده، حتى يصبح مألوفًا معروفًا، فالمعنى: لإلف قريش، أي: لكي يألفوا ويعتادوا ويسهل عليهم أمر السفر.

وفي اللام في أول السورة ثلاثة احتمالات:

الأول: أن تكون متعلقة بما قبلها، في «سورة الفيل»، وعليه فالمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يمتن بإهلاك أصحاب الفيل، وجعلهم كعصف مأكول، وحماية هذا

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٣٠/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٢) ينظر ما تقدم في سورة الفيل.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٠).

البيت؛ وذلك من أجل «إيلاف قريش».

وذلك أن الله أهلك أصحاب الفيل؛ من أجل بقاء قريش ومصالحهم، وفي ذلك كثير من الحِكَم والأسرار التي منها: بعثة النبي ﷺ فيهم.

ومنها: بقاء أثرهم؛ فقريش هم سَدَنة البيت، وحماته، واستمرت مكانتهم في الإسلام، حتى قال النبي ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش**»[١]. يعني: أمر الخلافة والحكم والسلطان، وظلت قريش في عهد الخلفاء الراشدين، وبني أُمَيَّة، وبني العباس، محط أنظار المسلمين، وكانت فيهم السيادة والسلطان العام للأمة كلها.

كما أن لهذه القبيلة شأن عظيم في تاريخ الإسلام، فهي القبيلة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن الكريم.

والقول بترابط هاتين السورتين، وأن اللام فيها مرتبطة بما قبلها، قول ابن إسحاق في «السيرة»، وجماعة من أهل اللغة، كالفرَّاء والزجَّاج وأبي عُبيدة، وقال الإمام القرطبي: «هو معنى قول مجاهد». وحسبك بمجاهد في التفسير؛ لأنه أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا القول رواية عن سَعِيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

قال الزمخشري وغيره[٣]: وعلى هذا يكون هذا مثل التضمين في العروض في الشعر، وهو من عيوب الشعر عند المتقدِّمين، وهو أن يكون معنى بيت مرتبطًا بالبيت الذي قبله، أو الذي بعده، وليس كل عيب في الشعر يكون عيبًا في غيره، وكلام الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٣١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥٤٧)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٥).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥٤٧)، و«الدر المصون» (١١/ ١١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٥).

تعالى منزَّه عن العيب، على أنه ليس في هذا تضمين؛ لأن ما في سورة قريش هو اعتماد على معنى مفهوم في أذهان السامعين؛ ولذلك استنكر ابن جرير وجماعة[1] أن تكون اللام متصلة بقصة الفيل، ولا يصح عندهم أن يكون المعنى: أهلكنا أصحاب الفيل من أجل إيلاف قريش.

وذكر البيت موجود في السورة نفسها: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾[قريش:٣]. فحفظ الله تعالى الكعبة لإيلاف قريش، والمعنى تام وغير مرتبط بسورة الفيل، كما أن معنى سورة الفيل تام.

و«قريش» اسم جد هذه القبيلة، وقد يكون اسمًا للقبيلة؛ لأنهم تجمعوا، وجدُّهم عند جمهور أهل النسب: فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة، وبالإجماع فإن قريشًا هم بنو النضر بن كِنانة، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**نحن بنو النَّضر بن كِنانة، لا نقفو أمنا، ولا ننتفي من أبينا**»[2].

و«قريش» تصغير: قرش، وهو سمك ضخم مخيف، يأكل السمك، ويهاجم السفن، قيل: إن قريشًا سُمِّيت بذلك لضخامتها ومكانتها ومنزلتها؛ ولأن القبائل كلها تذوب فيها، كما قال النبي ﷺ في المدينة: «**أُمرت بقريةٍ تأكل القُرَى**»[3]. وليس المقصود حقيقة الأكل، وإنما المعنى: أنها تغلبها وتنتصر عليها، فسُمِّيت بهذا الاسم لهيمنتها وقوتها.

وقيل: من القِرْش وهو المال؛ لأنهم أهل تجارة.

وقيل: إن قريشًا مأخوذة من الاجتماع؛ لأنهم تفرقوا ثم اجتمعوا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٠).

(٢) أخرجه الطيالسي (١١٤٥)، وأحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث ابن قيس ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقد كانت مكة أرضًا جرداء، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فلما كان البيت بأرضهم؛ عظَّمهم العرب، ولما وقعت حادثة الفيل، ورد الله كيدهم، زاد قَدْر قريش، وارتفع شأنهم عند العرب، فكان الكل يتسابق إلى رضاهم وحمايتهم، وكانوا يسمونهم: جيران بيت الله، وأحيانًا يسمونهم: أهل الله.

ولو هدم البيت أو صار كغيره من البيوت بلا قدسية ولا مكانة؛ لزالت هذه المنزلة الرفيعة لقريش عند العرب، ولصاروا مثل قبائل العرب الأخرى؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش:٣]. مع أن البيت لم يرد له ذكر في السورة قبل هذا، حتى يشير إليه، ولكنه معلوم مفهوم، وربما كان ذلك لحضوره في الأذهان، بسبب قصة الفيل.

هذا هو الاحتمال الأول، وهو: أن يكون معنى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ أن الله سبحانه وتعالى حمى البيت، وأهلك مَن أراد به سوءًا، من أجل إيلاف قريش، وأن يألفوا رحلة الشتاء والصيف، وأن يتصرَّفوا في المعاش، وأن تكون لهم تلك المنزلة التي ستبقى في خدمة الدين والدعوة والرسالة.

وثَمَّ احتمال آخر، وهو أن يكون المعنى متعلِّقًا بآخر السورة في قوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش:٣]، أي: اعبدوا -يا قريش- رب هذا البيت، الذي أنعم عليكم برحلة الشتاء والصيف، وغيرها من النعم، التي كان بها عزكم ومجدكم.

وإنما خص تعالى هذه النعمة بالذكر، وهي رحلة الشتاء والصيف، لأنها سر تفوقهم، والبيت من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو من الأماكن المعظَّمة عند الله تعالى، فكأنه يعاتب قريشًا ويقول: كيف يتحول بيت الله إلى معبد للأصنام؟! وقد كان فيه ثلاثمائة وستون صنمًا تُعْبَد من دون الله عز وجل، فيكون في السورة تقديم وتأخير، يعني: اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع،

وآمنكم من خوف، وآلفكم برحلة الشتاء والصيف. وذكر هنا فضيلة الشرف بوراثة النبوة والبيت، وفضيلة المجد والسعي في الكسب والتجارة.

وفي السورة وجه ثالث، لا يكون له تعلق لا بآخر السورة، ولا بسورة الفيل، وإنما يكون ذلك على سبيل التعجب، فيكون في الآية محذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ومع ذلك فهم يلجُّون في شركهم ومعصيتهم، ولا يشكرون نعمة الله تعالى. وهذا المعنى أقرب من الذي قبله.

* ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[قريش:٢]:

ولاحظ أن «إيلاف» هنا مجرورة؛ وذلك لأنها عطف بيان على إيلاف الأولى، فإيلاف الثانية هي إيلاف الأولى، لكنه قال: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾. وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾. فالأسباب الأولى هي الأسباب الثانية، لكن استأنف بها آية أخرى فقال: ﴿ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[غافر:٣٦-٣٧].

و«الرحلة» هي: الارتحال والمسير، ومنه نسمي الدابة: «راحلة»؛ لأن الإنسان يرتحلها؛ أي: يركبها إذا سافر، وقد كانت رحلة الشتاء إلى اليمن، وقد اختاروا اليمن في الشتاء؛ لأن الجو فيها أدفأ، ورحلة الصيف كانت إلى الشام؛ لأن الجو في الشام أبرد، امتنَّ الله تعالى عليهم بذلك، وهذا من إضافة الفعل إلى زمانه.

وإذا أضيف الفعل إلى زمانه، فهل يلزم أن يستغرق الزمان كله؟

هل كل الشتاء وهم في اليمن؟ وكل الصيف وهم في الشام؟! كلا، فالرحلة هذه قد تستغرق بعض الوقت، فعندما نقول: صلاة الظهر؛ فإنها لا تأخذ إلا بعض الوقت.

والشتاء والصيف اسمان لفصلين من فصول السنة الشمسية، والشتاء يقدر فيها

بحوالى (٨٩) يومًا، والصيف يقدر فيها بـ(٩٣) يومًا، والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها الآخر، والآية تصلح لهذا وهذا.

والآية فيها إشارة إلى معان كثيرة، منها:

١- أن الدعوة التي أذن الله أن تنطلق من جزيرة العرب ومن مكة، تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولهذا كانت الرحلة إلى اليمن وإلى الشام من إقامة العلاقة والتواصل والتعارف مع الناس، والاكتساب منهم؛ لأنه بالاتصال يقع التعارف، وتقع الاستفادة.

والدعوة تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولذلك مهَّد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بهذا الاتصال، الذي تمثل في رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

ولا يصح في الدعوة أن يعيش المسلمون في عزلة عن الناس، فهذا رسول الله ﷺ كان يراسل الملوك، فأرسل إلى كِسْرى وإلى الـمُقَوقس وإلى النَّجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، ثم كان يستقبل الوفود، فاستقبل نصارى نَجْران، واستقبل قبائل العرب من الجزيرة، وخاطبهم ودعاهم إلى الله، وهذا التواصل يحتاج إلى فهم الطرف الآخر، سواءً كان فردًا أو جماعة أو شعبًا أو قبيلة، فتفهم لغته وثقافته وتاريخه.

٢- أن المصالح الدنيوية التي بها قِوام حياة الناس -مثل الاقتصاد- تحتاج إلى الاتصال، فهي مصالح متشابكة متبادلة، وهذا يخفى -مع ظهوره- على كثير من الناس، الذين يرون أن مجرد استفادة العدو من الشيء الذي نستفيد نحن منه يحتم علينا تركه وحرمان أنفسنا منه.

وهذا من الغلط البيِّن؛ فالنبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي[1]، وهذا

---

(١) كما في «مسند أحمد» (٢٧٢٤)، و«صحيح البخاري» (٢٥٠٩) من حديث ابن عباس وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُم.

اليهودي كان يستفيد من البيع، والنبي ﷺ استفاد من الشراء، ولكن النبي ﷺ راعى مصلحته، فمن الفقه أن ندرك هذه المصلحة المشتركة بين بني الإنسان، وأن على المرء أن يتحرَّى مصلحته ولو وافقت مصالح خصومه أو مخالفيه، ولا يعد هذا من باب التعاون على الإثم والعدوان أو الإعانة على الشر كما يظنه مَن لا فقه له.

فإذا كان للمسلمين عامة أو لطائفة منهم مصلحة في شيء، وهذه المصلحة قد يستفيد منها الكفار، فلا ينبغي أن نحرم أنفسنا من هذه المصلحة من أجل حرمان الآخرين، فمن الخطأ الكبير أن يكون تقديرنا للمصالح والمفاسد مبنيًّا على مراعاة حرمان الآخرين من هذه المصلحة، وإذا كانت هذه المفسدة سوف تضر الآخرين لكنها تضرك أنت أيضًا، فهل من الحكمة أن تفعلها؟ كلا، فالمصالح الدنيوية والدينية متشابكة، ولا يوجد في الدنيا مصالح محضة أو مفاسد محضة، وإنما المصلحة الغالبة في طيها بعض المفسدة، والمفسدة الغالبة معها بعض المصلحة، فالقضية لها حسابات لا يمكن إدراكها إلا بالنظر السديد والعقل الراجح، ولهذا يحسن الاعتناء بدراسة مقاصد الشريعة.

٣- أن الله تعالى يحفظ الفرد والجماعة والدولة والأمة في الأخلاق العامة التي يحتاج الناس إليها، يعني: إذا رأيت العدل يضرب بجِرَانِه في بلد أو دولة أو أمة، ورأيت المسامحة، والمحافظة على حقوق الناس، فاعلم أن هذه الصفات جديرة بأن تمنح أهلها التقدم والتمكين، ولو كانوا كفارًا.

وإذا رأيتَ الظلم والبغي والعدوان ومصادرة الحقوق؛ ينتشر في أمة أو دولة، أو بلد، أو مجتمع؛ فاعلم أنه جدير بأن يحل به عقاب الله تعالى ولو كان مسلمًا، كما قال ابن تيمية رحمه الله: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[(١)].

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٤٦).

والنبي ﷺ يقول: «تقوم الساعةُ والرومُ أكثرُ الناس»[1]. وكثرتهم تعني القوة، والشجاعة، والتسلط، والكثرة ليست محصورة في الكثرة العددية.

ولماذا هذه الكثرة فيهم؟

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه، كما في الحديث المتقدِّم: «إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلمُ الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كرةً بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ وجميلةٌ: وأمنعهم من ظلم الملوك».

فهذه الأخلاق عامة متعلقة بحقوق الناس، وإقامة العدل وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

وإن الله سبحانه وتعالى ذكَّر قريشًا حفظَ مكانتهم؛ لما جُبِلوا عليه من مكارم الأخلاق، وقد ذكر عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن قريشًا كانوا إذا أصابتهم مجاعة أو مَـخْمَصة أو مَسْغبة، أدخل الرجلُ أولاده في بيت أو خباء، فمكثوا فيه جائعين حتى يموتوا، وربما هذا عند شدة الـمَخْمَصة، وفيه شيء من الكرامة والأَنَفَة، فقال لهم هاشم بن عبد مناف: يا معشر قريش، إنكم أحدثتم حدثًا، حيث تتركون أنفسكم وأولادكم في بيت حتى تموتوا من الجوع، وبهذا تقلون أنتم، وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله تعالى، والناس لكم في ذلك تَبَعٌ. ثم أجمع أمرهم على أن ينشئوا هاتين الرحلتين إلى اليمن وإلى الشام وما ربحوه في هذه الرحلات يقتسمونه بينهم، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم[2]، ولذلك قال مطرود الخزاعي، وهو يمدحهم:

يا أيُّها الرجلُ المحوِّلُ رحلَه ... هلَّا مررْتَ بآلِ عبدِ منـافِ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨) من حديث المستورد بن شدَّاد رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٥).

الآخذونَ العهدَ من آفاقِها　　والراحلونَ لرحلةِ الإيلافِ

والخالطون غنيَّهم بفقيرِهم　　حتى يكونَ فقيرُهم كالكافي[1]

فكان الفقير مثل الغني سواءً بسواء فيما يكسبونه، فلما كانت عندهم هذه الخصلة في بذل المال والإنصاف، وعدم تفضيل الغني على الفقير؛ جعل الله تعالى لهم هذه المنزلة.

فمعنى الآية: تذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم، وهي نعمة لم تكن لغيرهم ببركة لزومهم للبيت الحرام وحمايته، وعمارة المسجد الحرام، فكانت القبائل كلها تحترم قريشًا، وحتى القبائل التي لم تكن تعظم الأشهر الحرم، كقُضاعة، وخَثْعم، وطَيٍّ، فهؤلاء كانوا لا يعترفون بالأشهر الحرم، ومع هذا كانوا يعظِّمون قريشًا.

ومن هنا صارت مكة مركزًا تجاريًّا تُجلب إليه البضائع من كل مكان، وكانت الحبشة ترسل البضائع عبر البحر إلى جدة، وهكذا الشام واليمن، وقامت حول مكة الأسواق المعروفة، مثل عُكاظ ومَـجَنَّة وذي الـمَجَاز، وانتشرت الحركة الاقتصادية، وصار العرب يقدمون مكة من أجل الحصول على مكاسبهم وعلى أرزاقهم، وتبعًا لذلك تحسَّنت لغة قريش وتهذَّبت، وصار عندهم شيء من الإبداع في العلم والأدب والشعر، والعلاقات الاجتماعية، وكل هذا فيه تمهيد لانبثاق رسالة الإسلام وانطلاقها من هذا البلد الحرام.

ولهذا امتن الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت:٦٧]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ١٧٨)، و«المنمق في أخبار قريش» (ص٤٦)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٦٠)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٢٥٢)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٤١)، و«معجم الشعراء» (ص٣٧٥).
وتنسب أيضًا لابن الزِّبعرَى، كما في «الحماسة البصرية» (١/ ٦٥).

ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٖ ﴾ [القصص:٥٧].

وهذا الإيلاف الذي ذكره الله تعالى لقريش في بقائهم بمكة، هو نقيض ما حكاه الله تعالى عن اليهود، ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف:١٦٨].

* ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ [قريش:٣]:

والله سبحانه وتعالى لم يأمرهم أن يتركوا الرحلة إلى اليمن والشام ليفرغوا للعبادة، فلهم أن يألفوا هذه الرحلة ويستمروا عليها، ليعبدوا ربهم تبارك وتعالى، والعبادة لفظ عام لكل ما يحب الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن العبادة: أن يوظِّفوا ما رزقهم الله تعالى في مصلحة عباده، والعبادة هنا شكر لما أنعم الله به عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾، كما في قوله سبحانه: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ ﴾ [سبأ:١٣].

وكلمة ﴿ رَبَّ ﴾ تشعر بالرعاية والحفظ، وما قصة أصحاب الفيل عنا ببعيد، ومقتضى هذا الأمر أن يجتنبوا عبادة الأوثان، وذكَّرهم أن لهذا البيت الذي يعتزون به ربًّا يحميه، فهو المستحق وحده للعبادة وهنا قال: ﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ فأضاف ذاته العلية واسمه الشريف إلى البيت؛ إشارة إلى أن هذا بيت الله سبحانه وتعالى، وشرفه بهذا، وليس بشيء آخر، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ [البقرة:١٢٥]. نسب البيت إلى ذاته العلية فصار بيت الله عز وجل، والمقام هنا مقام امتنان بالنعم فيناسبه ذكر صفة الربوبية دون غيرها.

وقوله: ﴿ هَٰذَا ﴾: إشارة إلى البيت، والعادة أن الإشارة تكون لشيء حاضر، كما تقول: هذا الكتاب، وهذا القلم، فالإشارة كانت لأمر موجود عند السامعين، يشار إليه، كما أشار عمر رضي الله عنه في صلاته، حيث صلَّى عند البيت، فقرأ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ فجعل يومئ إلى البيت، ويقول: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن

جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1].

فهذه الإشارة فيها معنى عظيم، وهو أن الله سبحانه وتعالى يقرر أن هذا البيت باقٍ مرفوع شامخ أبيٌّ، يتعالى على كل محاولات الهدم والتخريب، ولذلك يُشار إليه؛ لأنه موجود، وهذا قبل أن تنقل شاشات التلفاز والقنوات الفضائية الصور الحية من البيت الحرام، فهو اليوم يُشاهد من كل مكان في الأرض.

وإنك تتعجب ألَّا تجد اليوم حول هذا البيت الحركة والنشاط العلمي والنشاط الإيماني الذي يتناسب مع مكانته، بينما أمم الأرض كلها اليوم تفتخر بمعالم ورسوم مختلفة، ويفتخرون بأبنية حديثة من المعابد والكنائس، والمسلمون في أمصار الإسلام قد يفخرون برمز من رموز العلم فيها، فالرمز العلمي والإيماني في مصر هو «الأزهر»، وفي تونس«الزيتونة»، وفي المغرب «القرويين»، وهذا البيت عريق، والله تعالى فضَّله يوم خلق السماوات والأرض، وجعل الأنبياء يحُجُّون إليه ويطوفون به، وجعل له هذه القدسية وهذا البقاء وهذا الخلود، وهذا يستوجب أن يكون حول البيت العمل الكثير، والحركة العلمية النشيطة، والتأثير الكبير بما يتناسب مع جلالة هذا البيت ومكانته ومنزلته.

* ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٤]:

قال: ﴿أَطْعَمَهُم ﴾، وثمة فرق بين «أطعمهم» و«أشبعهم»؛ فالإطعام نعمة كبيرة لا يستغني عنها أحد، بخلاف الشبع، فليس محمودًا بكل حال.

وحسبُك من غنًى شِبَعٌ ورِيٌّ

فالشبع قد يفضي إلى التخمة، وربما أضر ببدن الإنسان، والإنسان يُذَمُّ إذا كان منهمكًا في ألوان الملذات من المآكل والمشارب وغيرها؛ ولذلك عبَّر بالإطعام، لأنه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٤٩١).

هو القدر الذي يحتاج إليه.

ويحتمل أن يكون معناها: أطعمهم من جوع ألـمَّ بهم بعض الوقت، ومن ذلك أنهم كانوا إذا جاعوا جلسوا في خباء حتى يموتوا.

ومن ذلك أن النبي ﷺ لما استعصت عليه قريش قال: «**اللهمَّ أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»[1]. فجاعوا حتى أكلوا الجلود، وورق الشجر، وحتى كان الواحد منهم ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، حتى قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان:١٢]، فالله تعالى يذكِّرهم أنه هو الذي أطعمهم من جوع.

و﴿مِّن﴾ هنا على سبيل البدلية، يعني: أبدلهم من الجوع إطعامًا.

ويحتمل أن يكون المعنى: أطعمهم من جوعٍ كان يقتضيه المقام، باعتبار طبيعة مكة، فهي بلد غير ذي زرع، ولكن الله مَنَّ عليهم بأن جلب لهم الأرزاق من كل مكان فصار يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾: يحتمل آمنهم من خوف ألـمَّ بهم كانوا عليه، وأقرب مثال مذكور قصة أصحاب الفيل، فأهل مكة خافوا منهم، وخرجوا إلى شَعَف الجبال.

ويحتمل أن يكون المعنى: آمنهم من خوفٍ كانوا خليقين به؛ لأنه لم يكن عندهم مَنَعَةٌ ولا سلاح؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، فالقبائل العربية كانت تتناحر فيما بينها، ويحارب بعضها بعضًا، وهذا البلد آمن، وهذه هي دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]، فاستجاب الله دعاءه وجعل البلد آمنًا، قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة:١٢٦]، فرزقهم الله تعالى من الثمرات.

وهنا لفتات لطيفة في الآية الكريمة:

١- الإشارة إلى أهمية الأمن والطعام في حياة الفرد والجماعة، وهذه من الحاجات الفطرية الضرورية التي ركَّب الله تعالى الإنسان على الاحتياج إليها، فالإنسان إذا جاع لن يفكِّر بشكل صحيح، ولن يعبد ربه كما ينبغي، ولن يتعلم، ولن يعمل، فالجوع يجعل الإنسان منقطعًا عن الخير الديني والدنيوي، بل ربما جرَّأ الإنسانَ على أن يكذب ويسرق، كما قال النبي ﷺ: «**إن الرجل إذا غرم** -يعني: صار عليه دين- **حدَّث فكذب، ووعد فأخلف**»(١).

وقد جعل الجوع والخوف عقوبةً للأمم المذنبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]. فالجوع والخوف قد يحيط بالإنسان مثل اللباس، ويحول بينه وبين مصالح الدنيا والآخرة.

والاستقرار الذي يفضي إلى الحصول على الحاجات الضرورية، هو أصل لنمو الدعوة، وتحقق المصالح للإسلام والمسلمين، وبالعكس من ذلك، فإن الحروب الأهلية مثلًا، والقلق وزوال الأمن واشتداد الجوع؛ من العوائق والعوارض التي تحول بين الناس وبين مصالح الدنيا والآخرة، ففي البلد الذي يشيع فيه الخوف أو الفقر لا تطمع أن يكون أهله على مستوى مقنع من العلم والعمل والأخلاق والتفكير، وكثير من بلاد الإسلام مبتلاة بأحد الأمرين، إما أن يكون فيها الجوع، فتجد مئات الملايين فقراء، مع أنها قد تكون بلادًا نفطية، كنيجيريا وغيرها؛ وفقرها

(١) أخرجه البخاري» (٢٣٩٧)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بسبب سوء التنظيم، وسوء توزيع المال والثروة، وإما أن تُصاب بالخوف، فتقع فيها الحروب الأهلية، ومن المحزن أن ثمانية وعشرين من بين ثلاثين نزاعًا عالميًا موجودة في البلاد الإسلامية، ولا نقول: إن هذا بسبب كيد أعدائنا فحسب؛ فنحن غير سالمين من التَّبِعَات، وليس كل ما ينزل بنا بسبب عدونا وحده، وعدونا سيصنع ولكن كما قال الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١]، ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، فلو كنا على قدرٍ من الاستقامة لما استطاع الأعداء أن يوجدوا بيننا هذه الحروب والصراعات.

٢- أن الآية ليست خاصة بقريش، كما أنها ليست خاصة بها قبل النبوة، أو وقت النبوة، فها نحن اليوم بعد (١٤٠٠) سنة، نقرأ السورة ونجد فيها أن الله سينعم على البلد الحرام وما حوله بالأمن، وبالطعام، ثم تأتي الدعوة للعبادة، بأن توظَّف هذه النعم لطاعة رب هذا البيت، وطاعة نبيه ﷺ، ونشر دينه، والإحسان إلى عباده: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[القصص:١٧]. وكل مخاطب يرى البيت المشار إليه عيانًا أو عبر الشاشات المباشرة.

فعلى الأمة أن تحقِّق التواصل مع الأمم الأخرى وتألفهم، لا من أجل أن تذوب في الأمم الأخرى، ولكن من أجل أن تقدم لها الصورة الصحيحة للإسلام، وتبحث عن مصالحها الدينية والدنيوية في كل مكان.

○ ○ ○

سُورَةُ المَاعُونِ

سورة الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:١-٧].

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء عديدة، والمشهور في غالب كتب التفسير والمصاحف:

١ - «سورة الماعون»[1]؛ وذلك لذكر الماعون في آخرها.

٢- «سورة: ﴿أَرَءَيْتَ ﴾». ورد ذلك في «صحيح البخاري»، وبعض كتب التفسير[2]، باعتبار أول لفظ فيها.

٣- «سورة الدِّين»[3]؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾.

٤ - «سورة اليتيم»[4]؛ لذكره فيها.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٥)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٣) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥١١)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٢٧٥)، و«الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٤) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٦١١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤٠١)، و«نيل المرام من تفسير آيات الأحكام» (ص ٤٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

٥- وبعضهم سمَّاها: «سورة التكذيب»[(١)]؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَذِّبُ﴾.

وذكر الطاهر ابن عاشور عن البقاعي في كتابه: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» أنها تسمى:

* عدد آياتها: ست، باعتبار أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾، ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ آية واحدة، وبعضهم يفصلها فيجعلها آيتين، فتصبح سبعًا، كما هو في المصاحف اليوم[(٢)].

* وهي مكية على قول جمهور المفسرين. وقال ابن عطية: «مكية بلا خلاف علمته»[(٣)].

وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول قتادة[(٤)].

وقيل: نزل بمكة الآيات الثلاث الأول، والباقي نزل بالمدينة، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره بعض المصنِّفين في التفسير[(٥)].

---

(١) ينظر: «نظم الدرر» (٢٢/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٩)، و«البيان في عدد آي القرآن» (ص٢٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٤) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

* وفي سبب النـزول: قال بعضهم: إنها نزلت في أبي سفيان، وكان كريمًا ينحر في كل أسبوع ناقة، ويوزِّعها على الناس، فجاءه يتيم يطلب منه لحمًا أو غيره فقرعه بعصا(١).

وقيل: نزلت في العاص بن وائل، أو في الوليد بن المغيرة، أو في أبي جهل، ولأبي جهل قصة ذكرها ابن هشام وغيره من أهل السير، وهي قصته مع الأَرَاشي حيث أخذ ماله ورفض أن يعطيه حقه، فقيل له: استشفع إلى أبي جهل بمحمد ﷺ، وهو لا يدري ما بينه وبينه، فأخذ الأمر على التصديق، فذهب إلى النبي ﷺ، فجاء النبي ﷺ إلى أبي جهل واستخرج للرجل حقه، فقالوا لأبي جهل في ذلك، فقال: والله، لقد رأيت شيئًا وهولًا بيني وبينه، فأصابه رعب وأعطى الرجل حقه!.

وقيل: إن السورة عامة، وإنها لم تنزل في شأن أحد بعينه، وإنما نزلت فيمن كان هذا حاله(٢).

* ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون:١]:

هذا استفهام على سبيل التعجُّب، فهو تعالى يريد إثارة العجب والدهشة من إنسان يتصف بصفات معينة، ويُسمَّى: الاستفهام التعجبي، أي: اعجب من هذا الإنسان! فهو حديث عن فئة من الناس تعيش بين أظهرنا، ونخالطها، ويراد منا أن نلتفت ونتفطن لبعض مواطن العجب والاستغراب في حياتها وشخوصها!

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٥٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (٤/ ١٧٦)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣-٢٣٥)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ١٩٦-١٩٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٩٣-١٩٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦)، و«مع المصطفى ﷺ» للمؤلِّف (ص ٢٨٥-٢٨٧).

وهذه الرؤية قد تكون رؤية بصرية؛ لأنهم أناس نشاهدهم ونراهم، وربما كانت علمية؛ وهي في الحالين تتعلق بأمر محسوس مشاهد.

وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأقرب أنه خطاب عام لكل مَن يصلح له الخطاب.

ويحتمل أن يكون المقصود بـ «الدين» هو الإسلام، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

ويحتمل أن يكون المقصود بـ «الدِّين»: الجزاء والحساب، وهذا كثير الورود في القرآن، كما في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، فالغالب أن كلمة «الدين» في القرآن يقصد بها الدينونة، ويقال: كما تَدِين تُدان. أي: كما تفعل تُجازى.

وفي هذا إشارة إلى أثر الوازع الإيماني في القلوب، وأن الإيمان بالدار الآخرة من أعظم الأركان؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى عن رسله وعن أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٦-٤٧]، فثَمَّ فرق جوهري بين إنسان يعيش في هذه الدنيا وهو مستيقن بالجزاء على الأعمال يوم القيامة، وآخر يرى ألَّا بعث ولا نشور ولا جزاء ولا حساب؛ ولذا فحساباته تنتهي عند آخر لحظة في الدنيا.

والإيمان بالبعث والنشور والحساب يحمل الإنسان على مراعاة حقوق الخلق، ولذا قرن هنا التكذيب بدعِّ اليتيم وترك الحض على طعام المسكين.

فأعظم ضمانة لحفظ حقوق الناس وعدم ظلمهم والإحسان إليهم هي الإيمان بالدار الآخرة؛ فالمسلم يتعب في جمع المال ثم يُخرج منه حقه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥]؛ لأنه يرجو الثواب في الآخرة، ولو لم يجد أثره وثمرته في الدنيا.

والتكذيب في القلب، والسورة تكشف عن العلامات الظاهرة في الأحوال والأخلاق والمعاملات التي تطبع أولئك المكذِّبين.

وقال بعض المفسرين: إن الفاء في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، واقعة في جواب شرط محذوف، وكأن التقدير: إن كنت تريد أن تعرفه، فهو: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الماعون: ٢-٣]، فتركيز السورة ليس على التكذيب بيوم الدين، مع أنه أعظم الفجور والكفر؛ بل على ذكر أخلاق اجتماعية فاسدة منحرفة، وتعليلها بأنها لا تصدر إلا من أقوام خلت قلوبهم من الإيمان.

وهل كان أولئك الطغاة المتجاهلون للحقوق الإنسانية مكذِّبين أم كانوا جاحدين؟

يحتمل أن المعنى يكذِّب بالدين بلسانه، ولا يقيم له وزنًا في حياته، كشأن غالب البشر اليوم الذين لم يحدِّدوا موقفهم بجلاء، ولكنهم يجرون على ألسنتهم كلمات التكذيب أو الشك أو اللامبالاة.

ويحتمل أن الكفار أنواع، والله تعالى وصف كل نوع منهم بصفته، وهذا الاحتمال أقوى، فمن الكفار مَن يكذِّب فعلًا، بمعنى أنه لا يؤمن بيوم الدين، ويكذِّب به ظاهرًا وباطنًا.

ومنهم مَن يقر بقلبه ويجحد بلسانه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣]، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

ومنهم مَن يقع عنده نوع شك وتردُّد.

ومنهم الغافل، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٧]، فيكون غافلًا عن قضية الدين أصلًا، بانشغاله بهموم وظيفته وتأمين مستقبله.

* ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ [الماعون:٢]:

﴿يَدُعُّ ﴾فعل مضارع يدل على الاستمرار، حتى صار طبعًا يُعرف به هذا الفاعل.

والمعنى يدفعه دفعًا عنيفًا، كقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور:١٣]، يعني: يُدفعون إليها بقوة وشدة، والمعنى: يدفع اليتيم بالضرب ولا يرفق به ولا يراعي إحساسه ويتمه، أو يدفعه عن حقه إذا جاء يطالب به؛ لأنه يراه ضعيفًا لا أحد يحامي عنه، وهذه غاية الخساسة والأَثَرة.

* ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ [الماعون: ٣]:

و﴿ يَحُضُّ ﴾ فعل مضارع يدل على التكرار كذلك، وهذه الصفة ترك وليست فعلًا.

و«الحضُّ» هو: الحث؛ لكنه بالضاد أقوى، فحرف الضاد أشد من الثاء وأقوى، واختيار الحرف في القرآن الكريم له دلالة وله معنى.

ويشبه سياق الآيتين هنا ما جاء في سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر:١٧-١٨].

ومعنى ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ﴾أي: لا يحُضُّ بعضكم بعضًا، وهنا قال: ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾، وفيها إبداع وإعجاز؛ لأنه لما قال: ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ ، فالكلام ليس عن شخص بعينه، وإنما عن فئة من الناس، فهذا لا يحض هذا، وهذا لا يحض هذا، فمن مجموع الأمرين يتولَّد أنهم لا يتحاضون على طعام المسكين، فهو لا يحض نفسه ولا يحض غيره.

وقد يكون السياق هنا يتعلق بإنسان غير واجد، ليس عنده ما يقدِّمه من مال أو طعام، ولكن قادر على أن يحض غيره على ما عجز هو عنه، كما قال المُتَنَبِّي:

لا خيلَ عندَكَ تُهديها ولا مالُ فليُسعِدُ النطقُ إن لم تُسْعِدِ الحالُ[1]

ويسوِّغ أن يلام الإنسان إذا لم يكن بالذي يطعم، ولا هو بالذي يحض على الإطعام، وهذا تقبيح لحال الذي لا يحض، فما بالك إن كان عنده مال، ولا يحض نفسه على إطعام المحتاج؟

والشريعة والحكمة تستحثُّ المكلَّف القادر أن يبذل ما يستطيع، إن كان ذا مال أخرج من ماله، وإلا كان في جهده وعطائه المعنوي وحثه للناس ومشاركتهم في الأعمال الطوعية الخيرية، ما يجعله باب خير وبر، فربما شارك بعقله وتخطيطه وابتكاره للبرامج والطرائق التي تضبط هذا العمل وتطوِّره.

فوصفهم الله سبحانه وتعالى أولًا بـ «التكذيب» وهو أمر اعتقادي، ثم وصفهم بـ «دَعِّ اليتيم» وهو أمر وجودي فعلي، وهو أنهم يضربون اليتيم ويدفعونه، ثم وصفهم بأمر تركي أو منعي، وهو أنهم «لا يحضُّون على طعام المسكين»، فهذه الصفة ليست موجودة فيهم، وكان يجب أن تكون فيهم.

والإنسان قد يندفع إلى الإحسان للخلق بسبب فطري جِبلِّي يعود إلى طبيعته وسجيته الكريمة، والمؤمن يُثاب على فعل الإحسان حتى لو لم تحضره نية؛ تحفيزًا للناس إلى المبادرة للخير وعدم التردد.

وقد يفعل المعروف احتسابًا يرجو به خير الله تعالى وبره في الدنيا والآخرة، فهو يعرف أن مَن أحسن إلى الناس أحسن اللهُ إليه، فيبادر ببر الوالدين، وصلة الرحم، وطلب ثواب الآخرة ظاهر.

وهل طلب خير الدنيا من سعة الرزق والنَّسأ في الأثر والصحة، مما يعكِّر على حسن النية؟ أو يُعَدُّ من إرادة الإنسان بعمله الدنيا؟

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (٣/ ٢٧٦).

كلا، فالنبي ﷺ قال: «مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه ويُنسأَ له في أَثَرِه، فليَصِلْ رحمه»[1].

من باب حث الناس على أن يصلوا أرحامهم؛ لأنهم يرغبون في طول العمر، وفي سعة الرزق، وهذا ليس بمذموم في حد ذاته، وإنما هو من عاجل البشرى.

وكذلك الحياة الطيبة الموعودة لـمَن عمل الصالحات، والسعادة والسكينة وسائر ما ورد في الكتاب والسنة من عاجل الثواب.

وأفضل الناس حالًا مَن توفَّر عنده الدافع الفطري والشرعي، فهو كالأرض الطيبة التي نزل عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بَهِيج؛ لأن الدافع الفطري يحمله على هذا، فصار من طبعه لا يحتاج فيه إلى تكلُّف، فجاءت الشريعة وزكَّتْ نفسَه وكمَّلتها.

وأسوأ الناس حالًا «المُفْلِس» من الدافعين، فلا فطرة سليمة تدفعه إلى الخير، ولا رغبة في الآخرة!

و«اليتيم» هو صغير السن الذي فقد أباه، وقد يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس[2]، ومن هنا جاء الوعيد على زجره وتعنيفه وقهره، وهو لأجل يتمه يتجرَّأ عليه كثير من الناس ويؤذونه ولا يبالون به؛ لأنه ليس له والد ولا محامٍ يدافع عنه.

أما ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ فهو المحتاج الذي لا يجد ما يكفي نفقته ونفقة مَن يعول، ويدخل فيه الفقير، وقد يكون اليتيم مسكينًا وقد لا يكون كذلك، وكذلك المسكين قد يكون يتيمًا وقد يكون كبيرًا.

وهذه الآيات الثلاث فيها إشارة إلى مراعاة الجانب الاجتماعي في الإسلام، وهو من أعظم مقاصد الشريعة، ومن العلامات الفارقة بين المؤمنين والمكذبين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر» عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾.

إن من الخطأ الكبير الانهماك في جانب من الشريعة أو الدين، والغفلة عن جوانب أخرى، مثل هذا الجانب الذي تعتني به هذه السورة، وهو الجانب الاجتماعي الخيري، وما يسمى بـ «النفع العام»، وذلك عبر أفراد أو مؤسسات وجمعيات وأجهزة، فهذا الخير بسببه تُحفظ المجتمعات، وتُحفظ الشعوب، ويدرأ الله سبحانه وتعالى عنها الفتن والشر والبلاء بما تقدِّمه من النفع والخير والإحسان.

ومن العجب أن المسلمين الذين يردِّدون هذه الآيات في صلواتهم وحلقات درسهم ويلقِّنونها صبيانهم، من أبعد الناس عن تحقيق دلالتها، وليس بالأمر النادر أن نجد مجتمعات نفطية واسعة الثراء، ومدنًا ومباني شاهقات وسيارات فخمة غالية الأثمان، وبالقرب منها أحياء شعبية تدخلها فتجد فيها ألوانًا من الفقر وشَظَف العيش، وتبعًا لذلك تنتشر فيها الجرائم والمخدرات والتجارة بالفواحش وبيوت الدعارة والفساد، وكل ذلك بسبب الفقر الذي كاد أن يكون كُفْرًا، ويُروى عن علي رضي الله عنه: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته».

والعجب أن هذه الآيات نزلت في مكة، وأغلب الناس يومئذ كانوا كفارًا، ولم يكن آمن بالرسول ﷺ إلا قليل، ولم يكونوا يجدون المال، وكأنما نزلت السورة لتهيئ نفوسهم للبذل وترسِّخ الربط بين الإيمان وبين نداوة اليد للفقير والمسكين.

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: **«بينما كلبٌ يُطيفُ برَكيَّة، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به»**[1].

وفي الحديث الآخر: **«بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل:**

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: «في كل كبد رطبة أجرٌ»[1].

بعض الأخيار يقول: أُحسن لهذا الكافر من أجل أن يُسلم. وهذا حسن، وهو من تأليف القلوب، الذي هو أحد مخارج الزكاة.

والمؤلفة قلوبهم أربعة أنواع:

١- الكافر الذي يُرجى إسلامه.

٢- الكافر الذي يُرجى إسلام قبيله أو نظيره أو قريبه.

٣- المسلم الجديد الذي يُرجى بإعطائه الزكاة أن يحسن إسلامه.

٤- الكافر الذي يُرجى أن يدفع شره أو يكون سببًا في دفع شر غيره عن المسلمين.

ولا يدخل في عداد هؤلاء المحارب؛ لإظهاره العداوة للإسلام، ولكن الكرم والجود والبذل لا يحسن أن يكون محصورًا في هذا، بل ينبغي أن يكون طبعًا وجِبلَّة، تفيض حتى على مَن لا ترجو من وراء عطائه نفعًا عاجلًا؛ ولذا شُرع الإحسان إلى البهائم والطيور، وجاء النص النبوي عامًّا في حصول الأجر في كل كبد رَطْبَة.

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧]:

ثَمَّ ترابط بين الآيات من وجوه:

١- لما ذكر في أول السورة تقصير أولئك في حق المخلوقين من الأيتام والمساكين، انتقل إلى تقصيرهم في حق الخالق، وهو أنهم لا يصلون، أو يصلون رياءً، ويمنعون الماعون.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- أن الله تعالى أراد توكيد المعنى، والربط بين الإيمان والإحسان، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمصلون وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، ثم ساق أوصاف المصلِّين، ومنها: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:١٩-٢٥].

فهؤلاء هم المصلُّون حقيقةً، فكأنه قال هنا: إن صلاة هؤلاء لم تنفعهم؛ لأنها صلاة رياء وسُمعة للناس لا لله.

٣- قد تكون الآيات الأخيرة نزلت بشأن أقوام معينين في المدينة على ما ذكرنا، وكأن الآيات الأولى تدل على أن عدم الإيمان بيوم الدين هو سبب إيذاء اليتامى والمساكين وغيرهم، فكأن قائلًا يقول: في المدينة أناس يصلون في المساجد، ولا يطعمون المساكين، ولا يحسنون إليهم، فجاء النص ليقول: «ويل لهم»؛ لأنهم ليسوا مصلِّين؛ فهم: ﴿يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، وكان يجب أن تكون صلاتهم لله، فحرَّفوها وبدَّلوها وجعلوها للناس، كما قال الله في شأن المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

٤- التناسب في الانتقال من المفرد إلى الجمع في خطاب السورة، حيث بدأ بالذي ﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، وانتهى بالذين ﴿هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

والذي يظهر أن سر الانتقال إلى الجمع، أن المراد في بداية السورة جنس المكذِّبين، وليس فردًا بعينه، والإفراد في أول السورة مناسب؛ لأن الآية تتحدَّث عن شخص يفجر ويعتدي ويبخس الناس أشياءهم وهو منفرد، وليس أمام الناس؛ هو الذي يعبِّر عن حقيقة أخلاقه إذا خلا من مراعاة الآخرين.

ثم انتقل إلى طبيعته وأمثاله حين يكونون في الملأ والناس، فيتظاهرون بما ليس من شأنهم!

قال كثير من القراء: لا يقف القارئ عند قوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ مع أنه رأس

آية، ومنهم مَن قال: إن وقف عندها أعادها وقرن معها ما بعدها[1].

* ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]:

السهو: الغفلة والنسيان، وقال هنا: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ﴾، ولم يقل: (في صلاتهم)، وبينهما فرق كبير؛ فالسهو في الصلاة، هو ما يقع فيها من شرود ذهني أو خطأ، ويجبره سجود السهو، أما السهو عن الصلاة، فهو تأخير الصلاة عن وقتها، أو تعمُّد ترك بعض الفرائض أو كلها من أجل شواغل الدنيا، أو لقلة الاهتمام أو لعدم الاعتياد.

وقال قتادة: «لا يبالي أصلَّى أم لم يصلِّ!»[2].

وقال الشيخ محمد عبده: «فأولئك الذين يصلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس، مما لا يكلِّفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضررًا يلحق بأبدانهم، أو نقصًا يلم بجاههم، ثم يمنعون ماعونهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين، وتوفير ما يكفل لهم راحتهم، وأمنهم وطمأنينتهم؛ فهؤلاء لا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم عن حد المكذِّبين بالدين، ولا فرق بين مَن وسموا أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره، فإن حكم الله واحد، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة... إلخ»[3].

وهذا الكلام فيه تحفظ، ففيه شدة وغلظة ومبالغة مفرطة، وقد وجدتُ له نظيرًا في كتبه، ففي أكثر من موضع يأتي في «تفسيره» بعبارات شديدة في حق العصاة والمخالفين، ومثل هذا الكلام موجود في كتابات بعض الإسلاميين، كالأستاذ سيد قطب، وبعض الناس يظنون أن هذا يدل على تكفيرهم للناس، وفي نظري أن هذه

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠)، و«هداية القاري إلى تجويد كلام الباري» (ص ٣٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٢).

(٣) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٥٠).

ليست أحكامًا بل مواعظ يقصد بها الزجر والتحذير والتأثير.

ويُعرف من سير هؤلاء المصلحين أنهم لم يكونوا يكفِّرون المسلمين، بل يمقتون ما هم عليه من التناقض بين الدين الذي ينتسبون إليه، وما يقتضي منهم من مكارم الأخلاق؛ وبين واقعهم الرديء.

* ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون:٦]:

قال بعض المفسرين، كالزمخشري: «إن الرياء لا يكون في صلاة الفريضة، وإنما يكون في النافلة»(١).

وهذا غير مسلَّم، وظاهر الآية يدل على أن رياءهم في صلاة الفريضة، ولعلهم منافقون لم يكونوا ينوون الصلاة أصلًا، أو كانوا في صلاة الجماعة، ولو ترك الأمر لهم لصلُّوْا فرادى، أو لما أطالوا الصلاة، أو لما حافظوا عليها، فالرياء يدخل في صلاة الفريضة وصلاة النافلة.

والضابط الذي يميِّز الرياء عن غيره، أن الإنسان إذا كان سيقوم بالعمل سواء وجد الناس أم لم يوجدوا، فلا يضر ما وراء ذلك؛ لأن النية استقلت بإحداث العمل، أما إذا كان لن يعمل العمل ما دام الناس غير موجودين، فهذا يدل أنه فعله رياءً.

وعلى المصلِّي أن يحذر من الوسوسة والمبالغة والتنطع، وأن يقطع نظره عن الناس لا تركًا من أجلهم، ولا فعلًا من أجلهم، وكما قال البعض: «لا تتركها حياءً، ولا تفعلها رياءً».

وبعض طلبة العلم يعانون في هذا الباب، ويفتقدون الاعتدال في مراعاة الناس، وهذا يحتاج إلى تربية عظيمة، وتعويد طالب العلم كيفية التعامل مع الناس، حتى لا

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٢٦٤)، (٦/ ٣٩٥)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٥)، و«تفسير ابن عطية» (١/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٣٢)، (٢٠/ ٢١٣).

يبالغ في الاهتمام بهم والعمل من أجلهم، ولا يبالغ في إقصائهم خشية الرياء، وكان بين ذلك قوامًا.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن راءى راءى الله به»[1].

فالرياء يكون بالعمل الذي يراه الناس، مثل: الرياء في الصلاة، والتسميع يكون بالقول مثل: قراءة القرآن أو الذكر أو الكلام الذي يسمعه الناس.

أو السُّمعة لقصد الشهرة، وقد يصلِّي الإنسان رياءً وسُمعة، من أجل أن يراه الناس، ولتكون سمعته عند الناس حسنة؛ وليكون كلام الناس فيه حسنًا.

* ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾ [الماعون:٧]:

قيل: الماعون هو الزكاة، كما ذكره جماعة من الصحابة والسلف والأئمة[2].

وقيل: المقصود به ظاهره وهو الماعون المنتفع به في البيوت، مثل القِدْر والفأس والدلو والإبرة والغربال، وكل ما يحتاجه الناس وتعارفوا على إعارته واستعارته[3].

ولهذا قال العلماء: من الفضل أن يستكثر الإنسان في منزله مما يحتاجه الجيران، ومثله: طالب العلم يأخذ معه الممحاة والمبراة وقلم الرصاص والحبر، وإن لم يكن يحتاج هذا كله، لكن لينتفع به الآخرون.

---

(١) أخرجه البخاري» (٦٤٩٩) من حديث جندب بن عبد الله ﷺ، ومسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس ﭭ.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٤)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٧١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٢).

ومن الطريف أن بعض الشباب كتب لي رسالة يقول فيها: بعض الإخوة يكتبون مذكرة ويحجبونها عنا حتى لا نحصل عليها!

لا يا أخي، أحسن كما أحسن الله إليك، وهذا من منع الماعون، فلا تمنع مذكرة كتبتها، وأعرها مَن ينتفع بها، ولك بذلك أجر، فدعهم يصورونها ويتداولونها وينتفعون بها، واحذر أن تكون ممن يمنعون الماعون! والله سبحانه وتعالى قال عن المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، يعني: بالبخل.

وهؤلاء الناس الذين توعَّدهم الله سبحانه وتعالى جعلوا ما لله مقصودًا به الناس، ولهذا جاءهم الوعيد المذكور، والوعيد ينبغي أن يكون على مجمل الخصال، يعني: لـمَن وُجدت فيه هذه الخصال كلها، وفيه مع ذلك تنفير من أفراد هذه الخصال.

وسياق الآيات يبعث في المؤمن الرغبة في عمل الخير، والحرص على ألَّا يقع في واحدة من هذه الصفات المرذولة التي حذَّر الله تعالى منها، وذكر أنها مَن صفات مَن يكذِّب بيوم الدين، والله أعلم.

○ ○ ○

سورة الكوثر

سورة الكوثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ
ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:١-٣].

* تسمية السورة:

١ - الأشهر تسميتها: «سورة الكوثر»[١].

٢- وتسمى أيضًا: «سورة النحر»[٢].

٣- وسماها البخاري وغيره: «سورة ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾»[٣].

* وهي أقصر سورة في كتاب الله تعالى، وعدد آياتها: ثلاث آيات بلا خلاف[٤].

* وجمهور المفسرين على أنها مكية، وهذا ظاهر سياقها، وجوُّها قريب من جو «سورة العلق» في قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٦)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٧٣)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٢) ينظر: «السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٥٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٦)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٢).

وهنا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣]. وفيها الوعيد والتهديد للكافرين المعاندين للرسول ﷺ، مما يدل على أنها مكية[١].

لكن يشكل على هذا حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ استيقظ وهو يضحك، فقال: «**أُنزِلت عليَّ آنفًا سورةٌ**، فقرأ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾. **ثم قال** ﷺ: «**أتدرون ما الكوثر؟!**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل...**»[٢].

وهذا الحديث يدل على أن السورة مدنية- وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة[٣]-؛ لأن الراوي أنس بن مالك رضي الله عنه من الأنصار، فإن قيل بتعدُّد النزول فلا إشكال، وإلا فيحتمل -والله أعلم- أن يكون قوله: «**أُنزِلت عليَّ آنفًا**». رواه الراوي بالمعنى، والمقصود أنها أنزلت فيما مضى.

وقد يكون المقصود: أن الرسول ﷺ أُنزل عليه حينذاك تفسير الكوثر، وأنه نهر في الجنة وعده الله تعالى نبيه ﷺ، وبهذا يزول الإشكال، وتبقى السورة مكية، والحديث صحيح، وهو في بيان معنى الكوثر.

وفي السورة على قصرها إعجاز لا يخفى، وأسوق بعض المعاني والدلالات التي يتعجب منها الإنسان في هذه السورة، ويدرك كم تجني العادة والإلف على عقلية الإنسان، وكم تضيع عليه من المعاني التي ربما لو قرأها لأول مرة لوجد فيها معاني دقيقة.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٠).

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٨)، والمصادر السابقة.

وموضوع هذه السورة قريب من موضوع سورة الضحى والانشراح والقدر، وهو تسلية النبي ﷺ.

وفي السورة التي قبلها وهي: «الماعون»، توعَّد الله الساهين عن الصلاة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧].

وفي هذه السورة- «سورة الكوثر»- أوصى نبيه ﷺ بنقيض ذلك، فأوصاه بالصلاة بقوله: ﴿فَصَلِّ﴾، وأوصاه بالإخلاص وعدم الرياء في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، فالمعنى: صل لربك مريدًا بعملك وجهه تعالى.

وقوله في السورة السابقة: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يقابلها هنا قوله: ﴿وَانْحَرْ﴾؛ لأن النحر يكون لله تعالى، مقصودًا فيه إطعام الفقراء والمساكين من المنحور من بهيمة الأنعام، ففي هذه السورة أمر بما يضاد المذموم في السورة التي قبلها.

* وأول هذه السورة الكريمة هو هذا الضمير العظيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]:

وهذا جاء في سور أخرى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، والبداءة بهذا الضمير لها دلالة عريقة عميقة.

ابتدئت السورة بلفظ التعظيم والتفخيم والتأكيد ﴿إِنَّا﴾، و﴿إِنَّا﴾ قد تكون للجمع أو للواحد المعظَّم، وهي خطاب مباشر من الله تعالى للرسول ﷺ، وفيه تعزيز وتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن عظمة العطية يُنظر إليها من جهة مقام المعطِي العظيم، ولذا يقال: الهدية على قدر مُهْدِيها.

إن كون هذه العطية من الله تعالى مالك الملك لنبيه ﷺ هو تشريف لقدره ﷺ بهذه المنحة العظيمة.

ومن هنا حوت هذه الآية على قصرها ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ بيان عظمة الـمُعْطِي سبحانه وتعالى، وعظمة العطية أو الهبة، وعظم مقام الموهوب له، فبدأ بالضمير العائد إليه تعالى، ثم ثنَّى بضمير خطاب النبي ﷺ، ثم ثلَّث بالعطية وهي الكوثر، وسر هذه العظمة من عظمة مصدرها.

والعادة في القرآن أن ضمير «نا» يأتي في مقام المنة والمنحة، أو في مقام الأخذ والعذاب، أو في الموضع الذي يكون للملائكة فيه عمل أوكل إليهم كالحفظ والإنزال ونحوها.

وتأمل كيف قال: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾، ولم يقل: (آتيناك)، مع أنه جاء في بعض المواضع لفظ: (آتيناك)، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[الحجر:٨٧]، فما هو الفرق بين اللفظين؟

من الفروق: أن ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾تدل على الملكية والخصوصية، لكن ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ قد لا تكون في شيء خاص، فمثلًا: إنزال المثاني والقرآن ليس شيئًا خاصًّا بالرسول ﷺ، ولكن واجب عليه بيانها للناس، بخلاف الكوثر ففيه خصوصية.

واختيار لفظ: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾دليل على أن هذه العطية لا يُرجع فيها، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يعود في عطيته، بخلاف الإيتاء؛ فقد يرجع فيه لحكمة، أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]. فقال: ﴿تُؤْتِي﴾، ولم يقل: (تعطي)، ثم قال: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾، وتأمل لفظ: (تنزع)، فإنه يدل على الأخذ بشدة، وكأن المنزوع منه متمسك به، ولا يتركه ما استطاع، لكنه يُنْزع منه بالقوة؛ ولهذا جاء في سنة النبي ﷺ النهي عن الرجوع في العطية والهبة[١].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٢١)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٢).

وتأمل أن الفعل هنا جاء بصيغة الماضي «أعطى»؛ ليدل على أن العطية قد حصلت وتحقَّقت، ولهذا فرح بها النبي ﷺ وسُرَّ؛ فهي عطية منجزة.

ويُروى عن أحد السلف أنه قال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره»(١).

وستره بألَّا تذكره للناس، لكن إعلانه هنا من أحسن ما يكون؛ لأن السورة ذاتها نعمة جديدة، وإعلان العطية هو عز الدنيا والآخرة للنبي الكريم عليه الصلاة والتسليم.

إن إعلان العطية في سورة تُتلى إلى ما شاء الله تشريف للنبي ﷺ؛ لأن فيها رفعًا لقدره ومقامه عند الملائكة وعند عباد الله الصالحين.

وفيها رفع لمقامه ﷺ في مقابل أولئك الذين ينتقصونه أو يسبونه من المشركين.

فإذا كان الله تعالى أعطاه هذه العطية العظيمة، فماذا يضيره أن يحط من مقامه أو ينال من عرضه مَن لا وزن لهم؟!

وثَمَّة لفتة أخرى مهمة: وهي أن الله تعالى بدأ بالعطية، ثم أمره بالصلاة، فهل العطية فضل ابتدائي، أو هي جزاء على فعلٍ فعله الرسول ﷺ؟

الجواب: بل هي فضل ابتدائي، فمن نعمة الله أن أعطاه الكوثر، وقد اصطفاه لهذا الفضل، ثم أمره بالصلاة والنحر على سبيل الشكر.

يقول اللُّغويون والمفسرون: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ على وزن «فوعل»، مثل: كوكب، زورق، جوهر، دوسر، وهي أسماء جامدة، تدل على الكثرة في الشيء، فدوسر، أي: كثرة في القوة والضخامة.

---

(١) ينظر: «اصطناع المعروف» لابن أبي الدنيا (٢٢)، و«المجالسة» (٣/ ٧١) (٦٨٥)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٩٨)، و«شعب الإيمان» (١٠٤٢٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٦٣).

و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ هو الخير الكثير، المفرط في الكثرة، بما لا مزيد عليه. وهذا أعم ما قاله المفسرون في تفسير ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، ويدخل فيه كل ما قيل.

وقد قيل فيه أكثر من خمسة عشر قولًا، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه». فقيل لسعيد بن جُبير: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

ويظهر أن الذين عبَّروا بأن الكوثر نهر في الجنة قصدوا التفسير بالمثال.

ومن معاني الكوثر: كثرة أولاد النبي ﷺ، وهذا نقيض ما قاله المشركون: إنه أبتر، و«الأبتر» هو مَن لا ولد له، أو لا يعيش أولاده الذكور، وهذا من نذالتهم؛ لأنهم يلمزونه بما لا يد له فيه، وإنما هو شيء جرى به القدر، لا مجال للتعيير والشماتة بالموت، ولم يكن النبي ﷺ بما جُبل عليه من الـخُلُق العظيم يشمت بموت أعدائه أو موت أقاربهم، بل قال ﷺ في شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل: «لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ»[2]. وقال: «لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[3].

فإن قال قائل: قد مات أولاده ﷺ في حياته، فمن أين تندفع هذه الشماتة به ﷺ بأنه أبتر؟

الجواب: إن ذرية النبي ﷺ من السادة الأشراف الذين نسلوا من بناته، كثيرون في الحجاز واليمن وبلاد العرب والهند وسائر أصقاع الأرض، حفظوا أنسابهم وتناسلوا وتكاثروا، في حين لو أردت أن تبحث في ذرية الذين كانوا يعيِّرون النبي ﷺ بأنه أبتر، فلن تجد واحدًا ينتسب إليهم، ولا يمكن أن تجد واحدًا يقول: هذا من

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٢١٠)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ذرية أبي لهب مثلًا؛ لأنهم قد اندرسوا واندثروا، وهم الذين كانوا يعيرونه بأنه أبتر ويفخرون بكثرة أبنائهم ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٣].

ومن معاني الكوثر: كثرة علماء أمة محمد ﷺ؛ لأن الله تعالى حفظ هذه الأمة بالعلماء، فهم ورثة الأنبياء، وقد وعد نبيه ﷺ بأن يجعل في أمته من أهل العلم والحكمة مَن يحفظ الله تعالى بهم هذه الأمة ودينه.

ومن معاني الكوثر: كثرة أتباع النبي ﷺ، وما أكثرهم الآن، على رغم الصعاب التي تواجه الدعوة، ورغم حرب الاستئصال في غير ما مكان، حتى إنك لو رأيت أفواج الحجيج والعمار كالسَّيل المندفع في طرقات مكة وبين المشاعر، لأدركت جانبًا من هذه البشارة، ولو رآهم النبي ﷺ لسُرَّ، ولو رآهم المشركون لعلموا أن وعد الله حق!

ويشمل الكوثر: الخير المعنوي، مثل: أن الله تعالى أعطاه النبوة، وهي خير كثير، وآتاه الإسلام، والقرآن، ورفعة الذكر، كما قيل:

أغرُّ عليه للنبوةِ خاتَمٌ ... من الله من نورٍ يلوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه ... إذا قالَ في الخمسِ المؤذنُ: أشهدُ
وشقَّ له من اسمه ليجلَّه ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ[1]

وبالمناسبة، فإن أكثر اسم ظهر في العالم كله هو اسم نبينا ﷺ، وهذا من رفعة الذكر له، ولا يكاد أحد اليوم في العالم إلا يعرفه، سواءً كان مؤمنًا به أو كافرًا.

ومن الكوثر: فضائل النبي ﷺ المحفوظة وما أطلعه الله عليه من العلم والحكمة.

---

(١) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (١/ ٣٠٦).

وقد كان هذا الخطاب له وهو في مكة مستضعف محارب، فهي مِعجزة باقية أبد الدهر، وهي بشارة وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة لأمته في عصره ومن بعده؛ لأن الله سبحانه وتعالى وعدهم بالخير الكثير في الدنيا والآخرة.

أما الخير الكثير في الدنيا، فكما ذكرنا، وأما خير الآخرة، فهو النهر الذي وعد الله تعالى نبيه ﷺ في الجنة، وقد جاء في الأحاديث ذكر آنيته ولونه وحوافه وغير ذلك من صفاته[1].

وقد علم سبحانه أنه سوف تمر بالأمة أزمات ومحن، ففي مكة كان الإسلام محاصرًا، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كانت الهجرة انفتاحًا وسعة، ومع ذلك قال النبي ﷺ لهم يومًا: «**أَحْصُوا لي كم يلفظ الإسلام**». **فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال** ﷺ: «**إنكم لا تدرون لعلكم أن تُبتلوا**». **قال** حذيفة رضي الله عنه: **فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلِّي إلا سرًّا**[2].

وفي غزوة الأحزاب زُلزلوا زلزالًا عظيمًا، وكانت عاقبته الفرج والعز، حتى قال النبي ﷺ: «**اليوم نغزوهم ولا يغزوننا**»[3]. نحن نسير إليهم، وهكذا كان.

ثم جاء موت النبي ﷺ وارتدت قبائل العرب، ثم آمنوا ورجعوا.

ثم جاءت حوادث الخلاف بين المسلمين.

ثم غُزي أهل المدينة واستبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية.

ثم جاءت أزمات ومحن، والإسلام يتجاوز العقبات التي تعترضه، والناس بحاجة إلى التطمين، وإذا فقدوا الطُّمأنينة وقعوا في يأس وإحباط وقنوط، واليائس لا يعمل شيئًا، وما لم يكن ثَمَّ أمل فلا عمل، كما قيل:

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٦٤-٤٩٦٦، ٦٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠٩، ٤١١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه.

أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ

على المؤمن أن يكون واثقًا من ربه ومن انتصار دينه، ولا يلزم من هذه الثقة أن تدرك بذاتك نصر الله لدينه؛ فهذا ليس بلازم، فقد ينصر الله دينه بغيرك أو بعد موتك، والذي عليك أن تكون متفائلًا بأن الله تعالى سوف يأتي بالفرج، وكما قيل:

اشتدِّي أزمة تنفرجي قد آذنَ ليلُك بالبَلَجِ

وكما قيل:

ولربَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ذَرْعًا وعند الله منها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمتْ حَلْقاتها فُرِجت وكنت أظنُّها لا تفرجُ

وكما قيل:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنه له كل يومٍ في خليقته أمرُ

وكما قيل:

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه يكون وراءه فرجٌ قريبُ

وعلى المؤمن حين يواجه عسرة مادية أو مشكلة عائلية أو شخصية أو أزمة صحية، أن يملأ قلبه بالثقة بوعد الله، ويفوِّض الأمر إلى الله، فإن هذا يعطيه قوة ودفعة إلى الأمام ويعينه على الانعتاق وتجديد الانطلاق.

* ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢]:

الأمر بالصلاة تفريع على العطاء، أي: نحن أعطيناك فَصَلِّ، ففي هذا أن الله تعالى أمره بالشيء الذي كان المشركون ينهونه عنه، كما قال الله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق:٩-١٠]، ولذلك قال في تلك السورة: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

والعادة أن النعم يأتي عقبها الأمر بالشكر، وهنا لم يقل: (فاشكر)؛ لأن الصلاة جامعة لكل معاني الشكر، ويقول العلماء: إن الشكر يكون بثلاثة أشياء:

بالقلب، وذلك بأن يشعر قلبك بالامتنان، وتذكر المنة التي طوق الله بها عنقك في خلقك ورزقك وسمعك وبصرك.

وباللسان، بأن تلهج بالشكر بلسانك، كما قال الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وبالجوارح، وذلك بالعمل وحسن توظيف النعم.

يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً: يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

والصلاة تتضمن ذلك كله، ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١].

فالصلاة شكر، بل هي رأس الشكر، وهكذا تأسَّى النبي ﷺ بإخوانه من المرسلين، كنوح الذي وصفه ربه بأنه كان عبدًا شكورًا، وداود الذي أمره ربه أن يعمل شكرًا.

ونلاحظ هنا أنه أتى باللام؛ لأن اللام هنا هي سر الإخلاص؛ لأن معناها: لا تصلِّ كما يصلِّي المشركون لآلهتهم، وإنما صلِّ لربك موحِّدًا له، ولا تكن مرائيًا، كأولئك الذين يراءون ويمنعون الماعون.

والصيغة هي صيغة قصر، يعني: أن تكون صلاتك مقصورة على ربك؛ بحيث لا تصلِّي إلا لربك.

ولم يقل: (فصلِّ لنا)، أو: (فصلِّ لله)، أو: (لي)، وإنما قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨٢٠).

والبلاغيون يسمون هذا التفاتًا، يعني تغيير صيغة الخطاب من ضمير المتكلِّم إلى ضمير الغائب.

وهي إشارة للاسم المناسب لموضوع الصلاة، وهو أن الصلاة عبودية، والعبودية اللائق فيها هو اسم «الرب» الذي يعبده الناس، فاختار لفظ «الرب» اللائق بمقام العبودية لله.

وفيه إيماء إلى رعاية الله تعالى وحفظه؛ لأنه «ربك» الذي رباك في الماضي، وتعاهدك، وأعطاك الكوثر.

والعادة في القرآن أن الصلاة لا تكاد تُذكر إلا مقرونة بالزكاة، وهنا تذكر الصلاة مقرونة بالنحر، فلماذا عدل عن «الزكاة» واختار «النحر»؟

لعل ذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يملك مالًا تجب فيه الزكاة، وكان إذا حصل على شيء ينفقه في الحال، ولذا فإنك لا تقرأ في سيرة النبي ﷺ أنه أخرج زكاة؛ لأنه لم يكن عنده مال يحول عليه الحول فيزكيه.

وإنما كان يدخر لأهله قوت سنة[1]، ومثل هذا لا يزكَّى؛ لأنه قوت من تمر أو شعير أو بر، وأما النقد فكان يتصدَّق به فورًا، حتى إنه صلَّى العصر يومًا، ثم قام مسرعًا إلى بيته، فلما رجع سأله الناس، فقال: «**ذكرتُ شيئًا من تِبْرٍ كان عندنا**». وأمر النبي ﷺ بلالًا فقسمه[2].

وقد أَهْدَى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة، نحر منها ثلاثة وستين بيده، وأمر عليًّا رضي الله عنه فنحر ما بقي منها[3].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨٥١) من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٧٤، ٢٣٥٩، ١٤٥٤٩)، و«صحيح البخاري» (١٧١٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«جامع الترمذي» (٨١٥)، و«سنن ابن ماجه» (٣٠٧٦).

والنحر نوع خاص من الذبح، وهو للإبل، حيث تُنحر قائمة معقولة يدها اليسرى، تُطْعَنُ في لَبَّتِها[1] فتسقط، بخلاف الذبح؛ فإنه يكون للغنم والبقر.

والنحر قد يُطلق ويقصد به مطلق القُربان، ولذلك يُسمى يوم العيد: «يوم النحر»، مع أن من الناس مَن ينحر ومنهم مَن يذبح، وما يُذبح فيه من الغنم أكثر مما يُنحر من الإبل، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، يشمل الأمرين معًا.

ومن أهل العلم مَن احتج بهذه الآية على وجوب الأُضحية، وهو قول الحنفية؛ لأن الله تعال أمر بها نبيه ﷺ.

وقد ذهب كثير من الفقهاء والمفسرين -وهو مروي عن الإمام مالك- إلى أن المقصود بالصلاة أيضًا صلاة عيد الأضحى؛ ولذلك أعقبها بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أي: فصل صلاة العيد ثم انحر، وهذا وجه جيد، وإن كان لا يلزم قصر الآية عليه، وعلى هذا فنقول: هذا من معاني الآية، فالآية دليل على مشروعية صلاة العيد، ومشروعية الأضاحي.

والراجح: أنها لا تدل على وجوب صلاة العيد، ولا وجوب الأضحية، والوجوب يفتقر إلى دليل آخر، وغاية ما فيها الأمر بمطلق الصلاة ومطلق النحر[2].

كما استدلوا بهذه الآية على أن النحر يكون بعد الصلاة، وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه ألَّا ينحروا إلا بعد صلاة العيد، ولما جاءه أبو بُردة بن نِيار رضي الله عنه وأخبره أنه ذبح قبل الصلاة، قال له: «شاتك شاة لحم». وأمره أن يذبح بدلها أخرى[3].

---

(١) اللبة: وسط الصدر والمنحر. ينظر: «لسان العرب» (ل ب ب) (١/ ٧٣٣)، و«تاج العروس» (ل ب ب) (٤/ ١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٩٣-٦٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٤-٦١٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤١٢-٤١٣)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ٤٩٥-٤٩٧)، (٤/ ٣٧١-٣٧٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٩٦١).

وقد خاطب الله نبيه ﷺ بهذه الآية، مع أنه كان هو وأصحابه في مكة فقراء جياعًا خائفين، وفيه تأكيد على أنه سيعطيهم من الخير العميم ما تتغير به أحوالهم من الضيق إلى السعة ومن الفقر إلى الغنى.

وفيه تأكيد على عز الدين وأهله، فما أمره أن يصلِّي لربه وينحر، إلا وقد تعهد له ولأصحابه أنه سوف يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فيعبدونه، ويصلون وينحرون ولا يشركون به شيئًا.

* ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:٣]:

و«الشانئ» هو: المبغض، كما قال الله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة:٨].

و«الأبتر» هو: المقطوع، يقال: بُتر العضو، أي: قطع، و«البتراء» هي الركعة الواحدة؛ لأنها مقطوعة عما بعدها، وهكذا «الأبتر» عند العرب يطلقون على مَن لا يأتيه أولاد ذكور، أو مَن يموت أولاده الذكور(١).

ومن هنا جاء في بعض الروايات(٢) أن بعض المشركين في مكة -قيل: أبو جهل، وقيل: العاص بن وائل السهمي، وقيل: عُتبة بن رَبيعة، وقيل: أبو لهب- كانوا يعيِّرون النبي ﷺ بذلك، فرد سبحانه بأن مبغضك وقاليك وكارهك هو الأبتر، وليس أنت كما يدَّعي.

تولَّى الله عز وجل بنفسه الدفاع عن نبيه محمد ﷺ بما لم يكن النبي يعلمه ولا يملك أن يقوله، وإذا كان هؤلاء يسبُّون النبي ﷺ وينتقصونه؛ فماذا يضيره إذا كان ربه تبارك وتعالى هو الذي يسليه ويدافع عنه؟ وأبدل الله الحزن والألم الذي كانوا

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (ب ت ر) (٤/ ٣٧)، و«تاج العروس» (ب ت ر) (١٠/ ٩٧).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ٢٤٥، ٢٧٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٦٩).

يسعون في تسبيبه لرسول الله ﷺ بأن جعل هذا العطاء الجَزْلَ مسوقًا بمناسبة الكلام الذي قالوه، فجعل الله عاقبته خيرًا، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

وفي وصف العدو بـ «الشانئ» إشارة إلى أنه لم يتحقق من كيدهم إلا بغض قلوبهم له؛ لأن الله تعالى يدافع عنه، وقد قيض أبا طالب في أول البعثة يدافع عنه، وكان يقول:

والله لن يصِلوا إليك بجمْعِهم حتى أوسَّدَ في التراب دفينا[١]

ثم لما مات أبو طالب قيَّض الله سبحانه وتعالى له في المدينة الأنصار والمهاجرين، ثم حمى الله سبحانه وتعالى دينه، ونصره وأعلاه على الأديان الأخرى.

والمبغضون حالهم كما قال الإمام أبو محمد بن حزم في بعض قصائده:

قالوا: تحفَّظْ فإن الناس قد كثُرت أقوالُهم، وأقاويل الوَرَى مِحَنُ

فقلتُ: هل عيبُهم لي غير أنِّيَ لا أدين بالرأي؛ إذ في رأيهم فتنُ

وأنني مولعٌ بالحقِّ لستُ إلى سواهُ أنحو ولا في نصرِه أهنُ

دعهم يعضُّوا على صُمِّ الحَصَى كمدًا مَن ماتَ من غيظِه منهم له كفنُ[٢]

أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ [آل عمران:١١٩]، وهنا قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، فليس له إلا مجرد البغض الذي يحمله في قلبه، ولذلك قالوا: «لله در الحسد؛ ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله».

---

(١) ينظر: «ديوان أبي طالب» (ص ٩١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، و«ثمرات الأوراق» (٢/ ٤)، و«سبيل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٢٧).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢١٢).

وفي الولايات المتحدة الأمريكية حملة ضارية على النبي ﷺ ونقد له:

فـ (جيري فالويل) له برنامج تلفزيوني، وستة ملايين أسرة تستقبل البرنامج وتتأثر به! وعنده جامعة أصولية، وله موقع على الإنترنت، يقول في قناة فوكس الأمريكية عن النبي ﷺ: إنه إرهابي! ورجل عنف! ودموي! وإن كانوا قد نقلوا عنه أنه اعتذر بعد ذلك.

وكذلك (بات روبرتسون) عنده برنامج تلفزيوني اسمه: «نادي السبعمائة»، يُذاع على تسعين دولة في العالم، وبأكثر من خمسين لغة! ولك أن تتخيل حجم الانتشار والامتداد!

تكلم عن النبي ﷺ ووصفه بأنه يدعو أصحابه إلى قتل الناس! وأنه متعصِّب! وأنه -حاشاه ﷺ- كان لصًّا وقاطع طريق!

و(فرانكلين أبراهام) عنده برنامج تلفزيوني، وموقع إلكتروني ضخم يبث بست لغات عالمية، وهو ممن تولَّوا كبر النيل من الرسول ﷺ ووصف الإسلام بأنه دين شرير، وهؤلاء من الأصوليين اليمينيين المتطرِّفين، وبعضهم شاركوا في حفل تدشين الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، وكانت فترة رئاسته تشكِّل العصر الذهبي لهم.

ومهما يقولون، فإن رجالًا من بني جلدتهم كانوا أكثر حيادية وأبعد عن التعصب، وهم كثير:

منهم: (مايكل هارت)، صاحب كتاب «المائة الأوائل» الذي وضع النبي ﷺ في الرتبة الأولى، وجعل عيسى عليه السلام في الرتبة الثالثة، وموسى عليه السلام في الرتبة السادسة عشرة.

وقال: إن النبي محمدًا (ﷺ) كان سياسيًّا محنكًا، وكان قائدًا عسكريًّا، وإنه ملأ

قلوب المسلمين بالعدل والإنصاف.

ونجد كثيرًا من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمؤرِّخين والمفكِّرين الذين درسوا الإسلام باعتدال وإنصاف، أشادوا بالنبي ﷺ بلغة غريبة.

حتى إن الشاعر الفرنسي (لا مارتين) يقول: أعظم حدث في حياتي هو أنني قرأتُ سيرة النبي محمد (ﷺ) ودرستها دراسة وافية، وأدركت ما في سيرته من عظمة وخلود.

ويقول: أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك محمدٌ (ﷺ)؟! وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ؟

لقد هزم الرسول (ﷺ) المعتقدات الباطلة التي تجعل واسطة بين الخالق وبين المخلوق.

وعالم اللاهوت السويسري الدكتور (هانت كونت) يقول: محمد (ﷺ) نبي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا إنكار أن محمدًا (ﷺ) هو المرشد القائد إلى طريق النجاة.

وشاعر الألمان الشهير (جوته) يقول: بحثت في التاريخ عن مثل أعلى يمثل الإنسانية في أرقى صورها، فوجدته النبي العربي محمدًا (ﷺ).

ويقول في كلمة مؤثِّرة تأخذ باللب يخاطب بها أستاذه الروحي الشاعر الكبير حافظ الشيرازي: يا حافظ، إن أغانيك وقصائدك تبعث السكون في نفسي، إنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطَّمة بهم جميعًا، أرجوك أن تأخذنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد (ﷺ).

ويقول (فارس الخوري): إن محمدًا (ﷺ) أعظم عظماء العالم، والدين الذي جاء به هو أكمل الأديان.

ويقول الأديب والروائي الروسي الشهير (تولستوي): أنا واحد من المبهورين

بالنبي محمد (ﷺ) الذي اختاره الله الواحد إله الكون ليكون آخر الأنبياء، ولتكون رسالته آخر الرسالات على وجه الأرض.

ومن العجيب أن (برناردشو) الأديب والفيلسوف المعروف يقول: قرأتُ حياة رسول الإسلام (ﷺ) جيدًا مرات، فلم أجد فيها إلا الـخُلق كما ينبغي أن يكون، وكم تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم!

ويقول أيضًا: لقد درست محمدًا (ﷺ) باعتباره رجلًا مدهشًا، فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدعى: «منقذ الإنسانية»، وأوروبا مبتعدة عن عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، وتمنيت أن تعترف أوروبا بقدرة هذه العقيدة الإسلامية على حل مشكلاتها، وبهذا الروح يجب أن تفهموا كلامي!

كان النبي ﷺ رجلًا متواضعًا، بعيدًا عن الادِّعاء والتكلف والتفاخر بالدنيا، فتولَّى ربه الدفاع عنه في وجه الشانئين المغرضين، ووعده فأجزل وأنجز، وأوصاه بدوام الذكر والشكر، وبيَّن مصير خصومه، فما كان التاريخ سوى ترجمة أمينة دقيقة لهذا الوعد وذاك الوعيد!

○ ○ ○

سُورَةُ الكَافِرُونَ

سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ
أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ
دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

* تسمية السورة:

١- المشهور تسميتها: «سورة الكافرون»، وبعضهم يسميها: «سورة الكافرين» باعتبار أنها مضاف إليه مجرور بالياء[1].

٢- وسماه البخاري في «صحيحه»: «سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[2].

ولها أسماء أخرى، ذكرها بعض المفسِّرين والمصنِّفين في «أصول التفسير» كالسيوطي، منها: «المقشقشة»، و«البراءة»، و«سورة الدِّين»، و«سورة العبادة»، و«سورة المنابذة»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٨٥)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٣١٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٩)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٨)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٨٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) ينظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٧٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٢٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٨١)، و«الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٩٥)، (٣٠/ ٥٧٩).

وهذه ليست أسماء، بل أوصاف، ولذا تشترك مع غيرها، لـ «سورة الدِّين» التي هي من أسماء «سورة الماعون»، و«المقشقشة» التي تطلق على «سورة التوبة».

* عدد آياتها: ست آيات بلا خلاف[1].

* وهي مكية باتفاق العلماء، كما ذكره ابن عطية، وغيره، وفي المسألة خلاف يسير[2].

وجاء في فضلها أحاديث، منها: حديث جابر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[3].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[4].

وجاء عن ابن عمر ﷺ، أن رسول الله قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[5].

والأحاديث تدل على استحباب القراءة بها في راتبة الفجر وراتبة المغرب، وركعتي الطواف، وفي الوتر.

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» لابن الجوزي (ص ٣٢٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٨٦٩)، وله أصل في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٤٧٦٣)، وابن ماجه (١١٤٩)، والنسائي (٢/ ١٧٠).

وسبب نزول السورة هو أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت، فجاءه ملأ من قريش وقالوا: يا محمد، علِّمنا الذي تدعو إليه، فهلم نعبد إلهك سنة، وتعبد إلهنا سنة، فإن كان الذي تعبده خيرًا، كنا قد أدركنا حظنا منه، وإن كان الذي نعبده خيرًا كنتَ قد أخذتَ بحظك منه. فرفض النبي ﷺ ذلك، ثم نزلت هذه السورة لترد على هذه المفاوضة(1).

* ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]:

افتتحت السورة بفعل أمر، وهو: ﴿قُلْ﴾، والقرآن كله من عند الله، وقد أُمر النبيُّ ﷺ أن يتلوه على الناس، لكن ثَمَّة سور افتتحت بهذه الكلمة، كسورة الجن، وهذه السورة، والإخلاص، والمعوِّذتين، فهذه خمس سور، وأما الآيات فكثيرة.

وما الحكمة من هذا الاستفتاح؟

الجواب:

١- للتأكيد على أن موضوع السورة ليس مما يخص النبي ﷺ، ولا يدخل تحت اختياره أو اجتهاده، بل هو من محكمات العقيدة التي لا يملك الرسول ﷺ ولا أحد من البشر إطلاقًا أن يجتهد فيها، وهو مسألة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ونبذ عبادة ما سواه.

وهنا نلحظ فرقًا بين هذه المسألة وبين مسائل أخرى وقع للنبي ﷺ فيها اجتهاد لمصلحة المسلمين، كقصة الأحزاب حين أحاطوا بالمدينة، ورأى النبي ﷺ أن العرب قد رمته عن قوس واحدة، فعَرَض ﷺ على الصحابة أن يصالح غَطَفان وغيرهم، أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا.

وهذه المسألة من مسائل السياسة الشرعية الاجتهادية، وليست مسألة عقيدة.

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٠٨)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٠).

وكذا لما خرج النبي ﷺ إلى مكة عام صلح الـحُدَيْبية، وردوه، وحصلت المفاوضة بينه وبين كفار مكة قال ﷺ: «**أما والله لا يدعوني اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمة، ولا يدعوني فيها إلى صلة إلا أجبتهم إليها**»[1]. فلما جاؤوه وعرضوا عليه الصلح بشروطهم قبل بها ﷺ؛ لأنها من قَبِيل المسائل الاجتهادية الداخلة في السياسة الشرعية.

وكثير من الناس -بسبب قلة الفقه، أو شدة الغيرة- يخلطون بين هذه وتلك، في حين نجد في حياة النبي ﷺ العامة الفصل الواضح المبين.

فالمسائل المحكمة الأصولية القطعية لا مجال فيها للاجتهاد والتفاوض كما في موضوع هذه السورة.

أما المسائل المتعلقة بالسِّلْم والحرب والمواقف الاجتهادية، فيسوغ فيها الاجتهاد.

٢- لتجديد أمر الرسالة وتأكيد مصدرها، وأن النبي مؤتمن على القرآن يبلغه بحروفه؛ ولأنه لو قال لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فسيفهم أن هذا كلام إنشائي من لدن الرسول ﷺ، فهو الذي رفض العبادة، وقد عرضت عليه، فلما تلا ﴿قُلْ﴾ علموا أن الله تعالى هو الذي لقَّنه هذا الأمر، وأمره به، فتبين بهذا أن ﴿قُلْ﴾ هنا ضرورية.

٣- للتبليغ وعدم الكتمان، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، فالنبي ﷺ مأمور بتبليغ القرآن، وقد بلغه ولم يكتم منه شيئًا.

والنبي ﷺ كان في مكة في حالة ضعف، والكفار من حوله بمكة هم أكابر في السن والمكانة، ودعوته لا زالت في مهدها، فأن ينزل القرآن ليجابههم بهذا الخطاب:

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٨٥٥)، و«مسند أحمد» (١٨٩٢٨)، و«صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢٩٦).

(قُلْ) أي: يا محمد! لهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فهو شيء مزلزل، وقطع لا تردُّد فيه لأي مفاوضة من هذا القبيل.

٤- في ذلك تحقير الكافرين وتعظيم الرسول ﷺ؛ فإنه تعالى عظَّم النبي ﷺ بمخاطبته، ويكفيه فخرًا وشرفًا أن يخاطبه ربه جل وعز خطابًا مباشرًا، وهذا تشريف للنبي ﷺ، وفيه تحقير للمشركين والكافرين؛ لأن الله تعالى لم يخاطبهم، وإنما أمر نبيه أن يخاطبهم بمدلول الآية، كما وصفهم تبارك وتعالى بوصف لا مجاملة فيه ولا ملاينة فوصفهم بـ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وهو وصف مقرِّع شديد.

٥- في هذا أن الله سبحانه وتعالى علِمَ في طبع النبي ﷺ ما جُبل عليه من الرحمة واللِّين، والله تعالى اختاره على علمه بهذه الصفات؛ لأن الله تعالى أراد أن يجمع به الشمل المتفرِّق لهذه الأمة، والشمل المتفرِّق يجتمع على الرحمة واللِّين، وليس على الغلظة والشدة.

فلقَّنه هنا البراءة الصريحة من الشرك والمشركين؛ للإشارة إلى أن حُسن خُلُقه ﷺ مكرمة نبيلة في حقه، وشرف عظيم، وسبب لنجاح الدعوة وقبولها لدى الخاص والعام، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، لكن حسن الخلق لا يتنافى مع المفاصلة مع الكفار والبراءة من شركهم.

ولما كان موسى عليه الصلاة والسلام مجبولًا على الشدة والقوة في طبعه، كما في قصته مع الرجل الذي وَكَزَهُ فقضى عليه، كان أول ما أوصاه الله تعالى أن قال له: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٣-٤٤].

فربنا سبحانه وتعالى يعلم أن فرعون من أهل النار، ولكن الحجة لا تقوم إلا بالقول الليِّن؛ ولذا أمر به وأوجبه.

وكثير من الناس يخلط بين البراءة من الشرك وأهله، وبين حسن المعاملة والملاينة،

فالنبي ﷺ كان يعيش في مكة بين أظهر المشركين، ويحسن معاملتهم ويخالقهم بخلق حسن، ولما هاجر إلى المدينة كان فيها اليهود والمنافقون والمشركون، وكانت أخلاق النبي ﷺ مع هؤلاء أيضًا أخلاقًا حسنة يحسن معاملتهم ويعدل معهم.

وبعضهم يظن أن البراءة من الشرك تلزمه ألَّا يصافح المشرك، وليس لديه دليل قطعي على ذلك، بل العلماء مجمعون على أن الكافر ليس بنجس العين، وإنما نجاسة الكافر معنوية، لا ينجس المسلم بملامسته(١).

كما أن البراءة من الشرك وأهله لا تمنع التعامل معهم بيعًا وشراءً، ولا التبسم والمصافحة وحسن الأدب ومراعاة الأعراف العامة التي لا تنافي أحكام الإسلام وأصوله، فقد كان النبي ﷺ يتلطف معهم، ويغشى مجالسهم، ويأكل من طعامهم، ويبايعهم، ويتكلم معهم، ويباسطهم.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حَبْر إلى النبي فقال: يا محمد، أو: يا أبا القاسم، إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك. فضحك رسول الله تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له»(٢). فلم يمنعه كونه يهوديًا أن يصدِّق بما قال، وأن يتبسم لكلامه.

وفي خيبر دعت اليهودية النبيَّ ﷺ والصحابة إلى الشاة، فجاؤوا وأكلوا عندها من طبخها، وكانت وضعت فيها السم(٣).

وقد يجد المسلم في قلبه حبًا لكافر، لا لكفره ومعاصيه، وإنما بمقتضى الطبيعة

(١) ينظر: «المبسوط» (١/ ٤٧)، و«بدائع الصنائع» (١/ ٦٤)، و«المحلى» (١/ ١٣٨)، و«كشاف القناع» (١/ ٥٣)، و«فقه العبادة» للمؤلف (١/ ٩٤-٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

والفطرة، كحب الصديق لصديقه، وحب الابن لوالده أو الوالد لولده، وحب الزوج لزوجته، والله يقول: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فإذا تزوج كتابية فسوف يأكل معها، ويضاحكها ويداعبها، وهذا يستدعي مودة ومحبة في قلبه لها، لكنها ليست محبة لشركها وكفرها.

ومثل هذا حب الوالدين، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، والولد يحب والده فطرة؛ لأن الولد بعض من الوالد، وإبراهيم عليه السلام كان واضحًا في محبته لأبيه وحرصه عليه، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم:٤٧]، وقال تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

والحب لا يحمل المؤمن على ما لا يحل من عبادة غير الله، أو ارتكاب ما حرم الله، أو المداهنة في الدين، أو إفشاء أسرار المسلمين.

فهناك فرق بين البراءة من الشرك والكفر والمعصية، والبراءة من أهلها أيضًا بهذا الاعتبار، وبين مخالقتهم بخلق حسن ومحبتهم المحبة الفطرية الطبيعية.

وأما الكفار المحاربون، فقد صرَّح القرآن بالنهي عن موالاتهم، وأن مَن تولاهم فأولئك هم الظالمون، ووصف متوليهم بأنه قد ضل عن سواء السبيل.

وقد ذكر الرازي رحمه الله في «تفسيره» أكثر من ثلاثة وأربعين وجهًا في سر افتتاح السورة بهذا المطلع ﴿قُلْ﴾[1].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ثلاثة حروف، هي حروف نداء: «يا»، وهو وحده كافٍ، والحرف الثاني: «أيُّ»، والحرف الثالث: «الهاء» والهاء قد يكون

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٣-٣٢٩).

حرف نداء، وقد يكون حرف تنبيه، فهذه الحروف الثلاثة هي لحشد الانتباه، وأتت بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، من أجل استجماع الذهن والسمع؛ لتلقي القرار الصارم الذي لا تردُّد فيه.

وقد وصفهم الله في هذه الآية في مخاطبتهم بـ «الكافرين»، وفي موضع آخر وصفهم بـ «الجاهلين»، كما في سورة الزمر في قوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر:٦٤].

وقد ورد أن هذه الآية من سورة الزمر نزلت في السبب نفسه الذي نزلت له سورة الكافرون، فهناك وصفهم بالجاهلين، وهنا وَصَفهم بالكافرين.

وبين «الجهل» و«الكفر» تلازم، وربما يكون الجهل سببًا، والكفر نتيجة، فبسبب الجهل بالله وقعوا في الكفر، والكفر أشد من الجهل.

وهنا سمَّاهم: «كافرين»، وهو الاسم الذي ينطبق عليهم ويعبر عن حقيقتهم، فليست من أجل التعيير، وإنما من أجل الدعوة إلى ترك ما هم عليه، ومباعدة الحالة التي هم فيها؛ لأنهم لو لم يكونوا كافرين، لما أمر بمفاصلتهم في الدين والبراءة منهم، وهم يصرحون بذلك ويقولون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

والكافرون المقصودون هنا هم الذين يعبدون الأوثان من دون الله، كاللَّات والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى، وليس المقصود كل الكافرين؛ لأن منهم مَن يعبد الله، أو يدَّعي ذلك، مثل أهل الكتاب، فأهل الكتاب يزعمون أنهم يعبدون الله، لكن عبادتهم على جهل وضلال، أو بملة منسوخة محرفة.

ويوجد من الكافرين مَن لا يعبد شيئًا أصلًا، أو لا يؤمن بوجود الله، وهؤلاء ليسوا عابدين لشيء البتة.

فالمقصود إذًا عبدة الأوثان، وقد قال العلماء وأهل أسباب النزول: إن هذه

السورة نزلت في الأسود بن المطَّلب، أو الوليد بن المغيرة، أو أُمَيَّة بن خلف، أو العاص بن وائل، وهؤلاء هم الأربعة الذين حاولوا مفاوضة النبي ﷺ، لـمَّا قالوا: تعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة، وكانوا يظنون أن أمر الدين كأمور الدنيا، فهم كانوا إذا اختلفوا في أمر دنيوي كانوا يتصالحون فيما بينهم، فيتنازل هذا عن بعض حقه، ويتنازل هذا عن بعض حقه، ثم يلتقون على حل وسط في منتصف الطريق.

والكفر لغة هو: الستر، ومنه تسمية الفلَّاح كافرًا؛ لأنه يستر الحب، وفي مصر يسمون القرى الزراعية: كَفْر.

ولذلك نقول: إنه وصفهم هنا بأنهم كافرون؛ لأنهم يسترون الحقيقة، ويجحدونها.

* ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]:

أي: في الحال، أي: الآن، لا أعبد الشيء الذي تعبدونه، كما قال: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ [يونس:١٠٤].

* ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]:

أي: ما دمتم على الكفر، فلستم عابدين إلهي، حتى لو تظاهرتم بشيء من ذلك، في وقت أو سنة، كما جاء في عرضكم التفاوضي، فالحقيقة أنكم لم تعبدوا الله الذي أعبد؛ لأن العبادة يشترط لها الإخلاص، وهو أول شرط من شروطها، وهم ليسوا مخلصين ولا مؤمنين ولا عابدين.

فعبادة الأصنام شر وشرك، وعبادة الله سبحانه وتعالى يشترط لها لكي تكون عبادة لله أن يكون العابد مؤمنًا بالله وحده، ولو عبد على أنه سيجرب، فهنا لا يكون عابدًا لله، إذ ليست عبادة لله إلا إذا كان مبناها على الإيمان والتوحيد، والخلوص من الشرك.

وتأمَّل كيف عبَّر بالفعل: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ لينفي أنه يعبد آلهتهم حتى ولو لحظة واحدة.

لكن لما خاطبهم قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ولم يقل: (ولا أنتم تعبدون)؛ لأنه قد يقع منهم الفعل، ولكن لا يتحقق به عبادتهم لله؛ لغياب شرط الإيمان الخلوص من الشرك والبراءة من الآلهة المدعاة.

فالشرك يقع ولو للحظة واحدة، لكن بالنسبة للإيمان بالله سبحانه فإنه لا يتحقَّق بمجرد كون الواحد عَبَدَ، حتى يبقى على ذلك ويدوم.

وربما يستغرب بعض الناس تكرار الآيات في هذه السورة على قصرها، ولا يفهم معنى التكرار، وما فيه من الأسرار اللطيفة والمعاني الشريفة.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ تصريح بأنهم حتى لو ادَّعوا العبودية لله فإنهم لم يعبدوه، لكن قال بعض العلماء: إن في الآية سرًّا آخر، وهو أن المعنى: أنكم أنتم على وجه الخصوص، يا مَن عرضتم على النبي ﷺ فكرة «اعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة» أنتم أنفسكم محكوم عليكم عند الله تعالى أنكم لن تعبدوا الله، ولن تؤمنوا، وسوف تموتون على الشرك، وهكذا كان فإن هؤلاء الأربعة ماتوا مشركين، وكان هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

وعبَّر بها هنا بقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ والمقصود: لستم بعابدين الله الذي أعبده، فـ﴿مَآ﴾ هنا تكون للعالم وغير العالم، فإذا أمن اللبس فهي موصولة، وتصلح للعالم وغيره.

والتكرار مقصود لأهمية الموضوع؛ لأنه أصل الدين، ويستحق أن يكرر الكلام فيه؛ لأنه هو لب اللباب، وأصل الكتاب.

ويتكرر لتكرر العرض منهم، فهم يعرضون على النبي ﷺ مرة ومرتين وثلاثًا،

ولم ييئسوا من العرض، فيأتي التكرار في القرآن الكريم، وكأن المعنى: مهما كررتم العرض ونوعتم في أساليبه وطرائقه، فإن الجواب سيظل واحدًا لا يتبدل.

* وهنا نلاحظ أن الله تعالى عبَّر بالماضي، فقال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٤-٥]. ولم يقل: (ولا أنا عابد ما تعبدون)، وفيها أسرار:

منها أن المعنى ما تعبدونه لم أعبده قط في حياتي، فقد كان يمقت الأصنام ويكرهها، حتى قبل البعثة، وكان لا يأكل ما ذُبح على الأنصاب، ولو كان النبي ﷺ يعبدها في الجاهلية لقالوا له: أنت كنت تعبدها. بل كانوا يعرفون مجانبته لها وهجرها.

ومنها الإشارة إلى عراقتهم في الكفر والشرك، فهذا الأمر مما توارثوه، فهو ليس شيئًا جديدًا طارئًا عليهم يسهل زواله، بل هو أمر قديم، فهم غارقون فيه هم وآباؤهم إلى الأذقان.

ويحتمل أن يكون التكرار لنفي المعبود ونفي العبادة ذاتها، أي: لا أعبد أصنامكم ولا أتعبد بعباداتكم التي تفعلون، وفيه دليل على تحريم مشابهة المشركين فيما يفعلونه على سبيل التعبُّد، وقد كان المشركون يطوفون بالبيت وبين الصفا والمروة.

والجواب: أن هذه العبادات في أصلها ليست عبادات شركية، بل عبادات توحيدية جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم، وبقيت من آثار الرسالة، فأخذتها قريش، ولذلك أُقرَّت في الإسلام وصارت من أركان الحج والعمرة ومناسكهما بعد إزالة ما أضافته الجاهلية إليها من الطقوس الفاسدة كالعُرْي في الطواف.

ولم يذكر الله سبحانه حججًا في هذه السورة كالعادة، فلم يحتج عليهم بالسماء ولا بالأرض ولا بالنبات ولا بخلق الإنسان؛ لأنه في سابق علمه أنهم كافرون.

ولعل السر في ذلك هو: أن مقام السورة ومقصدها واضح، وهو إعلان البراءة

من الشرك والمشركين، ومن أوثانهم، وإعلان مفاصلتهم في المنهج والعقيدة؛ ولذلك لم تكن السورة مشوبة بمعانٍ أخرى لمحاججتهم ومجادلتهم، بل هي مخصَّصة لإعلان البراءة؛ ولهذا سميت: «سورة الإخلاص»، و«سورة البراءة»، و«سورة المنابذة».

وكما تجلَّى فيها أنه ﷺ لن يعبد ما يعبدون، فكذلك تجلَّى أنهم لن يعبدوا ربه الواحد الذي يعبده، فإن قلنا: المقصود فئة خاصة، فلأنهم يموتون على الكفر، وإن قلنا: المقصود أعم، فإن المعنى: ما دمتم كافرين؛ لأنه وصفهم الآن أنهم كافرون.

* ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]:

وفي الياء قراءتان، بالإثبات، والحذف، وهذا أسلوب الحصر، فحين أقول: لك الكتاب، فمعناه: أنه يخصك وحدك.

وفرق بين قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ وبين أن يقول: (دينكم لكم)، فإذا قُدِّم المسند، ففيه إشارة إلى اختصاصهم بدينهم، وكأنه يقول: دينكم لكم وحدكم، ولا تعلق لي فيه بحال من الأحوال، وديني لي وحدي، ولا يتجاوزني ديني لكم ما دمتم على شرككم، فأنتم تختصون بدينكم، وأنا أختص بديني.

وهذا ليس إذنًا لهم بأن يكفروا، وإنما هي مفاصلة في المنهج، وبيان أن الإسلام لا يختلط بالكفر، وفيه بيان الاختلاف الأصلي بينه وبينهم، فهذا كما قال الله عز وجل على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ [الأعراف:٨٧]، وهكذا قال موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه:٤٧]، أي: اتركهم لنا، وخلِّ بيننا وبينهم، وهؤلاء جماعتنا ندعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، فإن أسلموا فالحمد لله، وإن لم يسلموا فجرمهم على أنفسهم.

وقد قال النبي ﷺ لقريش لما حاربوه وآذوه: «يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب،

ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون»(١).

والحكم المذكور هنا حكم مستغرق لكل زمان ومكان لا يتبدل ولا يعطل.

وتأمل كيف ابتدأت السورة بالخطاب الصريح المباشر المؤكد: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واختتمت بخطاب أقرب إلى اللطف وهو: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

والخلاصة: أن الله تعالى قرَّر المفاصلة مع المشركين، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، والإسلام بالكفر، والهدى بالضلال، ولم يتعرض في السورة لموضوع المعاملة.

وتحتمل الآية معنًى آخر، وهو أن المقصود بالدين: الجزاء والحساب، فحسابي على نفسي، وحسابكم عليكم، ولن أؤخذ يوم القيامة بجريرتكم، ولن تؤخذوا بجريرتي، فعلى هذا تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٥]، أي: ليس عليكم من خطايانا من شيء، ولا علينا من خطاياكم من شيء، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

سُورَةُ النَّصرِ

سورة النصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ
ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣].

* تسمية السورة:

للسورة تسميتان:

١- «سورة النصر»، وهو المشهور[1].

٢- «سورة الفتح»[2]، والأول أغلب، وتسميتها بـ«الفتح» يحدث لبسًا مع سورة أخرى، وهي سورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، ولذلك فالأولى أولى.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يسميها: «سورة التوديع»[3]؛ لأنها إيذان بقرب أجل الرسول ﷺ، حيث أدَّى الرسالة وبلَّغ الأمانة وأكمل الله به الدين ودخل الناس في دينه أفواجًا.

وهكذا فهم ابن عباس رضي الله عنهما، كما في «صحيح البخاري» أن عمر رضي الله عنه كان يجمع أشياخ بدر، ويدخل بينهم ابن عباس، فكانوا يجدون في أنفسهم أن شابًّا في عمر

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٣٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

أبنائهم يجلس معهم، فسألهم عمر يومًا، وقال ابن عباس: لا أظن أنه سألهم إلا ليريهم مكانتي، فقال لهم: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ... ﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري. أو لم يقل بعضهم شيئًا. فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له. ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تعلمُ[1].

وليس في السورة إشارة إلى أجل النبي ﷺ، وإنما فيها البشارة بالفتح والنصر ودخول الناس في الدين، وأمر النبي ﷺ بالتسبيح والاستغفار، لكن الفقيه الفطن يدرك أن كمال الأمر له ما بعده، كما قيل:

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُه ترقَّب زوالًا إذا قيل: تَمْ

فمن وراء ذلك إشعار باقتراب أجل الرسول ﷺ وتمام مهمته.

* وهي إحدى أقصر سور القرآن الكريم؛ لأنها ثلاث آيات، إلا أن فيها من المعاني ما يُعجز البلغاء.

* توقيت النزول:

وهي مدنية بالاتفاق، بل هي من أواخر سور القرآن الكريم نزولًا، وهي آخر سورة نزلت كاملة، كما قال كثير من المفسرين.

ولكن اختلف في وقت النزول، فبعضهم يقول: في السنة السابعة، وعلى هذا تكون قبل فتح مكة؛ لأنه كان في السنة الثامنة.

وقيل: كانت بعد الفتح، وهو الأظهر، وقبل وفاة النبي ﷺ بوقت يتراوح بين

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢٩٤، ٤٩٧٠).

سنتين إلى بضعة أشهر[1].

* ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [الفتح: ١]:

بدئت السورة بظرف الزمان ﴿إِذَا﴾، وغالبًا ما تستخدم للمستقبل، وقد تستخدم للحاضر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، أي: حين يشاء.

ومجيء النصر والفتح مشعر بالتوقيف، وأنه لا يأتي اعتباطًا أو دون ترتيب، بل بتوقيت وتوفيق وتوثيق من الله تعالى، وفي ذلك رعاية للأسباب؛ لأن هذا النصر جاء بعد عشرين سنة كان فيها من المجاهدة والمصابرة ما لا يحتمله إلا الأصفياء الأتقياء، فمن الصحابة ﭫ مَن قُتل، ومنهم مَن ضُرب، ومنهم مَن طُرد، ومنهم مَن أُوذي، ومنهم من لاقى آلامًا لا يحتملها إلا الصابرون المجاهدون.

والأمر كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]، فجاء النصر هنا على قَدَرٍ، كما قال الشاعر:

جاءَ الخلافةَ أو كانت له قَدَرًا　　　كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

والتعبير بـ (نصر الله) مشعر بأن النصر مِنَّةٌ من عنده سبحانه، وهذا يدعو للتواضع والانكسار، واستحضار فضل الله بما تحقق؛ ولذا لما دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا دخلها متواضعًا مطأطئًا رأسه[2]، وقد خرج بالأمس طريدًا من مكة

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٤٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩-٢٣٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٨٢٤)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٠٥)، و«المستدرك» (٣/ ٤٧)، (٤/ ٣١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٦٨-٦٩)، و«الكامل في التاريخ» (٢/ ١٢١)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٥٤٨)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٤٥-٥٤٨)، و«فتح الباري» (٨/ ١٨، ٤٩).

خائفًا يترقب، واليوم يدخل فاتحًا مظفرًا منصورًا.

وقد جرت عادة السلاطين والملوك أنهم إذا فتحوا وتمكَّنوا من عدوهم يظهرون القوة والعزة والتشفِّي والبطش، ولسان حال أحدهم يقول: خصومك وقد أظفرك الله بهم، فأعملْ فيهم السيف، ولا تبق منهم ولا تذر، واجعلهم عبرة لـمَن خلفهم.

لكن النبي ﷺ لِمَا جبله الله عليه من صدق العبودية، وعدم التعلق بالدنيا، دخل مكة مطأطئًا، متواضعًا لله.

وفي «الصحيح» أنه ﷺ لما دخل مكة صلَّى صلاة الضحى[1].

ولو شاء الله لنصر هذا الدين بالملائكة، أو لخرق لهم النواميس، ولكنه شاء أن يبتلي بعض العباد ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]. فالمسألة مسألة مجاهدة ومصابرة، ويوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسَر، حتى تكون العاقبة للتقوى.

إن نشوة الانتصار والظفر بالمطلوب وتحقق المقصود الذي كابدوا وبذلوا واجتهدوا وصابروا من أجله تنسيهم الآلام التي لقوها.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يتمثَّل بهذا البيت:

كأنك لم تنصبْ من الدهرِ ليلةً ... إذا أنت أدركتَ الذي كنتَ تطلبُ[2]

ونسبة النصر والفتح إليه تعالى نسبة تشريف.

ومن معاني ذلك: الدلالة على عظمة النصر، وديمومته، وهكذا لم يكن نصرًا محدودًا في معركة، أو تغلبًا على عدو، وإنما هو استقرار لأمر الدين، ولذلك سطع

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٠٣، ١١٧٦)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

(٢) ينظر: «المنمق في أخبار قريش» (ص ٣١١)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ١٠)، و«معجم الشعراء» (ص ٢٧١)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص ١٥٦)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٤٢)، و«المحاضرات والمحاورات» (ص ٢١٠).

تاريخ الإسلام منذ ذلك الوقت؛ وقامت دولة الإسلام في المدينة أولًا ثم في جزيرة العرب، ولم تكن البشارة به باعتباره نصرًا مرحليًّا، أو محدودًا ببيئة جغرافية أو بزمن معلوم، بل بنصر خالد يخلد ذكر الإسلام وبقاءه إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وفيه ثناء مبطن على النبي ﷺ والمؤمنين لأنهم استحقوا نصر الله، وأي ثناء أعظم من أن يقال: أصبحتم جديرين بنصر الله؛ ولذلك تُربط هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى في سورة الحج: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠].

ثم بيَّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤١]، فربط الصفة بأمر مستقبل، ولم يقل: (لينصرن الله الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة).

والسر هنا لطيف، وربما وجد مَن يستحقون النصر في ظاهر الحال، لكن الله يعلم أنهم لو انتصروا ما التزموا بتبعات النصر ولا قاموا بتكاليفه، فيحجب الله عنهم النصر رحمة بهم وبالخلق، وحفاظًا على الرسالة وقدسيتها.

وبين ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فرق، وكان أول مرحلة هي النصر، والنصر قد يحصل للإنسان ولا يكون معه فتح. مثلًا: لو أن عدوك هجم عليك ثم قاتلته وطردته عن بلادك، فإن هذا نصر، وليس معه فتح، وإنما سلمتَ من شرٍّ، فـ «النصر» تغلب في معركة، أما «الفتح» فيدل على أنهم خاضوا المعركة، وانتصروا واستطاعوا أن يفتحوا، ويحققوا مقصودهم الأعظم.

والنصر له صور كثيرة، منها أن يثبت الإنسان على دينه، ولو تغلَّب عليه عدوه.

ومنها إهلاك الله للأعداء حتى لو لم يفتح للمؤمنين.

وعد الله نبيه ﷺ بالفتح، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ

عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٥٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح:١].

* ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر:٢]:

هذا هو الوعد الثالث، والمقصود بالناس هنا هم الذين في جزيرة العرب، وليس الناس كلهم، ولهذا قال: ﴿أَفْوَاجًا ﴾، أي: جماعات إثر جماعات، كما قال بعضهم: إن (ال) هنا للاستغراق العرفي، يعني: الناس المعروفين الذين في جزيرة العرب.

و«الأفواج»: جمع فوج، وهو الجماعة، وهنا لم يعد الناس يدخلون أفرادًا مستخفين مستترين كما كان عليه الأمر.

وذلك دليل على قوة شوكة الإسلام، وأن شيئًا ما تغير فعلًا، وهؤلاء الذين دخلوا الآن أفواجًا لا يعدون من السابقين إلى الإسلام، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والمؤمنين الأولين ﷺ؛ لأن الشيء الذي حملهم على أن يدخلوا أفواجًا هو إما الفتح وإما دينونة جزيرة العرب للإسلام، كما في حديث عمرو بن سَلَمة ﷺ: «كانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق»[1].

وبعضهم قد يكون منعه من الإسلام خوفه على نفسه، أو ماله، أو سلطانه، فلما رأوا أمر الإسلام قد عز واستوثق وتعاظم ذهبت هذه المخاوف، ودخلوا في الدين مطمئنين.

ومنهم مَن دخل لرغبة أو رهبة، خوفًا أو رجاءً، كما جاء عن صفوان بن أُمَيَّة أنه قال: «أعطاني رسولُ الله ﷺ يوم حُنين وإنه لأبغض الخلق إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليَّ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٣٠٤)، ومسلم (٢٣١٣)، والترمذي (٦٦٦).

ومسألة تغيير الدين والانسلاخ من ملة لأخرى ليس بالأمر الهين، وبهذا تظهر منقبة السابقين للإسلام وفضلهم على غيرهم؛ حيث آثروا ما عند الله على متع الدنيا وشهواتها، وجاهدوا في ذلك أعظم المجاهدة وتغلَّبوا على مألوفهم وعاداتهم، وبادروا لقبول الدعوة والتضحية في سبيلها.

والذين دخلوا في دين الله أفواجًا كان أكثرهم على مدى عشرين سنة شجًى في حلوق المؤمنين، آذوهم، وقتلوا منهم ونهبوا الأموال، ومع هذا قبل الله منهم الإسلام، وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم، فالإسلام يَـجُبُّ ما قبله، والهجرة تَـجُبُّ ما قبلها، والتوبة تَـجُبُّ ما قبلها، والحج يَـجُبُّ ما قبله.

ذِكْرُ النصر والفتح، ثم ذِكْرُ دخول الناس في دين الله، يبيِّن أن الهدف هو دخول الناس في دين الله أفواجًا، وها هو قد تحقق.

إن فرح المؤمنين بدخول الناس في دين الله، هو دليل على تجردهم من حظوظ نفوسهم، وتغلبهم على أنانيتهم وقدرتهم على التسامح والصفح عن أولئك الذين ظلموهم وحاربوهم، ثم ها هم يفرحون بهم إخوانًا ينافسونهم في الطاعة والتقوى والجهاد.

إن المقصود الأعظم هو إزالة العقبات التي تحول دون دخول الناس في دين الله، والجهاد ليس غاية في نفسه ولم يشرع من أجل إزهاق الأرواح، والكفر بمجرده ليس موجبًا لإزهاق النفس.

ولذلك قدر الله سبحانه وتعالى أن يظل وجود الكفار في الدنيا إلى قيام الساعة، بل لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، «**ولا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[1]. وله تعالى الحكمة البالغة التي لا يحيط بها خلقه.

---

(١) أخرجه مسلم» (١٤٨) من حديث أنس ﷺ.

ومن حكمته أن خلق الناس مختلفين، كما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢]، وقدَّم الكافر؛ لأن الكفار هم الأكثر عددًا.

وليس المقصود إزهاق أرواحهم بالقتال، بل دعوتهم وهدايتهم.

ولذا كان الإسلام يمنع القتل ويحقن الدم، حتى ولو كان إسلامًا في الظاهر، كما في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبَّحنا الحُرَقات من جُهينة، فأدركتُ رجلًا، فقال: لا إله إلا الله. فطعنتُه، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلا الله. وقتلته؟**». قلتُ: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال ﷺ: «**أفلا شققتَ عن قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا**». فما زال يكرِّرها علي حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذ[١].

ولما بعث النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه إلى خيبر قال له: «**امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**». فسار علي رضي الله عنه شيئًا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**» هذه رواية مسلم[٢].

وفي رواية «الصحيحين»: قال علي رضي الله عنه: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «**انفُذْ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**»[٣].

ودخول الناس في دين الله أفواجًا كان ثمرة صلح الحُدَيْبية؛ لأن الناس بدأ يتحدَّث بعضهم إلى بعض، وكذلك بعد فتح مكة استقر الأمر؛ لأن جزيرة العرب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٤٠٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢١٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

كلها دانت للنبي ﷺ وللمسلمين.

وإضافة الدين إلى الله هي في مقابل إضافة النصر إليه، فنصر الله جاء من أجل دين الله، ولم يقل: الدين؛ لأن العرب تطلق الدين على الطاعة والاتباع للملوك والدعوة لم تكن إلى اتباع أحدٍ من البشر ولا عبادة أحدٍ غير الله وحده.

* ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر:٣]:

أمر الله نبيه ﷺ بالتسبيح، وقد صح من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ بعد ما نزلت عليه هذه السورة، كان قلَّما ما يركع أو يسجد إلا قال: «**سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي**». يتأول القرآن(١). أي: يحقِّق ما أمره ربه تبارك وتعالى.

والأمر بالتسبيح بحمد الله معناه: قل: «سبحان الله والحمد لله». أو يكون المعنى: سبِّح ربك وأنت متلبِّس بحمده، يعني: قائم بحمده. وهو أقرب.

وكأن النبي لما جاء النصر والفتح، وتحقَّق له ما وعده ربه؛ حمد ربه من تلقاء نفسه بمجرد رؤيته لهذه النعم، وإن كان قبلها يحمد ربه بقلبه ولسانه وجوارحه.

والفرق بين «الحمد» و«الشكر» هو: أن «الحمد» يكون بالثناء على المحمود بصفات الكمال والمجد والعظمة والكبرياء، والجلال والقوة والقدرة والعلم والرحمة، وأما «الشكر» فيكون بالثناء عليه بالمعروف الذي أسداه إلى العبد.

ولماذا رتبت هذه الأشياء الثلاثة، فبدأ بالتسبيح، ثم الحمد، ثم الاستغفار؟

الجواب: إن هذا الترتيب مناسب؛ لأن حقيقة التسبيح هو الثناء على الله بالمحامد، ونفي النقائص، وهذا أكمل وأعلى ما يكون.

ثم ثنَّى بالحمد، والحمد فيه معنى الشكر؛ ولذلك يجمع بينهما غالبًا، فهو حمد الله تعالى على ما أنعم به على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين من الخير والنصر.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

ثم ثلَّث بما يتعلق بحال العبد نفسه، وهو الاستغفار من الذنب والتقصير في العبادة والحمد والثناء، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

وهنا سؤال: ما معنى أمر النبي ﷺ بالاستغفار؟ وهل صدر منه ما يُوجِب الاستغفار حتى يؤمر بذلك؟!

من أهل العلم مَن قال: المقصود بهذا أمته ﷺ، أو أن يستغفر لأمته.

ومنهم مَن قال: أمره بالاستغفار من أجل أن تقتدي به أمته، فكأنه يقول: إذا كان الرسول ﷺ مأمورًا بالاستغفار فأنتم بذلك أولى!

ومنهم مَن قال: إن النبي ﷺ قد يقع منه ما ينبغي له الاستغفار منه من غير أن يكون معصية لله، لكن قد يقع منه اجتهاد على خلاف الأولى في بعض المسائل، أو يقع منه انشغال في بعض الأمور التي يكون الاستغفار منه لائقًا ومناسبًا ومحققًا لكمال نبوته ﷺ، كما في قصة الأعمى، وأسرى بدر، وزواج زينب، وتحريم شرب العسل على نفسه ونحوها.

وهي من جنس فعل المفضول، أو خلاف الأولى في الاجتهاد.

وأولى من ذلك أن يقال: إنه لا يستطيع أحدٌ أن يصل إلى أداء حق الله عليه، حتى ولا النبي ﷺ، وإنَّ كل ما يعمله كل أحد لله فهو قاصر عن أداء حق الله، ولذا تُتْبع الصلاة بالاستغفار[1]، ويُتبع الحج بالاستغفار: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ويُختم عمر النبي ﷺ ودعوته بالاستغفار: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

(١) كما في حديث ثوبانَ ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرفَ من صلاته استغفرَ ثلاثًا.. أخرجه مسلم (٥٩١).

فكل كثير يُؤدَّى لله فهو قليل في جنب حقه العظيم جل وعز، ولا يلزم أن يتوجَّه الاستغفار إلى ذنب أو خطأ بعينه، ولكن حال كل أحد مهما اجتهد قاصرة عن أداء ما يجب لله، فالنبي ﷺ ومَن دونه بحاجة إلى الاستغفار عن التقصير في أداء حق الباري عز وجل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لم يقل: (إنه كان غفارًا)، مع أنه أمر بالاستغفار؛ لأن هذا أنسب لختم السورة بقوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾، ومع ذلك هو أدل على أن المقصود ليس الاستغفار من ذنوب أو معاصٍ، وإنما هو من باب ختم العمل والحياة بالتذلل لله العظيم حين كان ﷺ في آخر أيام عمره المبارك.

○ ○ ○

سُورَةُ المَسَدِ

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾

[المسد:١-٥].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة ﴿تَبَّتْ﴾»، وهكذا هي في معظم المصاحف، وكتب التفسير، وبعضهم يزيد فيسميها: «سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾»(١).

٢ - «سورة المسد»، وهذا أيضًا موجود في بعض المصاحف وكتب التفسير(٢).

٣- «سورة أبي لهب»، وهذا ذكره جمع من المفسرين(٣).

* عدد آياتها: خمس آيات، بلا خلاف(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٩)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٢) ينظر: «سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٩)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧١٤)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤٣٥).

* وهي مكية باتفاق العلماء[1].

* سبب النزول:

جاء من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ورهطَك منهم المخلَصين، خرج رسولُ الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صَبَاحاه!». فقالوا: مَن هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب». فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟». قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

وهذا الحديث يرجِّح أن تكون السورة نزلت في السنة الرابعة من البعثة.

* ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]:

التباب هو: الخسران، والهلاك، والخيبة.

وهذه الجملة مقابلة لقول أبي لهب للنبي ﷺ: «تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا».

ويحتمل أن يكون هذا على سبيل الدعاء من الله عز وجل عليه، وهذا أولى، ومن المعروف في لغة العرب إذا تكلم الإنسان بكلام سوء أو فعل فِعل سوء قيل له ذلك.

فعبَّر بيديه؛ لأنه كان يرجم النبي ﷺ بهما، أو أنه كان يعتقد أن يده هي الغالبة،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٤، ٤٧٧٠، ٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

وهي الطولى، فبيَّن سبحانه أن الأمر ليس كما يزعم، بل يده هي الفاجرة، وصفقته هي الخاسرة.

وقد يعبِّر باليد ويقصد المسمَّى كله، كما قال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وكما قال سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، أي: بما كسبوا، ولكن يعبِّر باليدين؛ لأن غالب ما يفعله الإنسان هو بيديه.

وأبو لهب هو: عبد العُزَّى بن عبد المطَّلب، ولم يذكر الله اسمه؛ لما فيه من النكارة والتعبيد لغير الله، و«العُزَّى» اسم صنم في الجاهلية يعبدونه كما بيَّنه تعالى في سورة النجم.

يقال: إن له ولدًا اسمه: لهب، وهذا الولد ليس له ذكر في التاريخ، وقد يكون مات متقدمًا.

وقيل: كان يسمى بهذا في الجاهلية لتوهج وجنتيه، وتورد وجهه، فقد كان أبيض أحمر وضيئًا جميلًا، فكانت كلمة أبي لهب كلمة مدح تثني على وضاءته وجماله.

وقيل: لُقِّب بذلك؛ لشدة غضبه وسرعة انفعاله(١).

وجاءت الكنية متوافقة مع الوعيد، فهو يكنى أبا لهب، والله تعالى توعده بأنه سوف يَصْلَى نارًا ذات لهب، وبهذا تحولت من مدح إلى ذم.

والعرب يطلقون الأب على الوالد، وعلى الملازم للشيء فيقولون: أبو هريرة وأبو العينين وأبو جعدة، وهو الذئب، وجعدة هي: السخلة، فليس هو أباها بالحنو عليها، لكن هو صاحبها الذي يتربص الغفلة منها، وهكذا يقال: «أبو مالك» للبحر، ويقال: «أبو مالك» للطائر الحزين، و«أبو أمامة» للفأر.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩١٣)، و«تفسير الواحدي» (٤/ ٥٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٧).

وهو عم النبي ﷺ، وقد ورد أنه فرح بولادة النبي ﷺ، كما ذكر البخاري في حديث طويل من قول عروة بن الزُّبير: «فلما مات أبو لهب أُرِيَهُ بعض أهله بشرِّ خيبة، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدَكم غير أني سُقِيتُ في هذه بعَتاقتي ثُويبةَ». وأشار إلى النَّقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وكانت ثُويبة هي التي بشَّرته بولادة النبي ﷺ، ففرح بميلاده وأعتقها لهذه البشرى[1].

وقد كان لأبي لهب ثلاثة أولاد، منهم عُتبة وعُتيبة، وقد تزوج عُتبة وعُتيبة -كما في بعض الروايات- بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، عقدا عليهما ولم يدخلا بهما، فلما جهر الرسول ﷺ بالدعوة وظاهرته قريش بالعداوة، كان أبو لهب يقول: دعوا الأمر لي؛ فإن لي عند محمد يدًا ومنَّة وأنا أكفل لكم أن ينتهي أمره، ويوقف هذه الدعوة.

ولم يستجب النبي ﷺ له؛ فعظم ذلك عليه واشتد عليه، حتى أصبح من أعظم الناس حربًا على النبي ﷺ.

ولذلك كان من فعله أن أمر ولديه بأن يطلقا بنتي الرسول ﷺ، وقال لهما: رأسي من رأسيكما ووجهي من وجهيكما حرام، إذا بقيت رقية وأم كلثوم في ذمتكما. فطلقا بنتي رسول الله ﷺ، كان هذا فعلًا رديئًا في منتهى الدناءة، والله سبحانه وتعالى أبدلهما خيرًا منهما وأبر، لكن كان هذا الأمر مع علاقة القرابة وعلاقة الأبوة أمرًا في غاية القبح.

وزيادة على ذلك لما رأى أبو لهب إلحاح النبي ﷺ في الجهر بالدعوة أصبح يعلن العداوة له وكانت العرب تنتظر إسلام هذا الحي من قريش، فيقولون: إذا أطاعه

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٨٧)، و«صحيح البخاري» (٥١٠١)، و«سنن البيهقي» (٧/ ١٦٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٠٧)، و«فتح الباري» (٩/ ١٤٠)، (١١/ ٤٣١).

قومه أو انتصر فهو نبي.

وقريش كانت تتربص أمر سادتها وزعمائها وأشياخها، وربما كان واسطة العقد في هؤلاء كلهم جميعًا أبو لهب، لاعتبارات عديدة، منها:

خاصية القرابة، فهو عم النبي ﷺ، ونحن نجد بالمقارنة أن أبا طالب كان عم النبي ﷺ مثل أبي لهب ولم يؤمن به، ولكنه كان حفيًّا به، وكان معروفًا بحمايته له، وكان يُجلسه إلى جنبه، ويدافع عنه أشد المدافعة، وله في الثناء على الرسول ﷺ قصيدة شهيرة، منها قوله:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ ... من خيرِ أديانِ البريةِ دينا

لولا المشقةُ أو حذارُ مسبَّةٍ ... لوجدتني سمْحًا بذاكَ مبينا

وقوله:

فوالله! لولا أن أجيء بسُبَّةٍ ... تُجَرُّ على أشياخنا في المحافلِ

لكنَّا اتَّبعناه على كلِّ حالةٍ ... من الدهرِ حقًّا غير قولِ التهازلِ

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ ... ثِمالُ اليتامى عصمةً للأراملِ

يلوذُ بِهِ الهُلَّاكُ من آلِ هاشمٍ ... فهُمْ عندَه في خيرةٍ وفواضِلِ

في حين أن أبا لهب كان يلاحق النبي ﷺ في الأسواق، كعُكاظ ومَجَنَّة وذي المَجَاز، وعند الكعبة، وعند البيت، والنبي ﷺ يقول للعرب: **«يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله. تفلحوا»**[1]. يقول راوي القصة: رأيتُ وراءه رجلًا أحمر وضيئًا

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٥٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٧٢٠)، و«مسند أحمد» (١٦٠٢٠، ١٦٠٢٧ - زوائد عبد الله)، و«سنن النسائي» (٥/ ٦١)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٥٩)، و«صحيح ابن حبان» (٦٥٦٢)، و«المستدرك» (١/ ١٥)، (٢/ ٦١١-٦١٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٨٠-٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٤٢)، و«الإصابة» (١٤/ ٤٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٣٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٩).

له غديرتين أحول -وهذه صفات أبي لهب- يمشي وراءه ويقول: لا تطيعوه، فإنه صابئ كذَّاب مجنون، وإنا لم نجد له طبًّا. يعني: لقد عرضناه على الرقاة وعلى الأطباء، ولكننا حتى الآن لم نجد له حلًّا ولا علاجًا، فكان الناس يقولون: مَن هذا؟ فيقال: عمه أبو لهب، فيقال: عمه أبصر به، ويتركون دعوة النبي ﷺ[1].

والكلمة التي قالها أبو لهب أول ما سمع الدعوة العلنية ظلت منهجًا له حتى مات على الكفر وحرب الدعوة بلا هوادة.

والله تعالى خاطب أنبياءه بألا يُكْرِهوا الناس على الإيمان، كما قال الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

هذا مع أن الدين حق من عند الله الذي خلق الخلق، ومن حقه أن يطيعوه فلا يعصوه، ومع ذلك بيَّن أن الدين لا يتحقق ولا يقبل إلا أن يكون بإيمان وعن قناعة.

فكيف بمَن يحاولون إكراه الناس على الباطل، والشرك، كما يفعل أبو لهب؟

وكيف بمَن يحاولون أن يمنعوا الدعوة من أن تنتشر، أو أن يتسامع الناس بها، وأن يمنعوا النبي ﷺ من حقه في القول والبلاغ؟! وكل ما كان يقوله ﷺ: **«أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**.

على أن عداوة أبي لهب لم تقتصر على سب النبي ﷺ وإيذائه بلسانه، بل كان يحرِّض على ذلك، ويؤجِّج العداوة ويسعى في قطع الرحم، وجند معه زوجته وولديه، وقد دعا النبي ﷺ على ولده عُتيبة؛ لأنه آذى النبي ﷺ فقال: **«اللهمَّ سَلِّط عليه كلبًا من كلابك»**. فخرج إلى الشام وافترسه الأسد.. في قصة معروفة، وقد ذكر

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٦٠٦٦).

هذا حسان بن ثابت في بعض شعره:

مَن يرجعُ العامَ إلى أهلِه فما قتيلُ السَّبْعِ بالراجعِ

أما عُتبة ومُعَتِّب فقد أسلما، وحسن إسلامهما، وشهدا مع النبي ﷺ معركة حُنين(١).

وفي الآية أن الإنسان لا تنفعه قرابته، ولا نسبه، وإنما ينفعه عمله الصالح، كما ذكر تعالى امرأة نوح وامرأة لوط وابن نوح وأبا لهب عبرة في هذا، فهو قرشي نَسِيب قريب، وهو من أهل النار، كما قيل:

لعمرُكَ ما الإنسانُ إلا ابنُ سعيه فلا تتركِ التقوى اتكالًا على النَّسبْ

لقد رفعَ الإسـلامُ سلمانَ فارسٍ وقد وضعَ الشركُ النسيبَ أبا لهـبْ

وفي التصريح باسمه معنى لطيف، فقد كان رأسًا في أذية النبي ﷺ، فلما نزلت السورة سقط السلاح الذي معه وتم تحييده، وصار إذا تكلم تهامس الناس وقالوا: هذا الذي نزل فيه ما نزل.

والذين يأتون من خارج مكة يسمعون أن الله أنزل فيه سورة تُتلى، فيصبح متَّهمًا، فإذا تكلم في حق النبي ﷺ؛ لا يلتفت إليه، وكأن عنده ثأرًا يريد أن يدركه.

ومع شدة قرابته كان النبي ﷺ يلقى منه الأذى، وكان يلزم الصمت ولا يتكلم؛ لما جبله عليه ربه من حُسن الخُلُق وسعة الـحِلْم، ولما في قلبه من الرغبة في إسلام

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٥٥)، (٨/ ١٧)، و«تاريخ الطبري» (١١/ ٥٢٩)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص ١٢٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٥)، و«سنن البيهقي» (٥/ ٢١١)، و«الاستيعاب» (٣/ ١٤٣٠)، و«تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٣)، و«فتح الباري» (٤/ ٣٩)، و«الإصابة» (١١/ ٢٠٨)، والمصادر السابقة.

الناس ودخولهم في الدين، فكان يصبر عليهم، وهو لا يعرف مصيرهم ولا يدري ما يختم لهم به.

ولهذا كان الله هو الذي تولَّى الدفاع عن النبي ﷺ، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

والتسمية في القرآن لها جانبان:

الأول: الأصل أن الأمر بالخير والنهي عن الشر يكون على سبيل العموم، دون تسمية أو تحديد، وهذا ما كان عليه معظم ما نزل في القرآن الكريم، حتى إن أبا جهل نزلت فيه آيات كثيرة، ولكن لم يسمه الله سبحانه وتعالى فيها مع أنه فرعون هذه الأمة، وهكذا قال ﷺ: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**». ولم يسم؛ من باب الستر عليهم وإطفاء الشر وفتح باب التوبة والرجوع لمن أراد الله هدايته.

الثاني: بعض الحالات تحتاج إلى التصريح باسم إنسان ما، لمصلحة عامة؛ كما إذا كان رأسًا في الشر، وشديد النكاية والأذى للمؤمنين، وعظيم الصد عن سبيل الله، واضح المجاهرة والاستخفاف، مع ملاحظة أن الشخص المذكور هنا كافر، وينبغي أن يكون الكلام عن الكفار، فلو أن أحدًا تكلم عن رؤوس الكفر الذين يحملون راية الحرب على الإسلام لم يكن في ذلك من بأس، ونقول: هذا ينسجم مع الدرس الذي تلقنه سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾، والمتكلم هو الله الذي علم أنه لن يؤمن هو ولا زوجه، ولكن كتب الله بعد ذلك الهداية لولديه عُتبة ومُعَتِّب أسلما بعد الفتح، وسُرَّ النبي ﷺ بإسلامهما سرورًا عظيمًا، واستقبلهما وهَشَّ لهما وبَشَّ، وشهدا مع النبي ﷺ معركة حُنين، ولما هرب الناس وانفضوا كانا من الذين ثبتوا، وعني النبي ﷺ بهما، وأعاد اللُّحمة الماضية، وتحولت العداوة العائلية القديمة إلى محبة ونصرة، وقد نهى النبي ﷺ عن إيذائهم حتى إنه لما قال رجل لدُرة بنت أبي لهب: أنت بنت عدو الله أبي

لهب. فجاءت إلى النبي ﷺ تشتكي، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يُؤذَى مسلمٌ بكافر»[1]. أي: لا يعيَّر هؤلاء بأبيهم.

وكان من حكمة الناس أن يقولوا: «أَبْقِ للصلح موضعًا». ومصداق هذا في القرآن: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧].

والمرء ينتقل ويتغيَّر ويتطوَّر، ولا تكاد تراقب إنسانًا إلا وجدته في العشرين غيره في الأربعين غيره في الستين، خاصة إن كان صاحب ضمير حي واطلاع واسع وفكر نير، فمن البصيرة أَلَّا يحاصَر هؤلاء بالأحكام الحاسمة، وأَلَّا يعامَلوا وكأنهم أعداء الله ورسوله أو أولياء للكافرين.

وبعض الغيورين يتسرعون في محاصرة الخصوم بالتضييق أو التكفير، وربما صار الحكم أو التصنيف محاصرة لك لا لهم؛ لأنك لا تريد أن تنسخ هذا الحكم ولا أن تغيره، فلو بدا منهم تعديل أو تصحيح لم يقبل؛ لأنه لا يعدو أن يكون تمويهًا أو خداعًا في نظرك؛ لأنك لا تريد أن تخرج منه أو تغيره، ولو أخذ على أنه بداية التحول أو الخطوة الأولى لكان أخلق بروح الداعية الحريص.

﴿وَتَبَّ﴾ إن كان أول الآية دعاء عليه، فالمعنى أنه قد حصل وتحقق الذي دعا الله تعالى عليه وهو محقق، كما قال النابغة:

جزى ربَّه عني عديَّ بنَ حاتمٍ　　　جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فَعَلْ

والدعاء من الله هو بمعنى الحكم، لكن فيه توبيخ وتقريع وتحقير له، والثاني خبر صريح بحال هذا الإنسان.

وفي الآية احتمال آخر أن أول الآية بيَّن أن التباب ليديه، وآخرها عمم التباب له كله.

---

(١) ينظر: «الحلم» لابن أبي الدنيا (١١٢)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٣٢٤)، (٧٦٢٤)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١).

* ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد:٢]:

إما أن يكون المقصود بماله: ما ورثه عن آبائه وأجداده، وما كسب: ما كسبه بجهده وعرقه؛ لأنه كان يفتخر، ويقول: لو بُعِث الناس فسوف أفتدي نفسي بمالي وولدي، فرد الله تعالى عليه ذلك.

أو يكون المقصود بالكسب ما هو أوسع من المال؛ لأن الولد من الكسب، كما قال النبي ﷺ: «**إن أطيبَ ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم**»[1]. ومن الكسب: الجاه والمجد والسُّمعة...

فأما المال، فقد صار للوارث، وأما الكسب فقد تبرؤوا منه ولم يكن يشرفهم أن يقولوا: نحن أولاد أبي لهب، وكانوا يتمنون أن يكون لهم اسم غير هذا الاسم، وأن يكون لأبيهم غير هذا المصير، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فلا ينفعه عمل ولا شفاعة ولا قرابة، حتى الذين أسلموا من أولاده لا ينفعه إيمانهم.

* ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ [المسد:٣]:

وعبَّر بالسين؛ دلالة على القرب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨]. يعني: أن الوعد قريب، والدنيا قصيرة.

والصَّلْي هو الشَّي، أي: يُشوى بالنار؛ لأنه صاحب رسالة إلحاد وكفر، وصد عن الله وعن رسوله ﷺ، وفي أيام المواسم كان أكثرهم شرفًا وجاهًا وأطولهم نارًا، يَصْطَلي حولها، وحوله الأكابر من زعماء قريش وزعماء العرب الذين يحضرون هذه المناسبات، وهو يخشى أن يتسرب إليهم شيء من دعوة النبي ﷺ، فيرميه بالكذب والجنون وغيرهما، فتوعَّده الله تعالى بنار الآخرة، ووصفها بـ: ﴿ذَاتَ لَهَبٖ﴾ تناسبًا

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٦٨٥)، وأحمد (٢٤١٤٨)، وأبو داود (٣٥٢٨، ٣٥٢٩)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٧/ ٢٤٠)، وابن ماجه (٢١٣٧)، وابن حبان (٤٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٤٦).

مع كنيته التي كان يفتخر بها.

* ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد:٤]:

قد يكون هذا الرفع على الاستئناف.

وكنيتها: أم جَمِيل، واسمها: أَرْوَى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية، فهي امرأة شريفة في ذؤابة قريش نسبًا ورفعة ومكانة، وكانت من سيدات نساء قريش، ولكن علاقتها مع أبي لهب وانسجامها معه وتقبلها لما هو عليه جعلها أيضًا شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وسبب وصف امرأة أبي لهب بحَمَّالة الحطب على قول بعض المفسرين: إنها كانت تحمل الحطب والشوك وتلقيه في طريق النبي ﷺ حتى يعقر إذا مرَّ بالطريق، وهذا محتمل.

لكن روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وحسبك به في التفسير- أنه فسَّر هذه الآية تفسيرًا آخر فقال: كانت تمشي بالنميمة[1].

وعلى هذا فمعنى كونها حمالة الحطب: أنها كانت تمشي بالنميمة، وبالكلام الذي يوقد نيران العداوة والبغضاء بين الناس كما تُوقد النيران بالحطب.

وهكذا روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال: كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض.

وعن الحسن وعكرمة مثل ذلك[2].

والعرب تقول: فلان يحطب على فلان، أي يجمع أخطاءه وأغلاطه، وما يقال

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٠-٧٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٣٧).

فيه، وما ينسب إليه، ويزيد من كيسه، وكأن هذا أنسب مع حال المرأة؛ لأنها كانت شريفة، ومثلها لا تباشر المهنة بنفسها.

ولا يبعد أن تقوم بذلك لما تجده في نفسها، أو أن تكون فوَّضت بعض خدمها أن يقوموا بحمل الحطب وإلقائه في وجه النبي ﷺ، ونسب إليها على سبيل المجاز.

* ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥]:

بين «الجِيد» و«العنق» فرق، فإن العرب لا يذكرون الجِيد غالبًا إلا إذا كان جميلًا طويلًا، فإذا أرادوا الثناء على المرأة قالوا: جِيدها كأنه إبريق فضة.

والغالب أنهم إذا ذكروا الجِيد ذكروا موضع القِلادة، كما قال امرؤ القيس:

وجيدٍ كجيدِ الرِّئمِ ليسَ بفاحشٍ   إذا هي نصَّته ولا بمعطَّلِ

وذكر موضع القلادة فقال:

ترائبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[1]

ولذا بيَّن قلادتها هنا وأنها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فكأن هذه قلادتها في النار؛ والله تعالى أعلم؛ لأنه لم يكن يعرف أنه كان يوضع في عنقها في الدنيا حبل من مَسَد، والمَسَد هو: اللِّيف الشديد الخشن، والعرب كانت تفتل الحبال فتلًا قويًّا من ليف أو من غيره.

ابتدأ الله تعالى السورة بذكر أبي لهب، وأنه سيصلى نارًا ذات لهب، واختتمها بذكر امرأته، وأن في جيدها حبلًا من مسد، وفي هذا بيان بأن المعركة مع الباطل

(١) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٤٠-٤٣).

والرئم: الظبي الأبيض، والنص: الرفع، والترائب: موضوع القلادة من الصدر، والسجنجل: المرآة بالرمية، وقيل: سبيكة الفضة. ينظر: «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٨٨)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٨).

ليست معركة ذكورية أو أنثوية، فأعداء الإسلام هم من الرجال ومن النساء، والمؤمنون والدعاة والصالحون هم أيضًا من الرجال ومن النساء، والله يقول: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران:١٩٥]،والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ الإخلاص

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣
وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

* سورة الإخلاص: أعظم سور القرآن الكريم، وحين يَدْلِفُ المرء إلى تفسير هذه السورة العظيمة يحس بالهيبة، ويشعر أنه ينبغي عليه أن يتهيأ نفسيًّا بقدر من الصفاء واليقين للدخول إلى هذا الحرم القدسي الذي فيه مباحث تتعلق بذات الرب سبحانه وأسمائه وصفاته.

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء قد تكون دليلًا على عظمة المسمَّى، فقد ذكر الفخر الرازي لها عشرين اسمًا، وغالبها أوصاف.

١- «سورة الإخلاص»، وسمِّيت به في معظم المصاحف وكتب التفسير[1]، ولعله أشهر أسمائها، وسمِّيت به لما تضمنته من التوحيد والثناء على الله.

ولأجل هذا سُمِّيت «سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»: «سورة الإخلاص» أيضًا[2]؛ إذ بين السورتين ارتباط عقدي، كما أنهما تُقرآن معًا في راتبة المغرب، وركعتي

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩١٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٨)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب فضائل القرآن (٧/ ٢٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«صحيح ابن حبان» (٣/ ٧٣)، و«المستدرك» (٢/ ٥٤٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٢).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الكافرون».

الطواف، وغيرها، و«سورة الكافرون» فيها البراءة من الشرك، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إثبات التوحيد، والمعلوم أن الإنسان بحاجة إلى التخلية قبل التحلية، أي: التخلية من الشرك قبل التحلية بحقائق الإيمان.

ولهذا يقول العلماء: إن للإخلاص ركنين هما: النفي، والإثبات، ويقول بعضهم: الحق ركنان: بنَّاء، وهدَّام، فركن الهدم: سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ التي هدمت الأوثان المعبودة من دون الله عز وجل، وركن البناء: سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾التي جاءت لبناء التوحيد لله الواحد القهار.

وبهذا يتبين ارتباط سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وسبب تسمية كل واحدة منهما: «سورة الإخلاص».

٢-«سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[(١)]، فقد جاء في أكثر من حديث عن النبي ﷺ أن «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾تعدل ثلث القرآن». وهو مروي عن جمع من الصحابة رضي الله تعالى عنهم[(٢)].

٣- «سورة الله الواحد الصمد»، وهذا الاسم جاء في «صحيح البخاري»، وفي «السنن» أيضًا[(٣)].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩).

(٢) مروي عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي مسعود، وأبي الدرداء، وغيرهم ﷺ.

ينظر: «مسند أحمد» (٩٥٣٥، ١١٣٠٦، ١٧١٠٩، ٢١٧٠٥)، و«صحيح البخاري» (٥٠١٥، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤)، و«صحيح مسلم» (٨١١، ٨١٢)، وغيرهم.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠١٥)، و«جامع الترمذي» (٢٨٩٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩).

٤- «سورة الصمد»، كما ذكره غير واحد من أهل الحديث والتفسير[١]؛ وذلك لأن هذا الاسم الشريف لم يذكر في القرآن في غير هذا الموضع.

* عدد آياتها: أربع آيات، وقيل: خمس آيات باعتبار قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية، وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ آية[٢].

* توقيت النزول:

هي مكية عند جمهور العلماء، وهو الأقرب[٣]؛ لملاحظة قصر آياتها، كما هو الشأن في السور المكية غالبًا، وخلوصها في تقرير العقيدة، ومن المعلوم أن الآيات والسور المكية كانت تُعنى ببيان العقيدة، وغرسها في النفوس دون ربطها بالأحكام، أما السور المدنية فهي تشتمل على أحكام الحلال والحرام وأمور التشريع.

ولما ذُكر في سبب النزول، فقد جاء عند الترمذي وغيره، أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسُب لنا ربك. أي: ما نسبته؟! وما هو؟! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤].

وقد ورد أن أهل الكتاب جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه هذا السؤال، فأجابهم

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦٠)، و«سنن أبي داود»، كتاب الوتر (٢/ ٧٢)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٦)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٣٤٨)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٢).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١١).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢١٩)، والترمذي (٣٣٦٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٢٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

النبي ﷺ بالجواب نفسه، وهو هذه السورة[1].

ولا يمنع أن يكون الرسول ﷺ تلاها على اليهود الذين جاوروه بالمدينة حين سألوه عن الله عز وجل، وكانوا يسألون على سبيل التعنُّت.

وهكذا نصارى نجران جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه فأجابهم بنحو ذلك[2].

ولا ينافي هذا أن تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، وقد يكون بعض الرواة ظن أن وقت تلاوتها عليهم كان وقت نزولها.

* فضلها:

وأما فضل هذه السورة، فقد ذكر الدارقطني وغيره أنه لم يرد في فضل سورة من القرآن ما ورد في فضلها، سواء من حيث كثرة الروايات، أو من حيث صحتها[3].

ويكفي في فضلها: قول النبي ﷺ: «**إنها تعدل ثلث القرآن**». وجاء من طرق كثيرة -كما تقدم- وصنَّف فيه الإمام ابن تيمية: «جواب أهل العلم والإيمان بتفسير ما أخبر به رسول الرحمن بأن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن».

وأما معنى كونها تعدل ثلث القرآن: فقد ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك من جهة أن القرآن الكريم، إما أن يكون أحكامًا، أو يكون أخبارًا عن الماضي أو عن الغيب، أو يكون توحيدًا وعقائد، وهذه السورة تخلَّصت وتمحضت للكلام عن التوحيد والإيمان والعقائد، فصارت تعدل ثلث القرآن من حيث النظر إلى موضوع

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٥٣)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ١٥٦).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٦).

السورة وتعلقها بقضية التوحيد.

وذهب آخرون في معنى ذلك إلى أن القرآن إما خبر أو إنشاء، فالإنشاء هو الأوامر والنواهي، والأخبار إما أخبار عن الله، وإما أخبار عن الخلق، وهذه السورة خبر عن الله عز وجل، فصارت ثلث القرآن بهذا الاعتبار.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى القول بأنها ثلث القرآن في الأجر، من غير أن يقصدوا المعنى، فمَن قرأ هذه السورة فله أجر مَن قرأ ثلث القرآن، مع أنها لا تعدل ثلث القرآن في الأحكام، ولو أن إنسانًا قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ثلاث مرات في الصلاة، فلن تجزئه عن قراءة الفاتحة؛ إذ ليس المقصود أنها تعدله من كل وجه.

وذكر ابن عبد البر أن السكوت في هذه المسألة وما كان مثلها أفضل من الكلام فيها وأسلم[(١)].

ولعل مراده الإشارة إلى أن قول النبي ﷺ: «**تعدل ثلث القرآن**». أراد به الإشادة بفضلها، وعظمة معانيها، ودقائق أسرارها، وأن العبد لو أكثر من قراءتها وتدبرها لنفعه الله تعالى بها نفعًا عظيمًا، وهذا كافٍ دون الحاجة إلى الخوض في سر كونها تعدل ثلث القرآن.

* ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]:

استفتحت السورة بـ ﴿قُلْ﴾، وقد خُوطب النبي ﷺ بهذا اللفظ في ثلاثمائة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، هذا أحدها.

ويتبين بالاستقراء أن عددًا غير قليل من هذه المواضع كان النبي ﷺ يتلقى فيها أسئلة الناس ثم يجيب الله تعالى عنها، ويُوجِّه الخطاب للنبي ﷺ فيقول: (قل هم..).

---

(١) ينظر: «نزهة الأبصار في مناقب الأنصار» (ص ٢٩٩-٣٠١)، و«الاستذكار» (٢/ ٥١١-٥١٢)، و«التمهيد» (١٩/ ٢٢٨-٢٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩-٦٢١).

وقد تكون هذه الإجابات لأسئلة المسلمين، كما في قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقد تكون لأسئلة غير المسلمين طُرحت على سبيل الاستشكال، أو التعنُّت، أو الإحراج للنبي ﷺ، أو السخرية.

فمن ذلك: سؤال الوثنيين النبيَّ ﷺ أن ينسب لهم ربه؛ لأنهم كانوا يعرفون الأصنام التي يرونها بأعينهم عند الكعبة، وعند الصفا والمروة، وفي الطائف، وكانت مصنوعة من حجارة أو خشب على شكل إنسان، وأصبح المعنى العظيم للألوهية مرتبطًا عندهم بالأوثان التي تعوَّدوا على رؤيتها، فلما عرفوا اسم الله العظيم، كان فيه شيء من الدهشة عندهم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان:٦٠]، وقالوا: لا نعرف إلا رحمان اليمامة، فلهذا جاء بعض المشركين إلى النبي ﷺ قائلين له: انسب إلهك: أحجر هو؟ أحديد هو؟ كما تقدم.

سألوا هذا على وفق ما كانوا يعتقدون، وما كان في عقولهم السخيفة في الجاهلية من تصور الآلهة بطريقة ساذجة مادية.

ومن ذلك: سؤال اليهود والنصارى النبيَّ ﷺ عن الله، وهي أسئلة خُبث، فكان سؤالهم على سبيل التحدِّي والإحراج، وأحيانًا كان على سبيل التظاهر بالعلم؛ لأن عندهم علم من الكتاب، فهم يفتخرون به.

ومن أسئلتهم: سؤالهم النبي ﷺ عن الولد، كيف ينزع إلى أبيه أو أمه، وسؤاله عن أول طعام يأكله أهل الجنة(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ ﴾ إشارة إلى أن العقيدة تُتلقَّى من عند الله، وأما البشر فإنهم

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٢٩، ٤٤٨٠).

لا يستطيعون أن يحيطوا به تعالى علمًا، ولا أن يعرفوا العقيدة لو لم يعلِّمهم ويعرِّفهم بها، والله سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، وليست العقائد مما يُدرك بالعقل المجرد.

ولو نظرت إلى كلام أكبر الفلاسفة من أمثال سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإلى كلام أهل العلم في كل مجالات الحياة، لوجدت الكلام الذي يقولونه عن الله كلامًا مضطربًا ضعيفًا، لا يزرع هيبة في القلوب، ولا يجيب على أسئلة العقول، ولا يزيل شبهة، ومع ذلك فهو مقصور على الباحثين والمتخصِّصين، ولا يصل إلى العامة وسائر المكلَّفين.

فالنبوة هي التي تعرِّف الناس بربهم حق المعرفة بواسطة الوحي المنـزَّل من حكيم حميد.

ونحن نؤمن بأن الفطرة السليمة مثل الورقة البيضاء التي تقبل الكتابة عليها، وتستجيب لها، وتفرح بالهداية إذا وصلت إليها، وتنسجم معها.

ونؤمن بأن العقل السليم يتقبل المعاني الصحيحة، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى: «إن الأنبياء هم أكمل الناس كشفًا، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يُعرف في عقولهم أنه باطل، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول».

ومعنى هذا أنه لا يوجد في الشريعة شيء يناقض العقل، ولكن يوجد في الشريعة أشياء تتحيَّر فيها العقول؛ لأنها أكبر من العقول[1]، كما قال القائل:

---

(١) ينظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤/ ٣٠٩، ٤٠٠)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ١١٥-١١٦)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٦١)، (٨/ ٥٣٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٢١٤)، (٥/ ٢٩٦-٢٩٧)، (٧/ ٣٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٣١٢)، (١١/ ٢٤٣-٢٤٤)، (١٧/ ٤٤٤).

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ　　نِ غدا الفِكْرُ كليلا
أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ　　ـبِ وبلبلتَ العقولا
كلما أَقْدَمَ فكري　　فيك شبرًا فرَّ ميلا
ناكصًا يخبط في عَمْـ　　ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا[1]

والإجابات الصحيحة عن الله تعالى وعن عالم الغيب لا يمكن الحصول عليها بواسطة العقل، ولا بواسطة الفطرة السليمة فقط، ولا بواسطة النظر البشري، بل عن طريق الوحي الذي تتقبله الفطرة ويصدِّقه العقل.

فإن قيل: إن الفطرة قد تهدي الإنسان إلى الإيمان بوجود الله تعالى؛ إذ إن من جملة الأدلة على وجود الله تعالى أدلة الفطرة!

فهذا صحيح، لكن لو أن إنسانًا اهتدى بفطرته إلى معرفة وجود الله تعالى، فإنه لن يهتدي إلى معرفة التفاصيل عن أسماء الله تعالى، وعن صفاته، وعما يجب له من ألوان العبادات.

وفي قوله: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى تشبُّع النبي ﷺ بهذه المعاني، واستغراقه فيها، فهي وإن كانت وحيًا من عند الله تبارك وتعالى بالقطع واليقين، إلا أنه نزل بها جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ فتشرَّبها، وتشبَّع بها، وآمن بها، واستغرق النبي ﷺ في هذه المعاني، فخالطت بشاشته.

فإذا قال النبي ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنما يقولها كما أُمر، وظاهره وباطنه ﷺ متواطئان منسجمان، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦] يعني: أن هناك تواطؤًا بين الظاهر والباطن، فالنبي ﷺ كان يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بلسانه وقلبه وعقله وتُذْعِن لذلك جوانحه وجوارحه.

---

(١) ينظر: «شرح نهج البلاغة» (١٣/ ٥١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص ١٠-١٣).

كما أن المجيء بلفظة ﴿قُلْ﴾ إنما هو لأنها تتعلق بأعظم وأشرف علم ينبغي أن يتلقاه الناس، وهو العلم بالله تبارك وتعالى.

فإن قيل: في القرآن الكريم كثير من الآيات التي فيها تلقين العقيدة من غير أن يكون فيها ﴿قُلْ﴾؟!

فالجواب: أن لهذه السورة خصائص:

١- أنها كلها من أولها إلى آخرها في أمر التعريف بالله عز وجل، وهذا ليس لغيرها من السور.

٢- أن فيها معاني خاصة ليست في غيرها، كاسم الله «الصَّمَد»، وهو من الأسماء العظيمة والدعاء به له سر، كما أن كل اسم من أسماء الله الحسنى عظيم وله سر، وهو مأمور به، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

﴿هُوَ﴾ ضمير غائب من حيث اللفظ، والله تعالى حيٌّ لا يموت، حاضر لا يغيب، وهو ضمير الشأن، للإشادة بالخبر، والاهتمام به، ولفت نظر المستمع، فكأنه تعالى يقول: هذا الذي تسألون عنه، وتنكرونه، وتعبدون غيره، وتتطلعون إلى معرفته ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقد يكون في هذا إشارة إلى سؤالهم، فكأنه يقول: لما سألوا: مَن ربك؟ قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾هو: الاسم العلم الذي تُنسب إليه الأسماء الأخرى، كما في قوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾[الحشر:٢٢]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤].

وقيل هو: الاسم الأعظم، أو في ضمن الاسم الأعظم، وقد جاء في غير ما حديث أن رجلًا قال: «اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد». فقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»**(١).

وفي حديث آخر: أن رجلًا دعا، وقال: «اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ». فقال النبيُّ ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى»**(٢). وما تقدم أصح منه.

فأجمع لفظ مشتمل على اسم الله الأعظم قد يكون: «الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام»(٣).

﴿ٱللَّهُ﴾ هو: الاسم الذي لا يُسمَّى به غيره سبحانه، وكذلك «الرحمن»، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

وأما بقية الأسماء فقد يُسمَّى ببعضها غير الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ولكن إطلاقها على المخلوقين باعتبار، وعلى الخالق باعتبار آخر، فتُطلق على المخلوق بما يناسبه من

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٧٤)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٥٠، ١٣٠٨١)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلف (ص ٤٣-٤٨).

ضعف، وعلى الله عز وجل بما يناسبه من الكمال والجلال والعظمة.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ أي: واحد، وهذا من حيث أصل المعنى اللغوي، إلا أن كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ أبلغ من كلمة: «واحد»، وأدل على المقصود، وأكثر تمكنًا، ودلالة على نفي الشريك، وقد دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات مرة، فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد وهو يقول: اللهم إني أسألك يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم. فقال ﷺ: **«قد غفر له، قد غفر له، ثلاثًا»**[(١)]. والحديث لا بأس بإسناده.

وأما «الفرد» فهي كلمة شائعة على ألسنة الناس، ولم يثبت في حديث صحيح أنه من أسماء الله تعالى[(٢)].

فـ«الأحد» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو اسم عظيم؛ ولذلك كان شعار المسلمين في معركة بدر: «أحد أحد»، وكان بلال بن رباح ﷺ حين عذَّبه المشركون بمكة في الرمضاء يصرخ ويقول: «أحد أحد، والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم من هذه الكلمة لقلتها»[(٣)]. فهذا الاسم العظيم الدال على وحدانية الله تعالى وأحديته وارد في هذا الموضع، وهو من أسماء الله تعالى الحسنى.

وهذا تأسيس للعبودية في هذه السورة؛ ففيها بيان أن الله عز وجل «واحد أحد»،

---

(١) أخرجه أحمد» (١٨٩٧٤)، وأبو داود (٩٨٥)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والحاكم (١/ ٢٦٧) من حديث مِحْجَن بن الأدرع ﷺ.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٤٤).

(٣) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٣٤)، و«طبقات ابن سعد» (٣/ ٢١٣-٢١٤)، و«مسند أحمد» (٣٨٣٢)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٩١)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠٨٣)، و«المستدرك» (٣/ ٢٨٤)، و«تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٣٩-٤٤٤)، و«تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق» لابن بلبان (ص ٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٨)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٥).

ولا معبود بحق معه، فكل ما يدعيه الناس من الآلهة والمعبودات فهو مرفوض، وهي مجرد أسماء، كما قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال الله عز وجل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فالمعنى الأول في الأحدية: أن الله تعالى أحد في ذاته، ليس معه إله آخر؛ فلا خالق، ولا رازق، ولا مالك، ولا رب، ولا مدبر في الكون، إلا هو جل وعلا.

والله تعالى أحد في أسمائه وصفاته، فإن الله تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، كما قال عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فله من الأسماء والصفات ما لا يُوصف بها غيره، وما جاز منها إطلاقه على بعض خلقه، فلله تعالى فيها من المعاني ما لا يحيط بكنهه أحد، ولا يدركه عقل، ولا يصل إليه ظن ولا وهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

ورؤية المؤمنين لربهم جل وعلا يوم القيامة كائنة كما أخبر الله عز وجل، أما ذاته عز وجل وعظمته ومجده وكبرياؤه وجلاله وجماله وكماله، فهو مما لا يحيط به خلقه، وهذا مَن أحديته في أسمائه وصفاته، فله من الأسماء والصفات والعظمة والكبرياء والمجد ما لا يُحاط به ولا يُدرك.

ومن أحديته عز وجل استئثاره بأسماء لا يعلمها أحد ولم يطَّلع عليها مخلوق، ولهذا كان من جملة دعاء النبي ﷺ: «... **أسألك بكل اسم هو لك؛ سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك...**» الحديث[1].

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧، ٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعينَ اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة»[1]. فلا يعني أن الأسماء محصورة في هذا العدد، وإنما المراد: أن من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين اسمًا موجودة في القرآن والسنة، مَن أحصاها وفهمها وعمل بها دخل الجنة[2].

وأحديته تعالى تفرض أن كل ما يكون من تصورات وخيالات تعرض للسامع أو القارئ عن الله تعالى، فإنما هي من إلقاءات الشياطين، أو من خيالات النفس، ولا اعتبار لها ولا قيمة، ولا يضر الإنسان أن تقع هذه الصورة والأخيلة على صفة من النقص؛ لأن «كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك»، ومما يُنسب إلى علي رضي الله عنه في هذا المعنى قوله:

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ والبحثُ عن سرِّ ذاتِ السرِّ إشراكُ[3]

أي: أنه يكفي الإنسان أن يدري ويدرك أنه عاجز عن الإحاطة بربه تبارك وتعالى.

ويكفي في هذا أن يتخيل الإنسان حجمه ومكانته بالنسبة إلى الأرض، والأرض بالنسبة إلى الكون، والبحار وأعماقها، وليتدبر قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩]؛ فإذا تدبر ذلك أدرك أنه مخلوق صغير لا يكاد يذكر، وأن عقله الذي يفكر به لو وضع في كأس لوسعه، فكيف يُريد أن يحيط بعلم الله تعالى؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٣٥-٤٢).

(٣) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص ١٤٢) منسوبًا إليه.
ونُسب أول هذا البيت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما في «روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار» (ص ٣٨٦)، و«الأشباه والنظائر» (٢/ ٢٠٣)، وقد ضعَّف ابن تيمية نسبته إليه. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢١٦).

فالعقل يدل على الله سبحانه وتعالى، ويرشد إليه، ويفهم معنى وحيه، ولكن لا يحيط به تعالى.

وكما أنه تعالى واحد في ذاته وأسمائه وصفاته، فمن لوازم أحديته وجوب توحيده في إلاهيته، فلا يُعبد إلا الله عز وجل، وجميع صور العبادة القلبية والحسية البدنية الظاهرة والباطنة لا يجوز أن تصرف إلا لله تعالى، وهذا مخُّ ما جاء به الأنبياء والمرسلون، كما قال تعالى حكاية عنهم أنهم خاطبوا أقوامهم: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦]، وهذا هو المعنى النهائي لقول: «لا إله إلا الله».

وبعض الناس يظن أنه لا خلاف في توحيد الربوبية مع المشركين، والصواب: أنهم وإن أقروا في بعض الحالات نظريًّا بأن الله الخالق، إلا أنهم سرعان ما يجحدون وينكرون، وإقرارهم كان عَرِيًّا عن تحقيق مقتضى هذا التوحيد، وإلا فهو باب عظيم من أبواب التدبر والتأمل والخشوع والإخبات، وهو مدخل وأساس لما بعده.

فتوحيد الربوبية ليس معناه إقرار الإنسان بلسانه أن الله تعالى هو الرب الخالق فحسب، بل معناه: شعورك أن الخلق من عند الله، وأنك واحد من مخلوقاته، وأن الرزق من عند الله، فهو الذي يرزقك، وأن بيده تدبيرك وحاضرك ومستقبلك وكل شؤونك.

* ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢]:

كُرر الاسم الظاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إعادته بالضمير ﴿هُوَ﴾ وكأن هذا على سبيل التلقين، كما يُلقن الطالب الذي يتعلم، فيذكر له أصل المسألة ثم يفرع عليها، فيقال -مثلًا-: الصلاة هي أقوال وأعمال، الصلاة أحد أركان الإسلام، الصلاة فيصل بين الإيمان والكفر والشرك، والصلاة صلة بين العبد وربه.

كما أن في تكرار الاسم الظاهر تأكيدًا لأهمية الخبر الآخر، المتعلق بالصمدية.

فجاءت الآية الأولى بالخبر عن الله تعالى أنه ﴿أَحَدٌ﴾ أي: واحد لا شريك له.

وجاءت الآية الثانية بخبر جديد يُراد له أن يكون بنفس قوة الخبر الأول، وهو أنه تعالى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

وفي ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أقوال كثيرة، تعود إلى معنًى واحد، وهو: أن المقصود بـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها وتتوجه إليه[1].

وهذا قول جماعة من السلف والخلف، وهو قول أكثر أهل اللغة، بل قيل: إنه قول أهل اللغة كلهم، فقد قال أبو بكر بن الأنباري وغيره: «قال أهل اللغة أجمعون، لا اختلاف بينهم في ذلك: الصمد عند العرب: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم»[2].

وهذا الذي رجحه الخطَّابي وغيره، فـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو: السيد العظيم الذي يتوجه إليه الناس بمطالبهم وحاجاتهم وسؤالهم، أي: سؤال المسألة والدعاء والتضرع والشكوى[3].

وكلما تأملت هذا الاسم العظيم وجدت القلب يتزلزل منه ومن وقعه وثقله، حيث يدخل في معناه: أن الله تعالى غني غنًى مطلقًا عن الناس، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، وقال سبحانه:

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأنباري (١/ ٨٣-٨٤)، و«عمدة الكتاب» لأبي جعفر النحاس (ص ١١٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١).

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٢٤١-٢٤٥).

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، فهو يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويصح ويمرض، ويرفع ويخفض، غني عن خلقه، ولا يحتاج إلى شيء؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، أي: هل من العقل والرشد والحكمة أن أتخذ وليًّا غير الله تعالى، والله سبحانه وتعالى هو فاطر السماوات والأرض، الخالق المالك الرب، الذي يطعم الناس ولا يُطعم؟!

وكونه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن حاجة الأكل والشرب داخل في معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ لأنه ليس بحاجة إلى ذلك.

وذكر الطبري في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «السيدُ الذي قد كمُل في سُؤْدَدِه، والشريفُ الذي قد كمُل في شرفه، والعظيمُ الذي قد عظُم في عظمته، والحليمُ الذي قد كمُل في حلمه، والغنيُّ الذي قد كمُل في غناه، والجبَّارُ الذي قد كمُل في جبروته، والعالـمُ الذي قد كمُل في علمه، والحكيمُ الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرف والسُّؤْدَد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له»(١).

ومَن فسَّر ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، فهذا من باب تفسير الاسم ببعض معانيه، وهو منقول عن الصحابة والتابعين وبعض أهل اللغة، إلا أنه داخل في المعنى الأول(٢).

* كما أن صمديته تعالى وغناه المطلق يتضمن أنه عز وجل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٢).

يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣]، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى الوالد، ويحتاج إلى الولد، ويحتاج إلى النظير والشبيه، وهذا أمر جبل الله تعالى عليه الناس، أما هو سبحانه فهو غني مطلقًا، ولذلك تضمن اسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نفي الوالد والولد والشريك.

كيفية مجيء وصف الله عز وجل في القرآن والسنة:

والملاحظ في هاتين الآيتين أن الله عز وجل وصف نفسه بطريق السلب أي: نفي صفات النقص، والأصل في تقرير الاعتقاد في القرآن والسنة أن يأتي غالبًا بالإثبات المفصَّل المطوَّل لصفات الكمال، والنفي المجمل، فيفصِّل في إثبات الأسماء والصفات لله تعالى كقوله تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

أما النفي فيُؤتى به على سبيل الإجمال لا التفصيل؛ لأن الأشياء المذمومة السلبية التي يُراد نفيها كثيرة لا يأتي عليها الحصر، كما أنه ليس من مقام التعظيم والأدب مع الربوبية أن يُوصف الله تعالى بسلب النقائص عنه مجردة؛ إذ نفي النقائص على التفصيل لا رفعة فيه لـمَن نُفيت عنه؛ ولذا كانت طريقة القرآن هي الإثبات المفصل المستفيض المطول، والنفي المجمل الذي جاء لمناسبة.

ومن أمثلة النفي المفصل: ما جاء هنا في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣].

ومناسبة النفي -والله أعلم- هو لكون بعض الناس قد قال بهذا القول، فاحتاج الأمر إلى نفيه، كقول اليهود: إن الله تعالى خلق الخلق فتعب فاستراح يوم السبت، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

ولما ادعى فريق من الناس أن لله تعالى ولدًا، كقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وكزعم العرب أن الملائكة بنات الله، قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ردًّا على هؤلاء جميعًا.

والفرق بين قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وبين قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١] هو: أن قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أنه لم يلد.

الثاني: أنه لم يتخذ ولدًا ولو لم يكن على سبيل الولادة، ولكن على سبيل نسبته إليه سبحانه وتعالى، فنفى الله تعالى بقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الأمرين معًا.

وقدَّم الله تعالى نفي الولد على الوالد، مع أن الذي يجيء أولًا هو الأب؛ لأن الولد هو المدعى لله تعالى، وليس هناك أحد ادعى أن لله تعالى والدًا، فكان المناسب أن يبدأ بنفي ما يدعيه الجاهلون من اليهود والنصارى ومشركي العرب ومَن على شاكلتهم، فقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾.

فإن قيل: إذا لم يثبت عن أحد ادعاء الوالد لله عز وجل، فما السر في نفيه هنا، وكيف ينفي ما ليس له وجودٌ أصلًا؟

فيجاب عن ذلك بأجوبة:

١- يحتمل أن يكون ذلك جوابًا لقريش حين قالوا للنبي ﷺ: أُنسب لنا ربك! لأنهم ربما سألوا هذا على سبيل التعنت، فقال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

٢- أنه من باب المقابلة؛ لأن النسب له عمودان: الولد والوالد، فلما نفى الولد ناسب نفي العمود الآخر وهو الوالد.

٣- الإشارة إلى أنه عز وجل ليس قبله شيء، فقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾

يتضمن معنى: أن الله تعالى أول ليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وكما قال النبي ﷺ: «**أنت الأول فليس قبلك شيء**»(١).

٤- أنه في مقام الحجة، فلما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ونفى ما كانوا يدعون قال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾. وفي هذا إقامة للحجة عليهم، ونفي وجود الولد، وكأن المعنى: أن الذي يكون له ولد يكون له والد، فلما نفى الله تعالى الولد نفى الوالد، وبيَّن ما في دعواهم الباطلة من الخطأ العظيم، والجهل الفاضح.

* ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]:

وهذا ختام لهذه السورة العظيمة، وإشادة بمعناها العظيم.

وخاتمة ما يقال في هذه السورة العظيمة إن رحاها تدور حول ثلاثة معانٍ:

١- أن الله تعالى أحد في ذاته وأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته.

٢- أنه الغني السيد الكريم المتفضِّل الـمُعطي لعباده.

٣- أن الله تعالى ليس له كفؤ في هذا؛ لا شريك ولا مثيل، ولا نِدَّ ولا نظير.

فتضمنت السورة أصل التوحيد وفصله وبدايته ونهايته، وبهذا يتبين أن هذه السورة مع «سورة الكافرون» تتضمنان لباب التوحيد والإيمان بالله تعالى، والبراءة من الشرك.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

سُورَةُ الفَلَقِ

سورة الفلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ
٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾

[الفلق:١-٥].

* تسمية السورة:

لها أسماء عديدة، من أشهرها:

١- «سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾». وبهذا سماها النبي ﷺ في عدد من الأحاديث:

منها: حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «ألم تَرَ آياتٍ أُنزلت الليلةَ، لم يُرَ مثلُهُنَّ قطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١).

وعنه رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال له: «لن تقرأ شيئًا أبلغَ عند الله من: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢).

ولذلك سمَّاها كثير من المحدِّثين والأئمة في كتبهم: «سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾»(٣).

٢- «سورة الفلق»، وهكذا هي في المصاحف، وكتب التفسير(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٤١، ١٧٤٥٥)، والنسائي (٢/ ١٥٨)، وابن حبان (٧٩٥). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٤٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٦)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير، (٦/ ١٨١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

وتسمَّى مع سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ بـ: «المعوِّذتين». ورد ذلك في بعض طرق حديث عقبة رضي الله عنه المتقدِّم، وعلى لسان بعض الصحابة رضي الله عنهم[1]؛ لأن المسلم يتعوَّذ بهما.

* عدد آياتها: خمس آيات، بلا خلاف[2].

* توقيت النزول وسببه:

الجمهور على أنها نزلت في مكة، وهو الأصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما رواه كُريب وغيره، وهو قول الحسن وعطاء.

وقال قتادة وجماعة، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنها نزلت بالمدينة[3].

* وأما سبب نزول السورة، فقيل: إنها نزلت جوابًا لسؤال قريش للنبي ﷺ[4].

وقيل: إنها نزلت بسبب سحر لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي لرسول الله ﷺ، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها، أن لَبِيد بن الأَعْصم سحر النبي ﷺ في مُشْط ومُشَاطة - والـمُشَاطة هي: الشعر المجتمع، فوضعها في جُفِّ طَلْعةِ ذكرٍ، أي: في الغلاف الذي يكون فيه طلع النخل - ثم وضعها في بئر بالمدينة يقال له: بئر ذَرْوَانَ، أو: ذي أَرْوان، وتأثر النبي ﷺ بهذا السحر تأثرًا ظاهرًا في أشياء معينة كان يلاحظها أزواجه وأهل بيته القريبون منه،

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (٥٤٣، ١٠٩٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٩)، و«مسند أحمد» (١٧٢٩٩، ١٧٣٢٢)، و«صحيح البخاري» (٤٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٨١٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

دون أن يؤثر ذلك في أمر آخر وراء هذا، ولم يلاحظ الناس عليه ﷺ من هذا شيئًا، ثم نزل جبريل عليه السلام ونزل معه ملكان، فوقف أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما به؟ قال: مطبوب. ثم قرأ عليه هذه السورة، فشُفِي النبي ﷺ، ثم بعث عليًا وأمره أن يردم هذا البئر والقليب الذي وجد فيه السِّحر، فقالت عائشة رضي الله عنها: أفلا أحرقته؟ يعني: إخراج السحر وإحراقه، فقال: **«لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهتُ أن أُثيرَ على الناس شرًّا»**(١).

وهذا يحتمل أن يكون سببًا لنزول السورة، وعليه تكون السورة مدنية، ويحتمل ألَّا يكون هو سبب نزولها، وإنما تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، كما هو في المصاحف وغيرها، وهو قول جمهور المفسرين كما ذكرنا، فنزل المَلَكَ بقراءتها على النبي ﷺ لبيان أنها رقية(٢).

* ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق:١]:

الاستفتاح بـ ﴿قُلۡ﴾ سأل عنه أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه النبيَّ ﷺ - كما في «صحيح البخاري»- فقال النبيُّ ﷺ: **«قيل لي: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ فقلتُ»**(٣). فبيَّن ﷺ أنه أُمِرَ بأن يقول: ﴿قُلۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ خطاب من الله للنبي ﷺ، وهو أيضًا خطاب من الله عز وجل لخلقه أن يقولوا هذا، فبلَّغه النبيُّ ﷺ كما أُنزل عليه؛ لأنه وحي لا يتصرف فيه؛ ولأنها تعويذة من الله تعالى للنبي ﷺ وللمسلمين عامة، فإثبات لفظ ﴿قُلۡ﴾ واجب لابد منه من أجل صحة المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٧٦).

والعَوْذ هو: الاعتصام والالتجاء إلى الله عز وجل، وقد أُمر النبيُّ ﷺ بالاستعاذة به تعالى في مواضع عديدة في القرآن بحسب المقام، كقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[النحل:٩٨]، وكقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨].

فإن قيل: ما سر التفريق في الاستعاذة بين ذكر لفظ الجلالة «الله» عند استفتاح القرآن الكريم وذكر «الرب» في غيرها من المواضع؟

فالجواب: أن الله هو الرب سبحانه، لكن اختيار لفظ الجلالة «الله» له أسرار ومعانٍ فيما يتعلق بافتتاح القرآن الكريم، منها:

١- أن اسم «الله» هو الاسم العظيم، وهو الاسم العلم، وهو اسم الجلالة، فالبداءة به فيما يتعلق بقراءة كلام الله تعالى هو المناسب.

٢- أن الاستعاذة به أخصر وأقصر من قول: «أعوذ برب الفلق»، أو «أعوذ برب الناس»، أو «أعوذ بربي»، أو ما أشبه ذلك، وأسهل تناولًا وتداولًا في اللسان، فإن لفظ «الله» من أخف الألفاظ على اللسان مع عظمة معناه، وكل حروفه سهلة تنساق على اللسان؛ ولذا يقرأها الصبي الصغير، ويقرأها العجمي، ولا يقع فيها شيء كاللُّثْغة في راء «الرب»، ونحو ذلك، فلحاجة الصغير والكبير إليها عند القراءة كان لفظ الجلالة مما يستعاذ به عند قراءة القرآن الكريم.

٣- قراءة القرآن عبادة لله عز وجل، والعبادة يتناسب معها لفظ الجلالة «الله»، أي: المألوه المعبود.

وأما الاستعاذة من ضرر المخلوقات وشرها، فالمناسبة فيها أن تكون باسم «الرب» الذي هو رب المخلوقات وخالقها، إذ معنى «الرب»: الخالق المالك المدبِّر المتصرِّف، فذكر لفظ الربوبية هنا أولى من ذكر لفظ الإلهية، فالإلهية تذكر في مقام

العبادة، أما الربوبية فتذكر في مقام الاستعاذة من الخلق ومن شرهم.

والفلق هو: الصباح أو الإصباح، وبهذا قال كثير من المفسرين، ويشهد لهذا قول الله عز وجل: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام:٩٦]. وقول عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**كان لا يرى رُؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح**»[١]. فعلى هذا يكون المقصود أن يستعيذ برب الصبح إذا انفلق وانفتح.

وهذا معنى جيد، والأجود منه أن يقال: إن المقصود بـ«الفلق»: كل شيء مما يمكن أن ينفلق وينشق وينفتح فيظهر ما بداخله، فيدخل فيه الصباح وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام:٩٥]، وهكذا الرحم إذا انفتق عن المولود، والعدم إذا انفتق عن الموجود، فالاستعاذة على هذا المعنى أوسع من مجرد الاستعاذة برب الإصباح أو رب النهار؛ إذ هي استعاذة برب المخلوقات كلها؛ كما ذكر بعض أهل اللغة، كالزَّجَّاج وغيره أن الخلق يكاد أن يكون كله عبارة عن فلق[٢].

وعبَّر بـ﴿ٱلْفَلَقِ ﴾ دون لفظ (الخلق) للتنويع بين الألفاظ وتجنب تكرارها، حيث ذكر (الخلق) في الآية التي بعدها.

وكذلك في ﴿ٱلْفَلَقِ ﴾ حركة وانتقال، كخروج الأجنة من الأرحام، وخروج النبات من الأرض، وخروج الشمس من أفقها، وفي هذا من البشارة والإيذان بالفتح والفرج من عند الله عز وجل.

إذًا: هذا المعنى -والله أعلم- مقصود، وهو معنًى عظيم؛ لأن الفَلْق الذي يتحقق في كل مخلوق جديد يطرق ناموس هذا الكون بإذن ربه تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٧٩).

فمَن نزل به خوف أو ضيق أو همٌّ أو كرب، فليتذكر «رب الفَلَق» الذي يفلق الإصباح، ويفلق الحب والنوى، والذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، والذي كل يوم هو في شأن فيخلق ويرزق ويحيي ويميت.

فكلمة «الفلق» توحي بهذا المعنى العظيم الذي يحيي تفاؤلًا في القلب.

و«رب الفلق» يشفي المريض من مرضه بعدما أيس من العلاج.

و«رب الفلق» يأتي بالغنى واليسار والخير والسعة بعدما ضاقت على الإنسان أسبابُ الدنيا وأسباب العيش.

وهكذا على المؤمن أن يظل مستحضرًا هذا المعنى العظيم؛ لأنه من جملة ما كان يستعيذ به النبي ﷺ.

وهذه السورة هي استعاذة بالله وبكلماته، وكلمات الله نوعان:

١- كلمات قدرية.

٢- كلمات شرعية.

والكلمات القدرية هي الكلمات التي بها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويرفع ويخفض.

والكلمات الشرعية هي الأمر والنهي، أي: ما ينزل على الرسل والأنبياء من الكتب والأوامر والنواهي والبلاغ.

والكلمات الشرعية كلها صدق وحق وعدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام:١١٥]، فليس فيها إلا الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فهي خير محض.

وأما الكلمة القدرية، فهي خير في ذاتها، والشر معها يتعلق بالمخلوقات لا بها.

* ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق:٢]:

﴿مَا﴾ موصولة، أي: من شر الذي خلق.

والعموم في الآية ليس مقصودًا، وإنما الاستعاذة هنا من شر المخلوقات التي فيها شر؛ لأن من المخلوقات ما لا شر فيه، كالملائكة والرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكالجنة، فلا يستعيذ الإنسان منها، ولذلك لما تزوج النبيُّ ﷺ الـجَوْنية ودخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها النبيُّ ﷺ: «**قد عُذْتِ بمَعَاذٍ**»[١].

كما جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ كلِّ دابة أنت آخذ بناصيتها**»[٢].

وكان ﷺ يقول عن الرِّيح: «**اللهمَّ إني أسألك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلت به**»[٣].

فيدخل في الآية الاستعاذة من شر الأشرار، وكيد الفجار، وما اختلف به الليل والنهار، وشر الحيوانات، والهوام، والسباع، والجن، والإنس، والمخلوقات الضارة مما يُعلم وما لا يُعلم، بل يدخل فيها الاستعاذة من شر المستعيذ نفسه، فإن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطان وشركه**»[٤]. وعلَّمنا أن نقول: «**نعوذ بك من شرور أنفسنا**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٥) من حديث عائشة ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩) من حديث عائشة ؓ.

(٤) أخرجه الطيالسي (٩، ٢٧٠٥)، وأحمد (٦٣)، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢) من حديث أبي هريرة ؓ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٣).

(٥) أخرجه الطيالسي (٣٣٦)، وأحمد (٣٧٢٠)، وأبو داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، والنسائي (٣/ ١٠٤)، والحاكم (٣/ ٨٢) من حديث ابن مسعود ؓ.

وبين الآيتين الأولى والثانية تناسب في العموم، فهي استعاذة عامة من شر عام.

ونسبة الشر إلى الخلق في قوله تعالى ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾. إشارة إلى أن الشر ليس في فعل ربنا تبارك وتعالى، وقد كان ﷺ يقول: «والشر ليس إليك»[1]. فالشر ليس إلى الله عز وجل، ولو أن الشر إليه لكان له أسماء غير حسنى، والله تعالى ليس له إلا الأسماء الحسنى؛ ففعله ذاته ليس فيه شر، وإنما الشر في مخلوقاته.

* ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق:٣]:

و«الغاسق» هو: الليل عند جماهير المفسرين وأهل اللغة[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء:٧٨].

وقيل: المقصود بغسق الليل: منتصف الليل.

ولهذا قال الفقهاء: إن وقت العشاء الآخرة يمتد إلى نصف الليل، واستدلوا بهذه الآية[3].

فغسق الليل: نصفه؛ حيث يشتد ظلامه ويسوَد ويصبح أشد وأظلم مما كان، وهذا وقت المكر والكيد.

وفي تكرير لفظ «الشر» إشارة إلى أن الغاسق الذي هو الليل ليس شرًّا محضًا، وإنما فيه الخير وفيه الشر، وهو وقت يمكن أن يكون سببًا للقربى والزلفى إلى الله

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٦)، و«تفسير التستري» (ص ٢١٠)، و«غريب الحديث» للقاسم بن سلام (٢/ ١٩٤)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٧١٥)، و«لسان العرب» (غ س ق) (١/ ٨٠١)، و«تاج العروس» (غ س ق) (٢٦/ ٢٥١).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٢٥٩)، و«المجموع» (٣/ ٣٩)، و«الشرح الممتع» (٢/ ١١٥)، و«تفسير آيات الأحكام» للسايس (ص ٤٨٧)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ٧٢).

تعالى، ويمكن أن يكون سببًا في الإضرار بالعباد وبالنفس، فيستفاد من شره وينتفع بخيره.

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ ﴾ يقرب أن يكون معناه: إذا دخل ظلامه وتسلل وغطى كل شيء.

وجاء في بعض الروايات: أن «الغاسق إذا وقب» هو القمر، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي، ثم أشار إلى القمر فقال: يا عائشة، استعيذى بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[1]. وسند الحديث ليس به بأس إن شاء الله تعالى.

والجمع بينهما: أن القمر علامة الليل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مبصرة ﴾ [الإسراء:١٢].

فحديث عائشة رضي الله عنها لا يعارض القول بأن الغاسق إذا وقب هو الليل، فالقمر من آياته، وهو جزء من المدلول العام لهذه الآية.

وهدوء الليل وسكينته ولباسه وسكنه هو في وقت الظلام، فإذا جاء الظلام وذهب النور نشطت شياطين الإنس والجن وأهل السوء، وأهل الريب والشر والفساد.

فهو لفئات من الأشرار فرصة للمكر والحيلة والغدر والشر، وأكثر ما تقع جرائم السرقة والسلب والنهب والقتل والمؤامرات والغدر والفواحش وغيرها في الليل، وأكثر ما يقع السكر والعُهر وتجمع أرباب الفسوق والغفلة والشهوات هو في الليل، فلذلك استعاذ من شره.

(١) أخرجه الطيالسي (١٥٨٩)، وأحمد (٢٤٣٢٣، ٢٥٨٠٢)، والترمذي (٣٣٦٦)، والحاكم (٢/ ٥٤٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٧٢).

ومع ذلك فإن الليل هو محل العبادة، وأنس الذاكرين بربهم، ومحل السكن والبحث والعلم والسمر المباح، ولهذا رُوي في الحديث: «**لا سَمَر إلا لمُصلٍّ أو مسافرٍ**»[1]. فالمسافر في الليل يقطع طريقه بهدوء، كما قال ﷺ: «**عليكم بالدُّلْجة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل**»[2].

وقيام المصلِّ فيه مما أثنى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:١-٢].

ويلاحظ هنا التناسب الشديد بين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وبين **الآيتين اللتين بعده، فمعناه العام -الذي هو الفتح والشق-** يناسب الاستعاذة من شر ما خلق، أي: من شر كل شيء، ومعناه الخاص -الذي هو الإصباح- يناسب الاستعاذة من شر الليل الغاسق إذا وقب، فكأنه قال: أعوذ برب النهار والنور من الظلام والليل.

وفي الآيات إشارة إلى التفاؤل بغلبة الخير على الشر، فقد نُسب الفلق إلى الله عز وجل، في حين نُسب الشر إلى الخلق، والغالب هو الخالق سبحانه وتعالى.

* ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤]:

النفث هو: النفخ مع شيء من الريق. والنفاثات في العقد فيها أقوال:

١- قد يراد بها النفوس الشريرة التي تنفث وتتعاطى حرفة السحر، فتقوم بعقد

---

(١) أخرجه الطيالسي (٣٦٣)، وأحمد (٣٩١٧، ٤٢٤٤)، ومحمد بن المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٠٩)، و«قيام الليل» (١/ ١١٥ - مختصره للمقريزي)، والبيهقي (١/ ٤٥٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٠٩١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
وأخرجه أبو داود (٢٥٧١)، وأبو يعلى (١٥٩)، وابن خزيمة (٢٥٥٥)، والحاكم (١/ ٤٤٥)، (٢/ ١١٤) من حديث أنس رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨١).

بعض الحبال والنفث عليها بتعاويذ شيطانية ورقًى شركية بقصد الإضرار بشخص معين، أو التأثير عليه.

ونسب الله تعالى الشر إلى النفاثات لا إلى النفث؛ لأن النفث نفسه لا يضر، وإنما التي تضر هي النفوس التي تقوم بهذا النفث، وبهذا الكيد والمكر، ولذلك سميت بالنفاثات في العقد، وإن كانت تمارس أعمالًا أخرى في إلحاق الضرر بالشخص.

٢- أنها الجماعات، سواء كانوا رجالًا أم نساءً، ففي بعض البلدان تعقد مؤتمرات جماعية للسَّحَرة، وفي اجتماعهم من الضرر والشر ما ليس في عمل الفرد الواحد، فيكون ذلك أبلغ في الشر وإلحاق الأذى.

وأما القائلون بتخصيص النفاثات في العقد بالنساء دون الرجال فيحتاجون إلى بيان وجه تخصيص النساء دون الرجال في موضوع السحر؛ مع أنه قد يقع من هؤلاء وهؤلاء.

وقال بعضهم: إن المقصود به بنات لَبِيد بن الأَعْصم؛ لأنهن قُمن بسحر النبي ﷺ.

وقال بعضهم: إن السحر عند النساء أكثر منه عند الرجال، وهذا ليس ببعيد؛ لأن كثيرًا من النساء يلجأن للسحر حتى تؤثِّر على زوجها وتعطِفُه إليها، أو تصرفه عن امرأة أخرى، أو تكيد بالسحر لغيرها، أو تستميل قلب من عشقته إليها، ثم تتعاطاه بعد ذلك.

٣- وذكر أبو مسلم الأصفهاني أن النفاثات في العقد: النساء اللاتي يؤثرن في عزائم الرجال، واعتبر أن العُقد هي العزيمة، أي: عزيمة الرجل على أمر، فقد تؤثر عليه المرأة، فتحدث له التراجع عما أراد بسبب تأثيرها وكيدها ونفثها وحلو حديثها، وهذا القول وإن كان ظاهره لا بأس به إلا أنه لا يساعده السياق والرواية.

٤- وقيل المشّاءات بالنميمة، وهو قول الشيخ محمد عبده ومن تابعه وأخذ عنه، ولم أجده منسوبًا إلى أحد من أئمة السلف وعلمائهم، إلا أن يشبه قول أبي مسلم الأصبهاني.

والمختار: أن المقصود بالنفاثات في العقد: السَّواحر من النساء، أو السَّحَرة من الرجال والنساء على سبيل العموم، أو النفوس الشريرة التي تتعاطى السحر وتؤذي به عباد الله تعالى.

و(ال) في ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ جنسية وهذا من باب التنويع في السياق؛ فقد نكَّر ما قبلها فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ثم أدخل (ال) على النفاثات، ثم عاد إلى التنكير فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥] وإلا فالكل نكرة.

ويحتمل أن التعريف في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ **لبيان أن فعل النفاثات لا يكون إلا شرًّا**، فيستعاذ منهن استعاذة مطلقة، بخلاف شر الغاسق إذا وقب؛ إذ فيه الخير والشر، والحاسد إذا حسد قد يضر حسده المحسود وقد لا يضره.

* ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]:

«الحسد»: ما يقع في قلب الإنسان بسبب النعمة التي أنعم الله تعالى بها على أحد من الخلق.

وإنما أمر تعالى بالاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد؛ لأنه ما من نفس إلا وفيها شيء من الحسد، كما قال بعض السلف رحمهم الله تعالى: «ما خلا جسدٌ من حسد، ولكن اللَّئيم يبديه، والكريم يخفيه»[(١)].

فالحسد باعتباره شعورًا يقع في القلب ليس بغريب، بل يقل أو يندر أن يسلم

---

(١) ينظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص ٢١)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥)، و«المقاصد الحسنة» (٩٥٥)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٢١٩).

منه أحد، كما ذكر ابن رجب الحنبلي وغيره[1]، خاصة بين الأقران والمشتركين في عمل أو فن واحد.

فالحاسد إذا حسد يستعاذ منه، أما الحاسد إذا كتم واستعاذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولم يؤذ أحدًا، فلا يدخل في هذا؛ لأن هذا من طبع بني آدم.

وحسد الحاسد تقع منه العين، و«**العين حق**»، كما قال النبي ﷺ: «**ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ سبقَتْه العينُ**»[2]. وورد: «**إن العين تُدْخِلُ الرجلَ القبرَ، وتدخل الجملَ القِدْرَ**»[3].

وقال ﷺ في رقية المريض: «**باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفس أو عين حاسد، الله يشفيك**»[4]. فإذا رأى الإنسان شيئًا فاستحسنه، ووقع في قلبه نوع من الحسد وتمنِّي زوال هذا الأمر عن هذا الإنسان، فإنه قد يضره.

والشريعة جاءت ببيان حصول هذا الأمر، وأما كيفية حصوله فهذا إلى الله سبحانه، ولا داعي لأن نقحم هذا الكلام في تفسير كلام الله عز وجل.

والحسد قد يقع من الأخيار، فقد سُئل الحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: «لا أبا لك! أنسيت إخوة يوسف؟!»[5]. أي: أنهم حسدوه وكادوا له، وعملوا ما عملوا وهم أنبياء وأبناء أنبياء.

---

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٢٤٩).

(٤) أخرجه مسلم» (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) ينظر: «عيون الأخبار» (٢/ ١٢)، و«نثر الدر في المحاضرات» (٥/ ١٢٨)، و«التمهيد» (٦/ ١٢٦)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٦).

والحسد كثيرًا ما يؤثِّر في علاقة الناس بعضهم ببعض، وغالبًا ما يكون بين الأقران المتقاربين، بل قد يقع بين المخلصين المنطلقين في طريق واحد من الخير.

فالواجب أن يستعيذ الإنسان منه وأن يجاهد نفسه في ذلك، وألَّا يستجيب لمثل هذه النوازع، ومن اجتهد وحاول وجاهد نفسه، فإنه يستطيع أن يتخلص من مثل هذه المعاني، وعليه أن يدعو لـمَن يشعر أنه حسده، وأن يكثر من الدعاء له في سجوده، وأن يثني عليه خيرًا بلسانه في المجالس، وأن يعينه بما يستطيع حتى يقضي على هذه المعاني، ويرغم أنف الشيطان والنفس الأمارة بالسوء. والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ النَّاسِ

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ
ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس:١-٦].

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء عديدة:

١- أشهرها: «سورة الناس»[(١)].

٢- وسماها النبي ﷺ: «سورة ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[(٢)].

٣- وبعضهم يسمِّيها: «سورة المُعوِّذة»[(٣)].

وهي مع سورة الفلق تسميان بـ «المعوِّذتين»، كما تقدم في «سورة الفلق».

* عدد آياتها: ست آيات، وقيل: سبع آيات[(٤)].

* توقيت النزول:

الخلاف فيها كالخلاف في سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، والجمهور على أنها

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦٢)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٩٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للنحاس (٥/ ٣٨١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣١).

(٢) ورد ذلك في حديث عقبة بن عامر ﷺ، ينظر ما تقدم في «سورة الفلق».

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص٢٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٢).

مكية، وهو القول الراجح عن ابن عباس ﷺ.

وقيل: مدنية؛ وهذا باعتبار أنها نزلت بسبب قصة لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي وسحره للنبي ﷺ(١).

وفي هذه السورة جوانب يحسن التنبه إليها مع سورة الفلق، ففي «سورة الفَلَق» علَّمنا الله سبحانه وتعالى أن نستعيذ بـ «رب الفَلَق»، ولم يذكر إلا هذا الاسم له سبحانه وتعالى، ثم ذكر الاستعاذة من أربعة شرور، ومرجعها إلى ثلاثة؛ لأن الأمر الأول منها عام: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق:٢] ثم فصَّل ثلاثة أشياء: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾[الفلق:٣-٥].

أما في هذه السورة فنلاحظ العكس؛ حيث إنه أمر بالاستعاذة بثلاثة أسماء من أسمائه عز وجل، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١-٣]، ثم ذكر المستعاذ منه وهو شيء واحد فقال: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس:٤].

* ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾[الناس:١-٣]:

قوله: ﴿قُلْ ﴾ شأنها شأن مثيلاتها في مواضع عديدة.

وبين «الرب» و«الإله» فرق، فـ«الرب» هو: الخالق المالك المتصرف، أما «الإله» فهو المعبود.

أما سر ذكر «الملك» مع «الرب»، مع أن «الرب» يتضمن معنى «الملك»، فلعل

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٥٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٤١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣١)، والمصادر السابقة.

ذلك لمعانٍ منها:

١- أن الناس من عادتهم إذا أصابتهم نازلة أن يلجؤوا إلى أكابرهم وملوكهم، فيطلبون منهم الحماية، وأقصى ما يتمناه الإنسان في الدنيا إذا خاف من شيء أن يكون في حماية «الملك»؛ لتكون كل قوى الملك في خدمته وحفظه ووقايته.

فكان للتنصيص على اسم «الملك» معنًى مباشرًا في حس القارئ الذي يستشعر أن ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ يحميه، وإذا حماه «الملك» فلا يضره أن يكون البشر والعبيد والجنود والرعية معه أو ضده، كما يقال:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها نمْ فالمخاوفُ كلُّهن أمانُ

٢- أن الضرر غالبًا ما يلحق الناس من الأكابر، من الملوك ومَن حولهم من الأعوان والحاشية.

وكانت العرب تخاف من ملوك الجن ويستعيذون بهم إذا نزلوا واديًا من شر سفهائهم، وكذلك السحرة؛ فإنهم كثيرًا ما يعوِّلون على ملوك الجن الذين يطيعونهم، ويأتمرون بأمرهم، وينصاعون لأقوالهم.

واليوم صار للملوك معنى أوسع لا يختص بذوي السلطة السياسية، بل يتعداها إلى النفوذ العالمي، كالنفوذ الإعلامي أو الاجتماعي.. وأباطرة الإعلام يبثون للناس عبر تقنياتهم كمًّا هائلًا من التأثيرات المثيرة للغرائز والمهيِّجة للعواطف، مما يشكِّل مادة استهلاكية تمنحهم متعة عابرة، وتسرق من جيوبهم دخلهم المحدود.

ومثلهم أباطرة الموضة الذين يتحكَّمون في أذواق الناس، ويتدخلون في أخص خصوصياتهم، ويفرضون عليهم ما يلبسون، حتى يصبح هذا قانونًا عامًّا يصعب على الفرد مخالفته أو الخروج عنه، وهم يملكون المال والدعاية والمصانع والإعلان، ويشتغلون على تحريك وساوس الناس بالشهوات المغرية أو بالشبهات المشكِّكة.

ولهذا جاء التأكيد على معنى «الملك» لله سبحانه وتعالى، وأن الأمر بيده، وأن السلطان له، وهذا معنًى مناسب لأن يستعيذ الإنسان من شر أولئك الملوك الذين يسطون سلطتهم على كثيرين، وكأنهم وكلاء عن الشيطان.

وقد ذكر السياق «الناس» ثلاث مرات، ولم يقل: (أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم)، وهذا ما يسمى بإقامة الظاهر مقام المضمر.

وفي الآيات التكرار الحلو العذب على اللسان، فإن الإنسان يقرأ السورة ويستشعر جمال المعنى، ويجد الكلمة في سياقها ملائمة لا ينوب غيرها عنها، والتكرار فن في لغة العرب وأسلوب القرآن، ومنه تكرار مالكِ بنِ الرَّيْبِ لبعض الألفاظ في قصيدته المشهورة التي قالها في مرض الموت، وفيها:

فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عَـرْضَه ... وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا ... مـزارٌ ولـكـنَّ الغضا ليس دانـيـا

كرّر كلمة «الغضا» في هذين البيتين خمس مرات، وذلك من حرارة الشوق واللهفة والذكريات الحلوة لأيام الغضا وبإيقاع يُطْرِبُ القارئ والسامع.

وهكذا فتكرار كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا هو احتفاءٌ بالناس الذين يذكرهم ربهم في آخر سورة في المصحف وفي نهاية كل آية من هذه السورة.

ويعرِّف نفسه سبحانه وتعالى بأنه: ربهم وملكهم وإلههم، وهو رب كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء.

إن الناس وحدهم هم المتعبدون بالأمر والنهي، بخلاف الملائكة والطيور والأشجار والجمادات وغيرها؛ فإنها مسخَّرة بأمر ربها.

والناس من شأنهم أن يطيعوا فيُشكروا ويجزوا بالجنة، أو يعصوا ويكفروا فيجزوا بالنار، فهي تبعة ومسؤولية يقابلها حساب وجزاء.

والإشادة بالناس معنى يتكرر في القرآن الكريم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠]، وفي كثير من المواضع يأتي الخطاب المكي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وأيُّ رفعة للبشر أعظم من أن يخاطبهم ربهم خطابًا مباشرًا في نص قدسي يُتلى إلى يوم الدين!

* ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٤-٥]:

لم يستعذ من «الوسواس»، بل من «شرِّه»؛ لأن «الوسواس» يعرض للإنسان فيدفعه ولا يضره، كما في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به؟ فقال ﷺ: «**وقد وجدتموه؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[(١)].

فلم يضرهم، ولم يكن شرًّا بالنسبة لهم؛ لأنه محض الإيمان، وهو كيد الشيطان الذي عجز عن التأثير عليهم به، فرد الله كيده إلى الوسوسة، كما قال ﷺ: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»[(٢)].

وفي هذا إشارة إلى أن مجرد حصول الوسواس في القلب ينبغي ألَّا يُقلق الإنسان، وإنما يستعيذ بالله تعالى من شره، وكثير من الناس ليست مشكلتهم المرض ذاته، فقد يكونون في عافية منه، بل مشكلتهم الخوف من المرض، ولذلك كان من أفضل ما يُوصَى به المبتلون بالوسواس هو الإهمال.

والشيطان مثل الكلب إذا التفتَّ إليه فإنه يلحقك ويتحرَّش بك، وإذا أهملته

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٨٢٧)، وأحمد (٢٠٩٧، ٣١٦١)، وأبو داود (٥١١٢)، وابن حبان (١٤٧).

وتركته نبح مرة أو مرتين وتركك.

والوسواس مأخوذ من الوسوسة، كالزلزال والزلزلة، وهو الصوت الخفي، كما قال امرؤ القيس:

تسمعُ للحَلْي وسَوْاسًا إذا انصرفتْ   كما استعان بريح عِشرِقٍ زَجِلُ

«الوسواس» هنا صوت الـحَلْي الخفيف إذا احتك بعضه ببعض، فهو ليس شيئًا ظاهرًا، ولكنه مؤثر في قلب الإنسان، فتسميته بـ «الوسواس» إشارة إلى ضعفه وأن تأثيره السيئ ناتج عن الاستجابة والإصغاء.

و﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: صيغة مبالغة، بمعنى أنه يخنس، يعني: يرجع، يقال: خنسَ، إذا اختفى، كما قال عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦]، قيل: هي النجوم التي تطلع وتغيب، فقوله: الخناس، يعني: أنه كلما ذُكر الله تعالى خنس وهرب.

فهو إذًا ضعيف في ذاته، سريع الاندحار كلما قاومه الإنسان واستعاذ بالله منه.

ولذا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء:٧٦]، ونستطيع أن نقرنه مع قوله هنا: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وهذا معنًى لطيف.

ومن ضعفه أنه يوسوس في «الصدور»، ولم يقل: في القلوب، والقلوب في الصدور، ولكن لو كان الوسواس في القلوب لكانت المشكلة أكبر؛ لأن معنى ذلك أن القلب أصبح سكنًا للشيطان، وإنما الواقع أن الشيطان يوسوس في الصدور، ولا يلزم أن تصل وسوسته إلى القلب ولا أن تستقر فيه.

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عز وجل آدم وحواء قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ [طه:١٢٠]، في حين أنه قال هنا: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾وسوس إليه لأنه كان في الجنة، وكأنه أرسل إليه الوسواس إرسالًا؛ ولذلك جاءت كلمة: (إلى)

التي تدل على أنه كان بعيدًا عنه، وإنما يبعث إليه الوسواس بعثًا، أما هنا فقال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ للدلالة على أن الشيطان يلازم ابن آدم، ولذلك قال النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم»(1). يعني: في العروق، فناسب أن يعبِّر في الآية بلفظ: ﴿فِى﴾.

فبدأت السورة بذكر ما يدل على ضعف الشيطان من كون أمره مجرد وسوسة، وأنها كثيرًا ما تندفع، فلا يكون منها شر على المؤمن، وأنها إن أحدثت أثرًا، فسَرْعان ما تخنس وتختفي، وأن ميدانها الصدر وليس القلب.

وثنَّت بما يدعو إلى الحذر منه وأن أمره قد يتطور ويعظم بالاستجابة من كونه شرًّا محتملًا، ومتكررًا، وقريبًا فهو في الصدور.

* ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]:

قد يُظن أن في الآية إشكالًا مع ما قبلها؛ حيث قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فبيَّن الله سبحانه وتعالى لنا أن الشيطان ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فهل الناس يكونون من الـجِنَّة والناس، أو أن هناك معنًى آخر في الآية؟

الجواب: يحتمل أن الناس مأخوذ من النوس، وهي الحركة، وعلى هذا فإن الجن يسمون «ناسًا»، ويكون المعنى: يوسوس في صدور الناس من الجن والإنس(2).

هذا معنًى ضعيف، وفيه تكرار وتداخل.

وأجود منه أن يكون قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ ليس متعلقًا بقوله:

---

(1) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٤، ٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٣٨)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٧-٣٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٣-٢٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٥).

﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، بل بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ أي: بالموسوس نفسه، فقد يكون الوسواس من شياطين الجن، وهم إبليس وجنوده، أو من شياطين الإنس، وهذا أمر معروف، كما قال الله عز وجل في الآية الأخرى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، فالشيطان الجني يوسوس للإنسان، والشيطان الإنسي وهو قرين السوء يوسوس للإنسان، فعلى هذا فقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ راجع إلى ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ وليس إلى «الناس»، فكأنه قال: استعذ بالله من الوسواس الخناس، سواءً كان وسواسًا إنسيًّا أو جنيًّا، ممن يوسوس في صدور الناس[1].

وذكر بعضهم معنًى آخر غريبًا، وهو حسن، وإن لم يكن مشهورًا عند المفسرين، وهو: أن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الأخيرة يقصد بها الناسي من النسيان، فحذفت الياء، والمعنى أن الشيطان يوسوس في صدور الناسي الذي ينسى؛ لأنه إنما يتسلط على مَن ينسى ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

وهذا ما يسميه البلاغيون بالجِناس التام بين «الناس» الذين هم البشر، وبين «الناس» الذي هو الشخص الذي ينسى[2].

وهنا تكون الاستعاذة للجن والإنس؛ لأن النسيان يكون منهما معًا، والشيطان يوسوس في صدور كل مَن ينسى، من الجن والإنس.

وعلى هذا الوجه، فليس في السورة تقديم وتأخير، بل آخر آية فيها هي بيان وتفسير لما قبلها، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٣٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) ينظر: «خزانة الأدب» لابن حجة الحموي (١/ ٧٤-٨٥)، و«الطراز لأسرار البلاغة» (٢/ ١٨٥).

فهرس المحتويات